

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مُخْتَصَرٌ

صَحِيحٌ

نَفْسِ ابْنِ كَثِيرٍ

لِلْأَبِيِّ عَبْدِ الْمُصْطَفَى بْنِ الْعَدَوِيِّ

اِخْتِصَرَهُ

أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الطُّهْمَانِيُّ

رئيس انصار السنة المحمدية بفارسكور

دَارُ الْفَوَائِدِ

وَلَدُ ابْنِ رَجَبٍ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مختصر
صحيح

نفساير الربك شير

مُخْتَصَر صَحِيح

نَفْسَانِ ابْنِ كَثِيرٍ

لِلْأَبِي عَمَّاسٍ مُصْطَفَى بْنِ الْعَدَوِيِّ

اِقْتَصَرَهُ

أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَوْضُ بْنُ لَطْفِي

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

دار الفوائد

دار ابن جبر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ تَعَالَى فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضِلِّهِ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ . وَبَعْدُ :

فَإِنَّ كِتَابَ ((تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ)) لِلْحَافِظِ الْكَبِيرِ وَالْإِمَامِ الْعَلَمِ عِمَادِ الدِّينِ ابْنِ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - هُوَ مِنْ أَجَلٍّ وَأَشْهَرٍ وَأَذْكُرِ التَّفَاسِيرِ حَتَّى صَارَ مُصَنَّفَةً عِلْمًا وَإِمَامًا فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ ، بَلْ فَاقَ شَيْخَهُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ فِي هَذَا الْعِلْمِ ، مِمَّا جَعَلَ الْإِمَامَ السُّيُوطِيَّ يَقُولُ فِي تَرْجُمَتِهِ : وَلَهُ التَّفْسِيرُ الَّذِي لَمْ يُؤَلَّفْ عَلَى نَمَطِهِ مِثْلُهُ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ اعْتَمَدَ فِي تَفْسِيرِهِ عَلَى النَّهْجِ الْعَامِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ ، حَيْثُ يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِالْقُرْآنِ مَا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، ثُمَّ بِالسُّنَّةِ ، فَإِذَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ تَفْسِيرًا لِلآيَةِ قَدَّمَهُ ، ثُمَّ بِأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ ﷺ ثُمَّ التَّابِعِينَ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ - .

لِهَذَا كَانَ لِتَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ فِي نَفْسِي الْأَثَرُ الْكَبِيرُ ، فَقَدْ شَارَكَ فِي تَكْوِينِ مَنْهَجِي وَعَقِيدَتِي مُنْذُ بَدَايَةِ الْإِلْتِمَازِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ قَبْلَ نَحْوِ ثَلَاثِينَ عَامًا ، وَلَقَدْ ظَلَلْتُ طَوَالَ هَذِهِ الْأَعْوَامِ أَوْصِي أَحِبَّائِي وَإِخْوَانِي بِإِفْتِنَاءِ هَذَا السَّفَرِ الْكَرِيمِ إِلَّا أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ - يَمِّنُ قُلْ وَقْتُهُ وَعَجَزَتْ هِمَّتُهُ - كَانَتْهُمْ يَمْلِكُونَ مِنْ ذِكْرِ الْحَافِظِ رَحِمَهُ اللَّهُ لِأَسَانِيدِ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَالْمَرْوِيَّاتِ وَالْحُكْمِ عَلَيْهَا ، وَذِكْرِ الْعِلَلِ فِي بَعْضِهَا ، وَذِكْرِ أَقْوَالِ أَهْلِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ - عَلَى جَرِيلٍ نَفْعِهَا وَعَظِيمٍ فَائِدَتِهَا - فَكُنْتُ أَحْزَنُ لِدَلِكِ كَثِيرًا ، فَتَمَنَيْتُ أَنْ يُخْتَصَرَ هَذَا الْكِتَابُ مِنَ الْأَسَانِيدِ وَيُهْدَبَ مِمَّا عَلِقَ بِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَالْمَرْوِيَّاتِ الضَّعِيفَةِ ، حَتَّى وَقَفْتُ عَلَى مُخْتَصَرِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ نَسِيبِ الرَّفَاعِيِّ فَشَفَى جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ غَلِيلِي إِلَّا أَنَّ ارْتِفَاعَ سِعْرِهِ حَالَ دُونَ انْتِشَارِهِ هُنَا فِي مِصْرَ ، وَمِمَّا زَادَنِي أَلَمًا أَنَّ أَشْهَرَ مُخْتَصِرَاتِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ وَأَكْثَرَهَا تَدَاوُلًا بَيْنَ النَّاسِ ، قَدْ تَكَلَّمَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي عَدَمِ التَّزَامِ صَانِعِهِ بِعَقِيدَةِ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ ، وَالَّتِي بَيْنَهَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ ، بَلْ غَيَّرَ وَبَدَّلَ فِي أَلْفَاظِهِ وَعِبَارَاتِهِ انْتِصَارًا لِعَقِيدَتِهِ الْأَشْعَرِيَّةِ غَفَرَ اللَّهُ لَنَا وَلَهُ .

وَلِهَذَا عَرَضْتُ الْأَمْرَ عَلَى الشَّيْخِ الْفَاضِلِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُصْطَفَى الْعَدَوِيِّ ؛ لِكَيْ يَقُومَ بِاخْتِصَارِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ فَرَحَّبَ مُتَهَيِّبًا - حَفِظَهُ اللَّهُ - لَكِنْ بَعْدَ الْاسْتِخَارَةِ وَالْاسْتِشَارَةِ زَفَّ إِلَيَّ الْمَوْافَقَةَ وَبَدَأَ الْعَمَلَ فِي الْكِتَابِ ، فَقَامَ أَوَّلًا بِحَذْفِ كُلِّ مَا بَدَأَ لَهُ ضَعْفُ إِسْنَادِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَالْمَرْوِيَّاتِ ، وَأَبْقَى عَلَى مَا صَحَّ عَنْهُ فَقَطَّ مَعَ اخْتِصَارِ الْأَسَانِيدِ وَعَزَوِ الْأَحَادِيثِ إِلَى مَظَاهِمَا مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ ، وَكَذَا اخْتِصَارِ بَعْضِ الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ وَالْاسْتِدْلَالَاتِ

الْقُرْآنِيَّةَ الَّتِي أَكْثَرَ مِنْهَا الْحَافِظُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَبَعْدَ انْتِهَاءِ الْعَمَلِ وَجَدْنَا أَنَّ أَقْرَبَ وَأَدَقَّ الْأَسْمَاءِ لِهَذَا الْمُخْتَصَرِ هُوَ «صَحِيحُ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ» فَكَانَ كَذَلِكَ ، وَخَرَجَ الْكِتَابُ بِصُورَةٍ مُشْرِفَةٍ لَا قَتَ اسْتِحْسَانُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بَعْضِ الْأَخْطَاءِ الْمَطْبُوعِيَّةِ فِي التَّشْكِيلِ اسْتَدْرَكْنَاهَا فِي الطَّبْعَةِ التَّالِيَةِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَكَانَ الشَّيْخُ - حَفِظَهُ اللَّهُ - قَدْ أَوْكَلَ إِلَيَّ أَثْنَاءَ الْعَمَلِ بِالْكِتَابِ مُهِمَّةَ رَبِّطِ الْجُمْلَ بَعْضُهَا بَبَعْضٍ ، وَوَصَلَ مَا انْقَطَعَ بِفِعْلِ حَذْفِ الضَّعِيفِ مِنْهُ ، مَعَ الْحَافِظَةِ عَلَى عِبَارَاتٍ وَالْفَافِظِ الْحَافِظِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَقَدْ أَخَذَ مِنِّي هَذَا الْعَمَلُ جُهْدًا شَاقًّا خِلَالَ عَامَيْنِ كَامِلَيْنِ ، لَكِنْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيَّ أَنَّ أَصَابَنِي بِسَبَبِهِ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ ، وَذَلِكَ لِقِرَائَتِي التَّفْسِيرِ كَامِلًا أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِ مَرَّاتٍ ، وَهَذَا مِنْ بَرَكَاتِهِ هَذَا الْعَمَلِ ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصًا لَوَجْهِهِ ، وَقَدْ وَفَّقَنِي اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْمُهْمَّةِ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - بِمَا حَدَا بِبَعْضِ أَحْبَابِي - مِمَّنْ يُحْسِنُونَ الظَّنَّ بِي - أَنْ يُشِيرُوا عَلَيَّ بِاخْتِصَارِ «صَحِيحِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ» حَتَّى يَسْتَفِيدَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ الْعَظِيمِ كُلُّ مَنْ ضَاقَ وَقْتُهُ وَعَجَزَتْ هِمَّتُهُ عَنْ مُطَالَعَةِ الْأَصْلِ أَوِ الصَّحِيحِ ، فَانْتَرَحَ صَدْرِي لِهَذَا الْأَمْرِ ، فَاسْتَحَزْتُ اللَّهَ تَعَالَى وَبَدَأْتُ الْعَمَلَ عَلَى وَجَلٍ وَهَيْبَةٍ ، فَوَاصَلْتُ الْعَمَلَ لَيْلًا وَنَهَارًا دُونَ مَلَلٍ ، فَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ بَضَاعَتِي مُزْجَاهُ وَأَنْبِي أَخْوَضُ غِمَارًا فَوْقَ طَاقَتِي ، وَخِصْمًا لَيْسَ لِيْلِي أَنْ يُخَوِّضَ عُبَابَهُ .

وَلَكِنْ أَطِيلُ عَلَيْكَ أَخِي الْقَارِئِ الْكَرِيمِ فِي وَصْفِ مُمَرَّاتِ هَذَا الْمُخْتَصَرِ أَوْ تَفْصِيلِ مَنْهَجِي فِي هَذَا الْعَمَلِ ، فَهُوَ بِاخْتِصَارٍ : أَنَّنِي أَرَدْتُ أَنْ أَقْدِمَ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ ضَاقَ وَقْتُهُ وَعَجَزَتْ هِمَّتُهُ مُخْتَصَرًا سَهْلًا يَسِيرًا فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَى مَنْهَجِ أَهْلِ الشُّنَّةِ بِعِبَارَاتٍ وَاحِدَةٍ مِنْ أَعْظَمِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ بِشَكْلِ غَيْرِ مُجَلٍّ وَعَرَضٍ غَيْرِ مُجَلٍّ ، هَذَا وَمَا كَانَ مِنْ تَوْفِيقٍ فَمِنْ اللَّهِ وَخَدَهُ ، وَمَا كَانَ مِنْ خَطَأٍ أَوْ زَلَلٍ أَوْ سَهْوٍ أَوْ نِسْيَانٍ فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ ، وَلَا نَنْسَى أَنْ نُنَوِّهَ إِلَى أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ جُهْدٌ بَشَرِيٌّ وَهُوَ عَرْضَةٌ لِلنَّقْصِ وَالْخَطَأِ وَالزَّلَلِ وَالنَّسْيَانِ ، فَمَنْ أَطْلَعَ عَلَى خَطَأٍ فِيهِ أَوْ زَلَلٍ فَلْيَقْدِّمِ الْعُذْرَ وَحُسْنَ الظَّنِّ عَلَى غَيْرِهِ ، وَيُرْسِلْ إِلَيْنَا بِمَا وَقَفَ عَلَيْهِ مِنْ خَطَأٍ أَوْ مَلَاخِظَةٍ ، وَلَهُ مِنَّا جَزِيلُ الشُّكْرِ وَالتَّقْدِيرِ .

وَخِتَامًا أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَقْبَلَ مِنَّا جُهْدَ الْمُقِلِّ بِقَبُولِ حَسَنِ ، وَأَنْ يَأْجُرَنَا عَلَيْهِ الثَّوَابَ الْحَسَنَ ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا مَا كَانَ فِيهِ مِنْ خَطَأٍ إِنَّهُ بِكُلِّ جَمِيلٍ كَفِيلٌ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

وكتبه

أبو عبد الرحمن عموصل لطفلي الجزار

رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بفارسكور

غفر الله له ولوالديه وأولاده والمؤمنين والمؤمنات

يُقَالُ لَهَا الْفَاتِحَةُ أَيُ : « فَاتِحَةُ » الْكِتَابِ خَطًّا وَبِهَا تُفْتَحُ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَوَاتِ وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا : أُمُّ الْكِتَابِ لِقَوْلِهِ ﷺ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ : أُمُّ الْقُرْآنِ ، وَأُمُّ الْكِتَابِ ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي ، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ». وَيُقَالُ لَهَا : « الْحَمْدُ » وَيُقَالُ لَهَا : « الصَّلَاةُ » لِقَوْلِهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ». وَيُقَالُ لَهَا : « الشَّفَاءُ » وَيُقَالُ لَهَا : « الرُّقْبَةُ » لِقَوْلِهِ ﷺ : « وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ ؟ ». وَهِيَ مَكِّيَّةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . قَالَ الْبُحَارِيُّ : وَسُمِّيَتْ أُمُّ الْكِتَابِ لِأَنَّهُ يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي الْمَصَاحِفِ وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ ، وَقِيلَ : إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِجُوعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ إِلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ . عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بِنِ الْمُعَلَّى ﷺ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ » قَالَ : فَأَخَذَ بِيَدِي ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ قُلْتَ : لَأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ، قَالَ : « نَعَمْ » الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ ». وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ الْقُرْآنِ وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ». وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ » فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ : إِنَّا نَكُونُ خَلْفَ الْإِمَامِ فَقَالَ : اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « قَالَ اللَّهُ ﷻ : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : حَمْدِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قَالَ اللَّهُ : أَنَّنِي عَلَى عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قَالَ اللَّهُ : مَجْدِي عَبْدِي ، وَقَالَ مَرَّةً : فَوُضَّ إِلَيَّ عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ : هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ قَالَ اللَّهُ : هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » .

الكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِ الْإِسْتِعَاذَةِ وَأَحْكَامِهَا

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٠) وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ [الأعراف : ١٩٩-٢٠٠]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [١٥] وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿١٦﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٧﴾ [المؤمنون ٩٦ - ٩٨]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [١٨] وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿١٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٠﴾ [فصلت : ٣٤ - ٣٦] فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ لَيْسَ هُنَّ رَابِعَةٌ فِي مَعْنَاهَا ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ بِمُصَانَعَةِ الْعَدُوِّ الْإِنْسِيِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ لِيُرَدَّهُ عَنْهُ طَبْعُهُ الطَّبِيبُ الْأَصْلُ إِلَى الْمَوَالَةِ وَالْمُصَافَاةِ وَيَأْمُرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ الْعَدُوِّ الشَّيْطَانِيِّ لَا حِمَالَةَ إِذْ لَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَلَا إِحْسَانًا ، وَلَا يَنْتَعِي غَيْرَ هَلاكَ ابْنِ آدَمَ لِيَشُدَّ الْعَدَاوَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ آدَمَ مِنْ قَبْلُ . وَالْمَشْهُورُ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ : أَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التَّلَاوَةِ لِذَفْعِ الْوَسَاوِسِ فِيهَا ، وَمَعْنَى الْآيَةِ عَنْدهُمْ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل : ٩٨] أَيُّ : إِذَا أَرَدْتَ الْقِرَاءَةَ . وَمِنْ لَطَائِفِ الْإِسْتِعَاذَةِ أَنَّهَا طَهَارَةٌ لِلْفَمِ مِمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ وَتَطْيِيبٌ لَهُ وَتَهَيُّؤٌ لِلتَّلَاوَةِ كَلَامُ اللَّهِ ، وَهِيَ اسْتِعَاذَةٌ بِاللَّهِ وَاعْتِرَافٌ لَهُ بِالْقُدْرَةِ ، وَلِلْعَبْدِ بِالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ عَنْ مُقَاوَمَةِ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُبِينِ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهِ وَدَفْعِهِ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ وَلَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَلَا يُدَارَى بِالْإِحْسَانِ . وَمَعْنَى أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ : أَيُّ : اسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَنْ يَضُرَّنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ أَوْ يَصُدَّنِي عَنْ فِعْلٍ مَا أُمِرْتُ بِهِ أَوْ يَحْتَنِي عَلَى فِعْلٍ مَا نُهِيتُ عَنْهُ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكْفُهُ عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللَّهُ ؛ وَهَذَا أَمْرٌ تَعَالَى بِمُصَانَعَةِ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَمُدَارَاتِهِ بِإِسْدَاءِ الْجَمِيلِ إِلَيْهِ لِيُرَدَّهُ طَبْعُهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْأَذَى ، وَأَمْرٌ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجِنِّ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ رِشْوَةً وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ جَمِيلٌ ، لِأَنَّهُ شَرِيرٌ بِالطَّبْعِ وَلَا يَكْفُهُ عَنْكَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ . وَالشَّيْطَانُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مُشْتَقٌّ مِنْ شَطَنَ إِذَا بَعُدَ فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ ، وَبَعِيدٌ بِفِسْقِهِ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ ، وَقِيلَ : مُشْتَقٌّ مِنْ شَاطَ : لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ . وَ«الرَّجِيمُ» فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٌ ، أَيُّ : أَنَّهُ مَرْجُومٌ مَطْرُودٌ عَنِ الْخَيْرِ كُلِّهِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اِفْتَتَحَ بِهَا الصَّحَابَةُ كِتَابَ اللَّهِ ، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ النَّملِ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا : هَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ ، أَوْ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ كُتِبَتْ فِي أَوَّلِهَا ، أَوْ أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ ، أَوْ أَنَّهَا كَذَلِكَ فِي الْفَاتِحَةِ دُونَ غَيْرِهَا ، أَوْ أَنَّهَا إِنَّمَا كُتِبَتْ لِلْفَصْلِ لَا أَنَّهَا آيَةٌ عَلَى أَقْوَالٍ لِلْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلَفًا ، وَذَلِكَ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

عَنْ رَدِيفِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : عُثِرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ حِمَارُهُ فَقُلْتُ : تَعَسَّ الشَّيْطَانُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا تَقُلْ تَعَسَّ الشَّيْطَانُ ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : تَعَسَّ الشَّيْطَانُ تَعَظَّمُ وَقَالَ بِقَوِّي صَرَغْتُهُ ، وَإِذَا قُلْتَ : بِسْمِ اللَّهِ تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ » . فَهَذَا مِنْ تَأْثِيرِ بَرَكَةِ « بِسْمِ اللَّهِ » وَلِهَذَا تُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ كُلِّ عَمَلٍ وَقَوْلٍ . وَتُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ الْوُضُوءِ وَعِنْدَ الْأَكْلِ ، وَعِنْدَ الْجَمَاعِ . فَاَلْمَشْرُوعُ ذِكْرُ اسْمِ اللَّهِ فِي الشَّرُوعِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ تَبَرُّكًا وَتَيْمُّنًا وَاسْتِعَانَةً عَلَى الْإِتِمَامِ وَالتَّقَبُّلِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

﴿ اللَّهُ ﴾ عَلَّمَ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُقَالُ : إِنَّهُ الْاسْمُ الْأَعْظَمُ ؛ لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) [الحشر : ٢٢-٢٤] فَأَجْرَى الْأَسْمَاءُ الْبَاقِيَةَ كُلَّهَا صِفَاتٍ لَهُ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ » . وَهُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ اسْمَانِ مُشْتَقَّانِ مِنَ الرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ ، وَالرَّحْمَنُ أَشَدُّ مُبَالَغَةً فِي الرَّحْمَةِ لِعُمُومِهَا فِي الدَّارَيْنِ لَجَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَالرَّحِيمُ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمَّا تَجَمَّهَرُ مُسْلِمَةُ الْكَذَابِ ، وَتَسَمَّى بِرَحْمَنِ الْيَمَامَةِ كَسَاهُ اللَّهُ جِلْبَابَ الْكَذِبِ وَشَهَرَهُ بِهِ ، فَلَا يُقَالُ إِلَّا مُسْلِمَةُ الْكَذَابِ .

وَأَمَّا الرَّحِيمُ فَإِنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ غَيْرَهُ حَيْثُ قَالَ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، كَمَا وَصَفَ غَيْرَهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ .

وَالْحَاصِلُ أَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى مَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ ، وَمِنْهَا مَا لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ كَاسْمِ اللَّهِ ، وَالرَّحْمَنِ ، وَالْخَالِقِ ، وَالرَّزَاقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَلِهَذَا بَدَأَ بِاسْمِ اللَّهِ وَوَصَفَهُ بِالرَّحْمَنِ ؛ لِأَنَّهُ أَخْصَصَ وَأَعْرَفَ مِنَ الرَّحِيمِ ؛ لِأَنَّ التَّسْمِيَةَ أَوْ لَا إِنَّمَا تَكُونُ بِأَشْرَفِ الْأَسْمَاءِ ، فَلِهَذَا ابْتَدَأَ بِالْأَخْصَصِ فَلَا أَخْصَصَ .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

مَعْنَى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الشُّكْرُ لِلَّهِ خَالِصًا دُونَ سَائِرِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ ، وَدُونَ كُلِّ مَا بَرَأَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا أَنْعَمَ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعَدَدُ وَلَا يُحِيطُ بِعَدَدِهَا غَيْرُهُ .

﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الرَّبُّ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى السَّيِّدِ وَعَلَى الْمُتَصَرِّفِ لِلِإِصْلَاحِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ الرَّبُّ لِغَيْرِ اللَّهِ بَلْ بِالْإِضَافَةِ تَقُولُ : رَبُّ الدَّارِ ، رَبُّ كَذَا ، وَأَمَّا الرَّبُّ فَلَا يُقَالُ إِلَّا لِلَّهِ ﷻ .

وَالْعَالَيْنِ جَمْعُ عَالَمٍ وَهُوَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ ﷻ ، وَالْعَالَمُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَلَامَةِ .
قُلْتُ : لَأَنَّهُ عَلِمَ دَالٌّ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ وَصَانِعِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ :

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهَ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : إِنَّمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بَعْدَ قَوْلِهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، لِيَكُونَ مِنْ بَابِ
قَرْنِ التَّرْغِيبِ بَعْدَ التَّرْهِيبِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ * بَنَى عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي
هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر : ٤٩-٥٠] قَالَ : « فَالرَّبُّ » فِيهِ تَرْهِيبٌ « وَالرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » تَرْغِيبٌ .

﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾

قَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ ﴿ مَلِكٍ ﴾ وَقَرَأَ آخَرُونَ « مَلِكٌ » ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ مُتَوَاتِرٌ فِي السَّبْعِ ،
وَمَالِكٌ : مَا أُخِذَ مِنَ الْمُلْكِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ مَلِكِ النَّاسِ ، وَمَلِكٌ :
مَأْخُذٌ مِنَ الْمُلْكِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ، وَتَخْصِيصُ الْمُلْكِ يَوْمَ
الدِّينِ لَا يَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،
وَأِنَّمَا أَضِيفَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْعِي أَحَدٌ هُنَالِكَ شَيْئًا وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

وَالْمُلْكُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ ﷻ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ
السَّلَامُ ﴾ [الحشر : ٢٣] فَأَمَّا تَسْمِيَةُ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا بِمَلِكٍ فَعَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ
وَرَاءَهُم مَلِكٌ ﴾ [الكهف : ٧٩] . وَالَّذِينَ : الْجُزَاءُ وَالْحِسَابُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ
دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ [النور : ٢٥] وَقَالَ : ﴿ أَهِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أَيُّ : مَجْزِيُونَ مُحَاسَبُونَ .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

« الْعِبَادَةُ » فِي اللُّغَةِ مِنَ الدَّلَّةِ ، يُقَالُ : طَرِيقُ مُعَبَّدٍ وَبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ أَيُّ : مُذَلَّلٌ ، وَفِي الشَّرْعِ :
عِبَارَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ وَالْخُضُوعِ وَالْخَوْفِ . وَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ وَهُوَ إِيَّاكَ وَكُرِّرَ لِلَاَهْتِمَامِ
وَالْحَضَرِ أَيُّ : لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ ، وَهَذَا هُوَ كَمَالُ الطَّاعَةِ . وَالَّذِينَ كُلُّهُ
يَرْجِعُ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ . وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : الْفَاتِحَةُ سِرُّ الْقُرْآنِ وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ
﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فَلَا أَوَّلَ تَبَرُّؤٍ مِنَ الشُّرْكِ ، وَالثَّانِي تَبَرُّؤٌ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ ،
وَالْتَفْوِيزُ إِلَى اللَّهِ ﷻ . وَتَحَوَّلَ الْكَلَامُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْمَوَاجَهَةِ بِكَافِ الْخِطَابِ وَهُوَ مُنَاسِبَةٌ لِأَنَّهُ
لَمَّا أَثْنَى عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَكَانَهُ اقْتِرَابٌ وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي

نُصَفَيْنِ فَنُصِفُهَا لِي وَنُصَفُهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، إِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ اللهُ : مُحَمَّدَنِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ : ﴿ اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ﴾ قَالَ اللهُ : اَنْتَنِي عَلَيَّ عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قَالَ اللهُ : مَجْدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْزُ ﴾ قَالَ : هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿١﴾ قَالَ : هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْزُ ﴾ يَا مُرْكُمُ أَنْ تُخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ ، وَأَنْ تَسْتَعِيْنُوهُ عَلَى أُمُورِكُمْ ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ ﴿ اِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ عَلَى ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْزُ ﴾ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَهُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ ، وَالِاسْتِعَاْنَةُ وَسِيْلَةٌ إِلَيْهَا ، وَالِاهْتِمَامُ وَالْحَزْمُ تَقْدِيْمُ مَا هُوَ الْأَهْمُ فَالْأَهْمُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ ﴾

لَمَّا تَقَدَّمَ الشَّاءُ عَلَى الْمَسْئُولِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاسَبَ أَنْ يُعَقَّبَ بِالسُّوَالِ ، كَمَا قَالَ : « فَيُصَفُّهَا لِي وَنُصَفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » وَهَذَا أَكْمَلُ أَحْوَالِ السَّائِلِ أَنْ يَمْدَحَ مَسْئُولَهُ ثُمَّ يَسْأَلَهُ حَاجَتَهُ وَحَاجَةَ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ : ﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ ﴾ لِأَنَّهُ أُنْجَحَ لِلْحَاجَةِ وَأَنْجَعَ لِلْإِجَابَةِ ، وَهَذَا أَرْشَدَ اللهُ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ الْأَكْمَلُ . وَالْهُدَايَةُ هَهُنَا : الْإِرْشَادُ وَالتَّوْفِيقُ ، وَأَمَّا ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ ﴾ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ فِي لُغَةِ جَمِيعِ الْعَرَبِ . ثُمَّ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَفْسِيرِ الصِّرَاطِ وَإِنْ كَانَ يَرْجِعُ حَاصِلُهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُوَ : الْمَتَابَعَةُ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ، فَرُوي أَنَّهُ كِتَابُ اللهِ . وَقِيلَ : هُوَ الْإِسْلَامُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ ﴾ قَالَ : الْحَقُّ ، وَهَذَا أَشْمَلُ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ وَهِيَ مُتَلَازِمَةٌ .

فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ يَسْأَلُ الْمُؤْمِنُ الْهُدَايَةَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَلَاةٍ وَغَيْرِهَا وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِذَلِكَ ؟ فَهَلْ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ أَمْ لَا ؟ فَالْجَوَابُ : أَنْ لَا ، وَلَوْ لَا اِخْتِيَاجُهُ لَيْلًا وَنَهَارًا إِلَى سُؤَالِ الْهُدَايَةِ ؛ لَمَّا أَرْشَدَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مُفْتَقِرٌ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَحَالَةٍ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي تَشْيِيتِهِ عَلَى الْهُدَايَةِ وَرُسُوحِهِ فِيهَا وَتَبَصُّرِهِ وَازْدِيَادِهِ مِنْهَا وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَيْهَا ، فَالْسَّعِيدُ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى لِسُؤَالِهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ بِإِجَابَةِ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ وَلَا سِيَّامَا الْمُضْطَرُّ الْمُحْتَاجُ الْمُفْتَقِرُ إِلَيْهِ . فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ ﴾ اسْتَمَرَّ بِنَا عَلَيْهِ ، وَلَا تَعْدِلْ بِنَا إِلَى غَيْرِهِ .

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ مُفَسَّرٌ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيْمِ . وَالَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ

اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٨﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ
 مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٦٩﴾ [السَّاء : ٦٩-٧٠] ، وَهُمْ أَهْلُ الْهُدَايَةِ وَالْإِسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ
 وَرُسُلِهِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ ، وَتَرْكِ نَوَاهِيهِ وَرَوَاجِرِهِ ، غَيْرِ صِرَاطٍ ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وَهُمْ
 الَّذِينَ فَسَدَتْ إِرَادَتُهُمْ فَعَلِمُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ وَلَا صِرَاطٍ ﴿الضَّالِّينَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ فَقَدُوا
 الْعِلْمَ ، فَهُمْ هَائِمُونَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ . وَأَكْثَرُ الْكَلَامِ بِلَا ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ ثَمَّ
 مَسْلُكَيْنِ فَاسِدَيْنِ وَهُمَا طَرِيقَتَا الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . وَلِئَلَّا يُتَوَهَّمَنَّ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
 عَلَيْهِمْ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الطَّرِيقَتَيْنِ لِيُجْتَنَّبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، فَإِنَّ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْإِيمَانِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى
 الْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ ، وَالْيَهُودُ فَقَدُوا الْعَمَلَ وَالنَّصَارَى فَقَدُوا الْعِلْمَ ، وَلِهَذَا كَانَ الْغَضَبُ
 لِلْيَهُودِ وَالضَّلَالُ لِلنَّصَارَى ؛ وَكُلٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ ، لَكِنْ أَخْصُ
 أَوْصَافَ الْيَهُودِ الْغَضَبُ ، وَأَخْصُ أَوْصَافِ النَّصَارَى الضَّلَالُ ، وَبِهَذَا جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ .

فَصَلِّ : اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ عَلَى حَمْدِ اللَّهِ وَتَمْجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ
 بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمُسْتَلْزِمَةِ لِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا ، وَعَلَى ذِكْرِ الْمَعَادِ وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ ، وَعَلَى إِرْشَادِهِ
 عِبِيدَهُ إِلَى سُؤَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ ، وَالتَّبَرُّؤِ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوتِهِمْ ، وَإِلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَتَوْحِيدِهِ
 بِالْأَلُوْهِيَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ ، أَوْ مُثَاقِلٌ ، وَإِلَى سُؤَالِهِمْ إِيَّاهُ الْهُدَايَةَ
 إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ ، وَنَثَبَتُهُمْ عَلَيْهِ ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْأَعْمَالِ
 الصَّالِحَةِ ؛ لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكِ الْبَاطِلِ لِئَلَّا يُخْشَرُوا مَعَ سَالِكِيهَا
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهُمْ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا جَاءَ إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ
 تَعَالَى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وَحَذَفَ الْفَاعِلَ فِي الْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
 عَلَيْهِمْ ﴾ وَإِنْ كَانَ هُوَ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ . وَكَذَلِكَ إِسْنَادُ الضَّلَالِ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ وَإِنْ كَانَ
 هُوَ الَّذِي أَضَلَّهُمْ بِقَدَرِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا
 مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْهُدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ .
 فَصَلِّ : يُسْتَحَبُّ لِمَنْ قَرَأَ الْفَاتِحَةَ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهَا : آمِينَ ، وَمَعْنَاهُ : اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ ،
 وَيُسْتَحَبُّ ذَلِكَ لِمَنْ هُوَ خَارِجُ الصَّلَاةِ وَيَتَأَكَّدُ فِي حَقِّ الْمُصَلِّي ، وَسَوَاءٌ كَانَ مُنْفَرِدًا أَوْ إِمَامًا أَوْ
 مَأْمُومًا وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، لِقَوْلِهِ ﷺ : « إِذَا قَالَ - يَغْنِي الْإِمَامُ - وَلَا الضَّالِّينَ فَقُولُوا آمِينَ
 يُجِيبُكُمْ اللَّهُ » . وَقَالَ ﷺ : « إِذَا آمَنَ الْإِمَامُ فَأَمَّنُوا » وَأَنَّهُ ﷺ كَانَ يُؤَمِّنُ إِذَا قَرَأَ ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
 عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « الْفَاتِحَةِ » وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، فَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ » .

وَعَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبُطْلَةُ » أَي : السحرة .

فَصُلِّ : وَالْبَقَرَةُ جَمِيعُهَا مَدِينَةٌ بِلَا خِلَافٍ وَهِيَ مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ بِهَا ، لَكِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيهِ : « وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » الْآيَةُ يُقَالُ : إِنَّمَا آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مِنْهَا ، وَكَذَلِكَ آيَاتُ الرَّبِّ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّورِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : هِيَ بِمَاءِ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ ، فَرَدُّوا عِلْمَهَا إِلَى اللَّهِ ، وَلَمْ يُفَسِّرْهَا . وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهَا ، وَاخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي مَعْنَاهَا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا هِيَ : أَسْمَاءُ السُّورِ . وَقَالَ آخَرُونَ « الم » و « حم » و « المص » و « ص » فَوَاتِحُ افْتَتَحَ اللَّهُ بِهَا الْقُرْآنَ .

وَقِيلَ : هِيَ إِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ قَسَمٌ أَفْسَمَ اللَّهُ بِهِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : فِيهَا حُرُوفٌ أُسْتُفْتِحَتْ مِنْ حُرُوفٍ هَجَاءِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى .

قُلْتُ : جَمْعُ الْحُرُوفِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ بِحَذْفِ الْمَكْرَرِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ عَشَرَ حَرْفًا وَهِيَ - « ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن » - يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ : نَصُّ حَكِيمٍ قَاطِعٌ لَهُ سِرٌّ . وَهِيَ نِصْفُ الْحُرُوفِ عَدَدًا ، وَالْمَذْكُورُ مِنْهَا أَشْرَفُ مِنَ الْمَثْرُوكِ ، وَبَيَانُ ذَلِكَ مِنْ صِنَاعَةِ التَّصْرِيفِ .

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾

ذَلِكَ الْكِتَابُ أَي : هَذَا الْكِتَابُ .

وَالْكِتَابُ : الْقُرْآنُ ، « لَا رَيْبَ فِيهِ » لَا شَكَّ فِيهِ ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ هُنَا : أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ هُوَ الْقُرْآنُ لَا شَكَّ فِيهِ ، أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّجْدَةِ ﴿ التَّوْحِيدُ ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا

رَيْبَ فِيهِ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ السَّجْدَةُ : ١-٢ ﴾

وُخَصَّتِ الْهُدَايَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى اخْتِصَاصِ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّفْعِ بِالْقُرْآنِ ، لِأَنَّهُ هُوَ فِي نَفْسِهِ هُدًى ، وَلَكِنْ لَا يَنَالُهُ إِلَّا الْأَبْرَارُ . ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يَعْنِي : نُورًا لِلْمُتَّقِينَ ، ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ ، وَقِيلَ : الَّذِينَ يَحْذَرُونَ مِنَ اللَّهِ عُقُوبَتَهُ ، وَقِيلَ : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ الشَّرَّكَ بِهِ وَيَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ ، وَقِيلَ : اتَّقُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَدُّوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ . وَيُطْلَقُ الْهُدًى وَيُرَادُ بِهِ مَا يُقَرُّ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْإِيَانِ ، وَهَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِهِ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ إِلَّا اللَّهُ . وَأَصْلُ التَّقْوَى التَّوْقَى بِمَا يُكْرَهُ . قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ :

وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التَّقَى	خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا
ضُ الشُّوْكَ يَحْذَرُ مَا يَرَى	وَاصْنَعَ كَمَا شِ فَوْقَ أَرَى
إِنَّ الْحَبَالَ مِنَ الْخَصَى	لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١﴾
أَمَّا الْإِيَانُ فِي اللُّغَةِ فَيُطْلَقُ عَلَى التَّصَدِيقِ الْمُخَصِّصِ ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي الْقُرْآنِ وَالْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦١] ، وَكَمَا قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لِأَبِيهِمْ ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : ١٧] ، وَكَذَلِكَ إِذَا أُسْتَعْمِلَ مَقْرُونًا مَعَ الْأَعْمَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [ص : ٢٤] فَأَمَّا إِذَا أُسْتَعْمِلَ مُطْلَقًا ، فَالْإِيَانُ الشَّرْعِيُّ الْمَطْلُوبُ لَا يَكُونُ إِلَّا إِعْتِقَادًا وَقَوْلًا وَعَمَلًا . هَكَذَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَكْثَرُ الْأَئِمَّةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ : بِالْخَشْيَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ [الأنبياء : ٤٩] ، وَالْخَشْيَةُ : خُلَاصَةُ الْإِيَانِ وَالْعِلْمِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨]
وَأَمَّا الْغَيْبُ الْمُرَادُ هَاهُنَا . قِيلَ : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَنَّتِهِ وَنَارِهِ وَلِقَائِهِ ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَبِالْبَعْثِ فَهَذَا غَيْبٌ كُلُّهُ . وَقِيلَ : الْغَيْبُ قَمَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ مِنْ أَمْرِ الْجَنَّةِ وَأَمْرِ النَّارِ ، وَمَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ ، وَقِيلَ : بِالْقَدَرِ . فَكُلُّ هَذِهِ مُتَقَارِبَةٌ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ ، لِأَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ مِنَ الْغَيْبِ ، الَّذِي يَحِبُّ الْإِيَانُ بِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ إِمْتَامُ الرُّكُوعِ ، وَالسُّجُودِ ، وَالتَّلَاوَةِ ، وَالْخُشُوعِ وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهَا فِيهَا ، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَى مَوَاقِيتِهَا ، وَوُضُوءِهَا ، وَرُكُوعِهَا ، وَسُجُودِهَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قِيلَ الْمُرَادُ : زَكَاةُ أَمْوَالِهِمْ ، وَقِيلَ : نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١٠﴾

أَيُّ : يُصَدِّقُونَ بِمَا جِئَتْ بِهِ مِنْ اللَّهِ ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ وَلَا يَجْحَدُونَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ . أَيُّ : بِالْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ ، وَإِنَّهَا سَمِيَتْ الْآخِرَةُ ، لِأَنَّهَا بَعْدَ الدُّنْيَا .

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿أُولَئِكَ﴾ أَيُّ : الْمُتَصِفُونَ بِمَا تَقَدَّمَ ﴿عَلَى هُدًى﴾ أَيُّ : عَلَى ثَوَرٍ وَبَيَانٍ وَبَصِيرَةٍ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِقَامَةٍ وَسَدَادٍ بِتَسْدِيدِهِ إِيَّاهُمْ وَتَوْفِيقِهِ لَهُمْ ، وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيُّ : الْمُتَنَجِّحُونَ الْمَذْرُوكُونَ مَا طَلَبُوا عِنْدَ اللَّهِ بِأَعْمَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ مِنَ الْقَوَرِ بِالْثَوَابِ وَالْخُلُودِ فِي الْجَنَّاتِ ، وَالنَّجَاةِ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْعِقَابِ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيُّ : غَطَّوْا الْحَقَّ وَاسْتَرَوْهُ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ إِنْذَارُكَ وَعَدْمُهُ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس : ٩٦-٩٧] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْمُعَانِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة : ١٤٥] . أَيُّ أَنَّ مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ فَلَا مُسْعِدَ لَهُ ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ وَبَلَّغْهُمْ الرِّسَالَةَ ، فَمَنْ اسْتَجَابَ لَكَ فَلَهُ الْخُطُّ الْأَوْفَرُ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا يَهْمَنَّكَ ذَلِكَ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد : ٤٠] ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أَيُّ : هُمْ كُفَّارٌ فِي كِلَا الْحَالَيْنِ ؛ فَلِهَذَا أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ أَيُّ : طَبَعَ اللَّهُ . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْخَتْمِ وَالطَّبْعِ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ مُجَازَةً لِكُفْرِهِمْ كَمَا قَالَ : ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء : ١٥٥] ، وَذَكَرَ حَدِيثَ تَقْلِيلِ الْقُلُوبِ «وَيَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ بَيَّنَّ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ» .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالْحَقُّ عِنْدِي فِي ذَلِكَ مَا صَحَّ بِنَظِيرِهِ الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبُهُ فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ، ثُمَّ قَالَ

ابن جرير : فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الذُّنُوبَ إِذَا تَتَابَعَتْ عَلَى الْقُلُوبِ أَغْلَقَتْهَا ، وَإِذَا أَغْلَقَتْهَا أَتَاهَا حَيْثُ نَزَلَ الْخَتَمُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى وَالطَّبَعُ ، فَلَا يَكُونُ لِلْإِيمَانِ إِلَيْهَا مَسْلَكٌ وَلَا لِلْكَفْرِ عَنْهَا مَخْلَصٌ فَذَلِكَ هُوَ الْخَتَمُ وَالطَّبَعُ الَّذِي ذُكِرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ جُمْلَةٌ تَامَةٌ فَإِنَّ الطَّبَعُ يَكُونُ عَلَى الْقَلْبِ وَعَلَى السَّمْعِ ، وَالْغِشَاوَةُ وَهِيَ الْغِطَاءُ يَكُونُ عَلَى الْبَصَرِ .

لَمَّا تَقَدَّمَ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ بِأَرْبَعِ آيَاتٍ ثُمَّ عَرَفَ حَالَ الْكَافِرِينَ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، شَرَعَ تَعَالَى فِي بَيَانِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَيُخْفُونَ الْكُفْرَ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾ تَخْدِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا تَخْدِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠١﴾

النِّفَاقُ : هُوَ إِظْهَارُ الْخَيْرِ وَإِسْرَارُ الشَّرِّ ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ : اِعْتِقَادِيٌّ وَهُوَ الَّذِي يُخَلِّدُ صَاحِبَهُ فِي النَّارِ ، وَعَمَلِيٌّ وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الذُّنُوبِ كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ صِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ فِي السُّورَةِ الْمَدِينَةِ لِأَنَّ مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا نِفَاقٌ بَلْ كَانَ خِلَافُهُ مِنَ النَّاسِ مَنْ كَانَ يُظْهِرُ الْكُفْرَ مُسْتَكْرَهًا وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مُؤْمِنٌ ، وَهَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ بِهَا الْأَنْصَارُ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَكَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ عَلَى طَرِيقَةِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَبِهَا الْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى طَرِيقَةِ أَسْلَافِهِمْ ، وَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرَ الْعُظْمَى ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ كَلِمَتَهُ وَأَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَرْزَةَ سَلُولٍ وَكَانَ رَأْسًا فِي الْمَدِينَةِ وَهُوَ مِنَ الْخَزْرَجِ ، وَكَانَ سَيِّدَ الطَّائِفَتَيْنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يُمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ فَجَاءَهُمُ الْخَيْرُ وَأَسْلَمُوا وَاشْتَغَلُوا عَنْهُ فَبَقِيَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ قَالَ : هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ فَأَظْهَرَ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ وَدَخَلَ مَعَهُ طَوَائِفٌ مِمَّنْ هُوَ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَنَحْلَتِهِ وَآخَرُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ وَجَدَ النِّفَاقَ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْأَعْرَابِ ، فَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ مُهَاجِرٌ مُكْرَهًا بَلْ مُهَاجِرٌ فَيَرْكُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَأَرْضَهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَهَذَا نَبَأُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ لِئَلَّا يَغْتَرَّ بِظَاهِرِ أَمْرِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ فَيَقَعَ لِدَلِيلِ فَسَادٍ عَرِيضٍ مِنْ عَدَمِ الْإِحْتِرَازِ مِنْهُمْ وَمِنْ اِعْتِقَادِ إِيْمَانِهِمْ وَهُمْ كُفَّارٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَخْدِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَيُّ : بِإِظْهَارِهِمْ مَا أَظْهَرُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَعَ إِسْرَارِهِمُ الْكُفْرَ ، يَعْتَقِدُونَ بِجَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ يَخْدَعُونَ اللَّهَ بِذَلِكَ وَأَنَّ ذَاكَ نَافِعُهُمْ عِنْدَهُ ؛ هَذَا

قَابَلَهُمْ عَلَىٰ إِعْتِقَادِهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَخْتَدِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَقُولُ : وَمَا يَغُرُّونَ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا وَلَا يَخْتَدِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ .

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَّادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ : شَكٌّ ﴿ فَرَّادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ : شَكًّا . ﴿ فَرَّادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ قِيلَ : هَذَا مَرَضٌ فِي الدِّينِ وَلَيْسَ مَرَضًا فِي الْأَجْسَادِ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ ، وَالْمَرَضُ : الشَّكُّ الَّذِي دَخَلَ فِيهِمْ فِي الْإِسْلَامِ . قِيلَ : ﴿ فَرَّادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ : زَادَهُمْ رَجْسًا . ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ، وَفُرِيَ ((يُكْذِبُونَ)) ، وَقَدْ كَانُوا مُتَّصِفِينَ بِهِذَا وَهَذَا ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا كَذِبَةً وَيُكْذِبُونَ بِالْغَيْبِ يَجْمَعُونَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ : هُمُ الْمُنَافِقُونَ . أَمَّا ﴿ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ : الْفَسَادُ هُوَ الْكُفْرُ وَالْعَمَلُ بِالْمَعْصِيَةِ . وَقِيلَ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يَعْنِي : لَا تَعْصُوا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ فَسَادُهُمْ ذَلِكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِي الْأَرْضِ أَوْ أَمَرَ بِمَعْصِيَتِهِ فَقَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ ، لِأَنَّ صَلَاحَ الْأَرْضِ وَالسَّاءَ بِالطَّاعَةِ . فَالْمُنَافِقُ لَمَّا كَانَ ظَاهِرُهُ الْإِيمَانَ اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، فَكَانَ الْفَسَادُ مِنْ جِهَةِ الْمُنَافِقِ حَاصِلٌ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَرَّ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَوَالَى الْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَوْ أَنَّهُ اسْتَمَرَ عَلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ لَكَانَ شَرُّهُ أَخْفَ ، وَلَوْ أَخْلَصَ الْعَمَلُ لِلَّهِ وَتَطَابَقَ قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ لِأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ أَيُّ : نُرِيدُ أَنْ نُدَارِيَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَنَصْطَلِحَ مَعَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ .

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَقُولُ : أَلَا إِنَّ هَذَا الَّذِي يَعْتَمِدُونَهُ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِصْلَاحٌ هُوَ عَيْنُ الْفَسَادِ وَلَكِنْ مِنْ جَهْلِهِمْ لَا يَشْعُرُونَ بِكَوْنِهِ فَسَادًا .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِذَا قِيلَ لِلْمُنَافِقِينَ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ، أَيُّ : كَلَيْمَانَ النَّاسِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَعَنْهُ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ وَتَرْكِ الزَّوَاجِرِ . ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يَعْنُونَ - لَعَنَهُمُ اللَّهُ - أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . يَقُولُونَ : أَنْصِيرْ نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ

وَعَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ سُفَهَاءُ ؟ وَالسُّفَهَاءُ : جَمْعُ سَفِيهِ ، وَالسَّفِيهِ هُوَ : الْجَاهِلُ الضَّعِيفُ الرَّأْيُ الْقَلِيلُ الْمَعْرِفَةُ بِمَوَاضِعِ الْمَصَالِحِ وَالْمَضَارِّ ، وَقَدْ تَوَلَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَوَابَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا فَقَالَ : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾ فَكَذَّ وَحَصَرَ السَّفَاهَةَ فِيهِمْ ﴿ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي : وَمِنْ تَمَامِ جَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِحَالِهِمْ فِي الضَّلَالَةِ وَالْجَهْلِ ، وَذَلِكَ أَرَدَى هُمْ وَأَبْلَغُ فِي الْعَمَى . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿ ١١ ﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿ ١٢ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِذَا لَقِيَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا : آمَنَّا وَأَظْهَرُوا هُمْ الْإِيمَانَ وَالْمَوَالَاةَ وَالْمَصَافَاةَ نِفَاقًا وَمُصَانَعَةً وَتَقِيَّةً ، وَلِيُشْرِكُوهُمْ فِيمَا أَصَابُوا مِنْ خَيْرٍ وَمَعْنَمٍ ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ يَعْنِي : إِذَا انْصَرَفُوا وَذَهَبُوا وَخَلَصُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ . يَعْنِي : هُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ فِي الْكُفْرِ مِنْ يَهُودَ - الَّذِينَ يَأْمُرُونَهُمْ بِالْكَذِبِ وَخِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ - وَأَصْحَابِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَقَادَتِهِمْ فِي الشُّرْكِ وَالشَّرِّ . ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أَيُّ : أَنَا عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا نَحْنُ نَسْتَهْزِئُ بِالْقَوْمِ وَلَنَلْعَبُ بِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى جَوَابًا هُمْ وَمُقَابَلَةً عَلَى صَنِيعِهِمْ ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ فَاعِلٌ بِهِمْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُدٍ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣] الْآيَةُ . قَالَ : فَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ اسْتَهْزَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ ، وَسُخْرِيَّتِهِ وَمَكْرِهِ وَخَدِيعَتِهِ لِلْمُنَافِقِينَ ، وَأَهْلِ الشُّرْكِ بِهِ عِنْدَ قَائِلِ هَذَا الْقَوْلِ وَمِثْلَاوِلِ هَذَا التَّأْوِيلِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ اسْتَهْزَاؤُهُ بِهِمْ تَوْبِيخُهُ إِيَّاهُمْ وَلَوْمُهُ هُمْ عَلَى مَا رَكِبُوا مِنْ مَعَاصِيهِ وَالْكَفْرِ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يَمُدُّهُمْ : يُمِلِّي لَهُمْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : يَزِيدُهُمْ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : كُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثَ لَهُمْ نِعْمَةً وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ نِقْمَةٌ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ ١١ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥] ، وَالطُّغْيَانُ هُوَ الْمَجَاوَزَةُ فِي الشَّيْءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ فِي ضَلَالَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ الَّذِي عَمَرَهُمْ دَسُّهُ وَعَلَاهُمْ رِجْسُهُ يَرَدَّدُونَ حَيَارَى ضَلَالًا لَا يَجِدُونَ إِلَى الْمَخْرَجِ مِنْهُ سَبِيلًا لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَخَتَمَ عَلَيْهَا وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْهُدَى وَأَغْشَاهَا لَا يُبْصِرُونَ رُشْدًا وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا .

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٧﴾
 ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أَخَذُوا الضَّلَالَةَ وَتَرَكُوا الْهُدَىٰ . فَاسْتَحَبُّوا الضَّلَالَةَ
 عَلَى الْهُدَىٰ . قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت : ١٧]
 وَحَاصِلُ الْقَوْلِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ عَدَلُوا عَنِ الْهُدَىٰ إِلَى الضَّلَالِ وَاعْتَاَضُوا عَنِ الْهُدَىٰ بِالضَّلَالَةِ ،
 وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أَي : بَدَلُوا الْهُدَىٰ ثَمَنًا لِلضَّلَالَةِ ،
 ﴿فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أَي : مَا رَبَحَتْ صَفَقَتُهُمْ فِي هَذِهِ الْبَيْعَةِ وَمَا كَانُوا
 مُهْتَدِينَ : أَي : رَاشِدِينَ فِي صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي
 ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٨﴾ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾

وَتَقْدِيرُ هَذَا الْمَثَلِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ شَبَّهَهُمْ فِي إِسْتِرَائِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ، وَصَيَّرَ وَرَثَتَهُمْ بَعْدَ
 الْبَصِيرَةِ إِلَى الْعَمَى بِمَنْ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ وَانْتَفَعَ بِهَا وَأَبْصَرَ بِهَا مَا عَنْ يَمِينِهِ
 وَشِمَالِهِ ، وَتَأَنَسَّ بِهَا فَيَبِينَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ طُفِئَتْ نَارُهُ ، وَصَارَ فِي ظَلَامٍ شَدِيدٍ لَا يُبْصِرُ وَلَا يَهْتَدِي
 وَهُوَ مَعَ هَذَا أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ ، أَبْكَمٌ لَا يَنْطِقُ ، أَعْمَى لَوْ كَانَ ضِيَاءً لَمَا أَبْصَرَ ؛ فَلِهَذَا لَا يَرْجِعُ إِلَى
 مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ فِي إِسْتِبْدَالِهِمْ عَوْضًا عَنِ الْهُدَىٰ وَاسْتِحْبَابِهِمْ
 الْغَيِّ عَلَى الرَّشْدِ . وَفِي هَذَا الْمَثَلِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي غَيْرِ
 هَذَا الْمَوْضِعِ . وَعَنْ فَتَاةٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّ الْمَعْنَى : أَنَّ الْمُنَافِقَ تَكَلَّمَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَأَضَاءَتْ لَهُ
 فِي الدُّنْيَا ، فَكَانَحَ بِهَا الْمُسْلِمِينَ ، وَغَارَاهُمْ بِهَا ، وَوَارَاهُمْ بِهَا ، وَحَقَّنَ بِهَا دَمَهُ وَمَالَهُ ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ
 الْمَوْتِ سُلِبَهَا الْمُنَافِقُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا أَصْلٌ فِي قَلْبِهِ وَلَا حَقِيقَةً فِي عَمَلِهِ . ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ﴾ فَهُمْ
 خُرُسٌ عُمَىٰ . لَا يَسْمَعُونَ الْهُدَىٰ وَلَا يَعْقِلُونَهُ ، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أَي : لَا يَرْجِعُونَ إِلَى هُدَىٰ .

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيٓ إِذَا نِهِم مِّنَ
 الصَّوْعِ حَذَرُ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ تَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ
 لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾

هَذَا مَثَلٌ آخَرُ صَرَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِضَرْبٍ آخَرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَهُمْ قَوْمٌ يَظْهَرُ لَهُمُ الْحَقُّ تَارَةً
 وَيَشْكُونَ تَارَةً أُخْرَى ، فَقُلُوبُهُمْ فِي حَالٍ شَكٍّ وَكُفْرِهِمْ وَتَرَدُّدِهِمْ ﴿كَصَيْبٍ﴾ ، وَالصَّيْبُ : هُوَ
 الْمَطَرُ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فِي حَالِ ظُلُمَاتٍ ، وَهِيَ الشُّكُوكُ وَالْكَفْرُ وَالنِّفَاقُ ﴿وَرَعْدٌ﴾ وَهُوَ مَا يُرْجَعُ

الْقُلُوبَ مِنَ الْخَوْفِ ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ الْخَوْفَ الشَّدِيدَ وَالْفَزَعَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وَ ﴿ الْبَرْقُ ﴾ هُوَ مَا يَلْمَعُ فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الضَّرْبِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ تَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي إِذَائِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أَيُّ : وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ حَذْرُهُمْ شَيْئًا لَأَنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِقُدْرَتِهِ وَهُمْ تَحْتَ مَشِيتِهِ وَإِرَادَتِهِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ ﴾ أَيُّ : لِشِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَضَعْفِ بَصَائِرِهِمْ وَعَدَمِ ثَبَاتِهَا لِلْإِيمَانِ . ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَافٍ فِيهِ ﴾ يَقُولُ : كُلَّمَا أَصَابَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ عِزِّ الْإِسْلَامِ إِطْمَأْنَأُوا إِلَيْهِ ، وَإِذَا أَصَابَ الْإِسْلَامَ نَكْبَةٌ قَامُوا لِتَرْجِعُوا إِلَى الْكُفْرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ [الحج : ١١] ، فَتَلَخَّصَ مِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ : أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ صِنْفَانِ مُقَرَّبُونَ وَأَبْرَارٌ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ صِنْفَانِ : دُعَاةٌ وَمُقَلَّدُونَ ، وَأَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَيْضًا صِنْفَانِ : مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَمُنَافِقٌ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ﴾ لَمَا تَرَكُوا مِنَ الْحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيُّ : إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ مَا أَرَادَ بِعِبَادِهِ مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ عِقَابٍ قَدِيرٌ . وَمَعْنَى ﴿ قَدِيرٌ ﴾ : قَادِرٌ كَمَا مَعْنَى « عَلِيمٌ » عَالِمٌ .

يَتَأَيُّهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾

شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي بَيَانِ وَحْدَانِيَّةِ أُلُوهِيَّتِهِ بِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَى عِبِيدِهِ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ وَإِسْبَاغِهِ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ بِأَنَّهُ جَعَلَ لَهُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ، أَيُّ : مَهْدًا كَالْفِرَاشِ مُقَرَّرَةً مُوَطَّاةً مُثَبَّتَةً بِالرَّوَاسِي السَّاحِحَاتِ ، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً : وَهُوَ السَّقْفُ ، ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ ، وَالْمُرَادُ بِهِ : السَّحَابُ هَاهُنَا فِي وَقْتِهِ عِنْدَ إِحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ فَأَخْرَجَ لَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الزُّرُوعِ وَالثَّمَارِ مَا هُوَ مُشَاهِدٌ رِزْقًا لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى الْخَالِقُ الرَّازِقُ مَالِكُ الدَّارِ وَسَاكِنِيهَا وَرَازِقُهُمْ ، فَبِهَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ غَيْرُهُ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . أَيُّ : لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْدَادِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَكُمْ يَرْزُقُكُمْ غَيْرُهُ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ التَّوْحِيدِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ ، قَالَ : هُوَ الشِّرْكَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةِ سَوْدَاءٍ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ،

وَهُوَ أَنْ يَقُولَ : وَاللهِ وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ وَحَيَاتِي ، وَيَقُولَ : لَوْلَا كَلْبُهُ هَذَا لَأَتَانَا اللَّصُوصُ
الْبَارِحَةُ ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللَّصُوصُ . وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ : مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتُ ،
وَقَوْلُ الرَّجُلِ : لَوْلَا اللهُ وَفُلَانُ ، لَا تَجْعَلْ فِيهِ فُلَانُ ، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ .

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

ثُمَّ سَرَعَ تَعَالَىٰ فِي تَقْرِيرِ النُّبُوَّةِ بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَقَالَ مُحَاطِبًا لِلْكَافِرِينَ : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ
فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مِنْ
عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ فَعَارِضُوهُ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ وَاسْتَعِينُوا عَلَىٰ ذَلِكَ بِمَنْ شِئْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ كُنْتُمْ لَا
تَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ ﴿ شُهَدَاءَكُمْ ﴾ أَعْوَانُكُمْ ، وَقَدْ تَحَدَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِهَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ .
قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ لَنْ لِنَفْيِ التَّائِيدِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْ : وَلَنْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ
أَبَدًا ، وَهَذِهِ أَيْضًا مُعْجَزَةٌ أُخْرَىٰ وَهُوَ أَنَّهُ أَخْبَرَ خَبْرًا جَارِمًا قَاطِعًا مُقَدِّمًا غَيْرَ خَائِفٍ وَلَا مُشْفِقٍ
أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُعَارِضُ بِمِثْلِهِ أَبَدَ الْأَبْدِينَ وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ الْأَمْرُ لَمْ يُعَارِضْ
مِنْ لَدُنْهِ إِلَىٰ زَمَانِنَا هَذَا ، وَلَا يُمَكِّنُ وَأَنْتَىٰ يَتَأْتَىٰ ذَلِكَ لِأَحَدٍ ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ
وَكَيْفَ يُشَبِّهُ كَلَامَ الْخَالِقِ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ ؟ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أَمَّا الْوَقُودُ بِفَتْحِ
الْوَاوِ فَهُوَ مَا يُقْلَىٰ فِي النَّارِ لِإِضْرَامِهَا كَالْحَطَبِ وَنَحْوِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا
لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن : ١٥] ، وَالْمُرَادُ بِالْحِجَارَةِ هِيَ هَاهُنَا حِجَارَةُ الْكِبْرِيتِ الْعَظِيمَةِ السَّوْدَاءِ
الصُّلْبَةِ الْمُتْنِنَةِ وَهِيَ أَشَدُّ الْأَحْجَارِ حَرًّا إِذَا حُمِيَتْ أَجَارَنَا اللهُ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ الْأَظْهَرُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي أُعِدَّتْ عَائِدٌ إِلَى النَّارِ الَّتِي وَقُودُهَا
النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أَيْ : أُرْصِدَتْ وَحَصِلَتْ لِلْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ
مِنْ أئِمَّةِ السُّنَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ النَّارَ مَوْجُودَةٌ الْآنَ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أَيْ : أُرْصِدَتْ وَهِيَئَتْ .
وَنَشَّرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ هُمْ جَنَّتِ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا
زُرُقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِءَ مُتَشَبِّهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ
مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ مَا أَعَدَّهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ الْكَافِرِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ،

عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ أَوْلِيَائِهِ مِنَ السُّعَدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ الَّذِينَ صَدَّقُوا إِيْمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ، وَهَذَا مَعْنَى تَسْمِيَةِ الْقُرْآنِ مَثَانِي ، وَهُوَ أَنْ يَذْكَرَ الْإِيْمَانَ وَيَتَّبَعَ بِذِكْرِ الْكُفْرِ أَوْ عَكْسِهِ أَوْ حَالِ السُّعَدَاءِ ثُمَّ الْأَشْقِيَاءِ أَوْ عَكْسِهِ وَحَاصِلُهُ ذِكْرُ الشَّيْءِ وَمُقَابِلُهُ . وَأَمَّا ذِكْرُ الشَّيْءِ وَنَظِيرُهُ فَذَلِكَ التَّشَابُهُ ؛ فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَبِّئِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ فَوْصَفَهَا بِأَنْهَا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَيُّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَيُّ مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا وَغُرْفِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ أَتَوُا بِالْثَمَرَةِ فِي الْجَنَّةِ ، فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَيْهَا قَالُوا : هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ فِي الدُّنْيَا . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَآخَرُونَ : بَلْ تَأْوِيلُ ذَلِكَ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ مِنْ قَبْلُ هَذَا ، لِشِدَّةِ مُشَابَهَةِ بَعْضِهِ بَعْضًا ، فَتَقُولُ لَهُمُ الْوِلْدَانُ : كُلُوا فَالْوَلَدَانِ وَاحِدٌ وَالطَّعْمُ مُخْتَلِفٌ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَتُوا بِهِمْ مُشَابِهًا ۖ قَالَ يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَيَخْتَلِفُ فِي الطَّعْمِ . وَقِيلَ : يَعْرِفُونَ أَسْمَاءَهُ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا : التَّفَاحُ بِالتَّفَاحِ ، وَالرُّمَّانُ بِالرُّمَّانِ ، قَالُوا فِي الْجَنَّةِ : هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَتُوا بِهِ مُشَابِهًا يَعْرِفُونَهُ وَلَيْسَ هُوَ مِثْلُهُ فِي الطَّعْمِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۖ مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْقَدَرِ وَالْأَذَى . مِنَ الْحَيْضِ وَالْغَائِطِ وَالْبَوْلِ وَالنَّخَامِ وَالْبَرَقِ وَالْمَنِيِّ وَالْوَلَدِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۖ هَذَا هُوَ تَمَامُ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُمْ مَعَ هَذَا النَّعِيمِ فِي مَقَامِ أَمِينٍ مِنَ الْمَوْتِ وَالْإِنْقِطَاعِ فَلَا آخِرَ لَهُ وَلَا انْقِضَاءَ ، بَلْ فِي نَعِيمٍ سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ عَلَى الدَّوَامِ ، وَاللَّهُ الْمَسْتَوِلُ أَنْ يَخْشَرَنَا فِي زَمَرَتِهِمْ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ بَرٌّ رَحِيمٌ .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٨﴾

عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِلدُّنْيَا أَنَّ الْبَعُوضَةَ نَحْيَا مَا جَاعَتْ ، فَإِذَا سَمِنَتْ مَاتَتْ وَكَذَلِكَ مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ضَرَبَ لَهُمْ هَذَا الْمَثَلُ فِي الْقُرْآنِ إِذَا امْتَلَأُوا مِنَ الدُّنْيَا رِيًّا أَخَذَهُمُ اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ ثُمَّ تَلَا ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَ﴿ مَا ۖ هَاهُنَا لِلتَّغْلِيلِ وَتَكُونُ ۖ بَعُوضَةً ۖ مَنْصُوبَةً عَلَى الْبَدَلِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ۖ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : فَمَا دُونَهَا فِي الصَّغَرِ وَالْحَقَارَةِ ، كَمَا إِذَا وُصِفَ لَكَ رَجُلٌ بِاللُّؤْمِ وَالشُّحِّ فَيَقُولُ السَّامِعُ : نَعَمْ وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ - يَعْنِي : فِيهَا وَصِفَتْ ،

وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُحَقِّقِينَ . وَالثَّانِي : فَمَا فَوْقَهَا لِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا ، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَحَقَرُ وَلَا أَصْغَرُ مِنَ الْبُعْوضَةِ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَصْغِرُ شَيْئًا يَضْرِبُ بِهِ مَثَلًا ، وَلَوْ كَانَ فِي الْحَقَارَةِ وَالصَّغَرِ كَالْبُعْوضَةِ ، كَمَا لَا يَسْتَنْكِفُ عَنْ خَلْقِهَا كَذَلِكَ لَا يَسْتَنْكِفُ مِنْ ضَرْبِ الْمَثَلِ بِهَا كَمَا ضَرَبَ الْمَثَلُ بِالذُّبَابِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْتَلِبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿ [الحج : ٧٣] ، وَفِي الْقُرْآنِ أَمْثَالٌ كَثِيرَةٌ : قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : إِذَا سَمِعْتَ الْمَثَلُ فِي الْقُرْآنِ فَلَمْ أَفْهَمْهُ بَكَيْتُ عَلَى نَفْسِي لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أَيُّ : يَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَلَامُ الرَّحْمَنِ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا يَعْنِي بِهِ : الْمُنَافِقِينَ ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا يَعْنِي بِهِ : الْمُؤْمِنِينَ ، فَيَزِيدُ هَؤُلَاءِ ضَلَالَةً إِلَى ضَلَالَتِهِمْ ؛ لِتَكْذِيبِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا مِنَ الْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ بِمَا ضَرَبَ لَهُمْ ، وَأَنَّهُ لِمَا ضَرَبَ لَهُ مُوَافِقٌ ، فَذَلِكَ إِضْلَالُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِهِ ﴿ وَيَهْدِي بِهِ ﴾ يَعْنِي : الْمَثَلُ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ فَيَزِيدُهُمْ هُدًى إِلَى هُدَاهُمْ ، وَإِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ ؛ لِتَصْدِيقِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا ، أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا ضَرَبَهُ اللَّهُ لَهُ مَثَلًا وَإِفْرَارُهُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هِدَايَةُ اللَّهِ لَهُمْ بِهِ ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ قَالَ هُمْ : الْمُنَافِقُونَ . وَالْفَاسِقُ فِي اللُّغَةِ : هُوَ الْخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ أَيْضًا . فَالْفَاسِقُ يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْعَاصِيَ ، وَلَكِنَّ فَسْقَ الْكَافِرِ أَشَدُّ وَأَفْحَشُ ؛ وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْفَاسِقُ الْكَافِرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ صِفَاتُ الْكُفَّارِ الْمُبَايِنَةِ لِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي مَعْنَى الْعَهْدِ الَّذِي وَصَفَ هَؤُلَاءِ الْفَاسِقِينَ بِنَقْضِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ وَصِيَّةُ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ وَأَمْرُهُ إِيَّاهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَتَهْنِئَةِ إِيَّاهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمْ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ فِي كُتُبِهِ ، وَعَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ ، وَنَقَضَهُمْ ذَلِكَ هُوَ تَرْكُهُمُ الْعَمَلَ بِهِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هِيَ فِي كُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ ، وَعَهْدُ اللَّهِ الَّذِي نَقَضُوهُ هُوَ مَا أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا فِيهَا ، وَاتَّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بَعَثَ وَالتَّصْدِيقِ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ ، وَنَقَضَهُمْ ذَلِكَ هُوَ جُحُودُهُمْ بِهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ بِحَقِيقَتِهِ وَإِنْكَارِهِمْ ذَلِكَ وَكِتْمَانِهِمْ عِلْمَ ذَلِكَ عَنِ النَّاسِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : الْعَهْدُ الَّذِي ذَكَرَهُ تَعَالَى هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ حِينَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ الَّذِي وَصَفَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رُبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴿١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢] الْآيَتِينَ . وَنَقَضْتُهُمْ ذَلِكَ تَرَكُّهُمْ الْوَفَاءَ بِهِ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ صَلَوةُ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ ، وَقِيلَ :
 الْمُرَادُ أَعْمُ مِنْ ذَلِكَ ، فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِوَصْلِهِ وَفَعَلِهِ فَقَطَعُوهُ وَتَرَكُوهُ . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾
 أَيُ : فِي الْآخِرَةِ . وَالْخَاسِرُونَ : جَمْعُ خَاسِرٍ وَهُمْ النَّاقِصُونَ أَنْفُسَهُمْ حُطُوطُهُمْ - بِمَعْصِيَتِهِمْ
 اللَّهُ - مِنْ رَحْمَتِهِ كَمَا يَخْسِرُ الرَّجُلُ فِي تِجَارَتِهِ بَأَنْ يُوَضَعَ مِنْ رَأْسٍ مَالِهِ فِي بَيْعِهِ ، وَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُ
 وَالْكَافِرُ خَسِرَ بِحُزْمَانِ اللَّهِ إِيَّاهُ رَحْمَتُهُ الَّتِي خَلَقَهَا لِعِبَادِهِ فِي الْقِيَامَةِ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَى رَحْمَتِهِ .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ ﴿١٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْتَبِجًا عَلَىٰ وُجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الْمُتَصَرِّفُ فِي عِبَادِهِ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾
 أَيُ : كَيْفَ تَجْحَدُونَ وَجُودَهُ أَوْ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ أَيُ : وَقَدْ كُنْتُمْ
 عَدَمًا فَأَخْرَجَكُم إِلَى الْوُجُودِ .

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ
 سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى دَلَالَتهُ مَنْ خَلَقَهُمْ وَمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ذَكَرَ دَلِيلًا آخَرَ يَمَّا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ
 خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَقَالَ : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ
 فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ أَيُ : قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ وَالْإِسْتِوَاءِ هَاهُنَا مُضَمَّنٌ مَعْنَى الْقَصْدِ وَالْإِقْبَالِ
 لِأَنَّهُ عُدِّي بِإِلَى فَسَوَّاهُنَّ أَيُ : فَخَلَقَ السَّمَاءَ سَبْعًا ، وَالسَّمَاءُ هَاهُنَا إِسْمُ جِنْسٍ ، فَلِهَذَا قَالَ :
 ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيُ : وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ مَا خَلَقَ ، فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ
 عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى ابْتَدَأَ بِخَلْقِ الْأَرْضِ أَوَّلًا ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا ، وَهَذَا شَأْنُ الْبِنَاءِ أَنْ يُبْدَأَ
 بِعِمَارَةٍ أَسْفَلِهِ ثُمَّ أَعَالِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا
 وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِامْتِنَانِهِ عَلَىٰ بَنِي آدَمَ بِتَنْوِيهِهِ بِذِكْرِهِمْ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى قَبْلَ إِيجَادِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى :
 ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ ﴾ أَيُ : وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ ، وَأَقْصَصْ عَلَى قَوْمِكَ
 ذَلِكَ ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أَيُ : قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ

جِيلٍ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ هَاهُنَا بِالْخَلِيفَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَطْ إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمَا حَسُنَ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ، فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا أَنَّ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَكَأَنَّهُمْ عَلِمُوا ذَلِكَ بِعِلْمٍ خَاصٍّ ، أَوْ بِمَا فَهَمُوهُ مِنَ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ .

وَقَوْلُ الْمَلَائِكَةِ هَذَا لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الإِعْتِرَاضِ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى وَجْهِ الْحَسَدِ لِنَبِيِّ آدَمَ ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ ، أَيْ لَا يَسْأَلُونَهُ شَيْئًا لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِيهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ سُؤَالُ اسْتِعْلَامٍ وَاسْتِكْشَافٍ عَنِ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ ، يَقُولُونَ : يَا رَبَّنَا مَا الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ هَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ عِبَادَتَكَ ، فَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ، وَنُقَدِّسُ لَكَ أَيُّ : نُصَلِّيْ لَكَ . وَلَا يَصْدُرُ مِنَّا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَلَّا وَقَعَ الْإِفْتِصَارُ عَلَيْنَا ؟ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ : أَعْلَمُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ فِي خَلْقِ هَذَا الصَّنْفِ - عَلَى الْمَقَاسِدِ الَّتِي ذَكَرْتُمُوهَا - مَا لَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ ، فَإِنِّي سَأَجْعَلُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ وَأُرْسِلُ فِيهِمُ الرُّسُلَ ، وَيُوجَدُ مِنْهُمْ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ ، وَالصَّالِحُونَ وَالْعَبَادُ وَالزُّهَادُ وَالْأَوْلِيَاءُ ، وَالْأَبْرَارُ وَالْمُقَرَّبُونَ وَالْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ ، وَالْحَاشِعُونَ ، وَالْمُحِبُّونَ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُتَبِعُونَ رُسُلَهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ . التَّقْدِيسُ هُوَ التَّعْظِيمُ وَالتَّطْهِيرُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، يَعْنِي بِقَوْلِهِمْ سُبُّوحٌ : تَنْزِيهِ لَهُ ، وَبِقَوْلِهِمْ قُدُّوسٌ : طَهَارَةٌ وَتَعْظِيمٌ لَهُ ، وَكَذَلِكَ . قِيلَ : لِلْأَرْضِ : أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُطَهَّرَةُ . فَمَعْنَى قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ إِذَا ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ نُزَّهَكَ وَنُبِّرْتُكَ مِمَّا يُضَيِّفُهُ إِلَيْكَ أَهْلُ الشِّرْكِ بِكَ ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نُسَبِّحُكَ إِلَى مَا هُوَ مِنْ صِفَاتِكَ مِنَ الطَّهَارَةِ مِنَ الْأَدْنَسِ وَمَا أَضَافَ إِلَيْكَ أَهْلُ الْكُفْرِ بِكَ .

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢١﴾ قَالَ يَتَقَادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٢﴾

هَذَا مَقَامٌ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ شَرَفَ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِمَا اخْتَصَّصَهُ مِنْ عِلْمِ أَسْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ دُونَهُمْ ، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ سُجُودِهِمْ لَهُ ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ هَذَا الْفَصْلَ عَلَى ذَاكَ لِلْمُنَاسَبَةِ مَا بَيْنَ هَذَا الْمَقَامِ وَعَدَمِ عِلْمِهِمْ بِحِكْمَةِ خَلْقِ الْخَلِيفَةِ حِينَ سَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُونَ ، وَلِهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ هَذَا الْمَقَامَ عَقِيبَ هَذَا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ شَرَفَ آدَمَ ، بِمَا فَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي الْعِلْمِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ الَّتِي يَتَعَارَفُ بِهَا النَّاسُ : إِنْسَانٌ ، وَدَوَابٌّ ، وَسَمَاءٌ ،

وَأَرْضٌ ، وَسَهْلٌ ، وَبَحْرٌ ، وَحَيْلٌ ، وَجَهَارٌ ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ وَغَيْرِهَا .
وَالصَّحِيحُ : أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا : ذُرَائِهَا وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالُهَا حَتَّى الْفُسُوءَ وَالْفُسَيْيَةَ ،
 يَعْنِي : ذَوَاتِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ الْمَكْبَرِ وَالْمُصْغَرِ . ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ
 هَؤُلَاءِ ﴾ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ مَنْ عَرَضْتُهُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْقَائِلُونَ : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا
 وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ؟ مِنْ غَيْرِنَا أَمْ مِنَّا . فَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ - ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فِي
 قِيلِكُمْ : إِنِّي إِنْ جَعَلْتُ خَلِيفَتِي فِي الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِكُمْ عَصَايَ وَذُرِّيَّتَهُ وَأَفْسَدُوا وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ ،
 وَإِنْ جَعَلْتُكُمْ فِيهَا أَطَعْتُمُونِي وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرِي بِالتَّعْظِيمِ وَالتَّقْدِيسِ ، فَإِذَا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَسْمَاءَ
 هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَرَضْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ تُشَاهِدُونَهُمْ فَأَنْتُمْ بِمَا هُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ مِنَ الْأُمُورِ الْكَائِنَةِ
 الَّتِي لَمْ تَوْجَدْ أُخْرَى أَنْ تَكُونُوا غَيْرَ عَالِمِينَ . ﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
 الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ هَذَا تَقْدِيسٌ وَتَنْزِيهٌِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ،
 وَأَنْ يَعْلَمُوا شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
 الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ أَيُّ : الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، الْحَكِيمُ فِي خَلْقِكَ وَأَمْرِكَ وَفِي تَعْلِيمِكَ مَا تَشَاءُ وَمَنْعِكَ
 مَا تَشَاءُ ، لَكَ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ وَالْعَدْلُ التَّامُّ . ﴿ قَالَ يَتَقَادِمُ أَنْبِيُّهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ
 قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قَالَ : أَنْتَ
 جِبْرَائِيلُ ، أَنْتَ مِيكَائِيلُ ، أَنْتَ إِسْرَافِيلُ ، حَتَّى عَدَّدَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا حَتَّى بَلَغَ الْعُرَابَ .
 فَلَمَّا ظَهَرَ فَضْلُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فِي سَرِّهِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ
 أَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
 تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أَيُّ : أَلَمْ أَتَقَدَّمُ إِلَيْكُمْ أَنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾
 وَهَذِهِ كَرَامَةُ عَظِيمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِآدَمَ اِمْتَنَنَ بِهَا عَلَى ذُرِّيَّتِهِ حَيْثُ أَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ
 بِالسُّجُودِ لِآدَمَ ، وَدَخَلَ إِبْلِيسُ فِي خِطَابِهِمْ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ غَضَضِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَشَبَّهَ بِهِمْ
 وَتَوَسَّمَ بِأَفْعَالِهِمْ ، فَلِهَذَا دَخَلَ فِي الْخِطَابِ هُتَمٌ ، وَدُفْمٌ فِي مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ .
 ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ فَكَانَتْ الطَّاعَةُ لِلَّهِ وَالسَّجْدَةُ لِآدَمَ ، أَكْرَمَ اللَّهُ آدَمَ أَنْ أَسْجَدَ لَهُ
 مَلَائِكَتُهُ ، وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ : كَانَ هَذَا سُجُودَ تَحِيَّةٍ وَسَلَامٍ وَإِكْرَامٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ
 عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا ﴾ وَقَالَ يَتَأَبَّتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴿ [يوسف : ١٠٠] ،
 وَقَدْ كَانَ هَذَا مَشْرُوعًا فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَلَكِنَّهُ نُسِخَ فِي مِلَّتِنَا .

وَقَالَ قِتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ حَسَدَ عَدُوُّ اللَّهِ

إِبْلِيسُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْكَرَامَةِ ، وَقَالَ : أَنَا نَارِيٌّ وَهَذَا طِينِيٌّ وَكَانَ بَدْءُ الذُّنُوبِ الْكَبِيرِ ، اسْتَكْبَرَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَقَدْ كَانَ فِي قَلْبِ إِبْلِيسَ مِنَ الْكِبَرِ ، وَالْكَفْرِ ، وَالْعِنَادِ مَا اقْتَضَى طَرْدَهُ وَإِبْعَادَهُ عَنْ جَنَابِ الرَّحْمَةِ وَحَضْرَةِ الْقُدُسِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْعَاصِينَ ، قِيلَ : وَصَارَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِسَبَبِ امْتِنَاعِهِ .

وَقُلْنَا يَتَادَمُ أَتَاكَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةُ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَمَّا أَكْرَمَ بِهِ آدَمَ : إِنَّهُ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ، وَآتَاهُ أَبَاحَ لَهُ الْجَنَّةَ يَسْكُنُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ وَيَأْكُلُ مِنْهَا مَا شَاءَ ﴿ رَغَدًا ﴾ أَيُّ : هَنِئًا وَاسِعًا طَيِّبًا . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ فَهُوَ اخْتِيَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَامْتِحَانٌ لِآدَمَ . وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ مَا هِيَ ؟ وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ اللَّهَ - ﷻ ثَنَاؤُهُ - نَهَىٰ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ عَنْ أَكْلِ شَجَرَةٍ بَعَيْنِهَا مِنْ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ دُونَ سَائِرِ أَشْجَارِهَا فَأَكَلَا مِنْهَا ، وَلَا عِلْمَ عِنْدَنَا بِأَيِّ شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى التَّعْيِينِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ لِعِبَادِهِ دَلِيلًا عَلَىٰ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ . ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ عَنْهَا عَائِدًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ كَمَا قَرَأَ عَاصِمٌ فَأَزَاهُمَا . أَيُّ : فَتَحَاهُمَا وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى أَقْرَبِ الْمَذْكُورَيْنِ وَهُوَ الشَّجَرَةُ ، فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ . فَأَزَلَّهُمَا ، أَيُّ : مِنْ قَبْلِ الزَّلَلِ ، فَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ أَيُّ : بِسَبَبِهَا ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أَيُّ : مِنَ اللَّبَاسِ وَالْمَنْزِلِ الرَّحْبِ وَالرُّزْقِ الْهَنِيِّ وَالرَّاحَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ أَيُّ : قَرَارٌ وَأَرْزَاقٌ وَآجَالٌ ﴿ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أَيُّ : إِلَىٰ وَقْتٍ مُؤَقَّتٍ وَمَقْدَارٍ مُعَيَّنٍ ثُمَّ تَقُومُ الْقِيَامَةُ . فَإِنْ قِيلَ : فَإِذَا كَانَتْ جَنَّةُ آدَمَ الَّتِي أُخْرِجَ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ كَمَا يَقُولُ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَكَيْفَ تَمَكَّنَ إِبْلِيسُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَقَدْ طُرِدَ مِنْ هُنَالِكَ طَرْدًا قَدْرِيًّا ، وَالْقَدْرِيُّ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُبَاعِغُ ؟ وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ بِأَجْوَبَةٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ مُنِعَ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ مُكْرَمًا ، فَأَمَّا عَلَىٰ وَجْهِ السَّرِقَةِ وَالْإِهَانَةِ فَلَا يَمْتَنِعُ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ كَمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ أَنَّهُ دَخَلَ فِي فَمِ الْحَيَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ : يَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَسَّوسَ لَهُمَا وَهُوَ فِي الْأَرْضِ وَهُمَا فِي السَّمَاءِ .

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٥﴾

قِيلَ : إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مُفَسَّرَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الاعراف : ٢٣] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ أَيُّ : إِنَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ فَهُوَ تَعَالَى يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَتُوبُ عَلَى مَنْ يَتُوبُ ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبِيدِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا أَتَذَرُ بِهِ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ وَإِبْلِيسَ حِينَ أَهْبَطَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَالْمُرَادُ الذُّرِّيَّةُ : أَنَّهُ سَيُنْزِلُ الْكُتُبَ وَيَبْعَثُ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ ﴿ فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ ﴾ أَيُّ : مَنْ أَقْبَلَ عَلَى مَا أُنْزِلَتْ بِهِ الْكُتُبُ وَأَرْسَلَتْ بِهِ الرُّسُلُ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا . ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أَيُّ : مُخَلَّدُونَ فِيهَا لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا مَحِيصَ .

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونَ ﴿٣٨﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونَ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا بِنِي إِسْرَءِيلَ بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ أَفْضَلِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، وَمُهِيجًا لَهُمْ بِذِكْرِ أَبِيهِمْ إِسْرَءِيلَ وَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ بِعُقُوبِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقْدِيرِهِ : يَا بَنِي الْعَبْدِ الصَّالِحِ الْمُطِيعِ لِلَّهِ كُونُوا مِثْلَ أَبِيكُمْ فِي مُتَابَعَةِ الْحَقِّ ، كَمَا تَقُولُ : يَا ابْنَ الْكَرِيمِ ، أَفْعَلَ كَذَا يَا ابْنَ الشُّجَاعِ بَارِزِ الْأَبْطَالِ ، يَا ابْنَ الْعَالِمِ أَطْلُبِ الْعِلْمَ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ . ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ . قَالَ : بِعَهْدِي الَّذِي أَخَذْتُ فِي أَعْنَاقِكُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِذَا جَاءَكُمْ أَنْجَزْ لَكُمْ مَا وَعَدْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَصَدِيقِهِ وَاتِّبَاعِهِ بِوَضْعِ مَا كَانَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَصَارِ وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ فِي أَعْنَاقِكُمْ بَذُنُوبِكُمْ الَّتِي كَانَتْ مِنْ إِحْدَاثِكُمْ . ﴿ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونَ ﴾ أَيُّ : فَاحْشَوْنِي . وَهَذَا انْتِقَالٌ مِنَ التَّرْغِيبِ إِلَى التَّرْهيبِ فَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الْحَقِّ ، وَاتِّبَاعِ الرُّسُولِ ﷺ وَالِاتِّعَاطِ بِالْقُرْآنِ وَزَوَاجِرِهِ ، وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَصَدِيقِ أَخْبَارِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَسِرَاجًا مُنِيرًا مُشْتَمِلًا عَلَى الْحَقِّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ فَيَعْنِي بِهِ : أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ هُمْ مِنْ كُفَارِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ بَشَرٌ كَثِيرٌ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَاشَرَةً ، فَإِنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ أَوَّلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ خُوطِبُوا بِالْقُرْآنِ ، فَكَفَرُوا بِهِ يَسْتَلْزِمُ أَنَّهُمْ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ جِنْسِهِمْ . ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يَقُولُ : لَا تَعْتَاْضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِآيَاتِي وَتَصَدِيقِ رَسُولِي بِالْدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا ، فَإِنَّمَا قَلِيلَةٌ فَإِنَّهُ ، فَأَمَّا تَعْلِيمُ الْعِلْمِ بِأُجْرَةٍ فَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِ أُجْرَةٌ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يَقُومُ بِهِ حَالُهُ وَعِيَالُهُ ، فَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ مِنْهُ شَيْءٌ وَقَطَعَهُ التَّعْلِيمُ عَنِ التَّكْسِبِ فَهُوَ كَمَا لَمْ يَتَعَيَّنْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ يَتَعَيَّنْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِ أُجْرَةٌ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ أَنَّهُ تَعَالَى يَتَوَعَّدُهُمْ فِيمَا يَتَعَمَّدُونَهُ مِنْ كَيْفَانِ الْحَقِّ وَإِظْهَارِ خِلَافِهِ ، وَمُخَالَفَتِهِمُ الرُّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿١٧﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا لِلْيَهُودِ عَمَّا كَانُوا يَتَعَمَّدُونَهُ مِنْ تَلْبِيسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَتَمْوِيهِهِ ، وَكَيْفَانِهِمُ الْحَقَّ ، وَإِظْهَارِهِمُ الْبَاطِلَ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ فَنَهَاَهُمْ عَنِ الشَّيْئَيْنِ مَعًا ، وَأَمَرَهُمْ بِإِظْهَارِ الْحَقِّ وَالتَّصْرِيحِ بِهِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ أَيُّ : لَا تَكْتُمُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِرَسُولِي وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَأَنْتُمْ تَحْدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِيمَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي بَأْيَدِيكُمْ . ﴿وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ حَالٌ أَيْضًا ، وَمَعْنَاهُ : وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْحَقَّ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ عَلَى النَّاسِ مِنْ إِضْلَالِهِمْ عَنِ الْهُدَى الْمَفْضِي بِهِمْ إِلَى النَّارِ إِنْ سَلَكُوا مَا تُبْدُونَهُ لَهُمْ مِنَ الْبَاطِلِ الْمَشُوبِ بِنَوْعٍ مِنَ الْحَقِّ لِيُتَرَوَّجُوهُ عَلَيْهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أَمَرَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ أَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ أَيُّ : يَدْفَعُوهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أَمَرَهُمْ أَنْ يَرْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَقُولُ : كُونُوا مَعَهُمْ وَمِنْهُمْ .

أَتَاْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : كَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَنْتُمْ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَهُوَ جِمَاعُ الْخَيْرِ أَنْ تَنْسُوا أَنْفُسَكُمْ فَلَا تَأْمُرُونَ بِمَا تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِهِ ، وَأَنْتُمْ مَعَ ذَلِكَ تَتْلُونَ الْكِتَابَ وَتَعْلَمُونَ مَا فِيهِ عَلَى مَنْ قَصَرَ فِي أَوَامِرِ اللَّهِ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ مَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ بِأَنْفُسِكُمْ ، فَتَنْتَبِهُوا

مِنْ رَفَدْتِكُمْ وَتَبَصَّرُوا مِنْ عَمَائَتِكُمْ .

وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عَبِيدُهُ فِيمَا يُؤْمَلُونَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : بِالِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، فَأَمَّا الصَّبْرُ فَقِيلَ : إِنَّهُ الصِّيَامُ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالصَّبْرِ : الْكَفَّ عَنِ الْمَعَاصِي ، وَلِهَذَا قَرَنَهُ بِأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ وَأَعْلَاهَا فِعْلُ الصَّلَاةِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَالصَّلَاةُ ﴾ إِنَّ الصَّلَاةَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الْأَمْرِ . ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ أَي : مَشَقَّةٌ ثَقِيلَةٌ ﴿ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي الْمُصَدِّقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَقِيلَ : الْخَاشِعِينَ ، وَقِيلَ : الْمُتَوَاضِعِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَهُ ، أَي : أَنَّ الصَّلَاةَ أَوْ الْوَصَاةَ لثَقِيلَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ ﴾ أَي : يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُحْشُورُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعْرُوضُونَ عَلَيْهِ ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أَي : أُمُورُهُمْ رَاجِعَةٌ إِلَى مَشِيتَتِهِ يَحْكُمُ فِيهَا مَا يَشَاءُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَلِهَذَا لَمَّا أَتَيْنَا بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ سَهَّلَ عَلَيْهِمْ فِعْلَ الطَّاعَاتِ وَتَرَكَ الْمُنْكَرَاتِ ، فَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : الْعَرَبُ قَدْ تُسَمَّى الْيَقِينَ ظَنًّا وَالشُّكَّ ظَنًّا . قَالَ : وَالشَّوَاهِدُ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهَا عَلَى أَنَّ الظَّنَّ فِي مَعْنَى الْيَقِينِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ .

يَسْبِي إِسْرَاءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾

يُذَكِّرُهُمْ تَعَالَى بِسَالِفِ نِعَمِهِ عَلَى آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ ، وَمَا كَانَ فَضْلُهُمْ بِهِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ مِنْهُمْ ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ ، وَعَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ . ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ : بِنَا أَعْطُوا مِنَ الْمُلْكِ وَالرُّسُلِ وَالْكِتَابِ عَلَى عَالَمٍ مَنْ كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، فَإِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ عَالَمًا ، وَيَجِبُ الْحُمْلُ عَلَى هَذَا لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى خِطَابًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ » ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفْعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

لَمَّا ذَكَرَهُمْ تَعَالَى بِنِعَمِهِ أَوَّلًا عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ التَّحْذِيرِ مِنْ طَوْلِ نِقَمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تَحْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا أَي : لَا يُغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ .
 ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً﴾ يَعْنِي : مِنَ الْكَافِرِينَ كَمَا قَالَ : ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٨]
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أَي : لَا يَقْبَلُ مِنْهَا فِدَاءٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران : ٩١] ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ وَيَتَابِعُوهُ عَلَى مَا بَعَثَهُ بِهِ ، وَوَفَّاءُوا لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ قَرَابَةُ قَرِيبٍ ، وَلَا شَفَاعَةُ ذِي جَاهٍ ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ ، وَلَوْ بِمِلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أَي : وَلَا أَحَدٌ يَغْضَبُ هُمْ فَيَنْصُرُهُمْ وَيُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ لَا يُعْطَفُ عَلَيْهِمْ ذُو قَرَابَةٍ ، وَلَا ذُو جَاهٍ ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ ، هَذَا كُلُّهُ مِنْ جَانِبِ التَّلَطُّفِ ، وَلَا هُمْ نَاصِرٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ .

وَإِذْ خَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدْخِلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَخْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : اذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ؛ ﴿خَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَي : خَلَّصْنَاكُمْ مِنْهُمْ ، وَأَنْقَذْنَاكُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ صُحْبَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ كَانُوا يَسُومُونَكُمْ أَي : يُورِدُونَكُمْ وَيُذِيقُونَكُمْ وَيُولُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَهَاهُنَا فَسَّرَ الْعَذَابَ بِذَبْحِ الْأَبْنَاءِ ، وَفِرْعَوْنُ عَلَّمَ كُلَّ مَنْ مَلَكَ مِصْرَ كَافِرًا مِنَ الْعَمَالِقِ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا أَنَّ قَيْصَرَ عَلَّمَ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ الرُّومَ مَعَ الشَّامِ كَافِرًا ، وَكِسْرَى لِمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ ، وَتَبَعَ لِمَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ كَافِرًا ، وَالنَّجَاشِي لِمَنْ مَلَكَ الْحَبْشَةَ ، وَبَطْلَيْمُوسُ لِمَنْ مَلَكَ الْهِنْدَ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَفِي الَّذِي فَعَلْنَا بِكُمْ مِنْ إِنْجَائِنَا أَبَاءَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ عَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ بَلَاءٌ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ، أَي : نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ . وَقِيلَ الْمُرَادُ يَقُولُهُ : ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ﴾ إِنْشَارُهُ إِلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ، مِنْ ذَبْحِ الْأَبْنَاءِ ، وَاسْتِحْيَاءِ النِّسَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَخْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ مَعْنَاهُ : وَبَعْدَ أَنْ أَنْقَذْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَخَرَجْتُمْ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ فِرْعَوْنُ فِي طَلَبِكُمْ فَفَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ ، ﴿فَأَخْجَيْنَاكُمْ﴾ أَي : خَلَّصْنَاكُمْ مِنْهُمْ ، وَحَجَزْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، وَأَغْرَقْنَا هُمْ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشْفَى لِمُصْذِرِكُمْ ، وَأَبْلَغَ فِي إِهَانَةِ عَدُوِّكُمْ .

وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ

عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤١﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي عَفْوِي عَنْكُمْ ، لَمَّا عَبْدْتُمُ الْعِجْلَ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِمِقَاتِ رَبِّهِ ، عِنْدَ انْقِضَاءِ أَمَدِ الْمُوَاعَدَةِ ، وَكَانَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] قِيلَ : إِنَّمَا ذُو الْقَعْدَةِ بِكَمَالِهِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ خَلَاصِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ ، وَإِنْجَائِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يَعْنِي التَّوْرَةَ ﴿ وَالْفُرْقَانَ ﴾ وَهُوَ مَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَاهْتَدَى وَالضَّلَالَةَ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ - يَفْقَهُمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَرِّائِكُمْ فاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَرِّائِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٣﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : أَمَرَ مُوسَى قَوْمَهُ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ ، قَالَ : وَأَخْبَرَ الَّذِينَ عَبْدُوا الْعِجْلَ فَجَلَسُوا ، وَقَامَ الَّذِينَ لَمْ يَعْكُفُوا عَلَى الْعِجْلِ فَأَخَذُوا الْحَنَاجِرَ بِأَيْدِيهِمْ ، وَأَصَابَتْهُمْ ظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَجَعَلَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَانْجَلَتِ الظُّلْمَةُ عَنْهُمْ ، وَقَدْ جَلَوْا عَنْ سَبْعِينَ أَلْفَ قَتِيلٍ ، كُلُّ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ كَانَ لَهُ تَوْبَةٌ ، وَكُلُّ مَنْ بَقِيَ كَانَتْ لَهُ تَوْبَةٌ .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

﴿١٤٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي بَعْثِي لَكُمْ بَعْدَ الصَّعِقِ ، إِذْ سَأَلْتُمْ رُؤُسِي جَهْرَةً عَيْنَانَا ، بِمَا لَا يُسْتَطَاعُ لَكُمْ ، وَلَا لِأَمْثَالِكُمْ . وَالصَّاعِقَةُ : صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَقِيلَ : نَارٌ . وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ رُوَيْمٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ قَالَ : صُعِقَ بَعْضُهُمْ وَبَعْضُهُمْ يَنْظُرُونَ ، ثُمَّ بُعِثَ هَؤُلَاءِ وَصُعِقَ هَؤُلَاءِ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ فَمَاتُوا ، فَقَامَ مُوسَى يَنْبِئِي وَيَدْعُو اللَّهَ وَيَقُولُ : رَبِّ مَاذَا أَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا أَتَيْتُهُمْ وَقَدْ أَهْلَكْتَ خِيَارَهُمْ ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِنِّي أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ [الأعراف : ١٥٥] فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى أَنَّ هَؤُلَاءِ السَّبْعِينَ مِمَّنْ اخْتَدُوا الْعِجْلَ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَحْيَاهُمْ فَقَامُوا وَعَاشُوا ، رَجُلٌ رَجُلٌ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ كَيْفَ يَحْيُونَ .

وَوَضَعْنَا عَلَىٰكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ

وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٦٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا دَفَعَهُ عَنْهُمْ مِنَ النَّعْمِ شَرَعَ يُذَكِّرُهُمْ أَيْضًا بِمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ فَقَالَ : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ ، وَهُوَ جَمْعُ غَمَامَةٍ سُمِّيَ بِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ يَغْمُ السَّمَاءَ . أَيْ : يُوَارِيهَا وَيَسْتُرُهَا ، وَهُوَ السَّحَابُ الْأَبْيَضُ ، ظَلَّلُوا بِهِ فِي التِّيهِ لِيَقْبَهُمْ حَرَّ الشَّمْسِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ ﴾ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْمَنَّاءِ مَا هُوَ ؟ وَالظَّاهِرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ كُلُّ مَا أَمَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، بِمَا لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ عَمَلٌ ، وَلَا كَذًا ، وَأَمَّا « السَّلْوَى » فَطَائِرٌ يُشَبَّهُ بِالسَّيَّانِيِّ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْهُ . ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أَمْرٌ بِإِبَاحَةِ وَإِزْشَادٍ وَامْتِنَانٍ . ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ : أَمَرْنَاهُمْ بِالْأَكْلِ بِمَا رَزَقْنَاهُمْ ، وَأَنْ يَعْبُدُوا ، فَخَالَفُوا ، وَكَفَرُوا ، فَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ الْقَاطِعَاتِ ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ .

وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لَا إِلَهَ إِلَّا هُمْ عَلَى نُكُولِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَدُخُولِهِمُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ لَمَّا قَدِمُوا مِنْ بَرِّ مِصْرَ صُحْبَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَمَرُوا بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي هِيَ مِيرَاثُ هُمْ عَنْ آبَائِهِمْ إِسْرَائِيلَ ، وَقِتَالِ مَنْ فِيهَا مِنَ الْعَمَالِيقِ الْكَافِرَةِ فَتَكَلَّمُوا عَنْ قِتَالِهِمْ ، وَضَعُفُوا وَاسْتَحْسَرُوا ، فَرَمَاهُمُ اللَّهُ فِي التِّيهِ عِقُوبَةً هُمْ ، كَمَا ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سُجَّدًا ﴾ أَيْ : شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ ، وَرَدَّ بَلَدَهُمْ عَلَيْهِمْ وَإِنْقَادِهِمْ مِنَ التِّيهِ وَالضَّلَالِ ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ سَغْفِرَةٌ اسْتَغْفَرُوا ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ قَالَ : قُولُوا هَذَا الْأَمْرَ حَقًّا كَمَا قِيلَ لَكُمْ ، وَقِيلَ : قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ هَذَا جَوَابُ الْأَمْرِ أَيْ : إِذَا فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْنَاكُمْ ، غَفَرْنَا لَكُمْ الْخَطِيئَاتِ ، وَضَاعَفْنَا لَكُمْ الْحَسَنَاتِ ، وَحَاصِلُ الْأَمْرِ : أَنَّهُمْ أَمَرُوا أَنْ يَخْضَعُوا لِلَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْفَتْحِ بِالْفِعْلِ وَالْقَوْلِ ، وَأَنْ يَعْتَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُوا مِنْهَا ، وَالشُّكْرُ عَلَى النِّعْمَةِ عِنْدَهَا ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْمَحْبُوبِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى . ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : أَذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى إِسْتَاهُمْ فَبَدَّلُوا وَقَالُوا حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ » . وَحَاصِلُ مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ ، وَمَا

دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ مِنَ الْحَدِيثِ : أَنَّهُمْ بَدَّلُوا أَمْرَ اللَّهِ لَهُمْ مِنَ الْخُضُوعِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَأَمَرُوا أَنْ يَدْخُلُوا سُجَّدًا فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ مِنْ قَبْلِ اسْتَاهِهِمْ ، رَافِعِي رُءُوسِهِمْ ، وَأَمَرُوا أَنْ يَقُولُوا : حِطَّةٌ أَيْ أُحْطُ عَنَّا ذُنُوبَنَا وَخَطَايَانَا ، فَاسْتَهَزَّوْا ، فَقَالُوا : حِطَّةٌ فِي شَعِيرَةٍ ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ وَالْمُعَانَدَةِ ، وَهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَأْسَهُ وَعَذَابَهُ بِفِسْقِهِمْ ، وَهُوَ خُرُوجُهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ . وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

❖ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي إِجَابَتِي لِنَبِيِّكُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ اسْتَسْقَانِي لَكُمْ ، وَتَيْسِيرِي لَكُمْ الْمَاءَ وَإِخْرَاجِهِ لَكُمْ مِنْ حَجَرٍ يُحْمَلُ مَعَكُمْ وَتَفْجِيرِي الْمَاءَ لَكُمْ مِنْهُ مِنْ ثِنْتِي عَشْرَةَ عَيْنًا ، كُلُّ سِنٍ مِنْ أَسْبَاطِكُمْ عَيْنٌ قَدْ عَرَفُوهَا ، فَكُلُوا مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى وَاشْرَبُوا مِنْ هَذَا الْمَاءِ الَّذِي أَنْبَعْتُهُ لَكُمْ بِلَا سَعْيٍ مِنْكُمْ وَلَا كَدٍّ ، وَاعْبُدُوا الَّذِي سَحَّرَ لَكُمْ ذَلِكَ ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ وَلَا تَقَابِلُوا النِّعَمَ بِالْعِصْيَانِ فَتُسَلِّبُوهَا .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثَبِّتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ

يَقُولُ تَعَالَى : وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي إِثْرَالِي عَلَيْكُمْ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى طَعَامًا طَيِّبًا نَافِعًا هَنِيئًا سَهْلًا ، وَادْكُرُوا دَبْرَكُمْ وَضَجْرَكُمْ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ، وَسْأَلَكُمْ مُوسَى اسْتِبْدَالَ ذَلِكَ بِالْأَطْعِمَةِ الدَّيْنِيَّةِ مِنَ الْبُقُولِ وَنَحْوِهَا مِمَّا سَأَلْتُمْ . قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : فَبَطَرُوا ذَلِكَ فَلَمْ يَصْبِرُوا عَلَيْهِ وَذَكَرُوا عَيْشَهُمُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ ، وَكَانُوا قَوْمًا أَهْلَ أَعْدَاسٍ وَبَصِلٍ وَفُومٍ فَقَالُوا : ﴿ يَمُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثَبِّتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا ﴾ ، وَإِنَّمَا قَالُوا عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ وَهُمْ يَأْكُلُونَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى لِأَنَّهُ لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ كُلُّ يَوْمٍ فَهُوَ مَا كُلُّ وَاحِدٍ . فَالْبُقُولُ وَالْقِثَاءُ وَالْعَدَسُ وَالْبَصِلُ كُلُّهَا مَعْرُوفَةٌ ، وَأَمَّا الْفُومُ فَخَبِيلُ الْفُومِ : الْحِنْطَةُ وَهُوَ الْبُرُّ الَّذِي يُعْمَلُ مِنْهُ الْخُبْزُ . ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ فِيهِ تَقْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى مَا سَأَلُوا مِنْ هَذِهِ الْأَطْعِمَةِ الدَّيْنِيَّةِ مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالطَّعَامِ الْهَبْيِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ الْمُرَادُ مِصْرٌ مِنَ الْأَمْصَارِ ؛

لَأَنَّ مُوسَى عليه السلام يَقُولُ لَهُمْ : هَذَا الَّذِي سَأَلْتُمْ بِأَمْرِ عَزِيزٍ ، بَلْ هُوَ كَثِيرٌ فِي أَيِّ بَلَدٍ دَخَلْتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهُ ، فَلَيْسَ يُسَاوِي مَعَ دَنَاءَتِهِ وَكَثْرَتِهِ فِي الْأَمْصَارِ أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ فِيهِ . وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أَيُّ : مَّا طَلَبْتُمْ ، وَلَمَّا كَانَ سُؤْلُهُمْ هَذَا مِنْ بَابِ الْبَطْرِ وَالْأَشْرِ وَلَا ضَرُورَةَ فِيهِ لَمْ يُجَابُوا إِلَيْهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبَغَضَ مِنْ اللَّهِ ذَلِكُ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكُ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أَيُّ : وَضُعْتُ عَلَيْهِمْ وَأَلْزَمُوا بِهَا شَرْعًا وَقَدَرًا ، أَيُّ : لَا يَزَالُونَ مُسْتَذِلِّينَ مَنْ وَجَدَهُمْ اسْتَذَلَّهُمْ وَأَهَانَهُمْ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الصَّغَارَ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَذِلَّاءُ مُسْتَكِينُونَ . ﴿ وَبَاءَ وَبَغَضَ مِنْ اللَّهِ ﴾ اسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ مِنَ اللَّهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكُ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي جَارَيْنَاهُمْ مِنَ الذَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَإِحْلَالِ الْغَضَبِ بِهِمْ مِنَ الذَّلَّةِ بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَإِهَانَتِهِمْ حَمَلَةَ الشَّرْعِ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ فَانْتَقَصُوهُمْ إِلَى أَنْ أَفْضَى بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ قَتَلُوهُمْ ، فَلَا كُفْرَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ . ﴿ ذَلِكُ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ، وَهَذِهِ عَلَّةٌ أُخْرَى فِي مُجَازَاتِهِمْ بِمَا جُورُوا بِهِ ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْصُونَ وَيَعْتَدُونَ ، فَالْعِصْيَانُ فِعْلُ الْمُنَهِي ، وَالْإِعْتِدَاءُ الْمُجَاوِزَةُ فِي حَدِّ الْمَادُونِ فِيهِ وَالْمَأْمُورِ بِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥٢﴾
لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ مَنْ خَالَفَ أَوْامِرَهُ وَارْتَكَبَ زَوَاجِرَهُ وَتَعَدَّى فِي فِعْلٍ مَا لَا إِذْنَ فِيهِ ،
وَأَنْتَهَكَ الْحَارِمَ وَمَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنَ النِّكَالِ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَأَطَاعَ ،
فَإِنَّ لَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ كُلُّ مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ فَلَهُ
السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا يَتْرُكُونَهُ وَيُخَلِّفُونَهُ .
وَالْيَهُودُ مِنَ الْهُوَادَةِ وَهِيَ الْمَوْدَّةُ أَوْ التَّهَوُّدُ وَهِيَ التَّوْبَةُ ، كَقَوْلِ مُوسَى عليه السلام ﴿ إِنَّا هُذَنَّا إِلَيْكَ ﴾
أَيُّ : ثُبْنَا ، فَكَأَنَّهُمْ سُمُّوا بِذَلِكَ فِي الْأَصْلِ لِتَوْبَتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، وَقِيلَ لِنُسَبِّتَهُمْ
إِلَى يَهُودَا أَكْبَرُ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ ، فَلَمَّا بُعِثَ عِيسَى عليه السلام وَجَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ اتِّبَاعُهُ وَالْإِنْقِيَادَ لَهُ ،

فَأَصْحَابُهُ وَأَهْلُ دِينِهِ هُمُ النَّصَارَى ، وَسُئِلُوا بِذَلِكَ لِيَتَّضِرَّهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَقَدْ يُقَالُ لَهُمْ : أَنْصَارُ أَيْضًا كَمَا قَالَ عِيسَى عليه السلام ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ حَنُّ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ ، وَقِيلَ : إِيَّاهُمْ سُمُّوا بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ نَزَلُوا أَرْضًا يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةٌ . وَالنَّصَارَى جَمْعُ نَصْرَانٍ ، كَنَسَاوَى جَمْعُ نَسْوَانٍ ، وَسُكَارَى جَمْعُ سَكَرَانٍ ، وَيُقَالُ لِلْمَرْأَةِ نَصْرَانَةٌ .

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم خَاتَمًا لِلنَّبِيِّينَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَجَبَ عَلَيْهِمْ تَصَدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ ، وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ ، وَالْإِنْكَافُ عَنْهُ زَجَرٌ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، وَسُمِّيَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مُؤْمِنِينَ ؛ لِكثَرَةِ إِيْمَانِهِمْ وَشِدَّةِ إِيْقَانِهِمْ ، وَلَا تَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِيَةِ وَالْغُيُوبِ الْآتِيَةِ ، وَأَمَّا الصَّابِتُونَ فَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِمْ .

وَأَظْهَرَ الْأَقْوَالِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِيَّاهُمْ قَوْمٌ لَيْسُوا عَلَى دِينِ الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى وَلَا الْمَجُوسِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بَاقُونَ عَلَى فِطْرَتِهِمْ وَلَا دِينَ مُقَرَّرٌ لَهُمْ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْتَتِلُونَهُ . وَلِهَذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْبِزُونَ مَنْ أَسْلَمَ بِالصَّابِئِ أَيْ : أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ عَنْ سَائِرِ أَدْيَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الصَّابِتُونَ الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ نَبِيِّ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ بِالْإِيْمَانِ بِهِ وَخَذَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَاتَّبَاعَ رُسُلِهِ ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ رَفَعَ الْجَبَلَ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ لِيُقَرُّوا بِمَا عُوْهُدُوا عَلَيْهِ ، وَيَأْخُذُوهُ بِقُوَّةٍ وَجَزْمٍ وَامْتِثَالٍ ، فَالطُّورُ هُوَ الْجَبَلُ كَمَا فَسَّرَهُ بِهِ فِي الْأَعْرَافِ ، وَقِيلَ : الطُّورُ مَا أَتَتْ مِنَ الْجِبَالِ وَمَا لَمْ يُنْبِتْ فَلَئْسَ بِطُورٍ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ يَعْنِي : التَّوْرَةَ ، قِيلَ : بِقُوَّةٍ : أَيِّ بَطَاعَةٍ ، وَقِيلَ : قُوَّةُ الْجَدِّ . ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ يَقُولُ : إِفْرَعُوا مَا فِي التَّوْرَةِ وَاعْمَلُوا بِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْمِيثَاقِ الْمُؤَكَّدِ الْعَظِيمِ تَوَلَّيْتُمْ عَنْهُ وَانْتَهَيْتُمْ وَنَقَضْتُمُوهُ ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ أَيُّ : بِنُوبَتِهِ عَلَيْكُمْ وَإِرْسَالِهِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ إِلَيْكُمْ ﴿ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ بِنَقْضِكُمْ ذَلِكَ الْمِيثَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٢٢﴾ فَعَلَّانَهَا

نَكَلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ مَا حَلَّ مِنَ الْبَأْسِ بِأَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي عَصَتْ أَمْرَ اللَّهِ، وَخَالَفُوا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ فِيمَا أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ السَّبْتِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ؛ إِذْ كَانَ مَشْرُوعًا لَهُمْ، فَتَحَيَّلُوا عَلَى اضْطِيَادِ الْحِيتَانِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ بِمَا وَضَعُوا لَهَا مِنَ الشُّصُوصِ وَالْحَبَائِلِ وَالْبِرْكِ قَبْلَ يَوْمِ السَّبْتِ، فَلَمَّا جَاءَتْ يَوْمَ السَّبْتِ عَلَى عَادَتِهَا فِي الْكَثْرَةِ نَشَبَتْ بَيْنَكَ الْحَبَائِلِ وَالْحَيْلِ فَلَمْ تَخْضُ مِنْهَا يَوْمَهَا ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَخَذُوهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ السَّبْتِ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ مَسَخَهُمُ اللَّهُ إِلَى صُورَةِ الْقِرْدَةِ وَهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْإِنْسَانِيِّ فِي الشَّكْلِ الظَّاهِرِ وَلَيْسَ بِإِنْسَانٍ حَقِيقَةً، فَكَذَلِكَ أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ وَحِيلَتُهُمْ لَمَّا كَانَتْ مُشَابِهَةً لِلْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَمُخَالَفَةً لَهُ فِي الْبَاطِنِ كَانَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فَجَعَلَ اللَّهُ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ فَرَعَمَ أَنَّ شَبَابَ الْقَوْمِ صَارُوا قِرَدَةً، وَأَنَّ الشَّيْخَةَ صَارُوا خَنَازِيرَ. ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَلًا﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْقَرْيَةِ، أَيْ: فَجَعَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَالْمُرَادُ أَهْلُهَا بِسَبَبِ إِعْتِدَائِهِمْ فِي سَبْتِهِمْ ﴿نَكَلًا﴾ أَيْ: مَا عَاقَبْنَاهُمْ عُقُوبَةً فَجَعَلْنَاهَا عِبْرَةً كَمَا قَالَ اللَّهُ عَنْ فِرْعَوْنَ ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَفَهَا﴾ أَيْ: مِنَ الْقُرَى، يَعْنِي: جَعَلْنَاهَا بِمَا أَحْلَلْنَا بِهَا مِنَ الْعُقُوبَةِ عِبْرَةً لِمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى. وَالْمُرَادُ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَفَهَا مَنْ يَحْضُرُهَا مِنَ الْقُرَى يَبْلُغُهُمْ خَبَرُهَا وَمَا حَلَّ بِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ الْآيَةُ، فَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِمَنْ فِي زَمَانِهِمْ، وَمَوْعِظَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ بِالْخَيْرِ الْمُتَوَاتِرِ عَنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الْمُرَادُ بِالْمَوْعِظَةِ هَاهُنَا الزَّاجِرُ. أَيْ: جَعَلْنَا مَا أَحْلَلْنَا بِهِؤُلَاءِ مِنَ الْبَأْسِ وَالنَّكَالِ فِي مُقَابَلَةِ مَا ازْتَكَبُوهُ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَمَا تَحَيَّلُوا بِهِ مِنَ الْحِيلِ فَلْيَحْذَرِ الْمُتَّقُونَ صَنِيعَهُمْ لِئَلَّا يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْخُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَاذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي خَرْقِ الْعَادَةِ لَكُمْ فِي شَأْنِ الْبَقَرَةِ وَبَيَانِ الْقَاتِلِ مَنْ هُوَ بِسَبَبِهَا، وَإِحْيَاءِ اللَّهِ الْمَقْتُولِ، وَنَصِهِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ مِنْهُ.

عَنْ عبيدة السلماني قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَقِيمًا لَا يُولِدُ لَهُ، وَكَانَ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، وَكَانَ ابْنُ أَخِيهِ وَارِثُهُ، فَقَتَلَهُ ثُمَّ اِحْتَمَلَهُ لَيْلًا فَوَضَعَهُ عَلَى بَابِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَصْبَحَ يَدْعِيهِ عَلَيْهِمْ حَتَّى تَسْلَحُوا وَرَكِبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ. فَقَالَ ذُووُ الرَّاْيِ مِنْهُمْ وَالنَّهْيُ: عَلَامَ يَقْتُلُ

بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ فِيكُمْ ؟ فَأَتَوْا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ قَالَ : فَلَوْ لَمْ يَعْزِضُوا لَأَجْزَأَتْ عَنْهُمْ أَدْنَى بَقْرَةٍ ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْبَقْرَةِ الَّتِي أُمِرُوا بِذَبْحِهَا ، فَوَجَدُوهَا عِنْدَ رَجُلٍ لَيْسَ لَهُ بَقْرَةٌ غَيْرَهَا ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَنْقِصُهَا مِنْ مِلْءِ جِلْدِهَا ذَهَبًا ، فَأَخَذُوهَا فَذَبَحُوهَا فَضَرَبُوهُ بِبَعْضِهَا فَقَامَ ، فَقَالُوا : مَنْ قَتَلَكَ ؟ فَقَالَ : هَذَا - لِابْنِ أَخِيهِ - ثُمَّ مَالَ مَيْتًا ، فَلَمْ يُعْطَ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا ، فَلَمْ يُورَثْ قَاتِلٌ بَعْدُ .

وَتَمَّ سِيَاقَاتُ أُخْرَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيِّ وَغَيْرِهِمْ فِيهَا اخْتِلَافٌ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ مَأْخُودَةٌ مِنْ كُتُبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهِيَ مِمَّا يَجُوزُ نَقْلُهَا ، وَلَكِنْ لَا تُصَدَّقُ وَلَا تُكَذَّبُ ، فَلِهَذَا لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا وَافَقَ الْحَقَّ عِنْدَنَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَالُوا آدُعْ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا آدُعْ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعِ لَوْثُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آدُعْ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَعَنُّتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ لِرَسُولِهِمْ ، وَهَذَا لَمَّا ضَيَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَوْ أَتَاهُمْ ذَبْحُوا أَيَّ بَقْرَةٍ كَانَتْ ؛ لَوَقَعَتْ الْمَوْقِعَ عَنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : ﴿ آدُعْ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ أَيُّ : مَا هَذِهِ الْبَقْرَةُ ، وَأَيُّ شَيْءٍ صِفْتُهَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ ﴾ أَيُّ : لَا كَبِيرَةٌ هَرِمَةٌ وَلَا صَغِيرَةٌ لَمْ يَلْحَقْهَا الْفَحْلُ ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ يَقُولُ : نَصَفٌ بَيْنَ الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ ، وَهِيَ أَقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْبَقَرِ وَأَحْسَنُ مَا تَكُونُ . ﴿ صَفْرَاءُ فَاقْعِ لَوْثُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴾ إِنَّهَا كَانَتْ صَفْرَاءَ ، وَهَذَا أَكَّدَ صُفْرَتَهَا بِأَنَّهُ ﴿ فَاقْعِ لَوْثُهَا ﴾ . قِيلَ : صَافٍ ، وَقِيلَ : شَدِيدَةُ الصُّفْرِ تَكَادُ مِنْ صُفْرَتِهَا تَبْيَضُ . ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا ﴾ أَيُّ : لِكَثْرَتِهَا فَمَيَّزَ لَنَا هَذِهِ الْبَقْرَةَ وَصَفَهَا وَحِلَّهَا لَنَا ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إِذَا بَيَّنَّتْهَا لَنَا ﴿ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إِلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ أَيُّ : إِنَّهَا لَيْسَتْ مُذَلَّلَةٌ بِالْحِرَاثَةِ ، وَلَا مُعَدَّةٌ لِلْسَّقْيِ فِي السَّاقِيَةِ ، بَلْ هِيَ مُكْرَمَةٌ حَسَنَةٌ صَبِيحَةٌ مُسَلَّمَةٌ صَحِيحَةٌ

لَا عَيْبَ بِهَا ﴿مُسْلَمَةٌ﴾ : لَا عَيْبَ فِيهَا . ﴿لَا شَيْءَ﴾ لَا بَيَاضَ وَلَا سَوَادَ ، وَقِيلَ : لَوْنُهَا وَاحِدٌ بَيْضٌ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿قَالُوا أَلَمْ نَجْعَلْ بِالْحَقِّ﴾ الْآنَ بَيَّنَّتْ لَنَا ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾
 كَادُوا أَنْ لَا يَفْعَلُوا وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا ، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ لَا يَذْبَحُوهَا ، يَعْنِي : أَنَّهُمْ مَعَ
 هَذَا الْبَيَانِ وَهَذِهِ الْأَسْئَلَةِ وَالْأَجْوِبَةِ وَالْإِيضَاحِ مَا ذَبْحُوهَا إِلَّا بَعْدَ الْجُهْدِ ، وَفِي هَذَا دَمٌ لَهُمْ
 وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَرَضُهُمْ إِلَّا التَّعَنُّتُ ، فَلِهَذَا مَا كَادُوا يَذْبَحُوهَا .

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۗ وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٦﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا
 كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٧﴾

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ اخْتَلَفْتُمْ . قَالَ بَعْضُهُمْ : أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ . وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ أَنْتُمْ
 قَتَلْتُمُوهُ ﴿وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ مَا نُعَيِّبُونَ ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ هَذَا الْبَعْضُ أَيُّ شَيْءٍ كَانَ
 مِنْ أَعْضَاءِ هَذِهِ الْبَقْرَةِ ، فَالْمُعْجَزَةُ حَاصِلَةٌ بِهِ وَخَرَقَ الْعَادَةَ بِهِ كَائِنْ . ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾
 أَيُّ : فَضْرَبُوهُ فَحْيَى وَنَبَّهَ تَعَالَى عَلَى قُدْرَتِهِ وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ أَمْرِ الْقَتِيلِ ، جَعَلَ
 تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ الصَّنِيعَ حُجَّةً لَهُمْ عَلَى الْمَعَادِ ، وَفَاصِلًا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْخُصُومَةِ وَالْعِنَادِ .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لِمَا
 يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَشَقُّقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ
 وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى تَوْبِيخًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَقْرِيعًا لَهُمْ عَلَى مَا شَاهَدُوهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحْيَائِهِ
 الْمَوْتَى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كُلُّهُ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا تَلِينُ أَبَدًا ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ
 أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فَصَارَتْ قُلُوبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ طُولِ الْأَمَدِ قَاسِيَةً بَعِيدَةً عَنِ الْمَوْعِظَةِ ، بَعْدَ مَا شَاهَدُوهُ
 مِنْ الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ ، فَهِيَ فِي قَسْوَتِهَا كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا عِلَاجَ لَلِئِنَّهَا أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ ،
 فَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ مَا يَتَفَجَّرُ مِنْهَا الْعُيُونُ بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ ، وَمِنْهَا مَا يَشَقُّقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ ، وَإِنْ
 لَمْ يَكُنْ جَارِيًا ، وَمِنْهَا مَا يَهْبِطُ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَفِيهِ إِذْرَاكٌ لِذَلِكَ بِحَسْبِهِ .

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ تَنَحَّرُفُونَهُ
 مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا
 بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٨١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَتَقْتَمِعُونَ ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أَيُّ : يَنْقَادُ لَكُمْ بِالطَّاعَةِ هَؤُلَاءِ الْفَرِيقَةُ الضَّالَّةُ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ شَاهَدَ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مَا شَاهَدُوهُ ، ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ خَرَفُونَهُ ﴾ أَيُّ : يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أَيُّ : فَهَمُّهُ عَلَى الْجَلِيلَةِ وَمَعَ هَذَا يُخَالِفُونَهُ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَتَهُمُ مُخْطِئُونَ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ تَحْرِيفِهِ وَتَأْوِيلِهِ . ﴿ ثُمَّ خَرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : هُمُ الْيَهُودُ كَانُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَخْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَوَعَوْهُ . ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسْطِهِمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ الْآيَةُ : يَعْنِي : الْمُتَافِقِينَ مِنَ الْيَهُودِ كَانُوا إِذَا لَقُوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالُوا ءَامَنَّا . وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا دَخَلُوا الْمَدِينَةَ : نَحْنُ مُسْلِمُونَ لِيَعْلَمُوا خَبَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرِهِ . فَإِذَا رَجَعُوا رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ ، فَلَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ نَبِيَّهَ ﷺ قَطَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يَدْخُلُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ اتَّخَذْتُهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ يَعْنِي : بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِكُمْ مِنْ نِعَمِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَقِيلَ : ﴿ اتَّخَذْتُهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ لِيَحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ هَؤُلَاءِ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ ، ءَامَنُوا ثُمَّ نَافَقُوا فَكَانُوا يُحَدِّثُونَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْعَرَبِ بِمَا عُدُّوا بِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿ اتَّخَذْتُهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ مِنَ الْعَذَابِ لِيَقُولُوا نَحْنُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْكُمْ وَأَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْكُمْ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : يَعْنِي مَا أَسْرَوْا مِنْ كُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَكْذِيبِهِمْ بِهِ ، وَهُمْ يَحْدِثُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ .

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿ ٨٨ ﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿ ٨٩ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ أَيُّ : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَالْأُمِّيُّونَ : جَمْعُ أُمِّيٍّ وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ . ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ أَيُّ : لَا يَدْرُونَ مَا فِيهِ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : نَسَبَتِ الْعَرَبُ مَنْ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَحْطُ مِنَ الرِّجَالِ إِلَى أُمِّهِ فِي جَهْلِهِ بِالْكِتَابِ دُونَ أَبِيهِ . ﴿ إِلَّا أَمَانِيٌّ ﴾ : إِلَّا أَحَادِيثَ ، وَقِيلَ : إِلَّا قَوْلًا يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ كَذِبًا ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ ﴾ : أَنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ مِنَ الْكِتَابِ شَيْئًا ، وَكَانُوا يَتَكَلَّمُونَ بِالظَّنِّ بِغَيْرِ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَيَقُولُونَ : هُوَ مِنَ الْكِتَابِ أَمَانِيٌّ يَتَمَنَّوْنَهَا . ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ : يَكْذِبُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الْآيَةُ . هَؤُلَاءِ صِنْفٌ آخَرٌ مِنَ الْيَهُودِ وَهُمْ الدُّعَاةُ إِلَى الضَّلَالِ بِالزُّورِ وَالْكَذِبِ عَلَى

اللهَ وَأَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَالْوَيْلَ وَالْهَلَكَ وَالْدَّمَارَ . وَهُمْ أَحْبَارُ الْيَهُودِ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقِيلَ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ أَيُّ : قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا
 كَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ وَالْإِفْتِرَاءِ وَقِيلَ لَهُمْ مِمَّا أَكَلُوا بِهِ مِنَ الشُّحِّ .

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ
 عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِنْخَبَارًا عَنِ الْيَهُودِ فِيمَا نَقَلُوهُ وَادَّعَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَتَمُّ لَنْ تَمَسَّهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا
 مَعْدُودَةً ، ثُمَّ يَنْجُونَ مِنْهَا فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ أَيُّ :
 بِذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ عَهْدٌ ، فَهُوَ لَا يُخْلَفُ عَهْدُهُ ، وَلَكِنْ هَذَا مَا جَرَى وَلَا كَانَ ، وَلِهَذَا أَتَى
 بِـ « أَمْ » الَّتِي بِمَعْنَى « بَلْ » تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ .

بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَمَيِّضُ وَلَا كَمَا تَشْتَهُونَ ، بَلْ الْأَمْرُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ
 بِهِ خَاطِئَتُهُ - وَهُوَ مَنْ وَافَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، بَلْ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ سَيِّئَاتٌ - فَهَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ
 ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أَيُّ : ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الْعَمَلِ
 الْمُوَافِقِ لِلشَّرِيعَةِ ، فَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
 وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
 إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٦١﴾

يُذَكِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَأَخَذَهُ مِيثَاقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَآتَمُّ
 تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَعْرَضُوا قَصْدًا وَعَمْدًا ، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ وَيَذْكُرُونَهُ فَأَمَرَهُمْ تَعَالَى أَنْ
 يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِهَذَا أَمَرَ جَمِيعَ خَلْقِهِ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا
 أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وَهَذَا هُوَ
 أَعْلَى الْحَقِّ وَأَعْظَمُهَا ، وَهُوَ حَقُّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ثُمَّ بَعْدَهُ حَقُّ
 الْمَخْلُوقِينَ ، وَآكَدُهُمْ وَأَوَّلَاهُمْ بِذَلِكَ حَقُّ الْوَالِدَيْنِ وَهَذَا يَقْرُنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيْنَ حَقِّهِ وَحَقِّ

الْوَالِدَيْنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ [لقمان : ١٤] ﴿ وَالَّتِي نَمَى ﴾ ، وَهُمْ الصَّغَارُ الَّذِينَ لَا كَاسِبَ لَهُمْ مِنَ الْأَبَاءِ وَالْمَسَاكِينِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ أَي : كَلِّمُوهُمْ طَيِّبًا وَلَبِّنُوا لَهُمْ جَانِبًا ، يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَاسَبَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِأَنْ يَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا بَعْدَ مَا أَمَرَهُمْ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بِالْفِعْلِ ، فَجَمَعَ بَيْنَ طَرَفِي الْإِحْسَانِ الْفِعْلِيِّ وَالْقَوْلِيِّ ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ بِعِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ بِالْمَتَعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ فَقَالَ : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، أَي : تَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ عَلَى عَمْدٍ بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ ، وَمَا كَانُوا يُعَانُونَهُ مِنَ الْقِتَالِ مَعَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ - وَهُمْ الْأَنْصَارُ - كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ عِبَادَ أَصْنَامٍ ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ ، وَكَانَتْ يَهُودُ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَ قَبَائِلَ : بَنُو قَيْنَقَاعَ ، وَبَنُو النَّضِيرِ حُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ حُلَفَاءُ الْأَوْسِ فَكَانَتْ الْحَرْبُ إِذَا نَشِبَتْ بَيْنَهُمْ قَاتِلَ كُلِّ فَرِيقٍ مَعَ حُلَفَائِهِ فَيَقْتُلُ الْيَهُودِيُّ أَعْدَاءَهُ وَقَدْ يَقْتُلُ الْيَهُودِيُّ الْآخَرَ مِنَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ ، وَذَلِكَ حَرَامٌ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ وَنَصَّ كِتَابِهِمْ ، وَيُخْرِجُوهُمْ مِنْ بُيُوتِهِمْ ، وَيَنْتَهَبُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَثَاثِ وَالْأُمُتَةِ وَالْأَمْوَالِ ، ثُمَّ إِذَا وَصَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا اسْتَمَكُّوا الْأَسَارَى مِنَ الْفَرِيقِ الْمَغْلُوبِ عَمَلًا بِحُكْمِ التَّوْرَةِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ أَي : لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَلَا يُخْرِجُهُ مِنْ مَنَزِلِهِ . ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أَي : ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ بِمَعْرِفَةِ هَذَا الْمِيثَاقِ وَصِحَّتِهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ بِهِ . ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ

وَخَرَجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِرْهِمٍ ﴿١٠﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : أَنَبَأَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ ، وَقَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ سَفَكَ دِمَائِهِمْ ، وَافْتَرَضَ عَلَيْهِمْ فِيهَا فِدَاءَ أَسْرَاهُمْ ، يَقُولُ اللَّهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - حَيْثُ أَنَبَأَهُمْ بِذَلِكَ ﴿١١﴾ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴿١٢﴾ أَي : تُفَادُونَهُمْ بِحُكْمِ التَّوْرَةِ وَتَقْتُلُونَهُمْ ، وَفِي حُكْمِ التَّوْرَةِ أَنْ لَا يُقْتَلَ وَلَا يُخْرَجَ مِنْ دَارِهِ ، وَلَا يُظَاهَرَ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ وَيَعْبُدُ الْأَوْثَانَ مِنْ دُونِهِ إِيْتِغَاءَ عَرَضِ الدُّنْيَا ؟ فَفِي ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ مَعَ الْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ فِيمَا بَلَغْنِي نَزَلَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ . ﴿١٣﴾ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿١٤﴾ أَي : بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ شَرَعَ اللَّهُ وَأَمَرَهُ ﴿١٥﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴿١٦﴾ جَزَاءً عَلَى مُخَالَفَتِهِمْ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَاخْتَارُوهَا ﴿١٨﴾ فَلَا تُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ﴿١٩﴾ أَي : لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٢٠﴾ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٢١﴾ أَي : وَلَيْسَ لَهُمْ نَاصِرٌ يُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، مِنَ الْعَذَابِ الدَّائِمِ السَّرمَدِيِّ وَلَا يُجِيرُهُمْ مِنْهُ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٢٢﴾

يَنْعَتْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْعُنْتِ وَالْعِنَادِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَتَى مُوسَى الْكِتَابَ وَهُوَ التَّوْرَةُ ، فَحَرَّفُوهَا وَبَدَّلُوهَا وَخَالَفُوا أَوَامِرَهَا وَأَوَّلُوهَا ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِشَرِيعَتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٢٣﴾ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴿٢٤﴾ أَي : أَتَبَعْنَا ، وَأَرَدَفْنَا . حَتَّى خُتِمَ أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَجَاءَ بِمُخَالَفَةِ التَّوْرَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ ، وَلِهَذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهِيَ الْمُعْجَزَاتُ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى ، وَخَلْقِهِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَإِبْرَاءِ الْأَسْقَامِ ، وَإِخْبَارِهِ بِالْغُيُوبِ ، وَتَأْيِيدِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا يَدُهُمْ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، فَاسْتَدَّ تَكْذِيبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَهُ ، وَحَسَدُهُمْ وَعِنَادُهُمْ . فَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تُعَامِلُ الْأَنْبِيَاءَ أَسْوَأَ الْمُعَامَلَةِ ، فَفَرِيقًا يُكَذِّبُونَهُ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَهُ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَأْتُونَهُمْ بِالْأُمُورِ الْمُخَالَفَةِ لِأَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ ، وَبِالْإِلْزَامِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ الَّتِي قَدْ تَصَرَّفُوا فِي مُخَالَفَتِهَا فَلِهَذَا كَانَ ذَلِكَ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُمْ وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٢٥﴾ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٢٦﴾ . وَرُوحُ الْقُدُسِ هُوَ جِبْرِيلُ قَالَ الزَّخَّسَرِيُّ : ﴿٢٧﴾ رُوحُ الْقُدُسِ بِالرُّوحِ الْمُقَدَّسَةِ كَمَا تَقُولُ : حَاتِمُ الْجُودِ ، وَرَجُلٌ صِدْقٌ .

وَقَالَ الزَّحَرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ وَفَرِيقًا قَتَلْتُمْ ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ وَصَفَهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهُمْ حَاوَلُوا قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ بِالسُّمِّ وَالسَّحْرِ .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ ﴾ أَيُّ : فِي أَكْثَرِ ، وَقِيلَ : أَيُّ : لَا تَفْقَهُ . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : غُلْفٌ بِضَمِّ اللَّامِ وَهُوَ جَمْعُ غَلَاظٍ أَيُّ : قُلُوبُنَا أَوْعِيَةٌ لِكُلِّ عِلْمٍ فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى عِلْمِكَ ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أَيُّ : طَرَدَهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ مَعْنَاهُ لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يَعْنِي الْيَهُودُ ﴿ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ يَعْنِي مِنَ التَّوْرَةِ . ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيُّ : وَقَدْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ مَجِيءِ هَذَا الرَّسُولِ بِهَذَا الْكِتَابِ يَسْتَنْصِرُونَ بِمَجِيئِهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِذَا قَاتَلُوهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّهُ سَيُعَذِّبُ نَبِيَّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ . يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٢٠﴾

قَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ يَقُولُ : بِئْسَمَا اعْتَاضُوا لِأَنْفُسِهِمْ فَرَضَوْا بِهِ ، وَعَدُّوا إِلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ تَصْدِيقِهِ وَمُؤَاوَزَتِهِ وَنَصْرَتِهِ ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْبُغْيُ وَالْحَسَدُ وَالْكَرَاهِيَةُ ﴿ أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وَلَا حَسَدَ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا ، وَمَعْنَى ﴿ فَبَاءُوا ﴾ أَيُّ : اسْتَوْجَبُوا ، وَاسْتَحَقُّوا ، وَاسْتَقَرُّوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ، وَلَمَّا كَانَ كُفْرُهُمْ سَبَبُ الْبُغْيِ وَالْحَسَدِ ، وَمَنْشَأُ ذَلِكَ التَّكَبُّرُ ، قُولُوا بِالْإِهَانَةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا نَحْنُ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ۚ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أَيُّ : لِلْيَهُودِ وَأُمَّتَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾

عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَصَدَّقُوهُ وَاتَّبِعُوهُ ﴿ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ أَي : يَكْفِينَا الْإِيمَانُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَلَا نَقْرُ إِلَّا بِذَلِكَ ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِهَا وَرَاءَهُ ﴾ يَعْنِي : بِمَا يَعْدُوهُ ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ أَي : وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ ، فَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ الْإِيمَانُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّ قَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ جَاءُوكُمْ بِتَصْدِيقِ التَّوْرَةِ الَّتِي بِأَيْدِيكُمْ ، وَالْحُكْمُ بِهَا وَعَدَمُ نَسْخِهَا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقَهُمْ ؟ قَتَلْتُمُوهُمْ بَغْيًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا عَلَى رُسُلِ اللَّهِ ، فَلَسْتُمْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا مَجْرَدَ الْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ وَالتَّشَهُّي .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَي : بِالْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ وَالِدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتُ هِيَ : الطُّوفَانُ ، وَالْجُرَادُ ، وَالْقَمَلُ وَالضَّفَادِعُ ، وَالْدَّمُ ، وَالْعَصَا ، وَالْيَدُ ، وَفَرَقَ الْبَحْرَ ، وَتَطْلِيلُهُمْ بِالْغَمَامِ ، وَالْمَنْ وَالسَّلْوَى ، وَالْحَجَرُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي شَاهَدُوهَا ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ أَي : مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي زَمَانِ مُوسَى وَأَيَّامِهِ ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أَي : مِنْ بَعْدِ مَا ذَهَبَ عَنْكُمْ إِلَى الطُّورِ لِمُنَاجَاةِ اللَّهِ ﷻ ، ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أَي : وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ فِي هَذَا الصَّنِيعِ الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾

يُعَدُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ خَطَأُهُمْ ، وَخَالَفَتْهُمْ لِلْمِيثَاقِ ، وَعَتَوْهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ ، حَتَّى رَفَعَ الطُّورَ عَلَيْهِمْ حَتَّى قَبِلُوهُ ثُمَّ خَالَفُوهُ ، وَهَذَا قَالُوا : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أَشْرَبُوا حُبَّهُ حَتَّى خَلَصَ ذَلِكَ إِلَى قُلُوبِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : بِئْسَمَا تَعْتَمِدُونَهُ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ، مِنْ كُفْرِكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَخَالَفَتِكُمُ الْأَنْبِيَاءَ ، ثُمَّ إِعْتَادِكُمْ فِي كُفْرِكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَهَذَا أَكْبَرُ ذُنُوبِكُمْ وَأَشَدُّ الْأُمُورِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ كَفَرْتُمْ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ وَسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، الْمَبْعُوثِ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، فَكَيْفَ تَدْعُونَ لِنَفْسِكُمُ الْإِيمَانَ ، وَقَدْ فَعَلْتُمْ هَذِهِ الْأَفَاعِيلَ الْقَبِيحَةَ ، مِنْ نَقْضِكُمُ الْمَوَاقِيقَ وَكُفْرِكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَعِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْأَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾
وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ
أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ أَنْ يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

﴿فَتَمَنُّوا أَلَمَوْتَ﴾ : فَسَلُّوا الْمَوْتَ ، فَهُمْ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ تَعَالَى - لَمَّا زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ
وَأَحِبَّاءُؤُهُ ، وَقَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، دُعُوا إِلَى الْمُبَاهَلَةِ وَالِدُعَاءِ عَلَى
أَكْذَابِ الطَّاغُوتَيْنِ مِنْهُمْ أَوْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا نَكَلُوا عَنْ ذَلِكَ عَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ ، لَا تَنْهَمُ
لَوْ كَانُوا جَارِمِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ ، لَكَانُوا أَقْدَمُوا عَلَى ذَلِكَ ، فَلَمَّا تَأَخَّرُوا عَلِمَ كَذِبُهُمْ وَهَذِهِ الْآيَةُ بِمَا
إِخْتَجَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانِي مِنْهَا جَرِيه ، وَفَضَّحَ بِهَا أَحْبَارَهُمْ
وَعُلَمَاءَهُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ نَبِيَّهِ ﷺ أَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى قَضِيَّةٍ عَادِلَةٍ فِيمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنْ
الْخِلَافِ ، قِيلَ لَهُمْ كَلَامُ نَصَفٍ : إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ، وَأَنْتُمْ أَبْنَاءُ
اللَّهِ وَأَحِبَّاءُؤُهُ ، وَأَنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ عَدَاكُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَبَاهِلُوا عَلَى ذَلِكَ وَادْعُوا عَلَى
الْكَاذِبِينَ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمُبَاهَلَةَ تَسْتَأْصِلُ الْكَاذِبَ لَا مُحَالََةً ، فَلَمَّا تَبَيَّنُوا ذَلِكَ
وَعَرَفُوا صِدْقَهُ نَكَلُوا عَنِ الْمُبَاهَلَةِ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكِتْمَانِهِمُ الْحَقَّ مِنْ صِفَةِ
الرَّسُولِ ﷺ وَنَعْتِهِ ، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَتَحَقَّقُونَهُ فَعَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ بَاطِلَهُمْ
وَخَزَائِمَهُمْ وَضَلَالَتَهُمْ وَعِنَادَتَهُمْ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْمُبَاهَلَةُ
تَمَكُّيًا ؛ لِأَنَّ كُلَّ مُحَقِّقٍ يَوَدُّ لَوْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْمُبْطِلَ الْمُنَاطِرَ لَهُ ، وَلَا سِيَّامًا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ لَهُ فِي بَيَانِ
حَقِّهِ وَظُهُورِهِ ، وَكَانَتْ الْمُبَاهَلَةُ بِالْمَوْتِ ؛ لِأَنَّ الْحَيَاةَ عِنْدَهُمْ عَزِيزَةٌ عَظِيمَةٌ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ سُوءِ
مَا لَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۚ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ ﴾ أَيُّ : عَلَى طُولِ الْعُمُرِ لِمَا يَعْلَمُونَ مَا لَهُمْ
السَّيِّئُ وَعَاقِبَتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ الْخَاسِرَةُ ؛ لِأَنَّ « الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » فَهُمْ يَوَدُّونَ لَوْ
تَأَخَّرُوا عَنْ مَقَامِ الْآخِرَةِ بِكُلِّ مَا أُمَكَّنَهُمْ ، وَمَا يُحَازِرُونَ مِنْهُ وَاقِعَ بِهِمْ لَا مُحَالََةً ، حَتَّى وَهُمْ
أَحْرَصُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ قَالَ : الْأَعَاجِمُ . ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾ أَيُّ : يَوَدُّ أَحَدُ الْيَهُودِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ نَظْمُ السِّيَاقِ .

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ ابْنِ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: أَجَمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالتَّأْوِيلِ جَمِيعًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ جَوَابًا لِلْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِذْ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوٌّ لَهُمْ ، وَأَنَّ مِيكَائِيلَ وَلِيُّهُمْ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ قَالُوا ذَلِكَ .

وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْآيَةِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : مَنْ عَادَى جِبْرَائِيلَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، الَّذِي نَزَلَ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ عَلَى قَلْبِكَ مِنْ اللَّهِ بِإِذْنِهِ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَمَنْ عَادَى جِبْرَائِيلَ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ؛ لِأَنَّ جِبْرَائِيلَ لَا يَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يَنْزِلُ بِأَمْرِ رَبِّهِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الْآيَةُ ، وَهَذَا غَضِبَ اللَّهُ لِجِبْرَائِيلَ عَلَى مَنْ عَادَاهُ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّتْ يَدِيهِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : هُدًى لِقُلُوبِهِمْ وَبُشْرَى لَهُمْ بِالْجَنَّةِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ﴾ [فصلت : ٤٤]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : مَنْ عَادَانِي وَمَلَائِكَتِي وَرُسُلِي - وَرُسُلُهُ تَشْمَلُ رُسُلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، فَإِنَّهَا دَخَلَا فِي الْمَلَائِكَةِ فِي عُمُومِ الرُّسُلِ ، ثُمَّ خُصَّصَا بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي الْإِنْصَارِ لِجِبْرَائِيلَ ، وَهُوَ السَّفِيرُ بَيْنَ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، وَقَرَنَ مَعَهُ مِيكَائِيلَ فِي اللَّفْظِ ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوُّهُمْ وَمِيكَائِيلَ وَلِيُّهُمْ ، فَأَعْلَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ عَادَى وَاحِدًا مِنْهُمَا فَقَدْ عَادَى الْآخَرَ ، وَعَادَى اللَّهُ أَيْضًا .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٣٠﴾ أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣١﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانْتَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوُتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا خُنَّ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴿١٣٣﴾ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٤﴾ وَلَوْ

أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقُوا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ يَتَّبِعُ﴾ أَيُّ: أَنزَلْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ عَلَامَاتٍ وَأَصْحَاتٍ دَلَالٍ عَلَى بُرُوتِكَ، وَتِلْكَ الْآيَاتُ هِيَ مَا حَوَاهُ كِتَابُ اللَّهِ مِنْ خَفَايَا عُلُومِ الْيَهُودِ، وَمَكْنُونَاتِ سَرَائِرِ أَخْبَارِهِمْ، وَأَخْبَارِ أَوَائِلِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالنَّبَأُ عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبُهُمُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهَا إِلَّا أَخْبَارُهُمْ وَعِلْمَاؤُهُمْ، وَمَا حَرَفَهُ أَوَائِلُهُمْ وَأَوَاخِرُهُمْ وَبَدَّلُوهُ، مِنْ أَحْكَامِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي التَّوْرَةِ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَمْرِه الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ لِمَنْ أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَدْعُهَا إِلَى هَلَاكِهِ الْحَسَدُ وَالْبَغْيُ، إِذْ كَانَ فِي فِطْرَةِ كُلِّ ذِي فِطْرَةٍ صَحِيحَةٍ تَصْدِيقَ مَنْ أَتَى بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، الَّتِي وَصَفَ مِنْ غَيْرِ تَعْلَمُ تَعْلَمُهُ مِنْ بَشَرٍ، وَلَا أَخَذَ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ آدَمِيٍّ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ: نَعَمْ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ عَهْدٌ يُعَاهَدُونَ عَلَيْهِ إِلَّا نَقْضُوهُ وَبَدُّوهُ، يُعَاهَدُونَ الْيَوْمَ وَيَنْقُضُونَ غَدًا. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الْآيَةُ. أَيُّ: طَرَحَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ - مِمَّا فِيهِ الْبَشَارَةُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ - وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، أَيُّ: تَرَكُوهَا كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَا فِيهَا، وَأَقْبَلُوا عَلَى تَعْلَمِ السَّحْرِ وَاتِّبَاعِهِ، وَلِهَذَا أَرَادُوا كَيْدًا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَسَحَرُوهُ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجَفَّ طَلْعَةٌ ذَكَرَ تَحْتَ رَعُوفَةٍ بَيْنَ ذَرَوَانِ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى ذَلِكَ مِنْهُمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: لَيْبِدُ بْنُ الْأَعْصَمِ - لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَبَّحَهُ - فَأَطْلَعَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ رَسُولَهُ ﷺ وَشَفَاهُ مِنْهُ وَأَنْقَذَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ الْقَوْمَ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَلَكِنَّهُمْ نَبَذُوا عِلْمَهُمْ وَكَتَمُوهُ وَجَحَدُوا بِهِ. ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ أَيُّ: وَاتَّبَعَتِ الْيَهُودُ - الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - مَا تَتْلُوهُ الشَّيَاطِينُ أَيُّ: مَا تَرَوِيهِ وَتُخْبِرُ بِهِ، وَتُحَدِّثُهُ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَعَدَّاهُ بِ«عَلَى» لَأَنَّهُ تَضَمَّنَ تَتْلُو: تَكْذِبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنزَلْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ. ﴿

ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ: إِلَى أَنَّهُمَا كَانَا مَلَكَيْنِ مِنَ السَّمَاءِ وَأَنْهَمَا أُنْزِلَا إِلَى الْأَرْضِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا كَانَ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا وَرَدَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى عِصْمَةِ الْمَلَائِكَةِ، أَنَّ هَذَيْنِ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ لُهُمَا هَذَا، فَيَكُونُ تَخْصِيصًا لَّهُمَا، فَلَا تَعَارُضَ حِينَئِذٍ.

وَقَدْ رُوِيَ فِي قِصَّةِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ، وَقَصَّهَا خَلْقٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ مَنْ

الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ ، وَحَاصِلُهَا رَاجِعٌ فِي تَفْصِيلِهَا إِلَى أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِذْ لَيْسَ فِيهَا حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ صَحِيحٌ مُتَّصِلٌ الْإِسْنَادِ إِلَى الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ الْمَعْصُومِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، وَظَاهِرُ سِيَاقِ الْقُرْآنِ إِجْمَالُ الْقِصَّةِ مِنْ غَيْرِ بَسْطٍ وَلَا إِطْنَابٍ فِيهَا ، فَتَحْنُ نُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ، عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : نَعَمْ أُنْزِلَ الْمَلَكَانِ بِالسَّحْرِ لِيُعَلِّمَا النَّاسَ الْبَلَاءَ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْتَلِي بِهِ النَّاسَ ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمَا الْمِيثَاقَ أَنْ لَا يُعَلِّمَا أَحَدًا حَتَّى يَقُولَا : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى تَكْفِيرِ مَنْ تَعَلَّمَ السَّحَرَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ أَيُّ : فَيَتَعَلَّمُ النَّاسُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ مِنْ عِلْمِ السَّحْرِ ، مَا يَتَصَرَّفُونَ بِهِ فِيَمَا يَتَصَرَّفُونَ مِنَ الْأَفَاعِيلِ الْمَذْمُومَةِ مَا إِنَّهُمْ لَيَفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخُلْطَةِ وَالْإِتِّلَافِ .

وَهَذَا مِنْ صَنِيعِ الشَّيَاطِينِ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فِي النَّاسِ ، فَأَقْرَبُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةٌ أَكْثَرُهُمْ عِنْدَهُ فِتْنَةٌ ، يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ : مَا زِلْتُ بِفُلَانٍ حَتَّى تَرَكَتُهُ ، وَهُوَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ إِبْلِيسُ : لَا وَاللَّهِ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا ، وَيَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ : مَا تَرَكَتُهُ حَتَّى فَرَّقْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ قَالَ : فَيَقْرَبُهُ وَيُذْنِبُهُ وَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ : نَعَمْ أَنْتَ » . وَسَبَبُ التَّفَرُّقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ بِالسَّحْرِ مَا يُحِيلُ إِلَى الرَّجُلِ أَوْ الْمَرْأَةِ مِنَ الْآخِرِ مِنْ سُوءٍ مَنَظَرٍ أَوْ خَلْقٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، أَوْ عَقْدٍ أَوْ بَغْضَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْفُرْقَةِ ، وَالْمَرْءُ عِبَارَةٌ عَنِ الرَّجُلِ ، وَتَأْنِيثُهُ امْرَأَةً وَيُشْنَى كُلُّ مِنْهُمَا وَلَا يُجْمَعَانِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : إِلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ أَيُّ : يَضُرُّهُمْ فِي دِينِهِمْ ، وَلَيْسَ لَهُ نَفْعٌ يُوَازِي ضَرَرَهُ ، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴾ أَيُّ : وَلَقَدْ عَلِمَ الْيَهُودُ - الَّذِينَ اسْتَبَدَّلُوا بِالسَّحْرِ عَنْ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ - لِمَنْ فَعَلَهُمْ ذَلِكَ ، أَنَّهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ . يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَيْسَ ﴾ الْبَدِيلُ مَا اسْتَبَدَّلُوا بِهِ مِنَ السَّحْرِ عَوْضًا عَنِ الْإِيمَانِ وَمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ، لَوْ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ بِمَا أُعْطُوا بِهِ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أَيُّ : وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَاتَّقَوْا الْمَحَارِمَ ، لَكَانَ مَثُوبَةُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّا اسْتَخَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَرَضُوا بِهِ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ

أَلَيْمٌ ﴿١٥﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الَّذِينَ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ تَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٦﴾

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالْكَافِرِينَ فِي مَقَالِهِمْ وَفَعَالِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُعَاتُونَ مِنَ الْكَلَامِ مَا فِيهِ تَوْرِيَّةٌ لِمَا يَقْصِدُونَهُ مِنَ التَّنْقِصِ - عَلَيْهِمْ لَعَاتِنُ اللَّهِ - فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَقُولُوا : اسْمَعْ لَنَا ، يَقُولُوا : رَاعِنَا ، وَيُورُونَ بِالرُّعُونَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَحْرَفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَنَا بِلِسَانِهِمْ وَطَعْنًا فِي أَلْسِنَتِهِمْ ﴾ [النساء : ٤٦] ، وَكَذَلِكَ جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ بِالْإِخْبَارِ عَنْهُمْ ، بِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَلِمُوا إِنَّمَا يَقُولُونَ : السَّامُ عَلَيْكُمْ ، وَالسَّامُ هُوَ الْمَوْتُ ، وَهَذَا أَمْرُنَا أَنْ نَرُدَّ عَلَيْهِمْ بِـ « وَعَلَيْكُمْ » .
وَالْغَرَضُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكَافِرِينَ قَوْلًا وَفِعْلًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الَّذِينَ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يُبَيِّنُ بِذَلِكَ تَعَالَى شِدَّةَ عَدَاوَةِ الْكَافِرِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مُشَابَهَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، لِيَقْطَعَ الْمَوَدَّةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ ، وَتَبَّ تَعَالَى عَلَى مَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الشَّرْعِ التَّامِّ الْكَامِلِ ، الَّذِي شَرَعَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ تَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ

وَلَا نَصِيرٌ ﴿١٨﴾

﴿ مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ ﴾ يَعْنِي : رَفَعَهَا ، مِثْلُ قَوْلِهِ « الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنِيَا فَارْجُوهُمَا الْبَتَّةَ » .
وَأَصْلُ النَّسْخِ : مِنْ نَسَخَ الْكِتَابَ ؛ وَهُوَ نَقْلُهُ مِنْ نُسْخَةٍ أُخْرَى إِلَى غَيْرِهَا ، فَكَذَلِكَ مَعْنَى نَسْخِ الْحُكْمِ إِلَى غَيْرِهِ ؛ إِنَّمَا هُوَ تَحْوِيلُهُ ، وَنَقْلُ عِبَارَةٍ إِلَى غَيْرِهَا ، وَسَوَاءٌ نُسِخَ حُكْمُهَا أَوْ خَطَئُهَا إِذْ هِيَ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهَا مَنْسُوخَةٌ . ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فَقُرِئَ عَلَى وَجْهَيْنِ : نَسَاَهَا وَنُسِيسَهَا ، فَأَمَّا مَنْ قَرَأَهَا : يَفْتَحُ النُّونَ وَالْهَمْزَةَ بَعْدَ السِّينِ فَمَعْنَاهُ : نُؤَخِّرُهَا . وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ : كَانَ اللَّهُ ﷻ يُنْسِي نَبِيَّهُ ﷺ مَا يَشَاءُ وَيَنْسَخُ مَا يَشَاءُ . وَقِيلَ : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ : نَرَفَعُهَا مِنْ عِنْدِكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ أَيُّ : فِي الْحُكْمِ بِالنُّسْبَةِ إِلَى مَصْلَحَةِ الْمُكَلَّفِينَ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿ يُرْشِدُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِهَذَا إِلَى أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا

يَشَاءُ ، فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَهُوَ الْمُنْتَصِرُ ، فَكَمَا خَلَقَهُمْ كَمَا يَشَاءُ ، وَيُسَعِدُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُشْقِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُصِحُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُمِرُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُفَوِّقُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَخْذُلُ مَنْ يَشَاءُ ، كَذَلِكَ يَخْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ ، فَيَحِلُّ مَا يَشَاءُ ، وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ وَيُبَيِّحُ مَا يَشَاءُ ، وَيَحْظُرُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الَّذِي يَخْكُمُ مَا يَرِيدُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، وَيَخْتَرُ عِبَادَهُ وَطَاعَتَهُمْ لِرُسُلِهِ النَّسْخَ ، فَيَأْمُرُ بِالشَّيْءِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الَّتِي يَعْلَمُهَا تَعَالَى ، ثُمَّ يَنْهَى عَنْهُ لِمَا يَعْلَمُهُ تَعَالَى ، فَالطَّاعَةُ كُلُّ الطَّاعَةِ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ ، وَاتِّبَاعُ رُسُلِهِ فِي تَصَدِيقِ مَا أَخْبَرُوا ، وَامْتِثَالِ مَا أَمَرُوا وَتَرْكُ مَا عَنْهُ زَجَرُوا ، وَفِي هَذَا الْمَقَامِ رَدُّ عَظِيمٍ ، وَبَيَانُ بَلِيغٍ لِكُفْرِ الْيَهُودِ وَتَرْيِيفُ شُبُهَتِهِمْ - لَعَنَهُمُ اللَّهُ - فِي دَعْوَى اسْتِحَالَةِ النَّسْخِ ، إِمَّا عَقْلًا كَمَا زَعَمَهُ بَعْضُهُمْ ، جَهْلًا وَكُفْرًا ، وَإِمَّا نَفْلًا كَمَا تَخَرَّصَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ ، إِفْتِرَاءً وَإِفْكَارًا . فَبَيْنَا هَذَا الْمَقَامَ بَيْنَ تَعَالَى جَوَازِ النَّسْخِ ، رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ - عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ - حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ١١٣ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية ، فَكَمَا أَنَّ لَهُ الْمُلْكَ بِلَا مُنَازَعٍ ، فَكَذَلِكَ لَهُ الْحُكْمُ بِمَا يَشَاءُ ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، وَالْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى جَوَازِ النَّسْخِ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَكُلُّهُمْ قَالُ بِوُقُوعِهِ .

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١١٤﴾

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ كَثْرَةِ سُؤَالِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ يَآمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ تَسْأَلُوكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلَ لَكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠١] أَيُّ : وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ تَفْصِيلِهَا بَعْدَ نَزْوِهَا تُبَيِّنُ لَكُمْ ، وَلَا تَسْأَلُوا عَنِ الشَّيْءِ قَبْلَ كَوْنِهِ ؛ فَلَعَلَّهُ أَنْ يُحَرِّمَ مِنْ أَجْلِ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ أَيُّ : بَلْ تُرِيدُونَ ، أَوْ هِيَ عَلَى بَابِهَا فِي الِاسْتِفْهَامِ ، وَهُوَ إِنْكَارِيٌّ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّ اللَّهَ ذَمَّ مَنْ سَأَلَ الرَّسُولَ ﷺ عَنْ شَيْءٍ عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالِاقْتِرَاحِ ، كَمَا سَأَلَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَعَنُّتًا وَتَكْذِيبًا وَعِنَادًا .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ أَيُّ : مَنْ يَشْتَرِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أَيُّ : فَقَدْ خَرَجَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَى الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ .

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ
يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٧﴾

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ سُلُوكِ طَرِيقِ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَيُعَلِّمُهُمْ بِعَدَاوَتِهِمْ لَهُمْ
فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ، وَمَا هُمْ مُشْتَبِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِفَضْلِهِمْ
وَفَضْلِ نَبِيِّهِمْ ، وَيَأْمُرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ ، أَوِ الْاِحْتِمَالِ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ مِنَ
النَّصْرِ وَالْفَتْحِ ، وَيَأْمُرُهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ ، وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ ، وَيَحْتَنُّهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أَي : مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ ، ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ مِنْ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، فَكَفَرُوا بِهِ
حَسَدًا وَبَغْيًا ، إِذْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : نَسَخَ
ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة : ٢٩] إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَهُمْ صَغِيرُونَ ﴾ فَنَسَخَ هَذَا عَفْوُهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَالَ
آخَرُونَ : إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ ، وَيُرْسَدُ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾
يَحْتَنُّهُمْ تَعَالَى عَلَى الْاِشْتِعَالِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ ، وَتَعَوُّدُ عَلَيْهِمْ عَاقِبَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ
وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ ؛ حَتَّى يُمَكِّنَ لَهُمُ اللَّهُ النَّصْرَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغْفُلُ عَنْ عَمَلِ عَامِلٍ ، وَلَا يَضِيعُ
لَدَيْهِ ، سَوَاءً كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا ؛ فَإِنَّهُ سَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ
عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ
وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٠﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى اغْتِرَارَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِمَا هُمْ فِيهِ ؛ حَيْثُ ادَّعَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ
وَالنَّصَارَى : أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى مِلَّتِهَا ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ
أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ﴾ ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، بِمَا أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مُعَذِّبُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ،

وَلَوْ كَانُوا إِدْعَا لَمَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، وَكَمَا تَقَدَّمَ مِنْ دَعْوَاهُمْ : أَنَّهُ لَنْ تَمْسَهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، ثُمَّ يَتَّقِلُونَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ - تَعَالَى - فِي ذَلِكَ ، وَهَكَذَا قَالَ هُمْ فِي هَذِهِ الدَّعْوَى الَّتِي ادَّعَوْهَا بِلاَ دَلِيلٍ ، وَلَا حُجَّةٍ ، وَلَا بَيِّنَةٍ ، فَقَالَ : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ تَمَوَّهَا عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ أَيُّ : يَا مُحَمَّدُ ، ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ حُجَّتْكُمْ ، وَبَيِّنَتْكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَيُّ : فِيمَا تَدَّعُونَهُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيُّ : مَنْ أَخْلَصَ الْعَمَلَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ ﴾ : أَخْلَصَ ﴿ وَجْهَهُ ﴾ دِينَهُ ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيُّ : اتَّبَعَ فِيهِ الرَّسُولَ ﷺ . فَإِنَّ لِلْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ شَرْطَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَالْآخَرُ : أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ ، فَتَمَّتْ كَانِ خَالِصًا ، وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُتَقَبَّلْ ؛ وَهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ضَمِنَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ تَحْصِيلَ الْأَجْرِ ، وَآمَنَهُمْ بِمَا يَحْفَوْنَهُ مِنَ الْمَحْذُورِ : فَ : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ عَلَى مَا مَضَى بِمَا يَتْرُكُونَهُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ . هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهَذَا الْقَوْلُ يَقْتَضِي أَنَّ كُلًّا مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ صَدَقَتْ فِيهَا رَمَتْ بِهِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى ، وَلَكِنَّ ظَاهِرَ سِيَاقِ الْآيَةِ يَقْتَضِي ذَمَّهُمْ فِيمَا قَالُوا مِنْ عِلْمِهِمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ أَيُّ : وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ شَرِيعَةَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ كُلُّ مِنْهُمَا قَدْ كَانَتْ مَشْرُوعَةً فِي وَقْتٍ وَلَكِنَّهُمْ تَجَاحَدُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عِنَادًا وَكُفْرًا وَمُقَابَلَةً لِلْفَاسِدِ بِالْفَاسِدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ بَيَّنَّ بِهَذَا جَهْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِيمَا تَقَابَلُوهُ مِنَ الْقَوْلِ . ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيُّ : أَنَّهُ تَعَالَى يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ ، وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِقَضَائِهِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ ، وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

الَّذِي يَظْهَرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فِي الْمُرَادِ مِنَ الَّذِينَ مَنَعُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ وَسَعَوْا فِي خَرَابِهَا هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ حَالُوا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَبَيَّنَّ أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ حَتَّى نَحَرَ هَدْيُهُ بِذِي طُوًى وَهَادَتْهُمْ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِعِمَارَتِهَا زُخْرَفَتِهَا وَإِقَامَةِ صُورَتِهَا فَقَطْ ، إِنَّمَا عِمَارَتُهَا بِذِكْرِ اللَّهِ

فِيهَا ، وَإِقَامَةَ شَرِّهِ فِيهَا ، وَرَفْعَهَا عَنِ الدَّنَسِ وَالشَّرِكِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ هَذَا خَبَرٌ مَعْنَاهُ الطَّلَبُ ، أَيْ : لَا تُمْكِنُوا هَؤُلَاءِ إِذَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ دُخُولِهَا إِلَّا تَحْتَ الْهُدْنَةِ وَالْجَزْيَةِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ إِلَّا خَائِفِينَ عَلَى حَالِ التَّهَبُّبِ ، وَارْتِعَادِ الْفَرَائِصِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ يَبْطِشُوا بِهِمْ فَضْلًا أَنْ يَسْتَوَلُوا عَلَيْهَا وَيَمْنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْهَا . ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ عَلَى مَا انْتَهَكُوا مِنْ حُرْمَةِ الْبَيْتِ وَامْتَنَهُوهُ مِنْ نَصَبِ الْأَصْنَامِ حَوْلَهُ وَدُعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ عِنْدَهُ ، وَالطَّوَافِ بِهِ عَرَايَا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفَاعِيلِهِمُ الَّتِي يَكْرَهُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ .

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمُهُ ﴿١١٠﴾

وَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ ، وَفَارَقُوا مَسْجِدَهُمْ ، وَمُصَلَّاهُمْ ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِمَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَالْكَعْبَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا ، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، ثُمَّ صَرَفَهُ اللَّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ بَعْدَ ، وَهَذَا يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : أَوَّلُ مَا نُسَخَ لَنَا مِنَ الْقُرْآنِ فِيمَا ذَكَرَ لَنَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - شَأْنُ الْقِبْلَةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَتَرَكَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ ، ثُمَّ صَرَفَهُ إِلَى بَيْتِهِ الْعَتِيقِ وَنَسَخَهَا فَقَالَ : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٥٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ ﴾ يَسَعُ خَلْقَهُ كُلَّهُمْ بِالْكَفَايَةِ وَالْجُودِ وَالْإِفْضَالِ : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ، يَعْنِي عَلِيمٌ بِأَعْمَالِهِمْ ، مَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ ، بَلْ هُوَ بِجَمِيعِهَا عَلِيمٌ .

وَقَالُوا آخِذْ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿١١١﴾

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٢﴾

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ - وَكَذًا مَنْ أَشْبَهَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ ، وَمِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، يَمْنُ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ ، فَأَكْذَبَ اللَّهُ جَمِيعَهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ ، وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ اللَّهَ وَلَدًا ؛ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَنَهُ ﴾ أَيْ : تَعَالَى ، وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا افْتَرَوْا ، وَإِنَّمَا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمْ ، وَهُوَ خَالِقُهُمْ ، وَرَازِقُهُمْ ، وَمُقَدِّرُهُمْ وَمُسَخِّرُهُمْ ، وَمُسِيرُهُمْ ، وَمُصَرِّفُهُمْ كَمَا يَشَاءُ ، وَالْجَمِيعُ عَبِيدُ لَهُ ، وَمِلْكُ لَهُ ،

فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِنْهُمْ؟! وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مَثُولًا مِنْ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ، وَلَا مُشَارِكٌ فِي عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ، وَلَا صَاحِبَةٌ لَهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ﴾ قِيلَ: مُصَلُّونَ. وَقِيلَ: مُقَرَّبُونَ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ. وَقِيلَ: مُطِيعُونَ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ يَقُولُ: طَاعَةُ الْكَافِرِ فِي سُجُودِ ظِلِّهِ وَهُوَ كَارَةٌ، وَهَذَا الْقَوْلُ عَنْ مُجَاهِدٍ يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا وَهُوَ الْقُنُوتُ وَالطَّاعَةُ، وَالْإِسْتِكَانَةُ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ شَرَعِيٌّ وَقَدَرِيٌّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا إِنَّهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ: خَالِقُهُمَا عَلَى غَيْرِ سَبْقٍ. وَمَعْنَى الْمُبْدِعِ: الْمُنْشِئُ وَالْمُحْدِثُ مَا لَا يَسْبِقُهُ إِلَى إِنْشَاءِ مِثْلِهِ وَإِحْدَاثِهِ أَحَدٌ.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٦﴾

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أَيُّ: يُخَاطِبُنَا بِبُيُوتِكَ يَا مُحَمَّدٌ. هَذَا قَوْلُ كُفَّارِ الْعَرَبِ ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، ﴿تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيُّ: أَشْبَهَتْ قُلُوبُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ قُلُوبَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالْعُتُوِّ. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أَيُّ: قَدْ أَوْضَحْنَا الدَّلَالَاتِ عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ بِمَا لَا يَحْتَاجُ مَعَهَا إِلَى سُؤَالٍ آخَرَ، وَزِيَادَةٍ أُخْرَى لِمَنْ أَتَقَنَ وَصَدَّقَ وَاتَّبَعَ الرُّسُلَ وَفَهُمَ مَا جَاءُوا بِهِ عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ قَالَ: بَشِيرًا بِالْجَنَّةِ، وَنَذِيرًا مِنَ النَّارِ. ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أَيُّ: لَا تُسْأَلُكَ عَنْ كُفْرٍ مِنْ كُفْرِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ أَهْدَى وَلِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٨﴾
 الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، وَلَيْسَتْ الْيَهُودُ - يَا مُحَمَّدٌ - وَلَا النَّصَارَى بِرَاضِيَةٍ عَنْكَ أَبَدًا، فَدَعِ طَلَبَ مَا يُرْضِيهِمْ وَيُؤَافِقُهُمْ وَأَقْبِلْ عَلَى طَلَبِ رِضَا اللَّهِ فِي دُعَائِهِمْ إِلَى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ أَهْدَى﴾ أَيُّ: قُلْ يَا مُحَمَّدٌ: إِنَّ هَدَى اللَّهِ الَّذِي

بَعَثَنِي بِهِ هُوَ الْهُدَى ، يَعْنِي هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ الصَّحِيحُ الْكَامِلُ الشَّامِلُ .
 وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾
 فِيهِ تَهْدِيدٌ ، وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلْأُمَّةِ عَنِ اتِّبَاعِ طَرَائِقِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، بَعْدَ مَا عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ
 وَالسُّنَّةِ ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْخِطَابَ مَعَ الرَّسُولِ وَالْأَمْرُ لِأَمَّتِهِ .
 وَقَوْلُهُ: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى . وَقِيلَ : هُمُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ
 ﷺ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴿ يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ خَبَرٌ عَنْ ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ أَيُّ :
 مَنْ أَقَامَ كِتَابَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ حَقَّ إِقَامَتِهِ ، آمَنَ بِمَا أُرْسِلْتَ بِهِ يَا
 مُحَمَّدٌ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْ يَتَأَهَّلِ الْكِتَابَ لَنُحْمَ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ
 إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [المائدة : ٦٨] أَيُّ : إِذَا أَقَمْتُمُوهَا حَقَّ الْإِقَامَةِ ، وَآمَنْتُمْ بِهَا حَقَّ الْإِيمَانِ ،
 وَصَدَقْتُمْ مَا فِيهَا مِنَ الْإِخْبَارِ بِمَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْتِهِ ، وَصِفَتِهِ ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ ، وَنَصْرِهِ ،
 وَمُؤَاوَزَتِهِ قَادَكُمْ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ ، وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ
 بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

يَسْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٢٢﴾
 وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ
 يُنصَرُونَ ﴿٢٢٣﴾

وَقَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي صَدْرِ السُّورَةِ ، وَكُرِّرَتْ هَاهُنَا ، لِلتَّأْكِيدِ ، وَالْحَثِّ عَلَى اتِّبَاعِ
 الرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، الَّذِي يَجِدُونَ صِفَتَهُ فِي كُتُبِهِمْ ، وَنَعْتِهِ ، وَاسْمِهِ ، وَأَمْرِهِ ، وَأَمَّتِهِ ،
 يَحْذَرُهُمْ مِنْ كِتَابَانِ هَذَا ، وَكِتَابَانِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَمْرُهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، مِنْ
 النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْدِّينِيَّةِ ، وَلَا يَحْسُدُوا بَنِي عَمَّتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ عَلَى مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ إِزْسَالِ
 الرَّسُولِ الْخَاتَمِ مِنْهُمْ ، وَلَا يَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ الْحَسَدُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ ، وَتَكْذِيبِهِ ، وَالْحَيْدِ عَنْ مُوَافَقَتِهِ ،
 صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

﴿ وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّتْهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِنْ
 ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٢٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْبَهَا عَلَى شَرَفِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ ﷺ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ إِمَامًا لِلنَّاسِ يُقْتَدَى
 بِهِ فِي التَّوْحِيدِ ، حِينَ قَامَ بِمَا كَلَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِذْ أَتَىٰ

إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ ﴿ أَي : وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ ، هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَهْلَ الْكِتَابَيْنِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَلَيْسُوا عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا الَّذِي هُوَ عَلَيْهَا مُسْتَقِيمٌ ، فَأَنْتَ وَالَّذِينَ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اذْكُرْ هَؤُلَاءِ إِبْنَاءَ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ ، أَي : اخْتِبَارُهُ لَهُ بِمَا كَلَّفَهُ بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ﴾ فَاتَّمَهُنَّ ﴿ أَي : قَامَ بِهِنَّ كُلَّهُنَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ أَي : وَفَّى جَمِيعَ مَا شَرَعَ لَهُ ؛ فَعَمِلَ بِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِكَلِمَتٍ ﴾ أَي : بِشَرَائِعَ ، وَأَوَامِرَ ، وَنَوَاهٍ ، قَالَ : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ أَي : جَزَاءً عَلَى مَا فَعَلَ ، كَمَا قَامَ بِالْأَوَامِرِ ، وَتَرَكَ الزَّوَاجِرَ ، جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ قُدْوَةً ، وَإِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ ، وَيُخْتَذَى حَذْوُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ قَالَ : لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامًا ، سَأَلَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ الْأَئِمَّةُ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ ، وَأُخْبِرَ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ظَالِمُونَ ، وَأَنَّهُ لَا يَنَالُهُمْ عَهْدُ اللَّهِ ، وَلَا يَكُونُونَ أَئِمَّةً فَلَا يُقْتَدَى بِهِمْ . وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى طَلِبَتِهِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ فَكُلُّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ ، وَكُلُّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ ، فَفِي ذُرِّيَّتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٥﴾

مَضْمُونُ مَا فَسَّرَ بِهِ الْأَئِمَّةُ هَذِهِ الْآيَةَ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُ شَرَفَ الْبَيْتِ ، وَمَا جَعَلَهُ مَوْصُوفًا بِهِ شَرْعًا وَقَدْرًا ؛ مِنْ كَوْنِهِ مَثَابَةً لِلنَّاسِ ، أَي : جَعَلَهُ مَحَلًّا تَشْتَأِقُ إِلَيْهِ الْأَرْوَاحُ ، وَتَحْنُ إِلَيْهِ ، وَلَا تَقْضِي مِنْهُ وَطْرًا ، وَلَوْ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ كُلُّ عَامٍ ، اسْتِجَابَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِدُعَاءِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ يَهْوَى إِلَيْهِمْ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴾ ، وَيَصِفُهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ جَعَلَهُ آمِنًا ؛ مَنْ دَخَلَهُ أَمِنَ ، وَلَوْ كَانَ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ، ثُمَّ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ نَبَّهَ عَلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ عِنْدَهُ . فَقَالَ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .

الْمُرَادُ بِالْمَقَامِ : إِنَّمَا هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُومُ عَلَيْهِ لِإِنَاءِ الْكُعْبَةِ ، لَمَّا ارْتَفَعَ الْجِدَارُ أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِ لَيَقُومَ فَوْقَهُ ، وَيُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ ، فَيَضَعُهَا بِيَدِهِ لِرَفْعِ الْجِدَارِ ، وَكُلَّمَا كَمَلَ نَاحِيَةٌ انْتَقَلَ إِلَى النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى يَطُوفُ حَوْلَ الْكُعْبَةِ ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ ، كُلَّمَا فَرَغَ مِنْ جِدَارٍ نَقَلَهُ إِلَى النَّاحِيَةِ الَّتِي تَلِيهَا ، وَهَكَذَا حَتَّى تَمَّ جُدْرَانُ الْكُعْبَةِ ، وَكَانَتْ آثَارُ قَدَمَيْهِ ظَاهِرَةً فِيهِ ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا مَعْرُوفٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا .

وَقَدْ أَدْرَكَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ فِيهِ أَيُّضًا . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : رَأَيْتُ الْمَقَامَ فِيهِ أَصَابِعُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَأَخْصُ قَدَمَيْهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَذْهَبَهُ مَسْحُ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ . قُلْتُ : وَقَدْ كَانَ هَذَا الْمَقَامُ مُلْصَقًا بِجِدَارِ الْكَعْبَةِ قَدِيمًا ، وَمَكَانُهُ مَعْرُوفٌ الْيَوْمَ إِلَى جَانِبِ الْبَابِ بِمَا يَلِي الْحَجَرَ يَمْنَةً الدَّخِيلِ مِنَ الْبَابِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُسْتَقَلَّةِ هُنَاكَ ، وَكَانَ الْحَلِيلُ عليه السلام لَمَّا فَرَّغَ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ وَضَعَهُ إِلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ ، أَوْ أَنَّهُ انْتَهَى عِنْدَهُ الْبِنَاءُ فَتَرَكَهُ هُنَاكَ ؛ وَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَمْرٌ بِالصَّلَاةِ هُنَاكَ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الطَّوَافِ ، وَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ انْتَهَى بِنَاءُ الْكَعْبَةِ فِيهِ ، وَإِنَّمَا آخِرُهُ عَنْ جِدَارِ الْكَعْبَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه - أَحَدُ الْأَثَمَةِ الْمُهَدِّدِينَ ، وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الَّذِينَ أَمَرْنَا بِاتِّبَاعِهِمْ ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ الْقُرْآنُ بِوَفَائِهِ فِي الصَّلَاةِ عِنْدَهُ - وَهَذَا لَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - ﴿ وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ قَالَ : أَمَرَهُمَا اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَاهُ مِنَ الْأَذَى وَالنَّجَسِ ، وَلَا يُصِيبَهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ . ﴿ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ قَالَ : مِنَ الْأَوْتَانِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ فَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ مَعْرُوفٌ . ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ الْمُقِيمِينَ فِيهِ . ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ إِذَا كَانَ مُصَلِّيًا فَهُوَ مِنَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ أَيُّ : مِنَ الْخَوْفِ ، لَا يُرْعَبُ أَهْلُهُ ، وَقَدْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ شَرْعًا وَقَدَرًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ فِي تَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِيهَا ، عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السَّلَاحَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ قِيلَ : هُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقِيلَ : ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَقُولُ : ذَلِكَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ ، يَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ﴾ فَإِنِّي أَرْزُقُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ ، وَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا . ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ ﴿ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَحْجُرُهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ دُونَ النَّاسِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ أَيْضًا أَرْزُقُهُمْ كَمَا أَرْزُقُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلْخَلَقَ خَلْقًا لَا أَرْزُقُهُمْ ؟ أُمْتَعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرَّهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَتَسَّ الْمَصِيرِ ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هُنَا وَهُنَا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَتَسَّ الْمَصِيرِ ﴾ أَيُّ : ثُمَّ أُلْحِثُهُ بَعْدَ مَتَاعِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَبَسَطْنَا عَلَيْهِ مِنْ ظِلِّهَا إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَتَسَّ الْمَصِيرِ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْظِرُهُمْ وَيُمَهِّلُهُمْ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ .
وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فَالْقَوَاعِدُ : جَمْعُ قَاعِدَةٍ ، هِيَ : السَّارِيَّةُ وَالْأَسَاسُ يَقُولُ تَعَالَى : وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ بِنَاءَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - الْبَيْتِ ، وَرَفَعَهُمَا الْقَوَاعِدَ مِنْهُ ، وَهُمَا يَقُولَانِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ ، خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ ، وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرِبُ مِنَ الشَّنَّةِ فَيَدِرُ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيَّهَا ، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعُهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ حَتَّى بَلَغُوا كَدَاءً ، نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ : يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَرَكُنَا ؟ قَالَ : إِلَى اللَّهِ ، قَالَتْ : رَضِيتُ بِاللَّهِ . قَالَ : فَارْجِعِي ، فَجَعَلَتْ تَشْرِبُ مِنَ الشَّنَّةِ ، وَيَدِرُ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيَّهَا ، حَتَّى لَمَّا فَنِيَ الْمَاءُ قَالَتْ : لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أَحْسَسُ أَحَدًا ، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا ، فَظَنَرْتُ هَلْ مُحْسَسٌ أَحَدًا ، فَلَمْ تُحْسَسْ أَحَدًا ، فَلَمَّا بَلَغَتِ الْوَادِي سَعَتْ حَتَّى أَتَتْ الْمَرْوَةَ ، وَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا ، ثُمَّ قَالَتْ : لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ الصَّبِيُّ ، فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ ، كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ ، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا فَقَالَتْ : لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أَحْسَسُ أَحَدًا ، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرْتُ ، فَلَمْ تُحْسَسْ أَحَدًا حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا ، ثُمَّ قَالَتْ : لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ ، فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ فَقَالَتْ : أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ ، فَإِذَا جِرِيلُ الْعَلَمِ ، قَالَ : فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا ، وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الْأَرْضِ ، قَالَ : فَاتَّبَعَتْهُ الْمَاءُ ، فَذَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ ، فَجَعَلَتْ تَحْفَرُ قَالَ : فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ؑ « لَوْ تَرَكْتَهُ لَكَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا » قَالَ فَجَعَلَتْ تَشْرِبُ مِنَ الْمَاءِ وَيَدِرُ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيَّهَا ، قَالَ : فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمْ بِبَطْنِ الْوَادِي ، فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ وَقَالُوا : مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ ، فَبَعَثُوا رُسُولَهُمْ ، فَظَرَّ فَإِذَا هُوَ بِالْمَاءِ ، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ ، فَأَتُوا إِلَيْهَا ، فَقَالُوا : يَا أُمُّ إِسْمَاعِيلَ أَتَأْذِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكَ وَنَسْكُنَ

مَعَكَ ؟ فَبَلَغَ ابْنَهَا وَنَكَحَ مِنْهُمْ امْرَأَةً ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ ﷺ فَقَالَ لِأَهْلِهِ : إِنِّي مُطْلِعُ تَرْكِي ، قَالَ : فَجَاءَ فَسَلَّمَ ، فَقَالَ : أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ ؟ قَالَتْ امْرَأَتُهُ : ذَهَبَ يَصِيدُ ، قَالَ : قُولِي لَهُ إِذَا جَاءَ غَيْرَ عَتَبَةٍ بِابِكَ ، فَلَمَّا أَخْبَرَتْهُ قَالَ : أَنْتِ ذَاكَ فَادْهَبِي إِلَى أَهْلِكَ ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ إِنِّي مُطْلِعُ تَرْكِي ، قَالَ : فَجَاءَ ، فَقَالَ : أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ ؟ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ : ذَهَبَ يَصِيدُ ، فَقَالَتْ : أَلَا تَنْزِلُ فَتَطْعَمُ وَتَشْرَبُ ، فَقَالَ : مَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ ؟ قَالَتْ : طَعَامُنَا اللَّحْمُ وَشَرَابُنَا الْمَاءُ ، قَالَ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ ، قَالَ : فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ « بَرَكَةُ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ » ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ ﷺ ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِنِّي مُطْلِعُ تَرْكِي ، فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلُ مِنْ وَرَاءِ زَمَرٍ يُصْلِحُ نَبْلًا لَهُ ، فَقَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ ، إِنَّ رَبَّكَ ﷻ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا ، فَقَالَ : أَطِيعِ رَبَّكَ ﷻ ، قَالَ : إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ ، فَقَالَ : إِذْنُ أَفْعَلْ - أَوْ كَمَا قَالَ - قَالَ : فَقَامَ فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ بَيْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ « رَبَّنَا ثَقَلَتْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » قَالَ : حَتَّى اِرْتَفَعَ الْبِنَاءُ وَضَعَفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ ، وَيَقُولَانِ : « رَبَّنَا ثَقَلَتْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةَ لِدُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَغْنِيَانِ بِذَلِكَ وَاجْعَلْنَا مُسْتَسْلِمَيْنِ لِأَمْرِكَ خَاضِعَيْنِ لِطَاعَتِكَ ، لَا نُشْرِكُ مَعَكَ فِي الطَّاعَةِ أَحَدًا سِوَاكَ ، وَلَا فِي الْعِبَادَةِ غَيْرَكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا » عَنْ عَطَاءٍ : أَخْرَجَهَا لَنَا وَعَلَّمَنَاهَا ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : « أَرِنَا مَنَاسِكَنَا » مَذَابِحَنَا .

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ تَمَامِ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَهْلِ الْحَرَمِ : أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَيُّ : مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَقَدْ وَافَقَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الْمُسْتَجَابَةُ قَدَرَ اللَّهِ السَّابِقِ فِي تَعْيِينِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - رَسُولًا فِي الْأُمِّيِّينَ إِلَيْهِمْ وَإِلَى سَائِرِ الْأَعْجَمِيِّينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ ؟ قَالَ ﷺ : « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبَشَارَةُ عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ » . وَالْمُرَادُ : أَنَّ أَوَّلَ مَنْ نَوَّهَ بِذِكْرِهِ وَشَهَرَهُ فِي النَّاسِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ وَلَمْ يَزَلْ ذِكْرُهُ فِي النَّاسِ مَذْكُورًا مَشْهُورًا سَائِرًا حَتَّى أَفْصَحَ بِاسْمِهِ خَاتَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَسَبًا وَهُوَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ ، حَيْثُ قَامَ

فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ خَطِيْبًا وَقَالَ : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] ، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ ، يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يَعْنِي : السُّنَّةَ ، وَقِيلَ : الْفَهْمُ فِي الدِّينِ ، وَلَا مُنَافَاةَ ، ﴿ وَزَيَّيْنَهُمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أَي : الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الْحَكِيمُ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، فَيَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَالِّهَا ؛ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ .

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَسْبِيءُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَدًّا عَلَى الْكُفَّارِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَحْدَثُوهُ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ الْمُخَالِفِ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ، إِمَامِ الْحَقِّ ؛ فَإِنَّهُ جَرَّدَ تَوْحِيدَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَلَمْ يَدْعُ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَلَا أَشْرَكَ بِهِ طَرَفَةً عَيْنٍ ، وَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ ، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ سَائِرَ قَوْمِهِ ، حَتَّى تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمُ ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ [الأنعام : ٧٨ - ٧٩] قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ أَي : ظَلَمَ نَفْسَهُ بِسَفْهِهِ وَسُوءِ تَدْبِيرِهِ بِتَرْكِهِ الْحَقَّ إِلَى الضَّلَالِ ، حَيْثُ خَالَفَ طَرِيقَ مَنْ اصْطَفَاهُ فِي الدُّنْيَا لِلْهُدَايَةِ وَالرَّشَادِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ ، إِلَى أَنْ اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ السُّعَدَاءِ ، فَمَنْ تَرَكَ طَرِيقَهُ هَذَا وَمَسْلَكَهُ وَمِلَّتَهُ ، وَاتَّبَعَ طُرُقَ الضَّلَالَةِ وَالْغِيِّ فَأَيُّ سَفْهِهِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا ؟ أَمْ أَيُّ ظُلْمٍ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي : أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِخْلَاصِ وَالِاسْتِسْلَامِ وَالْإِنْقِيَادِ ، فَأَجَابَ إِلَى ذَلِكَ شَرْعًا وَقَدَرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ أَي : وَصَّى بِهَذِهِ الْمِلَّةِ - وَهِيَ الْإِسْلَامُ - اللَّهُ - أَوْ يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَى الْكَلِمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لِحُرْصِهِمْ عَلَيْهَا وَحُبَّتِهِمْ هَا حَافِظُوا عَلَيْهَا إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ ، وَوَصَّوْا أَبْنَاءَهُمْ بِهَا مِنْ بَعْدِهِمْ . ﴿ يَسْبِيءُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أَي : أَحْسِنُوا فِي حَالِ الْحَيَاةِ وَالزَّمَا هَذَا لِيَرْزُقَكُمْ اللَّهُ الْوَفَاةَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ يَمُوتُ غَالِبًا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَيُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْكَرِيمُ عَادَتَهُ بِأَنْ مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ وَفَّقَ لَهُ وَيُسِّرَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَوَى صَالِحًا ثَبَّتَ عَلَيْهِ .

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْتَجًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَبْنَاءَ إِسْمَاعِيلَ ، وَعَلَى الْكُفَّارِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامَ - بِأَنَّهُ يَعْقُوبُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَصَّى بَنِيهِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّغْلِيْبِ لِأَنَّ إِسْمَاعِيلَ عَمُّهُ . ﴿ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ أَيُّ : نُوحِدُهُ بِالْأُلُوهِيَّةِ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا غَيْرَهُ ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أَيُّ : مُطِيعُونَ خَاضِعُونَ ، وَالْإِسْلَامُ هُوَ مِلَّةُ الْأَنْبِيَاءِ قَاطِبَةً ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ مَنَاجِحُهُمْ ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ وَالْأَحَادِيثُ ، فَمِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ : « نَحْنُ مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ ، أَوْلَادُ عِلَاطٍ دِينَنَا وَاحِدٌ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أَيُّ : مَضَتْ ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أَيُّ : إِنْ السَّلَفُ الْمَاضِينَ مِنْ آبَائِكُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَا يَنْفَعُكُمْ انْتِسَابُكُمْ إِلَيْهِمْ إِذَا لَمْ تَفْعَلُوا خَيْرًا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ لَهُمْ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وَهَذَا جَاءَ فِي الْأَكْثَرِ : « مَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » .

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٣﴾

﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أَيُّ : لَا تُرِيدُ مَا دَعَوْتُمُونَا إِلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ، بَلْ تَتَّبِعُ ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أَيُّ : مُسْتَقِيمًا .

قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٤﴾

أَرْشَدَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ بِوَاسِطَةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُفَصَّلًا ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ مُجْمَلًا ، وَنَصَّ عَلَى أَغْيَانٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَأَجْمَلَ ذِكْرَ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنْ لَا يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، بَلْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ كُلِّهِمْ ، وَلَا يَكُونُوا كَمَنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا

بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿١٥١﴾ وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِّيعُ وَفَتَادَةُ : الْأَسْبَاطُ : بَنُو يَعْقُوبَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، وَلَدَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ ، فَسُمُّوا الْأَسْبَاطَ . وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : الْأَسْبَاطُ : قَبَائِلُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَسْبَاطِ هَاهُنَا شُعُوبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمَوْجُودِينَ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ مُوسَى لَهُمْ ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ [المائدة : ٢٠]

فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥٢﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَخَنُّ لَهُ عِبْدُونَ ﴿١٥٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى فَإِنْ آمَنُوا ، يَعْنِي : الْكُفَّارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ ، بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ - يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - مِنَ الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴿ فَقَدْ اهْتَدَوْا ﴾ أَيُّ : فَقَدْ أَصَابُوا الْحَقَّ وَأَرْشَدُوا إِلَيْهِ ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أَيُّ : عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ أَيُّ : فَسَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ وَيُظْفِرُكَ بِهِمْ ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . قَوْلُهُ : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : دِينَ اللَّهِ .

قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَخَنُّ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٥٤﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٥﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥٦﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُرْشِدًا نَبِيَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى دَرَجَةِ مُجَادَلَةِ الْمُشْرِكِينَ : ﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴾ أَيُّ : تَتَاجَرُونَنَا فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ وَاتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ الْمُتَصَرِّفُ فِينَا وَفَيْكُمْ ، الْمُسْتَحِقُّ لِإِخْلَاصِ الْإِلَهِيَّةِ لَهُ وَخُذِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴾ أَيُّ : نَحْنُ بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ ، وَأَنْتُمْ بُرَاءٌ مِنَّا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] ، ثُمَّ أَنْكَرَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ ذَكَرَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا عَلَى مِلَّتِهِمْ ، إِمَّا الْيَهُودِيَّةَ وَإِمَّا النَّصْرَانِيَّةَ فَقَالَ : ﴿ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾

يَعْنِي : بَلَّ اللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا هُودًا وَلَا نَصَارَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَدَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : كَانُوا يَقْرَأُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أَتَاهُمْ ، إِنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامَ ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا بُرَاءً مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ، فَشَهِدُوا لِلَّهِ بِذَلِكَ ، وَأَقْرَأُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ اللَّهَ ، فَكَتَمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ ، أَيْ أَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِعَمَلِكُمْ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أَيْ : قَدْ مَضَتْ ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أَيْ : لَكُمْ أَعْمَالُهُمْ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴿ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وَلَيْسَ يُغْنِي عَنْكُمْ انْتِسَابُكُمْ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ مُتَابَعَةٍ مِنْكُمْ هُمْ ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِمُجَرَّدِ النِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى تَكُونُوا مُنْقَادِينَ مِثْلَهُمْ لِأَوَامِرِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ، الَّذِينَ بُعِثُوا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَإِنَّهُ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيِّ وَاحِدٍ فَقَدْ كَفَرَ بِسَائِرِ الرُّسُلِ وَلَا سِيَّامَا بِسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ .

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِبْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾

قِيلَ : الْمُرَادُ بِالسُّفَهَاءِ هَاهُنَا : مُشْرِكُو الْعَرَبِ ، وَقِيلَ : أَحْبَارُ يَهُودَ ، وَقِيلَ : الْمُنَافِقُونَ ، وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - . عَنِ الْبَرَاءِ ؓ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَيُكْثِرُ النَّظَرَ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللَّهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فَقَالَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : وَدِدْنَا لَوْ عَلِمْنَا مَنْ مَاتَ مِنَّا قَبْلَ أَنْ نُضَرَفَ إِلَى الْقِبْلَةِ ، وَكَيْفَ بِصَلَاتِنَا نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِبْمَانَكُمْ ﴾ ، وَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ - وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ - : مَا وَلَاَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

وَحَاصِلُ الْأَمْرِ : أَنَّهُ قَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَكَانَ بِمَكَّةَ يُصَلِّي بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ وَهُوَ مُسْتَقْبِلُ صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ تَعَذَّرَ الْجَمْعُ

بَيْنَهُمَا ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ . وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ التَّوَجُّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَ مَقْدَمِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَاسْتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ بِضِعَةِ عَشْرَ شَهْرًا ، وَكَانَ يُكْثِرُ الدُّعَاءَ وَالِإِهْتِهَالَ أَنْ يُوجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ الَّتِي هِيَ قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ ، وَأُمِرَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، فَخَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فَأَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ وَكَانَ أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا إِلَيْهَا صَلَاةُ الْعَصْرِ .

وَلَمَّا وَقَعَ هَذَا حَصَلَ لِبَعْضِ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرَّيْبِ ، وَالْكَفَرَةِ مِنَ الْيَهُودِ ، إِرْتِيَابٌ وَزَيْغٌ عَنِ الْهُدَى ، وَتَحْطِيطٌ وَشَكٌّ ، وَقَالُوا : ﴿ مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ أَيُّ : قَالُوا مَا لِهَؤُلَاءِ نَارَةً يَسْتَقْبِلُونَ كَذَا ، وَنَارَةً يَسْتَقْبِلُونَ كَذَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ جَوَابَهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ أَيُّ : الْحُكْمُ وَالتَّصَرُّفُ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] وَ ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] أَيُّ : الشَّانُ كُلُّهُ فِي امْتِثَالِ أَوَامِرِ اللَّهِ ، فَحَيْثُمَا وَجَّهْنَا تَوَجَّهْنَا ، فَالطَّاعَةُ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ ، وَلَوْ وَجَّهْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّاتٍ إِلَى جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، فَنَحْنُ عَبِيدُهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ وَخُدَامِهِ حَيْثُمَا وَجَّهْنَا تَوَجَّهْنَا ، وَهُوَ تَعَالَى لَهُ بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَأُمْنِيَّةُ عِنَايَةٍ عَظِيمَةٍ ، إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ - خَلِيلِ الرَّحْمَنِ - وَجَعَلَ تَوَجُّهَهُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ الْمُنَشَّئَةِ عَلَى اسْمِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، أَشْرَفَ بَيُوتِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، إِذْ هِيَ بِنَاءُ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَكَوْنِ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّمَا حَوَّلْنَاكُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاخْتَرْنَاَهَا لَكُمْ لِتَجْعَلَ لَكُمْ خِيَارَ الْأُمَمِ ، لِتَكُونُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُهَدَاءَ عَلَى الْأُمَمِ ، لِأَنَّ الْجَمِيعَ مُعْتَرِفُونَ لَكُمْ بِالْفَضْلِ ، وَالْوَسْطُ هَاهُنَا : الْخِيَارُ وَالْأَجُودُ ، كَمَا يُقَالُ : قُرَيْشُ أَوْسَطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا ، أَيُّ خَيْرُهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّمَا شَرَعْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ التَّوَجُّهَ أَوَّلًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ صَرَفْنَاكَ عَنْهُ إِلَى الْكَعْبَةِ ، لِيُظْهَرَ حَالُ مَنْ يَتَّبِعُكَ وَيُطِيعُكَ وَيَسْتَقْبِلُ مَعَكَ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ، أَيُّ : مُرْتَدًّا عَنْ دِينِهِ ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ أَيُّ : هَذِهِ الْفَعْلَةُ ، وَهُوَ صَرَفُ التَّوَجُّهِ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ ، أَيُّ وَإِنْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ عَظِيمًا فِي النَّفْسِ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَآيَقَنُوا بِتَصَدِيقِ الرَّسُولِ ، وَأَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيُحْكُمُ مَا يُرِيدُ ، فَلَهُ أَنْ يُكَلِّفَ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ وَيَنْسَخُ مَا يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، بِخِلَافِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

مَرَضٌ ؛ فَإِنَّهُ كَلَّمَا حَدَّثَ أَمْرٌ أَحَدَتْ لَهُمْ شَكًّا ، كَمَا يَحْصُلُ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِيقَانٌ وَتَصَدِيقٌ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أَي : صَلَاتُكُمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَبْلَ ذَلِكَ ، مَا كَانَ
يُضِيعُ ثَوَابَهَا عِنْدَ اللَّهِ .

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠٢﴾

قَوْلُهُ : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ أَمَرَ تَعَالَى بِاسْتِقْبَالِ الْكُعْبَةِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِ
الْأَرْضِ ، شَرْقًا وَغَرْبًا وَشَمَالًا وَجَنُوبًا ، وَلَا يُسْتَشْنَى مِنْ هَذَا شَيْءٌ سِوَى النَّافِلَةِ فِي حَالِ السَّفَرِ ،
فَإِنَّهُ يُصَلِّيُهَا حَيْثُمَا تَوَجَّهَ قَالِيهِ وَقَلْبُهُ نَحْوَ الْكُعْبَةِ ، وَكَذَا فِي حَالِ الْمُسَافِقَةِ فِي الْقِتَالِ يُصَلِّيَ عَلَى
كُلِّ حَالٍ ، وَكَذَا مَنْ جَهَلَ جِهَةَ الْقِبْلَةِ يُصَلِّي بِاجْتِهَادِهِ ، وَإِنْ كَانَ مُحْطِطًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، لِأَنَّ اللَّهَ
تَعَالَى لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أَي :
وَالْيَهُودُ الَّذِينَ أَنْكَرُوا اسْتِقْبَالَكُمْ الْكُعْبَةَ ، وَأَنْصَرَفُكُمْ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
سَيُوجِّهُكَ إِلَيْهَا بِمَا فِي كُتُبِهِمْ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ مِنَ النَّعْبِ وَالصِّفَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرِهِ ، وَمَا خَصَّصَهُ
اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَشَرَّفَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَلَكِنْ أَهْلُ الْكِتَابِ يَتَكَاثَمُونَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ
حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا ، وَلِهَذَا تَهَدَّدَهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا
بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا
لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ ، مَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ شَأْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّهُ لَوْ
أَقَامَ عَلَيْهِمْ كُلَّ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ، لَمَا اتَّبَعُوهُ وَتَرَكُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَيْنَ
آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ إِنْخِبَارٌ عَنْ شِدَّةِ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ،
وَأَنَّهُ كَمَا هُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِأَرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ ، فَهُوَ أَيْضًا مُسْتَمْسِكٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ
مَرْضَاتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، وَلَا كَوْنُهُ مُتَوَجِّهًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِكَوْنِهَا
قِبْلَةُ الْيَهُودِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ حَذَرَ تَعَالَى عَنْ مُخَالَفَةِ الْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ الْعَالَمُ إِلَى

أَهْوَى ؛ فَإِنَّ الْعَالَمَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ أَقَوْمٌ مِنْ غَيْرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ مُحَاطِبًا لِلرَّسُولِ وَالْمُرَادُ بِهِ الْأُمَّةُ ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ
الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٤٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَ صِحَّةَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ كَمَا يَعْرِفُ أَحَدُهُمْ
وَلَدَهُ ، وَالْعَرَبُ كَانَتْ تَضْرِبُ الْمَثَلَ فِي صِحَّةِ الشَّيْءِ بِهَذَا .

قُلْتُ : وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ مِنْ بَيْنِ أَبْنَاءِ النَّاسِ كُلِّهِمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ
تَعَالَى أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا التَّحَقُّقِ وَالْإِتْقَانِ الْعِلْمِيِّ ﴿ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ ﴾ أَيُّ : لَيَكْتُمُونَ النَّاسَ مَا فِي كُتُبِهِمْ
مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . ثُمَّ ثَبَّتَ تَعَالَى نَبِيَّهَ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ
الرَّسُولُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ، فَقَالَ : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

وَلِكُلِّ وَجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٨﴾

لِلْيَهُودِيِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، وَلِلنَّصْرَانِيِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، وَهَذَاكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْأُمَّةُ إِلَى
الْقِبْلَةِ الَّتِي هِيَ الْقِبْلَةُ . ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ
قَادِرٌ عَلَى جَمْعِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أَجْسَادُكُمْ وَأَبْدَانُكُمْ .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ
مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٠﴾

هَذَا أَمْرٌ ثَالِثٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِاسْتِقْبَالِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا
فِي حِكْمَةِ هَذَا التَّكْرَارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَقِيلَ : تَأْكِيدٌ لِأَنَّهُ أَوَّلُ نَاسِخٍ وَقَعَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَقِيلَ :
بَلْ هُوَ مُتَزَلٌّ عَلَى أَحْوَالٍ ، فَالْأَمْرُ الْأَوَّلُ : لِمَنْ هُوَ مُشَاهِدُ الْكَعْبَةِ ، وَالثَّانِي : لِمَنْ هُوَ فِي مَكَّةَ غَائِبًا
عَنْهَا ، وَالثَّالِثُ : لِمَنْ هُوَ فِي بَقِيَّةِ الْبُلْدَانِ . ﴿ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أَيُّ : أَهْلُ الْكِتَابِ ؛
فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ صِفَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ التَّوَجُّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ ، فَإِذَا فَقَدُوا ذَلِكَ مِنْ صِفَتِهَا رَبُّهَا اخْتَجُّوا
بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَلِئَلَّا يَخْتَجُّوا بِمُوَافَقَةِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ فِي التَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ۚ أَي : لَا تَخْشَوْا شِبَهَ الظَّلَمَةِ الْمُتَعَتِّتِينَ وَأَفْرِدُوا الْخَشْيَةَ لِي ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ أَهْلُ أَنْ يُخْشَى مِنْهُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ۚ عَطَفٌ عَلَى لَيْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ، أَي : لَا تِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِيمَا شَرَعْتُ لَكُمْ مِنْ اسْتِقْبَالِ الْكُعْبَةِ لِتَكْمُلَ لَكُمْ الشَّرِيعَةُ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهَا ۚ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۚ أَي : إِلَى مَا ضَلَّتْ عَنْهُ الْأُمَمُ هَدَيْنَاكُمْ إِلَيْهِ وَخَصَصْنَاكُمْ بِهِ ، وَهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَشْرَفَ الْأُمَمِ وَأَفْضَلَهَا .

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿٣٢﴾

يُذَكِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعَثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ۚ أَي : يُطَهِّرُهُمْ مِنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ وَدَسَسِ النَّفُوسِ وَأَفْعَالِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَالْحِكْمَةُ : وَهِيَ السُّنَّةُ ، وَيُعَلِّمُهُم مَّا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ ، فَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجُهْلَاءِ يُسَفَّهُونَ بِالْعُقُولِ الْعَرَاءَ ، فَانْتَقَلُوا بِبَرَكَهٖ رِسَالَتِهِ وَيُؤْمِنُ سِفَارَتِهِ إِلَى حَالِ الْأَوْلِيَاءِ وَسَجَايَا الْعُلَمَاءِ ، فَصَارُوا أَعَمَقَ النَّاسِ عِلْمًا ، وَأَبْرَهُمْ قُلُوبًا ، وَأَقْلَهُمْ تَكَلُّفًا ، وَأَصْدَقَهُمْ هُجَّةً . ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۚ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ مَنْ ذَكَرَهُ ، وَيَزِيدُ مَنْ شَكَرَهُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ كَفَرَهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ » . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۚ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِشُكْرِهِ ، وَوَعَدَ عَلَى شُكْرِهِ بِمَزِيدِ الْخَيْرِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۚ .

يَنَائِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٣٤﴾

لَمَّا فَرَعَ تَعَالَى مِنْ بَيَانِ الْأَمْرِ بِالشُّكْرِ ، شَرَعَ فِي بَيَانِ الصَّبْرِ وَالْإِزْسَادِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِعْمَةٍ فَيَشْكُرُ عَلَيْهَا ، أَوْ فِي نِقْمَةٍ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ » . وَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ أَجُودَ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى تَحْمُلِ الْمَصَائِبِ : الصَّبْرُ وَالصَّلَاةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الشُّهَدَاءَ فِي بَرَزَجِهِمْ أَحْيَاءٌ يُرْزُقُونَ ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ « إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خَضِرٍ ، تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَاطْلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ إِطْلَاعَةً ، فَقَالَ : مَاذَا تَبْعُونَ ؟ فَقَالُوا يَا رَبَّنَا وَآيَ شَيْءٍ نَبْغِي ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ؟ ثُمَّ عَادَ عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ هَذَا ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يَتْرُكُونَ مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا ، قَالُوا : نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ، فَتُقَاتِلَ فِي سَبِيلِكَ حَتَّى نُقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى - لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ - فَيَقُولَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ : « إِنِّي كَتَبْتُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ » .

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَدَشِّرَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُمْتَحَنُونَ ﴿١٥٧﴾ أَخْبَرَنَا تَعَالَى أَنَّهُ يَبْتَلِي عِبَادَهُ : أَيْ يَحْتَبِرُهُمْ وَيَمْتَحِنُهُمْ فَتَارَةً بِالسَّرَّاءِ وَتَارَةً بِالضَّرَّاءِ مِنْ خَوْفٍ وَجُوعٍ ، فَإِنَّ الْجَائِعَ وَالْخَائِفَ كُلُّ مِنْهُمَا يَظْهَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ ﴾ أَيْ : ذَهَابَ بَعْضِهَا ﴿ وَالْأَنْفُسِ ﴾ كَمَوْتِ الْأَصْحَابِ وَالْأَقَارِبِ وَالْأَحْبَابِ ﴿ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ أَيْ : لَا تُغْلُ الْحَدَائِقُ وَالْمَزَارِعُ كَعَادَتِهَا .

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى : مَنِ الصَّابِرُونَ الَّذِينَ شَكَرَهُمْ ؟ فَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أَيْ : تَسَلَّوْا بِقَوْلِهِمْ هَذَا عَمَّا أَصَابَهُمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مِلْكُ اللَّهِ يَتَصَرَّفُ فِي عِبِيدِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَحْدَثَ لَهُمْ ذَلِكَ إِعْتِرَافُهُمْ بِأَنَّهُمْ عِبِيدُهُ ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . لِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا أَعْطَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أَيْ : ثَنَاءٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ . وَأَمَنَةٌ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُمْتَحَنُونَ ﴾ . قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؓ : نِعَمَ الْعَدْلَانِ وَنِعَمَتِ الْعِلَاوَةِ ، ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ . فَهَذَانِ الْعَدْلَانِ ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُمْتَحَنُونَ ﴾ فَهَذِهِ الْعِلَاوَةُ ، وَهِيَ مَا تَوْضَعُ بَيْنَ الْعَدْلَيْنِ ، وَهِيَ زِيَادَةُ فِي الْحَمْلِ ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ أُعْطُوا ثَوَابَهُمْ وَزِيدُوا أَيْضًا .

﴿ إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

عَنْ عُرْوَةَ : قُلْتُ : أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ قُلْتُ : فَوَاللَّهِ مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَتَطَوَّفَ بِهِمَا ،

فَقَالَتْ عَائِشَةُ : بِسْمَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي ، إِنَّمَا لَوْ كَانَتْ عَلَى مَا أَوْلَتْهَا عَلَيْهِ ، كَانَتْ : فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطُوفَ بِهِمَا ، وَلَكِنَّهَا إِنَّمَا أُنْزِلَتْ لِأَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمُوا كَانُوا يُهْلُونَ لِمَنَاةَ الطَّائِغَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلِّلِ ، وَكَانَ مَنْ أَهْلًا لَهَا يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالْصِّفَا وَالْمَرْوَةِ ، فَسَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بِالْصِّفَا وَالْمَرْوَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿ إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ : ثُمَّ قَدْ سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّوْفَ بِهِمَا ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدَعَ الطَّوْفَ بِهِمَا . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطَّوِيلُ وَفِيهِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ طَوَافِهِ بِالْبَيْتِ عَادَ إِلَى الرُّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَابِ الصِّفَا وَهُوَ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ ثُمَّ قَالَ : « أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ قِيلَ : زَادَ فِي طَوَافِهِ بَيْنَهُمَا عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ ثَامِنَةً وَتَاسِعَةً وَنَحْوَ ذَلِكَ ، وَقِيلَ يَطُوفُ بَيْنَهُمَا فِي حَجَّةٍ تَطَوُّعٍ ، أَوْ عُمْرَةٍ تَطَوُّعٍ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ تَطَوُّعَ خَيْرًا فِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : يُثِيبُ عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ ، عَلِيمٌ بِقَدْرِ الْجُزْءِ ، فَلَا يَنْخُسُ أَحَدًا ثَوَابَهُ ﴿ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٢﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٣﴾

هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَتَمَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الدَّلَالَاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْهُدَى النَّافِعِ لِلْقُلُوبِ ، مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فِي كُتُبِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ . ثُمَّ اسْتَشْنَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ ﴾ أَيُّ : رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ ، وَأَصْلَحُوا أَعْمَاهُمْ ، وَبَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَهُ ﴿ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الدَّاعِيَةَ إِلَى كُفْرٍ أَوْ بِدْعَةٍ ، إِذَا تَابَ إِلَى اللَّهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَاسْتَمَرَّ بِهِ الْحَالُ إِلَى تَمَاتِهِ بِأَنَّ ﴿ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿ أَيُّ : فِي اللَّعْنَةِ التَّابِعَةِ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ الْمُصَاحَبَةُ لَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي ﴾ لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ﴿ فِيهَا ، أَيُّ : لَا يُنْقَضُ عَمَّا هُمْ فِيهِ ﴾ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿ أَيُّ :

لَا يُغَيِّرُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَفْتُرُ ، بَلْ هُوَ مُتَوَاصِلٌ دَائِمٌ ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ .
وَاللَّهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَقَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ ، وَإِنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَيْنِ الْإِسْمَيْنِ فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ . ثُمَّ ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى تَقَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا فِيهَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ، مِمَّا ذَرَأَ وَبَرَأَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تِلْكَ فِي اِرْتِفَاعِهَا وَلَطَافَتِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَكَوَاكِبِهَا السَّيَّارَةِ وَالثَّوَابِتِ وَدَوْرَانِ فُلُكِهَا - وَهَذِهِ الْأَرْضُ فِي كَثَافَتِهَا وَأَنْخِفَاضِهَا وَجِبَاهِهَا وَبِحَارِهَا وَقِفَارِهَا وَوَهَادِهَا وَعِمْرَانِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، هَذَا يَجِيءُ ثُمَّ يَذْهَبُ وَيُخْلَفُهُ الْآخَرُ وَيَعْقِبُهُ ، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ لِحُظَّةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠] وَتَارَةً يَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا ، وَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا ثُمَّ يَتَعَاوَضَانِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [الحديد: ١٦] أَيُّ : يَزِيدُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا ، وَمِنْ هَذَا فِي هَذَا ﴿ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ أَيُّ : فِي تَسْخِيرِ الْبَحْرِ بِحَمْلِ الشُّفْنِ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ لِمَعَاشِ النَّاسِ ، وَالِانْتِفَاعِ بِمَا عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الْإِقْلِيمِ ، وَنَقْلَ هَذَا إِلَى هُوَلاءِ وَمَا عِنْدَ أَوْلِيكَ إِلَى هُوَلاءِ ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَمِيتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٣-٣٦] ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أَيُّ : عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَمَنَافِعِهَا وَصِغَرِهَا وَكِبَرِهَا ، وَهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيَرْزُقُهُ لَا يَنْفَقُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ﴾ أَيُّ : فَتَارَةً تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ ، وَتَارَةً تَأْتِي بِالْعَذَابِ ، وَتَارَةً تَأْتِي مُبَشِّرَةً بَيْنَ يَدَيِ السَّحَابِ ، وَتَارَةً تُسَوِّفُهُ ، وَتَارَةً تَجْمَعُهُ ، وَتَارَةً تُفَرِّقُهُ ، وَتَارَةً تُصَرِّفُهُ ، ثُمَّ تَارَةً تَأْتِي مِنَ الْجَنُوبِ وَهِيَ الشَّامِيَّةُ ، وَتَارَةً تَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ الْيَمَنِ ، وَتَارَةً صَبَا وَهِيَ الشَّرْقِيَّةُ الَّتِي تَصُدُّمْ وَجْهَ الْكَعْبَةِ ، وَتَارَةً دُبُورًا وَهِيَ غَرْبِيَّةٌ تَنْفُذُ مِنْ نَاحِيَةِ دُبُرِ الْكَعْبَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : سَائِرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مُسَخَّرٌ

إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ مِنَ الْأَرْضِ وَالْأَمَاكِنِ كَمَا يُصَرِّفُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَلْقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أَي : فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ دَلَالَاتٌ بَيِّنَةٌ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (٣٠) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (٣٢)

يَذْكُرُ تَعَالَى حَالِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، حَيْثُ جَعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا ، أَيِ أَمْثَالًا وَنُظَرَاءَ ، يَعْبُدُونَهُمْ مَعَهُ وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ ، هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَلَا ضِدَّ لَهُ ، وَلَا نِدَّ لَهُ ، وَلَا شَرِيكَ مَعَهُ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ ، وَلِحُبِّهِمْ لِلَّهِ وَتَمَامِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَتَوْحِيدِهِمْ لَهُ ، لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا ، بَلْ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ ، وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ وَيَلْجَأُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ . ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ بِهِ ، الظَّالِمِينَ لِنَفْسِهِمْ بِذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : تَقْدِيرُ الْكَلَامِ لَوْ عَايَنُوا الْعَذَابَ لَعَلِمُوا حَيْثُ نَزَّ الْقُوَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا أَي : أَنَّ الْحُكْمَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَحْتَ قَهْرِهِ وَعَلَيْتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ كُفْرِهِمْ بِأَوْثَانِهِمْ وَتَبَرُّيِ الْمُتَّبِعِينَ مِنَ التَّابِعِينَ ، فَقَالَ : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ تَبَرَّأَتْ مِنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِبَّانًا يَعْبُدُونَ ﴾ ، وَالْجَنُّ أَيْضًا تَبَرَّأَ مِنْهُمْ وَيَتَنَصَّلُونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ هُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ أَي : عَايَنُوا عَذَابَ اللَّهِ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْحِيلُ وَأَسْبَابُ الْخَلَّاصِ ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنِ النَّارِ مَعْدَلًا وَلَا مَصْرَفًا . ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ قِيلَ : تَقَطَّعَتْ الْمَوَدَّةُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ أَي : لَوْ أَنَّ لَنَا عَوْدَةً إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا حَتَّى نَتَّبَرَأَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ فَلَا نَلْتَمِئُ إِلَيْهِمْ ، بَلْ نُوَحِّدُ اللَّهَ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ : وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي هَذَا بَلْ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : تَذَهَبُ

وَتَضْمَحِلُّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ .

يَنَائِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّهُ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ ، شَرَعَ يُبَيِّنُ أَنَّ الرِّزَاقَ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ ، فَذَكَرَ فِي مَقَامِ الْإِمْتِنَانِ : أَنَّهُ أَبَاحَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ ، فِي حَالِ كَوْنِهِ حَلَالًا مِنْ اللَّهِ طَيِّبًا أَيْ : مُسْتَطَابًا بِإِنْفِسِهِ غَيْرَ ضَارٍّ لِلْأَبْدَانِ وَلَا لِلْعُقُولِ ، وَتَهَاوُمَ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَهِيَ طَرِيقُهُ وَمَسَالِكُهُ فِيمَا أَضَلَّ أَتْبَاعَهُ فِيهِ ، مِنْ تَحْرِيمِ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالْوَصَائِلِ وَنَحْوِهَا ، مِمَّا كَانَ زِينَةً لَهُمْ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ . ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ كُلُّ مَعْصِيَةٍ لِلَّهِ فِيهِ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ عَدُوُّكُمْ الشَّيْطَانُ بِالْأَفْعَالِ السَّيِّئَةِ ، وَأَعْلَظَ مِنْهَا الْفَاحِشَةُ كَالزَّانَا وَنَحْوِهِ ، وَأَعْلَظَ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِمَا لَا عِلْمَ ، فَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ كَافِرٍ وَكُلُّ مُبْتَدِعٍ أَيْضًا .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أُولَوْكَاتِ ءِآبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِذَا قِيلَ لَهُوْلَاءِ الْكُفْرَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاتْرَكُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ ، قَالُوا فِي جَوَابِ ذَلِكَ : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا ﴾ أَيْ : مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا ، أَيْ : مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ : ﴿ أُولَوْكَاتِ ءِآبَاؤُهُمْ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ يَقْتَدُونَ بِهِمْ وَيَقْتَفُونَ أَثَرَهُمْ ﴿ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ فَهْمٌ وَلَا هِدَايَةٌ . ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ تَعَالَى مَثَلًا فَقَالَ : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيْ : فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ وَالْجَهْلِ ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ كَالذَّوَابِّ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهَا ، بَلْ إِذَا نَعَقَ بِهَا رَاعِيهَا أَيْ دَعَاَهَا إِلَى مَا يُرْشِدُهَا لَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ وَلَا تَفْهَمُهُ ، بَلْ إِنَّمَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَقَطْ . ﴿ صُمُّ بُكُمْ عُمَى ﴾ أَيْ : صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ، بُكْمٌ لَا يَتَفَوَّهُونَ بِهِ ، عُمَى عَنْ رُؤْيَةِ طَرِيقِهِ وَمَسْلَكِهِ ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَفْهَمُونَهُ .

يَنَائِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٤٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ

أَضْطَرُّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَكْلِ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقَهُمْ تَعَالَى ، وَأَنْ يَشْكُرُوهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ إِنْ كَانُوا عِبِيدَهُ ، وَالْأَكْلُ مِنَ الْحَلَالِ سَبَبٌ لِقَبُولِ الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ ، كَمَا أَنَّ الْأَكْلَ مِنَ الْحَرَامِ يَمْنَعُ قَبُولَ الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ . وَلَمَّا أَمْتَنَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِرِزْقِهِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى الْأَكْلِ مِنْ طَيِّبِهِ ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْمَيْتَةَ وَهِيَ الَّتِي تَمُوتُ حَتْفَ أَنْفِهَا مِنْ غَيْرِ تَذَكِّيَةٍ . ثُمَّ أَبَاحَ تَعَالَى تَنَاوُلَ ذَلِكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَالِاحْتِيَاجِ إِلَيْهَا عِنْدَ فَقْدِ غَيْرِهَا مِنَ الْأَطْعِمَةِ فَقَالَ : ﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ أَيُ : فِي غَيْرِ بَغْيٍ وَلَا عُدْوَانٍ ، وَهُوَ مُجَاوِزُهُ الْحُدَّ ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ أَيُ : فِي أَكْلِ ذَلِكَ ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿٧٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٧٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يَعْنِي : الْيَهُودُ الَّذِينَ كَتَمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ ، بِمَا تَشْهَدُ لَهُ بِالرَّسَالَةِ وَالنَّبُوءَةِ ، فَكَتَمُوا ذَلِكَ لِئَلَّا تَذْهَبَ رِيَاسَتُهُمْ ، وَمَا كَانُوا يَأْخُذُونَهُ مِنَ الْعَرَبِ ، مِنَ الْهُدَايَا وَالتَّحْفِ عَلَى تَعْظِيمِهِمْ آبَاءَهُمْ ، فَخَشُوا لِعَنَهُمُ اللَّهُ إِنْ أَظْهَرُوا ذَلِكَ أَنَّ يَتَّبِعُهُ النَّاسُ وَيَتْرَكُوهُمْ ، فَكَتَمُوا ذَلِكَ إِنْقَاءً عَلَى مَا كَانَ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ نَزْرُ يَسِيرٌ ، فَبَاعُوا أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ ، وَاعْتَاَضُوا عَنِ الْهُدَى ، وَاتَّبَعَ الْحَقُّ ، وَتَصَدَّقَ الرَّسُولُ ، وَالْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ بِذَلِكَ النَّزْرِ الْيَسِيرِ ، فَخَابُوا وَخَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ لِعِبَادِهِ صِدْقَ رَسُولِهِ بِمَا نَصَبَهُ وَجَعَلَهُ مَعَهُ مِنَ الْآيَاتِ الظَّاهِرَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ، فَصَدَّقَهُ الَّذِينَ كَانُوا يَخَافُونَ أَنْ يَتَّبِعُوهُ ، وَصَارُوا عَوْنًا لَهُ عَلَى قِتَالِهِمْ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَذَمَّهُمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، فَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ، وَهُوَ عَرَضُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَأُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ، أَيُ : إِنَّمَا يَأْكُلُونَ مَا يَأْكُلُونَهُ فِي مُقَابَلَةِ كَيْفَانِ الْحَقِّ نَارًا تَأْجَجُ فِي بُطُونِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى غَضَبَانٌ عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّهُمْ كَتَمُوا وَقَدْ عَلِمُوا ، فَاسْتَحَقُّوا الْعُصْبَ ، فَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، أَيُ

يُنَبِّئُ عَلَيْهِمْ وَيَمْدَحُهُمْ ، بَلْ يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾ أي : اعتاضوا عن الهدى وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول ، وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء ، وأتباعه وتصديقه ، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة وهو تكذيبه والكفر به وكتبان صفاته في كتبهم ﴿ وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ أي : اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب ، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة : وقوله تعالى : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل ، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك ، مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال ، عيادًا بالله من ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَزَلَّ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل ، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا ، فكتبهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره ، فخالفوه وكذبوه ، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، وهم يكذبونه ويخالفونه ويحذونه ، ويكتمون صفته ، فاستهزؤوا بآيات الله المنزلة على رسوله ، فلهذا استحقوا العذاب والنكال ، ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَزَلَّ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ .

❖ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

وَأَمَّا الْكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَّلًا بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ حَوَّاهُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى نَفُوسِ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانَ حِكْمَتِهِ فِي ذَلِكَ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ إِنَّمَا هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ ﷻ وَامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ وَالتَّوَجُّهِ حَيْثُمَا وَجَّهَ ، وَاتِّبَاعَ مَا شَرَعَ ، فَهَذَا هُوَ الْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَالْإِيمَانُ الْكَامِلُ ، وَلَيْسَ فِي لُزُومِ التَّوَجُّهِ إِلَى جِهَةٍ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ بَرٌّ وَلَا طَاعَةٌ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الْآيَةِ ، كَمَا قَالَ فِي

الْأَصْحَابِي وَالْهَدَايَا ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] ﴿وَالْكَتَبَ﴾ وَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ الْكُتُبَ الْمُنْزَلَةَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، حَتَّى خُتِمَتْ بِأَشْرَفِهَا وَهُوَ الْقُرْآنُ ، الْمُهِمِّنُ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ ، الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ كُلُّ خَيْرٍ ، وَاشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ سَعَادَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَنُسِخَ بِهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَهُ ، ﴿وَالنَّبِيِّنَ﴾ وَآمَنَ بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ كُلِّهِمْ مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَأَتَى أَلَمَالٌ عَلَىٰ حَيْبٍ﴾ أَي : أَخْرَجَهُ وَهُوَ مُجِبٌ لَهُ رَاغِبٌ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ذَوَى الْقُرْبَىٰ﴾ ، وَهُمْ قَرَابَاتُ الرَّجُلِ ، وَهُمْ أَوْلَى مَنْ أُعْطِيَ مِنَ الصَّدَقَةِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ . ﴿وَالْيَتَامَى﴾ هُمُ الَّذِينَ لَا كَاسِبَ لَهُمْ ، وَقَدْ مَاتَ آبَاؤُهُمْ وَهُمْ ضِعْفَاءُ صِغَارٌ ذُونَ الْبُلُوغِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى التَّكْسِبِ . ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ ، وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ فِي قُوتِهِمْ وَكِسْوَتِهِمْ وَسُكْنَاهُمْ ، فَيُعْطُونَ مَا تُسَدُّ بِهِ حَاجَتُهُمْ وَخَلَّتْهُمْ ، ﴿وَأَبْنَى السَّبِيلِ﴾ وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُجْتَازُ الَّذِي قَدْ فَرَّغَتْ نَفَقَتُهُ ، فَيُعْطَى مَا يُوصِلُهُ إِلَى بَلَدِهِ ، وَكَذَا الَّذِي يُرِيدُ سَفَرًا فِي طَاعَةٍ فَيُعْطَى مَا يَكْفِيهِ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الضَّيْفُ . ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِلطَّلَبِ فَيُعْطُونَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ . ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ ، وَهُمْ الْمُكَاتِبُونَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُؤَدُّونَهُ فِي كِتَابَتِهِمْ . ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أَي : وَاتَّمَّ أَفْعَالَ الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا ، وَطُمَأْنِينَتِهَا وَخُشُوعِهَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَرْضِيِّ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ زَكَاةُ النَّفْسِ وَتَحْلِيصُهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ الرَّذِيلَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ❶ وَقَدْ حَاطَ مَنْ دَسَّهَا ❷ [الشمس: ٩-١٠] ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ زَكَاةَ الْمَالِ ، وَيَكُونُ الْمَذْكُورُ مِنْ إِعْطَاءِ هَذِهِ الْجِهَاتِ وَالْأَصْنَافِ الْمَذْكُورِينَ ، إِنَّهَا هُوَ التَّطَوُّعُ وَالْبِرُّ وَالصَّلَةُ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَالْمُؤْفُوتَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ لَا يَنْقُضُونَ الْعَمِيثَ﴾ ، وَعَكْسُ هَذِهِ الصِّفَةِ النِّفَاقُ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أَي : فِي حَالِ الْفَقْرِ ، وَهُوَ الْبَأْسَاءُ ، وَفِي حَالِ الْمَرَضِ وَالْأَسْقَامِ وَهُوَ الضَّرَاءُ ، ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أَي : فِي حَالِ الْقِتَالِ وَالتَّقَاةِ الْأَعْدَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أَي : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي إِيْمَانِهِمْ لَا تَنَبَّهَتْ لَهُمْ حَقَقَاتُ الْإِيْمَانِ الْقَلْبِيَّةِ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ، لَا تَنَبَّهَتْ لِقَوْلِهِمُ الْمُحَارِمَ وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ۖ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ

بِالْأَتَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ
حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْعَدْلُ فِي الْقِصَاصِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، حُرِّمَ بِحُرِّكُمْ ، وَعَبْدُكُمْ بِعَبْدِكُمْ
وَأَنْتَاكُمْ بِأَنْتَاكُمْ ، وَلَا تَتَجَاوَزُوا وَتَعْتَدُوا ، كَمَا اعْتَدَىٰ مَنْ قَبْلَكُمْ ، وَغَيَّرُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ ، فَأَمَرَ
اللَّهُ بِالْعَدْلِ فِي الْقِصَاصِ ، وَلَا يَتَّبِعُ سَبِيلُ الْمُفْسِدِينَ الْمُحَرِّفِينَ الْمُخَالِفِينَ لِأَحْكَامِ اللَّهِ فِيهِمْ ، كُفِّرُوا
وَبُعِيَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَلْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَتَىٰ بِالْأَتَىٰ ﴾ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : فَالْعَفْوُ أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَّةُ فِي الْعَمْدِ ، وَعَنْهُ أَيْضًا : فَمَنْ تَرَكَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ
﴿ شَيْءٌ ﴾ يَعْنِي : أَخَذَ الدِّيَّةَ بَعْدَ اسْتِحْقَاقِ الدَّمِ ، وَذَلِكَ الْعَفْوُ ﴿ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يَقُولُ : فَعَلَى
الطَّالِبِ إِتِّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا قَبِلَ الدِّيَّةَ ﴿ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْقَاتِلِ مِنْ غَيْرِ ضَرَرٍ
وَلَا مَعَكْ ، يَعْنِي : الْمُدَافَعَةَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّمَا شَرَعَ
لَكُمْ أَخْذَ الدِّيَّةِ فِي الْعَمْدِ تَخْفِيفًا مِّنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ ، مِمَّا كَانَ مَحْتَوًّا عَلَى الْأَمَمِ قَبْلَكُمْ
مِنَ الْقَتْلِ أَوْ الْعَفْوِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى فَمَنْ قَتَلَ
بَعْدَ أَخْذِ الدِّيَّةِ أَوْ قَبُولِهَا فَلَهُ عَذَابٌ مِّنَ اللَّهِ أَلِيمٌ مُّوجِعٌ شَدِيدٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ
حَيَوةٌ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَفِي شَرْعِ الْقِصَاصِ لَكُمْ ، وَهُوَ قَتْلُ الْقَاتِلِ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَهِيَ بَقَاءُ
الْمُهْجِ وَصَوْمُهَا ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ الْقَاتِلُ أَنَّهُ يُقْتَلُ انْكَفَّ عَنْ صَنِيعِهِ ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ حَيَاةً لِلنَّفُوسِ ،
﴿ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ يَقُولُ : يَا أُولِيَ الْعُقُولِ ، وَالْأَفْهَامِ ، وَالنُّهَى ، لَعَلَّكُمْ تَتَزَجَّرُونَ
وَتَتَرَكُونَ مُحَارِمَ اللَّهِ ، وَمَأْتِمَهُ ، وَالتَّقْوَى : اسْمٌ جَامِعٌ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ ، وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ .

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٧٩﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ
يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٨٠﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ
عَلَيْهِ إِنْ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨١﴾

اِسْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى الْأَمْرِ بِالْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا
عَلَى أَصْحَابِ الْقَوْلَيْنِ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ الْمَوَارِيثِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْفَرَائِضِ نَسَخَتْ هَذِهِ ، وَصَارَتْ

الْمَوَارِيثُ الْمَقْدَرَةُ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ يَأْخُذُهَا أَهْلُهَا حَتَّى مِنْ غَيْرِ وَصِيَّةٍ ، وَلَا تَحْمِلُ مِنَ الْمُوصِي .
 فَالْآيَةُ : مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْمِيرَاثِ ، فَإِنَّ وُجُوبَ الْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ الْوَارِثِينَ مَنْسُوخٌ
 بِالْإِجْمَاعِ ، بَلْ مَنْهِيٌّ عَنْهُ لِلْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَلَا وَصِيَّةَ
 لَوَارِثٍ » . وَقَوْلُهُ : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » أَي : مَالًا . وَقَوْلُهُ : « بِالْمَعْرُوفِ » أَي : بِالرَّفْقِ وَالْإِحْسَانِ .
 وَالْمُرَادُ بِالْمَعْرُوفِ أَنْ يُوصِيَ لِأَقْرَبِيهِ وَصِيَّةً لَا تُجْحِفُ بِوَرَثَتِهِ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا تَقْتِيرٍ .

وَقَوْلُهُ : « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ » إِنَّ اللَّهَ سَمِعَ عَلِيمٌ . يَقُولُ
 تَعَالَى فَمَنْ بَدَّلَ الْوَصِيَّةَ وَحَرَّفَهَا فَغَيَّرَ حُكْمَهَا وَزَادَ فِيهَا أَوْ نَقَصَ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابَانِ لَهَا
 بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى « فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ » قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : وَقَدْ وَقَعَ أَجْرُ
 الْمَيْتِ عَلَى اللَّهِ وَتَعَلَّقَ الْإِثْمُ بِالَّذِينَ بَدَّلُوا ذَلِكَ « إِنَّ اللَّهَ سَمِعَ عَلِيمٌ » أَي : قَدْ أَطْلَعَ عَلَى مَا أَوْصَى
 بِهِ الْمَيْتُ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَلِكَ ، وَبِمَا بَدَّلَهُ الْمُوصَى إِلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا » الْآيَةُ ، الْجَنَفُ : الْخَطَأُ . وَهَذَا يَشْمَلُ
 أَنْوَاعَ الْخَطَأِ كُلِّهَا ، بَأَنْ زَادُوا وَارِثًا بِوَاسِطَةٍ أَوْ وَسِيلَةٍ ، كَمَا إِذَا أَوْصَى بِبَيْعَةِ الشَّيْءِ الْفُلَانِيَّ مُحَابَاةً ،
 أَوْ أَوْصَى لِابْنِ ابْنَتِهِ لِيَزِيدَ ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ ، إِمَّا مُحْطَطًا غَيْرَ عَامِدٍ بَلْ بِطَبْعِهِ وَقُوَّةِ
 شَفَقَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَبْصُرٍ ، أَوْ مُتَعَمِّدًا آثِمًا فِي ذَلِكَ ، فَلِلْمُوصِي - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - أَنْ يُصْلِحَ الْقَضِيَّةَ
 وَيَعْدِلَ فِي الْوَصِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ ، وَيَعْدِلَ عَنِ الَّذِي أَوْصَى بِهِ الْمَيْتُ إِلَى مَا هُوَ أَقْرَبُ
 الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَأَشْبَهُ الْأُمُورِ بِهِ ، جَمْعًا بَيْنَ مَقْصُودِ الْمُوصِي وَالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ ، وَهَذَا الْإِصْلَاحُ
 وَالتَّوْفِيقُ لَيْسَ مِنَ التَّبْدِيلِ فِي شَيْءٍ ، وَهَذَا عَطَفَ هَذَا فَيَبَيِّنُهُ عَلَى النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ ، لِيَعْلَمَ أَنَّ هَذَا
 لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ بِسَبِيلٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١٧﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ
 أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ
 وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَآمِرًا لَهُمْ بِالصِّيَامِ ، وَهُوَ الْإِمْسَاكُ عَنِ الطَّعَامِ
 وَالشَّرَابِ وَالْوِقَاعِ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ لِلَّهِ ﷻ ، لِمَا فِيهِ مِنْ زَكَاةِ النَّفْسِ وَطَهَارَتِهَا وَتَنْقِيَّتِهَا مِنَ
 الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ وَالْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ أَوْجَبَهُ عَلَى مَنْ كَانَ
 قَبْلَهُمْ ، فَالْهَمُّ فِيهِ أَسْوَدُ حَسَنَةٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : « يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ

عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٥﴾ لَأَنَّ الصَّوْمَ فِيهِ تَزَكِيَةٌ لِلْبَدَنِ ، وَتَضْيِيقٌ لِمَسَالِكِ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ يَبَيِّنُ مِقْدَارَ الصَّوْمِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، لِيَنَالَا يَشَقَّ عَلَى النَّفْسِ فَتَضَعُفُ عَنْ حَمْلِهِ وَأَدَائِهِ ، بَلْ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ . ثُمَّ يَبَيِّنُ حُكْمَ الصَّيَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ : ﴿ فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أَيُّ : الْمَرِيضُ وَالْمُسَافِرُ لَا يَصُومَانِ فِي حَالِ الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمَا ، بَلْ يُفْطِرَانِ وَيَقْضِيَانِ بَعْدَهُ ذَلِكَ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ يَفْتَدِي حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا فَتَسَخَّتْهَا ، وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : هِيَ مَنْسُوخَةٌ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : لَيْسَتْ مَنْسُوخَةٌ ، هُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْمَرْأَةُ الْكَبِيرَةُ ، لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا ، فَيُطْعِمَانِ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا .

فَحَاصِلُ الْأَمْرِ أَنَّ النَّسْخَ نَابِتٌ فِي حَقِّ الصَّحِيحِ الْمُقِيمِ بِإِجَابِ الصَّيَامِ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ، وَأَمَّا الشَّيْخُ الْفَانِي الْهَرَمِيُّ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الصَّيَامَ ، فَلَهُ أَنْ يُفْطِرَ وَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَتْ لَهُ حَالٌ يَصِيرُ إِلَيْهَا يَتِمَّكُنُ فِيهَا مِنَ الْقَضَاءِ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ فِدْيَةٌ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ .

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴿١٨٦﴾ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٧﴾

يَمْدَحُ تَعَالَى شَهْرَ الصَّيَامِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الشُّهُورِ ، بِأَنِ اخْتَارَهُ مِنْ بَيْنِهِنَّ لِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهِ ، نَزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَهُ مُفْرَقًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَقَوْلُهُ : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ هَذَا مَدْحٌ لِلْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ هُدًى لِقُلُوبِ الْعِبَادِ يَمُنُّ بِهِ وَصَدَقَهُ وَاتَّبَعَهُ ﴿ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ أَيُّ : وَدَلَالٍ وَحُجَجٍ بَيِّنَةٍ وَاضِحَةٍ جَلِيَّةٍ لِمَنْ فَهَمَهَا وَتَدَبَّرَهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ هَذَا إِجَابٌ حَتَمٌ عَلَى مَنْ شَهِدَ اسْتِهْلَالَ الشَّهْرِ ، أَيُّ كَانَ مُقِيمًا فِي الْبَلَدِ حِينَ دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ ، وَهُوَ صَحِيحٌ فِي بَدَنِهِ ، أَنْ يَصُومَ لَا مُحَالَةً ، وَتَسَخَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْإِبَاحَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ لِمَنْ كَانَ صَحِيحًا مُقِيمًا أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْدِي ، وَيُطْعِمُ مِسْكِينٍ

عَنْ كُلِّ يَوْمٍ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَلَمَّا خَتِمَ الصَّيَامُ أَعَادَ ذِكْرَ الرُّخْصَةِ لِلْمَرِيضِ وَلِلْمُسَافِرِ فِي الْإِفْطَارِ بِشَرْطِ الْقَضَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ مَعْنَاهُ : وَمَنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ فِي بَدَنِهِ يَشُقُّ عَلَيْهِ الصَّيَامُ مَعَهُ أَوْ يُؤْذِيهِ ، أَوْ كَانَ عَلَى سَفَرٍ ، أَيْ فِي حَالِ السَّفَرِ ، فَلَهُ أَنْ يُفْطِرَ ، فَإِذَا أَفْطَرَ فَعَلَيْهِ عِدَّةٌ مَا أَفْطَرَهُ فِي السَّفَرِ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا رَخَّصَ لَكُمْ فِي الْفِطْرِ فِي حَالِ الْمَرَضِ ، وَفِي السَّفَرِ مَعَ تَحْتِمِهِ فِي حَقِّ الْمُقِيمِ الصَّحِيحِ ، تَيْسِيرًا عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ أَيْ : وَلِتَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ انْقِضَاءِ عِبَادَتِكُمْ ، وَلِهَذَا جَاءَتِ السُّنَّةُ بِاسْتِحْبَابِ التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا قُمْتُمْ بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ مِنْ طَاعَتِهِ ، بِإِدَاءِ فَرَائِضِهِ وَتَرْكِ مُحَارِمِهِ ، وَحِفْظِ حُدُودِهِ ، فَلَعَلَّكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الشَّاكِرِينَ بِذَلِكَ .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿٢١٦﴾

الْمُرَادُ مِنْ هَذَا : أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُحِبُّ دُعَاءَ دَاعٍ ، وَلَا يَشْغَلُهُ عَنْهُ شَيْءٌ ، بَلْ هُوَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ، فَفِيهِ تَرْغِيبٌ فِي الدُّعَاءِ ، وَأَنَّهُ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ . وَفِي ذِكْرِهِ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةُ الْبَاعِثَةُ عَلَى الدُّعَاءِ مُتَحَلِّلَةً بَيْنَ أَحْكَامِ الصَّيَامِ ، إِزْشَادٌ إِلَى الْاجْتِهَادِ فِي الدُّعَاءِ عِنْدَ اكْتِمَالِ الْعِدَّةِ ، بَلْ وَعِنْدَ كُلِّ فِطْرٍ .
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لِلصَّائِمِ عِنْدَ إِفْطَارِهِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ » فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو إِذَا أَفْطَرَ دَعَا أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَدَعَا .

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرِبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢١٧﴾

هَذِهِ رُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ وَرَفَعَ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُهُمْ إِنَّمَا يَحِلُّ لَهُ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالْجُمَاعُ إِلَى صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، أَوْ يَنَامُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَمَتَى نَامَ أَوْ صَلَّى الْعِشَاءَ حَرَّمَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالْجُمَاعُ إِلَى اللَّيْلِ الْقَابِلَةِ ، فَوَجَدُوا مِنْ

ذَلِكَ مَشَقَّةَ كَبِيرَةٍ ، وَالرَّفَثُ هُنَا هُوَ الْجَمَاعُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ يَعْنِي : هُنَّ سَكَنٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ سَكَنٌ لَهُنَّ ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ كُلَّ مِنْهُمَا يُخَالِطُ الْآخَرَ وَثِيَابُهُ وَيُصَاحِبُهُ ، فَانْسَبَ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُمْ فِي الْمَجَامَعَةِ فِي لَيْلٍ رَمَضَانَ لِئَلَّا يَشُقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ أَبَاحَ تَعَالَى الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِبَاحَةِ الْجَمَاعِ فِي أَيِّ اللَّيْلِ شَاءَ الصَّائِمُ ، إِلَى أَنْ يَتَبَيَّنَ ضِيَاءُ الصَّبَاحِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ ، وَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالْخَيْطِ الْأَبْيَضِ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ وَرَفَعَ اللَّبْسَ بِقَوْلِهِ : ﴿ مِنْ الْفَجْرِ ﴾ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ يَقْتَضِي الْإِفْطَارَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ حُكْمًا شَرْعِيًّا . وَهَذَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ النَّهْيُ عَنِ الْوَصَالِ ، وَهُوَ أَنْ يَصِلَ يَوْمًا يَوْمَ آخِرٍ وَلَا يَأْكُلَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ، وَثَبَتَ أَنَّهُ مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ كَانَ يَقْوَى عَلَى ذَلِكَ وَيُعَانُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُبْشِرُوا هُتًى وَأَنْتُمْ عَبِكْفُونَ فِي الْمَسْجِدِ ﴾ لَا يَقْرُبُهَا وَهُوَ مُعْتَكِفٌ ، وَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْمُعْتَكِفَ يَحْرُمُ عَلَيْهِ النِّسَاءُ مَا دَامَ مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِهِ ، وَالْمُرَادُ بِالْمُبَاشَرَةِ إِنَّمَا هُوَ الْجَمَاعُ وَدَوَاعِيهِ مِنْ تَقْبِيلٍ وَمُعَانَقَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَأَمَّا مُعَاطَاةُ الشَّيْءِ وَنَحْوُهُ فَلَا بَأْسَ بِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ وَفَرَضْنَاهُ وَحَدَدْنَاهُ مِنَ الصَّيَامِ وَأَحْكَامِهِ ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : شَرَعَهَا اللَّهُ وَبَيَّنَّهَا بِنَفْسِهِ ﴿ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾ أَيُّ : لَا تُجَاوِزُوهَا وَتَتَعَدَّوهَا ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ ﴾ أَيُّ : كَمَا بَيَّنَّ الصَّيَامَ وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ وَتَفَاصِيلَهُ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ سَائِرَ الْأَحْكَامِ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أَيُّ : يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَهْتَدُونَ وَكَيْفَ يُطِيعُونَ .

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٨﴾

هَذَا فِي الرَّجُلِ يَكُونُ عَلَيْهِ مَالٌ وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِيهِ بَيِّنَةٌ ، فَيَجْحَدُ الْمَالَ وَيُخَاصِمُ إِلَى الْحُكَّامِ ، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ الْحَقَّ عَلَيْهِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِثْمٌ أَكَلَ الْحَرَامَ . فَذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُغَيِّرُ الشَّيْءَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، قَالَ قَتَادَةُ : إِعْلَمْ يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّ قَضَاءَ الْقَاضِي لَا يُحِلُّ لَكَ حَرَامًا ، وَلَا يُحَقُّ لَكَ بَاطِلًا وَإِنَّمَا يَقْضِي الْقَاضِي بِنَحْوِ مَا يَرَى وَتَشْهَدُ بِهِ الشُّهُودُ ، وَالْقَاضِي بَشَرٌ يُحْطِئُ وَيُصِيبُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ قُضِيَ لَهُ بِبَاطِلٍ أَنْ خُصِمَتْهُ لَمْ تَنْقُضْ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا

يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَقْضِي عَلَى الْمُبْطِلِ لِلْمُحِقِّ بِأَجُودَ مِمَّا قُضِيَ بِهِ لِلْمُبْطِلِ عَلَى الْمُحِقِّ فِي الدُّنْيَا .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۚ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ۚ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٨٩)

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۚ جَعَلَهَا اللَّهُ مَوَاقِيتَ لِمُحِلِّهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِفْطَارِهِمْ ، وَعِدَّةُ نِسَائِهِمْ وَمَحَلُّ دِينِهِمْ .

عَنِ الْبِرِّ ۚ قَالَ : كَانُوا إِذَا أَحْرَمُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَتَوْا الْبُيُوتَ مِنْ ظَهْرِهَا فَانْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ۚ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَفِي رِوَايَةٍ : عَنِ الْبِرِّ ۚ قَالَ : كَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا قَدِمُوا مِنْ سَفَرِهِمْ لَمْ يَدْخُلِ الرَّجُلُ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ فَانْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَيُّ : اتَّقُوا اللَّهَ فَافْعَلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ ، وَاتَّقُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ غَدًا إِذَا وَقَفْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَيَجَازِيكُمْ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ .

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۚ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٩١﴾ فَإِنْ أَنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٩٣﴾

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ ۚ تَهْبِيجٌ وَإِعْرَاءٌ بِالْأَعْدَاءِ الَّذِينَ هَمَّتْهُمْ قِتَالُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، أَيْ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ أَنْتُمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ أَيْ : لِيَكُونَ هِمَّتُكُمْ مُنْبَعِثَةً عَلَى قِتَالِهِمْ ، كَمَا أَنَّ هِمَّتَهُمْ مُنْبَعِثَةٌ عَلَى قِتَالِكُمْ ، وَعَلَى إِخْرَاجِهِمْ مِنْ بِلَادِهِمْ الَّتِي أَخْرَجُوكُمْ مِنْهَا ، قِصَاصًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أَيُّ : قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَدُوا فِي ذَلِكَ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ إِرْتِكَابُ الْمُنَافِقَةِ مِنَ الْمُثَلَّةِ ، وَالْغُلُولِ ، وَقَتْلُ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ وَالشُّيُوخِ ، الَّذِينَ لَا رَأْيَ لَهُمْ وَلَا قِتَالَ فِيهِمْ ، وَالرُّهْبَانَ وَأَصْحَابَ الصَّوَامِعِ ، وَتَحْرِيقَ الْأَشْجَارِ ، وَقَتْلَ الْحَيَوَانَ لِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ . وَلَمَّا كَانَ الْجِهَادُ فِيهِ إِزْهَاقُ النُّفُوسِ وَقَتْلُ الرِّجَالِ ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالشُّرْكِ بِهِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ ، أَبْلَغُ وَأَشَدُّ

وَأَعْظَمَ وَأَظْمَ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ قِيلَ : الشَّرُّ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ
 اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَمْ يَحِلَّ إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ
 نَهَارٍ ، وَإِنَّمَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْصَدُ شَجَرُهُ ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ،
 فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ » يَعْنِي : بِذَلِكَ
 - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - قِتَالَهُ أَهْلَهُ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَلَا
 تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يَبْدُوكُمْ بِالْقِتَالِ فِيهِ ، فَلَكُمْ حَيْثُ قَاتَلْتُمُوهُمْ وَقَتَلْتُمُوهُمْ دَفْعًا
 لِلصَّائِلِ ، ﴿ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيُّ : فَإِنْ تَرَكُوا الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ ، وَأَنَابُوا إِلَى الْإِسْلَامِ
 وَالتَّوْبَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ ، وَلَوْ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِي حَرَمِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ
 ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ ، لَمَنْ تَابَ مِنْهُ إِلَيْهِ . ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقِتَالِ الْكُفَّارِ ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أَيُّ :
 شَرُّ . ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أَيُّ : يَكُونَ دِينُ اللَّهِ هُوَ الظَّاهِرُ الْعَالِي عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : فَإِنْ أَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ
 الشَّرِّ وَقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَكُفُّوا عَنْهُمْ ، فَإِنْ مَنْ قَاتَلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ ظَالِمٌ ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى
 الظَّالِمِينَ ، وَالْمُرَادُ بِالْعُدْوَانِ هَاهُنَا : الْمُعَاقَبَةُ وَالْمَقَاتِلَةُ .

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ
 بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢١٧﴾

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْزُو فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ
 إِلَّا أَنْ يُغْزَى ، أَوْ يُغْزَوْا ، فَإِذَا حَضَرَهُ أَقَامَ حَتَّى يَنْسَلِخَ . وَلِهَذَا لَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ مُحَيَّمٌ
 بِالْحُدَيْبِيَّةِ أَنَّ عُثْمَانَ قُتِلَ وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ فِي رِسَالَةٍ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، بَايَعَ أَصْحَابَهُ وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةٍ
 تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ عُثْمَانَ لَمْ يُقْتَلْ كَفَّ عَنْ ذَلِكَ ، وَجَنَحَ إِلَى الْمَسَالَةِ
 وَالْمَصَالِحَةِ فَكَانَ مَا كَانَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾
 أَمَرَ بِالْعَدْلِ حَتَّى فِي الْمُشْرِكِينَ كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ ، وَقَالَ : وَجَزَّوْا
 سِيعَةَ سِنَةِ مِثْلِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أَمَرَ لَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ ،
 وَإِخْبَارًا بِأَنَّهُ تَعَالَى مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِالْبَصْرِ وَالتَّائِيدِ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١٨﴾

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ . وَمَضْمُونُ الْآيَةِ : الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي سَائِرِ وُجُوهِ الْقُرْبَاتِ ، وَوُجُوهِ الطَّاعَاتِ ، وَخَاصَّةً صَرَفُ الْأَمْوَالِ فِي قِتَالِ الْأَعْدَاءِ ، وَبَذْلُهَا فِيمَا يَقْوَى بِهِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَالْإِخْبَارُ عَنْ تَرْكِ فِعْلِ ذَلِكَ ، بِأَنَّهُ هَلَاكٌ وَدَمَارٌ لِمَنْ لَزِمَهُ وَاعْتَادَهُ ، ثُمَّ عَطَفَ بِالْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ ، وَهُوَ أَعْلَى مَقَامَاتِ الطَّاعَةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَحْكَامَ الصِّيَامِ وَعَطَفَ بِذِكْرِ الْجِهَادِ ، شَرَعَ فِي بَيَانِ الْمَنَاسِكِ ، فَأَمَرَ بِإِتِمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، وَظَاهَرُ السِّيَاقِ إِكْمَالُ أَفْعَالِهَا بَعْدَ الشُّرُوعِ فِيهَا . وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ أَيُّ : صُدِّدْتُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ ، وَمُنِعْتُمْ مِنْ إِتِمَامِهَا ، وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الشُّرُوعَ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ مُلْزِمٌ سَوَاءٌ قِيلَ بِوُجُوبِ الْعُمْرَةِ أَوْ بِاسْتِحْبَابِهَا ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ قِيلَ : إِتِمَامُهَا أَنْ تُحْرَمَ مِنْ أَهْلِكَ لَا تُرِيدُ إِلَّا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ ، وَتُهْلَ مِنَ الْمَيْقَاتِ ، لَيْسَ أَنْ تَخْرُجَ لِتَجَارَةَ وَلَا لِحَاجَةٍ ، حَتَّى إِذَا كُنْتَ قَرِيبًا مِنْ مَكَّةَ قُلْتَ : لَوْ حَاجَبْتُ أَوْ اعْتَمَرْتُ ، وَذَلِكَ يُجْزِي وَلَكِنَّ السَّيِّئَ أَنْ تَخْرُجَ لَهُ وَلَا تَخْرُجَ لِغَيْرِهِ . وَقِيلَ : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ أَيُّ : أَقِيمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ ذَكَرُوا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي سَنَةِ بَيْتِ أَبِي عَامٍ الْخُدَيْيَّةِ ، حِينَ حَالَ الْمُشْرِكُونَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ سُورَةَ الْفَتْحِ بِكَمَالِهَا ، وَأَنْزَلَ لَهُمْ رُخْصَةً أَنْ يَذْبَحُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْهَدْيِ ، وَكَانَ سَبْعِينَ بَدَنَةً وَأَنْ يَحْلِقُوا رُءُوسَهُمْ ، وَأَنْ يَتَحَلَّلُوا مِنْ إِحْرَامِهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمُ ﷺ بِأَنْ يَحْلِقُوا رُءُوسَهُمْ وَأَنْ يَتَحَلَّلُوا ، فَلَمْ يَفْعَلُوا ، انْتِظَارًا لِلنَّسْخِ حَتَّى خَرَجَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ ، فَفَعَلَ النَّاسُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : الْهَدْيُ مِنَ الْأَزْوَاجِ الثَّمَانِيَةِ مِنَ الْإِبِلِ ، وَالْبَقَرِ ، وَالْمَعْزِ ، وَالضَّأْنِ . وَقِيلَ : شَاءَ . وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ، وَلَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَامَ الْخُدَيْيَّةِ لَمَّا حَصَرَهُمْ كُفَّارٌ قُرَيْشٍ عَنِ الدُّخُولِ إِلَى الْحَرَمِ حَلَقُوا وَذَبَحُوا هَدْيَهُمْ خَارِجَ الْحَرَمِ ،

فَأَمَّا فِي حَالِ الْأَمْنِ وَالْوُصُولِ إِلَى الْحَرَمِ فَلَا يَجُوزُ الْخَلْقُ ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ﴾ ، وَيَفْرُغُ النَّاسُكَ مِنَ أَفْعَالِ الْحُجِّ وَالْعُمْرَةِ ، إِنْ كَانَ قَارِنًا ، أَوْ مِنْ فِعْلِ أَحَدِهِمَا إِنْ كَانَ مُفْرِدًا أَوْ مُتَمَتِّعًا .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ .
 عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه : حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمَلُ يَتَنَاقَرُ عَلَى وَجْهِي فَقَالَ : « مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الْجَهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ هَذَا ، أَمَا تَجِدُ شَاءً » قُلْتُ : لَا . قَالَ : « صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ ، وَاخْلُقْ رَأْسَكَ » فَتَزَلْتُ فِي خَاصَّةٍ وَهِيَ لَكُمْ عَامَّةٌ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحُجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ أَي : فَإِذَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ أَدَاءِ الْمَنَاسِكِ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَمَتِّعًا بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحُجِّ وَهُوَ يَشْمُلُ مَنْ أَحْرَمَ بِهِمَا أَوْ أَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ أَوَّلًا ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا أَحْرَمَ بِالْحُجِّ ، وَمِنْ الرُّوَاةِ مَنْ يَقُولُ : تَمَتَّعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَآخَرُ يَقُولُ : قَرَنَ ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ سَاقٍ هَدْيًا ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحُجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ أَي : فَلْيَذْبَحْ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنَ الْهَدْيِ ، وَأَقْلَهُ شَاءً ، وَلَهُ أَنْ يَذْبَحَ الْبَقَرِ ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَبَحَ عَنْ نِسَائِهِ الْبَقَرِ . وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ التَّمَتُّعِ . ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحُجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا ، فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحُجِّ ، أَي : فِي أَيَّامِ الْمَنَاسِكِ . ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ . إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ قِيلَ : تَأْكِيدٌ ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : رَأَيْتُ بَعَيْنِي ، وَسَمِعْتُ بِأُذُنِي .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرًا الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ هُمْ أَهْلُ الْحَرَمِ . وَمَنْ كَانَ مِنْهُ عَلَى مَسَافَةٍ لَا يَقْضِرُ فِيهَا الصَّلَاةَ ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ يُعَدُّ حَاضِرًا لَا مُسَافِرًا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَي : فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أَي : لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَازْتَكَبَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُ .

الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِ رَبُّ الْحُجِّ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوْدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى
 الْأَلْبَابِ ﴿٧٧﴾

اِخْتَلَفَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ ﴾ ظَاهِرُهُ أَنَّ وَقْتَ الْحُجِّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ، فَخَصَّصَهُ بِهَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ شُهُورِ السَّنَةِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ قَبْلُهَا كَمِيقَاتِ الصَّلَاةِ . عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿ الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ ﴾ قَالَ : سُؤَالٌ وَدُو الْقَعْدَةِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِ رَبُّ الْحُجِّ ﴾ أَي : أَوْجَبَ بِإِحْرَامِهِ حَجًّا - فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى لُزُومِ الْإِحْرَامِ

بالحجِّ والمضي فيه .

وقوله : ﴿ فَلَا رَفْتَ ﴾ أي : مَنْ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ فَلْيَجْتَنِبِ الرَّفْتَ وَهُوَ الْجَمَاعُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ ، وَكَذَلِكَ يَحْرُمُ تَعَاطِي دَوَاعِيهِ مِنَ الْمُبَاشَرَةِ وَالتَّقْيِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ التَّكَلُّمُ بِهِ بِحَضْرَةِ النِّسَاءِ . ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ وَالْفُسُوقُ هَاهُنَا هُوَ جَمِيعُ الْمَعَاصِي . كَمَا نَهَى تَعَالَى عَنِ الظُّلْمِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ ، وَإِنْ كَانَ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ مِنْهَا عَنْهُ ، إِلَّا أَنَّهُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ أَكْثَرُ . ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ الْمُرَادُ بِالْجِدَالِ هَاهُنَا الْمُخَاصَمَةُ .

وقوله : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ لَمَّا نَهَاهُمْ عَنْ إِيْتَانِ الْقَبِيحِ قَوْلًا وَفِعْلًا ، حَثَّهُمْ عَلَى فِعْلِ الْجَمِيلِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ عَالِمٌ بِهِ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ أَوْفَرُ الْجَزَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وقوله : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ . فَلَمَّا أَمَرَهُمْ بِالزَّادِ لِلسَّفَرِ فِي الدُّنْيَا أَرْشَدَهُمْ إِلَى زَادِ الْآخِرَةِ ، وَهُوَ اسْتِصْحَابُ التَّقْوَى إِلَيْهَا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَرِدْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] لَمَّا ذَكَرَ اللَّبَاسَ الْحَسْبِيَّ نَبَّهَ مُرْشِدًا إِلَى اللَّبَاسِ الْمَعْنَوِيِّ ، وَهُوَ الْخُشُوعُ وَالطَّاعَةُ وَالتَّقْوَى ، وَذَكَرَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ هَذَا وَأَنْفَعُ ﴿ وَأَتَّقُوا يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ ﴾ : وَاتَّقُوا عِقَابِي وَنَكَالِي وَعَذَابِي لِمَنْ خَالَفَنِي ، وَلَمْ يَأْتُمْرِ بِأَمْرِي ، يَا ذَوِي الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿٢٨﴾

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَتْ عُكَاظُ وَجَنَّةٍ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَتَأْتُمُوا أَنْ يَتَجَرُّوا فِي الْمَوْسِمِ ، فَتَزَلَّتْ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ . إِنَّهَا صَرَفَ عَرَفَاتٍ وَإِنْ كَانَ عَلَمًا عَلَى مُؤْتَتٍ ، لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ جَمْعٌ ، كَمُسْلِمَاتٍ وَمُؤْمِنَاتٍ .

وَعَرَفَةُ : مَوْضِعُ الْوُقُوفِ فِي الْحَجِّ وَهِيَ عُمْدَةُ أَفْعَالِ الْحَجِّ . وَوَقْتُ الْوُقُوفِ : مِنَ الزَّوَالِ يَوْمَ عَرَفَةَ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ الثَّانِي مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى الظُّهْرَ إِلَى أَنْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَقَالَ : « لِنَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ » وَقَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : « فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ » . وَذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ إِلَى أَنَّ وَقْتَ الْوُقُوفِ : مِنْ أَوَّلِ

يَوْمَ عَرَفَةَ . وَالْمَشَاعِرُ : هِيَ الْمَعَالِمُ الظَّاهِرَةُ وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ الْمَزْدَلِفَةُ الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ ؛ لِأَنَّهَا دَاخِلُ الْحَرَمِ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ ﴾ تَنْبِيهُ هُمْ عَلَى مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْهُدَايَةِ ، وَالْبَيَانِ
 وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَشَاعِرِ الْحَجِّ ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَايَةِ لِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَذَا قَالَ :
 ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴾ قِيلَ : مِنْ قَبْلِ هَذَا الْهُدَى ، وَقِيلَ : الْقُرْآنُ ، وَقِيلَ :
 الرَّسُولُ ، وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ وَمُتَلَاذِمٌ وَصَحِيحٌ .

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾
 ﴿ ثُمَّ ﴾ هَاهُنَا لِعَطْفٍ خَيْرٍ عَلَى خَيْرٍ وَتَرْتِيبِهِ عَلَيْهِ ، كَأَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْوَاقِفَ بِعَرَفَاتٍ أَنْ يَدْفَعَ
 إِلَى الْمَزْدَلِفَةِ لِيَذْكُرَ اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكُونَ وَقُوفُهُ مَعَ جُمْهُورِ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ كَثِيرًا مَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِذِكْرِهِ ، بَعْدَ قَضَاءِ الْعِبَادَاتِ .
 فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ
 النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٣٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ
 رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٣٣﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ
 مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٤﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ وَالْإِكْتِنَارِ مِنْهُ بَعْدَ قَضَاءِ الْمَنَاسِكِ وَفَرَغِهَا وَقَوْلُهُ ﴿ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾
 اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ ، عَنْ عَطَاءٍ : هُوَ كَقَوْلِ الصَّبِيِّ : أَبُهِ أُمُّهُ ، يَعْنِي كَمَا يَلْهَجُ الصَّبِيُّ بِذِكْرِ أَبِيهِ
 وَأُمِّهِ ، فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ ، فَاهْتَجُوا بِذِكْرِ اللَّهِ بَعْدَ قَضَاءِ النُّسُكِ .
 وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ : الْحُثُّ عَلَى كَثَرَةِ الذِّكْرِ لِلَّهِ ﷻ ، وَ « أَوْ » هَاهُنَا لِتَحْقِيقِ الْمِثَالَةِ فِي الْخَيْرِ ،
 فَلَيْسَتْ هَاهُنَا لِلشُّكِّ قَطْعًا ، وَإِنَّمَا هِيَ لِتَحْقِيقِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ ، كَذَلِكَ أَوْ أَزِيدَ مِنْهُ . ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى
 أَرشَدَ إِلَى دُعَائِهِ بَعْدَ كَثَرَةِ ذِكْرِهِ ، فَإِنَّهُ مَظَنَّةُ الْإِجَابَةِ ، وَذَمٌّ مَنْ لَا يَسْأَلُهُ إِلَّا فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ ، وَهُوَ
 مُعْرِضٌ عَنْ أُخْرَاهُ ، فَقَالَ : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
 خَلْقٍ ﴾ أَيُّ : مِنْ نَصِيبٍ وَلَا حَظٍّ ، وَتَضَمَّنَ هَذَا الذَّمُّ وَالتَّنْفِيرُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِمَنْ هُوَ كَذَلِكَ ،
 وَهَذَا مَدَحٌ مَنْ يَسْأَلُهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، فَقَالَ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
 الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ، فَجَمَعَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا ، وَصَرَفَتْ كُلَّ شَرٍّ ،
 وَأَمَّا الْحَسَنَةُ فِي الْآخِرَةِ فَأَعْلَى ذَلِكَ دُخُولُ الْجَنَّةِ .

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ
 ﷺ : « هَلْ تَدْعُو اللَّهَ بِشَيْءٍ » ، أَوْ تَسْأَلُهُ إِنِّيَاهُ » قَالَ : نَعَمْ ، كُنْتُ أَقُولُ : اللَّهُمَّ مَا كُنْتُ مُعَاقِبِي بِهِ

فِي الْآخِرَةِ فَعَجَّلَهُ لِي فِي الدُّنْيَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّهِ لَا تَطِيقُهُ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ ، فَهَلَّا قُلْتَ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَفَنَا عَذَابَ النَّارِ » قَالَ فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَّاهُ .

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [٢٢٣]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : الْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ : أَيَّامُ التَّشْرِيقِ ، وَالْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ : أَيَّامُ الْعَشْرِ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ يَعْنِي التَّكْبِيرَ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ . وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى النَّفَرَ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي ، وَهُوَ تَقَرُّقُ النَّاسِ مِنْ مَوْسِمِ الْحَجِّ إِلَى سَائِرِ الْأَقَالِيمِ وَالْأَفَاقِ ، بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْمَوَاقِفِ ، قَالَ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٩]

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [٢٢٤]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : أَمَّا نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَقِيلَ : بَلْ ذَلِكَ عَامٌّ فِي الْمُنَافِقِينَ كُلِّهِمْ وَفِي الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ ، قِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا وَإِنْ أَظْهَرَ لَكُمْ الْحِيلَ لَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مِنْ قَلْبِهِ الْقَبِيحَ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّهُ إِذَا أَظْهَرَ لِلنَّاسِ الْإِسْلَامَ حَلَفَ وَأَشْهَدَ اللَّهُ هُمْ أَنَّ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مُوَافِقٌ لِّلِسَانِهِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ الْأَلَدُّ فِي اللُّغَةِ : الْأَعْوَجُ ﴿ وَتَنْذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ أَيِ : عَوَجًا وَهَكَذَا الْمُنَافِقُ فِي حَالِ خُصُومَتِهِ يَكْذِبُ وَيَزُورُ عَنِ الْحَقِّ وَلَا يَسْتَقِيمُ مَعَهُ ، بَلْ يَفْتَرِي وَيَفْجُرُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ أَيِ : هُوَ أَعْوَجُ الْمَقَالِ سَيِّئُ الْفِعَالِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ، وَهَذَا فِعْلُهُ ، كَلَامُهُ كَذِبٌ ، وَاعْتِقَادُهُ فَاسِدٌ ، وَأَفْعَالُهُ قَبِيحَةٌ ، وَالسَّعْيُ هَاهُنَا هُوَ : الْقَصْدُ ، فَهَذَا الْمُنَافِقُ لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا الْفُسَادُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِهْلَاكُ الْحَرْثِ : وَهُوَ مَحَلُّ نَبَاتِ الزَّرْعِ وَالثَّمَرِ ، وَالنَّسْلُ : وَهُوَ نِتَاجُ الْحَيَوَانَاتِ الَّذِينَ لَا قِيَامَ لِلنَّاسِ إِلَّا بِهِمَا . ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ أَيِ : لَا يُحِبُّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَلَا مَنْ يَصْدُرُ مِنْهُ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ أَيِ : إِذَا وُعِظَ هَذَا الْفَاجِرُ فِي مَقَالِهِ وَفِعَالِهِ ، وَقِيلَ لَهُ : اتَّقِ اللَّهَ وَأَنْزِعْ عَنْ قَوْلِكَ وَفِعْلِكَ ، وَارْجِعْ إِلَى الْحَقِّ ، اِمْتَنَعَ وَأَبَى وَأَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ

وَالْغَضَبُ بِالْإِثْمِ ، أَيِ بِسَبَبِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثَامِ ، ﴿ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْيَهُودُ ﴾ أَيِ : هِيَ كَافِيَتُهُ عُقُوبَةً فِي ذَلِكَ . وَلَمَّا أَخْبَرَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِصِفَاتِهِمُ الذَّمِيمَةِ ، ذَكَرَ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَمِيدَةِ فَقَالَ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ اتِّبَاعًا مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : نَزَلَتْ فِي صَهْبِ بْنِ سِنَانِ الرُّومِيِّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ بِمَكَّةَ ، وَأَرَادَ الْهَجْرَةَ مَنَعَهُ النَّاسُ أَنْ يُهَاجِرَ بِمَالِهِ ، وَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْجَرِدَ مِنْهُ وَيُهَاجِرَ فَعَلَ ، فَتَخَلَّصَ مِنْهُمْ وَأَعْطَاهُمْ مَالَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ . وَأَمَّا الْأَكْثَرُونَ فَحَمَلُوا ذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي كُلِّ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٠﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْيَقِينُتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠١﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ الْمُصَدِّقِينَ بِرَسُولِهِ ، أَنْ يَأْخُذُوا بِجَمِيعِ عُرَى الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ ، وَالْعَمَلِ بِجَمِيعِ أَوْامِرِهِ ، وَتَرْكِ جَمِيعِ زَوَاجِرِهِ ، مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ ذَلِكَ . ﴿ آذْخُلُوا فِي السَّلَامِ ﴾ يَعْنِي : الْإِسْلَامَ . وَقِيلَ : الطَّاعَةَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ كَافَّةً ﴾ : جَمِيعًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ﴾ أَيِ : اِعْمَلُوا بِالطَّاعَاتِ ، وَاجْتَنِبُوا مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ الشَّيْطَانُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْيَقِينُتُ ﴾ أَيِ : عَدَلْتُمْ عَنِ الْحَقِّ بَعْدَمَا قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجُجُ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ، أَيِ فِي انْتِقَامِهِ ، لَا يَفُوتُهُ هَارِبٌ ، وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ ، حَكِيمٌ فِي أَحْكَامِهِ ، وَنَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ ، وَلِهَذَا قَالُوا : عَزِيزٌ فِي نِقْمَتِهِ ، حَكِيمٌ فِي أَمْرِهِ .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٠٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُهَدِّدًا لِلْكَافِرِينَ بِمُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .

سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٠٣﴾ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَتَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٠٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : كَمْ شَاهَدُوا مَعَ مُوسَى مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ أَيْ : حُجَّةٍ قَاطِعَةٍ بِصِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، كَيْدِهِ وَعَصَاهُ ، وَفَلَقَهُ الْبَحْرَ وَضَرَبَهُ الْحَجَرَ ، وَمَا كَانَ مِنْ تَطْلِيلِ الْعَمَامِ عَلَيْهِمْ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ ، وَمِنْ أَنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالِّاتِ عَلَى وُجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ، وَصَدَقَ مَنْ جَرَتْ هَذِهِ الْخَوَارِقُ عَلَى يَدَيْهِ ، وَمَعَ هَذَا أَعْرَضَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْهَا ، وَبَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ، أَيْ اسْتَبَدَّلُوا بِالْإِيْبَانِ بِهَا ، الْكُفْرَ بِهَا وَالْإِعْرَاضَ عَنْهَا ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَرْبِيئِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ رَضَوْا بِهَا ، وَاطْمَأْنَنُوا إِلَيْهَا ، وَجَمَعُوا الْأَمْوَالَ وَمَنَعُوهَا عَنْ مَصَارِفِهَا الَّتِي أُمِرُوا بِهَا ، مِمَّا يُرْضِي اللَّهَ عَنْهُمْ ، وَسَخِرُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْهَا ، وَأَنْفَقُوا مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمْ ، وَبَذَلُوهُ إِبْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، فَاسْتَقْرَّوا فِي الدَّرَجَاتِ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ ، وَخُلِدَ أُولَئِكَ فِي الدَّرَكَاتِ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَيْ : يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَيُعْطِيهِ عَطَاءً كَثِيرًا جَزِيلًا ، بِلَا حَصْرِ وَلَا تَعْدَادٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « إِنْ آدَمَ أَنْفَقَ ، أَنْفَقَ عَلَيْكَ » وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ » .

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٢﴾

عَنْ إِبْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشْرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ ، فَاخْتَلَفُوا ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَقِيلَ : كَانُوا كُفْرًا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا عَلَى مِلَّةِ آدَمَ حَتَّى عَبْدُوا الْأَصْنَامَ فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَهُهُمْ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أَيُّ : مَنْ بَعْدَ مَا قَامَتِ الْحُجُجُ عَلَيْهِمْ ، وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْبَغْيُ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ . أَيُّ : يَعْلَمُهُ بِهِمْ ، وَبِهَذَا هَدَاهُمْ لَهُ ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : مِنْ خَلْقِهِ ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أَيُّ : وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ
وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ قَبْلَ أَنْ تُبْتَلَوْا وَتُخْتَبَرُوا وَتُمْتَحَنُوا كَمَا فَعَلَ
بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْأُمَمِ وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ
وَالضَّرَاءُ وَهِيَ الْأَمْْرَاضُ ، وَالْأَسْقَامُ ، وَالْآلَامُ ، وَالْمَصَائِبُ ، وَالنَّوَائِبُ . ﴾ الْبَأْسَاءُ : الْفَقْرُ
﴿ وَالضَّرَاءُ ﴾ : السَّيِّئُ ﴿ وَزُلْزِلُوا ﴾ : خَوْفُوا مِنَ الْأَعْدَاءِ زِلْزَالًا شَدِيدًا وَامْتَحِنُوا امْتِحَانًا عَظِيمًا .
وَقَوْلُهُ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أَيُّ : سُنَّتُهُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَزُلْزِلُوا ﴾ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ ؟ أَيُّ : يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَيَدْعُونَ بِقُرْبِ الْفَرْجِ ،
وَالْمَخْرَجِ عِنْدَ ضَيْقِ الْحَالِ وَالشَّدَةِ . ﴿ أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ ، كَمَا قَالَ ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥-٦] ، وَكَمَا تَكُونُ الشَّدَةُ يَنْزِلُ مِنَ النَّصْرِ مِثْلُهَا .

يَسْأَلُوكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٦٧﴾

وَمَعْنَى الْآيَةِ : يَسْأَلُوكَ كَيْفَ يُنْفِقُونَ ؟ فَبَيَّنَ تَعَالَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ
فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ أَيُّ : أَصْرَفُوهَا فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ . ثُمَّ قَالَ
تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : مَهْمَا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنْ فِعْلٍ مَعْرُوفٍ ، فَإِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُهُ ، وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ، فَإِنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى
أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

هَذَا إِجَابٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْجِهَادِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، أَنْ يَكْفُوا شَرَّ الْأَعْدَاءِ عَنْ حَوَازَةِ الْإِسْلَامِ ،
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : شَدِيدٌ عَلَيْكُمْ وَمَشَقَّةٌ ، وَهُوَ كَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يَقْتَلَ أَوْ يُجْرَحَ
مَعَ مَشَقَّةِ السَّفَرِ ، وَبِجَالِدَةِ الْأَعْدَاءِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾
أَيُّ : لِأَنَّ الْقِتَالَ يَعْقِبُهُ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَالِاسْتِيلَاءُ عَلَى بِلَادِهِمْ ، وَأَمْوَالِهِمْ ،
وَذَرَارِيِّهِمْ ، وَأَوْلَادِهِمْ ﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ ، وَهَذَا عَامٌّ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، قَدْ
يُحِبُّ الْمَرْءُ شَيْئًا وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ خَيْرَةٌ وَلَا مَصْلَحَةٌ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْقُعُودُ عَنِ الْقِتَالِ ، قَدْ يَعْقِبُهُ
اسْتِيلَاءُ الْعَدُوِّ عَلَى الْبِلَادِ وَالْحُكْمِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : هُوَ
أَعْلَمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ مِنْكُمْ ، وَأَخْبَرَ بِمَا فِيهِ صَلَاحُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَأَخْرَاكُمْ ، فَاسْتَجِيبُوا لَهُ ،
وَأَنْقَادُوا لِأَمْرِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَرْضَوْنَ .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ
بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا
يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ
فَيُتِمَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧٧﴾^(١)

• يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا
أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٧٨﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ
وَأِنْ خَالَطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧٩﴾

عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ : لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ : اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتًا شَافِيَةً ، فَتَرَلْتَ
هَذِهِ الْآيَةَ . فَقَوْلُهُ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ أَمَّا « الْخَمْرُ » فَكَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ
ابْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه : إِنَّهُ كُلُّ مَا حَامَرَ الْعَقْلَ ، « وَالْمَيْسِر » وَهُوَ الْقَهَارُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ أَمَّا إِثْمُهُمَا فَهُوَ فِي الدِّينِ ، وَأَمَّا الْمَنَافِعُ
فَدُنْيَوِيَّةٌ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِيهَا نَفْعَ الْبَدَنِ ، وَتَهْضِيمَ الطَّعَامِ ، وَإِخْرَاجَ الْفُضْلَاتِ ، وَتَشْجِيزَ
بَعْضِ الْأَذْهَانِ ، وَلَذَّةِ الشَّدَةِ الْمُطْرِبَةِ ، وَكَذَا بَيْعُهَا وَالْإِنْتِفَاعُ بِثَمَنِهَا ، وَكَانَ يَقْمُشُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ
الْمَيْسِرِ فَيُنْفِقُهُ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عِيَالِهِ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَصَالِحُ لَا تُوَازِي مَضَرَّتَهُ وَمَفْسَدَتَهُ الرَّاجِحَةُ ،
لِتَعْلُقُهَا بِالْعَقْلِ وَالِدِّينِ ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ ، وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ
الْآيَةُ مُهْمَةً لِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ عَلَى الْبَنَاتِ ، وَلَمْ تَكُنْ مُصَرَّحَةً بَلْ مُعَرَّضَةً وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه لَمَّا
فُرِئَتْ عَلَيْهِ : اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتًا شَافِيَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : مَا
يَفْضَلُ عَنْ أَهْلِكَ . ثُمَّ قَدْ قِيلَ : إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الزَّكَاةِ . وَقِيلَ : مُبَيَّنَةٌ بِآيَةِ الزَّكَاةِ ، وَهُوَ أَوْجَهُ .
﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿٢٨٠﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿٢٨١﴾ أَيُّ : كَمَا فَصَّلَ لَكُمْ هَذِهِ

(١) أورد الحافظ ابن كثير آثاراً عند تفسير هذه الآيات لا تخلو من مقال .

الْأَحْكَامَ وَبَيَّنَّهَا وَأَوْضَحَهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ سَائِرَ الْآيَاتِ فِي أَحْكَامِهِ ، وَوَعَدِهِ وَوَعِيدِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ يَعْنِي : فِي زَوَالِ الدُّنْيَا وَفَنَائِهَا وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ وَبَقَائِهَا ، لِمَنْ تَفَكَّرَ فِيهَا ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاءٍ ثُمَّ دَارُ فَنَاءٍ ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ الْآخِرَةَ دَارُ جَزَاءٍ ثُمَّ دَارُ بَقَاءٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ الْآيَةِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] وَ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ ، مِنْ طَعَامِهِ ، وَشَرَّابَهُ مِنْ شَرَابِهِ ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ لَهُ الشَّيْءَ مِنْ طَعَامِهِ فَيَحْبِسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَنَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ ، وَشَرَّابَهُمْ بِشَرَابِهِمْ . فَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴾ أَيُّ : عَلَى حِدَةٍ ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أَيُّ : وَإِنْ خَلَطْتُمْ طَعَامَكُمْ بِطَعَامِهِمْ ، وَشَرَابَكُمْ بِشَرَابِهِمْ ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ ، لَا تَنْهَمُ إِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ أَيُّ : يَعْلَمُ مَنْ قَصَدُهُ وَبَيَّنَّهَ الْإِفْسَادُ أَوْ الْإِصْلَاحُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَضَيَّقَ عَلَيْكُمْ وَأَخْرَجَكُمْ ، وَلَكِنَّهُ وَسَّعَ عَلَيْكُمْ ، وَخَفَّفَ عَنْكُمْ ، وَأَبَاحَ لَكُمْ مُخَالَطَتِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بَلْ جَوَزَ الْأَكْلَ مِنْهُ لِلْفَقِيرِ بِالْمَعْرُوفِ ، إِمَّا بِشَرْطِ ضَمَانِ الْبَدَلِ لِمَنْ أَيْسَرَ أَوْ مَجَانًا ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ الثَّقَةُ .

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَا مَؤْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٥﴾ هَذَا تَحْرِيمٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا الْمُشْرِكَاتِ مِنْ عِبَدَةِ الْأَوْثَانِ ، ثُمَّ إِنْ كَانَ عُمُومُهَا مُرَادًا ، وَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهَا كُلُّ مُشْرِكَةٍ مِنْ كِتَابِيَّةٍ وَوُثْنِيَّةٍ ، فَقَدْ خَصَّ مِنْ ذَلِكَ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالْأَخْصَنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَتِ وَالْأَخْصَنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴾ [المائدة : ٥] فَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾ اسْتَشْنَى اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ﴾ أَيُّ : لَا تُزَوِّجُوا الرِّجَالَ الْمُشْرِكِينَ النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ

يَحِلُّونَ هُنَّ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ أَي : وَلَكَرَجُلٌ مُّؤْمِنٌ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ ، وَإِنْ كَانَ رَئِيسًا سَرِيًّا ﴿ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ أَي : مُعَاشِرَتُهُمْ وَمَحَالَطَتُهُمْ تَبْعَتْ عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا ، وَاقْتِنَائِهَا وَإِثَارِهَا عَلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَعَاقِبَةُ ذَلِكَ وَخِيَمَةٌ ، ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ أَي : بِسُرْعِهِ ، وَمَا أَمَر بِهِ ، وَمَا نَهَى عَنْهُ ، ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٣١﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلتَقُونَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ الْيَهُودَ كَانَتْ إِذَا حَاصَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُمْ لَمْ يُوَاكِلُوها ، وَلَمْ يُجَامِعُوها فِي الْبُيُوتِ ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ حَتَّى فَرَّغَ مِنَ الْآيَةِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ ، إِلَّا النِّكَاحَ » . فَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ يَعْنِي الْفَرْجَ ؛ لِقَوْلِهِ : « إِصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ » ، وَلِهَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ مُبَاشَرَةُ الْحَائِضِ فِيمَا عَدَا الْفَرْجَ . ﴿ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ ﴿ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ ، وَنَهَى عَنْ قُرْبَانِهِنَّ بِالْجَمَاعِ ، مَا دَامَ الْحَيْضُ مُوجُودًا ، وَمَقْهُومُهُ حِلُّهُ إِذَا انْقَطَعَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ فِيهِ نَذْبٌ وَإِرْشَادٌ إِلَى غَشْيَانِهِنَّ بَعْدَ الْإِغْتِسَالِ . وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا انْقَطَعَ حَيْضُهَا لَا تَحِلُّ حَتَّى تَغْتَسِلَ بِالمَاءِ أَوْ تَتَيَمَّمَّ إِنْ تَعَذَّرَ عَلَيْهَا بِشَرَطِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ أَي : مِنْ الدَّمِ ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ أَي : بِالمَاءِ . ﴿ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ : يَعْنِي الْفَرْجَ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ أَي : مِنَ الذَّنْبِ وَإِنْ تَكَرَّرَ غَشْيَانُهُ ، ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أَي : الْمُتَزَّهِينَ عَنِ الْأَفْذَارِ وَالْأَذَى ، وَهُوَ مَا نُتُوا عَنْهُ مِنْ إِيْتَانِ الْحَائِضِ ، أَوْ فِي غَيْرِ الْمَاتِي .

وَقَوْلُهُ : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ الْحَرْثُ : مَوْضِعُ الْوَلَدِ ﴿ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ أَي : كَيْفَ شِئْتُمْ مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً فِي صَبَامٍ وَاحِدٍ ، كَمَا ثَبَتَ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ . عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَجُلًا أَتَى امْرَأَتَهُ فِي دُبْرِهَا فَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ وَجْدًا شَدِيدًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ . وَهَذَا الْحَدِيثُ مَحْمُولٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَهُوَ أَنَّهُ يَأْتِيهَا فِي قُبْلِهَا مِنْ دُبْرِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۖ ﴾ أَي : مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ مَعَ امْتِثَالِ مَا أَنَهَاكُمْ عَنْهُ مِنْ تَرْكِ
الْمَحْرَمَاتِ وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ مُلْقَوُهُ ﴾ أَي : فَيَحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ
جَمِيعَهَا . ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ فِيمَا أَمَرَهُمُ التَّارِكِينَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُمْ .

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لَا تَجْعَلُوا أَيْمَانَكُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى مَانِعَةً لَكُمْ مِنَ الْبِرِّ وَصَلَةِ الرَّحِمِ إِذَا حَلَفْتُمْ عَلَى
تَرْكِهَا ، فَالَا سِتْمَرَارُ عَلَى الْيَمِينِ أَتَمَّ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا بِالتَّكْفِيرِ .
قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ أَي : لَا تَجْعَلَنَّ عُرْضَةً لِيَمِينِكَ أَنْ لَا تَصْنَعَ
الْخَيْرَ وَلَكِنْ كَفَّرَ عَنْ يَمِينِكَ وَاصْنَعِ الْخَيْرَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ أَي : لَا يُعَاقِبُكُمْ وَلَا يُلْزِمُكُمْ بِمَا صَدَرَ مِنْكُمْ
مِنَ الْأَيْمَانِ اللَّاغِيَةِ ، وَهِيَ الَّتِي لَا يَقْصِدُهَا الْخَالِفُ بَلْ تَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ عَادَةً مِنْ غَيْرِ تَعْقِيدِ
وَلَا تَأْكِيدِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ وَهُوَ أَنْ يَخْلِفَ عَلَى الشَّيْءِ ،
وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ ، ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أَي : غَفُورٌ لِعِبَادِهِ حَلِيمٌ عَلَيْهِمْ .

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٦﴾
وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

الْإِيْلَاءُ : الْحَلْفُ ، فَإِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ أَنْ لَا يُجَامِعَ زَوْجَتَهُ مُدَّةً ، فَلَا يَحِلُّو إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَقَلَّ
مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْهَا ، فَإِنْ كَانَتْ أَقَلَّ فَلَهُ أَنْ يَنْتَظِرَ انْقِضَاءَ الْمُدَّةِ ثُمَّ يُجَامِعَ امْرَأَتَهُ ،
وَعَلَيْهَا أَنْ تَصْبِرَ وَلَيْسَ لَهَا مُطَالَبَتُهُ بِالْفَيْئَةِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ ، وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ
عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا ، فَتَزَلَّ لِتِسْعٍ وَعَشْرِينَ وَقَالَ : « الشَّهْرُ تِسْعٌ
وَعَشْرُونَ » ، فَأَمَّا إِنْ زَادَتْ الْمُدَّةُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَلِلزَّوْجَةِ مُطَالَبَةُ الزَّوْجِ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَرْبَعَةِ
أَشْهُرٍ ، إِمَّا أَنْ يَفِيءَ - أَي : يُجَامِعَ - وَإِمَّا أَنْ يُطَلَّقَ ، فَيُجْبِرُهُ الْحَاكِمُ عَلَى هَذَا ، وَهَذَا لِثَلَا يَضُرَّ
بِهَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ أَي : يَحْلِفُونَ عَلَى تَرْكِ الْجَمَاعِ مِنْ نِسَائِهِمْ ،
﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ أَي : يَنْتَظِرُ الزَّوْجُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مِنْ حِينَ الْحَلْفِ ، ثُمَّ يُوقَفُ وَيُطَالَبُ
بِالْفَيْئَةِ أَوْ الطَّلَاقِ وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِنْ فَاءُوا ﴾ أَي : رَجَعُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ
الْجَمَاعِ . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَي : لِمَا سَلَفَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِنَّ بِسَبَبِ الْيَمِينِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ بِمَجَرَّدِ مُضِيِّ الْأَرْبَعَةِ أَشْهُرَ ،
وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّ يَوْفَقَ فَيَطْلُبُ إِمَّا هَذَا وَإِمَّا هَذَا ، وَلَا يَقَعُ عَلَيْهَا
بِمَجَرَّدِ مُضِيِّهَا طَلَاقٌ .

وَالْمُطَلَّقَةُ يَتَرَتَّبُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا تَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي
أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا
إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣٦﴾
هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِلْمُطَلَّقَاتِ الْمَدْخُولِ بِهِنَّ مِنْ ذَوَاتِ الْأَقْرَاءِ بِأَنْ
يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، أَيُّ : بِأَنْ تَمُتَّ إِحْدَاهُنَّ بَعْدَ طَلَاقِ زَوْجِهَا لَهَا ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ ثُمَّ
تَتَزَوَّجَ إِنْ شَاءَتْ . وَالْمُرَادُ بِالْأَقْرَاءِ مَا هُوَ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْأَطْهَارُ . الْقَوْلُ
الثَّانِي : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْأَقْرَاءِ الْحَيْضُ ، فَلَا تَنْقُضِي الْعِدَّةَ حَتَّى تَطْهُرَ مِنَ الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ .
وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أَيُّ : مِنْ حَبْلٍ أَوْ حَيْضٍ .

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُنَّ عَلَى قَوْلٍ خِلَافِ الْحَقِّ ، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ
الْمَرْجِعَ فِي هَذَا إِلَيْهِنَّ ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُعْلَمُ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِنَّ وَيَتَعَدَّرُ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ غَالِبًا عَلَى ذَلِكَ ، فَردَّ
الْأَمْرَ إِلَيْهِنَّ ، وَتَوَعَّدَنَ فِيهِ لئَلَّا يُخْبِرَنَّ بغيرِ الْحَقِّ ، إِمَّا اسْتِعْجَالًا مِنْهَا لِانْقِضَاءِ الْعِدَّةِ ، أَوْ رَغْبَةً
مِنْهَا فِي تَطْوِيلِهَا لِمَا لَهَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ ، فَأَمَرَتْ أَنْ تُخْبِرَ بِالْحَقِّ فِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا تَقْصَانٍ .
وَقَوْلُهُ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أَيُّ : وَزَوْجُهَا الَّذِي طَلَّقَهَا أَحَقُّ
بِرَدِّهَا مَا دَامَتْ فِي عِدَّتِهَا ، إِذَا كَانَ مُرَادُهُ بِرَدِّهَا الْإِصْلَاحَ وَالْخَيْرَ ، وَهَذَا فِي الرَّجْعِيَّاتِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيُّ : وَلَهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ مَا لِلرِّجَالِ
عَلَيْهِمْ ، فَلْيُؤَدِّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى الْآخِرِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أَيُّ : فِي الْفَضِيلَةِ فِي الْخَلْقِ ، وَالْخُلُقِ ، وَالْمَنْزِلَةِ ، وَطَاعَةِ
الْأَمْرِ ، وَالْإِنْفَاقِ ، وَالْقِيَامِ بِالصَّالِحِ ، وَالْفَضْلُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ :
عَزِيزٌ فِي إِنْتِقَامِهِ مِمَّنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، حَكِيمٌ فِي أَمْرِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ ۖ فإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنِ ۚ وَلَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ
تَأْخُذُوا بِمِمَّا آتَيْنَتْموهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ تَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۚ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا

تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٠﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢١﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ رَافِعَةٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ أَحَقُّ بِرَجْعَةِ امْرَأَتِهِ وَإِنْ طَلَّقَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ ، مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا فِيهِ صَرَرُ عَلَى الزَّوْجَاتِ ، قَصَرَهُمُ اللَّهُ ﷻ إِلَى ثَلَاثِ طُلُقَاتٍ ، وَأَبَاحَ الرَّجْعَةَ فِي الْمَرَّةِ وَالْثَنَيْنِ ، وَأَبَاهَا بِالْكُلِّيَّةِ فِي الثَّالِثَةِ ، فَقَالَ : ﴿ اطْلُقْ مَرَّتَانِ فَمَسَاكٌ مَعْرُوفٌ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنِ ﴾ . أَيُّ : إِذَا طَلَّقَهَا وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ ، فَأَنْتَ مُحَيَّرٌ فِيهَا مَا دَامَتْ عِدَّتُهَا بَاقِيَةً ، بَيْنَ أَنْ تَرْدَهَا إِلَيْكَ نَاوِيًا لِلْإِصْلَاحِ بِهَا ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهَا ، وَبَيْنَ أَنْ تَتْرُكَهَا حَتَّى تَنْقُضِيَ عِدَّتَهَا ، فَتَبِينَ مِنْكَ ، وَتُطْلِقَ سَرَّاحًا مُحْسِنًا إِلَيْهَا ، لَا تَظْلِمُهَا مِنْ حَقِّهَا شَيْئًا ، وَلَا تُضَارَّ بِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾ أَيُّ : لَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تُضَاجِرُوهُنَّ ، وَتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، لِیَفْتَدِينَ مِنْكُمْ بِمَا أُعْطِيَتْموهُنَّ مِنَ الْأُصْدَقَةِ أَوْ بِبَعْضِهِ ، فَأَمَّا إِنْ وَهَبَتْهُ الْمَرْأَةُ شَيْئًا عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهَا ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ [النساء : ٤] ، وَأَمَّا إِذَا تَشَاقَقَ الزَّوْجَانِ ، وَلَمْ تَقُمْ الْمَرْأَةُ بِحُقُوقِ الرَّجُلِ ، وَأَبْغَضَتْهُ ، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى مُعَاشَرَتِهِ ، فَلَهَا أَنْ تَفْتَدِيَ مِنْهُ بِمَا أُعْطَاهَا ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِي بَذْلِهَا لَهُ ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي قَبُولِ ذَلِكَ مِنْهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ الْآيَةُ . فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا عُذْرٌ وَسَأَلَتْ الْإِفْتِدَاءَ مِنْهُ فَقَدْ وَرَدَ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ امْرَأَةً ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ : مَا أَعِيبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ ، وَلَكِنْ أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتُرْدِينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ » قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اقْبَلِ الْحَدِيثَ ، وَطَلِّقْهَا طَلِيقَةً » . وَلَيْسَ لِلْمُخَالَعِ أَنْ يُرَاجَعَ الْمُخْتَلَعَةَ فِي الْعِدَّةِ بِغَيْرِ رِضَاهَا ، لِأَنَّهَا قَدْ مَلَكَتْ نَفْسَهَا ، بِمَا بَذَلَتْ لَهُ مِنَ الْعَطَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ الشَّرَائِعُ الَّتِي شَرَعَهَا لَكُمْ هِيَ حُدُودُهُ ، فَلَا تَتَجَاوَزُوهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ أَيُّ : أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ طَلَقًا ثَالِثًا ، بَعْدَ مَا أُرْسِلَ عَلَيْهَا الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنَّهَا تَحْرُمُ عَلَيْهِ ﴿ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾

أَيُّ : حَتَّى يَطَّأَهَا زَوْجٌ آخَرٌ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ ، فَلَوْ وَطَّئَهَا وَاطِئٌ فِي غَيْرِ نِكَاحٍ وَلَوْ فِي مِلْكِ الْيَمِينِ لَمْ يُحِلَّ لِلأَوَّلِ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِزَوْجٍ ، وَهَكَذَا لَوْ تَزَوَّجَتْ ، وَلَكِنْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا الزَّوْجُ لَمْ يُحِلَّ لِلأَوَّلِ . وَالْمَقْصُودُ مِنَ الزَّوْجِ الثَّانِي أَنْ يَكُونَ رَاغِبًا فِي الْمَرْأَةِ ، فَاصِدًا لِدَوَامِ عَشْرَتِهَا ، كَمَا هُوَ الْمَشْرُوعُ مِنَ التَّزْوِيجِ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْمَحِلَّ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ » .

وَقَوْلُهُ : « فَإِنْ طَلَّقَهَا » أَيُّ : الزَّوْجُ الثَّانِي بَعْدَ الدُّخُولِ بِهَا « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا » أَيُّ : الْمَرْأَةُ وَالزَّوْجُ الْأَوَّلُ « إِنْ طَلَّأَا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ » أَيُّ : يَتَعَاشَرَا بِالْمَعْرُوفِ . « وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ » أَيُّ : شَرَائِعُهُ وَأَحْكَامُهُ « يُبَيِّنُهَا » أَيُّ : يُوضِّحُهَا « لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٠﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِلرِّجَالِ ، إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُمُ الْمَرْأَةَ طَلَاقًا لَهُ عَلَيْهَا فِيهِ رَجْعَةٌ ، أَنْ يُحْسِنَ فِي أَمْرِهَا إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا مِقْدَارُ مَا يُمَكِّنُهُ فِيهِ رَجْعَتُهَا ، فَإِمَّا أَنْ يُمْسِكَهَا أَيْ يَرْجِعَهَا إِلَى عِصْمَةِ نِكَاحِهِ بِمَعْرُوفٍ ، وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَى رَجْعَتِهَا وَيُنَوِّي عَشْرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ أَوْ يُسَرِّحَهَا أَيْ يَتْرُكَهَا حَتَّى تَنْقُضِيَ عِدَّتَهَا ، وَيُخْرِجُهَا مِنْ مَنْزِلِهِ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، مِنْ غَيْرِ شِقَاقٍ ، وَلَا مُحَاصِمَةٍ وَلَا تَقَابُحٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا » . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ الْمَرْأَةَ فَإِذَا قَارَبَتْ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ رَاجِعَهَا ضِرَارًا لِيَلَّا تَذْهَبَ إِلَى غَيْرِهِ ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا فَتَعْتَدُ فَإِذَا شَارَفَتْ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ طَلَّقَ لِيَتَطَوَّلَ عَلَيْهَا الْعِدَّةُ ، فَتَهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » أَيُّ : بِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : « وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » أَيُّ : فِي إِرسَالِهِ الرُّسُولَ بِالْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ إِلَيْكُمْ « وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ » أَيُّ : السُّنَّةِ « يَعِظُكُمْ بِهِ » أَيُّ : يَأْمُرُكُمْ وَيَنْهَاهُمْ وَيَتَوَعَّدُكُمْ عَلَى إِرْتِكَابِ الْمَحَارِمِ « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أَيُّ : فِيْمَا تَأْتُونَ وَفِيْمَا تَذَرُونَ « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أَيُّ : فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمُ السَّرِّيَّةِ وَالْجَهْرِيَّةِ وَسَيَجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الرَّجُلِ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ طَلْقَةً أَوْ طَلْقَتَيْنِ فَتَنْقُضِي عِدَّتَهَا، ثُمَّ يَبْدُو لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا وَأَنْ يَرَا جَعَهَا، وَتُرِيدُ الْمَرْأَةُ ذَلِكَ، فَيَمْنَعُهَا أَوْلِيَاؤُهَا مِنْ ذَلِكَ، فَنَهَى اللَّهُ أَنْ يَمْنَعُوهَا. وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ ظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ. وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تُزَوِّجَ نَفْسَهَا، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ فِي النِّكَاحِ مِنْ وَلِيٍّ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ».

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَيُّ: هَذَا الَّذِي مَهِنَاكُمْ عَنْهُ مِنْ مَنْعِ الْوَلَايَا أَنْ يَتَزَوَّجَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْقُضُ بِهِ وَيَنْفَعِلُ لَهُ، مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَتْيَاهَا النَّاسُ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَيُّ يُؤْمِنُ بِشَرْعِ اللَّهِ، وَيَخَافُ وَعِيدَ اللَّهِ، وَعَذَابَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْجَزَاءِ ﴿ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أَيُّ: اتَّبَاعُكُمْ شَرْعَ اللَّهِ فِي رَدِّ الْمَوْلِيَّاتِ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ، وَتَرْكُ الْحِمْيَةِ فِي ذَلِكَ، أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أَيُّ: مِنَ الْمَصَالِحِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: الْحَيَرَةُ فِيمَا تَأْتُونَ وَلَا فِيمَا تَذَرُونَ.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٤﴾

هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْوَالِدَاتِ أَنْ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ كَمَالَ الرَّضَاعَةِ، وَهِيَ سِتَانِ فَلَا عِتْبَارَ بِالرَّضَاعَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذَا قَالَ: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، وَذَهَبَ أَكْثَرُ الْأُئِمَّةِ إِلَى أَنَّهُ لَا يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ إِلَّا مَا كَانَ دُونَ الْحَوْلَيْنِ، فَلَوْ إِنْ تَضَعَ الْمَوْلُودُ وَعُمُرُهُ فَوْقَهُمَا لَمْ يُحَرِّمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيُّ: وَعَلَى وَالِدِ الطِّفْلِ نَفَقَةُ الْوَالِدَاتِ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، أَيُّ بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أُمَثْلَاهُنَّ فِي بِلَادِهِنَّ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا إِفْتَارٍ، بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ فِي يَسَارِهِ وَتَوَسُّطِهِ وَإِفْتَارِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفِقْ وَمَا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ أَيُّ: بِأَنْ تَدْفَعَهُ عَنْهَا لِضَرِّ أَبَاهُ بِرَبِّيَّتِهِ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهَا دَفْعُهُ إِذَا وَلَدَتْهُ حَتَّى تَسْقِيَهُ اللَّبَنَ، الَّذِي لَا يَعِيشُ بِدُونِ تَنَاوُلِهِ غَالِبًا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا لَهَا دَفْعُهُ عَنْهَا إِذَا

شَاءَتْ ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَتْ مُضَارَّةً لِأَبِيهِ فَلَا يَحِلُّ لَهَا ذَلِكَ ، كَمَا لَا يَحِلُّ لَهُ إِنْتِرَاعُهُ مِنْهَا لِمَجَرَّدِ الضَّرَارِ لَهَا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدِهِ ﴾ أَيُّ : بَأْنُ يُرِيدُ أَنْ يَنْتَزِعَ الْوَلَدَ مِنْهَا إِضْرَارًا بِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ قِيلَ : فِي عَدَمِ الضَّرَارِ لِقَرِيْبِهِ ، وَقِيلَ : عَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَى وَالِدِ الطِّفْلِ مِنَ الْإِنْفَاقِ عَلَى وَالِدَةِ الطِّفْلِ ، وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا وَعَدَمِ الْإِضْرَارِ بِهَا ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أَيُّ : فَإِنْ اتَّفَقَ وَالِدَا الطِّفْلِ عَلَى فِطَامِهِ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ ، وَرَأْيَا فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَهُ ، وَتَشَاوَرَا فِي ذَلِكَ ، وَأَجْمَعَا عَلَيْهِ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ إِنْ انْفَرَدَ أَحَدُهُمَا بِذَلِكَ دُونَ الْآخَرِ لَا يَكْفِي ، وَلَا يَجُوزُ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَسْتَبِدَّ بِذَلِكَ ، مِنْ غَيْرِ مُشَاوَرَةِ الْآخَرِ .

وَهَذَا فِيهِ إِحْتِيَاطٌ لِلطِّفْلِ وَالزَّامُ لِلنَّظَرِ فِي أَمْرِهِ وَهُوَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ حَيْثُ حَجَرَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ فِي تَرْبِيَةِ طِفْلِهِمَا ، وَأَرْشَدَهُمَا إِلَى مَا يُصْلِحُهُمَا وَيُصْلِحُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَيُّ : إِذَا اتَّفَقَتِ الْوَالِدَةُ وَالْوَالِدُ عَلَى أَنْ يَسْتَلِمَ مِنْهَا الْوَلَدُ ، إِمَّا لِعُدْرِ مِنْهَا أَوْ لِعُدْرِ لَهُ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِي بَذْلِهِ وَلَا عَلَيْهِ فِي قَبُولِهِ مِنْهَا إِذَا سَلَّمَهَا أُجْرَتَهَا الْمَاضِيَةَ ، بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، وَاسْتَرْضَعَ لَوْلَدِهِ غَيْرَهَا بِالْأُجْرَةِ بِالْمَعْرُوفِ . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَيُّ : فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ ، ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَيُّ : فَلَا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٠٠﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ لِلنِّسَاءِ اللَّاتِي يُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ ، أَنْ يَعْتَدِدْنَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَ لَيَالٍ ، وَهَذَا الْحُكْمُ يَشْمَلُ الزَّوْجَاتِ الْمَذْخُولِ بِهِنَّ ، وَغَيْرِ الْمَذْخُولِ بِهِنَّ بِالْإِجْمَاعِ وَلَا يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا وَهِيَ حَامِلٌ فَإِنَّ عِدَّتَهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ ، وَلَوْ لَمْ تَمُتْ بَعْدَهُ سِوَى لَحْظَةٍ ، لِعُمُومِ قَوْلِهِ : ﴿ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا وَجُوبُ الْإِحْدَادِ عَلَى الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا مُدَّةَ عِدَّتِهَا ، وَالْإِحْدَادُ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْكِ الزَّيْنَةِ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَنُبْسِ مَا يَدْعُوها إِلَى الْأَزْوَاجِ مِنْ ثِيَابٍ وَحُلِيِّ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَهُوَ وَاجِبٌ فِي عِدَّةِ الْوَفَاةِ قَوْلًا وَاحِدًا ، وَيَجِبُ الْإِحْدَادُ عَلَى جَمِيعِ الزَّوْجَاتِ الْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ ، سِوَاءٍ فِي ذَلِكَ الصَّغِيرَةِ ، وَالْأَيَّسَةِ ، وَالْحُرَّةِ ، وَالْأَمَةِ ، وَالْمُسْلِمَةِ ، وَالْكَافِرَةِ ، لِعُمُومِ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ ﴾ أَي : انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ ، ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَي عَلَى أَوْلِيَائِهَا ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يَعْنِي : النِّسَاءَ اللَّاتِي انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ ، وَقِيلَ : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ هُوَ النِّكَاحُ الطَّيِّبُ .

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَنْ تَعَرَّضُوا بِخُطْبَةِ النِّسَاءِ فِي عِدَّتِهِنَّ ، مِنْ وَفَاةِ أَزْوَاجِهِنَّ ، مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ . وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ : فِي التَّعْرِيفِ أَنَّهُ يُجُوزُ لِلْمُتَوَقِّعِ عَنْهَا زَوْجَهَا مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ لَهَا بِالْخُطْبَةِ ، وَهَكَذَا حُكْمُ الْمُطَلَّغَةِ الْمُبْتَوَّةِ يُجُوزُ التَّعْرِيفُ لَهَا ، فَأَمَّا الْمُطَلَّغَةُ الرَّجْعِيَّةُ فَلَا خِلَافَ فِي أَنَّهُ لَا يُجُوزُ لِغَيْرِ زَوْجِهَا التَّصْرِيحُ بِخُطْبَتِهَا ، وَلَا التَّعْرِيفُ لَهَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أَي : أَضْمَرْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ خُطْبَتِهِنَّ ، ﴿ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ . يَعْنِي : الزَّيْنَى ، وَقِيلَ : لَا تَقُلْ لَهَا إِنِّي عَاشِقٌ ، وَعَاهِدِينِي أَنْ لَا تَتَزَوَّجِي غَيْرِي ، وَنَحْوَ هَذَا . وَقِيلَ : هُوَ أَنْ يَأْخُذَ مِيثَاقَهَا أَنْ لَا تَتَزَوَّجَ غَيْرَهُ ، وَقِيلَ : هُوَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فِي الْعِدَّةِ سِرًّا ، فَإِذَا حَلَّتْ أَظْهَرَ ذَلِكَ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ عَامَّةً فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ يَعْنِي بِهِ : مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِبَاحَةِ التَّعْرِيفِ ، كَقَوْلِهِ : إِنِّي فِيكَ لَرَاغِبٌ وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ ﴾ يَعْنِي وَلَا تَعْقِدُوا الْعَقْدَ بِالنِّكَاحِ حَتَّى تَنْقُضِيَ الْعِدَّةَ . وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ : لَا يَصِحُّ الْعَقْدُ فِي مَدَّةِ الْعِدَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى مَا يَقَعُ فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنْ أُمُورِ النِّسَاءِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى إِضْمَارِ الْخَيْرِ دُونَ الشَّرِّ ، ثُمَّ لَمْ يُؤَيِّسَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلَمْ يُفْطِنْهُمْ مِنْ عَائِدَتِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْخَيِّسِينَ ﴿١٢٥﴾

أَبَاحَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَلَاقَ الْمَرْأَةِ بَعْدَ الْعَقْدِ عَلَيْهَا وَقَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا . وَالْمَسُّ : النِّكَاحُ ، بَلْ يُجُوزُ أَنْ يُطَلَّقَ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا ، وَالْفَرَضُ لَهَا إِنْ كَانَتْ مُفَوَّضَةً ، وَإِنْ كَانَ فِي هَذَا انْكِسَارٌ

لِقَلْبِهَا ، وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى بِإِمْتَاعِهَا ، وَهُوَ تَعْوِضُهَا عَمَّا فَاتَهَا بِشَيْءٍ تُعْطَاهُ مِنْ زَوْجِهَا ، بِحَسَبِ
حَالِهِ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ ، وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ .

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ
يَعْفُوَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا
الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٧﴾

تَشْطِيرُ الصَّدَاقِ وَالْحَالَةُ هَذِهِ ، أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، لَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ
مَتَى كَانَ قَدْ سَمِيَ لَهَا صَدَاقًا ثُمَّ فَارَقَهَا قَبْلَ دُخُولِهَا بِهَا ، فَإِنَّهُ يَجِبُ لَهَا نِصْفُ مَا سَمِيَ مِنَ
الصَّدَاقِ ، إِلَّا أَنْ عِنْدَ الثَّلَاثَةِ : أَنَّهُ يَجِبُ جَمِيعُ الصَّدَاقِ إِذَا خَلَا بِهَا الزَّوْجُ ، وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا ،
وَبِهِ حَكَمَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ ﴾ أَيُّ : النِّسَاءُ عَمَّا وَجَبَ لَهَا عَلَى زَوْجِهَا ، فَلَا يَجِبُ لَهَا عَلَيْهِ شَيْءٌ .
﴿ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ ذَلِكَ أَبُوهَا أَوْ أُخُوها ، أَوْ مَنْ لَا تُنْكَحُ الزَّوْجَةُ إِلَّا بِإِذْنِهِ .
﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : قَالَ بَعْضُهُمْ : خُوطِبَ بِهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ .
وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : أَقْرَبُهُمَا لِلتَّقْوَى الَّذِي يَعْفُو . وَقِيلَ : الْفَضْلُ هَاهُنَا
أَنْ تَعْفُوا الْمَرْأَةَ عَنْ شَطْرِهَا ، أَوْ إِيْتَامَ الرَّجُلِ الصَّدَاقَ لَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾
أَيُّ : الْإِحْسَانَ . وَقِيلَ : الْمَعْرُوفُ ، يَعْنِي : لَا تُهْمِلُوهُ بَلِ اسْتَعْمِلُوهُ بَيْنَكُمْ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴾ أَيُّ : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمْ ، وَأَحْوَالِكُمْ ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿١٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ
رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِالمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا ، وَحِفْظِ حُدُودِهَا ، وَأَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا .
وَحَصَّ تَعَالَى مِنْ بَيْنِهَا بِمَزِيدِ التَّأْكِيدِ الصَّلَاةَ الْوُسْطَى ، وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ فِيهَا ،
أَيُّ صَلَاةٍ هِيَ ؟ فَقِيلَ : إِنَّهَا الصُّبْحُ . وَقِيلَ : إِنَّهَا صَلَاةُ الْعَصْرِ ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ
وَعَوَالِمِهِمْ . وَقَدْ ثَبَتَتِ السُّنَّةُ بِأَنَّهَا الْعَصْرُ فَتَعَيَّنَ الْمَصِيرُ إِلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ أَيُّ : خَاشِعِينَ ، ذَلِيلِينَ ، مُسْتَكِينِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهَذَا الْأَمْرُ
مُسْتَلَزِمٌ تَرْكُ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ ، لِمُنَافَاتِهِ إِيَّاهَا . عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ قَالَ : كَانَ الرَّجُلُ يُكَلِّمُ صَاحِبَهُ
فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَاجَةِ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ فَأَمَرْنَا بِالسُّكُوتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ ۚ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۚ ۞ لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ ، وَالْقِيَامِ بِحُدُودِهَا ، وَشَدَدِ الْأَمْرِ بِتَأْكِيدِهَا ، ذَكَرَ الْحَالِ الَّذِي يَشْتَغِلُ الشَّخْصُ فِيهَا عَنْ أَذَائِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ ، وَهِيَ حَالُ الْقِتَالِ ، وَالتَّحَامِ الْحَرْبِ ، فَقَالَ : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۚ ۞ أَيُّ : فَصَلُّوا عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ ، رِجَالًا ، أَوْ رُكْبَانًا يَعْنِي مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرِ مُسْتَقْبِلِيهَا . ۞ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ ۚ ۞ أَيُّ : أَقِيمُوا صَلَاتَكُمْ كَمَا أَمَرْتُمْ فَأَقِمُوا رُكُوعَهَا ، وَسُجُودَهَا ، وَقِيَامَهَا ، وَقُعودَهَا ، وَخُشُوعَهَا ، وَهُجُودَهَا ۚ ۞ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۚ ۞ أَيُّ : مِثْلُ مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ ، وَهَذَا كَمِثْلُ الْإِيمَانِ ، وَعَلَّمَكُم مَّا يَنْفَعُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقَابِلُوهُ بِالشُّكْرِ وَالذِّكْرِ .

وَالَّذِينَ يَتُوقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۖ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۚ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١١١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٢﴾

قَالَ الْأَكْثَرُونَ : هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِالَّتِي قَبْلَهَا وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ يَتَرَتَّبْنَ أَنْفُسَهُنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۚ ۞ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ ۚ ۞ أَيُّ : يُوصِيكُمُ اللَّهُ بِهِنَّ وَصِيَّةً كَقَوْلِهِ : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۚ ۞ الْآيَةُ ، فَلْتَوْصُوا بِهِنَّ وَصِيَّةً ، وَلَا يُمْنَعَنَّ مِنْ ذَلِكَ ، لِقَوْلِهِ ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ ۞ ، فَأَمَّا إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ بِالأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ وَالْعَشْرِ ، أَوْ بِوَضْعِ الْحَمْلِ ، وَاخْتَرَنَ الْخُرُوجَ وَالْإِنْتِقَالَ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ فَإِنَّهُنَّ لَا يُمْنَعَنَّ مِنْ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ ۚ ۞ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۚ ۞ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۚ ۞ ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى وَجُوبِ الْمُتَعَةِ لِكُلِّ مُطَلَّاقَةٍ سَوَاءٌ كَانَتْ مُفَوَّضَةً ، أَوْ مَفْرُوضًا لَهَا ، أَوْ مُطَلَّاقَةً قَبْلَ الْمَسِيسِ ، أَوْ مَدْخُولًا بِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ ۞ أَيُّ : فِي إِحْلَالِهِ ، وَتَحْرِيمِهِ ، وَفَرْوِضِهِ ، وَحُدُودِهِ ، فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ ، بَيِّنَهُ ، وَوَضَّحَهُ ، وَفَسَّرَهُ ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ مُجْمَلًا فِي وَفْتِ إِحْتِيَاجِكُمْ إِلَيْهِ ۚ ۞ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۚ ۞ أَيُّ : تَفْهَمُونَ وَتَتَذَكَّرُونَ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ

أَحْيَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٠١﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠٣﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ قَالَ : كَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الطَّاعُونَ ، قَالُوا : نَأْتِي أَرْضًا لَيْسَ بِهَا مَوْتُ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِمَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ اللَّهُ لَهُمْ : ﴿ مُوتُوا ﴾ فَمَاتُوا ، فَمَرَّ عَلَيْهِمْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُحْيِيَهُمْ ، فَأَحْيَاهُمْ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ الْآيَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَي : كَمَا أَنَّ الْحَذَرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدَرِ ، كَذَلِكَ الْفِرَارُ مِنَ الْجِهَادِ ، وَتَجَنُّبُهُ لَا يُقَرِّبُ أَجَلًا ، وَلَا يُبْعِدُهُ ، بَلِ الْأَجَلُ الْمَحْتَوْمُ ، وَالرَّزْقُ الْمَقْسُومُ مُقَدَّرٌ مُقَنَّ ، لَا يَزَادُ فِيهِ ، وَلَا يُنْقُصُ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ يَحْتُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ ﴾ قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الْأَنْصَارِيُّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ لَيُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ » قَالَ أَرِنِي يَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : فَنَآوَلَهُ يَدَهُ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي ﷻ حَائِطِي قَالَ : وَحَائِطٌ لَهُ فِيهِ سِتَّةُ نَخْلَةٍ ، وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا ، قَالَ : فَجَاءَ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَنَادَاهَا : يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ ، قَالَتْ : لَبَّيْكَ ، قَالَ : أَخْرُجِي ، فَقَدْ أَقْرَضْتَهُ رَبِّي ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قِيلَ : هُوَ النَّفَقَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقِيلَ : هُوَ النَّفَقَةُ عَلَى الْعِيَالِ ، وَقِيلَ : هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّقْدِيسُ ، ﴿ فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ الْآيَةُ ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا . ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ ﴾ أَي : أَنْفَقُوا ، وَلَا تَبَالُوا ، فَاللَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ يُضَيِّقُ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فِي الرِّزْقِ ، وَيُوسِّعُهُ عَلَى آخَرِينَ ، لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَنَى إِسْرَءِيلَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ أَبَعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا

قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٧﴾

أَيُّ : لَمَّا طَلَبُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ مَلِكًا مِنْهُمْ فَعَيَّنَ لَهُمْ طَالُوتَ ، وَكَانَ رَجُلًا مِنْ أَجْنَادِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنَاتِ الْمُلْكِ فِيهِمْ ﴿١٠٦﴾ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ؟ أَيُّ : كَيْفَ يَكُونُ مَلِكًا عَلَيْنَا ؟ ﴿١٠٧﴾ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ؟ أَيُّ : ثُمَّ هُوَ مَعَ هَذَا فَقِيرٌ لَا مَالَ لَهُ يَقُومُ بِالْمُلْكِ ، وَهَذَا إِعْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَتَعَنُّتٌ ، وَكَانَ الْأَوَّلَى بِهِمْ طَاعَةً وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ، ثُمَّ قَدْ أَجَابَهُمُ النَّبِيُّ قَائِلًا ﴿١٠٧﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ؟ أَيُّ : إِخْتَارَهُ لَكُمْ مِنْ بَيْنِكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكُمْ ، يَقُولُ : لَسْتُ أَنَا الَّذِي عَيَّنْتُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، بَلْ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِ ، لَمَّا طَلَبْتُمْ مِنِّي ذَلِكَ ﴿١٠٧﴾ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ؟ أَيُّ : وَهُوَ مَعَ هَذَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ وَأَنْبَلُ ، وَأَشْكَلُ مِنْكُمْ ، وَأَشَدُّ قُوَّةً ، وَصَبْرًا فِي الْحَرْبِ ، وَمَعْرِفَةً فِيهَا ، أَيُّ : أَتَمَّ عِلْمًا وَقَامَةً مِنْكُمْ ، وَمِنْ هَاهُنَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ ذَا عِلْمٍ ، وَشَكْلٍ حَسَنٍ ، وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ فِي بَدَنِهِ وَنَفْسِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿١٠٧﴾ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ؟ أَيُّ : هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي مَا شَاءَ فَعَلَ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، لِعِلْمِهِ ، وَحُكْمَتِهِ ، وَرَأْفَتِهِ بِخَلْقِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿١٠٧﴾ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ؟ أَيُّ : هُوَ وَاسِعُ الْفَضْلِ يَحْتَضِرُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ، عَلِيمٌ بِمَن يَسْتَحِقُّ الْمُلْكَ ، بِمَن لَا يَسْتَحِقُّهُ .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾

يَقُولُ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ عَلَامَةَ بَرَكَةِ مُلْكِ طَالُوتَ عَلَيْكُمْ ، أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ التَّابُوتَ الَّذِي كَانَ أُخِذَ مِنْكُمْ ﴿١٠٨﴾ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، قِيلَ : مَعْنَاهُ فِيهِ وَقَارٌ وَجَلَالَةٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿١٠٨﴾ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ . عَصَاهُ وَرُضَاصُ الْأَلْوَابِ . وَقِيلَ : يَعْنِي عَصَا مُوسَى ، وَعَصَا هَارُونَ ، وَلَوْحَيْنِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْمَنِّ ، ﴿١٠٨﴾ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ : جَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ تَحْمِلُ التَّابُوتَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، حَتَّى وَضَعَتْهُ بَيْنَ يَدَيْ طَالُوتَ ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ . وَقَوْلُهُ : ﴿١٠٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ ؟ أَيُّ : عَلَى صِدْقٍ فِيهَا جِئْتَكُمْ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَفِيهَا أَمْرُكُمْ

بِهِ مِنْ طَاعَةِ طَالُوتَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ : يَا اللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ طَالُوتَ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، حِينَ خَرَجَ فِي جُنُودِهِ ، وَمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ أَيُّ : مُخْتَبِرُكُمْ بِنَهَرٍ ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أَيُّ : فَلَا يَصْحَبُنِي الْيَوْمَ فِي هَذَا الْوَجْهِ ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أَيُّ : فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أَيُّ : اسْتَغْلُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ فَشَجَعَهُمْ عِلْمُاؤُهُمُ الْعَالِمُونَ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَإِنَّ النُّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لَيْسَ عَنْ كَثْرَةِ عَدَدٍ وَلَا عُدَّةٍ ، وَهَذَا قَالُوا : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ .

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٧﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٨﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٩﴾

أَيُّ : لَمَّا وَاجَهَ حِزْبُ الْإِيمَانِ وَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ أَصْحَابِ طَالُوتَ ، لِعَدُوِّهِمْ أَصْحَابِ جَالُوتَ وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَيُّ : أَنْزِلْ عَلَيْنَا صَبْرًا مِنْ عِنْدِكَ ﴿وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أَيُّ : فِي لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ ، وَجَنَّبْنَا الْفِرَارَ وَالْعَجْزَ ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أَيُّ : غَلَبُوهُمْ وَقَهَرُوهُمْ بِنَصْرِ اللَّهِ هُمْ ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ ثُمَّ آَلَ الْمُلْكُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَا مَنَحَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الَّذِي كَانَ بِيَدِ طَالُوتَ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أَيُّ : النَّبُوَّةَ ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أَيُّ : مِمَّا يَشَاءُ اللَّهُ

مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي اخْتَصَّهُ بِهِ ﷺ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ أَي : لَوْلَا اللَّهُ يَدْفَعُ عَنْ قَوْمٍ بِآخَرِينَ ، كَمَا دَفَعَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمُقَاتِلَةِ طَالُوتَ وَشَجَاعَةِ دَاوُدَ هَلَكُوا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَسَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أَي : مَنْ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ بِهِمْ يَدْفَعُ عَنْهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَلَهُ الْحُكْمُ ، وَالْحُكْمَةُ عَلَى خَلْقِهِ ، فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أَي : هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي قَصَصْنَاهَا عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِ الَّذِينَ ذَكَرْنَاهُمْ بِالْحَقِّ أَي : بِالْوَاقِعِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الْمُنَاطِقُ لِمَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ أَي : يَا مُحَمَّدٌ ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وَهَذَا تَوْكِيدٌ وَتَوْطِئَةٌ لِلْقَسَمِ .

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ يَعْنِي : مُوسَى وَحُمُودًا ﷺ وَكَذَلِكَ آدَمَ ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ ، كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ حِينَ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ الْأَنْبِيَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ مَنَازِلِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ أَي : الْحُجَجَ ، وَالذَّلَائِلَ الْقَاطِعَاتِ ، عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَيْهِمْ ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ أَيَّدَهُ بِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا ﴾ أَي : كُلُّ ذَلِكَ عَنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

يَتَأَيَّلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا حُلَّةً وَلَا شَفِيعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﷻ

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمْ فِي سَبِيلِهِ ، سَبِيلِ الْخَيْرِ ، لِيَدْخَرُوا ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَلَائِكَتِهِمْ ، وَلِيُبَادِرُوا إِلَى ذَلِكَ ، فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ

الْقِيَامَةِ ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ أَي : لَا يُبَاعُ أَحَدٌ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يُفَادَى بِمَا لَوْ بَذَلَهُ وَلَوْ جَاءَ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ، وَلَا تَنْفَعُهُ خُلَّةٌ أَحَدٍ ، يَعْنِي صَدَاقَتُهُ ، بَلْ وَلَا نَسَابَتُهُ .
وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَا شَفْعَةٌ﴾ أَي : وَلَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ، ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ مُبْتَدَأٌ مَحْضُورٌ فِي خَبَرِهِ ، أَي : وَلَا ظَالِمٌ أَظْلَمَ مِنْ وَاقِيَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ كَافِرًا .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

هَذِهِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ وَهَذَا شَأْنٌ عَظِيمٌ قَدْ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّهَا أَفْضَلُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ . عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ : أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، ثُمَّ قَالَ : آيَةُ الْكُرْسِيِّ ، قَالَ : «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ» .

وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عَشْرِ جُمَلٍ مُسْتَقِلَّةٍ ، فَقَوْلُهُ : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إِنْخِبَارٌ بِأَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أَي : الْحَيُّ فِي نَفْسِهِ ، الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا ، الْقَيِّمُ لغيرِهِ ، وَكَانَ عَمْرٌ يَقْرَأُ الْقِيَامَ ، فَجَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا ، وَلَا قِوَامَ لَهَا بِدُونِ أَمْرِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أَي : لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ ، وَلَا غَفْلَةٌ ، وَلَا ذُهُولٌ عَنْ خَلْقِهِ ، بَلْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يُخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَمِنْ تَمَامِ الْقَيُّومِيَّةِ ، أَنَّهُ لَا يَعْتَرِيهِ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ، فَقَوْلُهُ : ﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ أَي : لَا تَغْلِبُهُ سِنَّةٌ وَهِيَ : الْوَسْنُ وَالنَّعَاسُ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ لِأَنَّهُ أَقْوَى مِنَ السَّيِّئَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إِنْخِبَارٌ بِأَنَّ الْجَمِيعَ عِبِيدُهُ ، وَفِي مُلْكِهِ ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ ، وَسُلْطَانِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ، وَهَذَا مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ ﷻ ، أَنَّهُ لَا يَتَجَاسَرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَشْفَعَ لِأَحَدٍ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، مَاضِيهَا ، وَحَاضِرُهَا وَمُسْتَقْبَلُهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أَي : لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِمَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ ﷻ ، وَأَطْلَعَهُ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الْكُرْسِيُّ : مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ أَي: لَا يُثْقَلُهُ، وَلَا يَكْتَرِثُهُ، حِفْظَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ فِيهِمَا، وَمَنْ بَيْنَهُمَا، بَلْ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ، يَسِيرٌ لَدَيْهِ، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾، وَهَذِهِ الْآيَاتُ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحِ، الْأَجُودُ فِيهَا طَرِيقَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ: أَمْرُوهَا كَمَا جَاءَتْ، مِنْ غَيْرِ تَكْثِيفٍ، وَلَا تَشْيِيعٍ.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أَي: لَا تُكْرَهُوا أَحَدًا عَلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ بَيِّنٌ وَاضِحٌ جَلِيٌّ دَلَالَتُهُ وَبَرَاهِينُهُ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُكْرَهَ أَحَدًا عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ، بَلْ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ، وَنَوَّرَ بَصِيرَتَهُ، دَخَلَ فِيهِ عَلَى بَيِّنَةٍ، وَمَنْ أَعْمَى اللَّهُ قُلُوبَهُ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُفِيدُهُ الدُّخُولُ فِي الدِّينِ مَكْرَهَا مَقْشُورًا.

وَقَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ هَذِهِ مُحْمُولَةٌ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَمَنْ دَخَلَ فِي دِينِهِمْ قَبْلَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ، إِذَا بَدَلُوا الْحِزْيَةَ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْقِتَالِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُدْعَى جَمِيعُ الْأُمَمِ إِلَى الدُّخُولِ فِي الدِّينِ الْحَنِيفِ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَبَى أَحَدٌ مِنْهُمْ الدُّخُولَ، وَلَمْ يَنْقُدْ لَهُ، أَوْ يَنْزِلِ الْحِزْيَةَ، قُوتِلَ حَتَّى يُقْتَلَ، وَهَذَا مَعْنَى ﴿لَا إِكْرَاهَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ أَي: مَنْ خَلَعَ الْأَنْدَادَ، وَالْأَوْثَانَ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ مِنْ عِبَادَةٍ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَوَحَدَ اللَّهُ، فَعَبَدَهُ وَحْدَهُ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أَي: فَقَدْ ثَبَتَ فِي أَمْرِهِ وَاسْتَقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. وَالْقَوْلُ فِي الطَّاغُوتِ: «إِنَّهُ الشَّيْطَانُ» قَوِيٌّ جِدًّا، فَإِنَّهُ يَشْمَلُ كُلَّ شَرٍّ كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَالتَّحَاكُمِ إِلَيْهَا، وَالْإِسْتِنصَارِ بِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أَي: فَقَدْ اسْتَمْسَكَ مِنَ الدِّينِ بِأَقْوَى سَبَبٍ، وَشَبَّهَ ذَلِكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا تَنْفَصِمُ، فَهِيَ فِي نَفْسِهَا مُحْكَمَةٌ مُبْرَمَةٌ قَوِيَّةٌ، وَرَبَطُهَا قَوِيٌّ شَدِيدٌ. قِيلَ: الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى يَعْنِي: الْإِيمَانَ، وَقِيلَ: هُوَ الْإِسْلَامُ، وَقِيلَ: يَعْنِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَقِيلَ: الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى: الْقُرْآنُ، وَقِيلَ: هُوَ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ وَلَا تَنَافٍ بَيْنَهَا.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

فِيهَا خَلِدُونَ ﴿٢٠٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَهْدِي مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ فَيُخْرِجُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشَّكِّ وَالرَّيْبِ ، إِلَى نُورِ الْحَقِّ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الْمُبِينِ السَّهْلِ الْمُنِيرِ ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ إِنَّمَا وَلِيُّهُمْ الشَّيْطَانُ ، يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهَالَاتِ وَالضَّلَالَاتِ ، وَيُخْرِجُوهُمْ ، وَيَحِيدُونَ بِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ إِلَى الْكُفْرِ وَالْإِفْكِ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ . وَهَذَا وَحَدَّ تَعَالَى لَفْظُ النُّورِ وَجَمَعَ الظُّلُمَاتِ ، لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ ، وَالْكَفْرَ أَجْنَاسٌ كَثِيرَةٌ ، وَكُلُّهَا بَاطِلَةٌ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠٧﴾

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أَيُّ : بِقَلْبِكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أَيُّ : وَجُودِ رَبِّهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ إِلَّا غَيْرُهُ ، وَمَا حَمَلَهُ عَلَى هَذَا الطُّغْيَانِ ، وَالْكَفْرِ الْغَلِيظِ ، وَالْمُعَانَدَةِ الشَّدِيدَةِ ، إِلَّا تَجَبُّرُهُ وَطُولُ مُدَّتِهِ فِي الْمُلْكِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُقَالُ إِنَّهُ مَكَثَ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي مُلْكِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكَ﴾ ، وَكَانَ طَلَبَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ دَلِيلًا عَلَى وَجُودِ الرَّبِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا الدَّلِيلُ عَلَى وَجُودِهِ حَدُوثُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، الْمَشَاهِدَةُ بَعْدَ عَدَمِهَا ، وَعَدَمُهَا بَعْدَ وَجُودِهَا وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى وَجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ضَرُورَةً ، لِأَنَّهُمَا لَمْ تَحْدُثْ بِنَفْسِهَا ، فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُوجِدٍ أَوْجَدَهَا ، وَهُوَ الرَّبُّ الَّذِي أَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ : فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الْمُحَاجُّ وَهُوَ النُّمْرُودُ : ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ .

وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ مَا أَرَادَ هَذَا لِأَنَّهُ لَيْسَ جَوَابًا لِمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ، وَلَا فِي مَعْنَاهُ ، لِأَنَّهُ مَانِعٌ لَوْجُودِ الصَّانِعِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَدَّعِي لِنَفْسِهِ هَذَا الْمَقَامَ عِنَادًا وَمُكَابَرَةً ، وَيُؤْهِمُ أَنَّهُ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، كَمَا اقْتَدَى بِهِ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ، وَهَذَا قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا ادَّعَى هَذِهِ الْمُكَابَرَةَ : ﴿فَارِثَ اللَّهِ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أَيُّ : إِذَا كُنْتَ كَمَا تَدَّعِي مِنْ أَنَّكَ تُحْيِي وَتُمِيتُ فَالَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ هُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي الْوُجُودِ ، فِي خَلْقِ ذَوَاتِهِ ، وَتَسْخِيرِ كَوَاكِبِهِ ، وَحَرَكَاتِهِ ، فَهَذِهِ الشَّمْسُ تَبْدُو كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْمَشْرِقِ ، فَإِنْ كُنْتَ إِلَهًا كَمَا ادَّعَيْتَ تُحْيِي وَتُمِيتُ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ؟ فَلَمَّا عَلِمَ عَجْزَهُ ، وَانْقِطَاعَهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمُكَابَرَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، بُهِتَ ، أَيُّ : أَخْرِسَ ، فَلَا يَتَكَلَّمُ ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ . ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ : لَا يُلْهِمُهُمْ حُجَّةً وَلَا بُرْهَانًا ،

بَلْ حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ، وَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾

تَقَدَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهٖ ﴾ وَهُوَ فِي قُوَّةِ قَوْلِهِ : هَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ؟ ، وَلِهَذَا عَطَفَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ قِيلَ : هَذَا الْمَارُّ هُوَ عَزِيزٌ . وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْمَشْهُورُ . وَقِيلَ : هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَمَّا الْقَرْيَةُ فَالْمَشْهُورُ أَنَّهَا بَيْتُ الْمُقَدَّسِ ، مَرَّ عَلَيْهَا بَعْدَ تَحْرِيْبِ بُخْتَنْصَرَّ لَهَا ، وَقَتْلِ أَهْلِهَا ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ أَيٌ : لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ، مِنْ قَوْلِهِمْ خَوَاتِ الدَّارِ تَحْوِي خَوِيًا . ﴿ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أَيٌ : سَاقِطَةٌ سُقُوفُهَا وَجُدْرَانُهَا عَلَى عَرَصَاتِهَا ، فَوَقَفَ مُتَفَكِّرًا فِيمَا آلَ أَمْرُهَا إِلَيْهِ ، بَعْدَ الْعِمَارَةِ الْعَظِيمَةِ ، ﴿ قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وَذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنْ دُثُورِهَا ، وَشِدَّةِ خَرَابِهَا ، وَبُعْدِهَا عَنِ الْعُودَةِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ قَالَ وَعُمِّرَتْ الْبَلَدَةُ بَعْدَ مُضِيِّ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ مَوْتِهِ ، وَتَكَامَلْ سَاكِنُوهَا ، وَتَرَاجَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ ﷻ بَعْدَ مَوْتِهِ كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ أَحْيَا اللَّهُ فِيهِ عَيْنِيهِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا إِلَى صُنْعِ اللَّهِ فِيهِ ، كَيْفَ يُحْيِي بَدَنَهُ ، فَلَمَّا اسْتَقْلَلَ سَوِيًّا ، قَالَ اللَّهُ لَهُ : أَيُّ بَوَاسِطَةِ الْمَلِكِ ﴿ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قَالَ : وَذَلِكَ أَنَّهُ مَاتَ أَوَّلَ النَّهَارِ ، ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَاقِيَةً ظَنَّ أَنَّهَا شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَقَالَ : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ فِيمَا ذَكَرَ عِنَبٌ وَتَيْنٌ وَعَصِيرٌ ، فَوَجَدَهُ كَمَا تَقَدَّمَ لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهُ شَيْءٌ ، لَا الْعَصِيرُ اسْتَحَالَ ، وَلَا التَيْنُ حُمُضٌ وَلَا أَتْنٌ ، وَلَا الْعِنَبُ نَقْصٌ ﴿ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ﴾ أَيٌ : كَيْفَ يُحْيِيهِ اللَّهُ ﷻ وَأَنْتَ تَنْظُرُ ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أَيٌ : دَلِيلًا عَلَى الْمَعَادِ ﴿ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ﴾ أَيٌ : تَرْفَعُهَا فَيَرْكَبُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ ^ط قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ

جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ بِأَتِينِكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٥﴾

ذَكِّرُوا لِسُؤَالِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْبَابًا، مِنْهَا: أَنَّهُ لَمَّا قَالَ لِنُحُورٍ: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَحَبُّ أَنْ يَتَرَفَّقَ مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ بِذَلِكَ، إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ وَأَنْ يَرَى ذَلِكَ مُشَاهِدَةً، فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمَ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَصَرَّهْنِ إِلَيْكَ﴾ أَيُّ: وَقَطَّعْنَهُنَّ، وَقِيلَ: ﴿فَصَرَّهْنِ إِلَيْكَ﴾ أَوْتَقَّهْنِ، فَلَمَّا أَوْتَقَّهْنِ ذَبَحْنَهُنَّ، ثُمَّ جَعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا. ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَدْعُهُنَّ فَدَعَاهُنَّ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ﷻ فَاتَّوَا كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ بِأَتِينِكَ سَعِيًّا﴾ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ، وَهَذَا قَالَ: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ: عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٦﴾

هَذَا مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِتَضْعِيفِ الثَّوَابِ لِمَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، وَإِنَّ الْحَسَنَةَ تُضَاعَفُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، فَقَالَ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَهَذَا الْمَثَلُ أَلْبَغُ فِي النُّفُوسِ مِنْ ذِكْرِ عَدَدِ السَّبْعِمِائَةِ، فَإِنَّ هَذَا فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ يُنْمِيهَا اللَّهُ ﷻ لِأَصْحَابِهَا، كَمَا يُنْمِي الزَّرْعَ لِمَنْ بَذَرَهُ فِي الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ. وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَنُ بِتَضْعِيفِ الْحَسَنَةِ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ.

وَقَوْلُهُ هَاهُنَا: ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أَيُّ: بِحَسَبِ إِخْلَاصِهِ فِي عَمَلِهِ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيُّ: فَضْلُهُ وَاسِعٌ كَثِيرٌ، أَكْثَرُ مِنْ خَلْقِهِ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٧﴾ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٦٨﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾

يَمْدُحُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِهِ، ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنَ الْخِيَرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ

مَنَا عَلَى مَنْ أَعْطَوْهُ ، فَلَا يَمْنُونُ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَمْنُونُ بِهِ لَا يَقُولُ وَلَا فَعِل .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا أَذَى ﴾ أَي : لَا يَفْعَلُونَ مَعَ مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ مَكْرُوهًا ، يُحِيطُونَ بِهِ مَا سَلَفَ مِنَ
 الْإِحْسَانِ ، ثُمَّ وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أَي :
 ثَوَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ لَا عَلَى أَحَدٍ سِوَاهُ ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
 ﴿ وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ ﴾ أَي : عَلَى مَا خَلَفُوهُ مِنَ الْأَوْلَادِ ، وَلَا مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ،
 لَا يَأْسِفُونَ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهُمْ قَدْ صَارُوا إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ أَي : مِنْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَدُعَاءٍ لِمُسْلِمٍ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أَي : عَفْوٌ ، وَغَفْرٌ
 عَنْ ظُلْمٍ قَوْلِيٍّ أَوْ فِعْلِيٍّ ﴿ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى ﴾ . وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّدَقَةَ تَبْطُلُ بِمَا يَتْبَعُهَا مِنَ الْمَنِّ وَالْأَذَى ، فَمَا بَقِيَ
 ثَوَابُ الصَّدَقَةِ ، بِخَطِيئَةِ الْمَنِّ ، وَالْأَذَى ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَأَلَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ أَي :
 لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَمَا تَبْطُلُ صَدَقَةٌ مَنْ رَأَى بِهَا النَّاسَ ، فَأَظْهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ
 وَجْهَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ مَدْحُ النَّاسِ لَهُ أَوْ شُهْرَتُهُ بِالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ ، لِيُشْكَرَ بَيْنَ النَّاسِ ، أَوْ
 يُقَالَ إِنَّهُ كَرِيمٌ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ مَعَ قَطْعِ نَظَرِهِ عَنْ مُعَامَلَةِ اللَّهِ تَعَالَى ابْتِغَاءَ
 مَرْضَاتِهِ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ثُمَّ صَرَبَ تَعَالَى مَثَلُ ذَلِكَ
 الْمُرَائِي بِإِنْفَاقِهِ ، وَالَّذِي يُتْبَعُ نَفَقَتُهُ مَنَا أَوْ أَذَى فَقَالَ : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ ، وَهُوَ جَمْعُ
 صَفْوَانَةٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ الصَّفْوَانُ يُسْتَعْمَلُ مُفْرَدًا أَيْضًا وَهُوَ الصِّفَا وَهُوَ الصَّخْرُ الْأَمْلَسُ
 عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ﴿ هُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ ﴾ فَتَرَكَّهُ صَلْدًا ﴿ أَي : فَتَرَكَ الْوَابِلُ ذَلِكَ
 الصَّفْوَانَ صَلْدًا ، أَيِ أَمْلَسَ يَابِسًا ، أَيِ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ ، بَلْ قَدْ ذَهَبَ كُلُّهُ ، أَيِ
 وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْمُرَائِينَ تَذْهَبُ وَتَضْمَحِلُّ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ أَعْمَالٌ فِيمَا يَرَى النَّاسُ
 كَالْتُّرَابِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْثِيَةً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ
 جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٠٤﴾

وَهَذَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿ وَتَنْثِيَةً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾
 أَي : وَهُمْ مُتَحَقِّقُونَ وَمُتَّبِعُونَ أَنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ أَي :
 كَمَثَلِ بُسْتَانٍ بِرَبْوَةٍ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ . ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ ، وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ

﴿ فَتَاتَتْ أَكْلَهَا ﴾ أَي : ثَمَرَتَهَا ﴿ ضَعِفَتْ ﴾ أَي : بِالنَّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْجِنَانِ ﴿ فَإِنْ لَمْ يُصَبِّهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ : هُوَ الرَّدَادُ ، وَهُوَ اللَّيْنُ مِنَ الْمَطَرِ ، أَي هَذِهِ الْجَنَّةُ بِهَذِهِ الرَّبْوَةِ لَا تَمُحُلُ أَبَدًا ، لِأَنَّهَا إِنْ لَمْ يُصَبِّهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كِفَايَتُهَا ، وَكَذَلِكَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِ لَا يَبُورُ أَبَدًا ، بَلْ يَتَقَبَّلُهُ اللَّهُ وَيُكَثِّرُهُ وَيُنَمِّيهِ ، كُلُّ عَامِلٍ بِحَسَبِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَي : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ شَيْءٌ .

أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَوْمَا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : فِيمَنْ تَرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ ؟ ﴿ أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ قَالُوا : اللَّهُ أَعْلَمُ ، فَعُصِبَ عُمَرُ فَقَالَ : قُولُوا نَعْلَمُ ، أَوْ لَا نَعْلَمُ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا ابْنَ أَخِي ، قُلْ وَلَا تُحَقِّرْ نَفْسَكَ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ ، قَالَ عُمَرُ : أَيُّ عَمَلٍ ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لِعَمَلٍ . قَالَ عُمَرُ : لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي ، حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ . وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ كِفَايَةٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَتَبَيُّنٌ مَا فِيهَا مِنَ الْمَثَلِ بِعَمَلٍ مِّنْ أَحْسَنِ الْعَمَلِ أَوَّلًا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ عَكَسَ سَيْرُهُ ، فَبَدَّلَ الْحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ - عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - فَأَبْطَلَ بِعَمَلِهِ الثَّانِي مَا أَسْلَفَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الصَّالِحِ ، وَاحْتِجَاجٌ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَوَّلِ فِي أَصْبَحِ الْأَحْوَالِ فَلَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَحَانَهُ أَخْرُجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ ﴾ ، وَهُوَ الرِّيحُ الشَّدِيدُ ﴿ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ أَي : أَحْرَقَ تِمَارَهَا ، وَأَبَادَ أَشْجَارَهَا ، فَأَيُّ حَالٍ يَكُونُ حَالُهُ ؟ ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَي : تَعْتَبِرُونَ وَتَفْهَمُونَ الْأَمْثَالَ ، وَالْمَعَانِي ، وَتُنْزِلُونَهَا عَلَى الْمُرَادِ مِنْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

يَنَاقِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَبِئَتٍ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٨﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۗ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَسْعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ

أَوْتَىٰ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٢٩﴾

يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ الصَّدَقَةُ هَاهُنَا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا بِتَيْسِيرِهِ إِيَّاهَا لَهُمْ ﴿ وَلَا تَمَمُّوا ﴾ أَيُّ : تَقْصِدُوا ﴿ الْخَيْثُ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِهَا خِدِيه ﴾ أَيُّ : لَوْ أُعْطِيتُمُوهُ مَا أَخَذْتُمُوهُ إِلَّا أَنْ تَتَغَاضُوا فِيهِ ، فَاللَّهُ أَغْنَىٰ عَنْهُ مِنْكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ مَا تَكْرَهُونَ . ﴿ وَلَسْتُمْ بِهَا خِدِيه إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ لَوْ كَانَ لَكُمْ عَلَىٰ أَحَدٍ حَقٌّ فَجَاءَكُمْ بِحَقِّ دُونِ حَقِّكُمْ ، لَمْ تَأْخُذْوهُ بِحِسَابِ الْجِدِّ حَتَّىٰ تُنْقِصُوهُ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ لِي مَا لَا تَرْضَوْنَ لِنَفْسِكُمْ ، وَحَقِّي عَلَيْكُمْ مِنْ أَطْيَبِ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِهِ ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أَيُّ : وَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالصَّدَقَاتِ وَبِالطَّيِّبِ مِنْهَا ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَجَمِيعِ خَلْقِهِ فَقَرَاءٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ وَاسِعُ الْفَضْلِ لَا يَنْفَدُ مَا لَدَيْهِ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ وَاسِعُ الْعَطَاءِ ، كَرِيمٌ جَوَادٌ ، وَسَيَجْزِيهِ بِهَا وَيُضَاعِفُهَا لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ ، وَهُوَ الْحَمِيدُ أَيُّ : الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ ، وَأَقْوَالِهِ ، وَشَرْعِهِ ، وَقَدَرِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ أَيُّ : يُخَوِّفُكُمُ الْفَقْرَ ، لِتَمْسِكُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ ، فَلَا تُنْفِقُوهُ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ أَيُّ : مَعَ نَهْيِهِ إِيَّاكُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ ، يَأْمُرُكُمْ بِالْمَعَاصِي ، وَالْمَأْتِمِ ، وَالْمَحَارِمِ ، وَتُحَالَفَةِ الْخَلَاقِ . ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ ﴾ أَيُّ : فِي مُقَابَلَةِ مَا أَمَرَكُمْ الشَّيْطَانُ بِالْفَحْشَاءِ ﴿ وَفَضْلًا ﴾ أَيُّ : فِي مُقَابَلَةِ مَا خَوَّفَكُمْ الشَّيْطَانُ مِنَ الْفَقْرِ ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ . الْحِكْمَةُ - كَمَا قَالَ الْجُمْهُورُ - لَا تَخْتَصُّ بِالنُّبُوَّةِ بَلْ هِيَ أَعَمُّ مِنْهَا ، وَأَعْلَاهَا النُّبُوَّةُ ، وَالرِّسَالَةُ أَخْصُ ، وَلَكِنْ لَا تَبَاعُ الْأَنْبِيَاءُ حَظٌّ مِنَ الْخَيْرِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أَيُّ : وَمَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالتَّنْذَارِ إِلَّا مَنْ لَهُ لُبٌّ وَعَقْلٌ ، يَعْنِي بِهِ الْخُطَابُ وَمَعْنَى الْكَلَامِ .

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُمْ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٣٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٣١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ الْعَامِلُونَ مِنَ الْخَيْرَاتِ ، مِنَ النِّفَقَاتِ وَالْمُنْذُورَاتِ ، وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ مُجَازَاتُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ، لِلْعَامِلِينَ لِذَلِكَ ، إِبْتِغَاءَ وَجْهِهِ وَرَجَاءَ مَوْعُودِهِ ،

وَتَوَعَّدَ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِطَاعَتِهِ بَلْ خَالَفَ أَمْرَهُ ، وَكَذَّبَ خَبْرَهُ ، وَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنْقَذُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقَمَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ أَيُّ : إِنْ أَظْهَرْتُمُوهَا فَنِعِمَّ شَيْءٌ هِيَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَخَفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ إِسْرَارَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ مِنْ إِظْهَارِهَا ، لِأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنِ الرِّيَاءِ ، إِلَّا أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَى الْإِظْهَارِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ مِنْ إِقْدَاءِ النَّاسِ بِهِ ، فَيَكُونُ أَفْضَلُ مِنْ هَذِهِ الْحَيِثِيَّةِ . وَالْأَصْلُ أَنَّ الْإِسْرَارَ أَفْضَلُ لِهَذِهِ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أَيُّ : بِذَلِكَ الصَّدَقَاتِ ، وَلَا سِيَّيَا إِذَا كَانَتْ سِرًّا يَحْصُلُ لَكُمْ الْخَيْرُ فِي رَفْعِ الدَّرَجَاتِ ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ السَّيِّئَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيُّ : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ .

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدُنُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُفْسِدُكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۖ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۖ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٩﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَرْضَخُوا لِأَسَابِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسَأَلُوا ، فَرَخَّصَ لَهُمْ ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدُنُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُفْسِدُكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۖ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِأَنْ لَا يُتَصَدَّقَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ حَتَّى تَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدُنُهُمْ ﴾ إِلَى آخِرِهَا ، فَأَمَرَ بِالصَّدَقَةِ بَعْدَهَا عَلَى كُلِّ مَنْ سَأَلَكَ مِنْ كُلِّ دِينٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُفْسِدُكُمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَنَظَائِرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ قَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ : يَعْنِي إِذَا أَعْطَيْتَ لِرُوحِهِ اللَّهِ ، فَلَا عَلَيْكَ مَا كَانَ عَمَلُهُ ، وَهَذَا مَعْنَى حَسَنٌ ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْمُتَصَدَّقَ إِذَا

تَصَدَّقَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَلَا عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَنْ أَصَابَ الْبِرَّ ، أَوْ فَاجِرٍ ، أَوْ مُسْتَحِقٍّ ، أَوْ غَيْرِهِ ، وَهُوَ مُثَابٌّ عَلَى قَصْدِهِ ، وَمُسْتَنْدٌ هَذَا تَمَامُ الْآيَةِ ﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يَعْنِي الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ قَدْ انْقَطَعُوا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ، وَسَكَنُوا الْمَدِينَةَ ، وَلَيْسَ لَهُمْ سَبَبٌ يَرُدُّونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا يُغْنِيهِمْ ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾ يَعْنِي سَفَرًا لِلتَّسَبُّبِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ ، وَالضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ : هُوَ السَّفَرُ . ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ أَيُّ : الْجَاهِلُ بِأَمْرِهِمْ وَحَالِهِمْ ، يَحْسَبُهُمْ أَغْنِيَاءَ مِنْ تَعَفُّفِهِمْ فِي لِبَاسِهِمْ وَحَالِهِمْ ، وَمَقَالِهِمْ . ﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ ﴾ أَيُّ : بِمَا يَظْهَرُ لِدَوِيِّ الْأَلْبَابِ مِنْ صِفَاتِهِمْ . ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أَيُّ : لَا يُلْحُونَ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَيُكَلِّفُونَ النَّاسَ مَا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، فَإِنَّ مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ ، فَقَدْ أَلْخَفَ فِي الْمَسْأَلَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرُ الْجَزَاءِ وَأَمَّتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ هَذَا مَدْخُ مِنْهُ تَعَالَى لِلْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ، مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، وَالْأَحْوَالِ مِنْ سِرٍّ وَجَهَارٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فَعَلُوا مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَاتِ ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقِهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْأَبْرَارَ الْمُؤَدِّينَ النَّفَقَاتِ ، الْمُخْرِجِينَ الرِّكَوَاتِ ، الْمُتَفَضِّلِينَ بِالْبِرِّ وَالصَّدَقَاتِ لِدَوِيِّ الْحَاجَاتِ وَالْقَرَابَاتِ ، فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوْقَاتِ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ أَكَلَةِ الرِّبَا وَأَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَنْوَعَ الشُّبُهَاتِ ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ ، وَقِيَامِهِمْ مِنْهَا ، إِلَى بَعْتِهِمْ وَنُشُورِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ أَيُّ : لَا يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الْمَصْرُوعُ حَالَ صَرْعِهِ ، وَتَخَبَّطُ الشَّيْطَانِ لَهُ ، وَذَٰلِكَ أَنَّهُ يَقُومُ قِيَامًا مُنْكَرًا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَكَلَ الرِّبَا يُبْعَثُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا يُخَنَّقُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴿ أَيُّ : إِنَّمَا جُوزُوا بِذَلِكَ لِإِعْتِرَاضِهِمْ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ فِي شَرْعِهِ ، وَلَيْسَ هَذَا قِيَاسًا مِنْهُمْ لِلرِّبَا عَلَى الْبَيْعِ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْقِيَاسِ لَقَالُوا : إِنَّمَا الرِّبَا مِثْلُ الْبَيْعِ ، وَإِنَّمَا قَالُوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ أَيُّ : هُوَ نَظِيرُهُ ، فَلِمَ حُرِّمَ هَذَا وَأُبِيحَ هَذَا ؟ وَهَذَا إِعْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى الشَّرْعِ ، أَيُّ هَذَا مِثْلُ هَذَا ، وَقَدْ أَحَلَّ هَذَا وَحَرَّمَ هَذَا . ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ رَدًّا عَلَيْهِمْ ، أَيُّ عَلَى مَا قَالُوهُ مِنَ الْإِعْتِرَاضِ ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِتَفْرِيقِ اللَّهِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا حُكْمًا ، وَهُوَ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا ، وَمَا يَنْفَعُ عِبَادَةَ فَيَسِّحُهَا لَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّهُمْ فَيَنْهَاهُمْ عَنْهُ ، وَهُوَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوَلَدِهَا الطِّفْلَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أَيُّ : مَنْ بَلَغَهُ نَهْيُ اللَّهِ عَنِ الرِّبَا ، فَانْتَهَى حَالٌ وَصُولُ الشَّرْعِ إِلَيْهِ ، فَلَهُ مَا سَلَفَ مِنَ الْمَعَامَلَةِ أَيُّ : مَا كَانَ أَكْلَ مِنَ الرِّبَا قَبْلَ التَّحْرِيمِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ أَيُّ : إِلَى الرِّبَا ، ففَعَلَهُ بَعْدَ بُلُوغِهِ نَهْيِ اللَّهِ عَنْهُ فَقَدْ اسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : آخِرُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آيَةُ الرِّبَا .

يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٧﴾

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَمَحَقُ الرِّبَا ، أَيُّ يُذْهِبُهُ ، إِمَّا بِأَنْ يُذْهِبَهُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ يَدِ صَاحِبِهِ ، أَوْ يُجَرِّمُهُ بِرَكَّةٍ مَالِهِ ، فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ ، بَلْ يُعَذِّبُهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيُعَاقِبُهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ ﴾ قُرِئَ بِضَمِّ الْيَاءِ وَالتَّخْفِيفِ مِنْ رَبَا الشَّيْءِ ، يَرْبُو ، وَأَرْبَاهُ ، يُرْبِيهِ ، أَيُّ : كَثَرُهُ ، وَنَبَاهُ ، يُنَمِّيهِ . ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ أَيُّ : لَا يُحِبُّ كَفُورَ الْقَلْبِ ، أَثِيمَ الْقَوْلِ ، وَالْفِعْلِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ، مَا دَحَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِرَبِّهِمْ ، الْمُطِيعِينَ أَمْرَهُ ، الْمُؤَدِّينَ شُكْرَهُ ، الْمُحْسِنِينَ إِلَى خَلْقِهِ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ ، مُخْبِرًا عَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ ، وَأَتَمَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ التَّعَاتِ آمِنُونَ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا

تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ ، نَاهِيًا لَهُمْ عَمَّا يُفَرِّبُهُمْ إِلَى سَخَطِهِ ، وَيُبْعِدُهُمْ عَنْ رِضَاهُ ، فَقَالَ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَيُّ : خَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ فِيمَا تَفْعَلُونَ ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ أَيُّ : اُنْتُكُوا مَا لَكُمْ عَلَى النَّاسِ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَمْوَالِ بَعْدَ هَذَا الْإِنذَارِ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : بِمَا شَرَعَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ تَحْلِيلِ الْبَيْعِ ، وَتَحْرِيمِ الرِّبَا وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى تَعَاطِي الرِّبَا بَعْدَ الْإِنذَارِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿ فَأَذَنُوا بِحَرْبٍ ﴾ أَيُّ : اسْتَيْقَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴾ أَيُّ : بِأَخِذِ الزِّيَادَةِ ﴿ وَلَا تَظْلُمُونَ ﴾ أَيُّ : بِوَضْعِ رُءُوسِ الْأَمْوَالِ أَيْضًا ، بَلْ لَكُمْ مَا بَدَلْتُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ ، وَلَا نَقْصٍ مِنْهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِالصَّبْرِ عَلَى الْمُعْسَرِ الَّذِي لَا يَجِدُ وَفَاءً فَقَالَ : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ لَا كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِمُدِينِهِ إِذَا حَلَّ عَلَيْهِ الدَّيْنُ : إِمَّا أَنْ تَقْضِي وَإِمَّا أَنْ تُرَبِّي . ثُمَّ يَنْدُبُ إِلَى الْوَضْعِ عَنْهُ وَيَعِدُّ عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرِ وَالثَّوَابِ الْجَزِيلِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : وَإِنْ تَرْتَكُوا رَأْسَ الْمَالِ بِالْكُلِّيَّةِ وَتَضَعُوهُ عَنِ الْمَدِينِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ، يَعِظُ عِبَادَهُ وَيُدَكِّرُهُمْ زَوَالَ الدُّنْيَا ، وَفَنَاءَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا ، وَإِتْيَانَ الْآخِرَةِ ، وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ تَعَالَى ، وَحُاسِبَتَهُ تَعَالَى خَلْقَهُ عَلَى مَا عَمِلُوا وَمُجَازَاتِهِ إِيَّاهُمْ بِمَا كَسَبُوا ، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَيُحَذِّرُهُمْ عُقُوبَتَهُ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ

إِحْدَاهُمَا فَتَذَكَّرَ أَحَدُهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبُ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۚ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً حَاصِرَةٌ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۚ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُقُوكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ ۚ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَطْوَلُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ هَذَا إِرْشَادٌ مِنْهُ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِذَا تَعَامَلُوا بِمُعَامَلَاتٍ مُّوَجَّلَةٍ أَنْ يَكْتُبُوهَا ، لِيَكُونَ ذَٰلِكَ أَحْفَظَ لِمَقْدَارِهَا وَمِيقَاتِهَا ، وَأَضْبَطَ لِلشَّاهِدِ فِيهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاكْتُبُوهُ ﴾ أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَىٰ بِالْكِتَابَةِ لِلتَّوَثُّقِ وَالْحِفْظِ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : كَانَ ذَٰلِكَ وَاجِبًا ثُمَّ نُسِخَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ أَيُّ : بِالْقِسْطِ وَالْحَقِّ وَلَا يَجُزِّي فِي كِتَابَتِهِ عَلَىٰ أَحَدٍ ، وَلَا يَكْتُبُ إِلَّا مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ ، وَلَا نُقْصَانٍ . ﴿ وَلَا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ ﴾ أَيُّ : وَلَا يَمْتَنِعُ مَنْ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ إِذَا سُئِلَ أَنْ يَكْتُبَ لِلنَّاسِ ، وَلَا ضَرُورَةَ عَلَيْهِ فِي ذَٰلِكَ ، فَكَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ، فَلْيَتَصَدَّقْ عَلَىٰ غَيْرِهِ بِمَنْ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلْيَكْتُبْ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « إِنْ مِنَ الصَّدَقَةِ أَنْ تُعِينَ صَانِعًا ، أَوْ تَصْنَعَ لِأَخْرَقٍ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ أَيُّ : وَلْيُمْلِلِ الْمَدِينُ عَلَى الْكَاتِبِ مَا فِي ذِمَّتِهِ مِنَ الدِّينِ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي ذَٰلِكَ ﴿ وَلَا يَخْسَنَ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أَيُّ : لَا يَكْتُمُ مِنْهُ شَيْئًا ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ مُخْجَرًا عَلَيْهِ ، بِتَذِيرٍ وَنَحْوِهِ ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ أَيُّ : صَغِيرًا أَوْ مُجْنُونًا ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَأَ هُوَ ﴾ إِمَّا لِعِيٍّ أَوْ جَهْلٍ بِمَوْضِعِ صَوَابِ ذَٰلِكَ مِنْ خَطِئِهِ ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ ﴾ أَمْرٌ بِالْإِشْهَادِ مَعَ الْكِتَابَةِ لِرِزَادَةِ التَّوَثُّقِ ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَمْوَالِ ، وَمَا يَقْصَدُ بِهِ الْمَالُ ، وَإِنَّمَا أُقِيمَتِ الْمَرَأَتَانِ مَقَامَ الرَّجُلِ لِنُقْصَانِ عَقْلِ الْمَرْأَةِ . ﴿ يَمْنَنَ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ إِسْتِرَاطِ الْعَدَالَةِ فِي الشُّهُودِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ يَعْنِي : الْمَرَاتَيْنِ إِذَا نَسِيَتِ الشَّهَادَةَ ﴿ فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾ أَيُّ : يَحْضُلُ لَهَا ذِكْرُهَا وَقَعَ بِهِ مِنَ الْإِشْهَادِ . وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَأْبُ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ لِلْأَدَاءِ ، لِحَقِيقَةِ قَوْلِهِ الشَّهَادَةُ وَالشَّاهِدُ حَقِيقَةُ فِيمَنْ تَحْمَلُ ، فَإِذَا دُعِيَ لِأَدَائِهَا فَعَلَيْهِ الْإِجَابَةُ إِذَا تَعَيَّنَتْ ، وَإِلَّا فَهُوَ فَرَضٌ كِفَايَةٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَالَ غَيْرَ وَاحِدٍ : إِذَا دُعِيَتْ لِتَشْهَدَ فَأَنْتَ بِالْخِيَارِ ، وَإِذَا شَهِدْتَ فَدُعِيتَ فَاجِبٌ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَسْمُؤُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْإِرْشَادِ وَهُوَ الْأَمْرُ
 بِكِتَابَةِ الْحَقِّ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا ، فَقَالَ : وَلَا تَسَامُوا . أَيُّ : لَا تَمَلُّوا أَنْ تَكْتُبُوا الْحَقَّ عَلَى أَيِّ
 حَالٍ كَانَ مِنَ الْقِلَّةِ وَالْكَثَرَةِ إِلَى أَجَلِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ لَكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا
 تَرْتَابُوا ﴾ . أَيُّ : هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْكِتَابَةِ لِلْحَقِّ ، إِذَا كَانَ مُوجَلًّا ، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ،
 أَيُّ : أَعْدَلُ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ، أَيُّ : أَثَبَّتْ لِلشَّاهِدِ إِذَا وَضَعَ خَطَّهُ ثُمَّ رَأَاهُ تَذَكَّرَ بِهِ الشَّهَادَةَ ،
 لِاحْتِمَالِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْتُبْهُ أَنْ يَنْسَاهُ ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ غَالِبًا ﴿ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ ، وَأَقْرَبُ إِلَى عَدَمِ
 الرِّيبَةِ بَلْ تَرْجِعُونَ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَى الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُمُوهُ ، فَيُفْصَلُ بَيْنَكُمْ بِلَا رِيبَةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَجَرَّةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ أَيُّ :
 إِذَا كَانَ الْبَيْعُ بِالْحَاضِرِ يَدًا بِيَدٍ فَلَا بَأْسَ بِعَدَمِ الْكِتَابَةِ ، لِانْتِفَاءِ الْمَحْذُورِ فِي تَرْكِهَا . فَأَمَّا الْإِشْهَادُ
 عَلَى الْبَيْعِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : يَعْنِي : أَشْهَدُوا
 عَلَى حَقِّكُمْ إِذَا كَانَ فِيهِ أَجَلٌ ، أَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَجَلٌ فَأَشْهَدُوا عَلَى حَقِّكُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ . وَقَالَ
 آخَرُونَ : هَذَا الْأَمْرُ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ ﴾ ، وَهَذَا
 الْأَمْرُ مُحْمُولٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ عَلَى الْإِرْشَادِ وَالنَّذْبِ ، لَا عَلَى الْوُجُوبِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : لَا يُضَارُّ الْكَاتِبُ وَلَا الشَّاهِدُ ،
 فَيَكْتُبُ هَذَا خِلَافَ مَا يُمِيلُ ، وَيَشْهَدُ هَذَا بِخِلَافِ مَا سَمِعَ ، أَوْ يَكْتُمُهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ :
 لَا يُضَرُّ بِهِمَا ، وَإِضَاحُهُ كَمَا جَاءَ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَأْتِي الرَّجُلُ فَيَدْعُوهُمَا إِلَى الْكِتَابِ
 وَالشَّهَادَةِ ، فَيَقُولَانِ : إِنَّا عَلَى حَاجَةٍ ، فَيَقُولُ : إِنَّكُمَا قَدْ أَمَرْتُمَا أَنْ نُحْيِيَا ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُضَارَّ هُمَا .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ ﴾ أَيُّ : إِنْ خَالَفتُمْ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ ، أَوْ فَعَلْتُمْ مَا نَهَيْتُمْ
 عَنْهُ ، فَإِنَّهُ فَسُقٌ كَاثِرٌ بِكُمْ ، أَيُّ لَا زِمَ لَكُمْ لَا تُحِيدُونَ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَيُّ : خَافُوهُ ، وَرَاقِبُوهُ ، وَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ ، وَاتْرَكُوا زَجْرَهُ ، ﴿ وَيَعْلَمُكُمْ
 اللَّهُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ ، وَمَصَالِحِهَا ، وَعَوَاقِبِهَا ،
 فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، بَلْ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ .

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنُمْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا
 فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ

ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ أَيُّ : مُسَافِرِينَ ، وَتَدَايَيْتُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا ﴾ يَكْتُبُ لَكُمْ ، فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ، أَيُّ : فَلْيَكُنْ بَدَلُ الْكِتَابَةِ رِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ، أَيُّ : فِي يَدِ صَاحِبِ الْحَقِّ . ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمْنَتَهُ ﴾ أَيُّ : إِذَا ائْتَمَنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلَا بَأْسَ أَنْ لَا تَكْتُبُوا ، أَوْ لَا تُشْهَدُوا . ﴿ وَلَيَقِّنِ اللَّهُ رَبَّهُ ﴾ يُعْنَى : الْمُؤْتَمِّن . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ أَيُّ : لَا تُخْفَوْهَا ، وَتُغْلَوْهَا ، وَلَا تُظْهِرُوهَا ، ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ يَعْنِي : فَاجِرٌ قَلْبُهُ .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِنَّ ، وَمَا بَيْنَهُنَّ ، وَأَنَّهُ الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا فِيهِنَّ ، لَا تُخْفَى عَلَيْهِ الظُّوَاهِرُ ، وَلَا السَّرَائِرُ ، وَالضَّمَائِرُ ، وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَتْ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَحَاسِبُ عِبَادَهُ عَلَى مَا فَعَلُوهُ ، وَمَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ ، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ بِمَزِيدٍ عَلَى الْعِلْمِ وَهُوَ الْحَاسِبَةُ عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ائْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَةِ ، وَخَافُوا مِنْهَا ، وَمِنْ مُحَاسَبَةِ اللَّهِ هُمْ عَلَى جَلِيلِ الْأَعْمَالِ وَحَقِيرِهَا ، وَهَذَا مِنْ شِدَّةِ إِيمَانِهِمْ وَإِقَانِهِمْ .

فَلَمَّا أَقَرَّ بِهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي آثَرِهَا ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۖ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۚ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا سَيِّئًا أَوْ أَخْطَاْنَا ۚ إِلَىٰ آخِرِهِ .

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۖ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٨﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۚ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا سَيِّئًا أَوْ أَخْطَاْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۚ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ۚ أَنْتَ مَوْلَانَا

فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٩﴾

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَرَأَ بِالْأَيَّتَيْنِ - مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ - فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ » . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : بَيَّنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ جِبْرِيلُ إِذْ سَمِعَ نَقِيضًا فَوْقَهُ ، فَرَفَعَ جِبْرِيلُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ : هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ مَا فُتِحَ قَطُّ قَالَ : فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَاتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ : أَبَشِّرْ بِنُورَيْنِ قَدْ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ ، فَاتِحَةُ الْكِتَابِ ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، لَنْ تَقْرَأَ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيَتْهُ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ عَطْفٌ عَلَى الرَّسُولِ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْجَمِيعِ فَقَالَ : ﴿ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ فَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، وَيُصَدِّقُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، بَلِ الْجَمِيعُ عَنْدهُمْ صَادِقُونَ بَارُونَ رَاشِدُونَ مَهْدِيُونَ هَادُونَ إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أَيُّ : سَمِعْنَا قَوْلَكَ يَا رَبَّنَا ، وَفَهِمْنَاهُ وَقَمْنَا بِهِ ، وَامْتَثَلْنَا الْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ سُؤَالٌ لِلْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَاللُّطْفِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أَيُّ : لَا يُكَلِّفُ أَحَدٌ فَوْقَ طَاقَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَهَذِهِ هِيَ النَّاسِخَةُ الرَّافِعَةُ لِمَا كَانَ أَشْفَقَ مِنْهُ الصَّحَابَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ أَيُّ : هُوَ وَإِنْ حَاسَبَ وَسَالَ لَكِنْ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا بِمَا يَمْلِكُ الشَّخْصُ دَفْعَهُ ، فَأَمَّا مَا لَا يَمْلِكُ دَفْعَهُ مِنْ وَسْوَسَةِ النَّفْسِ وَحَدِيثِهَا ، فَهَذَا لَا يُكَلِّفُ بِهِ الْإِنْسَانُ ، وَكَرَاهِيَةُ الْوَسْوَسَةِ السَّيِّئَةِ مِنَ الْإِيمَانِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ أَيُّ : مِنْ خَيْرٍ ﴿ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ أَيُّ : مِنْ شَرٍّ ، وَذَلِكَ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تَدْخُلُ تَحْتَ التَّكْلِيفِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُرْشِدًا عِبَادَهُ إِلَى سُؤَالِهِ ، وَقَدْ تَكْفَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ ، كَمَا أَرَشَدَهُمْ وَعَلَّمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُوَاحِدْنَا إِنْ كُنَّا نَظُنُّ أَنْ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ أَيُّ : إِنْ تَرَكْنَا فَرْضًا عَلَى جِهَةِ النَّسْيَانِ ، أَوْ فَعَلْنَا حَرَامًا كَذَلِكَ ، أَوْ أَخْطَأْنَا ، أَيُّ الصَّوَابِ فِي الْعَمَلِ جَهْلًا مِنْهُ بِوَجْهِهِ الشَّرْعِيِّ ، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : « قَالَ اللَّهُ : نَعَمْ » وَحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ « قَالَ اللَّهُ : قَدْ فَعَلْتُ » .

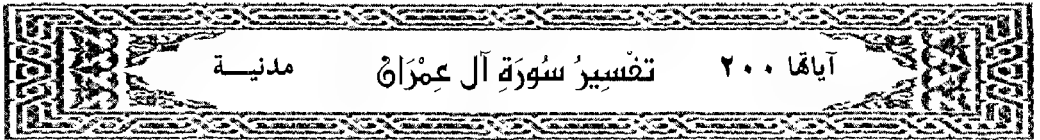
وَقَوْلُهُ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ أَيُّ : لَا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ وَإِنْ أَطَقْنَاهَا ، كَمَا شَرَعْتَهُ لِلْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَنَا مِنَ الْأَعْلَالِ وَالْأَصَارِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، الَّتِي بَعَثْتَ نَبِيَّكَ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ بَوْضَعِهِ فِي شَرْعِهِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِيِّ السَّهْلِ السَّمَحِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « قَالَ اللَّهُ : نَعَمْ » . وَفِي الْحَدِيثِ

الْآخِرَ : « قَالَ اللَّهُ : قَدْ فَعَلْتُ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ أَي : مِنَ التَّكْلِيفِ وَالْمَصَائِبِ وَالْبَلَاءِ لَا تَبْتَلِنَا بِهَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ ﴿ وَاعْفُ عَنَّا ﴾ أَي : فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، مِمَّا تَعْلَمُهُ مِنْ تَقْصِيرِنَا وَزَلَلِنَا ﴿ وَاعْفُ عَنَّا ﴾ أَي : فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادِكَ ، فَلَا تُظْهِرْهُمْ عَلَى مَسَاوِينَا ، وَأَعْمِلْنَا الْقَبِيحَةَ ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ أَي : فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ، فَلَا تُوقِعْنَا بِتَوَفِّيكَ فِي ذَنْبٍ آخِرٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ « قَالَ اللَّهُ : نَعَمْ » وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ « قَالَ اللَّهُ : قَدْ فَعَلْتُ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ أَي : أَنْتَ وَلِيُّنَا وَنَاصِرُنَا ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ التَّكْلَانُ ، وَلَا حَوْلَ لَنَا وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ ﴿ فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أَي : الَّذِينَ جَحَدُوا دِينَكَ ، وَأَنْكَرُوا وَخَدَانِيَتَكَ ، وَرِسَالَةَ نَبِيِّكَ ، وَعَبَدُوا غَيْرَكَ ، وَأَشْرَكُوا مَعَكَ مِنْ عِبَادِكَ ، فَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ ، وَاجْعَلْ لَنَا الْعَاقِبَةَ عَلَيْهِمْ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ « قَالَ اللَّهُ : نَعَمْ » وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ « قَالَ اللَّهُ : قَدْ فَعَلْتُ » .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لِلَّهِ تَعَالَى الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعَمْ الْوَكِيلُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الْم ﴾ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ، وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : نَزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ يَا مُحَمَّدٌ بِالْحَقِّ أَي : لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ ، بَلْ هُوَ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَي : مِنَ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ قَبْلَهُ مِنَ السَّمَاءِ ، عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الْأَنْبِيَاءِ

﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ ﴾ أي : عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﴿ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ أي : عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ أي : فِي زَمَانِهَا ﴿ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ وَهُوَ الْفَارِقُ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالنَّعِيِّ وَالرَّشَادِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ﴾ أي : جَحَدُوا بِهَا وَأَنْكَرُوهَا وَرَدُّوهَا بِالْبَاطِلِ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي : مَنِيعُ الْجَنَابِ عَظِيمُ السُّلْطَانِ ﴿ دُوَّانِيقَامٍ ﴾ أي : مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ وَخَالَفَ رُسُلَهُ الْكَرَامَ وَأَنْبِيََاءَهُ الْعِظَامَ .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أي : يَخْلُقُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَمَا يَشَاءُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَحَسَنٍ وَقَبِيحٍ وَشَقِيٍّ وَسَعِيدٍ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي : هُوَ الَّذِي خَلَقَ وَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْإِلَهِيَّةِ ، وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَهُ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا تَرَامُ ، وَالْحِكْمَةُ وَالْأَحْكَامُ .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٢﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿١٣﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ ، أي : بَيِّنَاتٌ وَاضِحَاتُ الدَّلَالَةِ لَا التَّيْسَاسَ فِيهَا عَلَى أَحَدٍ ، وَمِنْهُ آيَاتٌ أُخَرُ فِيهَا اشْتِبَاهٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْضِهِمْ ، فَمَنْ رَدَّ مَا اشْتَبَهَ إِلَى الْوَاضِحِ مِنْهُ وَحَكَّمَ مُحْكَمَهُ عَلَى مُتَشَابِهِهِ عِنْدَهُ فَقَدْ اهْتَدَى وَمَنْ عَكَسَ انْعَكَسَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أي : أَصْلُهُ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْاشْتِبَاهِ ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ أي : تَحْتَمِلُ دَلَالَتَهَا مُوَافَقَةَ الْمُحْكَمِ ، وَقَدْ تَحْتَمِلُ شَيْئًا أُخَرُ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ وَالتَّرْكِيبِ لَا مِنْ حَيْثُ الْمُرَادِ .

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أي : ضَلَالٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ أَي: إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ بِالْمُتَشَابِهِ الَّذِي يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يُحَرِّفُوهُ إِلَى مَقَاصِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ ، وَيُنْزِلُوهُ عَلَيْهَا لِاحْتِمَالِ لَفْظِهِ لِمَا يَصْرِفُونَهُ ، فَأَمَّا الْمُحْكَمُ فَلَا نَصِيبَ لَهُ فِيهِ لِأَنَّهُ دَافِعٌ لَهُمْ وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أَي: الْإِضْلَالِ لِاتِّبَاعِهِمْ ، إِيْمَانًا لَهُمْ أَنَّهُمْ يَخْتَجُّونَ عَلَى بِدْعَتِهِمْ بِالْقُرْآنِ ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أَي: تَحْرِيفُهُ عَلَى مَا يُرِيدُونَ . عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ» .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي الْوَقْفِ هَهُنَا ، فَقِيلَ: عَلَى الْجَلَالَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وَقَالُوا: الْخِطَابُ بِهَا لَا يُفْهَمُ بَعِيدٌ .

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا لَابْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ» ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ فَصَّلَ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَقَالَ: التَّأْوِيلُ يُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ مَعْنِيَانِ: أَحَدُهُمَا: التَّأْوِيلُ بِمَعْنَى حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَمَا يَتَوَلَّى أَمْرُهُ إِلَيْهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] ، وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: «آمَنَّا بِهِ» أَي: بِالْمُتَشَابِهِ ، «كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا» أَي: الْجَمِيعُ مِنَ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ حَقٌّ وَصِدْقٌ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُصَدَّقُ الْآخَرُ وَيَشْهَدُ لَهُ لِأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَي: إِنَّمَا يَفْهَمُ وَيَعْقِلُ وَيَتَدَبَّرُ الْمَعَانِيَ عَلَى وَجْهِهَا أُولُو الْعُقُولِ السَّالِمَةِ وَالْفُهْمِ الْمُسْتَقِيمَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُمْ دَعَا رَبَّهُمْ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أَي: لَا تَمْلِكْهَا عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ أَقَمْتَهَا عَلَيْهِ وَلَا تَجْعَلْنَا كَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رِغْبٌ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَلَكِنْ ثَبَّتْنَا عَلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ وَدِينِكَ الْقَوِيمِ ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ ثَبَّتْ بِهَا قُلُوبَنَا وَتَجَمَّعَ بِهَا شَمْلُنَا وَتَزِيدْنَا بِهَا إِيْمَانًا وَإِقَانًا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ أَي: يَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ: إِنَّكَ يَا رَبَّنَا سَتَجْمَعُ بَيْنَ خَلْقِكَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ، وَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ وَتَحْكُمُ فِيهِمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَتَجْزِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠١﴾ كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ

بَذُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦١﴾

يُنْخِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ بِأَنَّهُمْ وَقودُ النَّارِ ، وَلَيْسَ مَا أَوْتَوْهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ بِنَافِعٍ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَا بِمُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ، وَخَالَفُوا كِتَابَهُ ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا بِوَحْيِهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقودُ النَّارِ ﴾ أي : حَطَبُهَا الَّذِي تُسَجَّرُ بِهِ وَتُوقَدُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ : كَصَنِيعِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : كَسَنَةِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَكَفَعَلِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَكَشَبِهِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَالْأَلْفَاظُ مُتَقَارِبَةٌ . وَالذَّابُّ بِالتَّسْكِينِ وَالتَّحْرِيكِ أَيْضًا كَنَهْرٍ وَنَهْرٍ : هُوَ الصَّنِيعُ وَالْحَالُ وَالشَّانُ وَالْأَمْرُ وَالْعَادَةُ .

وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ : أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ الْأَمْوَالُ وَلَا الْأَوْلَادُ ، بَلْ يَهْلِكُونَ وَيُعَذَّبُونَ ، كَمَا جَرَى لِآلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ فِيمَا جَاءُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي شَدِيدُ الْأَخْذِ ، أَلِيمُ الْعَذَابِ .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٦٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فَنَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَافِرِينَ سَتُغْلَبُونَ ، أي : فِي الدُّنْيَا ، وَتُحْشَرُونَ ، أي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ أي : قَدْ كَانَ لَكُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ الْقَاتِلُونَ مَا قُتِلْتُمْ آيَةٌ ، أي : دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ مُعِزُّ دِينِهِ ، وَنَاصِرُ رُسُولِهِ ، وَمُظْهِرُ كَلِمَتِهِ ، وَمُعَلِّمُ أَمْرِهِ ﴿ فِي فَنَيْنِ ﴾ أي : طَائِفَتَيْنِ ﴿ الْتَقَتَا ﴾ أي : لِلْقِتَالِ ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ وَهُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ . ﴿ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : يَرَى الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرِ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَهُمْ فِي الْعَدَدِ رَأَى أَعْيُنُهُمْ ، أي : جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِيمَا رَأَوْهُ سَبَبًا لِنَصْرَةِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ الْمَعْنَى أي : يَرَى الْفِئَةُ الْمُسْلِمَةُ الْفِئَةَ الْكَافِرَةَ مِثْلَهُمْ ، أي : ضَعْفِيَّتُهُمْ فِي الْعَدَدِ ، وَمَعَ هَذَا نَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ . لَكِنْ بَقِيَ سُؤَالٌ آخَرٌ وَهُوَ وَارِدٌ عَلَى الْقَوْلَيْنِ وَهُوَ : أَنَّ يُقَالَ مَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ بَدْرٍ ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال : ٤٤] فَالْجَوَابُ : أَنَّ هَذَا كَانَ فِي حَالَةٍ وَالْآخَرُ كَانَ فِي حَالَةٍ أُخْرَى . فَعِنْدَمَا عَايَنَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْآخَرَ رَأَى الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ مِثْلَهُمْ ، أي : أَكْثَرَ مِنْهُمْ بِالضَّعْفِ ، لِيَتَوَكَّلُوا وَيَتَوَجَّهُوا وَيَطْلُبُوا الْإِعَانَةَ مِنْ رَبِّهِمْ

وَرَأَى الْمُشْرِكُونَ الْمُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ لِيَحْضَلَ لَهُمُ الرُّعْبُ وَالْخَوْفُ وَالْجَزَعُ وَالْهَلَعُ ، ثُمَّ لَمَّا حَصَلَ التَّصَافُ وَالْتَقَى الْفَرِيقَانِ قَلَّلَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ فِي أَعْيُنِ هَؤُلَاءِ ، وَهَؤُلَاءِ فِي أَعْيُنِ هَؤُلَاءِ لِيُقَدِّمَ كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ ﴿ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَاتِبًا مَقْعُولًا ﴾ أَي : لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَيُظْهِرَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ، وَيُعِزَّ الْمُؤْمِنِينَ وَيُذِلَّ الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أَي : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن لَهُ بَصِيرَةٌ وَفَهُمْ لِيَهْتَدِيَ بِهِ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَقَدَرِهِ الْجَارِي بِنَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿٥٠﴾ قُلْ أُوْتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٥١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا زَيْنَ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَلَادِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ فَبَدَأَ بِالنِّسَاءِ لِأَنَّ الْفِتْنَةَ بَيْنَ أَشَدُّ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضُرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَصْدُ بَيْنَ الْإِعْفَافِ وَكَثْرَةِ الْأَوْلَادِ فَهَذَا مَطْلُوبٌ مَرْغُوبٌ فِيهِ مَتَدُوبٌ إِلَيْهِ ، كَمَا وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِالرَّغِيبِ فِي التَّرْوِيجِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ ، وَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ كَانَ أَكْثَرَهَا نِسَاءً ، وَقَوْلُهُ ﷺ : « الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سِرَّتُهُ ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ » ، وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ : « حُبُّ الْإِلَى النِّسَاءِ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » .

وَحُبُّ الْبَنِينَ تَارَةً يَكُونُ لِلتَّفَاخُرِ وَالزَّيْنَةِ ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا ، وَتَارَةً يَكُونُ لِتَكْثِيرِ النَّسْلِ وَتَكْثِيرِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ يَمْنَعُ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَهَذَا مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ « تَرَوْجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ ، فَإِنِّي مُكَاتِّرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وَحُبُّ الْمَالِ كَذَلِكَ تَارَةً يَكُونُ لِلْفَخْرِ وَالْحَيَلَاءِ وَالتَّكَبُّرِ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالتَّجَرُّرِ عَلَى الْفُقَرَاءِ فَهَذَا مَذْمُومٌ ، وَتَارَةً يَكُونُ لِلنَّفَقَةِ فِي الْقُرْبَاتِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ وَوُجُوهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ ، فَهَذَا مَمْدُوحٌ مَحْمُودٌ شَرَعًا . وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مِقْدَارِ الْقِنْطَارِ عَلَى أَقْوَالٍ وَحَاصِلُهَا أَنَّهُ الْمَالُ الْجَزِيلُ .

وَحُبِّ الْخَيْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ تَارَةً يَكُونُ رَبَطُهَا أَصْحَابُهَا مُعَدَّةً لِسَبِيلِ اللَّهِ مَتَى احتاجوا إِلَيْهَا غَزَوْا عَلَيْهَا فَهَؤُلَاءِ يَثَابُونَ ، وَتَارَةً تُرَبِّطُ فَخْرًا وَنَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَهَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا وَزُر ، وَتَارَةً لِلتَّعَفُّفِ وَافْتِنَاءِ نَسْلِهَا وَلَمْ يَنْسِ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا فَهَذِهِ لِصَاحِبِهَا سِتْرٌ . وَأَمَّا الْمُسُومَةُ ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْمُسُومَةُ : الرَّاعِيَةُ وَالْمُطَهَّمَةُ الْحَسَانُ . وَقَالَ آخَرُونَ : الْمُسُومَةُ : الْغُرَّةُ وَالتَّحْجِيلُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ يَعْنِي : الْإِبِلَ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿ وَالْحَرْثِ ﴾ يَعْنِي : الْأَرْضُ الْمَتَّخَذَةُ لِلْغُرَاسِ وَالزَّرَاعَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أَي : إِنَّمَا هَذَا زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا الْفَانِيَةُ الزَّائِلَةُ ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ أَي : حُسْنُ الْمَرْجِعِ وَالثَّوَابِ ﴿ قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ ﴾ أَي : قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِلنَّاسِ : أُوْخِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّمَّا زُيِّنَ لِلنَّاسِ : فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ زَهْرَتِهَا وَنَعِيمِهَا الَّذِي هُوَ زَائِلٌ لَا مَحَالَةَ ؟ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَي : تَنْخَرِقُ بَيْنَ جَوَانِبِهَا وَأَرْجَائِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَشْرَبَةِ مِنَ الْعَسَلِ وَاللَّبَنِ وَالْحَمْرِ وَالْمَاءِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَي : مَا كَثُرَ فِيهَا أَبَدُ الْأَبَادِ ، لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أَي : مِنَ الدَّنَسِ وَالْخُبْثِ وَالْأَذَى وَالْحَيْضِ وَالنَّفَاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْتَرِي نِسَاءَ الدُّنْيَا ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أَي : يَحِلُّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُهُ فَلَا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى الَّتِي فِي بَرَاءَةِ ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢] أَي : أَعْظَمُ مِمَّا أَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ بِصِرِّ الْعِبَادِ ﴾ أَي : يُعْطِي كُلًّا بِحَسَبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَطَاءِ .

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ وَالْقَنِيتِينَ ﴿ وَالْمُنْفِقِينَ ﴾ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿ يَصِفُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا ﴾ أَي : بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أَي : بِإِيمَانِنَا بِكَ ، وَبِمَا شَرَعْتَهُ لَنَا ، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَتَقْصِرْنَا مِنْ أَمْرِنَا بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ أَي : فِي قِيَامِهِمْ بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِهِمُ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ مِنْ إِيْمَانِهِمْ بِمَا يَلْتَزِمُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَةِ ﴿ وَالْقَنِيتِينَ ﴾ وَالْقُنُوتُ : الطَّاعَةُ وَالْخُضُوعُ ﴿ وَالْمُنْفِقِينَ ﴾ أَي : مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي جَمِيعِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ ، وَصَلَاةِ الْأَرْحَامِ ، وَالْقَرَابَاتِ ، وَسَدِّ الْخَلَّاتِ ، وَمُوَاسَاةِ ذَوِي الْحَاجَاتِ ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

دَلَّ عَلَى فَضِيلَةِ الْإِسْتِغْفَارِ وَقْتَ الْأَسْحَارِ .

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧٠﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧١﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٧٢﴾

شَهِدَ تَعَالَى وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا وَهُوَ أَصْدَقُ الشَّاهِدِينَ وَأَعَدَّهُمْ وَأَصْدَقُ الْقَائِلِينَ ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ﴾ أَيُّ : الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ لِحَمِيعِ الْخَلَائِقِ ، وَأَنَّ الْجَمِيعَ عِبِيدُهُ وَخَلْقُهُ ، وَفُقَرَاءُ إِلَيْهِ وَهُوَ الْغَنِيُّ
عَمَّا سِوَاهُ ، ثُمَّ قَرَنَ شَهَادَةَ مَلَائِكَتِهِ وَأُولِي الْعِلْمِ بِشَهَادَتِهِ فَقَالَ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ وَهَذِهِ خُصُوصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ مَنْصُوبٌ
عَلَى الْحَالِ ، وَهُوَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ كَذَلِكَ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
الْعَزِيزُ : الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ عَظَمَةً وَكِبَرِيَاءً ، الْحَكِيمُ : فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ إِنْخِبَارًا مِنْهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا دِينَ عِنْدَهُ يَقْبَلُهُ مِنْ أَحَدٍ
سِوَى الْإِسْلَامِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ الدِّينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الْأَوَّلَ إِنَّمَا اخْتَلَفُوا بَعْدَ مَا قَامَتْ عَلَيْهِمُ
الْحُجَّةُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أَيُّ : بَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَاخْتَلَفُوا فِي الْحَقِّ
لِتَحَاسُدِهِمْ وَتَبَاغُضِهِمْ وَتَدَابُرِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : مَنْ جَحَدَ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أَيُّ : فَإِنَّ اللَّهَ سَيُجَازِيهِ عَلَى ذَلِكَ وَيُحَاسِبُهُ عَلَى
تَكْذِيبِهِ وَيُعَاقِبُهُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ كِتَابَهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ أَيُّ : جَادَلُوكَ فِي التَّوْحِيدِ ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ ﴾
أَيُّ : فَقُلْ أَخْلَصْتُ عِبَادَتِي لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ﴿ وَمَنِ اتَّبَعْتُ ﴾ أَيُّ : عَلَى دِينِي يَقُولُ
كَمْقَالَتِي ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَدْعُو إِلَى طَرِيقَتِهِ وَدِينِهِ وَالدُّخُولِ فِي
شَرْعِهِ ، وَمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ : الْكِتَابِيِّينَ مِنَ الْمِلِّيِّينَ ، وَالْأُمِّيِّينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ
لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
أَيُّ : وَاللَّهُ عَلَيْهِ حِسَابُهُمْ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ وَمَأْتَهُمْ ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ،

وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أَيُّ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ يَمَنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَةَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَأَمْثَالُهَا مِنْ أَصْرَحِ الدَّلَالَاتِ عَلَى عُمُومِ بَعْتِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ دِينِهِ ضَرُورَةً .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٦﴾

هَذَا ذِمٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ، فِي تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا النَّبِيِّ بَلَّغَتْهُمْ أَيَّاهَا الرُّسُلُ ، اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ وَعِنَادًا لَهُمْ وَتَعَاطُفًا عَلَى الْحَقِّ وَاسْتِنْكَافًا عَنْ اتِّبَاعِهِ ، وَمَعَ هَذَا قَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا مِنَ النَّبِيِّينَ حِينَ بَلَّغُوهُمْ عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ ، بِغَيْرِ سَبَبٍ وَلَا جَرِيْمَةٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ إِلَّا لِكُونِهِمْ دَعْوُهُمْ إِلَى الْحَقِّ ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ ، وَهَذَا هُوَ غَايَةُ الْكِبَرِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » . وَلِهَذَا لَمَّا أَنْ تَكَبَّرُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَاسْتَكْبَرُوا عَلَى الْخَلْقِ ، قَابَلَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِالذَّلَّةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ فِي الْآخِرَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيُّ : مُوجِعٍ مُهِينٍ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٨﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْمُتَمَسِّكِينَ - فِيمَا يَزْعُمُونَ - بِكِتَابِهِمُ الَّذِينَ بَيَّأْتَهُمُ اللَّهُ وَهُمَا التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى مَا فِيهِمَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِيهِمَا ، مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ عَنْهَا ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنْ ذِمَّتِهِمُ وَالتَّنْوِيهِ بِذِكْرِهِمْ بِالْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ . ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ وَجَرَّأَهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ الْحَقِّ افْتِرَاؤُهُمْ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَوْهُ لَأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ عَنْ كُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ فِي الدُّنْيَا يَوْمًا . ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أَيُّ : ثَبَّتَهُمْ عَلَى دِينِهِمُ الْبَاطِلِ مَا خَدَعُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّ النَّارَ لَا تَمَسُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ، وَهُمْ الَّذِينَ افْتَرَوْا هَذَا مِنْ تَلَقُّاءِ أَنْفُسِهِمْ وَاخْتَلَقُوهُ وَلَمْ يَنْزِلِ اللَّهُ بِهِ سُلْطَانًا .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيُّ: كَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ وَقَدْ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَحَاكِمٌ عَلَيْهِمْ وَمُجَارِبِهِمْ بِهِ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيُّ: لَا شَكَّ فِي وُفُوعِهِ وَكَوْنِهِ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٧﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ مُعْظَمًا لِرَبِّكَ، وَشَاكِرًا لَهُ، وَمُفَوَّضًا إِلَيْهِ، وَمُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ ﴿اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ أَيُّ: لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ ﴿تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ أَيُّ: أَنْتَ الْمُعْطِي وَأَنْتَ الْمَانِعُ، وَأَنْتَ الَّذِي مَا شِئْتَ كَانَ وَمَا لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ. ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أَيُّ: تَأْخُذُ مِنْ طَوْلِ هَذَا فَتَرْبِذُهُ فِي قِصَرِ هَذَا فَيَعْتَدِلَانِ، ثُمَّ تَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَتَقَاوَتَانِ ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ، وَهَكَذَا فِي فُصُولِ السَّنَةِ رَيْبَعًا وَصَيْفًا وَخَرِيفًا وَشِتَاءً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أَيُّ: تُخْرِجُ الزَّرْعَ مِنَ الْحَبِّ وَالْحَبَّ مِنَ الزَّرْعِ، وَالنَّخْلَةَ مِنَ النَّوَاةِ، وَالنَّوَاةَ مِنَ النَّخْلَةِ، وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ وَالْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَيُّ: تُعْطِي مَن شِئْتَ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَعُدُّهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِحْصَائِهِ، وَتُقَرِّرُ عَلَى آخِرِينَ، لِمَا لَكَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَشِئَةِ وَالْعَدْلِ.

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٦٩﴾

نَهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُوَالُوا الْكَافِرِينَ، وَأَنْ يَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ يُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أَيُّ: وَمَنْ يَرْتَكِبْ مَعَهُ فِي هَذَا فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً﴾ أَيُّ: مَنْ خَافَ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ وَالْأَوْقَاتِ مِنْ شَرِّهِمْ

فَلَهُ أَنْ يَتَقَبَّلَهُمْ بِظَاهِرِهِ لَا بِبَاطِنِهِ وَنَبَّيْتُهُ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أَي : يُحَذِّرُكُمْ نَفْسَهُ فِي مُحَالَفَتِهِ وَسَطَوْتِهِ وَعَذَابِهِ ، لَمَنْ وَالَى أَعْدَاءَهُ وَعَادَى أَوْلِيَاءَهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أَي : إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ لِيُجَازِيَ كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالصَّمَائِرَ وَالظَّوَاهِرَ ، وَأَنَّهُ لَا يُخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ ، بَلْ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِهِمْ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ ، وَالْأَزْمَانِ ، وَالْأَيَّامِ ، وَاللَّحَظَاتِ ، وَجَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَجَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْبَحَارِ وَالْجِبَالِ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي : وَقُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، وَهَذَا تَنْبِيهُ مِنْهُ لِعِبَادِهِ عَلَى خَوْفِهِ وَخَشْيَتِهِ ، لِئَلَّا يَرْتَكِبُوا مَا نَهَى عَنْهُ وَمَا يُبْغِضُهُ مِنْهُمْ ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أُمُورِهِمْ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى مُعَاجَلَتِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ ، وَإِنْ أَنْظَرَ مَنْ أَنْظَرَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ يُمَهِّلُ ثُمَّ يَأْخُذُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ . وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ الْآيَةُ . يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْضَرُ لِلْعَبْدِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القبامة : ١٣] قَهْمًا رَأَى مِنْ أَعْمَالِهِ حَسَنًا سَرَّهُ ذَلِكَ وَأَفْرَحَهُ ، وَمَا رَأَى مِنْ قَبِيحٍ سَاءَهُ وَغَضَبَهُ ، وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا أَمَدٌ بَعِيدٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُؤَكِّدًا وَمُهِدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أَي : يُخَوِّفُكُمْ عِقَابَهُ . ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ مُرْجِيًا لِعِبَادِهِ لِئَلَّا يَنَاسُوا مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَقْنَطُوا مِنْ لُطْفِهِ ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أَي رَحِيمٌ بِخَلْقِهِ يُحِبُّ لَهُمْ أَنْ يَسْتَقِيمُوا عَلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَدِينِهِ الْقَوِيمِ ، وَأَنْ يَتَّبِعُوا رَسُولَهُ الْكَرِيمَ .

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَاكِمَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ ، فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمَحْمَدِيَّ وَالِدِينَ النَّبَوِيِّ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أَي : يَحْصُلُ لَكُمْ فَوْقَ مَا

طَلَبْتُمْ مِنْ حَبَّتِكُمْ إِيَّاهُ ، وَهُوَ حَبَّتُهُ إِيَّاكُمْ ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَي : بِاتِّبَاعِكُمُ الرَّسُولَ ﷺ يَحْصُلُ لَكُمْ هَذَا مِنْ بَرَكَهٖ سَفَارَتِهِ .
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَاصٍّ وَعَامٍّ ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴿ أَي : تُخَالِفُوا عَنْ أَمْرِهِ ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿ فَذَلَّ عَلَى أَنْ مُحَالَفَتُهُ فِي الطَّرِيقَةِ كُفْرٌ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ ، وَإِنْ ادَّعَى وَزَعَمَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ مُحِبٌّ لِلَّهِ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ حَتَّى يُتَابَعَ الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ خَاتَمَ الرُّسُلِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ .

إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اخْتَارَ هَذِهِ النُّبُوتَ عَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَاصْطَفَى آدَمَ ﷺ خَلَقَهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَسَجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ ، وَاصْطَفَى نُوحًا ﷺ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَاصْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ ، وَمِنْهُمْ سَيِّدُ الْبَشَرِ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَ« آلَ عِمْرَانَ » وَالْمُرَادُ بِعِمْرَانَ هَذَا : هُوَ وَالِدُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ أُمِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ .

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٢٧﴾
امْرَأَةُ عِمْرَانَ هَذِهِ هِيَ أُمُّ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - وَهِيَ حَنَّةُ بِنْتُ فَاقُودَ . قَالَتْ : يَا رَبِّ ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أَي : السَّمِيعُ لِدُعَائِي ، وَالْعَلِيمُ بِنِسْئِي ، وَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مَا فِي بَطْنِهَا أَذْكَرًا أَمْ أُنْثَى . ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ ، ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾ أَي : فِي الْقُوَّةِ وَالْجُلْدِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَخِدْمَةِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ التَّسْمِيَةِ يَوْمَ الْوِلَادَةِ .

وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْ أُمِّ مَرْيَمَ أَنَّهَا قَالَتْ : ﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ أَي : عَوَّدْتُهَا بِاللَّهِ ﷻ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَعَوَّدْتُ ذُرِّيَّتَهَا وَهُوَ وَلَدُهَا عِيسَى ﷺ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهَا ذَلِكَ .

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾

يُخْبِرُ رَبُّنَا أَنَّهُ تَقَبَّلَهَا مِنْ أُمِّهَا نَذِيرَةً ، وَأَنَّهُ أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ، أَيُّ : جَعَلَهَا شَكْلًا مَلِيحًا وَمَنْظَرًا بَهِيَجًا ، وَيَسَّرَ لَهَا أَسْبَابَ الْقَبُولِ ، وَقَرَّنَهَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ ، تَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ الْعِلْمَ وَالْخَيْرَ وَالدِّينَ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ وَنَضْبِ زَكَرِيَّا عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ ، أَيُّ : جَعَلَهُ كَافِلًا لَهَا . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَيَادَتِهَا وَجَلَادَتِهَا فِي مَحَلِّ عِبَادَتِهَا فَقَالَ : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ وَجَدَ عِنْدَهَا فَاكِهَةً الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ ، وَفَاكِهَةً الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ ، فَإِذَا رَأَى زَكَرِيَّا هَذَا عِنْدَهَا ﴿ قَالَ يَمِرُّمُ أَيُّ لَكَ هَذَا ﴾ أَيُّ : يَقُولُ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا ؟ ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾

لَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاكِهَةً الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ وَفَاكِهَةً الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ ، طَمِعَ حِينَئِذٍ فِي الْوَلَدِ وَإِنْ كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ ضَعُفَ وَوَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ مَعَ ذَلِكَ كَبِيرَةً وَعَاقِرًا ، لَكِنَّهُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ سَأَلَ رَبَّهُ وَنَادَاهُ نِدَاءً خَفِيًّا وَقَالَ : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾ أَيُّ : مِنْ عِنْدِكَ ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ أَيُّ : وَلَدًا صَالِحًا ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ أَيُّ : خَاطَبَتْهُ الْمَلَكَةُ شَفَاهَا خَطَابًا أَسْمَعَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِحْرَابِ عِبَادَتِهِ ، وَمَحَلِّ خُلُوتِهِ ، وَمَجْلِسِ مُنَاجَاتِهِ وَصَلَاتِهِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا بَشَّرَتْهُ بِهِ الْمَلَكَةُ ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾ أَيُّ : بِوَلَدٍ يُوجَدُ لَكَ مِنْ صُلْبِكَ اسْمُهُ يَحْيَى . ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ قِيلَ : الْحَلِيمُ ، وَقِيلَ : سَيِّدًا فِي الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ . ﴿ وَحَصُورًا ﴾ : هُوَ الَّذِي لَا يَأْتِي النِّسَاءَ .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّهُ مَدْحٌ لِيَحْيَى بِأَنَّهُ حَصُورٌ لَيْسَ أَنَّهُ لَا يَأْتِي النِّسَاءَ ، بَلْ مَعْنَاهُ ، أَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْفَادُورَاتِ . ﴿ وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ هَذِهِ بَشَارَةٌ ثَانِيَّةٌ بِنُبُوَّةِ يَحْيَى بَعْدَ الْبَشَارَةِ بِوِلَادَتِهِ ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْبَشَارَةَ ، وَأَخَذَ يَتَعَجَّبُ مِنْ وُجُودِ الْوَلَدِ مِنْهُ بَعْدَ الْكِبَرِ

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ ﴾ أَيُّ الْمَلِكِ ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : هَكَذَا أَمَرَ اللَّهُ عَزِيمٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يَتَعَاطَمُهُ أَمْرٌ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ أَيُّ : عَلَامَةً أَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى وُجُودِ الْوَلَدِ مِنِّي ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ﴾ أَيُّ : إِشَارَةً لَا تَسْتَطِيعُ النُّطْقَ مَعَ أَنَّكَ سَوِيٌّ صَحِيحٌ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ . ثُمَّ أَمَرَ بِكَثْرَةِ الذَّكْرِ وَالتَّكْيِيرِ وَالتَّسْبِيحِ فِي هَذِهِ الْحَالِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٦﴾ يَمْرَيْمُ أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١٣٧﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٣٨﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا خَاطَبَتْ بِهِ الْمَلَأِكَةُ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُمْ بِذَلِكَ ، أَنَّ اللَّهَ قَدْ اصْطَفَاهَا ، أَيُّ : اخْتَارَهَا لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهَا وَزَهَادَتِهَا وَشَرَفِهَا وَطَهَارَتِهَا مِنْ الْأَكْدَارِ وَالْوَسَاوِسِ ، وَاصْطَفَاهَا ثَانِيًا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لِحِلَالَتِهَا عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمَلَأِكَةِ أَنَّهُمْ أَمَرُوهَا بِكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ وَالْخُشُوعِ وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالدَّابِّ فِي الْعَمَلِ ، لِمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِهَا مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدَرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ ، مِمَّا فِيهِ مَحَنَةٌ لَهَا ، وَرَفْعَةٌ فِي الدَّارَيْنِ ، بِمَا أَظْهَرَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ حَيْثُ خَلَقَ مِنْهَا وَلَدًا مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَمْرَيْمُ أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أَمَّا الْقُنُوتُ : فَهُوَ الطَّاعَةُ فِي خُشُوعٍ .

ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِهِ بَعْدَمَا أَطْلَعَهُ عَلَى جَلِيلَةِ الْأَمْرِ : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أَيُّ : نَقْضُهُ عَلَيْكَ ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : مَا كُنْتَ عِنْدَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ فَتُخْبِرَ عَنْهُمْ عَنْ مُعَايِنَةِ عَمَّا جَرَى ، بَلْ أَطْلَعَكَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : أَتَتْهُمْ ذَهَبُوا إِلَى نَهْرِ الْأُرْدُنِّ ، وَاقْتَرَعُوا هُنَالِكَ عَلَى أَنْ يُلْقُوا أَقْلَامَهُمْ فَأَيُّهُمْ يَثْبُتُ فِي جَرِيَةِ الْمَاءِ فَهُوَ كَافِلُهَا ، فَأَلْقَوْا أَقْلَامَهُمْ فَاحْتَمَلَهَا الْمَاءُ إِلَّا قَلَمَ زَكَرِيَّا فَإِنَّهُ ثَبَتَ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ كَبِيرُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ وَعَالِمُهُمْ وَإِمَامُهُمْ وَنَبِيُّهُمْ .

إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٣٩﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٤٠﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧﴾

هَذِهِ بَشَارَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - بِأَنْ سَيُوجَدُ مِنْهَا وَلَدٌ عَظِيمٌ لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ أَي : بِوَلَدٍ يَكُونُ وَجُودُهُ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ، أَي : يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، ﴿ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ أَي : يَكُونُ هَذَا مَشْهُورًا فِي الدُّنْيَا يَعْرِفُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ . وَسُمِّيَ الْمَسِيحُ : لِكثْرَةِ سِيَاحَتِهِ ، وَقِيلَ : لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا مَسَحَ أَحَدًا مِنْ ذَوِي الْعَاهَاتِ بَرِيءًا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ نِسْبَةٌ إِلَى أُمِّهِ حَيْثُ لَا أَبَ لَهُ ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أَي : لَهُ وَجَاهَةٌ وَمَكَانَةٌ عِنْدَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا بِمَا يُوحِيهِ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ ، وَيُنَزِّلُهُ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ بِمَا مَنَحَهُ اللَّهُ بِهِ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أَي : يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي حَالِ صِغَرِهِ مُعْجَزَةً وَآيَةً ، وَفِي حَالِ كُهُولَتِهِ حِينَ يُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿ وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أَي : فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ ، لَهُ عِلْمٌ صَحِيحٌ وَعَمَلٌ صَالِحٌ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بَشَارَةَ الْمَلَائِكَةِ هَذَا بِذَلِكَ عَنْ اللَّهِ ﷻ قَالَتْ فِي مُنَاجَاتِهَا : ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ تَقُولُ : كَيْفَ يُوجَدُ هَذَا الْوَلَدُ مِنِّي وَأَنَا لَسْتُ بِذَاتِ رَوْحٍ وَلَا مِنْ عَزْمِي أَنْ أَتَزَوَّجَ ، وَلَسْتُ بِغَيًّا حَاشَا لِلَّهِ ، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ عَنْ اللَّهِ ﷻ فِي جَوَابِ ذَلِكَ السُّؤَالِ : ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أَي : هَكَذَا أَمَرَ اللَّهُ عَظِيمٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَصَرَخَ هَهُنَا بِقَوْلِهِ : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ يَفْعَلْ كَمَا فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا ، بَلْ نَصَّ هَهُنَا عَلَى أَنَّهُ يَخْلُقُ لِنَلَّا يَبْقَى لِمُطْلِ شُبُهَةٍ ، وَأكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أَي : فَلَا يَتَأَخَّرُ شَيْئًا ، بَلْ يُوجَدُ عَقِيبَ الْأَمْرِ بِلَا مُهْلَةٍ .

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿١٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﷻ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَمَامِ بَشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ بِابْنِهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُهُ ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ . الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ هَاهُنَا : الْكِتَابَةُ ، وَالْحِكْمَةُ : تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ . ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ فَالْتَّوْرَةُ : الْكِتَابُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ، وَالْإِنْجِيلُ : الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَقَدْ كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُحْفَظُ هَذَا وَهَذَا . قَوْلُهُ : ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قَائِلًا لَهُمْ : ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ ، يُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ شَكْلَ طَيْرٍ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ فَيَطِيرُ عَيْنَانَا بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ ، الَّذِي جَعَلَ هَذَا مُعْجَزَةً لَهُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرْسَلَهُ ﴿وَأُبْرَى الْأَكْمَةَ﴾ قِيلَ : الْأَعْمَى ، وَقِيلَ : الْأَعْمَشُ ، وَقِيلَ : هُوَ الَّذِي يُوَلِّدُ أَعْمَى وَهُوَ أَشْبَهُ ؛ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمُعْجَزَةِ ، وَأَقْوَى فِي التَّحَدِّيِ ﴿وَالْأَبْرَصُ﴾ مَعْرُوفٌ ﴿وَأُخِيَ الْوَتَّى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أَيُّ : أَخْبِرْكُمْ بِمَا أَكَلْتُمْ الْآنَ ، وَمَا هُوَ مُدْخَرٌ لَهُ فِي بَيْتِهِ لِعَدِّ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أَيُّ : فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ﴿لَايَةً لَكُمْ﴾ أَيُّ : عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بِيَدَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أَيُّ : مُقَرَّرًا لَهَا وَمُثَبَّتًا ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَسَخَ بَعْضَ شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ ثُمَّ قَالَ : ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ : بِحُجَّةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى صِدْقِي فِيمَا أَقُولُهُ لَكُمْ . ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝١٦٠ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أَيُّ : أَنَا وَأَنْتُمْ سَوَاءٌ فِي الْعِبَادَةِ لَهُ ، وَالْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ إِلَيْهِ ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ .

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُوْنَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝١٦١ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝١٦٢ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ۝١٦٣ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ أَيُّ : اسْتَشْعَرَ مِنْهُمْ التَّصْمِيمَ عَلَى الْكُفْرِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَى الضَّلَالِ قَالَ : ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أَيُّ مَنْ يَتَّبِعُنِي إِلَى اللَّهِ .

وَالظَّاهِرُ : أَنَّهُ أَرَادَ مَنْ أَنْصَارِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿الْخَوَارِثُوْنَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝١٦١ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ الْخَوَارِثُ : النَّاصِرُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَلَائِكَةِ إِسْرَائِيلَ فِيمَا هُمُوا بِهِ مِنَ الْفِتَنِ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِرَادَتِهِ بِالسُّوءِ وَالصَّلْبِ ، فَلَمَّا أَحَاطُوا بِمَنْزِلِهِ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ ظَفَرُوا بِهِ نَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَرَفَعَهُ مِنْ رُوزَنَةِ ذَلِكَ الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَأَلْقَى اللَّهُ شَبَّهُهُ عَلَى رَجُلٍ

مَنْ كَانَ عِنْدَهُ فِي الْمَنْزِلِ ، فَاخْذُوهُ وَأَهَانُوهُ وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ الشُّوكَ . وَكَانَ هَذَا مِنْ مَكْرِ اللَّهِ بِهِمْ فَإِنَّهُ نَجَّى نَبِيَّهُ وَرَفَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ، وَتَرَكَّهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ يَعْصَمُونَ ، وَأَوْرَثَهُمْ ذِلَّةً لَا تُفَارِقُهُمْ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ .

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَى وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٦٨﴾

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ابْنِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَى ﴾ . قَالَ الْأَكْثَرُونَ : الْمُرَادُ بِأَلَوْفَاةٍ هَهُنَا : النَّوْمُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ [الأنعام : ٦٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيُّ : بِرَفْعِي إِيَّاكَ إِلَى السَّمَاءِ ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ . وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِمَنْ كَفَرَ بِالْمَسِيحِ مِنَ الْيَهُودِ ، أَوْ غَلَا فِيهِ أَوْ أَطْرَاهُ مِنَ النَّصَارَى ، عَذَابُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَأَخَذِ الْأَمْوَالِ وَإِزَالَةِ الْأَيْدِي عَنِ الْمَالِكِ ، وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَذَابُهُمْ أَشَدُّ وَأَشَقُّ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّاتِ الْعَالِيَاتِ ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فِي أَمْرِ عِيسَى وَمَبْدَأِ مِيلَادِهِ وَكَيْفِيَّةِ أَمْرِهِ ، هُوَ مَا قَالَهُ تَعَالَى وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ، وَنَزَّلَهُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، فَلَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ .

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٧٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ

فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴿١١﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَلَا أُمٍّ، بَلْ ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فَالَّذِي خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبِي قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ عِيسَى بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾. أَيُّ: هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الْحَقُّ فِي عِيسَى الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا صَحِيحَ سِوَاهُ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يُبَاهِلَ مَنْ عَانَدَ الْحَقَّ فِي أَمْرِ عِيسَى بَعْدَ ظُهُورِ الْبَيَانِ ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَ كُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَ كُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أَيُّ: نُحْضِرُهُمْ فِي حَالِ الْمُبَاهَلَةِ ﴿ثُمَّ نَبْهَلُ﴾ أَيُّ: نَلْتَمِعُ ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أَيُّ: مِنَّا وَمِنْكُمْ.

وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْمُبَاهَلَةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا فِي وَفْدِ نَجْرَانَ: أَنَّ النَّصَارَى لَمَّا قَدِمُوا فَجَعَلُوا يُحَاجُّونَ فِي عِيسَى، وَيَزْعُمُونَ فِيهِ مَا يَزْعُمُونَ مِنَ الْبُتُوَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، فَانْزَلَ اللَّهُ فِي صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ رَدًّا عَلَيْهِمْ. وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَتُّوا الْمَوْتَ لَمَاتُوا، وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَالًا وَلَا أَهْلًا.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْصُ الْحَقُّ﴾ أَيُّ: هَذَا الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فِي شَأْنِ عِيسَى هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَعْدِلَ عَنْهُ وَلَا مَحِيدَ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٤﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾. أَيُّ: عَنْ هَذَا إِلَى غَيْرِهِ. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أَيُّ: مَنْ عَدَلَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ فَهُوَ الْمُفْسِدُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِ، وَسَيَجْزِيهِ عَلَى ذَلِكَ شَرُّ الْجَزَاءِ.

قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٥﴾

هَذَا الْخُطَابُ يَعُمُّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾، وَالْكَلِمَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُفِيدَةِ، كَمَا قَالَ هَهُنَا، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيُّ: عَدْلٌ وَنِصْفٌ نُسْتَوِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لَا وَثْنَا وَلَا صَلِيبًا وَلَا صَنَمًا وَلَا طَاغُوتًا وَلَا نَارًا وَلَا شَيْئًا بَلْ نُفَرِّدُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذِهِ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ

بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴿ يَعْنِي : يُطِيعُ بَعْضُنَا بَعْضًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ . وَقِيلَ : يَسْجُدُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿ أَيُّ : فَإِنْ تَوَلَّوْا عَنْ هَذَا النِّصْفِ وَهَذِهِ الدَّعْوَةَ فَاشْهَدُوا أَنَّكُمْ عَلَى اسْتِمْرَارِكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ .

يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّوْنَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ هَاتَيْنِ هَاتُولَا ۚ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿

يُنَكِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي مُحَاجَّتِهِمْ فِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعَا كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ ﴿ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّوْنَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ الْآيَةُ ، أَيُّ : كَيْفَ تَدْعُونَ أَهْلَهَا الْيَهُودُ أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا ، وَقَدْ كَانَ زَمَنُهُ قَبْلَ أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى ، وَكَيْفَ تَدْعُونَ أَهْلَهَا النَّصَارَى أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا ، وَإِنَّمَا حَدَّثَتِ النَّصْرَانِيَّةُ بَعْدَ زَمَنِ بَدْهَرٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَاتَيْنِ هَاتُولَا ۚ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ الْآيَةُ . هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يُحَاجُّ فِيمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى تَحَاجُّوا فِي إِبْرَاهِيمَ بِمَا لَا عِلْمَ وَلَوْ تَحَاجُّوا فِيمَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْهُ عِلْمٌ مَّا يَتَعَلَّقُ بِأَدْيَانِهِمُ الَّتِي شَرَعَتْ لَهُمْ إِلَى حِينِ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَكَانَ أَوْلَى بِهِمْ ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمُوا فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ ، فَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، وَأَمَرَهُمْ بِرَدِّ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الَّذِي يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى حَقَائِقِهَا وَجَلِيَّاتِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ أَيُّ : مُتَحَنِّنًا عَنِ الشَّرِكِ قَاصِدًا إِلَى الْإِيَّانِ ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : أَحَقُّ النَّاسِ بِمُتَابَعَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ عَلَى دِينِهِ ، وَهَذَا النَّبِيُّ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بَعْدَهُمْ .

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ يَتَأَهَّلُ

الْكِتَابِ لَمْ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾

يُخْرِ تَعَالَىٰ عَنِ حَسَدِ الْيَهُودِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَبَغْيِهِمْ إِيَّاهُمْ بِالْإِضْلَالِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ وَبَالَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ مَمْكُورٌ بِهِمْ .

قَالَ تَعَالَىٰ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ : ﴿ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِبَايَةِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أَيُّ : تَعْلَمُونَ صِدْقَهَا وَتَحَقُّقُونَ حَقَّهَا . ﴿ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : تَكْتُمُونَ مَا فِي كِتَابِكُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ ذَلِكَ وَتَحَقِّقُونَهُ . ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . هَذِهِ مَكِيدَةٌ أَرَادُوهَا لِيُلْبِسُوا عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنَ النَّاسِ أَمْرَ دِينِهِمْ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ اسْتَوْرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يُظْهِرُوا الْإِيَّانَ أَوَّلَ النَّهَارِ ، وَيُصَلُّوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ صَلَاةَ الصُّبْحِ ، فَإِذَا جَاءَ آخِرُ النَّهَارِ ارْتَدُّوا إِلَى دِينِهِمْ ؛ لِيَقُولَ الْجَهْلَةُ مِنَ النَّاسِ إِنَّمَا رَدَّاهُمْ إِلَى دِينِهِمْ إِطْلَاعُهُمْ عَلَى نَقِصَةِ وَعَيْبِ فِي دِينِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ أَيُّ : تَطْمَئِنُّوا وَتُظْهِرُوا سِرَّكُمْ وَمَا عِنْدَكُمْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ، ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ ﴾ أَيُّ : هُوَ الَّذِي يَهْدِي قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَتَمِّ الْإِيَّانِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ يَقُولُونَ لَا تُظْهِرُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ لِلْمُسْلِمِينَ فَيَتَعَلَّمُوهُ مِنْكُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَيُّ : يَتَّخِذُوهُ حُجَّةً عَلَيْكُمْ بِمَا فِي أَيْدِيكُمْ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : الْأُمُورُ كُلُّهَا تَحْتَ تَصَرُّفِهِ ، وَهُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ بِالْإِيَّانِ وَالْعِلْمِ وَالتَّصَرُّفِ النَّامِ ، وَيُضِلُّ مَن يَشَاءُ ، فَيُعْطِي بَصَرَهُ وَبَصِيرَتَهُ ، وَيُخْتِمُ عَلَى قَلْبِهِ وَسَمْعِهِ وَيَجْعَلُ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ، وَلَهُ الْحُجَّةُ النَّامَةُ وَالْحُكْمَةُ الْبَالِغَةُ . ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿ أَيُّ : اخْتَصَّكُمْ أَهْلُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ ، بِمَا شَرَّفَ بِهِ نَبِيَّكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَهَدَاكُمْ بِهِ إِلَى أَكْمَلِ الشَّرَائِعِ .

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأَمَّنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمَتَّهَمٌ إِنْ تَأَمَّنَهُ بِدِينَارٍ لَا

يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾

يُخْرِجُ تَعَالَىٰ عَنِ الْيَهُودِ بِأَنَّ مِنْهُمْ الْخَوَنَةَ، وَيُحَذِّرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِعْتِرَارِ بِهِمْ، فَإِنَّ مِنْهُمْ ﴿٧٦﴾ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَقْنَطَارُ ﴿٧٧﴾ أَيُّ: مِنَ الْمَالِ ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أَيُّ: وَمَا دُونَهُ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَىٰ أَنْ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أَيُّ: بِالْمُطَالَبَةِ وَالْمُلَازِمَةِ، وَالْإِلْحَاحِ فِي اسْتِخْلَاصِ حَقِّكَ، وَإِذَا كَانَ هَذَا صَنِيعُهُ فِي الدِّينَارِ فَمَا فَوْقَهُ أَوَّلَىٰ أَنْ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَىٰ جُحُودِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي دِينِنَا حَرْجٌ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ وَهُمْ الْعَرَبُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَلَّهَا لَنَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: وَقَدْ اخْتَلَقُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ، وَاتَّفَكُّوْهَا بِهَذِهِ الضَّلَالَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الْأَمْوَالِ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بُهْتُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾ أَيُّ: لَكِنْ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ مِنْكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَاتَّبَعَ طَاعَتَهُ وَشَرِيعَتَهُ الَّتِي بَعَثَ بِهَا خَاتَمَ رُسُلِهِ وَسَيِّدِهِمْ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ: إِنَّ الَّذِينَ يَعْتَاضُونَ عَمَّا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَذِكْرِ صِفَتِهِ لِلنَّاسِ وَبَيَانِ أَمْرِهِ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمُ الْكَاذِبَةَ الْفَاجِرَةَ الْأَيْمَةَ بِالْأَثْمَانِ الْقَلِيلَةِ الرَّهِيْدَةِ، وَهِيَ عُرُوضُ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أَيُّ: لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا وَلَا حَظٌّ لَهُمْ مِنْهَا ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَيُّ: بِرَحْمَةٍ مِنْهُ هُمْ يَعْنِي لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ كَلَامَ لُطْفٍ بِهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أَيُّ: مِنْ الذُّنُوبِ وَالْأَدْنَسِ، بَلْ يَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾

يُخْرِجُ تَعَالَىٰ عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ - أَنَّ مِنْهُمْ فَرِيقًا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيُبَدِّلُونَ

كَلَامَ اللَّهِ ، وَيُزِيلُونَهُ عَنِ الْمُرَادِ بِهِ لِيُوهِمُوا الْجَهْلَةَ أَنَّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، كَذَلِكَ وَيَنْسُبُونَهُ إِلَى اللَّهِ ، وَهُوَ كَذِبٌ عَلَى اللَّهِ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا وَافْتَرَوْا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ الْأَيْسَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾ يُحَرِّفُونَهُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يُزِيلُ لَفْظَ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ ، لَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَهُ وَيَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٧﴾

مَا يَنْبَغِي لِشَرِّ أَنَّهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ أُعْبِدُونِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَيْ : مَعَ اللَّهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ ﴾ أَيْ : يَقُولُ الرُّسُولُ لِلنَّاسِ : وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيْنَ ، أَيْ : حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ حُلَمَاءَ ، وَقِيلَ : فَقَهَاءَ أَهْلِ عِبَادَةٍ وَأَهْلَ تَقْوَى ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ﴾ تُعَلِّمُونَ : بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّعْلِيمِ ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ تَحْفَظُونَ أَلْفَاظَهُ .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ أَيْ : وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ ، لَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، وَلَا مَلِكٍ مُقَرَّبٍ ﴿ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ دَعَا إِلَى الْكُفْرِ .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ مِيثَاقَ كُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ ٱلْعَلَّيْ إِلَىٰ عِيسَى ٱلْعَلَّيْ ، لَمَهْمَا آتَى اللَّهُ أَحَدَهُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، وَبَلَغَ أَيْ مَبْلَغٌ ، ثُمَّ جَاءَهُ رَسُولٌ مِنْ بَعْدِهِ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرُنَّهُ وَلَا يَمْنَعَهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالنُّبُوَّةِ مَنْ اتَّبَعَ مَنْ بُعِثَ بَعْدَهُ وَنُصِرَتُهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ أَيْ : لَمَهْمَا أُعْطِيْتُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴿ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي عَهْدِي ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ إِصْرِي ﴾ أَيْ : ثِقْلُ مَا حُمِّلْتُمْ مِنْ

عَهْدِي ، أَي : ميثاقي الشَّدِيدُ ، ﴿ قَالُوا أَقْرَظْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ فَمَنْ تَوَلَّى
بَعْدَ ذَلِكَ . أَي : عَنْ هَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْعُوثَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَالِيَهُ يَرْجِعُونَ ﴿ ١٤ ﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿ ١٥ ﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ
فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿ ١٦ ﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُنْكَرًا عَلَىٰ مَنْ أَرَادَ دِينًا سِوَىٰ دِينِ اللَّهِ الَّذِي أُنْزِلَ بِهِ كُتُبُهُ وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ ،
وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَي : اسْتَسْلَمَ
لَهُ مَنْ فِيهِمَا طَوْعًا وَكَرْهًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾
[الرعد : ١٥] ، فَاَلْمُؤْمِنُ مُسْتَسْلِمٌ بِقَلْبِهِ وَقَالِيهِ اللَّهُ ، وَالْكَافِرُ مُسْتَسْلِمٌ لِلَّهِ كَرْهًا ، فَإِنَّهُ تَحْتَ
التَّسْخِيرِ ، وَالْفَقْهَرِ ، وَالسُّلْطَانِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُخَالَفُ ، وَلَا يُنَاقِ . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَي :
يَوْمَ الْمَعَادِ فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ وَمَا
أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أَي : مِنَ الصُّحُفِ وَالْوَحْيِ ﴿ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ وَهُمْ
بُطُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُتَشَعَّبَةِ مِنْ أَوْلَادِ إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ يَعْقُوبُ - الاثْنَى عَشَرَ ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ
وَعِيسَى ﴾ يَعْنِي : بِذَلِكَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وَهَذَا يَعُمُّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ جُمْلَةً
﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ يَعْنِي : بَلْ نُؤْمِنُ بِجَمِيعِهِمْ ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ فَاَلْمُؤْمِنُونَ مِنْ هَذِهِ
الْأُمَّةِ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ ، وَبِكُلِّ كِتَابٍ أُنْزِلَ ، لَا يَكْفُرُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، بَلْ هُمْ
يُصَدِّقُونَ بِمَا أُنْزِلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الْآيَةُ . أَي : مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا
سِوَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ
الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿ ١٧ ﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿ ١٨ ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا تُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ
﴿ ١٩ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ ٢٠ ﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَيُّ: قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجُجُ وَالْبَرَاهِينُ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُولُ، وَوَضَحَ هُمْ الْأَمْرَ، ثُمَّ ارْتَدُّوا إِلَى ظُلْمَةِ الشِّرْكِ، فَكَيْفَ يَسْتَحِقُّ هَؤُلَاءِ الْهِدَايَةَ بَعْدَ مَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنَ الْعِمَايَةِ؟ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أَيُّ: يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ خَلْقُهُ ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ: فِي اللَّعْنَةِ ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أَيُّ: لَا يُقْتَرَّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ وَبِرِّهِ وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَائِدَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ، أَنْ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿١٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۗ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا وَمُهِدِّدًا لِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ ثُمَّ أَزْدَادَ كُفْرًا، أَيُّ: اسْتَمَرَّ إِلَى الْمَمَاتِ وَخُحْرًا بِأَنَّهُمْ لَنْ تُقْبَلَ لَهُمْ تَوْبَةٌ عِنْدَ الْمَمَاتِ، وَهَذَا قَالَ: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أَيُّ: الْخَارِجُونَ عَنِ الْمَنْهَجِ الْحَقِّ إِلَى طَرِيقِ الْعَيِّ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ أَيُّ: مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ خَيْرٌ أَبَدًا، وَلَوْ كَانَ قَدْ أَنْفَقَ مِلءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا فِيمَا يَرَاهُ قُرْبَةً، وَكَذَلِكَ لَوْ افْتَدَى بِمِلءِ الْأَرْضِ أَيْضًا ذَهَبًا مَا قُبِلَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةُ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۗ فَعَطَفَ ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ عَلَى الْأَوَّلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُهُ.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٢٤﴾ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ «بَيْرُ حَاءٍ»، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةُ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُ حَاءٍ، وَإِنَّمَا صَدَقَهُ اللَّهُ أَرْجُو بِهَا بَرَّهَا وَذَخَرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ

النَّبِيُّ ﷺ : « بَخِ بَخِ » ذَاكَ مَالُ رَاحٍ ، ذَاكَ مَالُ رَاحٍ ، وَقَدْ سَمِعْتُ وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ » ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ .

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ فُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْأَشْرَكِينَ ﴿١٥٥﴾

قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ﴾ أَيُّ : كَانَ حِلاًّ لَهُمْ جَمِيعُ الْأَطْعِمَةِ قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَةِ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ إِسْرَءِيلُ . ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فَإِنَّهَا نَاطِقَةٌ بِمَا فُتِنَاهُ . ﴿ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، أَيُّ : فَمَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ، وَادَّعَى أَنَّهُ شَرَعَ لَهُمُ السَّبْتَ ، وَالتَّمَسُّكَ بِالتَّوْرَةِ دَائِماً ، وَإِنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا آخَرَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ ، بَعْدَ هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ مِنْ وُقُوعِ النَّسْخِ وَظُهُورِ مَا ذَكَرْنَا ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ أَيُّ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ صَدَقَ اللَّهُ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ ، وَفِيمَا شَرَعَهُ فِي الْقُرْآنِ ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْأَشْرَكِينَ ﴾ أَيُّ : اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ بِأَكْمَلِ مِنْهَا ، وَلَا أَبَيَّنَ وَلَا أَوْضَحَ وَلَا أَتَمَّ .

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَكَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، أَيُّ : لِعُمُومِ النَّاسِ لِعِبَادَتِهِمْ وَنُسُكِهِمْ ، يَطُوفُونَ بِهِ وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ وَيَعْتَكِفُونَ عِنْدَهُ ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ يَعْنِي : الْكُعْبَةَ الَّتِي بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ الْحَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ مُبَارَكًا ﴾ أَيُّ : وَضِعَ مُبَارَكًا ﴿ وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . وَبَكَّةُ مِنْ أَسْمَاءِ مَكَّةَ عَلَى الْمَشْهُورِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ أَيُّ : دَلَالَاتٌ ظَاهِرَةٌ أَنَّهُ مِنْ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَنَّ اللَّهَ عَظَّمَهُ وَشَرَّفَهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يَعْنِي : الَّذِي لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى رَفْعِ الْقَوَاعِدِ مِنْهُ وَالْجُدْرَانِ ، حَيْثُ كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ وَيُنَاوِلُهُ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ ، وَقَدْ كَانَ مُلْتَصِقًا

بِجِدَارِ الْبَيْتِ حَتَّى أَخْرَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ۖ فِي إِمَارَتِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ ، بِحَيْثُ يَتِمَّكَنُ الطَّوَافُ مِنْهُ وَلَا يَشْوَشُونَ عَلَى الْمُصَلِّينَ عِنْدَهُ بَعْدَ الطَّوَافِ . ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ يَعْنِي : حَرَمَ مَكَّةَ إِذَا دَخَلَهُ الْحَائِفُ يَأْمَنُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ ، كَانَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ فَيَضَعُ فِي عُنُقِهِ صُوفَةً وَيَدْخُلُ الْحَرَمَ فَيَلْقَاهُ ابْنُ الْمُقْتُولِ فَلَا يُهَيِّجُهُ حَتَّى يُخْرَجَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ هَذِهِ آيَةٌ وَجُوبُ الْحُجِّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ . وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدِّدَةُ بِأَنَّهُ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَدَعَائِمِهِ وَقَوَائِدِهِ ، وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى ذَلِكَ إِجْمَاعًا ضَرُورِيًّا ، وَإِنَّمَا يَحِبُّ عَلَى الْمُكَلَّفِ فِي الْعُمْرِ مَرَّةً وَاحِدَةً بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ . وَأَمَّا الْاسْتَطَاعَةُ فَأَقْسَامُ تَارَةً يَكُونُ الشَّخْصُ مُسْتَطِيعًا بِنَفْسِهِ ، وَتَارَةً بِغَيْرِهِ ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ .

قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾

هَذَا تَعْنِيفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى عِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ شَهِيدٌ عَلَى صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ بِمَا خَالَفُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَمُعَامَلَتِهِمُ الرُّسُولَ الْمُبَشِّرَ بِالتَّكْذِيبِ وَالْجُحُودِ وَالْعِنَادِ ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ، أَيْ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ .

يَنَاقِبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٩﴾

يُحَذِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يُطِيعُوا طَائِفَةً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَحْسُدُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَمَا مَنَحَهُمْ مِنْ إِزْسَالِ رَسُولِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الْكُفْرَ بَعِيدٌ مِنْكُمْ وَحَاشَاكُمْ مِنْهُ ، فَإِنَّ آيَاتِ اللَّهِ تَنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَهُوَ يَتْلُوهَا عَلَيْكُمْ ، وَيُبَلِّغُهَا إِلَيْكُمْ . ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : وَمَعَ هَذَا فَلَا عِتْصَامَ بِاللَّهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ هُوَ الْعُمْدَةُ فِي الْهُدَايَةِ ، وَالْعُمْدَةُ فِي مُبَاعَدَةِ الْغَوَايَةِ ، وَالْوَسِيلَةُ إِلَى الرَّشَادِ وَطَرِيقِ السَّدَادِ وَحُصُولِ الْمُرَادِ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٧﴾
وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً
فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ
مِنْهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٨﴾

ذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى : أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦] ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَمْ تُنسخ وَلَكِنْ ﴿ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ أَنْ يُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَلَا تَأْخُذْهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ، وَيَقُومُوا بِالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أَيُّ : حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَالِ صِحَّتِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ لِمَمُوتُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ ، فَعَيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ قِيلَ : ﴿ بِحَبْلِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : بِعَهْدِ اللَّهِ ، وَقِيلَ : يَعْنِي : الْقُرْآنَ . ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ أَمَرَهُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقَةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَهَذَا السِّيَاقُ فِي شَأْنِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَعَدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ وَضَعَائُنُ وَإِحْنٌ وَدُحُولٌ ، طَالَ بِسَبَبِهَا قِتَالُهُمْ وَالْوَقَائِعُ بَيْنَهُمْ ، فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَدَخَلَ مَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ صَارُوا إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ بِجَلَالِ اللَّهِ ، مُتَوَاصِلِينَ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، مُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَكَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ فَأَنْقَذَهُمُ اللَّهُ مِنْهَا ، أَنْ هَذَا هُمْ لِلْإِيمَانِ .

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَذَابُ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٢﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ مُنْتَصِبَةٌ لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ

وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ تَكُونَ فِرْقَةً مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُتَصَدِّقَةً لِهَذَا الشَّانِ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسْبِهِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الْآيَةُ ، يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ يَكُونُوا كَالْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ فِي افْتِرَاقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ وَتَرْكِهِمْ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَالْفِرْقَةِ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آسَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ ﴾ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وَهَذَا الْوَصْفُ يَعُمُّ كُلَّ كَافِرٍ . ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِمَا رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ مَا كَانُوا فِيهَا أَبَدًا ، لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ : نَكْشِفُ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ بِظَالِمٍ هُمْ ، بَلْ هُوَ الْحَاكِمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ ، لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا يَخْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : الْجَمِيعُ مِلْكٌ لَهُ وَعَبِيدٌ لَهُ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ أَيُّ هُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿٣١﴾ ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكُمْ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٣٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمَّةِ كُلِّ قَرْنٍ بِحَسْبِهِ ، وَخَيْرُ قُرُوضِهِمُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُومُهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُومُهُمْ ، وَإِنَّا حَازَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ فَصَبَّ السَّبْقُ إِلَى الْخَيْرَاتِ بِنَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ أَشْرَفُ خَلْقِ اللَّهِ ، وَأَكْرَمُ الرُّسُلِ عَلَى اللَّهِ ،

وَبَعَثَهُ اللَّهُ بِشَرَعٍ كَامِلٍ عَظِيمٍ لَمْ يُعْطِهِ نَبِيًّا قَبْلَهُ وَلَا رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ ، فَالْعَمَلُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسَبِيلِهِ يَقُومُ الْقَلِيلُ مِنْهُ مَا لَا يَقُومُ الْعَمَلُ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالٍ غَيْرِهِمْ مَقَامُهُ . فَمَنْ اتَّصَفَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي هَذَا الْمَدْحِ ، وَمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ أَشْبَهَ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ دَمَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة : ٧٩] ، وَهَذَا لِمَا مَدَحَ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ شَرَعَ فِي دَمِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَأْنِيهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَمَرْتُ أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ أَيُّ : بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَيُّ : قَلِيلٌ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ وَالْكَفْرِ وَالْفِسْقِ وَالْعِصْيَانِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُحِبًّا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَمُبَشِّرًا لَهُمْ ، أَنَّ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الْكَافِرَةِ الْمُلْحِدِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدَبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ ؛ فَإِنَّهُمْ يَوْمَ خَيْرٍ أَدَّاهُمُ اللَّهُ وَأَرْغَمَ ثَوْفَهُمْ ، وَكَذَلِكَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ بَنِي قَيْنِقَاعَ وَبَنِي النَّصِيرِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ كُلَّهُمْ أَدَّاهُمُ اللَّهُ . وَكَذَلِكَ النَّصَارَى بِالشَّامِ كَسَرَهُمُ الصَّحَابَةُ فِي غَيْرِ مَا مَوْطِنٍ ، وَسَلَبُواهُمْ مُلْكَ الشَّامِ أَبَدَ الْآبِدِينَ وَدَهَرَ الدَّاهِرِينَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ أَيُّ : أَلَزَمَهُمُ اللَّهُ الدَّلَّةَ وَالصَّغَارَ أَيْنَمَا كَانُوا ، فَلَا يَأْمَنُونَ ﴿ إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : بِذِمَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ عَقْدُ الذِّمَّةِ لَهُمْ ، وَضَرَبُ الْحِزْيَةِ عَلَيْهِمْ ، وَإِلْزَامُهُمْ أَحْكَامَ الْمِلَّةِ ﴿ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ أَيُّ : أَمَانٍ مِنْهُمْ لَهُمْ ، كَمَا فِي الْمُهَادِنِ وَالْمُعَاهِدِ وَالْأَسِيرِ ، إِذَا أَمَنَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْ امْرَأَةً وَكَذَا عَبْدٌ عَلَى أَحَدِ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ . ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : أُلْزِمُوا فَالْتَزَمُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ ﴿ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ﴾ أَيُّ : أُلْزِمُوا قَدْرًا وَشَرْعًا . ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْكِبْرُ وَالْبَغْيُ وَالْحَسَدُ ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ الدَّلَّةَ وَالصَّغَارَ وَالْمَسْكَنَةَ أَبَدًا مُتَّصِلًا بِذَلِكَ الْآخِرَةِ ، ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِ رُسُلِ اللَّهِ ، وَقِيضُوا لِذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُكْثِرُونَ الْعِصْيَانَ لِأَوَامِرِ اللَّهِ وَالْعِشْيَانِ لِعَاصِي اللَّهِ ، وَالْإِعْتِدَاءِ فِي شَرَعِ اللَّهِ ، فَعِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

لَيْسُوا سَوَاءً ۖ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿٣٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٣﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ

يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٨﴾

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴿ قِيلَ : لَا يَسْتَوِي أَهْلُ الْكِتَابِ وَأُمَّةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ : أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيْمَنْ آمَنَ مِنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ، وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ ، وَتَعْلَبَةَ بْنِ شُعْبَةَ وَغَيْرِهِمْ . أَيْ لَا يَسْتَوِي مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ بِالْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ أَيْ : لَيْسُوا كُلُّهُمْ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ ، بَلْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَمِنْهُمْ الْمُجْرِمُونَ .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ أَيْ : قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مُطِيعَةٌ لِشَرْعِهِ مُتَّبِعَةٌ نَبِيِّ اللَّهِ ، فَهِيَ قَائِمَةٌ يَعْنِي مُسْتَقِيمَةٌ ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ أَيْ : يُقِيمُونَ اللَّيْلَ وَيُكْثِرُونَ التَّهَجُّدَ وَيَتْلُونَ الْقُرْآنَ فِي صَلَوَاتِهِمْ . ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي آخِرِ السُّورَةِ ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ أَيْ : لَا يَضِيعُ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ يُجْزِيهِمْ بِهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ عَمَلُ عَامِلٍ وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرُ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا .

قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَرَةِ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُ : ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أَيْ : لَا تَرُدُّ عَنْهُمْ بَأْسَ اللَّهِ وَلَا عَذَابَهُ إِذَا أَرَادَهُ بِهِمْ ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِمَا يُنْفِقُهُ الْكُفَّارُ فِي هَذِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أَيْ : بَرْدٌ شَدِيدٌ ، فَإِنَّ الْبَرْدَ الشَّدِيدَ وَلَا سِيَّامَا الْجَلِيدَ يُحْرِقُ الزَّرْعَ وَالشَّارَ كَمَا يُحْرِقُ الشَّيْءُ بِالنَّارِ ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ ﴾ أَيْ : فَأَحْرَقَتْهُ ، يَعْنِي بِذَلِكَ : السَّعْفَةَ إِذَا نَزَلَتْ عَلَى حَرْثٍ قَدْ آنَ جِذَاؤُهُ أَوْ حَصَادُهُ فَدَمَرَتْهُ ، وَأَعْدَمَتْ مَا فِيهِ مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ فَذَهَبَتْ بِهِ وَأَفْسَدَتْهُ ، فَعَدِمَهُ صَاحِبُهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ . فَكَذَلِكَ الْكُفَّارُ يَمَحُقُ اللَّهُ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَثَمَرَهَا ، كَمَا يَذْهَبُ ثَمَرَةُ هَذَا الْحَرْثِ بِذُنُوبِ صَاحِبِهِ . وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ بَنُوهَا عَلَى غَيْرِ أَصْلٍ وَعَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ هَتَأْتُمْ أَوْلِيَاءَ تَحِبُّونَهُمْ وَلَا تُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَعِظُكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠٤﴾ إِن تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِن تَصِبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٠٥﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٠٣﴾ بَطَانَةٌ ﴿١٠٤﴾ أَيُّ : يُطْلِعُونَهُمْ عَلَى سَرَائِرِهِمْ ، وَمَا يُضْمِرُونَهُ لِأَعْدَائِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ أَيُّ : مِّنْ غَيْرِكُمْ مِّنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ ، وَبَطَانَةُ الرَّجُلِ : هُمْ خَاصَّةُ أَهْلِهِ الَّذِينَ يَطَّلِعُونَ عَلَى دَاخِلِ أَمْرِهِ . فَبَيَّنَّا هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ الَّتِي فِيهَا اسْتِطَالَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَاطِّلَاعٌ عَلَى دَوَاخِلِ أُمُورِهِمُ الَّتِي يُخْشَى أَنْ يُنْشَوْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أَيُّ : قَدْ لَاحَ عَلَى صَفَحَاتِ وُجُوهِهِمْ ، وَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ ، مَعَ مَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ لِلْإِسْلَامِ ، وَأَهْلِهِ ، مَا لَا يُخْفَى مِثْلُهُ عَلَى لِسَبٍ عَامِلٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَتَأْتُمْ أَوْلِيَاءَ تَحِبُّونَهُمْ وَلَا تُحِبُّونَكُمْ ﴾ أَيُّ : أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تُحِبُّونَ الْمُنَافِقِينَ بِمَا يُظْهِرُونَ لَكُمُ مِنَ الْإِيمَانِ ، فَتَحِبُّونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُمْ لَا يُحِبُّونَكُمْ لَا بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ عِنْدَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ وَهُمْ عِنْدَهُمُ الشَّكُّ وَالرَّيْبُ وَالْحَيْرَةُ ، وَقِيلَ أَيْضًا : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ أَيُّ : بِكِتَابِكُمْ وَكِتَابِهِمْ ، وَبِمَا مَضَى مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِكِتَابِكُمْ ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِالْبَغْضَاءِ هُمْ مِنْهُمْ لَكُمْ ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ ، وَالْأَنَامِلُ أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ ، وَهَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ وَالْمَوَدَّةَ ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مُوتُوا يَعِظُكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أَيُّ : مَهْمَا كُنْتُمْ تَحْسُدُونَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَعِظُكُمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُتِمُّ نِعْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُكْمِلُ دِينِهِ وَمُعَلِّ كَلِمَتِهِ وَمُظْهِرُ دِينِهِ ، فَمُوتُوا أَنْتُمْ يَعِظُكُمُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أَيُّ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَا

تَنْطَوِي عَلَيْهِ صَمَايِرُكُمْ ، وَتُكِنُّهُ سَرَائِرُكُمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْغِلِّ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يُرِيَكُمْ خِلَافَ مَا تَأْمُلُونَ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي النَّارِ الَّتِي أَنْتُمْ خَالِدُونَ فِيهَا ، لَا يَحِيدُ لَكُمْ عَنْهَا ، وَلَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ مَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ نَصَبَكُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ وَهَذِهِ الْحَالُ دَالَّةٌ عَلَى شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ خَصْبٌ وَنَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَكَثْرُوا وَعَزَّ أَنْصَارُهُمْ سَاءَ ذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ ، وَإِنْ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ سَنَةٌ أَيْ : جَذْبٌ أَوْ أُدِيلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ لِمَا لَلَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ - كَمَا جَرَى يَوْمَ أُحُدٍ - فَرِحَ الْمُنَافِقُونَ بِذَلِكَ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا الْمُؤْمِنِينَ : ﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ الْآيَةُ ، يُرِيدُهُمْ تَعَالَى إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفُجَّارِ ، بِاسْتِعْمَالِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ مُحِيطٌ بِأَعْدَائِهِمْ ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ وَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَلَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِئَتِهِ ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ . ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ أُحُدٍ ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْاخْتِيَارِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَبَيَانِ الصَّابِرِينَ فَقَالَ تَعَالَى :

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦٣﴾

الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْوَقْعَةِ يَوْمَ أُحُدٍ عِنْدَ الْجُمُهورِ ، وَكَانَتْ وَقْعَةُ أُحُدٍ يَوْمَ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالِ سَنَةِ ثَلَاثٍ مِنَ الْهِجْرَةِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أَيْ : تُنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ وَتَجْعَلُهُمْ مَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ عَلَيْهِمْ بِضَمَائِرِكُمْ . ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ الْآيَةُ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : فِينَا نَزَلَتْ ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ ﴾ الْآيَةُ . قَالَ : نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ : بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ ، وَمَا يَسُرُّنِي أَنَّهُمَا لَمْ تَنْزِلْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ بَدْرٍ وَكَانَ يَوْمَ جُمُعَةٍ وَافَقَ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَهُوَ يَوْمُ الْفُرْقَانِ الَّذِي أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ ، وَدَمَغَ فِيهِ الشَّرْكَ وَخَرَّبَ مَحَلَّهُ وَحَزَبَهُ ، هَذَا مَعَ قَلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ فَإِنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثِمِائَةً وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، فِيهِمْ فَارِسَانِ وَسَبْعُونَ بَعِيرًا وَالْباقُونَ مُشَاةً ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى

عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَحِزْبِهِ الْمُتَّقِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴿١٠١﴾ أَيُّ : قَلِيلٌ عَدَدُكُمْ ، لَتَعْلَمُوا أَنَّ النَّصْرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ ، وَبَدْرٌ مَحَلَّةٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ تُعْرَفُ بِبَيْتِهَا ، مَنْسُوبَةٌ إِلَى رَجُلٍ حَفَرَهَا ، يُقَالُ لَهُ بَدْرُ بْنُ النَّارِينِ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴾ ﴿١٠٢﴾ أَيُّ : تَقُومُونَ بِطَاعَتِهِ .

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٠٣﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٠٥﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَاطِبِينَ ﴿١٠٦﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٨﴾

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْوَعْدِ هَلْ كَانَ يَوْمَ بَدْرِ أَوْ يَوْمَ أُحُدٍ ؟ فَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ بَدْرِ ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ أَنَّ قِتَالَ الْمَلَائِكَةِ ، إِنَّمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ يَعْنِي : تَصْبِرُوا عَلَىٰ مُصَابَرَةِ عَدُوِّكُمْ ، وَتَتَّقُونِي وَتُطِيعُوا أَمْرِي . ﴿ وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا ﴾ أَيُّ : مِنْ غَضَبِهِمْ وَوَجْهِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ أَيُّ : بِسَيِّمِ الْقِتَالِ . وَقِيلَ : مُعَلِّمِينَ : أَيُّ بِعَلَامَاتِ الْقِتَالِ . ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ أَيُّ : وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ وَأَعْلَمَكُمْ بِإِنْرَاهِمُ إِلَّا بِشَارَةً لَكُمْ ، وَتَطْيِيبًا لِقُلُوبِكُمْ وَتَطْمِينًا ، وَإِلَّا فَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، الَّذِي لَوْ شَاءَ لَأَنْتَصَرَ مِنْ أَعْدَائِهِ بِدُونِكُمْ ، وَمِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى قِتَالِكُمْ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿ أَيُّ : هُوَ ذُو الْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ ، وَالْحِكْمَةِ فِي قَدَرِهِ وَالْإِحْكَامِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيُّ : أَمَرَكُمْ بِالْجِهَادِ وَالْجَلَاءِ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي كُلِّ تَقْدِيرٍ ، وَلِهَذَا ذَكَرَ جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْمُمَكِّنَةِ فِي الْكُفَّارِ الْمُجَاهِدِينَ فَقَالَ : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا ﴾ أَيُّ : لِيُهْلِكَ أُمَّةً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ أَيُّ : يُخْزِيهِمْ وَيُرُدُّهُمْ بِغَيْظِهِمْ لِمَا يَنَالُوا مِنْكُمْ مَا أَرَادُوا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا ﴾ أَيُّ : يَرْجِعُوا ﴿ خَاطِبِينَ ﴾ أَيُّ : لَمْ يَخْصُلُوا عَلَى مَا أَمَلُوا . ثُمَّ اعْتَرَضَ بِجُمْلَةٍ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ،

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۚ ﴾ أَي : بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَّةَ الْأَقْسَامِ فَقَالَ : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ فَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ الضَّلَالَةِ ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَلِمُوا ﴾ أَي : يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ . عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْفَجْرِ : « اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا » بَعْدَ مَا يَقُولُ : « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ » فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۚ ﴾ الْآيَةُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الْآيَةُ . أَيِ الْجَمِيعِ مِلْكٌ لَهُ وَأَهْلُهَا عِبِيدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَي : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

يَنَائِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَ الْيَتَامَى أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٠٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠٦﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٠٧﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٩﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ تَعَاطِي الرِّبَا ، وَأَكْلِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُم بِالنَّارِ وَحَذَّرَهُمْ مِنْهَا ، فَقَالَ تَعَالَى . ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ ١٠٥ ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿ ١٠٦ ﴾ . ثُمَّ نَذَرَهُمْ إِلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَالْمَسَارَعَةِ إِلَى نَيْلِ الْقُرْبَاتِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أَي : كَمَا أُعِدَّتِ النَّارُ لِلْكَافِرِينَ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ تَنْبِيْهَا عَلَى اتِّسَاعِ طُولِهَا ، كَمَا قَالَ فِي صِفَةِ فُرْشِ الْجَنَّةِ ﴿ بَطَّيْنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ أَي : فَمَا ظَنُّكَ بِالظَّهَائِرِ ، وَقِيلَ : بَلْ عَرْضُهَا كَطُولِهَا ، لِأَنَّهَا قُبَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ ، وَالشَّيْءُ الْمُقَبَّبُ وَالْمُسْتَدِيرُ عَرْضُهُ كَطُولِهِ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ أَي :

فِي الشَّدَةِ وَالرَّخَاءِ وَالْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ . لَا يَشْعَلُهُمْ أَمْرٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ،
وَالْإِنْفَاقِ فِي مَرَاضِيهِ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ قَرَابَاتِهِمْ وَغَيْرِهِمْ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى :
﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ أَيُّ : إِذَا تَارَ بِهِمُ الْغَيْظُ كَظَمُوهُ بِمَعْنَى : كَتَمُوهُ فَلَمْ يُعْمِلُوهُ .

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ أَيُّ : مَعَ كَفِّ الشَّرِّ يَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَلَا يَبْقَى فِي
أَنْفُسِهِمْ مَوْجِدَةٌ عَلَى أَحَدٍ وَهَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أَيُّ :
إِذَا صَدَرَ مِنْهُمْ ذَنْبٌ أَتَبَعُوهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ . ﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أَيُّ : لَا يَغْفِرُهَا
أَحَدٌ سِوَاهُ . ﴿ وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : تَابُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ
مِنْ قَرِيبٍ ، وَلَمْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَيَصِرُوا عَلَيْهَا غَيْرَ مُقْلِعِينَ عَنْهَا ، وَلَوْ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ الذَّنْبُ
تَابُوا مِنْهُ ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَنْ مَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَصْفِهِمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أَيُّ : جَزَاؤُهُمْ
عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ ﴿ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَسَتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَيُّ : مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشْرُوبَاتِ
﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيُّ : مَا كَثُرَ فِيهَا ﴿ وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ يَمْدَحُ تَعَالَى الْجَنَّةَ .

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٥٦﴾
هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ
الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ
الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا
يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٩﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٠﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ
تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦١﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ
تَمْنُونَ الْوَيْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطَبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا أُصِيبُوا يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أَيُّ : قَدْ جَرَى نَحْوُ هَذَا عَلَى الْأُمَمِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ ، ثُمَّ
كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ وَالِدَائِرَةُ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ فِيهِ بَيَانُ الْأُمُورِ عَلَى جَلِيلَتِهَا ، وَكَيْفَ كَانَ
الْأُمَمُ الْأَقْدَمُونَ مَعَ أَعْدَائِهِمْ ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ فِيهِ خَبَرٌ مَا قَبْلَكُمْ وَهُدًى

لَقُلُوبِكُمْ ﴿ وَمَوْعِظَةٌ ﴾ أَي : زَا جِرْ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾
 أَي : لَا تَضَعُفُوا بِسَبَبِ مَا جَرَى ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : الْعَاقِبَةُ
 وَالنُّصْرَةُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ . ﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ أَي : إِنْ كُنْتُمْ قَدْ
 أَصَابَتْكُمْ جِرَاحٌ ، وَقُتِلَ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ ، فَقَدْ أَصَابَ أَعْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِ وَجِرَاحٍ
 ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أَي : نُدِيلُ عَلَيْكُمْ الْأَعْدَاءَ تَارَةً ، وَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ الْعَاقِبَةُ لِمَا لَنَا
 فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمَا - : فِي مِثْلِ هَذَا لِنَرَى مَنْ يَصْبِرُ عَلَى مُتَابَعَةِ الْأَعْدَاءِ ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ يَعْنِي : يُقْتُلُونَ
 فِي سَبِيلِهِ وَيَبْذُلُونَ مُهْجَهُمْ فِي مَرْضَاتِهِ ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ وَلِيُمَخِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَي :
 يُكْفِّرَ عَنْهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ إِنْ كَانَتْ لَهُمْ ذُنُوبٌ ، وَإِلَّا رَفَعَ لَهُمْ فِي دَرَجَاتِهِمْ بِحَسَبِ مَا أُصِيبُوا بِهِ .
 ﴿ وَيُمَحِّقَ الْكُفْرَ ﴾ أَي : فَإِنَّهُمْ إِذَا ظَفَرُوا بَعُودًا وَبَطَرُوا فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ دِمَارِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ
 وَتَحْقِيقِهِمْ وَفَنَائِهِمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ
 الصَّابِرِينَ ﴾ أَي : أَحَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ تُبْتَلُوا بِالْقِتَالِ وَالشَّدَائِدِ . فَلَا يَحْصُلُ لَكُمْ دُخُولُ
 الْجَنَّةِ حَتَّى تُبْتَلُوا ، وَيَرَى اللَّهُ مِنْكُمْ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مُقَاوَمَةِ الْأَعْدَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ أَي : قَدْ كُنْتُمْ
 أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ تَتَمَنَّوْنَ لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَتَحْتَرِقُونَ عَلَيْهِ ، وَتَوَدُّوْنَ مُتَابَعَتَهُمْ
 وَمُصَابَرَتَهُمْ فَهَا قَدْ حَصَلَ لَكُمْ الَّذِي تَتَمَنُّوهُ وَتَطْلُبُونَهُ ، فَذُنُوبُكُمْ فَقَاتِلُوا وَصَابِرُوا . وَلِهَذَا
 قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ يَعْنِي : الْمَوْتَ ، ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ شَاهِدْتُمُوهُ وَقَدْ حَدَّ الْأَسِنَّةِ ،
 وَاشْتَبَاكَ الرِّمَاحَ ، وَصُفُوفَ الرِّجَالِ لِلْقِتَالِ .

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَى
 أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿٤٦﴾
 وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا
 نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ
 قَتَلَ مَعَهُ رِثْيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا
 وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿٤٨﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي
 أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا
 وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴿٥٠﴾

لَمَّا انْهَرَمَ مَا انْهَرَمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ ، نَادَى الشَّيْطَانُ : أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ ، وَرَجَعَ ابْنُ قَمِيئَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ لَهُمْ : قَتَلْتُمْ مُحَمَّدًا وَإِنَّمَا كَانَ قَدْ ضَرَبَ رَسُولَ اللَّهِ فَشَجَّهَ فِي رَأْسِهِ ، فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قُتِلَ ، وَجَوَرُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ ، كَمَا قَدْ قَصَّ اللَّهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فَحَصَلَ ضَعْفُ وَوَهْنٌ وَتَأَخَّرُ عَنِ الْقِتَالِ ، فَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ أَيُ : لَهُ أُسُوءَةٌ بِهِمْ فِي الرِّسَالَةِ وَفِي جَوَازِ الْقَتْلِ عَلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ حَصَلَ لَهُ ضَعْفٌ ﴿ أَفَلَا يَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْفَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ أَيُ : رَجَعْتُمْ الْقَهْقَرَى ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ أَيُ : الَّذِينَ قَامُوا بِطَاعَتِهِ وَقَاتَلُوا عَنْ دِينِهِ وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُؤَجَّلًا ﴾ أَيُ : لَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِقَدَرِ اللَّهِ ، وَحَتَّى يَسْتَوْفِيَ الْمُدَّةَ الَّتِي ضَرَبَهَا اللَّهُ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَتَبْنَا مُؤَجَّلًا ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَشْجِيعٌ لِلْجَبَنَاءِ وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ ، فَإِنَّ الْإِقْدَامَ وَالْإِحْجَامَ لَا يُفْقِصُ مِنَ الْعُمُرِ وَلَا يَزِيدُ فِيهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أَيُ : مَنْ كَانَ عَمَلُهُ لِلدُّنْيَا فَقَدْ نَالَ مِنْهَا مَا قَدَرَهُ اللَّهُ لَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ، وَمَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ الدَّارَ الْآخِرَةَ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْهَا مَعَ مَا قَسَمَ لَهُ فِي الدُّنْيَا . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ أَيُ : سَنُعْطِيهِمْ مِنْ فَضْلِنَا وَرَحْمَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحَسَبِ شُكْرِهِمْ وَعَمَلِهِمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسْلِيًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَمَّا كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ كَمْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ وَمَعَهُ رِبِّيُّونَ مِنْ أَصْحَابِهِ كَثِيرٌ ، ﴿ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ قِيلَ : جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ : الْأَوْفُ . وَقِيلَ : عَلَمَاءُ كَثِيرٌ . وَقِيلَ : عَلَمَاءُ صَبْرٌ ، أَيُ : أَبْرَارٌ أَتَقِيَاءُ ، وَقِيلَ : الرِّبِّيُّونَ : الْأَتْبَاعُ ، وَالرَّعِيَّةُ ، وَالرَّبَائِثُونَ : الْوُلَاةُ ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ مَا ضَعُفُوا بِقَتْلِ نَبِيِّهِمْ ﴿ وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ يَقُولُ : فَمَا ارْتَدُّوا عَنْ نُصْرَتِهِمْ وَلَا عَنْ دِينِهِمْ أَنْ قَاتَلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ نَبِيُّ اللَّهِ حَتَّى لَحِقُوا بِاللَّهِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿ وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ : وَمَا ذَلُّوا لِعَدُوِّهِمْ . أَيُ : مَا أَصَابَهُمْ ذَلِكَ حِينَ قُتِلَ نَبِيُّهُمْ . ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أَيُ : لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هِجِيرَى إِلَّا ذَلِكَ ﴿ فَاتَّخَذَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ أَيُ : النَّصْرَ وَالظَّفَرَ وَالْعَاقِبَةَ ﴿ وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ أَيُ : جَمَعَ لَهُمْ ذَلِكَ مَعَ هَذَا ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذِلُوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا

خَسِرِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٢٥﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ ۖ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَّا تُحِبُّونَ ۖ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٧﴾ ۖ إِذْ تَصْعَدُونَ ۖ وَلَا تَلُولُ عَلَى أَحَدٍ ۖ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ فَأَتْبَبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۖ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾

يُحَذِّرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ طَاعَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، فَإِنَّ طَاعَتَهُمْ تُورِثُ الرَّدَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذِلُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَسِرِينَ ﴾ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَمَوَالَاتِيهِ ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ ، وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بِأَنَّهُ سَيُلْقِي فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمُ الْخَوْفَ مِنْهُمْ وَالذَّلَّةَ لَهُمْ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشُرْكِهِمْ ، مَعَ مَا أَدْخَرَهُ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، فَقَالَ : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ ۖ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُعَبِّثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : وَعَدَهُمُ اللَّهُ النَّصْرَ ، وَقَدْ يُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴾ بَلَىٰ ۚ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٤] أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ لِأَنَّ عَدُوَّهُمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مُقَاتِلٍ ، فَلَمَّا وَاجَهُوهُمْ كَانَ الظُّمَرُ وَالنَّصْرُ أَوَّلَ النَّهَارِ لِلْإِسْلَامِ ، فَلَمَّا حَصَلَ مَا حَصَلَ مِنْ عِصْيَانِ الرِّمَاءِ وَفَشَلِ بَعْضِ الْمُقَاتِلَةِ تَأَخَّرَ الْوَعْدُ الَّذِي كَانَ مَشْرُوطًا بِالثَّبَاتِ وَالطَّاعَةِ . قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أَيُّ : أَوَّلَ النَّهَارِ ﴿ إِذْ تَحُسُونَهُمْ ﴾ أَيُّ : تَقْتُلُونَهُمْ ﴿ بِأَذْنِهِ ﴾ أَيُّ : بِتَسْلِيلِهِ إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا

فَاشْلُتُمْ ۖ الْفَشْلُ : الْجُبْنُ ۖ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ ۖ ، كَمَا وَقَعَ لِلرَّمَاةِ ۖ « مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۖ وَهُوَ الظَّفَرُ بِهِمْ ۖ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ۖ وَهُمْ الَّذِينَ رَغِبُوا فِي الْمَغْنَمِ حِينَ رَأَوْا الْهَزِيمَةَ ۖ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ ثُمَّ آدَاهُمْ عَلَيْكُمْ لِيُخْتَبِرَكُمْ وَيَمْتَحِنَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۖ أَيْ : غَفَرَ لَكُمْ ذَلِكَ الصَّنِيعَ ، وَذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِكثْرَةِ عَدَدِ الْعَدُوِّ وَعَدَدِهِمْ ، وَقَلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَعَدَدِهِمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۖ لَمْ يَسْتَأْصِلْكُمْ ۖ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۖ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ۖ أَيْ : صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ إِذْ تُصْعِدُونَ أَيْ فِي الْجَبَلِ هَارِبِينَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ ، « وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ۖ أَيْ : وَأَنْتُمْ لَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ الدَّهْشِ وَالْخَوْفِ وَالرُّعْبِ ۖ وَالرُّسُولُ يَدْعُوَكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ ۖ أَيْ : وَهُوَ قَدْ خَلَفْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، يَدْعُوَكُمْ إِلَى تَرْكِ الْفِرَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، وَإِلَى الرَّجْعَةِ وَالْعُودَةِ وَالْكَرَّةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَأَنْتَبَكُمْ عَمَّا يُغَمِّرُ ۖ أَيْ : فَجَزَأَكُمْ غَمًّا عَلَى غَمٍّ ، قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : النِّعَمُ الْأَوَّلُ بِسَبَبِ الْهَزِيمَةِ وَحِينَ قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَالثَّانِي حِينَ عَلَاهُمْ الْمُشْرِكُونَ فَوْقَ الْجَبَلِ ، وَقِيلَ : كَرَبًا بَعْدَ كَرَبٍ ، قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ ، وَعُلُوُّ عَدُوِّكُمْ عَلَيْكُمْ ، وَمَا وَقَعَ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ قَوْلٍ : قُتِلَ نَبِيُّكُمْ ، فَكَانَ ذَلِكَ مُتَابِعًا عَلَيْكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ . « لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ۖ أَيْ : عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالظَّفَرِ بِعَدُوِّكُمْ ۖ « وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۖ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْقَتْلِ ۖ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۖ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ جَلَّ وَعَلَا .

ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نِعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ۖ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۖ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۖ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۖ

يَقُولُ تَعَالَى مُتَمَتِّيًا عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْأَمْنَةِ ، وَهُوَ النُّعَاسُ الَّذِي غَشِيَهُمْ وَهُمْ مُشْتَمِلُونَ السَّلَاحَ فِي حَالِ هَمَّتْهُمْ وَعَمَّتْهُمْ ، وَالنُّعَاسُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمَانِ . وَعَنْ أَبِي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : غَشَيْنَا النُّعَاسَ وَنَحْنُ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ أُحُدٍ ، قَالَ : فَجَعَلَ

سَيَفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَأَخْذُهُ وَيَسْقُطُ وَأَخْذُهُ. ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوَكُّلِ الصَّادِقِ ، وَهُمْ الْجَازِمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ ﷻ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ وَيُنْجِزُ لَهُ مَأْمُورَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يَعْنِي : لَا يَغْشَاهُمْ النَّعَاسُ مِنَ الْقَلِقِ وَالْجَزَعِ وَالْخَوْفِ ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح : ١٢] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَهَكَذَا هُوَ لَا يَغْتَفِدُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا ظَهَرُوا تِلْكَ السَّاعَةَ أَتَاهَا الْفَيْصَلَةُ وَأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ بَادَ وَأَهْلُهُ ، وَهَذَا شَأْنُ أَهْلِ الرَّيْبِ وَالشَّكِّ إِذَا حَصَلَ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ الْفُطَيْعَةِ تَحْصُلُ لَهُمْ هَذِهِ الظُّنُونُ الشَّيْعَةُ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿يَقُولُونَ﴾ فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ إِنْ أَلَامَرْتُكُمْ كُلُّهُ لَلَّهِ تَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكُمْ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ مَا أَخْفَوْهُ فِي أَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا﴾ أَي : يُسْرُونَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أَي : هَذَا قَدَرٌ قَدَرَهُ اللَّهُ ﷻ وَحُكْمٌ حَتَمَ لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا مَنَاصَ مِنْهُ . ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَي : يَحْتَبِرُكُمْ بِمَا جَرَى عَلَيْكُمْ لِيَمَيِّزَ الْحَقِيقَةَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيُظْهِرَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لِلنَّاسِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَي : بِمَا يَخْتَلِجُ فِي الصُّدُورِ مِنَ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أَي : بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : إِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا ، وَإِنْ مِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أَي : عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْفِرَارِ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أَي : يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَحْلُمُ عَنْ خَلْقِهِ ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿٥٨﴾

يَنْهَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ فِي اعْتِقَادِهِمُ الْفَاسِدِ ، الدَّالَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ عَنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْأَسْفَارِ وَالْحُرُوبِ : لَوْ كَانُوا تَرَكَوْا ذَلِكَ لَمَّا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أَي : عَنْ إِخْوَانِهِمْ ﴿إِذَا

صَرُّوْا فِي الْأَرْضِ ﴿ أَيُّ : سَافَرُوا لِلتَّجَارَةِ وَنَحْوَهَا ﴾ أَوْ كَانُوا غَزَى ﴿ أَيُّ : كَانُوا فِي الْغَزْوِ ﴾ لَوْ
 كَانُوا عِنْدَنَا ﴿ أَيُّ : فِي الْبَلَدِ ﴾ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴿ أَيُّ : مَا مَاتُوا فِي السَّفَرِ وَمَا قُتِلُوا فِي الْغَزْوِ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيُّ : خَلَقَ هَذَا الْاِعْتِقَادَ فِي نُفُوسِهِمْ
 لِيَزَادُوا حَسْرَةً عَلَى مَوْتَاهُمْ وَقَتْلَاهُمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿ وَاللَّهُ نَحْيِي وَمَيِّتٌ ﴾ أَيُّ : بِيَدِهِ
 الْخَلْقُ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ ، وَلَا يَحْيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ ، وَلَا يَزَادُ فِي عَمْرٍ
 أَحَدٌ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَيُّ : عِلْمُهُ وَبَصَرُهُ نَافِذٌ
 فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ . ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ
 وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ تَضَمَّنَ هَذَا أَنَّ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَوْتَ أَيْضًا وَسِيلَةً إِلَى نَيْلِ
 رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَجَمِيعِ حُطَايَاهَا الْفَانِي .
 ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَمَصِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ إِلَى اللَّهِ ﷻ ، فَيَجْزِيهِ بِعَمَلِهِ إِنْ
 خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشُرُونَ ﴾ .

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ
 فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٠١﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ
 مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا
 غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ
 رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠٤﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ
 اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ
 أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ
 لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٠٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا رَسُولَهُ ﷺ مُمْتَنِّنًا عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، فِيمَا أَلَانَ بِهِ قَلْبُهُ عَلَى أُمَّتِهِ ، الْمُتَّبِعِينَ
 لِأَمْرِهِ التَّارِكِينَ لِرُجْرِهِ ، وَأَطَابَ لَهُمْ لَفْظُهُ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ أَيُّ : بِأَيِّ شَيْءٍ
 جَعَلَكَ اللَّهُ لَهُمْ لِينًا لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ بِكَ وَبِهِمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا
 مِنْ حَوْلِكَ ﴾ وَالْفُظُّ الْغَلِيظُ : الْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا غَلِيظُ الْكَلَامِ لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ أَيُّ :
 لَوْ كُنْتَ سَيِّئَ الْكَلَامِ قَاسِي الْقَلْبِ عَلَيْهِمْ لَانْفَضُّوا عَنْكَ وَتَرَكُوكَ ، ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ

وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ . وَلِذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي الْأَمْرِ إِذَا حَدَثَ ، تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ ، لِيَكُونَ أَنْشَطُ هُمْ فِيْمَا يَفْعَلُونَهُ ، كَمَا شَاوَرَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فِي مُصَالِحَةِ الْأَحْزَابِ بِثُلْثِ تِمَارِ الْمَدِينَةِ عَامِئِدٍ ، وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْخُدَيْيَةِ ، وَقَالَ ﷺ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ : « أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعَشَرَ الْمُسْلِمِينَ » وَاسْتَشَارَ عَلِيًّا وَأُسَامَةَ فِي فِرَاقِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَكَانَ ﷺ يُشَاوِرُهُمْ فِي الْحُرُوبِ وَنَحْوِهَا . « فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » أَيُّ : إِذَا شَاوَرْتَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَزَمْتَ عَلَيْهِ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِيهِ « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ » وَهَذِهِ الْآيَةُ ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ : « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فَقَالَ : « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ » قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ يَخُونَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ أَيْضًا فِي أَحَادِيثٍ مُتَعَدِّدَةٍ : قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » أَيُّ : لَا يَسْتَوِي مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ فِيْمَا شَرَعَهُ فَاسْتَحَقَّ رِضْوَانَ اللَّهِ وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ وَأَجِيرَ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ ، وَمَنْ اسْتَحَقَّ غَضَبَ اللَّهِ وَأُلْزِمَ بِهِ ، فَلَا مَحِيدَ لَهُ عَنْهُ ، وَمَا وَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ » قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي أَهْلُ الْخَيْرِ وَأَهْلُ الشَّرِّ دَرَجَاتٌ ، وَقَالَ آخَرُونَ : مَنَازِلُ : يَعْنِي مُتَفَاوِثُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَدَرَكَاتِهِمْ فِي النَّارِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : « وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » أَيُّ : وَسَيُوفِيهِمْ إِيَّاهَا لَا يَظْلِمُهُمْ خَيْرًا وَلَا يَزِيدُهُمْ شَرًّا بَلْ يُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أَيُّ : مِنْ جَنَسِهِمْ لِيَتِمَّ كُنُوتُهُمْ مِنْ مُحَاطَبَتِهِ وَسُؤَالِهِ وَجَحَالَسَتِهِ وَالْإِنْتِفَاعِ بِهِ ، فَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْإِمْتِنَانِ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ بِحَيْثُ يُمَكِّنُهُمْ مُحَاطَبَتَهُ وَمُرَاجَعَتَهُ فِي فَهْمِ الْكَلَامِ عَنْهُ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : « يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ » يَعْنِي : الْقُرْآنَ « وَزَكَّرَهُمْ » أَيُّ : يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، لِيَتَزَكَّوْا نُفُوسَهُمْ وَتَطْهَرُ مِنَ الدَّنَسِ وَالْحُبْثِ ، الَّذِي كَانُوا مُتَلَبِّسِينَ بِهِ فِي حَالِ شُرُكِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » يَعْنِي : الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ « وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ » أَيُّ : مِنْ قَبْلِ هَذَا الرَّسُولِ « لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أَيُّ : لَفِي غَيٍّ وَجَهْلٍ ظَاهِرٍ ، جَلِيٍّ بَيْنَ لِكُلِّ أَحَدٍ .

أَوَلَمَّا أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنُقَاتِلْهُمْ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فِتْنَتَهُمْ فَلَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾ وَهِيَ مَا أَصَابَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ قَتْلِ السَّبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ يَعْنِي: يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَبْعِينَ قَتِيلًا وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ أَسِيرًا ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أَيُّ مِنْ أَيْنَ جَرَى عَلَيْنَا هَذَا ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بِسَبَبِ عَصْيَانِكُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ فَعَصَيْتُمْ، يَعْنِي بِذَلِكَ الرَّمَاةُ. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ: يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: فِرَارُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَدُوِّكُمْ وَقَتْلُهُمْ لِحِمَاةٍ مِنْكُمْ، وَجَرَّاحَتُهُمْ لِآخَرِينَ، كَانَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ صَبَرُوا وَثَبَّتُوا وَلَمْ يَتَزَلُّوا. ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنُقَاتِلْهُمْ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فِتْنَتَهُمْ فَلَا تَبْعَنَكُمُ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أَصْحَابَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي سَلُولٍ الَّذِينَ رَجَعُوا مَعَهُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ فَاتَّبَعَهُمْ رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ وَالْقِتَالِ وَالْمُسَاعَدَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ اذْفَعُوا﴾ يَعْنِي: كَثُرُوا سَوَادَ الْمُسْلِمِينَ، قِيلَ: رَابِطُوا، فَتَعَلَّلُوا قَائِلِينَ: ﴿لَوْ نَعْلَمُ فِتْنَتَهُمْ فَلَا تَبْعَنَكُمُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنُونَ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَلْقَوْنَ حَرْبًا لِحَنَاتِكُمْ، وَلَكِنْ لَا تَلْقَوْنَ فِتْنًا.

قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿هُمُ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ اسْتَدْلُوا بِهِ عَلَى أَنَّ الشَّخْصَ قَدْ تَنَقَّلَ بِهِ الْأَحْوَالُ فَيَكُونُ فِي حَالٍ أَقْرَبُ إِلَى الْكُفْرِ، وَفِي حَالٍ أَقْرَبُ إِلَى الْإِيمَانِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ الْقَوْلَ وَلَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ هَذَا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ فِتْنَتَهُمْ فَلَا تَبْعَنَكُمُ﴾ فَإِنَّهُمْ يَتَحَقَّقُونَ أَنَّ جُنْدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ جَاءُوا مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ يَتَحَرَّقُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مَا أَصِيبَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُمْ أَضْعَافُ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ كَائِنٌ بَيْنَهُمْ فِتْنًا لَا مُحَالَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أَيُّ: لَوْ سَمِعُوا مِنْ مَشُورَتِنَا عَلَيْهِمْ فِي الْقُعُودِ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ مَا قُتِلُوا مَعَ مَنْ قُتِلَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ

الْمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ أَيُّ : إِنْ كَانَ الْقُعُودُ يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ ، فَيَنْبَغِي أَنْكُمْ لَا تَمُوتُونَ ، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ إِلَيْكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿٤١﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٢﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿٤٥﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شُيْءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿٤٦﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يُخْرِجُ تَعَالَى عَنِ الشُّهَدَاءِ بِأَتَمِّهِمْ وَإِنْ قُتِلُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ حَيَّةٌ مَرْزُوقَةٌ فِي دَارِ الْقَرَارِ . عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : إِنَّا سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ . ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فَقَالَ : أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرَ ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ إِطْلَاعَةً فَقَالَ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا ؟ فَقَالُوا : أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا ؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا ، قَالُوا : يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكُوا . »

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٤٢﴾ أَيُّ : الشُّهَدَاءُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ فَرِحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْغَبْطَةِ ، وَمُسْتَبْشِرُونَ بِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ بَعْدَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَنَّهُمْ يَقْدُمُونَ عَلَيْهِمْ وَأَتَمُّهُمْ لَا يَخَافُونَ بِمَا أَمَامَهُمْ ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكُوهُ وَرَاءَهُمْ ، نَسَّأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ . هَذَا كَانَ يَوْمُ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَرُّوا رَاجِعِينَ إِلَى

بِلَادِهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَمْتَرُوا فِي سَيْرِهِمْ نَدِمُوا لِمَ لَا تَمْتَمُوا عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَجَعَلُوهَا الْفَيْصَلَةَ ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الذَّهَابِ وَرَاءَهُمْ لِيُرِعْبَهُمْ وَيُرِيَهُمْ أَنَّ بِهِمْ قُوَّةً وَجَلَدًا ، وَلَمْ يَأْذَنْ لِأَحَدٍ سِوَى مَنْ حَضَرَ الْوُقُوعَةَ يَوْمَ أُحُدٍ سِوَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لِمَا سَنَدَكُرُهُ ، فَانْتَدَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْإِثْخَانِ طَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ الْآيَةُ أَيْ : الَّذِينَ تَوَعَّدَهُمُ النَّاسُ بِالْجُمُوعِ وَخَوْفِهِمْ بِكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ فَمَا أَكْثَرُوا لِذَلِكَ ، بَلْ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَاسْتَعَانُوا بِهِ ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ ﴿ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ ﴾ أَيْ : لَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ كَفَاهُمْ مَا أَهَمَّهُمْ ، وَرَدَّ عَنْهُمْ بَأْسَ مَنْ أَرَادَ كَيْدَهُمْ ، فَارْجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ ﴿ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ ﴾ مِمَّا أَضْمَرَ لَهُمْ عَدُوَّهُمْ ﴿ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أَيْ : يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ ، وَيُوْهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذُووُ بَأْسٍ وَذُووُ شِدَّةٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا سَوَّلَ لَكُمْ وَأَوْهَمَكُمْ فَتَوَكَّلُوا عَلَيَّ وَاجْتُمُوا إِلَيَّ ، فَإِنِّي كَافِيكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ .

وَلَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٩﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَخْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَلَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حَرَصِهِ عَلَى النَّاسِ

كَانَ يَحْزُنُهُ مُبَادَرَةُ الْكُفَّارِ إِلَى الْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ وَالشَّقَاقِ ، فَقَالَ تَعَالَى : وَلَا يَحْزُنُكَ ذَلِكَ ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أَي : حِكْمَتُهُ فِيهِمْ أَنَّهُ يُرِيدُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الْآخِرَةِ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذَلِكَ إِخْبَارًا مُقَرَّرًا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ أَي : اسْتَبَدَّلُوا هَذَا بِهَذَا ﴿ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ أَي : وَلَكِنْ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ خَيْرًا لَّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَتَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُثَمِّدُهُ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ نُسَارَعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥-٥٦]

قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أَي : لَا بُدَّ أَنْ يُعْقِدَ شَيْءٌ مِنَ الْمِحْنةِ يُظْهِرُ فِيهِ وَلِيَّهُ وَيُفْتَضِّحُ بِهِ عَدُوَّهُ ، يُعْرِفُ بِهِ الْمُؤْمِنُ الصَّابِرُ وَالْمُنَافِقُ الْفَاجِرُ ، يَعْنِي بِذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ الَّذِي اِمْتَحَنَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَذَكَرَ بِهِ إِيَّائَهُمْ وَصَبْرَهُمْ وَجَلَدَهُمْ وَتَبَاتُّهُمْ وَطَاعَتَهُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَهَكَذَا بِهَ اسْتَارَ الْمُنَافِقِينَ فَظَهَرَ مُحَالَفَتُهُمْ وَنُكُولُهُمْ عَنِ الْجِهَادِ وَخِيَانَتَهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : مِيزَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ أَي : أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ غَيْبَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ حَتَّى يُمِيزَ لَكُمْ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْمُنَافِقِ ، لَوْلَا مَا يَعْقِدُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْكَاشِفَةِ عَنْ ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا [الجن : ٢٦-٢٧] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أَي : أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاتَّبِعُوهُ فِيمَا شَرَعَ لَكُمْ ﴿ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ أَي : لَا يَحْسَبَنَّ الْبَخِيلُ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالِ يَنْفَعُهُ بَلْ هُوَ مَضَرَّةٌ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ ، وَرَبَّمَا كَانَ فِي دُنْيَاهُ . ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَالِ أَمْرِ مَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ ، مِثْلَ لَهُ شَجَاعًا أَفْرَعُ لَهُ رَبِّيبَانِ ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - يَقُولُ : أَنَا مَالِكٌ ، أَنَا كَنْزُكَ » ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَي : فَانْفِقُوا بِمَا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ ، فَقَدِّمُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ مَعَادِكُمْ ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ ﴿١٠٠﴾ أَيُّ : بَيْنَايَكُمْ وَصَمَائِرُكُمْ .

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِرَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقْرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٠٤﴾

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَصْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] قَالَتِ الْيَهُودُ : يَا مُحَمَّدُ : افْتَقَر رَبُّكَ فَسَأَلَ عِبَادَهُ الْقَرْضَ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ الْآيَةَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ ؛ وَهَذَا قَرْنُهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أَيُّ : هَذَا قَوْلُهُمْ فِي اللَّهِ ، وَهَذِهِ مُعَامَلَتُهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَيَجْزِيهِمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠٠﴾ أَيُّ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَحْقِيرًا وَتَضْعِيفًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِرَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقْرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى تَكْذِيبًا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْهِمْ فِي كُتْبِهِمْ أَنْ لَا يُؤْمَرُوا لِرَسُولٍ حَتَّى يَكُونَ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ أَنْ مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ فَتَقَبَّلَتْ مِنْهُ أَنْ تَنْزَلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ تَأْكُلُهَا . قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَيُّ : بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ أَيُّ : وَبِنَارٍ تَأْكُلُ الْقَرَابِينَ الْمُتَقَبِّلَةَ ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ أَيُّ : فَلِمَ قَابَلْتُمُوهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالْمَعَانِدَةِ وَقَتْلَتُمُوهُمْ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَنْ كُنْتُمْ تَتَّبِعُونَ الْحَقَّ وَتَتَّقَادُونَ لِلرُّسُلِ .

قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أَيُّ : لَا يُوْهِنُكَ تَكْذِيبُ هَؤُلَاءِ لَكَ فَلَكَ أُسُوءُ بِمَنْ قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَذَّبُوا مَعَ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهِيَ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَةُ ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ وَهِيَ الْكُتُبُ الْمُتَلَقَّاءُ مِنَ السَّمَاءِ كَالصُّحُفِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أَيُّ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ

النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٧﴾ * لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿٢٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَامًّا يَحْمِلُ جَمِيعَ الْخَلِيقَةِ بِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْنَا فَاِنٍ ﴾ [٢٧-٢٦ : الرحمن] فَهُوَ تَعَالَى وَحْدَهُ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ ، وَيَنْفَرِدُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَهَّارُ بِالِدِّيْمُومَةِ وَالْبَقَاءِ ، فَيَكُونُ آخِرًا كَمَا كَانَ أَوَّلًا ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعْرِيفٌ لِّجَمِيعِ النَّاسِ ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ حَتَّى يَمُوتَ فَإِذَا انْقَضَتِ الْعِدَّةُ وَفَرَّغَتِ السُّطْفَةُ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ وَجُودَهَا مِنْ صُلْبِ آدَمَ ، وَانْتَهَتْ الْبَرِيَّةُ أَقَامَ اللَّهُ الْقِيَامَةَ وَجَارَى الْخَلَائِقَ بِأَعْمَالِهَا جَلِيلَهَا وَحَقِيرَهَا ، قَلِيلَهَا وَكَثِيرَهَا ، كَبِيرَهَا وَصَغِيرَهَا ، فَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ رُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ أَيُّ : مَنْ جُنِبَ النَّارُ وَنَجَا مِنْهَا وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ كُلُّ الْفُوزِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَوْضِعٌ سَوِطٌ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، اِفْرُءُوا إِن شِئْتُمْ : ﴿ فَمَنْ رُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ تَصْغِيرٌ لِشَأْنِ الدُّنْيَا وَتَحْقِيرٌ لِأَمْرِهَا ، وَأَنَّهَا دَنِيَّةٌ فَإِنَّهُ قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ . ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَتُبْلَوُنَّكُم شَيْءٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٥٥] إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ . أَيُّ : لَا بُدَّ أَنْ يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ فِي شَيْءٍ مِّنْ مَّالِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ أَهْلِهِ ، وَيُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي الْبَلَاءِ ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَقْدَمِهِمُ الْمَدِينَةَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَذْرِ مُسْلِمِيَّاهُمْ عَمَّا يَنَاقِشُهُمُ مِنَ الْأَذَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَأَمْرًا لَهُمُ بِالصَّفْحِ وَالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ ، حَتَّى يَفْرَجَ اللَّهُ ، ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزَمِ الْأُمُورِ ﴾ . فَكُلُّ مَنْ قَامَ بِحَقِّ أَوْ أَمْرٍ مَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يُوَدَّى ، فَمَا لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا الصَّبْرُ فِي اللَّهِ ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ ، وَالرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ ﷻ .

وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْرُونَ ﴿٢٩﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيَحْجُبُونَ أَن تَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

هَذَا تَوْيِيحٌ مِنَ اللَّهِ وَتَهْدِيدٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَنْ يُنَوِّهُوا بِذِكْرِهِ فِي النَّاسِ ، فَيَكُونُوا عَلَى أَهْبَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ، فَإِذَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَابِعُوهُ ، فَكُتِّمُوا ذَلِكَ وَتَعَوَّضُوا عَمَّا وَعِدُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، بِالذُّونِ الطَّافِيفِ وَالْحِطِّ الدُّنْيَوِيِّ السَّخِيفِ ، فَبَشِّرِ الصَّفْقَةَ صَفَقَتَهُمْ ، وَبَشِّرِ الْبَيْعَةَ بَيْعَتَهُمْ . وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ فَيُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، وَيَسْلُكُ بِهِمْ مَسْلَكَهُمْ ، فَعَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبْذُلُوا مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ الدَّالِّ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَلَا يَكْتُمُوا مِنْهُ شَيْئًا فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ الْآيَةُ . يَعْنِي بِذَلِكَ : الْمُرَائِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ بِمَا لَمْ يُعْطُوا . وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ وَفَرَحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْغَزْوِ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا ، وَأَحْبَبُوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ، فَتَرَكْتُ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ الْآيَةَ . ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أَيُّ : لَا تَحْسَبْ أَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الْعَذَابِ ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، فَهَابُوهُ وَلَا تُخَالِفُوهُ وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ وَنِقْمَتَهُ ، فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ ، الْقَدِيرُ الَّذِي لَا أَقْدَرَ مِنْهُ .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٤١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٤٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿٤٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ فِي إِزْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا ، وَهَذِهِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا وَاتِّضَاعِهَا ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْآيَاتِ الْمَشَاهِدَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ كَوَاكِبِ

سَيَّارَاتٍ وَثَوَابِتٍ وَبَحَارٍ وَجِبَالٍ وَقِفَارٍ وَأَشْجَارٍ وَنَبَاتٍ وَزُرُوعٍ وَثَمَارٍ وَحَيَوَانٍ وَمَعَادِنٍ وَمَنَافِعَ مُخْتَلَفَةٍ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْخَوَاصِّ ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ أَيُّ : تَعَاقَبُهُمَا وَتَقَارُضُهُمَا الطُّولُ وَالْقَصْرُ . فَتَارَةً يَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا ، ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا ، وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا ، وَكُلُّ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لَا يَسْتَلْزِمِي الْآلَتَبِ﴾ أَيُّ : الْعُقُولُ التَّامَّةُ الرَّكِيَّةُ الَّتِي تُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ بِحَقَائِقِهَا عَلَى جَلِيَّاتِهَا .

وَصَفَّ تَعَالَى أُولَى الْأَلْبَابِ فَقَالَ : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أَيُّ : لَا يَقْطَعُونَ ذِكْرَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بِسَرَائِرِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ وَالسِّنِّيَّاتِ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ : يَفْهَمُونَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْحِكْمِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ وَرَحْمَتِهِ . وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ لَا يَعْتَبِرُ بِمَخْلُوقَاتِهِ ، الدَّالَّةُ عَلَى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَشَرْعِهِ وَقُدْرِهِ وَآيَاتِهِ فَقَالَ : ﴿وَكَايُنَ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ، وَمَدَحَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَائِلِينَ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أَيُّ : مَا خَلَقْتَ هَذَا الْخَلْقَ عَبَثًا بَلْ بِالْحَقِّ لِتَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَتَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ، ثُمَّ تَرْهُوهُ عَنِ الْعَبَثِ وَخَلَقَ الْبَاطِلَ فَقَالُوا : ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أَيُّ : عَنْ أَنْ تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أَيُّ : يَا مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، يَا مَنْ هُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعَيْبِ وَالْعَبَثِ ، قِنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ، وَفِيضِنَا لِأَعْمَالٍ تَرْضَىٰ بِهَا عَنَا ، وَوَقَفْنَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ تَهْدِينَا بِهِ إِلَىٰ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَتُجِيرُنَا بِهِ مِنْ عَذَابِكَ الْأَلِيمِ .

قَالُوا : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أَيُّ : أَهْنَتْهُ وَأَظْهَرْتَ خِزْيَهُ لِأَهْلِ الْجَمْعِ ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تُجِيرُهُمْ مِنْكَ ، وَلَا يَحِيدُهُمْ عَمَّا أَرَدْتَ بِهِمْ . ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَيُّ : دَاعِيًا يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ﴾ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَقَامَنَا أَيُّ : يَقُولُ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَاْمَنَّا ، أَيُّ : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَاتَّبَعْنَاهُ ﴿رَبَّنَا فَاعْفُ رَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أَيُّ : بِإِيمَانِنَا وَاتِّبَاعِنَا نَبِيَّكَ ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَفَاتِنَا﴾ أَيُّ : فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أَيُّ : أَحْفِنَا بِالصَّالِحِينَ . ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسْلِكَ﴾ مَعْنَاهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسْلِكَ وَهَذَا أَظْهَرُ . ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَيُّ : عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ ﴿إِنَّكَ لَا تَخِيفُ الْبَعَادَ﴾ أَيُّ : لَا بُدَّ مِنَ الْمِعَادِ الَّذِي أَخْبَرْتَ عَنْهُ رُسْلَكَ وَهُوَ الْقِيَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ . وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعَشْرَ مِنْ آخِرِ آلِ عِمْرَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ لِتَهَجُّدِهِ .

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَتَىٰ بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۖ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا أَكْفَرُنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُخِّلْنَاهُمْ جَنَّتِ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أَي : فَأَجَابَهُمْ رَبُّهُمْ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ ذَوِي الْأَلْبَابِ لَمَّا سَأَلُوا مَا سَأَلُوا مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ عَقِبَ ذَلِكَ ﴿ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَتَى ﴾ هَذَا تَفْسِيرٌ لِلْإِجَابَةِ ، أَي : قَالَ لَهُمْ مُّخْبِرًا أَنَّهُ لَا يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ لَدَيْهِ ، بَلْ يُؤْتِي كُلَّ عَامِلٍ بِقِسْطِ عَمَلِهِ مِنْ ذَكَرَ أَوْ أَتَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أَي : جَمِيعُكُمْ فِي ثَوَابٍ سَوَاءٍ ﴿ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ أَي : تَرَكُوا دَارَ الشَّرِّ وَأَتَوْا إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ وَفَارَقُوا الْأَحْبَابَ وَالْإِخْوَانَ وَالْخِلَالَ وَالْحِيرَانَ ﴿ وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ أَي : ضَاقَتْهُمْ الْمَشْرُكُونَ بِالْأَذَى حَتَّى أُلْجِئُوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي ﴾ أَي : إِنَّمَا كَانَ ذَنْبُهُمْ إِلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ . ﴿ وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا ﴾ ، وَهَذَا أَعْلَى الْمَقَامَاتِ أَنْ يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَعْفَرَ جَوَادُهُ ، وَيَعْفَرَ وَجْهَهُ بِدَمِهِ وَتُرَابِهِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا أَكْفَرُنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُخِّلْنَاهُمْ جَنَّتِ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَي : تَجْرِي فِي خِلَالِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشَارِبِ مِنْ لَبَنٍ وَعَسَلٍ وَخَمْرٍ وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أَضَافَهُ إِلَيْهِ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ عَظِيمٌ ؛ لِأَنَّ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ لَا يُعْطِي إِلَّا جَزِيلًا كَثِيرًا . ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ أَي : عِنْدَهُ حُسْنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا .

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿٢٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿٢٨﴾

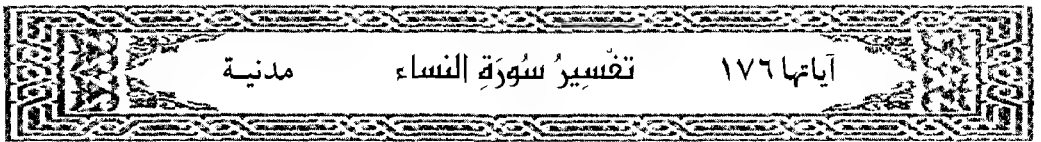
يَقُولُ تَعَالَى : لَا تَنْظُرْ إِلَى مَا هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مُتَرَفُونَ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْغِنَةِ وَالسُّرُورِ ، فَعَمَّا قَلِيلٍ يَزُولُ هَذَا كُلُّهُ عَنْهُمْ ، وَيُصْبِحُونَ مُرْتَمِينَ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ . فَإِنَّمَا نُمِّدُّهُمْ فِيهَا هُمْ فِيهِ اسْتِدْرَاجًا ، وَجَمِيعَ مَا هُمْ فِيهِ ﴿ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ .

وَهَكَذَا لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَذَكَرَ أَنَّ مَالَهُمُ النَّارُ ، قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ .

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٥﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ ، وَيُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ مَعَ مَا هُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، أَنَّهُمْ خَاشِعُونَ لِلَّهِ ، أَيُّ : مُطِيعُونَ لَهُ ، خَاضِعُونَ مُتَدَلِّلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أَيُّ : لَا يَكْتُمُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبَشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَذَكَرَ صِفَتِهِ وَنَعْتَهُ وَمَبْعَثِهِ وَصِفَةَ أُمَّتِهِ ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ خَيْرَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَصَفَوْتَهُمْ سَوَاءً كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ أُمُرُوا أَنْ يُصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي إِرْتَضَاهُ اللَّهُ هُمْ وَهُوَ الْإِسْلَامُ ، فَلَا يَدْعُوهُ لِسَرَاءٍ وَلَا لِصْرَاءٍ وَلَا لِشِدَّةٍ وَلَا لِرَخَاءٍ ، حَتَّى يَمُوتُوا مُسْلِمِينَ ، وَأَنْ يُصَابِرُوا الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ دِينَهُمْ ، وَأَمَّا الْمُرَابِطَةُ : فَهِيَ الْمُدَاوَمَةُ فِي مَكَانِ الْعِبَادَةِ وَالنَّبَاتِ ، وَقِيلَ : انْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ . وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالْمُرَابِطَةِ هَهُنَا : مُرَابِطَةُ الْغَزْوِ فِي نَحْوِ الْعُدُوِّ وَحِفْظُ ثُغُورِ الْإِسْلَامِ وَصِيَانَتِهَا عَنْ دُخُولِ الْأَعْدَاءِ إِلَى حَوْزَةِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَيُّ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ
نَسْأَلُهُ الْمَوْتَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، آمِينَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا خَلَقَهُ بِتَقْوَاهُ وَهِيَ عِبَادَتُهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمُنَبِّهَا هُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ الَّتِي

خَلَقَهُمْ بِهَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ آدَمُ الطَّيِّبُ : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وَهِيَ حَوَاءٌ عَلَيْهَا السَّلَامُ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَسَّ مِنْهُمَا رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ أَيُّ : وَذَرَأَ مِنْهُمَا ، أَيُّ : مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ رَجُلًا كَثِيرًا
وَنِسَاءً ، وَنَسَرَهُمْ فِي أَقْطَارِ الْعَالَمِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ وَالْوَانِهِمْ ، وَلُغَاتِهِمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ
بَعْدَ ذَلِكَ الْمَعَادُ وَالْمَحْشَرُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ أَيُّ : وَاتَّقُوا اللَّهَ بِطَاعَتِكُمْ إِيَّاهُ ، قَالَ
بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾ أَيُّ : كَمَا يُقَالُ : أَسَأَلْتُ بِاللَّهِ وَبِالرَّحِمِ . وَقَالَ غَيْرُهُمْ :
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعَاقِدُونَ وَتَعَاهِدُونَ بِهِ ، وَاتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا وَلَكِنْ بَرُّوْهَا وَصَلُّوْهَا .
وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ أَيُّ : هُوَ مُرَاقِبٌ لِجَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ .

وَعَاتُوا الَّتِي تَمَى أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ
إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ① : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الَّتِي تَمَى فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنْ
النِّسَاءِ مَتْنًى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ ذَلِكَ
أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ② : وَعَاتُوا النِّسَاءَ صَدَقْتِهِنَّ نَحْلَةً ③ فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا
فَكُلُّوهُ هَيْنًا مَرِيفًا ④

يَأْمُرُ تَعَالَى بِدَفْعِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى إِلَيْهِمْ إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ كَامِلَةً مُؤَفَّرَةً ، وَيَنْهَى عَنْ أَكْلِهَا
وَضَمِّهَا إِلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : لَا
تَعَجَلْ بِالرِّزْقِ الْحَرَامِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ الرِّزْقُ الْحَلَالُ الَّذِي قُدِّرَ لَكَ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : كَانَ أَحَدُهُمْ
يَأْخُذُ الشَّاةَ السَّمِينَةَ مِنْ غَنَمِ الْيَتِيمِ وَيَجْعَلُ مَكَانَهَا الشَّاةَ الْمَهْزُولَةَ وَيَقُولُ : شَاةُ بَشَاةٍ ، وَيَأْخُذُ
الدَّرْهَمَ الْجَيِّدَ وَيَطْرَحُ مَكَانَهُ الرِّيفَ ، يَقُولُ دِرْهَمٌ بِدِرْهَمٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ﴾ أَيُّ : لَا تَخْلِطُوهَا فَتَأْكُلُوهَا جَمِيعًا . ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا
كَبِيرًا ﴾ أَيُّ : إِثْمًا عَظِيمًا . وَالْمَعْنَى : إِنْ أَكَلْتُمْ أَمْوَالَهُمْ مَعَ أَمْوَالِكُمْ إِثْمٌ عَظِيمٌ وَخَطَأٌ كَبِيرٌ فَاجْتَنِبُوهُ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الَّتِي تَمَى فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتْنًى ﴾ أَيُّ : إِذَا
كَانَ تَحْتَ حِجْرِ أَحَدِكُمْ يَتِيمَةٌ وَخَافَ أَنْ لَا يُعْطِيَهَا مَهْرَ مِثْلِهَا ، فَلْيَعْدِلْ إِلَى مَا سِوَاهَا مِنَ
النِّسَاءِ ، فَإِنَّهُنَّ كَثِيرٌ وَلَمْ يُصَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْهِ . وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -
- عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الَّتِي تَمَى ﴾ قَالَتْ : يَا ابْنَ أُخْتِي هَذِهِ الْيَتِيمَةُ
تَكُونُ فِي حِجْرِ وَلِيِّهَا تُشْرِكُهُ فِي مَالِهِ ، وَيُعْجِبُهُ مَا هَا وَجَاهَا ، فَيُرِيدُ وَلِيِّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ
يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ ، فَهِيَ أَنْ يَنْكِحُوهَنَّ ، إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا إِلَيْهِنَّ

وَيَبْلُغُوا بِهِنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ ، وَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ مَتْنِي وَتِلْكَ وَرُبْعٌ ﴾ أَي : اِنْكِحُوا مَنْ شِئْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ إِنْ شَاءَ أَحَدُكُمْ
 ثِنْتَيْنِ ، وَإِنْ شَاءَ ثَلَاثًا ، وَإِنْ شَاءَ أَرْبَعًا . ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾
 أَي : إِنْ خِفْتُمْ مِنْ تَعْدَادِ النِّسَاءِ أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَهُنَّ ، فَمَنْ خَافَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَقْتَصِرْ عَلَى وَاحِدَةٍ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ أَذَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أَي : لَا تَجُورُوا . يُقَالُ : عَالَ فِي الْحُكْمِ إِذَا قَسَطَ وَظَلَمَ وَجَارَ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ نِحْلَةٌ : فَرِيضَةٌ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ
 ﷺ أَنْ يَنْكِحَ امْرَأَةً إِلَّا بِصَدَاقٍ وَاجِبٍ ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ دَفْعُ الصَّدَاقِ إِلَى الْمَرْأَةِ حَتْمًا ، وَأَنْ يَكُونَ
 طَيِّبَ النَّفْسِ بِذَلِكَ ، فَإِنْ طَابَتْ هِيَ لَهُ بِهِ بَعْدَ تَسْمِيَّتِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَلْيَأْكُلْهُ حَلَالًا طَيِّبًا ،
 وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ .

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ
 وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبَلُوا أَلْيَتَكُمْ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ
 رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا
 فَلْيَسْتَغْفِرْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ
 وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا ۝

يَنْهَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ تَمْكِينِ السُّفَهَاءِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ
 قِيَامًا ، أَي : تَقْوَمُ بِهَا مَعَايِشُهُمْ مِنَ التَّجَارَاتِ وَغَيْرِهَا . ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ قَالَ عَدَدُ
 مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ . ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -
 يَقُولُ : لَا تَعْمِدْ إِلَى مَالِكَ وَمَا خَوَّلَكَ اللَّهُ ، وَجَعَلَهُ لَكَ مَعِيشَةً فَتُعْطِيَهُ امْرَأَتُكَ أَوْ بِنْتُكَ ، ثُمَّ
 تَنْظُرُ إِلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَلَكِنْ أَمْسِكْ مَالَكَ وَأَصْلِحْهُ ، وَكُنْ أَنْتَ الَّذِي تُنْفِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ كِسْوَتِهِمْ
 وَمُؤْنَتِهِمْ وَرِزْقِهِمْ . ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي : فِي الْبِرِّ وَالصَّلَةِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ
 الْكَرِيمَةُ تَضَمَّنَتْ الْإِحْسَانَ إِلَى الْعَائِلَةِ ، وَمَنْ تَحْتَ الْحَجْرِ بِالْفِعْلِ مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الْكَسَاوِي
 وَالْأَرْزَاقِ ، بِالْكَلَامِ الطَّيِّبِ وَتَحْسِينِ الْأَخْلَاقِ . ﴿ وَاتَّبَلُوا أَلْيَتَكُمْ ﴾ أَي : اخْتَارُوا لَهُمْ ﴿ حَتَّى إِذَا
 بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾ الْحُلُمُ . قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْبُلُوغُ فِي الْعُلَامِ تَارَةً يَكُونُ بِالْحُلُمِ ، وَهُوَ : أَنْ
 يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يَنْزِلُ بِهِ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ الْوَلَدُ . أَوْ يَسْتَكْمِلُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ يَعْنِي : صَلَاحًا فِي دِينِهِمْ وَحِفْظًا
 لِأَمْوَالِهِمْ ، وَهَكَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ : مَتَى بَلَغَ الْعُلَامُ مُصْلِحًا لِدِينِهِ وَمَالِهِ انْفَلَكَ الْحَجْرُ عَنْهُ ، فَيَسْلَمُ

إِلَيْهِ مَالُهُ الَّذِي تَحْتَ يَدٌ وَلِيَّهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ يَنْهَى تَعَالَى عَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ضَرُورِيَّةٍ ﴿ إِسْرَافًا وَبِدَارًا ﴾ أَيُّ : مُبَادَرَةً قَبْلَ بُلُوغِهِمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ أَيُّ : مَنْ كَانَ فِي غَنِيَّةٍ عَنْ مَالِ الْيَتِيمِ فَلْيَسْتَعْفِفْ عَنْهُ وَلَا يَأْكُلْ مِنْهُ شَيْئًا . يَعْنِي : مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ﴿ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا ﴾ أَيُّ : مِنْهُمْ ﴿ فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَيُّ : بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ يَعْنِي : بَعْدَ بُلُوغِهِمْ الْحُلُمَ ، وَإِنِ اسْكُمُ الرُّشْدَ مِنْهُمْ ، فَحِينَئِذٍ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْأَوْلِيَاءِ أَنْ يُشْهَدُوا عَلَى الْأَيْتَامِ إِذَا بَلَّغُوا الْحُلُمَ ، وَسَلَّمُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ لِئَلَّا يَقَعَ مِنْ بَعْضِهِمْ جُحُودٌ وَإِنْكَارٌ لِمَا قَبَضَهُ وَتَسَلَّمَهُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أَيُّ : وَكَفَى بِاللَّهِ مُحَاسِبًا وَشَاهِدًا وَرَقِيبًا عَلَى الْأَوْلِيَاءِ ، فِي حَالِ نَظَرِهِمْ لِلْأَيْتَامِ ، وَحَالِ تَسْلِيمِهِمْ لِأَمْوَالِهِمْ .

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرُ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿٦٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٦٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٦٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿٧٠﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ أَيُّ : الْجَمِيعُ فِيهِ سِوَاءٌ فِي حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، يَسْتَوُونَ فِي أَصْلِ الْوَرَاثَةِ ، وَإِنْ تَفَاوَتْ بِحَسَبِ مَا فَرَضَ اللَّهُ لِكُلِّ مِنْهُمْ ، بِمَا يُدْلِي بِهِ إِلَى الْمَيِّتِ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ رَوْحِيَّةٍ أَوْ وِلَاءٍ ، فَإِنَّهُ لِحُمَّةٍ كُلِّ حُمَّةٍ النَّسَبِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى ﴾ . قِيلَ : الْمُرَادُ حَضَرَ قِسْمَةَ الْمِيرَاثِ ذَوُو الْقُرْبَى مِمَّنْ لَيْسَ بِوَارِثٍ ﴿ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ ﴾ فَلْيُرْضَخْ لَهُمْ مِنَ التَّرَكَةِ نَصِيبٌ ، وَإِنْ ذَلِكَ كَانَ وَاجِبًا فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ . وَذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ . وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ إِذَا حَضَرَ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءُ مِنَ الْقَرَابَةِ الَّذِينَ لَا يَرِثُونَ ، وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ قِسْمَةَ مَالٍ جَزِيلٍ ، فَإِنَّ أَنْفُسَهُمْ تَتَوَقَّعُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ ، إِذَا رَأَوْا هَذَا يَأْخُذُ وَهَذَا يَأْخُذُ وَهُمْ يَأْتِسُونَ لَا شَيْءَ يُعْطُونَهُ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى - وَهُوَ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ - أَنْ يُرْضَخَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَسْطِ ، يَكُونَ بَرًّا بِهِمْ وَصَدَقَةً عَلَيْهِمْ ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ وَجَبْرًا لِكُسْرِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الْآيَةُ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : هَذَا فِي

الرَّجُلُ يَحْضَرُهُ الْمَوْتُ فَيَسْمَعُهُ رَجُلٌ يُوصِي بِوَصِيَّةٍ تَضُرُّ بَوْرَثَتِهِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي يَسْمَعُهُ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ وَيُوفِّقَهُ وَيُسَدِّدَهُ لِلصَّوَابِ فَيَنْظُرَ لِبَوْرَثَتِهِ كَمَا كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصْنَعَ بَوْرَثَتُهُ إِذَا خَشِيَ عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعُفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَي : فِي مُبَاشَرَةِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ، وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ يَتَأَيَّدُ بِمَا بَعْدَهُ مِنَ التَّهْدِيدِ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا ، أَيْ : كَمَا تُحِبُّ أَنْ تُعَامَلَ ذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ فَعَامِلِ النَّاسِ فِي ذُرِّيَّاتِهِمْ إِذَا وَلَّيْتَهُمْ ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ مَنْ أَكَلَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا فَإِنَّمَا يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ نَارًا . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنْ رَبِّ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٠٠﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا ، وَالْآيَةُ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ هَذِهِ السُّورَةِ هُنَّ آيَاتُ عِلْمِ الْفَرَائِضِ وَهُوَ مُسْتَنْبَطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ ، وَمِنْ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ بِمَا هُوَ كَالْتَفْسِيرِ لِلذَّكَرِ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : عَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلَمَةَ مَا شِئْنِ فَوَجَدَنِي النَّبِيُّ ﷺ لَا أَعْقِلُ شَيْئًا ، فَدَعَا بِمَا عَفَوَ عَنْهُ مِنْهُ ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ فَأَفْقَتُ ، فَقُلْتُ : مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَتَرَكْتُ ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ أَيْ : يَأْمُرُكُمْ بِالْعَدْلِ فِيهِمْ ، فَإِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَجْعَلُونَ جَمِيعَ الْمِيرَاثِ لِلذَّكَوْرِ دُونَ الْإِنَاثِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمْ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ ، وَفَاوَتْ بَيْنَ الصَّنَفَيْنِ فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ، وَذَلِكَ لِاحْتِيَاجِ الرَّجُلِ إِلَى مُؤَنَةِ النِّفَقَةِ وَالْكُلْفَةِ وَمُعَانَاةِ التَّجَارَةِ وَالتَّكْسِبِ وَتَحْمِلِ الْمَشَاقِّ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُعْطَى ضِعْفِي مَا تَأْخُذُهُ الْأُنْثَى . ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : قَوْلُهُ ﴿ فَوْقَ ﴾ زَائِدَةٌ ، وَتَقْدِيرُهُ : فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً اثْنَتَيْنِ ، وَهَذَا مُتَّبَعٌ : ثُمَّ قَوْلُهُ : ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مَا قَالُوهُ لَقَالَ فَلَهُمَا ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنَّمَا أُسْتَفِيدَ كَوْنُ الثَّلَاثَيْنِ لِلنِّسَاءِ مِنْ حُكْمِ الْأَخْتَيْنِ فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حَكَمَ فِيهَا لِلأَخْتَيْنِ بِالثَّلَاثَيْنِ وَإِذَا وَرِثَ الْأَخْتَانِ

الثَّانِيْنَ فَلَاَنْ يَرِثَ الْبَنَتَانِ الثَّلَاثَيْنِ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِي ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ فَلَوْ كَانَ لِلْبَنَتَيْنِ النِّصْفُ لَنَصَّ عَلَيْهِ أَيْضًا ، فَلَمَّا حَكَمَ بِهِ لِلوَاحِدَةِ عَلَى انْفِرَادِهَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْبَنَتَيْنِ فِي حُكْمِ الثَّلَاثِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُؤْتِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ ﴾ إِلَى آخِرِهِ ، الْأَبَوَانِ لهُمَا فِي الْإِزْثِ أَحْوَالُ : أَحَدُهَا : أَنْ يَجْتَمِعَا مَعَ الْأَوْلَادِ فَيُفَرِّضَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ إِلَّا بِنْتُ وَاحِدَةٍ فُيَرِّضَ لَهَا النِّصْفُ وَلِلْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ ، وَأَخَذَ الْأَبُ الشُّدُسَ الْآخَرَ بِالتَّعْصِيبِ فَيُجْمَعُ لَهُ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - بَيْنَ الْفَرَضِ وَالتَّعْصِيبِ .

الْحَالُ الثَّانِي : أَنْ يَنْفَرِدَ الْأَبَوَانِ بِالْمِيرَاثِ فَيُفَرِّضَ لِلْأُمِّ الثُّلُثُ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - وَيَأْخُذُ الْأَبُ الْبَاقِي بِالتَّعْصِيبِ الْمَحْضِ ، فَيَكُونُ قَدْ أَخَذَ ضِعْفِي مَا حَصَلَ لِلْأُمِّ وَهُوَ الثَّلَاثَانِ ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُمَا زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ وَيَأْخُذُ الزَّوْجُ النِّصْفَ وَالزَّوْجَةُ الرَّبْعَ . ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ مَاذَا تَأْخُذُ الْأُمُّ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : وَالصَّحِيحُ : أَنَّهَا تَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِي فِي الْمَسْأَلَتَيْنِ ، لِأَنَّ الْبَاقِي كَأَنَّهُ جَمِيعُ الْمِيرَاثِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهَا نِصْفَ مَا جَعَلَ لِلْأَبِ ، فَتَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِي وَيَأْخُذُ الْأَبُ الْبَاقِي ثُلُثَيْهِ ، وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَجَمْهُورِ الْعُلَمَاءِ .

وَالْحَالُ الثَّلَاثُ مِنْ أَحْوَالِ الْأَبَوَيْنِ : وَهُوَ اجْتِمَاعُهُمَا مَعَ الْإِخْوَةِ سَوَاءً كَانُوا مِنَ الْأَبَوَيْنِ أَوْ مِنَ الْأَبِ أَوْ مِنَ الْأُمِّ فَإِنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ مَعَ الْأَبِ شَيْئًا ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَحْجُبُونَ الْأُمَّ عَنِ الثُّلُثِ إِلَى الشُّدُسِ فَيُفَرِّضَ لَهَا مَعَ وُجُودِهِمُ الشُّدُسُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَارِثٌ سِوَاهَا وَسِوَى الْأَبِ أَخَذَ الْأَبُ الْبَاقِي . وَحُكْمُ الْأَخَوَيْنِ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ كَحُكْمِ الْإِخْوَةِ عِنْدَ الْجَمْهُورِ .

عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ ﴾ أَضْرَبُوا بِالْأُمِّ وَلَا يَرِثُونَ وَلَا يَحْجُبُهَا الْأَخُ الْوَاحِدُ عَنِ الثُّلُثِ ، وَيَحْجُبُهَا مَا فَوْقَ ذَلِكَ ، وَكَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا حَجَبُوا أُمَّهُمْ عَنِ الثُّلُثِ أَنَّ آبَاءَهُمْ يَلِي إِنْكَاحَهُمْ وَنَفَقَتُهُ عَلَيْهِمْ دُونَ أُمَّهُمْ . وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ . ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ ﴾ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ عَلَى أَنَّ الدِّينَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ءِآبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ أَيُّ : أَنَّ النِّفْعَ مُتَوَقَّعٌ وَمَرْجُوٌّ مِنْ هَذَا ، كَمَا هُوَ مُتَوَقَّعٌ وَمَرْجُوٌّ مِنَ الْآخِرِ ، فَلِهَذَا فَرَضْنَا هَذَا وَهَذَا ، وَسَاوَيْنَا بَيْنَ الْقِسْمَيْنِ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَرِيشَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَفْصِيلِ الْمِيرَاثِ وَإِعْطَاءِ بَعْضِ الْوَرِثَةِ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ ، هُوَ فَرِيشٌ مِنَ اللَّهِ ، حَكَمَ بِهِ وَقَضَاهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَجَالِهَا ، وَمُعْطِي كُلِّ مَا يَسْتَحِقُّهُ بِحَسَبِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

• وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَكُمْ أَيُّهَا الرِّجَالُ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِذَا مُنَّ عَنْ غَيْرِ وَلَدٍ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ الْوَصِيَّةِ أَوْ الدَّيْنِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الدَّيْنَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ وَبَعْدَهُ الْوَصِيَّةُ ، ثُمَّ الْمِيرَاثُ ، وَهَذَا أَمْرٌ مُّجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، وَحُكْمٌ أَوْلَادِ الْبَيْنِ وَإِنْ سَفَلُوا حُكْمَ أَوْلَادِ الصُّلْبِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ ﴾ إِلَى آخِرِهِ وَسَوَاءٌ فِي الرُّبْعِ أَوْ الثُّمْنِ الزَّوْجَةُ وَالزَّوْجَتَانِ الْإِثْنَتَانِ وَالثَّلَاثُ وَالْأَرْبَعُ يَشْتَرِكْنَ فِيهِ ، ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ ﴾ إِلَخِ الْكَلَامُ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً ﴾ الْكَلَالَةُ : مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْإِكْلِيلِ وَهُوَ الَّذِي يُحِيطُ بِالرَّأْسِ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَالْمُرَادُ هُنَا : مَنْ يَرِثُهُ مِنْ حَوَاشِيهِ لَا أَصُولِهِ وَلَا فُرُوعِهِ . قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ : الْكَلَالَةُ : مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ . ﴿ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ ﴾ أَيُّ : مِنْ أُمِّ ، ﴿ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ﴾ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴿ وَإِخْوَةُ الْأُمِّ يُخَالِفُونَ بَقِيَّةَ الْوَرَثَةِ مِنْ وَجْهِهِ : أَحَدُهَا : أَنَّهُمْ يَرِثُونَ مَعَ مَنْ أَذَلُّوا بِهِ وَهِيَ الْأُمُّ . وَالثَّانِي : أَنَّ ذُكُورَهُمْ وَإِنَاثَهُمْ فِي الْمِيرَاثِ سَوَاءٌ . وَالثَّلَاثُ : أَنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ إِلَّا إِنْ كَانَ مِثْلُهُمْ يُورَثُ كَلَالَةً ، فَلَا يَرِثُونَ مَعَ أَبٍ وَلَا جَدٍّ وَلَا وَلَدٍ وَلَا وَلَدِ ابْنٍ . الرَّابِعُ : أَنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ عَلَى الثُّلُثِ ، وَإِنْ كَثُرَ ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ . وَهَذَا قَوْلٌ عَدَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ ﴾ أَيُّ : لِتَكُنْ وَصِيَّتُهُ عَلَى الْعَدْلِ لَا عَلَى الْإِضْرَارِ وَالْجَوْرِ وَالْحَنِيفِ ، بِأَنْ يَحْرَمَ بَعْضُ الْوَرَثَةِ أَوْ يُنْقِصَهُ أَوْ يَزِيدَهُ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْفَرِيزَةِ ، فَمَنْ سَعَى فِي ذَلِكَ كَانَ كَمَنْ ضَادَّ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ وَشَرَعِهِ .

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣١﴾ وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٣٢﴾

أَيُّ : هَذِهِ الْفَرَائِضُ وَالْمَقَادِيرُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِلْوَرَثَةِ بِحَسَبِ قُرْبِهِمْ مِنَ الْمَيِّتِ وَاحْتِيَاجِهِمْ

إِلَيْهِ وَقَدَّهْمَ لَهُ عِنْدَ عَدَمِهِ هِيَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَلَا تَحْجَاوُزُوهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أَيُ : فِيهَا ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٠﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥١﴾ أَيُ : لِكُونِهِ غَيْرَ مَا حَكَمَ اللَّهُ بِهِ ، وَضَادَّ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَصْدُرُ عَنْ عَدَمِ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ وَحَكَمَ بِهِ ، وَلِهَذَا يُجَاوِزُهُ بِالْإِهَانَةِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْمُقِيمِ .

وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيْنَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿٥٢﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٥٣﴾

كَانَ الْحُكْمُ فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا ثَبَتَ زِنَاهَا بِالْبَيِّنَةِ الْعَادِلَةِ حُبِسَتْ فِي بَيْتٍ فَلَا تُمَكِّنُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَمُوتَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ ﴾ يَعْنِي : الزَّانَا ﴿ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيْنَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ فَالسَّبِيلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ هُوَ النَّاسِخُ لِذَلِكَ . قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : كَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةَ النُّورِ فَنَسَخَهَا بِالْجُلْدِ أَوْ الرَّجْمِ ، وَهُوَ أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا ﴾ أَيُ : وَاللَّذَانِ يَفْعَلَانِ الْفَاحِشَةَ فَأَذَوْهُمَا . أَيُ : بِالشَّتْمِ وَالتَّعْيِيرِ وَالضَّرْبِ بِالنَّعَالِ ، وَكَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ حَتَّى نَسَخَهُ اللَّهُ بِالْجُلْدِ أَوْ الرَّجْمِ . ﴿ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾ أَيُ : أَقْلَعَا وَنَزَعَا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَصَلَحَتْ أَعْمَالُهُمَا وَحَسُنَتْ ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ أَيُ : لَا تَعْنِفُوهُمَا بِكَلَامٍ قَبِيحٍ بَعْدَ ذَلِكَ ، لِأَنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ « إِذَا زَنَتِ أُمَةٌ أَحَدَكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يُثْرَبْ عَلَيْهَا » أَيُ : لَا يُعَيِّرْهَا بِمَا صَنَعَتْ بَعْدَ الْحَدِّ الَّذِي هُوَ كَفَّارَةٌ لِمَا صَنَعَتْ .

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوَاءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٥٤﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْعَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٥﴾ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ التَّوْبَةَ مِمَّنْ عَمِلَ الشُّوَاءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُ وَلَوْ بَعْدَ مُعَايِنَةِ

الْمَلِكِ يَقْبِضُ رُوحَهُ قَبْلَ الْغُرْغَرَةِ . وَقَدْ دَلَّتِ الْأَحَادِيثُ عَلَى أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَهُوَ يَرْجُو الْحَيَاةَ فَإِنَّ تَوْبَتَهُ مَقْبُولَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ اللَّهَ ۖ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ۖ ﴾ [غافر : ٨٤] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۖ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا مَاتَ عَلَىٰ كُفْرِهِ وَشِرْكِهِ لَا يَنْفَعُهُ نَدْمُهُ وَلَا تَوْبَتُهُ ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ فِدْيَةٌ وَلَوْ بِمِلءِ الْأَرْضِ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٥﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَبْدِلَ زَوْجَ مَكَاتٍ زَوْجَ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١٦﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٧﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ۖ ﴾ قَالَ : كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَائُهُ أَحَقُّ بِأَمْوَالِهِ إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَرَوَّجَهَا ، وَإِنْ شَاءُوا رَوَّجُوهَا ، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يَرَوَّجُوهَا ، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا ، فَتَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ۖ ﴾ أَيُّ : لَا تَضَارُّوهُنَّ فِي الْعِشْرَةِ لِتَتْرَكَ مَا أَصْدَقَتْهَا أَوْ بَعْضُهُ ، أَوْ حَقًّا مِنْ حُقُوقِهَا عَلَيْكَ ، أَوْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ وَجْهِ الْقَهْرِ لَهَا وَالْإِضْرَارِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ ۚ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : يَعْنِي : إِذَا زَنَتْ فَلَكَ أَنْ تَسْتَرْجِعَ مِنْهَا الصَّدَاقَ الَّذِي أُعْطِيَتْهَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : النُّشُورُ وَالْعُضْيَانُ ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَنَّهُ يَعْمُ ذَلِكَ كُلُّهُ الزَّنَا وَالْعُضْيَانُ وَالنُّشُورُ وَبَدَاءُ اللِّسَانِ وَغَيْرُ ذَلِكَ . يَعْنِي أَنَّ هَذَا كُلُّهُ يُبِيحُ مُضَاجَعَتَهَا حَتَّىٰ تُبْرِئَهُ مِنْ حَقِّهَا أَوْ بَعْضِهِ وَيُفَارِقَهَا وَهَذَا جَيِّدٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۖ ﴾ أَيُّ : طَيَّبُوا أَقْوَالَكُمْ هُنَّ وَحَسَّنُوا أَفْعَالَكُمْ وَهَيَّأَتْكُمْ بِحَسَبِ قُدْرَتِكُمْ ، كَمَا تُحِبُّ ذَلِكَ مِنْهَا فَافْعَلْ أَنْتَ بِهَا مِثْلَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۖ ﴾ أَيُّ : فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ صَبْرُكُمْ فِي إِمْسَاكِهِنَّ مَعَ الْكَرَاهَةِ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَكَارٍ زَوْجٌ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴾ أَيُّ : إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُفَارِقَ امْرَأَةً وَيَسْتَبْدِلَ مَكَانَهَا غَيْرَهَا فَلَا يَأْخُذُ بِمَا كَانَ أَصْدَقَ الْأَوَّلَى شَيْئًا ، وَلَوْ كَانَ قِنْطَارًا مِنْ مَالٍ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ الْإِصْدَاقِ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ . ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ أَيُّ : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَ الصَّدَاقَ مِنَ الْمَرْأَةِ وَقَدْ أَفْضَيْتَ إِلَيْهَا وَأَفْضَتْ إِلَيْكَ ، وَقَالَ غَيْرٌ وَاحِدٌ : يَعْنِي بِذَلِكَ الْجَمَاعَ . ﴿ وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْعَقْدُ ، وَقَالَ آخَرُونَ قَوْلُهُ : ﴿ وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ هُوَ قَوْلُهُ ﷺ : ((أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ الْآيَةُ ، يُحَرِّمُ اللَّهُ تَعَالَى زَوَاجَاتِ الْأَبَاءِ تَكْرِيمَةً لَهُمْ وَإِعْظَامًا وَاحْتِرَامًا ، أَنْ تُوطَأَ مِنْ بَعْدِهِ ، حَتَّى أَتَاهَا لَتَحْرُمَ عَلَى الْإِبْنِ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا ، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا ﴾ أَيُّ : بُغْضًا ، أَيُّ : هُوَ أَمْرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِهِ ، وَيُؤَدِّي إِلَى مَقْتِ الْإِبْنِ أَبَاهُ بَعْدَ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِامْرَأَتِهِ ، فَإِنَّ الْعَالِبَ أَنْ مَنْ يَتَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ يَبْغُضُ مَنْ كَانَ زَوْجَهَا قَبْلَهُ ، ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أَيُّ : وَبِئْسَ طَرِيقًا لِمَنْ سَلَكَهُ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَعَاطَاهُ بَعْدَ هَذَا فَقَدْ إِزْدَدَ عَنْ دِينِهِ ، فَيُقْتَلُ وَيَصِيرُ مَالُهُ فَيْئًا لَيْتَ الْمَالِ .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٥﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ آيَةُ تَحْرِيمِ الْمَحَارِمِ مِنَ النَّسَبِ ، وَمَا يَتَّبِعُهُ مِنَ الرِّضَاعِ ، وَالْمَحَارِمِ بِالْصُّهْرِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ ﴾ أَيُّ : كَمَا يُحَرِّمُ عَلَيْكَ

أُمُّكَ الَّتِي وَلَدَتْكَ ، كَذَلِكَ يَحْرُمُ عَلَيْكَ أُمُّكَ الَّتِي أَرْضَعْتِكَ . ﴿ وَأُمّهتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَّيْكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ . وَأُمُّ الْمَرْأَةِ فَإِنَّهَا تَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَى بِنْتِهَا سِوَاءَ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا . وَأُمُّ الرَّبِيبَةِ وَهِيَ بِنْتُ الْمَرْأَةِ فَلَا تَحْرُمُ حَتَّى يَدْخُلَ بِأُمِّهَا ؛ فَإِنْ طَلَّقَ الْأُمُّ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا جَازَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِنْتِهَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَرَبَّيْكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فِي تَزْوِيجِهِنَّ ؛ فَهَذَا خَاصٌّ بِالرَّبَائِبِ وَحَدَهِنَّ ، وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الرَّبِيبَةَ لَا تَحْرُمُ بِالْعَقْدِ عَلَى الْأُمِّ بِخِلَافِ الْأُمِّ فَإِنَّهَا تَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَرَبَّيْكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ ﴾ فَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الرَّبِيبَةَ حَرَامٌ سِوَاءَ كَانَتْ فِي حِجْرِ الرَّجُلِ أَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حِجْرِهِ . عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ ؓ فِي قَوْلِهِ : ﴿ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ ﴾ قَالَ : فِي بُيُوتِكُمْ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ أَيُّ : نَكَحْتُمُوهُنَّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ أَيُّ : وَحُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ زَوَاجَاتُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ وَلَدْتُمُوهُنَّ مِنْ أَصْلَابِكُمْ الْمَدْخُولِ بِهَا وَغَيْرِ الْمَدْخُولِ ، فَتَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا ، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ مَعًا فِي التَّزْوِيجِ ، وَكَذَا فِي مِلْكِ الْيَمِينِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْكُمْ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ فَقَدْ عَفَوْنَا عَنْهُ وَعَفَرْنَاهُ . ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أَيُّ : وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَجْنَبِيَّاتِ الْمُحْصَنَاتِ وَهِيَ الْمَرْوَّجَاتُ ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ يَعْنِي : إِلَّا مَا مَلَكَتُمُوهُنَّ بِالسَّبْيِ ، فَإِنَّهُ يَحِلُّ لَكُمْ وَطُوهُنَّ إِذَا اسْتَبْرَأْتُمُوهُنَّ ، فَإِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيُّ : هَذَا التَّحْرِيمُ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، يَعْنِي الْأَرْبَعَ فَالزُّمُوا كِتَابَهُ ، وَلَا تَخْرُجُوا عَنْ حُدُودِهِ وَالزُّمُوا شَرْعَهُ وَمَا فَرَضَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ أَيُّ : مَا عَدَا مَنْ ذُكِرَ مِنَ الْمَحَارِمِ هُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴾ أَيُّ : تُحْصِلُوا بِأَمْوَالِكُمْ مِنَ الزَّوْجَاتِ إِلَى أَرْبَعٍ أَوْ السَّرَارِيِّ مَا شِئْتُمْ بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أَيُّ : كَمَا تَسْتَمْتِعُونَ بِهِنَّ فَآتُوهُنَّ مَهُورَهُنَّ فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ ، وَقَدْ أُسْتِدِلَ بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى نِكَاحِ الْمُتْعَةِ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ مَشْرُوعًا فِي إِبْدَاءِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ مِنْ حَمَلِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى نِكَاحِ الْمُتْعَةِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالَ : لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا انْقَضَى الْأَجَلُ أَنْ تَتَرَاضُوا عَلَى زِيَادَةِ بِهِ

وَزِيَادَةَ الْجُعْلِ . قَالَ السُّدِّيُّ : فَإِذَا انْقَضَتِ الْمُدَّةُ فَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهَا سَبِيلٌ وَهِيَ مِنْهُ بَرِيَّةٌ ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَسْتَبْرَأَ مَا فِي رَحْمَتِهَا ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا مِيرَاثٌ ، فَلَا يَرِثُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فَنَاسَبَ ذِكْرَ هَذَيْنِ الْوُصْفَيْنِ بَعْدَ شَرْعِ هَذِهِ الْمَحَرَّمَاتِ .

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَتِ الْمُؤْمِنَتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا ﴾ أَيُّ : سَعَةً وَقُدْرَةً ﴿ أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَتِ الْمُؤْمِنَتِ ﴾ أَيُّ : الْحَرَائِرِ الْعَقَائِفَ . ﴿ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَتِ ﴾ أَيُّ : فَتَرَوَّجُوا مِنَ الْإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ اللَّاتِي يَمْلِكُهُنَّ الْمُؤْمِنُونَ ، ثُمَّ أُعْطِرَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَسَرَائِرِهَا ، وَإِنَّمَا لَكُمْ أَيْهَا النَّاسُ الظَّاهِرُ مِنَ الْأُمُورِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السَّيِّدَ هُوَ وَلِيُّ أَمَتِهِ لَا تَزَوِّجُ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَيُّ : وَادْفَعُوا مُهُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، أَيُّ : عَنْ طَيِّبِ نَفْسٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَبْخَسُوا مِنْهُ شَيْئًا اسْتِهَانَةً بِهِنَّ لِكُونِهِنَّ إِمَاءً تَمْلُوكَاتٍ ، ﴿ مُحْصَنَاتٍ ﴾ أَيُّ : عَقَائِفٌ عَنِ الزَّنَا لَا يَتَعَاطَيْنَهُ ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ ﴾ وَهُنَّ الزَّوَانِي اللَّاتِي لَا يَمْنَعْنَ مَنْ أَرَادَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ . ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ يَعْنِي : أَخِلَاءَ . ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ الْمُرَادُ بِالْإِخْصَانِ هَهُنَا التَّزْوِيجُ ؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَ ﴾ أَيُّ : تَزَوَّجْنَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يُبَاحُ نِكَاحُ الْإِمَاءِ بِالشُّرُوطِ الْمُتَقَدِّمَةِ لِمَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْوُقُوعَ فِي الزَّنَا ، وَشَقَّ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَنِ الْجَمَاعِ ، وَعَنِتَّ بِسَبَبِ ذَلِكَ كُلُّهُ ، فَلَهُ حِينَئِذٍ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِالْأَمَةِ ، وَإِنْ تَرَكَ تَزَوُّجَهَا وَجَاهَدَ نَفْسَهُ فِي الْكَفِّ عَنِ الزَّنَا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، لِأَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَهَا جَاءَ أَوْلَادُهُ أَرْقَاءَ لِسَيِّدِهَا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا

عَظِيمًا ﴿٧٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تَخَفَّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٧٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَا أَحَلَّ لَكُمْ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ ، بِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا ﴿ وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ يَعْنِي : طَرَائِقَهُمُ الْحَمِيدَةَ وَاتِّبَاعَ شَرَائِعِهَا الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْإِثْمِ وَالْمَحَارِمِ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ : فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴾ أَيُّ : يُرِيدُ أَتْبَاعَ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالزُّنَاةِ ، أَنْ تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ مِيلًا عَظِيمًا . ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تَخَفَّفَ عَنْكُمْ ﴾ أَيُّ : فِي شَرَائِعِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَمَا يُقَدِّرُهُ لَكُمْ ، وَلِهَذَا أَبَاحَ الْإِمَاءَ بِشُرُوطٍ ، ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ فَنَاسَبَهُ التَّخْفِيفُ لِضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ وَضَعْفِ عَزْمِهِ وَهَمَّتِهِ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٧٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُضَلِّهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٨٠﴾ إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٨١﴾

يَنْهَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَأْكُلُوا أَمْوَالَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِالْبَاطِلِ ، أَيُّ بِأَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ شَرْعِيَّةٍ كَأَنْوَاعِ الرِّبَا وَالْقَهَارِ ، وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ صُنُوفِ الْحِيلِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ قُرِئَ « تِجَارَةً » بِالرَّفْعِ وَبِالنَّصْبِ وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَا تَتَعَاطَوْا الْأَسْبَابَ الْمُحَرَّمَاتِ فِي إِكْتِسَابِ الْأَمْوَالِ ، لَكِنْ الْمَتَاجِرِ الْمَشْرُوعَةِ الَّتِي تَكُونُ عَنْ تَرَاضٍ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي فَاغْلُظُوا وَتَسَبَّوْا بِهَا فِي تَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ . ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أَيُّ : بِإِزْتِكَابِ مُحَارِمِ اللَّهِ ، وَتَعَاطِي مَعَاصِيهِ ، وَأَكْلِ أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أَيُّ : فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا ﴾ أَيُّ : وَمَنْ يَتَعَاطَى مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ مُتَعَدِّيًا فِيهِ ظَالِمًا فِي تَعَاطِيهِ أَيُّ : عَالِمًا بِتَحْرِيمِهِ مُتَجَاسِّرًا عَلَى إِنْتِهَاكِهِ ﴿ فَسَوْفَ نُضَلِّهِ نَارًا ﴾ الْآيَةُ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، فَلْيَحْذَرِ مِنْهُ كُلُّ عَاقِلٍ لَيْسَ ، يَمُنُّ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ الْآيَةُ ، أَيُّ : إِذَا اجْتَنَبْتُمْ كِبَائِرَ الْأَثَامِ الَّتِي تُنْهَيْتُمْ عَنْهَا ، كَفَرْنَا عَنْكُمْ صَغَائِرَ الذُّنُوبِ وَأَدْخَلْنَاكُمْ الْجَنَّةَ ، وَلِهَذَا قَالَ :

﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ .

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٨﴾

قَالَ عَدَدٌ مِّنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : وَلَا يَتَمَنَّى الرَّجُلُ فَيَقُولُ : لَيْتَ لَوْ أَنَّ لِي مَالُ فُلَانٍ وَأَهْلِهِ ، فَنَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ يَسْأَلُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أَيُّ : كُلُّ لَهُ جَزَاءٌ عَلَى عَمَلِهِ بِحَسَبِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ فِي الْمِيرَاثِ ، أَيُّ : كُلُّ يَرِثُ بِحَسَبِهِ . ثُمَّ أَرَشَدَهُمْ إِلَى مَا يَصْلِحُهُمْ ، فَقَالَ : ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلْنَا بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ؛ فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مُحْتَوَمٌ ، أَيُّ : إِنَّ التَّمَنِّيَ لَا يُجِدِي شَيْئًا ، وَلَكِنْ سَلُونِي مِنْ فَضْلِي أُعْطِيَكُمْ ؛ فَإِنِّي كَرِيمٌ وَهَابٌ . ثُمَّ قَالَ : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أَيُّ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الدُّنْيَا فَيُعْطِيهِ مِنْهَا ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ فَيُفْقِرُهُ ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْآخِرَةَ فَيَقْضِيهِ لِأَعْمَالِهَا ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخِلْدَانَ فَيَخْذُلُهُ عَنْ تَعَاطِي الْخَيْرِ وَأَسْبَابِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ .

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَتَاوَهُمْ نَصِيحُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٩﴾

قَالَ عَدَدٌ مِّنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ أَيُّ : وَرَثَةً . وَقِيلَ : عُصْبَةٌ . فَتَاوِيلُ الْكَلَامِ : وَلِكُلِّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ جَعَلْنَا عُصْبَةً يَرِثُونَهُ مِمَّا تَرَكَ وَالِدُهُ وَأَقْرَبُوهُ مِنْ مِيرَاثِهِمْ لَهُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَتَاوَهُمْ نَصِيحُهُمْ﴾ أَيُّ : وَالَّذِينَ تَحَالَفْتُمْ بِالْأَيَّانِ الْمُؤَكَّدَةِ أَنْتُمْ وَهُمْ فَاتَّوَهُمْ نَصِيحَتَهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ كَمَا وَعَدْتُمُوهُمْ فِي الْأَيَّانِ الْمُغْلَظَةِ إِنَّ اللَّهَ شَهِدٌ بَيْنَكُمْ فِي تِلْكَ الْعُهُودِ وَالْمُعَاقَدَاتِ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأُمِرُوا أَنْ يُوفُوا لِمَنْ عَاقَدُوا ، وَلَا يَنْسُوا بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مُعَاقَدَةً .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ قَالَ : وَرَثَةً ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُ الْمُهَاجِرِيُّ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ دَوِيِّ رَجْمِهِ ، لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ : ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ نَسَخَتْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَتَاوَهُمْ نَصِيحُهُمْ﴾ مِنَ النَّصْرِ وَالرَّفَادَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ وَيُوصِي لَهُ .

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۖ فَالْصَّالِحَاتُ قَنِتَتْنَ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۗ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ۖ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ ۚ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أَيُّ : الرَّجُلُ قَائِمٌ عَلَى الْمَرْأَةِ ، أَيُّ : هُوَ رَئِيسُهَا وَكَبِيرُهَا وَالْحَاكِمُ عَلَيْهَا وَمُؤَدِّبُهَا إِذَا إِعْوَجَّتْ ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أَيُّ : لِأَنَّ الرِّجَالَ أَفْضَلُ مِنَ النِّسَاءِ وَالرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الْمَرْأَةِ ، وَلِهَذَا كَانَتِ النُّبُوَّةُ مُخْتَصَّةً بِالرِّجَالِ وَكَذَلِكَ الْمَلِكُ الْأَعْظَمُ لِقَوْلِهِ ﷺ : «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ» ، وَكَذَا مَنْصِبُ الْقَضَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أَيُّ : مِنَ الْمُهْرِ وَالتَّقَاتِ وَالْكَلْفِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ عَلَيْهِنَّ هُنَّ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ، فَالرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْأَةِ فِي نَفْسِهِ ، وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَيْهَا وَالْإِفْضَالُ ، فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ قَائِمًا عَلَيْهَا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة : ٢٢٨] . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يَعْنِي : أَمْرَاءُ عَلَيْهِنَّ ، أَيُّ : تُطِيعُهُ فِيمَا أَمَرَهَا اللَّهُ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ ، وَطَاعَتُهُ أَنْ تَكُونَ مُحْسِنَةً لِأَهْلِهِ حَافِظَةً لِمَالِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِتَتْنَ﴾ أَيُّ : مِنَ النِّسَاءِ ﴿قَنِتَتْنَ﴾ يَعْنِي : مُطِيعَاتٌ لِأَزْوَاجِهِنَّ ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أَيُّ : تَحْفَظُ زَوْجَهَا فِي غَيْبِهِ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ ، ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أَيُّ : الْمَحْفُوظُ مَنْ حَفِظَهُ اللَّهُ . ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أَيُّ : وَالنِّسَاءُ اللَّاتِي تَتَخَوَّفُونَ أَنْ يَنْشُزْنَ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ ، وَالنُّشُوزُ : هُوَ الْإِرْتِفَاعُ ، فَالْمَرْأَةُ النَّاشِزُ هِيَ الْمُرْتَفَعَةُ عَلَى زَوْجِهَا ، التَّارِكَةُ لِأَمْرِهِ الْمُعْرِضَةُ عَنْهُ الْمُبْغِضَةُ لَهُ ، فَمَتَى ظَهَرَ لَهُ مِنْهَا أَمَارَاتُ النُّشُوزِ فَلْيَعْظُهَا وَلْيُخَوِّفْهَا عِقَابَ اللَّهِ فِي عَصْيَانِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ حَقَّ الزَّوْجِ عَلَيْهَا وَطَاعَتَهُ وَحَرَّمَ عَلَيْهَا مَعْصِيَتَهُ ، لِمَا لَهُ عَلَيْهَا مِنَ الْفَضْلِ وَالْإِفْضَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : الْهَجْرُ : هُوَ أَنْ لَا يُجَامِعَهَا وَيُضَاجِعَهَا عَلَى فِرَاشِهَا وَيُوَلِّيَهَا ظَهْرَهُ ، وَزَادَ آخَرُونَ ، وَلَا يُكَلِّمُهَا مَعَ ذَلِكَ وَلَا يُحَدِّثُهَا ، وَقِيلَ : يَعِظُهَا فَإِنْ هِيَ قَبِلَتْ ، وَإِلَّا هَجَرَهَا فِي الْمَضْجِعِ ، وَلَا يُكَلِّمُهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَذَرَ نِكَاحَهَا ، وَذَلِكَ عَلَيْهَا شَدِيدٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَاصْرَبُوهُنَّ﴾ أَيُّ : إِذَا لَمْ يَرْتَدَّ عَنْ الْمَوْعِظَةِ وَلَا بِالْهَجْرَانِ ، فَلَكُمْ أَنْ تَصْرَبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ . ﴿فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أَيُّ : إِذَا أَطَاعَتِ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا فِي جَمِيعِ مَا يُرِيدُهُ مِنْهَا مِمَّا أَبَاحَهُ اللَّهُ لَهُ مِنْهَا ، فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ لَهُ ضَرْبُهَا وَلَا

هَجْرَانَهَا ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَارِهٌ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ تَهْدِيدٌ لِلرِّجَالِ إِذَا بَعَوْا عَلَى النِّسَاءِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ الْعَلِيِّ الْكَبِيرَ وَلِيَّهُنَّ ، وَهُوَ مُنْتَقِمٌ مِمَّنْ ظَلَمَهُنَّ وَبَغَى عَلَيْهِنَّ .

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٥٥﴾

قَالَ الْفُقَهَاءُ : إِذَا وَقَعَ الشَّقَاقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ أَسْكَنْهُمَا الْحَاكِمُ إِلَى جَنْبِ ثِقَةٍ يَنْظُرُ فِي أَمْرِهِمَا ، وَيَمْنَعُ الظَّالِمَ مِنْهُمَا مِنَ الظُّلْمِ ، فَإِنْ تَقَاعَمَ أَمْرُهُمَا وَطَالَتْ خُصُومَتُهُمَا ، بَعَثَ الْحَاكِمُ ثِقَةً مِّنْ أَهْلِ الْمَرْأَةِ وَثِقَةً مِّنْ قَوْمِ الرَّجُلِ لِيَجْتَمِعَا فَيَنْظُرَا فِي أَمْرِهِمَا وَيَفْعَلَا مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ بِمَا يَرَيَانِهِ مِنَ التَّفْرِيقِ أَوْ التَّوْفِيقِ ، وَتَشَوُّفِ الشَّارِعِ إِلَى التَّوْفِيقِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ . وَمَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الْحَكَمَيْنِ هُمَا الْجَمْعُ وَالتَّفْرِيقُ . وَقَدْ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِي الْحَكَمَيْنِ هَلْ هُمَا مَنْصُوبَانِ مِنْ جِهَةِ الْحَاكِمِ فَيَحْكُمَانِ ، وَإِنْ لَمْ يَرْضَ الزَّوْجَانِ أَوْ هُمَا وَكِيلَانِ مِنْ جِهَةِ الزَّوْجَيْنِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى الْأَوَّلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ فَسَمَّاهُمَا حَكَمَيْنِ ، وَمِنْ شَأْنِ الْحَكَمِ أَنْ يَحْكُمَ بِغَيْرِ رِضَا الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ وَهَذَا ظَاهِرُ الْآيَةِ .

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ ﴿٥٦﴾

يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِعِبَادَتِهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ الْأَنَاءِ وَالْحَالَاتِ ، فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ مِنْهُمْ أَنْ يُوحِّدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، ثُمَّ أَوْصَىٰ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرُنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ عِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ثُمَّ عَطَفَ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا الْإِحْسَانُ إِلَى الْقَرَابَاتِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فَقَدُوا مَنْ يَقُومُ بِمَصَالِحِهِمْ وَمَنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَالْحُتُوِّ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ وَهُمْ الْمَحَاوِجُ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَنْ يَقُومُ بِكَفَايَتِهِمْ ، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِمُسَاعَدَتِهِمْ بِمَا تَتِمُّ بِهِ كِفَايَتُهُمْ ، وَتَزْوُلُ بِهِ ضُرُورَتُهُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ : يَعْنِي الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ : الَّذِي لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾ قِيلَ : هِيَ الْمَرْأَةُ . وَقِيلَ : هُوَ الرَّفِيقُ فِي السَّفَرِ . وَأَمَّا

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هُوَ الَّذِي يَمُرُّ عَلَيْكَ مُجْتَازًا فِي السَّفَرِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وَصِيَّةٌ بِالْأَرْقَاءِ لِأَنَّ الرَّقِيقَ ضَعِيفُ الْحِيلَةِ أَسِيرٌ فِي أَيْدِي النَّاسِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أَيُّ : مُخْتَالًا فِي نَفْسِهِ مُعْجَبًا مُتَكَبِّرًا فَخُورًا عَلَى النَّاسِ ، يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُمْ ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَقِيرٌ ، وَعِنْدَ النَّاسِ بَغِيضٌ . قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿مُخْتَالًا﴾ يَعْنِي : مُتَكَبِّرًا ﴿فَخُورًا﴾ يَعْنِي : يُعَدُّ مَا أُعْطِيَ وَهُوَ لَا يَشْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى ، يَعْنِي : يَفْخَرُ عَلَى النَّاسِ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ نِعَمِهِ ، وَهُوَ قَلِيلُ الشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ .

الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ * وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ * وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَا مَا الَّذِينَ يَخْلُونُ بِأَمْوَالِهِمْ ، أَنْ يُنْفِقُوهَا فِيمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ بَرِّ الْوَالِدَيْنِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَقَارِبِ وَالْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ الْأَرْقَاءِ ، وَلَا يَدْفَعُونَ حَقَّ اللَّهِ فِيهَا وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ أَيْضًا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فَالْبُخِيلُ جَحُودٌ لِنِعْمَةِ اللَّهِ ، وَلَا تَظْهَرُ عَلَيْهِ وَلَا تَبِينُ لَا فِي مَأْكَلِهِ وَلَا فِي مَلْبَسِهِ وَلَا فِي إِعْطَائِهِ وَبَذْلِهِ ، وَهَذَا تَوَعَّدُهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وَالْكَفَرُ : هُوَ السِّرُّ وَالْتِغْيِيطُ ، فَالْبُخِيلُ يَسْتُرُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَيَكْتُمُهَا وَيَجْحَدُهَا ، فَهُوَ كَافِرٌ لِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْمُتَمَسِّكِينَ الْمَذْمُومِينَ وَهُمْ الْبُخَلَاءُ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْبَازِلِينَ الْمُرَائِينَ الَّذِي يَقْصِدُونَ بِإِعْطَائِهِمُ الشُّمْعَةَ ، وَأَنْ يُمَدِّحُوا بِالْكَرَمِ ، وَلَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أَيُّ : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ صَنِيعُهُمْ هَذَا الْقَبِيحَ وَعَدُوَّهُمْ عَنْ فِعْلِ الطَّاعَةِ عَلَى وَجْهِهَا الشَّيْطَانُ ؛ فَإِنَّهُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ وَقَارَنَهُمْ فَحَسَّنَ لَهُمُ الْقَبَائِحَ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ وَلِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : وَأَيُّ شَيْءٍ يَضُرُّهُمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَسَلَكُوا الطَّرِيقَ الْحَمِيدَةَ ، وَعَدَلُوا عَنِ الرِّبَاءِ إِلَى الْإِحْلَاصِ ،

وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ رَجَاءَ مَوْعُودِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، لِمَنْ يُحْسِنُ عَمَلَهُ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِي
الْوُجُوهِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَيَرْضَاهَا . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ أَيُّ : وَهُوَ عَلِيمٌ بِنِيَّاتِهِمُ الصَّالِحَةِ
وَالْفَاسِدَةِ ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ التَّوْفِيقَ مِنْهُمْ فَيَوْفِّقُهُ ، وَيُلْهِمُهُ رُشْدَهُ وَيَقْضِيهِ لِعِلْمٍ صَالِحٍ
يَرْضَى بِهِ عَنْهُ ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخِذْلَانَ وَالطَّرْدَ عَنِ الْجَنَابِ الْأَعْظَمِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي مَنْ طُرِدَ عَنْ
بَابِهِ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا
﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ﴿١٥٦﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿١٥٧﴾
يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ،
بَلْ يُوفِّيهِمَا لَهُ وَيُضَاعِفُهَا لَهُ إِنْ كَانَتْ حَسَنَةً .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ يَقُولُ تَعَالَى
مُخْبِرًا عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشِدَّةِ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْأَمْرُ وَالْحَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ
يَجِيءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ يَعْنِي : الْأَنْبِيَاءَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ
أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النحل : ٨٩] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ : « (إِقْرَأْ عَلَيَّ) » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ ؟ ! قَالَ : « نَعَمْ ، إِنِّي أُحِبُّ
أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى آتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ فَقَالَ : « حَسْبُكَ الْآنَ » فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾
أَيُّ : انْشَقَّتْ وَبَلَعَتْهُمْ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ أَهْوَالِ الْمَوْقِفِ وَمَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْفُضِيحَةِ وَالتَّوْبِيخِ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِجَمِيعِ مَا فَعَلُوهُ وَلَا يَكْتُمُونَ
مِنْهُ شَيْئًا . عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ لَهُ سَمِعْتُ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ يَعْنِي
إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ، وَقَالَ فِي
الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾
فَأَمَّا لَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ ، قَالُوا : تَعَالَوْا فَلْنَجْحَدْ فَقَالُوا : ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا
كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ، فَحَتَمَ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا

إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٦﴾

يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ فِعْلِ الصَّلَاةِ فِي حَالِ الشُّكْرِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَعَهُ الْمُصَلِّي مَا يَقُولُ ، وَعَنْ قُرْبَانِ مَحَالِهَا الَّتِي هِيَ الْمَسَاجِدُ لِلْجُنُبِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَازًا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ مِنْ غَيْرِ مُكْتٍ وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ تَحْرِيمِ الْحَمْرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ هَذَا أَحْسَنُ مَا يُقَالُ فِي حَدِّ السَّكَرَانِ إِنَّهُ الَّذِي لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ ، فَإِنَّ الْمَخْمُورَ فِيهِ تَخْلِيطٌ فِي الْقِرَاءَةِ وَعَدَمٌ تَدْبِيرِهِ وَخُشُوعِهِ فِيهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ مُصَلِّينَ فِيهَا وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ، وَلَا تَقْرَبُوهَا أَيْضًا جُنُبًا حَتَّى تَغْتَسِلُوا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ، وَالْعَابِرُ السَّبِيلُ : الْمُجْتَازُ مَرًّا وَقَطْعًا ، يُقَالُ : مِنْهُ عَبَرْتُ هَذَا الطَّرِيقَ فَأَنَا أَعْبَرُهُ عَبْرًا وَعَبُورًا ، وَمِنْهُ قِيلَ عَبْرَ فُلَانٍ النَّهْرَ إِذَا قَطَعَهُ وَجَاوَزَهُ ، وَكَأَنَّهُ تَعَالَى نَهَى عَنْ تَعَاطِي الصَّلَاةِ عَلَى هَيْئَةٍ نَاقِصَةٍ تَنَاقُضُ مَقْصُودَهَا وَعَنِ الدُّخُولِ إِلَى مَحَلِّهَا عَلَى هَيْئَةٍ نَاقِصَةٍ ، وَهِيَ الْجَنَابَةُ الْمُبَاعَدَةُ لِلصَّلَاةِ وَلِمَحَلِّهَا أَيْضًا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - . وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الْجُنُبِ الْمُكْتِ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى يَغْتَسِلَ أَوْ يَتَيَمَّمَ إِنْ عَدِمَ الْمَاءَ ، أَوْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ بِطَرِيقَةٍ . ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ أَمَّا الْمَرَضُ الْمُبِيعُ لِلتَّيَمُّمِ : فَهُوَ الَّذِي يُخَافُ مَعَهُ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ فَوَاتُ عَضْوٍ أَوْ شَيْئِهِ أَوْ تَطْوِيلِ الْبُرِّ ، وَالسَّفَرُ مَعْرُوفٌ وَلَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الطَّوِيلِ وَالْقَصِيرِ . ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾ الْغَائِطُ : هُوَ الْمَكَانُ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ كَتَى بِذَلِكَ عَنِ التَّغَوُّطِ وَهُوَ الْحَدَثُ الْأَصْغَرُ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ وَالْأَثَمَةُ فِي مَعْنَى ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ : وَالصَّحِيحُ : أَنَّ ذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ ، لِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ اسْتَبْطَأَ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّيَمُّمُ لِعَادِمِ الْمَاءِ إِلَّا بَعْدَ طَلَبِ الْمَاءِ ، فَمَتَى طَلَبُهُ فَلَمْ يَجِدْهُ جَازَ لَهُ حِينَئِذٍ التَّيَمُّمُ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ فَالتَّيَمُّمُ فِي اللَّتَةِ هُوَ : الْقَصْدُ ، تَقُولُ الْعَرَبُ تَيَمَّمْتُ اللَّهَ بِحِفْظِهِ أَيُّ : قَصَدْتُ ، وَالصَّعِيدُ ، قِيلَ : هُوَ كُلُّ مَا صُعِدَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، فَيَدْخُلُ فِيهِ التُّرَابُ وَالرَّمْلُ ، وَالطَّيِّبُ هَهُنَا قِيلَ : الْحَلَالُ ، وَقِيلَ : الَّذِي لَيْسَ بِنَجَسٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ التَّيَمُّمُ بَدَلٌ عَنِ الْوُضُوءِ فِي التَّطَهِيرِ بِهِ ، لَا أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْهُ فِي جَمِيعِ أَعْضَائِهِ ، بَلْ يَكْفِي مَسْحُ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ فَقَطُّ بِالْإِجْمَاعِ ، وَلَكِنْ اخْتَلَفَ الْأَثَمَةُ فِي كَيْفِيَّةِ التَّيَمُّمِ عَلَى أَقْوَالٍ أَحَدُهَا : أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَمْسَحَ الْوَجْهَ وَالْيَدَيْنِ إِلَى الْمَرْفَقَيْنِ بِضَرْبَتَيْنِ ، وَالْقَوْلُ الثَّانِي : إِنَّهُ يَجِبُ مَسْحُ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ إِلَى الْكَفَيْنِ بِضَرْبَتَيْنِ ، وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ يَكْفِي مَسْحُ الْوَجْهِ وَالْكَفَيْنِ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ . عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلًا أَتَى عُمَرَ فَقَالَ : إِنِّي أَجْنَبْتُ فَلَمْ أَجِدْ مَاءً فَقَالَ عُمَرُ : لَا تُصَلِّ ، قَالَ عَمَّارٌ : أَمَا تَذْكُرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَنَا وَأَنْتَ فِي سَرِيَّةٍ فَأَجْنَبْنَا ، فَلَمْ نَجِدْ مَاءً ، فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ وَأَمَّا أَنَا فَتَمَعَكْتُ فِي التُّرَابِ فَصَلَّيْتُ فَلَمَّا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : « إِمَّا كَانَ يَكْفِيكَ » وَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ الْأَرْضَ ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا وَمَسَحَ بِهَا وَجْهَهُ وَكَفَّيَهُ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٠٠﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿١٠١﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرُ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠٢﴾

يُحَرِّفُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ الْمُتَابَعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - أَنَّهُمْ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ، وَيُعْرِضُونَ عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَيَتْرَكُونَ مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ فِي صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لِيَشْتُرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ أَيُّ : يَوَدُّونَ لَوْ تَكْفُرُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَتْرَكُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ النَّافِعِ . ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ ﴾ أَيُّ : هُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ وَمُحَذِّرُهُمْ مِنْهُمْ ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ أَيُّ : كَفَى بِهِ وَلِيًّا لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ وَنَصِيرًا لِمَنْ اسْتَنْصَرَهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ « مَن » هَذِهِ لَيَّانُ الْجَنَسِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ أَيُّ : يَتَأَوَّلُونَ الْكَلَامَ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ ، وَيُفَسِّرُونَهُ بِغَيْرِ مُرَادِ اللَّهِ ﷻ فَضَدًّا مِنْهُمْ وَافْتِرَاءً ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أَيُّ يَقُولُونَ : سَمِعْنَا مَا قُلْتَهُ يَا مُحَمَّدٌ وَلَا نُطِيعُكَ فِيهِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ بَعْدَ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ ، وَقَوْلُهُمْ ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرُ مُسْمِعٍ ﴾ أَيُّ : اسْمَعْ مَا نَقُولُ لَا سَمِعْتَ . وَهَذَا اسْتِهْزَاءٌ مِنْهُمْ وَاسْتِهْزَاءٌ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ ﴿ وَرَاعِنَا لَيًّا »

بِالْبَسِطَةِ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ ﴿١٤﴾ أَيُّ : يُوْهُمُونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : رَاعِنَا سَمْعَكَ بِقَوْلِهِمْ : رَاعِنَا ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ الرُّعُونََةَ بِسَبِّهِمُ النَّبِيِّ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيُّ : قُلُوبُهُمْ مَطْرُودَةٌ عَنِ الْخَيْرِ مُبْعَدَةٌ مِنْهُ فَلَا يَدْخُلُهَا مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ نَافِعٌ لَهُمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَالْقَصُودُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا نَافِعًا .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا أَهْلَ الْكِتَابِ بِالْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِيهِ تَصْدِيقُ الْأَخْبَارِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبَشَارَاتِ وَمُتَهَدِّدًا لَهُمْ إِنْ لَمْ يَفْعَلُوا بِقَوْلِهِ : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا ﴾ يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : نَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَقْفِيَّتِهِمْ فَيَمْسُونَ الْقَهْقَرَى وَنَجْعَلُ لِأَحْدِهِمْ عَيْنَيْنِ مِنْ قَفَاهُ ، وَهَذَا أَلْبَغُ فِي الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ ، وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي صَرْفِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَرَدَّهِمْ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَرُجُوعِهِمْ عَنِ الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ إِلَى سَبِيلِ الضَّلَالَةِ ، يُهْرَعُونَ وَيَمْسُونَ الْقَهْقَرَى عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿ يس : ٨ ﴾ . أَيُّ : هَذَا مَثَلٌ سُوءٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ وَمَنَعَهُمْ عَنِ الْهُدَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي سَبِّهِمْ بِالْحِيلَةِ عَلَى الْإِصْطِيَادِ ، وَقَدْ مُسِخُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أَيُّ : إِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ فَإِنَّهُ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُنَاقِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ أَيُّ : لَا يَغْفِرُ لِعَبْدٍ لَقِيَهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ بِهِ ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أَيُّ : مِنَ الذُّنُوبِ ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : مِنْ عِبَادِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ . أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : ((أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقَكَ)) .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿١٧﴾ أَنْظُرْ

كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿١٠٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطُّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿١٠١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿١٠٢﴾

عَنِ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ ؓ قَالَ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَحْثُو فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ . وَعَنِ ابْنِ أَبِي بَكْرَةَ ؓ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ فَقَالَ : « وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ » ثُمَّ قَالَ : « إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ ، فَلْيَقُلْ أَحْسَبُهُ كَذًّا ، وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا » . وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَرْكُوزًا لَّأَنفُسِكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم : ٣٢] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلِ اللَّهُ يَزَكِي مَن يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : الْمَرْجِعُ فِي ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ ﷻ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَغَوَامِضِهَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ أَيُّ : وَلَا يُتْرَكُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَجْرِ مَا يُوَازِنُ مِقْدَارَ الْفَتِيلِ . وَهُوَ مَا يَكُونُ فِي شَقِّ النَّوَاةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ أَيُّ : فِي تَرْكِيبَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ ، وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُوهُ ، وَقَوْلُهُمْ : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى ﴾ [البقرة : ١١١] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ، أَيُّ : وَكَفَى بِصَنِيعِهِمْ هَذَا كَذِبًا وَافْتِرَاءً ظَاهِرًا ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطُّغُوتِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْجِبْتُ : السَّحَرُ ، وَالطُّغُوتُ : الشَّيْطَانُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : الْجِبْتُ : الشَّيْطَانُ ، وَقِيلَ : الْأَصْنَامُ ، وَقِيلَ : الْكَاهِنُ ، وَقِيلَ : كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الطَّاغُوتُ : الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ صَاحِبُ أَمْرِهِمْ ، وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ : هُوَ كُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﷻ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ أَيُّ : يُفَضِّلُونَ الْكُفَّارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ دِينِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِمْ .

أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿١٠٣﴾ أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿١٠٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿١٠٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ ﴾ ، وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنكَارٍ ، أَيُّ : لَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِالْبُخْلِ فَقَالَ : ﴿ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ أَيُّ : لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي الْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، وَلَا سِيَّاهُ مُحَمَّدًا ﷺ شَيْئًا ، وَلَا مَا يَمْلَأُ النَّقِيرَ ،

وَهُوَ النُّقْطَةُ الَّتِي فِي النَّوَاةِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ [الإسراء : ١٠٠] أَي : خَوْفَ أَنْ يَذْهَبَ مَا بِأَيْدِيكُمْ مَعَ أَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ نَفَادُهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بُخْلِكُمْ وَشَحْحِكُمْ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا ﴾ أَي : بَخِيلًا .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : حَسَدُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى مَا رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ ، وَمَنْعَهُمْ مِنْ تَصْدِيقِهِمْ إِيَّاهُ حَسَدُهُمْ لَهُ لِكَوْنِهِ مِنَ الْعَرَبِ ، وَلَيْسَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ ﴾ أَي : بِهَذَا الْإِيْتَاءِ وَهَذَا الْإِنْعَامِ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ﴾ أَي : كَفَرَ بِهِ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، وَسَعَى فِي صَدِّ النَّاسِ عَنْهُ ، وَهُوَ مِنْهُمْ وَمِنْ جَنْسِهِمْ ، أَي : مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَقَدْ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِمْ ، فَكَيْفَ بِكَ يَا مُحَمَّدٌ وَلَسْتَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ ﴾ أَي : بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ﴾ فَالْكَفَرَةُ مِنْهُمْ أَشَدُّ تَكْذِيبًا لَكَ وَأَبْعَدُ عَمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ الْمُبِينِ ، وَهَذَا قَالَ مُتَوَعِّدًا لَهُمْ : ﴿ وَكَفَى بِهِمْ سَعِيرًا ﴾ أَي : وَكَفَى بِالنَّارِ عِقُوبَةً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ كُتِبَ اللَّهُ وَرُسُلُهُ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يُعَاقِبُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ مَنْ كَفَرَ بِآيَاتِهِ وَصَدَّ عَنْ رُسُلِهِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ الْآيَةُ ، أَي : نُدْخِلُهُمْ فِيهَا دُخُولًا يُحِيطُ بِجَمِيعِ أَجْرَامِهِمْ وَأَجْزَائِهِمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ دَوَامِ عِقُوبَتِهِمْ وَنَكَالِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ مَالِ السُّعَدَاءِ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي تَجْرَى فِيهَا الْأَنْهَارُ فِي جَمِيعِ فَجَاجِهَا وَمَحَالِّهَا وَأَرْجَائِهَا ، حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ أَرَادُوا ، وَهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَحُولُونَ وَلَا يَزُولُونَ وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا . ﴿ هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ أَي : مِنَ الْحَيْضِ وَالنَّفَاسِ وَالْأَذَى وَالْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ وَالصِّفَاتِ النَّاقِصَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ أَي : ظِلًّا عَمِيقًا كَثِيرًا غَزِيرًا طَيِّبًا أَيْقًا . عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا - شَجَرَةُ الْخُلْدِ » .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا

بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٨٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا . وَهُوَ يَعُظُّ جَمِيعَ الْأَمَانَاتِ الْوَاجِبَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ ﷻ عَلَى عِبَادِهِ وَمِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَالْوَدَائِعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ بِمَا يُؤْتَمُونَ بِهِ مِنْ غَيْرِ إِطْلَاعِ بَيِّنَةٍ عَلَى ذَلِكَ ، فَأَمَرَ اللَّهُ ﷻ بِأَدَائِهَا ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا أَخَذَ مِنْهُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ أَيُّ : يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنْ أَدَاءِ الْأَمَانَاتِ ، وَالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَوَامِرِهِ وَشَرَائِعِهِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ الشَّامِلَةِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أَيُّ : سَمِيعًا لِأَقْوَالِكُمْ بَصِيرًا بِأَفْعَالِكُمْ .

يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٨٦﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ قَالَ : نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسٍ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ . وَعَنْ عَلِيٍّ ؓ قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَمَّا خَرَجُوا وَجَدَ عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ قَالَ : فَقَالَ لَهُمْ : أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا بَلَى . قَالَ : فَاجْمَعُوا لِي حَطْبًا . ثُمَّ دَعَا بِنَارٍ فَأَصْرَمَهَا فِيهَا ، ثُمَّ قَالَ : عَزِمْتُ عَلَيْكُمْ لَتَدْخُلْنَهَا . قَالَ : فَقَالَ لَهُمْ شَابٌّ مِنْهُمْ إِنَّمَا فَرَزْتُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ النَّارِ فَلَا تَعْجَلُوا حَتَّى تَلْقُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوهَا فَادْخُلُوهَا ، قَالَ : فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : « لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ » . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ » . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ يَعْنِي : أُولَى الْأَمْرِ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ أَيُّ : اتَّبِعُوا كِتَابَهُ ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أَيُّ : خُذُوا بِسُنَّتِهِ ﴿ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ أَيُّ : فِيمَا أَمَرُوكُمْ بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ لَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِلْخُلُوقِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ أَيُّ : إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ . وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ بِأَنْ كُلُّ شَيْءٍ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ أَنْ يَرُدَّ التَّنَازُعُ فِي ذَلِكَ

إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَحَاكَمْ فِي مَحَلِّ النَّزَاعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ ، فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ أَيُّ : التَّحَاكُمُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَالرَّجُوعُ إِلَيْهِمَا فِي فَصْلِ النَّزَاعِ ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أَيُّ : وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَآلًا .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٢٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٢٧﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٢٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٢٩﴾

هَذَا إِنكَارٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَاكَمَ فِي فَصْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَالْآيَةُ عَامَّةٌ ، فَإِنَّهَا دَامَتْ لِمَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَحَاكَمُوا إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالطَّاغُوتِ هَاهُنَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ إِلَى آخِرِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ أَيُّ : يُعْرِضُونَ عَنْكَ إِعْرَاضًا كَالْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي ذِمِّ الْمُنَافِقِينَ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيُّ : فَكَيْفَ بِهِمْ إِذَا سَاقَتْهُمْ الْمَقَادِيرُ إِلَيْكَ فِي مَصَائِبٍ تَطَرَّقَتْ لَهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَاحْتِاجُوا إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ ﴿ ثُمَّ جَاءُوكَ تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أَيُّ : يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكَ وَيَحْلِفُونَ مَا أَرَدْنَا بِذَهَابِنَا إِلَى غَيْرِكَ وَتَحَاكُمَنَا إِلَى أَعْدَائِكَ إِلَّا الْإِحْسَانَ وَالتَّوْفِيقَ ، أَيُّ : الْمُدَارَاةَ وَالْمَصَانَعَةَ لَا اعْتِقَادًا مِنَّا صِحَّةَ تِلْكَ الْحُكُومَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ هَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَسَبَّجَزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، فَانْكَتَبَ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ فِيهِمْ ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِظَوَاهِرِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أَيُّ : لَا تُعَنَّفْهُمْ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ أَيُّ : وَانْهَهِمْ عَمَّا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ النِّفَاقِ وَسَرَائِرِ الشَّرِّ ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ أَيُّ : وَانْصَحْهُمْ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِكَلَامٍ بَلِيغٍ رَادِعٍ هُمْ .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ

فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أَي: فُرِضَتْ طَاعَتُهُ عَلَى مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَي: لَا يُطِيعُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِي، يَعْنِي: لَا يُطِيعُهُمْ إِلَّا مَنْ وَفَّقْتُهُ لِذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ الْآيَةُ، يُرِيدُ تَعَالَى الْعُصَاةَ وَالْمُذْنِبِينَ إِذَا وَقَعَ مِنْهُمْ الْخَطَأُ وَالْعِصْيَانُ أَنْ يَأْتُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فَيَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ عِنْدَهُ، وَيَسْأَلُوهُ أَنْ يَسْتَغْفَرَ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُحَكِّمَ الرَّسُولَ ﷺ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، فَمَا حَكَمَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ الْإِنْقِيَادُ لَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أَي: إِذَا حَكَّمُوكَ يُطِيعُونَكَ فِي بَوَاطِنِهِمْ، فَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا حَكَمْتَ بِهِ، وَيَتَقَادُونَ لَهُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، فَيُسَلِّمُونَ لِذَلِكَ تَسْلِيمًا كَلِيمًا مِنْ غَيْرِ مُنَازَعَةٍ وَلَا مُدَافَعَةٍ وَلَا مُنَازَعَةٍ.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿١١٢﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنَ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿١١٥﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿١١٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَوْ أُمِرُوا بِمَا هُمْ مُرْتَكِبُونَ مِنَ الْمُنَاهِي لَمَّا فَعَلُوهُ، لِأَنَّ طِبَاعَهُمُ الرَّدِيئَةُ مُجْبُولَةٌ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ، وَهَذَا مِنْ عِلْمِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَا لَمْ يَكُنْ، أَوْ كَانَ فَكَيْفَ كَانَ يَكُونُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أَي: وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ وَتَرَكُوا مَا يُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أَي: مِنْ مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَارْتِكَابِ النَّهْيِ ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾

أَيُّ : وَأَشَدَّ تَصَدِّيقًا ﴿ وَإِذَا لَا تَنَبَّهُمْ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أَيُّ : مِنْ عِنْدَنَا ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ ، ﴿ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ عَمِلَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَتَرَكَ مَا نَهَاها اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ لِيُسْكِنَهُ دَارَ كَرَامَتِهِ وَيَجْعَلُهُ مُرَافِقًا لِلْأَنْبِيَاءِ ، ثُمَّ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي الرُّتْبَةِ ، وَهُمْ الصَّادِقُونَ ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ، ثُمَّ عُمُومُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ الصَّالِحُونَ الَّذِينَ صَلَحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ ، ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِمْ تَعَالَى فَقَالَ : ﴿ وَحَسَنَ أَوْلِيَاكَ رَفِيقًا ﴾ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِرَحْمَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي أَهْلَهُمْ لِذَلِكَ لَا بِأَعْمَالِهِمْ ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ أَيُّ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٣٦﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَسْطَنَ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَتْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٣٨﴾ ﴿ فَلْيَقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٣٩﴾ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَخِذِ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّأَهُُّبُ هُمْ بِإِعْدَادِ الْأَسْلِحَةِ وَالْعِدَدِ وَتَكْثِيرِ الْعِدَدِ بِالْفَيْزِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ ثُبَاتٍ ﴾ أَيُّ : جَمَاعَةٌ بَعْدَ جَمَاعَةٍ وَفِرْقَةٌ بَعْدَ فِرْقَةٍ ، وَسَرِيَّةٌ بَعْدَ سَرِيَّةٍ ، وَالثُّبَاتُ : جَمْعُ ثُبَّةٍ ، وَقَدْ تَجَمَّعَ الثُّبَّةُ عَلَى ثُبَيْنٍ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ ﴾ أَيُّ : عَصَبًا ، يَعْنِي سَرَايَا مُتَفَرِّقِينَ ﴿ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ يَعْنِي : كُلُّكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَسْطَنَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ : ﴿ لَيَسْطَنَ ﴾ أَيُّ : لَيَتَخَلَّفَنَّ عَنِ الْجِهَادِ ، وَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَتَبَاطَأُ هُوَ فِي نَفْسِهِ ، وَيُبْطِئُ غَيْرُهُ عَنِ الْجِهَادِ ، كَمَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَرْزَةَ سَلُولٍ - قَبَحَهُ اللَّهُ - يَفْعَلُ ، يَتَأَخَّرُ عَنِ الْجِهَادِ وَيُبْطِئُ النَّاسَ عَنِ الْخُرُوجِ فِيهِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُنَافِقِ أَنَّهُ يَقُولُ إِذَا تَأَخَّرَ عَنِ الْجِهَادِ ﴿ فَإِنَّ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ أَيُّ : قَتْلٌ وَشَهَادَةٌ وَغُلْبُ الْعَدُوِّ لَكُمْ لِمَا لِلَّهِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ أَيُّ : إِذْ لَمْ أَحْضُرْ مَعَهُمْ وَقَعَةَ الْقِتَالِ ، يَعُدُّ ذَلِكَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَدِرْ مَا فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ فِي الصَّبْرِ أَوْ الشَّهَادَةِ إِنْ قُتِلَ . ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : نَصْرٌ وَظَفَرٌ وَغَنِيمَةٌ ﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ أَيُّ : كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ ﴿ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أَيُّ : بِأَنْ يُضْرَبَ لِي بِسَهْمٍ مَعَهُمْ فَأَحْصَلَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَكْبَرُ فَضْلِهِ وَغَايَةُ مُرَادِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَقْتَلِ ﴾ أَيُّ : الْمُؤْمِنُ

النَّافِرُ ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ أَي : يَبِيعُونَ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِكُفْرِهِمْ وَعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَي : كُلُّ مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَوَاءً قُتِلَ أَوْ غَلِبَ فَلَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَثْوًى عَظِيمٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ ، وَتَكْفَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ .

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٥٠﴾

يُخْرِضُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَعَلَى السَّعْيِ فِي إِسْتِنْقَادِ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ الْمُتَبَرِّمِينَ مِنَ الْمَقَامِ بِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ أَي : سَخَّرْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ وَلِيًّا نَاصِرًا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - : كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ .

الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٥١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَالَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ تَخَشَّوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَعَ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٥٢﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهْتُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْتُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٥٣﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٥٤﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ أَي : الْمُؤْمِنُونَ يُقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَالْكَافِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ هَبَّجَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ أَعْدَائِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَالْآيَةُ .
كَانَ الْمُؤْمِنُونَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ وَهُمْ بِمَكَّةَ مَأْمُورِينَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ذَاتَ
النُّصْبِ لَكِنْ كَانُوا مَأْمُورِينَ بِمُؤَاَسَاةِ الْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ ، وَكَانُوا مَأْمُورِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ ، وَالصَّبْرِ إِلَى حِينٍ ، وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ وَيَوْدُونَ لَوْ أُمِرُوا بِالْقِتَالِ ، لِيَسْتَفُوا مِنْ
أَعْدَائِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنِ الْحَالُ إِذْ ذَاكَ مُنَاسِبًا لِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا : قَلَّةُ عَدَدِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَثَرَةِ
عَدَدِ عَدُوِّهِمْ ، وَمِنْهَا كَوْنُهُمْ كَانُوا فِي بِلَادِهِمْ وَهُوَ بَلَدٌ حَرَامٌ وَأَشْرَفُ بَقَاعِ الْأَرْضِ ، فَلَمْ يَكُنِ
الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ فِيهِ ابْتِدَاءً لَانْفِاقًا ، فَلِهَذَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْجِهَادِ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ لَمَّا صَارَتْ لَهُمْ دَارٌ وَمَنْعَةٌ وَأَنْصَارٌ ،
وَمَعَ هَذَا لَمَّا أُمِرُوا بِمَا كَانُوا يَوْدُونَهُ جَزَعَ بَعْضُهُمْ مِنْهُ ، وَخَافُوا مِنْ مُوَاجَهَةِ النَّاسِ خَوْفًا شَدِيدًا
﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أَي : لَوْ مَا أَخَّرْتَ فَرِيضَتَهُ إِلَى مُدَّةٍ
أُخْرَى ، فَإِنَّ فِيهِ سَفْكَ الدِّمَاءِ وَيَتَمُّ الْأَوْلَادِ وَتَأْيِيمُ النِّسَاءِ . ﴿ قُلْ مَتَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ
لِمَنِ اتَّقَى ﴾ أَي : آخِرَةُ الْمُتَّقِي خَيْرٌ مِنْ دُنْيَاهُ ﴿ وَلَا تَظْلَمُونَ قِتِيلًا ﴾ أَي : مِنْ أَعْمَالِكُمْ بَلْ تُوَفُّوهُمَا
أَتَمَّ الْجُزْءِ ، وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لَهُمْ عَنِ الدُّنْيَا وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَتَحْرِيطٌ لَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أَي : أَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ لَا مُحَالَةَ وَلَا
يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ . ﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ أَي : حَصِينَةٍ مَنِيعَةٍ عَالِيَةٍ رَفِيعَةٍ ، أَي : لَا
يُغْنِي حَذَرٌ وَتَحْصُنٌ مِنَ الْمَوْتِ ، كَمَا قَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلَمَى :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَلْقَاهَا وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلَمٍ

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ أَي : خِصْبٌ وَرِزْقٌ مِنْ تِبَارِ وَرُزُوعٍ وَأَوْلَادٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ
﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أَي : قَحْطٌ وَجَذْبٌ وَنَقْصٌ فِي الشَّارِ وَالزُّرُوعِ ،
أَوْ مَوْتُ أَوْلَادٍ أَوْ نِتَاجٍ ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أَي : مِنْ قِبَلِكَ وَيَسَبِّ
إِتِّبَاعِنَا لَكَ ، وَاقْتِدَائِنَا بِدِينِكَ ، وَهَكَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا ،
وَلِهَذَا إِذَا أَصَابَهُمْ شَرٌّ إِنَّمَا يُسَيِّدُونَهُ إِلَى إِتِّبَاعِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ . ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أَي : الْجَمِيعُ
بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ، وَهُوَ نَافِذٌ فِي الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَائِلِينَ هَذِهِ الْمَقَالَةُ الصَّادِرَةُ عَنْ شَكٍّ وَرَيْبٍ ، وَقَلَّةِ فَهْمٍ وَعِلْمٍ ،
وَكَثَرَةِ جَهْلِ وَظُلْمٍ : ﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا
لِرَسُولِهِ ﷺ ، وَالْمَرَادُ جِنْسُ الْإِنْسَانِ لِيَحْصُلَ الْجَوَابُ : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ أَي :
مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَنِّهِ وَلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ . ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾ أَي : فَمِنْ قِبَلِكَ وَمِنْ
عَمَلِكَ أَنْتَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ أَي : تَبَلُّغُهُمْ شَرَائِعَ اللَّهِ ، وَمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ

وَيَرْضَاهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أَي: عَلَى أَنَّهُ أَرْسَلَكَ، وَهُوَ شَهِيدٌ أَيْضًا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ وَعَالَمٌ بِمَا تَبْلُغُهُمْ إِلَيْهِ، وَبِمَا يَرُدُّونَ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ كُفْرًا وَعِنَادًا.

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٣٨﴾ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣٩﴾

يُخْرِجُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَن مِّنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٣٨﴾ إِنَّهُ هُوَ الْوَاحِدُ الْيُوحَىٰ ﴿[النجم: ٣-٤]﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أَي: لَا عَلَيْكَ مِنْهُ، إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ، فَمَنْ اتَّبَعَكَ سَعِدَ وَنَجَا، وَكَانَ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ نَظِيرٌ مَا حَصَلَ لَهُ، وَمَنْ تَوَلَّى عَنْكَ خَابَ وَخَسِرَ وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِهِ شَيْءٌ. ﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ﴾ يُخْرِجُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الْمُوَافَقَةَ وَالطَّاعَةَ ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أَي: خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ وَتَوَارَوْا عَنْكَ ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أَي: اسْتَسْرَوْا لَيْلًا فِيمَا بَيْنَهُمْ مَا أَظْهَرُوهُ لَكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أَي: يَعْلَمُهُ وَيَكْتُبُهُ عَلَيْهِمْ، بِمَا يَأْمُرُ بِهِ حَفَظَتُهُ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ هُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْعِبَادِ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أَي: اصْفَحْ عَنْهُمْ وَأَحْلَمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُؤَاخِذْهُمْ وَلَا تَكْشِفْ أُمُورَهُمْ لِلنَّاسِ، وَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ أَيْضًا ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أَي: كَفَى بِهِ وَلِيًّا وَنَاصِرًا وَمُعِينًا، لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٣٩﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ بِتَذَكُّرِ الْقُرْآنِ، وَنَاهِيًا هُمْ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، وَعَنْ تَفْهَمِ مَعَانِيهِ الْمُحْكَمَةِ، وَالْأَفَاطِطِ الْبَلِغَةِ، وَمُخَيَّرًا هُمْ أَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا إِضْطِرَابَ وَلَا تَضَادَّ وَلَا تَعَارُضَ لِأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، فَهُوَ حَقٌّ مِنْ حَقٍّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أَي: لَوْ كَانَ مُفْتَعَلًا مُخْتَلَفًا، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ جَهْلَةِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي بَوَاطِنِهِمْ ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا﴾ أَي: إِضْطِرَابًا وَتَضَادًّا

كثيراً، أي: وهذا سالمٌ من الاختلاف فهو من عند الله، كما قال تعالى مُحِبّاً عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ حَيْثُ قَالُوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي: مُحْكَمُهُ وَمُتَشَابِهُهُ حَقٌّ، فَلِهَذَا رَدُّوا الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ فَاهْتَدَوْا، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ رَدُّوا الْمُحْكَمَ إِلَى الْمُتَشَابِهِ فَعَوَّوْا، وَهَذَا مَدَحُ تَعَالَى الرَّاسِخِينَ وَذَمُّ الرَّاغِبِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يُبَادِرُ إِلَى الْأُمُورِ قَبْلَ تَحْقِيقِهَا، فَيُخْرِجُ بِهَا وَيُفْسِدُهَا وَيَنْشُرُهَا، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهَا صِحَّةٌ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ أَي: يَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ مَعَادِنِهِ. يُقَالُ: اسْتَبْطَ الرَّجُلُ الْعَيْنَ إِذَا حَفَرَهَا وَاسْتَخْرَجَهَا مِنْ فُجُورِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَبْعَثُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قِيلَ: يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ. وَقِيلَ: يَعْنِي كُلُّكُمْ.

فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٢٥﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٢٦﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٢٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٢٨﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ، وَمَنْ نَكَلَ عَنْهُ فَلَا عَلَيْهِ مِنْهُ، وَهَذَا قَالَ: ﴿لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: عَلَى الْقِتَالِ وَرَغَّبُهُمْ فِيهِ وَشَجَّعَهُمْ عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ هُمْ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ يُسَوِّي الصُّفُوفَ «قُومُوا إِلَى جَنَّةِ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ». وَقَوْلُهُ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: بِتَحْرِيطِكُمْ إِيَّاهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، تَنْبِئُ عَنْ هِمِّهِمْ عَلَى مُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُدَافَعَتِهِمْ عَنْ حُوزَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَمُقَاوَمَتِهِمْ وَمُصَابَرَتِهِمْ، ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أَي: هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ أَي: مَنْ سَعَى فِي أَمْرٍ فَيَرْتَبُ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أَي: يَكُونُ عَلَيْهِ وَزْرٌ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ الَّذِي تَرْتَبُ عَلَى سَعْيِهِ وَنَيْتِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِشْفَعُوا تُوجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ». وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ قَالَ عَدَدُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: أَي: حَفِظًا، وَقِيلَ: شَهِيدًا، وَقِيلَ: حَسِيبًا. وَقِيلَ: قَدِيرًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ أَي: إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ الْمُسْلِمُ فَرُدُّوْا

عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِمَّا سَلَّمْ ، أَوْ رُدُّوْا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا سَلَّمْ ، فَالزِّيَادَةُ مَنْدُوبَةٌ ، وَالْمِثَالَةُ مَفْرُوضَةٌ .
 فَأَمَّا أَهْلُ الذِّمَّةِ فَلَا يُبَدَّلُونَ بِالسَّلَامِ ، وَلَا يُزَادُونَ ، بَلْ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ بِمَا ثَبَتَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ الْيَهُودُ فَإِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ : السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقُلْ : وَعَلَيْكَ » .
 وَقَوْلُهُ : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » إِنْخِبَارٌ بِتَوْحِيدِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَتَضَمُّنَ قَسَمًا لِقَوْلِهِ : « لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ » ، وَهَذِهِ اللَّامُ مُوطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ فَقَوْلُهُ : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » خَبَرٌ وَقَسَمٌ أَنَّهُ سَيَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا » أَيُّ : لَا أَحَدٌ أَصْدَقُ مِنْهُ فِي حَدِيثِهِ وَخَبَرِهِ ، وَوَعْدِهِ ، وَوَعِيدِهِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٠٦﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٠٧﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿١٠٨﴾ سَتَجِدُونَ عَآخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي اخْتِلَافِهِمْ فِي الْمُنَافِقِينَ عَلَى قَوْلَيْنِ . فَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى أَحَدٍ فَرَجَعَ نَاسٌ خَرَجُوا مَعَهُ فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ : فِرْقَةٌ تَقُولُ : نَقْتُلُهُمْ ، وَفِرْقَةٌ تَقُولُ : لَا هُمْ الْمُؤْمِنُونَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ » ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّهَا طَيِّبَةٌ ، وَإِنَّهَا تُنْفِي الْخَبَثَ كَمَا يُنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ » .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ » أَيُّ : رَدَّهُمْ وَأَوْقَعَهُمْ فِي الْخَطِإِ ، « بِمَا كَسَبُوا » أَيُّ : بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمُ الرُّسُولَ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا » أَيُّ : لَا طَرِيقَ لَهُ إِلَى الْهُدَى وَلَا مَخْلَصَ لَهُ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ أَي : هُمْ يَوَدُّونَ لَكُمْ الضَّلَالَةَ لَيْسَتُوا أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ فِيهَا ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ وَبُغْضِهِمْ لَكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أَي : تَرَكُوا الْهَجْرَةَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : أَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ ﴿ فَخَذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أَي : لَا تَوَالُوهُمْ وَلَا تَسْتَنْصِرُوا بِهِمْ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ ، مَا دَامُوا كَذَلِكَ . ثُمَّ اسْتَشْنَى اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ﴾ أَي : إِلَّا الَّذِينَ لَجُّوا وَتَحَيَّرُوا إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَهَادَنَةٌ ، أَوْ عَقْدُ ذِمَّةٍ ، فَاجْعَلُوا حُكْمَهُمْ كَحُكْمِهِمْ .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي قِصَّةِ صَلَاحِ الْحُدَيْيَةِ فَكَانَ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي صَلَاحِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي صَلَاحِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَعَهْدِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْبِلُوكُمْ أَوْ يَقْبِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾ الْآيَةُ . هَؤُلَاءِ قَوْمٌ آخَرُونَ مِنَ الْمُسْتَشْنَيْنِ مِنَ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَجِيئُونَ إِلَى الْمَصَافِّ ، وَهُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ ، أَي : ضَيَّقَتْ صُدُورُهُمْ مُبْغِضِينَ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ ، وَلَا يَهْوُنُ عَلَيْهِمْ أَيْضًا أَنْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ مَعَكُمْ ، بَلْ هُمْ لَا لَكُمْ وَلَا عَلَيْكُمْ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتَلُوكُمْ ﴾ أَي : مِنْ لُطْفِهِ بِكُمْ أَنْ كَفَّهُمْ عَنْكُمْ ﴿ فَإِنِ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْبِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ ﴾ أَي : الْمُسَالَمَةَ ﴿ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أَي : فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ مَا دَامَتْ حَالُهُمْ كَذَلِكَ ، وَهَؤُلَاءِ كَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، فَحَضَرُوا الْقِتَالَ وَهُمْ كَارِهُونَ كَالْعَبَّاسِ وَنَحْوِهِ ، وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَنْ قِتَالِ الْعَبَّاسِ وَأَمَرَ بِأَسْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾ ، هَؤُلَاءِ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ كَمَنْ تَقَدَّمَ هُمْ ، وَلَكِنْ نِيَّةَ هَؤُلَاءِ غَيْرُ نِيَّةِ أَوْلَيْكَ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُنَافِقُونَ ، يُظْهِرُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلَا أَصْحَابِهِ الْإِسْلَامَ لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَذَرَائِعِهِمْ ، وَيُصَانِعُونَ الْكُفَّارَ فِي الْبَاطِنِ فَيَعْبُدُونَ مَعَهُمْ مَا يَعْبُدُونَ ؛ لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ مَعَ أَوْلَيْكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ كُلٌّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾ أَي : انْهَمَكُوا فِيهَا . ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْزَلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ ﴾ الْمَهَادَنَةُ وَالصَّلَاحُ ، ﴿ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ أَي : عَنِ الْقِتَالِ ﴿ فَخَذُّوهُمْ ﴾ أُسْرَاءُ ، ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أَي : أَيْنَ لَقِيتُمُوهُمْ ﴿ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ أَي : بَيِّنًا وَاضِحًا .

وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٥﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى لَيْسَ لِزُلُمٍ أَنْ يَقْتُلَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : النَّفْسِ بِالنَّفْسِ ، وَالثَّيْبِ الزَّانِي ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمَفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ » ، ثُمَّ إِذَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ أَحَادِ الرِّعِيَّةِ أَنْ يَقْتُلَهُ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا خَطَا ﴾ قَالُوا : هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ . ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ هَذَا وَإِجَابَانِ فِي قَتْلِ الْخَطَا ، أَحَدُهُمَا : الْكُفَّارَةُ لِمَا اِزْتَكَبَهُ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ وَإِنْ كَانَ خَطَاً ، وَمِنْ شَرِّهَا أَنْ تَكُونَ عَتَقَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَلَا تُجْزَى الْكَافِرَةُ ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمُهُورُ : أَنَّهُ مَتَى كَانَ مُسْلِمًا صَحَّ عِتْقُهُ عَنِ الْكُفَّارَةِ سَوَاءً كَانَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا . ﴿ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ هُوَ الْوَاجِبُ الثَّانِي فِيمَا بَيْنَ الْقَاتِلِ وَأَهْلِ الْقَتِيلِ عَوَضًا هُمْ عَمَّا فَاتَهُمْ مِنْ قَتِيلِهِمْ . وَهَذِهِ الدِّيَّةُ إِنَّمَا تَحِبُّ عَلَى عَاقِلَةِ الْقَاتِلِ لَا فِي مَالِهِ . ﴿ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ﴾ أَيُّ : فَتَحِبُّ فِيهِ الدِّيَّةُ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَصَدَّقُوا بِهَا فَلَا تَحِبُّ ، ﴿ فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ أَيُّ : إِذَا كَانَ الْقَتِيلُ مُؤْمِنًا وَلَكِنْ أَوْلِيَاؤُهُ مِنَ الْكُفَّارِ أَهْلُ حَرْبٍ ، فَلَا دِيَّةَ هُمْ ، وَعَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ لَا غَيْرَ ، ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أَيُّ : فَإِنْ كَانَ الْقَتِيلُ أَوْلِيَاؤُهُ أَهْلُ ذِمَّةٍ أَوْ هُدْنَةٍ فَلَهُمْ دِيَّةٌ قَتِيلِهِمْ ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا فَدِيَّةٌ كَامِلَةٌ ، وَكَذَا إِنْ كَانَ كَافِرًا أَيْضًا عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَيَحِبُّ أَيْضًا عَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ أَيُّ : لَا إِفْطَارَ بَيْنَهُمَا بَلْ يَسْرُدُ صَوْمَهُمَا إِلَى آخِرِهِمَا ، فَإِنْ أَفْطَرَ مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ مِنْ مَرَضٍ أَوْ حَيْضٍ أَوْ نِفَاسٍ اسْتَأْنَفَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أَيُّ : هَذِهِ تَوْبَةُ الْقَاتِلِ خَطَاً إِذَا لَمْ يَجِدِ الْعِتْقَ صَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ، ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى حُكْمَ الْقَتْلِ الْخَطَاً شَرَعَ فِي بَيَانِ حُكْمِ الْقَتْلِ الْعَمْدِ فَقَالَ : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ الْآيَةُ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَعَاطَى هَذَا الذَّنْبَ الْعَظِيمَ . وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمُهُورُ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلَفِهَا : أَنَّ الْقَاتِلَ لَهُ تَوْبَةٌ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ

﴿ فَإِنْ تَابَ وَأَتَابَ وَخَشَعَ وَخَضَعَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ ، وَعَوَّضَ الْمُقْتُولَ مِنْ ظُلَامَتِهِ وَأَرْضَاهُ عَنْ طِلَابَتِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ الْآيَةُ . وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مِنْ كُفْرٍ وَشِرْكٍ وَشَكٍّ وَنِفَاقٍ وَقَتْلٍ وَفُسُقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، كُلُّ مَنْ تَابَ مِنْ أَيِّ ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مَا عَدَا الشِّرْكَ .

يُنَاقِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٥٠﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ : كَانَ رَجُلٌ فِي غَنِيمَتِهِ فَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غَنِيمَتَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : عَرَضَ الدُّنْيَا : تِلْكَ الْغَنِيمَةُ . ﴿ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ أَيُّ : خَيْرٌ مِمَّا رَغِبْتُمْ فِيهِ مِنْ عَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّذِي حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ مِثْلِ هَذَا الَّذِي أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ ، وَأَظْهَرَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ ، فَتَغَافَلْتُمْ عَنْهُ وَاتَّهَمْتُمُوهُ بِالمُصَانَعَةِ وَالتَّقِيَّةِ ، لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْمَغَانِمِ الْحَلَالِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ مَالِ هَذَا . ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيُّ : تَسْتَخْفُونَ بِإِيَابِكُمْ ، كَمَا اسْتَخْفَى هَذَا الرَّاعِي بِإِيَابَانِهِ . ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيُّ : تَابَ عَلَيْكُمْ ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعْدٌ .

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٥١﴾ دَرَجَتِ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٢﴾

عَنِ الْبَرَاءِ ؓ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدًا فَكَتَبَهَا ، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَشَكَا ضَرَارَتَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كَانَ مُطْلَقًا ، فَلَمَّا نَزَلَ بِوَحْيٍ سَرِيعٍ ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ صَارَ ذَلِكَ مَخْرُجًا لِدَوِي الْأَعْدَارِ الْمَيْسِحَةِ لِتَرْكِ الْجِهَادِ مِنَ الْعَمَى وَالْعَرَجِ وَالْمَرْصِ .
 وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ أَحْسَنَى﴾ أَيُّ: الْجَنَّةِ وَالْجَزَاءِ الْجَزِيلِ . وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ لَيْسَ بِفَرْضٍ عَيْنٍ بَلْ هُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ . قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ، ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِمَا فَضَّلَهُمْ بِهِ مِنَ الدَّرَجَاتِ فِي غُرَفِ الْجَنَّاتِ الْعَالِيَاتِ ، وَمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ وَالزَّلَّاتِ ، وَحُلُولِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَاتِ ، إِحْسَانًا مِنْهُ وَتَكْرِيمًا ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٢٠٦﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٢٠٧﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٢٠٨﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠٩﴾

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: كَانَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَسْلَمُوا وَكَانُوا يَسْتَخْفُونَ بِالْإِسْلَامِ ، فَأَخْرَجَهُمُ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَهُمْ ، فَأَصِيبَ بَعْضُهُمْ ، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: كَانَ أَصْحَابُنَا مُسْلِمِينَ وَأَكْرَهُوا فَاسْتَعَفَرُوا لَهُمْ ، فَتَزَلَّتْ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ الْآيَةُ . قَالَ: فَكُتِبَ إِلَى مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ لَا عُذْرَ لَهُمْ ، قَالَ: فَخَرَجُوا فَلَحِقَهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَأَعْطَوْهُمْ الْفِتْنَةَ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٨] وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ هَذَا عُذْرٌ مِنَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ فِي تَرْكِ الْهَجْرَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ قَدَرُوا مَا عَرَفُوا يَسْلُكُونَ الطَّرِيقَ ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا . ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أَيُّ: يَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ بِتَرْكِ الْهَجْرَةِ ، وَ﴿عَسَى﴾ مِنَ اللَّهِ مُوجِبَةٌ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ ، وَهَذَا تَحْرِيطٌ عَلَى الْهَجْرَةِ ، وَتَرْغِيبٌ فِي مُفَارَقَةِ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ حَيْثُمَا ذَهَبَ وَجَدَ عَنْهُمْ مَدْوَحَةً وَمَلَجَأً يَتَحَصَّنُ فِيهِ ، الظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَاعِمَ التَّمَنُّعَ الَّذِي يَتَخَلَّصُ بِهِ ، وَيُرَاعِمُ بِهِ الْأَعْدَاءَ ، ﴿وَسَعَةً﴾

يَعْنِي : الرِّزْقُ ، ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أَي : وَمَنْ خَرَجَ مِنْ مَزَلِهِ بِنَيَّْةِ الْهِجْرَةِ فَمَاتَ فِي أُنْتَاءِ الطَّرِيقِ ، فَقَدْ حَصَلَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ مَنْ هَاجَرَ . وَعَنْ أَبِي ضَمْرَةَ بْنِ الْعِيصِ الزُّرْقِيِّ الَّذِي كَانَ مُصَابَ الْبَصَرِ وَكَانَ بِمَكَّةَ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾ ، فَقُلْتُ : إِنِّي لَعَنِي وَإِنِّي لَذُو حِيلَةٍ ، فَتَجَهَّزَ يُرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ بِالتَّنْعِيمِ ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ ﴾ الْآيَةُ .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : سَافَرْتُمْ فِي الْبِلَادِ ، ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ أَي : تُخَفِّفُوا فِيهَا إِمَّا مِنْ كَمِّيَّتِهَا بِأَنْ تُجْعَلَ الرُّبَاعِيَّةُ ثُنَائِيَّةً ، كَمَا فَهَمُهُ الْجُمُهورُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَاسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى قَصْرِ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، فَقَدْ يَكُونُ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجِ الْغَالِبِ حَالِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّ فِي مَبْدَأِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ كَانَ غَالِبُ أَسْفَارِهِمْ خَوْفُهُ بَلْ مَا كَانُوا يَنْهَضُونَ إِلَّا إِلَى غَزْوِ عَامٍّ ، أَوْ سَرِيَّةٍ خَاصَّةٍ . وَسَائِرُ الْأَحْيَاءِ حَزَبٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ . عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ : سَأَلْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ؓ قُلْتُ لَهُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ ، فَقَالَ لِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : عَجِبْتُ بِمَا عَجِبْتَ مِنْهُ ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : « صَدَقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ » .

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَافِيفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَاخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَافِيفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَاخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٢﴾

صَلَاةُ الْخَوْفِ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ : فَإِنَّ الْعَدُوَّ تَارَةً يَكُونُ نَجَاهُ الْقِبْلَةِ ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي غَيْرِ صَوْبِهَا ، وَالصَّلَاةُ تَكُونُ رُبَاعِيَّةً ، وَتَارَةً تَكُونُ ثَلَاثِيَّةً كَالْمَغْرِبِ ، وَتَارَةً تَكُونُ ثُنَائِيَّةً كَالصُّبْحِ وَصَلَاةُ السَّفَرِ ، ثُمَّ تَارَةً يُصَلُّونَ جَمَاعَةً ، وَتَارَةً يَلْتَحِمُ الْحَزْبُ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَمَاعَةِ ، بَلْ يُصَلُّونَ

فَرَادَى مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرُ مُسْتَقْبِلِيهَا وَرِجَالًا وَرُكْبَانًا ، وَلَهُمْ أَنْ يَمْشُوا - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - وَيَضْرِبُوا الضَّرْبَ الْمُتَابِعَ فِي مَتْنِ الصَّلَاةِ . وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ : يُصَلُّونَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - رُكْعَةً وَاحِدَةً ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ أَبَاحَ تَأْخِيرَ الصَّلَاةِ لِعُذْرِ الْقِتَالِ وَالْمُنَاجَزَةِ ، كَمَا أَخَّرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ فَصَلَّاهُمَا بَعْدَ الْغُرُوبِ ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهُمَا الْمَغْرِبَ ثُمَّ الْعِشَاءَ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ أَيُّ : إِذَا صَلَّيْتَ بِهِمْ إِمَامًا فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ ، وَهَذِهِ حَالَةٌ غَيْرُ الْأُولَى ، فَإِنَّ تِلْكَ قَصْرُهَا إِلَى رُكْعَةٍ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ فَرَادَى وَرِجَالًا وَرُكْبَانًا مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرُ مُسْتَقْبِلِيهَا ، ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ الْاجْتِمَاعِ وَالِائْتِمَامِ بِإِمَامٍ وَاحِدٍ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى وَجُوبِ الْجَمَاعَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ فَكَبَّرَ ، وَكَبَّرُوا مَعَهُ ، وَرَكَعَ وَرَكَعَ نَاسٌ مِنْهُمْ ، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدُوا مَعَهُ ، ثُمَّ قَامَ لِلثَّانِيَةِ فَقَامَ الَّذِينَ سَجَدُوا وَحَرَسُوا إِخْوَانَهُمْ ، وَأَتَتْ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى فَرَكَعُوا وَسَجَدُوا مَعَهُ ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ فِي الصَّلَاةِ وَلَكِنْ يَخْرُسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا .

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿٤٢﴾ وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۚ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤٣﴾

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ عَقِيبَ صَلَاةِ الْخَوْفِ ، وَإِنْ كَانَ مَشْرُوعًا مُرَغَّبًا فِيهِ أَيْضًا بَعْدَ غَيْرِهَا ، وَلَكِنْ هَاهُنَا أَكْدُ لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ التَّخْفِيفِ فِي أَرْكَانِهَا وَمِنَ الرُّخْصَةِ فِي الدَّهَابِ فِيهَا وَالْإِيَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهَا ، وَإِنْ كَانَ هَذَا مِنْهَا عَنْهُ فِي غَيْرِهَا ، وَلَكِنْ فِيهَا أَكْدٌ لِشِدَّةِ حُرْمَتِهَا وَعَظَمَتِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ أَيُّ : فِي سَائِرِ أَحْوَالِكُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أَيُّ : فَإِذَا امْتَنَمْتُمْ وَذَهَبَ الْخَوْفُ وَحَصَلَتِ الطَّمَأْنِينَةُ ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أَيُّ : فَأَقِمْوْهَا وَأَقِيمُوهَا ، كَمَا أَمَرْتُمْ بِحُدُودِهَا وَخُشُوعِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَجَمِيعِ شُؤْنِهَا . ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَيُّ مَفْرُوضًا ، قِيلَ : إِنَّ لِلصَّلَاةِ وَقْتًا كَوَقْتُ الْحَجِّ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾ أَيُّ : لَا تَضَعُفُوا فِي طَلَبِ عَدُوِّكُمْ ، بَلْ جَدُّوا فِيهِمْ وَقَاتِلُوهُمْ واقْعِدُوا هُمْ كُلَّ مَرَصِدٍ ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ ﴾ أَيُّ : كَمَا يُصِيبُكُمُ الْجِرَاحُ وَالْقَتْلُ ، كَذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾

أَيُّ : أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ سَوَاءٌ فِيمَا يُصِيبُكُمْ وَإِيَّاهُمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْأَلَامِ ، وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ الْمَثُوبَةَ وَالنَّصْرَ وَالْتَّائِيدَ ، وَهُمْ لَا يَرْجُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، فَأَنْتُمْ أَوَّلَى بِالْجِهَادِ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ رَغْبَةً فِيهِ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أَيُّ : هُوَ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ فِيمَا يَقْدَرُهُ وَيَقْضِيهِ وَيُنْفِذُهُ وَيُمْضِيهِ ، مِنْ أَحْكَامِهِ الْكُونِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَافِينَ حَصِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠١﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلِفُونَ أَنْفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ﴿١٠٢﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٣﴾ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٤﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ : هُوَ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْحَقَّ فِي خَبَرِهِ وَطَلَبِهِ ، ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ لَئِيَّا يُنَكِّرُوا عَلَيْهِمْ وَيُجَاهِرُونَ اللَّهَ بِهَا ۚ لَآئِهَ مُطْلِعٌ عَلَىٰ سَرَائِرِهِمْ ، وَعَالِمٌ بِمَا فِي ضَمَائِرِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ تَهْدِيدُهُمْ وَوَعِيدُهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : هَبْ أَنْ هَؤُلَاءِ انْتَصَرُوا فِي الدُّنْيَا بِمَا أَبَدُوهُ أَوْ أَبَدَىٰ هُمْ عِنْدَ الْحُكَّامِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِالظَّاهِرِ وَهُمْ مُتَعَبِدُونَ بِذَلِكَ ، فَمَاذَا يَكُونُ صَنِيعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَتَوَكَّلُ هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي تَرْوِيجِ دَعْوَاهُمْ ؟ أَيُّ : لَا أَحَدَ يَوْمِئِذٍ يَكُونُ هُمْ وَكِيلًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ .

وَمَنْ يَعْمَلُ سُوءًا أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١٠٧﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا

يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١٢٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَرَمِهِ وَجُودِهِ أَنْ كُلَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَيْ ذَنْبٍ كَانَ .

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۚ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۚ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] يَعْنِي أَنَّهُ لَا يُغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ ، وَإِنَّمَا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ، لَا يَحْمِلُ عَنْهَا غَيْرُهَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۚ أَيْ : مِنْ عِلْمِهِ وَحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ كَانَ ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۚ يَعْنِي : كَمَا اتَّهَمَ بَنُو أُبَيْرِقٍ بِصَنِيعِهِمْ الْقَبِيحِ ذَلِكَ الرَّجُلَ الصَّالِحَ وَهُوَ لَبِيدُ بْنُ سَهْلٍ ، أَوْ زَيْدُ بْنُ السَّمِينِ الْيَهُودِيُّ عَلَى مَا قَالَهُ الْآخَرُونَ ، وَقَدْ كَانَ بَرِيئًا وَهُمْ الظَّالِمَةُ الْخَوَنَةُ ، كَمَا أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ رَسُولُهُ ﷺ ، ثُمَّ هَذَا التَّفْرِيعُ وَهَذَا التَّوْبِيخُ عَامٌّ فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ مِمَّنْ اتَّصَفَ بِصِفَتِهِمْ ، فَارْتَكَبَ مِثْلَ خَطِيئَتِهِمْ ، فَعَلَيْهِ مِثْلُ عُقُوبَتِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ هَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۚ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ ﴾ اِمْتَنَنَّ عَلَيْهِ بِتَأْيِيدِهِ إِيَّاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَعِصْمَتُهُ لَهُ ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَهُوَ : الْقُرْآنُ ، وَالْحِكْمَةُ وَهِيَ : السُّنَّةُ ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ أَيْ : قَبْلَ نُزُولِ ذَلِكَ عَلَيْكَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۚ .

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿١٢١﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ ۚ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ أَيْ : إِلَّا نَجْوَى مَنْ قَالَ ذَلِكَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيْسَ الْكُذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَيُنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا » . وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۚ أَيْ : مُخْلِصًا إِلَى ذَلِكَ مُحْتَسِبًا ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۚ أَيْ : ثَوَابًا جَزِيلًا كَثِيرًا وَاسِعًا .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أَيُّ: وَمَنْ سَلَكَ غَيْرَ طَرِيقِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ فَصَارَ فِي شِقِّ وَالشَّرْعُ فِي شِقِّ ، وَذَلِكَ عَنْ عَمْدٍ مِنْهُ بَعْدَ مَا ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ وَتَبَيَّنَ لَهُ وَاتَّضَحَ لَهُ ، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا مُلَازِمٌ لِلصِّفَةِ الْأُولَى ، وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ الْمُخَالَفَةُ لِنَصِّ الشَّارِعِ ، وَقَدْ تَكُونُ لِمَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِيمَا عُلِمَ اتِّفَاقُهُمْ عَلَيْهِ تَحْقِيقًا ، فَإِنَّهُ قَدْ ضَمِنَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةُ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْخَطَأِ تَشْرِيفًا لَهُمْ وَتَعْظِيمًا لِنَبِيِّهِمْ . وَلِهَذَا تَوَعَّدَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أَيُّ: إِذَا سَلَكَ هَذِهِ الطَّرِيقَ جَارَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ نُحَسِّنَهَا فِي صَدْرِهِ وَنُزَيِّنَهَا لَهُ اسْتِدْرَاجًا لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ هَذَا الْحَدِيثَ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الْقَلَمُ: ٤٤] ، ثُمَّ جَعَلَ النَّارَ مَصِيرَهُ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْهُدَى لَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَّا إِلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٧﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١٨﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَدِّنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٩﴾ وَلَا ضِلُّهُمْ وَلَا مَنِيْنُهُمْ وَلَا مُرْتَبَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ ءَاذَاتِ الْآلَتِغَمِ وَلَا مُرْتَبَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلَقَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿٢٣﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ الْآيَةِ . وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أَيُّ: فَقَدْ سَلَكَ غَيْرَ الطَّرِيقِ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنِ الْهُدَى ، وَبَعُدَ عَنِ الصَّوَابِ ، وَأَهْلَكَ نَفْسَهُ وَخَسِرَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَفَاتَتْهُ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسًا﴾ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: أَوْثَانًا . وَقِيلَ الْمَعْنَى: قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ وَإِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ، قَالَ: فَاتَّخَذُوهُنَّ أَرْبَابًا وَصَوَّرُوهُنَّ جِوَارِي فَحَكَّمُوا وَقَلَّدُوا ، وَقَالُوا: هَؤُلَاءِ يُشْرِهِنَّ بَنَاتُ اللَّهِ الَّذِي نَعْبُدُهُ ، يَعْنُونَ الْمَلَائِكَةَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أَيُّ: هُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ وَحَسَنَهُ وَزَيَّنَهُ لَهُمْ ، وَهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ إِبْلِيسَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أَي : طَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ جَوَارِهِ ، وَقَالَ : ﴿لَا تَحْدَنَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أَي : مُعَيَّنًا مُقَدَّرًا مَعْلُومًا ، قَالَ فَتَادَةُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ . ﴿وَلَا ضِلُّهُمْ﴾ أَي : عَنِ الْحَقِّ ﴿وَلَا مَيِّبَتُهُمْ﴾ أَي : أُرِيْنَ لَهُمْ تَرَكَ التَّوْبَةَ ، وَأَعَدَّهُمْ الْأَمَانِي وَأَمْرُهُمْ بِالتَّسْوِيفِ وَالتَّأْخِيرِ ، وَأَعَزَّهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، ﴿وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ إِذَا بَاتَ الْأَتَعِمَّ﴾ قَالَ عَدَدُ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي تَشْقِيقَهَا ، وَجَعَلَهَا سِمَةً وَعَلَامَةً لِلْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ ﴿وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قَالَ عَدَدُ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي بِذَلِكَ خَصِي الدَّوَابِّ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يَعْنِي بِذَلِكَ الْوُشْمُ ، وَقَالَ عَدَدٌ آخَرُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ يَعْنِي : دِينَ اللَّهِ ﷻ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ أَي : فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَتِلْكَ خَسَارَةٌ لَا جَبَرَ لَهَا وَلَا اسْتِذْرَاكَ لِفَائِتَتِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُّ أَوْلِيَائَهُ وَيُمْنِيهِمْ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقَدْ كَذَبَ وَافْتَرَى فِي ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿أُولَئِكَ﴾ أَي : الْمُسْتَحْسِنُونَ لَهُ فِيمَا وَعَدَهُمْ وَمَنَّاهُمْ ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أَي : مَصِيرُهُمْ وَمَأْوَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا يَحْدُونُ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أَي : لَيْسَ لَهُمْ عَنْهَا مَنُودِحَةٌ ، وَلَا مَضْرَفٌ وَلَا خَلَاصٌ وَلَا مَنَاصٌ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ السُّعْدَاءِ وَالْأَتْقِيَاءِ وَمَا لَهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ التَّامَّةِ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَي : صَدَقَتْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمْ بِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْخَيْرَاتِ ، وَتَرَكُوا مَا نُهِوا عَنْهُ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي : يَصْرِفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ شَاءُوا ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أَي : بِلَا زَوَالٍ وَلَا انْتِقَالٍ ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أَي : هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ وَوَعْدُ اللَّهِ مَعْلُومٌ حَقِيقَةٌ أَنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، وَلِهَذَا أَكَّدَهُ بِالْمُضَدِّ الدَّالِّ عَلَى تَحْقِيقِ الْخَيْرِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ حَقًّا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أَي : لَا أَحَدٌ أَصْدَقُ مِنْهُ قَوْلًا ، أَيِ خَبْرًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَحْدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٥﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٦﴾ وَلِلَّهِ مَا

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَاتَبَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿٢١﴾

وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَّ فِي الْقُلُوبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ لَكُمْ وَلَا هُمْ النَّجَاةُ بِمُجَرَّدِ التَّمَنِّيِّ ، بَلِ الْعِبْرَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَاتِّبَاعِ مَا شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ الْكَرَامِ ، وَهَذَا قَالَ بَعْدَهُ ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ، وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : السُّوءَ هَهُنَا : بِالشُّرْكِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ ذَلِكَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْجَزَاءَ عَلَى السَّيِّئَاتِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْخُذَ مُسْتَحَقُّهَا مِنَ الْعَبْدِ ، إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الْأَجُودُ لَهُ ، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ - وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - شَرَعَ فِي بَيَانِ إِحْسَانِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادِهِ ذُكْرَانِهِمْ وَإِنَاثِهِمْ بِشَرِّطِ الْإِيمَانِ ، وَأَنَّهُ سَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُهُمْ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ وَلَا مِقْدَارِ النَّقِيرِ - وَهُوَ النُّقْرَةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ - .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أَيُّ : أَخْلَصَ الْعَمَلَ لِرَبِّهِ ﷻ فَعَمِلَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيُّ : مُتَّبِعًا فِي عَمَلِهِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ ، وَمَا أَرْسَلَ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، وَهَذَانِ الشَّرْطَانِ لَا يَصِحُّ عَمَلٌ عَامِلٍ بِدُونِهِمَا ، أَنْ يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا ، وَالْخَالِصُ : أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ ، وَالصَّوَابُ : أَنْ يَكُونَ مُتَابِعًا لِلشَّرِيعَةِ ، فَيَصِحُّ ظَاهِرُهُ بِالْمُتَابَعَةِ ، وَبَاطِنُهُ بِالْإِخْلَاصِ ، فَمَتَى فَقَدَ الْعَمَلُ أَحَدَ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ فَسَدَ ، فَمَتَى فَقَدَ الْإِخْلَاصَ كَانَ مُنَافِقًا وَهُمْ الَّذِينَ يُرَاوُونَ النَّاسَ ، وَمَنْ فَقَدَ الْمُتَابَعَةَ كَانَ ضَالًّا جَاهِلًا ، وَمَتَى جَمَعَهُمَا فَهُوَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ : قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ وَهُمْ مُحَمَّدٌ وَاتَّبَاعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَالْحَنِيفُ : هُوَ الْمَائِلُ عَنِ الشُّرْكِ قَصْدًا ، أَيُّ : تَارِكًا لَهُ عَنْ بَصِيرَةٍ ، وَمُقْبِلٌ عَلَى الْحَقِّ بِكُلِّيَّةٍ ، لَا يَصُدُّهُ عَنْهُ صَادٌّ ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْهُ رَادٌّ . ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّرْغِيبِ فِي اتِّبَاعِهِ ، لِأَنَّهُ إِمَامٌ يُقْتَدَى بِهِ حَيْثُ وَصَلَ إِلَى غَايَةِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعِبَادُ لَهُ ، فَإِنَّهُ انْتَهَى إِلَى دَرَجَةِ الْخَلَّةِ الَّتِي هِيَ أَرْفَعُ مَقَامَاتِ الْمَحَبَّةِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِكثْرَةِ طَاعَتِهِ لِرَبِّهِ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ خَلِيلُ اللَّهِ لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِ لِرَبِّهِ ﷻ ، لَمَّا قَامَ لَهُ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَعَبِيدُهُ وَخَلْقُهُ وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، لَا رَادَّ لِمَا قَضَى ، ﴿ وَكَاتَبَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴾ أَيُّ : عِلْمُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، لَا تُخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ .

وَكَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَىٰ
النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿٢٨﴾
عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : ﴿ وَكَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ
﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ قَالَتْ : هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْيَتِيمَةُ ، هُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا ، قَدْ
شَرَكْتُهُ فِي مَالِهِ حَتَّى فِي الْعِدْقِ ، فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَهَا وَيَكْرَهُ أَنْ يَزَوِّجَهَا رَجُلًا فَيُشْرِكُهُ فِي مَالِهِ بِمَا
شَرَكْتُهُ ، فَيُعْضِلُهَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . قَالَتْ عَائِشَةُ : ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ
هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِنَّ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَكَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي
الْكِتَابِ ﴾ الْآيَةَ ، قَالَتْ : وَالَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يُتْلَىٰ عَلَيْهِ فِي الْكِتَابِ . الْآيَةُ الْأُولَى الَّتِي قَالَ اللَّهُ :
﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٣] ، وَعَنْ عَائِشَةَ -
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَيْضًا قَالَتْ : وَقَوْلُ اللَّهِ ﷻ ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ رَغْبَةٌ أَحَدِكُمْ عَنْ
يَتِيمَتِهِ الَّتِي تَكُونُ فِي حِجْرِهِ حَتَّى تَكُونَ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ ، فَتُفْهِمُ أَنْ يَنْكِحُوا مَنْ رَغِبُوا فِي
مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ ، وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا
كَانَ فِي حِجْرِهِ يَتِيمَةٌ يَحِلُّ لَهُ تَزْوِيجُهَا ، فَتَارَةً يَرْغَبُ فِي أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُمَهِّرَهَا أَسْوَةً
أَمْثَلَهَا مِنَ النِّسَاءِ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيُعْدِلْ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ ، فَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ ﷻ ، وَهَذَا الْمَعْنَى
فِي الْآيَةِ الْأُولَى الَّتِي فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ، وَتَارَةً لَا يَكُونُ لِلرَّجُلِ فِيهَا رَغْبَةٌ لِدِمَامَتِهَا عِنْدَهُ ، أَوْ فِي
نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَتُفْهِمُ اللَّهُ ﷻ أَنْ يُعْضِلَهَا عَنْ الْأَزْوَاجِ خَشْيَةً أَنْ يُشْرِكُوهُ فِي مَالِهِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ تَهْنِئَةً عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَامْتِثَالًا
لِلْأَوَامِر ، وَأَنَّ اللَّهَ ﷻ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ .

وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا
صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢٩﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ
فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣٠﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَسِعًا حَكِيمًا ﴿٣١﴾
يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا وَمُسَرِّعًا مِنْ حَالِ الزَّوْجَيْنِ تَارَةً فِي حَالِ نُفُورِ الرَّجُلِ عَنِ الْمَرْأَةِ وَتَارَةً فِي

حَالِ اِتِّفَاقِهِ مَعَهَا ، وَتَارَةً عِنْدَ فِرَاقِهِ لَهَا ، فَالْحَالَةُ الْأُولَى مَا إِذَا خَافَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يَنْفِرَ عَنْهَا أَوْ يُعْرِضَ عَنْهَا فَلَهَا أَنْ تُسْقِطَ عَنْهُ حَقَّهَا أَوْ بَعْضَهُ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ كِسْوَةٍ أَوْ مَبِيتٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحَقُوقِ عَلَيْهِ ، وَلَهُ أَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ مِنْهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا فِي بَذْلِهَا ذَلِكَ لَهُ ، وَلَا عَلَيْهِ فِي قَبُولِهِ مِنْهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْفِرَاقِ ، ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ أَيُّ : الصُّلْحُ عِنْدَ الْمُسَاحَاةِ خَيْرٌ مِنَ الْفِرَاقِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : ﴿ وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ قَالَتْ : الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ الْمُسِنَّةَ لَيْسَ بِمُسْتَكْثَرٍ مِنْهَا يُرِيدُ أَنْ يُفَارِقَهَا فَتَقُولُ : أَجْعَلُكَ مِنْ شَأْنِي فِي حِلٍّ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ صُلْحَهُمَا عَلَى تَرْكِ بَعْضِ حَقِّهَا لِلزَّوْجِ ، وَقَبُولِ الزَّوْجِ ذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْمَفَارَقَةِ بِالْكُلِّيَّةِ ، كَمَا أَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ ! عَلَى أَنْ تَرَكْتَ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَلَمْ يُفَارِقْهَا بَلْ تَرَكَهَا مِنْ جُمْلَةِ نِسَائِهِ ، وَفِعْلُهُ ذَلِكَ لِيَتَنَاسَى بِهِ أُمَّتَهُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ ذَلِكَ وَجَوَازِهِ ، فَهُوَ أَفْضَلُ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَلَمَّا كَانَ الْوِفَاقُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْفِرَاقِ ؛ قَالَ : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ بَلِ الطَّلَاقُ بِغِيضٍ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ﴿ وَإِنْ تَحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وَإِنْ تَتَجَشَّعُوا مَشَقَّةَ الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ مِنْهُنَّ ، وَتَقْسِمُوا هُنَّ أَسْوَةً أَمْثَلَهُنَّ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمُ بَذَلِكَ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أَيُّ : لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تُسَاوُوا بَيْنَ النِّسَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ فَإِنَّهُ وَإِنْ وَقَعَ الْقِسْمُ الصُّورِيُّ لَيْلَةً وَلَيْلَةً فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْمَحَبَّةِ وَالشَّهْوَةِ وَالْجَمَاعِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ﴾ أَيُّ : فَإِذَا مِلْتُمْ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ، فَلَا تُبَالِغُوا فِي الْمِيلِ بِالْكُلِّيَّةِ ﴿ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ أَيُّ : فَتَبْقَى هَذِهِ الْأُخْرَى مُعَلَّقَةً . لَا ذَاتَ زَوْجٍ وَلَا مُطْلَقَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أَيُّ : وَإِنْ أَصْلَحْتُمْ فِي أُمُورِكُمْ ، وَقَسَمْتُمْ بِالْعَدْلِ فِيمَا تَمْلِكُونَ ، وَاتَّقَيْتُمُ اللَّهَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ مَا كَانَ مِنْ مِثْلِ إِلَى بَعْضِ النِّسَاءِ دُونَ بَعْضٍ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَالَةُ الثَّالِثَةُ ، وَهِيَ حَالَةُ الْفِرَاقِ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمَا إِذَا تَفَرَّقَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُغْنِيهِ عَنْهَا ، وَيُغْنِيهَا عَنْهُ ، بِأَنْ يُعَوِّضَهُ اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهَا ، وَيُعَوِّضَهَا عَنْهُ بِمَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنْهُ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ أَيُّ : وَاسِعَ الْفَضْلِ عَظِيمُ الْمَنْ حَكِيمًا فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْدَارِهِ وَشَرْعِهِ .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا

حَمِيدًا ﴿٣٧﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣٨﴾ إِنَّ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴿٣٩﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿٤٠﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٤١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّهُ الْحَاكِمُ فِيهِمَا، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أَي : وَصَّيْنَاكُمْ بِمَا وَصَّيْنَاهُمْ بِهِ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ ﷻ بِعِبَادَتِهِ وَحُدَّةِ لَا شَرِيكَ لَهُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ أَي : غَنِيٌّ عَنِ عِبَادِهِ ﴿ حَمِيدٌ ﴾ أَي : مَحْمُودٌ فِي جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيُسَرِّعُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أَي : هُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، الرَّقِيبُ الشَّهِيدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . ﴿ إِنَّ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿ أَي : هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِذْهَابِكُمْ وَتَبْدِيلِكُمْ بِغَيْرِكُمْ إِذَا عَصَيْتُمُوهُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أَي : يَا مَنْ لَيْسَ هِمَّتُهُ إِلَّا الدُّنْيَا اْعْلَمْ أَنَّ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِذَا سَأَلْتَهُ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ أَعْطَاكَ وَأَغْنَاكَ وَأَفْنَاكَ .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ﴿٤٢﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، أَي : بِالْعَدْلِ فَلَا يَعْدِلُوا عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا أَنْ لَا يَأْخُذَهُمْ فِي الْحَقِّ لَوْمَةٌ لَّائِمٌ ، وَلَا يَصْرِفُهُمْ عَنْهُ صَارِفٌ ، وَأَنْ يَكُونُوا مُتَعَاوِنِينَ مُتَسَاعِدِينَ مُتَعَاَصِدِينَ مُتَنَاصِرِينَ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ أَي : أَدُّوْهَا إِنْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ ، فَحِيَّتِيذْ تَكُونُ صَحِيحَةً عَادِلَةً حَقًّا خَالِيَةً مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالْكِتْمَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أَي : إِشْهَدِ الْحَقَّ وَلَوْ عَادَ ضَرَرُهَا عَلَيْكَ ، وَإِذَا سُئِلْتَ عَنِ الْأَمْرِ فَقُلِ الْحَقُّ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ مَضَرَّةً عَلَيْكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لِمَنْ أَطَاعَهُ فَرْجًا وَخُرْجًا ، مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَضِيقُ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ أَي : وَإِنْ كَانَتْ الشَّهَادَةُ عَلَى وَالِدِكَ وَقَرَابَتِكَ فَلَا تُرَاعِهِمْ فِيهَا بَلْ إِشْهَدْ بِالْحَقِّ ، وَإِنْ عَادَ ضَرَرُهَا عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ الْحَقَّ حَاكِمٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أَي : لَا تَرْعَاهُ لِغِنَاهُ وَلَا تُشْفِقْ عَلَيْهِ

لِفَقْرِهِ ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّاهُمَا ، بَلْ هُوَ أَوْلَىٰ بِهِمَا مِنْكَ وَأَعْلَمُ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمَا . ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ أَيُّ : فَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ الْهَوَىٰ وَالْعَصِيَّةُ وَبُغْضَةُ النَّاسِ إِلَيْكُمْ عَلَىٰ تَرْكِ الْعَدْلِ فِي أُمُورِكُمْ وَشُؤُونِكُمْ ، بَلِ الزُّمُوا الْعَدْلَ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ . ﴿ وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا ﴾ أَيُّ : تُحَرِّفُوا الشَّهَادَةَ وَتُغَيِّرُوهَا ، وَاللَّيُّ : هُوَ التَّحْرِيفُ وَتَعَمُّدُ الْكُذِبِ . وَالْإِعْرَاضُ هُوَ : كِتْمَانُ الشَّهَادَةِ وَتَرْكُهَا ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أَيُّ : وَسَيُجَازِيكُمْ بِذَلِكَ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٣٦﴾

يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْدُخُولِ فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ وَشُعْبِهِ وَأَرْكَانِهِ وَدَعَائِمِهِ ، فَأَمَرَهُمُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وَهَذَا جِنْسٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَقَالَ فِي الْقُرْآنِ ﴿ نَزَّلَ ﴾ لِأَنَّهُ نَزَلَ مُفْرَقًا مُنْجَمًا عَلَى الْوَقَائِعِ ، بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، وَأَمَّا الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ فَكَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، لِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أَيُّ : فَقَدْ خَرَجَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ، وَبَعُدَ عَنِ الْقَصْدِ كُلِّ الْبُعْدِ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُوا عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿٣٩﴾ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَدُسْتَهَزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّنْ دَخَلَ فِي الْإِيمَانِ ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ ، ثُمَّ عَادَ فِيهِ ، ثُمَّ رَجَعَ وَاسْتَمَرَ عَلَىٰ ضَلَالِهِ وَارْتَدَّ حَتَّىٰ مَاتَ ، فَإِنَّهُ لَا تَوْبَةَ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَلَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ وَلَا يَجْعَلُ لَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ فَرْجًا وَلَا خُرْجًا وَلَا طَرِيقًا إِلَىٰ الْهُدَى ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ . ثُمَّ قَالَ :

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يَعْنِي : أَنَّ الْمُنَافِقِينَ مِنْ هَذِهِ الصَّفَةِ ، فَإِنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يَوَالِيهِمْ وَيُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا سَلَكَوهُ مِنْ مَوَالِيَةِ الْكَافِرِينَ : ﴿أَبْيَنُغُوبَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ﴾ ، ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّ الْعِزَّةَ كُلَّهَا لِلَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَمَّا جَعَلَهَا لَهُ . وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا : التَّهْيِيجُ عَلَى طَلَبِ الْعِزَّةِ مِنْ جَنَابِ اللَّهِ ، وَالْإِلْتِجَاءِ إِلَى عُبودِيَّتِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ﴿أَيُّ : إِنَّكُمْ إِذَا ارْتَكَبْتُمْ النَّهْيَ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَيْكُمْ ، وَرَضِيتُمْ بِالْجُلُوسِ مَعَهُمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُكْفَرُ فِيهِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيُسْتَهْزَأُ وَيُنْتَقَضُ بِهَا ، وَأَقْرَضْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَدْ شَارَكْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ فِي الْمَأْتَمِ . ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أَيُّ : كَمَا اشْتَرَكُوا فِي الْكُفْرِ كَذَلِكَ شَارَكَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ فِي الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَبَدًا .

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ تَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿٦٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ يَتَرَبَّصُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ دَوَائِرَ الشُّوءِ ، بِمَعْنَى : يَنْتَظِرُونَ زَوَالَ دَوْلَتِهِمْ وَظُهُورَ الْكَفَرَةِ عَلَيْهِمْ وَذَهَابَ مِلَّتِهِمْ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ : نَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَظَفَرٌ وَغَنِيْمَةٌ ، ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أَيُّ : يَتَوَدَّدُونَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ ، ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أَيُّ : إِدَالَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، كَمَا وَقَعَ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَإِنَّ الرُّسُلَ تُبْتَلَى ثُمَّ يَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ ؛ ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ : سَاعَدْنَاكُمْ فِي الْبَاطِنِ وَمَا أَلَوْنَاهُمْ خَبَالًا وَتَحْذِيلًا حَتَّى انْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ . وَهَذَا أَيْضًا تَوَدُّدٌ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُصَابِعُونَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ لِيَحْظُوا عِنْدَهُمْ وَيَأْمَنُوا كَيْدَهُمْ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِضَعْفِ إِيْمَانِهِمْ وَقَلَّةِ إِيْقَانِهِمْ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿فَاللَّهُ تَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَيُّ : بِمَا يَعْلَمُهُ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْبَوَاطِنِ الرَّدِيئَةِ ، فَلَا تَعْتَرَوْا بِجَرَيَانِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَيْكُمْ ظَاهِرًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تَنْفَعُكُمْ ظَوَاهِرُكُمْ ، بَلْ هُوَ يَوْمٌ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ وَيُحْصَلُ مَا فِي الصُّدُورِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ .

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ

النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ مُذْتَذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٧﴾

قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُخَذِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٩]، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَذِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يُخَادِعُ، فَإِنَّهُ الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لِحُجْلِهِمْ وَقَلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْرَهُمْ، كَمَا رَاجَ عِنْدَ النَّاسِ وَجَرَتْ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا، فَكَذَلِكَ يَكُونُ حُكْمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَوْلُهُ ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أَيُّ: هُوَ الَّذِي يَسْتَدْرِجُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَيُخَذِّعُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. هَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِينَ فِي أَشْرَفِ الْأَعْمَالِ وَأَفْضَلِهَا وَخَيْرِهَا وَهِيَ الصَّلَاةُ، إِذَا قَامُوا إِلَيْهَا قَامُوا وَهُمْ كُسَالًا عَنْهَا، لَا تُهَمُّ لَا نِيَّةَ هُمْ فِيهَا، وَلَا إِيمَانَ هُمْ بِهَا وَلَا خَشْيَةَ وَلَا يَعْقِلُونَ مَعْنَاهَا. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا﴾ هَذِهِ صِفَةُ ظَوَاهِرِهِمْ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ بَوَاطِنِهِمْ الْفَاسِدَةَ فَقَالَ: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أَيُّ: لَا إِخْلَاصَ هُمْ وَلَا مُعَامَلَةً مَعَ اللَّهِ بَلْ إِنَّمَا يَشْهَدُونَ النَّاسَ تَقِيَّةَ هُمْ وَمُصَانَعَةً وَهَذَا يَتَخَلَّفُونَ كَثِيرًا عَنِ الصَّلَاةِ الَّتِي لَا يُرُونَ فِيهَا غَالِبًا كَصَلَاةِ الْعِشَاءِ وَقَتِ الْعَتَمَةِ وَصَلَاةِ الصُّبْحِ فِي وَقْتِ الْعَلَسِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيُّ: فِي صَلَاتِهِمْ لَا يُحْشُونَ وَلَا يَذْكُرُونَ مَا يَقُولُونَ، بَلْ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ لَاهُونَ، وَعَمَّا يُرَادُ بِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ مُعْرِضُونَ. ﴿مُذْتَذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي: الْمُنَافِقِينَ مُحْتَزِينَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، فَلَا هُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَا مَعَ الْكَافِرِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، بَلْ ظَوَاهِرُهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَوَاطِنُهُمْ مَعَ الْكَافِرِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيهِ الشُّكُّ فَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ وَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى أُولَئِكَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أَيُّ: وَمَنْ صَرَفَهُ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] فَإِنَّهُ ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وَالْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ أَضَلَّهُمْ عَنِ سَبِيلِ النِّجَاةِ فَلَا هَادِيَ هُمْ، وَلَا مُنْقِذَ هُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٨﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ

لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٧﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، يَعْنِي : مُصَاحِبَيْهِمْ وَمُصَادَقَتِهِمْ وَمُنَاصَحَتِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ أَيُّ : حُجَّةً عَلَيْكُمْ فِي عُقُوبَتِهِ إِيَّاكُمْ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَزَاءً عَلَى كُفْرِهِمُ الْغَلِيظَ . ﴿ وَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ أَيُّ : يُنْقِذُهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ أَلِيمِ الْعَذَابِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا تَابَ عَلَيْهِ وَقَبِلَ نَدْمَهُ ، وَإِذَا أَخْلَصَ فِي تَوْبَتِهِ وَأَصْلَحَ عَمَلُهُ وَاعْتَصَمَ بِرَبِّهِ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ أَيُّ : بَدَّلُوا الرِّيَاءَ بِالْإِخْلَاصِ فَيَنْفَعُهُمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَإِنْ قَلَّ . ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : فِي زُمْرَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ غِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُعَذِّبُ الْعِبَادَ بِذُنُوبِهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ أَيُّ : أَصْلَحْتُمْ الْعَمَلَ وَآمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أَيُّ : مَنْ شَكَرَ شَكَرَ لَهُ ، وَمَنْ آمَنَ قَبِلَهُ بِهِ عِلْمُهُ وَجَازَاهُ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجُزَاءِ .

﴿ لَا تَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ ﴿١٤٩﴾

تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٥٠﴾

قِيلَ الْمَعْنَى : لَا يُحِبُّ اللَّهُ أَنْ يَدْعُوَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا ، فَإِنَّهُ قَدْ أَرْخَصَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ وَإِنْ صَبَرَ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ لِي جَارًا يُؤْذِينِي ، فَقَالَ لَهُ : « أَخْرِجْ مَتَاعَكَ فَضَعُهُ عَلَى الطَّرِيقِ » فَأَخَذَ الرَّجُلُ مَتَاعَهُ فَطَرَحَهُ عَلَى الطَّرِيقِ فَجَعَلَ كُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ قَالَ : مَا لَكَ ؟ قَالَ : جَارِي يُؤْذِينِي فَيَقُولُ : اللَّهُمَّ ائْتِنِي ، اللَّهُمَّ اخْزِهِ قَالَ : فَقَالَ الرَّجُلُ : ارْجِعْ إِلَى مَنْزِلِكَ وَاللَّهِ لَا أُوذِيكَ أَبَدًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ أَيُّ : إِنْ تَظْهَرُوا أَيُّهَا النَّاسُ خَيْرًا أَوْ أَخْفَيْتُمُوهُ أَوْ عَفَوْتُمْ عَنْ أَسَاءِ إِلَيْكُمْ فَإِنَّ ذَلِكَ بِمَا يُفَرِّبُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَيُجْزِلُ ثَوَابَكُمْ لَدَيْهِ ، فَإِنَّ مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى أَنْ يَعْفُوَ عَنْ عِبَادِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى عِقَابِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا
نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ
يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِمَّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٢﴾

يَتَوَعَّدُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْكَافِرِينَ بِهِ وَرُسُلِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى حَيْثُ فَرَّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
فِي الْإِيمَانِ ، فَأَمَّنُوا بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ ، وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
فَقَدْ كَفَرَ بِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ وَاجِبٌ بِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَمَنْ رَدَّ نُبُوَّتَهُ
لِلْحَسَدِ أَوْ الْعَصِيَّةِ أَوْ التَّشْهِيِّ تَبَيَّنَ أَنَّ إِيْمَانَهُ بِمَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ إِيمَانًا شَرْعِيًّا إِنَّمَا هُوَ
عَنْ غَرَضٍ وَهَوَى وَعَصِيَّةٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ فَوَسَمَهُمْ
بِأَتَمِّهِمْ كُفَارًا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أَيِ : فِي الْإِيمَانِ ﴿ وَيَقُولُوا
نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ أَيِ : طَرِيقًا وَمَسْلَكًا .
ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ أَيِ : كُفْرُهُمْ مُحَقَّقٌ لَا مَحَالَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ أَيِ : كَمَا اسْتَهَانُوا بِمَنْ كَفَرُوا بِهِ إِمَّا لِعَدَمِ نَظَرِهِمْ
فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ ، وَإِمَّا بِكُفْرِهِمْ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِنُبُوَّتِهِ ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ
كَثِيرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ حَسَدُوهُ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ ،
وَحَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَعَادُوهُ وَقَاتَلُوهُ فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدُّلَّ الدُّنْيَوِيَّ الْمَوْصُولَ بِالذِّلِّ الْأُخْرَوِيَّ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُمْ
يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمُ الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ
وَالثَّوَابَ الْجَلِيلَ وَالْعَطَاءَ الْجَمِيلَ فَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ ﴾ عَلَى مَا آمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أَيِ : لِذُنُوبِهِمْ ، إِنْ كَانَ لِبَعْضِهِمْ ذُنُوبٌ .

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ
ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ
الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا
مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٥٤﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : سَأَلَ الْيَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ كَمَا نَزَلَتْ التَّوْرَةُ عَلَى مُوسَى مَكْتُوبَةً ، وَقَالَ آخَرُونَ : سَأَلُوهُ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ صُحُفًا مِنَ اللَّهِ مَكْتُوبَةً إِلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ بِتَصْدِيقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، وَهَذَا إِنَّمَا قَالُوهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ وَالْكَفْرِ وَالْإِحْدَادِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْغَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أَي : بِطُغْيَانِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَعُتُوهِمْ وَعِنَادِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أَي : مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْأَدْلَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى يَدِ مُوسَى ﷺ فِي بِلَادِ مِصْرَ ، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِ عَدُوِّ اللَّهِ فِرْعَوْنَ وَجَمِيعِ جُنُودِهِ فِي الْيَمِّ ، فَمَا جَاوَزُوهُ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ ، فَقَالُوا لِمُوسَى : ﴿ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿ ١٣٨ ﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَنَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨ - ١٣٩] ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ اتِّخَاذِهِمُ الْعِجْلَ مَبْسُوطَةً فِي « سُورَةِ الْأَعْرَافِ » وَفِي « سُورَةِ طه » بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى إِلَى مُنَاجَاةِ اللَّهِ ﷻ ، ثُمَّ لَمَّا رَجَعَ وَكَانَ مَا كَانَ جَعَلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُمْ مِنَ الَّذِي صَنَعُوهُ وَابْتَدَعُوهُ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ الْعِجْلَ مِنْهُمْ مَنْ عِبَدَهُ ، فَجَعَلَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ اللَّهُ ﷻ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ وَذَلِكَ حِينَ امْتَنَعُوا مِنَ الْإِلتِزَامِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ ، وَظَهَرَ مِنْهُمْ إِبَاءٌ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَى ﷺ وَرَفَعَ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِهِمْ جَبَلًا ثُمَّ أَلَزَمُوا فَالْتَزَمُوا وَسَجَدُوا وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى فَوْقِ رُءُوسِهِمْ خَشْيَةً أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ * وَإِذْ تَنْفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧١] ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أَي : فَخَالَفُوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَإِنَّهُمْ أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا بَابَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سُجَّدًا وَهُمْ يَقُولُونَ حِطَّةٌ . أَي : اللَّهُمَّ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا فِي تَرْكِهَا الْجِهَادِ وَنُكُولِنَا عَنْهُ حَتَّى تُهِنَّا فِي التَّيِّهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ : حِنْطَةٌ فِي شَعْرَةٍ ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾ أَي : وَصَيْنَاهُمْ بِحِفْظِ السَّبْتِ وَالْإِلتِزَامِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا دَامَ مَشْرُوعًا لَهُمْ ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أَي : شَدِيدًا ، فَخَالَفُوا وَعَصَوْا وَتَحَيَّلُوا عَلَى إِرْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَسْأَلُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ [الأعراف : ١٦٣]

فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْتُمْ بِغَايَتِ اللَّهِ وَقَتْلْتُمْ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلْتُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ ١٦٤ ﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى

مَرِّمَ هَيْئَتَنَا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

وَهَذِهِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا يَمَّا أَوْجَبَ لَعْنَتُهُمْ وَطَرَدَهُمْ وَإِبْعَادَهُمْ عَنِ الْهُدَى ، وَهُوَ نَقْضُهُمُ الْمَوَاقِيقَ وَالْعُهُودَ الَّتِي أَخَذَتْ عَلَيْهِمْ ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، أَيْ : حُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ وَالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي شَاهَدُوهَا عَلَى يَدِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا ﴾ وَذَلِكَ لِكثْرَةِ إِجْرَائِهِمْ وَاجْتِرَائِهِمْ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا جَمًّا غَيْرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : أَيْ فِي غِطَاءٍ ، وَهَذَا كَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ [فصلت : ٥] ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَتَمُّ إِدْعَاؤُهُمْ أَنَّ قُلُوبَهُمْ غُلْفٌ لِلْعِلْمِ ، أَيْ : أَوْعِيَةٌ لِلْعِلْمِ قَدْ حَوَتْهُ وَحَصَلَتْهُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ فَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ كَأَنَّهُمْ يَعْتَدِرُونَ إِلَيْهِ بِأَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تَعْيِي مَا يَقُولُ ؛ لِأَنَّهَا فِي غُلْفٍ وَفِي أَكِنَّةٍ ، قَالَ اللَّهُ : بَلْ هِيَ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي عُكْسٌ عَلَيْهِمْ مَا إِدْعَوْهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مِثْلِ هَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ . ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : مَرَدَّتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ وَقِلَّةِ الْإِيمَانِ . ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ هَيْئَتَنَا عَظِيمًا ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ رَمَوْهَا بِالزَّنَا ، وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُمْ رَمَوْهَا وَابْنَهَا بِالْعَظَائِمِ فَجَعَلُوهَا زَانِيَةً ، وَقَدْ حَمَلَتْ بِوَلَدِهَا مِنْ ذَلِكَ ، زَادَ بَعْضُهُمْ : وَهِيَ حَائِضٌ - فَعَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أَيْ : الَّذِي يَدَّعِي لِنَفْسِهِ هَذَا الْمُنْصِبَ قَتْلَانَهُ ، وَهَذَا مِنْهُمْ مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ . ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ ﴾ أَيْ : رَأَوْا شَبَّهُهُ فَظَنُّوهُ إِيَّاهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ قَتَلَهُ مِنَ الْيَهُودِ ، وَمَنْ سَلَّمَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ جُهَالِ النَّصَارَى ، كُلُّهُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ وَحَيْرَةٍ وَضَلَالٍ وَسُعُرٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ أَيْ : وَمَا قَتَلُوهُ مُتَقَيِّنينَ أَنَّهُ هُوَ بَلْ شَاكِكِينَ مُتَوَهِّمِينَ . ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أَيْ : مَنَعَ الْجَنَابَ لَا يُرَامُ جَنَابُهُ وَلَا يُضَامُ مِنْ لَادِ بَبَابِهِ ﴿ حَكِيمًا ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيَقْضِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَخْلُقُهَا ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ وَالسُّلْطَانُ الْعَظِيمُ وَالْأَمْرُ الْقَدِيمُ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ : لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَفِي الْبَيْتِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْخَوَارِجِينَ ، يَعْنِي فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً فَقَالَ : إِنْ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِيِ اثْنِي عَشَرَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ : أَيُّكُمْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبْهِي فَيَقْتُلَ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِيَ فِي دَرَجَتِي ، فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحَدِهِمْ سِنًا فَقَالَ لَهُ : اجْلِسْ ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ ، فَقَامَ ذَلِكَ الشَّابُّ فَقَالَ : اجْلِسْ . ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ : أَنَا ، فَقَالَ : أَنْتَ هُوَ ذَاكَ ، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبْهَ عِيسَى ، وَرُفِعَ عِيسَى مِنْ رُورَتِهِ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ ، قَالَ : وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا الشَّبَّهَ فَقَتَلُوهُ ثُمَّ صَلَبُوهُ ، فَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ ، وَافْتَرَقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ اللَّهُ فِينَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ لَا يَعْقُوبِيَّةُ ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ فِينَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَهُوَ لَا نَسْطُورِيَّةُ ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ فِينَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَهُوَ لَا مُسْلِمُونَ ، فَتَظَاهَرَتِ الْكَافِرَتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ فَقَتَلُوها ، فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يَعْنِي : قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى يُوَجِّهُ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ جَمِيعَهُمْ يَصْدُقُونَ بِهِ إِذَا نَزَلَ لِقَتْلِ الدَّجَالِ ، فَتَصِيرُ الْمِلَّةُ كُلُّهَا وَاحِدَةً وَهِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ الْحَنِيفِيَّةِ دِينَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴾ أَي : بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي شَاهَدَهَا مِنْهُمْ قَبْلَ رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَبَعْدَ نَزْوِلِهِ إِلَى الْأَرْضِ . وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا جَدِّدًا وَأَمْعَنَ النَّظَرَ اتَّضَحَ لَهُ أَنَّ هَذَا وَإِنْ كَانَ هُوَ الْوَاقِعُ لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ هَذَا ، بَلِ الْمُرَادُ بِهَا مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَقْرِيرِ وُجُودِ عِيسَى ﷺ وَبَقَاءِ حَيَاتِهِ فِي السَّمَاءِ ، وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيُكَذِّبَ هَؤُلَاءِ وَهُؤُلَاءِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، الَّذِينَ تَبَايَنَتْ أَقْوَاهُمْ فِيهِ وَتَصَادَمَتْ وَتَعَاكَسَتْ وَتَنَاقَضَتْ وَخَلَّتْ عَنِ الْحَقِّ فَفَرَطَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ ، وَأَفْرَطَ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى ، تَنَقَّصَهُ الْيَهُودُ بِمَا رَمَوْهُ بِهِ وَأُمِّهِ مِنَ الْعِظَائِمِ ، وَأَطْرَاهُ النَّصَارَى بِحَيْثُ ادَّعَوْا فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهِ ، فَرَفَعُوهُ فِي مُقَابَلَةِ أَوْلِيَاكَ عَنْ مَقَامِ النُّبُوَّةِ إِلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ وَهُؤُلَاءِ عُلوًّا كَبِيرًا ، وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَهُمُ الرِّسَالَةُ مِنَ اللَّهِ ، وَأَقْرَبُ عِبُودِيَّةِ اللَّهِ ﷻ ، وَهَذَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي « آخِرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ » : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٦ - ١١٨]

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١١٩﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا

لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠٠﴾ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠١﴾

أَنَّ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ رُسُلَهُمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَيْهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَبُطِّلَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ أَيُّ : صَدُّوا النَّاسَ وَصَدُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَهَذِهِ سَجِيَّةُ هُمْ مُتَّصِفُونَ بِهَا مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ بُوْهُ عَنْهُ ﴾ أَيُّ : أَنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَاَهُمْ عَنِ الرِّبَا فَتَنَّاوُلُوهُ وَأَخَذُوهُ وَاخْتَالُوا عَلَيْهِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْحِيلِ وَصُنُوفٍ مِنَ الشُّبْهِ ، وَأَكَلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾ أَيُّ : الثَّابِتُونَ فِي الدِّينِ هُمْ قَدَّمَ رَاسِخَةً فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ » . ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ عَطْفٌ عَلَى الرَّاْسِخِينَ وَخَبَرُهُ : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ . ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَذْحِ ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] قَالَ : وَهَذَا سَائِغٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ زَكَاةَ الْأَمْوَالِ ، وَيَحْتَمِلُ زَكَاةَ النُّفُوسِ ، وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أَيُّ : يُصَدِّقُونَ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ هُوَ الْخَبَرُ عَمَّا تَقَدَّمَ ﴿ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ .

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ۚ ﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٠٢﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٠٣﴾

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَمَا أَوْحَى إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ

فَقَالَ : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ وَالزَّبُورُ : إِسْمُ الْكِتَابِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَى دَاوُدَ عليه السلام.

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أَيُّ : مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْآيَةِ . يَعْنِي : فِي السُّورِ الْمَكِّيَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَهَذِهِ تَسْمِيَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ نَصَّ اللَّهُ عَلَى أَسْمَائِهِمْ فِي الْقُرْآنِ ، وَهُمْ آدَمُ وَإِدْرِيسُ وَنُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَلُوطٌ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَيُوسُفُ وَأَيُّوبُ وَشُعَيْبٌ وَمُوسَى وَهَارُونُ وَيُونُسُ وَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ وَإِلْيَاسُ وَالْإِسْحَاقُ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى . وَكَذَا ذُو الْكِفْلِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، وَسَيِّدُهُمْ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم . وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿ وَهَذَا تَشْرِيفٌ لِمُوسَى عليه السلام بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، وَلِهَذَا يُقَالُ لَهُ : الْكَلِيمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أَيُّ : يُبَشِّرُونَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَاتَّبَعَ رِضْوَانَهُ بِالْخَيْرَاتِ ، وَيُنْذِرُونَ مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ بِالْعِقَابِ وَالْعَذَابِ . ﴿ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ غَافِرًا حَكِيمًا ﴾ أَيُّ : أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ بِالْبَشِيرَةِ وَالنَّذَارَةِ ، وَيَبَيِّنُ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ، لئَلَّا يَبْقَى لِمُعْتَذِرٍ عُذْرٌ .

لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ^ط وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ^ط وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿ إِنِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ﴿ إِنِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿ يَأْتِيهِمُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا وَخَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ﴿

لَمَّا تَضَمَّنَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ إِلَى آخِرِ السِّيَاقِ إِثْبَاتَ نُبُوَّتِهِ صلى الله عليه وسلم وَالرَّدَّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ نُبُوَّتَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ أَيُّ : وَإِنْ كَفَرَ بِهِ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِمَّنْ كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ ، فَاللَّهُ يَشْهَدُ لَكَ بِأَنَّكَ رَسُولُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ أَيُّ : فِيهِ عِلْمُهُ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَطَّلِعَ الْعِبَادُ عَلَيْهِ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَالْهَدَى وَالْفُرْقَانِ . ﴿ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ﴾ أَيُّ : بِصِدْقِ مَا جَاءَكَ وَأَوْحَى إِلَيْكَ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ مَعَ شَهَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَكَ بِذَلِكَ ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أَيُّ : كَفَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ فَلَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ وَسَعَوْا فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِ ، قَدْ خَرَجُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَضَلُّوا عَنْهُ وَبَعُدُوا مِنْهُ بُعْدًا عَظِيمًا شَاسِعًا ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حُكْمِهِ فِي الْكَافِرِينَ بِآيَاتِهِ وَكِتَابِهِ

وَرَسُولِهِ ، الظَّالِمِينَ لَأَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ ، وَبِالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَارْتِكَابِ مَآثِمِهِ وَانْتِهَاكِ مَحَارِمِهِ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لَهُمْ . ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ أَي : سَبِيلًا إِلَى الْخَيْرِ . ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ الْآيَةُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّبُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ أَي : قَدْ جَاءَكُمْ مُحَمَّدٌ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ وَالْبَيَانِ الشَّافِي مِنَ اللَّهِ ﷻ ، فَأَمِنُوا بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ وَاتَّبِعُوهُ يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَي : فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ إِيْمَانِكُمْ ، وَلَا يَتَضَرَّرُ بِكُفْرَانِكُمْ ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أَي : بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْكُمْ الْهُدَايَةَ فِيْهِدِيهِ ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ فَيُغْوِيهِ ﴿ حَكِيمًا ﴾ أَي : فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

يَتَأَهَّلُ الْكِتَابَ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧٧﴾

يَنْهَى تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ وَالْإِطْرَاءِ ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّصَارَى ؛ فَإِنَّهُمْ نَجَّأُوا حَذَّ التَّصْدِيقِ بِعِيسَى ، حَتَّى رَفَعُوهُ فَوْقَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي أُعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا ، فَنَقَلُوهُ مِنْ حَيْزِ النُّبُوَّةِ إِلَى أَنْ يَتَّخِذُوهُ إِلَٰهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ يَعْبُدُونَهُ كَمَا يَعْبُدُونَهُ . بَلْ قَدْ عَلَوْا فِي اتِّبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ بِمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ ، فَادْعُوا فِيهِمُ الْعِصْمَةَ ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ سِوَاءَ كَانَ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا ، أَوْ ضَلَالًا أَوْ رَشَادًا ، أَوْ صَحِيحًا أَوْ كَذِبًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أَي : لَا تَفْتَرُوا عَلَيْهِ وَتَجْعَلُوا لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا - تَعَالَى اللَّهُ ﷻ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ وَتَوَحَّدَ فِي سُؤْدُودِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَعَظَمَتِهِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ - وَهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ أَي : إِنَّمَا هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَخَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ ، قَالَ لَهُ : كُنْ فَكَانَ ، وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ ﴿ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ أَي : خَلَقَهُ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا جِبْرِيلُ ﷺ إِلَى مَرْيَمَ فَتَفَخَّ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﷻ ، فَكَانَ عِيسَى بِإِذْنِهِ ﷻ ، وَصَارَتْ تِلْكَ النَّفْخَةُ الَّتِي نَفَخَهَا فِي جَنْبِ دَرْعِهَا ، فَتَزَلَّتْ حَتَّى وَلَجَتْ فَرْجَهَا ، بِمَنْزِلَةِ لِقَاحِ الْأَبِ وَالْأُمِّ ، وَالْجَمِيعُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ ﷻ ؛ وَهَذَا قِيلَ لِعِيسَى : إِنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ وَرُوحٌ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ تَوَلَّدَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ نَاشِئٌ عَنِ الْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَ لَهُ بِهَا كُنْ فَكَانَ ، وَالرُّوحُ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا جِبْرِيلُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أَي: فَصَدِّقُوا بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ ، وَعَلِمُوا وَتَيَقَّنُوا بِأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أَي: لَا تَجْعَلُوا عِيسَى وَأُمَّهُ مَعَ اللَّهِ شَرِيكَيْنِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عُلُوءًا كَبِيرًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَسْتَهْوَأُ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أَي: يَكُنْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أَي: تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنِ ذَلِكَ عُلُوءًا كَبِيرًا ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أَي: الْجَمِيعُ مِلْكُهُ وَخَلَقُهُ وَجَمِيعُ مَا فِيهِمَا عِبِيدُهُ ، وَهُمْ تَحْتَ تَذْيِيرِهِ وَتَضْرِيغِهِ ، وَهُوَ وَكِيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْهُمْ صَاحِبَةٌ أَوْ وَلَدٌ .

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٧٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٧﴾

قَوْلُهُ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ لَنْ يَسْتَكْبِرَ ، وَقِيلَ: إِنَّمَا ذَكَرَ الْمَلَائِكَةَ . لِأَنَّهُمْ اخْتَذُوا إِلَهَةً مَعَ اللَّهِ كَمَا اخْتَذَ الْمَسِيحُ ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ عِبِيدٌ مِنْ عِبَادِهِ وَخَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أَي: فَيَجْمَعُهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ وَلَا يَحِيفُ . وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يَعْنِي: فَيُعْطِيهِمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ، وَيَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَامْتِنَانِهِ . ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أَي: اِمْتَنَعُوا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ ذَلِكَ ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

يَتَأَيُّبُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿٧٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَهَدِيٍّ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٧٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا جَمِيعَ النَّاسِ ، وَمُخْبِرًا هُمْ بِأَنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مِنْهُ بُرْهَانٌ عَظِيمٌ ، وَهُوَ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ لِلْعُذْرِ وَالْحُجَّةُ الْمَزِيدَةُ لِلشُّبْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ أَي: ضِيَاءً وَاضِحًا عَلَى الْحَقِّ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ: هُوَ الْقُرْآنُ . ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أَي: جَمَعُوا بَيْنَ مَقَامِي الْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا

بِالْقُرْآنِ . ﴿ فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ أَي : يَرْحَمُهُمْ فَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ وَيَزِيدُهُمْ ثَوَابًا وَمُضَاعَفَةً وَرَفْعًا فِي دَرَجَاتِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ﴿ وَهَدَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴾ أَي : طَرِيقًا وَاضِحًا قَصْدًا قَوَامًا لَا إِعْوجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ آمَرُوا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَتَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

عَنِ الْبَرَاءِ ؓ قَالَ : آخِرُ سُورَةِ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ ، وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْكَلَالَةِ وَاشْتِقَاقِهَا ، وَأَنَّهَا مَأْخُودَةٌ مِنَ الْإِكْلِيلِ الَّذِي يُحِيطُ بِالرَّأْسِ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَهَذَا فَمَيَّزَهَا أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ : بِمَنْ يَمُوتُ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : الْكَلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ إِنْ آمَرُوا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ .

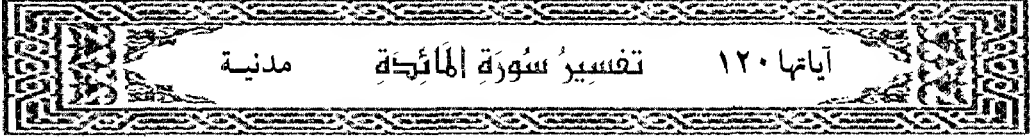
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ آمَرُوا هَلَكَ ﴾ أَي : مَاتَ . ﴿ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ تَمَسَّكَ بِهِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْكَلَالَةِ انْتِفَاءُ الْوَالِدِ بَلْ يَكْفِي فِي وُجُودِ الْكَلَالَةِ انْتِفَاءُ الْوَلَدِ ، وَلَكِنْ الَّذِي يُرْجِعُ إِلَيْهِ هُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ وَفَضَاءُ الصَّدِيقِ أَنَّهُ الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ وَلَوْ كَانَ مَعَهَا أَبٌ لَمْ تَرِثْ شَيْئًا ؛ لِأَنَّهُ يَحْجُبُهَا بِالْإِجْمَاعِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، وَلَا وَالِدَ بِنَصِّ عِنْدِ التَّامُّلِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الْأُخْتَ لَا يُفَرِّضُ لَهَا النِّصْفَ مَعَ الْوَالِدِ ، بَلْ لَيْسَ لَهَا مِيرَاثٌ بِالْكُلِّيَّةِ . ﴿ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ﴾ أَي : وَالْأَخُ يَرِثُ جَمِيعَ مَا لَهَا إِذَا مَاتَتْ كَلَالَةً وَلَيْسَ لَهَا وَلَدٌ ، أَي : وَلَا وَالِدٌ ؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَ لَهَا وَالِدٌ لَمْ يَرِثْ الْأَخُ شَيْئًا ، فَإِنْ فُرِضَ أَنَّ مَعَهُ مَنْ لَهُ فَرَضٌ صَرَفَ إِلَيْهِ فَرَضُهُ كَزَوْجٍ أَوْ أَخٍ مِنْ أُمٍّ وَصَرَفَ الْبَاقِي إِلَى الْأَخِ لِقَوْلِهِ ﷻ : « أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا أَبَقَتِ الْفَرَائِضُ فَلِأُولَى رَجُلٍ ذَكَرَ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أَي : فَإِنْ كَانَ لِمَنْ يَمُوتُ كَلَالَةً أُخْتَانِ فُرِضَ لهُمَا الثُّلَثَانِ ، وَكَذَا مَا زَادَ عَلَى الْأُخْتَيْنِ فِي حُكْمِهِمَا ، وَمِنْ هَهُنَا أَخَذَ الْجَمَاعَةُ حُكْمَ الْبِتْنَيْنِ ، كَمَا أُسْتُفِيدَ حُكْمُ الْأَخَوَاتِ مِنَ الْبَنَاتِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَتَيْنِ ﴾ هَذَا حُكْمُ الْعَصَبَاتِ مِنَ الْبَنِينَ وَبَنِي الْبَنِينَ ، وَالْإِخْوَةُ إِذَا اجْتَمَعَ ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ أُعْطِيَ الذَّكَرُ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَتَيْنِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أَي : يَفْرِضُ لَكُمْ فَرَائِضَهُ وَيَحُدُّ لَكُمْ حُدُودَهُ ، وَيُوضِّحُ لَكُمْ

شَرَائِعَهُ . ﴿ أَنْ تَضْلُوا ﴾ أَي : لِئَلَّا تَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ الْبَيَانِ ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَي : هُوَ عَالِمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ لِعِبَادِهِ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَرَابَاتِ بِحَسَبِ قُرْبِهِ مِنَ الْمُتَوَفَّى .

انْتَهَى تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّسَاءِ وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَ : آخِرُ سُورَةِ أَنْزَلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ؕ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ؕ إِنْ اللَّهُ تَحَكَّمَ مَا يُرِيدُ ۖ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعْبِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرَ الْحَرَامَ وَلَا أَهْدَى وَلَا أَلْقَلِيدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِمَّن رَزَقُوا وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ؕ وَلَا تَحْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ؕ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ ؕ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ يَعْنِي بِالْعُقُودِ : الْعُهُودُ ، وَالْعُهُودُ مَا كَانُوا يَتَعَاهَدُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَلْفِ وَغَيْرِهِ ، قِيلَ : يَعْنِي بِالْعُهُودِ : مَا أَحَلَّ اللَّهُ ، وَمَا حَرَّمَ ، وَمَا فَرَضَ ، وَمَا حَدَّثَ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ ، وَلَا تَعُدُّوْا وَلَا تَنْكُثُوا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ هِيَ : الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ الظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفِقَةُ وَالْمُؤَفَّقَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْأَنْعَامِ إِلَّا أَنَّهَا تَحْرُمُ بِهَذِهِ الْعَوَارِضِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ يَعْنِي : مِنْهَا ، فَإِنَّهُ حَرَامٌ لَا يُمَكِّنُ اسْتِدْرَاكُهُ وَتَلَاخُفُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أَي : إِلَّا مَا سَيَلَى عَلَيْكُمْ مِنْ تَحْرِيمِ بَعْضِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ أَحْلَلْنَا لَكُمْ الْأَنْعَامَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ،

فَحَرَّمُوا الصَّيْدَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بِهَذَا ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي جَمِيعِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي بِذَلِكَ : مَنَاسِكَ الْحَجِّ ، وَقَالَ آخَرُونَ : الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ وَالْهُذْيَ وَالْبُدْنَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، وَقِيلَ : شَعَائِرُ اللَّهِ مُحَارِمُهُ : أَيُّ لَا تُحْلُوا مُحَارِمَ اللَّهِ الَّتِي حَرَّمَهَا تَعَالَى ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : تَحْرِيمُهُ وَالْإِعْتِرَافُ بِتَعْظِيمِهِ ، وَتَرْكُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْ تَعَاطِيهِ فِيهِ ، مِنْ الْإِبْتِدَاءِ بِالْقِتَالِ ، وَتَأْكِيدِ اجْتِنَابِ الْمُحَارِمِ ، وَقَدْ حَكَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَلَّ قِتَالَ أَهْلِ الشِّرْكِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ وَغَيْرِهَا مِنْ شُهُورِ السَّنَةِ . قَالَ : وَكَذَلِكَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكَ لَوْ قَلَّدَ عُنْقَهُ أَوْ ذَرَأَ عَلَيْهِ بِلَحَاءَ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْحَرَمِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَهُ أَمَانًا مِنَ الْقَتْلِ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ تَقَدَّمَ لَهُ عَقْدُ ذِمَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَمَانٌ . ﴿ وَلَا الْهُذْيَ وَلَا الْفَلَنَيْدَ ﴾ يَعْنِي : لَا تَتَرَكُّوا الْإِهْدَاءَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ فَإِنَّ فِيهِ تَعْظِيمًا لَشَعَائِرِ اللَّهِ ، وَلَا تَتَرَكُّوا تَقْلِيدَهَا فِي أَعْنَاقِهَا لِتَسْمِيَةِ بِهَا عَمَّا عَدَاهَا مِنَ الْأَنْعَامِ ، وَلِيُعْلَمَ أَنَّهَا هَدْيٌ إِلَى الْكَعْبَةِ فَيَجْتَنِبُهَا مَنْ يُرِيدُهَا بِسُوءٍ ، وَتَبَعْتُ مَنْ يَرَاهَا عَلَى الْإِثْبَانِ بِمِثْلِهَا . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَلَا الْفَلَنَيْدَ ﴾ فَلَا تَسْتَحِلُّوهُ ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا خَرَجُوا مِنْ أَوْطَانِهِمْ فِي غَيْرِ الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ قَلَّدُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشَّعْرِ وَالْوَبَرِ ، وَتَقَلَّدَ مُشْرِكُو الْحَرَمِ مِنْ لِحَاءِ شَجَرِ الْحَرَمِ فَيَأْمَنُونَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَفَعُونَ فُضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾ أَيُّ : وَلَا تَسْتَحِلُّوا قِتَالَ الْقَاصِدِينَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي مَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَكَذَا مَن قَصَدَهُ طَالِبًا فَضْلَ اللَّهِ ، وَرَاغِبًا فِي رِضْوَانِهِ فَلَا تُصَدُّوهُ وَلَا تَمْنَعُوهُ وَلَا تَهَيِّجُوهُ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَتَتَفَعُونَ فُضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ : يَعْنِي بِذَلِكَ التَّجَارَةَ . ﴿ وَرِضْوَانًا ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : يَتَرَضَّوْنَ اللَّهَ بِحُجَّتِهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ أَيُّ : إِذَا فَرَعْتُمْ مِنْ إِحْرَامِكُمْ وَأَحْلَلْتُمْ مِنْهُ فَقَدْ أَبْخْنَا لَكُمْ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْكُمْ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ مِنَ الصَّيْدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾ مَعْنَاهَا : لَا تَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ قَوْمٍ قَدْ كَانُوا صَدُّوكُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - وَذَلِكَ عَامُ الْحُدُيَّةِ - عَلَى أَنْ تَعْتَدُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيكُمْ فَتَقْتَصُوا مِنْهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ، بَلْ احْكُمُوا بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَمَا سَبَّأَتِي مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٨] أَيُّ : لَا تَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ أَقْوَامٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ ، فَإِنَّ الْعَدْلَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ حَالٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُعَاوَنَةِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَهُوَ الْبِرُّ ، وَتَرْكُ الْمُنْكَرَاتِ وَهُوَ التَّقْوَى ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّنَاصُرِ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الْإِثْمُ : تَرْكُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِفِعْلِهِ ، وَالْعُدْوَانُ : مُجَاوَزَةُ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ وَفِي غَيْرِكُمْ .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ۚ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَبْسُ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ ۗ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عِبَادَهُ خَبْرًا مُتَضَمِّنًا النَّهْيَ عَنْ تَعَاطِي هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ مِنَ الْمِيتَةِ : وَهِيَ مَا مَاتَ مِنَ الْحَيَوَانِ حَتْفَ أَنْفِهِ مِنْ غَيْرِ ذِكَاةٍ وَلَا إِصْطِيَادٍ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَضَرَّةِ لِمَا فِيهَا مِنَ الدَّمِ الْمُحْتَقِنِ ، فَهِيَ ضَارَةٌ لِلدِّينِ وَلِلْبَدَنِ ، فَلِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ ، وَيُسْتَشْنَى مِنَ الْمِيتَةِ السَّمَكُ فَإِنَّهُ حَلَالٌ سِوَاهُ مَا مَاتَ بِتَذَكِّيَةٍ أَوْ غَيْرِهَا ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْدَّمُ ﴾ يَعْنِي بِهِ : الْمُسْفُوحُ لِقَوْلِهِ : ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ يَعْنِي : إِنْسِيَهُ وَوَحْشِيَهُ ، وَاللَّحْمُ يَعُمُّ جَمِيعَ أَجْزَائِهِ حَتَّى الشَّحْمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ أَيُّ : مَا ذُبِحَ فَذَكَرَ عَلَيْهِ اسْمُ غَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ حَرَامٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ أَنْ تُذْبَحَ مَخْلُوقَاتُهُ عَلَى اسْمِهِ الْعَظِيمِ ، فَمَتَى عُدِلَ بِهَا عَنْ ذَلِكَ وَذَكَرَ عَلَيْهَا اسْمُ غَيْرِهِ مِنْ صَنَمٍ أَوْ طَاغُوتٍ أَوْ وَثْنٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَإِنَّهَا حَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْمُنْخَنِقَةُ ﴾ وَهِيَ الَّتِي تَمُوتُ بِالْحَنْقِ ، إِمَّا قَصْدًا وَإِمَّا إِتْفَاقًا ، بِأَنْ تَتَخَبَّلَ فِي وَثَاقِهَا فَتَمُوتَ بِهِ ، فَهِيَ حَرَامٌ ، وَأَمَّا ﴿ وَالْمَوْقُوذَةُ ﴾ فَهِيَ الَّتِي تُضْرَبُ بِشَيْءٍ ثَقِيلٍ غَيْرِ مُحَدَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ . وَأَمَّا الْمُتَرَدِّيَةُ : فَهِيَ الَّتِي تَقَعُ مِنْ شَاهِقٍ أَوْ مَوْضِعٍ عَالٍ فَتَمُوتُ بِذَلِكَ فَلَا تَحِلُّ . وَأَمَّا النَّطِيحَةُ : فَهِيَ الَّتِي مَاتَتْ بِسَبَبِ نَطْحٍ غَيْرِهَا لَهَا ، فَهِيَ حَرَامٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ أَيُّ : مَا عَدَا عَلَيْهَا أَسَدٌ أَوْ فَهْدٌ أَوْ نَمْرٌ أَوْ ذئبٌ أَوْ كَلْبٌ فَأَكَلَ بَعْضَهَا فَهَاتَتْ بِذَلِكَ فَهِيَ حَرَامٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ ﴾ عَائِدٌ عَلَى مَا يُمَكِّنُ عَوْدَهُ عَلَيْهِ بِمَا انْعَقَدَ سَبَبُ مَوْتِهِ فَأَمَكَّنَ نَدَارُكُهُ بِذِكَاةٍ ، وَفِيهِ حَيَاةٌ مُسْتَقَرَّةٌ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : كَانَتْ النُّصُبُ حِجَارَةً حَوْلَ الْكَعْبَةِ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : وَهِيَ ثَلَاثُائَةِ وَسِتُّونَ نُصْبًا ، كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَذْبَحُونَ عِنْدَهَا وَيَنْضَحُونَ مَا أَقْبَلَ مِنْهَا إِلَى الْبَيْتِ بِدَمَاءِ تِلْكَ الذَّبَائِحِ ، وَيُسْرَحُونَ اللَّحْمَ وَيَصْعُقُونَهُ عَلَى النُّصُبِ . فَنَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ هَذِهِ الذَّبَائِحِ الَّتِي فَعَلَتْ عِنْدَ النُّصُبِ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ يُذَكَّرُ عَلَيْهَا اسْمُ اللَّهِ لَمَا فِي الذَّبْحِ عِنْدَ النُّصُبِ مِنَ الشَّرِكِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ﴾ أَيُ : حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْإِسْتِقْسَامَ بِالْأَزْلَمِ ، وَاجِدَهَا : زُلْمٌ ، وَقَدْ تَفَتَّحَ الزَّايُ فَيُقَالُ : زَلَمَ ، وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَتَعَاطُونَ ذَلِكَ ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قِدَاحِ ثَلَاثَةٍ عَلَى أَحَدِهَا مَكْتُوبٌ : اِفْعَلْ ، وَعَلَى الْآخِرِ : لَا تَفْعَلْ ، وَالثَّلَاثُ : غُفْلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَإِذَا أَجَاهَا فَطُلِعَ سَهْمُ الْأَمْرِ فَعَلَهُ ، أَوْ النَّهْيُ تَرَكَهُ ، وَإِنْ طَلَعَ الْفَارُغُ أَعَادَ ، وَالْإِسْتِقْسَامُ مَاخُودٌ مِنْ طَلَبِ الْقِسْمِ مِنْ هَذِهِ الْأَزْلَمِ . ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ﴾ ذَلِكَمُ فُسُوقٌ أَيُ : تَعَاطِيهِ فُسُوقٌ وَغَيٌّ وَضَلَالَةٌ وَجَهَالَةٌ وَشُرْكٌ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَرَدَّدُوا فِي أُمُورِهِمْ أَنْ يَسْتَخِيرُوهُ ، بِأَنْ يَعْبُدُوهُ ، ثُمَّ يَسْأَلُوهُ الْخَيْرَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي يُرِيدُونَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ الْيَوْمَ يَيسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾ يَعْنِي : يَتَّسِعُوا أَنْ يَرَا جِعُوا دِينَهُمْ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَتَّسِعُوا مِنْ مُشَابَهَةِ الْمُسْلِمِينَ لِمَا تَمَيَّزَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرِكِ وَأَهْلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْبِرُوا وَيَثْبُتُوا فِي مُحَالِفَةِ الْكُفَّارِ وَلَا يَخَافُوا أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ فَقَالَ : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ أَيُ : لَا تَخَافُوهُمْ فِي مُحَالِفَتِكُمْ إِيَّاهُمْ ، وَاخْشَوْنِي أَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَأَيِّدُهُمْ وَأُظْفِرْكُمْ بِهِمْ ، وَأَشْفِ صُدُورَكُمْ مِنْهُمْ ، وَأَجْعَلْكُمْ فَوْقَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ هَذِهِ أَكْبَرُ نِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ حَيْثُ أَكْمَلَ تَعَالَى لَهُمْ دِينَهُمْ فَلَا يَخْتَاجُونَ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ ، فَلَمَّا أَكْمَلَ لَهُمُ الدِّينَ تَمَّتْ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ أَيُ : فَارْضَوْهُ أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ؛ فَإِنَّهُ الدِّينُ الَّذِي أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَضِيَهُ وَبَعَثَ بِهِ أَفْضَلَ الرُّسُلِ الْكَرَامِ ، وَأَنْزَلَ بِهِ أَشْرَفَ كُتُبِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْطِئَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيُ : فَمَنْ احْتَجَّ إِلَى تَنَاوُلِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِضُرُورَةِ الْجَنَاحَةِ إِلَى ذَلِكَ ، فَلَهُ تَنَاوُلُهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴾ أَيُ : غَيْرِ مُتَعَاطٍ لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبَاحَ ذَلِكَ لَهُ وَسَكَتَ عَنِ الْآخِرِ .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١٠

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ فِي الْآيَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ مِنَ الْخَبَائِثِ الضَّارَّةِ لِمُتَنَاوِلِهَا إِمَّا فِي بَدَنِهِ أَوْ فِي دِينِهِ أَوْ فِيهِمَا، إِسْتَنْهَاهُ فِي حَالَةِ الضَّرُورَةِ، قَالَ بَعْدَهَا: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أَي: أُحِلَّ لَكُمْ الذَّبَائِحُ الَّتِي ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الرِّزْقِ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا صَدَّمْتُمُوهُ بِالْجَوَارِحِ، وَهِيَ مِنَ الْكِلَابِ وَالْفُهُودِ وَالصُّقُورِ وَأَشْبَاهِهَا، وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي يُصْطَادُّ بِهَا جَوَارِحُ مِنَ الْجُرْحِ: وَهُوَ الْكَسْبُ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: فَلَانُ جَرَحَ أَهْلُهُ خَيْرًا. أَي: كَسَبَهُمْ خَيْرًا، وَيَقُولُونَ: فَلَانٌ لَا جَارِحَ لَهُ، أَي: لَا كَاسِبَ لَهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أَي: مَا كَسَبْتُم مِّنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي عَلَّمْتُم؛ فَيَكُونُ حَالًا مِنَ الْفَاعِلِ، وَحَتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْمَفْعُولِ، وَهُوَ الْجَوَارِحُ، أَي: وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ فِي حَالِ كَوْنِهِنَّ مُكَلِّبَاتٍ لِلصَّيْدِ، وَذَلِكَ أَنْ تَقْتَنِصَهُ بِمَخَالِبِهَا أَوْ أَظْفَارِهَا، فَيُسْتَنْدَلُ بِذَلِكَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - عَلَى أَنَّ الْجَارِحَةَ إِذَا قَتَلَ الصَّيْدَ بِصَدْمَتِهِ لَا بِمَخْلَابِهِ وَظُفْرِهِ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ، وَهَذَا قَالَ: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَرْسَلَهُ اسْتَرْسَلَ، وَإِذَا أَشْلَاهُ اسْتَشْلَى، وَإِذَا أَخَذَ الصَّيْدَ أَمْسَكَهُ عَلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَجِيءَ إِلَيْهِ، وَلَا يُمْسِكُهُ لِنَفْسِهِ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فَمَتَى كَانَ الْجَارِحُ مُعَلِّمًا وَأَمْسَكَ عَلَى صَاحِبِهِ وَكَانَ قَدْ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَتَ إِزْسَالِهِ، حَلَّ الصَّيْدُ وَإِنْ قَتَلَهُ بِالْإِجْمَاعِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أَي: عِنْدَ إِزْسَالِهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ»، وَفِي حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ فَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَإِذَا رَمَيْتَ بِسَهْمِكَ فَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ»، وَهَذَا اشْتَرَطَ مَنِ اشْتَرَطَ مِنَ الْأَئِمَّةِ: التَّسْمِيَةَ عِنْدَ إِزْسَالِ الْكَلْبِ وَالرَّمْيِ بِالسَّهْمِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ: الْأَمْرُ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْإِزْسَالِ .

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ

فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿١٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَبَائِثِ ، وَمَا أَحَلَّهُ لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ حُكْمَ ذَبَائِحِ أَهْلِ الْكِتَابِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَقَالَ : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : يَعْنِي ذَبَائِحَهُمْ . وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ ذَبَائِحَهُمْ حَلَالٌ لِلْمُسْلِمِينَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ ﴾ أَيُّ : وَيَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَطْعِمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحِكُمْ . ﴿ وَالْخَصَنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَتِ ﴾ أَيُّ : وَأَحِلَّ لَكُمْ نِكَاحُ الْحَرَائِرِ الْعَفَافِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَذَكَرَ هَذَا تَوَظُّعًا لِمَا بَعْدَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْخَصَنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُخَصَّنَاتِ : الْعَفِيفَاتُ عَنِ الزِّنَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذَا عَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ أَيُّ : مُهُورَهُنَّ ، أَيُّ كَمَا هُنَّ مُخَصَّنَاتٌ عَفَافٌ فَاذْبُلُوا لَهُنَّ الْمُهُورَ عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ . ﴿ مُخَصَّنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ فَكَمَا شَرَطَ الْإِحْصَانَ فِي النِّسَاءِ وَهِيَ الْعِفَّةُ عَنِ الزِّنَا ، كَذَلِكَ شَرَطَهَا فِي الرِّجَالِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مُخَصَّنًا عَفِيفًا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴾ وَهُمْ الزَّانَاةُ الَّذِينَ لَا يَرْتَدُّونَ عَنْ مَعْصِيَةٍ ، وَلَا يَرْتَدُّونَ أَنْفُسَهُمْ عَنْ جَاءِهِمْ ﴿ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ أَيُّ : ذَوِي الْعَشِيقَاتِ الَّذِينَ لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا مَعَهُنَّ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾

قَالَ كَثِيرُونَ مِنَ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ يَعْنِي : وَأَنْتُمْ مُحْدَثُونَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ يُسْتَحَبُّ قَبْلَ غَسْلِ الْوَجْهِ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى وَضُوئِهِ ، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَغْسِلَ كَفَّيْهِ قَبْلَ إِدْخَالِهِمَا فِي الْإِنَاءِ ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ عِنْدَ الْقِيَامِ مِنَ النَّوْمِ ؛ وَحَدُّ الْوَجْهِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ مَا بَيْنَ مَنَابِتِ شَعْرِ الرَّأْسِ - وَلَا اعْتِبَارَ بِالصَّلَعِ وَلَا بِالْغَمِّ - إِلَى مُنْتَهَى اللَّحْيَيْنِ وَالذَّقْنِ طَوْلًا ، وَمِنَ الْأُذُنِ إِلَى الْأُذُنِ عَرْضًا . وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ تَمَضُّضًا وَاسْتَنْشَقَ . ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ أَيُّ : مَعَ الْمَرَافِقِ . وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُتَوَضِّئِ أَنْ يَشْرَعَ فِي الْعُضْدِ فَيَغْسِلَهُ مَعَ ذِرَاعَيْهِ . ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ اخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْبَاءِ ، هَلْ هِيَ لِلِلِّصَاقِ ؟ وَهُوَ الْأَطْهَرُ ، أَوْ لِلتَّبْعِيضِ ؟ وَفِيهِ نَظَرٌ عَلَى قَوْلَيْنِ ، وَمِنَ الْأَصُولِيِّينَ مَنْ قَالَ : هَذَا

جُمْلٌ فَلْيَرْجِعْ فِي بَيَانِهِ إِلَى السُّنَّةِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ : هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرَبِّيَنِي كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ : نَعَمْ ، فَدَعَا بِوَضُوءٍ فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ فَغَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ ثَلَاثًا ، وَغَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَأَدْبَرَ ، بَدَأَ بِمُقَدِّمِ رَأْسِهِ ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ ، ثُمَّ رَدَّهُمَا حَتَّى رَجَعَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ قُرِئَ ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿ فَأَغْسِلُوا وَجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَرَأَهَا ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ يَقُولُ : رَجَعْتَ إِلَى الْغَسْلِ . وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي وَجُوبِ الْغَسْلِ كَمَا قَالَهُ السَّلَفُ .

وَمِنْ هَهُنَا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى وَجُوبِ التَّرْتِيبِ فِي الْوَضُوءِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ . وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ آمِرًا بِغَسْلِ الرَّجْلَيْنِ كَمَا فِي قِرَاءَةِ النَّصْبِ ، وَكَمَا هُوَ الْوَاجِبُ فِي حَمْلِ قِرَاءَةِ الْحَقْضِ عَلَيْهِ ، تَوَهَّمَ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَاسِخَةٌ لِرُخْصَةِ الْمَسْحِ عَلَى الْخَفَيْنِ . وَلَيْسَ كَمَا زَعَمُوهُ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَسَحَ عَلَى الْخَفَيْنِ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ . وَقَدْ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَشْرُوعِيَّةُ الْمَسْحِ عَلَى الْخَفَيْنِ قَوْلًا مِنْهُ وَفِعْلًا ، وَعِنْدَ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْكَعْبَيْنِ هُمَا الْعِظْمَانِ النَّاتِيَانِ عِنْدَ مَفْصِلِ السَّاقِ وَالْقَدَمِ وَفِي كُلِّ قَدَمٍ كَعْبَانِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ كُلُّ ذَلِكَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ النِّسَاءِ . ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أَيُّ : فَلِهَذَا سَهَّلَ عَلَيْكُمْ وَيَسَّرَ وَلَمْ يُعَسِّرْ ، بَلْ أَبَاحَ التَّيَمُّمَ عِنْدَ الْمَرَضِ ، وَعِنْدَ فَقْدِ الْمَاءِ ، تَوْسِيعَةً عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيُّ : لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نِعْمَةً عَلَيْكُمْ فِيمَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ التَّوَسُّعِ وَالرَّافَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْتَّسْهِيلِ وَالسَّهَاحَةِ .

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا اللَّهَ عَالِمُ بَدَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعِدُّوا لَهُمْ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ اِذْ هُمْ قَوْمٌ اَنْ يَتَسَطُّوا اِلَيْكُمْ اَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاَتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ فِي شَرْعِهِ هُمْ هَذَا الدِّينَ الْعَظِيمَ ، وَإِزْسَالِهِ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ، وَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ فِي مُبَايَعَتِهِ عَلَى مُتَابَعَتِهِ وَمُنَاصَرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ ، وَالْقِيَامِ بِدِينِهِ ، وَإِبْلَاغِهِ عَنْهُ ، وَقَبُولِهِ مِنْهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيشْفَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ اِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ وَهَذِهِ هِيَ الْبَيْعَةُ الَّتِي كَانُوا يُبَايِعُونَ عَلَيْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ إِسْلَامِهِمْ ، كَمَا قَالُوا : يَا نِعْمَتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا ، وَآتِرَةٍ عَلَيْنَا ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ تَأْكِيدٌ وَتَحْزِيرٌ عَلَى مُوَاطَبَةِ التَّقْوَى فِي كُلِّ حَالٍ ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَتَخَالَجُ فِي الصَّمَائِرِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْخَوَاطِرِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْحَقِّ لِلَّهِ ﷻ ، لَا لِأَجْلِ النَّاسِ وَالسُّمْعَةِ ، وَكُونُوا ﴾ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ أَيُ : بِالْعَدْلِ لَا بِالْجَوْرِ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ أَيُ : لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ قَوْمٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِيهِمْ ، بَلِ اسْتَعْمِلُوا الْعَدْلَ فِي كُلِّ أَحَدٍ ، صَدِيقًا كَانَ أَوْ عَدُوًّا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ أَيُ : عَدْلُكُمْ أَقْرَبُ إِلَى التَّقْوَى مِنْ تَرْكِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي لَيْسَ فِي الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنْهُ شَيْءٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُ : وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْ أَفْعَالِكُمُ الَّتِي عَمِلْتُمُوهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ ، أَيُ : لِدُنُوبِهِمْ ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وَهُوَ الْجَنَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ رَحْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ لَا يَنَالُوهَا بِأَعْمَالِهِمْ ، بَلْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ وَصُولِ الرَّحْمَةِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ ، وَهُوَ تَعَالَى الَّذِي جَعَلَهَا أَسْبَابًا إِلَى نَيْلِ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ ، فَالْكُلُّ مِنْهُ وَلَهُ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِفَايْتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ وَحُكْمِهِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ ، بَلْ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ اِذْ هُمْ قَوْمٌ اَنْ يَتَسَطُّوا اِلَيْكُمْ اَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ عَنْ جَابِرٍ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ مَنْزِلًا وَفَرَّقَ النَّاسَ فِي الْعِضَاءِ يَسْتَظِلُّونَ مِنْهَا ، وَعَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ سِلَاحَهُ بِشَجَرَةٍ ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى سَيْفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَهُ

فَسَلَّهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : « اللَّهُ ﷻ » ، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « اللَّهُ » ، قَالَ : فَشَامَ الْأَعْرَابِيُّ السَّيْفَ فَدَعَا النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابَهُ فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَ الْأَعْرَابِيِّ وَهُوَ جَالِسٌ إِلَى جَنْبِهِ وَلَمْ يُعَاقِبْهُ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ يَعْنِي : مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ مَا أَهَمَّهُ ، وَحَفِظَهُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ وَعَصَمَهُ .

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠﴾ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِبَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٢﴾

لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ وَمِيثَاقِهِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقِيَامِ بِالْحَقِّ وَالشَّهَادَةِ بِالْعَدْلِ ، وَذَكَرَهُمْ نِعْمَةً عَلَيْهِمْ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ فِيمَا هَدَاهُمْ لَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالهُدَى ، شَرَعَ يُبَيِّنُ لَهُمْ كَيْفَ أَخَذَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ : الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَلَمَّا نَقَضُوا عُهُودَهُ وَمَوَاقِيقَهُ أَعَقَبَهُمْ ذَلِكَ لَعْنًا مِنْهُ هُمْ ، وَطَرْدًا عَنْ بَابِهِ وَجَنَابِهِ ، وَحِجَابًا لِقُلُوبِهِمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، وَهُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ يَعْنِي : عُرَفَاءَ عَلَى قَبَائِلِهِمْ بِالْمُبَايَعَةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ .

وَهَكَذَا لَمَّا بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَنْصَارَ كَلِمَةَ الْعَقِبَةِ ؛ كَانَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ نَقِيبًا : هَؤُلَاءِ كَانُوا عُرَفَاءَ عَلَى قَوْمِهِمْ لِيَتَّبِعُوا أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ هُمْ بِذَلِكَ ، وَهُمْ الَّذِينَ وُلُّوا الْمُعَاقِدَةَ وَالْمُبَايَعَةَ عَنْ قَوْمِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ أَيُّ : بِحِفْظِي وَكِلَافَتِي وَنَصْرِي ، ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ

وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي ﴿ أَيْ : صَدَقْتُمُوهُمْ فِيمَا يَحْيِيُونَكُمْ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ ﴾ وَعَزَّزْتُمُوهُمْ ﴿ أَيْ : نَصَرْتُمُوهُمْ وَأَزَّرْتُمُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ ﴾ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴿ وَهُوَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءُ مَرْضَاتِهِ ﴾ ، ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أَيْ : ذُنُوبَكُمْ أَخْوَاهَا وَأَسْتُرُهَا وَلَا أُؤَاخِذْكُمْ بِهَا ﴿ وَلَا دَخِلَنَّاكُمْ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَيْ : أَدْفَعُ عَنْكُمْ الْمَحْذُورَ وَأَحْصَلَ لَكُمْ الْمَقْصُودَ ، ﴿ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أَيْ : فَمَنْ خَالَفَ هَذَا الْمِيثَاقَ بَعْدَ عَقْدِهِ وَتَوَكُّيدِهِ وَشَدِّهِ ، وَجَحَدَهُ وَعَامَلَهُ مُعَامَلَةً مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، فَقَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ ، وَعَدَلَ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عِنْدَ مُحَالَفَتِهِمْ مِيثَاقَهُ وَنَقْضِهِمْ عَهْدَهُ . فَقَالَ : ﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾ أَيْ : فَسَبَبِ نَقْضِهِمُ الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ ، لَعَنَّاهُمْ أَيْ : أَبْعَدْنَاهُمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَطَرَدْنَاهُمْ عَنِ الْهُدَى ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ أَيْ : فَلَا يَتَعَبَّوْنَ بِمَوْعِظَةٍ لِيُغْلِظَهَا وَقَسَاوَتْهَا ﴿ تَخْرُجُونَ أَلْكَالِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ أَيْ : فَسَدَتْ فُهْمُهُمْ وَسَاءَ تَصَرُّفُهُمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ ، وَتَأَوَّلُوا كِتَابَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ ، وَحَمَلُوهُ عَلَى غَيْرِ مُرَادِهِ ، وَقَالُوا عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ - عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أَيْ : وَتَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ رَغْبَةً عَنْهُ . ﴿ وَلَا تَرَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِنْهُمْ ﴾ يَعْنِي : مَكْرُهُمْ وَعَدْرُهُمْ لَكَ وَلَا صَحَابِكَ ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ ﴾ وَهَذَا هُوَ عَيْنُ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ . كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَا عَامَلْتُ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ فِيهِ ، وَبِهَذَا يُحْصَلُ لَهُمْ تَأْلِيفٌ وَجَمْعٌ عَلَى الْحَقِّ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يَعْنِي بِهِ : الصَّفْحَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ ﴾ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ أَيْ : وَمِنَ الَّذِينَ إِدْعَوْا لَأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ نَصَارَى مُتَابِعُونَ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام وَلَيْسُوا كَذَلِكَ ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمُ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَمُنَاصَرَتِهِ وَمُؤَاوَزَتِهِ وَاقْتِفَاءِ آثارِهِ ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِكُلِّ نَبِيٍّ يُرْسِلُهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَفَعَلُوا كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ ، خَالَفُوا الْمَوَاقِيقَ وَنَقَضُوا الْعُهُودَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَاعْرِضْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ أَيْ : فَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا ، وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَكَذَلِكَ طَوَائِفُ النَّصَارَى عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ لَا يَزَالُونَ مُتَبَاغِضِينَ مُتَعَادِينَ يُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَكُلُّ فِرْقَةٍ تُحَرِّمُ الْأُخْرَى ، وَلَا تَدْعُهَا تَلِجَ مَعْبَدَهَا ، فَالْمَلَائِكَةُ تُكْفِّرُ الْيَهُودِيَّةَ وَكَذَلِكَ الْآخَرُونَ ، وَكَذَلِكَ النَّسْطُورِيَّةُ وَالْأَرْيُوسِيَّةُ ، كُلُّ طَائِفَةٍ تُكْفِّرُ الْأُخْرَى فِي

هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِلنَّصَارَى عَلَى مَا اِزْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَا نَسَبُوهُ إِلَى الرَّبِّ ﷻ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوءًا كَبِيرًا .

يَتَأَهَّلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِإِهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ ، أُمِّيَّهُمْ وَكِتَابِيَّهِمْ ، وَأَنَّهُ بَعَثَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْفُرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أَيُّ : يُبَيِّنُ مَا بَدَّلُوهُ وَحَرَّفُوهُ وَأَوَّلُوهُ وَأَفْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ فِيهِ ، وَيَسْكُتُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا غَيَّرُوهُ وَلَا فَائِدَةٌ فِي بَيَانِهِ .

قَوْلُهُ : ﴿ مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ فَكَانَ الرَّجْمُ مِمَّا أَخْفَوُهُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ فَقَالَ : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴿ أَيُّ : طُرُقَ النَّجَاةِ وَالسَّلَامَةِ وَمَنَاجِجِ الْإِسْتِقَامَةِ ﴾ ، ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أَيُّ : يُنَجِّبُهُم مِّنَ الْمَهَالِكِ وَيُوضِّحُ لَهُمُ آيَاتِ الْمَسَالِكِ ، فَيُضَرِّفُ عَنْهُمْ الْمَحْذُورَ ، وَيُحْصِلُ لَهُمُ أَحَبَّ الْأُمُورِ ، وَيُنَبِّئُهُمُ الضَّلَالَةَ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى أَقْوَمِ حَالَةٍ .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا وَحَاكِمًا بِكُفْرِ النَّصَارَى فِي إِدْعَائِهِمْ فِي الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ ، وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ

الله ، وَخَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ ، أَنَّهُ هُوَ اللهُ - تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوءًا كَبِيرًا - ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَكَوْنِهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ : ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أَي : لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ فَمَنْ ذَا الَّذِي كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْهُ ، أَوْ مَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى صَرْفِهِ عَنْ ذَلِكَ ؟ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا سَخَلَقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أَي : جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ مُلْكُهُ وَخَلْقُهُ وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَدْلِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى النَّصَارَى . قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ أَي : نَحْنُ مُتَنَسِّبُونَ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ، وَهُمْ بَنُوهُ وَلَهُ بِهِمْ عِنَايَةٌ ، وَهُوَ يُحِبُّنَا ، وَهَذَا قَالُوا : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ . قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ أَي : لَوْ كُنْتُمْ كَمَا تَدَّعُونَ أَبْنَاءَهُ وَأَحِبَّاءَهُ فَلِمَ أَعَدَّ لَكُمْ نَارَ جَهَنَّمَ عَلَى كُفْرِكُمْ وَكَذِبِكُمْ وَافْتِرَائِكُمْ ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ أَي : لَكُمْ أَسْوَةٌ أَمْثَالِكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْحَاكِمُ فِي جَمِيعِ عِبَادِهِ ، ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَي : هُوَ فَاعِلٌ لِمَا يُرِيدُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَي : الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أَي : الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَى إِلَيْهِ فَيَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ . أَمَّا قَوْلُهُمْ : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ ﴾ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى إِسْرَائِيلَ : وَلَدًا مِنْ وَلَدِكَ أَذْخِلْهُمْ النَّارَ فَيَكُونُونَ فِيهَا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، حَتَّى تَطْهَرَهُمْ وَتَأْكُلَ خَطَايَاهُمْ ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ : أَنْ أَخْرِجُوا كُلَّ مَخْتُونٍ مِنْ وَلَدِ إِسْرَائِيلَ ، فَأَخْرَجُوهُمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُمْ : ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ [آل عمران : ٢٤]

يَتَأَهَّلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، بِأَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ الَّذِي لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولَ ، بَلْ هُوَ الْمُعَقَّبُ لِجَمِيعِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أَي : بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَطَاوِلَةٍ مَا بَيْنَ إِرسَالِهِ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . وَالْمَشْهُورُ هُوَ أَنَّهَا سِتْرَاثَةُ سَنَةٍ ، وَكَانَتِ الْفَتْرَةُ بَيْنَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ آخِرَ أَنْبِيََاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، قَالَ ﷺ : ((إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا ؛ لِأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ)) . وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ ، وَغَيْرِ الْأَدْيَانِ ،

وَكثْرَةَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالنَّيرَانِ وَالصُّلْبَانِ ، فَكَانَتِ النِّعْمَةُ بِهِ أَتَمَّ النِّعَمِ ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَمْرٌ عَمَمٌ ، فَإِنَّ الْفَسَادَ كَانَ قَدْ عَمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ ، وَالطُّغْيَانَ وَالْجُهْلَ قَدْ ظَهَرَ فِي سَائِرِ الْعِبَادِ ، إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِبَقَايَا مِنْ دِينِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ مِنْ بَعْضِ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَعِبَادِ النَّصَارَى وَالصَّابِيِّينَ .
 قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ أَيُّ : لَيْلًا تَحْتَجُّوْا وَتَقُولُوا - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ بَدَّلُوا دِينَهُمْ وَغَيَّرُوهُ - مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُولٍ يُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ وَيُنذِرُ مِنَ الشَّرِّ . ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ مَعْنَاهُ : إِنِّي قَادِرٌ عَلَى عِقَابِ مَنْ عَصَانِي وَثَوَابِ مَنْ أَطَاعَنِي .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٠﴾ يَنْقُومِ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٦١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿١٦٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿١٦٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ فِيمَا ذَكَرَ بِهِ قَوْمَهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالْآلَاءِ لَدَيْهِمْ ، فِي جَمْعِهِ هُمْ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾ أَيُّ : كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ قَامَ فِيكُمْ نَبِيٌّ مِنْ لَدُنْ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ وَكَذَلِكَ كَانُوا لَا يَزَالُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ وَيُحَذِّرُونَ نِقْمَتَهُ حَتَّى خَتَمُوا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَنْسُوبِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَهُوَ أَشْرَفُ مِنْ كُلِّ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ ﷺ . ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ قِيلَ : بِأَمْتِلَاكِ الْخَادِمِ وَالْمَرْأَةِ وَالْبَيْتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يَعْنِي : عَالَمِي زَمَانِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَشْرَفَ

النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ مِنَ الْيُونَانِ وَالْقِبْطِ وَسَائِرِ أَصْنَافِ بَنِي آدَمَ .
وَالْمَقْصُودُ : أَنَّهُمْ كَانُوا أَفْضَلَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ ، وَإِلَّا فَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَشْرَفُ مِنْهُمْ وَأَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ
وَأَكْمَلُ شَرِيعَةً ، وَأَقْوَمُ مِنْهَا جَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَحْرِيطِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى
الْجِهَادِ وَالْدُّخُولِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ الَّذِي كَانَ بِأَيْدِيهِمْ فِي زَمَانِ أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ لَمَّا ارْتَحَلَ هُوَ وَبَنُوهُ
وَأَهْلُهُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ أَيَّامَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا بِهَا حَتَّى خَرَجُوا مَعَ مُوسَى فَوَجَدُوا فِيهَا
قَوْمًا مِنَ الْعَمَلِيقَةِ الْجَبَّارِينَ قَدْ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا وَتَمَلَّكُوهَا ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
بِالدُّخُولِ إِلَيْهَا وَيَقْتَالِ أَعْدَائِهِمْ ، وَبَشَّرَهُمُ بِالنُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ عَلَيْهِمْ ، فَنَكَلُوا وَعَصَوْا وَخَالَفُوا
أَمْرَهُ ، فَعُوقِبُوا بِالذَّهَابِ فِي النَّيِّهِ وَالتَّمَادِي فِي سَيْرِهِمْ حَائِرِينَ ، لَا يَذُرُونَ كَيْفَ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى
مَقْصِدِ مَدَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى تَفْرِيطِهِمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ
مُوسَى أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَنْقُومُ آدَخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾ أَيُّ : الْمُطَهَّرَةَ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ
هِيَ : الطُّورُ وَمَا حَوْلَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : الَّذِي وَعَدَكُمْوهَا اللَّهُ عَلَى لِسَانِ أَبِيكُمْ إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ
وَرِاثَةٌ مِنْ أَمْنٍ مِنْكُمْ ﴿ وَلَا تَزِدُّوا عَلَى آدَبَارِكُمْ ﴾ أَيُّ : وَلَا تَتَكَلَّفُوا عَنِ الْجِهَادِ ، ﴿ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾
﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا
دَاخِلُونَ ﴾ أَيُّ : اعْتَدُوا بِأَنَّ فِي هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي أَمَرْنَا بِدُخُولِهَا وَقِتَالِ أَهْلِهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ،
أَيُّ ذَوِي خَلْقٍ هَائِلَةٍ وَقُوَى شَدِيدَةٍ ، وَإِنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى مُقَاوَمَتِهِمْ وَلَا مُصَاوَلَتِهِمْ وَلَا يُمَكِّنُنَا
الدُّخُولُ إِلَيْهَا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا دَخَلْنَاهَا وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أَيُّ : فَلَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ
عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَمُتَابَعَةِ رَسُولِ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَضَهُمْ رَجُلَانِ ، اللَّهُ عَلَيْهِمَا نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَهُمَا
مِمَّنْ يَخَافُ أَمْرَ اللَّهِ وَيَخْشَى عِقَابَهُ ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : « قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ » أَيُّ : مِمَّنْ
هُمَا مَهَابَةٌ وَمَوْضِعٌ مِنَ النَّاسِ . فَقَالَا : ﴿ آدَخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى
اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : إِنْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرَهُ وَوَأَقِمْتُمْ رَسُولَهُ نَصَرَكُمُ اللَّهُ
عَلَى أَعْدَائِكُمْ ، وَأَيَّدَكُمْ وَظَفَرَكُمُ بِهِمْ وَدَخَلْتُمُ الْبَلَدَ الَّتِي كَتَبَهَا لَكُمْ ، فَلَمْ يَنْفَعْ ذَاكَ فِيهِمْ شَيْئًا .
﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ .
وَهَذَا نَكُولُ مِنْهُمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَخِلَافَةُ لِرَسُولِهِمْ ، وَتَخَلُّفٌ عَنْ مُقَاتَلَةِ الْأَعْدَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ يَعْنِي : لَمَّا
نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنِ الْقِتَالِ غَضِبَ عَلَيْهِمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ دَاعِيًا عَلَيْهِمْ : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ

إِلَّا نَفْسِي وَآخِيَ ﴿١﴾ أَيُّ : لَيْسَ أَحَدٌ يُطِيعُنِي مِنْهُمْ فَيَمْتَثِلُ أَمْرَ اللَّهِ وَيُجِيبَ إِلَى مَا دَعَوْتُ إِلَيْهِ إِلَّا أَنَا وَآخِي هَارُونَ ﴿٢﴾ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٣﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي : إِقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، وَافْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، وَقَالَ آخَرُونَ : أَفْرُقْ : إِفْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٤﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُوتُ فِي الْأَرْضِ ﴿٥﴾ الْآيَةُ . لَمَّا دَعَا عَلَيْهِمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ نَكَلُوا عَنِ الْجِهَادِ ، حَكَمَ اللَّهُ بِتَحْرِيمِ دُخُولِهَا عَلَيْهِمْ قَدَرُ مُدَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿٦﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُوتُ فِي الْأَرْضِ ﴿٥﴾ الْآيَةُ . قَالَ : فَتَاهُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً يُضْبِحُونَ كُلَّ يَوْمٍ يَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَارٌ ، ثُمَّ ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامُ فِي النَّيِّ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ، وَهَذَا قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ الْفُتُونِ ، ثُمَّ كَانَتْ وَفَاةُ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ بَعْدَهُ بِمُدَّةِ ثَلَاثِ سِنِينَ وَفَاةُ مُوسَى الْكَلِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَقَامَ اللَّهُ فِيهِمْ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيًّا خَلِيفَةً عَنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ، وَمَاتَ أَكْثَرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُنَاكَ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَى يُوشَعَ وَكَالِبَ ، وَمِنْ هَهُنَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ : ﴿٧﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴿٨﴾ هَذَا وَقَفَّ تَامٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿٩﴾ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴿١٠﴾ مَنْصُوبٌ بِقَوْلِهِ : ﴿١١﴾ يَتِيهُوتُ فِي الْأَرْضِ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا انْقَضَتِ الْمُدَّةُ خَرَجَ بِهِمْ يُوشَعَ بْنُ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ بِمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ وَبِسَائِرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - مِنَ الْجِيلِ الثَّانِي - فَقَصَدَ بِهِمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَحَاصَرَهَا ، فَكَانَ فَتْحُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ ، فَلَمَّا تَضَيَّقَتِ الشَّمْسُ لِلْعُرُوبِ وَخَشِيَ دُخُولَ السَّبَبِ عَلَيْهِمْ ، قَالَ : إِنَّكَ مَا مُورَةٌ وَأَنَا مَا مُورٌ ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ ، فَحَبَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى فَتَحَهَا ، وَأَمَرَ اللَّهُ يُوشَعَ بْنَ نُونٍ أَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ يَدْخُلُونَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ أَنْ يَدْخُلُوا بِأَبْهَامِ سُجْدًا وَهُمْ يَقُولُونَ : حِطَّةٌ ، أَيْ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبُنَا فَبَدَّلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ ، وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا كُلُّهُ فِي «سُورَةِ الْبَقَرَةِ» .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿١٣﴾ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤﴾ تَسْلِيَةٌ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُمْ أَيُّ : لَا تَأْسَفْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ فِيمَا حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِهِ ، فَإِنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَضَمَّنَتْ تَقْرِيعَ الْيَهُودِ وَبَيَانَ فَضَائِحِهِمْ وَخُلَافَتِهِمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَنُكُوهُمْ عَنْ طَاعَتِهِمَا فِيمَا أَمَرَاهُمْ بِهِ مِنَ الْجِهَادِ ، فَضَعُفَتْ أَنْفُسُهُمْ عَنْ مُصَابَرَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَذَتِهِمْ وَمُقَاتَلَتِهِمْ مَعَ أَنَّ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَلِيمَهُ وَصَفِيهِ مِنْ خَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، وَهُوَ يَعِدُهُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ بِأَعْدَائِهِمْ ، هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوا مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِعَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْغَرَقِ لَهُ وَجُنُودِهِ فِي الْيَمِّ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ، لِتَقَرَّرَ بِهِ أَعْيُنُهُمْ ، وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ ، ثُمَّ يَنْكَلُونَ عَنْ مُقَاتَلَةِ أَهْلِ بَلَدِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ لَا تَوَازِي عَشَرَ الْمِئْشَارِ فِي عُدَّةِ أَهْلِهَا وَعَدَدِهِمْ ، فَظَهَرَتْ

قَبَائِحُ صَنِيعِهِمْ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِّ ، وَافْتَضَّحُوا فَضِيحَةً لَا يُعْطِيهَا اللَّيْلُ وَلَا يَسْتُرُهَا الذَّلِيلُ ، هَذَا وَهُمْ فِي جَهْلِهِمْ يَعْمَهُونَ ، وَفِي غَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ، وَهُمْ الْبُغْضَاءُ إِلَى اللَّهِ وَأَعْدَاؤُهُ ، وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، فَقَبَّحَ اللَّهُ وُجُوهَهُمُ الَّتِي مُسِخٌ مِنْهَا الْخَنَازِيرُ وَالْقُرُودُ ، وَالزَّمَهُمْ لَعْنَةً تَصْحَبُهُمْ إِلَى النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ، وَيَقْضِي لَهُمْ فِيهَا بِتَأْيِيدِ الْخُلُودِ ، وَقَدْ فَعَلَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي جَمِيعِ الْوُجُودِ .

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۖ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ ۖ قَالَ يَوَيْلَئِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا وَحِيمٌ عَاقِبَةَ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ وَالظُّلْمِ فِي خَبَرِ ابْنَيْ آدَمَ لِصُلْبِهِ . وَهُمَا : قَابِيلُ وَهَابِيلُ ، كَيْفَ عَدَا أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَقَتَلَهُ بَغْيًا عَلَيْهِ وَحَسَدًا لَهُ فِيمَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنَ النِّعْمَةِ ، وَتَقَبَّلَ الْقُرْبَانَ الَّذِي أَخْلَصَ فِيهِ اللَّهُ ﷻ ، فَفَارَزَ الْمَقْتُولُ بِوَضْعِ الْأَثَامِ وَالْدُخُولِ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَخَابَ الْقَاتِلُ وَرَجَعَ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَآتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ : أَقْصَصْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْبُعَاةِ الْحَسَدَةَ إِخْوَانَ الْخَنَازِيرِ وَالْقُرَدَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَأَمْثَالِهِمْ ، خَبَرَ ابْنَيْ آدَمَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ : عَلَى الْجَلِيلَةِ وَالْأَمْرِ الَّذِي لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا كِذْبَ وَلَا وَهْمَ وَلَا تَبْدِيلَ وَلَا زِيَادَةَ وَلَا نَقْصَانَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ [آل عمران : ٦٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف : ١٣] ، وَكَانَ مِنْ خَيْرِهِمَا فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ لِآدَمَ ﷺ أَنْ يُزَوِّجَ بَنَاتَهُ مِنْ بَنِيهِ لِضَرُورَةِ الْحَالِ ، وَلَكِنْ قَالُوا : كَانَ يُوَلَّدُ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ ذَكَرٌ وَأُنْثَى ، فَكَانَ يُزَوِّجُ أُثْنَى هَذَا الْبَطْنِ لِذَكَرِ الْبَطْنِ الْآخَرِ ، وَكَانَتْ أُخْتُ هَابِيلَ دَمِيمَةً وَأُخْتُ قَابِيلَ وَضِيئَةً ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِهَا عَلَى أَخِيهِ ، فَأَبَى آدَمُ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يُقَرَّبَا قُرْبَانًا ، فَمَنْ تَقَبَّلَ مِنْهُ فَهِيَ لَهُ ، فَتَقَبَّلَ مِنْ هَابِيلَ ، وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ قَابِيلَ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا قَصَّه اللَّهُ فِي كِتَابِهِ . ثُمَّ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ أَنَّ الَّذِي قَرَّبَ الشَّاةَ هُوَ هَابِيلُ ، وَأَنَّ الَّذِي قَرَّبَ الطَّعَامَ هُوَ قَابِيلُ ، وَأَنَّهُ تَقَبَّلَ مِنْ هَابِيلَ شَأْنَهُ ، وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ قَابِيلَ .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أَي : مِمَّنْ اتَّقَى اللَّهَ فِي فِعْلِهِ . ثُمَّ يَقُولُ لَهُ أَخُوهُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الَّذِي تَقَبَّلَ اللَّهُ قُرْبَانَهُ لِيَتَقَوَّاهُ حِينَ تَوَاعَدَهُ أَخُوهُ بِالْقَتْلِ عَلَى غَيْرِ مَا ذَنِبَ مِنْهُ إِلَيْهِ : ﴿ لَيْنُ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ أَي : لَا أَقَابِلُكَ عَلَى صَنِيعِكَ الْفَاسِدِ بِمِثْلِهِ فَأَكُونُ أَنَا وَأَنْتَ سَوَاءٌ فِي الْخَطِيئَةِ ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي : مِنْ أَنَّ أَصْنَعَ كَمَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ ، بَلْ أَصْبِرُ وَأَحْتَسِبُ . ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَي : بِإِثْمِ قَتْلِي وَإِثْمِكَ الَّذِي عَلَيْكَ قَبْلَ ذَلِكَ . وَهَذَا الْكَلَامُ مُتَضَمِّنٌ مَوْعِظَةً لَهُ لَوْ اتَّعَظَ ، وَزَجَرَ لَهُ لَوْ انْزَجَرَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ أَي : تَتَحَمَّلَ إِثْمِي وَإِثْمَكَ ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ﴾ أَي : فَحَسَنْتَ وَسَوَّلْتَ لَهُ نَفْسُهُ وَشَجَّعْتَهُ عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ، أَي : بَعْدَ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ وَهَذَا الرَّجْرِ . ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَ أَخِيهِ ﴾ رَوَى عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ : لَمَّا مَاتَ الْغُلَامُ تَرَكَهُ بِالْعَرَاءِ ، وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ يُدْفَنُ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابَيْنِ أَخَوَيْنِ فَاقْتَتَلَا ، فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ، فَحَفَرَ لَهُ ثُمَّ حَتَّى عَلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ : ﴿ يَبْوِيئَنِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِثَ سَوْءَ أَخِي ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : عَلَاهُ اللَّهُ بِنَدَامَةٍ بَعْدَ خُسْرَانٍ ، فَهَذِهِ أَقْوَالُ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ ، وَكُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ هَذَيْنِ ابْنَيْ آدَمَ لِصَلْبِهِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مِنْ أَجْلِ قَتْلِ ابْنِ آدَمَ أَخَاهُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أَي : شَرَعْنَا لَهُمْ وَأَعْلَمْنَاهُمْ ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ

جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿١٠﴾ أَيُّ : مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ سَبَبٍ مِنْ قِصَاصٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ وَاسْتَحْلَ قَتْلَهَا بِلا سَبَبٍ وَلَا جُنَايَةٍ ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ نَفْسٍ وَنَفْسٍ ﴿١١﴾ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴿١٢﴾ أَيُّ : حَرَّمَ قَتْلَهَا وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ ، فَقَدْ سَلِمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَيُّ : بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ، وَالِدَلَالِ الْوَاضِحَةِ ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ ﴾ ، وَهَذَا تَفْرِيعٌ هُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى ارْتِكَابِهِمُ الْمَحَارِمَ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِهَا ، كَمَا كَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ مَنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْيَهُودِ ، الَّذِينَ كَانُوا يُقَاتِلُونَ مَعَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ الْحُرُوبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، ثُمَّ إِذَا وَضَعَتِ الْحُرُوبُ أَوْرَارَهَا فَدَوْا مَنْ أَسْرَوْهُ وَوَدَّوْا مَنْ قَتَلُوهُ ، وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ الْآيَةِ . الْمَحَارِبَةُ : هِيَ الْمُضَادَّةُ وَالْمُخَالَفَةُ ، وَهِيَ صَادِقَةٌ عَلَى الْكُفْرِ وَعَلَى قَطْعِ الطَّرِيقِ وَإِخَافَةِ السَّبِيلِ ، وَكَذَا الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ يُطْلَقُ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الشَّرِّ . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ : أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ - ثَمَانِيَّةٌ - قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَاسْتَوْحَمُوا الْمَدِينَةَ وَسَقَمَتِ أَجْسَامُهُمْ ، فَشَكَّوْا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ فَقَالَ : « أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِيْنَا فِي إِبِلِهِ ، فَتُصَيِّبُونَ مِنْ أَبْوَالِهَا وَالْبَانِيَا » فَقَالُوا : بَلَى ، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَالْبَانِيَا فَصَحُّوا فَقَتَلُوا الرَّاعِيَّ وَطَرَدُوا الْإِبِلَ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ فَأَذْرَكُوا ، فَجِيءَ بِهِمْ فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَسُمِرَتْ أَعْيُنُهُمْ ثُمَّ نُبِدُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا . وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ قَالَ أَبُو قَلَابَةَ : فَهَؤُلَاءِ سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَكَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَحَارَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ . ثُمَّ قَدْ اخْتَجَّ بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ فِي ذَهَابِهِمْ إِلَى أَنَّ حُكْمَ الْمَحَارِبَةِ فِي الْأَمْصَارِ وَفِي السَّبَلَانِ عَلَى السَّوَاءِ ؛ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ الْآيَةِ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : مَنْ شَهَرَ السَّلَاحَ فِي فِتْنَةِ الْإِسْلَامِ وَأَخَافَ السَّبِيلَ ، ثُمَّ ظَفَرَ بِهِ وَقَدَّرَ عَلَيْهِ ، فِيمَا مِ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ بِالْخِيَارِ إِنْ شَاءَ قَتْلُهُ ، وَإِنْ شَاءَ صَلْبُهُ ، وَإِنْ شَاءَ قَطْعَ يَدِهِ وَرِجْلِهِ ، وَمُسْتَنَدُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ ظَاهِرَ ﴿ أَوْ ﴾ لِلتَّخْيِيرِ ، وَقَالَ الْجُمْهُورُ : هَذِهِ الْآيَةُ مُنَزَّلَةٌ عَلَى أَحْوَالٍ . إِذَا قَتَلُوا وَأَخَذُوا الْمَالَ : قُتِلُوا وَصُلِبُوا ، وَإِذَا قَتَلُوا وَلَمْ يَأْخُذُوا الْمَالَ : قُتِلُوا وَلَمْ يُصَلَّبُوا ، وَإِذَا أَخَذُوا الْمَالَ وَلَمْ يُقَتَّلُوا : قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ ، وَإِذَا أَخَافُوا السَّبِيلَ وَلَمْ يَأْخُذُوا

الْمَالِ : تُقُوا مِنَ الْأَرْضِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : الْمُرَادُ بِالنَّفْيِ هَهُنَا السَّجْنُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : أَنْ يُخْرَجَ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ فَيُسَجَّنَ فِيهِ . ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ مِنْ قَتْلِهِمْ وَمِنْ صَلْبِهِمْ ، وَقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ وَنَفْيِهِمْ ، خِزْيٌ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، مَعَ مَا إِدْخَرَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيُّ : إِذَا لَمْ يَتُوبُوا مِنْ فِعْلِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى هَلَكُوا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ أَمَّا عَلَى قَوْلٍ مَنْ قَالَ : إِنَّهَا فِي أَهْلِ الشُّرْكِ فَظَاهِرٌ ، وَأَمَّا الْمُحَارِبُونَ الْمُسْلِمُونَ : فَإِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُ يَسْقُطُ عَنْهُمْ انْحِتَامُ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ وَقَطْعِ الرَّجْلِ .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ وَهِيَ إِذَا قُرُنَتْ بِطَاعَتِهِ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا الْانْكِفَافُ عَنِ الْمَحَارِمِ وَتَرْكُ الْمَنْهِيَّاتِ ، وَقَدْ قَالَ بَعْدَهَا : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَيُّ : الْقُرْبَةِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أَيُّ : تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ .

وَالْوَسِيلَةُ : هِيَ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى تَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ ، وَالْوَسِيلَةُ أَيْضًا : عِلْمٌ عَلَى أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ مَنْزِلَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَارُهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ أَقْرَبُ أَمْكِنَةِ الْجَنَّةِ إِلَى الْعَرْشِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لَمَّا أَمَرَهُمْ بِتَرْكِ الْمَحَارِمِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ أَمَرَهُمْ بِقِتَالِ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ الْخَارِجِينَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالتَّارِكِينَ لِلدِّينِ الْقَوِيمِ ، وَرَغَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ بِالَّذِي أَعَدَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : مِنَ الْفَلَاحِ وَالسَّعَادَةِ الْعَظِيمَةِ الْخَالِدَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَبِمِثْلِهِ لَيَفْتَدِيَ بِذَلِكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ - الَّذِي قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَتَيَقَّنَ وَصُولُهُ إِلَيْهِ - مَا تُقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ ، بَلْ لَا مَنُودُوحَةَ عَنْهُ وَلَا تَحِيصَ لَهُ وَلَا مَنَاصَ ، وَهَذَا قَالَ :

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي : مُوجَعٌ . ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ فَلَا يَزَالُونَ يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّتِهِ وَأَلِيمٌ مَسَّهُ ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَكُلَّمَا رَفَعَهُمُ اللَّهُ فَصَارُوا فِي أَعْلَى جَهَنَّمَ ضَرَبَتْهُمْ الرِّبَانِيَّةُ بِالْمَقَامِعِ الْحَدِيدِ فَيَرُدُّوهُمْ إِلَى أَسْفَلِهَا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي : دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا ، وَلَا حَيْدَ لَهُمْ عَنْهَا .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى حَاكِمًا وَآمِرًا يَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ وَالسَّارِقَةِ . وَالْحُكْمُ عِنْدَ جَمِيعِ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْيَمِينَ هِيَ الَّتِي تُقْطَعُ . ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ أَي : مُجَازَاةً عَلَى صَنِيعَيْهِمَا السَّيِّئِ فِي أَخْذِهِمَا أَمْوَالَ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُقْطَعَ مَا اسْتَعَانَا بِهِ فِي ذَلِكَ ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ أَي : تَنْكِيلًا مِنَ اللَّهِ بِهِمَا عَلَى ارْتِكَابِ ذَلِكَ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَي : فِي إِنْتِقَامِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَي : فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَي : مَنْ تَابَ بَعْدَ سَرِقَتِهِ وَأَتَابَ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، فَأَمَّا أَمْوَالَ النَّاسِ فَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَيْهِمْ أَوْ بَدْلُهَا عِنْدَ الْجُمُهور . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي : هُوَ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ ، الْحَاكِمُ فِيهِ الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ . وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

﴿يَنَائِيهَا الرَّسُولُ لَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ تُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلشُّحِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٢٨﴾ وَكَيْفَ تُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمٌ

اللَّهُ ثُمَّ يَتَوَلَّى مَنِ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ تَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّاتِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْتَرُوا بِعَآيَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٤﴾

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ فِي الْمَسَارِعِينَ فِي الْكُفْرِ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْمُقَدَّمِينَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ عَلَى شَرَائِعِ اللَّهِ ﷻ: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيْ: أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِالْإِسْتِثْمِ، وَقُلُوبُهُمْ خَرَابٌ خَاوِيَةٌ مِنْهُ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أَيْ: مُسْتَجِيبُونَ لَهُ مُنْفَعِلُونَ عَنْهُ ﴿سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ﴾ أَيْ: يَسْتَجِيبُونَ لِأَقْوَامٍ آخَرِينَ لَا يَأْتُونَ مَجْلِسَكَ يَا مُحَمَّدٌ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَتَسَمَّعُونَ الْكَلَامَ وَيَنْهَوْنَهُ إِلَى أَقْوَامٍ آخَرِينَ يَمْنَنَ لَا يَخْضُرُ عِنْدَكَ مِنْ أَعْدَائِكَ ﴿يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أَيْ: يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيُبَدِّلُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُورِثْتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُورَثُوهُ فَاحْذَرُوا﴾. وَالصَّحِيحُ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِيِّينَ الَّذِينَ زَنَبُوا وَكَانُوا قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ بِرَجْمٍ مَنْ أَحْصَنَ مِنْهُمْ، فَحَرَّفُوهُ وَاصْطَلَحُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى الْجُلْدِ مِائَةً جَلْدَةً، وَالتَّحْمِيمِ وَالْإِرْكَابِ عَلَى حَمَارَيْنِ مَقْلُوبَيْنِ، فَلَمَّا وَقَعَتْ تِلْكَ الْكَائِنَةُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: تَعَالَوْا حَتَّى نَتَحَاكَمَ إِلَيْهِ، فَإِنْ حَكَمَ بِالْجُلْدِ وَالتَّحْمِيمِ فَخُذُوا عَنْهُ وَاجْعَلُوهُ حُجَّةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَيَكُونُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ قَدْ حَكَمَ بَيْنَكُمْ بِذَلِكَ، وَإِنْ حَكَمَ بِالرَّجْمِ فَلَا تَتَّبِعُوهُ فِي ذَلِكَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: إِنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَبَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا تَحْدُودَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟ فَقَالُوا: نَفْضُحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ، فَأَتَوْا بِالتَّوْرَةِ فَنَشَرُوهَا فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ سَلَامٍ: اِرْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَجِمَا، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَخْنِي عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ. فَهَذِهِ الرِّوَايَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَكَمَ بِمُوافَقَةِ حُكْمِ التَّوْرَةِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِلْزَامِ لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ؛ لِأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاعِ الشَّرْعِ الْمَحْمَدِيِّ لَا مُحَالَةَ، وَلَكِنَّ هَذَا بِوَحْيٍ خَاصٍّ مِنَ اللَّهِ ﷻ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، وَسُؤَالُهُ إِيَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِيَقَرَّرَهُمْ عَلَى مَا بَأْيَدِيهِمْ بِمَا تَوَاطَعُوا عَلَى كِتَابَتِهِ وَجَحْدِهِ

وَعَدَمِ الْعَمَلِ بِهِ تِلْكَ الدُّهُورِ الطَّوِيلَةِ ، هَوَى مِنْهُمْ وَشَهْوَةٌ ، لَا لِاعْتِقَادِهِمْ صِحَّةَ مَا يَحْكُمُ بِهِ ،
وَهَذَا قَالُوا : ﴿ إِنَّ أُوتِيتُمْ هَذَا ﴾ أَيُّ : الْجُلْدَ وَالتَّحْمِيمَ ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ أَيُّ : إِقْبَلُوهُ ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ
فَاخْذَرُوا ﴾ أَيُّ : مِنْ قَبُولِهِ وَاتِّبَاعِهِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ
يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٥﴾ سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أَيُّ :
الْبَاطِلُ ﴿ أَكَلُونَ لِلشَّحْتِ ﴾ أَيُّ : الْحَرَامُ وَهُوَ الرِّشْوَةُ ، ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ ﴾ أَيُّ :
يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْكَ ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ وَإِنْ تَعَرَّضَ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّوكَ شَيْئًا ﴿ أَيُّ : فَلَا عَلَيْكَ
أَنْ لَا تَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ؛ لَا تَنْهَمُ لَا يَقْصِدُونَ بِتَحَاكُمِهِمْ إِلَيْكَ اتِّبَاعَ الْحَقِّ ، بَلْ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ . قَالَ
غَيْرُ وَاحِدٍ : هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة : ٤٩] ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ
فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ أَيُّ : بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَإِنْ كَانُوا ظَلَمَةً خَارِجِينَ عَنْ طَرِيقِ الْعَدْلِ ﴿ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِي آرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ ، وَمَقَاصِدِهِمُ الزَّائِغَةِ ، فِي
تَرْكِهِمْ مَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ ، الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِالتَّمَسُّكِ
بِهِ أَبَدًا ، ثُمَّ خَرَجُوا عَنْ حُكْمِهِ وَعَدَلُوا إِلَى غَيْرِهِ بِمَا يَعْتَقِدُونَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بُطْلَانَهُ وَعَدَمَ
لُزُومِهِ لَهُمْ فَقَالَ : ﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ثُمَّ مَدَحَ التَّوْرَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ
فَقَالَ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ نَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ أَيُّ : لَا
يَخْرُجُونَ عَنْ حُكْمِهَا وَلَا يُبَدِّلُونَهَا وَلَا يُحَرِّفُونَهَا ﴿ وَالرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ أَيُّ : وَكَذَلِكَ الرِّبَائِيُّونَ :
وَهُمُ الْعُلَمَاءُ الْعِبَادُ ، وَالْأَحْبَارُ : وَهُمْ الْعُلَمَاءُ ﴿ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ : أَيُّ بِمَا اسْتَوْدَعُوا
مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يُظْهِرُوهُ وَيَعْمَلُوا بِهِ ﴿ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ
وَأَخْشَوْنَ ﴾ أَيُّ : لَا تَخَافُوا مِنْهُمْ وَخَافُونِي ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ :
نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ . أَوْ مَنْ جَحَدَ حُكْمَ اللَّهِ الْمُنْزَلَ فِي الْكِتَابِ . وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ ﴾ الْآيَةُ . قَالَ : هِيَ بِهَ كُفْرٍ ، قَالَ ابْنُ طَاوُسٍ : وَلَيْسَ كَمَنْ
كَفَرَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . وَعَنْ عَطَاءٍ أَنَّهُ قَالَ : كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ ، وَظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ ، وَفِسْقٌ
دُونَ فِسْقٍ . وَعَنْ طَاوُسٍ : قَالَ : لَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ .

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ

بِالْأُذُنِ وَاللِّسَنِ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحِ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ^٢ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥﴾

وَهَذَا أَيْضًا يَمَّا وَبَّخَتْ بِهِ الْيَهُودُ وَقُرْعُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ فِي نَصِّ التَّوْرَةِ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَهُمْ يُخَالِفُونَ ذَلِكَ عَمْدًا وَعِنَادًا ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ لَأَتَّهِمُ جَحْدُوا حُكْمَ اللَّهِ قَصْدًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا وَعَمْدًا ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ؛ لَأَتَّهِمُ لَمْ يُنْصِفُوا الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ فِي الْأَمْرِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْجَمِيعِ فِيهِ ، فَخَالَفُوا وَظَلَمُوا وَتَعَدَّوْا عَلَى بَعْضِهِمْ بَعْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ^٢ ﴾ قِيلَ : فَمَنْ عَفَا عَنْهُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِلْمَطْلُوبِ وَأَجْرٌ لِلطَّالِبِ وَقِيلَ : كَفَّارَةٌ لِلْجَارِحِ وَأَجْرُ الْمَجْرُوحِ عَلَى اللَّهِ ﷻ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ عَنْ طَاوُسٍ وَعَطَاءٍ أَنَّهُمَا قَالَا : كُفِّرَ دُونَ كُفْرٍ ، وَظُلِمَ دُونَ ظُلْمٍ ، وَفُسِّقَ دُونَ فُسْقٍ .

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ^٣ وَءَاتَيْنَاهُ^٤ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ^٥ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أَيُّ : أَتَبَعْنَا عَلَى آثَرِهِمْ يَعْنِي أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ أَيُّ : مُؤْمِنًا بِهَا حَاكِمًا بِهَا فِيهَا ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ أَيُّ : هُدًى إِلَى الْحَقِّ وَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي إِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ وَحَلِّ الْمَشْكَلاتِ : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ أَيُّ : مُتَّبِعًا لَهَا غَيْرَ مُخَالِفٍ لَهَا فِيهَا إِلَّا فِي الْقَلِيلِ يَمَّا بَيْنَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْضُ مَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ . ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيُّ : وَجَعَلْنَا الْإِنْجِيلَ هُدًى يُهْتَدَى بِهِ ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أَيُّ : زَاجِرًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيُّ : لِمَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَخَافَ وَعِيدَهُ وَعِقَابَهُ . ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ قُرِئَ ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ بِالنَّصْبِ ، عَلَى أَنَّ اللَّامَ لَامٌ كُنْيَ ، أَيُّ : وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ لِيَحْكُمَ أَهْلُ مِلَّتِهِ بِهِ فِي زَمَانِهِمْ ، وَقُرِئَ ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ بِالْجُزْمِ عَلَى أَنَّ اللَّامَ لَامُ الْأَمْرِ ، أَيُّ : لِيُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا فِيهِ ، وَلِيُقِيمُوا مَا أُمِرُوا بِهِ فِيهِ ، وَبِمَا فِيهِ الْبَشَارَةُ بَعَثَةِ مُحَمَّدٍ ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ وَتَصَدِيقِهِ إِذَا وُجِدَ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَيُّ : الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ ، الْمَائِلُونَ إِلَى الْبَاطِلِ ، التَّارِكُونَ لِلْحَقِّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ

أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي النَّصَارَى وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ السِّيَاقِ .

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٠﴾ وَأِنْ أَحْكَم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۚ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥١﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٢﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى التَّوْرَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى مُوسَى كَلِيمِهِ ، وَمَدَحَهَا وَأَثْنَى عَلَيْهَا وَأَمَرَ بِاتِّبَاعِهَا ، حَيْثُ كَانَتْ سَائِعَةً لِاتِّبَاعِ ، وَذَكَرَ الْإِنْجِيلَ وَمَدَحَهُ وَأَمَرَ أَهْلَهُ بِإِقَامَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَا فِيهِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أَيُ : بِالصَّدْقِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أَيُ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ ذِكْرَهُ وَمَدَحَهُ وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : الْمُهَيْمِنُ الْأَمِينُ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الْقُرْآنُ أَمِينٌ عَلَى الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ قَبْلَهُ قَمَا وَافَقَهُ مِنْهَا فَهُوَ حَقٌّ ، وَمَا خَالَفَهُ مِنْهَا فَهُوَ بَاطِلٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَحْكَم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أَيُ : فَاحْكُم يَا مُحَمَّدُ بَيْنَ النَّاسِ عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ ، أُمِّيَّهُمْ وَكِتَابِيَّهُمْ ﴿ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ وَبِمَا قَدَرَهُ لَكَ مِنْ حُكْمٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ يَنْسَخْهُ فِي شَرْعِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أَيُ : آرَاءَهُمْ الَّتِي اصْطَلَحُوا عَلَيْهَا ، وَتَرَكُوا بِسَبَبِهَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أَيُ : لَا تَنْصَرِفْ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ إِلَى أَهْوَاءِ هَؤُلَاءِ مِنَ الْجَهْلَةِ الْأَشْقِيَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ سَبِيلًا وَسُنَّةً . وَعَنْ قَتَادَةَ ، قَوْلُهُ : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ يَقُولُ : سَبِيلًا وَسُنَّةً ، وَالسُّنَنُ مُخْتَلِفَةٌ ، هِيَ فِي التَّوْرَةِ شَرِيعَةٌ ، وَفِي الْإِنْجِيلِ شَرِيعَةٌ ، وَفِي الْفُرْقَانِ شَرِيعَةٌ ، يُجِلُّ اللَّهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ ، لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُهُ مَنْ يَعْصِيهِ ، وَالَّذِينَ الَّذِينَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ التَّوْحِيدُ

وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ جَمِيعُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ الشَّرَائِعَ مُخْتَلِفَةً ؛ لِيَخْتَبِرَ عِبَادَهُ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ ، وَيُثَبِّتَهُمْ أَوْ يُعَاقِبَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ بِمَا فَعَلُوهُ أَوْ عَزَمُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَدَبَهُمْ إِلَى الْمَسَارَعَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا فَقَالَ : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ وَاتِّبَاعُ شَرْعِهِ الَّذِي جَعَلَهُ نَاسِخًا لِمَا قَبْلَهُ ، وَالتَّصَدِيقُ بِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ آخِرُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَيُّ : مَعَادُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَمَصِيرُكُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيُّ : فَيُخَبِّرُكُمْ بِمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ فَيَجْزِي الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاهِلِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ الْعَادِلِينَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ ، وَالنَّهْيُ عَنْ خِلَافِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَاحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أَيُّ : وَاحْذَرُ أَعْدَاءَكَ الْيَهُودَ أَنْ يُدَلِّسُوا عَلَيْكَ الْحَقَّ فِيمَا يُنْهَوْنَ إِلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ ، فَلَا تَغْتَرَّ بِهِمْ فَإِنَّهُمْ كَذَبَةٌ كَفَرَةٌ خَوْنَةٌ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أَيُّ : عَمَّا تَحْكُمُ بِهِ بَيْنَهُمْ مِنَ الْحَقِّ وَخَالَفُوا شَرَعَ اللَّهُ ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أَيُّ : فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ عَنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ فِيهِمْ أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنِ الْهُدَى لِمَا لَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ الَّتِي اقْتَضَتْ إِضْلَالَهُمْ وَتَكَاثُفَهُمْ ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ أَيُّ : إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ مُخَالِفُونَ لِلْحَقِّ نَاءُونَ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ ، النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ ، وَعَدَلٌ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَرَائِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِاضْطِلَاحَاتِ الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَالُ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ أَيُّ : يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يَعْدِلُونَ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أَيُّ : وَمَنْ أَعْدَلُ مِنَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ وَآمَنَ بِهِ ، وَآيَقَنَ وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، وَأَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا .

﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبَهُمْ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْؤُلَاءِ

الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ ﴿٢٧﴾
يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مُوَالَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ
وَأَهْلِهِ - قَاتَلَهُمُ اللَّهُ - ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، ثُمَّ تَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ مَنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ
فَقَالَ : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ الآية .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أَي : شَكٌّ وَرَيْبٌ وَنِفَاقٌ ﴿ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ .
أَي : يُبَادِرُونَ إِلَى مُوَالَاتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ﴿ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ أَي :
يَتَوَلَّوْنَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَمُوَالَاتِهِمْ : أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ طَافِرِ الْكَافِرِينَ بِالْمُسْلِمِينَ فَتَكُونَ
هُمْ أَيْدٍ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ عِنْدَ ذَلِكَ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : فَتَحَ مَكَّةَ . وَقِيلَ : يَعْنِي : الْقَضَاءُ
وَالْفُضْلُ ﴿ أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : ضَرْبَ الْحِزْبِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿ فَيُصِيبُهَا ﴾ يَعْنِي :
الَّذِينَ وَالُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿ عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ مِنَ الْمُوَالَاةِ ﴿ نَسْتَدْمِيقُ ﴾
أَي : عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِمَّا لَمْ يُجِدْ عَنْهُمْ شَيْئًا ، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مَخْذُورًا ، بَلْ كَانَ عَيْنُ الْمَفْسَدَةِ ،
فَإِنَّهُمْ فُضِّحُوا وَأَظْهَرَ اللَّهُ أَمْرَهُمْ فِي الدُّنْيَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَسْتُورِينَ لَا يُدْرَى كَيْفَ
حَالُهُمْ ، فَلَمَّا انْعَقَدَتِ الْأَسْبَابُ الْفَاضِلَةُ هُمْ تَبَيَّنَ أَمْرُهُمْ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَتَعَجَّبُوا مِنْهُمْ كَيْفَ
كَانُوا يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَخْلِفُونَ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَوَلَّوْنَ ، فَبَانَ كَذِبُهُمْ وَافْتَرَاؤُهُمْ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ
أَدْلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ
ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّ مَنْ تَوَلَّى عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ
يَسْتَبْدِلُ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرًا لَهَا مِنْهُ ، وَأَشَدَّ مَنَعَةً ، وَأَقْوَمَ سَبِيلًا .

قَالَ تَعَالَى ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ أَي : يَرْجِعُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَدْلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ هَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْكَمَّلِ أَنْ يَكُونَ
أَحَدُهُمْ مُتَوَاضِعًا لِأَخِيهِ وَوَلِيِّهِ ، مُتَعَزِّزًا عَلَى خَصْمِهِ وَعَدُوِّهِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿تَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَخَافُوا لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أَي: لَا يَرُدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا يَرُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ رَادًّا، وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ صَادًّا، وَلَا يَحِيكُ فِيهِمْ لَوْمٌ لَائِمٌ وَلَا عَذْلٌ عَاذِلٌ. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَي: مَنْ انْتَصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَتَوْفِيقِهِ لَهُ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي: وَاسِعُ الْفَضْلِ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ بِمَنْ يَحْرِمُهُ إِيَّاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي: لَيْسَ الْيَهُودُ بِأَوْلِيَائِكُمْ، بَلْ وَلَا يَتَّكِمُ رَاجِعَةً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أَي: الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ الَّتِي هِيَ حَقُّ الْمَخْلُوقِينَ، وَمُسَاعَدَةِ لِلْمُحْتَاجِينَ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ. فَكُلُّ مَنْ رَضِيَ بِوَلَايَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ مُفْلِحٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْصُورٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٥٨﴾

وَهَذَا تَنْفِيرٌ مِنْ مَوَالَاةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنَ الْكِتَابِيِّينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ أَفْضَلَ مَا يَعْمَلُهُ الْعَامِلُونَ، وَهِيَ شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ الْمُطَهَّرَةِ الْمُحْكَمَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ دُنْيَوِيٍّ وَأُخْرَوِيٍّ، يَتَّخِذُونَهَا هُزُؤًا: يَسْتَهْزِئُونَ بِهَا، وَلَعِبًا: يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ اللَّعِبِ فِي نَظَرِهِمُ الْفَاسِدِ وَفِكْرِهِمُ الْبَارِدِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ﴾ ((مِنْ)) هَهُنَا لِيَبَيِّنَ الْجَنَسَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ ﴿وَالْكَفَّارَ﴾ بِالْحَقْفِ عَطْفًا، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ مَعْمُولٌ ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ تَقْدِيرُهُ: «وَلَا الْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ» أَي: لَا تَتَّخِذُوا هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءَ، وَالْمُرَادُ بِالْكَفَّارِ هَهُنَا: الْمُشْرِكُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي: اتَّقُوا اللَّهَ أَنْ تَتَّخِذُوا هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءَ لَكُمْ وَلِدِينِكُمْ أَوْلِيَاءَ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِشَرَعِ اللَّهِ الَّذِي اتَّخَذَهُ هَؤُلَاءِ هُزُؤًا وَلَعِبًا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ أَي: وَكَذَلِكَ إِذَا أَدَّيْتُمْ دَاعِينَ إِلَى الصَّلَاةِ

الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِمَنْ يَعْقِلُ وَيَعْلَمُ مِنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ ﴿أَتَخَذُوهَا﴾ أَيضًا ﴿هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿مَعَانِيَ عِبَادَةِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ﴾ .

قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٢١﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَالَهُ أَغْلَمَ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٢٢﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿قُلْ﴾ يٰٓمُحَمَّدُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أَيُّ : هَلْ لَكُمْ عَلَيْنَا مَطْعَنٌ أَوْ عَيْبٌ إِلَّا هَذَا ؟ وَهَذَا لَيْسَ بِعَيْبٍ وَلَا مَدْمَةٍ ، فَيَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعًا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أَيُّ : وَءَامَنَّا بِأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ، أَيُّ : خَارِجُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيُّ : هَلْ أَخْبَرُكُمْ بِشَرٍّ جَزَاءٍ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّا تَظُنُّونَهُ بِنَا ؟ وَهُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ هُمْ مُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَفْسُورَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أَيُّ : أَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَعَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ : غَضِبًا لَا يَرْضَى بَعْدَهُ أَبَدًا ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْفِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ أَهِيَ مِمَّا مَسَخَ اللَّهُ ؟ فَقَالَ : «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَهْلِكْ قَوْمًا» أَوْ قَالَ «لَمْ يَمَسَخْ قَوْمًا فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا ، وَإِنَّ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ» . ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وَقُرِئَ ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عَلَى أَنَّهُ فَعْلٌ مَاضٍ ، وَالطَّاغُوتُ مَنْصُوبٌ بِهِ ، أَيُّ : وَجَعَلَ مِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ الطَّاغُوتَ . ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ فِيمَا لَيْسَ لِلطَّرَفِ الْآخِرِ مُشَارَكَةٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُصَانِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الظَّاهِرِ وَقُلُوبُهُمْ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى الْكُفْرِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ أَيُّ : عِنْدَنَا يٰٓمُحَمَّدُ ﴿بِالْكَفْرِ﴾ أَيُّ : مُسْتَضْحِينَ الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ ثُمَّ خَرَجُوا وَهُوَ

كَامِنٌ فِيهَا لَمْ يَتَنَفَعُوا بِهَا قَدْ سَمِعُوا مِنْكَ مِنَ الْعِلْمِ ، وَلَا نَجَعَتْ فِيهِمُ الْمَوَاعِظُ وَلَا الزَّوَاجِرُ ،
وَلِهَذَا قَالَ ﴿ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ فَخَصَّصَهُمْ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ . ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾
أَيُّ : عَالِمٌ بِسَرَائِرِهِمْ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صَمَائِرُهُمْ ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لِحَلْقِهِ خِلَافَ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ أَيُّ : يُبَادِرُونَ إِلَى
ذَلِكَ مِنْ تَعَاطِي الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ ، وَأَكْلِ أَمْوَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ ﴿ لَيْسَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ الْعَمَلُ كَانَ عَمَلَهُمْ ، وَيَسَّ الْأَعْتِدَاءُ اعْتِدَاؤُهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ يَعْنِي : هَلَّا كَانَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ مِنْهُمْ عَنْ تَعَاطِي ذَلِكَ ،
وَالرَّبَّانِيُّونَ هُمْ : الْعُلَمَاءُ الْعَمَالُ أَرْبَابُ الْوَلَايَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَالْأَحْبَارُ هُمْ : الْعُلَمَاءُ فَقَطْ ﴿ لَيْسَ
مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ رُويَ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي الرَّبَّانِيِّينَ ، أَمْهُمْ بِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ،
يَعْنِي : فِي تَرْكِهِمْ ذَلِكَ .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۚ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ
يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَالْقَيْنَا
بَيْنَهُمُ الْعِدَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ
وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا
وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِنْهُمْ أُمَّةٌ
مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾

يُنْخِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُسْتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - بِأَيْتِهِمْ وَصَفُوهُ - تَعَالَى عَنْ
قَوْلِهِمْ عُلُّوا كَبِيرًا - بِأَنَّهُ بَخِيلٌ كَمَا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ فَقِيرٌ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، وَعَبَّرُوا عَنِ الْبُخْلِ بِأَنَّهُ قَالُوا :
﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : لَا يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ يَدَ اللَّهِ مُوثَقَةٌ وَلَكِنْ يَقُولُونَ : بَخِيلٌ ،
أَمْسَكَ مَا عِنْدَهُ بُخْلًا - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُّوا كَبِيرًا - . وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمْ مَا قَالُوهُ ، وَقَابَلَهُمْ
فِيهَا اخْتَلَقُوهُ وَافْتَرَوْهُ وَاتَّفَكُوهُ ، فَقَالَ : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ ، وَهَكَذَا وَقَعَ لَهُمْ ، فَإِنَّ
عِنْدَهُمْ مِنَ الْبُخْلِ وَالْحَسَدِ وَالْجُبْنِ وَالذَّلَّةِ أَمْرًا عَظِيمًا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ
كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : بَلْ هُوَ الْوَاسِعُ الْفُضْلُ ، الْجَزِيلُ الْعَطَاءُ ، الَّذِي مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَهُ خَزَائِنُهُ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ أَيُّ : يَكُونُ مَا أَتَاكَ

اللَّهُ يَا مُحَمَّدٌ مِنَ النُّعْمَةِ نِقْمَةً فِي حَقِّ أَعْدَائِكَ مِنَ الْيَهُودِ وَأَسْبَاهِهِمْ ، فَكَمَا يَزِدَادُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ تَصَدِيقًا وَعَمَلًا صَالِحًا وَعِلْمًا نَافِعًا ، يَزِدَادُ بِهِ الْكَافِرُونَ الْحَاسِدُونَ لَكَ وَلَاؤُكَ ﴿ طُعِينًا ﴾ وَهُوَ الْمُبَالِغَةُ وَالْمَجَاوِزَةُ لِلْحَدِّ فِي الْأَشْيَاءِ ﴿ وَكُفْرًا ﴾ أَيُ : تَكْذِيبًا . ﴿ وَأَلْفَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ لَا تَجْتَمِعُ قُلُوبُهُمْ ، بَلِ الْعَدَاوَةُ وَاقِعَةٌ بَيْنَ فِرْقِهِمْ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ دَائِمًا ؛ لَا يَتَّحِدُونَ عَلَى حَقٍّ ، وَقَدْ خَالَفُوكَ وَكَذَّبُوكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ أَيُ : كُلَّمَا عَقَدُوا أَسْبَابًا يَكِيدُونَكَ بِهَا ، وَكُلَّمَا أَبْرَمُوا أُمُورًا يُحَارِبُونَكَ بِهَا أَبْطَلَهَا اللَّهُ ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَحَاقَ مَكْرُهُمُ السَّيِّئُ بِهِمْ . ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمَفْسِدِينَ ﴾ أَيُ : مِنْ سَجِيَّتِهِمْ أَنَّهُمْ دَائِمًا يَسْعَوْنَ فِي الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ . ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ أَيُ : لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقَوْا مَا كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أَيُ : لَأَزَلْنَا عَنْهُمْ الْمَحْذُورَ وَأَنْلَيْنَاهُمُ الْمَقْصُودَ . ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : هُوَ الْقُرْآنُ . ﴿ لِأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ أَيُ : لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمَا فِي الْكِتَابِ الَّتِي بَأْيَدِهِمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَبْدِيلٍ وَلَا تَغْيِيرٍ ؛ لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْعِلْمِ بِمُقْتَضَى مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَإِنَّ كُتُبَهُمْ نَاطِقَةٌ بِتَصَدِيقِهِ ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ حَتْمًا لَا مَحَالَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : كَثْرَةُ الرِّزْقِ النَّازِلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ، وَالنَّابِتِ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ . ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ . فَجَعَلَ أَعْلَى مَقَامَاتِهِمُ الْإِقْتِسَادَ ، وَهُوَ أَوْسَطُ مَقَامَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ رُتَبَةُ السَّابِقِينَ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنَ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] . وَالْأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلُّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .

﴿ يَتَأَيَّهَا الرُّسُولُ بَلَغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ ﴾ وَاللَّهُ يَعِصْمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطًا بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدًا ﷺ بِاسْمِ الرِّسَالَةِ وَأَمْرًا لَهُ بِإِبْلَاجِ جَمِيعِ مَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِهِ وَقَدْ امْتَثَلَ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - ذَلِكَ ، وَقَامَ بِهِ أَتَمُّ الْقِيَامِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ ﴾ يَعْنِي : وَإِنْ لَمْ تُؤَدِّ إِلَى النَّاسِ مَا أَرْسَلْتُكَ بِهِ

﴿فَمَا بَلَغَتْ رَسُولُهُ﴾ أَي : وَقَدْ عَلِمَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ لَوْ وَقَعَ . ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أَي : بَلَغَ أَنْتَ رَسُولِي وَأَنَا حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ ، وَمُظْفِرُكَ بِهِمْ ، فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ، فَلَنْ يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَيْكَ بِسُوءٍ يُؤْذِيكَ ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ يُحْرَسُ . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أَي : بَلَغَ أَنْتَ ، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ .

قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ : ﴿يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أَي : مِنَ الدِّينِ ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أَي : حَتَّى تُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا بَأَيْدِيكُمْ مِنَ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَتَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا ، وَمِمَّا فِيهَا الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ ﷺ ، وَالْإِيمَانُ بِمَبْعِثِهِ وَالْإِقْتِدَاءُ بِشَرِيعَتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ الْعَظِيمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أَي : فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا يَهِيدَنَّكَ ذَلِكَ مِنْهُمْ . ثُمَّ قَالَ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ وَالَّذِينَ هَادُوا وَهُمْ حَمَلَةُ التَّوْرَةِ وَالصَّابِئُونَ﴾ لَمَّا طَالَ الْفَضْلُ حَسَنَ الْعَطْفِ بِالرَّفْعِ ، وَالصَّابِئُونَ : طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَى وَالْمَجُوسِ لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ . وَأَمَّا النَّصَارَى فَمَعْرُوفُونَ : وَهُمْ حَمَلَةُ الْإِنْجِيلِ ، وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ آمَنَتْ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَعَمِلَتْ عَمَلًا صَالِحًا ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بَعْدَ إِرْسَالِ صَاحِبِهَا الْمُبْعُوثِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ ، فَمَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ، وَلَا عَلَى مَا تَرَكُوا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى نَظِيرَتِهَا فِي «سُورَةِ الْبَقَرَةِ» بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٦٢﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرُسُلِهِ ، فَتَقَضُّوا تِلْكَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ وَاتَّبَعُوا آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ ، وَقَدِمُوا عَلَى الشَّرَائِعِ فَمَا وَافَقَهُمْ مِنْهَا قَبِلُوهُ ، وَمَا خَالَفَهُمْ رَدُّوهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (٧) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً ﴿ أَيُّ : وَحَسِبُوا أَن لَّا يَتَرَتَّبَ لَهُمْ شَرٌّ عَلَى مَا صَنَعُوا فَتَرَتَّبَ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَمُوا عَنِ الْحَقِّ وَصَمُّوا ، فَلَا يَسْمَعُونَ حَقًّا وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ ﴾ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ . أَيُّ مِمَّا كَانُوا فِيهِ ﴿ ثُمَّ عَمُوا ﴾ أَيُّ : بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿ أَيُّ : مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۚ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٨﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ أَنْظِرْ كَيْفَ نُنِيرُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى حَاكِمًا بِتَكْفِيرِ فِرْقِ النَّصَارَى : مِنَ الْمَلَكِيَّةِ وَالْيَعْقُوبِيَّةِ وَالنَّسْطُورِيَّةِ مِمَّنْ قَالَ مِنْهُمْ بِأَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ اللَّهُ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عُلُوهَا كَبِيرًا - هَذَا وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمُ الْمَسِيحُ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ نَطَقَ بِهَا وَهُوَ صَغِيرٌ فِي الْمَهْدِ أَنْ قَالَ : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ وَلَا ابْنُ اللَّهِ بَلْ قَالَ : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم : ٣٠ - ٣٦] ، وَكَذَلِكَ قَالَ لَهُمْ فِي حَالِ كُفُولَتِهِ وَبُيُوتِهِ أَمْرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ رَبِّهِ وَرَبِّهِمْ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ أَيُّ : فَيَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرُهُ ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ أَيُّ : فَقَدْ أَوْجَبَ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ أَيُّ : وَمَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ نَاصِرٌ وَلَا مُعِينٌ وَلَا مُنْقِذٌ مِمَّا هُوَ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ . الصَّحِيحُ : أَنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي النَّصَارَى خَاصَّةً . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : نَزَلَتْ فِي جَعْلِهِمْ - الْمَسِيحَ وَأُمَّهُ - إِهْنِ مَعَ اللَّهِ ، فَجَعَلُوا اللَّهَ

ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ ، قَالَ السُّدِّيُّ : وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ [المائدة: ١١٦] ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَظْهَرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ مُتَعَدِّدًا بَلْ هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِلَهُ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ وَسَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أَيُّ : مِنْ هَذَا الْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ ﴿ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْأَغْلَالِ وَالنَّكَالِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَسْتَغْفِرُونَهُ ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَهَذَا مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى وَجُودِهِ وَلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ ، مَعَ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ ، وَهَذَا الْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ وَالْإِفْكُ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ ، فَكُلُّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا أَلْمَسِیحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ أَيُّ : لَهُ أَسْوَةٌ أَمْثَالُهُ مِنْ سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ الْكَرَامِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ أَيُّ : مُؤْمِنَةٌ بِهِ مُصَدِّقَةٌ لَهُ ، وَهَذَا أَعْلَى مَقَامَاتِهَا ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنَبِيَّةٍ ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْعِثْ نَبِيًّا إِلَّا مِنَ الرِّجَالِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ أَيُّ : يَخْتَا جَانِ إِلَى التَّغْذِيَةِ بِهِ وَإِلَى خُرُوجِهِ مِنْهُمَا ، فَهُمَا عَبْدَانِ كَسَائِرِ النَّاسِ ، وَلَيْسَا بِإِلَهَيْنِ كَمَا زَعَمَتْ فِرْقُ النَّصَارَى الْجَهْلَةُ - عَلَيْهِمُ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ نُنِيبُ لَهُمُ الْآيَاتِ ﴾ أَيُّ : نَوْضَحُهَا وَنُظْهِرُهَا ﴿ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴾ أَيُّ : ثُمَّ أَنْظِرْ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ ، أَيْنَ يَذْهَبُونَ ؟ وَبِأَيِّ قَوْلٍ يَتَمَسَّكُونَ ؟ وَإِلَى أَيِّ مَذْهَبٍ مِنَ الضَّلَالِ يَذْهَبُونَ ؟ .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٠﴾ قُلْ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ ، وَمُبَيِّنًا لَهُ أَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنَ الْإِلَهِيَّةِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ أَيُّ : يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْعَابِدِينَ غَيْرِ اللَّهِ مِنْ سَائِرِ فِرْقِ بَنِي آدَمَ ، وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ النَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أَيُّ : لَا يَقْدِرُ عَلَى إِصْصَالِ ضَرِّ إِلَيْكُمْ وَلَا إِيجَادِ نَفْعٍ ﴿ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أَيُّ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَلِمَ عَدَلْتُمْ عَنْهُ إِلَى عِبَادَةِ جَاهِدٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ،

وَلَا يَعْلَمُ شَيْئًا وَلَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا لِعِيره وَلَا لِنَفْسِهِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكَتَبُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ أَي : لَا تُجَاوِزُوا الْحَدَّ فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَلَا تُطْرُقُوا مَنْ أَمَرْتُمْ بِتَعْظِيمِهِ فِتْنَالِغُوا فِيهِ حَتَّى تُخْرِجُوهُ عَنْ حِيزِ النُّبُوَّةِ إِلَى مَقَامِ الْإِلَهِيَّةِ ، كَمَا صَنَعْتُمْ فِي الْمَسِيحِ ، وَهُوَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَجَعَلْتُمُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَقْبِدَائِكُمْ بِشُيُوخِ الضَّلَالِ الَّذِينَ هُمْ سَلَفُكُمْ مِمَّنْ ضَلَّ قَدِيمًا ﴿ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ أَي : وَخَرَجُوا عَنْ طَرِيقِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْإِعْتِدَالِ إِلَى طَرِيقِ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ .

لِعِبِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ فِيمَا أُنْزِلَ عَلَى دَاوُدَ نَبِيِّهِ ﷺ وَعَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ سَبَبَ عَصْيَانِهِمْ لَهِ وَلِأَعْتِدَائِهِمْ عَلَى خَلْقِهِ ، ثُمَّ بَيَّنَّ حَالَهُمْ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي زَمَانِهِمْ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أَي : كَانَ لَا يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ثُمَّ ذَمَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِيُحَذَّرَ أَنْ يُرْتَكَبَ مِثْلُ الَّذِي ارْتَكَبُوهُ فَقَالَ : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ ، ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ يَعْنِي : بِذَلِكَ مَوَالَاتِهِمْ لِلْكَافِرِينَ وَتَرْكَهُمْ مَوَالَاةَ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي أَعَقَبَتْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَأَسْخَطَتِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَخَطًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ مَعَادِهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وَفَسَّرَ بِذَلِكَ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أَي : لَوْ آمَنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ لَمَا ارْتَكَبُوا مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ مَوَالَاةِ الْكَافِرِينَ فِي الْبَاطِنِ وَمَعَادَاةِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ ﴿ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ أَي : خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُخَالِفُونَ لِآيَاتِ وَحْيِهِ وَتَنْزِيلِهِ .

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ

وَرَهَبَانًا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَثْبَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٣١﴾

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَهُوهُمُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ كُفْرَ الْيَهُودِ كُفْرُ عِنَادٍ وَجُحُودٍ وَمُبَاهَاةٍ لِلْحَقِّ وَغَمْطٍ لِلنَّاسِ وَتَنْقُصٍ بِحِمْلَةِ الْعِلْمِ ، وَلِهَذَا قَتَلُوا كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى هُمَا يَقْتُلِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ وَسَمُوهُ وَسَحَرُوهُ وَالْبُؤَى عَلَيْهِ أَشْبَاهُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ نَصَارَى مِنْ أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ وَعَلَى مِنْهَاجِ إِنْجِيلِهِ ، فِيهِمْ مَوَدَّةٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ فِي الْجُمْلَةِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ إِذْ كَانُوا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ مِنَ الرَّقَّةِ وَالرَّافَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ﴾ [الحديد : ٢٧] وَفِي كِتَابِهِمْ : مَنْ صَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَأَدِرْ لَهُ خَدَّكَ الْأَيْسَرَ ، وَلَيْسَ الْقِتَالُ مَشْرُوعًا فِي مِلَّتِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيُّ : يُوجَدُ فِيهِمُ الْقَسِيصُونَ وَهُمْ : خُطَبَاؤُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ ، وَاحِدُهُمْ قَسِيصٌ وَقَسٌّ أَيْضًا ، وَالرَّهَبَانُ : جَمْعُ رَاهِبٍ وَهُوَ : الْعَابِدُ مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّهْبَةِ وَهِيَ الْخَوْفُ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ تَضَمَّنَ وَصْفَهُمْ بِأَنَّهُمْ فِيهِمُ الْعِلْمُ وَالْعِبَادَةُ وَالتَّوَاضُّعُ ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِالْإِنْقِيَادِ لِلْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ وَالْإِنْصَافِ . فَقَالَ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ أَيُّ : بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبَشَارَةِ بِبَعْثِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أَيُّ : مَعَ مَنْ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ هَذَا وَيُؤْمِنُ بِهِ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي النَّجَاشِيِّ وَفِي أَصْحَابِهِ . ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ النَّصَارَى هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] ، قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ فَأَثْبَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَيُّ : فَجَارَاهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ وَاعْتِرَافِهِمْ بِالْحَقِّ ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيُّ : مَا كَثُرْنَ فِيهَا

أَبَدًا لَا يُحَوِّلُونَ وَلَا يَزُولُونَ ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيُّ : فِي اتِّبَاعِهِمُ الْحَقَّ وَانْقِيَادِهِمْ لَهُ حَيْثُ كَانَ وَأَيْنَ كَانَ وَمَعَ مَنْ كَانَ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ فَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أَيُّ : جَحَدُوا بِهَا وَخَالَفُوهَا ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أَيُّ : هُمْ أَهْلُهَا وَالذَّاخِلُونَ فِيهَا .

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٢٥﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٢٦﴾

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السَّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا أَكُلُ اللَّحْمَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا أَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ ، وَأَنَامُ وَأَقُومُ ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ ، وَأَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ : وَلَا تَبَالُغُوا فِي التَّضْيِيقِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِتَحْرِيمِ الْمُبَاحَاتِ عَلَيْكُمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : كَمَا لَا تَحْرُمُوا الْحَلَالَ فَلَا تَعْتَدُوا فِي تَنَاوُلِ الْحَلَالِ بَلْ خُذُوا مِنْهُ بِقَدَرِ كِفَايَتِكُمْ وَحَاجَتِكُمْ ، وَلَا تَجَاوِزُوا الْحَدَّ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف : ٣١] ، فَشَرَعَ اللَّهُ عَدْلَ بَيْنِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ ، لَا إِفْرَاطَ وَلَا تَقْرِيطَ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ أَيُّ : فِي حَالِ كَوْنِهِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَيُّ فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ، وَاتَّبِعُوا طَاعَتَهُ وَرِضْوَانَهُ وَاتْرَكُوا مُحَالَفَتَهُ وَعِصْيَانَهُ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ ، وَإِنَّهُ قَوْلُ الرَّجُلِ فِي الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ : لَا وَاللَّهِ ، بَلَى وَاللَّهِ . بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ أَيُّ : بِمَا صَمَّمْتُمْ عَلَيْهِ مِنْهَا وَقَصَدْتُمُوهَا ﴿ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ ﴾ يَعْنِي : مُحَاوِيحَ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَمَنْ لَا يَجِدُ مَا يَكْفِيهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : أَيُّ : مِنْ أَعْدَلِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَسَوْتُهُمْ ﴾ قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَوْ دَفَعَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَشْرَةِ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْكِسْوَةِ مِنْ قَمِيصٍ أَوْ سَرَاوِيلٍ أَوْ إِزَارٍ أَوْ عِمَامَةٍ أَوْ مِقْنَعَةٍ أَجْزَأُهُ ذَلِكَ . وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِبَلٍ : لَا بُدَّ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الْكِسْوَةِ مَا يَصِحُّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ إِنْ كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً كُلٌّ بِحَسَبِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أَخَذَ أَبُو حَنِيفَةَ بِإِطْلَاقِهَا فَقَالَ : تُجْزِئُ الْكَافِرَةَ كَمَا تُجْزِئُ الْمُؤْمِنَةَ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَآخَرُونَ : لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُؤْمِنَةً ، لِقَوْلِهِ ﷺ : « أَعْتَقَهَا فَإِنَّمَا مُؤْمِنَةٌ » . فَهَذِهِ خِصَالُ ثَلَاثٍ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ أَيُّهَا فَعَلَ الْحَانِثُ أَجْزَأَ عَنْهُ بِالْإِجْمَاعِ ، وَقَدْ بَدَأَ بِالْأَسْهَلِ فَالْأَسْهَلِ ، فَالْإِطْعَامُ أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ مِنَ الْكِسْوَةِ ، كَمَا أَنَّ الْكِسْوَةَ أَيْسَرُ مِنَ الْعِتْقِ ، فَتَرَقَّى فِيهَا مِنَ الْأَذْنَى إِلَى الْأَعْلَى فَإِنْ لَمْ يَقْدِرِ الْمُكَلَّفُ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ كَفَّرَ بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانُكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ الشَّرْعِيَّةِ ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ لَا تَتْرُكُوهَا بِغَيْرِ تَكْفِيرٍ ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ﴾ أَيُّ : يُوضِّحُهَا وَيُفَسِّرُهَا ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٤﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصْذِّكُمَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٦٦﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ تَحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ تَعَاطِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَهُوَ الْقَهَارُ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْقَهَارِ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ حَتَّى لَعِبَ الصَّبِيَّانِ بِالْجُوزِ ، وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ : مَا أُلْهِى عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ . وَأَمَّا الْأَنْصَابُ فَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هِيَ حِجَارَةٌ كَانُوا يَذْبَحُونَ قَرَابِينَهِمْ عِنْدَهَا . وَأَمَّا الْأَزْلَامُ فَقَالُوا أَيْضًا : هِيَ قِدَاحٌ كَانُوا يَسْتَفْسِمُونَ بِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ قِيلَ : سَخَطٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، وَقِيلَ : إِثْمٌ ، وَقِيلَ : أَيُّ : شَرٌّ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الرَّجْسِ ، أَيُّ : اتْرُكُوهُ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وَهَذَا تَرْغِيبٌ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصْذِّكُمَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَتَرْهِيْبٌ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ ءَايَدُكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن تَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ تَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدِيًّا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةً طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّیَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ؕ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ؕ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٧﴾

قَالَ عَدُوٌّ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ تَنَالَهُ ءَايَدُكُمْ ﴾ يَعْنِي : صِغَارُ الصَّيْدِ وَفِرَاحُهُ ﴿ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ يَعْنِي : كِبَارُهُ ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن تَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى يَنْتَلِيهِمْ بِالصَّيْدِ يَغْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ، يَتِمَكَّنُونَ مِنْ أَخْذِهِ بِالْأَيْدِي وَالرِّمَاحِ سِرًّا وَجَهْرًا ؛ لِتُظْهَرَ طَاعَةٌ مَنْ يُطِيعُ مِنْهُمْ فِي سِرِّهِ أَوْ جَهْرِهِ ، وَقَوْلُهُ هَهُنَا ﴿ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ : يَعْنِي : بَعْدَ هَذَا الْإِعْلَامِ وَالْإِنْذَارِ وَالتَّقَدُّمِ ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : لِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللَّهِ وَشَرْعَهُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ ، وَهَذَا تَحْرِيمٌ مِنْهُ تَعَالَى لِقَتْلِ الصَّيْدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ ، وَنَهْيٌ عَنْ تَعَاطِيهِ فِيهِ . ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ ﴾ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ : أَنَّ الْعَامِدَ وَالنَّاسِيَ سَوَاءٌ فِي وُجُوبِ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : دَلَّ الْكِتَابُ عَلَى الْعَامِدِ وَجَرَتْ السُّنَّةُ عَلَى النَّاسِي . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ ﴾ عَلَى كُلِّ مِّنَ الْقِرَاءَتَيْنِ دَلِيلٌ لِّمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ وُجُوبِ الْجَزَاءِ مِنْ مِثْلِ مَا قَتَلَهُ الْمُحْرِمُ إِذَا كَانَ لَهُ مِثْلٌ مِنَ الْحَيَوَانِ الْإِنْسِي . ﴿ تَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ ، يَعْنِي أَنَّهُ يَحْكُمُ بِالْجَزَاءِ فِي الْمِثْلِ أَوْ بِالْقِيَمَةِ فِي غَيْرِ الْمِثْلِ عَدْلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . ﴿ هَدِيًّا بَلِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ أَيُّ وَاصِلًا إِلَى الْكَعْبَةِ ، وَالْمَرَادُ وَصُولُهُ إِلَى الْحَرَمِ بِأَنْ يُذْبَحَ هُنَاكَ وَيُفَرَّقَ لَحْمُهُ عَلَى مَسَاكِينِ الْحَرَمِ ، وَهَذَا أَمْرٌ مُّتَّفَقٌ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ ، ﴿ أَوْ كَفَرَةً طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ أَيُّ : إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمُحْرِمُ مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ ، أَوْ لَمْ يَكُنِ الصَّيْدُ الْمَقْتُولُ مِنْ ذَوَاتِ الْأَمْثَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ أَيُّ : أَوْجَبْنَا عَلَيْهِ الْكَفَّارَةَ لِيَذُوقَ عُقُوبَةَ فِعْلِهِ الَّذِي ارْتَكَبَ فِيهِ الْمُخَالَفَةَ ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ أَيُّ : فِي زَمَانِ الْجَاهِلِيَّةِ لِمَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ وَاتَّبَعَ شَرْعَ اللَّهِ وَلَمْ يَرْتَكِبِ الْمَعْصِيَةَ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَن عَادَ ﴾ أَيُّ : وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَبُلُوغِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ إِلَيْهِ ﴿ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ ذُو انتِقَامٍ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ ذُو مُعَاقَبَةٍ لِمَنْ عَصَاهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ إِيَّاهُ .

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ

حُرْمًا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٧﴾ ۖ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا
لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ ۖ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٤٠﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ يَعْنِي : مَا يُصْطَادُ مِنْهُ طَرِيًّا
﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ مَا يَتَزَوَّدُ مِنْهُ مَلِيحًا يَابِسًا ، وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ : ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ مَا لَفْظُهُ مَيْتًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَتَعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ أَيُّ : مَنْفَعَةً وَقَوَاتًا لَكُمْ أَيُّهَا الْمَخَاطِبُونَ ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ وَهُوَ جَمْعُ
سَيَّارٍ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : الطَّرِيقُ مِنْهُ لِمَنْ يَصْطَادُهُ مِنْ حَاضِرَةِ الْبَحْرِ ، وَطَعَامُهُ مَا مَاتَ
فِيهِ أَوْ أُصْطِيدَ مِنْهُ وَمُلْحٌ وَفَدَدٌ يَكُونُ زَادًا لِلْمُسَافِرِينَ وَالنَّائِينَ عَنِ الْبَحْرِ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ
الْجُمْهُورُ عَلَى حِلِّ مَيْتَتِهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَعَنِ ابْنِ عُمرٍ قَالَ : « أَحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ
فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ : فَالْحَوْثُ وَالْجَرَادُ وَأَمَّا الدَّمَانِ : فَالْكَبِدُ وَالطُّحَالُ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا ﴾ أَيُّ : فِي حَالِ إِحْرَامِكُمْ يُحَرِّمُ عَلَيْكُمْ
الْإِصْطِيَادَ ، فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ ذَٰلِكَ ، فَإِذَا اصْطَادَ الْمُحْرِمُ الصَّيْدَ مُتَعَمِّدًا أَثِمَ وَغَرِمَ ، أَوْ
مُحْطِئًا غَرِمَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ أَكْلُهُ . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : « يَقُولُ تَعَالَى
ذِكْرُهُ : وَاحْشُوا اللَّهَ ، أَيُّهَا النَّاسُ ، وَاحْذَرُوهُ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ ، وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ ، مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ ،
وَعَنِ إِصَابَةِ صَيْدِ الْبَرِّ وَقَتْلِهِ فِي حَالِ إِحْرَامِكُمْ وَفِي غَيْرِهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ مُصَيِّرُكُمْ وَمُرْجِعُكُمْ ،
فَيُعَاقِبُكُمْ بِمَعْصِيَتِكُمْ إِيَّاهُ ، وَيَجْزِيكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ عَلَى طَاعَتِكُمْ لَهُ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ﴾
يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : صَيَّرَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ الَّذِينَ لَا قِيَامَ لَهُمْ ، مِنْ رِئِيسٍ يَحْجُزُ
قَوِيَهُمْ عَنْ ضَعِيفِهِمْ ، وَمُسَيِّئِهِمْ عَنْ مُحْسِنِهِمْ ، وَظَالِمِهِمْ عَنْ مَظْلُومِهِمْ - وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ
وَالْقَلَائِدَ - فَحَجَزَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَٰلِكَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قِيَامٌ غَيْرُهُ ، وَجَعَلَهَا
مَعَالِمَ لِدِينِهِمْ ، وَمَصَالِحَ أُمُورِهِمْ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَأَمَّا ﴿ الْكَعْبَةُ ﴾ فَالْحَرَمُ كُلُّهُ ، وَسَمَّاها اللَّهُ
تَعَالَى « حَرَامًا » ؛ لِتَحْرِيمِهِ إِيَّاهَا أَنْ يُصَادَ صَيْدُهَا أَوْ يُجْتَنَى خِلَالُهَا ، أَوْ يُعَصَّدَ شَجَرُهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ
تَعَالَى ذِكْرُهُ : اَعْلَمُوا ، أَيُّهَا النَّاسُ ، أَنَّ رَبَّكُمْ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا

يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ سَرَائِرِ أَعْمَالِكُمْ وَعَلَانِيَتِهَا ، وَهُوَ يُخْصِيهَا عَلَيْكُمْ لِيُجَازِيَكُمْ بِهَا شَدِيدَ عِقَابِهِ - مَنْ عَصَاهُ وَتَمَرَّدَ عَلَيْهِ - عَلَى مَعْصِيَةِ إِيَّاهُ ، وَهُوَ غَفُورٌ لِدُثُوبٍ مَنْ أَطَاعَهُ وَأَنَابَ إِلَيْهِ ، فَسَاتِرٌ عَلَيْهِ وَتَارِكٌ فَضِيحَتَهُ بِهَا رَحِيمٌ بِهِ أَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِ ، بَعْدَ إِنَابَتِهِ وَتَوْبَتِهِ مِنْهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ هَذَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ ، وَتَهْدِيدٌ لِعِبَادِهِ وَوَعِيدٌ ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : لَيْسَ عَلَى رَسُولِنَا الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ ، بِإِنْدَارِكُمْ عِقَابَنَا بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، وَإِعْذَارُنَا إِلَيْكُمْ بِمَا فِيهِ قَطْعُ حُجَجِكُمْ ، إِلَّا أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْكُمْ رِسَالَتَنَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا الثَّوَابُ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَعَلَيْنَا الْعِقَابُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ يَقُولُ : وَغَيْرُ خَفِيِّ عَلَيْنَا الْمُطِيعُ مِنْكُمْ ، وَالْقَابِلُ رِسَالَتَنَا الْعَامِلُ بِمَا أَمَرْتُهُ بِالْعَمَلِ بِهِ مِنَ الْمُعَاصِي الْآبِي رِسَالَتَنَا ، التَّارِكُ الْعَمَلُ بِمَا أَمَرْتُهُ بِالْعَمَلِ بِهِ ؛ لِأَنَّا نَعْلَمُ مَا عَمَلُهُ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فَأَظْهَرَهُ بِجَوَارِحِهِ وَنَطَقَ بِهِ لِسَانُهُ ﴿ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ ، يَعْنِي : وَمَا تُخْفُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ إِيْمَانٍ وَكُفْرٍ ، أَوْ يَقِينٍ وَشَكٍّ وَنِفَاقٍ .

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْآلَبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٦٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٦١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ ﴾ أَيُّ : يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الْقَلِيلَ الْحَلَالَ النَّافِعَ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الْحَرَامِ الضَّارِّ . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْآلَبِ ﴾ أَيُّ : يَا ذَوِي الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ، وَتَجَنَّبُوا الْحَرَامَ وَدَعُوهُ وَافْتَنَعُوا بِالْحَلَالِ وَاكْتَفُوا بِهِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَهْيٌ لَهُمْ عَنْ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ مِمَّا لَا فَائِدَةَ لَهُمْ فِي السُّؤَالِ وَالتَّنْقِيبِ عَنْهَا ؛ لِأَنَّهَا إِنْ أَظْهَرَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْأُمُورَ رَبِّمَا سَاءَتْهُمْ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ سَمَاعُهَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مُهِمَّتُمْ عَنِ السُّؤَالِ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تُبَيِّنُ لَكُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ أَيُّ : عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ

تَسْتَأْنِفُونَ السُّؤَالَ عَنْهَا فَلَعَلَّهٗ قَدْ يُنَزَّلُ بِسَبَبِ سُؤَالِكُمْ تَشْدِيدُ أَوْ تَضْيِيقُ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ « أَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا : مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُجَرِّمْ ، فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ » وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَا مُجْمَلَةً فَسَأَلْتُمْ عَنْ بَيَانِهَا بُيِّنْتَ لَكُمْ حَيْثُذِ ، لِاخْتِيَا جُكُمِ إِلَيْهَا ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ أَيِ : مَا لَمْ يَذْكُرْهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ بِمِثْلِ عَفَا عَنْهُ ، فَاسْكُتُوا أَنْتُمْ عَنْهَا كَمَا سَكَتَ عَنْهَا ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ » . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ أَيِ : قَدْ سَأَلَ هَذِهِ الْمَسْأَلِ الْمُنْهَيَّ عَنْهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ فَأُجِيبُوا عَنْهَا ، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا ، فَأَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ، أَيِ : بِسَبَبِهَا أَنْ بُيِّنَتْ لَهُمْ فَلَمْ يَتَّعَفَوْا بِهَا ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا عَلَى وَجْهِ الْاسْتِزْشَادِ ، بَلْ عَلَى وَجْهِ الْاسْتِهْزَاءِ وَالْعِنَادِ .

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا لَكُمْ هُدًى لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ : الْبَحِيرَةُ : الَّتِي يُمْنَعُ ذَرْهَا لِلطَّوَاغِيتِ فَلَا يَحِلُُّهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، وَالسَّائِبَةُ : كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِأَهْلِيهِمْ لَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ ، وَالْوَصِيلَةُ : النَّاقَةُ الْبَكْرُ تُبَكَّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الْإِبِلِ ، ثُمَّ تُنْثَى بَعْدُ بِأُنْثَى وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِلطَّوَاغِيتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذِكْرٌ وَالْحَامُ : فَحُلُ الْإِبِلِ يَضْرِبُ الضَّرَابَ الْمَعْدُودَ فَإِذَا قَضَى ضَرَابَهُ وَدَعَاهُ لِلطَّوَاغِيتِ وَأَعَفَا عَنْ الْحَمْلِ فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَسَمَّوْهُ الْحَامِي .

فَأَمَّا الْبَحِيرَةُ فَقِيلَ أَيْضًا : هِيَ النَّاقَةُ إِذَا نَتَجَتْ حَمْسَةً أَبْطُنَ ، نَظَرُوا إِلَى الْخَامِسِ فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ فَأَكَلَهُ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى جَدَعُوا آذَانَهَا فَقَالُوا : هَذِهِ بَحِيرَةٌ . وَأَمَّا السَّائِبَةُ : فَقِيلَ أَيْضًا : هِيَ مِنَ الْغَنَمِ نَحْوُ مَا فُسِّرَ مِنَ الْبَحِيرَةِ ، إِلَّا أَنَّهَا مَا وَلَدَتْ مِنْ وَلَدٍ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ سِتَّةُ أَوْلَادٍ كَانَتْ عَلَى هَيْئَتِهَا ، فَإِذَا وَلَدَتْ السَّابِعَ ذَكَرًا أَوْ ذَكَرَيْنِ ذَبَحُوهُ فَأَكَلَهُ رِجَالُهُمْ دُونَ نِسَائِهِمْ ، وَقِيلَ : السَّائِبَةُ : هِيَ النَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ عَشْرَ إِنَاثٍ مِنَ الْوَلَدِ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ ، سَيِّتَ فَلَمْ تُرْكَبْ ، وَلَمْ يُجَزَّ وَبَرَّهَا وَلَمْ يُحْلَبْ لَبْنُهَا إِلَّا الضَّيْفُ . وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ : فَقِيلَ أَيْضًا : هِيَ الشَّاةُ إِذَا نَتَجَتْ سَبْعَةَ أَبْطُنَ ، نَظَرُوا إِلَى السَّابِعِ ، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مَيِّتٌ اشْتَرَكَ فِيهِ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى اسْتَحْيَوْهَا ، وَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْنٍ وَاحِدٍ اسْتَحْيَوْهُمَا ، وَقَالُوا : وَصَلْتُهُ أُخْتَهُ فَحَرَّمْتُهُ عَلَيْنَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَي : مَا شَرَعَ اللَّهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَلَا هِيَ عِنْدَهُ قُرْبَةٌ ، وَلَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ افْتَرَوْا ذَلِكَ وَجَعَلُوهُ شُرْعًا هُمْ وَقُرْبَةً ، يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَيْهِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلِ لَهُمْ بَلْ هُوَ وَبَالٌ عَلَيْهِمْ . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أَي : إِذَا دُعُوا إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ وَمَا أَوْجَبَهُ وَتَرَكْ مَا حَرَّمَهُ ، قَالُوا : يَكْفِينَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ الْأَبَاءَ وَالْأَجْدَادَ مِنَ الطَّرَائِقِ وَالْمَسَالِكِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ أَي : لَا يَفْهَمُونَ حَقًّا وَلَا يَعْرِفُونَهُ وَلَا يَنْتَدُونَ إِلَيْهِ ، فَكَيْفَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَالحَالَةُ هَذِهِ ؟ لَا يَتَّبِعُهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ أَجْهَلُ مِنْهُمْ وَأَضَلَّ سَبِيلًا .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُضِلُّحُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَفْعَلُوا الْخَيْرَ بِجُهِدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ وَخَيْرًا لَهُمْ : أَنَّهُ مَنْ أَضْلَحَ أَمْرُهُ لَا يَضُرُّهُ فُسَادُ مَنْ فَسَدَ مِنَ النَّاسِ سَوَاءٌ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَوْ بَعِيدًا . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : يَقُولُ تَعَالَى إِذَا مَا الْعَبْدُ أَطَاعَنِي فِيمَا أَمَرْتُهُ بِهِ مِنَ الْحَلَالِ ، وَهَيْئَتُهُ عَنْهُ مِنَ الْحَرَامِ ، فَلَا يَضُرُّهُ مَنْ ضَلَّ بَعْدَهُ إِذَا عَمِلَ بِمَا أَمَرْتُهُ بِهِ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ نُصِبَ عَلَى الْإِعْرَاءِ ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَي : فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . وَلَيْسَ فِيهَا مُسْتَدَلٌّ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، إِذَا كَانَ فِعْلُ ذَلِكَ مُمَكِّنًا .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ۖ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴿٥٧﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ وَاسْمَعُوا ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٩﴾

اِسْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى حُكْمٍ عَزِيزٍ قِيلَ : إِنَّهُ مَسْنُوخٌ ، وَقَالَ آخَرُونَ - وَهُمْ الْأَكْثَرُونَ - :

بَلْ هُوَ مُحْكَمٌ وَمَنْ ادَّعَى نَسْخَهُ فَعَلَيْهِ الْبَيَانُ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةً بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ﴾ هَذَا هُوَ الْخَبَرُ لِقَوْلِهِ : ﴿ شَهْدَةُ بَيْنَكُمْ ﴾ فَقِيلَ : تَقْدِيرُهُ شَهَادَةُ اثْنَيْنِ ، وَقِيلَ : دَلَّ الْكَلَامُ عَلَى تَقْدِيرٍ أَنْ يَشْهَدَ اثْنَانِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَوَا عَدْلٍ ﴾ وَصَفَ الْاِثْنَيْنِ بِأَنْ يَكُونَا عَدْلَيْنِ . ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يَعْنِي : أَهْلَ الْكِتَابِ . ﴿ إِنْ أَنْتُمْ صَرَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : سَافَرْتُمْ ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ وَهَذَانِ شَرْطَانِ لِحَوَازِ اسْتِشْهَادِ الذَّمِيِّينَ عِنْدَ فَقْدِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي سَفَرٍ وَأَنْ يَكُونَ فِي وَصِيَّةٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَحِبُّسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ . وَالْمَقْصُودُ : أَنْ يُقَامَ هَذَانِ الشَّاهِدَانِ بَعْدَ صَلَاةِ اجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا بِحَضْرَتِهِمْ ﴿ فَيُقْسَمَانِ بِاللَّهِ ﴾ أَيُّ فَيَحْلِفَانِ بِاللَّهِ ﴿ إِنْ ارْتَبْتُمْ ﴾ أَيُّ : إِنْ ظَهَرَتْ لَكُمْ مِنْهُمَا رِبَّةٌ أَمْهَمَا قَدْ خَانَا أَوْ غَلَا فَيَحْلِفَانِ حَيْثُذِ بِاللَّهِ ﴿ لَا تَشْتَرِي بِهِ ﴾ أَيُّ : بِأَيِّمَانِنَا ﴿ ثَمَّنَا ﴾ أَيُّ : لَا نَعْتَاضُ عَنْهُ بِعَوَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الرَّائِلَةِ ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أَيُّ : وَلَوْ كَانَ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ قَرِيبًا لَنَا لَا نُحَاجُّهُ ﴾ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ ﴿ أَضَافَهَا إِلَى اللَّهِ تَشْرِيفًا لَهَا وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِهَا . ﴿ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْاِثْنَيْنِ ﴾ أَيُّ : إِنْ فَعَلْنَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ تَحْرِيفِ الشَّهَادَةِ أَوْ تَبْدِيلِهَا أَوْ تَغْيِيرِهَا أَوْ كَتْمِهَا بِالْكُلِّيَّةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ غَيَّرَ عَلَى أُنْهَمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ أَيُّ : فَإِنْ اسْتَهَرَّ وَظَهَرَ وَتَحَقَّقَ مِنَ الشَّاهِدَيْنِ الْوَصِيَّيْنِ أَمْهَمَا خَانَا أَوْ غَلَا شَيْئًا مِنَ الْمَالِ الْمَوْصَى بِهِ إِلَيْهِمَا وَظَهَرَ عَلَيْهِمَا بِذَلِكَ ﴿ فَءَاخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ ﴾ . يَكُونُ الْمَعْنَى بِذَلِكَ : أَيُّ مَتَى تَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالْخَبَرِ الصَّحِيحِ عَلَى خِيَانَتِهِمَا ، فَلْيَقْمِ اثْنَانِ مِنَ الْوَرَثَةِ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلتَّرَكَةِ ، وَلْيَكُونَا مِنْ أَوْلَى مَنْ يَرِثُ ذَلِكَ الْمَالِ ﴿ فَيُقْسَمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا ﴾ أَيُّ : لَقَوْلِنَا إِيَّاهُمَا خَانَا أَحَقُّ وَأَصَحُّ وَأَنْبَتُ مِنْ شَهَادَتِهِمَا الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿ وَمَا اعْتَدَيْنَا ﴾ أَيُّ : فِيمَا قُلْنَا فِيهِمَا مِنَ الْخِيَانَةِ ﴿ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظُّلُمِينَ ﴾ أَيُّ : إِنْ كُنَّا قَدْ كَذَبْنَا عَلَيْهِمَا ، وَهَذَا التَّحْلِيفُ لِلْوَرَثَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى قَوْلِهِمَا وَالحَالَةِ هَذِهِ كَمَا يَحْلِفُ أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ إِذَا ظَهَرَ لَوْثٌ فِي جَانِبِ الْقَاتِلِ ، فَيُقْسَمُ الْمُسْتَحِقُّونَ عَلَى الْقَاتِلِ فَيَدْفَعُ بِرُمَّتِهِ إِلَيْهِمْ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي بَابِ الْقَسَامَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ .

قَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا ﴾ أَيُّ : شَرْعِيَّةً هَذَا الْحُكْمُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْمَرْضِيِّ مِنْ تَحْلِيفِ الشَّاهِدَيْنِ الذَّمِّيَّيْنِ وَقَدْ اسْتُرِيبَ بِهِمَا ، أَقْرَبُ إِلَى إِقَامَتِهِمَا الشَّهَادَةَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَرْضِيِّ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ تَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ آمِنٌ بَعْدَ أَيْمَنِمْ ﴾ أَيُّ : يَكُونُ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى الْاِثْنَيْنِ بِهَا عَلَى وَجْهَيْهَا ، هُوَ تَعْظِيمُ الْحَلْفِ بِاللَّهِ ، وَمُرَاعَاةُ جَانِبِهِ وَإِجْلَالُهُ ، وَالْخَوْفُ مِنَ الْفُضِيحَةِ بَيْنَ النَّاسِ ،

إِنْ رُدَّتِ الْيَمِينُ عَلَى الْوَرْتَةِ ، فَيَحْلِفُونَ وَيَسْتَحِقُّونَ مَا يَدْعُونَ ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَوْ تَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ
أَمْنُنْ بَعْدَ أَيْمَنِمْ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَيُّ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ أَيُّ :
وَأَطِيعُوا ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أَيُّ : الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ وَمُتَابَعَةِ شَرِيعَتِهِ .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ ﴿

هَذَا إِنْخِبَارٌ عَمَّا يُخَاطَبُ اللَّهُ بِهِ الْمُرْسَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أُجِيبُوا بِهِ مِنْ أَمْرِهِمُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ
إِلَيْهِمْ ، وَقَوْلُ الرُّسُلِ : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ .
﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ قِيلَ : أَيُّ مَاذَا عَمِلُوا بَعْدُكُمْ وَمَاذَا أَحْدَثُوا بَعْدَكُمْ ،
قَالُوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ ﴾ وَقِيلَ : يَقُولُونَ لِلرَّبِّ ﷻ : لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا عِلْمُ
أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا ، وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّأْدُبِ مَعَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ . أَيُّ لَا عِلْمَ لَنَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى
عِلْمِكَ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَتَحْنُ وَإِنْ كُنَّا قَدْ أُجِبْنَا وَعَرَفْنَا مَنْ أَجَابَنَا ، وَلَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ كُنَّا إِنَّمَا
نَطْلُعُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا عِلْمَ لَنَا بِبَاطِنِهِ ، وَأَنْتَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، الْمُطَّلِعُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَعِلْمُنَا
بِالنَّسْبَةِ إِلَى عِلْمِكَ كَلَّا عِلْمٍ ، فَإِنَّكَ ﴿ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ ﴾ .

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ
الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ
عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿ وَإِذْ
أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَامِنَّا وَآشَهِدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَمْتَنَ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ مِمَّا أَجْرَاهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ
الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، فَقَالَ : ﴿ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ أَيُّ : فِي خَلْقِي إِيَّاكَ
مِنْ أُمِّ بَلَا ذَكَرَ ، وَجَعَلِي إِيَّاكَ آيَةً ، وَدَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِي عَلَى الْأَشْيَاءِ ﴿ وَعَلَى وَالِدَتِكَ ﴾
حَيْثُ جَعَلْتُكَ لَهَا بُرْهَانًا عَلَى بَرَاءَتِهَا مِمَّا نَسَبَهُ الظَّالِمُونَ الْجَاهِلُونَ إِلَيْهَا مِنَ الْفَاحِشَةِ ﴿ إِذْ أَيَّدْتُكَ
بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ ﷺ وَجَعَلْتُكَ نَبِيًّا دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ فِي صَغَرِكَ وَكِبَرِكَ ، فَانْطَقَتْكَ فِي
الْمَهْدِ صَغِيرًا ، فَشَهِدْتَ بِبَرَاءَةِ أُمِّكَ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ، وَاعْتَرَفْتَ لِي بِالْعُبُودِيَّةِ ، وَأَخْبَرْتَ عَنْ
رِسَالَتِي إِيَّاكَ ، وَدَعَوْتَ إِلَى عِبَادَتِي ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ تَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أَيُّ : تَدْعُو

النَّاسَ إِلَى اللَّهِ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ ، وَضَمَّنَ ﴿ تَكَلَّمْ ﴾ تَدْعُو ؛ لِأَنَّ كَلَامَهُ النَّاسَ فِي كُهُولَتِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ . ﴿ وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أَيُّ : الْخَطِّ وَالْفَهْمِ ﴿ وَالتَّوْرَةَ ﴾ وَهِيَ الْمُنْزَلَةُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ الْكَلِيمِ ، وَقَدْ يَرُدُّ لَفْظُ التَّوْرَةِ فِي الْحَدِيثِ وَيُرَادُ بِهِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ﴾ أَيُّ : تُصَوِّرُهُ وَتُشَكِّلُهُ عَلَى هَيْئَةِ الطَّائِرِ بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ ﴿ فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ أَيُّ : فَتَنْفُخُ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي شَكَّلْتَهَا بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ فَتَكُونُ طَيْرًا ذَا رُوحٍ تَطِيرُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ . ﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ . ﴿ وَإِذْ نُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ أَيُّ : تَدْعُوهُمْ فَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيتَتِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : وَادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ فِي كَفِّي إِيَّاهُمْ عَنْكَ حِينَ جِئْتَهُم بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ عَلَى بُنُوتِكَ ، وَرِسَالَتِكَ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ، فَكَذَّبُوكَ وَاتَّهَمُوكَ بِأَنَّكَ سَاحِرٌ ، وَسَعَوْا فِي قَتْلِكَ وَصَلْبِكَ ، فَجَحَّيْتُ مِنْهُمْ وَرَفَعْتُكَ إِلَيَّ وَطَهَّرْتُكَ مِنْ دَنَسِهِمْ ، وَكَفَيْتُكَ شَرَّهُمْ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْإِمْتِنَانَ كَانَ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِ بَعْدَ رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، أَوْ يَكُونُ هَذَا الْإِمْتِنَانُ وَاقِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِصِيغَةِ الْمَاضِي دَلَالَةً عَلَى وَقُوعِهِ لَا مُحَالَةٍ ، وَهَذَا مِنْ أَسْرَارِ الْغُيُوبِ الَّتِي أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْإِمْتِنَانِ عَلَيْهِ ﷺ بِأَنَّهُ جَعَلَ لَهُ أَصْحَابًا وَأَنْصَارًا ، ثُمَّ قِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْوَحْيِ وَحْيُ الْإِهَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : ٧] الْآيَةُ . وَهُوَ وَحْيُ الْإِهَامِ بِلَا خِلَافٍ ، وَهَكَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنَا وَآشَهِدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أَيُّ : أَهْلُمُوا ذَلِكَ فَاثْمَثَلُوا مَا أَهْلُمُوا ، وَيَتَحَمَّلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَيْهِمْ بِوَاسِطَتِكَ فَدَعَوْتَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَاسْتَجَابُوا لَكَ وَانْقَادُوا وَتَابَعُوكَ ، فَقَالُوا ﴿ ءَامِنَا وَآشَهِدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ .

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ بَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْبِخَنَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ

وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١٢١﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾

هَذِهِ قِصَّةُ الْمَائِدَةِ وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ السُّورَةُ ، فَيُقَالُ : سُورَةُ الْمَائِدَةِ ، وَهِيَ مِمَّا اِمْتَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى لَمَّا أَجَابَ دُعَاءَهُ بِنَزْوِهَا ، فَأَنْزَلَهَا اللَّهُ آيَةً وَدَلَالَةً وَمَعْجَزَةً بَاهِرَةً ، وَحُجَّةً قَاطِعَةً ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ يَبْعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ هَذِهِ قِرَاءَةٌ كَثِيرِينَ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ : « هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ » أَيُ : هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْأَلَ رَبُّكَ ﴿ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ وَالْمَائِدَةُ : هِيَ الْخِوَانُ عَلَيْهِ الطَّعَامُ ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوا ذَلِكَ لِحَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةٌ كُلَّ يَوْمٍ يَقْتَاتُونَ مِنْهَا ، وَيَتَقَوَّونَ بِهَا عَلَى الْعِبَادَةِ ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُ : فَأَجَابَهُمُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا لَهُمْ : اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَسْأَلُوا هَذَا ، فَعَسَاهُ أَنْ يَكُونَ فِتْنَةً لَّكُمْ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ أَيُ : نَحْنُ مُحْتَاجُونَ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا . ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا ﴾ إِذَا شَاهَدْنَا نَزْوَهَا رِزْقًا لَنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴿ وَنَعْلَمُ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أَيُ : وَنَزِدَادُ إِيْمَانًا بِكَ وَعِلْمًا بِرِسَالَتِكَ ﴿ وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أَيُ : وَنَشْهَدُ أَنَّهَا آيَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَى نُبُوتِكَ ، وَصِدْقِ مَا جِئْتَ بِهِ .

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : أَيُ : نَتَّخِذُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عِيدًا نُعَظِّمُهُ نَحْنُ وَمَنْ بَعْدَنَا ، وَقِيلَ : عِظَةٌ لَنَا وَلِمَنْ بَعْدَنَا ، وَقِيلَ : كَافِيَةٌ لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴿ وَآيَةٌ مِنْكَ ﴾ أَيُ : دَلِيلًا تَنْصِبُهُ عَلَى قُدْرَتِكَ عَلَى الْأَشْيَاءِ ، وَعَلَى إِجَابَتِكَ لِدَعْوَتِي ، فَيُصَدِّقُونِي فِيهَا أَبْلَغُهُ عَنْكَ ﴿ وَأَرْزُقْنَا ﴾ أَيُ : مِنْ عِنْدِكَ رِزْقًا هَنِيئًا بِلَا كُلْفَةٍ وَلَا تَعَبٍ ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ ﴾ أَيُ : فَمَنْ كَذَّبَ بِهَا مِنْ أُمَّتِكَ يَا عِيسَى وَعَانَدَهَا ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُ : مِنْ عَالَمِي زَمَانِكُمْ . وَأَنْزَلَ اللَّهُ الْمَائِدَةَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيَّامَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِجَابَةً مِنَ اللَّهِ لِدَعْوَتِهِ ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ ظَاهِرُ هَذَا السِّيَاقِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ . وَالْجُمُهورُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ بِنَزْوِهَا وَوَعَدُ اللَّهُ وَوَعِيدُهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ .

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَبْعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُتَى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ

مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٣٨﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٣٩﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٠﴾

هَذَا أَيْضًا مِمَّا يُخَاطَبُ اللَّهُ بِهِ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام قَائِلًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِخَصْرَةٍ مِّنْ أَخَذَهُ وَأُمُّهُ إِلَهَيْنِ مِّنْ دُونِ اللَّهِ : ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لِلنَّصَارَى وَتَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هَذَا تَوْفِيقٌ لِلتَّأْدِبِ فِي الْجَوَابِ الْكَامِلِ . ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ أَيُّ : إِنْ كَانَ صَدَرَ مِنِّي هَذَا فَقَدْ عَلِمْتَهُ يَا رَبِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ قَمَّا قُلْتَهُ وَلَا أَرَدْتُهُ فِي نَفْسِي وَلَا أَضْمَرْتُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٣٨﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ بِإِبْلَاغِهِ ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أَيُّ : مَا دَعَوْتُهُمْ إِلَّا إِلَى الَّذِي أُرْسَلْتَنِي بِهِ وَأَمَرْتَنِي بِإِبْلَاغِهِ ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أَيُّ : هَذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ لَهُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أَيُّ : كُنْتُ أَشْهَدُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حِينَ كُنْتُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ رَدَّ الْمَشِئَةِ إِلَى اللَّهِ تعالى ، فَإِنَّهُ الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، وَمُتَضَمِّنُ التَّبَرِّي مِنَ النَّصَارَى ، الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ ، وَجَعَلُوا اللَّهَ نِدًّا وَصَاحِبَةً وَوَلَدًا ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٤١﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام فِيمَا أَنهَاهُ إِلَيْهِ مِنَ التَّبَرِّي مِنَ النَّصَارَى الْمُلْحِدِينَ الْكَافِرِينَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ ، وَمِنْ رَدِّ الْمَشِئَةِ فِيهِمْ إِلَى رَبِّهِ تعالى فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قِيلَ : يَوْمَ يَنْفَعُ الْمُؤَحِّدِينَ تَوْحِيدُهُمْ ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أَيُّ : مَا كَثُرَتْ فِيهَا لَا يُحَوَّلُونَ وَلَا يَزُولُونَ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَرَضَوْنُ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أَي : هَٰذَا الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ .
 قَوْلُهُ : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَي : هُوَ الْخَالِقُ
 لِلْأَشْيَاءِ الْمَالِكُ لَهَا الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا الْقَادِرُ عَلَيْهَا ، فَالْجَمِيعُ مِلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ وَفِي مَشِيعَتِهِ ،
 فَلَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ وَلَا عَدِيلَ وَلَا وَالِدَ وَلَا وَلَدَ وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .
 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : أَخْرَجَ سُورَةُ نَزَلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ .
 تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

مكية

تفسير سورة الأنعام

آياتها ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ
 ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا
 تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مَادِحًا نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ ، وَحَامِدًا لَهَا عَلَى خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَرَارًا
 لِعِبَادِهِ . وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ مَنْفَعَةً لِعِبَادِهِ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، فَجَمَعَ لَفْظَ الظُّلُمَاتِ وَوَحَّدَ
 لَفْظَ النُّورِ ؛ لِكُونِهِ أَشْرَفَ ، كَمَا قَالَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ
 وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أَي :
 وَمَعَ هَٰذَا كُلِّهِ كَفَرُوا بِهِ بَعْضُ عِبَادِهِ وَجَعَلُوا لَهُ شَرِيكًا وَعَدَلَا ، وَاتَّخَذُوا لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا ، تَعَالَى
 اللَّهُ ﷻ عَنْ ذَٰلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾ يَعْنِي : أَبَاهُمْ آدَمُ الَّذِي هُوَ أَصْلُهُمْ ، وَمِنْهُ خَرَجُوا
 فَانْتَشَرُوا فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ :
 ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ﴾ يَعْنِي : الْمَوْتَ ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ يَعْنِي : الْآخِرَةَ . وَقِيلَ : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ﴾
 يَعْنِي : مُدَّةَ الدُّنْيَا ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ يَعْنِي : عُمُرَ الْإِنْسَانِ إِلَى حِينِ مَوْتِهِ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ :
 ﴿ عِنْدَهُ ﴾ أَي : لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾
 [الأعراف : ١٨٧] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ : يَعْنِي تَشْكُونَ فِي أَمْرِ السَّاعَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ ﴾ اِخْتَلَفَ مُفَسِّرُو هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَقْوَالٍ بَعْدَ الْإِنْفَاقِ عَلَى تَخْطِئَةِ قَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ الْأَوَّلِ الْقَائِلِينَ - تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - : بِأَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، حَيْثُ حَمَلُوا الْآيَةَ عَلَى ذَلِكَ فَالْأَصَحُّ مِنَ الْأَقْوَالِ : أَنَّهُ الْمَدْعُوُّ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ، أَيُّ : يَعْبُدُهُ وَيُوحِّدُهُ وَيُقِرُّ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَيُسَمُّونَهُ اللَّهُ ، وَيَدْعُونَهُ رَغْبًا وَرَهْبًا ، إِلَّا مَنْ كَفَرَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ ﴾ [الزخرف : ٨٤] أَيُّ : هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ ﴾ خَبْرًا أَوْ حَالًا .

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٠﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبُؤًا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ الْمُعَانِدِينَ : أَنَّهُمْ مِنْهَا أَتَتْهُمْ ﴿ مِنْ آيَةٍ ﴾ ، أَيُّ : دَلَالَةٌ وَمُعْجِزَةٌ وَحُجَّةٌ مِنَ الدَّلَالَاتِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ الْكَرَامِ ، فَإِنَّهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْهَا فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَلَا يُبَالُونَ بِهَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبُؤًا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ ، وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ : بِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرٌ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ، وَلَيَجِدَنَّ غَيْبَهُ وَلَيَذُوقَنَّ وَبَالَهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى وَاعِظًا وَمُحَذِّرًا لَهُمْ أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ الدُّنْيَوِيِّ مَا حَلَّ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنَظَائِرِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا ، وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَاسْتِغْلَالًا لِلْأَرْضِ وَعِمَارَةً لَهَا ، فَقَالَ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَعْمَارِ وَالْجَاهِ الْعَرِيزِ وَانْسَعَةِ وَالْجُنُودِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا ﴾ أَيُّ : شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ أَيُّ : أَكْثَرْنَا عَلَيْهِمْ أَمْطَارَ السَّمَاءِ وَيَنْابِيعَ الْأَرْضِ ، أَيُّ : اسْتَدْرَاجًا وَإِمْلَاءً لَهُمْ ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أَيُّ : بِخَطَايَاهُمْ وَسَيِّئَاتِهِمْ الَّتِي اجْتَرَمُوهَا ﴿ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ أَيُّ : فَذَهَبَ الْأَوَّلُونَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴿ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ أَيُّ : جِيلًا آخَرَ لِنَخْتَبِرَهُمْ فَعَمِلُوا مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ فَهَلَكُوا كَهَلَاكِهِمْ ، فَاحْذَرُوا أَهْلِهَا الْمُخَاطَبُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ ، فَمَا أَنْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ ، وَالرَّسُولُ الَّذِي كَذَّبْتُمُوهُ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ رُسُولِهِمْ ،

فَأَنْتُمْ أُولَىٰ بِالْعَذَابِ وَمُعَاجِلَةُ الْعُقُوبَةِ مِنْهُمْ ، لَوْلَا لُطْفُهُ وَإِحْسَانُهُ .

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْمَشْرِكِينَ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابِرَتِهِمْ لِلْحَقِّ ، وَمُبَاهِتَتِهِمْ وَمُنَازَعَتِهِمْ فِيهِ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أَيُّ : عَائِنُوهُ وَرَأَوْا نُزُولَهُ وَبَاشَرُوا ذَلِكَ : ﴿ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أَيُّ : لِيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ أَيُّ : لَوْ نَزَّلْتُ الْمَلَائِكَةَ عَلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ لَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْعَذَابُ . كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ [الحجر : ٨] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان : ٢٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ أَيُّ : لَوْ أَنْزَلْنَا مَعَ الرُّسُولِ الْبَشَرِيَّ مَلَكًا أَيُّ : لَوْ بَعَثْنَا إِلَى الْبَشَرِ رَسُولًا مَلَكِيًّا لَكَانَ عَلَى هَيْئَةِ الرَّجُلِ ؛ لِتَفْهَمَ مُخَاطَبَتُهُ وَالِانْتِفَاعُ بِالْأَخْذِ عَنْهُ ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَأَتَّبَسَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ كَمَا يُلْبَسُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي قَبُولِ رِسَالَةِ الْبَشَرِيِّ ، فَمِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَىٰ بِخَلْقِهِ أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَى كُلِّ صَنَفٍ مِنَ الْخَلَائِقِ رُسُلًا مِنْهُ لِيَدْعُوَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَلِيُمْكِّنَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَنْتَفِعَ بِبَعْضٍ فِي الْمَخَاطَبَةِ وَالسُّوَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَوَعْدٌ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ بِالنُّصْرَةِ وَالْعَاقِبَةِ الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيُّ : فَكِّرُوا فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَنْظَرُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَعَانَدُوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ وَالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا ادَّخَرَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَيْفَ نَجَّى رُسُلَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ .

قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۝ وَلَهُ مَا

سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتُخَذَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۚ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦١﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦٢﴾ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٦٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَأَنَّهُ قَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الرَّحْمَةَ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ هَذِهِ اللَّامُ هِيَ الْمُوطَّئَةُ لِلْقَسَمِ ، فَأَقْسَمَ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ لَيَجْمَعَنَّ عِبَادَهُ ﴿ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيُّ : لَا شَكَّ فِيهِ عِنْدَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَمَّا الْجَاهِلُونَ الْمُكَذِّبُونَ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يُصَدِّقُونَ بِالْمَعَادِ ، وَلَا يَخَافُونَ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أَيُّ : كُلُّ دَابَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، الْجَمِيعُ عِبَادُهُ وَخَلْقُهُ ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَتَصَرُّفِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أَيُّ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ بِالتَّوْحِيدِ الْعَظِيمِ وَبِالشَّرْعِ الْقَوِيمِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتُخَذَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ [الزمر : ٦٤] ، وَالْمَعْنَى : لَا أُتَّخَذُ وَلِيًّا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنَّهُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَيُّ : خَالِقُهُمَا وَمُبْدِعُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ أَيُّ : وَهُوَ الرَّزَاقُ لَخَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ احتِياجٍ إِلَيْهِمْ . ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أَيُّ : مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ ﴾ أَيُّ : الْعَذَابُ ﴿ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ يَعْنِي : فَقَدْ رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، وَالْفَوْزُ هُوَ : حُصُولُ الرِّبْحِ وَنَفْيُ الْخُسَارَةِ .

وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۚ وَإِنْ يَمَسُّكَ خَيْرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٤﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٦٥﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۚ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ ۚ وَمَنْ بَلَغَ

أَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا أَنَّهُ مَالِكُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ وَأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ لَا مَعْصِيَةَ لِحُكْمِهِ وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَهُوَ الْغَايُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أَيُّ : هُوَ الَّذِي خَضَعْتَ لَهُ الرِّقَابُ وَذَلَّتْ لَهُ الْجَبَابِرَةُ ، وَعَنْتَ لَهُ الْوُجُوهُ ، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَذَانَتْ لَهُ الْخَلَائِقُ ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أَيُّ : فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ ﴿ الْحَبِيرُ ﴾ بِمَوَاضِعِ الْأَشْيَاءِ وَمَحَالِّهَا . ثُمَّ قَالَ : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ أَيُّ : مَنْ أَعْظَمُ الْأَشْيَاءِ شَهَادَةً ﴿ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْعَالِمُ بِمَا جِئْتُمْ بِهِ وَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ لِي ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنِ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ أَيُّ : هُوَ نَذِيرٌ لِّكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ ﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ هَذَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أَيُّ : خَسِرُوا كُلَّ الْخَسَارَةِ ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بِهَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيِّ الظَّاهِرِ الَّذِي بَشَّرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ، وَتَوَهَّتْ بِهِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ أَيُّ : لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ يَقُولُ عَلَى اللَّهِ فَادَّعَىٰ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ أَرْسَلَهُ ، ثُمَّ لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ وَدَلَالَاتِهِ ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يُفْلِحُ هَذَا وَلَا هَذَا ، لَا الْمُفْتَرِي وَلَا الْمُكَذِّبُ .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢١﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٣﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى خُبِّرَا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ وَيَوْمَ نَخْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَسْأَلُهُمْ عَنِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ قَائِلًا لَهُمْ ﴿ أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَمْ نَكُنْ فِتْنَتَهُمْ ﴾ أَيُّ حُجَّتُهُمْ ، وَقِيلَ : مَعَذِرَتُهُمْ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالصَّوَابُ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ قِيلُهُمْ عِنْدَ فِتْنَتِنَا إِيَّاهُمْ اعْتِدَارًا عَمَّا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنَ الشَّرِكِ بِاللَّهِ ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أَيُّ : يَحْيِيُوكَ لِيَسْمَعُوا قِرَاءَتِكَ وَلَا تَجْزِي عَنْهُمْ شَيْئًا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ، أَيُّ : أَغْطِيَةً لِئَلَّا يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أَيُّ : صُمًّا عَنِ السَّمْعِ النَّافِعِ . ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا ءَايَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ أَيُّ : مَهْمَارًا أَوْ مِنْ الْآيَاتِ وَالذَّلَالَاتِ وَالْحُجَجِ الْبَيِّنَاتِ وَالْبَرَاهِينِ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، فَلَا فَهْمَ عِنْدَهُمْ وَلَا إِنْصَافَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ مُجِدِّدِينَ لَكَ ﴾ أَيُّ : يُحَاجُّونَكَ وَيُنَاطِرُونَكَ فِي الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أَيُّ : مَا هَذَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلَّا مَا خُودُ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ وَمَقُولُ عَنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ ﴾ وَفِي مَعْنَى ﴿ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنْ إِتِّبَاعِ الْحَقِّ وَتَصْدِيقِ الرَّسُولِ وَالِإِنْقِيَادِ لِلْقُرْآنِ ﴿ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ ﴾ أَيُّ : وَيُبْعِدُونَهُمْ عَنْهُ ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الْفَعْلَيْنِ الْقَيْحَيْنِ لَا يَنْتَفِعُونَ وَلَا يَدْعُونَ أَحَدًا يَنْتَفِعُ .

وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِعَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا بُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٦٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَ الْكُفَّارِ إِذَا وَقَفُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّارِ وَشَاهَدُوا مَا فِيهَا مِنَ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ ، وَرَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ تِلْكَ الْأُمُورَ الْعِظَامَ وَالْأَهْوَالَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا : ﴿ يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِعَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يُرَدُّوا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُكْذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَيَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَيُّ : بَلْ ظَهَرَ لَهُمْ حَيْثُئِذٍ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْمُعَانَدَةِ وَإِنْ أَنْكَرُوا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ ؛ كَمَا قَالَ

قَبْلَهُ بَيِّنَاتٍ ۖ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۖ وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ ظَهَرَهُمْ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَهُ مِنْ أَنفُسِهِمْ مِنْ صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنْ كَانُوا يُظَاهِرُونَ لِاتِّبَاعِهِمْ خِلَافَهُ ، وَأَمَّا مَعْنَى الْأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ بَلْ بَدَأَ هُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ۖ فَإِنَّهُمْ مَا طَلَبُوا الْعُودَ إِلَى الدُّنْيَا رَغْبَةً وَحُبَّةً فِي الْإِيمَانِ ، بَلْ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَائِيَهُ جَزَاءَ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، فَسَأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَتَخَلَّصُوا مِمَّا شَاهَدُوا مِنَ النَّارِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۖ أَيُّ : فِي تَمَنِّيهِمُ الرَّجْعَةَ رَغْبَةً وَحُبَّةً فِي الْإِيمَانِ ، ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُخَالَفَةِ ۖ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۖ أَيُّ : فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ يَلَيِّنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبْ بِعَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۖ أَيُّ : لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَلَقَالُوا : مَا هِيَ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَا مَعَادَ بَعْدَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۖ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقُفُّوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ أَيُّ : أَوْقُفُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ ۖ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ۖ أَيُّ : أَلَيْسَ هَذَا الْمَعَادُ بِحَقٍّ وَلَيْسَ بِطَائِلٍ كَمَا كُنْتُمْ تَظُنُّونَ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۖ أَيُّ : بِمَا كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ فَذُوقُوا الْيَوْمَ مَسَّهُ ۖ أَفَسِحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۖ

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَسْخَرَتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ خَسَارَةِ مَنْ كَذَّبَ بِلِقَائِهِ وَعَنْ خَيْبَتِهِ إِذَا جَاءَتْهُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَعَنْ نَدَامَتِهِ عَلَىٰ مَا فَرَطَ مِنَ الْعَمَلِ ، وَمَا أَسْلَفَ مِنْ قَبِيحِ الْفِعَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَسْخَرَتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا ۖ وَهَذَا الضَّمِيرُ يَحْتَمِلُ عَوْدَهُ عَلَى الْحَيَاةِ وَعَلَى الْأَعْمَالِ وَعَلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ، أَيُّ : فِي أَمْرِهَا . ۖ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۖ مَا يَزِرُونَ ، أَيُّ : يَحْمِلُونَ ، وَقِيلَ : يَحْمِلُونَ . ۖ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ أَيُّ : إِنَّمَا غَالِيهَا كَذَلِكَ ۖ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۖ .

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۖ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمْسَلِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كَانَ

كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٩٨﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُسَلِّمًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ ﴿٩٨﴾ قَدْ تَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴿٩٩﴾ أَيُّ : قَدْ أَحْطْنَا عَلَمًا بِتَكْذِيبِهِمْ لَكَ ، وَحُزْنِكَ وَتَأْسُفِكَ عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿٩٨﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يُكْذِبُونَكَ ﴿٩٩﴾ أَيُّ : لَا يَتَّهَمُونَكَ بِالْكَذِبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿٩٨﴾ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَعَايَتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ ﴿٩٩﴾ أَيُّ : وَلَكِنَّهُمْ يُعَانِدُونَ الْحَقَّ وَيَدْفَعُونَهُ بِصُدُورِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴿٩٨﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَعَزِيَّةٌ لَهُ فِيمَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَأَمْرٌ لَهُ بِالصَّبْرِ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَوَعْدٌ لَهُ بِالنَّصْرِ كَمَا نُصِرُوا ، وَبِالظَّفَرِ حَتَّىٰ كَانَتْ هُمُ الْعَاقِبَةُ بَعْدَمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ مِنْ قَوْمِهِمْ وَالْأَذَى الْبَلِيعِ ، ثُمَّ جَاءَهُمُ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا كَمَا هُمُ النَّصْرُ فِي الْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿٩٨﴾ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴿٩٩﴾ أَيُّ : الَّتِي كَتَبَهَا بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٩٩﴾ أَيُّ : مِنْ خَيْرِهِمْ كَيْفَ نُصِرُوا وَأَيَّدُوا عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ فَلَكَ فِيهِمْ أُسْوَةٌ وَبِهِمْ قُدْوَةٌ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿٩٨﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴿٩٩﴾ أَيُّ : إِنْ كَانَ شَقَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ عَنْكَ ﴿٩٨﴾ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴿٩٩﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : النَّفَقُ : السَّرْبُ ، فَتَذَهَبَ فِيهِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، أَوْ تَجْعَلَ لَكَ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَصْعَدُ فِيهِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ أَفْضَلُ مِمَّا أَتَيْتَهُمْ بِهِ فَا فَعَلْ ، وَقَوْلُهُ : ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٩٩﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴿٩٩﴾ [يونس : ٩٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٩٨﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴿٩٩﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لِدُعَائِكَ يَا مُحَمَّدٌ مَنْ يَسْمَعُ الْكَلَامَ وَيَعْبِيهِ وَيَفْهَمُهُ . ﴿٩٨﴾ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٩٩﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : الْكُفَّارُ ؛ لِأَنَّهُمْ مَوْتَى الْقُلُوبِ ، فَسَبَّهَهُمُ اللَّهُ بِأَمْوَاتِ الْأَجْسَادِ فَقَالَ : ﴿٩٨﴾ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٩٩﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ بِهِمْ وَالْإِزْدِرَاءِ عَلَيْهِمْ .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ يُحْيَا حَيَّهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿١٠١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمَشْرِكِينَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أَيُّ : خَارِقٌ عَلَى مُقْتَضَى مَا كَانُوا يُرِيدُونَ وَمِمَّا يَتَعَتَّوْنَ . ﴿قُلْ إِنَّا اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ : هُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَٰكِنْ حِكْمَتُهُ تَعَالَى تَقْتَضِي تَأْخِيرَ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَهَا وَفَقَ مَا طَلَبُوا ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا لِعَاجِلِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ ، كَمَا فَعَلَ بِالْأُمَمِ السَّالِفَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ قِيلَ : أَيُّ : أَصْنَافٌ مُصَنَّفَةٌ تُعْرَفُ بِأَسْمَائِهَا . وَقِيلَ : الطَّيْرُ أُمَّةٌ ، وَالْإِنْسُ أُمَّةٌ ، وَالْجِنُّ أُمَّةٌ ، وَقِيلَ : ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أَيُّ : خَلَقَ أَمْثَالَكُمْ . ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيُّ : الْجَمِيعُ عِلْمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَا يَنْسَى وَاحِدًا مِنْ جَمِيعِهَا مِنْ رِزْقِهِ وَتَنْذِيرِهِ ، سَوَاءٌ كَانَ بَرِّيًّا أَوْ بَحْرِيًّا ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : حَشَرَهَا الْمَوْتُ . وَقِيلَ : أَنَّ حَشَرَهَا بَعْثُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أَيُّ : مِنْهُمْ فِي جَهْلِهِمْ وَقَلَّةِ عِلْمِهِمْ ، وَعَدَمِ فَهْمِهِمْ ، كَمَثَلِ أَصَمٍّ وَهُوَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ ، أَبْكَمٍّ وَهُوَ الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُ ، فَكَيْفَ يَهْتَدِي مِثْلَ هَذَا إِلَى الطَّرِيقِ أَوْ يُخْرِجُ مِمَّا هُوَ فِيهِ ؟ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ جَعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيُّ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ .

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿١٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَأَنَّهُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى صَرْفِ حُكْمِهِ عَنْ خَلْقِهِ ، بَلْ هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ جِيبُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ﴾ أَيُّ : أَتَاكُمْ هَذَا أَوْ هَذَا ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيُّ : لَا تَدْعُونَ غَيْرَهُ لِعِلْمِكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَفْعِ ذَلِكَ سِوَاهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيُّ : فِي اتِّخَاذِكُمْ إِلَهَةً مَعَهُ . ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ

فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَتَسَوَّنَ مَا تَشْرُكُونَ ﴿١٠٠﴾ أَيُّ : فِي وَقْتِ الضَّرُورَةِ لَا تَدْعُونَ أَحَدًا سِوَاهُ وَتَذْهَبُ عَنْكُمْ أَصْنَامُكُمْ وَأَنْدَادُكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ ﴾ يَعْنِي : الْفَقْرَ وَالضِّيقَ فِي الْعَيْشِ ﴿ وَالضَّرَاءِ ﴾ وَهِيَ الْأَمْرَاضُ وَالْأَسْقَامُ وَالْأَلَامُ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أَيُّ : يَدْعُونَ اللَّهَ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ وَيَخْشَعُونَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ أَيُّ : فَهَلَّا إِذَا ابْتَلَيْنَاهُمْ بِذَلِكَ تَضَرَّعُوا إِلَيْنَا وَتَمَسَّكُنُوا لَدَيْنَا ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيُّ : مَا رَقَّتْ وَلَا خَشَعَتْ ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : مِنَ الشَّرِّ وَالْمَعَانِدَةِ وَالْمَعَاصِي ﴿ فَلَمَّا نُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ ﴾ أَيُّ : أَعْرَضُوا عَنْهُ وَتَنَاسَوْهُ وَجَعَلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿ فَتَحْنَأُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أَيُّ : فَتَحْنَأُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ الرِّزْقِ مِنْ كُلِّ مَا يَخْتَارُونَ ، وَهَذَا اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ تَعَالَى وَإِمْلَاءٌ لَهُمْ ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ مَكْرِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَرْزَاقِ ﴿ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أَيُّ : عَلَى غَفْلَةٍ ﴿ فَإِذَا هُمْ مَبْئُوسُونَ ﴾ أَيُّ : آيسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٣﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُكُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٠٤﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ الْمَعَانِدِينَ ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ ﴾ أَيُّ : سَلَبَكُمْ إِيَّاهَا كَمَا أَعْطَاكُمْوهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ أَيُّ : هَلْ أَحَدٌ غَيْرُ اللَّهِ يَقْدِرُ عَلَى رَدِّ ذَلِكَ إِلَيْكُمْ إِذَا سَلَبَهُ اللَّهُ مِنْكُمْ ؟ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَنْظَرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أَيُّ : نُبَيِّنُهَا وَنُوضِّحُهَا وَنُفَسِّرُهَا ، دَالَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ بَاطِلٌ وَضَلَالٌ ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴾ أَيُّ : ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ يَصْذِفُونَ ، أَيُّ : يَعْرِضُونَ عَنِ الْحَقِّ وَيَصْذِفُونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَغْتَةً ﴾ أَيُّ : وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ بِهِ حَتَّى بَعَثَكُمْ وَفَجَأَكُمْ ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ أَيُّ : ظَاهِرًا عِيَانًا ﴿ هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا كَانَ يُحِيطُ بِالظَّالِمِينَ أَنْفُسُهُمْ بِالشَّرِّ بِاللَّهِ وَيَنْجُو الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أَيُّ: مُبَشِّرِينَ عِبَادَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَيْرَاتِ ، وَمُنذِرِينَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ النِّقَمَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أَيُّ: فَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ ، وَأَصْلَحَ عَمَلُهُ بِاتِّبَاعِهِ إِيَّاهُمْ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: بِالنِّسْبَةِ لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أَيُّ: بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَاتَهُمْ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَصَنِيعِهَا ، اللَّهُ وَلِيُّهُمْ فِيمَا خَلَّفُوهُ وَحَافِظُهُمْ فِيمَا تَرَكُوهُ . ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُكُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أَيُّ: يَنَالُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَفَرُوا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَخَرَجُوا عَنْ أَوْامِرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، وَارْتَكَبُوا مَنَاقِبَهُ وَتَحَارَمَهُ وَانْتَهَاكَ حُرْمَاتِهِ .

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أَيُّ: لَسْتُ أُمْلِكُهَا وَلَا أَتَصَرَّفُ فِيهَا ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أَيُّ: وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ إِنَّمَا ذَاكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ ﷻ وَلَا أَطْلُعُ مِنْهُ إِلَّا عَلَىٰ مَا أَطْلَعَنِي عَلَيْهِ ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أَيُّ: وَلَا أَدْعِي أَنِّي مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِنَ الْبَشَرِ يُوْحَىٰ إِلَيَّ مِنَ اللَّهِ ﷻ ، شَرَّفَنِي بِذَلِكَ وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ أَيُّ: لَسْتُ أَخْرُجُ عَنْهُ قَيْدَ شَيْءٍ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْهُ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أَيُّ: هَلْ يَسْتَوِي مَنْ اتَّبَعَ الْحَقَّ وَهُدًى إِلَيْهِ وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ وَلَمْ يَتَّقْ لَهُ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أَيُّ: وَأَنْذِرْ بِهِ هَذَا الْقُرْآنَ يَا مُحَمَّدُ: ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] ، وَالَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ [الرعد: ٢١] ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أَيُّ: يَوْمِئِذٍ ﴿مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أَيُّ: لَا قَرِيبَ هُمْ وَلَا شَفِيعَ فِيهِمْ

مِنْ عَذَابِهِ إِنَّ أَرَادَهُ بِهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَيُّ : أَنْذَرُ هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي لَا حَاكِمَ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ ﷻ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فَيَعْمَلُونَ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَمَلًا يُنْجِيهِمُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذَابِهِ ، وَيُضَاعِفُ لَهُمْ بِهِ الْجَزِيلَ مِنْ ثَوَابِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أَيُّ : لَا تُبْعِدْ هَؤُلَاءِ الْمُتَصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ عَنْكَ ، بَلِ اجْعَلْهُمْ جُلَسَاءَكَ وَأَخَصَاءَكَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أَيُّ : يَعْبُدُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أَيُّ : يُرِيدُونَ بِذَلِكَ الْعَمَلَ وَجْهَ اللَّهِ الْكَرِيمِ ، فَهُمْ مُخْلِصُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا حِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ﷻ وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِي مِنْ شَيْءٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿فَطَرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ : إِنْ فَعَلْتَ هَذَا وَالْحَالَةَ هَذِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أَيُّ : ابْتَلَيْنَا وَاخْتَبَرْنَا وَامْتَحَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴿لَيَقُولُوا أَهْتُولَا مِنْ رَبِّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ غَالِبًا مَنْ اتَّبَعَهُ فِي أَوَّلِ بَعْثَتِهِ ضِعْفَاءُ النَّاسِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ ، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ مِنَ الْأَشْرَافِ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَقَالَ فِي جَوَابِهِمْ حِينَ قَالُوا : ﴿أَهْتُولَا مِنْ رَبِّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أَيُّ : أَلَيْسَ هُوَ أَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ لَهُ بِأَقْوَاهِمُ وَأَفْعَالِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ فَيُوقِّقُهُمْ وَيَهْدِيهِمْ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ : فَأَكْرِمْهُمْ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيْهِمْ وَبَشِّرْهُمْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ الشَّامِلَةِ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أَيُّ : أَوْجَبَهَا عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ تَفْضُلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا وَامْتِنَانًا ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ﴾ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ . ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أَيُّ : رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَأَفْلَحَ وَعَزَمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ وَأَصْلَحَ الْعَمَلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

وَكَذَلِكَ تَفْصِيلُ الْآيَةِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي مُهَيِّتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ * وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا

يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا بَيَّنَّا مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنَ الْحُجَجِ وَالْدَّلَائِلِ عَلَى طَرِيقِ الْهُدَايَةِ وَالرَّشَادِ وَدَمَّ الْمَجَادِلَةِ وَالْعِنَادِ ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أَي : الَّتِي يَحْتَاجُ الْمُخَاطَبُونَ إِلَى بَيَانِهَا ﴿ وَلَيْسَتَيْنِ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أَي : وَلِتُظْهَرَ طَرِيقُ الْمُجْرِمِينَ الْمَخَالِفِينَ لِلرُّسُلِ ، وَقُرِئَ « وَلَيْسَتَيْنِ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ » أَي : وَلَيْسَتَيْنِ يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا مُحَاطَبُ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أَي : عَلَى بَصِيرَةٍ مِّن شَرِيعَةِ اللَّهِ الَّتِي أَوْحَاهَا اللَّهُ إِلَيَّ ﴿ وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ﴾ أَي : بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَنِي مِنَ اللَّهِ ﴿ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ أَي : مَن الْعَذَابِ ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أَي : إِنَّمَا يَرْجِعُ أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمُوهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ شَاءَ أَنْزَلَكُمْ وَأَجَلَكُمْ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ ﴾ أَي : وَهُوَ خَيْرُ مَنْ فَصَّلَ الْقَضَايَا ، وَخَيْرُ الْفَاتِحِينَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ عِبَادِهِ . ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أَي : لَوْ كَانَ مَرْجِعُ مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِلَيَّ لَأَوْفَعْتُ بِكُمْ مَا تَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ : ﴿ إِنْ أَلَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ إِنْ أَلَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ٣٤] . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أَي : يُحِيطُ عِلْمُهُ الْكَرِيمُ بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ بَرِّيَّهَا وَبَحْرِيَّهَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَلَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَنَقَّطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ أَي : وَيَعْلَمُ الْحَرَكَاتِ حَتَّى مِنَ الْجُمَادَاتِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْحَيَوَانَاتِ ، وَلَا سِيَّيَا الْمَكْلُفُونَ مِنْهُمْ مِنْ جَنَّتِهِمْ وَإِنْسِهِمْ .

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ ﴾ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ يَتَوَفَّى عِبَادَهُ فِي مَنَامِهِمْ بِاللَّيْلِ ، وَهَذَا هُوَ التَّوَفَّى الْأَصْغَرُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴾ أَي : مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ فِيهِ

﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أَي : فِي النَّهَارِ . ﴿ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ يَعْنِي بِهِ : أَجَلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ ﴾ أَي : فَيُخَبِّرُكُمْ ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَي : وَيَجْزِيكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ أَفْهَمُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أَي : وَهُوَ الَّذِي فَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَخَضَعَ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ كُلَّ شَيْءٍ ﴿ وَيُرْسِلْ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ أَي : مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ بَدَنَ الْإِنْسَانِ ، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أَي : أَحْضَرَ وَحَانَ أَجَلُهُ ﴿ تَوَفَّهُ رُسُلُنَا ﴾ أَي : مَلَائِكَةُ مُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ ﴾ أَي : فِي حِفْظِ رُوحِ الْمُتَوَفَّى بَلْ يَحْفَظُونَهَا وَيُنْزِلُونَهَا حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ﷻ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَبْرَارِ فِيهِ عِلِّيُّنَ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْفُجَّارِ فِيهِ سَجِّينَ ، عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا ﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةُ ﴿ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ﴾ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ ﴾ يَعْنِي : الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِعَدْلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسَيْنِ ﴾ .

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٦﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُثَمِّنًا عَلَىٰ عِبَادِهِ فِي إِنْجَائِهِ الْمُضْطَرِّينَ مِنْهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ أَي : الْخَائِرِينَ الْوَاقِعِينَ فِي الْمَهَامَةِ الْبَرِّيَّةِ وَفِي اللَّجَجِ الْبَحْرِيَّةِ إِذَا هَاجَتِ الرِّيَّاحُ الْعَاصِفَةُ ، فَحَسْبُذُ يُفْرَدُونَ الدُّعَاءَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أَي : جَهْرًا وَسِرًّا ﴿ لِّئِنْ أَنْجَيْنَا ﴾ أَي : مِنْ هَٰذِهِ الضَّائِقَةِ ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أَي : بَعْدَهَا ﴿ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ ﴾ أَي : بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ أَي : تَدْعُونَ مَعَهُ فِي حَالِ الرَّفَاهِيَةِ إِلَهَةً أُخْرَى . ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ لَمَّا قَالَ : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ عَقَبَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ﴾ أَي : بَعْدَ إِنْجَائِهِ إِيَّاكُمْ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ يَعْنِي : الرَّجْمَ ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْحَسْفَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا ﴾ يَعْنِي : يَجْعَلُكُمْ مُتَلَبِّسِينَ شِيْعًا فِرَقًا مُّتَخَالِفِينَ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي : الْأَهْوَاءَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي : يُسَلِّطُ بَعْضُكُمْ

عَلَى بَعْضٍ بِالْعَذَابِ وَالْقَتْلِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصْرَفُ الْآيَاتِ ﴾ أَي : نُبَيِّنُهَا وَنُوضِّحُهَا وَنُفَرِّهَا : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ أَي : يَفْهَمُونَ وَيَتَذَبَّرُونَ عَنِ اللَّهِ آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ .

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٠﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ تَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ ﴾ أَي : بِالْقُرْآنِ الَّذِي جِئْتُهُمْ بِهِ وَاهْتَدَى وَالْبَيَانِ ﴿ قَوْمُكَ ﴾ يَعْنِي : قُرَيْشًا ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ أَي : الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ ﴿ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أَي : لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِخَفِيفٍ وَلَسْتُ بِمُوكِّلٍ بِكُمْ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] أَي : إِنَّمَا عَلَى الْبَلَاغِ وَعَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فَمَنْ اتَّبَعَنِي سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ خَالَفَنِي فَقَدْ شَقِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : أَي : لِكُلِّ نَبِيٍّ حَقِيقَةٌ ، أَي : لِكُلِّ خَبَرٍ وَقُوعٌ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٨] ، وَقَالَ : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدُ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ تَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أَي : بِالتَّكْذِيبِ وَالِاسْتِهْزَاءِ ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أَي : حَتَّى يَأْخُذُوا فِي كَلَامٍ آخَرَ غَيْرَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ آحَادِ الْأُمَّةِ أَنْ لَا يَجْلِسَ مَعَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ آيَاتِ اللَّهِ ، وَيَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ، فَإِنْ جَلَسَ أَحَدٌ مَعَهُمْ نَاسِيًا ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى ﴾ بَعْدَ التَّذَكُّرِ ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أَي : إِذَا تَجَنَّبُوهُمْ فَلَمْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ فَقَدْ بَرُّوا مِنْ عَهْدَتِهِمْ وَتَخَلَّصُوا مِنْ إِيْثَمِهِمْ .

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ﴾ أَي : دَعَهُمْ وَأَعْرِضْ

عَنْهُمْ وَأَمْهَلُهُمْ قَلِيلًا ، فَإِنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أَي : ذَكِّرِ النَّاسَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَحَذِّرْهُمْ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ الْأَلِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أَي : لِئَلَّا تُبْسَلَ ، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : ﴿ تُبْسَلَ ﴾ تُسَلَمُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : تُفْضَحُ . وَقِيلَ : تُحْبَسُ ، وَقِيلَ : تُؤَاخَذُ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَالْعِبَارَاتِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى ، وَحَاصِلُهَا : الْإِسْلَامُ لِلْهَلَكَةِ ، وَالْحُبْسُ عَنِ الْحَيْرِ ، وَالْإِزْتِهَانُ عَنْ دَرْكِ الْمَطْلُوبِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ هَذَا مِنْ دُورِ اللَّهِ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أَي : لَا قَرِيبَ وَلَا أَحَدَ يَشْفَعُ فِيهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ﴾ أَي : وَلَوْ بَذَلَتْ كُلُّ مَبْدُولٍ مَا قُبِلَ مِنْهَا ، وَكَذَا قَالَ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ .

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُورِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرُدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣٩﴾

قَالَ السُّدِّيُّ : قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَانْتَرَكُوا دِينَ مُحَمَّدٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُورِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرُدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا ﴾ أَي : فِي الْكُفْرِ ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ ﴾ فَيَكُونُ مِثْلُنَا مِثْلَ الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ يَقُولُ : مِثْلُكُمْ إِنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ كَمِثْلِ رَجُلٍ خَرَجَ مَعَ قَوْمٍ عَلَى الطَّرِيقِ ، فَضَلَّ الطَّرِيقَ فَحَيَّرَتْهُ الشَّيَاطِينُ ، وَاسْتَهْوَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَأَصْحَابُهُ عَلَى الطَّرِيقِ ، فَجَعَلُوا يَدْعُونَهُ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ ائْتِنَا فَإِنَّا عَلَى الطَّرِيقِ ، فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ ، فَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَمُحَمَّدٌ هُوَ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الطَّرِيقِ ، وَالطَّرِيقُ هُوَ : الْإِسْلَامُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَصْلَتْهُ فِي الْأَرْضِ ، يَعْنِي : اسْتَهْوَتْهُ سِيرَتُهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ تَهْوَى إِلَيْهِمْ ﴾ ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا ﴾ قَالَ : رَجُلٌ حَيْرَانٌ يَدْعُوهُ أَصْحَابُهُ إِلَى الطَّرِيقِ ، وَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ يَضِلُّ بَعْدَ أَنْ هُدِيَ ﴿ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ .

كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ [الزمر : ٣٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي : نُخْلِصُ لَهُ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿ وَأَنْ

أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ أَيُّ : وَأَمَرْنَا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَبِتَقْوَاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۚ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ۚ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ أَيُّ : بِالْعَدْلِ فَهُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَالْمُدَبِّرُ لَهَا وَلِمَنْ فِيهَا . ۚ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ : كُنْ فَيَكُونُ عَنْ أَمْرِهِ كَلِمَحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، وَيَوْمَ مَنْصُوبٌ إِمَّا عَلَى الْعُطْفِ عَلَى قَوْلِهِ : ۚ وَآتُواهُ ۚ وَتَقْدِيرُهُ : وَآتَقُوا يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَإِمَّا عَلَى قَوْلِهِ : ۚ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ أَيُّ : وَخَلَقَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَذَكَرَ بَدْءَ الْخَلْقِ وَإِعَادَتَهُ وَهُوَ مُنَاسِبٌ ، وَإِمَّا عَلَى إِضْمَارِ فِعْلِ تَقْدِيرُهُ : وَادَّكُرُ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ .

وَقَوْلُهُ : ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ۚ جُمْلَتَانِ مَحْلُهُمَا الْجُرُّ عَلَى أَتَمَّتْهُمَا صِفَتَانِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . ۚ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ۚ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ : ۚ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ ۚ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِقَوْلِهِ : ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ۚ كَقَوْلِهِ : ۚ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [غافر : ١٦] ، وَالْمُرَادُ بِالصُّورِ : الْقُرْنُ الَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ۖ أَأَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّي أُرْسِلُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا حَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٦٣﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ إِلَهِي بِيَوْمٍ ۖ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٦٤﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي ۖ هَذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٦﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ النَّسَبِ : إِنَّ أَبَا إِبْرَاهِيمَ اسْمُهُ تَارِيخٌ ، وَقَالَ غَيْرُهُمْ : أَرَزَ : اسْمٌ صَنِيعٌ . قُلْتُ : كَأَنَّهُ غَلَبَ عَلَيْهِ أَرَزَ لِحُدُودِهِ ذَلِكَ الصَّنَمَ - فَاللَّهُ أَعْلَمُ - . وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَظَّ أَبَاهُ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَزَجَرَهُ عَنْهَا وَنَهَاةً فَلَمْ يَنْتَهَ كَمَا قَالَ : ۚ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ۖ أَأَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۚ أَيُّ : أَتَتَّكَلَّهُ لِصَنَمٍ تَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ ۚ إِنِّي أُرْسِلُكَ وَقَوْمَكَ ۚ أَيُّ : السَّالِكِينَ مَسْلَكَكَ ۚ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۚ أَيُّ : تَائِهِينَ لَا يَهْتَدُونَ أَيْنَ يَسْلُكُونَ ، بَلْ فِي حَيْرَةٍ وَجَهْلٍ ، وَأَمْرُكُمْ فِي الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالِ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ صَحِيحٍ . ۚ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ أَيُّ : نُبَيِّنُ لَهُ وَجْهَ الدَّلَالَةِ فِي نَظَرِهِ إِلَى خَلْقِهَا عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ﷻ فِي مُلْكِهِ وَخَلْقِهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . ۚ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۚ قِيلَ : ((الْوَاقِعَةُ))

زَائِدَةٌ، تَقْدِيرُهُ: وَكَذَلِكَ تُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، وَقِيلَ: بَلْ هِيَ عَلَى بَابِهَا، أَي: تُرِيهِ ذَلِكَ لِيَكُونَ عَالِمًا وَمُوقِنًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أَي: تَغَشَّاهُ وَسَتَرَهُ ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ أَي: نَجْمًا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أَي: غَابَ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: الْأُقُولُ: الذَّهَابُ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يُقَالُ أَفَلَ النَّجْمُ يَأْفُلُ وَيَأْفُلُ أَفُولًا وَأَفَلًا: إِذَا غَابَ، قَالَ: ﴿لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: عَلِمَ أَنَّ رَبَّهُ دَائِمٌ لَا يَزُولُ، ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أَي: طَالِعًا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أَي: هَذَا الْمُنِيرُ الطَّالِعُ رَبِّي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ أَي: جَزْمًا مِنَ النَّجْمِ وَمِنَ الْقَمَرِ وَأَكْثَرُ إِضَاءَةً ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ أَي: غَابَتْ ﴿قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ ﴿أَي: أَخْلَصْتُ دِينِي، وَأَفْرَدْتُ عِبَادَتِي﴾ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴿أَي: خَلَقَهُمَا وَابْتَدَعَهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ﴾ حَنِيفًا ﴿أَي: فِي حَالِ كَوْنِي حَنِيفًا أَي: مَائِلًا عَنِ الشَّرِكِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْمَقَامِ هَلْ هُوَ مَقَامُ نَظَرٍ أَوْ مُنَاطَرَةٍ؟ وَالْحَقُّ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُنَاطِرًا لِقَوْمِهِ مُبَيِّنًا لَهُمْ بُطْلَانَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْهِيَائِلِ وَالْأَصْنَامِ، فَلَمَّا انْتَهَتْ الْإِلَهِيَّةُ عَنْ هَذِهِ الْأَجْرَامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ أَنْوَرُ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْأَبْصَارُ، وَتَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالذَّلِيلِ الْقَاطِعِ ﴿قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أَي: أَنَا بَرِيءٌ مِنْ عِبَادَتِهِمْ وَمُؤَالَاتِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ إِلَهَةٌ فَكَيْدُونِي بِهَا جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ ﴿إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَي: إِنَّمَا أَعْبُدُ خَالِقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمُخْتَرِعَهَا وَمُسَخَّرَهَا وَمُقَدَّرَهَا وَمُدَبِّرَهَا، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ وَإِلَهُهُ، وَمَا يُؤَيِّدُ أَنَّهُ كَانَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُنَاطِرًا لِقَوْمِهِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشَّرِكِ لَا نَاطِرًا قَوْلُهُ تَعَالَى:

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ اتَّخُذُوا فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْعًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٦٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ دَرَجَاتٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ جَادَلَهُ قَوْمُهُ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَنَاطَرُوهُ بِشَبْهِهِ مِنَ الْقَوْلِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ ائْتِجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ أَي : مُجَادِلُونِي فِي أَمْرِ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَقَدْ بَصَّرَنِي وَهَدَانِي إِلَى الْحَقِّ ، وَأَنَا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ فَكَيْفَ أَلْتَفْتُ إِلَى أَقْوَالِكُمُ الْفَاسِدَةِ ، وَشَبْهَتُكُمُ الْبَاطِلَةَ . ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ أَي : وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِكُمُ فِيمَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ : أَنَّ هَذِهِ الْأَلِهَةَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا لَا تُؤَثِّرُ شَيْئًا ، وَأَنَا لَا أَخَافُهَا ، وَلَا أَبَالِيهَا ، فَإِنْ كَانَ لَهَا صُنْعٌ فَكَيْدُونِي بِهَا ، وَلَا تَنْظُرُونَ بَلْ عَاجِلُونِي بِذَلِكَ . ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ اِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، أَي : لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا اللَّهُ ﷻ : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أَي : أَحَاطَ عِلْمُهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَي : فِيمَا بَيَّنَّتُهُ لَكُمْ فَتَعْتَبِرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْأَلِهَةَ بَاطِلَةٌ فَتَنْزَجِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ أَي : كَيْفَ أَخَافُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ أَي : حُجَّةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : فَأَيُّ الطَّائِفَتَيْنِ أَصَوَّبٌ ، الَّذِي عَبْدَ مَنْ بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ أَوِ الَّذِي عَبْدَ مَنْ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ بِلَا دَلِيلٍ ؟ أَيُّهُمَا أَحَقُّ بِالْأَمْنِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أَي : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، هُمُ الْأَمْنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْمُهْتَدُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ أَي : وَجَهْنَا حُجَّتَهُ عَلَيْهِمْ ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي : بِذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ الْآيَةُ . وَقَدْ صَدَقَهُ اللَّهُ وَحَكَمَ لَهُ بِالْأَمْنِ وَالْهُدَايَةِ فَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ لِّشَاءِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أَي : حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، عَلِيمٌ أَي : بِمَنْ يَهْدِيهِ وَمَنْ يُضِلُّهُ ، وَإِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨١﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا

فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٨﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِلُهُمْ آفَاقُهُ ۚ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۚ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ وَهَبَ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ بَعْدَ أَنْ طَعَنَ فِي السَّنِّ وَأَيَسَ هُوَ وَأَمْرَاتُهُ سَارَةُ مِنَ الْوَلَدِ ، فَجَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُمْ ذَاهِبُونَ إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ، فَبَشَّرُوهُمَا بِإِسْحَاقَ ، فَتَعَجَّبَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَتْ : ﴿ يَتَوَلَّيْنِي ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود : ٧٢] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أَي : مِنْ قَبْلِهِ هَدَيْنَاهُ كَمَا هَدَيْنَاهُ وَوَهَبْنَا لَهُ ذُرِّيَّةً صَالِحَةً ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ أَي : وَهَدَيْنَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴿ دَاوُدَ وَسَلَمَانَ ﴾ الْآيَةِ ، وَعَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى نُوحٍ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ الْمَذْكُورِينَ ظَاهِرٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ﴾ ذَكَرَ أَصُولَهُمْ وَفُرُوعَهُمْ وَذَوِي طَبَقَتِهِمْ ، وَأَنَّ الْهَدَايَةَ وَالْاجْتِبَاءَ شَمَلَهُمْ كُلَّهُمْ ؛ وَهَٰذَا قَالَ : ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أَي : إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ لَهُمْ وَهَدَايَتِهِ إِيَّاهُمْ ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تَشْدِيدٌ لِأَمْرِ الشَّرِكِ وَتَغْلِيطٌ لِشَأْنِهِ وَتَعْظِيمٌ لِلْمَلَبَسَةِ . ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ أَي : أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ بِهِمْ وَلُطْفًا مِنَّا بِالْخَلِيقَةِ ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أَي : بِالنُّبُوَّةِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ : الْكِتَابِ وَالْحُكْمِ وَالنُّبُوَّةِ . ﴿ هَٰؤُلَاءِ ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ مَكَّةَ ﴿ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أَي : إِن يَكْفُرْ بِهِذِهِ النَّعْمِ مَنْ كَفَرَ بِهَا مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ وَمَلِيَّينَ وَكِتَابِيَّينَ ﴿ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا ﴾ أَي : الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَتْبَاعِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أَي : لَا يَجْحَدُونَ مِنْهَا شَيْئًا وَلَا يَرُدُّونَ مِنْهَا حَرْفًا وَاحِدًا بَلْ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِهَا : مُحْكَمَهَا وَمُتَشَابِهَهَا ، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُحَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ يَعْنِي : الْأَنْبِيَاءَ الْمَذْكُورِينَ مَعَ مَنْ أَضِيفَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَبَاءِ وَالذَّرِّيَّةِ وَالْإِخْوَانِ وَهُمْ الْأَشْبَاهُ ﴿ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ أَي : هُمْ أَهْلُ الْهَدَايَةِ لَا غَيْرُهُمْ ﴿ فَيُهْدِلُهُمْ آفَاقُهُ ﴾ أَي : آفَاقَهُ وَاتَّبَعَ ، وَإِذَا كَانَ هَٰذَا أَمْرًا لِلرُّسُولِ ﷺ فَأَمَّتُهُ تَبِعَ لَهُ فِيمَا يُشَرِّعُهُ وَيَأْمُرُهُمْ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أَي : لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ عَلَى إِبْلَاجِي إِيَّاكُمْ هَذَا الْقُرْآنَ أَجْرًا ، أَي : أَجْرَةً ، وَلَا أُرِيدُ مِنْكُمْ شَيْئًا ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أَي : يَتَذَكَّرُونَ بِهِ فَيَرْشُدُوا مِنَ الْعَمَى إِلَى الْهُدَى ، وَمِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ ، وَمِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْعلُوهُ قَرَارِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٥٦﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمَا عَظَّمُوا اللَّهَ حَقَّ تَعْظِيمِهِ إِذْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ إِلَيْهِمْ . وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي فَرِيشٍ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ أَي : قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِإِنزَالِ شَيْءٍ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِي جَوَابِ سَلِيلِهِمُ الْعَامِ بِإِثْبَاتِ قَضِيَّةٍ جُزْئِيَّةٍ مُّوجِبَةٍ ﴿ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾ يَعْنِي : التَّوْرَةَ الَّتِي قَدْ عَلِمْتُمْ وَكُلُّ أَحَدٍ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنزَلَهَا عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﴿ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ أَي : لِيُسْتَضَاءَ بِهَا فِي كَشْفِ الْمَشْكَلاتِ ، وَيُهْتَدَى بِهَا مِنْ ظُلَمِ الشُّبُهَاتِ . ﴿ لِيَجْعلُوهُ قَرَارِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ أَي : لِيَجْعَلُهَا حَمَلَتَهَا قَرَارِيسَ ، أَي : قِطْعًا تَكْتُبُونَهَا مِنَ الْكِتَابِ الْأَصْلِيِّ الَّذِي بَأْيَدِيكُمْ ، وَتُحَرِّفُونَ مِنْهَا مَا تُحَرِّفُونَ ، وَتُبَدِّلُونَ وَتَتَأَوَّلُونَ وَتَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، أَي : فِي كِتَابِهِ الْمُنَزَّلِ ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ لِيَجْعلُوهُ قَرَارِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ أَي : وَمَنْ أَنزَلَ الْقُرْآنَ الَّذِي عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ مَّا سَبَقَ وَبَيَّا مَا يَأْتِي ، مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ . قَالَ قَتَادَةُ : هَؤُلَاءِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هَذِهِ لِلْمُسْلِمِينَ . ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أَي : قُلِ اللَّهُ أَنزَلَهُ ، وَهَذَا هُوَ الْمُتَعَيَّنُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ . ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أَي : ثُمَّ دَعَهُمْ فِي جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ يَلْعَبُونَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْيَقِينُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أَهْمُ الْعَاقِبَةُ أَمْ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ ؟

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ﴿ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَمِنْ سَائِرِ طَوَائِفِ بَنِي آدَمَ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أَي : كُلُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُؤْمِنُ

هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أَيُّ : يَقُومُونَ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أَيُّ : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ فَجَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ أَوْ وَلَدًا ، أَوْ ادَّعَى أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ وَلَمْ يَكُنْ أَرْسَلَهُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ وَقْتَادَةُ : نَزَلَتْ فِي مُسَيِّمَةِ الْكَذَّابِ . ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أَيُّ : وَمَنْ ادَّعَى أَنَّهُ يُعَارِضُ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ الْوَحْيِ بِمَا يَفْتَرِيهِ مِنَ الْقَوْلِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أَيُّ : فِي سَكَرَاتِهِ وَغَمَرَاتِهِ وَكُرْبَاتِهِ : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أَيُّ : بِالضَّرْبِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿لِيَنْ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ [المائدة : ٢٨] . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أَيُّ : بِالْعَذَابِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أَيُّ : بِالضَّرْبِ لَهُمْ حَتَّى تَخْرُجَ أَنْفُسُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ ، وَلِهَذَا يَقُولُونَ لَهُمْ : ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا أُحْضِرَ بَشَرَتُهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْأَغْلَالِ وَالسَّلَاسِلِ وَالْجَحِيمِ وَالْحَمِيمِ وَغَضَبِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فَتَفَرَّقَ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَتَعْصِي وَتَأْبَى الْخُرُوجِ ، فَتَضَرَّبُهُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تَخْرُجَ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ ، فَأُثْلِثَ لَهُمْ : ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : الْيَوْمَ يَهَانُونَ غَايَةَ الْإِهَانَةِ ، كَمَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ ، وَتَسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ ، وَالْإِنْقِيَادِ لِرُسُلِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَيُّ : يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ هَذَا ، كَمَا قَالَ : ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَيُّ : كَمَا بَدَأْنَاكُمْ أَعْدَانًاكُمْ ، وَقَدْ كُنْتُمْ تُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَتَسْتَبْعِدُونَهُ ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أَيُّ : مِنَ النِّعَمِ وَالْأَمْوَالِ الَّتِي إقْتَنَيْتُمُوهَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾

تَقْرِيعُ هُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى مَا كَانُوا اتَّخَذُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۖ أَيُّ : فِي الْعِبَادَةِ هُمْ فِيكُمْ قِسْطٌ فِي اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ هُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ ۖ قُرَىٰ بِالرَّفْعِ أَيُّ : شَمَلُكُمْ ، وَقُرَىٰ بِالنَّصْبِ ، أَيُّ : لَقَدْ انْقَطَعَ مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْوَصَلَاتِ وَالْوَسَائِلِ ۖ وَضَلَّ عَنْكُمْ ۖ أَيُّ : وَذَهَبَ عَنْكُمْ ۖ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۖ مِنْ رَجَاءِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ ۚ فَإِنِّي تُؤَفِّكُونَ ۖ ۝ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۖ ۝ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۖ ۝﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، أَيُّ : يَشْقُهُ فِي الثَّرَى ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ الزَّرْعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنَ الْحَبُوبِ وَالنَّارِ ، عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا وَطُوعُمِهَا مِنَ النَّوَى ، وَلِهَذَا فَسَّرَ قَوْلُهُ : ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ۖ بِقَوْلِهِ : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ أَيُّ : يُخْرِجُ النَّبَاتَ الْحَيَّ مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى الَّذِي هُوَ كَالْجَمَادِ الْمَيِّتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ۖ ثُمَّ فَسَّرَهُ ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ . وَقَدْ عَبَّرُوا عَنْ هَذَا وَهَذَا بِعِبَارَاتٍ كُلِّهَا مُتَقَارِبَةٌ مُؤَدِّيَةٌ لِلْمَعْنَى : فَمِنْ قَائِلٍ : يُخْرِجُ الدَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَةِ وَالْبَيْضَةَ مِنَ الدَّجَاجَةِ ، وَمِنْ قَائِلٍ : يُخْرِجُ الْوَلَدَ الصَّالِحَ مِنَ الْفَاجِرِ وَالْفَاجِرَ مِنَ الصَّالِحِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي تَنْتَظِمُهَا الْآيَةُ وَتَشْمَلُهَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ ۖ أَيُّ : فَاعِلٌ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ فَإِنِّي تُؤَفِّكُونَ ۖ أَيُّ : فَكَيْفَ تُصَرِّفُونَ عَنِ الْحَقِّ ، وَتَعْدِلُونَ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ ، فَتَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ۖ أَيُّ : خَالَقَ الضِّيَاءِ وَالظُّلَامِ ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ أَيُّ : فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَفْلِقُ ظُلَامَ اللَّيْلِ عَنْ غُرَّةِ الصَّبَاحِ فَيُضِيءُ الْوُجُودَ ، فَيَبَيِّنُ تَعَالَى قُدْرَتَهُ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَقَابِلُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ۖ أَيُّ : سَاجِدًا مُظْلِمًا لِيَسْكُنَ فِيهِ الْأَشْيَاءُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۖ أَيُّ : يُجَرِّبَانِ بِحِسَابٍ مُقَنَّيْنِ مُقَدَّرَيْنِ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَضْطَرِبُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۖ أَيُّ : الْجَمِيعُ جَارٍ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُبَايِعُ وَلَا يُخَالِفُ ،

الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا يَغْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ ﴾ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَنْ إِيْتَقَدَ فِي هَذِهِ النُّجُومِ غَيْرَ ثَلَاثٍ فَقَدْ أَخْطَأَ ، وَكَذَّبَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ . إِنَّ اللَّهَ جَعَلَهَا زِينَةً لِلْسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَيُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ ، ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ﴾ أَيِ : قَدْ بَيَّنَّاها وَوَضَحْنَاها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيِ : يَعْقِلُونَ وَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَتَجْتَنِبُونَ الْبَاطِلَ .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُوهُ ﴿ ١٨ ﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجٌ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالزُّمَانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِمَهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ ١٩ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يَعْنِي : آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ أَيِ : فِي الْأَرْحَامِ ، ﴿ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أَيِ : فِي الْأَصْلَابِ . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُوهُ ﴾ أَيِ : يَفْهَمُونَ وَيَعُونُ كَلَامَ اللَّهِ وَمَعْنَاهُ . ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أَيِ : بِقَدَرٍ مُبَارَكًا رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَإِحْيَاءً وَغِيَاثًا لِلْخَلَائِقِ ، رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِخَلْقِهِ ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ : ٣٠] ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ أَيِ : زَرْعًا وَشَجَرًا أَخْضَرَ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَخْلُقُ فِيهِ الْحَبَّ وَالثَّمَرَ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَخْرُجٌ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ أَيِ : يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا كَالسَّنَابِلِ وَنَحْوِهَا ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ أَيِ : جَمْعُ قِنْوٍ ، وَهِيَ عُدُوقُ الرُّطَبِ ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أَيِ : قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُتَنَاوِلِ . ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ أَيِ : وَنَخْرُجُ مِنْهُ جَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ . ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالزُّمَانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ يَتَشَابَهُ فِي الْوَرَقِ وَالشَّكْلِ ، قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ ، وَيَتَخَالَفُ فِي الثَّمَارِ شَكْلًا وَطَعْمًا وَطَبْعًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِمَهُ ﴾ أَيِ : نُضِجِهِ . قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَيِ : فَكَّرُوا فِي قُدْرَةِ خَالِقِهِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ حَطْبًا صَارَ عِنَبًا وَرُطْبًا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ بِمَا خَلَقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ ﴾ أَيِهَا النَّاسُ ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أَيِ : دَلَالَاتٍ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ خَالِقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيِ : يُصَدِّقُونَ بِهِ وَيَتَّبِعُونَ رُسُلَهُ .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥﴾

هَذَا رَدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ وَأَشْرَكُوا بِهِ فِي عِبَادَتِهِ ، أَنْ عَبَدُوا الْجِنَّ فَجَعَلُوهُمْ شُرَكَاءَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ شَرِكِهِمْ وَكُفِّرَهُمْ . فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ عُبِدَتِ الْجِنَّ وَإِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ؟ فَالْجَوَابُ : أَنَّهُمْ مَا عَبَدُوا الْأَصْنَامَ إِلَّا عَنْ طَاعَةِ الْجِنَّ وَأَمْرِهِمْ إِنِّيَاهُمْ بِذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ أَيُّ : وَقَدْ خَلَقَهُمْ فَهُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَكَيْفَ يُعْبَدُ مَعَهُ غَيْرُهُ ؟ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَحْدَهُ ، فَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَخَرَفُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ بَغْيٍ عِلْمٍ ﴾ يُنبِّئُهُ تَعَالَى عَلَى ضَلَالٍ مَنْ ضَلَّ فِي وَصْفِهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَهُ وَلَدًا ، وَمَعْنَى ﴿ خَرَفُوا ﴾ أَيُّ : اخْتَلَفُوا وَاتَّفَقُوا وَتَحَرَّصُوا وَكَذَّبُوا . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذَا : وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْجِنَّ شُرَكَاءَ فِي عِبَادَتِهِمْ إِنِّيَاهُ وَهُوَ الْمُنْفَرِدُ بِخَلْقِهِمْ بِغَيْرِ شَرِيكَ وَلَا مُعِينٍ وَلَا ظَهِيرٍ ﴿ وَخَرَفُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ ﴾ . يَقُولُ : وَتَحَرَّصُوا لِلَّهِ كَذِبًا ، فَافْتَعَلُوا لَهُ بَيْنَ وَبَنَاتٍ ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بِحَقِيقَةِ مَا يَقُولُونَ وَلَكِنْ جَهْلًا بِاللَّهِ وَبِعَظَمَتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَتَّبِعِي لِمَنْ كَانَ إِلَهًا أَنْ يَكُونَ لَهُ بَنُونَ وَبَنَاتٌ وَلَا صَاحِبَةٌ ، وَلَا أَنْ يُشْرَكَهُ فِي خَلْقِهِ شَرِيكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ أَيُّ : تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاظَمَ عَمَّا يَصِفُهُ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ الضَّالُّونَ : مِنَ الْأَوَّلَادِ ، وَالْأَنْدَادِ ، وَالنُّظَرَاءِ ، وَالشُّرَكَاءِ .

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : مُبْدِعُهُمَا وَخَالِقُهُمَا وَمُنْشِئُهُمَا وَمُحْدِثُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ، ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أَيُّ : كَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾ أَيُّ : وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مُتَوَلَّدًا بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُنَاسِبُهُ وَلَا يُشَابِهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ ، لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا صَاحِبَةَ لَهُ وَلَا وَلَدَ . ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ صَاحِبَةٌ مِنْ خَلْقِهِ تُنَاسِبُهُ ، وَهُوَ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ فَأَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ فَاعْبُدُوهُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٧﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أَي : الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أَي : فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَقْرُوا لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ ، وَلَا وَالِدَ وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ ، وَلَا نَظِيرَ وَلَا عَدِيلَ ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أَي : حَفِظَ وَرَقِيبٌ يُدَبِّرُ كُلَّ مَا سِوَاهُ وَيَرْزُقُهُمْ وَيَكْلَأُهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ ﴾ لَا تُدْرِكُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَتْ تَرَاهُ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . كَمَا قَالَ مَسْرُوقٌ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهَا قَالَتْ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَبْصَرَ رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ ، وَفِي رِوَايَةٍ - عَلَى اللَّهِ - فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ ﴾ أَي : يُحِيطُ بِهَا وَيَعْلَمُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ خَلَقَهَا ، وَقَدْ يَكُونُ عَبْرَ الْبَصَارِ عَنِ الْمُبْصِرِينَ ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ ﴾ لَا يَرَاهُ شَيْءٌ وَهُوَ يَرَى الْخَلَائِقَ ، ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ قَالَ : اللَّطِيفُ بِاسْتِخْرَاجِهَا الْخَيْرَ بِمَكَانِهَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

الْبَصَائِرُ : هِيَ الْبَيِّنَاتُ وَالْحُجَجُ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْبَصَائِرَ قَالَ : ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ أَي : فَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴾ أَي : بِحَافِظٍ وَلَا رَقِيبٍ ، بَلْ إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أَي : وَكَمَا فَصَّلْنَا الْآيَاتِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ بَيَانِ التَّوْحِيدِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، هَكَذَا نَوْضِحُ الْآيَاتِ وَنُفَسِّرُهَا وَنُبَيِّنُهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أَي : وَلِنَوْضِحَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَيَتَّبِعُونَهُ ، وَالْبَاطِلَ فَيَجْتَنِبُونَهُ ، وَهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ « وَلِيَقُولُوا دَارَسْتَ » أَي : قَرَأْتَ وَتَعَلَّمْتَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ أَي : تَقَادَمْتَ وَانْمَحَتْ .

اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۚ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۚ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِمَنِ اتَّبَعَ طَرِيقَهُ : ﴿ اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أَي : اِفْتَدِ بِهِ

وَأَقْتَفِ أَثَرَهُ وَاعْمَلْ بِهِ ، فَإِنَّ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ ، لَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أَيُّ : أَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ وَاحْتَمِلْ أَذَاهُمْ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لَكَ وَيَنْصُرَكَ وَيُظْفِرَكَ عَلَيْهِمْ ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ حِكْمَةٌ فِي إِضْلَالِهِمْ ، فَإِنَّهُ لَوْ شَاءَ لَهَدَى النَّاسَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ أَيُّ : بَلْ لَهُ الْمَشِئَةُ وَالْحِكْمَةُ فِيمَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُهُ ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . ﴿ وَمَا جَعَلْنَكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ أَيُّ : حَافِظًا تَحْفَظُ أَقْوَاهُمْ وَأَعْمَاهُمْ ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أَيُّ : مُوَكَّلٌ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ وَأُمُورِهِمْ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ .

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ نَاهِيًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَبِّ آلِهِ الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ إِلَّا أَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ أَكْثَرُ مِنْهَا ، وَهِيَ مُقَابَلَةُ الْمُشْرِكِينَ بِسَبِّ آلِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، لَتَنْتَهِيَنَّ عَنْ سَبِّكَ أَهْلَنَا أَوْ لَنَهْجُونَ رَبَّكَ ، فَنَهَاَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَسُبُّوا أَوْلَادَهُمْ ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ﴾ أَيُّ : وَكَمَا زَيْنًا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ حُبِّ أَصْنَامِهِمْ وَالْمَحَامَةِ لَهَا وَالْإِنْصَارِ ﴿ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ عَلَى الضَّلَالِ ﴿ عَمَلُهُمْ ﴾ الَّذِي كَانُوا فِيهِ وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ فِيمَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُهُ ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ ﴾ أَيُّ : مَعَادُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : يُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ ءَايَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٦﴾ وَنُقِلَبَ أَفْعِدْتُهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ إِنْخِبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَيُّ : حَلَفُوا أَيْمَانًا مُؤَكَّدَةً ﴿ لَنْ جَاءَهُمْ ءَايَةٌ ﴾ أَيُّ : مُعْجِزَةٌ وَخَارِقٌ ﴿ لِيُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ أَيُّ : لِيُصَدِّقْنَهَا ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ الْآيَاتِ تَعْتَبًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا لَا عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَالْإِسْتِشَادِ : إِنَّمَا مَرْجِعُ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ أَجَابَكُمْ بِهَا وَإِنْ شَاءَ تَرَكَكُمْ كَمَا قَالَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قِيلَ الْمُخَاطَبُ بِهَا يُشْعِرُكُمْ : الْمُشْرِكُونَ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ : وَمَا يُدْرِيكُمْ بِصِدْقِكُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي تَقْسِمُونَ بِهَا ، وَقِيلَ الْمُخَاطَبُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ الْمُؤْمِنُونَ ، يَقُولُ : وَمَا يُدْرِيكُمْ أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ « لَا » فِي قَوْلِهِ :

﴿ أَنهَآ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ صَلَٰةٌ ، وَتَقْدِيرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : وَمَا يُذَرِّبُكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - الَّذِينَ تَوَدُّونَ هُمْ ذَلِكَ حِرْصًا عَلَى إِيْمَانِهِمْ - أَنَّهُمَا إِذَا جَاءَتْهُمْ الْآيَاتُ يُؤْمِنُونَ ، قَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ أَنهَآ ﴾ بِمَعْنَى : لَعَلَّهَا . ﴿ وَنُقِلَبَ أَفْعِدْتُهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَيُّ : وَنَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيْمَانِ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ فَلَا يُؤْمِنُونَ كَمَا حُلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيْمَانِ أَوَّلَ مَرَّةٍ . ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ أَيُّ : تَتْرَكُهُمْ ﴿ فِي طُعْيِنِهِمْ ﴾ فِي كُفْرِهِمْ ، وَضَلَّاهُمْ ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أَيُّ : يَتَرَدَّدُونَ .

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَوْ أَنَّنَا أَجَبْنَا سُؤَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا ، فَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةَ نُخْبِرُهُمْ بِالرَّسَالَةِ مِنَ اللَّهِ ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى ﴾ أَيُّ : فَأَخْبَرُوهُمْ بِصِدْقِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ مِنَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَانِيَةِ أَيْضًا . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ قُبُلًا ﴾ أَيُّ : أَفْوَاجًا قَبِيلًا قَبِيلًا ، أَيُّ : تَعْرِضُ عَلَيْهِمْ كُلُّ أُمَّةٍ بَعْدَ أُمَّةٍ ، فَيُخْبِرُونَهُمْ بِصِدْقِ الرُّسُلِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أَيُّ : إِنْ هَدَايَةَ إِلَيْهِ لَا إِلَيْهِمْ ، بَلْ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطٰٓئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿ ١٧٦ ﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفِئْدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿ ١٧٧ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَكَمَا جَعَلْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ أَعْدَاءَ يُخَالِفُونَكَ وَيُعَادُونَكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَيْضًا أَعْدَاءَ فَلَا يَهْدِيكَ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ شَيْطٰٓئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿ عَدُوًّا ﴾ أَيُّ : هُمْ أَعْدَاءُ مِنْ شَيْطٰٓئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَالشَّيْطَانُ : كُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ نَظِيرِهِ بِالشَّرِّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ أَيُّ : يُلْقِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ الْمَزِينِ الْمُزَخْرَفَ ، وَهُوَ الْمَزُوقُ الَّذِي يَغْتَرُّ سَامِعُهُ مِنَ الْجَهْلَةِ بِأَمْرِهِ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أَيُّ : وَذَلِكَ كُلُّهُ بِقَدْرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيَّتِهِ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿ فَذَرُهُمْ ﴾ أَيُّ : فَدَعُهُمْ ﴿ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أَيُّ : يَكْذِبُونَ ، أَيُّ : دَعَا أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فِي عِدَاوَتِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ . ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ ﴾ ، أَيُّ : وَلِتَمِيلَ إِلَيْهِ . ﴿ أَفِئْدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أَيُّ : قُلُوبُهُمْ وَعُقُوبُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ أَيُّ : يُحِبُّوهُ وَيُرِيدُوهُ وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ

لِذَلِكَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ: ﴿وَلْيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ وَلْيَعْمَلُوا مَا هُمْ عَامِلُونَ .
أَفْغَيْرَ اللَّهِ أَبْتغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ
الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤﴾ وَتَمَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ ﴿أَفْغَيْرَ اللَّهِ أَبْتغَى
حَكَمًا﴾ أَي: بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أَي: مُبَيَّنًا ﴿وَالَّذِينَ
ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أَي: مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أَي: بِمَا
عِنْدَهُمْ مِنَ الْبَشَارَاتِ بِكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: صِدْقًا فِيمَا قَالَ وَعَدْلًا فِيمَا
حَكَمَ . وَقِيلَ: صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ ، وَعَدْلًا فِي الطَّلَبِ ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أَي: لَيْسَ أَحَدٌ
يُعَقِّبُ حُكْمَهُ تَعَالَى ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿الْعَلِيمُ﴾
بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَاتِهِمْ الَّذِي يُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ
إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٧﴾
يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنَّهُ الضَّلَالُ ، وَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ لَيْسُوا عَلَى
يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَإِنَّمَا هُمْ فِي طُنُوجٍ كَاذِبَةٍ وَحُسْبَانٍ بَاطِلٍ ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
تَخْرُصُونَ﴾ فَإِنَّ الْخُرُصَ: هُوَ الْحَزْرُ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ وَمَسِيئَتِهِ ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ
سَبِيلِهِ﴾ فَيَسِّرُهُ لِدَلِّكَ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فَيَسِّرُهُمْ لِدَلِّكَ «وَكُلُّ مَيْسَرٍ لِّمَا خُلِقَ لَهُ» .

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِفَاتِيَتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا
ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا
لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٩﴾

هَذَا إِبَاحَةٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الذَّبَائِحِ مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمُهُ ، وَمَنْهُوْمُهُ أَنَّهُ لَا
يُبَاحُ مَا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ نَذَبَ إِلَى الْأَكْلِ بِمَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَقَالَ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا
تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أَي: قَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ
وَوَضَّحَهُ ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أَي: إِلَّا فِي حَالِ الْإِضْطِرَارِ فَإِنَّهُ يُبَاحُ لَكُمْ مَا وَجَدْتُمْ ، ثُمَّ

بَيَّنَ تَعَالَى جَهَالَۃَ الْمُشْرِكِينَ فِي آرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ فِي اسْتِحْلَاحِهِمُ الْمَيِّتَاتِ وَمَا ذَكَرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَقَالَ : ﴿ وَإِنْ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوهُم بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ أي : هُوَ أَعْلَمُ بِاعْتِدَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ .

وَذَرُّوا ظَهَرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنُهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿٦٦﴾
 قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَذَرُّوا ظَهَرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنُهُ ﴾ مَعْصِيَتُهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ . وَقَالَ آخَرُونَ : ظَاهِرُهُ الزَّنَا مَعَ الْبَغَايَا ذَوَاتِ الرَّيَاطِ ، وَبَاطِنُهُ الزَّنَا مَعَ الْحَلِيلَةِ وَالصَّدَائِقِ وَالْأَخْدَانِ ، وَالصَّحِيحُ : أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ أي : سَوَاءٌ كَانَ ظَاهِرًا أَوْ خَفِيًّا فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ .

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْعِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الذَّبِيحَةَ لَا تَحِلُّ إِذَا لَمْ يُذَكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا وَإِنْ كَانَ الذَّبَايحُ مُسْلِمًا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْعِدُوا لَكُمْ ﴾ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ إِنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ ، قَالَ : صَدَقَ ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ أي : حَيْثُ عَدَلْتُمْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَشَرَعِهِ إِلَى قَوْلٍ غَيْرِهِ فَقَدْ مَتَّمْتُمْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ ، فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ .

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي كَانَ مَيِّتًا ، أَي : فِي الضَّلَالَةِ هَالِكًا حَائِرًا فَأَحْيَاهُ اللَّهُ ، أَي : أَحْيَا قَلْبَهُ بِالْإِيْيَانِ وَهَدَاهُ لَهُ وَوَفَّقَهُ لِاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ أَي : يَهْتَدِي كَيْفَ يَسْلُكُ وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِهِ ، وَالتَّوَرُّ : هُوَ الْقُرْآنُ . وَقِيلَ : الْإِسْلَامُ ، وَالْكُلُّ صَحِيحٌ ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ ، أَي : الْجَهَالَاتِ وَالْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ أَي : لَا يَهْتَدِي إِلَى مَنَفَذٍ وَلَا مُخْلَصٍ مِمَّا هُوَ فِيهِ ، ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أَي : حَسَنَّا لَهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ ، قَدَّرًا مِنَ اللَّهِ وَحِكْمَةً بِالِغَةِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا^ط وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا
بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ
رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ^ط سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ
وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا جَعَلْنَا فِي قَرْيَتِكَ يَا مُحَمَّدُ أَكْبَرَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَرُؤْسَاءَ وَدُعَاءَ إِلَى الْكُفْرِ
وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَإِلَى مُحَالَفَتِكَ وَعَدَاوَتِكَ، كَذَلِكَ كَانَتْ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ يُبْتَلَوْنَ بِذَلِكَ،
ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، وَرَوَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾
قَالَ: سَلَطْنَا شِرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿أَكْبَرُ
مُجْرِمِيهَا﴾ قَالَ: عَظَمَ أَوْهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَي: وَمَا يَعُودُ وَبَالَ مَكْرِهِمْ ذَلِكَ،
وَإِضْلَالِهِمْ مَنْ أَضْلَوْهُ إِلَّا عَلَى أَنْفُسِهِمْ. ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ
رُسُلُ اللَّهِ﴾ أَي: إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ وَبُرْهَانٌ وَحُجَّةٌ قَاطِعَةٌ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ
اللَّهِ﴾ أَي: حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا الْمَلَائِكَةُ مِنَ اللَّهِ بِالرِّسَالَةِ، كَمَا تَأْتِي إِلَى الرُّسُلِ، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
رِسَالَتَهُ﴾ أَي: هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَضَعُ رِسَالَتَهُ، وَمَنْ يَصْلُحُ لَهَا مِنْ خَلْقِهِ. ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ. هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ مِنَ اللَّهِ، وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَكَبَّرَ عَنِ إِتِّبَاعِ رُسُلِهِ، وَالْإِنْقِيَادِ
لَهُمْ فِيمَا جَاءُوا بِهِ، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ صَغَارٌ وَهُوَ الذَّلَّةُ الدَّائِمَةُ، كَمَا أَنَّهُمْ
اسْتَكْبَرُوا أَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ ذُلًّا. ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لَمَّا كَانَ الْمَكْرُ غَالِبًا إِنَّمَا يَكُونُ
خَفِيًّا، وَهُوَ التَّلَطُّفُ فِي التَّحِيلِ وَالْحَدِيدَةِ، قُوبِلُوا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ مِنَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَزَاءً وَفَاقًا.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ
ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أَي: يُيسِّرُهُ لَهُ وَيَبْسِطُهُ وَيُسَهِّلُهُ
لِلذِّكْرِ، وَقِيلَ: يُوسِّعُ قَلْبَهُ لِلتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِهِ. ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾
﴿حَرَجًا﴾ يَفْتَحُ الْحَاءُ وَالرَّاءُ وَهُوَ: الَّذِي لَا يَتَّسِعُ لشيءٍ مِنَ الْهُدَى وَلَا يَحْلُصُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مَّا
يَنْفَعُهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَلَا يَنْفَعُهُ فِيهِ. وَذُكِرَ فِي تَفْسِيرِ الْحَرَجِ أَقْوَالًا مِنْهَا: شَاكًا، وَمِنْهَا: لَيْسَ لِلْخَيْرِ

فِيهِ مَنفَعٌ، وَمِنْهَا ﴿ضَيْقًا حَرَجًا﴾ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَتَّى لَا تَسْتَطِيعَ أَنْ تَدْخُلَ قَلْبُهُ، كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ عَلَيْهِ. وَمِنْهَا: لَا يَجِدُ فِيهِ مَسْلَكًا إِلَّا صُعْدًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ مِنْ ضَيْقِ صَدْرِهِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِقَلْبِ هَذَا الْكَافِرِ فِي شِدَّةِ تَضْيِيقِهِ إِيَّاهُ عَنْ وُضُولِ الْإِيْيَانِ إِلَيْهِ، يَقُولُ: فَمَثَلُهُ فِي امْتِنَاعِهِ مِنْ قَبُولِ الْإِيْيَانِ وَضْيِيقِهِ عَنْ وُضُولِهِ إِلَيْهِ مَثَلٌ امْتِنَاعِهِ عَنِ الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَعَجْزِهِ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وَسْعِهِ وَطَاقَتِهِ، وَقَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ سَجَعُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَقُولُ: كَمَا يَجْعَلُ اللَّهُ صَدْرَ مَنْ أَرَادَ إِضْلَالَهُ ضَيْقًا حَرَجًا، كَذَلِكَ يُسَلِّطُ اللَّهُ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْتَالِهِ مِمَّنْ أَبَى الْإِيْيَانَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَيَغْوِيهِ وَيَصُدُّهُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. قِيلَ: الرَّجْسُ: الشَّيْطَانُ. وَقِيلَ: كُلُّ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ، وَقِيلَ: الْعَذَابُ.

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۖ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٦٦﴾ هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَرِيقَ الضَّالِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ الصَّادِقِينَ عَنْهَا نَبَّهَ عَلَى أَشْرَفِ مَا أَرْسَلَ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ مَنصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: هَذَا الدِّينُ الَّذِي شَرَعْنَاهُ لَكَ يَا مُحَمَّدٌ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمُ ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أَيْ: وَصَّحْنَاهَا وَبَيَّنَّاهَا وَفَسَّرْنَاهَا ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أَيْ: لِمَنْ لَهُ فَهْمٌ وَوَعْيٌ يُعْقِلُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. ﴿هُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنَّمَا وَصَفَ اللَّهُ الْجَنَّةَ هَهُنَا بِدَارِ السَّلَامِ لِسَلَامَتِهِمْ فِيهَا سَلَكُوهُ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُقْتَضِي أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ وَطَرَائِقُهُمْ، فَكَمَا سَلِمُوا مِنْ آفَاتِ الْإِعْوَجَاجِ أَفْضَلُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أَيْ: وَالسَّلَامُ - وَهُوَ اللَّهُ - وَلِيُّهُمْ أَيْ: حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: جَزَاءً عَلَى أَعْمَالِهِمْ الصَّالِحَةِ تَوَلَّاهُمْ وَأَثَابَهُمُ الْجَنَّةَ بِمَنْهَ وَكَرَمِهِ.

وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا ۖ قَالَ النَّارُ مَثْوَلَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدٌ فِيمَا تَقْصُصُهُ عَلَيْهِمْ وَتُذَكِّرُهُمْ بِهِ ﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يَعْنِي: الْجِنَّ وَأَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ

الْإِنْسِ ﴿ أَيْ : يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ، وَسَيَاقُ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى الْمَخْذُوفِ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ قَدْ اسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أَيْ : مِنْ إِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ . ﴾ وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ أَوْلِيَائَ الْجِنِّ مِنَ الْإِنْسِ قَالُوا : مُجِيبِينَ لِلَّهِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ بِهَذَا ، فَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ . قَالَ الْحَسَنُ : وَمَا كَانَ اسْتِمْتَاعُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ إِلَّا أَنَّ الْجِنَّ أَمَرَتْ وَعَمَلَتْ الْإِنْسَ . ﴿ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : يَعْنِي : الْمَوْتَ ﴿ قَالَ النَّارُ مَثَوْنَكُمْ ﴾ أَيْ : مَاوَاكُمْ وَمَنْزِلَكُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ وَأَوْلِيَائُكُمْ ﴾ خَلِيدٌ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَا كُنْتُمْ فِيهَا مُكْنًا مُخْلَدًا ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : يَرْجِعُ مَعْنَى الْإِسْتِثْنَاءِ إِلَى الْبَرَزَخِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هَذَا رَدٌّ إِلَى مُدَّةِ الدُّنْيَا ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ .

وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣٦﴾

عَنْ قَتَادَةَ فِي تَفْسِيرِهَا : إِنَّمَا يُؤَلِّي اللَّهُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَاَلْمُؤْمِنُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِ أَيْنَ كَانَ وَحَيْثُ كَانَ ، وَالْكَافِرُ وَلِيُّ الْكَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ وَحَيْثُمَا كَانَ ، لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالْتَّمَنِّي وَلَا بِالْتَّحَلِّي . وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ جَرِيرٍ . وَمَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : كَمَا وَلَّيْنَا هَؤُلَاءِ الْخَاسِرِينَ مِنَ الْإِنْسِ تِلْكَ الطَّائِفَةَ الَّتِي أَغْوَتْهُمْ مِنَ الْجِنِّ ، كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالظَّالِمِينَ نُسَلِّطُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَنُهْلِكَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، وَنُسْتَقِمُ مِنْ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، جَزَاءً عَلَى ظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ .

يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يَقْرَعُ اللَّهُ بِهِ كَافِرِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَيْثُ يَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ - هَلْ بَلَّغْتَهُمُ الرُّسُلَ رِسَالَاتِهِ ، وَهَذَا اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ ﴿ يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ جَهْلَتِكُمْ ، وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأُئِمَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ أَيْ : أَقْرَضْنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُونَا رِسَالَاتِكَ وَأَنْذَرُونَا لِقَاءَكَ ، وَأَنَّ هَذَا الْيَوْمَ كَاتِبٌ لَا حَالَه ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أَيْ : وَقَدْ فَرَّطُوا فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَهَلَكُوا بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمُ لِلْمُعْجَزَاتِ لِمَا اغْتَرَّوا بِهِ مِنْ زُخْرَفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَشَهَوَاتِهَا ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ .

ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ ﴿١٠٦﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكْ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا أَعَذَرْنَا إِلَى الثَّقَلَيْنِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ ، لِنَلَّا يُعَاقِبَ أَحَدًا بِظُلْمِهِ ، وَهُوَ لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةٌ ، وَلَكِنْ أَعَذَرْنَا إِلَى الْأُمَمِ ، وَمَا عَذَبْنَا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الاسراء : ١٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أَيُّ : وَلِكُلِّ عَامِلٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ أَوْ مَعْصِيَتِهِ مَرَاتِبُ وَمَنَازِلُ مِنْ عَمَلِهِ ، يُبْلِغُهُ اللَّهُ إِلَآهَا ، وَيُثِيبُهُ بِهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَيُّ وَكُلِّ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِمْ يَا مُحَمَّدُ بَعْلَمُ مِنْ رَبِّكَ يُخَصِّصُهَا وَيَثْبُتُهَا هُمْ عِنْدَهُ ، لِيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا عِنْدَ لِقَائِهِمْ إِلَآهُ ، وَمَعَادِهِمْ إِلَيْهِ .

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٠٩﴾ قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ الْغَنِيُّ ﴾ أَيُّ : عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَهُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ أَيُّ : وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَحِيمٌ بِهِمْ ، ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أَيُّ : إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ ﴿ وَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : قَوْمًا آخَرِينَ ، أَيُّ : يَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴾ أَيُّ : هُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ ، سَهْلٌ عَلَيْهِ ، يَسِيرٌ لَدَيْهِ ، كَمَا أَذْهَبَ الْقُرُونِ الْأُولَى وَآتَى بِاللَّذِي بَعْدَهَا ، كَذَلِكَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِذْهَابِ هَؤُلَاءِ وَالْإِثْنَانِ بِآخَرِينَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ أَيُّ : أَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ الَّذِي يُوعَدُونَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ كَائِنٌ لَا حَالَةَ ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أَيُّ : وَلَا تُعْجِزُونَ اللَّهَ ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ وَإِنْ صِرْتُمْ ثُرَابًا رُفَاتًا وَعِظَامًا . ﴿ قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، أَيُّ : اسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَنَاحِيَتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ عَلَى هُدًى ، فَإِنَّا مُسْتَمِرُّونَ عَلَى طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أَيُّ : تَكُونُ لِي أَوْ لَكُمْ ؟ وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ

مَوْعُودُهُ لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ . فَإِنَّهُ تَعَالَى مَكَنَّ لَهُ فِي الْبِلَادِ ، وَحَكَمَهُ فِي نَوَاصِي مُحَالِفِيهِ مِنَ الْعِبَادِ ، وَفَتَحَ لَهُ مَكَّةَ ، وَأَظْهَرَهُ عَلَى مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَعَادَاهُ وَنَاوَاهُ .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٠٠﴾

هَذَا دَمٌ وَتَوْبِخٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا بِدْعًا وَكُفَرُوا وَشُرَكَا ، وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ وَجُزْءًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أَيُّ : مِمَّا خَلَقَ وَبَرَأ ﴿ مِنَ الْحَرْثِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الزَّرُوعِ وَالثَّمَارِ ﴿ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ أَيُّ : جُزْءًا وَقِسْمًا ﴿ فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : كُلُّ شَيْءٍ جَعَلُوهُ لِلَّهِ مِنْ ذَبْحٍ يَذْبَحُونَهُ لَا يَأْكُلُونَهُ أَبَدًا حَتَّى يَذْكُرُوا مَعَهُ أَسْمَاءَ الْأَلِهَةِ ، وَمَا كَانَ لِلْأَلِهَةِ لَمْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ مَعَهُ ، وَقَرَأَ الْآيَةَ حَتَّى بَلَغَ ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أَيُّ : سَاءَ مَا يَقْسِمُونَ ، فَإِنَّهُمْ أَخْطَئُوا أَوَّلًا فِي الْقِسْمَةِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ وَلَهُ الْمُلْكُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ وَتَحْتِ قُدْرَتِهِ وَمَشِيتَتِهِ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، ثُمَّ لَمَّا قَسَمُوا فِيمَا رَعَمُوا لَمْ يَحْفَظُوا الْقِسْمَةَ الَّتِي هِيَ فَاسِدَةٌ بَلْ جَارُوا فِيهَا .

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٠١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا زَيْنَتِ الشَّيَاطِينُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَجْعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ، كَذَلِكَ زَيْنُوا لَهُمْ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ ، وَوَادَ الْبَنَاتِ خَشْيَةَ الْعَارِ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَمَرْتَهُمُ الشَّيَاطِينُ أَنْ يَقْتُلُوا الْبَنَاتِ إِمَّا لِيُرْدُوهُمْ فَيُهْلِكُوهُمْ وَإِمَّا لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ . أَيُّ : فَيَخْلُطُونَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَقَدْ كَانُوا أَيْضًا يَقْتُلُونَ الْأَوْلَادَ مِنَ الْإِمْلَاقِ وَهُوَ الْفَقْرُ ، أَوْ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ أَنْ يَحْصُلَ لَهُمْ فِي تَلَفِ الْمَالِ ، وَقَدْ نَهَاهُمْ عَنْ قَتْلِ أَوْلَادِهِمْ لِذَلِكَ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أَيُّ : كُلُّ هَذَا وَقَعَ بِمَشِيتَتِهِ تَعَالَى ، وَإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ لِذَلِكَ كَوْنًا ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ فِي ذَلِكَ ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

أَيُّ : فَدَعَهُمْ وَاجْتَنِبَهُمْ وَمَا هُمْ فِيهِ فَسِيحُكُمْ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ .

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعُمَهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿١٢٦﴾ قَالَ غَيْرَ وَاحِدٍ : الْحِجْرُ : الْحَرَامُ مِمَّا حَرَّمَ مِنَ الْوَصِيلَةِ وَتَحْرِيمُ مَا حَرَّمَ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ لَا يَطْعُمَهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ يَقُولُونَ حَرَامٌ أَنْ تَطْعَمَ إِلَّا مَنْ شِئْنَا ، وَقَالَ : أَمَّا الْأَنْعَامُ الَّتِي حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا فَهِيَ : الْبَحِيرَةُ وَالسَّائِبَةُ وَالْوَصِيلَةُ وَالْحَامُ ، وَأَمَّا الْأَنْعَامُ الَّتِي لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا . قَالَ : لَا إِذَا أَوْلَدُوهَا وَلَا إِنْ نَحَرُوهَا . عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ قَالَ لِي أَبُو وَائِلٍ : أَتَدْرِي مَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ قُلْتُ : لَا . قَالَ : هِيَ الْبَحِيرَةُ كَانُوا لَا يَحْجُونَ عَلَيْهَا . ﴿ افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴾ أَيُّ : عَلَى اللَّهِ ، وَكَذِبًا مِنْهُمْ فِي إِسْنَادِهِمْ ذَلِكَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَلَا رَضِيَهُ مِنْهُمْ ﴿ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴾ أَيُّ : عَلَيْهِ وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِ .

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾ رُوِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا ﴾ فَهُوَ اللَّبَنُ كَانُوا يُحَرِّمُونَهُ عَلَى إِبَائِهِمْ وَيَشْرِبُهُ ذُكْرَانُهُمْ ، وَكَانَتِ الشَّاةُ إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ ، وَكَانَ لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى تُرِكَتْ فَلَمْ تُذْبَحْ ، وَإِنْ كَانَتْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، فَنَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ . ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ ﴾ أَيُّ : قَوْلُهُمُ الْكَذِبَ فِي ذَلِكَ . يَعْنِي قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِكُمْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [النحل ١١٦ -] ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ : فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا أَتَمَّ الْجَزَاءِ .

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ فَعَلُوا هَذِهِ الْأَفْعَالِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَخَسِرُوا أَوْلَادَهُمْ بِقَتْلِهِمْ ، وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ ، فَحَرَّمُوا أَشْيَاءَ ابْتَدَعُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَيَصِيرُونَ إِلَى شَرِّ الْمَنَازِلِ بِكَذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَافْتِرَائِهِمْ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١١٠) وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١١١)

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّهُ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الزَّرْعِ وَالثَّمَرِ وَالْأَنْعَامِ الَّتِي تَصَرَّفَ فِيهَا هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ بِأَرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَقَسَمُوهَا وَجَزَّوْهَا فَجَعَلُوا مِنْهَا حَرَامًا وَحَلَالًا فَقَالَ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ قِيلَ فِي الْمَعْرُوشَاتِ : مَا عَرَّشَ النَّاسُ ، ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ مَا خَرَجَ فِي الْبَرِّ وَالْجِبَالِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴿ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ مُتَشَابِهًا فِي الْمَنْظَرِ وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ فِي الْمَطْعَمِ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ قَالَ مِنْ رُطْبِهِ وَعَيْنِهِ ، ﴿ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قِيلَ : هِيَ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ « مِنْ كُلِّ جَادَّةٍ عَشْرَةَ أَوْسُقٍ مِنَ التَّمْرِ بِقَنْوِ يُعَلَّقُ فِي الْمَسْجِدِ لِلْمَسَاكِينِ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ نَهَى عَنِ الْإِسْرَافِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، لَكِنَّ الظَّاهِرَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى الْأَكْلِ ، أَيِ : لَا تُسْرِفُوا فِي الْأَكْلِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَضَرَّةِ الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا ﴾ الْحَمُولَةُ : مَا تَرَكَبُونَ ، وَالْفَرَسُ : مَا تَأْكُلُونَ وَتَحْلُبُونَ ، شَاةٌ لَا تَحْمِلُ تَأْكُلُونَ لَحْمَهَا ، وَتَتَّخِذُونَ مِنْ صُوفِهَا لِحَافًا وَفَرَسًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أَيِ : مِنَ الثَّمَرِ وَالزَّرْعِ وَالْأَنْعَامِ ، فَكُلُّهَا خَلَقَهَا اللَّهُ وَجَعَلَهَا رِزْقًا لَكُمْ ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ أَيِ : طَرِيقَهُ وَأَوَامِرَهُ ، ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ ﴾ أَيِ : إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيُّهَا النَّاسُ لَكُمْ ﴿ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أَيِ : مُبِينٌ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ .

ثُمَّ نَبَيَّةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ أَتَيْنِ وَمِنْ الْمَعْرِ أَتَيْنِ قُلْ أَلَّذَكَرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَّيْنَ أَمَا أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّيْنَ نَبَتُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ١١٢ ﴾ وَمِنْ الْإِبِلِ أَتَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ أَتَيْنِ قُلْ أَلَّذَكَرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَّيْنَ أَمَا أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّيْنَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَدَّكُمُ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿ ١١٣ ﴾

هَذَا بَيَانُ لِحَقْلِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ فِيمَا كَانُوا حَرَّمُوا مِنَ الْأَنْعَامِ وَجَعَلُوهَا أَجْزَاءً وَأَنْوَاعًا

بَحِيرَةً وَسَائِبَةً وَوَصِيلَةً وَحَامًا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا فِي الْأَنْعَامِ وَالزُّرُوعِ وَالشَّجَرِ ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْشَأَ جَنَاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَأَنَّهُ أَنْشَأَ مِنَ الْأَنْعَامِ حُمُولَةً وَفُرْشًا ، ثُمَّ بَيَّنَّ أَصْنَافَ الْأَنْعَامِ إِلَى غَنَمٍ : وَهُوَ بَيَاضٌ ، وَهُوَ ضَبْآنٌ ، وَسَوَادٌ : وَهُوَ الْمَعَزُ ذَكَرُهُ وَأُنْثَاهُ ، وَإِلَى إِبِلٍ : ذُكُورُهَا وَإِنَائِهَا ، وَبَقَرٍ كَذَلِكَ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا شَيْئًا مِنْ أَوْلَادِهَا ، بَلْ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ لِبَنِي آدَمَ : أَكَلًا وَرُكُوبًا وَحُمُولَةً وَحَلَبًا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْمَنَافِعِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَرْوَاحَ ﴾ [الزمر: ٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ ﴾ رَدَّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَرْوَاحِنَا ﴾ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَبُئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَيُّ : أَخْبِرُونِي عَنْ يَقِينٍ كَيْفَ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُم مَّا زَعَمْتُمْ تَحْرِيمَهُ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّلَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ﴾ تَهَكُّمٌ بِهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَافْتَرَوْهُ عَلَى اللَّهِ مِنْ تَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أَيُّ : لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْهُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وَأَوَّلُ مَنْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَمْرُو بْنُ لُحْيٍ بْنُ قَمْعَةَ ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ ، وَحَمَى الْحَامَ ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ .

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ قُلْ ﴾ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ﴿ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أَيُّ : أَكَلٌ يَأْكُلُهُ .

قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ يَعْنِي : الْمِهْرَاقُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : حُرِّمَ مِنَ الدَّمَاءِ مَا كَانَ مَسْفُوحًا ، فَأَمَّا اللَّحْمُ خَالَطَهُ دَمٌ فَلَا بَأْسَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ أَيُّ : فَمَنْ اضْطَرَّ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهُوَ غَيْرُ مُتَلَبِّسٍ بِبَغْيٍ وَلَا عُذْوَانٍ ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيُّ : غَفُورٌ لَهُ رَحِيمٌ بِهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ . وَالْمَقْصُودُ مِنْ سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ تَحْرِيمِ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

بَارِئِهِمُ الْفَاسِدَةَ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ رَسُولُهُ أَنْ يُخْرِجَهُمْ أَنَّهُ لَا يَجِدُ فِيهَا أَوْحَاةَ اللَّهِ إِلَيْهِ أَنْ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ ، وَإِنَّمَا حَرَّمَ مَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْمَيْتَةِ ، وَالْدِّمِ الْمَسْفُوحِ ، وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ ، وَمَا أَهْلُ لَيْغَرِ اللَّهِ بِهِ ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَلَمْ يُحَرَّمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَفْوٌ مَسْكُوتٌ عَنْهُ ، فَكَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنْتُمْ أَنَّهُ حَرَامٌ ، وَمِنْ أَيْنَ حَرَّمْتُمُوهُ وَلَمْ يُحَرِّمَهُ اللَّهُ ؟

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٦﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ تَعَالَى وَحَرَّمْنَا عَلَى الْيَهُودِ كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ، وَهُوَ مِنَ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ مَا لَمْ يَكُنْ مَشْقُوقَ الْأَصَابِعِ كَالْإِبِلِ وَالنَّعَامِ وَالْأَوْزِ وَالْبَطِّ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : يَعْنِي النَّزْبُ وَشَحْمُ الْكُلَيْتَيْنِ ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ : إِنَّهُ حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ فَخَنُّ نَحْرَهُ . وَقِيلَ : النَّزْبُ ، وَكُلُّ شَحْمٍ كَانَ كَذَلِكَ لَيْسَ فِي عَظْمٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَعْنِي : مَا عَلِقَ بِالظَّهْرِ مِنَ الشُّحُومِ . ﴿ أَوْ الْحَوَايَا ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الْحَوَايَا : جَمْعٌ وَاحِدُهَا حَاوِيَاءٌ . وَحَاوِيَةٌ ، وَحَوِيَّةٌ ، وَهُوَ : مَا تَحْوِي مِنَ الْبُطْنِ فَاجْتَمَعَ وَاسْتَدَارَ ، وَهِيَ بَنَاتُ اللَّيْنِ وَهِيَ الْمَبَاعِرُ ، وَتُسَمَّى الْمَرَابِضُ وَفِيهَا الْأَمْعَاءُ . قَالَ : وَمَعْنَى الْكَلَامِ : وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ مَا حَمَلَتِ الْحَوَايَا . ﴿ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ أَيُّ : وَإِلَّا مَا اخْتَلَطَ مِنَ الشُّحُومِ بِالْعِظَامِ فَقَدْ أَحْلَلْنَاهُ لَهُمْ . ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ أَيُّ : هَذَا التَّضْيِيقُ إِنَّمَا فَعَلْنَاهُ بِهِمْ وَالزَّمْنَاهُمْ بِهِ ، مُجَازَاةً لَهُمْ عَلَى بَغْيِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَوْامِرَنَا . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أَيُّ : وَإِنَّا لَعَادِلُونَ فِيمَا جَزَيْنَاهُمْ بِهِ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ مِنْ تَحْرِيمِنَا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، لَا كَمَا زَعَمُوا مِنْ أَنَّ إِسْرَائِيلَ هُوَ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَإِنْ كَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدُ مُخَالَفُوكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَمَنْ شَابَهُهُمْ ﴿ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ ، وَهَذَا تَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي ابْتِغَاءِ رَحْمَةِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ تَرْهِيْبٌ لَهُمْ فِي مُخَالَفَتِهِمُ الرُّسُولَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ .

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ

كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا ۖ قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۚ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٨٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٩٠﴾

هَذِهِ مُنَاطَرَةٌ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَشُبْهَةٌ تَشَبَّثَ بِهَا الْمُشْرِكُونَ فِي شُرْكِهِمْ وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرْكِ وَالتَّحْرِيمِ لِمَا حَرَّمُوهُ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِهِ بِأَنْ يُلْهِمَنَا الْإِيمَانَ ، أَوْ يَحُولَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْكُفْرِ فَلَمْ يُغَيِّرْهُ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ بِمَشِئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَرِضَاهُ مِنَّا ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَي : بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ قَبْلَ هَؤُلَاءِ وَهِيَ حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ بَاطِلَةٌ ؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَمَا أَذَاقَهُمُ اللَّهُ بِأَسْءُ وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ وَأَذَالَ عَلَيْهِمْ رُسُلَهُ الْكَرَامَ ، وَأَذَاقَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ أَلِيمِ الْإِنْتِقَامِ .

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أَي : بِأَنَّ اللَّهَ رَاضٍ عَنْكُمْ فِيمَا أَنتُمْ فِيهِ ﴿ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أَي : فَتُظْهِرُوهُ لَنَا وَتُبَيِّنُوهُ وَتُبْرِزُوهُ ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ أَي : الْوَهْمُ وَالْحَيَالُ ، وَالْمُرَادُ بِالظَّنِّ هَهُنَا : الْإِعْتِقَادُ الْفَاسِدُ ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ أَي : تَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَيْتُمُوهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ هُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ أَي : لَهُ الْحُكْمَةُ التَّامَّةُ ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي هِدَايَةِ مَنْ هَدَى وَإِضْلَالِ مَنْ ضَلَّ ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فَكُلُّ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ﴾ أَي : أَحْضَرُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴿ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي حَرَّمْتُمُوهُ وَكَذَّبْتُمْ وَافْتَرَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ فِيهِ ﴿ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أَي : لَا أَنْتُمْ إِنَّمَا يَشْهَدُونَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - كَذِبًا وَزُورًا ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أَي : يُشْرِكُونَ بِهِ وَيَجْعَلُونَ لَهُ عَدِيلًا .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ

وَصَّنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٥٦﴾

وَأَمَّا تَفْسِيرُهَا فَيَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ، وَقَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ ، وَكُلَّ ذَلِكَ فَعَلُوهُ بِأَرَائِهِمْ وَتُسْوِيلِ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ ﴿ قُلْ لَهُمْ تَعَالَوْا ﴾ أَي : هَلُمُّوا وَأَقْبِلُوا ﴿ أَتُلُّ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ أَي : أَقْصُ عَلَيْكُمْ وَأُخْرِكُمْ بِمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، لَا تَحَرُّصًا وَلَا ظَنًّا بَلْ وَحْيًا مِنْهُ وَأَمْرًا مِنْ عِنْدِهِ ﴿ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ، وَكَانَ فِي الْكَلَامِ مُحَذُّوفًا دَلٌّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ وَتَقْدِيرُهُ : وَأَوْصَاكُمْ ﴿ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ وَهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ : أَمَرْتُكَ أَنْ لَا تَقُومَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أَي : وَأَوْصَاكُمْ وَأَمَرَكُمْ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، أَي : أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ ، فَأَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا وَإِنْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ بِحَسَبِهِمَا ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

لَمَّا أَوْصَى تَعَالَى بِرِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ الْإِحْسَانِ إِلَى الْأَبْنَاءِ وَالْأَخْفَادِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ كَمَا سَوَّلَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ ذَلِكَ ، فَكَانُوا يَنْدُونَ الْبَنَاتِ خَشْيَةَ الْعَارِ ، وَرَبَّيَا قَتَلُوا بَعْضَ الذُّكُورِ خَشْيَةَ الْإِفْتِقَارِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ هُوَ الْفَقْرُ ؛ أَي : وَلَا تَقْتُلُوهُمْ مِنْ فَقْرِكُمْ الْحَاصِلِ . وَقَالَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ أَي : لَا تَقْتُلُوهُمْ خَشْيَةَ حُصُولِ فَقْرٍ فِي الْآجِلِ ، وَهَذَا قَالَ هُنَاكَ : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ فَبَدَأَ بِرِزْقِهِمْ لِإِهْتِمَامِ بِهِمْ ، أَي : لَا تَخَافُوا مِنْ فَقْرِكُمْ بِسَبَبِهِمْ فَرِزْقُهُمْ عَلَى اللَّهِ ، وَأَمَّا هُنَا فَلَمَّا كَانَ الْفَقْرُ حَاصِلًا قَالَ : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ لِأَنَّهُ الْأَهَمُّ هَهُنَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَذَرُوا ظِلْهَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ . ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ وَهَذَا بِمَا نَصَّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنِ النَّهْيِ عَنْهُ تَأْكِيدًا ، وَإِلَّا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي النَّهْيِ عَنِ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ . وَقَدْ جَاءَ النَّهْيُ وَالزَّجْرُ وَالْوَعِيدُ فِي قَتْلِ الْمُعَاهِدِ وَهُوَ الْمُسْتَأْمَنُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ . ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أَي : هَذَا مَا وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ عَنْ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا بِالْكَفْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۚ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَلِكُمْ وَصَّنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

و ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ﴾ [النساء: ١٠] ، فَأَنْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ ، وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ ، فَجَعَلَ يُفْضِلُ الشَّيْءَ فَيَحْسِبُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] قَالَ : فَخَالَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ يَعْنِي : حَتَّى يَخْتَلِمَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْأَخْذِ وَالْإِعْطَاءِ ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ كَانُوا يَبْخُسُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ . ﴿ لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أَي : مَنْ اجْتَهِدَ فِي آدَاءِ الْحَقِّ وَأَخَذَهُ فَإِنْ أَخْطَأَ بَعْدَ اسْتِفْرَاحٍ وَوُسْعِهِ وَبَدَّلَ جَهْدَهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ فِي الْفِعَالِ وَالْمَقَالِ ، عَلَى الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَفِي كُلِّ حَالٍ ، ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ : وَبِوَصِيَّةِ اللَّهِ الَّتِي أَوْصَاكُمْ بِهَا فَأَوْفُوا ، وَإِيفَاءُ ذَلِكَ أَنْ تُطِيعُوهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ ، وَتَعْمَلُوا بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْوَفَاءُ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴿ ذَالِكُمْ وَصَدَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا وَصَاكُمْ بِهِ وَأَمَرَكُمْ بِهِ وَأَكَّدَ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أَي : تَتَعَطَّوْنَ وَتَنْتَهَوْنَ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا .

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَالِكُمْ وَصَدَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ قَالُوا : أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِخْتِلَافِ وَالْفُرْقَةِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دِينِ اللَّهِ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ۞ قَالَ : خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ : « هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا » وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ » ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ إِنَّمَا وَحَّدَ سَبِيلَهُ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ ، وَلِهَذَا جَمَعَ السُّبُلَ لِيَتَفَرَّقَ بِهَا وَتَشَعُّبُهَا .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٥﴾

و ﴿ثُمَّ﴾ هَهُنَا إِنَّمَا هِيَ لِعَطْفِ الْخَبَرِ بَعْدَ الْخَبَرِ ، لَا لِلتَّرْتِيبِ هَهُنَا . وَهَهُنَا لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ عَطَفَ بِمَدْحِ التَّوْرَةِ وَرَسُولِهَا فَقَالَ : ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أَيُّ : آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْهِ تَمَامًا كَامِلًا جَامِعًا لِمَا يَخْتِاجُ إِلَيْهِ فِي شَرِيْعَتِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أَيُّ : جَزَاءً عَلَى إِحْسَانِهِ فِي الْعَمَلِ وَقِيَامِهِ بِأَوْامِرِنَا وَطَاعَتِنَا ، كَقَوْلِهِ : ﴿هَلْ جَزَاءُ إِلَّا حَسَنٌ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن : ٦٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ فِيهِ مَدْحٌ لِكِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رِجْهَمَ يُؤْمِنُونَ﴾ ١٥٦ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿فِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ ، وَوَصْفُهُ بِالْبَرَكَةِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَعَمِلَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهُ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ .

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْ عَلَيْهِنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ لِيَلَّا يَقُولُوا : ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يَعْنِي : لِيَنْقَطِعَ عُدْرَتُهُمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى . وَقَوْلُهُ : ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ أَيُّ : وَمَا كُنَّا نَفْهَمُ مَا يَقُولُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِلِسَانِنَا ، وَنَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَشُغْلٍ مَعَ ذَلِكَ عَمَّا هُمْ فِيهِ . ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْ عَلَيْهِنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ أَيُّ : وَقَطَعْنَا تَعَلُّلَهُمْ ، أَنْ تَقُولُوا : لَوْ أَنَّا أَنْزَلْ عَلَيْهِنَا مَا أَنْزَلْ عَلَيْهِمْ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فِيمَا أُوتُوهُ . وَهَكَذَا قَالَ : ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يَقُولُ : فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ قُرْآنٌ عَظِيمٌ ، فِيهِ بَيَانٌ لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَهُدًى لِمَا فِي الْقُلُوبِ ، وَرَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَتَّقُونَهُ مَا فِيهِ . ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أَيُّ : لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، وَلَا اتَّبَعَ مَا أُرْسِلَ بِهِ ، وَلَا تَرَكَ غَيْرَهُ ، بَلْ صَدَفَ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ ، أَيُّ : صَرَفَ النَّاسَ وَصَدَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ

يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ اانتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِلْكَافِرِينَ بِهِ ، وَالْمُخَالَفِينَ لِرُسُلِهِ ، وَالْمُكَذِّبِينَ بآيَاتِهِ ، وَالصَّادِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ وَذَلِكَ كَاتِنٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا ﴾ وَذَلِكَ قَبْلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَاتِنٌ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » وَفِي لَفْظٍ « فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ ، وَذَلِكَ حِينَ ﴾ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَيُّ : إِذَا أَنشَأَ الْكَافِرُ إِيْمَانًا يَوْمِيذٍ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَ مُضِلِّحًا فِي عَمَلِهِ فَهُوَ بِخَيْرٍ عَظِيمٍ ، وَإِنْ كَانَ مُحْلَطًا فَأَحْدَثَ تَوْبَةً حِينِيذٍ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ تَوْبَتُهُ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾ أَيُّ : وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا كَسْبُ عَمَلٍ صَالِحٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَامِلًا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، ﴿ قُلِ اانتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِلْكَافِرِينَ ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ سَوَّفَ بِإِيْمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ إِلَى وَقْتٍ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْحُكْمُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ؛ لِاقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَظُهُورِ أَشْرَاطِهَا .

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٩﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . وَقِيلَ : هُمْ الْخَوَارِجُ . وَقِيلَ : هُمْ أَصْحَابُ الْبِدْعِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ فَارَقَ دِينَ اللَّهِ وَكَانَ مُحَالِفًا لَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَشَرَعَهُ وَاحِدٌ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا إِفْتِرَاقَ ، فَمَنْ اخْتَلَفَ فِيهِ ﴿ وَكَانُوا شِيْعًا ﴾ أَيُّ : فَرَقًا كَأَهْلِ الْمِلَلِ وَالنَّحْلِ وَالْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ بَرَأَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا هُمْ فِيهِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّبِيَّانَ وَالنَّصْرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٧٠﴾

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مُفَصَّلَةٌ لِمَا أُجْمِلَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « (مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرٌ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ يُكُتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ) » . قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ امْتِثَالِهَا ﴾ مَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ يَقُولُ بِالشِّرْكِ .

قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا نَبِيَّهُ ﷺ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ : أَنْ يُخْبِرَ بِمَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَايَةِ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا إِعْوجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ ﴿ دِينًا قِيمًا ﴾ أَيُّ : قَائِمًا ثَابِتًا ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وَلَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ ﷺ أَمْرٌ بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةِ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَكْمَلَ مِنْهُ فِيهَا ؛ لِأَنَّهُ ﷺ قَامَ بِهَا قِيَامًا عَظِيمًا ، وَأَكْمَلَتْ لَهُ إِكْمَالًا تَامًا لَمْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَى هَذَا الْكَمَالِ ، وَلِهَذَا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يَأْمُرُهُ تَعَالَى أَنْ يُخْبِرَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ وَيَذْبَحُونَ لِغَيْرِ اسْمِهِ ، أَنَّهُ مُخَالِفٌ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ صَلَاتُهُ لِلَّهِ ، وَنُسُكُهُ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ أَيُّ : أَخْلِصْ لَهُ صَلَاتَكَ وَذَبْحَكَ ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَيَذْبَحُونَ لَهَا ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمُخَالَفَتِهِمْ ، وَالْإِنْحِرَافِ عَنْهَا هُمْ فِيهِ ، وَالْإِقْبَالَ بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ وَالْعَزْمِ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ النُّسُكُ : الذَّبْحُ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : أَيُّ : مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ ؛ فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كُلُّهُمْ كَانَتْ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَصْلُهُ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ فِي إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾ أَيُّ : أَطْلُبُ رَبًّا سِوَاهُ ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يُرَبِّيَنِي وَيَحْفَظُنِي وَيَكْلُؤُنِي ، وَيُدَبِّرُ أُمُورِي ، أَيُّ : لَا أَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَلَا أُنِيبُ إِلَّا إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِكُهُ وَلَهُ الْخَلْقُ

وَالْأَمْرُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ إِنْخِبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَزَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ ، أَنَّ النَّفُوسَ إِنَّمَا تُجَازَى بِأَعْمَالِهَا ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَأَنَّهُ لَا يُحْمَلُ مِنْ خَطِيئَةِ أَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ تَعَالَى .
وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيُّ : اِعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ عَلَىٰ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ فَسَتَعْرِضُونَ وَنَعْرِضُ عَلَيْهِ ، وَيُنَبِّئُنَا وَإِيَّاكُمْ بِأَعْمَالِنَا وَأَعْمَالِكُمْ ، وَمَا كُنَّا نَخْتَلِفُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَآءَاتِكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : جَعَلَ لَكُمْ تَعْمُرُوهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَقَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَخَلْقًا بَعْدَ سَلَفٍ . ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أَيُّ : فَآوَتْ بَيْنَكُمْ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمَحَاسِنِ وَالْمَسَاوِيِ وَالْمَنَاطِرِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَآءَاتِكُمْ ﴾ أَيُّ : لِيُخْتَبِرَكُمْ فِي الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ وَأَمْتَحَنَكُمْ بِهِ ، لِيُخْتَبِرَ الْغَنَى فِي غِنَاهُ ، وَيَسْأَلَهُ عَنْ شُكْرِهِ ، وَالْفَقِيرَ فِي فَقْرِهِ وَيَسْأَلَهُ عَنْ صَبْرِهِ . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تَرْهِيْبٌ وَتَرْغِيْبٌ ، أَنَّ حِسَابَهُ وَعِقَابَهُ سَرِيعٌ فِيمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ رُسُلَهُ ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لِمَنْ وَالَاهُ وَاتَّبَعَ رُسُلَهُ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَطَلَبَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ ① كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَىٰ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحُرُوفِ وَاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهِ . ﴿ كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ أَيُّ : هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ، أَيُّ : مِنْ رَبِّكَ ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ أَيُّ :

شَكُّ مِنْهُ ، وَقِيلَ : لَا تَتَحَرَّجْ بِهِ فِي إِبْلَاجِهِ وَالْإِنذَارِ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِيُنذِرَ بِهِ ﴾ أَي : أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِيُنذِرَ بِهِ الْكَافِرِينَ ﴿ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُحَاطِبًا لِلْعَالَمِ : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أَي : اتَّقُوا آثارَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِكِتَابٍ أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِكِهِ ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أَي : لَا تَخْرُجُوا عَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ الرَّسُولُ إِلَى غَيْرِهِ ، فَتَكُونُوا قَدْ عَدَلْتُمْ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ إِلَى حُكْمِ غَيْرِهِ ﴿ فَلَيْلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿١٠﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١١﴾ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أَي : بِمُخَالَفَةِ رُسُلِنَا وَتَكْذِيبِهِمْ فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا مَوْضُوعًا بِذَلِكَ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَشْهَرْتُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ أَي : فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ جَاءَهُ أَمْرُ اللَّهِ وَبَيِّنُهُ وَنَقِمَتُهُ بَيِّنًا ، أَي : لَيْلًا ، أَوْ هُمْ قَائِلُونَ : مِنَ الْقِيلُولَةِ وَهِيَ : الْإِسْتِرَاحَةُ وَسَطَ النَّهَارِ ، وَكَيْلًا الْوَقْتَيْنِ وَقَدْ غَفِلُوا وَهُوَ . ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أَي : فَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ عِنْدَ حُجِيِّ الْعَذَابِ إِلَّا أَنْ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَتَتْهُمْ حَقِيقَتُهُمْ بِهَذَا .

قَوْلُهُ : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فَيَسْأَلُ اللَّهُ الْأَمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أَجَابُوا رُسُلَهُ فِيمَا أُرْسِلَهُمْ بِهِ ، وَيَسْأَلُ الرُّسُلَ أَيْضًا عَنْ إِبْلَاجِ رِسَالَاتِهِ . ﴿ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ : يُوضَعُ الْكِتَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى يُخَبِّرُ عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا قَالُوا وَبِمَا عَمَلُوا مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ وَجَلِيلٍ وَخَفِيرٍ .

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٤﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿١٥﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ﴾ لِلْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ الْحَقُّ ﴾ أَي : لَا يَظْلِمُ تَعَالَى أَحَدًا .

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُتَنَبِّئًا عَلَى عِبِيدِهِ فِيمَا مَكَّنَ لَهُمْ مِنْ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَنَازِلَ وَبُيُوتًا ، وَأَبَاحَ لَهُمْ مَنَافِعَهَا وَسَحَّرَ لَهُمُ السَّحَابَ لِإِخْرَاجِ

أَرْزَاقِهِمْ مِنْهَا ، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَعَاشٍ أَيُّ : مَكَاسِبَ وَأَسْبَابًا يَكْسِبُونَ بِهَا ، وَيَتَجَرَّوْنَ فِيهَا ، وَيَتَسَبَّبُونَ أَنْوَاعَ الْأَسْبَابِ ، وَأَكْثَرُهُمْ مَعَ هَذَا قَلِيلُ الشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٥﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى شَرَفِ أَبِيهِمْ آدَمَ ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ عَدَاوَةَ عَدُوِّهِمْ إِبْلِيسَ ، وَمَا هُوَ مُنْطَوٍ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لَهُمْ وَلَا بِيهِمْ آدَمَ ؛ لِيَحْذَرُوهُ وَلَا يَتَّبِعُوا طَرِيقَهُ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَدِهِ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ، وَصَوَّرَهُ بَشَرًا سَوِيًّا ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ تَعْظِيمًا لِشَأْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ ، فَسَمِعُوا كُلُّهُمْ وَأَطَاعُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ الْمُرَادُ بِذَلِكَ : آدَمَ ، وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ بِالْجَمْعِ ؛ لِأَنَّهُ أَبُو الْبَشَرِ .

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٣٦﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَوْجِيهِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ أَنْ مَنَعَكَ تَضَمَّنَ مَعْنَى فِعْلٍ آخَرَ تَقْدِيرُهُ : مَا أَحْوَجَكَ وَالزَّمَكَ وَاضْطَرَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ وَنَحْوَ هَذَا ، وَقَوْلُ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ مِنَ الْعُذْرِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الذَّنْبِ ، كَأَنَّهُ امْتَنَعَ مِنَ الطَّاعَةِ ، لِأَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ الْفَاضِلُ بِالسُّجُودِ لِلْمَفْضُولِ ، يَعْنِي : - لَعَنَهُ اللَّهُ - وَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ فَكَيْفَ تَأْمُرُنِي بِالسُّجُودِ لَهُ ؟ ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ بِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ نَارٍ ، وَالنَّارُ أَشْرَفُ مِمَّا خَلَقَتْهُ مِنْهُ وَهُوَ الطَّيْنُ ، فَنَظَرَ اللَّعِينُ إِلَى أَصْلِ الْعُنْصُرِ وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى التَّشْرِيفِ الْعَظِيمِ ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ .

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٧﴾
أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا لِإِبْلِيسَ بِأَمْرِ قَدَرِي كَوْنِي ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أَيُّ : بِسَبَبِ عِصْيَانِكَ لِأَمْرِي ، وَخُرُوجِكَ عَنْ طَاعَتِي ، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا . قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا فِي الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أَيُّ : الذَّلِيلِينَ الْحَقِيرِينَ ، مُعَامَلَةً لَهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ وَمُكَافَأَةً لِمُرَادِهِ بِضِدِّهِ ، فَعِنْدَ

ذَلِكَ اسْتَدْرَكَ اللَّعِينُ وَسَأَلَ النَّظْرَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، قَالَ : ﴿ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ ١٥ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ١٦ ، أَجَابَهُ تَعَالَى إِلَى مَا سَأَلَ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ الَّتِي لَا تُخَالَفُ وَلَا تُمَانَعُ ، وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ .

قَالَ فِيمَا أَعْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٧ ثُمَّ لَا تَيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ١٨ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ١٩

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَنْظَرَ إِبْلِيسَ ﴿ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ وَاسْتَوْتَقَ إِبْلِيسُ بِذَلِكَ ، أَخَذَ فِي الْمَعَانِدَةِ وَالتَّمَرِدِ فَقَالَ : ﴿ فِيمَا أَعْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أَيُّ : كَمَا أَعْوَيْتَنِي ، قِيلَ : كَمَا أَضَلَلْتَنِي ، وَقِيلَ : كَمَا أَهْلَكْتَنِي ؛ لَأَقْعُدَنَّ لِعِبَادِكَ الَّذِينَ تَخْلُقُهُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ هَذَا الَّذِي أَبْعَدْتَنِي بِسَبَبِهِ عَلَى ﴿ صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أَيُّ : طَرِيقَ الْحَقِّ وَسَبِيلَ النَّجَاةِ ، وَلَا أَضِلُّنَّهُمْ عَنْهَا ؛ لِئَلَّا يَعْبُدُوكَ وَلَا يُؤْخَذُوكَ بِسَبَبِ إِضْلَالِكَ إِيَّايَ .

قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ لَا تَيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الْآيَةُ . رُويَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : «أَمَّا ((مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)) فَمِنْ قَبْلِ دُنْيَاهُمْ ، وَأَمَّا ((مِنْ خَلْفِهِمْ)) فَأَمْرُ آخِرَتِهِمْ ، وَأَمَّا ((عَنْ أَيْمَانِهِمْ)) فَمِنْ قَبْلِ حَسَنَاتِهِمْ ، وَأَمَّا ((عَنْ شَمَائِلِهِمْ)) فَمِنْ قَبْلِ سَيِّئَاتِهِمْ . أَتَاكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ غَيْرِ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِكَ مِنْ فَوْقِكَ ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُحَوِّلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَحْمَةِ اللَّهِ . ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ أَيُّ : مُوَحِّدِينَ ، وَقَوْلُ إِبْلِيسَ هَذَا إِنَّمَا هُوَ ظَنُّ مِنْهُ وَتَوَهُُّمٌ ، وَقَدْ وَافَقَ فِي هَذَا الْوَاقِعَ .

قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ٢٠ أَكَّدَ تَعَالَى اللَّعْنَةَ وَالطَّرْدَ وَالْإِبْعَادَ وَالنَّفْيَ عَنْ مَحَلِّ الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِقَوْلِهِ : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَمَّا الْمَذْمُومُ : فَهُوَ الْمَعِيْبُ . قَالَ : وَالْمَدْحُورُ : الْمُقْصَى وَهُوَ الْمُبْعَدُ الْمَطْرُودُ .

وَيَتَعَادَمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ٢١ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ٢٢ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ٢٣

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَبَاحَ لِآدَمَ وَلِزَوْجَتِهِ حَوَاءَ الْجَنَّةَ أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا مِنْ جَمِيعِ ثَمَرِهَا إِلَّا شَجَرَةَ وَاحِدَةٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » ، فَعِنْدَ ذَلِكَ حَسَدُهُمَا الشَّيْطَانُ وَسَعَى فِي الْمَكْرِ وَالْوَسْوَسَةِ وَالْخَدِيعَةِ لِيُسْلِبَا مَا هُمَا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَاللِّبَاسِ الْحَسَنِ ﴿ وَقَالَ ﴾ كَذَبًا

وَأَفْتَرَاءً ﴿ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ ﴾ أَيُّ : لِئَلَّا تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ خَالِدَتَيْنِ هَاهُنَا ، وَلَوْ أَنَّكُمَا أَكَلْتُمَا مِنْهَا لَحَصَلْ لَكُمَا ذَلِكَ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ يَتَقَدَّمُ هَلْ أَذْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمَلِكٌ لَا يَبْتَلَى ﴾ [طه : ١٢٠] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أَيُّ : حَلَفَ لَهُمَا بِاللَّهِ ﴿ إِنِّي لَكُمْ لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ حَتَّى خَدَعَهُمَا ، وَقَدْ يُخَدِّعُ الْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، فَقَالَ : إِنِّي خُلِقْتُ قَبْلَكُمَا وَأَنَا أَعْلَمُ مِنْكُمَا فَاتَّبِعَانِ أَرْشِدُكُمَا ، وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ : مَنْ خَدَعَنَا بِاللَّهِ انْخَدَعْنَا لَهُ .

فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٢١﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : جَعَلَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ قَالَ : كَهَيْئَةِ الثُّوبِ . قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَلَقَّاها آدَمُ مِنْ رَبِّهِ .

قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٢٣﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿١٢٤﴾

قِيلَ : الْمُرَادُ بِالْخِطَابِ فِي : ﴿ أَهْبَطُوا ﴾ آدَمُ وَحَوَاءُ وَإِبْلِيسُ وَالْحَيَّةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرِ الْحَيَّةَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَالْعُمْدَةُ فِي الْعِدَاوَةِ آدَمُ وَإِبْلِيسُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي « سُورَةِ طه » قَالَ : ﴿ أَهْبَطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [طه : ١٢٣] . وَحَوَاءُ تَبَعَ لِآدَمَ ، وَالْحَيَّةُ إِنْ كَانَ ذِكْرُهَا صَحِيحًا فَهِيَ تَبَعَ لِإِبْلِيسَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أَيُّ : قَرَارٌ وَأَعْمَارٌ مَضْرُوبَةٌ إِلَىٰ أَجَالٍ مَعْلُومَةٍ قَدْ جَرَىٰ بِهَا الْقَلَمُ ، وَأَخْصَاهَا الْقَدَرُ وَسَطَرَتْ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ .

قَوْلُهُ : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ دَارًا لِبَنِي آدَمَ مَدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فِيهَا حَيَاتُهُمْ وَفِيهَا مَمَاتُهُمْ وَقُبُورُهُمْ ، وَمِنْهَا نُشُورُهُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَمِجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ .

يَسْبِيءُ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَكْمٍ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٥﴾

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَىٰ عِبَادِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّبَاسِ وَالرِّيشِ ، فَاللِّبَاسُ : يَسْرُ الْعَوْرَاتِ وَهِيَ السَّوَاتِ ، وَالرِّيشُ وَالرِّيشُ : مَا يُتَجَمَّلُ بِهِ ظَاهِرًا ، فَلِأَوَّلِ مِنَ الصَّرُورِيَّاتِ ، وَالرِّيشُ مِنَ

التَّكْمَلَاتِ وَالزِّيَادَاتِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ ؛ فَقَالَ عِكْرَمَةُ : يُقَالُ : هُوَ مَا يَلْبَسُهُ الْمُتَّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ الْإِيمَانُ ، وَقِيلَ : الْعَمَلُ الصَّالِحُ . وَقِيلَ : خَشْيَةُ اللَّهِ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : يَتَقَيَّ اللَّهُ فَيُؤَارِي عَوْرَتَهُ فَذَٰلِكَ لِبَاسُ التَّقْوَىٰ . وَكُلُّ هَذِهِ مُتَقَارِبَةٌ .

يَبْنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا ۚ إِنَّهُ يَرَئِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

يُحَذِّرُ تَعَالَىٰ بَنِي آدَمَ مِنْ إِبْلِيسَ وَقَبِيلِهِ ، مُبَيِّنًا لَهُمْ عِدَاوَتَهُ الْقَدِيمَةَ لِأَبِي الْبَشَرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سَعْيِهِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ دَارُ النَّعِيمِ إِلَى دَارِ التَّعَبِ وَالْعَنَاءِ ، وَالتَّسَبُّبِ فِي هَتَكِ عَوْرَتِهِ ، بَعْدَ مَا كَانَتْ مَسْتُورَةً عَنْهُ ، وَمَا هَذَا إِلَّا عَنْ عِدَاوَةِ أَكِيدَةٍ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿أَفْتَحْذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]

وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۚ قُلْ إِنِّي لَأَنذَرْتُكُمْ بَالْفَحْشَاءِ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاءَ يَقُولُونَ : نَطُوفُ كَمَا وَلَدَتْنَا أُمَّهَاتُنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الْآيَةُ .

قُلْتُ : كَانَتِ الْعَرَبُ - مَا عَدَا قُرَيْشًا - لَا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ فِي ثِيَابِهِمُ الَّتِي لِبَسُوهَا ، يَتَأَوَّلُونَ فِي ذَٰلِكَ : أَنَّهُمْ لَا يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِ عَصَا اللَّهِ فِيهَا ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ - وَهُمْ الْحُمْسُ - يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِهِمْ ، وَمَنْ أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ ثَوْبًا طَافَ فِيهِ ، وَمَنْ مَعَهُ ثَوْبٌ جَدِيدٌ طَافَ فِيهِ ، ثُمَّ يُلْقِيهِ فَلَا يَتَمَلَّكُهُ أَحَدٌ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ ثَوْبًا جَدِيدًا وَلَا أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ ثَوْبًا طَافَ عُريَانًا ، وَرَبِّهَا كَانَتْ إِمْرَأَةً فَتَطُوفُ عُريَانَةً ، فَتَجْعَلُ عَلَى فَرْجِهَا شَيْئًا لِيَسْتُرَهُ بَعْضُ السِّتْرِ فَتَقُولُ :

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

وَأَكْثَرُ مَا كَانَ النِّسَاءُ يَطْفَنُ عُرَاءَ بِاللَّيْلِ ، وَكَانَ هَذَا شَيْئًا قَدِ ابْتَدَعُوهُ مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَاتَّبَعُوا

فِيهِ آبَاءُهُمْ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِعْلَ آبَائِهِمْ مُسْتَبَدٌّ إِلَى أَمْرِ مِنَ اللَّهِ وَسَرِعَ ، فَأَنْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ ، فَقَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ : ﴿ قُلْ ﴾ أَيُّ : يَا مُحَمَّدٌ لِمَنِ إِدْعَى ذَلِكَ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي تَصْنَعُونَهُ فَاحِشَةٌ مُنْكَرَةٌ ، وَاللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : أَتُسْنِدُونَ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَقْوَالِ مَا لَا تَعْلَمُونَ صِحَّتَهُ . ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ أَيُّ : بِالْعَدْلِ وَالِاسْتِقَامَةِ ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أَيُّ : أَمَرَكُمْ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي عِبَادَتِهِ فِي مَحَالِّهَا وَهِيَ مُتَابَعَةُ الرُّسُلِ الْمُؤَيَّدِينَ بِالْمُعْجَزَاتِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ ، وَمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ ، وَبِالِاخْتِلَافِ لَهَا فِي عِبَادَتِهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتَقَبَّلُ الْعَمَلَ حَتَّى يَجْمَعَ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ : أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ ، وَأَنْ يَكُونَ خَالِصًا مِنَ الشَّرِكِ . اُخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ كَمَا بَدَأْتُمْ تُعْودُونَ ﴾ قِيلَ : يُخَيِّكُم بَعْدَ مَوْتِكُمْ . وَقِيلَ : كَمَا بَدَأْتُمْ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ تُعْودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْيَاءَ . وَقِيلَ : كَمَا كَتَبَ عَلَيْكُمْ تَكُونُونَ ، وَقِيلَ : مَنْ ابْتَدَأَ اللَّهُ خَلْقَهُ عَلَى الشَّقَاوَةِ صَارَ إِلَى مَا ابْتَدَى عَلَيْهِ خَلْقُهُ ، وَإِنْ عَمِلَ بِأَعْمَالِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَمَنْ ابْتَدَأَ خَلْقَهُ عَلَى السَّعَادَةِ صَارَ إِلَى مَا ابْتَدَى خَلْقَهُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ عَمِلَ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ، كَمَا أَنَّ السَّحَرَةَ عَمِلُوا بِأَعْمَالِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ صَارُوا إِلَى مَا ابْتَدُوا عَلَيْهِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَهَذَا مِنْ أَتَيْنِ الدَّلَالَةَ عَلَى خَطَأٍ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةِ رَكِبَهَا أَوْ ضَلَالَةٍ اِعْتَقَدَهَا ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهَا بَعْدَ عِلْمٍ مِنْهُ بِصَوَابٍ وَجْهِهَا ، فَيَرْكَبُهَا عِنَادًا مِنْهُ لِرَبِّهِ فِيهَا ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ فَرِيقِ الضَّلَالَةِ - الَّذِي ضَلَّ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ هَادٍ - وَفَرِيقِ الْهُدَى فَرْقٌ ، وَقَدْ فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ أَسْمَائِهِمَا وَأَحْكَامِهِمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

﴿ يَبْنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ نَزَلَتْ فِي طَوَافِ الْمُشْرِكِينَ بِالْبَيْتِ عُرَاءَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَمَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا مِنَ السُّنَنِ يُسْتَحَبُّ التَّجَمُّلُ عِنْدَ الصَّلَاةِ وَلَا سِيَّامًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَ الْعِيدِ ، وَالطَّيِّبُ لِأَنَّهُ مِنَ الزَّيْتَةِ ، وَالسَّوَاكُ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ ذَلِكَ ، وَمِنْ أَفْضَلِ اللِّبَاسِ الْبَيَاضُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الْآيَةُ . قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : جَمَعَ اللَّهُ الطَّبَّ كُلَّهُ فِي نِصْفِ آيَةٍ ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : كُلُّ مَا شِئْتَ ،

وَالْبَسَ مَا شِئْتَ ، مَا أَخْطَأَتْكَ خَصْلَتَانِ سَرَفٌ وَخَيْلَةٌ . وَقَالَ : أَحَلَّ اللَّهُ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ مَا لَمْ يَكُنْ سَرَقًا أَوْ خَيْلَةً .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتِ يُقْمَنُ صُلْبُهُ ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لَا مَحَالَةَ فَتُلْتُ لِبَطْنِهِ ، وَتُلْتُ لِشَرَابِهِ ، وَتُلْتُ لِنَفْسِهِ » .

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَدًّا عَلَى مَنْ حَرَّمَ شَيْئًا مِنَ الْمَأْكَلِ أَوِ الْمَشَارِبِ أَوِ الْمَلَابِسِ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ شَرَعٍ مِنَ اللَّهِ ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُحَرِّمُونَ مَا يُحَرِّمُونَ بِآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَابْتِدَاعِهِمْ ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : هِيَ مَخْلُوقَةٌ لِمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَعَبَدَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَإِنْ شَرَكَهُمْ فِيهَا الْكُفَّارُ حَسًّا فِي الدُّنْيَا ، فَهِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا يُشْرِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْكُفَّارِ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ .

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ » . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ . وَحَاصِلُ مَا فُسرَ بِهِ الْإِثْمُ : أَنَّهُ الْخَطَايَا الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْفَاعِلِ نَفْسِهِ ، وَالْبَغْيُ : هُوَ التَّعَدِّي إِلَى النَّاسِ فَحَرَّمَ اللَّهُ هَذَا وَهَذَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ أَيُّ : تَجْعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ فِي عِبَادَتِهِ ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ مِنْ دَعْوَى أَنْ لَهُ وَلَدًا ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٣﴾ يَبْنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَعَايَتَنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أَيُّ : قَرْنٌ وَجِيلٌ ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ ﴾ أَيُّ : مِيقَاتُهُمُ الْمُقَدَّرُ لَهُمْ ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ﴾ عَنْ ذَلِكَ ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ . ثُمَّ أَنْذَرَ تَعَالَى بَنِي آدَمَ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ

إِلَيْهِمْ رُسُلًا يَقْضُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيَبْشُرُ وَحَذَرُ فَقَالَ : ﴿ فَمَنْ أَتَقَى وَأُصْلَحَ ﴾ أَي : تَرَكَ الْمُحَرَّمَاتِ وَفَعَلَ الطَّاعَاتِ ﴿ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴿ أَي : كَذَبَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْعَمَلِ بِهَا ﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ أَي : مَا كَثُورٌ فِيهَا مِثْكَأُ مُحَلَّدًا .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَئِكَ يَنَاهُمُ نَصِيحُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ ﴾ أَي : لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الْمُنْزَلَةِ ﴿ أُولَئِكَ يَنَاهُمُ نَصِيحُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ . قِيلَ : يَنَاهُمُ مَا كَتَبَ عَلَيْهِمْ ، وَكَتَبَ لِمَنْ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ أَنْ وَجْهَهُ مُسَوَّدٌ ، وَقِيلَ : نَصِيحُهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ ، مَنْ عَمِلَ خَيْرًا جُزِيَ بِهِ ، وَمَنْ عَمِلَ شَرًّا جُزِيَ بِهِ ، وَقِيلَ : مَا وَعَدُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ أُولَئِكَ يَنَاهُمُ نَصِيحُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ قَالَ : عَمَلُهُ وَرِزْقُهُ وَعُمُرُهُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ قَوِيٌّ فِي الْمَعْنَى ، وَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ ﴾ وَيَصِيرُ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿ وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ ﴾ الْآيَةُ . يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا تَوَفَّتِ الْمُشْرِكِينَ نَفْسَهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمْ إِلَى النَّارِ ، يَقُولُونَ لَهُمْ : أَيُّنَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَدْعُوهُمْ وَتَعْبُدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ أَدْعُوهُمْ يُخَلِّصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ، قَالُوا : ﴿ ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أَي : ذَهَبُوا عَنَّا فَلَا تَرْجُوا نَفْعَهُمْ وَلَا خَيْرَهُمْ ﴿ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَي : أَقْرَأُوا وَاعْتَرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ .

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَذِّبْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ ﴿ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ ﴾

أَيُّ : مِنْ أَشْكَالِكُمْ وَعَلَى صِفَاتِكُمْ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْكَافِرَةِ ﴿ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ فِي أَمْرٍ ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿ فِي أَمْرٍ ﴾ أَيُّ : مَعَ أُمَمٍ ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ كَمَا قَالَ الْحَلِيلُ ﷺ ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ [العنكبوت : ٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ أَيُّ : اجْتَمَعُوا فِيهَا كُلُّهُمْ ﴿ قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَوْلِيهِمْ ﴾ أَيُّ : أَخْرِجْنَهُمْ دُخُولًا - وَهُمْ الْأَتْبَاعُ - لِأَوْلَاهُمْ - وَهُمْ الْمُتَّبِعُونَ - لِأَنَّهُمْ أَشَدَّ جُرْمًا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ ، فَدَخَلُوا قَبْلَهُمْ فَيَشْكُوهُمْ الْأَتْبَاعُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ فَيَقُولُونَ : ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ﴾ أَيُّ : أَضْعَفَ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : قَدْ فَعَلْنَا ذَلِكَ وَجَازَيْنَا كُلًّا بِحَسَبِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأَخْرَجْنَهُمْ ﴾ أَيُّ : قَالَ الْمُتَّبِعُونَ لِلْأَتْبَاعِ ﴿ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿ هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ قَوْلُهُ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ لَا يُرْفَعُ لَهُمْ مِنْهَا عَمَلٌ صَالِحٌ وَلَا دُعَاءٌ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ لَا تُفَتَّحُ لِأَرْوَاحِهِمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ . ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ . هَكَذَا قَرَأَهُ الْجُمْهُورُ وَفَسَّرُوهُ بِأَنَّهُ الْبَعِيرُ . قَالُوا : حَتَّى يَدْخُلَ الْبَعِيرُ فِي خَرْقِ الْإِبْرَةِ . ﴿ هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ الْفَرْشُ : ﴿ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ اللَّحْفُ . وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ فَجَرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُّونَ أَنْ تَلَکُمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ السَّعْدَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

أَصْلَحْتَ ۖ أَيُّ : آمَنْتَ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ ضِدَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ، وَيَنْبَهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْإِيْمَانَ وَالْعَمَلَ بِهِ سَهْلٌ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : ﴿ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ أَيُّ : مِنْ حَسَدٍ وَبُغْضٍ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ : لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ، فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا ، وَكُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ : لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ، فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةٌ » . وَهَذَا لَمَّا أُورِثُوا مَقَاعِدَ أَهْلِ النَّارِ مِنَ الْجَنَّةِ نُوذُوا : ﴿ أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : بِسَبَبِ أَعْمَالِكُمْ نَالْتُمُ الرِّحْمَةَ فَدَخَلْتُمُ الْجَنَّةَ وَتَبَوَّأْتُمْ مَنَازِلَكُمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِكُمْ . وَإِنَّمَا وَجِبَ الْحُمْلُ عَلَى هَذَا لِقَوْلِهِ ﷺ : « وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَدْخُلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ » قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمَدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِمَا يُخَاطَبُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِهِ أَهْلُ النَّارِ عَلَى وَجْهِ التَّفْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ إِذَا اسْتَقَرُّوا فِي مَنَازِلِهِمْ ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾ « أَنْ » هَاهُنَا مُفَسَّرَةٌ لِلْقَوْلِ الْمَحْذُوفِ ، وَ « قَدْ » لِلتَّحْقِيقِ ، أَيُّ : قَالُوا لَهُمْ : قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيُّ : أَعْلَمَ مُعْلِمٌ وَنَادَى مُنَادٍ : ﴿ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ أَيُّ : مُسْتَقَرَّةٌ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَيُّ : يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ، وَيَبْغُونَ أَنْ يَكُونَ السَّبِيلُ مُعْوَجَّةً غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ حَتَّى لَا يَتَّبِعَهَا أَحَدٌ ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ أَيُّ : وَهُمْ بِلِقَاءِ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَافِرُونَ : أَيُّ جَاحِدُونَ مُكَذِّبُونَ ، فَلِهَذَا لَا يُبَالُونَ بِمَا يَأْتُونَ مِنْ مُنْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ حِسَابًا عَلَيْهِ وَلَا عِقَابًا فَهُمْ شَرُّ النَّاسِ أَقْوَالًا وَأَعْمَالًا .

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَاوُا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ تَلَاقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مُحَاطَبَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَعَ أَهْلِ النَّارِ نَبَّهَ أَنَّ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حِجَابًا ، وَهُوَ الْحَاجِزُ

الْمَانِعُ مِنْ وُصُولِ أَهْلِ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَهُوَ السُّورُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣] وَهُوَ الْأَعْرَافُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالْأَعْرَافُ : جَمْعُ عُرْفٍ ، وَكُلُّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ عِنْدَ الْعَرَبِ يُسَمَّى عُرْفًا ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِعُرْفِ الدَّيْكَ عُرْفًا لِارْتِفَاعِهِ ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْأَعْرَافُ : تَلٌّ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، حُسِبَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ مَنْ هُمْ ؟ وَكُلُّهَا قَرِيبَةٌ تَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّهُمْ : قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَانِهِمْ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْرِفُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِنَبَاضِ الْوُجُوهِ ، وَأَهْلَ النَّارِ بِسَوَادِ الْوُجُوهِ ، وَقَالُوا : أَنْزَلَهُمُ اللَّهُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ ؛ لِيَعْرِفُوا مَنْ فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ وَلِيَعْرِفُوا أَهْلَ النَّارِ بِسَوَادِ الْوُجُوهِ وَيَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يُحْيُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِالسَّلَامِ ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ أَنْ يَدْخُلُوهَا ، وَهُمْ دَاخِلُوهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ . قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قِيلَ : إِنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ إِذَا نَظَرُوا إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَعَرَفُوهُمْ ، قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَانِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٨﴾ أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُحِبًّا عَنْ تَفْرِيعِ أَهْلِ الْأَعْرَافِ لِرِجَالٍ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَقَادَتِهِمْ يَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِسِيمَانِهِمْ : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ ﴾ أَيُّ : كَثَرَتُكُمْ ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يَنْفَعُكُمْ كَثَرَتُكُمْ وَلَا جُمُوعُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، بَلْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صِرْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ . ﴿ أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ يَعْنِي : أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ ﴿ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ آتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِلُهُمْ كَمَا نُسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِغَايَتِنَا تَجْحَدُونَ ﴿٢١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكِ أَهْلِ النَّارِ وَسْوَائِهِمْ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ شَرَابِهِمْ وَطَعَامِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَا يُجَابُونَ إِلَى ذَلِكَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ يَعْنِي : الطَّعَامَ . وَقِيلَ : يَسْتَطِيعُونَهُمْ وَيَسْتَسْقُونَهُمْ . ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى الْكَافِرِينَ بِمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي الدُّنْيَا بِاتِّخَاذِهِمُ الدِّينَ هَوًّا وَلَعِبًا ، وَاعْتِرَازِهِمْ بِالْدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَزُخْرُفِهَا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نُسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ أَيُّ : نُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةً مَنْ نَسِيَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَشُدُّ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ وَلَا يَنْسَاهُ ، وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ نُسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] ، وَقَالَ : ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [طه : ١٢٦]

وَلَقَدْ جَعَلْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نُسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِعْذَارِهِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، بِإِرْسَالِ الرُّسُولِ إِلَيْهِمْ ، بِالْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرُّسُولُ وَأَنَّهُ كِتَابٌ مُفَصَّلٌ مُبَيِّنٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أَيُّ : عَلَى عِلْمٍ مِنَّا بِمَا فَصَّلْنَاهُ بِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ أَيُّ : مَا وَعَدُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ نُسُوهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَيُّ : تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ وَتَنَاسَوْهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ أَيُّ : فِي خَلَاصِنَا مِمَّا نَحْنُ فِيهِ ﴿ أَوْ نُرَدُّ ﴾ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أَيُّ : خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِدُخُولِهِمُ النَّارَ وَخُلُودِهِمْ فِيهَا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أَيُّ : ذَهَبَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَلَا يَشْفَعُونَ لَهُمْ وَلَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَا يُنْقِذُونَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ الْعَالَمِ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَالسِّتَّةُ أَيَّامٌ هِيَ : الْأَحَدُ وَالْإِثْنَيْنِ وَالثَلَاثَاءُ وَالْأَرْبَعَاءُ وَالْخَمِيسُ وَالْجُمُعَةُ

وَفِيهِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُ ، وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ عليه السلام . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَشْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فَلِلنَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَقَالَاتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ بَسْطِهَا ، وَإِنَّمَا يُسَلِّكُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَذْهَبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ وَلَا تَعْطِيلٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَيْثُ ﴾ أَيُّ : يُذْهَبُ ظِلَامٌ هَذَا بَضِيَاءٌ هَذَا ، وَضِيَاءٌ هَذَا بِظِلَامٍ هَذَا ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَيْثُ ، أَيُّ : سَرِيعًا ، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ بَلْ إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا ، وَإِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا ، فَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ أَيُّ : لَا يَقْوَتُهُ بِوَقْتِ يَتَأَخَّرُ عَنْهُ ، بَلْ هُوَ فِي أَثَرِهِ لَا وَاسِطَةٌ بَيْنَهُمَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ مِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ ، وَكِلَاهُمَا قَرِيبُ الْمَعْنَى أَيُّ : الْجَمِيعُ نَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَمَشِيتِيهِ ، وَلِهَذَا قَالَ مُنَبِّهًا : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ أَيُّ : لَهُ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان : ٦١]

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾ أَرَشَدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ الَّذِي هُوَ صِلَا حُفْمٌ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاهُمْ فَقَالَ : ﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ تَذَلُّلًا وَاسْتِكَانَةً ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ قَالَ : فِي الدُّعَاءِ وَلَا فِي غَيْرِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ يَنْهَى تَعَالَى عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا أَضَرَّهُ بَعْدَ الْإِصْلَاحِ ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْأُمُورُ مَاشِيَةً عَلَى السَّدَادِ ثُمَّ وَقَعَ الْإِفْسَادُ بَعْدَ ذَلِكَ ، كَانَ أَضَرَّ مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ ، فَهَيَّ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَدُعَائِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَالتَّذَلُّلِ لَدَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أَيُّ : خَوْفًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنْ وَبِيلِ الْعِقَابِ ، وَطَمَعًا فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيُّ : إِنَّ رَحْمَتَهُ مُرْصَدَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَوَامِرَهُ وَيَتْرَكُونَ زَوَاجِرَهُ ، وَقَالَ : ﴿ قَرِيبٌ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : قَرِيبَةٌ ؛ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ الرَّحْمَةَ مَعْنَى الثَّوَابِ ، أَوْ لِأَنَّهَا مُضَافَةٌ إِلَى اللَّهِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ^ط حَتَّى إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثِقَالًا سَقَنَهُ لِبَلَدٍ مَّيَّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ^ط كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ^ط وَالَّذِي حَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الْمُدَبِّرُ الْمُسَخِّرُ ، وَأَرْشَدَ إِلَى دُعَائِهِ ؛ لِأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ الرَّزَاقُ وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْمَوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا ﴾ أَيُ : نَاشِرَةً بَيْنَ يَدَيِ السَّحَابِ الْحَامِلِ لِلْمَطَرِ ، ﴿ بَيِّنَ يَدَى رَحْمَتِهِ ﴾ أَيُ : بَيْنَ يَدَيِ الْمَطَرِ ، ﴿ حَتَّى إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ أَيُ : حَمَلَتِ الرِّيحُ سَحَابًا ثِقَالًا ، أَيُ مِنْ كَثَرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَاءِ ، تَكُونُ ثَقِيلَةً قَرِيبَةً مِنَ الْأَرْضِ مُدْهِمَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ ﴾ أَيُ : إِلَى أَرْضٍ مَيِّتَةٍ مُجْدِبَةٍ لَا نَبَاتَ فِيهَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ [يس : ٣٣] . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ تَخْرِجُ الْمَوْتَى ﴾ أَيُ : كَمَا أَحْيَيْنَا هَذِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ نُحْيِي الْأَجْسَادَ بَعْدَ صَيُورِهَا رَمِيمًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنْزِلُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَاءً مِنَ السَّمَاءِ فَتَمْطُرُ الْأَرْضُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا كَمَا يَنْبُتُ الْحَبُّ فِي الْأَرْضِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ يَضْرِبُ اللَّهُ مَثَلًا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِأَحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ أَيُ : وَالْأَرْضُ الطَّيِّبَةُ تَخْرِجُ نَبَاتَهَا سَرِيعًا حَسَنًا ﴿ وَالَّذِي خُبْتُ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكْدًا ﴾ قِيلَ : هَذَا مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ . عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْهُدَى كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبْلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرَبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِلَّا هِيَ قِيَعَانُ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تَنْبُتُ كَلًّا ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، فَعِلِمٌ وَعِلْمٌ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٠٧﴾ قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ آدَمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ وَفَرَّغَ مِنْهُ ، شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - الْأَوَّلُ فَلِأَوَّلٍ فَاثْنَدًا بِذِكْرِ نُوحٍ عليه السلام فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ آدَمَ عليه السلام وَقَدْ كَانَ بَيْنَ آدَمَ إِلَى زَمَنِ نُوحٍ عليه السلام عَشْرَةُ قُرُونٍ ، كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ : وَكَانَ أَوَّلُ مَا عِبَدَتِ الْأَصْنَامُ أَنَّ قَوْمًا

صَالِحِينَ مَاتُوا، فَبَنَى قَوْمُهُمْ عَلَيْهِمْ مَسَاجِدَ وَصَوَّرُوا صُورَ أَوْلِيكَ فِيهَا ؛ لِيَتَذَكَّرُوا حَاثَهُمْ وَعِبَادَتَهُمْ فَيَتَشَبَّهُوا بِهِمْ ، فَلَمَّا طَالَ الزَّمَانُ جَعَلُوا أَجْسَادًا عَلَى تِلْكَ الصُّورِ ، فَلَمَّا تَمَادَى الزَّمَانُ عَبَدُوا تِلْكَ الْأَصْنَامَ وَسَمَّوْهَا بِأَسْمَاءِ أَوْلِيكَ الصَّالِحِينَ : وَدَا ، وَسَوَاعَا ، وَيَغُوثَ ، وَيَعُوقَ ، وَنَسْرًا ، فَلَمَّا تَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - رَسُولَهُ نُوحًا ، يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَقَالَ : ﴿ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ أَيُّ : مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِذَا لَقِيتُمْ اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ . ﴾ قَالَ أَلَمَلًا مِنْ قَوْمِيَّةٍ ﴿ أَيُّ : الْجَمْهُورُ وَالسَّادَةُ وَالْقَادَةُ وَالْكَبَرَاءُ مِنْهُمْ ﴾ ﴿ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أَيُّ : فِي دَعْوَتِكَ إِنَّا نَا إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَيْهَا . ﴿ قَالَ يَنْقُومِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : مَا أَنَا ضَالٌّ وَلَكِنْ أَنَا رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ ﴿ أُلَيْغُكُمْ رَسُولُ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَهَذَا شَأْنُ الرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ بَلِيغًا فَصِيحًا نَاصِحًا عَالِمًا بِاللَّهِ ، لَا يَذَرُكُهُمْ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ .

أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِنْخَبَارًا عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : لَا تَعْجَبُوا مِنْ هَذَا فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يُوحِيَ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ وَلُطْفًا وَإِحْسَانًا إِلَيْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا نِقْمَةَ اللَّهِ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ ﴾ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أَيُّ : تَمَادَوْا عَلَى تَكْذِيبِهِ وَخُلَافَتِهِ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ أَيُّ : عَنِ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ لَهُ ، فَبَيْنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهُ انْتَقَمَ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَأَنْجَى رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَنَّ الْعَاقِبَةَ فِيهَا لِلْمُتَّقِينَ وَالظَّفَرُ وَالْغَلَبَ هُمْ ، كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ بِالْغَرَقِ ، وَنَجَّى نُوحًا وَأَصْحَابَهُ الْمُؤْمِنِينَ .

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ أَلَمَلًا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِيَّةٍ إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِيِّينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ يَنْقُومِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٠﴾

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٥﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ نُوحٍ نُوحًا ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا . قُلْتُ : هَؤُلَاءِ هُمْ عَادُ الْأُولَى الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ ، وَهُمْ أَوْلَادُ عَادِ بْنِ إِرَمَ ، الَّذِينَ كَانُوا يَأْوُونَ إِلَى الْعَمَدِ فِي الْبَرِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١٥﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿١٦﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر : ٦ - ٨] ، وَذَلِكَ لِيَشِدَّ بِأَسْهَمِهِمْ وَقَوَّيْتَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] . وَقَدْ كَانَتْ مَسَاكِينُهُمْ بِالْيَمَنِ بِالْأَحْقَافِ وَهُوَ جِبَالُ الرَّمْلِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ أَمْلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي ۖ وَالْمَلَأَهُمُ الْجُمُحُورُ وَالسَّادَةُ وَالْقَادَةُ مِنْهُمْ ﴾ إِنَّا لَنَزَلْنَا فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِيِّينَ ﴾ أَيُّ : فِي ضَلَالَةٍ ، حَيْثُ دَعَوْنَا إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ . ﴿ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : لَسْتُ كَمَا تَزْعُمُونَ ، بَلْ جِئْتُكُمْ بِالْحَقِّ مِنَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ . ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الرَّسُولُ : الْبَلَاغُ وَالنُّصْحُ وَالْأَمَانَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ أَيُّ : لَا تَعْجَبُوا أَنْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ لِيُنذِرَكُمْ أَيَّامَ اللَّهِ وَلِقَاءَهُ ، بَلْ إِحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى ذَاكُمْ ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أَيُّ : وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَكُمْ مِنْ دُرِّيَّةِ نُوحٍ ، الَّذِي أَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِدَعْوَتِهِ لَمَّا خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ﴾ أَيُّ : زَادَ طَوْلَكُمْ عَلَى النَّاسِ ﴿ بَضْطَةً ﴾ أَيُّ : جَعَلَكُمْ أَطْوَلَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكُمْ .

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدُّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَتُتَمَّ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ فَاتَّظَرُّوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظَرِينَ ﴿١٨﴾ فَأَخْبَيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَرُدِّهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ عَلَى هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ الآية . كَمَا قَالَ الْكُفَّارُ مِنْ قُرَيْشٍ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مَا نُزِّلَ عَلَيْكَ مِنْ عِنْدِكَ فَاُمِّطْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ، وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا . قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أَي: قَدْ وَجَبَ عَلَيْكُمْ بِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿رِجْسٌ﴾ قِيلَ: هُوَ مَقْلُوبٌ مِنْ رِجَزٍ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : مَعْنَاهُ سَخَطٌ وَغَضَبٌ ﴿أَتُجَدِّلُونََنِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيَّتُمْوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أَي: أَتُحَاجُّونِي فِي هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي سَمِيَّتُمْوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ آلِهَةً ، وَهِيَ لَا تَنْضُرُ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا حُجَّةً وَلَا دَلِيلًا ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ مِنَ الرَّسُولِ لِقَوْمِهِ ، وَلِهَذَا عَقَّبَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَجْبَيْنَاهُ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ صِفَةَ إِهْلَاكِهِمْ فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى مِنَ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ .

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٩﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحْ أَئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٨١﴾

قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ وَالنَّسَبِ: ثَمُودُ بْنُ عَادٍ بْنِ إِدْمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ ، وَكَانَتْ ثَمُودُ بَعْدَ عَادٍ ، وَمَسَاكِنُهُمْ مَشْهُورَةٌ فِيمَا بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ إِلَى وَادِي الْقَرْيَ وَمَا حَوْلَهُ ، وَقَدْ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى دِيَارِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى تَبُوكَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أَي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلَةِ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ

يَقَوْمٍ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿ فَجَمِيعُ الرُّسُلِ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ أَي : قَدْ جَاءَكُمْ حُجَّةٌ
 مِنَ اللَّهِ عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُمْ بِهِ ، وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ سَأَلُوا صَالِحًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَآيَةٍ ، وَاقْتَرَحُوا
 عَلَيْهِ أَنْ يُخْرِجَ هُمْ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءَ عَيْنُهَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَهِيَ صَخْرَةٌ مُنْفَرَدَةٌ فِي نَاحِيَةِ الْحَجْرِ
 يُقَالُ لَهَا : الْكَاتِبَةُ ، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَ هُمْ مِنْهَا نَاقَةً عَشْرَاءَ تَمَحُّصٍ ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ صَالِحُ
 الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ لَئِنْ أَجَابَهُمُ اللَّهُ إِلَى سُؤَالِهِمْ وَأَجَابَهُمْ إِلَى طَلِبَتِهِمْ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَتَّبِعُنَّهُ ، فَلَمَّا
 أَعْطَوْهُ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَهُمْ وَمَوَاقِيقَهُمْ ، قَامَ صَالِحٌ عليه السلام إِلَى صَلَاتِهِ وَدَعَا اللَّهَ تعالى ، فَتَحَرَّكَتْ
 تِلْكَ الصَّخْرَةُ ثُمَّ انْصَدَعَتْ عَنْ نَاقَةٍ جَوْفَاءَ وَبَرَاءَ يَتَحَرَّكُ جَنِينُهَا بَيْنَ جَنِينَيْهَا كَمَا سَأَلُوا .

فَأَقَامَتِ النَّاقَةُ - وَفَصِّلُهَا بَعْدَمَا وَضَعَتْهُ - بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مُدَّةً ، تَشْرَبُ مَاءَ بَيْتِهَا يَوْمًا ،
 وَتَدْعُهُ هُمْ يَوْمًا ، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمَ شُرْبِهَا يَجْتَلِبُونَهَا فَيَمْلُثُونَ مَا شَاءُوا مِنْ أَوْعِيَتِهِمْ
 وَأَوَانِيهِمْ ، وَكَانَتْ تَسْرُحُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ ، تَرُدُّ مِنْ فَجٍّ وَتَصْدُرُ مِنْ غَيْرِهِ لَيْسَعَهَا لِأَنَّهَا
 كَانَتْ تَتَصَلَّعُ مِنَ الْمَاءِ ، وَكَانَتْ - عَلَى مَا ذُكِرَ - خَلْقًا هَائِلًا وَمَنْظَرًا رَائِعًا ، إِذَا مَرَّتْ بِأَنْعَامِهِمْ
 نَفَرَتْ مِنْهَا ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَاشْتَدَّ تَكْذِيبُهُمْ لِصَالِحِ النَّبِيِّ عليه السلام عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهَا ؛
 لِيَسْتَأْثِرُوا بِالْمَاءِ كُلِّ يَوْمٍ ، فَيَقَالُ : إِيَّاهُمْ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى قَتْلِهَا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾
 فَأَسْنَدَ ذَلِكَ إِلَى جَمْعِ الْقَبِيلَةِ فَدَلَّ عَلَى رِضَا جَمِيعِهِمْ بِذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ
 وَفَرَّغُوا مِنْ عَقْرِ النَّاقَةِ وَبَلَغَ الْخَبَرَ صَالِحًا عليه السلام فَجَاءَهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ فَلَمَّا رَأَى النَّاقَةَ بَكَى
 وَقَالَ : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود : ٦٥] . فَعَدُّوا يَنْتَظِرُونَ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ - عِيَادًا
 بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - لَا يَذَرُونَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِمْ ، وَلَا كَيْفَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ، وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ ،
 جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَرَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ ، فَفَاضَتْ الْأَرْوَاحُ وَزَهَقَتِ
 النُّفُوسُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾ أَي : صَرَخَى لَا أَرْوَاحَ فِيهِمْ .

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ

النَّاصِحِينَ ﴿٧٦﴾

هَذَا تَقْرِيعٌ مِنْ صَالِحِ عليه السلام لِقَوْمِهِ لَمَّا أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ بِمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ ، وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى اللَّهِ ، وَإِبَائِهِمْ
 عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْهُدَى إِلَى الْعَمَى ، قَالَ هُمْ صَالِحٌ ذَلِكَ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ تَقْرِيعًا
 وَتَوْبِيخًا وَهُمْ يَسْمَعُونَ ذَلِكَ ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أَي : فَلَمْ تَتَّبِعُوا بِذَلِكَ ؛
 لِأَنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْحَقَّ وَلَا تَتَّبِعُونَ نَاصِحًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾
 إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿٨١﴾
 يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَ ﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿ لُوطًا ﴾ أَوْ تَقْدِيرُهُ ﴿ وَ ﴾ أَذْكَرُ ﴿ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ وَلُوطُ
 هُوَ ابْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ وَهُوَ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَدْ آمَنَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَاجَرَ
 مَعَهُ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ سَدُومَ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ
 وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا كَانُوا يَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْفَوَاحِشِ الَّتِي
 اخْتَرَعُوهَا ، لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَا غَيْرِهِمْ ، وَهُوَ إِيَّانَ الذَّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ ،
 وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ بَنُو آدَمَ تَعَاهِدُهُ وَلَا تَأْلُفُهُ وَلَا يَحْطِرُّ بِهَا لَهُمْ ، حَتَّى صَنَعَ ذَلِكَ أَهْلُ سَدُومَ
 عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ ، وَهَذَا قَالَ لَهُمْ لُوطُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ
 الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿٨١﴾ أَيُّ : عَدَلْتُمْ عَنِ النِّسَاءِ وَمَا خَلَقَ
 لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْهُنَّ إِلَى الرِّجَالِ ، وَهَذَا إِسْرَافٌ مِنْكُمْ وَجَهْلٌ ؛ لِأَنَّهُ وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ ،
 وَذَكَرَ الْمَفْسُورُونَ : أَنَّ الرِّجَالَ كَانُوا قَدْ اسْتَغْنَى بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَكَذَلِكَ نِسَاؤُهُمْ كُنَّ قَدْ
 اسْتَغْنَيْنَ بَعْضُهُنَّ بِبَعْضٍ أَيْضًا .

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ
 يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾
 أَيُّ : مَا أَجَابُوا لُوطًا إِلَّا أَنْ هُمَا بِإِخْرَاجِهِ وَنَفْيِهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ، فَأَخْرَجَهُ اللَّهُ
 تَعَالَى سَالِمًا وَأَهْلَكَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ صَاغِرِينَ مُهَانِينَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ قَالَ
 قَتَادَةُ : عَابُوهُمْ بِغَيْرِ عَيْبٍ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ مِنْ أَدْبَارِ الرِّجَالِ وَأَدْبَارِ النِّسَاءِ .
 فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ
 كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَأَنْجَيْنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ سِوَى أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَطْ إِلَّا امْرَأَتَهُ
 فَإِنَّمَا لَمْ تُؤْمِنْ بِهِ ، بَلْ كَانَتْ عَلَى دِينِ قَوْمِهَا تَمَثَّلُ لَهُمْ عَلَيْهِ وَتُعَلِّمُهُمْ بِمَنْ يَقْدُمُ عَلَيْهِ مِنْ ضَيْفَانِهِ ،
 بِإِشَارَاتِ بَيْنِهَا وَبَيْنَهُمْ ، وَهَذَا لَمَّا أَمَرَ لُوطُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ أَمَرَ أَنْ لَا يُعَلِّمَهَا وَلَا يُخْرِجَهَا
 مِنَ الْبَلَدِ ، وَهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أَيُّ : الْبَاقِينَ ، وَقِيلَ : مِنْ
 الْهَالِكِينَ ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِاللَّازِمِ . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ مُفَسَّرٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً

مِّن سَجِيلٍ مَّنصُودٍ ﴿٥٠﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٥١﴾ [هود : ٨٢ - ٨٣] ،
وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : انْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ
مَنْ تَجَهَّرَ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ ﷻ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ؟ .

وَالِإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ
جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾
قُلْتُ : « مَدْيَنُ » تُطَلَّقُ عَلَى الْقَبِيلَةِ وَعَلَى الْمَدِينَةِ وَهِيَ الَّتِي بِقُرْبِ « مَعَانَ » مِنْ طَرِيقِ الْحِجَازِ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص : ٢٣] ،
وَهُمْ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ الثَّقَةُ ﴿ قَالَ يَنْقُورِمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ
غَيْرُهُ ﴾ هَذِهِ دَعْوَةُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي : قَدْ أَقَامَ اللَّهُ الْحُجَجَ
وَالْبَيِّنَاتِ عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُمْ بِهِ ، ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي مُعَامَلَتِهِمُ النَّاسَ بِأَنْ يُّوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ
وَلَا يَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، أَيْ لَا يَخُونُوا النَّاسَ فِي أُمُورِهِمْ وَيَأْخُذُوهَا عَلَى وَجْهِ الْبَخْسِ ،
وَهُوَ نَقْصُ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ خُفِيَّةً وَتَدْلِيْسًا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِنْخَابًا عَنْ شُعَيْبٍ الَّذِي يُقَالُ لَهُ :
خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ لِفَصَاحَةِ عِبَارَتِهِ وَجَزَالَةِ مَوْعِظَتِهِ .

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ
وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكُتِرْكُمْ ۖ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ
الْمُفْسِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا
فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ تَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٥٤﴾

يَنْهَاهُمْ شُعَيْبٌ ﷻ عَنِ قَطْعِ الطَّرِيقِ الْحُسِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ
تُوعِدُونَ ﴾ أي : تَتَوَعَّدُونَ النَّاسَ بِالْقَتْلِ إِنْ لَمْ يُعْطَوْكُمْ أَمْوَالَهُمْ . ﴿ بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ وَهِيَ الطَّرِيقُ
﴿ وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي : وَتَوَدُّونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلَ اللَّهِ
عِوَجًا مَّائِلَةً ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكُتِرْكُمْ ﴾ أي : كُنتُمْ مُسْتَضْعَفِينَ لِقِلَّتِكُمْ فَصَرْنْتُمْ
أَعِزَّةً لِكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ ، فَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي ذَٰلِكَ ﴿ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾
أي : مِنَ الْأُمَمِ الْحَالِيَةِ وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، بِاجْتِرَائِهِمْ عَلَى
مَعَاصِي اللَّهِ وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ . قَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ

يُؤْمِنُوا ﴿١٠١﴾ أَيُّ : قَدْ اخْتَلَفْتُمْ عَلَيَّ ﴿١٠٢﴾ فَاصْبِرُوا ﴿١٠٣﴾ أَيُّ : اِنْتَظَرُوا ﴿١٠٤﴾ حَتَّى تَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ﴿١٠٥﴾ وَبَيْنَكُمْ ، أَيُّ : يَفْصِلُ ﴿١٠٦﴾ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٧﴾ فَإِنَّهُ سَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ وَالذَّمَّارَ عَلَى الْكَافِرِينَ .

﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُوعُ بْنُ يَسُوعَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كُنَّا لَكُمْ كَاهِنِينَ ﴿١٠٩﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿١١٠﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا وَاجَهَتْ بِهِ الْكُفَّارُ نَبِيَّ شُعَيْبًا ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَعُّدِهِمْ إِيَّاهُ ، وَمَنْ مَعَهُ بِالنَّبِيِّ مِنَ الْقَرْيَةِ ، أَوْ الْإِكْرَاهِ عَلَى الرُّجُوعِ فِي مِلَّتِهِمْ وَالِدُخُولِ مَعَهُمْ فِيهَا هُمْ فِيهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿١٠٩﴾ أُولَئِكَ كُنَّا لَكُمْ كَاهِنِينَ يَقُولُ أَوْ أَنْتُمْ فَاعِلُونَ ذَلِكَ وَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ . ﴿١١٠﴾ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَهَذَا رَدُّ إِلَى الْمَشِيئَةِ ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١١١﴾ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴿١١٢﴾ أَيُّ : فِي أُمُورِنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذُرُ ﴿١١٣﴾ رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴿١١٤﴾ أَيُّ : افْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ ﴿١١٥﴾ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿١١٦﴾ أَيُّ : خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١١٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿١١٨﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿١١٩﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ شِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ ، وَمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْمَخَالَفَةِ لِلْحَقِّ ، وَهَذَا أَفْسَمُوا وَقَالُوا : ﴿١٢٠﴾ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٢١﴾ قَوْلُهُ : ﴿١٢٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿١٢٣﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى هُنَا أَنَّهُمْ أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ ، وَذَلِكَ كَمَا أَرْجَفُوا شُعَيْبًا وَأَصْحَابَهُ جَاءَتْهُمْ صَبْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ ، وَفَاضَتِ النُّفُوسُ ، وَخَسَدَتِ الْأَجْسَامُ ﴿١٢٤﴾ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿١٢٥﴾ . قَالَ تَعَالَى : ﴿١٢٦﴾ كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴿١٢٧﴾ أَيُّ : كَأَنَّهُمْ لَمَّا أَصَابَتْهُمْ النِّقْمَةُ لَمْ يُقِيمُوا بِدِيَارِهِمُ الَّتِي أَرَادُوا إِجْلَاءَ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ مِنْهَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَابِلًا لِقِيلِهِمْ ﴿١٢٨﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢٩﴾ .

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُومِ لَقَدْ أَتَلَعْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ
ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٦٦﴾

أَيُّ : فَتَوَلَّى عَنْهُمْ شُعَيْبٌ عليه السلام بَعْدَ مَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّقْمَةِ وَالنَّكَالِ ، وَقَالَ
مُفْرَعًا لَهُمْ وَمُؤَبِّحًا ﴿ لَقَدْ أَتَلَعْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : قَدْ أَدَيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أُرْسِلْتُ
بِهِ فَلَا أَسْفَةَ عَلَيْكُمْ وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٦٧﴾
ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ
فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَمَّا اخْتَبَرَ بِهِ الْأُمَمَ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ ﴿ بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾
يَعْنِي : بِالْبِأْسَاءِ : مَا يُصِيبُهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَسْقَامٍ ، وَالضَّرَّاءِ : مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ فَقْرٍ
وَحَاجَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾ أَيُّ : يَدْعُونَ وَيَحْشَعُونَ وَيَتَهَلَّلُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي
كُشْفِ مَا نَزَلَ بِهِمْ . وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : أَنَّهُ ابْتَلَاهُمْ بِالشَّدَةِ لِيَتَضَرَّعُوا ، فَمَا فَعَلُوا شَيْئًا مِنَ الَّذِي
أَرَادَ اللَّهُ مِنْهُمْ ، فَقَلَبَ عَلَيْهِمُ الْحَالَ إِلَى الرَّخَاءِ لِيُخْتَبِرَهُمْ فِيهِ . ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾
أَيُّ : حَوَّلْنَا الْحَالَ مِنْ شِدَّةٍ إِلَى رَخَاءٍ ، وَمِنْ مَرَضٍ وَسَقَمٍ إِلَى صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ ، وَمِنْ فَقْرٍ إِلَى غِنَى
لِيَشْكُرُوا عَلَىٰ ذَلِكَ فَمَا فَعَلُوا ، ﴿ حَتَّىٰ عَفَوْا ﴾ أَيُّ : كَثُرُوا وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، يُقَالُ :
عَفَا الشَّيْءُ إِذَا كَثُرَ ﴿ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَقُولُ
تَعَالَىٰ : ابْتَلَيْنَاهُمْ هَذَا وَهَذَا ؛ لِيَتَضَرَّعُوا وَيُنِيبُوا إِلَى اللَّهِ ، فَمَا نَجَعَ فِيهِمْ لَا هَذَا وَلَا هَذَا ، وَلَا
انْتَهَوْا هَذَا وَلَا هَذَا بَلْ قَالُوا : قَدْ مَسَّنَا مِنَ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، ثُمَّ بَعْدَهُ مِنَ الرَّخَاءِ مِثْلُ مَا
أَصَابَ آبَاءَنَا فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ ، وَإِنَّمَا هُوَ الدَّهْرُ تَارَاتٍ وَتَارَاتٍ ، وَلَمْ يَتَفَطَّنُوا لِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِمْ ، وَلَا
اسْتَشْعَرُوا ابْتِلَاءَ اللَّهِ هُمْ فِي الْحَالَيْنِ ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى
السَّرَّاءِ وَيُضِرُّونَ عَلَى الضَّرَّاءِ ، وَهَذَا عَقَبَ هَذِهِ الصِّفَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴾ أَيُّ : أَخَذْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ بَغْتَةً أَيُّ : عَلَى بَغْتَةٍ وَعَدَمِ شُعُورٍ مِنْهُمْ . أَيُّ : أَخَذْنَاهُمْ فَجَاءَةً .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن
كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٩﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا
وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٧٠﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٧١﴾ أَفَأَمِنُوا

مَكَرَ اللَّهُ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٦﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا ۖ أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَصَدَقَتْ بِهِ ، وَاتَّبَعُوهُ وَاتَّقَوْا بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرَكِ الْمُحَرَّمَاتِ ﴾ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيْ : قَطَرُ السَّمَاءِ وَنَبَاتُ الْأَرْضِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : وَلَٰكِن كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ فَعَاقَبْنَاهُمْ بِأَهْلَاكِ عَلَىٰ مَا كَسَبُوا مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ .
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَوِّفًا وَمُحَذِّرًا مِّنْ مُّخَالَفَةِ أَوْامِرِهِ وَالتَّجَرُّؤِ عَلَىٰ زَوَاجِرِهِ ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ﴾ أَيْ : الْكَافِرَةُ ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ أَيْ : عَذَابُنَا وَنَكَالُنَا ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ أَيْ : لَيَالٍ ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ ﴿ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ شُغْلِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ . ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ أَيْ : بِأَسْهٍ وَنِقْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَخَذَهُ إِيَّاهُمْ فِي حَالِ سَهْوِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ، وَهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ بِالطَّاعَاتِ وَهُوَ مُشْفِقٌ وَجَلُّ خَائِفٌ ، وَالْفَاجِرُ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ آمِنٌ .

أَوْلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٧﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَوْلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ أَوْلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ . ﴿ أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ يَقُولُ : أَنْ لَوْ نَشَاءُ فَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا فَعَلْنَا بِمَنْ قَبْلَهُمْ ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ وَنَخْتِمُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ مَوْعِظَةً وَلَا تَذَكِيرًا .

تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ۖ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٩﴾

لَمَّا قَصَّ تَعَالَى عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ خَبَرَ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ ، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِهِ الْكَافِرِينَ وَإِنْجَاثِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ أَعَدَّ إِلَيْهِمْ بِأَنْ يَبَيِّنَ لَهُمُ الْحَقَّ بِالْحُجَجِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ مِنْ أَنْبَاءِهَا ﴾ أَيْ : مِنْ أَخْبَارِهَا ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَيْ : بِالْحُجَجِ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ . ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ . أَيْ : فَمَا

كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ أَوَّلَ مَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ وَمَا وَجَدْنَا لَأَكْثَرِهِمْ ؕ أَيُّ : لِأَكْثَرِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴕ أَيُّ : وَلَقَدْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ فَاسِقِينَ خَارِجِينَ عَنِ الطَّاعَةِ وَالْإِمْتِثَالِ ، وَالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ هُوَ مَا جَبَلَهُمْ عَلَيْهِ وَفَطَرَهُمْ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَصْلَابِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَقْرَأُوا بِذَلِكَ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ ، وَخَالَفُوهُ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَعَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ بِلاَ دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ ، لَا مِنْ عَقْلِ وَلَا شَرْعٍ .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ؕ أَيُّ : الرُّسُلُ الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُمْ كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ سَائِرِ أَنْبِيََاءِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ - ﴾ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ؕ أَيُّ : بِحُجَجِنَا وَدَلَائِلِنَا الْبَيِّنَةِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ، وَهُوَ مَلِكٌ مِصْرِي فِي زَمَانِ مُوسَىٰ ﴿ وَمَلَإِيهِ ﴕ أَيُّ : قَوْمِهِ ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴕ أَيُّ : جَحَدُوا وَكَفَرُوا بِهَا ظُلْمًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا ﴿ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ ﴕ [النمل: ١٤] أَيُّ : أَنْظِرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَأَغْرَقْنَاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِمَرَأَىٰ مِنْ مُوسَىٰ وَقَوْمِهِ ، وَهَذَا أَتْلُغُ فِي النِّكَالِ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، وَأَشْفَىٰ لِقُلُوبِ أَوْلِيَائِ اللَّهِ مُوسَىٰ وَقَوْمِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ مُنَاطَرَةِ مُوسَىٰ لِفِرْعَوْنَ وَإِلْجَامِهِ إِيَّاهُ بِالْحُجَّةِ ، وَإِظْهَارِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِحُضْرَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ قِبْطٍ مِصْرَ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴕ أَيُّ : أَرْسَلَنِي الَّذِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ . ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴕ أَيُّ : جَدِيرٌ بِذَلِكَ وَحَرِيٌّ بِهِ . ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴕ أَيُّ : بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ مِنْ اللَّهِ أَعْطَانِيهَا دَلِيلًا عَلَىٰ صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴕ أَيُّ : أَطْلِقْهُمْ مِنْ أَسْرِكَ وَفَهْرِكَ وَدَعْهُمْ وَعِبَادَةَ رَبِّكَ وَرَبِّهِمْ ، فَإِنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ نَبِيِّ كَرِيمٍ إِسْرَءِيلَ وَهُوَ يَعْقُوبُ ابْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ . ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴕ أَيُّ : قَالَ فِرْعَوْنُ : لَسْتُ بِمُصَدِّقِكَ فِيمَا قُلْتَ ، وَلَا بِمُطِيعِكَ فِيمَا طَلَبْتَ فَإِنْ كَانَتْ مَعَكَ حُجَّةٌ فَأُظْهِرْهَا لِنَرَاهَا إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا ادَّعَيْتَ .

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٨﴾
 عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ ﴾ فَتَحَوَّلَتْ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ فَاعْرَةً فَاهَا
 مُسْرِعَةً إِلَى فِرْعَوْنَ ، فَلَمَّا رَأَاهَا فِرْعَوْنُ أَتَتْهَا قَاصِدَةً إِلَيْهِ اقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ ، وَاسْتَعَاثَ بِمُوسَى
 أَنْ يَكْفِفَهَا عَنْهُ فَفَعَلَ . قَوْلُهُ : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴾ أَي : أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ دِرْعِهِ
 بَعْدَ مَا أَدْخَلَهَا فِيهِ ، فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ تَتَلَأَلَأُ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا مَرَضٍ .
 قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ يُرِيدُ أَنْ تُخْرِجَهُمْ مِنْ
 أَرْضِهِمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٠﴾

أَي : قَالَ الْمَلَأُ وَهُمْ الْجُمُهُورُ وَالسَّادَةُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ مُوَافِقِينَ لِقَوْلِ فِرْعَوْنَ فِيهِ ، بَعْدَ مَا
 رَجَعَ إِلَيْهِ رَوْعُهُ وَاسْتَقَرَّ عَلَى سَرِيرِ مَمْلَكَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ
 عَلِيمٌ ﴾ فَوَافَقُوهُ وَقَالُوا كَمَا قَالَتْهُ وَتَشَاوَرُوا فِي أَمْرِهِ وَمَاذَا يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِهِ ؟ وَكَيْفَ تَكُونُ
 حِيلَتُهُمْ فِي إِطْفَاءِ نُورِهِ وَإِخَادِ كَلِمَتِهِ وَظُهُورِ كَذِبِهِ وَافْتِرَائِهِ ؟ وَتَخَوَّفُوا أَنْ يَسْتَمِيلَ النَّاسَ
 بِسِحْرِهِ فِيمَا يَعْتَقِدُونَ فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لظُهُورِهِ عَلَيْهِمْ ، وَإِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ ، وَالَّذِي
 خَافُوا مِنْهُ وَقَعُوا فِيهِ ، فَلَمَّا تَشَاوَرُوا فِي شَأْنِهِ ، وَاتَّصَرُّوا بِمَا فِيهِ ، اتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى مَا حَكَاهُ اللَّهُ
 تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٢١﴾ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٢٢﴾
 قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿ أَرْجِهْ ﴾ أَخْرَهُ ، ﴿ وَأَرْسِلْ ﴾ أَي : ابْعَثْ ﴿ فِي الْمَدَائِنِ ﴾
 أَي : فِي الْأَقَالِيمِ وَمُعَامَلَةِ مُلْكِكَ ﴿ حَاشِرِينَ ﴾ أَي : مَنْ يَحْشُرُ لَكَ السَّحْرَةَ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ
 وَيَجْمَعُهُمْ ، وَقَدْ كَانَ السَّحْرُ فِي زَمَانِهِمْ غَالِبًا كَثِيرًا ظَاهِرًا ، وَاعْتَقَدَ مَنْ اعْتَقَدَ مِنْهُمْ وَأَوْهَمَ مَنْ
 أَوْهَمَ مِنْهُمْ ، أَنَّ مَا جَاءَ مُوسَى بِهِ ^{الْعَلَمُ} مِنْ قِبَلِ مَا تُسْعِدُهُ سَحَرَتُهُمْ ، فَلِهَذَا جَمَعُوا لَهُ السَّحْرَةَ
 ؛ لِيُعَارِضُوهُ بِنَظِيرِ مَا أَرَاهُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ .

وَجَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ نَعَمْ
 وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٢٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَشَارَطَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَالسَّحْرَةُ الَّذِينَ اسْتَدْعَاهُمْ لِمُعَارَضَةِ مُوسَى ^{الْعَلَمُ} إِنْ
 غَلَبُوا مُوسَى لِيُثَبِّتَهُمْ وَلِيُعْطِيَهُمْ عَطَاءً جَزِيلًا ، فَوَعَدَهُمْ وَمَنَّاهُمْ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مَا أَرَادُوا ،
 وَلِيَجْعَلَنَّهُمْ مِنْ جُلَسَائِهِ وَالْمُقَرَّبِينَ عِنْدَهُ ، فَلَمَّا تَوَثَّقُوا مِنْ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللَّهُ .

قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا
سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٥١﴾

وَهَذِهِ مُبَارَزَةٌ مِنَ السَّحَرَةِ لِمُوسَى   فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾
أَيُّ : قَبْلَكَ ؛ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ [طه : ٦٥] . قَالَ هُمْ
مُوسَى   : ﴿ أَلْقُوا ﴾ أَيُّ : أَنْتُمْ أَوَّلًا قَبْلِي وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِإِرْيَ النَّاسِ
صَنِيعَهُمْ وَيَتَأَمَّلُوهُ ، فَإِذَا فُرِغَ مِنْ بَهْرَجِهِمْ وَمُحَالِهِمْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ الْوَاضِحُ الْجَلِيلُ بَعْدَ التَّطَلُّبِ لَهُ
وَالِإِنْتَظَارِ مِنْهُمْ لِمُجِيبِهِ ، فَيَكُونُ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ ، وَكَذَا كَانَ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا
سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أَيُّ : خَيَّلُوا إِلَى الْأَبْصَارِ أَنَّ مَا فَعَلُوهُ لَهُ حَقِيقَةٌ فِي الْحَارِجِ ،
وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مُجَرَّدَ صَنْعَةٍ وَخَيَالٍ .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ   فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ       فَوَقَعَ الْحَقُّ
وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ     فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ     وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ
سَاجِدِينَ     قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ     رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ    

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى   فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي فَرَّقَ
اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، يَأْمُرُهُ بِأَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَمِينِهِ وَهِيَ عَصَاهُ ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ أَيُّ :
تَأْكُلُ ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أَيُّ : مَا يُلْقُونَهُ وَيُوْهُمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ ، وَهُوَ بَاطِلٌ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَجَعَلَتْ
لَا تُكْرِبُ شَيْءٍ مِنْ حِبَالِهِمْ وَلَا مِنْ خَشَبِهِمْ إِلَّا اِلْتَقَمَتْهُ ، فَعَرَفَتْ السَّحَرَةُ أَنَّ هَذَا شَيْءٌ مِنَ السَّمَاءِ ،
لَيْسَ هَذَا بِسِحْرِ ، فَخَرُّوا سُجَّدًا ، وَقَالُوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ     رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ     .

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ   إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ
لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا   فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ     لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلْفٍ ثُمَّ
لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ     قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ     وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ
ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ    

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنُ - لَعْنَهُ اللَّهُ - السَّحَرَةَ لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى   وَمَا أَظْهَرُهُ
لِلنَّاسِ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أَيُّ :
إِنَّ غَلْبَهُ لَكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّمَا كَانَ عَنْ تَشَاوُرٍ مِنْكُمْ وَرِضَا مِنْكُمْ لِدَلِيلِكَ ، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ

الْأُخْرَى ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [طه : ٧١] ، وَهُوَ يَعْلَمُ - وَكُلُّ مَنْ لَهُ لُبٌّ - أَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنْ أَبْطِلِ الْبَاطِلِ ، فَإِنَّ مُوسَى عليه السلام بِمُجَرَّدِ مَا جَاءَ مِنْ مَدِينٍ ، دَعَا فِرْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ وَأَظْهَرَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةَ وَالْحُجَجَ الْقَاطِعَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي مَدَائِنِ مُلْكِهِ وَمُعَامَلَةِ سُلْطَنَتِهِ ، فَجَمَعَ سَحَرَةً مُتَفَرِّقِينَ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بِيَلَادِ مِصْرَ يَمْنِ اخْتَارَ هُوَ وَالْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَأَحْضَرَهُمْ عِنْدَهُ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ ، وَلِهَذَا قَدْ كَانُوا مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى الظُّهُورِ فِي مَقَامِهِمْ ذَلِكَ وَالتَّقَدُّمُ عِنْدَ فِرْعَوْنَ ، وَمُوسَى عليه السلام لَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْهُمْ ، وَلَا رَأَى وَلَا اجْتَمَعَ بِهِ ، وَفِرْعَوْنُ يَعْلَمُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا تَسْتِزًّا وَتَدْلِيْسًا عَلَى رِعَاعِ دَوْلَتِهِ وَجَهْلَتِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أَيُ : تَجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَهُوَ وَتَكُونُ لَكُمْ دَوْلَةٌ وَصَوْلَةٌ ، وَتُخْرِجُوا مِنْهَا الْأَكَابِرَ وَالرُّؤَسَاءَ ، وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ وَالتَّصَرُّفُ لَكُمْ ﴿ فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُ : مَا أَصْنَعُ بِكُمْ . ثُمَّ فَسَّرَ هَذَا الْوَعِيدَ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ﴾ يَعْنِي : يَقْطَعُ يَدَ الرَّجُلِ الْيُمْنَى وَرِجْلَهُ الْيُسْرَى أَوْ بِالْعَكْسِ ﴿ ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وَقَوْلُ السَّحَرَةِ : ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ أَيُ : قَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَّ إِلَهَهُ رَاجِعُونَ ، وَعَذَابُهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِكَ ، وَنَكَالُهُ عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ الْيَوْمَ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ أَعْظَمَ مِنْ نَكَالِكَ ، فَلَنَصْبِرَنَّ الْيَوْمَ عَلَى عَذَابِكَ لِنَخْلُصَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أَيُ : عُمْنَا بِالصَّبْرِ عَلَى دِينِكَ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أَيُ : مُتَابِعِينَ لِنَبِيِّكَ مُوسَى عليه السلام ، فَكَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً فَصَارُوا فِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَرَةٍ .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿ ٧٢ ﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ ٧٣ ﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿ ٧٤ ﴾

يُخْرِجُ تَعَالَى عَمَّا تَمَالَأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَوُهُ وَمَا أَضْمَرُوهُ لِمُوسَى عليه السلام وَقَوْمِهِ مِنَ الْأَذَى وَالْبِغْضَةِ : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيُ : لِفِرْعَوْنَ ﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴾ أَيُ : أَتَدْعُهُمْ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، أَيُ : يُفْسِدُوا أَهْلَ رَعِيَّتِكَ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ دُونَكَ . يَا اللَّهُ لِلْعَجَبِ ! صَارَ هَؤُلَاءِ يُشْفِقُونَ مِنْ إِفْسَادِ مُوسَى وَقَوْمِهِ ! أَلَا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ هُمُ الْمُفْسِدُونَ

وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَهَذَا قَالُوا : ﴿ وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : « الْوَاوِ » هَاهُنَا : حَالِيَّةٌ ، أَيْ : أَتَذَرُهُ وَقَوْمُهُ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَقَدْ تَرَكَ عِبَادَتَكَ ؟ وَقَالَ آخَرُونَ : هِيَ عَاطِفَةٌ ، أَيْ : لَا تَدْعُ مُوسَى يَصْنَعُ هُوَ وَقَوْمُهُ مِنَ الْفَسَادِ مَا قَدْ أَقْرَزْتَهُمْ عَلَيْهِ ، وَعَلَى تَرْكِ آهْلِيكَ . فَأَجَابَهُمْ فِرْعَوْنُ فِيمَا سَأَلُوهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ ثَانٍ بِهَذَا الصَّنِيعِ ، وَقَدْ كَانَ نَكَلٌ بِهِمْ قَبْلَ وَلَادَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَدَرًا مِنْ وَجُودِهِ ، فَكَانَ خِلَافَ مَا رَامَهُ وَضِدَّ مَا قَصَدَهُ فِرْعَوْنُ ، وَهَكَذَا عُمُومٌ فِي صَنِيعِهِ هَذَا أَيْضًا ، إِنَّمَا أَرَادَ قَهْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِذْلَالَهُمْ ، فَجَاءَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا أَرَادَ ، أَعَزَّهُمُ اللَّهُ وَأَذَلَّهُ وَأَرْغَمَ أَنْفَهُ وَأَغْرَقَهُ وَجُنُودَهُ .

وَلَمَّا صَمَّمَ فِرْعَوْنُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْمَسَاءَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ وَوَعَدَهُمُ بِالْعَاقِبَةِ ، وَأَنَّ الدَّارَ سَتَصِيرُ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ ٢٥٠ ﴾ قَالُوا أَوْدَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا ﴾ أَيْ : قَدْ جَرَى عَلَيْنَا مِثْلُ مَا رَأَيْتَ مِنَ الْهُوَانِ وَالْإِذْلَالِ مِنْ قَبْلِ مَا جِئْتَ يَا مُوسَى وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، فَقَالَ مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى حَالِهِمُ الْحَاضِرَةِ ، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي ثَانِي الْحَالِ : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُوكُمْ ﴾ الْآيَةُ ، وَهَذَا تَحْضِيضٌ لَهُمْ عَلَى الْعَزْمِ عَلَى الشُّكْرِ عِنْدَ حُلُولِ النِّعَمِ وَزَوَالِ النِّقَمِ .

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسِّنِينَ وَنَقَصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿ ٢٥١ ﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا يَطَّيَّرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٢٥٢ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ : اخْتَبَرْنَاهُمْ وَامْتَحَنَّاهُمْ وَابْتَلَيْنَاهُمْ ﴿ بِالْسِّنِينَ ﴾ وَهِيَ سِنِي الْجُوعِ بِسَبَبِ قَلَّةِ الزَّرْعِ ﴿ وَنَقَصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : وَهُوَ دُونَ ذَلِكَ ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ ﴿ ٢٥١ ﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ ﴿ أَيْ : مِنَ الْخُضْبِ وَالرَّزْقِ ﴾ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴿ أَيْ : هَذَا لَنَا بِمَا نَسْتَحِقُّهُ ﴾ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ ﴿ أَيْ : جَذْبٌ وَقَحْطٌ ﴾ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴿ أَيْ : هَذَا بِسَبَبِهِمْ وَمَا جَاءُوا بِهِ ﴾ إِلَّا إِنَّمَا يَطَّيَّرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ قِيلَ : مَصَائِبُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ . أَيْ : الْأَمْرُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ .

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَتَسَحَرَنَّا بِهَا فَمَا نَخُنْ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿ ٢٥٣ ﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿ ٢٥٤ ﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَلْمُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ ٢٥٥ ﴾ فَلَمَّا

كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٦٥﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَنْ تَمَرُّدِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَعَتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ ، وَإِضْرَارِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يَقُولُونَ : أَيُّ آيَةٍ جِئْنَا بِهَا ، وَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ أَقَمْتَهَا رَدَدْنَاهَا ، فَلَا نَقْبَلُهَا مِنْكَ وَلَا نُؤْمِنُ بِكَ وَلَا بِمَا جِئْتَ بِهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ ، فَقِيلَ : كَثْرَةُ الْأَمْطَارِ الْمُغْرِقَةِ الْمُتَلَفَةِ لِلزُّرُوعِ وَالشَّارِ ، وَقِيلَ : هُوَ كَثْرَةُ الْمَوْتِ . وَأَمَّا الْقُمَّلُ ، قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ السُّوسُ الَّذِي يُخْرُجُ مِنَ الْحِنْطَةِ ، وَقِيلَ : الْقُمَّلُ : دَوَابُّ سُودٌ صِغَارٌ . وَقِيلَ : الْقُمَّلُ : الْبَرَاغِيثُ .

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٦٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿٦٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُمْ لَمَّا عَتَوْا وَتَمَرَّدُوا مَعَ إِبْرَآئِيلَ بِآيَاتِهِم بِالْآيَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِإِغْرَاقِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْيَمِّ ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي فَرَقَهُ لُوسَى ، فَجَاوَزَهُ وَبَنُو إِسْرَءِيلَ مَعَهُ ، ثُمَّ وَرَدَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَكْمَلُوا فِيهِ ارْتَظَمَ عَلَيْهِمْ فَعْرِقُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَتَعَافُلِهِمْ عَنْهَا . أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَوْرَثَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ بَنُو إِسْرَءِيلَ ﴿ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا ﴾ يَعْنِي : الشَّامَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جَرِيرٍ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿ [القصاص : ٥ - ٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ أَيُّ : وَخَرَّبْنَا مَا كَانَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ يَصْنَعُونَهُ مِنَ الْعِمَارَاتِ وَالْمَزَارِعِ ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ ، قِيلَ : يَبْنُونَ .

وَجَوَوزْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ هُمْ ۖ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَرِّءُونَ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا قَالَهُ جَهْلَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عليه السلام حِينَ جَاوَزُوا الْبَحْرَ وَقَدَرَأَوْا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ مَا رَأَوْا ﴿فَاتَوَّأ﴾ ، أَي : فَمَرُّوا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ﴾ . فَقَالُوا : ﴿يَمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿أَي : تَجْهَلُونَ عَظَمَةَ اللَّهِ وَجَلَالَهُ ، وَمَا يَحِبُّ أَنْ يُنَزَّهَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِيكِ وَالْمِثْلِ﴾ . ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمُ﴾ ، أَي : هَالِكٌ ﴿وَيَنْطَلِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَخْبَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

يُذَكِّرُهُمْ مُوسَى عليه السلام بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ : إِنْقَاذِهِمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْهَوَانِ وَالذَّلَّةِ ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعِزَّةِ ، وَالْإِسْتِغْنَاءِ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي حَالِ هَوَانِهِ وَهَلَاكِهِ وَغَرْقِهِ وَدَمَارِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي الْبَقَرَةِ .

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾
وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾
يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْهُدَايَةِ بِتَكْلِيمِهِ مُوسَى عليه السلام وَإِعْطَائِهِ التَّوْرَةَ وَفِيهَا أَحْكَامُهُمْ وَتَفَاصِيلُ شُرْعِهِمْ ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ وَاعَدَ مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ مَا هِيَ ؟ فَأَلَاكُثُرُونَ عَلَى أَنَّ الثَّلَاثِينَ هِيَ : ذُو الْقَعْدَةِ ، وَالْعَشْرُ : عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَدْ كَمُلَ الْمِيقَاتُ يَوْمَ النُّحْرِ وَحَصَلَ فِيهِ التَّكْلِيمُ لِمُوسَى عليه السلام وَفِيهِ أَكْمَلَ اللَّهُ الدِّينَ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ، فَلَمَّا تَمَّ الْمِيقَاتُ وَعَزَمَ مُوسَى عَلَى الذَّهَابِ إِلَى الطُّورِ ، فَحِينَئِذٍ اسْتَخْلَفَ مُوسَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَاهُ هَارُونَ وَأَوْصَاهُ بِالْإِصْلَاحِ وَعَدَمِ الْإِفْسَادِ ، وَهَذَا تَنْبِيهُ وَتَذَكِيرٌ وَإِلَّا فَهَارُونَ عليه السلام نَبِيٌّ شَرِيفٌ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ لَهُ وَجَاهَةٌ وَجَلَالَةٌ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ .

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾
يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عليه السلام أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ لِمِيقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَحَصَلَ لَهُ التَّكْلِيمُ مِنَ اللَّهِ ، سَأَلَ

اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ رَبِّ ارْنُ أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَنْ تَرَنِي ۚ ﴾ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا نَجَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ قَالَ : قَالَ « هَكَذَا » ، يَعْنِي : أَنَّهُ أَخْرَجَ طَرَفَ الْخَنْصَرِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي ۚ ﴾ ، فَإِنَّهُ أَكْبَرُ مِنْكَ وَأَشَدُّ خَلْقًا ، ﴿ فَلَمَّا نَجَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ ، فَنَظَرَ إِلَى الْجَبَلِ لَا يَتِمُّ لَكَ ، وَأَقْبَلَ الْجَبَلَ فَدَكَ عَلَى أَوَّلِهِ ، وَرَأَى مُوسَى مَا يَصْنَعُ الْجَبَلُ فَخَرَّ صَعِقًا . أَي : مَغْشِبًا عَلَيْهِ . ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ وَالْإِفَاقَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا عَنْ غَشْيٍ ﴿ قَالَ سُبْحَنَكَ ﴾ تَنْزِيهَا وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَاتَ ، ﴿ ثُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَنْ أَسْأَلَكَ الرُّؤْيَا ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قِيلَ : مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَقِيلَ : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ . وَقِيلَ : قَدْ كَانَ قَبْلَهُ مُؤْمِنُونَ ، وَلَكِنْ يَقُولُ : أَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِكَ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ لَهُ إِتْجَاهٌ .

قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَا حِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٧﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَاطَبَ مُوسَى بِأَنَّهُ إِصْطَفَاهُ عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِ بِرِسَالَتِهِ وَكَلَامِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَهَذَا اخْتَصَّه اللَّهُ بِأَنْ جَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، الَّذِي تَسْتَمِرُّ شَرِيعَتُهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَاتَّبَاعِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَتْبَاعِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كُلِّهِمْ ، وَبَعْدَهُ فِي الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ إِبْرَاهِيمُ الْحَلِيلُ ثُمَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ ﷺ وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ أَي : مِنَ الْكَلَامِ وَالْمُنَاجَاةِ ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أَي : عَلَى ذَلِكَ وَلَا تَطْلُبْ مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَتَبَ ﴿ لَهُ فِي الْأَلْوَا حِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ قِيلَ : كَانَتْ الْأَلْوَا حِ مِنْ جَوْهَرٍ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ لَهُ فِيهَا مَوَاعِظَ وَأَحْكَامًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أَي : بِعِزْمٍ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ قِيلَ : أَمَرَ مُوسَى ﷺ أَنْ يَأْخُذَ بِأَشَدِّ مَا أَمَرَ قَوْمَهُ ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أَي : سَتَرُونَ عَاقِبَةَ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَخَرَجَ عَنْ طَاعَتِي ، كَيْفَ يَصِيرُ إِلَى الْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ وَالتَّبَابِ ؟ ، وَهُوَ خِطَابٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ دُخُولِهِمُ النَّبَاةَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ

سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أَيُّ : سَأَمْنَعُ فَهَمَّ
الْحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِي وَشَرِيعَتِي وَأَحْكَامِي قُلُوبَ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنْ طَاعَتِي ،
وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، أَيُّ : كَمَا اسْتَكْبَرُوا بِغَيْرِ حَقٍّ أَذْهَبَ اللَّهُ بِالْجَهْلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿ [يونس : ٩٦ - ٧٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ أَيُّ : وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ ﴿ سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴾ أَيُّ :
طَرِيقَ النِّجَاةِ لَا يَسْلُكُوهَا ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ طَرِيقُ الْهَلَاكِ وَالضَّلَالِ ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ ، ثُمَّ عُلِّلَ
مَصِيرَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ بِقَوْلِهِ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أَيُّ : كَذَّبَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ ﴿ وَكَانُوا
عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أَيُّ : لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِمَّا فِيهَا .

قَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أَيُّ : مَنْ فَعَلَ مِنْهُمْ ذَٰلِكَ
وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ ، حَبِطَ عَمَلُهُ ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا تُجَازِيهِمْ
بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَسْلَفُوهَا ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَكَمَا تَدِينُ تَدَانُ .

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا
يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۚ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا
أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٧٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ الَّذِي اتَّخَذَهُ هُمُ
السَّامِرِيُّ ، مِنْ خُلِيِّ الْقَبِيطِ الَّذِي كَانُوا اسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ ، فَشَكَّلَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا ثُمَّ أَلْقَى فِيهِ
الْقُبْضَةَ مِنَ التُّرَابِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جَزِيلٍ ۖ فَصَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ،
وَالْخُورُ : صَوْتُ الْبَقَرِ ، وَكَانَ هَذَا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِمَقَاتِ رَبِّهِ تَعَالَى ، فَأَعْلَمَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِذَٰلِكَ وَهُوَ عَلَى الطُّورِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ يُنْكِرُ
تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ بِالْعِجْلِ ، وَذُهُوْلِهِمْ عَنْ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ
وَمَلِيكِهِ ، أَنْ عَبَدُوا مَعَهُ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ ، وَلَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى خَيْرٍ ، وَلَكِنْ
عَطَى عَلَى أَعْيُنِ بَصَائِرِهِمْ عَمَى الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ . قَوْلُهُ : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيُّ : نَدِمُوا

عَلَى مَا فَعَلُوا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
 أَيُّ : مِنَ الْهَالِكِينَ ، وَهَذَا اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَالتَّجَاءُ إِلَى اللَّهِ ﷻ .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَ عَلَيْهِمْ غَضَبًا شَدِيدًا قَالُوا يَا مَرْيَمُ خَلْفْتُنِي مِنْ بَعْدِي
 أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ قَالَ ابْنَ أُمٍّ إِنَّ الْقَوْمَ
 اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
 ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مُوسَى ﷺ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ تَعَالَى وَهُوَ غَضَبَانُ أَسْفٌ . قَالَ أَبُو
 الدَّرْدَاءِ : الْأَسْفُ أَشَدُّ الْغَضَبِ . ﴿قَالَ يَسْمَا خَلْفْتُنِي مِنْ بَعْدِي﴾ يَقُولُ : بِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ فِي
 عِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَتْ وَتَرَكْتُمْ ﴿أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يَقُولُ : اسْتَعْجَلْتُمْ مَحْيِي إِلَيْكُمْ ،
 وَهُوَ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى مَا جَاءَ
 فِي الْحَدِيثِ «لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايَنَةِ» ، ثُمَّ ظَاهِرُ السِّيَاقِ : أَنَّهُ إِنَّمَا أَلْقَى الْأَلْوَاحَ غَضَبًا عَلَى قَوْمِهِ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خَوْفًا أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَرَ فِي مَنِيهِمْ ﴿قَالَ ابْنُ أُمٍّ إِنَّ
 الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ : لَا
 تُسْقِنِي مَسَاقِيهِمْ وَلَا تَخْلُطْنِي مَعَهُمْ ، وَإِنَّمَا قَالَ ﴿ابْنُ أُمٍّ﴾ لِيَكُونَ أَرْقَ وَأَنْجَعَ عِنْدَهُ ، وَإِلَّا فَهُوَ
 شَقِيقُهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ مُوسَى ﷺ بَرَاءَةَ سَاحَةِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى :
 ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ
 نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ
 بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

أَمَّا الْغَضَبُ الَّذِي نَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ فَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقْبَلْ لَهُمْ تَوْبَةً حَتَّى
 قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي «سُورَةِ الْبَقَرَةِ» : ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَكُمْ
 خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٥٤] وَأَمَّا الذِّلَّةُ فَاعْقَبَهُمْ
 ذَلِكَ ذِلَّةٌ وَصَغَارًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَقَوْلُهُ : ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نَائِلَةٌ لِكُلِّ مَنْ افْتَرَى
 بَدْعَةً . ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عِبَادِهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ
 مِنْ كُفْرٍ أَوْ شُرْكَ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ شِقَاقٍ ، وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الْقِصَّةَ بِقَوْلِهِ : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ

تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا ﴿١٠١﴾ أَيُّ : يَا مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ التَّوْبَةِ وَنَبِيَّ الرَّحْمَةِ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴿١٠٣﴾ أَيُّ : مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْفَعْلَةِ ﴿١٠٤﴾ لَغُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٥﴾ .

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٠٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿١٠٦﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴿١٠٧﴾ أَيُّ : سَكَنَ غَضَبُهُ عَلَى قَوْمِهِ ﴿١٠٨﴾ أَخَذَ الْأَلْوَابَ ﴿١٠٩﴾ أَيُّ : الَّتِي كَانَتْ أَلْفَاها مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ عَلَى عِبَادَتِهِمُ الْعِجَلُ ، غَيْرَةَ اللَّهِ وَغَضَبًا لَهُ ﴿١١٠﴾ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١١١﴾ . يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّهَا لَمَّا أَلْفَاها تَكَسَّرَتْ ثُمَّ جَمَعَهَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : فَوَجَدَ فِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً ، وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فَذَهَبَ ﴿١١٢﴾ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١١٣﴾ ضَمَّنَ الرَّهْبَةَ مَعْنَى الْخُضُوعَ وَلِهَذَا عَدَّاهَا بِاللَّامِ .

وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ۖ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١١٤﴾

قِيلَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : كَانَ اللَّهُ أَمْرُهُ أَنْ يَخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا فَاخْتَارَ سَبْعِينَ رَجُلًا ، فَبَرَزَ بِهِمْ لِيَدْعُوا رَبَّهُمْ ، وَكَانَ فِيهَا دَعَاؤُ اللَّهِ ، قَالُوا : اللَّهُمَّ أَعْطِنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا قَبْلَنَا وَلَا تُعْطِهِ أَحَدًا بَعْدَنَا ، فَكَّرَهُ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ دُعَائِهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴿١١٥﴾ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي ۖ الْآيَةُ . قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنَّمَا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا قَوْمُهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجَلُ ، وَلَا نَهَوْهُمْ ، وَيتَوَجَّهَ هَذَا الْقَوْلُ بِقَوْلِ مُوسَى ﴿١١٦﴾ أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ .

وَقَوْلُهُ ﴿١١٧﴾ : ﴿١١٨﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴿١١٩﴾ أَيُّ : اِئْتِلَاؤُكَ وَاخْتِبَارُكَ وَامْتِحَانُكَ . وَقَوْلُهُ ﴿١٢٠﴾ : أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٢١﴾ الْعَفْرُ : هُوَ السِّرُّ وَتَرْكُ الْمُواخَذَةِ بِالذَّنْبِ ، وَالرَّحْمَةُ إِذَا قُرِنَتْ مَعَ الْعَفْرِ يُرَادُ بِهَا أَنْ لَا يُوقِعَهُ فِي مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿١٢٢﴾ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٢٣﴾ أَنْ لَا يَغْفَرَ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ .

وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَّنَا إِلَيْكَ ۖ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۖ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٤﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿١٢٥﴾ وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ﴿١٢٦﴾ هُنَاكَ الْفَضْلُ الْأَوَّلُ مِنَ الدُّعَاءِ فِي دَفْعِ الْمَحْذُورِ وَهَذَا لِتَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ وَالْمَعْنَى : أَوْجِبْ لَنَا وَاثْبِتْ لَنَا فِيهِمَا حَسَنَةً ،

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْحَسَنَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أَيُّ: ثُبْنَا وَرَجَعْنَا وَأَنْبَأْنَا إِلَيْكَ. قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ: وَهُوَ كَذَلِكَ لُغَةً. ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا لِمُوسَى فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنِ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنِ تَشَاءُ﴾. قَالَ: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أَيُّ: أَفَعَلُ مَا أَشَاءُ وَأَحْكُمُ مَا أُرِيدُ، وَلِي الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ، سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ آيَةُ عَظِيمَةُ الشُّمُولِ وَالْعُمُومِ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ يَتَرَاخَمُ بِهَا الْخَلْقُ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوُحُوشُ عَلَى أَوْلَادِهَا، وَأُخْرَى تَسْعَةُ وَتِسْعِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يَعْنِي: فَسَأَلْتُ حُجُبُ حُصُولِ رَحْمَتِي مِنِّي وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، «لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» أَيُّ: سَأَجْعَلُهَا لِلْمُتَّقِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، وَهُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقِيلَ: «لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» أَيُّ: الشُّرْكَ وَالْعِظَائِمَ مِنَ الذُّنُوبِ. «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» قِيلَ: زَكَاةُ النُّفُوسِ، وَقِيلَ: الْأَمْوَالِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ عَامَّةً لَهَا، فَإِنَّ آيَةَ مَكِّيَّةٍ. «وَالَّذِينَ هُمْ بِقِيَامَتِنَا يَوْمُنَ» أَيُّ: يُصَدِّقُونَ.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٧﴾

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ» وَهَذِهِ صِفَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ، بَشَّرُوا أُمَّتَهُمُ بِبَعْثِهِ، وَأَمَرُوهُمْ بِمُتَابَعَتِهِ، وَلَمْ تَزَلْ صِفَاتُهُ مَوْجُودَةً فِي كُتُبِهِمْ يَعْرِفُهَا عُلَمَاؤُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ. «يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ» هَذِهِ صِفَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ. وَهَكَذَا كَانَتْ حَالُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنِ شَرٍّ. «وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ» أَيُّ: يُحِلُّ لَهُمْ مَا كَانُوا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِغِ وَالْوَصَائِلِ وَالْحَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا ضَيِّقُوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ «وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ» قِيلَ: كُلُّهُمُ الْخَنَازِيرِ وَالرِّبَا، وَمَا كَانُوا يَسْتَحِلُّونَهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَأْكَلِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى. «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» أَيُّ: أَنَّهُ جَاءَ بِالتَّيْسِيرِ وَالسَّهَاحَةِ. «فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ» أَيُّ: عَظَّمُوهُ وَوَقَرُّوهُ. «وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ» أَيُّ: الْقُرْآنَ وَالْوَحْيَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبَلِّغًا إِلَى النَّاسِ «أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» أَيُّ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ ﴿يَتَّيِّهَا النَّاسُ﴾ وَهَذَا خِطَابٌ
لِلْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وَالْعَرَبِيِّ وَالْعَجَمِيِّ ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أَيُّ: جَمِيعُكُمْ، وَهَذَا مِنْ
شَرَفِهِ وَعَظَمَتِهِ ﷺ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلٍ: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أَيُّ: إِنَّ الَّذِي
أَرْسَلَنِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ، الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ.
وَقَوْلُهُ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ
﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أَيُّ: الَّذِي وَعَدْتُمْ بِهِ وَبَشَّرْتُمْ بِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُنَقَّدَةِ، فَإِنَّهُ مَنَعُوتٌ بِذَلِكَ فِي
كُتُبِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ﴾ أَيُّ: يَصْدُقُ قَوْلُهُ عَمَلُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ
بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ أَيُّ: أَسْلُكُوا طَرِيقَهُ وَاقْتَفُوا أَثَرَهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أَيُّ:
إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ مِنْهُمْ طَائِفَةً يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ وَيَعْدِلُونَ بِهِ.

وَقَطَعْنَاهُمْ أَتْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَلَهُ قَوْمُهُ رَبِّ
أَضْرِبْ بَعْصَالِكَ الْحَجَرِ فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ أَتْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا
هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ
خَطِيئَتَكُمْ سَتَرِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي
قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَا كُلِّهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَهِيَ مَدِينَةٌ، وَهَذَا السِّيَاقُ مَكِّيٌّ، وَنَبَّهْنَا عَلَى الْفَرْقِ
بَيْنَ هَذَا السِّيَاقِ وَذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٢٦﴾

هَذَا السِّيَاقُ هُوَ بَسْطُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ [البقرة : ٦٥] يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَسَأَلَهُمْ ﴾ أَي : وَاسْأَلْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ خَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ ، فَقَاجَأَتْهُمْ نِقْمَتُهُ عَلَى صَنِيعِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ وَاحْتِيَالِهِمْ فِي الْمَخَالَفَةِ ، وَحَذَّرَ هَؤُلَاءِ مِنْ كِتْمَانِ صِفَتِكَ الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي كُتُبِهِمْ ، لِئَلَّا يَحِلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِإِخْوَانِهِمْ وَسَلَفِهِمْ ، وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ هِيَ « أَيْلَةُ » وَهِيَ عَلَى شَاطِئِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ أَي : يَعْتَدُونَ فِيهِ وَيُخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ هُمْ بِالْوَصَاةِ بِهِ إِذْ ذَاكَ « إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا » قِيلَ : أَي : ظَاهِرَةٌ عَلَى الْمَاءِ ، وَقِيلَ : مِنْ كُلِّ مَكَانٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ ﴾ أَي : نَخْتَبِرُهُمْ بِإِظْهَارِ السَّمَكِ هُمْ عَلَى ظَهْرِ الْمَاءِ فِي الْيَوْمِ الْمُحَرَّمِ عَلَيْهِمْ صَيْدُهُ ، وَإِخْفَائِهِ عَنْهُمْ فِي الْيَوْمِ الْمُحَلَّلِ هُمْ صَيْدُهُ « كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ » نَخْتَبِرُهُمْ « بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » يَقُولُ : يَفْسُقُهُمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَخُرُوجِهِمْ عَنْهَا .

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٢٧﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِمُ أَجْنَبَتْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٢٨﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَنَّهُمْ صَارُوا إِلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ : فِرْقَةٌ ارْتَكَبَتِ الْمَحْذُورَ وَاحْتَالُوا عَلَى إِصْطِيَادِ السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَفِرْقَةٌ نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ وَاعْتَزَلَتْهُمْ ، وَفِرْقَةٌ سَكَتَتْ فَلَمْ تَفْعَلْ وَلَمْ تَنْهَ وَلَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمُنْكَرَةِ ﴿ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أَي : لِمَ تَنْهَوْنَ هَؤُلَاءِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ مِنَ اللَّهِ ؟ فَلَا فَائِدَةَ فِي مَنِّكُمْ إِيَّاهُمْ ، قَالَتْ هُمْ الْمُنْكَرَةُ : ﴿ مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالرَّفْعِ كَأَنَّهُ عَلَى تَقْدِيرٍ : هَذِهِ مَعْدِرَةٌ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالنَّصْبِ ، أَي : نَفْعَلُ ذَلِكَ « مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ » أَي : فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، « وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » يَقُولُونَ : وَلَعَلَّ بِهَذَا الْإِنْكَارِ يَتَّقُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَيَتْرَكُونَهُ ، وَيَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ تَائِبِينَ ، فَإِذَا تَابُوا

تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أَي : فَلَمَّا أَبَى الْفَاعِلُونَ قَبُولَ النَّصِيحَةِ ﴿ أَجْبَيْنَا الَّذِينَ يَهْتَوُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أَي : ارْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةَ ﴿ بَعَذَابٍ بَعْيسٍ ﴾ فَخَصَّ عَلَى نَجَاةِ النَّاهِينَ ، وَهَلَاكِ الظَّالِمِينَ ، وَسَكَتَ عَنِ السَّاكِتِينَ ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَدْحًا فَيَمْدَحُوا وَلَا ارْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيَذْمُوا . وَ﴿ بَعْيسٍ ﴾ فِيهِ قِرَاءَاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَعْنَاهُ فِي قَوْلٍ مُجَاهِدٍ : الشَّدِيدُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : أَلِيمٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : مُوجِعٌ ، وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا مَأْمُورُوا عَنْهُ فَلَنَّا لَهُمْ كُفْرًا قَرْدَةً خَسِيسَةً ﴾ أَي : ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ مُهَانِينَ .

وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْوؤُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿ تَأَذَّتْ ﴾ تَفَعَّلَ مِنَ الْأَذَانِ أَي : أَعْلَمَ . قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : أَمَرَ ، وَفِي قُوَّةِ الْكَلَامِ مَا يُفِيدُ مَعْنَى الْقَسَمِ مِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ ، وَلِهَذَا ثَلَّثْتُ بِاللَّامِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : عَلَى الْيَهُودِ ﴿ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْوؤُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أَي : بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَوْامِرَ اللَّهِ وَشَرْعِهِ ، وَاحْتِيَابِهِمْ عَلَى الْمَحَارِمِ . قِيلَ : هِيَ الْحَزِيَّةُ ، وَالَّذِينَ يُسْوؤُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأُمَّتُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ أَي : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ قَرْنِ الرَّحْمَةِ مَعَ الْعُقُوبَةِ ، لِثَلَا يَحْصُلُ الْيَأْسُ فَيَقْرَنَ تَعَالَى بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ كَثِيرًا لِيَبْقَى النَّفْسُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ .

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِمَّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِمَّنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٢٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَرَّقَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا أَي : طَوَائِفَ وَفَرَقًا ﴿ مِمَّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِمَّنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ ﴾ أَي : فِيهِمُ الصَّالِحُ وَغَيْرُ ذَلِكَ ، ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ ﴾ أَي : اخْتَبَرْنَاهُمْ ﴿ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ أَي : بِالرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ ، وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ، وَالْعَافِيَةِ وَالبَلَاءِ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ الْآيَةُ .
يَقُولُ تَعَالَى ﴿ فَخَلَفَ ﴾ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْجِيلِ الَّذِي فِيهِمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ﴿ خَلَفٌ ﴾ آخَرُ لَا خَيْرَ
فِيهِمْ ، وَقَدْ ﴿ وَرِثُوا ﴾ دِرَاسَةَ ﴿ الْكِتَابِ ﴾ وَهُوَ التَّوْرَةُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُمُ النَّصَارَى ، وَقَدْ يَكُونُ
أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ أَيُّ : يَعْتَاضُونَ عَنْ بَذْلِ الْحَقِّ وَنَشْرِهِ بِعَرَضِ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ، وَيُسَوِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَعْدُونَهَا بِالتَّوْبَةِ ، وَكُلَّمَا لَاحَ هُمْ مِثْلَ الْأَوَّلِ وَقَعُوا فِيهِ ، وَلِهَذَا قَالَ :
﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ يَعْمَلُونَ الذَّنْبَ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ مِنْهُ ، فَإِنْ عَرَضَ ذَلِكَ
الذَّنْبُ أَخَذُوهُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ قَالَ : لَا يُشْرِفُ هُمْ
شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا أَخَذُوهُ ، حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا ، وَيَتَمَتَّعُونَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ
يَأْتِيَهُمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ ، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ : إِي وَاللَّهِ ، لَخَلَفُ
سُوءٍ ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ وَرُسُلِهِمْ ، وَرَثَهُمُ اللَّهُ وَعَهْدَ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ
أُخْرَى : ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾ [مريم : ٥٩] . قَالَ : ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا
الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ تَمَتَّعُوا عَلَى اللَّهِ أَمَانِيَّ وَغِرَّةَ يَغْتَرُونَ بِهَا ﴿ وَإِنْ يَأْتِيَهُمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾
لَا يَسْغَلُهُمْ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ ، وَلَا يَنْهَاهُمْ شَيْءٌ عَنْ ذَلِكَ ، كُلَّمَا هَفَّ هُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا أَكَلُوهُ ،
لَا يُبَالُونَ حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يُوْحَدْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ
تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِي صَنِيعِهِمْ هَذَا مَعَ مَا أُخِذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمِيثَاقِ لِيَسِنَّ الْحَقَّ لِلنَّاسِ وَلَا
يَكْتُمُونَهُ . قِيلَ : ﴿ أَلَمْ يُوْحَدْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ قَالَ : فِيمَا
يُوجِبُونَ عَلَى اللَّهِ مِنْ غُفْرَانِ ذُنُوبِهِمُ الَّتِي لَا يَزَالُونَ يَعُودُونَ فِيهَا وَلَا يَتُوبُونَ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْأَدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يُرَغِّبُهُمْ فِي جَزِيلِ ثَوَابِهِ ،
وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ ، أَيُّ : وَثَوَابِي وَمَا عِنْدِي خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى الْمَحَارِمَ ، وَتَرَكَ هَوَى نَفْسِهِ ،
وَأَقْبَلَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يَقُولُ : أَفَلَيْسَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِعْتَاضُوا بِعَرَضِ الدُّنْيَا عَمَّا
عِنْدِي عَقْلٌ يَرُدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَهَةِ وَالتَّبَذِيرِ ، ثُمَّ أَتَى تَعَالَى عَلَى مَنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ الَّذِي
يَقُودُهُ إِلَى اتِّبَاعِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾
أَيُّ : اِعْتَصَمُوا بِهِ وَافْتَدُوا بِأَوَامِرِهِ وَتَرَكَوا زَوَاجِرَهُ ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

﴿وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ رَفَعْنَاهُ ، ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ رَفَعْتُهُ الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٧﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ : أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى فَطَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أَي : أَوْ جَدَّهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالَا : ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أَي : لِئَلَّا تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أَي التَّوْحِيدِ ﴿غَافِلِينَ﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا الْآيَةُ .

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٧٩﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿٨١﴾

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ الْآيَةُ ، قَالَ : هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ بُلْعَمُ بْنُ أَبِرَ . وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ ، وَكَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ . ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أَي : اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ وَغَلَبَهُ عَلَى أَمْرِهِ فَمَثَلُهَا أَمْرُهُ امْتَثَلَ وَأَطَاعَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أَي : مِنْ هَالِكِينَ الْخَائِرِينَ الْبَائِرِينَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أَي : لَرَفَعْنَاهُ مِنَ التَّدَنُّسِ عَنْ قَادُورَاتِ الدُّنْيَا بِالْآيَاتِ الَّتِي آتَيْنَاهُ إِيَّاهَا ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أَي : مَالَ إِلَى زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَأَقْبَلَ عَلَى لَذَائِهَا وَنَعِيمِهَا ، وَغَرَّتْهُ كَمَا غَرَّتْ غَيْرُهُ مِنْ غَيْرِ أُولَى الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ ، قِيلَ : أَنَّ بُلْعَامًا اِنْدَلَعَ لِسَانُهُ عَلَى صَدْرِهِ فَتَشَبَّهَهُ بِالْكَلْبِ فِي هَلْهُهُ فِي كِلْتَا

حَالَتِيهِ إِنْ زُجِرَ وَإِنْ تُرِكَ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ فَصَارَ مِثْلَهُ فِي ضَلَالِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ فِيهِ ، وَعَدَمَ انْتِفَاعِهِ بِالْدُّعَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَعَدَمَ الدُّعَاءِ كَالْكَلْبِ فِي لَهْتِهِ فِي حَالَتِيهِ إِنْ حَمَلَتْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ تَرَكَتَهُ هُوَ يَلْهَثُ فِي الْحَالَيْنِ ، فَكَذَلِكَ هَذَا لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالِدُّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَلَا عَدَمِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ ﴾ أَيُّ : لَعَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَالَمِينَ بِحَالِ بُلْعَامَ ، وَمَا جَرَى لَهُ فِي إِضْلَالِ اللَّهِ إِيَّاهُ وَإِبْعَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، بِسَبَبِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تَعْلِيمِهِ الْإِسْمَ الْأَعْظَمَ ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ ، فِي غَيْرِ طَاعَةِ رَبِّهِ ، بَلْ دَعَا بِهِ عَلَى حِزْبِ الرَّحْمَنِ وَشُعْبِ الْإِيمَانِ أَتْبَاعَ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، كَلِيمِ اللَّهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَذَا قَالَ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيُّ : فَيَحْذَرُوا أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاهُمْ عِلْمًا ، وَمَيَّزَهُمْ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ ، وَجَعَلَ بَأْيَدِيهِمْ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ يَعْرِفُونَهَا كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، فَهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَمُنَاصَرَّتِهِ وَمُؤَاذَرَّتِهِ .

قَوْلُهُ : ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : سَاءَ مَثَلًا مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، أَيُّ سَاءَ مَثَلُهُمْ أَنْ شُبِّهُوا بِالْكِلَابِ الَّتِي لَا هِمَّةَ لَهَا إِلَّا فِي تَحْصِيلِ أَكْلَةٍ أَوْ شَهْوَةٍ ، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ حِزْبِ الْعِلْمِ وَالْهُدَى وَأَقْبَلَ عَلَى شَهْوَةِ نَفْسِهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ صَارَ شَبِيهَاً بِالْكَلْبِ ، وَبُنِيَ الْمَثَلُ مِثْلُهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ أَيُّ : مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ، وَلَكِنْ هُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِعْرَاضِهِمْ عَنْ اتِّبَاعِ الْهُدَى وَطَاعَةِ الْمَوْلَى .

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ لَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ لَا مَحَالَةَ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ أَيُّ : خَلَقْنَا وَجَعَلْنَا ﴿ لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴾ أَيُّ : هَيَّأْنَا لَهُمْ وَبِعَمَلِ أَهْلِهَا يَعْمَلُونَ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ عَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ كَوْنِهِمْ ، فَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ

سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .»

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾^(١٧٦) يَعْنِي : لَيْسَ يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْجَوَارِحِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ سَبَبًا لِلْهِدَايَةِ . ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ ﴾^(١٧٧) أَي : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَلَا يَعُونَهُ وَلَا يُبْصِرُونَ الْهُدَى كَالْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الْخَوَاسِّ مِنْهَا ، إِلَّا فِي الَّذِي يَعِيشُهَا مِنْ ظَاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا قَالَ فِي هَؤُلَاءِ ﴿ بَلْ هُمْ أَصْلٌ ﴾^(١٧٨) أَي : مِنَ الدَّوَابِّ ؛ لِأَنَّهَا قَدْ تَسْتَجِيبُ مَعَ ذَلِكَ لِرَاعِيهَا إِذَا أَيْسَ بِهَا ، وَإِنْ لَمْ تَفْقَهُ كَلَامَهُ ، بِخِلَافِ هَؤُلَاءِ ، وَلَآنَ الدَّوَابَّ تَفْقَهُ مَا خُلِقَتْ لَهُ إِمَّا بِطَبْعِهَا وَإِمَّا بِتَسْخِيرِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَصْلٌ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾^(١٧٩) .

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾^(١٨٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ لَمْ تَسْعَةَ وَتَسْعِينَ إِسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ، مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَهُوَ وَثْرٌ يُحِبُّ الْوَثْرَ » . ثُمَّ لِيَعْلَمَ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ فِي التَّسْعَةِ وَالتَّسْعِينَ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾^(١٨١) قَالَ : إِلْحَادُ الْمُلْحِدِينَ بِأَنْ إِشْتَقُوا اللَّاتَ مِنْ اللَّهِ ، وَالْعَزَى مِنَ الْعَزِيزِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ : يُشْرِكُونَ فِي أَسْمَائِهِ . وَقِيلَ : الإِلْحَادُ : التَّكْذِيبُ ، وَأَصْلُ الإِلْحَادِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : الْعُدُولُ عَنْ الْقَصْدِ ، وَالْمِيلُ وَالْجَوْرُ وَالْإِنْجِرَافُ . يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا ﴾^(١٨٢) أَي : بَعْضُ الْأُمَمِ ﴿ أُمَّةٌ ﴾^(١٨٣) قَائِمَةٌ بِالْحَقِّ قَوْلًا وَعَمَلًا ﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ يَقُولُونَهُ وَيَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ يَعْمَلُونَ وَيَقْضُونَ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَثَارِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ هِيَ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ .

وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾^(١٨٢) أَوَّلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٥﴾^(١٨٤) يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١٨٥) وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ الرِّزْقِ ، وَوُجُوهَ الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا ؛ حَتَّى يَغْتَرُّوا بِمَا هُمْ فِيهِ ، وَيَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾^(١٨٦) أَي : وَسَأُمْلِي لَهُمْ ، أَي : أَطْوَلُ هُمْ مَا هُمْ فِيهِ ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾^(١٨٧) أَي : قَوِيٌّ شَدِيدٌ . يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَوَّلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾^(١٨٨) هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بِآيَاتِنَا ﴿ مَا بِصَاحِبِهِمْ ﴾^(١٨٩) يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ مِنْ حَيْثُ ﴾^(١٩٠) أَي : لَيْسَ بِهِ جُنُونٌ ، بَلْ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا ، وَدَعَا إِلَى حَقٍّ ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾^(١٩١) أَي : ظَاهِرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ لُبٌّ وَقَلْبٌ يَعْقِلُ بِهِ وَيَعْيِي بِهِ .

أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ هُوَ لَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بآيَاتِنَا ، فِي مُلْكِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَفِيمَا خَلَقَ مِنْ شَيْءٍ فِيهِمَا ، فَيَتَذَكَّرُوا ذَلِكَ وَيَعْتَبِرُوا بِهِ ، وَيَحْذَرُوا أَنْ تَكُونَ آجَالُهُمْ قَدْ اقْتَرَبَتْ فِيهِلِكُوا عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَيَصِيرُوا إِلَى عَذَابِ اللَّهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ . ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ يَقُولُ : فَبِأَيِّ تَخْوِيفٍ وَتَحْذِيرٍ وَتَرْهيبٍ بَعْدَ تَحْذِيرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَرْهيبِهِ الَّذِي أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِي آيِ كِتَابِهِ يُصَدِّقُونَ ، إِنْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ ؟ .

مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ^١ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مَنْ كَتَبَ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِيهَا نَظَرَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجْزِي عَنْهُ شَيْئًا .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا^٢ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ^٣ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً^٤ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ قِيلَ : نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ﴾ قِيلَ : مُنْتَهَاهَا : أَيُّ : مَتَى مَحْطُهَا ، وَأَيَّانَ آخِرُ مُدَّةِ الدُّنْيَا ، الَّذِي هُوَ أَوَّلُ وَقْتِ السَّاعَةِ ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ ، أَنْ يَرُدَّ عِلْمُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا . أَيُّ : يَعْلَمُ جَلِيَّةَ أَمْرِهَا ، وَمَتَى يَكُونُ عَلَى التَّحْدِيدِ ؟ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ تَعَالَى ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . ﴿ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ وَلَا يَنْفِي ذَلِكَ ثَقُلَ مَحِيئَتِهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أَيُّ : كَأَنَّكَ بِهَا عَالِمٌ ، وَقَدْ أَخْفَى اللَّهُ عِلْمَهَا عَلَى خَلْقِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَ وَقْتِ السَّاعَةِ إِلَيْهِ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ^٥ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ^٦ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَكَاشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُفَوِّضَ الْأُمُورَ إِلَيْهِ وَأَنْ يُخْبِرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا إِطْلَاعَ لَهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِهَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَيُّ : مِنَ الْمَالِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : لَعَلِمْتُ إِذَا اشْتَرَيْتُ شَيْئًا مَا أَرْبَحُ فِيهِ فَلَا أَبِيعُ شَيْئًا إِلَّا رَبِحْتُ فِيهِ ، ﴿ وَمَا مَسْنَى السُّوءِ ﴾ قَالَ : وَلَا يُصِيبُنِي الْفَقْرُ . وَقَالَ آخَرُونَ : مَعْنَى ذَلِكَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَعْدَدْتُ لِلْسِّنَةِ الْمُجْدِيَةِ مِنَ الْمُخَصَّصَةِ ، وَلَعَرَفْتُ الْغَلَاءَ مِنَ الرُّخْصِ ، فَاسْتَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الرُّخْصِ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ ﴿ وَمَا مَسْنَى السُّوءِ ﴾ قَالَ : لَا جُتِبْتُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرِّ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَانْقِئْتُه . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ ﴿ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أَيُّ : نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ وَبَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّاتِ .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَاوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿ ٣٨ ﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ ٣٩ ﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ خَلَقَ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَنَّهُ خَلَقَ مِنْهُ زَوْجَهُ حَوَاءَ ، ثُمَّ انْتَشَرَ النَّاسُ مِنْهُمَا . ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ أَيُّ : لِيَأْتِلَهَا وَيَسْكُنَ بِهَا ، فَلَا أُلْفَةَ بَيْنَ رُوحَيْنِ أَعْظَمَ مِمَّا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ؛ وَهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ السَّاحِرَ رَبًّا تَوَصَّلَ بِكَيْدِهِ إِلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ أَيُّ : وَطِئَهَا ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا ﴾ وَذَلِكَ أَوَّلُ الْحَمْلِ لَا يَجِدُ الْمَرْأَةُ لَهُ أَلَمًا ، إِنَّمَا هِيَ النُّطْفَةُ ثُمَّ الْعَلَقَةُ ثُمَّ الْمُضْغَةُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ : اسْتَمَرَّتْ بِحَمْلِهِ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ اسْتَمَرَّتْ بِالْمَاءِ قَامَتْ بِهِ وَقَعَدَتْ . ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ أَيُّ : صَارَتْ ذَاتَ ثِقَلٍ بِحَمْلِهَا ﴿ دَعَاوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا ﴾ أَيُّ : بَشَرًا سَوِيًّا . فَقَدْ أَشْفَقَا أَنْ يَكُونَ بِهِمَا ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿ ٣٨ ﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

عَنِ الْحَسَنِ : ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ﴾ قَالَ : كَانَ هَذَا فِي بَعْضِ أَهْلِ الْمَلِكِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِآدَمَ . وَعَنْهُ أَيْضًا : هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَوْلَادًا فَهَوِّدُوا وَنَصَرُوا . وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ آدَمَ وَحَوَاءَ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، وَهَذَا قَالَ اللَّهُ ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : فَذَكَرَ آدَمَ وَحَوَاءَ أَوَّلًا كَالْتَوَطُّئَةِ لِمَا بَعْدَهُمْ مِنَ الْوَالِدَيْنِ ، وَهُوَ كَالِاسْتِطْرَادِ مِنْ ذِكْرِ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ [الملك : ٥] وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَصَابِيحَ وَهِيَ النُّجُومُ الَّتِي زَيَّنَتْ بِهَا السَّمَاءَ ، لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي يُرْمَى بِهَا ،

وَأَيُّهَا هَذَا اسْتَطَرَّادُ مِنْ شَخْصِ الْمَصَابِيحِ إِلَى جَنْسِهَا ، وَهَذَا نَظَائِرُ فِي الْقُرْآنِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١١١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٤﴾ أَلَمْ أَرْجُلْ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١١٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١١٨﴾

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ، وَهِيَ مَخْلُوقَةُ اللَّهِ مَرْبُوبَةٌ مَصْنُوعَةٌ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ ، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَنْصُرُ لِعَابِدِيهَا ، بَلْ هِيَ جَمَادٌ لَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ ، وَعَابِدُوهَا أَكْمَلُ مِنْهَا بِسْمْعِهِمْ وَبَصَرِهِمْ وَبَطْشِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أَيُّ : أَيُّشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا ﴾ أَيُّ : لِعَابِدِيهِمْ . ﴿ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ يَعْنِي : وَلَا لِأَنْفُسِهِمْ يَنْصُرُونَ مِمَّنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ كَمَا كَانَ الْحَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَكْسِرُ أَصْنَامَ قَوْمِهِ وَيُيَسِّنُهَا غَايَةَ الْإِهَانَةِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ [الصفافات : ٩٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ الْآيَةُ . يَعْنِي : أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاها ، وَسَوَاءٌ لَدَيْهَا مَنْ دَعَاها وَمَنْ دَحَاها ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ : ﴿ يَتَأْتِبَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مريم : ٤٢] . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهَا عَيْدٌ مِثْلُ عَابِدِيهَا ، أَيُّ : مَخْلُوقَاتٌ مِثْلُهُمْ ، بَلِ الْإِنْسَانِي أَكْمَلُ مِنْهَا ؛ لِأَنَّهَا تَسْمَعُ وَتُبْصِرُ وَتَبْطِشُ ، وَتِلْكَ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : اسْتَنْصِرُوا بِهَا عَلَيَّ ، فَلَا تُؤْخِرُونِي طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَاجْهَدُوا جَهْدَكُمْ ﴿ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ أَيُّ : اللَّهُ حَسْبِي وَكَافِيٌّ وَهُوَ نَصِيرِي ، وَعَلَيْهِ مُتَكَلِّي ، وَإِلَيْهِ أَلْجَأُ وَهُوَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَهُوَ وَلِيَّ كُلِّ صَالِحٍ بَعْدِي .

قَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ مُؤَكَّدٌ لِمَا تَقَدَّمَ إِلَّا أَنَّهُ بِصِيغَةِ الْخُطَابِ ، وَذَلِكَ بِصِيغَةِ الْغَيْبَةِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ .

وقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ ﴾ [فاطر : ١٤] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ . إِنَّمَا قَالَ : ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ أَيُّ : يُقَابِلُونَكَ بَعْيُونِ مُصَوَّرَةً ، كَأَنَّهَا نَازِرَةٌ وَهِيَ جَمَادٌ .

حُذِيَ الْإِعْفُ وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ حُذِيَ الْإِعْفُ ﴾ أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ عَشْرَ سِنِينَ ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْغُلْظَةِ عَلَيْهِمْ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : إِنَّمَا أُنْزِلَ ﴿ حُذِيَ الْإِعْفُ ﴾ فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ ، وَهَذَا أَشْهَرُ الْأَقْوَالِ . وَقَالَ الْبُخَارِيُّ قَوْلُهُ : ﴿ حُذِيَ الْإِعْفُ وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الْعُرْفُ الْمَعْرُوفُ . أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ عِبَادَهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيُدْخَلَ فِي ذَلِكَ جَمِيعَ الطَّاعَاتِ ، وَيُتْرَكُ عَنِ الْجَاهِلِينَ ، وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ أَمْرًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فَإِنَّهُ تَأْدِيبٌ لِحَلْفِهِ بِاحْتِمَالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْهِمْ ، لَا بِالْإِعْرَاضِ عَمَّنْ جَهَلَ الْحَقَّ الْوَاجِبَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ ، وَلَا بِالصَّفْحِ عَمَّنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَجَهَلَ وَحْدَانِيَّتَهُ ، وَهُوَ لِلْمُسْلِمِينَ حَرْبٌ .

وَيُرْشِدُ تَعَالَى إِلَى الْإِسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجَانِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَكْفُكُ عَنْكَ الْإِحْسَانُ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ هَلَكَكَ وَدَّمَارَكَ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَإِنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ لَكَ وَلِأَيِّكَ مِنْ قَبْلِكَ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] ، وَإِنَّمَا يُغْضِبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يَصُدُّكَ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَيَحْمِلُكَ عَلَى مُجَارَاتِهِمْ ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ يَقُولُ : فَاسْتَجِرْ بِاللَّهِ مِنْ نَزْعِهِ ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وَأَصْلُ النَّزْعِ الْفَسَادُ ، إِنَّمَا بِالْغَضَبِ أَوْ غَيْرِهِ ، وَ« الْعِيَاذُ » : الْإِلْتِجَاءُ وَالِاسْتِنَادُ وَالِاسْتِجَارَةُ مِنَ الشَّرِّ ، وَأَمَّا الْمَلَاذُ فَبِطَلَبِ الْخَيْرِ .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَى ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٣٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَطَاعُوهُ فِيمَا أَمَرَ وَتَرَكُوا مَا عَنْهُ زَجَرَ ، أَنَّهُمْ ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ أَيُّ : أَصَابَهُمْ ﴿ طَافٌ ﴾ مِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالْغَضَبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِمَسِّ الشَّيْطَانِ ، بِالصَّرْعِ وَنَحْوِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِأَلْهَمٍ بِالذَّنْبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِإِصَابَةِ الذَّنْبِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ أَيُّ : عِقَابُ اللَّهِ وَجَزِيلُ ثَوَابِهِ وَوَعْدُهُ وَوَعِيدِهِ ، فَتَابُوا وَأَنَابُوا وَاسْتَعَاذُوا

بِالله وَرَجَعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ أَيُّ : قَدْ اسْتَقَامُوا وَصَحُّوا مِمَّا كَانُوا فِيهِ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ ﴾ أَيُّ : وَإِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْإِنْسِ ، وَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ ،
 وَالْمُسْتَمِعُونَ لَهُمْ الْقَابِلُونَ لِأَمْرِهِمْ ﴿ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ﴾ أَيُّ : تُسَاعِدُهُمُ الشَّيَاطِينُ عَلَى الْمَعَاصِي
 وَتُسَهِّلُهَا عَلَيْهِمْ وَتُحَسِّنُهَا لَهُمْ . قِيلَ : « الْمُدُّ » الزِّيَادَةُ ، يَعْنِي : يَزِيدُوهُمْ فِي الْغَيِّ ، يَعْنِي : الْجَهْلُ
 وَالسَّفَهَ ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : إِنَّ الشَّيَاطِينِ تَمُدُّ الْإِنْسَ لَا تَقْصُرُ فِي أَعْمَالِهِمْ بِذَلِكَ .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِنَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا أَعْجَبْتَنَاهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا
 بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥﴾

قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالُوا لَوْلَا أَعْجَبْتَنَاهَا ﴾ ، يَقُولُ : لَوْلَا تَلَقَّيْنَاهَا ، وَقِيلَ : لَوْلَا أَحَدَثْنَاهَا
 فَأَنشَأْنَاهَا . وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِنَايَةٍ ﴾ أَيُّ : مُعْجِزَةٌ وَخَارِقٌ . يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ
 ﷺ : لَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ فِي طَلَبِ الْآيَاتِ مِنْ اللَّهِ حَتَّى تَرَاهَا وَتُؤْمِنَ بِهَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ : ﴿ قُلْ
 إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ أَيُّ : أَنَا لَا أَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا أَمَرَنِي بِهِ ،
 فَأُمَثِّلُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، فَإِنْ بَعَثَ آيَةً قَبْلَتَهَا ، وَإِنْ مَنَعَهَا لَمْ أَسْأَلْهُ إِنْتِدَاءً إِيَّاهَا ، إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي
 ذَلِكَ فَإِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . ثُمَّ أَرَشَدَهُمْ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ أَعْظَمُ الْمُعْجَزَاتِ ، وَأَيُّنُ الدَّلَالَاتِ ،
 وَأَصْدَقُ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ ، فَقَالَ : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٦﴾

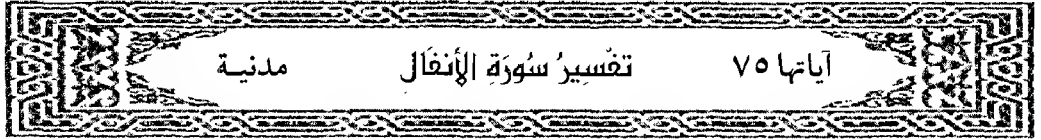
لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْقُرْآنَ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، أَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْصَاتِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ إِعْظَامًا
 لَهُ وَاحْتِرَامًا ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ إِذَا جَهَرَ الْإِمَامُ بِالْقِرَاءَةِ . قَالَ عَدَدُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ
 الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ، يَعْنِي : فِي الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ .

وَأَذْكُرُ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ
 وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ
 وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٨﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ كَثِيرًا ، كَمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا
 قَبْلَ أَنْ تُفَرِّضَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مَكِّيَّةٌ ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ بِالْغُدُوِّ ﴾
 وَهُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ ، ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ جَمْعُ أَصِيلٍ ، كَمَا أَنَّ الْأَيَّانَ جَمْعُ يَمِينٍ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ تَضَرُّعًا
 وَخِيفَةً ﴾ أَيُّ : أَذْكُرُ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً ، وَبِالْقَوْلِ لَا جَهْرًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ

مِنَ الْقَوْلِ ، وَهَكَذَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ الذَّكْرُ ، لَا يَكُونَ نِدَاءٌ وَجَهْرًا بَلِيغًا ، وَهَذَا مَدَحُ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُسَّحُّونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ؛ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ الْآيَةُ . وَإِنَّمَا ذَكَرَهُمْ بِهَذَا لِيُتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي كَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ ، وَهَذَا شُرْعَ لَنَا السُّجُودُ هَاهُنَا لَمَّا ذُكِرَ سُجُودُهُمْ لِلَّهِ ﷻ .

آخِرُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

﴿ الْأَنْفَالِ ﴾ : الْعَنَائِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ . وَصَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّهُ فَسَّرَ النَّفْلَ بِمَا يُنْفَلُهُ الْإِمَامُ لِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ مِنْ سَلْبٍ أَوْ نَحْوِهِ ، بَعْدَ قَسْمِ أَصْلِ الْمَغْنَمِ . وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِ « الْأَمْوَالِ الشَّرْعِيَّةِ » وَبَيَانِ جِهَاتِهَا وَمَصَارِفِهَا : « أَمَّا الْأَنْفَالُ فَهِيَ الْمَغْنَمُ ، وَكُلُّ نَيْلٍ نَالَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الْحَرْبِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أَيُّ : وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي أُمُورِكُمْ وَأَصْلِحُوا فِيهَا بَيْنَكُمْ ، وَلَا تَظَالُمُوا وَلَا تَخَاصُمُوا وَلَا تَشَاجَرُوا ، فَمَا آتَاكُمْ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ خَيْرٌ مِمَّا تَخْتَصِمُونَ بِسَبَبِهِ ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أَيُّ : فِي قَسْمِهِ بَيْنَكُمْ عَلَى مَا أَرَادَهُ اللَّهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَقْسِمُهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فَرَقَتْ ، أَيُّ : فَرَعَتْ وَخَافَتْ . ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ [التوبة : ١٢٤] ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ الْأَثَمَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَشْبَاهِهَا عَلَى : زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَتَقَاصُلِهِ فِي الْقُلُوبِ . ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يَرْجُونَ سِوَاهُ ، وَلَا يَقْصِدُونَ إِلَّا إِلَيَّ ، وَلَا يَلْذُبُونَ إِلَّا بِجَنَابِهِ ، وَلَا يَطْلُبُونَ الْخَوَائِجَ إِلَّا مِنْهُ ، وَلَا يَرْغَبُونَ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : التَّوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ جَمَاعُ الْإِيمَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ : الْمَحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا ، وَوُضُوعُهَا ، وَرُكُوعُهَا ، وَسُجُودُهَا وَالْإِنْفَاقُ بِمَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ : يَشْمَلُ إِخْرَاجَ الزَّكَاةِ وَسَائِرِ الْحُقُوقِ لِلْعِبَادَةِ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أَيُّ : الْمُتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقَّ الْإِيمَانِ . ﴿ هُمْ دَرَجَتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيُّ : مَنَازِلُ وَمَقَامَاتُ وَدَرَجَاتُ فِي الْجَنَّاتِ . ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أَيُّ : يَغْفِرُ لَهُمُ السَّيِّئَاتِ وَيَشْكُرُ لَهُمُ الْحَسَنَاتِ .

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿١٢٥﴾ مُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢٨﴾

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِيُّ : اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي السَّبَبِ الْجَالِبِ لِهَذِهِ الْكَافِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : شُبِّهَ بِهِ فِي الصَّلَاحِ لِلْمُؤْمِنِينَ اتِّقَاؤُهُمْ رَبَّهُمْ وَإِصْلَاحُهُمْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ ، وَطَاعَتُهُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : كَمَا أَنَّكُمْ لَمَّا اخْتَلَفْتُمْ فِي الْمَغَانِمِ ، وَتَشَاحَحْتُمْ فِيهَا فَانْتَزَعَهَا اللَّهُ مِنْكُمْ وَجَعَلَهَا إِلَى قِسْمِهِ وَقَسَمَ رَسُولُهُ ﷺ ، فَقَسَمَهَا عَلَى الْعَدْلِ وَالنَّسْوِيَةِ ، فَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَصْلَحَةُ التَّامَّةُ لَكُمْ ، قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ : وَقَالَ آخَرُونَ : مَعْنَى ذَلِكَ : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ عَلَى كُرْهِ مِنْ فَرِيقٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَذَلِكَ هُمْ كَارِهُونَ لِلْقِتَالِ ، فَهُمْ مُجَادِلُونَكَ فِيهِ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ مُجَادَلَةً ، كَمَا جَادَلُوكَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَقَالُوا : أَخْرَجْتَنَا لِلْعِيرِ وَلَمْ تُعَلِّمْنَا قِتَالَاً فَتَسَعَّدَ لَهُ .

وَالْغَرَضُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَلَغَهُ خُرُوجُ النَّفِيرِ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ يَعِدُهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ : إِمَّا الْعِيرَ وَإِمَّا النَّفِيرَ ، وَرَغِبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْعِيرِ ؛ لِأَنَّهُ كَسِبَ بِهَا قِتَالًَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَدُّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَدُّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : يُحِبُّونَ

أَنَّ الطَّائِفَةَ الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا وَلَا مَنَعَةَ وَلَا قِتَالَ ، تَكُونُ لَهُمْ وَهِيَ الْعِيرُ ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أَيُّ : هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَهَا الشُّوْكَةُ وَالْقِتَالُ لِيُظْفِرَكُمْ بِهِمْ وَيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ . وَيُظْهِرَ دِينَهُ وَيَرْفَعَ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثِيئَةٌ وَنِيفَ ، وَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ ، فَاسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْقِبْلَةَ وَعَلَيْهِ رِدَاؤُهُ وَإِزَارُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا تُعْبِدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا » قَالَ : فَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ وَيَدْعُوهُ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَرَدَّاهُ - أَلْبَسَهُ - ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! كَفَاكَ مُنَاسَدَتُكَ رَبِّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُئِذٍ اتَّقُوا ، فَهَزَمَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ فَقَتَلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا ، وَأَسَرَّ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ أَيُّ : يُرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . قِيلَ : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ مُتَتَابِعِينَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ لَكُمْ ، أَيُّ : نَجْدَةٌ لَكُمْ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : بَيْنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ ، وَصَوْتُ الْفَارِسِ يَقُولُ : « أَقْدِمْ حَيْرُومَ » ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا ، قَالَ : فَظَنَرُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ حُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ ، فَأَخْضَرَ ذَلِكَ أَجْمَعُ ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « صَدَقْتَ ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ » ، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسْرُوا سَبْعِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : وَمَا جَعَلَ اللَّهُ بَعَثَ الْمَلَائِكَةَ وَإِعْلَامَهُ إِيَّاكُمْ بِهِمْ إِلَّا بُشْرَى ، ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ وَإِلَّا فَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى نَصْرِكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ بِدُونِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ وَلِهَذَا كَانَ قَتْلُ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ بِأَيْدِي أَعْدَائِهِمُ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِأَعْيُنِ إِزْدِرَائِهِمْ أَنْكَى لَهُمْ وَأَشْفَى لِمُصْدِرِ حِزْبِ الْإِيمَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أَيُّ : لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ : فِيهَا

سَرَعَهُ مِنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ ، مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى دِمَارِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿٥﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ . وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ذَلِكَ لَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿٨﴾

يُذَكِّرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ إِقَائِهِ النُّعَاسَ عَلَيْهِمْ ، أَمَّا مَنْ خَوْفُهُمُ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ تَعَالَى بِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ .
قُلْتُ : أَمَّا النُّعَاسُ فَقَدْ أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَمْرُ ذَلِكَ مَشْهُورٌ جِدًّا ، وَأَمَّا الْآيَةُ الشَّرِيفَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ بَدْرٍ ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى وَقُوعِ ذَلِكَ أَيْضًا ، وَكَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ سَجِيَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ شِدَّةِ الْبَاسِ ؛ لِتَكُونَ قُلُوبُهُمْ أَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِنَصْرِ اللَّهِ ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ أَيُ : مِنْ حَدَثٍ أَصْغَرَ أَوْ أَكْبَرَ ، وَهُوَ تَطْهِيرُ الظَّاهِرِ ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ أَيُ : مِنْ وَسْوَاسَةٍ أَوْ خَاطِرٍ سَيِّئٍ ، وَهُوَ تَطْهِيرُ الْبَاطِنِ ، ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيُ : بِالصَّبْرِ وَالْإِقْدَامِ عَلَى مَجَالِدَةِ الْأَعْدَاءِ ، وَهُوَ شَجَاعَةُ الْبَاطِنِ ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ، وَهُوَ شَجَاعَةُ الظَّاهِرِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وَهَذِهِ نِعْمَةٌ خَفِيَّةٌ أَظْهَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ لِيَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ أَنَّهُ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَبَارَكَ وَتَمَجَّدَ - أَوْحَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَنْزَلَهُمْ لِنَصْرِ نَبِيِّهِ وَدِينِهِ وَحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، يُوحِي إِلَيْهِمْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَنْ يُثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .
وَقَوْلُهُ : ﴿ سَأَلِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ أَيُ : ثَبَّتُوا أَنْتُمْ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، عَنْ أَمْرِي لَكُمْ بِذَلِكَ ، سَأَلِيَ الرُّعْبَ وَالْمَذَلَّةَ وَالصَّغَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَكَذَّبَ رَسُولِي ، ﴿ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ أَيُ : اضْرِبُوا الْهَامَ فَمَلَقُوهَا ، وَاحْتَزُّوا الرَّقَابَ فَمَقَّطَعُوهَا ، وَقَطَّعُوا الْأَطْرَافَ مِنْهُمْ ، وَهِيَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ . ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أَيُ : خَالَفُوهُمَا فَسَارَوْا فِي شِقِّ ، وَتَرَكُوا الشَّرْعَ وَالْإِيمَانَ بِهِ وَاتَّبَاعِهِ فِي شِقِّ ، وَمَاخُودٌ أَيْضًا مِنْ شِقِّ الْعَصَا وَهُوَ جَعْلُهَا فِرْقَتَيْنِ ﴿ ذَلِكَ لَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾

هَذَا خِطَابٌ لِلْكَافِرِينَ . أَيُّ : ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ فِي الدُّنْيَا ، وَاعْلَمُوا أَيْضًا أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ .

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿٦﴾ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوِلُهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُتَوَعِّدًا عَلَى الْفِرَارِ مِنَ الزَّحَفِ بِالنَّارِ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴾ أَيُّ : تَقَارَبْتُمْ مِنْهُمْ وَدَوَّيْتُمْ إِلَيْهِمْ . ﴿ فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴾ أَيُّ : تَقَرُّوا وَتَتَرَكُوا أَصْحَابَكُمْ . ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ أَيُّ : يَفِرُّ بَيْنَ يَدَيْ قَرْبِهِ مَكِيدَةً لِرِيئِهِ أَنَّهُ قَدْ خَافَ مِنْهُ فَيَتَّبِعُهُ ، ثُمَّ يَكُرُّ عَلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ . ﴿ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ ﴾ أَيُّ : فَرَّ مِنْ هَهُنَا إِلَىٰ فِتْنَةٍ أُخْرَىٰ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُعَاوِضُهُمْ وَيُعَاوِضُونَهُ فَيَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ ، حَتَّىٰ لَوْ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَقَرَّ إِلَىٰ أَمِيرِهِ ، أَوْ إِلَىٰ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ دَخَلَ فِي هَذِهِ الرُّخْصَةِ . فَأَمَّا إِنْ كَانَ الْفِرَارُ لَا عَنْ سَبَبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ فَإِنَّهُ حَرَامٌ وَكَبِيرَةٌ مِنَ الْكِبَائِرِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَقَدْ بَاءَ ﴾ أَيُّ : رَجَعَ ﴿ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوِلُهُ ﴾ أَيُّ : مَصِيرُهُ وَمُنْقَلَبُهُ يَوْمَ مِيعَادِهِ ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٨﴾ ذَالِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كِيدَ الْكَافِرِينَ ﴿٩﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ ، وَأَنَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَىٰ جَمِيعِ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنْ خَيْرٍ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَفَّقَهُمْ لِذَلِكَ وَأَعَانَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ بِحَوْلِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ قَتَلْتُمْ أَعْدَاءَكُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِكُمْ ، أَيُّ بَلٍ هُوَ الَّذِي أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، يُعْلِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّ النَّصْرَ لَيْسَ عَلَىٰ كَثْرَةِ الْعَدَدِ ، وَلَا بِلُبْسِ اللَّأَمَةِ وَالْعُدَدِ ، وَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَىٰ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ أَيْضًا فِي شَأْنِ الْقَبْضَةِ مِنَ التُّرَابِ الَّتِي حَصَبَ بِهَا وَجُوهَ الْكَافِرِينَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَأَوْصَلَ اللَّهُ تِلْكَ الْحَضَبَاءَ إِلَىٰ أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا نَالَهُ مِنْهَا مَا شَعَلَهُ عَنْ حَالِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ أَيُّ : هُوَ الَّذِي بَلَغَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ ، وَكَبَّتْهُمْ بِهَا لَا أَنْتَ . وَقَدْ رُيِيَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَمِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ يَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْضًا .

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلِيُنَبِّئَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا ﴾ أَي : لِيُعْرِفَ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِظْهَارِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَي : سَمِيعُ الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ يَمُنُّ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ وَالْغَلَبَ . ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ هَذِهِ بَشَارَةٌ أُخْرَى مَعَ مَا حَصَلَ مِنَ النَّصْرِ ، أَنَّهُ أَعْلَمُهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُ مُضْعِفُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ، مُصَغِّرُ أَمْرِهِمْ ، وَأَتَمُّهُمْ كُلَّ مَا لَهُمْ فِي تَبَارٍ وَدَمَارٍ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .
 إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فُتُوكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِلْكَافِرِ : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا ﴾ أَي : تَسْتَنْصِرُوا وَتَسْتَقْضُوا اللَّهَ وَتَسْتَخْكِمُوهُ أَنْ يَفْصَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا ﴾ أَي عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالتَّكْذِيبِ لِرِسُولِهِ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ﴾ مَعْنَاهُ : وَإِنْ عُدْتُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ ، نَعُدْ لَكُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَقْعَةِ . ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فُتُوكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أَي : وَلَوْ جَعَلْتُمْ مِنَ الْجُمُوعِ مَا عَسَى أَنْ تَجْمَعُوا . فَإِنْ مَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فَلَا غَالِبَ لَهُ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿١٢﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَيَزَجُرُهُمْ عَنْ مُخَالَفَتِهِ ، وَالتَّشَبُّهِ بِالْكَافِرِينَ بِهِ الْمُعَانِدِينَ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أَي : تَتْرَكُوا طَاعَتَهُ وَامْتِثَالَ أَوَامِرِهِ وَتَرْكُ زَوَاجِرِهِ ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ أَي : بَعْدَ مَا عَلِمْتُمْ مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ . ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ الْمَشْرُكُونَ ، وَقِيلَ : هُمْ الْمُنَافِقُونَ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنْ بَنِي آدَمَ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ ﴾ أَي : عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ﴿ الْبُكْمُ ﴾ عَنْ فَهْمِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فَهُوَ لَا شَرَّ الْبَرِيَّةِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ دَابَّةٍ مِمَّا سِوَاهُمْ مُطِيعَةٌ لِلَّهِ فِيمَا خَلَقَهَا لَهُ ، وَهَؤُلَاءِ خُلِقُوا لِلْعِبَادَةِ فَكَفَرُوا .
 ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَا فَهْمَ لَهُمْ صَحِيحٌ ، وَلَا قَصْدَ لَهُمْ صَحِيحٌ ، لَوْ فُرِضَ أَنَّ هُمْ فَهْمًا ،

فَقَالَ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ أَي : لَأَفْهَمَهُمْ ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : وَلَكِنْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ ، فَلَمْ يُفْهِمَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أَي : أَفْهَمَهُمْ ﴿ لَتَوَلَّوْا ﴾ عَنْ ذَلِكَ قَصْدًا وَعِنَادًا ، بَعْدَ فَهْمِهِمْ ذَلِكَ ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ عَنْهُ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا تَحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۚ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٦﴾

قَالَ الْبُخَارِيُّ : ﴿ اسْتَجِيبُوا ﴾ أَجِيبُوا ﴿ لِمَا تَحْيِيكُمْ ﴾ لِمَا يُصْلِحُكُمْ . ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ ، وَبَيْنَ الْكَافِرِ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ وَلَا يَكْفُرَ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧﴾
يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ فِتْنَةً ﴾ أَي : اخْتِبَارًا وَحَنَّةً يَعْمُ بِهَا الْمَسِيءَ وَغَيْرَهُ ، لَا يُخْصُّ بِهَا أَهْلَ الْمَعَاصِي ، وَلَا مَنْ بَاشَرَ الذَّنْبَ ، بَلْ يَعْمُهَا حَيْثُ لَمْ تُدْفَعْ وَتُرْفَعْ . وَقَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يُفَرِّقُوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ فَيَعْمَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ حَسَنٌ جَدًّا .

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، حَيْثُ كَانُوا قَلِيلِينَ فَكَثَرَهُمْ ، وَمُسْتَضْعَفِينَ خَائِفِينَ فَقَوَّاهُمْ وَنَصَرَهُمْ ، وَفُقَرَاءَ عَالَةً فَرَزَقَهُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَاسْتَشْكَرَهُمْ فَأَطَاعُوهُ ، وَامْتَثَلُوا بِمِجْمَعِ مَا أَمَرَهُمْ ، وَهَذَا كَانَ حَالُ الْمُؤْمِنِينَ حَالَ مَقَامِهِمْ بِمَكَّةَ ، قَلِيلِينَ مُسْتَخْفِينَ ، مُضْطَهَدِينَ ، يَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَهُمُ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ بِلَادِ اللَّهِ ، مِنْ مُشْرِكٍ وَمَجُوسِيٍّ وَرُومِيٍّ كُلُّهُمْ أَعْدَاءُ هُمْ لِقَلَّتِيهِمْ ، وَعَدَمَ قُوَّتِهِمْ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِبُهُمْ ، حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَأَوَّاهُمْ إِلَيْهَا ، وَفَيَّضَ لَهُمْ أَهْلَهَا ، آوَوْا وَنَصَرُوا يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ ، وَوَأَسَّوْا بِأَمْوَالِهِمْ وَبَدَّلُوا مُهْجَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾
وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾

فِي الصَّحِيحَيْنِ قِصَّةُ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى قُرَيْشٍ يُعَلِّمُهُمْ بِقَصْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَّاهُمْ عَامَ الْفَتْحِ ، فَأَطَاعَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَبَعَثَ فِي إِثْرِ الْكِتَابِ فَاسْتَرْجَعَهُ ، وَاسْتَحْضَرَ حَاطِبًا فَأَقْرَبَ بِمَا صَنَعَ ، وَفِيهَا فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : « دَعُوهُ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ ، فَقَالَ : اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » . قُلْتُ : وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ وَإِنْ صَحَّ أَنَّهَا وَرَدَتْ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ ، فَلَا أَخْذَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ عِنْدَ الْجُمَاهِيرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَالْحَيَانَةُ تُعْمُ الذُّنُوبَ الصَّغَارَ وَالْكِبَارَ اللَّازِمَةَ وَالْمُتَعَدِّيَةَ . وَقَوْلُهُ : « لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ » قِيلَ : بِتَرْكِ سُنَّتِهِ ، وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ « وَتَخُونُوا أَمْسِيَّتَكُمْ » قِيلَ : الْأَمَانَةُ : الْأَعْمَالُ الَّتِي ائْتَمَنَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعِبَادَ ، يَعْنِي : الْفَرِيضَةَ ، يَقُولُ : « لَا تَخُونُوا » لَا تَنْقُضُوهَا . وَقَوْلُهُ : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » أَيُ : اخْتِبَارٌ وَامْتِحَانٌ مِنْهُ لَكُمْ ، إِذْ أَعْطَاكُمْوهَا ؛ لِيَعْلَمَ أَتَشْكُرُونَهُ عَلَيْهَا وَتَطِيعُونَهُ فِيهَا ، أَوْ تَسْتَعْلُونَ بِهَا عَنْهُ ، وَتَعْتَاظُونَ بِهَا مِنْهُ . وَقَوْلُهُ : « وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » أَيُ : ثَوَابُهُ وَعَطَاؤُهُ وَجَنَاتُهُ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، فَإِنَّهُ قَدْ يُوْجَدُ مِنْهُمْ عَدُوٌّ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿١٦١﴾

« فُرْقَانًا » قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : أَيُ : فَضْلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَإِنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ يَفْعَلُ أَوَامِرِهِ وَتَرْكُ زَوَاجِرِهِ وَفُقَ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ نَصْرِهِ وَنَجَاتِهِ ، وَخُرْجِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَسَعَادَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقَوْلُهُ : « لِيُثْبِتُوكَ » لِيُقَيِّدُوكَ . الْإِثْبَاتُ : هُوَ الْحَبْسُ وَالْوَثَاقُ ، وَهُوَ الْغَالِبُ مِنْ صَنِيعِ مَنْ أَرَادَ غَيْرَهُ سُوءٍ . وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ : « وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ » أَيُ : فَمَكَرْتُ بِهِمْ بِكَيْدِي الْمَتِينِ حَتَّى خَلَصْتُكَ مِنْهُمْ .

وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٢﴾ وَإِذْ قَالُوا آلَ اللَّهِمْ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٦٣﴾ وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٦٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ قُرَيْشٍ وَعُتُوهِمْ وَتَكْرَدِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَدَعْوَاهُمْ الْبَاطِلَ عِنْدَ سَمَاعِ آيَاتِهِ حِينَ تُتْلَى عَلَيْهِمْ أَنْتُمْ يَقُولُونَ : ﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ ، وَهَذَا مِنْهُمْ قَوْلٌ بِلَا فِعْلٍ ، وَإِلَّا فَقَدْ تُحَدِّثُوا غَيْرَ مَا مَرَّةً أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ فَلَا يَحْدِثُونَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَإِنَّمَا هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ يَغُرُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ . وَمَعْنَى : ﴿ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ، وَهُوَ جَمْعُ أَسْطُورَةٍ ، أَيِ : كُتُبُهُمْ أَقْتَبَسَهَا ، فَهُوَ يَتَعَلَّمُ مِنْهَا وَيَتْلُوهَا عَلَى النَّاسِ ، وَهَذَا هُوَ الْكَذِبُ الْبَحْثُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هَذَا مِنْ كَثْرَةِ جَهْلِهِمْ وَشِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَعُتُوهِمْ ، وَهَذَا مِمَّا عَيَّبُوا بِهِ ، وَكَانَ الْأَوَّلَى لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا لَهُ وَوَفِّقْنَا لِاتِّبَاعِهِ ، وَلَكِنْ اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَاسْتَعْجَلُوا الْعَذَابَ وَتَقَدَّيْمَ الْعُقُوبَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : كَانَ فِيهِمْ أَمَانَانِ : النَّبِيُّ ﷺ ، وَالْإِسْتِغْفَارُ ، فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَبَقِيَ الْإِسْتِغْفَارُ . قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ قَوْمًا وَأَنْبِيَائُهُمْ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ حَتَّى يُخْرِجَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ ﴾ يَقُولُ : وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ الدُّخُولُ فِي الْإِيمَانِ ، ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يَعْنِي : يُصَلُّونَ ، يَعْنِي بِهَذَا أَهْلُ مَكَّةَ .

وَمَا لَهُمْ إِلَّا لِيُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْأَلْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ أَهْلٌ لِأَنْ يُعَذِّبَهُمْ وَلَكِنْ لَمْ يُوقِعْ ذَلِكَ فِيهِمْ لِرَكَّةِ مَقَامِ الرَّسُولِ ﷺ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ، وَهَذَا لَمَّا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ أَوْقَعَ اللَّهُ فِيهِمْ بَأْسَهُ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَقَتَلَ صَنَادِيدَهُمْ ، وَأَسَرَ سَرَائِنَهُمْ ، وَأَرْشَدَهُمْ تَعَالَى إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِهَا مِنَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : لَمْ يَكُنِ الْقَوْمُ يَسْتَغْفِرُونَ وَلَوْ كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ لَمَا عَذَّبُوا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا لَهُمْ إِلَّا لِيُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أَيِ : وَكَيْفَ لَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، أَيِ : الَّذِي بِمَكَّةَ : يَصُدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهُ عَنِ الصَّلَاةِ فِيهِ وَالطَّوَافِ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْأَلْمُتَّقُونَ ﴾ أَيِ : هُمْ لَيْسُوا أَهْلَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّمَا أَهْلُهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ، ﴿ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْأَلْمُتَّقُونَ ﴾ هُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَا كَانُوا يُعَامِلُونَهُ بِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾ الْمَاءُ : الصَّفِيرُ . وَالتَّصَدِيَةُ : التَّصْفِيقُ .
قَوْلُهُ : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ هُوَ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٦٤﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٥﴾

هِيَ عَامَّةٌ وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نَزُولِهَا خَاصًّا ، فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْكُفَّارَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ؛ لِيَصُدُّوا عَنْ إِتِّبَاعِ طَرِيقِ الْحَقِّ ، فَسَيَفْعَلُونَ ذَلِكَ ثُمَّ تَذْهَبُ أَمْوَالُهُمْ ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ أَيُّ : نَدَامَةً ، حَيْثُ لَمْ تُجَدْ شَيْئًا ؛ لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ وَظُهُورَ كَلِمَتِهِمْ عَلَىٰ كَلِمَةِ الْحَقِّ ، وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، وَنَاصِرُ دِينِهِ ، وَمُعْلِنُ كَلِمَتِهِ ، وَمُظْهِرُ دِينِهِ عَلَىٰ كُلِّ دِينٍ ، فَهَذَا الْحِزْيُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ، فَمَنْ عَاشَ مِنْهُمْ رَأَىٰ بَعِيْنِهِ وَسَمِعَ بِأُذُنِهِ مَا يَسُوُّهُ ، وَمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ أَوْ مَاتَ فَإِلَىٰ الْحِزْيِ الْأَبَدِيِّ وَالْعَذَابِ السَّرمِدِيِّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ .

وقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ قِيلَ الْمَعْنَى : فَيَمِيزُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ ، ﴿ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ ﴾ أَيُّ : يَجْمَعُهُ كُلَّهُ ، وَهُوَ جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّحَابِ ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ [النور : ٤٣] أَيُّ : مُتْرَاكِمَا مُتْرَاكِبًا ﴿ فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أَيُّ : هَؤُلَاءِ هُمُ الْخَاسِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٦﴾ وَقَتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِذَا انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ ۖ نِعَمَ الْمَوَالِي وَنِعَمَ النَّصِيرُ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ أَيُّ : عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُشَاقَّةِ وَالْعِنَادِ ، وَيَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِنَابَةِ ، ﴿ يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ أَيُّ : مِنْ كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ . ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ أَيُّ : يَسْتَمِرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾

أَيُّ : فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُنَا فِي الْأَوَّلِينَ ، أَمَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ عِنَادِهِمْ أَنَّا نُعَاجِلُهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ . قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنْتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أَيُّ : فِي قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ . ﴿ وَفَتَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ يَعْنِي : لَا يَكُونُ شِرْكٌ ، وَقِيلَ : ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ : حَتَّىٰ لَا يُفْتَنَ مُسْلِمٌ عَنْ دِينِهِ . ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ قَالَ فَرِيقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يُخْلِصُ التَّوْحِيدَ لِلَّهِ . وَقَالَ آخَرُونَ : أَنْ يُقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . ﴿ فَإِذَا أَنْتَهُوا ﴾ أَيُّ : بِقِتَالِكُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ ، فَكُفُّوا عَنْهُ وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا بِوَاطِنِهِمْ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] . وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَىٰ ﴿ فَاحْشَوْهُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ يُعِمُّ الْآمُولَ وَيَنْعَمُ النَّصِيرُ ﴾ أَيُّ : وَإِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ خِلَافِكُمْ وَمُخَارَبَتِكُمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ وَسَيِّدُكُمْ ، وَنَاصِرُكُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَىٰ تَفْصِيلَ مَا شَرَعَهُ مُخَصَّصًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الشَّرِيفَةِ - مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ - بِإِحْلَالِ الْغَنَائِمِ . وَالْغَنِيمَةُ : هِيَ الْمَالُ الْمَأْخُودُ مِنَ الْكُفَّارِ بِإِيحَافِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ ، وَالْفَيْءُ : مَا أَخَذَ مِنْهُمْ بغيرِ ذَلِكَ ، كَالْأَمْوَالِ الَّتِي يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا ، أَوْ يُتَوَفَّوْنَ عَنْهَا وَلَا وَارِثَ لَهُمْ ، وَالْجُزْيَةُ وَالْخَرَاجُ وَنَحْوُ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ تَوْكِيدٌ لِتَخْمِيسِ كُلِّ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ حَتَّىٰ الْخَيْطُ وَالْمَخِيطُ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَرِيدَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ قَالَ : الَّذِي لِلَّهِ فَلَنَبِيِّهِ ، وَالَّذِي لِلرَّسُولِ لِأَزْوَاجِهِ . وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ : خُمُسُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَاحِدٌ ، كَانَ يَحْمِلُ مِنْهُ وَيَصْنَعُ فِيهِ مَا شَاءَ ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ ، وَهَذَا أَعْمٌ وَأَشْمَلُ ، وَهُوَ أَنَّهُ ﷺ يَتَصَرَّفُ فِي الْخُمُسِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُ بِمَا شَاءَ ، وَيَرُدُّهُ فِي أُمَّتِهِ كَيْفَ شَاءَ ، وَقَدْ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْغَنَائِمِ شَيْءٌ يَصْطَفِيهِ لِنَفْسِهِ : عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ أَوْ فَرَسٌ أَوْ سَيْفٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ . وَأَمَّا سَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَىٰ : فَإِنَّهُ يُصَرَّفُ إِلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ ، وَبَنِي الْمُطَّلِبِ ؛ لِأَنَّ بَنِي الْمُطَّلِبِ وَارِثُوا بَنِي هَاشِمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ، وَدَخَلُوا مَعَهُمْ فِي الشَّعْبِ غَضَبًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحِمَايَةً لَهُ ، مُسْلِمُهُمْ طَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَكَافِرُهُمْ حِمِيَّةً لِلْعَشِيرَةِ وَأَنْفَةً وَطَاعَةً لِأَبِي طَالِبٍ عَمَّ رَسُولُ اللَّهِ

﴿ وَقَوْلُهُ ﴾ : ﴿ وَالْيَتَمَى ﴾ أَي : أَيَّتَامُ الْمُسْلِمِينَ ﴿ وَالْمَسْكِين ﴾ : هُمُ الْمَحَاوِجُ ، الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَسُدُّ خَلَّتَهُمْ وَمَسَكَّتَهُمْ ﴿ وَآتَى السَّبِيل ﴾ : هُوَ الْمُسَافِرُ ، أَوْ الْمُرِيدُ لِلسَّفَرِ إِلَى مَسَافَةٍ تُقْصَرُ فِيهَا الصَّلَاةُ ، وَلَيْسَ لَهُ مَا يُنْفِقُهُ فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ ، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ أَي : ائْتَمُّوا مَا شَرَعْنَا لَكُمْ مِنَ الْخُمُسِ فِي الْغَنَائِمِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى رَسُولِهِ . ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ اتَّقَى الْجَمْعَانِ ﴾ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ يُنَبِّئُ تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ ، بِمَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِدَرٍ ، وَيُسَمَّى الْفُرْقَانُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَعْلَى فِيهِ كَلِمَةُ الْإِبْيَانِ عَلَى كَلِمَةِ الْبَاطِلِ ، وَأُظْهِرَ دِينَهُ وَنَصَرَ نَبِيَّهُ وَحَزَبَهُ . وَيَوْمَ الْفُرْقَانِ : يَوْمُ بَدْرِ .

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاحْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْفُرْقَانِ : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ أَي : إِذْ أَنْتُمْ نَزُولُ بِعُدْوَةِ الْوَادِي الدُّنْيَا الْقَرِيبَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿ وَهُمْ ﴾ أَي : الْمُشْرِكُونَ نَزُولُ ﴿ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ أَي : الْبُعِيدَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى نَاحِيَةِ مَكَّةَ ﴿ وَالرَّكْبُ ﴾ أَي : الْعَبِيرُ الَّذِي فِيهِ أَبُو سُفْيَانَ بِمَا مَعَهُ مِنَ التَّجَارَةِ ﴿ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ أَي : مِمَّا يَلِي سَيْفَ الْبَحْرِ ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ ﴾ أَي : أَنْتُمْ وَالْمُشْرِكُونَ إِلَى مَكَانٍ ﴿ لِاحْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَدِ ﴾ . عَنْ عَبَادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ مِيعَادٍ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ ، ثُمَّ بَلَغَكُمْ كَثْرَةُ عَدَدِهِمْ وَقِلَّةُ عَدَدِكُمْ مَا لَقِيتُمُوهُمْ ، ﴿ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أَي لَيَقْضِي اللَّهُ مَا أَرَادَ بِقُدْرَتِهِ مِنْ إِعْزَازِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَإِذْلالِ الشُّرْكِ وَأَهْلِهِ ، مِنْ غَيْرِ مَلَأٍ مِنْكُمْ . ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ أَي أَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِنَّمَا جَمَعْتُكُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ؛ لِيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَرْفَعُ كَلِمَةَ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ؛ لِيَصِيرَ الْأَمْرُ ظَاهِرًا ، وَالْحُجَّةُ قَاطِعَةً ، وَالْبَرَاهِينُ سَاطِعَةً ، وَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ وَلَا شُبْهَةٌ ، فَحَيِّثُذِ يَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ ، أَي يَسْتَمِرُّ فِي الْكُفْرِ مَنْ اسْتَمَرَ فِيهِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ، أَنَّهُ مُبْطِلٌ لِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، ﴿ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ ﴾ أَي : يُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ ﴿ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ أَي : حُجَّةٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَالْإِبْيَانُ هُوَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ .

وَقَوْلُهُ ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ ﴾ أَي : لِدُعَائِكُمْ وَتَضَرُّعِكُمْ وَاسْتِغَاثَتِكُمْ بِهِ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أَي : بِكُمْ وَأَنْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ النَّصْرَ عَلَى أَعْدَائِكُمُ الْكَفَرَةَ الْمُعَانِدِينَ .

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْسَلْنَاهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ

وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَاتِبٌ مَفْعُولًا ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٤﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُمْ فِي مَنَامِهِ قَلِيلًا، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، فَكَانَ تَشْيِيتًا لَهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَرْنَكُمُ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾ أَي: لَجَبُتُمْ عَنْهُمْ، وَاخْتَلَفْتُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أَي: مِنْ ذَلِكَ بَأَن أَرَاكُمْ قَلِيلًا ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَي: بِمَا تُخْفِي الصُّمَائِرُ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ الْأَخْشَاءُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِهِمْ، إِذْ أَرَاهُمْ إِيَّاهُمْ قَلِيلًا فِي رَأْيِ الْعَيْنِ، فَيَجَرُّهُمْ عَلَيْهِمْ وَيُطَمِّعُهُمْ فِيهِمْ. ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ عَنْ عِكْرَمَةَ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ﴾ الْآيَةُ. قَالَ: حَضَضَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ. وَعَنْ عُبَادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَاتِبٌ مَفْعُولًا﴾ أَي: لِيُلْقِيَ بَيْنَهُمُ الْحَرْبَ لِلنِّقْمَةِ يَمُنْ أَرَادَ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُ، وَالْإِنْعَامَ عَلَى مَنْ أَرَادَ تَمَامَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ وَلَايَتِهِ، وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّهُ تَعَالَى أَغْرَى كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِالْآخِرِ وَقَلَّلَهُ فِي عَيْنِهِ لِيُطَمَعَ فِيهِ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْمُوَاجَهَةِ، فَلَمَّا التَحَمَّ الْقِتَالُ وَآيَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ، بَقِيَ حِزْبُ الْكُفَّارِ يَرَى حِزْبَ الْإِيمَانِ ضَعْفِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فُتُوتِنِ الْقَنَا فِئَةً تَقْبِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأًى الْعَيْنِ ۖ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وَهَذَا هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمَا حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾

هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ آدَابَ اللَّقَاءِ، وَطَرِيقَ الشَّجَاعَةِ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ الْأَعْدَاءِ، فَقَالَ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾. فَأَمَرَ تَعَالَى بِالثَّبَاتِ عِنْدَ قِتَالِ الْأَعْدَاءِ، وَالصَّبْرِ عَلَى مُبَارَرَتِهِمْ، فَلَا يَفِرُّوا وَلَا يُنْكَلُوا وَلَا يَجْبُنُوا، وَأَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَلَا يَنْسُوهُ، بَلْ يَسْتَعِينُوا بِهِ وَيَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، وَيَسْأَلُوهُ النَّصَرَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَأَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ، فَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ إِثْمَرُوا. وَمَا نَهَاَهُمْ عَنْهُ انْزَجَرُوا، وَلَا يَتَنَازَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَيْضًا فَيَخْتَلِفُوا، فَيَكُونَ سَبَبًا لِتَخَادُحِهِمْ وَفَشْلِهِمْ ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أَي:

قُوَّتُكُمْ وَحَدَّثَكُمْ ، وَمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْإِقْبَالِ ، ﴿ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوًى لَّا دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِخْلَاصِ فِي الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِ ، نَاهِيًا هُمْ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالْمُشْرِكِينَ فِي خُرُوجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴿ بَطَرًا ﴾ ، أَيُّ : دَفْعًا لِلْحَقِّ ﴿ وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾ وَهُوَ الْمُفَاخَرَةُ وَالتَّكَبُّرُ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ أَبُو جَهْلٍ لَمَّا قِيلَ لَهُ : إِنَّ الْعِيرَ قَدْ نَجَا فَأَرْجِعُوا ، فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَّ مَاءَ بَدْرٍ ، وَنَنْخَرَ الْجُزُرَ ، وَنَشْرَبَ الْحُمْرَ ، وَتَغْرِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ ، وَتَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بِمَكَانِنَا فِيهَا يَوْمَنَا أَبَدًا ، فَاثْنَعَكْسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَجْمَعُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا وَرَدُوا مَاءَ بَدْرٍ وَرَدُّوا بِهِ الْحِمَامَ ، وَرَكِبُوا فِي أَطْوَاءِ بَدْرِ مُهَانِينَ أَذْلَاءَ ، صَغَرَةَ أَشْقِيَاءَ ، فِي عَذَابٍ سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أَيُّ : عَالِمٌ بِمَا جَاءُوا بِهِ وَلَهُ ؛ وَهَذَا جَزَاءُهُمْ عَلَيْهِ شَرَّ الْجَزَاءِ لَهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ الْآيَةُ ، حَسَنٌ لَهُمْ - لَعَنَهُ اللَّهُ - مَا جَاءُوا لَهُ ، وَمَا هُمُوا بِهِ ، وَأَطْمَعَهُمْ أَنَّهُ لَا غَالِبَ لَهُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَنَفَى عَنْهُمْ الْحَشْيَةَ مِنْ أَنْ يُؤْتُوا فِي دِيَارِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ بَنِي بَكْرِ ، فَقَالَ : إِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَدَّى لَهُمْ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ سَيِّدِ بَنِي مُذَلِّجٍ ، كَبِيرِ تِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَكُلَّ ذَلِكَ مِنْهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوًى لَّا دِينُهُمْ ﴾ ذَكَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ : لَمَّا دَنَا الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، قَلَّلَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَلَّلَ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : غَرَّ هَوًى لَّا دِينُهُمْ ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ قِلَّتِهِمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ سَيَهْزِمُونَهُمْ ، لَا يَشْكُونُ فِي ذَلِكَ . ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أَيُّ : يَعْتَمِدْ عَلَى جَنَابِهِ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أَيُّ : لَا يُضَامُ مَنْ التَّجَأَ إِلَيْهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ مُنِيعُ الْجَنَابِ عَظِيمُ السُّلْطَانِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي أَعْمَالِهِ ، لَا يَضَعُهَا إِلَّا فِي مَوَاضِعِهَا ، فَيَنْصُرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ ، وَيُخْذِلُ مَنْ هُوَ أَهْلُ لِدَلِكِ .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٦﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَوْ عَايَنْتَ يَا مُحَمَّدُ حَالَ تَوَفَّى الْمَلَائِكَةُ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ، لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا هَائِلًا فَظِيمًا مُنْكَرًا ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ وَيَقُولُونَ هُمْ: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَأَدْبَرَهُمْ﴾: اسْتَأْهَهُمْ، قَالَ: يَوْمَ بَدْرٍ. وَهَذَا السِّيَاقُ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهُ وَقَعَهُ بَدْرٍ، وَلَكِنَّهُ عَامٌّ فِي حَقِّ كُلِّ كَافِرٍ، وَهَذَا لَمْ يُحْصِصْهُ تَعَالَى بِأَهْلِ بَدْرٍ، بَلْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] أَي: بِأَسْطُو أَيْدِيهِمْ بِالضَّرْبِ فِيهِمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ، إِذَا اسْتَصْعَبَتْ أَنْفُسُهُمْ وَامْتَنَعَتْ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْأَجْسَادِ، أَنْ تَخْرُجَ قَهْرًا، وَذَٰلِكَ إِذَا بَشَّرُوهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْغَضَبِ مِنَ اللَّهِ، وَهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ هُمْ: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ أَي: هَذَا الْجَزَاءُ بِسَبَبِ مَا عَمِلْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا جَازَاكُمْ اللَّهُ بِهَا هَذَا الْجَزَاءَ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أَي: لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ بَلْ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ.

كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: فَعَلَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِمَا أُرْسِلْتُ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، كَمَا فَعَلَ الْأُمَمُ الْمُكَذِّبَةُ قَبْلَهُمْ، فَفَعَلْنَا بِهِمْ مَا هُوَ دَأْبُنَا، أَي: عَادَتُنَا وَسُنَّتُنَا فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ، الْكَافِرِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَي: بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، أَهْلَكَهُمْ وَأَخَذَهُمُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَي: لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، وَلَا يَقْوِيهِ هَارِبٌ.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٦٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ فِي حُكْمِهِ بِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُغَيِّرُ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ أَحَدٍ إِلَّا بِسَبَبِ ذَنْبٍ إِرْتِكَبَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أَي: كَصُنْعِهِ بِآلِ فِرْعَوْنَ

وَأَمْثَلُهُمْ حِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِهِ ، أَهْلَكَهُمْ بِسَبَبِ دُؤُوبِهِمْ وَسَلَبَهُمْ تِلْكَ النِّعَمَ الَّتِي أَسَدَاهَا إِلَيْهِمْ مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ بَلْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ .

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْقَةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٥٧﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ شَرَّ مَا دَبَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَقَضُوهُ ، وَكَلَّمَا أَكْدُوهُ بِالْأَيْمَانِ نَكثُوهُ ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يَخَافُونَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ اِزْتَكَبُوهُ مِنَ الْأَنَامِ . ﴿ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ أَيُّ : تَغْلِبُهُمْ وَتَطْفُرُ بِهِمْ فِي حَرْبٍ : ﴿ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ ﴾ أَيُّ : نَكِّلْ بِهِمْ ، وَمَعْنَاهُ : غَلَّظْ عِقُوبَتَهُمْ ، وَأَنَّا خَنَهُمْ قِتْلًا لِيَخَافَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ ، وَيَصِيرُوا لَهُمْ عِبْرَةً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴾ ، قَالَ السُّدِّيُّ : يَقُولُ : لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ أَنْ يَنْكُثُوا فَيُصْنَعُ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ .

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ ﴾ قَدْ عَاهَدْتَهُمْ ﴿ خِيَانَةً ﴾ أَيُّ : نَقَضُوا لِمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْمَوَاقِفِ وَالْعُهُودِ ﴿ فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : عَاهَدَهُمْ ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أَيُّ : أَعْلَمَهُمْ بِأَنَّكَ قَدْ نَقَضْتَ عَهْدَهُمْ حَتَّى يَبْقَى عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ بِأَنَّكَ حَرْبٌ لَهُمْ وَهُمْ حَرْبٌ لَكَ ، وَأَنَّهُ لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ تَسْتَوِي أَنْتَ وَهُمْ فِي ذَلِكَ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴾ أَيُّ : حَتَّى وَلَوْ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ لَا يُحِبُّهَا أَيْضًا .

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ أَيُّ : فَاتُونَا فَلَا نَقْدِرُ عَلَيْهِمْ ، بَلْ هُمْ تَحْتَ قَهْرٍ قُدْرَتِنَا ، وَفِي قَبْضَةِ مَشِيئَتِنَا ، فَلَا يُعْجِزُونَنَا ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِإِعْدَادِ آلَاتِ الْحَرْبِ لِمُقَاتَلَتِهِمْ حَسَبَ الطَّاقَةِ وَالْإِمْكَانِ وَالِاسْتِطَاعَةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا

أَسْتَطَعْتُمْ ﴿١﴾ أَيُّ : مَهْمَا أَمْكَنْكُمْ ﴿٢﴾ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴿٣﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿٤﴾ تَرْهَبُونَ ﴿٥﴾ أَيُّ : تُخَوِّفُونَ ﴿٦﴾ بِمِ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّكُمْ ﴿٧﴾ أَيُّ : مِّنَ الْكُفَّارِ ﴿٨﴾ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ ﴿٩﴾ قِيلَ : يَعْنِي : بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَقِيلَ : هُمُ الْمُنَافِقُونَ . وَقَوْلُهُ : ﴿١٠﴾ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿١١﴾ أَيُّ : مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ فِي الْجِهَادِ ، فَإِنَّهُ يُوفَّى إِلَيْكُمْ عَلَى التَّامِّ وَالْكَمَالِ .

﴿١٢﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ تَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَتَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِذَا خِفْتُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ، فَاذْبِذْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، فَإِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى حَزْبِكَ وَمُنَابَذَتِكَ فَقَاتِلْهُمْ ﴿١٦﴾ وَإِنْ جَنَحُوا ﴿١٧﴾ أَيُّ : مَالُوا ﴿١٨﴾ لِلْسَّلَامِ ﴿١٩﴾ أَيُّ : الْمُسَالَمَةِ وَالْمَصَاحَةِ وَالْمُهَادَنَةِ ﴿٢٠﴾ فَاجْنَحْ لَهَا ﴿٢١﴾ أَيُّ : فَمِلْ إِلَيْهَا ، وَاقْبَلْ مِنْهُمْ ذَلِكَ . ﴿٢٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴿٢٣﴾ أَيُّ : صَاحِلْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ ، وَلَوْ كَانُوا يُرِيدُونَ بِالصِّلْحِ خُدَيْعَةً ؛ لَيَتَّقُوا وَيَسْتَغِدُّوا ﴿٢٤﴾ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴿٢٥﴾ أَيُّ : كَافِيكَ وَحُدَّهُ ، ﴿٢٦﴾ هُوَ الَّذِي أَتَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴿٢٨﴾ أَيُّ : جَمَعَهَا عَلَى الْإِيمَانِ بِكَ ، وَعَلَى طَاعَتِكَ ، وَمُنَاصَرَتِكَ وَمُؤَاوَزَتِكَ . ﴿٢٩﴾ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴿٣٠﴾ أَيُّ : لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، فَإِنَّ الْأَنْصَارَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، وَأُمُورٌ يَلْزَمُ مِنْهَا التَّسْلُسُ فِي الشَّرِّ ، حَتَّى قَطَعَ اللَّهُ ذَلِكَ بِنُورِ الْإِيمَانِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٣١﴾ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٢﴾ أَيُّ : عَزِيزُ الْجَنَابِ ، فَلَا يُحِبُّ رَجَاءَ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ .

يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣٤﴾ أَلَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٣٥﴾

يُحَرِّضُ تَعَالَى نَبِيَّهٗ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، وَمُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُبَارَزَةِ الْأَقْرَانِ ، وَيُخَبِّرُهُمْ أَنَّهُ حَسْبُهُمْ ، أَيُّ : كَافِيهِمْ وَنَاصِرُهُمْ ، وَمُؤَيِّدُهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ وَإِنْ

كَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ وَتَرَادَفَتْ أُمْدَادُهُمْ ، وَلَوْ قَلَّ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ أَي : حُتُّهُمْ وَذَمُّرٌ عَلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرًا : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ كُلُّ وَاحِدٍ بِعَشْرَةٍ ، ثُمَّ نُسِخَ هَذَا الْأَمْرُ وَبَقِيَتِ الْبِشَارَةُ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ ، ثُمَّ جَاءَ التَّخْفِيفُ ، فَقَالَ : ﴿ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ قَالَ : خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعِدَّةِ ، وَنَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدَرٍ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ . وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ ﷺ : كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ عَشْرُونَ مِنْ مِائَتَيْنِ ، ثُمَّ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَقَالَ : ﴿ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ فَلَا يَنْبَغِي لِمِائَةٍ أَنْ يَفِرُّوا مِنْ مِائَتَيْنِ .

مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٤٠﴾ لَوْلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لِمَسْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٢﴾

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : اسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ فِي الْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ » فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَمْسِ » فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَى أَنَّ تَعْفُو عَنْهُمْ ، وَأَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ ، قَالَ : فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْعَمِّ ، فَعَقَا عَنْهُمْ وَقَبِلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ ، قَالَ : وَانْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ لَوْلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لِمَسْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ﴾ ، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ : ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . قَالَ : غَنَائِمٌ بَدْرٍ قَبْلَ أَنْ يُحِلَّهَا لَهُمْ ، يَقُولُ : لَوْلَا أَنِّي لَا أَعَذِّبُ مَنْ عَصَانِي حَتَّى أُنْقِذَ إِلَيْهِ ، لِمَسْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ﴿ لَوْلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ ﴾ أَي : هُمْ بِالْمَغْفِرَةِ . وَقِيلَ : ﴿ لَوْلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ ﴾ يَعْنِي : فِي أَمِّ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ، أَنَّ الْمَغَانِمَ وَالْأَسَارَى حَلَالٌ لَكُمْ ، ﴿ لِمَسْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾ مِنَ الْأَسَارَى ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ الْآيَةُ . فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذُوا مِنَ الْأَسَارَى الْفِدَاءَ .

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

بَعَثْتُ قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي فِدَاءِ أَسْرَاهُمْ ، فَقَدَى كُلُّ قَوْمٍ أَسِيرَهُمْ بِمَا رَضُوا ، وَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ كُنْتُ مُسْلِمًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ ، فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَإِنَّ اللَّهَ يَجْزِيكَ ، وَأَمَّا ظَاهِرُكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا ، فَاتَدِّ نَفْسَكَ وَابْنِي أَخِيكَ : نُوْفَلُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَعَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرِو أَخِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ » قَالَ : مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَهُ أَنْتَ وَأُمُّ الْفَضْلِ ؟ فَقُلْتُ لَهَا : إِنْ أُصِيبْتُ فِي سَفَرِي هَذَا فَهَذَا الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَهُ لِبَنِي الْفَضْلِ وَعَبْدُ اللَّهِ وَقَتْمٌ » قَالَ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمِّ الْفَضْلِ ، فَاحْسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أُصِيبْتُ مِنْ عِشْرِينَ أُوقِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا ، ذَاكَ شَيْءٌ أَعْطَانَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْكَ » فَقَدَى نَفْسَهُ وَابْنِي أَخَوِيهِ وَحَلِيفَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وَقَوْلُهُ : « وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ » أَيُّ : فِيمَا أَظْهَرُوا لَكَ مِنَ الْأَقْوَالِ ، « فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ » ، أَيُّ : مِنْ قَبْلِ بَدْرِ ، بِالْكَفْرِ بِهِ ، « فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ » أَيُّ : بِالْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرِ « وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أَيُّ : عَلِيمٌ بِفِعْلِهِ حَكِيمٌ فِيهِ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنَ وَلَٰئِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧﴾

ذَكَرَ تَعَالَى أَصْنَافَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَسَمَهُمْ إِلَىٰ مُهَاجِرِينَ : خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَجَاءُوا لِنَصْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ ، وَبَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ ، وَإِلَىٰ أَنْصَارٍ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِذْ ذَاكَ ، آوَوْا إِخْوَانَهُمُ الْمُهَاجِرِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ ، وَوَأَسَوْهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ ، وَنَصَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِالْقِتَالِ مَعَهُمْ ، فَهَؤُلَاءِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، أَيُّ : كُلُّ مِنْهُمْ أَحَقُّ بِالْآخِرِ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ ، وَلِهَذَا أَخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ كُلِّ اثْنَيْنِ أَخَوَانٍ ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ

بِذَلِكَ إِزْنًا مُّقَدِّمًا عَلَى الْقَرَابَةِ ، حَتَّى نَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِالْمَوَارِيثِ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ هَذَا هُوَ
 الصَّنْفُ الثَّالِثُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا ، بَلْ أَقَامُوا فِي بُوَادِيهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ
 لَيْسَ لَهُمْ فِي الْمَغَانِمِ نَصِيبٌ ، وَلَا فِي مُحْسِنِهَا إِلَّا مَا حَصَرُوا فِيهِ الْقِتَالُ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ
 هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ ، الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا فِي قِتَالِ دِينِي ، عَلَى عَدُوِّهِمْ فَانْصُرُوهُمْ ، فَإِنَّهُ وَاجِبٌ
 عَلَيْكُمْ نَصْرُهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصِرُوكُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿ بَيْنَكُمْ
 وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ﴾ أَيُّ : مُهَادَنَةٌ إِلَى مُدَّةٍ فَلَا تُخْفَرُوا ذِمَّتْكُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا أَيْمَانَكُمْ مَعَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ .
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٦٠﴾
 لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، قَطَعَ الْمَوَالَاةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
 ﷺ : « لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ » . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي
 الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ أَيُّ : إِنْ لَمْ تُجَانِبُوا الْمُشْرِكِينَ وَتَوَالَوْا الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا وَقَعَتْ فِتْنَةٌ فِي النَّاسِ ،
 وَهُوَ الْبِتَّاسُ الْأَمْرُ وَاجْتِلَاطُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَافِرِينَ ، فَيَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ فَسَادٌ مُّتَشَشِرٌ عَرِيضٌ طَوِيلٌ .
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَكَ
 هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا
 وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ
 اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا عَطَفَ بِذِكْرِ مَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِحَقِيقَةِ
 الْإِيمَانِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ سَيَجَازِيهِم بِالْمَغْفِرَةِ وَالصَّفْحِ عَنِ الذُّنُوبِ إِنْ
 كَانَتْ ، وَبِالرِّزْقِ الْكَرِيمِ وَهُوَ الْحَسَنُ الْكَثِيرُ الطَّيِّبُ الشَّرِيفُ ، دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا لَا يَنْقَطِعُ وَلَا
 يَنْقُضِي ، وَلَا يُسَامُ وَلَا يَمَلُّ لِحُسْنِهِ وَتَنَوُّعِهِ . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْأَتْبَاعَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ
 مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَهُمْ مَعَهُمْ فِي الْآخِرَةِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
 أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : فِي حُكْمِ اللَّهِ ، وَالْآيَةُ عَامَّةٌ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْقَرَابَاتِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ
 وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ الْبَرَاءُ : آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء : ١٧٦] ، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ : بَرَاءَةٌ ، وَإِنَّمَا لَمْ يُسْمَلْ فِي أَوَّلِهَا ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكْتُبُوا الْبَسْمَلَةَ فِي أَوَّلِهَا فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ ، بَلِ اقْتَدَوْا فِي ذَلِكَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَانَ بْنِ عَفَّانٍ ؓ وَأَرْضَاهُ .

وَأَوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُمْ بِالْحَجِّ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَحْضُرُونَ عَامَهُمْ هَذَا الْمَوْسِمَ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، فَكَرِهَ مُحَالِفَتَهُمْ ، وَبَعَثَ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ ؓ أَمِيرًا عَلَى الْحَجِّ هَذِهِ السَّنَةِ ، لِيُقِيمَ لِلنَّاسِ مَنَاسِكَهُمْ وَيُعَلِّمَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ لَا يَحْجُوا بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَأَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ «بِرَاءَةٌ» فَلَمَّا قَفَلَ أَتَبَعَهُ بَعْلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؓ لِيَكُونَ مُبْلَغًا عَنْ رَسُولِهِ ﷺ لِيَكُونَ عَصَبَةً لَهُ ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيُ : هَذِهِ بَرَاءَةٌ ، أَيُ : تَبَرُّؤُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴿٢﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ هَهُنَا اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَقَالَ قَائِلُونَ : هَذِهِ الْآيَةُ لِذَوِي الْعُهُودِ الْمُطْلَقَةِ غَيْرِ الْمُؤَقَّتَةِ ، أَوْ مَنْ لَهُ عَهْدٌ دُونَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَيَكْمَلُ لَهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مُؤَقَّتٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ مَهْمَا كَانَ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ الْآيَةُ ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ ، وَهَذَا أَحْسَنُ الْأَقْوَالِ وَأَقْوَاهَا .

وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَذِيرٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْإِيمِ ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِعْلَامٌ ﴿١﴾ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٢﴾ وَإِنْدَارٌ إِلَى النَّاسِ ﴿٣﴾ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴿٤﴾ وَهُوَ يَوْمُ النَّحْرِ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ أَيَّامِ الْمَنَاسِكِ وَأَظْهَرُهَا وَأَكْبَرُهَا جَمِيعًا ﴿٥﴾ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴿٦﴾ أَيُ : بَرِيءٌ مِنْهُمْ أَيْضًا ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿فَإِنْ تَابْتُمْ﴾ أَيُ : مِمَّا أَنتُمْ

فِيهِ مِنَ الشَّرِّ وَالضَّلَالِ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أَي : اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ فِي قَبْضَتِهِ ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَمَشِيتِهِ ﴿ وَنَبِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا بِالْخِزْيِ وَالنَّكَالِ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْمَقَامِعِ وَالْأَغْلَالِ . وَيَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ : يَوْمَ النَّحْرِ ، وَإِنَّمَا قِيلَ الْأَكْبَرُ مِنْ أَجْلِ قَوْلِ النَّاسِ : الْحَجُّ الْأَصْغَرُ .

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩١﴾

هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنْ ضَرْبِ مُدَّةِ التَّأْجِيلِ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ لِمَنْ لَهُ عَهْدٌ مُطْلَقٌ لَيْسَ بِمُؤَقَّتٍ ، فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ يَذْهَبُ فِيهَا لِيَنْجُو بِنَفْسِهِ حَيْثُ شَاءَ ، إِلَّا مَنْ لَهُ عَهْدٌ مُؤَقَّتٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ الْمَضْرُوبَةِ الَّتِي عُوِّدَ عَلَيْهَا ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ ، وَذَلِكَ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَنْقُضَ الْمَعَاهِدَ عَهْدَهُ وَلَمْ يُظَاهِرْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا ، أَيْ يُمَالِئُ عَلَيْهِمْ مَنْ سِوَاهُمْ ، فَهَذَا الَّذِي يُوقَى لَهُ بِدَمَتِهِ وَعَهْدِهِ إِلَى مُدَّتِهِ ، وَهَذَا حَرَضٌ تَعَالَى عَلَى الْوَفَاءِ بِذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أَي : الْمُوفِينَ بِعَهْدِهِمْ .

فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِالْأَشْهُرِ الْحُرْمِ هَهُنَا مَا هِيَ ؟ ، وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ حَيْثُ السِّيَاقُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا أَشْهُرُ التَّنْصِيرِ الْأَرْبَعَةَ الْمَنْصُوصَ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ ﴾ أَي : إِذَا انْقَضَتْ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي حَرَّمْنَا عَلَيْكُمْ فِيهَا قِتَالَهُمْ وَأَجْلَنَاهُمْ فِيهَا ، فَحَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ . ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ أَي : مِنَ الْأَرْضِ ، وَهَذَا عَامٌّ ، وَالْمَشْهُورُ تَخْصِيصُهُ بِتَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْبِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ [البقرة: ١٩١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ أَي : وَأَسِرُوهُمْ إِنْ شِئْتُمْ قَتْلًا ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَسْرًا ، ﴿ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾ أَي : لَا تَكْتَفُوا بِمَجَرَّدِ وَجْدَانِكُمْ لَهُمْ ، بَلْ افْصِدُوهُمْ بِالْحِصَارِ فِي مَعَالِقِهِمْ وَخُصُونِهِمْ ، وَالرَّصْدُ فِي طَرْقِهِمْ وَمَسَالِكِهِمْ حَتَّى تُضَيِّقُوا عَلَيْهِمُ الْوَاسِعَ ، وَتَضْطَرُّوهُمْ إِلَى الْقَتْلِ أَوْ الْإِسْلَامِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا

سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ وَهَذَا اعْتَمَدَ الصَّدِيقُ   فِي قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَأَمْتَالِهَا ، حَيْثُ حَرَمَتْ قِتَالَهُمْ بِشَرْطِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ آيَةُ السَّيْفِ الَّتِي قَالَ فِيهَا الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ : أَمَّا نَسَخَتْ كُلَّ عَهْدٍ بَيْنَ النَّبِيِّ   وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَكُلَّ عَقْدٍ وَكُلَّ مِدَّةٍ .

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَا مَنَّهُ   ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الَّذِينَ أَمَرْتُكَ بِقِتَالِهِمْ وَأَخْلَلْتُ لَكَ اسْتِيبَاحَةَ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ اسْتَجَارَكَ ﴾ أَيُّ : اسْتَأْمَنَكَ ، فَأَجِبْهُ إِلَى طَلِبَتِهِ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ : أَيُّ الْقُرْآنِ ، تَقْرُؤُهُ عَلَيْهِ وَتَذَكُّرُ لَهُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ ، تُقِيمُ بِهِ عَلَيْهِ حُجَّةَ اللَّهِ ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَا مَنَّهُ ﴾ أَيُّ : وَهُوَ آمِنٌ مُسْتَمِرٌّ الْأَمَانِ ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بِلَادِهِ وَدَارِهِ وَمَا مَنَّهُ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا شَرَعْنَا أَمَانًا مِثْلَ هَؤُلَاءِ ، لِيَعْلَمُوا دِينَ اللَّهِ ، وَتَنْتَشِرَ دَعْوَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢﴾

بَيَّنَّ تَعَالَى حِكْمَتَهُ فِي الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَنَظَرَتُهُ إِيَّاهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ السَّيْفُ الْمُرْهِفُ أَيْنَ تَقِفُوا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ أَيُّ : أَمَانٌ ، وَيُتْرَكُونَ فِيهَا هُمْ فِيهِ ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ كَافِرُونَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ﴾ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿ يَعْنِي : يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ﴾ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ أَيُّ : مَهْمَا تَمَسَّكُوا بِهَا عَاقَدْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَعَاقَدْتُمُوهُمْ مِنْ تَرْكِ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَشْرَ سِنِينَ ﴿ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَدْ فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ   ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ . اسْتَمَرَّ الْعَقْدُ وَاهْتَدَتْهُ مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ فِي سَنَةِ سِتٍّ إِلَى أَنْ نَقَضَتْ فُرَيْشُ الْعَهْدَ ، وَمَالَثُوا حُلَفَاءَهُمْ وَهُمْ بَنُو بَكْرِ عَلَى خُرَاعَةِ أَحْلَافِ رَسُولِ اللَّهِ   فَقَتَلُوهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَرَمِ أَيْضًا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ غَزَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ   فِي رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانٍ ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْبَلَدَ الْحَرَامَ وَمَكَّنَهُ مِنْ تَوَاصِيهِمْ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْرَجًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُعَادَاةِ الْمُشْرِكِينَ وَالتَّبَرِّيِّ مِنْهُمْ ، وَمُبَيِّنًا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَهْدٌ لِيُشْرِكِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَكُفِّرَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا تَنْهَى لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا ظَاهِرُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَدِلُّوهُمْ عَلَيْهِمْ لَمْ يُنْفِقُوا وَلَمْ يَذَرُوا ، وَلَا رَاقِبُوا فِيهِمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْإِلَّالُ : الْقَرَابَةُ ، وَالذِّمَّةُ : الْعَهْدُ .

أَشْتَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠١﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفُصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِمًّا لِلْمُشْرِكِينَ وَحَثًّا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ ﴿أَشْتَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ اعْتَاَضُوا عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ بِمَا إِلْتَهَوْا بِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْخَسِيسَةِ ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَيُّ : مَنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ، وَكَذَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إِلَى آخِرِهَا تَقَدَّمَ .

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَنَتَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿وَإِنْ نَكَثُوا﴾ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ عَلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ﴿أَيْمَنَتَهُمْ﴾ أَيُّ : عَاهَدْتُمُوهُمْ وَمَوَائِقَهُمْ ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أَيُّ : عَابَوْهُ وَانْتَقَصُوهُ ، وَمِنْ هَهُنَا أُخِذَ قَتْلُ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَوْ مَنْ طَعَنَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ ذَكَرَهُ بِنَقْصٍ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ أَيُّ : يَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالضَّلَالِ .

أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَتَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ فَأَلَّاهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾ وَيُذْهِبَ غِظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

وَهَذَا أَيْضًا تَهْيِيجٌ وَتَحْضِيضٌ وَإِغْرَاءٌ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ النَّاكِثِينَ لِأَيْمَانِهِمُ الَّذِينَ هُمَّا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ مِنْ مَكَّةَ . قَوْلُهُ : ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ يَوْمُ بَدْرِ حِينَ خَرَجُوا

لِنَصْرِ عِبْرِهِمْ ، فَلَمَّا نَجَتْ وَعَلِمُوا بِذَلِكَ اسْتَمَرُّوا عَلَى وَجْهِهِمْ طَلَبًا لِلْقِتَالِ بَغْيًا وَتَكَبُّرًا .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ اَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : لَا تَخْشَوْهُمْ
 وَاحْشَوْنِ ، فَإِنَّا أَهْلُ أَنْ يَخْشَى الْعِبَادُ مِنْ سَطَوَاتِي وَعُقُوبَاتِي ، فَيُيَدِّي الْأَمْرُ وَمَا شِئْتُ كَانَ وَمَا لَمْ
 أَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى عَزِيمَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَيَانًا لِحُكْمَتِهِ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْجِهَادِ مَعَ
 قُدْرَتِهِ عَلَى إِهْلَاكِ الْأَعْدَاءِ بِأَمْرِ مِنْ عِنْدِهِ ﴿ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتُخْزِهِمْ وَنَبْصُرْكُمْ
 عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ ٦ وَيَذْهَبَ غِيْظَ قُلُوبِهِمْ ۚ وَهَذَا عَامٌّ فِي الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ .
 ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ۚ أَيُّ : مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ۚ أَيُّ : بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ ۚ حَكِيمٌ ۚ فِي
 أَفْعَالِهِ ، وَأَقْوَالِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ ، فَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَيُحْكُمُ مَا يُرِيدُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْحَاكِمُ
 الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا ، وَلَا يُضَيِّعُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، بَلْ يُجَارِي عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

أَمَ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
 وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمَ حَسِبْتُمْ ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تُتْرَكُكُمْ مُهْمَلِينَ لَا نَخْتَرِكُمْ بِأُمُورٍ يَظْهَرُ فِيهَا
 أَهْلُ الْعَزْمِ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ ۚ أَيُّ : بِطَانَةٍ وَدَخِيلَةٍ بَلْ هُمْ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ عَلَى
 النُّصْحِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، فَاتَّخَذَ بِأَحَدِ الْقِسْمَيْنِ عَنِ الْآخَرِ .

وَالْحَاصِلُ : أَنَّهُ - تَعَالَى - لَمَّا شَرَعَ لِعِبَادِهِ الْجِهَادَ بَيَّنَّ أَنْ لَهُ فِيهِ حِكْمَةٌ ، وَهُوَ اخْتِبَارُ عِبِيدِهِ
 مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعِصِيهِ ، وَهُوَ تَعَالَى الْعَالِمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ
 حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ
 يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مَا يَنْبَغِي لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى اسْمِهِ وَخَدَهُ لَا
 شَرِيكَ لَهُ ، هَذَا وَهُمْ شَاهِدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أَيُّ : بِحَالِهِمْ وَقَالِهِمْ ، ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتِ
 أَعْمَالُهُمْ ۚ أَيُّ : بِشُرْكِهِمْ ۚ ﴾ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۚ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ
 وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ [الأفال : ٣٤] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ﴾ فَشَهِدَ تَعَالَى بِالْإِيمَانِ لِعِمَارِ الْمَسَاجِدِ . ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ أَي : الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ عِبَادَاتِ
الْبَدَنِ ﴿ وَءَاتَى الزَّكَاةَ ﴾ أَي : الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ إِلَى بَرِّ الْخَلَائِقِ ، ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا
اللَّهَ ﴾ أَي : وَلَمْ يَخَفْ إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَمْ يَخْشَ سِوَاهُ ﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَكُلُّ عَسَىٰ فِي الْقُرْآنِ فِيهِ وَاجِبَةٌ .

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ] يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ
مُقِيمٌ [الَّذِينَ خَلَدُوا فِيهَا أَبَدًا] إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [٣٥]

خَيْرَ اللَّهِ الْإِيمَانَ وَالْجِهَادَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عِمَارَةِ الْمَشْرُكِينَ الْبَيْتِ ، وَفِيَامِهِمْ عَلَى السَّقَايَةِ ،
وَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَعَ الشَّرْكِ بِهِ وَإِنْ كَانُوا يَعْمُرُونَ بَيْتَهُ وَيُحْرِمُونَ بِهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَهْلُ الْعِمَارَةِ
فَسَمَّاهُمْ اللَّهُ ظَالِمِينَ بِشَرِكِهِمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ الْعِمَارَةُ شَيْئًا .

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ،
فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ لِلَّهِ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَسْقِيَ الْحَاجَّ . وَقَالَ آخَرُ :
بَلْ عِمَارَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَقَالَ آخَرُ : بَلِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا قُلْتُمْ ، فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ بْنُ
الْحَطَّابِ ؓ وَقَالَ : لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَلَكِنْ
إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ . قَالَ : فَفَعَلَ فَأَنْزَلَ ،
اللَّهُ ﷻ ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

يَنَاقِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ
عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [٣٦] قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ
وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَحْشَوْنَ كَسَادَهَا
وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى
يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [٣٧]

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِمُبَايَنَةِ الْكُفَّارِ بِهِ وَإِنْ كَانُوا آبَاءَ أَوْ أَبْنَاءَ ، وَنَهَى عَنْ مُوَالَاتِهِمْ إِنْ اسْتَحَبُّوا :
أَيِ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَتَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ . ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَتَوَعَّدَ مَنْ أَكْرَأَ أَهْلَهُ
وَقَرَابَتَهُ وَعَشِيرَتَهُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَقَالَ : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ
وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أَيِ : اِكْتَسَبْتُمُوهَا وَحَصَلْتُمُوهَا ﴿ وَخِجْرَةٌ
تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ أَيِ : تُحِبُّونَهَا لِطَبِيعِهَا وَحُسْنِهَا . أَيِ : إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ
﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ أَيِ : فَانْتَظِرُوا مَاذَا يَحِلُّ بِكُمْ مِنْ
عِقَابِهِ وَنَكَالِهِ بِكُمْ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ ١٠٠ ۝ ١٠١ ۝ ١٠٢ ۝ ١٠٣ ۝ ١٠٤ ۝ ١٠٥ ۝ ١٠٦ ۝ ١٠٧ ۝ ١٠٨ ۝ ١٠٩ ۝ ١١٠ ۝ ١١١ ۝ ١١٢ ۝ ١١٣ ۝ ١١٤ ۝ ١١٥ ۝ ١١٦ ۝ ١١٧ ۝ ١١٨ ۝ ١١٩ ۝ ١٢٠ ۝ ١٢١ ۝ ١٢٢ ۝ ١٢٣ ۝ ١٢٤ ۝ ١٢٥ ۝ ١٢٦ ۝ ١٢٧ ۝ ١٢٨ ۝ ١٢٩ ۝ ١٣٠ ۝ ١٣١ ۝ ١٣٢ ۝ ١٣٣ ۝ ١٣٤ ۝ ١٣٥ ۝ ١٣٦ ۝ ١٣٧ ۝ ١٣٨ ۝ ١٣٩ ۝ ١٤٠ ۝ ١٤١ ۝ ١٤٢ ۝ ١٤٣ ۝ ١٤٤ ۝ ١٤٥ ۝ ١٤٦ ۝ ١٤٧ ۝ ١٤٨ ۝ ١٤٩ ۝ ١٥٠ ۝ ١٥١ ۝ ١٥٢ ۝ ١٥٣ ۝ ١٥٤ ۝ ١٥٥ ۝ ١٥٦ ۝ ١٥٧ ۝ ١٥٨ ۝ ١٥٩ ۝ ١٦٠ ۝ ١٦١ ۝ ١٦٢ ۝ ١٦٣ ۝ ١٦٤ ۝ ١٦٥ ۝ ١٦٦ ۝ ١٦٧ ۝ ١٦٨ ۝ ١٦٩ ۝ ١٧٠ ۝ ١٧١ ۝ ١٧٢ ۝ ١٧٣ ۝ ١٧٤ ۝ ١٧٥ ۝ ١٧٦ ۝ ١٧٧ ۝ ١٧٨ ۝ ١٧٩ ۝ ١٨٠ ۝ ١٨١ ۝ ١٨٢ ۝ ١٨٣ ۝ ١٨٤ ۝ ١٨٥ ۝ ١٨٦ ۝ ١٨٧ ۝ ١٨٨ ۝ ١٨٩ ۝ ١٩٠ ۝ ١٩١ ۝ ١٩٢ ۝ ١٩٣ ۝ ١٩٤ ۝ ١٩٥ ۝ ١٩٦ ۝ ١٩٧ ۝ ١٩٨ ۝ ١٩٩ ۝ ٢٠٠ ۝ ٢٠١ ۝ ٢٠٢ ۝ ٢٠٣ ۝ ٢٠٤ ۝ ٢٠٥ ۝ ٢٠٦ ۝ ٢٠٧ ۝ ٢٠٨ ۝ ٢٠٩ ۝ ٢١٠ ۝ ٢١١ ۝ ٢١٢ ۝ ٢١٣ ۝ ٢١٤ ۝ ٢١٥ ۝ ٢١٦ ۝ ٢١٧ ۝ ٢١٨ ۝ ٢١٩ ۝ ٢٢٠ ۝ ٢٢١ ۝ ٢٢٢ ۝ ٢٢٣ ۝ ٢٢٤ ۝ ٢٢٥ ۝ ٢٢٦ ۝ ٢٢٧ ۝ ٢٢٨ ۝ ٢٢٩ ۝ ٢٣٠ ۝ ٢٣١ ۝ ٢٣٢ ۝ ٢٣٣ ۝ ٢٣٤ ۝ ٢٣٥ ۝ ٢٣٦ ۝ ٢٣٧ ۝ ٢٣٨ ۝ ٢٣٩ ۝ ٢٤٠ ۝ ٢٤١ ۝ ٢٤٢ ۝ ٢٤٣ ۝ ٢٤٤ ۝ ٢٤٥ ۝ ٢٤٦ ۝ ٢٤٧ ۝ ٢٤٨ ۝ ٢٤٩ ۝ ٢٥٠ ۝ ٢٥١ ۝ ٢٥٢ ۝ ٢٥٣ ۝ ٢٥٤ ۝ ٢٥٥ ۝ ٢٥٦ ۝ ٢٥٧ ۝ ٢٥٨ ۝ ٢٥٩ ۝ ٢٦٠ ۝ ٢٦١ ۝ ٢٦٢ ۝ ٢٦٣ ۝ ٢٦٤ ۝ ٢٦٥ ۝ ٢٦٦ ۝ ٢٦٧ ۝ ٢٦٨ ۝ ٢٦٩ ۝ ٢٧٠ ۝ ٢٧١ ۝ ٢٧٢ ۝ ٢٧٣ ۝ ٢٧٤ ۝ ٢٧٥ ۝ ٢٧٦ ۝ ٢٧٧ ۝ ٢٧٨ ۝ ٢٧٩ ۝ ٢٨٠ ۝ ٢٨١ ۝ ٢٨٢ ۝ ٢٨٣ ۝ ٢٨٤ ۝ ٢٨٥ ۝ ٢٨٦ ۝ ٢٨٧ ۝ ٢٨٨ ۝ ٢٨٩ ۝ ٢٩٠ ۝ ٢٩١ ۝ ٢٩٢ ۝ ٢٩٣ ۝ ٢٩٤ ۝ ٢٩٥ ۝ ٢٩٦ ۝ ٢٩٧ ۝ ٢٩٨ ۝ ٢٩٩ ۝ ٣٠٠ ۝ ٣٠١ ۝ ٣٠٢ ۝ ٣٠٣ ۝ ٣٠٤ ۝ ٣٠٥ ۝ ٣٠٦ ۝ ٣٠٧ ۝ ٣٠٨ ۝ ٣٠٩ ۝ ٣١٠ ۝ ٣١١ ۝ ٣١٢ ۝ ٣١٣ ۝ ٣١٤ ۝ ٣١٥ ۝ ٣١٦ ۝ ٣١٧ ۝ ٣١٨ ۝ ٣١٩ ۝ ٣٢٠ ۝ ٣٢١ ۝ ٣٢٢ ۝ ٣٢٣ ۝ ٣٢٤ ۝ ٣٢٥ ۝ ٣٢٦ ۝ ٣٢٧ ۝ ٣٢٨ ۝ ٣٢٩ ۝ ٣٣٠ ۝ ٣٣١ ۝ ٣٣٢ ۝ ٣٣٣ ۝ ٣٣٤ ۝ ٣٣٥ ۝ ٣٣٦ ۝ ٣٣٧ ۝ ٣٣٨ ۝ ٣٣٩ ۝ ٣٤٠ ۝ ٣٤١ ۝ ٣٤٢ ۝ ٣٤٣ ۝ ٣٤٤ ۝ ٣٤٥ ۝ ٣٤٦ ۝ ٣٤٧ ۝ ٣٤٨ ۝ ٣٤٩ ۝ ٣٥٠ ۝ ٣٥١ ۝ ٣٥٢ ۝ ٣٥٣ ۝ ٣٥٤ ۝ ٣٥٥ ۝ ٣٥٦ ۝ ٣٥٧ ۝ ٣٥٨ ۝ ٣٥٩ ۝ ٣٦٠ ۝ ٣٦١ ۝ ٣٦٢ ۝ ٣٦٣ ۝ ٣٦٤ ۝ ٣٦٥ ۝ ٣٦٦ ۝ ٣٦٧ ۝ ٣٦٨ ۝ ٣٦٩ ۝ ٣٧٠ ۝ ٣٧١ ۝ ٣٧٢ ۝ ٣٧٣ ۝ ٣٧٤ ۝ ٣٧٥ ۝ ٣٧٦ ۝ ٣٧٧ ۝ ٣٧٨ ۝ ٣٧٩ ۝ ٣٨٠ ۝ ٣٨١ ۝ ٣٨٢ ۝ ٣٨٣ ۝ ٣٨٤ ۝ ٣٨٥ ۝ ٣٨٦ ۝ ٣٨٧ ۝ ٣٨٨ ۝ ٣٨٩ ۝ ٣٩٠ ۝ ٣٩١ ۝ ٣٩٢ ۝ ٣٩٣ ۝ ٣٩٤ ۝ ٣٩٥ ۝ ٣٩٦ ۝ ٣٩٧ ۝ ٣٩٨ ۝ ٣٩٩ ۝ ٤٠٠ ۝ ٤٠١ ۝ ٤٠٢ ۝ ٤٠٣ ۝ ٤٠٤ ۝ ٤٠٥ ۝ ٤٠٦ ۝ ٤٠٧ ۝ ٤٠٨ ۝ ٤٠٩ ۝ ٤١٠ ۝ ٤١١ ۝ ٤١٢ ۝ ٤١٣ ۝ ٤١٤ ۝ ٤١٥ ۝ ٤١٦ ۝ ٤١٧ ۝ ٤١٨ ۝ ٤١٩ ۝ ٤٢٠ ۝ ٤٢١ ۝ ٤٢٢ ۝ ٤٢٣ ۝ ٤٢٤ ۝ ٤٢٥ ۝ ٤٢٦ ۝ ٤٢٧ ۝ ٤٢٨ ۝ ٤٢٩ ۝ ٤٣٠ ۝ ٤٣١ ۝ ٤٣٢ ۝ ٤٣٣ ۝ ٤٣٤ ۝ ٤٣٥ ۝ ٤٣٦ ۝ ٤٣٧ ۝ ٤٣٨ ۝ ٤٣٩ ۝ ٤٤٠ ۝ ٤٤١ ۝ ٤٤٢ ۝ ٤٤٣ ۝ ٤٤٤ ۝ ٤٤٥ ۝ ٤٤٦ ۝ ٤٤٧ ۝ ٤٤٨ ۝ ٤٤٩ ۝ ٤٥٠ ۝ ٤٥١ ۝ ٤٥٢ ۝ ٤٥٣ ۝ ٤٥٤ ۝ ٤٥٥ ۝ ٤٥٦ ۝ ٤٥٧ ۝ ٤٥٨ ۝ ٤٥٩ ۝ ٤٦٠ ۝ ٤٦١ ۝ ٤٦٢ ۝ ٤٦٣ ۝ ٤٦٤ ۝ ٤٦٥ ۝ ٤٦٦ ۝ ٤٦٧ ۝ ٤٦٨

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذِيرِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ : هَذِهِ أَوَّلُ آيَةِ نَزَلَتْ مِنْ بَرَاءَةِ ، يَذْكُرُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانَهُ لَدَيْهِمْ فِي نَصْرِهِ إِيَّاهُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ غَزَوَاتِهِمْ مَعَ رَسُولِهِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَبِتَأْيِيدِهِ وَتَقْدِيرِهِ لَا يَبْعِدُهُمْ وَلَا يَبْعِدَتُهُمْ ، وَبَنَّهُمْ عَلَى أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ سَوَاءٌ قَلَّ الْجَمْعُ أَوْ كَثُرَ . وَقَدْ كَانَتْ وَقَعَةُ حُنَيْنٍ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ فِي شَوَّالِ سَنَةِ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ . وَذَلِكَ لَمَّا فَرَعَ ﷺ مِنْ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَتَمَهَّدَتْ أُمُورُهَا وَأَسْلَمَ عَامَّةُ أَهْلِهَا ، وَأَطْلَقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَغَهُ أَنَّ هَوَازِنَ جَمَعُوا لَهُ لِيُقَاتِلُوهُ ، وَأَنَّ أَمِيرَهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّضْرِيُّ وَمَعَهُ ثَقِيفٌ بِكَمَالِهَا ، وَبَنُو جُشَمٍ وَبَنُو سَعْدٍ بَنِي بَكْرِ ، وَأَوَزَاعٌ مِنْ بَنِي هِلَالٍ وَهُمْ قَلِيلٌ ، وَنَاسٌ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ وَعَوْفُ بْنُ عَامِرٍ ، وَقَدْ أَقْبَلُوا وَمَعَهُمُ النِّسَاءُ وَالْوِلْدَانُ وَالشَّاءُ وَالنَّعْمُ ، وَجَاءُوا بِقَضْصِهِمْ وَقَضِيضِهِمْ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي جَيْشِهِ الَّذِي جَاءَ مَعَهُ لِلْفَتْحِ ، وَهُوَ عَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَمَعَهُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَهُمْ الطُّلَقَاءُ فِي أَلْفَيْنِ ، فَسَارَ بِهِمْ إِلَى الْعُدُوِّ فَالْتَقَوْا بِوَادٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ يُقَالُ لَهُ حُنَيْنٌ ، فَكَانَتْ فِيهِ الْوَقَعَةُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فِي غَلَسِ الصُّبْحِ ، انْحَدَرُوا فِي الْوَادِي وَقَدْ كَمَنْتَ فِيهِ هَوَازِنُ ، فَلَمَّا تَوَاجَهُوا لَمْ يَشْعُرِ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا بِهِمْ قَدْ بَادَرُوهُمْ ، وَرُشِقُوا بِالْبَبَالِ ، وَأَصْلَتُوا السُّيُوفَ ، وَحَمَلُوا حِمْلَةَ رَجُلٍ

وَاحِدٍ كَمَا أَمَرَهُمْ مَلِكُهُمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدِيرِينَ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ وَثَبَّتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ رَاكِبٌ يَوْمَئِذٍ بَغْلَتَهُ الشَّهْبَاءُ يَسُوقُهَا إِلَى نَحْرِ الْعَدُوِّ ، وَالْعَبَّاسُ عَمَّهُ أَخَذَ بِرِكَابِهَا الْأَيْمَنِ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَخَذَ بِرِكَابِهَا الْأَيْسَرِ يُثْقِلَانِهَا لِئَلَّا تُسْرِعَ السَّيْرَ وَهُوَ يُنَوِّهُ بِاسْمِهِ ﷺ وَيَدْعُو الْمُسْلِمِينَ إِلَى الرَّجْعَةِ وَيَقُولُ : «إِلَى عِبَادِ اللَّهِ ؟ إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ» وَيَقُولُ فِي تِلْكَ الْحَالِ : «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» .

وَثَبَّتَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ قَرِيبٌ مِنْ مِائَةٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : تَمَانُونَ ، فَمِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَالْعَبَّاسُ وَعَلِيٌّ ، وَالْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ ، وَأَيْمَنُ ابْنُ أُمِّ أَيْمَنَ ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَعَظِيمٌ ﷺ ، ثُمَّ أَمَرَ ﷺ عَمَّهُ الْعَبَّاسُ وَكَانَ جَهِيرَ الصَّوْتِ أَنْ يُنَادِيَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ - يَعْنِي شَجَرَةَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ الَّتِي بَايَعَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ تَحْتَهَا عَلَى أَنْ لَا يَقْرَءُوا عَنْهُ - فَجَعَلَ يُنَادِي بِهِمْ يَا أَصْحَابَ السَّمَرَةِ ، وَيَقُولُ تَارَةً : يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ : يَا لَيْتَكَ ، يَا لَيْتَكَ ، وَانْعَطَفَ النَّاسُ فَتَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ إِذَا لَمْ يُطَاوِعْهُ بَعِيرُهُ عَلَى الرَّجُوعِ لَيْسَ دِرْعُهُ ثُمَّ انْحَدَرَ عَنْهُ ، وَأَرْسَلَهُ وَرَجَعَ بِنَفْسِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ شِرْذِمَةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهُمُ ﷺ أَنْ يَصْدُقُوا الْحُمْلَةَ ، وَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ بَعْدَ مَا دَعَا رَبَّهُ وَاسْتَنْصَرَهُ وَقَالَ : «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي» . ثُمَّ رَمَى الْقَوْمَ بِهَا فَمَا بَقِيَ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَصَابَهُ مِنْهَا فِي عَيْنَيْهِ وَفِيهِ مَا شَغَلَهُ عَنِ الْقِتَالِ ثُمَّ انْهَرَمُوا ، فَاتَّبَعَ الْمُسْلِمُونَ أَقْفَاءَهُمْ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ وَمَا تَرَاجَعَ بَقِيَّةُ النَّاسِ إِلَّا وَالْأَسْرَى مُجْنَدَةً بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ» أَي : طُمَأْنِينَتَهُ وَثَبَاتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ «وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ» أَي : الَّذِينَ مَعَهُ «وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا» وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ .

وَقَوْلُهُ : «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى بَقِيَّةِ هَوَازِنَ فَأَسْلَمُوا وَقَدِمُوا عَلَيْهِ مُسْلِمِينَ ، وَلَحِقُوهُ وَقَدْ قَارَبَ مَكَّةَ عِنْدَ الْجُعْرَانَةِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ الْوَقْعَةِ بِقَرِيبٍ مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَيْرُهُمْ بَيْنَ سَبِيهِمْ وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ ، فَاخْتَارُوا سَبِيَهُمْ ، وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافٍ أَسِيرَ مَا بَيْنَ صَبِيٍّ وَامْرَأَةٍ ، فَردَّ عَلَيْهِمْ وَقَسَمَ الْأَمْوَالَ بَيْنَ الْغَانِمِينَ ، وَنَقَلَ أَنَاسًا مِنَ الطَّلَقَاءِ ، لِيَتَأَلَّفَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَأَعْطَاهُمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةٍ مَنْ أُعْطِيَ مِائَةً مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّضْرِيُّ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى قَوْمِهِ كَمَا كَانَ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ

عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ - الظَّاهِرِينَ دِينًا وَذَاتًا - بِنَفْيِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ نَجَسٌ دِينًا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَأَنْ لَا يَقْرُبُوهُ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَكَانَ نُزُولُهَا فِي سَنَةِ تِسْعَ ، وَهَذَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيَا صُحْبَةٍ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَامِدًا ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُنَادِيَ فِي الْمُشْرِكِينَ : أَنْ لَا يَحْجَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ ، فَاتَمَّ اللَّهُ ذَلِكَ وَحَكَمَ بِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ قَالُوا : لَنَقْطَعَنَّ عَنَّا الْأَسْوَاقَ ، وَلَنَهْلِكَنَّ التِّجَارَةَ ، وَلَيَذْهَبَنَّ عَنَّا مَا كُنَّا نَصِيبُ فِيهَا مِنَ الْمَرَافِقِ ، فَعَوَّضَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَطَعَ عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الشَّرْكِ مَا أَعْطَاهُمْ مِنْ أَعْنَاقِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْجِزْيَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : بِمَا يُضْلِحُكُمْ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ : فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ، لِأَنَّهُ الْكَامِلُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، الْعَادِلُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَهَذَا عَوَّضَهُمْ عَنْ تِلْكَ الْمَكَاسِبِ بِأَمْوَالِ الْجِزْيَةِ الَّتِي يَأْخُذُونَهَا مِنْ أَهْلِ الدِّمَةِ ، فَقَالَ : ﴿ قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ فَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَمَّا كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِيْمَانٌ صَحِيحٌ بِأَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلَا بِمَا جَاءُوا بِهِ ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ نَزَلَتْ أَوَّلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، بَعْدَ مَا تَمَهَّدَتْ أُمُورُ الْمُشْرِكِينَ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ ، أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ تِسْعَ ، وَهَذَا تَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقِتَالِ الرُّومِ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ وَأَظْهَرَهُ لَهُمْ . ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾ أَيُّ : إِنْ لَمْ يُسَلِّمُوا ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ أَيُّ : عَنْ قَهْرٍ لَهُمْ وَعَلَانِيَةٍ ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أَيُّ : ذَلِيلُونَ حَقِيرُونَ مُهَانُونَ .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ

﴿١٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١١﴾

وَهَذَا إِعْرَاضٌ مِّنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ الْكُفَّارِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، لِمَقَالَتِهِمْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ الشَّنِيعَةَ وَالْفَرِيَّةَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَأَمَّا الْيَهُودُ فَقَالُوا فِي الْعُزَيْرِ : إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَأَمَّا ضَلَالُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ فَظَاهِرٌ ، وَهَذَا كَذَبُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الطَّائِفَتَيْنِ فَقَالَ : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أَي : لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ فِيمَا ادَّعَوْهُ سِوَى افْتِرَائِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ ﴿ يَضَعُوهُمْ ﴾ أَي : يُشَايَهُونَ ﴿ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ أَي : مَن قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ ، ضَلُّوا كَمَا ضَلَّ هَؤُلَاءِ ﴿ فَتَلَّهُمُ اللَّهُ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أَي : كَيْفَ يَضِلُّونَ عَنِ الْحَقِّ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَيَعْدِلُونَ إِلَى الْبَاطِلِ ؟

وَقَوْلُهُ : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ . قَالَ حُذَيْفَةُ ابْنُ الْيَمَانِ وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي تَفْسِيرِ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ إِنَّهُمْ اتَّبَعُوهُمْ فِيمَا حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ أَي : الَّذِي إِذَا حَرَّمَ الشَّيْءَ فَهُوَ الْحَرَامُ وَمَا حَلَّلَهُ فَهُوَ الْحَلَالُ ، وَمَا شَرَعَهُ اتَّبَعُ ، وَمَا حَكَمَ بِهِ نَقَذَ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أَي : تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّاهُ عَنِ الشُّرَكَاءِ وَالنَّظَرَاءِ ، وَالْأَعْوَانِ ، وَالْأَضْدَادِ ، وَالْأَوْلَادِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : يُرِيدُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ﴾ أَي : مَا بُعِثَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، بِمَجَرَّدِ جِدَالِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شِعَاعَ الشَّمْسِ أَوْ نُورَ الْقَمَرِ بِنَفْخِهِ ، وَهَذَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ، فَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا بُدَّ أَنْ يَتِمَّ وَيُظْهِرَ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى مُقَابِلًا لَهُمْ فِيمَا رَأَوْهُ وَأَرَادُوهُ ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ، وَالْكَافِرُ : هُوَ الَّذِي يَسْتُرُ الشَّيْءَ وَيُعْطِيهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ فَالْهُدَى : هُوَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْإِخْبَارَاتِ الصَّادِقَةِ ، وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ ، وَدِينِ الْحَقِّ : هُوَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ

الصَّحِيحَةُ النَّافِعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أَي : عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ .

﴿ يَتَّيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤٨) يَوْمَ تُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ ﴿٤٩﴾

الْأَحْبَارُ : هُمُ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتَ ﴾ [المائدة : ٦٣] ، وَالرُّهْبَانُ : عَبَادُ النَّصَارَى ، وَالْقِسِّيُّونَ : عُلَمَاءُهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّيْنًا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَانَ آبَاؤُهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْقِتْلَةِ ﴾ [المائدة : ٨٢] ، وَالْمَقْصُودُ : التَّحْذِيرُ مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ وَعِبَادِ الضَّلَالِ ، كَمَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عَبَادِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى ، وَالْحَاصِلُ : التَّحْذِيرُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَعْوَالِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَآْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ ، وَمَنَاصِبُهُمْ وَرِيَاسَتُهُمْ فِي النَّاسِ ، يَأْكُلُونَ أَمْوَالَهُمْ بِذَلِكَ ، كَمَا كَانَ لِأَحْبَارِ الْيَهُودِ عَلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ شَرَفٌ ، وَلَهُمْ عِنْدَهُمْ خَرْجٌ وَهَدَايَا وَضَرَائِبٌ تَجِيءُ إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ اسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ طَمَعًا مِنْهُمْ أَنْ تَبْقَى لَهُمْ تِلْكَ الرِّيَاسَاتُ ، فَاطْفَأَهَا اللَّهُ بِنُورِ النُّبُوَّةِ ، وَسَلَبَهُمْ إِيَّاهَا وَعَوَّضَهُمُ الذَّلَّ وَالصَّغَارَ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أَي : وَهُمْ مَعَ أَكْلِهِمُ الْحَرَامَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَيُلْسِنُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ . ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الْآيَةُ . هَؤُلَاءِ هُمُ الْقِسْمُ الثَّالِثُ مِنْ رُءُوسِ النَّاسِ ، فَإِنَّ النَّاسَ عَالَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ ، وَعَلَى الْعِبَادِ ، وَعَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ ، فَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ فَسَدَتْ أَحْوَالُ النَّاسِ . وَأَمَّا الْكُنُزُ : عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَا تُودَى مِنْهُ زَكَاةٌ . وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ : هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ ، فَلَمَّا أَنْزَلَتْ جَعَلَهَا اللَّهُ طَهْرًا لِلْأَمْوَالِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ ﴾ أَي : يُقَالُ لَهُمْ هَذَا الْكَلَامُ تَبْكِيَةً وَتَقْرِيعًا وَتَهَكُّمًا ، كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ (٥٠) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿ [الدخان : ٤٨ - ٤٩] ، أَي : هَذَا بِذَلِكَ ، وَهَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ لِأَنفُسِكُمْ .

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٦﴾

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فِي حَجَّتِهِ فَقَالَ : « أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ : ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحَرَّمُ ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ فَهَذَا يَمَا كَانَتِ الْعَرَبُ أَيْضًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُحَرِّمُهُ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الْأَشْهُرُ الْمُحَرَّمَةُ أَرْبَعَةً ثَلَاثَةً سَرْدٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ ، لِأَجْلِ آدَاءِ مَنَاسِكَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أَي : هَذَا هُوَ الشَّرْعُ الْمُسْتَقِيمُ مِنْ إِمْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ فِيمَا جَعَلَ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ ، وَالْحَذْوِ بِهَا عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الْأَوَّلِ . ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أَي : فِي هَذِهِ الْأَشْهُرِ الْمُحَرَّمَةِ ؛ لِأَنَّهَا أَكْدُ وَأَبْلَغُ فِي الْإِثْمِ مِنْ غَيْرِهَا ، كَمَا أَنَّ الْمَعَاصِيَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ تُصَاعَفُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] ، وَكَذَا الشَّهْرُ الْحَرَامُ تَغْلُظُ فِيهِ الْأَثَامُ . قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ إِنَّ الظُّلْمَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ أَعْظَمُ خَطِيئَةً وَوِزْرًا مِنَ الظُّلْمِ فِيمَا سِوَاهَا . وَإِنْ كَانَ الظُّلْمُ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَظِيمًا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُعْظِمُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ أَي : جَمِيعَهُمْ ﴿ كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ أَي : جَمِيعَهُمْ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٧﴾

هَذَا يَمَّا ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْمُشْرِكِينَ ، مِنْ تَصَرُّفِهِمْ فِي شَرْعِ اللَّهِ بِأَرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَتَغْيِيرِهِمْ أَحْكَامَ اللَّهِ بِأَهْوَائِهِمُ الْبَارِدَةِ ، وَتَحْلِيلِهِمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمِهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِيهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَالشَّهَامَةِ وَالْحَمِيَّةِ مَا اسْتَطَالُوا بِهِ مُدَّةَ الْأَشْهُرِ الثَّلَاثَةِ فِي التَّحْرِيمِ الْمَانِعِ لَهُمْ مِنْ قَضَاءِ أَوْطَارِهِمْ مِنْ قِتَالِ أَعْدَائِهِمْ ، فَكَانُوا قَدْ أَخَذُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِمُدَّةٍ تَحْلِيلِ الْمُحَرَّمِ وَتَأْخِيرِهِ إِلَى صَفَرٍ ، فَيَحْلُونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، وَيُخَرِّمُونَ الشَّهْرَ الْحَلَالَ ، لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ الْأَشْهُرَ الْأَرْبَعَةَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ يَقُولُ : يَتَرَكُونَ الْمُحَرَّمَ عَامًا ، وَعَامًا يُخَرِّمُونَهُ .

يَتَائِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ
أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ
(١٠) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١١)

هَذَا شُرُوعٌ فِي عِتَابٍ مَنِ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ
وَالظَّلَالُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَحَمَارَةِ الْقَيْظِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَائِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ
أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ :
تَكَاسَلْتُمْ وَمِلْتُمْ إِلَى الْمَقَامِ فِي الدَّعَةِ وَالْحَفْظِ ، وَطِيبَ الثَّمَارِ ﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ
الْآخِرَةِ ﴾ أَيُّ : مَا لَكُمْ فَعَلْتُمْ هَكَذَا ؟ ، أَرْضَى مِنْكُمْ بِالدُّنْيَا بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ . ثُمَّ زَهَّدَ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا ، وَرَغَبَ فِي الْآخِرَةِ ، فَقَالَ : ﴿ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ . ثُمَّ
تَوَعَّدَ تَعَالَى مَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ فَقَالَ : ﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا - : اسْتَنْفَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيًّا مِنَ الْعَرَبِ فَتَنَاقَلُوا عَنْهُ ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْقَطْرَ ،
فَكَانَ عَذَابُهُمْ ﴿ وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أَيُّ : لِنُصْرَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ . ﴿ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا ﴾ أَيُّ :
وَلَا تَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا بِتَوَلَّيْكُمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَنُكُولِكُمْ وَتَنَاقُلِكُمْ عَنْهُ ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴾ أَيُّ : قَادِرٌ عَلَى الْإِنْتِصَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ بِدُونِكُمْ .

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي
الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ
بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٢)

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ ﴾ أَيُّ : تَنْصُرُوا رَسُولَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيَّدُهُ وَكَافِيهِ وَحَافِظُهُ ،
كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ أَيُّ : عَامَ الْهَجْرَةِ لَمَّا هَمَّ الْمُشْرِكُونَ بِقَتْلِهِ
أَوْ حَبْسِهِ أَوْ نَفْيِهِ ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ هَارِبًا صَاحِبُهُ صَدِيقُهُ وَصَدِيقُهُ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ ،
فَلَجَّأَ إِلَى غَارٍ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لِيَرْجِعَ الطَّلَبُ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي آثَارِهِمْ ، ثُمَّ يَسِيرُوا نَحْوَ الْمَدِينَةِ ،
فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَجْزَعُ أَنْ يُطْلَعَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ فَيُخْلَصَ إِلَى الرَّسُولِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -
مِنْهُمْ أَدَى ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُسَكِّنُهُ وَيُثَبِّتُهُ وَيَقُولُ : « يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاِثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟ » ،

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ أَي : تَأْيِيدُهُ وَنَصْرُهُ عَلَيْهِ ، أَي : عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي أَشْهَرِ الْقَوْلَيْنِ ، وَقِيلَ : عَلَى أَبِي بَكْرٍ . قَالُوا : لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ تَزَلْ مَعَهُ سَكِينَةٌ ، وَهَذَا لَا يُنَافِي تَجَدُّدَ سَكِينَةِ خَاصَّةٍ بِتِلْكَ الْحَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ أَي : الْمَلَائِكَةُ ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴿ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : يَعْنِي بِكَلِمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا : الشُّرْكَ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . ﴾ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴿ أَي : فِي انْتِقَامِهِ وَانْصَارِهِ ، مَنِيعُ الْجَنَابِ لَا يُضَامُ مَنْ لَا ذِيَابَةَ ، وَاحْتَمَى بِالتَّمَسُّكِ بِخَطَابِهِ ﴾ حَكِيمٌ ﴿ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالنَّفِيرِ الْعَامِّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ ، لِقِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ مِنَ الرُّومِ الْكَفَرَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَحَتَمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، فَقَالَ : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ قِيلَ : شُبَّانًا وَشُيُوخًا ، وَأَغْنِيَاءَ وَمَسَاكِينَ ، وَقِيلَ : انْفِرُوا نَشَاطًا وَغَيْرَ نَشَاطٍ . وَقِيلَ : فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ الْعُمُومِ فِي الْآيَةِ . ثُمَّ رَغَبَ تَعَالَى فِي النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِهِ ، وَبَذَلَ الْمُهْجَ فِي مَرْضَاتِهِ وَمَرْضَاةِ رَسُولِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : هَذَا خَيْرٌ لَّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لِأَنَّكُمْ تَغْرُمُونَ فِي النَّفَقَةِ قَلِيلًا ، فَيَغْنِمَكُمُ اللَّهُ أَمْوَالَ عَدُوِّكُمْ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ فِي الْآخِرَةِ .

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُوَبِّحًا لِلَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَقَعَدُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَا اسْتَأْذَنُوهُ فِي ذَلِكَ ، مُظْهِرِينَ أَنَّهُمْ ذَوُو أَعْدَارٍ وَلَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : غَنِيمَةً قَرِيبَةً ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ أَي : قَرِيبًا أَيْضًا ﴿ لَاتَّبَعُوكَ ﴾ أَي : لَكَانُوا جَاءُوا مَعَكَ لِذَلِكَ ﴿ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أَي : الْمَسَافَةُ إِلَى الشَّامِ ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ أَي : لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ أَي : لَوْ لَمْ يَكُنْ لَنَا أَعْدَاؤُا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
الْكَاذِبِينَ ﴿١٧﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَتْ أَبَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿١٩﴾

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : هَلْ سَمِعْتُمْ بِمُعَابَةِ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ؟ بَدَأَ بِالْعَفْوِ قَبْلَ الْمُعَابَةِ فَقَالَ :
﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ ﴾ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : عَاتَبَهُ كَمَا تَسْمَعُونَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ الَّتِي فِي سُورَةِ النُّورِ ،
فَرَخَّصَ لَهُ فِي أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ إِنْ شَاءَ ، فَقَالَ : ﴿ فَإِذَا اسْتَغْنَى لَكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾
[النور : ٦٢] . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أَيُّ : فِي إِبْدَاءِ الْأَعْدَارِ ﴿ وَتَعْلَمَ
الْكَاذِبِينَ ﴾ . يَقُولُ تَعَالَى : هَلَّا تَرَكْتَهُمْ لَمَّا اسْتَأْذَنُوكَ فَلَمْ تَأْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْقُعُودِ ، لِتَعْلَمَ
الصَّادِقَ مِنْهُمْ فِي إِظْهَارِ طَاعَتِكَ مِنَ الْكَاذِبِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا مُصْرِّينَ عَلَى الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ ،
وَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ لَهُمْ فِيهِ . وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَسْتَغْنِيهِ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ أَحَدٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ ، فَقَالَ : ﴿ لَا يَسْتَغْنِيكَ ﴾ أَيُّ : فِي الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ لِأَنَّ أَوْلَيْكَ يَرُونَ الْجِهَادَ قُرْبَةً ، وَلَمَّا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ بَادَرُوا
وَأَمْتَثَلُوا ﴿ إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ ﴾ أَيُّ : فِي الْقُعُودِ يَمْنَنَ لَا عُذْرَ لَهُ ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ﴾ أَيُّ : لَا يَرْجُونَ ثَوَابَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ﴿ وَآزَتْ أَبَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيُّ : شَكَّتْ
فِي صِحَّةِ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أَيُّ : يَتَحَيَّرُونَ يُقَدِّمُونَ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُونَ
أُخْرَى ، وَلَيْسَتْ لَهُمْ قَدَمٌ ثَابِتَةٌ فِي شَيْءٍ ، فَهُمْ قَوْمٌ حَيَارَى هَلْكَى ، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ ، وَلَا إِلَى
هَؤُلَاءِ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا .

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ ﴿ ٢٠ ﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ
يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿ ٢١ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ ﴾ أَيُّ : مَعَكَ إِلَى الْغَزْوِ ﴿ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ أَيُّ : لَكَانُوا
تَأَهَّبُوا لَهُ ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ أَيُّ : أَبْغَضَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَكَ قَدَرًا ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أَيُّ :
أَخْرَهُمْ ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أَيُّ : قَدَرًا . ثُمَّ يَبَيِّنُ تَعَالَى وَجْهَ كَرَاهِيَّتِهِ خُرُوجَهُمْ مَعَ
الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أَيُّ : لِأَنَّهُمْ جُبْنَاءُ تَحْذُلُونَ ﴿ وَلَا أُضْعِفُوا

حَلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ ۖ أَي : وَلَا سَرْعُوا السَّيْرَ وَالْمَشْيَ بَيْنَكُمْ بِالنِّمِيمَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْفِتْنَةِ ۖ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ ۖ أَي : مُطِيعُونَ لَهُمْ وَمُسْتَحْسِنُونَ لِحَدِيثِهِمْ وَكَلَامِهِمْ ، يَسْتَنْصِحُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ حَالَهُمْ ، فَيُؤَدِّي إِلَى وَقُوعِ شَرِّ بَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَفَسَادٍ كَبِيرٍ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ فَقَالَ : ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۖ فَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ ، وَمَا يَكُونُ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ۖ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ۖ فَأَخْبَرَ عَنْ حَالِهِمْ كَيْفَ يَكُونُ لَوْ خَرَجُوا ، وَمَعَ هَذَا مَا خَرَجُوا .

لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَرِّصًا لِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى الْمُنَافِقِينَ ۖ لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ۖ أَي : لَقَدْ أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ ، وَأَجَالُوا آرَاءَهُمْ فِي كَيْدِكَ وَكَيْدِ أَصْحَابِكَ ، وَخَذَلَانِ دِينِكَ وَإِخْوَانِهِ مُدَّةً طَوِيلَةً ، وَذَلِكَ أَوَّلُ مَقْدِمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ ، رَمَتْهُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَحَارَبَتْهُ يَهُودُ الْمَدِينَةِ وَمُنَافِقُوهَا ، فَلَمَّا نَصَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَعْلَى كَلِمَتَهُ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَأَصْحَابُهُ : هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ ، فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا ، ثُمَّ كُلَّمَا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَغَاطَهُمْ ذَلِكَ وَسَاءَ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ۖ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ۖ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۚ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَقُولُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ : ۖ أَتَذُنْ لِي ۖ فِي الْقُعُودِ ۖ وَلَا تَفْتِنِي ۖ بِالْخُرُوجِ مَعَكَ بِسَبَبِ الْجَوَارِي مِنْ نِسَاءِ الرُّومِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ۖ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۖ أَي : قَدْ سَقَطُوا فِي الْفِتْنَةِ بِقَوْلِهِمْ هَذَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ۖ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۖ أَي : لَا حَيْدَ لَهُمْ عَنْهَا ، وَلَا حِيصَ وَلَا مَهْرَبَ .

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾

يُعْلِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِعَدَاوَةِ هَؤُلَاءِ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ مَهْمَا أَصَابَهُ مِنْ حَسَنَةٍ أَيْ : فَتْحٍ وَنَصْرِ وَظَفَرٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، مِمَّا يَسُرُّهُ وَيَسُرُّ أَصْحَابَهُ سَاءَ لَهُمْ ذَلِكَ ۖ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا

أَمَرْنَا مِنْ قَبْلُ ﴿ أَيْ : قَدْ اخْتَرَزْنَا مِنْ مُتَابِعَتِهِ مِنْ قَبْلُ هَذَا ﴾ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿ فَأَرْشَدَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَوَابِهِمْ فِي عَدَاوَتِهِمْ هَذِهِ التَّائِمَةِ فَقَالَ : ﴿ قُلْ ﴾ أَيْ : لَكُمْ ﴿ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ أَيْ : نَحْنُ تَحْتَ مِشِيَّةِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ﴿ هُوَ مَوْلَانَا ﴾ أَيْ : سَيِّدُنَا وَمَلِجُونَا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : وَنَحْنُ مُتَوَكِّلُونَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قُلْ هَلْ تَرَبُّصُوتٌ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٨﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ لَكُمْ يَا مُحَمَّدُ : ﴿ هَلْ تَرَبُّصُوتٌ بِنَا ﴾ أَيْ : نَتَنَظَّرُونَ بِنَا ﴿ إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾ شَهَادَةٌ أَوْ ظَفَرٌ بِكُمْ . ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ أَيْ : نَتَنَظَّرُ بِكُمْ ، ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ أَيْ : نَتَنَظَّرُ بِكُمْ هَذَا أَوْ هَذَا ، إِمَّا أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِقَارِعَةٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا بِسَبِي أَوْ بِقَتْلٍ ﴿ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ طَائِعِينَ أَوْ مُكْرِهِينَ ﴿ لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُمْ ﴿ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أَيْ : وَالْأَعْمَالُ إِنَّمَا تَصِحُّ بِالْإِيمَانِ ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ قَصْدٌ صَحِيحٌ وَلَا هِمَّةٌ فِي الْعَمَلِ ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ ﴾ نَفَقَةً ﴿ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمُصَدِّقُ ﷺ « إِنْ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا » « وَإِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا » . فَلِهَذَا لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ نَفَقَةً وَلَا عَمَلًا ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَقْبَلُ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُمَدَّنْ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ١٣١] وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : بِزَكَاتِهَا وَالنَّفَقَةِ مِنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ أَيْ : وَيُرِيدُ أَنْ يُمِيتَهُمْ حِينَ يُمِيتُهُمْ

عَلَى الْكُفْرِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَنْكَى هُمْ وَأَشَدُّ لِعَذَابِهِمْ . عَيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَذَا يَكُونُ مِنْ بَابِ
الِاسْتِدْرَاجِ هُمْ فِيهَا هُمْ فِيهِ .

وَتَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ
يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَتًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ جَزَعِهِمْ وَفَزَعِهِمْ وَفَرَقِهِمْ وَهَلَعِهِمْ أَنَّهُمْ ﴿٥٦﴾ تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ
لَمِنْكُمْ ﴿٥٧﴾ يَمِينًا مُؤَكَّدَةً ﴿٥٨﴾ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ﴿٥٩﴾ أَيُّ : فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿٦٠﴾ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٦١﴾ أَيُّ :
فَهُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الْحَلْفِ . ﴿٦٢﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا ﴿٦٣﴾ أَيُّ : حَصْنًا يَتَحَصَّنُونَ بِهِ ، وَحِزْرًا
يَتَحَرَّزُونَ بِهِ ﴿٦٤﴾ أَوْ مَغْرَتٍ ﴿٦٥﴾ وَهِيَ الَّتِي فِي الْجِبَالِ ﴿٦٦﴾ أَوْ مَدْخَلًا ﴿٦٧﴾ وَهُوَ السَّرْبُ فِي الْأَرْضِ وَالنَّفَقُ ،
﴿٦٨﴾ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٦٩﴾ أَيُّ : يُسْرِعُونَ فِي ذَهَابِهِمْ عَنْكُمْ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُحَالِطُونَكُمْ كُرْهًا لَا مَحَبَّةً ،
وَوَدُّوا أَنَّهُمْ لَا يُحَالِطُونَكُمْ وَلَكِنْ لِلضَّرُورَةِ أَحْكَامٌ ، وَلِهَذَا لَا يَزَالُونَ فِي هَمٍّ وَحُزْنٍ وَغَمٍّ ؛ لِأَنَّ
الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ لَا يَزَالُ فِي عِزٍّ وَنَصْرِ وَرَفْعَةٍ ، فَلِهَذَا كُلَّمَا سَرَّ الْمُسْلِمُونَ سَاءَهُمْ ذَلِكَ ، فَهُمْ
يَوَدُّونَ أَنْ لَا يُحَالِطُوا الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿٧٠﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَتًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ
وَهُمْ يَجْمَحُونَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ
يَسْخَطُونَ ﴿٧١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٧٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿٧٣﴾ وَمِنْهُمْ ﴿٧٤﴾ أَيُّ : وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿٧٥﴾ مَنْ يَلْمِزُكَ ﴿٧٦﴾ أَيُّ : يَعْيبُ عَلَيْكَ ﴿٧٧﴾ فِي قَسَمِ
﴿٧٨﴾ الصَّدَقَاتِ إِذَا فَرَّقْتَهَا ، وَيَتَّهِمُكَ فِي ذَلِكَ وَهُمْ الْمُتَّهَمُونَ الْمَأْبُوتُونَ ، وَهُمْ مَعَ هَذَا لَا يُنْكِرُونَ
لِلدِّينِ وَإِنَّمَا يُنْكِرُونَ لِحِظِّ أَنْفُسِهِمْ ؛ وَلِهَذَا إِنْ أُعْطُوا مِنَ الزَّكَاةِ رَضُوا ﴿٧٩﴾ وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ
يَسْخَطُونَ ﴿٨٠﴾ أَيُّ : يَغْضَبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ . وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿٨١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ
يَقُولُ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْعَنُ عَلَيْكَ فِي الصَّدَقَاتِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا هُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ
ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿٨٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٨٣﴾ فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةَ أَدَبًا عَظِيمًا وَسِرًّا شَرِيفًا ، حَيْثُ
جَعَلَ الرِّضَا بِمَا آتَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿٨٤﴾ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ
وَكَذَلِكَ الرَّغْبَةُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ فِي التَّوْفِيقِ لِبَطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَامْتِنَالِ أَوَامِرِهِ ، وَتَرْكِ رَوَاجِرِهِ ،

وَتَصْدِيقَ أَخْبَارِهِ ، وَالْإِقْتِفَاءَ بِأَثَارِهِ .

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اعْتِرَاضَ الْمُنَافِقِينَ الْجَهْلَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَمَزِهِمْ إِيَّاهُ فِي قَسَمِ الصَّدَقَاتِ ، بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَسَمَهَا وَبَيَّنَّ حُكْمَهَا وَتَوَلَّى أَمْرَهَا بِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَكِلْ قَسَمَهَا إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ ، فَجَزَّأَهَا هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ . فَأَمَّا الْفُقَرَاءُ : فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيِّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ » . وَأَمَّا الْمَسَاكِينُ : فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوْفِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ ، فَزِدُّهُ اللَّقْمَةَ وَاللَّقْمَتَانِ ، وَالتَّمْرَةَ وَالتَّمْرَتَانِ » قَالُوا : فَمَا الْمُسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ ، وَلَا يَفْطِنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا » . وَأَمَّا الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا : فَهُمْ الْجَبَاةُ وَالسَّعَاةُ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهَا قِسْطًا عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَقْرَبَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ . وَأَمَّا الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ فَأَقْسَامٌ : مِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى : لِيُسَلِّمَ كَمَا أَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةٍ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ ، وَقَدْ كَانَ شَهِدَهَا مُشْرِكًا . وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى : لِمَا يُرْجَى مِنْ إِسْلَامِ نُظَرَائِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى : لِيَجْبِيَ الصَّدَقَاتِ مِمَّنْ يَلِيهِ ، أَوْ لِيُدْفَعَ عَنْ حَوَازَةِ الْمُسْلِمِينَ الضَّرَرَ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ . وَأَمَّا الرِّقَابُ : رُويَ عَنْ عَدَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : أَنَّهُمُ الْمَكَاتِبُونَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَا بَأْسَ أَنْ تُعْتَقَ الرِّقَبَةُ مِنَ الزَّكَاةِ . أَيُّ : أَنَّ الرِّقَابَ أَعَمَّ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ الْمَكَاتِبُ ، أَوْ يَشْتَرِيَ رَقَبَةً فَيُعْتِقَهَا اسْتِغْلَالًا . وَأَمَّا الْغَارِمُونَ فَهُمْ أَقْسَامٌ : فَمِنْهُمْ مَنْ تَحَمَّلَ حَمَالَةً أَوْ ضَمِنَ دَيْنًا فَلَزِمَهُ ، فَأَجْحَفَ بِإِلَهِ أَوْ غَرِمَ فِي آدَاءِ دَيْنِهِ أَوْ فِي مَعْصِيَةٍ ثُمَّ تَابَ فَهَؤُلَاءِ يُدْفَعُ إِلَيْهِمْ . وَأَمَّا ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : فَمِنْهُمْ الْغَزَاةُ الَّذِينَ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الدِّيَّانِ ، وَكَذَلِكَ ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ وَهُوَ الْمَسَافِرُ الْمُجْتَازُ فِي بَلَدٍ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى سَفَرِهِ ، فَيُعْطَى مِنَ الصَّدَقَاتِ مَا يَكْفِيهِ إِلَى بَلَدِهِ ، وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ . ﴿ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : حُكْمًا مُّقَدَّرًا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَفَرَضِهِ وَقَسَمَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ : عَلِيمٌ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ وَبَوَاطِنِهَا وَبِمَصَالِحِ عِبَادِهِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِيمَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ وَيَشْرَعُهُ وَيَحْكُمُ بِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ قَوْمٌ يُوْذُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِالْكَلَامِ فِيهِ ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أَي : مَنْ قَالَ لَهُ شَيْئًا صَدَقَهُ وَمَنْ حَدَّثَهُ فِينَا صَدَقَهُ ، فَإِذَا جِئْنَاهُ وَحَلَفْنَا لَهُ صَدَقَنَا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أَي : هُوَ أُذُنٌ خَيْرٌ يَعْرِفُ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ ﴿ يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : وَيُصَدِّقُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ ﴾ وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُوْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ هُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ تَحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٧﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ تَحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الْآيَةُ . أَي : أَلَمْ يَتَحَقَّقُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ حَادِ اللَّهِ ﷻ أَي : شَاقَّةٌ وَخَارِبَةٌ وَخَالِفَةٌ ، وَكَانَ فِي حَدِّ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ فِي حَدٍّ ، ﴿ فَأَنْ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِدًا فِيهَا ﴾ أَي : مُهَانًا مُعَذَّبًا وَ ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿ أَي : وَهَذَا هُوَ الذُّلُّ الْعَظِيمُ ، وَالشَّقَاءُ الْكَبِيرُ .

تَحَذِّرُ الْمُتَنَفِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّا اللَّهُ مَخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٨﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : يَقُولُونَ الْقَوْلَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : عَسَى اللَّهُ أَنْ لَا يُفْشِيَ عَلَيْنَا سِرَّنَا هَذَا ، ﴿ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّا اللَّهُ مَخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ أَي : إِنْ اللَّهُ سَيَنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ مَا يَفْضَحْكُمْ بِهِ ، وَيَبَيِّنُ لَهُ أَمْرَكُمْ ، وَهَذَا قَالَ قَتَادَةُ : كَانَتْ تُسَمَّى هَذِهِ السُّورَةُ : الْفَاضِحَةُ ؛ فَاضِحَةُ الْمُنَافِقِينَ .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٩﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٠﴾

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ يَوْمًا : مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بَطُونًا ، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنًا ، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللُّقَاءِ . فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَسْجِدِ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ ، لَا تُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : أَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقِّ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَنْكِبُ الْحِجَارَةَ وَهُوَ يَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الْآيَةُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أَي: بِهَذَا الْمَقَالِ الَّذِي اسْتَهْزَأْتُمْ بِهِ ﴿ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾ أَي: لَا يُعْفَى عَنْ جَمِيعِكُمْ ، وَلَا بُدَّ مِنْ عَذَابٍ بَعْضُكُمْ ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ أَي: مُجْرِمِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ الْفَاجِرَةِ الْخَاطِئَةِ .

الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَتِ وَالْكَفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنُهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى خِلَافِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، كَانَ هَؤُلَاءِ ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أَي: عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أَي: نَسُوا ذِكْرَ اللَّهِ ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أَي: عَامَلَهُمْ مُعَامَلَةً مِنْ نَسِيهِمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ الْيَوْمَ نَنَسِكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ .
وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَي: الْخَارِجُونَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ ، الدَّاخِلُونَ فِي طَرِيقِ الضَّلَالَةِ . ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَتِ وَالْكَفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أَي: عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الَّذِي ذَكَرَ عَنْهُمْ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَي: مَا كَثُرَ فِيهَا مُخْلِدِينَ هُمْ وَالْكَفَّارُ ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أَي: كِفَايَتُهُمْ فِي الْعَذَابِ ﴿ وَلَعْنُهُمُ اللَّهُ ﴾ أَي: طَرَدَهُمْ أَوْ بَعَدَهُمْ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾
يَقُولُ تَعَالَى: أَصَابَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَهُمْ ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَدًا .

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: بِدِينِهِمْ . ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ أَي: فِي الْكُذْبِ وَالْبَاطِلِ ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أَي: بَطَلَتْ مَسَاعِيهِمْ ، فَلَا ثَوَابَ لَهُمْ عَلَيْهَا ؛ لِأَنَّهَا فَاسِدَةٌ ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ عَلَيْهَا ثَوَابٌ . ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ الْآيَةُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مَا أَشَبَّهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ هَؤُلَاءِ بَنُو إِسْرَائِيلَ شُبِّهْنَا بِهِمْ .

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَاعْظَا هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيُّ : أَلَمْ تُخْبَرُوا خَبَرٌ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وَمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَرْقِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، إِلَّا مَنْ آمَنَ بَعْدَهُ وَرَسُولُهُ نُوحٌ عليه السلام ﴿وَعَادٍ﴾ كَيْفَ أَهْلَكُوا بِالرَّيْحِ الْعَقِيمِ ، لَمَّا كَذَبُوا هُودًا عليه السلام ﴿وَتَمُودَ﴾ كَيْفَ أَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ ، لَمَّا كَذَبُوا صَالِحًا عليه السلام وَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كَيْفَ نَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَيَّدَهُ بِالْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَةِ عَلَيْهِمْ ، وَأَهْلَكَ مَلَكَهُمْ الثَّمُرُودَ بْنَ كَنْعَانَ بْنَ كُوشِ الْكَنْعَانِيِّ - لَعْنَهُ اللَّهُ - ﴿وَأَصْحَبِ مَدْيَنَ﴾ وَهُمْ قَوْمٌ شُعَيْبٍ عليه السلام وَكَيْفَ أَصَابَتْهُمْ الرَّجْفَةُ وَعَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قَوْمُ لُوطٍ ، وَقَدْ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي مَدَائِنَ ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَهْوَى﴾ [النجم : ٥٣] أَيُّ : الْأُمَّةُ الْمُؤْتَفِكَاتُ ، وَقِيلَ : أُمُّ قُرَاهُمْ وَهِيَ سَدُومُ ، وَالْغَرَضُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّ اللَّهِ لُوطًا عليه السلام وَإِتْيَانِهِمُ الْفَاحِشَةَ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيُّ : بِالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أَيُّ : بِإِهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ ؛ لِأَنَّهُ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِزَاحَةِ الْعِلَلِ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَيُّ : بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمُ الْحَقَّ ، فَصَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالذَّمَارِ .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الدَّيْمَةِ عَطَفَ بِذِكْرِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَحْمُودَةِ ، فَقَالَ : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أَيُّ : يَتَنَاصَرُونَ وَيَتَعَاضِدُونَ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، وَقَوْلُهُ : ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أَيُّ : يُطِيعُونَ اللَّهَ وَيُحْسِنُونَ إِلَى خَلْقِهِ ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيُّ : فِيمَا

أَمَرَ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ زَجَرَ ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أَيْ : يُعِزُّ مَنْ أَطَاعَهُ ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي قِسْمَتِهِ هَذِهِ الصِّفَاتِ هَؤُلَاءِ ، وَتَخْصِيصِهِ الْمُنَافِقِينَ بِصِفَاتِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَإِنَّ لَهُ الْحِكْمَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٦﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى بِمَا أَعَدَّ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ : مَا كَثُرَتْ فِيهَا أَبَدًا ﴿وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ﴾ أَيْ : حَسَنَةُ الْبِنَاءِ ، طَيِّبَةُ الْقَرَارِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أَيْ : رِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ أَكْبَرُ وَأَجَلُ وَأَعْظَمُ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ .

يَتَابِعُ النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوِلُهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ لِمَنْ يَصِيرُ ﴿٧٧﴾ تَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ مِمَّا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٨﴾

أَمَرَ تَعَالَى رَسُولُهُ ﷺ بِجَهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْغُلَظَةِ عَلَيْهِمْ ، كَمَا أَمَرَهُ بِأَنْ يُخَفِّضَ جَنَاحَهُ لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ مَصِيرَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ إِلَى النَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿تَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ . سُبُلُ أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ فَقَالَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَوْفَى اللَّهُ لَهُ بِأُذُنِهِ» . قَالَ وَذَلِكَ حِينَ سَمِعَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ لَيْنٌ كَانَ صَادِقًا فَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ ، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ : فَهُوَ وَاللَّهُ صَادِقٌ وَلَا أَنتَ شَرٌّ مِنَ الْحِمَارِ . ثُمَّ رُفِعَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَحَدَهُ الْقَائِلُ فَانْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ تَصْدِيقًا لَزَيْدٍ يَعْنِي قَوْلَهُ : ﴿تَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الْآيَةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيْ : وَمَا لِلرَّسُولِ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَغْنَاهُمْ بِبَرَكَتِهِ وَيَمْنِ سَعَادَتِهِ ، وَلَوْ تَمَتَّتْ عَلَيْهِمُ السَّعَادَةُ لَهَدَاهُمُ اللَّهُ لِمَا جَاءَ بِهِ كَمَا قَالَ ﷺ لِلْأَنْصَارِ : «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِى ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بى ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِى» كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ . وَهَذِهِ الصِّيغَةُ تُقَالُ حَيْثُ لَا

ذَنْبٌ ، كَقَوْلِهِ ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ [البروج : ٨] ، ثُمَّ دَعَاهُمْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى التَّوْبَةِ فَقَالَ : ﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أَي : وَإِنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقِهِمْ ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا ﴾ أَي : بِالْقَتْلِ وَالْغَمِّ ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ أَي : بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْهَوَانِ وَالصَّغَارِ ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أَي : لَيْسَ لَهُمْ أَحَدٌ يُسَعِدُهُمْ وَلَا يُنْجِدُهُمْ ، وَلَا يُحْصِلُ لَهُمْ خَيْرًا ، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ شَرًّا .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَنْفِكُوا مِنَ الدِّينِ لِنَصْرِهِمْ لَنَصَدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فَلَمَّا عَاهَدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ يَحْلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿ ٦٦ ﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿ ٦٧ ﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿ ٦٨ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ أَعْطَى اللَّهُ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ ، لَئِنْ أَغْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَيَصَّدَّقَنَّ مِنْ مَالِهِ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَمَا وَفَّى بِمَا قَالَ ، وَلَا صَدَقَ فِيمَا ادَّعَى ، فَأَعْقَبَهُمْ هَذَا الصَّنِيعُ نِفَاقًا سَكَنَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَ اللَّهَ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ الْآيَةُ . أَي : أَعْقَبَهُمُ النِّفَاقُ فِي قُلُوبِهِمْ بِسَبَبِ إِخْلَافِهِمُ الْوَعْدَ وَكَذِبِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ الْآيَةُ . يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِضَمَائِرِهِمْ ، وَإِنْ أَظْهَرُوا أَنَّهُ إِنْ حَصَلَ لَهُمْ أَمْوَالٌ تَصَدَّقُوا مِنْهَا وَشَكَرُوا عَلَيْهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، أَي : يَعْلَمُ كُلَّ غَيْبٍ وَشَهَادَةٍ ، وَكُلَّ سِرٍّ وَنَجْوَى ، وَيَعْلَمُ مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ .

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ ٦٩ ﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْ عَيْنِهِمْ ، وَلَمْزِهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، حَتَّى وَلَا الْمُتَصَدِّقُونَ يَسْلَمُونَ مِنْهُمْ ، إِنْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَالٍ جَزِيلٍ قَالُوا : هَذَا مُرَاءٍ ، وَإِنْ جَاءَ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا . عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ ؓ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نَحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنَا ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ ، فَقَالُوا : مُرَاءٍ ، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا : إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا . فَتَزَلَّتْ ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ الْآيَةُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ عَلَى صَنِيعِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ

بِالْمُؤْمِنِينَ ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةً مَنْ سَخِرَ مِنْهُمْ ، انْتِصَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَعَدَّ لِلْمُنَافِقِينَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا أَلِيمًا ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ .

أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

يُخْرِجُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لَيْسُوا أَهْلًا لِلِاسْتِغْفَارِ ، وَأَنَّهُ لَوْ اسْتَغْفَرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ السَّبْعِينَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ حَسْبًا لِمَادَّةِ الْإِسْتِغْفَارِ لَهُمْ ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ فِي أَسَالِبِ كَلَامِهَا تَذَكُّرُ السَّبْعِينَ فِي مُبَالَغَةٍ كَلَامِهَا ، وَلَا تُرِيدُ التَّحْدِيدَ بِهَا ، وَلَا أَنْ يَكُونَ مَا زَادَ عَلَيْهَا بِخِلَافِهَا .

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَا مًا لِلْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ بَعْدَ خُرُوجِهِ ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا ﴾ مَعَهُ ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا ﴾ أَيُّ : بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْخُرُوجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ كَانَ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ عِنْدَ طَيْبِ الظَّلَالِ وَالشَّامِ ، فَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ لَهُمْ ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ الَّتِي تَصِيرُونَ إِلَيْهَا بِسَبَبِ مُحَالَفَتِكُمْ ﴿ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ بِمَا فَرَزْتُمْ مِنْهُ مِنَ الْحَرِّ ، بَلْ أَشَدُّ حَرًّا مِنَ النَّارِ . أَيُّ : لَوْ أَنَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَيَقْهَمُونَ لَنَفَرُوا مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْحَرِّ ؛ لِيَتَّقُوا بِهِ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ الَّذِي هُوَ أَضْعَافُ أَضْعَافٍ هَذَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى صَنِيعِهِمْ هَذَا ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴿٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ ﴾ أَيُّ : رَدَّكَ اللَّهُ مِنْ غَزْوَتِكَ هَذِهِ ﴿ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ أَيُّ : مَعَكَ إِلَى غَزْوَةِ أُخْرَى ﴿ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ أَيُّ : تَعْزِيرًا لَهُمْ وَعُقُوبَةً ، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . فَإِنَّ جَزَاءَ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا ، كَمَا أَنَّ ثَوَابَ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا ، ﴿ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴾ قِيلَ :

أَيُّ : الرِّجَالِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزَاةِ .

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّ عَلَى قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٥٠﴾

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَبْرَأَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَأَنْ لَا يُصَلِّيَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إِذَا مَاتَ ، وَأَنْ لَا يَقُومَ عَلَى قَبْرِهِ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُ أَوْ يَدْعُوَ لَهُ ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا عَلَيْهِ ، وَهَذَا حُكْمٌ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ عُرِفَ نِفَاقُهُ ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ سَلُولِ رَأْسِ الْمُنَافِقِينَ . عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا تَوَفَّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكْفَنَ فِيهِ أَبَاهُ . فَأَعْطَاهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِتَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَقَدْ هَكَ رُبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِيَّاهُ خَيْرَنِي اللَّهُ فَقَالَ « أَسْتَغْفِرُ هُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ هُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ هُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ هُمْ » وَسَازِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ » قَالَ : إِنَّهُ مُنَافِقٌ . قَالَ : فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ آيَةً : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّ عَلَى قَبْرِهِ ۖ » .

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۖ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ
أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥١﴾
قَدْ تَقَدَّمَ تَطْيِيرُ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ (١) ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْذَنْكَ أُولُوا الطُّوْلِ مِنْهُمْ
وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٥٢﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٥٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا وَذَمًّا لِلْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ ، النَّاكِلِينَ عَنْهُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ ، وَوُجُودِ
السَّعَةِ وَالطُّوْلِ ، وَاسْتِئْذِنُوا الرَّسُولَ فِي الْقُعُودِ وَقَالُوا : « ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ » وَرَضُوا
لِأَنْفُسِهِمْ بِالْعَارِ وَالْقُعُودِ فِي الْبَلَدِ مَعَ النِّسَاءِ ، وَهُنَّ الْخَوَالِفُ بَعْدَ خُرُوجِ الْجَيْشِ ، فَإِذَا وَقَعَ
الْحَرْبُ كَانُوا أَجْبَنَ النَّاسِ ، وَإِذَا كَانَ أَمْنٌ كَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ كَلَامًا . وَقَوْلُهُ : « وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ »

(١) راجع تفسير الآية ٥٥ من هذه السورة الكريمة .

أَيُّ : بِسَبَبِ نُكُوبِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَالْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يَفْهَمُونَ مَا فِيهِ صَلَاحُ لَهُمْ فَيَفْعَلُوهُ ، وَلَا مَا فِيهِ مَضَرَّةٌ لَهُمْ فَيَجْتَنِبُوهُ .
لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى ذَنْبَ الْمُتَافِقِينَ ، وَبَيَّنَّ ثَنَاءَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا لَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ ، مِنْ بَيَانِ حَالِهِمْ وَمَالِهِمْ وَقَالَ : ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ أَيُّ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ وَالدرَجَاتِ الْعُلَى .
وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٠﴾

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ ذَوِي الْأَعْدَارِ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ ، الَّذِينَ جَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، وَيُبَيِّنُونَ لَهُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّعْفِ وَعَدَمَ الْقُدْرَةَ عَلَى الْخُرُوجِ ، وَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِ مِنْ حَوْلِ الْمَدِينَةِ . ﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أَيُّ : وَقَعَدَ آخَرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ عَنِ الْمَجِيءِ لِلاَعْتِدَارِ ، ثُمَّ أَوْعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فَقَالَ : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .
لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾
وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٣٢﴾ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَقْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى الْأَعْدَارَ الَّتِي لَا حَرَجَ عَلَى مَنْ قَعَدَ مَعَهَا عَنِ الْقِتَالِ ، فَذَكَرَ مِنْهَا مَا هُوَ لَازِمٌ لِلشَّخْصِ لَا يَنْفَكُ عَنْهُ ، وَهُوَ : الضَّعْفُ فِي التَّرْكِيبِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ الْجَلَادُ فِي الْجِهَادِ ، وَمِنْهُ الْعَمَى وَالْعَرَجُ وَنَحْوُهُمَا ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِهِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَارِضٌ بِسَبَبِ مَرَضٍ عَنْ لَهُ فِي بَدَنِهِ شَغْلُهُ عَنِ الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ بِسَبَبِ فَقْرِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّجْهِيزِ لِلْحَرْبِ ، فَلَيْسَ

عَلَى هَؤُلَاءِ حَرْجٌ إِذَا قَعَدُوا وَنَصَحُوا فِي حَالِ قُعُودِهِمْ ، وَلَمْ يُرْجِعُوا بِالنَّاسِ وَلَمْ يُبْطِطُوهُمْ وَهُمْ مُحْسِنُونَ فِي حَالِهِمْ هَذَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .
ثُمَّ رَدَّ تَعَالَى الْمَلَامَةَ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْقُعُودِ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، وَأَتَّبَعَهُمْ فِي رِضَاهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ النِّسَاءِ الْخَوَالِفِ فِي الرَّحَالِ ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا
اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَهُمْ بِجَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٥٧﴾ تَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى
عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٨﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ أَتَوْهُمْ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِمْ ﴿ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ
تُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : لَنْ نُصَدِّقْكُمْ ﴿ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ أَيُّ : قَدْ أَعْلَمْنَا اللَّهَ أَحْوَالَكُمْ
« وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ » أَيُّ : سَيُظْهِرُ أَعْمَالَكُمْ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : فَيُخْبِرُكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرَهَا وَشَرِّهَا وَيَجْزِيكُمْ
عَلَيْهَا . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَحْلِفُونَ لَكُمْ مُعْتَذِرِينَ ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ فَلَا تُؤْنِبُوهُمْ ﴿ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ ﴾ اخْتِقَارًا لَهُمْ ﴿ إِنَّهُمْ رَجِسٌ ﴾ أَيُّ : خُبْنَاءُ نَجِسٌ بِوَاطِنِهِمْ وَاعْتِقَادَاتِهِمْ ﴿ وَمَا وَهُمْ بِجَهَنَّمَ
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْإِثَامِ وَالْخَطَايَا ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِنْ رَضُوا
عَنْهُمْ بِحَلْفِهِمْ هُمْ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أَيُّ : الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ
وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، فَإِنَّ الْفُسْقَ هُوَ : الْخُرُوجُ ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْفَارَةُ فَوَيْسَقَةُ : خُرُوجُهَا مِنْ
جُحْرِهَا لِلْإِفْسَادِ ، وَيُقَالُ : فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْمَامِهَا .

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ
عَلَيْهِمْ دَاوِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَةً عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَاتٍ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦١﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ فِي الْأَعْرَابِ كُفَّارًا وَمُنَافِقِينَ وَمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّ كُفْرَهُمْ وَنِفَاقَهُمْ أَعْظَمُ مَنْ غَيْرَهُمْ وَأَشَدُّ ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ أَيُّ : أُخْرَى ﴿ أَلَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ وَلَمَّا كَانَتْ الْغُلْظَةُ وَالْجَفَاءُ فِي أَهْلِ الْبَوَادِي ، لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ مِنْهُمْ رَسُولًا ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الْبُعْثَةُ مِنْ أَهْلِ الْقَرَى . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ : عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْلِمَهُ الْإِيمَانَ وَالْعِلْمَ ، حَكِيمٌ : فِيمَا قَسَمَ بَيْنَ عِبَادِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ ، وَالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالنِّفَاقِ . وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مِنْهُمْ ﴿ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ ﴾ أَيُّ : فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ مَغْرَمًا ﴾ أَيُّ : غَرَامَةً وَخَسَارَةً ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَابُّ ﴾ أَيُّ : يَنْتَظِرُ بِكُمْ الْحَوَادِثُ وَالْآفَاتُ ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ أَيُّ : هِيَ مُنْعَكِسَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَالسَّوْءُ دَائِرٌ عَلَيْهِمْ ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : سَمِيعٌ لِدُعَاءِ عِبَادِهِ ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْخُذْلَانَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ هَذَا هُوَ الْقِسْمُ الْمَمْدُوحُ مِنَ الْأَعْرَابِ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مَا يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُرْبَةً يَتَقَرَّبُونَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَيَتَّبِعُونَ دُعَاءَ الرَّسُولِ لَهُمْ ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾ أَيُّ : أَلَا إِنَّ ذَلِكَ حَاصِلٌ لَهُمْ ﴿ سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ رِضَاهُ عَنِ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، وَرِضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ . قَالَ الشَّعْبِيُّ : السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ : مَنْ أَدْرَكَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ .

وَقَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : هُمُ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ لَحْنٌ تَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَنَّ فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مُنَافِقِينَ ، وَفِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَيْضًا مُنَافِقُونَ ﴿ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ أَيُّ : مَرُّنَا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ يُقَالُ : شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَمَارِدٌ ، وَيُقَالُ : تَمَرَّدَ فُلَانٌ عَلَى اللَّهِ ، أَيُّ : عَتَا وَتَجَبَّرَ ، ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾

نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴿ لَا يُنَافِي قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَمِهِمْ ﴾ وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [حمد : ٣٠٠] ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّوَسُّمِ فِيهِمْ بِصِفَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا ، لَا أَنَّهُ يَعْرِفُ جَمِيعَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ النَّفَاقِ وَالرَّيْبِ عَلَى التَّعْيِينِ ، وَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ فِي بَعْضِ مَنْ يُخَالِطُهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ نِفَاقًا ، وَإِنْ كَانَ يَرَاهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً . ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ يَعْنِي : الْقَتْلَ وَالسَّبْيَ ، وَقِيلَ : بِالْجُوعِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ ، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ، وَقِيلَ : عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا ، وَعَذَابٌ فِي الْقَبْرِ ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ النَّارِ .

وَأَخْرُونا أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٧﴾

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْغَزَاةِ رَغْبَةً عَنْهَا وَتَكْذِيبًا وَشُكًّا ، شَرَعَ فِي بَيَانِ حَالِ الْمُذْنِبِينَ الَّذِينَ تَأَخَّرُوا عَنِ الْجِهَادِ كَسَلًا وَمِيلًا إِلَى الرَّاحَةِ ، مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ بِالْحَقِّ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَخْرُونا أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أَيُّ : أَقْرَبُوا بِهَا وَاعْتَرَفُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ أَعْمَالُ آخِرٍ صَالِحَةٍ خَلَطُوا هَذِهِ بَيْنَكَ ، فَهَؤُلَاءِ تَحْتَ عَفْوِ اللَّهِ وَغُفْرَانِهِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ تَزَلَّتْ فِي أَنْاسٍ مُعَيَّنِينَ ، إِلَّا أَنَّهُمَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ الْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُخَلِّطِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٩﴾

أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً يُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا ، وَهَذَا عَامٌّ وَإِنْ أَعَادَ بَعْضُهُمُ الضَّمِيرَ فِي أَمْوَالِهِمْ إِلَى ﴿ وَأَخْرُونا أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ وَهَذَا اعْتَقَدَ بَعْضُ مَنِيعِي الزَّكَاةِ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ أَنَّ دَفْعَ الزَّكَاةِ إِلَى الْإِمَامِ لَا يَكُونُ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا خَاصًّا بِالرَّسُولِ ﷺ ، وَهَذَا احْتِجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الْآيَةُ ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ هَذَا التَّأْوِيلَ وَالْفَهْمَ الْفَاسِدَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ ، وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى آدَوْا الزَّكَاةَ إِلَى الْخَلِيفَةِ كَمَا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى قَالَ الصِّدِّيقُ : وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا - وَفِي رِوَايَةٍ عَقَالًا - كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَأَقَاتَلَنْتَهُمْ عَلَى مَنَعِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : أَدْعُ لَهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ . ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : رَحْمَةٌ لَهُمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : وَقَارٌ . ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أَيُّ : لِدَعَائِكَ ﴿ عَلِيمٌ ﴾

أَيُّ : بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْكَ وَمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ هَذَا تَهْنِئَةٌ إِلَى التَّوْبَةِ وَالصَّدَقَةِ اللَّتَيْنِ كُلُّ مِنْهُمَا يَحُطُّ الذُّنُوبَ وَيُمَحِّصُهَا وَيَمَحِّقُهَا . وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ كُلَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ حَلَالٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَقَبَّلُهَا بِبِمِيزِنِهِ ، فَيَرْيِيهَا لِصَاحِبِهَا حَتَّى تَصِيرَ التَّمَرَةُ مِثْلَ أُحُدٍ ، كَمَا جَاءَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : هَذَا وَعِيدٌ ، يَعْنِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُخَالِفِينَ أَوْامِرَهُ ، بِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ سَتُعَرَّضُ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذَا كَائِنٌ لَا حَالَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعَرِّضُونَ لَا تُخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨] ، وَقَدْ يُظْهِرُ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا .

وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُمُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِفُوا ، أَيُّ : عَنِ التَّوْبَةِ ، وَهُمْ مَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ، وَكَعْبُ ابْنُ مَالِكٍ ، وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ ، قَعَدُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي جُمْلَةٍ مِنْ قَعَدَ كَسَلًا وَمَيْلًا إِلَى الدَّعَةِ وَالْحِفْظِ وَطِيبِ الثَّمَارِ وَالظَّلَالِ ، لَا شَكًّا وَنَفَاقًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : هُمْ تَحْتَ عَفْوِ اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ هَذَا وَإِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ ذَاكَ ، وَلَكِنَّ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ : عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَفْوَ ، حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ تُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٨﴾

رَوَى مِنْ طَرِيقِ مُرْسَلَةٍ : أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - يَعْنِي مِنْ تَبُوكَ - حَتَّى نَزَلَ بِذِي أَوَانٍ - بَلَدٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ - وَكَانَ أَصْحَابُ مَسْجِدِ الضَّرَارِ قَدْ كَانُوا أَتَوْهُ وَهُوَ يَتَجَهَّزُ إِلَى تَبُوكَ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ وَاللَّيْلَةِ الشَّائِيَةِ ، وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنَا فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيهِ فَقَالَ : « إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَحَالٍ شُغْلٍ » - أَوْ كَمَا

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « وَلَوْ قَدْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ » فَلَمَّا نَزَلَ بِذِي أَوَانٍ أَنَّهُ خَبَرُ الْمَسْجِدِ ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَالِكَ بْنَ الدَّخْشَمِ ، أَخَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ ، وَمَعْنَى ابْنِ عَدِيِّ أَوْ أَخَاهُ عَامِرُ بْنُ عَدِيِّ أَخَا بَنِي عَجْلَانَ ، فَقَالَ : « انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَأَهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ » فَخَرَجَا سَرِيعَيْنِ حَتَّى أَتَيَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ ، وَهُمْ رَهْطُ مَالِكَ بْنِ الدَّخْشَمِ . فَقَالَ مَالِكُ لِمَعْنٍ : أَنْظِرْنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكَ بِنَارٍ مِنْ أَهْلِي ، فَدَخَلَ أَهْلُهُ فَأَخَذَ سَعَقًا مِنَ النَّخْلِ فَأَشْعَلَ فِيهِ نَارًا ، ثُمَّ خَرَجَا يَشْتَدَانِ حَتَّى دَخَلَا الْمَسْجِدَ وَفِيهِ أَهْلُهُ فَحَرَّقَاهُ وَهَدَمَاهُ ، وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ وَنَزَلَ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا نَزَلَ : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِيُخْلِفَنَّ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ بَنَوْهُ ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ أَيُّ : مَا أَرَدْنَا بِبَنِيَانِهِ إِلَّا خَيْرًا وَرَفَقًا بِالنَّاسِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أَيُّ : فِيمَا قَصَدُوا وَفِيمَا نَوَوْا ، وَإِنَّمَا بَنَوْهُ ضِرَارًا لِمَسْجِدِ قُبَاءٍ ، وَكُفْرًا بِاللَّهِ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَهُوَ أَبُو عَامِرٍ الْفَاسِقُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الرَّاهِبُ - لَعَنَهُ اللَّهُ - .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ نَهَى لَهُ ﷺ وَالْأُمَّةُ تَبِعَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، عَنْ أَنْ يَقُومَ فِيهِ ، أَيُّ : يُصَلِّيَ فِيهِ أَبَدًا . ثُمَّ حَثَّهُ عَلَى الصَّلَاةِ بِمَسْجِدِ قُبَاءَ الَّذِي أُسِّسَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمِ بَنَائِهِ عَلَى التَّقْوَى ، وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ، وَجَمْعًا لِكَلِمَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَعْقِلًا وَمَوْثِلًا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ وَالسِّيَاقُ إِنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِضِ مَسْجِدِ قُبَاءٍ ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَزُورُ مَسْجِدَ قُبَاءَ رَاكِبًا وَمَاشِيًا . وَقَدْ صَرَّحَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ بِأَنَّهُ مَسْجِدُ قُبَاءَ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي فِي جَوْفِ الْمَدِينَةِ ، هُوَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى . وَهَذَا صَحِيحٌ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْآيَةِ وَبَيْنَ هَذَا ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مَسْجِدُ قُبَاءَ قَدْ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ فَمَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ فِيهِ رِجَالٌ مُتَّحِبُونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسَاجِدِ الْقَدِيمَةِ الْمَوْسَسَةِ مِنْ أَوَّلِ بَنَائِهَا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحُدَّةِ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ مَعَ الْجَمَاعَةِ الصَّالِحِينَ وَالْعِبَادِ الْعَامِلِينَ الْمُحَافِظِينَ عَلَى إِسْبَاغِ الوُضُوءِ ، وَالتَّنَزُّهِ عَنْ مُلَابَسَةِ الْقَادُورَاتِ . وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ إِنَّ الطُّهُورَ بِالمَاءِ لِحَسَنٌ ، وَلَكِنَّهُمْ الْمُطَهَّرُونَ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَقَالَ الْأَعْمَشُ : التَّوْبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَالتَّطَهُّرُ مِنَ الشَّرِكِ .

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: لَا يَسْتَوِي مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، وَمَنْ بَنَى مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، فَإِنَّهُ يَبْنِي هَؤُلَاءِ بُنْيَانَهُمْ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ، أَيُّ: طَرَفٍ حَفِيرَةٍ مُثْنَالَةٍ ﴿١٠٦﴾ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ أَيُّ: لَا يَصْلُحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أَيُّ: شَكًّا وَنِفَاقًا، بِسَبَبِ إِقْدَامِهِمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الشَّنِيعِ، أَوْرَثَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ، كَمَا أَشْرَبَ عَابِدُو الْعَجَلِ حُبَّهُ ﴿١٠٧﴾ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴿١٠٨﴾ أَيُّ: بِمَوْتِهِمْ. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أَيُّ: بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي مُجَازَتِهِمْ عَنْهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٠٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ عَاوَضَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، إِذْ بَدَّلُوها فِي سَبِيلِهِ بِالْجَنَّةِ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَإِنَّهُ قَبْلَ الْعَوَاضِ عَمَّا يَمْلِكُهُ بِمَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَى عِبِيدِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ. وَهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ: بَايَعَهُمُ وَاللَّهُ فَأَغْلَى ثَمَنَهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أَيُّ: سَوَاءٌ قَتَلُوا أَوْ قُتِلُوا أَوْ اجْتَمَعَ هُمْ هَذَا وَهَذَا، فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تَأْكِيدٌ لِهَذَا الْوَعْدِ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّهُ قَدْ كَتَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ فِي كُتُبِهِ الْكِبَارِ، وَهِيَ: التَّوْرَةُ الْمُنزَّلَةُ عَلَى مُوسَى، وَالْإِنْجِيلُ الْمُنزَّلُ عَلَى عِيسَى، وَالْقُرْآنُ الْمُنزَّلُ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ -. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فَإِنَّهُ لَا يَخْلِفُ الْمِعَادَ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أَيُّ: فَلْيَسْتَبَشِّرْ مَنْ قَامَ بِمُقْتَضَىٰ هَذَا الْعَقْدِ، وَوَفَّىٰ بِهَذَا الْعَهْدِ، بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ.

التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ اللَّائِيحُونَ الرَّكْعُونَ السَّجِدُونَ
الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَيَّرَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾

هَذَا نَعَتْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اشْتَرَى اللَّهُ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْخِلَالِ
الْجَلِيلَةِ «التَّائِبُونَ» مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا، التَّارِكُونَ لِلْفَوَاحِشِ «الْعَبِيدُونَ» أَيُّ: الْقَائِمُونَ
بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ مُحَافِظِينَ عَلَيْهَا، وَهِيَ: الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ. فَمِنْ أَخَصَّ الْأَقْوَالِ: الْحَمْدُ، فَلِهَذَا
قَالَ: «الْحَمِيدُونَ» وَمِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ: الصِّيَامُ، وَهُوَ تَرْكُ الْمَلَاذِّ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ
وَالْجَمَاعِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالسِّيَاحَةِ هَهُنَا، وَلِهَذَا قَالَ: «الَسَّيْحُونَ» كَمَا وَصَفَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ
بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «سَيِّحَتِ» أَيُّ: صَائِمَاتٌ، وَكَذَا الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ، وَهُمَا عِبَارَةٌ عَنِ
الصَّلَاةِ، وَلِهَذَا قَالَ: «الرَّكْعُونَ السَّجِدُونَ» وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَنْفَعُونَ خَلْقَ اللَّهِ، وَيُرْشِدُونَهُمْ
إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ بِأَمْرِهِمُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمُ عَنِ الْمُنْكَرِ، مَعَ الْعِلْمِ بِمَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ وَيَجِبُ تَرْكُهُ، وَهُوَ
حِفْظُ حُدُودِ اللَّهِ فِي تَحْلِيلِهِ وَتَحْرِيمِهِ، عِلْمًا وَعَمَلًا، فَقَامُوا بِعِبَادَةِ الْحَقِّ وَنُصَحِ الْخَلْقِ، وَلِهَذَا قَالَ:
«وَبَيَّرَ الْمُؤْمِنِينَ» لِأَنَّ الْإِيْمَانَ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ، وَالسَّعَادَةُ كُلُّ السَّعَادَةِ لِمَنْ انْتَصَفَ بِهِ.

مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى
مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا
عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿٣٩﴾

عَنِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ
أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فَقَالَ: «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ
اللَّهِ ﷻ». فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتُرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟
فَقَالَ: أَنَا عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحِ عَنْكَ» فَزَلَّتْ «مَا
كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

وَقَوْلُهُ: «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ: مَا زَالَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ
حَتَّى مَاتَ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ. وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَّهُ يَتَبَرَّأُ
مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يَلْقَى أَبَاهُ وَعَلَى وَجْهِ أَبِيهِ الْقَتْرَةَ وَالْغَبْرَةَ، فَيَقُولُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، إِنِّي كُنْتُ

أَعْصِيكَ وَإِنِّي الْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ ، فَيَقُولُ : أَيُّ رَبِّ أَلَمْ تَعُدَّنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ؟ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ ؟ فَيَقَالُ : أَنْظِرْ إِلَى مَا وَرَاءَكَ ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ أَيُّ : قَدْ مَسَحَ ضَبْعًا ، ثُمَّ يُسْحَبُ بِقَوَائِمِهِ وَيُلْقَى فِي النَّارِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ : الْأَوَّاهُ : الدَّعَاءُ . وَقِيلَ : هُوَ الرَّحِيمُ : أَيُّ : بِعِبَادِ اللَّهِ . وَقِيلَ : الْمُؤِنُّ . وَقِيلَ : التَّوَابُّ . وَقِيلَ : الْمُسَبِّحُ ، وَقِيلَ : لَا يُحَافِظُ عَلَى سُبْحَةِ الصُّحَى إِلَّا أَوَّاهٌ ، وَقِيلَ : الْأَوَّاهُ : الْحَفِيطُ الْوَجِلُ ، يُذْنِبُ الذَّنْبَ سِرًّا ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ سِرًّا . وَقِيلَ : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ أَيُّ : فَقِيهٌ . قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ : وَأَوَّلُ الْأَقْوَالِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ الدَّعَاءُ ، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْسِّيَاقِ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّمَا اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا لِأَيَّاهُ ، وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ كَثِيرُ الدَّعَاءِ ، حَلِيمًا عَمَّنْ ظَلَمَهُ وَأَنَالَهُ مَكْرُوهًا ، وَلِهَذَا اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ . فَحَلَمَ عَنْهُ مَعَ أَذَاهُ لَهُ ، وَدَعَا لَهُ وَاسْتَغْفَرَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ^{١٧} إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ وَحُكْمِهِ الْعَادِلِ : إِنَّهُ لَا يُضِلُّ قَوْمًا إِلَّا بَعْدَ إِبْلَاجِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى يَكُونُوا قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت: ١٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : هَذَا تَحْرِيطٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمُلُوكِ الْكُفْرِ ، وَأَنَّهُمْ يَتَّقُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَرْهَبُوا مِنْ أَعْدَائِهِ ، فَإِنَّهُ لَا وَلِيَّ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا نَصِيرَ لَهُمْ سِوَاهُ .

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ أَيُّ : مِنَ النَّفَقَةِ وَالظَّهْرِ وَالزَّادِ وَالْمَاءِ ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ أَيُّ : عَنِ الْحَقِّ ، وَيَشْكُ فِي دِينِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَيَرْتَابُ لِلَّذِي نَاهَهُمُ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالشَّدَةِ فِي

سَفَرِهِمْ وَعَزَّوْهِمْ ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ يَقُولُ : ثُمَّ رَزَقَهُمُ الْإِنَابَةَ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَالرُّجُوعَ إِلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٩﴾

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ؓ يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَقَالَ : لَمْ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزَاةٍ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزَاةٍ بَدْرَ ، وَلَمْ يِعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا ، وَإِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَافَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَمَا أَحْبَبُّ أَنْ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرُ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَأَشْهَرُ ، وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَفْوَى وَلَا أَيْسَرُ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ ، وَاللَّهُ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَلَمًا يُرِيدُ غَزْوَةَ يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَى بِغَيْرِهَا ، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ فغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَقَارًا ، وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ ؛ لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةَ غَزْوِهِمْ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ ، لَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدِّيَّانَ - قَالَ كَعْبٌ : فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى عَلَيْهِ ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزَاةَ حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ ، فَتَجَهَّزَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكُنِّي أَتَجَهَّزُ مَعَهُمْ ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا ، فَأَقُولُ لِنَفْسِي : أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَّادِي بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجُدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا ، وَقُلْتُ : أَتَجَهَّزُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ الْحَقُّهُ ، فَغَدَوْتُ بَعْدَمَا فَصَلُوا لَا أَتَجَهَّزُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا ، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَّادِي بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأَلْحَقَهُمْ - وَلَيْتَ أَنِّي فَعَلْتُ - ثُمَّ لَمْ يَقْدَرْ ذَلِكَ لِي ، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطَفِقْتُ فِيهِمْ يُخْزِنُنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَهُ اللَّهُ ﷻ ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ تَبُوكَ « مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ؟ »

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ : حَبَسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفِيهِ ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ :
يُسْمَا قُلْتُ ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا . فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . قَالَ كَعْبُ بْنُ
مَالِكٍ : فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِيقْتُ أَتَذَكَّرُ
الْكَذِبَ وَأَقُولُ : بِإِذَا أَخْرَجَ مِنْ سَخَطِهِ عَدَا ؟ وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي ، فَلَمَّا
قِيلَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظْلَلَ قَادِمًا زَاخَ عَنِّي الْبَاطِلُ ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجُ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا ،
فَأَجَمَعْتُ صِدْقَهُ ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ
جَلَسَ لِلنَّاسِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُتَخَلِّفُونَ وَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، وَيَخْلِفُونَ لَهُ - وَكَانُوا
بِضِعَةِ وَتَمَانِينَ رَجُلًا - فَيَقْبَلُ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَيَكُلُّ سَرَائِرَهُمْ إِلَى
اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى حِثَّتُهُ ، فَلَمَّا سَلِمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : « تَعَالَى » فَجِئْتُ
أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لِي : « مَا خَلَفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ إِشْتَرَيْتَ ظَهْرًا ؟ » فَقُلْتُ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنَّ سَاخِرَجَ مِنْ سَخَطِهِ بَعْدِي ،
وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَيْتَنِي حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ بِحَدِيثٍ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي
لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ ، وَلَيْتَنِي حَدَّثْتُكَ بِصَدَقٍ تَحْدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ ﷻ ،
لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَفْرَغُ وَلَا أَيْسَرُ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ قَالَ : فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ » فَقُمْتُ ، وَقَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ
بَنِي سَلَمَةَ ، وَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي : وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا ، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ
لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ الْمُتَخَلِّفُونَ ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ مِنْ ذَنْبِكَ اسْتَغْفَارُ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ . قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنَّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأَكْذَبَ نَفْسِي ، قَالَ :
ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَّ مَعِيَ هَذَا أَحَدٌ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ ،
وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ ، فَقُلْتُ : فَمَنْ هُمَا ؟ قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيُّ ، وَهَلَالُ بْنُ
أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ ، فَذَكَّرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ ، قَدْ شَهِدَا بَدْرًا ، لِي فِيهِمَا أُسُوءَ ، قَالَ : فَمَضَيْتُ
حِينَ ذَكَرْتُهُمَا لِي ، فَقَالَ : وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ
تَخَلَّفَ عَنْهُ ، فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ وَتَغَيَّرُوا لَنَا ، حَتَّى تَنَكَّرْتُ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ
الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَنَّا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا
يَبْكِيَانِ ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ ، فَكُنْتُ أَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ
بِالْأَسْوَاقِ ، فَلَا يَكَلِّمُنِي أَحَدٌ ، وَآتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَأُسَلِّمُ ، وَأَقُولُ
فِي نَفْسِي : أَحْرَكَ شَفِيتِي بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا ؟ ثُمَّ أَصْلِي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ

عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ ، فَإِذَا اِلْتَفَتَ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدْكَ اللَّهَ هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟ قَالَ : فَسَكَتَ ، قَالَ : فَعُدْتُ لَهُ فَشَدُّتُهُ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ لَهُ فَشَدُّتُهُ ، فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا أَنَا بِنَبِطِيٍّ مِنْ أَنْبَاطِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِطَعَامٍ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ؟ قَالَ : فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ ، حَتَّى جَاءَ فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ عَسَانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا فَإِذَا فِيهِ : أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْكَ فِي دَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةٍ ، فَالْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكُ . قَالَ : فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهُ وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ ، قَالَ : فَتَيَمَّمْتُ بِهِ التَّوَرَّ فَسَجَرْتُهُ بِهِ ، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا بِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي يَقُولُ : يَا مُرَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَعْتَزَلَ أَمْرَاتِكَ قَالَ : فَقُلْتُ أَطْلُقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ ؟ فَقَالَ : بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا ، قَالَ : وَأَرْسَلَ إِلَيَّ صَاحِبِي بِمِثْلِ ذَلِكَ ، قَالَ : فَقُلْتُ لِأَمْرَائِي الْحَقِّي بِأَهْلِكَ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَا يَشَاءُ ، قَالَ : فَجَاءَتْ أَمْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ شَيْخٍ ضَعِيفٍ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ ؟ قَالَ : « لَا ، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَكَ » قَالَتْ : وَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ ، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا ، قَالَ : فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أَمْرَاتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لَأَمْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ ، قَالَ : فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا اسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا أَذْرِي مَا يَقُولُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ ، قَالَ : فَلَبِثْنَا عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمَلْنَا لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى عَنْ كَلَامِنَا ، قَالَ : ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الصُّبْحِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى : قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، سَمِعْتُ صَارِخًا أَوْفَى عَلَى جَبَلٍ سَلْعَ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : أَبَشِّرْ يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ، قَالَ : فَحَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ ﷻ بِالنُّوْبَةِ عَلَيْنَا ، فَادَّخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَتُوبَةَ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى الْفَجْرَ ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُسْئِرُونَنَا وَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا ، وَسَعَى سَاعَ مِنْ أَسْلَمَ وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُسْئِرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبِشَارَتِهِ لِي ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ غَيْرَهُمَا ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا ، وَانْطَلَقْتُ أَوْمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَيِّئُونِي بِتُوبَةِ اللَّهِ ، يَقُولُونَ : لِيَهْنِكَ

تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُ فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ يُهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي ، وَاللَّهُ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ ، قَالَ : فَكَانَ كَعَبٍّ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ ، قَالَ كَعَبٌ : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ الشُّرُورِ « أَبَشِّرْ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ » قَالَ : قُلْتُ : أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ قَالَ : « لَا ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » قَالَ : وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَتْهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ ، حَتَّى يُعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ قَالَ : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » . قَالَ : فَقُلْتُ : فَإِنِّي أَمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرٍ ، وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا نَجَانِي اللَّهُ بِالصَّدَقِ ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيْتُ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ مِنَ الصَّدَقِ فِي الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ تَعَالَى ، وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا ، وَإِنِّي لَا رَجُو أَنْ يُحْفَظَنِي اللَّهُ ﷻ فِيمَا بَقِيَ . قَالَ : وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ .

قَالَ : وَكُنَّا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خَلَفْنَا عَنْ أَمْرِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ قَبْلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَلَفُوا فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ ، فَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴾ وَلَيْسَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا الَّذِي ذَكَرَ بِمَا خَلَفْنَا بِتَخَلُّفِنَا عَنْ الْعَزْوِ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَتَابِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أَيُّ : اُصْدُقُوا وَالزُّمُوا الصَّدَقَ ، تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ ، وَتَنْجُوا مِنَ الْمَهَالِكِ ، وَيَجْعَلُ لَكُمْ فَرَجًا مِنْ أُمُورِكُمْ وَمَخْرَجًا .

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٥﴾

يُعَاتِبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَرَغْبَتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ مُوَاسَاتِهِ فِيمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْمَشَقَّةِ ، فَإِنَّهُمْ نَقَصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ لِأَنَّهُمْ ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ وَهُوَ : الْعَطَشُ ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ وَهُوَ : التَّعَبُ ﴿ وَلَا

مَحْمَصَةً ﴿ وَهِيَ : الْمَجَاعَةُ ﴾ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴿ أَي : يَنْزِلُونَ مَنَزَلًا يُرْهِبُ عَدُوَّهُمْ ﴾ وَلَا يَنَالُونَ ﴿ مِنْهُ ظَفَرًا وَغَلَبَةً عَلَيْهِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ بِهِذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِي لَيْسَتْ دَاخِلَةً تَحْتَ قُدْرَتِهِمْ وَإِنَّمَا هِيَ نَاشِئَةٌ عَنْ أَفْعَالِهِمْ ، أَعْمَالًا صَالِحَةً وَثَوَابًا جَزِيلًا ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٣٠]

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ ﴾ هَؤُلَاءِ الْغَزَاةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أَي : قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ أَي : فِي السَّيْرِ إِلَى الْأَعْدَاءِ ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ هَهُنَا بِهِ لِأَنَّ هَذِهِ أَفْعَالٌ صَادِرَةٌ عَنْهُمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وَقَدْ حَصَلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ ؓ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَظٌّ وَافِرٌ وَنَصِيبٌ عَظِيمٌ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَنْفَقَ فِي هَذِهِ الْغَزَاةِ النِّفَقَاتِ الْجَلِيلَةِ وَالْأَمْوَالِ الْجَزِيلَةِ .

﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ﴿٣٢﴾

هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَا أَرَادَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْيَاءِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ التَّغْيِيرُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . قَالَ : فَسُيِّخَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ هَذَا بَيَانٌ لِمُرَادِهِ تَعَالَى مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْيَاءِ كُلِّهَا وَشُرْذِمَةٍ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ ، إِنْ لَمْ يَخْرُجُوا كُلُّهُمْ ، لِيَتَفَقَّهُوا الْخَارِجُونَ مَعَ الرَّسُولِ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ ، وَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ ، فَيَجْتَمِعَ لَهُمُ الْأَمْرَانِ فِي هَذَا التَّغْيِيرِ الْمُعَيَّنِ ، وَبَعْدَهُ ﷺ تَكُونُ الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ مِنَ الْحَيِّ إِمَّا لِلتَّفَقُّهِ ، وَإِمَّا لِلْجِهَادِ فَإِنَّهُ فَرَضَ كِفَايَةَ عَلَى الْأَحْيَاءِ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ؕ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقَاتِلُوا الْكُفَّارَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا ، الْأَقْرَبُ فَلَا اقْرَبُ إِلَى حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ ، وَهَذَا بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُمْ وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ

وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفَ وَالْيَمْنَ وَالْيَمَامَةَ وَهَجَرَ وَخَيْرَ وَحَضَرَ مَوْتَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَقَالِيمِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِيَجِدَ الْكُفَّارَ مِنْكُمْ غِلْظَةً ﴾ أَيُ : وَلِيَجِدِ الْكُفَّارَ مِنْكُمْ غِلْظَةً عَلَيْهِمْ فِي قِتَالِكُمْ هُمْ ، فَإِنَّ
 الْمُؤْمِنَ الْكَامِلَ هُوَ الَّذِي يَكُونُ رَفِيقًا لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ غَلِيظًا عَلَى عَدُوِّهِ الْكَافِرِ . ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
 الْمُتَّقِينَ ﴾ أَيُ : قَاتِلُوا الْكُفَّارَ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ إِذَا اتَّقَيْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ .

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَاهِةٌ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١١٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ
 رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْ الْمُنافِقِينَ ﴾ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَاهِةٌ إِيْمَانًا ؟
 أَيُ : يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ إِيْمَانًا ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَكْثَرِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الْإِيْمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ ، كَمَا
 هُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ مِنْ أئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ . بَلْ قَدْ حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ
 عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ شَقَائِهِمْ ، أَنَّ مَا
 يَبْدِي الْقُلُوبَ يَكُونُ سَبَبًا لِضَلَالِهِمْ وَدَمَارِهِمْ ، كَمَا أَنَّ سَيِّئَ الْمَزَاجِ لَوْ غُذِيَ بِمَا غُذِيَ بِهِ لَا
 يَزِيدُهُ إِلَّا خَبَالًا وَنَقْصًا .

أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ
 يَذْكُرُونَ ﴿١١٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ
 أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَوَّلًا يَرَى هَؤُلَاءِ الْمُنافِقُونَ ﴿ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾ أَيُ : يُخْتَبَرُونَ ﴿ فِي كُلِّ عَامٍ
 مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ أَيُ : لَا يَتُوبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ ، وَلَا
 هُمْ يَذْكُرُونَ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ . قَالَ مُجَاهِدٌ : يُخْتَبَرُونَ بِالسَّنَةِ وَالْجُوعِ . وَقَالَ قَتَادَةُ :
 بِالْغَزْوِ فِي السَّنَةِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ
 اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ هَذَا أَيْضًا إِخْبَارٌ عَنِ الْمُنافِقِينَ أَنَّهُمْ إِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
 ﷺ ﴿ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ أَيُ : تَلَفَّتُوا ﴿ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ﴾ أَيُ : تَوَلَّوْا عَنِ

الْحَقُّ وَانصَرَفُوا عَنْهُ ، وَهَذَا حَاثُهُمْ فِي الدُّنْيَا لَا يَنْتَبِهُونَ عِنْدَ الْحَقِّ وَلَا يَقْبَلُونَهُ وَلَا يَفْهَمُونَهُ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا أَرَاغَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ ﴾ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿ [الصف : ٥] أَيْ : لَا يَفْهَمُونَ عَنِ اللَّهِ خَطَابَهُ ، وَلَا يَقْصِدُونَ لِفَهْمِهِ وَلَا
يُرِيدُونَهُ ، بَلْ هُمْ فِي شُغْلٍ عَنْهُ وَنُفُورٍ مِنْهُ ، فَلِهَذَا صَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ .

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَنَتًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ، أَيْ : مِنْ جِنْسِهِمْ وَعَلَى
لُغَتِهِمْ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٩] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أَيْ : مِنْكُمْ وَبَلَّغْتَكُمْ . ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أَيْ : يَعْزُّ عَلَيْهِ
الشَّيْءَ الَّذِي يُعْنِتُ أُمَّتَهُ وَيَشْقُ عَلَيْهِ . ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى هِدَايَتِكُمْ ، وَوُضُولِ النَّفْعِ
الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرَوِيِّ إِلَيْكُمْ . ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ
اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢١٨﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٩﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢٢٠﴾
[الشعراء : ٢١٥-٢١٧] ، وَهَكَذَا أَمَرُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾
أَيْ : تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتُمْ بِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْعَظِيمَةِ الْمُطَهَّرَةِ الْكَامِلَةِ الشَّامِلَةِ ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : اللَّهُ كَافِيٌّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : هُوَ
مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ ؛ لِأَنَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ وَجَمِيعِ
الْخَلَائِقِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا تَحْتَ الْعَرْشِ مَقْهُورُونَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ،
وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَقُدْرَتُهُ نَافِذٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ بَرَاءَةِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آيَاتُهَا ١٠٩ تَفْسِيرُ سُورَةِ يُونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكِّيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّءِىَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ
أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ

هَذَا لَسَجِرٌ مُبِينٌ ﴿١٠﴾

أَمَّا الْخُرُوفُ الْمُقْطَعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّورِ فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْمُحْكَمِ الْمُبِينِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ تَعَجَّبَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ إِرْسَالِ الْمُرْسَلِينَ مِنَ الْبَشَرِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ قِيلَ فِي مَعْنَاهَا : سَبَقَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ . وَقِيلَ : الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ ؛ صَلَاتُهُمْ وَصَوْمُهُمْ وَصَدَقَتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُمْ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ يَشْفَعُ لَهُمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجِرٌ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : مَعَ أَنَّا بَعَثْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ رَجُلًا مِنْ جَنْسِهِمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجِرٌ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : ظَاهِرٌ ، وَهُمْ الْكَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ .

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِ جَمِيعِهِ وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، قِيلَ : كَهَذِهِ الْأَيَّامِ ، وَقِيلَ : كُلُّ يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَالْعَرْشُ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَقْفُهَا . ﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أَيُّ : يُدَبِّرُ أَمْرَ الْخَلَائِقِ ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سبأ : ٣] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيُّ : أَفَرِّدُوهُ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيُّ : أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ فِي أَمْرِكُمْ ، تَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا غَيْرَهُ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ .

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ إِلَيْهِ مَرْجِعَ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، حَتَّى يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَمَا بَدَأَ الْخَلْقَ كَذَلِكَ يُعِيدُهُ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾ أَيُّ : بِالْعَدْلِ وَالْجَزَاءِ الْأَوْفَى

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ ١٠٠ : أَيُّ : بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ ، مِنْ سُمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿١٠٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَلَقَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، أَنَّهُ جَعَلَ الشُّعَاعَ الصَّادِرَ عَنْ جِزْمِ الشَّمْسِ ضِيَاءً ، وَجَعَلَ شُعَاعَ الْقَمَرِ نُورًا ، هَذَا فَنٌّ وَهَذَا فَنٌّ آخَرٌ ، فَفَاوَتْ بَيْنَهُمَا لَيْلًا يَشْتَبِهَا ، وَجَعَلَ سُلْطَانَ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ ، وَسُلْطَانَ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ ، وَقَدَّرَ الْقَمَرَ مَنَازِلَ ، فَأَوَّلُ مَا يَبْدُو صَغِيرًا ثُمَّ يَتَزَايِدُ نُورُهُ وَجِزْمُهُ حَتَّى يَسْتَوْسِقَ ، وَيَكْمُلُ إِبْدَارُهُ ، ثُمَّ يَسْرِعُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حَالِهِ الْأَوَّلِيِّ فِي تَمَامِ شَهْرٍ . وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ وَقَدَرَهُ ﴾ ١٠١ : أَيُّ : الْقَمَرَ ﴿ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ ١٠٢ : فَبِالشَّمْسِ تُعْرَفُ الْأَيَّامُ وَبِالسَّيْرِ الْقَمَرَ تُعْرَفُ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ . ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ١٠٣ : أَيُّ : لَمْ يَخْلُقْهُ عَبَثًا بَلْ لَهُ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ فِي ذَلِكَ وَحُجَّةٌ بِالْعَقْلِ ، ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ ١٠٤ : أَيُّ : يُبَيِّنُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ١٠٥ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ ١٠٦ : أَيُّ : تَعَاقُبُهُمَا إِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا ، وَإِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا ، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ شَيْئًا ، ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ ١٠٧ : أَيُّ : عِقَابُ اللَّهِ وَسَخَطُهُ وَعَذَابُهُ .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يَرْجُونَ فِي لِقَائِهِ شَيْئًا ، وَرَضُوا بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنَتْ إِلَيْهَا نَفُوسُهُمْ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١١٠﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١١﴾

هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ السُّعَدَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ وَامْتَثَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ فَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، بِأَنَّهُ سَيَهْدِيهِمْ بِإِيمَانِهِمْ ، يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ هَهُنَا سَبِيَّةً فَتَقْدِيرُهُ ، أَيُّ :

بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، حَتَّى يَجُوزُوهُ وَيَخْلُصُوا إِلَى الْجَنَّةِ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلْإِسْتِعَانَةِ ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيْمَانِهِمْ ﴾ قَالَ : يَكُونُ لَهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : هَذَا حَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ . وَقِيلَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ﴾ إِذَا مَرَّ بِهِمُ الطَّيْرُ يَسْتَهْوُهُ قَالُوا : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ، وَذَلِكَ دَعْوَاهُمْ فَيَأْتِيهِمُ الْمَلَكُ بِمَا يَسْتَهْوُهُ فَيَسَلِّمُ عَلَيْهِمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ قَالَ : فَإِذَا أَكَلُوا حَمْدُوا اللَّهَ رَبَّهُمْ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَحْمُودُ أَبَدًا ، الْمَعْبُودُ عَلَى طُولِ الْمَدَى ، وَلِهَذَا حَمِدَ نَفْسَهُ عِنْدَ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ ، وَفِي ابْتِدَاءِ كِتَابِهِ وَعِنْدَ ابْتِدَاءِ تَنْزِيلِهِ ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [الكهف : ١]

❖ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَندَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٥١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ ، أَنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ أَوْلَادِهِمْ فِي حَالِ ضَجَرِهِمْ وَغَضَبِهِمْ ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْهُمْ عَدَمَ الْقَصْدِ بِالشَّرِّ إِلَى إِرَادَةِ ذَلِكَ ، فَلِهَذَا لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَالحَالَةُ هَذِهِ لُطْفًا وَرَحْمَةً ، كَمَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَوْ لِأَمْوَالِهِمْ أَوْ لِأَوْلَادِهِمْ بِالْخَيْرِ وَالبَّرَكَةِ وَالنَّمَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ ﴾ أَيُّ : لَوْ اسْتَجَابَ لَهُمْ كُلُّ مَا دَعَوْهُ بِهِ فِي ذَلِكَ لَأَهْلَكَهُمْ ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي الْإِكْثَارُ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : هُوَ قَوْلُ الْإِنْسَانِ لَوَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ إِذَا غَضِبَ عَلَيْهِ : اللَّهُمَّ لَا تَبَارِكْ فِيهِ وَالْعَنَّهُ . فَلَوْ يُعَجِّلُ لَهُمُ الاسْتِجَابَةَ فِي ذَلِكَ كَمَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِي الْخَيْرِ لَأَهْلَكَهُمْ .

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ وَضَجَرِهِ وَقَلْقِهِ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : ٥١] أَيُّ : كَثِيرٌ وَهُمَا فِي مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ قَلِقَ لَهَا وَجَزَعَ مِنْهَا وَأَكْثَرَ الدُّعَاءَ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَدَعَا اللَّهَ فِي كَشْفِهَا وَرَفْعِهَا عَنْهُ فِي حَالِ اضْطِجَاعِهِ وَقُعُودِهِ وَقِيَامِهِ وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، فَإِذَا فَرَّجَ اللَّهُ شِدَّتَهُ وَكَشَفَ كُرْبَتَهُ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَذَهَبَ كَأَنَّهُ مَا

كَانَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ﴿مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعَنَا إِلَىٰ ضَرِّ مَسَّهُ﴾ ثُمَّ ذَمَّ تَعَالَىٰ مِنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَطَرِيقَتُهُ فَقَالَ : ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فَأَمَّا مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ الْهُدَايَةَ وَالسَّدَادَ وَالتَّوْفِيقَ وَالرَّشَادَ ، فَإِنَّهُ مُسْتَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا^١ وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا^٢ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَمَّا حَلَّ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فِي تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الْوَاضِحَاتِ ، ثُمَّ اسْتَخْلَفَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا ؛ لِيَنْظُرَ طَاعَتَهُمْ لَهُ وَاتِّبَاعَهُمْ رَسُولَهُ .

وَإِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ^٣ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَايَ نَفْسِي^٤ إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ^٥ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ^٦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ^٧ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشِ الْجَاهِلِينَ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ أَمَّهُمْ إِذَا قَرَأَ عَلَيْهِمُ الرُّسُولُ ﷺ كِتَابَ اللَّهِ وَحُجَّتَهُ الْوَاضِحَةَ قَالُوا لَهُ : ﴿آتَتْ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ أَيُّ : رَدَّ هَذَا وَجِئْنَا بِغَيْرِهِ مِنْ نَمَطٍ آخَرَ ﴿أَوْ بَدَّلَهُ﴾ إِلَىٰ وَضْعٍ آخَرَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَايَ نَفْسِي﴾ أَيُّ : لَيْسَ هَذَا إِلَيَّ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مَأْمُورٌ وَرَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ ﴿إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ . ثُمَّ قَالَ مُحْتَجًّا عَلَيْهِمْ فِي صِحَّةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ : ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أَيُّ : هَذَا إِنَّمَا جِئْتُكُمْ بِهِ عَنْ إِذْنِ اللَّهِ لِي فِي ذَلِكَ وَمَشِيتِهِ وَإِرَادَتِهِ ، وَالذَّلِيلُ عَلَىٰ أَنِّي لَسْتُ أَتَقُولُهُ مِنْ عِنْدِي وَلَا أَفْتَرِيْتُهُ أَنْكُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقِي وَأَمَانَتِي مُنْذُ نَشَأْتُ بَيْنَكُمْ إِلَىٰ حِينِ بَعَثَنِي اللَّهُ ﷻ ، لَا تَتَّقِدُونَ عَلَيَّ شَيْئًا نَغْمُصُونِي بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ^٧ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَيُّ : أَفَلَيْسَ لَكُمْ عُقُولٌ تَعْرِفُونَ بِهَا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ؟

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِعَايَتِهِ^٨ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ وَلَا أَعْتَى وَلَا أَشَدُّ إِجْرَامًا ﴿١﴾ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٢﴾ وَتَقُولُ عَلَى اللَّهِ ، وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ أَكْبَرَ جُرْمًا وَلَا أَعْظَمَ ظُلْمًا مِنْ هَذَا ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَخْفَى أَمْرُهُ عَلَى الْأَغْيَاءِ فَكَيْفَ يَشْتَبِهُ حَالُ هَذَا بِالْأَنْبِيَاءِ ؟ فَإِنَّهُ مَنْ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا فَلَا بُدَّ أَنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى بَرِّهِ أَوْ فُجُورِهِ مَا هُوَ أَظْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ ، فَإِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبَيْنَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ لِمَنْ شَاهَدَهُمَا أَظْهَرَ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ وَقْتِ الضُّحَى وَبَيْنَ نِصْفِ اللَّيْلِ فِي حِنْدِسِ الظُّلَمَاءِ ، فَمِنْ شَيْمٍ كُلِّ مِنْهُمَا وَأَفْعَالِهِ وَكَلَامِهِ يَسْتَدِلُّ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ عَلَى صَدَقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَذِبِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَسِجَاحِ وَالْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِفَايْتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤﴾

يُنَكِّرُ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ ، طَائِفَيْنِ أَنَّ تِلْكَ الْآلِهَةَ تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا يَقَعُ شَيْءٌ بِمَا يَزْعُمُونَ فِيهَا ، وَلَا يَكُونُ هَذَا أَبَدًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ أَخْبِرُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَكُونُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ؟ ثُمَّ نَزَّ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ عَنْ شُرِكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الشَّرْكَ حَادِثٌ فِي النَّاسِ ، كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ كَانُوا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْإِسْلَامُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ أَجَلَ الْخَلْقَ إِلَى أَجَلٍ مُعْدُودٍ ؛ لَقَضَى بَيْنَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَاسْعَدَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْتَتِ الْكَافِرِينَ .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٥﴾

أَيُّ : وَيَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَةُ الْمُكَذِّبُونَ الْمُعَانِدُونَ : لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَةً مِنْ رَبِّهِ ، يَعْنُونَ كَمَا أَعْطَى اللَّهُ ثُمُودَ النَّاقَةَ ، أَوْ أَنْ يُحَوَّلَ هُمْ الصَّفَا ذَهَبًا ، أَوْ يُزِيحَ عَنْهُمْ جِبَالَ مَكَّةَ وَيَجْعَلَ مَكَاتِنَا بَسَاتِينَ وَأَنْهَارًا ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ بِمَا اللَّهُ عَلَيْهِ قَادِرٌ ، وَلَكِنَّهُ حَكِيمٌ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ . يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ سُنَّتِي فِي خَلْقِي أَنِّي إِذَا آتَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا ، فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عَاجَلْتُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ . وَهَذَا لَمَّا خِيرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ إعْطَائِهِمْ مَا سَأَلُوا فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عَذَّبُوا وَبَيَّنَ إِنْظَارِهِمْ ، اخْتَارَ إِنْظَارَهُمْ ، كَمَا حَلَّمَ عَنْهُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى إِرْشَادًا لِنَبِيِّهِ ﷺ إِلَى الْجَوَابِ عَمَّا سَأَلُوا : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَأْتِ الْيَوْمَ بِالْبَيِّنَاتِ فَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ . وَأَيُّ : الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ الْعَوَاقِبَ فِي الْأُمُورِ ﴿ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ أَيُّ : إِنْ كُنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ حَتَّى تُشَاهِدُوا مَا سَأَلْتُمْ ، فَانْتَظِرُوا حُكْمَ اللَّهِ فِي وَفَيْكُمْ . هَذَا مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا مِنْ مُعْجَزَاتِهِ ﷺ أَعْظَمَ مِمَّا سَأَلُوا ، حِينَ أَشَارَ بِحَضْرَتِهِمْ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ إِبْدَارِهِ فَانْشَقَّ اثْنَتَيْنِ ، فِرْقَةً مِنْ وَرَاءِ الْجَبَلِ ، وَفِرْقَةً مِنْ دُونِهِ . وَهَذَا أَعْظَمُ مِنْ سَائِرِ آيَاتِ الْأَرْضِيَّةِ بِمَا سَأَلُوا وَمَا لَمْ يَسْأَلُوا ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَأَلُوا ذَلِكَ اسْتِرْشَادًا وَتَشْيِيتًا لِأَجَابِهِمْ ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ عِنَادًا وَتَعْتًا فَتَرَكَهُمْ فِيمَا رَأَوْهُمْ وَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ أَقَلُّ مِنْ أَنْ يُجَابُوا إِلَى مَا سَأَلُوهُ ، لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِي جَوَابِهِمْ ، لِأَنَّهُ دَائِرٌ عَلَى تَعْتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، لِكثْرَةِ فُجُورِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّيْتُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿١٦﴾ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْأَبْرِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيعَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَخَجْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا أَخَجَتْهُمْ إِذَا هُمْ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَنَاقِشُ النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا أَذَقَ النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّيْتُمْ ، كَالرَّخَاءِ بَعْدَ الشَّدَّةِ ، وَالْخَضْبِ بَعْدَ الْجَذْبِ ، وَالْمَطَرِ بَعْدَ الْقَحْطِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : اسْتِهْزَاءٌ وَتَكْذِيبٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أَيُّ : أَشَدُّ اسْتِدْرَاجًا وَإِمْهَالًا ، حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ مِنَ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُعَذِّبٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي مُهْلَةٍ ، ثُمَّ يُؤْخَذُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ ، وَالْكَاتِبُونَ الْكَرَامُ يَكْتُبُونَ عَلَيْهِ

جَمِيعَ مَا يَفْعَلُهُ وَيُخْصُونُهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُعْرِضُونَهُ عَلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَجَازِيهِ عَلَى الْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ ، وَالنَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أَيُّ : يَحْفَظُكُمْ وَيَكْلُؤُكُمْ بِحِرَاسَتِهِ ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنَ بِيَمٍ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ أَيُّ : بِسُرْعَةِ سَيْرِهِمْ رَافِقِينَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ ﴿ جَاءَتْهَا ﴾ أَيُّ : تِلْكَ السُّفُنُ ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ أَيُّ : شَدِيدَةٌ ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أَيُّ : اغْتَلَمَ الْبَحْرُ عَلَيْهِمْ ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أَيُّ : هَلَكُوا ﴿ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أَيُّ : لَا يَدْعُونَ مَعَهُ صَنَمًا وَلَا وَثَنًا ، بَلْ يُفَرِّدُونَهُ بِالْدُّعَاءِ وَالْإِتِّهَالِ ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لِنِ أَخْجَتْنَا مِنْ هَذِهِ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ الْحَالُ ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أَيُّ : لَا نُشْرِكُ بِكَ أَحَدًا ، وَلَنُفَرِّدَنَّكَ بِالْعِبَادَةِ هُنَاكَ كَمَا أَفَرَدْنَاكَ بِالْدُّعَاءِ هَهُنَا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا أَخْجَتْهُمْ ﴾ أَيُّ : مِنْ تِلْكَ الْوَرْطَةِ ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أَيُّ : كَانَ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ﴿ كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرِّ مَسْئَةٍ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيَا النَّاسَ إِنَّمَا بِغَيْكُم عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يَذُوقُ وَبَالَ هَذَا الْبَغْيِ أَنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ ، وَلَا تَضُرُّونَ بِهِ أَحَدًا غَيْرَكُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا لَكُمْ مَتَاعٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَيُّ : مَصِيرُكُمْ وَمَالُكُمْ ﴿ فَنُنَبِّئُكُمْ ﴾ أَيُّ : فَنُخْبِرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَنُوفِّقُكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ .

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنَّزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٠﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦١﴾

ضَرَبَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَثَلًا لَزَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَسُرْعَةِ انْقِضَائِهَا وَزَوَالِهَا ، بِالنَّبَاتِ الَّذِي أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَرْضِ بِمَاءٍ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ مِنْ ذُرُوعٍ وَثِمَارٍ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا ، وَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ مِنْ أَبٍّ وَقَضْبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أَيُّ : زِينَتِهَا الْفَانِيَّةُ ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أَيُّ : حَسَنَتْ بِمَا خَرَجَ فِي رَبَاهَا مِنْ زُهْوٍ نَضِرَةٍ ، مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ الَّذِينَ زَرَعُوهَا وَغَرَسُوهَا ﴿ أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ أَيُّ : عَلَى جِذَائِهَا وَحَصَادِهَا ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَتْهَا صَاعِقَةٌ أَوْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ ، فَأَيَّسَتْ أَوْرَاقَهَا وَأَتَلَفَتْ ثِمَارَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾

أَيُّ : يَابِسًا بَعْدَ الْخُضْرَةِ وَالنَّضَارَةِ ﴿كَأَنَّ لَمْ تَغِبْ بِالْأَمْسِ﴾ أَيُّ : كَأَنَّهَا مَا كَانَتْ حِينًا قَبْلَ ذَلِكَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : كَانَ لَمْ تُتَعَمَّ ، وَهَكَذَا الْأُمُورُ بَعْدَ زَوَالِهَا ، كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أَيُّ : نُبَيِّنُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَيَعْتَبِرُونَ بِهَذَا الْمَثَلِ فِي زَوَالِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِهَا سَرِيعًا ، مَعَ اغْتِرَارِهِمْ بِهَا وَتَمَكُّنِهِمْ وَثِقَتِهِمْ بِمَوَاعِيدِهَا وَتَفَلُّتِهَا عَنْهُمْ ، فَإِنَّ مِنْ طَبْعِهَا الْهَرَبَ مِنْ طَلَبِهَا ، وَالطَّلَبَ مِنْ هَرَبِ مَنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ الْآيَةُ . لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا ، رَغَّبَ فِي الْجَنَّةِ وَدَعَا إِلَيْهَا وَسَمَّاها دَارَ السَّلَامِ ، أَيُّ : مِنَ الْآفَاتِ وَالنَّقَائِصِ وَالنَّكَاتِ فَقَالَ : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٦٠)

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَنَّ لَهُ الْحُسْنَىٰ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن : ٦٠] وَقَوْلُهُ : ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ يَشْمَلُ تَضْعِيفَ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ وَزِيَادَةٍ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا ، وَيَشْمَلُ مَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ فِي الْجَنَانِ مِنَ الْقُصُورِ وَالْحُورِ وَالرِّضَا عَنْهُمْ ، وَمَا أَخْفَاهُ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْلَاهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ مَا أُعْطَوْهُ ، لَا يَسْتَحِقُّونَهَا بِعَمَلِهِمْ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ . ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أَيُّ : قَتَامٌ وَسَوَادٌ فِي عَرَصَاتِ الْمُحْشَرِ ، كَمَا يَعْتَرِي وَجُوهَ الْكَافِرَةِ الْفَجْرَةِ مِنَ الْقَتَرَةِ وَالْعَبْرَةِ ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أَيُّ : هَوَانٌ وَصِغَارٌ أَيُّ : لَا يَحْصُلُ لَهُمْ إِهَانَةٌ فِي الْبَاطِنِ وَلَا فِي الظَّاهِرِ .

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦١﴾ لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ السُّعْدَاءِ الَّذِينَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَاتُ وَيَزْدَادُونَ عَلَى ذَلِكَ عَطْفٌ بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ ، فَذَكَرَ تَعَالَى عَذْلَهُ فِيهِمْ ، وَأَنَّهُ يُجَازِيهِمْ عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا لَا يَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أَيُّ : تَعْتَرِيهِمْ وَتَعْلُوهُمْ ذِلَّةٌ مِنْ مَعَاصِيهِمْ وَخَوْفِهِمْ مِنْهَا كَمَا قَالَ : ﴿وَتَرْهَقُهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِيلِ﴾ [الشورى : ٤٥] .

وَقَوْلُهُ : ﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أَيُّ : مَانِعٍ وَلَا وَاقٍ يَقِيهِمُ الْعَذَابَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يَقُولُ

إِلَّا نَسْنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجِ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَرَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ [القيامة : ١٠-١٢] وَقَوْلُهُ : ﴿ كَانَمَا أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ ﴾ الآية . إِنْخَابَارٌ عَنْ سَوَادٍ وَجُوهُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿١٣﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿١٤﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿١٥﴾ .

وَيَوْمَ نَخْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿١٧﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ نَخْشُرُهُمْ ﴾ أَي : أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ مِنْ جَنِّ وَإِنْسٍ ، وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَخَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٧] ، ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ الآية . أَي : اِلْزَمُوا أَنْتُمْ وَهُمْ مَكَانًا مُعَيَّنًا ، اِمْتَارُوا فِيهِ عَنْ مَقَامِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنْخَابَارًا عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْنَانَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ الآية . أَتَاهُمْ أَنْكَرُوا عِبَادَتَهُمْ وَتَبَرَّءُوا مِنْهُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ ، وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِنْخَابَارًا عَنْ قَوْلِ الشُّرَكَاءِ فِيمَا رَاجِعُوا فِيهِ عَابِدِيهِمْ عِنْدَ ادِّعَائِهِمْ عِبَادَتَهُمْ ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴾ . أَي : مَا كُنَّا نَشْعُرُ بِهَا وَلَا نَعْلَمُ بِهَا ، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي بِكُمْ ، وَاللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنَّا مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَىٰ عِبَادَتِنَا وَلَا أَمَرْنَاكُمْ بِهَا ، وَلَا رَضِينَا مِنْكُمْ بِذَلِكَ ، وَفِي هَذَا تَبَكُّيْتُ عَظِيمٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبْدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ . ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ . أَي : فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُخْتَبَرُ كُلُّ نَفْسٍ وَتَعْلَمُ مَا أَسْلَفَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ أَي : وَرَجَعْتَ الْأُمُورُ كُلُّهَا إِلَى اللَّهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ ، فَفَصَّلَهَا وَأَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ ﴿ وَصَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أَي : ذَهَبَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أَي : مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ افْتِرَاءً عَلَيْهِ .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٩﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۚ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٢٠﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾

يُخْتَجُّ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِأَعْرَافِهِمْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْإِلَهِ فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَي : مَنْ ذَا الَّذِي يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءَ الْمَطَرِ ، فَيَسْقِي الْأَرْضَ شَقًّا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا ﴿ ٣٠ ﴾ حَبًّا ﴿ ٣١ ﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿ ٣٢ ﴾ وَزَيْتُونًا وَخَلًّا ﴿ ٣٣ ﴾ وَحَدَائِقِ غُلَبًا ﴿ ٣٤ ﴾ وَفِكَهَةً وَأَبْنًا ﴿ [عبس : ٢٧ - ٣١] ، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ﴾ ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : ٢١] وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ﴾ أَي : الَّذِي وَهَبَكُمْ هَذِهِ الْقُوَّةَ السَّامِعَةَ وَالْقُوَّةَ الْبَاصِرَةَ ، وَلَوْ شَاءَ لَذَهَبَ بِهَا وَلَسَلَبَكُمْ إِيَّاهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أَي : بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَمِنَّتِهِ الْعَمِيمَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ لِذَلِكَ كُلِّهِ . ﴿ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ﴾ أَي : مَنْ يَبْدِيهِ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ أَي : وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيَعْتَرِفُونَ بِهِ ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَي : أَفَلَا تَخَافُونَ مِنْهُ أَنْ تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ بِأَرَائِكُمْ وَجَهْلِكُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أَي : فَهَذَا الَّذِي اعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّهُ فَاعِلُ ذَلِكَ كُلِّهِ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَهُكُمْ الْحَقُّ ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْرَدَ بِالْعِبَادَةِ ﴿ فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ أَي : فَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أَي : فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَي : كَمَا كَفَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى شُرَكَائِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ غَيْرِهِ ، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمُلْكِ وَحْدَهُ ، الَّذِي بَعَثَ رُسُلَهُ بِتَوْحِيدِهِ ، فَلِهَذَا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ : أَنَّهُمْ أَشْقِيَاءُ مِنْ سَاكِنِي النَّارِ .

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ فَإِنِّي تُؤْفَكُونَ ﴿ ٣٥ ﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى ۚ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿ ٣٦ ﴾ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿ ٣٧ ﴾

وَهَذَا ابْتِطَالٌ لِدَعْوَاهُمْ فِيهِمْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ غَيْرُهُ وَعَبَدُوا مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ

شُرَكَائِكُمْ مِّنْ يَّبْدُوْنَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ أَيُّ : مَنْ بَدَأَ خَلَقَ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ يُنْشِئُ مَا فِيهِمَا مِنَ الْخَلَائِقِ ، وَيُفَرِّقُ أَجْرَامَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيُبْدِيهَا بِفَنَاءٍ مَا فِيهِمَا ، ثُمَّ يُعِيدُ الْخَلْقَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿ قُلِ اللَّهُ ۖ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ هَذَا ، وَيَسْتَقْبِلُ بِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ فَإِنِّي تُؤَفِّكُونَ ۖ أَيُّ : فَكَيْفَ تُضَرِّفُونَ عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ إِلَى الْبَاطِلِ . ۖ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۖ أَيُّ : أَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ شُرَكَاءَكُمْ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَةِ ضَالٍّ ، وَإِنَّمَا يَهْدِي الْحَيَارَى وَالضُّلَّالَ ، وَيُقَلِّبُ الْقُلُوبَ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرُّشْدِ ، اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنَّجَّ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى ۖ أَيُّ : أَفَتَتَّبِعُ الْعَبْدُ الَّذِي يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَيُبْصِرُ بَعْدَ الْعَمَى ، أَمْ الَّذِي لَا يَهْدِي إِلَى شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يُهْدَى لِعَمَاهُ وَيَكْمِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۖ أَيُّ : مَا بِالْكُفِّ أَنْ يَذْهَبَ بِعُقُولِكُمْ ؟ كَيْفَ سَوَّيْتُمْ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، وَعَدَلْتُمْ هَذَا بِهَذَا ، وَعَبَدْتُمْ هَذَا وَهَذَا ؟ وَهَلَّا أَفَرَدْتُمْ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ الْمَالِكُ الْحَكِيمُ الْهَادِي مِنَ الضَّلَالَةِ ، بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ ، وَأَخْلَصْتُمْ إِلَيْهِ الدَّعْوَةَ وَالْإِنَابَةَ ؟ ثُمَّ بَيْنَ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ فِي دِينِهِمْ هَذَا دَلِيلًا وَلَا بُرْهَانًا ، وَإِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ مِنْهُمْ أَيُّ : تَوَهُّمٌ وَتَخَيُّلٌ ، وَذَلِكَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۖ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ .

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

هَذَا بَيَانٌ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَا بِعَشْرِ سُورَةٍ ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ؛ لِأَنَّهُ بِفَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ وَوَجَازَتِهِ وَحَلَاوَتِهِ ، وَاشْتِمَالِهِ عَلَى الْمَعَانِي الْعَزِيزَةِ الْغَزِيرَةِ النَّافِعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُشَبِّهُ شَيْءٌ فِي ذَاتِهِ ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ ، وَلَا فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، فَكَلَامُهُ لَا يُشَبِّهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ أَيُّ : مِثْلُ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَا يُشَبِّهُ هَذَا كَلَامَ الْبَشَرِ ۖ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۖ أَيُّ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَمُهِمِّنًا عَلَيْهِ ، وَمُبَيِّنًا لِمَا وَقَعَ

فِيهَا مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ وَالتَّبْدِيلِ . ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي : وَيَكُنُّ
الْأَحْكَامَ وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ، بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا ، حَقًّا لَا مِرْيَةَ فِيهِ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴾ أَي : إِنْ ادَّعَيْتُمْ وَافْتَرَيْتُمْ وَشَكَكْتُمْ فِي أَنَّ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَقُلْتُمْ كَذِبًا مُبِينًا إِنْ هَذَا
مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ ، فَمُحَمَّدٌ بَشَرٌ مِثْلَكُمْ ، وَقَدْ جَاءَ فِيمَا زَعَمْتُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَاتُوا أَنْتُمْ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
أَي : مِنْ جِنْسِ هَذَا الْقُرْآنِ ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مَنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ إِنْسٍ وَجَانٍّ ، وَهَذَا
هُوَ الْمَقَامُ الثَّلَاثُ فِي التَّحْدِي ، فَإِنَّهُ تَعَالَى تَحَدَّاهُمْ وَدَعَاهُمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ ، أَنَّهُ مِنْ
عِنْدِ مُحَمَّدٍ ، فَلْيُعَارِضُوهُ بِنَظِيرِ مَا جَاءَ بِهِ وَحْدَهُ ، وَلْيَسْتَعِينُوا بِمَنْ شَاءُوا ، وَأَخْبِرْ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ
عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] ثُمَّ تَقَاعَصَ مَعَهُمْ إِلَى عَشْرِ
سُورٍ مِنْهُ ، فَقَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةٍ هُودٍ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا
مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود : ١٣] ثُمَّ تَنَازَلَ إِلَى سُورَةٍ فَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ :
﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ يَقُولُ بَلْ كَذَّبَ هَؤُلَاءِ بِالْقُرْآنِ ،
وَلَمْ يَفْهَمُوهُ وَلَا عَرَفُوهُ ﴾ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أَي : وَلَمْ يُحْصِلُوا مَا فِيهِ مِنْ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، إِلَى
حِينَ تَكْذِيبِهِمْ بِهِ جَهْلًا وَسَفَهًا ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أَي : مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ﴿ فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أَي : فَانْظُرْ كَيْفَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا ظُلْمًا وَعُلُوًّا وَكُفْرًا
وَعِنَادًا وَجَهْلًا ، فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أَي :
وَمِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدٌ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، وَيَتَّبِعُكَ وَيَتَّبِعُ بِمَا أُرْسِلْتَ بِهِ
﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ بَلْ يَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ وَيُبْعَثُ عَلَيْهِ ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ أَي :
وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ فِيهِدِيهِ ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَةَ فَيُضِلُّهُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا
يُجُورُ ، بَلْ يُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ - لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ إِنْ اللَّهُ
لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ وَإِنْ كَذَبَكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فَتَبَرَأُ مِنْهُمْ وَمِنْ عَمَلِهِمْ ﴿٤٠﴾ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴿٤١﴾ . وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أَيُّ: يَسْمَعُونَ كَلَامَكَ الْحَسَنَ، وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، وَالْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ الْفَصِيحَةَ النَّافِعَةَ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَدْبَانِ وَالْأَبْدَانِ، وَفِي هَذَا كِفَايَةُ عَظِيمَةٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ وَلَا إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى إِسْمَاعِ الْأَصَمِّ وَهُوَ الْأُطْرَشُ، فَكَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَةِ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ. ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ أَيُّ: يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ، وَإِلَى مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنَ التَّوَدَةِ، وَالسَّمْتِ الْحَسَنِ، وَالْخُلُقِ الْعَظِيمِ، وَالذَّلَالَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى نُبُوءَتِكَ لِأُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى، وَهَؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ كَمَا يَنْظُرُ غَيْرُهُمْ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الْهِدَايَةِ شَيْءٌ كَمَا يَحْصُلُ لِغَيْرِهِمْ، بَلِ الْمُؤْمِنُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الْوَقَارِ، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الْاِحْتِقَارِ ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ [الفرقان: ٤١]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا شَيْئًا، وَإِنْ كَانَ قَدْ هَدَى بِهِ مَنْ هَدَى، وَبَصَّرَ بِهِ مَنْ الْعَمَى، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمَى، وَأَذَانًا صُمَى، وَقُلُوبًا غُلْفَى، وَأَصْلَ بِهِ عَنِ الْإِيمَانِ آخِرِينَ، فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا لِلنَّاسِ قِيَامَ السَّاعَةِ وَحَشَرِهِمْ مِنْ أَجْدَانِهِمْ إِلَى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يُوَفَّوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيُّ: يَعْرِفُ الْأَبْنَاءُ الْأَبَاءَ، وَالْقَرَابَاتُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ كُلٌّ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ [المؤمنون: ١٠١]

وَقَوْلُهُ: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ١٥] لَأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، وَلَا خَسَارَةٌ أَكْبَرُ مِنْ خَسَارَةِ مَنْ فُرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ .

وَأَمَّا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي

ضَرًا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٨﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَالَفْنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطًا لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ وَإِنَّمَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ أَي : نَتَقِمُ مِنْهُمْ فِي حَيَاتِكَ لِتَقَرَّ عَيْنُكَ مِنْهُمْ ﴿ أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أَي : مَصِيرُهُمْ وَمُقْلَبُهُمْ ، وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى أَفْعَالِهِمْ بَعْدَكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ الْآيَةُ . فَكُلُّ أُمَّةٍ تُعْرَضُ عَلَى اللَّهِ بِحَضْرَةِ رَسُولِهَا ، وَكِتَابُ أَعْمَالِهَا مِنْ خَيْرٍ وَسَرٍّ مَوْضُوعٌ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ ، وَحَفَظَتْهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ شُهُودٌ أَيْضًا ، أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ الشَّرِيفَةُ وَإِنْ كَانَتْ آخِرَ الْأُمَمِ فِي الْحَلْتِ ، إِلَّا أَنَّهَا أَوَّلُ الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ وَيُقْضَى لَهُمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ » فَأَمَّتُهُ إِنَّمَا حَارَتْ قَصَبُ السَّبْقِ بِشَرَفِ رَسُولِهَا - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفْرٍ هُوَ لَا إِبْرَاهِيمَ فِي اسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ ، وَسُؤَالِهِمْ عَنْ وَقْتِهِ قَبْلَ التَّعْيِينِ بِمَا لَا فَائِدَةَ لَهُمْ فِيهِ ؛ وَهَذَا أَرْشَدَ تَعَالَى رَسُولُهُ ﷺ إِلَى جَوَابِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ الْآيَةُ . أَي : لَا أَقُولُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُطْلِعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَيْكُمْ ، وَقَدْ أَخْبَرْتُكُمْ بِمَجِيءِ السَّاعَةِ ، وَأَنَّهَا كَائِنَةٌ وَلَمْ يُطْلِعَنِي عَلَى وَقْتِهَا وَلَكِنْ ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أَي : لِكُلِّ قَرْنٍ مُدَّةٌ مِنَ الْعُمُرِ مُقَدَّرَةٌ فَإِذَا انْقَضَى أَجْلُهُمْ ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ سَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا ﴾ أَي : لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴿ مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَالَفْنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿ يَعْنِي : أَتُمْ إِذَا جَاءَهُمُ الْعَذَابُ قَالُوا : ﴿ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ - ٨٥]

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لَهُمْ : هَذَا تَبَكِّيَّتَا وَتَقْرِيعًا .

وَيَسْتَنْبِغُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ ۖ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢١﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۖ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ۖ

وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۖ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ : وَيَسْتَخِيرُوكَ أَحَقُّ هُوَ ؟ أَيُّ : الْمِعَادُ وَالْقِيَامَةُ مِنَ الْأَجْدَاثِ بَعْدَ صَيُورَةِ الْأَجْسَامِ تُرَابًا ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ صَيُورَتُكُمْ تُرَابًا بِمُعْجِزِ اللَّهِ عَنْ إِعَادَتِكُمْ ، كَمَا بَدَأَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ يَوَدُّ الْكَافِرُ لَوْ افْتَدَىٰ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ۖ وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ أَيُّ : بِالْحَقِّ ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ هُوَ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٨﴾

يُخَيِّرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّ وَعْدَهُ حَقٌّ كَائِنْ لَا مُحَالَةَ ، وَأَنَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ ، الْعَلِيمُ بِمَا تَفَرَّقَ مِنَ الْأَجْسَامِ ، وَتَمَزَّقَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْبَحَارِ وَالْقِفَارِ .

يَتَأَيَّاهُ النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةً مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءً لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ۖ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُثَمِّنًا عَلَىٰ خَلْقِهِ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِم مِّنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَىٰ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﴿ يَتَأَيَّاهُ النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيُّ : زَاجِرٌ عَنِ الْقَوَاجِشِ ﴿ وَشِفَاءً لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الشُّبُهَةِ وَالشُّكُوكِ ، وَهُوَ إِزَالَةُ مَا فِيهَا مِنْ رَجْسٍ وَدَنَسٍ ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أَيُّ : يَحْصُلُ بِهِ الْهُدَايَةُ وَالرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَالْمُصَدِّقِينَ الْمُوقِنِينَ بِمَا فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ۖ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ أَيُّ : بِهَذَا الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ فَلْيَفْرَحُوا ، فَإِنَّهُ أَوْلَىٰ مَا يَفْرَحُونَ بِهِ ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أَيُّ : مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الزُّهْرَةِ الْفَانِيَةِ الدَّاهِيَةِ لَا مُحَالَةَ .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ۖ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٦١﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٢﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : نَزَلَتْ إِنْكَارًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يُحْلُونَ وَيُحَرِّمُونَ مِنَ الْبَحَائِرِ

وَالسَّوَابِ وَالْوَصَايَا . وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ، أَوْ أَحَلَّ مَا حَرَّمَ بِمُجَرَّدِ
الْأَرَءِ وَالْأَهْوَاءِ الَّتِي لَا مُسْتَنَدَ لَهَا وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ :
﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أَيُّ : مَا ظَنُّهُمْ أَنْ يُضَنَّ بِهِمْ يَوْمَ
مَرْجِعِهِمْ إِلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِبْنُ اللَّهِ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : فِي تَرْكِهِ مُعَاجَلَتَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي
الدُّنْيَا . قُلْتُ : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ فِيمَا أَبَاحَ لَهُمْ مِمَّا خَلَقَهُ مِنَ الْمَنَافِعِ
فِي الدُّنْيَا ، وَلَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ أَوْ دِينِهِمْ ﴿ وَلَيْكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ بَلْ
يُحَرِّمُونَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَيُضَيِّقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَيَجْعَلُونَ بَعْضًا حَلَالًا وَبَعْضًا حَرَامًا .
وَهَذَا قَدْ وَقَعَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا شَرَعُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ فِي دِينِهِمْ .

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ
شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ . وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ : أَنَّهُ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ أُمَّتِهِ ، وَجَمِيعَ الْخَلَائِقِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَوَانٍ
وَلَحْظَةٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي حَقَارَتِهَا وَصِغَرِهَا فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْهَا وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا
تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أَيُّ : إِذْ تَأْخُذُونَ
فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ نَحْنُ مُشَاهِدُونَ لَكُمْ رَأَوْنَ سَامِعُونَ .

إِلَّا إِبْنُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٣٨﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ هُمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ كَمَا فَسَّرَهُمْ رَبُّهُمْ ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ تَقِيًّا
كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا فَ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾
عَلَى مَا وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللَّهُ .
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ قَالَ : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ
يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تَرَى لَهُ » . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : هَذَا الْوَعْدُ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُخْلَفُ

وَلَا يُعَيَّرُ ، بَلْ هُوَ مُقَرَّرٌ مُثَبَّتٌ كَائِنْ لَا حَالَةَ ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٣٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ وَلَا تَحْزَنْكَ ﴾ قَوْلُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فَ ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أَي : جَمِيعَهَا لَهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أَي : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِهِمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّ الْمَشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا لَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا ، بَلْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ فِي ذَٰلِكَ ظَنُونَهُمْ وَتَخْرُصَهُمْ وَكَذِبَهُمْ وَإِفْكَهُمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ الَّذِي جَعَلَ لِعِبَادِهِ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ، أَي : يَسْتَرِيحُونَ مِنْ نَصَبِهِمْ وَكَلْبِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أَي : مُضِيئًا لِمَعَاشِهِمْ وَسَعِيهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أَي : يَسْمَعُونَ هَذِهِ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا ، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَمُقَدِّرِهَا وَمُسِيرِهَا .

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٣٩﴾ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ ادَّعَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا ﴿ سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أَي : تَقَدَّسَ عَنْ ذَٰلِكَ هُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِّمَّا خَلَقَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَمْلُوكٌ لَهُ ، عَبْدٌ لَهُ ؟ ﴿ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ﴾ أَي : لَيْسَ عِنْدَكُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَا تَقُولُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ انْكَارٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ وَتَهْدِيدٌ شَدِيدٌ . ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الْكَاذِبِينَ عَلَيْهِ الْمُفْتَرِينَ ، بِمَنْ رَعِمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا ، بِأَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيَأْتِيهِمْ إِذَا اسْتَدْرَجَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ مَتْعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ يَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أَي : مُدَّةً قَرِيبَةً ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴾ أَي : الْمَوْجِعَ الْمُؤْلِمَ ﴿ بِمَا

كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤١﴾ أَيُّ : بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْإِفْكِ وَالزُّورِ .

﴿٤٢﴾ وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٤٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤٤﴾ فَكَذَّبُوهُ فَتَجَنَّبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذَرِّينَ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَآتَلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : أَخْبَرَهُمْ وَاقْضُصْ ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : عَلَى كُفَارِ مَكَّةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَكَ وَيُخَالِفُونَكَ ﴿ نَبَأُ نُوحٍ ﴾ أَيُّ : خَبَرُهُ مَعَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ كَيْفَ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ وَدَمَّرَهُمْ بِالْعَرَقِ أَجْمَعِينَ عَنْ آخِرِهِمْ ، لِيُحَذِّرَ هَؤُلَاءِ أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ مَا أَصَابَ أَوْلَيْكَ ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيُّ : عَظُمَ عَلَيْكُمْ ﴿ مَقَامِي ﴾ أَيُّ : فِيكُمْ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ ﴿ وَتَذَكِيرِي ﴾ إِيَّاكُمْ ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : بِحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أَيُّ : فَإِنِّي لَا أَبَالِي وَلَا أَكْفُ عَنْكُمْ سِوَاءَ عَظُمَ عَلَيْكُمْ أَوْ لَا ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ أَيُّ : فَاجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ صَنَمٍ وَوثنٍ ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أَيُّ : وَلَا تَجْعَلُوا أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ مُلْتَبِسًا ، بَلْ إِفْصِلُوا حَالَكُمْ مَعِي ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنْكُمْ مُحِقُونَ ﴿ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أَيُّ : وَلَا تُؤَخِّرُونِي سَاعَةً وَاحِدَةً ، أَيُّ : مَهْمَا قَدَرْتُمْ فافْعَلُوا فَإِنِّي لَا أَبَالِيكُمْ وَلَا أَخَافُ مِنْكُمْ ؛ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أَيُّ : كَذَّبْتُمْ وَأَدْبَرْتُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أَيُّ : لَمْ أَطْلُبْ مِنْكُمْ عَلَى نَصْحِي إِيَّاكُمْ شَيْئًا ﴿ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيُّ : وَأَنَا مُمَثِّلٌ مَا أُمِرْتُ بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ اللَّهُ ﷻ ، وَالْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَتَعَدَّدَتْ مَنَاهِلُهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الثَّابِتِ عَنْهُ : « نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ وَدِينُنَا وَاحِدٌ » . أَيُّ : وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُنَا وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ : « أَوْلَادُ عَلَاتٍ » ، وَهُمْ الْإِخْوَةُ مِنْ أُمَّهَاتٍ شَتَّى وَالْأَبُ وَاحِدٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَتَجَنَّبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أَيُّ : عَلَى دِينِهِ ﴿ فِي الْفُلْكِ ﴾ ، وَهِيَ السَّفِينَةُ ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً ﴾ أَيُّ : فِي الْأَرْضِ ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذَرِّينَ ﴾ أَيُّ : يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ أَنْجَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا الْمُكَذِّبِينَ .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴿ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَي : بِالْحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَي : فَمَا كَانَتْ الْأُمَمُ لِتُؤْمِنَ بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ أَوْ مَا أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أَي : كَمَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ فَمَا آمَنُوا بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الْمُتَقَدِّمَ ، هَكَذَا يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ مَنْ أَشْبَهَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَيُخْتِمُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٨﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا خُنَّاكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الرُّسُلِ ﴾ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴿ أَي : قَوْمِهِ ﴾ بِآيَاتِنَا ﴿ أَي : حُجَجِنَا وَبَرَاهِينِنَا ﴾ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿ أَي : اسْتَكْبَرُوا عَنْ إِتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْإِنْقِيَادِ لَهُ ، وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿ كَأَنَّهُمْ قَبَّحَهُمُ اللَّهُ أَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا قَالُوهُ كَذِبٌ وَبُهْتَانٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] ﴿ قَالَ ﴾ هُمْ ﴿ مُوسَى ﴾ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا ﴾ أَي : تُثْنِينَا ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أَي : الدِّينَ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ ﴿ وَتَكُونَ لَكُمُ ﴾ أَي : لَكَ وَهَارُونَ ﴿ الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أَي : الْعِظَمَةُ وَالرِّيَاسَةُ ﴿ فِي الْأَرْضِ وَمَا خُنَّاكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧١﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٧٢﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَنُحِيقُ بِكُلِّ مِثْلِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْبَاطِلُونَ ﴿٧٤﴾

ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قِصَّةَ السَّحَرَةِ مَعَ مُوسَى عليه السلام فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا هُنَاكَ وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَفِي سُورَةِ طه ، وَفِي الشُّعَرَاءِ ، وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - أَرَادَ أَنْ يَتَهَرَّجَ عَلَى النَّاسِ ، وَيُعَارِضَ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عليه السلام مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ بِزُخَارِفِ السَّحَرَةِ وَالْمُسْعُوذِينَ ، فَظَنَّ فِرْعَوْنُ أَنَّهُ يَتَنَصَّرُ بِالسُّحَارِ ، عَلَى رَسُولِ عَالَمِ الْأَسْرَارِ ، فَخَابَ وَخَسِرَ الْجَنَّةَ وَاسْتَوْجَبَ النَّارَ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴾ وَإِنَّمَا قَالَ هُمْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا اضْطَفُّوا ، وَقَدْ وُعدُوا مِنْ فِرْعَوْنَ بِالتَّقْرِيبِ وَالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ ﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أُلْقِيَ ﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴿ طه : ٦٥ - ٦٦] ، فَأَرَادَ مُوسَى أَنْ تَكُونَ الْبُدَاءَةُ مِنْهُمْ لِيَرَى النَّاسَ مَا صَنَعُوا ، ثُمَّ يَأْتِي بِالْحَقِّ بَعْدَهُ فَيَدْمَعُ بِاطْلُهُمْ . وَلِهَذَا لَمَّا أَلْقُوا ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾ [الْأَعْرَافِ : ١١٦] ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ ﴿ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه : ٦٧ - ٦٩] ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَمَّا أَلْقُوا : ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿ وَنُحِيقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿ ٢٧ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِمُوسَى عليه السلام مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ ، وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَاتِ ، إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ، مِنَ الذَّرِّيَّةِ وَهُمْ الشَّبَابُ عَلَى وَجَلٍ وَخَوْفٍ مِنْهُ وَمِنْ مَلَأِهِ ، أَنْ يَرُدُّوهُمْ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - كَانَ جَبَّارًا عَنِيدًا مُسْرِفًا فِي التَّمَرُّدِ وَالْعُتُوِّ ، وَكَانَتْ لَهُ سَطْوَةٌ وَمَهَابَةٌ تَخَافُ رَعِيَّتُهُ مِنْهُ خَوْفًا شَدِيدًا . قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَقِيلَ : هُمْ أَوْلَادُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مُوسَى مِنْ طُولِ الزَّمَانِ وَمَاتَ آبَاؤُهُمْ . ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ أَيِ : وَأَشْرَافِ قَوْمِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ يُخَافُ مِنْهُ أَنْ يَفْتِنَ عَنِ الْإِبْرَانِ سِوَى قَارُونَ ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، لِكَيْتَهُ كَانَ طَاوِيًا إِلَى فِرْعَوْنَ مُتَّصِلًا بِهِ مُتَعَلِّقًا بِجِبَالِهِ ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مُؤْمِنٌ قَوْلُهُ تَعَالَى :

وَقَالَ مُوسَى يَنْقَوْمُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿ ٢٨ ﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ ٢٩ ﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿ ٣٠ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ يَنْقَوْمُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ

مُسْلِمِينَ ۚ أَيُّ : فَإِنَّ اللَّهَ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ۚ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] ، وَقَدْ امْتَثِلَ
بَنُو إِسْرَائِيلَ ذَلِكَ فَقَالُوا : ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ : لَا تَظْفِرْهُمْ
بِنَا وَتُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا ، فَيُظْفِرُوا أَتَاهُمْ إِنَّمَا سُلِّطُوا ؛ لِأَتَاهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَنَحْنُ عَلَى الْبَاطِلِ ، فَيُفْتِنُوا بِذَلِكَ .
وَقَوْلُهُ : ﴿وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أَيُّ : خَلَّصْنَا بِرَحْمَةٍ مِنْكَ وَإِحْسَانٍ ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أَيُّ :
الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَقَّ وَسَتَرُوهُ ، وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا بِكَ وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى سَبَبَ إِنْجَائِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَكَيْفِيَّةِ خَلَاصِهِمْ مِنْهُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ
اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - أَنْ يَتَبَوَّآ ، أَيُّ : يَتَّخِذَا لِقَوْمَهُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ،
وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ فَقِيلَ : قَالَ أُمِرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا
مَسَاجِدَ ، وَقِيلَ : كَانُوا خَائِفِينَ فَأُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتِهِمْ ، وَكَأَنَّ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لَمَّا اشْتَدَّ
بِهِمُ الْبَلَاءُ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ ، أُمِرُوا بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي
هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ : بِالثَّوَابِ وَالنَّصْرِ
الْقَرِيبِ ، قِيلَ : أَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتِهِمْ ، وَأُمِرُوا أَنْ يَجْعَلُوا بُيُوتَهُمْ قِبَلَ الْقِبْلَةِ .

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا
حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا دَعَا بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، لَمَّا أَبَوْا قَبُولَ الْحَقِّ
وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَكَفَرِهِمْ مُعَانِدِينَ جَا حِدِينَ ، ظُلْمًا وَعُلُوًّا وَتَكَبُّرًا وَعُتُوًّا قَالَ : ﴿رَبَّنَا
إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ أَيُّ : مِنْ أَثَاثِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أَيُّ : جَزِيلَةً كَثِيرَةً
﴿فِي﴾ هَذِهِ ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ ، أَيُّ : أَعْطَيْتَهُمْ ذَلِكَ وَأَنْتَ
تَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أُرْسَلْتَنِي بِهِ إِلَيْهِمْ اسْتِذْرَاجًا مِنْكَ لَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾
وَقَرَأَ آخَرُونَ ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ ، أَيُّ : لِيُفْتِنَنَّ بِمَا أَعْطَيْتَهُمْ مَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِكَ لِيُظَنَّ مَنْ
أَغْوَيْتَهُ أَنَّكَ إِنَّمَا أَعْطَيْتَهُمْ هَذَا لِحُبِّكَ إِيَّاهُمْ وَاعْتِنَائِكَ بِهِمْ ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ قَالَ بَعْضُ

الْعُلَمَاءُ : أَي : أَهْلُكُمَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : جَعَلَهَا اللَّهُ حِجَارَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَي : اطْبَعُ عَلَيْهَا ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وَهَذِهِ الدَّعْوَةُ كَانَتْ مِنْ مُوسَى عليه السلام غَضَبًا لِلَّهِ وَلِدِينِهِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ الَّذِينَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ وَلَا يَجِيءُ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، وَلِهَذَا اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام فِيهِمْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الَّتِي أَمَّنَ عَلَيْهَا أَخُوهُ هَارُونُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ قَالَ عَدُوٌّ مِنَ الْعُلَمَاءِ : دَعَا مُوسَى وَأَمَّنَ هَارُونُ ، أَي : قَدْ أُجِبْنَا كَمَا فِيْمَا سَأَلْنَا مِنْ تَدْمِيرِ آلِ فِرْعَوْنَ .
وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ الْآيَةُ . أَي : كَمَا أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا عَلَى أَمْرِي ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ فَاْمُضِيَا لِأَمْرِي وَهِيَ الْإِسْتِقَامَةُ .

﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢٠) ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَعَافُونَ ﴿٢٢﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى كَيْفَةَ إِغْرَاقِهِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ فِي صُحْبَةِ مُوسَى عليه السلام وَهُمْ فِيهَا قِلِيلٌ سِتْمَائَةً أَلْفَ مُقَاتِلٍ سِوَى الذَّرِّيَّةِ ، وَقَدْ كَانُوا اسْتَعَارُوا مِنَ الْقِبْطِ حُلِيًّا كَثِيرًا فَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ ، فَاشْتَدَّ حَتَّى فِرْعَوْنَ عَلَيْهِمْ ، فَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَجْمَعُونَ لَهُ جُنُودَهُ مِنْ أَقْلَابِهِ ، فَرَكِبَ وَرَاءَهُمْ فِي أُنْهَى عَظِيمَةٍ وَجُيُوشٍ هَائِلَةٍ لَمَّا يُرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِمَّنْ لَهُ دَوْلَةٌ وَسُلْطَانٌ فِي سَائِرِ مَمْلَكَتِهِ ، فَلَحَقُوهُمْ وَقَتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا انْتَهَوْا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ وَفِرْعَوْنُ وَرَاءَهُمْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَتَقَاتَلَ الْجَمْعَانِ ، وَالْحُجَّاءُ أَصْحَابُ مُوسَى عليه السلام عَلَيْهِ فِي السُّؤَالِ : كَيْفَ الْمَخْلَصُ بِمَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَسْلُكَ هَهُنَا ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] فَعِنْدَ مَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بَعْصَاهُ ، فَضْرَبَهُ فَأَنْفَلَقَ الْبَحْرُ ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء : ٦٣] أَي : كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ ، وَصَارَ إِنْنِي عَشَرَ طَرِيقًا ، لِكُلِّ سَبْطٍ وَاحِدٌ ، وَأَمَرَ اللَّهُ الرِّيحَ فَنَشَفَتْ أَرْضَهُ ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [طه : ٧٧] وَتَحَرَّقَ الْمَاءُ بَيْنَ الطَّرِيقِ كَهَيْئَةِ السَّبَابِيكِ لِيَرَى كُلُّ قَوْمٍ الْآخَرِينَ ؛ لِئَلَّا يَطْنُوا أَنَّهُمْ هَلَكُوا ، وَجَاوَزَتْ بَنُو إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ ، فَلَمَّا خَرَجَ آخِرُهُمْ مِنْهُ انْتَهَى فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ إِلَى حَافَتِهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى ، وَهُوَ فِي مِائَةِ أَلْفٍ أَذْهَمَ سِوَى بَقِيَّةِ

الْأَلْوَانِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ هَالَهُ وَأَحْجَمَ وَهَابَ وَهَمَّ بِالرَّجُوعِ ، وَهَيْهَاتَ وَلَا تَحِينَ مَنَاصَ ، نَفَذَ الْقَدْرَ وَاسْتُجِيبَتِ الدَّعْوَةُ . وَجَاءَ جِرْيَلُ عليه السلام عَلَى فَرْسٍ وَدِيقٍ حَائِلٍ ، فَمَرَّ إِلَى جَانِبِ حِصَانٍ فِرْعَوْنَ فَحَمَحَمَ إِلَيْهَا ، وَاقْتَحَمَ جِرْيَلُ الْبَحْرَ فَاقْتَحَمَ الْحِصَانُ وَرَاءَهُ ، وَلَمْ يَبْقَ فِرْعَوْنَ يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا ، فَتَجَلَدَ لِأَمْرَائِهِ وَقَالَ لَهُمْ : لَيْسَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِأَحَقَّ بِالْبَحْرِ مِنَّا ، فَاقْتَحَمُوا كُلُّهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ ، وَمِيكَائِيلُ فِي سَاقَتِهِمْ لَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا أَلْحَقَهُ بِهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَوْسَقُوا فِيهِ وَتَكَامَلُوا وَهَمَّ أَوْلَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهُ ، أَمَرَ اللَّهُ - الْقَدِيرُ - الْبَحْرَ أَنْ يَرْتَطِمَ عَلَيْهِمْ ، فَارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَجَعَلَتِ الْأَمْوَاجُ تَرْفَعُهُمْ وَتُخَفِّضُهُمْ وَتَرَاكُمُتِ الْأَمْوَاجُ فَوْقَ فِرْعَوْنَ وَغَشِيَتْهُ سَكْرَاتُ الْمَوْتِ ، فَقَالَ : وَهُوَ كَذَلِكَ ﴿ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فَآمَنَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ الْإِيْيَانُ .

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَ مَا قَالَ : ﴿ ءَاتَيْنَا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ أَيُّ : أَهَذَا الْوَقْتُ تَقُولُ ، وَقَدْ عَصَيْتَ اللَّهَ قَبْلَ هَذَا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أَيُّ : فِي الْأَرْضِ ، الَّذِينَ أَضَلُّوا النَّاسَ . ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ ءَايَةً ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : إِنَّ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَكُّوا فِي مَوْتِ فِرْعَوْنَ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْبَحْرَ أَنْ يُلْقِيَهُ بِجَسَدِهِ سَوِيًّا بِلَا رُوحٍ ، وَعَلَيْهِ دِرْعُهُ الْمَعْرُوفَةُ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ لِيَتَحَقَّقُوا مَوْتَهُ وَهَلَاكُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أَيُّ : تَرْفَعُكَ عَلَى نَشْرِ مِنَ الْأَرْضِ ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : بِجَسَدِكَ ، وَقَالَ الْحَسَنُ : بِجِسْمٍ لَا رُوحَ فِيهِ ، قِيلَ : سَوِيًّا صَحِيحًا ، أَيُّ : لَمْ يَتَمَزَّقْ لِيَتَحَقَّقُوا وَيَعْرِفُوهُ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ ءَايَةً ﴾ أَيُّ : لَتَكُونَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ دَلِيلًا عَلَى مَوْتِكَ وَهَلَاكِكَ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي نَاصِيَةُ كُلِّ دَايَةٍ بِيَدِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَقُومُ لِعِصْيَانِهِ شَيْءٌ .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبَوَّأً صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٥٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَبَوَّأً صَدَقَ ﴾ قِيلَ : هُوَ بِلَادُ مِصْرَ وَالشَّامِ مِمَّا يَلِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَنَوَاحِيهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ اسْتَقَرَّتْ يَدُ الدَّوْلَةِ الْمُسَوِيَّةِ عَلَى بِلَادِ مِصْرَ بِكَمَالِهَا . ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أَيُّ : الْحَلَالَ مِنَ الرِّزْقِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ الْمُسْتَطَابِ طَبْعًا وَشَرْعًا ، ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أَيُّ : مَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَسَائِلِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، أَيُّ : وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَخْتَلَفُوا ،

وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَهُمْ وَأَزَالَ عَنْهُمْ اللَّبْسَ ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أَيُّ : يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴿ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٩﴾

وَهَذَا فِيهِ تَثْبِيتٌ لِلْأَمَّةِ ، وَإِعْلَامٌ لَهُمْ أَنَّ صِفَةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ مَوْجُودَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ الَّتِي بِأَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، ثُمَّ مَعَ هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، يَلْبِسُونَ ذَلِكَ وَيُحَرِّفُونَهُ وَيُبَدِّلُونَهُ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٩﴾ أَيُّ : لَا يُؤْمِنُونَ إِيْمَانًا يَنْفَعُهُمْ ، بَلْ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا وَلِهَذَا لَمَّا دَعَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ قَالَ : ﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨]

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٢٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى : فَهَلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ بِكَمَا هِيَ مِنَ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ بَعَثْنَا إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ ، بَلْ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَبَهُ قَوْمُهُ أَوْ أَكْثَرُهُمْ .

وَالْغَرَضُ أَنَّهُ لَمْ تَوْجَدْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ بِكَمَا هِيَ بِنَبِيِّهِمْ مِنْ سَلَفِ مِنَ الْقُرَى ، إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ وَهُمْ أَهْلُ نَيْنَوَى ، وَمَا كَانَ إِيْمَانُهُمْ إِلَّا خَوْفًا مِنْ وَصُولِ الْعَذَابِ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ بَعْدَ مَا عَاينُوا أَسْبَابَهُ ، وَخَرَجَ رَسُولُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، فَعِنْدَهَا جَاءُوا إِلَى اللَّهِ ، وَاسْتَغَاثُوا بِهِ وَتَضَرَّعُوا لَهُ ، وَاسْتَكَاثُوا ، وَأَخْضَرُوا أَطْفَالَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ ، وَسَلَّأُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ نَبِيِّهِمْ ، فَعِنْدَهَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَكَشَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ .

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَأَذِنَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي الْإِيْمَانِ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ فَأَمَّنُوا

كُلُّهُمْ ، وَلَكِنْ لَهُ حِكْمَةٌ فِيمَا يَفْعَلُهُ تَعَالَى ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾ أَي : تُنْزِلُهُمْ وَتُلْجِئُهُمْ ﴿ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : لَيْسَ ذَلِكَ عَلَيْكَ وَلَا إِلَيْكَ بَلِ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ ﴾ [فاطر : ٨] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجَعَلَ الرِّجْسَ ﴾ ، وَهُوَ الْحَبَالُ وَالضَّلَالُ ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَي : حُجِّجَ اللَّهُ وَأَدْلَتْهُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ فِي هِدَايَةِ مَنْ هَدَى وَإِضْلَالِ مَنْ ضَلَّ .

قُلِ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلِ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾

يُرْشِدُ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ لِدُيِ الْأَلْبَابِ ، بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ كَوَاكِبَ نِجَارٍ ، ثَوَابِتَ وَسَيَّارَاتٍ ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَاخْتِلَافِهَا ، وَإِيلَاجِ أَحَدِهِمَا فِي الْآخَرِ حَتَّى يَطُولَ هَذَا وَيَقْصُرَ هَذَا ، ثُمَّ يَقْصُرُ هَذَا وَيَطُولُ هَذَا ، وَارْتِفَاعِ السَّمَاءِ وَاتِّسَاعِهَا وَحُسْنِهَا وَزِينَتِهَا ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْهَا مِنْ مَطَرٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَأَخْرَجَ فِيهَا مِنْ أَفَانِينَ الثَّمَارِ وَالزُّرُوعِ وَالْأَزْهَارِ وَصُنُوفِ النَّبَاتِ ، وَمَا ذَرَأَ فِيهَا مِنْ دَوَابِّ مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَالْمَنَافِعِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَسُهُولٍ وَقِفَارٍ وَعُصْمَرَانٍ وَخَرَابٍ ، وَمَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْأَمْوَاجِ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا مُسَخَّرٌ مُذَلَّلٌ لِلسَّالِكِينَ يَحْمِلُ سُفُنَهُمْ وَيَجْرِي بِهَا بِرَفْقٍ بِتَسْخِيرِ الْقَدِيرِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَي : وَأَيُّ شَيْءٍ تُغْنِي الْآيَاتُ السَّمَاوِيَّةَ وَالْأَرْضِيَّةَ وَالرُّسُلَ ، بِآيَاتِهَا وَحُجَجِهَا وَبَرَاهِينِهَا الدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِهَا عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أَي : فَهَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْعَذَابِ ، إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمَكْدُوبَةِ لِرُسُلِهِمْ ﴿ قُلِ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ ﴿١١﴾ ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَي : وَهُمْ لِكَ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ . ﴿ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : حَقًّا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ .

قُلْ يَتْلِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ وَأَنْ أَفْمَحَ وَجْهَكَ

لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ صِحَّةِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِ ، الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، فَأَنَا لَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ كَمَا أَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ، فَإِنْ كَانَتْ أَهْتُكُمْ الَّتِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَقًّا فَأَنَا لَا أَعْبُدُهَا فَادْعُوهَا فَلْتَضُرَّنِي ، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَإِنَّمَا الَّذِي بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ الْآيَةُ ، أَيْ أَخْلِصِ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ﴿ حَنِيفًا ﴾ أَيْ : مُنَحْرِفًا عَنِ الشَّرْكِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ الْآيَةُ . فِيهِ بَيَانٌ : لِأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالنَّفْعَ وَالضَّرَّ إِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا يُشَارِكُهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ ، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، وَلَوْ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ ، حَتَّى مِنَ الشَّرْكِ بِهِ ، فَإِنَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ . وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٣﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُخَبِّرَ النَّاسَ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ فِيهِ ، فَمَنْ اهْتَدَى بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ الْإِتِّبَاعَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ فَإِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أَيْ : وَمَا أَنَا مُوَكَّلٌ بِكُمْ حَتَّى تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ وَاهْدَايُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ ﴾ أَيْ : تَمَسَّكْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ، وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ مَنْ خَالَفَكَ مِنَ النَّاسِ ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ أَيْ : يَفْتَحَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أَيْ : خَيْرُ الْفَاتِحِينَ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ يُونُسَ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١٢٣ تفسير سورة هود الطه

مكية

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شُبَّتْ ! قَالَ : « شَيْبَتْنِي هُوْدٌ ، وَالْوَاقِعَةُ ، وَالْمُرْسَلَاتُ ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » . وَفِي رِوَايَةٍ : « هُوْدٌ وَأَخَوَاتُهَا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴿٣﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٤﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥﴾

أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ أَي : هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي لَفْظِهَا ، مُفَصَّلَةٌ فِي مَعْنَاهَا ، فَهُوَ كَامِلٌ صُورَةً وَمَعْنًى . ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أَي : مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، الْحَكِيمِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَحْكَامِهِ ، الْخَبِيرِ بِعَوَاقِبِ الْأُمُور . ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أَي : نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ الْمُحْكَمُ الْمُفَصَّلُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أَي : إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ ، وَبَشِيرٌ بِالثَّوَابِ إِنْ أَطَعْتُمُوهُ . ﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أَي : وَأَمْرُكُمْ بِالْإِسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ ، وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ ، وَأَنْ تَسْتَمِرُّوا عَلَى ذَلِكَ ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أَي : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ تَوَلَّى عَنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يَنَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مَحَالَةَ ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَي : مَعَادُكُمْ وَمَرْجِعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَي : وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَى أَوْلِيَائِهِ ، وَانْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَإِعَادَةِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا مَقَامُ التَّرْهيبِ كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ مَقَامُ تَرْغِيبٍ .

أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَسْتَقْبِلُوا السَّمَاءَ بِفُرُوجِهِمْ وَحَالَ وَقَاعِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَذَكَرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ يَسْتَغْشُونَ ﴾ يُغْطُونَ رُءُوسَهُمْ وَرُوي عَنْ عَدَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ قَالُوا : يَعْنِي بِهِ الشُّكُّ فِي اللَّهِ ، وَعَمَلُ السَّيِّئَاتِ ، أَيْ : أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَنَوَّنُونَ صُدُورَهُمْ إِذَا قَالُوا شَيْئًا أَوْ عَمِلُوهُ ، فَيُظَنُّونَ أَنَّهُمْ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ بِذَلِكَ ، فَأَخْبَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ عِنْدَ مَنَامِهِمْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ مِنَ الْقَوْلِ ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ مَا تَكِنُّ صُدُورُهُمْ مِنَ النِّيَّاتِ وَالضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ . وَعَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى اللَّهِ أَوَّلَى لِقَوْلِهِ ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « أَلَا إِنَّهُمْ تَتَنَوَّنُ صُدُورُهُمْ » بِرَفْعِ الصُّدُورِ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ ، وَهُوَ قَرِيبُ الْمَعْنَى .

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مُكْفَّلٌ بِأَرْزَاقِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ سَائِرِ دَوَابِّ الْأَرْضِ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا بِحَرِيَّتِهَا وَبَرِّيَّتِهَا ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، أَيْ : يَعْلَمُ أَيْنَ مُنْتَهَى سَيْرِهَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَيْنَ تَأْوِي إِلَيْهِ مِنْ وَكْرِهَا ، وَهُوَ مُسْتَوْدَعُهَا ، وَقِيلَ : حَيْثُ تَمُوتُ ، وَقِيلَ : ﴿ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ فِي الرَّحِمِ . ﴿ وَمُسْتَوْدَعُهَا ﴾ فِي الصُّلْبِ كَالَّتِي فِي الْأَنْعَامِ ، وَبَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابٍ عِنْدَ اللَّهِ مُبِينٌ .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَارَبَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا مَحْبَسُهُ ۚ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَأَنَّ عَرْشَهُ كَانَ عَلَى الْمَاءِ قَبْلَ ذَلِكَ ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « (اقْبُلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ) » . قَالُوا : قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا قَالَ : « (اقْبُلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ) » قَالُوا :

قَدْ قِيلْنَا فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ كَيْفَ كَانَ ؟ قَالَ : « كَانَ اللَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَتَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أَي : خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِنَفْعِ عِبَادِهِ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَلَمْ يَخْلُقْ ذَلِكَ عَبَثًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ، أَي : لِيَخْتَبِرَكُمْ ﴿ أَتَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ « أَكْثَرَ عَمَلًا » بَلْ « أَحْسَنُ عَمَلًا » وَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ حَسَنًا حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ ﷻ عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَمَتَى فَقَدْ الْعَمَلُ وَاحِدًا مِنْ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ حَبِطَ وَبَطَلَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى : وَلَئِنْ أَخْبَرْتَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ اللَّهَ سَيَبْعَثُهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ كَمَا بَدَأَهُمْ ، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَالْمَعَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقُدْرَةِ أَهْوَنَ مِنَ الْبَدَاءَةِ . وَقَوْلُهُمْ : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أَي : يَقُولُونَ كُفْرًا وَعِنَادًا : مَا نُصَدِّقُكَ عَلَى وَقْعِ الْبَعْثِ ، وَمَا يَذْكُرُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ سَحَرْتَهُ فَهُوَ يَتَّبِعُكَ عَلَى مَا تَقُولُ . ﴿ وَلَئِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى وَلَئِنْ أَخْرَأْنَا الْعَذَابَ وَالْمُؤَاخَذَةَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ وَأَمَدٍ مَحْضُورٍ ، وَأَوْعَدْنَاهُمْ إِلَى مُدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ ، لَيَقُولَنَّ تَكْذِيبًا وَاسْتَعْجَالًا : ﴿ مَا نَحْبِسُهُ ﴾ أَي : يُؤَخِّرُ هَذَا الْعَذَابَ عَنَّا ، فَإِنَّ سَجَايَاهُمْ قَدْ أَلْفَتِ التَّكْذِيبَ وَالشَّكَّ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَخِصٌّ عَنْهُ وَلَا مَخِيدٌ .

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفِّرُ ۖ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ وَمَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ : أَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ ، حَصَلَ لَهُ يَأْسٌ وَقَنُوطٌ مِنَ الْخَيْرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ ، وَكُفْرٌ وَجُحُودٌ لِمَاضِي الْحَالِ ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَ خَيْرًا وَلَمْ يَرْجُ بَعْدَ ذَلِكَ فَرَجًا ، وَهَكَذَا إِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَعْدَ نِقْمَةٍ ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ أَي : يَقُولُ مَا يَنَالُنِي بَعْدَ هَذَا ضَيْمٌ وَلَا سُوءٌ ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴾ أَي : فَرِحَ بِمَا فِي يَدِهِ ، بَطِرَ فَخُورٌ عَلَى غَيْرِهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أَي : عَلَى الشَّدَائِدِ وَالْمَكَارِهِ ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أَي : فِي الرِّخَاءِ وَالْعَافِيَةِ ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أَي : بِمَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الضَّرَاءِ ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ بِمَا أَسْلَفُوهُ فِي زَمَنِ الرِّخَاءِ .

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١﴾ فَلَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُسْلِمًا لِرَسُولِهِ ﷺ عَمَّا كَانَ يَتَعَنَّتْ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِيْمَا كَانُوا يَقُولُونَهُ عَنِ الرَّسُولِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ ﴿١٠﴾ أَوْ يُنْفِثْ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الْأَطْلَامُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الفرقان : ٧ - ٨] . فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَأَرْشَدَهُ إِلَى أَنْ لَا يَضِيقَ بِذَلِكَ مِنْهُمْ صَدْرُهُ وَلَا يَصُدَّنَّهُ ذَلِكَ وَلَا يُنْيِسَنَّهُ عَنْ دُعَائِهِمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا ﴾ أَيُّ : لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ ، فَإِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَلَكَ أَسْوَةٌ بِأَخْوَانِكَ مِنَ الرُّسُلِ قَبْلَكَ ، فَإِنَّهُمْ كَذَّبُوا وَأَوْدُوا فَصَبَرُوا حَتَّىٰ أَنَاهُمْ نَصْرُ اللَّهِ ﷻ .

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَىٰ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ ، وَلَا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ لِأَنَّ كَلَامَ الرَّبِّ تَعَالَىٰ لَا يُشَبِّهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ ، كَمَا أَنَّ صِفَاتِهِ لَا تُشَبِّهُ صِفَاتِ الْمَحْدَثَاتِ ، وَذَاتُهُ لَا يُشَبِّهُهَا شَيْءٌ تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَلَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أَيُّ : فَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِمُعَارَضَةٍ مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُتَضَمِّنٌ عِلْمَهُ وَأَمْرَهُ وَنَهْيَهُ ﴿ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّ أَهْلَ الرِّيَاءِ يُعْطَوْنَ بِحَسَنَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ، يَقُولُ : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا لِنَيْسِ الدُّنْيَا ، صَوْمًا أَوْ صَلَاةً أَوْ تَهَجُّدًا بِاللَّيْلِ لَا يَعْمَلُهُ إِلَّا النَّيْسُ الدُّنْيَا ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ : أُوْفِيهِ الَّذِي التَّمَسَّ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَثَابَةِ ،

وَحَبِطَ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ لِالْتِمَاسِ الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .
 وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَقَالَ قَتَادَةُ : مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هِمَّةً وَبَيْتَهُ وَسَدَمَهُ جَزَاؤُهُ
 اللَّهُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْآخِرَةِ وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا جَزَاءٌ ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ
 فَيُجَازَى بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَيُنَازِلُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ .

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا
 وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَنَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي
 مَرِيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى فِطْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا عِبَادَهُ ، مِنْ
 الْإِعْتِرَافِ لَهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ أَيُّ : وَجَاءَهُ شَاهِدٌ مِنَ اللَّهِ ، وَهُوَ
 مَا أَوْحَاهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الشَّرَائِعِ الطَّهَّرَةِ الْمُكَمَّلَةِ الْمُعْظَمَةِ ، الْمُخْتَمَّةِ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ
 اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - . قَالَ عِزُّ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ أَنَّهُ
 جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَكِلَاهُمَا قَرِيبٌ فِي الْمَعْنَى ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْ جِبْرِيلَ
 وَمُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا - بَلَغَ رِسَالَةَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَجِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَمُحَمَّدٌ إِلَى الْأُمَّةِ .
 وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ عِنْدَهُ مِنَ الْفِطْرَةِ مَا يَشْهَدُ لِلشَّرِيعَةِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ ، وَالتَّفَاصِيلُ تُؤْخَذُ مِنَ
 الشَّرِيعَةِ ، وَالْفِطْرَةُ تُصَدِّقُهَا وَتُؤْمِنُ بِهَا ، لِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ
 شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ، بَلَغَهُ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَبَلَغَهُ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى أُمَّتِهِ ، ثُمَّ قَالَ
 تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى ﴾ أَيُّ : وَمِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ كَتَابُ مُوسَى وَهُوَ التَّوْرَةُ ﴿ إِمَامًا
 وَرَحْمَةً ﴾ أَيُّ : أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى تِلْكَ الْأُمَّةِ إِمَامًا لَهُمْ ، وَقُدُوءَ يَقْتَدُونَ بِهَا ، وَرَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِهِمْ ،
 فَمَنْ آمَنَ بِهَا حَقَّ الْإِيمَانِ قَادَهُ ذَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ ،
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَنَارُ مَوْعِدُهُ ﴾
 أَيُّ : وَمَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، مُشْرِكِيهِمْ وَكَافِرِيهِمْ وَأَهْلَ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ ،
 وَمِنْ سَائِرِ طَوَائِفِ بَنِي آدَمَ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ يَمِّنَ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ . ﴿ فَلَا
 تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ . أَيُّ : الْقُرْآنُ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ لَا مَرِيَّةَ وَلَا شَكَّ فِيهِ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
 الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ
 يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا

مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٦٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٦٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٦٩﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى حَالَ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ ، وَفَضِيحَتَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَسَائِرِ الْبَشَرِ وَالْجَانِّ . وَقَوْلُهُ : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَي : يَرُدُّونَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَسَلُّوكِ طَرِيقِ الْهُدَى الْمَوْصِلَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ ، وَيُحِبُّونَهُمُ الْجَنَّةَ ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَي : وَيُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ طَرِيقُهُمْ عِوَجًا غَيْرَ مُعْتَدِلَةٍ ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أَي : جَاحِدُونَ بِهَا ، مُكَذِّبُونَ بِوُقُوعِهَا وَكَوْنِهَا . ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أَي : بَلْ كَانُوا تَحْتَ قَهْرِهِ وَغَلَبَتِهِ وَفِي قَبْضَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الْآيَةُ . أَي : يُضَاعَفُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ ، بَلْ كَانُوا ضَمًّا عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ، عُمِيًّا عَنْ اتِّبَاعِهِ .

قَوْلُهُ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أَي : خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ أُدْخِلُوا نَارًا حَامِيَةً ، فَهُمْ مُعَذَّبُونَ فِيهَا لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا حَبَتِ زُنُودُهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أَي : ذَهَبَ عَنْهُمْ ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ ، فَلَمْ تُجِدْ عَنْهُمْ شَيْئًا ، بَلْ صَرَّتْهُمْ كُلُّ الصَّرَرِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَا لَهُمْ أَنَّهُمْ أَخْسَرُ النَّاسِ صَفَقَةً فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٠﴾ * مِثْلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٧١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ ، وَهُمْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَأَمَّنَتْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمُ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةَ قَوْلًا وَفِعْلًا ، مِنَ الْإِثْنَانِ بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَبِهَذَا وَرِثُوا الْجَنَّاتِ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْغُرَفِ الْعَالِيَاتِ ، وَالسَّرَرِ الْمَصْفُوفَاتِ ،

وَالْقُطُوفِ الدَّانِيَاتِ ، وَالْفُرُشِ الْمُزْتَفِعَاتِ ، وَالْحِسَانِ الْخَيْرَاتِ ، وَالْفَوَاكِهِ الْمُتَنَوِّعَاتِ ، وَالْمَاكِلِ الْمُشْتَهِيَاتِ ، وَالْمَشَارِبِ الْمُسْتَلَذَاتِ ، وَالنَّظَرِ إِلَى خَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُونَ لَا يَمُوتُونَ ، وَلَا يَهْرَمُونَ ، وَلَا يَمْرُضُونَ ، وَلَا يَنَامُونَ ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ ، وَلَا يَنْصُقُونَ ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ ، إِنَّ هُوَ إِلَّا رَشْحٌ مِسْكٍ يَعْرِقُونَ . ثُمَّ صَرَبَ تَعَالَى مَثَلِ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : ﴿ مَثَلُ الْآفِرِقَيْنِ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ وَصَفَهُمْ أَوَّلًا بِالشَّقَاءِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ بِالسَّعَادَةِ ، فَأُولَئِكَ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ ، وَهَؤُلَاءِ كَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، فَالْكَافِرُ أَعْمَى عَنْ وَجْهِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا يَنْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَلَا يَعْرِفُهُ ، أَصَمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحُجَجِ فَلَا يَسْمَعُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٣] . وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ : فَقَطْنٌ ذَكِيٌّ لَيْسَ بِبَصِيرٍ بِالْحَقِّ يُمَيِّزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَاطِلِ فَيَتَّبِعُ الْخَيْرَ وَيَتْرُكُ الشَّرَّ سَمِيعٌ لِلْحُجَّةِ يُفَرِّقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشُّبْهَةِ فَلَا يَرُوجُ عَلَيْهِ بَاطِلٌ فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا ؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ فَتُفَرِّقُونَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿١٦﴾ فَقَالَ أَلَمَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَلَكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عليه السلام وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْمَشْرِكِينَ عَبْدَهُ الْأَصْنَامَ ، أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : ظَاهِرُ النَّذَارَةِ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، إِنَّ أَنْتُمْ عَبْدَتُمْ غَيْرَ اللَّهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيُّ : إِنْ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ عَذَّبَكُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا مُوجِعًا شَقًّا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . ﴿ فَقَالَ أَلَمَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ وَالْمَلَأُ : هُمْ السَّادَةُ وَالْكِبَرَاءُ مِنَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ ﴿ مَا نَرَلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ أَيُّ : لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلَكِنَّكَ بَشَرٌ فَكَيْفَ أُوجِي إِلَيْكَ مِنْ دُونِنَا ، ثُمَّ مَا نَرَاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ ، كَالْبَاعَةِ وَالْحَاكَةِ وَأَشْبَاهِهِمْ ، وَلَمْ يَتَّبِعَكَ الْأَشْرَافُ وَلَا الرُّؤَسَاءُ مِنَّا ، ثُمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَتَّبَعُوكَ لَمْ يَكُنْ عَنْ تَرَوْ مِنْهُمْ وَلَا فِكْرٍ وَلَا نَظَرٍ ، بَلْ بِمَجَرَّدِ مَا دَعَوْهُمْ أَجَابُوكَ فَاتَّبَعُوكَ ، وَهَذَا قَالُوا : ﴿ وَمَا نَرَلَكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ ﴾ أَيُّ : فِي أَوَّلِ بادِي الرَّأْيِ ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ يَقُولُونَ : مَا رَأَيْنَا لَكُمْ عَلَيْنَا فَضِيلَةً فِي خَلْقٍ وَلَا خُلُقٍ وَلَا رِزْقٍ وَلَا حَالٍ ، لَمَّا دَخَلْتُمْ

فِي دِينِكُمْ هَذَا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ أَي : فِيمَا تَدْعُونَهُ لَكُمْ مِنَ الْبِرِّ وَالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ إِذْ صِرْتُمْ إِلَيْهَا . ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ هُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ عُمِّيٌّ عَنِ الْحَقِّ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ ، بَلْ هُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ، فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ يَعْمَهُونَ ، وَهُمْ الْأَفَّاكُونَ الْكَاذِبُونَ الْأَقْلُونَ الْأَرْذَلُونَ ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ .

قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أُنْزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا رَدَّ بِهِ نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ فِي ذَلِكَ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أَي : عَلَى يَقِينٍ وَأَمْرٍ جَلِيٍّ وَثُبُوءَةٍ صَادِقَةٍ ، وَهِيَ الرَّحْمَةُ الْعَظِيمَةُ مِنَ اللَّهِ بِهِ وَبِهِمْ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أَي : خَفِيَتْ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَهْتَدُوا إِلَيْهَا ، وَلَا عَرَفْتُمْ قَدَرَهَا ، بَلْ بَادَرْتُمْ إِلَى تَكْذِيبِهَا وَرَدَّهَا ﴿أُنْزِلُكُمْ مَوْهَا﴾ أَي : نَغْصِبُكُمْ بِقَبُولِهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ .

وَيَقَوْمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقَوْمُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ لِقَوْمِهِ : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى نُصْحِي لَكُمْ مَالًا أَجْرَةً أَخْذَهَا مِنْكُمْ ، إِنَّمَا أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَطْرُدَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ ، احْتِشَامًا وَنَفَاسَةً مِنْهُمْ أَنْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ ، كَمَا سَأَلَ أَمْثَلُهُمْ خَاتَمَ الرُّسُلِ ﷺ أَنْ يَطْرُدَ عَنْهُمْ جَمَاعَةً مِنَ الضُّعَفَاءِ وَيَجْلِسَ مَعَهُمْ مَجْلِسًا خَاصًّا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام : ٥٢]

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي خَزَائِنِ اللَّهِ ، وَلَا يَعْلَمُ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ هُوَ بِمَلِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَلْ هُوَ بَشَرٌ مُرْسَلٌ مُؤَيَّدٌ بِالْمُعْجَزَاتِ ، وَلَا أَقُولُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَحْقِرُونَهُمْ وَتَزْدَرُونَهُمْ إِنَّهُمْ لَيْسَ هُمْ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بَاطِنًا - كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ حَالِهِمْ - فَالْهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَى ، وَلَوْ قَطَعَ هُمْ أَحَدٌ بِشَرٍّ بَعْدَ مَا آمَنُوا لَكَانَ ظَالِمًا ، قَاتِلًا مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ .

قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جِدَلْنَا فَأَكْثَرَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١١﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٢﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اسْتِعْجَالِ قَوْمِ نُوحٍ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ وَسَخَطَهُ - وَالْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمُنْطِقِ - .

﴿ قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جِدَلْنَا فَأَكْثَرَ جِدَالَنَا ﴾ أَيُّ : حَاجَجْتَنَا فَأَكْثَرْتَ مِنْ ذَلِكَ ، وَنَحْنُ لَا نَتَّبِعُكَ ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أَيُّ : مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ ، أَدْعُ عَلَيْنَا بِمَا شِئْتَ فَلْيَأْتِنَا مَا تَدْعُو بِهِ ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا الَّذِي يُعَاقِبُكُمْ وَيُعْجِلُهَا لَكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أَيُّ : أَيُّ شَيْءٍ يُجْدِي عَلَيْكُمْ إِبْلَاجِي لَكُمْ وَإِنذَارِي إِيَّاكُمْ وَنُصْحِي ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أَيُّ : إِغْوَاءَكُمْ وَدَمَارَكُمْ ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيُّ : هُوَ مَالِكُ أَرْمَةِ الْأُمُورِ ، الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ ، الَّذِي لَا يَجُورُ لَهُ الْخَلْقُ ، وَلَهُ الْأَمْرُ وَهُوَ الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ ، مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُخْرِمُونَ ﴿١٤﴾

هَذَا كَلَامٌ مُعْتَرِضٌ فِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مُؤَكِّدٌ لَهَا مُقَرَّرٌ لَهَا ، يَقُولُ تَعَالَى لِحَمِيدِهِ ﷻ أَمْ يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ الْجَاهِلُونَ : إِفْتَرَىٰ هَذَا وَافْتَعَلَهُ مِنْ عِنْدِهِ ﴿ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي ﴾ أَيُّ : فَأَنْتُمْ ذَلِكَ عَلَيَّ ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُخْرِمُونَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ ذَلِكَ مُفْتَعَلًا وَلَا مُفْتَرَى ، لِأَنِّي أَعْلَمُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِمَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ .

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿١٦﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿١٧﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ لَمَّا اسْتَعْجَلَ قَوْمُهُ نِقْمَةَ اللَّهِ بِهِمْ وَعَذَابَهُ هَهُمْ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ نُوحٌ دَعْوَتَهُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦] ، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠] فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ ﴾ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا يَهْمَنَّكَ أَمْرُهُمْ . ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ يَعْنِي : السَّفِينَةَ

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أَي : بِمَرَأَى مِنَّا ﴿وَوَحِينَا﴾ أَي : تَعْلِيمِنَا لَكَ مَا تَصْنَعُهُ ﴿وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾
 إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ ﴿وَقَوْلُهُ﴾ : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلُوكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أَي :
 يَهْزُؤُونَ بِهِ ، وَيَكْذِبُونَ بِمَا يَتَوَعَّدُهُمْ بِهِ مِنَ الْغَرَقِ ﴿قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ الْآيَةُ .
 وَعِيدٌ شَدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُخْزٍ﴾ أَي : يُهِنُهُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أَي : دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا .

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا
 مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٦٦﴾

هَذِهِ مُوَاعِدَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ مِنَ الْأَمْطَارِ الْمُتَابِعَةِ وَالْهَتَّانِ الَّذِي لَا
 يُقْلَعُ وَلَا يَفْتَرُ ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ التَّنُّورُ : وَجْهُ الْأَرْضِ ، أَي : صَارَتْ الْأَرْضُ عُيُونًا تَقُورُ ، حَتَّى
 فَارَ الْمَاءُ مِنَ التَّنَائِيرِ الَّتِي هِيَ مَكَانُ النَّارِ صَارَتْ تَقُورُ مَاءً ، وَهَذَا قَوْلُ جُهْوَ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ
 الْخَلَفِ . فَحِينَئِذٍ أَمَرَ اللَّهُ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ صُنُوفِ
 الْمَخْلُوقَاتِ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أَي : وَاحْمِلْ فِيهَا أَهْلَكَ وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ وَقَرَاتِهِ ،
 إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ ، فَكَانَ مِنْهُمْ ابْنُهُ «يَام» الَّذِي انْعَزَلَ وَحْدَهُ
 وَامْرَأَةُ نُوحٍ وَكَانَتْ كَافِرَةً بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أَي : مِنْ قَوْمِكَ ﴿وَمَا ءَامَنَ
 مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أَي : نَزَرُ يَسِيرٌ مَعَ طَوْلِ الْمُدَّةِ وَالْمَقَامِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ، أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا .

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجَّيْنَاهَا وَمُرْسِنَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَهِيَ تَجْرِي
 بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَارِبُ فِي مَعَزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا
 تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ سَفَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
 الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَارِبُ مِنَ الْمُغْرِقِينَ ﴿١٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِنْخَبَارًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِلَّذِينَ أُمِرَ بِحَمْلِهِمْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ ﴿ارْكَبُوا فِيهَا
 بِسْمِ اللَّهِ نَجَّيْنَاهَا وَمُرْسِنَاهَا﴾ أَي : بِسْمِ اللَّهِ يَكُونُ جَرْمًا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَيَسْمِ اللَّهُ يَكُونُ مُنْتَهَى
 سِيرَتِهَا وَهُوَ رُسُودُهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مُنَاسِبٌ عِنْدَ ذِكْرِ الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْكَافِرِينَ بِإِعْرَاقِهِمْ أَجْمَعِينَ
 فَذَكَرَ أَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف : ١٦٧]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أَي: السَّفِينَةُ سَائِرَةٌ بِهِمْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، الَّذِي قَدْ طَبَّقَ جَمِيعَ الْأَرْضِ حَتَّى طَفَّتْ عَلَى رُءُوسِ الْجِبَالِ ، وَارْتَفَعَ عَلَيْهَا بِخَمْسَةِ عَشَرَ ذِرَاعًا ، وَقِيلَ : بِثَمَانِينَ مِيلًا ، وَهَذِهِ السَّفِينَةُ جَارِيَةٌ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، سَائِرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَحْتَ كَنَفِهِ وَعِنَايَتِهِ وَحِرَاسَتِهِ وَامْتِنَانِهِ . ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ الْآيَةُ . وَكَانَ كَافِرًا ، دَعَاهُ أَبُوهُ عِنْدَ رُكُوبِ السَّفِينَةِ أَنْ يُؤْمِنَ وَيَرْكَبَ مَعَهُمْ ، وَلَا يَغْرَقَ مِثْلَمَا يَغْرَقُ الْكَافِرُونَ ﴿قَالَ سَاقُوا إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ اعْتَقَدَ بِجَهْلِهِ أَنَّ الطُّوفَانَ لَا يَبْلُغُ إِلَى رُءُوسِ الْجِبَالِ ، وَأَنَّهُ لَوْ تَعَلَّقَ فِي رَأْسِ جَبَلٍ لَنَجَّاهُ ذَلِكَ مِنَ الْغَرَقِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أَي: لَيْسَ شَيْءٌ يَعِصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، وَقِيلَ : إِنَّ عَاصِمًا بِمَعْنَى مَعْصُومٍ ، كَمَا يُقَالُ : طَاعِمٌ وَكَاسٍ بِمَعْنَى مَطْعُومٌ وَمَكْسُوفٌ ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ .

وَقِيلَ يَتَارَضُ ابْنُ أَبِي مَاءٍ كَيْدًا وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ إِلَّا أَصْحَابَ السَّفِينَةِ ، أَمَرَ الْأَرْضُ أَنْ تَبْلَعَ مَاءَهَا الَّذِي نَبَعَ مِنْهَا وَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا ، وَأَمَرَ السَّمَاءُ أَنْ تُقْلِعَ عَنِ الْمَطَرِ ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ أَي: شَرَعَ فِي النَقْصِ ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أَي: فُرِعَ مِنَ أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً مِمَّنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ دَبَّارٌ ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ السَّفِينَةُ بِمَنْ فِيهَا ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قِيلَ : هُوَ جَبَلٌ بِالْجَزِيرَةِ . وَقِيلَ : الْجُودِيُّ : جَبَلٌ بِالْمَوْصِلِ ، وَقِيلَ : هُوَ الطُّورُ . ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: هَلَاكًا وَخَسَارًا لَهُمْ ، وَبُعْدًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا عَنْ آخِرِهِمْ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ بَقِيَّةٌ .

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤﴾

هَذَا سُؤَالُ اسْتِعْلَامٍ وَكَشْفٍ مِنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ حَالِ وَلَدِهِ الَّذِي غَرِقَ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أَي: وَقَدْ وَعَدْتَنِي بِنَجَاةِ أَهْلِي ، وَوَعْدَكَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُخْلَفُ ، فَكَيْفَ غَرِقَ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ؟ ﴿قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أَي: الَّذِينَ وَعَدْتُ إِنْجَاءَهُمْ ، لِأَنِّي إِنَّمَا وَعَدْتُكَ بِنَجَاةِ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِكَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ فَكَانَ هَذَا

الْوَلَدُ مِمَّنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ بِالْغَرَقِ ، لِكُفْرِهِ وَمُخَالَفَتِهِ أَبَاهُ نَبِيَّ اللَّهِ نُوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ نَصَّ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ عَلَى تَحْطِئَةِ مَنْ ذَهَبَ فِي تَفْسِيرِ هَذَا إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِابْنِهِ وَإِنَّمَا كَانَ ابْنُ زُنْيَةٍ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : مَا زَنَتْ امْرَأَةٌ نَبِيًّا قَطُّ ، قَالَ : وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ وَعَدْتُكَ نَجَاتَهُمْ ، وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا حَبِيدَ عَنْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَغْيَرُ مِنْ أَنْ يُمَكِّنَ امْرَأَةً نَبِيًّا مِنَ الْفَاحِشَةِ . وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنْ قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ فَخَاتَتَاهُمَا ﴾ قَالَ : أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِالزَّانَا ، وَلَكِنْ كَانَتْ هَذِهِ تُخْبِرُ النَّاسَ أَنَّهُ مُجْنُونٌ ، وَكَانَتْ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى الْأَصْيَافِ ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ .

قِيلَ يَنْتُوْحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِتًا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا قِيلَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُرْسِيَ السَّفِينَةُ عَلَى الْجُودِيِّ ، مِنَ السَّلَامِ عَلَيْهِ ، وَعَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ هَذِهِ الْقِصَّةُ وَأَشْبَاهُهَا ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ يَعْنِي : مِنْ أَخْبَارِ الْغُيُوبِ السَّالِفَةِ ، نُوحِيهَا إِلَيْكَ عَلَى وَجْهِهَا كَأَنَّكَ شَاهِدُهَا ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ أَيُّ : تُعْلِمُكَ بِهَا وَحِيًّا مِنَّا إِلَيْكَ ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أَيُّ : لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ عِلْمٌ بِهَا ، حَتَّى يَقُولَ مَنْ يُكَذِّبُكَ إِنَّكَ تَعْلَمُهَا مِنْهُ ، بَلْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِهَا مُطَابَقَةً لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الصَّحِيحُ ، كَمَا تَشْهَدُ بِهِ كُتُبُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ فَاصْبِرْ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَكَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَذَاهُمْ لَكَ ، فَإِنَّا سَنَنْصُرُكَ وَنَحْوَطُكَ بِعَنَانَيْنَا وَنَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلَا تَبَاعِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا فَعَلْنَا بِالْمُرْسَلِينَ حَيْثُ نَصَرْنَاهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ .

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿١٠٨﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَ ﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أَمْرًا هُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ

لَهُ ، نَاهِيَا لَهُمْ عَنِ الْأَوْثَانِ الَّتِي افْتَرَوْهَا وَاخْتَلَقُوا لَهَا أَسْمَاءَ الْأَلِهَةِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ مِنْهُمْ أُجْرَةً عَلَى هَذَا النَّصْحِ وَالْبَلَاغِ مِنَ اللَّهِ ، إِنَّمَا يَبْغِي ثَوَابَهُ مِنَ اللَّهِ الَّذِي فَطَرَهُ ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ مَنْ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَا يُصْلِحُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أُجْرَةٍ . ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِعْفَارِ الَّذِي فِيهِ تَكْفِيرُ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ ، وَبِالتَّوْبَةِ عَمَّا يَسْتَقْبِلُونَ ، وَمَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَحَفِظَ شَأْنَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ .

قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٧﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٩﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ قَالُوا لِلنَّبِيِّهِمْ : ﴿ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أَيُّ : بِحُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ عَلَى مَا تَدَّعِيهِ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ أَيُّ : بِمُجَرَّدِ قَوْلِكَ أَتُرْكُوهُمْ نَتْرُكُهُمْ ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بِمُصَدِّقِينَ ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ يَقُولُونَ : مَا نَظُنُّ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْأَلِهَةِ أَصَابَكَ بِجُنُونٍ وَخَبَلٍ فِي عَقْلِكَ ، بِسَبَبِ مَهْيِكَ عَنْ عِبَادَتِهَا وَعَيْتِكَ لَهَا ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ مِنْ دُونِهِ ﴿ يَقُولُ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ ﴾ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴿ أَيُّ : أَنْتُمْ وَأَهْلُكُمْ إِنْ كَانَتْ حَقًّا ﴾ ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿ أَيُّ : طَرْفَةَ عَيْنٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أَيُّ : تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ فِي حُكْمِهِ .

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَدَسَخِلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٦٠﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٦١﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِبَايَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَبِيدٍ ﴿٦٢﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ لَهُمْ هُودٌ : فَإِنْ تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ رَبِّكُمْ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ بِإِبْلَاجِي إِيَّاكُمْ رَسُولَ اللَّهِ الَّتِي بَعَثَنِي بِهَا ﴿ وَدَسَخِلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يَعْبُدُونَهُ وَحَدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ ، وَلَا يُبَالِي بِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَضُرُّونَهُ بِكُفْرِكُمْ ، بَلْ يَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ ﴿ إِنْ رَبِّي

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿١٠٠﴾ أَيُّ : شَاهِدٌ وَحَافِظٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ وَأَفْعَالِهِمْ ، وَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ﴿١٠١﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴿١٠٢﴾ وَهُوَ الرِّيحُ الْعَقِيمُ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَنْ آخِرِهِمْ وَنَجَّى هُودًا وَاتَّبَاعَهُ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ، بِرَحْمَتِهِ تَعَالَى وَلُطْفِهِ ﴿١٠٣﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ ﴿١٠٤﴾ كَفَرُوا بِهَا ، وَعَصَوْا رُسُلَ اللَّهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيِّ فَقَدْ كَفَرَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فِي وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِ ، فَعَادُ كَفَرُوا بِهُودٍ فَنَزَلَ كُفْرُهُمْ مَنْرَلَةً مَنْ كَفَرَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ ﴿١٠٥﴾ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٠٦﴾ تَرَكُوا اتِّبَاعَ رَسُولِهِمُ الرَّشِيدِ ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، فَلِهَذَا أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةُ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّمَا ذُكِرُوا ، وَيُنَادَى عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ﴿١٠٧﴾ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴿١٠٨﴾ الْآيَةُ . قَالَ السُّدِّيُّ : مَا بُعِثَ نَبِيٌّ بَعْدَ عَادٍ إِلَّا لِعُنُوا عَلَى لِسَانِهِ .

﴿١٠٩﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿١١١﴾ إِلَى ثَمُودَ ﴿١١٢﴾ وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ مَدَائِنَ الْحِجْرِ بَيْنَ تَبُوكَ وَالْمَدِينَةِ ، وَكَانُوا بَعْدَ عَادٍ ، فَبَعَثَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿١١٣﴾ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴿١١٤﴾ أَيُّ : ابْتَدَأَ خَلَقَكُمْ مِنْهَا ، خَلَقَ مِنْهَا أَبَاكُمْ آدَمَ ﴿١١٥﴾ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿١١٦﴾ أَيُّ : جَعَلَكُمْ عَمَّارًا تَعْمُرُونَهَا وَتَسْتَغْلِقُونَهَا ﴿١١٧﴾ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴿١١٨﴾ لِسَالِفِ ذُنُوبِكُمْ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ ﴿١٢٠﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿١٢١﴾ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١٢٢﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٢٤﴾ [البقرة: ١٨٦]

قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٢٥﴾ قَالَ يَنْقُومِ آرَاءُيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٢٦﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ بَيْنَ صَالِحٍ ^{الطَّلَلِ} وَبَيْنَ قَوْمِهِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعِنَادِ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿١٢٧﴾ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴿١٢٨﴾ أَيُّ : كُنَّا نَرْجُوكَ فِي عَقْلِكَ قَبْلَ أَنْ تَقُولَ مَا قُلْتَ ﴿١٢٩﴾ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴿١٣٠﴾ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِمْ أَسْلَافُنَا ﴿١٣١﴾ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٣٢﴾ أَيُّ : شَكٌّ كَثِيرٌ . ﴿١٣٣﴾ قَالَ يَنْقُومِ آرَاءُيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴿١٣٤﴾ فِيمَا أَرْسَلَنِي بِهِ إِلَيْكُمْ عَلَى بَيِّنٍ وَبُرْهَانٍ ﴿١٣٥﴾ وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴿١٣٦﴾ وَتَرَكْتُ دَعْوَتَكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، فَلَوْ تَرَكْتُهُ لَمَا نَفَعْتُمُونِي وَلَمَا زِدْتُمُونِي ﴿١٣٧﴾ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣٨﴾ أَيُّ : خَسَارَةٍ .

وَيَقَوْمٍ هَذِهِ نَافَةٌ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَاكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ؕ آلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ؕ آلَا بَعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ؕ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُّوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوَاسِيَ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ؕ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ ﴿ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ قِيلَ : بُشْرُهُ بِإِسْحَاقَ ، ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ أَيُّ : عَلَيْكُمْ . قَالَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ : هَذَا أَحْسَنُ مِمَّا حَيَّوْهُ بِهِ ؛ لِأَنَّ الرَّفْعَ يَدُلُّ عَلَى الثُّبُوتِ وَالِدَّوَامِ ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴾ أَيُّ : ذَهَبَ سَرِيعًا فَأَتَانَهُمْ بِالضَّبَافَةِ ، وَهُوَ عِجْلٌ فَتَى الْبَقَرِ ، حَنِيدٌ : مَشْوِيٌّ عَلَى الرَّضْفِ وَهِيَ الْحِجَارَةُ الْمُحْمَاةُ . ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ نَكَرَهُمْ ﴿ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَلَا يَسْتَهْوُوهُ وَلَا يَأْكُلُونَهُ ، فَلِهَذَا رَأَى حَالَهُمْ مُعْرِضِينَ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ فَارْغَبِينَ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَكِرَهُمْ ﴿ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِبْرَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ : ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ أَيُّ : قَالُوا لَا تَخَفْ مِنَّا إِنَّا مَلَائِكَةٌ ، أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُّوطٍ لِنُهْلِكَهُمْ ، فَضَحِكَتْ سَارَةً اسْتِشْشَارًا بِهَلَاكِهِمْ لِكثَرَةِ فِسَادِهِمْ وَغِلَظِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، فَلِهَذَا جُوزِيَتْ بِالْبَشَارَةِ بِالْوَلَدِ بَعْدَ الْإِيَّاسِ . ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أَيُّ : بِوَلَدٍ لَهَا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَعَقِبٌ وَنَسْلٌ ، فَإِنَّ يَعْقُوبَ وَلَدُ إِسْحَاقَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَتْ يَوَئِلَتَى ءَالِدِ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ الْآيَةُ . حَكَى قَوْلَهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا حَكَى فِعْلَهَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ، فَإِنَّمَا : ﴿ قَالَتْ يَوَئِلَتَى ءَالِدِ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ ، وَفِي الذَّارِيَاتِ ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات : ٢٩] كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ النِّسَاءِ فِي أَقْوَالِهِنَّ وَأَفْعَالِهِنَّ عِنْدَ التَّعَجُّبِ . ﴿ قَالُوا أُنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهَا : لَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَلَا تَعْجَبِي مِنْ هَذَا ، وَإِنْ كُنْتَ عَجُوزًا عَقِيمًا ، وَبِعَلِّكَ شَيْخًا كَبِيرًا ، فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ . ﴿ رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، مَحْمُودٌ مُمَجَّدٌ فِي صِفَاتِهِ وَذَاتِهِ .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٧﴾ يَتْلُوهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أَنَّهُ لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، وَهُوَ مَا أَوْجَسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ خِيفَةً حِينَ لَمْ يَأْكُلُوا ، وَبَشَّرُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْوَلَدِ وَأَخْبَرُوهُ بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ ، أَخَذَ يَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ ﴾ [العنكبوت : ٣٢] فَسَكَتَ عَنْهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴾ مَدْحٌ لِإِبْرَاهِيمَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا . ﴿ يَتْلُوهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ الْآيَةُ ، أَيُّ : إِنَّهُ قَدْ نَفَذَ فِيهِمُ الْقَضَاءَ ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ بِالْهَلَاكِ وَحُلُولِ الْبَأْسِ الَّذِي لَا يُرَدُّ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمٍ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقَوْمِرْ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدُومِ رُسُلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَعْدَ مَا أَعْلَمُوا إِبْرَاهِيمَ بِهَلَاكِهِمْ وَفَارَقُوهُ وَأَخْبَرُوهُ بِإِهْلَاكِ اللَّهِ قَوْمَ لُوطٍ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، فَانْطَلَقُوا مِنْ عِنْدِهِ فَاتَّوَا لُوطًا عليه السلام وَهُوَ عَلَى مَا قِيلَ فِي أَرْضٍ لَهُ ، وَقِيلَ : فِي مَنْزِلِهِ ، وَوَرَدُوا عَلَيْهِ وَهُمْ فِي أَجْمَلِ صُورَةٍ تَكُونُ عَلَى هَيْئَةِ شَبَابٍ حَسَانِ الْوُجُوهِ إِبْتِلَاءً مِنَ اللَّهِ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَسَاءَهُ شَأْنُهُمْ وَضَاقَتْ نَفْسُهُ بِسَبَبِهِمْ ، وَخَشِيَ أَنْ لَمْ يُضِفْهُمْ أَنْ يُضِيفَهُمْ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ فَيَنَالَهُمْ بِسُوءٍ ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أَيُّ : شَدِيدٌ بَلَاءُوهُ ،

وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَدْفَعُ عَنْهُمْ وَيَشْقَى عَلَيْهِ ذَلِكَ ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُرْعَوْنَ إِلَيْهِ ﴾ أَيُّ : يُسْرِعُونَ وَيُهْرَوْنَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِذَلِكَ ﴿ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أَيُّ : لَمْ يَزَلْ هَذَا مِنْ سَجِيَّتِهِمْ حَتَّى أَخَذُوا وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْحَالِ ﴿ قَالَ يَفْقَوْمَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يُرْشِدُهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ لِلْأُمَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ ، فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ لَهُمْ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ ﴾ ١٦٥-١٦٦ ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ لَمْ يَكُنْ بَنَاتُهُ ، لَكِنْ كُنَّ مِنْ أُمَّتِهِ ، وَكُلُّ نَبِيِّ أَبِي أُمَّتِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أَيُّ : افْعَلُوا مَا أَمَرُكُمْ بِهِ مِنَ الْإِقْتِصَارِ عَلَى نِسَائِكُمْ ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أَيُّ : فِيهِ خَيْرٌ يَقْبَلُ مَا أَمَرُهُ بِهِ وَيَتْرَكُ مَا أَنْهَاهُ عَنْهُ ؟ ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ أَيُّ : إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ نِسَاءَنَا لَا أَرْبَ لَنَا فِيهِنَّ وَلَا نَشْتَهيهنَّ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ لَنَا غَرَضٌ إِلَّا فِي الذُّكُورِ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ ، فَأَيُّ حَاجَةٍ فِي تَكَرُّرِ الْقَوْلِ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ ؟

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا نَبِيَّهٗ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ الْآيَةُ ، أَيُّ : لَكُنْتُ نَكَلْتُ بِكُمْ ، وَفَعَلْتُ بِكُمْ الْأَفَاعِيلَ بِنَفْسِي وَعَشِيرَتِي . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى لُوطٍ ، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخْبَرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَا وُصُولَ لَهُمْ إِلَيْهِ . ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ وَأَمَرُوهُ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ وَأَنْ يَتَّبِعَ أَذْبَارَهُمْ ، أَيُّ : يَكُونَ سَاقَةَ لِأَهْلِهِ ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ أَيُّ : إِذَا سَمِعْتَ مَا نَزَلَ بِهِمْ ، وَلَا تَهْوَلَنَّكُمْ تِلْكَ الْأَصْوَاتُ الْمُزَعِجَةُ ، وَلَكِنْ اسْتَعِرُّوا ذَاهِبِينَ ﴿ إِلَّا أَمْرَاتَكَ ﴾ قَالَ الْأَكْثَرُونَ : هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْمُثَبَّتِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ فَاسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ تَقْدِيرُهُ ﴿ إِلَّا أَمْرَاتَكَ ﴾ ، وَكَذَلِكَ قَرَأَهَا ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَنَصَبَ هَؤُلَاءِ (أَمْرَاتَكَ) لِأَنَّهُ مُثَبَّتٌ فَوَجَبَ نَصْبُهُ عِنْدَهُمْ ، ثُمَّ قَرَّبُوا لَهُ هَلَاكَ قَوْمِهِ تَبَشِيرًا لَهُ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ : أَهْلِكُوهُمْ السَّاعَةَ ، فَقَالُوا : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ . هَذَا وَقَوْمُ لُوطٍ وَقُوفٌ عَلَى الْبَابِ عُكُوفٌ ، قَدْ جَاءُوا يُرْعَوْنَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَلُوطٌ وَقِفٌ عَلَى الْبَابِ يُدَافِعُهُمْ وَيَرُدُّعُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ ، وَهُمْ لَا يَقْبَلُونَ مِنْهُ بَلْ يَتَوَعَّدُونَهُ وَيَتَهَدَّدُونَهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَ عَلَيْهِمْ

جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضْرَبَ وُجُوهَهُمْ بِجَنَاحِهِ فَطَمَسَ أَعْيُنَهُمْ ، فَارْجَعُوا وَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ الطَّرِيقَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَافِيَةٍ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَتُذِرُ ﴾ [القمر : ٣٧]

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْصُودٍ ﴿٣٨﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴿ جَعَلْنَا عَلَيْهَا ﴾ وَهِيَ سَدُومُ ﴿ سَافِلَهَا ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَعَسَلْنَا مَا عَمِلْنَا ﴾ [النجم : ٥٤] أَيْ : أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ ، وَهِيَ بِالْفَارِسِيَّةِ : حِجَارَةٌ مِّنْ طِينٍ ، وَقَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ ﴾ أَيْ : مُسْتَحْجَرَةٌ قَوِيَّةٌ شَدِيدَةٌ ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : سِجِّيلٌ : الشَّدِيدُ الْكَبِيرُ سِجِّيلٌ وَسِجِّينُ اللَّامِ وَالنُّونِ أُخْتَانِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّنْصُودٍ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : مَّنْصُودَةٌ فِي السَّمَاءِ ، أَيْ : مُعَدَّةٌ لِذَلِكَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ مَّنْصُودٍ ﴾ أَيْ : يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا فِي نَزْوِهَا عَلَيْهِمْ . ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أَيْ : مُعَلَّمَةً مَخْتُومَةً عَلَيْهَا أَسْمَاءُ أَصْحَابِهَا ، كُلُّ حَجَرٍ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ اسْمُ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ أَيْ : وَمَا هَذِهِ النِّقْمَةُ بِمَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ فِي ظُلْمِهِمْ بِبَعِيدٍ عَنْهُ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ قَالَ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٤٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ مَدْيَنَ وَهُمْ قَبِيلَةٌ مِّنَ الْعَرَبِ ، كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ قَرِيبًا مِّنْ مَّعَانٍ . بِلَادًا تُعْرَفُ بِهِمْ يُقَالُ لَهَا مَدْيَنُ ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ شُعَيْبًا وَكَانَ مِنْ أَشْرَفِهِمْ نَسَبًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ بِأَمْرِهِمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّطْطِيفِ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ أَيْ : فِي مَعِيشَتِكُمْ وَرِزْقِكُمْ ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تُسْلَبُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ بِإِنْتِهَاكُمْ مُحَارِمَ اللَّهِ ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَيَقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْثَلَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٤١﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿٤٢﴾

يَنْهَاهُمْ أَوَّلًا عَنْ نَقْصِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إِذَا أَعْطَا النَّاسَ ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِوَفَاءِ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ بِالْقِسْطِ ، آخِذِينَ وَمُعْطِينَ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْعُتُوِّ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ ، وَقَدْ كَانُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ ،

وَقَوْلُهُ: ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قِيلَ الْمُرَادُ: رَزَقَ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ، أَي: مِنْ بَخْسِكُمُ النَّاسَ، وَقِيلَ: طَاعَةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أَي: مَا يَفْضُلُ لَّكُمْ مِنَ الرَّبْحِ بَعْدَ وَفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ خَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ، قُلْتُ: وَيُسَبِّحُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْحَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْحَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أَي: بِرَقِيبٍ وَلَا حَفِيظٍ، أَي: إِفْعَلُوا ذَلِكَ اللَّهُ تَعَالَى، لَا تَفْعَلُوهُ لِيَرَاكُمُ النَّاسُ بَلْ اللَّهُ تَعَالَى.

قَالُوا يَشْعُيبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٤٧﴾

يَقُولُونَ لَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ - قَبَحَهُمُ اللَّهُ - ﴿أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ﴾ قِيلَ الْمُرَادُ: قِرَاءَتُكَ ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أَي: الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامَ ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ فَتَتْرَكَ التَّطْفِيفَ عَنْ قَوْلِكَ، وَهِيَ أَمْوَالُنَا نَفْعَلُ فِيهَا مَا نُرِيدُ، ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ يَقُولُونَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِهْزَاءِ، قَبَحَهُمُ اللَّهُ وَلَعَنَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ وَقَدْ فَعَلَ.

قَالَ يَنْقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ هُمْ: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ يَا قَوْمُ ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أَي: عَلَى بَصِيرَةٍ فِيمَا أَدْعُو إِلَيْهِ ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قِيلَ: أَرَادَ النُّبُوَّةَ، وَقِيلَ: أَرَادَ الرِّزْقَ الْحَلَالَ وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ، وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ﴾ أَي: لَا أَنْهَاكُمْ عَنِ الشَّيْءِ وَأُخَالِفُ أَنَا فِي السِّرِّ فَأَفْعَلُهُ خَفِيَةً عَنْكُمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ﴾ يَقُولُ: لَمْ أَكُنْ أَنْهَاكُمْ عَنْ أَمْرٍ وَأَرْتَكِبُهُ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أَي: فِيمَا أَمُرُّكُمْ وَأَنْهَاكُمْ، إِنَّمَا أُرِيدُ إِصْلَاحَكُمْ جَهْدِي وَطَاقَتِي ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أَي: فِي إِصَابَةِ الْحَقِّ فِيمَا أُرِيدُهُ ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فِي جَمِيعِ أُمُورِي ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أَي: أَرْجِعُ.

وَيَنْقَوْمُ لَا تَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٤٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ هُمْ: ﴿وَيَنْقَوْمُ لَا تَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أَي: لَا تَحْمِلَنَّكُمْ عِدَاوَتِي وَبُغْضِي عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى

مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَسَادِ ، فَيُصِيبُكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ وَقَوْمَ هُودٍ وَقَوْمَ صَالِحٍ وَقَوْمَ لُوطٍ مِنَ النَّقْمَةِ وَالْعَذَابِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ فِي الزَّمَانِ ، وَقِيلَ : فِي الْمَكَانِ ، وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَانِ ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا ﴾ رَبُّكُمْ مِنْ سَالِفِ الذُّنُوبِ ﴿ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ أَيُّ : لِمَنْ تَابَ .

قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ﴿٥٠﴾ قَالَ يَنْقَوْمِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٥١﴾

يَقُولُونَ : ﴿ يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ ﴾ مَا نَفَقَهُمْ ﴿ كَثِيرًا ﴾ مِنْ قَوْلِكَ ، قَالَ الثَّوْرِيُّ : كَانَ يُقَالُ لَهُ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ . قَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ وَإِنَّا لَنَرُكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قَالَ : أَنْتَ وَاحِدٌ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : يَعْنُونَ ذَلِيلًا ؛ لِأَنَّ عَشِيرَتَكَ لَيْسُوا عَلَى دِينِكَ ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ أَيُّ : قَوْمُكَ ، لَوْلَا مَعَزَّتُهُمْ عَلَيْنَا لَرَجَمْنَاكَ ، قِيلَ : بِالْحِجَارَةِ ، وَقِيلَ : لَسَبَيْنَاكَ ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ عِنْدَنَا لَكَ مَعَزَّةٌ . ﴿ قَالَ يَنْقَوْمِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ يَقُولُ : أَتَتَرَكُونَنِي لِأَجْلِ قَوْمِي ، وَلَا تَتْرَكُونِي إِعْظَامًا لِحَنَابِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، أَنْ تَنَالُوا نَبِيَّهَ بِمُسَاءَةٍ وَقَدْ اتَّخَذْتُمْ كِتَابَ اللَّهِ ﴿ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ﴾ أَيُّ : نَبَذْتُمُوهُ خَلْفَكُمْ ، وَلَا تُطِيعُونَهُ وَلَا تُعْظَمُونَهُ ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ وَسَيَجْزِيكُمْ بِهَا .

وَيَنْقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٥٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبِيًّا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٥٣﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۖ أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٥٤﴾

لَمَّا يَسَّ نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٌ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ لَهُ ، قَالَ يَا قَوْمِ : ﴿ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ ﴾ أَيُّ : طَرِيقَتِكُمْ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ﴿ إِنِّي عَمِلْتُ ﴾ عَلَى طَرِيقَتِي ف ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ﴾ أَيُّ : مِنِّي وَمِنْكُمْ ﴿ وَارْتَقِبُوا ﴾ أَيُّ : انْتَظِرُوا ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبِيًّا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ وَهُمْ قَوْمُهُ ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾ أَيُّ : هَامِدِينَ لَا حَرَكَ لَهُمْ ، وَذَكَرَ هَاهُنَا أَنَّهُ أَتَتْهُمْ صَيْحَةٌ ، وَفِي الْأَعْرَافِ : رَجْفَةٌ ، وَفِي الشُّعْرَاءِ : عَذَابٌ يَوْمَ الظَّلَّةِ ، وَهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ

اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ عَذَابِهِمْ هَذِهِ النَّقْمُ كُلُّهَا ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ فِي كُلِّ سِيَاقٍ مَا يُنَاسِبُهُ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أَيُّ : يَعِيشُوا فِي دَارِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴿ أَلَا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ ،
 وَكَانُوا جِيرَانَهُمْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي الدَّارِ ، وَشَبَّهَ بِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَقَطَعَ الطَّرِيقَ ، وَكَانُوا عَرَبًا مِثْلَهُمْ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠٠﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ
 فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٠١﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ
 الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿١٠٢﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِرْسَالِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِآيَاتِهِ وَدَلَالَاتِهِ الْبَاهِرَةِ الْقَاطِعَةِ ، إِلَى فِرْعَوْنَ -
 لَعْنَةُ اللَّهِ - وَهُوَ مَلِكُ دِيَارِ مِصْرَ عَلَى أُمَّةِ الْقَبْطِ وَمَلَكِهِ ﴿ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيُّ : مِنْهُجُهُ
 وَمَسْلَكَهُ وَطَرِيقَتَهُ فِي الْغَيِّ ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ فِيهِ رُشْدٌ وَلَا هُدًى ، وَإِنَّمَا هُوَ
 جَهْلٌ وَضَلَالٌ وَكُفْرٌ وَعِنَادٌ ، وَكَمَا أَنَّهُمْ اتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا وَكَانَ مُقَدِّمُهُمْ وَرَرِيسُهُمْ ، كَذَلِكَ هُوَ
 يَقْدُمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ ، فَأَوْرَدَهُمْ إِيَّاهَا وَشَرَّبُوا مِنْ حِيَاضِ رَدَاهَا ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ
 الْحِظُّ الْأَوْفَرُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : اتَّبَعْنَاهُمْ زِيَادَةً عَلَى عَذَابِ النَّارِ
 لَعْنَةً فِي الدُّنْيَا ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : لَعْنَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٤﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ
 ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ
 أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ ﴿١٠٥﴾

لَمَّا ذُكِرَ تَعَالَى خَبَرُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا جَرَى هُمْ مَعَ أَمْحِهِمْ ، وَكَيْفَ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ
 قَالَ : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى ﴾ أَيُّ : أَخْبَارُهُمْ ﴿ نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ ﴾ أَيُّ : عَامِرٌ
 ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ أَيُّ : هَالِكٌ دَائِرٌ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أَيُّ : إِذْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾
 بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا وَكُفْرِهِمْ بِهِمْ ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا وَيَدْعُونَهَا ﴾ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴿ مَا نَفَعُوهُمْ وَلَا أَنْقَذُوهُمْ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ بِإِهْلَاكِهِمْ ﴾ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ
 أَيُّ : غَيْرَ تَحْسِيرٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ إِنَّمَا كَانَ بِاتِّبَاعِهِمْ تِلْكَ الْأَلِهَةَ وَعِبَادَتِهِمْ
 إِيَّاهَا ، فَبِهَذَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ وَخَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا أَهْلَكْنَا أَوْلِيَّكَ الْقُرُونِ الظَّالِمَةَ الْمَكْذِبَةَ لِرُسُلِنَا ، كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِأَسْبَاطِهِمْ ﴿ إِنَّ أَخَذَهُ أَليْمٌ شَدِيدٌ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَليْمٌ شَدِيدٌ ﴾ الْآيَةَ .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ فِي إِهْلَاكِنَا الْكَافِرِينَ وَإِنْبَاءِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿ لَآيَةً ﴾ أَيُّ : عِظَةٌ وَاعْتِبَارًا عَلَى صِدْقِ مَوْعُودِنَا فِي الْآخِرَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ﴾ أَيُّ : أَوْهَمٌ وَآخِرُهُمْ ، ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أَيُّ : عَظِيمٌ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَيَجْتَمِعُ فِيهِ الرُّسُلُ ، وَتُحْشَرُ الْخَلَائِقُ بِأَسْرِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالطَّيْرِ وَالْوُحُوشِ وَالْدَّوَابِّ ، وَيَحْكُمُ فِيهِ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنَّ تَأْكِدَ حَسَنَةِ يَضَاعِفُهَا . ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أَيُّ : مَا نُؤَخِّرُ إِقَامَةَ الْقِيَامَةِ إِلَّا لِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ فِي وُجُودِ أَنْاسٍ مَّعْدُودِينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ ، وَضَرَبَ مِدَّةَ مُعَيَّنَةٍ إِذَا انْقَطَعَتْ وَتَكَامَلَ وُجُودُ أَوْلِيَّكَ الْمُقَدَّرِ خُرُوجَهُمْ قَامَتِ السَّاعَةُ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أَيُّ : لِمُدَّةٍ مُؤَقَّتَةٍ لَا يَزَادُ عَلَيْهَا وَلَا يُنْقُصُ مِنْهَا ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أَيُّ : فَمِنْ أَهْلِ الْجَمْعِ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى : ٧] . ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ وَحَالَ السَّعْدَاءِ فَقَالَ :

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ ﴿ خَلِيدِينَ ﴾ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ ﴾ أَيُّ : تَنَفَّسُهُمْ زَفِيرٌ ، وَأَخْذُهُمُ النَّفْسَ شَهيقٌ ، لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ . ﴿ خَلِيدِينَ ﴾ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴿ قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ : مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَصِفَ الشَّيْءَ بِالدَّوَامِ أَبَدًا ، قَالَتْ : هَذَا دَائِمٌ دَوَامَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْتُ : وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِ﴿ مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ الْجَنَسَ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ فِي عَالَمِ الْآخِرَةِ مِنْ سَمَاوَاتٍ وَأَرْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] ، وَهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ﴿ مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ يَقُولُ

سَمَاءٌ غَيْرُ هَذِهِ السَّمَاءِ ، وَأَرْضٌ غَيْرُ هَذِهِ فَمَا دَامَتْ تِلْكَ السَّمَاءُ وَتِلْكَ الْأَرْضُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ النَّارُ مَثْوًى لَّكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿ [الأنعام : ١٢٨] ، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ مِنْ هَذَا الْإِسْتِثْنَاءِ عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ عَائِدٌ عَلَى الْعَصَاةِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ ، يَمُنُّ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، حَتَّى يَشْفَعُوا فِي أَصْحَابِ الْكِبَايِرِ ثُمَّ تَأْتِي رَحْمَةُ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ فَتُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، وَقَالَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُودٍ ﴾ (١٨)

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ﴾ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ ﴿ فِي الْجَنَّةِ ﴾ أَيُّ : فَمَا وَهُمْ الْجَنَّةُ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيُّ : مَا كَانُوا فِيهَا أَبَدًا ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ مَعْنَى الْإِسْتِثْنَاءِ هَهُنَا : أَنَّ دَوَامَهُمْ فِيهَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ لَيْسَ أَمْرًا وَاجِبًا بِذَاتِهِ ، بَلْ هُوَ مَوْكُولٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَهُ الْمِنَّةُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا ، وَلِهَذَا « يُلْهِمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهِمُونَ النَّفْسَ » . وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : هِيَ فِي حَقِّ عَصَاةِ الْمُؤَحِّدِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّارِ ثُمَّ أُخْرِجُوا مِنْهَا ، وَعَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُودٍ ﴾ أَيُّ : غَيْرُ مَقْطُوعٍ .

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَنقُوصٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لِيُوفِّيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ الْمُشْرِكُونَ ، إِنَّهُ بَاطِلٌ وَجَهْلٌ وَضَلَالٌ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ، أَيُّ لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِيهِ إِلَّا اتِّبَاعُ الْأَبَاءِ فِي الْجَهْلَالِ ، وَسَيَجْزِيهِمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ ، فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا ، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ حَسَنَاتٌ فَقَدْ وَفَّاهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ آتَى مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ ، فَمِنْ مُؤْمِنٍ بِهِ وَمِنْ كَافِرٍ بِهِ ، فَلَكَ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ أُسْوَةٌ ، فَلَا يَغِيظُكَ تَكْذِيبُهُمْ لَكَ وَلَا يَهْمُكَ ذَلِكَ

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَأْجِيلِهِ الْعَذَابَ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ لَقُضِيَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْكَلِمَةِ : أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِزْسَالِ الرُّسُولِ إِلَيْهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الْكَافِرِينَ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُولُ قَوِيٌّ فَقَالَ : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ سَيَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ الْأُمَمِ وَيَجْزِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا وَإِنْ شَرًّا فَسَرٌّ ، فَقَالَ : ﴿ وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيُّ : عَلِيمٌ بِأَعْمَالِهِمْ جَمِيعًا جَلِيلُهَا وَحَقِيرُهَا ، صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا .

فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١٣١﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّبَاتِ وَالِدَّوَامِ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَمُخَالَفَةِ الْأَضْدَادِ وَهَيْ عَنِ الطُّغْيَانِ ، وَهُوَ الْبُغْيُ فَإِنَّهُ مَضْرَعَةٌ حَتَّى وَلَوْ كَانَ عَلَى مُشْرِكٍ ، وَأَعْلَمَ تَعَالَى أَنَّهُ بَصِيرٌ بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ ، فَلَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قِيلَ : لَا تُدَاهِنُوا ، وَقِيلَ : هُوَ الرُّكُودُ إِلَى الشَّرِّ ، وَقِيلَ : لَا تَرْضُوا بِأَعْمَالِهِمْ ، وَقِيلَ : وَلَا تَمِيلُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَهَذَا الْقَوْلُ حَسَنٌ ، أَيُّ : لَا تَسْتَعِينُوا بِالظُّلْمَةِ فَتَكُونُوا كَأَنْتُمْ قَدْ رَضِيتُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ يُنْقِذْكُمْ ، وَلَا نَاصِرٍ يُخَلِّصْكُمْ مِنْ عَذَابِهِ .

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١٣٢﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : الصُّبْحُ وَالْمَغْرِبُ ، وَقِيلَ : هِيَ الصُّبْحُ وَالْعَصْرُ ، وَقِيلَ : هِيَ الصُّبْحُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ ، وَالظُّهْرُ وَالْعَصْرُ مِنْ آخِرِهِ ﴿ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي صَلَاةَ الْعِشَاءِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّهَا صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ قَبْلَ فَرَضِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَجِبُ مِنَ الصَّلَاةِ صَلَاتَانِ ، صَلَاةً قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةً قَبْلَ غُرُوبِهَا . ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ يَقُولُ : إِنَّ فِعْلَ الْحَيْرَاتِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ السَّالِفَةَ .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا

مِمَّنْ أَهَجَيْنَا مِنْهُمْ ۖ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْطَحُونَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ: فَهَلَّا وُجِدَ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ يَنْهَوْنَ عَمَّا كَانَ يَقَعُ بَيْنَهُمْ مِنَ الشَّرِّ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيُّ: قَدْ وُجِدَ مِنْهُمْ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ قَلِيلٌ لَمْ يَكُونُوا كَثِيرًا، وَهُمْ الَّذِينَ أَنْجَاهُمُ اللَّهُ عِنْدَ حُلُولِ غَضَبِهِ وَفَجَاءَ نِقْمَتِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أَيُّ: اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَىٰ إِنْكَارِ أَوْلِيكَ حَتَّىٰ فَجَّاهُمُ الْعَذَابُ ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَهْلِكْ قَرْيَةً إِلَّا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا، وَلَمْ يَأْتِ قَرْيَةً مُصْلِحَةً بِأُسْرِ وَعَذَابِهِ قَطُّ حَتَّىٰ يَكُونُوا هُمُ الظَّالِمِينَ.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿٣٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ جَعْلِ النَّاسِ كُلِّهِمْ أُمَّةً وَاحِدَةً مِنْ إِيْمَانٍ أَوْ كُفْرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أَيُّ: وَلَا يَزَالُ الْخُلْفُ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَدْيَانِهِمْ وَاعْتِقَادَاتِ مِلَلِهِمْ وَنَحْلِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَآرَائِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ أَيُّ: إِلَّا الْمُرْحُومِينَ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ، الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الَّذِينَ أَخْبَرْتَهُمْ بِهِ رُسُلُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِبُهُمْ حَتَّىٰ كَانَ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ، خَاتَمَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، فَاتَّبَعُوهُ وَصَدَّقُوهُ وَوَارَزُّوهُ فَفَارَزُوا بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَّةُ، قَالَ عَطَاءٌ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يَعْنِي الْحَنَفِيَّةَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أَهْلُ رَحْمَةِ اللَّهِ أَهْلُ الْجَمَاعَةِ، وَإِنْ تَفَرَّقَتْ دِيَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ، وَأَهْلُ مَعْصِيَتِهِ أَهْلُ فُرْقَةٍ وَإِنْ اجْتَمَعَتْ دِيَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ. ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قِيلَ: وَلِلاِخْتِلَافِ خَلْقَهُمْ، وَقِيلَ: خَلَقَهُمْ فَرِيقَيْنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، وَقِيلَ: لِلرَّحْمَةِ خَلَقَهُمْ وَلَمْ يَخْلُقْهُمْ لِلْعَذَابِ، وَيَرْجِعُ مَعْنَىٰ هَذَا الْقَوْلِ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَقِيلَ: بَلِ الْمُرَادُ وَلِلرَّحْمَةِ وَالِاخْتِلَافِ خَلْقَهُمْ.

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ قَالَ: النَّاسُ مُخْتَلِفُونَ عَلَىٰ أَدْيَانٍ شَتَّىٰ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ فَمَنْ رَحِمَ رَبُّكَ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ، فَقِيلَ لَهُ: فَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ، قَالَ: خَلَقَ هَؤُلَاءِ لِحَبَّتِهِ، وَخَلَقَ هَؤُلَاءِ لِنَارِهِ، وَخَلَقَ هَؤُلَاءِ لِرَحْمَتِهِ، وَخَلَقَ هَؤُلَاءِ لِعَذَابِهِ، وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَأَلْتُ مَالِكًا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ قَالَ: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ - لِعِلْمِهِ التَّامِّ وَحِكْمَتِهِ النَّافِذَةِ - أَنَّ
مَنْ خَلَقَهُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْجَنَّةَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّارَ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمْلَأَ جَهَنَّمَ مِنْ هَذَيْنِ
الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ .

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكُلُّ أَخْبَارٍ نَقُصُّهَا عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ قَبْلِكَ مَعَ أُمَمِهِمْ ، وَكَيْفَ
جَرَى لَهُمْ مِنَ الْمَحَاجَاتِ وَالْحُصُومَاتِ ، وَمَا اخْتَمَلَهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْأَذَى ، وَكَيْفَ
نَصَرَ اللَّهُ حِزْبَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَذَلَ أَعْدَاءَهُ الْكَافِرِينَ ، كُلُّ هَذَا يَمَّا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، أَيُّ : قَلْبَكَ يَا
مُحَمَّدُ لِيَكُونَ لَكَ بِمَنْ مَضَى مِنْ إِخْوَانِكَ الْمُرْسَلِينَ أُسْوَةٌ . ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ
السُّورَةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَكَيْفَ أَنْجَاهُمُ اللَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ وَأَهْلَكَ الْكَافِرِينَ ،
جَاءَكَ فِيهَا قِصَصُ حَقٍّ وَبَيِّنٌ صِدْقٍ ، وَمَوْعِظَةٌ يَرْتَدِّعُ بِهَا الْكَافِرُونَ وَذِكْرٌ يَتَذَكَّرُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ .

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٣٢﴾ وَأَنْتُمْ نَظَرُوا إِنَّا مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٣﴾
يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا رَسُولُهُ أَنْ يَقُولَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ
﴿ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أَيُّ : عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَمَنْهَجِكُمْ ﴿ إِنَّا عَمِلُونَ ﴾ أَيُّ : عَلَى طَرِيقَتِنَا وَمَنْهَجِنَا
﴿ وَأَنْتُمْ نَظَرُوا إِنَّا مُنْتَظَرُونَ ﴾ أَيُّ : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٥] ، وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَهُ وَأَيَّدَهُ وَجَعَلَ كَلِمَتَهُ هِيَ
الْعُلْيَا ، وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا
رُبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبُ ، وَسَيُؤْتِي كُلَّ عَامِلٍ
عَمَلَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ ، فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ؛ فَأَمَرَ تَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ
عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ يُخْفَى عَلَيْهِ مَا عَلَيْهِ
مُكَذَّبُوكَ يَا مُحَمَّدُ ، بَلْ هُوَ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَنْتُمْ الْجَزَاءُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ، وَسَيَنْصُرُكَ وَحِزْبَكَ عَلَيْهِمْ فِي الدَّارَيْنِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ هُودٍ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ

آياتها ١١١ تفسير سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ : وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ ، أَيُّ : الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ الَّذِي يُفْصِحُ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمُبْهَمَةِ وَيُفَسِّرُهَا وَيُبَيِّنُهَا . ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَبْيَنُهَا ، وَأَوْسَعُهَا وَأَكْثَرُهَا تَأْدِيَةً لِلْمَعَانِي الَّتِي تُقَوْمُ بِالنَّفُوسِ ، فَلِهَذَا أَنْزَلَ أَشْرَفَ الْكِتَابِ بِأَشْرَفِ اللُّغَاتِ عَلَى أَشْرَفِ الرُّسُلِ ، بِسَفَارَةِ أَشْرَفِ الْمَلَائِكَةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَشْرَفِ بَقَاعِ الْأَرْضِ ، وَابْتَدَأَ أَنْزَالَهُ فِي أَشْرَفِ شُهُورِ السَّنَةِ وَهُوَ رَمَضَانُ ، فَكَمُلَ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ ، وَلهَذَا قَالَ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ بِسَبَبِ إِيجَائِنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ .

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : اذْكُرْ لِقَوْمَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي قَصَصِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ، وَأَبُوهُ هُوَ : يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا وَرَدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ » . وَقَدْ تَكَلَّمَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى تَعْيِيرِ هَذَا الْمَنَامِ أَنَّ الْأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا عِبَارَةٌ عَنْ إِخْوَتِهِ ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا سِوَاهُ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ عِبَارَةٌ عَنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ .

قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ لِابْنِهِ يُوسُفَ حِينَ قَصَّ عَلَيْهِ مَا رَأَى مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا الَّتِي تَعْبِيرُهَا خُصُوعُ إِخْوَتِهِ لَهُ ، وَتَعْظِيمُهُمْ إِيَّاهُ تَعْظِيمًا زَائِدًا ، بِحَيْثُ يَخْرُونَ لَهُ سَاجِدِينَ إِجْلَالًا

وَاحْتِرَامًا وَإِكْرَامًا ، فَخَشِيَ يَعْقُوبُ عليه السلام أَنْ يُحَدِّثَ بِهَذَا الْمَنَامِ أَحَدًا مِنْ إِخْوَتِهِ فَيَحْسُدُونَهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَيَنْغُون لَهُ الْغَوَائِلَ حَسَدًا مِنْهُمْ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ : ﴿ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أَيُّ : يَحْتَالُوا لَكَ حِيلَةً يُرْدُونَكَ فِيهَا .

وَكَذَلِكَ مَجْتَبِيلُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾

وَيَقُولُ تَعَالَىٰ مُخِيرًا عَنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ لَوْلَدِهِ يُوسُفَ إِنَّهُ كَمَا اخْتَارَكَ رَبُّكَ وَأَرَاكَ هَذِهِ الْكَوَاكِبَ مَعَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ سَاجِدَةً لَكَ ﴿ وَكَذَلِكَ مَجْتَبِيلُكَ رَبُّكَ ﴾ أَيُّ : يَحْتَارُكَ وَيَصْطَفِيكَ لِنُبُوَّتِهِ ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَغْنِي تَغْيِيرَ الرُّؤْيَا ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أَيُّ : يَأْزِمُكَ وَالْإِيحَاءَ إِلَيْكَ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وَهُوَ الْحَلِيلُ ﴿ وَإِسْحَاقَ ﴾ وَلَدُهُ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْبَانًا مِنَّا وَخَنَّ عَصَبَهُ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَقَدْ كَانَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَخَبْرِهِ مَعَ إِخْوَتِهِ آيَاتٌ أَيُّ : عِبْرَةٌ وَمَوَاعِظٌ لِلْسَّائِلِينَ عَنْ ذَلِكَ الْمُسْتَخِيرِينَ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ خَبَرٌ عَجِيبٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُخْبَرَ عَنْهُ ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْبَانًا مِنَّا ﴾ أَيُّ : حَلَفُوا فِيهَا يَطْنُونَ : وَاللَّهُ لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ - يَعْنُونَ بَنِيَامِينَ وَكَانَ شَقِيقَهُ لِأُمِّهِ - ﴿ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْبَانًا مِنَّا وَخَنَّ عَصَبَهُ ﴾ أَيُّ : جَمَاعَةً ، فَكَيْفَ أَحَبَّ ذَيْنِكَ الْإِثْنَيْنِ أَكْثَرَ مِنَ الْجَمَاعَةِ ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ يَعْنُونَ فِي تَقْدِيمِهَا عَلَيْنَا وَمَحَبَّتِهِ إِيَّاهُمَا أَكْثَرَ مِنَّا . ﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ ﴾ يَقُولُونَ : هَذَا الَّذِي يُزَاحِمُكُمْ فِي حُبِّهِ أَبِيكُمْ لَكُمْ ، أَعْدِمُوهُ مِنْ وَجْهِ أَبِيكُمْ ؛ لِيَخْلُوَ لَكُمْ وَحْدَكُمْ ، إِمَّا بِأَنْ تَقْتُلُوهُ أَوْ تُلْقُوهُ فِي أَرْضٍ مِنَ الْأَرْضِ ، تَسْتَرْجِحُوا مِنْهُ وَتَخْلُوا أَنْتُمْ بِأَبْيَكُمْ ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ فَأَضْمَرُوا التَّوْبَةَ قَبْلَ الذَّنْبِ ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ أَيُّ : لَا تَصْلُوا فِي عِدَاوَتِهِ وَبُغْضِهِ إِلَى قَتْلِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُمْ سَبِيلٌ إِلَى قَتْلِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ يُرِيدُ مِنْهُ أَمْرًا لَا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهِ وَإِتْمَامِهِ مِنَ الْإِيحَاءِ إِلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ ، وَمِنَ التَّمَكِينِ لَهُ بِبِلَادِ مِصْرَ وَالْحُكْمِ بِهَا ، فَصَرَفَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ بِمَقَالَةِ رُوبِيلَ فِيهِ ، وَإِشَارَتِهِ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يُلْقُوهُ فِي

عَيَابَةِ الْجُبِّ : وَهُوَ أَسْفَلُهُ . ﴿ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أَي : الْمَارَّةُ مِنَ الْمَسَافِرِينَ ، فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ بِهَذَا وَلَا حَاجَةَ إِلَى قِتْلِهِ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلَيْنِ ﴾ أَي : إِنْ كُنْتُمْ عَازِمِينَ عَلَى مَا تَقُولُونَ .

قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ ﴿١٥﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٦﴾

لَمَّا تَوَاطَّأُوا عَلَى أَخْذِهِ وَطَرَحِهِ فِي الْبَيْتِ - كَمَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَخُوهُمْ الْكَبِيرُ رُوْبِيلُ - جَاءُوا أَبَاهُمْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالُوا : ﴿ يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ ﴾ وَهَذِهِ تَوَاطُّؤُهُ وَدَعْوَى وَهُمْ يُرِيدُونَ خِلَافَ ذَلِكَ لِمَا لَهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ لِحُبِّ أَبِيهِ لَهُ ﴿ أَرْسَلَهُ مَعَنَا ﴾ أَي : ابْنَعْتُهُ مَعَنَا ﴿ غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَسْعَى وَيَنْشِطُ ، ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ يَقُولُونَ : وَنَحْنُ نَحْفَظُهُ وَنَحُوطُهُ مِنْ أَجْلِكَ .

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحْزِرًا عَنْ نَبِيِّهِ يَعْقُوبَ إِنَّهُ قَالَ لِنَبِيِّهِ فِي جَوَابِ مَا سَأَلُوا مِنْ إِزْسَالِ يُوسُفَ مَعَهُمْ إِلَى الرَّعْيِ فِي الصَّحَرَاءِ : ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ أَي : يَشُقُّ عَلَيَّ مُفَارَقَتُهُ مُدَّةَ ذَهَابِكُمْ بِهِ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ ، وَذَلِكَ لِفَرْطِ مَحَبَّتِهِ لَهُ لِمَا يَتَوَسَّمُ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ وَسَمَائِلِ النُّبُوَّةِ ، وَالْكَمَالِ فِي الْخَلْقِ وَالْخَلْقِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ . ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ يَقُولُ : وَأَخْشَى أَنْ تَشْتَغِلُوا عَنْهُ بِرَمِيكُمْ وَرَعِيكُمْ ، فَيَأْتِيَهُ ذَنْبٌ فَيَأْكُلَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ، فَأَخْذُوا مِنْ فَمِهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَجَعَلُوهَا عُذْرَهُمْ فِيمَا فَعَلُوهُ ، وَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ عَنْهَا فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ : ﴿ لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ عَدَا عَلَيْهِ الذِّئْبُ فَأَكَلَهُ بَيْنَنَا وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ إِنَّا إِذَا لَهَالِكُونَ عَاجِزُونَ .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَلَمَّا ذَهَبَ بِهِ إِخْوَتُهُ مِنْ عِنْدِ أَبِيهِ بَعْدَ مُرَاجَعَتِهِمْ لَهُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ﴾ هَذَا فِيهِ تَعْظِيمٌ لِمَا فَعَلُوهُ ، أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى الْفَاقَةِ فِي أَسْفَلِ ذَلِكَ الْجُبِّ ، وَقَدْ أَخَذُوهُ مِنْ عِنْدِ أَبِيهِ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ لَهُ إِكْرَامًا لَهُ وَبَسْطًا وَشَرَحًا لِبَصْدَرِهِ وَإِدْخَالًا لِلشَّرُورِ عَلَيْهِ ، فَيُقَالُ إِنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بَعَثَهُ مَعَهُمْ صَمَّهُ إِلَيْهِ وَقَبَّلَهُ وَدَعَا لَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

لَتَنْبِتَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذَاكِرًا لَطْفَهُ وَرَحْمَتَهُ وَعَائِدَتَهُ ، ثُمَّ إِنْزَالَهُ الْيُسْرَ فِي حَالِ الْعُسْرِ ، أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى يُوسُفَ فِي ذَلِكَ الْحَالِ الضِّيقِ تَطْيِيبًا لِقَلْبِهِ وَتَثْيِيتًا لَهُ : إِنَّكَ لَا تَحْزَنُ بِمَا أَنْتَ فِيهِ ؛ فَإِنَّ لَكَ مِنْ ذَلِكَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا حَسَنًا ، وَسَيَنْصُرُكَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَيُعْلِيكَ وَيَرْفَعُ دَرَجَتَكَ ، وَسَتُخْبِرُهُمْ بِمَا فَعَلُوا مَعَكَ مِنْ هَذَا الصَّنِيعِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قِيلَ : بِإِيجَاءِ اللَّهِ إِلَيْهِ ، وَقِيلَ : سَتَنْبِتُهُمْ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا فِي حَقِّكَ ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَكَ وَلَا يَسْتَشْعِرُونَ بِكَ .

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿٦٢﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الَّذِي اعْتَمَدَهُ إِخْوَةُ يُوسُفَ بَعْدَمَا أَلْقَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى آبِيهِمْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَبْكُونَ ، وَمُظْهِرُونَ الْأَسْفَ وَالْجَزَعَ عَلَى يُوسُفَ ، وَيَتَعَمَّمُونَ لِأَبِيهِمْ ، وَقَالُوا مُعْتَذِرِينَ عَمَّا وَقَعَ فِيهَا رَعَمُوا : ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أَيُّ : نَتَرَامِي ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا ﴾ أَيُّ : ثِيَابَنَا وَأَمْتِعَتَنَا ﴿ فَاكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وَهُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ جَزَعَ مِنْهُ وَحَذَرَ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُمْ : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ تَلَطَّفُ عَظِيمٌ فِي تَقْرِيرِ مَا يُحَاوِلُونَهُ ، يَقُولُونَ : وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَصَدِّقُنَا وَالحَالَةُ هَذِهِ لَوْ كُنَّا عِنْدَكَ صَادِقِينَ ، فَكَيْفَ وَأَنْتَ تَتَّهِمُنَا فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّكَ خَشِيتَ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ فَاكَلَهُ الذِّئْبُ ، فَأَنْتَ مَعذُورٌ فِي تَكْذِيبِكَ لَنَا ، لِعَرَابَةِ مَا وَقَعَ وَعَجِيبِ مَا اتَّفَقَ لَنَا فِي أَمْرِنَا هَذَا . ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أَيُّ : مَكْذُوبٌ مُفْتَرًى ، وَهَذَا مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي يُؤَكِّدُونَ بِهَا مَا تَمَالَّثُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَكِيدَةِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى سَخْلَةٍ فِيهَا ذَكَرُهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، فَذَبَحُوهَا وَلَطَّخُوا ثَوْبَ يُوسُفَ بِدَمِهَا ، مُوْهِمِينَ أَنَّ هَذَا قَمِيصُهُ الَّذِي أَكَلَهُ فِيهِ الذِّئْبُ ، وَقَدْ أَصَابَهُ مِنْ دَمِهِ وَلَكِنَّهُمْ نَسُوا أَنْ يَحْرِقُوهُ ، فَلِهَذَا لَمْ يُرَجَّ هَذَا الصَّنِيعُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ يَعْقُوبَ . بَلْ قَالَ لَهُمْ مُعْرِضًا عَنْ كَلَامِهِمْ إِلَى مَا وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ لَبْسِهِمْ عَلَيْهِ ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أَيُّ : فَسَأَصْبِرُ صَبْرًا جَمِيلًا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي اتَّفَقْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُفَرِّجَهُ اللَّهُ بِعَوْنِهِ وَلَطْفِهِ ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أَيُّ : عَلَى مَا تَذْكُرُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْمَحَالِ ، وَقِيلَ : الصَّبْرُ الْجَمِيلُ الَّذِي لَا جَزَعَ فِيهِ .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٩﴾

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا أَلْقَاهُ إِخْوَتُهُ جَلَسُوا حَوْلَ الْبَيْتِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، يَنْظُرُونَ مَاذَا يَصْنَعُ وَمَا يَصْنَعُ بِهِ، فَسَاقَ اللَّهُ لَهُ سَيَّارَةً فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ تِلْكَ الْبَيْتِ، وَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ، وَهُوَ الَّذِي يَتَطَلَّبُ لَهُمُ الْمَاءَ، فَلَمَّا جَاءَ ذَلِكَ الْبَيْتَ وَأَدْلَى بَدْلُوهُ فِيهَا تَشَبَّثَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا، فَأَخْرَجَهُ وَاسْتَبَشَّرَ بِهِ وَقَالَ: ﴿يَبْشُرِي هَذَا غُلْمٌ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً﴾ أَيُّ: وَأَسْرَهُ الْوَارِدُونَ مِنْ بَقِيَّةِ السَّيَّارَةِ، وَقَالُوا: إِشْتَرَيْنَاهُ وَتَبَضَّعْنَاهُ مِنْ أَصْحَابِ الْمَاءِ مَخَافَةَ أَنْ يُشَارِكُوهُمْ فِيهِ إِذَا عَلِمُوا خَبْرَهُ. وَقِيلَ: ﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً﴾ يَعْنِي: إِخْوَهُ يُوسُفَ أَسْرُوا شَأْنَهُ، وَكَتَمُوا أَنْ يَكُونَ أَخَاهُمْ، وَكَتَمَ يُوسُفُ شَأْنَهُ مَخَافَةَ أَنْ يَقْتُلَهُ إِخْوَتُهُ، وَاخْتَارَ الْبَيْعَ فَذَكَرَهُ إِخْوَتُهُ لَوَارِدِ الْقَوْمِ، فَنَادَى أَصْحَابَهُ ﴿يَبْشُرِي هَذَا غُلْمٌ﴾ يُبَاعُ فَبَاعَهُ إِخْوَتُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُهُ إِخْوَةُ يُوسُفَ وَمُشْتَرُوهُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِ ذَلِكَ وَدَفْعِهِ، وَلَكِنْ لَهُ حِكْمَةٌ وَقَدَّرَ سَابِقٌ، فَتَرَكَ ذَلِكَ لِيَمْضِيَ مَا قَدَرَهُ وَقَضَاهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَبَاعَهُ إِخْوَتُهُ بِثَمَنٍ قَلِيلٍ، وَالْبَخْسُ: هُوَ النِّقْصُ؛ أَيُّ: اِعْتَاَضَ عَنْهُ إِخْوَتُهُ بِثَمَنٍ دُونَ قَلِيلٍ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ، أَيُّ: لَيْسَ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِيهِ بَلْ لَوْ سُئِلُوهُ بِلَا شَيْءٍ لَأَجَابُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾. وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا نُبُوَّتَهُ وَمَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِالطَّافَةِ بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَبِضَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ، حَتَّى اِعْتَنَى بِهِ وَأَكْرَمَهُ وَأَوْصَى أَهْلَهُ بِهِ وَتَوَسَّعَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالصَّلَاحَ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وَكَانَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ عَزِيزُهَا، وَهُوَ الْوَزِيرُ بِهَا. يَقُولُ تَعَالَى: كَمَا أَنْقَذَنَا يُوسُفَ مِنْ إِخْوَتِهِ ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: بِإِلَادِ مِصْرَ ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قِيلَ: هُوَ تَغْيِيرُ الرُّؤْيَا ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أَيُّ: إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَلَا يُرَدُّ، وَلَا

يُمَاعَ ، وَلَا يُخَالَفَ ، بَلْ هُوَ الْعَالِبُ لِمَا سِوَاهُ . قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ : أَيُّ : فَعَالٌ لِمَا يَشَاءُ . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يَقُولُ : لَا يَذَرُونَ حِكْمَتَهُ فِي خَلْقِهِ وَتَلَطُّفِهِ وَفِعْلِهِ لِمَا يُرِيدُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ ﴾ أَيُّ : يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ أَشَدَّهُ ﴾ أَيُّ : اسْتَكْمَلَ عَقْلَهُ وَتَمَّ خَلْقَهُ ﴿ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ يَعْنِي : النَّبُوَّةَ أَنَّهُ حَبَّاهُ بِهَا بَيْنَ أَوْلِيكَ الْأَقْوَامِ ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيُّ : أَنَّهُ كَانَ مُحْسِنًا فِي عَمَلِهِ عَامِلًا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَرَأَوْدَتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ . وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ الَّتِي كَانَ يُوسُفُ فِي بَيْتِهَا بِمَضَرٍ ، وَقَدْ أَوْصَاهَا زَوْجُهَا بِهِ وَبِإِكْرَامِهِ فَرَأَوْدَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، أَيُّ : حَاوَلَتْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَدَعَتْهُ إِلَيْهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهَا أَحَبَّتَهُ حُبًّا شَدِيدًا لِجَمَالِهِ وَحُسْنِهِ وَبِهَائِهِ ، فَحَمَلَهَا ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَجَمَلَتْ لَهُ وَعَلَقَتْ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ وَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ فَاغْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِمْتِنَاعِ وَ ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ ، وَكَانُوا يُطْلِقُونَ الرَّبَّ عَلَى السَّيِّدِ الْكَبِيرِ ، أَيُّ : إِنَّ بَعْلَكَ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، أَيُّ : مَنَزَلِي ، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ فَلَا أَقَابِلُهُ بِالْفَاحِشَةِ فِي أَهْلِهِ ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ . وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ . كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٣﴾

اِخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ النَّاسِ وَعِبَارَاتُهُمْ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ الْمُرَادُ بِهِمْ بِهَا : خَطَرَاتُ حَدِيثِ النَّفْسِ ، وَقِيلَ : هَمَّ بِضَرْبِهَا ، وَقِيلَ : تَمَنَّاها زَوْجَةً ، وَأَمَّا الْبُرْهَانُ الَّذِي رَأَاهُ فَفِيهِ أَقْوَالٌ أَيْضًا ، فَقَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : رَأَى صُورَةَ أَبِيهِ يَعْقُوبَ عَاصًا عَلَى أَصْبُعِهِ بِفَمِهِ ، وَقِيلَ : رَأَى خَيَالَ الْمَلِكِ . يَعْنِي : سَيِّدَهُ ، وَقِيلَ : رَفَعَ يُوسُفُ رَأْسَهُ إِلَى سَفْفِ الْبَيْتِ إِذَا كِتَابٌ فِي حَائِطِ الْبَيْتِ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى ﴾ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿ [الإسراء: ٣٢] . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ رَأَى آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَزَجُّرُهُ عَمَّا كَانَ هَمَّ بِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ أَيُّ : كَمَا أَرَيْنَاهُ بُرْهَانًا صَرَفَهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ ، كَذَلِكَ نَقِيهِ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْمُجْتَبِينَ الْمُطَهَّرِينَ الْمُخْتَارِينَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارَ ﷺ .

وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ

أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي^ط وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ^ط إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٩﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا^ط وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ^ط إِنَّكِ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمَا حِينَ خَرَجَا يَسْتَبِقَانِ إِلَى الْبَابِ ، يُوسُفُ هَارِبٌ وَالْمَرْأَةُ تَطْلُبُهُ لِيَرْجِعَ إِلَى الْبَيْتِ ، فَلِحَقَّتْهُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ فَأُمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ ، فَقَدَّتْهُ قَدًّا فَطِيعًا ، يُقَالُ إِنَّهُ سَقَطَ عَنْهُ ، وَاسْتَمَرَّ يُوسُفُ هَارِبًا ذَاهِبًا وَهِيَ فِي إِثْرِهِ ، فَأَلْفَيَا سَيْدَهَا وَهُوَ زَوْجُهَا عِنْدَ الْبَابِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَتْ بِمَا هِيَ فِيهِ بِمَكْرِهَا وَكَيْدِهَا ، وَقَالَتْ لِرَوْجِهَا مُتَنَصِّلَةً وَقَافَةً يُوسُفُ بِدَائِهَا ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أَيُ : فَاحِشَةً ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ﴾ أَيُ : يُجْبَسُ ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيُ : يُضْرَبُ ضَرْبًا شَدِيدًا مُوَجِعًا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ انْتَصَرَ يُوسُفُ ﷺ بِالْحَقِّ وَتَبَرَّأَ مِمَّا رَمَتْهُ بِهِ مِنَ الْخِيَانَةِ ، وَ ﴿ قَالَ ﴾ بَارَأَ صَادِقًا ﴿ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ وَذَكَرَ أَنَّهَا اتَّبَعَتْهُ تَجَذُّبُهُ إِلَيْهَا حَتَّى قَدَّتْ قَمِيصَهُ ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبْلِ ﴾ أَيُ : مِنْ قُدَامِهِ ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ هِيَ ، أَيُ : فِي قَوْلِهَا إِنَّهُ رَاودَهَا عَنْ نَفْسِهَا ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ لَمَّا دَعَاهَا وَأَبَتْ عَلَيْهِ دَفَعَتْهُ فِي صَدْرِهِ فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ ، فَيَصِحُّ مَا قَالَتْ ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وَذَلِكَ يَكُونُ كَمَا وَقَعَ لَمَّا هَرَبَ مِنْهَا وَتَطْلُبَتْهُ ، أُمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ لِيَرُدَّهُ إِلَيْهَا ، فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ وَرَائِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ﴾ أَيُ : لَمَّا تَحَقَّقَ زَوْجُهَا صِدْقَ يُوسُفَ وَكَذِبَهَا فِيمَا قَدَفَتْهُ وَرَمَتْهُ بِهِ ﴿ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ أَيُ : إِنَّ هَذَا الْبَهْتُ وَاللَّطُخُ الَّذِي لَطَخْتَ عَرَضَ هَذَا الشَّابِّ بِهِ مِنْ جُمْلَةِ كَيْدِكُنَّ ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ أَمْرًا لِّيُوسُفَ ﷺ بِكَيْتَمَانٍ مَا وَقَعَ ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أَيُ : اضْرِبْ عَنْ هَذَا صَفْحًا ، أَيُ : فَلَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ﴾ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ ، وَقَدْ كَانَ لَيِّنَ الْعَرِيكَ سَهْلًا ، أَوْ أَنَّهُ عَذَّرَهَا لِأَنَّهَا رَأَتْ مَا لَا صَبَرَ لَهَا عَنْهُ ، فَقَالَ لَهَا : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ﴾ أَيُ : الَّذِي وَقَعَ مِنْكَ مِنْ إِرَادَةِ السُّوءِ بِهَذَا الشَّابِّ ، ثُمَّ قَدَفَهُ بِمَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ ﴿ إِنَّكِ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْلَهَا عَنْ نَفْسِهِ^ط قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرُلَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ ٣١ ﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَعًا

وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَمَا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢٠﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٢﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ خَبَرَ يُوسُفَ وَامْرَأَةَ الْعَزِيزِ شَاعَ فِي الْمَدِينَةِ وَهِيَ مِصْرُ ، حَتَّى تَحَدَّثَ بِهِ النَّاسُ ﴿ وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ مِثْلُ نِسَاءِ الْكُفْرَاءِ وَالْأَمْرَاءِ يُنْكِرْنَ عَلَى امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَهُوَ الْوَزِيرُ ، وَيَعْبَنَ ذَلِكَ عَلَيْهَا ﴿ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تَرَاوَدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أَيُّ : تُحَاوِلُ غَلَامَهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَتَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِهَا ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أَيُّ : قَدْ وَصَلَ حُبُّهُ إِلَى شَغَافِ قَلْبِهَا وَهُوَ غِلَافُهُ ، ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيُّ : فِي صَنِيعِهَا هَذَا مِنْ حُبِّهَا فَتَاهَا وَمَرَاوَدَهَا إِيَّاهُ عَنْ نَفْسِهِ ، ﴿ فَمَا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : يَقُولُهُنَّ : ذَهَبَ الْحُبُّ بِهَا ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : بَلْ بَلَغَهُنَّ حُسْنُ يُوسُفَ فَأَحْبَبْنَ أَنْ يَرَيْنَهُ ، فَقُلْنَ ذَلِكَ لِيَتَوَصَّلْنَ إِلَى رُؤْيَيْهِ وَمُشَاهَدَتِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أَيُّ : دَعَتْهُنَّ إِلَى مَنْزِلِهَا لِتُصَيِّفَهُنَّ ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ الْمَجْلِسُ الْمَعْدُ فِيهِ مَقَارِشُ وَنَحَادٌ وَطَعَامٌ ، فِيهِ مَا يَقْطَعُ بِالسَّكَاكِينِ مِنْ أُتْرُجٍ وَنَحْوِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا ﴾ وَكَانَ هَذَا مَكِيدَةً مِنْهَا ، وَمُقَابَلَةً لَهُنَّ فِي إِحْتِيَاجِهِنَّ عَلَى رُؤْيَيْهِ ﴿ وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّمَا كَانَتْ قَدْ خَبَأَتْهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ ﴿ فَمَا ﴾ خَرَجَ وَ ﴿ رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ ﴾ أَيُّ : أَعْظَمْنَهُ ، أَيُّ : أَعْظَمْنَ شَأْنَهُ وَأَجَلَلْنَ قَدْرَهُ ، وَجَعَلْنَ يَقْطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ دَهْشَةً بِرُؤْيَيْهِ ، وَهُنَّ يَظُنُّنَّ أَنَّهُنَّ يَقْطَعْنَ الْأُتْرُجَّ بِالسَّكَاكِينِ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُنَّ حَزَرْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِهَا .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ قَالَ : ((فَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسَيْنِ)) ، فَلهَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ النَّسْوَةُ عِنْدَ رُؤْيَيْهِ : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : مَعَاذَ اللَّهِ ، ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ ((مَا هَذَا بِشَرِّ)) أَيُّ : بِمُشْتَرَى بِشْرَاءٍ ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴿ تَقُولُ هَذَا مُعْتَذِرَةً إِلَيْهِنَّ بِأَنَّ هَذَا حَقِيقٌ أَنْ يُحِبَّ لِحِمَالِهِ وَكَمَالِهِ ﴾ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴿ أَيُّ : فَاِمْتَنَعَ ، قَالَ بَعْضُهُمْ : لَمَّا رَأَيْنَ بَهَائِهِ الظَّاهِرَ أَخْبَرَتْهُنَّ بِصِفَاتِهِ الْحَسَنَةِ الَّتِي تُخْفَى عَنْهُنَّ وَهِيَ : الْعِفَّةُ ، مَعَ هَذَا الْجَمَالِ ، ثُمَّ قَالَتْ تَوَعَّدَهُ : وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَعَاذَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ شَرِّهِنَّ

وَكَيْدِهِنَّ، وَقَالَ: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْفَاحِشَةِ ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَيُّ: إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى نَفْسِي فَلَيْسَ لِي مِنْهَا قُدْرَةٌ، وَلَا أَمْلِكُ لَهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، إِلَّا بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، أَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ٢٤ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴿الْآيَةُ﴾، وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام عَصَمَهُ اللَّهُ عِصْمَةً عَظِيمَةً وَحَمَاهُ، فَامْتَنَعَ مِنْهَا أَشَدَّ الْإِمْتِنَاعِ، وَاخْتَارَ السَّجْنَ عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَقَامَاتِ الْكَمَالِ، أَنَّهُ مَعَ شَبَابِهِ وَجَمَالِهِ وَكَمَالِهِ تَدْعُوهُ سَيِّدَتُهُ وَهِيَ امْرَأَةٌ عَزِيزٌ مُضَرٌّ وَهِيَ مَعَ هَذَا فِي غَايَةِ الْجَمَالِ وَالْمَالِ وَالرِّيَاسَةِ، وَيَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ وَيَخْتَارُ السَّجْنَ عَلَى ذَلِكَ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ.

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ثُمَّ ظَهَرَ لَهُمْ مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِيمَا رَأَوْهُ أَنَّهُمْ يَسْجُونُهُ إِلَى ﴿حِينٍ﴾ أَيُّ: إِلَى مُدَّةٍ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا عَرَفُوا بَرَاءَتَهُ، وَظَهَرَتِ الْآيَاتُ وَهِيَ الْأَدِلَّةُ عَلَى صِدْقِهِ فِي عِفَّتِهِ وَنَزَاهَتِهِ، وَكَأَنَّهُمْ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - إِنَّمَا سَجَنُوهُ لَمَّا شَاعَ الْحَدِيثُ إِيَّاهُمْ أَنَّهُ رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا، وَأَنَّهُمْ سَجَنُوهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمَّا طَلَبَهُ الْمَلِكُ الْكَبِيرُ فِي آخِرِ الْمُدَّةِ امْتَنَعَ مِنَ الْخُرُوجِ حَتَّى تَبَيَّنَ بَرَاءَتَهُ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَلَمَّا تَقَرَّرَ ذَلِكَ خَرَجَ وَهُوَ نَقِيُّ الْعَرَضِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ.

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعِصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٦﴾

قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ أَحَدُهُمَا: سَاقِي الْمَلِكِ، وَالْآخَرُ: خَبَّازُهُ. وَكَانَ يُوسُفُ عليه السلام قَدْ أَشْهَرَ فِي السَّجْنِ بِالْجُودِ وَالْأَمَانَةِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - وَمَعْرِفَةِ التَّعْبِيرِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى أَهْلِ السَّجْنِ، وَعِيَادَةِ مَرْضَاهُمْ وَالْقِيَامَ بِحُقُوقِهِمْ، وَلَمَّا دَخَلَ هَذَانِ الْفَتَيَانِ إِلَى السَّجْنِ تَأَلَّفَا بِهِ وَأَحْبَاهُ حُبًّا شَدِيدًا، ثُمَّ إِتَمَّ رَأْيَا مَنَا مَا فَرَأَى السَّاقِي أَنَّهُ يَعِصِرُ خَمْراً، يَعْنِي عِنَبًا، وَقَالَ الْآخَرُ وَهُوَ الْخَبَّازُ: ﴿إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ ٢٦ الْآيَةُ، وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ مَا ذَكَرْنَاهُ أَتَمَّهَا رَأْيَا مَنَا مَا وَطَّلَا تَعْبِيرُهُ، وَقِيلَ: مَا رَأَى صَاحِبَا يُوسُفَ شَيْئًا إِنَّمَا كَانَا نَحَالِمَا لِيُجَرَّبَا عَلَيْهِ.

قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ

مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾

يُخْرِجُهُمَا يُوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَاهُمَا رَأْيَا فِي مَنَامِهِمَا مِنْ حُلْمٍ فَإِنَّهُ عَارِفٌ بِتَفْسِيرِهِ ، وَيُخْرِجُهُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ وُقُوعِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِيهِ ﴾ قِيلَ أَيُّ : فِي نَوْمِكُمَا ﴿ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّايَ ، لِأَنِّي اجْتَنَبْتُ مِلَّةَ الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَرْجُونَ ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا فِي الْمَعَادِ ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ : هَجَرْتُ طَرِيقَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ ، وَسَلَكْتُ طَرِيقَ هَؤُلَاءِ الْمُرْسَلِينَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَهَكَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى وَاتَّبَعَ طَرِيقَ الْمُرْسَلِينَ ، وَأَعْرَضَ عَنْ طَرِيقِ الضَّالِّينَ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي قَلْبَهُ وَيُعَلِّمُهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ وَيَجْعَلُهُ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِي الْحَيَرِ ، وَدَاعِيًا إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ . ﴿ مَا كُنَّا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ هَذَا التَّوْحِيدُ وَهُوَ : الْإِقْرَارُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أَيُّ : أَوْحَاهُ إِلَيْنَا وَأَمَرَنَا بِهِ ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ إِذْ جَعَلْنَا دُعَاءَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِإِزْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، بَلْ ﴿ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨]

يَصْنَعِي السِّجْنَ ءَازَبَاتٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

ثُمَّ إِنَّ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقْبَلَ عَلَى الْفَتَيْنِ بِالْمُخَاطَبَةِ وَالِدُعَاءِ هُمَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَخَلَعَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُهُمَا ، فَقَالَ : ﴿ ءَازَبَاتٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أَيُّ : الَّذِي وَلِيَ كُلَّ شَيْءٍ بَعِزُّ جَلَالِهِ وَعَظَمَةُ سُلْطَانِهِ ، ثُمَّ بَيَّنَّ هُمَا أَنَّ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا وَيُسَمُّونَهَا إِلَهَةً إِنَّمَا هِيَ جَعْلٌ مِنْهُمْ ، وَتَسْمِيَةٌ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ تَلْقَاهَا خَلْفُهُمْ عَنْ سَلَفِهِمْ ، وَلَيْسَ لِدَلِكِ مُسْتَنَدٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أَيُّ : حُجَّةٌ وَلَا بُرْهَانٌ . ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْحُكْمَ وَالتَّصَرُّفَ وَالْمَشِيئَةَ وَالْمُلْكَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، وَقَدْ أَمَرَ عِبَادَهُ قَاطِبَةً أَنْ لَا يَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ ، الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَأَنْزَلَ بِهِ الْحُجَّةَ وَالْبُرْهَانَ ، الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : فَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ . وَلَمَّا فَرَغَ

يُوسُفُ النَّبِيُّ : مَنْ دَعَوْتُهُمَا شَرَعَ فِي تَعْبِيرِ رُؤْيَاهُمَا مِنْ غَيْرِ تَكَرُّارٍ سُؤَالٍ فَقَالَ :

يَبْصُرِحِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ حَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَنَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١٢٦﴾

يَقُولُ لهُمَا : ﴿ يَبْصُرِحِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ حَمْرًا ۖ وَهُوَ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَعَصُرُ حَمْرًا
وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْنِهِ لِئَلَّا يَحْزَنَ ذَاكَ ، وَهَذَا أَجْمَعُهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَنَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۖ ﴾
وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِهِ خُبْرًا ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمَا أَنَّ هَذَا قَدْ فَرَعَ مِنْهُ وَهُوَ
وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ .

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ
رَبِّهِ ۖ فَلَبِثَ فِي السِّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿١٢٧﴾

وَلَمَّا ظَنَّ يُونُسُ عليه السلام أَنَّ السَّاقِي نَاجٍ ، قَالَ لَهُ يُونُسُ خُفِيَّةً عَنِ الْآخِرِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِئَلَّا
يُشْعِرَهُ أَنَّهُ الْمَصْلُوبُ ، قَالَ لَهُ : ﴿ أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ۖ ﴾ يَقُولُ : أَذْكُرُ قِصَّتِي عِنْدَ رَبِّكَ وَهُوَ الْمَلِكُ ،
فَنَسِيَ ذَلِكَ الْمَوْصَى أَنْ يَذْكُرَ مَوْلَاهُ الْمَلِكُ بِذَلِكَ ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ لِئَلَّا يَطْلُعَ نَبِيُّ
اللَّهِ مِنَ السِّجَنِ ، هَذَا هُوَ الصَّوَابُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَأَنْسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ۖ ﴾ عَائِدٌ عَلَى
النَّاجِي ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ قَالَ : ثَلَاثًا عَشْرَةَ سَنَةً .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعُ سُنبُلَاتٍ
خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَتَأَيَّهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا
أَضْغَثُ أَحْلَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلِيمِينَ ﴿١٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ
أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿١٣٠﴾ يُونُسُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ
يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا
مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿١٣٢﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا
تُحْصِنُونَ ﴿١٣٣﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴿١٣٤﴾

هَذِهِ الرُّؤْيَا مِنْ مَلِكٍ مُضَرٍّ بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهَا كَانَتْ سَبَبًا لِحُرُوجِ يُونُسَ عليه السلام مِنَ السِّجَنِ
مُعْزَرًا مُكْرَمًا ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ رَأَى هَذِهِ الرُّؤْيَا فَهَالَتُهُ وَتَعَجَّبَ مِنْ أَمْرِهَا وَمَا يَكُونُ تَفْسِيرُهَا ،

فَجَمَعَ الْكَهَنَةُ وَالْحَادَّةُ وَكِبَارُ دَوْلَتِهِ وَأَمْرَاءَهُ ، فَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا رَأَى وَسَأَلَهُمْ عَنْ تَأْوِيلِهَا فَلَمْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ وَاعْتَدَرُوا إِلَيْهِ بِأَنَّهُمْ « أَضْغَثَ أَحْلَمٌ » أَيُّ : أَخْلَاطُ أَحْلَامٍ اِفْتَضَّتْهُ رُؤْيَاكَ هَذِهِ « وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلَمِينَ » أَيُّ : لَوْ كَانَتْ رُؤْيَا صَحِيحَةً مِنْ أَخْلَاطٍ لَمَا كَانَ لَنَا مَعْرِفَةٌ بِتَأْوِيلِهَا ، وَهُوَ تَعْبِيرُهَا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرَ الَّذِي نَجَا مِنْ ذَيْنِكَ الْفَتَيَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا فِي السَّجْنِ مَعَ يُوسُفَ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ أَنْسَاهُ مَا وَصَّاهُ بِهِ يُوسُفُ مِنْ ذِكْرِ أَمْرِهِ لِلْمَلِكِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرَ « بَعْدَ أُمَّةٍ » أَيُّ : مُدَّةً ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : بَعْدَ أُمَّةٍ ، أَيُّ : بَعْدَ نِسْيَانٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَيُّ لِلْمَلِكِ وَالَّذِينَ جَمَعَهُمْ لِذَلِكَ « أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » أَيُّ : بِتَأْوِيلِ هَذَا الْمَنَامِ « فَأَرْسَلُونِ » أَيُّ : فَاذْعَبُونِ إِلَى يُوسُفَ الصَّدِيقِ إِلَى السَّجْنِ ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ فَبَعَثُوهُ فَجَاءَ ، فَقَالَ : « يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ أَفْتِنَا » وَذَكَرَ الْمَنَامَ الَّذِي رَأَاهُ الْمَلِكُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ذَكَرَ لَهُ يُوسُفُ ^{الملك} تَعْبِيرَهَا مِنْ غَيْرِ تَعْنِيفٍ لِلْفَتَى فِي نِسْيَانِهِ مَا وَصَّاهُ بِهِ وَمِنْ غَيْرِ اشْتِرَاطٍ لِلخُرُوجِ قَبْلَ ذَلِكَ ، بَلْ قَالَ : « تَزَرَّعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا » أَيُّ : يَأْتِيَكُمُ الْخِصْبُ وَالْمَطَرُ سَبْعَ سِنِينَ مُتَوَالِيَاتٍ ، فَفَسَّرَ الْبَقَرُ بِالسِّنِينَ ؛ لِأَنَّهَا تُثِيرُ الْأَرْضَ الَّتِي تَسْتَغْلُ مِنْهَا الثَّمَرَاتُ وَالزَّرُوعُ ، وَهُنَّ السَّنْبُلَاتُ الْخَضِرُ ، ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا يَعْتَدُونَهُ فِي تِلْكَ السِّنِينَ فَقَالَ : « فَمَا خَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ » أَيُّ : مِمَّا اسْتَغْلَلْتُمْ فِي هَذِهِ السَّبْعِ السِّنِينَ الْخِصْبَ فَادْخَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ، لِيَكُونَ أَبْقَى لَهُ وَأَبْعَدَ عَنْ إِسْرَاعِ الْفَسَادِ إِلَيْهِ ، إِلَّا الْفِدَارَ الَّذِي تَأْكُلُونَهُ ، وَلِيَكُنْ قَلِيلًا قَلِيلًا لَا تُسْرِفُوا فِيهِ لِتَنْتَفِعُوا فِي السَّبْعِ الشَّدَادِ ، وَهُنَّ السَّبْعُ السِّنِينَ الْمُحُلُّ الَّتِي تَعْقُبُ هَذِهِ السَّبْعَ الْمُتَوَالِيَاتِ ، وَهُنَّ الْبَقَرَاتُ الْعِجَافُ اللَّاتِي تَأْكُلُ السَّمَانَ ؛ لِأَنَّ سِنِي الْجَدْبِ يُؤْكَلُ فِيهَا مَا جَمَعُوهُ فِي سِنِي الْخِصْبِ وَهُنَّ السَّنْبُلَاتُ الْيَابِسَاتُ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُبْتَنَنَّ شَيْئًا ، وَمَا بَدَرُوهُ فَلَا يَرْجِعُونَ مِنْهُ إِلَى شَيْءٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : « يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَخْصِنُونَ » ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بَعْدَ الْجَدْبِ الْعَامَ الْمُتَوَالِي : بِأَنَّهُ يَعْقُبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ، أَيُّ : يَأْتِيَهُمُ الْغَيْثُ : وَهُوَ الْمَطَرُ ، وَتَغْلُ الْبِلَادُ وَيَعْصِرُ النَّاسُ مَا كَانُوا يَعْصِرُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ مِنْ زَيْتٍ وَنَحْوِهِ وَسُكَّرٍ وَنَحْوِهِ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : يَدْخُلُ فِيهِ حَلْبُ اللَّبَنِ أَيْضًا .

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتَوْنِي بِهِ ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿١٢٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ؟ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكِنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿١٢٢﴾ * وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ

إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِنْخَبَارًا عَنِ الْمَلِكِ لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِ بِتَغْيِيرِ رُؤْيَاہُ الَّتِي كَانَ رَأَاهَا بِمَا أَعْجَبَهُ وَأَيَّقَتْهُ ، فَعَرَفَ فَضْلَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعِلْمَهُ وَحُسْنَ إِطْلَاعِهِ عَلَى رُؤْيَاہُ ، وَحُسْنَ أَخْلَاقِهِ عَلَى مَنْ يَبْلَدُهُ مِنْ رِعَايَاہُ ، فَقَالَ : ﴿ أَتُؤْتُونِي بِهِ ﴾ أَيُّ : أَخْرِجُوهُ مِنَ السَّجْنِ وَأَخْضَرُوهُ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ بِذَلِكَ اِمْتَنَعَ مِنَ الْخُرُوجِ حَتَّى يَتَحَقَّقَ الْمَلِكُ وَرَعِيَّتُهُ بِرَاءَةَ سَاحَتِهِ ، وَنَزَاهَةَ عِرْضِهِ بِمَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ ، وَأَنَّ هَذَا السَّجْنَ لَمْ يَكُنْ عَلَى أَمْرِ يَقْتَضِيهِ ، بَلْ كَانَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ، فَقَالَ : ﴿ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ﴾ الْآيَةُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ إِنْخَبَارٌ عَنِ الْمَلِكِ حِينَ جَمَعَ النِّسْوَةَ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ عِنْدَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ ، فَقَالَ مُحَاطِبًا لِهِنَّ كُلُّهُنَّ وَهُوَ يُرِيدُ امْرَأَةً وَزِيرَهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ ، قَالَ الْمَلِكُ لِلنِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ : ﴿ مَا خَطْبُكُمْ ﴾ أَيُّ : شَأْنُكُمْ وَخَبْرُكُمْ ﴿ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الضِّيَافَةِ ﴿ قُلْتُ حَشَى لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أَيُّ : قَالَتِ النِّسْوَةُ جَوَابًا لِلْمَلِكِ : حَاشَ لِلَّهِ أَنْ يَكُونَ يُوسُفُ مُتَّهَمًا ، وَاللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكَاذِبَةُ حَصْحَصَ الْحَقِّ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : تَقُولُ : الْآنَ تَبَيَّنَ الْحَقُّ وَظَهَرَ وَبَرَزَ ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أَيُّ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ ، ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ تَقُولُ : إِنَّمَا اعْتَرَفْتُ بِهَذَا عَلَى نَفْسِي لِيَعْلَمَ رَوْحِي أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَلَا وَقَعَ الْمَحْذُورُ الْأَكْبَرُ ، وَإِنَّمَا رَاوَدْتُ هَذَا الشَّابَّ مُرَاوَدَةً فَاِمْتَنَعَ ، فَلِهَذَا اعْتَرَفْتُ لِيَعْلَمَ أَنِّي بَرِيئَةٌ ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي ﴿ تَقُولُ الْمَرْأَةُ : وَلَكْتُ أُبْرئُ نَفْسِي ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ تَتَحَدَّثُ وَتَتَمَنَّى ، وَهَذَا رَاوَدْتُهُ لِأَنَّهَا أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، أَيُّ : إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿١٠١﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِنْخَبَارًا عَنِ الْمَلِكِ حِينَ تَحَقَّقَ بِرَاءَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَزَاهَةِ عِرْضِهِ بِمَا نُسِبَ إِلَيْهِ ، قَالَ : ﴿ أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴾ أَيُّ : أَجْعَلُهُ مِنْ خَاصَّتِي وَأَهْلِ مَشُورَتِي ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أَيُّ : خَاطَبَهُ الْمَلِكُ وَعَرَفَهُ ، وَرَأَى فَضْلَهُ وَبِرَاعَتَهُ وَعِلْمَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ خُلُقٍ وَخَلْقٍ وَكَمَالٍ ، قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أَيُّ : إِنَّكَ عِنْدَنَا قَدْ بَقِيتَ ذَا مَكَانَةٍ وَأَمَانَةٍ ، فَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ مَدَحَ نَفْسَهُ ، وَيَجُوزُ لِلرَّجُلِ ذَلِكَ إِذَا جُهِلَ

أَمْرُهُ لِلْحَاجَةِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ ﴿ حَفِيطٌ ﴾ أَيُّ : خَازِنٌ أَمِينٌ ﴿ عَلَيْهِ ﴾ ذُو عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ بِمَا يَتَوَلَّاهُ .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ
وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : أَرْضَ مِصْرَ ﴿ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾
قِيلَ : يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَتَّخِذُ مِنْهَا مَنْزِلًا حَيْثُ يَشَاءُ بَعْدَ الصَّيْقِ
وَالْحَبْسِ ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيُّ : وَمَا أَضَعْنَا صَبْرَ يُوسُفَ عَلَى
أَذَى إِخْوَتِهِ ، وَصَبْرَهُ عَلَى الْحَبْسِ بِسَبَبِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ ، فَلِهَذَا أَعَقَبَهُ اللَّهُ ﷻ السَّلَامَةَ وَالنَّصَرَ
وَالتَّيِيدَ ﴿ وَلَا جُرْأَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَا إِدْخَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ
يُوسُفَ ﷻ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَأَجَلٌ مِمَّا حَوَّلَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَالتَّفْوِذِ فِي الدُّنْيَا .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم
بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِنْ آبَائِكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ
﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ
وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ آجِعُلُوا بِضَاعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا
إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

ذَكَرَ عِدَّةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي أَقْدَمَ إِخْوَةَ يُوسُفَ بِلَادَ مِصْرَ ، أَنَّ يُوسُفَ ﷻ لَمَّا
بَاشَرَ الْوَزَارَةَ بِمِصْرَ ، وَمَضَتْ السَّبْعُ سِنِينَ الْمُخْصِبةُ ثُمَّ تَلَتْهَا السَّبْعُ السِّنِينَ الْمُجْدِبةُ وَعَمَّ الْقَحْطُ
بِلَادَ مِصْرَ بِكَمَالِهَا ، وَوَصَلَ إِلَى بِلَادِ كَنْعَانَ وَهِيَ الَّتِي فِيهَا يَعْقُوبُ ﷻ وَأَوْلَادُهُ ، وَحِينَئِذٍ احْتَاطَ
يُوسُفُ ﷻ لِلنَّاسِ فِي غِلَالِهِمْ وَجَمَعَهَا أَحْسَنَ جَمْعٍ ، فَحَصَلَ مِنْ ذَلِكَ مَبْلَغٌ عَظِيمٌ وَهَدَايَا
مُتَعَدِّدَةٌ هَائِلَةٌ ، وَوَرَدَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ وَالْمَعَامِلَاتِ يَمْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَعِيَالِهِمْ ،
فَكَانَ لَا يُعْطِي الرَّجُلَ أَكْثَرَ مِنْ حِمْلٍ بَعِيرٍ فِي السَّنَةِ ، وَكَانَ ﷻ لَا يُشْبِعُ نَفْسَهُ ، وَلَا يَأْكُلُ هُوَ
وَالْمَلِكُ وَجُنُودُهُمَا إِلَّا أَكَلَةً وَاحِدَةً فِي وَسْطِ النَّهَارِ ، حَتَّى يَتَكَفَّ النَّاسُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مُدَّةَ السَّبْعِ
سِنِينَ ، وَكَانَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ . وَالْعَرَضُ : أَنَّهُ كَانَ فِي جُمْلَةٍ مَنْ وَرَدَ لِلْمِيرَةِ إِخْوَةُ
يُوسُفَ عَنْ أَمْرِ آبَائِهِمْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ بَلَغَهُمْ أَنَّ عَزِيزَ مِصْرَ يُعْطِي النَّاسَ الطَّعَامَ بِثَمَنِهِ ،
فَأَخَذُوا مَعَهُمْ بِضَاعَةً يَعْتَاضُونَ بِهَا طَعَامًا ، وَرَكِبُوا عَشْرَةَ نَفَرٍ ، وَاحْتَبَسَ يَعْقُوبُ ﷻ عِنْدَهُ
إِنَّهُ بَنِيَامِينَ شَقِيقَ يُوسُفَ ﷻ ، وَكَانَ أَحَبَّ وَلَدِهِ إِلَيْهِ بَعْدَ يُوسُفَ ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ

وَهُوَ جَالِسٌ فِي أُهْبَتِهِ وَرِيَاسَتِهِ وَسَيَادَتِهِ ، عَرَفَهُمْ حِينَ نَظَرَ إِلَيْهِمْ ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ أَي : لَا يَعْرِفُونَهُ لِأَنَّهُمْ فَارِقُوهُ وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثٌ ، وَبَاعُوهُ لِلسَّيَّارَةِ وَلَمْ يَذَرُوا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهِ ، وَلَا كَانُوا يَسْتَشْعِرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَصِيرَ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ ، فَلِهَذَا لَمْ يَعْرِفُوهُ وَأَمَّا هُوَ فَعَرَفَهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ أَي : أَوْفَى لَهُمْ كَيْلَهُمْ ، وَحَمَلَ لَهُمْ أَحْمَالَهُمْ ، قَالَ : ائْتُونِي بِأَخِيكُمْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ ، لَأَعْلَمَ صِدْقَكُمْ فِيمَا ذَكَرْتُمْ ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ يُرْغِبُهُمْ فِي الرَّجُوعِ إِلَيْهِ ، ثُمَّ رَهَّبَهُمْ فَقَالَ : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ﴾ الآية . أَي : إِنْ لَمْ تَقْدِمُوا بِهِ مَعَكُمْ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ فَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي مِيزَةٌ ﴿ وَلَا تَقْرَأُونَ ﴾ قَالُوا سَرُّوهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿ أَي : سَنُخْرِصُ عَلَى مَجِيئِهِ إِلَيْكَ بِكُلِّ مُمَكِّنٍ وَلَا نُبْقِي بِمُجْهُودًا ، لِنَتَعْلَمَ صِدْقَنَا فِيمَا قُلْنَا . ﴾ وَقَالَ لِفَتَيْسِيهِ ﴿ أَي : غُلَامَانِهِ ﴾ أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴿ أَي : الَّتِي قَدِمُوا بِهَا لِيَتَمَارُوا عِوَضًا عَنْهَا ﴾ فِي رِحَالِهِمْ ﴿ أَي : فِي أَمْتَعَتِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ بِهَا . قِيلَ : خَشِيَ يُوسُفُ ﷺ أَنْ لَا يَكُونَ عِنْدَهُمْ بِضَاعَةٌ أُخْرَى يَرْجِعُونَ لِلْمِيزَةِ بِهَا ، وَقِيلَ : تَذَمَّرَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ عِوَضًا عَنِ الطَّعَامِ ، وَقِيلَ : أَرَادَ أَنْ يَرُدَّهُمْ إِذَا وَجَدُوهَا فِي مَتَاعِهِمْ تَحَرُّجًا وَتَوَرُّعًا ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَّابَانَا مَنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ ﴿ قَالُوا يَتَّابَانَا مَنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ يَعْنُونَ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ ، إِنْ لَمْ تُرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا بَنِيَامِينَ ، ﴿ فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالْيَاءِ ، أَي : يَكْتَلُ هُوَ ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أَي : لَا تَخَفْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ سَيَرْجِعُ إِلَيْكَ ، وَهَذَا كَمَا قَالُوا لَهُ فِي يُوسُفَ : ﴿ أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ : ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَي : هَلْ أَنْتُمْ صَانِعُونَ بِهِ إِلَّا كَمَا صَنَعْتُمْ بِأَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، تُغَيِّبُونَهُ عَنِّي وَتَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ؟ ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ «حَافِظًا» ، ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أَي : هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِي وَسَيَرْحَمُ كِبْرِي وَضَعْفِي وَوَجْدِي بَوْلَدِي ، وَأَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيَّ وَيَجْمَعَ شَمْلِي بِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَّابَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿

قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ تُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَلَمَّا فَتَحَ إِخْوَهُ يُوسُفَ مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، وَهِيَ الَّتِي كَانَ أَمْرُ يُوسُفَ فِتْيَانَهُ بِوَضْعِهَا فِي رِحَالِهِمْ ، فَلَمَّا وَجَدُوهَا فِي مَتَاعِهِمْ ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ أَيُّ : مَاذَا نُرِيدُ ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ كَمَا قَالَ قَتَادَةُ : مَا نَبْغِي وَرَاءَ هَذَا : إِنَّ بِضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَقَدْ أَوْفَى لَنَا الْكِيلَ ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أَيُّ : إِذَا أُرْسِلْتَ أَخَانَا مَعَنَا نَأْتِي بِالْمِيرَةِ إِلَى أَهْلِنَا ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام كَانَ يُعْطِي كُلَّ رَجُلٍ حِمْلَ بَعِيرٍ ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ ، أَيُّ : أَنَّ هَذَا يَسِيرٌ فِي مُقَابَلَةِ أَخَذِ أَخِيهِمْ ، مَا يَعْدِلُ هَذَا هَذَا ﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : تَحْلِفُونَ بِالْعُهُودِ وَالْمَوَاقِفِ ﴿ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ تُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إِلَّا أَنْ تُغْلَبُوا كُلَّكُمْ وَلَا تَقْدِرُونَ عَلَى تَخْلِيصِهِ ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أَكَّدَهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : ﴿ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

وَقَالَ يَنْبَغِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِنْخَبَارًا عَنْ يَعْقُوبَ عليه السلام إِنَّهُ أَمَرَ بَنِيهِ لَمَّا جَهَزَهُمْ مَعَ أَخِيهِمْ بَنِيَامِينَ إِلَى مِصْرَ ، أَنْ لَا يَدْخُلُوا كُلَّهُمْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، وَلْيَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ؛ فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّهُ خَشِيَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي جَمَالٍ وَهَيْئَةٍ حَسَنَةٍ وَمَنْظَرٍ وَبَهَاءٍ ، فَخَشِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَهُمُ النَّاسُ بِعُيُوبِهِمْ ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ تَسْتَنْزِلُ الْفَارِسَ عَنْ فَرَسِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أَيُّ : إِنَّ هَذَا الْإِحْتِرَازَ لَا يَرُدُّ قَدَرَ اللَّهِ وَقَضَاءَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا لَا يُخَالِفُ وَلَا يُبَالِغُ ﴿ إِنْ أَحْكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴿ قَالُوا : هِيَ دَفْعُ إِصَابَةِ الْعَيْنِ لَهُمْ ﴾ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴿ قَالَ قَتَادَةُ وَالثَّوْرِيُّ : لَذُو عَمَلٍ يَعْلَمُهُ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : لَذُو عِلْمٍ لِتَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى يُوسُفَ وَمَعَهُمْ أَخُوهُ شَقِيقُهُ بَنِيَامِينَ ، وَأَدْخَلَهُمْ دَارَ كَرَامَتِهِ وَمَنْزِلَ ضِيَاغَتِهِ ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةَ وَالْإِحْسَانَ ، وَاخْتَلَى بِأَخِيهِ فَأُطْلِعَهُ عَلَى شَأْنِهِ وَمَا جَرَى لَهُ ، وَعَرَفَهُ أَنَّهُ أَخُوهُ وَقَالَ لَهُ : لَا تَبْتَئِسْ ، أَيُّ : لَا تَأْسَفْ عَلَى مَا صَنَعُوا بِى ، وَأَمْرُهُ بِكِتَابَانِ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَأَنْ لَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى مَا أُطْلِعَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ أَخُوهُ ، وَتَوَاطَأَ مَعَهُ أَنَّهُ سَيَحْتَالُ عَلَى أَنْ يُبْقِيَهُ عِنْدَهُ مُعَزَّزًا مُكْرَّمًا مُعْظَمًا .

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٥٨﴾

لَمَّا جَهَّزَهُمْ وَحَمَلَ هُمْ أَبْعَرَتَهُمْ طَعَامًا ، أَمَرَ بَعْضَ فِتْيَانِهِ أَنْ يَضَعَ السَّقَايَةَ وَهِيَ إِنَاءٌ مِنْ فِضَّةٍ فِي قَوْلِ الْأَكْثَرِينَ ، وَقِيلَ : مَنْ ذَهَبَ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : كَانَ يَشْرَبُ فِيهِ وَيَكِيلُ لِلنَّاسِ بِهِ مِنْ عِزَّةِ الطَّعَامِ إِذْ ذَاكَ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « صُوعَ الْمَلِكِ » قَالَ : كَانَ مِنْ فِضَّةٍ يَشْرَبُونَ فِيهِ ، وَكَانَ مِثْلَ الْمَكْوُكِ ، وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ مِثْلُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَوَضَعَهَا فِي مَتَاعِ بَنِيَامِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ أَحَدٌ ، ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ بَيْنَهُمْ « أَتَيْتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ » فَالْتَفَتُوا إِلَى الْمُنَادِي ، وَقَالُوا : « مَاذَا تَفْقِدُونَ » ﴿٥٦﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ « أَيُّ : صَاعُهُ الَّذِي يَكِيلُ بِهِ » وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ « وَهَذَا مِنْ بَابِ الْجُعَالَةِ » وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ « وَهَذَا مِنْ بَابِ الضَّمَانِ وَالْكَفَالَةِ .

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

لَمَّا اتَّهَمَهُمْ أُولَئِكَ الْفِتْيَانُ بِالسَّرْقَةِ ، قَالَ هُمْ إِخْوَةُ يُوسُفَ : « تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ » أَيُّ : لَقَدْ تَحَقَّقْتُمْ وَعَلِمْتُمْ مُنْذُ عَرَفْتُمُونَا - لَا اتَّهَمُ شَاهِدُوا مِنْهُمْ سِيرَةً حَسَنَةً - أَنَّا مَا جِئْنَا لِلْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ « وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ » أَيُّ : لَيْسَتْ سَجَايَانَا

تَقْتَضِي هَذِهِ الصِّفَةَ ، فَقَالَ لَهُمُ الْفَتَيَانُ : ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ؟ ﴾ أَيُّ : السَّارِقُ إِنْ كَانَ فِيكُمْ ؟ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ كَذِبِينَ ﴾ أَيُّ : أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ عُقُوبَتُهُ إِنْ وَجَدْنَا فِيكُمْ مَنْ أَخَذَهُ ؟ ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ كَذَلِكَ تَجْزَى الظَّالِمِينَ ﴿ وَهَكَذَا كَانَتْ شَرِيعَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَنَّ السَّارِقَ يُدْفَعُ إِلَى الْمَسْرُوقِ مِنْهُ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ، أَيُّ : فَتَشَهَا قَبْلَهُ تَوْرِيَةً ﴿ ثُمَّ أَسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ ﴾ فَأَخَذَهُ مِنْهُمْ بِحُكْمِ اعْتِرَافِهِمْ وَالْإِزَامِهِمْ ، الْإِزَامَا لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ كَذَبْنَا يُوْسُفَ ﴾ وَهَذَا مِنَ الْكَيْدِ الْمَحْبُوبِ الْمُرَادِ ، الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ ، لِأَنَّهُ فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ الْمَطْلُوبَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أَيُّ : لَمْ يَكُنْ لَهُ أَخْذُهُ فِي حُكْمِ مَلِكٍ مُضَرٌّ ، وَإِنَّمَا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَتَزَمَّ لَهُ إِخْوَتُهُ بِمَا التَّزَمُوهُ ، وَهُوَ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ شَرِيعَتِهِمْ ، وَلِهَذَا مَدَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ : ﴿ نَزَعُ نَزَعٍ دَرَجَتٍ مِنْ نُسَاءٍ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ [المجادلة : ٢١] ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ لَيْسَ عَالِمٌ إِلَّا فَوْقَهُ عَالِمٌ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى اللَّهِ ﷻ . وَقَالَ قَتَادَةُ : وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْعِلْمُ إِلَى اللَّهِ ، مِنْهُ بُدِئَ وَتَعَلَّمَتِ الْعُلَمَاءُ ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ .

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿ ٢٧ ﴾

وَقَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لَمَّا رَأَوْا الصُّوَاعَ قَدْ أُخْرِجَ مِنْ مَتَاعِ بَنِيَامِينَ : ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ يَتَنَصَّلُونَ إِلَى الْعَزِيزِ مِنَ الشَّيْبِ بِهِ ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ هَذَا فَعَلَ كَمَا فَعَلَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، يَعْنُونَ بِهِ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قِيلَ : كَانَ يُوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ سَرَقَ صَنًا لِحَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ فَكَسَرَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَسْرَهَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ يَعْنِي الْكَلِمَةَ الَّتِي بَعْدَهَا ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أَيُّ : تَذْكُرُونَ ، قَالَ هَذَا فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهِ لَهُمْ .

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ ﴿ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَاهُ ﴾ ﴿ ٢٨ ﴾

لَمَّا تَعَيَّنَ أَخْذُ بَنِيَامِينَ وَتَقَرَّرَ تَرْكُهُ عِنْدَ يُوْسُفَ بِمُقْتَضَى اعْتِرَافِهِمْ ، سَرَعُوا يَتَرَقَّقُونَ لَهُ وَيَعْطِفُونَهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ يَعْنُونَ : وَهُوَ يُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا وَيَتَسَلَّى بِهِ عَنْ وَلَدِهِ الَّذِي فَقَدَهُ ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ أَيُّ : بَدَلَهُ يَكُونُ عِنْدَكَ عَوَضًا عَنْهُ ﴿ إِنَّا

تَرَكْنَا مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤١﴾ أَيُّ : الْعَادِلِينَ الْمُتَصِفِينَ الْقَائِلِينَ لِلْخَيْرِ ﴿٤٢﴾ قَالَ مَعَادَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَنَا بِهِ عِنْدَهُ ﴿٤٣﴾ أَيُّ : كَمَا قُلْتُمْ وَاعْتَرَفْتُمْ ﴿٤٤﴾ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوسَ ﴿٤٥﴾ أَيُّ : إِنْ أَخَذْنَا بَرِيئًا بِسَقِيمٍ .

فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذُنَ لِيَ أَبِي أَوْ تَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٦﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٤٧﴾ وَسَعَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ أَنَّهُمْ لَمَّا يَسْأَلُوا مِنْ تَخْلِيصِ أَخِيهِمْ بَنِيَامِينَ ، الَّذِي قَدْ التَزَمُوا لِأَبِيهِمْ بِرَدِّهِ إِلَيْهِ ، وَعَاهَدُوهُ عَلَىٰ ذَلِكَ ، فَاُمْتَنَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿٤٩﴾ خَلَصُوا ﴿٥٠﴾ أَيُّ : انْفَرَدُوا عَنِ النَّاسِ ﴿٥١﴾ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ﴿٥٣﴾ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴿٥٤﴾ لَرُدُّهُ إِلَيْهِ ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ كَيْفَ تَعَذَّرَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ ، مَعَ مَا تَقَدَّمَ لَكُمْ مِنْ إِضَاعَةِ يُوسُفَ عَنْهُ ﴿٥٥﴾ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴿٥٦﴾ أَيُّ : لَنْ أَفَارِقَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ ﴿٥٧﴾ حَتَّى يَأْذُنَ لِيَ أَبِي ﴿٥٨﴾ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ رَاضِيًا عَنِّي ﴿٥٩﴾ أَوْ تَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴿٦٠﴾ قِيلَ : بِالسَّيْفِ ، وَقِيلَ : بِأَنْ يُمَكِّنَنِي مِنْ أَخِي أَخِي ﴿٦١﴾ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٦٢﴾ .

ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يُخْبِرُوا آبَاءَهُمْ بِصُورَةِ مَا وَقَعَ حَتَّى يَكُونَ عُذْرًا لَهُمْ عِنْدَهُ ، وَيَتَنَصَّلُوا إِلَيْهِ وَيَبْرَءُوا بِمَا وَقَعَ بِقَوْلِهِمْ : ﴿٦٣﴾ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٦٤﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : مَا نَعْلَمُ أَنَّ ابْنَكَ يَسْرِقُ ﴿٦٥﴾ وَسَعَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴿٦٦﴾ أَيُّ : الَّتِي رَاقَفْنَاهَا عَنْ صِدْقِنَا وَأَمَانَتِنَا وَحَفِظْنَا وَحِرَاسَتِنَا ﴿٦٧﴾ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٨﴾ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ سَرَقَ وَأَخَذُوهُ بِسِرِّقَتِهِ .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٦٩﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسُفَىٰ عَلَىٰ يُونُسَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٧٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُونُسَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾

قَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ لَهُمْ حِينَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِ يُونُسَ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴿٧٣﴾ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴿٧٤﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : لَمَّا جَاءُوا يَعْقُوبَ وَأَخْبَرُوهُ بِمَا يَجْرِي أَيْتَهُمْ ، وَظَنَّ أَنَّهَا

كَفَعَلَتْهُمْ يُوْسُفَ قَالَ : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ثُمَّ تَرَجَّى مِنْ اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ أَوْلَادَهُ الثَّلَاثَةَ يُوْسُفَ وَأَخَاهُ بَنِيَامِينَ وَرُؤَيْبِيلَ الَّذِي أَقَامَ بِدْيَارِ مِصْرَ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ ، إِمَّا أَنْ يَرْضَى عَنْهُ أَبُوهُ فَيَأْمُرُهُ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ أَخَاهُ خُفْيَةً ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ أَيُّ : الْعَلِيمُ بِحَالِي ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي أَفْعَالِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يُوْسُفَ ﴾ أَيُّ : أَعْرَضَ عَنْ بَنِيهِ ، وَقَالَ مُتَذَكِّرًا حُزْنَ يُوْسُفَ الْأَوَّلَ : ﴿ يَتَأْسَفُ عَلَى يُوْسُفَ ﴾ جَدَّدَ لَهُ حُزْنَ الْإِنْبَيْنِ الْحُزْنَ الدَّفِينِ ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ غَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْإِسْتِرْجَاعُ ، أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ يَتَأْسَفُ عَلَى يُوْسُفَ وَابْتِصَمَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أَيُّ : سَاكَتْ لَا يَشْكُو أَمْرَهُ إِلَى مَخْلُوقٍ ، وَقِيلَ : كَيْبُ حَزِينٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرُ يُوْسُفَ ﴾ أَيُّ : لَا تَفَارِقْ تَذَكَّرُ يُوْسُفَ ﴿ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا ﴾ أَيُّ : ضَعِيفَ الْقُوَّةِ ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ يَقُولُونَ : إِنْ اِسْتَمَرَّ بِكَ هَذَا الْحَالُ حَشِينًا عَلَيْكَ الْهَلَاكُ وَالتَّلَفُ . ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أَيُّ : أَجَابَهُمْ عَمَّا قَالُوا بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي ﴾ أَيُّ : هَمِّي وَمَا أَنَا فِيهِ ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ وَحْدَهُ ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : أَرْجُو مِنْهُ كُلَّ خَيْرٍ . وَقِيلَ : أَعْلَمُ أَنْ رُؤْيَا يُوْسُفَ صَادِقَةٌ وَأَنِّي سَوْفَ أَسْجُدُ لَهُ .

يَبْنِي آذَهُبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿ ٢٧ ﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَأَيَّأُ الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَنَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ تَجَزَى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿ ٢٨ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّهُ نَدَبَ بَيْنَهُ عَلَى الذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ يَسْتَعْلِمُونَ أَخْبَارَ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ بَنِيَامِينَ ، وَالتَّحَسُّسُ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ ، وَالتَّجَسُّسُ يَكُونُ فِي الشَّرِّ ، وَنَهَضَهُمْ وَبَشَّرَهُمْ وَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَتَأَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ ، أَيُّ لَا يَقْطَعُوا رَجَاءَهُمْ وَأَمْلَهُمْ مِنَ اللَّهِ فِيمَا يَرُومُونَهُ وَيَقْصِدُونَهُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْطَعُ الرَّجَاءَ وَلَا يَتَأَسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ : فَذَهَبُوا وَدَخَلُوا مِصْرَ ، وَدَخَلُوا عَلَى يُوْسُفَ ﴿ قَالُوا يَتَأَيَّأُ الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ ﴾ يَعْنُونَ مِنَ الْجَدْبِ وَالْقَحْطِ وَقِلَّةِ الطَّعَامِ ﴿ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَنَةٍ ﴾ أَيُّ : وَمَعَنَا ثَمَنُ الطَّعَامِ الَّذِي نَمْتَارُهُ ، وَهُوَ ثَمَنٌ قَلِيلٌ ، وَقِيلَ : الدَّرَاهِمُ الرَّدِيئَةُ الَّتِي لَا تَجُوزُ إِلَّا بِتَقْصَانٍ ، وَقِيلَ : فَاسِدَةٌ لَا تُنْفَقُ . وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْهُمْ : ﴿ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ أَيُّ : أَعْطَيْنَا بِهَذَا الثَّمَنِ الْقَلِيلِ مَا كُنْتَ تُعْطِينَا قَبْلَ ذَلِكَ ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ قِيلَ : بِرَدِّ أَخِينَا إِلَيْنَا ، وَقِيلَ : تَصَدَّقْ عَلَيْنَا بِقَبْضِ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ الْمُرْجَاةِ وَتَجَوُّزِ فِيهَا .

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُونُسُ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا أَءِذَا كُنَّا يُونُسُ قَالَ أَنَا يُونُسُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ لَهُ إِخْوَتُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالضِّيقِ وَقِلَّةِ الطَّعَامِ وَعُمُومِ الْجَدْبِ ، وَتَذَكَّرَ أَبَاهُ وَمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحُزْنِ لِفَقْدِ وَلَدَيْهِ ، مَعَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالسَّعَةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَتْهُ رِقَّةٌ وَرَأْفَةٌ وَرَحْمَةٌ وَشَفَقَةٌ عَلَى أَبِيهِ لِإِخْوَتِهِ وَبَدَرَهُ الْبُكَاءُ فَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ ، فَيَقَالُ : إِنَّهُ رَفَعَ التَّاجَ عَنْ جَبْهَتِهِ وَكَانَ فِيهَا شَامَةٌ وَقَالَ : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُونُسُ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ يَعْنِي : كَيْفَ فَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أَيُ : إِنَّمَا حَمَلَكُم عَلَى هَذَا الْجَهْلِ بِمِقْدَارِ هَذَا الَّذِي إِرْتَكَبْتُمُوهُ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ ، وَقَرَأْ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ﴾ [النحل : ١١٩]

وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ، بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّهُ إِنَّمَا أَخْفَى مِنْهُمْ نَفْسَهُ فِي الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَلَكِنْ لَمَّا ضَاقَ الْحَالُ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ ، فَرَجَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ الضِّيقِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ - ٦] . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا : ﴿ أَءِذَا كُنَّا يُونُسُ لَأَنْتَ يُونُسُ ﴾ أَيُ : أَنَّهُمْ تَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ مِنْ سِتَّتَيْنِ وَأَكْثَرِ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَعْرِفُهُمْ وَيَكْتُمُ نَفْسَهُ ، فَلِهَذَا قَالُوا عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِفْهَامِ : ﴿ أَءِذَا كُنَّا يُونُسُ قَالَ أَنَا يُونُسُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أَيُ : بِجَمْعِهِ بَيْنَنَا بَعْدَ التَّفَرُّقَةِ ، وَبَعْدَ الْمُدَّةِ ، ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴿ الْآيَةُ ، يَقُولُونَ مُعْتَرِفِينَ لَهُ بِالْفَضْلِ وَالْأَثَرَةِ عَلَيْهِمْ فِي الْخَلْقِ وَالْخَلْقِ ، وَالسَّعَةِ وَالْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالنُّبُوَّةِ أَيْضًا ، وَأَقْرَأُوا بِأَنَّهُمْ أَسَاءُوا إِلَيْهِ وَآخِطُوا فِي حَقِّهِ . ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ يَقُولُ : لَا تَأْنِيبَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَتَبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ ، وَلَا أُعِيدُ عَلَيْكُمْ ذَنْبَكُمْ فِي حَقِّي بَعْدَ الْيَوْمِ ، ثُمَّ زَادَهُم الدُّعَاءَ هُمْ بِالْمَغْفِرَةِ فَقَالَ : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أَيُ : يَسِّرُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْتُمْ ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُونُسَ لَوْلَا أَنْ تُفْنِدُونِ

﴿٦٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ : اذْهَبُوا بِهَذَا الْقَمِيصِ ﴿٦١﴾ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ ابْنِ يَأْتِ بَصِيرًا ﴿٦٢﴾ وَكَانَ قَدْ عَمِيَ مِنْ كَثَرَةِ الْبُكَاءِ ﴿٦٣﴾ وَأَتَوْنِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٤﴾ أَيُّ : بِجَمِيعِ بَنِي يَعْقُوبَ . ﴿٦٥﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴿٦٦﴾ أَيُّ : خَرَجَتْ مِنْ مِصْرَ ﴿٦٧﴾ قَالَ أَبُوهُمْ ﴿٦٨﴾ يَعْنِي : يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَنْ بَقِيَ عِنْدَهُ مِنْ بَنِيهِ ﴿٦٩﴾ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفْنِدُونِ ﴿٧٠﴾ تَنْسُبُونِي إِلَى الْفَنَدِ وَالْكَبَرِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿٧١﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴿٧٢﴾ قَالَ : لَمَّا خَرَجَتِ الْعِيرُ هَاجَتْ رِيحٌ فَجَاءَتْ يَعْقُوبَ بِرِيحِ قَمِيصِ يُوسُفَ ، فَقَالَ : ﴿٧٣﴾ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴿٧٤﴾ قَالَ فَوَجَدَ رِيحَهُ مِنْ مَسِيرَةِ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ ﴿٧٥﴾ لَوْلَا أَنْ تُفْنِدُونِ ﴿٧٦﴾ أَيُّ : تُسَفَّهُونَ ، وَقَوْلُهُمْ : ﴿٧٧﴾ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٧٨﴾ لَفِي خَطَايِكَ الْقَدِيمِ ، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : أَيُّ : مِنْ حُبِّ يُوسُفَ لَا تَنْسَاهُ وَلَا تَسْلَاهُ ، قَالُوا لِيَا أَدِيبَهُمْ كَلِمَةً غَلِيظَةً ، لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَقُولُوهَا لِيَا أَدِيبَهُمْ ، وَلَا لِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ .

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَدَ بَصِيرًا ﴿٧٩﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَتَّبِعَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٨١﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨٢﴾

﴿٨٣﴾ الْبَشِيرُ الْبَرِيدُ . قَالَ السُّدِّيُّ : إِنَّمَا جَاءَ بِهِ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَاءَ بِالْقَمِيصِ وَهُوَ مُلَطَّخٌ بِدَمِ كَذِبٍ ، فَأَحَبَّ أَنْ يَعْسِلَ ذَلِكَ بِهَذَا ، فَجَاءَ بِالْقَمِيصِ فَأَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِ أَبِيهِ فَارْتَدَدَ بَصِيرًا ، وَقَالَ لِبَنِيهِ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿٨٤﴾ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ أَيُّ : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سَيَرُدُّهُ إِلَيَّ ، وَقُلْتُ لَكُمْ : ﴿٨٦﴾ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفْنِدُونِ ﴿٨٧﴾ . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا لِأَبِيهِمْ مُتَرَفِّقِينَ لَهُ : ﴿٨٨﴾ يَتَّبِعَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٨٩﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٠﴾ أَيُّ : مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَرْجَاهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحْرِ .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ﴿٩١﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴿٩٢﴾ وَقَالَ يَتَّابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴿٩٣﴾ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٩٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ وُرُودِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقُدُومِهِ بِلَادَ مِصْرَ ، لَمَّا كَانَ يُوسُفُ قَدْ تَقَدَّمَ لِإِخْوَتِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِأَهْلِهِمْ أَجْمَعِينَ ، فَتَحَمَّلُوا عَنْ أَخْرِهِمْ وَتَرَحَّلُوا مِنْ بِلَادِ كَنْعَانَ

قَاصِدِينَ بِلَادِ مِصْرَ ، فَلَمَّا أَخْبَرَ يُوسُفُ عليه السلام بِاقْتِرَائِهِمْ خَرَجَ لِنَلْقَائِهِمْ ، وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَمْرَاءَهُ وَأَكَابِرَ النَّاسِ بِالْخُرُوجِ مَعَ يُوسُفَ لِنَلْقَائِهِ نَبِيَّ اللَّهِ يَعْقُوبَ عليه السلام ، وَيُقَالُ إِنَّ الْمَلِكَ خَرَجَ أَيْضًا لِنَلْقَائِهِ وَهُوَ الْأَشْبَهُ ، وَقَدْ أَشْكَلَ قَوْلُهُ : ﴿ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوبِهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هَذَا مِنَ الْمَقْدَمِ وَالْمُؤَخَّرِ وَمَعْنَى الْكَلَامِ : ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ﴾ وَأَوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوبِهِ وَرَفَعَهُمَا عَلَى الْعَرْشِ ، وَرَدَّ ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا وَأَجَادَ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ اخْتَارَ مَا حَكَاهُ عَنِ السُّدِّيِّ : أَنَّ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوبِهِ لَمَّا تَلَقَّاهُمَا ، ثُمَّ لَمَّا وَصَلُوا بَابَ الْبَلَدِ قَالَ : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ﴾ ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الْإِيوَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْمَنْزِلِ كَقَوْلِهِ : ﴿ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ ، وَفِي الْحَدِيثِ « مَنْ أَوَىٰ مُحَدَّثًا » . وَمَا الْمَانِعُ أَنْ يَكُونَ قَالَ لَهُمْ بَعْدَمَا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَأَوَاهُمْ إِلَيْهَا : ادْخُلُوا مِصْرَ ، وَصَمَّنَهُ أُسْكُنُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ، أَيْ : بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْفَقْطِ ؟ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي السَّرِيرَ ، أَيْ : أَجْلَسَهُمَا مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا ﴾ أَيْ : سَجَدَ لَهُ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ الْبَاقُونَ ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا ﴿ وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَوَيلٌ رُئِيَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَيْ : الَّتِي كَانَ فَصَّهَا عَلَى أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ . وَقَدْ كَانَ هَذَا سَائِعًا فِي شَرَائِعِهِمْ : إِذَا سَلَّمُوا عَلَى الْكَبِيرِ يَسْجُدُونَ لَهُ ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا جَائِزًا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى شَرِيعَةِ عِيسَى عليه السلام ، فَحَرَّمَ هَذَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ وَجُعِلَ السُّجُودُ مُحْتَضًا بِجَنَابِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أَيْ : صَحِيحَةً صِدْقًا يَذْكُرُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ أَيْ : الْبَادِيَةِ . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرَعَّ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أَيْ : إِذَا أَرَادَ أَمْرًا قَبِضَ لَهُ أَسْبَابًا وَقَدَّرَهُ وَيَسَّرَهُ ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، وَمَا يَخْتَارُهُ وَيُرِيدُهُ .

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

هَذَا دُعَاءٌ مِنْ يُوسُفَ الصَّدِيقِ ، دَعَا بِهِ رَبَّهُ ﷻ لَمَّا تَمَّتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِاجْتِمَاعِهِ بِأَبُوبِهِ وَأَخَوَيْهِ ، وَمَا مِنْ اللَّهِ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ ، سَأَلَ رَبَّهُ ﷻ كَمَا أَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَسْتَمِرَّ بِهَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَأَنْ يَتَوَفَّاهُ مُسْلِمًا حِينَ يَتَوَفَّاهُ ، وَأَنْ يُلْحِقَهُ بِالصَّالِحِينَ وَهُمْ إِخْوَتُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَهَذَا الدُّعَاءُ يَحْتَمِلُ أَنْ يُوسُفَ عليه السلام قَالَهُ عِنْدَ اخْتِصَارِهِ .

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾

يُقَرَّرُ تَعَالَى لِحَمْدِهِ ﷺ لَمَّا قَصَّ عَلَيْهِ نَبَأَ إِخْوَةِ يُوسُفَ ، وَكَيْفَ رَفَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَجَعَلَ لَهُ الْعَاقِبَةَ وَالنَّصْرَ وَالْمُلْكَ وَالْحُكْمَ ، مَعَ مَا أَرَادُوا بِهِ مِنَ الشُّوْءِ وَالْهَلَاكِ وَالْإِعْدَامِ ، هَذَا وَأَمْثَالُهُ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ أَخْبَارِ الْغُيُوبِ السَّابِقَةِ ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ وَتُعَلِّمُكَ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الْعِبَرَةِ لَكَ وَالِاتِّعَاطِ لِمَنْ خَالَفَكَ ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ حَاضِرًا عِنْدَهُمْ وَلَا مُشَاهِدًا لَهُمْ ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أَيِ : عَلَى إِنْقَائِهِ فِي الْجُبِّ ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ بِهِ ، وَلَكِنَّا أَعْلَمْنَاكَ بِهِ وَحَيَّا إِلَيْكَ وَإِنزَالًا عَلَيْكَ ، يَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ رَسُولُهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَى أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ مِمَّا فِيهِ عِبْرَةٌ لِلنَّاسِ وَنَجَاةٌ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنَ أَكْثَرَ النَّاسِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أَيِ : مَا تَسْأَلُهُمْ يَا مُحَمَّدٌ عَلَى هَذَا النُّصْحِ وَالِدُّعَاءِ إِلَى الْحَيْرِ وَالرُّشْدِ مِنْ أَجْرٍ ، أَيِ : مِنْ جَعَالَةٍ وَلَا أَجْرَةٍ بَلْ تَفْعَلُهُ إِنْتِعَاءً وَجْهَ اللَّهِ وَنُصْحًا لِحَلْفِهِ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أَيِ : يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَهْتَدُونَ وَيَنْجُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَوَاتَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غَفْلَةِ أَكْثَرِ النَّاسِ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ ، بِمَا خَلَقَهُ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ كَوَاكِبَ زَاهِرَاتٍ ثَوَابِتٍ ، وَسَيَّارَاتٍ وَأَفْلَاقٍ دَائِرَاتٍ ، وَالْجَمِيعُ مُسَخَّرَاتٌ ، وَكَمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قِطْعٍ مُّتَجَاوِرَاتٍ ، وَحَدَائِقَ وَجَنَّاتٍ ، وَجِبَالٍ رَاسِيَاتٍ ، وَبِحَارٍ زَاخِرَاتٍ ، وَأَمْوَاجٍ مُّتَلَاطِمَاتٍ ، وَقِفَارٍ شَاسِعَاتٍ ، وَكَمْ مِنْ أَحْيَاءٍ وَأَمْوَاتٍ ، وَحَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ ، وَثَمَرَاتٍ مُّتَشَابِهَةٍ وَمُخْتَلِفَاتٍ فِي الطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْأَلْوَانِ وَالصِّفَاتِ ، فَسُبْحَانَ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ خَالِقِ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، الْمُتَفَرِّدِ بِالدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ وَالصَّمَدِيَّةِ ، ذِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : مِنْ إِيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْجِبَالَ ؟ قَالُوا : اللَّهُ ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ ، وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ ذَلِكَ الْمُنَافِقُ

يَعْمَلْ إِذَا عَمِلَ رِبَاءَ النَّاسِ ، وَهُوَ مُشْرِكٌ بِعَمَلِهِ ذَلِكَ . ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ ،
 أَي : أَفَأَمِنَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْرٌ يَغْشَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ^ط وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ ، أَمْرًا لَهُ أَنْ يُخَيِّرَ النَّاسَ أَنْ هَذِهِ سَبِيلُهُ أَي :
 طَرِيقَتُهُ وَمَسْلُكُهُ وَسُنَّتُهُ ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، يَدْعُو إِلَى
 اللَّهِ بِهَا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَقِينُ وَبُرْهَانٍ ، وَكُلُّ مَنْ اتَّبَعَهُ يَدْعُو إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ
 ﷺ عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَقِينُ وَبُرْهَانٍ شَرْعِيٍّ وَعَقْلِيٍّ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسُبْحَنَ اللَّهُ ﴾ أَي : وَأَنْزَهُ اللَّهُ وَأَجْلَهُ
 وَأَعْظَمَهُ وَأَقْدَسَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ عَدِيلٌ أَوْ نَدِيدٌ ، أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ ، أَوْ
 صَاحِبَةٌ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشِيرٌ ، تَبَارَكَ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ؕ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؕ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٧﴾

يُخَيِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرْسَلَ رَسُولَهُ مِنَ الرِّجَالِ لَا مِنَ النِّسَاءِ ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ كَمَا دَلَّ
 عَلَيْهِ سِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُوحِ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ بَنِي آدَمَ وَحْيَ تَشْرِيعٍ . وَ
 أَنَّهُ لَيْسَ فِي النِّسَاءِ نَبِيَّةٌ وَإِنَّمَا فِيهِنَّ صَدِيقَاتٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ الْمُرَادُ بِالْقُرَى : الْمَدُنُ ، لَا أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي الَّذِينَ هُمْ مِنْ
 أَجْفَى النَّاسِ طِبَاعًا وَأَخْلَاقًا ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْهُودُ الْمَعْرُوفُ أَنَّ أَهْلَ الْمَدُنِ أَرْقُ طِبَاعًا وَأَلْطَفُ مِنْ
 أَهْلِ بَوَادِيهِمْ ، وَأَهْلُ الرَّيْفِ وَالسَّوَادِ أَقْرَبُ حَالًا مِنَ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ فِي الْبَوَادِي .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يَعْنِي : هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي الْأَرْضِ ﴿ فَيَنْظُرُوا
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أَي : مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ ، كَيْفَ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ؟
 وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالَهَا ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦] . فَإِذَا
 اسْتَمَعُوا خَبَرَ ذَلِكَ ، رَأَوْا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذِهِ كَانَتْ سُنَّتُهُ تَعَالَى
 فِي خَلْقِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أَي : وَكَمَا نَجَّيْنَا الْمُؤْمِنِينَ فِي
 الدُّنْيَا ، كَذَلِكَ كَتَبْنَا لَهُمُ النِّجَاةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَهِيَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بِكَثِيرٍ ، وَأَضَافَ الدَّارَ

إِلَى الْآخِرَةِ فَقَالَ : ﴿ وَلَذَارُ الْآخِرَةِ ﴾ ، كَمَا يُقَالُ صَلَاةُ الْأُولَى ، وَمَسْجِدُ الْجَامِعِ ، وَعَامٌ أَوَّل .

حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِيَ مَنِ نَشَاءُ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّ نَصْرَهُ يَنْزِلُ عَلَى رُسُلِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - عِنْدَ ضَيْقِ الْحَالِ وَانْتِظَارِ الْفَرَجِ مِنَ اللَّهِ فِي أَحْوَجِ الْأَوْقَاتِ إِلَى ذَلِكَ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ كُذِبُوا ﴾ قِرَاءَتَانِ إِحْدَاهُمَا بِالتَّشْدِيدِ قَدْ كُذِّبُوا ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - تَقْرُؤُهَا ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ وَهُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ قَالَتْ : أَكُذِّبُوا أَمْ كُذِّبُوا ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ : ﴿ كُذِّبُوا ﴾ قُلْتُ : فَقَدْ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ ، فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ ؟ قَالَتْ : أَجَلَ لَعْمَرِي ، لَقَدْ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ ، فَقُلْتُ لَهَا : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ ، فَقَالَتْ : مَعَاذَ اللَّهِ ، لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا ، قُلْتُ : فَمَا هَذِهِ الْآيَةُ ؟ قَالَتْ : هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمْ النَّصْرُ ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ ، جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ . وَالْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ : بِالتَّخْفِيفِ ؛ وَاخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِهَا ، فَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ مِنْ إِيْمَانِ قَوْمِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ ، وَظَنَّ قَوْمُهُمْ حِينَ أَبْطَأَ الْأَمْرُ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا بِالتَّخْفِيفِ .

لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى لَقَدْ كَانَ فِي خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ مَعَ قَوْمِهِمْ وَكَيْفَ نَجَّيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا الْكَافِرِينَ ﴿ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وَهِيَ الْعُقُولُ ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ أَيِ : وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَيِ : يُكْذَّبُ وَيُخْلَقُ ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَيِ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ ، هُوَ يُصَدِّقُ مَا فِيهَا مِنَ الصَّحِيحِ ، وَيَنْفِي مَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَبْدِيلٍ وَتَغْيِيرٍ ، وَيَحْكُمُ عَلَيْهَا بِالنَّسْخِ أَوْ التَّقْرِيرِ ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ وَمَحْبُوبٍ وَمَكْرُوهٍ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرِ بِالطَّاعَاتِ وَالْوَجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمَحْرَمَاتِ وَمَا شَاكَلَهَا مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ ، وَالْإِخْبَارِ عَنِ الْأُمُورِ الْجَلِيلَةِ وَعَنِ الْغُيُوبِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ الْمُجْمَلَةِ وَالتَّفْصِيلِيَّةِ ، وَالْإِخْبَارِ عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ، وَنَزَّهَهُ عَنْ مِثَالَةِ الْمَخْلُوقَاتِ

فَلِهَذَا كَانَتْ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تَهْتَدِي بِهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَى السَّدَادِ ، وَيَبْتَغُونَ بِهَا الرَّحْمَةَ مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْمَعَادِ ، فَتَسْأَلُ اللَّهُ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، يَوْمَ يَفُوزُ بِالرَّبْحِ الْمُبِيضَةِ وَجُوهُهُمُ النَّاصِرَةُ ، وَيَرْجِعُ الْمُسَوَّدَةُ وَجُوهُهُمُ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ يُوسُفَ الرَّحْمَةُ وَالْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَبِهِ الْمُسْتَعَانُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْءُ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ ۚ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَقَدَّمْنَا أَنَّ كُلَّ سُورَةٍ تَبْتَدِئُ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ فَفِيهَا الْإِنْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ نَزُولَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرِيَّةَ وَلَا رَيْبَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ عَطْفُ صِفَاتٍ فَقَالَ : ﴿ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أَيُّ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ خَبَرٌ تَقَدَّمَ مُبْتَدَأُهُ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيُّ : مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ لَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ لِمَا فِيهِمْ مِنَ الشَّقَاقِ وَالْعِنَادِ وَالنَّفَاقِ .

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ۚ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ كِبَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ أَنَّهُ الَّذِي يَبْذِيهِ وَأَمْرُهُ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ، بَلْ يَبْذِيهِ وَأَمْرُهُ وَتَسْخِيرِهِ رَفَعَهَا عَنِ الْأَرْضِ بُعْدًا لَا تُنَالُ وَلَا يُدْرَكُ مَدَاهَا ، فَالَسَّمَاءُ الدُّنْيَا مُحِيطَةٌ بِجَمِيعِ الْأَرْضِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ ، مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهَا وَجِهَاتِهَا وَأَرْجَائِهَا ، مُرْتَفَعَةٌ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ عَلَى السَّوَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَغْيِرْ عَمَدٍ تَرْوِيهَا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : لَهَا عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَى ، وَقَالَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ : السَّمَاءُ مُقْبَبَةٌ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُ الْقُبَّةِ يَعْنِي : بِلَا عَمَدٍ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ تَرْوِيهَا ﴾ تَأْكِيدًا لِنَفْيِ ذَلِكَ ، أَيْ : هِيَ مَرْفُوعَةٌ بِغَيْرِ عَمَدٍ كَمَا تَرْوِيهَا ، وَهَذَا هُوَ الْأَكْمَلُ فِي الْقُدْرَةِ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، وَأَنَّهُ يَمُرُّرُ كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ تَكْثِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَمَثِيلٍ ، تَعَالَى اللَّهُ عُلُوتًا كَبِيرًا .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ سَجْرٍ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ أَنَّهُمَا يَجْرِيَانِ إِلَى انْقِطَاعِهِمَا بِقِيَامِ السَّاعَةِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ أَيْ : يُوَضِّحُ الْآيَاتِ وَالِدَلَالَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلْقَ إِذَا شَاءَ كَمَا بَدَأَهُ .

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاجِينَ أُنثِينَ^ط يُغْيِثُ اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْجَبُورَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ^ط إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْعَالَمَ الْعُلُويَّ شَرَعَ فِي ذِكْرِ قُدْرَتِهِ وَحُكْمَتِهِ وَأَحْكَامِهِ لِلْعَالَمِ السُّفْلِيِّ فَقَالَ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ أَيْ : جَعَلَهَا مُتَسَّعَةً مُّتَمَدَّةً فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، وَأَرْسَاهَا بِجِبَالٍ رَّاسِيَاتٍ شَامِخَاتٍ ، وَأَجْرَى فِيهَا الْأَنْهَارَ وَالْجُدَاوِلَ وَالْعُيُونَ لِيُسْقَى مَا جُعِلَ فِيهَا مِنَ الثَّمَرَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَاحِجِ ، ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاجِينَ أُنثِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ شَكْلِ صِنْوَانٍ ﴿ يُغْيِثُ اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أَيْ : جَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا ، فَإِذَا ذَهَبَ هَذَا غَشِيَهُ هَذَا وَإِذَا انْقَضَى هَذَا جَاءَ الْآخَرُ فَيَتَصَرَّفُ أَيْضًا فِي الزَّمَانِ كَمَا يَتَصَرَّفُ فِي الْمَكَانِ وَالسُّكَّانِ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : فِي آيَةِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ وَدَلَالَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْجَبُورَاتٍ ﴾ أَيْ : أَرْضٌ يُجَاوِرُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ طَبِيعَةٌ تُنْبِتُ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَهَذِهِ سَبِيحَةٌ مَّالِحَةٌ لَا تُنْبِتُ شَيْئًا . ﴿ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ عَاطِفَةً عَلَى جَنَّاتٍ فَيَكُونُ : ﴿ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ مَرْفُوعِينَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى أَعْنَابٍ فَيَكُونُ مَجْرُورًا ، وَهَذَا قَرَأَ بِكُلِّ مِنْهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْأُئِمَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ الصَّنَوَانُ : هُوَ الْأَصُولُ الْمُجْتَمِعَةُ فِي مَنْبَتٍ وَاحِدٍ ، كَالرَّثْمَانِ وَالتَّيْنِ وَبَعْضِ النَّخِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَغَيْرُ الصَّنَوَانِ : مَا كَانَ عَلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ كَسَائِرِ الْأَشْجَارِ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ أَيْ : هَذَا الْاِخْتِلَافُ فِي

أَجْناسِ الثَّمَرَاتِ وَالزُّرُوعِ ، فِي أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا ، وَطُغُومِهَا وَرَوَائِحِهَا ، وَأَوْرَاقِهَا وَأَزْهَارِهَا فَهَذَا فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ وَهَذَا فِي غَايَةِ الْحُمُوضَةِ وَذَا فِي غَايَةِ الْمَرَارَةِ ، وَذَا عَفْصٌ وَهَذَا عَذْبٌ ، وَهَذَا جَمْعٌ هَذَا وَهَذَا ثُمَّ يَسْتَحِيلُ إِلَى طَعْمٍ آخَرَ يَأْذِنُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهَذَا أَصْفَرٌ وَهَذَا أَحْمَرٌ وَهَذَا أَبْيَضٌ وَهَذَا أَسْوَدٌ وَهَذَا أَرْزَقُ ، وَكَذَلِكَ الزُّهُورَاتُ مَعَ أَنَّهَا كُلُّهَا تَسْتَمِدُّ مِنْ طَبِيعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ الْمَاءُ مَعَ هَذَا الْإِخْتِلَافِ الْكَبِيرِ الَّذِي لَا يَنْحَصِرُ وَلَا يَنْضَبِطُ ، فِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيًا ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَالَاتِ عَلَى الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ فَاتَتْ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ، وَخَلَقَهَا عَلَى مَا يُرِيدُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

❖ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْذَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۖ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ مِنْ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ بِالْمَعَادِ مَعَ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَدَلَائِلِهِ فِي خَلْقِهِ ، عَلَى أَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَمَعَ مَا يَغْتَرِفُونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ ابْتَدَأَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ فَكَوْنُهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ هَذَا يُكْذِبُونَ خَبْرَهُ فِي أَنَّهُ سَيُعِيدُ الْعَالَمَ خَلْقًا جَدِيدًا ، وَقَدْ اعْتَرَفُوا وَشَاهَدُوا مَا هُوَ أَعْجَبُ مِمَّا كَذَّبُوا بِهِ ، فَالْعَجَبُ مِنْ قَوْلِهِمْ : ﴿ أَيْذَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَقَدْ عَلِمَ كُلُّ عَالِمٍ وَعَاقِلٍ أَنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَأَنَّ مَنْ بَدَأَ الْخَلْقَ فَلَا إِعَادَةَ عَلَيْهِ أَسهَلُ ، ثُمَّ نَعَتْ الْمُكْذِبِينَ بِهَذَا فَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أَيُّ : يُسْحَبُونَ بِهَا فِي النَّارِ ۖ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أَيُّ : مَا كَثُورَ فِيهَا أَبَدًا لَا يُحَوَّلُونَ عَنْهَا وَلَا يُزُولُونَ .

وَسَتَعَجِّلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُومِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَسَتَعَجِّلُونَكَ ﴾ أَيُّ : هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبُونَ ﴿ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أَيُّ : بِالْعُقُوبَةِ ، فَكَانُوا مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ يَطْلُبُونَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ ﴾ أَيُّ : قَدْ أَوْفَعْنَا نِقْمَنَا بِالْأَمَمِ الْخَالِيَةِ وَجَعَلْنَاهُمْ عِبْرَةً وَعِظَةً لِمَنْ اتَّعَظَ بِهِمْ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْلَا حِلْمُهُ وَعَفْوُهُ لَعَاجَلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُومِهِمْ ﴾ أَيُّ : أَنَّهُ تَعَالَى ذُو عَفْوٍ وَصَفْحٍ وَسَتَرٍ لِلنَّاسِ مَعَ أَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ وَيُحْطِطُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، ثُمَّ قَرَنَ هَذَا الْحُكْمَ بِأَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِيَعْتَدِلَ الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ .

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٦٠﴾
 يَقُولُ تَعَالَىٰ إِنْخَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، أَنَّهُمْ يَقُولُونَ كُفْرًا وَعِنَادًا : لَوْلَا يَأْتِينَا بآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَا أُرْسِلَ
 الْأَوَّلُونَ ، كَمَا تَعَتَّبُوا عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا ، وَأَنْ يُزِيحَ عَنْهُمْ الْجِبَالَ وَيَجْعَلَ مَكَانَهَا مَرُوجًا
 وَأَنْهَارًا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ أَي : إِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تُبَلِّغَ رِسَالَةَ اللَّهِ الَّتِي أَمَرَكَ بِهَا .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ قِيلَ : أَي : وَلِكُلِّ قَوْمٍ دَاعٍ ، وَقِيلَ : نَبِيٌّ ، وَقِيلَ : قَائِدٌ .

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ
 بِمِقْدَارٍ ﴿٦١﴾ عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٦٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ الَّذِي لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا تَحْمِلُهُ الْحَوَائِلُ مِنْ كُلِّ
 إِنَاثِ الْحَيَوَانَاتِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان : ٣٤] أَي : مَا حَمَلَتْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ
 أُنْثَى ، أَوْ حَسَنٍ أَوْ قَبِيحٍ ، أَوْ سَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ، أَوْ طَوِيلِ الْعُمُرِ أَوْ قَصِيرِهِ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ قَالُوا : يَعْنِي السَّقَطُ ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ يَقُولُ : مَا زَادَتْ
 الرَّحِمُ فِي الْحَمْلِ عَلَىٰ مَا غَاضَتْ حَتَّىٰ وَلَدَتْهُ تَمَامًا ، وَذَلِكَ أَنَّ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَحْمِلُ عَشْرَةَ أَشْهُرٍ
 وَمَنْ تَحْمِلُ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَزِيدُ فِي الْحَمْلِ وَمِنْهُنَّ مَنْ تَقْصُرُ ، فَذَلِكَ الْغِيْضُ وَالزِّيَادَةُ
 الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِعِلْمِهِ تَعَالَى . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ أَي :
 بِأَجَلٍ ، حِفْظَ أَرْزَاقِ خَلْقِهِ وَأَجَاهُكُمْ ، وَجَعَلَ لِذَلِكَ أَجَلًا مَعْلُومًا . ﴿ عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أَي :
 يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا يُشَاهِدُهُ الْعِبَادُ ، وَمِمَّا يَغِيبُ عَنْهُمْ ، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ ﴿ الْكَبِيرِ ﴾ الَّذِي
 هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ أَي : عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] ،
 وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، فَخَضَعَتْ لَهُ الرُّقَابُ ، وَدَانَ لَهُ الْعِبَادُ طَوْعًا وَكَرْهًا .

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ۖ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ
 ﴿٦٣﴾ لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۖ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا
 بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۚ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ
 دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿٦٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَأَنَّهُ سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ أَسَرَ قَوْلُهُ أَوْ جَهَرَ بِهِ فَإِنَّهُ
 يَسْمَعُهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ ﴾ [طه : ٧]
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ ﴾ أَي : مُخْتَفٍ فِي قَعْرِ بَيْتِهِ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾

أَيُّ : ظَاهِرٌ مَاشٍ فِي بَيَاضِ النَّهَارِ وَضِيَائِهِ ، فَإِنَّ كِلَاهُمَا فِي عِلْمِ اللَّهِ عَلَى السَّوَاءِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود : ٥] ﴿ لَهُ مِعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : لِلْعَبِيدِ مَلَائِكَةٌ يَتَعَابُونَ عَلَيْهِ ، حَرَسٌ بِاللَّيْلِ وَحَرَسٌ بِالنَّهَارِ ، يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالْحَادِثَاتِ ، كَمَا يَتَعَابَبُ مَلَائِكَةُ آخَرُونَ لِحِفْظِ الْأَعْمَالِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، مَلَائِكَةُ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ بِالنَّهَارِ ، فَائْتِنَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ ، صَاحِبُ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ ، وَصَاحِبُ الشَّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِهِ وَيَحْرُسَانِهِ ، وَاحِدٌ مِنْ وَرَائِهِ وَآخَرٌ مِنْ قُدَامِهِ ، فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَمْلَاحٍ بِالنَّهَارِ ، وَأَرْبَعَةٍ آخَرِينَ بِاللَّيْلِ بَدَلًا ، حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ . رَوَى عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ قَالَ : مَلَائِكَةُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، فَإِذَا جَاءَ قَدَرُ اللَّهِ خَلَوْا عَنْهُ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ حِفْظُهُمْ لَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، وَهَذَا رَأْيُ الْأَكْثَرِينَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ بِأَمْرِ اللَّهِ .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿٥٦﴾ وَنُسَبِحَ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿٥٧﴾

يُنْبِئُ تَعَالَى : أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُسَخِّرُ الْبَرْقَ ، وَهُوَ مَا يَرَى مِنَ النُّورِ اللَّامِعِ سَاطِعًا مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : خَوْفًا لِلْمَسَافِرِ يَخَافُ أَذَاهُ وَمَشَقَّتَهُ وَطَمَعًا لِلْمُقِيمِ يَرْجُو بَرَكَتَهُ وَمَنْفَعَتَهُ وَيَطْمَعُ فِي رِزْقِ اللَّهِ ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أَيُّ : يَخْلُقُهَا مُنْشَأَةً جَدِيدَةً ، وَهِيَ لِكَثْرَةِ مَائِهَا ثَقِيلَةٌ قَرِيبَةٌ إِلَى الْأَرْضِ . قَالَ مُجَاهِدٌ : السَّحَابُ الثَّقَالُ : الَّذِي فِيهِ الْمَاءُ . ﴿ وَنُسَبِحَ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُنْسَخَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : يُرْسِلُهَا نِقْمَةً يَنْتَقِمُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ، وَقَدْ رُوِيَ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا مَرَّةً إِلَى رَجُلٍ مِنْ فِرَاعِنَةِ الْعَرَبِ فَقَالَ : « اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي » قَالَ : فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ : يَدْعُوكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ لَهُ : مَنْ رَسُولُ اللَّهِ ؟ وَمَا اللَّهُ ؟ أَمِنْ ذَهَبٍ هُوَ ، أَمْ مِنْ فِضَّةٍ هُوَ ، أَمْ مِنْ نُحَاسٍ هُوَ ؟ قَالَ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ خَبَرْتُكَ أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ لِي : « ارْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ » فَذَهَبَ فَقَالَ لَهُ مِثْلَهَا ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : « ارْجِعْ إِلَيْهِ فَادْعُهُ » فَرَجَعَ إِلَيْهِ الثَّالِثَةَ ، قَالَ : فَأَعَادَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْكَلَامَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ ﷻ سَحَابَةً حِيَالَ رَأْسِهِ فَرَعَدَتْ فَوَقَعَتْ مِنْهَا صَاعِقَةٌ

عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ؟ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : أَجْعَلْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً تُنَازِرُ الرَّبَّ وَتُمَثِّلُهُ فِي الْخَلْقِ ، فَخَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، فَلَا يَذُرُونَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مَخْلُوقٍ غَيْرِهِ ، أَي : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يُشَابِهُهُ شَيْءٌ وَلَا يُمِثِّلُهُ ، وَلَا يَنْدِلُهُ وَلَا عَدْلَ لَهُ ، وَلَا وَزِيرَ لَهُ ، وَلَا وَلَدَ وَلَا صَاحِبَةَ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَإِنَّمَا عَبْدٌ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مَعَهُ إِلَهَةٌ هُمْ مُعْتَرِفُونَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لَهُ عَبِيدٌ لَهُ ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْسِيَّتِهِمْ : لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ ، وَكَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] فَأَنكَرَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ حَيْثُ إِعْتَقَدُوا ذَلِكَ ، وَهُوَ تَعَالَى لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَإِذَا كَانَ الْجَمِيعُ عَبِيدًا فَلَمْ يَعْْبُدْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ بَلْ مَجْرَدُ الرَّأْيِ وَالْإِخْتِرَاعِ وَالْإِبْتِدَاعِ ، ثُمَّ قَدْ أَرْسَلَ رَسُولَهُ مِنْ أَوْهُمْ إِلَى آخِرِهِمْ تَرْجُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، وَتَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَى اللَّهِ فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ لَا مَحَالَةَ ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩]

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٥٠﴾

اِسْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى مَثَلَيْنِ مَضْرُوبَيْنِ لِلْحَقِّ فِي ثَبَاتِهِ وَبَقَائِهِ ، وَالْبَاطِلِ فِي اضْمِحْلالِهِ وَفَنَائِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أَي : مَطَرًا ﴿ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ أَي : أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسْبِهِ ، فَهَذَا كَبِيرٌ وَسِعَ كَثِيرًا مِنَ الْمَاءِ ، وَهَذَا صَغِيرٌ فَوَسِعَ بِقَدَرِهِ ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْقُلُوبِ وَتَفَاوُثِهَا ، فَمِنْهَا مَا يَسَعُ عِلْمًا كَثِيرًا ، وَمِنْهَا مَا لَا يَتَسَعُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ بَلْ يَضِيقُ عَنْهَا ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾ أَي : فَجَاءَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ الَّذِي سَالَ فِي هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ زَبَدٌ عَالٍ عَلَيْهِ ، هَذَا مِثْلٌ . ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ ﴾ الْآيَةُ . هَذَا هُوَ الْمَثَلُ الثَّانِي هُوَ مَا يُسَبِّكُ فِي النَّارِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ، أَي : لِيُجْعَلَ حِلْيَةً أَوْ نُحَاسًا أَوْ حَدِيدًا فَيُجْعَلُ مَتَاعًا ، فَإِنَّهُ يَغْلُوهُ زَبَدٌ مِنْهُ كَمَا يَغْلُو ذَلِكَ زَبَدٌ مِنْهُ ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ أَي : إِذَا اجْتَمَعَا لَا ثَبَاتَ لِلْبَاطِلِ وَلَا دَوَامَ لَهُ ، كَمَا أَنَّ الزَّبَدَ لَا يَثْبُتُ مَعَ الْمَاءِ وَلَا مَعَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَنَحْوِهِمَا ، بَلْ يُسَبِّكُ فِي النَّارِ ، بَلْ يَذْهَبُ وَيُضْمَحَلُّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ

فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ أَيُّ : لَا يُنْتَفَعُ بِهِ ، بَلْ يَتَفَرَّقُ وَيَتَمَرَّقُ وَيَذْهَبُ فِي جَانِبِي الْوَادِي وَيُعَلِّقُ بِالشَّجَرِ وَتَنْسِفُهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَذَلِكَ خَبَثُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ يَذْهَبُ وَلَا يَرْجِعُ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْمَاءُ ، وَذَلِكَ الذَّهَبُ وَنَحْوُهُ يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۖ ۚ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ۖ ۚ الْآيَةُ . هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ اخْتَمَلَتْ مِنْهُ الْقُلُوبُ عَلَى قَدَرِ يَقِينِهَا وَشَكِّهَا ، فَأَمَّا الشُّكُّ فَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ الْعَمَلُ ، وَأَمَّا الْيَقِينُ فَيَنْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَهْلَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ ۖ ۚ وَهُوَ الشُّكُّ ۖ ۚ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ ۚ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ ۖ ۚ وَهُوَ الْيَقِينُ ، وَكَمَا يُجْعَلُ الْحَيُّ فِي النَّارِ فَيُؤْخَذُ خَالِصُهُ وَيُتْرَكُ خَبَثُهُ فِي النَّارِ ، فَكَذَلِكَ يَقْبَلُ اللَّهُ الْيَقِينَ وَيُتْرَكُ الشُّكُّ .

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ ۚ أَوْلَيْكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمِهَادُ ﴿ ١٠٠ ۖ ۚ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَالِ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ۖ ۚ أَيُّ : أَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَانْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ وَصَدَقُوا أَخْبَارَهُ الْمَاضِيَةِ وَالْآيَةِ فَلَهُمْ ۖ ۚ الْحَسَنَى ۖ ۚ ، وَهُوَ الْجَزَاءُ الْحَسَنُ ، ۖ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ۖ ۚ أَيُّ : لَمْ يُطِيعُوا اللَّهَ ۖ ۚ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۖ ۚ أَيُّ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَوْ أَنَّ يُمَكِّنَهُمْ أَنْ يَفْتَدُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، وَلَكِنْ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ۖ ۚ أَوْلَيْكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ۖ ۚ أَيُّ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، أَيُّ : يُنَاقَشُونَ عَلَى النَّقِيرِ وَالْقُطْمِيرِ وَالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ ، وَمَنْ تُوقَشِ الْحِسَابُ عَذَبٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمِهَادُ ۖ ۚ .

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۖ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۖ ۚ يَقُولُ تَعَالَى : لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْلَمُ مِنَ النَّاسِ أَنْ الَّذِي ۖ ۚ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ۖ ۚ يَا مُحَمَّدُ ۖ ۚ مِنْ رَبِّكَ ۖ ۚ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرِيَّةَ وَلَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا اخْتِلَافَ فِيهِ ، بَلْ هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، لَا يُضَادُّ شَيْءٌ مِنْهُ شَيْئًا آخَرَ ، فَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا حَقٌّ ، وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ عَدْلٌ ، فَلَا يَسْتَوِي مَنْ تَحَقَّقَ صِدْقَ مَا جِئَتْ بِهِ يَا مُحَمَّدُ ، وَمَنْ هُوَ أَعْمَى لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَلَا يَفْهَمُهُ ، وَلَوْ فَهِمَهُ مَا انْقَادَ لَهُ وَلَا صَدَقَهُ وَلَا اتَّبَعَهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ۖ ۚ أَيُّ : أَفَهَذَا كَهَذَا ؟ لَا اسْتِوَاءَ ۖ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۖ ۚ أَيُّ : إِنَّمَا يَتَعَطَّرُ وَيَعْقِلُ أُولُو الْعُقُولِ السَّالِمَةِ الصَّحِيحَةِ ، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ .

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدِرُّوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ هُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنِ انْتَصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ : بَأَنَّ هُمْ عُقْبَى الدَّارِ ، وَهِيَ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ وَلَيْسُوا كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ « إِذَا عَاهَدَ أَحَدُهُمْ غَدْرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ » .

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ مِنْ صَلَهِ الْأَرْحَامِ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاجِرِ ، وَبَذْلِ الْمَعْرُوفِ ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أَيُ : فِيْمَا يَأْتُونَ وَمَا يَدْرُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ ، يُرَاقِبُونَ اللَّهَ فِي ذَلِكَ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَلهَذَا أَمَرَهُمْ عَلَى السَّدَادِ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ ، وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِمُ الْقَاصِرَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ أَيُ : عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ ، فَقَطَمُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْهَا لَلَّهِ تَعَالَى ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ بِحُدُودِهَا وَمَوَاقِيتِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَخُشُوعِهَا ، عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَرْضِيِّ ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أَيُ : عَلَى الَّذِينَ يَحِبُّ عَلَيْهِمُ الْإِنْفَاقَ هُمْ ، مِنْ زُوجَاتٍ وَقَرَابَاتٍ وَأَجَانِبَ ، مِنْ فُقَرَاءَ وَمَحَاجِرِ وَمَسَاكِينِ ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أَيُ : فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ ، لَمْ يَمْنَعْنَهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَالٌ مِنَ الْأَحْوَالِ ، أَنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ﴿ وَيَدِرُّوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ ﴾ أَيُ : يَدْفَعُونَ الْقَبِيحَ بِالْحَسَنِ ، فَإِذَا آذَاهُمْ أَحَدٌ قَابَلُوهُ بِالْجَمِيلِ صَبْرًا وَاحْتِمَالًا وَصَفْحًا وَعَفْوًا ، وَلِهَذَا قَالَ مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ السُّعَدَاءِ الْمُتَصِفِينَ بِهَؤُلَاءِ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ بَأَنَّ هُمْ عُقْبَى الدَّارِ ، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ وَالْعَدْنُ : الْإِقَامَةُ ، أَيُ : جَنَّاتُ إِقَامَةٍ يُخْلَدُونَ فِيهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أَيُ : يُجْمَعُ بَيْنَهُمْ وَيَبْنَى أَحْبَابُهُمْ فِيهَا مِنَ الْأَبَاءِ وَالْأَهْلِينَ وَالْأَبْنَاءِ ، يَمْنُ هُوَ صَالِحٌ لَهُ دُخُولُ الْجَنَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، لِنَقَرِ أَعْيُنُهُمْ بِهِمْ ، حَتَّى أَنَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتُهُ الْأَدْنَى إِلَى دَرَجَةِ الْأَعْلَى امْتِنَانًا مِنَ اللَّهِ وَإِحْسَانًا مِنْ غَيْرِ تَفْصِيصٍ لِلْأَعْلَى عَنْ دَرَجَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أَيُ : وَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ هَاهُنَا وَمِنْ هَاهُنَا لِلتَّهْنِئَةِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ ، فَعِنْدَ دُخُولِهِمْ إِيَّاهَا

تَفِدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مُسْلِمِينَ ، مُهْتَبِينَ لَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ التَّقَرُّبِ وَالْإِنْعَامِ ،
وَالْإِقَامَةِ فِي دَارِ السَّلَامِ فِي جِوَارِ الصَّدِّيقِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْكَرَامِ .

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾

هَذَا حَالُ الْأَشْقِيَاءِ وَصِفَاتِهِمْ وَذِكْرُ مَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَصِيرُهُمْ إِلَى خِلَافِ مَا صَارَ إِلَيْهِ
الْمُؤْمِنُونَ ، كَمَا أَنَّهُمْ اتَّصَفُوا بِخِلَافِ صِفَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، فَأُولَئِكَ كَانُوا يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَيَصْلُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَهَؤُلَاءِ : ﴿ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ وَهِيَ الْإِبْعَادُ عَنِ الرَّحْمَةِ
﴿ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وَهِيَ سُوءُ الْعَاقِبَةِ وَالْمَالِ ﴿ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى : أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُوسِّعُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ
مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ ، وَفَرِحَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ بِمَا أُوتُوا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ وَإِمْهَالًا ، ثُمَّ
حَقَّرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا إِدْخَرَهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فَقَالَ : ﴿ وَمَا
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴾ .

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّا اللَّهُ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي
إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۚ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ
الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَثَابٍ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قِيلِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ لَوْلَا ﴾ أَيُّ : هَلَا ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ
الْكَلَامُ عَلَى هَذَا غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى إِجَابَةِ مَا سَأَلُوا ، وَلِهَذَا قَالَ لِرَسُولِهِ : ﴿ قُلْ إِنَّا اللَّهُ
يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْمُضِلُّ وَالْهَادِي سَوَاءٌ بَعَثَ الرُّسُلَ بَايَةً عَلَى وَفَى
مَا اقْتَرَحُوا ، أَوْ لَمْ يُجِبْهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ ، فَإِنَّ الْهِدَايَةَ وَالْإِضْلَالَ لَيْسَ مَتَوَطًّا بِذَلِكَ وَلَا عَدَمِهِ ،
وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ إِنَّا اللَّهُ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ أَيُّ : وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ إِلَى
اللَّهِ ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَاسْتَعَانَ بِهِ وَتَضَرَّعَ لَدَيْهِ . ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : تَطْمِئِنُّ

وَتَرَكْنُ إِلَى جَانِبِ اللَّهِ وَتَسْكُنُ عِنْدَ ذِكْرِهِ ، وَتَرْضَى بِهِ مَوْلًى وَنَصِيرًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أَيُّ : هُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَتَابُ ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : فَرَحٌ وَقَرَّةٌ عَيْنٌ ، وَقِيلَ : نِعَمٌ مَا لَهُمْ ، وَقِيلَ : غِبْطَةٌ لَهُمْ ، وَقِيلَ : خَيْرٌ لَهُمْ ؛ وَقَالَ قَتَادَةُ : هِيَ كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ يَقُولُ الرَّجُلُ : طُوبَى لَكَ ، أَيُّ : أَصَبْتَ خَيْرًا ، وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ : ﴿ طُوبَى لَهُمْ ﴾ حُسْنَى لَهُمْ ، ﴿ وَحَسُنَ مَتَابُ ﴾ أَيُّ : مَرْجِعٌ ، وَقِيلَ : طُوبَى اسْمُ الْجَنَّةِ بِالْهِنْدِيَّةِ ، وَقِيلَ : ﴿ طُوبَى لَهُمْ ﴾ أَيُّ : الْجَنَّةُ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : أَنَّ طُوبَى شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ فِي كُلِّ دَارٍ مِنْهَا غُصْنٌ مِنْهَا .

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أَيُّ : يُبَلِّغُهُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْكَافِرَةِ بِاللَّهِ ، وَقَدْ كَذَّبَ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ فَلَكَ بِهِمْ أُسُوءٌ ، وَكَمَا أَوْفَعْنَا بِأَسْنَا وَنَفَمْتَنَا بِأَوْلِيكَ فَلْيَحْذَرْ هَؤُلَاءِ مِنْ حُلُولِ النِّقَمِ بِهِمْ ، فَإِنْ تَكْذِيبُهُمْ لَكَ أَشَدُّ مِنْ تَكْذِيبِ غَيْرِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي بَعَثْنَاكَ فِيهِمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ لَا يَقْرُونَ بِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتَهُونَ مِنْ وَصْفِ اللَّهِ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَلِهَذَا أَنْفَعُوا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَنْ يَكْتُبُوا « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ، وَقَالُوا : مَا نَدْرِي مَا الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي تَكْفُرُونَ بِهِ أَنَا مُؤْمِنٌ بِهِ مُعْتَرِفٌ ، مُقَرِّئٌ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ ، هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أَيُّ : فِي جَمِيعِ أُمُورِي ، ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴾ أَيُّ : إِلَيْهِ أَرْجِعُ وَأُنِيبُ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ .

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلَّ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئْسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مَادِحًا لِلْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَمُفَضِّلًا لَهُ عَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ قَبْلَهُ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ أَيُّ : لَوْ كَانَ فِي الْكُتُبِ الْمَاضِيَةِ كِتَابٌ تَسِيرُ بِهِ الْجِبَالُ

عَنْ أَمَاكِنِهَا ، أَوْ تَقَطَّعَ بِهِ الْأَرْضُ وَتَشَقَّقَ أَوْ تُكَلَّمُ بِهِ الْمَوْتَى فِي قُبُورِهِمْ ، لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ الْمُتَّصِفُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ ، أَوْ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِعْجَازِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَنْ آخِرِهِمْ إِذَا اجْتَمَعُوا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ لَا الْمُشْرِكُونَ كَافِرُونَ بِهِ جَاحِدُونَ لَهُ ﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أَيُّ : مَرْجِعُ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، وَقَدْ يُطْلَقُ اسْمُ الْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ؛ لِأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْجَمْعِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَيُّ : مِنْ إِيَّانِ جَمِيعِ الْخَلْقِ ، وَيَعْلَمُوا أَوْ يَبَيِّنُوا ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فَإِنَّهُ لَيْسَ نَمَّ حُجَّةٌ وَلَا مُعْجِزَةٌ أَبْلَغُ وَلَا أَنْجَعُ فِي الْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، الَّذِي لَوْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ﴾ أَيُّ : بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لَا تَزَالُ الْقَوَارِعُ تُصِيبُهُمْ فِي الدُّنْيَا أَوْ تُصِيبُ مَنْ حَوْلَهُمْ لِيَتَّعِظُوا وَيَعْتَبِرُوا . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ قَالَ : سَرِيَّةٌ ، وَقِيلَ : عَذَابٌ مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ﴾ ، يَعْنِي : نُزُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ وَقِتَالُهُ إِيَّاهُمْ ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : فَتَحُ مَكَّةَ ، وَقِيلَ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أَيُّ : لَا يَنْقُضُ وَعْدَهُ لِرُسُلِهِ بِالنُّصْرَةِ لَهُمْ وَلَا تَبَاعِثِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرُسُولِهِ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أَيُّ : فَلَكَ فِيهِمْ أُسْوَةٌ ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيُّ : أَنْظَرْتُهُمْ وَأَجَلْتُهُمْ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أَخَذَهُ رَابِيَةً ، فَكَيْفَ بَلَغَكَ مَا صَنَعْتَ بِهِمْ وَعَاقَبْتَهُمْ وَأَمَلَيْتَ لَهُمْ ؟ .

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّنُهُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أَيُّ : حَفِظٌ عَلَيْهِمْ رَقِيبٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مِنْفُوسَةٍ ، يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، أَفَمَنْ هُوَ كَذَلِكَ كَالْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَعْقِلُ وَلَا تَمْلِكُ نَفْعًا لِنَفْسِهَا وَلَا

لِعَابِدِيهَا ، وَلَا كَشَفَ ضُرِّ عَنْهَا وَلَا عَنْ عَابِدِيهَا ؟ وَحُذِفَ هَذَا الْجَوَابُ إِكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ أَيُّ : عَبْدُوهَا مَعَهُ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَنْدَادٍ وَأَوْثَانٍ ﴿ قُلْ سَمُوهُمْ ﴾ أَيُّ : أَعْلِمُونَا بِهِمْ وَاکْشِفُوا عَنْهُمْ حَتَّى يُعْرِفُوا ، فَإِنَّهُمْ لَا حَقِيقَةَ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَمْ تَتَّبِعُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : لَا وَجُودَ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهَا وَجُودٌ فِي الْأَرْضِ لَعَلِمَهَا ؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ قِيلَ : بِظَنٍّ مِنَ الْقَوْلِ ، وَقِيلَ : بِبَاطِلٍ مِنَ الْقَوْلِ ، أَيُّ : إِنَّمَا عَبْدْتُمْ هَذِهِ الْأَصْنَامَ بِظَنٍّ مِنْكُمْ أَنَّهَا تَنْفَعُ وَتَضُرُّ وَتَسْمِيئُوهَا آلِهَةً ﴿ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : قَوْلُهُمْ ، أَيُّ : مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالِدَّعْوَةِ إِلَيْهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ . ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ مَنْ قَرَأَهَا يَفْتَحُ الصَّادَ مَعْنَاهُ : أَنَّهُ لَمَّا زَيْنَ هُمْ مَا هُمْ فِيهِ وَأَنَّهُ حَقٌّ دَعَا إِلَيْهِ ، وَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الرُّسُلِ ، وَمَنْ قَرَأَهَا بِالضَّمِّ أَيُّ : بِمَا زَيْنَ هُمْ مِنْ صِحَّةٍ مَا هُمْ عَلَيْهِ صُدُّوا بِهِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٦٦﴾
 * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٦٧﴾

ذَكَرَ تَعَالَى عِقَابَ الْكُفَّارِ وَتَوَابَ الْأَبْرَارِ ، فَقَالَ بَعْدَ إِخْبَارِهِ عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أَيُّ : بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ قَتْلًا وَأَسْرًا ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ ﴾ أَيُّ : الْمُدْخَرُ مَعَ هَذَا الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا ﴿ أَشَقُّ ﴾ أَيُّ : مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ ، وَلِهَذَا قَرَنَ هَذَا بِهِذَا ، فَقَالَ : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ أَيُّ : صِفَتُهَا وَنَعْتُهَا ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ، أَيُّ : سَارِحَةٌ فِي أَرْجَائِهَا وَجَوَانِبِهَا ، وَحَيْثُ شَاءَ أَهْلُهَا يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ، أَيُّ : يُصْرِفُونَهَا كَيْفَ شَاءُوا وَأَيْنَ شَاءُوا . ﴿ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ أَيُّ : فِيهَا الْفَوَاكِهُ وَالْمَطَاعِمُ وَالْمَشَارِبُ ، لَا انْقِطَاعَ وَلَا فَنَاءَ ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرَنُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ صِفَةِ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ النَّارِ ، لِيُرْغَبَ فِي الْجَنَّةِ وَيُحْذَرَ مِنَ النَّارِ ، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ صِفَةَ الْجَنَّةِ بَيَّنَّ ذَكَرَ قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٨﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٩﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٠﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧١﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٢﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٣﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٤﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٥﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٨﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٩﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٨٠﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٨١﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٨٢﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٨٤﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٨٥﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٨٦﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٨٧﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٨٨﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٨٩﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٩١﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٢﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٣﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٤﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٥﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٦﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٧﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٨﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٩﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْمُتَّقِينَ ﴿١٠٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمُقْتَضَاهُ ﴾ ، وَهُمْ قَائِمُونَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ، أَي : مِنَ الْقُرْآنِ لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى صِدْقِهِ وَالْبَشَارَةِ بِهِ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ أَي : وَمِنَ الطَّوَائِفِ مَنْ يُكَذِّبُ بَعْضُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ قَال بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، مَنْ يُنْكِرُ بَعْضُ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أَي : إِنَّمَا بُعِثْتُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا أُرْسِلَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُوا ﴾ أَي : إِلَى سَبِيلِهِ أَدْعُوا النَّاسَ ﴿ وَإِلَيْهِ مَقَابِ ﴾ أَي : مَرْجِعِي وَمَصِيرِي . ﴿ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أَي : وَكَمَا أُرْسَلْنَا قَبْلَكَ الْمُرْسَلِينَ وَأُنْزِلْنَا عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ مِنَ السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مُحْكَمًا مُعَرَّبًا ، شَرَفْنَاكَ بِهِ وَفَضَّلْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الَّذِي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿ [فصلت : ٤٢] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أَي : آرَاءَهُمْ ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أَي : مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ وَهَذَا وَعِيدٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَّبِعُوا سُبُلَ أَهْلِ الضَّلَالَةِ بَعْدَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ سُلُوكِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، عَلَى مَنْ جَاءَ بِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِنَافِيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٢٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولًا بَشَرِيًّا ، كَذَلِكَ قَدْ بَعَثْنَا الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ بَشَرًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَيَأْتُونَ الزَّوْجَاتِ وَيُولَدُ لَهُمْ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِنَافِيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، أَي : لَمْ يَكُنْ يَأْتِي قَوْمَهُ بِخَارِقٍ إِلَّا إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْهِ بَلْ إِلَى اللَّهِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أَي : لِكُلِّ مُدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ كِتَابٌ مَكْتُوبٌ بِهَا وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي ذَلِكَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : يُدَبِّرُ أَمْرَ السَّنَةِ فَيَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِلَّا الشَّقَاءَ وَالسَّعَادَةَ ، وَالْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ . وَعَنِ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ أَنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهُوَ يَبْكِي : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ كَتَبْتُ عَلَى شِقْوَةٍ أَوْ ذَنْبًا فَاحْمُهُ ، فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثَبِّتُ ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ فَاجْعَلْهُ سَعَادَةً وَمَغْفِرَةً . وَالْمَعْنَى : أَنَّ الْأَفْئِدَارَ يَنْسَخُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْهَا وَيُثَبِّتُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ :

الْكِتَابِ كِتَابَانِ فِكِتَابٌ يَمْحُو اللَّهُ مِنْهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ، ﴿١٠﴾ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿١١﴾ وَجُمْلَةُ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ النَّاسِخُ وَمَا يُبَدِّلُ وَمَا يُثَبِّتُ كُلَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴿١٢﴾ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿١٣﴾ قِيلَ : الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ ، وَقَالَ فَتَادَةُ : أَيُّ : جُمْلَةُ الْكِتَابِ وَأَصْلِهِ .

وَإِنْ مَا تُرِيْنَكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْنَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿١٤﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ : ﴿١٤﴾ وَإِنْ مَا تُرِيْنَكَ ﴿١٥﴾ يَا مُحَمَّدُ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُ أَعْدَاءَكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالنِّكَالِ فِي الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ أَوْ نَتَوَفَّيْنَكَ ﴿١٧﴾ أَيُّ : قَبْلَ ذَلِكَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴿١٩﴾ أَيُّ : إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ لِنُبَلِّغَهُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ وَقَدْ بَلَغْتَ مَا أُمِرْتَ بِهِ ﴿٢٠﴾ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٢١﴾ أَيُّ : حِسَابُهُمْ وَجَزَاؤُهُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿٢٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴿٢٣﴾ أَيُّ : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَفْتَحُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ الْأَرْضَ بَعْدَ الْأَرْضِ ، وَقِيلَ الْمُرَادُ : خَرَابُهَا ، وَقِيلَ : هُوَ ظُهُورُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَقِيلَ : نَقْصَانُ الْأَنْفُسِ وَالشَّمَرَاتِ وَخَرَابُ الْأَرْضِ ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى وَهُوَ ظُهُورُ الْإِسْلَامِ عَلَى الشُّرِكِ قَرْيَةً بَعْدَ قَرْيَةٍ .

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿٢٥﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٢٦﴾ بِرُسُلِهِمْ وَأَرَادُوا إِخْرَاجَهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ ، فَمَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴿٢٨﴾ أَيُّ : أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِجَمِيعِ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، ﴿٢٩﴾ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴿٣٠﴾ لِمَنْ تَكُونُ الدَّائِرَةُ وَالْعَاقِبَةُ هُمْ أَوْ لِاتِّبَاعِ الرُّسُلِ ؟ كَلَّا : بَلْ هِيَ لِاتِّبَاعِ الرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى يُكَذِّبُكَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ وَيَقُولُونَ : ﴿٣٢﴾ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴿٣٣﴾ أَيُّ : مَا أَرْسَلَكَ اللَّهُ ﴿٣٤﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴿٣٥﴾ أَيُّ : حَسْبِيَ اللَّهُ هُوَ الشَّاهِدُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ ، شَاهِدٌ عَلَيَّ فِيمَا بَلَغْتُ عَنْهُ مِنَ الرِّسَالَةِ ، وَشَاهِدٌ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمَكْذُبُونَ فِيمَا تَفَرَّوْنَهُ مِنَ الْبُهْتَانِ . ﴿٣٦﴾ وَمَنْ عِنْدَهُ

عِلْمُ الْكِتَابِ هُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَإِنَّ هُمْ عِنْدَهُ إِسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَجِدُونَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْتَهُ فِي كُتُبِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ بَشَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ بِهِ .
 آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّعْدِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٥٢ تفسیر سورة إبراهيم عليه السلام مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ . كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ أَيُّ : هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى أَشْرَفِ رُسُلٍ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِهَا عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ هُ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ أَيُّ : إِنَّمَا بَعَثْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ بِهَذَا الْكِتَابِ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ إِلَى الْهُدَى وَالرُّشْدِ . هُ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ أَيُّ : هُوَ الْهَادِي لِمَنْ قَدَّرَ لَهُ الْهُدَايَةَ عَلَى يَدَيِ رُسُولِهِ الْمُبْعُوثِ عَنْ أَمْرِهِ ، يَهْدِيهِمْ هُ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ أَيُّ : الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ هُ الْحَمِيدُ أَيُّ : الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشُرْعِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، الصَّادِقُ فِي خَبَرِهِ . وَقَوْلُهُ : هُ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ هُ قَرَأَ بَعْضُهُمْ مُسْتَأْنَفًا مَرْفُوعًا ، وَقَرَأَ آخَرُونَ عَلَى الْإِتْبَاعِ صِفَةً لِلْجَلَالَةِ .

وَقَوْلُهُ : هُ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ أَيُّ : وَيْلٌ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ خَالَفُواكَ يَا مُحَمَّدٌ وَكَذَّبُوكَ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ، أَيُّ : يُقَدِّمُونَهَا وَيُؤْثِرُونَهَا عَلَيْهَا وَيَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا ، وَنَسُوا الْآخِرَةَ وَتَرَكُوهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، هُ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ هُ وَهِيَ إِتْبَاعُ الرُّسُلِ هُ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أَيُّ : وَيُحِبُّونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلُ اللَّهِ عِوَجًا مَائِلَةً عَائِلَةً ، وَهِيَ مُسْتَقِيمَةٌ فِي نَفْسِهَا لَا يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا وَلَا مَنْ خَذَلَهَا ، فَهُمْ فِي إِبْتِغَائِهِمْ ذَلِكَ فِي جَهْلِ وَضَلَالٍ بَعِيدٍ مِنَ الْحَقِّ ، لَا يُرْجَى لَهُمْ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - صَلَاحٌ .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾

هَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ بِلُغَاتِهِمْ ، لِيَفْهَمُوا عَنْهُمْ مَا يُرِيدُونَ وَمَا أُرْسِلُوا بِهِ إِلَيْهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : بَعْدَ الْبَيَانِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ وَجْهِ الْهُدَى ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي أَعْمَالِهِ فَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ ، وَيَهْدِي مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِدَلِّكَ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ كُلَّهُمْ ، تَدْعُوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا مُوسَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِآيَاتِنَا . قِيلَ : وَهِيَ التَّسْعُ الْآيَاتُ . أَمَرْنَاهُ قَائِلِينَ لَهُ : ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أَيُّ : أَدْعُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ لِيُخْرِجُوا مِنَ ظُلُمَاتٍ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَبَصِيرَةِ الْإِيمَانِ ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : بِأَيَادِيهِ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ وَظُلْمِهِ وَغَشْمِهِ ، وَإِنْجَائِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ عَذْوِهِمْ ، وَفَلَقِهِ هُمُ الْبَحْرَ ، وَتَظْلِيلِهِ إِيَّاهُمْ بِالْغَمَامِ ، وَإِنْزَالِهِ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أَيُّ : إِنَّ فِي مَا صَنَعْنَا بِأَوْلِيَائِنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ أَنْقَذْنَاهُمْ مِنْ يَدِ فِرْعَوْنَ وَأَنْجَيْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِنِ لَعِبْرَةٌ ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أَيُّ : فِي الضَّرَاءِ ، ﴿ شَكُورٍ ﴾ أَيُّ : فِي السَّرَّاءِ .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْخِلُونَ أَسْنَانَكُمْ فِي سِوَاكُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿١٣﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى حِينَ ذَكَرَ قَوْمَهُ بِأَيَّامِ اللَّهِ عِنْدَهُمْ ، وَنِعْمَهُ عَلَيْهِمْ ، إِذْ أَنْجَاهُمْ مِنْ

أَلْ فِرْعَوْنَ ، وَمَا كَانُوا يَسْئَلُونَ عَنْهُ مِنْ الْعَذَابِ وَالْإِذْلَالِ ، حَيْثُ كَانُوا يُدْبِحُونَ مَنْ وَجَدَ مِنْ أَبنَائِهِمْ وَيَتْرَكُونَ إِنَائِهِمْ ، فَأَنْقَذَهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أَي : نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْهُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ ، أَنْتُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا . وَقِيلَ : وَفِيهَا كَانَ يَصْنَعُهُ بِكُمْ قَوْمُ فِرْعَوْنَ مِنْ تِلْكَ الْأَفَاعِيلِ ﴿ بَلَاءٌ ﴾ أَي : اخْتِبَارٌ عَظِيمٌ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هَذَا وَهَذَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّرْتُ رَبُّكُمْ ﴾ أَي : أَدْنَيْكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِوَعْدِهِ لَكُمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : وَإِذْ أَقْسَمَ رَبُّكُمْ وَأَلَى بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّرْتُ رَبُّكَ لِنَبْعَثْ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ ﴾ [الأعراف : ١٦٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَبِنَ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أَي : لَبِنَ شَكَرْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ مِنْهَا ﴿ وَلَبِنَ كَفَرْتُمْ ﴾ أَي : كَفَرْتُمْ النِّعَمَ وَسَتَرْكُمُوهَا وَجَحَدْتُمُوهَا ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وَذَلِكَ بِسَلْبِهَا عَنْهُمْ وَعِقَابُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى كُفْرِهَا . ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ حَمِيرًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِي حَمِيدٌ ﴾ أَي : هُوَ غَنِيٌّ عَنْ شُكْرِ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَمِيدُ الْمَحْمُودُ ، وَإِنْ كَفَرَهُ مَنْ كَفَرَ .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١﴾

قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا خَبَرَ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْدُوبَةِ لِلرُّسُلِ بِمَا لَا يَحْصِي عَدَدُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﷻ : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَي : بِالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ الْبَاهِرَاتِ الْقَاطِعَاتِ ، ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ كَذَّبُوهُمْ وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ . قُلْتُ : وَيُؤَيِّدُهُ تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِتِمَامِ الْكَلَامِ ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ فَكَانَ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - تَفْسِيرًا لِمَعْنَى ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ، وَقِيلَ : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ عَضُّوا عَلَيْهَا غِيظًا . ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُونَ : لَا نُصَدِّقُكُمْ فِيمَا جِئْتُمْ بِهِ ، فَإِنَّ عِنْدَنَا فِيهِ شَكٌّ قَوِيًّا .

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تَرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ خُنْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ

نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ وَمَا لَنَا إِلَّا
نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۖ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ۖ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا دَارَ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَبَيْنَ رُسُلِهِمْ مِنَ الْمَجَادَلَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّهُمْ لَمَّا وَاجَهُوهُمْ
بِالشُّكِّ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، قَالَتِ الرُّسُلُ : ﴿ أَفَى اللَّهِ شَكٌّ ﴾ ،
وَهَذَا يَحْتَمِلُ شَيْئَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا : أَفَى وَجُودِهِ شَكٌّ ، فَإِنَّ الْفِطْرَ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِهِ وَجَبُولُهُ عَلَى
الْإِقْرَارِ بِهِ ، فَإِنَّ الْإِعْتِرَافَ بِهِ ضَرُورِيٌّ فِي الْفِطْرِ السَّلِيمَةِ ، وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِهَا شَكٌّ
وَاضْطِرَابٌ فَتَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي الدَّلِيلِ الْمَوْصِلِ إِلَى وَجُودِهِ ، وَهَذَا قَالَتْ لَهُمُ الرُّسُلُ تَرْشُدُهُمْ
إِلَى طَرِيقِ مَعْرِفَتِهِ بِأَنَّهُ : ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الَّذِي خَلَقَهَا وَابْتَدَعَهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ،
فَإِنَّ شَوَاهِدَ الْخُذُوثِ وَالْخَلْقِ وَالتَّسْخِيرِ ظَاهِرٌ عَلَيْهَا ، فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ صَانِعٍ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَهُهُ وَمَلِيكُهُ ، وَالْمَعْنَى الثَّانِي فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ أَفَى اللَّهِ شَكٌّ ﴾ أَيِ : أَفَى إِلَهِيَّتِهِ
وَتَفَرُّدِهِ بِوُجُوبِ الْعِبَادَةِ لَهُ شَكٌّ ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ
وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنَّ غَالِبَ الْأُمَمِ كَانَتْ مُقَرَّرَةً بِالصَّانِعِ ، وَلَكِنْ تَعَبَّدَ مَعَهُ غَيْرُهُ مِنْ
الْوَسَائِطِ الَّتِي يَطُنُّونَهَا تَنْفَعُهُمْ أَوْ تُفَرِّجُهُمْ مِنَ اللَّهِ رُلْفَى ، وَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴿ يَدْعُوَكُمْ لِيَغْفِرَ
لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أَيِ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أَيِ : فِي الدُّنْيَا ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا مِنْكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَمَتِّعْكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي
فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود : ٣] ، فَقَالَتْ لَهُمُ الْأُمَمُ مُحَاجِّجِينَ فِي مَقَامِ الرِّسَالَةِ ، بَعْدَ تَقْدِيرِ تَسْلِيمِهِمْ
الْمَقَامَ الْأَوَّلَ ، وَحَاصِلُ مَا قَالُوهُ : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ أَيِ : كَيْفَ نَتَّبِعُكُمْ بِمَجَرَّدِ قَوْلِكُمْ ،
وَلَمَّا نَرِ مِنْكُمْ مُعْجَزَةً ﴿ فَأَتُونَا بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ ﴾ أَيِ : خَارِقٍ نَقْتَرِحُهُ عَلَيْكُمْ . ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ
إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أَيِ : صَحِيحٌ أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ ﴿ وَلَكِنْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أَيِ : بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ ﴿ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ ﴾ عَلَى وَفْقِ مَا سَأَلْتُمْ ﴿ إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أَيِ : بَعْدَ سُؤَالِنَا إِيَّاهُ ، وَإِذْنُهُ لَنَا فِي ذَلِكَ ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَيِ : فِي
جَمِيعِ أُمُورِهِمْ . ثُمَّ قَالَتِ الرُّسُلُ : ﴿ وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ أَيِ : وَمَا يَمْنَعُنَا مِنَ التَّوَكُّلِ
عَلَيْهِ وَقَدْ هَدَانَا لَأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحَهَا وَأَبَيَّنَهَا ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ أَيِ : مِنْ
الْكَلَامِ السَّيِّئِ وَالْأَفْعَالِ السَّخِيفَةِ ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى

إِلَيْهِمْ رَهُمْ لَهْلَكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنَسْكِنَنَّكَمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَآيِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَآيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا تَوَعَّدَتْ بِهِ الْأُمَمُ الْكَافِرَةُ رُسُلَهُمْ مِنَ الْإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ وَالنَّفْيِ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ، كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ وَلَٰئِنْ آمَنَ بِهِ ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ [الاعراف : ٨٨] . وَكَمَا قَالَ قَوْمُ لُوطٍ : ﴿ أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ﴾ [النمل : ٥٦] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] ، وَكَانَ مِنْ صُنْعِهِ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَظْهَرَ رَسُولَهُ وَنَصَرَهُ ، وَجَعَلَ لَهُ سَبَبَ خُرُوجِهِ مِنْ مَكَّةَ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا وَجُنْدًا ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَمْ يَزَلْ يُرْقِيهِ تَعَالَىٰ مِنْ شَيْءٍ إِلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ فَتَحَ لَهُ مَكَّةَ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ ، وَمَكَّنَ لَهُ فِيهَا وَأَرْغَمَ أَنْوَفَ أَعْدَائِهِ مِنْهُمْ وَمِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، حَتَّىٰ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، وَظَهَرَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَدِينُهُ عَلَىٰ سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، فِي مَسَارِقِ الْأَرْضِ وَمَعَارِبِهَا فِي أَيْسَرِ زَمَانٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ وَلَنَسْكِنَنَّكَمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أَيُّ : وَعُدِّي هَذَا لِمَنْ خَافَ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَخَشِيَ مِنْ وَعِيدِي وَهُوَ تَخْوِيفِي وَعَذَابِي . ﴿ وَأَسْتَفْتَحُوا ﴾ أَيُّ : اسْتَنْصَرَتْ الرُّسُلُ رَبَّهَا عَلَىٰ قَوْمِهَا . ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أَيُّ : مُتَجَبِّرٍ فِي نَفْسِهِ عَنِيدٌ مُّعَانِدٌ لِلْحَقِّ . ﴿ مِّنْ وَرَآيِهِ جَهَنَّمُ ﴾ وَرَاءَ هُنَا بِمَعْنَى : أَمَامُ ، أَيُّ : هِيَ لَهُ بِالْمُرْصَادِ ، يَسْكُنُهَا مُخَلَّدًا يَوْمَ الْمَعَادِ ، وَيُعْرَضُ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا إِلَىٰ يَوْمِ التَّنَادِ ﴿ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أَيُّ : فِي النَّارِ لَيْسَ لَهُ شَرَابٌ إِلَّا مِنْ حَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ ، فَهَذَا حَارٌّ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ ، وَهَذَا بَارِدٌ فِي غَايَةِ الْبَرْدِ وَالتَّنِ ، قِيلَ : الصَّدِيدُ مِنَ الْقَيْحِ وَالدَّمِ ، وَقِيلَ : هُوَ مَا يَسِيلُ مِنْ لَحْمِهِ وَجَلْدِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أَيُّ : يَتَغَصَّصُهُ وَيَتَكَرَّهُهُ ، أَيُّ : يَشْرَبُهُ قَهْرًا وَقَسْرًا لَا يَضَعُهُ فِي فَمِهِ حَتَّىٰ يَضْرِبَهُ الْمَلَكُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ ، ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أَيُّ : يَزْدَرِيهِ لِسُوءِ طَعْمِهِ وَلَوْْنِهِ وَرِيحِهِ ، وَحَرَارَتِهِ أَوْ بَرْدِهِ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أَيُّ : يَأْلُمُ لَهُ جَمِيعُ بَدَنِهِ وَجَوَارِحِهِ وَأَعْضَائِهِ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَيُّ : مِنْ أَمَامِهِ وَخَلْفِهِ ، وَفِي رَوَايَةٍ : وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِ وَمِنْ سَائِرِ أَعْضَاءِ جَسَدِهِ ، وَقِيلَ : أَنْوَاعُ الْعَذَابِ الَّذِي

يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ لَيْسَ مِنْهَا نَوْعٌ إِلَّا يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْهُ ، لَوْ كَانَ يَمُوتُ وَلَكِنْ لَا يَمُوتُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ وَرَآيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أَيُّ : وَلَهُ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ الْحَالِ عَذَابٌ آخَرٌ غَلِيظٌ ، أَيُّ : مُؤْلَمٌ صَعْبٌ شَدِيدٌ أَعْلَظُ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ وَأَذْهَى وَأَمْرٌ .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ ﴿٥٠﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ وَبَنَوْا أَعْمَالَهُمْ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ صَحِيحٍ ، فَانْهَارَتْ وَعَدِمُوهَا أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ ﴾ أَيُّ : مَثَلُ أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا طَلَبُوا ثَوَابَهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى شَيْءٍ ، فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا ، وَلَا أَلْفَوْا حَاصِلًا إِلَّا كَمَا يَتَحَصَّلُ مِنَ الرَّمَادِ إِذَا اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ أَيُّ : ذِي رِيحٍ شَدِيدَةٍ عَاصِفَةٍ قَوِيَّةٍ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَسَبُوا فِي الدُّنْيَا ، إِلَّا كَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى جَمْعِ هَذَا الرَّمَادِ فِي هَذَا الْيَوْمِ ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ ﴾ أَيُّ : سَعِيَّهُمْ وَعَمَلُهُمْ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ وَلَا اسْتِقَامَةٍ ، حَتَّى فَقَدُوا ثَوَابَهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ ﴾ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٥١﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَعَادِ الْأَبْدَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، أَفَلَيْسَ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَعَظَمَتِهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ وَالْحَرَكَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ ، وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، وَهَذِهِ الْأَرْضُ بِمَا فِيهَا مِنْ مِهَادٍ وَوَهَادٍ وَأَوْتَادٍ وَبَرَارٍ وَصَحَارٍ وَقِفَارٍ وَبِحَارٍ وَأَشْجَارٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ ، عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَمَنَافِعِهَا وَأَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ﴿٥١﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٥٢﴾ أَيُّ : بِعَظِيمٍ وَلَا مُتَمَتِّعٍ ، بَلْ هُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ أَنْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِي بِآخَرِينَ عَلَى غَيْرِ صِفَتِكُمْ .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْتُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا

أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَبَرُّوْا ﴾ أَي : بَرَزَتْ الْخَلَائِقُ كُلُّهَا بَرُّهَا وَفَاجِرُهَا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ، أَي : اجْتَمَعُوا لَهُ فِي بَرَازٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَسْتُرُ أَحَدًا ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ ﴾ وَهُمْ الْأَتْبَاعُ لِقَادَتِهِمْ وَسَادَتِهِمْ وَكِبَرَائِهِمْ ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعَنْ مُوَافَقَةِ الرُّسُلِ ، قَالُوا لَهُمْ : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أَي : مَهْمَا أَمَرْتُمُونَا إِتَمَرْنَا وَفَعَلْنَا ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْغُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أَي : فَهَلْ تَدْفَعُونَ عَنَّا شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، كَمَا كُنْتُمْ تَعِدُونَنَا وَتُمَثِّنُونَا ، فَقَالَتِ الْقَادَةُ لَهُمْ : ﴿ لَوْ هَدَّيْنَاهُ اللَّهُ هَدَيْنَاكُمْ ﴾ وَلَكِنْ حَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ، وَسَبَقَ فِيْنَا وَفِيكُمْ قَدَرُ اللَّهِ ، وَحَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ أَي : لَيْسَ لَنَا خَلَاصٌ بِمَا نَحْنُ فِيهِ إِنْ صَبَرْنَا عَلَيْهِ أَوْ جَزِعْنَا مِنْهُ .

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّاتٌ فِيهَا سَلَامٌ ﴿١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَاطَبَ بِهِ إِبْلِيسُ أَتْبَاعَهُ بَعْدَمَا قَضَى اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ ، فَأَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّاتِ وَأَسْكَنَ الْكَافِرِينَ الدَّرَكَاتِ ، فَقَامَ فِيهِمْ إِبْلِيسُ - لَعْنَهُ اللَّهُ - يَوْمِئِذٍ خَطِيبًا لِيَرِيدَهُمْ حُزْنَ إِلَى حُزْنِهِمْ ، وَغَبْنًا إِلَى غَبْنِهِمْ ، وَحَسْرَةً إِلَى حَسْرَتِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ ﴾ أَي : عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ وَوَعَدَكُمْ فِي إِتْبَاعِهِمْ النَّجَاةَ وَالسَّلَامَةَ ، وَكَانَ وَعْدًا حَقًّا وَخَبْرًا صِدْقًا ، وَأَمَّا أَنَا فَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أَي : مَا كَانَ لِي دَلِيلٌ فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ، وَلَا حُجَّةٌ فِيمَا وَعَدْتُكُمْ بِهِ ﴿ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ بِمَجَرَّدِ ذَلِكَ ، هَذَا وَقَدْ أَقَامَتْ عَلَيْكُمْ الرُّسُلُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ ، فَخَالَفْتُمُوهُمْ فَصَرْتُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿ فَلَا تَلُومُونِي ﴾ الْيَوْمَ ﴿ وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فَإِنَّ الذَّنْبَ لَكُمْ لِكُونِكُمْ خَالَفْتُمُ الْحُجَجَ ، وَاتَّبَعْتُمُونِي بِمَجَرَّدِ مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى الْبَاطِلِ ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أَي : بِنَافِعِكُمْ وَمُنْقِذِكُمْ وَمُخْلِصِكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أَي : بِنَافِعِي بِإِنْقَاذِي مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ إِنِّي

جَحَدْتُ أَنْ أَكُونَ شَرِيكًا لِلَّهِ ۖ وَهَذَا هُوَ الرَّاجِحُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَالظَّاهِرُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ أَنَّ هَذِهِ الْحُطْبَةَ تَكُونُ مِنْ إِبْلِيسَ بَعْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ كَمَا قَدَّمْنَا ، ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَالَ الْأَشْقِيَاءِ وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْحَزَنِ وَالنَّكَالِ ، وَأَنَّ خَطِيئَتَهُمُ إِبْلِيسَ عَطَفَ بِمَالِ السُّعْدَاءِ ، وَأَتَتْهُمْ يَدْخُلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، سَارِحَةً فِيهَا حَيْثُ سَارُوا وَأَيْنَ سَارُوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مَا كَثِيرٌ أَبَدًا لَا يَحُولُونَ وَلَا يَزُولُونَ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٦﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۖ وَضَرَبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

﴿١٧﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٨﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شَهَادَةً أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وَهُوَ الْمُؤْمِنُ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يُرْفَعُ بِهَا عَمَلُ الْمُؤْمِنِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَعْنُونَ : إِنَّ ذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنْ عَمَلِ الْمُؤْمِنِ وَقَوْلِهِ الطَّيِّبِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ كَشَجَرَةٍ مِنَ النَّخْلِ لَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلُ صَالِحٍ فِي كُلِّ حِينٍ وَوَقْتُ وَصَبَاحٍ وَمَسَاءٍ .

وَقَوْلُهُ: ﴿تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قِيلَ : غُدُوَّةً وَعَشِيًّا ، وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ : أَنَّ الْمُؤْمِنَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ ، لَا يَزَالُ يُوجَدُ مِنْهَا ثَمَرٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَيْفٍ أَوْ شِتَاءٍ ، أَوْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ لَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلُ صَالِحٍ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ، فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أَي: كَامِلًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هَذَا مَثَلُ كُفْرِ الْكَافِرِ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا ثَبَاتٍ ، مُشَبَّهٌ بِشَجَرَةِ الْحُظُلِّ . ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أَي: أُسْتُوْصِلَتْ ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أَي: لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا ثَبَاتٍ ، كَذَلِكَ الْكُفْرُ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا فَرْعَ ، وَلَا يَصْعَدُ لِلْكَافِرِ عَمَلٌ وَلَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ شَيْءٌ .

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿١٩﴾

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾» .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿٢٠﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا

وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٥٠﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٥١﴾

قَالَ الْبُخَارِيُّ : قَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا ﴾ . الْبَوَارُ : الْهَلَكَ ، بَارَ يَبُورُ بَوْرًا وَ ﴿ قَوْمًا بَوْرًا ﴾ هَالِكِينَ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قَالَ : هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ . وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى يُعْمُ جَمِيعُ الْكُفَّارِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَنِعْمَةً لِلنَّاسِ ، فَمَنْ قَبِلَهَا وَقَامَ بِشُكْرِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ رَدَّهَا وَكَفَرَهَا دَخَلَ النَّارَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أَيُّ : جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ ، عَبْدُوهُمْ مَعَهُ وَدَعَوْا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أَيُّ : مَهْمَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَافْعَلُوا ، فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ ﴿ فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أَيُّ : مَرْجِعُكُمْ وَمَوْثِقُكُمْ إِلَيْهَا .

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِطَاعَتِهِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ ، بِأَن يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَن يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ بِأَدَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالنَّفَقَةِ عَلَى الْقَرَابَاتِ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَجَانِبِ ، وَالْمُرَادُ بِإِقَامَتِهَا هُوَ : الْحَافِظَةُ عَلَى وَقْتِهَا وَحُدُودِهَا وَرُكُوعِهَا وَخُشُوعِهَا وَسُجُودِهَا ، وَأَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَ فِي السِّرِّ ، أَيُّ : فِي الْخَفِيَّةِ وَالْعَلَانِيَّةِ وَهِيَ : الْجَهْرُ ، وَلِيُبَادِرُوا إِلَى ذَلِكَ لِخَلَاصِ أَنْفُسِهِمْ ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ أَيُّ : لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ فِدْيَةٌ أَن تُبَاعَ نَفْسُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الحديد : ١٥] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا خِلَالٌ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ لَيْسَ هُنَاكَ مُحَالَةً خَلِيلٍ ، فَيُصَفِّحُ عَمَّنِ اسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ عَنِ الْعِقَابِ لِمُخَالَفَتِهِ ، بَلْ هُنَاكَ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ . قُلْتُ : وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا بَيْعٌ وَلَا فِدْيَةٌ ، وَلَوْ افْتَدَى بِمَاءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَوْ وَجَدَهُ ، وَلَا تَنْفَعُهُ صَدَاقَةُ أَحَدٍ وَلَا شَفَاعَةُ أَحَدٍ إِذَا لَقِيَ اللَّهَ كَافِرًا .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ

﴿٦٦﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٦٧﴾ وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٦٨﴾

يُعَدُّ تَعَالَى نِعْمَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، بِأَن خَلَقَ لَهُمُ السَّمَاوَاتِ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَالْأَرْضَ فِرَاشًا ﴿٦٦﴾ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿ طه : ٥٣ ﴾ مَا بَيْنَ نِيَّارٍ وَزُرُوعٍ مُخْتَلِفَةٍ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ ، وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْمَنَافِعِ ، وَسَخَّرَ الْفُلْكَ بِأَن جَعَلَهَا طَافِيَةً عَلَى تَيَّارٍ مَاءِ الْبَحْرِ تَجْرِي عَلَيْهِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَسَخَّرَ الْبَحْرَ لِحِمْلِهَا لِيَقْطَعَ الْمَسَافِرُونَ بِهَا مِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ آخَرَ ، لِحَلْبِ مَا هُنَا إِلَى هُنَاكَ وَمَا هُنَاكَ إِلَى هُنَا ، وَسَخَّرَ الْأَنْهَارَ تَشْقِ الْأَرْضَ مِنْ قَطَرٍ إِلَى قَطَرٍ ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ مِنْ شُرْبٍ وَسَقْيٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أَي : يَسِيرَانِ لَا يَفْتَرَانِ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] فَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَتَعَاقَبَانِ ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَتَعَارَضَانِ ، فَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا فَيَطُولُ ثُمَّ يَأْخُذُ الْآخَرُ مِنْ هَذَا فَيَقْصُرُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ يَقُولُ هِيََّا لَكُمْ كُلَّ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ ، مِمَّا تَسْأَلُونَهُ بِحَالِكُمْ وَقَالِكُمْ . ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَجْزِ الْعِبَادِ عَنْ تَعْدَادِ النِّعَمِ فَضْلًا عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٦٩﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ دُونِي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى فِي هَذَا الْمَقَامِ مُحْتَجًّا عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، بِأَن الْبَلَدَ الْحَرَامَ مَكَّةَ إِنَّمَا وُضِعَتْ أَوَّلَ مَا وُضِعَتْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي كَانَتْ بِسَبِيلِهِ أَهْلَةُ عَامِرَةَ ، تَبَرَّأَ مِمَّنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ وَأَنَّهُ دَعَا لِمَكَّةَ بِالْأَمْنِ فَقَالَ : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ ، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ [العنكبوت : ٦٧] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ يَنْبَغِي لِكُلِّ دَاعٍ أَنْ يَدْعُو لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ افْتَتَنَ بِالْأَصْنَامِ خَلَائِقُ مِنَ النَّاسِ وَأَنَّهُ تَبَرَّأَ مِمَّنْ عَبَدَهَا ، وَرَدَّ أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذِّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ .

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ يَهْوَى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٧١﴾

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا دُعَاءً ثَانٍ بَعْدَ الدُّعَاءِ الْأَوَّلِ الَّذِي دَعَا بِهِ عِنْدَمَا وَلَّى عَنْ هَاجَرَ وَوَلَدَهَا ، وَذَلِكَ قَبْلَ بِنَاءِ الْبَيْتِ ، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ بِنَائِهِ تَأْكِيدًا وَرَغْبَةً إِلَى اللَّهِ ﷻ وَهَذَا قَالَ :

﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَيُّ : إِنَّمَا جَعَلْتُهُ مُحَرَّمًا لِيَتِمَّ كَنَ أَهْلُهُ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ عِنْدَهُ ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : لَوْ قَالَ أَفْئِدَةُ النَّاسِ لَأَزْدَحَمَ عَلَيْهِ فَارِسٌ وَالرُّومُ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ ، وَلَكِنْ قَالَ : ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فَاخْتَصَّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أَيُّ : لِيَكُونَ ذَلِكَ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى طَاعَتِكَ ، وَكَفَى أَنَّهُ وَادٍ غَيْرُ ذِي زَرْعٍ فَاجْعَلْ لَهُمْ ثِمَارًا يَأْكُلُونَهَا ، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ ذَلِكَ ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَبَرَكَتِهِ ، أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ مَكَّةَ شَجَرَةٌ مُثْمِرَةٌ ، وَهِيَ تُجْبَى إِلَيْهَا ثَمَرَاتُ مَا حَوْلَهَا اسْتِجَابَةً لِدُعَاءِ الْحَلِيلِ ^(الطَّالِقِ) .

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا نَحْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أَيُّ : أَنْتَ تَعْلَمُ قَصْدِي فِي دُعَائِي ، وَمَا أَرَدْتُ بِدُعَائِي لِأَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ ، وَإِنَّمَا هُوَ الْقَصْدُ إِلَى رِضَاكَ وَالْإِخْلَاصُ لَكَ ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، لَا يُخْفَى عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، ثُمَّ حَمِدَ رَبَّهُ ^(عَلَى مَا رَزَقَهُ مِنَ الْوَلَدِ بَعْدَ الْكِبَرِ) ، فَقَالَ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أَيُّ : أَنَّهُ يَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَاهُ ، وَقَدْ اسْتَجَابَ لِي فِيمَا سَأَلْتُهُ مِنَ الْوَلَدِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أَيُّ : مُحَافِظًا عَلَيْهَا مُقِيمًا لِحُدُودِهَا ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أَيُّ : وَاجْعَلْهُمْ كَذَلِكَ مُقِيمِينَ لَهَا ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أَيُّ : فِيمَا سَأَلْتُكَ فِيهِ كُلِّهِ . ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ «وَلِوَالِدَيَّ» بِالْإِفْرَادِ ، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ عَدَاوَتُهُ ^(لِللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) وَلِلْمُؤْمِنِينَ أَيُّ : كُلُّهُمْ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أَيُّ : يَوْمَ تُحَاسِبُ عِبَادَكَ فَتُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيُّ : لَا تَحْسَبَنَّ إِذَا أَنْظَرَهُمْ وَأَجَلَّهُمْ أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْهُمْ ، مُهْمِلٌ لَهُمْ لَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَى صُنْعِهِمْ ، بَلْ هُوَ يُخْصِي ذَلِكَ

عَلَيْهِمْ وَيَعُدُّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابًا : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أَي : مِنْ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ قِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَعَجَلَتِهِمْ إِلَى قِيَامِ الْمَحْشَرِ فَقَالَ : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أَي : مُسْرِعِينَ ، ﴿ مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ رَافِعِي رُءُوسِهِمْ ﴿ لَا يَزِيدُ إِلَّا فِيهِمْ طَرَفُهُمْ ﴾ أَي : بَلْ أَبْصَارُهُمْ طَائِرَةٌ شَاخِصَةٌ مُدِيمُونَ النَّظَرَ لَا يَطْرَفُونَ لِحُطَّةٍ ، لِكَثْرَةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْهَوْلِ وَالْفِكْرَةِ الْمُخَافَةِ لِمَا يَحِلُّ بِهِمْ ، عِيَاذًا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَقْعَدْتُهُمْ هَوَاءً ﴾ أَي : وَقَلْبُهُمْ خَاوِيَةٌ خَالِيَةٌ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ لِكَثْرَةِ الْوَجَلِ وَالْخَوْفِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ هَوَاءً ﴾ خَرَابٌ لَا تَعِي شَيْئًا لِشِدَّةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ :

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ مُجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أُولَئِكَ تَكُونُوا آفَاسَتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿١٥﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْنَا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿١٦﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَتْرُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا عَنْ قِيلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ مُجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ ، قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا : ﴿ أُولَئِكَ تَكُونُوا آفَاسَتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ أَي : أُولَئِكَ تَكُونُوا تَحِلْفُونَ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ أَنَّهُ لَا زَوَالٍ لَكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ، وَأَنَّهُ لَا مَعَادَ وَلَا جَزَاءَ فَذُوقُوا هَذَا بِذَلِكَ . ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْنَا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ أَي : قَدْ رَأَيْتُمْ وَبَلَّغْتُكُمْ مَا أَحْلَلْنَا بِالْأَمَمِ الْمُكَذِّبَةِ قَبْلَكُمْ ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِيهِمْ مُعْتَبَرٌ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا أَوْقَعْنَا بِهِمْ لَكُمْ مُزْدَجَرٌ . قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَتْرُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ .

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿١٨﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرَّرًا لِعَوْدِهِ وَمُؤَكَّدًا : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ أَي : مِنْ نُصْرَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ذُو عِزَّةٍ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ وَلَا يُغَالَبُ ، وَذُو انتِقَامٍ مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَجَحَدَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ أَي : وَعُدَّهُ هَذَا حَاصِلٌ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ وَهِيَ هَذِهِ عَلَى غَيْرِ الصِّفَةِ الْمَأْلُوفَةِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَعَنْ عَائِشَةَ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَتَمَّا قَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ قَالَتْ : قُلْتُ : أَئِنَّ النَّاسَ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : «عَلَى الصِّرَاطِ» .

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٦٦﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٦٧﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَدِيعٌ حِسَابٍ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ وَتَبَرُّرُ الْخَلَائِقِ لِدَيَانِهَا ، تَرَى يَا مُحَمَّدُ يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمِينَ وَهُمْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا بِكُفْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أَيُّ : بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، قَدْ جُمِعَ بَيْنَ النَّظَرَاءِ أَوْ الْأَشْكَالِ مِنْهُمْ ، كُلُّ صِنْفٍ إِلَى صِنْفٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ أَيُّ : ثِيَابُهُمُ الَّتِي يَلْبَسُونَهَا عَلَيْهِمْ مِّنْ قَطِرَانٍ ، وَهُوَ الَّذِي تُهَنِّأُ بِهِ الْإِبِلُ ، أَيُّ : تُطْلَى ، قَالَ قَتَادَةُ : وَهُوَ الْأَصْقُ شَيْءٌ بِالنَّارِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : الْقَطْرَانُ : هُوَ النَّحَاسُ الْمَذَابُ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٤] وَقَوْلُهُ : ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٦٩﴾ يَقُولُ تَعَالَى هَذَا الْقُرْآنُ بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ، أَيُّ : هُوَ بَلَاغٌ لِّجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ : ﴿الرَّ كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الْآيَةِ ، ﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ أَيُّ : لِيَتَّعِظُوا بِهِ ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أَيُّ : يَسْتَدِلُّوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالدَّلَالَاتِ ، عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أَيُّ : ذَوِي الْعُقُولِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

آياتها ٩٩ تفسير سورة الحجر مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَلِيْلَهُمْ أَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

الآية ، إخبارٌ عنهم أنهم سيُندمون على ما كانوا فيه من الكُفر ، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مع المسلمين ، وقيل : المراد : أن كل كافر يودُّ عند احتضاره أن لو كان مؤمناً ، وقيل : هذا إخبارٌ عن يوم القيامة . ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ تهديدٌ شديدٌ لهم ووعدٌ أكيدٌ ، ولهذا قال : ﴿ وَلَهُمْ الْأَمَلُ ﴾ أي : عن التوبة والإنابة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : عاقبة أمرهم .

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿١٠﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿١١﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ قَرْيَةً إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهَا وَانْتِهَاءِ أَجْلِهَا ، وَأَنَّهُ لَا يُؤَخِّرُ أُمَّةً حَانَ هَلَاكُهَا عَنْ مِيقَاتِهِمْ وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَنْ مُدَّتِهِمْ ، وَهَذَا تَنْبِيْهُ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَإِرْشَادٌ لَهُمْ إِلَى الْإِقْلَاعِ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالْعِنَادِ وَالْإِلْحَادِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْهَلَاكَ .

وَقَالُوا يَتَأَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١٢﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْطَرِبِينَ ﴿١٤﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِهِمْ وَعُتُوهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ أي : الذي يدعي ذلك ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي : في دعائك إيانا إلى إيتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آبائنا ﴿ لَوْ مَا ﴾ أي : هلاً ﴿ تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ ﴾ أي : يشهدون لك بصحة ما جئت به إن كنت من الصادقين . قيل في قوله : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ بِالرَّسَالَةِ وَالْعَذَابِ ، ثُمَّ قَرَّرَ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَهُوَ الْحَافِظُ لَهُ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ : إِنَّهُ أَرْسَلَ مِنْ قَبْلِهِ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، وَإِنَّهُ مَا أَتَى أُمَّةً مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَّبُوهُ وَاسْتَهْزَؤُوا بِهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ سَلَكَ التَّكْذِيبَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ عَانَدُوا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ إِتْبَاعِ الْهُدَى . وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ يَعْنِي : الشُّرْكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : قَدْ عَلِمَ مَا فَعَلَ تَعَالَى بِمَنْ كَذَّبَ رُسُلَهُ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ ، وَكَيْفَ أَنْجَى اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ وَاتَّبَاعَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿٢٠﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ

نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿٥٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُوَّةِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ : أَنَّهُ لَوْ فَتِحَ لَهُمْ بَابُ مِنَ السَّمَاءِ فَجَعَلُوا يَصْعَدُونَ فِيهِ لَمَا صَدَقُوا بِذَلِكَ ، بَلْ قَالُوا : ﴿ إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ سُدَّتْ أَبْصَارُنَا ، وَقِيلَ : أَخَذَتْ أَبْصَارُنَا ، وَقِيلَ : شُبِّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّمَا سَحَرْنَا ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : السَّكَرَانُ الَّذِي لَا يَعْقِلُ .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿٥١﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٥٢﴾ إِلَّا مَنْ أَصْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿٥٣﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿٥٤﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٥٥﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى خَلْقَهُ السَّمَاءِ فِي إِرْفَاعِهَا ، وَمَا زَيَّنَّاهَا بِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ ، لِمَنْ تَأَمَّلَ وَكَرَّرَ نَظْرَهُ فِيهَا يَرَى فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، مَا يَحَارُ نَظْرُهُ فِيهِ ، وَبِهَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : الْبُرُوجُ هَهُنَا هِيَ : الْكَوَاكِبُ .

وَجَعَلَ الشُّهُبَ حَرَسًا لَهَا مِنْ مَرَدَةِ الشَّيَاطِينِ ؛ لِئَلَّا يَسْمَعُوا إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يُبْلَغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ : « إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ كَالسَّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ ، فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : لِلَّذِي قَالَ : الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ ، هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشُّهُبُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيَحْرِقُهُ ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ ، حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الْأَرْضِ » - وَرُبَّمَا قَالَ - حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَرْضِ : « فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ ، فَيُصَدِّقُ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا بِكَوْنِ كَذَا وَكَذَا فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا ؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتُمْ مِنَ السَّمَاءِ » .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَهُ الْأَرْضَ وَمَدَّهُ إِيَّاهَا وَتَوَسُّيعَهَا وَبَسْطَهَا ، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي وَالْأُودِيَةِ ، وَالْأَرَاظِي وَالرَّمَالِ ، وَمَا أَنْبَتَ فِيهَا مِنَ الزَّرُوعِ وَالنَّارِ الْمُتَنَاسِبَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : أَيُّ : مَعْلُومٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : مُقَدَّرٌ بِقَدَرٍ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُوزَنُ ، وَيُقَدَّرُ بِقَدَرٍ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ صَرَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ فِي صُنُوفِ الْأَسْبَابِ وَالْمَعَاشِ ، وَهِيَ جَمْعُ مَعِيشَةٍ . ﴿ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ قِيلَ : وَهِيَ الدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ ، وَقِيلَ : هُمُ الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ وَالِدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ ، وَالْقَصْدُ : أَنَّهُ تَعَالَى يَمْتَنُّ عَلَيْهِمْ بِمَا يَسَّرَ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْمَكَاسِبِ ، وَوُجُوهِ الْأَسْبَابِ وَصُنُوفِ

الْمَعَايِشِ ، وَبِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الدَّوَابِّ الَّتِي يَرْكَبُونَهَا ، وَالْأَنْعَامِ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا ، وَالْعَبِيدَ وَالْإِمَاءَ الَّتِي يَسْتَعْدِمُونَهَا ، وَرَزَقَهُمْ عَلَى خَالِقِهِمْ لَا عَلَيْهِمْ ، فَلَهُمْ هُمُ الْمُنْفَعَةُ وَالرِّزْقُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿١٦﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ تَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ ، وَأَنَّ عِنْدَهُ خَزَائِنُ الْأَشْيَاءِ مِنْ جَمِيعِ الصُّنُوفِ ﴿ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ ، كَمَا يَشَاءُ وَكَمَا يُرِيدُ ، وَلِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَالرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ لَا عَلَى جِهَةِ الْوُجُوبِ بَلْ هُوَ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ ﴾ أَيُّ : تَلْقَحُ السَّحَابَ فَنَدِرُ مَاءً ، وَتَلْقَحُ الشَّجَرَ فَتَفْتَحُ عَنْ أَوْرَاقِهَا وَأَكْثَامِهَا ، وَذَكَرَهَا بِصِيغَةِ الْجَمْعِ لِيَكُونَ مِنْهَا الْإِنْتِاجُ بِخِلَافِ الرِّيحِ الْعَقِيمِ فَإِنَّهُ أَفْرَدَهَا ، وَوَصَفَهَا بِالْعَقِيمِ وَهُوَ عَدَمُ الْإِنْتِاجِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَصَاعِدًا . قَالَ عَدَدُ مِنَ الْعُلَمَاءِ : تُرْسِلُ الرِّيحُ فَتَحْمِلُ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ حَتَّى تُدِرَّ كَمَا تُدِرُّ اللَّقْحَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أَيُّ : أَنْزَلْنَاهُ لَكُمْ عَذْبًا يُمَكِّنُكُمْ أَنْ تَشْرَبُوا مِنْهُ ، وَلَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ قِيلَ : بِمَانِعِينَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ : وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِحَافِظِينَ ، بَلْ نَحْنُ نُنْزِلُهُ وَنَحْفَظُهُ عَلَيْكُمْ وَنَجْعَلُهُ مَعِينًا وَنَبَايِعَ فِي الْأَرْضِ . ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَحْيَا الْخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ ، ثُمَّ يُمِيتُهُمْ ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ كُلَّهُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ بِهِمْ أَوْ هُمْ وَآخِرُهُمْ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ﴾ الْآيَةُ ، الْمُسْتَقْدِمُونَ : كُلُّ مَنْ هَلَكَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْمُسْتَأْخِرُونَ : مَنْ هُوَ حَيٌّ وَمَنْ سَيَأْتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢١﴾ وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ﴿٢٢﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِالصَّلْصَالِ هَهُنَا : التُّرَابُ الْيَابِسُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ ﴿ وَخَلَقَ الْجَنَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ [الرحمن : ١٤-١٥] . وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ أَيُّ : الصَّلْصَالُ مِنْ حَمَإٍ : وَهُوَ الطِّينُ ، وَالْمَسْنُونُ : الْأَمْلَسُ ، وَقِيلَ :

الْمُرَادُ بِالْمَسْنُونِ هَهُنَا : الْمَصُوبُ . ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَي : مِنْ قَبْلِ الْإِنْسَانِ ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هِيَ السَّمُومُ الَّتِي تَقْتُلُ ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ : التَّنْبِيهُ عَلَى شَرِّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَطَيْبِ عُنْصُرِهِ وَطَهَارَةِ مَحْيَدِهِ .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿١٥﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١٦﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿١٧﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ يَتَّبِعِلَيْسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى تَنْوِيهَهُ بِذِكْرِ آدَمَ فِي مَلَائِكَتِهِ قَبْلَ خَلْقِهِ لَهُ ، وَتَشْرِيفَهُ بِأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لَهُ ، وَيَذْكُرُ تَخَلُّفَ إِبْلِيسَ عَدُوَّهُ عَنِ السُّجُودِ لَهُ ، حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا وَافْتِخَارًا بِالْبَاطِلِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ .

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢١﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٤﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ أَمْرًا لِإِبْلِيسَ أَمْرًا كَوْنِيًّا لَا يُخَالِفُ وَلَا يُبَايِعُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى وَأَنَّهُ رَجِيمٌ ، أَي : مَرْجُومٌ ، وَأَنَّهُ قَدْ اتَّبَعْتُهُ لَعْنَةً لَا تَزَالُ مُتَّصِلَةً بِهِ لَا حِقَّةَ لَهُ مُتَوَاتِرَةً عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّهُ لَمَّا تَحَقَّقَ الْغَضَبُ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ ، سَأَلَ مِنْ تَمَامِ حَسَدِهِ لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ النَّظَرَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَوْمُ الْبَعْثِ ، وَأَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَهُ وَإِمْهَالًا ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ النَّظَرَةُ قَبَحَهُ اللَّهُ .

قَالَ رَبِّ مَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٠﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْلِيسَ وَتَكَرُّدِهِ وَعُتُوَّهُ أَنَّهُ قَالَ لِلرَّبِّ : ﴿ مَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : أَقْسَمَ بِإِغْوَاءِ اللَّهِ لَهُ . قُلْتُ : وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ يَسَبِّحُ مَا أَغْوَيْتَنِي وَأَضَلَلْتَنِي ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أَي : لِدُورِيَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : أَحَبُّ إِلَيْهِمُ الْمَعَاصِي وَأَرْغَبُهُمْ فِيهَا ، وَأَأْزُهُمْ إِلَيْهَا

وَأَرْعَبُهُمْ إِزْعَاجًا ﴿١٤﴾ وَلَا غُوبِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ أَيُّ : كَمَا أَغْوَيْتَنِي وَقَدَّرْتَ عَلَيَّ ذَلِكَ ﴿١٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٧﴾ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا ﴿١٨﴾ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٩﴾ أَيُّ : مَرْجِعُكُمْ كُلُّكُمْ إِلَيَّ فَأُجَارِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنْ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤] ، وَقِيلَ : طَرِيقُ الْحَقِّ مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي . ﴿ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ قَدَّرْتَ لَهُمْ الْهُدَايَةَ فَلَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهِمْ وَلَا وُصُولَ لَكَ إِلَيْهِمْ ﴿ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ . ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيُّ : جَهَنَّمَ مَوْعِدُ جَمِيعِ مَنْ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ لِحْظَتَهُمْ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ ﴿ هَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ أَيُّ : قَدْ كُتِبَ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ اتِّبَاعِ إِبْلِيسَ يَدْخُلُونَهُ لَا يَحِيدُ عَنْهُ ، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا ! وَكُلُّ يَدْخُلُ مِنْ بَابٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ ، وَيَسْتَقَرُّ فِي دَرَكٍ بِقَدْرِ فِعْلِهِ . عَنْ عَلِيٍّ ؑ قَالَ : أَبْوَابُ جَهَنَّمَ سَبْعَةٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، فَيَمْتَلِئُ الْأَوَّلُ ثُمَّ الثَّانِي ثُمَّ الثَّالِثُ حَتَّى تَمْتَلِئَ كُلُّهَا ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : ﴿ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ أَوَّلُهَا جَهَنَّمَ ، ثُمَّ لَظَى ، ثُمَّ الْحُطْمَةُ ، ثُمَّ السَّعِيرُ ، ثُمَّ سَقَرٌ ، ثُمَّ الْجَحِيمُ ، ثُمَّ الْهَاطِيَّةُ ، وَقِيلَ : ﴿ هَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ بَابٌ لِلْيَهُودِ ، وَبَابٌ لِلنَّصَارَى ، وَبَابٌ لِلصَّابِيِّينَ ، وَبَابٌ لِلْمَجُوسِ ، وَبَابٌ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَهُمْ كُفَّارُ الْعَرَبِ ، وَبَابٌ لِلْمُنَافِقِينَ ، وَبَابٌ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ ، فَأَهْلُ التَّوْحِيدِ يُرْجَى لَهُمْ وَلَا يُرْجَى لِأُولَئِكَ أَبَدًا .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٠﴾ أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٢١﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٢٢﴾ لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٢٣﴾ ﴿ نَبَى عِبَادِي ﴾ أَيُّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢٤﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٢٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ أَهْلِ النَّارِ عَطَفَ عَلَى ذِكْرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَتَتْهُمْ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ ﴾ أَيُّ : سَالِمِينَ مِنَ الْآفَاتِ ، مُسَلِّمٌ عَلَيْكُمْ ﴿ ءَامِينَ ﴾ أَيُّ : مِنْ كُلِّ خَوْفٍ وَفَزَعٍ ، وَلَا تَخْشَوْا مِنْ إِخْرَاجٍ وَلَا انْقِطَاعٍ وَلَا فِتْنَاءٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ قِيلَ : يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ عَلَى مَا فِي صُدُورِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّحْنَاءِ وَالصَّغَائِنِ ، حَتَّى إِذَا تَوَافَوْا وَتَقَابَلُوا نَزَعَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ غَلٍّ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ قِيلَ : لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ فِي قَفَا بَعْضٍ ، ﴿ لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ يَعْنِي : الْمَشَقَّةُ وَالْأَذَى . ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَمْرُضُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَسْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَقِيمُوا فَلَا تَنْظَعُوا أَبَدًا » . وَقَوْلُهُ : ﴿ نَبَى عِبَادِي ﴾

أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٦﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٧﴾ أَيُّ : أَخْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عِبَادِي أَنِّي ذُو رَحْمَةٍ وَذُو عَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ نَظِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى مَقَامِي الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ .

وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٨﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا تُبَشِّرُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَاطِئِينَ ﴿٦٢﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَأَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ عَنْ قِصَّةِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، وَالضَّيْفُ : يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ كَالزُّورِ وَالسَّفَرِ ، وَكَيْفَ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَامًا ﴿٥٨﴾ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٩﴾ أَيُّ : خَائِفُونَ ، وَقَدْ ذَكَرَ سَبَبَ خَوْفِهِ مِنْهُمْ لَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَى مَا قَرَبَهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الضِّيَافَةِ ، وَهُوَ الْعَجَلُ السَّمِينُ الْحَنِيدُ . ﴿٦٠﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴿٦١﴾ أَيُّ : لَا تَخَفْ ﴿٦٢﴾ وَتَشْرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٦٣﴾ أَيُّ : إِسْحَاقَ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ هُودٍ ، ف ﴿٦٤﴾ قَالَ ﴿٦٥﴾ مُتَعَجِّبًا مِنْ كِبَرِهِ وَكِبَرِ زَوْجَتِهِ ، وَمُتَحَقِّقًا لِلْوَعْدِ ﴿٦٦﴾ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا تُبَشِّرُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَجَابُوهُ مُؤَكِّدِينَ لَمَّا بَشَّرُوهُ بِهِ تَحْقِيقًا ، وَبِشَارَةً بَعْدَ بَشَارَةٍ ﴿٦٨﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَاطِئِينَ ﴿٦٩﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : الْقَاطِئِينَ ، فَأَجَابَهُمْ بِأَنَّهُ لَيْسَ يَقْنَطُ وَلَكِنْ يَرْجُو مِنَ اللَّهِ الْوَلَدَ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ كَبُرَ وَأَسْنَتِ امْرَأَتُهُ ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ .

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٧١﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٢﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ، إِنَّهُ شَرَعَ يَسْأَلُهُمْ عَمَّا جَاءُوا لَهُ ، فَقَالُوا : ﴿٧٠﴾ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٧١﴾ يَعْنُونَ : قَوْمَ لُوطٍ ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ سَيُسْجَنُونَ أَلْ لُوطٍ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا مِنَ الْهَالِكِينَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿٧٢﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٧٣﴾ أَيُّ : الْبَاقِينَ الْمُهْلَكِينَ .

فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٧٦﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٧٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ لُوطٍ لَمَّا جَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فِي صُورَةِ شَبَابٍ حَسَنٍ الْوُجُوهَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ دَارَهُ ،

قَالَ : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ (١٧) قَالُوا بَلْ جَعَلْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿ يَعْنُونَ : بَعْدَائِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ الَّذِي كَانُوا يَشْكُونَ فِي وَقْعِهِ بِهِمْ ، وَحُلُولِهِ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الحجر : ٨] . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ ﴾ تأكيدٌ لِحَرِّهِمْ إِيَّاهُ بِمَا أَخْبَرُوهُ بِهِ مِنْ نَجَاتِهِ وَإِهْلَاكِ قَوْمِهِ .

فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ (١٨)

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ أَمَرُوهُ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ بَعْدَ مُضِيِّ جَانِبٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَأَنْ يَكُونَ لَوْطُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمْشِي وَرَاءَهُمْ لِيَكُونَ أَحْفَظَ لَهُمْ ، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي فِي الْغَزَاةِ ، بِمَا يَكُونُ سَاقَةَ يُزْجِي الضَّعِيفَ وَيَحْمِلُ الْمُتَقَطِّعَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ أَيُّ : إِذَا سَمِعْتُمْ الصَّيْحَةَ بِالْقَوْمِ فَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ ، وَذَرَوْهُمْ فِيمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ كَأَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ مَنْ يَهْدِيهِمُ السَّبِيلَ ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ ﴾ أَيُّ : تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ فِي هَذَا ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ أَيُّ : وَقْتَ الصَّبَاحِ .

وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ ضَيْفَى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (١٩) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَلَمِينَ ﴾ (٢٠) قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٢١)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِجْيَةِ قَوْمِ لَوْطٍ لَمَّا عَلِمُوا بِأَضْيَافِهِ وَصَبَاحَةِ وُجُوهِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ جَاءُوا مُسْتَبْشِرِينَ بِهِمْ فَرَحِينَ ﴿ إِنَّ هَتُولَاءِ ضَيْفَى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (١٩) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ ، وَهَذَا إِنَّمَا قَالَهُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَلَمِينَ ﴾ أَيُّ : أَوَمَا مَهِينَاكَ أَنْ تُضَيِّفَ أَحَدًا ؟ فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ وَمَا خَلَقَ لَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْهُمْ مِنَ الْفُرُوجِ الْمُبَاحَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ إِضْوَاحُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ، هَذَا كُلُّهُ وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَادُّ بِهِمْ ، وَمَا قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَمَا يُصْبِحُونَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُتَنَظَّرِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِحَمْدِهِ ﷻ : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أَفَسَمَ تَعَالَى بِحَيَاةِ نَبِيِّهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَفِي هَذَا تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ وَمَقَامٌ رَفِيعٌ وَجَاهٌ عَرِضٌ . وَقَالَ قَتَادَةُ ﴿ لَفِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ أَيُّ : فِي ضَلَالَتِهِمْ ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أَيُّ : يَلْعَبُونَ ، قِيلَ : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ لَعِيشُكَ ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قَالَ : يَرَدُّوْنَ .

فَأَخَذَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ

﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٦٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٠﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ ﴾ وَهِيَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الصَّوْتِ الْقَاصِفِ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَهُوَ طُلُوعُهَا ، وَذَلِكَ مَعَ رَفْعِ بِلَادِهِمْ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَلَبَهَا وَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا ، وَأَرْسَلَ حِجَارَةَ السَّجِّيلِ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى السَّجِّيلِ فِي هُودٍ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أَيُّ : أَنَّ آثَارَ هَذِهِ النِّقَمِ الظَّاهِرَةِ عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ ، لِمَنْ تَأَمَّلَ ذَلِكَ وَتَوَسَّاهُ بِعَيْنِ بَصَرِهِ وَبَصِيرَتِهِ ، كَمَا قِيلَ : ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قِيلَ : لِّلْمُعْتَرِينَ ، وَقِيلَ : لِّلْمُتَأَمِّلِينَ . ﴿ وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أَيُّ : وَإِنَّ قَرْيَةَ سَدُومَ الَّتِي أَصَابَهَا مَا أَصَابَهَا مِنَ الْقَلْبِ الصُّورِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ ، وَالْقَذْفِ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى صَارَتْ بُحَيْرَةً مُّتَنَتَةً خَبِيثَةً بِطَرِيقِ مَهْيَعٍ مَسَالِكُهُ مُسْتَوْرَةً إِلَى الْيَوْمِ ، قِيلَ : ﴿ وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ مُعَلَّمٌ ، وَقِيلَ : بِطَرِيقٍ وَاضِحٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : إِنَّ الَّذِي صَنَعْنَا بِقَوْمِ لُوطٍ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْدمَارِ وَإِنْجَاءِنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ ، لَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ .

أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ هُمْ : قَوْمُ شُعَيْبٍ ، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : الْأَيْكَةُ : الشَّجَرُ الْمُلتَفُّ ، وَكَانَ ظِلُّهُمْ بِشَرَكِهِمْ بِاللَّهِ وَقَطَعَهُمُ الطَّرِيقَ وَنَقَصَهُمُ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ بِالصَّيْحَةِ وَالرَّجْفَةِ وَعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، وَقَدْ كَانُوا قَرِيبًا مِنْ قَوْمِ لُوطٍ بَعْدَهُمْ فِي الزَّمَانِ وَمُسَامِتِينَ لَهُمْ فِي الْمَكَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيُّ : طَرِيقٍ مُّبِينٍ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : طَرِيقٌ ظَاهِرٌ ، وَلِهَذَا لَمَّا أَنْذَرَ شُعَيْبٌ قَوْمَهُ قَالَ فِي نِذَارَتِهِ إِنَاهُمْ ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٩]

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْحِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

أَصْحَابُ الْحِجْرِ : هُمْ ثَمُودُ الَّذِينَ كَذَّبُوا صَالِحًا نَبِيَّهُمُ عليه السلام وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِجَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ ، وَلِهَذَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ تَكْذِيبُ الْمُرْسَلِينَ ، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ آتَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ صَالِحٌ ، كَالنَّاقَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ لَهُمْ بِدَعَاءِ صَالِحٍ مِنْ صَخْرَةٍ صَلَاءَ ، وَكَانَتْ تَسْرَحُ فِي بِلَادِهِمْ ، لَهَا شَرْبٌ وَهُمْ شَرِبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، فَلَمَّا عَتَوْا وَعَقَرُوهَا قَالَ لَهُمْ : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] ، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ أَيُّ : مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا إِحْتِيَاجٍ إِلَيْهَا بَلْ أَشْرًا وَبَطْرًا وَعَبَثًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴾ أَي : وَقْتُ الصَّبَاحِ مِنَ الْيَوْمِ الرَّابِعِ ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أَي : مَا كَانُوا يَسْتَغْلُونَهُ مِنْ زُرُوعِهِمْ وَتِجَارِهِمُ الَّتِي ضَنُّوا بِهَاثِهَا عَنِ النَّاقَةِ حَتَّىٰ عَقَرُوهَا لِئَلَّا تَضِيقَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَيِّاءِ ، فَمَا دَفَعَتْ عَنْهُمْ تِلْكَ الْأَمْوَالُ وَلَا نَفَعَتْهُمْ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ .
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ
الْصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٤٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ أَي : بِالْعَدْلِ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ [النجم : ٣١] ، ثُمَّ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ وَأَنَّهَا كَانَتْ لَا مَحَالَةَ ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالصَّفْحِ الْجَمِيلِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَذَاهُمْ لَهُ وَتَكْذِيبِهِمْ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : كَانَ هَذَا قَبْلَ الْقِتَالِ ، وَهُوَ كَمَا قَالُوا ، فَإِنَّ هَذِهِ مَكِّيَّةٌ ، وَالْقِتَالُ إِنَّمَا شَرَعَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴾ تَقْرِيرٌ لِلْمَعَادِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَىٰ إِقَامَةِ السَّاعَةِ ، فَإِنَّهُ الْخَلْقُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ خَلْقُ شَيْءٍ ، الْعَلِيمُ بِمَا تَمَرَّقَ مِنَ الْأَجْسَادِ ، وَتَفَرَّقَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ .
وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ التَّمَنَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٤٧﴾ لَا تُمَدِّنْ عَيْنِكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : كَمَا آتَيْنَاكَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، فَلَا تَنْظُرَنَّ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا مَتَّعْنَا بِهِ أَهْلَهَا مِنَ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، فَلَا تَغْبِطَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ ، وَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، حُزْنَا عَلَيْهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ لَكَ وَمُخَالَفَتِهِمْ دِينَكَ ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : أَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي السَّبْعِ الْمَثَانِي مَا هِيَ ؟ فَقَالَ فَرِيقٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : هِيَ السَّبْعُ الطَّوَالُ ، يَعْنُونَ : الْبَقَرَةَ ، وَالْأَمْرَانَ ، وَالنِّسَاءَ ، وَالْمَائِدَةَ ، وَالْأَنْعَامَ ، وَالْأَعْرَافَ ، وَيُونُسَ .
وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّهَا الْفَاتِحَةُ وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ » فَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ الْفَاتِحَةَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، وَلَكِنْ لَا يُنَافِي وَصْفَ غَيْرِهَا مِنَ السَّبْعِ الطَّوَالِ بِذَلِكَ ، لِمَا فِيهَا مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ كَمَا لَا يُنَافِي وَصْفَ الْقُرْآنِ بِكَمَالِهِ بِذَلِكَ أَيْضًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تُمَدِّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ أَي : اسْتَغْنِ بِمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمَتَاعِ وَالزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ .

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٤٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٥١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ إِنَّهُ النَّذِيرُ الْمُبِينُ النَّذَارَةَ ، نَذِيرٌ لِلنَّاسِ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ، أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِهِ كَمَا حَلَّ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِهَا ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالْإِنْتِقَامِ . وَقَوْلُهُ: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أَيُّ: الْمُتَحَالِفِينَ ، أَيُّ: تَحَالَفُوا عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَتَكْذِيبِهِمْ وَأَذَاهُمْ . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الْمُقْتَسِمُونَ: أَصْحَابُ صَالِحِ الَّذِينَ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لِنُبِيِّتِهِ وَأَهْلِهِ . ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أَيُّ: جَزَّؤُوا كُتُبَهُمُ الْمُنَزَّلَةَ عَلَيْهِمْ فَأَمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ جَزَّؤْهُ أَجْزَاءً ، فَأَمَنُوا بِبَعْضِهِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ ، وَقِيلَ: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قَالُوا: سِحْرٌ ، وَقَالُوا: كِبَاهَنَةٌ ، وَقَالُوا: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَسَعَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٧) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالُوا: عَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٨) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩) الَّذِينَ تَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٠) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (١١) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١٢) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (١٣)

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِإِبْلَاحِ مَا بَعَثَهُ بِهِ ، وَإِبْلَاحِهِ وَالصَّدْعِ بِهِ ، وَهُوَ مُوَاجَهَةُ الْمُشْرِكِينَ بِهِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أَيُّ: أَمْضِيهِ ، وَفِي رِوَايَةٍ: افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ . وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩) أَيُّ: بَلَّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلَم: ٩] ، وَلَا تَخَفُهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ إِيَّاهُمْ وَحَافِظَكَ مِنْهُمْ . وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ تَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدُ لِمَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ مَعْبُودًا آخَرَ . وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (١١) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١٢) أَيُّ: وَإِنَّا لَنَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ أَنَّكَ يَحْصُلُ لَكَ مِنْ أَذَاهُمْ لَكَ ضِيقٌ صَدْرٍ وَانْقِبَاضٌ ، فَلَا يَبِيدَنَّكَ ذَلِكَ وَلَا يُثْنِينَكَ عَنْ إِبْلَاحِكَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ ، فَاشْتَغِلْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَعِبَادَتِهِ الَّتِي هِيَ الصَّلَاةُ ، وَهَذَا قَالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ عَمَّارٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَعْجِزُ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ» ، وَهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى . ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﴿الْيَقِينُ﴾ الْمَوْتُ .

وَيُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ كَالصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا وَاجِبَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَا دَامَ عَقْلُهُ ثَابِتًا ، فَيُصَلِّي بِحَسَبِ حَالِهِ . وَيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى تَخْطِئَةٍ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمَلَا حِدَةٍ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْيَقِينِ الْمَعْرِفَةَ ، فَمَتَى وَصَلَ أَحَدُهُمْ إِلَى الْمَعْرِفَةِ سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ عِنْدَهُمْ ، وَهَذَا كُفْرٌ وَضَلَالٌ وَجَهْلٌ ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ كَانُوا هُمْ وَأَصْحَابُهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِاللَّهِ وَأَعْرَفُهُمْ بِحُقُوقِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ التَّعْظِيمِ ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا أَعْبَدَ وَأَكْثَرَ النَّاسِ عِبَادَةً وَمُواظَبَةً عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالْيَقِينِ هَهُنَا : الْمَوْتُ كَمَا قَدَّمَاهُ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَجْرِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَذَوُّهَا مُعَبَّرًا بِصِيغَةِ الْمَاضِي الدَّالِّ عَلَى التَّحْقِيقِ وَالْوُقُوعِ لَا حِمْلَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ أَيُّ : قَرُبَ مَا تَبَاعَدَ ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى اللَّهِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْعَذَابِ وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ . ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَزَهَ نَفْسَهُ عَنْ شُرَكَائِهِ بِهِ غَيْرِهِ وَعِبَادَتِهِمْ مَعَهُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْتَانِ وَالْأَنْدَادِ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عُلُوهَا كَبِيرًا - وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُكَذِّبُونَ بِالسَّاعَةِ ، فَقَالَ : ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ ﴾ أَيُّ : الْوَحْيِ ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ . ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا ﴾ أَيُّ : لِيُنْذِرُوا ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ أَيُّ : فَاتَّقُوا عُقُوبَتِي لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَعَبَدَ غَيْرِي .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾

يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنِ خَلْقِهِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ : وَهُوَ السَّمَاوَاتُ ، وَالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ : وَهُوَ الْأَرْضُ بِمَا حَوَتْ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ بِالْحَقِّ لَا لِلْعَبَثِ ، بَلْ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ

أَحْسِنُوا بِالْحَسَنَى ﴿ [النجم : ٣١] ، ثُمَّ تَزَرَّ نَفْسُهُ عَنْ شَرِكٍ مِّنْ عَبْدٍ مَّعَهُ غَيْرُهُ ، وَهُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَلِهَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى خَلْقِ جِنْسِ الْإِنْسَانِ مِنْ نُطْفَةٍ ، أَيْ : مَهِينَةٍ ضَعِيفَةٍ ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّ وَدَرَجَ إِذَا هُوَ يُحَاصِمُ رَبَّهُ تَعَالَى وَيُكَذِّبُهُ وَيُجَارِبُ رُسُلَهُ ، وَهُوَ إِنَّمَا خُلِقَ لِيَكُونَ عَبْدًا لَا ضِدًّا .

وَالْآنَ نَعْمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْتَفِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١﴾ وَلَكُمْ فِيهَا حَمَالُ حِينَ تَرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٢﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ، وَهِيَ : الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ، كَمَا فَصَّلَهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ إِلَى ثَمَانِيَةِ أَزْوَاجٍ ، وَبِمَا جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا يَلْبَسُونَ وَيَفْتَرِشُونَ ، وَمِنْ أَلْبَانِهَا يَشْرَبُونَ ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ أَوْلَادِهَا ، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْجَمَالِ وَهُوَ الزَّيْنَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا حَمَالُ حِينَ تَرْتَحُونَ ﴾ وَهُوَ وَقْتُ رُجُوعِهَا عَشِيًّا مِنَ الْمَرْعَى ، فَإِنَّمَا تَكُونُ أَمَدُهُ خَوَاصِرَ ، وَأَعْظَمُهُ ضُرُوعًا ، وَأَعْلَاهُ أَسْنِمَةٌ ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أَيْ : غَدْوَةً حِينَ تَبْعَثُونَهَا إِلَى الْمَرْعَى ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ وَهِيَ الْأَحْمَالُ الثَّقِيلَةُ الَّتِي تَعْجِزُونَ عَنْ نَقْلِهَا وَحَمْلِهَا ﴿ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ وَذَلِكَ فِي الْحُجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْعَزْوِ وَالتَّجَارَةِ ، وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ ، تَسْتَعْمِلُونَهَا فِي أَنْوَاعِ الْإِسْتِعْمَالِ مِنْ رُكُوبٍ وَتَحْمِيلٍ ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا بَعْدَ تَعْدَادِ هَذِهِ النِّعَمِ ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : رَبُّكُمْ الَّذِي قَيَّضَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَنْعَامَ وَسَخَّرَهَا لَكُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أَيْ : ثِيَابٌ وَ ﴿ وَمَنْتَفِعٌ ﴾ مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرَبَةِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ دِفْءٌ وَمَنْتَفِعٌ ﴾ يَقُولُ : لَكُمْ فِيهَا لِبَاسٌ وَمَنْفَعَةٌ وَبُلْغَةٌ .

وَالْحَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ لِرُكُوبِهَا وَزِينَةٍ وَتَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

هَذَا صِنْفٌ آخَرٌ مِمَّا خَلَقَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ يَمْتَنُّ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ الْحَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ الَّتِي جَعَلَهَا لِلرُّكُوبِ وَالزَّيْنَةِ بِهَا ، وَذَلِكَ أَكْبَرُ الْمَقَاصِدِ مِنْهَا .

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مَا يُسَارَ عَلَيْهِ فِي السَّبْلِ الْحُسِيِّ ، نَبَّهَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمَعْنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي الْقُرْآنِ الْعُبُورُ مِنَ الْأُمُورِ الْحُسِيِّ إِلَى الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ النَّافِعَةِ الدِّينِيَّةِ ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْحَيَوَانَاتِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا ، الَّتِي يَرْكَبُونَهَا وَيَبْلُغُونَ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي

صُدُّوهُمْ ، وَتَحْمِلْ أَثْقَاهُمْ إِلَى الْبِلَادِ وَالْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ وَالْأَسْفَارِ الشَّاقَّةِ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا النَّاسُ إِلَيْهِ ، فَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْهَا مَا هِيَ مُوصِلَةٌ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ أَيُّ : طَرِيقُ الْحَقِّ عَلَى اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ ثَمَّ طُرُقًا تُسَلَّكُ إِلَيْهِ ، فَلَيْسَ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْهَا إِلَّا طَرِيقُ الْحَقِّ ، وَهِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي شَرَعَهَا وَرَضِيَهَا ، وَمَا عَدَاهَا مَسْدُودَةٌ وَالْأَعْمَالُ فِيهَا مَرْدُودَةٌ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أَيُّ : حَائِثٌ مَائِلٌ زَائِعٌ عَنِ الْحَقِّ ، أَيُّ : هِيَ الطُّرُقُ الْمُخْتَلِفَةُ وَالْأَرَاءُ وَالْأَهْوَاءُ الْمُتَفَرِّقَةُ ، كَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمَجُوسِيَّةِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَائِنٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَمَشِيتِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَكُمُ أَجْمَعِينَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالذَّوَابِّ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ فِي أَنْزَالِ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ ، وَهُوَ الْعُلُوُّ بِمَا هُمْ فِيهِ بُلْغَةٌ وَمَتَاعٌ لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ أَيُّ : جَعَلَهُ عَذْبًا زَلَالًا يَسُوعُ لَكُمْ شَرَابُهُ ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أَجَاجًا ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أَيُّ : وَأَخْرَجَ لَكُمْ مِنْهُ شَجَرًا تَرْعُونَ فِيهِ أَنْعَامَكُمْ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أَيُّ : تَرْعُونَ ، وَمِنْهُ الْإِبِلُ السَّائِمَةُ ، وَالسَّوْمُ : الرَّعْيُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أَيُّ : يُخْرِجُهَا مِنَ الْأَرْضِ بِهَذَا الْمَاءِ الْوَاحِدِ ، عَلَى اخْتِلَافِ صُنُوفِهَا وَطُغُومِهَا وَأَلْوَانِهَا وَرَوَائِحِهَا وَأَشْكَالِهَا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيُّ : دَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

يُبَيِّنُهُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى آيَاتِهِ الْعِظَامِ وَمِنْهُ الْحَسَامُ ، فِي تَسْخِيرِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَتَعَاقَبَانِ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَدُورَانِ ، وَالنُّجُومُ الثَّوَابِتُ وَالسَّيَّارَاتُ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاوَاتِ نُورًا وَضِيَاءً لِيُهْتَدَى بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ ، وَكُلُّ مِنْهَا يَسِيرُ فِي فَلَكِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ ، يَسِيرُ بِحَرَكَةٍ مُقَدَّرَةٍ لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا يَنْقُصُ عَنْهَا ، وَالْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ

وَتَسْهِيلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أَي لَدَلَالَةٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْبَاهِرَةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ ، لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ وَيَفْهَمُونَ حُجَجَهُ .

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ﴾ لَمَّا تَبَّهَ تَعَالَى عَلَى مَعَالِمِ السَّمَاوَاتِ تَبَّهُ عَلَى مَا خَلَقَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ وَالْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالْجِمَادَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْخَوَاصِّ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾ أَي : آلاءَ اللَّهِ وَنِعْمَهُ فَيَشْكُرُونَهَا .

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٦٢﴾ وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ ﴿٦٤﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ الْمُتَلَطِّمَ الْأَمْوَاجَ ، وَيَمْتَنُّ عَلَى عِبَادِهِ بِتَذْلِيلِهِ لَهُمْ وَيَسِيرِهِمْ لِلرُّكُوبِ فِيهِ ، وَجَعَلِهِ السَّمَكَ وَالْحَيْتَانَ فِيهِ ، وَإِحْلَالَهِ لِعِبَادِهِ لَحْمَهَا حَيْثَمَا وَمَيْتَتَهَا فِي الْحِلِّ وَالْإِحْرَامِ ، وَمَا يَخْلُقُهُ فِيهِ مِنَ اللَّالِئِ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ ، وَتَسْهِيلِهِ لِلْعِبَادِ اسْتِخْرَاجَهُمْ مِنْ قَرَارِهِ حِلْيَةً يَلْبَسُونَهَا ، وَتَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ لِحَمْلِ السُّفُنِ الَّتِي تَمْخَرُهُ ، أَي : تَشْقُهُ ، وَقِيلَ : تَمْخَرُ الرِّيَّاحُ ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ ، وَقِيلَ : تَمْخَرُهُ بِجَوْجُئِهَا : وَهُوَ صَدْرُهَا الْمُسْنَمُ الَّذِي أُرْشِدَ الْعِبَادَ إِلَى صَنْعَتِهَا ، وَهَدَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ إِزْنًا عَنْ أَبِيهِمْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَكِبَ السُّفْنَ ، وَلَهُ كَانَ تَعْلِيمُ صَنْعَتِهَا ، ثُمَّ أَخَذَهَا النَّاسُ عَنْهُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، يَسِيرُونَ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَمِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، لِحُلْبِ مَا هُنَاكَ إِلَى هُنَا وَمَا هُنَا إِلَى هُنَاكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَي : نِعْمَةً وَإِحْسَانَهُ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الرِّوَاسِيِ الشَّامِحَاتِ ، وَالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ لِتَقَرَّ الْأَرْضُ وَلَا تَمِيدَ ، أَي : تَضْطَرِبُ بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ، فَلَا يَهِنُ لَهُمْ عَيْشٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَالْجِبَالِ أَرْسَبَهَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا ﴾ أَي : جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، يَنْبُعُ فِي مَوْضِعٍ وَهُوَ رِزْقٌ لِأَهْلِ مَوْضِعٍ آخَرَ ، فَيَقْطَعُ الْبِقَاعَ وَالْبَرَاريَّ وَالْفِجَارَ وَيَخْتَرِقُ الْجِبَالَ

وَالْأَكَامَ ، فَيَصِلَ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي سَخَّرَ لَأَهْلِهِ وَهِيَ سَائِرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَمْنَةً وَبَسْرَةً وَجَنُوبًا وَسَمَالًا
وَشَرْقًا وَغَرْبًا ، مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ وَأُودِيَّةٍ تَجْرِي حِينًا وَتَنْقَطِعُ فِي وَقْتٍ ، وَمَا بَيْنَ نَبْعٍ وَجَمْعٍ وَقَوِيٍّ
السَّيْرِ وَبَطِيئِهِ بِحَسَبِ مَا أَرَادَ وَقَدَّرَ وَسَخَّرَ وَيَسَّرَ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . وَكَذَلِكَ جَعَلَ
فِيهَا ﴿ سُبُلًا ﴾ أَيُّ : طُرُقًا يُسَلِّكُ فِيهَا مِنْ بِلَادٍ إِلَى بِلَادٍ ، حَتَّى أَنَّهُ تَعَالَى لِيَقْطَعَ الْجَبَلَ حَتَّى يَكُونَ
مَا بَيْنَهُمَا مَرًّا وَمَسْلَكًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ [الأنبياء : ٣١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَّمْتَ ﴾ أَيُّ : دَلَّائِلُ مِنْ جِبَالٍ كِبَارٍ وَأَكَامٍ صِغَارٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، يَسْتَدِلُّ بِهَا الْمُسَافِرُونَ
بِرًّا وَبَحْرًا إِذَا ضَلُّوا الطَّرِيقَ . ﴿ وَيَالْنَجْمَ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أَيُّ : فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ . وَعَنْ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ :
﴿ وَعَلَّمْتَ وَيَالْنَجْمَ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يَقُولُ : النُّجُومُ وَهِيَ الْجِبَالُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْهَبًا عَلَى عَظَمَتِهِ ،
وَأَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ شَيْئًا بَلْ هُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلِهَذَا
قَالَ : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ . ثُمَّ تَبَهَّهْهُمْ عَلَى كَثْرَةِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ
إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيُّ : يَتَجَاوَزُ عَنْكُمْ ،
وَلَوْ طَالَبَكُمْ بِشُكْرِ نِعَمِهِ لَعَجَزْتُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِذَلِكَ ، وَلَوْ أَمَرَكُمْ بِهِ لَصَعَفْتُمْ وَتَرَكْتُمْ ، وَلَوْ
عَذَّبَكُمْ لَعَذَّبَكُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَكُمْ ، وَلَكِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ يَغْفِرُ الْكَثِيرَ وَيُجَازِي عَلَى الْيَسِيرِ .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوبُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ
شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٧﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ الضَّمَائِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرٌ وَإِنْ شَرًّا فَفَاسِدٌ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا
يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أَيُّ : هِيَ جَمَادَاتٌ لَا أَرْوَاحَ فِيهَا ، فَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا
تَعْقِلُ ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يَدْرُونَ مَتَى تَكُونُ السَّاعَةُ ، فَكَيْفَ يُرْجَى عِنْدَ
هَذِهِ نَفْعٌ أَوْ ثَوَابٌ أَوْ جَزَاءٌ ؟ إِنَّمَا يُرْجَى ذَلِكَ مِنَ الَّذِي يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ .

إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾
لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوبُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنََّّهُ لَا تُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْكَافِرِينَ تَنْكَرُ قُلُوبُهُمْ
ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيُّ : عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ مَعَ

إِنْكَارِ قُلُوبِهِمْ لِتَوْحِيدِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أَيُّ : حَقًّا ﴿ أَبَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوبَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أَيُّ : وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَنْتُمْ الْجَزَاءُ ﴿ إِنَّهُ لَا تُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَإِذَا قِيلَ لَهُوَلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ : ﴿ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا ﴾ مُعْرِضِينَ عَنِ الْجَوَابِ ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أَيُّ : لَمْ يُنَزَّلْ شَيْئًا ، إِنَّمَا هَذَا الَّذِي يُنْتَلَى عَلَيْنَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، أَيُّ : مَا خُودٌ مِنْ كُتُبِ الْمُتَقَدِّمِينَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا قَدَرْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ ، لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَيُؤَافِقُونَهُمْ ، أَيُّ : يَصِيرُ عَلَيْهِمْ خَطِيئَةُ ضَلَالِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَخَطِيئَةُ إِغْوَائِهِمْ لِعَبِيدِهِمْ وَاقْتِدَاءِ أَوْلِيائِهِمْ .

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ نُخْرِجُهُمْ وَيَقُولُ آيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَىٰ أَلْيَوْمَ وَالسَّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ قِيلَ : هُوَ الشُّرُودُ الَّذِي بَنَى الصَّرْحَ . وَقَالَ آخَرُونَ : هَذَا مِنْ بَابِ الْمَثَلِ لِإِبْطَالِ مَا صَنَعَهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَأَشْرَكُوا فِي عِبَادَتِهِ غَيْرَهُ ، كَمَا قَالَ نُوحٌ ﷺ : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كَبِيرًا ﴾ [نوح : ٢٢] أَيُّ : اِخْتَالُوا فِي إِضْلَالِ النَّاسِ بِكُلِّ حِيلَةٍ ، وَأَمَالُوهُمْ إِلَى شُرَكَائِهِمْ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ أَيُّ : اجْتَمَعَتْ مِنْ أَصْلِهِ وَأَبْطَلَ عَمَلَهُمْ ﴿ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ نُخْرِجُهُمْ ﴿ أَيُّ : يُظْهِرُ فُضَائِحَهُمْ وَمَا كَانَتْ تُجْنِيهِ ضَمَائِرُهُمْ فَجَعَلَهُ عِلَانِيَةً ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق : ٩] أَيُّ : تَظْهَرُ وَتَشْتَهَرُ ، وَهَكَذَا هَؤُلَاءِ يُظْهَرُ لِلنَّاسِ مَا كَانُوا يُسِرُّونَهُ مِنَ الْمَكْرِ ، وَيُخْرِجُهُمُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ ، وَيَقُولُ لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُقَرِّعًا لَهُمْ وَمُؤَبِّحًا : ﴿ آيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ فِيهِمْ ﴾ تُحَارِبُونَ وَتُعَادُونَ فِي سَبِيلِهِمْ ، آيْنَ هُمْ عَنْ نَصْرِكُمْ وَخَلَاصِكُمْ هَاهُنَا ؟ ﴿ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء : ٩٣] ، فَإِذَا تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، وَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَالَةُ ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ ، وَسَكَّتُوا عَنْ

الْإِعْتِدَارِ حِينَ لَا فِرَارَ ﴿١٧﴾ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿١٨﴾ وَهُمْ السَّادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْمُخْبِرُونَ عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، يَقُولُونَ حِينِيذٍ : ﴿١٩﴾ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ أَيُّ : الْفُضِيحَةِ وَالْعَذَابِ مُحِيطٌ الْيَوْمَ بِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، وَأَشْرَكَ بِهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ .

الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ الظَّالِمَى أَنْفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ۖ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِي أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ إِحْتِضَارِهِمْ ، وَحِجْيِ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمُ الْحَيَاةِ ﴿٢٣﴾ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ ﴿٢٤﴾ أَيُّ : أَظْهَرُوا السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ وَالْإِنْقِيَادَ قَائِلِينَ ﴿٢٥﴾ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴿٢٦﴾ كَمَا يَقُولُونَ يَوْمَ الْمَعَادِ ﴿٢٧﴾ وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٨﴾ [الأنعام : ٢٣] قَالَ اللَّهُ مُكَذِّبًا لَهُمْ فِي قِيلِهِمْ ذَلِكَ : ﴿٢٩﴾ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٣١﴾ أَيُّ : بِئْسَ الْمَقِيلُ وَالْمَقَامُ وَالْمَكَانُ مِنْ دَارِ هَوَانٍ ، لِمَنْ كَانَ مُتَكَبِّرًا عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ، وَهُمْ يَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ مِنْ يَوْمٍ تَمَاتِهِمْ بِأَرْوَاحِهِمْ وَيَبْنُلُ أَجْسَادُهُمْ فِي قُبُورِهَا مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ سَلَكْتَ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ وَخَلَدَتْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

﴿٣٢﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَوْنَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

هَذَا خَبَرٌ عَنِ السُّعَدَاءِ بِخِلَافِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْأَشْقِيَاءِ ، فَإِنَّ أَوْلَيْكَ قِيلَ لَهُمْ ﴿٣٦﴾ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا مُعْرِضِينَ عَنِ الْجَوَابِ : لَمْ يُنْزَلْ شَيْئًا إِلَّا هَذَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، وَهَؤُلَاءِ ﴿٣٧﴾ قَالُوا خَيْرًا ﴿٣٨﴾ أَيُّ : أَنْزَلَ خَيْرًا ، أَيُّ : رَحْمَةً وَبَرَكَةً لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَآمَنَ بِهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا وَعَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ فِيهِمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ ، فَقَالَ : ﴿٣٩﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴿٤٠﴾ الْآيَةُ ، أَيُّ : مَنْ أَحْسَنَ عَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ عَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِأَنَّ دَارَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، أَيُّ : مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْجَزَاءِ فِيهَا أَتَمُّ مِنَ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ وَصَفَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَقَالَ : ﴿٤١﴾ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٤٢﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿٤٣﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ ﴿٤٤﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿٤٥﴾ دَارِ الْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ أَيُّ : لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ جَنَّاتُ عَدْنٍ ، أَيُّ :

مُقَامَةً يَدْخُلُونَهَا ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَي : بَيْنَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا ﴿ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ ،
 ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أَي : كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّقَاهُ وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ .
 ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمْ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ ، أَنَّهُمْ طَيِّبُونَ ، أَي : مُخْلِصُونَ مِنَ الشَّرِّ وَالذَّنَسِ
 وَكُلِّ سُوءٍ ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْلِمُ عَلَيْهِمْ وَتُبَشِّرُهُمْ بِالْجَنَّةِ .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا
 عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُهْدِدًا لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى تَمَادِيهِمْ فِي الْبَاطِلِ وَاغْتِرَارِهِمْ بِالدُّنْيَا ، هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ
 إِلَّا الْمَلَائِكَةُ أَنْ تَأْتِيَهُمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ ؟ ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا يُعَايِنُونَهُ مِنَ
 الْأَهْوَالِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أَي : هَكَذَا تَمَادَى فِي شُرُكِهِمْ أَسْلَافُهُمْ
 وَنُظَرَاؤُهُمْ وَأَشْبَاهُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، حَتَّى ذَاقُوا بِأَسَ اللَّهِ وَحَلُّوا فِيهَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ
 وَالنَّكَالِ ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ وَأَقَامَ حُجَجَهُ عَلَيْهِمْ ، بِإِرْسَالِ رُسُلِهِ وَإِنْزَالِ
 كُتُبِهِ ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَي : بِمُخَالَفَةِ الرُّسُلِ وَالتَّكْذِيبِ بِمَا جَاءُوا بِهِ ، فَلِهَذَا
 أَصَابَتْهُمْ عُقُوبَةُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أَي : أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أَي : يَسْخَرُونَ مِنَ الرُّسُلِ إِذَا تَوَعَّدُوهُمْ بِعِقَابِ اللَّهِ ، فَلِهَذَا يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴾ [الطور : ١٤]

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا
 وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا
 الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
 الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
 فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٩﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
 يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٠﴾

يُحِبُّ تَعَالَى عَنِ إغْتِرَارِ الْمُشْرِكِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرِّ وَاعْتِدَارِهِمْ مُحْتَجِّينَ بِالْقَدَرِ بِقَوْلِهِمْ
 ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أَي :
 مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالْوَصَائِلِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا ابْتَدَعُوهُ وَاخْتَرَعُوهُ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ

مِمَّا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا . وَمَضُمُونَ كَلَامِهِمْ : أَنَا لَوْ كَانَ تَعَالَى كَارِهًا لِمَا فَعَلْنَا لَأَنكَرَهُ عَلَيْنَا بِالْعُقُوبَةِ ، وَلَمَّا مَكَّنَّا مِنْهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ شُبُهَتَهُمْ : ﴿ فَبَلَّغْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ ، أَنَّهُ لَمْ يُنْكَرْهُ عَلَيْكُمْ بَلْ قَدْ أَنْكَرَهُ عَلَيْكُمْ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّهْيِ ، وَبَعَثَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ، أَيُّ : فِي كُلِّ قَرْنٍ وَطَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ رَسُولًا ، وَكُلُّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ﴿ أَبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ فَلَمْ يَزَلْ تَعَالَى يُرْسِلُ إِلَى النَّاسِ الرُّسُلَ بِذَلِكَ ، مُنْذُ حَدَّثَ الشَّرْكَ فِي بَنِي آدَمَ فِي قَوْمِ نُوحٍ ، الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نُوحٌ ، وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى أَنْ خَتَمَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي طَبَّقَتْ دَعْوَتُهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، فَكَيْفَ يَسُوعُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَقُولَ : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فَمَشِيتُهُ تَعَالَى الشَّرْعِيَّةُ عَنْهُمْ مُتَقَبَّةٌ ؛ لِأَنَّهُ نَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، وَأَمَّا مَشِيتُهُ الْكُوفِيَّةُ وَهِيَ تَمَكِينُهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَدَرًا فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ وَأَهْلَهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ وَالْكَفَرَةِ وَهُوَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ بِالْغَةِ وَحِكْمَةٌ قَاطِعَةٌ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ إِنْذَارِ الرُّسُلِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيُّ : إِسْأَلُوا عَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ مَنْ خَالَفَ الرُّسُلَ وَكَذَّبَ الْحَقَّ ، كَيْفَ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلَهَا ، ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنَّ حِرْصَهُ عَلَى هِدَايَتِهِمْ لَا يَنْفَعُهُمْ إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَرَادَ إِضْلَاحَهُمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ حَرَصْنَا عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ أَيُّ : شَأْنُهُ وَأَمْرُهُ أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ أَيُّ : مَنْ أَضَلَّهُ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؟ أَيُّ لَا أَحَدَ ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرِينَ ﴾ أَيُّ : يُنْقِذُونَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ وَوَثَاقِهِ .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي تَحْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ رُكْنٌ فَيَكُونُ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ حَلَفُوا فَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ، أَيُّ : اجْتَهِدُوا فِي الْحَلْفِ وَغَلَطُوا الْأَيْثَانَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، أَيُّ : اسْتَبَعَدُوا ذَلِكَ وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ فِي إِخْبَارِهِمْ هُمْ بِذَلِكَ وَحَلَفُوا عَلَى نَقِيضِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى مُكَذِّبًا هُمْ وَرَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿ بَلَى ﴾ أَيُّ : بَلَى

سَيَكُونُ ذَلِكَ ﴿ وَغَدَا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ أَي : لَا بُدَّ مِنْهُ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَي : فَلِجَهْلِهِمْ يُخَالِفُونَ الرُّسُلَ وَيَقْعُونَ فِي الْكُفْرِ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى حِكْمَتَهُ فِي الْمَعَادِ وَقِيَامِ الْأَجْسَامِ يَوْمَ التَّنَادِ ، فَقَالَ : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ أَي : لِلنَّاسِ ﴿ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أَي : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ﴿ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴾ أَي : فِي أَيْمَانِهِمْ وَأَقْسَامِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، وَلِهَذَا يُدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَالْمَعَادُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا أَرَادَ كَوْنُهُ فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَيَكُونُ ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أَي : أَنْ نَأْمُرَ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَإِذَا هُوَ كَائِنٌ .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَاهَمُوا لِنُبُوَّتِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَزَائِهِ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِهِ إِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ، الَّذِينَ فَارَقُوا الدَّارَ وَالْإِخْوَانَ وَالْخِلَانَ رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ وَجَزَائِهِ ، فَقَالَ : ﴿ لِنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قِيلَ : الْمَدِينَةُ ، وَقِيلَ : الرِّزْقُ الطَّيِّبُ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ، فَإِنَّهُمْ تَرَكَوا مَسَاكِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَعَوَّضَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ بِمَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهُ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ ثَوَابَهُ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ بِمَا أَعْطَاهُمْ فِي الدُّنْيَا فَقَالَ : ﴿ وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أَي : بِمَا أَعْطَيْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أَي : لَوْ كَانَ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ الْهَجْرَةِ مَعَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا إِدْخَرَ اللَّهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَاتَّبَعَ رَسُولَهُ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ تَعَالَى ، فَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أَي : صَبَرُوا عَلَى الْأَذَى مِنْ قَوْمِهِمْ مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ الَّذِي أَحْسَنَ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۚ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قَالَ الضَّحَّاكُ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولًا أَنْكَرَتْ الْعَرَبُ ذَلِكَ - أَوْ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ - وَقَالُوا : اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَرًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ [يونس : ٢] . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْمُرَادَ بِأَهْلِ الذِّكْرِ أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَالْغَرَضُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ أَخْبَرَتْ بِأَنَّ الرُّسُلَ

الْمَاضِينَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا بَشَرًا ، كَمَا هُوَ بَشَرٌ ، ثُمَّ أَرْسَدَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ شَكَّ فِي كَوْنِ الرُّسُلِ كَانُوا بَشَرًا إِلَى سُؤَالِ أَصْحَابِ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ سَلَفُوا : هَلْ كَانَ أَنْبِيَاؤُهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَةً ؟ ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَهُمْ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيُّ : بِالْحُجَجِ وَالْدَّلَائِلِ ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وَهِيَ الْكُتُبُ ، وَالزُّبُرُ : جَمْعُ زُبُورٍ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : زَبَرْتَ الْكِتَابَ إِذَا كَتَبْتَهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أَيُّ : مِنْ رَبِّهِمْ ، لِعِلْمِكَ بِمَعْنَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَحَرَصَكَ عَلَيْهِ وَاتَّبَاعَكَ لَهُ ، وَلِعِلْمِنَا بِأَنَّكَ أَفْضَلُ الْخَلَائِقِ وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، فَتُفْصِّلَ لَهُمْ مَا أَجْمَلَ ، وَتُبَيِّنَ لَهُمْ مَا أَشْكَلَ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيُّ : يَنْظُرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فَيَهْتَدُونَ ، فَيَفُوزُونَ بِالنَّجَاةِ فِي الدَّارَيْنِ .

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٧﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ وَإِنْظَارِهِ الْعُصَاةَ ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وَيَدْعُونَ إِلَيْهَا وَيَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ فِي دُعَائِهِمْ إِيَّاهُمْ ، وَحِلْمِهِمْ عَلَيْهَا مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يَخْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيُّ : مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ مَحِيَّتَهُ إِلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ﴾ أَيُّ : فِي تَقْلُبِهِمْ فِي الْمَعَاشِ وَاشْتِغَالِهِمْ بِهَا مِنْ أَسْفَارٍ وَنَحْوِهَا مِنْ الْأَشْغَالِ الْمُلْهِمَةِ ، قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿تَقْلُبُهُمْ﴾ أَيُّ : أَسْفَارِهِمْ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿فِي تَقْلُبِهِمْ﴾ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيُّ : لَا يُعْجِزُونَ اللَّهَ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانُوا عَلَيْهِ . ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أَيُّ : أَوْ يَأْخُذَهُمُ اللَّهُ فِي حَالِ خَوْفِهِمْ مِنْ أَخْذِهِ لَهُمْ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ أَبْلَغُ وَأَشَدُّ ، فَإِنَّ حُصُولَ مَا يُتَوَقَّعُ مَعَ الْخَوْفِ شَدِيدٌ ، وَهَذَا قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ يَقُولُ : إِنْ شِئْتَ أَخَذْتُهُ عَلَى أَثَرِ مَوْتِ صَاحِبِهِ وَتَخَوُّفِهِ بِذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ : حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٩﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٠﴾ تَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ الَّذِي خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَدَانَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ

وَالْمَخْلُوقَاتِ بِأَسْرِهِمَا جَمَادَاتُهَا وَحَيَوَانَاتُهَا وَمُكَلَّفُوهَا مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ ، فَأَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ مَا لَهُ ظِلٌّ يَتَفَيَّ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، أَيُ : بُكْرَةً وَعَشِيًّا ، فَإِنَّهُ سَاجِدٌ بِظِلِّهِ لِلَّهِ تَعَالَى .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أَيُ : صَاغِرُونَ ، وَنَزَّهَهُمْ مَنْزِلَةً مَنْ يَعْقِلُ إِذْ أَسْنَدَ السُّجُودَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيُ : تَسْجُدُ لِلَّهِ ، أَيُ : غَيْرَ مُسْتَكْبِرِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴿ تَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ أَيُ : يَسْجُدُونَ خَائِفِينَ وَجَلِيلِينَ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أَيُ : مُثَابِرِينَ عَلَى طَاعَتِهِ تَعَالَى وَامْتِنَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ رَوَاجِرِهِ .

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهَبُونَ ﴾ ١٠٠ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ ١٠١ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴾ ١٠٢ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ١٠٣ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ١٠٤

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ وَرَبُّهُ ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَيُ : دَائِمًا ، وَقِيلَ : وَاجِبًا ، وَقِيلَ : خَالِصًا . أَيُ : لَهُ الْعِبَادَةُ وَحْدَهُ يَمُنُّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَالِكُ النِّفَعِ وَالضَّرِّ ، وَأَنَّ مَا بِالْعِبَادِ مِنْ رِزْقٍ وَنِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَنَصْرِ فَمِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴾ أَيُ : لِعِلْمِكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ فَإِنَّكُمْ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ تَلْجَأُونَ إِلَيْهِ وَتَسْأَلُونَهُ ، وَتَلْجَأُونَ فِي الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مُسْتَغِيثِينَ بِهِ . ﴿ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ١٠٥ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ ﴿ قِيلَ : اللَّامُ هَاهُنَا : لَامُ الْعَاقِبَةِ ، وَقِيلَ : لَامُ التَّغْلِيلِ ، بِمَعْنَى قَيِّضْنَا هُمْ ذَلِكَ لِيَكْفُرُوا ، أَيُ : يَسْتُرُوا وَيَجْحَدُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُ الْمُسِيءُ إِلَيْهِمْ النِّعَمَ ، الْكَاشِفُ عَنْهُمْ النِّقَمَ ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ قَائِلًا ﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ أَيُ : اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ وَتَمَتَّعُوا بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ قَلِيلًا ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُ : عَاقِبَةُ ذَلِكَ .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۚ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ ١٠٦ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ ۚ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ ١٠٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ١٠٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ١٠٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلٌ

السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ قَبَائِحِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبْدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَجَعَلُوا لِلْأَوْثَانِ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، أَيُّ: جَعَلُوا لِأَهْلِيهِمْ نَصِيبًا مَعَ اللَّهِ، وَفَضَّلُوهَا عَلَىٰ جَانِبِهِ، فَأَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ لَيْسَ أَلَنَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ الَّذِي افْتَرَوْهُ وَاتَّفَكَوْهُ، وَلِيَقَابِلَنَّهُمْ عَلَيْهِ وَلِيَجَازِيَنَّهُمْ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَقَالَ: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْغَلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا، وَجَعَلُوهَا بَنَاتِ اللَّهِ فَعَبَدُوهَا مَعَهُ، فَأَخْطَئُوا خَطَأً كَبِيرًا فِي كُلِّ مَقَامٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ، فَنَسَبُوا إِلَيْهِ تَعَالَىٰ أَنْ لَهُ وَلَدًا وَلَا وَلَدَ لَهُ، ثُمَّ أَعْطَوْهُ أَحْسَنَ الْقِسْمَيْنِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَهُوَ الْبَنَاتُ وَهُمْ لَا يَرْضَوْنَهَا لِأَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ ﴿٥٧﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿[النجم: ٢١-٢٢]﴾، وَقَوْلُهُ هَاهُنَا: ﴿وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ﴾ أَيُّ: عَنْ قَوْلِهِمْ وَإِنْ كُنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أَيُّ: يَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الذُّكُورَ، وَيَأْتِفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَنَاتِ الَّتِي نَسَبُوهَا إِلَى اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عَلُّوا كَبِيرًا. فَإِنَّهُ ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أَيُّ: كَبِيرًا مِنَ الْهَمِّ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ سَاكِتٌ مِنْ شِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحُزَنِ. ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أَيُّ: يَكْرَهُ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أَيْمَسِكُهُ عَلَىٰ هَوًى أَمْرِي دُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴿أَيُّ: إِنْ أَبْقَاهَا أَبْقَاهَا مَهَانَةً لَا يُورَثُهَا وَلَا يَعْتَنِي بِهَا، وَيُفْضَلُ أَوْلَادُهُ الذُّكُورَ عَلَيْهَا﴾ أَمْرِي دُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴿أَيُّ: يَتَدُّهَا وَهُوَ أَنْ يَدْفِنَهَا فِيهِ حَيَّةً، كَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَفَمَنْ يَكْرَهُونَهُ هَذِهِ الْكَرَاهَةَ وَيَأْتِفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ عَنْهُ يَجْعَلُونَهُ اللَّهُ؟﴾ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿أَيُّ: يَنْسَ مَا قَالُوا، وَيَنْسَ مَا قَسَمُوا، وَيَنْسَ مَا نَسَبُوهُ إِلَيْهِ، وَقَوْلُهُ هَاهُنَا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أَيُّ: النِّقْصُ إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أَيُّ: الْكَمَالُ الْمُنْتَلَقُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً ۚ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٥٨﴾ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٥٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ جُلْمِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ، وَأَنَّهُ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ، أَيُّ: لَأَهْلَكَ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ تَبَعًا لِإِهْلَاكِ بَنِي آدَمَ، وَلَكِنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ

يَحْلُمُ وَيَسْتُرُ وَيَنْظُرُ ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيُّ : لَا يُعَاجِلُهُم بِالْعُقُوبَةِ ، إِذْ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ لَمَا أَبْقَى أَحَدًا ، قَالَ عَدَدُ مِنَ الْعُلَمَاءِ : كَادَ الْجَعْلُ أَنْ يَهْلِكَ فِي جُحْرِهِ بِخَطِيئَةِ بَنِي آدَمَ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أَيُّ : مِنَ الْبَنَاتِ ، وَمِنَ الشَّرَكَاءِ الَّذِينَ هُمْ عَيْدُهُ ، وَهُمْ يَأْتُونَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ أَحَدِهِمْ شَرِيكٌ لَهُ فِي مَالِهِ ، ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ إِنكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ مَعَ ذَلِكَ : أَنَّ هُمْ الْحُسْنَى فِي الدُّنْيَا ، وَإِنْ كَانَ ثَمَّ مَعَادٌ فَفِيهِ أَيْضًا هُمْ الْحُسْنَى ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي تَكْبِيهِمْ ذَلِكَ ﴿لَا جَرَمَ﴾ أَيُّ : حَقًّا لَا بُدَّ مِنْهُ ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ مَنَسِيُونَ فِيهَا مُضِيعُونَ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف : ٥١] وَقِيلَ : مُفْرَطُونَ ، أَيُّ : مُعَجَّلُونَ إِلَى النَّارِ ، مِنْ الْفَرَطِ وَهُوَ السَّابِقُ إِلَى الْوَرْدِ ، وَلَا مُنَافَاةَ ؛ لِأَنَّهُمْ يُعَجَّلُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ وَيُنْسَوْنَ فِيهَا ، أَيُّ : يَحْضُدُونَ .

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٧﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْأُمَمِ الْحَالِيَةِ رُسُلًا فَكَذَّبَتِ الرُّسُلَ ، فَلَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي إِخْوَانِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أَسُوءَ فَلَا يَهْدِيكَ تَكْذِيبُ قَوْمِكَ لَكَ ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ فَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَزْيِينُ الشَّيْطَانِ لَهُمْ مَا فَعَلُوهُ ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أَيُّ : هُمْ تَحْتَ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ ، وَالشَّيْطَانُ وَلِيُّهُمْ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ خَلَاصًا ، وَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ : أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَالْقُرْآنُ فَاصِلٌ بَيْنَ النَّاسِ فِي كُلِّ مَا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ ﴿وَهُدًى﴾ أَيُّ : لِلْقُلُوبِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ أَيُّ : لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . وَكَمَا جَعَلَ سُبْحَانَهُ الْقُرْآنَ حَيَاةً لِلْقُلُوبِ الْمَيِّتَةِ بِكُفْرِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أَيُّ : يَفْهَمُونَ الْكَلَامَ وَمَعْنَاهُ .

وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نُصْقِيكُمْ تَمَا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرِبِينَ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ ﴾ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أَيُّ : لَآيَةً وَدَلَالَةً عَلَى حِكْمَةِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ أَفْرَدَهُ هَاهُنَا عَوْدًا عَلَى مَعْنَى النَّعَمِ ، أَوِ الصَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْحَيَوَانِ ، فَإِنَّ الْأَنْعَامَ حَيَوَانَاتٌ ، أَيُّ : نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطْنِ هَذَا الْحَيَوَانِ ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى مِمَّا فِي بُطُونِهَا ، وَيَجُوزُ هَذَا وَهَذَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا ﴾ أَيُّ : يَتَخَلَّصُ الدَّمُ بَيَاضُهُ وَطَعْمُهُ وَحَلَاوَتُهُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ فِي بَاطِنِ الْحَيَوَانِ ، فَيَسْرِي كُلُّهُ إِلَى مَوْطِنِهِ إِذَا نَضَجَ الْغِذَاءُ فِي مَعِدَتِهِ ، فَيَصْرَفُ مِنْهُ دَمٌ إِلَى الْعُرُوقِ ، وَلَبَنٌ إِلَى الصَّرْعِ ، وَبَوْلٌ إِلَى الْمَثَانَةِ ، وَرَوْتُ إِلَى الْمَخْرَجِ ، وَكُلُّ مِنْهَا لَا يَشُوبُ الْآخَرَ وَلَا يَمَازِجُهُ بَعْدَ انفصالِهِ عَنْهُ وَلَا يَتَغَيَّرُ بِهِ ، ﴿ سَائِغًا لِلشَّرْبَيْنِ ﴾ أَيُّ ، لَا يُعَصَّ بِهِ أَحَدٌ . وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّبَنَ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُ شَرَابًا لِلنَّاسِ سَائِغًا ثَنَّى بِذِكْرِ مَا يَتَّخِذُهُ النَّاسُ مِنَ الْأَشْرَبَةِ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ، وَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ مِنَ النَّبِيذِ الْمُسْكِرِ قَبْلَ تَحْرِيمِهِ ، وَلِهَذَا امْتَنَّنَ بِهِ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ ذَلَّ عَلَى إِبَاحَتِهِ شَرْعًا قَبْلَ تَحْرِيمِهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ قَالَ السَّكْرُ : مَا حَرَّمَ مِنْ ثَمَرَتَيْهَا ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ : مَا أُحِلَّ مِنْ ثَمَرَتَيْهَا ، وَفِي رِوَايَةِ السَّكْرُ : حَرَامُهُ ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ : حَلَالُهُ ، يَعْنِي مَا يَسِسَ مِنْهُمَا مِنْ تَمَرٍ وَزَيْبٍ وَمَا عُمِلَ مِنْهُمَا مِنْ طِلَآءٍ وَهُوَ الدُّبُسُ ، وَخَلٍّ وَنَبِيذٍ حَلَالٍ يُشْرَبُ قَبْلَ أَنْ يَشْتَدَّ ، كَمَا وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ نَاسَبَ ذِكْرَ الْعَقْلِ هَاهُنَا ، فَإِنَّهُ أَشْرَفُ مَا فِي الْإِنْسَانِ ، وَلِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَشْرَبَةَ الْمُسْكِرَةَ صِيَانَةً لِعُقُوبِهَا .

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿ ٦٨ ﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا تَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ ٦٩ ﴾

الْمُرَادُ بِالْوَحْيِ هُنَا : الْإِلْهَامُ وَالْهُدَايَةُ وَالْإِزْشَادُ لِلنَّحْلِ أَنْ تَتَّخِذَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا تَأْوِي إِلَيْهَا ، وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ فِي تَسْدِيسِهَا وَرَصِّهَا ، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي بَيْتِهَا خَلَلٌ . ثُمَّ أَذِنَ لَهَا تَعَالَى إِذْنًا قَدْرِيًّا تَسْخِيرِيًّا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَأَنْ تَسْلُكَ الطَّرِيقَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى مُذَلَّلَةً لَهَا ، أَيُّ : مُسَهَّلَةً عَلَيْهَا حَيْثُ شَاءَتْ مِنْ هَذَا الْجَوْ الْعَظِيمِ وَالْبَرَارِيِّ السَّاسِعَةِ وَالْأَوْدِيَةِ وَالْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ ، ثُمَّ تَعُودُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا إِلَى مَوْضِعِهَا وَبَيْتِهَا لَا يُحِيدُ عَنْهُ يَمَنَةٌ وَلَا يَسْرَةٌ ، بَلْ إِلَى بَيْتِهَا وَمَا لَهَا فِيهِ مِنْ فِرَاحٍ وَعَسَلٍ ، فَتَبْنِي الشَّمْعَ مِنْ أَجْنَحَتِهَا وَتَقِيءُ الْعَسَلَ مِنْ فِيهَا ، وَتَبْيِضُ الْفِرَاحَ مِنْ دُبُرِهَا ، ثُمَّ تُصْبِحُ إِلَى مَرَاعِيهَا . قَالَ عَدَدُ

مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ فَاسْأَلْنِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا ﴾ أَي : مُطِيعَةً ، فَجَعَلَاهُ حَالًا مِّنَ السَّالِكَةِ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أَي : مَا بَيْنَ أَبْيَضَ وَأَصْفَرَ وَأَحْمَرَ ،
 وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْوَانِ الْحَسَنَةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاعِيهَا وَمَأْكَلِهَا مِنْهَا ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ أَي : فِي
 الْعَسَلِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، أَي : مِنْ أَدْوَاءٍ تَعْرِضُ لَهُمْ . قَالَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى الطَّبِّ النَّبَوِيِّ : لَوْ
 قَالَ فِيهِ الشِّفَاءُ لِلنَّاسِ ، لَكَانَ دَوَاءً لِكُلِّ دَاءٍ وَلَكِنْ قَالَ : فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، أَي : يَصْلُحُ لِكُلِّ
 أَحَدٍ مِنْ أَدْوَاءٍ بَارِدَةٍ فَإِنَّهُ حَارٌّ ، وَالنَّيِّءُ يُدَاوِي بِضِدِّهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾
 أَي : إِنَّ فِي إِهْلَامِ اللَّهِ هَذِهِ الدَّوَابِّ الضَّعِيفَةِ الْخَلْقَةَ ، إِلَى السُّلُوكِ فِي هَذِهِ الْمَهَامَةِ وَالِاجْتِنَاءِ مِنْ
 سَائِرِ الشَّارِ ، ثُمَّ جَمْعُهَا لِلشَّمْعِ وَالْعَسَلِ وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الْأَشْيَاءِ ، لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي عَظَمَةِ
 خَالِقِهَا وَمُقَدِّرِهَا وَمُسَخِّرِهَا وَمُيَسِّرِهَا ، فَيَسْتَدِلُّونَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ الْقَادِرُ الْحَكِيمُ .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ
 شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَصَرُّفِهِ فِي عِبَادِهِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَوَفَّاهُمْ ،
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَرَكُهُ حَتَّى يُدْرِكُهُ الْهَرَمُ : وَهُوَ الضَّعْفُ فِي الْخَلْقَةِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ
 ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ ﴾ . قِيلَ فِي : ﴿ أَرْدَلِ الْعُمُرِ ﴾ قَالَ : خَمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً ،
 وَفِي هَذَا السَّنِّ يَحْصُلُ لَهُ ضَعْفُ الْقُوَى ، وَالْخَوْفُ ، وَسُوءُ الْحِفْظِ ، وَقِلَّةُ الْعِلْمِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ :
 ﴿ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ أَي : بَعْدَ مَا كَانَ عَالِمًا أَصْبَحَ لَا يَدْرِي شَيْئًا مِنَ الْفَنَدِ وَالْخَرَفِ
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا
 مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ تَجَحَّدُونَ ﴿٨﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ جَهْلَهُمْ وَكُفْرَهُمْ فِيمَا رَعَمُوهُ اللَّهُ مِنَ الشُّرَكَاءِ ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا عِبِيدٌ
 لَهُ ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيسِهِمْ فِي حَجَّتِهِمْ : لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا
 مَلَكَ . فَقَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ : أَنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَ أَنْ تُسَاوُوا عِبِيدَكُمْ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ ، فَكَيْفَ
 يَرْضَى هُوَ تَعَالَى بِمُساوَاةِ عِبِيدٍ لَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالتَّعْظِيمِ . رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -
 فِي هَذِهِ الْآيَةِ : يَقُولُ : لَمْ يَكُونُوا لِيُشْرِكُوا عِبِيدَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ ، فَكَيْفَ يُشْرِكُونَ
 عِبِيدِي مَعِيَ فِي سُلْطَانِي ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ تَجَحَّدُونَ ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ : هَذَا مَثَلُ

ضَرَبَهُ اللَّهُ : فَهَلْ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُشَارِكُهُ مَمْلُوكُهُ فِي زَوْجَتِهِ وَفِي فِرَاشِهِ فَتَعْدِلُونَ بِاللَّهِ خَلْقَهُ وَعِبَادَهُ ؟ فَإِنْ لَمْ تَرْضَ لِنَفْسِكَ هَذَا فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُنْزَعَ مِنْكَ ، ﴿ أَفَبِعَمَةٍ أَلَّهِ تَجْحَدُونَ ﴾ أَي : أَتَنْهَمُ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ، فَجَحَدُوا نِعْمَتَهُ وَأَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٦﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ عَلَى عِبِيدِهِ ، بِأَنْ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسِهِمْ وَشَكْلِهِمْ ، وَلَوْ جَعَلَ الْأَزْوَاجَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ مَا حَصَلَ الْإِتِّلَافُ وَالْمَوَدَّةُ وَالرَّحْمَةُ ، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ خَلَقَ مِنْ بَنِي آدَمَ ذَكَورًا وَإِنَاثًا ، وَجَعَلَ الْإِنَاثَ أَزْوَاجًا لِلذَّكَورِ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ الْأَزْوَاجِ الْبَيْنَ وَالْحَفْدَةَ وَهُمْ أَوْلَادُ الْبَيْنِ . وَقِيلَ : ﴿ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ ﴾ ابْنُهُ وَخَادِمُهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ الْمُنْعِمِ غَيْرَهُ ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وَهُمْ الْأَنْدَادُ وَالْأَصْنَامُ ﴿ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ يَسْتُرُونَ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَيُضِيفُونَهَا إِلَى غَيْرِهِ .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِنْخِبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا ﴾ أَي : لَا يَقْدِرُ عَلَى إِنْزَالِ مَطَرٍ وَلَا إِنْبَاتِ زَرْعٍ وَلَا شَجَرٍ ، وَلَا يَمْلِكُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ ، أَي : لَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ لَوْ أَرَادُوهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أَي : لَا تَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا وَأَشْبَاهًا وَأَمْثَالَ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : أَنَّهُ يَعْلَمُ وَيَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنْتُمْ بِجَهْلِكُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٧٩﴾

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ ، فَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِثْلُ الْكَافِرِ ، وَالْمَرْزُوقُ الرَّزَقُ الْحَسَنَ فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هُوَ الْمُؤْمِنُ ، وَقِيلَ : هُوَ مِثْلُ مَضْرُوبٍ لِلْوَتَنِ وَلِلْحَقِّ تَعَالَى ، فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا ؟ وَلَمَّا كَانَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ظَاهِرًا وَاضِحًا بَيِّنًا لَا يَجْهَلُهُ إِلَّا كُلُّ غَيٍّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٦﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : وَهَذَا أَيْضًا الْمُرَادُ بِهِ الْوَتْنُ وَالْحَقُّ تَعَالَى ، يَعْنِي : أَنَّ الْوَتْنَ أَبْكَمُ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَنْطِقُ بِخَيْرٍ ، وَلَا بِشَيْءٍ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ بِالْكَلِّيَّةِ ، فَلَا مَقَالَ وَلَا فِعَالَ وَهُوَ مَعَ هَذَا كَلٌّ ، أَيُّ : عِيَالٌ وَكُلْفَةٌ عَلَى مَوْلَاهُ ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ ﴾ أَيُّ : يَبْعَثُهُ ﴿ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ وَلَا يَنْجَحُ مَسْعَاهُ ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ﴾ مَنْ هَذِهِ صِفَاتُهُ ﴿ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ أَيُّ : بِالْقِسْطِ فَمَقَالُهُ حَقٌّ وَفِعَالُهُ مُسْتَقِيمَةٌ ﴿ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ، وَقِيلَ : هُوَ مِثْلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ أَيْضًا كَمَا تَقَدَّمَ .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ ، فِي عِلْمِهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِصَاصِهِ بِعِلْمِ الْغَيْبِ ، فَلَا إِطْلَاعَ لِأَحَدٍ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يُطْلِعَهُ تَعَالَى عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَفِي قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ الَّتِي لَا تُخَالَفُ وَلَا تُنَاقِضُ ، وَأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، كَمَا قَالَ : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةً ﴾ [لقمان : ٢٨] ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مِثْلَهُ عَلَى عِبَادِهِ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يَرْزُقُهُمُ السَّمْعَ الَّذِي بِهِ يُدْرِكُونَ الْأَصْوَاتَ ، وَالْأَبْصَارَ الَّتِي بِهَا يُحِشُّونَ الْمَرْئِيَّاتِ ، وَالْأَفْئِدَةَ وَهِيَ الْعُقُولُ الَّتِي مَرَكَزُهَا الْقَلْبُ عَلَى الصَّحِيحِ ، وَقِيلَ : الدِّمَاغُ ، وَالْعَقْلُ بِهِ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ضَارًّا وَنَافِعًا ، وَهَذِهِ الْقُوَى وَالْحَوَاسُّ تَخْضَعُ لِلْإِنْسَانِ عَلَى التَّدْرِيجِ قَلِيلًا قَلِيلًا ، كُلَّمَا كَبُرَ زَيْدٌ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعَقْلِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَشَدَّهُ . وَإِنَّمَا جَعَلَ تَعَالَى هَذِهِ فِي الْإِنْسَانِ لِيَتِمَّ كُنْهَا مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ تَعَالَى ، فَيَسْتَعِينُ بِكُلِّ جَارِحَةٍ وَعُضْوٍ وَقُوَّةٍ عَلَى طَاعَةِ مَوْلَاهُ . ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى النَّظَرِ إِلَى الطَّيْرِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، كَيْفَ جَعَلَهُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُ هُنَاكَ إِلَّا اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى ، الَّتِي جَعَلَ فِيهَا قُوَى تَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَسَخَّرَ الْهَوَاءَ لِيَحْمِلَهَا وَيُسَيِّرَ الطَّيْرَ كَذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَلِكِ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٌ وَيُقْبَضُ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

بَصِيرٌ» [الملك : ١٩] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ^١ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا^٢ وَمَتْنَعًا إِلَى حِينٍ ﴿٢٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ^٣ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٢١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ ﴿٢٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٣﴾

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَمَامَ نِعْمِهِ عَلَى عِبِيدِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي هِيَ سَكَنٌ لَهُمْ يَأْوُونَ إِلَيْهَا ، وَيَسْتَرُونَ بِهَا وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا بِسَائِرِ وُجُوهِ الْإِنْتِفَاعِ ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَيْضًا مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ، أَيْ مِنَ الْأَدَمِ يَسْتَخِفُّونَ حَمَلَهَا فِي أَسْفَارِهِمْ لِيَضْرِبُوهَا لَهُمْ فِي إِقَامَتِهِمْ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ أَيْ : الْغَنَمِ ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ أَيْ : الْإِبِلِ ﴿ وَأَشْعَارِهَا ﴾ أَيْ : الْمَعَزُ ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْأَنْعَامِ ﴿ أَثْنَا ﴾ أَيْ : تَتَّخِذُونَ مِنْهُ أَثْنَانًا : وَهُوَ الْمَالُ ، وَقِيلَ : الْمَتَاعُ ، وَقِيلَ : الثِّيَابُ . وَالصَّحِيحُ : أَعَمُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، فَإِنَّهُ يَتَّخِذُ مِنَ الْأَثَاثِ الْبُسْطَ وَالثِّيَابَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَيَتَّخِذُ مَالًا وَتِجَارَةً ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَتْنَعًا إِلَى حِينٍ ﴾ أَيْ : إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَوَقْتٍ مَعْلُومٍ . ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : يَعْنِي الشَّجَرَ ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا ﴾ أَيْ : حُصُونًا وَمَعَاوِلَ كَمَا ﴿ جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ وَهِيَ الثِّيَابُ مِنَ الْقُطْنِ وَالْكِتَانِ وَالصُّوفِ ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾ كَالدَّرُوعِ مِنَ الْحَدِيدِ الْمَصْفُوحِ وَالزَّرْدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : هَكَذَا يَجْعَلُ لَكُمْ مَا تَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى أَمْرِكُمْ وَمَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، لِيَكُونَ عَوْنًا لَكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ هَكَذَا فَسَّرَهُ الْجُمْهُورُ وَقَرَأُوهُ بِكَسْرِ اللَّامِ مِنْ ﴿ تُسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْإِسْلَامِ .

وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ : إِنَّمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِ ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا ﴾ وَمَا جَعَلَ مِنَ السَّهْلِ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ جِبَالٍ ؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَتْنَعًا إِلَى حِينٍ ﴾ وَمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ وَبَرٍ وَشَعْرِ ؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَنُزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ [النور : ٤٣] لِعَجَبِهِمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَا أَنْزَلَ مِنَ الثَّلْجِ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَهُ ؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ

الْحَرَّ وَمَا تَقِي مِنَ الْبَرْدِ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ حَرٍّ ؟ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أَي : بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْإِمْتِنَانِ فَلَا عَلَيْكَ مِنْهُمْ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
 الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ وَقَدْ أَذَيْتُهُ إِلَيْهِمْ ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ أَي : يَعْرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ
 الْمُسْدِي إِلَيْهِمْ ذَلِكَ ، وَهُوَ الْمُتَفَضِّلُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَمَعَ هَذَا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ،
 وَيُسْنِدُونَ النَّصْرَ وَالرِّزْقَ إِلَى غَيْرِهِ ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
 ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا تُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا رَأَى
 الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ
 دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ
 وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا
 فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٣٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ شَأْنِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَأَنَّهُ يَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
 وَهُوَ نَبِيُّهَا ، يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِمَا أَجَابَتْهُ فِيهَا بَلَّغَهَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَي :
 فِي الْإِعْتِدَارِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بَطْلَانَهُ وَكَذِبَهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ
 فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥-٣٦] ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أَي :
 الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴿ أَلْعَذَابَ فَلَا تُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ أَي : لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾
 أَي : لَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ بَلْ يَأْخُذُهُمْ سَرِيعًا مِنَ الْمَوْقِفِ بِلَا حِسَابٍ ، فَإِنَّهُ إِذَا جِيَءَ بِجَهَنَّمَ تَقَادُّ
 بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ تَنْطَوِي عَلَيْهِمْ وَتَلْتَقِطُهُمْ مِنَ الْمَوْقِفِ كَمَا يَلْتَقِطُ الطَّائِرُ الْحَبَّ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَبَرُّءِ أَهْلِهِمْ مِنْهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهَا فَقَالَ : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا
 شُرَكَاءَهُمْ ﴾ أَي : الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا
 مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أَي : قَالَتْ لَهُمُ الْأَلَهَةُ : كَذَبْتُمْ مَا نَحْنُ
 أَمْرَانَاكُمْ بِعِبَادَتِنَا ، وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
 وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١-٨٢] . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ يَعْنِي : ذَلُّوا
 وَاسْتَسَلَّمُوا يَوْمَئِذٍ ، أَي : اسْتَسَلَّمُوا اللَّهَ جَمِيعُهُمْ فَلَا أَحَدٌ إِلَّا سَامِعٌ مُطِيعٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أَي : ذَهَبَ وَاضْمَحَلَّ مَا
 كَانُوا يَعْبُدُونَهُ إِفْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ، فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ وَلَا مُعِينَ وَلَا مُجِيرَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا

وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَهُمْ عَذَابًا ﴿٢٦﴾ الْآيَةُ ، أَيُّ : عَذَابًا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَذَابًا عَلَى صَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ إِتِّبَاعِ الْحَقِّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : ٢٦] أَيُّ : يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنْ إِتِّبَاعِهِ وَيَنْتَعِدُونَ هُمْ عَنْهُ أَيْضًا ﴿ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٦] ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَفَاوُتِ الْكُفَّارِ فِي عَذَابِهِمْ ، كَمَا يَتَفَاوَتُ الْمُؤْمِنُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَدَرَجَاتِهِمْ .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطًا بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ۚ يَعْنِي : أَمَّتْكَ ، أَيُّ : أَذْكَرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَهَوْلُهُ وَمَا مَنَحَكَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الشَّرَفِ الْعَظِيمِ وَالْمَقَامِ الرَّفِيعِ . ﴾ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿ قَالَ إِنْ مَسَّعُوهُ ﴾ : قَدْ بَيَّنَّ لَنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ كُلِّ عِلْمٍ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴿ وَهُدًى ﴾ أَيُّ : لِلْقُلُوبِ ﴿ وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾

يُخَبِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِالْعَدْلِ ، وَهُوَ الْقِسْطُ وَالْمَوَازَنَةُ وَيَنْدُبُ إِلَى الْإِحْسَانِ ، وَقِيلَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ قَالَ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : الْعَدْلُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ : إِسْتِواءُ السَّرِيرَةِ وَالْعَلَانِيَةِ مِنْ كُلِّ عَامِلٍ لِلَّهِ عَمَلًا ، وَالْإِحْسَانُ : أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُهُ أَحْسَنُ مِنْ عِلَانِيَتِهِ ، ﴿ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أَيُّ : يَأْمُرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ . ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ فَالْفَوَاحِشُ : الْمُحَرَّمَاتُ ، وَالْمُنْكَرَاتُ : مَا ظَهَرَ مِنْهَا مِنْ فَاعِلِهَا ، وَهَذَا قِيلَ فِي الْمَوْضِعِ الْآخِرِ ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وَأَمَّا الْبَغْيُ فَهُوَ : الْعُدْوَانُ عَلَى النَّاسِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَذْخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ ، مِنَ الْبَغْيِ ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ » . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أَيُّ : يَأْمُرُكُمْ بِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ مَا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ

إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦﴾

هَذَا مِمَّا يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَهُوَ الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ ، وَالْحَافِظَةُ عَلَى الْأَيْمَانِ الْمَوْكَّدَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَيْمَانَ الْمُرَادُ بِهَا الدَّاخِلَةُ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ ، لَا الْأَيْمَانَ الَّتِي هِيَ وَارِدَةٌ عَلَى حَتٍّ أَوْ مَنَعٍ ، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يَعْنِي : الْحَلْفَ ، أَيْ : حَلْفَ الْجَاهِلِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِمَنْ نَقَضَ الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ : هَذَا مِثْلُ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ بَعْدَ تَوْكِيدِهِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْكَا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْمُ مَصْدَرٍ ﴿ نَفَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا ﴾ أَيْ : أَنْقَاضًا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا عَنْ خَيْرٍ كَانَ ، أَيْ : لَا تَكُونُوا أَنْكَاثًا ، جَمْعُ نِكْثٍ مِنْ نَاكَثٍ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ أَيْ : خَدِيعَةً وَمَكْرًا ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أَيْ : تَحْلِفُونَ لِلنَّاسِ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ لِيُطْمَئِنُّوا إِلَيْكُمْ ، فَإِذَا أَمَكْنَكُمْ الْغَدْرَ بِهِمْ غَدَرْتُمْ ، فَنَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ لِيُنَبِّهَ بِالْأَذْنَى عَلَى الْأَعْلَى ، إِذَا كَانَ قَدْ نَهَى عَنِ الْغَدْرِ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - فَلَا أَنْ يَنْهَى عَنْهُ مَعَ التَّمَكُّنِ وَالْقُدْرَةِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى . ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ قِيلَ : أَيْ : أَكْثَرُ ، وَقَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : كَانُوا يُحَالِفُونَ الْخُلَفَاءَ فَيَجِدُونَ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَعَزَّ ، فَيَنْقُضُونَ حِلْفَ هَؤُلَاءِ وَيُحَالِفُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ وَأَعَزُّ ، فَنُهِوا عَنْ ذَلِكَ ، ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَيْ : بِأَمْرِهِ إِيَّاكُمْ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ﴿ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَسْتَ عَلَى عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] أَيْ : لَوْفَقَ بَيْنَكُمْ وَلَمَّا جَعَلَ اخْتِلَافًا وَلَا تَبَاغُضًا وَلَا شَحْنَاءَ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ إِلَّا مَنْ

رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٨﴾ [هود: ١١٨-١١٩] وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَلَيْكُنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ثُمَّ يَسْأَلُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا عَلَى الْفَنِيلِ وَالنَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ، ثُمَّ حَذَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَيْمَانِ دَخَلًا، أَي: خَدِيعَةً وَمَكْرًا؛ لِئَلَّا تَزَلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا، مِثْلَ لِمَنْ كَانَ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ فَحَادَ عَنْهَا وَزَلَّ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى، بِسَبَبِ الْأَيْمَانِ الْحَاثِنَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا رَأَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ عَاهَدَهُ ثُمَّ عَدَّ بِهِ لَمْ يَبْقَ لَهُ وَثُوقٌ بِالْإِيمَانِ، فَانْصَدَّ بِسَبَبِهِ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَهَذَا قَالَ: ﴿وَتَذُقُوا أَلْسُوَةً بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أَي: لَا تَغْتَاضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ لَوْ حِزَتْ لِابْنِ آدَمَ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا لَكَانَ مَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَهُ، أَي: جَزَاءُ اللَّهِ وَثَوَابُهُ خَيْرٌ لِمَنْ رَجَاهُ وَأَمَّنَ بِهِ وَطَلَبَهُ وَحَفِظَ عَهْدَهُ، رَجَاءَ مَوْعُودِهِ، وَهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ أَي: يَفْرُغُ وَيَنْقُضِي، فَإِنَّهُ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ مَحْصُورٍ مُقَدَّرٍ مُتَنَاهٍ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أَي: وَثَوَابُهُ لَكُمْ فِي الْجَنَّةِ بَاقٍ لَا انْقِطَاعَ وَلَا نَفَادَ لَهُ فَإِنَّهُ دَائِمٌ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قَسَمَ مِنَ الرَّبِّ تَعَالَى مُؤَكَّدًا بِاللَّامِ أَنَّهُ: يُجَازِي الصَّابِرِينَ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ، أَي: وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئِهَا.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا - وَهُوَ الْعَمَلُ الْمُنَافِعُ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى مِنْ بَنِي آدَمَ، وَقَلْبُهُ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنَّ هَذَا الْعَمَلُ الْمَأْمُورَ بِهِ مَشْرُوعٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ - بِأَنْ يُحْيِيَهُ اللَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ يُجْزِيَهُ بِأَحْسَنِ مَا عَمِلَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَالْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ تَشْتَمِلُ وَجْهَ الرَّاحَةِ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ كَانَتْ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرَزِقَ كَفَافًا، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ».

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤﴾ إِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٥﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ إِذَا أَرَادُوا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ: أَنْ يَسْتَعِذُّوا بِاللَّهِ مِنْ

الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، وَهَذَا أَمْرٌ نَذِبٌ لَيْسَ بِوَاجِبٍ ، وَالْمَعْنَى فِي الْإِسْتِعَاذَةِ عِنْدَ إِبْتِدَاءِ الْقِرَاءَةِ لِئَلَّا يَلْبَسَ عَلَى الْقَارِئِ قِرَاءَتُهُ ، وَيَخْلُطَ عَلَيْهِ وَيَمْنَعُهُ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ : لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ أَنْ يُوقِعَهُمْ فِي ذَنْبٍ لَا يَتَوَبُّونَ مِنْهُ . ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ قِيلَ : يُطِيعُونَهُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : اتَّخَذُوهُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ أَيُّ : أَشْرَكُوا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ .

وَإِذَا بَدَلْنَا ءَايَةً مَكَاتٍ ءَايَةٍ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٠﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٣١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَعْفِ عُقُولِ الْمُشْرِكِينَ وَقِلَّةِ ثَبَاتِهِمْ وَإِقْبَانِهِمْ ، وَأَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ مِنْهُمْ الْإِيَانُ ، وَقَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا تَغْيِيرَ الْأَحْكَامِ نَاسَخَهَا بِمَنْسُوحِهَا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ أَيُّ : كَذَّابٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ الرَّبُّ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ بَدَلْنَا ءَايَةً مَكَاتٍ ءَايَةٍ ﴾ أَيُّ : رَفَعْنَاهَا وَاثْبَتْنَا غَيْرَهَا ، وَقَالَ قَتَادَةُ هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦]

فَقَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ أَيُّ : جَبْرِيلُ ﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ : بِالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فَيُصَدِّقُوا بِمَا أَنْزَلَ أَوَّلًا وَثَانِيًا ، وَتُثَبِّتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيُّ : وَجَعَلَهُ هَادِيًا وَبَشِيرَةً لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ مِنَ الْكُذْبِ وَالِافْتِرَاءِ وَالْبُهْتِ : أَنَّ مُحَمَّدًا إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ هَذَا الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ بَشَرٌ ، وَيُشِيرُونَ إِلَى رَجُلٍ أَعْجَمِيٍّ كَانَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ غَلَامٌ لِبَعْضِ بَطُونِ قُرَيْشٍ ، وَكَانَ بَيَاعًا يَبِيعُ عِنْدَ الصِّفَا ، وَرُبَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ إِلَيْهِ وَيُكَلِّمُهُ بَعْضُ الشَّيْءِ ، وَذَلِكَ كَانَ أَعْجَمِيٍّ اللَّسَانُ لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الشَّيْءَ الْيَسِيرَ بِقَدْرِ مَا يَرُدُّ جَوَابَ الْخُطَابِ فِيهَا لَا بُدَّ مِنْهُ ، فَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي إِفْتِرَائِهِمْ ذَلِكَ : ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : الْقُرْآنُ ، أَيُّ : فَكَيْفَ يَتَعَلَّمُ مَنْ جَاءَ بِهَذَا الْقُرْآنِ فِي فَصَاحَتِهِ وَبَلَغَتِهِ وَمَعَانِيهِ النَّامَةِ

الشَّامِلَةِ الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ مِنْ مَعَانِي كُلِّ كِتَابٍ نَزَلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، كَيْفَ يَتَعَلَّمُ مِنْ رَجُلٍ أَعْجَمِيٍّ ؟ لَا يَقُولُ هَذَا مَنْ لَهُ أَدْنَى مُسْكَةٍ مِنَ الْعَقْلِ .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ ، وَتَغَافَلَ عَمَّا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَصْدٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَهَذَا الْجَسُّسُ مِنَ النَّاسِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِآيَاتِهِ وَمَا أَرْسَلَ بِهِ رَسُولُهُ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مُوجِعٌ فِي الْآخِرَةِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ رَسُولَهُ ﷺ لَيْسَ بِمُفْتَرٍ وَلَا كَذَّابٍ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ ﷺ شِرَارُ الْخَلْقِ ﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ ﴿١٨﴾ مِنَ الْكُفَرَةِ وَالْمُلْحِدِينَ الْمَعْرُوفِينَ بِالْكَذِبِ عِنْدَ النَّاسِ ، وَالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ أَصْدَقَ النَّاسِ وَأَبْرَهُمْ وَأَكْمَلَهُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا وَإِيمَانًا وَإِيقَانًا ، مَعْرُوفًا بِالصِّدْقِ فِي قَوْمِهِ لَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، بِحَيْثُ لَا يُدْعَى بَيْنَهُمْ إِلَّا بِالْأَمِينِ مُحَمَّدٍ .

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿٢٢﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ بِهِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَالتَّبَصُّرِ ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ بِالْكُفْرِ وَاطْمَأَنَّ بِهِ ، أَنَّهُ قَدْ غَضِبَ عَلَيْهِ لِعِلْمِهِمْ بِالْإِيمَانِ ثُمَّ عُدُّوهُمْ عَنْهُ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا عَظِيمًا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، لَأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ، فَأَقْدَمُوا عَلَى مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنَ الرَّدَّةِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا ، وَلَمْ يَهْدِ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَيُشَبِّهَهُمْ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ ، فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ بِهَا شَيْئًا يَنْفَعُهُمْ ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ فَلَا يَتَنَفَعُونَ بِهَا ، وَلَا أَعْنَتْ عَنْهُمْ شَيْئًا فَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يَرَادُّ بِهِمْ ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أَيُّ : لَا بُدَّ وَلَا عَجَبَ أَنَّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ ﴿ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِمَّنْ كَفَرَ بِلِسَانِهِ وَوَافَقَ الْمُشْرِكِينَ بِلَفْظِهِ مُكْرَهَا لِمَا نَالَهُ مِنْ ضَرْبٍ وَأَدَّى ، وَقَلْبُهُ يَأْبَى مَا يَقُولُ ، وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَقَدْ قِيلَ : أَنَّ هَذِهِ آيَةٌ نَزَلَتْ فِي عَمَارٍ

ابن يَاسِرٍ حِينَ عَذَّبَهُ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مُكْرَهًا ، وَجَاءَ مُعْتَدِرًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمُكْرَهَ عَلَى الْكُفْرِ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُوَالِيَ إِنْقَاءَ لِهَاجَتِهِ ، وَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْبَى ، وَالْأَفْضَلُ وَالْأَوْلَى أَنْ يَثْبُتَ الْمُسْلِمُ عَلَى دِينِهِ وَلَوْ أَفْضَى إِلَى قَتْلِهِ .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

هَؤُلَاءِ صِنْفٌ آخَرٌ كَانُوا مُسْتَضَعَفِينَ بِمَكَّةَ مُهَانِينَ فِي قَوْمِهِمْ ، فَوَافَقُوهُمْ عَلَى الْفِتْنَةِ ثُمَّ إِنَّهُمْ أَمَكَنَهُمُ الْخِلَاصُ بِالْهَجْرَةِ ، فَتَرَكُوا بِلَادَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِنْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ وَغُفْرَانِهِ ، وَانْتَظَمُوا فِي سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَاهَدُوا مَعَهُمُ الْكَافِرِينَ وَصَبَرُوا ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مِنْ بَعْدِهَا أَيْ : تِلْكَ الْفَعْلَةُ ، وَهِيَ الْإِجَابَةُ إِلَى الْفِتْنَةِ لَغُفُورٌ لَهُمْ رَحِيمٌ بِهِمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ ﴾ أَيْ : تُحَاجُّ ﴿ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاجُّ عَنْهَا ، لَا أَبٌ وَلَا ابْنٌ وَلَا أَخٌ وَلَا زَوْجَةٌ ﴿ وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أَيْ : مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَنْقُصُ مِنْ ثَوَابِ الْخَيْرِ وَلَا يُزَادُ عَلَى ثَوَابِ الشَّرِّ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٠٣﴾

هَذَا مَثَلٌ أُريدَ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً مُسْتَقَرَّةً ، يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهَا ، وَمَنْ دَخَلَهَا كَانَ آمِنًا لَا يَخَافُ ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ أَيْ : هَنِئًا سَهْلًا ﴿ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ أَيْ : جَحَدَتْ آلاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَأَعْظَمَهَا بَعَثَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَيْهِمْ ، وَهَذَا بَدَّاهُمْ اللَّهُ بِحَالِهِمْ الْأَوَّلِينَ خِلَافَهُمَا فَقَالَ : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ ﴾ أَيْ : أَلْبَسَهَا وَأَذَاقَهَا الْجُوعَ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُجْبَى إِلَيْهِمْ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ اسْتَعْصَمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبَوْا إِلَّا خِلَافَهُ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبَعٍ يُوسُفَ ، فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ أَذْهَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ ، فَأَكَلُوا الْعِلْهَزَ وَهُوَ : وَبَرُّ الْبَعِيرِ يُخْلَطُ بِدَمِهِ إِذَا نَحَرُوهُ ﴿ وَالْخَوْفُ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بُدِّلُوا بِأَمْنِهِمْ خَوْفًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ حِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَطَوْنِهِ وَسَرَايَاهُ وَجَبُوشِهِ ، وَجَعَلَ كُلَّ مَا لَهُمْ فِي دِمَارٍ وَسَفَالٍ حَتَّى فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ

صَنِيعِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ فِيهِمْ ، وَكَمَا أَنَّهُ إِنْ عَكَسَ عَلَى الْكَافِرِينَ حَاطَهُمْ فَخَافُوا بَعْدَ الْأَمْنِ وَجَاعُوا بَعْدَ الرِّغْدِ ، فَبَدَّلَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، وَزَرَزَهُمْ بَعْدَ الْعَيْلَةِ وَجَعَلَهُمْ أُمَرَاءَ النَّاسِ وَحُكَّامَهُمْ وَسَادَتَهُمْ وَقَادَتَهُمْ وَأَيَّمَتَهُمْ .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٨﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَكْلِ رِزْقِهِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ ، وَيَشْكُرِهِ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ بِهِ إِبْتِدَاءً ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ بِمَا فِيهِ مَضَرَّةٌ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، مِنَ الْمَيْتَةِ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴿ وَمَا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ ﴾ أَيُّ : دُبْحٍ عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ ، وَمَعَ هَذَا فَمَنْ أَضْطَرَّ إِلَيْهِ ، أَيُّ : إِحْتِيَاجٌ مِنْ غَيْرِ بَغْيٍ وَلَا عُذْوَانٍ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . ثُمَّ نَهَى تَعَالَى عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا بِمُجَرَّدِ مَا وَصَفُوهُ وَاضْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ بِأَرَائِهِمْ ، مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ بِمَا كَانَ شَرْعًا لَهُمْ إِبْتَدَعُوهُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ وَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ مَنْ إِبْتَدَعَ بِدْعَةٍ لَيْسَ لَهُ فِيهَا مُسْتَنَدٌ شَرْعِيٌّ ، أَوْ حَلَّلَ شَيْئًا بِمَا حَرَّمَ اللَّهُ ، أَوْ حَرَّمَ شَيْئًا بِمَا أَبَاحَ اللَّهُ ، بِمُجَرَّدِ رَأْيِهِ وَتَشَهُّبِهِ « وَمَا » فِي قَوْلِهِ : ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ مُصْدَرِيَّةٌ ، أَيُّ : وَلَا تَقُولُوا الْكَذِبَ لِيُوصَفَ أَلْسِنَتُكُمْ . ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ . أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَمَتَاعٌ قَلِيلٌ وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، كَمَا قَالَ : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤]

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَيْنَا الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَإِنَّمَا أَرَحَصَ فِيهِ

عِنْدَ الصُّرُورَةِ - وَفِي ذَلِكَ تَوْسِعَةٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي يُرِيدُ اللَّهُ بِهَا الْيُسْرَى وَلَا يُرِيدُ بِهَا الْعُسْرَى - ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا كَانَ حَرَمُهُ عَلَى الْيَهُودِ فِي شَرِيعَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَنْسَخَهَا ، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْأَصَارِ وَالتَّضْيِيقِ وَالْأَغْلَالِ وَالْحَرْجِ ، فَقَالَ : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَي : فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَصَدِيقُونَ ﴾ [الْأَنْعَام : ١٤٦] ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أَي : فِيمَا صَيَّقْنَا عَلَيْهِمْ ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَي : فَاسْتَحَقُّوا ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النِّسَاء : ١٦٠] ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى تَكَرُّمًا وَامْتِنَانًا فِي حَقِّ الْعَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ : أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ﴾ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ أَي : أَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْمَعَاصِي ، وَأَقْبَلُوا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أَي : تِلْكَ الْفَعْلَةُ وَالزَّلَّةُ ﴿ لَغُفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٦﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٩﴾ يَمْدَحُ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَخَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامَ الْخُفَاءِ وَوَالِدَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيُرِثُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَمِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ فَأَمَّا الْأُمَّةُ : فَهُوَ الْإِمَامُ الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ ، وَالْقَانِتُ : هُوَ الْخَاشِعُ الْمُطِيعُ ، وَالْحَنِيفُ : الْمُنْحَرِفُ قَصْدًا عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، عَنْ أَبِي الْعَبِيدِينَ أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ مَسْعُودٍ ؓ عَنِ الْأُمَّةِ الْقَانِتِ ؟ فَقَالَ : الْأُمَّةُ : مُعَلِّمُ الْخَيْرِ ، وَالْقَانِتُ : الْمُطِيعُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ ﴾ أَي : قَانِتًا بِشُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النِّجْم : ٣٧] أَي : قَامَ بِجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَجْتَبَنَاهُ ﴾ أَي : اخْتَارَهُ وَاصْطَفَاهُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، عَلَى شَرَعٍ مَرْضِيٍّ ، ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أَي : جَمَعْنَا لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا مِنْ جَمِيعِ مَا يَخْتَاجُ الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ فِي إِكْمَالِ حَيَاتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . وَقِيلَ : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أَي : لِسَانَ صِدْقٍ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أَي : وَمِنْ كَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَصِحَّةِ تَوْحِيدِهِ وَطَرِيقِهِ ، أَنَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ وَسَيِّدَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٠﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْيَهُودِ :

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَخْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٦١﴾

لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ فِي كُلِّ مِلَّةٍ يَوْمًا مِنَ الْأُسْبُوعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ فِيهِ لِلْعِبَادَةِ ، فَشَرَعَ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ الَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ فِيهِ الْخَلِيقَةَ ، وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ ، وَتَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَيُقَالُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ مُوسَى فَعَدَلُوا عَنْهُ وَاخْتَارُوا السَّبْتَ ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ فِيهِ الرَّبُّ شَيْئًا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّذِي كَمَلَ خَلْقُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَأَلْزَمَهُمْ تَعَالَى بِهِ فِي شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ وَوَصَاهُمْ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهِ وَأَنْ يُحَافِظُوا عَلَيْهِ مَعَ أَمْرِهِ إِيَّاهُمْ بِمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بَعَثَهُ وَأَخَذَ مَوَاقِفَهُمْ وَعُهُودَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : إِنَّبَعُوهُ وَتَرَكُوا الْجُمُعَةَ . ثُمَّ إِنَّمَا لَمْ يَزَالُوا مُتَمَسِّكِينَ بِهِ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَيُقَالُ : إِنَّهُ حَوَّاهُمْ إِلَى يَوْمِ الْأَحَدِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ شَرِيعَةَ التَّوْرَةِ إِلَّا مَا نُسَخَ مِنْ بَعْضِ أَحْكَامِهَا ، وَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُحَافِظًا عَلَى السَّبْتِ حَتَّى رُفِعَ ، وَإِنَّ النَّصَارَى بَعْدَهُ فِي زَمَنِ قُسْطَنْطِينِ هُمُ الَّذِينَ تَحَوَّلُوا إِلَى يَوْمِ الْأَحَدِ مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ ، وَتَحَوَّلُوا إِلَى الصَّلَاةِ شَرْقًا عَنِ الصَّخْرَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٦٢﴾

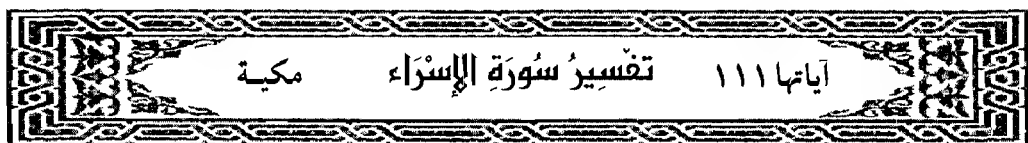
يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُوَ الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ بِالْحُكْمَةِ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَهُوَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، أَيْ : بِمَا فِيهِ مِنَ الزَّوَاجِرِ وَالْوَقَائِعِ بِالنَّاسِ ، ذَكَرَهُمْ بِهَا لِيَحْذَرُوا بِأَسْ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أَيْ : مِنْ إِحْتِجَاجِ مِنْهُمْ إِلَى مُنَاطَرَةٍ وَجِدَالٍ ، فَلْيَكُنْ بِالْوَجْهِ الْحَسَنِ بِرَفْقٍ وَلِينٍ وَحُسْنِ خِطَابٍ ، فَأَمَرَهُ تَعَالَى بِلِينِ الْجَانِبِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أَيْ : قَدْ عَلِمَ الشَّقِيُّ مِنْهُمْ وَالسَّعِيدَ ، وَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ وَفَرَّغَ مِنْهُ ، فَأَدْعُهُمْ إِلَى اللَّهِ وَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ عَلَى مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ حَسْرَاتٍ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ عَلَيْهِمُ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۚ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٦٣﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٦٤﴾

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١١١﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ فِي الْقِصَاصِ ، وَالْمِثَالَةِ فِي اسْتِيفَاءِ الْحَقِّ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ : « إِنِ اخَذَ مِنْكُمْ رَجُلٌ شَيْئًا فَخُذُوا مِثْلَهُ . عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ قُتِلَ مِنَ الْأَنْصَارِ سِتُّونَ رَجُلًا ، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : لَيْتَنَّا كُنَّا يَوْمَ مِثْلِ هَذَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَنُمِثِّلَنَّهُمْ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ قَالَ رَجُلٌ : لَا تُعْرِفُ قُرَيْشٌ بَعْدَ الْيَوْمِ ، فَنَادَى مُنَادٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ آمَنَ الْأَسْوَدَ وَالْأَبْيَضَ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا - نَاسًا سَمَاهُمْ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَصَبُ وَلَا نُعَاقِبُ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ تَأْكِيدٌ لِلْأَمْرِ بِالصَّبْرِ ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُنَالُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَإِعَانَتِهِ وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : عَلَى مَنْ خَالَفَكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ ذَلِكَ ﴿ وَلَا تَلُؤْ فِي ضَيْقٍ ﴾ أَيُّ : غَمٍّ ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أَيُّ : مِمَّا يُيْهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي عِدَاوَتِكَ ، وَإِصَالِ الشَّرِّ إِلَيْكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ وَمُظْهِرُكَ وَمُظْفِرُكَ بِهِمْ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أَيُّ : مَعَهُمْ ، بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ وَمُعُونَتِهِ وَهَذِهِ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ ، وَمَعْنَى ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أَيُّ : تَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أَيُّ : فَعَلُوا الطَّاعَاتِ ، فَهَؤُلَاءِ اللَّهُ يَحْفَظُهُمْ وَيَكْلُوهُمْ ، وَيَنْصُرُهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ ، وَيُظْفِرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَمُخَالِفِيهِمْ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّحْلِ وَاللهُ الْحَمْدُ أَجْمَعُهُ وَالْمِنَّةُ



عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ : إِيَّاهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُولِ وَهُنَّ مِنَ تِلَادِي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾
يُمَجِّدُ تَعَالَى نَفْسَهُ ، وَيُعَظِّمُ شَأْنَهُ ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاهُ ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ

وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أَي : فِي جُنْحِ اللَّيْلِ ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ، وَهُوَ مَسْجِدُ مَكَّةَ ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وَهُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ الَّذِي بِبَيْلِيَاءَ ، مَعْدِنُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ ﷺ وَلِهَذَا جُمِعُوا لَهُ هُنَا كُلُّهُمْ ، فَأَمَّهُمْ فِي مَحَلَّتِهِمْ وَدَارِهِمْ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ وَالرَّئِيسُ الْمُقَدَّمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أَي : فِي الزُّرُوعِ وَالثَّمَرِ ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أَي : مُحَمَّدًا ﴿مِنْ ءَايَاتِنَا﴾ أَي : الْعِظَامُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم : ١٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أَي : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ ، مُصَدِّقُهُمْ وَمُكَذِّبُهُمْ ، الْبَصِيرُ بِهِمْ ، فَيُعْطِي كُلًّا مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبُغْلِ ، يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهِ ، فَرَكِبْتُهُ فَسَارَ بِي حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبُطُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَتَانِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ ، قَالَ : ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ لَهُ مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِأَدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِإِبْنِ الْحَالَةِ : يَحْيَى وَعِيسَى ، فَرَحَّبَا بِي وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ

السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جَبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِذَا هُوَ مُسْتَنِدٌّ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ بِى إِلَى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ، فَإِذَا وَرَقُهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقَلَالِ ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، قَالَ : فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى ، وَقَدْ فَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلَاةً ، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ، قَالَ : مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ ؟ قُلْتُ : خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، قَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ ، قَالَ : فَارْجِعْ إِلَى رَبِّي ، فَقُلْتُ : أَيُّ رَبِّ خَفَّفَ عَنْ أُمَّتِي ، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : مَا فَعَلْتَ ؟ فَقُلْتُ : قَدْ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، فَقَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قَالَ : فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى ، وَيَحْطُ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قَالَ : يَا مُحَمَّدُ هُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ ، فِتْلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ . فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ، فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ)) .

قَالَ الزُّهْرِيُّ : كَانَ الْإِسْرَاءُ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : بِسِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ يَقْظَةً لَا مَنَامًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ رَاكِبًا الْبُرَاقَ . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ رَبَطَ الدَّابَّةَ عِنْدَ الْبَابِ ، وَدَخَلَهُ فَصَلَّى فِي قِبْلَتِهِ نَحْيَةَ الْمَسْجِدِ رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ أُبِيَ بِالْمِعْرَاجِ - وَهُوَ كَالسَّلَامِ ذُو دَرَجٍ يُرْقَى فِيهَا - فَصَعِدَ فِيهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَى بَقِيَّةِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ ، فَتَلَقَّاهُ مِنْ كُلِّ سَّمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا ، وَسَلَّمُوا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ فِي السَّمَاوَاتِ بِحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ ، حَتَّى مَرَّ بِمُوسَى الْكَلِيمِ فِي السَّادِسَةِ ، وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فِي السَّابِعَةِ ، ثُمَّ جَاوَزَ مَزَلَّتِيهِمَا - ﷺ - وَعَلَيْهِمَا وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ - حَتَّى انْتَهَى إِلَى مُسْتَوَى يَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ ، أَيْ : أَقْلَامَ الْقَدَرِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ ، وَرَأَى سِدْرَةَ الْمُنتَهَى ، وَغَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَظَمَةٌ عَظِيمَةٌ ، مِنْ فَرَاشٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَلْوَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَغَشِيَتْهَا الْمَلَائِكَةُ ، وَرَأَى هُنَاكَ جَبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ وَلَهُ سِتْرَانَةُ جَنَاحٍ ، وَرَأَى رَفْرَفًا أَخْضَرَ قَدْ سَدَّ الْأَفُقَ ، وَرَأَى الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ - بَابِي الْكَعْبَةِ الْأَرْضِيَّةِ - مُسْنِدٌ ظَهَرَهُ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ الْكَعْبَةُ السَّمَاوِيَّةُ ، يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ

يَعْبُدُونَ فِيهِ ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَرَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، وَفَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ هُنَالِكَ الصَّلَوَاتِ خَمْسِينَ ، ثُمَّ خَفَّفَهَا إِلَى خَمْسٍ رَحْمَةً مِنْهُ وَلُطْفًا بِعِبَادِهِ ، وَفِي هَذَا إِعْتِنَاءٌ عَظِيمٌ بِشَرَفِ الصَّلَاةِ وَعَظَمَتِهَا ، ثُمَّ هَبَطَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَهَبَطَ مَعَهُ الْأَنْبِيَاءُ ، فَصَلَّى بِهِمْ فِيهِ لَمَّا حَانَتِ الصَّلَاةُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا الصُّبْحُ مِنْ يَوْمِئِذٍ ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَمَّهُمْ فِي السَّمَاءِ ، وَالَّذِي تَظَاهَرَتْ بِهِ الرُّوَايَاتُ أَنَّهُ بَنِيَتْ الْمَقْدِسَ ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِهَا أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ دُخُولِهِ إِلَيْهِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ بَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا مَرَّ بِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ جَعَلَ يَسْأَلُ عَنْهُمْ جِرِيلَ وَاحِدًا وَاحِدًا ، وَهُوَ يُخْبِرُهُ بِهِمْ ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلًا مَطْلُوبًا إِلَى الْجَنَابِ الْعُلُويِّ ، لِيُفَرِّضَ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ مَا يَشَاءُ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ لَمَّا فَرَّغَ مِنَ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ اجْتِمَاعُ بِهِ هُوَ وَإِخْوَانُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ ، ثُمَّ أَظْهَرَ شَرَفَهُ وَفَضْلَهُ عَلَيْهِمْ بِتَقْدِيمِهِ فِي الْإِمَامَةِ ، وَذَلِكَ عَنْ إِشَارَةِ جِرِيلَ عليه السلام لَهُ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ فَرَكِبَ الْبُرَاقَ وَعَادَ إِلَى مَكَّةَ بَغْلَسَ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَأَمَّا عَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّبَنِ وَالْعَسَلِ ، أَوِ اللَّبَنِ وَالْخَمْرِ ، أَوِ اللَّبَنِ وَالْمَاءِ ، أَوِ الْجَمِيعِ فَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَجَاءَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَاهُنَا وَهَاهُنَا ؛ لِأَنَّهُ كَالضَّيَافَةِ لِلْقَادِمِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ كَانَ الْإِسْرَاءُ بِيَدَيْهِ عليه السلام وَرُوحِهِ ، أَوْ بِرُوحِهِ فَقَطْ عَلَى قَوْلَيْنِ : فَالْأَكْثَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ أُسْرِيَ بِيَدَيْهِ وَرُوحِهِ يَقْطَعُ لَا مَنَامًا ، وَلَا يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى قَبْلَ ذَلِكَ مَنَامًا ، ثُمَّ رَأَاهُ بَعْدَهُ يَقْطَعُ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عليه السلام لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ فَالتَّسْبِيحُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ ، فَلَوْ كَانَ مَنَامًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَبِيرُ شَيْءٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعْظَمًا ، وَلَمَّا بَادَرَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى تَكْذِيبِهِ ، وَلَمَّا اِزْدَدَتْ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ . وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعَبْدَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ ، وَقَدْ قَالَ : ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : ٦٠] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ ، وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ هِيَ : شَجَرَةُ الرُّقُومِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ، وَالْبَصَرُ مِنَ آلَاتِ الذَّاتِ لَا الرُّوحِ ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ حُمِلَ عَلَى الْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ بَيَضَاءُ بَرَّاقَةٌ لَهَا لَمَعَانُ وَإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا لِلْبَدَنِ لَا لِلرُّوحِ ؛ لِأَنَّهُمَا لَا يَحْتَاجُ فِي حَرَكَتِهَا إِلَى مَرْكَبٍ تَرَكَّبُ عَلَيْهِ .

وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَسْرَى بِعَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، عَطَفَ بِذِكْرِ مُوسَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِمِهِ أَيْضًا ، فَإِنَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ بَيْنَ ذِكْرِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا مِنَ اللَّهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَبَيْنَ ذِكْرِ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ الْإِسْرَاءِ ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي : التَّوْرَةَ ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أَي : الْكِتَابَ ﴿هُدًى﴾ أَي : هَادِيًا ﴿لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أَي : لئَلَّا تَتَّخِذُوا ﴿مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ أَي : وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَلَا مَعْبُودًا دُونِي ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ أَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تَقْدِيرُهُ : يَا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، فِيهِ تَهْنِئَةٌ وَتَنْبِيْهُ عَلَى الْمِنَّةِ ، أَي : يَا سُلَالَةَ مَنْ نَجَّيْنَا فَحَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ تَشَبَّهُوا بِأَبْيَكُمُ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فَادْكُرُوا أَنَّكُمْ نِعْمْتِي عَلَيْكُمْ بِإِزْسَالِي إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ .

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ﴿١﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٢﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٣﴾ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْتَفْهُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلُوا تَتَّبِعُوا ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَصَىٰ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ، أَي : تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ ، أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَيَعْلُونَ عُلُوقًا كَبِيرًا ، أَي : يَتَجَبَّرُونَ وَيَطْغَوْنَ وَيَفْجَرُونَ عَلَى النَّاسِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] أَي : تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ وَأَخْبَرْنَاهُ بِذَلِكَ وَأَعْلَمْنَاهُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أَي : أُولَى الْإِفْسَادَتَيْنِ ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أَي : سَلَطْنَا عَلَيْكُمْ جُنْدًا مِنْ خَلْقِنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ ، أَي : قُوَّةً وَعَدَّةً وَعَدَدٍ وَسُلْطَنَةً شَدِيدَةً ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أَي : تَمَلَّكُوا بِلَادَكُمْ وَسَلَكُوا خِلَالَ بُيُوتِكُمْ ، أَي : بَيْنَهَا وَوَسَطَهَا ، وَأَنْصَرَفُوا ذَاهِبِينَ وَجَائِئِينَ لَا يَتَخَفُونَ أَحَدًا ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِي هَؤُلَاءِ الْمَسْلُطِينَ عَلَيْهِمْ : مَنْ هُمْ ؟ فَقِيلَ : أَنَّهُ جَالُوتُ الْجَزْزِيِّ وَجُنُودُهُ ، سَلَّطَ عَلَيْهِمْ أَوْ لَا ثُمَّ أُدِيلُوا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ

الْكِرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْتُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿١٠﴾ وَقِيلَ : أَنَّهُ مَلِكُ الْمُؤَصِّلِ سَنْجَارِيْبُ وَجُنُودُهُ ، وَقِيلَ : أَنَّهُ بُخْتَنْصَرُ مَلِكُ بَابِلَ ، وَقَدْ وَرَدَتْ فِي هَذَا آثَارٌ كَثِيرَةٌ إِسْرَائِيلِيَّةٌ نَحْنُ فِي غُنْيَةٍ عَنْهَا وَلِلَّهِ الْحَمْدُ . وَفِيهَا قَصُّ اللَّهِ عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ غُنْيَةً عَمَّا سِوَاهُ مِنْ بَقِيَّةِ الْكُتُبِ قَبْلَهُ ، وَلَمْ يُخَوِّجْنَا اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَمَّا طَغَوْا وَبَغَوْا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ ، فَاسْتَبَاحَ بَيْضَتَهُمْ وَسَلَكَ خِلَالَ بُيُوتِهِمْ ، وَأَذْنَمَ وَقَهَرَهُمْ جَزَاءً وَفَاقًا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَمَرَّدُوا وَقَتَلُوا خَلْقًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أَيُّ : فَعَلَيْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أَيُّ : الْكِرَّةُ الْآخِرَةُ ، أَيُّ : إِذَا أَفْسَدْتُمُ الْكِرَّةَ الثَّانِيَةَ وَجَاءَ أَعْدَاؤُكُمْ ﴿ لِيُسْتَفَوْا وَجُوهَكُمْ ﴾ أَيُّ : يُهَيَّبُوكُمْ وَيَقْهَرُوكُمْ ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ أَيُّ : بَيْتَ الْمَقْدِسِ ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَيُّ : فِي النَّبِيِّ جَاسُوا فِيهَا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴿ وَلِيَتَّبِعُوا ﴾ أَيُّ : يُدْمَرُوا وَيُحْرَبُوا ﴿ مَا عَلَوْا تَتَّبِعُوا ﴾ أَيُّ : مَا ظَهَرُوا عَلَيْهِ ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ أَيُّ : فَيَصْرِفَهُمْ عَنْكُمْ ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ أَيُّ : مَتَىٰ عُدْتُمْ إِلَى الْإِفْسَادِ ﴿ عُدْنَا ﴾ إِلَى الْإِدَالَةِ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا نَذَرَهُ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ أَيُّ : مُسْتَقَرًّا وَمَحْصَرًا وَسَجْنَا لَا يُحِيدُهُمْ عَنْهُ . وَقِيلَ : يُحْصَرُونَ فِيهَا ، وَقِيلَ : فِرَاشًا وَمِهَادًا .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢﴾ يَمْدُحُ تَعَالَى كِتَابَهُ الْعَزِيزَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، بِأَنَّهُ يَهْدِي لِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحِ السَّبِيلِ ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بِهِ ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ عَلَى مُقْتَضَاهُ ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أَيُّ : وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَنَّ ﴿ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١٣﴾

يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ عَجَلَةِ الْإِنْسَانِ ، وَدُعَائِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ بِالشَّرِّ ، أَيُّ : بِالْمَوْتِ أَوْ الْهَلَاكِ وَالْذَّمِّ وَاللَّعْنَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَلَوْ اسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ لَهَلَكَ بِدُعَائِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ﴾ [يونس : ١١] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ : « لَا تَدْعُوا عَلَى

أَنْفُسِكُمْ وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ أَنْ تَوْافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً إِجَابَةً يَسْتَجِيبُ فِيهَا . وَإِنَّمَا يَحْمِلُ ابْنُ آدَمَ عَلَى ذَلِكَ قَلْقَهُ وَعَجَلَتُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ .

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿٦٥﴾

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ بِآيَاتِهِ الْعِظَامِ فَمِنْهَا مُحَافَتُهُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، لِيَسْكُنُوا فِي اللَّيْلِ ، وَيَنْتَشِرُوا فِي النَّهَارِ لِلْمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَسْفَارِ ، وَلِيَعْلَمُوا عَدَدَ الْأَيَّامِ وَالْجُمُعِ وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ ، وَيَعْرِفُوا مُضَيَّ الْأَجَالِ الْمَضْرُوبَةِ لِلدُّيُونِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَالْإِجَارَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيُّ : فِي مَعَاشِكُمْ وَأَسْفَارِكُمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ الزَّمَانُ كُلُّهُ نَسَقًا وَاحِدًا ، وَأُسْلُوبًا مُتَسَاوِيًا ، لَمَا عُرِفَ شَيْءٌ مِّنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ اللَّيْلَ آيَةً ، أَيُّ : عَلَامَةً يُعْرَفُ بِهَا وَهِيَ الظَّلَامُ وَظُهُورُ الْقَمَرِ فِيهِ ، وَلِلنَّهَارِ عَلَامَةٌ وَهِيَ النُّورُ ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ النِّيَّةَ فِيهِ ، وَفَاوَتْ بَيْنَ نُورِ الْقَمَرِ وَضِيَاءِ الشَّمْسِ لِيُعْرَفَ هَذَا مِنْ هَذَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَا يَسْتَلْقَوْمٍ لِّقَوْمٍ يُتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٥-٦]

قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ كُنَّا نَحْدِثُ أَنَّ مَحْوَ آيَةِ اللَّيْلِ سَوَادُ الْقَمَرِ الَّذِي فِيهِ ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ أَيُّ : مُبِيرَةً وَخَلَقَ الشَّمْسُ أَنْوَرَ مِنَ الْقَمَرِ وَأَعْظَمَ .

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ ۖ فِي عُنُقِهِ ۖ وَخَرَجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابٌ يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿٦٦﴾ أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ الزَّمَانِ وَذِكْرِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ ۖ فِي عُنُقِهِ ﴾ وَطَائِرُهُ : هُوَ مَا طَارَ عَنْهُ مِنْ عَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَيَلْزَمُ بِهِ وَيُجَازَى عَلَيْهِ ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٧-١٨] . وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ عَمَلَ ابْنِ آدَمَ مُحْفُوظٌ عَلَيْهِ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ ، وَيُكْتَبُ عَلَيْهِ لَيْلًا وَنَهَارًا صَبَاحًا وَمَسَاءً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَخَرَجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابٌ يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ أَيُّ : نَجْمَعُ لَهُ عَمَلَهُ كُلَّهُ فِي كِتَابٍ يُعْطَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِمَّا بِيَمِينِهِ إِنْ كَانَ سَعِيدًا ، أَوْ بِشِمَالِهِ إِنْ كَانَ شَقِيًّا ، مَنشُورًا : أَيُّ مَفْتُوحًا يَقْرَؤُهُ هُوَ وَغَيْرُهُ ، فِيهِ جَمِيعُ عَمَلِهِ مِنْ أَوَّلِ عُمرِهِ إِلَى آخِرِهِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى

بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٠﴾ أَيُّ : إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تُظْلَمْ وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكَ إِلَّا مَا عَمِلْتَ ؛ لَأَنَّكَ ذَكَرْتَ جَمِيعَ مَا كَانَ مِنْكَ ، وَلَا يَنْسَى أَحَدٌ شَيْئًا مِمَّا كَانَ مِنْهُ ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَقْرَأُ كِتَابَهُ مِنْ كَاتِبٍ وَأُمِّيٍّ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَزَمْنَاهُ طَبِيرَهُ فِي عُقْبِهِ ﴾ : إِنَّمَا ذَكَرَ الْعُنُقَ ؛ لِأَنَّهُ عُضْوٌ مِنَ الْأَعْضَاءِ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْجَسَدِ ، وَمَنْ أَلَزَمَ بَشِيءٍ فِيهِ فَلَا حَيْدَ لَهُ عَنْهُ .

مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّ ﴿ مَنْ أَهْتَدَى ﴾ وَاتَّبَعَ الْحَقَّ وَاقْتَضَىٰ أَثَرَ النُّبُوَّةِ ، فَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَاقِبَةَ ذَلِكَ الْحَمِيدَةِ لِنَفْسِهِ ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ أَيُّ : عَنِ الْحَقِّ وَزَاغَ عَنِ سَبِيلِ الرَّشَادِ فَإِنَّمَا يَجْنِي عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يَعُودُ وَبِأَلْ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أَيُّ : لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ ، وَلَا يَجْنِي جَانٌّ إِلَّا عَلَىٰ نَفْسِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ [فاطر : ١٨] ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ : ﴿ وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَاهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : ٢٥] ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ عَلَيْهِمْ إِثْمٌ ضَلَّالَتِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَإِثْمٌ آخَرٌ بِسَبَبِ مَا أَضَلُّوا مَنْ أَضَلُّوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِ أُولَئِكَ وَلَا يَحْمِلُ عَنْهُمْ شَيْئًا . وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ إِنْخِبَارٌ عَنْ عَدْلِهِ تَعَالَىٰ وَأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿ [الملك : ٨-٩]

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٢﴾
 اِخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ فَالْمَشْهُورُ قِرَاءَةُ التَّخْفِيفِ ، وَاجْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهَا ، فَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا أَمْرًا قَدْرِيًّا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ أَتَيْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ [يونس : ٢٤] فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، قَالُوا : مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَخَّرَهُمْ إِلَىٰ فِعْلِ الْفَوَاحِشِ فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَاتِ فَعَمَلُوا الْفَوَاحِشَ فَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : جَعَلْنَاهُمْ أَمْرَاءَ ، قُلْتُ : إِنَّمَا يُجِئُ هَذَا عَلَىٰ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ قَالَ فَرِيقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ سَلَطْنَا أَشْرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٣] . قَالَ فَرِيقٌ آخَرٌ : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أَكْثَرْنَا عَدَدَهُمْ .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْذِرًا لِّكُفَّارٍ قُرَيْشٍ فِي تَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، بَأْتُهُ قَدْ أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْمُكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْقُرُونِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَلَى الْإِسْلَامِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : كَانَتْ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ . وَمَعْنَاهُ : أَنْكُمْ أَهْلُ الْمَكْذُوبِ لَسْتُمْ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ ، وَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَأَكْرَمَ الْخَلَائِقِ ، فَعُقُوبَتُكُمْ أَوْلَى وَأَخْرَى ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أَي : هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ خَيْرَهَا وَشَرُّهَا ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَةٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ يَحْصُلُ لَهُ ، بَلْ إِنَّمَا يَحْصُلُ لِمَنْ أَرَادَ اللَّهُ وَمَا يَشَاءُ ، وَهَذِهِ مُقَدِّمَةٌ لِإِطْلَاقِ مَا سَوَاهَا مِنَ الْآيَاتِ ، فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ ﴾ أَي : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ يَصْلَاهَا ﴾ أَي : يَدْخُلُهَا حَتَّى تَغْمُرَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ﴿ مَذْمُومًا ﴾ أَي : فِي حَالِ كَوْنِهِ مَذْمُومًا عَلَى سُوءِ تَصَرُّفِهِ وَصَنِيعِهِ ، إِذِ اخْتَارَ الْفَاسِقُ عَلَى الْبَاقِي ﴿ مَدْحُورًا ﴾ مُبْعَدًا مُقْصِيًا حَقِيرًا ذَلِيلًا مُهَانًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ أَي : أَرَادَ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعْمِ وَالسُّرُورِ ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أَي : طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِهِ ، وَهُوَ مُتَابِعُهُ الرَّسُولِ ﷺ ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أَي : قَلْبُهُ مُؤْمِنٌ ، أَي : مُصَدِّقٌ مُوقِنٌ بِالنُّوَابِ وَالْجَزَاءِ ﴿ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ .

كُلًّا نُمِدُّ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلَّآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ كُلًّا ﴾ أَي : كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الَّذِينَ أَرَادُوا الدُّنْيَا وَالَّذِينَ أَرَادُوا الْآخِرَةَ ، نُمِدُّهُمْ فِيمَا فِيهِ ﴿ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ أَي : هُوَ الْمُتَصَرَّفُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ ، فَيُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ ، فَلَا رَادَّ لِحُكْمِهِ وَلَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ ، وَلَا مُغَيِّرَ لِمَا أَرَادَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أَي : لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ وَلَا يَرُدُّهُ رَادٌّ ، وَقِيلَ : ﴿ مَحْظُورًا ﴾ أَي : مَنْقُوصًا ، وَقِيلَ : مَمْنُوعًا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا

فَمِنْهُمْ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ وَبَيَّنَ ذَلِكَ ، وَالْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ وَبَيَّنَ ذَلِكَ ، وَمَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا وَمَنْ يَعْمَرُ حَتَّى يَبْقَى شَيْخًا كَبِيرًا وَبَيَّنَ ذَلِكَ ﴿ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أَي : وَلْتَفَاوُثُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَكَاتِ فِي جَهَنَّمَ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَاهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَنَعِيمِهَا وَسُرُورِهَا ، ثُمَّ أَهْلُ الدَّرَكَاتِ يَتَفَاوُثُونَ فِيهَا هُمْ فِيهِ ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ يَتَفَاوُثُونَ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةٌ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَوْنَ أَهْلَ عَلَيَيْنِ كَمَا تَرَوْنَ الْكُوكَبَ الْغَابِرَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ » ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى - وَالْمُرَادُ الْمُكَلَّفُونَ مِنَ الْأُمَّةِ - لَا تَجْعَلْ أَيُّهَا الْمُكَلَّفُ فِي عِبَادَتِكَ رَبَّكَ لَهُ شَرِيكًا ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا ﴾ أَي : عَلَى إِشْرَاكِكَ ﴿ مَخْذُولًا ﴾ لِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى لَا يَنْصُرُكَ بَلْ يَكِيلُكَ إِلَى الَّذِي عَبَدْتَ مَعَهُ ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ لَكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ؛ لِأَنَّ مَالِكَ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسِنًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٧﴾ وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿١٨﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ هَاهُنَا بِمَعْنَى : الْأَمْرُ . قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ يَعْنِي : وَصَّى ، وَلِهَذَا قَرَنَ بِعِبَادَتِهِ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسِنًا ﴾ أَي : وَأَمَرَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ [لقمان : ١٤] وَقَوْلُهُ : ﴿ إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ ﴾ أَي : لَا تُسْمِعْهُمَا قَوْلًا سَيِّئًا ، حَتَّى وَلَا التَّأْفِيفَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى مَرَاتِبِ الْقَوْلِ السَّيِّئِ ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أَي : وَلَا يَصْدُرُ مِنْكَ إِلَيْهِمَا فِعْلٌ قَبِيحٌ ، كَمَا قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أَي : لَا تَنْفُضْ يَدَكَ عَلَيْهِمَا . وَلَمَّا نَهَاهُ عَنِ الْقَوْلِ الْقَبِيحِ وَالْفِعْلِ الْقَبِيحِ ، أَمَرَهُ بِالْقَوْلِ الْحَسَنِ وَالْفِعْلِ الْحَسَنِ ، فَقَالَ : ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أَي : لَيْتَا طَيِّبًا حَسَنًا ، بِتَأْدُبٍ وَتَوْقِيرٍ وَتَعْظِيمٍ . ﴿ وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ أَي : تَوَاضَعْ لَهُمَا بِفِعْلِكَ ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا ﴾ أَي : فِي كِبَرِهِمَا وَعِنْدَ وَفَائِهِمَا ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ .

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿١٩﴾

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ مِنْهُ الْبَادِرَةُ إِلَى أَبِيهِ ، وَفِي نَبْتِهِ وَقَلْبِهِ أَنَّهُ لَا يُؤْخَذُ بِهِ ، وَفِي رَوَايَةٍ : لَا يُرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ بِذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّيْبِ عَفُورًا ﴾ هُوَ التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ ، الرَّجَّاعُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ ، مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ إِلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، لِأَنَّ الْأَوَّابَ : مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَوْبِ ، وَهُوَ : الرَّجُوعُ ، يُقَالُ : آبَ فُلَانٌ إِذَا رَجَعَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ ﴾ [الغاشية : ٢٥]

وَأَتَا ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا ﴿٦٦﴾ إِنْ الِّمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا ﴿٦٨﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى بِرَّ الْوَالِدَيْنِ عَطَفَ بِذِكْرِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَفِي الْحَدِيثِ « أُمُّكَ وَأَبَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ » ، وَفِي رَوَايَةٍ « ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ » وَفِي الْحَدِيثِ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ فَلْيُصَلِّ رَحِمَهُ » .

قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا ﴾ لَمَّا أَمَرَ بِالْإِنْفَاقِ نَهَى عَنِ الْإِسْرَافِ فِيهِ ، بَلْ يَكُونُ وَسَطًا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ [الفرقان : ٦٧] ، ثُمَّ قَالَ مُنْفَرًا عَنِ التَّبْذِيرِ وَالسَّرْفِ ﴿ إِنْ الِّمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ﴾ أَيُّ : أَشْبَاهُهُمْ فِي ذَلِكَ . وَرَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ۞ : التَّبْذِيرُ : الْإِنْفَاقُ فِي غَيْرِ حَقٍّ ، وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : لَوْ أَنْفَقَ إِنْسَانٌ مَالَهُ كُلَّهُ فِي الْحَقِّ لَمْ يَكُنْ مُبْذِرًا ، وَلَوْ أَنْفَقَ مَدًّا فِي غَيْرِ حَقٍّ كَانَ مُبْذِرًا . ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ أَيُّ : جَحُودًا ؛ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِطَاعَتِهِ ، بَلْ أَقْبَلَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الْآيَةُ ، أَيُّ : إِذَا سَأَلَكَ أَقَارِبُكَ وَمَنْ أَمْرُكَ بِإِعْطَائِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَعْرَضْتَ عَنْهُمْ لِفَقْدِ النِّفَقَةِ ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا ﴾ أَيُّ : عِذَّهُمْ وَعِدًّا بِسُهُولَةٍ وَلَيْنٍ ، إِذَا جَاءَ رِزْقُ اللَّهِ فَسَنَصِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، هَكَذَا فُسِّرَ قَوْلُهُ : ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا ﴾ بِالْوَعْدِ .

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٦٩﴾ إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا بِالْإِقْتِسَادِ فِي الْعَيْشِ ، دَامًا لِلْبُخْلِ ، نَاهِيًا عَنِ السَّرْفِ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ أَيُّ : لَا تَكُنْ بِخَيْلًا مَنُوعًا ، لَا تُعْطِي أَحَدًا شَيْئًا ، كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ

الله - ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أي: نَسْبُوهُ إِلَى الْبُخْلِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ الْكَرِيمُ الْوَهَّابُ .
 وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: وَلَا تُسْرِفْ فِي الْإِنْفَاقِ، فَتُعْطِيَ فَوْقَ طَاقِكَ
 وَتُخْرِجَ أَكْثَرَ مِنْ دَخْلِكَ، فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا، أي: فَتَقْعُدَ إِنْ بَخِلْتَ مَلُومًا يَلُومُكَ النَّاسُ
 وَيَذْمُونَكَ وَيَسْتَعْنُونَ عَنْكَ، وَمَتَى بَسَطْتَ يَدَكَ فَوْقَ طَاقِكَ قَعَدْتَ بِلَا شَيْءٍ تُنْفِقُهُ، فَتَكُونَ
 كَالْحَسِيرِ، وَهُوَ: الدَّابَّةُ الَّتِي قَدْ عَجَزَتْ عَنِ السَّيْرِ فَوَقَفَتْ ضَعْفًا وَعَجْزًا، فَإِنَّهَا تُسَمَّى الْحَسِيرُ .
 وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إِنْخِبَارٌ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الرَّزَّاقُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ،
 الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ فَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيُفْقِرُ مَنْ يَشَاءُ، لِأَنَّهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلِهَذَا
 قَالَ ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: خَبِيرًا بَصِيرًا بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِنَى وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ،
 وَقَدْ يَكُونُ الْغِنَى فِي حَقِّ بَعْضِ النَّاسِ اسْتِدْرَاجًا، وَالْفَقْرُ عُقُوبَةً عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ هَذَا وَهَذَا .

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ خُنْ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿١٧﴾
 هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدِ بِوَلَدِهِ؛ لِأَنَّهُ نَهَى عَنْ قَتْلِ
 الْأَوْلَادِ كَمَا أَوْصَى الْآبَاءَ بِالْأَوْلَادِ فِي الْمِيرَاثِ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُورَثُونَ الْبَنَاتِ، بَلْ كَانَ
 أَحَدُهُمْ رَبًّا قَتَلَ ابْنَتَهُ؛ لِئَلَّا تَكْثُرَ عِيْلَتُهُ فَنَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ
 خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ خُنْ﴾ أي: خَوْفٌ، أَنْ تَفْتَقِرُوا فِي ثَانِي الْحَالِ، وَلِهَذَا قَدَّمَ الْإِهْتِمَامَ بِرِزْقِهِمْ فَقَالَ: ﴿خُنْ
 نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ . وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي: ذَنْبًا عَظِيمًا، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ (كَانَ
 خِطْئًا كَبِيرًا) وَهُوَ بِمَعْنَاهُ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
 أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ
 وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ» .

وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ عَنِ الزِّنَا وَعَنْ مُقَارَبَتِهِ وَمُحَالَطَةِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى
 إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ أي: ذَنْبًا عَظِيمًا ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: وَبِئْسَ طَرِيقًا وَمَسْلَكًا .

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ
 سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ شَرْعِيٍّ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ
 مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ: النَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِي

المُحْصَن ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمَفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيِهِ سُلْطَانًا ﴾ أَي : سُلْطَةً عَلَى الْقَاتِلِ ، فَإِنَّهُ بِالْخِيَارِ فِيهِ ، إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ قَوْدًا ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ عَلَى الدِّيَةِ ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ بِجَنَاحٍ ، كَمَا ثَبَتَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ ﴿ فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ﴾ قَالُوا : مَعْنَاهُ : فَلَا يُسْرِفُ الْوَلِيُّ فِي قَتْلِ الْقَاتِلِ ، بِأَنْ يُمَثِّلَ بِهِ أَوْ يَقْتَصَّ مِنْ غَيْرِ الْقَاتِلِ ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ أَي : أَنَّ الْوَلِيَّ مَنْصُورٌ عَلَى الْقَاتِلِ شَرْعًا ، وَغَالِبًا قَدْرًا .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴿٦﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ أَي : لَا تَتَصَرَّفُوا لَهُ إِلَّا بِالْغِبْطَةِ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ٦] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ أَي : الَّذِي تَعَاهَدُونَ عَلَيْهِ النَّاسَ ، وَالْعُقُودَ الَّتِي تَعَامِلُونَ بِهَا ، فَإِنَّ الْعَهْدَ وَالْعَقْدَ كُلُّهُمَا يُسَأَلُ صَاحِبُهُ عَنْهُ ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴾ أَي : عَنْهُ ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ أَي : مِنْ غَيْرِ تَطْفِيفٍ ، لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ قُرِئَ بِضَمِّ الْقَافِ وَكُسْرِهَا كَالْقِرْطَاسِ ، وَهُوَ : الْمِيزَانُ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ الْعَدْلُ بِالرُّومِيَّةِ ﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أَي : الَّذِي لَا إِعْوجَاجَ فِيهِ وَلَا انْجِرَافَ وَلَا اضْطِرَابَ ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أَي : لَكُمْ فِي مَعَاشِكُمْ وَمَعَادِكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أَي : مَا لَا وَمُقْلَبًا فِي آخِرَتِكُمْ ، عَنْ قَتَادَةَ ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أَي : خَيْرٌ ثَوَابًا وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً .

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٨﴾

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لَا تَقُلْ ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَا تَرْمِ أَحَدًا بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : لَا تَقُلْ رَأَيْتُ وَلَمْ تَرَ ، وَسَمِعْتُ وَلَمْ تَسْمَعْ ، وَعَلِمْتُ وَلَمْ تَعْلَمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَائِلُكَ عَنْ ذَٰلِكَ كُلِّهِ ، وَمَضْمُونُ مَا ذَكَرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى عَنِ الْقَوْلِ بِمَا لَيْسَ بِكَ عِلْمٌ ، بَلْ بِالظَّنِّ الَّذِي هُوَ التَّوَهُّمُ وَالْحَيَالُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلُّ أُولَٰئِكَ ﴾ أَي : هَذِهِ الصِّفَاتُ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْفُؤَادِ ﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ أَي : سَيُسْأَلُ الْعَبْدُ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَتُسْأَلُ عَنْهُ وَعَمَّا عَمِلَ فِيهَا .

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٢٧﴾
كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ عَنِ التَّجَبُّرِ وَالتَّبَخُّرِ فِي الْمَشْيَةِ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أَيُّ : مُتَبَخِّرًا مُتَمَائِلًا مَشْيَ الْجَبَّارِينَ ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ أَيُّ : لَنْ تَقْطَعَ الْأَرْضَ بِمَشْيِكَ ﴿ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ أَيُّ : بَتَمَائِلِكَ وَفَخْرِكَ وَإِعْجَابِكَ بِنَفْسِكَ ، بَلْ قَدْ يُجَازَى فَاعِلُ ذَلِكَ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَعَلَيْهِ بُرْدَانِ يَتَبَخَّرُ فِيهِمَا ، إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ ، فَهُوَ يَتَحَلَّجُلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَسَفَ بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ أَمَّا مَنْ قَرَأَ : « سَيِّئُهُ » أَيُّ : فَاحِشَتُهُ ، فَمَعْنَاهُ عِنْدَهُ كُلُّ هَذَا الَّذِي مُهِينًا عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً إِمْلَقِي ﴾ إِلَى هَاهُنَا ، فَهُوَ سَيِّئُهُ مُوَآخِذٌ عَلَيْهَا ﴿ مَكْرُوهًا ﴾ عِنْدَ اللَّهِ لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَرْضَاهُ .

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۖ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكَ بِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ ، وَهَيْئَتِكَ عَنْهُ مِنَ الصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ مِمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ لِيَتَأَمَّرَ بِهِ النَّاسُ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ أَيُّ : تَلُومُكَ نَفْسُكَ وَالْخَلْقُ ﴿ مَدْحُورًا ﴾ أَيُّ : مُبْعَدًا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ مَطْرُودًا ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْخُطَابِ الْأُمَّةُ بِوَاسِطَةِ الرَّسُولِ ﷺ ، فَإِنَّهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - مَعْصُومٌ .

أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَينِ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٣٠﴾
يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْكَاذِبِينَ الزَّاعِمِينَ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ - أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ ، فَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ، ثُمَّ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ ، ثُمَّ عَبْدُوهُمْ فَأَخْطَأُوا فِي كُلِّ مِنَ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ خَطَأً عَظِيمًا ، فَقَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ ﴿ أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَينِ ﴾ أَيُّ : خَصَّصَكُمْ بِالذُّكُورِ ۖ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا ﴾ أَيُّ : وَاخْتَارَ لِنَفْسِهِ - عَلَى رَعْمِكُمْ - الْبَنَاتِ ، ثُمَّ شَدَّدَ الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أَيُّ : فِي رَعْمِكُمْ أَنَّ اللَّهَ وَلَدًا ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ وَلَدَهُ الْإِنثَاءَ الَّتِي تَأْتُونَ أَنْ يَكُنَّ لَكُمْ ، وَرَبِّمَا قَتَلْتُمُوهُنَّ بِالْأَوْدِ ، فَتِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الإسراء : ٨٩] أَي : صَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالْمَوَاعِظِ ، فَيَتَزَجَّرُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالْإِفْكِ ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أَي : الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ ﴿ إِلَّا تَفُورًا ﴾ أَي : عَنِ الْحَقِّ وَبُعْدًا مِنْهُ . قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَّا بَتَّعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ﴿

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الرَّاعِمِينَ أَنَّ اللَّهَ شَرِيكًا مِنْ خَلْقِهِ ، الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ لِيُقَرِّبَهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ، لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ وَأَنَّ مَعَهُ إِلَهَةٌ تُعْبَدُ ؛ لَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ وَتَشْفَعَ لَدَيْهِ لَكَانَ أَوْلَئِكَ الْمَعْبُودُونَ يَعْبُدُونَهُ ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ ، وَيَبْتَغُونَ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَالْقُرْبَةَ ، فَاعْبُدُوهُ أَنْتُمْ وَحْدَهُ كَمَا يَعْبُدُهُ مَنْ تَدْعُونَهُ مِنْ دُونِهِ ، وَلَا حَاجَةَ لَكُمْ إِلَى مَعْبُودٍ يَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ، فَإِنَّهُ لَا يُحِبُّ ذَلِكَ وَلَا يَرْضَاهُ ، بَلْ يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ، وَقَدْ نَهَى عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ . ثُمَّ نَزَّ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ وَقَدَّسَهَا فَقَالَ ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أَي : هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُعْتَدُونَ الظَّالِمُونَ فِي رَعْمِهِمْ أَنَّ مَعَهُ إِلَهَةٌ أُخْرَى ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أَي : تَعَالِيَا كَبِيرًا ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿

يَقُولُ تَعَالَى : تُقَدِّسُهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، أَي : مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَتُزَكِّيهِ وَتُعَظِّمُهُ وَتُبَجِّلُهُ وَتُكَبِّرُهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، وَتَشْهَدُ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ : فَنَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ أَي : وَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أَي : لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ؛ لِأَنَّهَا بِخِلَافِ لُغَتِكُمْ ، وَهَذَا عَامٌّ فِي الْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتِ وَالْجَمَادِ ، وَهَذَا أَشْهُرُ الْقَوْلَيْنِ ، كَمَا ثَبَتَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ أَنَّهُ قَالَ : كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قَالَ : الْأُسْطُوَانَةُ (السَّارِيَةُ) تُسَبِّحُ ، وَالشَّجَرَةُ تُسَبِّحُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ رُوحٌ يُسَبِّحُ مِنْ شَجَرٍ أَوْ شَيْءٍ فِيهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ أَي : إِنَّهُ لَا يَعَاجِلُ مَنْ عَصَاهُ بِالْعُقُوبَةِ بَلْ يُؤَجِّلُهُ وَيُنْظِرُهُ ،

فَإِنْ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ أَخَذَهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : « إِنَّ اللَّهَ لَكَيْمِلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » ثُمَّ قرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] وَمَنْ أَقْلَعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ عِصْيَانٍ وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ وَتَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ كَمَا قَالَ فِي آخِرِ فَاطِرٍ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر: ٤١ - ٤٥]

وَإِذَا قرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿١١٠﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿١١١﴾ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿١١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَإِذَا قرَأْتَ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْقُرْآنَ ، جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حِجَابًا مَسْتُورًا ، قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ : هُوَ الْأَكِنَّةُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥ أي : مَانِعٌ حَائِلٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْنَا مِمَّا نَقُولُ شَيْءٌ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ بِمَعْنَى : سَاتِرٌ ، كَمِيمُونٍ وَمَسْتُومٍ بِمَعْنَى : يَأْمِنُ وَشَائِمٌ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ يَمْنِهِمْ وَشُؤْمِهِمْ ، وَقِيلَ : مَسْتُورًا عَنِ الْأَبْصَارِ فَلَا تَرَاهُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ حِجَابٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهُدَى . وَقَوْلُهُ: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ جَمْعُ كِنَانٍ ، الَّذِي يَغْشِي الْقَلْبَ ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أَي : لَيْلًا يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ، وَهُوَ الثَّقُلُ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ سَمَاعًا يَنْفَعُهُمْ وَيَهْتَدُونَ بِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ﴾ أَي : إِذَا وَحَدَّتِ اللَّهُ فِي تِلَاوَتِكَ وَقُلْتَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، ﴿ وَلَوَّا ﴾ أَي : أَدْبَرُوا رَاجِعِينَ ﴿ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ وَنُفُورٌ : جَمْعٌ نَافِرٍ ، كَقُعُودٍ : جَمْعٌ قَاعِدٍ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا مِنْ غَيْرِ الْفِعْلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَحَنُّ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ - إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿١١٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١١٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا ﷺ بِمَا يَتَنَاجَى بِهِ رُؤَسَاءُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ حِينَ جَاءُوا يَسْتَمِعُونَ قِرَاءَتَهُ ﷺ

سِرًّا مِنْ قَوْمِهِمْ ، بِنَا قَالُوا : مِنْ أَنَّهُ رَجُلٌ مَسْحُورٌ ، مِنَ السَّحَرِ عَلَى الْمَشْهُورِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أَيُّ : فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ وَلَا يَجِدُونَ إِلَيْهِ مَخْلَصًا .

وَقَالُوا أءِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفْنًا أءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١١٠﴾ ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿١١١﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُسْتَبْعِدِينَ وَقُوعِ الْمَعَادِ ، الْقَائِلِينَ اسْتِفْهَامَ انْكَارٍ مِنْهُمْ لِدَلِكْ : ﴿ أءِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفْنًا ﴾ أَيُّ : تَرَابًا ، وَقِيلَ : غُبَارًا . ﴿ أءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أَيُّ : بَعْدَمَا بُلِينَا وَصِرْنَا عَدَمًا لَا يُذَكَّرُ ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي الْمَوْضِعِ الْآخِرِ ﴿ يَقُولُونَ أءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَفَاةِ ﴾ ﴿١١٠﴾ أءِذَا كُنَّا عِظَمًا نَحْزَةً ﴿١١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿ [النازعات : ١٠ - ١٢] ﴾ فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجِيبَهُمْ ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ إِذْ هُمَا أَشَدُّ امْتِنَاعًا مِنَ الْعِظَامِ وَالرُّفَاتِ ﴿ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قِيلَ : هُوَ الْمَوْتُ ، أَيُّ : لَوْ كُنْتُمْ مَوْتَى لَا حَيَاتِيكُمْ . وَمَعْنَى ذَلِكَ : أَنَّكُمْ لَوْ فَرَضْتُمْ أَنَّكُمْ لَوْ صِرْتُمْ إِلَى الْمَوْتِ - الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْحَيَاةِ - لَا حَيَاتِكُمْ اللَّهُ إِذَا شَاءَ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ إِذَا أَرَادَهُ . وَقِيلَ : ﴿ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ يَعْنِي : السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ﴾ أَيُّ : مَنْ يُعِيدُنَا إِذَا كُنَّا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا آخَرَ شَدِيدًا ﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَيُّ : الَّذِي خَلَقَكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ، ثُمَّ صِرْتُمْ بَشَرًا تَنْتَشِرُونَ ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ وَلَوْ صِرْتُمْ إِلَى أَيِّ حَالٍ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ يُجَرِّكُونَهَا اسْتِهْزَاءً ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَفْهَمُهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا لَأَنَّ «الْإِنْغَاصَ» هُوَ التَّحَرُّكُ مِنْ أَسْفَلٍ إِلَى أَعْلَى ، أَوْ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ إِنْخَبَارٌ عَنْهُمْ بِالِاسْتِيعَادِ مِنْهُمْ لَوْقُوعِ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الملك : ٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى : ١٨] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ ، أَيُّ : احْذَرُوا ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَرِيبٌ إِلَيْكُمْ ، سَيَأْتِيكُمْ لَا مَحَالَةَ فَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ أَيُّ : الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] أَيُّ : إِذَا أَمَرَكُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا ، فَإِنَّهُ

لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانِعُ بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] وَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] ، وَقَالَ : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [ف] فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣-١٤] أَيْ : إِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَاحِدٌ بِإِتِّهَارٍ ، فَإِذَا النَّاسُ قَدْ خَرَجُوا مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ إِلَى ظَاهِرِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ أَيْ : تَقُومُونَ كُلُّكُمْ إِجَابَةً لِأَمْرِهِ وَطَاعَةً لِإِرَادَتِهِ ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ أَيْ : بِأَمْرِهِ ، وَقِيلَ : بِمَعْرِفَتِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أَيْ : وَلَهُ الْحَمْدُ فِي كُلِّ حَالٍ ﴿ وَتَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ تَقُومُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ ﴿ إِنْ لَبِثْتُمْ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ [النازعات : ٤٦] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم : ٥٥]

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٦﴾

يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ عِبَادَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا فِي مُحَاطَبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ الْكَلَامَ الْأَحْسَنَ ، وَالْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ ، فَإِنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ ، وَأَخْرَجَ الْكَلَامَ إِلَى الْفِعَالِ وَوَقَعَ الشَّرُّ وَالْمَخَاصِمُ وَالْمَقَاتِلَةُ ؛ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ حِينِ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ وَعَدَاوَتُهُ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ .

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْكُمْ الْهُدَايَةَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ﴿ إِنْ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ ﴾ بِأَنْ يُؤَفِّقَكُمْ لِمَطَاعَتِهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ﴿ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ نَذِيرًا ، فَمَنْ أَطَاعَكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاكَ دَخَلَ النَّارَ ، ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بِمَرَاتِبِهِمْ فِي الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ » فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ التَّفْضِيلُ بِمُجَرَّدِ التَّشْهِي وَالْعَصَبِيَّةِ ،

لَا بِمُقْتَضَى الدَّلِيلِ ، فَإِذَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى شَيْءٍ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ الرُّسُلَ أَفْضَلُ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّ أَوْلَى الْعَزْمِ مِنْهُمْ أَفْضَلُهُمْ ، وَهُمْ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورُونَ نَصًّا فِي آيَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب : ٧] ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَفْضَلُهُمْ ، ثُمَّ بَعْدَهُ إِبْرَاهِيمُ ، ثُمَّ مُوسَى ، ثُمَّ عِيسَى - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - عَلَى الْمَشْهُورِ ، وَقَدْ بَسَطْنَاهُ بِدَلَالَتِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ تَنْبِيْهُ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنُ ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَائِبِهِ فَيُتْسَرِّجُ ، فَكَانَ يَقْرَأُهُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ » يَعْنِي : الْقُرْآنَ .

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبْدُوا غَيْرَ اللَّهِ ﴿ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ فَارْغَبُوا إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ ﴿ لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ﴾ أَيُّ : بِالْكُلِّيَّةِ ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ أَيُّ : يُحَوِّلُوهُ إِلَى غَيْرِكُمْ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ قَالَ : نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يَعْبُدُونَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ فَاسْتَلَمَ الْجَنِّيُونَ ، وَالْإِنْسُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِإِسْلَامِهِمْ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَالْوَسِيلَةُ : هِيَ الْقُرْبَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ لَا تَتِمُّ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، فَبِالْخَوْفِ يَنْكَفُ عَنْ الْمُنَاهِي ، وَبِالرَّجَاءِ يُكْثِرُ مِنَ الطَّاعَاتِ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أَيُّ : يَنْبَغِي أَنْ يَحْذَرُ مِنْهُ وَيَخَافُ مِنْ وَفُوعِهِ وَخُصُولِهِ عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْهُ .

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ بِأَنَّهُ قَدْ حَتَمَ وَقَضَى بِمَا قَدْ كَتَبَ عِنْدَهُ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ : أَنَّهُ مَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا سَيُهْلِكُهَا ، بِأَنْ يُبِيدَ أَهْلَهَا جَمِيعَهُمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ إِمَّا بِقَتْلِ أَوْ إِبْتِلَاءٍ بِمَا يَشَاءُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ ﴿ وَمَا

ظَلَمْتَنَّهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿١٠١﴾ هود : ١٠١ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٩]

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿١٠٢﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُجْعَلَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا ، وَأَنْ يُنْحَى الْجِبَالُ عَنْهُمْ فَيَزْرَعُوا ، فَقِيلَ لَهُ : « إِنْ شِئْتَ أَنْ نَسْتَأْذِنَ بِهِمْ ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الَّذِي سَأَلُوا ، فَإِنْ كَفَرُوا هَلَكُوا كَمَا أَهْلَكْتُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ ، قَالَ : لَا بَلِ اسْتَأْذِنَ بِهِمْ » وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ الآية .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ ﴾ أَيُّ : تَبَعْتُ الْآيَاتِ وَتَأْتِي بِهَا عَلَى مَا سَأَلَ قَوْمُكَ مِنْكَ ، فَإِنَّهُ سَهْلٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ لَدَيْنَا ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ بَعْدَ مَا سَأَلُوهَا وَجَرَتْ سُنَّتُنَا فِيهِمْ وَفِي أَمْثَالِهِمْ : أَنَّهُمْ لَا يُؤْخَرُونَ إِذَا كَذَّبُوا بِهَا بَعْدَ نَزْوِهَا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمَائِدَةِ : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٥] ، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ ثُمُودَ حِينَ سَأَلُوا آيَةَ - نَاقَةَ تَخْرُجُ مِنْ صَخْرَةٍ عَيْنُوهَا - فَدَعَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ فَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنْهَا نَاقَةً عَلَى مَا سَأَلُوا ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أَيُّ : كَفَرُوا بِمَنْ خَلَقَهَا وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ وَعَقَرُوهَا فَقَالَ : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ أَيُّ : دَالَّةً عَلَى وَحْدَانِيَّةِ مَنْ خَلَقَهَا ، وَصَدَقَ رَسُولُهُ الَّذِي أُجِيبَ دَعَاؤُهُ فِيهَا ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أَيُّ : كَفَرُوا بِهَا وَمَنَعُوهَا شَرْبَهَا وَقَتَلُوهَا ، فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ عَنْ آخِرِهِمْ وَانْتَقَمَ مِنْهُمْ ، وَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَإِنِّي لَأُحْيِي بَيْنَهُمَا لَوْتَ أَحَدٌ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﷻ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْرَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ » ثُمَّ قَالَ : « يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزِي عِبْدَهُ أَوْ تَزِي أُمَّتَهُ ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَصَحَحْتُكُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » .

وَإِذْ قُلْنَا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّ رَبَّنَا أَخَاطَ بِالْإِنْسَانِ وَمَا جَعَلْنَا آلَ الرَّءْيَا آتِيًا أَرْبَابَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُحَرِّضًا لَهُ عَلَى إِبْلَاحِ رِسَالَتِهِ وَمُخْبِرًا لَهُ : بِأَنَّهُ قَدْ عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ ،

فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتِ قَهْرِهِ وَعَلَيْتِهِ . قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ أَي : عَصَمَكَ مِنْهُمْ ، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أُرْيَيْتَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : هِيَ رُؤْيَا عَيْنِ أُرِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً أُسْرِي بِهِ ﴿ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ ﴾ شَجَرَةُ الزَّقْوِمِ ، وَهَكَذَا فَسَّرَ ذَلِكَ بَلِيلَةُ الْإِسْرَاءِ جَمَاعَةً كَبِيرَةً مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ نَاسًا رَجَعُوا عَنْ دِينِهِمْ بَعْدَ مَا كَانُوا عَلَى الْحَقِّ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَحْمِلْ قُلُوبُهُمْ وَعُقُوبُهُمْ ذَلِكَ فَكَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ، وَجَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ ثَبَاتًا وَيَقِينًا لِآخَرِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ أَي : اخْتِبَارًا وَامْتِحَانًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَخَوَّفَهُمْ ﴾ أَي : الْكُفَّارُ بِالْوَعِيدِ وَالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُعْنًا كَبِيرًا ﴾ أَي : تَمَادِيًا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ، وَذَلِكَ مِنْ خِذْلَانِ اللَّهِ لَهُمْ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٥٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٧﴾

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِدَاوَةَ إِبْلِيسَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ ، وَأَنَّهَا عِدَاوَةٌ قَدِيمَةٌ مُنْذُ خُلِقَ آدَمُ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَسَجَدُوا كُلُّهُمْ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لَهُ ؛ اِفْتِخَارًا عَلَيْهِ وَاحْتِقَارًا لَهُ ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] ، وَقَالَ أَيْضًا : ﴿ أَرَأَيْتَكَ يَقُولُ لِلرَّبِّ جِرَاءَةً وَكُفْرًا ، وَالرَّبُّ يَحْلُمُ وَيَنْظُرُ ﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ الْآيَةِ ، الْمَعْنَى : أَنَّهُ يَقُولُ : أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي شَرَّفْتَهُ وَعَظَّمْتَهُ عَلَيَّ لَئِنْ أَنْظَرْتَنِي لِأُضِلَّنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ !

قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٥٨﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مَنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٥٩﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٠﴾

لَمَّا سَأَلَ إِبْلِيسُ النَّظَرَ قَالَ اللَّهُ لَهُ : ﴿ أَذْهَبَ ﴾ فَقَدْ أَنْظَرْتُكَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى قَالَ : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر : ٣٧-٣٨] ، ثُمَّ أَوْعَدَهُ ، وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ جَهَنَّمَ ، فَقَالَ : ﴿ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ أَي : عَلَى أَعْمَالِكُمْ

﴿ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ مَوْفُورًا عَلَيْكُمْ لَا يَنْقُصُ لَكُمْ مِنْهُ . ﴿ وَاسْتَفْزِرْ مِنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قِيلَ : هُوَ الْغِنَاءُ . أَيِ : اسْتَحْفَفَهُمْ بِذَلِكَ . وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ وَاسْتَفْزِرْ مِنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قَالُوا : كُلُّ دَاعٍ دَعَا إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ ﷻ . ﴿ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَحْيِلِكَ وَرَجَلِكَ ﴾ يَقُولُ : وَاحِلٌ عَلَيْهِمْ بِجُنُودِكَ خِيَالَتَهُمْ وَرَجَلَتَهُمْ فَإِنَّ « الرَّجُلَ » جَمْعُ « رَاجِلٍ » كَمَا أَنَّ « الرَّكْبَ » جَمْعُ « رَاكِبٍ » و « الصَّحْبَ » جَمْعُ « صَاحِبٍ » ، وَمَعْنَاهُ : تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدَرِيٌّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيْطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزِعُهُمْ آزًا ﴾ [مريم : ٨٣] أَيِ : تُزِعُهُمْ إِلَى الْمَعَاصِي إِزْعَاجًا ، وَتُسَوِّقُهُمْ إِلَيْهَا سَوَاقًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَحْيِلِكَ وَرَجَلِكَ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : كُلُّ رَاكِبٍ وَمَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : إِنَّ لَهُ خَيْلًا وَرِجَالًا مِنَ الْحِنِّ وَالْإِنْسِ وَهُمْ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ : أَجْلَبَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ إِذَا صَاحَ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ اسْتِثْقَاقُ « الْجَلْبَةِ » وَهِيَ ارْتِفَاعُ الْأَصْوَاتِ ، ﴿ وَشَارِكْتَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ ﴾ فِي الْآيَةِ أَقْوَالٌ مِنْهَا : هُوَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ إِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ فِي مَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَى ، وَمِنْهَا : هُوَ الرِّبَا ، وَمِنْهَا : جَمْعُهَا مِنْ خَبِيثٍ وَإِنْفَاقِهَا فِي حَرَامٍ ، وَمِنْهَا : أَنْ مُشَارَكَتَهُ إِيَّاهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ فَهُوَ مَا حَرَّمُوهُ مِنْ أَنْعَامِهِمْ يَعْنِي : مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِغِ وَنَحْوِهَا . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْآيَةَ تَعُمُّ ذَلِكَ كُلَّهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْأَوْلَادِ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : كُلُّ مَوْلُودٍ وَلَدَتْهُ أُنْثَى عَصَى اللَّهُ فِيهِ بِتَسْمِيَّتِهِ بِهَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ ، أَوْ بِإِدْخَالِهِ فِي غَيْرِ الدِّينِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ ، أَوْ بِالرِّبَا بِأَمِّهِ ، أَوْ بِقَتْلِهِ ، أَوْ وَادِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَعَصِي اللَّهُ بِفِعْلِهِ بِهِ أَوْ فِيهِ ، فَقَدْ دَخَلَ فِي مُشَارَكَةِ إِبْلِيسَ فِيهِ مَنْ وُلِدَ ذَلِكَ الْوَلَدُ لَهُ أَوْ مِنْهُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُحْصِصْ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَشَارِكْتَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ مَعْنَى الشَّرَكَةِ فِيهِ بِمَعْنَى دُونَ مَعْنَى ، فَكُلُّ مَا عَصَى اللَّهُ فِيهِ أَوْ بِهِ أَوْ أُطِيعَ الشَّيْطَانُ فِيهِ أَوْ بِهِ فَهُوَ مُشَارَكَةٌ . ﴿ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ إِبْلِيسَ أَنَّهُ يَقُولُ إِذَا حَصَّصَ الْحَقُّ يَوْمَ يَقْضَى بِالْحَقِّ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ إِنْخِبَارٌ بِتَأْيِيدِهِ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحِفْظِهِ إِيَّاهُمْ ، وَحِرَاسَتِهِ لَهُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أَيِ : حَافِظًا وَمُؤَيِّدًا وَنَصِيرًا .

رَبُّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٣﴾
وَيُخْرِجُ تَعَالَى عَنْ لُطْفِهِ بَخْلَقِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لِعِبَادِهِ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ، وَتَسْهِيلِهِ لِمَصَالِحِ عِبَادِهِ لِإِتِّعَائِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ فِي التَّجَارَةِ مِنْ إِفْلِيمٍ إِلَى إِفْلِيمٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أَيِ :

إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا بِكُمْ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتِهِ بِكُمْ .

وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ ۖ فَلَمَّا خَجَكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنْسُنُ كَفُورًا ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ النَّاسَ إِذَا مَسَّهُمْ ضُرٌّ دَعَوْهُ مُبِينِينَ إِلَيْهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ ۖ ﴾ أَيُّ : ذَهَبَ عَنْ قُلُوبِكُمْ كُلُّ مَا تَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ فَلَمَّا خَجَكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۖ ﴾ أَيُّ : نَسِيتُمْ مَا عَرَفْتُمْ مِنْ تَوْحِيدِهِ فِي الْبَحْرِ ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ دُعَائِهِ وَحَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَكَانَ الْإِنْسُنُ كَفُورًا ۖ ﴾ أَيُّ : سَجِيئُهُ هَذَا ، يَنْسَى النِّعَمَ وَيُخَيِّدُهَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ .

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ تَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿١٨﴾ يَقُولُ تَعَالَى : أَفَحَسِبْتُمْ بِخُرُوجِكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَمِنْتُمْ مِنْ إِنْتِقَامِهِ وَعَذَابِهِ ؟ ﴿ أَنْ تَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ ﴾ ، وَهُوَ : الْمَطَرُ الَّذِي فِيهِ حِجَارَةٌ ، ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۖ ﴾ أَيُّ : نَاصِرًا يَرُدُّ ذَلِكَ عَنْكُمْ وَيُنْقِذُكُمْ مِنْهُ .

أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ ۖ ﴾ أَيُّهَا الْمُعْرِضُونَ عَنَّا ، بَعْدَمَا اعْتَرَفُوا بِتَوْحِيدِنَا فِي الْبَحْرِ وَخَرَجُوا إِلَى الْبَرِّ ﴿ أَنْ يُعِيدَكُمْ ۖ ﴾ فِي الْبَحْرِ مَرَّةً ثَانِيَةً ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ ۖ ﴾ أَيُّ : يَقْصِفُ الصَّوَارِي وَيُغْرِقُ الْمَرَاقِبَ ، ﴿ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ۖ ﴾ أَيُّ : بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ وَإِعْرَاضِكُمْ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى . ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ۖ ﴾ قِيلَ الْمَعْنَى : نَصِيرًا ، وَقِيلَ : نَصِيرًا ثَانِيًا ، أَيُّ : يَأْخُذُ بِثَأْرِكُمْ بَعْدَكُمْ . وَقَالَ قَتَادَةُ : وَلَا تَخَافُ أَحَدًا يَتَّبِعُنَا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

وَيُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَشْرِيفِهِ لِبَنِي آدَمَ وَتَكْرِيمِهِ إِيَّاهُمْ فِي خَلْقِهِ لَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ وَأَكْمَلِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] أَنْ يَمْشِيَ قَائِمًا مُتَّصِبًا عَلَى رِجْلَيْهِ ، وَيَأْكُلُ بِيَدَيْهِ ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ وَيَأْكُلُ بِفَمِهِ ، وَجَعَلَ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا

وَفَوَّادًا يَفْقَهُ بَذَلِك كُلَّهُ ، وَيَتَفَعُّ بِهِ ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَيَعْرِفُ مَنَافِعَهَا وَخَوَاصَّهَا وَمَضَارَّهَا فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْوَجْرِ ﴾ أَيُّ : عَلَى الدَّوَابِّ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ ، وَفِي الْبَحْرِ أَيْضًا عَلَى السُّفُنِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ ﴿ وَزَرَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أَيُّ : مِنْ زُرُوعٍ وَثَمَارٍ وَلَحُومٍ وَالْبَنَانِ مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الطُّعُومِ وَالْأَلْوَانِ الْمُشْتَهَاةِ اللَّذِيذَةِ ، وَالْمَنَاطِرِ الْحَسَنَةِ ، وَالْمَلَأْسِ الرَفِيعَةِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَأَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا ، بِمَا يَصْنَعُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ وَيَحْلِبُّهُ إِلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ مِنْ أَقْطَارِ الْأَقَالِيمِ وَالنَّوَاحِي ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أَيُّ : مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَقَدْ أُسْتَدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَفْضَلِيَّةِ جَنْسِ الْبَشَرِ عَلَى جَنْسِ الْمَلَائِكَةِ .

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْقَىٰ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿١٦﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدِيدَةٍ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يُحَاسِبُ كُلَّ أُمَّةٍ بِإِمْئِهِمْ ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ ، قِيلَ : أَيُّ : بِنَبِيِّهِمْ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ﴾ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴿ [يونس : ٤٧] . وَقِيلَ : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ ﴾ بِكِتَابِهِمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ نَبِيِّهِمْ مِنَ الشَّرِّيعِ . وَقِيلَ : بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمْ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَرْجَحُ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ١٢] ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِإِمْئِهِمْ : أَيُّ : كُلُّ قَوْمٍ بِمَنْ يَأْتُمُّونَ بِهِ ؛ فَأَهْلُ الْإِيمَانِ أَتَمُّوا بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَأَهْلُ الْكُفْرِ اتَّمُّوا بِأَيْمَتِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [القصص : ٤١] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : « لَتَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَتَّبِعُ الطَّوَاعِثَ الطَّوَاعِثَ » الْحَدِيثُ ، وَهَذَا لَا يُنَافِي أَنَّ نُجَاءَ النَّبِيِّ إِذَا حَكَّمَ اللَّهُ بَيْنَ أُمَّتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ شَاهِدًا عَلَى أُمَّتِهِ بِأَعْمَالِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالْنَّبِيِّ وَالشَّهَدَاءِ ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ هَاهُنَا بِالْإِمَامِ هُوَ : كِتَابُ الْأَعْمَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْقَىٰ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ أَيُّ : مَنْ فَرَحَتْهُ وَسُرُورُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَقْرَؤُهُ وَيُحِبُّ قِرَاءَتَهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْقَىٰ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِي ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْقَىٰ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ ﴾ [الحاقة : ١٩-٢٥] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْفَتِيلَ هُوَ : الْخَيْطُ الْمُسْتَطِيلُ فِي شَقِّ النَّوَاةِ . ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدِيدَةٍ ﴾ أَيُّ : فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ أَعْمَى ﴾ أَيُّ :

عَنْ حُجَّةِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَبَيِّنَاتِهِ ﴿ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ﴾ أَي : كَذَلِكَ يَكُونُ ﴿ وَأَصْلُ سَبِيلًا ﴾ أَي : وَأَصْلُ مِنْهُ كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ^ط وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَأْيِيدِهِ رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - وَتَثْبِيْتِهِ وَعِصْمَتَهُ وَسَلَامَتَهُ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفَجَّارِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَوَلَّى أَمْرَهُ وَنَصْرَهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَكِلُهُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، بَلْ هُوَ وَلِيُّهُ وَحَافِظُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَمُظَفِّرُهُ وَمُظْهِرُ دِينِهِ عَلَى مَنْ عَادَاهُ وَخَالَفَهُ وَنَاوَاهُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ﷺ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ^ط وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

قِيلَ : نَزَلَتْ فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ هُمَا بِإِخْرَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ فَتَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أَخْرَجُوهُ لَمَا لَبِثُوا بَعْدَهُ بِمَكَّةَ إِلَّا يَسِيرًا ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ بَعْدَمَا اسْتَدَّ أَدَاهُمْ لَهُ إِلَّا سَنَةً وَنِصْفَ ، حَتَّى جَمَعَهُمُ اللَّهُ وَإِيَّاهُ بِبَدْرٍ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ، فَأَمَكَّنَهُ مِنْهُمْ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ ، فَقَتَلَ أَشْرَافَهُمْ وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ أَي : هَكَذَا عَادَتُنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِنَا وَأَذَوْهُمْ بِخُرُوجِ الرَّسُولِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ ﷺ رَسُولُ الرَّحْمَةِ لَجَاءَهُمْ مِنَ النِّقَمِ فِي الدُّنْيَا مَا لَا قَبْلَ لِأَحَدٍ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣]

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ أَمْرًا لَهُ بِإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ قِيلَ : لِعُرُوبِهَا ، وَقِيلَ : ذُلُوكُهَا : زَوَالُهَا ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ ، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ دَخَلَ فِيهَا أَوْقَاتُ الصَّلَوَاتِ الْحَتْمِ ، فَمِنْ قَوْلِهِ : ﴿ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ - وَهُوَ ظِلَامُهُ ، وَقِيلَ : غُرُوبُ الشَّمْسِ - أَخَذَ مِنْهُ الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ وَالْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ ، ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ يَعْنِي : صَلَاةَ الْفَجْرِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَقُرْآنَ

الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿١﴾ قَالَ : « تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ » .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أَمْرٌ لَهُ بِقِيَامِ اللَّيْلِ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ ، فَإِنَّ
 التَّهَجُّدَ مَا كَانَ بَعْدَ نَوْمٍ ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ، وَكَذَلِكَ ثَبَتَ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
 ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَتَهَجَّدُ بَعْدَ نَوْمِهِ ، وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ ، فَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّكَ
 مَخْصُوصٌ بِوُجُوبِ ذَلِكَ وَحَدِّكَ دُونَ الْأُمَّةِ ، وَقِيلَ : إِنَّمَا جُعِلَ قِيَامُ اللَّيْلِ فِي حَقِّهِ نَافِلَةً عَلَى
 الْخُصُوصِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَغَيْرُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِنَّمَا يَكْفُرُ عَنْهُ صَلَوَاتُهُ
 النَّوَافِلِ الذُّنُوبِ الَّتِي عَلَيْهِ . ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ أَي : أَفْعَلْ هَذَا الَّذِي أَمَرْتُكَ
 بِهِ لِتُقِيمَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَقَامًا مَّحْمُودًا ، يَحْمَدُكَ فِيهِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ ، وَخَالِقُهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، قَالَ
 ابْنُ جَرِيرٍ : قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ : ذَلِكَ هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي يَقُومُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلشَّفَاعَةِ
 لِلنَّاسِ ، لِيُرِيَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ عَظِيمِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
 سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٢﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٣﴾

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ يَعْنِي : الْمَدِينَةَ ﴿ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ ﴾
 يَعْنِي : مَكَّةَ . ﴿ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهَا : وَعَدَهُ رَبُّهُ
 لَيَنْزِعَنَّ مُلْكَ فَارِسٍ وَعِزَّ فَارِسٍ وَلَيَجْعَلَنَّهُ لَهُ ، وَمُلْكَ الرُّومِ وَعِزَّ الرُّومِ وَلَيَجْعَلَنَّهُ لَهُ ، وَقَالَ
 قَتَادَةُ فِيهَا : إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ عَلِمَ أَنَّ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ، فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيرًا
 لِكِتَابِ اللَّهِ ، وَلِحُدُودِ اللَّهِ ، وَلِفَرَائِضِ اللَّهِ ، وَلِإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ جَعَلَهُ
 بَيْنَ أَظْهَرِ عِبَادِهِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَغَارَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَأَكَلَ شَدِيدُهُمْ ضَعِيفُهُمْ ، وَقِيلَ :
 ﴿ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ حُجَّةً بَيِّنَةً . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ الْآيَةُ : تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ
 لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَةَ فِيهِ وَلَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ، وَهُوَ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ
 بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْإِنْبَاءِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ ، وَزَهَقَ بَاطِلُهُمْ ، أَي : اِضْمَحَلَّ وَهَلَكَ ، فَإِنَّ الْبَاطِلَ لَا
 ثَبَاتَ لَهُ مَعَ الْحَقِّ وَلَا بَقَاءَ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] عَنْ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُونَ وَثَلَاثًا نِصْبٌ فَجَعَلَ
 يَطْعُمُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ ، وَيَقُولُ : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ .

وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٤﴾
 يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ

مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت : ٤٢] إِنَّهُ ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : يُذْهِبُ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ أَمْرَاضٍ ، مِنْ شُكٍّ وَنِفَاقٍ وَشِرْكِ وَزَيْغٍ وَمَيْلٍ ، فَالْقُرْآنُ يَشْفِي مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَهُوَ أَيْضًا رَحْمَةٌ يَحْصُلُ فِيهَا الْإِيمَانُ وَالْحِكْمَةُ وَطَلَبُ الْحَيْرِ وَالرَّغْبَةُ فِيهِ ، وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ شِفَاءً فِي حَقِّهِ وَرَحْمَةً ، وَأَمَّا الْكَافِرُ الظَّالِمُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ فَلَا يَزِيدُهُ سَمَاعُهُ الْقُرْآنَ إِلَّا بُعْدًا وَكُفْرًا ، وَالْآفَةُ مِنَ الْكَافِرِ لَا مِنَ الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ .

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٤٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَقْصِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى ، فِي حَالَتِي سَرَائِهِ وَضَرَائِهِ ، بِأَنَّهُ إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَالٍ وَعَافِيَةٍ ، وَفَتَحَ وَرَزَقَ وَنَصَرَ ، وَنَالَ مَا يُرِيدُ ، أَعْرَضَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَنَأَى بِجَانِبِهِ . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : أَيُّ : بَعْدَ عَنَّا . قُلْتُ : وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّهُ مَرَّةً كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْبٍ مِّسَّهُ ﴾ [يونس : ١٢] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا نَجَّيْنَاكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتَ ﴾ وَبِأَنَّهُ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ - وَهُوَ الْمَصَائِبُ وَالْحَوَادِثُ وَالنَّوَائِبُ - « كَانَ يَئُوسًا ﴾ أَيُّ : فَتَطَّ أَنْ يَعُودَ يَحْصُلُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ وَلَئِنْ أَدْقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود : ٩-١١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ۖ قِيلَ : عَلَى نَاحِيَّتِهِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : عَلَى حَدِيثِهِ وَطَبِيعَتِهِ ، وَقِيلَ : عَلَى نَيْتِهِ ، وَقِيلَ : دِينِهِ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَّفَارِقَةٌ فِي الْمَعْنَى ، وَهَذِهِ الْآيَةُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - تَهْدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَوَعِيدٌ لَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ ﴾ [هود : ١٢١] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ أَيُّ : مِنَّا وَمِنْكُمْ ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ : بَيْنَا أَنَا أُمِّشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ ، وَهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَصِيبٍ ، إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُكُمْ إِلَيْهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ شَيْءٌ تَكْرَهُونَهُ ، فَقَالُوا : سَلُوهُ ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ

﴿ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ ، فَكُنتُ مَقَامِي فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ : **﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ۚ﴾** الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ : **﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ۚ﴾** أَي : مِنْ شَأْنِهِ ، وَمِمَّا اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهِ دُونَكُمْ ، وَهَذَا قَالَ : **﴿ وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۚ﴾** أَي : وَمَا أَطْلَعَكُمْ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا عَلَى الْقَلِيلِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُحِيطُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ عِلْمَكُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلٌ ، وَهَذَا الَّذِي تَسْأَلُونَ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الرُّوحِ ، بِمَا اسْتَأْثَرَ بِهِ تَعَالَى وَلَمْ يُطْلِعْكُمْ عَلَيْهِ ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يُطْلِعْكُمْ إِلَّا عَلَى الْقَلِيلِ مِنْ عِلْمِهِ - تَعَالَى - وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي قِصَّةِ مُوسَى وَالْحُضَيْرِ ، أَنَّ الْحُضَيْرَ نَظَرَ إِلَى عُصْفُورٍ وَقَعَ عَلَى حَافَةِ السَّفِينَةِ فَتَقَرَّرَ فِي الْبَحْرِ نَفْرَةً - أَي شَرِبَ مِنْهُ بِمَنْقَارِهِ - فَقَالَ : يَا مُوسَى مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ ، إِلَّا كَمَا أَخَذَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ ، أَوْ كَمَا قَالَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : **﴿ وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۚ﴾** .

وَلَيْنَ شَيْئًا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٢٨﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٢٩﴾ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٣١﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ وَفَضْلَهُ الْعَظِيمَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الَّذِي **﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۚ﴾** [فصلت : ٤٢] ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى شَرَفِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ كُلُّهُمْ وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ، لَمَا أَطَاقُوا ذَلِكَ ، وَلَمَا اسْتَطَاعُوهُ ، وَلَوْ تَعَاوَنُوا وَتَسَاعَدُوا وَتَظَافَرُوا ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا يُسْتَطَاعُ ، وَكَيْفَ يُشَبِّهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ كَلَامَ الْخَالِقِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا مِثَالَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ ؟ وَقَوْلُهُ : **﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾** أَي : بَيَّنَّا لَهُمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ الْقَاطِعَةَ ، وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْحَقَّ وَشَرَحْنَاهُ وَبَسَطْنَاهُ وَمَعَ هَذَا **﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۚ﴾** أَي : جُحُودًا لِلْحَقِّ وَرَدًّا لِلصَّوَابِ .

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٣٢﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٣٣﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَكِ قَبِيلًا ﴿٣٤﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي

السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِإِرْقِيكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ۖ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٣٠﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الْيَنْبُوعُ: الْعَيْنُ الْجَارِيَةُ، سَأَلُوهُ أَنْ يُجْزِيَ لَهُمْ عَيْنًا مَعِينًا فِي أَرْضِ الْحِجَازِ هَاهُنَا وَهَاهُنَا، وَذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، يَسِيرٌ لَوْ شَاءَ لَفَعَلَهُ وَلَا جَابِئُهُمْ إِلَى جَمِيعِ مَا سَأَلُوا وَطَلَبُوا، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۖ

وَقَوْلُهُمْ: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أَيُّ: أَنْتَ وَعَدْتَنَا أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَنْشَقُّ فِيهِ السَّمَاءُ وَتَبْيِي، وَتُدْلِي أَطْرَافَهَا، فَعَجَّلْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَسْقِطْهَا كِسْفًا، أَيُّ: قِطْعًا، كَقَوْلِهِمْ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وَكَذَلِكَ سَأَلَ قَوْمٌ شُعَيْبٌ مِنْهُ، فَقَالُوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ يَوْمَ الظُّلَّةِ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ، وَأَمَّا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، الْمُبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَسَأَلَ إِنْظَارَهُمْ وَتَأْخِيلَهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذُكِرُوا مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسَنَ إِسْلَامُهُ، حَتَّى عَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ - الَّذِي تَبَعَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ - أَسْلَمَ إِسْلَامًا تَامًا، وَأَنَابَ إِلَى اللَّهِ ﷻ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ﴾ هُوَ الذَّهَبُ ﴿أَوْ تَرَى فِي السَّمَاءِ﴾، أَيُّ: تَصْعَدُ فِي سُلَّمٍ وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ بِإِرْقِيكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ: مَكْتُوبٌ فِيهِ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَاحِدٌ صَحِيفَةٌ: هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لِفُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ، تُصْبِحُ مَوْضُوعَةً عِنْدَ رَأْسِهِ. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أَيُّ: سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ سُلْطَانِهِ وَمَلَكُوتِهِ، بَلْ هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ، إِنْ شَاءَ أَجَابَكُمْ إِلَى مَا سَأَلْتُمْ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يُجِِبْكُمْ، وَمَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ إِلَيْكُمْ أَبْلُغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي، وَأَنْصَحُ لَكُمْ، وَقَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ وَأَمَرْتُكُمْ فِيمَا سَأَلْتُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ.

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٣٢﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أَيُّ: أَكْثَرُهُمْ ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ وَيَتَابِعُوا الرُّسُلَ إِلَّا اسْتِعْجَابُهُمْ مِنْ بَعْثَةِ الْبَشَرِ رَسُولًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿٢﴾ [يونس : ٢] ، وَقَالَ فِرْعَوْنُ وَمَلَكُوهُ : ﴿ إِنَّا نُرِيكَ الْبَشَرَيْنِ مِثْلًا وَلَقَدْ جَاءَاكَ مَا لَمْ جَاءَ آبَاءَكُم مِّن قَبْلِكَ فَكُن مِمَّن يَمُوتُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٧] ، وَكَذَلِكَ قَالَتِ الْأُمَمُ لِرُسُلِهِمْ ﴿ إِنَّا نَتَمَرُّ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتِ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ : أَنَّهُ يَبْعَثُ إِلَيْهِمُ الرُّسُولَ مِنْ جَنْسِهِمْ لِيَفْقَهُوْا عَنْهُ وَيَفْهَمُوا مِنْهُ ، لِيَتَمَكَّنَ مِنْ خُطَابَتِهِ وَمُكَالَمَتِهِ ، وَلَوْ بَعَثَ إِلَى الْبَشَرِ رَسُولًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَمَا اسْتَطَاعُوا مُوَاجَهَتَهُ وَلَا الْأَخْذَ عَنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ أي : كَمَا أَنتُمْ فِيهَا ﴿ لَنُرِيَنَّكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ أي : مِنْ جَنْسِهِمْ ، وَلَمَّا كُنْتُمْ أَنتُمْ بَشَرًا بَعَثْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ لُطْفًا وَرَحْمَةً .

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٤٦﴾
يَقُولُ تَعَالَىٰ مُرْشِدًا نَبِيَّهُ ﷺ إِلَى الْحُجَّةِ عَلَى قَوْمِهِ فِي صَدَقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ، إِنَّهُ شَاهِدٌ عَلَيَّ
وَعَلَيْكُمْ ، عَالِمٌ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا عَلَيْهِ لَأَنْتَقِمَ مِنِّي أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :
﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٧﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحاقة : ٤٤ - ٤٦]
وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أَيُّ : عَلِيًّا بِهِمْ ، بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِنْعَامَ وَالْإِحْسَانَ
وَالْهُدَايَةَ ، بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الشَّقَاءَ وَالْإِضْلَالَ وَالْإِرَاغَةَ ، وَلِهَذَا قَالَ :

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا أُولَهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ خُبْرًا عَنِ تَصَرُّفِهِ فِي خَلْقِهِ وَتَقْوِذِ حُكْمِهِ وَأَنَّهُ لَا مُعَقَّبَ لَهُ، بِأَنَّهُ مَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ﴿١٧﴾ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴿١٨﴾ أَيُّ : يَهْدُوهُمْ، كَمَا قَالَ : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ قَالَ : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ؟ قَالَ : « الَّذِي أَمْسَاهُمْ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُمَشِّيَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ » . وَقَوْلُهُ : ﴿ عُمِيًّا ﴾ أَيُّ : لَا يُبْصِرُونَ ﴿ وَكُمًّا ﴾ يَعْنِي : لَا يَنْطِقُونَ ﴿ وَصُمًّا ﴾ لَا يَسْمَعُونَ ، وَهَذَا يَكُونُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ ، جَزَاءَ لَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا ، بِكُمًّا وَعُمِيًّا وَصُمًّا عَنِ الْحَقِّ ، فَجُوزُوا فِي مُحْشَرِهِمْ بِذَلِكَ أَحْوَجَ مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ ﴿ مَأْوَهُمْ ﴾ أَيُّ :

مُنْقَلَبَهُمْ وَمَصِيرُهُمْ ﴿جَهَنَّمُ كُلُّمَا خَبَتْ﴾ قِيلَ : سَكَنْتُ ، وَقِيلَ : طَفَنْتُ ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أَيِ : هَبًّا وَوَهَجًا وَجَهْرًا ، كَمَا قَالَ : ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا : ٣٠]

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَايَتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٥٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَلَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي جَارَيْنَاهُمْ بِهِ - مِنَ الْبَعْثِ عَلَى الْعَمَى وَالْبُكْمِ وَالصَّمَمِ - جَزَاؤُهُمْ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا ﴿بِعَايَتِنَا﴾ أَيِ : بِأَدِلَّتِنَا وَحُجَّتِنَا ، وَاسْتَبَعَدُوا وَقُوعَ الْبَعْثِ ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا﴾ أَيِ : بِالْيَةِ نَحْرَةً ﴿أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أَيِ : بَعْدَمَا صِرْنَا إِلَى مَا صِرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْبَلَى وَالْهَلَاكِ وَالتَّفَرُّقِ وَالذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ ، نَعَادُ مَرَّةً ثَانِيَةً ؟ فَاحْتَجَّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَتَبَّهَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ ، بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَقُدْرَتُهُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ أَسْهَلُ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ : ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر : ٥٧] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أَيِ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعِيدُ أَبْدَانَهُمْ وَيُنْشِئُهُمْ نَشَأً أُخْرَى كَمَا بَدَأَهُمْ ، ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيِ : جَعَلَ لِإِعَادَتِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ أَجَلًا مَضْرُوبًا ، وَمُدَّةً مُقَدَّرَةً لَا بُدَّ مِنْ انْقِضَائِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ﴾ [هود : ١٠٤] ، وَقَوْلُهُ : ﴿فَأَلَى الظَّالِمُونَ﴾ أَيِ : بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إِلَّا تَمَادِيًا فِي بَاطِلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ .

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَا مَسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ لَوْ أَنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَمْلِكُونَ التَّصَرُّفَ فِي خَزَائِنِ اللَّهِ لَا مَسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ . أَيِ : الْفَقْرُ ، أَيِ : خَشْيَةُ أَنْ تُذْهِبُوهَا مَعَ أَنِّهَا لَا تَفْرُغُ وَلَا تَنْفَدُ أَبَدًا ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ طِبَاعِكُمْ وَسَجَايَاكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أَيِ : بِخِيلًا مَنُوعًا ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء : ٥٣] أَيِ : لَوْ أَنَّ هُمْ نَصِيبًا فِي مُلْكِ اللَّهِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا شَيْئًا وَلَا مِقْدَارَ نَقِيرٍ وَاللَّهُ تَعَالَى يَصِفُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَهَدَاهُ ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُرْعَ وَالْهَلْعَ صِفَةٌ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿٦١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٦٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٦٣﴾﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج : ١٩-٢٢] ، وَلِهَذَا نَذَلُّهُ كَثِيرَةً فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مُتَبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ مُوسَى بِتِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَهِيَ الدَّلَائِلُ الْقَاطِعَةُ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِهِ فِيهَا أَخْبَرَ بِهِ عَمَّنْ أَرْسَلَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ ، وَهِيَ : الْعَصَا وَالْيَدُ وَالسِّنِينَ وَالْبَحْرُ وَالطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالِدَّمَ ، آيَاتٌ مُفْصَّلَاتٌ ﴿ فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٣] أَيْ : وَمَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمُشَاهَدَتِهِمْ لَهَا كَفَرُوا بِهَا ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْفَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] ، وَمَا نَجَعَتْ فِيهِمْ ، وَكَذَلِكَ لَوْ أَجَبْنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَأَلُوا مِنْكَ مَا سَأَلُوا ، وَقَالُوا : ﴿ لَنْ نُؤْمِرَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ إِلَى آخِرِهَا لَمَا اسْتَجَابُوا ، وَلَا آمَنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى ، وَقَدْ شَاهَدَ مِنْهُ مَا شَاهَدَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ ، قَالَ : ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ قِيلَ : بِمَعْنَى : سَاحِرٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . وَقَدْ أُوتِيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آيَاتٌ أُخْرَى كَثِيرَةٌ مِنْهَا : ضَرْبُهُ الْحَجَرَ بِالْعَصَا ، وَخُرُوجُ الْمَاءِ مِنْهُ ، وَمِنْهَا : تَطْلِيلُهُمْ بِالْغَمَامِ وَإِنزَالُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ، وَغَيْرُ ذَلِكَ بِمَا أُوتُوهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِمْ بِلَادَ مِصْرَ ، وَلَكِنْ ذَكَرَ هَاهُنَا التَّسْعَ آيَاتِ الَّتِي شَاهَدَهَا فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ، فَكَانَتْ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فَخَالَفُوهَا وَعَانَدُوهَا كُفْرًا وَجُحُودًا ، وَلِهَذَا قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ ﴾ [الإسراء : ١٠٢] أَيْ : حُجَجًا وَآدِلَةً عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُكَ بِهِ ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مُتَبُورًا ﴾ أَيْ : هَالِكًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ أَيْ : يُخْلِيهِمْ مِنْهَا وَيُزِيلُهُمْ عَنْهَا ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ ، وَفِي هَذَا بَشَارَةٌ لِّحَمْدِ اللَّهِ بِفَتْحِ مَكَّةَ ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ ، فَإِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ هُمَا بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ مِنْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ [الإسراء : ٧٦] الْآيَتَيْنِ ؛ وَهَذَا أَوْرَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ مَكَّةَ فَدَخَلَهَا عَنْوَةً عَلَى أَشْهَرِ الْقَوْلَيْنِ ، وَفَهَرَ أَهْلَهَا ثُمَّ أَطْلَقَهُمْ حِلْمًا وَكَرَمًا ، كَمَا أَوْرَثَ اللَّهُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَأَوْرَثَهُمْ بِلَادَ فِرْعَوْنَ وَأَمْوَالَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ وَثِيَارَهُمْ وَكُنُوزَهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي

إِسْرَءِيلَ ﴿الشعراء: ٥٩﴾ ، وَقَالَ هَاهُنَا ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أَيُّ : جَمِيعَكُمْ أَنْتُمْ وَعَدَوْكُمْ . ﴿لَفِيفًا﴾ أَيُّ : جَمِيعًا .

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٦٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ - وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ - أَنَّهُ بِالْحَقِّ نَزَلَ ، أَيُّ : مُتَضَمِّنًا لِلْحَقِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦] أَيُّ : مُتَضَمِّنًا عِلْمَ اللَّهِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُطْلِعَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَيُّ : وَنَزَلَ إِلَيْكَ - يَا مُحَمَّدُ - مُحْفُوظًا مُحْرُوسًا لَمْ يُشَبَّ بِغَيْرِهِ ، وَلَا زِيدَ فِيهِ ، وَلَا نُقِصَ مِنْهُ ، بَلْ وَصَلَ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ ، فَإِنَّهُ نَزَلَ بِهِ شَدِيدُ الْقُوَى ، الْأَمِينُ الْمَكِينُ الْمَطَاعُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى . وَقَوْلُهُ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أَيُّ : يَا مُحَمَّدُ ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿مُبَشِّرًا لِمَنْ أَطَاعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَنَذِيرًا لِمَنْ عَصَاكَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ﴾ أَمَّا قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ بِالتَّخْفِيفِ فَمَعْنَاهُ : فَصَّلْنَاهُ مِنَ اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ - مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا - ثُمَّ نَزَلَ مُفْرَقًا مُجَمًّا عَلَى الْوَقَائِعِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَقَرَأَ الْبَعْضُ : «(فَرَفَّنَاهُ)» بِالتَّشْدِيدِ ، أَيُّ : أَنْزَلْنَاهُ آيَةً آيَةً مُبَيَّنًّا مُفَسَّرًا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أَيُّ : لِنَبْلُغَهُ النَّاسَ وَتَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ ، أَيُّ : ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ أَيُّ : مَهْلٍ ﴿وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ أَيُّ : شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ .

قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٦٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٦٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أَيُّ : سَوَاءٌ آمَنْتُمْ بِهِ أَمْ لَا ، فَهُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ ، أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَنَوَّهَ بِذِكْرِهِ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ فِي كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى رُسُلِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيُّ : مِنْ صَالِحِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِكُتَابِهِمْ وَيُقِيمُونَهُ وَلَمْ يُبَدِّلُوهُ وَلَا حَرَّفُوهُ ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جَمْعُ ذَقْنٍ ، وَهُوَ أَسْفَلُ الْوَجْهِ ﴿سُجَّدًا﴾ أَيُّ : اللَّهُ ﷻ شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ جَعْلِهِ إِيَّاهُمْ أَهْلًا أَنْ أَدْرَكُوا هَذَا الرَّسُولَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ ، وَهَذَا يَقُولُونَ : ﴿سُبْحَنَ رَبَّنَا﴾ أَيُّ : تَعْظِيمًا وَتَوْقِيرًا عَلَى قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا يُخْلَفُ

الْمِعَادَ الَّذِي وَعَدَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ عَنْ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَحْزُرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكُورُونَ ﴾ أَي : خُضُّوعًا لِلَّهِ ﷻ وَإِيَانًا وَتَصَدِيقًا بِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ، وَيَزِيدُهُمُ اللَّهُ خُشُوعًا ، أَي : إِيَانًا وَتَسْلِيمًا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَحْزُرُونَ ﴾ عَطْفُ صِفَةٍ عَلَى صِفَةٍ ، لَا عَطْفُ السُّجُودِ عَلَى السُّجُودِ .

قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۚ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٢٤﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْكَرِينَ صِفَةَ الرَّحْمَةِ لِلَّهِ ﷻ الْمَانِعِينَ مِنْ تَسْمِيَّتِهِ بِالرَّحْمَنِ ﴿ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أَي : لَا فَرْقَ بَيْنَ دُعَائِكُمْ لَهُ بِاسْمِ اللَّهِ أَوْ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ ، فَإِنَّهُ ذُو الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَارٍ بِمَكَّةَ ، قَالَ : كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَسَبُّوا مَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ ، قَالَ : فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ ﴾ أَي : بِقِرَاءَتِكُمْ فَيَسْمَعُ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّونَ الْقُرْآنَ ﴿ وَلَا تَخَافُوهَا ﴾ عَنْ أَصْحَابِكُمْ ، فَلَا تُسْمِعُهُمُ الْقُرْآنَ ، حَتَّى يَأْخُذُوهُ عَنْكَ ﴿ وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ . وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : نَزَلَتْ فِي الدُّعَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ ﴾ أَي : لَيْسَ بِدَلِيلٍ فَيَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلِيٌّ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشِيرٌ ، بَلْ هُوَ تَعَالَى خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمُدَبِّرُهَا وَمُقَدِّرُهَا بِمَشِئَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ ﴾ لَمْ يَحَالِفْ أَحَدًا وَلَمْ يَبْتَغِ نَصْرَ أَحَدٍ . ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ أَي : عَظَّمْهُ وَأَجِلَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
تفسير سورة الفاتحة	٧
تفسير سورة البقرة	١٣
تفسير سورة آل عمران	١٢٤
تفسير سورة النساء	١٧٦
تفسير سورة المائدة	٢٣٣
تفسير سورة الأنعام	٢٨٠
تفسير سورة الأعراف	٣٢٥
تفسير سورة الأنفال	٣٧٣
تفسير سورة التوبة	٣٩٣
تفسير سورة يونس <small>عليه السلام</small>	٤٣٤
تفسير سورة هود	٤٦١
تفسير سورة يوسف	٤٨٧
تفسير سورة الرعد	٥١٣
تفسير سورة إبراهيم <small>عليه السلام</small>	٥٢٨
تفسير سورة الحجر	٥٤٠
تفسير سورة النحل	٥٥١
تفسير سورة الإسراء	٥٨٠
فهرس الموضوعات	٦١٥

مُخْتَصَر صَدَحِيح

نَفْسِ ابْنِ بَرَكَاتٍ

الأبي عاصم مُصْطَفَى بْنُ عَبْدِ الْعَدَوِيِّ

اِقْصَرَهُ

أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَوْضُ بْنُ لَطْفِي

الجزء الثاني

ذَاتُ الْفَوَائِدِ

ذَاتُ الْبَرَاجِيبِ

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب : مختصر صحيح تفسير ابن كثير
اسم المؤلف : أبو عبد الرحمن عوض لطفي الجزار
اسم المحقق : المؤلف
القطع : ٢٤ x ١٧
عدد الصفحات : ١٣٢٤
عدد المجلدات : ١
سنة الطبع : ٢٠٠٧ م

الطبعة الأولى

٥١٤٢٨ - ٢٠٠٧ م

رقم الإيداع : ١٥٧٤٧ / ٢٠٠٧

دار الفوائد

طبع. نشر. توزيع

دار البرج

المركز الرئيسي : فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢
فرع المنصورة : ٣٣ شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨

آياتها ١١٠ تفسير سورة الكهف مكة

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ »
وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ » .
وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ : مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فَيَمَّا لَيُنْدِرُ بِأَسَا
شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا
﴿٢﴾ مَكْثِيرًا فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ
وَلَا لِأَبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ أَنَّهُ تَعَالَى يَحْمَدُ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ عِنْدَ فَوَاتِحِ الْأُمُورِ وَخَوَائِمِهَا ، فَإِنَّهُ
الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا حَمِدَ نَفْسَهُ عَلَى أَنْزَالِهِ كِتَابَهُ
الْعَزِيزَ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فَإِنَّهُ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللَّهُ
عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، إِذْ أَخْرَجَهُمْ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، حَيْثُ جَعَلَهُ كِتَابًا مُسْتَقِيمًا لَا
إِعْوجَاجَ فِيهِ وَلَا زَيْغَ ، بَلْ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَاضِحًا بَيِّنًا جَلِيلًا نَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ بَشِيرًا
لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ أَيُّ : لَمْ يَجْعَلْ فِيهِ إِعْوجَاجًا وَلَا زَيْغًا وَلَا مِيلًا ،
بَلْ جَعَلَهُ مُعْتَدِلًا مُسْتَقِيمًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قِيمًا ﴾ أَيُّ : مُسْتَقِيمًا ﴿ لَيُنْدِرُ بِأَسَا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أَيُّ :
لَمِنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ ، يُنْذِرُهُ ﴿ بِأَسَا شَدِيدًا ﴾ عِقُوبَةً عَاجِلَةً فِي الدُّنْيَا ، وَآجِلَةً فِي
الْآخِرَةِ ﴿ مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أَيُّ : مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : بِهَذَا الْقُرْآنِ ، ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا ﴾ أَيُّ : مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ جَمِيلَةً ﴿ مَكْثِيرًا فِيهِ ﴾ فِي ثَوَابِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ - وَهُوَ الْجَنَّةُ - خَالِدِينَ
فِيهِ ﴿ أَبَدًا ﴾ دَائِمًا لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا انْقِضَاءَ ﴿ وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ :
وَهُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ فِي قَوْلِهِمْ : نَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ . ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أَيُّ :
بِهَذَا الْقَوْلِ الَّذِي افْتَرَوْهُ وَاتَّفَكُوهُ مِنْ عِلْمٍ ﴿ وَلَا لِأَبَائِهِمْ ﴾ أَيُّ : لِأَسْلَافِهِمْ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾
نُصِبَ عَلَى التَّمْيِيزِ ، تَقْدِيرُهُ : كَبُرَتْ كَلِمَتُهُمْ هَذِهِ كَلِمَةً . وَهَذَا تَبَشُّيعٌ لِقَالَتِهِمْ وَاسْتِعْظَامٌ

لِإِفْكِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أَي: لَيْسَ لَهَا مُسْتَنْدٌ سِوَى قَوْلِهِمْ، وَلَا دَلِيلٌ لَهُمْ عَلَيْهَا إِلَّا كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

فَلَعَلَّكَ بَنِيعُ نَفْسِكَ عَلَى ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٣٠﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٣١﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فِي حُزْنِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ لَتَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ وَبُعْدِهِمْ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعُ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] بَاخِعٌ، أَي: مُهْلِكٌ نَفْسَكَ بِحُزْنِكَ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعُ نَفْسِكَ عَلَى ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ ﴿أَسَفًا﴾ أَي: لَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ؛ بَلْ أُبْلِغْهُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ، فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارًا فَانِيَةً مَرْيَنَةً بِزِينَةِ زَائِلَةٍ، وَإِنَّا جَعَلْنَا دَارَ اخْتِبَارٍ لَا دَارَ قَرَارٍ، فَقَالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِزَوَالِهَا وَفَنَائِهَا وَفَرَاغِهَا وَانْقِضَائِهَا وَذَهَابِهَا وَخَرَابِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أَي: وَإِنَّا لَمُصِيرُوهَا بَعْدَ الزَّيْنَةِ إِلَى الْخَرَابِ وَالْدَّمَارِ، فَجَعَلُ كُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهَا هَالِكًا ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ لَا يُنْبِتُ وَلَا يُنْتَفِعُ بِهِ، وَقِيلَ: الصَّعِيدُ: الْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَجَرٌ وَلَا نَبَاتٌ.

أَمَّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا ﴿٣٣﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿٣٤﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِتْرَ عَدَدًا ﴿٣٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ آلِخِزْيَانٍ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿٣٦﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَالْإِخْتِصَارِ، ثُمَّ بَسَطَهَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿أَمَّ حَسِبْتَ﴾ يَعْنِي: يَا مُحَمَّدُ ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا﴾ أَي: لَيْسَ أَمْرُهُمْ عَجَبِيًّا فِي قُدْرَتِنَا وَسُلْطَانِنَا. وَأَمَّا الْكَهْفُ فَهُوَ: الْغَارُ فِي الْجَبَلِ، وَهُوَ الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ الْمَذْكُورُونَ، وَأَمَّا الرَّقِيمُ فَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَقْوَالٌ مِنْهَا: وَادٍ قَرِيبٌ مِنْ أَيْلَةَ، وَالرَّقِيمُ: اسْمُ الْوَادِي، وَمِنْهَا: هُوَ الْوَادِي الَّذِي فِيهِ كَهْفُهُمْ.، وَمِنْهَا: الْجَبَلُ الَّذِي فِيهِ الْكَهْفُ، وَمِنْهَا: أَنَّ الرَّقِيمَ: الْكِتَابُ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أُولَئِكَ الْفِتْيَةِ الَّذِينَ فَرُّوا بِدِينِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ لِئَلَّا يَفْتِنُوهُمْ عَنْهُ ، فَهَرَبُوا مِنْهُ فَلَجُّوا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ لِيَخْتَفُوا عَنْ قَوْمِهِمْ ، فَقَالُوا حِينَ دَخَلُوا سَائِلِينَ مَنْ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَتُهُ وَلُطْفُهُ بِهِمْ : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ أَي : هَبْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً تَرْحَمْنَا بِهَا وَتَسْتُرْنَا عَنْ قَوْمِنَا ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أَي : وَفَدِّرْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا هَذَا رَشَدًا ، أَي : اجْعَلْ عَاقِبَتَنَا رُشْدًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أَي : أَلْقَيْنَا عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حِينَ دَخَلُوا إِلَى الْكَهْفِ ، فَتَأَمَّوْا سِنِينَ كَثِيرَةً ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أَي : مِنْ رَقَدَتِهِمْ تِلْكَ ، وَخَرَجَ أَحَدُهُمْ بِدَرَاهِمَ مَعَهُ لِيَسْتَرِيَ هُمْ بِهَا طَعَامًا يَأْكُلُونَهُ ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ وَتَفْصِيلُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَهُمُ الْكُتُبَ ﴾ أَي : الْمُخْتَلَفِينَ فِيهِمْ ﴿ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ قِيلَ : عَدَدًا ، وَقِيلَ : غَايَةً ، فَإِنَّ الْأَمَدَ : الْعَايَةَ .

ثُمَّ نَقَصُ عَلَيْكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٧﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٨﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٩﴾ وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْذَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿٢٠﴾

مِنْ هَاهُنَا شَرَعَ فِي بَسْطِ الْقِصَّةِ وَشَرْحِهَا ، فَذَكَرَ تَعَالَى : أَنَّهُمْ فِتْيَةٌ وَهُمْ الشَّبَابُ ، وَهُمْ أَقْبَلُ لِلْحَقِّ وَأَهْدَى لِلْسَّبِيلِ مِنَ الشُّيُوخِ ، هَكَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ، أَنَّهُمْ كَانُوا فِتْيَةً شَبَابًا ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةَ إِلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى وَصَبَرْنَا هُمْ عَلَى مُحَالَفَةِ قَوْمِهِمْ وَمَدِينَتِهِمْ ، وَمُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالسَّعَادَةِ وَالنَّعْمَةِ ، ﴿ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ﴾ وَلَكِنْ : لِنَقْيِ التَّأْيِيدِ ، أَي : لَا يَقَعُ مِنَّا هَذَا أَبَدًا ، لَا نَأْثُرُ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَكَ بَاطِلًا ، وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ : ﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ أَي : بَاطِلًا وَكُذْبًا وَهَيْئَانًا .

﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أَي : هَلَّا أَقَامُوا عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ دَلِيلًا وَاضِحًا صَحِيحًا ؟! ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ يَقُولُونَ : بَلْ هُمْ ظَالِمُونَ كَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ ذَلِكَ ، ﴿ وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أَي : وَإِذَا فَارَقْتُمُوهُمْ وَخَالَفْتُمُوهُمْ بِأَدْيَانِكُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ فَفَارِقُوهُمْ أَيْضًا بِأَدْيَانِكُمْ ، ﴿ فَأَوْذَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ ، أَي : يَسْطُرْ عَلَيْكُمْ رَحْمَةً يَسْرُكُم بِهَا مِنْ قَوْمِكُمْ ﴿ وَيَهَيِّئْ

لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ ۖ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ ۖ مَرَفَقًا ۖ أَيُّ : أَمْرًا تَرْتَفِقُونَ بِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجُوا هَرَابًا إِلَى الْكَهْفِ ، فَأَوُوا إِلَيْهِ فَقَدَهُمْ قَوْمُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ، وَتَطَلَّبَهُمُ الْمَلِكُ ، فَيَقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِهِمْ وَعَمَّى اللَّهُ عَلَيْهِ خَبَرَهُمْ .

❖ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿٧﴾

فَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَابَ هَذَا الْكَهْفِ كَانَ مِنْ نَحْوِ الشِّمَالِ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا دَخَلَتْهُ عِنْدَ طُلُوعِهَا تَزَاوَرُ عَنْهُ ۖ ذَاتَ الْيَمِينِ ۖ أَيُّ : يَتَقَلَّصُ الْفَيءُ مِنْهُ ۖ تَزَاوَرُ ۖ أَيُّ : تَمِيلُ ، وَذَلِكَ أَتَى كُلَّمَا ارْتَفَعَتْ فِي الْأَفْقِ تَقَلَّصَ شُعَاعُهَا بِارْتِفَاعِهَا ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ عِنْدَ الزَّوَالِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَكَانِ ، وَهَذَا قَالَ : ۖ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ۖ أَيُّ : تَدْخُلُ إِلَى غَارِهِمْ مِنْ شِمَالِ بَابِهِ ، وَهُوَ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ .

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ۖ تَقْرِضُهُمْ ۖ تَتَرَكُّهُمْ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ ، وَأَرَادَ مِنَّا فَهْمَهُ وَتَذَكُّرَهُ ، وَلَمْ يُخَيِّرْنَا بِمَكَانِ هَذَا الْكَهْفِ فِي أَيِّ الْبِلَادِ مِنَ الْأَرْضِ ، إِذْ لَا فَائِدَةَ لَنَا فِيهِ وَلَا قَصْدُ شَرْعِيٍّ ، ۖ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ۖ أَيُّ : فِي مُتَسَعٍ مِنْهُ دَاخِلًا بِحَيْثُ لَا تَمَسُّهُمْ إِذْ لَوْ أَصَابَتْهُمْ لَأَحْرَقَتْ أَبْدَانَهُمْ وَثِيَابَهُمْ ۖ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۖ حَيْثُ أُرْسِدَهُمْ إِلَى هَذَا الْغَارِ الَّذِي جَعَلَهُمْ فِيهِ أَحْيَاءَ ، وَالشَّمْسُ وَالرَّيْحُ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِيهِ لَيَبْقَى أَبْدَانُهُمْ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ۖ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۖ ثُمَّ قَالَ : ۖ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ الْآيَةُ . أَيُّ : هُوَ الَّذِي أُرْسِدَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةَ إِلَى الْهُدَايَةِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ .

وَحَسِبَهُمْ آيِقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۚ وَكَلْبُهُمْ بَنِيصٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿٨﴾

ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ لَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ عَلَى آذَانِهِم بِالنُّومِ لَمْ تَنْطَبِقْ أَعْيُنُهُمْ ، لِئَلَّا يُسْرِعَ إِلَيْهَا الْبَلَى ، فَإِذَا بَقِيَتْ ظَاهِرَةٌ لِلْهَوَاءِ كَانَ أَبْقَى لَهَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ۖ وَحَسِبَهُمْ آيِقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الذَّنْبِ أَنَّهُ يَنَامُ فَيُطَبَّقُ عَيْنًا وَيَفْتَحُ عَيْنًا ثُمَّ يَفْتَحُ هَذِهِ وَيُطَبِّقُ هَذِهِ وَهُوَ رَاقِدٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ۖ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : يُقَلَّبُونَ فِي الْعَامِ مَرَّتَيْنِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَوْ لَمْ يُقَلَّبُوا لَأَكَلَتْهُمْ الْأَرْضُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَسِطٌ ذِرَاعَاهُ يَلْوِصُهُ بِالْوَصِيدِ ﴾ الْوَصِيدُ : الْفَنَاءُ ، وَهُوَ الْبَابُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُُّؤَصَّدَةٌ ﴾ [الهمزة : ٨] أَيُ : مُطْبَقَةٌ مُخْلَقَةٌ ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : يَحْرُسُ عَلَيْهِمُ الْبَابُ ، وَهَذَا مِنْ سَجِيَّتِهِ وَطَبِيعَتِهِ حَيْثُ يَرِيضُ بِبَابِهِمْ كَأَنَّهُ يَحْرُسُهُمْ ، وَكَانَ جُلُوسُهُ خَارِجَ الْبَابِ ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ ، وَشَمِلَتْ كُلُّهُمْ بَرَكَتُهُمْ ، فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، وَهَذَا فَإِنَّدَةً صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ ، فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الْكَلْبِ ذِكْرٌ وَخَبَرٌ وَشَأْنٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴾ أَيُ : أَنَّهُ تَعَالَى أَلْفَى عَلَيْهِمُ الْمَهَابَةَ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ نَظَرُ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ إِلَّا هَابَهُمْ ، لِمَا أُلْبَسُوا مِنَ الْمَهَابَةِ وَالذُّعْرِ .

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٥﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : كَمَا أَرْقَدْنَاهُمْ بَعَثْنَاهُمْ صَحِيحَةً أَبْدَانُهُمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَأَبْشَارُهُمْ ، لَمْ يَفْقِدُوا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ شَيْئًا ، وَذَلِكَ بَعْدَ ثَلَاثِائَةِ سَنَةٍ وَتِسْعِ سِنِينَ ، وَلِهَذَا تَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ أَيُ : كَمْ رَقَدْتُمْ ؟ ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ لِأَنَّهُ كَانَ دُخُولُهُمْ إِلَى الْكَهْفِ فِي أَوَّلِ نَهَارٍ وَاسْتِيقَاضُهُمْ كَانَ فِي آخِرِ نَهَارٍ ، وَلِهَذَا اسْتَدْرَكُوا فَقَالُوا : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أَيُ : اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَمْرِكُمْ ، وَكَأَنَّهُ حَصَلَ لَهُمْ نَوْعٌ تَرَدَّدُ فِي كَثْرَةِ نَوْمِهِمْ فَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى الْأَهَمِّ فِي أَمْرِهِمْ إِذْ ذَاكَ ، وَهُوَ احْتِيَاجُهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، فَقَالُوا : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ ﴾ أَيُ : فَضَيْتُكُمْ هَذِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ اسْتَصْحَبُوا مَعَهُمْ دَرَاهِمَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا ، فَتَصَدَّقُوا مِنْهَا وَبَقِيَ مِنْهَا ، فَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ أَيُ : مَدِينَتِكُمْ الَّتِي خَرَجْتُمْ مِنْهَا ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ أَيُ : أَطْيَبَ طَعَامًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أَيُ : فِي خُرُوجِهِ وَذَهَابِهِ وَشِرَائِهِ وَإِيَابِهِ ، يَقُولُونَ : وَلْيَتَخَفْ كُلُّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ ﴾ أَيُ : وَلَا يُعْلِمَنَّ ﴿ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أَيُ : إِنْ عَلِمُوا بِمَكَانِكُمْ ﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ يَعْنُونَ أَصْحَابَ دِفْيَانُوسَ ، يَخَافُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَطْلُعُوا عَلَى مَكَانِهِمْ ، فَلَا يَرَالُونَ يُعَذِّبُونَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ إِلَى أَنْ يُعِيدُوهُمْ فِي مِلَّتِهِمْ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا أَوْ يَمُوتُوا ، وَإِنْ وَافَقْتُمُوهُمْ عَلَى الْعُودِ فِي الدِّينِ فَلَا فَلَاحَ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾ .

وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمُ النَّاسَ وَذَكَرُوا : أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ لِيَذْهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فِي شَرَاءِ شَيْءٍ هُمْ لِيَأْكُلُوهُ . فَجَعَلَ لَا يَرَى شَيْئًا مِنْ مَعَالِمِ الْبَلَدِ الَّتِي يَعْرِفُهَا وَلَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا ، فَجَعَلَ يَتَحَيَّرُ فِي نَفْسِهِ وَيَقُولُ : لَعَلَّ بِي جُنُونًا أَوْ مَسًّا أَوْ أَنَا حَالِمٌ ، وَيَقُولُ : وَاللَّهِ مَا بِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ عَهْدِي بِهَذِهِ الْبَلَدَةِ عَشِيَّةَ أَمْسٍ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الصَّفَةِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ تَعْجِيلَ الْخُرُوجِ مِنْ هَاهُنَا لَأَوَّلَى لِي ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَجُلٍ مِمَّنْ يَبِيعُ الطَّعَامَ فَدَفَعَ إِلَيْهِ مَا مَعَهُ مِنَ النَّفَقَةِ وَسَأَلَهُ أَنْ يَبِيعَهُ بِهَا طَعَامًا ، فَلَمَّا رَأَاهَا ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنْكَرَهَا وَأَنْكَرَ ضَرْبَهَا ، فَدَفَعَهَا إِلَى جَارِهِ وَجَعَلُوا يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ ، فَحَمَلُوهُ إِلَى وَلِيِّ أَمْرِهِمْ ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَأْنِهِ وَخَبَرِهِ حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِهِ ، وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ فِي حَالِهِ وَمَا هُوَ فِيهِ ، فَلَمَّا أَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ قَامُوا مَعَهُ إِلَى الْكَهْفِ - مَلِكُ الْبَلَدِ وَأَهْلُهَا - حَتَّى انْتَهَى بِهِمْ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالَ هُمْ : دَعُونِي حَتَّى أَتَقَدَّمَكُمْ فِي الدَّخُولِ لِأَعْلِمَ أَصْحَابِي ، فَدَخَلَ فَيُقَالُ : إِنَّهُمْ لَا يَذَرُونَ كَيْفَ ذَهَبَ فِيهِ وَأَخْفَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَبَرَهُمْ ، وَيُقَالُ : بَلْ دَخَلُوا عَلَيْهِمْ وَرَأَوْهُمْ وَسَلَّمْ عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ وَاعْتَنَقَهُمْ ، ثُمَّ وَدَّعُوهُ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ، وَعَادُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَتَوَفَّاهُمْ اللَّهُ ﷻ فَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أَي : فِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ ، فَمِنْ مُثَبِّتٍ لَهَا وَمِنْ مُنْكَرٍ ، فَجَعَلَ اللَّهُ ظُهُورَهُمْ عَلَى أَصْحَابِ الْكَهْفِ حُجَّةً هُمْ وَعَلَيْهِمْ ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أَي سُدُّوا عَلَيْهِمْ بَابَ كَهْفِهِمْ وَذَرُّوهُمْ عَلَى حَالِهِمْ ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ هُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ وَالنَّفُودِ ، وَلَكِنْ هَلْ هُمْ مُحْمُودُونَ أَمْ لَا ؟ فِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ » يُحَذَّرُ مَا فَعَلُوا .

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِيَهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي عِدَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ، فَحَكَى ثَلَاثَةً أَقْوَالٍ ، فَذَلَّلَ

عَلَى أَنَّهُ لَا قَائِلَ بِرَابعٍ ، وَلَمَّا ضَعَّفَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ بِقَوْلِهِ : ﴿ رَحْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أَي : قَوْلًا بِلَا عِلْمٍ ، كَمَنْ يَزِمِي إِلَى مَكَانٍ لَا يَعْرِفُهُ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُصِيبُ ، وَإِنْ أَصَابَ فَلَا قَصْدَ ، ثُمَّ حَكَى الثَّالِثَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَوْ قَوَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَتَأْمِنُهُمْ كَتِبُهُمْ ﴾ فَدَلَّ عَلَى صِحَّتِهِ وَأَنَّهُ هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ إِرْشَادٌ إِلَى أَنَّ الْأَحْسَنَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ رَدُّ الْعِلْمِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أَي : مِنَ النَّاسِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : أَنَا مِنَ الْقَلِيلِ الَّذِي اسْتَشْنَى اللَّهُ ﷻ كَانُوا سَبْعَةً . ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرًا ﴾ أَي : سَهْلًا هَيِّنًا ، فَإِنَّ الْأَمْرَ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ كَبِيرُ فَائِدَةٍ ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أَي : فَإِنَّهُمْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِذَلِكَ إِلَّا مَا يَقُولُونَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ أَنْفُسِهِمْ ﴿ رَحْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أَي : مِنْ غَيْرِ اسْتِنَادٍ إِلَى كَلَامِ مَعْصُومٍ ، وَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ بِالْحَقِّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرِيَّةَ فِيهِ ، فَهُوَ الْمَقْدَمُ الْحَاكِمُ عَلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَقْوَالِ .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿١٩﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٠﴾
 هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْأَدَبِ فِيمَا إِذَا عَزَمَ عَلَى شَيْءٍ لِيَفْعَلَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، أَنْ يَرُدَّ ذَلِكَ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ ﷻ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ إِذَا نَسِيتَ الْإِسْتِشْنَاءَ فَاسْتَشْنِ عِنْدَ ذِكْرِكَ لَهُ وَلَوْ إِلَى سَنَةٍ . وَيَحْتَمِلُ فِي الْآيَةِ وَجْهٌ آخَرٌ وَهُوَ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَرشَدَ مَنْ نَسِيَ الشَّيْءَ فِي كَلَامِهِ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّ النَّسْيَانَ مَنْشُؤُهُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، كَمَا قَالَ فَتَى مُوسَى : ﴿ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ ، وَذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ ، فَإِذَا ذَهَبَ الشَّيْطَانُ ذَهَبَ النَّسْيَانُ ، فَذِكْرُ اللَّهِ سَبَبٌ لِلذِّكْرِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ أَي : إِذَا سئِلْتَ عَنْ شَيْءٍ لَا تَعْلَمُهُ ، فَاسْأَلِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ ، وَتَوَجَّهْ إِلَيْهِ فِي أَنْ يُوفِّقَكَ لِلصَّوَابِ وَالرُّشْدِ فِي ذَلِكَ .

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴿٢١﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِمِقْدَارِ مَا لَبِثَ أَصْحَابُ الْكَهْفِ فِي كَهْفِهِمْ مُنْذُ أَرْقَدَهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَهُمُ اللَّهُ وَأَعَثَّرَ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الزَّمَانِ ، وَأَنَّهُ كَانَ مِقْدَارُهُ ثَلَاثِائِةَ سَنَةٍ تَزِيدُ تِسْعَ سِنِينَ بِالْهَلَالِيَّةِ وَهِيَ ثَلَاثِائِةَ سَنَةٍ بِالشَّمْسِيَّةِ ، فَإِنْ تَفَاوَتْ مَا بَيْنَ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ بِالْقَمَرِيَّةِ إِلَى الشَّمْسِيَّةِ

ثَلَاثَ سِنِينَ ، فَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ الثَّلَاثِ إِثْرَةً ﴿ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ أَي : إِذَا سُئِلْتَ عَنْ لَبِثِهِمْ ، وَلَيْسَ عِنْدَكَ عِلْمٌ فِي ذَلِكَ وَتَوْقِيفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَا تَتَقَدَّمْ فِيهِ بِشَيْءٍ ، بَلْ قُلْ فِي مِثْلِ هَذَا : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبٌ أَلْسَمُوتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَي : لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ وَمَنْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أَي : أَنَّهُ لَبْصِيرٌ بِهِمْ سَمِيعٌ هُمْ ، وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ : مَا أَبْصَرَ اللَّهُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ وَأَسْمَعَهُ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ . ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ أَي : أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَيْسَ لَهُ وَزِيرٌ وَلَا نَصِيرٌ ، وَلَا شَرِيكٌ وَلَا مُشِيرٌ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ .

وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَإِنْبَاغِهِ إِلَى النَّاسِ ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ ﴾ أَي : لَا مُعَيَّرَ لَهَا وَلَا مُحَرَّفَ وَلَا مُؤَوَّلَ . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ أَي : مَلْجَأًا . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ وَإِنْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ لَمْ تَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ، فَإِنَّهُ لَا مَلْجَأَ لَكَ مِنَ اللَّهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أَي : اجْلِسْ مَعَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ، وَيُهَلِّلُونَهُ ، وَيَحْمَدُونَهُ ، وَيُسَبِّحُونَهُ ، وَيُكَبِّرُونَهُ ، وَيَسْأَلُونَهُ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ، مِنْ عِبَادِ اللَّهِ سَوَاءً كَانُوا فَقَرَاءً أَوْ أَعْيَاءً ، أَوْ أَفْوِيَاءً أَوْ ضُعَفَاءً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : وَلَا تُجَاوِزُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ ، يَعْنِي : تَطْلُبْ بَدَنَهُمْ أَصْحَابَ الشَّرَفِ وَالثَّرْوَةِ ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أَي : شُغِلَ عَنِ الدِّينِ وَعِبَادَةِ رَبِّهِ بِالدُّنْيَا ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ أَي : أَعْمَالُهُ وَأَفْعَالُهُ سَفَهٌ وَتَفْرِيطٌ وَضَيَاعٌ ، وَلَا تَكُنْ مُطِيعًا لَهُ وَلَا مُحِبًّا لِطَرِيقَتِهِ ، وَلَا تَغِطُّهُ بِهَا هُوَ فِيهِ .

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ : هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ رَبِّكُمْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ﴾ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ هَذَا مِنْ بَابِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أَي : أَرَصَدْنَا ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ ، وَهُمْ الْكَافِرُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أَي : سُورُهَا . ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ الْآيَةُ . رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ : الْمُهْلُ : الْمَاءُ الْغَلِيظُ كَالْدَّمِ وَالْقَيْحِ ، فَهُوَ أَسْوَدُ مُتَيْنِ غَلِيظٌ حَارٌّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ أَي : مِنْ حَرِّهِ ، إِذَا أَرَادَ الْكَافِرُ أَنْ يَسْرِبَهُ وَقَرَبَهُ مِنْ وَجْهِهِ شَوَاهُ ، حَتَّى يَسْقُطَ جِلْدُ وَجْهِهِ فِيهِ ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ أَي : بِئْسَ هَذَا شَرَابًا ﴿ وَسَاءَتِ مُرْتَفَقًا ﴾ أَي : وَسَاءَتِ النَّارُ مَنْزِلًا ، وَمَقِيلًا ، وَمَجْتَمَعًا ، وَمَوْضِعًا لِيلَارْتِفَاقٍ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُخَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ : الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ ، وَعَمِلُوا بِمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، فَلَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ، وَالْعَدْنُ الْإِقَامَةُ . ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَي : مِنْ تَحْتِ غُرْفِهِمْ وَمَنَارِهِمْ . ﴿ يُخَلَّوْنَ ﴾ أَي : مِنَ الْحِلْيَةِ ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فَالسُّندُسُ : ثِيَابٌ رِفَاعٌ رِقَاقٌ كَالْقُمَصَانِ ، وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا . وَأَمَّا الْإِسْتَبْرَقُ : فَغَلِيظُ الدِّيَبَاجِ وَفِيهِ بَرِيقٌ . ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ الْإِتِّكَاءُ . قِيلَ : الْإِضْطِجَاعُ ، وَقِيلَ : التَّرْتُّعُ فِي الْجُلُوسِ . وَالْأَرَائِكُ : جَمْعُ أَرِيكَةٍ : وَهِيَ السَّرِيرُ تَحْتَ الْحِجَلَةِ . ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَي : نِعْمَتِ الْجَنَّةِ ثَوَابًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَي : حَسُنَتْ مَنْزِلًا وَمَقِيلًا وَمُقَامًا ، كَمَا قَالَ فِي النَّارِ : ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتِ مُرْتَفَقًا ﴾ .

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِحَدِيثِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴾ ﴿١٢﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَلَهُمَا نَهْرًا ﴿١٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُخَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿١٥﴾

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ بَعْدَ ذِكْرِهِ الْمُشْرِكِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ مَجَالَسَةِ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَافْتَخَرُوا عَلَيْهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَحْسَانِهِمْ فَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا بِرَجُلَيْنِ جَعَلَ اللَّهُ ﴿لَا حَدَّيْهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أَيُّ : بُسْتَانَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ مَخْفُوفَتَيْنِ بِالنَّخِيلِ الْمُحْدَقَةِ فِي جَنَابَتَيْهِمَا ، وَفِي خِلَالِهِمَا الزَّرُّوعُ ، وَكُلُّ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالزَّرُّوعِ مُثْمَرٌ مُّقْبِلٌ فِي غَايَةِ الْجُودَةِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ إِذْ أَتَتْهُمَا أَكْلُهُمَا﴾ ، أَيُّ : أَخْرَجَتْ ثَمَرَهَا ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أَيُّ : وَلَمْ تُنْقِصْ مِنْهُ شَيْئًا ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ أَيُّ : وَالْأَنْهَارُ مُتَمَرِّقَةٌ فِيهِمَا هَاهُنَا وَهَاهُنَا . ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قِيلَ : الثَّمَارُ ﴿فَقَالَ﴾ أَيُّ : صَاحِبُ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُوَ تُحَاوِرُهُ﴾ أَيُّ : مُجَادِلُهُ وَمُخَاصِمُهُ يَفْتَخِرُ عَلَيْهِ وَيَتَرَأَّسُ : ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أَيُّ : أَكْثَرُ خَدَمًا وَحَشَمًا وَوَلَدًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أَيُّ : بِكُفْرِهِ ، وَتَمَرُّدِهِ ، وَتَكْبِيرِهِ ، وَتَجَبُّرِهِ ، وَإِنْكَارِهِ الْمَعَادَ ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وَذَلِكَ اغْتِرَارٌ مِنْهُ ، لِمَا رَأَى فِيهَا مِنَ الزَّرُّوعِ وَالثَّمَارِ وَالْأَشْجَارِ ، وَالْأَنْهَارِ الْمُطْرِدَةِ فِي جَوَانِبِهَا وَأَرْجَائِهَا ، ظَنَّ أَنَّهَا لَا تَفْنَى وَلَا تَفْرُغُ وَلَا تَهْلِكُ وَلَا تَتَلَفُ ، وَذَلِكَ لِقَلَّةِ عَقْلِهِ وَضَعْفِ يَقِينِهِ بِاللَّهِ ، وَإِعْجَابِهِ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ، وَكُفْرِهِ بِالْآخِرَةِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أَيُّ : كَاتِبَتُهُ ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أَيُّ : وَلَئِنْ كَانَ مَعَادٌ وَرَجَعْتُ وَرَمَدْتُ إِلَى اللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِي هُنَاكَ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا لِأَنِّي مُحْظِي عِنْدَ رَبِّي ، وَلَوْلَا كَرَامَتِي عَلَيْهِ مَا أَعْطَانِي هَذَا .

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٥٧﴾ لَيْكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٥٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنُّنًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٥٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٦٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَمَّا أَجَابَهُ بِهِ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنَ وَأَعْظَمًا لَهُ وَزَاجِرًا عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْإِغْتِرَارِ : ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ الْآيَةُ ، وَهَذَا إِنْكَارٌ وَتَعْظِيمٌ لِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ جُحُودِ رَبِّهِ الَّذِي خَلَقَهُ وَابْتَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، وَهُوَ آدَمُ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ ، وَهَذَا قَالَ الْمُؤْمِنُ : ﴿لَيْكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أَيُّ : لَيْكُنَّا أَنَا لَا أَقُولُ بِمَقَالَتِكَ ، بَلْ أَعْتَرِفُ لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أَيُّ : بَلْ هُوَ اللَّهُ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَقْلَ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا﴾ هَذَا مُحْضِيضٌ وَحَثٌّ عَلَى ذَلِكَ، أَيُّ: هَلَّا إِذَا أَعْجَبَتْكَ حِينَ دَخَلْتَهَا وَنَظَرْتَ إِلَيْهَا، حَمِدْتَ اللَّهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ، وَأَعْطَاكَ مِنَ الْمَالِ أَوْ الْوَلَدِ مَا لَمْ يُعْطِهِ غَيْرُكَ، وَقُلْتَ: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أَيُّ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أَيُّ: عَلَى جَنَّتِكَ فِي الدُّنْيَا، الَّتِي ظَنَنْتَ أَنَّهَا لَا تَبِيدُ وَلَا تَفْنَى ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مَطَرٌ عَظِيمٌ مُزْعَجٌ يُقْلِعُ زَرْعَهَا وَأَشْجَارَهَا، وَهَذَا قَالَ: ﴿فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أَيُّ: بَلَقْعًا تُرَابًا أَمْلَسَ لَا يَثْبُتُ فِيهِ قَدَمٌ. ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾ أَيُّ: غَائِرًا فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ ضِدُّ النَّابِغِ الَّذِي يَطْلُبُ وَجْهَ الْأَرْضِ، فَالْغَائِرُ يَطْلُبُ أَسْفَلَهَا ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ وَالْغَوْرُ: مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى غَائِرٍ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْهُ.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿١٦﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿١٧﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بِأَمْوَالِهِ، أَوْ بِثَمَرِهِ عَلَى الْقَوْلِ الْآخِرِ، وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُ وَقَعَ بِهَذَا الْكَافِرِ مَا كَانَ يَحْذَرُ بِمَا خَوْفَهُ بِهِ الْمُؤْمِنُ، مِنْ إِرْسَالِ الْحُسْبَانِ عَلَى جَنَّتِهِ الَّتِي اغْتَرَبَهَا وَأَلْهَتْهُ عَنِ اللَّهِ ﷻ، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾، قَالَ قَتَادَةُ: يُصَفِّقُ كَفَّيْهِ مُتَأَسِّفًا مِمَّا لَهَا، عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي أَذْهَبَهَا عَلَيْهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿١٦﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ أَيُّ: عَشِيرَةٌ أَوْ وَلَدٌ، كَمَا افْتَخَرُ بِهِمْ وَاسْتَعَزَّ ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ﴿١٧﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُنَالِكَ الْمَوَالَاةُ لِلَّهِ، أَيُّ: هُنَالِكَ كُلُّ أَحَدٍ مُؤْمِنٌ أَوْ كَافِرٌ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى مَوَالَاتِهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ إِذَا وَقَعَ الْعَذَابُ، ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أَيُّ: جَزَاءً ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أَيُّ: الْأَعْمَالِ الَّتِي تَكُونُ لِلَّهِ ﷻ ثَوَابًا خَيْرٌ وَعَاقِبَتُهَا حَمِيدَةٌ رَشِيدَةٌ كُلُّهَا خَيْرٌ.

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿١٩﴾ أَلْمَالُ وَالْأَبْنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرَبَ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ ﴿مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فِي زَوَالِهَا وَفَنَائِهَا وَأَنْقِصَائِهَا ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: مَا فِيهَا مِنَ الْحَبِّ فَسَبَّ وَحَسَنَ،

وَعَلَاهُ الزَّهْرُ وَالنُّورُ وَالنَّصْرَةُ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يَابِسًا ﴿تَذَرُوهُ الرِّيحُ﴾ أَيُّ : تُقَرِّفُهُ وَتَطْرَحُهُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أَيُّ : هُوَ قَادِرٌ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ وَهَذِهِ الْحَالِ . ﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿زِينَتٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ﴾ [آل عمران : ١٤] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ حُزْنٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَحَزْنٌ أَمَلًا﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ﴾ الصَّلَوَاتُ الْحُمُسُ . وَقَالَ آخَرُونَ : الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ : وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . وَقِيلَ : هِيَ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : هِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ كُلُّهَا .

وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١٦﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿١٧﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ ﴿وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾ [الطور : ٩-١٠] أَيُّ : تَذْهَبُ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَتَزُولُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أَيُّ : بَادِيَةٌ ظَاهِرَةٌ ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ ، وَلَا مَكَانٌ يُؤَارِي أَحَدًا ، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ضَاخُونَ لِرَبِّهِمْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ . ﴿وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أَيُّ : وَجَمَعْنَاهُمْ ، الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ ، فَلَمْ نَتْرِكْ مِنْهُمْ أَحَدًا لَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا . ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ صَفًّا وَاحِدًا ، ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هَذَا تَقْرِيعٌ لِلْمُنْكَرِينَ لِلْمَعَادِ وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُحَاطِبًا لَهُمْ : ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ أَيُّ : مَا كَانَ ظَنُّكُمْ أَنَّ هَذَا وَقَعَ بِكُمْ وَلَا أَنَّ هَذَا كَائِنٌ ، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أَيُّ : كِتَابُ الْأَعْمَالِ الَّذِي فِيهِ الْجَلِيلُ وَالْحَقِيرُ وَالْفَتِيلُ وَالْقَطْمِيرُ وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أَيُّ : مِنْ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ وَأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أَيُّ : يَا حَسْرَتَنَا وَوَيْلَنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِي أَعْمَارِنَا ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أَيُّ : لَا يَتْرِكُ ذَنْبًا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا وَلَا عَمَلًا وَإِنْ صَغُرَ ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ ، أَيُّ : ضَبَطَهَا وَحَفِظَهَا . ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا

حَاضِرًا ﴿١٤﴾ أَيُّ : مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ . ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أَيُّ : فَيَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي أَعْمَالِهِمْ جَمِيعًا ، وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ ، بَلْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ وَيَرْحَمُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿١٥﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُنْهَبًا بَنِي آدَمَ عَلَى عِدَاوَةِ إِبْلِيسَ هُمْ وَلَا يَبْهَمُ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمُقَرَّرًا لِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْهُمْ وَخَالَفَ خَالِقَهُ وَمَوْلَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُ وَابْتَدَأَهُ ، وَيَأْطِافُهُ رِزْقُهُ وَغَدَاةُ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلُّهُ وَالِإِبْلِيسَ وَعَادَى اللَّهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أَيُّ : لِجَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أَيُّ : سُجُودٌ تَشْرِيفٍ وَتَكْرِيمٍ وَتَعْظِيمٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أَيُّ : خَانَهُ أَصْلُهُ ، فَإِنَّهُ خَلَقَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَأَصْلُ خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ نُورٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَوَسَّعَ بِأَفْعَالِ الْمَلَائِكَةِ ، وَتَشَبَّهَ بِهِمْ وَتَعَبَّدَ وَتَسَنَّكَ ، فَلِهَذَا دَخَلَ فِي خِطَابِهِمْ وَعَصَى بِالْمُخَالَفَةِ . ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أَيُّ : فَخَرَجَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، فَإِنَّ الْفِسْقَ : هُوَ الْخُرُوجُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَرَّرًا وَمُؤَبِّحًا لِمَنْ اتَّبَعَهُ وَأَطَاعَهُ : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : بَدَلًا عَنِّي ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ .

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴾ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي عَيْدٌ أَمَّا لَكُمْ ، لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ، لَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَا كَانُوا إِذْ ذَاكَ مُؤْجِدِينَ ، يَقُولُ تَعَالَى : أَنَا الْمُسْتَقِلُّ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ، وَمُدَبِّرُهَا وَمُقَدِّرُهَا وَحَدِي لَيْسَ مَعِيَ فِي ذَلِكَ شَرِيكٌ ، وَلَا وَزِيرٌ وَلَا مُشِيرٌ وَلَا نَظِيرٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ قَالَ مَالِكٌ : أَعْوَانًا .

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿١٧﴾ وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿١٨﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُخَاطَبُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ تَقْرِيعًا لَهُمْ وَتَوْبِيخًا : ﴿نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أَيُّ : فِي دَارِ الدُّنْيَا ، أَدْعُوهُمْ الْيَوْمَ يُنْقِذُونَكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ مَهْلِكًا ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَادِيًا فِي

جَهَنَّمَ أَوْ غَيْرِهِ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَا وُصُولَ لَهُمْ إِلَى آلِهَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا فِي الْآخِرَةِ ، فَلَا خَلَاصَ لِأَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخِرِ ، بَلْ بَيْنَهُمَا مَهْلِكٌ وَهَوْلٌ عَظِيمٌ وَأَمْرٌ كَبِيرٌ . ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ أَي : أَنَّهُمْ لَمَّا عَايَنُوا جَهَنَّمَ حِينَ جِيءَ بِهَا تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ فَإِذَا رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ تَحَقَّقُوا لَا مُحَالَةَ أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَعْجِيلِ الِهْتِمِّ وَالْحَزَنِ لَهُمْ ، فَإِنَّ تَوَقُّعَ الْعَذَابِ وَالْخَوْفَ مِنْهُ قَبْلَ وَقُوعِهِ عَذَابٌ نَاجِزٌ ، ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أَي : لَيْسَ لَهُمْ طَرِيقٌ يَعْدِلُ بِهِمْ عَنْهَا ، وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿١٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْأُمُورَ وَفَصَّلْنَا مَا كُنِيَ لَا يَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ ، وَيَخْرُجُوا عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ، وَمَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْفُرْقَانِ ، الْإِنْسَانُ كَثِيرُ الْمُجَادَلَةِ وَالْمُخَاصَمَةِ وَالْمُعَارَضَةِ لِلْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا مَنْ هَدَى اللَّهُ وَبَصَّرَهُ لَطَرِيقِ النِّجَاةِ .

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَكَسَتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبْلًا ﴿١١﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَتُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿١٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَرُّدِ الْكُفَرَةِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ ، وَتَكْذِيبِهِمُ بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ الظَّاهِرِ مَعَ مَا يُشَاهِدُونَ مِنَ الْآيَاتِ وَالِدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ ، وَأَنَّهُ مَا مَنَعَهُمْ مِنْ إِتِّبَاعِ ذَلِكَ إِلَّا طَبَعُهُمْ أَنْ يُشَاهِدُوا الْعَذَابَ الَّذِي وَعَدُوا بِهِ عِيَانًا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ مِنْ غَشْيَانِهِمْ بِالْعَذَابِ وَأَخَذِهِمْ عَنْ آخِرِهِمْ ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبْلًا ﴾ أَي : يَرَوْنَهُ عِيَانًا مُوَاجِهَةً وَمُقَابَلَةً .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أَي : قَبْلَ الْعَذَابِ مُبَشِّرِينَ مَنْ صَدَّقَهُمْ وَآمَنَ بِهِمْ ، وَمُنذِرِينَ لِمَنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْكُفَّارِ بِأَنَّهُمْ ﴿ وَتُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ﴾ أَي : لِيُضْعِفُوا بِهِ ﴿ الْحَقَّ ﴾ الَّذِي جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلِ لَهُمْ ﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا ﴾ أَي : اتَّخَذُوا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ وَخَوَارِقَ الْعَادَاتِ ، الَّتِي بُعِثَ بِهَا الرُّسُلُ ، وَمَا أُنذَرُوا وَخَوَّفُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ هُزُوًا ﴾ أَي : سَخِرُوا مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ وَهُوَ أَشَدُّ التَّكْذِيبِ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِعَايَةِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَأَيُّ عِبَادِ اللَّهِ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ اللَّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، أَيُّ : تَنَاسَاهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَلَمْ يُضِغْ لَهَا ، وَلَا أَلْقَى إِلَيْهَا بَالًا ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أَيُّ : مِنْ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ وَالْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيُّ : قُلُوبٌ هَؤُلَاءِ ﴿ أَكِنَّةٌ ﴾ أَيُّ : أَغْطِيَةٌ وَغِشَاوَةٌ ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أَيُّ : لِيَلَّا يَفْهَمُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْبَيَانَ ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أَيُّ : صَمًّا مَعْنَوِيًّا عَنِ الرَّشَادِ ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ أَيُّ : رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ غَفُورٌ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [فاطر : ٤٥] . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْلُمُ وَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ ، وَرَبَّنَا هْدَى بَعْضَهُمْ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ ، وَمَنْ اسْتَمَرَّ مِنْهُمْ فَلَهُ يَوْمٌ يَشِيبُ فِيهِ الْوَلِيدُ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴾ أَيُّ : لَيْسَ لَهُمْ عَنْهُ مَحِيصٌ وَلَا مَحِيدٌ وَلَا مَعْدِلٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ أَيُّ : الْأُمَمُ السَّالِفَةُ وَالْقُرُونُ الْخَالِيَةُ أَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ أَيُّ : جَعَلْنَاهُ إِلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ وَوَقْتٍ مُعَيَّنٍ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ ، أَيُّ : وَكَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ، إِحْذَرُوا أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَفَ رَسُولٍ وَأَعْظَمَ نَبِيٍّ ، وَلَسْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَيْنَا مِنْهُمْ فَخَافُوا عَذَابِي وَنَذِرُ .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ آتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

سَبَبُ قَوْلِ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ وَهُوَ - يُوشَعَ بْنِ نُونٍ - هَذَا الْكَلَامُ أَنَّهُ ذَكَرَ لَهُ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ

بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُحِطْ بِهِ مُوسَى ، فَأَحَبَّ الرَّحِيلَ إِلَيْهِ ، وَقَالَ لِفَتَاهُ ذَلِكَ : ﴿ لَا أَبْرَحُ ﴾ أَيُّ : لَا أَزَالُ سَائِرًا ﴿ حَتَّى أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أَيُّ : هَذَا الْمَكَانَ الَّذِي فِيهِ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ ، ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ أَيُّ : وَلَوْ أَنِّي أَسِيرُ حُقُبًا مِنَ الزَّمَانِ . قِيلَ : سَنَهُ ، وَقِيلَ : ثَمَانُونَ سَنَةً ، وَقِيلَ : سَبْعُونَ خَرِيفًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا خُوتَهُمَا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ أَمَرَ بِحَمَلِ خُوتِ مَمْلُوحٍ مَعَهُ ، وَقِيلَ لَهُ : مَتَى فَقَدْتَ الْخُوتَ فَهُوَ ثَمَّةٌ ، فَسَارَا حَتَّى بَلَغَا مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ وَهُنَاكَ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا : عَيْنُ الْحَيَاةِ ، فَنَامَا هُنَالِكَ وَأَصَابَ الْخُوتَ مِنْ رَشَاشِ ذَلِكَ الْمَاءِ فَاضْطَرَبَ ، وَكَانَ فِي مَكْتَلٍ مَعَ يُوْشَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَطَفَرَ مِنَ الْمَكْتَلِ إِلَى الْبَحْرِ ، فَاسْتَيْقِظَ يُوْشَعُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَقَطَ الْخُوتُ فِي الْبَحْرِ ، فَجَعَلَ يَسِيرُ فِي الْمَاءِ ، وَالْمَاءُ لَهُ مِثْلُ الطَّاقِ لَا يَلْتِمُ بَعْدَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ أَيُّ : مِثْلَ السَّرَبِ فِي الْأَرْضِ . قِيلَ : صَارَ أَثَرُهُ كَأَنَّهُ حَجَرٌ . وَقِيلَ : جَعَلَ الْخُوتَ لَا يَمَسُّ شَيْئًا مِنَ الْبَحْرِ إِلَّا يَبَسَ حَتَّى يَكُونَ صَخْرَةً ، ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أَيُّ : الْمَكَانَ الَّذِي نَسِيَا الْخُوتَ فِيهِ ، وَنَسَبَ النَّسِيَانِ إِلَيْهِمَا ، وَإِنْ كَانَ يُوْشَعُ هُوَ الَّذِي نَسِيَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَخْرِجْ مِنْهَا اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ ﴾ [الرحمن : ٢٢] ، وَإِنَّمَا يُخْرَجُ مِنَ الْمَالِحِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ ، فَلَمَّا ذَهَبَا عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي نَسِيَاهُ فِيهِ بِمَرَحَلَةٍ ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى ﴿ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا ﴾ أَيُّ : الَّذِي جَاوَزَا فِيهِ الْمَكَانَ ﴿ نَصَبًا ﴾ يَعْنِي : تَعَبًا ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَتَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ قَالَ : ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ ﴾ أَيُّ : طَرِيقَهُ ﴿ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْعُ ﴿ أَيُّ : هَذَا هُوَ الَّذِي نَطْلُبُ ﴾ فَارْتَدَّا ﴿ أَيُّ : رَجَعَا ﴾ عَلَى آثَارِهِمَا ﴿ أَيُّ : طَرِيقَهُمَا ﴾ فَصَصَا ﴿ أَيُّ : يَقْصَانِ آثَارَ مَشْيِهِمَا وَيَقْفَوَانِ أَثَرَهُمَا . ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ وَهَذَا هُوَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ .

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿١٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الْعَالِمِ وَهُوَ الْخَضِرُ ، ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ سُؤَالَ تَلَطُّفٍ لَا عَلَى وَجْهِ الْإِلْزَامِ وَالْإِجْبَارِ ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ سُؤَالَ الْمُتَعَلِّمِ مِنَ الْعَالِمِ . وَقَوْلُهُ :

﴿ أَتَبِعُكَ ﴾ أَي : أَصْحَبُكَ وَأَرَافُفُكَ ﴿ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ أَي : بِمَا عَلَّمَكَ اللَّهُ ، شَيْئًا أَسْتَرْشِدُ بِهِ فِي أَمْرِي مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ ، فَعِنْدَهَا ﴿ قَالَ ﴾ الْحَضِرُ لِمُوسَى ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أَي : إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى مُصَاحَبَتِي ، لِمَا تَرَى مِنِّي مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ ، لِأَنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مَا عَلَّمَكُهُ اللَّهُ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مَا عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ ، فَكُلُّ مِمَّا مُكَلِّفُ بِأُمُورٍ مِنَ اللَّهِ دُونَ صَاحِبِهِ ، وَأَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَى صُحْبَتِي ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ فَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّكَ سَتُنْكِرُ عَلَيَّ مَا أَنْتَ مَعْدُورٌ فِيهِ ، وَلَكِنْ مَا إِطَّلَعْتَ عَلَى حِكْمَتِهِ وَمَصْلَحَتِهِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي إِطَّلَعْتُ أَنَا عَلَيْهَا دُونَكَ ﴿ قَالَ ﴾ أَي : مُوسَى ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ أَي : عَلَى مَا أَرَى مِنْ أُمُورِكَ ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ أَي : وَلَا أُخَالِفُكَ فِي شَيْءٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ شَارَطَهُ الْحَضِرُ عليه السلام ﴿ قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾ أَي : إِنْ بَدَأَ ﴿ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أَي : حَتَّى أَبْدَأَكَ أَنَا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَنِي .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى وَصَاحِبِهِ وَهُوَ الْحَضِرُ : أَنَّهُمَا إِنْطَلَقَا لَمَّا تَوَافَقَا وَاصْطَحَبَا ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ أَنْكَرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَبْتَدِئُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ بِشَرْحِهِ وَبَيَانِهِ ، فَرَكِبَا فِي السَّفِينَةِ ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوَلٍ يَعْنِي : بِغَيْرِ أَجْرَةٍ ، تَكْرِمَةً لِلْحَضِرِ ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فِي الْبَحْرِ وَلَجَجَتْ ، أَي : دَخَلَتْ اللَّجَّةُ ، قَامَ الْحَضِرُ فَخَرَقَهَا وَاسْتَخْرَجَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِهَا ثُمَّ رَفَعَهَا ، فَلَمْ يَمْلِكْ مُوسَى عليه السلام نَفْسَهُ أَنْ قَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِ ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ ، وَهَذِهِ اللَّامُ لَا مِ الْعَاقِبَةِ ، لَا لَامُ التَّعْلِيلِ . ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ قِيلَ : مُنْكَرًا ، وَقِيلَ : عَجَبًا ، فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُ الْحَضِرُ ، مُذَكِّرًا بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الشَّرْطِ : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ يَعْنِي : وَهَذَا الصَّنِيعُ فَعَلْتَهُ قَصْدًا وَهُوَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي إِشْتَرَطْتَ مَعَكَ أَنْ لَا تُنْكَرَ عَلَيَّ فِيهَا ، لِأَنَّكَ لَمْ تُحِطْ بِهَا خُبْرًا ، وَلَهَا دَخُلُ هُوَ مَصْلَحَةٌ وَلَمْ تَعْلَمْهُ أَنْتَ ﴿ قَالَ ﴾ أَي : مُوسَى ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أَي : لَا تُضَيِّقْ عَلَيَّ وَلَا تُشَدِّدْ عَلَيَّ .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيًّا بَغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧١﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ

شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ أَي: بَعْدَ ذَلِكَ ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ كَانَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَامَانِ ، فِي قَرْيَةٍ مِنَ الْقُرَى ، وَآلَهُ عَمَدٌ إِلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ . فَلَمَّا شَاهَدَ مُوسَى عليه السلام هَذَا أَنْكَرَهُ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ وَبَادَرَ ، فَقَالَ : ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا رَكِيَّةً﴾ أَي: صَغِيرَةً لَمْ تَعْمَلِ الْحِنْثَ ، وَلَا عَمِلْتُ إِنَّمَا بَعْدُ ، فَقَتَلْتُهُ ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ ، أَي: بِغَيْرِ مُسْتَنْدٍ لِقَتْلِهِ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أَي: ظَاهِرُ النُّكَارَةِ . ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فَأَكَّدَ أَيْضًا فِي التَّذْكَارِ بِالْشَّرْطِ الْأَوَّلِ ، فَلِهَذَا قَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أَي: إِنْ إِعْتَرَضْتَ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ ﴿فَلَا تُصَحِّبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أَي: قَدْ أَعْذَرْتُ إِلَيَّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ .

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٦٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنَكَ سَأْنُتُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمَا : أَمَّا إِذَا انْطَلَقَا بَعْدَ الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَتَيْنِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ : «حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِنَامَا» أَي: بُحَلَاءَ ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ إِسْنَادُ الْإِرَادَةِ هَاهُنَا إِلَى الْجِدَارِ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ ، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ فِي الْمُحَدَّثَاتِ : بِمَعْنَى الْمِيلِ ، وَالْإِنْقِضَاظُ : هُوَ السُّقُوطُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أَي: فَرَدَّهُ إِلَى حَالَةِ الْإِسْتِقَامَةِ ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ رَدَّهُ بِيَدِهِ وَدَعَّمَهُ حَتَّى رَدَّ مِثْلَهُ ، وَهَذَا خَارِقٌ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَهُ : ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أَي: لِأَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُضَيِّفُونَا ، كَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا تَعْمَلْ لَهُمْ مَجَانًا ، ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنَكَ﴾ أَي: لِأَنَّكَ شَرَطْتَ عِنْدَ قَتْلِ الْغُلَامِ ، أَنَّكَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ، فَهُوَ فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنَكَ ﴿سَأْنُتُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أَي: بِتَفْسِيرِ ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ .

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٦٩﴾

هَذَا تَفْسِيرُ مَا أَشْكَلَ أَمْرُهُ عَلَى مُوسَى عليه السلام مَا كَانَ أَنْكَرَ ظَاهِرُهُ ، وَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ الْخِصْرَ عليه السلام عَلَى حِكْمَةٍ بَاطِنَةٍ فَقَالَ : إِنَّ السَّفِينَةَ إِنَّمَا خَرَقْتُهَا لِأَعِيبَهَا ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلِكٍ مِنَ الظُّلَمَةِ ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صَالِحَةٍ ، أَي: جَيِّدَةٍ ﴿غَصْبًا﴾ ، ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ لِأَرَدَهُ عَنْهَا لِعِيبِهَا ،

فَيَنْتَفِعُ بِهَا أَصْحَابُهَا الْمَسَاكِينُ ، الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ يَنْتَفِعُونَ بِهَا غَيْرَهَا ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُمْ أَنْتَامُ .
وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿١٧﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ
يُبَدِّلَهُمَا رَئُوسًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿١٨﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الْغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ
الْخَضِرُ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا » ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ أَيُ :
يَحْمِلُهَا حُبَّهُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ عَلَى الْكُفْرِ . قَالَ قَتَادَةُ : قَدْ فَرِحَ بِهِ أَبَوَاهُ حِينَ وُلِدَ ، وَخَزِنَا عَلَيْهِ حِينَ
قُتِلَ ، وَلَوْ بَقِيَ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُهَا فَلْيَرَضْ إِمْرُؤُ بِقَضَاءِ اللَّهِ ، فَإِنْ قَضَاءُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ فِيمَا يَكْرَهُ خَيْرٌ
لَهُ مِنْ قَضَائِهِ فِيمَا يُحِبُّ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَئُوسًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ أَيُ : وَلَدًا
أَزْكَى مِنْ هَذَا ، وَهُمَا أَرْحَمُ بِهِ مِنْهُ .

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ
عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿١٩﴾

فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى إِطْلَاقِ الْقَرْيَةِ عَلَى الْمَدِينَةِ لِأَنَّهُ قَالَ أَوَّلًا ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ ،
وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّ هَذَا الْجِدَارَ إِنَّمَا أَصْلَحْتُهُ ،
لِأَنَّهُ كَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَّهُمَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ فِيهِ
دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يُحْفَظُ فِي ذُرِّيَّتِهِ وَتَشْمَلُ بَرَكَتُهُ عِبَادَتِهِ هُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
بِشَفَاعَتِهِ فِيهِمْ ، وَرَفَعَ دَرَجَتَهُمْ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لِيَتَمَرَّ عَيْنُهُ بِهِمْ . ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾ ، هَاهُنَا أَسْنَدُ الْإِرَادَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّ بُلُوغَهُمَا الْحُلُمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ
إِلَّا اللَّهُ ، وَقَالَ فِي الْغُلَامِ : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَئُوسًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً ﴾ وَقَالَ فِي السَّفِينَةِ : ﴿ فَأَرَدْتُ
أَنْ أَعْيِبَهَا ﴾ فَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ أَيُ : هَذَا الَّذِي
فَعَلْتُهُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِمَنْ ذَكَرْنَا مِنْ أَصْحَابِ السَّفِينَةِ ، وَوَالِدَيِ
الْغُلَامِ ، وَوَلَدَيِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، أَيُ : لِكِنِّي أُمِرْتُ بِهِ وَوَقَفْتُ عَلَيْهِ ،
وَفِيهِ دَلَالَةٌ لِمَنْ قَالَ بِبُوءَةِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أَيُ : هَذَا تَفْسِيرُ مَا
ضَبَقْتُ بِهِ ذَرْعًا ، وَلَمْ تَصْبِرْ حَتَّى أَخْبِرَكَ بِهِ ابْتِدَاءً ، وَلَمَّا أَنْ فَسَّرَهُ لَهُ وَبَيَّنَّهُ وَوَضَحَهُ وَأَزَالَ
الْمُشْكَلَ قَالَ : ﴿ تَسْتَطِعْ ﴾ ، وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانَ الْإِشْكَالُ قَوِيًّا ثَقِيلًا فَقَالَ : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ

عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿١٤﴾ فَقَابِلِ الْأَثْقَلَ بِالْأَثْقَلِ وَالْأَخْفَ بِالْأَخْفِ .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ^ط قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿١٥﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿١٤﴾ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ أَيُّ : عَنْ خَبْرِهِ . قَالَ الْبَعْضُ : كَانَ مَلِكًا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ ، لِأَنَّهُ مَلَكَ الرُّومَ وَفَارِسَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : أَعْطَيْنَاهُ مُلْكًا عَظِيمًا مَكَّنَّا ، فِيهِ مِنْ جَمِيعِ مَا يُؤْتَى الْمُلُوكُ مِنَ التَّمَكِينِ وَالْجُنُودِ وَالْآلَاتِ الْحَرْبِ وَالْحِصَارَاتِ ، وَهَذَا مَلَكَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ وَخَضَعَتْ لَهُ مُلُوكُ الْعِبَادِ ، وَخَدَمَتْهُ الْأُمَمُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، وَهَذَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ : أَنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ بَلَغَ قَرْنَيِ الشَّمْسِ مَشْرِقَهَا وَمَغْرِبَهَا . ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي : عَلِمًا . وَقِيلَ : تَعْلِيمُ الْأَلْسِنَةِ ، كَانَ لَا يَغْزُو قَوْمًا إِلَّا كَلَّمَهُمْ بِلِسَانِهِمْ . وَهَكَذَا ذُو الْقَرْنَيْنِ يَسِّرَ اللَّهُ لَهُ الْأَسْبَابَ ، أَيُّ : الطَّرُقَ وَالْوَسَائِلَ .

فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ^{١٨} وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ^{١٩} قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٢٠﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ﴿٢١﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى ^{٢٢} وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٢٣﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴾ مَنْزِلًا وَطَرِيقًا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ سَبَبًا ﴾ قَالَ : طَرَفِي الْأَرْضِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أَيُّ : اتَّبَعَ مَنَازِلَ الْأَرْضِ وَمَعَالِمَهَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : عَلِمًا . ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أَيُّ : فَسَلَكَ طَرِيقًا حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَقْصَى مَا يُسَلِّكُ فِيهِ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ ، وَهُوَ مَغْرِبُ الْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أَيُّ : رَأَى الشَّمْسَ فِي مَنْظَرِهِ تَغْرُبُ فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مَنْ انْتَهَى إِلَى سَاحِلِهِ ، يَرَاهَا كَأَنَّهَا تَغْرُبُ فِيهِ ، وَهِيَ لَا تُفَارِقُ الْفَلَكَ الرَّابِعَ الَّذِي هِيَ مُثَبَّتَةٌ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ ، وَالْحَمِئَةُ : مُشْتَقَّةٌ عَلَى إِحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ مِنَ الْحُمَاةِ ، وَهُوَ : الطِّينُ ، وَقِيلَ : (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ) يَعْنِي : حَارَةً . ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ أَيُّ : أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ ، ذَكَرُوا أَنَّهَا كَانَتْ أُمَّةً عَظِيمَةً مِنْ بَنِي آدَمَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ مَعْنَى هَذَا : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى

مَكَّنَهُ مِنْهُمْ وَحَكَّمَهُ فِيهِمْ وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ ، وَخَيَّرَهُ إِنْ شَاءَ قَتَلَ وَسَبَى ، وَإِنْ شَاءَ مِنْ أَوْ فَدَى ، فَعَرَفَ عَدْلُهُ وَإِيمَانُهُ فِيْمَا أَبْدَاهُ عَدْلُهُ وَبَيَّانُهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ أَي : اِسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَشُرْكِهِ بِرَبِّهِ ﴿ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ أَي : شَدِيدًا بَلِيغًا وَجِيعًا أَلِيمًا ، وَفِي هَذَا إِبْثَاتُ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ أَي : تَابَعَنَا عَلَى مَا نَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أَي : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ قِيلَ : مَعْرُوفًا .

ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ١٨٠ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ١٨١ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ١٨٢

يَقُولُ تَعَالَى : ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا فَسَارَ مِنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ إِلَى مَطْلَعِهَا ، وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ بِأُمَّةٍ قَهَرَهُمْ وَعَلَّيَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ فَإِنْ أَطَاعُوهُ وَإِلَّا أَذَنَّهُمْ وَأَرْغَمَ أَنَافَهُمْ وَاسْتَبَاحَ أَمْوَالَهُمْ وَأَمْنَعَتَهُمْ ، وَاسْتَخْدَمَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَا تَسْتَعِينُ بِهِ جُيُوشُهُ عَلَى قِتَالِ الْإِقْلِيمِ الْمُتَاخِمِ لَهُمْ . وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى مَطْلِعِ الشَّمْسِ مِنَ الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ ﴾ أَي : أُمَّةٍ ﴿ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أَي : لَيْسَ لَهُمْ بِنَاءٌ يَكْنُهِمْ ، وَلَا أَشْجَارٌ تُظِلُّهُمْ وَتَسْتُرُهُمْ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ . ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : عَلِمَا . أَي : نَحْنُ مُطَّلِعُونَ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ جَيْشِهِ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْهَا شَيْءٌ ، وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أُمَمُهُمْ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ .

ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ١٨٣ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ١٨٤ قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ١٨٥ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ١٨٦ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ١٨٧

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ : ﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴾ أَي : ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وَهُمَا جَبَلَانِ مُتَنَاوِحَانِ بَيْنَهُمَا ثَغْرَةٌ يُخْرُجُ مِنْهَا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ عَلَى بِلَادِ التُّرْكِ ، فَيَعِيشُونَ فِيهَا فُسَادًا وَيُهْلِكُونَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أَي : لِاسْتِعْجَامِ كَلَامِهِمْ وَبُعْدِهِمْ

عَنِ النَّاسِ ﴿ قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ عَنْ
 ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : أَجْرًا عَظِيمًا . يَعْنِي : أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا لَهُ مِنْ بَيْنَهُمْ مَا لَا
 يُعْطُونَهُ إِلَّايَهُ ، حَتَّى يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ، فَقَالَ ذُو الْقَرْيَتَيْنِ بِعَقَّةٍ وَدِيَانَةٍ وَصَلَاحٍ وَقَصْدٍ لِلْخَيْرِ :
 ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أَي : إِنَّ الَّذِي أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ الْمُلْكِ وَالتَّمَكُّنِ خَيْرٌ لِي مِنَ الَّذِي
 تَجْمَعُونَهُ ، وَلَكِنْ سَاعِدُونِي ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أَي : بِعَمَلِكُمْ وَأَلَاتِ الْبِنَاءِ . ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا
 ١٥٠ ۝ أَتَوْنِي زُرًّا اتَّخَذْتُهُمْ وَزُرًّا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنْهُ ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَهِيَ
 كَاللِّبْنَةِ . ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أَي : وَضَعَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْأَسَاسِ ، حَتَّى إِذَا
 حَاذَى بِهِ رُءُوسَ الْجَبَلَيْنِ طَوْلًا وَعَرْضًا . ﴿ قَالَ أَنْفِخُوا ﴾ أَي : أَجْجَ عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّى صَارَ كُلُّهُ
 نَارًا ﴿ أَتَوْنِي أَفْرِغَ عَلَيْهِ فِطْرًا ﴾ هُوَ النَّحَاسُ الْمَذَابُ .

فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ۝ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا
 جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي
 بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَهُمْ جَمْعًا ۝

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ : أَنَّهُمْ مَا قَدَرُوا عَلَى أَنْ يَصْعَدُوا مِنْ فَوْقِ هَذَا السَّدِّ ،
 وَلَا قَدَرُوا عَلَى نَقْبِهِ مِنْ أَسْفَلِهِ وَلَمَّا كَانَ الظُّهُورُ عَلَيْهِ أُسْهِلَ مِنْ نَقْبِهِ ، قَابَلَ كُلًّا إِنْيَاسَهُ ،
 فَقَالَ : ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى نَقْبِهِ ،
 وَلَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ . ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ أَي : لِمَا بَنَاهُ ذُو الْقَرْيَتَيْنِ ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾
 أَي : بِالنَّاسِ ، حَيْثُ جَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ حَائِلًا ، يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعَبَثِ فِي الْأَرْضِ
 وَالْفَسَادِ ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أَي : إِذَا اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ أَي : سَاوَاهُ بِالْأَرْضِ
 ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أَي : كَائِنًا لَا مَحَالَةَ . ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ هَذَا أَوَّلُ يَوْمِ
 الْقِيَامَةِ ثُمَّ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ ﴿ فَجَمَعْنَهُمْ جَمْعًا ﴾ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ :
 ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قَالُوا : إِذَا مَاجَ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْتَلِطُ الْإِنْسُ
 وَالْجَنُّ . ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ وَالصُّورُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ قُرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ وَالَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ فَجَمَعْنَهُمْ جَمْعًا ﴾ أَي : أَحْضَرْنَا الْجَمِيعَ لِلْحِسَابِ ﴿ وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي
 وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي
 أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزْلًا ۝

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَفْعَلُهُ بِالْكَفَارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يَغْرِضُ عَلَيْهِمْ جَهَنَّمَ أَيُّ : يُبْرِزُهَا لَهُمْ وَيُظْهِرُهَا ؛ لِيَرَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ قَبْلَ دُخُولِهَا ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي تَعْجِيلِ أَهْلِهِمَّ وَالْحَزَنِ لَهُمْ . ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أَيُّ : تَغَافَلُوا وَتَعَامَوْا وَتَصَامَعُوا عَنْ قَبُولِ الْهُدَى وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ ، ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أَيُّ : لَا يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ أَيُّ : اِعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَصْلُحُ لَهُمْ ذَلِكَ وَيَتَنَفَّعُونَ بِهِ ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مریم : ٨٢] ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَزَلًا .

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٣٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا عَآئِنَتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿٣٩﴾

هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ عَادَ اللَّهُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقَةٍ مَرْضِيَّةٍ ، يَحْسَبُ أَنَّهُ مُصِيبٌ فِيهَا ، وَأَنَّ عَمَلَهُ مَقْبُولٌ وَهُوَ مُخْطِئٌ وَعَمَلُهُ مَرْدُودٌ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ ﴾ أَيُّ : نُخْبِرُكُمْ ﴿ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُمْ . فَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أَيُّ : عَمِلُوا أَعْمَالًا بَاطِلَةً عَلَى غَيْرِ شَرِيعَةٍ مَشْرُوعَةٍ مَرْضِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أَيُّ : يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَأَنَّهُمْ مَقْبُولُونَ مُحْبُّوْنَ . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ﴾ أَيُّ : جَحَدُوا آيَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا ، وَبَرَاهِينَهُ الَّتِي أَقَامَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَصَدَّقَ رُسُلِهِ ، وَكَذَّبُوا بِالذَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴾ أَيُّ : لَا نُثْقِلُ مَوَازِينَهُمْ ؛ لِأَنَّهَا خَالِيَةٌ عَنِ الْخَيْرِ ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا جَازَيْنَاهُمْ بِهَذَا الْجَزَاءِ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَاتِّخَاذِهِمْ آيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلَهُ هُزُوًا ، اسْتَهْزَؤُوا بِهِمْ وَكَذَّبُوهُمْ أَشَدَّ التَّكْذِيبِ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٤٠﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿٤١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ السُّعَدَاءِ ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ ، أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ قَالَ مُجَاهِدٌ : الْفِرْدَوْسُ هُوَ : الْبُسْتَانُ بِالرُّومِيَّةِ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : هُوَ الْبُسْتَانُ الَّذِي فِيهِ شَجَرُ الْأَعْنَابِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : الْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا ، وَفِي

الصَّحِيحُ : « إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاَسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطَ الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَزَلَّجَ ﴾ أَيُّ : ضِيَافَةً ، فَإِنَّ التَّزَلَ : الضِّيَافَةُ . ﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا ﴾ أَيُّ : مُقِيمِينَ سَاكِنِينَ فِيهَا لَا يَطْعَمُونَ عَنْهَا أَبَدًا ﴿ لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴾ أَيُّ : لَا يَخْتَارُونَ عَنْهَا غَيْرَهَا وَلَا يُحِبُّونَ سِوَاهَا .

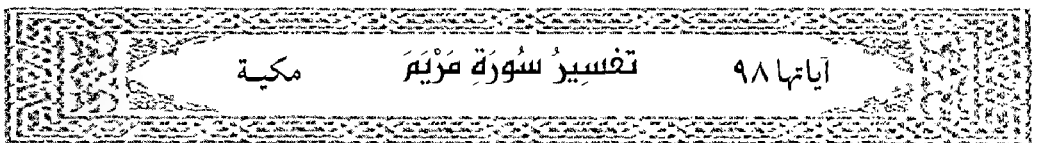
قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿٣٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَا مُحَمَّدُ : لَوْ كَانَ مَاءُ الْبَحْرِ مِدَادًا لِلْقَلَمِ الَّذِي يُكْتُبُ بِهِ كَلِمَاتُ اللَّهِ وَحُكْمِهِ وَأَيَاتِهِ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ ، لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ مِنْ كِتَابَتِهِ ذَلِكَ ﴾ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أَيُّ : بِمِثْلِ الْبَحْرِ آخَرُ ثُمَّ آخَرُ ، وَهَلُمَّ جَرًّا ، بُحُورٌ تَمْثِلُهُ وَيُكْتُبُ بِهَا ، لَمَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - : ﴿ قُلْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِرِسَالَتِكَ إِلَيْهِمْ : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ فَمَنْ زَعَمَ أَنِّي كَاذِبٌ فَلْيَأْتِ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْمَاضِي ، عَمَّا سَأَلْتُمْ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَخَبَرِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ، مِمَّا هُوَ مُطَابِقٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، لَوْ لَا مَا أَطْلَعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا أَخْبَرْتُكُمْ ﴾ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ ﴿ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ أَيُّ : ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ الصَّالِحِ ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرْعِ اللَّهِ ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذَانِ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ صَوَابًا عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

آخِرُ سُورَةِ الْكَهْفِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ



عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قِصَّةِ الْمُهْجَرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ مِنْ مَكَّةَ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَرَأَ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِي يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

قَوْلُهُ: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا ﴾ أَيُّ: هَذَا ذِكْرُ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعَبْدِهِ زَكِرِيَّا . وَكَانَ نَبِيًّا عَظِيمًا مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ نَجَارًا يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ فِي النَّجَارَةِ ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّمَا أَخْفَى دُعَاءَهُ ؛ لِئَلَّا يُنْسَبَ فِي طَلَبِ الْوَلَدِ إِلَى الرُّعُونَةِ لِكِبَرِهِ ، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا أَخْفَاهُ لِأَنَّهُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أَيُّ: ضَعُفْتُ وَخَارَتِ الْقَوَى ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أَيُّ: اضْطَرَمَّ الْمَشِيبُ فِي السَّوَادِ ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا: الْإِخْبَارُ عَنِ الضَّعْفِ وَالْكِبَرِ وَدَلَالِهِ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ ، ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أَيُّ: وَلَمْ أَعْهَدْ مِنْكَ إِلَّا الْإِجَابَةَ فِي الدُّعَاءِ ، وَلَمْ تُرِدْنِي قَطُّ فِيمَا سَأَلْتُكَ ، ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ أَرَادَ بِالْمَوَالِي الْعُصْبَةَ ، وَأَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَصَرَّفُوا مِنْ بَعْدِهِ فِي النَّاسِ تَصَرُّفًا سَيِّئًا فَسَأَلَ اللَّهَ وَلَدًا يَكُونُ نَبِيًّا مِنْ بَعْدِهِ ، لِيَسُوسَهُمْ بِنُبُوَّتِهِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ ، فَأُجِيبَ فِي ذَلِكَ ، لَا أَنَّهُ خَشِيَ مِنْ وَرَائِهِمْ لَهُ مَالُهُ ، وَعَلَىٰ هَذَا فَتَعَيَّنَ حَمْلُ قَوْلِهِ: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ بِرِثْنِي عَلَى مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَيَرِثُ مِنْ عَالِي يَعْقُوبَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ﴾ [النمل: ١٦] أَيُّ: فِي النُّبُوَّةِ ، إِذْ لَوْ كَانَ فِي الْمَالِ لَمَا خَصَّه مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِ بِذَلِكَ ، وَلَمَّا كَانَ فِي الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ كَبِيرُ فَائِدَةٍ ، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ الْمُسْتَقَرِّ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ وَالْمَلَلِ أَنَّ الْوَلَدَ يَرِثُ أَبَاهُ ، فَلَوْلَا أَنَّهَا وَرَاثَةٌ خَاصَّةٌ لَمَا أَخْبَرَ بِهَا ، ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أَيُّ: مَرْضِيًّا عِنْدَكَ وَعِنْدَ خَلْقِكَ نُحْبُهُ وَنُحْبُهُ إِلَى خَلْقِكَ فِي دِينِهِ وَخَلْقِهِ .

يَزَكِرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

هَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ مَحْدُوفًا وَهُوَ أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ فِي دُعَائِهِ ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿ يَزَكِرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾ . وَقَوْلُهُ: ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَيُّ: لَمْ يُسَمَّ أَحَدٌ قَبْلَهُ بِهَذَا الْإِسْمِ . وَقَالَ غَيْرُهُمْ: ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أَيُّ: شَبِيهَا ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ زَكِرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَا يُوَلَدُ لَهُ ، وَكَذَلِكَ امْرَأَتُهُ كَانَتْ عَاقِرًا مِنْ أَوَّلِ عُمُرِهَا .

قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ أَمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿١٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿١١﴾ هَذَا تَعَجُّبٌ مِنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ وَبُشِّرَ بِالْوَلَدِ ، فَفَرَحَ فَرَحًا شَدِيدًا وَسَأَلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ مَا يُولَدُ لَهُ ، وَالْوَجْهَ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْهُ الْوَلَدُ ، مَعَ أَنَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ عَاقِرًا لَمْ تَلِدْ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهَا مَعَ كِبَرِهَا ، وَمَعَ أَنَّهُ قَدْ كَبِرَ وَعَتَا ، أَيُّ : عَسَا عَظُمُهُ وَنَحَلَ ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ لِقَاحٌ وَلَا جَمَاعٌ . قِيلَ : ﴿ عِتِيًّا ﴾ يَعْنِي : قُحُولُ الْعَظَمِ ، وَقِيلَ : ﴿ عِتِيًّا ﴾ يَعْنِي : الْكِبَرُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَخْصَصَ مِنَ الْكِبَرِ . ﴿ قَالَ ﴾ أَيُّ : الْمَلِكُ مُجِيبًا لَزَكَرِيَّا عَمَّا اسْتَعْجَبَ مِنْهُ ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ﴾ أَيُّ : إِيجَادُ الْوَلَدِ مِنْكَ وَمِنْ زَوْجَتِكَ هَذِهِ لَا مِنْ غَيْرِهَا ﴿ هَيْنٌ ﴾ أَيُّ : يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْجَبُ بِمَا سَأَلَ عَنْهُ ، فَقَالَ : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ .

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٢﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ أَيُّ : عَلَامَةً وَدَلِيلًا عَلَى وُجُودِ مَا وَعَدْتَنِي ، لِيَسْتَقِرَّ نَفْسِي وَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي بِمَا وَعَدْتَنِي ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ ﴾ أَيُّ : عَلَامَتُكَ ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أَيُّ : أَنْ تَحْسِسَ لِسَانُكَ عَنِ الْكَلَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، وَأَنْتَ صَحِيحٌ سَوِيٌّ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا عِلَّةٍ . ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ أَيُّ : الَّذِي بُشِّرَ فِيهِ بِالْوَلَدِ ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : أَشَارَ إِشَارَةً خَفِيَّةً سَرِيعَةً ﴿ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أَيُّ : مُوَافَقَةً لَهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ ، زِيَادَةً عَلَى أَعْمَالِهِ وَشُكْرًا لِلَّهِ عَلَى مَا أَوْلَاهُ .

يَبْحَثِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٤﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٥﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٦﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٧﴾

وَهَذَا أَيْضًا تَضَمَّنَ مَحْذُوفًا تَقْدِيرُهُ : أَنَّهُ وَجَدَ هَذَا الْغُلَامَ الْمُبَشَّرَ بِهِ ، وَهُوَ : يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْكِتَابَ : وَهُوَ التَّوْرَةُ الَّتِي كَانُوا يَتَدَارَسُونَهَا بَيْنَهُمْ ، وَيَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ، وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ، وَقَدْ كَانَ سِنُّهُ إِذْ ذَاكَ صَغِيرًا ، فَلِهَذَا نَوَّهَ بِذِكْرِهِ وَبِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ وَعَلَى وَالِدَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ يَبْحَثِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ أَيُّ : تَعَلَّمِ الْكِتَابَ ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أَيُّ : بَجْدٍ وَحِرْصٍ وَاجْتِهَادٍ ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أَيُّ : الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ ، وَالْجَدُّ وَالْعَزَمَ ، وَالْإِقْبَالَ

عَلَى الْخَيْرِ ، وَالْإِكْبَابَ عَلَيْهِ ، وَالْاجْتِهَادَ فِيهِ ، وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثٌ ، وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ : أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَحَنَانًا مَّعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أَي : وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ وَحَنَانًا وَرِكَاءَةً ، أَي : وَجَعَلْنَاهُ ذَا حَنَانٍ وَرِكَاءَةٍ ، فَالْحَنَانُ هُوَ : الْمَحَبَّةُ فِي شَفَقَةٍ وَمَيْلٍ ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : حَنَّتِ النَّاقَةُ عَلَى وَلَدِهَا ، وَحَنَّتِ الْمَرْأَةُ عَلَى زَوْجِهَا . ﴿ وَرِكَاءَةً ﴾ مَّعْطُوفٌ عَلَى ﴿ وَحَنَانًا ﴾ ، فَالزَّكَاءَةُ : الطَّهَارَةُ مِنَ الدَّنَسِ وَالْآثَامِ وَالذُّنُوبِ ﴿ وَكَانَتْ تَقِيًّا ﴾ قِيلَ : طَهَّرَ فَلَمْ يَعْمَلْ بِذَنْبٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَاعَتَهُ لِرَبِّهِ ، وَأَنَّهُ خَلَقَهُ ذَا رَحْمَةٍ وَرِكَاءَةٍ وَتَقَى ، عَطَفَ بِذِكْرِ طَاعَتِهِ لَوَالِدَيْهِ وَبِرِّهِ بِهِمَا وَمُجَانِبَتِهِ عُقُوبَتَهُمَا ، قَوْلًا وَفَعْلًا أَمْرًا وَمَنْيَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ جَزَاءً لَهُ عَلَى ذَلِكَ : ﴿ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أَي : لَهُ الْأَمَانُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَحْوَالِ .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُ أَوْجَدَ مِنْهُ فِي حَالِ كِبَرِهِ وَعُقْمٍ زَوْجَتَهُ وَلَدًا زَكِيًّا طَاهِرًا ، مُبَارَكًا عَطَفَ بِذِكْرِ قِصَّةِ مَرْيَمَ فِي إِيجَادِهِ وَلَدَهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، لِيُذِلَّ عِبَادَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ سُلْطَانِهِ ، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ وَهِيَ : مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ مِنْ سُلَالَةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانَتْ مِنْ بَيْتِ طَاهِرٍ طَيِّبٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَنَشَأَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ نَشَاءً عَظِيمَةً ، فَكَانَتْ إِحْدَى الْعَابِدَاتِ النَّاسِكَاتِ الْمَشْهُورَاتِ بِالْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ وَالتَّبَتُّلِ وَالِدُّعُوبِ ، وَكَانَتْ فِي كِفَالَةِ زَوْجِ أُخْتِهَا زَكَرِيَّا نَبِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ ذَاكَ وَعَظِيمِهِمُ الَّذِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي دِينِهِمْ ، وَرَأَى لَهَا زَكَرِيَّا مِنَ الْكِرَامَاتِ الْهَائِلَةِ مَا بِهِرُهُ ﴿ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أَي : اعْتَزَلَتْهُمْ وَتَحَتَّ عَنْهُمْ وَذَهَبَتْ إِلَى شَرْقِ الْمَسْجِدِ الْمُقَدَّسِ . وَقِيلَ : ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ شَاسِعًا مُتَّحِيًّا ، ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ أَي : اسْتَرَتْ مِنْهُمْ وَتَوَارَتْ ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أَي : عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ تَامٍ كَامِلٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ أَي : لَمَّا تَبَدَّى لَهَا الْمَلَكُ فِي صُورَةِ بَشَرٍ ، وَهِيَ فِي مَكَانٍ مُنْفَرِدٍ وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَوْمِهَا حِجَابٌ ، خَافَتْهُ وَظَنَّتْ أَنَّهُ يُرِيدُهَا عَلَى نَفْسِهَا ، فَقَالَتْ :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ أَيُّ : إِنْ كُنْتَ تَخَافُ اللَّهَ ، تَذَكِّرًا لَهُ بِاللَّهِ ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ فِي الدَّفْعِ أَنْ يَكُونَ بِالْأَسْهَلِ فَالْأَسْهَلِ ، فَخَوْفُهُ أَوَّلًا بِاللَّهِ ﷻ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أَيُّ : فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ مُجِيبًا لَهَا وَمُزِيلًا لِمَا حَصَلَ عِنْدَهَا مِنَ الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِهَا : لَسْتُ بِمَا تَظُنِّينَ وَلَكِنِّي رَسُولُ رَبِّكِ ، أَيُّ : بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَيُقَالُ إِنَّمَا لَمَّا ذَكَرْتَ الرَّحْمَنَ انْتَفَضَ جَبْرِيلُ فَرَقَا وَعَادَ إِلَى هَيْئَتِهِ ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ أَيُّ : فَتَعَجَّبَتْ مَرِيَمُ مِنْ هَذَا ، وَقَالَتْ : كَيْفَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ؟ أَيُّ : عَلَى أَيِّ صِفَةٍ يُوجَدُ هَذَا الْغُلَامُ مِنِّي ، وَلَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ وَلَا يُتَصَوَّرُ مِنِّي الْفُجُورُ ؟ ، وَهَذَا قَالَتْ : ﴿ وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ، وَالْبَغِيُّ : هِيَ الزَّانِيَةُ . ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ﴾ أَيُّ : فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ مُجِيبًا لَهَا عَمَّا سَأَلَتْ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَالَ إِنَّهُ سَيُوجَدُ مِنْكَ غُلَامًا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بَعْلٌ وَلَا يُوجَدُ مِنْكَ فَاحِشَةً ، فَإِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أَيُّ : دَلَالَةً وَعَلَامَةً لِلنَّاسِ عَلَى قُدْرَةِ بَارِئِهِمْ وَخَالِقِهِمْ ، الَّذِي نَوْعٌ فِي خَلْقِهِمْ ، فَخَلَقَ آبَاءَهُمْ آدَمَ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى ، وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى ، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ الذَّرِّيَّةِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى إِلَّا عِيسَى فَإِنَّهُ أُوْجَدُهُ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ ، فَتَمَّتِ الْقِسْمَةُ الرَّبَاعِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ أَيُّ : وَنَجْعَلُ هَذَا الْغُلَامَ رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ ، نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْحِيدِهِ . ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ جَبْرِيلَ لِمَرِيَمَ ، يُخْبِرُهَا أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مُقَدَّرٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَبَرِ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَنَّهُ كَتَبَ بِهَذَا عَنِ النَّفْخِ فِي فَرْجِهَا ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ أَيُّ : إِنْ اللَّهَ قَدْ عَزَمَ عَلَى هَذَا فَلَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ .

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿ ١٢٠ ﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا ﴿ ١٢١ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرِيَمَ : أَنَّمَا لَمَّا قَالَ لَهَا جَبْرِيلُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى مَا قَالَ ، إِنَّمَا اسْتَسَلِمْتَ لِقَاصِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ : أَنَّ الْمَلِكَ وَهُوَ جَبْرَائِيلُ ﷻ عِنْدَ ذَلِكَ نَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا ، فَتَزَلَّتِ النَّفْخَةُ حَتَّى وَجَعَتْ فِي الْفَرْجِ ، فَحَمَلَتْ بِالْوَلَدِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَمَّا حَمَلَتْ بِهِ ضَاقَتْ ذَرْعًا وَلَمْ تَدْرِ مَاذَا تَقُولُ لِلنَّاسِ ، فَإِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ لَا يُصَدِّقُونَهَا فِيمَا تُخْبِرُهُمْ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أَيُّ : فَاضْطَرَّهَا وَالْجَأُهَا الطَّلُقُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ، وَهِيَ نَخْلَةٌ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَنَحَّتْ إِلَيْهِ . وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي تَلَقَّاهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ

عَنْ بَعْضٍ ، وَلَا تَشْكُ فِيهِ النَّصَارَى : أَنَّهُ بَيَّنَّتْ لَحْمٌ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهَا : ﴿ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْهَا ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَمَكِّي الْمَوْتِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ ، فَإِنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهَا سَتُبْتَلَى وَتَمْتَحَنُ بِهَذَا الْمَوْلُودِ ، الَّذِي لَا يَحْمِلُ النَّاسُ أَمْرَهَا فِيهِ عَلَى السَّدَادِ وَلَا يُصَدِّقُونَهَا فِي خَبَرِهَا ، وَبَعْدَ مَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ عَابِدَةً نَّاسِكَةً تُصْبِحُ عِنْدَهُمْ فِيمَا يَظُنُّونَ عَاهِرَةً زَانِيَةً ، فَقَالَتْ : ﴿ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا ﴾ أَيُّ : قَبْلَ هَذَا الْحَالِ ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْهَا ﴾ أَيُّ : لَمْ أُخْلَقْ وَلَمْ أَكُ شَيْئًا .

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿١٦﴾ وَهَزَى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿١٧﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿١٨﴾

قَرَأَ بَعْضُهُمْ : (مَنْ تَحْتَهَا) بِمَعْنَى : الَّذِي تَحْتَهَا ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ ﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ عَلَى أَنَّهُ حَرْفُ جَرٍّ ، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِذَلِكَ : فَقِيلَ : جِبْرِيلُ نَادَاهَا مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي . قَالَهُ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ أَيُّ : نَادَاهَا قَائِلًا : لَا تَحْزَنِي ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ هُوَ النَّهْرُ الصَّغِيرُ . ﴿ وَهَزَى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أَيُّ : وَخَذِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا كَانَتْ شَجَرَةً وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ فِي إِبَانِ ثَمَرِهَا ، وَلِهَذَا إِمْتَنَّ عَلَيْهَا بِذَلِكَ بِأَنْ جَعَلَ عِنْدَهَا طَعَامًا وَشَرَابًا ، فَقَالَ : ﴿ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴿ أَيُّ : طِيبِي نَفْسًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ أَيُّ : مَهْمَا رَأَيْتِ مِنْ أَحَدٍ ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ الْمُرَادُ بِهَذَا الْقَوْلِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ ، لَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْقَوْلُ اللَّفْظِيُّ .

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴿ قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿١٩﴾ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْرِ صَبِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٢﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٢٤﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ حِينَ أُمِرَتْ أَنْ تَصُومَ يَوْمَهَا ذَلِكَ ، وَأَنْ لَا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ ؛ فَإِنَّهَا سَتَكْفِي أَمْرَهَا وَيُقَامَ بِحُجَّتِهَا ، فَسَلِّمَتْ لِأُمِّهِ اللَّهُ ﷻ وَاسْتَسَلِمَتْ لِقَضَائِهِ ، فَأَخَذَتْ وَلَدَهَا ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا كَذَلِكَ أَعْظَمُوا أَمْرَهَا وَاسْتَنْكَرُوهُ جِدًّا وَ ﴿ قَالُوا

يَمْرُؤُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿١٠٠﴾ أَيُّ : أَمْرًا عَظِيمًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أَيُّ : أَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَرَبُّوا فِي أُمِّهَا وَاسْتَكْرُوا فَضِيلَتَهَا ، وَقَالُوا لَهَا مَا قَالُوا مُعْرِضِينَ بِقَذْفِهَا وَرَمِيهَا بِالْفِرْيَةِ ، وَقَدْ كَانَتْ يَوْمَهَا ذَلِكَ صَائِمَةً صَامِتَةً ، فَأَحَالَتْ الْكَلَامَ عَلَيْهِ وَأَشَارَتْ لَهُمْ إِلَى خِطَابِهِ وَكَلَامِهِ ، فَقَالُوا مُتَهَكِّمِينَ بِهَا ظَائِنَ أَنَّهُمَا تَزْدَرِي بِهِمْ وَتَلْعَبُ بِهِمْ : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أَيُّ : مَنْ هُوَ مُوجُودٌ فِي مَهْدِهِ فِي حَالِ صَبَاهُ وَصَغَرِهِ كَيْفَ يَتَكَلَّمُ ؟ ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ نَزَّ جَنَابَ رَبِّهِ تَعَالَى ، وَبَرَّاهُ عَنِ الْوَلَدِ ، وَاثْبَتَ لِنَفْسِهِ الْعُبُودِيَّةَ لِرَبِّهِ ﴿ وَأَتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ أَيُّ : وَجَعَلَنِي مُعَلِّمًا لِلْخَيْرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ أَيُّ : وَأَمْرِي بِبِرِّ وَالِدَتِي ، ذَكَرَهُ بَعْدَ طَاعَةِ رَبِّهِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقَرُّنُ بَيْنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أَيُّ : وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَبِرِّ وَالِدَتِي فَاشْتَقَى بِذَلِكَ . قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : لَا تَحِدُ أَحَدًا عَاقًا لِوَالِدَيْهِ إِلَّا وَجَدْتُهُ جَبَّارًا شَقِيًّا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ إِبْتِثَاتٌ مِنْهُ لِعُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ ﷻ ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَحْيَا وَيَمُوتُ وَيُبْعَثُ كَسَائِرِ الْخَلَائِقِ ، وَلَكِنْ لَهُ السَّلَامَةُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ أَشَقُّ مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٠١﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٠٢﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٠٣﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ مِنْ خَبَرِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أَيُّ : يَخْتَلِفُ الْمُبْطِلُونَ وَالْمُحِقُّونَ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ وَكَفَرَ بِهِ ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَهُ عَبْدًا نَبِيًّا نَزَّ نَفْسُهُ الْمُقَدَّسَةَ وَقَالَ : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ ﴾ أَيُّ : عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلُوقًا كَبِيرًا ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أَيُّ : إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ فَيَصِيرُ كَمَا يَشَاءُ . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أَيُّ : وَمِمَّا أَمَرَ بِهِ عِيسَى قَوْمَهُ وَهُوَ فِي مَهْدِهِ : أَنْ أَخْبَرَهُمْ إِذْ ذَاكَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ ، فَقَالَ : ﴿ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ عَنِ اللَّهِ

﴿ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أَي : قَوِيمٌ مَنِ اتَّبَعَهُ رَشَدَ وَهُدِيَ ، وَمَنْ خَالَفَهُ ضَلَّ وَعَوَى .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أَي : اِخْتَلَفَ قَوْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي عِيسَى بَعْدَ بَيَانِ
 أَمْرِهِ وَوُضُوحِ حَالِهِ ، وَأَنَّهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَصَمَّمَت طَائِفَةٌ
 مِنْهُمْ وَهُمْ جُمْهُورُ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ - عَلَى أَنَّهُ وَلَدُ زَنْيَةٍ ، وَقَالُوا كَلَامُهُ هَذَا سِحْرٌ ،
 وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى : إِنَّمَا تَكَلَّمَ اللَّهُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هُوَ ابْنُ اللَّهِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ،
 وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِي أَرْشَدَ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ ،
 وَافْتَرَى وَزَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا ، وَلَكِنْ أَنْظَرَهُمْ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ
 كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أَي : يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ وَأَنْذِرْهُمْ
 يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ
 عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِنَّهُمْ يَكُونُونَ أَسْمَعَ شَيْءٍ وَأَبْصَرُهُ ، وَهَذَا قَالَ :
 ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ أَي : مَا أَسْمَعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَكِنِ
 الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أَي : لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ
 فَحَيْثُ يُطْلَبُ مِنْهُمْ الْهُدَى لَا يَهْتَدُونَ وَيَكُونُونَ مُطِيعِينَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ .
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ أَي : أَنْذِرِ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴿ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أَي :
 فَصَلَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، وَصَارَ كُلُّ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ مُخْلَدًا فِيهِ ﴿ وَهُمْ ﴾ أَي : الْيَوْمَ ﴿ فِي
 غَفْلَةٍ ﴾ عَمَّا أَنْذَرُوا بِهِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَي : لَا يُصَدِّقُونَ بِهِ .

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿١٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا
 لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٢٠﴾ يَتَابِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ
 يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٢١﴾ يَتَابِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ
 لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وَاتُّلَ عَلَى قَوْمِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ
 الْأَصْنَامَ ، وَأَذْكُرْ لَهُمْ مَا كَانَ مِنْ خَيْرِ إِبْرَاهِيمَ - خَلِيلِ الرَّحْمَنِ - الَّذِينَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَيَدْعُونَ

فَلَمَّا اعْتَرَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿١٧﴾
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أَي : أَجْتَبَيْكُمْ وَأَتَبَرَأُ مِنْكُمْ وَمِنْ آهَتِكُمْ
 الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ وَأَدْعُوا رَبِّي ﴾ أَي : وَأَعْبُدْ رَبِّي وَخُذْهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ
 بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ وَعَسَىٰ هَذِهِ مُوجِبَةٌ لَا مَحَالَةَ ؛ فَإِنَّهُ ﷺ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ .
 يَقُولُ تَعَالَىٰ فَلَمَّا اعْتَرَلَ الْخَلِيلُ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ فِي اللَّهِ ، أَبَدَلَهُ اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَوَهَبَ لَهُ
 إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَهَذَا إِنَّمَا ذَكَرَ هَاهُنَا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، أَي : جَعَلْنَا لَهُ نَسْلًا وَعَقَبًا ، أَنْبِيَاءُ
 أَقَرَّ اللَّهُ بِهِمْ عَيْنُهُ فِي حَيَاتِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ يَعْقُوبُ ﷺ قَدْ نُبِيٍّ فِي
 حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ لَمَا اقْتَصَرَ عَلَيْهِ وَلَذَكَرَ وَلَدَهُ يُوسُفَ ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ أَيْضًا .

وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿١٨﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ
 إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿١٩﴾ وَنَسِينَا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا
 ﴿٢٠﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٢١﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ يَعْنِي : الشَّاءَ الْحَسَنَ ، ﴿ وَأَذْكُرُ
 فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ مَعْنَاهُ : أَنَّهُ كَانَ مُصْطَفَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ
 عَلَى النَّاسِ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ
 الْمُرْسَلِينَ الْكِبَارِ أُولِي الْعِزِّ الْخَمْسَةِ . ﴿ وَنَسِينَا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ ﴾ أَي : الْجَانِبِ ﴿ الْأَيْمَنِ ﴾ مِنْ
 مُوسَىٰ حِينَ ذَهَبَ يَتَّبِعِي مِنْ تِلْكَ النَّارِ جَذْوَةً رَأَاهَا تَلُوحُ فَقَصَدَهَا ، فَوَجَدَهَا فِي جَانِبِ الطُّورِ
 الْأَيْمَنِ مِنْهُ غَرَبِيَّةٌ عِنْدَ شَاطِئِ الْوَادِي ، فَكَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، نَادَاهُ وَقَرَّبَهُ وَنَاجَاهُ . ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ
 رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ أَي : وَأَجَبْنَا سُؤَالَ وَشَفَاعَتَهُ فِي أَخِيهِ فَجَعَلْنَاهُ نَبِيًّا .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٢٢﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ
 أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٢٣﴾

هَذَا ثَنَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَهُوَ وَالِدُ عَرَبِ
 الْحِجَازِ كُلِّهِمْ بِأَنَّهُ ﴿ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : لَمْ يَعِدْ رَبُّهُ عِدَّةً إِلَّا أَنْجَزَهَا ، يَعْنِي :
 مَا التَزَمَ عِبَادَةً قَطُّ بِئَذٍ إِلَّا قَامَ بِهَا وَوَفَّاهَا حَقَّهَا . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا قِيلَ لَهُ : ﴿ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾
 لِأَنَّهُ قَالَ لِأَبِيهِ : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فَصَدَّقَ فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ فِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى شَرَفِ إِسْمَاعِيلَ عَلَى أَخِيهِ إِسْحَاقَ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا

وُصِفَ بِالنُّبُوَّةِ فَقَطْ ، وَإِسْمَاعِيلُ وَصِفَ بِالنُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ هَذَا أَيْضًا مِنَ الثَّنَاءِ الْجَمِيلِ وَالصِّفَةِ الْحَمِيدَةِ وَالْحَلَّةِ السَّدِيدَةِ حَيْثُ كَانَ صَابِرًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ ﷻ أَمْرًا بِهَا لِأَهْلِهِ .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﷻ وَرَفَعَنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﷻ

ذَكَرَ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ، وَأَنَّ اللَّهَ رَفَعَهُ مَكَانًا عَلِيًّا .

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﷻ

يَقُولُ تَعَالَى : هَؤُلَاءِ النَّبِيُّونَ - وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْمَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ فَقَطْ بَلْ جِنْسُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، اسْتَطَرَدَ مِنْ ذِكْرِ الْأَشْخَاصِ إِلَى الْجِنْسِ - ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ ﴾ الْآيَةِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ أَيُّ : إِذَا سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ الْمُتَضَمِّنَ حُجَجَهُ وَدَلَالَتَهُ وَبَرَاهِينَهُ ، سَجَدُوا لِرَبِّهِمْ خُضُوعًا وَاسْتِكَانَةً ، حَمْدًا وَشُكْرًا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْبُكْيُ : جَمْعُ بَاكِ .

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﷻ

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حِزْبَ السُّعَدَاءِ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْقَائِمِينَ بِحُدُودِ اللَّهِ وَأَوَامِرِهِ ، الْمُؤَدِّينَ فَرَائِضَ اللَّهِ ، التَّارِكِينَ لِرِوَاغِرِهِ ، ذَكَرَ أَنَّهُ ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أَيُّ : قُرُونٌ أُخَرُ ﴿ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾ وَإِذَا أَضَاعُوهَا فَهُمْ لِمَا سِوَاهَا مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَضْيَعُ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَلَاذِمِهَا ، فَهَؤُلَاءِ ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ أَيُّ : خَسَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقِيلَ : شَرًّا ، وَقِيلَ : وَادٍ فِي جَهَنَّمَ بَعِيدُ الْقَعْرِ خَبِيثُ الطَّعْمِ . ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أَيُّ : إِلَّا مَنْ رَجَعَ عَنْ تَرْكِ الصَّلَوَاتِ وَاتَّبَاعِ الشَّهَوَاتِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ وَيُحْسِنُ عَاقِبَتَهُ ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّوْبَةَ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا ، وَهَذَا لَا يَنْقُصُ هَؤُلَاءِ التَّائِبُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا شَيْئًا .

جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﷻ لَا

يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﷻ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ

مَنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : الْجَنَّاتُ الَّتِي يَدْخُلُهَا التَّائِبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ هِيَ ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أَيُّ : إِقَامَةٌ ﴿ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ ﴾ بِظَهْرِ الْغَيْبِ . أَيُّ : هِيَ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَا رَأَوْهُ ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ إِيقَانِهِمْ وَقُوَّةِ إِيمَانِهِمْ ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ تَأْكِيدُ لِحُصُولِ ذَلِكَ وَبُيُوتِهِ وَاسْتِقْرَارِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ وَلَا يُبَدِّلُهُ ، وَقَوْلُهُ هَاهُنَا : ﴿ مَأْتِيًّا ﴾ أَيُّ : الْعِبَادُ صَائِرُونَ إِلَيْهِ وَسَائِثُونَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : ﴿ مَأْتِيًّا ﴾ بِمَعْنَى : آتِيًّا ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا أَتَاكَ فَقَدْ أَتَيْتَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أَيُّ : هَذِهِ الْجَنَّاتُ لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ سَاقِطٌ تَافِهٍ لَا مَعْنَى لَهُ ، كَمَا قَدْ يُوجَدُ فِي الدُّنْيَا ﴿ إِلَّا سَلَامًا ﴾ إِسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ [الواقعة : ٢٥-٢٦] ﴿ وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أَيُّ : فِي مِثْلِ وَقْتِ الْبُكْرَاتِ وَوَقْتِ الْعَشِيَّاتِ ، لَا أَنَّ هُنَاكَ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَلَكِنَّهُمْ فِي أَوْقَاتٍ تَتَعاقَبُ يَعْرِفُونَ مُضِيِّهَا بِأَضْوَاءٍ وَأَنْوَارٍ . ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ أَيُّ : هَذِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي وَصَفْنَا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ ، هِيَ الَّتِي نُورِثُهَا عِبَادَنَا الْمُتَّقِينَ ، وَهُمْ الْمُطِيعُونَ لِلَّهِ ﷻ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمُونَ الْغَيْظَ وَالْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ .

وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٢٧﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٢٨﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِجِبْرِائِيلَ : « مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا ؟ » قَالَ : فَتَرَلْتُ : ﴿ وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ بـ : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أَمْرُ الدُّنْيَا ، ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أَمْرُ الْآخِرَةِ ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ مَا نَسِيكَ رَبُّكَ . ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيُّ : خَالِقُ ذَلِكَ وَمُدَبِّرُهُ ، وَالْحَاكِمُ فِيهِ وَالْمُتَصَرِّفُ الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ؟ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَعْنَاهُ : هَلْ تَعْلَمُ لِلرَّبِّ مَثَلًا أَوْ شَبِيهَا ، وَقِيلَ : لَيْسَ أَحَدٌ يُسَمِّي الرَّحْمَنَ غَيْرَهُ . تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ اسْمُهُ .

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٢٩﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ

مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿١٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَتَعَجَّبُ ، وَيَسْتَبْعِدُ إِعَادَتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ . يَسْتَدِلُّ تَعَالَىٰ بِالْبُدَاءَةِ عَلَى الْإِعَادَةِ ، يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَىٰ قَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ، أَفَلَا يُعِيدُهُ وَقَدْ صَارَ شَيْئًا ؟! وَقَوْلُهُ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أَقْسَمَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَحْشُرَهُمْ جَمِيعًا ، وَشَيَاطِينَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ ، قِيلَ : يَعْنِي قَعُودًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ يَعْنِي : مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ : يُجَبَسُ الْأَوَّلُ عَلَى الْآخِرِ ، حَتَّى إِذَا تَكَامَلَتِ الْعِدَّةُ أَتَاهُمْ جَمِيعًا ، ثُمَّ بَدَأَ بِالْأَكَابِرِ فَلَاكِبِرِ جُرْمًا ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ أَهْلِ كُلِّ دِينٍ قَادَتَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ فِي الشَّرِّ . ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ ﴿ ثُمَّ ﴾ هَاهُنَا لِعَطْفِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعِبَادِ أَنْ يَصْلَىٰ بِنَارِ جَهَنَّمَ وَيُحْلَدَ فِيهَا وَيَمُنَّ يَسْتَحِقُّ تَضَعِيفَ الْعَذَابِ .

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿١١﴾ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿١٢﴾

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قَالَ : الصَّرَاطُ عَلَى جَهَنَّمَ مِثْلُ حَدِّ السَّيْفِ ، فَتَمُرُّ الطَّبَقَةُ الْأُولَى : كَالْبَرْقِ ، وَالثَّانِيَةُ : كَالرَّيْحِ ، وَالثَّالِثَةُ : كَأَجُودِ الْحَيْلِ ، وَالرَّابِعَةُ : كَأَجُودِ الْبَهَائِمِ ، ثُمَّ يَمْرُونَ وَالْمَلَائِكَةُ يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ . وَعَنْ قَتَادَةَ : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قَالَ : هُوَ الْمَرُّ عَلَيْهَا . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ : وَرُودُ الْمُسْلِمِينَ : الْمُرُورُ عَلَى الْجِسْرِ بَيْنَ ظَهْرَانِيهَا ، وَوُرُودُ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَدْخُلُوهَا ، وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ قِيلَ : قَسَمًا وَاجِبًا ، وَقِيلَ : قَضَاءً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أَيُّ : إِذَا مَرَّ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَلَى النَّارِ ، وَسَقَطَ فِيهَا مَنْ سَقَطَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعَصَاةِ ذَوِي الْمَعَاصِي بِحَسَبِهِمْ ، نَجَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مِنْهَا بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ ، فَجَوَّازُهُمْ عَلَى الصَّرَاطِ وَسُرْعَتُهُمْ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا .

وَإِذَا تَنَالَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيَّنَّتْ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَى الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٣٦﴾ وَكَرَّ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئًّا ﴿٣٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ حِينَ تَنَالَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ ظَاهِرَةُ الدَّلَالَةِ ، بَيِّنَةُ الْحُجَّةِ وَاضِحَةُ الْبُرْهَانِ أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ وَيُعْرِضُونَ عَنْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُونَ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا مُفْتَخِرِينَ عَلَيْهِمْ ، وَمُحْتَجِّينَ عَلَى صِحَّةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ الْبَاطِلِ بِأَنَّهُمْ : ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ أَيْ : أَحْسَنُ مَنَازِلَ ، وَأَرْفَعُ دُورًا ، وَأَحْسَنُ نَدِيًّا - وَهُوَ جَمْعُ الرِّجَالِ لِلْحَدِيثِ - أَيْ : نَادِيهِمْ أَعْمَرُ وَأَكْثَرُ وَارِدًا وَطَارِقًا ، يَعْنُونَ : فَكَيْفَ نَكُونُ وَنَحْنُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ عَلَى بَاطِلٍ ، وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ مُحْتَقُونَ مُسْتَتْرُونَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ وَنَحْوَهَا مِنَ الدُّورِ عَلَى الْحَقِّ ؟ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ شُبُهَتَهُمْ : ﴿ وَكَرَّ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ أَيْ : وَكَمْ مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ قَدْ أَهْلَكْنَا هُمْ بِكُفْرِهِمْ ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئًّا ﴾ أَيْ : كَانُوا أَحْسَنَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَمْوَالًا وَأَمْنَةً وَمَنَاطِرَ وَأَشْكَالًا .

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٣٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ ، الْمُدَّعِينَ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّكُمْ عَلَى الْبَاطِلِ : ﴿ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ أَيْ : مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أَيْ : فَأَمْهَلْهُ الرَّحْمَنُ فِيمَا هُوَ فِيهِ ، حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ وَيَنْقُضِي أَجْلَهُ ﴿ إِمَّا الْعَذَابَ ﴾ يُصِيبُهُ ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ بَغْتَةً تَأْتِيهِ ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حِينَئِذٍ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ فِي مُقَابَلَةِ مَا إِحْتَجَّجُوا بِهِ مِنْ خَيْرِيَةِ الْمَقَامِ وَحُسْنِ النَّدَى . قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ فَلْيَدْعُهُ اللَّهُ فِي طُغْيَانِهِ .

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَقِيَّتُ الصَّلِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٣٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى إِمْدَادَ مَنْ هُوَ فِي الضَّلَالَةِ فِيمَا هُوَ فِيهِ ، وَزِيَادَتُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، أَخْبَرَ بِزِيَادَةِ الْمُهْتَدِينَ هُدًى . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْبَقِيَّتُ الصَّلِحَتُ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الْكَهْفِ ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أَيْ : جَزَاءٌ ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ أَيْ : عَاقِبَةٌ وَمَرَدًّا عَلَى صَاحِبِهَا .

أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِءَايَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٤٠﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٤١﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٤٢﴾ وَنَرِثُهُ

مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٦٠﴾

عَنْ خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ : كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا ، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَاثِلَ دَيْنٌ ، فَأَتَيْتُهُ أَنْقَاضَهُ مِنْهُ ، فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَفْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ، فَقُلْتُ : لَا وَاللَّهِ لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى تَمُوتَ ، ثُمَّ تُبْعَثَ ، قَالَ : فَإِنِّي إِذَا مِتُّ ثُمَّ بُعِثْتُ جِئْتَنِي وَلِي ثُمَّ مَالٌ وَوَلَدٌ فَأَعْطَيْتَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَطْلَعَ الْغَيْبِ ﴾ إِنَّكَارٌ عَلَى هَذَا الْقَائِلِ : ﴿ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيُّ : أَعْلِمَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ حَتَّى تَأْتِيَ وَحَلَفَ عَلَى ذَلِكَ ؟ ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ أَمْ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ سَيُؤْتِيهِ ذَلِكَ ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا ﴾ هِيَ حَرْفُ رَدْعٍ لِمَا قَبْلَهَا ، وَتَأْكِيدٌ لِمَا بَعْدَهَا ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أَيُّ : مِنْ طَلَبِهِ ذَلِكَ وَحُكْمِهِ لِنَفْسِهِ بِمَا يَتَمَنَّا ، وَكَفَرِهِ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أَيُّ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى قَوْلِهِ ذَلِكَ وَكَفَرِهِ بِاللَّهِ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَتَرْتُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أَيُّ : مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ نَسْلَبُهُ مِنْهُ ، عَكْسُ مَا قَالَ إِنَّهُ يُؤْتَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مَالًا وَوَلَدًا زِيَادَةً عَلَى الَّذِي لَهُ فِي الدُّنْيَا ، بَلْ فِي الْآخِرَةِ يُسْلَبُ مِنَ الَّذِي كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أَيُّ : لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٦١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٦٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا ﴿٦٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ : أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آهَةً لِيَكُونَ تِلْكَ الْآهَةُ ﴿ عِزًّا ﴾ يَعْتَزُّونَ بِهَا وَيَسْتَنْصِرُونَهَا ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا يَكُونُ مَا طَمَعُوا ، فَقَالَ : ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أَيُّ : بِخِلَافٍ مَا طَنُّوا فِيهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أَيُّ : بِخِلَافٍ مَا رَجَوْا مِنْهُمْ . قُرْنَاءُ فِي النَّارِ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴾ تَغْوِيهِمْ إِغْوَاءً ، وَتَغْرِيبَهُمْ إِغْرَاءً وَتَسْتَعْجِلُهُمْ إِسْتِعْجَالًا ، وَقِيلَ : تُطْغِيهِمْ طُغْيَانًا . ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا ﴾ أَيُّ : لَا تَعْجَلْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي وَقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا نُؤَخِّرُهُمْ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ مَضْبُوطٍ ، وَهُمْ صَائِرُونَ لَا مُحَالَةَ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ وَنَكَالِهِ .

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٤٦﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٤٧﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٤٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ خَافُوهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، وَاتَّبَعُوا رُسُلَهُ وَصَدَّقُوهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ ، وَأَطَاعُوهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ ، وَانْتَهَوْا عَمَّا عَنْهُ زَجَرُوهُمْ ، أَنَّهُ يَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفْدًا إِلَيْهِ ، وَالْوَفْدُ : هُمُ الْقَادِمُونَ رُكْبَانًا ، وَمِنْهُ الْوُفُودُ وَرُكُوبُهُمْ عَلَى نَجَائِبَ مِنْ نُورٍ مِنْ مَرَائِبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَهُمْ قَادِمُونَ عَلَى خَيْرٍ مَوْفُودٍ إِلَيْهِ ، إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَأَمَّا الْمُجْرِمُونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ الْمُخَالِفُونَ لَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ يُسَاقُونَ عُنْفًا إِلَى النَّارِ ﴿ وَرْدًا ﴾ عِطَاشًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ قِيلَ : رُكْبَانًا ، وَقِيلَ : عَلَى الْإِبِلِ ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴾ أَيُّ : عِطَاشًا ، ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ كَمَا يَشْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ . ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ هَذَا إِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، بِمَعْنَى : لَكِنْ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا وَهُوَ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْقِيَامُ بِحَقِّهَا .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٤٩﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٥٠﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٥١﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٥٢﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٥٣﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٥٤﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٥٥﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٥٦﴾

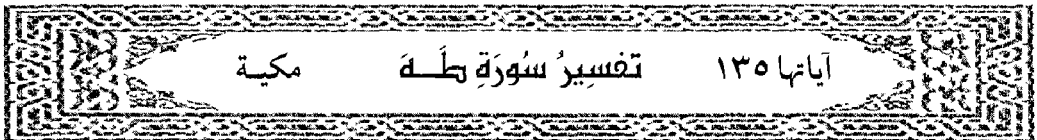
لَمَّا قَرَّرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ عَبْدُودِيَّةَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذَكَرَ خَلْقَهُ مِنْ مَرْيَمَ بِلَا أَبٍ ، شَرَعَ فِي مَقَامِ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا - فَقَالَ : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ ﴿٤٩﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٥٠﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٥١﴾ أَيُّ : يَكَادُ يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَ سَمَاعِهِنَّ هَذِهِ الْمَقَالَةُ مِنْ فَجَرَةِ بَنِي آدَمَ إِعْظَامًا لِلرَّبِّ وَاجْتِلَالًا . ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أَيُّ : يَتَشَقَّقْنَ فَرَقًا مِنْ عَظْمَةِ اللَّهِ ﴿ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ أَيُّ : غَضَبًا لَهُ ﷻ ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴾ قِيلَ : هَذَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ أَيُّ : لَا يَصْلُحُ لَهُ وَلَا يَلِيقُ بِهِ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا كُفَّاءَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ عَبِيدُ لَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ ﴿٥٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٥٤﴾ أَيُّ : قَدْ عَلِمَ عَدَدَهُمْ مِنْذُ خَلْقِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ذَكَرَهُمْ وَأُنْثَاهُمْ ، وَصَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴾

فَرَدًّا ۖ أَيْ : لَا نَاصِرَ لَهُ وَلَا مُجِيرَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿١٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ
بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴿١٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ
هَلْ تَحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَغْرِسُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ
مَحَبَّةً وَمَوَدَّةً ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيدَ عَنْهُ . ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۖ ﴾ ، أَيْ : مَحَبَّةً فِي
النَّاسِ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُمْ إِلَى خَلْقِهِ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ
﴿ بِلِسَانِكَ ۖ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ، وَهُوَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمُبِينُ الْفَصِيحُ الْكَامِلُ ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾
أَيْ : الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ الْمَصْدِّقِينَ لِرَسُولِهِ ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ أَيْ : عَوَّجًا عَنِ الْحَقِّ مَائِلِينَ إِلَى
الْبَاطِلِ ، وَقِيلَ : ﴿ قَوْمًا لَّدَا ﴾ فَجَارًا . ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أَيْ : مِنْ أُمَّةٍ كَفَرُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ﴿ هَلْ تَحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴾ أَيْ : هَلْ تَرَى مِنْهُمْ أَحَدًا أَوْ
تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا . يَعْنِي : صَوْتًا .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ مَرْيَمَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن تَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا
مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالنُّقُولِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ
السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ طه ﴾ بِمَعْنَى يَا رَجُلُ ﴿ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ فَلَيْسَ الْأَمْرُ
كَمَا زَعَمَهُ الْمُبْطِلُونَ ، بَلْ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ فَقَدْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ
الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ لَا ، وَاللَّهُ مَا جَعَلَهُ شَقَاءً ، وَلَكِنْ جَعَلَهُ رَحْمَةً وَنُورًا وَدَلِيلًا إِلَى الْجَنَّةِ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن تَخْشَى ﴾ : إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ كِتَابَهُ وَبَعَثَ رُسُلَهُ رَحْمَةً ، رَحِمَ بِهَا الْعِبَادَ ؛

لِيَتَذَكَّرَ ذَاكِرٌ ، وَيَتَذَكَّرَ رَجُلٌ بِمَا سَمِعَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَهُوَ ذِكْرٌ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ ، ﴿ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ أَيُّ : هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي جَاءَكَ يَا مُحَمَّدُ هُوَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ ، الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ بِإِنْخِفَاضِهَا وَكُثَافَتِهَا وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى فِي إِرْتِفَاعِهَا وَلَطَافَتِهَا ، ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْأَعْرَافِ » بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ أَيْضًا ، وَأَنَّ الْمَسْلُوكَ الْأَسْلَمَ فِي ذَلِكَ طَرِيقَةَ السَّلَفِ : إِمْرَارُ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْتِيلٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ أَيُّ : الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَفِي قَبْضَتِهِ ، وَتَحْتَ نَصْرَفِهِ وَمَشِيَّتِهِ ، وَإِرَادَتِهِ وَحُكْمِهِ ، ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالنَّوَلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أَيُّ : أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، وَقِيلَ : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ قَالَ : السِّرُّ : مَا تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسُكَ ، وَأَخْفَى : مَا لَمْ تُحَدِّثْ بِهِ نَفْسُكَ بَعْدُ . وَقِيلَ : أَنْتَ تَعْلَمُ مَا تُسِرُّ الْيَوْمَ وَلَا تَعْلَمُ مَا تُسِرُّ غَدًا ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّ الْيَوْمَ وَمَا تُسِرُّ غَدًا ، وَقِيلَ : ﴿ وَأَخْفَى ﴾ يَعْنِي : الْوَسْوَسةُ . ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أَيُّ : الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ هُوَ : اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ذُو الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَى .

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿٢٠﴾

مِنْ هَاهُنَا شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَى وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ الْوَحْيِ إِلَيْهِ وَتَكْلِيمُهُ إِيَّاهُ ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صِهْرِهِ فِي رِعَايَةِ الْغَنَمِ وَسَارَ بِأَهْلِهِ - قِيلَ : قَاصِدًا بِلَادَ مِصْرَ - بَعْدَ مَا طَالَتِ الْغَيْبَةُ عَنْهَا أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ ، وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ فَأُضِلَّ الطَّرِيقَ ، وَكَانَتْ لَيْلَةٌ شَاتِيَّةٌ ، وَنَزَلَ مِنْزِلًا بَيْنَ شُعَابٍ وَجِبَالٍ ، فِي بَرْدٍ وَشِتَاءٍ وَسَحَابٍ وَظَلَامٍ وَضَبَابٍ ، وَجَعَلَ يَقْدَحُ بِزَنْدٍ مَعَهُ لِيُورِيَ نَارًا كَمَا جَرَتْ لَهُ الْعَادَةُ بِهِ ، فَجَعَلَ لَا يَقْدَحُ شَيْئًا وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَرَرٌ وَلَا شَيْءٌ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، أَيُّ : ظَهَرَتْ لَهُ نَارٌ مِنْ جَانِبِ الْجَبَلِ الَّذِي هُنَاكَ عَنْ يَمِينِهِ فَقَالَ لِأَهْلِهِ يُسِرُّهُمْ : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ أَيُّ : شَهَابٌ مِنْ نَارٍ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بِقَبَسٍ ﴾ دَلَّ عَلَى وُجُودِ الظَّلَامِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ أَيُّ : مَنْ يَهْدِينِي الطَّرِيقَ ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَاهَ عَنِ الطَّرِيقِ .

فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ يَمُوسَى ﴿٢١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٢٢﴾ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿٢٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤٣﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُنْجِزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٤٤﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا أَتَتْهَا ﴾ أَيُّ : النَّارُ وَاقْتَرَبَ مِنْهَا ﴿ نُودِيَ يَمُوسَى ﴾ ، ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ أَيُّ : الَّذِي يُكَلِّمُكَ وَيُخَاطِبُكَ . ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ قِيلَ : إِنَّمَا أَمْرُهُ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ تَعْظِيمًا لِلْبَيْعَةِ ، وَقِيلَ : لِيَطَّأَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ بِقَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ مُنْتَعِلٍ ، وَقِيلَ : غَيْرَ ذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ طُوى ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُوَ اسْمٌ لِلْوَادِي . فَعَلَى هَذَا يَكُونُ عَطْفُ بَيَانٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي ﴾ [الأعراف : ١٤٤] أَيُّ : عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ مِنَ الْمُؤْجُودِينَ فِي زَمَانِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ أَيُّ : اسْتَمِعِ الْآنَ مَا أَقُولُ لَكَ وَأُوجِّهِ إِلَيْكَ ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ هَذَا أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْمُكَلِّفِينَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿ فَاعْبُدْنِي ﴾ أَيُّ : وَحْدَنِي وَقَمِّ بَعَادَتِي مِنْ غَيْرِ شَرِكٍ ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ مَعْنَاهُ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ عِنْدَ ذِكْرِكَ لِي . ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ أَيُّ : قَائِمَةٌ لَا مَحَالَةَ ، وَكَائِنَتْ لَا بُدَّ مِنْهَا ، ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : مِنْ نَفْسِهِ ، وَقِيلَ : لَا أُطِيعُ عَلَيْهَا أَحَدًا غَيْرِي ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا قَدْ أَخْفَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ عِلْمَ السَّاعَةِ . ﴿ لِيُنْجِزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ أَيُّ : أُقِيمُهَا لَا مَحَالَةَ لِأَجْزَى كُلِّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ الْآيَةُ . الْمُرَادُ بِهَذَا الْخُطَابِ أَحَادُ الْمُكَلِّفِينَ ، أَيُّ : لَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ مَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ ﴿ فَتَرْدَى ﴾ أَيُّ : تَهْلِكُ وَتَعْطَبُ .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى ﴿١٤٦﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَفَارِثُ أُخْرَى ﴿١٤٧﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى ﴿١٤٨﴾ فَالْقَنَاهَا فإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿١٤٩﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿١٥٠﴾

هَذَا بُرْهَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمُعْجَزَةٌ عَظِيمَةٌ وَخَرَقٌ لِلْعَادَةِ بَاهِرٌ ، دَلٌّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِ هَذَا إِلَّا اللَّهُ ﷻ ، وَأَنَّهُ لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى ﴾ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّمَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِيْنَاسِ لَهُ ، وَقِيلَ : إِنَّمَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيرِ ، أَيُّ : أَمَّا هَذِهِ اللَّيْ فِي يَمِينِكَ - عَصَاكَ اللَّيْ تَعْرِفُهَا - فَسَتَرَى مَا نَصْنَعُ بِهَا الْآنَ ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا ﴾ أَيُّ : أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي حَالِ الْمَشْيِ ﴿ وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ أَيُّ : أَهْزُ بِهَا الشَّجَرَةَ لِيَسْقَاطَ وَرَقُهَا لِتَرْعَاهُ غَنَمِي . ﴿ وَلِي فِيهَا مَفَارِثُ أُخْرَى ﴾ أَيُّ : مَصَالِحُ وَمَنَافِعُ وَحَاجَاتُ أُخْرَى غَيْرُ ذَلِكَ . ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى ﴾ أَيُّ :

هَذِهِ الْعَصَا الَّتِي فِي يَدِكَ يَا مُوسَى أَلْقِهَا ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ أَيُّ : صَارَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ ، تُعْبَأَانَا طَوِيلًا يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً سَرِيعَةً ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَرُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَيَّاتِ حَرَكَةً ، وَلَكِنَّهُ صَغِيرٌ فَهَذِهِ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ ، وَفِي غَايَةِ سُرْعَةِ الْحَرَكَةِ ﴿تَسْعَى﴾ أَيُّ : تَمْشِي وَتَضْطَرِبُ . ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أَيُّ : إِلَى حَالِهَا الَّتِي تُعْرِفُ قَبْلَ ذَلِكَ .

وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيَضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

وَهَذَا بُرْهَانٌ ثَانٍ لِمُوسَى ﷺ ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يُدْخَلَ يَدُهُ فِي جَبِيهِ ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ، وَهَاهُنَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ كَقَوْلِهِ تَحْتَ عَضْدِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَبِيهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا تَخْرُجُ تَتَلَأَلُ كَأَنَّهَا فَلَقَةٌ قَمَرٍ ، تَخْرُجُ بَيَضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴿أَيُّ : مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا أَدَى وَمِنْ غَيْرِ شَيْنٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أَيُّ : إِذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ الَّذِي خَرَجَتْ فَارًّا مِنْهُ وَهَارِبًا ، فَادَّعَاهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَّه لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمَرُّهُ فَلْيُحْسِنَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا يُعَذِّبْهُمْ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ طَغَى وَبَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَنَسِيَ الرَّبَّ الْأَعْلَى . ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿هَذَا سُؤَالٌ مِنْ مُوسَى ﷺ لِرَبِّهِ ﷻ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ فِيمَا بَعَثَهُ بِهِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَهُ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَخَطْبٍ جَسِيمٍ ، بَعَثَهُ إِلَى أَعْظَمِ مَلِكٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ ، وَاجْبُرَهُمْ وَأَشَدَّهُمْ كُفْرًا ، وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودًا ، وَأَعَمَّرَهُمْ مُلْكًا ، وَأَطْعَمَهُمْ ، وَأَبْلَغَهُمْ تَمَرَّدًا ، بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ ادَّعَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ وَلَا يَعْلَمُ لِرِعَايَاهُ إِلَهًا غَيْرَهُ ، هَذَا وَقَدْ مَكَثَ مُوسَى فِي دَارِهِ مُدَّةً ، وَلِيدًا عِنْدَهُمْ فِي حِجْرِ فِرْعَوْنَ عَلَى فِرَاشِهِ ، ثُمَّ قَتَلَ مِنْهُمْ نَفْسًا فَخَافَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُ ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمُدَّةَ بِكَمَالِهَا ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا بَعَثَهُ رَبُّهُ ﷻ إِلَيْهِمْ نَذِيرًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿أَيُّ : إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ عَوْنِي وَنَصِيرِي وَعَضْدِي وَظَهِيرِي وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لِي بِذَلِكَ . ﴿وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿وَذَلِكَ لَمَّا كَانَ أَصَابُهُ مِنَ اللَّشَعِ حِينَ عَرَّضَ عَلَيْهِ التَّمْرَةَ وَالْجُمْرَةَ ، فَأَخَذَ الْجُمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ ، وَمَا سَأَلَ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ ، بَلْ بِحَيْثُ يَزُولُ الْعِيُّ

وَيَحْضُلُ لَهُمْ فَهَمٌ مَا يُرِيدُ مِنْهُ ، وَهُوَ قَدَرُ الْحَاجَةِ ، وَلَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ لَزَالَ ، وَلَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَسْأَلُونَ إِلَّا بِحَسَبِ الْحَاجَةِ ؛ وَهَذَا بَقِيَتْ بَقِيَّةُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنْخَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : ٥٢] أَيُّ : يُفْصِحُ بِالْكَلَامِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : شَكَا مُوسَى إِلَى رَبِّهِ مَا يَتَخَوَّفُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْقَتِيلِ وَعُقْدَةِ لِسَانِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ تَمْنَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ ، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُعِينَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ يَكُونُ لَهُ رِذَاءٌ ، وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَا يُفْصِحُ بِهِ لِسَانُهُ فَأَتَاهُ سُؤْلُهُ فَحَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿ وَهَذَا أَيْضًا سُؤَالٌ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَمْرٍ خَارِجِيٍّ عَنْهُ وَهُوَ مُسَاعَدَةُ أَخِيهِ هَارُونَ لَهُ . ﴿ أَشَدُّ بِهِ أَرْزَى ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : ظَهَرِي . ﴿ وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي ﴾ أَيُّ : فِي مُشَاوَرَتِي . ﴿ كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴾ وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أَيُّ : فِي إِصْطِفَائِكَ لَنَا وَإِعْطَائِكَ إِيَّانَا الشُّبُوهَ ، وَبِعَثِّكَ لَنَا إِلَى عَدُوِّكَ فِرْعَوْنَ ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ .

قَالَ قَدْ أُوتِيَتْ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ ﴾ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴿

هَذِهِ إِجَابَةُ مِنَ اللَّهِ لِرِسْوَلِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا سَأَلَ مِنْ رَبِّهِ ﷻ ، وَتَذْكِيرٌ لَهُ بِنِعْمَةِ السَّالِفَةِ عَلَيْهِ ، فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ أُمِّهِ ، حِينَ كَانَتْ تُرْضِعُهُ وَتَحْذَرُ عَلَيْهِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ أَنْ يَقْتُلُوهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ وُلِدَ فِي السَّنَةِ الَّتِي يَقْتُلُونَ فِيهَا الْغُلَامَانَ ، فَاتَّخَذَتْ لَهُ تَابُوتًا ، فَحَصَلَ لَهَا مِنَ الْغَمِّ وَالْهَمِّ ، وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴿ أَيُّ : عِنْدَ عَدُوِّكَ جَعَلْتَهُ يُحِبُّكَ . قِيلَ : حَبَبْتُكَ إِلَى عِبَادِي ﴾ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿ وَقِيلَ : تُرَبِّي بِعَيْنِ اللَّهِ . ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ ﴾ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴿ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَقَرَّ عِنْدَ آلِ فِرْعَوْنَ عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ فَأَبَاها ، فَجَاءَتْ أُخْتُه وَقَالَتْ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يُرْضِعُهُ لَكُمْ بِالْأَجْرَةِ ؟ فَذَهَبَتْ بِهِ وَهُمْ مَعَهَا إِلَى أُمِّهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ ثَدْيَهَا فَقَبَلَهُ ، فَفَرَحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا ، وَاسْتَأْجَرُوهَا عَلَى إِرْضَاعِهِ ، فَتَالَهَا بِسَبَبِهِ سَعَادَةٌ وَرِفْعَةٌ وَرَاحَةٌ فِي الدُّنْيَا ، وَفِي الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَجْزَلُ . ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أَيُّ : عَلَيْكَ ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ يَعْنِي : الْفُهْطِيَّ ﴿ فَتَجَبَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ وَهُوَ مَا حَصَلَ لَهُ بِسَبَبِ عَزْمِ آلِ فِرْعَوْنَ عَلَى قَتْلِهِ ،

فَفَرَّ مِنْهُمْ هَارِبًا حَتَّى وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ، وَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَّوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٢٥]

فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَى ﴿١٠﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿١١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيَّتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿١٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ تَخْشَى ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّهُ لَبِثَ مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ فَأَرَا مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَرْعَى عَلَى صَهْرِهِ حَتَّى انْتَهَتْ الْمُدَّةُ وَانْقَضَى الْأَجَلُ ، ثُمَّ جَاءَ مُوَافَقًا لِقَدَرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَهُوَ الْمُسَيِّرُ عِبَادَهُ وَخَلَقَهُ فِيمَا يَشَاءُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَى ﴾ أَيُّ : عَلَى مَوْعِدٍ . وَقِيلَ : عَلَى قَدَرِ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أَيُّ : اصْطَفَيْتُكَ وَاجْتَبَيْتُكَ رَسُولًا لِنَفْسِي ، أَيُّ : كَمَا أُرِيدُ وَأَشَاءُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيَّتِي ﴾ أَيُّ : بِحُجَجِي وَبِرَاهِنِي وَمُعْجَزَاتِي ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : لَا تُبْطِئَا . وَرَوَى عَنْهُ أَيُّضًا : لَا تَضَعُفَا . وَالْمُرَادُ : أَنَّهُمَا لَا يَفْتَرَانِ فِي ذِكْرِ اللَّهِ ، بَلْ يَذْكُرَانِ اللَّهَ فِي حَالِ مُوَاجَهَةِ فِرْعَوْنَ ؛ لِيَكُونَ ذِكْرُ اللَّهِ عَوْنًا لِهَمَّاهُ عَلَيْهِ ، وَقُوَّةً لِهَمَّاهُ وَسُلْطَانًا كَاسِرًا لَهُ . ﴿ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ أَيُّ : تَمَرَّدَ وَعَتَا وَتَجَبَّرَ عَلَى اللَّهِ وَعَصَاهُ ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ تَخْشَى ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَهُوَ أَنَّ فِرْعَوْنَ فِي غَايَةِ الْعُتُوِّ وَالْإِسْتِكْبَارِ وَمُوسَى صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ إِذْ ذَاكَ ، وَمَعَ هَذَا أَمْرٌ أَنْ لَا يُحَاطَبَ فِرْعَوْنَ إِلَّا بِالْمَلَاظِفَةِ وَاللَّيْنِ . ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ تَخْشَى ﴾ أَيُّ : لَعَلَّهُ يَرْجِعُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَكَةِ ، ﴿ أَوْ تَخْشَى ﴾ أَيُّ : يُوجِدُ طَاعَةً مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِ ، فَالْتَذَكُّرُ : الرَّجُوعُ عَنِ الْمَحْذُورِ ، وَالْخُشْيَةُ : تَحْصِيلُ الطَّاعَةِ .

قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿١٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿١٦﴾ فَاتَّيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿١٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى وَهَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - إِنَّهُمَا قَالَا مُسْتَجِيرَيْنِ بِاللَّهِ تَعَالَى شَاكِيَيْنِ إِلَيْهِ : ﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ يَعْنِيَانِ أَنْ يَبْدُرَ إِلَيْهِمَا بِعُقُوبَةٍ أَوْ يَعْتَدِي

عَلَيْهِمَا فَيُعَاقِبُهُمَا ، وَهُمَا لَا يَسْتَحِقَّانِ مِنْهُ ذَلِكَ . ﴿ أَنْ يَفْرُطَ ﴾ قِيلَ : يَعَجَلُ ﴿ أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ قِيلَ : يَعْتَدِي . ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ أَيُّ : لَا تَخَافَا مِنْهُ فَإِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ كَلَامَكُمَا وَكَلَامَهُ ، وَأَرَى مَكَانَكُمَا وَمَكَانَهُ ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمَا شَيْءٌ ، وَاعْلَمَا أَنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي فَلَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَتَنَفَّسُ وَلَا يَبْطِشُ إِلَّا بِإِذْنِي ، وَبَعْدَ أَمْرِي وَأَنَا مَعَكُمَا بِحِفْظِي وَنَضْرِي وَتَأْيِيدِي . ﴿ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ مَكْتَأًا عَلَى بَابِهِ حِينًا لَا يُؤْذَنُ لَهُمَا ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمَا بَعْدَ حِجَابٍ شَدِيدٍ . ﴿ قَدْ جِئْتَك بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [طه : ٤٧] أَيُّ : بِدَلَالَةٍ وَمُعْجَزَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ أَيُّ : وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ إِنْ اتَّبَعْتَ الْهُدَى ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ أَيُّ : قَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ فِيمَا أُوحَاهُ إِلَيْنَا مِنَ الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ : أَنَّ الْعَذَابَ مُتَمَحِّصٌ لِمَنْ كَذَّبَ بآيَاتِ اللَّهِ وَتَوَلَّى عَنْ طَاعَتِهِ .

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿ ١٦٠ ﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿ ١٦١ ﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿ ١٦٢ ﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿ ١٦٣ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى مُنْكَرًا وَجُودًا الصَّانِعِ الْخَالِقِ إِلَهَ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبِّهِ وَمَلِيكِهِ ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴾ أَيُّ : الَّذِي بَعَثَكَ وَأَرْسَلَكَ مَنْ هُوَ ؟ فَإِنِّي لَا أَعْرِفُهُ وَمَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ، ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ قِيلَ : خَلَقَ لِكُلِّ شَيْءٍ زَوْجَةً ، وَقِيلَ : أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ صُورَتَهُ ، وَقِيلَ : سَوَّى خَلْقَ كُلِّ ذَاتَةٍ . وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : ﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى : ٣] أَيُّ : قَدَّرَ قَدَرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ ، أَيُّ : كَتَبَ الْأَعْمَالَ وَالْأَجَالَ وَالْأَرْزَاقَ ، ثُمَّ الْخَلَائِقَ مَاشُونَ عَلَى ذَلِكَ لَا يَحِيدُونَ عَنْهُ وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الْخُرُوجِ ، يَقُولُ رَبُّنَا الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ وَقَدَّرَ الْقَدَرَ وَجَبَلَ الْخَلِيقَةَ عَلَى مَا أَرَادَ .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ، أَصَحُّ الْأَقْوَالِ فِي مَعْنَى ذَلِكَ : أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَخْبَرَهُ مُوسَى بِأَنَّ رَبَّهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ وَزَرَقَ وَقَدَّرَ فَهَدَى ، شَرَعَ يَحْتَجُّ بِالْقُرُونِ الْأُولَى ، أَيُّ : الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ ، أَيُّ : فَمَا بِهِمْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ لَمْ يَعْبُدُوهُ بَلْ عَبَدُوا غَيْرَهُ ؟ فَقَالَ لَهُ مُوسَى فِي جَوَابِ ذَلِكَ : هُمْ وَإِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ فَإِنَّ عَمَلَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَضْبُوطٌ عَلَيْهِمْ ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِعَمَلِهِمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ وَكِتَابُ الْأَعْمَالِ ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ أَيُّ : لَا يَشُدُّ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَقْوَتُهُ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ وَلَا يَنْسَى شَيْئًا . يَصِفُ عِلْمَهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْسَى شَيْئًا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ ، فَإِنَّ عِلْمَ الْمَخْلُوقِ يَغْتَرِيهِ نَقْصَانَانِ ،

أَحَدُهُمَا : عَدَمُ الْإِحَاطَةِ بِالشَّيْءِ ، وَالْآخَرُ : نِسْيَانُهُ بَعْدَ عِلْمِهِ ، فَتَزَرَّ نَفْسُهُ عَنْ ذَلِكَ .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٢٥﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢٦﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَابْتَدَى ﴿٢٨﴾

هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ مُوسَى فِيمَا وَصَفَ بِهِ رَبَّهُ ﷻ ، حِينَ سَأَلَهُ فِرْعَوْنُ عَنْهُ فَقَالَ : ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْفَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ، ثُمَّ اعْتَرَضَ الْكَلَامَ بَيْنَ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ بَعْضِهِمْ (مِهَادًا) أَيُّ : قَرَارًا تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا ، وَتَقُومُونَ وَتَنَامُونَ عَلَيْهَا ، وَتَسَافِرُونَ عَلَى ظَهْرِهَا ﴾ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أَيُّ : جَعَلَ لَكُمْ طُرُقًا تَمْشُونَ فِي مَنَاكِهَا ، ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ أَيُّ : مِنْ أَنْوَاعِ النَّبَاتَاتِ مِنْ زُرُوعٍ وَنَبَاتٍ ، وَمِنْ حَامِضٍ وَحُلُوٍّ وَمَرٍّ وَسَائِرِ الْأَنْوَاعِ . ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُم ﴾ أَيُّ : شَيْءٌ لِّطَعَامِكُمْ وَفَاكِهَتِكُمْ ، وَشَيْءٌ لِأَنْعَامِكُمْ لِأَقْوَاتِهَا خَضِرًا وَيَبَسًا ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أَيُّ : لَدَلَالَاتٍ وَحُجَجٍ وَبَرَاهِينٍ ﴿ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أَيُّ : لِدَوِيِّ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴾ مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ أَيُّ : مِنَ الْأَرْضِ مَبْدُوكُمْ فَإِنَّ أَبَاكُمْ آدَمَ مَخْلُوقٌ مِنْ تُرَابٍ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ ﴾ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أَيُّ : وَإِلَيْهَا تَصِيرُونَ إِذَا مِتُّمْ وَبُلِيتُمْ ، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَابْتَدَى ﴾ يَعْنِي : فِرْعَوْنُ أَنَّهُ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَجُ وَالْآيَاتُ وَالْدَّلَالَاتُ وَعَايَنَ ذَلِكَ وَأَبْصَرَهُ ، فَكَذَّبَ بِهَا وَأَبَاهَا كُفْرًا وَعِنَادًا وَبَغْيًا .

قَالَ أَجَعْتَنَا لِيُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٢٩﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٣٠﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى حِينَ أَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى وَهِيَ الْإِقَاءُ عَصَاهُ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا عَظِيمًا ، وَنَزَعَ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ جَنَاحِهِ فَخَرَجَتْ يَيْضَاءٌ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فَقَالَ : هَذَا سِحْرٌ جِئْتُ بِهِ لِتَسْحَرَنَا وَتَسْتَوِلِي بِهِ عَلَى النَّاسِ فَيَتَّبِعُونَكَ ، وَتُكَاثِرُنَا بِهِمْ وَلَا يَتَّبِعُ هَذَا مَعَكَ ، فَإِنَّ عِنْدَنَا سِحْرًا مِثْلَ سِحْرِكَ ، فَلَا يَعْرُنْكَ مَا أَنْتَ فِيهِ ﴿ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أَيُّ : يَوْمًا

تَجْتَمِعُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِيهِ ، فَنُعَارِضُ مَا جِئْتَ بِهِ بِأَعْدَاكَ مِنَ السَّحْرِ فِي مَكَانٍ مُعَيَّنٍ وَوَقْتُ مُعَيَّنٍ ،
فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ قَالَ ﴾ هُمْ مُوسَى : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴾ وَهُوَ يَوْمٌ عِيدُهُمْ وَتَفَرُّغُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ
وَاجْتِمَاعِ جَمِيعِهِمْ ؛ لِيُشَاهِدَ النَّاسُ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَبُطْلَانَ مُعَارَضَةِ السَّحْرِ لِحَوَارِقِ
الْعَادَاتِ النَّبَوِيَّةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنْ تُخْشِرَ النَّاسَ ﴾ ، أَيُ : جَمِيعُهُمْ ﴿ ضَحَى ﴾ أَيُ : ضَحْوَةٌ مِنْ
النَّهَارِ لِيَكُونَ أَظْهَرَ وَأَجْلَى وَأَبْيَنَ وَأَوْضَحَ ، وَهَكَذَا شَأْنُ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّ أَمْرِهِمْ بَيْنَ وَاضِحٍ لَيْسَ
فِيهِ خَفَاءٌ وَلَا تَرْوِيجٌ ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ لَيْلًا وَلَكِنْ نَهَارًا ضَحَى . ﴿ مَكَانًا سُوءًا ﴾ قِيلَ : مُنْصَفًا :
عَدْلًا . وَقِيلَ : ﴿ مَكَانًا سُوءًا ﴾ مُسْتَوٍ يَتَبَيَّنُ النَّاسُ مَا فِيهِ .

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٥١﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٥٢﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا
الْجَنَوى ﴿٥٣﴾ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا
وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿٥٤﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا ۖ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ
اسْتَعْلَى ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ لَمَّا تَوَاعَدَ هُوَ وَمُوسَى إِلَى وَقْتٍ وَمَكَانٍ مَّعْلُومَيْنِ تَوَلَّى ، أَيُ :
شَرَعَ فِي جَمْعِ السَّحَرَةِ مِنْ مَدَائِنِ مَمْلَكَتِهِ ، كُلُّ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى السَّحْرِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، وَقَدْ كَانَ
السَّحَرُ فِيهِمْ كَثِيرًا نَافِقًا جِدًّا ، ﴿ ثُمَّ أَتَى ﴾ أَيُ : اجْتَمَعَ النَّاسُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ، وَهُوَ يَوْمُ
الزَّيْنَةِ ، وَجَلَسَ فِرْعَوْنُ عَلَى سَرِيرِ مَمْلَكَتِهِ وَاصْطَفَى لَهُ أَكَابِرُ دَوْلَتِهِ وَوَقَفَتِ الرِّعَايَا يَمْنَةً وَيَسْرَةً ،
وَأَقْبَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصَاهُ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ ، وَوَقَفَ السَّحَرَةُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ
صُفُوفًا وَهُوَ يُخْرِضُهُمْ وَيُخَيِّئُهُمْ وَيُرْغَبُهُمْ فِي إِجَادَةِ عَمَلِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَيَتَمَنُّونَ عَلَيْهِ وَهُوَ
يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، ف ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أَيُ : لَا تُخَيِّلُوا لِلنَّاسِ
بَأَعْمَالِكُمْ إِجَادَ أَشْيَاءَ لَا حَقَائِقَ لَهَا ، وَإِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ وَلَيْسَتْ مَخْلُوقَةٌ ، فَتَكُونُونَ قَدْ كَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ
﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ أَيُ : يُهْلِكُكُمْ بِعُقُوبَةٍ هَالِكًا لَا بَقِيَّةَ لَهُ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ فَتَنَزَّعُوا
أَمْرَهُمْ ﴿ قِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ تَسَاجَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ فَقَائِلُ يَقُولُ : لَيْسَ هَذَا بِكَلَامِ سَاحِرٍ إِنَّمَا هَذَا كَلَامُ
نَبِيِّ ، وَقَائِلُ يَقُولُ : بَلْ هُوَ سَاحِرٌ ، وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ﴿ وَأَسْرَوْا الْجَنَوى ﴾ أَيُ : تَنَاجَوْا
فِيمَا بَيْنَهُمْ ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ . وَالْغَرَضُ : أَنَّ السَّحَرَةَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ : تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا
الرَّجُلُ وَأَخَاهُ - يَعْنُونَ مُوسَى وَهَارُونَ - سَاحِرَانِ عَالِمَانِ خَيْرَانِ بِصِنَاعَةِ السَّحْرِ ، يُرِيدَانِ فِي
هَذَا الْيَوْمِ أَنْ يَغْلِبَاكُمْ وَقَوْمَكُمْ ، وَيَسْتَوْلِيَا عَلَى النَّاسِ وَتَتَّبِعُهُمَا الْعَامَّةُ ، وَيُقَاتِلَا فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ

فَيَنْصُرَا عَلَيْهِ وَيُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ، ﴿١٠﴾ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿١١﴾ أَيُّ : وَيَسْتَبْدَا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَهِيَ السَّحَرُ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُعْظَمِينَ بِسَبَبِهَا هُمْ أَمْوَالٌ وَأَرْزَاقٌ عَلَيْهَا ، يَقُولُونَ : إِذَا غَلَبَ هَذَانِ أَهْلَكَاكُمْ وَأَخْرَجَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَتَفَرَّدَا بِذَلِكَ ، وَتَمَحَّضَتْ لهُمَا الرِّيَاسَةُ بِهَا دُونَكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿١٢﴾ فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا ﴿١٣﴾ أَيُّ : اجْتَمِعُوا كُلَّكُمْ صَفًّا وَاحِدًا ، وَالْقُوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً ، لِيُبْهَرُوا الْأَبْصَارَ وَتَغْلِبُوا هَذَا وَأَخَاهُ ، ﴿١٤﴾ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى ﴿١٥﴾ أَيُّ : مَنَّا وَمِنْهُ ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا الْمَلِكُ الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ ، وَأَمَّا هُوَ فَيُنَالُ الرِّيَاسَةَ الْعَظِيمَةَ .

قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿١٦﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيهِمْ تُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى ﴿١٧﴾ فَأَوَّجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿١٨﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿١٩﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٢٠﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْدًا قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ السَّحَرَةِ حِينَ تَوَافَقُوا هُمْ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى ﴿٢٢﴾ إِمَّا أَنْ تُلْقَى أَيُّ : أَنْتَ أَوَّلًا ﴿٢٣﴾ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٢٤﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴿٢٥﴾ أَيُّ : أَنْتُمْ أَوَّلًا لِنَرَى مَاذَا تَصْنَعُونَ مِنَ السَّحَرِ ، وَلِيُظْهَرَ لِلنَّاسِ جَلِيلَةُ أَمْرِهِمْ ﴿٢٦﴾ فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيهِمْ تُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى ﴿٢٧﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَوْدَعُوهَا مِنَ الرُّبُوبِ مَا كَانَتْ تَتَحَرَّكُ بِسَبَبِهِ وَتَضْطَرِبُ وَتَمِيدُ ، بِحَيْثُ يُحِيلُ لِلنَّاظِرِ أَنَّهُ تَسْعَى بِاخْتِيَارِهَا ، وَإِنَّمَا كَانَتْ حِيلَةً وَكَانُوا جَمًّا غَفِيرًا وَجَمْعًا كَثِيرًا ، فَأَلْقَى كُلُّ مِنْهُمْ عَصَاً وَحَبْلًا حَتَّى صَارَ الْوَادِي مَلَانٍ حَيَاتٍ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿٢٨﴾ فَأَوَّجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٢٩﴾ أَيُّ : خَافَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُفْتَنُوا بِسِحْرِهِمْ وَيَعْتَرُوا بِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَمِينِهِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ أَنْ ﴿٣٠﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴿٣١﴾ يَعْنِي : عَصَاكَ ﴿٣٢﴾ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴿٣٣﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهَا صَارَتْ تَيْنًا عَظِيمًا هَاتِلًا ذَا عُيُونٍ وَقَوَائِمٍ وَعُنُقٍ وَرَأْسٍ وَأَضْرَاسٍ فَجَعَلَتْ تَتَّبِعُ تِلْكَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ حَتَّى لَمْ تَبْقَ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا تَلَقَّفَتَهُ ، وَالسَّحَرَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَى ذَلِكَ عِيَانًا جَهْرَةً نَهَارًا ضَحْوَةً ، فَقَامَتِ الْمُعْجَزَةُ وَاتَّضَحَ الْبُرْهَانُ ، وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٣٤﴾ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٣٥﴾ . فَلَمَّا عَايَنَ السَّحَرَةُ ذَلِكَ وَشَاهَدُوهُ ، وَهُمْ خِبَرَةٌ بِفُنُونِ السَّحَرِ وَطُرُقِهِ وَوُجُوهِهِ ، عَلِمُوا عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ مُوسَى لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ السَّحَرِ وَالْحِيلِ ، وَأَنَّهُ حَقٌّ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا إِلَّا الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَقَعُوا

سَجَدًا لِلَّهِ وَقَالُوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [رَّبِّ مُوسَى وَهَارُونَ] [الأعراف : ١٢١-١٢٢] ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : كَانُوا أَوَّلَ النَّهَارِ سَحَرَةً وَفِي آخِرِ النَّهَارِ شُهَدَاءَ بَرَّةٍ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : كَانَتِ السَّحَرَةُ سَبْعِينَ رَجُلًا ، أَصْبَحُوا سَحَرَةً ، وَأَمْسُوا شُهَدَاءَ .

قَالَ ءَامَنْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٦٦﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦٧﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَعِنَادِهِ وَبَغْيِهِ وَمُكَابَرَتِهِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ حِينَ رَأَى مَا رَأَى مِنَ الْمُعْجَزَةِ الْبَاهِرَةِ وَالآيَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَرَأَى الَّذِينَ قَدْ اسْتَنْصَرُوا بِهِمْ قَدْ آمَنُوا بِحُضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، وَغَلِبَ كُلُّ الْعَلَبِ ، شَرَعَ فِي الْمُكَابَرَةِ وَالْبُهْتِ ، وَعَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِ وَسُلْطَانِهِ فِي السَّحَرَةِ ، فَتَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ وَقَالَ : ﴿ ءَامَنْتُ لَهُ ﴾ أَيُّ : صَدَقْتُمُوهُ . ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِذَلِكَ وَافْتَتَيْتُمْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ ، وَقَالَ قَوْلًا يَعْلَمُ هُوَ وَالسَّحَرَةُ وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ أَنَّهُ بَهْتٌ وَكَذِبٌ ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ أَيُّ : أَنْتُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُ السِّحْرَ عَنْ مُوسَى ، وَانْفَقْتُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُ عَلَيَّ وَعَلَى رِعْيَتِي لِتُظْهِرُوهُ ، ثُمَّ أَخَذَ يُهَدِّدُهُمْ فَقَالَ : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أَيُّ : لَأَجْعَلَنَّكُمْ مِثْلَهُ ، وَلَأَقْتُلَنَّكُمْ وَلَأَشْهَرَنَّكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ أَيُّ : أَنْتُمْ تَقُولُونَ : إِنِّي وَقَوْمِي عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ مَعَ مُوسَى وَقَوْمِهِ عَلَى الْهُدَى ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَكُونُ لَهُ الْعَذَابُ وَيَبْقَى فِيهِ ، فَلَمَّا صَالَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَتَوَعَّدَهُمْ ، هَانَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ أَيُّ : لَنْ نَخْتَارَكَ عَلَىٰ مَا حَصَلَ لَنَا مِنَ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَسَمًا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى الْبَيِّنَاتِ ، يَعْنُونَ لَا نَخْتَارُكَ عَلَى فَاطِرِنَا وَخَالِقِنَا الَّذِي أَنْشَأَنَا مِنَ الْعَدَمِ الْمُبْتَدِي خَلْقَنَا مِنَ الطِّينِ ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ لَا أَنْتَ ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ أَيُّ : فافْعَلْ مَا شِئْتَ وَمَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ يَدُكَ ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا لَكَ تَسَلُّطٌ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، وَهِيَ دَارُ الزَّوَالِ ، وَنَحْنُ قَدْ رَغَبْنَا فِي دَارِ الْقَرَارِ . ﴿ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا ﴾ أَيُّ : مَا كَانَ مِنَّا مِنَ الْأَثَامِ خُصُوصًا ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ لِتُعَارِضَ بِهِ آيَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَمُعْجَزَةُ نَبِيِّهِ . ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أَيُّ : خَيْرٌ لَّنَا مِنْكَ ﴿ وَأَبْقَى ﴾ أَيُّ : أَدْوَمُ ثَوَابًا

بِمَا كُنْتَ وَعَدْتَنَا وَمَنْبِتَنَا، وَقِيلَ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ أَيْ: لَنَا مِنْكَ إِنْ أَطِيعَ﴾ وَأُنْبِئِي ﴿أَي: مِنْكَ عَذَابًا إِنْ عَصَيْ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - صَمَّمَ عَلَى ذَلِكَ وَفَعَلَهُ بِهِمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٦٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٦٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٦٦﴾

الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ مَا وَعَظَ بِهِ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ يُحَذِّرُونَهُ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ الدَّائِمِ السَّرمِدي، وَيُرْعِبُونَهُ فِي ثَوَابِهِ الْأَبَدِيِّ الْمُخَلَّدِ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا أَيْ: يَلْقَى اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ مُجْرِمٌ﴾ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أَيْ: وَمَنْ لَقِيَ رَبَّهُ يَوْمَ الْمَعَادِ مُؤْمِنٌ الْقَلْبِ قَدْ صَدَّقَ ضَمِيرُهُ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أَيْ: الْجَنَّةُ ذَاتُ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ، وَالْغُرُفِ الْآمِنَاتِ، وَالْمَسَاكِينِ الطَّيِّبَاتِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أَيْ: إِقَامَةٌ، وَهِيَ بَدَلٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿أَيْ: مَا كَثِيرِينَ أَبَدًا﴾ وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿أَيْ: طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الدَّنَسِ وَالْخُبْثِ وَالشُّرْكِ، وَعَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَاتَّبَعَ الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَطَلَبَ.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى ﴿٦٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٦٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ أَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَبَى فِرْعَوْنُ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَسْرِى بِهِمْ فِي اللَّيْلِ، وَيَذْهَبَ بِهِمْ مِنْ قَبْضَةِ فِرْعَوْنَ، وَقَدْ بَسَطَ اللَّهُ هَذَا الْمَقَامَ فِي غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَصْبَحُوا وَلَيْسَ مِنْهُمْ بِمُصْرَ لَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٍ، فَغَضِبَ فِرْعَوْنُ غَضَبًا شَدِيدًا، وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، أَيْ: مَنْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْجُنْدَ مِنْ بُلْدَانِهِ وَرَسَاتِيْقِهِ، يَقُولُ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ وَلَهُمْ لَنَا لَعَايُطُونَ ﴿[الشعراء: ٥٤-٥٥] ثُمَّ لَمَّا جَمَعَ جُنْدَهُ، وَاسْتَوَثَّقَ لَهُ جَيْشُهُ سَاقٍ فِي طَلَبِهِمْ﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿[الشعراء: ٦٠] أَيْ: عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴿[الشعراء: ٦١] أَيْ: نَظَرَ كُلُّ مَنِ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخَرِ﴾ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿[الشعراء: ٦١-٦٢]، وَوَقَفَ

مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ، الْبَحْرُ أَمَامَهُمْ وَفِرْعَوْنُ وَرَاءَهُمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿ فَأَضْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ فَضْرَبَ الْبَحْرَ بَعْصَاهُ ، وَقَالَ انْفَلِقْ عَلَيَّ يَا ذَنُ اللَّهِ ﴿ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء : ٦٣] أَيُّ : الْجَبَلِ الْعَظِيمِ ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ الرِّيحَ عَلَىٰ أَرْضِ الْبَحْرِ فَلَفَحَتْهُ حَتَّى صَارَ يَابَسًا كَوَجْهِ الْأَرْضِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَضْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا ﴾ أَيُّ : مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿ وَلَا تَخْشَى ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْبَحْرِ أَنْ يُغْرِقَ قَوْمَكَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ يَجُنُّدُهُ فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ﴾ أَيُّ : الْبَحْرِ ﴿ مَا عَشِيَهُمْ ﴾ أَيُّ : الَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَمَشْهُورٌ . وَكَأَيْزُكَ تَقْدَمُهُمْ فِرْعَوْنُ فَسَلَكَ يَمُّهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَصْلَهُمْ وَمَا هَدَاهُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ ، كَذَلِكَ ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ [هود : ٩٨]

يَبْنِي إِسْرَآئِيلَ قَدْ أَخْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴿ ٥٧ ﴾ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿ ٥٨ ﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿ ٥٩ ﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْعِظَامَ وَمِنَّةَ الْجِسَامِ ، حَيْثُ أَنْجَاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ وَأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ مِنْهُ ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى جُنْدِهِ قَدْ غَرِقُوا فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ . ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى وَاعَدَ مُوسَىٰ وَبَنِي إِسْرَآئِيلَ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ إِلَى جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ، وَهُوَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّ فِيهِ الرُّوْيَةَ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَةَ هُنَالِكَ ، وَفِي غُصُونِ ذَلِكَ عَبْدَ بَنُو إِسْرَآئِيلَ الْعِجْلَ ، كَمَا يَقْضُهُ اللَّهُ تَعَالَى قَرِيبًا ، وَأَمَّا الْمَنَّاءُ وَالسَّلْوَى ، فَاْلَمَنَّاءُ : حَلْوَى كَانَتْ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ، وَالسَّلْوَى : طَائِرٌ يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ فَيَأْخُذُونَ مِنْ كُلِّ قَدَرٍ الْحَاجَةَ إِلَى الْغَدِ ، لُطْفًا مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً بِهِمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أَيُّ : كُلُّوا مِنْ هَذَا الرِّزْقِ الَّذِي رَزَقْنَاكُمْ ، وَلَا تَطْغَوْا فِي رِزْقِي فَتَأْخُذُوهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ، وَتُخَالِفُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أَيُّ : أَغْضَبَ عَلَيْكُمْ ﴿ وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ قِيلَ : أَيُّ : فَقَدْ شَقِيَ . ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أَيُّ : كُلُّ مَنْ تَابَ إِلَى تَبُّتٍ عَلَيْهِ مِنْ أَى ذَنْبٍ كَانَ ، حَتَّى إِنَّهُ تَابَ - تَعَالَى - عَلَى مَنْ عَبْدَ الْعِجْلَ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَابَ ﴾ أَيُّ : رَجَعَ عَمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ شُرْكِ ، أَوْ مَعْصِيَةٍ أَوْ نِفَاقٍ ، ﴿ وَءَامَنَ ﴾ أَيُّ : بِقَلْبِهِ ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أَيُّ : بِجَوَارِحِهِ ، ﴿ ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ اسْتَقَامَ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَ « ثُمَّ » هَاهُنَا : لِتَرْتِيبِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ .

﴿٢٧﴾ وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٢٨﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٢٩﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٣٠﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَنْقُومِ أَلَمَ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٣١﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٣٢﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٣٣﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٣٤﴾

لَمَّا سَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ ﴿٢٧﴾ فَاتُوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٢٨﴾ ، وَوَعَدَهُ رَبُّهُ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ أَتَبَعَهَا عَشْرًا فَتَمَّتْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، أَيُّ : يَصُومُهَا لَيْلًا وَنَهَارًا ، فَسَارَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبَادِرًا إِلَى الطُّورِ ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَاهُ هَارُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٢٩﴾ وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٣٠﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَى أَثَرِي ﴿٣١﴾ وَوَعَدْتُ عَلَيْكَ رَبِّ لَتَرْضَى ﴿٣٢﴾ لَتَرَدَادَ عَنِّي رِضًا ﴿٣٣﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٣٤﴾ . أَخْبَرَ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُوسَى بِمَا كَانَ بَعْدَهُ مِنَ الْحَدَثِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَعِبَادَتِهِمُ الْعَجَلَ الَّذِي عَمِلَهُ لَهُمْ ذَلِكَ السَّامِرِيُّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿٢٧﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا ﴿٢٨﴾ أَيُّ : بَعْدَمَا أَخْبَرَهُ تَعَالَى بِذَلِكَ فِي غَايَةِ الْغَضَبِ وَالْحَقِّ عَلَيْهِمْ ، وَالْأَسْفُ : شِدَّةُ الْغَضَبِ ، وَقِيلَ : ﴿٢٩﴾ أَسْفًا ﴿٣٠﴾ حَزِينًا عَلَى مَا صَنَعَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٣١﴾ قَالَ يَنْقُومِ أَلَمَ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ﴿٣٢﴾ أَيُّ : أَمَا وَعَدْتُكُمْ عَلَى لِسَانِي كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَحُسْنِ الْعَاقِبَةِ ، كَمَا شَاهَدْتُمْ مِنْ نُصْرَتِهِ إِيَّاكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ وَإِظْهَارِكُمْ عَلَيْهِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَيْدِي اللَّهِ ﴿٣٣﴾ أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ ﴿٣٤﴾ أَيُّ : فِي إِنْتِظَارِ مَا وَعَدْتُكُمْ اللَّهُ وَنَسْيَانِ مَا سَلَفَ مِنْ نِعَمِهِ وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ ﴿٣٥﴾ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿٣٦﴾ أَمْ ﴿٣٧﴾ هَاهُنَا بِمَعْنَى : بَلْ ، وَهِيَ لِلْإِضْرَابِ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ وَعُدُولٍ إِلَى الثَّانِي ، كَأَنَّهُ يَقُولُ بَلْ أَرَدْتُمْ بِصَنِيعِكُمْ هَذَا أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿٣٨﴾ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٣٩﴾ قَالُوا ﴿٤٠﴾ أَيُّ : بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي جَوَابِ مَا أَنَبَهُمْ مُوسَى وَفَرَعَهُمْ ﴿٤١﴾ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا ﴿٤٢﴾ أَيُّ : عَنْ قُدْرَتِنَا وَاخْتِيَارِنَا . ثُمَّ شَرَعُوا يَعْتَذِرُونَ بِالْعُذْرِ الْبَارِدِ ، يُخْبِرُونَهُ عَنْ تَوَرُّعِهِمْ عَمَّا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ حُلِيِّ الْقَبْطِ الَّذِي كَانُوا قَدْ اسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ حِينَ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ ﴿٤٣﴾ فَقَذَفْنَاهَا ﴿٤٤﴾ أَيُّ : أَلْقَيْنَاهَا عَنَّا .

﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ٥٦ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ﴿فَقَالُوا﴾ أَيُّ : الضَّلَالِ مِنْهُمْ الَّذِينَ أَفْتَتُوا بِالْعِجْلِ وَعَبَدُوهُ ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أَيُّ : نَسِيَهُ هَاهُنَا وَذَهَبَ يَتَطَلَّبُهُ . قِيلَ : ﴿فَنَسِيَ﴾ أَيُّ : نَسِيَ أَنْ يُذَكِّرَكُمْ أَنَّ هَذَا إِلَهُكُمْ ، وَقِيلَ : ﴿فَنَسِيَ﴾ أَيُّ : تَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ ، يَعْنِي : السَّامِرِيُّ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيعًا لَهُمْ وَبَيَانًا لِفَضِيحَتِهِمْ وَسَخَافَةَ عَقُولِهِمْ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَيُّ : الْعِجْلُ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أَنَّهُ لَا يُجِيبُهُمْ إِذَا سَأَلُوهُ وَلَا إِذَا حَاطَبُوهُ ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَيُّ : فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا فِي آخِرَاهُمْ . وَحَاصِلُ مَا اعْتَدَرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ : أَنَّهُمْ تَوَرَّعُوا عَنْ زِينَةِ الْقَبْطِ فَأَلْقَوْهَا عَنْهُمْ وَعَبَدُوا الْعِجْلَ ، فَتَوَرَّعُوا عَنِ الْحَقِيرِ وَفَعَلُوا الْأَمْرَ الْكَبِيرَ .

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقُومُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ٥٧ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ٥٨ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ٥٩

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا كَانَ مِنْ نَهْيِ هَارُونَ لَهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ وَإِخْبَارِهِ إِيَّاهُمْ ، إِنَّمَا هَذَا فِتْنَةٌ لَكُمْ ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ الْفَعَّالِ لِمَا يُرِيدُ ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ أَيُّ : فِيمَا أَمُرْكُمْ بِهِ وَاتْرُكُوا مَا أَنَهَاكُمْ عَنْهُ ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ أَيُّ : لَا نَتْرُكُ عِبَادَتَهُ حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَ مُوسَى فِيهِ ، وَخَالَفُوا هَارُونَ فِي ذَلِكَ وَحَارَبُوهُ وَكَادُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ .

قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ٦٠ أَلَّا تَتَّبِعَ ٦١ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ٦٢ قَالَ يَبْنَومُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ٦٣ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ٦٤

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَرَأَى مَا قَدْ حَدَثَ فِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ ، فَاْمْتَلَأَ عِنْدَ ذَلِكَ غَضَبًا ، وَأَلْقَى مَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنَ الْأَلْوَابِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَحْرُءُ إِلَيْهِ ، وَشَرَعَ يَلُومُ أَخَاهُ هَارُونَ فَقَالَ : ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ٦٠ أَلَّا تَتَّبِعَ ٦١﴾ أَيُّ : فَتُخْبِرَنِي بِهَذَا الْأَمْرِ أَوَّلَ مَا وَقَعَ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أَيُّ : فِيمَا كُنْتَ قَدَّمْتَ إِلَيْكَ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف : ١٤٢] قَالَ : ﴿يَبْنَومُ﴾ تَرَفَّقَ لَهُ بِذِكْرِ الْأُمِّ مَعَ أَنَّهُ شَقِيقُهُ لِأَبَوَيْهِ ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ الْأُمِّ هَاهُنَا أَرْقُ وَأَبْلَغُ فِي الْحُنُوِّ وَالْعُطْفِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿قَالَ يَبْنَومُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ الْآيَةُ . هَذَا اعْتِدَارُ مِنْ هَارُونَ عِنْدَ مُوسَى فِي سَبَبِ تَأْخِيرِهِ عَنْهُ ، حَيْثُ

لَمْ يَلْحَقْهُ فَيُخْرِهُ بِنَا كَانَ مِنْ هَذَا الْخُطْبِ الْجَسِيمِ قَالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ أَنْ أَتْبَعَكَ فَأُخْرِجَكَ بِهَذَا ، فَتَقُولَ لِي لَمْ تَرْكَنْهُمْ وَخَدَّهْمُ وَفَرَّقْتَ بَيْنَهُمْ ﴿وَلَمْ تَرْفُقْ قَوْلِي﴾ أَيُّ : وَمَا رَاعَيْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ حَيْثُ اسْتَخْلَفْتُكَ فِيهِمْ .

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِي ﴿٦٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٦٦﴾ قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ۖ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٦٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٦٨﴾

يَقُولُ مُوسَى ﷺ لِلْسَامِرِيِّ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ، وَمَا الَّذِي عَرَضَ لَكَ حَتَّى فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أَيُّ : رَأَيْتُ جِبْرِيلَ حِينَ جَاءَ لِهَلَاكِ فِرْعَوْنَ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أَيُّ : مِنْ أَثَرِ فَرَسِهِ ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَوْ أَكْثَرِهِمْ ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أَيُّ : أَلْقَيْتُهَا مَعَ مَنْ أَلْقَى ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أَيُّ : حَسَنَتُهُ وَأَعْجَبَهَا إِذْ ذَاكَ ﴿قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أَيُّ : كَمَا أَخَذْتَ وَمَسِسْتَ مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ أَخْذُهُ وَمَسَّهُ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَعُقُوبَتُكَ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَقُولَ : ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أَيُّ : لَا تَمَاسَّ النَّاسَ وَلَا يَمَسُونَكَ ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أَيُّ : لَا مَحِيدَ لَكَ عَنْهُ . وَلَنْ تُغَيِّبَ عَنْهُ ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾ أَيُّ : مَعْبُودِكَ . ﴿الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أَيُّ : أَقَمْتَ عَلَى عِبَادَتِهِ ، يَعْنِي : الْعِجْلَ ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ . عَنْ عَلِيٍّ ؑ قَالَ : إِنَّ مُوسَى لَمَّا تَعَجَّلَ إِلَى رَبِّهِ ، عَمَدَ السَّامِرِيُّ فَجَمَعَ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْ حُلِيِّ نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، ثُمَّ صَوَّرَهُ عِجْلًا ، قَالَ : فَعَمَدَ مُوسَى إِلَى الْعِجْلِ فَوَضَعَ عَلَيْهِ الْمَبَارِدَ فَبَرَدَهُ بِهَا ، وَهُوَ عَلَى شَطِّ نَهْرٍ فَلَمْ يَشْرَبْ أَحَدٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ يَمْنُ كَانَ يَعْبُدُ الْعِجْلَ إِلَّا إِصْفَرَ وَجْهُهُ مِثْلَ الذَّهَبِ ، فَقَالُوا لِمُوسَى مَا تَوْبَتُنَا ؟ قَالَ : يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ كَيْسَ هَذَا إِلَهُكُمْ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَيُّ : لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ عَلَى الْعِبَادِ إِلَّا هُوَ ، وَلَا تَبْغِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ عَبْدٌ لَهُ ، ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ نُصِبَ عَلَى التَّمْيِيزِ ، أَيُّ : هُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق : ١٢]

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٦٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ

عَنْهُ فَإِنَّهُ تَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٦٠﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿٦١﴾
يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ كَمَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ خَبَرَ مُوسَى ، وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ عَلَى
الْجَلِيلَةِ وَالْأَمْرِ الْوَاقِعِ ، كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَخْبَارَ الْمَاضِيَةَ كَمَا وَقَعَتْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ ،
هَذَا ﴿٦٢﴾ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ﴿٦٣﴾ أَيُّ : مِنْ عِنْدِنَا ﴿ذِكْرًا﴾ وَهُوَ : الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي ﴿٦٤﴾ مَنْ أَعْرَضَ
عَنْهُ ﴿٦٥﴾ أَيُّ : كَذَّبَ بِهِ وَأَعْرَضَ عَنِ اتِّبَاعِهِ أَمْرًا وَطَلَبًا ، وَابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّهُ
وَيَهْدِيهِ إِلَى سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿٦٦﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ تَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٦٧﴾ أَيُّ : إِثْمًا ،
وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ أَهْلَ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ ، فَكُلُّ مَنْ بَلَغَهُ
الْقُرْآنُ فَهُوَ نَذِيرٌ لَهُ وَدَاعٍ ، فَمَنْ اتَّبَعَهُ هُدًى ، وَمَنْ خَالَفَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ضَلَّ وَشَقِيَ فِي الدُّنْيَا ،
وَالنَّارُ مَوْعِدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿٦٨﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ تَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٦٩﴾ خَلِيدِينَ
فِيهِ ﴿٧٠﴾ أَيُّ : لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ وَلَا انْفِكَالَ ﴿٧١﴾ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿٧٢﴾ أَيُّ : بِئْسَ الْحِمْلُ حَمْلُهُمْ .

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٧٣﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ
إِلَّا عَشْرًا ﴿٧٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿٧٥﴾

ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الصُّورِ فَقَالَ : « قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ » وَجَاءَ فِي
الْحَدِيثِ « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ اتَّقَمَ الْقَرْنُ ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ ، وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ ؟ »
فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نَقُولُ ؟ قَالَ : « قُولُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » .
وَقَوْلُهُ : ﴿٧٦﴾ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٧٧﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : زُرْقُ الْعَيُونِ مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ
الْأَهْوَالِ . ﴿٧٨﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴿٧٩﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَتَسَاوَرُونَ بَيْنَهُمْ . أَيُّ : يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
﴿٨٠﴾ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٨١﴾ أَيُّ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، لَقَدْ كَانَ لُبُكُمُ فِيهَا قَلِيلًا ، عَشْرَةَ أَيَّامٍ أَوْ نَحْوَهَا ؛
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿٨٢﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٨٣﴾ أَيُّ : فِي حَالِ تَنَاجِيهِمْ بَيْنَهُمْ ﴿٨٤﴾ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴿٨٥﴾
أَيُّ : الْعَاقِلُ الْكَامِلُ فِيهِمْ ﴿٨٦﴾ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿٨٧﴾ أَيُّ : لِقَصرِ مُدَّةِ الدُّنْيَا فِي أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ الْمَعَادِ ؛
لَأَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَإِنْ تَكَرَّرَتْ أَوْقَاتُهَا وَتَعَاقَبَتْ لَيَالِيهَا وَأَيَّامُهَا وَسَاعَاتُهَا كَأَنَّهَا يَوْمٌ وَاحِدٌ ، وَهَذَا
يَسْتَقْصِرُ الْكَافِرُونَ مُدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَكَانَ غَرَضُهُمْ فِي ذَلِكَ دَرْءَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ
لِقَصرِ الْمُدَّةِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴿٨٩﴾ .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿٩٠﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿٩١﴾ لَا
تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿٩٢﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ

لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ أَيُّ : هَلْ تَبْقَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ تَزُولُ ؟ ﴿ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ أَيُّ : يُذْهِبُهَا عَنْ أَمَاكِنِهَا وَيَمْحَقُهَا وَيُسِيرُهَا تَسِيرًا ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أَيُّ : الْأَرْضَ ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أَيُّ : بِسَاطًا وَاحِدًا . وَالْقَاعُ : هُوَ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ ، وَالصَّفْصَفُ : تَأْكِيدُ لِعَنَى ذَلِكَ ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ أَيُّ : لَا تَرَى فِي الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ وَادِيًا وَلَا رَابِيَةً ، وَلَا مَكَانًا مُنْخَفِضًا وَلَا مُرْتَفِعًا ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ يَرُونَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ وَالْأَهْوَالَ يَسْتَجِيبُونَ مُسَارِعِينَ إِلَى الدَّاعِي حَيْثُمَا أَمَرُوا بِأَدْرَاوْا إِلَيْهِ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ أَنْفَعُ هُمْ ، وَلَكِنْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ أَيُّ : لَا يَمِيلُونَ عَنْهُ ، وَقِيلَ : لَا عِوَجَ عَنْهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ قِيلَ : سَكَتَتْ ، وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ يَعْنِي : وَطءَ الْأَفْدَامِ ، وَقِيلَ : الصَّوْتُ الْخَفِيُّ .

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿ ١٩ ﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿ ٢٠ ﴾ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿ ٢١ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿ ٢٢ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ﴿ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ ﴾ أَيُّ : عِنْدَهُ ، ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ، [البقرة : ٢٥٥] وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أَيُّ : يُحِيطُ عِلْمًا بِالْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ، كَقَوْلِهِ ، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ خَضَعَتْ وَذَلَّتْ وَاسْتَسَلَمَتِ الْخَلَائِقُ بِبَارِئِهَا الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴿ الْقَيُّومِ ﴾ الَّذِي لَا يَنَامُ ، وَهُوَ قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يُدَبِّرُهُ وَيَحْفَظُهُ ، فَهُوَ الْكَامِلُ فِي نَفْسِهِ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهِ . ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّي كُلَّ حَقٍّ إِلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَقْتَضِ لِلشَّاةِ الْجَنَّةِ مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءِ . ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الظَّالِمِينَ وَوَعِيدَهُمْ شَيْءٌ بِالنَّارِ وَحُكْمَهُمْ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَلَا يُهْضَمُونَ ، أَيُّ : لَا يَزَادُ فِي سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا

﴿٣٦﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَاقِعًا لَا مُحَالَهَ ، أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ فَصِيحٌ لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا عَيٍّْ ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أَيُّ : يَتَرَكُونَ الْمَآثِمَ وَالْمَحَارِمَ وَالْفَوَاحِشَ ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ وَهُوَ إِيجَادُ الطَّاعَةِ وَفِعْلُ الْقُرْبَاتِ ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أَيُّ : تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ الْمَلِكُ الْحَقُّ الَّذِي هُوَ حَقٌّ ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ ، وَوَعِيدُهُ حَقٌّ ، وَرُسُلُهُ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ حَقٌّ ، وَعَدْلُهُ تَعَالَى أَنْ لَا يُعَذِّبَ أَحَدًا قَبْلَ الْإِنْذَارِ وَبَعَثَهُ الرُّسُلَ ، وَالْإِعْذَارِ إِلَى خَلْقِهِ لِئَلَّا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ وَلَا شُبْهَةٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [١٦-١٩] ، ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ أَيُّ : بَلْ أَنْصِتْ فَإِذَا فَرَّغَ الْمَلِكُ مِنْ قِرَاءَتِهِ عَلَيْكَ فَافْرَأْهُ بَعْدَهُ ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ أَيُّ : زِدْنِي مِنْكَ عِلْمًا .

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿٣٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ أَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿٣٩﴾ فَقُلْنَا يَتَّعَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿٤٠﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿٤١﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿٤٢﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿٤٣﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿٤٤﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿٤٥﴾

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : إِنَّمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ ؛ لِأَنَّهُ عَهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ ، وَقِيلَ : تَرَكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ أَسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى تَشْرِيفَ آدَمَ وَتَكْرِيمَهُ ، وَمَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَفِي الْأَعْرَافِ فِي الْحَجَرِ وَالْكَهْفِ ، وَسَيَأْتِي فِي آخِرِ سُورَةِ ﴿ ص ﴾ ؛ يَذْكُرُ تَعَالَى فِيهَا خَلْقَ آدَمَ ، وَأَمْرَهُ بِالْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لَهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا ، وَبَيِّنُ عِدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِبَنِي آدَمَ وَلَا يَبِيْهِمْ قَدِيمًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ أَيُّ : اِمْتَنَعَ وَاسْتَكْبَرَ . ﴿ فَقُلْنَا يَتَّعَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ يَعْنِي : حَوَاءَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ أَيُّ : إِيَّاكَ أَنْ يَسْعَى فِي

إِخْرَاجِكَ مِنْهَا فَتَتَعَبَ وَتَعْنَى ، وَتَشْقَى فِي طَلَبِ رِزْقِكَ ، فَإِنَّكَ هَاهُنَا فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ هَنِيءٍ بِلاَ كُفْلَةٍ وَلَا مَشَقَّةٍ . ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ إِنَّمَا قَرَنَ بَيْنَ الْجُوعِ وَالْعُرْيِ ؛ لِأَنَّ الْجُوعَ ذُلُّ الْبَاطِنِ وَالْعُرْيَ ذُلُّ الظَّاهِرِ . ﴿ وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ وَهَذَا أَيْضًا مُتَقَابِلَانِ فَالظَّمَأُ : حَرُّ الْبَاطِنِ وَهُوَ الْعَطَشُ ، وَالضَّحَى : حَرُّ الظَّاهِرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُكُمْ هَلْ أَتُوكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ دَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٢١] وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَهْدَ إِلَى آدَمَ وَرُوحِهِ أَنْ يَأْكُلَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرِ ، وَلَا يَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ الْمَعِينَةَ فِي الْجَنَّةِ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِمَا إِبْلِيسُ حَتَّى أَكَلَا مِنْهَا ، ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَ تُهُمَا ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ يُرْقِعَانِ كَهَيْئَةِ الثُّوبِ . وَقِيلَ : يَنْزِعَانِ وَرَقَ التِّينِ فَيَجْعَلَانِهِ عَلَى سَوَاتِمِهِمَا ، ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « حَاجَّ مُوسَى آدَمَ ، فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشَقَيْتَهُمْ ؟ قَالَ آدَمُ : يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ أَتْلُوْمُنِي عَلَى أَمْرِ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي » أَوْ « قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي » قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى » .

قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِآدَمَ وَحَوَّاءَ وَإِبْلِيسَ ﴿ أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ ، أَيُّ : مِنَ الْجَنَّةِ كُلُّكُمْ وَقَدْ بَسَطْنَا ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ قَالَ : آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ ، وَإِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ . ﴿ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَالْبَيَّانُ ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ قِيلَ الْمَعْنَى : لَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ أَيُّ : خَالَفَ أَمْرِي وَمَا أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَسُولِي ، أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هُدَاهُ ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ أَيُّ : ضَنْكَ فِي الدُّنْيَا فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ وَلَا انْشِرَاحَ لِبَصْدَرِهِ ، بَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقٌ حَرَجٌ لِضَلَالِهِ ، وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرُهُ وَلَبَسَ مَا شَاءَ وَأَكَلَ مَا شَاءَ ، وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ ، فَإِنَّ قَلْبَهُ مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْهُدَى فَهُوَ فِي قَلْقٍ وَحِيرَةٍ وَشَكٍّ ، فَلَا يَزَالُ فِي رِيَّةٍ يَتَرَدَّدُ فَهَذَا مِنْ ضَنْكَ الْمَعِيشَةِ . ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ قِيلَ فِي ذَلِكَ أَقْوَالٌ مِنْهَا : الشَّقَاءُ ، وَمِنْهَا : هُوَ الْعَمَلُ السَّيِّئُ وَالرَّزْقُ

الْحَيِّثُ ، وَمِنْهَا : يُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ فِيهِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا » قَالَ : « عَذَابُ الْقَبْرِ » .

وَقَوْلُهُ : « وَتَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى » قِيلَ : لَا حُجَّةَ لَهُ ، وَقِيلَ : عُمِّي عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا جَهَنَّمَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : أَنَّهُ يُبْعَثُ أَوْ يُحْشَرُ إِلَى النَّارِ أَعْمَى الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ أَيْضًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : « وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ » [الإسراء : ٩٧] . وَهَذَا يَقُولُ : « رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا » أَيُ : فِي الدُّنْيَا « قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا » وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى « أَيُ : لَمَّا أُعْرِضَتْ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَعَامَلَتْهَا مُعَامَلَةً مَنْ لَمْ يَذْكُرْهَا بَعْدَ بَلَاغِهَا إِلَيْكَ تَنَاسَيْتَهَا ، وَأُعْرِضَتْ عَنْهَا وَآغْفَلَتْهَا ، كَذَلِكَ الْيَوْمَ نُعَامِلُكَ مُعَامَلَةً مَنْ يَنْسَاكَ ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَأَمَّا نِسْيَانُ لَفْظِ الْقُرْآنِ مَعَ فَهْمِ مَعْنَاهُ وَالْقِيَامِ بِمُقْتَضَاهُ فَلَيْسَ دَاخِلًا فِي هَذَا الْوَعِيدِ الْخَاصِّ .

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِعَايَتِ رَبِّهِ ^{١٧٧} وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ^(١٧٧) يَقُولُ تَعَالَى : وَهَكَذَا نُجَازِي الْمُسْرِفِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : « هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ » [الرعد : ٣٤] ، وَهَذَا قَالَ : « وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى » أَيُ : أَشَدُّ أَلَمًا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَأَدْوَمُ عَلَيْهِمْ ، فَهُمْ مُحْتَلِدُونَ فِيهِ ، وَهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُتَلَاَعَيْنٍ : « إِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ » .

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ^(١٧٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ^(١٧٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ^(١٧٨)

يَقُولُ تَعَالَى : « أَفَلَمْ يَهْدِ » هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ - بِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ - كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ قَبْلَهُمْ ، فَبَادُوا ، فَلَيْسَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ وَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ كَمَا يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ مِنْ دِيَارِهِمُ الْحَالِيَةِ الَّتِي خَلَفُوهُمْ فِيهَا ، يَمْشُونَ فِيهَا « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » أَيُ : الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَلْبَابِ الْمُسْتَقِيمَةِ . « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى » أَيُ : لَوْلَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَالْأَجَلِ الْمُسَمًّى الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ إِلَى مُدَّةٍ مُّعَيَّنَةٍ ، لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ بَعْتَةً . وَهَذَا قَالَ

لِنَبِيِّهِ مُسَلِّيًا لَهُ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أَيُّ: مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لَكَ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يَعْنِي: صَلَاةَ الْفَجْرِ ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يَعْنِي: صَلَاةَ الْعَصْرِ. ﴿وَمِنْ أَوَّلَى الْإِيلِ فَسَبِّحْ﴾ أَيُّ: مِنْ سَاعَاتِهِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، وَحَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾ فِي مُقَابَلَةِ آتَاءِ اللَّيْلِ ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٦﴾ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۚ نَحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا تَنْظُرْ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ الْمُتَرَفِينَ وَأَشْبَاهِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، فَإِنَّهَا هُوَ: زَهْرَةُ زَائِلَةٌ وَنِعْمَةٌ حَائِلَةٌ، لِنَخْتَبِرَهُمْ بِذَلِكَ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّاكُورُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي: الْأَغْنِيَاءَ فَقَدْ آتَاكَ خَيْرًا مِمَّا آتَاهُمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَعْنِي: زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لِنَبْتَلِيَهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أَيُّ: اسْتَنْقِذَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَاصْبِرْ أَنْتَ عَلَىٰ فِعْلِهَا. ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۚ نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يَعْنِي: إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ آتَاكَ الرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أَيُّ: وَحُسْنُ الْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهِيَ الْجَنَّةُ لِمَنِ اتَّقَىٰ اللَّهَ.

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ ۖ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٩﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَبَضٍ فَفَرِّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا﴾ أَيُّ: هَلَا ﴿يَأْتِينَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ۚ﴾ أَيُّ: بِعَلَامَةٍ دَالَّةٍ عَلَىٰ صِدْقِهِ فِي أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ اللَّهُ، وَهُوَ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلَمْ يُدَارِسْ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ أَخْبَارُ الْأَوَّلِينَ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ بِمَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ الصَّحِيحَةُ مِنْهَا، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُهَيِّمٌ عَلَيْهَا يُصَدِّقُ الصَّحِيحَ وَيُبَيِّنُ خَطَأَ الْمَكْذُوبِ فِيهَا وَعَلَيْهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ ۖ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أَيُّ: لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَا هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ قَبْلَ أَنْ تُرْسَلَ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ وَنُنْزَلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْكِتَابَ

الْعَظِيمَ لَكَانُوا قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ قَبْلَ أَنْ تُهْلِكَنَا حَتَّى نُؤْمِنَ بِهِ وَنَتَّبِعَهُ كَمَا قَالَ : ﴿ فَتَنَجَّ عَائِيَتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْدَلَ وَنَخْرُجَ ﴾ يَبِينُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ مُتَعَتِّتُونَ مُعَانِدُونَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٧]
قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَنْ كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ ﴾ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ
أَي : مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ أَي : فَانْتَظِرُوا ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبَ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴾ أَي :
الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿ وَمَنْ أَهْتَدَى ﴾ إِلَى الْحَقِّ وَسَبِيلِ الرُّشْدِ .
آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ طه ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

آياتها ١١٢ تفسير سورة الأنبياء مكة

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَالْكَهْفَ وَمَرْيَمَ ، وَطَهَ ، وَالْأَنْبِيَاءَ هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ
مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ
هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ
فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمُ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ
شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا ءَامَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ
يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

هَذَا تَنْبِيْهُ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَلَى اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَدُثُوْهَا ، وَأَنَّ النَّاسَ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا ، أَي : لَا
يَعْمَلُونَ لَهَا وَلَا يَسْتَعِدُّونَ مِنْ أَجْلِهَا . عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ قَالَ :
« فِي الدُّنْيَا » ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى : أَنَّهُمْ لَا
يُصْغُونَ إِلَى الْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ - وَالْخِطَابَ مَعَ قُرَيْشٍ وَمَنْ شَابَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ -
فَقَالَ : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾ أَي : جَدِيدٍ أَنْزَلَهُ ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ،
كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا لَكُمْ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَمَّا بَأْيَدِهِمْ ، وَقَدْ حَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ وَزَادُوا فِيهِ

وَنَقُصُّوا مِنْهُ وَكِتَابُكُمْ أَحَدُ الْكُتُبِ بِاللَّهِ تَقْرَأُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبَّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أَي : قَائِلِينَ فِيهَا بَيْنَهُمْ خُفِيَّةً ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ يَعْنُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَسْتَبْعِدُونَ كَوْنَهُ نَبِيًّا ؛ لِأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ فَكَيْفَ اخْتَصَّ بِالْوَحْيِ دُونَهُمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أَي : أَفَتَسْبِعُونَهُ فَتَكُونُونَ كَمَنْ يَأْتِي السِّحْرَ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سِحْرٌ ، فَقَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ عَمَّا افْتَرَوْهُ وَاخْتَلَقُوهُ مِنَ الْكَذِبِ .

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَي : الَّذِي يَعْلَمُ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُشْتَمِلَ عَلَى خَيْرِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ إِلَّا الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أَي : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِكُمْ ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِكُمْ ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ . ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ افْتَرَاهُ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ تَعَنَّتِ الْكُفَّارِ وَالْحَادِثِينَ وَاخْتِلَافِهِمْ فِيمَا يَصِفُونَ بِهِ الْقُرْآنَ وَحِيرَتِهِمْ فِيهِ وَضَلَالَتِهِمْ عَنْهُ ، فَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ سِحْرًا ، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ شِعْرًا ، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ أَضْغَاتِ أَحْلَامٍ ، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ مُفْتَرًى . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ يَعْنُونَ : كَنَاقَةِ صَالِحٍ وَآيَاتِ مُوسَى وَعِيسَى ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَي : مَا آتَيْنَا قَرْنًا مِنَ الْقُرَى الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمُ الرُّسُلُ آيَةً عَلَى يَدَيِ نَبِيِّهَا فَاْمَنُوا بِهَا ، بَلْ كَذَّبُوا فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذَلِكَ ، أَفَهُؤُلَاءِ يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ لَوْ رَأَوْهَا دُونَ أَوْلَئِكَ ؟ كَلَّا .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٧﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى مَنْ أَنْكَرَ بَعَثَ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ﴾ أَي : جَمِيعَ الرُّسُلِ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا كَانُوا رِجَالًا مِنَ الْبَشَرِ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : اسْأَلُوا أَهْلَ الْعِلْمِ مِنَ الْأُمَمِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَسَائِرِ الطَّوَافِقِ هَلْ كَانَ الرُّسُلُ الَّذِينَ آتَوْهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَةً ؟ وَإِنَّمَا كَانُوا بَشَرًا ، وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ ، إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتِمَكَّنُونَ مِنْ تَنَاوُلِ الْبَلَاغِ مِنْهُمْ وَالْأَخْذِ عَنْهُمْ . ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ أَي : بَلْ قَدْ كَانُوا أَجْسَادًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ . قَدْ كَانُوا بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ مِثْلَ النَّاسِ ، وَيَدْخُلُونَ الْأَسْوَاقَ لِلتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَةِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارًّا لَهُمْ وَلَا نَاقِصٍ مِنْهُمْ شَيْئًا .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا، بَلْ كَانُوا يَعِيشُونَ ثُمَّ يَمُوتُونَ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾، وَخَاصَّتْهُمْ أَنَّهُمْ يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ فَكَانَتْ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ عَنِ اللَّهِ بِمَا يَحْكُمُهُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ. ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أَي: الَّذِي وَعَدَهُمْ رَبُّهُمْ لِيَهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ صَدَقَهُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ فَفَعَلَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَخْبَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾ أَي: أَتْبَاعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أَي: الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٧١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَآ إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٧٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٧٣﴾ قَالُوا يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٧٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ ﴿١٧٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْبَهَا عَلَى شَرِّ الْقُرْآنِ وَمُحَرِّضًا لَهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ قَدْرِهِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قِيلَ: شَرَفُكُمْ، وَقِيلَ: حَدِيثُكُمْ، وَقِيلَ: دِينُكُمْ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: هَذِهِ النِّعْمَةُ، وَتَتَلَقَّوْنَهَا بِالْقَبُولِ. ﴿وَكََمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ هَذِهِ صِبْغَةُ تَكْثِيرٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَكََمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أَي: أُمَّةً أُخْرَى بَعْدَهُمْ. ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَآ﴾ أَي: تَيَقَّنُوا أَنَّ الْعَذَابَ وَقَعَ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ كَمَا وَعَدَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴿إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أَي: يَفْرُونَ هَارِبِينَ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ﴾ هَذَا تَهْكُومٌ بِهِمْ قَدْرًا، أَي: قِيلَ لَهُمْ قَدْرًا لَا تَرْكُضُوا هَارِبِينَ مِنْ نُّزُولِ الْعَذَابِ، وَارْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالشُّرُورِ وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَسَاكِينِ الطَّيِّبَةِ. قَالَ قَتَادَةُ: اسْتَهْزَأَ بِهِمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ أَي: عَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ أَدَاءِ شُكْرِ النِّعَمِ. ﴿قَالُوا يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ﴾ أَي: مَا زَالَتْ تِلْكَ الْمَقَالَةُ - وَهِيَ الْإِعْتِرَافُ بِالظُّلْمِ - هَجِيرَاهُمْ حَتَّى حَصَدْنَاهُمْ حَصْدًا، وَحَمَدَتْ حَرَكَاتُهُمْ وَأَصْوَاتُهُمْ مُمُودًا.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٧٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَا نَتَّخِذَنَّهُ مِن لَّدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴿١٧٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٨٠﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿١٨١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، أَي : بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ ، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ ذَلِكَ عَبَثًا وَلَا لَعِبًا . وَعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًّا لَأَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ يَعْنِي : مِنْ عِنْدِنَا يَقُولُ : وَمَا خَلَقْنَا جَنَّةً وَلَا نَارًا ، وَلَا مَوْتًا وَلَا بَعْثًا وَلَا حِسَابًا . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًّا ﴾ اللَّهُو : الْمَرَأَةُ ، بِلِسَانِ أَهْلِ الْيَمَنِ ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ : ﴿ لَأَخَذْتَهُ ﴾ مِنَ الْخَوْرِ الْعَيْنِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِاللَّهُوِ هَهُنَا : الْوَلَدُ ، وَهَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ مُتَلَاوِمَانِ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الزمر : ٤] ، فَتَرَهُ نَفْسُهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ مُطْلَقًا ، وَلَا سَبَبًا عَمَّا يَقُولُونَ مِنَ الْإِفْكِ وَالْبَاطِلِ مِنَ اتِّخَاذِ عِيسَى أَوْ الْعَزِيرِ أَوْ الْمَلَائِكَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ كُنَّا فَعَالِينَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَي : مَا كُنَّا فَاعِلِينَ . ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ أَي : نُبَيِّنُ الْحَقَّ فَيَذْخُصُ الْبَاطِلَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أَي : ذَاهِبٌ مُضْمَحَلٌّ ﴿ وَلَكُمْ الْوَيْلُ ﴾ أَي : أَيُّهَا الْقَائِلُونَ : اللَّهُ وَلَدٌ ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أَي : تَقُولُونَ وَتَقْرَءُونَ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ عُبودِيَّةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ وَدَائِبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، فَقَالَ : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةُ ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ أَي : لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْهَا . ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أَي : لَا يَتَعَبُونَ وَلَا يَمَلُّونَ ﴿ يَسْتَحْسِرُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ فَهُمْ دَائِمُونَ فِي الْعَمَلِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، مُطِيعُونَ قَصْدًا وَعَمَلًا قَادِرُونَ عَلَيْهِ .

أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٣٢﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٣٣﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٣٤﴾

يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً فَقَالَ : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ أَي : أَهَمْ يُحْيِيُونَ الْمَوْتَى وَيُنْشِرُونَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَي : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ جَعَلُوا اللَّهَ نِدًّا وَعَبَدُوهَا مَعَهُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي الْوُجُودِ إِلَهَةٌ غَيْرُهُ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، فَقَالَ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ ﴾ أَي : فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَي : عَمَّا يَقُولُونَ إِنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ شَرِيكًا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّاهُ عَنِ الَّذِي يَفْتَرُونَ وَيَأْفِكُونَ عُلُوقًا كَبِيرًا - . ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ أَي : هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعْتَبَءَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يَغْتَرِضُ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَلُطْفِهِ ﴿ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ أَي : وَهُوَ سَائِلٌ خَلْقَهُ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْرٌ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلهَةً قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أَيُّ: دَلِيلِكُمْ عَلَى مَا تَقُولُونَ: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنُ ﴿وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي﴾ يَعْنِي: الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى خِلَافِ مَا تَقُولُونَهُ وَتَزْعُمُونَ، فَكُلُّ كِتَابٍ أُنْزِلَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ نَاطِقٌ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَكِنْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ لَا تَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَانْتُمْ مُعْرِضُونَ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ فَكُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْفِطْرَةُ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ أَيْضًا، وَالْمُشْرِكُونَ لَا بُرْهَانَ لَهُمْ وَحُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٦٨﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٧٠﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧١﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - وَلَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، كَمَنْ قَالَ ذَلِكَ مِنَ الْعَرَبِ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أَيُّ: الْمَلَائِكَةُ عِبَادُ اللَّهِ، مُكْرَمُونَ عِنْدَهُ فِي مَنَازِلَ عَالِيَةٍ وَمَقَامَاتٍ سَامِيَةٍ، وَهُمْ لَهُ فِي غَايَةِ الطَّاعَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: لَا يَتَقَدَّمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَمْرٍ، وَلَا يُجَالِفُونَهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، بَلْ يُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِهِ، وَهُوَ تَعَالَى عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِهِمْ، فَلَا يُخْفَى عَلَيْهِمْ مِنْهُ خَافِيَةٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أَيُّ: مِنْ خَوْفِهِ وَرَهْبَتِهِ، ﴿مُشْفِقُونَ﴾ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ * أَيُّ: مَنْ ادَّعَى مِنْهُمْ أَنَّهُ إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَيُّ: مَعَ اللَّهِ ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ: كُلُّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ وَهَذَا شَرْطٌ وَالشَّرْطُ لَا يُلْزَمُ وَقُوعُهُ.

أَوَّلَمَ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٧٣﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ

﴿٦٩﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْبَهَا عَلَى قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ ، وَقَهْرِهِ لَجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَي : الْجَاهِدُونَ لِإِلَهِيَّتِهِ الْعَابِدُونَ مَعَهُ غَيْرُهُ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ الْمُسْتَبِدُّ بِالتَّدْيِيرِ ، فَكَيْفَ يَلِيْقُ أَنْ يُعْبَدَ مَعَهُ غَيْرُهُ أَوْ يُشْرَكَ بِهِ مَا سِوَاهُ ؟! أَلَمْ يَرَوْا ﴿ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ أَي : كَانِ الْجَمِيعُ مُتَّصِلًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ مُتَلَاصِقًا ، مُتَرَكَمٌ فَوْقَ بَعْضٍ فِي إِبْتِدَاءِ الْأَمْرِ ، فَفَتَقَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ ، فَجَعَلَ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا وَالْأَرْضَ سَبْعًا ، وَفَصَلَ بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالْأَرْضِ بِالْهَوَاءِ ، فَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ وَأَنْبَتَتِ الْأَرْضُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَي : وَهُمْ يُشَاهِدُونَ الْمَخْلُوقَاتِ تَحْدُثُ شَيْئًا فَشَيْئًا عَيْنًا ، وَذَلِكَ كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ الْقَادِرِ عَلَى مَا يَشَاءُ . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ أَي : أَصْلُ كُلِّ الْأَحْيَاءِ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أَي : جِبَالًا أَرَسَى الْأَرْضَ بِهَا وَقَرَّرَهَا وَثَقَّلَهَا لِئَلَّا تَمِيدَ بِالنَّاسِ ، أَي : تَضْطَرِبَ وَتَتَحَرَّكَ ، فَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ قَرَارٌ عَلَيْهَا ؛ لِأَنَّهَا غَامِرَةٌ فِي الْمَاءِ إِلَّا مِقْدَارَ الرَّبْعِ ، فَإِنَّهُ بَادٍ لِلْهَوَاءِ وَالشَّمْسِ لِيُشَاهِدَ أَهْلُهَا السَّمَاءَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالْحِكَمِ وَالذَّلَالَاتِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أَي : لِئَلَّا تَمِيدَ بِهِمْ . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ أَي : ثَغْرًا فِي الْجِبَالِ ، يَسْلُكُونَ فِيهَا طُرُقًا مِنْ قَطْرِ إِلَى قَطْرِ ، وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ فِي الْأَرْضِ ، يَكُونُ الْجَبَلُ حَائِلًا بَيْنَ هَذِهِ الْبِلَادِ وَهَذِهِ الْبِلَادِ ، فَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ فُجُوءَ - ثَغْرَةَ - لِيَسْلُكَ النَّاسُ فِيهَا مِنْ هَهُنَا إِلَى هَهُنَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا مَحْفُوظًا ﴾ أَي : عَلَى الْأَرْضِ وَهِيَ كَالْقَبَّةِ عَلَيْهَا ، ﴿ مَحْفُوظًا ﴾ أَي : عَالِيًا حَرُوسًا أَنْ يُتَالَ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : مَرْفُوعًا . ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْإِتْسَاعِ الْعَظِيمِ وَالْإِرْتِفَاعِ الْبَاهِرِ ، وَمَا زُيِّنَتْ بِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ ، فِي لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ الَّتِي تَقْطَعُ الْفَلَكَ بِكَمَالِهِ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَتَسِيرُ غَايَةً لَا يَعْلَمُ قُدْرَهَا إِلَّا اللَّهُ ، الَّذِي قَدَّرَهَا وَسَحَّرَهَا وَسَيَّرَهَا . ثُمَّ قَالَ مُنْبَهَا عَلَى بَعْضِ آيَاتِهِ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أَي : هَذَا فِي ظِلَامِهِ وَسُكُونِهِ ، وَهَذَا بِضِيَائِهِ وَأُنْسِهِ ، يَطُولُ هَذَا تَارَةً ثُمَّ يَقْصُرُ أُخْرَى وَعَكْسُهُ الْأَخْرَى ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ هَذِهِ لَهَا نُورٌ يُخْصِّصُهَا وَفَلَكَ بِذَاتِهِ وَرَمَانٌ عَلَى حِدَةٍ وَحَرَكَةٌ وَسَيْرٌ خَاصٌّ ، وَهَذَا بِنُورٍ آخِرٍ وَفَلَكَ آخِرٍ وَسَيْرٍ آخِرٍ وَتَقْدِيرٍ آخِرٍ ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أَي : يَدُورُونَ .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٧٠﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ

الْمَوْتُ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أَي : يَا مُحَمَّدُ ﴿ الْخَلْدَ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا ﴿ أَفَلَا يَن مَّتَّ ﴾ أَي : يَا مُحَمَّدُ ﴿ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ أَي : يُؤْمَلُونَ أَن يَعِيشُوا بَعْدَكَ ، لَا يَكُونُ هَذَا ، بَلْ كُلُّ إِلَى الْفَنَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أَي : نَحْتَبِرُكُمْ بِالْمَصَائِبِ تَارَةً ، وَبِالنِّعَمِ أُخْرَى ، لِنَنْظُرَ مَنْ يَشْكُرُ وَمَنْ يَكْفُرُ ، وَمَنْ يَصْبِرُ وَمَنْ يَقْنَطُ ، ﴿ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ بِالشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ، وَالصَّحَّةِ وَالسَّقَمِ ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرَ ، وَالْحَلَالَ ، وَالْحَرَامَ ، وَالطَّاعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالَ ، ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أَي : فَتُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ .

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٦٧﴾ خُلِقَ الْإِنْسَنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ ءَايَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يَعْنِي : كُفَّارُ قُرَيْشٍ كَأَبِي جَهْلٍ وَأَشْبَاهِهِ ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ أَي : يَسْتَهْزِئُونَ بِكَ وَيَتَقَصُّونَكَ يَقُولُونَ ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ يَعْنُونَ أَهَذَا الَّذِي يَسُبُّ ءَالِهَتَكُمْ وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَكُمْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أَي : وَهُمْ كَافِرُونَ بِاللَّهِ ، وَمَعَ هَذَا يَسْتَهْزِئُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَقَوْلُهُ : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] أَي : فِي الْأُمُورِ . ﴿ سَأُورِيكُمْ ءَايَتِي ﴾ أَي : نَقَمِي وَحُكْمِي وَاقْدَارِي عَلَى مَنْ عَصَانِي ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٩﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٠﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٧١﴾ يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ أَيْضًا بِوُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ تَكْذِيبًا وَجُحُودًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِبْعَادًا فَقَالَ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ أَي : لَوْ تَيَقَّنُوا أَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِهِمْ لَا حَالَةَ لَمَا اسْتَعْجَلُوا بِهِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ حِينَ يَعْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أَي : لَا نَاصِرَ لَهُمْ كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ [الرعد : ٣٤]

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أَي: تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْتَةً، أَي: فَجَاءَةً ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أَي: تَذَعُرُهُمْ فَيَسْتَسْلِمُونَ لَهَا حَائِرِينَ لَا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أَي: لَيْسَ لَهُمْ حِيلَةٌ فِي ذَلِكَ ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أَي: وَلَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ ذَلِكَ سَاعَةً وَاحِدَةً.

وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٥﴾ أَمْرُهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ عَمَّا آذَاهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْإِسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يَعْنِي: مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي كَانُوا يَسْتَبْعِدُونَ وَقُوْعَهُ. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى نِعْمَتَهُ عَلَى عِبِيدِهِ فِي حِفْظِهِ لَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَكَوَلَاةِ وَحِرَاسَتِهِ لَهُم بِعَيْنِهِ الَّتِي لَا تَنَامُ، فَقَالَ: ﴿قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أَي: بِدَلِّ الرَّحْمَنِ، يَعْنِي: غَيْرُهُ. ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أَي: لَا يَعْتَرِفُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْ آيَاتِهِ وَالْآيَةِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْرُهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا﴾ اسْتَفْهَامُ انْكَارٍ وَتَقْرِيعٍ وَتَوْبِيخٍ، أَي: أَلَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ وَتَكْلُؤُهُمْ غَيْرُنَا؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَوَهَّمُوا وَلَا كَمَا قَدْ زَعَمُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي: هَذِهِ الْأَلِهَةُ الَّتِي اسْتَدْنُوا إِلَيْهَا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ. ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قِيلَ: أَي: يُجَارُونَ، وَقِيلَ: لَا يُصْحَبُونَ مِنَ اللَّهِ بِخَيْرٍ، وَقِيلَ: يُمْنَعُونَ.

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٩﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ: إِنَّمَا غَرَّهُمْ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ، أَنَّهُمْ مَتَّعُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَنَعَّمُوا وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِيمَا هُمْ فِيهِ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ثُمَّ قَالَ وَاعِظًا لَهُمْ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ:

وَقَدْ أَسْلَفْنَاهُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ وَأَحْسَنَ مَا فَسَّرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحاف : ٢٧] ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : يَعْنِي بِذَلِكَ ظُهُورُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْكُفْرِ ، وَالْمَعْنَى : أَفَلَا يَتَعَبَّرُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَإِهْلَاكِهِ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ وَالْقُرَى الظَّالِمَةَ وَإِنْجَائِهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ يَعْنِي : بَلْ هُمْ الْمَغْلُوبُونَ الْأَسْفَلُونَ الْأَخْسَرُونَ الْأَرْدَلُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلْإِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ أَي : إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ مَا أُنذَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا عَمَّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، وَلَكِنْ لَا يُجِدِي هَذَا عَمَّنْ أَعْمَى اللَّهُ بِصِيرَتِهِ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْدَرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أَي : وَلَئِنْ مَسَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ أَذَى شَيْءٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ لَيَعْتَرِفْنَ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا . وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أَي : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْعَدْلَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ، الْأَكْثَرُ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ مِيزَانٌ وَاحِدٌ ، وَإِنَّمَا جُمِعَ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الْأَعْمَالِ الْمَوْزُونَةِ فِيهِ . ﴿ فَلَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿١٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٢٠﴾

قَدْ تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ بَيْنَ ذِكْرِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا - وَبَيْنَ كِتَابَيْهِمَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ قِيلَ : التَّوْرَةُ ، وَقِيلَ : مَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَجَامِعُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ : أَنَّ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ ، وَالْعَيِّ وَالرَّشَادِ ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَعَلَى مَا يَحْصُلُ نُورًا فِي الْقُلُوبِ ، وَهِدَايَةً وَخَوْفًا وَإِنَابَةً وَخَشْيَةً ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أَي : تَذَكِيرًا لَهُمْ وَعِظَةً . ثُمَّ وَصَفَهُمْ فَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أَي : خَائِفُونَ وَجُلُونَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ أَي : أَفَتُنْكِرُونَهُ وَهُوَ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالظُّهْرِ ؟

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا

هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبِيدِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٨﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٩﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦٠﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ آتَاهُ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ، أَيْ : مِنْ صِغَرِهِ أَهْلَمَهُ الْحَقَّ وَالْحُجَّةَ عَلَى قَوْمِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أَيْ : وَكَانَ أَهْلًا لِدَلِّكَ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ هَذَا هُوَ الرُّشْدُ الَّذِي أُوتِيَهُ مِنْ صِغَرِهِ ، الْإِنْكَارُ عَلَى قَوْمِهِ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﷻ ، فَقَالَ : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أَيْ : مُعْتَكِفُونَ عَلَى عِبَادَتِهَا . ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبِيدِينَ ﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ سِوَى صَنِيعِ آبَائِهِمُ الضَّلَالُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أَيْ : الْكَلَامُ مَعَ آبَائِكُمْ الَّذِينَ اخْتَجَجْتُمْ بِصَنِيعِهِمْ كَالْكَلَامِ مَعَكُمْ ، فَأَنْتُمْ وَهُمْ فِي ضَلَالٍ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، فَلَمَّا سَفَّهَ أَخْلَامَهُمْ ، وَضَلَّلَ آبَاءَهُمْ ، وَاخْتَقَرَ آهَتَهُمْ ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ يَقُولُونَ هَذَا الْكَلَامَ الصَّادِرَ عَنْكَ تَقَوْلُهُ لَاعِبًا أَوْ مُحِقًّا فِيهِ ، فَإِنَّا لَمْ نَسْمَعْ بِهِ قَبْلَكَ . ﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ أَيْ : رَبُّكُمْ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَمَا حَوَتْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَهُنَّ ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أَيْ : وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٦١﴾ فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٤﴾ قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٦﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٧﴾

ثُمَّ أَقْسَمَ الْخَلِيلُ قَسَمًا أَسْمَعَهُ بَعْضُ قَوْمِهِ لِيَكِيدَنَّ أَصْنَامَهُمْ ، أَيْ : لِيُحَرِّضَنَّ عَلَى أَذَاهُمْ وَتَكْسِيرِهِمْ بَعْدَ أَنْ يُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ، أَيْ : إِلَى عَيْدِهِمْ ، وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يُخْرَجُونَ إِلَيْهِ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : لَمَّا خَرَجَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ إِلَى عَيْدِهِمْ مَرُّوا عَلَيْهِ ، فَقَالُوا : يَا إِبْرَاهِيمُ أَلَا تَخْرُجُ مَعَنَا ؟ قَالَ : إِنِّي سَقِيمٌ ، وَقَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ قَالَ : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ فَسَمِعَهُ نَاسٌ مِنْهُمْ . ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا ﴾ أَيْ : حُطَامًا ، كَسَرَهَا كُلَّهَا إِلَّا كَبِيرًا هُمْ ، يَعْنِي :

إِلَّا الصَّنَمَ الْكَبِيرَ عِنْدَهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْجَمِينِ ﴾ [الصافات : ٩٣] وَقَوْلُهُ : ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ذَكَرُوا أَنَّهُ وَضَعَ الْقُدُومَ فِي يَدِ كَبِيرِهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي غَارَ لِنَفْسِهِ ، وَأَيْفَ أَنْ تُعْبَدَ مَعَهُ هَذِهِ الْأَصْنَامُ الصَّغَارُ فَكَسَّرَهَا . ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا ﴾ أَي : حِينَ رَجَعُوا وَشَاهَدُوا مَا فَعَلَهُ الْخَلِيلُ بِأَصْنَامِهِمْ ، مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ الدَّالُّ عَلَى عَدَمِ إِلَهِيَّتِهَا ، وَعَلَى سَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا ، ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أَي : فِي صَنِيعِهِ هَذَا . ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أَي : قَالَ مَنْ سَمِعَهُ يَخْلِفُ إِنَّهُ لَيَكِيدُهُمْ : سَمِعْنَا فَتًى ، أَي : شَابًّا ﴿ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ ﴿ أَي : عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ فِي الْمَلَأِ الْأَكْبَرِ بِحَضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، وَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَكْبَرُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَنْ يُبَيِّنَ فِي هَذَا الْمَحْفَلِ الْعَظِيمِ كَثْرَةَ جَهْلِهِمْ وَقِلَّةَ عَقْلِهِمْ ، فِي عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهَا ضَرًّا ، وَلَا تَمْلِكُ لَهَا نَصْرًا ، فَكَيْفَ يُطَلَّبُ مِنْهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ ﴿ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴿ يَعْنِي : الَّذِي تَرَكَّهُ لَمْ يُكْسِرْهُ ﴾ فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿ وَإِنَّا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُبَادِرُوا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، فَيَعْتَزُّوا : أَنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ، وَأَنَّ هَذَا لَا يَصْدُرُ عَنْ هَذَا الصَّنَمِ لِأَنَّهُ جَمَادٌ .

فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ ١٠٠ ﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿ ١٠١ ﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿ ١٠٢ ﴾ أَفَلَا تَكْمُرُ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ ١٠٣ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَالَ لَهُمْ مَا قَالَ : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أَي : بِاللَّامَةِ فِي عَدَمِ اخْتِرَازِهِمْ وَجَرَاسَتِهِمْ لِإِلَهِيَّتِهِمْ فَقَالُوا : ﴿ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أَي : فِي تَرْكِكُمْ لَهَا مُهْمَلَةً لَا حَافِظَ عِنْدَهَا ﴿ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ أَي : ثُمَّ أَطْرَفُوا فِي الْأَرْضِ . قَالَ فَتَادَهُ : أَدْرَكَتِ الْقَوْمَ حَيْرَةٌ سَوْءٌ ، فَقَالُوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ ، وَلِهَذَا قَالُوا لَهُ : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ فَكَيْفَ تَقُولُ لَنَا سَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا تَنْطِقُ ، فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ أَي : إِذَا كَانَتْ لَا تَنْطِقُ وَهِيَ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ ، فَلِمَ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ ﴿ أَفَلَا تَكْمُرُ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَي : أَفَلَا تَتَدَبَّرُونَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْكَفْرِ الْعَلِيظِ ، الَّذِي لَا يَرُوجُ إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ ظَالِمٍ فَاجِرٍ ، فَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ وَالزَّمَهُمْ بِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ [الأنعام : ٨٣]

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٥٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٠﴾

لَمَّا دَحِضَتِ حُجَّتُهُمْ ، وَبَانَ عَجْزُهُمْ وَظَهَرَ الْحَقُّ ، وَانْدَفَعَ الْبَاطِلُ ، عَدَلُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِ مُلْكِهِمْ ، فَقَالُوا : ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا جَدًّا ، ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي جُوبَةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَأَصْرَمُوهَا نَارًا ، فَكَانَ لَهَا شَرَرٌ عَظِيمٌ ، وَلَهَبٌ مُّرْتَفِعٌ لَمْ تُوقَدْ نَارٌ قَطُّ مِثْلَهَا ، وَجَعَلُوا إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي كَيْفَةِ الْمُنْجِيَنِ . فَلَمَّا أَلْقَوْهُ قَالَ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .
﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ :
﴿ وَسَلَامًا ﴾ لَأَذَىٰ إِبْرَاهِيمَ بَرْدُهَا . ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ أَيُّ : الْمَغْلُوبِينَ
الْأَسْفَلِينَ ، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِنَبِيِّ اللَّهِ كَيْدًا فَكَادَهُمُ اللَّهُ وَنَجَّاهُ مِنَ النَّارِ ، فَعَلِبُوا هُنَالِكَ .

وَجَنَيْنَهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٦٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٦٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَنَيْنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٥﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ سَلَّمَهُ مِنْ نَارِ قَوْمِهِ ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ مُهَاجِرًا إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ ، إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ قِيلَ : عَطِيَّةٌ ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : سَأَلَ وَاحِدًا ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٠] فَأَعْطَاهُ اللَّهُ إِسْحَاقَ ، وَزَادَهُ يَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ أَيُّ : الْجَمِيعُ أَهْلُ خَيْرٍ وَصَلَاحٍ . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً ﴾ أَيُّ : يُقْتَدَىٰ بِهِمْ ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أَيُّ : يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ﴾ مِنْ بَابِ عَطَفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴾ أَيُّ : فَاعِلِينَ لَمَّا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِهِ ، ثُمَّ عَطَفَ بِذِكْرِ لُوطٍ وَهُوَ ابْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ كَانَ قَدْ آمَنَ بِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَاتَّبَعَهُ وَهَاجَرَ مَعَهُ ، فَاتَاهُ اللَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا ، وَبَعَثَهُ إِلَىٰ سُدُومَ وَأَعْمَالِهَا فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَصَّ خَبْرَهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَجَنَيْنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ ۖ إِنَّهُمْ

كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَيَسِيقَنَ ﴿٧٦﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٧﴾ .

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٨﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ اسْتِجَابَتِهِ لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ دَعَا عَلَىٰ قَوْمِهِ لَمَّا كَذَّبُوهُ ﴿٧٦﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿٧٧﴾ [القمر: ١٠] ، ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ . ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الشَّدَّةِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْأَذَى ، فَإِنَّهُ لَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ ، وَكَانُوا يَتَصَدَّدُونَ لِأَذَاهُ وَيَتَوَاصُونَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ عَلَى خِلَافِهِ . ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أَيُّ : وَنَجَّيْنَاهُ وَخَلَصْنَاهُ مُنْتَصِرًا مِنَ الْقَوْمِ ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ أَيُّ : أَهْلَكْنَاهُمْ اللَّهُ بِعَامَةٍ ، وَلَمْ يُبْقِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ .

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٨٠﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٨١﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨٣﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوِصُوتَ لَهُ وَيَعْمَلُوتَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٤﴾

قِيلَ : النَّفْسُ : الرَّعْيُ بِاللَّيْلِ ، وَالْهَمَلُ بِالنَّهَارِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَضَىٰ دَاوُدُ بِالْغَنَمِ لِأَصْحَابِ الْحَرْثِ ، فَخَرَجَ الرِّعَاءُ مَعَهُمُ الْكِلَابُ ، فَقَالَ لَهُمْ سُلَيْمَانُ : كَيْفَ قَضَىٰ بَيْنَكُمْ فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ : لَوْ وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ لَقَضَيْتُ بِغَيْرِ هَذَا ، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ دَاوُدُ فَدَعَاهُ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَقْضِي بَيْنَهُمْ ؟ قَالَ : أَدْفَعُ الْغَنَمَ إِلَىٰ صَاحِبِ الْحَرْثِ فَيَكُونُ لَهُ أَوْلَادُهَا وَالْبَائِئُهَا وَسِلَاقُهَا وَمَنَافِعُهَا وَيَنْذُرُ أَصْحَابَ الْغَنَمِ لِأَهْلِ الْحَرْثِ مِثْلَ حَرْثِهِمْ ، فَإِذَا بَلَغَ الْحَرْثُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَخَذَهُ أَصْحَابُ الْحَرْثِ وَرَدُّوا الْغَنَمَ إِلَىٰ أَصْحَابِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ فَأَتَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ وَلَمْ يَذُمَّ دَاوُدَ .

قُلْتُ : أَمَّا الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فَكُلُّهُمْ مَعْصُومُونَ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللَّهِ ﷻ وَهَذَا يَمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ . وَقَرِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَانِ لُهُمَا إِذْ جَاءَ الذَّنْبُ فَأَخَذَ أَحَدُ الْابْنَيْنِ ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكَبْرَى فَخَرَجَتَا ، فَدَعَاهُمَا سُلَيْمَانُ فَقَالَ : هَاتُوا السَّكِينَ أَشَقُّهُ بَيْنَكُمَا ، فَقَالَتِ الصُّغْرَى : يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا لَا تَشُقُّهُ ، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ الْآيَةُ ، وَذَلِكَ لِطَيْبِ صَوْتِهِ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الزُّبُورَ ، وَكَانَ إِذَا تَرَنَّمَ بِهِ تَغْفُفُ الطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ فَتُجَاوِبُهُ ، وَتَرُدُّ عَلَيْهِ الْجِبَالُ تَأْوِيًا .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يَعْنِي : صَنْعَةَ الدَّرُوعِ قَالَ قَتَادَةُ : إِنَّمَا كَانَتِ الدَّرُوعُ قَبْلَهُ صَفَائِحَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَرَدَهَا حِلَقًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يَعْنِي : فِي الْقِتَالِ ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أَيِ : نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ لِمَا أَلْهَمَ بِهِ عَبْدَهُ دَاوُدَ فَعَلَّمَهُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِكُمْ . ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أَيِ : وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ الْعَاصِفَةَ ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴾ يَعْنِي : أَرْضَ الشَّامِ ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ بِسَاطٌ مِنْ خَشَبٍ ، يُوَضَّعُ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الْمَمْلَكَةِ ، وَالْحَيْلِ وَالْجَمَالِ وَالْحَيَامِ وَالْجُنْدِ ، ثُمَّ يَأْمُرُ الرِّيحَ أَنْ تَحْمِلَهُ فَتَدْخُلَ تَحْتَهُ ثُمَّ تَحْمِلُهُ وَتَرْفَعُهُ وَتَسِيرَ بِهِ ، وَتُظِلَّهُ الطَّيْرُ تَقِيهِ الْحَرَّ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ مِنَ الْأَرْضِ ، فَيَنْزِلُ وَتُوضَعُ الْآلَةُ وَحَشْمُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أَيِ : فِي الْمَاءِ ، يَسْتَخْرِجُونَ اللَّالِيَّ وَالْجَوَاهِرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أَيِ : غَيْرَ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أَيِ : يَحْرُسُهُ اللَّهُ أَنْ يَنَالَهُ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ بِسُوءٍ ، بَلْ كُلِّ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتِ قَهْرِهِ ، لَا يَتَجَسَّسُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى الدُّنُوِّ إِلَيْهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ ، بَلْ هُوَ يَحْكُمُ فِيهِمْ إِنْ شَاءَ أَطْلَقَ وَإِنْ شَاءَ حَبَسَ مِنْهُمْ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ [ص : ٣٨]

❖ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٢١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَاهُ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٢﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنْ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ فِي مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَسَدِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ شَيْءٌ كَثِيرٌ ، وَأَوْلَادٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَنَازِلُ مُرْصِيَّةٌ ، فَأَبْتَلِي فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَذَهَبَ عَنْ آخِرِهِ ، ثُمَّ أُبْتَلِيَ فِي جَسَدِهِ ، يُقَالُ : بِالْجُذَامِ فِي سَائِرِ بَدَنِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ سَلِيمٌ سِوَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ يَذْكُرُ بِهِمَا اللَّهُ ﷻ ، حَتَّى عَافَاهُ الْجَلِيسُ وَأَفْرَدَ فِي نَاحِيَةِ مِنَ الْبَلَدِ ، وَلَمْ يَبْقَ

أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَخْنُو عَلَيْهِ سَوَى زَوْجَتِهِ ، كَانَتْ تَقُومُ بِأَمْرِهِ ، وَيُقَالُ : إِنَّمَا إِحْتَاَجْتُ فَصَارَتْ تَحْدُمُ النَّاسَ مِنْ أَجْلِهِ . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً ، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ ، كَانَا مِنْ أَحْصَى إِخْوَانِهِ لَهُ ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : تَعْلَمُ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبُهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرَحْمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفْ مَا بِهِ ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ أَيُّوبُ ﷺ : مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَارَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكْفِّرُ عَنْهُمَا ، كَرَاهِيَةً أَنْ يَذْكُرَا اللَّهَ إِلَّا فِي حَقٍّ ، قَالَ : وَكَانَ يَخْرُجُ فِي حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتْ أَمْرَاتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَلْتَمِعَ ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ أَنْ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » .

وَقَوْلُهُ : « وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ » قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : رُدُّوا عَلَيْهِ بِأَعْيَانِهِمْ . « رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا » أَيُّ : فَعَلْنَا بِهِ ذَلِكَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِهِ « وَذَكَرْنِي لِلْعَبِيدِينَ » أَيُّ : وَجَعَلْنَاهُ فِي ذَلِكَ قُدُوةً ؛ لِئَلَّا يَظُنَّ أَهْلُ الْبَلَاءِ أَنَّمَا فَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيْنَا ، وَلِيَتَأَسَّوْا بِهِ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَقْدُورَاتِ اللَّهِ وَابْتِلَائِهِ لِعِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ .

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَالْمُرَادُ بِهِ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ ، وَكَذَا إِدْرِيسُ ﷺ ، وَأَمَّا ذُو الْكِفْلِ فَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ مَا قَرِنَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَهُوَ نَبِيٌّ ، وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّمَا كَانَ رَجُلًا صَالِحًا ، وَكَانَ مَلِكًا عَادِلًا ، وَحَكَمًا مُقْسِطًا .

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَخَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُصَيِّحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

هَذِهِ الْقِصَّةُ مَذْكُورَةٌ هَهُنَا ، وَفِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ ، وَفِي سُورَةِ « ن » وَذَلِكَ أَنَّ يُونُسَ بْنَ مَتَّى ﷺ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ « نَيْنَوَى » وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَتَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لَهُمْ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ بَعْدَ

ثَلَاثٍ ، فَلَمَّا تَحَقَّقُوا مِنْهُ ذَلِكَ وَعَلِمُوا أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكْذِبُ ، خَرَجُوا إِلَى الصَّخَرَاءِ بِأَطْفَالِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْأُمْهَاتِ وَأَوْلَادِهَا ، ثُمَّ تَصَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ ﷻ ، وَجَارُوا إِلَيْهِ وَرَغِبَ الْإِبِلُ وَفُضِّلَتْهَا ، وَخَارَتِ الْبَقَرُ وَأَوْلَادُهَا ، وَتَعَتِ الْغَنَمُ وَسَخَّالَهَا ، فَرَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَتُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨] . وَأَمَّا يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ ذَهَبَ فَرَكَبَ مَعَ قَوْمٍ فِي سَفِينَةٍ ، فَلَجَّجَتْ بِهِمْ ، وَخَافُوا أَنْ يَعْرِقُوا فَافْتَرَعُوا عَلَى رَجُلٍ يُلقُونَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ يَتَخَفَّقُونَ مِنْهُ ، فَوَقَعَتِ الْفَرَعَةُ عَلَى يُونُسَ ، فَأَبَوْا أَنْ يُلقَوْهُ ، ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، فَأَبَوْا ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ [الصافات : ١٤١] أَيْ : وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْفَرَعَةُ فَقَامَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ ثُمَّ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ ، وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ - فِيمَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ - حُوتًا يَشُقُّ الْبَحَارَ ، حَتَّى جَاءَ فَالْتَقَمَ يُونُسَ حِينَ أَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ السَّفِينَةِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ الْحُوتِ أَنْ لَا تَأْكُلَ لَهُ لَحْمًا وَلَا تُشَسِّمَ لَهُ عَظْمًا ، فَإِنَّ يُونُسَ لَيْسَ لَكَ رِزْقًا ، وَإِنَّمَا بَطْنُكَ تَكُونُ لَهُ سِجْنًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ يَعْنِي : الْحُوتَ ، صَحَّتِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ بِهَذِهِ النِّسْبَةِ . ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا ﴾ لِقَوْمِهِ ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : نُضَيِّقَ عَلَيْهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : ظُلُمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ وَظُلُمَةُ الْبَحْرِ وَظُلُمَةُ اللَّيْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ ذَهَبَ بِهِ الْحُوتُ فِي الْبَحَارِ يَشُقُّهَا ، حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى قَرَارِ الْبَحْرِ ، فَسَمِعَ يُونُسَ تَسْبِيحَ الْحَصَى فِي قَرَارِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَهَنَالِكَ قَالَ : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « دَعْوَةُ ذِي النُّونِ ، إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ﴾ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ .»

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٢١٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَحْيَىٰ وَوَضَعْنَا لَهُ رُوحَهُ دُونَ رُوحِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٢١٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ زَكَرِيَّا حِينَ طَلَبَ أَنْ يَهَبَ اللَّهُ وَلَدًا يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْقِصَّةِ مَبْسُوطَةً فِي أَوَّلِ « سُورَةِ مَرْيَمَ » وَفِي « سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ » أَيْضًا ، وَهَهُنَا أَخْضَرْنَا مِنْهَا ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ أَيْ : خُفِيََّةً عَنْ قَوْمِهِ ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ أَيْ : لَا وَلَدَ لِي وَلَا وَارِثَ يَقُومُ بَعْدِي فِي

النَّاسِ ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ دُعَاءٌ وَثَنَاءٌ مُنَاسِبٌ لِلْمَسْأَلَةِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ أَيُّ : إِمْرَأَتُهُ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : كَانَتْ عَاقِرًا لَا تَلِدُ فَوَلَدَتْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أَيُّ : فِي عَمَلِ الْقُرْبَاتِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ رَغَبًا فِيمَا عِنْدَنَا وَرَهَبًا بِمَا عِنْدَنَا ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ قِيلَ : أَيُّ : مُصَدِّقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَقِيلَ : خَائِفِينَ ، وَقِيلَ : الْخُشُوعُ هُوَ الْخَوْفُ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ لَا يُفَارِقُهُ أَبَدًا .

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾

هَكَذَا يَذْكُرُ تَعَالَى قِصَّةَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَيَذْكُرُ أَوَّلًا قِصَّةَ زَكَرِيَّا ، ثُمَّ يُتْبِعُهَا بِقِصَّةِ مَرْيَمَ ؛ لِأَنَّ تِلْكَ مَرْبُوطَةٌ بِهِذِهِ ؛ فَإِنَّمَا إِيجَادُ وَلَدٍ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ قَدْ طَعَنَ فِي السِّنِّ ، وَمِنْ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ عَاقِرٍ لَمْ تَكُنْ تَلِدُ فِي حَالِ شَبَابِهَا ، ثُمَّ يَذْكُرُ قِصَّةَ مَرْيَمَ وَهِيَ أَعْجَبُ ؛ فَإِنَّمَا إِيجَادُ وَلَدٍ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ ، هَكَذَا وَقَعَ فِي « سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ » وَفِي « سُورَةِ مَرْيَمَ » ، وَهَهُنَا ذَكَرَ قِصَّةَ زَكَرِيَّا ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقِصَّةِ مَرْيَمَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ يَعْنِي : مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : دَلَالَةً عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ .

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٦٧﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٦٨﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٦٩﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ يَقُولُ : دِينُكُمْ دِينٌ وَاحِدٌ ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : أَيُّ : سُنَّتُكُمْ سُنَّةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ ﴾ وَاسْمُهَا وَ « أُمَّتُكُمْ ﴾ خَبَرٌ إِنَّ ، أَيُّ : هَذِهِ شَرِيعَتُكُمُ الَّتِي بَيَّنَّتْ لَكُمْ وَوَضَّحَتْ لَكُمْ . ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ نُصِبَ عَلَى الْحَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيُّ : اخْتَلَفَتْ الْأُمَمُ عَلَى رُسُلِهَا فَمِنْ بَيْنِ مُصَدِّقٍ هُمْ وَمُكَذِّبٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَجَازَى كُلُّ بِحَسَبِ عَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أَيُّ : قَلْبُهُ مُصَدِّقٌ وَعَمَلٌ عَمَلًا صَالِحًا ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ لَا يُكَفِّرُ سَعْيُهُ - وَهُوَ عَمَلُهُ - بَلْ يُشْكِرُ ، فَلَا يُظْلَمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ أَيُّ : يُكْتَبُ جَمِيعُ عَمَلِهِ فَلَا يَضِيعُ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ .

وَحَرَّمَ عَلَى قَرِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٦٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَوَلَّوْنَ قَدًّا كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمَ عَلَى قَرِيَّةٍ﴾ يَعْنِي: قَدْ قُدِّرَ أَنَّ أَهْلَ كُلِّ قَرِيَّةٍ أَهْلِكُوا، أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلْ هُمْ مِنْ نَسْلِ نُوحٍ أَيْضًا مِنْ أَوْلَادِ يَافِثَ، أَيْ: أَبِي التُّرْكِ، وَالتُّرْكُ شَرِذْمَةٌ مِنْهُمْ تَرَكُّوا مِنْ وَرَاءِ السِّدِّ الَّذِي بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أَيْ: يُسْرِعُونَ فِي الْمَشْيِ إِلَى الْفَسَادِ، وَالْحَدَبِ: هُوَ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ، وَهَذِهِ صِفَتُهُمْ فِي حَالِ خُرُوجِهِمْ، كَأَنَّ السَّمَاعَ مُشَاهِدٌ لِدَلِكِ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] هَذَا إِخْبَارٌ عَالِمٍ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فَيَغْشَوْنَ النَّاسَ وَيَنْحَارُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ وَيَشْرَبُونَ مِيَاهَ الْأَرْضِ، حَتَّىٰ أَنْ بَعْضَهُمْ لَيَمُرُّ بِالنَّهْرِ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهِ حَتَّىٰ يَتْرُكُوهُ يَابِسًا، حَتَّىٰ إِنْ مَنَ بَعْدَهُمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهْرِ، فَيَقُولُ: قَدْ كَانَ هَهُنَا مَاءٌ مَرَّةً، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا أَحَدٌ فِي حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ، قَالَ قَائِلُهُمْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ بَقِيَّ أَهْلِ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يَهْزُ أَحَدُهُمْ حَرْبَتَهُ ثُمَّ يَرْمِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ إِلَيْهِ مَحْتَضِبَةً دَمًا لِلْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ، فَيَبْتَئِمُ هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ ﷻ دُودًا فِي أَعْنَاقِهِمْ كَنَغْفِ الْجَرَادِ الَّذِي يَخْرُجُ فِي أَعْنَاقِهِ، فَيُضْبِحُونَ مَوْتَى لَا يَسْمَعُ لَهُمْ حِسٌّ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: أَلَا رَجُلٌ يَشْرِي لَنَا نَفْسَهُ فَيَنْظُرُ مَا فَعَلَ هَذَا الْعَدُوُّ؟ قَالَ: فَيَنْحَدِرُ رَجُلٌ مِنْهُمْ مُحْتَسِبًا نَفْسَهُ، قَدْ أَوْطَنَهَا عَلَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ، فَيَنْزِلُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيُنَادِي يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ: أَلَا أَبْشَرُوا إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيُسْرِعُونَ مَوَاشِيَهُمْ، فَمَا يَكُونُ لَهُمْ رَعْيٌ إِلَّا لِحَوْمِهِمْ، فَتَشْكُرُ عَنْهُمْ كَأَحْسَنِ مَا شَكَرْتَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ أَصَابَتْهُ قَطٌّ».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْأَهْوَالُ وَالزَّلَازِلُ وَالْبَلَابُ أَرْزَفَتِ السَّاعَةُ وَاقْتَرَبَتْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ: مِنْ شِدَّةِ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ، يَقُولُونَ: ﴿يَتَوَلَّوْنَا قَدًّا كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾

أَيُّ : فِي الدُّنْيَا ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ يَعْتَرِفُونَ بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ .

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿ ١٧ ﴾ لَوْ كَانَتْ هُنَّ آلَاءَ إِلَهَةٍ مَّا وَرَدُّوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ ١٨ ﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿ ١٩ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿ ٢٠ ﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿ ٢١ ﴾ لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿ ٢٢ ﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا لِأَهْلِ مَكَّةَ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ ﴾ أَيُّ : وَقُودُهَا يَعْنِي كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحریم : ٦] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ أَيُّ : دَاخِلُونَ . ﴿ لَوْ كَانَتْ هُنَّ آلَاءُ إِلَهَةٍ مَّا وَرَدُّوهَا ﴾ يَعْنِي : لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً صَحِيحَةً ، لَمَا وَرَدُّوا النَّارَ وَمَا دَخَلُوهَا ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أَيُّ : الْعَابِدُونَ وَمَعْبُودَاتِهِمْ كُلُّهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ ، وَالزَّفِيرُ : خُرُوجُ أَنْفَاسِهِمْ ، ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ قِيلَ : الرَّحْمَةُ ، وَقِيلَ : السَّعَادَةُ ﴿ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ فَكَمَا أَحْسَنُوا الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا أَحْسَنَ اللَّهُ مَا لَهُمْ وَثَوَابَهُمْ فَجَنَّاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ، وَحَصَلَ لَهُمْ جَزِيلُ الثَّوَابِ ، فَقَالَ : ﴿ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا أَيُّ : حَرِيقَهَا فِي الْأَجْسَادِ . ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ فَسَلَّمَهُمْ مِنَ الْمَحْذُورِ وَالْمَرْهُوبِ وَحَصَلَ لَهُمُ الْمَطْلُوبُ وَالْمَحْبُوبُ . ﴿ لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ : الْمَوْتُ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْفَرَعِ الْأَكْبَرِ : النَّفْخَةُ فِي الصُّورِ ، وَقِيلَ : حِينَ يُذْبَحُ الْمَوْتُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، ﴿ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يَعْنِي : تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ تَبَشِّرُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ : ﴿ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أَيُّ : قَابَلُوا مَا يَسُرُّكُمْ .

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿ ٢٣ ﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ هَذَا كَأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ السِّجْلَ : هِيَ الصَّحِيفَةُ ، فَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ ﴾ أَيُّ : عَلَى الْكِتَابِ ، بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ . ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا

عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٤﴾ يَعْنِي : هَذَا كَائِنْ لَا مَحَالَةَ يَوْمَ يُعِيدُ اللَّهُ الْخَلَائِقَ خَلْقًا جَدِيدًا ، كَمَا بَدَأَهُمْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ ، وَذَلِكَ وَاجِبُ الْوُقُوعِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ وَعْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُخْلِفُ وَلَا يُبَدِّلُ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ : « إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ فَكُفُّوا عُرَاةَ غُرْلًا » كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٥﴾ وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٦﴾
 إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا حَتَمَهُ وَقَضَاهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَوِرَاثَةِ الْأَرْضِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا مَسْطُورٌ فِي الْكُتُبِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ ، وَهُوَ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ قَالَ الْأَكْثَرُونَ : الزَّبُورُ : الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى دَاوُدَ وَالدُّكْرُ : التَّوْرَةُ ، وَقِيلَ : الزَّبُورُ : الْقُرْآنُ ، وَقِيلَ : الذِّكْرُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ ، ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ الْأَرْضُ هِيَ : الْجَنَّةُ ، وَالصَّالِحُونَ : الْمُؤْمِنُونَ ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ أَيُّ : إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلْنَاهُ عَلَى عَبْدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ لَبَلَاغًا ﴾ لِمَنْفَعَةٍ وَكَفَايَةٍ ﴿ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ عَبَدُوا اللَّهَ بِمَا شَرَعَهُ وَأَحَبَّهُ وَرَضِيَهُ ، وَآثَرُوا طَاعَةَ اللَّهِ عَلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَشَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ، أَيُّ : أَرْسَلَهُ رَحْمَةً هُمْ كُلُّهُمْ ، فَمَنْ قَبِلَ الرَّحْمَةَ وَشَكَرَ هَذِهِ النُّعْمَةَ سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ رَدَّهَا وَجَحَدَهَا خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ .

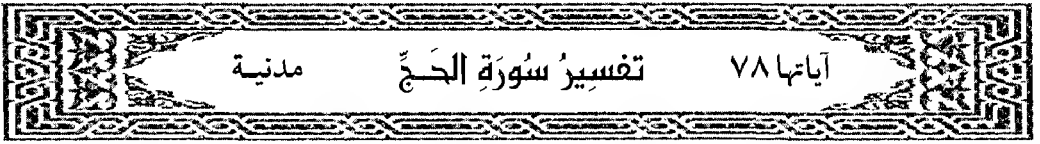
قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٩﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ ۚ مَا تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٢١﴾ وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ۚ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أَيُّ : مُتَّبِعُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ مُسْتَسْلِمُونَ مُتَقَادُونَ لَهُ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أَيُّ : تَرَكُوا مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ ﴿ فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أَيُّ : أَعْلَمْتُكُمْ أَنِّي حَرَبٌ لَّكُمْ كَمَا أَنَّكُمْ حَرَبٌ لِّي ، بَرِيٌّ مِنْكُمْ كَمَا أَنَّكُمْ بَرَاءٌ مِنِّي . ﴿ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ ۚ مَا تُوعَدُونَ ﴾ أَيُّ : هُوَ وَاقِعٌ لَا

خَالَةً ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لِي بِقُرْبِهِ وَلَا بِبُعْدِهِ . ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾
 أَيُّ : إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ جَمِيعَهُ ، وَيَعْلَمُ مَا يُظْهِرُهُ الْعِبَادُ وَمَا يُسْرُونَ ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ .
 ﴿ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتْنَعُ إِلَى حِينٍ ﴾ أَيُّ : وَمَا أَدْرِي لَعَلَّ هَذَا فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ .
 ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ : اِفْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ، أَيُّ : عَلَى مَا يَقُولُونَ وَيَفْتَرُونَ مِنَ
 الْكُذِبِ وَيَتَنَوَّعُونَ فِي مَقَامَاتِ التَّكْذِيبِ وَالْإِفْكِ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ
 كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا
 هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ آمَرَآ عِبَادَهُ بِتَقْوَاهُ ، وَخُفِّرَا هُم بِمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَزَلَايَهَا
 وَأَحْوَالِهَا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيُّ : أَمْرٌ كَبِيرٌ وَخَطْبٌ جَلِيلٌ ، وَطَارِقٌ
 مُفْطِعٌ وَحَادِثٌ هَائِلٌ ، وَكَائِنْ عَجِيبٌ ، وَالزَّلْزَالُ هُوَ : مَا يَخْضَلُ لِلنَّفُوسِ مِنَ الرُّعْبِ وَالْفَزَعِ .
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ ضَمِّيرِ الشَّأْنِ ، وَلِهَذَا قَالَ مُفَسِّرًا لَهُ : ﴿ تَذْهَلُ
 كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أَيُّ : فَتَشْتَغِلُ الْهُولِ مَا تَرَى عَنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهَا وَالَّتِي هِيَ
 أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ ، تَذْهَشُ عَنْهُ فِي حَالِ إِرْضَاعِهَا لَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ :
 « مُرْضِعٌ » وَقَالَ : ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أَيُّ : عَنْ رَضِيعِهَا قَبْلَ فِطَامِهِ ، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ
 حَمْلَهَا ﴾ أَيُّ : قَبْلَ تَمَامِهِ لِشِدَّةِ الْهُولِ ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى ﴾ وَقُرِئَ « سُكَرَى » أَيُّ : مِنْ شِدَّةِ
 الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ صَارُوا فِيهِ ، قَدْ دَهَشَتْ عُقُولُهُمْ ، وَغَابَتْ أَذْهَانُهُمْ ، فَمَنْ رَأَاهُمْ حَسِبَ أَنَّهُمْ
 سُكَارَى ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ

أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ ذَاتًا لَمِنْ كَذَبٍ بِالْبَعْثِ وَأَنكَرَ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى ، مُعْرِضًا عَمَّا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِ ، مُتَّبِعًا فِي قَوْلِهِ وَإِنْكَارِهِ وَكُفْرِهِ كُلِّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الْبَدْعِ وَالضَّلَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ فِي شَأْنِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ فِي اللَّهِ بَغْيًا عِلْمًا ﴾ ، أَيِ : عِلْمٍ صَحِيحٍ ﴿ وَيَتَّبِعْ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾ ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ يَعْنِي : الشَّيْطَانُ كُتِبَ عَلَيْهِ كِتَابُهُ قُدْرِيَّةٌ ﴿ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ ﴾ أَيِ : اتَّبَعَهُ وَقَلَّدَهُ ﴿ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أَيِ : يُضِلُّهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيَقُودُهُ فِي الْآخِرَةِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ، وَهُوَ الْحَارُّ الْمُؤْلِمُ الْمُفْلِقُ الْمُرْجِعُ .

يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ خَرَجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلُّغُوا أَشْدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُثْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿١١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْمُخَالَفَ لِلْبَعْثِ الْمُنْكَرِ لِلْمَعَادِ ، ذَكَرَ تَعَالَى الدَّلِيلَ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى الْمَعَادِ بِمَا يُشَاهَدُ مِنْ بَدْيِهِ لِلخَلْقِ ، فَقَالَ : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أَيِ : فِي شَكٍّ ﴿ مِنَ الْبَعْثِ ﴾ وَهُوَ الْمَعَادُ وَقِيَامُ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أَيِ : أَصْلُ بُرْيَةٍ لَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْهُ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أَيِ : ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا اسْتَقَرَّتِ النُّطْفَةُ فِي رَحِمِ الْمَرْأَةِ مَكَثَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا كَذَلِكَ يُضَافُ إِلَيْهِ مَا يَجْمَعُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ تَنْقَلِبُ عَلَقَةً حُمْرَاءَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَتَمُكُّ كَذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ تَسْتَحِيلُ فَتَصِيرُ ﴿ مُضْغَةً ﴾ قِطْعَةً مِنْ لَحْمٍ لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَحْطِيطَ ، ثُمَّ يُشْرَعُ فِي التَّشْكِيلِ وَالتَّخْطِيطِ فَيُصَوَّرُ مِنْهَا رَأْسٌ وَيَدَانِ وَصَدْرٌ وَبَطْنٌ وَفَخِذَانِ وَرِجْلَانِ وَسَائِرُ الْأَعْضَاءِ ، فَتَارَةً تُسْقِطُهَا الْمَرْأَةُ قَبْلَ التَّشْكِيلِ وَالتَّخْطِيطِ ، وَتَارَةً تُلْقِيهَا وَقَدْ صَارَتْ ذَاتَ شَكْلٍ وَتَحْطِيطَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أَيِ : كَمَا تُشَاهَدُوهَا ﴿ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيِ : وَتَارَةً تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ لَا تُلْقِيهَا الْمَرْأَةُ وَلَا تُسْقِطُهَا ، كَمَا

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُخَلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَقَةٍ﴾ قَالَ: هُوَ السَّقَطُ مُخْلُوقٌ وَغَيْرُ مُخْلُوقٍ .

فَإِذَا مَضَى عَلَيْهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا وَهِيَ مُضْغَةٌ أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا مَلَكًا فَفَنَخَّ فِيهَا الرُّوحَ ، وَسَوَّاهَا كَمَا يَشَاءُ اللَّهُ ﷻ مِنْ حُسْنٍ وَفُحٍّ ، وَذَكَرَ وَأُنْثَى ، وَكَتَبَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا وَشَقِيَّ أَوْ سَعِيدٌ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ خُلِقَ أَحَدُكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيَّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ » .

وَقَوْلُهُ: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أَيُ : ضَعِيفًا فِي بَدَنِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَحَوَاسِّهِ وَبَطْنِهِ وَعَقْلِهِ ، ثُمَّ يُعْطِيهِ اللَّهُ الْقُوَّةَ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَيَلْطَفُ بِهِ وَيُحْنِنُ عَلَيْهِ وَالِدَيْهِ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ ثُمَّ لَتَبْتُمْغُوا أَشَدَّكُمْ ﴾ أَيُ : يَتَكَامَلُ الْقَوِيُّ وَيَتَزَايِدُ وَيَصِلُ إِلَى عُتُقُونِ الشَّبَابِ وَحُسْنِ الْمَنْظَرِ ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ﴾ أَيُ : فِي حَالِ شَبَابِهِ وَقَوَاهُ ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ وَهُوَ الشَّيْخُوخَةُ وَالْهَرَمُ ، وَضَعْفُ الْقُوَّةِ وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ ، وَتَنَاقُصُ الْأَحْوَالِ مِنَ الْخَوْفِ وَضَعْفِ الْفِكْرِ ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا » .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ هَذَا دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى ، كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْهَامِدَةَ وَهِيَ الْمُفْجَلَةُ الَّتِي لَا يَنْبُتُ فِيهَا شَيْءٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: غَبْرَاءُ مُتَهَشِّمَةٌ . وَقَالَ السُّدِّيُّ: مَيِّتَةٌ: ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ﴾ أَيُ : فَإِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْمَطَرَ ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ أَيُ : تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ وَحَيَّتْ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أَيُ : ارْتَفَعَتْ لَمَّا سَكَنَ فِيهَا الثَّرَى ، ثُمَّ أَنْبَتَتْ مَا فِيهَا مِنَ الْأَلْوَانِ وَالْفُتُونِ ، مِنْ تَبَارٍ وَزُرُوعٍ وَأَشْجَاتٍ فِي اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَطُغُومِهَا وَرَوَائِحِهَا وَأَشْكَالِهَا وَمَنَافِعِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ﴾ أَيُ : حَسَنُ الْمَنْظَرِ طَيِّبُ الرِّيحِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أَيُ : الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أَيُ : كَمَا أَحْيَا الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ وَأَنْبَتَ مِنْهَا هَذِهِ الْأَنْوَاعَ ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩] ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أَيُ : كَائِنَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا وَلَا مَرِيَةَ ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ أَيُ : يُعِيدُهُمْ بَعْدَ مَا صَارُوا فِي قُبُورِهِمْ رَمًا وَيُوجِدُهُمْ بَعْدَ الْعَدَمِ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢٥﴾ ثَانِي عِظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَالُوا: مَتَّ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الضَّلَالِ الْجُهَالِ الْمُقْلَدِينَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعْ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ ذَكَرَ فِي هَذِهِ حَالَ الدُّعَاةِ إِلَى الضَّلَالَةِ مِنْ رُءُوسِ الْكُفْرِ وَالْبِدْعِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيُّ : بِلَا عَقْلِ صَحِيحٍ وَلَا نَقْلِ صَرِيحٍ ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ وَالْهَوَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثَانِي عَطْفِهِ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : مُسْتَكْبِرٌ عَنِ الْحَقِّ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ ، وَقِيلَ : لَاوِي عَطْفِهِ وَهِيَ رَفِئَتُهُ ، يَعْنِي : يُعْرِضُ عَمَّا يُدْعَى إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَيَتَّيْنِي رَفِئَتَهُ اسْتِكْبَارًا . ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : هَذِهِ لَأَمِّ الْعَاقِبَةِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ لَا يُقْصَدُ ذَلِكَ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لَأَمِّ التَّعْلِيلِ ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا الْمُعَانِدُونَ ، أَوْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا أَنَّ هَذَا الْفَاعِلَ هَذَا إِنَّمَا جَبَلْنَاهُ عَلَى هَذَا الْخُلُقِ لِنَجْعَلَهُ مِمَّنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ وَهُوَ الْإِهَانَةُ وَالذُّلُّ ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا اسْتَكْبَرَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ لِقَاهُ اللَّهُ الْمَذَلَّةَ فِي الدُّنْيَا ، وَعَاقِبَتُهُ فِيهَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّمَا أَكْبَرُ هَمَّهُ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ ﴿ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴿ أَيُّ : يُقَالُ لَهُ هَذَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ﴾ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴿ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ عَلَى حَرْفٍ ﴾ عَلَى شَكٍّ ، وَقَالَ غَيْرُهُمْ : عَلَى طَرَفٍ ، أَيُّ : طَرَفُهُ ، أَيُّ : دَخَلَ فِي الدِّينِ عَلَى طَرَفٍ ، فَإِنْ وَجَدَ مَا يُحِبُّهُ اسْتَقَرَّ ، وَإِلَّا انْشَمَرَ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ قَالَ : كَانَ الرَّجُلُ يَقْدُمُ الْمَدِينَةَ فَإِنْ وَلَدَتْ أَمْرًا غُلَامًا وَتَنَجَّتْ خَيْلُهُ ، قَالَ : هَذَا دِينٌ صَالِحٌ ، وَإِنْ لَمْ تَلِدْ أَمْرًا وَلَمْ تُنْتِجْ خَيْلَهُ قَالَ : هَذَا دِينٌ سَوْءٌ . ﴿ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أَيُّ : ارْتَدَّ كَافِرًا . ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ أَيُّ : فَلَا هُوَ حَصَلَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى شَيْءٍ ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَقَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، فَهُوَ فِيهَا فِي غَايَةِ الشَّقَاءِ وَالْإِهَانَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ هِيَ الْخُسَارَةُ الْعَظِيمَةُ وَالصَّفَقَةُ الْخَاسِرَةُ . ﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ يَسْتَعِينُ بِهَا وَيَسْتَنْصِرُهَا وَيَسْتَرْزِقُهَا وَهِيَ لَا تَنْفَعُهُ وَلَا تَضُرُّهُ ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ . ﴿ يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ أَيُّ : ضَرُّهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ فِيهَا وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَضَرُّهُ مُحَقَّقٌ مُتَيَقَّنٌ . ﴿ لَيْسَ

الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ۖ قِيلَ : يَعْنِي الْوَتْنَ ، يَعْنِي : بِشَسْ هَذَا الَّذِي دَعَاهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَوْلَى ، يَعْنِي : وَلِيًّا وَنَاصِرًا ۖ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ۖ ، وَهُوَ الْمُخَالِطُ وَالْمُعَاشِرُ .

إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٥٦﴾

لَمَّا ذَكَرَ أَهْلَ الصَّلَاةِ الْأَشْقِيَاءَ عَطَفَ بِذِكْرِ الْأَبْرَارِ السُّعْدَاءِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ وَصَدَّقُوا إِيمَانَهُمْ بِأَفْعَالِهِمْ فَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْقُرْبَاتِ وَتَرَكُوا الْمُتَكَرَّاتِ ، فَأَوْرَثَهُمْ ذَلِكَ سُكْنَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَضَلَّ أَوْلِيكَ وَهَدَى هَؤُلَاءِ ، قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۖ .

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ ﴿٥٧﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَةً يُبَيِّنُهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَنْ يُرِيدُ ﴿٥٨﴾

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ۖ ﴾ أَيُّ : بِحَبْلِ ۖ ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ۖ ﴾ أَيُّ : سَمَاءَ بَيْتِهِ ۖ ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ۖ ﴾ يَقُولُ : ثُمَّ لِيَخْتَنِقْ بِهِ . فَاَلْمَعْنَى : مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِنَاصِرٍ مُحَمَّدًا وَكِتَابَهُ وَدِينَهُ فَلْيَذْهَبْ فَلْيَقْتُلْ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ غَائِظُهُ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ لَا مَحَالَةَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ ۖ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ۖ ﴾ أَيُّ : الْقُرْآنَ ۖ ﴿ ءَايَةً يُبَيِّنُهَا ۖ ﴾ أَيُّ : وَاضِحَاتٍ فِي لَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا ، حُجَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ ۖ ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَنْ يُرِيدُ ۖ ﴾ أَيُّ : يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالصَّابِئِينَ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ التَّعْرِيفَ بِهِمْ ، وَاخْتِلَافَ النَّاسِ فِيهِمْ ، وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا فَعَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ فَإِنَّهُ تَعَالَى ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ ﴾ وَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ ، فَيَدْخُلُ مَنْ آمَنَ بِهِ الْجَنَّةَ وَمَنْ كَفَرَ بِهِ النَّارَ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى شَهِيدٌ عَلَى أَفْعَالِهِمْ ، حَفِيزٌ لِأَقْوَامِهِمْ ، عَلِيمٌ بِسَرَائِرِهِمْ وَمَا تَكُنْ ضَمَائِرُهُمْ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن
يُنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَإِنَّهُ يَسْجُدُ لِعِظَمَتِهِ كُلَّ شَيْءٍ طَوْعًا وَكَرْهًا ،
وَسُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾
أَيُّ : مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي أَفْطَارِ السَّمَاوَاتِ ، وَالْحَيَوَانَاتِ فِي جَمِيعِ الْجِهَاتِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْدَّوَابِّ
وَالطَّيْرِ ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذِهِ عَلَى التَّنْصِيفِ ؛ لِأَنَّهَا قَدْ عُيِدَتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ،
فَبَيَّنَ أَنَّهَا تَسْجُدُ لِحَالِقِهَا وَأَنَّهَا مَرْبُوبَةٌ مُسَخَّرَةٌ . ﴿ وَالْدَّوَابِّ ﴾ أَيُّ : الْحَيَوَانَاتُ كُلُّهَا ، ﴿ وَكَثِيرٌ
مِنَ النَّاسِ ﴾ أَيُّ : يَسْجُدُ لِلَّهِ طَوْعًا مُحْتَارًا مُتَعَبِّدًا بِذَلِكَ ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ أَيُّ : مِمَّنْ أَمْتَنَعَ
وَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴿ وَمَنْ يَنْ يَنْ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٦﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٧﴾ وَهُمْ مَقْمَعُونَ ۖ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿١٨﴾ كَلَّمَا أَرَادُوا أَن تَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٩﴾

ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّهُ كَانَ يُقْسِمُ قَسَمًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ نَزَلَتْ فِي حِمَزةٍ وَصَاحِبِيهِ ، وَعَتَبَةٍ وَصَاحِبِيهِ يَوْمَ بَرَزُوا فِي بَدْرِ . وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَافِرُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُرِيدُونَ نُصْرَةَ دِينِ اللَّهِ ﷻ وَالْكَافِرُونَ يُرِيدُونَ إِطْفَاءَ نُورِ الْإِيمَانِ ، وَخِذْلَانَ الْحَقِّ ، وَظُهُورَ الْبَاطِلِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ ﴾ أَيُّ : فَصَلَّتْ لَهُمْ مُّقْطَعَاتٌ مِّنَ النَّارِ ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ ٢١ بَصْهَرُهُ بِمَا فِي بَطُونِهِمْ وَأَجْلُودُ ٢٢ أَيُّ : إِذَا صُبَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ ٢٣ . وَهُمْ مَقْنَعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ٢٤ يُضْرَبُونَ بِهَا فَيَقْعُ كُلُّ عَضْوٍ عَلَى حِيَالِهِ فَيَذْعُونَ بِالْثُبُورِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَّاضٍ: وَاللَّهِ مَا طَمِعُوا فِي الْخُرُوجِ إِنَّ الْأَرْجُلَ لَمُقَيَّدَةٌ وَإِنَّ الْأَيْدِيَ لَمُوثَقَةٌ، وَلَكِنْ يَرْفَعُهُمْ هُبَّهَا وَتَرُدُّهُمْ مَقَامِعُهَا. ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخَرِيقِ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [السَّجْدَةُ: ٢٠]، وَمَعْنَى الْكَلَامِ: أَنَّهُمْ يُهَانُونَ بِالْعَذَابِ قَوْلًا وَفِعْلًا.

إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

تُحْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٥﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ
مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٣٦﴾

لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ عِذَاذَا بِاللَّهِ مِنْ حَالِهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ
وَالْحَرِيقِ وَالْأَغْلَالِ ، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الثَّيَابِ مِنَ النَّارِ ذَكَرَ حَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ - نَسَّأَلُ اللَّهَ مِنْ
فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ - فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَيُّ : تَتَخَرَّقُ فِي أَكْنَافِهَا وَأَرْجَائِهَا وَجَوَانِبِهَا وَتَحْتَ أَشْجَارِهَا
وَقُصُورِهَا يَصْرِفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ أَرَادُوا ﴿ تُحْلَوْنَ فِيهَا ﴾ مِنَ الْحِلْيَةِ ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ
ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ أَيُّ : فِي أَيْدِيهِمْ ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ فِي مُقَابَلَةِ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ الَّتِي قُصِّلَتْ لَهُمْ ،
لِبَاسٌ هَؤُلَاءِ مِنَ الْحَرِيرِ إِسْتَبْرَقُهُ وَسُنْدُسُهُ ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ فَهُدُوا إِلَى الْمَكَانِ
الَّذِي يَسْمَعُونَ فِيهِ الْكَلَامَ الطَّيِّبَ . ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ أَيُّ : إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَحْمَدُونَ
فِيهِ رَبَّهُمْ عَلَى مَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَأَنْعَمَ بِهِ وَأَسَدَّاهُ إِلَيْهِمْ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ
سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْكُفَّارِ فِي صَدِّهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ إِيْتَانِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَقَضَاءِ مَنَاسِكِهِمْ
فِيهِ وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ : ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٤] ،
وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مَدِينَةٌ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ
قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ
اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٧] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾
أَيُّ : وَمِنْ صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، أَيُّ : وَيَصُدُّونَ
عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَنْ أَرَادَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَهَذَا
التَّرْكِيبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ
تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] أَيُّ : وَمِنْ صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ أَتَمُّنُّ قُلُوبَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ أَيُّ : يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْوُصُولِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ شَرْعًا سَوَاءً ، لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الْمُقِيمِ فِيهِ وَالنَّائِي عَنْهُ الْبَعِيدِ
الدَّارِ مِنْهُ ﴿ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِوَاءُ النَّاسِ فِي رِبَاعِ مَكَّةَ وَسُكْنَاهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ضَمَّنَ الْفِعْلَ هَهُنَا بِمَعْنَى بِهِمْ وَلِهَذَا عَدَّاهُ بِالْبَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ ﴾ أَيِ : بِهِمْ فِيهِ بِأَمْرِ فَطِيعٍ مِنَ الْمَعَاصِي الْكِبَارِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أَيِ : عَامِدًا قَاصِدًا أَنَّهُ ظَلَمَ لَيْسَ بِمُتَأَوِّلٍ ، وَقِيلَ : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أَيِ : بِشُرْكِ . وَقِيلَ : يَعْمَلُ فِيهِ عَمَلًا سَيِّئًا ، وَهَذَا مِنْ خُصُوصِيَّةِ الْحَرَمِ أَنَّهُ يُعَاقَبُ الْبَادِي فِيهِ الشَّرَّ إِذَا كَانَ عَازِمًا عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يُوقِعْهُ .

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٥﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٦﴾

هَذَا فِيهِ تَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ لِمَنْ عَبْدَ غَيْرَ اللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ مِنْ قُرَيْشٍ ، فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي أُسِّسَتْ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَوَّأَ إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ، أَيِ : أَرَشَدَهُ إِلَيْهِ وَسَلَّمَهُ لَهُ وَأَذَّنَ لَهُ فِي بِنَائِهِ وَاسْتَدَلَّ بِهِ كَثِيرٌ مِمَّنْ قَالَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَوَّلُ مَنْ بَنَى الْبَيْتَ الْعَتِيقَ وَأَنَّهُ لَمْ يُبْنَ قَبْلَهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ أَيِ : ابْنِهِ عَلَى اسْمِي وَخَلْدِي ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ : مِنَ الشَّرْكِ ﴿ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أَيِ : اجْعَلْهُ خَالِصًا لَهُؤَلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَالطَّائِفُ بِهِ مَعْرُوفٌ وَهُوَ أَحْصَى الْعِبَادَاتِ عِنْدَ الْبَيْتِ ، فَإِنَّهُ لَا يُفْعَلُ بِبُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ سِوَاهَا ﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾ أَيِ : فِي الصَّلَاةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ فَقَرَنَ الطَّوَّافَ بِالصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّهُمَا لَا يُشْرَعَانِ إِلَّا مُحْتَصِنِينَ بِالْبَيْتِ ، فَالطَّوَّافُ عِنْدَهُ وَالصَّلَاةُ إِلَيْهِ فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ إِلَّا مَا أُسْتُثْنِيَ مِنَ الصَّلَاةِ عِنْدَ اشْتِبَاهِ الْقِبْلَةِ ، وَفِي الْحَرْبِ ، وَفِي النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ أَيِ : نَادِ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى الْحَجِّ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَمَرْنَاكَ بِبِنَائِهِ ، ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ الْآيَةُ . قَدْ يُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْحَجَّ مَاشِيًا لِمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنَ الْحَجِّ رَاكِبًا ؛ لِأَنَّهُ قَدَّمَهُمْ فِي الذِّكْرِ فَدَلَّ عَلَى الْاهْتِمَامِ بِهِمْ ، وَقُوَّةِ هِمَمِهِمْ وَشِدَّةِ عَزْمِهِمْ . وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّ الْحَجَّ رَاكِبًا أَفْضَلُ اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ حَجَّ رَاكِبًا مَعَ كَمَالِ قُوَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ ﴾ يَعْنِي : طَرِيقٍ .

لِيَشْهَدُوا مَنْفَعَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعمُوا الْفَقِيرَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدْوَرَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٨﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَفِعَ لَهُمْ ﴾ أَي : مَنَافِعَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : أَمَّا مَنَافِعُ الْآخِرَةِ فَرِضَاؤُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا مَنَافِعُ الدُّنْيَا فَهِيَ يُصَيِّوْنَ مِنْ مَنَافِعِ الْبُذْنِ وَالذَّبَائِحِ وَالتَّجَارَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : الْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ : أَيَّامُ الْعَشْرِ . وَقِيلَ فِي الْأَيَّامِ الْمَعْلُومَاتِ : أَنَّهَا يَوْمُ النَّحْرِ وَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بَعْدَهُ . وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : الْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ الْمَعْدُودَاتُ : هُنَّ جَمِيعُهُنَّ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ ، فَلَا أَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ : يَوْمُ النَّحْرِ ، وَيَوْمَانِ بَعْدَهُ ، وَالْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ : ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بَعْدَ يَوْمِ النَّحْرِ . وَقِيلَ : إِنَّهَا يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ النَّحْرِ وَيَوْمَ آخِرِ بَعْدَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ يَعْنِي : الْإِبِلَ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمَ ، كَمَا فَصَّلَهَا تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿ تَمْسِيَةً أَوْجَاجَ ﴾ ، ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ﴾ قِيلَ : هُوَ الْمُضْطَرُّ الَّذِي عَلَيْهِ الْبُؤْسُ وَهُوَ الْمُتَعَفِّفُ ، وَقِيلَ : هُوَ الَّذِي لَا يَبْسُطُ يَدَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ هُوَ وَضْعُ الْإِحْرَامِ مِنْ حَلْقِ الرَّأْسِ وَلُبْسِ الثِّيَابِ وَقَصِّ الْأَظْفَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ قِيلَ : نَحَرُ مَا نَذَرَ مِنْ أَمْرِ الْبُذْنِ ، وَقِيلَ : نَذَرُ الْحُجِّ وَالْهَدْيِ وَمَا نَذَرَ الْإِنْسَانُ مِنْ شَيْءٍ يَكُونُ فِي الْحُجِّ . ﴿ وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي الطَّوَافُ الْوَاجِبُ يَوْمَ النَّحْرِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ فِيهِ مُسْتَدَلٌّ لِمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ الطَّوَافُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرِ لِأَنَّهُ مِنْ أَصْلِ الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ وَإِنْ كَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ أَخْرَجُوهُ مِنَ الْبَيْتِ حِينَ قَصَرَتْ بِهِمُ النِّفَقَةُ ، وَلِهَذَا طَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْحِجَرَ مِنَ الْبَيْتِ ، وَلَمْ يَسْتَلِمِ الرُّكْنَيْنِ الشَّامِيَيْنِ ؛ لِأَنَّهُمَا لَمْ يُتِمَّا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ الْعَتِيقَةِ . ﴿ وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ قِيلَ : لِأَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ ، وَقِيلَ : لِأَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ قَطُّ . وَعَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَعْتَقَهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ .

ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٥﴾ حُتَفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ فِي آدَاءِ الْمَنَاسِكِ وَمَا لِفَاعِلِهَا مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ﴿ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ ﴾ أَي : وَمَنْ يَجْتَنِبُ مَعَاصِيَهُ وَمَحَارِمَهُ وَيَكُونُ ارْتِكَابَهَا عَظِيمًا فِي نَفْسِهِ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أَي : فَلَهُ عَلَى ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ وَثَوَابٌ جَزِيلٌ ، فَكَمَا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ

ثَوَابٌ كَثِيرٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ كَذَلِكَ عَلَى تَرَكِ الْحَرَمَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَحْظُورَاتِ . ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ
الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُنْتَلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أَيُّ : أَحَلَّلْنَا لَكُمْ جَمِيعَ الْأَنْعَامِ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ
وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَا يُنْتَلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أَيُّ : مِنْ تَحْرِيمِ ﴿ أَلْمَيْتَةِ وَالْدُمِّ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ
وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةِ ﴾ [المائدة : ٣] ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ
الزُّورِ ﴾ « مِنْ » هَهُنَا لِبَيَانِ الْخَنَسِ ، أَيُّ : اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الَّذِي هُوَ الْأَوْثَانُ ، وَقَرْنَ الشَّرْكَ بِاللَّهِ
بِقَوْلِ الزُّورِ . ﴿ حُقَفَاءَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ مُنْخَرِفِينَ عَنِ الْبَاطِلِ قَصْدًا إِلَى الْحَقِّ ، وَهَذَا
قَالَ : ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ ثُمَّ صَرَبَ لِلْمُشْرِكِ مَثَلًا فِي ضَلَالِهِ وَهَلَاكِهِ وَبُعْدِهِ عَنِ الْهُدَى فَقَالَ :
﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أَيُّ : سَقَطَ مِنْهَا ﴿ فَخَطَفَهُ الطَّيْرُ ﴾ أَيُّ : تَقَطَّعَهُ
الطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ ﴿ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أَيُّ : بَعِيدٌ مُهْلِكٌ لِمَنْ هَوَى فِيهِ .

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعِيرَةَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿١٦﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ
مُؤَسَّسٍ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعِيرَةَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : أَوَامِرُهُ ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ
تَعْظِيمُ الْهُدَايَا وَالْبُذُنِ ، فَقَدْ قِيلَ : تَعْظِيمُهَا اسْتِسْمَائُهَا وَاسْتِحْسَانُهَا . ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أَيُّ : لَكُمْ
فِي الْبُذُنِ مَنَافِعُ مِنْ لَبَنِهَا وَصُوفِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا وَرُكُوبِهَا ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُؤَسَّسٍ ﴾ قِيلَ : مَا لَمْ
تُسَمَّ بُذْنًا . ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أَيُّ : مَحَلُّ الْهُدَى وَانْتِهَاؤُهُ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَهُوَ الْكَعْبَةُ .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ
فَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَاحِدٌ فَلَهُدَّ اسْلَمُوا ۖ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ
وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ ذَبَحَ الْمَنَاسِكَ وَإِرَاقَةَ الدِّمَاءِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ مَشْرُوعًا فِي جَمِيعِ الْمَلَلِ ﴿ وَلِكُلِّ
أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ قِيلَ : عِيدًا ، وَقِيلَ : ذَبْحًا . ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ ،
عَنْ أَنَسٍ قَالَ : أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ فَسَمَى وَكَبَّرَ وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى
صِفَاحِهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُ
الْأَنْبِيَاءِ وَنَسَخَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَالْجَمِيعُ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذَا قَالَ :
﴿ فَلَهُدَّ اسْلَمُوا ﴾ أَيُّ : أَخْلَصُوا وَاسْتَسْلِمُوا لِحُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ قِيلَ : الْمُطْمَئِنِّينَ
الرَّاضِينَ بِقَضَاءِ اللَّهِ الْمُسْتَسْلِمِينَ لَهُ ، وَأَحْسَنَ بِمَا يُفَسِّرُ بِمَا بَعْدَهُ . وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ

وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴿٥١﴾ أَيُّ : خَافَتْ مِنْهُ قُلُوبُهُمْ ﴿٥٢﴾ وَالصَّيْرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴿٥٣﴾ أَيُّ : مِنَ الْمَصَائِبِ ﴿٥٤﴾ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٥﴾ أَيُّ : وَيُنْفِقُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ طَيِّبِ الرِّزْقِ عَلَى أَهْلِيهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ وَفُقَرَائِهِمْ وَنَحْوِ بَيْتِهِمْ ، وَيُحْسِنُونَ إِلَى الْخَلْقِ مَعَ مُحَافَظَتِهِمْ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ ، وَهَذِهِ بِخِلَافِ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ فَإِنَّهُمْ بِالْعَكْسِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ .

وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَنًا عَلَى عَيْدِهِ فِيمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْبَدَنِ وَجَعَلَهَا مِنْ شَعَائِرِهِ وَهُوَ أَنَّهُ جَعَلَهَا تُهْدَى إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، بَلْ هِيَ أَفْضَلُ مَا يَهْدَى إِلَيْهِ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ ﴾ قَالُوا : الْبَقَرَةُ وَالْبَعِيرُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : إِنَّمَا الْبَدَنُ مِنَ الْإِبِلِ . ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أَيُّ : ثَوَابٌ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . وَقِيلَ : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ قَالَ : أَجْرٌ وَمَنَافِعٌ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ﴾ قَالَ : قِيَامٌ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ مَعْقُولَةٌ يَدُهَا الْيُسْرَى ، يَقُولُ : بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ . ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يَعْنِي : سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ . وَقِيلَ : يَعْنِي : مَاتَتْ ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنَ الْبَدَنَةِ إِذَا نُجِرَتْ حَتَّى تَمُوتَ وَتَبَرَّدَ حَرَكَتُهَا . ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ الْقَانِعَ الْمُسْتَغْنِي بِمَا أَعْطَيْتَهُ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ ﴾ وَالْمُعْتَرَّ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لَكَ وَيَلْمُ بِكَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِنَ اللَّحْمِ وَلَا يَسْأَلُ . ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مِنْ أَجْلِ هَذَا ﴿ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ أَيُّ : ذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ ، وَجَعَلْنَاهَا مُنْقَادَةً لَكُمْ خَاضِعَةً ، إِنْ شِئْتُمْ رَكِبْتُمْ ، وَإِنْ شِئْتُمْ حَلَبْتُمْ ، وَإِنْ شِئْتُمْ ذَبَحْتُمْ ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّمَا شَرَعَ لَكُمْ نَحْرَ هَذِهِ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا ؛ لِتَذْكُرُوهُ عِنْدَ ذَبْحِهَا ، فَإِنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَنَالُهُ شَيْءٌ مِنْ لُحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ، وَقَدْ كَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ إِذَا ذَبَحُوهَا لِأَهْلِيهِمْ وَضَعُوا عَلَيْهَا مِنْ لُحُومِ قَرَابَتِهِمْ ، وَنَضَحُوا عَلَيْهَا مِنْ دِمَائِهَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ سَخَرَهَا ﴾ أَي : مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَخَّرَ لَكُمْ الْبُذْنَ ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ ﴾ أَي : لِتُعَظِّمُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ لِدِينِهِ وَشَرَعِهِ وَمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَمَنَّاكُمْ عَنْ فِعْلٍ مَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ، ﴿ وَبَثَّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَي : وَبَثَّرَ يَا مُحَمَّدُ الْمُحْسِنِينَ أَي : فِي عَمَلِهِمْ ، الْفَائِزِينَ بِحُدُودِ اللَّهِ الْمُتَّبِعِينَ مَا شَرَعَ لَهُمْ ، الْمُصَدِّقِينَ الرَّسُولَ فِيمَا أَبْلَغَهُمْ وَجَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ﷻ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْ عِبَادِهِ - الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ - شَرَّ الْأَشْرَارِ وَكَيَدَ الْفُجَّارِ وَيَحْفَظُهُمْ وَيَكْلُؤُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ أَي : لَا يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذَا ، وَهُوَ الْخِيَانَةُ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ ، لَا يَفِي بِمَا قَالَ . وَالْكَفُورُ : الْجَحْدُ لِلنَّعْمِ فَلَا يَعْتَرِفُ بِهَا .

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا^١ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ^٢ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذِمَتْ صَوْمِعُ^٣ وَبَيْعُ^٤ وَصَلَوَاتُ^٥ وَمَسْجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا^٦ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ^٧ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، لِيَهْلِكُنَّ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا^١ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ أَي : هُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ نَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ ، وَلَكِنْ هُوَ يُرِيدُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَبْذُلُوا جَهْدَهُمْ فِي طَاعَتِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أَي : مَا كَانَ لَهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ إِسَاءَةٌ ، وَلَا كَانَ لَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا أَنَّهُمْ وَحَدُّوا اللَّهَ وَعَبَدُوهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَأَمَّا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّهُ أَكْبَرُ الذُّنُوبِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [المتحنة : ١] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأَخْذُودِ : ﴿ وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أَي : لَوْلَا أَنَّهُ يَدْفَعُ بِقَوْمٍ عَنْ قَوْمٍ ، وَيَكْشِفُ شَرَّ أَنَاسٍ عَنْ غَيْرِهِمْ بِمَا يَخْلُقُهُ وَيَقْدِرُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَا هَلَكَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفُ ﴿ لَهْذِمَتْ صَوْمِعُ ﴾ وَهِيَ

الْمَعْبُودِ الصَّغَارُ لِلرُّهْبَانِ ﴿وَبِيعَ﴾ وَهِيَ أَوْسَعُ مِنْهَا وَأَكْثَرُ عَابِدِينَ فِيهَا ، وَهِيَ لِلنَّصَارَى أَيْضًا ﴿وَصَلَوَاتُ﴾ قِيلَ : الصَّلَوَاتُ الْكَنَائِسُ ، إِنَّهَا كَنَائِسُ الْيَهُودِ ، وَهُمْ يُسَمُّوْنَهَا صَلَوَاتًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ، فَقَدْ قِيلَ : الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا﴾ عَائِدٌ إِلَى الْمَسَاجِدِ ؛ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ الْمَذْكُورَاتِ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الصَّوَابُ هَذَمْتُ صَوَامِعَ الرُّهْبَانِ ، وَبِيعَ النَّصَارَى ، وَصَلَوَاتُ الْيَهُودِ وَهِيَ كَنَائِسُهُمْ ، وَمَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْمُسْتَعْمَلُ الْمَعْرُوفُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ . ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد : ٧] وَقَوْلُهُ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ ، فِقُوَّتِهِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ، وَبِعِزَّتِهِ لَا يَقْهَرُهُ قَاهِرٌ وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ فَقِيرٌ إِلَيْهِ .

الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١١﴾

قِيلَ : هَذِهِ آيَةُ كَقَوْلِهِ : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور : ٥٥] ، وَقَوْلِهِ : ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ وَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ مَا صَنَعُوا .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿١٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْتَلَّةٌ وَقَصِيرٌ مَشِيدٌ ﴿١٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ أَيُّ : مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ . ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أَيُّ : أَنْظَرْتُهُمْ وَأَخَّرْتُهُمْ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أَيُّ : فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ وَمُعَاقِبَتِي لَهُمْ ؟ ! ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أَيُّ : كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أَيُّ : مُكَذِّبَةٌ لِرُسُلِهِ ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ : سَقُوفُهَا ، أَيُّ : قَدْ خَرِبَتْ مَنَازِلُهَا وَتَعَطَّلَتْ حَوَاضِرُهَا ﴿وَبِئْسَ مُعْتَلَّةٌ﴾

أَيُّ : لَا يُسْتَقَى مِنْهَا وَبَرْدُهَا أَحَدٌ بَعْدَ كَثْرَةِ وَارِدِيهَا وَالْإِزْدِحَامِ عَلَيْهَا ﴿ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ قِيلَ : هُوَ الْمَنِيْفُ الْمَرْتَفِعُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ الشَّدِيدُ الْمَنِيْعُ الْحَصِينُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : بِأَبْدَانِهِمْ وَيَفَكِّرِهِمْ أَيْضًا وَذَلِكَ كَافٍ . ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أَيُّ : فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْأَفْئُوتُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ الْعَمَى عَمَى الْبَصَرِ ، وَإِنَّمَا الْعَمَى عَمَى الْبَصِيرَةِ ، وَإِنْ كَانَتْ الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ سَلِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تَنْفُذُ إِلَى الْعَيْرِ ، وَلَا تَدْرِي مَا الْخَبَرُ .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ تُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أُمْلِيَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ أَيُّ : هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ الْمُكْذِبُونَ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أَيُّ : الَّذِي وَعَدَ مِنْ إِقَامَةِ السَّاعَةِ ، وَالْإِنْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ وَالْإِكْرَامِ لِأَوْلِيَائِهِ . ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أَيُّ : هُوَ تَعَالَى لَا يَعْجَلُ فَإِنَّ مِقْدَارَ أَلْفِ سَنَةٍ عِنْدَ خَلْقِهِ كَيَوْمٍ وَاحِدٍ عِنْدَهُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى حُكْمِهِ ، لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ عَلَى الْإِنْتِقَامِ قَادِرٌ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْوَتُهُ شَيْءٌ وَإِنْ أَجَلَ وَأَنْظَرَ وَأَمَلَى ، وَهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أُمْلِيَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾ .

قُلْ يَتْلُوهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٨﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ حِينَ طَلَبَ مِنْهُ الْكُفَّارُ وَقُوعَ الْعَذَابِ وَاسْتَعْجَلُوهُ بِهِ ﴿ قُلْ يَتْلُوهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا أُرْسَلَنِي اللَّهُ إِلَيْكُمْ نَذِيرًا لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنْ حِسَابِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ، أَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمْ الْعَذَابَ ، وَإِنْ شَاءَ أَخَّرَهُ عَنْكُمْ ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلَى مَنْ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، وَإِنْ شَاءَ أَضَلَّ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ وَيُرِيدُ وَيَخْتَارُ ﴿ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ آمَنْتَ قُلُوبُهُمْ وَصَدَّقُوا إِيْمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ مَغْفِرَةٌ لِمَا سَلَفَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَمُجَازَاةٌ حَسَنَةٌ عَلَى الْقَلِيلِ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ : إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ :

﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فَهُوَ الْجَنَّةُ . ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ ﴾ قِيلَ : مُشْطِينَ ، وَقِيلَ : مُرَاغِمِينَ .
﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ وَهِيَ النَّارُ الْحَارَّةُ الْمُوجِعَةُ الشَّدِيدُ عَذَابُهَا وَنَكَالُهَا أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ
فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ لِيَجْعَلَ مَا
يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي
شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ۖ فَتُخْبِتَ
لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٨﴾

قَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ هَهُنَا قِصَّةَ الْغَرَانِيقِ ، وَمَا كَانَ مِنْ رُجُوعِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُهَاجِرَةِ إِلَى
أَرْضِ الْحَبَشَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ قَدْ أَسْلَمُوا ، وَلَكِنَّهَا مِنْ طُرُقِ كُلِّهَا مَرَّسَلَةٌ ، وَلَمْ أَرَهَا
مُسْتَنَدَةً مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ سَاقَهَا الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِمَجْمُوعَةٍ مِنْ كَلَامِ ابْنِ
عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ وَغَيْرِهِمَا بِنَحْوِ مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ سَأَلَ هَهُنَا سَوَالًا ، كَيْفَ وَقَعَ مِثْلُ
هَذَا مَعَ الْعِصْمَةِ الْمَضْمُونَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَاةُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ؟ ثُمَّ حَكَى أَجْوَبَةً
عَنِ النَّاسِ مِنَ الْأَطْفَالِ : أَنَّ الشَّيْطَانَ أَوْفَعَ فِي مَسَامِعِ الْمُشْرِكِينَ ذَلِكَ ، فَتَوَهَّمُوا أَنَّهُ صَدَرَ عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، بَلْ إِنَّمَا كَانَ مِنْ صَنِيعِ الشَّيْطَانِ لَا عَنْ رَسُولِ الرَّحْمَنِ
ﷺ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَهَكَذَا تَنَوَّعَتْ أَجْوَبَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ عَنْ هَذَا بِتَقْدِيرِ صِحَّتِهِ ، وَقَدْ تَعَرَّضَ الْقَاضِي
عِيَّاضٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لِهَذَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾
هَذَا فِيهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَيُّ : لَا يُهَيِّدُكَ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ مِثْلُ
هَذَا مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ . قَالَ الْبُخَارِيُّ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ إِذَا حَدَّثَ
أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ فَيُبْطِلُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ، وَيُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ . وَيُقَالُ : ﴿ أُمْنِيَّتِهِ ﴾
قِرَاءَتِهِ . قَالَ الْبَغَوِيُّ : وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ تَمَنَّى ﴾ أَيُّ : تَلَا وَقَرَأَ كِتَابَ اللَّهِ
﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أَيُّ : فِي تِلَاوَتِهِ . ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ حَقِيقَةُ النَّسْخِ لُغَةً :
الِإِزَالَةُ وَالرَّفْعُ ، وَقِيلَ : أَيُّ فَيُبْطِلُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : بِمَا يَكُونُ مِنَ الْأُمُورِ وَالْحَوَادِثِ لَا تُخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ حَكِيمٌ ﴾
أَيُّ : فِي تَقْدِيرِهِ وَخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ ، لَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا
يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أَيُّ : شَكٌّ وَشِرْكٌ وَكُفْرٌ وَنِفَاقٌ ، كَالْمُشْرِكِينَ حِينَ
فَرَحُوا بِذَلِكَ وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ صَحِيحٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أَي : فِي ضَلَالٍ وَمُخَالَفَةٍ وَعِنَادٍ بَعِيدٍ ، أَي : مِنْ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ أَي : وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ النَّافِعَ - الَّذِي يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ - وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنَّ مَا أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَحِفْظِهِ وَحَرَسَهُ أَنْ يَخْتَلِطَ بِهِ غَيْرُهُ ، بَلْ هُوَ كِتَابٌ عَزِيزٌ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ أَي : يُصَدِّقُوهُ وَيَتَقَادُوا لَهُ ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَي : تَخْضَعُ وَتَذِلُّ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ وَيُوفِّقُهُمْ لِمُخَالَفَةِ الْبَاطِلِ وَاجْتِنَائِهِ ، وَفِي الْآخِرَةِ يَهْدِيهِمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الْمَوْصِلَ إِلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّاتِ وَيُزَحِّزُهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالذَّرَكَاتِ .

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٦٦﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ تَحَكُّمٌ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ : إِنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ ﴿ فِي مَرِيةٍ ﴾ أَي : فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، ﴿ مِّنْهُ ﴾ أَي : مِمَّا أَلْقَى الشَّيْطَانُ ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فَجَاءَةً ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا لِيلَةَ لَهُمْ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ تَحَكُّمٌ بَيْنَهُمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَلِكٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أَي : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَصَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَى مَا عَلِمُوا ، وَتَوَافَقَ قُلُوبُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أَي : لَهُمُ النَّعِيمُ الْمُقِيمُ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ وَلَا يَبِيدُ . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أَي : كَفَرَتْ قُلُوبُهُمْ بِالْحَقِّ وَجَحَدُوا بِهِ وَكَذَّبُوا بِهِ ، وَخَالَفُوا الرُّسُلَ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِهِمْ ﴿ فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أَي : مُقَابَلَةٌ اسْتِكْبَارِهِمْ وَإِنَائِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] أَي : صَاغِرِينَ .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٦٩﴾ لَيَدْخُلْنَهُمْ مَّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٧٠﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧١﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ، وَطَلَبًا لِمَا عِنْدَهُ ، وَتَرَكَ الْأَوْطَانَ

وَالْأَهْلِينَ وَالْحَلَائِنَ ، وَفَارَقَ بِلَادَهُ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُصْرَةَ لِدِينِ اللَّهِ ﴿ ثُمَّ قَتِلُوا ﴾ أَي : فِي الْجِهَادِ ﴿ أَوْ مَاتُوا ﴾ أَي : حَتَفَ أَنْفِهِمْ ، أَي : مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ عَلَى فُرْشِهِمْ فَقَدْ حَصَلُوا عَلَى الْأَجْرِ الْجَزِيلِ وَالنَّاءِ الْجَمِيلِ . ﴿ لَيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أَي : لَيَجْرِيَنَّ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ وَرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ مَا تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ﴿ لَيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ﴾ أَي : الْجَنَّةُ ﴿ لَيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ أَي : بِمَنْ يَهَاجِرُ وَيَجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أَي : يَحْلُمُ وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ لَهُمُ الذُّنُوبَ وَيَكْفُرُهَا عَنْهُمْ بِهَجْرَتِهِمْ إِلَيْهِ وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَيْهِ ، فَأَمَّا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ فَإِنَّهُ حَيٌّ عِنْدَ رَبِّهِ يَرْزُقُ . وَأَمَّا مَنْ تُوِّفِيَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ فَقَدْ تَصَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مَعَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ إِجْرَاءَ الرِّزْقِ عَلَيْهِ وَعَظِيمِ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿ ذَلِكِ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبْتَهَا عَلَى أَنَّهُ الْخَالِقُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَمَعْنَى إِيْلَاجِهِ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَالنَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، إِذْخَالُهُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا ، وَمِنْ هَذَا فِي هَذَا ، فَتَارَةً يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ ، كَمَا فِي الشَّتَاءِ ، وَتَارَةً يَطُولُ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ كَمَا فِي الصَّيْفِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أَي : سَمِيعٌ بِأَقْوَالِ عِبَادِهِ بَصِيرٌ بِهِمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي أَحْوَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ . وَلَمَّا بَيَّنَّ أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الوجودِ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ . قَالَ : ﴿ ذَلِكِ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أَي : الْإِلَهَ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ لِأَنَّهُ ذُو السُّلْطَانِ الْعَظِيمِ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ أَي : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ، وَكُلُّ مَا عُبدَ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى فَهُوَ بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ صَرًّا وَلَا تَعْمًا . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ وَهُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى ﴾ ، فَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَظَمِيَّتِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ

أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، فَإِنَّهُ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَتُمْطِرُ عَلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا ، وَهِيَ هَامِدَةٌ يَابِسَةٌ سَوْدَاءُ قَحْلَةٌ ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَتُضْيَعُ الْأَرْضُ مُخَضَّرَةً ﴾ أَيُّ : خَضِرَاءَ بَعْدَ يَبَاسِهَا وَمُحَوَّلًا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أَيُّ : عَلِيمٌ بِمَا فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَأَقْطَارِهَا وَأَجْزَائِهَا مِنَ الْحَبِّ وَإِنْ صَغُرَ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، فَيُوصِّلُ إِلَى كُلِّ مِنْهُ قِسْطَهُ مِنَ الْمَاءِ فَيُثْبِتُهُ بِهِ . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : مُلْكُهُ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ وَعَبِيدٌ لَدَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : مِنْ حَيَوَانٍ وَجَمَادٍ وَزُرُوعٍ وَثَمَارٍ ﴿ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ أَيُّ : بِتَسْخِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ ، أَيُّ فِي الْبَحْرِ الْعَجَاجِ وَتَلَاطُطِ الْأَمْوَاجِ ، تَجْرِي الْفُلُكُ بِأَهْلِهَا بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَرَفِقٍ وَتُؤَدِّهِ ، فَيَحْمِلُونَ فِيهَا مَا شَاءُوا مِنْ تِجَارَةٍ وَبِضَائِعٍ وَمَنَافِعَ ، مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَقَطِرُ إِلَى قَطِرٍ ، وَيَأْتُونَ بِمَا عِنْدَ أَوْلَيْكَ إِلَى هَؤُلَاءِ ، كَمَا ذَهَبُوا بِمَا عِنْدَ هَؤُلَاءِ إِلَى أَوْلَيْكَ ، مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَيَطْلُبُونَهُ وَيُرِيدُونَهُ ﴿ وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أَيُّ : لَوْ شَاءَ لَأَذِنَ لِلسَّمَاءِ فَسَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ فَهَلَكَ مَنْ فِيهَا ، وَلَكِنْ مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ يُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيُّ : مَعَ ظُلْمِهِمْ . ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ : كَيْفَ تَجْعَلُونَ لِلَّهِ أَنْدَادًا وَتَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ الْمُسْتَقِيلُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالتَّصَرُّفِ ؟ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ﴾ أَيُّ : خَلَقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا يُذَكَّرُ فَأَوْجَدَكُمْ ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ أَيُّ : جَاهِلٌ .

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ ۖ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ۚ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩﴾

يُنْخِرُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ قَوْمٍ مَنْسَكًا ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِي لِكُلِّ أُمَّةٍ نَبِيٌّ مَنْسَكًا . قَالَ : وَأَصْلُ الْمَنْسَكِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَعْتَادُهُ الْإِنْسَانُ وَيَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ ، إِمَّا لِحَرِّ أَوْ شَرٍّ ،

قَالَ : وَهَذَا سُمِّيَتْ مَنَاسِكُ الْحَجِّ بِذَلِكَ ؛ لِتُرْدَادِ النَّاسِ إِلَيْهَا وَعُكُوفِهِمْ عَلَيْهَا . فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ : لِكُلِّ أُمَّةٍ نَبِيٌّ جَعَلْنَا مَنَسَكًا فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ أَيُّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا ﴾ جَعَلًا قَدَرِيًّا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلِكُلِّ وَجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ ، وَهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ أَيُّ : فَأَعْلُوهُ ، فَالضَّمِيرُ هَهُنَا عَائِدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَهُمْ مَنَاسِكُ وَطَرَائِقُ ، أَيُّ : هَؤُلَاءِ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ هَذَا عَنْ قَدَرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ ، فَلَا تَتَأَثَّرُ بِمَنَازِعَتِهِمْ لَكَ وَلَا يَصْرِفُكَ ذَلِكَ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴾ أَيُّ : طَرِيقٍ وَاضِحٍ مُسْتَقِيمٍ مُوَصِّلٍ إِلَى الْمَقْصُودِ . وَإِنْ جَدَلُواكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيغُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ [الشورى : ١٥]

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى عِلْمُ الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا قَبْلَ وُجُودِهَا ، وَكَتَبَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَهُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ تُبَشِّرُونَ مِنَ ذَلِكَمُ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، فِيمَا جَهِلُوا وَكَفَرُوا وَعَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، يَعْنِي : حُجَّةً وَبُرْهَانًا ، وَهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أَيُّ : وَلَا عِلْمٌ لَهُمْ فِيمَا اخْتَلَقُوهُ وَاتَّفَعُّوهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ تَلَقَّوْهُ عَنْ آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا

حُجَّةٍ ، وَأَصْلُهُ مِمَّا سَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، وَرَیْنَهُ هُمْ ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ أَيُّ : مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فِيمَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ .
 ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِذَا تَنَزَّلْنَا نَبِّئُكَ ﴾ أَيُّ : وَإِذَا ذُكِرَتْ لَهُمْ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَالْحُجَجِ وَالِدَلَالِيلِ الْوَاضِحَاتِ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّ رُسُلَهُ الْكَرَامَ حَقٌّ وَصِدْقٌ ﴿ يَكَادُونَ بِالَّذِينَ يَثْلَوْنَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا ﴾ أَيُّ : يَكَادُونَ يُبَادِرُونَ الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ عَلَيْهِمْ بِالِدَلَالِيلِ الصَّحِيحَةِ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَيَسْتُطُونَ إِلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴾ قُلْ ﴾ أَيُّ : يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ : ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ كُرُ النَّارِ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيُّ : النَّارُ ، وَعَذَابُهَا وَنَكَالُهَا أَشَدُّ وَأَشَقُّ وَأَطْمٌ وَأَعْظَمُ مِمَّا تُخَوِّفُونَ بِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ عَلَى صَنِيعِكُمْ هَذَا أَعْظَمُ مِمَّا تَتَالَوْنَ مِنْهُمْ ، إِنْ نِلْتُمْ بِزَعْمِكُمْ وَإِرَادَتِكُمْ . ﴿ وَيَسْ أَلْمَصِيرُ ﴾ أَيُّ : وَيَسْ النَّارُ مُقِيلًا وَمَنْزِلًا وَمَرْجِعًا وَمَوْتًا وَمُقَامًا ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦]

يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۖ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٢٧﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مِنْبَهَا عَلَى حَقَارَةِ الْأَصْنَامِ وَسَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ ﴾ أَيُّ : لِمَا يَعْبُدُهُ الْجَاهِلُونَ بِاللَّهِ ، الْمُشْرِكُونَ بِهِ ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۖ ﴾ أَيُّ : أَنْصِتُوا وَتَفَهَّمُوا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ ﴾ أَيُّ : لَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ مَا تَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عَلَى أَنْ يَقْدِرُوا عَلَى خَلْقِ ذُبَابٍ وَاحِدٍ مَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَيْضًا : ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أَيُّ : هُمْ عَاجِزُونَ عَنْ خَلْقِ ذُبَابٍ وَاحِدٍ ، بَلْ أَبْلَغَ مِنْ ذَلِكَ عَاجِزُونَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ وَالْإِنْتِصَارِ مِنْهُ ، لَوْ سَلَبَهَا شَيْئًا مِنَ الَّذِي عَلَيْهَا مِنَ الطَّيِّبِ ، ثُمَّ أَرَادَتْ أَنْ تَسْتَنْقِذَهُ مِنْهُ لَمَا قَدَرَتْ عَلَى ذَلِكَ ، هَذَا وَالدُّبَابُ مِنْ أَوْعَافِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَأَحْقَرِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ . رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : الطَّالِبُ : الصَّنَمُ ، وَالْمَطْلُوبُ : الذُّبَابُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أَيُّ : مَا عَرَفُوا قَدْرَ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ حِينَ عَبْدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ مِنْ هَذِهِ النَّبِيِّ لَا تَقَاوِمُ الذُّبَابُ لِضَعْفِهَا وَعَجْزِهَا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْقَوِيُّ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُوهُ الْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] . وَقَوْلُهُ : ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أَيُّ : قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقَهْرُهُ وَعَلَبَهُ ، فَلَا يُنَاجِ وَلَا يُغَالِبُ ، لِعَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُخْتَارُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا فِيمَا يَشَاءُ مِنْ شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، وَمِنَ النَّاسِ لِإِبْلَاجِ رِسَالَاتِهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أَي : سَمِيعٌ لَأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، بَصِيرٌ بِهِمْ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ أَي : يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُ بِرُسُلِهِ فِيمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ ، فَلَا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ ، شَهِيدٌ عَلَى مَا يَقَالُ لَهُمْ ، حَافِظٌ لَهُمْ نَاصِرٌ لِحُجَّتِهِمْ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آزَكِعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

قَوْلُهُ : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ أَي : بِأَمْوَالِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ أَي : يَا هَذِهِ الْأُمَّةُ ، اللَّهُ اصْطَفَاكُمْ وَاخْتَارَكُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ وَفَضَّلَكُمْ وَشَرَّفَكُمْ وَخَصَّكُمْ بِأَكْرَمِ رُسُلٍ وَأَكْمَلِ شَرْعٍ ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أَي : مَا كَلَّفَكُمْ مَا لَا تُطِيقُونَ ، وَمَا أَلَزَمَكُمْ شَيْءٌ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرْجًا وَخُرْجًا ، فَالصَّلَاةُ الَّتِي أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ نَحْبٌ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعٌ ، وَفِي السَّفَرِ ثَلَاثٌ إِلَى اثْنَتَيْنِ ، وَفِي الْخَوْفِ يُصَلِّيَهَا بَعْضُ الْأَئِمَّةِ رَكْعَةً ، كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ وَتُصَلَّى رَجُلًا وَرَجُلَانًا ، مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرِ مُسْتَقْبِلِيهَا ، وَكَذَا فِي النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ إِلَى الْقِبْلَةِ وَغَيْرِهَا ، وَالْقِيَامُ فِيهَا يَسْقُطُ لِعُذْرِ الْمَرَضِ فَيُصَلِّيَهَا الْمَرِيضُ جَالِسًا ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الرُّخَصِ وَالتَّخْفِيفَاتِ فِي سَائِرِ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ يَعْنِي : مِنْ ضَيْقٍ . ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : نُصِبَ عَلَى تَقْدِيرٍ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أَي : مِنْ ضَيْقٍ ، بَلْ وَسَّعَهُ عَلَيْكُمْ كَمَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ اللَّهُ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ

فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَفِي الذِّكْرِ ، ﴿ وَفِي هَذَا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا جَعَلْنَاكُمْ هَكَذَا أُمَّةً وَسَطًا عُدُولًا خَيْرًا ، مَشْهُودًا بَعْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ ، لَتَكُونُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ مُعْتَرِفَةٌ يَوْمَئِذٍ بِسَيَادَتِهَا وَفَضْلِهَا عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ سِوَاهَا ، فَلِهَذَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَنَّ الرُّسُلَ بَلَّغَتْهُمْ رَسُولَةَ رَبِّهِمْ ، وَالرَّسُولُ يَشْهَدُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنَّهُ بَلَّغَهَا ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أَيُّ : قَابِلُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ بِالْقِيَامِ بِشُكْرِهَا ، فَأَدُّوا حَقَّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي أَدَاءِ مَا افْتَرَضَ ، وَطَاعَةَ مَا أَوْجَبَ ، وَتَرَكَ مَا حَرَّمَ ، وَمِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ إِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ : وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى خَلْقِ اللَّهِ بِمَا أَوْجَبَ لِلْفَقِيرِ عَلَى الْغَنِيِّ مِنْ إِخْرَاجِ جُزْءٍ نَزَرَ مِنْ مَالِهِ فِي السَّنَةِ لِلضُّعْفَاءِ وَالْمَحَاوِجِ . ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ﴾ أَيُّ : اعْتَصِدُوا بِاللَّهِ ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَتَأَيَّدُوا بِهِ ﴿ هُوَ مَوْلَانَكُمْ ﴾ أَيُّ : حَافِظُكُمْ وَنَاصِرُكُمْ ، وَمُظَفَّرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ﴿ فَبِعَمِّ أَلْمَوْلَى وَنِعَمِ النَّصِيرِ ﴾ يَعْنِي : نِعَمَ الْوَلِيِّ وَنِعَمَ النَّاصِرِ مِنَ الْأَعْدَاءِ .

هَذَا آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَجِّ وَاللَّهُ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِفَافٍ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ آتَنَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَيُّ : قَدْ فَازُوا وَسَعِدُوا وَحَصَلُوا عَلَى الْفَلَاحِ ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ . ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ خَائِفُونَ سَاكِنُونَ ، وَقِيلَ : الْخُشُوعُ : خُشُوعُ الْقَلْبِ . وَالْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ لِمَنْ فَرَّغَ قَلْبُهُ لَهَا ، وَاشْتَغَلَ

بِهَا عَمَّا عَدَاَهَا ، وَآثَرَهَا عَلَى غَيْرِهَا ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ رَاحَةً لَهُ وَفَرَّةٌ عَيْنٍ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « بَا بِلَالُ أَرَحْنَا بِالصَّلَاةِ » . وَقَوْلُهُ : « وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ » أَي : عَنِ الْبَاطِلِ ، وَهُوَ يَشْمَلُ الشَّرْكَ ، وَالْمَعَاصِي ، وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ .

وَقَوْلُهُ : « وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ » الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالزَّكَاةِ هَهُنَا زَكَاةُ الْأَمْوَالِ ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَإِنَّمَا فُرِضَتِ الزَّكَاةُ بِالْمَدِينَةِ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الَّتِي فُرِضَتْ بِالْمَدِينَةِ إِنَّمَا هِيَ ذَاتُ النُّصَبِ وَالْمَقَادِيرِ الْخَاصَّةِ ، وَإِلَّا فَالظَّاهِرُ أَنَّ أَصْلَ الزَّكَاةِ كَانَ وَاجِبًا بِمَكَّةَ ، وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنَّ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالزَّكَاةِ هَهُنَا زَكَاةُ النَّفْسِ مِنَ الشَّرْكِ وَالذَّنْسِ كَقَوْلِهِ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » ﴿١٠﴾ وَقَدْ حَاطَ مَنْ دَسَّهَا ﴿٩﴾ [الشمس : ٩-١٠] ، وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنَّ يَكُونَ كِلَا الْأَمْرَيْنِ مُرَادًا وَهُوَ زَكَاةُ النَّفُوسِ وَزَكَاةُ الْأَمْوَالِ ، فَإِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ زَكَاةِ النَّفُوسِ ، وَالْمُؤْمِنُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي يَتَعَاطَى هَذَا وَهَذَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » ﴿١١﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿١٢﴾ فَمَنْ أَتَبَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿١٣﴾ أَي : وَالَّذِينَ قَدْ حَفِظُوا فُرُوجَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ ، فَلَا يَفْعُونَ فِيهَا نَبَاهُهُمُ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ زَنًا وَلِوَاطٍ ، لَا يَقْرُبُونَ سِوَى أَزْوَاجِهِمُ الَّتِي أَحَلَّهَا اللَّهُ لَهُمْ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنَ السَّرَارِيِّ ، وَمِنْ تَعَاطِي مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُ فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ وَلَا حَرَجَ ، وَلِهَذَا قَالَ : « فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ » ﴿١٢﴾ فَمَنْ أَتَبَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ ﴿١٣﴾ أَي : غَيْرُ الْأَزْوَاجِ وَالْإِمَاءِ ﴿١٤﴾ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿١٥﴾ أَي : الْمُعْتَدُونَ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَمَنْ وَافَقَهُ عَلَى تَحْرِيمِ الاسْتِمْنَاءِ بِالْيَدِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿١٧﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴿١٨﴾ قَالَ : فَهَذَا الصَّنِيعُ خَارِجٌ عَنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « فَمَنْ أَتَبَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » . وَقَوْلُهُ : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » ﴿١٩﴾ أَي : إِذَا أُؤْتِنُوا لَمْ يُخُونُوا بَلْ يُؤَدُّونَهَا إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا عَاهَدُوا أَوْ عَاقَدُوا أَوْفُوا بِذَلِكَ . « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ حَافِظُونَ » ﴿٢٠﴾ أَي : يُوَاطِئُونَ عَلَيْهَا فِي مَوَاقِيتِهَا .

وَلَمَّا وَصَفَهُمْ تَعَالَى بِالْفَيِّامِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ وَالْأَفْعَالِ الرَّشِيدَةِ ، قَالَ : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدُوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاَسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ » . وَقَالَ ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلَانِ : مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ ، فَإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ » فَذَلِكَ قَوْلُهُ : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٩﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿٢١﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ - وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمٍ مَسْنُونٍ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : « مِنْ سُلَالَةٍ » أَي : مِنْ مَنِيَّ آدَمَ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : إِنَّمَا سُمِّيَ آدَمُ طِينًا لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْهُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : اسْتَلَّ آدَمُ مِنَ الطِّينِ .

وَقَوْلُهُ : « ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً » هَذَا الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى جِنْسِ الْإِنْسَانِ « ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً » أَي : ثُمَّ صَيَّرْنَا النُّطْفَةَ ، وَهِيَ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ وَهُوَ ظَهْرُهُ ، وَتَرَائِبُ الْمَرْأَةِ وَهِيَ عِظَامُ صَدْرِهَا مَا بَيْنَ التَّرْقُوتِ إِلَى السَّرَّةِ ، فَصَارَتْ عَلَقَةً حُمْرَاءَ عَلَى شَكْلِ الْعَلَقَةِ مُسْتَطِيلَةً ، قَالَ عِكْرِمَةُ : وَهِيَ دَمٌ « فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً » وَهِيَ قِطْعَةٌ كَالْبُضْعَةِ مِنَ اللَّحْمِ لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَحْطِيطُ « فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا » يَعْنِي : شَكَّلْنَاهَا ذَاتَ رَأْسٍ وَيَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ بِعِظَامِهَا وَعَصَبِهَا وَعُروِقِهَا ، وَقَرَأَ آخَرُونَ : « (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا) » قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَهُوَ عِظْمُ الصُّلْبِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا » أَي : جَعَلْنَا عَلَى ذَلِكَ مَا يَسْتُرُهُ وَيَشُدُّهُ وَيَقْوِيهِ ، « ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » أَي : ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوحَ فَتَحَرَّكَ وَصَارَ خَلْقًا آخَرَ ، ذَا سَمْعٍ وَبَصَرٍ وَإِدْرَاكِ وَحَرَكَةٍ وَاضْطِرَابٍ « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » . عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ وَكَلَّ بِالرَّحِمِ مَلَكًا فَيَقُولُ : أَيُّ رَبِّ نُطْفَةٍ ، أَيُّ رَبِّ عَلَقَةٍ ، أَيُّ رَبِّ مُضْغَةٍ ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ خَلْقَهَا قَالَ : أَيُّ رَبِّ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ ؟ قَالَ : فَذَلِكَ يُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ » .

وَقَوْلُهُ : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » يَعْنِي : حِينَ ذَكَرَ قُدْرَتَهُ وَلُطْفَهُ فِي خَلْقِ هَذِهِ النُّطْفَةِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ . وَشَكَلَ إِلَى شَكْلٍ ، حَتَّى تَصَوَّرَتْ إِلَى مَا صَارَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِنْسَانِ السَّوِيِّ الْكَامِلِ الْخَلْقِ قَالَ : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

وَقَوْلُهُ : « ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ » يَعْنِي : بَعْدَ هَذِهِ النَّشْأَةِ الْأُولَى مِنَ الْعَدَمِ تَصِيرُونَ إِلَى الْمَوْتِ « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ » يَعْنِي : النَّشْأَةُ الْآخِرَةُ ، « ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ » يَعْنِي : يَوْمَ الْمَعَادِ وَقِيَامِ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ ، فَيَحَاسِبُ الْخَلَائِقَ وَيُؤَقِّي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ ، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿٢٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَ الْإِنْسَانِ عَطَفَ بِذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ. وَقَوْلُهُ: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَهَذِهِ، كَقَوْلِهِ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أَيُّ: وَيَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَا كُنْتُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَحْجُبُ عَنْهُ سَمَاءُ سَمَاءٍ، وَلَا أَرْضُ أَرْضًا، وَلَا جَبَلٌ إِلَّا يَعْلَمُ مَا فِي وَعْرِهِ، وَلَا بَحْرٌ إِلَّا يَعْلَمُ مَا فِي قَعْرِهِ، يَعْلَمُ عَدَدَ مَا فِي الْجِبَالِ وَالتَّلَالِ وَالرَّمَالِ وَالْبِحَارِ وَالْقَفَارِ وَالْأَشْجَارِ ﴿وَمَا تَنْسُقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحٍ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَنِيعٍ لِلْأَكْلِيلِ ﴿٣٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّظْفِرُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٣١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عَبْدِهِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، فِي إِنْزَالِهِ الْقَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ بِقَدَرٍ أَيُّ: بِحَسَبِ الْحَاجَةِ لَا كَثِيرًا فَيُفْسِدُ الْأَرْضَ وَالْعُمْرَانَ، وَلَا قَلِيلًا فَلَا يَكْفِي الزُّرُوعَ وَالثَّمَارَ، بَلْ بِقَدَرِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ مِنَ السَّقْيِ وَالشُّرْبِ وَالِإِنْتِفَاعِ بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: جَعَلْنَا الْمَاءَ إِذَا نَزَلَ مِنَ السَّحَابِ يُخْلَدُ فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ قَابِلِيَّةً لَهُ، وَتَشْرِبُهُ وَيَتَغَدَّى بِهِ مَا فِيهَا مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى. ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أَيُّ: لَوْ شِئْنَا أَنْ لَا تُمَطَّرَ لَفَعَلْنَا، وَلَوْ شِئْنَا لَصَرَفْنَاهُ عَنْكُمْ إِلَى السَّبَاحِ وَالْبَرَارِيِّ وَالْقَفَارِ لَفَعَلْنَا، وَلَكِنْ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ يُنْزِلُ عَلَيْكُمْ الْمَاءَ مِنَ السَّحَابِ عَذْبًا فُرَاتًا زُلَالًا، فَيُسْكِنُهُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْلُكُهُ يَنْابِيعَ فِي الْأَرْضِ، فَيَفْتَحُ الْعُيُونَ وَالْأَنْهَارَ، وَيَسْقِي بِهِ الزُّرُوعَ وَالثَّمَارَ، وَتَشْرَبُونَ مِنْهُ وَدَوَابُّكُمْ وَأَنْعَامُكُمْ، وَتَغْتَسِلُونَ مِنْهُ وَتَتَطَهَّرُونَ مِنْهُ وَتَنْتَضِفُونَ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ﴾ يَعْنِي: فَأَخْرَجْنَا لَكُمْ بِمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ جَنَّاتٍ، أَيُّ: بَسَاتِينَ، أَيُّ: ذَاتَ مَنْظَرٍ حَسَنٍ. ﴿مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ﴾ أَيُّ: فِيهَا نَخِيلٌ وَأَعْنَابٌ ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحٍ كَثِيرَةٌ﴾ أَيُّ: مِنْ جَمِيعِ الثَّمَارِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أَنَّهُ مُعْطُوفٌ عَلَى شَيْءٍ مَُّقَدَّرٍ، تَقْدِيرُهُ: تَنْظُرُونَ إِلَى حُسْنِهِ وَنُضْجِهِ، وَمِنْهُ تَأْكُلُونَ. ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ﴾ يَعْنِي: الزَّيْتُونَةَ،

وَالطُّورُ : هُوَ الْجَبَلُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا يُسَمَّى طُورًا إِذَا كَانَ فِيهِ شَجَرٌ ، فَإِنْ عُرِيَ عَنْهَا سُمِّيَ جَبَلًا لَا طُورًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، وَطُورٌ سَيْنَاءُ : هُوَ طُورٌ سَيْنِيْن ، وَهُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كُلَّمَا عَلَيْهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمَا حَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي فِيهَا شَجَرُ الزَّيْتُونِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : الْبَاءُ زَائِدَةٌ ، وَتَقْدِيرُهُ : تَنْبُتُ الذَّهْنُ ، وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ يَصْنَعُ الْفِعْلَ فَتَقْدِيرُهُ : تَخْرُجُ بِالذَّهْنِ ، أَوْ تَأْتِي بِالذَّهْنِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَصَبَغِ ﴾ أَيِ : أَدَمَ ﴿ لَلْكَالِينَ ﴾ أَيِ : فِيهَا مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنَ الذَّهْنِ وَالْإِصْطِبَاحِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّمَنِ اسْتَعْمَلَ ﴾ بِمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمُ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿ ١٦ 〉 وَعَلَى الْفَلَكَ تَحْمَلُونَ ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى مَا جَعَلَ لِحَلْفِهِ فِي الْأَنْعَامِ مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا الْحَارِجَةِ مِنْ بَيْنِ قَرْنَيْ وَدَمَ ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ حَمَلَانِهَا ، وَيَلْبَسُونَ مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ، وَيَرْكَبُونَ ظُهُورَهَا ، وَيَحْمَلُونَهَا الْأَحْمَالُ الثَّقَالُ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ عَنْهُمْ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿ ١٧ 〉 فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿ ١٨ 〉 إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَصُّوهُ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿ ١٩ 〉

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ لِيُنْذِرَهُمْ عَذَابَ اللَّهِ وَبَأْسَهُ الشَّدِيدَ ، وَانْتِقَامَهُ مِنْ أَشْرَكِيَّةٍ بِهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ﴿ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَيِ : أَلَا تَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ فِي إِشْرَاحِكُمْ بِهِ ؟ فَقَالَ الْمَلَأُ وَهُمْ السَّادَةُ وَالْأَكَابِرُ مِنْهُمْ : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ يَعْنُونَ يَتَرَفَّعُ عَلَيْكُمْ ، وَيَتَعَاطَى بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ وَهُوَ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، فَكَيْفَ أَوْحِيَ إِلَيْهِ دُونَكُمْ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا ﴾ أَيِ : لَوْ أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ نَبِيًّا لَبَعَثَ مَلَكًا مِنْ عِنْدِهِ وَلَمْ يَكُنْ بَشَرًا ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ أَيِ : بِنَبِيِّ النَّبَشَرِ ﴿ فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ بِهَذَا أَسْلَافِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ فِي الدُّهُورِ الْمَاضِيَةِ ، ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أَيِ : مَجْنُونٌ فِيمَا يَزْعُمُهُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَاخْتَصَّصَهُ مِنْ بَيْنِكُمْ بِالْوَحْيِ ﴿ فَتَرَصُّوهُ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أَيِ : انْتَظَرُوا بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ، وَاصْبِرُوا عَلَيْهِ مُدَّةً حَتَّىٰ تَسْتَرْجِعُوا مِنْهُ .

قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿ ٢٠ 〉 فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمرُنَا وَقَارَ النَّارُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ

عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿١٧﴾ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٢٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ دَعَا رَبَّهُ لِيَسْتَنْصِرَهُ عَلَى قَوْمِهِ ، ﴿ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴾ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِصُنْعَةِ السَّفِينَةِ وَإِحْكَامِهَا وَإِتْقَانِهَا ، وَأَنْ يَحْمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، أَيْ : ذَكَرًا وَأُنْثَى مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالشَّجَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَأَنْ يَحْمَلَ فِيهَا أَهْلَهُ ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنَ اللَّهِ بِالْهَلَاكِ ، وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهِ كَانِبِهِ وَزَوْجَتِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ﴿ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ أَيْ : عِنْدَ مُعَايَنَةِ انْزَالِ الْمَطَرِ الْعَظِيمِ ، لَا تَأْخُذْنِكَ رَأْفَةُ بِقَوْمِكَ وَشَفَقَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَطَمَعٌ فِي تَأْخِيرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ، فَإِنِّي قَدْ قَضَيْتُ أَنَّهُمْ مُغْرَقُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ هُودٍ بِمَا يُغْنِي عَنْ إِعَادَةِ ذَلِكَ هَهُنَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وَقَدْ امْتَثَلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي هَذَا الصَّنِيعِ - وَهُوَ إِنْجَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِهْلَاكُ الْكَافِرِينَ - لَآيَاتٍ أَيْ : لِحُجْجٍ وَدَلَالَاتٍ وَاضِحَاتٍ عَلَى صِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أَيْ : لِمُخْتَبِرِينَ لِلْعِبَادِ بِإِرْسَالِ الْمُرْسَلِينَ .

ثُمَّ أُنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٢١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٢٤﴾ أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٣٠﴾ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنشَأَ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ قَرْنًا آخَرِينَ ، قِيلَ الْمُرَادُ بِهِمْ : عَادٌ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَخْلَفِينَ بَعْدَهُمْ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِؤُلَاءِ : ثَمُودٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ وَأَبَوْا عَنِ اتِّبَاعِهِ ؛ لِكَوْنِهِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ ، وَاسْتَنَكَفُوا عَنِ اتِّبَاعِ رَسُولِ بَشَرِيٍّ ، فَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ فِي الْقِيَامَةِ ، وَأَنكَرُوا الْمَعَادَ الْجَنَائِيَّ ، وَقَالُوا : ﴿ أَيْعِدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿ أَيُّ : بَعِيدٌ بَعِيدٌ ذَلِكَ ، إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أَيُّ : فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالنَّذَارَةِ وَالْإِخْبَارِ بِالْمَعَادِ ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿ أَيُّ : اسْتَفْتَحَ عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ ، وَاسْتَنْصَرَ رَبَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَأَجَابَ دُعَاءَهُ . ﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿ أَيُّ : بِمُخَالَفَتِكَ وَعِنَادِكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ ﴾ فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴿ أَيُّ : وَكَانُوا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ مِنْ اللَّهِ ، بِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً ﴾ أَيُّ : صَرَعَى هَلَكَى كَغَنَاءِ السَّيْلِ ﴾ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف : ٧٦] أَيُّ : بِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَمُخَالَفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، فَلْيَحْذَرِ السَّامِعُونَ أَنْ يُكَذَّبُوا رَسُولَهُمْ .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿١٧﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ أَيُّ : أُنْمَا وَخَلَائِقُ ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴾ يَعْنِي : بَلْ يُؤْخَذُونَ عَلَى حَسَبِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمَحْفُوظِ ، وَعِلْمُهُ قَبْلَ كَوْنِهِمْ أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ ، وَقَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَخَلْفًا بَعْدَ سَلَفٍ ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَرَا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنِي يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . ﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ يَعْنِي : جُمُهورُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ . ﴿ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ﴾ أَيُّ : أَهْلَكْنَاهُمْ ، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ أَيُّ : أَخْبَارًا وَأَحَادِيثَ لِلنَّاسِ .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٢١﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٢٢﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رَسُولَهُ مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِالْآيَاتِ وَالْحُجَجِ الدَّامِغَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهَا وَالْإِنْقِيَادِ لَأَمْرِهَا لِكُونِهَا بَشَرَيْنِ ، كَمَا أَنْكَرَتِ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةَ بَعَثَةَ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَأَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ وَأَغْرَقَهُمْ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ أَجْمَعِينَ ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى الْكِتَابَ - وَهُوَ التَّوْرَةُ - فِيهَا أَحْكَامُهُ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَصَمَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَالْقَبْطَ وَأَخَذَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ ، وَبَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ التَّوْرَةَ لَمْ يَهْلِكْ أُمَّةٌ بِعَامَّةٍ ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الفصل: ٤٣] .

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّهُ جَعَلَهَا آيَةً لِلنَّاسِ ، أَيِ : حُجَّةً قَاطِعَةً عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ ، فَإِنَّهُ خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ آبٍ وَلَا أُمٍّ ، وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى ، وَخَلَقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ ، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ النَّاسِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ الرِّبْوَةُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِيهِ النَّبَاتُ . ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ ذَاتِ خِصْبٍ ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ يَعْنِي : مَاءً ظَاهِرًا ، وَقِيلَ : ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ الْمَاءُ الْجَارِي ، وَقِيلَ : ﴿ إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ هُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ فَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - هُوَ الْأَظْهَرُ ؛ لِأَنَّهُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ، وَالْقُرْآنُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَهَذَا أَوْلَى مَا يُفَسَّرُ بِهِ ، ثُمَّ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ ، ثُمَّ الْأَثَارُ .

يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٣﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٤﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٥﴾ أَتُحْسِبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٦﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُرْسَلِينَ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَجْمَعِينَ - بِالْأَكْلِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْقِيَامِ بِالصَّالِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ ، فَذَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْحَلَالَ عَوْنٌ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَقَامَ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِهَذَا أَنَّهُمُ الْقِيَامُ ، وَجَعَلُوا بَيْنَ كُلِّ خَيْرٍ قَوْلًا وَعَمَلًا وَدَلَالَةً وَنُصْحًا فَجَزَاهُمْ اللَّهُ عَنِ الْعِبَادِ خَيْرًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أَيِ : دِينُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ

﴿يَنْ وَاحِدٌ وَمِلَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ^(١)، وَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مَنصُوبٌ عَلَى الْحَالِ. ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أَيِ: الْأُمَمِ الَّذِينَ بُعِثَتْ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أَيِ: يَفْرَحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ، وَلِهَذَا قَالَ مُتَهَدِّدًا هُمْ وَمُتَوَاعِدًا. ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ أَيِ: فِي غِيْهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أَيِ: إِلَىٰ حِينٍ حِينِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤُودًا﴾ [الطارق: ١٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَلِيَهُمْ أَلْمَلٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣] وَقَوْلُهُ: ﴿أُحْسِنُونَ أَنْمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَعْنِي: أَيُظَنُّ هَؤُلَاءِ الْمَعْرُورُونَ أَنَّ مَا نُعْطِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِكِرَامَتِهِمْ عَلَيْنَا وَمَعَزَتِهِمْ عِنْدَنَا؟ كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥] لَقَدْ أَخْطَأُوا فِي ذَلِكَ وَخَابَ رَجَاؤُهُمْ، بَلْ إِنَّمَا نَفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا وَإِنْظَارًا وَإِمْلَاءً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لَيَزِيدَاوَا إِنَّمَا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَأَمْلِي لَهُمْ [القلم: ٤٤-٤٥]. وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاوَا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

بِقَوْلِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أَيِ: هُمْ مَعَ إِحْسَانِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمْ الصَّالِحِ مُشْفِقُونَ مِنَ اللَّهِ، خَائِفُونَ مِنْهُ، وَجُلُونَ مِنْ مُكْرِهِ بِهِمْ، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيِ: يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ الْكُونِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أَيِ: لَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، بَلْ يُوحِّدُونَهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَحَدًا صَمَدًا لَا يَتَّخِذُ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا، وَأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا كُفَّاءَ لَهُ. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاوَا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أَيِ: يُعْطُونَ الْعَطَاءَ وَهُمْ خَائِفُونَ وَجُلُونَ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُمْ؛ لِخَوْفِهِمْ أَنْ يَكُونُوا قَدْ قَصَّرُوا فِي الْقِيَامِ بِشُرُوطِ الْإِعْطَاءِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِشْفَاقِ وَالِإِحْتِيَاطِ.

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿ وَالَّذِينَ يَأْتُوا وَعُلُوهُمُ وَجَلَةٌ ﴾ هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرِبُ الْخَمْرَ ، وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ ﷻ ؟ قَالَ : « لَا يَا بِنْتُ الصَّدِيقِ ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ ﷻ » .

وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا مِكْتَبٌ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ ﴿٣٦﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِمَّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٣٨﴾ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٤٠﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ عَذَابِهِ فِي شَرِّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا ، أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، أَيُّ إِلَّا مَا تُطِيقُ حَمْلَهُ وَالْقِيَامَ بِهِ ، وَأَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحَاسِبُهُمْ بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَتَبَهَا عَلَيْهِمْ فِي كِتَابٍ مَّسْطُورٍ لَا يَضِيعُ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَدَيْنَا مِكْتَبٌ بِالْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : كِتَابِ الْأَعْمَالِ ﴿ وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يُبْخَسُونَ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، وَأَمَّا السَّيِّئَاتُ فَيَعْفُو وَيَصْفَحُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ أَيُّ : فِي غَفْلَةٍ وَضَلَالَةٍ مِنْ هَذَا ، أَيُّ : الْقُرْآنَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ أَعْمَلُ مِمَّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴾ قِيلَ : ﴿ وَهُمْ أَعْمَلُ ﴾ أَيُّ : سَيِّئَةٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ ﴿ الشَّرُّ ﴾ يَعْنِي : الشَّرُّ ﴿ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴾ لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ وَهُمْ أَعْمَلُ ﴾ مِمَّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ أَيُّ : قَدْ كُتِبَتْ عَلَيْهِمْ أَعْمَالُ سَيِّئَةٍ لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا قَبْلَ مَوْتِهِمْ لَا مَحَالَةَ ، لِتَحَقِّقَ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ قَوِيٌّ حَسَنٌ . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴾ يَعْنِي : حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ مُتْرَفِيهِمْ - وَهُمْ السُّعَدَاءُ الْمُتَعَمِّمُونَ فِي الدُّنْيَا - عَذَابُ اللَّهِ وَبَأْسُهُ وَنَقَمَتُهُ بِهِمْ ﴿ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴾ أَيُّ : يَصْرُخُونَ وَيَسْتَعْثِفُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يُجِيرُكُمْ أَحَدٌ مَّا حَلَّ بِكُمْ ، سَوَاءٌ جَارَتْكُمْ أَوْ سَكَتُمْ لَا مَحِيدَ وَلَا مَنَاصَ وَلَا وَرَرَ لَزِمَ الْأَمْرُ ، وَوَجَبَ الْعَذَابُ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَكْبَرَ ذُنُوبِهِمْ . فَقَالَ : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ أَيُّ : إِذَا دُعِيتُمْ أَبَيْتُمْ وَإِنْ طُلِبْتُمْ ائْتَنَعْتُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ فِي تَفْسِيرِهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ مُسْتَكْبِرِينَ حَالٌ مِنْهُمْ حِينَ نُكُوصِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَإِبَائِهِمْ إِيَّاهُ ، اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِ وَاحْتِقَارًا لَهُ وَلَا هِلَةَ ، فَعَلَىٰ هَذَا

الضَّامِرُ فِي ﴿بِهِ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ الْحَرَمُ بِمَكَّةَ ، ذُمُّوا ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ فِيهِ بِالْهَجْرِ مِنَ الْكَلَامِ . الثَّانِي : أَنَّهُ ضَمِيرٌ لِلْقُرْآنِ كَانُوا يُسَمُّونَ وَيَذْكُرُونَ الْقُرْآنَ بِالْهَجْرِ مِنَ الْكَلَامِ : إِنَّهُ سِحْرٌ ، إِنَّهُ شَعْرٌ ، إِنَّهُ كِهَانَةٌ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ . وَالثَّلَاثُ : أَنَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانُوا يَذْكُرُونَهُ فِي سَمَرِهِمْ بِالْأَقْوَالِ الْفَاسِدَةِ ، وَيَضْرِبُونَ لَهُ الْأَمْثَالَ الْبَاطِلَةَ مِنْ أَنَّهُ شَاعِرٌ ، أَوْ كَاهِنٌ ، أَوْ سَاحِرٌ ، أَوْ كَذَّابٌ ، أَوْ مَجْنُونٌ ، فَكُلُّ ذَلِكَ بَاطِلٌ ، بَلْ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الْحَرَمِ صَاحِرِينَ أَذِلَّةً ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أَيُّ : بِالْبَيْتِ يَفْتَخِرُونَ بِهِ ، مُعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ وَلَيْسُوا بِهِ .

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٢٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كِرْهُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴿٣١﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُودُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عَدَمِ تَفْهَمِهِمْ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَتَدَبُّرِهِمْ لَهُ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ خُصُّوا بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي لَمْ يُنْزَلْ عَلَى رَسُولٍ أَكْمَلَ مِنْهُ وَلَا أَشْرَفَ ، لَا سِوَا آبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْهُمْ كِتَابٌ ، وَلَا أَتَاهُمْ نَذِيرٌ ، فَكَانَ اللَّاتِيئُ بِهِؤْلَاءِ أَنْ يُقَابِلُوا النِّعْمَةَ الَّتِي أَسَدَاهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَبُولِهَا ، وَالْقِيَامَ بِشُكْرِهَا وَتَفْهَمِهَا وَالْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهَا آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ، كَمَا فَعَلَهُ النَّجَبَاءُ مِنْهُمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَاتَّبَعَ الرَّسُولَ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ . ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَى الْكَافِرِينَ مِنْ قُرَيْشٍ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أَيُّ : أَفَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَصِيَانَتَهُ الَّتِي نَشَأَ بِهَا فِيهِمْ ؟ : أَيُّ أَفَيَقْدِرُونَ عَلَى إِنكَارِ ذَلِكَ وَالْمُبَاهَاةِ فِيهِ ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يَحْكِي قَوْلَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ تَقَوَّلَ الْقُرْآنَ أَيُّ : افْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ أَنَّ بِهِ جُنُونًا لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ ، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تُؤْمِنُ بِهِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بُطْلَانَ مَا يَقُولُونَهُ فِي الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ أَتَاهُمْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ مَا لَا يُطَاقُ وَلَا يُدَافَعُ ، وَقَدْ حَدَّاهُمْ وَجَمَعَ أَهْلَ الْأَرْضِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَبَدَ الْأَبَدِينَ ، وَلِهَذَا

قَالَ : ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرَهُونَ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ جُمْلَةً حَالِيَّةً ، أَيْ فِي حَالَةِ كَرَاهَةِ أَكْثَرِهِمْ لِلْحَقِّ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً مُسْتَأْنَفَةً ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ قِيلَ : الْحَقُّ هُوَ اللَّهُ ﷻ ، وَالْمُرَادُ لَوْ أَجَابَهُمُ اللَّهُ إِلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَوَى ، وَشَرَعَ الْأُمُورَ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ ﴿ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أَيْ : لِفَسَادِ أَهْوَائِهِمْ وَاخْتِلَافِهَا . ﴿ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنَ ﴿ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْرٌ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ قَالَ الْحَسَنُ : أَجْرًا ، وَقَالَ قَتَادَةُ : جُعَلًا ﴿ فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ ﴾ أَيْ : أَنْتَ لَا تَسْأَلُهُمْ أَجْرَةً وَلَا جُعَلًا وَلَا شَيْئًا عَلَى دَعْوَتِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الْهُدَى ، بَلْ أَنْتَ فِي ذَلِكَ تَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ جَزِيلَ ثَوَابِهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ [سبا : ٤٧] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِلَيْكَ لَنَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَكُوبُونَ ﴾ أَيْ : لَعَادِلُونَ جَائِرُونَ مُنْحَرِفُونَ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : نَكَبْتُ فُلَانًا عَنِ الطَّرِيقِ إِذَا زَاغَ عَنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يُخْرِجُ تَعَالَى عَنْ غِلْظِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ بِأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ عَنْهُمْ الضَّرَّ وَأَفْهَمَهُمُ الْقُرْآنَ لَمَا انْقَادُوا لَهُ وَلَا اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، فَهَذَا مِنْ بَابِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِمَا لَا يَكُونُ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ .

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ أَيْ : ابْتَلَيْنَاهُمْ بِالْمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أَيْ : فَمَا رَدَّهُمْ ذَلِكَ عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُخَالَفَةِ ، بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى غِيهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ أَيْ : مَا حَشَعُوا ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أَيْ : مَا دَعُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنعام : ٤٣] وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أَيْ : حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ

أَمَرَ اللَّهُ وَجَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً فَاخْذَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أُبْلِسُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ، وَأَيْسُوا مِنْ كُلِّ رَاحَةٍ ، وَانْقَطَعَتْ أَمَانُهُمْ وَرَجَاؤُهُمْ .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ جَعَلَ لَهُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، وَهِيَ الْعُقُولُ وَالْفُهُومُ الَّتِي يَذْكُرُونَ بِهَا الْأَشْيَاءَ ، وَيَعْتَبِرُونَ بِهَا فِي الْكُونِ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ الْفَاعِلُ الْمُخْتَارُ لِمَا يَشَاءُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أَيُّ : مَا أَقَلَّ شُكْرَكُمْ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ فِي بُرْئِهِ الْحَلِيقَةَ وَذَرِيَّتِهِ هُمْ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْسَابِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، فَلَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا وَلَا ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى وَلَا جَلِيلًا وَلَا حَقِيرًا إِلَّا أَعَادَهُ كَمَا بَدَأَهُ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّى - وَبِئْسَ - أَيُّ : يُخَيِّبُ الرَّمَمَ وَبِئْسَ الْأَمَمَ ﴾ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَيُّ وَعَنْ أَمْرِهِ تَسْخِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، كُلُّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا يَتَعَاقَبَانِ لَا يَفْتَرَانِ وَلَا يَفْتَرِقَانِ بِرَمَانٍ غَيْرِهِمَا كَقَوْلِهِ ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ [يس : ٤٠] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيُّ : أَفَلَيْسَ لَكُمْ عَقُولٌ تَذُكُّكُمْ عَلَى الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الَّذِي قَدْ فَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَعَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَخَضَعَ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ ، ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْ مُنْكَرِي الْبَعْثِ الَّذِينَ أَشْبَهُوا مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ . ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ ١٠٠ قَالُوا أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ يَعْنِي يَسْتَبْعِدُونَ وَفُتُوعَ ذَلِكَ بَعْدَ صَيُورَتِهِمْ إِلَى الْبَلَى ﴿ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَدْنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ : الْإِعَادَةُ مُحَالٌ ، إِنَّمَا يُخْبِرُ بِهَا مَنْ تَلَقَّاهَا عَنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ وَاخْتِلَافِهِمْ .

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٠٢﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٤﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿١٠٦﴾ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾

يَقَرُّ تَعَالَى وَحْدَانِيَّتَهُ وَاسْتِقْلَالَهُ بِالْخَلْقِ وَالتَّصَرُّفِ وَالْمُلْكِ ؛ لِيُرْشِدَ إِلَى أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَلَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ الْمُعْتَرِفِينَ بِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا ، مَعَ هَذَا فَقَدْ

أَشْرَكُوا مَعَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ فَعَبَدُوا غَيْرَهُ مَعَهُ مَعَ اعْتِرَافِهِمْ أَنَّ الَّذِينَ عَبَدُوهُمْ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَلَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ، وَلَا يَسْتَبْدُونَ شَيْئًا ، بَلِ اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يُقَرَّبُونَ إِلَيْهِ زُلْفَى ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٢٣] ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ أَيُّ : مَنْ مَالِكُهَا الَّذِي خَلَقَهَا وَمَنْ فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتَاتِ وَالشَّجَرَاتِ وَسَائِرِ صُنُوفِ الْمَخْلُوقَاتِ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ؟ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أَيُّ : فَيَعْتَرِفُونَ لَكَ بِأَنَّ ذَلِكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لِلْخَالِقِ الرَّازِقِ لَا لغيرِهِ ، ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّنَةِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أَيُّ : مَنْ هُوَ خَالِقُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ بِمَا فِيهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّجْمَاتِ وَالْمَلَائِكَةِ الْخَاضِعِينَ لَهُ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ مِنْهَا وَالْجِهَاتِ ؟ وَمَنْ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ يَعْنِي : الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : الْعَرْشُ لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ أَحَدٌ . وَفِي رِوَايَةٍ : إِلَّا اللَّهُ ﷻ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أَيُّ : الْكَبِيرِ ، وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ أَيُّ : الْحَسَنُ الْبَهِيُّ ، فَقَدْ جَمَعَ الْعَرْشُ بَيْنَ الْعَظَمَةِ فِي الْإِتْسَاعِ وَالْعُلُوِّ وَالْحُسْنِ الْبَاهِرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَيُّ : إِذَا كُنْتُمْ تَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَفَلَا تَخَافُونَ عِقَابَهُ وَتَحْذَرُونَ عَذَابَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ وَإِشْرَاكُمْ بِهِ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ مَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِهِ مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أَيُّ : بِيَدِهِ الْمُلْكُ فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ كَانَتْ الْعَرَبُ إِذَا كَانَ السَّيِّدُ فِيهِمْ فَأَجَارَ أَحَدًا لَا يُخْفَرُ فِي جَوَارِهِ ، وَلَيْسَ لِمَنْ دُونَهُ أَنْ يُجِيرَ عَلَيْهِ لِئَلَّا يَفْتَنَاتَ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أَيُّ : وَهُوَ السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أَيُّ : سَيَعْتَرِفُونَ أَنَّ السَّيِّدَ الْعَظِيمَ الَّذِي يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴾ أَيُّ : فَكَيْفَ تَذْهَبُ عُقُولُكُمْ فِي عِبَادَتِكُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ مَعَ اعْتِرَافِكُمْ وَعِلْمِكُمْ بِذَلِكَ ؟ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلِ اتَّبَعْتَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ وَهُوَ الْإِعْلَامُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَقَمْنَا الْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ الْوَاضِحَةَ الْقَاطِعَةَ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أَيُّ : فِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ .

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿ عَنِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يُنَزِّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ أَوْ شَرِيكَ فِي الْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالْعِبَادَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أَي : لَوْ قُدِّرَ تَعَدُّدُ الْإِلَهِ لَانْفَرَدَ كُلُّ مِنْهُمْ بِمَا خَلَقَ ، فَمَا كَانَ يَنْتَظِمُ الوجودُ ، وَالْمُشَاهَدُ أَنَّ الوجودَ مُنْتَظِمٌ مُتَّسِقٌ ، كُلٌّ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ مُرْتَبِطٌ بِبَعْضِهِ بِبَعْضٍ فِي غَايَةِ الْكَمَالِ ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ ﴾ [الملك : ٣] ، ثُمَّ لَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ يَطْلُبُ قَهْرَ الْآخَرِ وَخِلَافَهُ فَيَعْلُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ أَي : عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ فِي دَعْوَاهُمْ الْوَلَدَ أَوْ الشَّرِيكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أَي : يَعْلَمُ مَا يَغِيبُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ وَمَا يُشَاهِدُونَهُ ﴿ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أَي : تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالَى وَعَزَّ وَجَلَّ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاهِلُونَ .

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٣٤﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٣٦﴾ أَدْفَعْ بِآيَتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٣٧﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٣٨﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُو هَذَا الدُّعَاءَ عِنْدَ حُلُولِ النَّقْمِ ﴿ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ أَي : إِنْ عَاقَبْتَهُمْ - وَإِنِّي شَاهِدٌ ذَلِكَ - فَلَا تَجْعَلْنِي فِيهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « وَإِذَا أَرَدْتُ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَفَّنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ أَي : لَوْ شِئْنَا لَأَرَيْنَاكَ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ النَّقْمِ وَالْبَلَاءِ وَالْحَيْنِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُرْشِدًا لَهُ إِلَى التَّرْيَاقِي النَّافِعِ فِي مُحَالَطَةِ النَّاسِ ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ يُسِيءُ إِلَيْهِ لِيَسْتَجْلِبَ خَاطِرَهُ فَتَعُوذَ عَدَاوَتُهُ صَدَاقَةً وَبُغْضُهُ مَحَبَّةً ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَدْفَعْ بِآيَتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴾ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى : ﴿ أَدْفَعْ بِآيَتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ [فصلت : ٣٤-٣٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَعِيذَ مِنَ الشَّيَاطِينِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا تَنْفَعُ مَعَهُمُ الْحِيلُ ، وَلَا يَنْقَادُونَ بِالْمَعْرُوفِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ ﴾ أَي : فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِي ، وَلِهَذَا أَمَرَ بِذِكْرِ اللَّهِ فِي ابْتِدَاءِ الْأُمُورِ وَذَلِكَ لِطَرْدِ الشَّيْطَانِ عِنْدَ الْأَكْلِ وَالْجِمَاعِ وَالذَّبْحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ . كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ كَلِمَاتٍ يَقُولُهُنَّ عِنْدَ النَّوْمِ مِنَ الْفَرْعِ : « بِسْمِ اللَّهِ ، أَعُوذُ بِكَ كَلِمَاتٍ

الله النَّامَةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَخْضَرُونَ» .

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٥٠﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٥١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُخْتَصِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ ، مِنَ الْكَافِرِينَ أَوْ الْمُفْرِطِينَ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقِيلَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَسُؤَالُهُمُ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيُصْلِحَ مَا كَانَ أَفْسَدَهُ فِي مُدَّةِ حَيَاتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ ﴿٥٠﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴿٥١﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرَحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر : ٣٧] ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ فَلَا يُجَابُونَ عِنْدَ الْاِخْتِصَارِ ، وَيَوْمَ النُّشُورِ ، وَوَقْتُ الْعَرْضِ عَلَى الْجَبَّارِ ، وَحِينَ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ ، وَهُمْ فِي غَمَرَاتِ عَذَابِ الْجَحِيمِ . وَقَوْلُهُ هَهُنَا : ﴿ كَلَّا ﴾ كَلَّا حَرْفُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ ، أَيْ : لَا نُجِيبُهُ إِلَى مَا طَلَبَ وَلَا نَقْبَلُ مِنْهُ . ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : أَيْ : لَا بُدَّ أَنْ يَقُولَهَا لَا مَحَالَةَ كُلُّ مُحْتَصِرٍ ظَالِمٍ . وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عِلَّةً لِقَوْلِهِ : ﴿ كَلَّا ﴾ أَيْ : لَا مَتَاهَا كَلِمَةٌ ، أَيْ : سُؤَالُهُ الرُّجُوعَ لِيَعْمَلَ صَالِحًا هُوَ كَلَامٌ مِنْهُ ، وَقَوْلٌ لَا عَمَلَ مَعَهُ ، وَلَوْ رُدُّوهُ لَمَا عَمِلَ صَالِحًا ، وَلَكَانَ يَكْذِبُ فِي مَقَالَتِهِ هَذِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوهُ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : أَمَامَهُمْ . ﴿ بَرْزَخٌ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : الْبَرْزَخُ الْحَاجِزُ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : الْبَرْزَخُ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَيْسُوا مَعَ أَهْلِ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ ، وَلَا مَعَ أَهْلِ الْآخِرَةِ يُجَاوِزُونَ بِأَعْمَالِهِمْ . وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ تَهْدِيدٌ لِهَؤُلَاءِ الْمُخْتَصِرِينَ مِنَ الظَّالِمَةِ بِعَذَابِ الْبَرْزَخِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الجاثية : ١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم : ١٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أَيْ : يَسْتَمُرُّ بِهِ الْعَذَابُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٢﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٣﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٥٤﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿٥٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفَخَةُ النُّشُورِ وَقَامَ النَّاسُ مِنَ الْقُبُورِ ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ

يَوْمٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠٠﴾ أَيُّ : لَا تَنْفَعُ الْأَنْسَابُ يُؤْمِنُ وَلَا يَرْثِي وَالِدَ لَوْلَدِهِ وَلَا يَلْوِي عَلَيْهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج : ١٠-١١] أَيُّ : لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ عَنْ قَرِيبِهِ وَهُوَ يُبْصِرُهُ ، وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْزَارِ مَا قَدْ أَثْقَلَ ظَهْرُهُ ، وَهُوَ أَعَزُّ النَّاسِ عَلَيْهِ - كَانَ - فِي الدُّنْيَا مَا التَفَتَ إِلَيْهِ وَلَا حَمَلَ عَنْهُ وَزْنَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْرُّءُوسُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ [١٠١] وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿ ١٠٢ ﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿ [عبس : ٣٤-٣٦] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيُّ : مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ وَلَوْ بِوَاحِدَةٍ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ فَازُوا ، فَنَجَوْا مِنَ النَّارِ وَأَدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ ﴿ أَيُّ : ثَقُلَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ ﴾ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿ أَيُّ : خَابُوا وَهَلَكُوا وَفَارُوا بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ . ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ أَيُّ : مَا كُنُوا فِيهَا دَائِمُونَ مُقِيمُونَ فَلَا يَطْعَمُونَ ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : عَابِسُونَ .

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاكْتُمُوهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٠٣﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقَوتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٤﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٥﴾

هَذَا تَقْرِيعٌ مِنَ اللَّهِ وَتَوْبِيخٌ لِأَهْلِ النَّارِ عَلَى مَا اذْكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْعِظَائِمِ الَّتِي أَوْفَقْتَهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاكْتُمُوهَا تَكْذِبُونَ ﴾ أَيُّ : قَدْ أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ الرُّسُلَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكُمْ الْكُتُبَ ، وَأَزَلْتُ شُبُهَاتَكُمْ وَلَمْ يَبْقَ لَكُمْ حُجَّةٌ تَدُلُّونَ بِهَا ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقَوتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ أَيُّ : قَدْ قَامَتْ عَلَيْنَا الْحُجَّةُ ، وَلَكِنْ كُنَّا أَشْقَى مِنْ أَنْ نَقَادَ لَهَا وَنَتَّبِعَهَا ، فَضَلَلْنَا عَنْهَا وَلَمْ نُرْزَقْهَا ، ثُمَّ قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ أَيُّ : أُرِدُّنَا إِلَى الدُّنْيَا ، فَإِنْ عُدْنَا إِلَى مَا سَلَفَ مِنَّا فَنَحْنُ ظَالِمُونَ مُسْتَحِقُّونَ لِلْعُقُوبَةِ .

قَالَ أَحْسَنُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٠٨﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآيِزُونَ ﴿١٠٩﴾

هَذَا جَوَابٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَفَّارِ إِذَا سَأَلُوا الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ وَالرَّجْعَةَ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ . يَقُولُ : أَحْسَنُوا فِيهَا ﴿ أَيُّ : اْمْكُثُوا فِيهَا صَاحِرِينَ مُهَانِينَ أَذِلَّاءَ ﴾ وَلَا تَكَلِّمُونَ ﴿ أَيُّ : لَا تَعُودُوا إِلَى سُؤَالِكُمْ هَذَا فَإِنَّهُ لَا جَوَابَ لَكُمْ عِنْدِي . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُذَكِّرًا لَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا

كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَأُولَئِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ١١٠ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا ﴿ أَيُّ : فَسَخَرْتُمْ مِنْهُمْ فِي دُعَائِهِمْ إِيَّايَ وَتَضَرَّعْتُمْ إِلَيَّ ﴾ حَتَّى أَسْأَلَكُمْ ذِكْرِي ﴿ أَيُّ : حَمَلَكُمْ بُغْضَهُمْ عَلَيَّ أَنْ نَسِيتُمْ مُعَامَلَتِي ﴾ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحَكُونَ ﴿ أَيُّ : مِنْ صَنِيعِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا جَارَى بِهِ أُولَئِكَ وَعِبَادَةُ الصَّالِحِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أَيُّ : عَلَى أَذَانِكُمْ هُمْ وَاسْتَهْزَأْتُمْ بِهِمْ ﴾ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَافِرُونَ ﴿ بِالسَّعَادَةِ وَالسَّلَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ .

قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿ ١١١ ﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ ﴿ ١١٢ ﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ ١١٣ ﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿ ١١٤ ﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿ ١١٥ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا هُمْ عَلَى مَا أَضَاعُوهُ فِي عُمْرِهِمُ الْقَصِيرِ فِي الدُّنْيَا ، مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ وَحَدِّهِ ، وَلَوْ صَبَرُوا فِي مُدَّةِ الدُّنْيَا الْقَصِيرَةِ لَفَارُوا كَمَا فَارَ أُولَئَاؤُهُ الْمُتَّقُونَ : ﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ أَيُّ : كَمْ كَانَتْ إِقَامَتُكُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ ﴾ أَيُّ : الْحَاسِبِينَ ﴿ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيُّ : مُدَّةَ يَسِيرَةٍ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ ﴿ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : لَمَا أَثَرْتُمْ الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي ، وَلَمَا تَصَرَّفْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ هَذَا التَّصَرُّفَ السَّيِّئَ ، وَلَا اسْتَحَقَقْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَخَطَهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ ، فَلَوْ أَنَّكُمْ صَبَرْتُمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ كَمَا فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ لَفَزْتُمْ كَمَا فَارُوا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ أَيُّ : أَقَطَنْتُمْ أَنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ عَبَثًا بِلاَ قَصْدٍ وَلَا إِرَادَةٍ مِنْكُمْ وَلَا حِكْمَةٍ لَنَا ؟ ، وَقِيلَ : لِلْعَبَثِ ، أَيُّ : لَتَلْعَبُوا وَتَعَبُّوا ، كَمَا خُلِقَتِ الْبَهَائِمُ لَا ثَوَابَ لَهَا وَلَا عِقَابَ ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ لِلْعِبَادَةِ وَإِقَامَةِ أَوَامِرِ اللَّهِ ﷻ ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ أَيُّ : لَا تَعُودُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ يَعْنِي : هَمَلًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أَيُّ : تَقَدَّسَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا عَبَثًا ، فَإِنَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُتَزَّهِ عَنْ ذَلِكَ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ فَذَكَرَ الْعَرْشَ لِأَنَّهُ سَقَفُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَرِيمٌ أَيُّ : حَسَنُ الْمَنْظَرِ ، بِهَيْئِ الشَّكْلِ .

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿ ١١٦ ﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿ ١١٧ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا مَنْ أَشْرَكَ بِهِ غَيْرُهُ وَعَبَدَ مَعَهُ سِوَاهُ ، وَخَبِيرًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ لَا بُرْهَانَ لَهُ ، أَيْ : لَا دَلِيلَ لَهُ عَلَى قَوْلِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ وَهَذِهِ جُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٍ ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أَيْ : اللَّهُ يُحَاسِبُهُ عَلَى ذَلِكَ . ثُمَّ أَخْبَرَ ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ أَيْ : لَدَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا فَلَاحَ لَهُمْ وَلَا نَجَاةَ . ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى هَذَا الدُّعَاءِ ، فَالْغَفْرُ إِذَا أُطْلِقَ مَعْنَاهُ : مَحْوُ الذَّنْبِ وَسِتْرُهُ عَنِ النَّاسِ ، وَالرَّحْمَةُ مَعْنَاهَا : أَنْ يُسَدِّدَهُ وَيُوفِّقَهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذِهِ ﴿ سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا ﴾ فِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى الْإِعْتِنَاءِ بِهَا وَلَا يَنْفِي مَا عَذَّاهَا ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : أَيْ بَيْنَا الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْحُدُودَ . وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : وَمَنْ قَرَأَ ﴿ فَرَضْنَاهَا ﴾ يَقُولُ : فَرَضْنَاهَا عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ ﴿ وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أَيْ : مُفَسِّرَاتٍ وَاصْصَاتٍ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ يَعْنِي : هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا حُكْمُ الزَّانِي فِي الْحَدِّ وَلِلْعُلَمَاءِ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَنَزَاعٌ ، فَإِنَّ الزَّانِي لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ بَكْرًا وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَتَزَوَّجْ ، أَوْ مُحْصَنًا وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ وَهُوَ حُرٌّ بَالِغٌ عَاقِلٌ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ بَكْرًا لَمْ يَتَزَوَّجْ فَإِنَّ حَدَّ مِائَةَ جَلْدَةٍ ، كَمَا فِي الْآيَةِ ، وَيُرَادُّ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُعَرَّبَ عَامًّا عَنْ بَلَدِهِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ مُحْصَنًا وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ وَهُوَ حُرٌّ بَالِغٌ عَاقِلٌ فَإِنَّهُ يُرْجَمُ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُمَرَ قَامَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ ! فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، فَكَانَ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةُ

الرَّجْمَ فَقَرَأَتَاهَا وَوَعَيْنَاهَا ، وَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ ، فَأَخْشَى أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ : لَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَيَضْلُوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ قَدْ أَنْزَلَهَا اللَّهُ ، فَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنَ الرَّجَالِ وَمِنَ النِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ الْحَبْلُ أَوْ الْإِعْتِرَافُ . وَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِرَجْمِ الْمَرْأَةِ - زَوْجَةُ الرَّجُلِ الَّذِي اسْتَأْجَرَ الْأَجِيرَ - لَمَّا زَنَتْ مَعَ الْأَجِيرِ ، وَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَاعِزًا وَالْعَامِدِيَّةَ ، وَكُلُّهُمَا هَؤُلَاءِ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ جَلَدَهُمْ قَبْلَ الرَّجْمِ ، وَإِنَّمَا وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الْمُتَعَاضِدَةُ الْمُتَعَدِّدَةُ الطَّرِيقَ وَالْأَلْفَافُ بِالْإِقْتِصَارِ عَلَى رَجْمِهِمْ وَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْجُلْدِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : فِي حُكْمِ اللَّهِ ، أَيْ : لَا تَرَافُوا بِهِمَا فِي شَرْعِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ الْمُنْهَى عَنْهُ الرِّأْفَةُ الطَّبِيعِيَّةُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَدِّ ، وَإِنَّمَا هِيَ الرِّأْفَةُ الَّتِي تَحْمِلُ الْحَاكِمَ عَلَى تَرْكِ الْحَدِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قَالُوا : إِقَامَةُ الْحُدُودِ إِذَا رُفِعَتْ إِلَى السُّلْطَانِ فَتُقَامَ وَلَا تُعْطَلُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أَيُّ : فَافْعَلُوا ذَلِكَ وَأَقِيمُوا الْحُدُودَ عَلَى مَنْ زَنَى ، وَشَدَّدُوا عَلَيْهِ الضَّرْبَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ مُبَرِّحًا لِيَرْتَدِعَ هُوَ وَمَنْ يَصْنَعُ مِثْلَهُ بِذَلِكَ . ﴿ وَلَيْشَهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هَذَا فِيهِ تَنْكِيلٌ لِلزَّانِيَيْنِ إِذَا جُلِدَا بِحَضْرَةِ النَّاسِ ، فَإِنْ ذَلِكَ يَكُونُ أَبْلَغُ فِي زَجْرِهِمَا وَأَنْجَعُ فِي رَدْعِهِمَا فَإِنْ فِي ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَفَضِيحَةً إِذَا كَانَ النَّاسُ حُضُورًا .

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾

هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّ الزَّانِيَّ لَا يَطَأُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً أَيُّ : لَا يُطَاوِعُهُ عَلَى مُرَادِهِ مِنَ الزَّانِي إِلَّا زَانِيَةً عَاصِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً لَا تَرَى حُرْمَةَ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ ﴿ الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ ﴾ أَيُّ : عَاصِيٌ بِزَنَاهُ ﴿ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ لَا يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ قَالَ : لَيْسَ هَذَا بِالنِّكَاحِ إِنَّمَا هُوَ الْجَمَاعُ ، لَا يَزْنِي بِهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ . ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : تَعَاطِيهِ ، وَالتَّزْوِيجُ بِالْبَغَايَا ، أَوْ تَزْوِيجُ الْعَفَائِفِ بِالرِّجَالِ الْفُجَّارِ .

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٦﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا بَيَانُ حُكْمِ جَلْدِ الْقَافِظِ لِلْمُحْصَنَةِ - وَهِيَ الْحُرَّةُ الْبَالِغَةُ الْعُفِيفَةُ ، فَإِذَا كَانَ الْمَقْذُوفُ رَجُلًا فَكَذَلِكَ يُجْلَدُ قَافِظُهُ أَيْضًا ، وَلَيْسَ فِيهِ فِرَاقٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، فَإِنْ أَقَامَ الْقَافِظُ بَيْنَهُ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ دَرَأَ عَنْهُ الْحُدُّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ فَأَوْجَبَ عَلَى الْقَافِظِ إِذَا لَمْ يُقِمِ الْبَيِّنَةَ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَ ثَلَاثَةَ أَحْكَامَ : أَحَدُهَا : أَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ جَلْدَةً . الثَّانِي : أَنَّهُ تَرُدُّ شَهَادَتُهُ أَبَدًا . الثَّلَاثُ : أَنْ يَكُونَ فَاسِقًا لَيْسَ بِعَدْلٍ لَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدَ النَّاسِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الْاسْتِثْنَاءِ هَلْ يَعُودُ إِلَى الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ فَقَطْ فَتَرْفَعُ التَّوْبَةُ الْفُسُوقَ فَقَطْ وَيَبْقَى مَرْدُودُ الشَّهَادَةِ دَائِمًا وَإِنْ تَابَ ، أَوْ يَعُودُ إِلَى الْجُمْلَتَيْنِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ ؟ وَأَمَّا الْجُلْدُ فَقَدْ ذَهَبَ وَانْقَضَى سَوَاءٌ تَابَ أَوْ أَصَرَ ، وَلَا حُكْمَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَا خِلَافٍ .

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَتْ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ وَيَذَرُوهَا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿٥﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا فَرْجٌ لِلْأَزْوَاجِ وَزِيَادَةٌ مَخْرُجٌ ، إِذَا قَدَفَ أَحَدُهُمْ زَوْجَتَهُ وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ أَنْ يُلَاعِنَهَا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ ﷻ وَهُوَ أَنْ يُحْضِرَهَا إِلَى الْإِمَامِ فَيَدْعِي عَلَيْهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ ، فَيُحْلِفُهُ الْحَاكِمُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ فِي مُقَابَلَةِ أَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، أَيْ : فِيهَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزِّنَا ﴿ وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ . فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ بَانَتْ مِنْهُ بِنَفْسِ هَذَا اللَّعَانِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَطَائِفَةِ كَثِيرَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ أَبَدًا ، وَيُعْطِيهَا مَهْرَهَا وَيَتَوَجَّهُ عَلَيْهَا حَدُّ الزِّنَا ، وَلَا يَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ إِلَّا أَنْ تُلَاعِنَ فَتَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ، أَيْ فِيهَا رَمَاهَا بِهِ ﴿ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيَذَرُوهَا عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ يَعْنِي : الْحُدُّ ، ﴿ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ فَحَصَّهَا بِالْغَضَبِ كَمَا أَنَّ الْعَالِبَ أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَتَجَسَّمُ فَضِيحَةً أَهْلِهِ ، وَرَمَاهَا بِالزِّنَا إِلَّا وَهُوَ صَادِقٌ مَعْدُورٌ وَهِيَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ فِيهَا رَمَاهَا بِهِ ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْخَامِسَةُ فِي حَقِّهَا أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا ، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ

الْحَقُّ ثُمَّ يَحِيدُ عَنْهُ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى رَأْفَتَهُ بِخَلْقِهِ وَلُطْفِهِ بِهِمْ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْفَرْجِ وَالْمَخْرَجِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَكُونُ بِهِمْ مِنَ الضَّيْقِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ أَيُّ : لَحَرَجْتُمْ وَلَشَقَّ عَلَيْكُمْ كَثِيرٌ مِنْ أُمُورِكُمْ ﴾ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴾ أَيُّ : عَلَى عِبَادِهِ . وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ الْحَلْفِ وَالْإِيمَانِ الْمَغْلَظَةِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِيمَا يَشْرَعُهُ وَيَأْمُرُ بِهِ وَفِيمَا يَنْهَى عَنْهُ ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِمُقْتَضَى الْعَمَلِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَذِكْرِ سَبَبِ نَزُولِهَا ، وَفِيهِمْ نَزَلَتْ فِيهِ مِنَ الصَّحَابَةِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةٍ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « النَّبِيَّةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ » فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ النَّبِيَّةَ ؟ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « النَّبِيَّةُ وَالْأَحَدُ فِي ظَهْرِكَ » فَقَالَ هِلَالٌ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ وَلَيَنْزِلَنَّ اللَّهُ مَا يُبْرِئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ ، فَتَزَلَ جَبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ فَفَرَّأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فَأَنْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا ، فَجَاءَ هِلَالٌ فَشَهِدَ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ ؟ » ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْحَامِسَةِ وَقَفُوهَا وَقَالُوا : إِنَّمَا مُوجِبَةٌ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَتَلَكَّاتٍ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ ثُمَّ قَالَتْ : لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ ، فَمَضَتْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَبْصِرُوهَا ، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ : أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ ، سَابِغَ الْأَلْيَتَيْنِ ، خَدَلَجَ السَّاقَيْنِ ، فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ » فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ » .

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

هَذِهِ الْعَشْرُ الْآيَاتُ كُلُّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - حِينَ رَمَاهَا أَهْلُ الْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، بِمَا قَالُوهُ مِنَ الْكَذِبِ الْبَحْتِ وَالْفَرِيَةِ الَّتِي غَارَ اللَّهُ ﷻ لَهَا وَلِنَبِيِّهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَرَاءَتَهَا صِيَانَةً لِعِرْضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ ﴾ أَيُّ : جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ ، يَعْنِي : مَا هُوَ وَاحِدٌ وَلَا اثْنَانِ بَلْ جَمَاعَةٌ ، فَكَانَ الْمُقَدَّمُ فِي هَذِهِ اللَّعْنَةِ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ ، حَتَّى دَخَلَ ذَلِكَ فِي أَذْهَانِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ ، فَتَكَلَّمُوا بِهِ وَجَوَّزَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ ، حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ .

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ لِسَفَرٍ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ ، قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ

الله عنها - : فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي ، وَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَلِكَ بَعْدَمَا نَزَلَ الْحِجَابُ ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلَ فِيهِ ، فِسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وَقَفَلْ وَدَتُونَا مِنَ الْمَدِينَةِ أَدْنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ ، فَقُمْتُ حِينَ أَدْنَ بِالرَّحِيلِ ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي ، أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عَقْدٌ لِي مِنْ جَزَعٍ أَطْفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي ، فَحَبَسَنِي إِبْتِغَاؤُهُ ، وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي ، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أُرْكَبُ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنِّي فِيهِ ، قَالَتْ : وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِيفًا لَمْ يَتَقَلَّنَ ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعَلَقَةَ مِنَ الطَّعَامِ ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِيفَةَ الْهُودَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا ، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا حُجْبٌ ، فَتَيَمَّمْتُ مَنَزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَقْفِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنَزِلِي غَلَبَنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السَّلْمِيُّ ثُمَّ الذُّكْوَانِيُّ قَدْ عَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ ، فَأَدْلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنَزِلِي ، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَانِي - وَكَانَ قَدْ رَأَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ - فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي ، فَخَمَرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي ، وَاللَّهُ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاِحِلَتَهُ ، فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا فَارْكَبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوْغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ مِنْ شَأْنِي ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبَرُهُ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سُلُولٍ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ أَيُّ : الْكُذْبِ وَالْبُهْتِ وَالْإِفْتِرَاءِ ﴿ غُصْبَةً ﴾ أَيُّ جَمَاعَةً مِنْكُمْ ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ﴾ أَيُّ : يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لِسَانُ صِدْقٍ فِي الدُّنْيَا ، وَرِفْعَةُ مَنَازِلٍ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِظْهَارُ شَرَفٍ لَهُمْ بِاعْتِنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى بِعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - حَيْثُ أَنْزَلَ اللَّهُ بَرَاءَتَهَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ أَيُّ : لِكُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَرَمَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - بِشَيْءٍ مِنَ الْفَاحِشَةِ نَصِيبٌ عَظِيمٌ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبَرَهُ مِنْهُمْ ﴾ قِيلَ : ابْتَدَأَ بِهِ ، وَقِيلَ : الَّذِي كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ وَيُذِيعُهُ وَيُشِيعُهُ ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيُّ : عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سُلُولٍ - قَبَّحَهُ اللَّهُ وَلَعَنَهُ - .

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ

﴿٥﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿٦﴾

هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قِصَّةِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - حِينَ أَقَاصَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ الْكَلَامِ الشُّوْءَ ، وَمَا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِ الْإِفْكِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿لَوْلَا﴾ يَعْنِي : هَلَا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أَيِ : ذَلِكَ الْكَلَامِ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أَيِ قَاسُوا ذَلِكَ الْكَلَامَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَإِنْ كَانَ لَا يَلِيقُ بِهِمْ فَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إِخْبَ ، أَيِ ، هَلَا ظَنُّوا الْخَيْرَ ، فَإِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلُهُ وَأَوَّلَى بِهِ ، هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَاطِنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَقَالُوا﴾ أَيِ : بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أَيِ : كَذِبٌ ظَاهِرٌ عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ لَمْ يَكُنْ رِيْبَةً ، وَذَلِكَ أَنَّ حِجْيَاءَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَاكِبَةً جَهْرَةً عَلَى رَاحِلَةٍ صَفْوَانَ بْنِ الْمُعْطَلِ فِي وَقْتِ الظُّهْرِ ، وَالْجَنُوشُ بِكَمَالِهِ يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِيهِ رِيْبَةٌ لَمْ يَكُنْ هَذَا جَهْرَةً ، وَلَا كَانَا يَقْدَمَانِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، بَلْ كَانَ هَذَا يَكُونُ لَوْ قُدِّرَ خُفْيَةً مُسْتَوْرًا ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ أَهْلُ الْإِفْكِ بِمَا رَمَوْا بِهِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْكَذِبُ الْبَحْثُ ، وَالْقَوْلُ الزُّورُ ، وَالرُّعُوتَةُ الْفَاجِشَةُ ، الْفَاجِرَةُ ، وَالصَّفْقَةُ الْحَاسِرَةُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿لَوْلَا﴾ أَيِ : هَلَا ﴿جَاءُوا عَلَيْهِ﴾ أَيِ : عَلَى مَا قَالُوهُ : ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يَشْهَدُونَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ ﴿إِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ أَيِ : فِي حُكْمِ اللَّهِ كَاذِبُونَ فَاجِرُونَ .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَيُّهَا الْخَائِضُونَ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ ، بَأَنَّ قَبْلَ تَوْبَتِكُمْ وَإِنَابَتِكُمْ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ، وَعَقَا عَنْكُمْ لِإِيَابَتِكُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ مِنْ قِصَّةِ الْإِفْكِ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وَهَذَا فِيمَنْ عِنْدَهُ إِيْمَانٌ يَقْبَلُ اللَّهُ بِسَبَبِهِ التَّوْبَةَ ، كَمِسْطَحٍ وَحَسَّانٍ وَحَمَّةٍ بِنْتِ جَحْشٍ أُخْتِ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ ، فَأَمَّا مَنْ خَاضَ فِيهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ وَأَضْرَابِهِ فَلَيْسَ أَوْلَئِكَ مُرَادِينَ فِي هَذِهِ

الآية ؛ لَأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيْبَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يُعَادِلُ هَذَا وَلَا مَا يُعَارِضُهُ ، وَهَكَذَا شَأْنُ مَا يَرِدُ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَى فِعْلٍ مُعَيَّنٍ يَكُونُ مُطْلَقًا مُشْرُوطًا بِعَدَمِ التَّوْبَةِ أَوْ مَا يُقَابِلُهُ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يُوَازِنُهُ أَوْ يُرَجِّحُ عَلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أَي : يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ ، يَقُولُ هَذَا سَمِعْتُهُ مِنْ فُلَانٍ ، وَقَالَ فُلَانٌ كَذَا وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ كَذَا . ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أَي : تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أَي : تَقُولُونَ مَا تَقُولُونَ فِي شَأْنِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَحْسَبُونَ ذَلِكَ يَسِيرًا سَهْلًا ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ رَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ لَمَا كَانَ هَيِّنًا ، فَكَيْفَ وَهِيَ رَوْجَةُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ؟ فَعَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يُقَالَ فِي رَوْجَةِ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مَا قِيلَ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغَارُ بِهَذَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَقْدِرُ عَلَى رَوْجَةِ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ذَلِكَ ، حَاشَا وَكَأَلَّا ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا فِي سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَرَوْجَةِ سَيِّدٍ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ .

وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

هَذَا تَأْدِيبٌ آخَرُ بَعْدَ الْأَوَّلِ الْأَمْرُ بِالظَّنِّ خَيْرٌ أَيْ : إِذَا ذُكِرَ مَا لَا يَلِيقُ مِنَ الْقَوْلِ فِي شَأْنِ الْخَبِيرَةِ فَأَوْلَى يَنْبَغِي الظَّنُّ بِهِمْ خَيْرًا . وَأَنْ لَا يُشْعِرَ نَفْسُهُ سِوَى ذَلِكَ ، ثُمَّ إِنْ عَلِقَ بِنَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ - وَسُوسَةٌ أَوْ خِيَالًا - فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمِّي عَمَّا حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ » ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ أَي : مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَفَوَّهَ بِهَذَا الْكَلَامِ وَلَا نَذْكُرَهُ لِأَحَدٍ ﴿ سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾ أَي : سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْ يُقَالَ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى رَوْجَةِ رَسُولِهِ وَحَلِيلَةِ حَلِيلِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ أَي : يَنْهَاكُمُ اللَّهُ مُتَوَعِّدًا أَنْ يَقَعَ مِنْكُمْ مَا يُشَبِّهُ هَذَا ﴿ أَبَدًا ﴾ ، أَي : فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَشَرَعِهِ وَتُعَظِّمُونَ رَسُولَهُ ﷺ ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُتَصِفًا بِالْكَفْرِ فَلَهُ حُكْمٌ آخَرُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ أَي : يُوَضِّحُ لَكُمُ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْأَحْكَامَ الْقَدَرِيَّةَ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَي : عَلِيمٌ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ ، حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَلَحِشَةُ فِي الدِّينِ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةَ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾

هَذَا تَأْدِيبٌ ثَالِثٌ لِمَنْ سَمِعَ شَيْئًا مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ فَقَامَ بِذَنْهِهِ شَيْءٌ مِنْهُ وَتَكَلَّمَ بِهِ ، فَلَا يُكْثِرُ مِنْهُ وَلَا يُشِيعُهُ وَيُذِيعُهُ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الذُّبُرِ ءَامِنُوا﴾ أَيُّ : يَخْتَارُونَ ظُهُورَ الْكَلَامِ عَنْهُمْ بِالْقَبِيحِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أَيُّ : بِالْحَدِّ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ : فَرُدُّوا الْأُمُورَ إِلَيْهِ تَرشُدُوا .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ * يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامِنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٨﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ : لَوْلَا هَذَا لَكَانَ أَمْرٌ آخَرٌ ، وَلَكِنَّهُ - تَعَالَى - رَءُوفٌ بِعِبَادِهِ رَحِيمٌ بِهِمْ ، فَتَابَ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَطَهَّرَ مَنْ طَهَّرَ مِنْهُمْ بِالْحَدِّ الَّذِي أُقِيمَ عَلَيْهِمْ . ثُمَّ قَالَ : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامِنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ يَعْنِي : طَرِيقَهُ وَمَسَالِكَهُ وَمَا يَأْمُرُ بِهِ ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ هَذَا تَنْفِيرٌ وَتَحْذِيرٌ مِنْ ذَلِكَ بِأَفْصَحِ عِبَارَةٍ وَأَبْلَغَهَا وَأَوْجَزَهَا وَأَحْسَنَهَا ، ﴿خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ قَالَ عِكْرَمَةُ : نَزْغَاتُهُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : كُلُّ مَعْصِيَةٍ فَهِيَ مِنْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أَيُّ : لَوْلَا هُوَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ التَّوْبَةَ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ ، وَيُزَكِّي النُّفُوسَ مِنْ شُرْكِيهَا وَفُجُورِهَا وَدَنَسِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ أَخْلَاقٍ رَدِيئَةٍ ، كُلٌّ بِحَسَبِهِ ، لَمَّا حَصَلَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ زَكَاةٌ وَلَا خَيْرٌ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيُّ : مِنْ خَلْقِهِ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُزِيدُهُ فِي مَهَالِكِ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ ، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أَيُّ : سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ الْهُدَى وَالضَّلَالَ .

وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۚ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿وَلَا يَأْتِلْ﴾ مِنَ الْأَلْيَةِ وَهِيَ الْحِلْفُ ، أَيُّ : لَا يَحْلِفُ ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ أَيُّ : الطُّوَلِ وَالصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أَيُّ : الْجِدَّةِ ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيُّ : لَا تَحْلِفُوا أَنْ لَا تَصِلُوا قَرَابَاتِكُمُ الْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ،

وَهَذَا فِي غَايَةِ التَّرَفُّقِ وَالْعَطْفِ عَلَى صِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ أَيُّ : عَمَّا تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَذَى . وَهَذَا مِنْ حِلْمِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الصَّدِيقِ ﷺ حِينَ حَلَفَ أَنْ لَا يَنْفَعَ مُسْطَحَ بْنِ أُنَاثَةَ بِنَافِعَةٍ أَبَدًا ، بَعْدَ مَا قَالَ فِي عَائِشَةَ مَا قَالَ ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بَرَاءَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ ، وَطَابَتِ النُّفُوسُ الْمُؤْمِنَةُ وَاسْتَقَرَّتْ ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَى مَنْ كَانَ تَكَلَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ ، وَأُقِيمَ الْحَدُّ عَلَى مَنْ أُقِيمَ عَلَيْهِ ، شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ - يُعْطِفُ الصَّدِيقَ عَلَى قَرِيْبِهِ وَنَسِيْبِهِ - وَهُوَ مُسْطَحُ ابْنِ أُنَاثَةَ - فَإِنَّهُ كَانَ ابْنُ خَالَةِ الصَّدِيقِ ، وَكَانَ مُسْكِينًا لَا مَالَ لَهُ ، إِلَّا مَا يُنْفِقُ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ ﷺ ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَدْ وَلَقِيَ وَلَفَقَةً تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْهَا ، وَضُرِبَ الْحَدُّ عَلَيْهَا . وَكَانَ الصَّدِيقُ ﷺ مَعْرُوفًا بِالْمَعْرُوفِ ، لَهُ الْفَضْلُ وَالْأَيَادِي عَلَى الْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ الْآيَةُ ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَكَمَا تَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ أَذْنَبَ إِلَيْكَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ، وَكَمَا تَصْفَحُ يُصْفَحُ عَنْكَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الصَّدِيقُ : بَلَى وَاللَّهِ إِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا يَا رَبَّنَا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مُسْطَحٍ مَا كَانَ يَصِلُهُ مِنَ النَّفَقَةِ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا ، فِي مُقَابَلَةٍ مَا كَانَ قَالَ : وَاللَّهِ لَا أَنْفَعُهُ بِنَافِعَةٍ أَبَدًا . فَلِهَذَا كَانَ الصَّدِيقُ هُوَ الصَّدِيقُ ﷺ وَعَنْ بَنِيهِ .

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٠﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ يَوْمَ يُوفِّيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٦٢﴾

هَذَا وَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ، خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ ، فَأَمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ أَوَّلَى بِالِدُخُولِ فِي هَذَا مِنْ كُلِّ مُحْصَنَةٍ ، وَلَا سِيَّمَا الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ النُّزُولِ وَهِيَ عَائِشَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - قَاطِبَةً عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّهَا بَعْدَ هَذَا وَرَمَاهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ بَعْدَ هَذَا الَّذِي ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهُ كَافِرٌ ؛ لِأَنَّهُ مُعَانِدٌ لِلْقُرْآنِ ، وَفِي بَقِيَّةِ أَمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ قَوْلَانِ : أَحْصَاهُمَا أَتَمُّنَ كَيْهَيَّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُوفِّيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ أَيُّ حِسَابِهِمْ ، وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ دِينُهُمْ أَيُّ : حِسَابِهِمْ . ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ أَيُّ : وَعَدُهُ وَوَعِيدُهُ وَحِسَابُهُ هُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ .

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٦٣﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْحَبِيثَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلْحَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالْحَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْحَبِيثَاتِ مِنَ الْقَوْلِ . وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ الْقَوْلِ . قَالُوا : وَنَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ وَأَهْلِ الْإِفْكِ ، فَالْكَلَامُ الْقَبِيحُ أَوَّلَى بِأَهْلِ الْقُبْحِ مِنَ النَّاسِ ، وَالْكَلَامُ الطَّيِّبُ أَوَّلَى بِالطَّيِّبِينَ مِنَ النَّاسِ ، فَمَا نَسَبَهُ أَهْلُ النِّفَاقِ إِلَى عَائِشَةَ مِنْ كَلَامٍ هُمْ أَوَّلَى بِهِ ، وَهِيَ أَوَّلَى بِالْبَرَاءَةِ وَالزَّهَادَةِ مِنْهُمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ مِرْيُورٌ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أَيُّ : هُمْ بُعْدَاءُ عَمَّا يَقُولُهُ أَهْلُ الْإِفْكِ وَالْعُدْوَانِ ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أَيُّ : بِسَبَبِ مَا قِيلَ فِيهِمْ مِنَ الْكَذِبِ ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أَيُّ : عِنْدَ اللَّهِ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ ، وَفِيهِ وَعْدٌ بِأَنْ تَكُونَ زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَنَّةِ .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْذُرُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٧٩﴾

هَذِهِ آدَابُ شَرْعِيَّةٍ أَدَّبَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَذَلِكَ فِي الْاسْتِئْذَانِ ، أَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِهِمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا . أَيُّ : يَسْتَأْذِنُوا قَبْلَ الدُّخُولِ وَيُسَلِّمُوا بَعْدَهُ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَأْذِنَ ثَلَاثًا فَإِنْ أُذِنَ لَهُ وَإِلَّا انْصَرَفَ . ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُسْتَأْذِنِ عَلَى أَهْلِ الْمَنْزِلِ أَنْ لَا يَقِفَ تِلْقَاءَ الْبَابِ بِوَجْهِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْاسْتِئْذَانُ خَيْرٌ لَكُمْ ، بِمَعْنَى هُوَ خَيْرٌ مِنَ الطَّرْفَيْنِ لِلْمُسْتَأْذِنِ وَلِأَهْلِ الْبَيْتِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ وَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مُلْكِ الْغَيْرِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ ، فَإِنْ شَاءَ أَذِنَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَأْذَنْ ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أَيُّ : إِذَا رَدُّوكُمْ مِنَ الْبَابِ قَبْلَ الْإِذْنِ أَوْ بَعْدَهُ ﴿ فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أَيُّ : رُجُوعُكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا ﴾ : أَيُّ : لَا تَقِفُوا عَلَى أَبْوَابِ النَّاسِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْذُرُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَخْصَصَ مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَقْتَضِي جَوَازَ الدُّخُولِ إِلَى الْبُيُوتِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ، إِذَا كَانَ لَهُ مَتَاعٌ فِيهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ ، كَالْبَيْتِ الْمَعْدِّ لِلضَّيْفِ إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ كَمَى . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هِيَ بُيُوتُ التُّجَّارِ

كَالْحَنَاتِ ، وَمَنَازِلِ الْأَسْفَارِ ، وَيُوتِ مَكَّةَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٢٤﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ عَمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ، فَلَا يَنْظُرُوا إِلَّا إِلَى مَا أَبَاحَ لَهُمُ النَّظَرُ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَغْمِضُوا أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْمَحَارِمِ ، فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ الْبَصَرُ عَلَى مُحْرَمٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَلْيَصْرِفْ بَصَرَهُ عَنْهُ سَرِيعًا . عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رضي الله عنه قَالَ : سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ نَظَرَةِ الْفَجَاءَةِ ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي ، وَلَمَّا كَانَ النَّظَرُ دَاعِيَةً إِلَى فَسَادِ الْقَلْبِ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : النَّظَرُ سَهْمٌ سَمَّ إِلَى الْقَلْبِ . وَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ كَمَا أَمَرَ بِحِفْظِ الْأَبْصَارِ الَّتِي هِيَ بَوَاعِثٌ إِلَى ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ وَحِفْظُ الْفَرْجِ تَارَةٌ يَكُونُ بِمَنْعِهِ مِنَ الزَّنا ، وَتَارَةٌ يَكُونُ بِحِفْظِهِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ أَيُّ : أَطَهَّرَ لِقُلُوبِهِمْ وَاتَّقَى لِدِينِهِمْ ، كَمَا قِيلَ : مَنْ حَفِظَ بَصَرَهُ أَوْزَنَهُ اللَّهُ نُورًا فِي بَصِيرَتِهِ ، وَيُزَوِّى : فِي قَلْبِهِ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلنِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَغَيْرُهُ مِنْهُ لِأَزْوَاجِهِنَّ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَمَيِّزُهُنَّ عَنْ صِفَةِ نِسَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَفِعَالِ الْمُشْرِكَاتِ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ أَيُّ : عَمَّا حُرِّمَ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ قِيلَ : عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَقِيلَ : عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ ، وَقِيلَ : عَنِ الزَّنا . ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أَيُّ : لَا يُظْهَرْنَ شَيْئًا مِنَ الزَّيْنَةِ إِلَّا جَانِبٌ ، إِلَّا مَا لَا يُمَكِّنُ إِخْفَاؤُهُ ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : كَالرِّدَاءِ وَالثِّيَابِ ، يَعْنِي : عَلَى مَا كَانَ يَتَعَاطَاهُ نِسَاءُ

الْعَرَبِ مِنَ الْمُنْعَةِ الَّتِي تُجَلَّلُ ثِيَابُهَا ، وَمَا يَبْدُو مِنْ أَسْفَلِ الثِّيَابِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِيهِ ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يُمَكِّنُهَا إِخْفَاؤُهُ ، وَتَظْيِيرُهُ فِي زِيِّ النِّسَاءِ مَا يَظْهَرُ مِنْ إِزَارِهَا وَمَا لَا يُمَكِّنُ إِخْفَاؤُهُ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ قَالَ : وَجْهَهَا وَكَفَّيْهَا وَخَاتَمُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : الْمَقَانِعُ يُعْمَلُ لَهَا ضِيقَاتٌ ضَارِبَاتٌ عَلَى صُدُورِهِنَّ لِتُؤَارِيَ مَا تَحْتَهَا مِنْ صَدْرِهَا وَتَرَائِبِهَا ، لِئِخَالِفْنَ شِعَارَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّهُنَّ لَمْ يَكُنَّ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ بَلْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ تَمُرُّ بَيْنَ الرَّجَالِ مُسَفِّحَةً بِصَدْرِهَا لَا يُؤَارِيهِ شَيْءٌ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَتْ عُنُقَهَا وَذَوَائِبَ شَعْرِهَا وَأَقْرِطَةَ آذَانِهَا ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَسْتَتِرْنَ فِي هَيْئَاتِهِنَّ وَأَحْوَاجِهِنَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلُ لَأَرْوِجَكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَسِيْبِهِنَّ ﴾ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرِقْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ﴿ [الْأَحْزَابُ : ٥٩] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴾ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ وَاحْتُمَرُ : جَمْعُ خِمَارٍ وَهُوَ مَا يُحْمَرُ بِهِ ، أَيْ : يُغْطَى بِهِ الرَّأْسُ ، وَهِيَ الَّتِي تَسْمِيهَا النَّاسُ الْمَقَانِعَ . قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ وَلْيَشْدُدْنَ ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : عَلَى النَّحْرِ وَالصَّدْرِ فَلَا يَرَى مِنْهُ شَيْءٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ أَيْ : أَزْوَاجِهِنَّ ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى إِخْوَانِهِنَّ ﴾ كُلُّ هَؤُلَاءِ مُحَارَمٌ لِلْمَرْأَةِ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ عَلَيْهِمْ بَزِينَتِهَا وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَبَرُّجٍ . ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : تَظْهَرُ بِزِينَتِهَا أَيْضًا لِلنِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ دُونَ نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ؛ لِئَلَّا تَصِفَهُنَّ لِرِجَالِهِنَّ ، وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مَحْذُورًا فِي جَمِيعِ النِّسَاءِ إِلَّا أَنَّهُ فِي نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَشَدُّ ، فَإِنَّهُنَّ لَا يَمْنَعُهُنَّ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ ، فَأَمَّا الْمُسْلِمَةُ فَإِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ فَتَتَزَجَّرُ عَنْهُ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُبَاشِرُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ ، تَنْعَتُهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِي مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، فَيَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ زِينَتَهَا لَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ مُشْرِكَةً ؛ لِأَنَّهَا أَمَّتُهَا ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ . وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ : بَلْ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ عَلَى رَقِيقِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ النَّبْعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْزَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ يَعْنِي : كَالْأَجْرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَكْفَاءَ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي عُقُوبِهِمْ وَلَهُ وَخَوْثٌ ، وَلَا هَمَّ لَهُمْ إِلَى النِّسَاءِ وَلَا يَشْتَهُوْنَهُنَّ ، وَقِيلَ : هُوَ الْمَغْفَلُ الَّذِي لَا شَهْوَةَ لَهُ ، وَقِيلَ : هُوَ الْأَبْلَةُ ، وَقِيلَ : هُوَ الْمُخْنَثُ الَّذِي لَا يَقُومُ ذَكَرُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ الطِّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ يَعْنِي : لِصِغَرِهِمْ لَا يَفْهَمُونَ أَحْوََالَ النِّسَاءِ وَعَوْرَاتِهِنَّ مِنْ كَلَامِهِنَّ الرَّخِيمِ ، وَتَعَطُّفِهِنَّ فِي الْمَشْيَةِ ، وَحَرَكَاتِهِنَّ وَسَكَتَاتِهِنَّ ، فَإِذَا كَانَ الطِّفْلُ صَغِيرًا لَا يَفْهَمُ ذَلِكَ فَلَا بَأْسَ بِدُخُولِهِ عَلَى النِّسَاءِ ، فَأَمَّا إِنْ كَانَ

مُراهِقًا أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ ، بِحَيْثُ يَعْرِفُ ذَلِكَ وَيَدْرِيه وَيَفْرُقُ بَيْنَ الشَّوْهَاءِ وَالْحَسَنَاءِ فَلَا يُمْكِنُ مِنَ الدُّخُولِ عَلَى النِّسَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلَيْهِمَا فِي الْإِثْمِ . كَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَتْ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ وَفِي رَجُلِهَا خَلْخَالٌ صَامِتٌ لَا يُعْلَمُ صَوْتُهُ ، ضَرَبَتْ بِرَجُلِهَا الْأَرْضَ فَيَسْمَعُ الرِّجَالُ طَنِينَهُ ، فَنَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ زِينَتِهَا مُسْتَوْرًا فَتَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ لِيُظْهِرَ مَا هُوَ خَفِيٌّ دَخَلَ فِي هَذَا النَّهْيِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلَيْهِمَا ﴾ إِلَى آخِرِهِ . وَمِنْ ذَلِكَ أَمَّا تَنْتَهِي عَنِ التَّعَطُّبِ وَالتَّطْيِبِ عِنْدَ خُرُوجِهَا مِنْ بَيْتِهَا لِيَسْتَمَّ الرِّجَالُ طَبِيبَهَا . عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا » يَعْنِي زَانِيَةٌ . ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَيُّ : أَفْعَلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْجَلِيلَةِ ، وَاتْرَكُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ ، فَإِنَّ الْفَلَاحَ كُلَّ الْفَلَاحِ فِي فِعْلٍ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَعَانُ .

وَأَنكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَلَيْسَتَغْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَيْتُكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ۚ إِن أَرَدْنَ خَصْنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٢﴾

اِشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ الْمُبِينَةُ عَلَى جَمَلٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ وَالْأَوَامِرِ الْمُبْرَمَةِ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ ﴾ إِلَى آخِرِهِ هَذَا أَمْرٌ بِالتَّزْوِيجِ . وَقَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى وَجُوبِهِ عَلَى كُلِّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ، وَاحْتَجُّوا بِظَاهِرِ قَوْلِهِ ﷺ « تَزَوَّجُوا الْوُلُودَ ، تَنَاسَلُوا فَإِنِّي مَبَاهٍ بِكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، وَ « الْأَيْمَى ﴾ جَمْعُ أَيْمٍ ، وَيُقَالُ ذَلِكَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا ، وَلِلرَّجُلِ الَّذِي لَا زَوْجَةَ لَهُ ، وَسَوَاءٌ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ ثُمَّ فَارَقَ أَوْ لَمْ يَتَزَوَّجْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَيْسَتَغْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى

لَنْ لَا يَجِدَ تَزْوِيجًا بِالتَّعَفُّفِ عَنِ الْحَرَامِ ، كَمَا قَالَ ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْسَّادَةِ ، إِذَا طَلَبَ عِبِيدُهُمْ مِنْهُمْ الْكِتَابَةَ أَنْ يَكَاتِبُوهُمْ ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ حِيلَةٌ وَكَسْبٌ يُؤَدِّي إِلَى سَيِّدِهِ الْمَالُ الَّذِي شَارَطَهُ عَلَى أَدَائِهِ ، وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى : أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرُ إِرْشَادٍ وَاسْتِحْبَابٍ لَا أَمْرٌ تَحْتُمْ وَإِجَابٍ ، بَلِ السَّيِّدُ مُحْيٍ . وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى : أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى السَّيِّدِ إِذَا طَلَبَ مِنْهُ عَبْدُهُ ذَلِكَ أَنْ يُجِيبَهُ إِلَى مَا طَلَبَ أَخْذًا بِظَاهِرِ هَذَا الْأَمْرِ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : أَمَانَةٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : صِدْقًا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَالًا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : حِيلَةٌ وَكَسْبًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهِ : فَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَاهُ اطْرَحُوا لَهُمْ مِنَ الْكِتَابَةِ بَعْضَهَا ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ : مِقْدَارُ الرُّبْعِ ، وَقِيلَ : الثُّلُثُ ، وَقِيلَ : النِّصْفُ ، وَقِيلَ : جُزْءٌ مِنَ الْكِتَابَةِ مِنْ غَيْرِ حَدٍّ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَءَاتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ﴾ هُوَ النَّصِيبُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِ الزَّكَاةِ ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ ﴿ وَءَاتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ﴾ قَالَ : ضَعُوا عَنْهُمْ مَكَاتِبَتَهُمْ وَبِهَذَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ يَعْنِي : الزَّانَا . وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ أَمَةٌ أَرْسَلَهَا تَزْنِي ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا ضَرِيَّةً يَأْخُذُهَا مِنْهَا كُلَّ وَقْتٍ ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فِي شَأْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي بَنِ سَلُولٍ . عَنْ جَابِرٍ قَالَ : كَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي بَنِ سَلُولٍ جَارِيَةٌ يُقَالُ لَهَا : مُسِيكَةُ ، وَكَانَ يُكْرِهُهَا عَلَى الْبِغَاءِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَلَا تَكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ يُكْرِهْنَهَا فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ .
 ﴿ لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أَيُّ : مِنْ خَرَاجِهِنَّ وَمُهَوَّرِهِنَّ وَأَوْلَادِهِنَّ ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَسْبِ الْحَبَامِ ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ ، وَحُلُولِ الْكَاهِنِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُكْرِهْنَهَا فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيُّ : هُنَّ ، قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ هُنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَإِثْمُهُنَّ عَلَى مَنْ أَكْرَاهَهُنَّ . وَلَمَّا فَصَّلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأَحْكَامَ وَبَيَّنَّهَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ فِي آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ مُفَسَّرَاتٍ ﴿ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أَيُّ : خَبَرًا عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ فِي مُحَالَفَتِهِمْ أَوْامِرَ اللَّهِ تَعَالَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٦]

أَيُّ : زَاجِرًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أَيُّ : لِمَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَخَافَهُ .
 ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٤)

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ : هَادِي أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَقِيلَ : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِيهِمَا ، نُجُومُهَا وَشَمْسُهَا وَقَمَرُهَا .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ فِي هَذَا الضَّمِيرِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ ﷻ أَيُّ : مِثْلُ هُدَاهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ - قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ - كَمِشْكَاةٍ . وَالثَّانِي : أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى الْمُؤْمِنِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ ، تَقْدِيرُهُ : مِثْلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ كَمِشْكَاةٌ ، فَشَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَمَا هُوَ مَقْطُورٌ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَمَا يَتَلَقَّاهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَطَابِقِ لِمَا هُوَ مَقْطُورٌ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود : ١٧] فَشَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ فِي صَفَائِهِ فِي نَفْسِهِ بِالْقَنْدِيلِ مِنَ الزُّجَاجِ الشَّفَافِ الْجَوْهَرِيِّ ، وَمَا يَسْتَهْدِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالشَّرْعِ بِالزَّيْتِ الْجَيِّدِ الصَّافِي الْمُسَرَّقِ الَّذِي لَا كَدْرَ فِيهِ وَلَا انْجِرَافَ ، فَقَوْلُهُ : ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُوَ مَوْضِعُ الْفَتِيلَةِ مِنَ الْقَنْدِيلِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وَهُوَ النُّورُ الَّذِي فِي الذُّبَالَةِ . ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ أَيُّ : هَذَا الضَّوُّ مُسَرَّقٌ فِي زُجَاجَةٍ صَافِيَةٍ ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : وَهِيَ نَظِيرُ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ . ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أَيُّ : كَوْكَبٌ مُضِيءٌ ، مُبِينٌ ضَخْمٌ ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ أَيُّ : يُسْتَمَدُّ مِنْ زَيْتِ زَيْتُونٍ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بَدَلٌ أَوْ عَطْفٌ بَيَانٌ ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أَيُّ : لَيْسَتْ فِي شَرْقِيٍّ بِقُعَّتِهَا فَلَا تَصِلُ إِلَيْهَا الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ ، وَلَا فِي غَرْبِهَا فَيَقْلُصُ عَنْهَا الْفَيءُ قَبْلَ الْغُرُوبِ ، بَلْ هِيَ فِي مَكَانٍ وَسَطٍ تَقْرَعُهَا الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ ، إِلَى آخِرِهِ ، فَيَجِيءُ زَيْتُهَا صَافِيًا مُعْتَدِلًا مُسَرَّقًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يَعْنِي : كَضَوْءِ إِشْرَاقِ الزَّيْتِ . ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قِيلَ : فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةِ مِنَ النُّورِ : فَكَلَامُهُ نُورٌ ، وَعَمَلُهُ نُورٌ ، وَمَدْخَلُهُ نُورٌ ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ ، وَمَصِيرُهُ إِلَى النُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ . وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ : ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قَالَ : نُورُ النَّارِ وَنُورُ الزَّيْتِ حِينَ اجْتَمَعَا أَضَاءً ، وَلَا يُضِيءُ وَاحِدٌ بِغَيْرِ صَاحِبِهِ ، كَذَلِكَ نُورُ الْقُرْآنِ وَنُورُ الْإِيمَانِ حِينَ اجْتَمَعَا ، فَلَا يَكُونُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ . ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أَيُّ : يُرْشِدُ اللَّهُ إِلَى هِدَايَتِهِ مَنْ

يُخْتَارُهُ . وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى هَذَا مَثَلًا لِثَوْرِ هُدَاهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ خَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَصَرَبُ اللَّهِ الْأُمَثِلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَي : هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْطَال .

فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٦٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٦٧﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦٨﴾

لَمَّا صَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلَ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ بِالْإِصْبَاحِ فِي الزُّجَاجَةِ الصَّافِيَةِ الْمُتَوَقِّدِ مِنْ زَيْتٍ طَيِّبٍ ، وَذَلِكَ كَالْقَنْدِيلِ مَثَلًا ، ذَكَرَ مَحَلَّهَا وَهِيَ الْمَسَاجِدُ الَّتِي هِيَ أَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْأَرْضِ وَهِيَ بُيُوتُهُ الَّتِي يُعْبَدُ فِيهَا وَيُوَحَّدُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ أَي : أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعَاهُدهَا وَتَطْهِيرِهَا مِنَ الدَّنَسِ وَاللَّغْوِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ فِيهَا . ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أَي : اسْمُ اللَّهِ ، وَقِيلَ : يَعْنِي : يُتْلَى فِيهَا كِتَابُهُ . ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أَي : فِي الْبُكْرَاتِ وَالْعَشِيَّاتِ . وَالْآصَالُ : جَمْعُ أَصِيلٍ وَهُوَ آخِرُ النَّهَارِ . وَقِيلَ : يَعْنِي بِالْغُدُوِّ : صَلَاةُ الْغَدَاةِ ، وَيَعْنِي بِالْآصَالِ : صَلَاةُ الْعَصْرِ ، وَهُمَا أَوَّلُ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ مِنَ الصَّلَاةِ فَأَحَبَّ أَنْ يَذْكُرَهُمَا وَأَنْ يَذْكُرَ بِهِمَا عِبَادَهُ . ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رِجَالٌ ﴾ فِيهِ إِشْعَارٌ بِهِمَّتِهِمُ السَّامِيَةِ ، وَنِيَّاتِهِمْ وَعَزَائِمِهِمُ الْعَالِيَةِ ، الَّتِي بِهَا صَارُوا عُمَّارًا لِلْمَسَاجِدِ الَّتِي هِيَ بُيُوتُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَمَوَاطِنِ عِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ وَتَوْجِيدِهِ وَتَنْزِيهِهِ . وَأَمَّا النِّسَاءُ فَصَلَاتُهُنَّ فِي بُيُوتِهِنَّ أَفْضَلُ . عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا وَصَلَاتِهَا فِي مَحْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَتْلُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِيهِمْ أُمُورُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الْمُنَافِقُونَ : ٩] ، يَقُولُ تَعَالَى : لَا تَشْغَلُهُمُ الدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَا وَزِينَتُهَا وَمَلَادُ بَيْعِهَا وَوَرِيحِهَا عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ، الَّذِي هُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ ، وَالَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي عِنْدَهُ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ وَأَنْفَعُ مِمَّا بَأْيَدِيهِمْ ؛ لِأَنَّ مَا عِنْدَهُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ أَي : يُقَدِّمُونَ طَاعَتَهُ وَمُرَادَهُ وَمَحَبَّتَهُ عَلَى مُرَادِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ ، وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : لَا تُلْهِيهِمُ التِّجَارَةُ وَالْبَيْعُ أَنْ يَأْتُوا الصَّلَاةَ فِي وَفْتِهَا . ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ أَي : يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ، أَي : مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَعَظَمَةِ الْأَهْوَالِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أَي : هَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ حَسَنَاتِهِمْ وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ، ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أَي : يَتَقَبَّلُ مِنْهُمْ الْحَسَنَ وَيُضَاعِفُهُ لَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، وَقَالَ : ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٦١] ، وَقَالَ هَهُنَا ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٦٢﴾ أَوْ كَظُلُمَتِ فِي خَيْرٍ لُّجَى يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَتِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٢٦٣﴾

هَذَانِ مَثَلَانِ ضَرَبَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَوْعِي الْكُفَّارِ . فَأَمَّا الْأَوَّلُ مِنْ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ فَهُوَ لِلْكَفَّارِ الدُّعَاةِ إِلَى كُفْرِهِمْ ، الَّذِينَ يَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ وَلَيْسُوا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى شَيْءٍ ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَالسَّرَابِ الَّذِي يُرَى فِي الْقِيعَانِ مِنَ الْأَرْضِ عَنْ بُعْدِ كَأَنَّهُ بَحْرٌ طَائِفٌ ، وَالْقِيعَةُ جَمْعُ قَاعٍ كَجَارٍ وَجِيرَةٍ ، وَالْقَاعُ أَيْضًا وَاحِدُ الْقِيعَانِ ، كَمَا يُقَالُ : جَارٌ وَجِيرَانٌ ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَّةُ الْمُتَبَسِّطَةُ ، وَفِيهِ يَكُونُ السَّرَابُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بَعْدَ نِصْفِ النَّهَارِ ، وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّمَا يَكُونُ أَوَّلَ النَّهَارِ يُرَى كَأَنَّهُ مَاءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَإِذَا رَأَى السَّرَابَ مَنْ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمَاءِ يَحْسَبُهُ مَاءً قَصْدَهُ لِيَشْرَبَ مِنْهُ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ عَمِلَ عَمَلًا وَأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ شَيْئًا ، فَإِذَا وَافَى اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحَاسَبَهُ عَلَيْهَا وَتَوَقَّشَ عَلَى أَفْعَالِهِ لَمْ يَجِدْ لَهُ شَيْئًا بِالْكُلِّيَّةِ قَدْ قُبِلَ ، إِنَّمَا لِعَدَمِ الْإِخْلَاصِ أَوْ لِعَدَمِ سُلُوكِ الشَّرْعِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ، وَهَذَا الْمَثَلُ مِثَالٌ لِدَوِي الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ ، فَأَمَّا أَصْحَابُ الْجَهْلِ الْبَسِيطِ وَهُمْ الطَّاطِمُ الْأَغْشَامُ الْمُقَلِّدُونَ لِأَثَمَةِ الْكُفْرِ ، الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ، فَمَثَلُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَتِ فِي خَيْرٍ لُّجَى ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : وَهُوَ الْعَمِيقُ ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَتِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا ﴾ أَي : لَمْ يُقَارِبْ رُؤْيَاهَا مِنْ شِدَّةِ الظَّلَامِ ، فَهَذَا مِثْلُ قَلْبِ الْكَافِرِ الْجَاهِلِ الْبَسِيطِ الْمُقَلِّدِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ أَيْنَ يَذْهَبُ وَلَا هُوَ يَعْرِفُ حَالَ مَنْ يَقُودُهُ ، وَلَا يَذَرِي ، بَلْ كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ لِلْجَاهِلِ : أَيْنَ تَذْهَبُ ؟ قَالَ : مَعَهُمْ ، قِيلَ : فإِلَى أَيْنَ يَذْهَبُونَ ؟ قَالَ : لَا أَدْرِي ؟ . وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : الْغِشَاوَةُ

الَّتِي عَلَى الْقَلْبِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَهِيَ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ظَلَمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةِ مِنَ الظُّلْمِ : فَكَلَامُهُ ظُلْمَةً ، وَعَمَلُهُ ظُلْمَةً ، وَمَذْخَلُهُ ظُلْمَةً ، وَمَخْرَجُهُ ظُلْمَةً ، وَمَصِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الظُّلُمَاتِ إِلَى النَّارِ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ أَيُّ : مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَهُوَ هَالِكٌ جَاهِلٌ حَائِرٌ بَائِرٌ كَافِرٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف : ١٨٦] ، وَهَذَا فِي مُقَابَلَةِ مَا قَالَ فِي مَثَلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فَتَسْأَلُ اللَّهُ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَ فِي قُلُوبِنَا نُورًا ، وَعَنْ أَيْمَانِنَا نُورًا ، وَعَنْ شَمَائِلِنَا نُورًا ، وَأَنْ يُعْظِمَ لَنَا نُورًا .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٠﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٦١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِيَّ وَالْجَانِّ وَالْحَيَوَانِ حَتَّى الْجَمَادِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء : ٤٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالطَّيْرُ صَفَّتٍ ﴾ أَيُّ : فِي حَالِ طَيْرَانِهَا تُسَبِّحُ رَبَّهَا وَتَعْبُدُهُ بِتَسْبِيحِ أَهْمَهَا وَأَرْشَدَهَا إِلَيْهِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا هِيَ فَاعِلَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أَيُّ : كُلُّ قَدْ أَرْشَدَهُ إِلَى طَرِيقَتِهِ وَمَسْلُكِهِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ﷻ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْإِلَهَ الْمَعْبُودُ ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَحْكُمُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ ، فَهُوَ الْحَالِقُ الْمَالِكُ لَهُ الْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿١٦٢﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٦٣﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَسُوقُ السَّحَابَ بِقُدْرَتِهِ أَوَّلَ مَا يُنْشِئُهَا وَهِيَ ضَعِيفَةٌ ، وَهُوَ الْإِرْجَاءُ ﴿ ثُمَّ

يُؤَلَّفُ بَيْنَهُمْ ۖ أَيُّ : يَجْمَعُهُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِ ﴿ ثُمَّ جَعَلَهُ زَكَامًا ۖ أَيُّ : مُتَرَكَيًا ، أَيُّ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا ﴿ فَتَرَى الْوَدَقَ ۖ أَيُّ : الْمَطَرُ ﴿ تَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ أَيُّ : مِنْ خُلَالِهِ . ﴿ وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ۖ قَالَ بَعْضُ النَّحَاةِ (مِنْ) الْأُولَى لَا بُدَّاءِ الْغَايَةِ ، وَالثَّانِيَةُ لِلتَّبْعِيضِ ، وَالثَّلَاثَةُ لِيَكَانَ الْجَنَسُ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلٍ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ۖ مَعْنَاهُ : أَنَّ فِي السَّمَاءِ جِبَالَ بَرَدٍ يُنَزَّلُ اللَّهُ مِنْهَا الْبَرَدَ ، وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ الْجِبَالَ هَهُنَا عِبَارَةً كِنَايَةً عَنِ السَّحَابِ ، فَإِنَّ « مِنْ » الثَّانِيَةَ عِنْدَ هَذَا لَا بُدَّاءِ الْغَايَةِ أَيْضًا ، لَكِنَّهَا بَدَلٌ مِنَ الْأُولَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ﴿ فَيَصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يُخْتَمَلُ أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَيَصِيبُ بِهِ ۖ أَيُّ : بِمَا يُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَوْعِي الْمَطَرِ وَالْبَرَدِ فَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ فَيَصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ ۖ رَحْمَةً لَهُمْ ۖ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ أَيُّ : يُؤَخِّرُ عَنْهُمْ الْعَيْثَ ، وَيُخْتَمَلُ أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَيَصِيبُ بِهِ ۖ أَيُّ : بِالْبَرَدِ نِقْمَةً عَلَى مَن يَشَاءُ لِمَا فِيهِ مِنْ نَشْرِ ثَمَارِهِمْ وَإِتْلَافِ زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ ۖ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ رَحْمَةً بِهِمْ . ﴿ يَكَادُ سَنًا بَرَقَهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ۖ أَيُّ : يَكَادُ ضَوْءُ بَرَقِهِ - مِنْ شِدَّتِهِ - يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ إِذَا اتَّبَعَتْهُ وَتَرَاءَتْهُ . ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۖ أَيُّ : يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا فَيَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فِي قِصْرِ هَذَا حَتَّى يَعْتَدِلَا ، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا ، وَاللَّهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي ذَلِكَ بِأَمْرِهِ وَقَهْرِهِ وَعِزَّتِهِ وَعِلْمِهِ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۖ أَيُّ : لِدَلِيلًا عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى .

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ۖ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤١﴾
يَذْكُرُ تَعَالَى قُدْرَتَهُ التَّامَّةَ وَسُلْطَانَهُ الْعَظِيمَ فِي خَلْقِهِ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا مِنْ مَّاءٍ وَاحِدٍ ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ۖ كَالْحَيَّةِ وَمَا شَاكَلَهَا ۖ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ۖ كَالْإِنْسَانِ وَالطَّيْرِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ۖ كَالْأَنْعَامِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۖ أَيُّ : بِقُدْرَتِهِ لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ۖ وَهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۖ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾
يُقَرَّرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنَ الْحِكْمِ وَالْأَمْثَالِ الْبَيِّنَةِ الْمُحْكَمَةَ كَثِيرًا جَدًّا ، وَأَنَّهُ يُرْشِدُ إِلَى تَفْهَمِهَا وَتَعَقُّلِهَا أُولَى الْأَلْبَابِ وَالْبَصَائِرِ وَالنُّهَى ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ .

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ تَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يُبْطِنُونَ ، يَقُولُونَ قَوْلًا بِالْبَسِطَةِ ﴿٤٧﴾ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴿٤٨﴾ أَيُ : يُخَالِفُونَ أَقْوَاهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ فَيَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أَيُ : إِذَا طُلِبُوا إِلَى اتِّبَاعِ الْهُدَى فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَاسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ عَنْ اتِّبَاعِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أَيُ : وَإِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ جَاءُوا سَامِعِينَ مُطِيعِينَ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ وَإِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ عَلَيْهِ أَعْرَضَ وَدَعَا إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَحَبَّ أَنْ يَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ لِيُرَاجَ بَاطِلُهُ ثُمَّ ، فَإِذْ عَانَهُ أَوَّلًا لَمْ يَكُنْ عَنِ اعْتِقَادٍ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ ، بَلْ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِّهَوَاهُ ، وَلِهَذَا لَمَّا خَالَفَ الْحَقُّ قَصْدَهُ عَدَلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ تَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ يَعْنِي : لَا يُخْرِجُ أَمْرُهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْقُلُوبِ مَرَضٌ لَا رِمَّ لَهَا أَوْ قَدْ عَرَضَ لَهَا شَكٌّ فِي الدِّينِ ، أَوْ يَخَافُونَ أَنْ يَجُورَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَيْهِمْ فِي الْحُكْمِ ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كُفْرٌ مُحْضٌ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ مِنْهُمْ وَمَا هُوَ مُنْطَوٍ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ . ﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أَيُ : بَلْ هُمُ الظَّالِمُونَ الْفَاجِرُونَ ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ مُبْرَأَانِ مِمَّا يُظُنُّونَ ، وَمُتَوَهِّمُونَ مِنَ الْحَيْفِ وَالْجَوْرِ ، تَعَالَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْ ذَلِكَ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، الَّذِينَ لَا يَبْغُونَ دِينًا سِوَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أَيُ : سَمْعًا وَطَاعَةً ، وَلِهَذَا وَصَفَهُمْ تَعَالَى بِالْفَلَاحِ وَهُوَ تَيْلُ الْمَطْلُوبِ وَالسَّلَامَةُ مِنَ الْمَرْهُوبِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : يُطِيعُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِيمَا أَمَرَاهُ بِهِ ، وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ ، وَيَخْشَى اللَّهَ فِيمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ وَيَتَّقِهِ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ فَازُوا بِكُلِّ خَيْرٍ وَأَمِنُوا مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ النِّفَاقِ الَّذِينَ كَانُوا يَخْلِفُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ بِالْخُرُوجِ فِي الْغَزْوِ لَيَخْرُجُنَّ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا تُقْسِمُوا ﴾ أَي : لَا تَخْلِفُوا ، ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ طَاعَتُكُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، أَي قَدْ عَلِمَ طَاعَتَكُمْ إِنَّمَا هِيَ قَوْلٌ لَا فِعْلَ مَعَهُ ، وَكَلَّمَا حَلَفْتُمْ كَذَبْتُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَخْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِ عَنِّي ﴾ [التوبة : ٩٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ الْآيَةُ . فَهُمْ مِنْ سَجِيَّتِهِمُ الْكَذِبُ حَتَّى فِيمَا يَخْتَارُونَهُ ، وَقِيلَ : الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ أَي : لِيَكُنْ أَمْرُكُمْ طَاعَةً مَعْرُوفَةً أَي بِالْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ حَلِفٍ ، وَلَا إِقْسَامٍ ، كَمَا يُطِيعُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ حَلِفٍ وَلَا إِقْسَامٍ ، فَكُونُوا أَنْتُمْ مِثْلَهُمْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أَي : هُوَ خَبِيرٌ بِكُمْ وَبِمَنْ يُطِيعُ مِمَّنْ يَعِصِي ، فَالْحَلِفُ وَإِظْهَارُ الطَّاعَةِ وَالْبَاطِنُ بِخِلَافِهِ ، وَإِنْ رَاجَ عَلَى الْمَخْلُوقِ ، فَالْحَالِقُ تَعَالَى يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، لَا يَرُوجُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ التَّدْلِيسِ ، بَلْ هُوَ خَبِيرٌ بِضَمَائِرِ عِبَادِهِ وَإِنْ أَظْهَرُوا خِلَافَهَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أَي : اتَّبِعُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أَي : تَتَوَلَّوْا عَنْهُ وَتَتْرَكُوا مَا جَاءَكُمْ بِهِ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أَي : ابْلَاغُ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ أَي : بِقَبُولِ ذَلِكَ وَتَعْظِيمِهِ وَالْقِيَامَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٥٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] وَقَوْلِهِ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿ [الغاشية : ٢١-٢٢]

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ

بَعْدَ خَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿١٢٩﴾

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ أُمَّتَهُ خُلَفَاءَ
الْأَرْضِ ، أَي : أئِمَّةَ النَّاسِ وَالْوَلَاةَ عَلَيْهِمْ ، وَبِهِمْ تَصْلُحُ الْبِلَادُ وَتَخْضَعُ لَهُمُ الْعِبَادُ ، وَلَيَبْدِلَنَّهُمْ
مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ - مِنَ النَّاسِ - أَمَّا وَحُكْمًا فِيهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ
وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَيُمْكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمَّا ﴾ كَمَا قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ حِينَ وَقَدَ عَلَيْهِ : « أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ ؟ » قَالَ : لَمْ أَعْرِفْهَا ، وَلَكِنْ قَدْ
سَمِعْتُ بِهَا قَالَ : « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيُيَمِّنَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظُّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ
حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ ، وَلَتَفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ » قُلْتُ : كِسْرَى بْنُ
هُرْمُزٍ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، كِسْرَى بْنُ هُرْمُزٍ ، وَلَيَبْدِلَنَّ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ » . قَالَ عَدِيُّ بْنُ
حَاتِمٍ : فَهَذِهِ الظُّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ
فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّلَاثَةُ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَي : فَمَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَتِي
بَعْدَ ذَلِكَ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِ رَبِّي وَكَفَىٰ بِذَلِكَ ذَنْبًا عَظِيمًا .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٠﴾ لَا تَحْسَبَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِتَاءِ
الزَّكَاةِ وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ ضِعْفَائِهِمْ وَفُقَرَائِهِمْ ، وَأَنْ يَكُونُوا فِي ذَلِكَ مُطِيعِينَ
لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، أَي : سَالِكِينَ وَرَاءَهُ فِيمَا بِهِ أَمْرُهُمْ وَتَرْكُ مَا عَنْهُ زَجَرُهُمْ ، لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمَهُمْ
بِذَلِكَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ فَعَلَ هَذَا أَنَّ اللَّهَ سَيَرْحَمُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أُولَٰئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ أَي : لَا تَظُنَّ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾
أَي : خَالِفُوكَ وَكَذَّبُوكَ ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : لَا يُعْجِزُونَ اللَّهَ ، بَلِ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهَا
وَسَيُعَذِّبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ ﴾ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ النَّارُ
وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أَي : بِئْسَ الْمَالُ مَالُ الْكَافِرِينَ ، وَبِئْسَ الْفَرَارُ وَبِئْسَ الْمَهَادُ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذْنَكَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا اسْتَعِذَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾

هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ اشْتَمَلَتْ عَلَى اسْتِثْنَانِ الْأَقَارِبِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فَهُوَ اسْتِثْنَانُ الْأَجَانِبِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَن يَسْتَأْذِنَهُمْ خَدْمَهُمْ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَطْفَالَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ ؛ الْأَوَّلُ : مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْعَدَاةِ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا ذَاكَ يَكُونُونَ نِيَامًا فِي فُرُشِهِمْ ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ﴾ أَيِ : فِي وَقْتِ الْقِيلُولَةِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَضَعُ ثِيَابَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ مَعَ أَهْلِهِ ﴿ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ لِأَنَّهُ وَقْتُ النَّوْمِ ، فَيُؤْمَرُ الْحَدَمُ وَالْأَطْفَالُ أَن لَا يَهْجُمُوا عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ لِمَا يُخْشَى أَن يَكُونَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ ﴾ أَيِ : إِذَا دَخَلُوا فِي حَالٍ غَيْرِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي تَمْكِينِكُمْ إِيَّاهُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ إِنْ رَأَوْا شَيْئًا مِنْ غَيْرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْمَجُومِ وَلَآئِهِمْ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ، أَيِ : فِي الْحِدْمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَيُغْتَفَرُ فِي الطَّوَّافِينَ مَا لَا يُغْتَفَرُ فِي غَيْرِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُنَّ اللَّوَاتِي انْقَطَعَ عَنْهُنَّ الْحَيْضُ وَيَسْنَنَ مِنَ الْوَلَدِ ﴿ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أَيِ : لَمْ يَبْقَ لَهُنَّ تَشَوُّفٌ إِلَى التَّرُوجِ ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أَيِ : لَيْسَ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَجَرِ فِي التَّسْتَرِّ كَمَا عَلَى غَيْرِهِنَّ مِنَ النِّسَاءِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ ﴾ الْآيَةُ . فَتَسْخَ مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَشَى مِنْ ذَلِكَ ﴿ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ الْآيَةُ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ قَالُوا : الْجِلْبَابُ أَوْ الرِّدَاءُ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ يَقُولُ : لَا يَتَبَرَّجْنَ بِوَضْعِ الْجِلْبَابِ

لِيَرَى مَا عَلَيْهِنَ مِنَ الزَّيْتَةِ ، ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ أَي : وَتَرَكُوا وَضَعَهُنَّ لِثِيَابِهِنَّ - وَإِنْ كَانَ جَائِزًا - خَيْرٌ وَأَفْضَلُ لَهُنَّ ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَوْلِيَاءِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾

اِخْتَلَفَ الْمُتَسَرُّونَ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - فِي الْمَعْنَى الَّتِي رُفِعَ لِأَجْلِهَا الْحَرَجُ عَنِ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ وَالْمَرِيضِ هَهُنَا ، فَيُقَالُ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ ، أَيْ أَنَّهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ لِضَعْفِهِمْ وَعَجْزِهِمْ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ هَهُنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْأَكْلِ مَعَ الْأَعْمَى ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرَى الطَّعَامَ وَمَا فِيهِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ قَرَّبًا سَبَقَهُ غَيْرُهُ إِلَى ذَلِكَ ، وَلَا مَعَ الْأَعْرَجِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتِمَكَّنُ مِنَ الْجُلُوسِ فَيَقْتَاتُ عَلَيْهِ جَلِيسُهُ ، وَالْمَرِيضُ لَا يَسْتَوِي مِنَ الطَّعَامِ كَغَيْرِهِ ، فَكَرِهُوا أَنْ يُؤَاكِلُوهُمْ لِئَلَّا يَظْلِمُوهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ رُخْصَةً فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا وَهُوَ مَعْلُومٌ ، لِيُعْطِفَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فِي اللَّفْظِ ، وَلِيَسَاوِيَ بِهِ مَا بَعْدَهُ فِي الْحُكْمِ ، وَتَضَمَّنَ هَذَا بُيُوتَ الْأَبْنَاءِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْصَحْ عَلَيْهِمْ ، ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ هَذَا ظَاهِرٌ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ قِيلَ : هُوَ خَادِمُ الرَّجُلِ مِنْ عَبْدٍ وَقَهْرْمَانٍ ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَأْكُلَ بِمَا أُسْتُودِعَهُ مِنَ الطَّعَامِ بِالْمَعْرُوفِ ، ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أَي : بُيُوتُ أَصْدِقَائِكُمْ وَأَصْحَابِكُمْ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي الْأَكْلِ مِنْهَا إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ وَلَا يَكْرَهُونَ ذَلِكَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : إِذَا دَخَلْتَ بَيْتَ صَدِيقِكَ فَلَا بَأْسَ أَنْ تَأْكُلَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ . فَهَذِهِ رُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ وَمَعَ الْجَمَاعَةِ ، وَإِنْ كَانَ الْأَكْلُ مَعَ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلَ وَأَبْرَكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي فَلْيَسَلِّمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، وَقَالَ قَتَادَةُ : إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ ، وَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتًا لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ فَقُلْ :

السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يُؤْمَرُ بِذَلِكَ ، وَحَدَّثَنَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَرُدُّ عَلَيْهِ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فِي
 السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ وَالشَّرَائِعِ الْمُتَقَنَةِ الْمُبَرَّمَةِ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى أَنَّهُ يُبَيِّنُ
 لِعِبَادِهِ الْآيَاتِ بَيَانًا شَافِيًا ؛ لِيَتَذَكَّرُوا وَتَعَقَّلُوا لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ
 يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾

وَهَذَا أَيْضًا أَدَبٌ أَرْشَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ ، فَكَمَا أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِذْنَانِ عِنْدَ الدُّخُولِ
 كَذَلِكَ أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِذْنَانِ عِنْدَ الْإِنْصِرَافِ ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا فِي أَمْرٍ جَامِعٍ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ
 صَلَاةٍ جُمُعَةٍ أَوْ عِيدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَوْ اجْتِمَاعٍ فِي مَشُورَةٍ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ لَا يَتَمَرَّقُوا
 عَنْهُ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - إِلَّا بَعْدَ اسْتِذْنَانِهِ وَمُشَاوَرَتِهِ ، وَأَنْ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 الْكَامِلِينَ ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - إِذَا اسْتَأْذَنَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ أَنْ
 يَأْذَنَ لَهُ إِنْ شَاءَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ
 يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٧﴾

قِيلَ : كَانُوا يَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، فَهَاهُمْ اللَّهُ ﷻ عَنْ ذَلِكَ إِعْظَامًا لِنَبِيِّهِ ﷺ قَالَ :
 فَقُولُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُهَابَ نَبِيُّهُ ﷺ وَأَنْ يُبَجَلَ وَأَنْ يُعْظَمَ
 وَأَنْ يُسَوَّدَ ، ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، قَالَ السُّدِّيُّ : كَانُوا إِذَا كَانُوا مَعَهُ
 فِي جَمَاعَةٍ لَاذَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، حَتَّى يَتَغَيَّبُوا عَنْهُ فَلَا يَرَاهُمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : يَعْنِي : لِوَاذًا عَنْ نَبِيِّ
 اللَّهِ ، وَعَنْ كِتَابِهِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ لِوَاذًا ﴾ خِلَافًا . ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أَيُّ : عَنْ
 أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ سَبِيلُهُ وَمَنْهَاجُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَسُنَّتُهُ وَشَرِيعَتُهُ ، أَيُّ : فَلْيَحْذَرِ وَلْيَخْشَ مَنْ
 خَالَفَ شَرِيعَةَ الرَّسُولِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أَيُّ : فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ
 بَدْعَةٍ ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا بِقَتْلِ أَوْ حَدٍّ أَوْ حَبْسٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ عَالِمُ بَنِي الْعِبَادِ عَامِلُونَ فِي سِرِّهِمْ وَجَهْرِهِمْ فَقَالَ : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ وَ « قَدْ » لِلتَّحْقِيقِ كَمَا قَالَ قَبْلَهَا ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْرِفِينَ مِنْكُمْ ﴾ [الأحزاب : ١٨] ، فَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا تَحْقِيقُ الْفِعْلِ بـ « قَدْ » فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أَيُّ : هُوَ عَالِمٌ بِهِ مُشَاهِدٌ لَهُ ، لَا يَغْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أَيُّ : وَيَوْمَ تُرْجَعُ الْخَلَائِقُ إِلَى اللَّهِ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أَيُّ : يُخْبِرُهُمْ بِمَا فَعَلُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ جَلِيلٍ وَحَقِيرٍ وَصَغِيرٍ وَكَبِيرٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَنَسْأَلُهُ التَّحَامُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النُّورِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى حَامِدًا لِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ عَلَى مَا نَزَّلَهُ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وَهُوَ تَفَاعُلٌ مِنَ الْبَرَكَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ الثَّابِتَةِ الدَّائِمَةِ ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ نَزَّلَ : فَعَلَ مِنَ التَّكْرُرِ وَالتَّكثُّرِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] لِأَنَّ الْكِتَابَ الْمُتَقَدِّمَةَ كَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَالْقُرْآنُ نَزَلَ مُنَجَّمًا مُفْرَقًا مُفَصَّلًا ، آيَاتٍ بَعْدَ آيَاتٍ ، وَأَحْكَامًا بَعْدَ أَحْكَامٍ ، وَسُورًا بَعْدَ سُورٍ ، وَهَذَا أَشَدُّ وَأَبْلَغُ ، وَأَشَدُّ اعْتِنَاءً بِمَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا سَمَّاهَا هَهُنَا الْفُرْقَانَ ، لِأَنَّهُ يَفْرُقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَاهْتَدَى وَالضَّلَالِ

وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَلَى عِبْدِهِ ﴾ هَذِهِ صِفَةُ مَدْحٍ وَثَنَاءٍ ؛ لِأَنَّهُ أَضَافَهُ إِلَى عُبُودِيَّتِهِ ، كَمَا وَصَفَهُ بِهَا فِي أَشْرَفِ أَحْوَالِهِ وَهِيَ لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الإسراء : ١] ، وَكَذَلِكَ وَصَفَهُ عِنْدَ انْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ وَنُزُولِ الْمَلِكِ إِلَيْهِ ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أَيُّ ، إِنَّمَا خَصَّهُ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُفْصَّلِ الْعَظِيمِ الْمُبِينِ الْمُحْكَمِ الَّذِي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ الَّذِي جَعَلَهُ فُرْقَانًا عَظِيمًا لِيَخْصَهُ بِالرَّسَالَةِ إِلَى مَنْ يَسْتَظِلُّ بِالْخُضْرَاءِ ، وَيَسْتَقِيلُ عَلَى الْغُبَرَاءِ ، ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ وَنَزَرَهُ نَفْسَهُ عَنِ الْوَلَدِ وَعَنِ الشَّرِيكِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ أَيُّ : كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ مَخْلُوقٍ مَرْبُوبٌ ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ وَإِلَهُهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ
لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٢٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي اتَّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، الْخَالِقِ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْمَالِكِ لِأَزْمَةِ الْأُمُورِ ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَمَعَ هَذَا عَبَدُوا مَعَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى خَلْقِ جَنَاحٍ بَعُوضَةٍ ، بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ لِعِبَادِهِمْ ؟ ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ أَيُّ : لَيْسَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ مَرْجِعُهُ إِلَى اللَّهِ ﷻ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ الَّذِي يُعِيدُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً ﴾ [لقمان : ٢٨] ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] ، فَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، وَلَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ ؛ لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَهُوَ الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ وَلَا عَدِيلَ وَلَا بَدِيلَ وَلَا وَزِيرَ وَلَا نَظِيرَ ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٩﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ سَخَافَةِ عُقُولِ الْجَهْلَةِ مِنَ الْكُفَّارِ ، فِي قَوْلِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا

إِفْكٌ ﴿١﴾ أَيُّ : كَذِبٌ ﴿٢﴾ أَفْتَرَنَاهُ يَعْنُونَ : النَّبِيُّ ﷺ ﴿٣﴾ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ ﴿٤﴾ أَيُّ : وَاسْتَعَانَ عَلَى جَمْعِهِ بِقَوْمٍ آخَرِينَ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿٥﴾ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٦﴾ أَيُّ : فَقَدْ أَفْتَرُوا هُمْ قَوْلًا بَاطِلًا ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَاطِلٌ ، وَيَعْرِفُونَ كَذِبَ أَنْفُسِهِمْ فِيمَا زَعَمُوهُ ﴿٧﴾ وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا يَعْنُونَ كُتِبَ الْأَوَائِلُ ، أَيُّ : اسْتَسْخَهَا ﴿٨﴾ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ ﴿٩﴾ أَيُّ : تُقْرَأُ عَلَيْهِ ﴿١٠﴾ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١١﴾ أَيُّ : فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ ، وَهَذَا الْكَلَامُ لِسَخَافَتِهِ وَكَذِبِهِ وَبُيُوتِهِ مِنْهُمْ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ بُطْلَانَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ عَلِمَ بِالتَّوَاتُرِ وَبِالضَّرُورَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، لَمْ يَكُنْ يُعَانِي شَيْئًا مِنَ الْكِتَابَةِ ، لَا فِي أَوَّلِ عُمُرِهِ وَلَا فِي آخِرِهِ ، وَقَدْ نَشَأَ بَيْنَ أَطْهَرِهِمْ مِنْ أَوَّلِ مَوْلِدِهِ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ ، وَصِدْقَهُ وَنَزَاهَتَهُ ، وَبِرَّهُ وَأَمَانَتَهُ ، وَبُعْدَهُ عَنِ الْكَذِبِ وَالْفُجُورِ ، وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ ، حَتَّى إِنْهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُسَمُّونَهُ فِي صِغَرِهِ وَإِلَى أَنْ بُعِثَ إِلَّا الْأَمِينَ ، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ صِدْقِهِ وَبِرِّهِ ، فَلَمَّا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ ، نَصَبُوا لَهُ الْعَدَاوَةَ ، وَرَمَوْهُ بِهِذِهِ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ بَرَاءَتَهُ مِنْهَا ، وَحَارَّوْا فِيمَا يَقْدِفُونَهُ بِهِ ، فَتَارَةً مِنْ إِفْكِهِمْ يَقُولُونَ : سَاحِرٌ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : شَاعِرٌ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : مَجْنُونٌ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : كَذَّابٌ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿١٢﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١٣﴾ [الْإِسْرَاءُ : ٤٨] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي جَوَابِ مَا عَانَدُوا هَهُنَا وَافْتَرَوْا : ﴿١٤﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٥﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الْمُسْتَمْلَ عَلَى أَنْبَاءِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، إِخْبَارًا حَقًّا صِدْقًا ، مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ فِي الْخَارِجِ ، مَاضِيًا وَمُسْتَقْبَلًا ﴿١٦﴾ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴿١٧﴾ أَيُّ : اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ السَّرَائِرَ كَعِلْمِهِ بِالظُّوَاهِرِ . ﴿١٨﴾ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٩﴾ دُعَاءُ هُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، وَإِخْبَارٌ هُمْ بِأَنَّ رَحْمَتَهُ وَاسِعَةٌ ، وَأَنَّ حِلْمَهُ عَظِيمٌ ، مَعَ أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ ، فَهَؤُلَاءِ - مَعَ كَذِبِهِمْ وَافْتَرَائِهِمْ وَفُجُورِهِمْ وَبُهْتَانِهِمْ ، وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَقَوْلِهِمْ عَنِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ مَا قَالُوا - يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِقْلَاعِ عَمَّا هُمْ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْهُدَى .

وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٢٠﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَافِرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴿٢١﴾ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٢٢﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٢٣﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ قُصُورًا ﴿٢٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿٢٥﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَبَعُوا لَهَا تَغِيظًا

وَرَفِيرًا ﴿٧﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٨﴾ لَا تَدْعُوا
الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَاَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ وَعِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ لِلْحَقِّ بِلَا حُجَّةٍ وَلَا دَلِيلٍ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا
تَعَلَّلُوا بِقَوْلِهِمْ ﴿ مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ يَعْنُونَ : كَمَا نَأْكُلُهُ ، وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ كَمَا نَحْتَاجُ
﴿ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ أَي : يَتَرَدَّدُ فِيهَا وَإِلَيْهَا ، طَلَبًا لِلتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَةِ ، ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ
مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ يَقُولُونَ : هَلَّا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَكُونُ شَاهِدًا عَلَى
صِدْقِ مَا يَدَّعِيهِ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيَّ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ
مُقَرَّرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٣] ، وَكَذَلِكَ قَالَ هَؤُلَاءِ عَلَى السَّوَاءِ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَلِهَذَا قَالُوا :
﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ أَي : عِلْمٌ كَثِيرٌ يُنْفِقُ مِنْهُ ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أَي : تَسِيرُ مَعَهُ
حَيْثُ سَارَ ، وَهَذَا كُلُّهُ سَهْلٌ يَسِيرٌ عَلَى اللَّهِ ، وَلَكِنْ لَهُ الْحِكْمَةُ فِي تَرْكِ ذَلِكَ ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ
﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلِ فَضْلُوا ﴾ أَي : جَاءُوا بِهَا يَقْدِفُونَكَ بِهِ ،
وَيَكْذِبُونَ بِهِ عَلَيْكَ ، مِنْ قَوْلِهِمْ سَاحِرٌ مَسْحُورٌ ، مَجْنُونٌ ، كَذَّابٌ ، شَاعِرٌ ، وَكُلُّهَا أَقْوَالٌ بَاطِلَةٌ ،
كُلُّ أَحَدٍ - يَمُنُّ لَهُ أَذْنَى فَهْمٍ وَعَقْلٍ - يَعْرِفُ كَذِبَهُمْ وَافْتِرَاءَهُمْ فِي ذَلِكَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَضْلُوا ﴾
عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ وَطَرِيقِ الْهُدَى
فَإِنَّهُ ضَالٌّ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ وَمَنْهَجُهُ مُتَّحِدٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا نَبِيَّهُ أَنَّهُ إِنْ شَاءَ لَأَتَاهُ خَيْرًا مِمَّا يَقُولُونَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَفْضَلَ وَأَحْسَنَ ، فَقَالَ :
﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾ الْآيَةُ . قِيلَ : يَعْنِي : فِي الدُّنْيَا . ﴿ بَلْ كَذَّبُوا
بِالسَّاعَةِ ﴾ أَي : إِنَّمَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ هَكَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا ، لَا أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ ذَلِكَ تَبَصُّرًا وَاسْتِرْشَادًا ،
بَلْ تَكْذِيبُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُمْ عَلَى قَوْلِ مَا يَقُولُونَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أَي : أَرْصَدْنَا
﴿ لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أَي : عَذَابًا أَلِيمًا حَارًّا لَا يُطَاقُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ . ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ أَي :
جَهَنَّمَ ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يَعْنِي : فِي مَقَامِ الْمَحْشَرِ ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَرَفِيرًا ﴾ أَي : حَقَقًا عَلَيْهِمْ ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْطِ ﴿ [الملك : ٧-٨]
أَي : يَكَادُ يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهَا عَلَى مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ . ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا
ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ ، ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : مُكْتَفَيْنَ ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أَي : بِالْوَيْلِ وَالْحَسْرَةِ
وَالْحَيِّبَةِ . ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا ﴾ الْآيَةُ . قِيلَ : أَي : لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ وَبِئْسَ وَاحِدًا وَاَدْعُوا

وَيَلَّا كَثِيرًا، وَقِيلَ: الثُّبُورُ: الْهَلَاكُ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الثُّبُورَ يَجْمَعُ الْهَلَاكَ وَالْوَيْلَ وَالْخَسَارَ وَالْدَّمَارَ، كَمَا قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أَي: هَالِكًا.

قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿٥٦﴾
هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: يَا مُحَمَّدُ هَذَا الَّذِي وَصَفْنَاهُ لَكَ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ يُخْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ فَتَتَلَقَّاهُمْ بِوَجْهِهِ عُبُوسٍ وَبَغِيزٍ وَزَفِيرٍ، وَيُلْقُونَ فِي أَمَاكِنِهَا الضِّيْقَ، مُقَرَّرِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِرَاكًا وَلَا اسْتِنصَارًا وَلَا فِكَاكًَا مِمَّا هُمْ فِيهِ، أَهَذَا خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَهَا اللَّهُ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ، الَّتِي أَعَدَّهَا لَهُمْ وَجَعَلَهَا لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا عَلَىٰ مَا أَطَاعُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَجَعَلَ مَا لَهُمْ إِلَيْهَا. ﴿هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ مِنَ الْمَلَادِّ: مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَابِسٍ وَمَسَاكِينٍ وَمَرَائِبٍ وَمَنَاطِرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ أَحَدٍ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُونَ أَبَدًا دَائِمًا سَرْمَدًا بِلَا انْقِطَاعٍ وَلَا زَوَالٍ وَلَا انْقِضَاءٍ، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا، وَهَذَا مِنْ وَعْدِ اللَّهِ الَّذِي تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَأَحْسَنَ بِهِ إِلَيْهِمْ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أَي: لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ وَأَنْ يَكُونَ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ يَقُولُ: سَلُوا الَّذِي وَعَدْتُكُمْ - أَوْ قَالَ: وَاعِدْنَاكُمْ - نُنْجِزُ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْأَلُ لَهُمْ ذَلِكَ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ [غافر: ٨]

وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ۖ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿٥٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تَفْرِيعِ الْكُفَّارِ فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قِيلَ: هُوَ عِيسَى وَالْعَزِيزُ وَالْمَلَائِكَةُ ﴿فَيَقُولُ ۖ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ الْآيَةُ، أَي: فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْمَعْبُودِينَ: أَأَنْتُمْ دَعَوْتُمْ هَؤُلَاءِ إِلَىٰ عِبَادَتِكُمْ مِنْ دُونِي أَمْ هُمْ عَبْدُوكُمْ مِنْ تَلَقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ مِنْكُمْ هُمْ؟ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

اتَّخِذُونِي وَأُنِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ فَلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۖ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ۖ [المائدة: ١١٦-١١٧] ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُجِيبُ بِهِ الْمَعْبُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُنْبِئُنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۚ قَرَأَ الْأَكْثَرُونَ يَفْتَحُ النُّونَ مِنْ قَوْلِهِ ۚ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۚ أَيُّ : لَيْسَ لِلْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ أَنْ يَعْبُدُوا أَحَدًا سِوَاكَ ، لَا نَحْنُ وَلَا هُمْ ، فَتَحْنُ مَا دَعَوْنَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، بَلْ هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَمْرِنَا وَلَا رِضَانَا ، وَنَحْنُ بُرَاءٌ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ ۚ مَا كَانَ يُنْبِئُنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۚ أَيُّ : مَا يُنْبِئُنَا أَنْ يَعْبُدَنَا ، فَإِنَّا عَبِيدُكَ فَقَرَأَ إِلَيْكَ ، وَهِيَ قَرِيبَةُ الْمَعْنَى مِنَ الْأُولَى ۚ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ ۚ أَيُّ : طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ، أَيُّ : نَسُوا مَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْهِمْ عَلَى الْأَلْسِنَةِ رُسُلِكَ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى عِبَادَتِكَ وَحَدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ۚ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۚ قِيلَ : أَيُّ : هَلَكَى ، وَقِيلَ : لَا خَيْرَ فِيهِمْ . ۚ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ۚ أَيُّ : فَقَدْ كَذَّبَكُمْ الَّذِينَ عَبْدْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِيمَا زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ لَكُمْ أَوْلِيَاءَ ، وَأَنْتُمْ يُقَرَّبُونَكُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى . وَقَوْلُهُ : ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ أَيُّ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى صَرْفِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ وَلَا الْإِنْتِصَارِ لِأَنْفُسِهِمْ ۚ وَمَنْ يَظْلِمَ مِنْكُمْ ۚ أَيُّ : يُشْرِكُ بِاللَّهِ ۚ يُدْفَعُ عَذَابًا كَبِيرًا ۚ .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۚ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿١١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَمِيعِ مَنْ بَعَثَهُ مِنَ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَخْتَلِجُونَ إِلَى التَّغْذِي بِهِ وَ ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ لِلتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَةِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُنَافٍ لِحَالِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُمْ مِنَ السَّمَاتِ الْحَسَنَةِ ، وَالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ ، وَالْأَقْوَالِ الْفَاضِلَةِ ، وَالْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ ، وَالْخَوَارِقِ الْبَاهِرَةِ ، وَالْأَدِلَّةِ الظَّاهِرَةِ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ كُلُّ ذِي لُبٍّ سَلِيمٍ وَبَصِيرَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ اللَّهِ ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ۚ﴾ [يوسف: ١٠٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۚ أَيُّ : اخْتَبَرْنَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَبَلَوْنَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، لِنَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُ مَنْ يَعْصِي ، وَهَذَا قَالَ : ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۚ أَيُّ : بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ ، لِمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ ، وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا ﴾ ﴿١٠٠﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿١٠١﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴿١٠٢﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ تَعْنَتِ الْكُفَّارِ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ ﴾ أَيُّ : بِالرَّسَالَةِ ، كَمَا تَنْزِلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُمْ هَهُنَا ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ ﴾ فَكَرَاهُمُ عَيَانًا فَيُخْبِرُونَا أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، كَقَوْلِهِمْ : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٩٢] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ سُبْحَانَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا ﴾ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١١١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أَيُّ : هُمْ لَا يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ فِي يَوْمٍ خَيْرَ هُمْ ، بَلْ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ هُمْ ، وَذَلِكَ يَصْدُقُ عَلَى وَقْتِ الْإِحْتِضَارِ ، حِينَ يُبَشِّرُهُمُ الْمَلٰٓئِكَةُ بِالنَّارِ وَالْعَذَابِ مِنَ الْجَبَّارِ ، فَقَوْلُ الْمَلٰٓئِكَةِ لِلْكَافِرِ عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ : أَخْرِجِي أَيْتُهَا النَّفْسُ الْحَبِثَةُ فِي الْجَسَدِ الْحَبِثِ ، أَخْرِجِي إِلَى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، فَتَأْتِي الْخُرُوجَ وَتَتَفَرَّقُ فِي الْبَدَنِ ، فَيَضْرِبُونَهُ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٥٠] ، وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي وَقْتِ إِحْتِضَارِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ يُبَشِّرُونَ بِالْخَيْرَاتِ وَحُصُولِ الْمَسَرَّاتِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ﴿١٠٤﴾ نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ ﴿١٠٥﴾ تَزُلَّازِلُ مِنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢] ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ : أَنَّ الْمَلٰٓئِكَةَ تَقُولُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ : « أَخْرِجِي أَيْتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتَ تَعْمُرِيْنَهُ أَخْرِجِي إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانٍ » ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَمَا تَقَدَّمَ ، فَإِنَّ الْمَلٰٓئِكَةَ فِي هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ - يَوْمِ الْمَاتِ وَيَوْمِ الْمَعَادِ - تَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلْكَافِرِينَ فَتُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالرَّحْمَةِ

وَالرُّضْوَانِ ، وَتُخْبِرُ الْكَافِرِينَ بِالْحَبِيبَةِ وَالْخُسْرَانِ ، فَلَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٠﴾ وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَّحْجُورًا ﴿١١﴾ أَيُّ : وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْكَافِرِينَ : حَرَامٌ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ الْفَلَاحُ الْيَوْمَ ، وَأَصْلُ الْحَجَرِ : الْمَنْعُ ، وَمِنْهُ يُقَالُ : حَجَرَ الْقَاضِي عَلَى فُلَانٍ إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّفَ ؛ إِمَّا لِفَلْسٍ أَوْ سَفَهٍ أَوْ صِغَرٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ . وَالْغَرَضُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴾ الْآيَةُ . هَذَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ حِينَ يُحَاسِبُ اللَّهُ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَمِلُوهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَا يَخْصُلُ لَهُوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَعْمَالِ - الَّتِي ظَنُّوا أَنَّهَا مَنَجَاةٌ لَهُمْ - شَيْءٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا فَقَدَتِ الشَّرْطَ الشَّرْعِيَّ : إِمَّا الْإِخْلَاصَ فِيهَا وَإِمَّا الْمَتَابَعَةَ لِشَرْعِ اللَّهِ ، فَكُلُّ عَمَلٍ لَا يَكُونُ خَالِصًا وَعَلَى الشَّرِيعَةِ الْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ بَاطِلٌ ، فَأَعْمَالُ الْكُفَّارِ لَا تَخْلُو مِنْ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ ، وَقَدْ تَجَمَّعَتْهُمَا مَعًا ، فَتَكُونُ أَبْعَدَ مِنَ الْقَبُولِ حِينَئِذٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ أَيُّ : عَمَدْنَا ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : أَتَيْنَا عَلَيْهِ . ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : شُعَاعُ الشَّمْسِ إِذَا دَخَلَ فِي الْكُوَّةِ ، وَقِيلَ : ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ هُوَ الْمَاءُ الْمُهْرَاقُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أَيُّ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ وَالْغُرَفَاتِ الْأَمْنَاتِ ، فَهُمْ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ، حَسَنِ الْمَنْظَرِ ، طَيِّبِ الْمَقَامِ ﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا ﴾ حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا ، وَأَهْلُ النَّارِ يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَكَاتِ السَّافِلَاتِ وَالْحَسَرَاتِ الْمُتَتَابِعَاتِ ، وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَاتِ ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦] أَيُّ : يَنْسُ الْمَنْزِلَ مَنْظَرًا ، وَيَنْسُ الْمَقِيلَ مَقَامًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أَيُّ : بِمَا عَمِلُوهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُتَقَبَّلَةِ نَالُوا مَا نَالُوا ، وَصَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ .

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَتُزَلُّ الْمَلَائِكَةُ تَزِيلًا ﴿١٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿١٧﴾ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمَ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿١٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ ، فَمِنْهَا انشِقَاقُ السَّمَاءِ وَتَفْطَرُهَا وَانْفِرَاجُهَا بِالْغَمَامِ ، وَهُوَ : ظُلُلُ النُّورِ الْعَظِيمِ الَّذِي يُبْهِرُ الْأَبْصَارَ ، وَتُرُوءُ مَلَائِكَةِ السَّمَاوَاتِ يَوْمَئِذٍ فَيُحِيطُونَ بِالْخَلَائِقِ فِي مَقَامِ الْمَحْشَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لِفَضْلِ

الْقَضَاءِ . قَالَ مُجَاهِدٌ : وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ ﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ۚ وَنَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ مَّحْنِيَةً ۖ ﴾ [الحاقة: ١٥-١٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۖ أَيْ : شَدِيدًا صَعْبًا ؛ لِأَنَّهُ يَوْمٌ عَدَلٍ وَقَضَاءٍ فَضْلٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۖ ﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿ [المدر: ٩-١٠] ، فَهَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تَحْزَنْهُمْ ﴾ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ ﴿ [الأنبياء: ١٠٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ الْآيَةُ . يُحْزِرُ تَعَالَى عَنْ نَدَمِ الظَّالِمِ الَّذِي فَارَقَ طَرِيقَ الرُّسُولِ ﷺ ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ ، وَسَلَكَ طَرِيقًا أُخْرَى غَيْرَ سَبِيلِ الرُّسُولِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَدِمَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ ، وَعَصَّ عَلَى يَدَيْهِ حَسْرَةً وَأَسَفًا ، وَسَوَاءٌ كَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا فِي عُقْبَةِ بَنِي أَبِي مُعَيْطٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ فَإِنَّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ ظَالِمٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ [الأحزاب: ٦٦] الْآيَتَيْنِ ، فَكُلُّ ظَالِمٍ يَنْدَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَايَةَ النَّدَمِ ، وَيَعْصُ عَلَى يَدَيْهِ قَائِلًا : ﴿ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرُّسُولِ سَبِيلًا ۖ ﴾ يَوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَخُذْ فَلَانًا خَلِيلًا ۖ يَعْنِي : مَنْ صَرَفَهُ عَنِ الْهُدَى وَعَدَلَهُ بِهِ إِلَى طَرِيقِ الضَّلَالِ مِنْ دُعَاةِ الضَّلَالَةِ ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ أُمِّيَّةٌ بَنٌ خَلَفَ أَوْ أَخُوهُ أَبِي بَنٌ خَلَفَ أَوْ غَيْرُهُمَا . ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ أَيْ : بَعْدَ بُلُوغِهِ إِلَيَّ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَاتَبَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خُدُولًا ۖ أَيْ : يُخَذِّلُهُ عَنِ الْحَقِّ ، وَيَصْرِفُهُ عَنْهُ ، وَيَسْتَعْمِلُهُ فِي الْبَاطِلِ وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ .

وَقَالَ الرُّسُولُ يَرْبُ إِنَّ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۚ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۖ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ رَسُولِهِ وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَرْبُ إِنَّ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يُصْغُونَ لِلْقُرْآنِ وَلَا يَسْتَمِعُونَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت: ٢٦] ، فَكَانُوا إِذَا تَلَّى عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ أَكْثَرُوا اللَّغْطَ وَالْكَلامَ فِي غَيْرِهِ ، حَتَّى لَا يَسْمَعُونَهُ ، فَهَذَا مِنْ هِجْرَانِهِ ، وَتَرَكَ الْإِيمَانَ بِهِ وَتَرَكَ تَصَدِيقَهُ مِنْ هِجْرَانِهِ ، وَتَرَكَ تَدْبِيرَهُ وَتَفْهِيمَهُ مِنْ هِجْرَانِهِ ، وَتَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ وَامْتِثَالَ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابَ زَوَاجِرِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ ، وَالْعُدُولَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ شِعْرِ أَوْ قَوْلٍ أَوْ غِنَاءٍ أَوْ هَوٍ أَوْ كَلَامٍ

أَوْ طَرِيقَةً مَأْخُودَةً مِنْ غَيْرِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أَي : كَمَا حَصَلَ لَكَ يَا مُحَمَّدٌ فِي قَوْمِكَ مِنَ الَّذِينَ هَجَرُوا الْقُرْآنَ ، كَذَلِكَ كَانَ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِينَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ، يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ أَي : لِمَنِ اتَّبَعَ رَسُولُهُ وَآمَنَ بِكِتَابِهِ وَصَدَقَهُ وَاتَّبَعَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ هَادِيهِ وَنَاصِرُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ ؛ لِئَلَّا يَهْتَدِيَ أَحَدٌ بِهِ وَلِتَغْلِبَ طَرِيقَتُهُمْ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الْآيَةُ .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٦﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كَثْرَةِ اعْتِرَاضِ الْكُفَّارِ وَتَعَنُّتِهِمْ ، وَكَلَامِهِمْ فِيَمَا لَا يَغْنِيهِمْ حَيْثُ قَالُوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أَي : هَلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَمَا نُزِّلَتْ الْكُتُبُ قَبْلَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَالْتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ ، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ : بِأَنَّهُ إِنَّمَا نُزِّلَ مُنْجِمًا فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ لِيُثَبِّتَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَفَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ ﴾ الْآيَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : بَيَّنَّاهُ تَبْيِينًا ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : وَفَسَّرْنَاهُ تَفْسِيرًا .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أَي : بِحُجَّةٍ وَشُبْهَةٍ ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أَي : وَلَا يَقُولُونَ قَوْلًا يُعَارِضُونَ بِهِ الْحَقَّ ، إِلَّا أَجَبْنَاهُمْ بِمَا هُوَ الْحَقُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَابْتَيُّنُ وَأَوْضَحُ وَأَفْصَحُ مِنْ مَقَالَتِهِمْ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أَي : بِمَا يَلْتَمِسُونَ بِهِ عَيْبَ الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ الْآيَةُ ، أَي : إِلَّا نُزِّلَ جِبْرِيلُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِجَوَابِهِمْ وَمَا هَذَا إِلَّا اعْتِنَاءٌ كَبِيرٌ لِشَرَفِ الرَّسُولِ ﷺ ، حَيْثُ كَانَ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ ﷻ بِالْقُرْآنِ صَبَاحًا وَمَسَاءً ، وَلَيْلًا وَنَهَارًا ، سَفَرًا وَحَضْرًا ، وَكُلُّ مَرَّةٍ كَانَ يَأْتِيهِ الْمَلَكُ بِالْقُرْآنِ لَا كَأَنزَالِ الْكِتَابِ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَهَذَا الْمَقَامُ أَعْلَى وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ مَكَانَةً مِنْ سَائِرِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - فَالْقُرْآنُ أَشْرَفُ كِتَابٍ أُنْزِلَهُ اللَّهُ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ أَعْظَمُ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لِلْقُرْآنِ الصِّفَتَيْنِ مَعًا ، فِيهِ الْمَلَأُ الْأَعْلَى أُنْزِلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي

السَّاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْأَرْضِ مُنْجَبًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ .
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ سُوءِ حَالِ الْكُفَّارِ فِي مَعَادِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَحَشَرِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ فِي
 أَسْوَأِ الْحَالَاتِ وَأَقْبَحِ الصِّفَاتِ . ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَصْلُ
 سَبِيلًا ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ ﷺ : « إِنَّ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ قَادِرٌ أَنْ يُمَشِّئَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٦٠﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى
 الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَرِّسْهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٦١﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ
 وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦٢﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ
 الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٦٣﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا مَنْ كَذَّبَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ وَمَنْ خَالَفَهُ ، وَخَدَّرَهُمْ
 مِنْ عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ ، مِمَّا أَحَلَّهُ بِالْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِ ، فَبَدَأَ بِذِكْرِ مُوسَى ، وَأَنَّهُ بَعَثَهُ
 وَجَعَلَ مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ، أَيُّ : نَبِيًّا مُوَارِزًا وَمُؤَيَّدًا وَنَاصِرًا ، فَكَذَّبَهُمَا فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ
 فَ ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ [محمد : ١٠] وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِقَوْمِ نُوحٍ حِينَ كَذَبُوا رَسُولَهُ
 نُوحًا ﷺ ، وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ رَسُولٍ وَرَسُولٍ ، وَلَوْ
 فُرِضَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ إِلَيْهِمْ كُلَّ رَسُولٍ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَوْمُ نُوحٍ
 لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ ﴾ وَلَمْ يُبْعَثْ إِلَيْهِمْ إِلَّا نُوحٌ فَقَطْ ، وَقَدْ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ،
 يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَيُخَدِّرُهُمْ نِقْمَهُ ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] ، وَهَذَا أَغْرَقَهُمُ اللَّهُ
 جَمِيعًا وَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَلَمْ يَتْرِكْ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ سِوَى أَصْحَابِ السَّفِينَةِ فَقَطْ
 ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ أَيُّ : عِبْرَةً يُعْتَبَرُونَ بِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِمْ فِي
 الْجَارِيَةِ ﴿٦٥﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعْيِبًا أَدْنَى وَعِيَّةٌ ﴾ [الحاقة : ١١-١٢] أَيُّ : وَأَبْقَيْنَا لَكُمْ مِنَ السُّفْنِ
 مَا تَرَكْتُمْ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ ؛ لِتَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ مِنْ إِنْجَائِكُمْ مِنَ الْغَرَقِ ، وَجَعَلَكُمْ مِنْ
 ذُرِّيَّةٍ مِنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ أَمْرَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قِصَّتَيْهِمَا فِي غَيْرِ مَا سُورَةٍ ،
 كَسُورَةِ الْأَعْرَافِ بِمَا أَغْنَى عَنِ الْإِعَادَةِ ، وَأَمَّا أَصْحَابُ الرِّسِّ فَقِيلَ : هُمْ أَهْلُ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى
 ثَمُودَ ، وَقِيلَ : بَنُو بَأْدَرِ بْنِ جَدَانَ ، وَقِيلَ : بَنُو رُسُوَا فِيهَا نَبِيِّهِمْ ، أَيُّ : دَفَنُوهُ بِهَا ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ
 أَنَّ الْمُرَادَ بِأَصْحَابِ الرِّسِّ هُمْ : أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفُرُونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ أَي : وَأَمَّا - بَيْنَ أَضْعَافٍ مِّنْ ذِكْرِ أَهْلِكُنَا هُمْ - كَثِيرَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أَي : بَيَّنَّا لَهُمُ الْحُجَجَ ، وَوَضَحْنَا لَهُمُ الْأَدِلَّةَ ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ : وَأَزَحْنَا الْأَعْدَارَ عَنْهُمْ ﴿ وَكُلًّا ثَبَرْنَا تَثْبِيرًا ﴾ أَي : أَهْلَكْنَا إِهْلَاكًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧] ، وَالْقَرْنُ : هُوَ الْأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرِينَ ﴾ [المؤمنون : ٤٢] وَعَدَّهُ بَعْضُهُمْ بِبَيَّةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَقِيلَ : بِبَيَّةٍ ، وَقِيلَ : بِثَمَانِينَ ، وَقِيلَ : أَرْبَعِينَ ، وَقِيلَ : غَيْرُ ذَلِكَ . وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْقَرْنَ : هُوَ الْأُمَّةُ الْمُتَعَاَصِرُونَ فِي الزَّمَنِ الْوَاحِدِ ، وَإِذَا ذَهَبُوا وَخَلَفَهُمْ جِيلٌ فَهُوَ قَرْنٌ آخَرٌ ، كَمَا ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « خَيْرُ الْقُرُونِ قُرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » .

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَزْجُونَ نُشُورًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿١٧﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿١٩﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِن هُم إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ يَعْنِي : قَرْيَةَ قَوْمِ لُوطٍ ، وَهِيَ : سَدُومُ وَمُعَامَلَتُهَا الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ بِالْقَلْبِ وَالْمَطَرِ مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي مِنْ سَجِيلٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٣] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ أَي : فَيَعْتَبِرُوا بِمَا حَلَّ بِأَهْلِهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالرُّسُولِ وَبِمُخَالَفَتِهِمْ أَوْامِرَ اللَّهِ ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَزْجُونَ نُشُورًا ﴾ يَعْنِي : الْمَارِّينَ بِهَا مِنَ الْكُفَّارِ لَا يَعْتَبِرُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَزْجُونَ نُشُورًا ، أَي : مَعَادًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ثُمَّ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اسْتِهْزَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالرُّسُولِ ﷺ إِذَا رَأَوْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا ﴾ [الأنبياء : ٣٦] . يَعْنُونَ بِالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ أَي : عَلَى سَبِيلِ التَّنْقِصِ وَالْإِزْدِرَاءِ ، فَقَبَّحَهُمُ اللَّهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ يَعْنُونَ : أَنَّهُ كَادَ يُثْبِتُهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ لَوْلَا أَن صَبَرُوا وَتَجَلَّدُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ الْآيَةُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُنَبِّهًا أَنَّ مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ وَالضَّلَالَ

فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ ﷻ . ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أَي : مَهْمَا اسْتَحْسَنَ مِنْ شَيْءٍ ، وَرَأَاهُ حَسَنًا فِي هَوَاهُ نَفْسِهِ كَانَ دِينُهُ وَمَذْهَبُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ رُئِيَ لَهُ سُوءٌ عَمَلٍ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [فاطر : ٨] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ الْآيَةُ ، أَي : هُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ ، فَإِنَّ تِلْكَ تَفْعَلُ مَا خُلِقْتَ لَهُ ، وَهَؤُلَاءِ خُلِقُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَلَمْ يَفْعَلُوا ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ وَيُشْرِكُونَ بِهِ ، مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿١٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿١٧﴾

مِنْ هَهُنَا شَرَعَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي بَيَانِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ ، وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمُتَضَادَّةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ أَي : دَائِمًا لَا يَزُولُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أَي : لَوْلَا أَنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ عَلَيْهِ لَمَا عُرِفَ ، فَإِنَّ الضُّدَّ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِضِدِّهِ . ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أَي : الظِّلُّ ، وَقِيلَ : الشَّمْسُ ﴿ يَسِيرًا ﴾ أَي : سَهْلًا ، وَقِيلَ : سَرِيعًا ، وَقِيلَ : خَفِيًّا ، وَقِيلَ : أَي : قَلِيلًا قَلِيلًا . ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أَي : يَلْبَسُ الْوُجُودَ وَيَغْشَاهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ أَي : قَاطِعًا لِلْحَرَكَةِ ، لِرَاحَةِ الْأَبْدَانِ ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ وَالْجَوَارِحَ تَكُلُ مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَةِ فِي الْإِنْتِشَارِ بِالنَّهَارِ فِي الْمَعَاشِ ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ وَسَكَنَ سَكَنَتِ الْحَرَكَاتُ فَاسْتَرَاخَتْ ، فَحَصَلَ النَّوْمُ الَّذِي فِيهِ رَاحَةُ الْبَدَنِ وَالرُّوحِ مَعًا ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ أَي : يَنْتَشِرُ النَّاسُ فِيهِ لِمَعَاشِهِمْ وَمَكَاسِبِهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ .

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿١٨﴾ لِنُخْجِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٢٠﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ ، أَي : بِمَجِيءِ السَّحَابِ بَعْدَهَا ، وَالرِّيَّاحُ أَنْوَاعٌ فِي صِفَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّسْخِيرِ ، فَمِنْهَا مَا يُثِيرُ السَّحَابَ ،

وَمِنْهَا مَا يَحْمِلُهُ ، وَمِنْهَا مَا يَسْقُفُهُ ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّحَابِ مُبَشِّرًا ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ يَقُمُّ الْأَرْضَ ، وَمِنْهَا مَا يُلْقِحُ السَّحَابَ لِيُمْطِرَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ أَي : أَلَّةٌ يُطَهِّرُ بِهَا كَالسَّحُورِ ، وَالْوَقُودِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا ، فَهَذَا أَصَحُّ مَا يُقَالُ فِي ذَلِكَ . ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا ﴾ أَي : أَرْضًا قَدْ طَالَ انْتِظَارُهَا لِلْغَيْثِ ، فَهِيَ هَامِدَةٌ لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ ، فَلَمَّا جَاءَهَا الْحَيَاءُ عَاشَتْ وَانْتَسَتْ رُبَاهَا أَنْوَاعُ الْأَرَاهِيرِ وَالْأَلْوَانِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [الحج : ٥] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنُسْفِئِهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ أَي : وَلِيَشْرَبَ مِنْهُ الْحَيَوَانُ مِنْ أَنْعَامٍ وَأُنَاسِيٍّ ، مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْحَاجَةِ لِشَرِبِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَتِبَارِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَتَلُوا ﴾ [الشورى : ٢٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى ءَاثِرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم : ٥٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾ أَي : أَمْطَرْنَا هَذِهِ الْأَرْضَ دُونَ هَذِهِ ، وَسُقْنَا السَّحَابَ يَمُرُّ عَلَى الْأَرْضِ وَيَتَعَدَّاهَا وَيَتَجَاوَزُهَا إِلَى الْأَرْضِ الْأُخْرَى ، فَيُمْطِرُهَا وَيَكْفِيهَا وَيَجْعَلُهَا غَدَقًا ، وَالتِّي وَرَاءَهَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهَا قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُكْمَةُ الْقَاطِعَةُ . ﴿ لِيَذْكُرُوا ﴾ أَي : لِيَذْكُرُوا بِإِحْيَاءِ اللَّهِ الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ وَالْعِظَامِ الرُّفَاتِ ، أَوْ لِيَذْكُرَ مَنْ مُنِعَ الْمَطَرِ إِنَّمَا أَصَابَهُ ذَلِكَ بِذَنْبٍ أَصَابَهُ ، فَيَقْلَعُ عَمَّا هُوَ فِيهِ ، ﴿ فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ يَقُولُونَ : مُطَرْنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا ، كَمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا عَلَى أَثَرِ سَمَاءٍ أَصَابَتْهُمْ مِنَ اللَّيْلِ « أَتَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ » قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَاكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطَرْنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا فَذَاكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ » .

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٢٦﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٨﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ ، وَلَكِنَّا خَصَصْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ بِالْبَعْثَةِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَأَمَرْنَاكَ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ هَذَا الْقُرْآنَ ﴿ لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ « بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ ﴾ يَعْنِي : بِالْقُرْآنِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ . كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أَي: خَلَقَ الْمَاءَيْنِ الْحُلُوَّ وَالْمِلْحَ، فَالْحُلُوُّ كَالْأَنْهَارِ وَالْعُيُونِ وَالْآبَارِ، وَهَذَا هُوَ الْبَحْرُ الْحُلُوُّ الْعَذْبُ الْفُرَاتُ الزُّلَالُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أَي: مَالِحٌ مُرْزَعَاقٌ لَا يُسْتَسَاغُ. وَهَذِهِ الْبَحَارُ السَّاكِئَةُ خَلَقَهَا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مَالِحَةً لِئَلَّا يَخْضَلَ بِسَبَبِهَا تَنْهُنُّ الْهَوَاءَ فَيَفْسُدُ الْوُجُودُ بِذَلِكَ، وَلِئَلَّا تَجْوَى الْأَرْضُ بِمَا يَمُوتُ فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانِ، وَلَمَّا كَانَ مَاؤُهَا مِلْحًا كَانَ هَوَاؤُهَا صَحِيحًا وَمِسَّتُهَا طَيِّبَةً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾ أَي: بَيْنَ الْعَذْبِ وَالْمَالِحِ ﴿بَرْزَخًا﴾ أَي: حَاجِزًا، وَهُوَ الْبَيْسُ مِنَ الْأَرْضِ ﴿وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أَي: مَانِعًا مِنْ أَنْ يَصِلَ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ، كَقَوْلِهِ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾. أَي: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ضَعِيفَةٍ، فَسَوَّاهُ وَعَدَّلَهُ، وَجَعَلَهُ كَامِلَ الْخَلْقَةِ، ذَكَرًا وَأُنْثَى، كَمَا يَشَاءُ ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فَهُوَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ وَلَدٌ نَسِيبٌ، ثُمَّ يَتَزَوَّجُ فَيَصِيرُ صِهْرًا، ثُمَّ يَصِيرُ لَهُ أَصْهَارٌ وَأَخْتَانٌ وَقَرَابَاتٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٢٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٧﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٨﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٢٩﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَنُ فَسَعَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٣٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٣١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ، الَّتِي لَا تَمْلِكُ لَهُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، بِلَا دَلِيلٍ قَادَهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ وَلَا حُجَّةٍ أَذْنَتْهُمْ إِلَيْهِ، بَلْ بِمَجَرَّدِ الْآرَاءِ وَالْتِشَاهِي وَالْأَهْوَاءِ، فَهُمْ يُؤَالِفُونَهُمْ وَيَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِمْ، وَيُعَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فِيهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أَي: عَوْنًا فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ عَلَىٰ حِزْبِ اللَّهِ، وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أَي: بِبَشِيرٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرٍ لِلْكَافِرِينَ، مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَنَذِيرًا بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَي: عَنْ هَذَا الْبَلَاغِ وَهَذَا الْإِنْدَارِ

مِنْ أَجْرَةٍ أَطْلُبُهَا مِنْ أَمْوَالِكُمْ ، وَإِنَّمَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أَيُّ : طَرِيقًا وَمَسْلَكًا وَمَنْهَجًا يَقْتَدِي فِيهَا بِمَا جِئْتَ بِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ أَيُّ : فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا كُنْ مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا ، الَّذِي هُوَ ﴿ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] الدَّائِمُ الْبَاقِي ، السَّرْمَدِيُّ الْأَبَدِيُّ ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ، اجْعَلْهُ دُخْرَكَ وَمَلْجَأَكَ ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيُفَرِّغْ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ وَمُظَفِّرُكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أَيُّ : اِفْرَنْ بَيْنَ حَمْدِهِ وَتَسْبِيحِهِ ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ » أَيُّ : أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ وَالتَّوَكُّلَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بَذُنُوبٍ عِبَادَهُ خَيْرًا ﴾ أَيُّ : بِعِلْمِهِ التَّامِّ الَّذِي لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ . ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ الَّذِي خَلَقَ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا ، وَالْأَرْضَيْنِ السَّبْعَ فِي سُفُوحِهَا وَكَثَافَتِهَا ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أَيُّ : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وَيَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلَّ بِهِ خَيْرًا ﴾ أَيُّ : اسْتَعْلِمَ عَنْهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ بِهِ عَالِمٌ بِهِ فَاتَّبَعَهُ وَاقْتَدَىٰ بِهِ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَعْلَمَ بِاللَّهِ وَلَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ﴿ فَسَلَّ بِهِ خَيْرًا ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : مَا أَخْبَرْتِكَ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ كَمَا أَخْبَرْتِكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِغَيْرِ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ أَيُّ : لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ ، وَكَانُوا يُنْكِرُونَ أَنْ يُسَمَّى اللَّهُ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنَ ، كَمَا أَنْكَرُوا ذَلِكَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْكَاتِبِ « اُكْتُبْ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » فَقَالُوا : لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ ، وَلَكِنْ اُكْتُبْ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ : بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ اادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] أَيُّ : هُوَ اللَّهُ وَهُوَ الرَّحْمَنُ ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ أَيُّ : لَا نَعْرِفُهُ وَلَا نُقَرِّ بِهِ ﴿ اُنْجُدْ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أَيُّ : لِمَجَرَّدِ قَوْلِكَ ﴿ وَزَادَهُمْ تُفُورًا ﴾ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ الَّذِي هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَيُفَرِّدُونَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ وَيَسْجُدُونَ لَهُ .

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿ ١٦ ﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿ ١٧ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُجْجَدًا نَفْسَهُ وَمُعْظِماً عَلَى جِهْلٍ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْبُرُوجِ وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الْعِظَامُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ رَزَقْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ﴾ [الملك : ٥] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ وَهِيَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ الَّتِي هِيَ كَالسَّرَاجِ فِي الْوُجُودِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبا : ١٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ أَيُّ : مُشْرِقًا مُضِيئًا بِنُورٍ آخِرٍ مِنْ غَيْرِ نُورِ الشَّمْسِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس : ٥]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أَيُّ : يَخْلُفُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، يَتَعَاقَبَانِ لَا يَفْتُرَانِ ، إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا ، وَإِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أَيُّ : جَعَلَهُمَا يَتَعَاقَبَانِ تَوْقِيئًا لِعِبَادَةِ عِبَادِهِ لَهُ ﷻ ، فَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي اللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ فِي النَّهَارِ ، وَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي النَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ فِي اللَّيْلِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : ﴿ خِلْفَةً ﴾ أَيُّ : مُخْتَلِفِينَ ، أَيُّ هَذَا بِسَوَادِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٣٨﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٤٠﴾

هَذِهِ صِفَاتُ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أَيُّ : بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ ، مِنْ غَيْرِ جَبَرِيَّةٍ وَلَا اسْتِكْبَارٍ ، وَلَا مَرَحٍ وَلَا أَثَرٍ وَلَا بَطَرٍ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَمْشُونَ كَالْمَرْضَى تَصْنَعًا وَرِيَاءً ، فَقَدْ كَانَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ﷺ إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ ، وَكَأَنَّمَا الْأَرْضُ تَطْوِي لَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أَيُّ : إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمُ الْجَاهِلُ بِالْقَوْلِ السَّيِّئِ لَمْ يُقَابِلُوهُمْ عَلَيْهِ بِمِثْلِهِ ، بَلْ يَغْفُونَ وَيَصْفَحُونَ وَلَا يَقُولُونَ إِلَّا خَيْرًا ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَاهِلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لَيْلَهُمْ خَيْرٌ لَيْلٍ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴾ أَيُّ : فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ﴿ وَيَالْأَشْحَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧-١٨] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أَيُّ : مُلَازِمًا دَائِمًا . وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ :

﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ كُلُّ شَيْءٍ يُصِيبُ ابْنَ آدَمَ وَيَزُولُ عَنْهُ فَلَيْسَ بِغَرَامٍ ، وَإِنَّمَا الْغَرَامُ : اللَّازِمُ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أَيُّ : بِئْسَ الْمَنْزِلُ مَنْظَرًا ،

وَبَشِّرِ الْمَقِيلُ مَقَامًا . ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ الآية . أَي : لَيْسُوا بِمُبَدِّرِينَ فِي إِنْفَاقِهِمْ فَيَصْرِفُونَ فَوْقَ الْحَاجَةِ ، وَلَا بُخْلَاءَ عَلَى أَهْلِيهِمْ فَيَقْصُرُونَ فِي حَقِّهِمْ فَلَا يَكْفُونَهُمْ ، بَلْ عَدْلًا خَيْرًا ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا لَا هَذَا وَلَا هَذَا ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩]

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٦﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿١٩﴾

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ ؟ قَالَ : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقُكَ » قَالَ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » قَالَ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ » قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ الآية . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ أَي : جَزَاءً ، ﴿ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أَي : يُكْرَّرُ عَلَيْهِ وَيُعْلَظُ ﴿ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴾ أَي : حَقِيرًا ذَلِيلًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ أَي : جَزَاؤُهُ عَلَى مَا فَعَلَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ مَا ذُكِرَ ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ وَبَيْنَ آيَةِ النَّسَاءِ ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ [النساء : ٩٣] ، فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مَدِينَةً إِلَّا أَنَّهَا مُطْلَقَةٌ فَتَحْمَلُ عَلَى مَنْ لَمْ يُتَبَّ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ مُقَيَّدَةٌ بِالتَّوْبَةِ ، ثُمَّ قَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] وَقَدْ ثَبَتَتِ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِصِحَّةِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ ، كَمَا ذُكِرَ مُقَرَّرًا مِنْ قِصَّةِ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ رَجُلٍ ثُمَّ تَابَ فَقَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ فِي مَعْنَاهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ بَدَّلُوا مَكَانَ عَمَلِ السَّيِّئَاتِ بِعَمَلِ الْحَسَنَاتِ ، أَي : هُمْ الْمُؤْمِنُونَ كَانُوا مِنْ قَبْلِ إِيْمَانِهِمْ عَلَى السَّيِّئَاتِ فَرَغِبَ اللَّهُ بِهِمْ عَنِ السَّيِّئَاتِ فَحَوَّاهُمْ إِلَى الْحَسَنَاتِ ، فَأَبْدَاهُمْ مَكَانَ السَّيِّئَاتِ الْحَسَنَاتِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ تِلْكَ السَّيِّئَاتِ الْمَاضِيَةَ تَنْقَلِبُ بِنَفْسِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ حَسَنَاتٍ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ كُلَّمَا تَذَكَّرَ مَا مَضَى نَدِمَ وَاسْتَرْجَعَ وَاسْتَغْفَرَ ، فَيَنْقَلِبُ الذَّنْبُ طَاعَةً بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ ، فَيَوْمُ

الْقِيَامَةِ وَإِنْ وَجَدَهُ مَكْتُوبًا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ ، وَيَنْقَلِبُ حَسَنَةً فِي صَحِيفَتِهِ ، كَمَا ثَبَتَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عُمُومِ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَأَنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ تَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ جَلِيلًا أَوْ حَقِيرًا ، كَبِيرًا أَوْ صَغِيرًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ أَيُّ : فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠]

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِغَايَتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْجَرُوا عَلَيْهَا ضُمًّا وَعُمِيَانًا ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٨﴾

وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ : أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ، قِيلَ : هُوَ الشَّرْكُ وَعِبَادَةُ الْأَصْنَامِ ، وَقِيلَ : الْكَذِبُ وَالْفِسْقُ وَالْكُفْرُ وَاللَّغْوُ وَالْبَاطِلُ ، وَقِيلَ : هُوَ اللَّغْوُ وَالْغِنَاءُ ، وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أَيُّ : شَهَادَةُ الزُّورِ ، وَهِيَ الْكَذِبُ مُتَعَمِّدًا عَلَى غَيْرِهِ ، وَالْأَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ الْمُرَادَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ أَيُّ : لَا يَخْضُرُونَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أَيُّ : لَا يَخْضُرُونَ الزُّورَ ، وَإِذَا اتَّفَقَ مُرُورُهُمْ بِهِ مَرُّوا وَلَمْ يَتَدَنَّسُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِغَايَتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْجَرُوا عَلَيْهَا ضُمًّا وَعُمِيَانًا ﴾ هَذِهِ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] ، بِخِلَافِ الْكَافِرِ فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ وَلَا يَتَغَيَّرُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ ، بَلْ يَبْقَى مُسْتَمِرًّا عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ وَجَهْلِهِ وَضَلَالِهِ . فَقَوْلُهُ : ﴿ لَمْ يَخْجَرُوا عَلَيْهَا ضُمًّا وَعُمِيَانًا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : لَمْ يَسْمَعُوا ، وَلَمْ يُبْصِرُوا ، وَلَمْ يَفْقَهُوا شَيْئًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ يَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ مَنْ يُطِيعُهُ وَيَعْبُدُهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : يَعْنُونَ مَنْ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَتَقَرَّرَ بِهِ أَعْيُنُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ : لَمْ يُرِيدُوا بِذَلِكَ صَبَاحَةً وَلَا جَمَالًا ، وَلَكِنْ أَرَادُوا أَنْ يَكُونُوا مُطِيعِينَ .

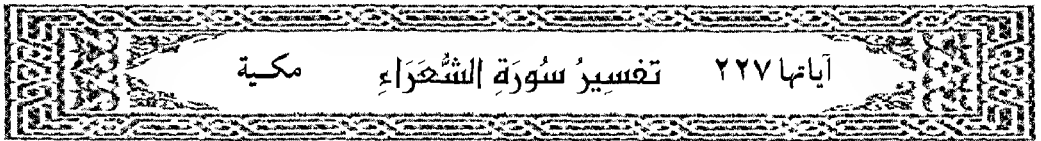
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَيْمَّةٌ يُتَمَتَّدُ بِهَا فِي الْخَيْرِ . وَقَالَ غَيْرُهُمْ : هُدَاةٌ مُهْتَدِينَ ، دُعَاةٌ إِلَى الْخَيْرِ ، فَأَحَبُّوا أَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهُمْ مُتَّصِلَةً بِعِبَادَةِ أَوْلَادِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَأَنْ يَكُونَ هُدَاهُمْ مُتَّعِدًّا إِلَى غَيْرِهِمْ بِالنَّفْعِ وَذَلِكَ أَكْثَرُ ثَوَابًا وَأَحْسَنُ مَأْبَا . أَوْلَيْكَ حُجُوزَاتِ الْعُرْفَةِ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقُونَ فِيهَا نَحْيَةً وَسَلَامًا ﴿٧٩﴾ خَلِيدِينَ

فِيهَا حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ أَوْصَافِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَا ذَكَرَ مِنَ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الْجَلِيلَةِ، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ ﴿أُولَئِكَ﴾ أَيُّ : الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ ﴿تُحْزَرُونَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿الْغُرَفَةُ﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أَيُّ : عَلَى الْقِيَامِ بِذَلِكَ ﴿وَيُلْقُونَ فِيهَا﴾ أَيُّ : فِي الْجَنَّةِ ﴿نَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أَيُّ : يُبْتَدَأُ فِيهَا بِالنَّحِيَّةِ وَالْإِكْرَامِ، وَيُلْقُونَ التَّوْقِيرَ وَالْإِحْتِرَامَ، فَلَهُمُ السَّلَامُ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ : مُقِيمِينَ لَا يَطْعَنُونَ، وَلَا يُحَوَّلُونَ، وَلَا يَمُوتُونَ، وَلَا يَزُولُونَ عَنْهَا، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود : ١٠٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أَيُّ : حَسُنْتَ مَنْظَرًا، وَطَابَتْ مَقِيلًا وَمَنْزَلًا . ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾ أَيُّ : لَا يُبَالِي بِكُمْ وَلَا يَكْتَرِثُ بِكُمْ إِذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ وَيُوحِّدُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أَيُّ : لَوْلَا إِيمَانُكُمْ . ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أَيُّ : أَتَيْتُمُ الْكَافِرُونَ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أَيُّ : فَسَوْفَ يَكُونُ تَكْذِيبُكُمْ لِزَامًا لَكُمْ، يَعْنِي : مُفْتَضِيًا لِعَذَابِكُمْ وَهَلَاكِكُمْ وَدَمَارِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ يَوْمٌ بَدْرٍ . قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفُرْقَانِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ تَلْمِزُكَ لِيَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٣﴾ إِنَّ كَثِيرًا نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبُؤُهُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ ، فَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْمُبِينِ ، أَيُّ : الْبَيِّنُ
الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ ، الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّكَ بَخْعٌ ﴾ أَيُّ : مُهْلِكٌ ﴿ نَفْسِكَ ﴾ أَيُّ : مِمَّا تَحْرِصُ عَلَيْهِمْ وَتَحْزَنُ عَلَيْهِمْ
﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي عَدَمِ إِيْمَانِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنَ الْكُفَّارِ ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ ﴾ [فاطر : ٨] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَخْعٌ نَفْسِكَ
عَلَىٰ آثَرِهِمْ ﴾ [الكهف : ٦] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ كُنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ
هَاهُنَا خَاضِعِينَ ﴾ أَيُّ : لَوْ شِئْنَا لَأَنْزَلْنَا آيَةً تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيْمَانِ قَهْرًا ، وَلَكِنَّا لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّا لَا
نُرِيدُ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا الْإِيْمَانَ الْإِخْتِيَارِيَّ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ
جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] . فَتَفَقَّدَ قُدْرَتَهُ وَمَضَتْ حِكْمَتُهُ ،
وَقَامَتْ حُجَّتُهُ الْبَالِغَةُ عَلَى خَلْقِهِ ، بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أَيُّ : كَلِمًا
جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ أَعْرَضَ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ
أُتْبُتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيُّ : فَقَدْ كَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ، فَسَيَعْلَمُونَ نَبَأَ هَذَا
التَّكْذِيبِ بَعْدَ حِينٍ ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ، ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى عَظَمَتِهِ فِي
سُلْطَانِهِ وَجَلَالَةِ قُدْرِهِ وَشَأْنِهِ ، الَّذِي اجْتَرَأُوا عَلَى مُخَالَفَةِ رَسُولِهِ وَتَكْذِيبِ كِتَابِهِ ، وَهُوَ الْقَاهِرُ
الْعَظِيمُ الْقَادِرُ ، الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ ، وَأَنْبَتَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ، مِنْ زُرُوعٍ وَثَمَارٍ
وَحَيَوَانٍ . ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ ﴾ أَيُّ : دَلَالَةٌ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ لِلْأَشْيَاءِ ، الَّذِي بَسَطَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ
بِنَاءَ السَّمَاءِ ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : وَمَعَ هَذَا مَا آمَنَ أَكْثَرُ النَّاسِ ، بَلْ كَذَّبُوا بِهِ وَبَرُّسُلِهِ
وَكُتْبِهِ ، وَخَالَفُوا أَمْرَهُ وَارْتَكَبُوا زَوَاجِرَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أَيُّ : الَّذِي عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أَيُّ : بِخَلْقِهِ
فَلَا يَعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ بَلْ يُؤَجِّلُهُ وَيُنْظِرُهُ ثُمَّ يَأْخُذْهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، وَقِيلَ : ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ فِي
نِعْمَتِهِ وَإِنْتِصَارِهِ مِمَّنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَعَبَدَ غَيْرَهُ : ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ آتِ الْقَوْمَ الطَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمٌ فَرَعَوْنَ أَلَّا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ

﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَادْهَبَا بِمَايْتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الْبِئْسَ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَمَر بِهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَكَلِيمُهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - حَيْثُ نَادَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ، وَكَلَّمَهُ وَنَاجَاهُ ، وَأَرْسَلَهُ وَاصْطَفَاهُ ، وَأَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَيْئِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْ آتَيْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ قَوْمٌ فِرْعَوْنٌ ۖ أَلَا يَعْقُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٤﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ ﴿١٥﴾ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٦﴾ هَذِهِ أَعْذَارٌ سَأَلَ مِنَ اللَّهِ إِزَاحَتَهَا عَنْهُ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٥﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿١٦﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ [طه : ٢٥-٣٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ أَيُّ : بِسَبَبِ قَتْلِ ذَلِكَ الْقَبِطِيِّ الَّذِي كَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أَيُّ : قَالَ اللَّهُ لَهُ لَا تَخَفْ مِنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ [القصص : ٣٥] أَيُّ : بُرْهَانًا ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِمَايَتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص : ٣٥] ﴿ فَادْهَبَا بِمَايَتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٦] أَيُّ : إِنِّي مَعَكُمْ بِحِفْظِي وَكِلَافَتِي وَنَصْرِي وَتَأْيِيدِي . ﴿ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه : ٤٧] أَيُّ : كُلُّ مِّنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أَيُّ : أَطْلِقَهُمْ مِنْ إِسَارِكَ وَقَبْضَتِكَ وَقَهْرِكَ وَتَعْذِيبِكَ ، فَإِنَّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ ، وَحِزْبُهُ الْمُخْلِصُونَ ، وَهُمْ مَعَكَ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى ذَلِكَ أَعْرَضَ فِرْعَوْنُ هُنَالِكَ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِزْدِرَاءِ وَالْعَمَصِ .

فَقَالَ : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ الْآيَةِ ، أَيُّ : أَمَا أَنْتَ الَّذِي رَبَّيْنَاهُ فِينَا ، وَفِي بَيْنِنَا ، وَعَلَى فِرَاشِنَا ، وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ مَدَّةً مِنَ السِّنِينَ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا قَابَلْتَ ذَاكَ الْإِحْسَانَ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ ، أَنْ قَتَلْتَ مِنَّا رَجُلًا وَجَحَدْتَ نِعْمَتَنَا عَلَيْكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أَيُّ : الْجَاهِلِينَ ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا ﴾ ، أَيُّ : فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أَيُّ :

قَبْلَ أَنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ، وَيُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِالرَّسَالَةِ وَالنُّبُوءَةِ . وَقِيلَ : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أَيُّ : الْجَاهِلِينَ .
﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ . الْآيَةُ . أَيُّ : انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر فقد أرسلني الله
إِلَيْكَ ، فَإِنْ أَطَعْتَهُ سَلِمْتَ ، وَإِنْ خَالَفْتَهُ عَطِبْتَ . ثُمَّ قَالَ مُوسَى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ
عَبَدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أَيُّ : وَمَا أَحْسَنْتَ إِلَيَّ وَرَبِّيتَنِي مُقَابِلَ مَا أَسَأْتُ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ ،
فَجَعَلْتَهُمْ عِبِيدًا وَخَدَمًا ، تَصْرِفُهُمْ فِي أَعْمَالِكَ وَمَسَاقِ رَعِيَّتِكَ ، أَفَيْفَىٰ إِحْسَانُكَ إِلَىٰ رَجُلٍ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا أَسَأْتُ إِلَىٰ مُجْمُوعِهِمْ ؟ أَيُّ : لَيْسَ مَا ذَكَرْتَهُ شَيْئًا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا فَعَلْتَ بِهِمْ .

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ
كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ
﴿٤١﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٤٢﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَمَكْرِهِ وَطُغْيَانِهِ وَجُحُودِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾
وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِقَوْمِهِ ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] ﴿ فَاسْتَخَفَّ
قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وَكَانُوا يَجْحَدُونَ الصَّانِعَ - جَلَّ وَعَلَا - وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لَا
رَبَّ لَهُمْ سِوَىٰ فِرْعَوْنَ ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ لَهُ : وَمَنْ هَذَا الَّذِي
تَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ غَيْرِي ؟ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَىٰ لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ : ﴿ قَالَ رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيُّ : خَالِقُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَمَالِكُهُ ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِ وَإِلَهُهُ ، لَا
شَرِيكَ لَهُ ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا ، الْجَمِيعُ عِبِيدَ لَهُ خَاضِعُونَ ذَلِيلُونَ . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ
مُوقِنِينَ ﴾ أَيُّ : إِنْ كَانَتْ لَكُمْ قُلُوبٌ مُوقِنَةٌ وَأَبْصَارٌ نَافِذَةٌ . فَعِنْدَ ذَلِكَ انْفَتَحَ فِرْعَوْنُ إِلَىٰ مَنْ
حَوْلَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ وَرُؤَسَاءِ دَوْلَتِهِ ، قَائِلًا لَهُمْ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّهْكُمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ لِمُوسَىٰ فِيمَا
قَالَهُ : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أَيُّ : أَلَا تَعْجَبُونَ بِمَا يَقُولُ هَذَا فِي زَعْمِهِ أَنَّ لَكُمْ إِلَهًا غَيْرِي ؟ فَقَالَ لَهُمْ
مُوسَىٰ : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أَيُّ : خَالِقُكُمْ وَخَالِقُ آبَائِكُمُ الْأَوَائِلِ ، الَّذِي كَانُوا قَبْلَ
فِرْعَوْنَ وَزَمَانِهِ ﴾ قَالَ ﴾ أَيُّ : فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، أَيُّ :
لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ فِي دَعْوَاهُ ، أَنْ تَمَّ رَبًّا غَيْرِي ، ﴿ قَالَ ﴾ أَيُّ مُوسَىٰ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ أَوْعَزَ إِلَيْهِمْ
فِرْعَوْنُ مَا أَوْعَزَ مِنَ الشُّبْهَةِ ، فَأَجَابَ مُوسَىٰ بِقَوْلِهِ : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ
تَعْقِلُونَ ﴾ أَيُّ : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَشْرِقَ مَشْرِقًا تَطْلُعُ مِنْهُ الْكَوَاكِبُ ، وَالْمَغْرِبَ مَغْرِبًا تَغْرُبُ فِيهِ
الْكَوَاكِبُ ، ثَوَابِتُهَا وَسَيَّارَاتُهَا ، مَعَ هَذَا النِّظَامِ الَّذِي سَخَّرَهَا فِيهِ وَقَدَّرَهَا ، فَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي

يَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّكُمْ وَإِلَهُكُمْ صَادِقًا فَلْيَعْكُسِ الْأَمْرَ ، وَلْيَجْعَلِ الْمَشْرِقَ مَغْرِبًا وَالْمَغْرِبَ مَشْرِقًا ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ : ﴿ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُخَيِّئُ وَأُمِيتُ ۚ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، وَلِهَذَا لَمَّا غَلِبَ فِرْعَوْنُ وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ عَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِ وَقُوَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَاعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ وَنَافِذٌ فِي مُوسَى عليه السلام فَقَالَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ :

قَالَ لِيْنِ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ أُولُو جِنَّتِكَ بَشَىءٌ مُبِينٌ ﴿١٧﴾ قَالَ فَاتِّبِعْهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٢٣﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٢٤﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُولُو جِنَّتِكَ بَشَىءٌ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : بِبُرْهَانٍ قَاطِعٍ وَاضِحٍ . ﴿ قَالَ فَاتِّبِعْهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿١٨﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : ظَاهِرٌ وَاضِحٌ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ وَالْعَظَمَةِ ، ذَاتُ قَوَائِمٍ وَفَمٍ كَبِيرٍ وَشَكْلٍ هَائِلٍ مُزْعِجٍ ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أَيُّ : مِنْ جَنِيهِ ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴾ أَيُّ : تَبْلَاؤًا كَقِطْعَةٍ مِنَ الْقَمَرِ ، فَبَادَرَ فِرْعَوْنُ - لِشِقَائِهِ - إِلَى التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ ، فَقَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : فَاضِلٌ بَارِعٌ فِي السَّحْرِ ، فَرَوَّجَ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ أَنَّ هَذَا مِنْ قَبِيلِ السَّحَرِ لَا مِنْ قَبِيلِ الْمُعْجِزَةِ ، ثُمَّ هَيَّجَهُمْ وَحَرَّضَهُمْ عَلَى مُحَالَفَتِهِ وَالْكُفْرِ بِهِ ، فَقَالَ : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ أَيُّ : أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ بِقُلُوبِ النَّاسِ مَعَهُ بِسَبَبِ هَذَا ، فَيَكْثُرَ أَعْوَانُهُ وَأَنْصَارُهُ وَاتَّبَاعُهُ ، وَيَغْلِبَكُمْ عَلَى دَوْلَتِكُمْ ، فَيَأْخُذَ الْبِلَادَ مِنْكُمْ ، فَأَشِيرُوا عَلَيَّ فِيهِ مَاذَا أَصْنَعُ بِهِ ؟ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ ﴿٢٣﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ أَيُّ : أَخْرَهُ وَأَخَاهُ حَتَّى يَجْمَعَ لَهُ مِنْ مَدَائِنِ مَمْلَكَتِكَ وَأَقَالِيمِ دَوْلَتِكَ كُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ، يُقَابِلُونَهُ وَيَأْتُونُ بِنَظِيرٍ مَا جَاءَ بِهِ ، فَتَغْلِبُهُ أَنْتَ وَتَكُونَ لَكَ النُّصْرَةُ وَالتَّائِيدُ ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَكَانَ هَذَا مِنْ تَسْخِيرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي ذَلِكَ ، لِيَجْتَمَعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَتُظْهَرَ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجْجُهُ وَبَرَاهِينُهُ عَلَى النَّاسِ فِي النَّهَارِ جَهْرَةً .

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٥﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٢٦﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنِّ

لَنَا لِأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿١٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿١٤﴾ فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٥﴾ فَأَلْفَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٨﴾

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْمَنَاطِرَ الْفِعْلِيَّةَ بَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْقِبْطِ فِي «سُورَةِ الْأَعْرَافِ» وَفِي «سُورَةِ طه» وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ : وَذَلِكَ أَنَّ الْقِبْطَ أَرَادُوا أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، وَهَذَا شَأْنُ الْكُفْرِ وَالْإِيْمَانِ مَا تَوَاجَهَا وَتَقَابَلَا إِلَّا غَلَبَهُ الْإِيْمَانُ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ وَقَدْ جَمَعُوهُمْ مِنْ أَقَالِيمَ بِلَادِ مِصْرَ ، وَكَانُوا إِذْ ذَاكَ أَسْحَرَ النَّاسِ وَأَضْعَفَهُمْ وَأَشَدَّهُمْ تَحْيِيلًا فِي ذَلِكَ ، وَكَانَ السَّحَرَةُ جَمْعًا كَثِيرًا وَجَمًّا غَفِيرًا .

وَاجْتَهَدَ النَّاسُ فِي الْاجْتِنَاعِ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ وَلَمْ يَقُولُوا نَتَّبِعِ الْحَقَّ سَوَاءً كَانَ مِنَ السَّحَرَةِ أَوْ مِنْ مُوسَى ، بَلِ الرَّعِيَّةُ عَلَى دِينِ مَلِكِهِمْ ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ أَيُّ : إِلَى مَجْلِسِ فِرْعَوْنَ وَقَدْ ضَرَبُوا لَهُ وَطَاقًا ، وَجَمَعَ خَدَمَهُ وَخَشَمَهُ وَوُزَرَءَهُ وَرُؤُسَاءَ دَوْلَتِهِ وَجُنُودَ مَمْلَكَتِهِ ، فَقَامَ السَّحَرَةُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ إِنْ غَلَبُوا - أَيُّ : هَذَا الَّذِي جَمَعْتَنَا مِنْ أَجْلِهِ - فَقَالُوا : ﴿إِنَّ لَنَا لِأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أَيُّ : وَأَخْصُ مِمَّا تَطْلُبُونَ أَجْعَلُكُمْ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدِي وَجَلَسَائِي ، فَعَادُوا إِلَى مَقَامِ الْمَنَاطِرَةِ ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْفَى﴾ [طه : ٦٥-٦٦] ، وَقَدْ اخْتَصَرَ هَذَا هَهُنَا فَقَالَ : ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ﴿فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ ، وَهَذَا كَمَا يَقُولُهُ الْجَهْلَةُ مِنَ الْعَوَامِّ إِذَا فَعَلُوا شَيْئًا : هَذَا بِشَوَابِ فُلَانٍ . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ «طه» ﴿فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ تُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تُسْعَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه : ٦٦-٦٩] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أَيُّ : تَخْطِفُهُ وَتَجْمَعُهُ مِنْ كُلِّ بُقْعَةٍ وَتَبْتَلِعُهُ ، فَلَمْ تَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف : ١١٨-١٢٢] ، وَكَانَ هَذَا أَمْرًا عَظِيمًا جَدًّا ، وَبُرْهَانًا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ وَحُجَّةً دَامِغَةً ، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ اسْتَنْصَرَ بِهِمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَغْلِبُوا قَدْ غَلِبُوا وَخَضَعُوا وَآمَنُوا بِمُوسَى فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ ، وَسَجَدُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلَفَ وَلَا صَلْبَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۚ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ تَهَدَّدَهُمْ فَلَمْ يَقْطَعْ ذَلِكَ فِيهِمْ ، وَتَوَعَّدَهُمْ فَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيَّانَا وَتَسْلِيًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ كُشِفَ عَنْ قُلُوبِهِمْ حِجَابُ الْكُفْرِ ، وَظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ بِعِلْمِهِمْ مَا جَهِلَ قَوْمُهُمْ ، مِنْ أَنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَا يَصْدُرُ عَنْ بَشَرٍ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَيَّدَهُ بِهِ ، وَجَعَلَهُ لَهُ حُجَّةً وَدَلَالَةً عَلَىٰ صَدَقِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ ﴿ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي ، فَإِنْ أَذِنْتُ لَكُمْ فَعَلْتُمْ ، وَإِنْ مَنَعْتُكُمْ اِمْتَنَعْتُمْ ، فَإِنِّي أَنَا الْحَاكِمُ الْمُطَاعُ ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ وَهَذِهِ مُكَابَرَةٌ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ بُطْلَانَهَا ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَجْتَمِعُوا بِمُوسَى قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ كَبِيرُهُمُ الَّذِي أَفَادَهُمْ صِنَاعَةَ السِّحْرِ ؟ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ . ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِقُطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَالصَّلْبِ ، فَقَالُوا : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أَيُّ : لَا حَرَجَ ، وَلَا يَضُرُّنَا ذَلِكَ وَلَا تُبَالِي بِهِ ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ أَيُّ : الْمَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَهُوَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا ﴾ أَيُّ : مَا قَارَفْنَاهُ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴿ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : بِسَبَبِ أَنَّا بَادَرْنَا قَوْمَنَا مِنَ الْقَبْطِ إِلَى الْإِيمَانِ فَفَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴾ ﴿ ٢٠ ﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي آلَمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿ ٢١ ﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿ ٢٢ ﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايِطُونَ ﴿ ٢٣ ﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿ ٢٤ ﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿ ٢٥ ﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿ ٢٦ ﴾

لَمَّا طَالَ مُقَامُ مُوسَى ﷺ بِبِلَادِ مِصْرَ ، وَأَقَامَ بِهَا حُجَجَ اللَّهِ وَبَرَاهِينَهُ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُكَابِرُونَ وَيُعَانِدُونَ ، لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ مُوسَى ﷺ أَنْ يُخْرِجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْلًا مِنْ مِصْرَ ، وَأَنْ يَمْضِيَ بِهِمْ حَيْثُ يُؤْمَرُ . فَفَعَلَ مُوسَى ﷺ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ ﷻ ، خَرَجَ بِهِمْ بَعْدَ مَا اسْتَعَارُوا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ حُلِيًّا كَثِيرًا ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا وَلَيْسَ فِي نَادِيهِمْ دَاعٌ وَلَا مُجِيبٌ ، غَاظَ ذَلِكَ فِرْعَوْنَ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الدَّمَارِ ، فَأَرْسَلَ سَرِيعًا فِي بِلَادِهِ حَاشِرِينَ ، أَيُّ : مَنْ يَحْشُرُ الْجُنْدَ وَيَجْمَعُهُ ، كَالنُّبَّاءِ وَالْحُجَّابِ ، وَنَادَىٰ فِيهِمْ ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ يَعْنِي : بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أَيُّ : لَطَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا

لَعَابِظُونَ ﴿١٧﴾ أَيُّ : كُلُّ وَقْتٍ يَصِلُ مِنْهُمْ إِلَيْنَا مَا يَغِظُنَا ﴿١٨﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴿١٩﴾ أَيُّ : نَحْنُ كُلُّ وَقْتٍ نَحْذَرُ مِنْ غَائِلَتِهِمْ ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ ، وَأُبِيدَ خَضْرَاءَهُمْ ، فَجُوزِي فِي نَفْسِهِ وَجُنْدِهِ بِمَا أَرَادَ لَهُمْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٠﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢١﴾ أَيُّ : فَخَرَجُوا مِنْ هَذَا النَّعِيمِ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَتَرَكُوا تِلْكَ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ ، وَالْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ ، وَالْأَمْوَالَ وَالْأَرْزَاقَ ، وَالْمُلُوكَ وَالْجَاهَ الْوَافِرَ فِي الدُّنْيَا .

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ ﴿٢٤﴾ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٢٧﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٢٨﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٣٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴿٣١﴾ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣٣﴾

﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ فِرْعَوْنَ خَرَجَ فِي جَحْفَلٍ عَظِيمٍ وَجَمْعٍ كَبِيرٍ ، هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَمْلَكَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي زَمَانِهِ ، أَوَّلِي الْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَالِدَوْلِ ، مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَءِ وَالْكَبَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالْجُنُودِ ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ أَيُّ : وَصَلُوا إِلَيْهِمْ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ ، وَهُوَ طُلُوعُهَا ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ ﴾ أَيُّ : رَأَى كُلُّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبَهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ انْتَهَى بِهِمُ السَّيْرُ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ - وَهُوَ بَحْرُ الْقُلْزُمِ - فَصَارَ أَمَامَهُمُ الْبَحْرُ ، وَقَدْ أَدْرَكَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ، فَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أَيُّ : لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ شَيْءٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أَسِيرَ هَهُنَا بِكُمْ ، وَهُوَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى ﴿ أَنْ أَضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فَضْرَبَهُ بِهَا ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ أَيُّ : كَالْجَبَلِ الْكَبِيرِ ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ﴾ أَيُّ : هُنَالِكَ ﴿ الْآخِرِينَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ أَيُّ : قَرَّبْنَا فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ مِنَ الْبَحْرِ وَأَذْنَيْنَاهُمْ إِلَيْهِ ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴾ أَيُّ : أَنْجَيْنَا مُوسَى وَبَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَنْ مَعَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ فَلَمْ يَبْلُكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ فَلَمْ يَتَّبِعْ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا هَلَكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أَي : فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالنَّصْرِ
وَالتَّائِيدِ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ لَدَلَالَةٍ وَحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ وَحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) وَإِنَّ
رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ١١٠ 》 .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿ ١١١ 〉 إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿ ١١٢ 〉 قَالُوا نَعْبُدُ
أَصْنَامًا فَنُظِلُّ لَهَا مِنْ أَشْرَافِنَا لَمَدًا ﴿ ١١٣ 〉 قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿ ١١٤ 〉 أَوْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ
يَضُرُّونَ ﴿ ١١٥ 〉 قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿ ١١٦ 〉 قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ
تَعْبُدُونَ ﴿ ١١٧ 〉 أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿ ١١٨ 〉 فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿ ١١٩ 〉
الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿ ١٢٠ 〉

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِمَامِ الْحَقَائِقِ ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى
رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتْلُوهُ عَلَى أُمَّتِهِ ، لِيَقْتَدُوا بِهِ فِي الْإِخْلَاصِ وَالتَّوَكُّلِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَخُذَهُ لَا
شَرِيكَ لَهُ وَالتَّبَرِّيَ مِنَ الشَّرْكِ وَأَهْلِهِ ، فَقَالَ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أَي : مَا هَذِهِ
التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ هَا عَاكِفُونَ ؟ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنُظِلُّ لَهَا مِنْ أَشْرَافِنَا لَمَدًا ﴾ أَي : مُقِيمِينَ عَلَى
عِبَادَتِهَا وَدُعَائِهَا ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ (١١٤) أَوْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿ ١١٥ 〉 قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا
آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يَعْنِي : اعْتَرَفُوا بِأَنَّ أَصْنَامَهُمْ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا رَأَوْا آبَاءَهُمْ
كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ
تَعْبُدُونَ ﴾ (١١٧) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿ ١١٨ 〉 فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي : إِنْ كَانَتْ هَذِهِ
الْأَصْنَامُ شَيْئًا ، وَلَهَا تَأْوِيلٌ فَلْتَخْلُصْ إِلَيَّ بِالمَسَاءَةِ ، فَإِنِّي عَدُوٌّ لَهَا لَا أَبَالِيَهَا وَلَا أَفْكُرُ فِيهَا ، وَهَكَذَا
تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَهْلِيهِمْ فَقَالَ : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ﴾
[الأنعام : ٨١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿ ١٢١ 〉 إِلَّا الَّذِي
فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً ﴿ [الزخرف : ٢٦-٢٨] يَعْنِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . يَعْنِي : لَا
أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أَي : هُوَ الْخَالِقُ الَّذِي قَدَّرَ قَدْرًا
وَهَدَى الْخَلَاقَ إِلَى اللَّهِ ، فَكُلُّ يَجْرِي عَلَى مَا قَدَّرَ ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ .

وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي ﴿ ١٢٢ 〉 وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿ ١٢٣ 〉 وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ
يَحْيِينِي ﴿ ١٢٤ 〉 وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿ ١٢٥ 〉

﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أَي : هُوَ خَالِقِي وَرَازِقِي ، بِمَا سَحَّرَ وَيَسَّرَ مِنَ الْأَسْبَابِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ ، فَسَاقَ الْمَزْنَ ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ ، وَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ عَذْبًا زَلَالًا يَسْقِيهِ مِمَّا خَلَقَ أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أَسْنَدَ الْمَرَضَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَإِنْ كَانَ عَنْ قَدْرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ ، وَلَكِنْ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ أَدَبًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى آمِرًا الْمُصَلِّيَ أَنْ يَقُولَ ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، فَأَسْنَدَ الْإِنْعَامَ وَالْهُدَايَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْغَضَبُ حُذِفَ فَاعِلُهُ أَدَبًا ، وَأَسْنَدَ الضَّلَالَةَ إِلَى الْعَبِيدِ ، كَمَا قَالَتِ الْحَنُّ ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] ، وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أَي : إِذَا وَقَعْتُ فِي مَرَضٍ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شِفَائِي أَحَدٌ غَيْرُهُ ، بِمَا يَقْدِرُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَوْصَلَةِ إِلَيْهِ . ﴿ وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ نُحْيِينِ ﴾ أَي : هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أَي : الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى غُفْرَانِ الذُّنُوبِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا هُوَ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنَ بِالصَّالِحِينَ ﴿١﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٢﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٣﴾ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٤﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٥﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٧﴾ وَهَذَا سُؤَالٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ يُؤْتِيَهُ رَبُّهُ حُكْمًا . قِيلَ : وَهُوَ الْعِلْمُ ، وَقِيلَ : هُوَ الْقُرْآنُ ، وَقِيلَ : هُوَ النُّبُوَّةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْحَقْنَ بِالصَّالِحِينَ ﴾ أَي : اجْعَلْنِي مَعَ الصَّالِحِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أَي : وَاجْعَلْ لِي ذِكْرًا جَمِيلًا بَعْدِي أَذْكَرُ بِهِ ، وَيُقْتَدَى بِفِي الْخَيْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ﴿ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٨-١١٠] قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ يَعْنِي : الشَّاءَ الْحَسَنَ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٢] . قِيلَ : كُلُّ مِلَّةٍ تُحِبُّهُ وَتَتَوَلَّاهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أَي : أَنْعِمْ عَلَيَّ فِي الدُّنْيَا بِبَقَاءِ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ بَعْدِي ، وَفِي الْآخِرَةِ بِأَنْ تُجْعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . ﴿ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ الْآيَةُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [إبراهيم : ٤١] ، وَهَذَا يَمَّا رَجَعَ عَنْهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْهٍ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أَي : أَجْرِنِي مِنَ الْخِزْيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ الْخَلَائِقُ أَوْهُمْ وَآخِرُهُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ أَي : لَا يَبْقَى الْمَرْءُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَالُهُ ، وَلَوْ افْتَدَى بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴿ وَلَا بَنُونَ ﴾ أَي : وَلَوْ افْتَدَى بِمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَلَا يَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ ، وَالتَّبَرُّي مِنَ الشَّرِكِ وَأَهْلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أَي : سَالِمٌ مِنَ الدَّنَسِ وَالشَّرِكِ .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿١٧﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿١٩﴾ فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٢٠﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا تَخْتَصِمُونَ ﴿٢٢﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٢٥﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿٢٧﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣٠﴾

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ أَي : قُرِبَتْ وَأُذْنِيتْ مِنْ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أَي : أَظْهِرَتْ وَكُشِفَ عَنْهَا ، وَبَدَتْ مِنْهَا عُنُقٌ ، فَزَفَرَتْ زُفْرَةً بَلَغَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَقِيلَ لِأَهْلِهَا تَقَرَّبُوا وَتَوَبَّعُوا ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ أَي : لَيْسَتْ الْأَلِهَةُ الَّتِي عَبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ - مِنْ تِلْكَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ - تُغْنِي عَنْكُمْ الْيَوْمَ شَيْئًا ، وَلَا تَدْفَعُ عَنْ أَنْفُسِهَا ، فَإِنَّكُمْ وَإِيَّاهَا الْيَوْمَ حَصَبُ جَهَنَّمَ ، أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ يَعْنِي : فَذُهِبُوا فِيهَا ، وَقَالَ غَيْرُهُ : كُفِّبُوا فِيهَا ، وَالْكَافُ مُكَرَّرَةٌ ، كَمَا يُقَالُ : صَرَصَرٌ . وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ أُلْقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَقَادَتْهُمْ الَّذِينَ دَعَوْهُمْ إِلَى الشَّرِكِ ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ أَي : أُلْقُوا فِيهَا عَنْ آخِرِهِمْ ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا تَخْتَصِمُونَ ﴾ أَي : يَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ [غافر : ٤٧] . وَيَقُولُونَ وَقَدْ عَادُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿٢٣﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي : نَجْعَلُ أَمْرَكُمْ مُطَاعًا كَمَا يُطَاعُ أَمْرُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَعَبَدْنَاكُمْ مَعَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴾ أَي : مَا دَعَانَا إِلَى ذَلِكَ إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : يَعْنِي : مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، كَمَا يَقُولُونَ : ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف : ٥٣] ، وَكَذَا قَالُوا :

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ١٤ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٥﴾ أَيُّ : قَرِيبٍ . قَالَ قَتَادَةُ : يَعْلَمُونَ وَاللَّهِ أَنَّ الصَّدِيقَ إِذَا كَانَ صَالِحًا نَفَعَ ، وَأَنَّ الْحَمِيمَ إِذَا كَانَ صَالِحًا شَفَعَ ، ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَمَتَّعُونَ أَنَّهُمْ يُرَدُّوْا إِلَى دَارِ الدُّنْيَا ؛ لِيَعْمَلُوا بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ فِيمَا يَزْعُمُونَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ رَدَّهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ إِثْمِهِمْ لَكَادِبُونَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ : أَنَّ فِي مُحَاجَّةِ إِبْرَاهِيمَ لِقَوْمِهِ وَإِقَامَتِهِ الْحُجَجَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْحِيدِ لَآيَةً وَدَلَالَةً وَاضِحَةً جَلِيَّةً عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٦ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿٢٠﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿٢٢﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بُعِثَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، بَعْدَ مَا عُبِدَتْ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ ، بَعَثَهُ اللَّهُ نَاهِيًا عَنْ ذَلِكَ وَمُحَذِّرًا مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ ، فَكَذَّبَهُ قَوْمُهُ فَاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْفِعَالِ الْخَبِيثَةِ فِي عِبَادَتِهِمْ أَصْنَامَهُمْ ، يَتَنَزَّلُ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ مِنْزِلَةً تَكْذِيبِ جَمِيعِ الرُّسُلِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٧ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ أَيُّ : أَلَا تَخَافُونَ اللَّهَ فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرِهِ . ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ١٩ أَيُّ : إِنِّي رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، أَمِينٌ فِيمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَلَا أَزِيدُ فِيهَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهَا ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ﴾ ٢٠ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴿٢١﴾ أَيُّ : لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ جَزَاءً عَلَىٰ نَصْحِي لَكُمْ ، بَلْ أَدْخِرُ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ﴾ فَقَدْ وَضَحَ لَكُمْ وَبَانَ صَدَقِي وَنُصْحِي وَأَمَانَتِي فِيمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ وَاتَّمَنَّنِي عَلَيْهِ .

قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ وَمَا عَلِمَىٰ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٧﴾ يَقُولُونَ : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبِعَكَ وَتَسَاوَىٰ فِي ذَلِكَ بِهِؤُلَاءِ الْأَرَاذِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ وَصَدَّقُوكَ وَهُمْ أَرَادِلُنَا ؟ ﴿قَالَ وَمَا عَلِمَىٰ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٢٤ أَيُّ : وَأَيُّ شَيْءٍ يَلْزَمُنِي مِنَ اتِّبَاعِ هَؤُلَاءِ لِي ، وَلَوْ كَانُوا عَلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ كَانُوا عَلَيْهِ لَا يَلْزَمُنِي التَّتَقُّبُ عَنْهُمْ وَالْبَحْثُ وَالْفَحْصُ ، إِنَّمَا عَلَيَّ أَنْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ تَصَدِيقَهُمْ إِنِّي ، وَأَكِلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾

﴿١٥﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ كَأَنَّهُمْ سَأَلُوا مِنْهُ أَنْ يُبْعِدَهُمْ عَنْهُ وَيَتَابِعُوهُ ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، وَقَالَ : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٦﴾ أَيُّ : إِنَّمَا بُعِثْتُ نَذِيرًا ، فَمَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَنِي وَصَدَّقَنِي كَانَ مِنِّي وَكُنْتُ مِنْهُ ، سَوَاءٌ كَانَ شَرِيفًا أَوْ وَضِيعًا ، جَلِيلًا أَوْ حَقِيرًا .

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَانْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾

لَمَّا طَالَ مُقَامُ نَبِيِّ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَجَهَارًا ، وَكُلَّمَا كَرَّرَ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَةَ صَمَمُوا عَلَى الْكُفْرِ الْغَلِيظِ ، وَالْإِمْتِنَاعِ الشَّدِيدِ وَقَالُوا فِي الْآخِرِ ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ ﴾ أَيُّ : عَنْ دَعْوَتِكَ إِنَّا نَا إِلَى دِينِكَ يَا نُوحُ ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أَيُّ : لَنَرَجُمَنَّكَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا عَلَيْهِمْ دَعْوَةً اسْتَجَابَ اللَّهُ مِنْهُ ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ إِنِّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ ﴿١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴿١٨﴾ الْآيَةُ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ فَدَعَا رَبُّهُ أُنًى مَغْلُوبٌ فَانْتَصَرَ ﴾ [القمر : ١٠] الْآيَاتُ . وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ فَانْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴾ وَالْمَشْحُونُ : هُوَ الْمَمْلُوءُ بِالْأَمْتَةِ وَالْأَزْوَاجِ الَّتِي حُمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، أَيُّ : أَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ كُلُّهُمْ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾ وَأَغْرَقْنَا مَنْ كَذَّبَهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ كُلُّهُمْ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ .

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ ﴿٣٣﴾ وَجَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ عَادًا وَكَانُوا قَوْمًا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ ، وَهِيَ : جِبَالُ الرَّمْلِ ، قَرِيبًا مِنْ بِلَادِ حَضْرَمَوْتَ ، أَنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَةِ مِنْ قُوَّةِ التَّرْكِيبِ ، وَالْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ الشَّدِيدِ ، وَالطُّولِ الْمَدِيدِ ، وَالْأَرْزَاقِ الدَّارَةِ ، وَالْأَمْوَالِ وَالْجَنَابِ

وَالْأَنْهَارِ ، وَالْأَنْبَاءِ ، وَالزُّرُوعِ وَالشَّجَرِ ، وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ مَعَهُ ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ رَسُولًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَحَدَّهُ وَحَذَّرَهُمْ نِقْمَتَهُ وَعَذَابَهُ فِي مُخَالَفَتِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ ، إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً نَعْبُوثُ ﴾ اِخْتَلَفَ الْمَفْسُورُونَ فِي الرَّيْعِ بِمَا حَاصِلُهُ : أَنَّهُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ عِنْدَ جَوَادِّ الطُّرُقِ الْمَشْهُورَةِ ، تَبْنُونَ هُنَاكَ بِنَاءً مُحْكَمًا هَائِلًا بَاهِرًا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً ﴾ أَيُّ : مَعْلَمًا بِنَاءً مَشْهُورًا ﴿ نَعْبُوثُ ﴾ وَإِنَّمَا تَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَبَثًا لَا لِلاَحْتِيَاجِ إِلَيْهِ بَلْ لِمُجَرَّدِ اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وَإِظْهَارِ الْقُوَّةِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : الْمَصَانِعُ : الْبُرُوجُ الْمُسَيَّدَةُ وَالْبُنْيَانُ الْمُخَلَّدُ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : بُرُوجُ الْحَمَامِ . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أَيُّ : لِكَيْ تُقِيمُوا فِيهَا أَبَدًا ، وَذَلِكَ لَيْسَ بِحَاصِلِ لَكُمْ ، بَلْ زَانِلٌ عَنْكُمْ كَمَا زَالَ عَمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ . ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أَيُّ : يَصِفُهُمْ بِالْقُوَّةِ وَالْغِلَظَةِ وَالْجَبَرُوتِ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أَيُّ : اُعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَطِيعُوا رَسُولَكُمْ . ثُمَّ شَرَعَ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ . فَقَالَ : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ اَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيِّنَ ﴿ وَجَنَّتْ وَعُيُونِ ﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ أَيُّ : إِنْ كَذَبْتُمْ وَخَالَفْتُمْ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ بِالرَّغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ فَمَا نَفَعَ فِيهِمْ .

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿ إِن هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَنَّهُمْ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ قَوْمِ هُودٍ لَهُ ، بَعْدَ مَا حَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ وَرَعَّبَهُمْ وَرَهَّبَهُمْ وَبَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ وَوَضَّحَهُ ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ أَيُّ : لَا تَرْجِعْ عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ٥٣] ، وَهَكَذَا الْأَمْرُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٠] وَقَوْلُهُمْ : ﴿ إِن هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ : دِينُهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ هُوَ دِينُ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، وَنَحْنُ تَابِعُونَ لَهُمْ ، سَالِكُونَ وَرَاءَهُمْ ، نَعِيشُ كَمَا عَاشُوا ، وَنَمُوتُ كَمَا مَاتُوا ، وَلَا بَعَثَ وَلَا مَعَادَ ، وَهَذَا قَالُوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَنَّهُمْ ﴾ أَيُّ : اسْتَمَرُّوا عَلَى تَكْذِيبِ نَبِيِّ اللَّهِ هُودٍ وَمُخَالَفَتِهِ وَعِنَادِهِ فَأَهْلَكَهُمْ اللَّهُ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُرْسِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا مَقْدَارُ أَنْفِ الثَّوْرِ ، عَتَتْ عَلَى الْحَزَنَةِ ، فَأَذِنَ اللَّهُ لَهَا فِي ذَلِكَ ، فَسَلَكْتَ فَحَصَبَتْ بِلَادَهُمْ ، فَحَصَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ ، كَمَا

قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٥] الْآيَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٦-٧] أَي : كَامِلَةً ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ٧] أَي : بَقُوا أَبْدَانًا بِلَا رُءُوسٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَأْتِي الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَتَقْتَلِعُهُ وَتَرْفَعُهُ فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتَشْدُخُ دِمَاعَهُ وَتَكْسِرُ رَأْسَهُ وَتُلْقِيهِ ، كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ مُنْقَعِرٍ ، وَقَدْ كَانُوا تَحَصَّنُوا فِي الْجِبَالِ وَالْكُهُوفِ وَالْمَغَارَاتِ ، وَخَفَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنْصَافِهِمْ ، فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ ذَلِكَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْئًا .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾

وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ ثَمُودَ وَكَانُوا عَرَبًا يَسْكُنُونَ مَدِينَةَ الْحِجْرِ الَّتِي بَيْنَ وَادِي الْقَرْيَ وَبِلَادِ الشَّامِ ، وَكَانُوا بَعْدَ عَادٍ وَقَبْلَ الْحَمِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَدَعَاهُمْ نَبِيُّهُمْ صَالِحٌ إِلَى اللَّهِ ﷻ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ يُطِيعُوهُ فِيمَا بَلَغَهُمْ مِنَ الرِّسَالَةِ ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَنْتَعِي بِدَعْوَتِهِمْ أَجْرًا مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُ ثَوَابَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ ﷻ ، ثُمَّ ذَكَرَهُمْ آلاءُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ :

أَتَتَرَكُونَ فِي مَا هَنُوءًا آمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٦٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ طَلُوعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٦٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٦٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٧٢﴾

يَقُولُ لَهُمْ وَاعِظًا لَهُمْ وَمُحَذِّرًا إِيَّاهُمْ نَقَمَ اللَّهُ أَنْ تَحِلَّ بِهِمْ ، وَمُذَكِّرًا بِأَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيمَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ الدَّارَةِ ، وَجَعَلَهُمْ فِي أَمْنٍ مِنَ الْمُحَذَّرَاتِ ، وَأَنْبَتَ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّاتِ ، وَفَجَّرَ لَهُمْ مِنَ الْعُيُونِ الْجَارِيَاتِ ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنَ الزُّرُوعِ وَالشَّمَرَاتِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَنَحْلٍ طَلُوعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قِيلَ : أَيْنَعَ وَبَلَغَ فَهُوَ هَضِيمٌ ، وَقِيلَ : مُعْشَبَةٌ ، وَقِيلَ : إِذَا رَطَبَ وَاسْتَرَخَى ، وَقِيلَ : الْهَضِيمُ : الرُّطْبُ اللَّيِّنُ . ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : حَادِقِينَ ، وَقِيلَ : شَرِهِينَ أَشْرِينَ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ تِلْكَ الْبُيُوتَ الْمُنْحُوتَةَ فِي الْجِبَالِ أَشْرًا وَبَطْرًا وَعَبَثًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى سُكْنَاهَا ، وَكَانُوا حَادِقِينَ مُتَقِينَ لِنَحْتِهَا وَنَفْسِهَا ، كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ مِنْ حَالِهِمْ لَمَنْ رَأَى مَنَازِلَهُمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴾ أَي : أَقْبِلُوا عَلَى مَا

يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، مِنْ عِبَادَةِ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ ؛ لِتَعْبُدُوهُ وَتُوحِّدُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٥٦﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥٧﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٨﴾ يَعْنِي : رُؤَسَاءَهُمْ وَكُتَبَاءَهُمْ ، الدَّعَاةُ لَهُمْ إِلَى الشَّرِّ وَالْكَفْرِ وَمُخَالَفَةُ الْحَقِّ .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٩﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦٠﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ هَآ شَرِبَ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٦١﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٢﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٦٣﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ثَمُودَ فِي جَوَابِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ ﴿١٥٩﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٦٠﴾ يَعْنُونَ : مِنَ الْمَسْحُورِينَ ، يَقُولُونَ : إِنَّمَا أَنْتَ فِي قَوْلِكَ هَذَا مَسْحُورٌ لَا عَقْلَ لَكَ . ثُمَّ قَالُوا : ﴿١٥٩﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴿١٦٠﴾ يَعْنِي : فَكَيْفَ أَوْحِيَ إِلَيْكَ ذُنُوبَنَا ؟ كَمَا قَالُوا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿١٦١﴾ أَلَمْ يَلْقَ الدَّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيرٌ ﴿١٦٢﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنْ الْكَذَّابُ الْآثِيرُ ﴿١٦٣﴾ [القمر : ٢٥ - ٢٦] ثُمَّ إِتَمَّ إِقْتَرَحُوا عَلَيْهِ آيَةَ يَأْتِيهِمْ بِهَا ؛ لِيَعْلَمُوا صِدْقَهُ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ فَطَلَبُوا مِنْهُ وَقَدْ اجْتَمَعَ مَلَكُهُمْ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمُ الْآنَ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ نَاقَةً عُسْرَاءَ - وَأَشَارُوا إِلَى صَخْرَةٍ عِنْدَهُمْ - مِنْ صِفَتِهَا كَذَا وَكَذَا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ اللَّهِ صَالِحٌ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ لِنَّ أَجَابَهُمْ إِلَى مَا سَأَلُوا لِيُؤْمِنُوا بِهِ وَلِيَتَّبِعْنَهُ ، فَأَعْطَوْهُ ذَلِكَ ، فَقَامَ نَبِيُّ اللَّهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَلَّى ثُمَّ دَعَا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُجِيبَهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ ، فَانْقَطَرَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ الَّتِي أَشَارُوا إِلَيْهَا عَنْ نَاقَةٍ عُسْرَاءَ عَلَى الصَّفَةِ الَّتِي وَصَفُوهَا ، فَأَمَّنَ بَعْضُهُمْ وَكَفَرَ أَكْثَرُهُمْ . ﴿١٦٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ هَآ شَرِبَ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٦٥﴾ يَعْنِي : تَرَدُّدُ مَاءِكُمْ يَوْمًا ، وَيَوْمًا تَرُدُّونَهُ أَنْتُمْ . ﴿١٦٦﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٧﴾ فَحَذَّرَهُمْ نِقْمَةَ اللَّهِ إِنْ أَصَابُوهَا بِسُوءٍ ، فَمَكَثَتِ النَّاقَةُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ تَرَدُّدُ الْمَاءِ ، وَتَأْكُلُ الْوَرَقَ وَالْمَرْعَى ، وَيَتَفَتَّحُونَ بِلَبِّهَا يَحْلِبُونَ مِنْهَا مَا يَكْفِيهِمْ شَرِبًا وَرِيًّا ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ وَحَضَرَ شَقَاؤُهُمْ تَمَلَّكُوا عَلَى قَتْلِهَا وَعَقَرُوهَا ﴿١٦٨﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴿١٦٩﴾ وَهُوَ أَنَّ أَرْضَهُمْ زُلْزَلَتْ زَلْزَلًا شَدِيدًا ، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ اقْتَلَعَتِ الْقُلُوبَ مِنْ مَحَاكُلِهَا ، وَأَنَاءَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ، وَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٢﴾ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ بَعَثَهُ إِلَى أُمَّةٍ عَظِيمَةٍ فِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَكَانُوا يَسْكُنُونَ « سَدُومَ » فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ يُطِيعُوا رَسُولَهُمُ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَازْتِكَابِ مَا كَانُوا قَدْ ابْتَدَعُوهُ فِي الْعَالَمِ ، مِمَّا لَمْ يَسْبِقْهُمْ الْخَلَائِقُ إِلَى فِعْلِهِ ، مِنْ إِيَّانِ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

لَمَّا نَهَاهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ عَنِ زَنْكَابِ الْفَوَاحِشِ وَغَشْيَانِهِمُ الذُّكُورَ ، وَارْشَدَهُمْ إِلَى إِيَّانِ نِسَائِهِمُ اللَّائِي خَلَقَهُنَّ اللَّهُ لَهُمْ ، مَا كَانَ جَوَائِبَهُمْ لَهُ إِلَّا أَنْ قَالُوا : ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ ﴾ أَيُّ : عَمَّا جِئْنَا بِهٖ ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أَيُّ : نُنْفِيكَ مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِنَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَزِيدُهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ ، وَأَنَّهُمْ مُسْتَمِرُّونَ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ ، وَقَالَ : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أَيُّ : الْمُبْغِضِينَ ، لَا أَحِبُّهُ وَلَا أَرْضَى بِهِ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْكُمْ ، ثُمَّ دَعَا اللَّهَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيُّ : كُلَّهُمْ ، ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ وَهِيَ امْرَأَتُهُ ، وَكَانَتْ عَجُوزًا سَوْءَ ، بَقِيَتْ فَهَلَكَتْ مَعَ مَنْ بَقِيَ مِنْ قَوْمِهَا ، وَذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي سُورَةِ « الْأَعْرَافِ » ، « وَهُودٍ » وَكَذَا فِي « الْحَجَرِ » حِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ ، وَأَنَّهُمْ لَا يَلْتَفِتُوا إِذَا سَمِعُوا الصَّيْحَةَ حِينَ تَنْزِلُ عَلَى قَوْمِهِ ، فَصَبَرُوا لِأَمْرِ اللَّهِ وَاسْتَمَرُّوا ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أُولَئِكَ الْعَذَابَ الَّذِي عَمَّ جَمِيعَهُمْ ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنُصُّودٍ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴿

إِلَى قَوْلِهِ : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعَزُّ الرَّحِيمِ﴾ .

كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾

هَؤُلَاءِ - أَعْنِي : أَصْحَابَ الْاَيْكَةِ - هُمْ أَهْلُ مَدْيَنَ عَلَى الصَّحِيحِ ، وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ هَهُنَا : أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ ؛ لِأَنَّهُمْ نُسِبُوا إِلَى عِبَادَةِ الْاَيْكَةِ ، وَهِيَ شَجَرَةٌ ، وَقِيلَ : شَجَرٌ مُثَلَّثٌ كَالْغَيْصَةِ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا ؛ فَلِهَذَا لَمَّا قَالَ : ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ لَمْ يَقُلْ : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ﴾ . وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فَقَطَعَ نَسَبَ الْأُخُوَّةِ بَيْنَهُمْ ؛ لِلْمَعْنَى الَّذِي نُسِبُوا إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُمْ نَسَبًا ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَفْطِنْ لِهَذِهِ النُّكْتَةِ فَظَنَّ أَنَّ أَصْحَابَ الْاَيْكَةِ غَيْرُ أَهْلِ مَدْيَنَ ، فَرَعَمَ أَنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أُمَّتَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : ثَلَاثَ أُمَمٍ . وَالصَّحِيحُ : أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ ، وَصَفُّوا فِي كُلِّ مَقَامٍ شَيْءٌ ؛ وَهَذَا وَعَظَ هَؤُلَاءِ وَأَمَرَهُمْ بِوَفَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ، كَمَا فِي قِصَّةِ مَدْيَنَ سَوَاءً ، بِسَوَاءٍ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ .

﴿أَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَىٰ ﴿٨٤﴾

يَأْمُرُهُم عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِفَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّطْفِيفِ فِيهِمَا ، فَقَالَ : ﴿أَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أَيُّ : إِذَا دَفَعْتُمْ لِلنَّاسِ فَكَمَلُوا الْكَيْلَ لَهُمْ ، وَلَا تَبْخَسُوا الْكَيْلَ فَتُعْطُوهُ نَاقِصًا ، وَتَأْخُذُوهُ إِذَا كَانَ لَكُمْ تَامًا وَافِيًا ، وَلَكِنْ خُذُوا كَمَا تُعْطُونَ وَأَعْطُوا كَمَا تَأْخُذُونَ . ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وَالْقِسْطَاسُ : هُوَ الْمِيزَانُ ، وَقِيلَ : هُوَ الْقَبَّانُ ، وَقِيلَ : الْقِسْطَاسُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ : الْعَدْلُ بِالرُّومِيَّةِ . ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أَيُّ : لَا تُنْقِصُوهُمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يَعْنِي : قَطَعَ الطَّرِيقَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَىٰ﴾ يُخَوِّفُهُمْ بِأَسِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ

﴿١٨١﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٢﴾ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٨٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَوَابِ قَوْمِهِ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَجَابَتْ بِهِ ثُمُودُ لِرَسُولِهَا ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ حَيْثُ قَالُوا : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ يَعْنُونَ : مِنَ الْمَسْحُورِينَ ، كَمَا تَقَدَّمَ ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ أَيُّ : تَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ فِيَمَا تَقُولُهُ لَا أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ إِلَيْنَا ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ قِيلَ : جَانِبًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَقِيلَ : قِطْعًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَقِيلَ : عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَهَذَا شَبِيهٌ بِمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ فِيَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا آلَ اللَّهِمْ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنِّ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وَهَكَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ الْجَاهِلَةُ ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ الْآيَةُ .

﴿ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يَقُولُ : اللَّهُ أَعْلَمُ بِكُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ جَازَاكُمْ بِهِ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَّكُمْ ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِهِمْ كَمَا سَأَلُوا جَزَاءً وَفَاقًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ جِنْسِ مَا سَأَلُوهُ مِنْ إِسْقَاطِ الْكِسْفِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - جَعَلَ عُقُوبَتَهُمْ أَنْ أَصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيدٌ جِدًّا مُدَّةَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ لَا يَكْنُتُهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ إِلَيْهِمْ سَحَابَةٌ أَظْلَتَهُمْ فَجَعَلُوا يَنْطَلِقُونَ إِلَيْهَا يَسْتَظِلُّونَ بِظِلِّهَا مِنَ الْحَرِّ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ تَحْتَهَا أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنْهَا شَرًّا مِنْ نَّارٍ وَلَهَبًا وَوَهَجًا عَظِيمًا ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ ، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ أَزْهَقَتْ أَرْوَاحَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ أَيُّ : الْعَزِيزُ فِي إِنْتِقَامِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ ، الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٧﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٨٨﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٨٩﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أَيُّ : الْقُرْآنُ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ ﴾ الْآيَةُ ، ﴿ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهَذَا مَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ أَيُّ : نَزَلَ بِهِ مَلَكُ كَرِيمٌ آمِينَ ذُو مَكَانَةٍ

عِنْدَ اللَّهِ ، مُطَاعٌ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى ﴿١٠٠﴾ عَلَى قَلْبِكَ ﴿١٠١﴾ يَا مُحَمَّدُ ، سَالِمًا مِنَ الدَّنَسِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ ﴿١٠٢﴾ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٠٣﴾ أَيُّ : لَتُنذِرَ بِهِ بَأْسَ اللَّهِ وَنِقْمَتَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ ، وَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ لَهُ . ﴿١٠٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٠٥﴾ أَيُّ : هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ الْكَامِلِ الشَّامِلِ ؛ لِيَكُونَ بَيِّنًا وَاضِحًا ظَاهِرًا ، قَاطِعًا لِلْعُذْرِ ، مُقِيمًا لِلْحُجَّةِ ، دَلِيلًا إِلَى الْمَحَجَّةِ .

وَأَنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠٦﴾ أَوْلَمَ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَن يَغَافَهُ عُلَمَتُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِنْ ذَكَرَ هَذَا الْقُرْآنَ وَالتَّنْوِيهِ بِهِ لِمَوْجُودٍ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ ، الْمَثُورَةِ عَنْ أَنْبِيَائِهِمُ الَّذِينَ بَشَّرُوا بِهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ، كَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِذَلِكَ ، حَتَّى قَامَ آخِرُهُمْ خُطْبِيًّا فِي مَلَكِهِ بِالْبَشَارَةِ بِأَحْمَدَ : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف : ٦] ، وَالزُّبُرُ : هَهُنَا هِيَ الْكُتُبُ جَمْعُ زُبْرَةٍ ، وَكَذَلِكَ الزُّبُورُ : وَهُوَ كِتَابُ دَاوُدَ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر : ٥٢] أَيُّ : مَكْتُوبٌ عَلَيْهِمْ فِي صُحُفِ الْمَلَائِكَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿أَوْلَمَ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَن يَغَافَهُ عُلَمَتُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أَيُّ : أَوْلَيْسَ يَكْفِيهِمْ مِنَ الشَّاهِدِ الصَّادِقِ عَلَى ذَلِكَ : أَنَّ الْعُلَمَاءَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَجِدُونَ ذَكَرَ هَذَا الْقُرْآنِ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي يَدْرُسُونَهَا ؟ وَالْمَرَادُ الْعُدُولُ مِنْهُمْ ، الَّذِينَ يَعْتَرِفُونَ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَبْعَثِهِ وَأَمَّتِيهِ ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ عَمَّنْ أَدْرَكَهُ مِنْهُمْ وَمَنْ شَاكَ لَهُمْ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف : ١٥٧] . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ شِدَّةِ كُفْرِ قُرَيْشٍ وَعِنَادِهِمْ لِهَذَا الْقُرْآنِ ، أَنَّهُ لَوْ نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَعَاجِمِ مَنَّ لَا يَذَرِي مِنَ الْعَرَبِيَّةِ كَلِمَةً ، وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ بَيِّنَانِهِ وَفَصَاحَتِهِ ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١١٠﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١١١﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر : ١٤-١٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوْنِ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام : ١١١]

كَذَلِكَ سَلَكَنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١١٣﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٤﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿١١٥﴾

أَفَعِدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿١٨﴾ ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ كَذَلِكَ سَلَكْنَا التَّكْذِيبَ وَالْكَفْرَ وَالْجُحُودَ وَالْعِنَادَ أَيُّ : أَدْخَلْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أَيُّ : بِالْحَقِّ ﴿ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أَيُّ : حَيْثُ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ ، وَهُمْ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أَيُّ : عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾ أَيُّ : يَتَمَنُّونَ حِينَ يُشَاهِدُونَ الْعَذَابَ أَنْ لَوْ أَنُظِّرُوا قَلِيلًا لَيَعْمَلُوا فِي زَعْمِهِمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] فَكُلُّ ظَالِمٍ وَفَاجِرٍ وَكَافِرٍ إِذَا شَاهَدَ عُقُوبَتَهُ نَدِمَ نَدَمًا شَدِيدًا ، هَذَا فِرْعَوْنُ لَمَّا دَعَا عَلَيْهِ الْكَلِيمُ بِقَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأُوهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : ٨٨-٨٩] فَأَثَرَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي فِرْعَوْنَ ، فَمَا أَمِنَ حَتَّىٰ رَأَى الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠-٩١] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ الْآيَاتِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ أَفَعِدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ تَكْذِيبًا وَاسْتِبْعَادًا : ﴿ آتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَنَسْتَعْجِلُوكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الْآيَةِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ أَيُّ : لَوْ أَخَّرْنَاهُمْ وَأَنْظَرْنَاهُمْ وَأَمَلَيْنَا لَهُمْ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ وَحِينًا مِنَ الزَّمَانِ وَإِنْ طَالَ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ ، أَيُّ شَيْءٍ يُجْدِي عَنْهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ ﴿ كَانَتْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ [النازعات : ٤٦] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «يُؤْتَى بِالْكَافِرِ فَيُغَمَسُ فِي النَّارِ غَمَسَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيمًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ » أَيُّ : مَا كَانَ شَيْئًا كَانَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ عَذْلِهِ فِي خَلْقِهِ ، أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ وَالْإِنْذَارِ لَهُمْ ، وَبَعَثَ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ ، وَقِيَامَ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥]

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١٦﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ الْمُؤَيَّدُ مِنَ اللَّهِ ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَيْ : لَيْسَ هُوَ مِنْ بُعِيَّتِهِمْ وَلَا مِنْ طَلَبَتِهِمْ ؛ لِأَنَّ مِنْ سَجَايَاهُمْ الْفَسَادَ وَإِضْلَالَ الْعِبَادِ ، وَهَذَا فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَنُورٌ ، وَهُدًى ، وَبُرْهَانٌ عَظِيمٌ ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ مُنَافَاةٌ عَظِيمَةٌ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أَيْ : وَلَوْ إِنَّبَغَى لَهُمْ لَمَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] ، ثُمَّ أَنَّهُ لَوْ إِنَّبَغَى لَهُمْ وَاسْتَطَاعُوا حَمْلَهُ وَتَأْدِيتَهُ لَمَا وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنِ اسْتِيعَابِ الْقُرْآنِ حَالِ نُزُولِهِ ؛ لِأَنَّ السَّمَاءَ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُحْبًا فِي مُدَّةِ انْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِهِ فَلَمْ يَخْلُصْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى اسْتِيعَابِ حَرْفٍ ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ لَثَلًا يَشْتَبِيهِ الْأَمْرُ ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ ، وَحِفْظِهِ لَشَرْعِهِ ، وَتَأْيِيدِهِ لِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجَنِّ ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُحْبًا ﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَمَرَآذِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ٨-١٠]

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ وَأُنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢٠﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢٣﴾ الَّذِي يَرْفَعُ حِينَ تَقُومُ ﴿٢٤﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢٥﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا بِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَخُبْرًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ عَذَبَهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُنذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ ، أَيْ : الْأَذْنَيْنِ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَخْلُصُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا بِإِثْنِهِ بِرَبِّهِ ﷻ ، وَأَمْرَهُ أَنْ يُدْلِلَ جَانِبَهُ لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ عَصَاهُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، كَأَنَّا مَنْ كَانَ ، فَلْيَتَبَرَّأْ مِنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وَهَذِهِ النَّذَارَةُ الْخَاصَّةُ لَا تُنَافِي الْعَامَّةَ ، بَلْ هِيَ فَرْدٌ مِنْ أَجْزَائِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ

ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦٠﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أَيُّ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ ، فَإِنَّهُ مُؤَيِّدُكَ وَحَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ وَمُطَفِّرُكَ وَمُعَلِّ كَلِمَتِكَ . ﴿ الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أَيُّ : هُوَ مُعْتَنِي بِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿ الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يَعْنِي : إِلَى الصَّلَاةِ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : ﴿ الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (٦١) وَتَقَلُّبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿ قَالُوا : فِي الصَّلَاةِ يَرَاكَ وَحَدِّكَ وَيَرَاكَ فِي الْجَمْعِ . ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أَيُّ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٦٢﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٦٣﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٦٤﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٦٦﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٦٧﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴿٦٨﴾ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٦٩﴾

قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أَيُّ : أَخْبَرُكُمْ ﴿ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ (٦٢) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ أَيُّ : كَذُوبٌ فِي قَوْلِهِ ، وَهُوَ الْأَفَّاكُ أَثِيمٌ وَهُوَ الْفَاجِرُ فِي أَفْعَالِهِ ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَنَزَّلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ مِنَ الْكُهَّانِ ، وَمَا جَرَىٰ مَجْرَاهُمْ مِنَ الْكَذِبَةِ الْفَسَقَةِ ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَيْضًا كَذِبَةٌ فَسَقَةٌ . ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ أَيُّ : يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَيَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ ، ثُمَّ يُلْقُونَهَا إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ فَيَحَدِّثُونَ بِهَا فَيَصَدِّقُهُمُ النَّاسُ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ بِسَبَبِ صِدْقِهِمْ فِي تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ ، كَمَا صَحَّ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ ، حَتَّىٰ إِذَا فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْقُوا السَّمْعَ وَمُسْتَرْقُوا السَّمْعَ هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّىٰ يُلْقِيهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا

قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ ، فَيُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا : كَذَا وَكَذَا ؟
فَيَصْدُقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : الْكُفَّارُ يَتَّبِعُهُمْ ضَلَالُ الْإِنْسِ
وَالْجَنِّ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ : كَانَ الشَّاعِرَانِ يَتَهَايَايَانِ فَيَتَنَصَّرُ لِهَذَا فِتْنَامٍ مِنَ النَّاسِ ، وَهَذَا فِتْنَامٌ مِنَ
النَّاسِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ
يَهِيمُونَ ﴾ فِي كُلِّ لُغُو يَخُوضُونَ . قَالَ قَتَادَةُ : الشَّاعِرُ يَمْدَحُ قَوْمًا بِبَاطِلٍ وَيَذُمُّ قَوْمًا بِبَاطِلٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَكْثَرُ قَوْلِهِمْ يَكْذِبُونَ فِيهِ .
وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَإِنَّ الشُّعْرَاءَ
يَتَّبِعُحُونَ بِأَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ لَمْ تَصُدْرْ مِنْهُمْ وَلَا عَنْهُمْ فَيَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ لَهُمْ . وَهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ :
« لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا » .

وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ لَيْسَ بِكَاهِنٍ وَلَا بِشَاعِرٍ ؛ لِأَنَّ
حَالَهُ مُنَافٍ لِحَالِهِمْ مِنْ وُجُوهِ ظَاهِرَةٍ ، « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا
تُؤْمِنُونَ ﴾ » وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴿ ٢٣ ﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٠-٤٣]

قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِمَّا تَقَدَّمَ وَلَا
شَكَّ أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ ، وَلَكِنَّ هَذَا الاسْتِثْنَاءَ يَدْخُلُ فِيهِ شُعْرَاءُ الْأَنْصَارِ وَغَيْرُهُمْ ، حَتَّى يَدْخُلَ فِيهِ
مَنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا مِنْ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ بِدَمِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، ثُمَّ تَابَ وَأَنَابَ وَرَجَعَ وَأَقْلَعَ وَعَمِلَ
صَالِحًا وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا فِي مُقَابَلَةٍ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ ، فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ،
وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : ذَكَرُوا اللَّهَ
كَثِيرًا فِي كَلَامِهِمْ ، وَقِيلَ : فِي شِعْرِهِمْ ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ مُكْفَّرٌ لِمَا سَبَقَ . « وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا
ظَلَمُوا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : يَرُدُّونَ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا يَهْجُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِحَسَّانَ : « أَهْجُهُمْ - أَوْ قَالَ - هَاجَهُمْ
وَجَبْرِيلُ مَعَكَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ . قِيلَ : الْمُرَادُ بِهِمْ أَهْلُ مَكَّةَ ،
وَقِيلَ : الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ عَلَى كُلِّ ظَالِمٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشُّعْرَاءِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يقيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي سُورَةِ «الْبَقَرَةِ» عَلَى الْحُرُوفِ الْمُتَقَطِّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ءَايَتُ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ آيَاتُ « الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ » أَيُّ : بَيِّنٌ وَاضِحٌ « هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » أَيُّ : إِنَّمَا تَحْصُلُ الْهُدَايَةُ وَالْبَشَارَةُ مِنَ الْقُرْآنِ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ ، وَآتَى الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَآمَنَ بِالْآخِرَةِ ، وَالْبُعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا ، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم : ٩٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أَيُّ : يُكَذِّبُونَ بِهَا وَيَسْتَبْعِدُونَ وَقُوعَهَا ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أَيُّ : حَسَّنَّا لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ ، وَمَدَدْنَا لَهُمْ فِي غِيَّهِمْ فَهُمْ يَتَّبِعُونَ فِي ضَلَالِهِمْ ، وَكَانَ هَذَا جَزَاءً عَلَى مَا كَذَّبُوا مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ يَخْسِرُ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَحْشَرِ ، ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَتَلْقَى ﴾ أَيُّ : لَتَأْخُذُ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿ أَيُّ : مِنْ عِنْدِ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ، أَيُّ : حَكِيمٍ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، عَلِيمٍ بِالْأُمُورِ جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، فَخَبْرُهُ هُوَ الصِّدْقُ الْمَحْضُ ، وَحُكْمُهُ هُوَ الْعَدْلُ التَّامُّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَعَاتِيكُمْ مِنْهَا يُخْبِرُ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ

وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا تَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ
بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ
سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا
مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُذَكِّرًا لَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَيْفَ اصْطَفَاهُ اللَّهُ ، وَكَلَّمَهُ
وَنَاجَاهُ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الْبَاهِرَةِ وَالْأَدَلَّةِ الْفَاهِرَةِ ، وَابْتَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِئِهِ
فَجَحَدُوا بِهَا وَكَفَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا مِنْ أَتْبَاعِهِ وَالْأَنْفِيَادِ لَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ ﴾
أَيُّ : أَذْكَرَ حِينَ سَارَ مُوسَى بِأَهْلِهِ ، فَأَصْلُ الطَّرِيقِ ، وَذَلِكَ فِي لَيْلٍ وَظُلَامٍ ، فَاتَّسَ مِنْ جَانِبِ
الطُّورِ نَارًا ، أَيُّ : رَأَى نَارًا تَتَأَجَّجُ وَتَضْطَرِّمُ ، فَقَالَ : ﴿ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَاتِيكُمْ مِنْهَا نَجِيرٌ ﴾
أَيُّ : عَنِ الطَّرِيقِ ﴿ أَوَّاءِتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أَيُّ : تَسْتَدْفِقُونَ بِهِ ، وَكَانَ كَمَا قَالَ ،
فَإِنَّهُ رَجَعَ مِنْهَا بِخَبَرٍ عَظِيمٍ وَاقْتَبَسَ مِنْهَا نُورًا عَظِيمًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ
بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أَيُّ : فَلَمَّا أَتَاهَا وَرَأَى مَنْظَرًا هَائِلًا عَظِيمًا ، حَيْثُ انْتَهَى إِلَيْهَا ،
وَالنَّارُ تَضْطَرِّمُ فِي شَجَرَةٍ خَضِرَاءَ لَا تَزْدَادُ النَّارُ إِلَّا تَوْقُدًا ، وَلَا تَزْدَادُ الشَّجَرَةُ إِلَّا خُضْرَةً
وَنَضْرَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا نُورُهَا مُتَّصِلٌ بِعَنَانِ السَّمَاءِ . فَوَقَفَ مُوسَى مُتَعَجِّبًا بِمَا رَأَى ﴿ نُودِيَ
أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قُدَّسَ ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أَيُّ : مِنَ الْمَلَائِكَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَلَا يُشَبَّهُهُ شَيْءٌ مِنْ
مَخْلُوقَاتِهِ ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَصْنُوعَاتِهِ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ، الْمُبَايِنُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ،
وَلَا يَكْتَنِفُهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، الْمُنَزَّهُ عَنْ ثَمَائِلَةِ الْمُحْدَثَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أَعْلَمُهُ أَنَّ الَّذِي يُحَاطَبُهُ وَيُنَاجِيهِ هُوَ رَبُّهُ اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ، الَّذِي عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهَرَهُ وَعَلَبَهُ ، الْحَكِيمُ فِي أَفْرَائِهِ وَأَفْعَالِهِ . ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُلْقِيَ عَصَاهُ
مِنْ يَدِهِ ؛ لِيُظْهِرَ لَهُ دَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ الْمُخْتَارُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَمَّا أَلْقَى مُوسَى
تِلْكَ الْعَصَا مِنْ يَدِهِ انْقَلَبَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ هَائِلَةٌ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ وَسُرْعَةِ الْحَرَكَةِ مَعَ ذَلِكَ ؛
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا هَتَّرَ بِهَا جَأْنَ ﴾ ، وَالْجَأْنُ : ضَرْبٌ مِنَ الْحَيَاتِ ، أَسْرَعُهُ حَرَكَةً وَأَكْثَرُهُ
اضْطِرَابًا ، وَفِي الْحَدِيثِ : نَهَى عَنْ قَتْلِ جِنَانِ الْيَبُوتِ . فَلَمَّا عَايَنَ مُوسَى ذَلِكَ : وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ
يُعَقِّبْ ﴿ أَيُّ : لَمْ يَلْتَفِتْ مِنْ شِدَّةِ فَرَقِهِ ﴾ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا تَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿ أَيُّ : لَا تَخَفْ

يَمَا تَرَى ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْطَفِيكَ رَسُولًا وَأَجْعَلَكَ نَبِيًّا وَجِيهًا . ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، وَفِيهِ بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِلْبَشَرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى شَيْءٍ ثُمَّ أَقْلَعَ عَنْهُ وَرَجَعَ وَتَابَ وَأَتَابَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه : ٨٢] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ هَذِهِ آيَةٌ أُخْرَى وَدَلِيلٌ بَاهِرٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ، وَصِدْقِ مَنْ جَعَلَ لَهُ مُعْجَزَةً ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِهِ ، فَإِذَا أَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا خَرَجَتْ بَيْضَاءَ سَاطِعَةً كَأَنَّهَا قِطْعَةُ قَمَرٍ ، هَذَا لِمَعَانٍ تَلَاؤًا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ . ﴿ فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ ﴾ أَيُّ : هَاتَانِ ثِنْتَانِ مِنْ تِسْعِ آيَاتٍ ، أُوَيْدُكَ بَيْنَ وَاجْعَلُهُنَّ بُرْهَانًا لَكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿ إِنِّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ، وَهَذِهِ هِيَ الْآيَاتُ التَّسْعُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء : ١٠١] كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ هُنَا لِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أَيُّ : بَيِّنَةً وَاضِحَةً ظَاهِرَةً ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وَأَرَادُوا مَعَارَضَتَهُ بِسِحْرِهِمْ فَعُلِبُوا وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا ﴾ أَيُّ : فِي ظَاهِرِ أَمْرِهِمْ ﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ أَيُّ : عَلِمُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهَا حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ جَحَدُوهَا وَعَانَدُوهَا وَكَابَرُوهَا ﴿ ظَلَمًا ﴾ أَيُّ : ظُلْمًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ سَحِيحَةً مُلْعُونَةً ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أَيُّ : اسْتِكْبَارًا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أَيُّ : اُنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ كُفْرِهِمْ فِي إِهْلَاكِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ وَإِعْرَاقِهِمْ عَنْ آخِرِهِمْ فِي صَبِيحَةِ وَاحِدَةٍ ، وَفَحْوَى الْخِطَابِ يَقُولُ : احْذَرُوا أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ لِحَمْدِ الْجَا حِدُونَ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخِرَى ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَشْرَفَ وَأَعْظَمَ مِنْ مُوسَى ، وَبُرْهَانُهُ أَدْلُ وَأَقْوَى مِنْ بُرْهَانِ مُوسَى .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسَلَّمَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٥٦ ﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَّيُّهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مِنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْأَمِينُ ﴿ ٥٧ ﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿ ٥٨ ﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَّيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ ٥٩ ﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿ ٦٠ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدَيْهِ وَنَبِيِّهِ دَاوُدَ وَابْنِهِ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِمَا مِنَ اللَّهِ السَّلَامُ - مِنَ النِّعَمِ

الْجَزِيلَةَ ، وَالْمَوَاهِبِ الْجَلِيلَةَ ، وَالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةَ ، وَمَا جَمَعَ هُمَا بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْمُلْكِ وَالتَّمَكُّينِ التَّامِّ فِي الدُّنْيَا ، وَالثُّبُوتِ وَالرَّسَالَةِ فِي الدِّينِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ أَيُّ : فِي الْمُلْكِ وَالثُّبُوتِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ وَرِاثَةُ الْمَالِ ، إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَخْصُ سُلَيْمَانُ وَحْدَهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَوْلَادِ دَاوُدَ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لِدَاوُدَ مِائَةُ امْرَأَةٍ ، وَلَكِنَّ الْمُرَادُ بِذَلِكَ وَرِاثَةُ الْمُلْكِ وَالثُّبُوتِ ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا تَوَرَّثُ أَمْوَالُهُمْ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ : « نَحْنُ مُعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا تَوَرَّثُ مَا تَرَكَنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أَيُّ : أَخْبَرَ سُلَيْمَانُ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فِيمَا وَهَبَهُ لَهُ مِنَ الْمُلْكِ التَّامِّ وَالتَّمَكُّينِ الْعَظِيمِ ، حَتَّى إِنَّهُ سَحَّرَ لَهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالطَّيْرَ ، وَكَانَ يَعْرِفُ لُغَةَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ أَيْضًا ، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ فِيمَا عَلِمْنَاهُ مِمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أَيُّ : مِمَّا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلْكُ ﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ أَيُّ : الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ لِلَّهِ عَلَيْنَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ﴾ أَيُّ : وَجُمِعَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ، يَعْنِي : رَكِبَ فِيهِمْ فِي أَمْرَةٍ وَعَظْمَةٍ كَبِيرَةٍ فِي الْإِنْسِ ، وَكَانُوا هُمْ الَّذِينَ يَلُونَهُ ، وَالْجِنُّ وَهُمْ بَعْدَهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ ، وَالطَّيْرُ وَمَنْزِلَتُهَا فَوْقَ رَأْسِهِ ، فَإِنْ كَانَ حَرًّا أَظْلَتُهُ مِنْهُ بِأَجْنَحَتَيْهَا . ﴿ فَهُمْ يُوْرِعُونَ ﴾ أَيُّ : يُكْفُّ أَوْهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ لِئَلَّا يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ عَنْ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هِيَ مُرْتَبَتُهُ لَهُ ، ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ النَّعْلِ ﴾ أَيُّ : حَتَّى إِذَا مَرَّ سُلَيْمَانُ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجِيُوشِ وَالْجُنُودِ عَلَى وَادِي النَّعْلِ ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّعْلُ أَذْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيُّ : خَافَتْ عَلَى النَّعْلِ أَنْ تُحْطِمَهَا الْخَيُْولُ بِحَوَافِرِهَا ، فَأَمَرَتْهُمْ بِالدُّخُولِ إِلَى مَسَاكِينِهِمْ ، فَفَهِمَ ذَلِكَ سُلَيْمَانُ ﷺ مِنْهَا ، ﴿ فَتَبَسَّصَ صَاحِبُهَا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَلَدِي ﴾ أَيُّ : أَلْهَمْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي مَنَنْتَ بِهَا عَلَيَّ مِنْ تَعْلِيمِي مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ ، وَعَلَى وَالِدِي بِالْإِسْلَامِ لَكَ وَالْإِيمَانُ بِكَ ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أَيُّ : عَمَلًا نَجِيهًا وَتَرْضَاهُ ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أَيُّ : إِذَا تَوَفَّيْتَنِي فَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ ، وَالرَّفِيقِ الْأَعْلَى مِنْ أَوْلِيَائِكَ .

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿ لَا عَذَابَ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْنَحَتْهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

تَفَقَّدَ سُلَيْمَانَ الطَّيْرَ الَّذِي لَرَى الْهُدْهُدَ فَلَمْ يَرَهُ ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَابِيَةِ ﴾ أَخْطَأَهُ بَصَرِي مِنَ الطَّيْرِ أَمْ غَابَ فَلَمْ يَحْضُرْ ؟ ﴿ لِأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ يَعْنِي : نَتْفَ رِيشِهِ . ﴿ أَوْ لَا أَذِخُّهُ ﴾ يَعْنِي : قَتَلَهُ ﴿ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ بِعُذْرٍ بَيِّنٍ وَاضِحٍ .

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿١١﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٣﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي تَخْرُجُ الْخَبَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَمَكَثَ ﴾ الْهُدْهُدُ ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أَيُّ : غَابَ زَمَانًا يَسِيرًا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ لِسُلَيْمَانَ ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ ﴾ أَيُّ : أَطْلَعْتُ عَلَى مَا لَمْ تَطْلُعْ عَلَيْهِ أَنْتَ وَلَا جُنُودُكَ ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ أَيُّ : بِخَبَرٍ صَدَقَ حَقُّ يَقِينٍ ، وَسَبَأٌ : هُمُ حِمِيرٌ ، وَهُمْ مُلُوكُ الْيَمَنِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ ﴾ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : هِيَ بِلْقِيسُ . ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أَيُّ : مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا مِمَّا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ التَّمَكُّنُ ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يَعْنِي : سَرِيرٌ تَجْلِسُ عَلَيْهِ عَظِيمٌ هَائِلٌ مُزْخَرَفٌ بِالذَّهَبِ وَأَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ وَاللَّالِئِ . ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أَيُّ : عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ أَيُّ : لَا يَعْرِفُونَ سَبِيلَ الْحَقِّ الَّتِي هِيَ إِخْلَاصُ السُّجُودِ لِلَّهِ وَخَدَهُ دُونَ مَا خَلَقَ مِنَ الْكَوَائِبِ وَغَيْرِهَا . ﴿ الَّذِي تَخْرُجُ الْخَبَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يَعْلَمُ كُلَّ خَبِيئَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أَيُّ : يَعْلَمُ مَا يُخْفِيهِ الْعِبَادُ وَمَا يُعْلِنُونَهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِأَلِيلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْمَدْعُو ، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ .

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتَى عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١٩﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ سُلَيْمَانَ لِلْهُدْهُدِ حِينَ أَخْبَرَهُ عَنْ أَهْلِ سَبَأَ وَمَلِكَتِهِمْ ﴿١٠﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١١﴾ أَيُّ : أَصَدَقْتَ فِي إِخْبَارِكَ هَذَا ﴿١٢﴾ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٣﴾ فِي مَقَالَتِكَ لِتَخْلُصَ مِنَ الْوَعِيدِ الَّذِي أُوْعَدْتُكَ ؟ وَذَلِكَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَتَبَ كِتَابًا إِلَى بَلْقَيْسَ وَقَوْمِهَا ، وَأَعْطَاهُ ذَلِكَ الْهُدْهُدَ فَحَمَلَهُ قِيلَ : فِي جَنَاحِهِ ، كَمَا هِيَ عَادَةُ الطَّيْرِ ، وَقِيلَ : بِمِنْقَارِهِ ، وَذَهَبَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَجَاءَ إِلَى قَصْرِ بَلْقَيْسَ ، إِلَى الْخَلْوَةِ الَّتِي كَانَتْ تَخْتَلِي فِيهَا بِنَفْسِهَا ، فَالْقَاهُ إِلَيْهَا مِنْ كُوَّةٍ هُنَالِكَ بَيْنَ يَدَيْهَا ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهَا أَدْبًا وَرِيَاسَةً ، فَتَحَيَّرَتْ مِمَّا رَأَتْ ، وَهَالَهَا ذَلِكَ ، ثُمَّ عَمَدَتْ إِلَى الْكِتَابِ فَأَخَذَتْهُ فَفَتَحَتْ حَتَمَهُ وَقَرَأَتْهُ فَإِذَا فِيهِ ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . فَجَمَعَتْ عِنْدَ ذَلِكَ أَمْرَاءَهَا وَوُزَرَءَهَا وَكُتُبَاءَ دَوْلَتِهَا وَمَمْلَكَتِهَا ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُمْ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَلُوكُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ تَعْنِي : بِكَرَمِهِ مَا رَأَتْهُ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ ، كَوْنِ طَائِرٍ ذَهَبَ بِهِ فَالْقَاهُ إِلَيْهَا ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهَا أَدْبًا ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ ، وَلَا سَبِيلَ هُمْ إِلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَرَأَتْهُ عَلَيْهِمْ ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فَعَرَفُوا أَنَّهُ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَنَّهُ لَا قِيلَ لَهُمْ بِهِ ، وَهَذَا الْكِتَابُ فِي غَايَةِ الْبَلَاغَةِ وَالْوَجَازَةِ وَالْفَصَاحَةِ ، فَإِنَّهُ حَصَلَ الْمَعْنَى بِأَيْسَرِ عِبَارَةٍ وَأَحْسَنِهَا ، قَالَ الْعُلَمَاءُ : لَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قَبْلَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى ﴾ يَقُولُ قِتَادَةُ : لَا تَجْبَرُوا عَلَيَّ ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ، قِيلَ : لَا تَمْتَنِعُوا وَلَا تَتَكَبَّرُوا عَلَيَّ . وَقِيلَ : ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ مُوَحِّدِينَ ، وَقِيلَ : مُخْلِصِينَ ، وَقِيلَ : طَائِعِينَ .

قَالَتْ يَتَأَيُّهَا الْمَلُوكُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ ﴿٣﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأَوْلُوا بِأَسِّ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٤﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٥﴾ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦﴾

لَمَّا قَرَأَتْ عَلَيْهِمْ كِتَابَ سُلَيْمَانَ اسْتَشَارَتْهُمْ فِي أَمْرِهَا ، وَمَا قَدْ نَزَلَ بِهَا ، وَهَذَا قَالَتْ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَلُوكُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ ﴾ أَيُّ : حَتَّى تَحْضُرُونَ وَتُشِيرُونَ ﴿٣﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأَوْلُوا بِأَسِّ شَدِيدٍ ﴿٤﴾ أَيُّ : مَتَى إِلَيْهَا بَعْدَهُمْ وَعُدْدِهِمْ وَقَوَّتِهِمْ ، ثُمَّ فَوَّضُوا إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْأَمْرَ ، فَقَالُوا : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أَيُّ : نَحْنُ لَيْسَ لَنَا عَاقَةٌ وَلَا بِنَا بِأَسِّ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تَقْصِدِيهِ وَتُحَارِبِيهِ فَمَا لَنَا عَاقَةٌ عَنْهُ ، وَبَعْدَ هَذَا فَالْأَمْرُ إِلَيْكَ مُرِي فِينَا رَأْيَكَ نَمْتَلِئُهُ وَنُطِيعُهُ ، فَلَمَّا قَالُوا لَهَا مَا قَالُوا ، كَانَتْ هِيَ أَحْزَمَ رَأْيًا مِنْهُمْ وَأَعْلَمَ بِأَمْرِ سُلَيْمَانَ ، وَأَنَّهُ لَا

قَبْلَ لَهَا بِجُنُودِهِ وَجُيُوشِهِ ، فَقَالَتْ هُمْ : إِنِّي أَخْشَى أَنْ نُحَارِبَهُ وَنَمْتَنِعَ عَلَيْهِ فَيَقْصِدَنَا بِجُنُودِهِ وَيُهْلِكَنَا بِمَنْ مَعَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَتْ : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ أي : إِذَا دَخَلُوا بِلَدًا خَرَّبُوهَا وَجَعَلُوا أُعْرَةً أَهْلَهَا أَذَلَّةً ﴾ أي : وَقَصَدُوا مَنْ فِيهَا مِنَ الْوَلَاةِ وَالْجُنُودِ فَأَهَانُوهُمْ غَايَةَ الْهَوَانِ ، إِمَّا بِالْقَتْلِ أَوْ بِالْأَسْرِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَتْ بَلْقِيسُ : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أُعْرَةً أَهْلَهَا أَذَلَّةً ﴾ قَالَ الرَّبُّ ﷻ : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ . ثُمَّ عَدَلَتْ إِلَى الْمَصَالِحَةِ وَالْمُهَادَنَةِ وَالْمُسَالَمَةِ وَالْمُخَادَعَةِ ، فَقَالَتْ : ﴿ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي : سَأَبْعَثُ إِلَيْهِ هَدِيَّةً تَلِيْقُ بِمِثْلِهِ ، وَأَنْظُرُ مَاذَا يَكُونُ جَوَابُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ فَلَعَلَّهُ يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنَّا وَيَكْفُفُ عَنَّا ، أَوْ يَضْرِبُ عَلَيْنَا خَرَابًا نَحْمِلُهُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَنَلْتَرَمُّ لَهُ بِذَلِكَ وَنَتْرُكُ قِتَالَنَا وَمُحَارَبَتَنَا . قَالَ قَتَادَةُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : مَا كَانَ أَعْقَلَهَا فِي إِسْلَامِهَا وَشُرْكِهَا ، عَلِمَتْ أَنَّ الْهَدِيَّةَ تَقْعُ مَوْقِعًا مِنَ النَّاسِ .

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمَيْدُونُ بْنُ بِمَالٍ فَمَا أَتَيْنِ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٦٥﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٦٦﴾

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهَا بَعَثَتْ إِلَيْهِ هَدِيَّةً عَظِيمَةً مِنْ ذَهَبٍ وَجَوَاهِرٍ وَلَا لِيٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى مَا جَاءُوا بِهِ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَلَا اعْتَنَى بِهِ ، بَلْ أَعْرَضَ عَنْهُ ، وَقَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ ﴿ أُمَيْدُونُ بْنُ بِمَالٍ ﴾ أي : أَتَصَانِعُونِي بِبَالٍ لَا تُرَكِّكُمْ عَلَى شُرْكِكُمْ وَمُلْكِكُمْ ﴿ فَمَا أَتَيْنِ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَيْتُكُمْ ﴾ أي : الَّذِي أَعْطَانِي اللَّهُ - مِنَ الْمُلْكِ وَالْمَالِ وَالْجُنُودِ - خَيْرٌ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ أي : أَنْتُمْ الَّذِينَ تَنْقَاضُونَ لِلْهَدَايَا وَالتَّحْفِ ، وَأَمَّا أَنَا فَلَا أَقْبَلُ مِنْكُمْ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوِ السَّيْفَ . ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : بِهَدِيَّتِهِمْ ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي : لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِقِتَالِهِمْ ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً ﴾ أي : وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْ بِلَدَتِهِمْ أَذِلَّةً ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي : مُهَانُونَ مَذْحُورُونَ ، فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهَا رُسُلُهَا بِهَدِيَّتِهَا وَبِمَا قَالَ سُلَيْمَانُ ، سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ هِيَ وَقَوْمُهَا ، وَأَقْبَلَتْ تَسِيرُ إِلَيْهِ فِي جُنُودِهَا خَاضِعَةً ذَلِيلَةً ، مُعْظَمَةً لِسُلَيْمَانَ نَاوِيَةً مُتَابِعَتُهُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَمَّا تَحَقَّقَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُدُومَهُمْ عَلَيْهِ وَوُفُودَهُمْ إِلَيْهِ فَرِحَ بِذَلِكَ وَسَرَّهُ .

قَالَ يَتَايَأُ الْمَلَأُ أَئِيَّكُمْ يَأْتِيَنِي بِعَرِشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ

مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ؕ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٦﴾

وَقَالَ قَتَادَةُ: لَمَّا بَلَغَ سُلَيْمَانُ أَثْنًا جَائِيَةً، وَكَانَ قَدْ ذُكِرَ لَهُ عَرْشُهَا فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ مِنْ ذَهَبٍ، وَقَائِمُهُ لَوْلُو وَجُوهَرٌ، وَكَانَ مُسْتَرًّا بِالْدِّيْبَاجِ وَالْحَرِيرِ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ تِسْعَةُ مَعَالِيْقَ، فَكُرِهَ أَنْ يَأْخُذَهُ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ، وَقَدْ عَلِمَ نَبِيُّ اللَّهِ أَنَّهُمْ مَتَى أَسْلَمُوا تُحْرَمَ أَمْوَالُهُمْ مَعَ دِمَائِهِمْ فَقَالَ: ﴿يَأْتِيهَا أَلْمَلُوا أَيْكُم يَأْتِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ؕ أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾ يَعْنِي: قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ قِيلَ: أَيُّ: قَوِيٌّ عَلَى حَمْلِهِ، أَمِينٌ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْجُوهَرِ. ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: وَهُوَ «أَصْفُ» كَاتِبُ سُلَيْمَانَ، وَكَانَ صَدِيقًا يَعْلَمُ الْإِسْمَ الْأَعْظَمَ. ﴿أَنَا ؕ أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أَيُّ: أَرْفَعَ بَصْرَكَ وَانْظُرْ مَدَّ بَصْرِكَ بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَإِنَّكَ لَا يَكِلُ بَصْرَكَ إِلَّا وَهُوَ حَاضِرٌ عِنْدَكَ. قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: لَمَّا دَعَا اللَّهُ تَعَالَى وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِعَرْشِ بَلْقِيسَ، وَكَانَ فِي الْيَمَنِ وَسُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، غَابَ السَّرِيرُ وَغَاصَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ نَبَعَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا عَايَنَ سُلَيْمَانُ وَمَلَأَهُ ذَلِكَ، وَرَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أَيُّ: هَذَا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ أَيُّ: لِيَخْتَبِرَنِي ﴿أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أَيُّ: هُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ وَعِبَادَتِهِمْ، ﴿كَرِيمٌ﴾ أَيُّ: كَرِيمٌ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ لَمْ يَعْبُدْهُ أَحَدٌ، فَإِنَّ عَظَمَتَهُ لَيْسَتْ مُفْتَقِرَةً إِلَى أَحَدٍ.

قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَنْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۖ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٨﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأُسَلِّمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٠﴾

لَمَّا جِيءَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعَرْشِ بَلْقِيسَ قَبْلَ قُدُومِهَا أَمَرَ بِهِ أَنْ يُغَيَّرَ بَعْضُ صِفَاتِهِ لِيَخْتَبِرَ مَعْرِفَتَهَا وَثَبَاتَهَا عِنْدَ رُؤْيِيهِ، هَلْ تُقَدِّمُ عَلَى أَنَّهُ عَرْشُهَا، أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ بِعَرْشِهَا؟ فَقَالَ: ﴿نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَنْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴿٤٨﴾ أَيُّ:

عُرِضَ عَلَيْهَا عَرْشُهَا ، وَقَدْ غَيَّرَ وَزَكَّرَ وَزِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ مِنْهُ ، فَكَانَ فِيهَا ثَبَاتٌ وَعَقْلٌ ، وَلَهَا لُبٌّ وَدَهَاءٌ وَحَزْمٌ ، فَلَمْ تُقَدِّمْ عَلَى أَنَّهُ هُوَ لِيُعْجِدَ مَسَافَتَهُ عَنْهَا ، وَلَا أَنَّهُ غَيْرُهُ لِمَا رَأَتْ مِنْ أَثَارِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَإِنْ غَيَّرَ وَبَدَّلَ وَنَكَّرَ ، فَقَالَتْ : ﴿ كَانَهُ هُوَ ﴾ أَيُّ : يُشَبِّهُهُ وَيُقَارِبُهُ ، وَهَذَا غَايَةُ فِي الذِّكَاةِ وَالْحَزْمِ ، ﴿ وَأَوْتَيْنَا آلَإِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : سُلَيْمَانُ يَقُولُهُ . ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهِيَ كَانَتْ قَدْ صَدَّهَا ، أَيُّ : مَنَعَهَا مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا ، وَذَلِكَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ الشَّيَاطِينَ فَبَنَوْا لَهَا قَصْرًا عَظِيمًا مِنْ قَوَارِيرَ ، أَيُّ : مِنْ زُجَاجٍ ، وَأَجْرَى تَحْتَهُ الْمَاءَ ، فَالَّذِي لَا يَعْرِفُ أَمْرَهُ يَحْسِبُ أَنَّهُ مَاءٌ ، وَلَكِنَّ الزُّجَاجَ يَجُولُ بَيْنَ الْمَاشِيِّ وَبَيْنَهُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ لِإِيرِيهَا مُلْكًا هُوَ أَعَزُّ مِنْ مُلْكِهَا ، وَسُلْطَانًا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ سُلْطَانِهَا ، ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا ﴾ ، لَا تَشْكُ أَنَّهُ مَاءٌ تَحْوِضُهُ ، فَقِيلَ لَهَا : ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ فَلَمَّا وَقَفَتْ عَلَى سُلَيْمَانَ ، دَعَاها إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَكَانَ وَحْدَهُ وَعَاتَبَهَا فِي عِبَادَتِهَا الشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَقَالَتْ بِقَوْلِ الزَّنَادِقَةِ ، فَوَقَعَ سُلَيْمَانُ سَاجِدًا إِعْظَامًا لِمَا قَالَتْ ، وَسَجَدَ مَعَهُ النَّاسُ ، فَسَقَطَ فِي يَدَيْهَا حِينَ رَأَتْ سُلَيْمَانَ صَنَعَ مَا صَنَعَ ، فَلَمَّا رَفَعَ سُلَيْمَانُ رَأْسَهُ ، قَالَ : وَيْحَكَ مَاذَا قُلْتَ ؟ - قَالَ : وَأَنْسَيْتُ مَا قَالَتْ ؟ - فَقَالَتْ : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فَأَسْلَمْتُ وَحَسَنَ إِسْلَامُهَا . وَالصَّرْحُ : قَصْرٌ فِي الْيَمَنِ عَالِي الْبِنَاءِ ، وَالْمُرْدُ : الْمَبْنِيُّ بِنَاءً مُحْكَمًا أَمْلَسَ ﴿ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ أَيُّ : زُجَاجٍ ، وَتَمَرِيدُ الْبِنَاءِ : تَمْلِيسُهُ ، وَمَارِدُ : حِصْنٌ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أَيُّ : بِمَا سَلَفَ مِنْ كُفْرِهَا وَشُرْكِهَا ، وَعِبَادَتِهَا وَقَوْمِهَا لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : مُتَابِعَةً لِإِدِينِ سُلَيْمَانَ فِي عِبَادَتِهِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١﴾ قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿١٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ «ثَمُودَ» وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا مَعَ نَبِيِّهَا صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَفْقَهُم لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أَي : لِمَ تَدْعُونَ بِحُضُورِ الْعَذَابِ ، وَلَا تَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ رَحْمَتَهُ ؟ ! وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ١١٠ قَالُوا أَطِيعْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ أَي : مَا رَأَيْنَا عَلَى وَجْهِكَ وَوُجُوهَ مَنْ اتَّبَعَكَ خَيْرًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لِسَقَاتِهِمْ كَانَ لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِنْهُمْ سُوءٌ إِلَّا قَالَ : هَذَا مِنْ قِبَلِ صَالِحٍ وَأَصْحَابِهِ . قَالَ مُجَاهِدٌ : تَشَاءُوا بِهِمْ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، وَقَالَ هَؤُلَاءِ : ﴿ أَطِيعْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ قَالَ طَبَّرَكُمُ اللَّهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أَي : اللَّهُ يُجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ أَي : تُسْتَدْرَجُونَ فِيهَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ .

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ١١١ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ١١٢ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَمَكْرَتَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١١٣ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ١١٤ فِتْلَتِكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ١١٥ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١١٦ وَأَخْبَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ١١٧

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ طُغْيَانِ ثَمُودَ وَرُءُوسِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا دُعَاةَ قَوْمِهِمْ إِلَى الضَّلَالِ وَالْكَفْرِ وَتَكْذِيبِ صَالِحٍ ، وَآلِ بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنَّهُمْ عَقَرُوا النَّاقَةَ وَهَمُّوا بِقَتْلِ صَالِحٍ أَيْضًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أَي : مَدِينَةِ ثَمُودَ ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أَي : تِسْعَةُ نَفَرٍ ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وَإِنَّمَا غَلَبَ هَؤُلَاءِ عَلَى أَمْرِ ثَمُودَ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كِبَرَاءَ فِيهِمْ وَرُءُوسَاءَهُمْ . وَالْعَرَضُ : أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةَ الْفَسَقَةَ كَانُوا مِنْ صِفَاتِهِمُ الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ بِكُلِّ طَرِيقٍ يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أَي : نَحَالِفُوا وَتَبَايَعُوا عَلَى قَتْلِ نَبِيِّ اللَّهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ لَقِيهِ لَيْلًا غِيَلَةً ، فَكَادَهُمُ اللَّهُ وَجَعَلَ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِمْ . قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ تَقَاسَمُوا ﴾ نَحَالَفُوا عَلَى هَلَاكِهِ ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ حَتَّى هَلَكُوا وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ .

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ : لَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ وَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدُ غَيْرِ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] قَالُوا : زَعَمَ صَالِحٌ أَنَّهُ يَفْرُغُ مِنَّا إِلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، فَتَحْنُ نَفْرُغُ مِنْهُ وَأَهْلُهُ قَبْلَ ثَلَاثٍ ، وَكَانَ لِصَالِحٍ مَسْجِدٌ فِي الْحِجْرِ عِنْدَ شَعْبٍ هُنَاكَ يُصَلِّي فِيهِ ، فَخَرَجُوا إِلَى كَهْفٍ أَي : غَارٍ هُنَاكَ لَيْلًا ، فَقَالُوا : إِذَا جَاءَ يُصَلِّي قَتَلْنَاهُ ، ثُمَّ رَجَعْنَا إِذَا فَرَغْنَا مِنْهُ إِلَى أَهْلِهِ فَفَرَغْنَا مِنْهُمْ ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَخْرَةً مِنَ الْمُضْبِ حِيَالَهُمْ ، فَخَشُوا أَنْ تَشْدَحَهُمْ

فَتَبَادَرُوا فَأَنْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ وَهُمْ فِي ذَلِكَ الْغَارِ ، فَلَا يَدْرِي قَوْمُهُمْ أَيْنَ هُمْ وَلَا يَدْرُونَ مَا فُعِلَ بِقَوْمِهِمْ ، فَعَذَّبَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ هَهُنَا وَهَؤُلَاءِ هَهُنَا ، وَأَنْجَى اللَّهُ صَالِحًا وَمَنْ مَعَهُ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ مَكْرَهُمْ أَنَا دَمَرْنَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَهْمِينَ ﴿٢٢﴾ فِتْلَتِكَ بَيُوتُهُمْ حَاوِيَةٌ ﴿٢٣﴾ أَيُّ : فَارِغَةٌ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ﴿٢٤﴾ بِمَا ظَلَمُوا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَأَخْبَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِمِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٢٦﴾ أَيْبَنُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٢٧﴾ * فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِمِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَيْرِيبِ ﴿٢٩﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَنْذَرَ قَوْمَهُ نِقْمَةَ اللَّهِ بِهِمْ فِي فِعْلِهِمُ الْفَاحِشَةَ ، الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَهِيَ : إِيْتَانُ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ ، وَذَلِكَ فَاحِشَةٌ عَظِيمَةٌ : اسْتَعْنَى الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أَيُّ : يَرَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ ؟ ﴿ أَيْبَنُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أَيُّ : لَا تَعْرِفُونَ شَيْئًا ، لَا طَبْعًا وَلَا شَرْعًا ، ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِمِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ أَيُّ : يَتَحَرَّجُونَ مِنْ فِعْلٍ مَا تَفْعَلُونَهُ ، وَمِنْ إِقْرَارِكُمْ عَلَى صَنِيعِكُمْ ، فَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَصْلَحُونَ لِمُجَاوَرَتِكُمْ فِي بِلَادِكُمْ ، فَعَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ ، فَدَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَيْرِيبِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْهَالِكِينَ مَعَ قَوْمِهَا ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ رَدَاءً لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ ، وَعَلَى طَرِيقَتِهِمْ فِي رِضَاهَا بِأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ ، فَكَانَتْ تَذَلُّ قَوْمَهَا عَلَى ضِيْفَانِ لُوطٍ لِيَأْتُوا إِلَيْهِمْ ، لَا أَتَيَا كَانَتْ تَفْعَلُ الْفَوَاحِشَ ، تَكْرِمَةً لِّنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ لَا كَرَامَةً لَهَا . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ أَيُّ : حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ مَنصُودٍ مُسَوِّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، وَوَصَلَ إِلَيْهِمُ الْإِنْذَارُ ، فَخَالَفُوا الرَّسُولَ وَكَذَّبُوهُ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ .

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۚ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَاثَ

بَهْجَةٍ مَا كَاتَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٨٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ : ﴿ اَلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أَيُّ : عَلَى نِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، مِنْ النِّعَمِ الَّتِي لَا تَعُدُّ وَلَا تُحْصَى ، وَعَلَى مَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْعُلَى وَالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، وَأَنْ يُسَلِّمَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ وَاخْتَارَهُمْ ، وَهُمْ رُسُلُهُ وَأَنْبِيَآؤُهُ الْكَرَامُ - عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - وَهُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١٨٠) وَسَلِّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الصافات : ١٨٠-١٨٢] ، وَقِيلَ : هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَلَا مُنَافَاةَ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَى فَلَا أَنْبِيََاءَ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى ، وَالْقَصْدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ وَمَنْ اتَّبَعَهُ بَعْدَ مَا ذَكَرَهُمْ مَا فَعَلَ بِأَوْلِيَائِهِ مِنَ النِّجَاةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ ، وَمَا أَحَلَّ بِأَعْدَائِهِ مِنَ الْحَزِي وَالنِّكَالِ وَالْقَهْرِ - أَنْ يَحْمَدُوهُ عَلَى جَمِيعِ أَفْعَالِهِ ، وَأَنْ يُسَلِّمُوا عَلَى عِبَادِهِ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أَيُّ : تِلْكَ السَّمَاوَاتِ بَارْتِفَاعِهَا وَصَفَائِهَا ، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّبِيَّةِ ، وَالنُّجُومِ الزَّاهِرَةِ ، وَالْأَفْلَاقِ الدَّائِرَةِ ، الْأَرْضِ بِاسْتِفَالِهَا وَكَثَافَتِهَا ، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْأَطْوَادِ وَالسُّهُولِ وَالْأَوْعَارِ ، وَالْقِيَافِ وَالْقِفَارِ ، وَالزَّرُوعِ وَالْأَشْجَارِ ، وَالتِّهَارِ وَالْبَحَارِ وَالْحَيَوَانِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَصْنَافِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أَيُّ : جَعَلَهُ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِءَ حَدَائِقَ ﴾ أَيُّ : بَسَاتِينَ ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أَيُّ : مَنْظَرٍ حَسَنٍ وَشَكْلِ بَهِيٍّ ﴿ مَا كَاتَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ أَيُّ : لَمْ تَكُونُوا تَقْدِرُونَ عَلَى إنبَاتِ شَجَرِهَا ، وَإِنَّمَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُسْتَقِيلُ بِذَلِكَ ، الْمُتَفَرِّدُ بِهِ دُونَ مَا سِوَاهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ، أَيُّ : أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ((أَمَّنْ)) فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَقْدِيرُهُ : أَمَّنْ يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا ؟ هَذَا مَعْنَى السِّيَاقِ وَإِنْ لَمْ يُذَكَّرِ الْآخِرُ ؛ لِأَنَّ فِي قُوَّةِ الْكَلَامِ مَا يُرْشِدُ إِلَى ذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴾ أَيُّ : يَجْعَلُونَ لِلَّهِ عَدْلًا وَمَنْظِيرًا .

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَرًا وَجَعَلَ هَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٨١﴾

يَقُولُ : ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أَيُّ : قَارَةً سَاكِنةً ثَابِتَةً لَا تَمِيدُ ، وَلَا تَتَحَرَّكُ بِأَهْلِهَا وَلَا تَرْجُفُ بِهِمْ . ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ أَيُّ : جَعَلَ فِيهَا الْأَنْهَارَ الْعَذْبَةَ الطَّيِّبَةَ ، شَقَّهَا فِي خِلَالِهَا ، ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ أَيُّ : جِبَالًا شَاخِجَةً ، تُرْسِي الْأَرْضَ وَتُثَبِّتُهَا لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أَيُّ : جَعَلَ بَيْنَ الْمَيَّاهِ الْعَذْبَةِ وَالْمَالِحَةِ حَاجِزًا ، أَيُّ : مَانِعًا يَمْنَعُهَا مِنَ الْإِخْتِلَاطِ لِئَلَّا يَفْسُدَ هَذَا بِهَذَا ، وَهَذَا بِهَذَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِفَعْلٍ هَذَا ، أَوْ يُعْبَدُ ، ﴾ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرُهُ .

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٧﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الْمَدْعُوُّ عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، الْمَرْجُوُّ عِنْدَ النَّوَازِلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣] ، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ أَيُّ : مَنْ هُوَ الَّذِي لَا يَلْجَأُ الْمُضْطَرُّ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَالَّذِي لَا يَكْشِفُ ضُرَّ الْمُضْطَرِّ سِوَاهُ ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : يَخْلُفُ قَرْنًا لِقَرْنٍ قَبْلَهُمْ وَخَلَفًا لِسَلَفٍ قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِفَعْلٍ ذَلِكَ ، أَوْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِفَعْلٍ ذَلِكَ ؟ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَقَرِّدُ بِفَعْلٍ ذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ؟ ﴾ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيُّ : مَا أَقَلَّ تَذَكُّرِهِمْ فِيمَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أَيُّ : بِمَا خَلَقَ مِنَ الدَّلَائِلِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَّمَتِ الْوَجْهَ وَالنَّجْمَ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [الأنعام: ٩٧] . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أَيُّ : بَيْنَ يَدَيْ السَّحَابِ ، الَّذِي فِيهِ مَطَرٌ يُغِيثُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ الْمُجْدِبِينَ الْأَزْلِينَ الْقَنِطِينَ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَلِيلٍ قُلْ

هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٦﴾

أَيُّ : هُوَ الَّذِي يَقْدِرْتَهُ وَسُلْطَانِهِ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ﴿ وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : بِمَا يُنْزِلُ مِنْ مَطَرِ السَّمَاءِ وَيُنْبِتُ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ : ٢] ، فَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَيَسْكِنُهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ أَنْوَاعَ الزَّرُوعِ وَالشَّجَرِ وَالْأَزْهَارِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَوَانِ شَتَّى ﴿ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمَكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [طه : ٥٤] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : فَعَلَ هَذَا ، وَعَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ بَعْدَ هَذَا ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ ﴾ عَلَى صِحَّةِ مَا تَدَّعُونَهُ مِنْ عِبَادَةِ إِلَهٍ أُخْرَى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ وَلَا بُرْهَانَ .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢٧﴾ بَلِ آدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ مُعَلِّمًا لِجَمِيعِ الْخَلْقِ : أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، أَيُّ : لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ ﷻ فَإِنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أَيُّ : وَمَا يَشْعُرُ الْخَلَائِقُ السَّاكِنُونَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِوَقْتِ السَّاعَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلِ آدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ أَيُّ : انْتَهَى عِلْمُهُمْ وَعَجَزَ عَنْ مَعْرِفَةِ وَفَتْهَا ، وَقَرَأَ آخَرُونَ : « بَلِ آدْرَكَ عِلْمُهُمْ » أَيُّ : تَسَاوَى عِلْمُهُمْ فِي ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَبْرَيْلَ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » أَيُّ : تَسَاوَى فِي الْعَجْزِ عَنْ دَرَكِ ذَلِكَ عِلْمُ الْمَسْئُولِ وَالسَّائِلِ ، وَقِيلَ : ﴿ بَلِ آدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أَيُّ : غَابَ ، ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْجِنْسِ ، وَالْمُرَادُ : الْكَافِرُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ [الكهف : ٤٨] أَيُّ : الْكَافِرُونَ مِنْكُمْ ، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أَيُّ : شَاكُونَ فِي وُجُودِهَا وَوُقُوعِهَا ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ أَيُّ : فِي عِمَائَةٍ وَجَهْلٍ كَبِيرٍ فِي أَمْرِهَا وَشَأْنِهَا . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِذَا بَاؤُنَا أَبْنَاءَ لِمُخْرَجُونَ ﴿٢٩﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا لَحْنُ

وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ مُنْكَرِي الْبُعْثِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ : اسْتَبْعَدُوا إِعَادَةَ الْأَجْسَادِ بَعْدَ صَيْرُورِهَا عِظَامًا وَرَفَاتًا وَتُرَابًا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أَيُّ : مَا زِلْنَا نَسْمَعُ بِهَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا ، وَلَا نَرَى لَهُ حَقِيقَةً وَلَا وَقُوعًا ، وَقَوْهُمْ : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ : مَا هَذَا الْوَعْدُ بِإِعَادَةِ الْأَبْدَانِ ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أَيُّ : أَخَذَهُ قَوْمٌ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَتَلَقَّاهُ بَعْضُ عَنْ بَعْضٍ ، وَلَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ : ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيُّ : الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ ، وَمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَغَيْرِهِ ، كَيْفَ حَلَّتْ بِهِمْ نِقْمُ اللَّهِ وَعَذَابُهُ وَنِكَالُهُ ، وَنَجَّى اللَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ رُسُلَهُ الْكَرَامَ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَصِحَّتُهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتَ بِهِ ، وَلَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ وَتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أَيُّ : فِي كَيْدِكَ وَرَدَّ مَا جِئْتَ بِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مُؤَيِّدُكَ وَنَاصِرُكَ وَمُظْهِرُ دِينِكَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَعَانَدَهُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٦٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧١﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي سُؤَالِهِمْ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَاسْتَبْعَادِهِمْ وَقُوعَ ذَلِكَ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قَالَ اللَّهُ مُجِيبًا لَهُمْ : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قَرَّبَ أَوْ أَنْ يَقْرُبَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أَيُّ : فِي إِسْبَاغِهِ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ مَعَ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أَيُّ : يَعْلَمُ الصَّائِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ ، ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى : بِأَنَّهُ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ وَمَا شَاهَدُوهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ ﴾

يَعْنِي : وَمَا مِنْ شَيْءٍ ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠]

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧١﴾
وَأَنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٣﴾
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٤﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمَعُ
الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْا مُدْبِرِينَ ﴿٧٥﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تَسْمَعُ إِلَّا
مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ وَالْفُرْقَانِ ، أَنَّهُ يَقْصُ
عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ ، وَهُمْ حَمَلَةُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ۖ كَاخْتِلَافِهِمْ
فِي عِيسَى وَتَبَائِيهِمْ فِيهِ ، فَالْيَهُودُ افْتَرَوْا وَالنَّصَارَىٰ غَلَوُا ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ بِالْقَوْلِ الْوَسْطِ الْحَقِّ
الْعَدْلِ ، أَنَّهُ : عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ الْكَرَامِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ :
﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم : ٣٤] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّهُ هُدًى
وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : هُدًى لِّقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَرَحْمَةً هُمْ فِي الْعَمَلِيَّاتِ ۖ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ
يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أَيُّ : فِي إِنْتِقَامِهِ ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ
وَأَقْوَالِهِمْ ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أَيُّ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ ، وَبَلِّغْ رِسَالَةَ رَبِّكَ ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾
أَيُّ : أَنْتَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ، وَإِنْ خَالَفَكَ مَنْ خَالَفَكَ ، يَمُنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كَلِمَةُ رَبِّكَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ۚ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أَيُّ : لَا
تُسْمِعُهُمْ شَيْئًا يَنْفَعُهُمْ ، فَكَذَلِكَ هُوَ لَاءٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرُ الْكُفْرِ ، وَلِهَذَا قَالَ :
﴿ وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْا مُدْبِرِينَ ﴾ ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تَسْمَعُ إِلَّا
مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لَكَ مَنْ هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ، السَّمْعُ وَالْبَصَرُ
النَّافِعُ فِي الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةُ ، الْخَاضِعُ لِلَّهِ ، وَلَمَّا جَاءَ عَنْهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - .

• وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا
بِعَايَتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٧٧﴾

هَذِهِ الدَّابَّةُ تَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ ، وَتَرْكِهِمْ أَوَامِرَ اللَّهِ ، وَتَبَدِيلِهِمُ الدِّينَ
الْحَقَّ ، يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ ، قِيلَ : مِنْ مَكَّةَ ، وَقِيلَ : مِنْ غَيْرِهَا ، فَتُكَلِّمُ النَّاسَ عَلَى

ذَلِكَ تَكَلَّمُهُمْ كَلَامًا ، أَي : تُخَاطِبُهُمْ مُخَاطَبَةً .

وَيَوْمَ نَخَشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٧﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَخَشِرُ الظَّالِمِينَ - مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ - إِلَىٰ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ لِيَسْأَلَهُمْ عَمَّا فَعَلُوهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَضْغِيرًا وَتَحْقِيرًا ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَيَوْمَ نَخَشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أَي : مِنْ كُلِّ قَوْمٍ وَقَرْنٍ فَوْجًا ، أَي : جَمَاعَةً ﴿ مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ ، ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أَي : يُدْفَعُونَ ، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا ﴾ ، وَوَقَفُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ فِي مَقَامِ الْمُسَاءَلَةِ ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَي : فَيُسْأَلُونَ عَنْ إِعْتِقَادِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أَي : بُهِتُوا فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُبْنِّهَا عَلَىٰ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ وَشَأْنِهِ الرَّفِيعِ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ ﴾ أَي : فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ لَيْسَكُنْ حَرَكَاتُهُمْ بِسَبَبِهِ ، وَتَهْدَأُ أَنْفُسُهُمْ وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ نَصَبِ التَّعَبِ فِي نَهَارِهِمْ ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أَي : مُنِيرًا مُشْرِقًا ، فَيَسَبِّبُ ذَلِكَ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَكَايِسِ وَالْأَسْفَارِ وَالتَّجَارَاتِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُؤْنِهِمُ الَّتِي يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ ﴿٩٠﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ هَوْلِ يَوْمِ نَفْخَةِ الْفَزَعِ فِي الصُّورِ ، وَهُوَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ » وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ : إِنَّ إِسْرَافِيلَ هُوَ الَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيُنْفَخُ فِيهِ أَوَّلًا نَفْخَةٌ الْفَزَعِ وَيُطَوَّلُهَا ، وَذَلِكَ فِي آخِرِ عُمُرِ الدُّنْيَا حِينَ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَىٰ شِرَارِ النَّاسِ مِنَ الْأَحْيَاءِ ، فَيَفْرَعُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ، وَهُمْ الشُّهَدَاءُ فَإِنَّهُمْ أَحْيَاءُ عِنْدَ

رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْنَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا »
الْلَيْتُ : هُوَ صَفْحَةُ الْعُنُقِ ، أَيِ : أَمَالَ عُنُقَهُ لِيَسْمَعَهُ مِنَ السَّمَاءِ جِدًّا . فَهَذِهِ نَفْخَةُ الْفَزَعِ ، ثُمَّ
بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ وَهُوَ : الْمَوْتُ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَهُوَ : النُّشُورُ
مِنَ الْقُبُورِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : « وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » قَرِئَ بِالْمَدِّ وَبِغَيْرِهِ عَلَى الْفِعْلِ ،
وَكُلُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَ « دَاخِرِينَ » أَيِ : صَاغِرِينَ مُطِيعِينَ ، لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ عَنْ أَمْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » أَيِ : تَرَاهَا كَأَنَّهَا ثَابِتَةٌ بَاقِيَّةٌ عَلَى
مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، أَيِ : تَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : « يَوْمَ تَمُورُ
السَّمَاءُ مَوْرًا ۚ » وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ۚ [الطور : ٩-١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : « وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ
يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۚ » لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ [طه : ١٠٥-١٠٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ » أَيِ : يَفْعَلُ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّذِي قَدْ
أَنْتَقَنَ كُلَّ مَا خَلَقَ ، وَأَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا أَوْدَعَ ۚ « إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ » أَيِ : هُوَ عَلِيمٌ
بِمَا يَفْعَلُ عِبَادُهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ . ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ يَوْمَئِذٍ ،
فَقَالَ : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ۖ قِيلَ : بِالْإِخْلَاصِ ، وَقِيلَ : هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۖ فَ لَهُ خَيْرٌ مِمَّا ۖ وَقَدْ
بَيَّنَّ تَعَالَى فِي الْمَوْضِعِ الْآخِرِ أَنَّ لَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا ۖ وَهُمْ مِّنْ فِرْعَ يَوْمِئِذٍ ءَامِنُونَ ۖ . وَقَوْلُهُ : « وَمَنْ
جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ۖ أَيِ : بِالشَّرْكِ ۖ « هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ
أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۖ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ۖ فَمَنْ آهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ
ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ۖ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا
رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۖ

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا رَسُولَهُ وَأَمْرًا لَهُ أَنْ يَقُولَ : « إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا
وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ ، إِضَافَةُ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَى الْبَلَدَةِ عَلَى سَبِيلِ التَّشْرِيفِ لَهَا وَالِاعْتِنَاءِ بِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :
« فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ » [قريش : ٣-٥]
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « الَّذِي حَرَّمَهَا » أَيِ : الَّذِي إِنَّمَا صَارَتْ حَرَامًا شَرْعًا وَقَدَرًا بِتَحْرِيمِهِ لَهَا ،
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ
حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْصَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ ، وَلَا يُلْتَقِطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ
عَرَفَهَا ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ ، أَيُّ : هُوَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيُّ : الْمُوَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُتَّقَادِينَ لِأَمْرِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ . ﴿ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ﴾ ، أَيُّ : عَلَى النَّاسِ أُبْلَغُهُمْ إِيَّاهُ ، ﴿ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أَيُّ : لِي أَسُوَّةٌ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ أَنْذَرُوا قَوْمَهُمْ ، وَقَامُوا بِهَا عَلَيْهِمْ مِنْ آدَاءِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ وَخَلَصُوا مِنْ عُهْدَتِهِمْ ، وَحِسَابُ أُمَمِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠]

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أَيُّ : اللَّهُ الْحَمْدُ الَّذِي لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سِيرِكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُرِّيهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا رُبُّكَ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : بَلْ هُوَ شَهِيدٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّملِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ١) تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدْبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ٤) إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٥) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٦) وَنُفَكِّكَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٧)

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ ٨).

وَقَوْلُهُ : ﴿ تِلْكَ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ ﴿ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أَيُّ : الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ الْكَاشِفُ عَنْ حَقَائِقِ الْأُمُورِ ، وَعِلْمِ مَا قَدْ كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ . ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ الْآيَةُ ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف : ٣] أَي : نَذْكُرُ لَكَ الْأَمْرَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، كَأَنَّكَ شَاهِدٌ وَكَأَنَّكَ حَاضِرُهُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : تَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَطَغَى ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أَي : أَصْنَفًا قَدْ صَرَفَ كُلَّ صِنْفٍ فِيهَا يُرِيدُ مِنْ أُمُورِ دَوْلَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَسْتَزِعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ يَعْنِي : بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَكَانُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ خِيَارَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ هَذَا ، وَقَدْ سُلِطَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ الْعَنِيدُ ، يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي أَحْسَنِ الْأَعْمَالِ ، وَيَكْدُهُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي أَشْغَالِهِ وَأَشْغَالِ رَعِيَّتِهِ ، وَيَقْتُلُ مَعَ هَذَا أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِهَانَةً لَهُمْ وَاحْتِقَارًا ، وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ الْغُلَامُ الَّذِي كَانَ قَدْ تَخَوَّفَ هُوَ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ مِنْهُ ، أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ غُلَامٌ ، يَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِهِ وَذَهَابِ دَوْلَتِهِ عَلَى يَدَيْهِ . فَاحْتَرَزَ فِرْعَوْنُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ ؛ لِأَنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ تَخْذَرُونَ ﴾ وَقَدْ فَعَلَ تَعَالَى ذَلِكَ بِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُّونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ يَعْزَشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] أَرَادَ فِرْعَوْنُ - بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ - أَنْ يَنْجُوَ مِنْ مُوسَى ، فَمَا نَفَعَهُ مِنْ ذَلِكَ مَعَ قَدَرِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُخَالِفُ أَمْرُهُ الْقَدَرِيُّ ، بَلْ نَفَذَ حُكْمَهُ وَجَرَى قَلَمُهُ فِي الْقَدَمِ بِأَنْ يَكُونَ هَلَاكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدَيْهِ ، بَلْ يَكُونُ هَذَا الْغُلَامُ الَّذِي احْتَرَزَتْ مِنْ وُجُودِهِ ، وَقَتَلَتْ بِسَبَبِهِ أُلُوفًا مِنَ الْوِلْدَانِ إِنَّمَا مَنَشُوهُ وَمُرَبَّاهُ عَلَى فِرَاشِكَ ، وَفِي دَارِكَ ، وَغِذَاؤُهُ مِنْ طَعَامِكَ ، وَأَنْتَ تُرَبِّيهِ وَتُدَلِّلُهُ وَتَتَفَدَّاهُ ، وَحَتَفَكَ وَهَلَاكَكَ وَهَلَاكُ جُنُودِكَ عَلَى يَدَيْهِ ، لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ الْعَلَا هُوَ الْقَاهِرُ الْغَالِبُ الْعَظِيمُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الشَّدِيدُ الْحَالُ ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴿٢﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَصَنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٣﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤﴾

ذَكَرُوا أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَكْثَرَ مِنْ قَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، خَافَتْ الْقَبْضُ أَنْ يُفْنِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَلُونَ هُمْ مَا كَانُوا يَلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّقَاةِ ، فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ : إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ اسْتَمَرَ هَذَا الْحَالُ أَنْ يَمُوتَ شُيُوخُهُمْ ، وَغِلْمَانُهُمْ لَا يَعِيشُونَ ، وَنِسَاؤُهُمْ لَا يُقِمْنَ بِمَا يَقُومُ بِهِ رِجَالُهُمْ

مِنَ الْأَعْمَالِ فَيَخْلُصَ إِلَيْنَا ذَلِكَ ، فَأَمَرَ بِقَتْلِ الْوُلَدَانِ عَامًا وَتَرْكِهِمْ عَامًا ، فَوُلِدَ هَارُونُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي السَّنَةِ الَّتِي يَتْرَكُونَ فِيهَا الْوُلَدَانِ ، وَوُلِدَ مُوسَى فِي السَّنَةِ الَّتِي يُقْتَلُونَ فِيهَا الْوُلَدَانِ ، وَكَانَ لِفِرْعَوْنَ أَنَاسٌ مُّوَكَّلُونَ بِذَلِكَ ، وَقَوَائِلُ يَذْرُونَ عَلَى النِّسَاءِ ، فَمَنْ رَأَيْتَهَا قَدْ حَمَلَتْ أَخْصَوْا اسْمَهَا فَإِذَا كَانَ وَقْتُ وَلَادَتِهَا لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا نِسَاءُ الْقُبْطِ ، فَإِنْ وَلَدَتِ الْمَرْأَةُ جَارِيَةً تَرَكَتْهَا وَذَهَبْنَ ، وَإِنْ وَلَدَتِ غُلَامًا دَخَلَ أُولَئِكَ الذَّبَّاحُونَ بِأَيْدِيهِمُ الشَّفَارَ الْمُرْهَفَةَ فَقَتَلُوهُ وَمَضَوْا - قَبَّحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - . فَلَمَّا حَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى بِهِ عليه السلام لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهَا مَحَايِلُ الْحَمْلِ كَغَيْرِهَا وَلَمْ تَقْطِنْ لَهَا الدَّيَّاتُ ، وَلَكِنْ لَمَّا وَضَعَتْهُ ذَكَرًا ضَاقَتْ بِهِ ذُرْعًا ، وَخَافَتْ عَلَيْهِ خَوْفًا شَدِيدًا ، وَأَحَبَّتْهُ حُبًّا زَائِدًا ، وَكَانَ مُوسَى عليه السلام لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ ، فَالَسَّعِيدُ مَنْ أَحَبَّهُ طَبْعًا وَشَرْعًا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : ٣٩] ، فَلَمَّا ضَاقَتْ بِهِ ذُرْعًا أَهْلَمَتْ فِي سِرِّهَا ، وَأُلْقِيَتْ فِي خَلْدِهَا ، وَنُفِثَ فِي رُوعِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْتَقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ دَارُهَا عَلَى حَافَةِ النَّيْلِ فَاتَّخَذَتْ تَابُوتًا وَمَهَّدَتْ فِيهِ مَهْدًا ، وَجَعَلَتْ تَرْضِعُ وَلَدَهَا فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِّنْ تَخَافُهُ ذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ وَسَيَّرَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَرَبَطَتْهُ بِحَبْلِ عِنْدَهَا ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ دَخَلَ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِّنْ تَخَافُهُ ، فَذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ ، وَأَرْسَلَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَذَهَبَتْ عَنْ أَنْ تَرْبِطَهُ ، فَذَهَبَ مَعَ الْمَاءِ وَاحْتَمَلَهُ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ عَلَى دَارِ فِرْعَوْنَ فَالْتَقَطَهُ الْجَوَارِي ، فَاحْتَمَلْنَهُ فَذَهَبْنَ بِهِ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَلَا يَدْرِيْنَ مَا فِيهِ ، وَخَشِينَ أَنْ يَفْتَنَ عَلَيْهَا فِي فَتْحِهِ دُونَهَا ، فَلَمَّا كَشَفَتْ عَنْهُ إِذَا هُوَ غُلَامٌ مِّنْ أَحْسَنِ الْخَلْقِ وَأَجْمَلِهِ وَأَحْلَاهُ وَأَبْنَاهُ ، فَأَوْفَعَ اللَّهُ حُبَّتَهُ فِي قَلْبِهَا حِينَ نَظَرَتْ إِلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ لِسَعَادَتِهَا وَمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ كَرَامَتِهَا وَشَقَاوَةِ بَعْلِهَا .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ الْآيَةُ . مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَيَّضَهُمْ لِالْتِقَاطِهِ لِيَجْعَلَهُ عَدُوًّا لَهُ وَحَزَنًا ، فَيَكُونَ أَبْلَغُ فِي إِبْطَالِ حَذَرِهِمْ مِنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُنُودُهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ الْآيَةُ . يَعْنِي : أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا رَأَاهُمْ يَقْتُلُهُ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَشَرَعَتْ امْرَأَتُهُ أَسِيَّةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ تُخَاصِمُ عَنْهُ وَتَذِبُ دُونَهُ وَتُحِبُّهُ إِلَى فِرْعَوْنَ ، فَقَالَتْ : ﴿ قُرْتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ ، فَقَالَ فِرْعَوْنَ : أَمَّا لَكَ فَنَعَمْ ، وَأَمَّا لِي فَلَا ، فَكَانَ كَذَلِكَ ، وَهَذَا هَا اللَّهُ بِسَبَبِهِ ، وَأَهْلَكَهُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ . ﴿ عَسَى أَنْ يَفْعَنَّا ﴾ وَقَدْ حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ ، وَهَذَا هَا اللَّهُ بِهِ وَأَسْكَنَهَا الْجَنَّةَ بِسَبَبِهِ . ﴿ أَوْ نَخِذْهُ وَلَدًا ﴾ أَيُّ : أَرَادَتْ أَنْ تَخِذْهُ وَلَدًا وَتَتَبَّنَاهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ مِنْهُ ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يَدْرُونَ مَا أَرَادَ

اللَّهُ مِنْهُ بِالتَّقَاطُطِ إِيَّاهُ، مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ الْبَالِغَةِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾ * وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُورٌ ﴿١٨﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ بَلَّغْنَا آيَ وَعْدِ اللَّهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ فُؤَادِ أُمِّ مُوسَىٰ حِينَ ذَهَبَ وَلَدُهَا فِي الْبَحْرِ، أَنَّهُ أَصْبَحَ فَارِغًا، أَيُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ أُمُورِ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ مُوسَى ۖ «إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ» أَيُّ : إِنْ كَادَتْ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِهَا وَحُزْنِهَا وَأَسْفَهَا لَتُظْهِرَ أَنَّهُ ذَهَبَ لَهَا وَلَدٌ، وَتُخْبِرُ بِحَالِهَا لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ ثَبَّتَهَا وَصَبَّرَهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴿١٧﴾ أَيُّ : أَمَرَتْ ابْنَتَهَا، وَكَانَتْ كَبِيرَةً تَعِي مَا يُقَالُ لَهَا، فَقَالَتْ لَهَا : ﴿قُصِّيهِ﴾ أَيُّ : اتَّبِعِي أَثَرَهُ، وَخُذِي خَبْرَهُ، وَتَطْلُبِي شَأْنَهُ مِنْ نَوَاحِي الْبَلَدِ، فَخَرَجَتْ لِذَلِكَ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : عَنْ جَانِبٍ . وَقَالَ قَتَادَةُ : جَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّهَا لَا تَرِيدُهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَقَرَّ مُوسَى ﷺ بِدَارِ فِرْعَوْنَ وَأَحْبَبَتْهُ امْرَأَةُ الْمَلِكِ وَاسْتَطْلَقَتْهُ مِنْهُ، عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ الَّتِي فِي دَارِهِمْ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهَا ثَدْيًا، وَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجُوا بِهِ إِلَى السُّوقِ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ امْرَأَةً تَصْلُحُ لِرِضَاعَتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ بِأَيْدِيهِمْ عَرَفَتْهُ، وَلَمْ تُظْهِرْ ذَلِكَ وَلَمْ يَشْعُرُوا بِهَا .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ : تَحْرِيمًا قَدْرِيًّا، وَذَلِكَ لِكِرَامَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ وَصِيَانَتِهِ لَهُ، أَنْ يَرْضَعَ غَيْرَ ثَدْيِ أُمِّهِ، وَلَئِنْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَى رُجُوعِهِ إِلَى أُمِّهِ لِرِضَاعِهِ وَهِيَ أَمَنَةٌ بَعْدَ مَا كَانَتْ خَائِفَةً، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَائِرِينَ فِيمَنْ يُرْضِعُهُ ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُورٌ﴾ فَلَمَّا قَالَتْ لَهُمْ ذَلِكَ، ذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى مَنْزِلِهِمْ، فَدَخَلُوا بِهِ عَلَى أُمِّهِ، فَأَعْطَتْهُ ثَدْيًا فَالْتَقَمَهُ، فَفَرِحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا .

وَذَهَبَ الْبَشِيرُ إِلَى امْرَأَةِ الْمَلِكِ، فَاسْتَدْعَتْ أُمَّ مُوسَى، وَأَحْسَنْتَ إِلَيْهَا، وَأَعْطَتْهَا عَطَاءً جَزِيلًا، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا أُمُّهُ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ لِكُونِهِ وَافِقَ ثَدْيِهَا، ثُمَّ سَأَلَتْهَا أَسِيَّةُ أَنْ تُقِيمَ عِنْدَهَا فَتَرْضِعَهُ فَأَبَتْ عَلَيْهَا، وَقَالَتْ : إِنْ لِي بَعْلًا وَأَوْلَادًا وَلَا أَقْدِرُ عَلَى الْمَقَامِ عِنْدِكَ، وَلَكِنْ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أَرْضِعَهُ فِي بَيْتِي فَعَلْتُ، فَأَجَابَتْهَا امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَجَرَتْ عَلَيْهَا النِّفَقَةَ وَالصَّلَاتِ وَالْكَسَاوِي وَالْإِحْسَانَ الْجَزِيلَ، فَرَجَعَتْ أُمُّ مُوسَى بِوَلَدِهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً قَدْ

أَبَدَلَهَا اللَّهُ بَعْدَ خَوْفِهَا أَمْنًا فِي عِزِّ وَجَاهٍ وَرِزْقٍ دَارٍ ، فَسُبْحَانَ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، الَّذِي يَجْعَلُ لِمَنْ أَتَقَاهُ بَعْدَ كُلِّ حَسَنَةٍ فَجْرًا ، وَبَعْدَ كُلِّ ضَلِيلَةٍ مَخْرَجًا .
 وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أَيُ : بِهِ ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ أَيُ : عَلَيْهِ ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أَيُ : فِيمَا وَعَدَهَا مِنْ رَدِّهِ إِلَيْهَا ، وَجَعَلَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، فَحِينَئِذٍ تَحَقَّقَتْ - بِرَدِّهِ إِلَيْهَا - أَنَّهُ كَاتِبٌ مِنْهُ رَسُولٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، فَعَامَلَتْهُ فِي تَرْبِيَّتِهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ طَبْعًا وَشَرْعًا .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيُ : حُكْمَ اللَّهِ فِي أَعْمَالِهِ وَعَوَاقِبِهَا الْمُحْمُودَةِ الَّتِي هُوَ الْمُحْمُودُ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَرُبَّمَا يَقَعُ الْأَمْرُ كَرِيمًا إِلَى النَّفُوسِ وَعَاقِبَتُهُ مُحْمُودَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦]

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾
 وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغْنَىٰ ۚ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ۚ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾
 قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾
 بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَبْدَأَ أَمْرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَاهُ اللَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا . قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي : النُّبُوَّةَ : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سَبَبَ وَصُولِهِ إِلَى مَا كَانَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالتَّكْلِيمِ : فِي قَضِيَّةِ قَتْلِهِ ذَلِكَ الْقَبْطِيَّ الَّذِي كَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى بِلَادِ مَدْيَنَ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أَيُ : يَتَضَارَبَانِ وَيَتَنَارَعَانِ ﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أَيُ : إِسْرَائِيلِيٌّ ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أَيُ : قَبْطِيٌّ ، فَاسْتَغْنَى الْإِسْرَائِيلِيُّ بِمُوسَى ، فَوَجَدَ مُوسَى فُرْصَةً وَهِيَ غَفْلَةُ النَّاسِ فَعَمَدَ إِلَى الْقَبْطِيَّ ﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ قِيلَ : فَوَكَرَهُ ، أَيُ : طَعَنَهُ بِجُمُوعِ كَفِّهِ ، وَقِيلَ : وَكَرَهُ بِعَصَا كَانَتْ مَعَهُ ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أَيُ : كَانَ فِيهَا حَتْفُهُ فَهَاتَ ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ أَيُ : بِمَا جَعَلْتَ لِي مِنَ الْجَاهِ وَالْعِزِّ وَالْمَنْعَةِ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ أَيُ : مُعِينًا ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيُ : الْكَافِرِينَ بِكَ الْمُخَالِفِينَ لِأَمْرِكَ .

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿٥٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى عليه السلام لَمَّا قَتَلَ ذَلِكَ الْقَبْطِيَّ أَنَّهُ أَصْبَحَ ﴿ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا ﴾ أَيُّ : مِنْ مَعَرَّةٍ مَا فَعَلَ ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ أَيُّ : يَتَلَفَّطُ ، وَيَتَوَقَّعُ مَا يَكُونُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ ، فَمَرَّ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ ، فَإِذَا ذَلِكَ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ عَلَى ذَلِكَ الْقَبْطِيَّ يُقَاتِلُ آخَرَ ، فَلَمَّا مَرَّ مُوسَى اسْتَصْرَخَهُ عَلَى الْآخَرِ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : ظَاهِرُ الْغَوَايَةِ كَثِيرُ الشَّرِّ ، ثُمَّ عَزَمَ عَلَى الْبَطْشِ بِذَلِكَ الْقَبْطِيَّ فَاعْتَقَدَ الْإِسْرَائِيلِيُّ لِحُورِهِ وَضَعْفِهِ وَذِلَّتِهِ أَنَّ مُوسَى إِنَّمَا يُرِيدُ قَضْدَهُ ، لَمَّا سَمِعَهُ يَقُولُ ذَلِكَ ، فَقَالَ - يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ - : ﴿ يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ إِلَّا هُوَ وَمُوسَى - عليه السلام - فَلَمَّا سَمِعَهَا ذَلِكَ الْقَبْطِيَّ لَقِفَهَا مِنْ فَمِهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى بَابِ فِرْعَوْنَ وَالْقَاهَا عِنْدَهُ ، فَعَلِمَ فِرْعَوْنُ بِذَلِكَ ، فَاشْتَدَّ حَنَقُهُ وَعَزَمَ عَلَى قَتْلِ مُوسَى ، فَطَلَبُوهُ فَبَعَثُوا وَرَاءَهُ لِيُحْضَرُوهُ لِذَلِكَ .

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّ أَلْمَلَأُ يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٦٠﴾

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ وَصَفَهُ بِالرُّجُولِيَّةِ لِأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيقَ ، فَسَلَكَ طَرِيقًا أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِ الَّذِينَ بُعِثُوا وَرَاءَهُ ، فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى فَقَالَ لَهُ : يَا مُوسَى ﴿ إِنَّ أَلْمَلَأُ يَأْتِمِرُونَ بِكَ ﴾ أَيُّ : يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ ﴿ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْبَلَدِ ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَزِلْتُ إِلَى مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٦٤﴾

لَمَّا أَخْبَرَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ بِمَا تَمَلَّأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَدَوْلَتُهُ فِي أَمْرِهِ ، خَرَجَ مِنْ مِصْرَ وَخَدَهُ ، وَلَمْ يَأْلَفْ

ذَلِكَ قَبْلَهُ ، بَلْ كَانَ فِي رَفَاهِيَّةٍ وَنِعْمَةٍ وَرِيَاسَةٍ ﴿ خَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أَيُّ : يَتَلَفَّتُ ﴿ قَالَ رَبِّ اجْنُبْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أَيُّ : مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أَيُّ : أَخَذَ طَرِيقًا سَالِكًا مَهْيَعًا ، فَرِحَ بِذَلِكَ ﴿ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أَيُّ : الطَّرِيقَ الْأَقْوَمَ ، فَفَعَلَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ وَهَدَاهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَجَعَلَهُ هَادِيًا مَهْدِيًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أَيُّ : لَمَّا وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ وَوَرَدَ مَاءَهَا ، وَكَانَ لَهَا بَيْتَرُ تَرْدُهُ رِعَاءُ الشَّاءِ ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ أَيُّ : جَمَاعَةً يَسْقُونَ ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أَيُّ : تُكْفِكِفَانِ غَنَمَهُمَا أَنْ تَرِدَ مَعَ غَنَمِ أُولَئِكَ الرِّعَاءِ لِئَلَّا يُؤْذِيَا ، فَلَمَّا رَأَاهُمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَقَّ لَهُمَا وَرَحِمَهُمَا ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أَيُّ : مَا خَبَرُكُمَا لَا تَرْدَانِ مَعَ هَؤُلَاءِ ؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ أَيُّ : لَا يَحْضِلُ لَنَا سَقْيٌ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ هَؤُلَاءِ ﴿ وَأُبُونَا شَيْخَ كَبِيرٍ ﴾ أَيُّ : فَهَذَا الْحَالُ الْمُلْجِئُ لَنَا إِلَى مَا تَرَى . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَزِلْتُ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَى الظِّلِّ ﴾ قِيلَ : جَلَسَ تَحْتَ شَجَرَةٍ .

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَّابِتِ اسْتِجْرَاهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٥١﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٢﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٥٣﴾

لَمَّا رَجَعَتِ الْمَرَأَتَانِ سَرِيعًا بِالْغَنَمِ إِلَى أَبِيهِمَا أَتَتْهُمَا بِسَبَبِ مَحَبَّتِهِمَا سَرِيعًا ، فَسَأَلَهُمَا عَنْ خَبَرِهِمَا ، فَقَصَصَتْا عَلَيْهِ مَا فَعَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَبَعَثَ إِحْدَاهُمَا إِلَيْهِ لِيَدْعُوهُ إِلَى أَبِيهَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أَيُّ : مَشْيِ الْحَرَّائِرِ . ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ وَهَذَا تَأْدِبٌ فِي الْعِبَارَةِ ، لَمْ تَطْلُبْهُ طَلَبًا مُطْلَقًا لِئَلَّا يُوهِمَ رِيَّةً ، بَلْ قَالَتْ : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ يَعْنِي : لِيُشِيكَ ، وَيُكَافِئَكَ عَلَى سَقْيِكَ لِغَنَمِنَا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أَيُّ : ذَكَرَ لَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ، وَمَا جَرَى لَهُ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ مِنْ بَلَدِهِ ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ يَقُولُ : طِبَّ نَفْسًا وَقَرَّ عَيْنًا ،

فَقَدْ خَرَجْتَ مِنْ مَمْلَكَتِهِمْ فَلَا حُكْمَ لَهُمْ فِي بِلَادِنَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ نَحْنُ مِنَ الْقَوَمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتِجْرَاهُ ۚ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ أَي :
 قَالَتْ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَذَا الرَّجُلِ . ﴿ يَأْتِيَنَّكَ اسْتِجْرَاهُ ﴾ أَي : لِرَعِيَّةِ هَذِهِ الْغَنَمِ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ ﴾ أَي : طَلَبَ إِلَيْهِ هَذَا الرَّجُلُ
 الشَّيْخَ الْكَبِيرُ أَنْ يَرعى غَنَمَهُ وَيُزَوِّجَهُ إِحْدَى ابْنَتَيْهِ هَاتَيْنِ . ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ
 أَتَمَمْتُ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ أَي : عَلَى أَنْ تَرعى غَنَمِي ثَمَانِي سِنِينَ ، فَإِنْ تَبَرَّعْتَ بِزِيَادَةِ سَنَتَيْنِ فَهُوَ
 إِلَيْكَ ، وَإِلَّا فَفِي الثَّانِ كِفَايَةٌ ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾
 أَي : لَا أَشَاقُّكَ ، وَلَا أُوَادِّيكَ ، وَلَا أُمَارِيكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ قَالَ ذَلِكَ
 بَنِي وَبَنِيكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ يَقُولُ : إِنْ مُوسَى
 قَالَ لِصَهرِهِ : الْأَمْرُ عَلَى مَا قُلْتَ مِنْ أَنَّكَ اسْتَأْجَرْتَنِي عَلَى ثَمَانِ سِنِينَ ، فَإِنْ أَتَمَمْتُ عَشْرًا فَمِنْ
 عِنْدِي ، فَأَنَا مَتَى فَعَلْتُ أَقْلَهُمَا فَقَدْ بَرِئْتُ مِنَ الْعَهْدِ وَخَرَجْتُ مِنَ الشَّرْطِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَيَّمَا
 الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ ﴾ أَي : فَلَا حَرَجَ عَلَيَّ ، هَذَا وَقَدْ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
 إِنَّمَا فَعَلَ أَكْمَلَ الْأَجَلَيْنِ وَأَتَمَّهُمَا . فِيهِ الْبُخَارِيُّ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - سُئِلَ : أَي
 الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى ؟ فَقَالَ : قَضَى أَكْثَرَهُمَا وَأَطْيَبَهُمَا : إِنْ رَسُولَ اللَّهِ إِذَا قَالَ فَعَلَ .

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ
 لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيَكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ
 تَصْطَلُّونَ ۚ ﴾ (١٦) فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنَ شَطْئِ الْأَوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ
 مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا
 رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ ۚ إِنَّكَ مِنَ
 الْأَمِينِينَ ﴾ (١٧) أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ
 جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۚ فَذَلِكَ بُرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ
 كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ (١٨)

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ أَي : الْأَكْمَلَ مِنْهُمَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ ﴾
 قَالُوا : كَانَ مُوسَى قَدْ اسْتَأْذَنَ إِلَىٰ بِلَادِهِ وَأَهْلِهِ ، فَعَزَمَ عَلَىٰ زِيَارَتِهِمْ فِي خُفْيَةٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ،
 فَتَحَمَّلَ بِأَهْلِهِ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْغَنَمِ الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ صِهرُهُ ، فَسَلَكَ بِهِمْ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ مُظْلِمَةٍ

بَارِدَةٍ ، فَتَزَلْ مَزَلًا فَجَعَلَ كُلُّهَا أُورَى زَنْدَهُ لَا يُضِيءُ شَيْئًا ، فَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ ﴿عَآنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أَيُّ : رَأَى نَارًا تُضِيءُ لَهُ عَلَى بُعْدٍ ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أَيُّ : حَتَّى أَذْهَبَ إِلَيْهَا ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ أَضَلَّ الطَّرِيقَ ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أَيُّ : قِطْعَةٍ مِنْهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أَيُّ : تَتَدَفَّقُونَ بِهَا مِنَ الْبَرْدِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ أَيُّ : مِنْ جَانِبِ الْوَادِي بِمَا يَلِي الْجَبَلَ ، عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْعَرَبِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِ ﴾ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ، فَهَذَا بِمَا يُرْشِدُ إِلَى أَنَّ مُوسَى قَصَدَ النَّارَ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ ، وَالْجَبَلُ الْغَرْبِيُّ عَنْ يَمِينِهِ ، وَالنَّارُ وَجَدَهَا تَضْطَرِّمُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ فِي لَحْفِ الْجَبَلِ بِمَا يَلِي الْوَادِي ، فَوَقَفَ بَاهِتًا فِي أَمْرِهَا فَتَادَاهُ رَبُّهُ ﴿ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْ يَمُوسَى إِنَّ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : الَّذِي يُخَاطِبُكَ وَيَكَلِّمُكَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أَيُّ : الَّتِي فِي يَدِكَ ، ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ أَيُّ : تَضْطَرِبُ ﴿ كَأَنَّمَا جَانُّ ﴾ أَيُّ : فِي حَرَكَتِهَا السَّرِيعَةِ ، مَعَ عِظَمِ خِلْقَةِ قَوَائِمِهَا وَاتِّسَاعِ فِعْمِهَا ، وَاصْطِكَاكِ أُنْيَابِهَا وَأَضْرَاسِهَا ، بِحَيْثُ لَا تَمُرُّ بِصَخْرَةٍ إِلَّا ابْتَلَعَتْهَا تَنَحُّدُ فِي فِيهَا ، تَتَفَقَّعُ كَأَنَّمَا حَادِرَةٌ فِي وَادٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ وَلَى مُدْبِرًا وَلَمْ يَعْقِبْ ﴾ أَيُّ : وَلَمْ يَكُنْ يَلْتَمِصُ لِأَنَّ طَبْعَ الْبَشَرِيَّةِ يَنْفِرُ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا قَالَ اللَّهُ لَهُ ﴿ يَمُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ رَجَعَ فَوَقَفَ فِي مَقَامِهِ الْأَوَّلِ .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ لَهُ : ﴿ أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أَيُّ : إِذَا أَدْخَلْتَ يَدَكَ فِي جَيْبِ دِرْعِكَ ، ثُمَّ أَخْرَجْتَهَا ، فَإِنَّهَا تَخْرُجُ تَلَوًّا كَأَنَّمَا قِطْعَةٌ قَمَرٍ فِي لَمَعَانِ الْبَرَقِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أَيُّ : مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ . ﴿ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ قِيلَ : مِنَ الْفَزَعِ ، وَقِيلَ : مِنَ الرُّعْبِ ، وَالظَّاهِرُ : أَنَّ الْمُرَادَ أَعْمُ مِنْ هَذَا ، وَهُوَ أَنَّهُ أَمَرَ ﷺ إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضْمَ إِلَيْهِ جَنَاحَهُ مِنَ الرَّهْبِ وَهُوَ يَدُهُ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْخَوْفِ ، وَرُبَّمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ أَحَدٌ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِقْتِدَاءِ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فُؤَادِهِ ، فَإِنَّهُ يَزُولُ عَنْهُ مَا يَجِدُ أَوْ يَخَفُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَبِهِ الثَّقَةُ . ﴿ فَذَلِكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يَعْنِي : الْإِقَاءُ الْعَصَا وَجَعَلُهَا حَيَّةً تَسْعَى ، وَإِدْخَالُهَا يَدَهُ فِي جَيْبِهِ فَتَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، دَلِيلَانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ عَلَى قُدْرَةِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ، وَصِحَّةِ نُبُوَّةِ مَنْ جَرَى هَذَا الْخَارِقُ عَلَى يَدَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أَيُّ : وَقَوْمِهِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْكَبَرَاءِ وَالْآتِبَاعِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فَسَقِيتَ ﴿١٤٠﴾ أَيُّ : خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، مُحَالِفِينَ لِدِينِ اللَّهِ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤١﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٤٢﴾ قَالَ سَنُنْشِدُ عُضْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۖ بِمَا يَتَّبِعُنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمْمَا أَغْلِبُونَ ﴿١٤٣﴾

لَمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ ، الَّذِي إِنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ فِرَارًا مِنْهُ وَخَوْفًا مِنْ سَطَوْتِهِ ﴿١٤٠﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴿١٤١﴾ يَعْنِي : ذَلِكَ الْقِبْطِيُّ ﴿١٤٢﴾ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤٣﴾ أَيُّ : إِذَا رَأَوْنِي ﴿١٤٤﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴿١٤٥﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي لِسَانِهِ لُغَةً ، بِسَبَبِ مَا كَانَ تَنَاقُلَ تِلْكَ الْجُمْرَةِ حِينَ خَبِرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الثَّمَرَةِ - أَوِ الدَّرَةِ - فَأَخَذَ الْجُمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ فَحَصَلَ فِيهِ شِدَّةٌ فِي التَّعْبِيرِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ ﴿١٤٦﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿١٤٧﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿١٤٨﴾ هَارُونُ أَخِي ﴿١٤٩﴾ أَشَدُّ بِهِمْ أَرْزَى ﴿١٥٠﴾ وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي ﴿١٥١﴾ [طه : ٢٧-٣٢] أَيُّ : يُؤَيِّنُنِي فِيمَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ ، وَهُوَ الْقِيَامُ بِأَعْبَاءِ النَّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ إِلَى هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ أَيُّ : وَزِيرًا وَمُعِينًا وَمُقَوِّيًا لِأَمْرِي ، يُصَدِّقُنِي فِيمَا أَقُولُهُ وَأُخْبِرُ بِهِ عَنِ اللَّهِ ﷻ لِأَنَّ خَبَرَ الْإِثْنَيْنِ أَنْجَعُ فِي النَّفُوسِ مِنْ خَبَرِ الْوَاحِدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ . فَلَمَّا سَأَلَ ذَلِكَ مُوسَى ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَنُنْشِدُ عُضْدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أَيُّ : سَنَقُويْ أَمْرَكَ وَنُعِزُّ جَانِبَكَ بِأَخِيكَ ، الَّذِي سَأَلْتَ لَهُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَعَكَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ قَدْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ [طه : ٣٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا ﴾ أَيُّ : حُجَّةً قَاهِرَةً ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ بِمَا يَتَّبِعُنَا ﴿ أَيُّ : لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى أَذَانِكُمَا بِسَبَبِ إِبْلَاغِكُمَا آيَاتِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيَا الرَّسُولَ بِلَغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] أَيُّ : وَكَفَى بِاللَّهِ نَاصِرًا وَمُعِينًا ، وَمُؤَيَّدًا ، وَلِهَذَا أَخْبَرَهُمَا أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمَا وَلَنْ يَتَّبِعَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمْمَا أَغْلِبُونَ ﴾ .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِمَا يَتَّبِعُنَا بَيَّنَّتِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿١٥٢﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ

تَكُونُ لَهُ عَنقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَجِيءِ مُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ ، وَعَرْضِهِ مَا آتَاهُمَا اللَّهُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالِدَّلَالَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى صِدْقِهِمَا فِيمَا أَخْبَرَا عَنْ اللَّهِ ﷻ : مِنْ تَوْحِيدِهِ وَاتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ ، فَلَمَّا عَايَنَ فِرْعَوْنُ وَمَلَأُوهُ ذَلِكَ ، وَشَاهَدُوهُ وَتَحَقَّقُوهُ وَأَيَقَنُوا أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ عَدَلُوا بِكُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ إِلَى الْعِنَادِ وَالْمُبَاهَاةِ ، وَذَلِكَ لِبُغْيَانِهِمْ وَتَكْبَرِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ فَقَالُوا : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ﴾ أَيُ : مُفْتَعَلٌ مَصْنُوعٌ ، وَأَرَادُوا مُعَارَضَتَهُ بِالْحِيلَةِ وَالْجَاهِ ، فَمَا صَعِدَ مَعَهُمْ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، يَقُولُونَ : مَا رَأَيْنَا أَحَدًا مِنْ آبَائِنَا عَلَى هَذَا الدِّينِ ، وَلَمْ نَرَ النَّاسَ إِلَّا يُشْرِكُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى . فَقَالَ مُوسَى مُجِيبًا لَهُمْ : ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ ﴾ يَعْنِي : مِنِّي وَمِنْكُمْ ، وَسَيَفْصِلُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَنقَبَةُ الدَّارِ ﴾ أَيُ : مِنَ النُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ وَالتَّايِيدِ ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أَيُ : الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ ﷻ .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقَدَ لِي يَنْهَمَنَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ مِنْ الْكَذِبِينَ ﴿٦١﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٦٢﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَنقَبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٦٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَطُغْيَانِهِ ، وَافْتِرَائِهِ فِي دَعْوَاهُ الْإِلَهِيَّةِ لِنَفْسِهِ الْقَبِيحَةِ - لَعْنَهُ اللَّهُ - كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِعْتِرَافِ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ بِقَلَّةِ عَقُولِهِمْ وَسَخَافَةِ أَذْهَانِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَوْقَدَ لِي يَنْهَمَنَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى ﴾ يَعْنِي : أَمْرَ وَزِيرِهِ « هَامَانَ » وَمُدَبِّرَ رَعِيَّتِهِ وَمُشِيرَ دَوْلَتِهِ أَنْ يُوقِدَ لَهُ عَلَى الطِّينِ يَعْنِي : يَتَّخِذَ لَهُ أَجْرًا لِبِنَاءِ الصَّرْحِ ، وَهُوَ : الْقَصْرُ الْمُنِيفُ الرَّفِيعُ الْعَالِي ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُظْهِرَ لِرَعِيَّتِهِ تَكْذِيبَ مُوسَى ، فِيمَا زَعَمَهُ مِنْ دَعْوَى إِلَهٍ غَيْرِ فِرْعَوْنَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنِّي لأُظَنُّهُ مِنْ الْكَذِبِينَ ﴾ أَيُ : فِي قَوْلِهِ ، أَنْ تَمَّ

رَبًّا غَيْرِي، لَا أَنَّهُ كَذَّبَهُ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ، لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْتَرِفُ بِوُجُودِ الصَّانِعِ - جَلَّ وَعَلَا - .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾
أَيُّ: طَغَوْا وَتَجَبَّرُوا وَأَكْثَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ لَا قِيَامَةَ وَلَا مَعَادَ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ
رَبُّكَ سَوَاطِيرَ عَذَابٍ ۖ﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿[الفجر: ١٣-١٤]

وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أَيُّ: أَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْبَحْرِ فِي صَبِيحَةٍ
وَاحِدَةٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَارَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴿أَيُّ: لِمَنْ سَلَكَ وَرَاءَهُمْ وَأَخَذَ بِطَرِيقَتِهِمْ، فِي تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَتَعْطِيلِ
الصَّانِعِ﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يَنْصُرُونَ ﴿أَيُّ: فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ خِزْيُ الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ .
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أَيُّ: وَشَرَعَ اللَّهُ لَعْنَتَهُمْ وَلَعْنَةَ مَلَائِكِهِمْ فِرْعَوْنَ،
عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّبِعِينَ رُسُلَهُ، وَكَمَا أَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا مَلْعُونُونَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ
وَأَتْبَاعِهِمْ، وَكَذَلِكَ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَنْسِ الرِّفْدَ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى الْكَلِيمِ - عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ
وَالتَّسْلِيمِ - مِنْ إِنْزَالِ التَّوْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ يَعْنِي أَنَّهُ بَعْدَ إِنْزَالِ التَّوْرَةِ لَمْ يُعَذِّبْ
أُمَّةً بَعَامَةً، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْعَمَى وَالْغَيِّ، ﴿وَهُدًى﴾ إِلَى الْحَقِّ ﴿وَرَحْمَةً﴾، أَيُّ:
إِرشَادًا إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيُّ: لَعَلَّ النَّاسَ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَهْتَدُونَ بِسَبِيلِهِ .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٨﴾
وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا
عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن
رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا

فَنَتَّبِعْ آيَاتِكَ وَنَكُوتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مِنْهَا عَلَى بُرْهَانٍ نُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ أَخْبَرَ بِالْغُيُوبِ الْمَاضِيَةِ ، خَبَرًا كَأَنَّ سَامِعَهُ شَاهِدٌ وَرَاءَ مَا تَقَدَّمَ ، وَهُوَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ نَشَأَ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ مَرِيَمَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ إِلَيْهِمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] . أَيُّ : وَمَا كُنْتَ حَاضِرًا لِذَلِكَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَوْحَاهُ إِلَيْكَ ، وَهَكَذَا لَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ نُوحٍ وَقَوْمِهِ ، وَمَا كَانَ مِنْ إِنْجَاءِ اللَّهِ لَهُ وَإِعْرَاقِ قَوْمِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] ، وَقَالَ هَهُنَا بَعْدَ مَا أَخْبَرَ عَنْ قِصَّةِ مُوسَى مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ، وَكَيْفَ كَانَ إِبْتِدَاءُ إِجَاءِ اللَّهِ إِلَيْهِ وَتَكْلِيمِهِ لَهُ ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ يَعْنِي : مَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ بِجَانِبِ الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ ، الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي هِيَ شَرْقِيَّةٌ عَلَى شَاطِئِ الْوَادِي ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ لِذَلِكَ . وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَيْكَ ذَلِكَ لِيَكُونَ حُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَى قُرُونٍ قَدْ تَطَاوَلَ عَهْدُهَا ، وَنَسُوا حُجَجَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَمَا أَوْحَاهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أَيُّ : وَمَا كُنْتَ مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا حِينَ أَخْبَرْتَ عَنْ نَبِيِّهَا شُعَيْبٍ ، وَمَا قَالَ لِقَوْمِهِ وَمَا رَدُّوا عَلَيْهِ ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أَيُّ : وَلَكِنْ نَحْنُ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ذَلِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَى النَّاسِ رَسُولًا .

قَالَ فَتَادَةَ : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ مُوسَى ، وَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَشْبَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ ، ثُمَّ أَخْبَرَ هَهُنَا بِصِغَةِ أُخْرَى أَحْصَى مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ النَّدَاءُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ﴾ [الشعراء : ١٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أَيُّ : مَا كُنْتَ مُشَاهِدًا لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَاهُ إِلَيْكَ وَأَخْبَرَكَ بِهِ ، رَحْمَةً مِنْهُ بِكَ وَبِالْعِبَادِ بِإِرْسَالِكَ إِلَيْهِمْ ﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيُّ : لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ ﷻ . ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ لِنُقِيمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ ، وَلِنَقْطَعَ عِذْرَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ بِكُفْرِهِمْ ، فَيَحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ وَلَا نَذِيرٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِهِ إِنْزَالَ كِتَابِهِ الْمُبَارَكِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴾ (١٨) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا

الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴿[الأنعام: ١٥٦-١٥٧]﴾
 وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّعَلَّآ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]
 وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۖ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿١٥٦﴾
 قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾
 فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ
 بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٨﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ
 الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَوْ عَذَّبْنَاهُمْ قَبْلَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ
 رَسُولٌ ، أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، قَالُوا عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ
 وَالْكُفْرِ وَالْجَهْلِ وَالْإِحَادِ ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ الآية . يَعْنُونَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - مِنْ
 الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ مِثْلَ الْعَصَا ، وَالْيَدِ ، وَالطُّوفَانِ ، وَالْجَرَادِ ، وَالْقُمَّلِ ، وَالضَّفَادِعِ ، وَالْدَّمَ
 وَتَنْقِصِ الزُّرُوعِ وَالثَّمَارِ ، بِمَا يُضَيِّقُ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ ، وَكَفَلَقِ الْبَحْرِ ، وَتَظْلِيلِ الْعَمَامِ ، وَانْزَالِ الْمَنِّ
 وَالسَّلْوَى ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْحُجَجِ الْقَاهِرَةِ ، الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى
 يَدَيْ مُوسَى ﷺ حُجَّةً وَبُرْهَانًا لَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَنْجَعْ فِي
 فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، بَلْ كَفَرُوا بِمُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ ، كَمَا قَالُوا لَهُمَا : ﴿أَجِئْنَا لِنَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا
 عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا خُنَّا لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] ، وَقَالَ تَعَالَى :
 ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ
 مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ : أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ ﴿قَالُوا سِحْرَانِ
 تَظَاهَرَا﴾ أَيُّ : تَعَاوَنَا وَتَنَاصَرَا وَصَدَّقَ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ أَيُّ : بِكُلِّ
 مِنْهُمَا كَافِرُونَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿سَاحِرَانِ﴾ يَعْنُونَ : مُوسَى وَهَارُونَ ، وَهَذَا قَوْلٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
 وَقِيلَ : يَعْنُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَقِيلَ : الْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ . وَالظَّاهِرُ عَلَى قِرَاءَةِ ﴿سِحْرَانِ﴾
 أَنَّهُمْ يَعْنُونَ التَّوْرَةَ وَالْقُرْآنَ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَهُ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ﴾
 وَكَثِيرًا مَا يَقْرَأُ اللَّهُ بَيْنَ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ

أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٠﴾ أَيُّ : فِيمَا تُدْفِعُونَ بِهِ الْحَقَّ وَتُعَارِضُونَ بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ .
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أَيُّ : فَإِنْ لَمْ يُجِيبُوكَ عَمَّا قُلْتَ لَهُمْ ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ
 ﴿ فَأَعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أَيُّ : بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ
 هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : بِغَيْرِ حُجَّةٍ مَأْخُودَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : فَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ . يَعْنِي : قُرَيْشًا .

الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِءٌ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّنَّا
 بِهِءَ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ
 بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
 أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿١٠٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْعُلَمَاءِ الْأَلْبَاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ
 ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِءَ ﴿ [البقرة : ١٢١] ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ

أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ يَعْنِي : مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ كُنَّا مُسْلِمِينَ ، أَيُّ :
 مُوَحِّدِينَ مُخْلِصِينَ لِلَّهِ مُسْتَجِيبِينَ لَهُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾
 أَيُّ : هَؤُلَاءِ الْمُتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ ثُمَّ بِالثَّانِي ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ بِمَا
 صَبَرُوا ﴾ أَيُّ : عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، فَإِنَّ تَحِشُّهُمْ مِثْلَ هَذَا شَدِيدٌ عَلَى النَّفْسِ . ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ
 السَّيِّئَةَ ﴾ أَيُّ : لَا يُقَابِلُونَ السَّيِّئَ بِمِثْلِهِ ، وَلَكِنْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ ﴾
 أَيُّ : وَمِنْ الَّذِي رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الْحَلَالِ يُنفقُونَ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ فِي النِّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ لِأَهْلِيهِمْ
 وَأَقَارِبِهِمْ ، وَالزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ مِنَ التَّطَوُّعَاتِ وَصَدَقَاتِ النَّفْلِ وَالْقُرْبَاتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أَيُّ : لَا يُحَاطِطُونَ أَهْلَهُ وَلَا يُعَاشِرُونَهُمْ ، بَلْ
 كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أَيُّ : إِذَا سَفِهَ
 عَلَيْهِمْ سَفِيهٌ ، وَكَلَّمَهُمْ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِمْ الْجَوَابُ عَنْهُ ، أَعْرَضُوا عَنْهُ وَلَمْ يُقَابِلُوهُ بِمِثْلِهِ مِنَ الْكَلَامِ
 الْقَبِيحِ وَلَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ إِلَّا كَلَامٌ طَيِّبٌ ، وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ : إِنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ
 أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أَيُّ : لَا نُرِيدُ طَرِيقَ الْجَاهِلِينَ وَلَا نُحِبُّهَا .

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٠٥﴾

وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ إِلَيْكَ ذَلِكَ ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ ، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أَيُّ : هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ - عَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَقَدْ كَانَ يَجُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَقُومُ فِي صَفِّهِ ، وَيُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا طَبْعِيًّا لَا شَرْعِيًّا ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَحَانَ أَجَلُهُ دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْدُخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، فَسَبَقَ الْقَدَرُ فِيهِ وَاخْتُطِفَ مِنْ يَدِهِ ، فَاسْتَمَرَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَاللَّهُ الْحَكِيمُ التَّامُّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ اعْتِدَارِ بَعْضِ الْكُفَّارِ فِي عَدَمِ اتِّبَاعِ الْهُدَىٰ ، حَيْثُ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أَيُّ : نَخْشَىٰ إِنْ اتَّبَعْنَا مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَخَالَفْنَا مَنْ حَوْلَنَا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ الْمُشْرِكِينَ ، أَنْ يَقْصِدُونَا بِالْأَذَى وَالْمُحَارَبَةِ وَيَتَخَطَّفُونَا أَيْنَمَا كُنَّا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ مُجِيبًا لَهُمْ ﴿ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ يَعْنِي : هَذَا الَّذِي اعْتَدَرُوا بِهِ كَذِبٌ وَبَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ جَعَلَهُمْ فِي بَلَدٍ أَمِينٍ وَحَرَمٍ مُعَظَّمٍ آمِنٍ مُنْذُ وُضِعَ ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا الْحَرَمُ أَمِنًا لَهُمْ فِي حَالِ كُفْرِهِمْ وَشُرْكِهِمْ ، وَلَا يَكُونُ أَمِنًا لَهُمْ وَقَدْ أَسْلَمُوا وَتَابَعُوا الْحَقَّ ؟ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أَيُّ : مِنْ سَائِرِ الثَّمَارِ بِمَا حَوْلَهُ مِنَ الطَّائِفِ وَغَيْرِهِ وَكَذَلِكَ الْمَتَاجِرِ وَالْأُمَيْعَةِ ﴿ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ أَيُّ : مِنْ عِنْدِنَا ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فَلِهَذَا قَالُوا مَا قَالُوا .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رُبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقَرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُعَرِّضًا بِأَهْلِ مَكَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أَيُّ : طَغَتْ وَأَشْرَتْ وَكَفَرَتْ نِعْمَةَ اللَّهِ فِيهَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ ، ﴿ فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيُّ : دَثُرَتْ دِيَارُهُمْ فَلَا تُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ . ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾

أَيَّ : رَجَعْتَ خَرَابًا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَذْلِهِ وَأَنَّهُ لَا يُهْلِكُ أَحَدًا ظَالِمًا لَهُ ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُ مَنْ أَهْلَكَ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﴿ وَمَا كَانَ رِئُوكَ مُهْلِكَ الْفَرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمَةٍ ﴾ ، وَهِيَ مَكَّةُ ﴿ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ - وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ - لَمَّا بَعُوثُ مِنْ أُمِّ الْفَرَى - رَسُولٌ إِلَى جَمِيعِ الْفَرَى مِنْ عَرَبٍ وَأَعْجَامٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] . وَلِهَذَا خُتِمَ بِهِ النَّبُوءَةُ وَالرَّسَالَةُ ، فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولٌ ، بَلْ شَرَعُهُ بَاقٍ بَقَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمَةٍ رَسُولًا ﴾ أَيَّ : أَصْلَحَهَا وَعَظَّمَهَا كَأَمْهَاتِ الرِّسَالَتَيْنِ وَالْأَقَالِيمِ .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ حَقَارَةِ الدُّنْيَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّيْنَةِ الدُّنْيَا وَالزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [الأعلى : ١٦-١٧] . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيَّ : أَفَلَا يَعْقِلُ مَنْ يُقَدِّمُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى أَفَمَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ مُصَدِّقٌ بِمَا وَعَدَهُ اللَّهُ عَلَى صَالِحِ أَعْمَالِهِ مِنَ الثَّوَابِ ، الَّذِي هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ، كَمَنْ هُوَ كَاْفِرٌ مُكَذِّبٌ بِلِقَاءِ اللَّهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، فَهُوَ مُتَّعٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيَّامًا قَلِيلًا ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِبَّانًا يَعْبُدُونَ ﴿١٩﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۖ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُوَبِّخُ بِهِ الْكُفَّارَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَيْثُ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ

الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٠﴾ يَعْنِي : أَيْنَ الْإِلَهَةُ الَّتِي كُنتُمْ تَعْبُدُونَهَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ؟ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ؟ وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّنْذِيرِ وَالتَّهْدِيدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ يَعْنِي : الشَّيَاطِينِ وَالْمُرْدَةِ وَالِدُّعَاةَ إِلَى الْكُفْرِ ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ فَشَهِدُوا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَغْوَوْهُمْ فَاتَّبَعُوهُمْ ثُمَّ تَبَرَّأُوا مِنْ عِبَادَتِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ [١١] كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿ [مریم : ٨١-٨٢] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَقِيلَ آدَعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أَيُّ : لِيُخَلِّصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ كَمَا كُنتُمْ تَرْجُونَ مِنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أَيُّ : وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى النَّارِ لَا مَحَالَةَ . ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهِتَدُونَ ﴾ أَيُّ : فَوَدُّوا حِينَ عَائِنَا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ النَّدَاءُ الْأَوَّلُ عَنْ سُؤَالِ التَّوْحِيدِ ، وَهَذَا فِيهِ إِثْبَاتُ النُّبُوتِ : مَاذَا كَانَ جَوَابُكُمْ لِلْمُرْسَلِينَ إِلَيْكُمْ ؟ وَكَيْفَ كَانَ حَالُكُمْ مَعَهُمْ ؟ وَهَذَا كَمَا يُسْأَلُ الْعَبْدُ فِي قَبْرِهِ : مَنْ رَبُّكَ ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ ؟ وَمَا دِينُكَ ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ : فَيَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ : هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي ، وَلِهَذَا لَا جَوَابَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرَ السُّكُوتِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَجُ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ بِالْأَسَابِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا ﴿ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ((وَعَسَى)) مِنْ اللَّهِ مُوجِبَةٌ ، فَإِنَّ هَذَا وَقَعَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَمَنْعِهِ لَا مَحَالَةَ .

وَرَبُّكَ سَخَطٌ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالْإِخْتِيَارِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ مُنَازَعٌ وَلَا مُعَقِّبٌ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَبُّكَ سَخَطٌ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ أَيُّ : مَا يَشَاءُ ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، فَلَا أُمُورَ كُلُّهَا خَيْرُهَا وَشَرُّهَا بِيَدِهِ وَمَرَجِعُهَا إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ نَفْيٌ عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وَلِهَذَا قَالَ :

﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَي: مِنْ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ وَلَا تَخْتَارُ شَيْئًا .
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أَي: يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ الصُّمَّاءُ،
 وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ، كَمَا يَعْلَمُ مَا تُبْدِيهِ الظُّوَاهِرُ مِنْ سَائِرِ الْخَلَائِقِ ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾
 أَي: هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ، فَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ، كَمَا لَا رَبَّ يَخْلُقُ وَيَخْتَارُ سِوَاهُ ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى
 وَالْآخِرَةِ﴾ أَي: فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهِ لِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أَي: الَّذِي لَا
 مُعَقَّبَ لَهُ لِقَهْرِهِ وَعَلَبَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَي: جَمِيعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَجَازِي
 كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي سَائِرِ الْأَعْمَالِ .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ
 يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٦١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ
 سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا
 تُبْصِرُونَ ﴿٦٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
 فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَنَبِّئًا عَلَى عِبَادِهِ بِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، اللَّذَيْنِ لَا قَوَامَ لَهُمْ بِدُونِهِمَا،
 وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ اللَّيْلُ دَائِمًا عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَضَرَّ ذَلِكَ بِهِمْ، وَلَسَيَّمَتُهُ النُّفُوسُ
 وَانْحَصَرَتْ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ أَي: تُبْصِرُونَ بِهِ
 وَتَسْتَأْسُونَ بِسَبَبِهِ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ النَّهَارَ سَرْمَدًا، أَي: دَائِمًا مُسْتَوْرًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَأَضَرَّ ذَلِكَ
 بِهِمْ وَلَتَعَبَتِ الْأَبْدَانُ، وَكَثَلَتْ مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَاتِ وَالْأَشْغَالِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ
 يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أَي: تَسْتَرِيحُونَ مِنْ حَرَكَاتِكُمْ وَأَشْغَالِكُمْ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ .
 ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أَي: بِكُمْ ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَي: خَلَقَ هَذَا وَهَذَا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾
 أَي: فِي اللَّيْلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَي: فِي النَّهَارِ بِالْأَسْفَارِ وَالتَّرَحُّالِ وَالْحَرَكَاتِ وَالْأَشْغَالِ،
 وَهَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَي: تَشْكُرُونَ اللَّهَ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَنْ فَاتَهُ
 شَيْءٌ بِاللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ، أَوْ بِالنَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ بِاللَّيْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
 اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٦﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٧﴾

وَهَذَا أَيْضًا نِدَاءٌ ثَانٍ عَلَى سَبِيلِ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ لِمَنْ عَبْدَ مَعَ اللَّهِ إلهًا آخَرَ ، يُنَادِيهِمُ الرَّبُّ تَعَالَى عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ فَيَقُولُ : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أَيُّ : فِي دَارِ الدُّنْيَا . ﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ يَعْنِي : رَسُولًا ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أَيُّ : عَلَى صِحَّةِ مَا ادَّعَيْتُمُوهُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ شُرَكَاءُ ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أَيُّ : لَا إِلَهَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَنْطِقُوا وَلَمْ يُخَيِّرُوا جَوَابًا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أَيُّ : ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُوهُمْ .

﴿ إِنَّ قُرُونَكَ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ ﴿ وَابْتَغَ فِيمَا ءَاتَيْتَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ وَلَا تَسْرِ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴿ وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٧٧﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ إِنَّ قُرُونَكَ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ قَالَ : كَانَ ابْنُ عَمِّهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ أَيُّ : الْأَمْوَالِ ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ﴾ أَيُّ : لَيَنْقِلُ حَمْلُهَا الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ لِكثَرَتِهَا . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿ أَيُّ : وَعَظَهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ صَاحِبُ قَوْمِهِ ، فَقَالُوا عَلَى سَبِيلِ النَّصِيحِ وَالْإِرْشَادِ : لَا تَفْرَحْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ ، يَعْنُونَ : لَا تَبْطُرْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْمَالِ ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿ قِيلَ : يَعْنِي : الْمَرِحِينَ ، وَقِيلَ : الْأَشْرِينَ الْبَطْرِينَ الَّذِينَ لَا يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ . ﴾ وَابْتَغَ فِيمَا ءَاتَيْتَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَسْرِ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴿ أَيُّ : اسْتَعْمِلْ مَا وَهَبَكَ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ الْجَزِيلِ وَالنَّعْمَةِ الطَّائِلَةِ فِي طَاعَةِ رَبِّكَ ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْقُرْبَاتِ الَّتِي يَحْصُلُ لَكَ بِهَا الثَّوَابُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ وَلَا تَسْرِ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴿ أَيُّ : بِمَا أَبَاحَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَأْسِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَنَاجِحِ ، فَإِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلَا هَلْكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِزُورِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، فَاتِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ﴾ وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴿ أَيُّ : أَحْسَنَ إِلَى خَلْقِهِ كَمَا أَحْسَنَ هُوَ إِلَيْكَ ﴾ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴿ أَيُّ : لَا تَكُنْ هِمَّتُكَ بِمَا أَنْتَ

فِيهِ أَنْ تُفْسِدَ بِهِ فِي الْأَرْضِ وَنُتِيَ إِلَى خَلْقِ اللَّهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ^{٥٤} أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ قَارُونَ لِقَوْمِهِ حِينَ نَصَحُوهُ وَأَرْشَدُوهُ إِلَى الْخَيْرِ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أَيُّ : أَنَا لَا أَتَقَرَّرُ إِلَى مَا تَقُولُونَ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَعْطَانِي هَذَا الْمَالَ لِعِلْمِهِ بِأَنِّي أَسْتَحِقُّهُ وَلِحَبَّتِهِ لِي ، فَتَقْدِيرُهُ : إِنَّمَا أُعْطِيْتُهُ لِعِلْمِ اللَّهِ فِيَّ أَنِّي أَهْلٌ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِ فِيمَا ادَّعَاهُ مِنْ اعْتِنَاءِ اللَّهِ بِهِ فِيمَا أَعْطَاهُ مِنَ الْمَالِ : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أَيُّ : قَدْ كَانَ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ مَالًا وَمَا كَانَ ذَلِكَ عَنْ مَحَبَّةٍ مِنَّا لَهُ ، وَقَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ مَعَ ذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ وَعَدَمِ شُكْرِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أَيُّ : لِكثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ . وَقَدْ أَجَادَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْإِمَامُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فَإِنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ قَالَ : لَوْلَا رِضَا اللَّهِ عَنِّي وَمَعْرِفَتُهُ بِفَضْلِي مَا أَعْطَانِي هَذَا الْمَالَ ، وَقَرَأَ ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ الْآيَةَ . وَهَكَذَا يَقُولُ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ إِذَا رَأَى مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ : لَوْلَا أَنْ يَسْتَحِقَّ ذَلِكَ لَمَا أُعْطِيَ .

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ^{٥٦} قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُورُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٥٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَةٍ عَظِيمَةٍ وَتَجَمَّلَ بِأَهْرٍ ، مِنْ مَرَكَبٍ وَمَلَابِسٍ عَلَيْهِ وَعَلَى خَدَمِهِ وَحَشَمِهِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ مَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَمِيلُ إِلَى زَخَارِفِهَا وَزِينَتِهَا تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ كَانَ لَهُمْ مِثْلُ الَّذِي أُعْطِيَ قَالُوا : ﴿ يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُورُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أَيُّ : ذُو حَظٍّ وَافِرٍ مِنَ الدُّنْيَا ، فَلَمَّا سَمِعَ مَقَالَتَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ النَّافِعِ قَالُوا لَهُمْ : ﴿ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أَيُّ : جَزَاءُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا تَرَوْنَ . ﴿ وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : وَلَا يُلْقَى الْجَنَّةُ إِلَّا الصَّابِرُونَ ، كَأَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ كَلَامِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .

فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ ﴿٢٣٠﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاهُ وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٣١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اخْتِيَالَ قَارُونَ فِي زِينَتِهِ ، وَفَخَرَهُ عَلَى قَوْمِهِ وَبَغِيَهُ عَلَيْهِمْ ، عَقَبَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ خَسَفَ بِهِ وَيَدَارِهِ الْأَرْضَ . ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ ﴾ أَيُّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَلَا جَمْعُهُ ، وَلَا خِدْمَتُهُ وَحَشْمُهُ ، وَلَا دَفْعُوا عَنْهُ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ وَنَكَالَهُ بِهِ ، وَلَا كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُتَنَصِّرًا لِنَفْسِهِ ، فَلَا نَاصِرَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ لَمَّا رَأَوْهُ فِي زِينَتِهِ قَالُوا : ﴿ يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ، فَلَمَّا خُسِفَ بِهِ أَصْبَحُوا يَقُولُونَ : ﴿ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ الْمَالُ بِدَالٍ عَلَى رِضَا اللَّهِ عَنْ صَاحِبِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ ، وَيُضَيِّقُ وَيُوسِّعُ ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ . ﴿ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاهُ ﴾ أَيُّ : لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ بِنَا وَإِحْسَانُهُ إِلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاهُ كَمَا خَسَفَ بِهِ ؛ لَأَنَّا وَدِدْنَا أَنْ نَكُونَ مِثْلَهُ ﴿ وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ يَعْنُونَ : أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا ، وَلَا يُفْلِحُ الْكَافِرُ عِنْدَ اللَّهِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ . وَقَدْ اخْتَلَفَ النُّحَاةُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيَكَانَهُ ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَاهُ ، « وَيَلْكَ اعْلَمْ أَنَّ » وَلَكِنْ خُفِّفَتْ ، فَقِيلَ : « وَيَلْكَ » ، وَدَلَّ فَتُحَّ « أَنَّ » عَلَى حَذْفِ « اعْلَمْ » ، وَقِيلَ مَعْنَاهَا : وَيَكَانُ ، أَيُّ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ » .

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٣٢﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَنِعِيمَهَا الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، جَعَلَهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ، أَيُّ : تَرَفُّعًا عَلَى خَلْقِ اللَّهِ ، وَتَعَاظُمًا عَلَيْهِمْ وَتَجَبُّرًا بِهِمْ ، وَلَا فِسَادًا فِيهِمْ ، وَالْفِسَادُ : أَخْذُ الْمَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقِيلَ : ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ تَعَظُّمًا وَتَجَبُّرًا ﴿ وَلَا فِسَادًا ﴾ عَمَلًا بِالْمَعَاصِي . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أَيُّ : ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ حَسَنَةِ الْعَبْدِ ، فَكَتِفَ وَاللَّهُ يُضَاعِفُهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، فَهَذَا مَقَامُ الْفَضْلِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبْيَةِ فَكُتِبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٠] ، وَهَذَا مَقَامُ الْفَصْلِ الْعَدْلِ .

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِإِهْدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩١﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ عَابِتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٩٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِبَلَاغِ الرِّسَالَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ ، وَنَحِيرًا لَهُ بِأَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَى مَعَادٍ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، فَيَسْأَلُهُ عَمَّا اسْتَرَعَاهُ مِنْ أَعْبَاءِ الشُّبُوهِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ أَيُّ : افْتَرَضَ عَلَيْكَ أَدَاءَهُ إِلَى النَّاسِ ﴿ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ أَيُّ : إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَسْأَلُكَ عَنْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِإِهْدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أَيُّ : قُل لِمَنْ خَالَفَكَ وَكَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ قَوْمِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ ، قُل : رَبِّي أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِي مِنْكُمْ وَمَنِّي ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُذَكِّرًا لِنَبِيِّهِ نِعْمَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْعِبَادِ إِذْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أَيُّ : مَا كُنْتَ تَظُنُّ قَبْلَ أَنْزَالِ الْوَحْيِ إِلَيْكَ أَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ عَلَيْكَ ۖ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا أَنْزَلَ الْوَحْيَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ ، مِنْ رَحْمَتِهِ بِكَ وَبِالْعِبَادِ بِسَبَبِكَ ، فَإِذَا مَنَحَكَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ﴾ أَيُّ : مُعِينًا ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ وَلَكِنْ فَارِقُهُمْ وَنَابِذُهُمْ وَخَالَفَهُمْ . ﴿ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ عَابِتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أَيُّ : لَا تَتَأَثَّرْ لِمُخَالَفَتِهِمْ لَكَ وَصَدِّهِمْ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِكَ ، وَلَا تَلْوِي عَلَى ذَلِكَ وَلَا تُبَالِهَ ، فَإِنَّ اللَّهَ مُعِلِّ كَلِمَتِكَ ، وَمُوَيِّدُ دِينِكَ ، وَمُظْهِرُ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أَيُّ : إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيُّ : لَا تَلِيقُ الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ ، وَلَا تَبْغِي الْإِلَهِيَّةَ إِلَّا لِعَظَمَتِهِ . ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ إِخْبَارًا بِأَنَّهُ الدَّائِمُ الْبَاقِي الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، الَّذِي

تَمُوتُ الْخَلَائِقُ وَلَا يَمُوتُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝ [الرحمن : ٢٦-٢٧] فَعَبَّرَ بِالْوَجْهِ عَنِ الذَّاتِ ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ هَهُنَا : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۝ أَيْ : إِلَّا إِيَّاهُ . ۝ لَهُ الْحُكْمُ ۝ أَيْ : الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۝ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ۝ أَيْ : يَوْمَ مَعَادِكُمْ فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ، إِنْ كَانَ خَيْرًا فَيُخَيِّرُ وَإِنْ شَرًّا فَيُفْشِرُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَصَصِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٦٩ تفسير سورة العنكبوت مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ اسْتَفْهَامٌ إِنكَارٍ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا بُدَّ أَنْ يَبْتَلِيَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَسَبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ لَهُ فِي الْبَلَاءِ » ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝ أَيْ : الَّذِينَ صَدَقُوا فِي دَعْوَاهُمْ الْإِيمَانِ يَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ وَدَعْوَاهُ ، وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ . وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ أئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ أَيْ : لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِيمَانِ أَنَّهُمْ يَتَخَلَّصُونَ مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ وَالْإِمْتِحَانِ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ مَا هُوَ أَغْلَظُ مِنْ هَذَا وَأَطْمَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ۝ أَيْ : يَفُوتُونَا ۝ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ أَيْ : بِشَسِّ مَا يَظُنُّونَ .

مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا

تُجَاهِدْ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ، وَرَجَا مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُحَقِّقُ لَهُ رَجَاءَهُ، وَيُؤْفِيهِ عَمَلَهُ كَامِلًا مَوْفُورًا، فَإِنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، بَصِيرٌ بِكُلِّ الْكَائِنَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦]. أَيُّ: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ عَمَلِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَلَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ الرَّجُلَ لِيُجَاهِدَ وَمَا ضَرَبَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ بِسَيْفٍ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ - مَعَ غِنَاهُ عَنِ الْخَلَائِقِ جَمِيعِهِمْ، وَمِنْ بَرِّهِ وَإِحْسَانِهِ بِهِمْ - يُجَازِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ، وَهُوَ أَنَّهُ يُكَفِّرُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا، وَيُجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَيَقْبَلُ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَيُثَبِّتُ عَلَيْهَا، الْوَاحِدَةَ بِعَشْرِ أَمْثَلِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، وَيُجْزِي عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ بَعْدَ الْحَثِّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِتَوْحِيدِهِ، فَإِنَّ الْوَالِدَيْنِ هُمَا سَبَبُ وُجُودِ الْإِنْسَانِ، وَهُمَا عَلَيْهِ غَايَةُ الْإِحْسَانِ، فَالْوَالِدُ بِالْإِنْفَاقِ وَالْوَالِدَةُ بِالْإِشْفَاقِ، وَمَعَ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا فِي مُقَابَلَةِ إِحْسَانِهِمَا الْمُتَقَدِّمِ قَالَ: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أَيُّ: وَإِنْ حَرَصَا عَلَيْكَ أَنْ تُتَابِعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا - إِذَا كَانَا مُشْرِكَيْنِ - فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُمَا، لَا تُطِعْهُمَا فِي ذَلِكَ، فَإِنْ مَرْجِعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَأَجْزِيكَ بِإِحْسَانِكَ إِلَيْهِمَا وَصَبْرِكَ عَلَى دِينِكَ، وَأَحْشُرْكَ مَعَ الصَّالِحِينَ لَا فِي زُمْرَةِ

وَالِدَيْكَ ، وَإِنْ كُنْتَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ الْمَرْءَ إِنَّمَا يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ،
 أَي : حُبًّا دِينِيًّا ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ .
 عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ : نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ ، فَذَكَرَ قِصَّتَهُ وَقَالَ : قَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ :
 أَلَيْسَ اللَّهُ قَدْ أَمَرَكَ بِالْبِرِّ ؟ وَاللَّهُ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ ، قَالَ :
 فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوَهَا شَجَرُوا فَاهَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ
 جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ الْآيَةَ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ
 وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ صِفَاتِ قَوْمٍ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْإِيمَانَ بِالْإِسْتِثْنَاءِ ، وَلَمْ يَنْبُتِ
 الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ ، بِأَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ مِحْنَةٌ وَفِتْنَةٌ فِي الدُّنْيَا اعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ ،
 فَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ
 النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي : فِتْنَتُهُ أَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ إِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ ،
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ
 فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ ﴾ [الحج : ١١-١٢] ، ثُمَّ قَالَ :
 ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أَي : وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ قَرِيبٌ مِنْ رَبِّكَ - يَا
 مُحَمَّدٌ - وَفَتْحٌ وَمَغَانِمٌ ، لَيَقُولُنَّ هَؤُلَاءِ لَكُمْ : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَي : إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، قَالَ
 تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَيْسَ
 اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي : أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَمَا تُكِنُّهُ ضَمَائِرُهُمْ وَإِنْ
 أَظْهَرُوا لَكُمْ الْمَوَاقِفَةَ ؟ ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أَي : وَلَيَحْتَبِرَنَّ اللَّهُ
 النَّاسَ بِالضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ ، لِيَتَمَيَّزَ هَؤُلَاءِ مِنْ هَؤُلَاءِ ، مَنْ يُطِيعُ اللَّهَ فِي الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ ، وَمَنْ إِنَّمَا
 يُطِيعُهُ فِي حَظِّ نَفْسِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا
 أَخْبَارَكُمْ ﴾ [عمد : ٣١] ، وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَفْعَةِ أُحُدٍ ، الَّتِي كَانَ فِيهَا مَا كَانَ ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ
 الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ
 بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْثَالًا

مَعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيَسْئَلَنَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ : إِنَّهُمْ قَالُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الْهُدَى : إِرْجِعُوا عَنْ دِينِكُمْ إِلَى دِينِنَا وَاتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴿ وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ ﴾ أَيُّ : وَأَنَّا مَكَّمُ - إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَنَا فِي ذَلِكَ - عَلَيْنَا وَفِي رِقَابِنَا ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ : اِفْعَلْ هَذَا وَخَطِيئَتُكَ فِي رَقَبَتِي ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ : ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴾ أَيُّ : فِيمَا قَالُوهُ ، إِنَّهُمْ يَحْمِلُونَ عَنْ أَوْلِيكَ خَطَايَاهُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وَزَرَ أَحَدٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَمَلٍهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ إِنْخِبَارٌ عَنِ الدُّعَاةِ إِلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ ، أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْزَارَ أَنْفُسِهِمْ وَأَوْزَارَ أُخْرَى بِسَبَبِ مَا أَضَلُّوا مِنَ النَّاسِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِ أَوْلِيكَ شَيْئًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : ٢٥] ، وَفِي الصَّحِيحِ « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقُصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » .
﴿ وَلَيَسْئَلَنَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أَيُّ : يَكْذِبُونَ وَيَخْتَلِقُونَ مِنَ الْبُهْتَانِ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

هَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ يُخْبِرُهُ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَجَهَارًا ، وَمَعَ هَذَا مَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا عَنِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضًا عَنْهُ وَتَكْذِيبًا لَهُ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أَيُّ : بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ مَا نَجَّعَ فِيهِمُ الْبَلَاغُ وَالْإِنذَارُ ، فَأَنْتَ - يَا مُحَمَّدٌ - لَا تَأْسَفْ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَبْدَأُ الْأُمُورَ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [يونس : ٩٦ - ٩٧] ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سَيُظْهِرُكَ وَيَنْصُرُكَ ، وَيُؤَيِّدُكَ وَيُذِلُّ عَدُوَّكَ وَيَكْتِبُهُمْ وَيَجْعَلُهُمْ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ آمَنُوا بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ مُفْصَلًا فِي سُورَةِ « هُودٍ » ، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أَي: وَجَعَلْنَا تِلْكَ السَّفِينَةَ بَاقِيَةً، إِمَّا عَيْنَهَا، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: أَنَّهَا بَقِيَتْ إِلَى أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عَلَى جَبَلِ الْجُودِيِّ، أَوْ نَوْعُهَا جَعَلَهُ لِلنَّاسِ تَذَكُّرَةً لِنِعْمِهِ عَلَى الْخَلْقِ كَيْفَ نَجَّاهُمْ زَمَنَ الطُّوفَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ خَلَّصْنَا فِي الْجَارِيَةِ ﴿١٠﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذَكُّرَةً وَتَعْيَا أَذُنٌ وَعِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١١-١٢]، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّدرِيجِ مِنَ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَوْ قِيلَ إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ عَائِدٌ إِلَى الْعُقُوبَةِ لَكَانَ وَجْهًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْوَعْدِ ﴿١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ - إِمَامِ الْخُفَاءِ - أَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي التَّقْوَى، وَطَلَبِ الرِّزْقِ مِنْهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَوْحِيدِهِ فِي الشُّكْرِ، فَإِنَّهُ الْمَشْكُورُ عَلَى النِّعَمِ لَا مُسْئِدِي لَهَا غَيْرُهُ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿آعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ أَي: أَخْلِصُوا لَهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْخَوْفِ ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَي: إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ حَصَلَ لَكُمْ الْخَيْرُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَانْدَفَعَ عَنْكُمْ الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا لَا تَنْصُرُ وَلَا تَنْفَعُ، وَإِنَّمَا اخْتَلَقْتُمْ أَنْتُمْ لَهَا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا آلِهَةً، وَإِنَّمَا هِيَ مَخْلُوقَةٌ مِّثْلَكُمْ. قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: وَتَصْنَعُونَ إِفْكًا، أَي: تَنْحِتُونَهَا أَصْنَامًا. وَهِيَ لَا تَمْلِكُ لَكُمْ رِزْقًا ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْحَضَرِ، كَقَوْلِهِ ﴿إِلَّاكَ نَعْبُدُ وَإِلَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَهَذَا قَالَ: ﴿فَابْتَغُوا﴾ أَي: فَاطْلُبُوا ﴿عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أَي: لَا عِنْدَ غَيْرِهِ، فَإِنَّ غَيْرَهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أَي: كُلُّوا مِنْ رِزْقِهِ وَاعْبُدُوهُ وَخَدَهُ، وَاشْكُرُوا لَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَجْازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ. ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أَي: فَبَلَّغَكُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْوَعْدِ﴾ يَعْنِي إِنَّمَا عَلَى الرَّسُولِ أَنْ يُبَلِّغَكُمْ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ، وَاللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَاحْرِصُوا أَنْفُسَكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّعْدَاءِ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ

أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴿١٤﴾ قَالَ : يُعْزِي نَبِيَّهُ ﷺ .

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٥﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۚ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْخَلِيلِ ﷺ أَنَّهُ أَرْسَدَهُمْ إِلَىٰ إِبْطَاتِ الْمَعَادِ الَّذِي يُنْكِرُونَهُ ، بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِّنْ خَلْقِ اللَّهِ لِإِيَّاهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَّذْكَورًا ، ثُمَّ وَجَدُوا وَصَارُوا أَنْسَاءَ سَامِعِينَ مُبْصِرِينَ ، فَالَّذِي بَدَأَ هَٰذَا قَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَتِهِ ، فَإِنَّهُ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَّدَيْهِ . ثُمَّ أَرْسَدَهُمْ إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِمَا فِي الْأَفَاقِ مِنَ الْآيَاتِ الْمُشَاهِدَةِ مِّنْ خَلْقِ اللَّهِ الْأَشْيَاءَ : السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَةِ الثَّوَابِتِ ، وَالسِّيَّارَاتِ ، وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهَا مِنْ مِّهَادٍ وَجِبَالٍ وَأَوْدِيَةٍ وَبَرَاري وَفِقَارٍ وَأَشْجَارٍ وَأَنْهَارٍ وَنَهَارٍ وَبَحَارٍ ، كُلُّ ذَلِكَ دَالٌّ عَلَى حُدُوثِهَا فِي أَنْفُسِهَا وَعَلَىٰ وُجُودِ صَانِعِهَا الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ، وَلِهَٰذَا قَالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وَهَٰذَا الْمَقَامُ شَبِيهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَرُّهُمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ أَي : هُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يَرِيدُ ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، مَهْمَا فَعَلَ فَعَدْلٌ ؛ لِأَنَّهُ الْمَالِكُ الَّذِي لَا يَظْلَمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ » وَلِهَٰذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أَي : تُرْجَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أَي : لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِّنْ أَهْلِ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ ، بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، فَكُلُّ شَيْءٍ خَائِفٌ مِنْهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴿ أَي : جَحَدُواهَا وَكَفَرُوا بِالْمَعَادِ ﴾ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي

أَيُّ : لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : مُوجِعٌ شَدِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ يَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا
وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَمُكَابَرَتِهِمْ وَدَفْعِهِمُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ،
أَنَّهُمْ مَا كَانَ لَهُمْ جَوَابٌ بَعْدَ مَقَالَةِ إِبْرَاهِيمَ هَذِهِ الْمُشْتَمَلَةَ عَلَى الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ
حَرِّقُوهُ ﴾ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَامَ عَلَيْهِمُ الْبُرْهَانُ ، وَتَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، فَعَدَلُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ
جَاهِهِمْ وَقُوَّةِ مُلْكِهِمْ ﴿ قَالُوا آتُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ ﴿١٥﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ
الْأَسْفَلِينَ ﴿ [الصافات : ٩٧-٩٨] ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حَشَدُوا فِي جَمْعِ أَحِطَابٍ عَظِيمَةٍ مُدَّةً طَوِيلَةً ،
وَحَوَّطُوا حَوْلَهَا ، ثُمَّ أَضْرَمُوا فِيهَا النَّارَ فَارْتَفَعَ لَهَا هَبُّ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، وَلَمْ تَوْقَدْ نَارٌ قَطُّ أَعْظَمُ
مِنْهَا ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَكَتَفُوهُ وَالْقُوَّةُ فِي كِفَّةِ الْمُنْجِنِ ، ثُمَّ قَذَفُوهُ فِيهَا ، فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ
بَرْدًا وَسَلَامًا ، وَخَرَجَ مِنْهَا سَالِمًا بَعْدَ مَا مَكَثَ فِيهَا أَيَّامًا ، وَلِهَذَا وَأَمْثَالِهِ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا ،
فَإِنَّهُ بَذَلَ نَفْسَهُ لِلرَّحْمَنِ ، وَجَسَدَهُ لِلنَّيِّرَانِ ، وَسَخَا بِوَلَدِهِ لِلْقُرْبَانِ ، وَجَعَلَ مَالَهُ لِلضَّيْفَانِ ، وَلِهَذَا
اجْتَمَعَ عَلَى حُبِّهِ جَمِيعُ أَهْلِ الْأَدْيَانِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أَيُّ : سَلَّمَهُ مِنْهَا بِأَنْ جَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا . ﴿ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ﴿ يَقُولُ لِقَوْمِهِ - مُفَرَّعًا لَهُمْ وَمُؤَبَّحًا عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمْ لِلْأَوْثَانِ - : إِنَّمَا
اتَّخَذْتُمْ هَذِهِ لَتَجْتَمِعُوا عَلَى عِبَادَتِهَا فِي الدُّنْيَا ، صَدَاقَةٌ وَأَلْفَةٌ مِنْكُمْ ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ، ﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿ يَنْعَكِسُ هَذَا الْحَالُ ، فَتَبْقَى هَذِهِ الصَّدَاقَةُ وَالْمَوَدَّةُ بُغْضًا وَشَتَانًا ،
فَ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أَيُّ : تَتَجَاحَدُونَ مَا كَانَ بَيْنَكُمْ ﴾ ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ أَيُّ :
يَلْعَنُ الْأَتْبَاعُ الْمُتَّبِعِينَ ، وَالْمُتَّبِعُونَ الْأَتْبَاعَ ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨] ، وَقَالَ
تَعَالَى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، وَقَالَ هَهُنَا ﴿ ثُمَّ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ :
وَمَصِيرُكُمْ وَمَرْجِعُكُمْ بَعْدَ عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرٍ يُنْصِرُكُمْ وَلَا مُنْقِذٍ
يُنْقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَهَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَبِخِلَافِ ذَلِكَ .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٦٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ آمَنَ لَهُ لُوطٌ يُقَالُ : إِنَّهُ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ . يَقُولُونَ : هُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ ، يَعْنِي : وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ سِوَاهُ وَسَارَةُ امْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ ، فَإِنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ، ثُمَّ أُرْسِلَ فِي حَيَاةِ الْحَلِيلِ إِلَى أَهْلِ «سَدُومَ» وَإِقْلِيمِهَا ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ وَمَا سِيَّأِي .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ يَحْتَمِلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقَالَ ﴾ عَلَى لُوطٍ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ أَقْرَبُ الْمَذْكُورِينَ ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدُهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ اخْتَارَ الْمُهَاجِرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ائْتِغَاءَ إِظْهَارِ الدِّينِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أَيُّ : لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ الْقَدَرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا أَعَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٤٩] أَيُّ : أَنَّهُ لَمَّا فَارَقَ قَوْمَهُ أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ نَبِيٍّ ، وَوُلِدَ لَهُ وَلَدٌ صَالِحٌ نَبِيٌّ فِي حَيَاةِ جَدِّهِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء : ٧٢] أَيُّ : زِيَادَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] أَيُّ : يُوَلَدُ هَذَا الْوَلَدُ وَلَدٌ فِي حَيَاتِكُمَا تَقَرَّبَ بِهِ أَعْيُنُكُمَا ، وَكَوْنُ يَعْقُوبَ وَلَدٌ لِإِسْحَاقَ نَصَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ، وَتَبَيَّنَتْ بِهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ هَذِهِ خِلْعَةٌ سَيِّئَةٌ عَظِيمَةٌ مَعَ اتِّخَاذِ اللَّهِ إِيَّاهُ خَلِيلًا وَجَعَلَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، أَنْ جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَلَمْ يُوَجِّدْ نَبِيًّا بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا وَهُوَ مِنْ سُلَالَتِهِ ، فَجَمِيعُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ سُلَالَةِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، فَقَامَ فِي مَلَكُوتِهِمْ مُبَشِّرًا بِالنَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقُرْشِيِّ الْهَاشِمِيِّ ، مِنْ سُلَالَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - . ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أَيُّ : جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا الْمُوصُولَةِ بِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ ، فَكَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا الرِّزْقُ الْوَاسِعُ الْمُتَّيِّ ، وَالْمَنْزِلُ الرَّحْبُ ، وَالْمُورِدُ الْعَذْبُ ، وَالزَّوْجَةُ الْحَسَنَةُ الصَّالِحَةُ ، وَالنَّشَاءُ الْجَمِيلُ ، وَالذِّكْرُ الْحَسَنُ ، وَكُلُّ أَحَدٍ مُحِبُّهُ وَيَتَوَلَّاهُ . مَعَ الْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللَّهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ أَيُّ : قَامَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرَ وَكَمَّلَ طَاعَةَ رَبِّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :

﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

وَلَوْ طًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّيْلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَى قَوْمِهِ سُوءَ صَنِيعِهِمْ ، وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ قَبِيحِ الْأَعْمَالِ فِي إِيْتَانِهِمُ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَلَمْ يَسْقِهِمْ إِلَى هَذِهِ الْفِعْلَةِ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ قَبْلَهُمْ ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ، وَيُكَذِّبُونَ رَسُولَهُ ، وَيُخَالِفُونَ وَيَقْطَعُونَ السَّيْلَ أَيُّ : يَقْفُونَ فِي طَرِيقِ النَّاسِ يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ ﴾ أَيُّ : يَفْعَلُونَ مَا لَا يَلِيقُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ فِي مَجَالِسِهِمُ الَّتِي يَجْتَمِعُونَ فِيهَا ، لَا يُنْكِرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، فَمِنْ قَائِلٍ : كَانُوا يَأْتُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْمَلَأِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ . وَمِنْ قَائِلٍ : كَانُوا يَتَصَارَطُونَ وَيَتَصَاحَكُونَ ، وَمِنْ قَائِلٍ : كَانُوا يُنَاطِحُونَ بَيْنَ الْكِبَاشِ وَيُنَاقِرُونَ بَيْنَ الدُّيُوكِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ يَصْدُرُ عَنْهُمْ ، وَكَانُوا شَرًّا مِنْ ذَلِكَ . ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ كُفْرِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ وَعِنَادِهِمْ . وَهَذَا اسْتَنْصَرَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ اللَّهِ فَقَالَ : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فِيهَا لُوطًا قَالُوا خُذْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِمْءًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

لَمَّا اسْتَنْصَرَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، بَعَثَ اللَّهُ لِنُصْرَتِهِ مَلَائِكَةً فَمَرُّوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَيْئَةِ أَصْيَافٍ ، فَجَاءَهُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ ، فَلَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، فَسَرَّعُوا يُؤَانِسُونَهُ وَيُسِّرُونَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ مِنْ أَمْرَأَتِهِ سَارَةَ - وَكَانَتْ حَاضِرَةً - فَتَعَجَّبَتْ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَّانُهُ فِي سُورَةِ « هُودٍ » وَ « الْحَجَرِ » ، فَلَمَّا جَاءَتْ

إِبْرَاهِيمَ الْبُشْرَى ، وَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا لِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ ، أَخَذَ يَدَافِعُ لَعَلَّهُمْ يَنْظُرُونَ ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ ، وَلَمَّا قَالُوا : إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ . ﴿١٠٠﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَرَاهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْبِ ﴿١٠١﴾ أَيُّ : مِنَ الْهَالِكِينَ ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تُمَاطِلُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ ، ثُمَّ سَارُوا مِنْ عِنْدِهِ فَدَخَلُوا عَلَى لُوطٍ فِي صُورَةِ شُبَّانٍ حَسَنِينَ ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ كَذَلِكَ ﴿١٠٢﴾ سَاءَ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴿١٠٣﴾ أَيُّ : إِعْتَمَّ بِأَمْرِهِمْ إِنْ هُوَ أَضَافَهُمْ خَافَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُضَفَّهُمْ خَشِيَ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِأَمْرِهِمْ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ ﴿١٠٤﴾ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَرَاهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْبِ ﴿١٠٥﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٠٦﴾ . وَذَلِكَ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِفْتَتَحَ قُرَاهُمْ مِنْ قَرَارِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْصُودٍ مُسَوَّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ، وَجَعَلَ اللَّهُ مَكَانَهَا بَحِيرَةً خَاشِئَةً مُتَنَنَةً ، وَجَعَلَهُمْ عِزَّةً إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ ، وَهُمْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْمَعَادِ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّمَا لَتَمْرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْجِحِينَ ﴾ ﴿١٠٧﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٨﴾ [الصفات : ١٣٧ - ١٣٨]

وَالِى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٠٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿١١٠﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَنْذَرَ قَوْمَهُ - أَهْلَ مَدِينِ - فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ يَخَافُوا بِأَسْ اللَّهِ وَنِقْمَتَهُ وَسَطْوَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ : ﴿ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : قَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَاهُ : وَاحْشُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، ثُمَّ تَهَاوَمَ عَنِ الْعَيْثِ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ ، وَهُوَ السَّعْيُ فِيهَا وَالْبَغْيُ عَلَى أَهْلِهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْقِصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ وَيَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى النَّاسِ ، هَذَا مَعَ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِرَجْفَةٍ عَظِيمَةٍ زَلَزَلَتْ عَلَيْهِمْ بِلَادَهُمْ ، وَصَيْحَةً أَخْرَجَتْ الْقُلُوبَ مِنْ حَنَاجِرِهَا . وَعَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ الَّذِي أَزْهَقَ الْأَرْوَاحَ مِنْ مُسْتَقَرِّهَا ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قِصَّتُهُمْ مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ « الْأَعْرَافِ » « وَهُودٍ » « وَالشُّعَرَاءِ » ، ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : مَيِّتِينَ . وَقَالَ غَيْرُهُ : قَدْ أُلْقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

وَعَادًا وَتَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ

فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُرُوتَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِينَ ﴿٢٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ۚ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ لِلرُّسُلِ ، كَيْفَ أَبَادَهُمْ وَتَنَوَّعَ فِي عَذَابِهِمْ وَأَخَذَهُمْ بِالْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ ، فَعَادَ قَوْمَ هُودٍ عليه السلام كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ بِلَادِ الْيَمَنِ ، وَثُمُودُ قَوْمِ صَالِحٍ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْحِجَرَ قَرِيبًا مِنْ وَادِي الْقَرَى . وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَسَاكِنَهُمَا جِدًّا وَتَمُرُّ عَلَيْهَا كَثِيرًا ، وَقَارُونَ صَاحِبُ الْأَمْوَالِ الْجَرِيلَةِ وَمَفَاتِيحُ الْكُنُوزِ الثَّقِيلَةِ ، وَفِرْعَوْنُ مَلِكُ مِصْرَ فِي زَمَانِ مُوسَى ، وَوَزِيرُهُ هَامَانَ الْقَبْطِيَّانِ الْكَافِرَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِرَسُولِهِ ﷺ .

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ﴾ أَي : كَانَتْ عُقُوبَتُهُ بِمَا يُنَاسِبُهُ ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ، وَهُمْ عَادٌ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : مَنَ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ فَجَاءَتْهُمْ رِيحٌ صَرَّصَتْ بَارِدَةً شَدِيدَةَ الْبَرْدِ ، عَاتِيَةً شَدِيدَةَ الْهُبُوبِ جِدًّا ، تَحْمِلُ عَلَيْهِمْ حَصَبَاءَ الْأَرْضِ فَتَلْقِيهَا عَلَيْهِمْ وَتَقْتُلُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، فَتَرَفَعَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ثُمَّ تَنَكَّسَهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتَشْدَحُهُ ، فَيَبْقَى بَدَنًا بِلا رَأْسٍ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ ، وَهُمْ ثُمُودُ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَظَهَرَتْ لَهُمُ الدَّلَالَةُ مِنْ تِلْكَ النَّاقَةِ الَّتِي انْفَلَقَتْ عَنْهَا الصَّخْرَةُ ، مِثْلَ مَا سَأَلُوا سِوَاءَ سِوَاءٍ ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى طُعْيَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَتَهَدَّدُوا نَبِيَّ اللَّهِ صَالِحًا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ ، وَتَوَعَّدُوهُمْ بِأَنْ يُخْرِجُوهُمْ وَيَرْجُوهُمْ فَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَخَذَتْ الْأَصْوَاتَ مِنْهُمْ وَالْحَرَكَاتَ ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ ، وَهُوَ قَارُونَ الَّذِي طَغَى وَبَغَى وَعَتَا وَعَصَى الرَّبَّ الْأَعْلَى ، وَمَشَى فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، وَفَرَحَ وَمَرَحَ وَتَاهَ بِنَفْسِهِ ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَاخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ ، فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، وَهُوَ فِرْعَوْنُ وَوَزِيرُهُ هَامَانُ وَجُنُودُهُمَا عَنْ آخِرِهِمْ ، أَغْرَقُوا فِي صَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ مُخْبَرٌ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ﴾ أَي : فِيمَا فَعَلَ بِهِمْ ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَي : إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ جَزَاءً وَفَاقًا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ .

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ظَاهِرٌ سِيَاقِ الْآيَةِ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ ، وَهُوَ أَنَّهُ ذَكَرَ الْأُمَمَ الْمَكْذِبَةَ ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ﴾ أَي : مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ .

مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٨﴾

هَذَا مَثَلٌ صَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ يَرْجُونَ نَصْرَهُمْ وَرِزْقَهُمْ وَيَتَمَسَّكُونَ بِهِمْ فِي الشَّدَائِدِ ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ فِي ضَعْفِهِ وَوَهْنِهِ ، فَلَيْسَ فِي أَيْدِي هَؤُلَاءِ مِنْ آلِهَتِهِمْ إِلَّا كَمَنْ يَتَمَسَّكُ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ ، فَإِنَّهُ لَا يُجِدِي عَنْهُ شَيْئًا ، فَلَوْ عَلِمُوا هَذَا الْحَالَ لَمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُسْلِمِ الْمُؤْمِنِ قَلْبُهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُحْسِنُ الْعَمَلَ فِي اتِّبَاعِ الشَّرْعِ ، فَإِنَّهُ مَتَمَسَّكٌ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا لِقُوَّتِهَا وَثَبَاتِهَا .
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ وَأَشْرَكَ بِهِ ، أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَيَعْلَمُ مَا يُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْأَنْدَادِ ، وَسَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ أَيُّ : وَمَا يَفْهَمُهَا وَيَتَدَبَّرُهَا إِلَّا الرَّاِسُخُونَ فِي الْعِلْمِ الْمُتَضَلِّعُونَ مِنْهُ .

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ أَتْلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، يَعْنِي : لَا عَلَى وَجْهِ الْعَبَثِ وَاللَّعِبِ ﴿ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ [طه : ١٥] ﴿ لِيُجْزَى الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَتُجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : لَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْإِلَهِيَّةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ قِرَاءَتُهُ وَإِبْلَاغُهُ لِلنَّاسِ : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ عَلَى تَرْكِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، أَيُّ : إِنَّ مُوَاطَبَتَهَا تَحْمِلُ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ . قَالَ ابْنُ عَوْنٍ الْأَنْصَارِيُّ : إِذَا كُنْتَ فِي صَلَاةٍ قَأَنْتَ فِي مَعْرُوفٍ ، وَقَدْ حَجَزَتْكَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَالَّذِي أَنْتَ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ . قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قَالُوا : وَلَذِكْرُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ - إِذَا ذَكَّرُوهُ - أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ .

• وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُمْ مُجَادَلَةٌ وَإِنَّمَا هُوَ الْإِسْلَامُ أَوِ الْجِزْيَةُ أَوِ السَّيْفُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هِيَ بِآيَةِ مُحْكَمَةٍ لَمَّا أَرَادَ الْإِسْتِصَارَ مِنْهُمْ فِي الدِّينِ ، فَيُجَادِلُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِيَكُونَ أَنْجَعُ فِيهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أَيُّ : حَادُوا عَنْ وَجْهِ الْحَقِّ وَعَمُوا عَنْ وَاضِحِ الْمَحَجَّةِ وَعَانَدُوا وَكَابَرُوا ، فَحَبِطَتْ يَتَقَلُّ مِنَ الْجِدَالِ إِلَى الْجَلَادِ ، وَيَقَاتِلُونَ بِمَا يَمْنَعُهُمْ وَيَرُدُّعُهُمْ . ﴿وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي : إِذَا أَخْبَرُوا بِمَا لَا نَعْلَمُ صِدْقَهُ وَلَا كَذِبَهُ ، فَهَذَا لَا نُقَدِّمُ عَلَى تَكْذِيبِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ حَقًّا ، وَلَا تَصْدِيقُهُ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا ، وَلَكِنْ نُوْمنُ بِهِ إِيَّانَا مُجْمَلًا مُعَلَّقًا عَلَى شَرْطٍ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُنْزَلًا لَا مُبَدَّلًا وَلَا مُؤَوَّلًا . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيَفْسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ ، وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» . ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ غَالِيَهُ كَذِبٌ وَهَيْئَانٌ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ دَخَلَهُ تَحْرِيفٌ وَتَبْدِيلٌ وَتَغْيِيرٌ وَتَأْوِيلٌ ، وَمَا أَقَلَّ الصَّدَقُ فِيهِ ، ثُمَّ مَا أَقَلَّ فَائِدَةُ كَثِيرٍ مِنْهُ لَوْ كَانَ صَحِيحًا .

وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ؕ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ؕ وَمَا تَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿١٦١﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِإِمِينِكَ ؕ إِذَا لَازَمْتَ ابْنَ الْمُبْطِلِ ﴿١٦٢﴾ بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا تَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٦٣﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَمَا أُنْزِلْنَا الْكِتَابَ عَلَى مَنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الرُّسُلِ ، كَذَلِكَ أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْكِتَابَ ، ﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ أَخَذُوهُ فَتَلَوْهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ مِنْ أَحْبَارِهِمُ الْعُلَمَاءِ الْأَذْكِيَاءِ ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ، وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ، وَأَشْبَاهِهِمَا . ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يَعْنِي : الْعَرَبُ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ ﴿وَمَا تَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أَيُّ : مَا يُكَذِّبُ بِهَا وَيَجْحَدُ حَقَّهَا إِلَّا مَنْ يَسْتُرُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُغْطِي ضَوْءَ الشَّمْسِ بِالْوَصَائِلِ ، وَهَيْهَاتَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِإِمِينِكَ﴾ أَيُّ : قَدْ لَبِثْتَ فِي

قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَ بِهَذَا الْقُرْآنِ عُمْرًا لَا تَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا تُحْسِنُ الْكِتَابَةَ ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ وَغَيْرِهِمْ يَعْرِفُ أَنَّكَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ ، وَهَكَذَا صِفَتُهُ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي الْكُتُبِ وَالْأَنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلَا يَخْطُ سَطْرًا وَلَا حَرْفًا بِيَدِهِ ، بَلْ كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَكْتُبُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْوَحْيَ وَالرَّسَائِلَ إِلَى الْأَقَالِمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا لَازَ تَابَ الْمُتَبَلِّغُونَ ﴾ أَيُّ : لَوْ كُنْتَ تُحْسِنُهَا لَأَزْتَابَ بَعْضُ الْجَهْلَةِ مِنَ النَّاسِ ، فَيَقُولُ : إِنَّمَا تَعَلَّمَ هَذَا مِنْ كُتُبٍ قَبْلَهُ مَأْثُورَةٍ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ ، مَعَ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ ﴿ وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥] ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أُنزِلَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٦] وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أَيُّ : هَذَا الْقُرْآنُ آيَاتٌ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْحَقِّ أَمْرًا وَنَهْيًا وَخَبْرًا يَحْفَظُهُ الْعُلَمَاءُ ، يَسْرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِفْظًا وَتِلَاوَةً وَتَفْسِيرًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ أَيُّ : مَا يُكَذِّبُ بِهَا وَيَبْخُسُ حَقَّهَا وَيَرُدُّهَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ، أَيُّ : الْمُعْتَدُونَ الْمَكَابِرُونَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَيَحِيدُونَ عَنْهُ .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمَشْرِكِينَ فِي تَعَتُّبِهِمْ وَطَلَبِهِمْ آيَاتٍ - يَعْنُونَ - تُرْشِدُهُمْ إِلَى أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ كَمَا أَتَى صَالِحٌ بِنَاقَتِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُ لَوْ عَلِمَ أَنَّكُمْ تَهْتَدُونَ لِأَجَابِكُمْ إِلَى سُؤَالِكُمْ ؛ لِأَنَّ هَذَا سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ مِنْكُمْ أَنَّكُمْ إِنَّمَا قَصَدْتُمُ التَّعَنُّتَ وَالْإِمْحَانَ فَلَا يُجِيبُكُمْ إِلَى ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء: ٥٩] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا بُعِثْتُ نَذِيرًا لَكُمْ بَيْنَ النَّذَارَةِ فَعَلَى أَنْ أُبَلِّغَكُمْ رَسُولَ اللَّهِ وَ « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۚ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » ، وَقَالَ

تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا كَثْرَةَ جَهْلِهِمْ وَسَخَافَةَ عَقْلِهِمْ ، حَيْثُ طَلَبُوا آيَاتٍ تَدْهُمُ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِيمَا جَاءَهُمْ ، وَقَدْ جَاءَهُمْ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ، الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مُعْجَزَةٍ إِذْ عَجَزَتِ الْفُصَحَاءُ وَالْبُلْغَاءُ عَنْ مُعَارَضَتِهِ ، بَلْ عَنْ مُعَارَضَةِ عَشْرِ سُورٍ مِنْ مِثْلِهِ ، بَلْ عَنْ مُعَارَضَةِ سُورَةٍ مِنْهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ آيَةُ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي فِيهِ خَبَرٌ مَا قَبْلَهُمْ ، وَبَأٌ مَا بَعْدَهُمْ ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَهُمْ ، وَأَنْتَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ ، وَلَمْ تُخَالِطْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَجِئْتَهُمْ بِأَخْبَارٍ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، بَيِّنَاتٍ الصَّوَابِ بِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَبِالْحَقِّ الْوَاضِحِ الْبَيِّنِ الْجَلِيِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْعْتَبَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ [طه: ١٣٣]

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنِ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٍ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَي : إِنْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴿ لَرَحْمَةٌ ﴾ أَي : بَيِّنَاتٌ لِلْحَقِّ وَإِزَاحَةٌ لِلْبَاطِلِ وَ ﴿ ذِكْرَى ﴾ بِمَا فِيهِ حُلُولُ النَّفَاطِ وَنُزُولُ الْعِقَابِ بِالْمُكَذِّبِينَ وَالْعَاصِينَ ﴿ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ أَي : هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ، وَيَعْلَمُ مَا أَقُولُ لَكُمْ مِنْ إِخْبَارِي عَنْهُ بِأَنَّهُ أَرْسَلَنِي ، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا عَلَيْهِ لَأَنْتَقَمَ مِنِّي ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (١) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٢) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٣) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] ، وَإِنَّمَا أَنَا صَادِقٌ عَلَيْهِ فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ ، وَهَذَا أَيْدِي بِالْمُعْجَزَاتِ وَالْوَاضِحَاتِ وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ . ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَي : لَا تُخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، سَيَجْزِيهِمْ عَلَى مَا فَعَلُوا وَيُقَابِلُهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا فِي تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ ، كَذَّبُوا بِرُسُلِ اللَّهِ مَعَ قِيَامِ الْأَدِلَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ ، وَآمَنُوا بِالطَّوَاغِيَةِ وَالْأَوْثَانِ بِلاَ دَلِيلٍ ، سَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

وَدَسْتَعِجِلُونَا بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٤) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥) يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦)

يَقُولُ تَعَالَى : مُخْبِرًا عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِعْجَالِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ ، وَيَأْسُ اللَّهِ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا االلَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَاسْتَعْجِلُونَا بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أَي : لَوْ لَا مَا حَتَمَ اللَّهُ مِنْ تَأْخِيرِ الْعَذَابِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ قَرِيبًا سَرِيعًا كَمَا اسْتَعْجَلُوهُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ أَي : فَجَاءَةً ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَسْتَعْجِلُونَا بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أَي : يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ ، وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦] ، فَالنَّارُ تَغْشَاهُمْ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهِمْ ، وَهَٰذَا أَبْلَغُ فِي الْعَذَابِ الْحَسِيِّ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُ دُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ وَتَقْرِيعٌ وَتَوْيِخٌ ، وَهَٰذَا عَذَابٌ مَعْنَوِيٌّ عَلَى النَّفُوسِ .

يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿١٠٠﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿١٠١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿١٠٢﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ ذَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٠٤﴾

هَٰذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِالْهَجَرَةِ مِنَ الْبَلَدِ الَّذِي لَا يَقْدِرُونَ فِيهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ إِلَى أَرْضِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ ، حَيْثُ يُمَكِّنُ إِقَامَةَ الدِّينِ بِأَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ وَيَعْبُدُوهُ كَمَا أَمَرَهُمْ ، وَلِهَٰذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴾ .

وَهَٰذَا لَمَّا ضَاقَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مَقَامُهُمْ بِهَا خَرَجُوا مُهَاجِرِينَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ لِيَأْمَنُوا عَلَى دِينِهِمْ هُنَاكَ ، فَوَجَدُوا هُنَاكَ خَيْرَ الْمَنْزِلَيْنِ أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فَأَوَّاهُمْ وَأَيَّدَهُمْ بِنَصْرِهِ وَجَعَلَهُمْ سَيُومًا بِيَلَادِهِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالصَّحَابَةُ الْبَاقُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ يَتَرَبَّطُ الْمَطَهَّرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أَي : أَيْنَمَا كُنْتُمْ يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ ، فَكُونُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَحَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيدَ عَنْهُ ، ثُمَّ إِلَى اللَّهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبُ ، فَمَنْ كَانَ مُطِيعًا لَهُ جَازَاهُ أَفْضَلَ الْجَزَاءِ وَوَفَّاهُ أَتَمَّ الثَّوَابِ . وَلِهَٰذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَي : لَنُسَكِّنَنَّهُمْ مَنَازِلَ عَالِيَةً فِي الْجَنَّةِ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا

مِنْ مَاءٍ وَخَمْرٍ وَعَسَلٍ وَلَبَنٍ ، يَصْرَفُونَهَا وَيُجْرُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا ﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا ﴾ أَيُّ : مَا كَثُرَتْ فِيهَا
أَبَدًا ، لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿ نِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلِينَ ﴾ نِعَمَتْ هَذِهِ الْغُرْفُ أَجْرًا عَلَى أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ
﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أَيُّ : عَلَى دِينِهِمْ وَهَاجَرُوا إِلَى اللَّهِ وَتَابَدُّوا الْأَعْدَاءَ ، وَفَارَقُوا الْأَهْلَ وَالْأَقْرَبَاءَ
إِتِّغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَرَجَاءَ مَا عِنْدَهُ وَتَصْدِيقَ مَوْعِدِهِ . ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فِي أَحْوَالِهِمْ كُلِّهَا فِي
دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ تَعَالَى أَنَّ الرِّزْقَ لَا يَخْتَصُّ بِفِعْلِهِ ، بَلْ رِزْقُهُ تَعَالَى عَامٌّ لِحَلْقِهِ حَيْثُ
كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا ، بَلْ كَانَتْ أَرْزَاقُ الْمُهَاجِرِينَ حَيْثُ هَاجَرُوا أَكْثَرَ وَأَوْسَعَ وَأَطْيَبَ ، فَإِنَّهُمْ بَعْدَ
قَلِيلٍ صَارُوا حُكَّامَ الْبِلَادِ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا
تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أَيُّ : لَا تُطِيقُ جَمْعَهُ وَتَحْصِيلَهُ ، وَلَا تَدْخِرُ شَيْئًا لِعَيْدٍ ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أَيُّ :
يُقَيِّضُ لَهَا رِزْقَهَا عَلَى ضَعْفِهَا وَيُسِّرُهُ عَلَيْهَا ، فَيَبْعَثُ إِلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنَ الرِّزْقِ مَا يُصْلِحُهُ ، حَتَّى
الذَّرَّ فِي قَرَارِ الْأَرْضِ ، وَالطَّيْرَ فِي الْهَوَاءِ ، وَالْحَيْثَانِ فِي الْمَاءِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : ٦] ، وَقَوْلُهُ
تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أَيُّ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ .

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى
يُؤْفَكُونَ ﴿٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
﴿٦﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ
اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُفَرِّدًا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ
الْمُسْتَقِيلُ بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَتَسْخِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ
الرَّازِقُ لِعِبَادِهِ ، وَمُقَدِّرُ أَجَالِهِمْ وَاخْتِلَافُهَا وَاخْتِلَافَ أَرْزَاقِهِمْ فَتَقَاوَتَ بَيْنَهُمْ ، فَمِنْهُمْ الْغَنِيُّ
وَالْفَقِيرُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يُصْلِحُ كُلًّا مِنْهُمْ ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَنَى مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ
الْمُسْتَقِيلُ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُنْفَرِدُ بِتَدْبِيرِهَا ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلِمَ يُعْبَدُ غَيْرُهُ ؟ وَلِمَ يَتَوَكَّلْ عَلَى
غَيْرِهِ ؟ فَكَمَا أَنَّهُ الْوَاحِدُ فِي مُلْكِهِ فَلْيَكُنِ الْوَاحِدُ فِي عِبَادَتِهِ ، وَكَثِيرًا مَا يُقَرَّرُ تَعَالَى مَقَامَ الْإِلَهِيَّةِ
بِالْاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ . وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَّتِهِمْ :
« لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلِكٌ » .

وَمَا هَذِهِ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكَ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْرِجًا عَنْ حَقَارَةِ الدُّنْيَا وَزَوَاهَا ، وَأَنَّهَا لَا دَوَامَ لَهَا ، وَغَايَةُ مَا فِيهَا هُوَ وَلَعِبٌ : ﴿ وَابْتَغِ الْوَعْدَ الْآخِرَ لِهَيِّ الْحَيَوَانِ ﴾ أَيُّ : الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ الْحَقُّ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْقِضَاءَ بَلْ هِيَ مُسْتَمِرَّةٌ أَبَدَ الْأَبَادِ ، ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : لَا تَزُولُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى .
ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ عِنْدَ الْإِضْطِرَارِ يَدْعُونَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَهَلَّا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ دَائِمًا ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكَ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ هَذِهِ « اللَّامُ » يُسَمِّيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّفْسِيرِ وَعُلَمَاءِ الْأَصُولِ « اللَّامُ الْعَاقِبَةُ » لِأَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ ذَلِكَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَقْدِيرِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَتَقْيِضِهِ إِيَّاهُمْ لِذَلِكَ فَهِيَ « اللَّامُ التَّعْلِيلِ » .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٩﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَمَتِّيًا عَلَى قُرَيْشٍ فِيمَا أَحَلَّهُمْ مِنْ حَرَمِهِ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاقِفُ فِيهِ وَالْبَادِي ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، فَهُمْ فِي أَمْنٍ عَظِيمٍ ، وَالْأَعْرَابُ حَوْلَهُ يَنْهَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أَيُّ : أَفَكَانَ شُكْرُهُمْ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ أَنْ أَشْرَكُوا بِهِ وَعَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَ ﴿ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أَيُّ : لَا أَحَدٌ أَشَدُّ عُقُوبَةً مِمَّنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ ، فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ . وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَهَكَذَا لَا أَحَدٌ أَشَدُّ عُقُوبَةً مِمَّنْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ، فَالْأَوَّلُ مُفْتَرٍ وَالثَّانِي مُكَذِّبٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ يَعْنِي : الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَاتَّبَاعُهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أَي : لَنُبْصِرَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، أَي : طَرَفَنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٦٠ تفسير سورة الروم مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٤﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴿٦﴾ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا تُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٩﴾

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ حِينَ غَلَبَ سَابُورُ مَلِكُ الْفُرسِ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ وَمَا وَالَاهَا مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ وَأَقَاصِي بِلَادِ الرُّومِ ، وَاضْطَرَّ هِرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ حَتَّى أَجَاءَهُ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَحَاصَرَهُ فِيهَا مُدَّةً طَوِيلَةً ثُمَّ عَادَتِ الدَّوْلَةُ لِهِرَقْلَ .

﴿ الْم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَأَمَّا الرُّومُ فَهُمْ مِنْ سُلَالَةِ الْعِيسَى بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَمِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَيُقَالُ لَهُمْ : بَنُو الْأَصْفَرِ ، وَكَانُوا عَلَى دِينِ الْيُونَانِ ، وَالْيُونَانُ مِنْ سُلَالَةِ يَافِثَ بْنِ نُوحٍ أَبْنَاءُ عَمِّ التُّرْكِ ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ السَّيَّارَةَ السَّبْعَةَ ، وَكَانَ مِنْ مَلَكَ الشَّامِ مَعَ الْجَزِيرَةِ يُقَالُ لَهُ « قَيْصَرٌ » . وَكَانَتِ الْوَقْعَةُ الْكَائِنَةُ بَيْنَ فَارِسَ وَالرُّومِ حِينَ غُلِبَتِ الرُّومُ بَيْنَ أَذْرَعَاتِ وَبُصْرَى ، وَهِيَ طَرْفُ بِلَادِ الشَّامِ مِمَّا يَلِي بِلَادَ الْحِجَازِ . ثُمَّ كَانَ غَلَبُ الرُّومِ لِفَارِسَ بَعْدَ بَضْعِ سِنِينَ ، وَهِيَ . تِسْعٌ ، فَإِنَّ الْبُضْعَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التَّسْعِ . ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أَي : مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ وَمِنْ بَعْدِهِ . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ أَي : لِلرُّومِ أَصْحَابِ قَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ عَلَى فَارِسَ أَصْحَابِ كِسْرَى وَهُمْ الْمَجُوسُ . ﴿ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ أَي : فِي إِنْتِصَارِهِ وَإِنْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ﴾ الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا تُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَنَّا سَنَنْصُرُ الرُّومَ عَلَى فَارِسَ

وَعَدُّ مِنَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَخَبَرٌ صِدْقٌ لَا يُخْلَفُ ، وَلَا بُدُّ مِنْ كَوْنِهِ وَوُقُوعِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ جَرَتْ سُنَّتُهُ أَنْ يَنْصُرَ أَقْرَبَ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ وَيَجْعَلَ لَهَا الْعَاقِبَةَ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : بِحُكْمِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ وَأَفْعَالِهِ الْمُحْكَمَةِ الْجَارِيَةِ عَلَى وَفْقِ الْعَدْلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ ﴾ أَيُّ : أَكْثَرُ النَّاسِ لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ إِلَّا بِالدُّنْيَا وَأَكْسَابِهَا وَشُؤُونِهَا وَمَا فِيهَا ، فَهُمْ حَذَاقٌ أَذْكِيَاءُ فِي تَحْصِيلِهَا وَوُجُوهِ مَكَاسِبِهَا وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يَنْفَعُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَأَنَّهُمْ مُغْفَلُونَ لَا ذَهْنَ لَهُ وَلَا فِكْرَةَ .
وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ ﴾ يَعْنِي : الْكُفَّارُ يَعْرِفُونَ عُمُرَانَ الدُّنْيَا وَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ جُهَالٌ .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السُّوْءَى ۚ إِنَّ كَذِبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْجِبًا عَلَى التَّفَكُّرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ وَانْفِرَادِهِ بِخَلْقِهَا وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، فَقَالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ يَعْنِي بِهِ : النَّظَرُ وَالتَّدَبُّرُ وَالتَّأَمُّلُ لِحَلَقِ اللَّهِ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَالْأَجْنَاسِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَيَعْلَمُوا أَنَّهَا مَا خُلِقَتْ سُدىً وَلَا بَاطِلًا بَلْ بِالْحَقِّ وَأَنَّهَا مُؤَجَّلَةٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ .

ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى صِدْقِ رُسُلِهِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ عَنْهُ بِمَا أَيْدَهُمْ بِهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ وَالدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ مِنْ إِهْلَاكِ مَنْ كَفَرَ بِهِمْ وَنَجَاةِ مَنْ صَدَّقَهُمْ . فَقَالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : بِأَفْهَامِهِمْ وَعَقُولِهِمْ وَنَظَرِهِمْ وَسَمَاعِهِمْ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أَيُّ : كَانَتْ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ وَالْقُرُونُ السَّالِفَةُ أَشَدَّ مِنْكُمْ - أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ - وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا أُوتِيتُمْ مِيعَاشًا مَا أُوتُوا ، وَمَكَّنُوا فِي الدُّنْيَا تَمَكُّينًا لَمْ تَبْلُغُوا إِلَيْهِ ، وَعُمَرُوا فِيهَا أَعْمَارًا طَوِيلًا فَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِنْكُمْ ، وَاسْتَغْلَوْهَا أَكْثَرَ مِنْ اسْتِغْلَالِكُمْ ، وَمَعَ هَذَا لَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَفَرَحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ،

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ، وَلَا خَالَتْ أُمُورُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَاسِ اللَّهِ ، وَلَا دَفَعُوا عَنْهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ فِيمَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿١٠﴾ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١﴾ أَيْ : وَإِنَّمَا أُوتُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ حَيْثُ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاسْتَهْزَؤُوا بِهَا ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ وَتَكْذِيبِهِمُ الْمُتَقَدِّم . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتُا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أَيْ : كَمَا هُوَ قَادِرٌ عَلَى بُدْءَاتِهِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ قِيلَ : يَبْلَسُ الْمُجْرِمُونَ ، وَقِيلَ : يَفْتَضَحُ الْمُجْرِمُونَ . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتُا ﴾ أَيْ : مَا شَفَعَتْ فِيهِمُ الْآلِهَةُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَفَرُوا بِهِمْ وَخَانُوهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : هِيَ وَاللَّهُ الْفُرْقَةُ الَّتِي لَا اجْتِمَاعَ بَعْدَهَا ، يَعْنِي : إِذَا رُفِعَ هَذَا إِلَى عَلِيَيْنِ وَخُفِضَ هَذَا إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ فَذَلِكَ آخِرُ الْعَهْدِ بَيْنَهُمَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قِيلَ : يَنْعَمُونَ .

فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٩﴾ تَخْرُجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٢٠﴾

هَذَا تَسْبِيحٌ مِنْهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَإِرْشَادٌ لِعِبَادِهِ إِلَى تَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْمُتَعَاقِبَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، عِنْدَ الْمَسَاءِ وَهُوَ إِقْبَالُ اللَّيْلِ بِظُلَامِهِ ، وَعِنْدَ الصَّبَاحِ وَهُوَ إِسْفَارُ النَّهَارِ عَنْ ضِيَائِهِ . ثُمَّ اعْتَزَّ بِحَمْدِهِ مُنَاسَبَةً لِلتَّسْبِيحِ وَهُوَ التَّحْمِيدُ فَقَالَ : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُحْمَدُ عَلَى مَا خَلَقَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ فَالْعِشَاءُ : هُوَ شِدَّةُ الظَّلَامِ ، وَالْإِظْهَارُ : قُوَّةُ الضِّيَاءِ ، فَسُبْحَانَ خَالِقِ هَذَا وَهَذَا ، فَالْقِيَامُ الْإِصْبَاحُ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا كَمَا قَالَ : ﴿ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَلَهَا ۚ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۚ [الشمس : ٣-٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۚ ﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۚ [الليل : ١-٢] وَقَوْلُهُ : ﴿ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ هُوَ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَقَابِلَةِ ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ الْكَرِيمَةُ كُلُّهَا مِنْ هَذَا النَّمَطِ ، فَإِنَّهُ يَذْكُرُ فِيهَا خَلْقَهُ الْأَشْيَاءِ وَأُضْدَادَهَا ؛ لِيَدُلَّ خَلْقُهُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبِئْسَ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْنِهَا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ [يس : ٣٣-٣٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٥-٧] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

وَمِنْ ءَايَتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿ وَمِنْ ءَايَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ءَايَتِهِ ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ ، أَنَّهُ خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ فَأَصْلُكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ تَصَوَّرَ فَكَانَ عِلْقَةً ثُمَّ مُضْغَةً ، ثُمَّ صَارَ عِظَامًا ، مُشَكَّلَةً عَلَى شَكْلِ الْإِنْسَانِ ، ثُمَّ كَسَا اللَّهُ تِلْكَ الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ ، فَإِذَا هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ صَغِيرًا ضَعِيفَ الْقُوَى وَالْحَرَكَةِ ، ثُمَّ كُلَّمَا طَالَ عُمُرُهُ تَكَامَلَتْ قُوَاهُ وَحَرَكَاتُهُ حَتَّى آلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ صَارَ بَيْنِي الْمَدَائِنَ وَالْحُصُونِ ، وَيُسَافِرُ فِي أَقْطَارِ الْأَقَالِيمِ وَيَرْكَبُ مَتْنِ الْبُحُورِ وَيَدُورُ أَقْطَارَ الْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ ءَايَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أَيُّ : خَلَقَ لَكُمْ مِنْ جِنْسِكُمْ إِنَاثًا يَكُنْ لَكُمْ أَزْوَاجًا ﴿ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] يَعْنِي : بِذَلِكَ حَوَاءَ خَلَقَهَا اللَّهُ مِنْ آدَمَ مِنْ ضُلْعِهِ الْأَقْصَرِ الْأَيْسَرِ . وَلَوْ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ بَنِي آدَمَ كُلُّهُمْ ذُكُورًا وَجَعَلَ إِنَاثَهُمْ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ إِمَّا مِنْ جَانٍّ أَوْ حَيَوَانٍ لَمَا حَصَلَ هَذَا الْإِتِّلَافُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَزْوَاجِ ، ثُمَّ مِنْ تَمَامِ رَحْمَتِهِ بَيْنِي آدَمَ أَنْ جَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ مَوَدَّةً وَهَيْ : الْمَحَبَّةُ ، وَرَحْمَةً وَهْي : الرَّأْفَةُ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يُمَسِّكُ الْمَرْأَةَ إِمَّا لِحَبَّتِهِ لَهَا أَوْ لِرَحْمَةِ بِهَا ، بِأَنْ يَكُونَ لَهَا مِنْهُ وَلَدٌ أَوْ مُحْتَاجَةٌ إِلَيْهِ فِي الْإِنْفَاقِ ، أَوْ

لِلْأَلْفَةِ بَيْنَهُمَا وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنْ آيَاتِ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ﴿ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَي : خَلْقَ السَّمَاوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَشُقُوفِ أَجْرَامِهَا ، وَزَهَارَةِ كَوَاكِبِهَا وَنُجُومِهَا الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ ، وَالْأَرْضِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكثافتِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَأُودِيَةٍ وَبَحَارٍ وَقَفَارٍ وَحَيَوَانٍ وَأَشْجَارٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يَعْنِي : اللُّغَاتُ ، وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَهِيَ حُلَاهُمْ ، فَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ - بَلْ أَهْلُ الدُّنْيَا - مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ كُلُّ لَهُ عَيْنَانِ وَحَاجِبَانِ ، وَأَنْفٌ وَجَبِينٌ ، وَفَمٌ وَخَدَّانِ ، وَلَيْسَ يُشَبَّهِ وَاحِدٌ مِنْهُمُ الْآخَرَ ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُفَارِقَهُ بِشَيْءٍ مِنَ السَّمْتِ أَوْ الْهَيْئَةِ أَوْ الْكَلَامِ ، ظَاهِرًا كَانَ أَوْ خَفِيًّا . يَظْهَرُ عِنْدَ التَّأَمُّلِ ، كُلُّ وَجْهِ مِنْهُمْ أُسْلُوبٌ بِذَاتِهِ وَهَيْئَةٌ لَا تُشَبَّهِ أُخْرَى ، وَلَوْ تَوَافَقَ جَمَاعَةٌ فِي صِفَةٍ مِنْ جَمَالٍ أَوْ قُبْحٍ لَا بُدَّ مِنْ فَارِقٍ بَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَبَيْنَ الْآخَرِ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ أَي : وَمِنْ الْآيَاتِ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ صِفَةِ النَّوْمِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فِيهِ تَحْصُلُ الرَّاحَةُ وَسُكُونُ الْحَرَكَةِ وَذَهَابُ الْكَلَالِ وَالتَّعَبِ ، وَجَعَلَ لَكُمْ الْإِنْتِشَارَ وَالسَّعْيَ فِي الْأَسْبَابِ وَالْأَسْفَارِ فِي النَّهَارِ وَهَذَا ضِدُّ النَّوْمِ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أَي : يَعُونُ .

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿١٩﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ أَنَّهُ ﴿ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أَي : تَارَةً تَخَافُونَ مِمَّا يَخْدُثُ بَعْدَهُ مِنْ أَمْطَارٍ مُّزْعِجَةٍ وَصَوَاعِقَ مُتَلِفَةٍ ، وَتَارَةً تَرْجُونَ وَمِيزَةً وَمَا يَأْتِي بَعْدَهُ مِنَ الْمَطَرِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أَي : بَعْدَ مَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا تَبَاتُ فِيهَا وَلَا شَيْءٌ ، فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ ﴿ أَهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] ، وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ وَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى الْمَعَادِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ ،

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، أَي: هِيَ قَائِمَةٌ ثَابِتَةٌ بِأَمْرِهِ هَا وَتَسْخِرُهُ إِيَّاهَا، ثُمَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَدَلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَخَرَجَتِ الْأَمْوَاتُ مِنْ قُبُورِهَا أَحْيَاءَ بِأَمْرِهِ تَعَالَى وَدُعَائِهِ إِيَّاهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَحِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَنِيتُونَ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: مُلْكُهُ وَعَبِيدُهُ ﴿كُلُّ لَهُ قَنِيتُونَ﴾ أَي: خَاضِعُونَ خَاشِعُونَ طَوْعًا وَكَرْهًا. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ يَعْنِي: أَيْسَرُ عَلَيْهِ. ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ رُويَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ هِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ، بَلْ قَدْ غَلَبَ كُلُّ شَيْءٍ وَقَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ﴾ الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ شَرْعًا وَقَدْرًا.

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ۖ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٦٩﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ، الْجَاعِلِينَ لَهُ شُرَكَاءَ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُعْتَرِفُونَ أَنَّ شُرَكَاءَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عِبِيدٌ لَهُ مُلْكٌ لَهُ، كَمَا كَانُوا فِي تَلَبُّسِهِمْ يَقُولُونَ: لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَي: تَشْهَدُونَهُ وَتَفْهَمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴿هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أَي: لَا يَرْتَضِي أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ شَرِيكًا لَهُ فِي مَالِهِ، فَهُوَ وَهُوَ فِيهِ عَلَى السَّوَاءِ ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي: تَخَافُونَ أَنْ يُقَاسِمُوكُمُ الْأَمْوَالَ.

وَالْمَعْنَى : أَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي مِنْ ذَلِكَ فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ اللَّهَ الْأَنْدَادَ مِنْ خَلْقِهِ ، فَسَبُّوا إِلَيْهِ مَا لَا يَرْضَوْنَهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، فَهَذَا أَغْلَطَ الْكُفْرُ ، وَهَكَذَا فِي هَذَا الْمَقَامِ جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ مِنْ عِبِيدِهِ وَخَلْقِهِ ، وَأَحَدُهُمْ يَأْتِي غَايَةَ الْإِبَاءِ وَيَأْتِي غَايَةَ الْإِنْفَةِ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ شَرِيكُهُ فِي مَالِهِ يُسَاوِيهِ فِيهِ ، وَلَوْ شَاءَ لَقَاسَمَهُ عَلَيْهِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا عَبْدُوا غَيْرَهُ سَفَهًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجَهْلًا ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أَيِ : الْمُشْرِكُونَ ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أَيِ : فِي عِبَادَتِهِمْ الْأَنْدَادَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ أَيِ : فَلَا أَحَدَ يَهْدِيهِمْ إِذَا كَتَبَ اللَّهُ ضَلَالَهُمْ ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ أَيِ : لَيْسَ لَهُمْ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ مُنْقِذٌ وَلَا مُجِيرٌ وَلَا مُجِدِّ لَهُمْ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

فَاقْهَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَسَدِّدْ وَجْهَكَ وَاسْتَمِرَّ عَلَى الدِّينِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ - مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ - الَّذِي هَدَاكَ اللَّهُ لَهَا وَكَمَّلَهَا لَكَ غَايَةَ الْكَمَالِ ، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَا زِمَ فِطْرَتَكَ السَّالِمَةَ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهُ تَعَالَى فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، وَفِي الْحَدِيثِ « إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ » ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ طَرَأَ عَلَى بَعْضِهِمُ الْأَدْيَانُ الْفَاسِدَةُ كَالْيَهُودِيَّةِ أَوْ النَّصْرَانِيَّةِ أَوْ الْمَجُوسِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ مَعْنَاهُ لَا تُبَدِّلُوا خَلْقَ اللَّهِ فَتُغَيِّرُوا النَّاسَ عَنْ فِطْرَتِهِمُ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : قَوْلُهُ ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ : لِلدِّينِ اللَّهُ ، خَلَقَ الْأَوَّلِينَ : دِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَالْفِطْرَةَ : الْإِسْلَامَ . وَأُورِدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجِ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ » ثُمَّ يَقُولُ : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أَيِ : التَّمَسُّكُ بِالشَّرِيعَةِ وَالْفِطْرَةِ السَّالِمَةِ هُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيِ : فَلِهَذَا لَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ فَهُمْ عَنْهُ نَاكِوُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أَيُّ: رَاجِعِينَ إِلَيْهِ ﴿وَأَتَّقُوهُ﴾ أَيُّ: خَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وَهِيَ الطَّاعَةُ الْعَظِيمَةُ ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيُّ: بَلْ كُونُوا مِنَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الْعِبَادَةَ لَا يُرِيدُونَ بِهَا سِوَاهُ. ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أَيُّ: لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَدْ فَרَّقُوا دِينَهُمْ. أَيُّ: بِذَلُّوهُ وَغَيْرُوهُ وَأَمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: «فَارْقُوا دِينَهُمْ» أَيُّ: تَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَعَبْدَةَ الْأَوْثَانِ وَسَائِرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ مِمَّا عَدَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، فَأَهْلُ الْأَدْيَانِ قَبْلَنَا اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى آرَاءٍ وَمِلَلٍ بَاطِلَةٍ. وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ تَزْعُمُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَيْضًا اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى نَحْلِ كُلِّهَا ضَلَالَةٌ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، الْمُتَمَسِّكُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَبِمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّدْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَائِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ.

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ النَّاسِ إِنَّهُمْ فِي حَالِ الْإِضْطِرَارِ يَدْعُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ إِذَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ فِي حَالَةِ الْإِخْتِيَارِ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ هِيَ «لَا مَ الْعَاقِبَةُ» عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَ«لَا مَ التَّغْلِيلِ» عِنْدَ آخَرِينَ، وَلَكِنَّهَا تَغْلِيلٌ لِتَقْيِيزِ اللَّهِ لَهُمْ ذَلِكَ. ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا اخْتَلَفُوهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أَيُّ: حُجَّةً ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أَيُّ: يَنْطِقُ ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾، وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنكَارٍ، أَيُّ: لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هَذَا إِنكَارٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ وَوَفَّقَهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَطَرَ وَقَالَ: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿[هود: ١٠]﴾ أَيُّ: يَفْرَحُ فِي نَفْسِهِ

وَيَفْخَرُ عَلَى غَيْرِهِ ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ قَنِطَ وَأَيْسَ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ بِالْكُلِّيَّةِ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أَي : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْفَاعِلُ
لِذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ فَيُوسِّعُ عَلَى قَوْمٍ وَيُضَيِّقُ عَلَى آخَرِينَ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فَإِنَّ ذَا الْقُرْبَى حَقُّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ
اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرُبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُوا
عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٢٦﴾ اللَّهُ
الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِّن
ذَلِكَ مِمَّنْ شَيْءٌ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا بِإِعْطَاءِ ﴿ ذَا الْقُرْبَى حَقُّهُ ﴾ أَي : مِّنَ الْبَرِّ وَالصَّلَةِ ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ وَهُوَ الَّذِي
لَا شَيْءَ لَهُ يُنْفِقُ عَلَيْهِ ، أَوْ لَهُ شَيْءٌ لَا يَقُومُ بِكَفَايَتِهِ ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُحْتَاجُ إِلَى نَفَقَةٍ
وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي سَفَرِهِ ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أَي : النَّظَرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
وَهُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرُبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أَي : مَّنْ أَعْطَى عَطِيَّةً
يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّاسُ أَكْثَرَ مِمَّا أَهْدَى هُمْ فَهَذَا لَا ثَوَابَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَهَذَا الصَّنِيعُ مُبَاحٌ وَإِنْ
كَانَ لَا ثَوَابَ فِيهِ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً ، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْمَكُثُ ﴾
أَي : لَا تُعْطِ الْعَطَاءَ تُرِيدُ أَكْثَرَ مِنْهُ . ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُضْعِفُونَ ﴾ أَي : الَّذِينَ يُضَاعِفُ اللَّهُ لَهُمُ الثَّوَابَ وَالْجَزَاءَ . ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ أَي :
هُوَ الْخَالِقُ الرَّزَاقُ ، يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِّن بَطْنِ أُمِّهِ عُرْيَانًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا سَمْعَ وَلَا بَصَرَ وَلَا قُوَّةَ ،
ثُمَّ يَرْزُقُهُ جَمِيعَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَالرِّيَاشَ وَاللِّبَاسَ وَالْمَالَ وَالْأَمْلاكَ وَالْمَكَاسِبَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أَي : بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ هَلْ مِن
شُرَكَائِكُمْ ﴾ أَي : الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ ﴿ مَّن يَفْعَلُ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ أَي : لَا يَقْدِرُ
أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ ، بَلِ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هُوَ الْمُسْتَقِيلُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ
وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ ثُمَّ يَبْعَثُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴾ أَي : تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاطَمَ وَجَلَّ وَعَزَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿١٢﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِالْبَرْ : هَهُنَا الْفَيَافِي ، وَبِالْبَحْرِ : الْأَمْصَارُ وَالْقُرَى . وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ بِالْبَرْ هُوَ : الْبَرُّ الْمَعْرُوفُ ، وَبِالْبَحْرِ هُوَ : الْبَحْرُ الْمَعْرُوفُ . وَقَالَ زَيْدُ بْنُ رُفَيْعٍ : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ ﴾ يَعْنِي : انْقِطَاعَ الْمَطَرِ عَنِ الْبَرِّ يَعْقِبُهُ الْقَحْطُ ، وَعَنِ الْبَحْرِ يَعْنِي : دَوَابُّهُ . وَقَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ : الْمُرَادُ بِالْبَرْ : مَا فِيهِ مِنَ الْمَدَائِنِ وَالْقُرَى ، وَبِالْبَحْرِ : جَزَائِرُهُ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ أَيِ : بَانَ النِّقْصُ فِي الزُّرُوعِ وَالثَّمَرِ بِسَبَبِ الْمَعَاصِي . وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّ الْخُدُودَ إِذَا أُقِيمَتْ انْكَفَتْ النَّاسُ - أَوْ أَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ - عَنْ تَعَاطِي الْحَرَمَاتِ ، وَإِذَا تُرِكَتِ الْمَعَاصِي كَانَ سَبَبًا فِي حُصُولِ الْبَرَكَاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهَذَا إِذَا نَزَلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَحْكُمُ بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ قَتْلِ الْخِنْزِيرِ ، وَكَسْرِ الصَّلِيبِ ، وَوَضْعِ الْجُزْيَةِ - وَهُوَ تَرْكُهَا - فَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوْ السَّيْفَ ، فَإِذَا أَهْلَكَ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الدَّجَالَ وَأَتْبَاعَهُ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ قِيلَ : لِلْأَرْضِ أَخْرِجِي بَرَكَاتِكَ ، فَيَأْكُلُ مِنَ الرُّمَانَةِ الْفَنَامِ مِنَ النَّاسِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا ، وَيَكْفِي لِبَنِ اللَّفْحَةِ الْجَمَاعَةَ مِنَ النَّاسِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِبَرَكَاتِهِ تَنْفِيزِ شَرْعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَكُلَّمَا أُقِيمَ الْعَدْلُ كَثُرَتِ الْبَرَكَاتُ وَالْخَيْرُ . « إِنَّ الْفَاجِرَ إِذَا مَاتَ يَسْتَرْيَحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ الْآيَةُ . أَيِ : يَبْتَلِيهِمْ بِنَقْصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، اخْتِبَارًا مِنْهُ وَتَجَاوُزًا عَلَى صَنِيعِهِمْ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أَيِ : عَنْ الْمَعَاصِي . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيِ : مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ أَيِ : فَانظُرُوا مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَكُفْرِ النَّعَمِ .

فَاقِمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿١٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿١٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا تُحِيبُ الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ فِي طَاعَتِهِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ ﴿ فَاقِمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ ﴾ أَيِ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا أَرَادَ كَوْنُهُ فَلَا رَادَّ لَهُ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أَيِ : يَتَفَرَّقُونَ ، فَفَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ . وَهَذَا قَالَ : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ . وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ

فَضْلِهِ ۖ أَيُّ : يُجَازِيهِمْ مُجَازَاةَ الْفَضْلِ ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ ۖ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۖ ، وَمَعَ هَذَا هُوَ الْعَادِلُ فِيهِمْ الَّذِي لَا يَجُورُ .

وَمِنْ ءَايَتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْآفْلَكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي إِزْسَالِهِ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ بِمَجِيءِ الْغَيْثِ عَقِيبَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ۖ ﴾ أَيُّ : الْمَطَرُ الَّذِي يُنْزِلُهُ فَيُخَيِّي بِهِ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْآفْلَكُ بِأَمْرِهِ ۖ ﴾ أَيُّ : فِي الْبَحْرِ ، وَإِنَّمَا سَيَّرَهَا بِالرِّيَّاحِ ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۖ ﴾ أَيُّ : فِي التَّجَارَاتِ وَالْمَعَاشِ ، وَالسَّيْرِ مِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، وَقَطَرٍ إِلَى قَطَرٍ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيُّ : تَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّهُ وَإِنْ كَذَّبَهُ كَثِيرٌ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنْ النَّاسِ فَقَدْ كَذَّبَتْ الرُّسُلُ الْمُتَقَدِّمُونَ مَعَ مَا جَاءُوا أُمَمُهُمْ بِهِ مِنَ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ . وَلَكِنْ اذْنَقَمَ اللَّهُ عَنْ كَذِبِهِمْ وَخَالَفَهُمْ ، وَأَنْجَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : هُوَ حَقٌّ أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ تَكَرُّمًا وَتَفَضُّلاً ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤]

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبَشِرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِسِينَ ﴿١٨﴾ فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ لَمُخِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى كَيْفَ يَخْلُقُ السَّحَابَ الَّتِي يُنْزِلُ مِنْهَا الْمَاءَ ، فَقَالَ ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ۖ ﴾ إِمَّا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ مِمَّا يَشَاءُ اللَّهُ ﷻ ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ۖ ﴾ أَيُّ : يَمُدُّهُ فَيَكْثُرُهُ وَيُمَيِّئِهِ ، وَيَجْعَلُ مِنَ الْقَلِيلِ كَثِيرًا ، ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا ۖ ﴾ يَعْنِي : قِطْعًا . ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ ﴾ أَيُّ : فَتَرَى الْمَطَرَ - وَهُوَ الْقَطَرُ - يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ السَّحَابِ ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبَشِرُونَ ﴾ أَيُّ : لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ يَفْرَحُونَ بِنُزُولِهِ عَلَيْهِمْ وَوُصُولِهِ إِلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ مَعْنَى الْكَلَامِ : أَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ أَصَابَهُمْ هَذَا الْمَطَرُ كَانُوا قَنِطَرِينَ أَرْلَيْنِ مِنْ نَزُولِ الْمَطَرِ إِلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ جَاءَهُمْ عَلَى فَاقَةٍ فَوَقَعَ مِنْهُمْ مَوْقِعًا عَظِيمًا . ﴿ فَانْظُرْ إِلَى ءِثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ يَعْنِي : الْمَطَرُ ﴿ كَيْفَ نَحْيَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ثُمَّ نَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَفْرِقُهَا وَتَمَرُّقُهَا فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَى ﴾ أَيُّ : إِنَّ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ لَقَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ يَقُولُ : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ يَابِسَةً عَلَى الزَّرْعِ الَّذِي زَرَعُوهُ وَنَبَتَ وَشَبَّ وَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أَيُّ : قَدْ اصْفَرَّ وَشَرَعَ فِي الْفَسَادِ ﴿ لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أَيُّ : بَعْدَ هَذَا الْحَالِ ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ أَيُّ : يَجْحَدُونَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ النِّعَمِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ . فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ مُدِيرِينَ ﴿ ٢٥ ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ ٢٦ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : كَمَا أَنَّكَ لَيْسَ فِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَسْمَعَ الْأَمْوَاتَ فِي أَجْدَائِهَا ، وَلَا تُبَلِّغَ كَلَامَكَ الصُّمَّ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُدْبِرُونَ عَنْكَ ، كَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَةِ الْعُمَيَّانِ عَنِ الْحَقِّ وَرَدِّهِمْ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، بَلْ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى بِقُدْرَتِهِ يُسْمَعُ الْأَمْوَاتَ أَصْوَاتِ الْأَحْيَاءِ إِذَا شَاءَ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ سِوَاهُ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أَيُّ : خَاضِعُونَ مُسْتَجِيبُونَ مُطِيعُونَ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَيَتَّبِعُونَهُ ، وَهَذَا حَالُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْأَوَّلُ مِثْلُ الْكَافِرِينَ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ ﴿ ٢٧ ﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى تَنَقُّلِ الْإِنْسَانِ فِي أَطْوَارِ الْخَلْقِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، فَأَصْلُهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ، ثُمَّ يَصِيرُ عِظَامًا ، ثُمَّ يُكْسَى لَحْمًا ، وَيُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ ، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ضَعِيفًا نَحِيفًا وَاهِنَ الْقَوَى ، ثُمَّ يَشَبُّ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَكُونَ صَغِيرًا ، ثُمَّ حَدَثًا ، ثُمَّ مُرَاهِقًا ، ثُمَّ شَابًا وَهُوَ الْقُوَّةُ بَعْدَ الضَّعْفِ ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النِّقْصِ ، فَيَكْتَهِلُ ثُمَّ يَشِخُّ ، ثُمَّ يَهْرَمُ وَهُوَ الضَّعْفُ بَعْدَ الْقُوَّةِ ، فَتَضَعُفُ الْهِمَّةُ وَالْحَرَكَةُ وَالْبَطْشُ ، وَتَشِيبُ اللَّمَّةُ وَتَتَغَيَّرُ الصِّفَاتُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَتَصَرَّفُ فِي عِبِيدِهِ بِمَا يُرِيدُ ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذَرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فِي الدُّنْيَا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْتَانِ ، وَفِي الْآخِرَةِ يَكُونُ مِنْهُمْ جَهْلٌ عَظِيمٌ أَيْضًا ، فَمِنْهُ إِفْسَامُهُمْ بِاللَّهِ أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ عَدَمُ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُنْظَرُوا حَتَّى يُعْذَرَ إِلَيْهِمْ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴿٥٧﴾ أَيُ : فَيُرَدُّ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ الْعُلَمَاءُ فِي الْآخِرَةِ كَمَا أَقَامُوا عَلَيْهِمْ حُجَّةَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُونَ لَهُمْ حِينَ يَخْلُقُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أَيُ : فِي كِتَابِ الْأَعْمَالِ ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أَيُ : مِنْ يَوْمِ خُلِقْتُمْ إِلَى أَنْ بُعِثْتُمْ ﴿ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أَيُ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذَرَتُهُمْ ﴾ أَيُ : اِعْتِذَارُهُمْ عَمَّا فَعَلُوا ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أَيُ : وَلَا هُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَعِينُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت : ٢٤]

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِبَيِّنَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٩﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوفُونَ ﴿٦١﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أَيُ : قَدْ بَيَّنَّا لَهُمُ الْحَقَّ ، وَوَضَّحْنَاهُ لَهُمْ وَضَرَبْنَا لَهُمْ فِيهِ الْأَمْثَالَ ، لِيَتَّبِعُوا الْحَقَّ وَيَتَّبِعُوهُ ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِبَيِّنَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أَيُ : لَوْ رَأَوْا أَيُّ آيَةٍ كَانَتْ ، سَوَاءً كَانَتْ بِاقْتِرَاحِهِمْ أَوْ غَيْرِهِ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا سِحْرٌ وَبَاطِلٌ ، كَمَا قَالُوا فِي انْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَنَحْوِهِ . ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿ أَيُ : اِصْبِرْ عَلَى مُحَالَفَتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَكَ مِنْ نَصْرِهِ إِيَّاكَ وَجَعَلِهِ الْعَاقِبَةَ لَكَ ، وَلَئِنْ اتَّبَعَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوفُونَ ﴿ أَيُ : بَلْ اثْبُتْ عَلَى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَلَا تَعْدِلْ عَنْهُ وَلَيْسَ فِيهَا سِوَاهُ هُدًى يُتَّبَعُ بَلِ الْحَقُّ كُلُّهُ مُنْحَصَرٌ فِيهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرُّومِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ نِلَكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

تَقْدَمُ فِي أَوَّلِ «سُورَةِ الْبَقَرَةِ» عَامَّةُ الْكَلَامِ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِصَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَهُوَ أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - جَعَلَ هَذَا الْقُرْآنَ هُدًى وَشِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْعَمَلَ فِي اتِّبَاعِ الشَّرِيعَةِ ، فَأَقَامُوا الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ بِحُدُودِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ نَوَافِلَ رَاتِيَّةٍ وَغَيْرِ رَاتِيَّةٍ ، وَآتَوْا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِمْ إِلَى مُسْتَحَقِّهَا ، وَوَصَلُّوا أَرْحَامَهُمْ وَقَرَابَاتِهِمْ ، وَآيَقَنُوا بِالْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَرَعَبُوا إِلَى اللَّهِ فِي ثَوَابِ ذَلِكَ ، لَمْ يُرَأَوْا بِهِ ، وَلَا أَرَادُوا جَزَاءً مِنَ النَّاسِ وَلَا شُكُورًا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أَيْ : عَلَىٰ بَصِيرَةٍ وَبَيِّنَةٍ وَمَنْهَجٍ وَاضِحٍ جَلِيٍّ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَ ابِّ إِلِيمٍ ﴿٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ حَالَ السُّعْدَاءِ وَهُمْ الَّذِينَ يَهْتَدُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَنْتَفِعُونَ بِسَمَاعِهِ عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ ، وَأَقْبَلُوا عَلَىٰ اسْتِئَاعِ الْمَزَامِيرِ وَالْغِنَاءِ بِالْأَلْحَانِ وَالْآلِ الطَّرَبِ ، كَمَا قَالَ عَدَدٌ مِّنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هُوَ : الْغِنَاءُ . الْغِنَاءُ وَالْمَزَامِيرُ ، وَقِيلَ : عَنِ يَقُولِهِ ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ اشْتِرَاءُ الْمُغْنِيَّاتِ مِنَ الْجَوَارِي . ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَصْنَعُ هَذَا لِلتَّخَالُفِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ . ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أَيْ : وَيَتَّخِذُ سَبِيلَ اللَّهِ هُزُوًا يَسْتَهْزِئُ بِهَا . ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أَيْ : كَمَا اسْتَهَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَسَبِيلِهِ ، أَهْنُونَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَذَابِ الدَّائِمِ الْمُسْتَمِرِّ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي

أُذْنُهُ وَقَرَّ ۝ أَيُّ : هَذَا الْمُقْبِلُ عَلَى اللَّهِ وَاللَّعِبِ وَالطَّرَبِ إِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ وَلَّى عَنْهَا وَأَعْرَضَ وَأَذْبَرَ وَتَصَامَمَ وَمَا بِهِ مِنْ صَمَمٍ ، كَأَنَّهُ مَا سَمِعَهَا ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُؤْلَهُ كَمَا تَأَلَّمَ بِسَمَاعِ كِتَابِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾

هَذَا ذِكْرُ مَالِ الْأَبْرَارِ مِنَ السَّعْدَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الْمُنَاطَعَةَ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۝ أَيُّ : يَتَنَعَّمُونَ فِيهَا بِأَنْوَاعِ الْمَلَادِّ وَالْمَسَارِّ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ ، وَالْمَلَأْسِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْمَرَاجِبِ وَالنِّسَاءِ ، وَالنَّصْرَةِ وَالسَّمَاعِ الَّذِي لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ أَحَدٍ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ مُقِيمُونَ دَائِمًا فِيهَا لَا يَظْعَنُونَ وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا ۝ أَيُّ : هَذَا كَائِنٌ لَا مُحَالَةَ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝ وَهُوَ الْعَزِيزُ ۝ الَّذِي فَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ ، وَدَانَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۝ الْحَكِيمُ ۝ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۝ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ۝ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

يُبَيِّنُ سُبْحَانَهُ بِهَذَا قُدْرَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا فِيهَا وَمَا بَيْنَهُمَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ۚ لَيْسَ لَهَا عَمَدٌ مَرْيِيَّةٌ وَلَا غَيْرُ مَرْيِيَّةٍ . ۝ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ۝ يَعْنِي : الْجِبَالَ أَرَسَتْ الْأَرْضَ وَثَقَلَتْهَا ؛ لِئَلَّا تَضْطَرِبَ بِأَهْلِهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ۝ أَيُّ : لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ . ۝ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ۝ أَيُّ : وَذَرَأَ فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانَاتِ بِمَا لَا يَعْلَمُ عَدَدَ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا إِلَّا الَّذِي خَلَقَهَا ، وَلَمَّا قَرَّرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ الْخَالِقُ نَبَّهَ عَلَى أَنَّهُ الرَّازِقُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ أَيُّ : مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِنَ النَّبَاتِ كَرِيمٍ ، أَيُّ : حَسَنُ الْمَنْظَرِ . ۝ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ۝ أَيُّ : هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ تَعَالَى مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا صَادِرٌ عَنْ فِعْلِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ أَيُّ : بِمَا تَعْبُدُونَ وَتَدْعُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ۝ بَلِ الظَّالِمُونَ ۝ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ ۝ فِي ضَلَالٍ ۝ أَيُّ : فِي جَهْلٍ وَعَمَى ۝ مُبِينٍ ۝ أَيُّ : ظَاهِرٌ وَاصِحٌ لَا خَفَاءَ بِهِ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٣١﴾

اِخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي لُقْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَلْ كَانَ نَبِيًّا أَوْ عَبْدًا صَالِحًا مِنْ غَيْرِ نُبُوَّةٍ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : الْأَكْثَرُونَ عَلَى الثَّانِي ، وَجْهُهُ السَّلَفُ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أَيُّ : الْفَهْمُ وَالْعِلْمُ وَالتَّعْبِيرُ ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أَيُّ : أَمَرْنَاهُ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ ﷻ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ وَمَنَحَهُ وَوَهَبَهُ مِنَ الْفَضْلِ الَّذِي خَصَّهُ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ وَأَهْلِ زَمَانِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ وَثَوَابُهُ عَلَى الشَّاكِرِينَ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أَيُّ : غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ لَا يَتَضَرَّرُ بِذَلِكَ وَلَوْ كَفَرَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، فَإِنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنَيْهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلْتُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿٣٣﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ وَصِيَّةِ لُقْمَانَ لِوَلَدَيْهِ ، وَهُوَ لُقْمَانُ بْنُ عَنقَاءَ بْنِ سَدُونٍ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ ، فَإِنَّهُ آتَاهُ الْحِكْمَةَ وَهُوَ يُوصِي وَلَدَهُ الَّذِي هُوَ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ ، فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ يَمْنَحَهُ أَفْضَلَ مَا يَعْرِفُ ، وَهَذَا أَوْصَاهُ أَوَّلًا بِأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ مُحَذِّرًا لَهُ : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ .

ثُمَّ قَرَنَ بِوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ الْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ * وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرَأُ تَعَالَى بَيْنَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾ قِيلَ : مَشَقَّةً وَهْنُ الْوَلَدِ ، وَقِيلَ : جَهْدًا عَلَى جَهْدٍ ، وَقِيلَ : ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ . ﴿ وَفَصَّلْتُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ أَيُّ : تَرْبِيَّتُهُ وَإِرْضَاعُهُ بَعْدَ وَضْعِهِ فِي عَامَيْنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ * وَالْوَالِدَتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، وَمِنْ هَهُنَا اسْتَنْبَطَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَيْمَةِ

أَنَّ أَقْلَ مُدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] ، وَإِنَّمَا يَذْكُرُ تَعَالَى تَرْبِيَةَ الْوَالِدَةِ وَتَعَبَهَا وَمَشَقَّتَهَا فِي سَهْرِهَا لَيْلًا وَنَهَارًا ؛ لِيُذَكِّرَ الْوَلَدَ بِإِحْسَانِهَا الْمُتَقَدِّمِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤] . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذِيكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أَيُّ : فَإِنِّي سَأَجْزِيكَ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أَيُّ : إِنْ حَرَصَا عَلَيْكَ كُلُّ الْحَرَصِ عَلَى أَنْ تُتَابِعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا فَلَا تُقْبَلُ مِنْهُمَا ذَلِكَ ، وَلَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ مِنْ أَنْ تُصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، أَيُّ : مُحْسِنًا إِلَيْهِمَا ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ يَعْنِي : الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يَبْنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦﴾ يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَآنِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٧﴾ وَلَا تَصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصَوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿٩﴾

هَذِهِ وَصَايَا نَافِعَةٌ قَدْ حَكَاهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ ؛ لِيَمْتَثِلَهَا النَّاسُ وَيَقْتَدُوا بِهَا فَقَالَ : ﴿ يَبْنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ أَيُّ : إِنْ الْمَظْلَمَةُ أَوْ الْخَطِيئَةُ لَوْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ . وَقَوْلُهُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ : ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أَيُّ : أَحْضَرَهَا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ، وَجَارَى عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿٦﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٧﴾ [الزلزلة : ٧-٨] ، وَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ الذَّرَّةُ مُحْصَنَةً مُحَجَّجَةً فِي دَاخِلِ صَخْرَةٍ صَمَاءٍ أَوْ غَائِبَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أَيُّ : لَطِيفُ الْعِلْمِ فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ الْأَشْيَاءُ وَإِنْ دَقَّتْ وَلَطَفَتْ وَتَضَاعَتْ ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بِدَيْبِ التَّمَلُّلِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ أَيُّ : بِحُدُودِهَا وَفُرُوضِهَا وَأَوْقَاتِهَا ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَآنِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ أَيُّ : بِحَسَبِ طَاقَتِكَ وَجَهْدِكَ ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ عِلْمٌ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ مِنَ النَّاسِ أَدَى فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى أَدَى النَّاسِ لِمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يَقُولُ: لَا تُعْرِضْ بَوَجْهَكَ عَنِ النَّاسِ إِذَا كَلَّمْتَهُمْ أَوْ كَلَّمُوكَ اخْتِقَارًا مِنْكَ لَهُمْ وَاسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ أَلِنْ جَانِبَكَ، وَانْسُطْ وَجْهَكَ إِلَيْهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «وَلَوْ أَنَّ تَلْقَى أَحَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ». وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أَيُّ: خَذَلًا مُتَكَبِّرًا جَبَّارًا عَنِيدًا، لَا تَفْعَلْ ذَلِكَ يُبْغِضَكَ اللَّهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أَيُّ: مُخْتَالٍ مُعْجَبٍ فِي نَفْسِهِ، فَخُورٌ أَيُّ: عَلَى غَيْرِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أَيُّ: اْمْشِ مَشْيًا مُقْتَصِدًا لَيْسَ بِالْبَطِيِّ الْمُنْبَسِطِ، وَلَا بِالسَّرِيعِ الْمُفْرِطِ، بَلْ عَدَلًا وَسَطًا بَيْنَ يَنَى. ﴿وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أَيُّ: لَا تُبَالِغْ فِي الْكَلَامِ، وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾. إِنْ أَفْبَحَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ، أَيُّ: غَايَةُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالْحَمِيرِ فِي عُلُوِّهِ وَرَفْعِهِ، وَمَعَ هَذَا هُوَ بَغِيضٌ إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا التَّشْبِيهُ فِي هَذَا بِالْحَمِيرِ يَفْتَضِي تَحْرِيمَهُ وَدَمَهُ غَايَةَ الدَّمِ.

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿١٧٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا خَلْقَهُ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِأَنَّهُ سَخَّرَ لَهُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ نُجُومٍ يَسْتَضِيئونَ بِهَا فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ، وَمَا يَخْلُقُ فِيهَا مِنْ سَحَابٍ وَأَمْطَارٍ وَثَلَجٍ وَبَرَدٍ، وَجَعَلَهُ إِيَّاهَا لَهُمْ سَقْفًا مَحْفُوظًا، وَمَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَرَارٍ وَأَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ وَزُرُوعٍ وَنَهَارٍ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ وَإِزَاحَةِ الشُّبُهَةِ وَالْعِلَلِ، ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ مَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بَلْ مِنْهُمْ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ أَيُّ: فِي تَوْحِيدِهِ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَجُحَادَتِهِ فِي ذَلِكَ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ حُجَّةٍ صَحِيحَةٍ، وَلَا كِتَابٍ مَأْنُورٍ صَحِيحٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أَيُّ: مُبِينٍ مُضِيٍّ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أَيُّ: لَهُوْلَاءِ الْمُجَادِلِينَ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أَيُّ: عَلَى رَسُولِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُطَهَّرَةِ ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أَيُّ: لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ إِلَّا اتِّبَاعُ الْأَبَاءِ الْأَقْدَمِينَ، قَالَ اللَّهُ: ﴿أَوَلَوْ كَانِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] أَيُّ: فَمَا ظَنُّكُمْ أَتِيهَا الْمُحْتَجُّونَ بِصَنِيعِ آبَائِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ خَلَفْتُمْ لَهُمْ فِيمَا كَانُوا فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوَلَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (١١) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا تَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٢﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١٣﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، أَيِ : أَخْلَصَ لَهُ الْعَمَلُ ، وَانْقَادَ لِأَمْرِهِ ، وَاتَّبَعَ شَرْعَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيِ : فِي عَمَلِهِ : بِاتِّبَاعِ مَا بِهِ أَمْرٌ ، وَتَرْكُ مَا عَنْهُ زُجْرٌ ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أَيِ : فَقَدْ أَخَذَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ مَتِينًا أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُهُ ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (١١) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا تَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ﴿ أَيِ : لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدٌ فِي كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ ، فَإِنَّ قَدَرَ اللَّهِ نَافِذٌ فِيهِمْ ، وَإِلَى اللَّهِ ﴾ مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أَيِ : فَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ . ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أَيِ : فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ ﴿ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أَيِ : نُلْجِئُهُمْ ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أَيِ : فَطِيعٍ صَغْبٍ شَاقٍّ عَلَى النَّفُوسِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦] ﴿ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٧٠]

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ : أَمَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ شُرَكَاءَ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا خَلَقَ لَهُ وَمِلْكُ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ أَيِ : إِذَا قَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ بِاعْتِرَافِكُمْ ﴾ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيِ : هُوَ خَلَقَهُ وَمُلْكُهُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أَيِ : الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ ، لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَىٰ مَا خَلَقَ وَشَرَعَ ، وَهُوَ الْحَمْدُودُ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا .

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفُسٍ وَاحِدَةً ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَجَلَالِهِ وَأَسَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلَا وَكَلِمَاتِهِ النَّامَةِ

الَّتِي لَا يُحِيطُ بِهَا أَحَدٌ ، وَلَا إِطْلَاعَ لِيَشْرَ عَلَى كُنْهَهَا وَإِحْصَائِهَا ، كَمَا قَالَ سَيِّدُ الْبَشَرِ وَخَاتَمُ الرُّسُلِ : « لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » ، فَقَالَ تَعَالَى : « وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْحَارٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ » أَيُّ : وَلَوْ أَنَّ جَمِيعَ أَشْجَارِ الْأَرْضِ جُعِلَتْ أَقْلَامًا ، وَجُعِلَ الْبَحْرُ مِدَادًا وَأَمَدُهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَعَهُ ، فَكُتِبَتْ بِهَا كَلِمَاتُ اللَّهِ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَلَالِهِ لَتَكَسَّرَتِ الْأَقْلَامُ ، وَنَفَذَ مَاءُ الْبَحْرِ ، وَلَوْ جَاءَ امْتِنَانُهَا مَدَدًا . وَإِنَّمَا ذُكِرَتْ « السَّبْعَةُ » عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ وَلَمْ يُرِدِ الْحَضَرُ . قَالَ قَتَادَةُ : قَالَ الْمُشْرِكُونَ : إِنَّمَا هَذَا كَلَامٌ يُوشِكُ أَنْ يَنْفَدَ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ » أَيُّ : لَوْ كَانَ شَجَرُ الْأَرْضِ أَقْلَامًا وَمَعَ الْبَحْرِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا كَانَ لِيَنْفَدَ عَجَائِبُ رَبِّي وَحِكْمَتُهُ وَخَلْقُهُ وَعِلْمُهُ .

وَقَوْلُهُ : « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » أَيُّ : عَزِيزٌ قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهْرُهُ وَغَلْبُهُ ، فَلَا مَانِعَ لِمَا أَرَادَ وَلَا مُخَالَفَ وَلَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ ، حَكِيمٌ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَشَرْعِهِ وَجَمِيعِ شُؤْنِهِ .

وَقَوْلُهُ : « مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » أَيُّ : مَا خَلَقَ جَمِيعَ النَّاسِ وَبَعَثَهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهِ - إِلَّا كَنَسْبَةِ خَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، الْجَمِيعُ هَيْئٌ عَلَيْهِ « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » [يس ٨٢] ، وَقَوْلُهُ : « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » أَيُّ : كَمَا هُوَ سَمِيعٌ لَأَقْوَاهُمْ بَصِيرٌ بِأَفْعَالِهِمْ كَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، كَذَلِكَ قُدْرَتُهُ عَلَيْهِمْ كَقُدْرَتِهِ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : « مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » الآية .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦١﴾

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ » يَعْنِي : يَأْخُذُ مِنْهُ فِي النَّهَارِ فَيَطُولُ ذَاكَ وَيَقْصُرُ هَذَا ، وَهَذَا يَكُونُ زَمَنُ الصَّيْفِ يَطُولُ النَّهَارُ إِلَى الْغَايَةِ ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النِّقْصِ فَيَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ ، وَهَذَا يَكُونُ فِي الشِّتَاءِ « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » قِيلَ : إِلَى غَايَةِ مَحْدُودَةٍ ، وَقِيلَ : إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَكِلَا الْمَعْنَيْنِ صَحِيحٌ .

وَقَوْلُهُ : « وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » ، كَقَوْلِهِ : « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » [الحج ٧٠] ، وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّهُ تَعَالَى الْخَالِقُ الْعَالِمُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ . « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ » أَيُّ : إِنَّمَا يُظْهَرُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِيَسْتَدِلُّوا بِهَا عَلَى أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَيُّ : الْمَوْجُودُ الْحَقُّ الْإِلَهُ الْحَقُّ ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ بَاطِلٌ فَإِنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ؛

لَأَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْجَمِيعُ خَلَقُهُ وَعَبِيدُهُ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى تَحْرِيكِ ذَرَّةٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَوْ اجْتَمَعَ كُلُّ أَهْلِ الْأَرْضِ عَلَى أَنْ يَخْلُقُوا دُبَابًا لَعَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٦٥﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا تَجَحَّدُوا بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٦٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِيَتَجَرَّى فِيهِ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ، أَيُّ : بِلُطْفِهِ وَتَسْخِيرِهِ، فَإِنَّهُ لَوْلَا مَا جَعَلَ فِي الْمَاءِ مِنْ قُوَّةٍ يَحْمِلُ بِهَا السُّفْنَ لَمَا جَرَتْ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ أَيُّ : مِنْ قُدْرَتِهِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَيُّ : صَبَّارٌ فِي الضَّرَاءِ، شَكُورٌ فِي الرَّخَاءِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أَيُّ : كَالْجِبَالِ وَالْغَمَامِ ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت : ٦٥] . ثُمَّ قَالَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَيُّ : كَافِرٌ، كَأَنَّهُ فَسَّرَ الْمُقْتَصِدَ هَهُنَا بِالْجَاهِدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت : ٦٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا تَجَحَّدُوا بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ فَالْخَتَّارُ هُوَ : الْغَدَّارُ، وَهُوَ الَّذِي كُلَّمَا عَاهَدَ نَقَضَ عَهْدَهُ، وَالْخَتَرُ : أَتَمَّ الْغَدْرَ وَأَبْلَغَهُ . ﴿كَفُورٍ﴾ أَيُّ : جَحُودٍ لِلنِّعَمِ لَا يَشْكُرُهَا، بَلْ يَتَنَاسَاهَا وَلَا يَذْكُرُهَا .

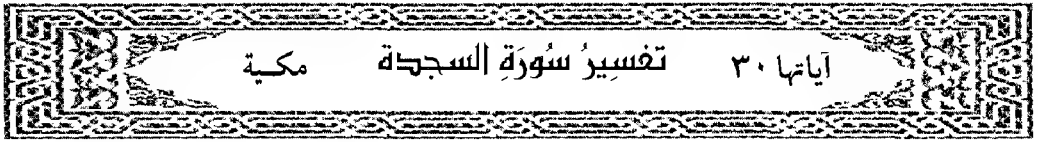
يُنَاقِضُ النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَحْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْرَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ الْوَالِدِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْذِرًا لِلنَّاسِ يَوْمَ الْمَعَادِ وَأَمْرًا لَهُمْ بِتَقْوَاهُ، وَالْخَوْفُ مِنْهُ، وَالْخَشْيَةُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَيْثُ ﴿لَا تَجْرَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أَيُّ : لَوْ أَرَادَ أَنْ يَفْدِيَهُ بِنَفْسِهِ لَمَا قُبِلَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الْوَلَدُ لَوْ أَرَادَ فِدَاءَ وَالِدِهِ بِنَفْسِهِ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْهُ . ثُمَّ عَادَ بِالْمَوْعِظَةِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أَيُّ : لَا تُلْهِينَكُمْ بِالطَّمَأْنِينَةِ فِيهَا عَنِ الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ يَعْنِي : الشَّيْطَانُ .

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٦٨﴾ هَذِهِ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهَا، فَلَا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ إِعْلَامِهِ تَعَالَى بِهَا،

فَعِلْمُ وَقْتِ السَّاعَةِ لَا يَعْلَمُهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ﴿ لَا يُحِيطُهَا لَوْحَتَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ،
وَكَذَلِكَ أَنْزَلَ الْغَيْثَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَكِنْ إِذَا أَمَرَ بِهِ عِلْمَتُهُ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ وَمَنْ
شَاءَ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَكَذَلِكَ لَا يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَهُ تَعَالَى سِوَاهُ ، وَلَكِنْ إِذَا أَمَرَ
بِكَوْنِهِ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، أَوْ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا ، عَلِمَ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ ، وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ
خَلْقِهِ . وَكَذَلِكَ لَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا فِي ذُنْيَاهَا وَأُخْرَاهَا ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ
أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أَفِي بَلَدِهَا أَوْ غَيْرِهِ مِنْ أَيِّ بِلَادِ اللَّهِ كَانَ ، لَا عِلْمَ لِأَحَدٍ بِذَلِكَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ لُقْمَانَ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ﴿ التَّمِيزُ ﴾ تَزِيلُ السَّجْدَةِ ،
وَ ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ التَّمِيزُ ﴾ تَزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ التَّمِيزُ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ
هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿ التَّمِيزُ ﴾
قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُتَقَطِّعَةِ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ . وَقَوْلُهُ :
﴿ تَزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ ﴾ أَيُّ : لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرِيَّةَ أَنَّهُ نَزَلَ ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ثُمَّ
قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ أَيُّ : اخْتَلَقَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ﴿ بَلْ هُوَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أَيُّ : يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ .
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ
مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ؕ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿ التَّمِيزُ ﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى
الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿ التَّمِيزُ ﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ التَّمِيزُ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ ، فَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أَي : بَلْ هُوَ الْمَالِكُ لِأَزْمَةِ الْأُمُورِ ، الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْمُدَبِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا وَلِيَّ لِحَاقِهِ سِوَاهُ ، وَلَا شَفِيعَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ . ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يَعْنِي : أَيُّهَا الْعَابِدُونَ غَيْرُهُ ، الْمُتَوَكِّلُونَ عَلَى مَنْ عَدَاهُ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ أَنْ يَكُونَ لَهُ نَظِيرٌ أَوْ شَرِيكٌ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ نَدِيدٌ أَوْ عَدِيلٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أَي يَنْتَزِلُ أَمْرُهُ مِنْ أَعْلَى السَّمَاوَاتِ إِلَى أَقْصَى نُحُومِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] ، وَتَرْفَعُ الْأَعْمَالُ إِلَى دِيْوَانِهَا فَوْقَ سَمَاءِ الدُّنْيَا ، وَمَسَافَةُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِائَةِ سَنَةٍ ، وَسُمْكُ السَّمَاءِ خَمْسِائَةِ سَنَةٍ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : النَّزُولُ مِنَ الْمَلِكِ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِائَةِ عَامٍ ، وَصُعودُهُ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِائَةِ عَامٍ ، وَلَكِنَّهُ يَقْطَعُهَا فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

﴿ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أَي : الْمُدَبِّرُ لِهَذِهِ الْأُمُورِ ، الَّذِي هُوَ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ يَرْفَعُ إِلَيْهِ جَلِيلَهَا وَحَقِيرَهَا ، وَصَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ، هُوَ ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ ، وَدَانَتْ لَهُ الْعِبَادُ وَالرَّقَابُ ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَهُوَ عَزِيزٌ فِي رَحْمَتِهِ رَحِيمٌ فِي عَزَّتِهِ .

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ الَّذِي أَحْسَنَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ وَأَتَقَنَهَا وَأَحْكَمَهَا . ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَرَعَ فِي ذِكْرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ يَعْنِي : خَلَقَ أَبَا الْبَشَرِ آدَمَ مِنْ طِينٍ ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ أَي : يَتَنَاسَلُونَ كَذَلِكَ مِنْ نُطْقَةٍ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ صُلْبِ الرَّجُلِ وَتَرَائِبِ الْمَرْأَةِ ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ يَعْنِي : آدَمَ لَمَّا خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ خَلَقَهُ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ يَعْنِي : الْعُقُولَ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أَي : بِهَذِهِ الْقُوَى الَّتِي رَزَقَكُمُوهَا اللَّهُ ﷻ ، فَالسَّعِيدُ مَنْ اسْتَعْمَلَهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِ ﷻ .

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّنَكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِبْعَادِهِمُ الْمَعَادَ حَيْثُ قَالُوا : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾
 أَيُّ : تَمَرَّقَتْ أَجْسَامُنَا وَتَفَرَّقَتْ فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ وَذَهَبَتْ ﴿ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أَيُّ : أَئِنَّا
 لَنَعُودُ بَعْدَ تِلْكَ الْحَالِ ؟ يَسْتَبْعِدُونَ تِلْكَ الْحَالِ ، وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ بَعِيدٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرِهِمُ الْعَاجِزَةِ
 لَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ الَّذِي بَدَأَهُمْ وَخَلَقَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ ، الَّذِي إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ
 كُنْ فَيَكُونُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ الظَّاهِرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَلَكَ
 الْمَوْتِ شَخْصٌ مُعَيَّنٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ مَعَادِكُمْ وَقِيَامِكُمْ مِنْ
 قُبُورِكُمْ لِحِرَائِكُمْ .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا
 فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ
 الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٢٧﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ
 لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَهُمْ حِينَ عَايَنُوا الْبَعْثَ ، وَقَامُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ
 ﷻ حَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ ﴿ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْحَيَاءِ وَالْخَجَلِ ، يَقُولُونَ : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾
 أَيُّ : نَحْنُ الْآنَ نَسْمَعُ قَوْلَكَ وَنُطِيعُ أَمْرَكَ ﴿ فَارْجِعْنَا ﴾ أَيُّ : إِلَى الدُّنْيَا ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا
 مُوقِنُونَ ﴾ أَيُّ : قَدْ أَتَيْنَا وَتَحَقَّقْنَا فِيهَا أَنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ وَلِقَاءُكَ حَقٌّ ، وَقَدْ عَلِمَ الرَّبُّ تَعَالَى مِنْهُمْ
 أَنَّهُ لَوْ أَعَادَهُمْ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا لَكَانُوا كَمَا كَانُوا فِيهَا كُفَّارًا يُكَذِّبُونَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَيُخَالِفُونَ رُسُلَهُ ، كَمَا
 قَالَ تَعَالَى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِقَايَتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام : ٢٧]

وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي
 الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ
 أَجْمَعِينَ ﴾ أَيُّ : مِنَ الصَّنَفَيْنِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أَيُّ : يُقَالُ
 لِأَهْلِ النَّارِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ : ذُوقُوا الْعَذَابَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِكُمْ بِهِ ، وَاسْتِبْعَادِكُمْ
 وَفُورَعَهُ ، وَتَنَاسِيَكُمْ لَهُ ، إِذَا عَامَلْتُمُوهُ مُعَامَلَةً مَنْ هُوَ نَاسٍ لَهُ ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أَيُّ : سَنَعَامِلُكُمْ
 مُعَامَلَةَ النَّاسِي ؛ لَأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَنْسَى شَيْئًا وَلَا يَضِلُّ عَنْهُ شَيْءٌ بَلْ مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :
 ﴿ الْيَوْمَ نَنَسِكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [الحاثية : ٣٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ .

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٦٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أَي : إِنَّمَا يُصَدِّقُ بِهَا ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أَي : اسْتَمَعُوا لَهَا وَأَطَاعُوهَا قَوْلًا وَفِعْلًا ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عَنِ اتِّبَاعِهَا وَالْانْقِيَادِ لَهَا ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْجَهْلَةُ مِنَ الْكُفْرَةِ الْفَجْرَةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يَعْنِي ذَلِكَ : قِيَامَ اللَّيْلِ وَتَرْكَ النَّوْمِ وَالِاضْطِجَاعَ عَلَى الْفُرْشِ الْوُطِيئَةِ . يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أَي : خَوْفًا مِنْ وَبَالِ عِقَابِهِ ، وَطَمَعًا فِي جَزِيلِ ثَوَابِهِ ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ فِعْلِ الْقُرْبَاتِ الْإِلَازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ .

عَنِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ ، وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ قَالَ : « لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِرُّهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتُحِجُّ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ : أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ ؟ الصَّوْمُ جَنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ - ثُمَّ قَرَأَ ﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ - حَتَّى بَلَغَ - ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الْآيَةِ . أَي : فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ عَظَمَةَ مَا أُخْفِيَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْجَنَّاتِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَاللَّذَاتِ الَّتِي لَمْ يَطْلُعْ عَلَى مِثْلِهَا أَحَدٌ ، لَمَّا أَخْفَوْا أَعْمَالَهُمْ أَخْفَى اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ جَزَاءً وَفَاقًا ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : اقْرَءُوا إِنَّ شَيْئَهُمْ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ . وَعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ ﷻ : مَا أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيَقَالُ لَهُ : أُدْخِلِ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ : أَيُّ رَبِّ كَيْفَ ؟ وَقَدْ أَخَذَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ ؟ فَيَقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ : لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ : رَضِيتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ : هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ ، وَلَكَ مَا

اَشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ ، فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبًّا ، قَالَ : رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدَيَّ ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، قَالَ : وَمِصْدَاقُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الْآيَةِ .

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ۚ لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٥﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿١٧﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَذْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنَّهُ لَا يُسَاوِي فِي حُكْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِآيَاتِهِ مُتَّبِعًا لِرُسُلِهِ بِمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، أَيُ : خَارِجًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ ، مُكَذِّبًا لِرُسُلِهِ إِلَيْهِ ، فَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ۚ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أَيُ : عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أَيُ : صَدَقَتْ قُلُوبُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَاهَا ، وَهِيَ الصَّالِحَاتُ ﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ أَيُ : الَّتِي فِيهَا الْمَسَاكِينُ وَالذُّورُ وَالْغُرَفُ الْعَالِيَةُ ﴿ نُزُلًا ﴾ أَيُ : ضِيافَةٌ وَكَرَامَةٌ ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أَيُ : خَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [الحج : ٢٢] . قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ : وَاللَّهِ إِنَّ الْأَيْدِيَ لَمُوثَقَةٌ ، وَإِنَّ الْأَرْجُلَ لَمُقَيَّدَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَبَ لَيَرْفَعُهُمْ وَالْمَلَائِكَةُ تَقْمَعُهُمْ ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ أَيُ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي بِالْعَذَابِ الْأَدْنَى مَصَائِبَ الدُّنْيَا وَأَسْقَامَهَا وَأَفَاتِهَا ، وَمَا يَحِلُّ بِأَهْلِهَا مِمَّا يَبْتَلِي اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ لِيَتَوَبُّوا إِلَيْهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أَيُ : لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَهُ اللَّهُ بِآيَاتِهِ وَبَيَّنَّهَا لَهُ وَوَضَّحَهَا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَكَّهَا وَجَحَدَهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَتَنَاسَاهَا كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أَيُ : سَأَنْتَقِمُ مِمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَشَدَّ الانْتِقَامِ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ
 (١٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (١٤)

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ إِنَّهُ آتَاهُ الْكِتَابَ ، وَهُوَ التَّوْرَةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : يَعْنِي بِهِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أُرِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ رَجُلًا آدَمَ طَوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ ، وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، سَبَطَ الرَّأْسِ ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالِدَ الْجَالِ » فِي آيَاتِ أَرَاهَنَّ اللَّهُ إِيَّاهُ ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ قَالَ : جُعِلَ مُوسَى هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ، وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ قَالَ : « مِنْ لِقَاءِ مُوسَى رَبَّهُ ﷺ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أَيُّ : لَمَّا كَانُوا صَابِرِينَ عَلَى أَوْامِرِ اللَّهِ ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ، وَتَصَدِيقِ رُسُلِهِ ، وَاتِّبَاعِهِمْ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، كَانَ مِنْهُمْ أُمَّةٌ يَهْدُونَ إِلَى الْحَقِّ بِأَمْرِ اللَّهِ وَيَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، ثُمَّ لَمَّا بَدَّلُوا وَحَرَفُوا وَأَوَّلُوا سُلُبُوا ذَلِكَ الْمَقَامَ ، وَصَارَتْ قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، فَلَا عَمَلًا صَالِحًا وَلَا اعْتِقَادًا صَحِيحًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ قِيلَ : لَمَّا صَبَرُوا عَنِ الدُّنْيَا . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ (١٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (١٧)

يَقُولُ تَعَالَى : أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ أُولَئِكَ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ مَا أَهْلَكَ اللَّهُ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُمْ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ قَوِيمِ السَّبِيلِ فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ وَلَا عَيْنٍ وَلَا أَثَرٍ ﴿ هَلْ نَحْسُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴾ [مريم : ٩٨] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ﴾ أَيُّ : وَهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِ أُولَئِكَ الْمُكَذِّبِينَ فَلَا يَرَوْنَ فِيهَا أَحَدًا مِّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا وَيَعْمُرُهَا ، ذَهَبُوا مِنْهَا ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [الاعراف : ٩٢] كَمَا قَالَ : ﴿ فَيَلْكَ

بُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴿ [النمل: ٥٢] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أَي: إِنَّ فِي ذَهَابِ
أُولَئِكَ الْقَوْمِ وَدَمَارِهِمْ وَمَا حَلَّ بِهِمْ ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ ، وَنَجَاةٍ مَنْ آمَنَ بِهِمْ لآيَاتِ
وَعِبْرًا وَمَوَاعِظَ وَدَلَائِلَ مُتَنَاطِرَةً ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أَي: أَخْبَارَ مَنْ تَقَدَّمَ كَيْفَ كَانَ أَمْرُهُمْ ؟ .
وَقَوْلُهُ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ ﴾ يَبِينُ تَعَالَى لُطْفَهُ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانِهِ
إِلَيْهِمْ فِي إِرسَالِهِ الْمَاءَ ، إِمَّا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ مِنَ السَّيْحِ ، وَهُوَ مَا تَحْمِلُهُ الْأَنْهَارُ وَيَتَحَدَّرُ مِنَ الْجِبَالِ
إِلَى الْأَرْضِ الْمُحْتَاجَةِ إِلَيْهِ فِي أَوْقَاتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ ﴾ ، وَهِيَ الَّتِي لَا تَبَاتُ
فِيهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ﴾ [الكهف: ٨] أَي: يَبْسَا لَا تُثْبِتُ
شَيْئًا ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ ﴾ أَرْضٌ مُضَرَّ فَقَطْ ، بَلْ هِيَ بَعْضُ الْمَقْصُودِ ،
وَإِنْ مَثَلُهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ فَلَيْسَتْ هِيَ الْمَقْصُودَةُ وَخَدَهَا وَلَكِنَّهَا مُرَادَةٌ قَطْعًا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ،
فَإِنَّهَا فِي نَفْسِهَا أَرْضٌ رِخْوَةٌ غَلِيظَةٌ تَحْتَاجُ مِنَ الْمَاءِ مَا لَوْ نَزَلَ عَلَيْهَا مَطَرًا لَتَهَدَّمَتْ أَتْبِنُهَا ،
فَيَسُوقُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا النَّيْلَ بِمَا يَتَحْمَلُهُ مِنَ الزِّيَادَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ أَمْطَارِ بِلَادِ الْحَبَشَةِ ، وَفِيهِ طِينٌ
أَحْمَرٌ ، فَيَغْشَى أَرْضَ مُضَرٍّ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِيخَةٌ مُرْمَلَةٌ مُحْتَاجَةٌ إِلَى ذَلِكَ الْمَاءِ ، وَذَلِكَ الطِّينُ أَيْضًا ؛
لَيَنْبَتُ الزَّرْعُ فِيهِ ، فَيَسْتَعْلُونَ كُلَّ سَنَةٍ عَلَى مَاءٍ جَدِيدٍ مَمْطُورٍ فِي غَيْرِ بِلَادِهِمْ ، وَطِينٍ جَيِّدٍ مِنْ
غَيْرِ أَرْضِهِمْ ، فَسُبْحَانَ الْحَكِيمِ الْكَرِيمِ الْمَنَّانِ الْمُحْمُودِ ابْتِدَاءً .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ
أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ ① أَنَا صَبَبْنَا
الْمَاءَ صَبًّا ﴿ [عبس: ٢٤-٢٥] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ② قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ
كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ③ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ④
يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اسْتِعْجَالِ الْكُفَّارِ ، وَوُقُوعِ بَأْسِ اللَّهِ بِهِمْ ، وَحُلُولِ غَضَبِهِ وَنِقْمَتِهِ
عَلَيْهِمْ اسْتِعْجَادًا وَتَكْذِيبًا وَعِنَادًا ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ ﴾ أَي: مَتَى تُنْصَرُّ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدٌ ؟
كَمَا تَزْعُمُ أَنَّ لَكَ وَقْتًا تُدَالُ عَلَيْنَا وَيُنْتَقِمُ لَكَ مِنَّا ، فَمَتَى يَكُونُ هَذَا ؟ مَا نَرَاكَ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ
إِلَّا مُخْتَفِينَ خَائِفِينَ ذَلِيلِينَ . ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أَي: إِذَا حَلَّ بِكُمْ بَأْسُ اللَّهِ وَسَخَطُهُ وَغَضَبُهُ فِي
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [غافر: ٨٣] الْآيَتَيْنِ . الْمُرَادُ: الْفَتْحُ الَّذِي هُوَ
الْقَضَاءُ وَالْفُضْلُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾ أَي: أَعْرِضْ عَنْ هَؤُلَاءِ

المُشْرِكِينَ وَبَلَغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦] وَانْتَظِرْ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، وَسَيَنْصُرُكَ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَكَ إِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أَيُّ : أَنْتَ مُنْتَظَرٌ وَهُمْ مُنْتَظِرُونَ ، وَسَتَرَى أَنْتَ عَاقِبَةَ صِرِّكَ عَلَيْهِمْ ، وَسَيَجِدُونَ غَيْبَ مَا يَنْتَظِرُونَهُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ ، مِنْ وَيْلٍ عِقَابِ اللَّهِ لَهُمْ وَحُلُولِ عَذَابِهِ بِهِمْ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ السَّجْدَةِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٧٣ تفسير سورة الأحزاب مدنية

عَنْ زُرِّ قَالَ : قَالَ لِي أَبِي بْنُ كَعْبٍ كَأَيِّنْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَحْزَابِ أَوْ كَأَيِّنْ تَعُدُّهَا ؟ قَالَ : قُلْتُ : ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ آيَةً ، فَقَالَ : قَطُّ لَقَدْ رَأَيْتُهَا وَإِنَّمَا لَتَعَادِلُ « سُورَةُ الْبَقَرَةِ » ، وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا : « الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

هَذَا تَنْبِيْهُ بِالْأَعْلَى عَلَى الْأَدْنَى ، فَإِنَّهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَأْمُرُ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ بِهَذَا فَلَا أَنْ يَأْتِمَرَ مَنْ دُونَهُ بِذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى ، وَقَدْ قَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ : التَّقْوَى أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ تَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ ، وَأَنْ تَتْرَكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ خَافَةَ عَذَابِ اللَّهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أَيُّ : لَا تَسْمَعْ مِنْهُمْ وَلَا تَسْتَشِرْهُمْ « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » أَيُّ : فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ تَتَّبِعَ أَوَامِرَهُ وَطُطِيعَهُ ، فَإِنَّهُ عَلِيمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُور ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أَيُّ : مِنْ قُرْآنٍ وَسُنَّةٍ « إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » أَيُّ : فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ . « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » أَيُّ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ وَأَحْوَالِكَ « وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا » أَيُّ : وَكَفَىٰ بِهِ وَكِيلًا لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ .

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ أَلَتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ

أُمَهْتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُوطَّأً قَبْلَ الْمَقْصُودِ الْمَعْنَوِيِّ أَمْرًا مَعْرُوفًا حَسَنًا ، وَهُوَ أَنَّهُ كَمَا لَا يَكُونُ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ فِي جَوْفِهِ ، وَلَا تَصِيرُ زَوْجَتُهُ الَّتِي يُظَاهِرُ مِنْهَا يَقُولُهُ : أَتَيْتِ عَلِيَّ كَظَهَرِ أُمِّي ، أَمَّا لَهُ ، كَذَلِكَ لَا يَصِيرُ الدَّعِيُّ وَلَدًا لِلرَّجُلِ إِذَا تَبَنَاهُ فَدَعَاهُ ابْنًا لَهُ ، فَقَالَ : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَهْتِكُمْ ﴿ كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ مَا هُنَّ أُمَهْتُهُمْ إِنْ أُمَهْتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْتُهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِالنَّفْيِ ، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ تَبَنَاهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُ : زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقْطَعَ هَذَا الْإِلْحَاقَ وَهَذِهِ النِّسْبَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي أَثْنَاءِ السُّورَةِ ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿ [الأحزاب : ٤٠] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ ، يَعْنِي : تَبَنَيْتُمْ لَهُمْ قَوْلَ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ابْنًا حَقِيقِيًّا ، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ صُلْبِ رَجُلٍ آخَرَ ، فَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَبَوَانِ ، كَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلْبَشَرِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ ﴾ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : ﴿ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ أَيُّ : الْعَدْلُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ أَيُّ : الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . ﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ هَذَا أَمْرٌ نَاسِخٌ لِّمَا كَانَ فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ جَوَازِ إِدْعَاءِ الْأَبْنَاءِ الْأَجَانِبِ ، وَهُمْ الْأَدْعِيَاءُ ، فَأَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِرَدِّ نَسَبِهِمْ إِلَى آبَائِهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ .

أَمَّا دَعْوَةُ الْغَيْرِ ابْنًا عَلَى سَبِيلِ التَّكْرِيمِ وَالتَّحْسِبِ فَلَيْسَ مِمَّا نَهَى عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ . بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا بُنَيَّ » .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ أَمَرَ تَعَالَى بِرَدِّ أَنْسَابِ الْأَدْعِيَاءِ إِلَى آبَائِهِمْ - إِنْ عُرِفُوا - فَإِنْ لَمْ يُعْرَفُوا فَهُمْ إِخْوَانُهُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيهِمْ ، أَيُّ : عِوَضًا عَمَّا فَاتَهُمْ مِنَ النَّسَبِ ، وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ : قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴿ فَأَنَا مِمَّنْ لَا يُعْرَفُ أَبُوهُ ، فَأَنَا مِنْ

إِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ . وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « مَنْ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ » ، وَهَذَا تَشْدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدُ فِي التَّبَرِّي مِنَ النَّسَبِ الْمَعْلُومِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : « وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ » أَيُّ : إِذَا نَسَبْتُمْ بَعْضَهُمْ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ فِي الْحَقِيقَةِ خَطَأً بَعْدَ الْاجْتِهَادِ وَاسْتِفْرَاحِ الْوُسْعِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَضَعَ الْخُرْجَ فِي الْخَطَأِ وَرَفَعَ إِثْمَهُ ، كَمَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ أَنْ يَقُولُوا : « رَبَّنَا لَا تَوَاحِدْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا » [البقرة : ٢٨٦] ، وَثَبَّتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « قَالَ اللَّهُ ﷻ : قَدْ فَعَلْتُ » .

وَفِي الْحَدِيثِ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا يُكْرَهُونَ عَلَيْهِ » . وَقَالَ هَهُنَا « وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ » وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أَيُّ : وَإِنَّمَا الْإِثْمُ عَلَى مَنْ تَعَمَّدَ الْبَاطِلَ .

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٥﴾

قَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى شَفَقَةَ رَسُولِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ ، وَنُصَحِهِ لَهُمْ ، فَجَعَلَهُ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَحُكْمُهُ فِيهِمْ كَانَ مُقَدِّمًا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ » النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَأَيُّ مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا ، فَإِنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا ، فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ » .

وَقَوْلُهُ : « وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » أَيُّ : فِي الْحُرْمَةِ وَالْإِحْتِرَامِ وَالتَّوْقِيرِ وَالْإِكْرَامِ وَالْإِعْظَامِ ، وَلَكِنْ لَا تَجُوزُ الْحُلُوهُ بِهِنَّ ، وَلَا يَتَشَبَّهُنَّ التَّحْرِيمَ إِلَى بَنَاتِهِنَّ وَأَخَوَاتِهِنَّ بِالْإِجْمَاعِ . « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » أَيُّ : فِي حُكْمِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ » أَيُّ : الْقَرَابَاتِ أَوْلَى بِالتَّوَارِثِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَهَذِهِ نَاسِخَةٌ لِمَا كَانَ قَبْلَهَا مِنَ التَّوَارِثِ بِالْخَلْفِ وَالْمُوَاحَاةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : كَانَ الْمُهَاجِرِيُّ يَرِثُ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ قَرَابَاتِهِ وَذَوِي رَجْحِهِ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى بَيْنَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا » أَيُّ : ذَهَبَ الْمِيرَاثُ وَبَقِيَ النَّصْرُ وَالْبِرُّ وَالصَّلَةُ وَالْإِحْسَانُ وَالْوَصِيَّةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا » أَيُّ : هَذَا الْحُكْمُ ، وَهُوَ : أَنَّ أَوْلَى الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ، حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ مُقَدَّرٌ مَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٠١﴾ لَيْسَ لَكَ الصَّدَقَاتُ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٠٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أُولَى الْعَزْمِ الْخُمْسَةِ وَبَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ ، أَنَّهُ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ فِي إِقَامَةِ
دِينِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِبْلَاجِ رِسَالَتِهِ ، وَالتَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ وَالِاتِّفَاقِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ
مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ ءَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۚ قَالُوا أَقْرَضْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ
الشَّاهِدِينَ ۚ ﴾ [آل عمران : ٨١] ، فَهَذَا الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أَخَذَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ إِزْسَالِهِمْ ، وَكَذَلِكَ هَذَا ،
وَنَصَّ مِنْ بَيْنِهِمْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْخُمْسَةِ ، وَهُمْ أُولُو الْعَزْمِ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى
الْعَامِّ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذِكْرِهِمْ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ لَكَ الصَّدَقَاتُ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : الْمُبْلَغِينَ الْمُؤَدِّينَ عَنِ الرُّسُلِ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أَيُّ : مِنْ أَمِهِمْ ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيُّ : مُوجِعًا .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رَحْمًا
وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٠٣﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ
أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نِعْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي صَرْفِهِ أَعْدَاءَهُمْ وَهَزْمِهِ
إِيَّاهُمْ عَامَ تَأَلَّبُوا عَلَيْهِمْ وَتَحَزَّبُوا وَذَلِكَ عَامَ الْخُنْدَقِ ، وَذَلِكَ فِي شَوَالِ سَنَةِ خَمْسٍ مِنَ الْهَجْرَةِ
عَلَى الصَّحِيحِ الْمَشْهُورِ . وَكَانَ سَبَبُ قُدُومِ الْأَحْزَابِ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَشْرَافِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ ،
الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَجْلَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى خَيْبَرَ ، مِنْهُمْ : سَلَامُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ ،
وَسَلَامُ بْنُ مِشْكَمٍ ، وَكِينَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ، خَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ ، فَاجْتَمَعُوا بِأَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، وَالْبُؤْهُمُ
عَلَى حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَعَدُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمُ النَّصْرَ وَالْإِعَانَةَ فَأَجَابُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى
عَطْفَانَ فَدَعَوْهُمْ فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ أَيْضًا ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي أَحَابِيشِهَا وَمَنْ تَابَعَهَا ، وَقَاتِلَهُمْ :
أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ ، وَعَلَى عَطْفَانَ عَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ بَدْرٍ ، وَالْجَمِيعُ قَرِيبٌ مِنْ عَشْرَةِ
آلَافٍ ، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَسِيرِهِمْ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِحَفْرِ الْخُنْدَقِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِمَّا يَلِي
الشَّرْقَ ، وَذَلِكَ بِإِشَارَةِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﷺ ، فَعَمِلَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ وَاجْتَهَدُوا ، وَنَقَلَ مَعَهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ ، وَحَفَرَ وَكَانَ فِي حَفْرِهِ ذَلِكَ آيَاتٌ وَدَلَائِلُ وَاضِحَاتٌ ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ

فَزَلُّوا شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ قَرِيبًا مِنْ أَحَدٍ ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فِي أَعَالِي أَرْضِ الْمَدِينَةِ . كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ ، وَقِيلَ : سَعِمَائِيَّةٌ ، فَأَسْنَدُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلْعٍ وَوُجُوهَهُمْ إِلَى نَحْوِ الْعَدُوِّ ، وَالْحَنْدُقُ حَفِيرٌ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ يَحْجُبُ الْحَيَالَةَ وَالرَّجَالَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِمْ ، وَجَعَلَ النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَّ فِي آطَامِ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ - وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ - هُمْ حِصْنُ شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ ، وَهُمْ عَهْدٌ مِنَ النَّبِيِّ وَذِمَّةٌ ، وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ ثَمَانِيَةِ مِائَاتٍ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ حَيُّ بْنُ أَخْطَبِ النَّضْرِيِّ فَلَمْ يَزَلْ يَهْمُ بِهِمْ حَتَّى نَقَضُوا الْعَهْدَ ، وَمَالَتْهُمُ الْأَحْزَابُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَعَظُمَ الْخَطْبُ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ وَضَاقَ الْحَالُ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ هُنَالِكَ آتَتْهُ الْمُؤْمِنُوتُ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١١] وَمَكَثُوا مُحَاصِرِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ ، إِلَّا أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وَدِّ الْعَامِرِيِّ - وَكَانَ مِنَ الْفُرْسَانِ الشُّجْعَانِ الْمَشْهُورِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - رَكِبَ وَمَعَهُ فَوَارِسٌ فَاقْتَحَمُوا الْحَنْدُقَ وَخَلَصُوا إِلَى نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِينَ ، فَتَدَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَبْرُزْ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، فَأَمَرَ عَلِيًّا ﷺ فَخَرَجَ إِلَيْهِ ، فَتَجَاوَلَا سَاعَةً ثُمَّ قَتَلَهُ عَلِيٌّ ﷺ ، فَكَانَ عَلَامَةً عَلَى النَّضْرِ .

ثُمَّ أَرْسَلَ اللَّهُ ﷻ عَلَى الْأَحْزَابِ رِيحًا شَدِيدَةً أَهْبُوبَ قُوَّةٍ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ هُمْ حِيْمَةً وَلَا شَيْءٌ وَلَا تُوقَدُ هُمْ نَارٌ وَلَا يَقْرَأُ هُمْ قَرَارٌ ، حَتَّى ارْتَحَلُوا خَائِبِينَ خَاسِرِينَ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : وَهِيَ : الصَّبَا ، وَيُؤَيِّدُهُ الْحَدِيثُ الْآخَرُ « نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأَهْلِكْتُ عَادًا بِالذَّبُورِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ هُمُ الْمَلَائِكَةُ ، زَلْزَلَتْهُمْ وَأَلْقَتْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ ، فَكَانَ رَئِيسُ كُلِّ قَبِيلَةٍ يَقُولُ : يَا بَنِي فُلَانٍ إِلَيَّ ، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ ، فَيَقُولُ : النَّجَاءُ ، النَّجَاءُ ، لِمَا أَلْقَى اللَّهُ ﷻ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرُّعْبِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ أَيُّ : الْأَحْزَابُ ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ عَنْ حُدَيْفَةَ ﷺ أَنَّهُمْ : بَنُو قُرَيْظَةَ ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ أَيُّ : مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : ظَنَّ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الدَّائِرَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيَفْعَلُ ذَلِكَ . وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ ظُنُونٌ مُخْتَلِفَةٌ ، ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ يُسْتَأْصَلُونَ ، وَآيَقَنَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ مَا وَعَدَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقٌّ ، وَأَنَّهُ سَيُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

هُنَالِكَ آتَتْهُ الْمُؤْمِنُوتُ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْتِلُ الْيَتْرَبُ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذْنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ ذَلِكَ الْحَالِ حِينَ نَزَلَ الْأَحْزَابُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَالْمُسْلِمُونَ مُحْصَرُونَ فِي غَايَةِ الْجُهْدِ وَالضِّيقِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ إِنَّهُمْ أُتْبِلُوا وَاخْتَبِرُوا وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ، فَحِينَئِذٍ ظَهَرَ النِّفَاقُ ، وَتَكَلَّمَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿١٢﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٣﴾ أَمَّا الْمُنَافِقُ فَنَجَمَ نِفَاقُهُ ، وَالَّذِي فِي قَلْبِهِ شُبْهَةٌ أَوْ حَسِيكَةٌ ضَعْفَ حَالِهِ فَتَنَفَسَ بِمَا يَجِدُهُ مِنَ الْوَسْوَاسِ فِي نَفْسِهِ ؛ لِضَعْفِ إِيْمَانِهِ وَشِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ ضِيقِ الْحَالِ ، وَقَوْمٌ آخَرُونَ قَالُوا : كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْتِلُ الْيَتْرَبُ لَا مَقَامَ لَكُمْ ﴾ . يَعْنِي : الْمَدِينَةَ . لَا مَقَامَ لَكُمْ ﴾ أَي : هَهُنَا ، يَعْنُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَقَامِ الْمِرَابِطَةِ ﴿١٣﴾ فَارْجِعُوا ﴾ أَي : إِلَى بُيُوتِكُمْ وَمَنَازِلِكُمْ ﴾ وَيَسْتَعِذْنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ ﴾ قَالُوا : بُيُوتُنَا نَخَافُ عَلَيْهَا السَّرَقَ . يَعْنِي : اعْتَذَرُوا فِي الرَّجُوعِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ بِأَنَّهَا عَوْرَةٌ ، أَي : لَيْسَ دُونَهَا مَا يَحْجُبُهَا مِنَ الْعَدُوِّ ، فَهُمْ يَخْشَوْنَ عَلَيْهَا مِنْهُمْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿١٣﴾ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أَي : لَيْسَتْ كَمَا يَزْعُمُونَ ﴿١٣﴾ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أَي : هَرَبًا مِنَ الزَّخْفِ .

وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَبَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلَوْنَ الْآدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أَتَمَّ لَوْ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْمَدِينَةِ وَقُطِرَ مِنْ أَقْطَارِهَا ، ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ - وَهِيَ الدُّخُولُ فِي الْكُفْرِ - لَكَفَرُوا سَرِيعًا ، وَهُمْ لَا يُحَافِظُونَ عَلَى الْإِيْمَانِ ، وَلَا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ مَعَ أَذْنَى خَوْفٍ وَفَزَعٍ ، وَهَذَا ذِمَّتُهُمْ فِي غَايَةِ الذِّمِّ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يَذْكُرُهُمْ بِمَا كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ - مِنْ قَبْلِ هَذَا الْخَوْفِ - أَنْ لَا يُؤْلُوا الْآدْبَارَ وَلَا يَفِرُّوا مِنَ الزَّخْفِ ﴿١٥﴾ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ أَي : وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ لَا بَدَّ

مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ فِرَارَهُمْ ذَلِكَ لَا يُؤْخِرُ آجَالَهُمْ ، وَلَا يُطَوِّلُ أَعْمَارَهُمْ ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَعْجِيلِ أَخْذِهِمْ غُرَّةً ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا لَا تُمْتَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيُّ : بَعْدَ هَرَبِكُمْ وَفِرَارِكُمْ ﴿ قُلْ مَتَعَ أَذُنِيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النساء : ٧٧] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : يَمْنَعُكُمْ ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أَيُّ : لَيْسَ لَهُمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ اللَّهِ مُجِيرٌ وَلَا مُغِيثٌ .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٨) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِالْمَعْوِقِينَ لِغَيْرِهِمْ عَنْ شُهُودِ الْحَرْبِ ، وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ ، أَيُّ : أَصْحَابِهِمْ وَعَشْرَائِهِمْ وَخُلَطَائِهِمْ ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أَيُّ : إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي الظَّلَالِ وَالثَّوَارِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٢٠) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ ﴿ أَيُّ : بُخْلَاءَ بِالْمَوَدَّةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكُمْ . ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أَيُّ : مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِ وَجَزَعِهِ ، وَهَكَذَا خَوْفُ هَؤُلَاءِ الْجُبْنَاءِ مِنَ الْقِتَالِ ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَنَةِ حِدَادٍ ﴾ أَيُّ : فَإِذَا كَانَ الْأَمْنُ تَكَلَّمُوا كَلَامًا بَلِيغًا فَصِيحًا عَالِيًا ، وَادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمُ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالنَّجْدَةِ وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أَيُّ : سَهْلًا هَيِّنًا عِنْدَهُ .

نَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢١)

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتِهِمُ الْقَبِيحَةِ فِي الْجُبْنِ وَالْخَوَرِ وَالْخَوْفِ ﴿ نَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ بَلْ هُمْ قَرِيبٌ مِنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمْ عَوْدَةً إِلَيْهِمْ ﴿ وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ﴾ أَيُّ : وَيَوَدُّونَ إِذَا جَاءَتِ الْأَحْزَابُ أَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ حَاضِرِينَ مَعَكُمْ فِي الْمَدِينَةِ ، بَلْ فِي الْبَادِيَةِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَخْبَارِكُمْ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيُّ : وَلَوْ كَانُوا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ لَمَا قَاتَلُوا مَعَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا ؛ لِكثْرَةِ جُبْنِهِمْ وَذَلَّتِهِمْ وَضَعْفِ يَقِينِهِمْ .

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿١٦﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٧﴾

هَذِهِ آيَةُ الْكَرِيمَةِ أَضَلَّ كَبِيرٌ فِي النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ النَّاسَ بِالنَّاسِي بِالنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ فِي صَبْرِهِ وَمُصَابَرَتِهِ وَمُرَابَطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ وَانْتِظَارِهِ الْفَرَجَ مِنْ رَبِّهِ ﷻ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ - ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِلَّذِينَ تَقَلَّقُوا وَتَصَجَّرُوا وَتَزَلْزَلُوا وَاضْطَرَبُوا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أَيُّ : هَلَّا افْتَدَيْتُمْ بِهِ وَتَأَسَّيْتُمْ بِشَأْنِهِ ﷺ ؟ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ بِمَوْعُودِ اللَّهِ هُمْ ، وَجَعَلَهُ الْعَاقِبَةُ حَاصِلَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . فَقَالَ : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : يَعْنُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ « الْبَقَرَةِ » ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] أَيُّ : هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْإِنْتِلَاءِ وَالِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ الَّذِي يَعْقِبُهُ النَّصْرُ الْقَرِيبُ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ دَلِيلٌ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيْمَانِ وَقُوَّتِهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى النَّاسِ وَأَحْوَالِهِمْ ، كَمَا قَالَهُ جُمْهُورُ الْأَئِمَّةِ : إِنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أَيُّ : ذَلِكَ الْحَالُ وَالضِّيقُ وَالشَّدَّةُ ﴿ إِلَّا إِيمَانًا ﴾ بِاللَّهِ ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ أَيُّ : انْقِيَادًا لِأَمْرِهِ ، وَطَاعَةً لِرَسُولِهِ ﷺ .

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١٨﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ ﷻ عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ نَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ لَا يُؤْلُونَ الْأَدْبَارَ ، وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَ ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : أَجَلُهُ ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : عَهْدُهُ ، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أَيُّ : وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَ اللَّهِ وَلَا نَقَضُوهُ وَلَا بَدَّلُوهُ . عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ : لَمَّا نَسَخْنَا الْمُصْحَفَ فَقَدْتُ آيَةٌ مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ ، كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُهَا ،

لَمْ أَجِدْهَا إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ بِنِ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه ، الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَتَهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ : عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ رضي الله عنه الَّذِي سُمِّيَتْ بِهِ ، لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ فَشَقَّ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غُيِّبْتُ عَنْهُ ، لَئِنْ أَرَانِي اللَّهَ تَعَالَى مَشْهَدًا فِيهَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيَرَيْنَّ اللَّهُ ﷻ مَا أَصْنَعُ قَالَ : فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا ، فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَاسْتَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه ، فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ رضي الله عنه : يَا أَبَا عَمْرٍو ؛ أَيْنَ ؟ وَاهَا لِرِيحِ الْجَنَّةِ ، إِنِّي أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ ، قَالَ : فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ رضي الله عنه ، قَالَ : فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بَضْعٌ وَتَنَائُونٌ مِنْ صَرَبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمِيَةٍ ، فَقَالَتْ أُخْتُهُ - عَمَّتِي الرَّبِيعُ ابْنَةُ النَّضْرِ - : فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِنَتَانِهِ ، قَالَ : فَتَزَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ قَالَ : فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ رضي الله عنه . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « طَلْحَةُ مِّنْ قَضَىٰ نَحْبِهِ » . قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ عَهْدُهُ ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ قَالَ : يَوْمًا فِيهِ قِتَالٌ فَيَصْدُقُ فِي اللَّقَاءِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ يَعْنِي : مَوْتُهُ عَلَى الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ الْمَوْتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُبَدِّلْ تَبْدِيلًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أَيُّ : وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَهُمْ وَبَدَّلُوا الْوَفَاءَ بِالْغَدْرِ ، بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يُخْتَبَرُ عِبَادُهُ بِالْخَوْفِ وَالزَّلَالِ ؛ لِيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، فَيُظْهِرَ أَمْرَ هَذَا بِالْفِعْلِ ، وَأَمْرَ هَذَا بِالْفِعْلِ ، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ كَوْنِهِ ، وَلَكِنْ لَا يُعَذِّبُ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ فِيهِمْ حَتَّى يَعْمَلُوا بِمَا يَعْلَمُهُ فِيهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أَيُّ : بِصَبْرِهِمْ عَلَى مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَقِيَامِهِمْ بِهِ وَحِفَظَتِهِمْ عَلَيْهِ ﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ ﴾ وَهُمْ النَّاقِضُونَ لِعَهْدِ اللَّهِ الْمُخَالِفُونَ لِأَوَامِرِهِ ، فَاسْتَحَقُّوا بِذَلِكَ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ ، وَلَكِنْ هُمْ تَحْتَ مَشِيتِهِ فِي الدُّنْيَا ، إِنْ شَاءَ اسْتَمَرَّ بِهِمْ عَلَى مَا فَعَلُوا حَتَّى يَلْقَوْهُ فَيُعَذِّبُهُمْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ أَرْسَدَهُمْ إِلَى الزُّرُوعِ عَنِ النَّفَاقِ إِلَى الْإِيْبَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بَعْدَ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ، وَلَمَّا كَانَتْ رَحْمَتُهُ وَرَأْفَتُهُ بِخَلْقِهِ هِيَ الْغَالِبَةُ لِغَضَبِهِ قَالَ : ﴿ إِنْ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَارَبَ

اللَّهُ قَوْمًا عَزِيزًا ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَحْزَابِ لَمَّا أَجْلَاهُمْ عَنِ الْمَدِينَةِ بِمَا أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ وَالْجُنُودِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ رَسُولَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ لَكَانَتْ هَذِهِ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ الْعَقِيمِ عَلَى عَادٍ ، وَلَكِنْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٢٣] فَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ هَوَاءَ فَرَّقَ شَمْلَهُمْ ، كَمَا كَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْهَوَى ، وَهُمْ أَخْلَاطٌ مِنْ قَبَائِلَ شَتَّى ، أَحْزَابٌ وَآرَاءُ ، فَتَنَسَّبَ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ الْهَوَاءَ الَّذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَهُمْ وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ بَغِيزِهِمْ وَحَقِيقَهُمْ لَمْ يَتَأَلَوْا خَيْرًا ، لَا فِي الدُّنْيَا مِمَّا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالْمَغْنَمِ ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ بِمَا تَحْمَلُوهُ مِنَ الْأَثَامِ فِي مُبَارَزَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْعَدَاوَةِ ، وَهَمَّهُمْ بِقَتْلِهِ وَاسْتِئْصَالِ جَنِيحِهِ ، وَمَنْ هُمْ بِشَيْءٍ وَصَدَّقَ هَمَّهُ بِفِعْلِهِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَفَاعِلِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أَيُّ : لَمْ يَخْتِجُوا إِلَى مُنَازَلَتِهِمْ وَمُبَارَزَتِهِمْ حَتَّى يُجْلُوهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ ، بَلْ كَفَى اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَفِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى وَضْعِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ ، وَهَكَذَا وَقَعَ بَعْدَهَا لَمْ يَغْزِهِمُ الْمُشْرِكُونَ بَلْ غَزَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي بِلَادِهِمْ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ « الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا غَزِيرًا ﴾ أَيُّ : بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ رَدَّهُمْ خَائِبِينَ لَمْ يَتَأَلَوْا خَيْرًا ، وَأَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ ، وَصَدَّقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ رَسُولَهُ وَعَبْدَهُ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٤﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٥﴾

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ لَمَّا قَدِمَتْ جُنُودُ الْأَحْزَابِ وَنَزَلُوا عَلَى الْمَدِينَةِ نَقَضُوا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَهْدِ ، وَكَانَ ذَلِكَ بِسِفَارَةِ حُيَّيِّ بْنِ أَخْطَبِ النَّضْرِيِّ - لَعَنَهُ اللَّهُ - دَخَلَ حِصْنَهُمْ وَلَمْ يَزَلْ بِسَيِّدِهِمْ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ حَتَّى نَقَضَ الْعَهْدَ ، وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ : وَيْحَكَ قَدْ جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ ، أَتَيْتُكَ بِقُرَيْشٍ وَأَحَابِيشِهَا ، وَغَطَفَانَ وَاتَّبَاعِهَا ، وَلَا يَزَالُونَ هَهُنَا حَتَّى يَسْتَأْصِلُوا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ ، فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ : بَلْ وَاللَّهِ أَتَيْتَنِي بِذُلِّ الدَّهْرِ ، وَيْحَكَ يَا حُيَّيُّ إِنَّكَ مَشْتُوٌّ فَدَعْنَا مِنْكَ ، فَلَمْ يَزَلْ يَقْتُلُ فِي الدَّزَوَةِ وَالْغَارِبِ حَتَّى أَجَابَهُ ، وَاشْتَرَطَ لَهُ حُيَّيُّ أَنْ يَذْهَبَ الْأَحْزَابُ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْءٌ أَنْ يَدْخُلَ مَعَهُمْ فِي الْحِصْنِ فَيَكُونَ لَهُ أَسْوَتُهُمْ ، فَلَمَّا نَقَضَتْ قُرَيْظَةُ ، وَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاءَءُ وَشَقَّ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ جِدًّا ، فَلَمَّا أَيْدَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَصَرَهُ وَكَبَّتِ الْأَعْدَاءُ ، وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ بِأَخْسَرِ صَفْقَةٍ ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ

مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا ، وَوَضَعَ النَّاسُ السَّلَاحَ ، فَبَيَّنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْتَسِلُ مِنْ وَعْنَاءِ تِلْكَ الْمُرَابَطَةِ فِي بَيْتٍ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - إِذْ تَبَدَّى لَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا فَطِيفَةٌ مِنْ دِيْبَاجٍ ، فَقَالَ : أَوْضَعْتَ السَّلَاحَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ ﷺ : « نَعَمْ » قَالَ : لَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ أَسْلِحَاحَتَهَا ، وَهَذَا الْآنَ رُجُوعِي مِنْ طَلَبِ الْقَوْمِ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ - يَأْمُرُكَ أَنْ تَنْهَضَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ - وَفِي رِوَايَةٍ - فَقَالَ لَهُ : عَذِيرُكَ مِنْ مُقَاتِلٍ ، أَوْضَعْتُمُ السَّلَاحَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » قَالَ : لَكِنَّا لَمْ نَضَعْ أَسْلِحَتَنَا بَعْدُ ، إِنْهَضْ إِلَى هَؤُلَاءِ قَالَ ﷺ : « أَيْنَ ؟ » قَالَ : بَنِي قُرَيْظَةَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أُرْزَلَ عَلَيْهِمْ ، فَتَهَضَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْمِهِ ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالمَسِيرِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَكَانَتْ عَلَى أُمِّيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ وَذَلِكَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ ، وَقَالَ : « لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ » فَسَارَ النَّاسُ فَأَدْرَكْتَهُمُ الصَّلَاةُ فِي الطَّرِيقِ ، فَصَلَّى بَعْضُهُمْ فِي الطَّرِيقِ ، وَقَالُوا : لَمْ يَرِدْ مِنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا تَعْجِيلَ الْمَسِيرِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَا نُصَلِّيْهَا إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَلَمْ يُعْتَفَ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَتَبِعَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ اسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ؓ ، وَأَعْطَى الرَّايَةَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؓ . ثُمَّ نَارَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْحَالُ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ سَيِّدِ الْأَوْسِ ؓ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا حُلَفَاءَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ، كَمَا فَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سَلُولٍ فِي مَوَالِيهِ بَنِي قَيْنِقَاعٍ حِينَ اسْتَطْلَقَهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَظَنَّ هَؤُلَاءِ أَنَّ سَعْدًا سَيَفْعَلُ فِيهِمْ كَمَا فَعَلَ ابْنُ أَبِي فِي أَوْلَئِكَ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ سَعْدًا ؓ كَانَ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ فِي أَكْحَلِهِ أَيَّامَ الْخَنْدَقِ فَكَوَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَكْحَلِهِ وَأَنْزَلَهُ فِي قُبَّةٍ فِي الْمَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ ، وَقَالَ سَعْدٌ ؓ : فِيمَا دَعَا بِهِ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَأَفْجُرْهَا وَلَا تُمِتَّنِي حَتَّى تُقَرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى دُعَاءَهُ ، وَقَدَّرَ عَلَيْهِمْ أَنْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ بِاخْتِيَارِهِمْ طَلَبًا مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَدْعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ لِيَحْكُمَ فِيهِمْ ، فَلَمَّا أَقْبَلَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى جِمَارٍ قَدْ وَطِئُوا لَهُ عَلَيْهِ جَعَلَ الْأَوْسُ يُلُودُونَ بِهِ ، وَيَقُولُونَ : يَا سَعْدُ إِنَّهُمْ مَوَالِيكَ فَأَحْسِنْ فِيهِمْ ، وَيُرَفِّقُونَهُ عَلَيْهِمْ وَيُعْطِفُونَهُ وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ ﷺ : لَقَدْ أَنْ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ . فَعَرَفُوا أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَبْقِيهِمْ ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْحَيْمَةِ الَّتِي فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ » فَقَامَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فَأَنْزَلُوهُ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاحْتِرَامًا لَهُ فِي مَحَلٍّ وَلَايَتِهِ ؛ لِيَكُونَ أَنْفَذَ حُكْمِهِ فِيهِمْ ، فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ هَؤُلَاءِ - وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ - قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ فَأَحْكَمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ »

فَقَالَ ﷺ وَحُكْمِي نَافِذٌ عَلَيْهِمْ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » قَالَ : وَعَلَى مَنْ فِي هَذِهِ الْحَيْمَةِ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » قَالَ : وَعَلَى مَنْ هَهُنَا ؟ - وَأَشَارَ إِلَى الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُعْرِضٌ بِوَجْهِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِجْلَالًا وَإِكْرَامًا وَإِعْظَامًا - فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ » فَقَالَ ﷺ : إِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسَبَى ذُرِّيَّتُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ » وَفِي رِوَايَةٍ « لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ » ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَخَادِيدِ فَخُدَّتْ فِي الْأَرْضِ ، وَجِيءَ بِهِمْ مُكْتَفَيْنَ فَضْرَبَ أَعْنَاقَهُمْ ، وَكَانُوا مَا بَيْنَ السَّبْعِمِائَةِ إِلَى الثَّانِمِائَةِ ، وَسَبَى مَنْ لَمْ يُنَبِّتْ مِنْهُمْ مَعَ النِّسَاءِ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ أَيُّ : عَاوَنُوا الْأَحْزَابَ وَسَاعَدُوهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يَعْنِي : بَنِي قُرَيْظَةَ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ بَعْضِ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ . ﴿ مِنْ صِيَاصِهِمْ ﴾ يَعْنِي : حُصُونِهِمْ . وَمِنْهُمْ سُمِّيَتْ صِيَاصِي الْبَقَرِ ، وَهِيَ قُرُوءُهَا ؛ لِأَنَّهَا أَعْلَى شَيْءٍ فِيهَا ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ وَهُوَ الْخَوْفُ ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ فَالَّذِينَ قُتِلُوا هُمُ الْمُقَاتِلَةُ ، وَالْأَسْرَاءُ هُمُ الْأَصَاغِرُ وَالنِّسَاءُ . ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ أَيُّ : جَعَلَهَا لَكُمْ مِنْ قَتْلِكُمْ لَهُمْ ﴿ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا ﴾ قِيلَ : خَيْبَرَ ، وَقِيلَ : مَكَّةَ ، وَقِيلَ : فَارِسَ وَالرُّومَ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ مُرَادًا ﴿ وَكَاتَبَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿١٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنْ يُخَيِّرَ نِسَاءَهُ بَيْنَ أَنْ يُفَارِقَهُنَّ ، فَيَذْهَبْنَ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ يَحْصُلُ لَهُنَّ عِنْدَهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَبَيْنَ الصَّبْرِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ ضِيقِ الْحَالِ ، وَهُنَّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ، فَاخْتَرْنَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ - اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ ، فَجَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُنَّ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَسَعَادَةِ الْآخِرَةِ .

عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَالنَّاسُ بِيَابِهِ جُلُوسٌ وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، ثُمَّ أَذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَدَخَلَا ، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ وَحَوْلَهُ نِسَاؤُهُ ، وَهُوَ ﷺ سَاكِتٌ ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : لَا أَكَلِمَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَلَّهُ يَضْحَكُ ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ رَأَيْتَ ابْنَهُ زَيْدَ - امْرَأَةً عُمَرَ - سَأَلْتَنِي التَّفَقَّةَ أَنْفًا فَوَجَأْتُ عَنْقَهَا ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ وَقَالَ :

« هُنَّ حَوْلِي يَسْأَلُنِي النَّفَقَةَ » فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ إِلَى عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - لِيَضْرِبَهَا ، وَقَامَ عُمَرُ ﷺ إِلَى حَفْصَةَ ، كِلَاهُمَا يَقُولَانِ : تَسْأَلَانِ النَّبِيَّ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، فَتَنَاهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَ : وَاللَّهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذَا الْمَجْلِسِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، قَالَ : وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ الْحِيارَ ، فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَقَالَ : « إِنِّي أَذْكَرُ لَكَ أَمْرًا مَا أَحِبُّ أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوبَكْرٍ » قَالَتْ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : فَتَلَا عَلَيْهَا ﴿ يَتْلُهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكِ ﴾ الْآيَةَ قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : أَيْفِكَ أَسْتَأْمِرُ أَبُوبَكْرٍ ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تَذْكَرَ لِمَرْأَةٍ مِنْ نِسَائِكَ مَا اخْتَرْتُ ، فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنَّفًا ، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُبَشِّرًا ، لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةً مِنْهُنَّ عَمَّا اخْتَرْتُ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا » . قَالَ عِكْرَمَةُ : وَكَانَ تَحْتَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ ، هَمْسٌ مِنْ قُرَيْشٍ : عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَأُمُّ حَبِيبَةَ وَسُودَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ ، وَكَانَتْ تَحْتَهُ ﷻ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيِّ النَّضِيرِيَّةُ ، وَمَيْمُونَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْهَلَالِيَّةُ ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ الْأَسَدِيَّةُ ، وَجُوبَرِيَّةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْمُصْطَلِقِيَّةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ - .

يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٨٠﴾ * وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ لَلَّهِ وَرَسُولِهِ - وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٨١﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَاعِظًا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ اللَّاتِي اخْتَرْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ ، وَاسْتَقَرَّ أَمْرُهُنَّ تَحْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَتَنَسَّبَ أَنْ يُخْبِرُهُنَّ بِحُكْمِهِنَّ وَتُخَصِّصِهِنَّ دُونَ سَائِرِ النِّسَاءِ بِأَنْ مَنْ يَأْتِ مِنْهُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : وَهِيَ النُّشُوزُ وَسُوءُ الْخُلُقِ - وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَهُوَ شَرْطٌ ، وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥] ، وَكَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴾ [الزخرف: ٨١] ، فَلَمَّا كَانَتْ مَحَلَّتُهُنَّ رَفِيعَةً نَاسِبًا أَنْ يَجْعَلَ الذَّنْبَ لَوْ وَقَعَ مِنْهُنَّ مُغْلَظًا صِيَانَةً لِحَنَائِبِهِنَّ وَحِجَابِهِنَّ الرَّفِيعَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَنْ يَأْتِ مِنْكَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أَيِ : سَهْلًا هَيَّأً . ثُمَّ ذَكَرَ عَذْلَهُ وَفَضْلَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ لَلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أَيِ : تُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَسْتَجِيبَ ﴿ نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ أَيِ : فِي الْجَنَّةِ ، فَإِنَّهُنَّ فِي مَنَازِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ ، فَوْقَ مَنَازِلِ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ ، فِي الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْعَرْشِ .

يَنْسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي

فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٦٦﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٦٧﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٦٨﴾

هَذِهِ آدَابُ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِهَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنِسَاءُ الْأُمَّةِ تَبَعُ لَهُنَّ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ مُحَاطًا لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: بِأَنَّهُنَّ إِذَا اتَّقَيْنَ اللَّهَ ﷻ كَمَا أَمَرَهُنَّ فَإِنَّهُ لَا يُشَبِّهُهُنَّ أَحَدٌ مِنَ النِّسَاءِ، وَلَا يَلْحَقُهُنَّ فِي الْفَضِيلَةِ وَالْمَنْزِلَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ تَرْقِيقُ الْكَلَامِ إِذَا خَاطَبَنَ الرِّجَالَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَيُطَمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أَي: دَغَلٌ ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قَوْلًا حَسَنًا جَمِيلًا مَعْرُوفًا فِي الْخَيْرِ، وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّهَا تُحَاطَبُ الْأَجَانِبَ بِكَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ تَرْخِيمٌ، أَي: لَا تُحَاطَبُ الْمَرْأَةُ الْأَجَانِبَ كَمَا تُحَاطَبُ رَوْجَهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أَي: الرِّمْنَ بُيُوتَكُنَّ فَلَا تَخْرُجْنَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ، وَمِنْ الْحَوَائِجِ الشَّرْعِيَّةِ الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ بِشَرْطِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ، وَلِيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفَلَّاتٌ» وَفِي رِوَايَةٍ «وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَّهُنَّ». وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ بِرَوْحَةٍ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا. وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا».

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: إِذَا خَرَجْتُنَّ مِنْ بُيُوتِكُنَّ - وَكَانَتْ لَهُنَّ مِشْيَةٌ وَتَكْسُّرٌ وَتَعَنَّجٌ - فَهِيَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾، وَالتَّبَرُّجُ: أَنَّهَا تُلْفِي الْحِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا، وَلَا تَشُدُّهَ فَيُؤَارِي فَلَانِدَهَا وَقَرَطَهَا وَعَنْقَهَا، وَيَبْدُو ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا، وَذَلِكَ التَّبَرُّجُ، ثُمَّ عَمَّتْ نِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي التَّبَرُّجِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ مَبَاهِجٌ أَوَّلًا عَنِ الشَّرِّ، ثُمَّ أَمَرَهُنَّ بِالْخَيْرِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَهِيَ: عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ وَهِيَ: الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وَهَذَا نَصٌّ فِي دُخُولِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ هَهُنَا؛ لِأَنَّهُنَّ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، ثُمَّ الَّذِي لَا يَشْكُ فِيهِ مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ أَنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ دَاخِلَاتٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. فَإِنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ مَعَهُنَّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ بَعْدَ

هَذَا كُلُّهُ : ﴿ وَادْكُرْتَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أَيُّ : وَاعْمَلْنَ بِمَا يُنْزَلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَادْكُرْنَ هَذِهِ النُّعْمَةَ الَّتِي خُصَّصْتُنَّ بِهَا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ : أَنَّ الْوَحْيَ يُنْزَلُ فِي بُيُوتِكُنَّ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ وَعَائِشَةُ الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَوَّلَاهُنَّ بِهَذِهِ النُّعْمَةِ ، وَأَحْظَاهُنَّ بِهَذِهِ الْعَنِيمَةِ ، وَأَخْصَّهِنَّ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الْعَمِيمَةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُنْزَلْ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْوَحْيُ فِي فِرَاشِ امْرَأَةٍ سِوَاهَا ، كَمَا نَصَّ عَلَىٰ ذَلِكَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لِأَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجَ بِكَرَا سِوَاهَا ، وَلَمْ يَنْمَ مَعَهَا رَجُلٌ فِي فِرَاشِهَا سِوَاهُ فَتَنَسَّبَ أَنْ تُخَصَّصَ بِهَذِهِ الْمُرْتَبَةِ ، وَأَنْ تُفَرَّدَ بِهَذِهِ الْمُرْتَبَةِ الْعَلِيَّةِ ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ أَزْوَاجُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَرَابَتُهُ أَحَقُّ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أَيُّ : يَلُطِّفُهُ بِكُنَّ بَلَّغَتْ هَذِهِ الْمُنْزِلَةَ وَبِخَبَرَتِهِ بِكُنَّ ، وَاتَّكَنَ أَهْلُ لَذَلِكَ ، أَعْطَاكُنَّ ذَلِكَ وَخَصَّكُنَّ بِذَلِكَ .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِغِينَ وَالصَّابِغَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٥٦﴾

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : مَا لَنَا لَا نَذْكُرُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يُذَكِّرُ الرِّجَالُ ؟ قَالَتْ : فَلَمْ يَرُعْنِي مِنْهُ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَّا وَنِدَاؤُهُ عَلَى الْمَنِيرِ ، قَالَتْ : وَأَنَا أَسْرَحُ شَعْرِي ، فَلَفَفْتُ شَعْرِي ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرِ بَيْتِي ، فَجَعَلْتُ سَمْعِي عِنْدَ الْجَرِيدِ ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ عِنْدَ الْمَنِيرِ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ » إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ غَيْرُ الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ أَخْصُ مِنْهُ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءِامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : « لَا يَزِيهِ الزَّانِي حِينَ يَزِيهِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ » فَسَلْبَةُ الْإِيمَانِ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ كُفْرُهُ بِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ، فَذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ أَخْصُ مِنْهُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ ﴾ الْقُنُوتُ : هُوَ الطَّاعَةُ فِي سُكُونٍ ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ هَذَا فِي الْأَقْوَالِ ، فَإِنَّ الصَّدَقَ خَصْلَةٌ مُحْمَدَةٌ ، وَهَذَا كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ لَمْ تُجَرَّبَ عَلَيْهِ كِذْبَةٌ لَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا فِي الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ عَلَامَةٌ عَلَى الْإِيمَانِ ، كَمَا أَنَّ الْكَذِبَ

أَمَارَةٌ عَلَى النَّفَاقِ ، وَمَنْ صَدَقَ نَجَا ﴿ وَالصَّيْرِينَ وَالصَّيْرَتِ ﴾ هَذِهِ سَجِيَّةُ الْأَثْبَاتِ ، وَهِيَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ ، وَالْعِلْمُ بِأَنَّ الْمُقَدَّرَ كَائِنْ لَا مُحَالَةَ ، وَتَلَقَّى ذَلِكَ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ ، ﴿ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَتِ ﴾ الْخُشُوعُ : السُّكُونُ وَالطَّمَأْنِينَةُ وَالتَّوَدُّةُ وَالْوَقَارُ وَالتَّوَاضُّعُ .

﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَتِ ﴾ الصَّدَقَةُ هِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ الْمَحَاوِجِ الضُّعَفَاءِ الَّذِينَ لَا كَسْبَ لَهُمْ وَلَا كَاسِبٌ ، يُعْطُونَ مِنْ فُضُولِ الْأَمْوَالِ طَاعَةً لِلَّهِ وَإِحْسَانًا إِلَى خَلْقِهِ .

﴿ وَالصَّيْمِينَ وَالصَّيْمَتِ ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ دَخَلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالصَّيْمِينَ وَالصَّيْمَتِ ﴾ ، وَلَمَّا كَانَ الصَّوْمُ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى كَسْرِ الشَّهْوَةِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ » نَاسَبَ أَنْ يَذْكَرَ بَعْدَهُ ﴿ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَتِ ﴾ أَيُّ : عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ إِلَّا عَنِ الْمُبَاحِ ، كَمَا قَالَ ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ إِلَّا عَلَى أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿ فَمَنْ آتَنَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥-٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ ، فَاتَى عَلَى جُمْدَانَ فَقَالَ « هَذَا جُمْدَانُ ، سِيرُوا فَقَدْ سَبَقَ الْمَفْرُودُونَ » قَالُوا : وَمَا الْمَفْرُودُونَ ؟ قَالَ ﷺ : « الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيُّ : هَيَّا لَهُمْ مِنْهُ لِدُنُوبِهِمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا وَهُوَ الْجَنَّةُ .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - حِينَ خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ؓ ، اِمْتَنَعَتْ ثُمَّ أَجَابَتْ ، وَالْأَيُّ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا حَكَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِشَيْءٍ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مُخَالَفَتُهُ وَلَا اخْتِيَارَ لِأَحَدٍ هَهُنَا ، وَلَا رَأْيٍ وَلَا قَوْلٍ ، وَهَذَا شَدَدٌ فِي خِلَافِ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣]

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ

وَطَرًا وَكَاتَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِمَوْلَاهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ وَهُوَ الَّذِي ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾
 أَيُّ : بِالْإِسْلَامِ وَمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَتَعَمَّتْ عَلَيْهِ ﷻ أَيُّ : بِالْعِتْقِ مِنَ الرِّقِّ ، وَكَانَ سَيِّدًا كَبِيرَ
 الشَّانِ ، جَلِيلَ الْقَدْرِ ، حَبِيبًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، يُقَالُ لَهُ : الْحَبُّ ، وَيُقَالُ لِابْنِهِ : أَسَامَةُ الْحَبُّ ابْنُ
 الْحَبِّ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ زَوَّجَهُ بِابْنَتِهِ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ الْأَسَدِيَّةِ ، فَمَكَثَتْ عِنْدَهُ
 قَرِيبًا مِنْ سَنَةٍ أَوْ فَوْقَهَا ، ثُمَّ وَقَعَ بَيْنَهُمَا ، فَجَاءَ زَيْدٌ يَشْكُوهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ
 ﷺ يَقُولُ لَهُ : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ » قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ
 مُبْدِيهِ وَتُخْفَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا وَزَوَّجْنَاهَا ﴾ الْوَطَرُ : هُوَ الْحَاجَةُ وَالْأَرْبُ ، أَيُّ : لَمَّا
 فَرَغَ مِنْهَا وَفَارَقَهَا وَزَوَّجْنَاهَا ، وَكَانَ الَّذِي وَلِيَ تَزْوِيجَهَا مِنْهُ هُوَ اللَّهُ ﷻ بِمَعْنَى : أَنَّهُ أَوْحَى أَنْ
 يَدْخُلَ عَلَيْهَا بِلَا وَلِيٍّ وَلَا عَقْدٍ وَلَا مَهْرٍ وَلَا شُهُودٍ مِنَ الْبَشَرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾
 أَيُّ : إِنَّمَا أَبْخَا لَكَ تَزْوِيجَهَا وَفَعَلْنَا ذَلِكَ ؛ لِئَلَّا يَبْقَى حَرَجٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَزْوِيجِ مُطَلَّقاتِ
 الْأَدْعِيَاءِ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ قَدْ تَبَنَّى زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ فَكَانَ يُقَالُ : زَيْدُ
 ابْنِ مُحَمَّدٍ ، فَلَمَّا قَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ النُّسْبَةَ يَقُولُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أبنَاءَكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ
 تَعَالَى : ﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الْأَحْزَابُ : ٤-٥] ثُمَّ زَادَ ذَلِكَ بَيَانًا وَتَأْكِيدًا
 بِوُقُوعِ تَزْوِيجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - لَمَّا طَلَّقَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ
 ﷺ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النِّسَاءُ : ٢٣]
 لِيَحْتَرَزَ مِنَ الْإِبْنِ الدَّعِيِّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ كَثِيرًا فِيهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَاتَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾
 أَيُّ : وَكَانَ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي وَقَعَ قَدْ قَدَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَحَتَّمَهُ ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا حَالَةَ ، كَانَتْ زَيْنَبُ
 - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فِي عِلْمِ اللَّهِ سَتَصِيرُ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ .

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ
 وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أَيُّ : فِيمَا أَحَلَّ لَهُ وَأَمَرَهُ بِهِ مِنْ
 تَزْوِيجِ زَيْنَبَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - الَّتِي طَلَّقَهَا دَعِيَّةُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أَيُّ : هَذَا حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ، لَمْ يَكُنْ

لِيَأْمُرَهُمْ بِشَيْءٍ وَعَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ حَرَجٌ ، وَهَذَا رَدُّ عَلَى مَنْ تَوَهَّم مِنَ الْمُنَافِقِينَ نَقْصًا فِي تَرْوِيحِهِ
إِمْرَأَةً زَيْدٌ مَوْلَاهُ وَدَعِيهِ الَّذِي كَانَ قَدْ تَبَنَاهُ ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ أَيُّ : وَكَانَ أَمْرُهُ الَّذِي
يُقَدِّرُهُ كَانَتْ لَا مُحَالَةً ، وَوَاقِعًا لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا مُعَدِّلَ ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا تَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۖ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا
﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

يَمْدَحُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : إِلَى خَلْقِهِ وَيُؤَدِّدُونَهَا بِأَمَانَتِهَا ﴿ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾
أَيُّ : يَخَافُونَهُ وَلَا يَخَافُونَ أَحَدًا سِوَاهُ ، فَلَا تَمْنَعُهُمْ سَطْوَةُ أَحَدٍ عَنْ إِبْلَاغِ رِسَالَاتِ اللَّهِ تَعَالَى
﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أَيُّ : وَكَفَى بِاللَّهِ نَاصِرًا وَمُعِينًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ نَهَى أَنْ يُقَالَ بَعْدَ هَذَا : زَيْدٌ بْنُ مُحَمَّدٍ ،
أَيُّ : لَمْ يَكُنْ أَبَاهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَبَنَاهُ ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَعِشْ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرَ حَتَّى بَلَغَ الْحُلُمَ ، فَإِنَّهُ ﷺ وَلَدَ لَهُ
الْقَاسِمُ وَالطَّيِّبُ وَالطَّاهِرُ مِنْ خَدِيجَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَهَاتُوا صِغَارًا ، وَوُلِدَ لَهُ ﷺ إِبْرَاهِيمُ
مِنْ مَارِيَةِ الْقُبَيْطِيَّةِ ، فَهَاتِ أَيْضًا رَضِيعًا . ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ﴾ كَقَوْلِهِ ﷺ : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ تَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، فَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ لَا
نَبِيَّ بَعْدَهُ ، وَإِذَا كَانَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ فَلَا رَسُولَ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى ؛ لِأَنَّ مَقَامَ الرِّسَالَةِ
أَخْصَ مِنْ مَقَامِ النُّبُوَّةِ ، فَإِنْ كُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلَا يَنْعَكِشُ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿ وَسَيِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ هُوَ الَّذِي
يُصَلِّيَ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا
﴿ خَلَقْتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَمًا ۖ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِمْ لِرَبِّهِمْ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الْمُنْعِمَ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ
النِّعَمِ وَصُنُوفِ الْمُنَنِ ، لِأَنَّ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ وَجَمِيلِ الْمَالِ . عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ؓ قَالَ :
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ،
وَحَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ
وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ » قَالُوا : وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ ﷺ : « ذِكْرُ اللَّهِ ﷻ . » وَرُوي عَنْ
ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَفْرِضْ عَلَى

عِبَادِهِ فَرِيضَةً إِلَّا جَعَلَ لَهَا حَدًّا مَعْلُومًا ، ثُمَّ عَذَرَ أَهْلَهَا فِي حَالِ الْعُذْرِ ، غَيْرَ الذِّكْرِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَعْزُرْ أَحَدًا فِي تَرْكِهِ إِلَّا مَغْلُوبًا عَلَى تَرْكِهِ ، فَقَالَ : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٣] بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَفِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ ، وَالْغَنَى وَالْفَقْرَ ، وَالسَّقَمَ وَالصَّحَّةَ ، وَالسِّرَّ وَالْعَلَانِيَةَ ، وَعَلَىٰ كُلِّ حَالٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أَي : عِنْدَ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ فَسُبِّحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : ١٧-١٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ هَذَا تَهْنِئَةٌ إِلَى الذِّكْرِ ، أَي : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَذْكُرْكُمْ فَادْكُرُوهُ أَنْتُمْ ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ » . وَالصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى : ثَنَاؤُهُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ ، وَقِيلَ : الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ ﷻ : الرَّحْمَةُ ، وَقَدْ يُقَالُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَأَمَّا الصَّلَاةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ : فَمَعْنَى الدُّعَاءِ لِلنَّاسِ وَالِاسْتِغْفَارِ . ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أَي : بِسَبَبِ رَحْمَتِهِ بِكُمْ وَثَنَائِهِ عَلَيْكُمْ ، وَدُعَاءِ مَلَائِكَتِهِ لَكُمْ ، يُخْرِجُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ قَدْ أَخَذَتْ صَبِيًّا لَهَا ، لَصِقَتْهُ إِلَى صَدْرِهَا وَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ ﷺ : « أَتَرُونَ هَذِهِ تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ ؟ » قَالُوا : لَا . قَالَ ﷺ : « فَوَاللَّهِ لَئِنْ أَرْحَمَ بَعَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدَهَا » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَحْمِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - ﴿ نَحْمِيَّتُهُمْ ﴾ أَي : مِنْ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ أَي : يَوْمَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] ، وَزَعَمَ قَتَادَةُ أَنَّ الْمُرَادَ : أَنَّهُمْ يُحْيِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ يَوْمَ يَلْقَوْنَ اللَّهَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . قُلْتُ : وَقَدْ يُسْتَدَلُّ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَائِكِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَنَاجِحِ وَالْمَلَاذِّ وَالْمَنَاظِرِ ، بِمَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .

يَنَائِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١٦١﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿١٦٢﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٦٣﴾

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ : لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَقُلْتُ : أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ ، قَالَ : أَجَلٌ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ ، فَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمِيتُكَ الْمُتَوَكَّلَ ، لَيْسَ بِفَطٍّ وَلَا غَلِيظٌ وَلَا سَخَّابٌ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَذْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمَيَّا ، وَأَذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ شَهِيدًا ﴾ أَيُّ : اللَّهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَعَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .
﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَيُّ : بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِجَزِيلِ الثَّوَابِ ، وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ مِنْ وَبِيلِ الْعِقَابِ .
﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أَيُّ : دَاعِيًا لِلخَلْقِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ عَنْ أَمْرِهِ لَكَ بِذَلِكَ ﴿ وَسِرَاجًا مُبِيرًا ﴾ أَيُّ : وَأَمْرُكَ ظَاهِرٌ فِيمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ، كَالشَّمْسِ فِي إِشْرَاقِهَا وَإِضَاءَتِهَا لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا مُعَانِدٌ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أَيُّ : لَا تَطْعَمْهُمْ وَتَسْمَعْ مِنْهُمْ فِي الَّذِي يَقُولُونَهُ ﴿ وَدَعِ أذْنَهُمْ ﴾ أَيُّ : اصْفَحْ وَتَجَاوَزْ عَنْهُمْ وَكُلْ أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ فِيهِ كِفَايَةً لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ
فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿١٨﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا إِطْلَاقُ النِّكَاحِ عَلَى الْعَقْدِ وَحْدَهُ ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَضْرَحُ فِي ذَلِكَ مِنْهَا ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي النِّكَاحِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ فِي الْعَقْدِ وَحْدَهُ أَوْ فِي الْوَطْءِ أَوْ فِيهِمَا ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ ، وَاسْتَعْمَلَ الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْعَقْدِ وَالْوَطْءِ بَعْدَهُ إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهُ أُسْتُعْمِلَ فِي الْعَقْدِ وَحْدَهُ لِقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ لِإِبَاحَةِ طَلَاقِ الْمَرْأَةِ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ ، إِذْ لَا فَرْقَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الْمُؤْمِنَةِ وَالْكِتَابِيَّةِ فِي ذَلِكَ بِالِاتِّفَاقِ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ : الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ إِلَّا إِذَا تَقَدَّمَ نِكَاحٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ فَعَقَّبَ النِّكَاحَ بِالطَّلَاقِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ وَلَا يَقَعُ قَبْلَهُ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا ﴾ هَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا طُلِّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا لَا عِدَّةَ عَلَيْهَا ، فَتَذْهَبُ فَتَتَزَوَّجُ فِي فَوْرِهَا مَنْ شَاءَتْ وَلَا يُسْتَشْنَى مِنْ هَذَا إِلَّا الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا ، فَإِنَّهَا تَعْتَدُ مِنْهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا

بِالْإِجْمَاعِ أَيْضًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَتَّعُوهُمْ وَسَرَّحُوهُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ الْمُتَّعَةُ هَهُنَا أَعْمٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ نِصْفَ الصَّدَاقِ الْمُسَمَّى ، أَوْ الْمُتَّعَةُ الْخَاصَّةُ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ سَمِيَ لَهَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، وَقَالَ ﷺ : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ ، وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرَهُ . مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ وَأَبِي أُسَيْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَا : إِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَ أُمِيمَةً بِنْتَ سَرَاحِيلَ ، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ بَسْطَ يَدَهُ إِلَيْهَا ، فَكَأَنَّمَا كَرِهَتْ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ أَبَا أُسَيْدٍ أَنْ يُجَهِّزَهَا وَيَكْسُوَهَا ثَوْبَيْنِ رَازِقَيْنِ . وَرُوي عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنْ كَانَ سَمَى لَهَا صَدَاقًا فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا النِّصْفُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَمَى لَهَا صَدَاقًا أَمْتَعَهَا عَلَى قَدْرِ عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ ، وَهُوَ السَّرَاحُ الْجَمِيلُ .

يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا نَبِيَّهَ ﷺ بِأَنَّهُ قَدْ أَحْلَلَ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ أَزْوَاجَهُ اللَّاتِي أَعْطَاهُنَّ مَهْرَهُنَّ وَهِيَ الْأُجُورُ هَهُنَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أَيُّ : وَأَبَاحَ لَكَ التَّسْرِي مِمَّا أَخَذْتَ مِنَ الْمَغَانِمِ ، وَقَدْ مَلَكَ صَفِيَّةَ وَجُورِيَّةَ فَأَعْتَقَهُمَا وَتَزَوَّجَهُمَا ، وَمَلَكَ رِيحَانَةَ بِنْتَ شَمْعُونَ النَّضْرِيَّةَ ، وَمَارِيَةَ الْقُبَيْطِيَّةَ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَكَانَتَا مِنَ السَّرَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - . ﴿ وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ ﴾ الْآيَةُ . هَذَا عَدْلٌ وَسَطٌ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، فَإِنَّ النَّصَارَى لَا يَتَزَوَّجُونَ الْمَرْأَةَ إِلَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا سَبْعَةُ أَجْدَادٍ فَصَاعِدًا ، وَالْيَهُودُ يَتَزَوَّجُ أَحَدُهُمْ بِنْتَ أَخِيهِ وَبِنْتَ أُخْتِهِ ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الْكَامِلَةُ الطَّاهِرَةُ بِهَذِهِ الْإِفْرَاطِ النَّصَارَى ، فَأَبَاحَ بِنْتَ الْعَمِّ وَالْعَمَّةِ وَبِنْتَ الْخَالَ وَالْخَالَةِ ، وَتَحْرِيمَ مَا قَرَّطَ فِيهِ الْيَهُودُ مِنْ إِبَاحَةِ بِنْتِ الْأَخِ وَالْأُخْتِ ، وَهَذَا بَشْعٌ قَاطِعٌ ، وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ ﴾ فَوَحَّدَ لَفْظَ الذَّكَرِ لِشَرْفِهِ ، وَجَمَعَ الْإِنَاثَ لِتَقْصِيهِنَّ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ عَنْ أُمِّ هَانِئٍ قَالَتْ : خَطَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَعْذَرْتُ إِلَيْهِ فَعَدَّرَنِي ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ

يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَبَاتٍ عَمَلِكَ وَنَبَاتٍ حَالِكَ وَنَبَاتٍ خَلَقْتَكَ الَّتِي هَاجَرْنَا مَعَكَ ۖ قَالَتْ : فَلَمْ أَكُنْ أَحِلُّ لَهُ وَلَمْ أَكُنْ يَمَنُ هَاجَرَ مَعَهُ ، كُنْتُ مِنَ الطَّلَاقِ . ۖ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنَّ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ ۖ الْآيَةُ . أَيُّ : وَيُحِلُّ لَكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ الْمَرْأَةُ الْمُؤْمِنَةُ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لَكَ أَنْ تَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ مَهْرٍ إِنْ شِئْتَ ذَلِكَ . وَعَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ قَالَ : كُنْتُ مَعَ أَنَسٍ جَالِسًا وَعِنْدَهُ ابْنَتُهُ لَهُ ، فَقَالَ أَنَسٌ : جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَلْ لَكَ فِي حَاجَةٍ ؟ فَقَالَتْ ابْنَتُهُ : مَا كَانَ أَقَلَّ حَيَاءَهَا ! فَقَالَ : « هِيَ خَيْرٌ مِنْكَ رَغِبْتَ فِي النَّبِيِّ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ نَفْسَهَا » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ۖ « إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ۖ أَيُّ : إِنْ اخْتَارَ ذَلِكَ ۖ خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ قَالَ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ ، أَيُّ : لَا تَحِلُّ الْمَوْهُوبَةُ لِغَيْرِكَ ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ لَمْ تَحِلَّ لَهُ حَتَّى يُعْطِيَهَا شَيْئًا . أَيُّ أَتَمَّا إِذَا فَوَّضَتْ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا إِلَى رَجُلٍ فَإِنَّهُ مَتَى دَخَلَ بِهَا وَجَبَ عَلَيْهِ بِهَا مَهْرٌ مِثْلُهَا ، كَمَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي تَرْوِيجِ بِنْتِ وَاشِقٍ ^(١) لَمَّا فَوَّضَتْ ، فَحَكَمَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِصَدَاقٍ مِثْلِهَا ، لَمَّا تَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا ، وَالْمَوْتُ وَالِدُخُولُ سَوَاءٌ فِي تَقْرِيرِ الْمَهْرِ ، وَثُبُوتِ مَهْرِ الْمِثْلِ فِي الْمَفْوضَةِ لِغَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَأَمَّا هُوَ ^(٢) فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِلْمَفْوضَةِ شَيْءٌ وَلَوْ دَخَلَ بِهَا ؛ لِأَنَّ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِ صَدَاقٍ وَلَا وَلِيٍّ وَلَا شُهُودٍ ، كَمَا فِي قِصَّةِ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - ، وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ۖ « خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ يَقُولُ : لَيْسَ لِمَرْأَةٍ تَهَبُ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ بِغَيْرِ وَلِيٍّ وَلَا مَهْرٍ إِلَّا لِلنَّبِيِّ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ۖ « قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ۖ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ۖ « قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ۖ أَيُّ : مَنْ حَضَرَهُمْ فِي أَرْبَعِ نِسْوَةٍ حَرَائِرَ وَمَا شَاءُوا مِنَ الْإِمَاءِ ، وَاشْتِرَاطِ الْوَلِيِّ وَالْمَهْرِ وَالشُّهُودِ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ الْأُمَّةُ ، وَقَدْ رَخَّصْنَا لَكَ فَلَمْ تُوجِبْ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْهُ ۖ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ .

• تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتَتَوَقَّى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٠﴾

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : كُنْتُ أَغَارُ مِنَ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ : أَلَا تَسْتَحْيِي الْمَرْأَةَ أَنْ تَعْرِضَ نَفْسَهَا بِغَيْرِ صَدَاقٍ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ۖ « تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ

(١) انظر القصة في مسند أحمد (٣/ ٣٨٠) ، وأبي داود (٥/ ٢١١٤) وغيرها . فقد رويت هنالك بسند صحيح .

وَتَوَوَى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ الْآيَةُ . قَالَتْ : إِنِّي أَرَى رَبَّكَ يُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ تُرْجَى ﴾ أَيُّ : تُؤَخَّرُ ﴿ مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أَيُّ : مَن الْوَاهِبَاتِ ﴿ وَتَوَوَى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ أَيُّ : مَن شِئْتَ قَبْلَتَهَا وَمَن شِئْتَ رَدَدْتَهَا ، وَمَن رَدَدْتَهَا فَأَنْتَ فِيهَا أَيْضًا بِالْخِيَارِ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شِئْتَ عُدْتَ فِيهَا فَأَوَيْتَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَن آتَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ تُرْجَى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ الْآيَةُ . أَيُّ : مَن أَرْوَاهُ لَكَ لَا حَرَجَ عَلَيْكَ أَنْ تَتْرَكَ الْقَسْمَ لَهُنَّ ، فَتَقْدَمَ مَن شِئْتَ وَتُؤَخَّرَ مَن شِئْتَ ، وَتُجَامَعَ مَن شِئْتَ ، وَتَتْرَكَ مَن شِئْتَ ، وَمَعَ هَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ لَهُنَّ ، اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي الْوَاهِبَاتِ وَفِي النِّسَاءِ اللَّائِي عِنْدَهُ أَنَّهُ مُحَيَّرٌ فِيهِنَّ إِنْ شَاءَ قَسَمَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَقْسِمَ ، وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ حَسَنٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ تَقْرَأَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَبِرَّضَيْنِ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ ﴾ أَيُّ : إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ عَنْكَ الْحَرَجَ فِي الْقَسَمِ ، فَإِنْ شِئْتَ قَسَمْتَ ، وَإِنْ شِئْتَ لَمْ تَقْسِمَ ، لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِي أَيِّ ذَلِكَ فَعَلْتَ ، ثُمَّ مَعَ هَذَا إِنْ تَقْسِمَ لَهُنَّ اخْتِيَارًا مِنْكَ لَا أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْوُجُوبِ فَرَحْنَ بِذَلِكَ وَاسْتَبَشَرْنَ بِهِ ، وَحَمَلْنَ جَمِيلَكَ فِي ذَلِكَ ، وَاعْتَرَفْنَ بِمِنَّتِكَ عَلَيْهِنَّ فِي قَسْمِكَ لَهُنَّ ، وَتَسْوِيَّتِكَ بَيْنَهُنَّ ، وَإِنْصَافِكَ لَهُنَّ ، وَعَدْلِكَ فِيهِنَّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْمَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ دُونَ بَعْضٍ بِمَا لَا يُمَكِّنُ دَفْعُهُ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أَيُّ : بِضَمَائِرِ السَّرَائِرِ ﴿ حَلِيمًا ﴾ أَيُّ : يَحْلُمُ وَيَعْفُرُ .

لَا تَحِثُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٢٠﴾

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ مُجَازَاةً لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَرِضًا عَنْهُنَّ عَلَى حُسْنِ صَنِيعِهِنَّ فِي اخْتِيَارِهِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ ، لَمَّا خَيَّرَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ ، فَلَمَّا اخْتَرْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ جَزَاؤُهُنَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَصَرَهُ عَلَيْهِنَّ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بغيرِهِنَّ أَوْ يَسْتَبْدِلَ بَيْنَ أَزْوَاجٍ غَيْرُهُنَّ وَلَوْ أَعْجَبَهُ حُسْنُهُنَّ ، إِلَّا الْإِمَاءَ وَالسَّرَارِيَ فَلَا حَجَرَ عَلَيْهِ فِيهِنَّ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى رَفَعَ عَنْهُ الْحَجَرَ فِي ذَلِكَ ، وَنَسَخَ حُكْمَ هَذِهِ الْآيَةِ وَأَبَاحَ لَهُ التَّزَوُّجَ وَلَكِنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ تَزَوُّجٌ لِتَكُونَ الْمُنَّةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِنَّ .

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِيمَنْ ذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ النِّسَاءِ ، وَفِي النِّسَاءِ اللَّوَاتِي فِي عِصْمَتِهِ وَكُنَّ تَسْعَا وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ جَيِّدٌ .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ

نَظِيرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٠﴾ إِنْ تُبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥١﴾

هَذِهِ آيَةُ الْحِجَابِ وَفِيهَا أَحْكَامٌ وَأَدَابٌ شَرِيعَةٌ ، وَهِيَ مِمَّا وَافَقَ تَنْزِيلُهَا قَوْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ، قَالَ : وَافَقَتْ رَبِّي ﷺ فِي ثَلَاثٍ ، ذَكَرَ مِنْهَا : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ نِسَاءَكَ يَدْخُلْنَ عَلَيْهِنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَوْ حَجَبْتَهُنَّ ؟ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ . وَكَانَ وَقْتُ نَزُولِهَا فِي صَبِيحَةِ عُرْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ النَّبِيِّ تَوَلَّى اللَّهُ تَعَالَى تَرْوِجَهَا بِنَفْسِهِ . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ دَعَا الْقَوْمَ ، فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ ، فَإِذَا هُوَ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ ، فَلَمْ يَقُومُوا ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ ، فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ وَقَعَدَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٌ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ ، ثُمَّ إِتَمُّوا قَامُوا فَأَنْطَلَقْتُ فَحِثْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ انْطَلَقُوا ، فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَلْقَيْتُ الْحِجَابُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَبَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ الْآيَةَ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ حَظَرٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنٍ . ثُمَّ اسْتَسْنَى مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْذَبَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ ﴾ أَيُّ : غَيْرُ مُتَحَيِّينَ نُضْجُهُ وَاسْتِوَاءُهُ ، أَيُّ : لَا تَرْقُبُوا الطَّعَامَ إِذَا طُبِخَ حَتَّى إِذَا قَارَبَ الْاسْتِوَاءَ تَعَرَّضْتُمْ لِلدُّخُولِ ، فَإِنَّ هَذَا بِمَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَذْمُهُ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ التَّطْفِيلِ ، وَهُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ الضُّيْفَنَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجِبْ ، عُرْسًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ » ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ أَيُّ : كَمَا وَقَعَ لِأُولَئِكَ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ اسْتَرْسَلَ بِهِمُ الْحَدِيثَ وَسَوَّاءُ أَنْفُسُهُمْ ، حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾ ، قِيلَ : الْمُرَادُ أَنْ دُخُولَكُمْ مَنَزِلَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ كَانَ يَشُقُّ عَلَيْهِ وَيَتَأْدَى بِهِ ، وَلَكِنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حَيَاتِهِ ﷺ ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّهْيَ عَنْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ أَيُّ : وَكَمَا نَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ وَزَجَرَكُمْ عَنْهُ . ثُمَّ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ أَي : وَكَمَا هَيَّيْتُمْ عَنْ الدُّخُولِ عَلَيْهِنَّ ، كَذَلِكَ لَا تَنْظُرُوا إِلَيْهِنَّ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدِكُمْ حَاجَةٌ يُرِيدُ تَنَاوُلَهَا مِنْهُنَّ فَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ ، وَلَا يَسْأَلُهُنَّ حَاجَةً إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ . ﴿ ذَالِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَشَرَعْتُهُ لَكُمْ مِنَ الْحِجَابِ أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ، وَهَذَا أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ قَاطِبَةً عَلَى : أَنَّ مَنْ تَوَقَّى عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى غَيْرِهِ تَزَوُّجُهَا مِنْ بَعْدِهِ ؛ لِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُمَمَاتُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَٰلِكَ وَشَدَّدَ فِيهِ وَتَوَعَّدَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أَي : مَهْمَا تَكُنْتُمْ صَمَائِرُكُمْ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ سَرَائِرُكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ يَعْلَمُ خَافِيَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تَخْفَى الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩]

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٢٠﴾

لَمَّا أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النِّسَاءَ بِالْحِجَابِ مِنَ الْأَجَانِبِ ، بَيَّنَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَقَارِبَ لَا يَحِبُّ الْإِحْتِجَابُ مِنْهُمْ ، كَمَا اسْتَشْنَاهُمْ فِي « سُورَةِ النُّورِ » عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُتَبَدَّنَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَلَدِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ ﴾ [النور : ٣١] ، وَفِيهَا زِيَادَاتٌ عَلَى هَذِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ، وَقَدْ سَأَلَ بَعْضُ السَّلَفِ فَقَالَ : لِمَ لَمْ يَذْكَرِ الْعَمَّ وَالْحَالُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ؟ فَأَجَابَ عِكْرِمَةُ وَالشَّعْبِيُّ : بِأَنَّهُمَا لَمْ يَذْكَرَا ؛ لِأَنَّهُمَا قَدْ يَصِفَانِ ذَٰلِكَ لِنِسَائِهِمَا . وَكَرِهَا أَنْ تَضَعَ خِمَارَهَا عِنْدَ خَالِهَا وَعَمَّهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا نِسَائِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : بِذَٰلِكَ عَدَمَ الْإِحْتِجَابِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ . ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يَعْنِي : بِهِ أَرْقَاءَهُنَّ مِنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : إِنَّمَا يَعْنِي بِهِ الْإِمَاءَ فَقَطْ . ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ أَي : وَاخْشَيْنَهُ فِي الْخُلُوةِ وَالْعَلَانِيَةِ ، فَإِنَّهُ شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، فَرَاقِبِينَ الرَّقِيبَ .

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

قَالَ الْبُخَارِيُّ : قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : صَلَاةُ اللَّهِ تَعَالَى ثَنَائُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : يُصَلُّونَ : يُبَرِّكُونَ . هَكَذَا عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُمَا ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : صَلَاةُ الرَّبِّ : الرَّحْمَةُ ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ : الْإِسْتِغْفَارُ ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْبَرَ عِبَادَهُ بِمَنْزِلَةِ عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ عِنْدَهُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى ، بِأَنَّهُ يُشْنِي عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى أَهْلَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ ؛ لِيَجْتَمَعَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمَيْنِ الْعُلَوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ جَمِيعًا . وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَنَّهُ يُصَلِّي عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (٥٦) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥٧) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴿ [الْأَحْزَاب : ٤١ - ٤٣] ، وَفِي الْحَدِيثِ : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » ، وَقَدْ جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَكَيْفِيَةِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ قَالَ : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ ؟ فَقَالَ : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » . وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ : أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ ، هُوَ الَّذِي فِي الشَّهَادَةِ الَّذِي كَانَ يُعَلِّمُهُمْ إِيَّاهُ ، كَمَا كَانَ يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَفِيهِ « السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » .

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا مَنْ أَذَاهُ بِمُخَالَفَةِ أَوْامِرِهِ وَازْتِكَابِ رَوَاجِرِهِ ، وَإِضْرَارِهِ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِيذَاءِ رَسُولِهِ بِعَيْبٍ أَوْ بِنَقْصٍ ، عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ . قَالَ عِكْرَمَةُ ؓ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ نَزَلَتْ فِي الْمَصُورِينَ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ أَذَاهُ بَشْيْءٍ ، وَمَنْ أَذَاهُ فَقَدْ آذَى اللَّهَ ، كَمَا أَنَّ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا أَكْتَسَبُوا ﴾ أَيُّ : يَنْسُبُونَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ بِرَاءٍ مِنْهُ لَمْ يَفْعَلُوهُ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ وَهَذَا هُوَ الْبُهْتُ

الْبَيِّنُ أَنْ يُحْكِيَ أَوْ يُثْقَلَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ عَلَى سَبِيلِ الْعَيْبِ وَالتَّقْصِصِ هُمْ .
عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : « أَيُّ الرِّبَا أَرْبَى عِنْدَ اللَّهِ ؟ » قَالُوا : اللَّهُ
وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « أَرْبَى الرِّبَا عِنْدَ اللَّهِ : اسْتِحْلَالُ عَرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ » ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَالَّذِينَ
يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ .

يَنَاقِيهَا النَّبِيُّ قُلُ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَنِيْبِهِنَّ
ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ﴿ ٥١ ﴾ وَكَاتَبَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ ٥٢ ﴾ لِّئِنْ لَمْ يَنْتَهِ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا
يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿ ٥٣ ﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿ ٥٤ ﴾ سُنَّةَ
اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿ ٥٥ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا : أَنْ يَأْمُرَ النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُسْلِمَاتِ -
خَاصَّةً أَزْوَاجَهُ وَبَنَاتَهُ لِشَرَفِهِنَّ - بِأَنْ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيْبِهِنَّ ؛ لِيَتَمَيَّزْنَ عَنْ سِمَاتِ نِسَاءِ
الْجَاهِلِيَّةِ وَسِمَاتِ الْإِمَاءِ . وَالْجَلَبَابُ هُوَ : الرِّدَاءُ فَوْقَ الْخِثَارِ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : الْجَلَبَابُ الْمَلْحَفَةُ ،
وَرُوي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَمَرَ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا خَرَجْنَ مِنْ بُيُوتِهِنَّ فِي حَاجَةٍ أَنْ يُعْطِينَ
وُجُوْهَهُنَّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِنَّ بِالْجَلَابِيْبِ ، وَيُدْنِينَ عَيْنًا وَاحِدَةً . وَقَالَ عِكْرِمَةُ : تُعْطِي نُغْرَةً نَحْرَهَا
بِجَلَابِهَا تُدْنِيهِ عَلَيْهَا . وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَبِيْبِهِنَّ ﴾
خَرَجَ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِنَّ الْغُرْبَانَ مِنَ السَّكِينَةِ ، وَعَلَيْهِنَّ أَكْسِيَّةٌ سُودٌ يَلْبَسْنَهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ﴾ أَيُّ : إِذَا فَعَلْنَ ذَلِكَ عُرِفْنَ أَتَهَنَّ حَرَائِرُ لَسَنٍ بِإِمَاءٍ
وَلَا عَوَاهِرَ . ﴿ وَكَاتَبَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أَيُّ : لِمَا سَلَفَ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُنَّ
عِلْمٌ بِذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِلْمُنَافِقِينَ - وَهُمْ الَّذِينَ يُظْهَرُونَ الْإِيْمَانَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ -
﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ : هُمْ الزُّنَاةُ هَهُنَا ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾
يَعْنِي : الَّذِينَ يَقُولُونَ : جَاءَ الْأَعْدَاءُ وَجَاءَتِ الْحَرْبُ ، وَهُوَ كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ ؛ لِّئِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ
ذَلِكَ وَبَرَجُوا إِلَى الْحَقِّ ﴿ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أَيُّ : لَنَسْلُطَنَّكَ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : لَنُحَرِّسَنَّكَ
بِهِمْ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : لَنُعْلِمَنَّكَ بِهِمْ ﴿ ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا ﴾ أَيُّ : فِي الْمَدِينَةِ ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿ ٥٤ ﴾
مَلْعُونِينَ ﴿ حَالٌ مِنْهُمْ فِي مُدَّةٍ إِقَامَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ مُدَّةَ قَرِيْبَةِ مَطْرُودِينَ مُبْعَدِينَ ﴾ أَيْنَمَا ثُقِفُوا
أَيُّ : وَجِدُوا ﴿ أُخِذُوا وَلِذَلَّتْهُمْ وَقَلَّتْهُمْ ﴾ وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ إِذَا تَمَرَّدُوا

عَلَىٰ نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَلَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ ، أَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ يُسَلِّطُونَ عَلَيْهِمْ وَيَفْهَرُونَهُمْ ﴿١٠﴾ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١١﴾ أَيُّ : وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ لَا تُبَدَّلُ وَلَا تُغَيَّرُ .

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَا يَخْرُجُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٤﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿١٦﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِالسَّاعَةِ ، وَإِنْ سَأَلَهُ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَرْشَدَهُ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي «سُورَةِ الْأَعْرَافِ» وَهِيَ مَكِّيَّةٌ وَهَذِهِ مَدَنِيَّةٌ ، فَاسْتَمَرَّ الْحَالُ فِي رَدِّ عِلْمِهَا إِلَى الَّذِي يُقِيمُهَا ، لَكِنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أَيُّ : أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أَيُّ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أَيُّ : مَا كَثُرَتْ مُسْتَمَرِّينَ فَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا زَوَالَ لَهُمْ عَنْهَا ﴿ لَا يَخْرُجُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أَيُّ : وَلَيْسَ لَهُمْ مُعِيثٌ وَلَا مُعِينٌ يُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ أَيُّ : يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ وَتُلَوَّىٰ وُجُوهُهُمْ عَلَىٰ جَهَنَّمَ ، يَقُولُونَ وَهُمْ كَذَلِكَ ، يَتَمَنُّونَ أَنْ لَوْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِمَّنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَأَطَاعَ الرَّسُولَ ، وَهَكَذَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي حَالَتِهِمْ هَذِهِ أَنَّهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ لَوْ كَانُوا أَطَاعُوا اللَّهَ وَأَطَاعُوا الرَّسُولَ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴾ ، وَقَالَ طَاوُسٌ : ﴿ سَادَتَنَا ﴾ يَعْنِي : الْأَشْرَافَ ، ﴿ وَكُبَرَاءَنَا ﴾ يَعْنِي : الْعُلَمَاءَ . أَيُّ : اتَّبَعْنَا السَّادَةَ وَهُمْ الْأُمَرَاءَ وَالْكُبَرَاءَ مِنَ الْمَشِيخَةِ ، وَخَالَفْنَا الرُّسُلَ وَاعْتَقَدْنَا أَنَّ عِنْدَهُمْ شَيْئًا وَأَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ، فَإِذَا هُمْ لَيْسُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴿ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أَيُّ : بِكُفْرِهِمْ وَإِعْوَالِهِمْ إِيَّانَا ﴿ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿١٨﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ مُوسَىَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَتِيرًا ، لَا يُرَىٰ

مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اِسْتَحْيَاءُ مِنْهُ ، فَاَذَاهُ مِنْ اَذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَقَالُوا : مَا يَسْتَرْ هَذَا التَّسْتُرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ فِي جِلْدِهِ ، إِمَّا بَرَصٌ ، وَإِمَّا أَدْرَةٌ ، وَإِمَّا آفَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ بِمَا قَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ ، ثُمَّ اغْتَسَلَ ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ : ثَوْبِي حَجَرٌ ، ثَوْبِي حَجَرٌ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَبْرَاهُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَقَامَ الْحَجَرُ ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ ، فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدْبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا » قَالَ : فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ۝ وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ قَسَمًا ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ ، قَالَ : فَقُلْتُ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَمَا لِأَخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا قُلْتُ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى ، فَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ۝ أَيُّ : لَهُ وَجَاهَةٌ وَجَاهٌ عِنْدَ رَبِّهِ ﷻ ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ عِنْدَ اللَّهِ .

يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ وَأَنْ يَعْبُدُوهُ عِبَادَةً مِنْ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، وَأَنْ يَقُولُوا : ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ أَيُّ : مُسْتَقِيمًا لَا إِعْوَجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ . وَوَعْدُهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَثَابَهُمْ عَلَيْهِ بِأَنْ يُصْلِحَ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ، أَيُّ : يُؤَفِّقَهُمْ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُمُ الذُّنُوبَ الْمَاضِيَةَ ، وَمَا قَدْ يَقَعُ مِنْهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ يُلْهِمُهُمُ التَّوْبَةَ مِنْهَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُجَارُ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ ، وَيَصِيرُ إِلَى النِّعَمِ الْمُقِيمِ .

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٩﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠﴾

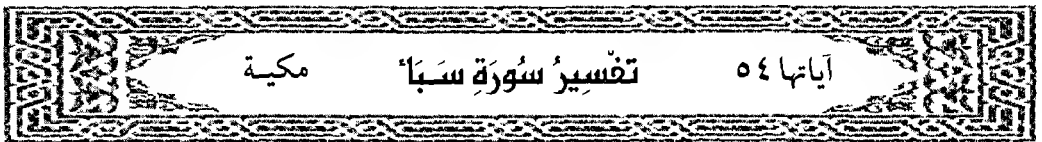
قِيلَ : يَعْنِي بِالْأَمَانَةِ : الطَّاعَةَ ، وَقِيلَ : الْأَمَانَةُ : الْفَرَائِضُ ، عَرَضَهَا اللَّهُ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ أَنْ أَدَّوْهَا أَنَا بِهِمْ ، وَإِنْ ضَيَعُوهَا عَذَّبَهُمْ ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَأَشْفَقُوا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَلَكِنْ

تَعْظِيماً لِلدِّينِ اللَّهُ أَنْ لَا يَقُومُوا بِهَا ، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى آدَمَ فَقَبِلَهَا بِهَا فِيهَا ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ يَعْنِي : غَرًّا بِأَمْرِ اللَّهِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : عُرِضَتْ عَلَى آدَمَ ، فَقَالَ : خُذْهَا بِهَا فِيهَا ، فَإِنْ أَطَعْتَ غَفَرْتُ لَكَ ، وَإِنْ عَصَيْتَ عَذَّبْتُكَ ، قَالَ : قَبِلْتُ . فَمَا كَانَ إِلَّا قَدَرًا مَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، حَتَّى أَصَابَ الْخَطِيئَةَ .

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ قَالَ : عَرَضَهَا عَلَى السَّبْعِ الطَّبَاقِ الطَّرَائِقِ الَّتِي زُيِّنَتْ بِالنُّجُومِ ، وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، فَقِيلَ لَهَا : هَلْ تَحْمِلِينَ الْأَمَانَةَ وَمَا فِيهَا ؟ قَالَتْ : وَمَا فِيهَا ؟ قَالَ : قِيلَ لَهَا : إِنَّ أَحْسَنَتْ جُزَيْتَ ، وَإِنْ أَسَأَتْ عُوقِبَتْ ، قَالَتْ : لَا ، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى الْأَرْضِينَ السَّبْعِ الشَّدَادِ الَّتِي شُدَّتْ بِالْأَوْتَادِ وَذُلَّتْ بِالْمِهَادِ ، قَالَ : فَقِيلَ لَهَا : هَلْ تَحْمِلِينَ الْأَمَانَةَ وَمَا فِيهَا ؟ قَالَتْ : وَمَا فِيهَا ؟ قَالَ : قِيلَ لَهَا : إِنَّ أَحْسَنَتْ جُزَيْتَ ، وَإِنْ أَسَأَتْ عُوقِبَتْ ، قَالَتْ : لَا ، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى الْجِبَالِ الشَّمِّ الشَّوَامِخِ الصَّعَابِ الصَّلَابِ ، قَالَ : قِيلَ لَهَا : هَلْ تَحْمِلِينَ الْأَمَانَةَ وَمَا فِيهَا ؟ قَالَتْ : وَمَا فِيهَا ؟ قَالَ لَهَا : إِنَّ أَحْسَنَتْ جُزَيْتَ ، وَإِنْ أَسَأَتْ عُوقِبَتْ ، قَالَتْ : لَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا حَمَلَ بَنِي آدَمَ الْأَمَانَةَ - وَهِيَ التَّكَالِيفُ - لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ وَالْمُنَافِقَاتِ ، وَهُمْ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ الْإِيمَانَ خَوْفًا مِنْ أَهْلِهِ وَيُبْتَغُونَ الْكُفْرَ مُتَابَعَةً لِأَهْلِهِ ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ ظَاهَرُوا بِطَائِفَتِهِمْ عَلَى الشِّرْكِ بِاللَّهِ ﷻ وَمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أَيُّ : وَلِيَرْحَمَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَحْزَابِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ① يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ②

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ لَهُ الْحَمْدَ الْمُنْفُذَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، الْمَالِكُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ ، الْحَاكِمُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَعَيْدُهُ وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ [الليل : ١٣] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ فَهُوَ الْمَعْبُودُ أَبَدًا ، الْمَحْمُودُ عَلَى طُولِ الْمَدَى . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أَيُّ : فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أَيُّ : يَعْلَمُ عَدَدَ الْقَطْرِ النَّازِلِ فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ وَالْحَبِّ الْمَبْدُورِ وَالْكَامِنِ فِيهَا ، وَيَعْلَمُ مَا يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ ، عَدَدَهُ وَكَيْفِيَّتَهُ وَصِفَاتِهِ ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ ﴾ أَيُّ : مِنْ قَطْرِ وَرِزْقٍ ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أَيُّ : مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أَيُّ : الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ فَلَا يَعْاجِلُ عُصَاتِهِم بِالْعُقُوبَةِ ، الْغَفُورُ عَنْ ذُنُوبِ التَّائِبِينَ إِلَيْهِ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمِ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٦﴾

هَذِهِ إِحْدَى الْأَبَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي لَا رَابِعَ لَهَا مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُقَسِّمَ بِرَبِّهِ الْعَظِيمِ عَلَى وَقُوعِ الْمَعَادِ ؛ لَمَّا أَنْكَرَهُ مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ ، فَاِحْدَاهُنَّ فِي « سُورَةِ يُوسُفَ » : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس : ٥٣] وَالثَّانِيَةُ هَذِهِ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ، وَالثَّالِثَةُ فِي « التَّغَابُنِ » : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُعْثُنَّ ثُمَّ لَتُنْبَأَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التَّغَابُنِ : ٧] ، ثُمَّ وَصَفَهُ بِمَا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ وَيَقْرَرُهُ : ﴿ عِلْمِ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : ﴿ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ ﴾ لَا يَغِيبُ عَنْهُ ، أَيُّ : الْجَمِيعُ مُنْدَرِجٌ تَحْتَ عِلْمِهِ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَالْعِظَامُ وَإِنْ تَلَا شَتَّ وَتَفَرَّقَتْ وَتَمَرَّقَتْ فَهُوَ عَالِمٌ أَيْنَ ذَهَبَتْ ؟ ، وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ ؟ ، ثُمَّ يُعِيدُهَا كَمَا بَدَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَإِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ثُمَّ بَيَّنَّ حِكْمَتَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَبْدَانِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ بِقَوْلِهِ :

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٧﴾

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦١﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ ﴾ أَي : سَعَوْا فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴾ أَي : لِيُنْعَمَ السُّعْدَاءُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُعَذَّبَ الْأَشْقِيَاءُ مِنَ الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ هَذِهِ حِكْمَةٌ أُخْرَى مَعْطُوفَةٌ عَلَى الْآيَةِ قَبْلَهَا وَهِيَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى الرَّسُلِ إِذَا شَاهَدُوا قِيَامَ السَّاعَةِ وَمَجَازَةَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ بِالَّذِي كَانُوا قَدْ عَلِمُوهُ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا ، رَأَوْهُ حِينَئِذٍ عَيْنَ الْيَقِينِ ، وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ أَيْضًا ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٤٣] وَيُقَالُ أَيْضًا ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥٢] ، قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ الْعَزِيزُ : هُوَ الْمَنِيعُ الْجَنَابُ الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُنَاجَى ، بَلْ قَدْ فَهَرَّ كُلُّ شَيْءٍ ، الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشُرْعِهِ وَقُدْرِهِ ، وَهُوَ الْمُحْمَدُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٦٢﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٦٣﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٦٤﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَنْ اسْتِيعَادِ الْكَفَرَةِ الْمُلْحِدِينَ قِيَامَ السَّاعَةِ ، وَاسْتَهْزَائِهِم بِالرُّسُولِ ﷺ فِي إِخْبَارِهِ بِذَلِكَ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ ﴾ أَي : تَفَرَّقَتْ أَجْسَادُكُمْ فِي الْأَرْضِ وَذَهَبَتْ فِيهَا كُلُّ مَذْهَبٍ ، وَتَمَرَّقَتْ كُلُّ مُمَرِّقٍ ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أَي : بَعْدَ هَذَا الْحَالِ ﴿ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أَي : تَعُودُونَ أَحْيَاءً تُرْزَقُونَ بَعْدَ ذَلِكَ . وَهُوَ فِي هَذَا الْإِخْبَارِ لَا يَخْلُو أَمْرُهُ مِنْ قِسْمَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ تَعَمَّدَ الْإِفْتِرَاءَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ ذَلِكَ ، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ ، لَكِنْ لُبَسَ عَلَيْهِ كَمَا يُلْبَسُ عَلَى الْمَعْتَوَةِ وَالْمَجْنُونِ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ قَالَ اللَّهُ ﷻ رَادًّا عَلَيْهِمْ ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ

الْبَعِيدِ ﴿٤٦﴾ أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ ، بَلْ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الصَّالِحُ الْبَارُّ الرَّاشِدُ الَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ الْكَذِبَةُ الْجَهْلَةُ الْأَغْيَاءُ ﴿٤٧﴾ فِي الْعَذَابِ ﴿٤٨﴾ أَي: الْكُفْرُ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ مِنَ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَقَالَ : ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: حَيْثُمَا تَوَجَّهُوا وَذَهَبُوا ، فَالسَّمَاءُ مُظْلَةٌ مُظْلَلَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَالْأَرْضُ تَحْتَهُمْ ، كَمَا قَالَ ﷻ ﴿وَالسَّمَاءُ بَنِينَهَا بَاسِيَدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٩) وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ ﴿ (الذاريات: ٤٧-٤٨)]

وَقَوْلُهُ : ﴿إِنْ شِئْنَا نَحْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَي: لَوْ شِئْنَا لَفَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ لِظُلْمِهِمْ وَقُدْرَتِنَا عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ نُوَخِّرُ ذَلِكَ لِحِلْمِنَا وَعَفْوِنَا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ قِيلَ : ﴿مُنِيبٌ﴾ تَائِبٌ ، أَي: إِنْ فِي النَّظَرِ إِلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَدَلَالَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ فَطِنٍ لَيْبٍ رَجَاعٍ إِلَى اللَّهِ ، عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَعْثِ الْأَجْسَادِ وَوُقُوعِ الْمَعَادِ ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ فِي إِرْفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا ، وَهَذِهِ الْأَرْضِينَ فِي إِنْخِفَاضِهَا وَأَطْوَالِهَا وَأَعْرَاضِهَا إِنَّهُ لَقَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ وَنَشْرِ الرِّمِيمِ مِنَ الْعِظَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَجْعَالُ أُوتَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ ۖ وَآلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۖ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَقَدِيرَ فِي السَّرْدِ ۖ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥٠﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِمَا آتَاهُ مِنَ الْفَضْلِ الْمُبِينِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ الثَّبُوتِ وَالْمُلْكِ الْمُتَمَكِّنِ وَالْجُنُودِ ذَوِي الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ ، وَمَا أَعْطَاهُ وَمَنْحَهُ مِنَ الصَّوْتِ الْعَظِيمِ الَّذِي كَانَ إِذَا سَبَّحَ بِهِ تُسَبِّحُ مَعَهُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ الصُّمُّ الشَّاحِحَاتُ ، وَتَقِفُ لَهُ الطُّيُورُ السَّارِحَاتُ ، وَالْغَادِيَاتُ وَالرَّائِحَاتُ ، وَتُجَاوِبُهُ بِأَنْوَاعِ اللُّغَاتِ ، ﴿أُوتَىٰ مَعَهُ﴾ أَي: رَجَعِي مَعَهُ مُسَبِّحَةً ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : كَانَ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُدْخِلَهُ نَارًا ، وَلَا يَضْرِبُهُ بِمِطْرَقَةٍ ، بَلْ كَانَ يَفْتِلُهُ بِيَدِهِ مِثْلَ الْخِيُوطِ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَقَدِيرَ فِي السَّرْدِ﴾ هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ دَاوُدَ ﷺ فِي تَعْلِيمِهِ صَنْعَةَ الدَّرُوعِ . قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَقَدِيرَ فِي السَّرْدِ﴾ لَا تُدَقُّ الْمَسَارَ فَيَقْلَقُ فِي الْحَلَقَةِ ، وَلَا تُغْلِظُهُ فَيَقْصِمُهَا وَاجْعَلُهُ بِقَدَرٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا﴾ أَي: فِي الَّذِي أَعْطَاكُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النِّعَمِ ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَي: مُرَاقِبٌ لَكُمْ ، بَصِيرٌ بِأَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ ، لَا يُخْفَى عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ .

وَلَسُلَيْمَنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۚ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّخْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ ۖ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَةٍ ۚ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ۖ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى دَاوُدَ عَطَفَ بِذِكْرِ مَا أُعْطِيَ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - مِنْ تَسْخِيرِ الرِّيحِ لَهُ تَحْمِلُ بِسَاطَهُ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ الْقَطْرُ : النُّحَاسُ . ﴾ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ أَيُّ : وَسَخَرْنَا لَهُ الْجِنَّ يَعْمَلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، أَيُّ : بِقُدْرِهِ ، وَتَسْخِيرِهِ هُمْ بِمَشِيئَتِهِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْبِنَايَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ أَيُّ : وَمَن يَعْدِلُ وَيُخْرِجُ مِنْهُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۚ وَهُوَ الْحَرِيقُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّخْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ ﴾ أَمَّا الْمَخَارِبُ : فَهِيَ الْبِنَاءُ الْحَسَنُ ، وَهُوَ أَشْرَفُ شَيْءٍ فِي الْمَسْكَنِ وَصَدْرِهِ ، وَأَمَّا التَّمَثِيلُ : الصُّورُ ، وَقِيلَ : كَأَنَّ مِنْ نُحَاسٍ ، وَقِيلَ : مِنْ طِينٍ وَزَجَاجٍ . ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَةٍ ﴾ الْجَوَابُ : جَمْعُ جَابِيَةٍ : وَهِيَ الْحَوْضُ الَّذِي يُجْبَى فِيهِ الْمَاءُ ، وَقِيلَ : ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ أَيُّ : كَالْجَوِيَّةِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَقِيلَ : كَالْحَيَاضِ ، وَالْقُدُورُ الرَّاسِيَاتُ : أَيِ الثَّابِتَاتِ فِي أَمَاكِنِهَا لَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَتَحَوَّلُ عَنْ أَمَاكِنِهَا لِعَظَمَتِهَا . ﴿ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ أَيُّ : وَقُلْنَا لَهُمْ اعْمَلُوا شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا . فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ يَكُونُ بِالْفِعْلِ كَمَا يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالنِّيَّةِ . قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ : الصَّلَاةُ شُكْرٌ : وَالصِّيَامُ شُكْرٌ ، وَكُلُّ خَيْرٍ تَعْمَلُهُ لِلَّهِ ﷻ شُكْرٌ ، وَأَفْضَلُ الشُّكْرِ الْحَمْدُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ . ثُمَّ يَذْكُرُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ مَوْتِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَيْفَ عَمِيَ اللَّهُ مَوْتَهُ عَلَى الْجَانِّ الْمُسَخَّرِينَ لَهُ فِي الْأَعْمَالِ الشَّاهِقَةِ ، فَإِنَّهُ مَكَثَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصَاهُ وَهِيَ مِنْسَأَتُهُ مَدَّةَ طَوِيلَةٍ نَحْوًا مِنْ سَنَةٍ فَلَمَّا أَكَلَتْهَا دَابَّةُ الْأَرْضِ وَهِيَ الْأَرْضُ ، ضَعُفَتْ وَسَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةِ طَوِيلَةٍ ، تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَيْضًا أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ، كَمَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ وَيُوهَمُونَ النَّاسَ ذَلِكَ .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن زَرْقٍ رَبِّكُمْ

وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَبِيبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿٤٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِیْ أَكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿٤٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿٤٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةٍ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِينَ ﴿٤٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٤٩﴾

كَانَتْ سَبَأُ مَمْلُوكَةُ الْيَمَنِ وَأَهْلِهَا، وَكَانَتْ التَّبَاعَةُ مِنْهُمْ، وَبَلْقِيسُ صَاحِبَةُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ جُمَّلَتِهِمْ، وَكَانُوا فِي نِعْمَةٍ وَغِبْطَةٍ فِي بِلَادِهِمْ وَعَيْشِهِمْ، وَاتَّسَاعَ أَرْزَاقِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَتِبَارِهِمْ، وَبَعَثَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ تَأْمُرُهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ، وَيَشْكُرُوهُ بِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ فَكَانُوا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ أَعْرَضُوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ، فَغَوَّقُوا بِإِزْسَالِ السَّيْلِ وَالتَّفَرُّقِ فِي الْبِلَادِ أَيْدِي سَبَأَ، شَذَرَ مَذَرَ. وَكَانَ مِنْ أَمْرِ السَّدِّ أَنَّهُ كَانَ الْمَاءُ يَأْتِيهِمْ مِنْ بَيْنِ جَبَلَيْنِ وَتَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَيْضًا سَيُولُ أَمْطَارُهُمْ وَأَوْدِيَّتُهُمْ، فَعَمَدَ مَلُوكُهُمُ الْأَقَادِمُ فَبَنَوْا بَيْنَهُمَا سَدًّا عَظِيمًا مُحْكَمًا حَتَّى إِرْتَفَعَ الْمَاءُ وَحَكَمَ عَلَى حَافَاتِ ذَيْنِكَ الْجَبَلَيْنِ، فَعَرَسُوا الْأَشْجَارَ وَاسْتَعْلَوْا الثَّمَارَ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالْحُسْنِ، وَكَانَ هَذَا السَّدُّ بِمَارِبَ: بَلَدَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَنْعَاءَ ثَلَاثَ مَرَاحِلَ، وَيُعْرَفُ بِسَدِّ مَارِبَ. قِيلَ: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِبِلَادِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الذُّبَابِ وَلَا الْبُعُوضِ وَلَا الْبَرَاغِيثِ وَلَا شَيْءٍ مِنَ الْهُوَامِ، وَذَلِكَ لِاعْتِدَالِ الْهَوَاءِ، وَصِحَّةِ الْمَزَاجِ، وَعِنَايَةِ اللَّهِ بِهِمْ؛ لِيُوحِّدُوهُ وَيَعْبُدُوهُ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أَيُّ: مِنْ نَاحِيَّتَيِ الْجَبَلَيْنِ، وَالْبَلَدَةِ بَيْنَ ذَلِكَ ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَبِيبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ أَيُّ: غَفُورٌ لَكُمْ إِنْ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أَيُّ: عَنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَعَدَلُوا إِلَى عِبَادَةِ الشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ الْهُذُودُ لِسُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : ﴿وَجِئْنَاكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ يَقِينٍ ﴿٢٦﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهَذَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٢-٢٤]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الْمُرَادُ بِالْعَرِمِ: الْمِيَاهُ، وَقِيلَ: الْمَاءُ الْغَزِيرُ، وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَمَّا أَرَادَ عُقُوبَتَهُمْ بِإِزْسَالِ الْعَرِمِ عَلَيْهِمْ، بَعَثَ عَلَى السَّدِّ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ،

يُقَالُ لَهَا «الْجُرْدُ» نَقَبَتْهُ . فَأَنْهَارَ عَلَيْهِمْ . كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكُلٍ خَمْطٍ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : وَهُوَ الْأَرَاكُ ، أَكْلُهُ : الْبَرِيرُ ﴿ وَأَثَلٌ ﴾ قِيلَ : هُوَ الطَّرْفَاءُ ، وَقِيلَ : هُوَ شَجَرٌ يُشَبِّهُ الطَّرْفَاءَ ، وَقِيلَ : هُوَ السَّمَرُ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَلَمَّا كَانَ أَجُودَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْمُبْدَلِ بِهَا هُوَ السَّدْرُ قَالَ : ﴿ وَشَيْءٌ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ فَهَذَا الَّذِي صَارَ أَمْرُ تَيْنِكَ الْجَنَّتَيْنِ إِلَيْهِ بَعْدَ الثَّمَارِ النَّضِيجَةِ وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ ، وَالظَّلَالِ الْعَمِيقَةِ وَالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ ، تَبَدَّلَتْ إِلَى شَجَرِ الْأَرَاكِ وَالطَّرْفَاءِ وَالسَّدْرِ ذِي الشُّوكِ الْكَثِيرِ وَالثَمَرِ الْقَلِيلِ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشُرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَتَكْذِيبِهِمُ الْحَقَّ ، وَعُدُوْلَهُمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ تُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ ﴾ أَيُّ : عَاقَبْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ . قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ لَا يُعَاقَبُ بِمِثْلِ فِعْلِهِ إِلَّا الْكُفُورَ . ثُمَّ يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النُّعْمَةِ وَالْغِنَةِ ، وَالْعَيْشِ الْهَيَّيِّ الرَّغِيدِ ، وَالْبِلَادِ الرَّخِيَّةِ وَالْأَمَاكِنِ الْأَمْنَةِ ، وَالْقُرَى الْمُتَوَاصِلَةِ الْمُتَقَارِبَةِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، مَعَ كَثْرَةِ أَشْجَارِهَا وَزُرُوعِهَا وَثَمَارِهَا ، بِحَيْثُ إِنَّ مُسَافِرَهُمْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حَمَلِ زَادٍ وَلَا مَاءٍ ، بَلْ حَيْثُ نَزَلَ وَجَدَ مَاءً وَثَمَرًا ، وَيُقِيلُ فِي قَرْيَةٍ وَيَبِيتُ فِي أُخْرَى بِمِقْدَارِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي سَيْرِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي : قُرَى الشَّامِ ، فَالْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا بَيْنَ الْمَقْدِسِ ﴿ قُرَى ظَهْرَةَ ﴾ أَيُّ : بَيْتَةً وَاضِحَةً يَعْرِفُهَا الْمُسَافِرُونَ ، يُقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ وَيَسْتَوْنِ فِي أُخْرَى ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أَيُّ : جَعَلْنَاهَا بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ الْمُسَافِرُونَ إِلَيْهِ ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أَيُّ : الْأَمْنُ حَاصِلٌ لَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا . ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أَيُّ : بِكُفْرِهِمْ ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ ﴾ أَيُّ : جَعَلْنَاهُمْ حَدِيثًا لِلنَّاسِ وَسَمَرًا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ ، مِنْ خَيْرِهِمْ وَكَيْفَ مَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ ، وَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ بَعْدَ الْاجْتِمَاعِ وَالْأَلْفَةِ وَالْعَيْشِ الْهَيَّيِّ ، تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ هَهُنَا وَهَهُنَا ، وَلِهَذَا تَقُولُ الْعَرَبُ فِي الْقَوْمِ إِذَا تَفَرَّقُوا : « تَفَرَّقُوا أَيَّدي سَبَا » « وَأَيَّادي سَبَا » وَ « تَفَرَّقُوا شَذَرًا مَذَرًا » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أَيُّ : إِنَّ فِي هَذَا الَّذِي حَلَّ بِهِؤُلَاءِ مِنَ النُّعْمَةِ وَالْعَذَابِ ، وَتَبْدِيلِ النُّعْمَةِ وَتَحْوِيلِ الْعَاقِبَةِ ، عُقُوبَةً عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْإِثْمِ لَعِبْرَةً وَدَلَالَةً لِكُلِّ عَبْدٍ صَبَّارٍ عَلَى الْمَصَائِبِ ، شَكُورٍ عَلَى النُّعْمِ .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّيهِمْ بِآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿١١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴿٦١﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ قِصَّةَ سَبَأَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِمْ الْهَوَىٰ وَالشَّيْطَانَ ، أَخْبَرَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَمْنَاهُمْ مِمَّنْ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ وَالْهَوَىٰ وَخَالَفَ الرَّشَادَ وَاهْتَدَى ، فَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ إِنْخِبَارًا عَنْ إِبْلِيسَ حِينَ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِ اْأَخْرَجَ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصِمَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢] ، وَقَالَ : ﴿ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أَيُّ : مِنْ حُجَّةٍ . ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَيْهِمْ لِيُظْهَرَ أَمْرُ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ بِالْآخِرَةِ وَقِيَامُهَا وَالْحِسَابِ فِيهَا وَالْجَزَاءِ ، فَيُحْسِنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَتَكُنْ فِي الدُّنْيَا مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ . ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أَيُّ : وَمَعَ حِفْظِهِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ ، وَبِحِفْظِهِ وَكِلَاءَتِهِ سَلِمَ مَنْ سَلِمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ . ثُمَّ يَبَيِّنُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ لَهُ ، بَلْ هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْأَمْرِ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ مُشَارِكٍ وَلَا مُنَارِعٍ وَلَا مُعَارِضٍ ، فَقَالَ : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْآلِهَةِ الَّتِي عُبِدَتْ مِنْ دُونِهِ ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ ﴾ أَيُّ : لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا اسْتِقْلَالًا وَلَا عَلَى سَبِيلِ الشَّرِكَةِ ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴾ أَيُّ : وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْدَادِ مِنْ ظَهِيرٍ يَسْتَظْهِرُ بِهِ فِي الْأُمُورِ ، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ فُقَرَاءٌ إِلَيْهِ عَبِيدٌ لَدَيْهِ . ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أَيُّ : لِعِظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ لَا يَجْتَرِئُ أَحَدٌ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ تَعَالَىٰ فِي شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ إِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ ، وَهَذَا أَيْضًا مَقَامٌ رَفِيعٌ فِي الْعِظَمَةِ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ فَسَمِعَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ كَلَامَهُ أُرْعَدُوا مِنَ الْهَيْبَةِ حَتَّىٰ يَلْحَقُهُمْ مِثْلُ الْغَشْيِ . فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ فَيُخْبِرُ بِذَلِكَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِلَّذِينَ يَلُوتُهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوتُهُمْ لِمَنْ تَحْتَهُمْ ، حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ

الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالُوا الْحَقُّ ۖ أَيَّ : أَخْبَرُوا بِمَا قَالَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۚ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ يَقُولُ : إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ، فَإِذَا فُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَذَرِكُ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةً كَذِبَةٍ ، فَيُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا وَكَذَا ؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ » .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿١٦﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ تَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرَّرًا تَفَرُّدَهُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ ، وَانْفِرَادَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ أَيْضًا ، فَكَمَا كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ لَا يَرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَيَّ : بِمَا يَنْزِلُ مِنَ الْمَطَرِ وَيَنْبُتُ مِنَ الزَّرْعِ إِلَّا اللَّهُ فَكَذَلِكَ فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالشَّرِّ ، أَيَّ : وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مُبْطِلٌ وَالْآخَرُ مُحِقٌّ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ وَنَحْنُ عَلَى الْهُدَى أَوْ عَلَى الضَّلَالِ ، بَلْ وَاحِدٌ مِنَّا مُصِيبٌ وَنَحْنُ قَدْ أَقَمْنَا الْبُرْهَانَ عَلَى التَّوْحِيدِ فَدَلَّ عَلَى بُطْلَانِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِكِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مَعْنَاهُ التَّبَرُّي مِنْهُمْ ، أَيَّ : لَسْتُمْ مِنَّا وَلَا نَحْنُ مِنْكُمْ بَلْ نَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى تَوْحِيدِهِ وَإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ ، فَإِنْ أَجَبْتُمْ فَأَنْتُمْ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْكُمْ ، وَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَنَحْنُ بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ بَرَاءٌ مِنَّا ، ﴿ قُلْ تَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ﴾ أَيَّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْخَلَائِقُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أَيَّ : يَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَتَسْأَلُونَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْعِزَّةِ وَالنُّصْرَةِ وَالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ ، ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أَيَّ : الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أَيَّ : أَرُونِي هَذِهِ الْأِلَٰهَةَ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا

لَهُ أُنْدَادًا وَصِيْرَتُوهَا لَهُ عَذْلًا ﴿كَلَّا﴾ أَيُّ : لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ وَلَا نَدِيدٌ وَلَا شَرِيكٌ وَلَا عَدِيلٌ ،
وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ . أَيُّ : الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ :
ذُو الْعِزَّةِ الَّذِي قَدْ فَهَرَّ بِهَا كُلُّ شَيْءٍ ، وَغَلَبَتْ كُلُّ شَيْءٍ ، الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ
وَقَدْرِهِ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿١٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا
تَسْتَعْجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ أَيُّ : إِلَّا إِلَى جَمِيعِ
الْخَلَائِقِ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ ، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَيُّ : تُبَشِّرُ مَنْ أَطَاعَكَ بِالْجَنَّةِ وَتُنَذِرُ مَنْ عَصَاكَ بِالنَّارِ
﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾
[يوسف : ١٠٣] ﴿وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، ثُمَّ قَالَ
ﷻ مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ فِي اسْتِعَادِهِمْ قِيَامَ السَّاعَةِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ
أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى : ١٨] . ثُمَّ قَالَ : ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾
أَيُّ : لَكُمْ مِيعَادٌ مُؤَجَّلٌ مَمْدُودٌ لَا يَزَادُ وَلَا يُنْقُصُ ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا يُؤَخَّرُ سَاعَةً وَلَا يُقَدَّمُ .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى
إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ
الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ الَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَخُنْ صَدَدْتَكُمْ عَنْ أَهْدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ
مُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا
أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ
فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَادِي الْكُفَّارِ فِي طُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ ،
وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ
وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَالَ اللَّهُ ﷻ مُتَهَدِّدًا هُمْ وَمَتَوَعِّدًا وَمُخْبِرًا عَنْ مَوَاقِفِهِمُ الدَّلِيلَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي

حَالِ تَخَاصُّمِهِمْ وَتَحَاجُّهِمْ : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُ ﴾ مِنْهُمْ وَهُمْ الْأَتْبَاعُ ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ ، وَهُمْ قَادَتُهُمْ وَسَادَتُهُمْ ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : لَوْلَا أَنْتُمْ تَصُدُّونَا لَكُنَّا اتَّبَعْنَا الرُّسُلَ وَأَمَنَّا بِمَا جَاءُونَا بِهِ . فَقَالَ لَهُمُ الْقَادَةُ وَالسَّادَةُ وَهُمْ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿ أَخْنُ صَدَدْتَنكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ أَي : نَحْنُ مَا فَعَلْنَا بِكُمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّا دَعَوْنَاكُمْ فَاتَّبَعْتُمُونَا مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، وَخَالَفْتُمُ الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ وَالْحُجَجَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ ؛ لِشَهَوَاتِكُمْ وَاخْتِيَارِكُمْ لِدَلِكِ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُخْرَجِينَ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿ أَي : بَلْ كُنْتُمْ تَمْكُرُونَ بِنَا لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَتَغْرُونَا وَتُمْتُونَا وَتُخْرِونَا أَنَّا عَلَى هُدًى وَأَنَا عَلَى شَيْءٍ ، فَإِذَا جَمِيعُ ذَلِكَ بَاطِلٌ وَكَذِبٌ مُبِينٌ . ﴾ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أَي : نَظَرَاءَ وَآلِهَةً مَعَهُ ، وَتُقِيمُوا لَنَا شُبَّهًا وَأَشْيَاءَ مِنَ الْمَحَالِ تُضِلُّونَا بِهَا ﴾ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أَي : الْجَمِيعُ مِنَ السَّادَةِ وَالْأَتْبَاعِ كُلُّ نَدَمٍ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وَهِيَ السَّلَاسِلُ الَّتِي تَجْمَعُ أَيْدِيهِمْ مَعَ أَعْنَاقِهِمْ ﴿ هَلْ نَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أَي : إِنَّمَا نُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ كُلِّ بِحْسَنِهِ ، لِلْقَادَةِ عَذَابٌ بِحَسَنِهِمْ وَلِلْأَتْبَاعِ بِحَسَنِهِمْ ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨]

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا خُنُّ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا خُنُّ بِمُعْذِيبِنَا ﴿٣٩﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُسَلِّيًا لِّنَبِيِّهِ ﷺ وَأَمْرًا لَهُ بِالتَّأْسِي بِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ وَخُبْرَهُ بِأَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي قَرْيَةٍ إِلَّا كَذَّبَهُ مُتْرَفُوهَا وَاتَّبَعَهُ ضَعْفًا وَهُمْ ، كَمَا قَالَ قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿ أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ، ﴿ وَمَا نَزَّلَكَ آتِيتُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٣] ، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ ﴾ أَي : نَبِيٍّ أَوْ رَسُولٍ ﴿ إِلَّا قَالَ

مُتْرَفُوهَا ۖ وَهُمْ أَوَّلُو النُّعْمَةِ وَالْجُشْمَةِ وَالْثَّرْوَةِ وَالرِّيَاسَةِ ۖ ﴿٥٠﴾ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۖ أَيُّ : لَا تُؤْمِنُ بِهِ وَلَا تَتَّبِعُهُ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنْخَبَارًا عَنِ الْمُتْرِفِينَ الْمَكْذِبِينَ : ﴿٥١﴾ وَقَالُوا خُنُّ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا خُنُّ بِمُعْذِبِينَ ۖ أَيُّ : اِفْتَخَرُوا بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ وَاعْتِنَائِهِ بِهِمْ ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ لِيُعْطِيَهُمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُعَذِّبَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَهِيَ هَاتِلَةٌ لَهُمْ ذَلِكَ ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿٥٢﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۖ ﴿٥٣﴾ [التوبة : ٥٥]

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ ﷻ عَنْ صَاحِبِ تَيْبِكَ الْجَنَّتَيْنِ أَنَّهُ كَانَ ذَا مَالٍ وَثَمَرٍ وَوَلَدٍ ، ثُمَّ لَمْ يُغْنِ عَنْهُ شَيْئًا ، بَلْ سُلِبَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ هَاهُنَا : ﴿٥٤﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۖ أَيُّ : يُعْطِي الْمَالَ لِمَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، فَيَقْفِرُ مَنْ يَشَاءُ وَيُغْنِي مَنْ يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ الدَّامِغَةُ ﴿٥٥﴾ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۖ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿٥٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ۖ أَيُّ : لَيْسَتْ هَذِهِ دَلِيلًا عَلَى مَحَبَّتِنَا لَكُمْ وَلَا اعْتِنَائِنَا بِكُمْ . ﴿٥٧﴾ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۖ أَيُّ : إِنَّمَا يُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴿٥٨﴾ فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْضَعْفِ بِمَا عَمِلُوا ۖ أَيُّ : تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرَةٍ أَمْثَلَهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ۖ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ۖ أَيُّ : فِي مَنَازِلِ الْجَنَّةِ الْعَالِيَةِ آمِنُونَ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ وَخَوْفٍ وَأَذَى ، وَمِنْ كُلِّ شَرٍّ يُحْذَرُ مِنْهُ . ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِتِنَا مُعْجِزِينَ ۖ أَيُّ : يَسْعَوْنَ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ وَالتَّصَدِيقِ بِآيَاتِهِ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۖ أَيُّ : جَمِيعُهُمْ مُجْزَوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ فِيهَا بِحَسَبِهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٦١﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ أَيُّ : بِحَسَبِ مَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ يَبْسُطُ عَلَى هَذَا مِنَ الْمَالِ كَثِيرًا وَيُضَيِّقُ عَلَى هَذَا وَيُقْتَرُّ عَلَى هَذَا رِزْقُهُ جِدًّا ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا لَا يُدْرِكُهَا غَيْرُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٦٢﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ أَيُّ : مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَأَبَاحَهُ لَكُمْ فَهُوَ يُخْلِفُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْبَدَلِ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ .

وَيَوْمَ تَحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءِ ۖ إِبَّائَكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٦٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَقَرِّعُ الْمَشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ ، فَيَسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَانَ

المُشْرِكُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ الَّتِي هِيَ عَلَى صُورِهِمْ لِيُقَرَّبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ، فَيَقُولُ
لِلْمَلَائِكَةِ ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِبَادُكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ أَي : أَنْتُمْ أَمَرْتُمْ هَؤُلَاءِ بِعِبَادَتِكُمْ ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى :
﴿ وَأَنْتُمْ أَضَلُّلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان : ١٧] ، وَكَمَا يَقُولُ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُنِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ
لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] ، وَهَكَذَا تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : ﴿ سُبْحَنَكَ ﴾ أَي : تَعَالَيْتَ وَتَقَدَّسْتَ عَنْ أَنْ
يَكُونَ مَعَكَ إِلَهٌ ﴿ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أَي : نَحْنُ عِبِيدُكَ وَتَبَرُّا إِلَيْكَ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿ بَلْ كَانُوا
يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يَعْنُونَ : الشَّيَاطِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ لَهُمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَيُضِلُّوهُمْ
﴿ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسَانًا وَإِنْ
يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۝ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ [النساء : ١١٧-١١٨] قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أَي : لَا يَقَعُ لَكُمْ نَفْعٌ مِمَّنْ كُنْتُمْ تَرْجُونَ نَفْعَهُ الْيَوْمَ مِنَ الْأَنْدَادِ
وَالْأَوْثَانِ الَّتِي ادَّخَرْتُمْ عِبَادَتَهَا لِشِدَائِدِكُمْ وَكُرْبِكُمْ الْيَوْمَ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
﴿ وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ، وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ ﴿ دُفُّوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴾ أَي :
يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا .

وَإِذَا تَنَتَلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيَّنَّتْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿ وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ
مِنْ نَذِيرٍ ﴾ ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ﴿

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهُ الْعُقُوبَةَ وَالْأَلِيمَ مِنَ الْعَذَابِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَنَتَلَى
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ بَيَّنَّتْ يَسْمَعُونَهَا غَضَبًا طَرِيَةً مِنْ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ
أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ ﴾ يَعْنُونَ : أَنَّ ذِينَ آبَائِهِمْ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ
الرَّسُولُ عِنْدَهُمْ بَاطِلٌ - عَلَيْهِمْ وَعَلَى آبَائِهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ تَعَالَى - ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ
مُفْتَرًى ﴾ يَعْنُونَ : الْقُرْآنَ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ أَي : مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى الْعَرَبِ مِنْ كِتَابٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ ، وَمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَقَدْ كَانُوا
يُودُونَ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ : لَوْ جَاءَنَا نَذِيرٌ أَوْ أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْ غَيْرِنَا ، فَلَمَّا مَنَّ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ كَذَّبُوهُ وَجَحَدُوهُ وَعَانَدُوهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيُّ: مَنْ الْأَمَمِ ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : أَيُّ: مِنَ الْقُوَّةِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] أَيُّ: وَمَا دَفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ وَلَا رَدَّهُ بَلْ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمَّا كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿أَيُّ: فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي وَنَكَالِي وَانْتِصَارِي لِرُسُلِي؟﴾

قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢١٤﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الرَّاعِمِينَ أَنْكَ مَجْنُونٌ ﴿إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بَوَاحِدَةً﴾ أَيُّ: إِنَّمَا أَمُرُّكُمْ بِوَاحِدَةٍ وَهِيَ: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أَيُّ: تَقُومُوا قِيَامًا خَالِصًا لِلَّهِ ﷻ مِنْ غَيْرِ هَوَى وَلَا عَصِيَّةٍ، فَيَسْأَلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا: هَلْ بِمُحَمَّدٍ مِنْ جُنُونٍ؟، فَيَنْصَحُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ أَيُّ: يَنْظُرُ الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَسْأَلُ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ عَنْ شَأْنِهِ إِنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ وَيَتَفَكَّرُ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّافَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «يَا صَبَاحَاهُ» فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي» قَالُوا: بَلَى! قَالَ ﷺ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبَّ لَكَ أَهْلُهَا جَمَعْنَا؟! فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢١٥﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٢١٦﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْإِبْطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٢١٧﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٢١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أَيُّ: لَا

أُرِيدُ مِنْكُمْ جُجُلًا وَلَا عَطَاءً عَلَى آدَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ وَنُصْحِي إِيَّاكُمْ وَأَمْرُكُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ ﴿١٠﴾ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴿١١﴾ أَيُّ : إِنَّمَا أُطْلِبُ ثَوَابَ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿١٢﴾ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٣﴾ أَيُّ : عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِمَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ إِنْخِبَارِي عَنْهُ بِرَسُولِهِ إِيَّايَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ .
وَقَوْلُهُ : ﴿١٤﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿١٥﴾ يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿١٦﴾ [غافر : ١٥] أَيُّ : يُرْسِلُ الْمَلَكَ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَهُوَ عَلَامُ الْغُيُوبِ ، فَلَا تُخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .

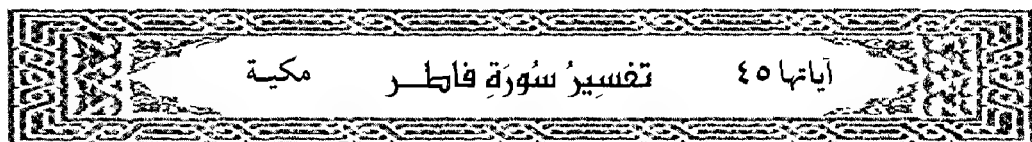
وَقَوْلُهُ : ﴿١٧﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿١٨﴾ أَيُّ : جَاءَ الْحَقُّ مِنَ اللَّهِ وَالشَّرْعُ الْعَظِيمُ ، وَذَهَبَ الْبَاطِلُ وَرَهَقَ وَاضْمَحَلَّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿١٩﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿٢٠﴾ [الأنبياء : ١٨] ، وَلِهَذَا لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَوَجَدَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ مَنْصُوبَةً حَوْلَ الْكُعْبَةِ جَعَلَ يَطْعُنُ الصَّنَمَ مِنْهَا بِسِيَةِ قَوْسِهِ وَيَقْرَأُ ﴿٢١﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٢٢﴾ [الإسراء : ٨١] ﴿٢٣﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُعِيدُ ﴿٢٤﴾ أَيُّ : لَمْ يَبْقَ لِلْبَاطِلِ مَقَالَةٌ وَلَا رِيَاسَةٌ وَلَا كَلِمَةٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَيْتٌ ﴿٢٦﴾ أَيُّ : الْخَيْرُ كُلُّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَفِيمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ ﷻ مِنَ الْوَحْيِ وَالْحَقُّ الْمُبِينُ ، فِيهِ الْهُدَى وَالْبَيَانُ وَالرَّشَادُ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِهِ .
وَقَوْلُهُ : ﴿٢٧﴾ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٢٨﴾ أَيُّ : سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، قَرِيبٌ يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٢٩﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِءَ وَإِنَّا لَهُمُ التَّنَافُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِءَ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿٣٣﴾ وَلَوْ تَرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَا مُحَمَّدُ إِذْ فَزَعَ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٣٥﴾ فَلَا قُوَّةَ ﴿٣٦﴾ أَيُّ : فَلَا مَقَرَّ لَهُمْ وَلَا وَرَرَ لَهُمْ وَلَا مَلْجَأَ ﴿٣٧﴾ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٣٨﴾ أَيُّ : لَمْ يُمَكِّنُوا أَنْ يُمَعِنُوا فِي الْحَرْبِ ، بَلْ أُخِذُوا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ الطَّامَةُ الْعُظْمَى ، ﴿٣٩﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِءَ ﴿٤٠﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ : آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِرُسُلِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٤١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿٤٢﴾ [السجدة : ١٢] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٤٣﴾ وَإِنَّا لَهُمُ التَّنَافُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ أَيُّ : كَيْفَ هُمْ تَعَاطِيِ الْإِيمَانِ وَقَدْ بَعُدُوا عَنْ مَحَلِّ قَبُولِهِ مِنْهُمْ وَصَارُوا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ وَهِيَ دَارُ الْجَزَاءِ لَا دَارُ الْإِتِلَاءِ

فَلَوْ كَانُوا آمَنُوا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ ذَلِكَ نَافِعُهُمْ ، وَلَكِنْ بَعْدَ مَصِيرِهِمْ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى قَبُولِ الْإِيمَانِ ، كَمَا لَا سَبِيلَ إِلَى حُصُولِ الشَّيْءِ لِمَنْ يَتَنَاوَلُهُ مِنْ بَعِيدٍ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَيُّ : كَيْفَ يَحْصُلُ لَهُمُ الْإِيمَانُ فِي الْآخِرَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِالْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴿ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ . يَرْجُمُونَ بِالظَّنِّ ، لَا بَعَثَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ . ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ يَعْنِي : فَإِنَّهُ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا طَلَبُوهُ فِي الْآخِرَةِ فَمُنِعُوا مِنْهُ . ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَيُّ : كَمَا جَرَى لِلْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ ، لَمَّا جَاءَهُمْ بِأَسْ اللَّهِ تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ آمَنُوا فَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ أَيُّ : كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي شَكٍّ وَرَيْبَةٍ ، فَلِهَذَا لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْهُمْ الْإِيمَانُ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ .

أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سَبَأَ ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْبَحَةٍ مَّتْنًى وَتُلُثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾
 عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بَيْتٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَنَا فَطَرْتُهَا ، أَيُّ : بَدَأْتُهَا ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَكَةِ رُسُلًا ﴾ أَيُّ : بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِ ﴿ أُولَى أَجْبَحَةٍ ﴾ أَيُّ : يَطِيرُونَ بِهَا لِيُبَلِّغُوا مَا أُمِرُوا بِهِ سَرِيعًا ﴿ مَّتْنًى وَتُلُثَ وَرُبْعَ ﴾ أَيُّ : مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَنَاحَانِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَرْبَعَةٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ بَيْنَ كُلِّ جَنَاحَيْنِ كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَأَنَّهُ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ .
وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : ١٠٧] ، وَلَهَا نَظَائِرٌ كَثِيرَةٌ .

يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿١﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الْإِسْتِدْلَالِ عَلَى تَوْحِيدِهِ فِي إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ ، كَمَا أَنَّهُ الْمُسْتَقْتَلُ
بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ ، فَكَذَلِكَ فَلْيَفْرَدُ بِالْعِبَادَةِ وَلَا يُشْرِكْ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ،
وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ أَيُّ : فَكَيْفَ تُؤْفَكُونَ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَوُضُوحِ
هَذَا الْبَرَهَانِ ، وَأَنْتُمْ بَعْدَ هَذَا تَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانِ .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢﴾ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ
لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾

يَقُولُ : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ - يَا مُحَمَّدُ - هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ وَيُخَالِفُونَكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ ،
فَلَكَ فِيمَنْ سَلَفَ قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ أُسُوءَةٌ ، فَإِنَّهُمْ كَذَلِكَ جَاءُوا قَوْمَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَمْرُوهُمْ
بِالتَّوْحِيدِ فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أَيُّ : وَسَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أَيُّ : الْمَعَادُ كَائِنْ لَا مُحَالَاةٍ ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا ﴾ أَيُّ : الْعَيْشَةُ الدُّنْيَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَاتَّبَاعِ رُسُلِهِ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ فَلَا
تَتَلَهَّوْا عَنْ ذَلِكَ الْبَاقِي بِهَذِهِ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ ، أَيُّ : لَا
يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ وَيَضِرَّ فَنَّاكُمْ عَنْ اتِّبَاعِ رُسُلِ اللَّهِ وَتَصْدِيقِ كَلِمَاتِهِ ، فَإِنَّهُ غَرَارٌ كَذَّابٌ أَفَّاكٌ .

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى عَدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِابْنِ آدَمَ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أَيُّ :
هُوَ مُبَارِرٌ لَكُمْ بِالْعَدَاوَةِ ، فَعَادُوهُ أَنْتُمْ أَشَدُّ الْعَدَاوَةِ ، وَخَالِفُوهُ وَكَذَّبُوهُ فِيمَا يَغُرُّكُمْ بِهِ ﴿ إِنَّمَا
يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يَقْصِدُ أَنْ يُضِلَّكُمْ حَتَّى تَدْخُلُوا مَعَهُ إِلَى
عَذَابِ السَّعِيرِ فَهَذَا هُوَ الْعَدُوُّ الْمِينُ .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴿٥﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ أَتْبَاعَ إِبْلِيسَ مَصِيرُهُمْ إِلَى السَّعِيرِ ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ؛ لِأَنَّهُمْ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ وَعَصَوْا الرَّحْمَنَ ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أَيُّ : لِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ ذَنْبٍ ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ عَلَى مَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ .
ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوؤُ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا ﴾ يَعْنِي : كَالْكَفَّارِ وَالْفُجَّارِ يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا سَيِّئَةً وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَعْتَقِدُونَ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ، أَيُّ : أَفَمَنْ كَانَ هَكَذَا - قَدْ أَضَلَّهُ اللَّهُ - أَلَيْكَ فِيهِ حِيلَةٌ ؟ لَا حِيلَةَ لَكَ فِيهِ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : بِقَدَرِهِ كَانَ ذَلِكَ ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ أَيُّ : لَا تَأْسَفْ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ فِي قَدَرِهِ ، إِنَّمَا يُضِلُّ مَنْ يُضِلُّ وَيَهْدِي مَنْ يَهْدِي لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ وَالْعِلْمِ التَّامِّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسِقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۚ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

كَثِيرًا مَا يَسْتَدِلُّ تَعَالَى عَلَى الْمَعَادِ بِأَحْيَائِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَمَا فِي سُورَةِ الْحَجِّ يُنَبِّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِهَذَا عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْأَرْضَ تَكُونُ مَيِّتَةً هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا ، فَإِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهَا السَّحَابُ تَحْمِلُ الْمَاءَ وَأَنْزَلَهُ عَلَيْهَا ﴿ أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴾ [الحج - ٥] كَذَلِكَ الْأَجْسَادُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْثَهَا وَنُشُورَهَا أَنْزَلَ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مَطَرًا يَعْمُ الْأَرْضَ جَمِيعًا ، فَتَنْبُتُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا ، كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي الْأَرْضِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أَيُّ : مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَكُنْ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُهُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَسْخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّغُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٩]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ يَعْنِي: الذِّكْرُ وَالتَّلَاوَةُ وَالِدُعَاءُ. ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: الْكَلِمُ الطَّيِّبُ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى يُصْعَدُ بِهِ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ: أَدَاءُ فَرَائِضِهِ، وَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ وَلَمْ يُؤَدِّ فَرَائِضَهُ رَدَّ كَلَامُهُ عَلَى عَمَلِهِ، فَكَانَ أَوَّلَى بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: هُمْ الْمُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، يَعْنِي: يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ يُوْهِمُونَ أَنَّهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمْ بُعْضَاءُ إِلَى اللَّهِ ﷻ مُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ﴾ أَي: يَفْسُدُ وَيَبْطُلُ وَيَظْهَرُ زَيْفُهُمْ عَنْ قَرِيبٍ لِأُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى، فَإِنَّهُ مَا أَسَرَ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى صَفَحَاتٍ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتٍ لِسَانِهِ، وَمَا أَسَرَ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ تَعَالَى رِدَاءَهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أَي: ابْتَدَأَ خَلَقَ أَيْبَكُمْ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أَي: ذَكَرَا وَأُنْثَى، لُطْفًا مِنْهُ وَرَحْمَةً أَنْ جَعَلَ لَكُمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسِكُمْ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أَي: هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ بَلْ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا بِعِلْمِهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام - ٥٩]، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُنْتَعَالِ [الرعد: ٨ - ٩]

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أَي: مَا يُعْطَى بَعْضُ النُّطْفِ مِنَ الْعُمُرِ الطَّوِيلِ يَعْلَمُهُ، وَهُوَ عِنْدَهُ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْجِنْسِ لَا عَلَى الْعَيْنِ؛ لِأَنَّ الْعَيْنَ الطَّوِيلَ الْعُمُرِ فِي الْكِتَابِ وَفِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ، وَإِنَّمَا عَادَ الضَّمِيرُ عَلَى الْجِنْسِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ: عِنْدِي ثَوْبٌ وَنَصْفُهُ أَي: وَنِصْفُ ثَوْبٍ آخَرَ. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أَي: سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ، لَدَيْهِ عِلْمٌ بِذَلِكَ وَبِتَفْصِيلِهِ فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، فَإِنَّ عِلْمَهُ شَامِلٌ لِلْجَمِيعِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَخَلَقَ الْبَحْرَيْنِ الْعَذْبَ، الزَّلَالَ، وَهُوَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ كِبَارٍ وَصِغَارٍ، بِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فِي

الْأَقَالِيمِ وَالْأَمْصَارِ وَالْعُمَرَانِ وَالْبَرَاريِّ وَالْقَفَارِ ، وَهِيَ عَذْبَةٌ سَائِغٌ شَرَابُهَا لِمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أَحَاَجٌ ﴾ أَيُ : وَهُوَ الْبَحْرُ السَّاكِنُ الَّذِي تَسِيرُ فِيهِ الشُّفُنُ الْكِبَارُ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ مَالِحَةً زَعَاقًا مَرَّةً ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أَحَاَجٌ ﴾ أَيُ : مَرٌّ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يَعْنِي : السَّمَكُ ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ، كَمَا قَالَ ﴿ تَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (٢٢) فَبَإَيِّ آءٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ [الرحمن : ٢٢-٢٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاجِرُ ﴾ أَيُ : تَخْرُجُهُ وَتَشْقُّهُ بِحِزْوِمِهَا ، وَهُوَ مُقَدَّمُهَا الْمُسَمُّ الَّذِي يُشَبِّهُ جَوْجُو الطَّيْرِ ، وَهُوَ صَدْرُهُ . ﴿ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أَيُ : بِأَسْفَارِكُمْ بِالتَّجَارَةِ مِنْ قُطْرِ إِلَى قُطْرِ . وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيُ : تَشْكُرُونَ رَبَّكُمْ عَلَى تَسْخِيرِهِ لَكُمْ هَذَا الْخَلْقَ الْعَظِيمَ ، وَهُوَ الْبَحْرُ تَتَصَرَّفُونَ فِيهِ كَيْفَ شِئْتُمْ ، وَتَذْهَبُونَ أَيْنَ أَرَدْتُمْ ، وَلَا يَمْنَعُ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنْهُ ، بَلْ بِقُدْرَتِهِ قَدْ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، الْجَمِيعَ مِنْ فَضْلِهِ وَمِنْ رَحْمَتِهِ .

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿٢٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿٢٤﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي تَسْخِيرِهِ اللَّيْلَ بِظَلَامِهِ وَالنَّهَارَ بِضِيَائِهِ ، وَيَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فَيَزِيدُهُ فِي قِصَرِ هَذَا فَيَعْتَدِلَانِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا ، ثُمَّ يَتَقَارَضَانِ صَيْفًا وَشِتَاءً ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أَيُ : وَالنُّجُومَ السَّيَّارَاتِ ، وَالتَّوَابِتِ الثَّاقِبَاتِ بِأَضْوَائِهِنَّ أَجْرَامَ السَّمَاوَاتِ ، الْجَمِيعَ يَسِيرُونَ بِمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ . وَعَلَى مِنْهَا جُفَى مُقَنَّنٍ مُحَرَّرٍ ، تَقْدِيرًا مِنْ عَزِيزٍ عَلِيمٍ ﴿ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيُ : إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أَيُ : الَّذِي فَعَلَ هَذَا هُوَ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أَيُ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي هِيَ عَلَى صُورَةٍ مَنْ تَزْعُمُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ الْقِطْمِيرُ هُوَ : اللَّفَافَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَى نَوَاةِ التَّمْرَةِ ، أَيُ : لَا يَمْلِكُونَ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا بِمِقْدَارِ هَذَا الْقِطْمِيرِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْإِلَهَةُ الَّتِي تَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَكُمْ ؛ لِأَنَّهَا جَمَادٌ لَا أَرْوَاحَ فِيهَا ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ أَيُ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا تَطْلُبُونَ مِنْهَا ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُكُمْ ﴾ أَيُ : يَتَبَرَّءُونَ مِنْكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أَي: وَلَا يُخْبِرُكَ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَا لَهَا، وَمَا تَصِيرُ إِلَيْهِ مِثْلُ خَبِيرٍ بِهَا. قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي: نَفْسُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَخْبَرَ بِالْوَاقِعِ لَا مُحَالَةً.

﴿يَتَأَيُّمُ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ١٥ إِنَّ يَشَاءُ يَذْهَبَكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ١٧ وَلَا تَرُرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى ١٨ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَمَلِهَا لَا تُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ١٩ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَّى فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ ٢٠ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ٢١

يُخْبِرُ تَعَالَى بِغَنَائِهِ عَمَّا سِوَاهُ، وَبِإِفْتِقَارِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا إِلَيْهِ وَتَذَلُّلِهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّمُ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: هُمْ مُتَحَاجُّونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكِّنَاتِ، وَهُوَ تَعَالَى الْغَنِيُّ عَنْهُمْ بِالذَّاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أَي: هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْغِنَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ وَيَقُولُهُ وَيَقْدِرُهُ وَيَسْرَعُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبَكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أَي: لَوْ شَاءَ لَذَهَبَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَأَتَى بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ، وَمَا هَذَا عَلَيْهِ بِصَعْبٍ وَلَا مُتَمَنِّعٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَرُرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَمَلِهَا﴾ أَي: وَإِنْ تَدْعُ نَفْسٌ مُثْقَلَةٌ بِأَوْزَارِهَا إِلَى أَنْ تُسَاعِدَ عَلَى حَمْلِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْأَوْزَارِ أَوْ بَعْضِهِ ﴿لَا تُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أَي: وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا إِلَيْهَا، حَتَّى وَلَوْ كَانَ أَبَاهَا أَوْ ابْنَهَا، كُلُّ مَشْغُولٍ بِنَفْسِهِ وَحَالِهِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أَي: إِنَّمَا يَتَعِظُ بِهَا جَنَّتْ بِهِ أَوْ لَوْ الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى، الْحَاطِفُونَ مِنْ رَبِّهِمُ الْفَاعِلُونَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ ﴿وَمَنْ تَرَكَّى فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ﴾ أَي: وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أَي: وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبُتُّ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ٢٢ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ٢٣ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ٢٤ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ٢٥ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ٢٦ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٧ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ٢٨ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ ٢٩ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ٣٠ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ٣١ يَقُولُ تَعَالَى: كَمَا لَا تَسْتَوِي هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمُتْبَايِنَةُ الْمُخْتَلِفَةُ، كَالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ لَا يَسْتَوِيَانِ،

بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ وَبَوْنٌ كَثِيرٌ، وَكَمَا لَا تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحُرُورُ، كَذَلِكَ لَا تَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ، وَهَذَا مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ الْأَحْيَاءُ، وَلِلْكَافِرِينَ وَهُمْ الْأَمْوَاتُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وَقَالَ ﷻ: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]، فَاَلْمُؤْمِنُ بِصِيرٌ سَمِيعٌ فِي نُورٍ، يَمْشِي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، حَتَّى يَسْتَقِرَّ بِهِ الْحَالُ فِي الْجَنَاتِ ذَاتِ الظَّلَالِ وَالْعُيُونِ، وَالْكَافِرُ أَعْمَى وَأَصَمٌّ فِي ظُلُمَاتٍ يَمْشِي، لَا خُرُوجَ مِنْهَا بَلْ هُوَ يَتِيه فِي غِيهِ وَضَلَالِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، حَتَّى يُفْضِي بِهِ ذَلِكَ إِلَى الْحُرُورِ وَالسَّمُومِ وَالْحَمِيمِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أَي: يَهْدِيهِمْ إِلَى سَمَاعِ الْحُجَّةِ وَقَبُولِهَا وَالْإِنْقِيَادِ لَهَا ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أَي: كَمَا لَا يَنْتَفِعُ الْأَمْوَاتُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَصَيَّرُوهُمْ إِلَى قُبُورِهِمْ، وَهُمْ كُفَّارٌ بِالْهُدَايَةِ وَالِدَّعْوَةِ إِلَيْهَا، كَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ - الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةُ - لَا حِيلَةَ لَكَ فِيهِمْ وَلَا تَسْتَطِيعُ هِدَايَتَهُمْ. ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أَي: إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَالْإِنذَارُ، وَاللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَي: بِشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أَي: وَمَا مِنْ أُمَّةٍ خَلَتْ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمُ النَّذَرَ، وَأَزَاحَ عَنْهُمْ الْعِلَلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَكْفُرْ بِكَ فَكُذِّبْ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَهِيَ: الْمُعْجَزَاتُ الْبَاهِرَاتُ وَالْأَدِلَّةُ الْقَاطِعَاتُ﴾ ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾، وَهِيَ الْكُتُبُ ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُمِينِ﴾ أَي: الْوَاضِحِ الْبَيِّنِ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ كَذَّبَ أُولَئِكَ رُسُلَهُمْ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ فَأَخَذْتُهُمْ، أَي: بِالْعِقَابِ وَالنَّكَالِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أَي: فَكَيْفَ رَأَيْتَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ عَظِيمًا شَدِيدًا بَلِيغًا.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿١٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿١٨﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ الْمُتَنَوِّعَةَ الْمُخْتَلِفَةَ مِنَ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ، وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي يُنَزِّلُهُ مِنَ السَّمَاءِ، يُخْرِجُ بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا مِنْ أَصْفَرٍ وَأَحْمَرٍ وَأَخْضَرَ وَأَبْيَضَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ أَلْوَانِ الثَّمَارِ، كَمَا هُوَ مُشَاهِدٌ مِنْ تَنَوُّعِ أَلْوَانِهَا وَطُعُومِهَا وَرَوَائِحِهَا،

كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَسِرٍ وَزَرْعٌ وَغَنِيلٌ صَيْتَانٌ وَغَيْرُ صَيْتَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا﴾ أَي: وَخَلَقَ الْجِبَالَ كَذَٰلِكَ مُخْتَلِفَةً الْأَلْوَانِ ، كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ أَيْضًا مِنْ بَيْضٍ وَحُمْرٍ ، وَفِي بَعْضِهَا طَرَائِقُ ، وَهِيَ: الْجُدُدُ ، جَمْعُ جُدَّةٍ مُّخْتَلِفَةً الْأَلْوَانِ أَيْضًا . وَمِنْهَا ﴿وَعَرَابِيْبُ سُودٌ﴾ قِيلَ: الْجِبَالُ الطَّوَالُ السُّودُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَٰلِكَ﴾ أَي: كَذَٰلِكَ الْحَيَوَانَاتُ مِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ - وَهُوَ كُلُّ مَا دَبَّ عَلَى قَوَائِمٍ - وَالْأَنْعَامُ: مِنْ بَابٍ عَطَفَ الْخَاصَّ عَلَى الْعَامِّ ، كَذَٰلِكَ هِيَ مُخْتَلِفَةٌ أَيْضًا ، فَالنَّاسُ مِنْهُمْ بَرَبْرٌ وَحُبُوشٌ وَطَمَاطُمٌ فِي غَايَةِ السَّوَادِ ، وَصَقَالِبَةٌ وَرُومٌ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ ، وَالْعَرَبُ بَيْنَ ذَٰلِكَ ، وَالْهُنُودُ دُونَ ذَٰلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَاحْتَلَفُ الْأَسْتِخْمُ وَالْوَنُكْمُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] ، وَكَذَٰلِكَ الدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ حَتَّى فِي الْجِنْسِ الْوَاحِدِ ، بَلِ النَّوْعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مُّخْتَلِفٌ الْأَلْوَانِ ، بَلِ الْحَيَوَانُ الْوَاحِدُ يَكُونُ أَبْلَقٌ ، فِيهِ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ وَهَذَا اللَّوْنِ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا: ﴿إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أَي: إِنَّمَا يَخْشَاهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ الْعُلَمَاءُ الْعَارِفُونَ بِهِ ، لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ لِلْعَظِيمِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ ، الْمَوْصُوفِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، الْمَنْعُوتِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، كُلَّمَا كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ بِهِ أَتَمَّ ، وَالْعِلْمُ بِهِ أَكْمَلَ كَانَتْ الْحَشْيَةُ لَهُ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجْرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٥﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَهُ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ ، مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَوْقَاتِ الْمَشْرُوعَةِ كَيْلًا وَتَهَارًا ، سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴿يَرْجُونَ تِجْرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أَي: يَرْجُونَ ثَوَابًا عِنْدَ اللَّهِ لَا بُدَّ مِنْ حُصُولِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ أَي: لِيُؤْفِقَهُمْ ثَوَابَ مَا عَمِلُوهُ وَيُضَاعِفَهُ لَهُمْ بِزِيَادَاتٍ لَمْ يَخْطُرَ لَهُمْ ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ أَي: لِذُنُوبِهِمْ ﴿شَكُورٌ﴾ لِلْقَلِيلِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ .

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ

الْخَيْرُ بَصِيرٌ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنَ الْكِتَابِ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴾ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿ أَيُّ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُنْتَقَدِمَةِ بِصِدْقِهَا ، كَمَا شَهِدَتْ هِيَ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ ، وَأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْبَادُهُ الْخَيْرُ بَصِيرٌ ﴿ أَيُّ : هُوَ خَيْرٌ بِهِمْ بَصِيرٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مَا يُفْضَلُهُ بِهِ عَلَى مَنْ سِوَاهُ .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ثُمَّ جَعَلْنَا الْقَائِمِينَ بِالْكِتَابِ الْعَظِيمِ الْمُصَدِّقِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا - وَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ - ثُمَّ قَسَمَهُمْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ : فَقَالَ : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ ، وَهُوَ الْمُفْرَطُ فِي فِعْلِ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ ، الْمُزْتَكِبُ لِبَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ هُوَ الْمُؤَدِّي لِلْوَاجِبَاتِ التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ ، وَقَدْ يَتْرُكُ بَعْضَ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَيَفْعَلُ بَعْضَ الْمَكْرُوهَاتِ ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وَهُوَ : الْفَاعِلُ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ ، التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضُ الْمُبَاحَاتِ . رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قَالَ : هُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ وَرَثَتُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى كُلُّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ فَطَائِفُهُمْ يُعْفَرُ لَهُ ، وَمُقْتَصِدُهُمْ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَسَابِقُهُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٥٨﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٥٩﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٦٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُصْطَفَيْنَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَاوَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ جَنَّتْ عَدْنٌ ﴾ أَيُّ : جَنَّاتُ الْإِقَامَةِ ، يَدْخُلُونَهَا يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَقُدُومِهِمْ عَلَى اللَّهِ ﷻ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « تَبْلُغُ الْحَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ » .

﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، وَهَذَا كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا فَأَبَاحَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ » ، وَقَالَ : « هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ » . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ ، وَهُوَ

الْخَوْفُ مِنَ الْمَحْذُورِ ، أَرَاخَهُ عَنَّا ، وَأَرَاخَنَا بِمَا كُنَّا نَتَخَوَّفُهُ وَنَحْذَرُهُ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
 ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ۖ يَقُولُونَ : الَّذِي أَعْطَانَا هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَهَذَا الْمَقَامَ - مِنْ
 فَضْلِهِ وَمَنْهُ وَرَحْمَتِهِ - لَمْ تَكُنْ أَعْمَالُنَا تُسَاوِي ذَلِكَ . ۖ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۖ
 أَيُّ : لَا يَمَسُّنَا فِيهَا عَنَاءٌ وَلَا إِعْيَاءٌ ، وَالنَّصَبُ وَاللُّغُوبُ : كُلُّ مِنْهُمَا يُسْتَعْمَلُ فِي التَّعَبِ ، وَكَأَنَّ
 الْمُرَادَ بِتَقْيِي هَذَا وَهَذَا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا تَعَبَ عَلَى أَبْدَانِهِمْ وَلَا أَرْوَاحِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا
 كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافُورٍ ﴿٧٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ
 الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا
 فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَالِ السَّعْدَاءِ شَرَعَ فِي بَيَانِ مَالِ الْأَشْقِيَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ
 نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ۖ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ ﴾ [طه : ٧٤] ،
 وَبَيَّنَّ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا
 وَلَا يَحْيُونَ » ، وَقَالَ ﷺ : « وَنَادَوْا بِمَلِكِكَ لِيُقْضَىٰ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْنُوتُونَ ۖ ﴾ [الزخرف : ٧٧] ،
 فَهُمْ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ يَرُونَ مَوْتَهُمْ رَاحَةً لَهُمْ ، وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ ذَلِكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿ لَا
 يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ۖ كَمَا قَالَ ﷺ : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ
 جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۖ ﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۖ ﴾ [الزخرف : ٧٤-٧٥] ، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا :
 ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۖ ﴾ [الإسراء : ٩٧] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافُورٍ ۖ أَيُّ :
 هَذَا جَزَاءُ كُلِّ مَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ . ۖ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا ۖ أَيُّ : يُنَادُونَ فِيهَا ، يَجَارُونَ
 إِلَى اللَّهِ ﷻ بِأَصْوَاتِهِمْ ۖ ﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أَيُّ : يَسْأَلُونَ
 الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا غَيْرَ عَمَلِهِمُ الْأَوَّلِ ، وَقَدْ عَلِمَ الرَّبُّ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنَّهُ لَوْ رَدَّهُمْ إِلَى
 الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا هُمُوهَا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، فَلِهَذَا لَا يُجِيبُهُمْ إِلَى سَوْأِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا :
 ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ أَيُّ : أَوَمَّا عِشْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَعْمَارًا لَوْ
 كُنْتُمْ مِمَّنْ يَنْتَفِعُ بِالْحَقِّ لَانْتَفَعْتُمْ بِهِ فِي مَدَّةِ عُمُرِكُمْ ؟ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - :
 الْعُمُرُ الَّذِي أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِابْنِ آدَمَ ۖ ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ۖ أَرَبُعُونَ سَنَةً .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ يَعْنِي : الشَّيْبَ ، وَقِيلَ : يَعْنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ۖ أَيُّ : فَذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ جَزَاءً عَلَىٰ مُحَالَفَتِكُمْ

لِلْأَنْبِيَاءِ فِي مُدَّةِ أَعْمَارِكُمْ ، فَمَا لَكُمْ الْيَوْمَ نَاصِرٌ يُنْقِذُكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْأَعْلَالِ .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ السَّرَائِرُ ، وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ الضَّمَائِرُ ، وَسَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : يَخْلُقُ قَوْمًا لِأَخْرِيْن قَبْلَهُمْ ، وَجِيلٍ لِّجِيلٍ قَبْلَهُمْ . ﴿ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أَيُّ : فَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ دُونَ غَيْرِهِ ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أَيُّ : كُلَّمَا اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ أَبْغَضَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَكُلَّمَا اسْتَمَرُّوا فِيهِ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّهُمْ كُلَّمَا طَالَ عُمُرُ أَحَدِهِمْ وَحَسُنَ عَمَلُهُ اِرْتَفَعَتْ دَرَجَتُهُ وَمُنِزَلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَزَادَ أَجْرُهُ وَأَحَبَّهُ خَالِقُهُ وَبَارِئُهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ * إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ ، أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ﴾ أَيُّ : أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ كِتَابًا بَيِّنًا يَقُولُونَهُ مِنَ الشَّرْكِ وَالْكُفْرِ ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ﴿ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أَيُّ : بَلْ إِنَّمَا اتَّبَعُوا فِي ذَلِكَ أَهْوَاءَهُمْ وَأَرَآءَهُمْ وَأَمَانِيَهُمُ الَّتِي مَتَّوْهَا لِأَنْفُسِهِمْ ، وَهِيَ غُرُورٌ وَبَاطِلٌ وَزُورٌ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي بِهَا تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَنْ أَمْرِهِ ، وَمَا جَعَلَ فِيهِمَا مِنَ الْقُوَّةِ الْمَاسِكَةِ لَهَا ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا ﴾ أَيُّ : أَنْ تَضْطَرِبَا عَنْ أَمَاكِنِهِمَا ، ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أَيُّ : لَا يَقْدِرُ عَلَى دَوَامِهِمَا وَإِبْقَائِهِمَا إِلَّا

هُوَ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ حَلِيمٌ غَفُورٌ أَنْ يَرَى عِبَادَهُ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَيَعْصُونَهُ ، وَهُوَ يَحْلُمُ فَيُؤَخِّرُ ، وَيَنْظُرُ وَيُؤَجِّلُ وَلَا يَعْجَلُ ، وَيَسْتُرُ آخِرِينَ وَيَغْفِرُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا تَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿١٣﴾

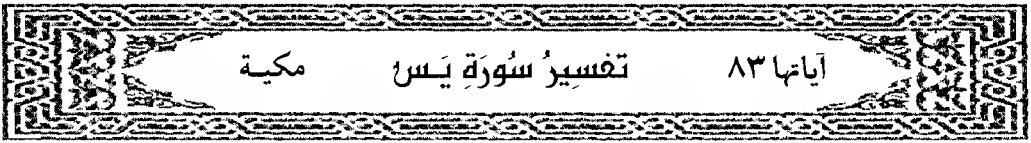
يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ قَبْلَ إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ ﴿ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ أَي : مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ الرُّسُلُ . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ - وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ - بِمَا أُنْزِلَ مَعَهُ مِنَ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ ﴿ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أَي : مَا إِزْدَادُوا إِلَّا كُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ . ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : اسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أَي : وَمَكَرُوا بِالنَّاسِ فِي صَدِّهِمْ إِيَّاهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ وَلَا تَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أَي : وَمَا يَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ إِلَّا عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ . ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنِي : عُقُوبَةَ اللَّهِ هُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أَي : لَا تُعَيَّرُ وَلَا تُبَدَّلُ بَلْ هِيَ جَارِيَةٌ كَذَلِكَ فِي كُلِّ مُكَذِّبٍ ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أَي : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد : ١١] ، وَلَا يَكْشِفُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيُحَوِّلُهُ عَنْهُمْ أَحَدٌ .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَوْ يَوَازِخُدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ بِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ ؟ كَيْفَ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ؟ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ، فَخَلَّيْتُ مِنْهُمْ مَنَازِلَهُمْ ، وَسَلَّيْتُ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النِّعَمِ ، بَعْدَ كَمَالِ الْقُوَّةِ وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ وَكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، فَمَا أَغْنَى ذَلِكَ شَيْئًا ، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ؛ لَأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ إِذَا أَرَادَ كَوْنُهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا

قَدِيرًا ﴿١٠﴾ أَيُّ : عَلِيمٌ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، قَدِيرٌ عَلَى مَجْمُوعِهَا .
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ يَوَاخِذُ اللَّهِ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أَيُّ : لَوْ
أَخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لَأَهْلَكَ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَمَا يَمْلِكُونَهُ مِنْ دَوَابٍّ وَأَرْزَاقٍ . ﴿ وَلَكِنْ
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيُّ : وَلَكِنْ يُنْظِرُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيَحَاسِبُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَيُؤَيِّ كُلَّ
عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، فَيَجَازِي بِالثَّوَابِ أَهْلَ الطَّاعَةِ ، وَبِالْعِقَابِ أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ . وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَأَبْرَأَ اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ فَاطِرٍ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسَ ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لَتَنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ
الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » ، وَقِيلَ إِنَّ « يَسَ » بِمَعْنَى :
يَا إِنْسَانُ ، وَقِيلَ : هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى . « وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » أَيُّ : الْمُحْكَمُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ
الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ « إِنَّكَ » يَا مُحَمَّدُ « لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
أَيُّ : عَلَى مَنْهَجٍ وَدِينٍ قَوِيمٍ ، وَشَرَعَ مُسْتَقِيمٍ « تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » أَيُّ : هَذَا الصِّرَاطُ وَالْمَنْهَجُ
وَالدِّينُ الَّذِي جِئْتَ بِهِ ، مُنْزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ ، الرَّحِيمِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَتَنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ يَعْنِي بِهِمُ الْعَرَبَ ، فَإِنَّهُ مَا أَتَاهُمْ
مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِهِ ، وَذَكَرَهُمْ وَحَدَّهُمْ لَا يَنْفِي مِنْ عَدَاهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : لَقَدْ وَجَبَ الْعَذَابُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ
بِأَنَّ اللَّهَ حَتَمَ عَلَيْهِمْ فِي أُمِّ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » بِاللَّهِ وَلَا يُصَدِّقُونَ رُسُلَهُ .

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِنْ
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَهُمُ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ

ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّا جَعَلْنَا هَؤُلَاءِ الْمُحْتَوَمَ عَلَيْهِم بِالشَّقَاءِ ، نِسَبْتُهُمْ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى الْهُدَى كَسِبَتْهُ مِنْ جُعِلَ فِي عُنُقِهِ غُلٌّ ، فَجَمَعَ يَدَيْهِ مَعَ عُنُقِهِ تَحْتَ ذَقْنِهِ ، فَارْتَفَعَ رَأْسُهُ فَصَارَ مُقَمَّحًا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَهُمْ مُقَمَّحُونَ ﴾ وَالْمَقْمَحُ هُوَ : الرَّافِعُ رَأْسُهُ ، وَاكْتَفَى بِذِكْرِ الْغُلِّ فِي الْعُنُقِ عَنْ ذِكْرِ الْيَدَيْنِ ، وَإِنْ كَانَتْ مُرَادَتَيْنِ . ﴿ فَهُمْ مُقَمَّحُونَ ﴾ قَالَ : رَافِعُو رُءُوسِهِمْ ، وَأَيْدِيَهُمْ مَوْضُوعَةً عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَهُمْ مَعْلُومُونَ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ عَنِ الْحَقِّ ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ عَنِ الْحَقِّ فَهُمْ يَتَرَدَّدُونَ : فِي الضَّلَالَاتِ ﴿ فَأَعْشَيْنَهُمْ ﴾ أَيِ : أَغْشَيْنَا أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْحَقِّ ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أَيِ : لَا يَتَنَفَّعُونَ بِخَيْرٍ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ . ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيِ : قَدْ خَتَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم بِالضَّلَالَةِ ، فَمَا يُفِيدُ فِيهِمُ الْإِنذَارَ وَلَا يَتَأَثَّرُونَ بِهِ ، ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أَيِ : إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِإِنذَارِكَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الذِّكْرَ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾ أَيِ : حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَعَالِمٌ بِمَا يَفْعَلُهُ ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أَيِ : لِذُنُوبِهِ ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أَيِ : كَبِيرٍ وَاسِعٍ حَسَنٍ جَمِيلٍ . ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أَيِ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحْيِي قَلْبَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ - الَّذِينَ قَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ بِالضَّلَالَةِ - فَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أَيِ : مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاثَرَهُمْ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : نَكْتُبُ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي بَاشَرُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَثَارُهُمُ الَّتِي أَثَرُوهَا مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَتَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ أَثَارَ خُطَاهُمْ إِلَى الطَّاعَةِ أَوْ الْمَعْصِيَةِ . ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ أَيِ : جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابٍ مَسْطُورٍ مَضْبُوطٍ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ، وَالْإِمَامُ الْمُبِينُ هَهُنَا : هُوَ أُمُّ الْكِتَابِ .

وَأَضْرِبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٤﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿٥﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿٦﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿٧﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَاضْرِبْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ الَّذِينَ كَذَّبُواكَ ﴿١٠﴾ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١١﴾ قِيلَ : إِنَّهَا مَدِينَةُ أَنْطَاكِيَّةَ ﴿١٢﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴿١٣﴾ أَيُّ : بَادَرُوهُمَا بِالْكَذِبِ ﴿١٤﴾ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴿١٥﴾ أَيُّ : قَوَّيْنَاهُمَا وَشَدَدْنَا أَرْزَهُمَا بِرَسُولٍ ثَالِثٍ . ﴿١٦﴾ فَقَالُوا ﴿١٧﴾ أَيُّ : لِأَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ : ﴿١٨﴾ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٩﴾ أَيُّ : مِنْ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ بِأَمْرِكُمْ بِعِبَادَتِهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿٢٠﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴿٢١﴾ أَيُّ : فَكَيْفَ أَوْحِيَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ بَشَرٌ وَنَحْنُ بَشَرٌ ، فَلِمَ لَا أَوْحِيَ إِلَيْنَا مِثْلَكُمْ ؟ وَلَوْ كُنْتُمْ رُسُلًا لَكُنْتُمْ مَلَائِكَةً ، وَلِهَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ : ﴿٢٢﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿٢٤﴾ أَيُّ : أَجَابَتْهُمْ رُسُلُهُمُ الثَّلَاثَةُ قَائِلِينَ : اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ رُسُلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَلَوْ كُنَّا كَذِبَةً عَلَيْهِ ؛ لَا نَنْقَمُ مِنْكَ أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ وَلَكِنَّهُ سَيَعِزُّنَا وَيَنْصُرُنَا عَلَيْكُمْ ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ عَاقِبَةُ الدَّارِ . ﴿٢٥﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٢٦﴾ يَقُولُونَ : إِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُبَلِّغَكُمْ مَا أُرْسِلْنَا بِهِ إِلَيْكُمْ ، فَإِنْ أَطَعْتُمْ كَانَتْ لَكُمْ السَّعَادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ لَمْ تُحِيبُوا فَسَتَعْلَمُونَ غَيْبَ ذَلِكَ .

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٧﴾ قَالُوا طَئِيرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٢٨﴾

فَمِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ أَهْلُ الْقَرْيَةِ : ﴿٢٩﴾ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴿٣٠﴾ أَيُّ : لَمْ نَرِ عَلَى وُجُوهِكُمْ خَيْرًا فِي عَيْشِنَا . ﴿٣١﴾ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ بِالْحِجَارَةِ . ﴿٣٢﴾ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٣﴾ أَيُّ : عِقُوبَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : ﴿٣٤﴾ طَئِيرُكُمْ مَعَكُمْ ﴿٣٥﴾ أَيُّ : مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَوَهَبُ بْنُ مُنْبِهٍ : أَيُّ : أَعْمَالُكُمْ مَعَكُمْ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿٣٦﴾ وَإِنْ تَصْبِرْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هِدْيَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تَصْبِرْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هِدْيَهُ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٣٧﴾ [النساء : ٧٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٣٨﴾ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٣٩﴾ أَيُّ : مِنْ أَجْلِ أَنَّا ذَكَّرْنَاكُمْ وَأَمَرْنَاكُمْ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ ، قَابَلْتُمُونَا بِهَذَا الْكَلَامِ وَتَوَعَّدْتُمُونَا وَتَهَدَّدْتُمُونَا ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ .

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٤٣﴾ إِنْ إِيَّايَ ضَلَّلِ مُبِينٌ ﴿٤٤﴾ إِنْ إِيَّايَ آمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٤٥﴾

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : إِنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ هُمُوبِ قَتَلُوا رُسُلَهُمْ فَجَاءَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى
 أَيُّ لِيَنْصُرَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ . ﴿ قَالَ يَقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ يُخْصُّ قَوْمَهُ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ
 أَتَوْهُمْ ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أَيُّ : عَلَى إِبْلَاحِ الرِّسَالَةِ ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ فِيمَا يَدْعُونَكُمْ إِلَيْهِ
 مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أَيُّ : وَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ إِخْلَاصِ
 الْعِبَادَةِ لِلَّذِي خَلَقَنِي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْمَعَادِ فَيَجَازِيكُمْ عَلَى
 أَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . ﴿ أَتُخَذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ ﴾ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارٍ وَتَوْبِيخٌ
 وَتَقْرِيعٌ ﴿ إِنْ يُرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضَرٍْ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَذُونَ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ الْأَلِهَةُ الَّتِي
 تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ أَرَادَنِي بِسُوءٍ ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ
 إِلَّا هُوَ ﴾ [يونس - ١٠٧] ، وَهَذِهِ الْأَصْنَامُ لَا تَمْلِكُ دَفْعَ ذَلِكَ وَلَا مَنَعَهُ ، وَلَا يُنْقَذُونَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ
 ﴿ إِنْ إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ مُبِينٍ ﴾ أَيُّ : إِنْ اتَّخَذْتُمَا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ ءَامَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ﴾ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ ﴿ فَاسْمَعُونَ ﴾ أَيُّ : فَاسْمَعُوا قَوْلِي ،
 وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ خُطَابُهُ لِلرُّسُلِ يَقُولُهُ : ﴿ إِنْ ءَامَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ﴾ أَيُّ : الَّذِي أَرْسَلَكُمْ ﴿ فَاسْمَعُونَ ﴾
 أَيُّ : فَاشْهَدُوا لِي بِذَلِكَ عِنْدَهُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : جَعَلُوا يَرْجُوْنَهُ بِالْحِجَارَةِ ، وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اهْدِ
 قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَقْعَصُوهُ ، وَهُوَ يَقُولُ كَذَلِكَ ، فَقَتَلُوهُ رَحِمَهُ اللَّهُ .

قِيلَ آذْخِلِ الْجَنَّةَ قَالِ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
 الْمُكْرَمِينَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا
 مُنْزِلِينَ ﴿٢٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٣﴾

قَالَ اللَّهُ لَهُ : ﴿ آذْخِلِ الْجَنَّةَ ﴾ فَدَخَلَهَا ، فَهُوَ يُزْرَقُ مِنْهَا ، قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُ سَقَمَ الدُّنْيَا
 وَخُرْبَتَهَا وَنَصَبَهَا ، قَالَ قَتَادَةُ : لَا تَلْقَى الْمُؤْمِنَ إِلَّا نَاصِحًا ، لَا تَلْقَاهُ غَاشًّا ، لَمَّا عَايَنَ مَا عَايَنَ مِنْ
 كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿ تَمَّتْ وَاللَّهُ
 أَنْ يَعْلَمَ قَوْمَهُ بِمَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ ، وَمَا هَجَمَ عَلَيْهِ . وَمَقْصُودُهُ : أَنَّهُمْ لَوْ أَطْلَعُوا عَلَى مَا
 حَصَلَ لِي مِنَ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ - فَرَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ
 عَنْهُ - فَلَقَدْ كَانَ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَةِ قَوْمِهِ . ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ
 السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ انْتَقَمَ مِنْ قَوْمِهِ بَعْدَ قَتْلِهِمْ إِيَّاهُ غَضَبًا مِنْهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -
 عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَقَتَلُوا وَلِيَّهُ ، وَبَذَرُوا أَنَّهُ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ وَمَا إِحْتِاجَ فِي إِهْلَاكِهِ
 إِيَّاهُمْ إِلَى إِنْزَالِ جُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ ، بَلِ الْأَمْرُ كَانَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ . وَقِيلَ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾

أَيُّ : وَمَا كُنَّا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ عَلَى الْأُمَمِ إِذَا أَهْلَكْنَاهُمْ ، بَلْ نَبْعَثُ عَلَيْهِمْ عَذَابًا يُدْمِرُهُمْ .

يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٥١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٢﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أَيُّ : يَا وَيْلَ الْعِبَادِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أَيُّ : يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَلَى مَا ضَيَعَتْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، وَفَرَطَتْ فِي جَنْبِ اللَّهِ ، وَفِي بَعْضِ الْقُرَاءَاتِ « يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهَا » ، وَمَعْنَى هَذَا : يَا حَسْرَتَهُمْ وَنَدَامَتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا عَايَنُوا الْعَذَابَ ، كَيْفَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللَّهِ وَخَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ ؟ فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا الْمُكَذَّبُونَ مِنْهُمْ ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أَيُّ : يُكَذِّبُونَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَيُجَحِّدُونَ مَا أُرْسِلَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أَيُّ : أَلَمْ يَتَّعِظُوا بِمَنْ أَهْلَكَ اللَّهُ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ ، كَيْفَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا كَرَّةٌ وَلَا رَجْعَةٌ وَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ كَثِيرٌ مِنْ جَهْلَتِهِمْ وَفَجَرَتِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون : ٢٧] ، وَهُمْ الْقَائِلُونَ بِالذُّورِ مِنَ الدَّهْرِ يَتَعَقَّدُونَ جَهْلًا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا كَانُوا فِيهَا ، فَرَدَّ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَلَيْهِمْ بَاطِلَهُمْ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أَيُّ : وَإِنْ جَمِيعُ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ سَتُحْضَرُ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ كُلَّهَا خَيْرَهَا وَشَرَّهَا .

وَأَيَّةُ هُمْ الْأَرْضُ الْمَمِيَّةُ أَحْيَيْنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٥٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٥٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَأَيَّةُ هُمْ ﴾ أَيُّ : دَلَالَةُ هُمْ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ ، وَقُدْرَتِهِ النَّامَةِ وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى ﴿ الْأَرْضُ الْمَمِيَّةُ ﴾ أَيُّ : إِذَا كَانَتْ مَيْتَةً هَامِدَةً لَا شَيْءَ فِيهَا مِنَ النَّبَاتِ ، فَإِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَحْيَيْنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أَيُّ : جَعَلْنَاهُ رِزْقًا لَهُمْ وَلِأَعْمَالِهِمْ ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا

فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿١٠﴾ أَيُّ : جَعَلْنَا فِيهَا أَنْهَارًا سَارِحَةً فِي أَمْكِنَةٍ يَخْتَجُونَ إِلَيْهَا ﴿١١﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴿١٢﴾ لَمَّا امْتَنَّ عَلَى خَلْقِهِ بِإِيجَادِ الزُّرُوعِ هُمْ ، عَطَفَ بِذِكْرِ الثَّمَارِ وَتَوَعَّاهَا وَأَصْنَفَهَا .
 وَقَوْلُهُ : ﴿١٣﴾ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴿١٤﴾ أَيُّ : وَمَا ذَاكَ كُلُّهُ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ ، لَا بِسَعْيِهِمْ وَلَا كَدِّهِمْ ، وَلَا بِحَوْلِهِمْ وَبِقُوَّتِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿١٥﴾ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾ أَيُّ : فَهَلَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿١٧﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴿١٨﴾ أَيُّ : مِنْ زُرُوعٍ وَثَمَارٍ وَنَبَاتٍ ﴿١٩﴾ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلَهُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى ﴿٢١﴾ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَيُّ : مِنْ مَخْلُوقَاتٍ شَتَّى لَا يَعْرِفُونَهَا .

وَأَيَّةُ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٥﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٢٦﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٧﴾
 يَقُولُ تَعَالَى وَمِنْ الدَّلَالَةِ هُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الْعَظِيمَةِ خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، هَذَا بِظُلَامِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ ، وَجَعَلَهُمَا يَتَعَاقَبَانِ ، يَحْيِي هَذَا فَيَذْهَبُ هَذَا ، وَيَذْهَبُ هَذَا فَيَحْيِي هَذَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٢٨﴾ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴿٢٩﴾ [الأعراف : ٥٤] ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ هَهُنَا : ﴿٣٠﴾ وَأَيَّةُ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴿٣١﴾ أَيُّ : نَضَرْنَاهُ مِنْهُ فَيَذْهَبُ فَيَقْبَلُ اللَّيْلُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿٣٢﴾ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا ، وَادْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَهُنَا ، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ » .

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿٣٤﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٥﴾ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿٣٦﴾ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴿٣٧﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ مُسْتَقَرَّهَا الْمَكَانِي ، وَهُوَ تَحْتَ الْعَرْشِ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ فِي ذَلِكَ الْجَانِبِ ، وَهِيَ أَيْنَمَا كَانَتْ فَهِيَ تَحْتَ الْعَرْشِ هِيَ وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ ، لِأَنَّهُ سَقَفُهَا .
 عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ، فَقَالَ ﷺ : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ ؟ » قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ ﷺ : « فَإِنَّمَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٣٨﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٩﴾ » .
 وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِمُسْتَقَرَّهَا : هُوَ مُنْتَهَى سِيرِهَا ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَبْطُلُ سِيرُهَا ، وَتَسْكُنُ حَرَكَتُهَا ، وَتُكَوِّرُ وَيُنْتَهِي هَذَا الْعَالَمُ إِلَى غَايَتِهِ ، وَهَذَا هُوَ مُسْتَقَرُّهَا الزَّمَانِي .
 قَالَ قَتَادَةُ : ﴿٤٠﴾ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴿٤١﴾ أَيُّ : لِيَوْفَتَهَا وَلَا أَجَلَ لَا تَعُدُّهُ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ أَنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِهَا الصَّيْفِيَّةِ إِلَى مُدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِ الشِّتَاءِ إِلَى مُدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ أَي : الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُنَازِعُ ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بِجَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ ، وَقَدْ قَدَّرَ ذَٰلِكَ وَقَنَنَهُ عَلَى مَنَوَالٍ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَعَاكُسَ .
ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْتَهُ مَنَازِلَ ﴾ أَي : جَعَلْنَاهُ يَسِيرُ سَيْرًا آخِرَ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ ، كَمَا أَنَّ الشَّمْسَ يُعْرَفُ بِهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَكَمَا قَالَ ﷺ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ﴾ [يونس : ٥] ، فَجَعَلَ الشَّمْسَ لَهَا ضَوْءً يُخْصُّهَا ، وَالْقَمَرَ لَهُ نُورٌ يُخْصُّهُ ، وَفَاوَتْ بَيْنَ سَيْرِ هَذِهِ وَهَذَا ، فَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ وَتَغْرُبُ فِي آخِرِهِ عَلَى ضَوْءٍ وَاحِدٍ ، وَلَكِنْ تَتَقَلَّبُ فِي مَطَالِعِهَا وَمَغَارِبِهَا صَيْفًا وَشِتَاءً ، يَطُولُ بِسَبَبِ ذَٰلِكَ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ ، ثُمَّ يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ وَجَعَلَ سُلْطَانَهَا بِالنَّهَارِ ، فَهِيَ كَوَكَبٌ نَهَارِيٌّ ، وَأَمَّا الْقَمَرُ فَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ، يَطْلُعُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ ضَيْلًا قَلِيلَ النُّورِ ، ثُمَّ يَزْدَادُ نُورًا فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ وَيَرْتَفِعُ مَنْزِلَةً ، ثُمَّ كُلَّمَا ارْتَفَعَ إِزْدَادَ ضِيَاءً ، وَإِنْ كَانَ مُقْتَبَسًا مِنَ الشَّمْسِ حَتَّى يَتَكَامَلَ نُورُهُ فِي اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ إِلَى آخِرِ الشَّهْرِ حَتَّى يَصِيرَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . وَهُوَ أَصْلُ الْعُنُقُودِ مِنَ الرُّطْبِ إِذَا عَنَقَ وَيَيْسَ وَانْحَنَى ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يُبْدِيهِ اللَّهُ تَعَالَى جَدِيدًا فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ الْآخِرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : لِكُلِّ مِنْهُمَا حَدٌّ لَا يَعْدُوهُ وَلَا يَقْصُرُ دُونَهُ ، إِذَا جَاءَ سُلْطَانٌ هَذَا ذَهَبَ هَذَا ، وَإِذَا ذَهَبَ سُلْطَانٌ هَذَا جَاءَ سُلْطَانٌ هَذَا . ﴿ وَلَا أَلِيلٌ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ يَقُولُ : لَا يَنْبَغِي إِذَا كَانَ اللَّيْلُ أَنْ يَكُونَ لَيْلٌ آخَرُ حَتَّى يَكُونَ النَّهَارُ ، فَسُلْطَانُ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ ، وَسُلْطَانُ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ . وَالْمَعْنَى فِي هَذَا : أَنَّهُ لَا فِتْرَةَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، بَلْ كُلُّ مِنْهُمَا يَنْقُضُ الْآخَرَ بِلا مُهْلَةٍ وَلَا تَرَاخٍ ؛ لِأَنَّهَا مُسَخَّرَانِ دَائِبَيْنِ يَتَطَالَبَانِ طَلَبًا حَاشِيًا . ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يَعْنِي : اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلُّهُمْ يَسْبَحُونَ ، أَي : يَدُورُونَ فِي فَلَكِ السَّمَاءِ .

وَأَيَّةٌ هُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٦﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿١٨﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَدَلَالَةُ هُمْ أَيْضًا عَلَى قُدْرَتِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - نَسْخِيرُهُ الْبَحْرَ لِيَحْمَلَ السُّفْنَ ، فَمِنْ ذَٰلِكَ - بَلْ أَوَّلُهُ - سَفِينَةُ نُوحٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - الَّتِي أَنْجَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - غَيْرُهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَأَيَّةٌ هُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أَي : آبَاءُهُمْ ﴿ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أَي :

فِي السَّفِينَةِ الْمَمْلُوءَةِ مِنَ الْأَمْتِعَةِ وَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنْ يَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ . وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : بِذَلِكَ الْإِبِلِ ، فَإِنَّهَا سُفُنُ الْبَرِّ يَحْمِلُونَ عَلَيْهَا وَيَرْكَبُونَهَا . وَقِيلَ : أَيُّ : السُّفُنِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ فِي السُّفُنِ ﴿ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ ﴾ أَيُّ : فَلَا مُغِيثَ لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ أَيُّ : مِمَّا أَصَابَهُمْ ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ ، وَهَذَا إِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ تَقْدِيرُهُ : وَلَكِنْ بِرَحْمَتِنَا نُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَنُسَلِّمُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَتَّعْنَا إِلَى حِينٍ ﴾ أَيُّ : إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ عِنْدَ اللَّهِ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَمَادِي الْمَشْرِكِينَ فِي غِيَّهِمْ وَضَلَالِهِمْ ، وَعَدَمِ اكْتِرَائِهِمْ بِذُنُوبِهِمُ الَّتِي أَسْلَفُوهَا ، وَمَا يَسْتَقْبِلُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ مِنْ الذُّنُوبِ ﴾ ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أَيُّ : لَعَلَّ اللَّهَ بِإِنْفَائِكُمْ ذَلِكَ يَرْحَمَكُمْ وَيُؤْمِنُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ .

وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : أَنَّهُمْ لَا يُجِيبُونَ إِلَى ذَلِكَ بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْهُ ، وَاکْتَفَى عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أَيُّ : عَلَى التَّوْحِيدِ وَصَدَقِ الرَّسُلُ ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أَيُّ : لَا يَتَأَمَّلُونَهَا وَلَا يَقْبَلُونَهَا وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أَيُّ : وَإِذَا أُمِرُوا بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِيجِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَيُّ : عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْفُقَرَاءِ ، أَيُّ : قَالُوا لِمَنْ أَمْرُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ مُحَاجِّينَ لَهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ ﴿ أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ أَيُّ : وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرْتُمُونَا بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَاهُمْ وَلَأَطْعَمَهُمْ مِنْ رِزْقِهِ ، فَتَحْنُ نُوَافِقُ مَشِئَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أَيُّ : فِي أَمْرِكُمْ لَنَا بِذَلِكَ .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿١٤﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ اسْتِبْعَادِ الْكَفَرَةِ لِقِيَامِ السَّاعَةِ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ ؟ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى : ١٨] ، قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أَيُّ : مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ، وَهَذِهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - نَفْخَةُ الْفَرْعِ ، يُنْفَخُ

فِي الصُّورِ نَفْخَةُ الْفَزَعِ وَالنَّاسُ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ يَخْتَصِمُونَ وَيَسْأَجِرُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَمَرَ اللَّهُ ﷻ إِسْرَافِيلَ فَتَفَخَّ فِي الصُّورِ نَفْخَةً يُطَوِّئُهَا وَيَمُدُّهَا ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا أَصْغَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا ، وَهِيَ : صَفْحَةُ الْعُنُقِ ، يَسْمَعُ الصَّوْتَ مِنْ قَبْلِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُسَاقُ الْمَوْجُودُونَ مِنَ النَّاسِ إِلَى مُحْشَرِ الْقِيَامَةِ بِالنَّارِ ، مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ جَوَانِبِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أَيُّ : عَلَى مَا يَمْلِكُونَهُ ، الْأَمْرُ أَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، وَقَدْ وَرَدَتْ هَهُنَا آثَارٌ وَأَحَادِيثُ ذَكَرْنَاهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ هَذَا نَفْخَةُ الصَّعْقِ ، الَّتِي تَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ كُلُّهُمْ مَا عَدَا الْحَيَّ الْقَيُّومَ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْبَعْثِ .

وَتُفَخَّ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا يَتَوَلَّيْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٤٤﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٤٥﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾

هَذِهِ هِيَ النَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ وَهِيَ : نَفْخَةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ لِلْقِيَامِ مِنَ الْأَجْدَاثِ وَالْقُبُورِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ، وَالنَّسْلَانُ هُوَ : الْمَشْيُ السَّرِيعُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] ﴿ قَالُوا يَتَوَلَّيْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ يَعْنُونَ : قُبُورُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْتَقِدُونَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ مِنْهَا ، فَلَمَّا عَابَنُوا مَا كَذَّبُوا بِهِ فِي مُحْشَرِهِمْ ﴿ قَالُوا يَتَوَلَّيْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ ، وَهَذَا لَا يَنْفِي عَذَابَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَا بَعْدَهُ فِي الشَّدَةِ كَالرُّقَادِ . قَالَ قَتَادَةُ : يَنَامُونَ نَوْمَةً قَبْلَ الْبَعْثِ . قَالَ : وَذَلِكَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ ، فَلِذَلِكَ يَقُولُونَ : ﴿ مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ أَجَابَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ، وَقَالَ الْحَسَنُ : إِنَّمَا يُجِيبُهُمْ بِذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ ، وَلَا مُنَافَاةَ إِذِ الْجَمْعُ مُمَكِّنٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [٣١] فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات : ١٣-١٤] أَيُّ : إِنَّمَا نَأْمُرُهُمْ أَمْرًا وَاحِدًا فَإِذَا الْجَمِيعُ مُحْضَرُونَ ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أَيُّ : مِنْ عَمَلِهَا ﴿ وَلَا تَحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَنِكْهُونَ ﴿٤٧﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ﴿٤٨﴾ هُمْ فِيهَا فَنِكْهُةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٤٩﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٠﴾ يُخْرِ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا ارْتَحَلُوا مِنَ الْعَرَصَاتِ فَتَرَلُّوا فِي رَوْضَاتِ

الْجَنَّاتِ ، أَنَّهُمْ فِي شُغْلٍ عَنْ غَيْرِهِمْ ، بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمَقِيمِ وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ ، ﴿ فَنَكْهُونَ ﴾ أَيُّ : فَرِحُونَ ، ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ وَحَلَالُثُهُمْ ﴿ فِي ظِلِّلٍ ﴾ أَيُّ : فِي ظِلَالِ الْأَشْجَارِ ﴿ عَلَى الْأَرَايِكِ مُنْكَبُونَ ﴾ الْأَرَايِكُ : هِيَ الشُّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ . ﴿ هُمْ فِيهَا فَيَكْهَتُ ﴾ أَيُّ : مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهَا ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾ أَيُّ : مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَلَذِّ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ نَفْسُهُ سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ نَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَّمَ ﴾ [الْأَحْزَاب : ٤٤]

وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿ ١٤ ﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَى ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿ ١٥ ﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿ ١٦ ﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿ ١٧ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَقُولُ إِلَيْهِ حَالُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَمْرِهِ هُمْ أَنْ يَمْتَازُوا ، بِمَعْنَى : يُمَيِّزُونَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوْقِفِهِمْ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴾ [الرُّوم : ١٤]

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أَيُّ : يَصِيرُونَ صَدْعَيْنِ فِرْقَتَيْنِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَى ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ هَذَا تَقْرِيعٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَفَرَةِ مِنْ بَنَى آدَمَ الَّذِينَ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ ، وَهُوَ عَدُوٌّ هُمْ مُبِينٌ وَعَصَوْا الرَّحْمَنَ ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أَيُّ : قَدْ أَمَرْتُكُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا بِعُضَيَانِ الشَّيْطَانَ ، وَأَمَرْتُكُمْ بِعِبَادَتِي ، وَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ فَسَلَكْتُمْ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ : الْخَلْقُ الْكَثِيرُ . ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيُّ : أَفَمَا كَانَ لَكُمْ عَقْلٌ فِي مُخَالَفَةِ رَبِّكُمْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ وَخُذَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعُدُولِكُمْ إِلَى اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ ؟ !

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿ ١٨ ﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿ ١٩ ﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ ٢٠ ﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿ ٢١ ﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿ ٢٢ ﴾

يُقَالُ لِلْكَفَرَةِ مِنْ بَنَى آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ بُرِّرَتْ الْجَحِيمُ هُمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيحًا ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ النَّبِيُّ حَدَّرْتُكُمْ الرُّسُلَ فَكَذَّبْتُمُوهُمْ . ﴿ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴾ [١٣-١٥] هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿١١﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٢﴾ [الطور: ١٣-١٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ هَذَا حَالُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُكْرَهُونَ مَا اجْتَرَمُوهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيَخْلِفُونَ مَا فَعَلُوهُ ، فَيُخْتِمُ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَيَسْتَنْطِقُ جَوَارِحَهُمْ بِمَا عَمِلَتْ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ فَوَاجِذُهُ ، ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وسلم : « أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ ؟ » قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ صلى الله عليه وسلم : « مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَقُولُ : رَبِّ أَلَمْ تُجْزِنِي مِنَ الظُّلُمِ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، فَيَقُولُ : لَا أُجِيزُ عَلَى إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي ، فَيَقُولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيًّا ، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا ، فَيُخْتِمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ : انْطِقِي بِعَمَلِهِ ، ثُمَّ يُحَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ ، فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ قِيلَ : وَلَوْ نَشَاءُ لَأَضَلَّلْنَا هُمْ عَنِ الْهُدَى فَكَيْفَ يَهْتَدُونَ ، وَقِيلَ : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَطَمَسَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَجَعَلَهُمْ عُمِيًّا يَتَرَدَّدُونَ ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ يَعْنِي : الطَّرِيقَ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : يَعْنِي بِالصِّرَاطِ هَهُنَا الْحَقَّ ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ وَقَدْ طَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ . وَقَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : يَعْنِي : لَعَيَّرْنَا خُلُقَهُمْ ، وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ : لَجَعَلْنَاهُمْ حِجَارَةً ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ : لَأَقْعَدَهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا ﴾ أَيُّ : إِلَى أَمَامٍ ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ إِلَى وِرَاءٍ ، بَلْ يَلْزَمُونَ حَالًا وَاحِدًا لَا يَتَقَدَّمُونَ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ .

وَمَنْ نَعِمَرَهُ نُسَكِّسَهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ؕ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴿١٤﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَحَقِّ الْقَوْلِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ابْنِ آدَمَ أَنَّهُ كُلَّمَا طَالَ عُمُرُهُ رَدَّ إِلَى الضَّعْفِ بَعْدَ الْقُوَّةِ ، وَالْعَجْزِ بَعْدَ النَّشَاطِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤] ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - الْإِخْبَارُ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ بِأَنَّهَا دَارُ زَوَالٍ وَإِنْتِقَالٍ لَا دَارَ دَوَامٍ وَاسْتِقْرَارٍ ، وَلِهَذَا قَالَ صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَيُّ : يَتَفَكَّرُونَ بِعُقُوبِهِمْ فِي إِبْتِدَاءِ خَلْقِهِمْ ثُمَّ صَيَّرُوهُمْ إِلَى سِنِّ الشَّيْبَةِ ، ثُمَّ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ خُلِقُوا لِدَارٍ أُخْرَى لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا إِنْتِقَالَ مِنْهَا ، وَلَا حَيْدَ عَنْهَا ، وَهِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ . ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ؕ يَقُولُ صلى الله عليه وسلم مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ مَا عَلَّمَهُ

الشَّعَرُ ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أَيُّ : مَا هُوَ فِي طَبْعِهِ ، فَلَا يُحْسِنُهُ وَلَا يُجْبِيهِ وَلَا تَقْتَضِيهِ جِلَّتُهُ ، وَهَذَا وَرَدَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَحْفَظُ بَيْنًا عَلَى وَزْنٍ مُنْتَظِمٍ ، بَلْ إِنْ أُنْشِدَهُ رَحَقَهُ أَوْ لَمْ يُتِمَّهُ . يَعْنِي : فِي الْمَعْنَى صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : مَا هَذَا الَّذِي عَلَّمْنَاهُ ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : بَيِّنٌ وَاصِحٌ جَلِيٌّ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ وَتَدَبَّرَهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ أَيُّ : لِيُنذِرَ هَذَا الْقُرْآنُ الْمُبِينُ كُلَّ حَيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَإِنَّا يَنْتَمِعُ بِبِنَادَاتِهِ مَنْ هُوَ حَيُّ الْقَلْبِ مُسْتَنِيرُ الْبَصِيرَةِ ، ﴿ وَبِحَقِّ الْقَوْلِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أَيُّ : هُوَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ ، وَحُجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِ .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾
يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ الَّتِي سَخَّرَهَا لَهُمْ ﴿ فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : مُطِيقُونَ ، أَيُّ : جَعَلَهُمْ يَقْهَرُونَهَا وَهِيَ ذَلِيلَةٌ لَهُمْ لَا تَمْتَنِعُ مِنْهُمْ ، بَلْ لَوْ جَاءَ صَغِيرٌ إِلَى بَعِيرٍ لَأَنَاحَهُ ، وَلَوْ شَاءَ لَأَقَامَهُ وَسَاقَهُ ، وَذَلِكَ ذَلِيلٌ مُنْقَادٌ مَعَهُ ، وَكَذَا لَوْ كَانَ الْقِطَارُ مِائَةً بِعِيرٍ أَوْ أَكْثَرَ لَسَارَ الْجَمِيعُ بِسِيرِ الصَّغِيرِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أَيُّ : مِنْهَا مَا يَرْكَبُونَ فِي الْأَسْفَارِ وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِ الْأَثْقَالَ إِلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ وَالْأَقْطَارِ ، وَمِنْهَا مَا يَأْكُلُونَ إِذَا شَاءُوا نَحَرُوا وَاجْتَزَّروا ﴿ وَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أَيُّ : مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ أَيُّ : مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَاهَا لِمَنْ يَتَدَاوَى وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أَيُّ : أَفَلَا يُؤَحِّدُونَ خَالِقَ ذَلِكَ وَمُسَخِّرَهُ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرُهُ ؟

وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٩﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَا تَحْزَنْ لَكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٨١﴾
يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمُ الْإِنْدَادَ إِلَهَةً مَعَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ بِذَلِكَ أَنْ تَنْصُرَهُمْ تِلْكَ الْأَلْهَةُ وَتَرْزُقَهُمْ وَتُقَرِّبَهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أَيُّ : لَا تَقْدِرُ الْأَلْهَةُ عَلَى نَصْرِ عَابِدِيهَا ، بَلْ هِيَ أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقْلُّ وَأَذَلُّ وَأَحَقَرُّ وَأَذْخَرُ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي عِنْدَ الْحِسَابِ . يُرِيدُ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ مُحْشَوْرَةٌ مَجْمُوعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُحْضَرَةٌ عِنْدَ حِسَابِ عَابِدِيهَا ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي حُزْنِهِمْ وَأَدَلَّ عَلَيْهِمْ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يَعْنِي : الْأَلْهَةُ ، ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴾ ، وَالْمُشْرِكُونَ يَغْضَبُونَ لِلْإِلَهَِةِ فِي الدُّنْيَا وَهِيَ لَا تَسُوقُ إِلَيْهِمْ

خَيْرًا ، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ سُرًّا ، إِنَّمَا هِيَ أَصْنَامٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أَيُّ : تَكْذِيبُهُمْ لَكَ وَكُفْرُهُمْ بِاللَّهِ ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أَيُّ : نَحْنُ نَعْلَمُ جَمِيعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَسَنَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ وَنُعَامِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، يَوْمَ لَا يَفْقَدُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ جَلِيلًا وَلَا حَقِيرًا ، وَلَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا ، بَلْ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ جَمِيعُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا .

أَوَّلَمَ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : جَاءَ أَبِي بَنٍ خَلْفَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ عَظْمٌ رَمِيمٌ ، وَهُوَ يُفْتَتِهِ وَيُذِرِيهِ فِي الْهَوَاءِ ، وَهُوَ يَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ أَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذَا ؟ قَالَ ﷺ : « نَعَمْ ؛ يُمِيتُكَ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ يَبْعَثُكَ ، ثُمَّ يَخْشُرُكَ إِلَى النَّارِ » وَتَرَكْتَ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ « يس » : ﴿ أَوَّلَمَ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ إِلَى آخِرِهِمْ . وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوَّلَمَ يَرِ الْإِنْسَنُ ﴾ لِلْجِنْسِ ، يَعْمُ كُلُّ مُنْكَرٍ لِلْبَعْثِ ﴿ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : أَوَّلَمَ يَسْتَدِلُّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ بِالْبَدْءِ عَلَى الْإِعَادَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ ابْتَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ ، فَخَلَقَهُ مِنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ ضَعِيفٍ مَّهِينٍ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ، فَالَّذِي خَلَقَهُ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَةِ الضَّعِيفَةِ أَلَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى إِعَادَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ .

عَنْ بُسْرِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ابْنُ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَرَيْدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي قُلْتَ : أَتَصَدَّقُ ، وَأَنْتَى أَوَّانُ الصَّدَقَةِ ؟ » . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ أَيُّ : اسْتَبَعَدَ إِعَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى ذِي الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَلَقَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِلْأَجْسَادِ وَالْعِظَامِ الرَّمِيمَةِ وَنَسِيَ نَفْسَهُ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ، فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا اسْتَبَعَدَهُ وَأَنْكَرَهُ وَجَحَدَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : يَعْلَمُ الْعِظَامَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا ، أَيْنَ ذَهَبَتْ ؟ وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ وَتَمَرَّقَتْ ؟ .

عَنْ حُذَيْفَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ رَجُلًا خَضِرَهُ الْمَوْتُ ، فَلَمَّا يَتَسَّ مِنَ الْحَيَاةِ ، أَوْصَى أَهْلَهُ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطْبًا كَثِيرًا جَزَلًا ، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا ، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ

لَحْمِي وَخَلَصْتُ إِلَى عَظْمِي فَأَمْتَحَشْتُ فَخَذُّوْهَا ، فَذُقُّوْهَا فَذُرُّوْهَا فِي الْيَمِّ ، فَفَعَلُوا فَجَمَعَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ ، فَغَفَرَ اللهُ ﷻ لَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ أَيُّ : الَّذِي بَدَأَ خَلَقَ هَذَا الشَّجَرِ مِنْ مَّاءٍ حَتَّى صَارَ خَضِرًا نَضِرًا ذَا ثَمَرٍ وَيَنْعُ ، ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى أَنْ صَارَ حَطْبًا يَابِسًا تُوقَدُ بِهِ النَّارُ ، كَذَلِكَ هُوَ فَعَالٌ لِّمَا يَشَاءُ ، قَادِرٌ عَلَى مَا يُرِيدُ ، لَا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ تَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٥٦﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٧﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْهَبًا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَالْثَوَابِتِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَرِمَالٍ وَبِحَارٍ وَقَفَارٍ ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَمُرْشِدًا إِلَى الْإِسْتِدْلَالِ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَادِ بِخَلْقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، وَقَالَ ﷻ هَهُنَا ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ تَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أَيُّ : مِثْلَ الْبَشَرِ فَيُعِيدُهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ أَلَمْ يَخْلُقْ أَلَمْ يَخْلُقْ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الاحقاف : ٣٣] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٥٦﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٧﴾ : إِنَّمَا يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ أَمْرًا وَاحِدًا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرَّرٍ .

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ « كُنْ » قَوْلَةً فَيَكُونُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيُّ : تَنْزِيهِهُ وَتَقْدِيسُ وَتَبَرُّكُهُ مِنَ الشَّوْءِ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ وَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ الْعِبَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [المؤمنون : ٨٨] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ أَمْلُكُ ﴾ [الملك : ١] ، فَالْمَلِكُ وَالْمَلَكُوتُ وَاحِدٌ فِي الْمَعْنَى ، كَرَحْمَةٍ وَرَحْمَتٍ ، وَرَهْبَةٍ وَرَهْبَتٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « يَس » ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ١٨٢ تفسير سورة الصافات مكة

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُنَا بِالتَّخْفِيفِ وَيُؤْمِنُنَا بِالصَّافَاتِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا تَصِفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؟ » قُلْنَا : وَكَيْفَ تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؟ قَالَ ﷺ : « يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ » .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ هَذَا هُوَ الْمُقَسَّمُ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿ أَيُّ : مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ﴾ وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿ أَيُّ : هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْخَلْقِ بِتَسْخِيرِهِ بِمَا فِيهِ مِنْ كَوَاكِبَ ثَوَابِتَ وَسَيَّارَاتٍ تَبْدُو مِنَ الْمَشْرِقِ وَتَغْرُبُ مِنَ الْمَغْرِبِ ، وَانْتَفَى بِذِكْرِ الْمَشَارِقِ عَنِ الْمَغَارِبِ ؛ لِذَلَالَتِهَا عَلَيْهَا ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴾ [المعارج : ٤٠] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن : ١٧] أَيْعَنِي : فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .

إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُخُورًا لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ زَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِلنَّاطِرِينَ إِلَيْهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿ بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾ ، فَالْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ وَالثَّوَابِتُ يَتَقَبَّ ضَوْؤُهَا جَرَمَ السَّمَاءِ الشَّقَافِ فَيُضِيءُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٥] ، قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا : ﴿ وَحِفْظًا ﴾ تَقْدِيرُهُ : وَحَفِظْنَاهَا حِفْظًا ﴿ مِنْ

كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝ : يَعْنِي الْمْتَرِدَ الْعَاتِي ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَرِقَ السَّمْعَ أَتَاهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ فَأَحْرَقَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَا الْأَعْلَى ﴾ أَي : لَيْلًا يَصِلُوا إِلَى الْمَلَا الْأَعْلَى ، وَهِيَ السَّمَاوَاتُ وَمَنْ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، إِذَا تَكَلَّمُوا بِمَا يُوحِيهِ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا يَقُولُهُ مِنْ شَرِّهِ وَقَدَرِهِ ، ﴿ وَيَقْدِفُونَ ﴾ أَي : يُرْمُونَ ﴿ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أَي : مِنْ كُلِّ جِهَةٍ يَقْصِدُونَ السَّمَاءَ مِنْهَا . ﴿ دُحُورًا ﴾ أَي : رَجْمًا ، يُدَحِّرُونَ بِهِ وَيُزَجِّرُونَ وَيُمْنَعُونَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى ذَلِكَ وَيُرْجَمُونَ ﴿ وَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أَي : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَهُمْ عَذَابٌ دَائِمٌ مُوجِعٌ مُسْتَمِرٌّ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَنْ خُطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ أَي : إِلَّا مَنْ اخْتُطِفَ مِنَ الشَّيَاطِينِ الْخُطْفَةَ ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ يَسْمَعُهَا مِنَ السَّمَاءِ فَيُلْقِيهَا إِلَى الَّذِي تَحْتَهُ ، وَيُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى الَّذِي تَحْتَهُ ، فَرُبَّمَا أَذْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا - بِقَدْرِ اللَّهِ تَعَالَى - قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الشَّهَابُ فَيُحْرِقَهُ فَيَذْهَبَ بِهَا الْآخَرُ إِلَى الْكَاهِنِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا مَنْ خُطِفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أَي : مُسْتَنِيرٌ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ لِلشَّيَاطِينِ مَقَاعِدُ فِي السَّمَاءِ ، قَالَ : فَكَانُوا يَسْتَمْعُونَ الْوَحْيَ ، قَالَ : وَكَانَتِ النُّجُومُ لَا تَجْرِي ، وَكَانَتِ الشَّيَاطِينُ لَا تُرْمَى ، قَالَ : فَإِذَا سَمِعُوا الْوَحْيَ نَزَلُوا إِلَى الْأَرْضِ فَزَادُوا فِي الْكَلِمَةِ تِسْعًا ، قَالَ : فَلَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ الشَّيْطَانُ إِذَا قَعَدَ مَقْعَدَهُ جَاءَهُ شِهَابٌ فَلَمْ يُحِطْهُ حَتَّى يُحْرِقَهُ ، قَالَ : فَشَكُّوا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ ، فَقَالَ : مَا هُوَ إِلَّا مِنْ أَمْرِ حَدَثَ ، قَالَ : فَبَثَّ جُنُودَهُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْنِ نَخْلَةٍ .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١٦﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾ أَمْ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٢١﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٢٢﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿٢٣﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَسَلْ هَؤُلَاءِ الْمُتَكِبِينَ لِلْبُعْثِ أَيُّمَا أَشَدُّ خَلْقًا هُمْ أَمْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ وَالْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ ؟ ، ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُمْ خَلِقُوا مِنْ شَيْءٍ ضَعِيفٍ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ قِيلَ : هُوَ الْجَيِّدُ الَّذِي يَلْتَزِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وَقِيلَ : هُوَ اللَّزْجُ الْجَيِّدُ ، وَقِيلَ : هُوَ الَّذِي يَلْزَقُ بِالْيَدِ . ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أَي : بَلْ عَجِبْتَ - يَا مُحَمَّدُ - مِنْ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمُتَكِبِينَ لِلْبُعْثِ ، وَأَنْتَ مُوقِنٌ مُصَدِّقٌ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَمْرِ الْعَجِيبِ ، وَهُوَ إِعَادَةُ الْأَجْسَامِ بَعْدَ فَنَائِهَا ، وَهُمْ بِخِلَافِ أَمْرِكَ مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ يَسْخَرُونَ بِمَا تَقُولُ لَهُمْ

مِنْ ذَلِكَ . قَالَ قَتَادَةُ : عَجِبَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَسَخِرَ ضَلَالُ بَنِي آدَمَ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أَي : دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى ذَلِكَ ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يَسْتَهْزِئُونَ . ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أَي : إِنْ هَذَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿ أَيْدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ﴿ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ يَسْتَبْعِدُونَ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُونَ بِهِ ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ أَي : قُلْ هُمْ يَا مُحَمَّدُ : نَعَمْ تَبْعُثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَمَا تَصِيرُونَ تُرَابًا وَعِظَامًا ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أَي : حَقِيرُونَ تَحْتَ الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ ، ثُمَّ قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أَي : فَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَاحِدٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ يَدْعُوهُمْ دَعْوَةً وَاحِدَةً : أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْأَرْضِ ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

وَقَالُوا يَوِيلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِءَ تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿ وَقَفُوهُمْ إِتْمَ مَسْئُولُونَ ﴾ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴾ ﴿ بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قِيلِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ ، وَيَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، فَإِذَا عَايَنُوا أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ نَدِمُوا كُلَّ النَّدَمِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ ﴿ وَقَالُوا يَوِيلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِءَ تُكَذِّبُونَ ﴾ ، وَهَذَا يُقَالُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ، وَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ أَنْ تُمَيِّرَ الْكُفَّارَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَوْقِفِ فِي مُحْشَرِهِمْ وَمَنْشَرِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ يَعْنِي بِأَزْوَاجِهِمْ : أَشْبَاهَهُمْ وَأَمْثَلَهُمْ ، ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أَي : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ، وَتُحْشَرُ مَعَهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ . ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أَي : أَرْشِدُوهُمْ إِلَى طَرِيقِ جَهَنَّمَ . ﴿ وَقَفُوهُمْ إِتْمَ مَسْئُولُونَ ﴾ أَي : قَفُوهُمْ حَتَّى يُسْأَلُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمُ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، يَعْنِي : احْبِسُوهُمْ إِتْمَ مُحَاسِبُونَ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴾ أَي : كَمَا رَعِمْتُمْ أَنْكُمْ جَمِيعٌ مُسْتَصِرٌّ . ﴿ بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أَي : مُتَقَادُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ ، لَا يُجَالِفُونَهُ وَلَا يُحِيدُونَ عَنْهُ .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ ﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغِينَ ﴾

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَايِبِينَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٥٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٤﴾ وَيَقُولُونَ أَيُّنَا لَتَارِكُوا إِلَهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٥٥﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٦﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّ الْكُفَّارَ يَتَلَاوَمُونَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ كَمَا يَتَخَاصِمُونَ فِي دَرَكَاتِ النَّارِ . ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قِيلَ فِي مَعْنَاهَا : كُنْتُمْ تَفْهَرُونَنَا بِالْقُدْرَةِ مِنْكُمْ عَلَيْنَا ؛ لَأَنَّا كُنَّا أَذْلَاءَ وَكُنْتُمْ أَعْرَاءَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : قَالَتِ الْإِنْسُ لِلْجَنِّ : ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قَالَ : مِنْ قِبَلِ الْحَرِّ فَتَنَهَوْنَا عَنْهُ وَتُبَطُّونَا عَنْهُ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : مَعْنَاهُ تَحُولُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْحَرِّ ، وَرَدَدْتُمُونَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ بِالْخَيْرِ الَّذِي أُمِرْنَا بِهِ . ﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ تَقُولُ الْقَادَةُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِلْأَتْبَاعِ : مَا الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ ، بَلْ كَانَتْ قُلُوبُكُمْ مُنْكَرَةً لِلْإِيمَانِ قَابِلَةً لِلْكَفْرِ وَالْعِصْيَانِ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أَيُّ : مِنْ حُجَّةٍ عَلَى صِحَّةِ مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغِينَ ﴾ أَيُّ : بَلْ كَانَ فِيكُمْ طُغْيَانٌ وَمُجَاوَزَةٌ لِلْحَقِّ ، فَلِهَذَا اسْتَجَبْتُمْ لَنَا وَتَرَكْتُمْ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ، وَأَقَامُوا لَكُمْ الْحُجَجَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ فَخَالَفْتُمُوهُمْ . ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَايِبِينَ ﴾ يَقُولُ الْكِبَرَاءُ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ : حَقَّتْ عَلَيْنَا كَلِمَةُ اللَّهِ إِنَّا مِنْ الْأَشْقِيَاءِ الذَّاكِقِينَ لِلْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ أَيُّ : دَعَوْنَاكُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ ﴿ إِنَّا كُنَّا غَايِبِينَ ﴾ أَيُّ : دَعَوْنَاكُمْ إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَاسْتَجَبْتُمْ لَنَا .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أَيُّ : الْجَمِيعُ فِي النَّارِ كُلِّ بِحَسَبِهِ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا ﴾ أَيُّ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيُّ : يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَقُولُوا كَمَا يَقُولُهَا الْمُؤْمِنُونَ . ﴿ وَيَقُولُونَ أَيُّنَا لَتَارِكُوا إِلَهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ أَيُّ : أَنَحْنُ نَتْرُكُ عِبَادَةَ إِلَهَتِنَا وَآلِهَةِ آبَائِنَا عَنْ قَوْلِ هَذَا الشَّاعِرِ الْمَجْنُونِ ، يَعْنُونَ : رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ وَرَدًّا عَلَيْهِمْ : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَ بِالْحَقِّ فِي جَمِيعِ شَرَعَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالطَّلَبِ ﴿ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أَيُّ : صَدَّقَهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوا عَنْهُ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ وَالْمَنَاجِجِ السَّيِّدَةِ ، وَأَخْبَرَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي شَرَعِهِ وَأَمْرِهِ كَمَا أَخْبَرُوا ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : ٤٣]

إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٥٦﴾ وَمَا تُحْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾ إِلَّا عِبَادَ

اللَّهُ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٤﴾ أُولَئِكَ هُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿١٥﴾ فَوَكَّهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿١٦﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٧﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿١٨﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿١٩﴾ بَيَضَاءً لَذِقًا لِلشَّرِيبِينَ ﴿٢٠﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٢١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ عَيْنٌ ﴿٢٢﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا لِلنَّاسِ : ﴿ إِنكُمْ لَذَاقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ ﴿٢٤﴾ وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ اسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ عِبَادَهُ الْمُخْلِصِينَ ، ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴾ أَي : لَيْسُوا يَذُوقُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ، وَلَا يُنَاقَشُونَ فِي الْحِسَابِ ، بَلْ يُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ إِنْ كَانَ هُمْ سَيِّئَاتٍ ، وَيُجْزَوْنَ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ التَّضْعِيفِ . ﴿ أُولَئِكَ هُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَوَكَّهُ ﴾ أَي : مُتَنَوِّعَةً ﴿ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ أَي : يُحَدِّثُونَ وَيُرَفَّهُونَ وَيُنْعَمُونَ . ﴿ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴾ ﴿٢٦﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى قَفَا بَعْضٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴾ ﴿٢٨﴾ بَيَضَاءً لَذِقًا لِلشَّرِيبِينَ ﴿٢٩﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٣٠﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ ﴿٣١﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿٣٢﴾ لَا يَصُدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ ﴿ [الواقعة : ١٧-١٩] نَزَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَمْرُ الْجَنَّةِ عَنِ الْآفَاتِ الَّتِي فِي حَمْرِ الدُّنْيَا مِنْ صُدَاعِ الرَّأْسِ وَوَجَعِ الْبَطْنِ - وَهُوَ الْغَوْلُ - وَذَهَابِهَا بِالْعَقْلِ جُمْلَةً ، فَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴾ أَي : بِخَمْرٍ مِنْ أَنْهَارٍ جَارِيَةٍ لَا يَخْفُونَ انْقِطَاعَهَا وَلَا فَرَاغَهَا . ﴿ بَيَضَاءً ﴾ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : خَمْرٌ جَارِيَةٌ بَيَضَاءُ ، أَي : لَوْنُهَا مُشْرِقٌ حَسَنٌ بَيَاضٌ ، لَا كَخَمْرِ الدُّنْيَا فِي مَنْظَرِهَا الْبَشَعِ الرَّدِيِّ مِنْ حُمْرَةٍ أَوْ سَوَادٍ أَوْ إِصْفَرَارٍ أَوْ كُدُورَةٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُنْقَرُ الطَّبَعُ السَّلِيمُ . ﴿ لَذِقًا لِلشَّرِيبِينَ ﴾ أَي : طَعْمَهَا طَيِّبٌ كَلَوْنُهَا ، وَطَيِّبُ الطَّعْمِ دَلِيلٌ عَلَى طَيِّبِ الرِّيحِ ، بِخِلَافِ حَمْرِ الدُّنْيَا فِي جَمِيعِ ذَلِكَ . ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ يَعْنِي : لَا تُؤْثِرُ فِيهِمْ غَوْلًا - وَهُوَ وَجَعُ الْبَطْنِ - كَمَا تَفْعَلُهُ حَمْرُ الدُّنْيَا مِنَ الْقَوْلَجِ وَنَحْوِهِ لِكثَرَةِ مَاثِيَتِهَا ، ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ لَا تُذْهَبُ عَقُولُهُمْ . ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطَّرَفِ ﴾ أَي : عَفِيفَاتٌ لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ أَرْوَاجِهِنَّ . ﴿ عَيْنٌ ﴾ أَي : حِسَانُ الْأَعْيُنِ ، ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ وَصَفَهُنَّ بِتَرَافَةِ الْأَبْدَانِ بِأَحْسَنِ الْأَلْوَانِ ، وَقِيلَ : يَعْنِي : مُحْصُونٌ لَمْ تَمْسُسْهُ الْأَيْدِي ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : الْبَيْضُ فِي عَشِهِ مَكْنُونٌ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : يَعْنِي : بَطْنُ الْبَيْضِ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : بَيَاضُ الْبَيْضِ حِينَ يُنْزَعُ قَشْرُهُ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ لِقَوْلِهِ ﴿ مَكْنُونٌ ﴾ قَالَ : وَالْقَشْرَةُ الْعُلْيَا يَمَسُّهَا جَنَاحُ

الطَّيْرِ وَالْعُشِّ ، وَنَنَاهَا الْأَيْدِي بِخِلَافِ دَاخِلِهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَعِينِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتْنَا آلَأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمَثَلٍ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَمَلُونَ ﴿٦١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، أَنَّهُ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، أَي : عَنْ أَحْوَالِهِمْ وَكَيْفَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا ، وَمَاذَا كَانُوا يُعَانُونَ فِيهَا ، وَذَلِكَ مِنْ حَدِيثِهِمْ عَلَى شَرَاهِمٍ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي تَنَادُمِهِمْ ، وَمُعَاشَرَتِهِمْ فِي مَجَالِسِهِمْ ، وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى السَّرْرِ ، وَالْحَدْمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَسْعَوْنَ وَيَجِثُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَظِيمٍ ، مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَابِسٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ يَمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : شَيْطَانًا ، وَقِيلَ : هُوَ الرَّجُلُ الْمُشْرِكُ يَكُونُ لَهُ صَاحِبٌ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا تَنَافِي ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ ، فَيُوسِسُ فِي النَّفْسِ ، وَيَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ فَيَقُولُ كَلَامًا تَسْمَعُهُ الْأَذْنَانُ ، وَكِلَاهُمَا مُتَعَادِيَانِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يُوسِسُ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ . وَلِهَذَا ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ﴿ أَي : أَأَنْتَ تُصَدِّقُ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ؟ ! يَعْنِي : يَقُولُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعَجُّبِ وَالتَّكْذِيبِ وَالِاسْتِغْثَاءِ وَالْكَفْرِ وَالْعِنَادِ ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ ، قِيلَ : لِمَحَاسِبُونَ ، وَقِيلَ : لِمَجْزُيُونَ بِأَعْمَالِنَا ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ . ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ ﴾ أَي : مُشْرِفُونَ ، يَقُولُ الْمُؤْمِنُ لِأَصْحَابِهِ وَجُلَسَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿ فَأَطْلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴾ يَعْنِي : فِي وَسْطِ الْجَحِيمِ .

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴾ يَقُولُ الْمُؤْمِنُ مُحَاطِبًا لِلْكَافِرِ : وَاللَّهُ إِنْ كِدْتَ لَتَهْلِكَنِي لَوْ أَطَعْتُكَ ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أَي : وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيَّ لَكُنْتُ مِثْلَكَ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ حَيْثُ أَنْتَ ، مُحَضَّرٌ مَعَكَ فِي الْعَذَابِ ؛ وَلَكِنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيَّ وَرَحِمَنِي فَهَدَانِي لِلْإِيمَانِ ، وَأَرْشَدَنِي إِلَى تَوْحِيدِهِ ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَعِينِينَ ﴾ إِلَّا مَوْتَتْنَا آلَأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿ هَذَا مِنْ كَلَامِ الْمُؤْمِنِ

مُعْتَبِطًا نَفْسَهُ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْخُلْدِ فِي الْجَنَّةِ ، وَالْإِقَامَةَ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ بِلَا مَوْتٍ فِيهَا وَلَا عَذَابٍ ، وَهَذَا قَالَ ﷺ : ﴿ إِنْ هَذَا أَلْفُورٌ الْعَظِيمُ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : هَذَا مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : هُوَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَعْنَاهُ : لِمِثْلِ هَذَا النَّعِيمِ وَهَذَا الْفُورِ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ فِي الدُّنْيَا ؛ لِيَصِيرُوا إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ .

أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴿٦٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٩﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٧٠﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٧٤﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْعُونَ ﴿٧٥﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ مَّاكِلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَنَاجِحٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَلَذِّ خَيْرٌ ضِيَافَةً وَعَطَاءً ﴿٦٧﴾ أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴿٦٨﴾ أَيُّ : الَّتِي فِي جَهَنَّمَ . ﴿٦٩﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَتَادَةُ : ذُكِرَتْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ، فَافْتَتِنَ بِهَا أَهْلُ الضَّلَالَةِ ، وَقَالُوا : صَاحِبُكُمْ يُبْسِكُكُمْ أَنْ فِي النَّارِ شَجَرَةٌ وَالنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ . قُلْتُ : وَمَعْنَى الْآيَةِ : إِنَّمَا أَخْبَرْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِشَجَرَةِ الزُّقُومِ اخْتِيارًا نَخْتَبِرُ بِهِ النَّاسَ مَنْ يَصْدُقُ مِنْهُمْ يَمُنُّ بِكَذِبٍ ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الزُّرْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [الاسراء: ٦٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ أَيُّ : أَصْلُ مَنَبَتِهَا فِي قَرَارِ النَّارِ ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ تَبَشِيعُهَا وَتَكْرِيهُ لِدَكْرِهَا . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي لَا أَبْشَعُ مِنْهَا وَلَا أَقْبَحُ مِنْ مَنْظَرِهَا ، مَعَ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الطَّعْمِ وَالرَّيْحِ وَالطَّبْعِ ، فَإِنَّهُمْ لَيَضْطَرُّونَ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ إِلَّا إِيَّاهَا ، وَمَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٧١﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ [الغاشية: ٦-٧] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : شَرِبُ الْحَمِيمِ عَلَى الزُّقُومِ ، وَقِيلَ : يَعْنِي : يُمَزَّجُ لَهُمُ الْحَمِيمُ بِصَدِيدٍ وَعَسَاقٍ بِمَا يَسِيلُ مِنْ فُرُوجِهِمْ وَعُيُونِهِمْ . ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ أَيُّ : ثُمَّ إِنَّ مَرَدَّهُمْ بَعْدَ هَذَا الْفَصْلِ لِإِلَى نَارٍ تَتَأَجَّجُ ، وَجَحِيمٍ تَتَوَقَّدُ ، وَسَعِيرٍ تَتَوَهَّجُ ، فَتَارَةً فِي هَذَا ، وَتَارَةً فِي هَذَا ، ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا جَازَيْنَاهُمْ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا آبَاءَهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ ، فَاتَّبَعُوهُمْ فِيهَا بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْعُونَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : شَبِيهَةٌ بِالْهُزُولَةِ .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٦٦﴾ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ
كَانَ عِقَابُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٦٨﴾
يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ : أَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَذَكَرَ
تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ فِيهِمْ مُنْذِرِينَ يُنْذِرُونَ بِأَسْ اللَّهِ وَيَحْذَرُونَ مِنْهُمْ سَطَوْتَهُ وَنَقَمَتَهُ ، مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَعَبَدَ
غَيْرَهُ ، وَأَتَمَّهُمْ تَمَادَوْا عَلَى مُخَالَفَةِ رُسُلِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ ، فَأَهْلَكَ الْمُكَذِّبِينَ وَدَمَّرَهُمْ ، وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ
وَنَصَّرَهُمْ وَظَفَّرَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ﴿٦٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
الْمُخْلَصِينَ .

وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٦٩﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٠﴾
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧١﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٢﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٣﴾
﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٧٤﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٧٦﴾
لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ الْأَوَّلِينَ أَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ النِّجَاةِ ، شَرَعَ يُبَيِّنُ ذَلِكَ مُفَصَّلًا فَذَكَرَ
نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ مَعَ طُولِ الْمُدَّةِ ، لَبِثَ
فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ تَكْذِيبُهُمْ ، وَكُلَّمَا دَعَاهُمْ
إِزْدَادُوا نِفْرَةً ، فَدَعَا رَبَّهُ أَيُّ مَغْلُوبٍ فَاَنْتَصِرْ ، فَغَضِبَ اللَّهُ تَعَالَى لِغَضَبِهِ عَلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ :
﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ أَيُّ : فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ لَهُ ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ
الْعَظِيمِ ﴾ وَهُوَ التَّكْذِيبُ وَالْأَذَى ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ . رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا - : لَمْ تَبْقَ إِلَّا ذُرِّيَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ قِيلَ : يُذَكَّرُ بِخَيْرٍ ، وَقِيلَ :
لِسَانَ صِدْقٍ لِلْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ ، ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ مُفَسَّرٌ لِمَا أَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ
وَالثَّنَاءِ الْحَسَنِ ، أَنَّهُ يُسَلَّمُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الطَّوَائِفِ وَالْأُمَمِ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيُّ :
هَكَذَا نَجْزِي مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْعِبَادِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، نَجْعَلُ لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ يُذَكَّرُ بِهِ بَعْدَهُ
بِحَسَبِ مَرْتَبَتِهِ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : الْمُصَدِّقِينَ الْمُوَحِّدِينَ
الْمُوقِنِينَ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴾ أَيُّ : أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ ، وَلَا ذِكْرٌ لَهُمْ وَلَا
عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا بِهِدِهِ الصِّفَةِ الْقَيِّمَةِ .

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿٧٧﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٧٨﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٩﴾ أَفِيكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٠﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ مِنْ أَهْلِ دِينِهِ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسُنَّتِهِ . ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قَالَ الْحَسَنُ : سَلِيمٌ مِنَ الشَّرِّ . ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ : ﴿أَيْفَكَا ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : يَعْنِي : مَا ظَنُّكُمْ أَنَّهُ فَاعِلٌ بِكُمْ إِذَا لَاقَيْتُمُوهُ ، وَقَدْ عَبْدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ ؟!

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٣٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٣٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٤٠﴾ فَرَاغَ إِلَى ءَالِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٤١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٤٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٤٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ ﴿٤٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٤٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آبَاؤُنَا لَهُ بُنْيَانٌ فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٤٨﴾

إِنَّمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ لِقَوْمِهِ ذَلِكَ ، لِيُقِيمَ فِي الْبَلَدِ إِذَا ذَهَبُوا إِلَى عِيْدِهِمْ ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَرَفَ خُرُوجَهُمْ إِلَى عِيْدِهِمْ فَأَحَبَّ أَنْ يَحْتَثِيَ بِأَهْلِهِمْ لِيَكْسِرَهَا ، فَقَالَ لَهُمْ كَلَامًا هُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَهَمُّوا مِنْهُ أَنَّهُ سَقِيمٌ عَلَى مُقْتَضَى مَا يَعْقِدُونَهُ . قَالَ قَتَادَةُ : وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِمَنْ تَفَكَّرَ : نَظَرَ فِي النُّجُومِ . يَعْنِي : أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ مُتَفَكِّرًا فِيمَا يُلْهِمُهُمْ بِهِ فَقَالَ : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أَيُّ : ضَعِيفٌ ، أَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غَيْرَ ثَلَاثِ كَذِبَاتٍ : ثُبْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى قَوْلُهُ : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ، وَقَوْلُهُ فِي سَارَةِ هِيَ أُخْتِي» فَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْكَذِبِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي يُدْخِلُهُ فَاعِلُهُ ، حَاشَا وَكَلَّا وَلَمَّا ، إِنَّمَا أُطْلِقَ الْكَذِبُ عَلَى هَذَا تَجَوُّزًا ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْمَعَارِضِ فِي الْكَلَامِ لِمُقَصِّدٍ شَرْعِيٍّ دِينِيٍّ . ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أَيُّ : إِلَى عِيْدِهِمْ ﴿فَرَاغَ إِلَى ءَالِهِتِهِمْ﴾ أَيُّ : ذَهَبَ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا خَرَجُوا فِي سُرْعَةٍ وَاخْتِفَاءٍ ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ وَضَعُوا بَيْنَ أَيْدِيهَا طَعَامًا قُرْبَانًا لِتَبَرُّكٍ لَهُمْ فِيهِ . ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أَيُّ : فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ، وَإِنَّمَا ضَرَبَهُمْ بِالْيَمِينِ ؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ وَأَنْكَى ، وَلِهَذَا تَرَكَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ، ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ﴾ أَيُّ : يُسْرِعُونَ ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ هَهُنَا مُخْتَصَرَةٌ وَفِي «سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ» مَبْسُوطَةٌ ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَجَعُوا مَا عَرَفُوا - مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ - مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ حَتَّى كَشَفُوا وَاسْتَعْلَمُوا ، فَعَرَفُوا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - هُوَ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا جَاءُوا لِيُعَاتِبُوهُ أَخَذَ فِي تَأْنِيهِهِمْ وَعَيْنِيهِمْ فَقَالَ : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أَيُّ : أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ مَا أَنْتُمْ تَنْحِتُونَهَا وَتَجْعَلُونَهَا بِأَيْدِيكُمْ ؟! ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَمَّا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ عَدَلُوا إِلَى أَخْذِهِ بِالْيَدِ وَالْقَهْرِ ، فَقَالُوا : ﴿آبَاؤُنَا لَهُ بُنْيَانٌ

فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ يَوَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ، وَأَظْهَرَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَعْلَى حُجَّتَهُ وَنَصَرَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ .

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿١١﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْخُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٥﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعْهُمُ ﴿١٦﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٩﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٢٠﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٢١﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ وَكُشِّرْنَاهُ بِسَحَقٍ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٤﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ بَعْدَمَا نَصَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَوْمِهِ وَأَيْسَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ بَعْدَمَا شَاهَدُوا مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ ، هَاجَرَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ، وَقَالَ : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ ﴿١١﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾ يَعْنِي : أَوْلَادًا مُطِيعِينَ يَكُونُونَ عِوَضًا مِنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ الَّذِينَ فَارَقَهُمْ ، ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ ، وَهَذَا الْغُلَامُ هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ وَلَدٍ بَشَّرَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ إِسْحَاقَ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ بِمَعْنَى : شَبَّ وَارْتَحَلَ وَأَطَاقَ مَا يَفْعَلُهُ أَبُوهُ مِنَ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ ﴿ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْخُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ ، وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٍ ، وَإِنَّمَا أَعْلَمَ ابْنَهُ بِذَلِكَ ؛ لِيَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ ، وَلِيَخْتَبِرَ صَبْرَهُ وَجَلْدَهُ وَعَزَمَهُ فِي صِغَرِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَةِ أَبِيهِ ﴿ قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أَي : اِمْضِ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ مِنْ ذَبْحِي ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أَي : سَأَصْبِرُ وَأَحْتَسِبُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ ، وَصَدَقَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فِيهَا وَعَدَ ، ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أَي : فَلَمَّا تَشَهَّدَا وَذَكَرَا اللَّهَ تَعَالَى ، إِبْرَاهِيمُ عَلَى الذَّبْحِ ، وَالْوَلَدُ عَلَى شَهَادَةِ الْمَوْتِ ، وَقِيلَ : ﴿ أَسْلَمَا ﴾ إِسْتَسْلَمَا وَانْقَادَا ، إِبْرَاهِيمُ امْتَثَلَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِسْمَاعِيلُ طَاعَةَ اللَّهَ وَلِأَبِيهِ . وَمَعْنَى : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أَي : صَرَعَهُ عَلَى وَجْهِهِ لِيَذْبَحَهُ مِنْ قَفَاهُ ، وَلَا يُشَاهِدُ وَجْهَهُ عِنْدَ ذَبْحِهِ لِيَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ . ﴿ وَنَدَيْنَاهُ

أَنْ يَتَّبِعَ إِبْرَاهِيمَ ﴿١١﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا ﴿١٢﴾ أَيُّ : قَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنْ رُؤْيَاكَ بِإِضْجَاعِكَ وَلَدَكَ لِلذَّبْحِ . ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيُّ : هَكَذَا نَصْرِفُ عَمَّنْ أَطَاعَنَا الْمَكَارَةَ وَالشَّدَائِدَ ، وَنَجْعَلُ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ فَرْجًا وَمَخْرَجًا ، ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ، الصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّهُ فِدْيَ بَكْبَشٍ . ﴿ وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لَمَّا تَقَدَّمَتِ الْبَشَارَةُ بِالذَّبْحِ - وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ - عَطَفَ بِذِكْرِ الْبَشَارَةِ بِأَخِيهِ إِسْحَاقَ ، وَقَدْ ذُكِرَتْ فِي سُورَتِي « هُود » ﴿ وَالْحُجُر » قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَبِيًّا ﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ ، أَيُّ : سَيَصِيرُ مِنْهُ نَبِيٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قِيلَ يَسُوحُ أَهْبَاطُ بَيْسَلَمٍ مِنَّا وَبَرَكْتَ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ وَأُمَمٌ سَمِعْتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ [هُود : ٤٨]

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٣﴾ وَخَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١٤﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١٥﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١٦﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٨﴾ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٠﴾ إِيَّاهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ مِنَ النُّبُوَّةِ ، وَالنَّجَاةِ بِمَنْ آمَنَ مَعَهُمَا مِنْ قَهْرِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، وَمَا كَانَ يَعْتَمِدُ فِي حَقِّهِمْ مِنَ الْإِسَاءَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ قَتْلِ الْأَنْبَاءِ وَاسْتِخْيَاءِ النِّسَاءِ وَاسْتِعْمَالِهِمْ فِي أَحْسَسِّ الْأَشْيَاءِ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ نَصَرَهُمْ عَلَيْهِمْ وَأَقْرَأَ أَعْيُنُهُمْ مِنْهُمْ فَنَغَّبُوهُمْ ، وَأَخَذُوا أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَا كَانُوا جَمْعُوهُ طُولَ حَيَاتِهِمْ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ عَلَى مُوسَى الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الْوَاضِحَ الْجَلِيلَ الْمُسْتَبِينَ - وَهُوَ التَّوْرَةُ - ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١٦﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أَيُّ : فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ أَيُّ : أَبْقَيْنَاهُمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ذِكْرًا جَمِيلًا وَثَنَاءً حَسَنًا ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ إِيَّاهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٢﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿٢٤﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٢٨﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

إِلْيَاسُ هُوَ : إِدْرِيسُ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٠﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠١﴾ أَيُّ : أَلَا تَخَافُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ ؟ ﴿١٠٢﴾ أُنَدِّعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٠٣﴾ بَعْلًا : يَعْنِي : رَبًّا . وَقِيلَ : أَتَعْبُدُونَ صَنَمًا ؟ ﴿١٠٤﴾ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٠٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿١٠٦﴾ أَيُّ : هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿١٠٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَيُّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٠٨﴾ أَيُّ : لِلْعَذَابِ يَوْمَ الْحِسَابِ ، ﴿١٠٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١١٠﴾ أَيُّ : الْمُؤَحَّدِينَ مِنْهُمْ وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ مِنْ مُثَبَّتٍ . ﴿١١١﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٢﴾ أَيُّ : ثَنَاءً جَمِيلًا ، ﴿١١٣﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، كَمَا يُقَالُ فِي إِسْمَاعِيلَ : إِسْمَاعِيلِينَ ، وَقِيلَ : ﴿١١٤﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، يَعْنِي : آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ﴿١١٥﴾ إِنَّا كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ١١٧ .

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٨﴾ إِذْ خَبَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّا لَمَتَّمُورُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٢٢﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ فَكَذَّبُوهُ ، فَجَاءَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، هُوَ وَأَهْلُهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا هَلَكَتْ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ قَوْمِهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعُقُوبَاتِ ، وَجَعَلَ مَحَلَّتَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بُحَيْرَةً مُتَنَنَةً قَبِيحَةَ الْمَنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرَّيْحِ ، وَجَعَلَهَا بِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ، يَمُرُّ بِهَا الْمُسَافِرُونَ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿١٢٠﴾ وَإِنَّا لَمَتَّمُورُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٢١﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢٢﴾ أَيُّ : أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ كَيْفَ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالَهَا ؟

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٤﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٥﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٢٦﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٢٧﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ ﴿١٢٨﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢٩﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٣٠﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٣١﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٣٢﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٣٣﴾

قَدْ تَقَدَّمَ قِصَّةُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورَةِ «الْأَنْبِيَاءِ» ، وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ هُوَ الْمَوْقَرُ . أَيِ : الْمَمْلُوءُ بِالْأَمْتَةِ ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أَيِ : قَارَعَ ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أَيِ : الْمَغْلُوبِينَ ، وَذَلِكَ أَنَّ السَّفِينَةَ تَلْعَبُ بِهَا الْأَمْوَاجُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَشْرَفُوا عَلَى الْعَرِيقِ ، فَسَاهَمُوا عَلَى مَنْ تَقَعُ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ يُلْقَى فِي الْبَحْرِ ؛ لِتَخِفَّ بِهِمُ السَّفِينَةُ ، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ يُوسُفَ عليه السلام ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَهُمْ يَضُنُّونَ بِهِ أَنْ يُلْقَى مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ لِيُلْقَى نَفْسُهُ وَهُمْ يَأْبُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ .

وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى حُوتًا مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ أَنْ يَشُقَّ الْبَحَارَ ، وَأَنْ يَلْتَقِمَ يُوسُفَ عليه السلام ، فَلَا يُهَشِّمُ لَهُ لَحْمًا وَلَا يَكْسِرُ لَهُ عَظْمًا ، فَجَاءَ ذَلِكَ الْحُوتُ وَالْقَى يُوسُفَ عليه السلام نَفْسَهُ ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ، وَذَهَبَ بِهِ فَطَافَ بِهِ الْبَحَارَ كُلَّهَا . وَلَمَّا اسْتَقَرَّ يُوسُفُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ حَسِبَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ، ثُمَّ حَرَكَ رَأْسَهُ وَرَجَلَيْهِ وَأَطْرَافَهُ فَإِذَا هُوَ حَيٌّ ، فَقَامَ فَصَلَّى فِي بَطْنِ الْحُوتِ . ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ ﴾ (١١٢) لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿ قِيلَ : لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ لَهُ مِنْ الْعَمَلِ فِي الرَّخَاءِ . وَقِيلَ ﴾ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ ﴾ : يَعْنِي : الْمُصْلِينَ ﴿ فَتَبَذْنَاهُ ﴾ أَيِ : أَلْقَيْنَاهُ ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ بِهَا نَبْتُ وَلَا بِنَاءٌ . ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أَيِ : ضَعِيفُ الْبَدَنِ . ﴿ وَأَنْبِئْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ الْيَقْطِينُ : هُوَ الْقَرْعُ . ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ بَلْ يَزِيدُونَ ﴿ فَآمَنُوا ﴾ أَيِ : فَاْمَنَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يُوسُفُ عليه السلام جَمِيعُهُمْ ﴿ فَتَعَنَّيْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أَيِ : إِلَى وَقْتِ آجَالِهِمْ ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَتَفَعَّلَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُوسُفَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨]

فَاسْتَفْتَيْهِمْ الْإِلَاحَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُورُ (١١٣) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْسًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١١٤) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكَهُمْ لَيَقُولُونَ (١١٥) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١٦) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١١٧) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١١٨) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١١٩) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٢٠) فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٢١) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٢) سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٢٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٤)

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَعْلِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى الْبَنَاتِ - سُبْحَانَهُ - وَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ، أَيِ : مِنَ الذُّكُورِ ، أَيِ : يَوَدُّونَ لِأَنْفُسِهِمُ الْجِدَّ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل : ٥٨] أَيِ : يَسُوءُهُ ذَلِكَ وَلَا يُحْتَارُ لِنَفْسِهِ إِلَّا الْبَنِينَ ، يَقُولُ عليه السلام فَكَيْفَ نَسَبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْقِسْمَ الَّذِي لَا يُحْتَارُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَفْتَيْهِمْ ﴾ أَيِ :

سَلِّمُهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ﴿٢١﴾ أَلَيْسَ لَكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ ﴿٢٢﴾ كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ [النجم: ٢١-٢٢]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أَي: كَيْفَ حَكَمُوا عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ إِنَاثٌ وَمَا شَاهَدُوا خَلْقَهُمْ، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهم﴾ أَي: مِنْ كَذِبِهِمْ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ أَي: صَدَرَ مِنْهُ الْوَلَدُ ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي الْمَلَائِكَةِ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ فِي غَايَةِ الْكُفْرِ وَالْكَذِبِ: فَأَوَّلًا جَعَلُوهُمْ بَنَاتِ اللَّهِ، فَجَعَلُوا اللَّهَ وَلَدًا - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - وَجَعَلُوا ذَلِكَ الْوَلَدَ أَنْثَى، ثُمَّ عَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - وَكُلُّ مِنْهَا كَافٍ فِي التَّخْلِيدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ أَي: أَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُهُ عَنْ أَنْ يُخْتَارَ الْبَنَاتِ دُونَ الْبَنِينَ؟ كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَي: مَا لَكُمْ عُقُولٌ تَتَدَبَّرُونَ بِهَا مَا تَقُولُونَ. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ أَي: حُجَّةٌ عَلَى مَا تَقُولُونَهُ؟ ﴿فَأَنُوتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَي: هَاتُوا بُرْهَانًا عَلَى ذَلِكَ، يَكُونُ مُسْتَنَدًا إِلَى كِتَابٍ مُنْزَلٍ مِنَ السَّمَاءِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ اتَّخَذَ مَا تَقُولُونَهُ، فَإِنَّ مَا تَقُولُونَهُ لَا يُمَكِّنُ اسْتِنَادَهُ إِلَى عَقْلِ، بَلْ لَا يَجُوزُهُ الْعَقْلُ بِالْكُلِّيَّةِ. ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ قِيلَ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ فَسُئِلُوا فَمَنْ أُمَمَاهُنَّ؟ قَالُوا: بَنَاتُ سَرَوَاتِ الْجَنِّ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أَي: الَّذِينَ نَسَبُوا إِلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أَي: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمُحْضَرُونَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الْحِسَابِ؛ لِكَذِبِهِمْ فِي ذَلِكَ وَافْتِرَائِهِمْ وَقَوْلِهِمُ الْبَاطِلَ بِلَا عِلْمٍ، ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أَي: تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، وَعَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الظَّالِمُونَ الْمُلْحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، وَهُوَ مِنْ مُثَبَّتٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عَائِدًا إِلَى النَّاسِ جَمِيعِهِمْ، ثُمَّ اسْتَشْنَى مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ، وَهُمْ الْمُتَّبِعُونَ لِلْحَقِّ الْمُنْزَلِ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ.

فَأَنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَتَنِينَ ﴿٢٤﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿٢٥﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿٢٩﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٠﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣١﴾ فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلْمُشْرِكِينَ ﴿فَأَنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَتَنِينَ﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ

الْحَجِيمُ ﴿١٠١﴾ أَي : إِنَّمَا يَنْقَادُ لِمَقَالَتِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَالْعِبَادَةُ الْبَاطِلَةِ مَنْ هُوَ أَضَلُّ مِنْكُمْ يَمْنُ دُرَى النَّارِ ، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُنْزَهَا لِلْمَلَائِكَةِ بِمَا نَسَبُوا إِلَيْهِمْ مِنَ الْكُفْرِ بِهِمْ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿١٠٢﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٠٣﴾ أَي : لَهُ مَوْضِعٌ مَخْصُوصٌ فِي السَّمَاوَاتِ ، وَمَقَامَاتُ الْعِبَادَةِ لَا يَتَجَاوَزُهُ وَلَا يَتَعَدَّاهُ . ﴿١٠٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٠٥﴾ أَي : نَقْفُ صُفُوفًا فِي الطَّاعَةِ . ﴿١٠٦﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ ﴿١٠٧﴾ أَي : نَضْطَفُ فَتَسْبِحُ الرَّبَّ وَنُحْمَدُهُ وَنُقَدِّسُهُ وَنُنَزِّهُهُ عَنِ النَّقَائِصِ ، فَتَحْنُ عَبِيدُ لَهُ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ خَاضِعُونَ لَدَيْهِ . ﴿١٠٨﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٠٩﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٠﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١١١﴾ أَي : قَدْ كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ - يَا مُحَمَّدٌ - لَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ مَنْ يَذْكُرُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْقُرُونِ الْأُولَى ، وَيَأْتِيَهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿١١٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا رَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١١٣﴾ [فاطر : ٤٢] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿١١٤﴾ فَكَفَرُوا بِهِ . فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴿١١٥﴾ ، وَعِيدٌ أَكِيدُ وَتَهْدِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ ﷻ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ ﷺ .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١١٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١١٨﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١١٩﴾ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٢٠﴾ أَفَعِدَّابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٢١﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٢٢﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٢٣﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٢٤﴾

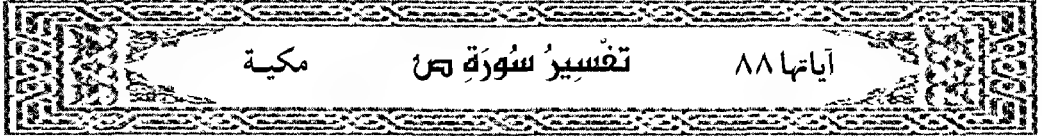
يَقُولُ تَعَالَى : ﴿١٢٥﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٦﴾ أَي : تَقَدَّمَ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلرُّسُلِ وَاتَّبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ﴿١٢٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٢٨﴾ أَي : تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ . ﴿١٢٩﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٣٠﴾ أَي : اصْبِرْ عَلَى آذَانِهِمْ لَكَ ، وَانْتَظِرْ إِلَى وَقْتِ مُوجَلٍ ، فَإِنَّا سَنَجْعَلُ لَكَ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ وَالظَّفَرَ ، ﴿١٣١﴾ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٣٢﴾ أَي : أَنْظِرُهُمْ وَارْتَقِبْ مَاذَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ عَلَى مَخَالَفَتِكَ وَتَكْذِيبِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ : ﴿١٣٣﴾ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٣٤﴾ ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿١٣٥﴾ أَفَعِدَّابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٣٦﴾ أَي : هُمْ إِنَّمَا يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ لِيُكْذِبِيَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْضَبُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَيَجْعَلُ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ ، وَمَعَ هَذَا أَيْضًا كَانُوا مِنْ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ وَالْعُقُوبَةَ . ﴿١٣٧﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٣٨﴾ أَي : فَإِذَا نَزَلَ الْعَذَابُ بِمَحَلَّتِهِمْ فَبُئْسَ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمُهُمْ ، بِإِهْلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ ، ﴿١٣٩﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٤٠﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٤١﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ .

سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٤٢﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٣﴾ وَالْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾

يُنَزِّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَفْسَهُ وَيُقَدِّسُهَا وَيُبْرِئُهَا عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُكَذِّبُونَ الْمُعْتَدُونَ ، تَعَالَى وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوءًا كَبِيرًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ أَيِ : ذِي الْعِزَّةِ الَّتِي لَا تَرَامُ ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيِ : عَنْ قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَدِينَ الْمُفْتَرِينَ ﴿ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ أَيِ : سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ فِي رَبِّهِمْ وَصِحَّتِهِ وَحَقِّيَّتِهِ ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيِ : لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَةِ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَلَمَّا كَانَ التَّسْبِيحُ يَتَضَمَّنُ التَّنْزِيهَ وَالتَّزْيِيزَ مِنَ النَّقْصِ بِدَلَالَةِ الْمُطَابَقَةِ ، وَيَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ الْكَمَالِ - كَمَا أَنَّ الْحَمْدَ يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ مُطَابَقَةً ، وَيَسْتَلْزِمُ التَّنْزِيهَ مِنَ النَّقْصِ - قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَفِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿ ٣٨ ﴾ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿ ٣٩ ﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي كَفَّارَةِ الْمَجْلِسِ : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ » .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الصَّافَّاتِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وِلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » بِأَنَّ غَنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ أَيِ : وَالْقُرْآنُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى مَا فِيهِ ذِكْرٌ لِلْعِبَادِ ، وَنَفْعٌ لَهُمْ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ . ﴿ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ذِي الشَّرَفِ وَالشَّانِ وَالْمَكَانَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ أَيِ : إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ لَذِكْرًا لِمَنْ يَتَذَكَّرُ ، وَعِبْرَةً لِمَنْ يَتَعَبَّرُ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ الْكَافِرُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ ﴿ فِي عِزَّةٍ ﴾ أَيِ : اسْتِكْبَارٍ عَنْهُ وَحِيَّةٍ ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أَيِ : وَمُخَالَفَةٍ لَهُ وَمُعَانَدَةٍ وَمُفَارَقَةٍ ، ثُمَّ خَوَّفَهُمْ مَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ قَبْلَهُمْ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ لِلرُّسُلِ وَتَكْذِيبِهِمُ الْكُتُبَ الْمُنْزَلَةَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أَيِ :

مِنْ أُمَّةٍ مُّكَذِّبَةٍ ﴿ فَنَادَا ﴾ أَيُّ : حِينَ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ اسْتَغَاثُوا وَجَازُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُجِدِّ عَنْهُمْ شَيْئًا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَنَادَا وَلَا تَحْنِ مَنَاصِرٍ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَيْسَ بِحِينَ نِدَاءٍ ، وَلَا نَزْوٍ ، وَلَا فِرَارٍ ، وَقِيلَ : لَيْسَ بِحِينَ مُغَاثٍ ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهِيَ « لَا تَحْنِ » (لَا) (الْتِي لِلْنَّفْيِ ، زِيدَتْ مَعَهَا « النَّاءُ ») .

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿١﴾ أَجَعَلَ آلَآلهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٢﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٣﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٤﴾ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ ﴿٥﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٦﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿٧﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَعْجِيبِهِمْ مِنْ بَعَثَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَشِيرًا نَذِيرًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ أَيُّ : بَشَرٌ مِثْلَهُمْ ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴾ أَجَعَلَ آلَآلهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ أَيُّ : أَرَعَمَ أَنْ الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؟ ! أَنْكَرَ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ - قَبَحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - وَتَعَجَّبُوا مِنْ تَرْكِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ تَلَقَّوْا عَنْ آبَائِهِمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأَشْرَبَتْهُ قُلُوبُهُمْ ، فَلَمَّا دَعَاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى خَلْعِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَإِفْرَادِ الْإِلَهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ وَتَعَجَّبُوا ، وَقَالُوا : ﴿ أَجَعَلَ آلَآلهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ، وَهُمْ سَادَتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ وَرُؤُوسَاؤُهُمْ وَكِبَرَاؤُهُمْ قَائِلِينَ ﴿ آمَشُوا ﴾ أَيُّ : اسْتَمَرُّوا عَلَى دِينِكُمْ ﴿ وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ وَلَا تَسْتَجِيبُوا لِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ ﴿ إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : قَالُوا إِنْ هَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ التَّوْحِيدِ لَشَيْءٌ يُرِيدُ بِهِ الشَّرَفَ عَلَيْكُمْ وَالِاسْتِعْلَاءَ ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْكُمْ أَتْبَاعٌ وَلَسْنَا نُجِيبُهُ إِلَيْهِ . وَقَوْلُهُمْ : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ أَيُّ : مَا سَمِعْنَا بِهَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ، قِيلَ : يَعْنُونَ دِينَ قُرَيْشٍ ، وَقِيلَ : يَعْنُونَ النَّصْرَانِيَّةَ ، قَالُوا : لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ حَقًّا لَأَخْبَرْتَنَا بِهِ النَّصَارَى ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ كَذِبٌ وَتَحَرُّصٌ ، وَقَوْلُهُمْ : ﴿ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ يَسْتَبْعِدُونَ تَخْصِيصَهُ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ كُلِّهِمْ ، وَلِهَذَا قَالُوا هَذَا الَّذِي دَلَّ عَلَى جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عَقْلِهِمْ فِي اسْتِبْعَادِهِمْ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ عَلَى الرَّسُولِ مِنْ بَيْنِهِمْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا لِأَنَّهُمْ مَا ذَاقُوا - إِلَى حِينِ

قَوْلُهُمْ ذَلِكَ - عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَنِقْمَتَهُ ، سَيَعْلَمُونَ غِبَّ مَا قَالُوا وَمَا كَذَّبُوا بِهِ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ، ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - مُبَيِّنًا أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ ، الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ : ﴿ أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ أَيُّ : الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ ، الْوَهَّابُ الَّذِي يُعْطِي مَا يُرِيدُ لِمَنْ يُرِيدُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْرٌ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أَيُّ : إِنْ كَانَ لَهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْعَدُوا فِي الْأَسْبَابِ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : طُرُقُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَالَ ۖ : ﴿ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أَيُّ : هَؤُلَاءِ الْجُنْدُ الْمُكَذِّبُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عِزَّةٍ وَشَقَاقٍ سَيَهْزَمُونَ وَيُغْلَبُونَ ، وَيُكَبَّتُونَ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأَحْزَابِ الْمُكَذِّبِينَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ۚ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّفُونَ الدُّبْرَ ﴾ [القمر : ٤٤-٤٥] ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴾ [القمر : ٤٦]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ۖ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١١﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ﴿١٢﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٣﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالنَّقْمَاتِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ وَتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَقَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَصُهُمْ مَبْسُوطَةً فِي أَمَاكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أَيُّ : كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ، وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ، فَمَا دَافَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَلِهَذَا قَالَ ۖ : ﴿ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ﴾ فَجَعَلَ عِلَّةً إِهْلَاكِهِمْ هُوَ تَكْذِيبُهُمْ بِالرُّسُلِ ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْحَذَرِ . ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَيُّ : لَيْسَ لَهَا مَثْنَوِيَّةٌ ، أَيُّ : مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، أَيُّ : فَقَدْ اقْتَرَبَتْ وَدَنَتْ وَأَزْفَتْ ، وَهَذِهِ الصَّيْحَةُ هِيَ : نَفْخَةُ الْفَرَعِ ، الَّتِي يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ أَنْ يُطَوِّلَهَا ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فَرَعٌ ، إِلَّا مَنْ اسْتَشْنَى اللَّهُ ۖ

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ هَذَا انْكَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي دُعَائِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَعْجِيلِ الْعَذَابِ ، فَإِنَّ الْقِطْعَ هُوَ : الْكِتَابُ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : سَأَلُوا تَعْجِيلَ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ الْخَيْرِ أَوِ الشَّرِّ فِي الدُّنْيَا ، وَهَذَا الَّذِي قَالَه جَيِّدٌ ، وَاللَّهُ

أَعْلَمُ . وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْاسْتِهْزَاءِ وَالِاسْتِعْدَادِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ
أَمْرًا لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ ، وَمُبَشِّرًا لَهُ عَلَى صَبْرِهِ بِالْعَاقِبَةِ وَالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ .

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا
الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا
مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ كَانَ ذَا أَيْدٍ ، وَالْأَيْدِ : الْقُوَّةُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ،
وَقِيلَ : الْأَيْدِ : الْقُوَّةُ فِي الطَّاعَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾
أَيُّ : أَنَّهُ تَعَالَى سَخَّرَ الْجِبَالَ تُسَبِّحُ مَعَهُ عِنْدَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ وَآخِرِ النَّهَارِ ، كَمَا قَالَ ﷻ :
﴿ يَجِبَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ ﴾ [سبأ : ١٠] ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ الطَّيْرُ تُسَبِّحُ بِتَسْبِيحِهِ وَتُرْجَعُ بِتَرْجِيْعِهِ ،
إِذَا مَرَّ بِهِ الطَّيْرُ وَهُوَ سَابِغٌ فِي الْهَوَاءِ ، فَسَمِعَهُ وَهُوَ يَتَرَنَّمُ بِقِرَاءَةِ الزُّبُورِ لَا يَسْتَطِيعُ الذَّهَابُ بَلْ
يَقِفُ فِي الْهَوَاءِ وَيُسَبِّحُ مَعَهُ ، وَتُجِيبُهُ الْجِبَالُ الشَّامِخَاتُ تَرْجَعُ مَعَهُ وَتُسَبِّحُ تَبَعًا لَهُ . وَلِهَذَا قَالَ ﷻ :
﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أَيُّ : مَحْبُوسَةً فِي الْهَوَاءِ ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أَيُّ : مُطِيعٌ يُسَبِّحُ تَبَعًا لَهُ . وَشَدَدْنَا
مُلْكَهُ ﴿ أَيُّ : جَعَلْنَا لَهُ مُلْكًا كَامِلًا مِنْ جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ . ﴾ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴿ قِيلَ :
يَعْنِي الْفَهْمَ وَالْعَقْلَ وَالْفِطْنَةَ ، وَقِيلَ : الْحِكْمَةُ : الْعَدْلُ ، وَقِيلَ : كِتَابُ اللَّهِ وَاتِّبَاعُ مَا فِيهِ ، وَقِيلَ :
النُّبُوَّةُ . ﴾ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿ قِيلَ : فَصَّلُ الْخِطَابِ : الشُّهُودُ وَالْأَيَّانُ ، وَقِيلَ : هُوَ إِصَابَةُ الْقَضَاءِ
وَفَهْمُ ذَلِكَ ، وَقِيلَ : هُوَ الْفَصْلُ فِي الْكَلَامِ وَفِي الْحُكْمِ ، وَهَذَا يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ ، وَهُوَ الْمُرَادُ .
وَقِيلَ : أَوَّلُ مَنْ قَالَ : « أَمَّا بَعْدُ » دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ فَصَّلُ الْخِطَابِ .

❖ وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرِعَ
مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ
فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى زِعَاجِهِ وَإِنَّ
كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ
وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَقَابِرِ ﴿٢٥﴾

قَدْ ذَكَرَ الْمَفْسُرُونَ هَهُنَا قِصَّةَ أَكْثَرِهَا مَاخُودٌ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِيهَا عَنِ الْمَعْصُومِ

حَدِيثٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ ، فَالْأَوَّلُ أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَى مُجَرَّدِ تِلَاوَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ ، وَأَنْ يُرَدَّ عِلْمُهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَمَا تَضَمَّنَ فَهُوَ حَقٌّ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَفَرَعَ مِنْهُمْ ﴾ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي مِحْرَابِهِ وَهُوَ أَشْرَفُ مَكَانٍ فِي دَارِهِ ، وَكَانَ قَدْ أَمَرَ أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا بِشَخْصَيْنِ قَدْ تَسَوَّرَا عَلَيْهِ الْمِحْرَابَ ، أَيُّ : اخْتِطَاطًا بِهِ يَسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنِيهَا . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أَيُّ : عَلَنِي ، يُقَالُ عَزَّ يَعِزُّ إِذَا قَهَرَ وَغَلَبَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أَيُّ : اخْتَبَرْنَاهُ ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أَيُّ : سَاجِدًا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ رَكَعَ أَوَّلًا ، ثُمَّ سَجَدَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ اسْتَمَرَّ سَاجِدًا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أَيُّ : مَا كَانَ مِنْهُ مِمَّا يُقَالُ فِيهِ : «إِنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُفْرِينَ» . وَقَدْ اخْتَلَفَ الْأُئِمَّةُ فِي سَجْدَةِ «ص» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ فِي السَّجْدَةِ فِي «ص» : كَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَسْجُدُ فِيهَا . وَعَنْهُ قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ فِي «ص» وَقَالَ : «سَجَدَهَا دَاوُدُ ﷺ تَوْبَةً وَتَسْجُدُهَا شُكْرًا» . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أَيُّ : وَإِنَّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ اللَّهُ ﷻ بِهَا ، وَحُسْنُ مَرْجِعٍ ، وَهُوَ الدَّرَجَاتُ الْعَالِيَةُ فِي الْجَنَّةِ لِنُبُوَّتِهِ وَعَدْلِهِ النَّامُ فِي مُلْكِهِ .

يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

هَذِهِ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِوَلَاةِ الْأُمُورِ أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَلَا يَعْدِلُوا عَنْهُ فَيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَدْ تَوَعَّدَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَتَنَاسَى يَوْمَ الْحِسَابِ بِالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿١٧﴾ أَمْ نجعلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نجعلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿١٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَبَّوْا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا خَلَقَ الْخَلْقَ عَبَثًا ، وَإِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ وَيُوحِّدُوهُ ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ يَوْمَ الْجُمُعِ فَيُثَبِّتُ الْمُطِيعَ وَيُعَذِّبُ الْكَافِرَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

بَطْلًا ۖ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ أَيُّ : الَّذِينَ لَا يَرُونَ بَعَثًا وَلَا مَعَادًا ، وَإِنَّمَا يَعْتَقِدُونَ هَذِهِ الدَّارَ فَقَطْ ۖ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۖ أَيُّ : وَيْلٌ لَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَنُشُورِهِمْ مِنَ النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَهُمْ ، ثُمَّ يَبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّهُ ﷻ مِنْ عَذْلِهِ وَحِكْمَتِهِ لَا يُسَاوِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ۖ أَمْرٌ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۖ أَيُّ : لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ وَلَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَى يُثَابُ فِيهَا هَذَا الْمُطِيعُ وَيُعَاقَبُ فِيهَا هَذَا الْفَاجِرُ . قَالَ تَعَالَى : ۖ كَتَبْنَا نُزُلَهُ إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَذْكُرُوا ءَايَتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۖ أَيُّ : دَوُّو الْعُقُولِ وَهِيَ الْأَلْبَابُ ، جَمْعُ لُبٍّ .

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٥١﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصِّفَتُ الْحَيَادُ ﴿٥٢﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٥٣﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَرَّرًا أَنَّهُ وَهَبَ لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ أَيُّ : نَبِيًّا ، كَمَا قَالَ ﷻ ۖ وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ۖ أَيُّ : فِي النَّبُوَّةِ ، وَإِلَّا فَقَدْ كَانَ لَهُ بَنُونَ غَيْرُهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ عِنْدَهُ مِائَةُ امْرَأَةٍ حَرَائِرَ ، وَقَوْلُهُ : ۖ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۖ ثَنَاءٌ عَلَى سُلَيْمَانَ ، بِأَنَّهُ كَثِيرُ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ . ۖ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصِّفَتُ الْحَيَادُ ۖ أَيُّ : إِذْ عَرَضَ عَلَى سُلَيْمَانَ ﷻ فِي حَالِ مَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ الْحَيْلُ الصَّافِنَاتُ ، وَهِيَ الَّتِي تَقِفُ عَلَى ثَلَاثِ وَطَرَفٍ حَافِرِ الرَّابِعَةِ . وَالْحَيَادُ : السَّرَاعُ .

وَقَوْلُهُ : ۖ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۖ ذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْمُفَسِّرِينَ : أَنَّهُ اشْتَغَلَ بِعَرْضِهَا حَتَّى فَاتَتْ وَقْتُ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، وَالَّذِي يُقْطَعُ بِهِ أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْهَا عَمْدًا بَلْ نَسِيَانًا ، كَمَا شُغِلَ النَّبِيُّ يَوْمَ الْخُنْدَقِ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، حَتَّى صَلَّاهَا بَعْدَ الْغُرُوبِ . ۖ رُدُّوَهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ۖ قَالَ السُّدِّيُّ : ضَرَبَ أَعْنَاقَهَا وَعَرَاقِيبَهَا بِالسُّيُوفِ ، وَقِيلَ : جَعَلَ يَمْسَحُ أَعْرَافَ الْحَيْلِ وَعَرَاقِيبَهَا حُبًّا لَهَا .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٥٥﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٥٦﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٥٧﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٥٨﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٩﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَّغَابٍ ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ أَي : اخْتَبَرْنَاهُ بِأَنْ سَلَبْنَاهُ الْمُلْكَ مَرَّةً ﴿ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾^(١) يَعْنِي شَيْطَانًا ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أَي : رَجَعَ إِلَى مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَأُثْبِتَتْهُ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾
قَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَاهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ، أَي : لَا يَصْلُحُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْلُبْنِيهِ بَعْدِي ،
وَالصَّحِيحُ : أَنَّهُ سَأَلَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مُلْكًا لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلُهُ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنْ عَفَرْتَنَا مِنَ الْحِنِّ تَقَلَّتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةُ - أَوْ كَلِمَةٌ نَحْوَهَا - لَيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةُ ، فَأَمَكْنِي اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مِنْهُ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ ﷺ ﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي » فَرَدَّهُ اللَّهُ حَاسِنًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً ﴾ لَمَّا عَقَرَ سُلَيْمَانَ ﷺ الْحَيْلَ غَضَبًا لِلَّهِ ﷻ
عَوَّضَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا وَأَسْرَعُ : الرِّيحُ الَّتِي غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أَي : حَيْثُ أَرَادَ مِنَ الْبِلَادِ . ﴿ وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴾ أَي : مِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْأَبْنِيَةِ الْهَائِلَةِ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْبَشَرُ ، وَطَائِفَةٌ غَوَاصُونَ فِي الْبِحَارِ يَسْتَخْرِجُونَ مَا فِيهَا مِنَ اللَّالِئِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَشْيَاءِ النَّفِيسَةِ الَّتِي لَا تُوجَدُ إِلَّا فِيهَا ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أَي : مُوثَّقُونَ فِي الْأَغْلَالِ وَالْأَكْبَالِ يَمْنُ قَدْ تَمَرَّدَ وَعَصَى وَامْتَنَعَ مِنَ الْعَمَلِ وَأَبَى ، أَوْ قَدْ أَسَاءَ فِي صَنِيعِهِ وَاعْتَدَى . ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي أَعْطَيْنَاكَ مِنَ الْمُلْكِ التَّامِّ وَالسُّلْطَانِ الْكَامِلِ كَمَا سَأَلْتَنَا ، فَأَعْطِ مَنْ شِئْتَ وَاحْرِمْ مَنْ شِئْتَ ، لَا حِسَابَ عَلَيْكَ ، أَي : مَهْمَا فَعَلْتَ فَهُوَ جَائِزٌ لَكَ ، أَحْكُمْ بِمَا شِئْتَ فَهُوَ صَوَابٌ ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا أَعْطَى سُلَيْمَانَ ﷺ فِي الدُّنْيَا نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْضًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنُ مَّآبٍ ﴾ أَي : فِي الدَّارِ وَالْآخِرَةِ .

وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿١١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿١٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنََّّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا

(١) أوردَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - جُمْلَةً أَثَارٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ ، وَقَالَ : هَذِهِ كُلُّهَا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ .

نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١١﴾

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا كَانَ ابْتِلَاؤُهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الضَّرِّ فِي جَسَدِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ جَسَدِهِ مَغْرَزَ إِبْرَةٍ سَلِيماً سِوَى قَلْبِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مَرَضِهِ ، وَمَا هُوَ فِيهِ غَيْرُ أَنَّ زَوْجَتَهُ حَفِظَتْ وَدَّهُ لِإِبْرَانِهَا بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ، فَكَانَتْ تَخْدُمُ النَّاسَ بِالْأُجْرَةِ وَتُطْعِمُهُ وَتَخْدُمُهُ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي مَالٍ جَزِيلٍ وَأَوْلَادٍ وَسَعَةٍ طَائِلَةٍ مِنَ الدُّنْيَا ، فَسَلَبَ جَمِيعَ ذَلِكَ حَتَّى آَلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ أُلْقِيَ عَلَى مَزْبَلَةٍ مِنْ مَزَابِلِ الْبَلَدَةِ هَذِهِ الْمُدَّةَ بِكَمَالِهَا ، وَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ سِوَى زَوْجَتِهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَأَمَّاهَا كَانَتْ لَا تُفَارِقُهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَّا بِسَبَبِ خِدْمَةِ النَّاسِ ثُمَّ تَعَوَّدُ إِلَيْهِ قَرِيبًا ، فَلَمَّا طَالَ الْمَطَالُ ، وَاشْتَدَّ الْحَالُ ، وَانْتَهَى الْقَدْرُ وَتَمَّ الْأَجَلُ الْمُقَدَّرُ ، تَضَرَّعَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ وَإِلَى الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ : ﴿ أَيُّ مَسْنَى الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ : ٨٣] ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَالَ : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنَى الشَّيْطَانِ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ قِيلَ : بِنُصْبٍ فِي بَدَنِي ، وَعَذَابٍ فِي مَالِي وَوَلَدِي ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَحَابَ لَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَقَامِهِ وَأَنْ يَرْكُضَ الْأَرْضَ بِرِجْلَيْهِ ، فَعَمَلَ فَأَنْبَعَ اللَّهُ تَعَالَى عَيْنًا ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَغْتَسِلَ مِنْهَا ، فَأَذْهَبَتْ جَمِيعُ مَا كَانَ فِي بَدَنِهِ مِنَ الْأَذَى ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَضَرَبَ الْأَرْضَ فِي مَكَانٍ آخَرَ ، فَأَنْبَعَ لَهُ عَيْنًا أُخْرَى ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهَا ، فَأَذْهَبَتْ جَمِيعُ مَا كَانَ فِي بَاطِنِهِ مِنَ السُّوءِ وَتَكَامَلَتِ الْعَافِيَةُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « (إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَبِثَ بِهِ بِلَاؤُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً ، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، إِلَّا رَجُلَيْنِ كَانَا مِنْ أَحْصَى إِخْوَانِهِ بِهِ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : تَعْلَمُ وَاللَّهِ ، لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَيَكْشِفُ مَا بِهِ ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا أَذْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمْرًا عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ تَعَالَى ، فَأَرْجِعْ إِلَى بَيْتِي فَأَكْفُرْ عَنْهُمَا ، كَرَاهِيَةً أَنْ يُذْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا فِي حَقٍّ وَقَالَ : وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتْ إِمْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَالْتَفَتَتْ تَنْظُرُ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ عَلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ : أَيُّ بَارِكِ اللَّهُ فِيكَ ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا الْمُبْتَلَى ؟

فَوَاللَّهِ الْقَدِيرِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشَبَّ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا ، قَالَ : فَإِنِّي أَنَا هُوَ ، قَالَ :
وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ ، فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى سَحَابَتَيْنِ فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى
أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَعَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ ، وَأَفْرَعَتْ الْأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ حَتَّى فَاضَ .
قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ قَالَ
الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : أَحْيَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِأَعْيَانِهِمْ وَزَادَهُمْ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ . ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أَيُّ : بِهِ عَلَى
صَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ وَإِنَابَتِهِ وَتَوَاضُعِهِ وَاسْتِكَانَتِهِ ﴿ وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ أَيُّ : لِدَوِي الْعُقُولِ لِيَعْلَمُوا
أَنَّ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ الْفَرْجُ وَالْمَخْرَجُ وَالرَّاحَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَحُذِّ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَاصْرَبْ بِهِ ، وَلَا تَحْتَفِ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَيُّوبَ عليه السلام كَانَ قَدْ غَضِبَ
عَلَى رَوْحَتِهِ ، وَوَجَدَ عَلَيْهَا فِي أَمْرِ فَعَلْتُهُ ، قِيلَ : بَاعَتْ ضَفِيرَتَهَا بِخُبْزٍ فَأَطْعَمَتْهُ إِنْيَاهُ فَلَا مَهَا عَلَى
ذَلِكَ ، وَحَلَفَ إِنْ شَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِيَصْرِبَنَّهَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَقِيلَ : لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ ، فَلَمَّا
شَفَاهُ اللَّهُ ﷻ وَعَافَاهُ ، مَا كَانَ جَزَاؤُهَا مَعَ هَذِهِ الْخِدْمَةِ التَّامَّةِ وَالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالْإِحْسَانِ أَنْ
تُقَابَلَ بِالضَّرْبِ ، فَافْتَاهُ اللَّهُ ﷻ أَنْ يَأْخُذَ ضِعْفًا - وَهُوَ : الشُّمْرَاخُ - فِيهِ مِائَةُ قَضِيبٍ فَيَضْرِبَهَا بِهِ
ضَرْبَةً وَاحِدَةً ، وَقَدْ بَرَّتْ يَمِينُهُ وَخَرَجَ مِنْ حِنْثِهِ ، وَوَقَّى بِنَذْرِهِ ، وَهَذَا مِنَ الْفَرْجِ وَالْمَخْرَجِ لِمَنْ
إِتَّقَى اللَّهَ تَعَالَى وَأَنَابَ إِلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أَتَنَى
اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَمَدَحَهُ بِأَنَّهُ ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أَيُّ : رَجَاعٌ مُنِيبٌ .

وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ (١٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ
بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ (١٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ (١٧) وَأَذْكُرُ
إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (١٨)

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فَصَائِلِ عِبَادِهِ الْمُرْسَلِينَ وَأَنْبِيَائِهِ الْعَابِدِينَ : ﴿ وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْعِلْمَ النَّافِعَ ،
وَالْقُوَّةَ فِي الْعِبَادَةِ ، وَالْبَصِيرَةَ النَّافِذَةَ . رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿ أُولَى الْأَيْدِي ﴾
يَقُولُ : أُولَى الْقُوَّةِ ﴿ وَالْأَبْصَرِ ﴾ يَقُولُ : الْفِقْهُ فِي الدِّينِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَيُّ : جَعَلْنَاهُمْ يَعْمَلُونَ
لِلْآخِرَةِ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ غَيْرُهَا ، وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ : نَزَعَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قُلُوبِهِمْ حُبَّ الدُّنْيَا
وَذَكَرَهَا وَأَخْلَصَهُمْ بِحُبِّ الْآخِرَةِ وَذَكَرَهَا ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : يَعْنِي بِالدَّارِ : الْجَنَّةَ ، يَقُولُ :
أَخْلَصْنَاهَا لَهُمْ بِذِكْرِهَا لَهَا ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴾ أَيُّ : لِمَنِ الْمُخْتَارَيْنِ الْمُجْتَبَيْنِ

الْأَخْيَارِ ، فَهُمْ أَحْيَارٌ مُخْتَارُونَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَصَصِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ مُسْتَقْصَاةً فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا .

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّعَاقِبٍ ﴿٥٤﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٥﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكِهِةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥٦﴾ * وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ أْتَرَابٍ ﴿٥٧﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هَذَا لَرْزُقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٩﴾

﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ أَيُّ : هَذَا فَضْلٌ فِيهِ ذِكْرٌ لِمَنْ يَتَذَكَّرُ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : يَعْنِي : الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ السُّعْدَاءِ أَنَّ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ لَحُسْنَ مَّعَاقِبٍ ﴾ ، وَهُوَ : الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ ﴾ أَيُّ : جَنَّاتٍ إِقَامَةٍ ﴿ مُفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ أَيُّ : إِذَا جَاءُواهَا فَتُحْتَفَلُ بِهِمْ أَبْوَابُهَا . وَقَدْ وَرَدَ فِي ذِكْرِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مِنْ وُجُوهِ عِدِيدَةٍ ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ قِيلَ : مُتَرَبِّعِينَ عَلَى سُورٍ تَحْتَ الْحِجَالِ ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكِهِةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أَيُّ : مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا وَأَحْضَرُوا كَمَا أَرَادُوا ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ أَيُّ : مِنْ أَيِّ أَنْوَاعِهِ شَاءُوا أَتَتْهُمْ بِهِ الْخُدَّامُ ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ ﴾ أَيُّ : عَنْ غَيْرِ أَرْوَاجِهِنَّ فَلَا يَلْتَفِتْنَ إِلَى غَيْرِ بُعُولَتِهِنَّ ﴿ أْتَرَابٍ ﴾ أَيُّ : مُتَسَاوِيَاتٍ فِي السَّنِّ وَالْعُمُرِ . ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي ذَكَّرْنَا مِنْ صِفَةِ الْجَنَّةِ هِيَ الَّتِي وَعَدَهَا لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الَّتِي يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ نُشُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ مِنَ النَّارِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنِ الْجَنَّةِ أَنَّهُ لَا فَرَاغَ لَهَا وَلَا زَوَالٍ وَلَا انْقِضَاءَ وَلَا انْتِهَاءَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَرْزُقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ .

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّائِفِينَ لَشَرَّ مَّعَاقِبٍ ﴿٦٠﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٦١﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ ﴿٦٢﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ﴿٦٣﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٦٤﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدْ مَتَمُمْتُمْ لَنَا فَبِئْسَ الْفَرَارُ ﴿٦٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٧﴾ أَخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَالَ السُّعْدَاءِ نَتَى بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ وَمَرْجِعِهِمْ وَمَأْبِهِمْ فِي دَارِ مَعَادِهِمْ وَحَسَابِهِمْ فَقَالَ ﷻ : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّائِفِينَ ﴾ ، وَهُمْ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ

الْمُخَالِفُونَ لِرُسُلِ اللَّهِ ﴿ لَشَرَّ مَقَابٍ ﴾ أَي : لَسُوءٍ مُنْقَلَبٍ وَمَرْجِعٍ ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أَي : يَدْخُلُونَهَا فَتَغْمُرُهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ ﴿ فَبُئْسَ الْيَهَادُ ﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ ﴿ أَمَّا الْحَمِيمُ فَهُوَ : الْحَارُّ الَّذِي قَدْ انْتَهَى حَرُّهُ ، وَأَمَّا الْغَسَاقُ : فَهُوَ ضِدُّهُ وَهُوَ الْبَارِدُ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ بَرْدِهِ الْمُؤْلَمُ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلَيْهِ أَزْوَاجٌ ﴾ أَي : وَأَشْيَاءٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ : الشَّيْءُ وَضِدُّهُ يُعَاقِبُونَ بِهَا . وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلَيْهِ أَزْوَاجٌ ﴾ أَلْوَانٌ مِنَ الْعَذَابِ ، وَقِيلَ : كَالرَّمْهَرِيرِ وَالسَّمُومِ ، وَشُرْبِ الْحَمِيمِ وَأَكْلِ الزَّقُومِ ، وَالصَّعُودِ وَالْهُوَّى إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُتَضَادَّةِ ، وَالْجَمِيعُ مِمَّا يُعَذَّبُونَ بِهِ وَيُهَانُونَ بِسَبَبِهِ ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ ﴿ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ قَبْلِ أَهْلِ النَّارِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨] يَعْني : بَدَلُ السَّلَامِ يَتَلَاغُونَ وَيَتَكَادِبُونَ وَيَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، فَتَقُولُ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَدْخُلُ قَبْلَ الْأُخْرَى إِذَا أَقْبَلَتِ الَّتِي بَعْدَهَا مَعَ الْحَزَنَةِ مِنَ الزَّبَانِيَةِ ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ ﴾ أَي : دَاخِلٌ مَعَكُمْ ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ ﴿ أَي : لَا أَنْتُمْ مِنْ أَهْلِ جَهَنَّمَ ﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ أَي : فَيَقُولُ هُمُ الدَّاخِلُونَ : بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴿ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا ﴾ أَي : أَنْتُمْ دَعَوْتُمُونَا إِلَى مَا أَفْضَى بِنَا إِلَى هَذَا الْمَصِيرِ ﴿ فَبُئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أَي : فَبُئْسَ الْمَنْزِلُ وَالْمُسْتَقَرُّ وَالْمَصِيرُ ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ قَالَتْ أُخْرِنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَاءَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] أَي : لِكُلِّ مِنْكُمْ عَذَابٌ بِحَسَبِهِ ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ أَخَذَتْهُمْ سَخَرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ أَنَّهُمْ يَفْتَقِدُونَ رِجَالًا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ - وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ - فِي رَعْمِهِمْ ، قَالُوا : مَا لَنَا لَا نَرَاهُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ ؟ فَكُلُّ الْكُفَّارِ هَذَا حَاهُمْ ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُونَ النَّارَ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْكُفَّارُ النَّارَ افْتَقَدُوا هُمْ فَلَمْ يَجِدُوهُمْ فَقَالُوا : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ أَخَذَتْهُمْ سَخَرِيًّا ﴿ أَي : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴾ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ يُسَلِّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَحَالِ يَقُولُونَ : أَوْ لَعَلَّهُمْ مَعَنَا فِي جَهَنَّمَ وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَ بَصَرُنَا عَلَيْهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أَي : إِنَّ هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ - مِنْ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ، وَلَعَنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ - لَحَقٌّ لَا مَرِيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْكَفَّارِ بِاللَّهِ الْمُسْرِكِينَ بِهِ الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِهِ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ لَسْتُ كَمَا تَزْعُمُونَ ﴿٦٦﴾ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٧﴾ أَيْ : هُوَ وَحْدَهُ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَعَلَيْهِ ﴿٦٨﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿٦٩﴾ أَيْ : هُوَ مَالِكُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَتَمَتَّصَ فِيهِ ﴿٧٠﴾ الْعَزِيزُ الْغَفَرُ ﴿٦٦﴾ أَيْ : غَفَّارٌ مَعَ عَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ ﴿٦٧﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ أَيْ : خَبَرٌ عَظِيمٌ وَشَأْنٌ بَلِيعٌ وَهُوَ إِزْسَالُ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِيَّايَ إِلَيْكُمْ ﴿٦٩﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٧٠﴾ أَيْ : غَافِلُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿٦٩﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ أَيْ : لَوْلَا الْوَحْيُ مِنْ أَيْنَ كُنْتُ أَذْرِي بِاخْتِلَافِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى ؟ يَعْنِي فِي شَأْنِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَامْتِنَاعِ إِبْلِيسَ مِنَ السُّجُودِ لَهُ وَحُجَّاجَتِهِ رَبَّهُ فِي تَفْضِيلِهِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ :

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَتَابَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلَأَن جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

هَذِهِ الْقِصَّةُ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » وَفِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْأَعْرَافِ » وَفِي « سُورَةِ الْحَجْرِ » وَ« سُبْحَانَ » وَ« الْكَهْفِ » ، وَهُنَا ، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمَ الْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ سَيَخْلُقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِئٍ مَسْنُونٍ ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِالْأَمْرِ : مَتَى فَرَعُ مِنْ خَلْقِهِ وَتَسْوِيَّتِهِ فَلْيَسْجُدُوا لَهُ إِكْرَامًا وَإِعْظَامًا وَاحْتِرَامًا وَامْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ ، فَاُمْتِثَلَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ ذَلِكَ سِوَىٰ إِبْلِيسَ - وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ جِنْسًا كَانَ مِنَ الْحَرِّ - فَخَانَهُ طَبَعُهُ وَحِيلَتُهُ أَخْوَجُ مَا كَانَ إِلَيْهِ ، فَاسْتَنَكَفَ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ ، وَخَاصَمَ رَبَّهُ ﷻ فِيهِ ، وَادَّعَىٰ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ ، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ طِينٍ ، وَالنَّارُ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ فِي رُغْمِهِ ، وَقَدْ أَخْطَأَ فِي

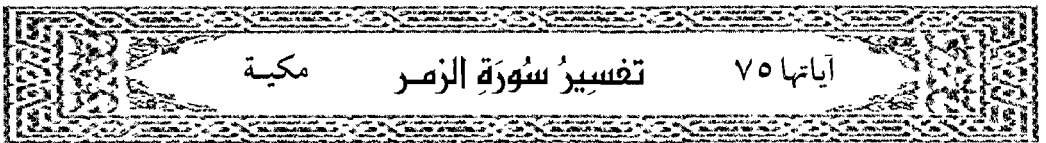
ذَلِكَ وَخَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَكَفَرَ بِذَلِكَ ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ ﷻ وَأَرْغَمَ أَنْفَهُ وَطَرَدَهُ عَنْ بَابِ رَحْمَتِهِ وَحَلَّ أُنْسِهِ وَحَضَرَهُ قُدْسِهِ ، وَسَمَّاهُ إِبْلِيسَ إِعْلَامًا لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ أُبْلِيسَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَأَنْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مَذْمُومًا مَذْخُورًا إِلَى الْأَرْضِ ، فَسَأَلَ اللَّهُ النَّظْرَةَ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ، فَأَنْظَرَهُ الْحَلِيمُ الَّذِي لَا يَعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ ، فَلَمَّا أَمِنَ الْهَلَاكَ إِلَى الْقِيَامَةِ تَمَرَّدَ وَطَغَى وَقَالَ : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣٧) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴾ (٣٨) لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . وَفَسَّرَهُ مُجَاهِدٌ بِأَنَّ مَعْنَاهُ : أَنَا الْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : الْحَقُّ مِنِّي وَأَقُولُ الْحَقُّ .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٣٩) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٤٠) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٤١)

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ : مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى هَذَا الْبَلَاغِ وَهَذَا النُّصْحِ أَجْرًا تُعْطُونِيهِ مِنْ عَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أَيُّ : وَمَا أُرِيدُ عَلَى مَا أَرْسَلَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَلَا أَبْتَغِي زِيَادَةً عَلَيْهِ ، بَلْ مَا أُمِرْتُ بِهِ أَدَيْتُهُ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ﷻ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِجَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ ﴾ أَيُّ : خَبْرَهُ وَصَدَقَهُ ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أَيُّ : عَنْ قَرِيبٍ . قَالَ الْحَسَنُ : يَا ابْنَ آدَمَ عِنْدَ الْمَوْتِ يَا تَيْلِكَ الْخَبْرُ الْيَقِينُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ صَ وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٤) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ (٥) هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦)

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ تَنْزِيلَ هَذَا الْكِتَابِ - وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ - مِنْ عِنْدِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أَيُّ : الْمَنِيعِ الْجَنَابِ ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ أَيُّ : فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدْرِهِ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أَيُّ : فَاعْبُدِ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَادْعُ الْخَلْقَ إِلَى ذَلِكَ ، وَأَعْلِمُهُمْ أَنَّهُ لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَلَا عَدِيلٌ وَلَا نَدِيدٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أَيُّ : لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا أَخْلَصَ فِيهِ الْعَامِلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ شَهَادَةٌ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

ثُمَّ أَخْبَرَ ﷺ عَنْ عِبَادِ الْأَصْنَامِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِمْ هُمْ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى أَصْنَامٍ اتَّخَذُوهَا عَلَى صُورِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي رُغْمِهِمْ ، فَعَبَدُوا تِلْكَ الصُّورَ تَزْيِيلًا لِذَلِكَ مَنَزَلَةَ عِبَادَتِهِمْ الْمَلَائِكَةَ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي نَصْرِهِمْ وَرِزْقِهِمْ وَمَا يَتُوبُهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ، فَأَمَّا الْمَعَادُ فَكَانُوا جَا حِدِينَ لَهُ كَافِرِينَ بِهِ . وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَغَيْرِهِمْ كُلُّهُمْ عِبِدٌ خَاضِعُونَ لِلَّهِ لَا يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنْ ارْتَضَى ، وَلَيْسُوا عِنْدَهُ كَالْأَمْوَاءِ عِنْدَ مُلُوكِهِمْ يَشْفَعُونَ عِنْدَهُمْ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فِيمَا أَحَبَّ الْمُلُوكُ وَأَبُوهُ ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [النحل : ٧٤] تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوءًا كَبِيرًا . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيُّ : سَيَفْصِلُ بَيْنَ الْخِلَافِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أَيُّ : لَا يُرْشِدُ إِلَى الْهُدَايَةِ مَنْ قَصَّدهُ الْكَذِبُ وَالْإِفْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَلْبُهُ كَافِرٌ بِآيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَبِرَاهِينِهِ . ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ ، كَمَا يَزْعُمُهُ جَهْلَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالْمُعَانِدُونَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي الْعَزِيزِ وَعِيسَى ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْتَلِقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : لَكَانَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا يَزْعُمُونَ ، وَهَذَا شَرْطٌ لَا يَلْزَمُ وَقُوعُهُ وَلَا جَوَازُهُ بَلْ هُوَ مُحَالٌ ، وَإِنَّمَا قُصِدَ تَجْهِيلُهُمْ فِيمَا ادَّعَوْهُ وَزَعَمُوهُ ﴿ سُبْحَنَهُ ﴾ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿ أَيُّ : تَعَالَى وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ عَبْدٌ لَدَيْهِ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ الَّذِي قَدْ قَهَرَ الْأَشْيَاءَ فَدَانَتْ لَهُ وَذَلَّتْ وَخَضَعَتْ .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۖ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ

مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ ۚ تَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْخَالِقُ لِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَبِأَنَّهُ مَالِكُ الْمُلْكِ الْمُتَصَرِّفِ فِيهِ يَقْلِبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أَيُّ : سَخَّرَهُمَا يُخْرِيانِ مُتَعَايِنِينَ لَا يَفْتَرَانِ ، كُلُّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيُّ : إِلَى مُدَّةٍ مَّعْلُومَةٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ يَنْقُضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أَيُّ : مَعَ عِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ هُوَ غَفَّارٌ لِّمَن عَصَاهُ ثُمَّ تَابَ وَأَنَابَ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أَيُّ : خَلَقَكُمْ مَعَ اخْتِلَافٍ أَجْنَاسِكُمْ وَأَصْنَافِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَانِكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ، وَهِيَ حَوَاءٌ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ﴾ أَيُّ : وَخَلَقَ لَكُمْ مِّنْ ظُهُورِ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَّةَ أَزْوَاجٍ ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي «سُورَةِ الْأَنْعَامِ» ثَمَانِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴿تَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أَيُّ : قَدَّرَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يَكُونُ أَحَدُكُمْ أَوَّلًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عُلْقَةً ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً ، ثُمَّ يُخْلَقُ فَيَكُونُ لَحْمًا وَعَظْمًا وَعَصَبًا وَعُرُوقًا ، وَيُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَيَصِيرُ خَلْقًا آخَرَ ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ يَعْنِي : فِي ظُلْمَةِ الرَّحِمِ ، وَظُلْمَةِ الْمَشِيمَةِ الَّتِي هِيَ كَالْغِشَاوَةِ وَالْوَقَايَةِ عَلَى الْوَلَدِ ، وَظُلْمَةِ الْبُطْنِ . وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَخَلَقَكُمْ وَخَلَقَ آبَاءَكُمْ هُوَ الرَّبُّ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالتَّصَرُّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيُّ : الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أَيُّ : فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ؟ أَيْنَ يَذْهَبُ بِعُقُولِكُمْ ؟ !

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۚ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٦﴾ ۝ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۚ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكُمُ وَجِنَكُمُ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا». وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أَيُّ: لَا يُجِبُهُ وَلَا يَأْمُرُ بِهِ ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أَيُّ: يُجِبُهُ لَكُمْ وَيَزِدُّكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أَيُّ: لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا بَلْ كُلٌّ مُطَالِبٌ بِأَمْرِ نَفْسِهِ ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيُّ: فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

وَقَوْلُهُ ﷻ ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أَيُّ: عِنْدَ الْحَاجَةِ يَتَضَرَّعُ وَيَسْتَغِيثُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَمَا نَجِّنُكُمْ إِلَّا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوْلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ: فِي حَالِ الرَّفَاهِيَةِ يَنْسَى ذَلِكَ الدُّعَاءَ وَالتَّضَرُّعَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَيُّ: فِي حَالِ الْعَافِيَةِ يُشْرِكُ بِاللَّهِ وَيَجْعَلُ لَهُ أَنْدَادًا ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أَيُّ: قُلْ لِمَنْ هَذِهِ حَالَتُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَمَسْلَكَهُ: تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا، وَهُوَ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]

أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا تَحَذِّرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١﴾

يَقُولُ ﷻ أَمَّنْ هَذِهِ صِفَتُهُ كَمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَجَعَلَ لَهُ أَنْدَادًا؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَهُنَا ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أَيُّ: فِي حَالِ سُجُودِهِ وَفِي حَالِ قِيَامِهِ. عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: الْقَائِمُ الْمُطِيعُ لِلَّهِ ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: ﴿ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ أَوَّلُهُ وَأَوْسَطُهُ وَآخِرُهُ ﴿تَحَذِّرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أَيُّ: فِي حَالِ عِبَادَتِهِ خَائِفٌ رَاجٍ وَلَا بَدَّ فِي الْعِبَادَةِ مِنْ هَذَا وَهَذَا، وَأَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ فِي مُدَّةِ الْحَيَاةِ هُوَ الْغَالِبُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَحَذِّرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ

فَلْيَكُنِ الرَّجَاءُ هُوَ الْعَالِبُ عَلَيْهِ ﴿١٠﴾ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ أَيُّ : هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ مِمَّنْ جَعَلَ اللَّهُ أُنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿١٢﴾ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿١٣﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يَعْلَمُ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا مَنْ لَهُ لُبٌّ ، وَهُوَ الْعَقْلُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٥﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١٦﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِمْرَارِ عَلَى طَاعَتِهِ وَتَقْوَاهُ ﴿١٤﴾ قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴿١٥﴾ أَيُّ : لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ ﴿١٦﴾ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴿١٧﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : فَهَاجِرُوا فِيهَا وَجَاهِدُوا وَاعْتَزَلُوا الْأَوْتَانَ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٩﴾ قَالَ الْأَوْرَاعِي : لَيْسَ يُوزَنُ لَهُمْ وَلَا يُكَالُ لَهُمْ ، إِنَّمَا يُعْرَفُ لَهُمْ غَرْفًا ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١﴾ يَعْنِي : فِي الْجَنَّةِ . ﴿٢٢﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢٣﴾ أَيُّ : إِنَّمَا أُمِرْتُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿٢٤﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ، قَالَ السُّدِّيُّ : يَعْنِي مِنْ أُمَّتِهِ ﷺ .

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٦﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿٢٧﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿٢٩﴾ هُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴿٣٠﴾ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ ، يَعْبَادِ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ : ﴿٣٢﴾ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٣﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا شَرْطٌ ، وَمَعْنَاهُ : التَّعْرِيزُ بِغَيْرِهِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى ﴿٣٤﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿٣٥﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴿٣٦﴾ وَهَذَا أَيْضًا تَهْدِيدٌ وَتَبَرُّ مِنْهُمْ ﴿٣٧﴾ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٨﴾ أَيُّ : إِنَّمَا الْخَاسِرُونَ كُلُّ الْخُسْرَانِ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٤٠﴾ أَيُّ : تَفَارَقُوا فَلَا إِلْتِقَاءَ لَهُمْ أَبَدًا ، وَسَوَاءٌ ذَهَبَ أَهْلُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَقَدْ ذَهَبُوا هُمْ إِلَى النَّارِ ، أَوْ أَنَّ الْجَمِيعَ أَسْكِنُوا النَّارَ وَلَكِنْ لَا اجْتِمَاعَ لَهُمْ وَلَا سُورَ ﴿٤١﴾ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿٤٢﴾ أَيُّ : هَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ الظَّاهِرُ الْوَاضِحُ . ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُمْ فِي النَّارِ ، فَقَالَ : ﴿٤٣﴾ هُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴿٤٤﴾ كَمَا قَالَ ﷺ : ﴿٤٥﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ

ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ [العنكبوت : ٥٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكُمْ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ أَي : إِنَّمَا يَقْصُ خَبَرَ هَذَا الْكَائِنِ لَا مُحَالَةً لِيُخَوِّفَ بِهِ عِبَادَهُ ، لِيَنْزِجُوا عَنِ الْحَارِمِ وَالْمَائِمِ ﴿ يَعْْبَادُ فَاتَّقُونَ ﴾ أَي : إِحْشُوا بِأَسَى وَسَطَوَاتِي وَعَذَابِي وَنَقَمَتِي .
وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٥٦﴾
الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا
الْأَلْبَابِ ﴿٥٧﴾

قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ نَزَلَتْ فِي زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ
وَأَبِي ذَرٍّ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ، وَالصَّحِيحُ : أَنَّهَا شَامِلَةٌ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ اجْتَنَبَ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ
وَأَنَابَ إِلَى عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ
الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ أَي : يَفْهَمُونَهُ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
لِمُوسَى ﷺ حِينَ آتَاهُ التَّوْرَةَ : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف : ١٤٥]
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أَي : الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ هُمُ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أَي : ذُوقُوا الْعُقُوبَ الصَّحِيحَةَ وَالْفَطَرِ الْمُسْتَقِيمَةَ .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿٥٨﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ
غُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا تُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٥٩﴾
يَقُولُ تَعَالَى : أَفَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ أَنَّهُ شَقِيٌّ تُقْدِرُ تُنْقِذُهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَاكِ ؟ أَي : لَا
يَهْدِيهِ أَحَدٌ مِّنْ بَعْدِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَمَنْ يَهْدِيهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ ﷺ
عَنْ عِبَادِهِ السُّعَدَاءِ أَنَّ هُمْ غُرَفًا فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ : الْقُصُورُ الشَّاهِقَةُ ﴿ مِّنْ فَوْقَهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾
طَبَاقٌ فَوْقَ طَبَاقٍ ، مَبْنِيَّاتٌ مُحْكَمَاتٌ مُزَخْرَفَاتٌ عَالِيَاتٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾
أَي : تَسْلُكُ الْأَنْهَارُ بَيْنَ خِلَالِ ذَلِكَ ، كَمَا يَشَاءُونَ وَأَيْنَ أَرَادُوا ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي
ذَكَرْنَاهُ وَعَدَّ وَعَدَّهُ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ لَا تُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا
مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ
فُلُوقِهِمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

يُخْرِجُ تَعَالَى أَنْ أَصْلَ الْمَاءِ فِي الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان : ٤٨] فَإِذَا أَنْزَلَ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ كَمَنَّ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَصْرِفُهُ تَعَالَى فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ كَمَا يَشَاءُ وَيُنْبِغُهُ عُيُونًا مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ﴾ أَي : ثُمَّ يُخْرِجُ بِالْمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ وَالنَّابِيعِ مِنَ الْأَرْضِ زَرْعًا ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ﴾ أَي : أَشْكَالُهُ وَطُغُومُهُ وَرَوَائِحُهُ وَمَنَافِعُهُ ﴿ ثُمَّ يَهْبِجُ ﴾ أَي : بَعْدَ نَضَارَتِهِ وَشَبَابِهِ يُكْتَهِلُ ﴿ فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ﴾ قَدْ خَالَطَهُ الْيُسُ ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا ﴾ أَي : ثُمَّ يَعُودُ يَابِسًا يَتَحَطَّمُ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ أَي : الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ بِهَذَا فَيَعْتَبِرُونَ إِلَى أَنْ الدُّنْيَا هَكَذَا ، تَكُونُ خَضِرَةً نَضِرَةً حَسَنَاءُ ثُمَّ تَعُودُ عَجُوزًا شَوْهَاءَ ، وَالشَّابُّ يَعُودُ شَيْخًا هَرِمًا كَبِيرًا ضَعِيفًا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ الْمَوْتُ ، فَالْسَّعِيدُ مَنْ كَانَ حَالُهُ بَعْدَهُ إِلَى خَيْرٍ ، وَكَثِيرًا مَا يَضْرِبُ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِمَا يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ وَيُنْبِتُ بِهِ زُرُوعًا وَتِبَارًا ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ حُطَمًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : ٤٥] ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أَي : هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَمَنْ هُوَ قَاسِي الْقَلْبِ بَعِيدٌ عَنِ الْحَقِّ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أَي : فَلَا تَلِينَ عِنْدَ ذِكْرِهِ وَلَا تَخْشَعُ وَلَا تَعِي وَلَا تَفْهَمُ ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٨﴾

هَذَا مَذْحٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِكِتَابِهِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، الْمُنَزَّلِ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي : الْقُرْآنُ كُلُّهُ مُتَشَابِهٌ مَثَانِي ، وَقَالَ قَتَادَةُ : الْآيَةُ تُشَبِّهُ الْآيَةَ ، وَالْحَرْفُ يُشَبِّهُ الْحَرْفَ ، وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مُتَشَبِهًا مَثَانِي ﴾ أَنَّ سِيَاقَاتِ الْقُرْآنِ تَارَةً تَكُونُ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ ، فَهَذَانِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ ، وَتَارَةً تَكُونُ بِذِكْرِ الشَّيْءِ وَضِدِّهِ ، كَذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ الْكَافِرِينَ ، وَكَصِفَةِ الْجَنَّةِ ثُمَّ صِفَةِ النَّارِ ، وَمَا أَشَبَّهُ هَذَا ، فَهَذَا مِنَ الْمَثَانِي ، أَي : فِي مَعْنَيْنِ ائْتَيْنِ . ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ

تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴿١٠٠﴾ أَيُّ : هَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ الْجَبَّارِ الْمُهَيِّمِ الْعَزِيزِ الْعَفَّارِ ، لَمَّا يَفْهَمُونَ مِنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُهُمْ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ ﴿١٠١﴾ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴿١٠٢﴾ لَمَّا يَرْجُونَ وَيُؤْمَلُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكْ هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ صِفَةُ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ يَمُنُّ أَضْلَهُ اللَّهُ ﴿١٠٣﴾ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٠٤﴾ .

أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٠٥﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٦﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ ، وَيَقْرَعُ فَيَقَالُ لَهُ وَلَا مِثْلَهِ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ كَمَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرُونُ الْمَاضِيَةِ الْمَكْذِبَةَ لِلرُّسُلِ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ . ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أَيُّ : بِمَا أُنْزِلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، وَتَسْفِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَخَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ ، وَالَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ أَعْظَمَ مِمَّا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٨﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٠٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١٠﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿١١١﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿١١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أَيُّ : بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِيهِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فَإِنَّ الْمَثَلَ يَقْرُبُ الْمَعْنَى إِلَى الْأَذْهَانِ . ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ أَيُّ : هُوَ قُرْآنٌ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ، لَا إِعْوجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ وَلَا لُبْسَ ، بَلْ هُوَ بَيَانٌ وَوُضُوحٌ وَبُرْهَانٌ ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى كَذَلِكَ وَأَنْزَلَهُ بِذَلِكَ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أَيُّ : يَحْذَرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ

مُتَشَكِّسُونَ ﴿١٠٠﴾ أَيُّ : يَتَنَازَعُونَ فِي ذَلِكَ الْعَبْدِ الْمَشْرُكِ بَيْنَهُمْ ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ أَيُّ : سَالِمًا ﴿لِرَجُلٍ﴾ أَيُّ : خَالِصًا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أَيُّ : لَا يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُشْرِكُ الَّذِي يَعْبُدُ إِلَهَةً مَعَ اللَّهِ ، وَالْمُؤْمِنُ الْمُخْلِصُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَأَيُّ هَذَا مِنْ هَذَا ؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَيُّ : عَلَى إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ : فَلِهَذَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ . ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي اسْتَشْهَدَ بِهَا الصِّدِّيقُ ؑ عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ ، حَتَّى تَحَقَّقَ النَّاسُ مَوْتُهُ ، وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ : أَنْكُمْ سَتَنْقَلِبُونَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ لَا مُحَالَةً ، وَسَتَجْتَمِعُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَتَخْتَصِمُونَ فِيهَا أَنْتُمْ فِيهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ ، فَيَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَيَقْتَحِبُ بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ، فَيُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُوَحِّدِينَ ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاهِلِينَ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ ، ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَإِنْ كَانَ سِيَاقُهَا فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، وَذِكْرُ الْخُصُومَةِ بَيْنَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَإِنَّهَا شَامِلَةٌ لِكُلِّ مُتَنَازَعِينَ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ تَعَادُ عَلَيْهِمُ الْخُصُومَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ ؓ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَكْرَرُ عَلَيْنَا الْخُصُومَةُ ؟ قَالَ ﷺ : «نَعَمْ» قَالَ ﷺ : إِنَّ الْأَمْرَ إِذَا لَشَدِيدٌ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يَقُولُ : يُخَاصِمُ الصَّادِقُ الْكَاذِبَ ، وَالْمَظْلُومُ الظَّالِمَ ، وَالْمُهْتَدِي الضَّالَّ ، وَالضَّعِيفُ الْمُسْتَكْبِرُ .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٠٢﴾ هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٣﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٤﴾

يَقُولُ ﷻ مُحَاطِبًا لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ وَجَعَلُوا مَعَهُ إِلَهَةً أُخْرَى ، وَادَّعَوْا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ ، وَجَعَلُوا اللَّهَ وَلَدًا - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَمَعَ هَذَا كَذَّبُوا بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِ اللَّهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أَيُّ : لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْ هَذَا ؛ لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ طَرَفَيِ الْبَاطِلِ ، كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالُوا الْبَاطِلَ وَرَدُّوا الْحَقَّ ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ مَتَوَعَّدًا هُمْ : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ، وَهُمْ الْجَاهِلُونَ الْمُكَذِّبُونَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَقَ بِهِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَقِيلَ : هُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَصَدَقَ بِهِ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ، وَالرَّسُولُ ﷺ أَوَّلِي النَّاسِ بِالْذُّخُولِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ ، فَإِنَّهُ جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ، وَآمَنَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ اتَّقُوا الشِّرْكَ ﴿ هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ يَعْنِي : فِي الْجَنَّةِ ، مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَجَنَّاهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ كَمَا قَالَ ﷻ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّيْقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٦]

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَتُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۚ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٢٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۚ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۚ ، وَفَرَأَ بَعْضُهُمْ : « عِبَادَهُ » يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى يَكْفِي مِنْ عَبْدِهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ﴾ وَتُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ يُخَوِّفُونَ الرَّسُولَ ﷺ وَيَتَوَعَّدُونَهُ بِأَصْنَافِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ الَّتِي يَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ جَهْلًا مِنْهُمْ وَضَلَالًا ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۚ أَيُّ : مَنِيْعُ الْجَنَابِ لَا يُضَامُ مِنْ اسْتِنْدَ إِلَى جَنَابِهِ وَلَجَأٌ إِلَى بَابِهِ ، فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا أَعَزَّ مِنْهُ ، وَلَا أَشَدَّ انْتِقَامًا مِنْهُ ، مِمَّنْ كَفَرَبِهِ وَأَشْرَكَ وَعَانَدَ رَسُولَهُ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ ﷻ هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ بِمَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ ۚ أَيُّ : لَا تَسْتَطِيعُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ .

﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أَيُّ : اللَّهُ كَافٍ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أَيُّ : عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ ﴿ إِنِّي عَمِلٌ ﴾ أَيُّ : عَلَى طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : سَتَعْلَمُونَ غِبَّ ذَلِكَ

وَوَبَّالَهُ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُخْتَرِفٌ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا ﴿وَحُلَّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أَيُّ : دَائِمٌ وَمُسْتَوِيرٌ لَا مَحِيدَ عَنْهُ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهَا .

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُحَاطِبًا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ : لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ لِنُتَذِرَهُمْ بِهِ ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أَيُّ : فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ إِلَىٰ نَفْسِهِ ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أَيُّ : بِمُوكِّلٍ أَنْ يَهْتَدُوا ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢] ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْوُجُودِ بِمَا يَشَاءُ ، وَأَنَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ الْوَفَاةَ الْكُبْرَىٰ بِمَا يُرْسِلُ مِنَ الْحَفَظَةِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَهَا مِنَ الْأَبْدَانِ وَالْوَفَاةَ الصُّغْرَىٰ عِنْدَ الْمَنَامِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهَا تَجْتَمِعُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا أَوَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلِهِ إِرَارِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ لِيَقُلْ : بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتَ جَنِّيَ وَبِكَ أَرْفَعُهُ ، إِنْ أَمْسَكَتْ نَفْسِي فَأَرْحَمَهَا ، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَأَحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ » ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ الَّتِي قَدْ مَاتَتْ ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : إِلَىٰ بَقِيَّةِ أَجْلِهَا ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : يُمَسِّكُ أَنْفُسَ الْأَمْوَاتِ وَيُرْسِلُ أَنْفُسَ الْأَحْيَاءِ وَلَا يَغْلُطُ ﴿ إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۚ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَا مَأْ لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ شُفَعَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهُمْ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ هَدَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ، بَلْ وَلَيْسَ لَهَا عَقْلٌ تَعْقِلُ بِهِ، وَلَا سَمْعٌ تَسْمَعُ بِهِ، وَلَا بَصَرٌ تُبْصِرُ بِهِ، بَلْ هِيَ جَمَادَاتٌ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْحَيَوَانِ بِكَثِيرٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ أَيُّ: يَا مُحَمَّدٌ هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْزَاعِمِينَ أَنَّ مَا اتَّخَذُوهُ شُفَعَاءَ هُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَخْبَرَهُمْ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَنْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَاهُ وَأَذِنَ لَهُ، فَمَرَجَعَهَا كُلُّهَا إِلَيْهِ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَحْكُمُ بَيْنَكُمْ بِعَدْلِهِ وَيَجْزِي كُلًّا بِعَمَلِهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذَا مَأْ لِلْمُشْرِكِينَ أَيْضًا: ﴿وَإِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أَيُّ: إِذَا قِيلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ﴿أَشْمَازَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَشْمَازَتْ: انْقَبَضَتْ، وَقِيلَ: نَفَرَتْ، وَقِيلَ: كَفَرَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات: ٣٥] أَيُّ: عَنِ الْمَتَابَعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ لَهَا، فَقُلُوبُهُمْ لَا تَقْبَلُ الْحَيْرَ، وَمَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْحَيْرَ يَقْبَلِ الشَّرَّ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا دُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أَيُّ: يَفْرَحُونَ وَيُسْرُونَ.

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْدَ مَا ذَكَرَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ مَا ذَكَرَ، مِنَ الْمَدْمَةِ هُمْ فِي حُبِّهِمُ الشُّرَكَ وَنَفَرَتِهِمْ عَنِ التَّوْحِيدِ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَيُّ: أَدْعُ أَنْتَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَفَطَرَهَا، أَيُّ: جَعَلَهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَيُّ: السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أَيُّ: فِي دُنْيَاهُمْ سَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَنُشُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ.

وَقَوْلُهُ ﴿١٦﴾: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أَيُّ: وَلَوْ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ وَضَعْفَهُ مَعَهُ ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أَيُّ: الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعَ هَذَا لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ وَلَوْ كَانَ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا، ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أَيُّ: وَظَهَرَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِهِمْ

مَا لَمْ يَكُنْ فِي بَالِهِمْ وَلَا فِي حِسَابِهِمْ ﴿١٠﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴿١١﴾ أَيُّ : وَظَهَرَ لَهُمْ جَزَاءُ مَا اكْتَسَبُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ ﴿١٢﴾ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٣﴾ أَيُّ : وَأَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا .

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٦﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ : أَنَّهُ فِي حَالِ الضَّرَاءِ يَتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَيُنِيبُ إِلَيْهِ وَيَدْعُوهُ ، وَإِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ بَعَىٰ وَطَنَىٰ وَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أَيُّ : لِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنْ اسْتِحْقَاقِي لَهُ ، وَلَوْلَا أَنِّي عِنْدَ اللَّهِ خَصِيصٌ لَّمَّا خَوَّلَنِي هَذَا . قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ ، بَلْ إِنَّمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ لِنَخْتَبِرَهُ فِيهَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ، أَيُّطِيعُ أَمْ يَعْصِي ؟ مَعَ عِلْمِنَا الْمُتَقَدِّمِ بِذَلِكَ فِيهِ فِتْنَةٌ ، أَيُّ : اخْتِبَارٌ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فَلِهَذَا يَقُولُونَ مَا يَقُولُونَ وَيَدْعُونَ . ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أَيُّ : قَدْ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، وَزَعَمَ هَذَا الزَّعَمَ ، وَادَّعَىٰ هَذِهِ الدَّعْوَىٰ كَثِيرٌ مِّنْ سَلَفٍ مِنَ الْأُمَمِ ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أَيُّ : فَمَا صَحَّ قَوْلُهُمْ وَلَا مَنَعَهُمْ جَمْعُهُمْ وَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْمُخَاطَبِينَ ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أَيُّ : كَمَا أَصَابَ أَوْلَٰئِكَ ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ . ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيُّ : يُوسِّعُهُ عَلَىٰ قَوْمٍ وَيُضَيِّقُهُ عَلَىٰ آخَرِينَ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيُّ : لِعِبَرًا وَحُجَجًا .

﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿١٨﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَعْوَةٌ لِّجَمِيعِ الْعُصَاةِ مِنَ الْكُفَرَةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا وَرَجَعَ عَنْهَا ، وَإِنْ كَانَتْ مَعَهَا كَانَتْ ، وَإِنْ كَثُرَتْ وَكَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ ، وَلَا يَصِحُّ حَمْلُ هَذِهِ عَلَىٰ غَيْرِ تَوْبَةٍ ؛ لِأَنَّ الشَّرْكَ لَا يُغْفَرُ لِمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهُ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا ،

وَزَنُوا فَأَكْثَرُوا فَاتُوا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا : إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ لَوْ نُحِبُّرْنَا أَنْ لِمَا عَمَلْنَا كَفَّارَةً، فَتَنَزَّلَ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان : ٦٨] ، وَنَزَلَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أُسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] ، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ - تَعَالَى - يَغْفِرُ جَمِيعَ ذَلِكَ مَعَ التَّوْبَةِ ، وَلَا يَقْنَطَنَّ عَبْدٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَإِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ وَكَثُرَتْ ، فَإِنَّ بَابَ الرَّحْمَةِ وَالتَّوْبَةِ وَاسِعٌ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ : إِنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ، وَإِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وَإِنَّ أَكْثَرَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَرَجًا فِي سُورَةِ الْعُرْفِ ﴿ قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أُسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ، وَإِنَّ أَشَدَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَفْوِيضًا ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢-٣]

وَأَيُّبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿١﴾
وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾
أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٣﴾
أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾
أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥﴾
بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾

اسْتَحْتَبْتُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى الْمَسَارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَيُّبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾
إِلَخ ، أَي : اِرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَسْلِمُوا لَهُ ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾ أَي :
بَادِرُوا بِالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ قَبْلَ حُلُولِ النِّقْمَةِ ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾
وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أَي : مِنْ حَيْثُ لَا
تَعْلَمُونَ وَلَا تَشْعُرُونَ . ثُمَّ قَالَ ﷺ : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ أَي :
يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَحَسَّرُ الْمُجْرِمُ الْمُفْرَطُ فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، وَيَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الْمُخْلِصِينَ
الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ ﷻ ﴿ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾ أَي : إِنَّمَا كَانَ عَمَلِي فِي الدُّنْيَا عَمَلٌ سَاخِرٌ مُسْتَهْزِئٌ
غَيْرُ مُوقِنٍ مُصَدِّقٍ ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى

الْعَذَابَ لَوْ أَنِّي لَبِ كَرَّةٌ فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٠﴾ أَيُّ : تَوَدُّ أَنْ لَوْ أُعِيدَتْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَتَحْسِنَ الْعَمَلَ . وَلَمَّا تَمَّتْ أَهْلُ الْجَرَائِمِ الْعُودَ إِلَى الدُّنْيَا وَتَحَسَّرُوا عَلَى تَصْدِيقِ آيَاتِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أَيُّ : قَدْ جَاءَكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ النَّادِمُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ آيَاتُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، وَقَامَتْ حُجَجِي عَلَيْكَ ، فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ عَنْ إِتِّبَاعِهَا ، وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِهَا الْجَاهِلِينَ لَهَا .

وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٤١﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَنَّهُ تَسْوَدُّ فِيهِ وُجُوهُ وَتَبْيَضُّ فِيهِ وُجُوهُ ، تَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْفُرْقَةِ وَالْإِخْتِلَافِ ، وَتَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أَيُّ : فِي دَعْوَاهُمْ لَهُ شَرِيكًا وَوَلَدًا ﴿ وَجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ ﴾ أَيُّ : بِكَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أَيُّ : أَلَيْسَتْ جَهَنَّمَ كَافِيَةً لَهُمْ سِجْنًا وَمَوْئِلًا لَهُمْ ، فِيهَا الْخِزْيُ وَالْهَوَانُ بِسَبَبِ تَكَبُّرِهِمْ وَتَجَبُّرِهِمْ وَإِبَائِهِمْ عَنِ الْإِنْقِيَادِ لِلْحَقِّ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أَيُّ : بِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ وَالْفَوْزِ عِنْدَ اللَّهِ ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أَيُّ : وَلَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ ، بَلْ هُمْ آمِنُونَ مِنْ كُلِّ فَرْعٍ ، مُزَحْزَحُونَ عَنْ كُلِّ شَرٍّ مُؤْمَلُونَ كُلِّ خَيْرٍ .

اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٤٣﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٦﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٤٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وَرَبُّهَا وَمَلِكُهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا ، وَكُلُّ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَفَقْهَرِهِ وَكِلَاءَتِهِ ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قِيلَ : الْمَقَالِيدُ هِيَ الْمَفَاتِيحُ بِالْفَارِسِيَّةِ ، قِيلَ : خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالْمَعْنَى عَلَى كِلَا الْقَوْلَيْنِ : أَنَّ أَرْزَمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : حُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾

قِيلَ : أَنَّ الْمُشْرِكِينَ بِجَهْلِهِمْ دَعَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى عِبَادَةِ آهَتِهِمْ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ إِلَهَهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ (١) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ ﴾ : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أَي : أَخْلِصِ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، أَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكَ وَصَدَقَكَ .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أَي : مَا قَدَّرَ الْمُشْرِكُونَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، حِينَ عَبْدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ . وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالطَّرِيقُ فِيهَا وَفِي أَمْثَالِهَا مَذْهَبُ السَّلَفِ ، وَهُوَ إِمْرَآهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْثِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ : جَاءَ خَبَرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى أَصْبُعٍ ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى أَصْبُعٍ ، وَالشَّجَرَ عَلَى أَصْبُعٍ ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى أَصْبُعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى أَصْبُعٍ ، فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْخَبَرِ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ الْآيَةَ . وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ ، يُحَرِّكُهَا ، يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ : « يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ : أَنَا الْجَبَّارُ ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ ، أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا الْعَزِيزُ ، أَنَا الْكَرِيمُ » فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا : لَيَخِرَّنَّ بِهِ .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالزَّلَازِلِ

اهَائِلَهُ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ هَذِهِ النُّفْخَةُ هِيَ الثَّانِيَّةُ ، وَهِيَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ ، وَهِيَ الَّتِي يَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَالنُّفْخَةُ الثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْبَعْثِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ أَيُّ : أَحْيَاءُ بَعْدَمَا كَانُوا عِظَامًا وَرُفَاتًا صَارُوا أَحْيَاءَ يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٤﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣-١٤] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أَيُّ : أَضَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا تَجَلَّى الْحَقُّ جَلَّ وَعَلَا لِلْخَلَائِقِ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : كِتَابُ الْأَعْمَالِ ﴿ وَجَاءَءَ بِالنَّبِيِّينَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - يَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَمِ بِأَتَمِّهِمْ بَلَّغُوهُمْ رَسُولَاتِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ﴿ وَالشُّهَدَاءُ ﴾ أَيُّ : الشُّهَدَاءُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْحَفَظَةِ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ : بِالْعَدْلِ ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أَيُّ : مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْكُفَّارِ ، كَيْفَ يُسَاقُونَ إِلَى النَّارِ ؟ وَإِنَّمَا يُسَاقُونَ سَوْقًا عَنِيفًا بِزَجَرٍ وَتَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ أَيُّ : بِمَجْرَدٍ وَصُولِهِمْ إِلَيْهَا فَتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا سَرِيعًا ؛ لِتُعْجَلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةُ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ خَزَنَتُهَا مِنَ الزَّبَانِيَةِ الَّذِينَ هُمْ غِلَاطُ الْأَخْلَاقِ شِدَادُ الْقُوَى - عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّنْكِيلِ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ أَيُّ : مِنْ جِنْسِكُمْ تَتَمَكَّنُونَ مِنْ مُحَاطَبَتِهِمْ وَالْأَخْذِ عَنْهُمْ ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ أَيُّ : يُقِيمُونَ عَلَيْكُمْ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا دَعَوْكُمْ إِلَيْهِ ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أَيُّ : وَيُحَذِّرُونَكُمْ مِنْ شَرِّ هَٰذَا الْيَوْمِ ؟ فَيَقُولُ الْكُفَّارُ لَهُمْ ﴿ بَلَىٰ ﴾ أَيُّ : قَدْ جَاءَنَا وَأَنْذَرُوا وَأَقَامُوا عَلَيْنَا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ ﴿ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أَيُّ : وَلَٰكِن كَذَّبْنَاهُمْ وَخَالَفْنَاهُمْ ، لِمَا سَبَقَ لَنَا مِنَ الشَّقْوَةِ الَّتِي كُنَّا نَسْتَحِقُّهَا حَيْثُ عَدَلْنَا عَنْ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ ﴿ قِيلَ

أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿ أَيْ : كُلُّ مَنْ رَأَاهُمْ وَعَلِمَ حَالَهُمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِلْعَذَابِ ، وَلِهَذَا لَمْ يُسَيِّدْ هَذَا الْقَوْلُ إِلَى قَائِلٍ مُعَيَّنٍ بَلْ أَطْلَقَهُ ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْكُونَ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ ، بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ مَا هُمْ فِيهِ بِمَا حَكَمَ الْعَدْلُ الْخَبِيرُ عَلَيْهِمْ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَا كَثُرْنَ فِيهَا ، لَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا وَلَا زَوَالَ لَكُمْ عَنْهَا ﴿ فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أَيْ : فَبِئْسَ الْمَصِيرُ وَبِئْسَ الْمَقِيلُ لَكُمْ ، بِسَبَبِ تَكَبُّرِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَإِيَائِكُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، فَهُوَ الَّذِي صَيَّرَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَبِئْسَ الْحَالُ وَبِئْسَ الْمَالُ .

وَيَسِيقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٦﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٧﴾

وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنِ حَالِ السُّعْدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ يُسَافِقُونَ عَلَى النَّجَائِبِ وَفَدَا إِلَى الْجَنَّةِ ﴿ زُمَرًا ﴾ أَيْ : جَمَاعَةً بَعْدَ جَمَاعَةٍ : الْمُقَرَّبُونَ ثُمَّ الْأَبْرَارُ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوتُهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوتُهُمْ ، كُلُّ طَائِفَةٍ مَعَ مَنْ يُنَاسِبُهُمْ ، الْأَنْبِيَاءُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَالصَّادِقُونَ مَعَ أَشْكَالِهِمْ ، وَالشُّهَدَاءُ مَعَ أَضْرَائِهِمْ ، وَالْعُلَمَاءُ مَعَ أَقْرَانِهِمْ ، وَكُلُّ صَنْفٍ مَعَ صَنْفٍ ، كُلُّ زُمَرَةٍ تُنَاسِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا ﴾ أَيْ : وَصَلُوا إِلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ بَعْدَ مُجَاوَزَةِ الصَّرَاطِ ، حُسِبُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَاقْتَصَرَ لَهُمْ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّىٰ إِذَا هُذِبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ .

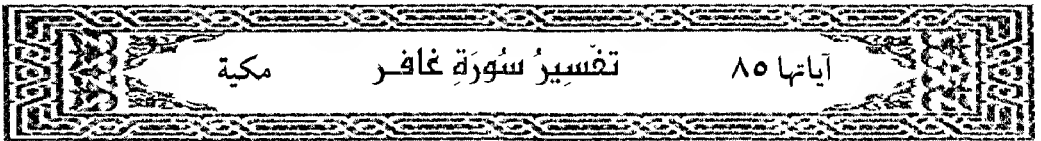
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ لَمْ يُذَكِّرِ الْجَوَابَ هَهُنَا ، وَتَقْدِيرُهُ : حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ فَتْحِ الْأَبْوَابِ لَهُمْ إِكْرَامًا وَتَعْظِيمًا ، وَتَلَقَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ الْخَزَنَةُ بِالْبَشَارَةِ وَالسَّلَامِ وَالنَّشَاءِ ، لَا كَمَا تَلْقَى الزَّبَانِيَةُ الْكَفَرَةَ بِالتَّثْرِيبِ وَالتَّأْنِيبِ ، فَتَقْدِيرُهُ : إِذَا كَانَ هَذَا سَعِدُوا وَطَابُوا وَسُرُوا وَفَرِحُوا بِقَدْرِ كُلِّ مَا يَكُونُ لَهُمْ فِيهِ نَعِيمٌ ، وَإِذَا حُذِفَ الْجَوَابُ هَهُنَا ذَهَبَ الدَّهْنُ كُلُّ مَذْهَبٍ فِي الرَّجَاءِ وَالْأَمَلِ . وَأَبْوَابُ الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةٌ : عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ۖ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنْ فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ بَابٌ مِنْهَا يُسَمَّى الرِّيَّانُ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ » .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أَيْ : طَابَتْ أَعْمَالُكُمْ وَأَفْوَالُكُمْ وَطَابَ سَعْيُكُمْ وَطَابَ جَزَاؤُكُمْ ﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ أَيْ : مَا كَثُرْنَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أَيْ : يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ إِذَا عَايَنُوا فِي الْجَنَّةِ ذَلِكَ الثَّوَابَ الْوَافِرَ ، وَالْعَطَاءَ الْعَظِيمَ ، وَالتَّعِيمَ الْمُقِيمَ وَالْمُلْكَ الْكَبِيرَ ، يَقُولُونَ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿ الْحَمْدُ

لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ ﴿٤١﴾ أَي : الَّذِي كَانَ وَعَدَنَا عَلَى الْإِسْنَةِ رُسُلِهِ الْكِرَامِ . وَقَوْلُهُمْ : ﴿٤٢﴾ وَأَوْرَثْنَا
الْأَرْضَ ﴿٤٣﴾ أَي : أَرْضَ الْجَنَّةِ . فَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ
أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿٤٥﴾ [الأنبياء : ١٠٥] ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿٤٦﴾ نَتَّبِعُكَ مِنَ الْجَنَّةِ
حَيْثُ نَشَاءُ ﴿٤٧﴾ أَي : أَيْنَ شِئْنَا حَلَلْنَا ﴿٤٨﴾ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿٤٩﴾ فَنِعْمَ الْأَجْرُ أَجَرْنَا عَلَى عَمَلِنَا .
وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَهُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَأَنَّهُ كُلًّا فِي الْمَحَلِّ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ وَيَصْلُحُ لَهُ ، وَهُوَ
الْعَادِلُ فِي ذَلِكَ الَّذِي لَا يَجُورُ ، أَخْبَرَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ مُخَدِّقُونَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ الْمَجِيدِ
يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَمْجِدُونَهُ وَيُعْظِمُونَهُ وَيَقْدِّسُونَهُ وَيَنْزِهُونَهُ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْجُورِ ، وَقَدْ
فَصَّلَ الْقِصَّةَ ، وَقَضَى الْأَمْرَ ، وَحَكَمَ بِالْعَدْلِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿٥١﴾ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴿٥٢﴾ أَي : بَيْنَ
الْخَلَائِقِ ﴿٥٣﴾ بِالْحَقِّ ﴿٥٤﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿٥٥﴾ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٦﴾ أَي : نَطَقَ الْكُونُ أَجْمَعُهُ نَاطِقُهُ
وَبَهِيمُهُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالْحَمْدِ فِي حُكْمِهِ وَعَدْلِهِ ، وَلِهَذَا لَمْ يُسْنِدِ الْقَوْلَ إِلَى قَائِلٍ بَلْ أَطْلَقَهُ ، فَدَلَّ
عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ شَهِدَتْ لَهُ بِالْحَمْدِ . قَالَ قَتَادَةُ : افْتَتَحَ الْخَلْقُ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ : ﴿٥٧﴾ الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴿٥٨﴾ [الأنعام : ١] ، وَاخْتَتَمَ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿٥٩﴾ وَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الزُّمَرِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ
الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُتَقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ
هَاهُنَا ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّ ﴿ حَمْدٌ ﴾ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ ﷻ . وَقَوْلُهُ : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴾ أَي : تَنْزِيلُ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ مِنَ اللَّهِ ذِي الْعِزَّةِ وَالْعِلْمِ فَلَا يُرَامُ جَنَابُهُ ، وَلَا يُخْفَى

عَلَيْهِ الذَّرُّ وَإِنْ تَكَاثَفَ حَبَابُهُ . ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ أَي : يَغْفِرُ مَا سَلَفَ مِنَ الذَّنْبِ وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَدَيْهِ ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ أَي : لِمَنْ تَمَرَّدَ وَطَعَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَعَنَّا عَنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَغَى . ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : السَّعَةُ وَالْغِنَى ، وَقِيلَ : الْحِزْبُ الْكَثِيرُ ، وَقِيلَ : ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ ذِي الْمَنْ ، قِيلَ : ذِي النِّعَمِ وَالْفَوَاضِلِ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى عِبَادِهِ ، الْمُتَطَوِّلُ عَلَيْهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمَنِّ وَالْإِنْعَامِ الَّتِي لَا يُطِيقُونَ الْقِيَامَ بِشُكْرِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَي : لَا نَظِيرَ لَهُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أَي : إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَ فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

مَا مُجْدِلُ فِي ءَايَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٦﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿١٩٧﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿١٩٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مَا يَدْفَعُ الْحَقُّ وَيُجَادِلُ فِيهِ بَعْدَ الْبَيَانِ وَظُهُورِ الْبُرْهَانِ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَي : الْجَا حِدُونَ لِآيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿ فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴾ أَي : فِي أَمْوَالِهِا وَنَعِيمِهَا وَزَهْرَتِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَغْرُوكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴾ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبُنِيَ الْيَهُادُ ﴿ [آل عمران : ١٩٦ - ١٩٧] ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسْلِمًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، بِأَنَّهُ لَهُ أُسُوءَةٌ مِنْ سَلَفٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَإِنَّهُ قَدْ كَذَّبَهُمْ أُمَمُهُمْ وَخَالَفُوهُمْ وَمَا آمَنَ بِهِمْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَقَالَ : ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ، وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَنْهَى عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أَي : مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أَي : حَرَّصُوا عَلَى قَتْلِهِ بِكُلِّ مُمْكِنٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ رَسُولَهُ ﴿ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أَي : مَا حَلُّوا بِالشُّبْهَةِ لِيُرْذُوا الْحَقَّ الْوَاضِحَ الْجَلِيَّ ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ أَي : أَهْلَكْنَاهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا مِنْ هَذِهِ الْأَثَامِ وَالذُّنُوبِ الْعُظَامِ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أَي : فَكَيْفَ بَلَغَكَ عَذَابِي هُمْ وَنَكَالِي بِهِمْ ؟ قَدْ كَانَ شَدِيدًا مُوجِعًا مُؤْلِمًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ : أَي : كَمَا حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ كَذَلِكَ حَقَّتْ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُواكَ وَخَالَفُوكَ - يَا مُحَمَّدُ - بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى ؛ لِأَنَّ مَنْ كَذَّبَكَ فَلَا وَثُوقَ لَهُ بِتَصْدِيقِ غَيْرِكَ .

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ
وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ
السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ الْأَرْبَعَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرُوبِيِّينَ
بِأَتَمِّهِمْ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ : يَقْرَأُونَ بَيْنَ التَّسْبِيحِ الدَّالِّ عَلَى نَفْيِ النَّقَائِصِ ، وَالتَّحْمِيدِ
الْمُقْتَضِي لِإِثْبَاتِ صِفَاتِ الْمَدْحِ ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَيُّ : خَاشِعُونَ لَهُ أَذْلَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَتَمِّهِمْ
﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيُّ : مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ مِمَّنْ آمَنَ بِالْغَيْبِ ، فَقَبِضَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَائِكَتَهُ
الْمُقَرَّبِينَ أَنْ يَدْعُوا لِلْمُؤْمِنِينَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا مِنْ سَجَايَا الْمَلَائِكَةِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ - كَانُوا يُؤْمِنُونَ عَلَى دُعَاءِ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ :
« إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ : آمِينَ ، وَلَكَ بِمِثْلِهِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أَيُّ : رَحْمَتُكَ تَسَعُ ذُنُوبَهُمْ وَخَطَايَاهُمْ
وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ وَأَفْوَاهِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا
سَبِيلَكَ ﴾ أَيُّ : فَاصْفَحْ عَنِ الْمُسِيئِينَ إِذَا تَابُوا وَأَتَابُوا وَأَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ وَاتَّبَعُوا مَا أَمَرْتَهُمْ بِهِ
مِنْ فِعْلِ الْحَيْرَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أَيُّ : وَزَحْزَحْهُمْ عَنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ،
وَهُوَ الْعَذَابُ الْمَوْجِعُ الْأَلِيمُ . ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ
وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أَيُّ : اجْمَعْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ لِتَقَرَّ بِذَلِكَ أَعْيُنُهُمْ بِالْاجْتِمَاعِ فِي مَنَازِلَ مُتَجَاوِرَةٍ
﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أَيُّ : الَّذِي لَا يَبَانِعُ وَلَا يُغَالِبُ ، وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ،
الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ ، مِنْ شَرِّكَ وَقَدْرِكَ ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ أَيُّ : فَعْلُهَا ، أَوْ وَبَالُهَا مِمَّنْ
وَقَعَتْ مِنْهُ ﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أَيُّ : لَطَمْتَ بِهِ وَنَجَّيْتَهُ
مِنَ الْعُقُوبَةِ ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ
إِلَى الْإِيمَنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا
فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ

تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿٢٨﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٩﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ يُنَادُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ فِي غَمَرَاتِ النَّيرانِ يَتَلَطَّطُونَ ، وَذَلِكَ عِندَمَا بَاشَرُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا قَبْلَ لِأَحَدٍ بِهِ ، فَمَقَتُوا عِنْدَ ذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ وَأَبْغَضُوهَا غَايَةَ الْبُغْضِ ، بِسَبَبِ مَا أَسْلَفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ دُخُولِهِمْ إِلَى النَّارِ ، فَأَخْبَرَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ إِخْبَارًا عَالِيًا ، نَادَوْهُمْ نِدَاءً بِأَنَّ مَقَتَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي الدُّنْيَا - حِينَ كَانَ يُعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ فَيَكْفُرُونَ - أَشَدُّ مِنْ مَقَتِكُمْ أَيُّهَا الْمُعَذَّبُونَ أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَلَوْا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّنْكُمْ ثُمَّ يُخَيِّمُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨] ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرِئَةٍ . وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ : أَنَّ الْكُفَّارَ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ وَهُمْ وَقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا يُجَابُونَ ، ثُمَّ إِذَا رَأَوْا النَّارَ وَعَايَنُوهَا وَوَقَفُوا عَلَيْهَا وَنَظَرُوا إِلَى مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، سَأَلُوا الرَّجْعَةَ أَشَدَّ مِمَّا سَأَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَلَا يُجَابُونَ ، فَإِذَا دَخَلُوا النَّارَ وَذَاقُوا مَسَّهَا وَحَسِيسَتَهَا وَمَقَامِعَهَا وَأَعْلَالَهَا ، كَانَ سُؤَالُهُمْ لِلرَّجْعَةِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَلَطَّفُوا فِي السُّؤَالِ وَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ كَلَامِهِمْ مُقَدِّمَةً وَهِيَ قَوْلُهُمْ ﴿ رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ أَي : قُدِّرَتْكَ عَظِيمَةً ، فَإِنَّكَ أَحْيَيْتَنَا بَعْدَمَا كُنَّا أَمْوَاتًا ، ثُمَّ أَمَتْنَا ثُمَّ أَحْيَيْتَنَا ، فَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى مَا نَسَاءُ ، وَقَدْ اعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ، وَإِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ لَا نُنْصِفُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴾ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ أَي : فَهَلْ أَنْتَ مُجِيبُنَا إِلَى أَنْ تُعِيدَنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، فَإِنْ عُذْنَا إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ فَإِنَّا ظَالِمُونَ ، فَأُجِيبُوا أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى عَوْدِكُمْ وَمَرْجِعِكُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ عُلِّلَ الْمَنْعُ مِنْ ذَلِكَ بِأَنَّ سَجَايَاكُمْ لَا تَقْبَلُ الْحَقَّ وَلَا تَقْتَضِيهِ بَلْ تَحْجِدُهُ وَتَنْفِيهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَمُ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ أَي : أَنْتُمْ هَكَذَا تَكُونُونَ وَإِنْ رُدِدْتُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ أَي : هُوَ الْحَاكِمُ فِي خَلْقِهِ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ ﴾ أَي : يُظْهِرُ قُدْرَتَهُ لِحَلْقِهِ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي خَلْقِهِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ خَالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾

وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يُخْرِجُ بِهِ مِنَ الزُّرُوعِ وَالشَّجَرِ مَا هُوَ مُشَاهِدٌ بِالْحَسِّ ، مِنْ اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ وَطُعْمِهِ وَرَوَائِحِهِ وَأَشْكَالِهِ وَأَلْوَانِهِ وَهُوَ مَاءٌ وَاحِدٌ ، فَبِالْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ فَأَوَتْ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أَيُّ : يَعْتَبِرُ وَيَتَفَكَّرُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَيَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أَيُّ : مَنْ هُوَ بِصِيرٍ مُنِيبٌ إِلَى اللَّهِ ﷻ . ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أَيُّ : فَأَخْلِصُوا اللَّهَ وَحْدَهُ الْعِبَادَةَ وَالِدُّعَاءَ وَخَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ فِي مَسْلِكِهِمْ وَمَذْهَبِهِمْ .

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٩٢﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ لَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٩٣﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَارْتِفَاعِ عَرْشِهِ الْعَظِيمِ الْعَالِي عَلَى جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ كَالسَّقْفِ لَهَا ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ ﴿يُنْزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل : ٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَأَنَّهُ لَنُزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿تَزَلُّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٤] وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قِيلَ : يَوْمَ التَّلَاقِ : اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، حَدَّرَ اللَّهُ مِنْهُ عِبَادَهُ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : يَلْتَقِي فِيهِ الْعِبَادُ ، وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَلْتَقِي فِيهِ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ وَالْخَالِقُ وَالْخَلْقُ ، وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ : يَلْتَقِي الظَّالِمُ وَالْمَظْلُومُ ، وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ يَوْمَ التَّلَاقِ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ ، وَيَشْمَلُ أَنَّ كُلَّ عَامِلٍ سَيَلْقَى مَا عَمِلَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ . ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ لَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أَيُّ : ظَاهِرُونَ بَادُونَ كُلُّهُمْ لَا شَيْءَ يُكْنِيهِمْ وَلَا يُظْلِمُهُمْ وَلَا يَسْتُرُهُمْ ، وَالْجَمِيعُ فِي عِلْمِهِ عَلَى السَّوَاءِ . ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أَيُّ : الَّذِي هُوَ وَحْدَهُ قَدْ فَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَعَلَبَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَدْلِهِ فِي حُكْمِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ ، أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَلَا مِنْ شَرٍّ بَلْ يُجْزِي بِالْحُسْنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا وَبِالسَّيِّئَةِ وَاحِدَةً ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَيُّ : يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ كَمَا يُحَاسِبُ نَفْسًا وَاحِدَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان : ٢٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر : ٥٠]

وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿٨﴾ يَعْلَمُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٠﴾

يَوْمَ الْآزِفَةِ : إِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِاقْتِرَابِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُرْفَتْ الْآزِفَةُ ﴾ [النجم : ٥٧-٥٨] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ ﴾ وَقَفَتِ الْقُلُوبُ فِي الْحَنَاجِرِ مِنَ الْخَوْفِ فَلَا تَخْرُجُ وَلَا تَعُودُ إِلَى أَمَاكِنِهَا ، وَمَعْنَى ﴿ كَظْمِينَ ﴾ : سَاكِتِينَ ، لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَقِيلَ : بَاكِينَ ﴿ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أَيِ : لَيْسَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشَّرِّكَ بِاللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ مِنْهُمْ يَنْفَعُهُمْ وَلَا شَفِيعٍ يَشْفَعُ فِيهِمْ ، بَلْ قَدْ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ يُخْبِرُكَ عَنْ عِلْمِهِ النَّامِ الْمَحِيطِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ، دَقِيقِهَا وَلَطِيفِهَا ، لِيَحْذَرَ النَّاسُ عِلْمَهُ فِيهِمْ فَيَسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى حَقَّ الْحَيَاءِ ، وَيَتَّقُوهُ حَقَّ تَقْوَاهُ ، وَيُرَاقِبُوهُ مُرَاقَبَةً مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ ، فَإِنَّهُ ﷻ يَعْلَمُ الْعَيْنَ الْحَاطَةَ وَإِنْ أَبَدَتْ أَمَانَةً ، وَيَعْلَمُ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ حَبَايَا الصُّدُورِ مِنَ الصَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ . رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ هُوَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ وَفِيهِمُ الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ - أَوْ تَمَرُّ بِهِ وَبِهِمُ الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ - فَإِذَا غَفَلُوا لَحَظَّ إِلَيْهَا فَإِذَا فَطِنُوا غَضَّ بَصَرُهُ عَنْهَا ، فَإِذَا غَفَلُوا لَحَظَّ فَإِذَا فَطِنُوا غَضَّ ، وَقَدْ أَطَّلَعَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ وَدَّ أَنْ لَوْ أَطَّلَعَ عَلَى فَرْجِهَا .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ أَيِ : يَحْكُمُ بِالْعَدْلِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ : قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْزِيَ بِالْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ وَبِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ . وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أَيِ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا ﴾ أَيِ : لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَحْكُمُونَ شَيْئًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أَيِ : سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ خَلْقِهِ بَصِيرٌ بِهِمْ ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ .

• أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدٌ

الْعِقَابِ ١١

يَقُولُ تَعَالَى : أَوْ لَمْ يَسِرْ هَؤُلَاءِ الْمَكْذُبُونَ بِرِسَالَتِكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿١﴾ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٢﴾ أَيْ : مِنْ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ بِالْأَنْبِيَاءِ ، مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْ هَؤُلَاءِ قُوَّةً ﴿٣﴾ وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴿٤﴾ أَيْ : أَثَرُوا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْبِنَايَاتِ وَالْمَعَالِمِ وَالذِّيَارَاتِ ، مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ ، وَمَعَ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْعَظِيمَةِ وَالْبَأْسِ الشَّدِيدِ ، أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَهِيَ كُفْرُهُمْ بِرُسُلِهِمْ ﴿٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٦﴾ أَيْ : وَمَا دَفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَحَدٌ ، وَلَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ ، وَلَا وَقَاهُمْ وَاقٍ .

ثُمَّ ذَكَرَ عِلَّةَ أَخْذِهِ إِيَّاهُمْ وَذُنُوبَهُمُ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا وَاجْتَرَمُوهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَيْ : بِالذَّلَالِ الْوَاضِحَاتِ وَالْبُرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أَيْ : مَعَ هَذَا الْبَيِّنِ وَالْبُرْهَانِ كَفَرُوا وَجَحَدُوا ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ أَيْ : أَهْلَكَهُمْ ، وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أَيْ : ذُو قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَبَطْشٍ شَدِيدٍ وَهُوَ ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أَيْ : عِقَابُهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ وَجِيعٌ . أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُوتَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿١٥﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّمًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمُبَشِّرًا لَهُ بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا جَرَى لِمُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالذَّلَالِ الْوَاضِحَاتِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ وَالسُّلْطَانُ : هُوَ الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ وَهُوَ مَلِكُ الْقِبْطِ بِالذِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ﴿ وَهَمَانَ ﴾ ، وَهُوَ وَزِيرُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ ﴿ وَقُرُوتَ ﴾ وَكَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَلَآ وَتِجَارَةً ﴿ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴾ أَيْ : كَذَّبُوهُ وَجَعَلُوهُ سَاحِرًا مَجْنُونًا مُمَوَّهَا كَذَّابًا فِي أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَذَّالِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ أُتَوَّصُوا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿ [الذَّارِيَاتِ : ٥٢-٥٣]

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أَيْ : بِالْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ الدَّالِّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ

﴿ قَالُوا أَتَقْتُلُوا أُنَبَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ ، وَهَذَا أَمْرٌ ثَانٍ مِنْ فِرْعَوْنَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَكَانَ لِأَجْلِ الْإِحْتِرَازِ مِنْ وُجُودِ مُوسَى ، أَوْ لِإِذْلَالِ هَذَا الشَّعْبِ وَتَقْلِيلِ عَدَدِهِمْ ، أَوْ لِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ ، وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي فَلِلْعِلَّةِ الثَّانِيَةِ وَلِإِهَانَةِ هَذَا الشَّعْبِ ، وَلِكَيْ يَتَشَاءُمُوا بِمُوسَى عليه السلام ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿ [الأعراف : ١٢٩] ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : هَذَا أَمْرٌ بَعْدَ أَمْرٍ .

قَالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أَيُّ : وَمَا مَكْرُهُمْ وَقَصْدُهُمُ الَّذِي هُوَ تَقْلِيلُ عَدَدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، لِئَلَّا يُنْصَرُوا عَلَيْهِمْ إِلَّا ذَاهِبٌ وَهَالِكٌ فِي ضَلَالٍ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ ، وَهَذَا عَزْمٌ مِنْ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى - عَلَى قَتْلِ مُوسَى عليه السلام أَيُّ : قَالَ لِقَوْمِهِ : دَعُونِي حَتَّى أَقْتُلَ لَكُمْ هَذَا ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أَيُّ : لَا أَبَالِي مِنْهُ . وَهَذَا فِي غَايَةِ الْجَحْدِ وَالتَّجَهُّرِ وَالْعِنَادِ . وَقَوْلُهُ قَبَّحَهُ اللَّهُ : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ يَعْنِي : مُوسَى ، يَخْشَى فِرْعَوْنُ أَنْ يُضِلَّ مُوسَى النَّاسَ وَيُعَيِّرَ رُسُومَهُمْ وَعَادَاتِهِمْ ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ : صَارَ فِرْعَوْنُ مُذَكَّرًا ، - يَعْنِي : وَاعِظًا - يُشْفِقُ عَلَى النَّاسِ مِنْ مُوسَى عليه السلام . وَقَالَ مُوسَى : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أَيُّ : لَمَّا بَلَغَهُ قَوْلُ فِرْعَوْنَ ﴿ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ قَالَ مُوسَى عليه السلام : اسْتَجَزْتُ بِاللَّهِ وَعُذْتُ بِهِ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ أَمْثَالِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أَيُّ : عَنِ الْحَقِّ مُجَرِّمٌ ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿ ٢٨ ﴾ يَقَوْمِ لَكُمْ أَلَمَلُكُ الْيَوْمَ ظَهَرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿ ٢٩ ﴾

الْمَشْهُورُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ كَانَ قِبْطِيًّا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ عَنْ قَوْمِهِ الْقِبْطِ ، فَلَمْ يَظْهَرْ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ حِينَ قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ فَأَخَذَتْ الرَّجُلُ غَضَبَهُ اللَّهُ تعالى ، وَلَا أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ اللَّهُمَّ إِلَّا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ : بَيَّنَّا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي بِفَنَاءِ الْكُعْبَةِ ،

إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَوَّى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَحَنَقَهُ حَنَقًا شَدِيدًا ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أَيُّ : كَيْفَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا لِكُونِهِ يَقُولُ : رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ أَقَامَ لَكُمْ الْبُرْهَانَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ؟ ثُمَّ تَنَزَّلَ مَعَهُمْ فِي الْمَخَاطَبَةِ فَقَالَ : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ يَعْنِي : إِذَا لَمْ يَظْهَرْ لَكُمْ صِحَّةُ مَا جَاءَكُمْ بِهِ فَمِنْ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ التَّامِّ وَالْحَزْمِ أَنْ تَتْرَكُوهُ وَتَنْفُسُهُ فَلَا تُؤْذُوهُ ، فَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - سَيُجَازِيهِ عَلَى كَذِبِهِ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا وَقَدْ آدَيْتُمُوهُ يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، فَإِنَّهُ يَتَوَعَّدُكُمْ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ بِعَذَابٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَمِنْ الْجَائِزِ عِنْدَكُمْ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا ، فَيَنْبَغِي عَلَى هَذَا أَنْ لَا تَتَعَرَّضُوا لَهُ ، بَلِ اثْرُكُوهُ وَقَوْمُهُ يَدْعُوهُمْ وَيَتَّبِعُونَهُ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴾ أَيُّ : لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ كَاذِبًا - كَمَا تَزْعُمُونَ - لَكَانَ أَمْرُهُ بَيِّنًا يَظْهَرُ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، فَكَانَتْ تَكُونُ فِي غَايَةِ الْإِخْتِلَافِ وَالِاضْطِرَابِ ، وَهَذَا نَرَى أَمْرَهُ سَدِيدًا وَمَنْهَجُهُ مُسْتَقِيمًا ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ الْكَذَّابِينَ لَمَا هَدَاهُ اللَّهُ وَأَرْشَدَهُ إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنْ انْظِمَامِ أَمْرِهِ وَفِعْلِهِ .

ثُمَّ قَالَ الْمُؤْمِنُ مُحَدِّثًا قَوْمَهُ رَوَّالٍ نِعْمَةَ اللَّهِ عَنْهُمْ وَحُلُولَ نِقْمَةِ اللَّهِ بِهِمْ : ﴿ يَقُومِرْ لَكُمْ الْمَلِكُ آيَوْمَ ظَهَرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْمَلِكِ وَالظُّهُورِ فِي الْأَرْضِ ، بِالْكَلِمَةِ النَّافِذَةِ وَالْجَاهِ الْعَرِضِ ، فَرَاغُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَصَدِيقِ رَسُولِهِ ﷺ ، وَاحْذَرُوا نِقْمَةَ اللَّهِ إِنْ كَذَبْتُمْ رَسُولَهُ ﴿ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أَيُّ : لَا تُغْنِي عَنْكُمْ هَذِهِ الْجُنُودُ وَهَذِهِ الْعَسَاكِرُ ، وَلَا تَرُدُّ عَنَّا شَيْئًا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنَا بِسُوءٍ ﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴿ لِقَوْمِهِ رَادًّا عَلَى مَا أَسَارَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحِ الْبَارِ الرَّاشِدُ ، الَّذِي كَانَ أَحَقَّ بِالْمَلِكِ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ أَيُّ : مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَاهُ لِنَفْسِي ، وَقَدْ كَذَبَ فِرْعَوْنُ فَإِنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّقُ صِدْقَ مُوسَى ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ كَذَبَ فِيهِ وَافْتَرَى ، وَخَانَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ وَرَعِيَّتَهُ ، فَغَشَّاهُمْ وَمَا نَصَحَهُمْ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أَيُّ : وَمَا أَذْعُوكُمْ إِلَّا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَالرَّشْدِ ، وَقَدْ كَذَبَ أَيْضًا فِي ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ قَوْمُهُ قَدْ أَطَاعُوهُ وَاتَّبَعُوهُ .

وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومِرِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ

نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿١٠﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿١١﴾ يَوْمَ تُؤَلُّونَ مَذْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ تَجَدَّلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿١٤﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ - مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ - أَنَّهُ حَذَرَ قَوْمَهُ بِأَسِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقَالَ : ﴿ يَنْقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ ، كَيْفَ حَلَّ بِهِمْ بِأَسِ اللَّهِ ؟ وَمَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ وَلَا صَدَّهُ عَنْهُمْ صَادٌّ . ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا أَهْلَكْتُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِذُنُوبِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ ، فَأَنْفَذَ فِيهِمْ قَدْرَهُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَنْقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ يَوْمَ تُؤَلُّونَ مَذْبِرِينَ ﴾ أَيُّ : ذَاهِبِينَ هَارِبِينَ ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ائْتَسَقَرُ [القيامة : ١١-١٢] وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أَيُّ : لَا مَانِعَ يَمْنَعُكُمْ مِنْ بِأَسِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أَيُّ : مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ غَيْرُهُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ مِصْرَ ، قَدْ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ قَبْلِ مُوسَى ﷺ وَهُوَ يُوسُفُ ﷺ ، كَانَ عَزِيزَ أَهْلِ مِصْرَ ، وَكَانَ رَسُولًا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أُمَّتَهُ بِالْقِسْطِ ، فَمَا أَطَاعُوهُ تِلْكَ الطَّاعَةَ إِلَّا بِمُجَرَّدِ الْوَرَارَةِ وَالْجَاهِ الدُّنْيَوِيِّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ أَيُّ : يَتَسْتَمُّ فَقُلْتُمْ طَامِعِينَ ﴿ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ ، وَذَلِكَ لِكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ أَيُّ : كَحَالِكُمْ هَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ يُضِلُّهُ اللَّهُ ؛ لِإِسْرَافِهِ فِي أَفْعَالِهِ وَارْتِيَابِ قَلْبِهِ . ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ الَّذِينَ تَجَدَّلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُجَادِلُونَ الْحُجَجَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَحُجَّةٍ مَعَهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَنْقُتُ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْمَقْتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَيُّ : وَالْمُؤْمِنُونَ أَيْضًا يُبْغِضُونَ مَنْ تَكُونُ هَذِهِ صِفَتُهُ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَعْرِفُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا ، وَلِهَذَا قَالَ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أَي : عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿ جَبَّارٍ ﴾ .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُونَ آيَاتِ ابْنِ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٦٥﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَعُتُوِّهِ وَتَمَرُّدِهِ وَافْتِرَائِهِ فِي تَكْذِيبِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَمَرَ وَزِيرَهُ هَامَانَ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ ﴿ صِرَاحًا ﴾ ، وَهُوَ : الْقَصْرُ الْعَالِي الْمُنِيفُ الشَّاهِقُ ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ ﴿ قِيلَ : أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ ، وَقِيلَ : طُرُقُ السَّمَاوَاتِ ﴾ فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا ، وَهَذَا مِنْ كُفْرِهِ وَتَمَرُّدِهِ أَنَّهُ كَذَّبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَنْ اللَّهَ ﷻ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أَي : بِصُنْعِهِ هَذَا الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُوْهِمَ بِهِ الرِّعْيَةَ أَنَّهُ يَعْمَلُ شَيْئًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى تَكْذِيبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ يَعْنِي : إِلَّا فِي خَسَارٍ .

وَقَالَ الَّذِي ءَامَرَ يَنْقُومُ آتِيْعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٦٧﴾ يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٦٨﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا تَجْزِي إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ الْمُؤْمِنُ لِقَوْمِهِ مِّنْ تَمَرُّدٍ وَطَغَىٰ وَآثَرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى ، فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ يَنْقُومُ آتِيْعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ لَا كَمَا كَذَّبَ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ، ثُمَّ زَهَدَهُمْ فِي الدُّنْيَا الَّتِي قَدْ أَثَرُوهَا عَلَى الْآخِرَىٰ وَصَدَّتْهُمْ عَنِ التَّصَدِيقِ بِرَسُولِ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : ﴿ يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ ﴾ ، أَي : قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ فَايِنُهُ عَنْ قَرِيبٍ تَذْهَبُ وَتَضْمَحِلُ ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أَي : الدَّارُ الَّتِي لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْتِقَالَ مِنْهَا ، وَلَا ظَعْنَ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ، بَلْ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا جَحِيمٌ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا تَجْزِي إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أَي : وَاحِدَةً مِثْلَهَا ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَي : لَا يَنْقَدِرُ بِجَزَاءٍ ، بَلْ يُثَبِّتُهُ اللَّهُ ﷻ ثَوَابًا كَثِيرًا لَا انْقِضَاءَ لَهُ وَلَا نَفَادَ .

• وَيَنْقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٧٠﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٧١﴾ لَا

جَرَمَ أَنْمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿١٢﴾ فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٣﴾ فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿١٤﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٥﴾

يَقُولُ لَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ : مَا بَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَتَصْدِيقُ رَسُولِهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ ﴿ وَتَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ أَيُّ : عَلَى جَهْلٍ بِلَا دَلِيلٍ ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ ﴾ أَيُّ : هُوَ فِي عِزِّهِ وَكِبَرِيَّائِهِ يَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ ﴿ لَا جَرَمَ أَنْمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ : حَقًّا ، وَقِيلَ : بَلَى ، وَقِيلَ : لَا كَذِبَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أَيُّ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فَيَجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أَيُّ : خَالِدِينَ فِيهَا بِإِسْرَافِهِمْ ، وَهُوَ شَرُّهُمْ بِاللَّهِ ﷻ ﴿ فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : سَوْفَ تَعْلَمُونَ صِدْقَ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَنَهَيْتُكُمْ عَنْهُ ، وَنَصَحْتُكُمْ وَوَضَّحْتُ لَكُمْ ، وَتَتَذَكَّرُونَهُ وَتَتَذَكَّرُونَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُكُمُ النَّدَمُ ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أَيُّ : وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَأَسْتَعِينُهُ وَأَقْطِعُكُمْ وَأُبَاعِدُكُمْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أَيُّ : هُوَ بَصِيرٌ بِهِمْ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - فَيَهْدِي مَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ ، وَالْقَدَرُ النَّافِذُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُرُوا ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَمَا فِي الدُّنْيَا فَتَنَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَعَ مُوسَى ﷺ ، وَأَمَا فِي الْآخِرَةِ فَبِالْجَنَّةِ ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ وَهُوَ : الْغَرَقُ فِي الْيَمِّ ، ثُمَّ النُّقْلَةُ مِنْهُ إِلَى الْجَحِيمِ ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ اجْتَمَعَتْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ فِي النَّارِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ أَيُّ : أَشَدَّهُ أَلَمًا وَأَعْظَمَهُ نَكَالًا .

وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلُ كَبِيرٍ فِي اسْتِذْلَالِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى مَذَابِ الْبَرْزَخِ فِي الْقُبُورِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ . وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ صَبَاحًا وَمَسَاءً مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا ، يُقَالُ لَهُمْ : يَا آلَ فِرْعَوْنَ هَذِهِ مَنَازِلُكُمْ ، تَوْبِيخًا وَنِقْمَةً وَصَغَارًا لَهُمْ .

وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٣٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا
إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ
يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٣٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِيَكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى
قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَحَاوُرِ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ وَتَخَاصُمِهِمْ - وَفِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِنْ جُمْلَتِهِمْ - فَيَقُولُ
الضُّعَفَاءُ - وَهُمْ الْأَتْبَاعُ - لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا - وَهُمْ الْقَادَةُ وَالسَّادَةُ وَالْكِبَرَاءُ - ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ
تَبَعًا ﴾ أَيُّ : أَطْعَمْنَاكُمْ فِيمَا دَعَوْتُمُونَا إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا
نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ أَيُّ : قِسْطًا تَحْتَمِلُونَهُ عَنَّا ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أَيُّ : لَا
نَتَّحَمَّلُ عَنْكُمْ شَيْئًا ، كَفَى بِنَا مَا عِنْدَنَا وَمَا حُمِّلْنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ
بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ أَيُّ : فَقَسَمَ بَيْنَنَا الْعَذَابَ بِقَدْرِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ مِنَّا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالَ لِكُلِّ
ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ ﷻ
لَا يَسْتَجِيبُ مِنْهُمْ وَلَا يَسْتَمِعُ لِدُعَائِهِمْ ، بَلْ قَدْ قَالَ : ﴿ أَحْسُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨]
سَأَلُوا الْخَزَنَةَ - وَهُمْ كَالْبَوَائِنِ لِأَهْلِ النَّارِ - أَنْ يَدْعُوا لَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَنْ يُخَفِّفَ عَنِ الْكَافِرِينَ
وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا مِنَ الْعَذَابِ ، فَقَالَتْ لَهُمُ الْخَزَنَةُ رَادِّينَ عَلَيْهِمْ : ﴿ أَوْلَمْ تَأْتِيَكُمْ رُسُلُكُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَيُّ : أَوْ مَا قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجُجُ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى قَالُوا
فَادْعُوا ﴾ أَيُّ : أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَتَحْنُ لَا نَدْعُو لَكُمْ ، وَلَا نَسْمَعُ مِنْكُمْ ، وَلَا نَوَدُّ خَلَاصَكُمْ ،
وَنَحْنُ مِنْكُمْ بُرَاءٌ ، ثُمَّ نُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ سَوَاءٌ دَعَوْتُمْ أَوْ لَمْ تَدْعُوا ، لَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْكُمْ ؛
وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أَيُّ : إِلَّا فِي ذَهَابٍ ، وَلَا يُتَقَبَّلُ وَلَا يُسْتَجَابُ .

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٤١﴾ يَوْمَ
لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
الْهُدَى وَأَوْزَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٤٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٤﴾
فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ
﴿٤٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَجْعَدُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بَغْيًا سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا

كَبْرًا مَا هُمْ بِبَلِغِيهِ ۖ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ النَّصْرَةُ أَعْظَمَ وَأَكْبَرَ وَأَجَلَ. قَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَشْهَادُ: الْمَلَائِكَةُ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ بِدَلٍّ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، وَقَرَأَ آخَرُونَ: ((يَوْمَ)) بِالرَّفْعِ، كَأَنَّهُ فَسَّرَهُ بِهِ «يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ» وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ ﴿مَعَذِرَتُهُمْ﴾ أَيُّ: لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ عُذْرٌ وَلَا فِدْيَةٌ ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أَيُّ: الْإِبْعَادُ وَالطَّرْدُ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وَهِيَ النَّارُ، وَقِيلَ: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أَيُّ: سُوءُ الْعَاقِبَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ وَهُوَ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ ﷻ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالنُّورِ ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ أَيُّ: جَعَلْنَا لَهُمُ الْعَاقِبَةَ وَأَوْرَثْنَاهُمْ بِلَادَ فِرْعَوْنَ وَأَمْوَالَهُ وَحَوَاصِلَهُ وَأَرْضَهُ بِمَا صَبَرُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ مُوسَى ﷺ، وَفِي الْكِتَابِ الَّذِي أَوْرَثُوهُ، وَهُوَ التَّوْرَةُ ﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وَهِيَ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ السَّلِيمَةُ.

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أَيُّ: يَا مُحَمَّدُ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أَيُّ: وَعَدْنَاكَ أَنَا سَنُعَلِي كَلِمَتَكَ وَنَجْعَلَ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلَكِنْ اتَّبِعْكَ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، وَهَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ حَقٌّ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ هَذَا تَهْنِئَةٌ لِلْأُمَّةِ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ﴾ أَيُّ: فِي أَوَاخِرِ النَّهَارِ وَأَوَائِلِ اللَّيْلِ ﴿وَالْإِبْكَرِ﴾، وَهِيَ أَوَائِلُ النَّهَارِ وَأَوَاخِرُ اللَّيْلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ أَيُّ: يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيَرُدُّونَ الْحُجَجَ الصَّحِيحَةَ بِالشُّبْهِ الْفَاسِدَةِ بِلَا بُرْهَانٍ وَلَا حُجَّةٍ مِنَ اللَّهِ ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَلِغِيهِ﴾ أَيُّ: مَا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَاحْتِقَارِ لِمَنْ جَاءَهُمْ بِهِ، وَلَيْسَ مَا يَرُومُونَهُ مِنْ إِخْتَادِ الْحَقِّ وَإِعْلَاءِ الْبَاطِلِ بِحَاصِلِ هُتْمٍ، بَلِ الْحَقُّ هُوَ الْمَرْفُوعُ، وَقَوْلُهُمْ وَقَصْدُهُمْ هُوَ الْمَوْضُوعُ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أَيُّ: مِنْ حَالٍ مِثْلِ هَؤُلَاءِ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أَوْ: مِنْ شَرِّ مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْمُجَادِلِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ.

لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْهَبًا عَلَى أَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَخَلَقَهُمَا أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ بَدَاةً وَإِعَادَةً ، فَمَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى مَا دُونِهِ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فَلِهَذَا لَا يَتَذَكَّرُونَ هَذِهِ الْحُجَّةَ وَلَا يَتَأَمَّلُونَهَا ، كَمَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَيُنْكِرُونَ الْمَعَادَ اسْتِيعَادًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا ، وَقَدْ اعْتَرَفُوا بِمَا هُوَ أَوْلَى مِمَّا أَنْكَرُوا .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ أَي : كَمَا لَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ شَيْئًا ، وَالْبَصِيرُ الَّذِي يَرَى مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ الْأَبْرَارُ وَالْكَافِرَةُ الْفُجَّارُ ﴿ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَي : مَا أَقَلَّ مَا يَتَذَكَّرُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ ﴾ أَي : لَكَائِنَتْهُ وَوَاقِعَةٌ ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَي : لَا يُصَدِّقُونَ بِهَا بَلْ يُكَذِّبُونَ بِوُجُودِهَا .

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿١٦﴾

هَذَا مِنْ فَضْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَرَمِهِ ، أَنَّهُ نَدَبَ عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ وَتَكَمَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ ، كَمَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ : يَا مَنْ أَحَبَّ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سُؤَالَهُ ، وَيَا مَنْ أَبْغَضَ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرُكَ يَا رَبِّ . وَقَوْلُهُ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ أَي : عَنْ دُعَائِي وَتَوْحِيدِي ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أَي : صَاغِرِينَ حَقِيرِينَ .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١٩﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِعَايَةِ اللَّهِ يَتَجَحَّدُونَ ﴿٢٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُثْمِنًا عَلَى خَلْقِهِ ، بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ الَّذِي يَسْكُنُونَ فِيهِ ، وَيَسْتَرْجِحُونَ مِنْ حَرَكَاتِ تَرَدُّدِهِمْ فِي الْمَعَاشِ بِالنَّهَارِ ، وَجَعَلَ النَّهَارَ ﴿ مُبْصِرًا ﴾ أَي : مُضِيئًا لِيَتَصَرَّفُوا فِيهِ بِالْأَسْفَارِ وَقَطَعَ الْأَقْطَارِ وَالتَّمَكَّنَ مِنَ الصَّنَاعَاتِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١﴾ أَيُّ : لَا يَقُومُونَ بِشُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيُّ : الَّذِي فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿ فَإِنِّي تُؤْفِكُونَ ﴾ أَيُّ : فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ شَيْئًا بَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ مَنْحُوتَةٌ ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ مُجَادِلِينَ ﴾ أَيُّ : كَمَا ضَلَّ هَؤُلَاءِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ كَذَلِكَ أَفْكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعَبَدُوا غَيْرَهُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ بَلْ بِمُجَرَّدِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى وَجَحَدُوا حُجَجَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أَيُّ : جَعَلَهَا لَكُمْ مُسْتَقَرًّا بِسَاطًا مِهَادًا تَعِيشُونَ عَلَيْهَا وَتَتَصَرَّفُونَ فِيهَا وَتَمْشُونَ فِي مَنَازِلِهَا وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ لِيَلَا تَمِيدَ بِكُمْ ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ أَيُّ : سَقَفًا لِلْعَالَمِ مَحْفُوظًا ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾ أَيُّ : فَخَلَقَكُمْ فِي أَحْسَنِ الْأَشْكَالِ وَمَنْحَكُمُ أَكْمَلَ الصُّورِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ فِي الدُّنْيَا ، فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الدَّارَ وَالسَّكَّانَ وَالْأَرْزَاقَ فَهُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْحَيُّ أَزَلًا وَأَبَدًا ، لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ ، وَهُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيُّ : لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ ﴾ أَيُّ : مُوَحِّدِينَ لَهُ مُفَرِّقِينَ بَيْنَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : إِذَا قَرَأْتَ ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ ﴾ فَقُلْ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » وَقُلْ عَلَى أَثَرِهَا « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ثُمَّ قَرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مَخْرَجَكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلَتَبَلَّغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ ١٧ ﴾ هُوَ الَّذِي تَحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ ١٨ ﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْهَى أَنْ يَعْبُدَ أَحَدٌ سِوَاهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ، وَقَدْ بَيَّنَّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ سِوَاهُ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مَخْرَجَكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ أَيُّ : هُوَ الَّذِي يُقَلِّبُكُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كُلِّهَا وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعَنْ أَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ أَيُّ : مِنْ قَبْلِ أَنْ

يُوجَدَ وَيَخْرُجَ إِلَى هَذَا الْعَالَمِ بَلْ تُسْقِطُهُ أُمُّهُ سَقْطًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُتَوَقَّى صَغِيرًا وَشَابًا ، وَكَهْلًا قَبْلَ الشَّيْخُوخَةِ ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : تَتَذَكَّرُونَ الْبَعْثَ .
 قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي نُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْمُنْفِرُ بِذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أَيُّ : لَا يُخَالَفُ وَلَا يُبَالِغُ بَلْ مَا شَاءَ كَانَ لَا مُحَالَةَ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصَرَّفُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ
 وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ
 يُسْحَبُونَ ﴿١٨﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ آيَاتِ مَا كُنْتُمْ
 تُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ
 يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ
 تَمْرَحُونَ ﴿٢٢﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَلَا تَعَجَبُ يَا مُحَمَّدُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَيُجَادِلُونَ فِي الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ،
 كَيْفَ تُصَرَّفُ عُقُوبَتُهُمْ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾
 أَيُّ : مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ مِنَ الرَّبِّ - جَلَّ
 جَلَالُهُ - هَؤُلَاءِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَّ يَوْمٍ ذِكْرًا لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المسلمات : ١٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ ﴾ أَيُّ : مُتَّصِلَةٌ بِالْأَغْلَالِ بِأَيْدِي الزَّبَانِيَةِ ،
 يُسْحَبُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ تَارَةً إِلَى الْحَمِيمِ وَتَارَةً إِلَى الْجَحِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ ﴿١٨﴾
 فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿١٩﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ آيَاتِ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ ﴿ أَيُّ : قِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ الْأَصْنَامُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ الْيَوْمَ ؟
 ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أَيُّ : ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُونَا ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أَيُّ : جَحَدُوا
 عِبَادَتَهُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْصُرُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ،
 وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أَيُّ : تَقُولُ
 لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ : هَذَا الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ جَزَاءٌ عَلَى فَرَحِكُمْ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَرَحِكُمْ وَأَشْرِكُمْ
 وَبَطْرِكُمْ ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أَيُّ : فَبِئْسَ الْمَنْزِلُ
 وَالْمَقِيلُ الَّذِي فِيهِ الْهُوَانُ وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ ، لِمَنِ اسْتَكْبَرَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَاتَّبَعَ دَلَالِيلَهُ وَحُجَجَهُ .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِثْلَهُمْ مِّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى قَوْمِكَ ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِمَنِ اتَّبَعَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ مِنْ كِبَرَانِهِمْ وَعُظَمَائِهِمْ أُبِيدُوا فِي يَوْمٍ بَدْرٍ ، ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَسَائِرَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي حَيَاتِهِ ﷺ . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴾ أَيُّ : فَنُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ فِي الْآخِرَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسْلِيًا لَهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ ، أَيُّ : مِنْهُمْ مَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ خَبَرَهُمْ وَقَصَصَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمْ كَيْفَ كَذَّبُوهُمْ ، ثُمَّ كَانَتْ لِلرُّسُلِ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ ، وَهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ ذُكِرَ بِأَضْعَافٍ أَضْعَافٍ ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : وَلَمْ يَكُنْ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمَهُ بِخَارِقٍ لِلْعَادَاتِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَيَذُلُّ ذَلِكَ عَلَى صِدْقِهِ فَيَبِأُ جَاءَهُمْ بِهِ ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ ، وَهُوَ عَذَابُهُ وَتَكَاُلُهُ الْمُحِيطُ بِالْمُكَذِّبِينَ ﴿ فُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ فَيَنْجِي الْمُؤْمِنِينَ وَيُهْلِكُ الْكَافِرِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَلَكَ تَحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُثْنًا عَلَى عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ، وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : ٧٢] . فَالْإِبِلُ تُرَكَّبُ وَتُؤْكَلُ وَتُحْلَبُ وَيُحْمَلُ عَلَيْهَا الْأَثْقَالُ فِي الْأَسْفَارِ وَالرَّحَالِ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ وَالْأَقْطَارِ الشَّاسِعَةِ ، وَالْبَقَرُ تُؤْكَلُ وَيُسْرَبُ لَبَنُهَا ، وَتَحْرُثُ عَلَيْهَا الْأَرْضُ ، وَالْغَنَمُ تُؤْكَلُ وَيُسْرَبُ لَبَنُهَا ، وَالْجَمِيعُ يُحْرَأُ أَصْوَابُهَا وَأَشْعَارُهَا وَأَوْبَارُهَا ، فَيَتَّخِذُ مِنْهَا الْأَنْثَا وَالثِيَابَ وَالْأَمْتِعَةَ .

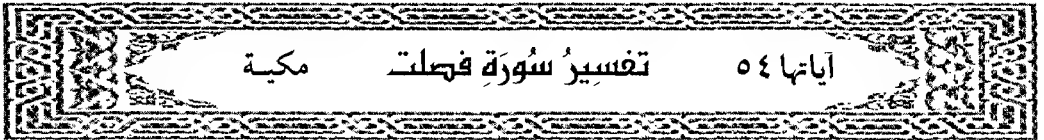
وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ ﴾ أَيُّ : حُجَّجَهُ وَبَرَّاهِينَهُ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ﴿ فَأَيَّ

ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَكِّرُونَ ﴿١٠٠﴾ أَيُّ : لَا تُقَدِّرُونَ عَلَىٰ إِنكَارِ شَيْءٍ مِنْ آيَاتِهِ ، إِلَّا أَنْ تُعَانِدُوا وَتُكَابِرُوا .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِقَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنًا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿١٠٣﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنًا ۖ سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَمَاذَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ مَعَ شِدَّةِ قُوَّاهُمْ وَمَا أَثَرُوهُ فِي الْأَرْضِ وَجَمْعُوهُ مِنَ الْأَمْوَالِ ، فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا وَلَا رَدَّ عَنْهُمْ ذَرَّةً مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَاتِ ، لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ وَلَا أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ وَاسْتَعْنَوْا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فِي زَعْمِهِمْ عَمَّا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِجَهَالَتِهِمْ فَأَتَاهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أَيُّ : أَحَاطَ بِهِمْ ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيُّ : يُكَذِّبُونَ وَيَسْتَبْعِدُونَ وَقُوَّعَهُ . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنًا ﴾ أَيُّ : عَايَنُوا وَقُوَّعَ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أَيُّ : وَحَدُّوا اللَّهَ ۖ وَكَفَرُوا بِالطَّاغُوتِ وَلَكِنْ حَيْثُ لَا تُقَالُ الْعَثَرَاتُ وَلَا تَنْفَعُ الْمَعْدِرَةُ . قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنًا ۖ سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ أَيُّ : هَذَا حُكْمُ اللَّهِ فِي جَمِيعِ مَنْ تَابَ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ ، أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ » أَيُّ : فَإِذَا غَرَّغَ وَبَلَغَتْ الرُّوحُ الْحَنْجَرَةَ ، وَعَايَنَ الْمَلَكُ ، فَلَا تَوْبَةَ حِسْبِيذٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ غَافِرٍ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ ءَايَتَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا

تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَمِلُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ حَمْدٌ ﴿ تَزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ مُنْزَلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، ﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ ءَايَتُهُ ﴾ أَي : بُيِّنَتْ مَعَانِيهِ وَأُحْكِمَتْ أَحْكَامُهُ ﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أَي : فِي حَالِ كَوْنِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا بَيِّنًا وَاضِحًا ، فَمَعَانِيهِ مُفَصَّلَةٌ ، وَالْأَفَاطُهُ وَاضِحَةٌ غَيْرُ مُشْكَلَةٍ ﴾ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أَي : إِنَّمَا يَعْرِفُ هَذَا الْبَيَانَ وَالْوُضُوحَ الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَي : تَارَةً يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَارَةً يُنْذِرُ الْكَافِرِينَ ﴾ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أَي : أَكْثَرُ قُرَيْشٍ فَهُمْ لَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا مَعَ بَيَانِهِ وَوُضُوحِهِ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ أَي : فِي غُلْفٍ مُعْطَاةٍ ﴾ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أَي : صَمَمٌ عَمَّا جِئْنَا بِهِ ﴾ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ فَلَا يَصِلُ إِلَيْنَا شَيْءٌ مِمَّا تَقُولُ ﴾ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَمِلُونَ ﴾ أَي : اِعْمَلْ أَنْتَ عَلَى طَرِيقَتِكَ وَنَحْنُ عَلَى طَرِيقَتِنَا لَا تَنَابِعُكَ .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۖ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ لَا كَمَا تَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَرْبَابِ الْمُتَفَرِّقِينَ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ أَي : أَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ عَلَىٰ مِنْوَالٍ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ ﴾ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أَي : لِسَالِفِ الذُّنُوبِ ﴾ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ أَي : دَمَارٌ لَهُمْ وَهَلَاكٌ عَلَيْهِمْ ﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ . الْمُرَادُ بِالزَّكَاةِ هَهُنَا : طَهَارَةُ النَّفْسِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ ، وَمَنْ أَهَمَّ ذَلِكَ طَهَارَةُ النَّفْسِ مِنَ الشُّرْكِ ، وَزَكَاةُ الْمَالِ إِنَّمَا سُمِّيَتْ زَكَاةً ؛ لِأَنَّهَا تُطَهِّرُهُ مِنَ الْحَرَامِ ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِّزِيَادَتِهِ وَبَرَكَتِهِ وَكَثْرَةِ نَفْعِهِ ، وَتَوْفِيقًا إِلَىٰ اسْتِعْمَالِهِ فِي الطَّاعَاتِ . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لَا مَقْطُوعٍ وَلَا مَجْبُوبٍ .

﴿ قُلْ أَتَيْنَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَآدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٦٤﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِّنْ فَوْقِهَا وَبَنَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٦٦﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٦٧﴾

هَذَا إِنْكَارٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْمُقَدِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كُفْرُوكُمْ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أَي : نُظَرَاءً وَأَمْثَالًا تَعْبُدُونَهَا مَعَهُ ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي : الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْأَحَدِ وَيَوْمَ الْاِثْنَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا ﴾ أَي : جَعَلَهَا مُبَارَكَةً قَابِلَةً لِلْخَيْرِ وَالْبَذْرِ وَالْعَرَّاسِ ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا ﴾ ، وَهُوَ مَا يَحْتَاجُ أَهْلُهَا إِلَيْهِ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَمَاجِنِ الَّتِي تُزْرَعُ وَتُغْرَسُ ، يَعْنِي يَوْمَ الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَاءِ ، فَهَمَّا مَعَ الْيَوْمَيْنِ السَّابِقَيْنِ أَرْبَعَةٌ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلْسَائِلِينَ ﴾ أَي : لِمَنْ أَرَادَ السُّؤَالَ عَنْ ذَلِكَ لِيَعْلَمَهُ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : مَعْنَاهُ : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلْسَائِلِينَ ﴾ أَي : عَلَى وَفْقِ مُرَادِهِ مِنْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى رِزْقٍ أَوْ حَاجَةٌ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهُ مَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ يُشَبِّهُ مَا ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ ، وَهُوَ بُخَارُ الْمَاءِ الْمُتَصَاعِدُ مِنْهُ حِينَ خُلِقَتِ الْأَرْضُ ﴿ فَقَالَ هَا وَلِلْأَرْضِ آتِيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أَي : اسْتَجِيبَا لِأَمْرِي وَانْفَعِلَا لِغُلْبِي طَائِعَتَيْنِ أَوْ مُكْرَهَتَيْنِ . ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ أَي : بَلْ نَسْتَجِيبُ لَكَ مُطِيعِينَ بِنَا فِيْنَا مِمَّا تُرِيدُ خَلْقَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَمِيعًا مُطِيعِينَ لَكَ ﴿ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أَي : فَفَرَعَ مِنْ تَسْوِيَتِهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ . أَي : آخَرَيْنِ وَهُمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ أَي : وَرَتَّبَ مُقَرَّرًا فِي كُلِّ سَمَاءٍ مَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴿ وَرَبَّنَا أَلْسَمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْصِيحٍ ﴾ ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الْمُنِيرَةُ الْمُشْرِقَةُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أَي : حَرَسًا مِنَ الشَّيَاطِينِ أَنْ تَسْتَمِعَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أَي : الْعَزِيزُ الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَعَلَبَهُ وَقَهَرَهُ ، الْعَلِيمُ بِجَمِيعِ حَرَكَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَكَتَاتِهِنَّ .

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٥﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِعَايِنَتِنَا مَسْجُودِينَ ﴿١٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَبْلِيَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ

فَاسْتَحْيُوا النَّعَمَ عَلَى الْهَدْيِ فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ آهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾
وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ: إِنَّ أَعْرَضْتُمْ عَمَّا جِئْتَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنِّي أَنْذِرُكُمْ حُلُولَ نِقْمَةِ اللَّهِ بِكُمْ، كَمَا حَلَّتْ بِالْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْمُرْسَلِينَ، وَقَوْلُهُ: ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أَيُّ: وَمَنْ شَاكَلَهُمَا مِمَّنْ فَعَلَ كَمِغْلَهُمَا ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] أَيُّ: فِي الْقَرَى الْمَجَاوِرَةِ لِبِلَادِهِمْ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ يَأْمُرُونَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَرَأَوْا مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النَّقْمِ، وَمَا أَلْبَسَ أَوْلِيَائَهُ مِنَ النِّعَمِ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا وَلَا صَدَقُوا بَلْ كَذَّبُوا وَجَحَدُوا، وَقَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أَيُّ: لَوْ شَاءَ أَرْسَلَ اللَّهُ رُسُلًا لَكَانُوا مَلَائِكَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أَيُّ: أَهْيَا الْبَشَرُ ﴿كَافِرُونَ﴾ أَيُّ: لَا نَتَّبِعُكُمْ وَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا. ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: بَعَوْا وَعَتَوْا وَعَصَوْا ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أَيُّ: مَنْ أَوْ شِدَّةَ تَرْكِيبِهِمْ وَقُوَّاهُمْ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَمْنَعُونَ بِهَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أَيُّ: أَفَمَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَنْ يُبَارِزُونَ بِالْعَدَاوَةِ؟ فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَرَكَّبَ فِيهَا قُوَّاهَا الْحَامِلَةَ لَهَا، وَإِنْ بَطَّشَهُ شَدِيدٌ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فَبَارِزُوا الْجَبَّارَ بِالْعَدَاوَةِ وَجَحَدُوا بِآيَاتِهِ وَعَصَوْا رِسُولَهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ كَانَتْ رِيحًا شَدِيدَةً قَوِيَّةً لَتَكُونَ عُقُوبَتُهُمْ مِنْ جَنْسِ مَا اغْتَرُّوا بِهِ مِنْ قُوَّاهُمْ، وَكَانَتْ بَارِدَةً شَدِيدَةً الْبَرْدِ جَدًّا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] أَيُّ: بَارِدَةً شَدِيدَةً، وَكَانَتْ ذَاتَ صَوْتٍ مُزْعِجٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ أَيُّ: مُسْتَابِعَاتٍ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أَيُّ: ابْتَدَأُوا هَذَا الْعَذَابَ فِي يَوْمٍ نَحْسٍ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَمَرَّ بِهِمْ هَذَا النَّحْسُ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ حَتَّى أَبَادَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَاتَّصَلَ بِهِمْ حَزْيُ الدُّنْيَا بِعَذَابِ الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَنُنْذِقَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أَيُّ: أَشَدُّ حَزِيًّا هُمْ ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أَيُّ: فِي الْآخِرَةِ، كَمَا لَمْ يُبْصِرُوا فِي الدُّنْيَا، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ يَقِيهِمُ الْعَذَابَ وَيَذَرُهُمْ عَنِ النَّكَالِ.

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ﴾ أَي : بَيَّنَّا لَهُمْ ، وَقِيلَ : دَعَوْنَاهُمْ ﴿فَاسْتَحَبُّوا آلَ عَمَىٰ عَلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أَي : بَصَّرْنَاهُمْ وَبَيَّنَّا لَهُمْ وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْحَقَّ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ ﷺ فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَعَقَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي جَعَلَهَا آيَةً وَعَلَامَةً عَلَىٰ صِدْقِ نَبِيِّهِمْ ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ أَهْلُونَ﴾ أَي : بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَرَجْفَةً وَذُلًّا وَهَوَانًا وَعَذَابًا وَنَكَالًا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَي : مِنْ التَّكْذِيبِ وَالْجُحُودِ ﴿وَحَبَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي : مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَلَا نَأَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ ضَرَرٌ ، بَلْ نَجَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى مَعَ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ ﷺ بِإِيمَانِهِمْ وَبِتَقْوَاهُمْ لِلَّهِ ﷻ .

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا لِمَ جُلُودُنَا لَمْ يَسْهَدْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أَي : أُذَكِّرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ يُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ ﴿يُوزَعُونَ﴾ أَي : تَجْمَعُ الرِّبَابِيَّةُ أَوْهُمْ عَلَىٰ آخِرِهِمْ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَنُسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ [مريم : ٨٦] أَي : عِطَاشًا . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أَي : وَفُقُوا عَلَيْهَا ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي : بِأَعْمَالِهِمْ بِمَا قَدَّمُوهُ وَأَخْرَوْهُ لَا يُكْتَمُ مِنْهُ حَرْفٌ . ﴿وَقَالُوا لِمَ جُلُودُنَا لَمْ يَسْهَدْ عَلَيْنَا﴾ أَي : لَا مَوْتَ أَعْضَاءَهُمْ وَجُلُودُهُمْ حِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَجَابَتْهُمْ الْأَعْضَاءُ ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَي : فَهُوَ لَا يُخَالِفُ وَلَا يُبَايِعُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أَي : نَقُولُ لَهُمُ الْأَعْضَاءُ وَالْجُلُودُ حِينَ يَلُومُونَهَا عَلَى الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ : مَا كُنْتُمْ تَتَكْتُمُونَ مِنَّا الَّذِي كُنْتُمْ تَفْعَلُونَهُ ، بَلْ كُنْتُمْ مُجَاهِرُونَ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي وَلَا تَبَالُونَ مِنْهُ فِي زَعْمِكُمْ ؛ لَا تَكْتُمُ كُنْتُمْ لَا تَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ﴾ أَي : هَذَا الظَّنُّ الْفَاسِدُ - وَهُوَ اعْتِقَادُكُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ - هُوَ الَّذِي أَتْلَفَكُمْ وَأَرَادَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أَي : فِي مَوَاقِفِ الْقِيَامَةِ خَسِرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ .

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ قَالَ : « إِنَّكُمْ تَدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُقَدَّمًا عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِالْفِدَامِ فَأَقُولُ شَيْءٌ يُبَيِّنُ عَنْ أَحَدِكُمْ فَعِذَهُ وَكَفَّهُ » .
 قَالَ مَعْمَرٌ : وَتَلَا الْحَسَنُ : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكُمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا مَعَ عَبْدِي عِنْدَ ظَنِّهِ بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي » . ثُمَّ أَفْتَرَ الْحَسَنُ يَنْظُرُ فِي هَذَا ، فَقَالَ : أَلَا إِنَّمَا عَمِلَ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ ظَنُونِهِمْ بِرَبِّهِمْ ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَأَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَحْسَنَ الْعَمَلِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَأَسَاءَ الظَّنَّ بِاللَّهِ فَأَسَاءَ الْعَمَلِ ، ثُمَّ قَالَ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكُمْ ﴾ الْآيَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ أَيُّ : سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَصْبَرُوا أَمْ لَمْ يَصْبِرُوا هُمْ فِي النَّارِ ، لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا . وَإِنْ طَلَبُوا أَنْ يَسْتَعْتِبُوا وَيُبْدُوا أَعْدَارًا فَمَا لَهُمْ أَعْدَارٌ وَلَا تُقَالُ لَهُمْ عَثَرَاتٌ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا ﴾ أَيُّ : يَسْأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا فَلَا جَوَابَ لَهُمْ ، قَالَ : وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۝ ﴾ قَالَ أَحَسُّوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴿ [الْمُؤْمِنُونَ : ١٠٦ - ١٠٨]

﴿ وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ۝ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۝ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ۝ ﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِمَشِيتِهِ وَكَوْنِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي أَعْمَالِهِ ، بِمَا قَيَّضَ لَهُمْ مِنَ الْقُرْنَاءِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أَيُّ : حَسَّنُوا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فِي الْمَاضِي ، وَبِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ فَلَمْ يَرَوْا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا مُحْسِنِينَ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أَيُّ : كَلِمَةُ الْعَذَابِ ، كَمَا حَقَّ عَلَى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّنْ فَعَلَ كَفَعْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ أَيُّ : اسْتَوُوا هُمْ وَإِيَّاهُمْ فِي

الْخُسَارِ وَالذَّمَارِ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ ﴿١١﴾ أَيُّ : تَوَاصَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ لَا يُطِيعُوا لِلْقُرْآنِ وَلَا يَنْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ ﴿١٢﴾ وَالْعَوَا فِيهِ ﴿١٣﴾ يَعْنِي : بِالْمَكَاةِ وَالصَّفِيرِ وَالتَّخْلِيطِ فِي الْمُنْطَقِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ ، ﴿١٤﴾ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿١٥﴾ هَذَا حَالٌ هُوَ لِأَجْهَلَةِ مِنَ الْكُفَّارِ ، وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿١٦﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٧﴾ [الأعراف : ٢٠٤] ، ثُمَّ قَالَ ﷺ مُتَّصِرًا لِلْقُرْآنِ وَمُتَّفِعًا مِمَّنْ عَادَاهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرَانِ ﴿١٨﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴿١٩﴾ أَيُّ : فِي مُقَابَلَةِ مَا اعْتَمَدُوهُ فِي الْقُرْآنِ وَعِنْدَ سَمَاعِهِ ﴿٢٠﴾ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ أَيُّ : بِشَرِّ أَعْمَالِهِمْ وَسَيِّئِ أَفْعَالِهِمْ . ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٤﴾ عَنْ عَلِيٍّ ؑ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٢٥﴾ الَّذِينَ أَضَلَّانَا قَالَ : إِبْلِيسُ وَابْنُ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿٢٦﴾ نَجْعَلُهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا أَيُّ : أَسْفَلَ مِنَّا فِي الْعَذَابِ لِيَكُونَا أَشَدَّ عَذَابًا مِنَّا ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿٢٧﴾ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ أَيُّ : فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٨﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٢٩﴾ نَزْلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا أَيُّ : أَخْلَصُوا الْعَمَلَ لِلَّهِ وَعَمِلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا شَرَعَ اللَّهُ لَهُمْ . عَنْ سَعِيدِ بْنِ نُمَيْرَانَ قَالَ : قَرَأْتُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ؓ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿٣٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ، قَالَ : هُمُ الَّذِينَ لَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٣٣﴾ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : يَعْنِي : عِنْدَ الْمَوْتِ قَائِلِينَ : ﴿٣٤﴾ أَلَّا تَخَافُوا أَيُّ : بِمَا تَقْدِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ﴿٣٥﴾ وَلَا تَحْزَنُوا ﴿٣٦﴾ عَلَى مَا خَلَقْتُمُوهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا ، مِنْ وَلَدٍ وَأَهْلٍ ، وَمَالٍ أَوْ دِينٍ ، فَإِنَّا نَخْلُقُكُمْ فِيهِ ﴿٣٧﴾ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٨﴾ فَيُبَشِّرُهُمْ بِذَهَابِ الشَّرِّ وَحُصُولِ الْخَيْرِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ . وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : يُبَشِّرُونَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ وَفِي قَبْرِهِ وَحِينَ يُبْعَثُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا ، وَهُوَ حَسَنٌ جِدًّا ، وَهُوَ الْوَاقِعُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿٣٩﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ أَيُّ : تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْإِحْضَارِ : نَحْنُ كُنَّا أَوْلِيَائَكُمْ ، أَيُّ : قُرَنَاءُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نُسَدِّدُكُمْ

وَنُوفِّقُكُمْ وَنَحْفَظُكُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَكَذَلِكَ نَكُونُ مَعَكُمْ فِي الْآخِرَةِ نُؤَسِّسُ مِنْكُمْ الْوَحْشَةَ فِي الْقُبُورِ ، وَعِنْدَ النَّفْحَةِ فِي الصُّورِ ، وَنُؤَمِّنُكُمْ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ، وَنُجَاوِزُ بِكُمْ الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَنُوصِّلُكُمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ ﴾ أَيُّ : فِي الْجَنَّةِ مِنْ جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَ مِمَّا تَشْتَهُهُ النَّفُوسُ وَتَقَرُّ بِهِ الْعُيُونُ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ أَيُّ : مَهْمَا طَلَبْتُمْ وَجَدْتُمْ ، وَحَصَرَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ كَمَا اخْتَرْتُمْ ﴿ ثُلَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ أَيُّ : ضِيَافَةً وَعَطَاءً ، وَإِنْعَامًا مِنْ غُفُورٍ لِذُنُوبِكُمْ رَحِيمٍ بِكُمْ ، رَعُوفٍ حَيْثُ غَفَرَ وَسَرَّ وَرَحِمَ وَلَطَفَ .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ أَدْفَعُ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿

يَقُولُ ﷺ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أَيُّ : دَعَا عِبَادَ اللَّهِ إِلَيْهِ ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيُّ : وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُهْتَدٍ بِمَا يَقُولُهُ ، فَفَعَلَهُ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ لَازِمٌ وَمُتَعَدٍّ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَأْتُونَهُ ، بَلْ يَأْتُمِرُ بِالْخَيْرِ وَيَتْرُكُ الشَّرَّ ، وَيَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى الْخَالِقِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَهَذِهِ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ دَعَا إِلَى خَيْرٍ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُهْتَدٍ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَى النَّاسِ بِذَلِكَ . ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ أَيُّ : فَرَقٌ عَظِيمٌ بَيْنَ هَذِهِ وَهَذِهِ ﴿ أَدْفَعُ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أَيُّ : مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ فَادْفَعْهُ عَنْكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ عُمَرُ ﷺ : مَا عَاقَبْتَ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ فِيهِ . ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، وَهُوَ الصَّدِيقُ ، أَيُّ : إِذَا أَحْسَنْتَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ فَادْتَنَّهُ تِلْكَ الْحَسَنَةُ إِلَيْهِ إِلَى مُصَافَاتِكَ وَمَحَبَّتِكَ وَالْحُبِّ عَلَيْكَ ، حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ لَكَ حَمِيمٌ ، أَيُّ : قَرِيبٌ إِلَيْكَ ، مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَيْكَ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْكَ . قَالَ ﷺ : ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أَيُّ : وَمَا يَقْبَلُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ وَيَعْمَلُ بِهَا إِلَّا مَنْ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَشْقُ عَلَى النَّفُوسِ ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أَيُّ : ذُو نَصِيبٍ وَافِرٍ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْعُصْبِ ، وَالْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْإِسَاءَةِ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَخَضَعَ لَهُمْ عَدُوَّهُمْ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أَيُّ : إِنَّ شَيْطَانَ الْإِنْسِ رُبَّمَا يَنْخَدِعُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، فَأَمَّا شَيْطَانُ الْجَنِّ فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ فِيهِ - إِذَا وَسَّوسَ - إِلَّا الْإِسْتِعَاذَةُ بِخَالِقِهِ الَّذِي سَلَطَهُ

عَلَيْكَ ، فَإِذَا اسْتَعْذَتْ بِاللَّهِ وَالتَّجَّاتِ إِلَيْهِ كَفَّهُ عَنْكَ وَرَدَّ كَيْدَهُ ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ يَقُولُ : « أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ » .

وَمِنْ ءَايَتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ۚ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٦٧﴾ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَمِنْ ءَايَتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى ۚ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبْنًى خَلَقَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَأَنَّهُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ ، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ﴿ وَمِنْ ءَايَتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أَيُّ : أَنَّهُ خَلَقَ اللَّيْلَ بظُلَامِهِ وَالنَّهَارَ بِضِيائِهِ ، وَهُمَا مُتَعَاكِبان لَا يَقْرَآنِ ، وَالشَّمْسُ وَتُورَهَا وَإِشْرَاقَهَا ، وَالْقَمَرُ وَضِيَاءَهُ وَتَقْدِيرَ مَنَازِلِهِ فِي فَلَكِهِ ، وَاخْتِلَافَ سَيْرِهِ فِي سَمَائِهِ ؛ لِيُعْرَفَ بِاخْتِلَافِ سَيْرِهِ وَسَيْرِ الشَّمْسِ مَقَادِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْجَمْعُ وَالشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ ، وَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ حُلُولُ الْحَقُوقِ وَأَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ . ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ أَحْسَنُ الْأَجْرَامِ الْمَشَاهِدَةِ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَتَمِّهَا مَخْلُوقَانِ عَبْدَانِ مِنْ عِبِيدِهِ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ ، فَقَالَ : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ۚ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أَيُّ : وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ ، فَمَا تَنْفَعُكُمْ عِبَادَتُكُمْ لَهُ مَعَ عِبَادَتِكُمْ لغيرِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا ﴾ أَيُّ : عَنْ إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَأَبْوَا إِلَّا أَنْ يُشْرِكُوا مَعَهُ غَيْرُهُ ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةُ ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ ءَايَتِهِ ﴾ أَيُّ : عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى إِعَادَةِ الْمَوْتَى ﴿ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ أَيُّ : هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا ، بَلْ هِيَ مَيِّتَةٌ ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ أَيُّ : أَخْرَجَتْ مِنْ جَبَلِ أَلْوَانِ الزُّرُوعِ وَالنَّهَارِ ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى ۚ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۚ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبٌ عَزِيزٌ ﴿٧١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٧٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو

مَغْفِرَةً وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٤﴾

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْإِلْحَادُ: وَضْعُ الْكَلَامِ عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: هُوَ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ.

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَا تَخَفُونَّ عَلَيْنَا﴾ فِيهِ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، أَيْ: أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمُ مَنْ يُلْحِدُ فِي آيَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَسَيَجْزِيهِ عَلَى ذَلِكَ بِالْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَيْ: أَيْسَرُ هَذَا وَهَذَا؟ لَا يَسْتَوِيَانِ. ثُمَّ قَالَ ﷻ: تَهْدِيدًا لِلْكَافِرَةِ ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وَوَعِيدٌ: أَيْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بِكُمْ وَبَصِيرٌ بِأَعْمَالِكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبٌ عَرِيزٌ﴾ أَيْ: مَنِعُ الْجَنَابِ لَا يُرَامُ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ بِمِثْلِهِ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أَيْ: لَيْسَ لِلْبَطْلَانِ إِلَيْهِ سَبِيلٌ؛ لَأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أَيْ: حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، حَمِيدٌ بِمَعْنَى: مَحْمُودٌ، أَيْ: فِي جَمِيعِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ، الْجَمِيعُ مُحْمُودَةٌ عَوَاقِبُهُ وَغَايَاتُهُ. ثُمَّ قَالَ: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ مَا يُقَالُ لَكَ مِنَ التَّكْذِيبِ إِلَّا كَمَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ، فَكَمَا كُذِّبَتْ كُذِّبُوا، وَكَمَا صَبَرُوا عَلَى أَدَى قَوْمِهِمْ هُمْ فَاصِرُونَ أَنْتَ عَلَى أَدَى قَوْمِكَ لَكَ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أَيْ: لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَيْ: لِمَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ وَعِنَادِهِ وَشِقَاقِهِ وَمُخَالَفَتِهِ.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّا مَرَّبِىٰ بِهِ ﴿١٦﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْقُرْآنَ وَفَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ، وَإِحْكَامَهُ فِي لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ بِالْمُشْرِكُونَ، نَبَّهَ عَلَى أَنَّ كُفْرَهُمْ بِهِ كُفْرٌ عِنَادٍ وَتَعَنُّتٍ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿[الشعراء: ١٩٨-١٩٩] كَذَلِكَ لَوْ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ كُلَّهُ بِلُغَةِ الْعَجَمِ؛ لَقَالُوا عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أَيْ: لَقَالُوا: هَلَّا أَنْزَلَ مُفَصَّلًا بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَلَا تَكْرُوا ذَلِكَ، فَقَالُوا: أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ، أَيْ: كَيْفَ يَنْزِلُ كَلَامٌ أَعْجَمِيٌّ عَلَى مُحَاطَبِ عَرَبٍ لَا يَفْهَمُهُ؟ وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ

ءَايَاتُهُ ۚ ءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ أَيُّ : هَلَّا أَنْزَلَ بَعْضَهَا بِالْأَعْجَمِيِّ وَبَعْضَهَا بِالْعَرَبِيِّ ؟ ، ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ۚ أَيُّ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَذَا الْقُرْآنَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ هُدًى لِقَلْبِهِ وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ مِنَ الشُّكُوكِ وَالرَّيْبِ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقَرْ ۚ أَيُّ : لَا يَفْهَمُونَ مَا فِيهِ ۚ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أَيُّ : لَا يَهْتَدُونَ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۚ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي : بَعِيدٌ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ : كَأَنَّ مَنْ يُخَاطَبُهُمْ يُنَادِيهِمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ لَا يَفْهَمُونَ مَا يَقُولُ ، قُلْتُ : وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْتَعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمُّ بِكُمْ عُمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ ۚ أَيُّ : كُذِّبَ وَأُوذِيَ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ۚ بِتَأْخِيرِ الْحِسَابِ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ ۚ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ ۚ أَيُّ : لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۚ أَيُّ : وَمَا كَانَ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ عَنْ بَصِيرَةٍ مِنْهُمْ لَمَّا قَالُوا ، بَلْ كَانُوا شَاكِينَ فِيمَا قَالُوهُ غَيْرَ مُحَقِّقِينَ لِسَيِّءِ كَانُوا فِيهِ .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥٦﴾ ۖ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٥٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنَ نَجْوًى ۚ ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۚ أَيُّ : إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ ۚ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ أَيُّ : إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۚ أَيُّ : لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا بِدَنِّهِ ، وَلَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِزْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ أَيُّ : لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ - وَهُوَ سَيِّدُ الْبَشَرِ - لِحَبْرِيْلَ ٱلْعَلِيِّ - وَهُوَ مِنْ سَادَاتِ الْمَلَائِكَةِ - حِينَ سَأَلَهُ عَنِ السَّاعَةِ فَقَالَ : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ أَيُّ : الْجَمِيعُ بِعِلْمِهِ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ۚ ﴾ [الأنعام: ٥٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْدَادُ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۚ ﴾ [الرعد: ٨]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ۚ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنَادِي اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ رُءُوسِ الْخَلَائِقِ : أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ عَبْدْتُمُوهُمْ مَعِيَ ؟ ۚ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ ۚ أَيُّ : أَعْلَمْنَاكَ ۚ مَا مِنَّا

مِنْ شَهِيدٍ ﴿١٠٠﴾ أَيُّ : لَيْسَ أَحَدٌ مِّنَّا يَشْهَدُ الْيَوْمَ أَنَّ مَعَكَ شَرِيكًا ﴿١٠١﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴿١٠٢﴾ أَيُّ : ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُوهُمْ ﴿١٠٣﴾ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحْيٍ ﴿١٠٤﴾ أَيُّ : وَظَنَ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا بِمَعْنَى الْيَقِينِ ﴿١٠٥﴾ مَا لَهُمْ مِنْ مَّحْيٍ ﴿١٠٦﴾ أَيُّ : لَا يَحْيِدُهُمْ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ .

لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُتَوَسَّسُ قَنُوطٌ ﴿١٠٧﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١٠٨﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَا يَمَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ رَبِّهِ بِالْخَيْرِ ، وَهُوَ : الْمَالُ وَصِحَّةُ الْجَسْمِ وَغَيْرُ ذَلِكَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ ، وَهُوَ الْبَلَاءُ أَوْ الْفَقْرُ ﴿١١١﴾ فَيُتَوَسَّسُ قَنُوطٌ ﴿١١٢﴾ أَيُّ : يَقَعُ فِي ذَهْنِهِ أَنَّهُ لَا يَتَّيَهُأُ لَهُ بَعْدَ هَذَا خَيْرٌ ﴿١١٣﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى ﴿١١٤﴾ أَيُّ : إِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ وَرَزَقُ بَعْدَ مَا كَانَ فِي شِدَّةٍ لَيَقُولَنَّ : هَذَا لِي ، إِنِّي كُنْتُ أَسْتَحِقُّهُ عِنْدَ رَبِّي ﴿١١٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴿١١٦﴾ أَيُّ : يَكْفُرُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ ، أَيُّ : لِأَجْلِ أَنَّهُ خَوَّلَ نِعْمَةً ، يَنْطَرُ وَيَفْخَرُ وَيَكْفُرُ ﴿١١٧﴾ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ ﴿١١٨﴾ أَيُّ : وَلَئِنْ كَانَ ثَمَّ مَعَادٌ ، فَلْيُحْسِنَنَّ إِلَيَّ رَبِّي كَمَا أَحْسَنَ إِلَيَّ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، يَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ ﷻ مَعَ إِسَاءَتِهِ الْعَمَلِ وَعَدَمِ الْيَقِينِ ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿١١٩﴾ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١٢٠﴾ يَتَهَدَّدُ تَعَالَى مَنْ كَانَ هَذَا عَمَلُهُ وَاعْتِقَادُهُ بِالْعِقَابِ وَالنَّكَالِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿١٢١﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا ﴿١٢٢﴾ أَيُّ : أَعْرَضَ عَنِ الطَّاعَةِ وَاسْتَكْبَرَ عَنِ الْإِنْقِيَادِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ ﷻ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴿١٢٤﴾ أَيُّ : الشَّدَّةُ ﴿١٢٥﴾ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿١٢٦﴾ أَيُّ : يُطِيلُ الْمَسْأَلَةَ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ ، فَالْكَلَامُ الْعَرِيضُ : مَا طَالَ لَفْظُهُ وَقَلَّ مَعْنَاهُ وَالْوَجِيزُ عَكْسُهُ : وَهُوَ مَا قَلَّ وَدَلَّ .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَصْلُ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٢٧﴾ سَتَرْنَاهُمْ عَنْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٢٨﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿١٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿١٣٠﴾ قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ ﴿١٣١﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿١٣٢﴾ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴿١٣٣﴾ أَيُّ : كَيْفَ تَرَوْنَ حَالَكُمْ عِنْدَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ؟ وَهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿١٣٤﴾ مَنْ أَصْلُ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٣٥﴾ أَيُّ : فِي كُفْرٍ وَعِنَادٍ وَمُشَاقَّةٍ لِلْحَقِّ وَمَسْلَكٍ بَعِيدٍ مِنَ الْهُدَى . ثُمَّ قَالَ : ﴿١٣٦﴾ سَتَرْنَاهُمْ عَنْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴿١٣٧﴾ أَيُّ : سَنُظْهِرُهُمْ دَلَالَاتِنَا

وَحُجِّجْنَا عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ حَقًّا مُنْزَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِدَلَالِلٍ خَارِجِيَّةٍ ﴿١٠٠﴾ فِي الْآفَاقِ ﴿١٠١﴾ مِنَ الْفُتُوحَاتِ وَظُهُورِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْأَقَالِيمِ وَسَائِرِ الْأَدْيَانِ . ﴿١٠٢﴾ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٠٣﴾ أَيْ : كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ وَأَقْوَالِهِمْ ، وَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ صَادِقٌ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ . ﴿١٠٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴿١٠٥﴾ أَيْ : فِي شَكٍّ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَلِهَذَا لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهِ وَلَا يَعْمَلُونَ لَهُ وَلَا يَحْذَرُونَ مِنْهُ ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ هَذَرٌ لَا يَعْبُتُونَ بِهِ ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعٌ لَا رَيْبَ فِيهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَرَّرًا أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَبِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ، وَإِقَامَةُ السَّاعَةِ لَدَيْهِ يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿١٠٦﴾ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿١٠٧﴾ أَيْ : الْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَفِي قَبْضَتِهِ ، وَتَحْتَ طِيٍّ عِلْمِهِ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا كُلُّهَا بِحُكْمِهِ ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ «فُصِّلَتْ»



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَدَسْتَعْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ ﴿٧﴾ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴿٨﴾ أَيْ : كَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ كَذَلِكَ أُنْزِلَ الْكُتُبُ وَالصُّحُفُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ . ﴿٩﴾ اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴿١٠﴾ أَيْ : فِي إِنْتِقَامِهِ ﴿١١﴾ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ ﴿١٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿١٤﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ عِبْدٌ لَهُ ، وَمُلْكٌ لَهُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَصَرُّفِهِ ﴿١٥﴾ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿١٦﴾ . وَقَوْلُهُ ﴿١٧﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴿١٨﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَيْ : فَرَقًا مِنَ الْعَظَمَةِ ﴿١٩﴾ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَدَسْتَعْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴿٢٠﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴿٢٢﴾ [غافر : ٧] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٢٣﴾ أَلَا إِنَّ

اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ إِعْلَامٌ بِذَلِكَ وَتَنْوِيهٌ بِهِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ ﴿ اللَّهُ حَفِيطٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، يُخَصِّصُهَا وَيَعُدُّهَا عَدًّا ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِهَا أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أَي : إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِكَ ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أَي : وَاضِحًا جَلِيلًا بَيْنًا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ، وَهِيَ مَكَّةُ ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أَي : مَنْ سَائِرِ الْبِلَادِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَسُمِّيَتْ مَكَّةُ أُمَّ الْقُرَى ؛ لِأَنَّهَا أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ ، لِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ مَذْكُورَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَي : لَا شَكَّ فِي وَقُوعِهِ وَأَنَّهُ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أَي : إِنَّمَا عَلَى الْهُدَايَةِ أَوْ عَلَى الضَّلَالَةِ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى فَآوَتْ بَيْنَهُمْ فَهَدَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ وَأَضَلَّ مَنْ يَشَاءُ عَنْهُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، وَهَذَا قَالَهُ ﷺ : ﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

أَمْرٌ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٥﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۚ يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٦﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمُخْبِرًا أَنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ ، فَإِنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أَي : مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أَي : هُوَ الْحَاكِمُ فِيهِ بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أَي : الْحَاكِمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أَي : أَرْجِعُ

فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : خَالِقُهَا وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أَيُّ : مِّنْ جِنْسِكُمْ وَشَكْلِكُمْ ، مِّنْهُ عَلَيْكُمْ وَتَفَضُّلاً جَعَلَ مِّنْ جِنْسِكُمْ ذَكَرًا وَانْثَى ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ أَيُّ : وَخَلَقَ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴿ يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أَيُّ : يَخْلُقُكُمْ فِيهِ ، أَيُّ : فِي ذَلِكَ الْخَلْقِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَا يَزَالُ يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ ذُكُورًا وَإِناثًا ، خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقِ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَنَسْلًا بَعْدَ نَسْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ كَخَالِقِ الْأَزْوَاجِ كُلِّهَا شَيْءٌ ؛ لِأَنَّهُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ « الزُّمَرِ » وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ فِيهِمَا ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيُّ : يُوسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ التَّامُّ ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿

يَقُولُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ فَذَكَرَ أَوَّلَ الرُّسُلِ بَعْدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَآخِرُهُمْ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ أُولِي الْعِزِّ وَهُمْ : إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ انْتِظَمَتْ ذِكْرُ الْخَمْسَةِ كَمَا اشْتَمَلَتْ آيَةُ « الْأَحْزَابِ » عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكُمْ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [الْأَحْزَابِ : ٧] . وَالَّذِينَ الَّذِينَ جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ كُلُّهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ : ٢٥] . وَفِي الْحَدِيثِ « نَحْنُ مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَاتٍ دِينَنَا وَاحِدٌ » أَيُّ : الْقُدْرُ الْمُشْتَرِكُ بَيْنَهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ شَرَائِعُهُمْ وَمَنَاهِجُهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمَنَاجِيًا ﴾ [الْمَائِدَةِ : ٤٨] وَهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أَيُّ : أَوْصَى اللَّهُ تَعَالَى جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِالْإِتِّبَالِ وَالْجَمَاعَةِ وَمَنَاهِمُ عَنِ الْإِفْتِرَاقِ وَالْإِخْتِلَافِ . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أَيُّ : شَقَّ عَلَيْهِمْ وَأَنْكَرُوا مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ

يَا مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ أَيُّ : هُوَ الَّذِي يُقَدِّرُ الْهُدَايَةَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا وَيَكْتُبُ الضَّلَالَةَ عَلَى مَنْ أَثَرَهَا عَلَى طَرِيقِ الرُّشْدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] أَيُّ : إِنَّمَا كَانَ مُحَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ بَعْدَ بُلُوغِهِ إِلَيْهِمْ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْبَغْيُ وَالْعِنَادُ وَالْمُشَاقَّةُ ، ثُمَّ قَالَ ﷺ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أَيُّ : لَوْلَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِإِنْظَارِ الْعِبَادِ بِإِقَامَةِ حِسَابِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ لَعَجَلَ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا سَرِيعًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ يَعْنِي : الْجِيلَ الْمُتَأَخَّرَ بَعْدَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْمَكْذُوبِ لِلْحَقِّ ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَرِيبٌ ﴾ أَيُّ : لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَإِنَّمَا هُمْ مُقَلِّدُونَ لِأَبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، وَهُمْ فِي خَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَشَكٍّ مَرِيبٍ وَشَقَاقٍ بَعِيدٍ . فَلِذَلِكَ فَادَّعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ تَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى عَشْرِ كَلِمَاتٍ مُسْتَقِلَّاتٍ ، كُلُّ مِنْهَا مُتَفَصِّلَةٌ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا ، حُكْمٌ بِرَأْسِهِ ، قَالُوا : وَلَا نَظِيرَ لَهَا سِوَى آيَةِ الْكُرْسِيِّ ، فَإِنَّهَا أَيْضًا عَشْرُ فُصُولٍ كَهَذِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادَّعُ ﴾ أَيُّ : فَلِلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي وَصَّيْنَا بِهِ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ ، أَصْحَابَ الشَّرَائِعِ الْكِبَارِ الْمُتَّبَعَةِ كَأُولِي الْعِزِّمْ وَغَيْرِهِمْ فَادَّعُ النَّاسَ إِلَيْهِ . ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أَيُّ : وَاسْتَقِمْ أَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﷻ ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ فِيَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَكَذَّبُوهُ وَافْتَرَوْهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ . ﴿ ءَامَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أَيُّ : صَدَقْتُ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ . ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أَيُّ : فِي الْحُكْمِ كَمَا أَمَرَنِي اللَّهُ ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْمَعْبُودُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، فَحُجْنُ نَقَرٍ بِذَلِكَ اخْتِيَارًا ، وَأَنْتُمْ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ اخْتِيَارًا فَلَهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي الْعَالَمِينَ طَوْعًا وَإِجْبَارًا . ﴿ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ ﴾ أَيُّ : نَحْنُ بُرَاءٌ مِنْكُمْ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَيُّ : لَا خُصُومَةَ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : وَذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ السِّيفِ ، وَهَذَا مُتَّجَهٌ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ وَآيَةُ السِّيفِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ . ﴿ اللَّهُ تَجْمَعُ

بَيْنَنَا ۖ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ تَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ۖ ﴾ [سبا : ٢٦] ، ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۖ ﴾ أَيُّ : الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبُ يَوْمَ الْحِسَابِ .

وَالَّذِينَ تَخْجَوْنَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٧﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٢٨﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۖ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ۖ ﴿ وَالَّذِينَ تَخْجَوْنَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ ۖ ﴾ أَيُّ : يُجَادِلُونَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ لِيَصُدُّوهُمْ عَمَّا سَلَكَوهُ مِنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ ﴾ أَيُّ : بَاطِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ۖ ﴾ أَيُّ : مِنْهُ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : جَادَلُوا الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَمَا اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ الْهُدَى وَطَمَعُوا أَنْ تَعُودَ الْجَاهِلِيَّةُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالُوا لَهُمْ : دِينُنَا خَيْرٌ مِنْ دِينِكُمْ ، وَنَبِينَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ ، وَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ وَأَوَّلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ ، وَقَدْ كَذَّبُوا فِي ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۖ ﴾ يَعْنِي : الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿ وَالْمِيزَانَ ۖ ﴾ ، وَهُوَ : الْعَدْلُ وَالْإِنصَافُ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۖ ﴾ فِيهِ تَرْغِيبٌ فِيهَا وَتَرْهيبٌ مِنْهَا وَتَرْهِيدٌ فِي الدُّنْيَا ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ ﴾ أَيُّ : يَقُولُونَ : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ ﴾ [الملك : ٢٥] ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ تَكْذِيبًا وَاسْتِبْعَادًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ۖ ﴾ أَيُّ : خَائِفُونَ وَجُلُونَ مِنْ وَقُوعِهَا ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۖ ﴾ أَيُّ : كَائِنَتْ لَا مُحَالَةَ فَهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لَهَا عَامِلُونَ مِنْ أَجْلِهَا . ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ۖ ﴾ أَيُّ : يُجَادِلُونَ فِي وُجُودِهَا وَيَدْفَعُونَ وَقُوعَهَا ﴿ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۖ ﴾ أَيُّ : فِي جَهْلٍ بَيِّنٍ ؛ لِأَنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى .

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٣٠﴾ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٣١﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ۖ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقِيعُ بَهِيمٍ ۖ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ

الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ فِي رِزْقِهِ إِنَّا هُمْ عَنْ آخِرِهِمْ لَا يَنْسَى أَحَدًا مِنْهُمْ سَوَاءً فِي رِزْقِهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود: ١٦] ، وَلَهَا نَظَائِرٌ كَثِيرَةٌ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : يُوسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ أَيُّ : لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ﴾ أَيُّ : عَمَلَ الْآخِرَةِ ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ أَيُّ : نُقْوِيهِ وَنُعِينُهُ عَلَى مَا هُوَ بِصَدْدِهِ ، وَنُكْثِرْ نِجَاءَهُ وَنَجْزِيهِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَلِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ أَيُّ : وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا سَعْيُهُ لِيُحْصَلَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَلَيْسَ لَهُ إِلَى الْآخِرَةِ هِمَّةٌ الْبَتَّةَ بِالْكُلِّيَّةِ ، حَرَمَهُ اللَّهُ الْآخِرَةَ وَالدُّنْيَا إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَإِنْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يُحْصَلْ لَا هَذِهِ وَلَا هَذِهِ . وَفَازَ السَّاعِي بِهِذِهِ النِّيَّةِ بِالصَّفَقَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ أَيُّ : هُمْ لَا يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ اللَّهُ لَكَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ ، بَلْ يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، مِنْ تَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ ، مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ ، وَتَحْلِيلِ أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ وَالْفَهَارِ ، إِلَى نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَةِ الْبَاطِلَةِ ، الَّتِي كَانُوا قَدْ اخْتَرَعُوهَا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ، وَالْعِبَادَاتِ الْبَاطِلَةِ وَالْأَمْوَالِ الْفَاسِدَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ أَفْضَلَ لَقَضَى بَيْنَهُمْ ﴾ أَيُّ : لَعُوجِلُوا بِالْعُقُوبَةِ ، لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِنْظَارِ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : شَدِيدٌ مُوجِعٌ فِي جَهَنَّمَ وَبَشَسَ الْمَصِيرُ ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أَيُّ : فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أَيُّ : الَّذِي يَخَافُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ ، هَذَا حَالُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَهُمْ فِي هَذَا الْخَوْفِ وَالْوَجَلِ ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا ؟ أَيُّ : أَيْنَ مَنْ هُوَ فِي الْعَرَصَاتِ فِي الدُّلِّ وَالْهُوَانِ وَالْخَوْفِ الْمُحَقَّقِ عَلَيْهِ بِظُلْمِهِ ، مِمَّنْ هُوَ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، فِيهَا يَشَاءُ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَسَارِبٍ وَمَلَابِسٍ وَمَسَاكِينٍ وَمَنَاطِرٍ وَمَنَاجِحٍ وَمَلَادٍ ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَيْتَ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ أَيُّ : الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالنَّعْمَةُ التَّامَّةُ السَّابِغَةُ الشَّامِلَةُ الْعَامَّةُ .

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشِإِ اللَّهُ تَخَتَّمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقِّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ لِّمَا ذَكَرَ رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿ ذَلِكِ الَّذِي يَبْشِرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أَيُّ : هَذَا حَاصِلُ هُمْ ، كَائِنٌ لَا مُحَالَةَ بِبَشَارَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ هُمْ بِهِ . ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أَيُّ : قُلْ يَا مُحَمَّدٌ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَىٰ هَذَا الْبَلَغِ وَالنُّصْحِ لَكُمْ مَا لَا تُعْطُونِيهِ ، وَإِنَّمَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ تَكْفُوا سَرَّكُمْ عَنِّي وَتَذَرُونِي أَبْلُغَ رِسَالَاتِ رَبِّي ، إِنْ لَمْ تَنْصُرُونِي فَلَا تُؤْذُونِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ الْقَرَابَةِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : قُرْبَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : عَجِلْتُ ، إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ ، فَقَالَ : إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أَيُّ : وَمَنْ يَعْمَلْ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، أَيُّ : أَجْرًا وَثَوَابًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أَيُّ : يَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وَيَكْثُرُ الْقَلِيلُ مِنَ الْحَسَنَاتِ ، فَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ وَيُضَاعِفُ فَيُشْكِرُ . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشِإِ اللَّهُ تَخَتَّمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أَيُّ : لَوْ افْتَرَيْتَ عَلَيْهِ كَذِبًا كَمَا يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ ﴿ تَخَتَّمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أَيُّ : يَطْبَعُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ، وَسَلْبَكَ مَا كَانَ آتَاكَ مِنَ الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٧] أَيُّ : لَا نَنْتَقِمْنَا مِنْهُ أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ ، وَمَا قَدَّرَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَحْجِزَ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ﴾ لَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿ تَخَتَّمْ ﴾ فَيَكُونُ مَجْزُومًا بَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَيُحِقِّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَىٰ ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ ﴾ أَيُّ : يُحَقِّقُهُ وَيُثَبِّتُهُ وَيُيَسِّرُهُ وَيُوضِّحُهُ ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أَيُّ : بِحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أَيُّ : بِمَا تَكُنُّهُ الصُّمُورُ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ .

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرِ

مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَنًا عَلَى عِبَادِهِ بِقُبُولِ تَوْبَتِهِمْ إِلَيْهِ إِذَا تَابُوا وَرَجَعُوا إِلَيْهِ ، إِنَّهُ مِنْ كَرَمِهِ وَحِلْمِهِ أَنَّهُ يَعْفُو وَيَصْفَح وَيَسِّرُ وَيَغْفِرُ ، كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] ، وَقَوْلُهُ ﷻ ﴿ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ أَيُّ : يَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ فِي الْمَاضِي ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أَيُّ : هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا فَعَلْتُمْ وَصَنَعْتُمْ وَقُلْتُمْ ، وَمَعَ هَذَا يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ . ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يَعْنِي : يَسْتَجِيبُ لَهُمْ ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أَيُّ : يَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ، ذَكَرَ الْكَافِرِينَ وَمَا لَهُمْ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الْمَوْجِعِ الْمُؤْلِمِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَحِسَابِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : لَوْ أَعْطَاهُمْ فَوْقَ حَاجَتِهِمْ مِنَ الرِّزْقِ ، لَحَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ أَشْرًا وَبَطْرًا ﴿ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أَيُّ : وَلَكِنْ يَرْزُقُهُمْ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَخْتَارُهُ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ فَيُعْطِي مَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِنَى وَيُفْقِرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ . ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ أَيُّ : مِنْ بَعْدِ إِيَّاسِ النَّاسِ مِنْ نَزُولِ الْمَطَرِ ، يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِمْ فِي وَفْتٍ حَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ إِلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [الروم : ٤٩] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أَيُّ : يَعْمُ بِهَا الْوُجُودَ عَلَى أَهْلِ ذَلِكَ الْقَطْرِ وَتِلْكَ النَّاحِيَةِ . فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُتَصَرِّفُ لِحَلْقِهِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ ، وَهُوَ الْمُحْمَدُ الْعَاقِبَةُ فِي جَمِيعِ مَا يَقْدَرُهُ وَيَفْعَلُهُ .

وَمِنْ ءَايَتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ءَايَتِهِ ۚ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ ۚ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا ﴾ أَيُّ : ذَرَأَ فِيهِمَا ، أَيُّ : فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَسَائِرَ الْحَيَوَانَاتِ ، عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ

وَلُغَاتِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ وَأَنْوَاعِهِمْ ، وَقَدْ فَرَّقَهُمْ فِي أَرْجَاءِ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 ﴿ وَهُوَ ﴾ مَعَ هَذَا كُلِّهِ ﴿ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ
 وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِهِ
 الْعَدْلِ الْحَقِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أَيُّ : مَهْمَا أَصَابَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ
 الْمَصَائِبِ فَإِنَّمَا هِيَ عَنْ سَيِّئَاتٍ تَقَدَّمَتْ لَكُمْ ﴿ وَبِعُفْوٍ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أَيُّ : مِنَ السَّيِّئَاتِ فَلَا يُجَازِيكُمْ
 عَلَيْهَا بَلْ يَعْفُو عَنْهَا ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥]

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿١٠﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى
 ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١١﴾ أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ
 كَثِيرٍ ﴿١٢﴾ وَبِعَلَّمَ الَّذِينَ تُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِصَصٍ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ وَسُلْطَانِهِ تَسْخِيرُهُ الْبَحْرَ لِتَجْرِي فِيهِ
 الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ، وَهِيَ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ، أَيُّ : كَالْجِبَالِ . أَيُّ : هَذِهِ فِي الْبَحْرِ كَالْجِبَالِ
 فِي الْبَرِّ ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ ﴾ أَيُّ : الَّتِي تَسِيرُ فِي الْبَحْرِ بِالسُّفُنِ لَوْ شَاءَ لَسَكَنَهَا حَتَّى لَا تَتَحَرَّكَ
 السُّفُنُ بَلْ تَبْقَى رَاكِدَةً لَا تَحْيِيءُ وَلَا تَذْهَبُ بَلْ وَاقِفَةٌ عَلَى ظَهْرِهِ ، أَيُّ : عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ﴿ إِنْ فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أَيُّ فِي الشَّدَائِدِ ﴿ شَكُورٍ ﴾ أَيُّ فِي الرَّخَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أَيُّ : وَلَوْ شَاءَ لَأَهْلَكَ السُّفُنُ وَغَرَّقَهَا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا الَّذِينَ
 هُمْ رَاكِبُونَ فِيهَا ﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أَيُّ : مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَلَوْ أَخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لَأَهْلَكَ كُلَّ
 مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ ﴿ وَبِعَلَّمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِصَصٍ ﴾ أَيُّ : لَا حِجْدَ لَهُمْ عَنْ بَأْسِنَا
 وَنَقَمَتِنَا فَإِنَّهُمْ مَقْهُورُونَ بِقُدْرَتِنَا .

فَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى
 رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ يَحْتَبِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ
 ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
 يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَقَّرًا لِشَأْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الزُّهْرَةِ وَالنَّعِيمِ الْفَانِي بِقَوْلِهِ تَعَالَى
 ﴿ فَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أَيُّ : مَهْمَا حَصَلَتْكُمْ وَجَمَعَتْكُمْ فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ ، فَإِنَّمَا هُوَ

مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهِيَ دَارُ دُنْيَةٍ فَإِنَّهُ زَائِلَةٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أَي : وَثَوَابُ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ بَاقٍ سَرْمَدِيٌّ فَلَا تُقَدِّمُوا الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَي : لِلَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى تَرْكِ الْمَلَاذِّ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أَي : لِيُعِينَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ فِي أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ . ﴿ وَالَّذِينَ يَحْتَبِئُونَ كَيْدًا لِآلِهِمْ وَآلِفُوا حِشًّا ﴾ وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ فِي سُورَةِ « الْأَعْرَافِ » . ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أَي : سَجَّيْتُهُمْ تَقْضِي الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ عَنِ النَّاسِ ، لَيْسَ سَجَّيْتُهُمُ الْإِنْتِقَامُ مِنَ النَّاسِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا أَنْتَقَمَ لِنَفْسِهِ قَطُّ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَاتُ اللَّهِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أَي : اتَّبَعُوا رُسُلَهُ وَأَطَاعُوا أَمْرَهُ وَاجْتَنَبُوا رَجْرَهُ ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ وَهِيَ أَعْظَمُ الْعِبَادَاتِ لِلَّهِ ﷻ ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ أَي : لَا يُرْمُونَ أَمْرًا حَتَّى يَتَشَاوَرُوا فِيهِ لِيَتَسَاعَدُوا بِآرَائِهِمْ فِي مِثْلِ الْحُرُوبِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا ﴿ وَمِمَّا زَرَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وَذَلِكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِ اللَّهِ ، الْأَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ فَأَلْقَرُبُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ أَي : فِيهِمْ قُوَّةُ الْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْهِمْ ، لَيْسُوا بِالْعَاجِزِينَ وَلَا الْأَذْلِينَ ، بَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ بَغَى عَلَيْهِمْ وَإِنْ كَانُوا مَعَ هَذَا إِذَا قَدَرُوا عَفْوًا ، كَمَا قَالَ يُونُسُ ﷺ لِإِخْوَتِهِ ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [يوسف : ٩٢] مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى مُوَاحَدَتِهِمْ وَمُقَابَلَتِهِمْ عَلَى صَنِيعِهِمْ إِلَيْهِ ، وَكَمَا عَفَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَدَدٍ مِمَّنْ أَسَاءُوا إِلَيْهِ وَنَالُوا مِنْهُ ، فَلَمَّا قَدَرَ عَلَيْهِمْ مَنْ عَلَيْهِمْ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ ﴿

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ آعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : ١٢٦] فَشَرَعَ الْعَدْلَ وَهُوَ الْقِصَاصُ وَنَدَبَ إِلَى الْفَضْلِ وَهُوَ الْعَفْوُ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة : ٤٥] وَهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أَي : لَا يَضِيعُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ، كَمَا صَحَّ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ « وَمَا زَادَ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أَي : الْمُعْتَدِينَ

وَهُوَ الْمُبْتَدِئُ بِالسَّيِّئَةِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أَي : لَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ فِي الْإِنْتِصَارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ أَي : إِنَّمَا الْحَرْجُ وَالْعَنْتُ ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أَي : يَبْغِدُونَ النَّاسَ بِالظُّلْمِ ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَي : شَدِيدٌ مُوجِعٌ . ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَمَّ الظُّلْمَ وَأَهْلَهُ وَشَرَعَ الْقِصَاصَ ، قَالَ نَادِبًا إِلَى الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أَي : صَبَرَ عَلَى الْأَذَى وَسَتَرَ السَّيِّئَةَ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : يَعْنِي : لِمَنْ حَقَّ الْأُمُورِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا ، أَي لِمَنْ الْأُمُورِ الْمَشْكُورَةِ وَالْأَفْعَالِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي عَلَيْهَا ثَوَابٌ جَزِيلٌ وَنَاءٌ جَمِيلٌ .

وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ۖ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٢٤﴾ وَتَرْتَلُهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَلَا رَادَّ لَهُ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ فَلَا مُوجِدَ لَهُ ، وَأَنَّهُ مَنْ هَدَاهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] ثُمَّ قَالَ ﷻ مُخْبِرًا عَنِ الظَّالِمِينَ ، وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ ﴿ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَمَتُّوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِمَا نَبَتْ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿ [الأنعام : ٢٧-٢٨] وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَتَرْتَلُهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أَي : عَلَى النَّارِ ﴿ خَشِيعَاتٍ مِنَ الدُّلِّ ﴾ أَي : الَّذِي قَدْ اعْتَرَاهُمْ بِمَا أَسْلَفُوا مِنْ عِصْيَانِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي : ذَلِيلٌ ، أَي : يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا مُسَارِقَةً خَوْفًا مِنْهَا ، وَالَّذِي يَخْذَرُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ ، وَمَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا فِي نَفْسِهِمْ ، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَي : يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ إِنَّ الْخَسِرِينَ ﴾ أَي : الْخَسَارُ الْأَكْبَرُ ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أَي : ذَهَبَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ، فَعَدِمُوا لَدَتَّهُمْ فِي دَارِ الْأَبَدِ وَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّائِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَقَرَابَاتِهِمْ فَخَسِرُوا وَهُمْ ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾

أَيُّ : دَائِمٌ سَرْمَدِيٌّ أَبَدِيٌّ ، لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : يُنْقِذُوهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ
الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ لَهُ خَلَاصٌ .

أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ
يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿١٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيطًا ۖ إِنَّ عَلَيْكَ
إِلَّا الْبَلَاغُ ۖ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّهَا ۖ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿١٨﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا يَكُونُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالْأُمُورِ الْعِظَامِ الْهَائِلَةِ حَدَّرَ مِنْهُ وَأَمَرَ
بِالِاسْتِعْدَادِ لَهُ فَقَالَ : ﴿ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : إِذَا أَمَرَ
بِكُونِهِ فَإِنَّهُ كَلَمَحُ الْبَصَرِ يَكُونُ وَلَيْسَ لَهُ دَافِعٌ وَلَا مَانِعٌ .

وَقَوْلُهُ ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ لَكُمْ حِصْنٌ
تَتَحَصَّنُونَ فِيهِ وَلَا مَكَانٌ يَسْتَرْكُمُ وَتَتَنَكَّرُونَ فِيهِ ، فَتَغْيِيُونَ عَنْ بَصَرِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بَلْ هُوَ
مُحِيطٌ بِكُمْ بِعِلْمِهِ وَبَصَرِهِ وَقُدْرَتِهِ ، فَلَا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْزُؤُ ﴾ كَلَّا
لَا وَرَزَّ ﴿١٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿ [القيامة : ١٠-١٢] ﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيطًا ﴾ أَيُّ : لَسْتَ عَلَيْهِمْ
بِمُصْطَظِرٍ ، وَقَالَ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ،
وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَاهُنَا : ﴿ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا كَلَّفْنَاكَ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ،
ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّهَا ﴾ أَيُّ : إِذَا أَصَابَهُ رَخَاءٌ وَنِعْمَةٌ
فَرَحَ بِذَلِكَ ﴿ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ ﴾ يَعْنِي : النَّاسَ ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ أَيُّ : جَذْبٌ وَنِقْمَةٌ وَبَلَاءٌ وَشِدَّةٌ ﴿ فَإِنَّ
الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ أَيُّ : يَجْحَدُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ النِّعَمِ وَلَا يَعْرِفُ إِلَّا السَّاعَةَ الرَّاهِنَةَ ، فَإِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ
أَشْرَ وَبَطَرَ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مِحْنَةٌ يَسُّ وَقَيْطٌ .

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ
الذَّكَورَ ﴿٢٠﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثًا ۖ وَجَعَلَ مِنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾
يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لِكُھُمَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيھِمَا ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ

يَشَاءُ لَمْ يَكُنْ ، وَأَنَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلَا مَانِعٌ لِّمَا أُعْطِيَ وَلَا مُعْطِيٌّ لِّمَا مَنَعَ ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتَا ﴾ أَيُّ : يَرْزُقُهُ الْبَنَاتُ فَقَطْ ﴿ وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ أَيُّ : يَرْزُقُهُ الْبَنِينَ فَقَطْ ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتَا ﴾ أَيُّ : وَيُعْطِي لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ النَّاسِ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْإِنْتَى ، أَيُّ : مِنْ هَذَا وَهَذَا ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أَيُّ : لَا يُؤَلِّدُ لَهُ ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : بِمَنْ يَسْتَحِقُّ كُلَّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ ﴿ قَدِيرٌ ﴾ أَيُّ : عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ تَفَاوُتِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ ﴾ ﴿ ٢٠ ﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ ٢١ ﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ آلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿ ٢٢ ﴾

هَذِهِ مَقَامَاتُ الْوَحْيِ بِالنَّبِيِّ إِلَى جَنَابِ اللَّهِ ﷻ وَهُوَ أَنَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - نَارَةٌ يَفْذِفُ فِي رُوعِ النَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا لَا يَتِمَّارَى فِيهِ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى ﷺ فَإِنَّهُ سَأَلَ الرُّؤْيَا بَعْدَ التَّكْلِيمِ فَحُجِبَ عَنْهَا ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ كَمَا يَنْزِلُ جِبْرِيلُ ﷺ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ﴿ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ ﴾ فَهُوَ عَلَى عَلِيمٍ خَيْرٌ حَكِيمٌ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ ﴾ أَيُّ : عَلَى التَّفْصِيلِ الَّذِي شَرَعَ لَكَ فِي الْقُرْآنِ ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ أَيُّ : الْقُرْآنَ ﴿ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ أَيُّ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وَهُوَ الْخُلُقُ الْقَوِيمُ . ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : شَرْعُهُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ اللَّهُ ﷻ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : رَبُّهَا وَمَالِكُهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا ، وَالْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعْتَبَءَ لِحُكْمِهِ ﴿ آلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ أَيُّ : تَرْجِعُ الْأُمُورُ فَيَفْصِلُهَا وَيَحْكُمُ فِيهَا . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاهِلُونَ عُلُوءًا كَبِيرًا

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشُّورَى ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

آياتها ٨٩ تفسير سورة الزخرف مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْ ١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ٤ أَفَنْضِرُبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ٨

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ حَمْ ١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴾ أَي : الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظ ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي هِيَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ لِلتَّخَاطُبِ بَيْنَ النَّاسِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ٣ أَي : أَنْزَلْنَاهُ ٣ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ٤ أَي : بِلُغَةِ الْعَرَبِ فَصِيحًا وَاضِحًا ٥ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٦ أَي : تَفْهَمُونَهُ وَتَتَذَكَّرُونَهُ . ٧ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ٨ بَيِّنَ شَرَفَهُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى لِيُسَرِّفَهُ وَيُعْظِمَهُ وَيُطْبِعَهُ أَهْلَ الْأَرْضِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُ ٩ أَي : الْقُرْآنُ ٩ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ٩ أَي : اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ٩ لَدَيْنَا ٩ أَي : عِنْدَنَا ٩ لَعَلِّي ٩ أَي : دُو مَكَانَةٍ عَظِيمَةٍ وَشَرَفٍ وَفَضْلِ ٩ حَكِيمٌ ٩ أَي : مُحْكَمٌ بَرِيءٌ مِنَ اللَّبْسِ وَالزَّيْغِ ، وَهَذَا كُلُّهُ تَنْبِيْهُ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ٩ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٩ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ١٠ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ١١ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٢ ﴾ [الواقعة : ٧٧-٨٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَنْضِرُبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ٥ وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ تَعَالَى مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ لَا يَتْرُكُ دُعَاءَهُمْ إِلَى الْخَيْرِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ - وَهُوَ الْقُرْآنُ - وَإِنْ كَانُوا مُسْرِفِينَ مُعْرِضِينَ عَنْهُ ، بَلْ أَمَرَ بِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهِ مَنْ قَدَّرَ هِدَايَتَهُ وَتَقَوَّمَ الْحُجَّةَ عَلَى مَنْ كَتَبَ شَقَاوَتَهُ ، ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا مُسْلِمًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَأَمْرًا لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِمْ ٩ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ٩ أَي : فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ٩ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٩ أَي : يُكَذِّبُونَهُ وَيَسْخَرُونَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ٩ أَي : فَأَهْلَكْنَا الْمَكْذِبِينَ بِالرُّسُلِ ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ بَطْشًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ لَكَ يَا مُحَمَّدٌ ٩ وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ٩ قِيلَ : عَقُوبَتُهُمْ ، وَقِيلَ : عِبَرَتُهُمْ ، أَي : جَعَلْنَاهُمْ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمَكْذِبِينَ أَنْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ ٩ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ٩ .

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تَخْرُجُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٤﴾ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٥﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَيْنَ سَأَلْتَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ ﴿١﴾ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٢﴾ أَيُّ : لَيَعْتَرِفُنَّ بِأَنَّ الْخَالِقَ لِذَلِكَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿٣﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿٤﴾ أَيُّ : فِرَاشًا قَرَارًا ثَابِتَةً ، يَسِيرُونَ عَلَيْهَا وَيَقُومُونَ وَيَنَامُونَ وَيَتَصَرَّفُونَ مَعَ أَهْلِهَا مَخْلُوقَةً عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ ، لَكِنَّهُ أَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ ؛ لِئَلَّا تَمِيدَ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا ﴿٥﴾ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴿٦﴾ أَيُّ : طُرُقًا بَيْنَ الْجِبَالِ وَالْأَوْدِيَةِ ﴿٧﴾ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٨﴾ أَيُّ : فِي سَيْرِكُمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَقَطْرٍ إِلَى قَطْرٍ وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ﴿٩﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴿١٠﴾ أَيُّ : بِحَسَبِ الْكِفَايَةِ ؛ لِرِزْوَعِكُمْ وَتَيَّارِكُمْ وَشُرْبِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿١١﴾ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا ﴿١٢﴾ أَيُّ : أَرْضًا مَيِّتَةً فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ ، وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ؛ ثُمَّ بَنَى تَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا فَقَالَ : ﴿١٣﴾ كَذَلِكَ تَخْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿١٥﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴿١٦﴾ أَيُّ : مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ سَائِرِ الْأَصْنَافِ ، مِنْ نَبَاتٍ وَزُرُوعٍ وَتَيَّارٍ وَأَزَاهِيرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَمِنَ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَأَصْنَافِهَا ﴿١٧﴾ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ ﴿١٨﴾ أَيُّ : السُّفْنِ ﴿١٩﴾ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٢٠﴾ أَيُّ : دَلَّلَهَا لَكُمْ وَسَخَّرَهَا وَيَسَّرَهَا لِأَكْلِكُمْ لَحُومَهَا ، وَشُرْبِكُمْ أَلْبَانَهَا ، وَرُكُوبِكُمْ ظُهُورَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿٢١﴾ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴿٢٢﴾ أَيُّ : لَيْسَتُوا مُتَمَكِّنِينَ مُرْتَفِعِينَ ﴿٢٣﴾ عَلَى ظُهُورِهِ ﴿٢٤﴾ أَيُّ : عَلَى ظُهُورِ هَذَا الْجَنَسِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ ﴿٢٦﴾ أَيُّ : فِيمَا سَخَّرَ لَكُمْ ﴿٢٧﴾ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٢٨﴾ أَيُّ : مُقَاوِمِينَ ، وَلَوْ لَا تَسْخِيرُ اللَّهِ لَنَا هَذَا مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ ﴿٢٩﴾ مُقْرِنِينَ ﴿٣٠﴾ أَيُّ : مُطِيقِينَ ﴿٣١﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٣٢﴾ أَيُّ : لَصَائِرُونَ إِلَيْهِ بَعْدَ مَمَاتِنَا ، وَإِلَيْهِ سَيْرُنَا الْأَكْبَرُ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ بِسَيْرِ الدُّنْيَا عَلَى سَيْرِ الْآخِرَةِ ، كَمَا بَنَى بِالزَّادِ الدُّنْيَوِيِّ عَلَى الزَّادِ الْآخِرَوِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٣٣﴾ وَتَرَوُودُوا فَلِإِنَّ حَيْرَ الزَّادِ الْقَوِيُّ ﴿٣٤﴾ [البقرة : ١٩٧] ، وَبِالْبَّاسِ الدُّنْيَوِيِّ عَلَى الْآخِرَوِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٣٥﴾ وَرَيْدًا وَلِبَاسُ الْقَوِيِّ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴿٣٦﴾ [الأعراف : ٢٦]

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا تَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَحَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٧﴾ أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿٨﴾ وَجَعَلُوا أَمَلَكِيَّةَ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا افْتَرَوْهُ وَكَذَّبُوهُ، فِي جَعْلِهِمْ بَعْضَ الْأَنْعَامِ لَطَوَاعِيَّتِهِمْ وَبَعْضَهَا لِلَّهِ تَعَالَى، كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصُلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وَكَذَلِكَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ قِسْمَةِ الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ أَحْسَنَهَا وَأَزْدَاهُمَا وَهُوَ الْبَنَاتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْكُفْرَ الذَّكَرَ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ ﴿٥﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةُ ضَيْرَى﴾ [النجم: ٢١-٢٢] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا تَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَحَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ وَهَذَا إِنكَارٌ عَلَيْهِمْ غَايَةَ الْإِنْكَارِ. ثُمَّ ذَكَرَ تَمَامَ الْإِنْكَارِ فَقَالَ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أَيُّ: إِذَا بُشِّرَ أَحَدٌ هَؤُلَاءِ بِمَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ مِنَ الْبَنَاتِ يَأْتِفُ مِنْ ذَلِكَ غَايَةَ الْأَتْفَةِ، وَتَعْلُوهُ كَاتِبَةٌ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، وَيَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مَنْ خَجَلِهِ مِنْ ذَلِكَ، يَقُولُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَكَيْفَ تَأْتِفُونَ أَنْتُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَنْسُبُونَهُ إِلَى اللَّهِ ﷻ؟!

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أَيُّ: الْمَرْأَةُ نَاقِصَةٌ يَكْمُلُ نَقْصُهَا بِلِبْسِ الْحُلِيِّ مُنْذُ تَكُونُ طِفْلَةً، وَإِذَا خَاصَمَتْ فَلَا عِبَارَةَ لَهَا، بَلْ هِيَ عَاجِزَةٌ عِيَّةٌ، أَوْ مِنْ يَكُونُ هَكَذَا يُنْسَبُ إِلَى جَنَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ؟ فَالْأُنثَى نَاقِصَةُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فِي الصُّورَةِ وَالْمَعْنَى، فَيَكْمُلُ نَقْصُ ظَاهِرِهَا وَصُورَتِهَا بِلِبْسِ الْحُلِيِّ وَمَا فِي مَعْنَاهَا، لِيُجَبَرَ مَا فِيهَا مِنْ نَقْصٍ. وَأَمَّا نَقْصُ مَعْنَاهَا: فَإِنَّهَا ضَعِيفَةٌ عَاجِزَةٌ عَنِ الْإِنْتِصَارِ عِنْدَ الْإِنْتِصَارِ، لَا عِبَارَةَ لَهَا وَلَا هِمَّةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلُوا أَمَلَكِيَّةَ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ أَيُّ: اعْتَقَدُوا فِيهِمْ ذَلِكَ فَأَنكَرَ عَلَيْهِمْ تَعَالَى قَوْلَهُمْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أَيُّ: شَاهَدُوهُ وَقَدْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ إِنَاثًا ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ أَيُّ: بِذَلِكَ ﴿يُسْأَلُونَ﴾ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أَيُّ: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ لِحَالِ بَيْنِنَا وَبَيْنَ عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي

هِيَ عَلَى صُورَةِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي هِيَ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أَيُ : بِصِحَّةٍ مَا قَالُوهُ وَاحْتَجُّوا بِهِ ﴿ إِنَّهُمْ إِلَّا خَيْرُ صُوفٍ ﴾ أَيُ : يَكْذِبُونَ وَيَتَّقُولُونَ ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا خَيْرُ صُوفٍ ﴾ يَعْنِي : مَا يَعْلَمُونَ قُدْرَةَ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَلَى ذَلِكَ .

أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثِرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٧﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثِرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ أُولَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ بِلَا بُرْهَانٍ وَلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ : ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أَيُ : مِنْ قَبْلِ شُرْكِهِمْ ﴿ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ أَيُ : فِيمَا هُمْ فِيهِ ، أَيُ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : ٣٥] أَيُ : لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ أَيُ : لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرِكِ سِوَى تَقْلِيدِ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، بِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى أُمَّةٍ ، وَالْمُرَادُ بِهَا : الدِّينَ هَاهُنَا ﴿ وَإِنَّا عَلَى ءَاثِرِهِمْ ﴾ أَيُ : وَرَائِهِمْ ﴿ مُهْتَدُونَ ﴾ دَعَاوَى مِنْهُمْ بِلَا دَلِيلٍ .

ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ قُلْ ﴾ أَيُ : يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ أُولَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أَيُ : وَلَوْ عَلِمُوا وَيَقْنُوا صِحَّةَ مَا جِئْتُمْ بِهِ لَمَا انْقَادُوا لِذَلِكَ ، لِسُوءِ قَصْدِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ . ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أَيُ : مِنَ الْأَمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ ، كَمَا فَصَّلَهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي قَصَصِهِمْ ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيُ : كَيْفَ بَادُوا وَهَلَكُوا ، وَكَيْفَ نَجَّى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٢﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٣﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٤﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢٦﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ لَحْنٌ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٧﴾

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿١٦﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَزُخْرُفٌ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِمَامِ الْخُفَاءِ ، وَوَالِدٍ مِّنْ بُعْتٍ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، الَّذِي تُنْتَسَبُ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فِي نَسَبِهَا وَمَذْهَبِهَا : أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَوْثَانِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿١٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴿١٨﴾ أَيُّ : هَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَخَلَعَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ ، وَهِيَ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » أَيُّ : جَعَلَهَا دَائِمَةً فِي دُرِّيَّتِهِ يَقْتَدِي بِهِ فِيهَا مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أَيُّ : إِلَيْهَا ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ ﴿ وَءَابَاءَهُمْ ﴾ أَيُّ : فَتَطَاوَلْ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِي ضَلَالِهِمْ ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيُّ : بَيَّنَّ الرِّسَالَةَ وَالنَّذَارَةَ ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أَيُّ : كَابَرُوهُ وَعَانَدُوهُ وَدَفَعُوا بِالصُّدُورِ وَالرَّاحِ كُفْرًا وَحَسَدًا وَبَغْيًا ﴿ وَقَالُوا ﴾ أَيُّ : كَالْمُعْتَرِضِينَ عَلَى الَّذِي أَنْزَلَهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ﴿ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أَيُّ : هَلَا كَانَ أَنْزَالُ هَذَا الْقُرْآنِ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ ؟ يَعْنُونَ : مَكَّةَ وَالطَّائِفَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْاِعْتِرَاضِ : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ الْأَمْرُ مَرْدُودًا إِلَيْهِمْ ، بَلْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُنْزِلُهَا إِلَّا عَلَى أَزْكَى الْخَلْقِ قَلْبًا وَنَفْسًا وَأَشْرَفُهُمْ بَيْتًا ، وَأَظْهَرُهُمْ أَصْلًا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّهُ قَدْ فَاءَتْ بَيْنَ خَلْقِهِ فِيمَا أَعْطَاهُمْ ، مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْعُقُولِ وَالْفُهُومِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، فَقَالَ : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الْآيَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ لِيُسَخَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْأَعْمَالِ لِاِحْتِيَاجِ هَذَا إِلَى هَذَا وَهَذَا إِلَى هَذَا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أَيُّ : رَحْمَةُ اللَّهِ بِخَلْقِهِ خَيْرٌ لَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أَيُّ : لَوْلَا أَنْ يَعْتَقِدَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْجَهْلَةَ أَنَّ إِعْطَاءَنَا الْمَالَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِنَا لِمَنْ أَعْطَيْنَاهُ ، فَيَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ لِاجْتِلِ الْمَالِ ﴿ لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ ﴾ أَيُّ : سَلَامٌ وَدَرَجًا مِّنْ فِصَّةٍ ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أَيُّ : يَصْعَدُونَ ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ ﴾ أَيُّ : أَغْلَاقًا عَلَى أَبْوَابِهِمْ ﴿ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴾ أَيُّ : جَمِيعُ ذَلِكَ يَكُونُ فِصَّةً ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ أَيُّ : وَذَهَبًا ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ الْحَقِيرَةِ

عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، أَي : يُعَجَّلَ لَهُمْ بِحَسَنَاتِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ ، لِيُؤَافُوا
الْآخِرَةَ وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - حَسَنَةٌ يَجْزِيهِمْ بِهَا . ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :
﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أَي : هِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ .

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ
الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّخِذَ الْفَرِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ
مُشْتَرِكُونَ ﴿٢٧﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾
فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٩﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الْآلِذَى وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ
مُقْتَدِرُونَ ﴿٣٠﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣١﴾ وَإِنَّهُ
لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٣٢﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا
مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ ﴾ أَي : يَتَعَامَى وَيَتَغَافَلُ وَيُعْرِضُ ﴿ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ وَالْعَشَا فِي
الْعَيْنِ ضَعْفُ بَصَرِهَا ، وَالْمُرَادُ هَاهُنَا : عَشَا الْبَصِيرَةِ ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ كَقَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] وَكَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿ وَفَيَضُنَّا لَهُمْ قُرْآنًا فَرِيقًا
لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت : ٢٥] وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي تَغَافَلُ عَنِ الْهُدَى نُقَيِّضْ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُضِلُّهُ
وَيَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ . فَإِذَا وَافَى اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَّبِعُهُمُ الشَّيْطَانُ الَّذِي وَكَّلَ بِهِ ﴿ قَالَ يَلَيْتَ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّخِذَ الْفَرِينَ ﴾ . وَالْمُرَادُ بِالْمَشْرِقَيْنِ هَاهُنَا هُوَ : مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ،
وَإِنَّمَا أُسْتَعْمِلَ هَهُنَا تَغْلِيظًا ، كَمَا يَقَالُ : الْقَمَرَانِ ، وَالْعُمَرَانِ ، وَالْأَبْوَانِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ
يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أَي : لَا يُغْنِي عَنْكُمْ اجْتِمَاعُكُمْ فِي النَّارِ
وَاشْتِرَاكُكُمْ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ ﴾ أَي : لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَلَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي ذَلِكَ ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾
أَي : لَا بُدَّ أَنْ نَنْتَقِمَ مِنْهُمْ وَنُعَاقِبَهُمْ ، وَلَوْ ذَهَبَتْ أَنْتَ ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الْآلِذَى وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ
مُقْتَدِرُونَ ﴾ أَي : نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا ، وَلَمْ يَقْبِضِ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ حَتَّى أَفَرَّ عَيْنَهُ

مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَحَكَمَهُ فِي نَوَاصِيهِمْ ، وَمَلَكَهُ مَا تَضَمَّنَتْهُ صِيَاصِيهِمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَمِعْكَ بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أَيُّ : خُذْ بِالْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَى قَلْبِكَ فَإِنَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَمَا يَهْدِي إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ الْمُفْضِي إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُوَصِّلِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالْخَيْرِ الدَّائِمِ الْمُقِيمِ ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ لَشَرَفٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ شَرَفٌ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ أَنْزَلَ بِلُغَتِهِمْ ، فَهُمْ أَفْهَمُ النَّاسِ لَهُ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا أَقْوَمَ النَّاسِ بِهِ وَأَعْمَلَهُمْ بِمُقْتَضَاهُ ، وَهَكَذَا كَانَ خِيَارُهُمْ وَصَفْوَتُهُمْ مِنَ الْخُلَاصِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَمَنْ سَابَهُمْ وَتَابَعَهُمْ ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أَيُّ : لَتَذَكِيرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَتَخْصِيصُهُمْ بِالذِّكْرِ لَا يَنْفِي مَنْ سِوَاهُمْ ﴿ وَسَوْفَ نُسْأَلُونَ ﴾ أَيُّ : عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، وَكَيْفَ كُنْتُمْ فِي الْعَمَلِ بِهِ وَالِاسْتِجَابَةِ لَهُ ؟ ﴿ وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أَيُّ : جَمِيعَ الرُّسُلِ دَعَا إِلَى مَا دَعَوَتِ النَّاسُ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَنَهَوَا عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ١٠٦ 〉 فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿ ١٠٧ 〉 وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ ١٠٨ 〉 وَقَالُوا يَتَأْتِيَهِ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿ ١٠٩ 〉 فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ آلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿ ١١٠ 〉

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ أَنَّهُ إِنْتَعَثَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْقَادَةِ وَالْأَتْبَاعِ وَالرَّعَايَا ، مِنَ الْقَبْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ، وَأَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُ آيَاتٍ عَظَامًا ، كَيْدِهِ وَعَصَاهُ ، وَمَا أَرْسَلَ مَعَهُ مِنَ الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ وَالْدَّمَ ، وَمِنْ نَقْصِ الزُّرُوعِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ اسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِهَا وَالِانْقِيَادِ لَهَا ، وَكَذَّبُوهَا وَسَخَرُوا مِنْهَا وَضَحِكُوا بِمَنْ جَاءَهُمْ بِهَا ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ وَمَعَ هَذَا مَا رَجَعُوا عَنْ غِيَّتِهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَجَهْلِهِمْ وَخَبَالِهِمْ ، وَكُلَّمَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ يَضْرَعُونَ إِلَى مُوسَى ﷺ وَيَتَلَطَّفُونَ لَهُ فِي الْعِبَارَةِ بِقَوْلِهِمْ : ﴿ يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ ﴾ أَيُّ : الْعَالِمُ ، وَكَانَ عُلَمَاءُ زَمَانِهِمْ هُمْ السَّحَرَةُ ، وَلَمْ يَكُنِ السَّحَرُ فِي زَمَانِهِمْ مَذْمُومًا عِنْدَهُمْ ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِتْقَاصِ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّ الْحَالَ حَالُ ضَرُورَةٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِ لَا تُنَاسِبُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعْظِيمٌ فِي رَعْمِهِمْ فَنَبِي كُلِّ مَرَّةٍ يَعْدُونَ مُوسَى ﷺ إِنْ كَشَفَ عَنْهُمْ هَذَا أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي

إِسْرَائِيلَ ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَنْكُثُونَ مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ .

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُومِ آلِيَسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٤﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٢٥﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٢٦﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ ، فَاطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٨﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ فِرْعَوْنَ وَتَمَرِّدِهِ وَعُتُوِّهِ وَكُفْرِهِ وَعِنَادِهِ : أَنَّهُ جَمَعَ قَوْمَهُ ، فَنَادَىٰ فِيهِمْ مُتَّبِعًا مُفْتَحِرًا بِمُلْكِ مِصْرَ وَتَصَرُّفِهِ فِيهَا ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ قَالَ فَتَادَةٌ : قَدْ كَانَتْ هُمْ جَنَاتٍ وَأَنْهَارُ مَاءٍ ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أَيُّ : أَفَلَا تَرَوْنَ مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْعِظَمَةِ وَالْمُلْكِ ؟ يَعْنِي : وَمُوسَىٰ وَاتَّبَاعُهُ فَقَرَاءُ ضَعْفَاءُ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٩﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿ [النازعات : ٢٣-٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : يَقُولُ : بَلْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ، فَإِنَّمَا يَعْنِي فِرْعَوْنُ - لَعَنَهُ اللَّهُ - بِذَلِكَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِّنْ مُّوسَى ﷺ وَقَدْ كَذَّبَ فِي قَوْلِهِ هَذَا كَذِبًا بَيِّنًا وَاضِحًا ، وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ ﴿ مَهِينٌ ﴾ قِيلَ : حَقِيرٌ ، وَقِيلَ : ضَعِيفٌ لَا مُلْكَ لَهُ وَلَا سُلْطَانَ وَلَا مَالَ ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يَعْنِي : لَا يَكَادُ يُفْصِحُ عَنْ كَلَامِهِ ، فَهُوَ عَبِيٌّ حَصِرٌ . وَقِيلَ : لَا يَكَادُ يُفْهِمُ ، وَقِيلَ : يَعْنِي : عَبِيُّ اللِّسَانِ ، وَقِيلَ : يَعْنِي فِي لِسَانِهِ شَيْءٌ ، مِنَ الْجُمُرَةِ حِينَ وَضَعَهَا فِي فَمِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ فِرْعَوْنُ - لَعَنَهُ اللَّهُ - كَذِبٌ وَاخْتِلَاقٌ ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَىٰ هَذَا الْكُفْرِ وَالْعِنَادُ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَىٰ مُوسَى ﷺ بِعَيْنِ كَافِرَةٍ شَقِيَّةٍ ، وَقَدْ كَانَ مُوسَى ﷺ مِنَ الْجَلَالَةِ وَالْعِظَمَةِ وَالْبَهَاءِ فِي صُورَةٍ يُبْهِرُ أَبْصَارَ ذَوِي الْأَلْبَابِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾ أَيُّ : وَهِيَ مَا يُجْعَلُ فِي الْأَيْدِي مِنَ الْخَلِيِّ ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أَيُّ : يَكْتَفُونَهُ خِدْمَةً لَهُ وَيَشْهَدُونَ بِتَصْدِيقِهِ ، نَظَرَ إِلَى الشَّكْلِ الظَّاهِرِ ، وَلَمْ يَقْهَمِ السَّرَّ الْمَعْنَوِي الَّذِي هُوَ أَظْهَرُ مِمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ لَوْ كَانَ يَعْلَمُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ ، فَاطَاعُوهُ ﴾ أَيُّ : اسْتَخَفَّ عَقُولَهُمْ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ فَاسْتَجَابُوا لَهُ ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قِيلَ : ﴿ ءَاسَفُونَا ﴾ أَسْخَطُونَا ، وَقِيلَ : أَغْضَبُونَا ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ قَالَ أَبُو حَلِيْلٍ : ﴿ سَلَفًا ﴾ لِمَثَلٍ مِّنْ عَمَلٍ بِعَمَلِهِمْ ﴿ وَمَثَلًا ﴾ أَيُّ : عِبْرَةً لِّمَنْ بَعْدَهُمْ .

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (٥٧) وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ تَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرْتُمْ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا لِي ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿٦٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَعَنُّتِ قُرَيْشٍ فِي كُفْرِهِمْ وَتَعَمُّدِهِمُ الْعِنَادَ وَالْجَدَلَ : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ قِيلَ : يَضْحَكُونَ . أَيُ : أُعْجِبُوا بِذَلِكَ ، وَقِيلَ : يَجْزَعُونَ وَيَضْحَكُونَ ، وَقِيلَ : يُعْرِضُونَ . ﴿ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : يَقُولُونَ : أَهْنَأُ خَيْرٌ مِنْهُ ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ أَيُ : مِرَاءً ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَى الْآيَةِ ؛ لِأَنَّهَا لِمَا لَا يَعْقِلُ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨] ثُمَّ هِيَ خِطَابٌ لِقُرَيْشٍ ، وَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَ الْمَسِيحَ حَتَّى يورِدُوهُ ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَقَالَتَهُمُ إِنَّمَا كَانَتْ جَدَلًا مِنْهُمْ لَيْسُوا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهَا ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُورِثُوا الْجَدَلَ » ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يَعْنِي : عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا هُوَ إِلَّا عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ﷻ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أَيُ : دَلَالَةً وَحُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَى قُدْرَتِنَا عَلَى مَا نَشَاءُ ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ ﴾ أَيُ : بَدَلَكُمْ ﴿ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ تَخْلُفُونَ ﴾ يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ الصَّحِيحُ أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى عِيسَى ، فَإِنَّ السِّيَاقَ فِي ذِكْرِهِ ، ثُمَّ الْمُرَادُ بِذَلِكَ : نُزُولُهُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ أَيُ : آيَةُ لِلسَّاعَةِ خُرُوجِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِنُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ فَلَا تَمْتَرْتُمْ بِهَا ﴾ أَيُ : لَا تَشْكُوا فِيهَا ، إِنَّمَا وَاقِعَةٌ وَكَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ وَاتَّبِعُونِ ﴾ أَيُ : فِيمَا أَخْبَرَكُمْ بِهِ ﴿ هَذَا صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَلَا يَصُدَّنْكُمْ الشَّيْطَانُ ﴿٦١﴾ أَيُّ : عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿٦٢﴾ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴿٦٤﴾ أَيُّ : بِالنَّبُوءَةِ ﴿٦٥﴾ وَلَا بَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴿٦٦﴾ يَعْنِي مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ لَا الدُّنْيَوِيَّةِ ﴿٦٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿٦٨﴾ أَيُّ : فِيْمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ﴿٦٩﴾ وَأَطِيعُوا ﴿٧٠﴾ فِيْمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿٧١﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴿٧٢﴾ أَيُّ : أَنَا وَأَنْتُمْ عِبِيدُ لَهُ ، فَقَرَأْهُ إِلَيْهِ ، مُشْتَرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿٧٣﴾ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٧٤﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ عِبَادَةُ الرَّبِّ ﷻ وَحْدَهُ ﴿٧٥﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴿٧٦﴾ أَيُّ : اخْتَلَفَتِ الْفِرَقُ وَصَارُوا شِيعًا فِيهِ ، مِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَهُوَ الْحَقُّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ وَلَدُ اللَّهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ اللَّهُ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوءًا كَبِيرًا - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٧٧﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٨﴾ الْآخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٧٩﴾ يَعْجَبُونَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٨٠﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٨١﴾ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٨٢﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴿٨٣﴾ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴿٨٤﴾ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٥﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٦﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٨٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ ﴿٨٨﴾ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٨٩﴾ أَيُّ : فَإِنَّهَا كَائِنَةٌ لَا مُحَالَةَ وَوَاقِعَةٌ ، وَهَؤُلَاءِ غَافِلُونَ عَنْهَا غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ ، فَإِذَا جَاءَتْ إِنْهَا نَجِيٌّ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِهَا ، فَحِينَئِذٍ يَنْدُمُونَ كُلُّ النَّدَمِ ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٩٠﴾ الْآخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٩١﴾ أَيُّ : كُلُّ صَدَاقَةٍ وَصَحَابَةٍ لِعَیْرِ اللَّهِ فَإِنَّهَا تَنْقَلِبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَدَاوَةً ، إِلَّا مَا كَانَ اللَّهُ ﷻ فَإِنَّهُ دَائِمٌ بِدَوَامِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٩٢﴾ يَعْجَبُونَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٩٣﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ فَقَالَ : ﴿٩٤﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٩٥﴾ أَيُّ : آمَنْتُمْ قُلُوبُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ ، وَأَنْقَادَتْ لِشَرَعِ اللَّهِ جَوَارِحُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ ﴿٩٦﴾ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴿٩٧﴾ أَيُّ : يُقَالُ لَهُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴿٩٨﴾ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴿٩٩﴾ أَيُّ : نَظَرَاؤُكُمْ ﴿١٠٠﴾ تُحْبَرُونَ ﴿١٠١﴾ أَيُّ : تَتَنَعَّمُونَ وَتَسْعُدُونَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الرُّومِ ﴿١٠٢﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ ﴿١٠٣﴾ أَيُّ : زَبَادِي آيَةِ الطَّعَامِ ﴿١٠٤﴾ وَأَكْوَابٍ ﴿١٠٥﴾ وَهِيَ : آيَةُ الشَّرَابِ ، أَيُّ : مِنْ ذَهَبٍ لَا خَرَاطِيمَ لَهَا وَلَا عُرَى ﴿١٠٦﴾ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴿١٠٧﴾ أَيُّ : طَيِّبَ الطَّعْمِ وَالرَّيْحِ

وَحَسَنَ الْمَنْظَرِ ﴿ وَأُنْتُمْ فِيهَا ﴾ أَيُّ : فِي الْجَنَّةِ ﴿ خَالِدُونَ ﴾ أَيُّ : لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا تَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا . ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّفْضِيلِ وَالْإِمْتِنَانِ ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : أَعْمَالُكُمْ الصَّالِحَةُ كَانَتْ سَبَبًا لِشُمُولِ رَحْمَةِ اللَّهِ إِيَّاكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، وَلَكِنْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ ، وَإِنَّمَا الدَّرَجَاتُ يُنَالُ تَفَاوُثُهَا بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ أَيُّ : مِنْ جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ ﴿ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أَيُّ : مِنْهَا اخْتَرْتُمْ وَأَرَدْتُمْ ، وَلَمَّا ذَكَرَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ ذَكَرَ بَعْدَهُ الْفَاكِهَةَ لِتِمِّمِ النِّعْمَةِ وَالْغِبْطَةِ .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْثُوتٌ ﴿٧٩﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمْ لِحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٨٠﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرَمُونَ ﴿٨١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ السُّعْدَاءِ ، ثَنَّى بِذِكْرِ الْأَشْقِيَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ أَيُّ : سَاعَةً وَاحِدَةً ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أَيُّ : آيسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أَيُّ : بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ، بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، فَكَذَّبُوا وَعَصَوْا ، فَجُوزُوا بِذَلِكَ جَزَاءً وَفَاقًا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿ وَنَادَوْا يَمْلِكُ ﴾ وَهُوَ : خَازِنُ النَّارِ . عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَعْلَى عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ عَلَى الْمِنْبَرِ : ﴿ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ . أَيُّ : يَقْضِي أَرْوَاحَنَا فَيُرِيحُنَا بِمَا نَحْنُ فِيهِ ، فَإِنَّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : ٣٦] وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ الَّذِي يَصْطِلِي النَّارَ أَكْثَرَى ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ [الأعلى : ١١-١٣] فَلَمَّا سَأَلُوا أَنْ يَمُوتُوا أَجَابَهُمُ مَالِكٌ : ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْثُوتٌ ﴾ أَيُّ : لَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا وَلَا حَيْدَ لَكُمْ عَنْهَا ، ثُمَّ ذَكَرَ سَبَبَ شِقْوَتِهِمْ وَهُوَ مُحَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ وَمُعَانَدَتُهُمْ لَهُ ، فَقَالَ : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ : بَيِّنَاهُ لَكُمْ وَوَضَّحْنَاهُ وَفَسَّرْنَاهُ ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمْ لِحَقِّ كَرِهُونَ ﴾ أَيُّ : وَلَكِنْ كَانَتْ سَجَايَاكُمْ لَا تَقْبَلُهُ وَلَا تُقْبَلُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا تَتَّقَادُ لِلْبَاطِلِ وَتُعْظَمُهُ ، وَتَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَتَأْبَاهُ ، وَتُبْغِضُ أَهْلَهُ . فَعُودُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِالْمَلَامَةِ وَانْدَمُوا حَيْثُ لَا تَنْفَعُكُمُ النَّدَامَةُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرَمُونَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَرَادُوا كَيْدَ شَرٍّ فَكَيْدُنَاهُمْ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُجَاهِدٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠] ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَتَحَيَّلُونَ فِي رَدِّ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ بِحِيلٍ وَمَكْرِ يَسْلُكُونَهُ ، فَكَادَهُمُ اللَّهُ

تَعَالَى ، وَرَدَّ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ .

أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ^(٨٦) بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ^(٨٧) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ^(٨٨) سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ^(٨٩) فَذَرَهُمْ نَحْوَضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ^(٩٠) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ^(٩١) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٩٢) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ^(٩٣) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ^(٩٤) فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ^(٩٥) وَقِيلَ يَرْبِ إِنَّا هَنُؤَلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ^(٩٦) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ^(٩٧)

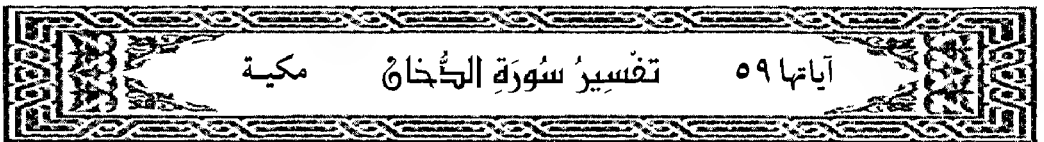
قَالَ : ﴿ أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ أَيُّ : سِرَّهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أَيُّ : نَحْنُ نَعْلَمُ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَالْمَلَائِكَةُ أَيْضًا يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ أَيُّ : لَوْ فَرَضَ هَذَا لَعَبَدْتُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لِأَنِّي عَبْدٌ مِنْ عِبْدِهِ ، مُطِيعٌ لِّجَمِيعِ مَا يَأْمُرُنِي بِهِ ، لَيْسَ عِنْدِي اسْتِكْبَارٌ وَلَا إِبَاءٌ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَلَوْ فَرَضَ هَذَا لَكَانَ هَذَا ، وَلَكِنْ هَذَا مُتَمَتِّعٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى ، وَالشَّرْطُ لَا يُلْزَمُ مِنْهُ الْوُقُوعُ وَلَا الْجَوَازُ أَيْضًا ، كَمَا قَالَ ﷺ : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الزمر : ٤] وَقَالَ قَتَادَةُ : هِيَ كَلِمَةٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ أَيُّ : إِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فَلَا يَنْبَغِي ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ يَقُولُ : لَوْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ عَبَدَهُ بِأَنَّهُ وَلَدٌ ، وَلَكِنْ لَا وَلَدَ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيُّ : تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنَّهُ قَرَدٌ أَحَدٌ صَمَدٌ ، لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا كُفَّاءَ لَهُ ، فَلَا وَلَدَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَذَرَهُمْ نَحْوَضُوا ﴾ أَيُّ : فِي جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ فِي دُنْيَاهُمْ ﴿ حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، أَيُّ : فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ وَمَالُهُمْ وَحَالُهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ﴾ أَيُّ : هُوَ إِلَهٌُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَإِلَهٌُ مَنْ فِي الْأَرْضِ ، يَعْبُدُهُ أَهْلُهَا ، وَكُلُّهُمْ خَاضِعُونَ لَهُ ، أَذِلَّةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيُّ : هُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا

وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا ، بِلَا مُدَافَعَةٍ وَلَا مُنَافَعَةٍ ، فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْوَلَدِ ﴿ وَتَبَارَكَ ﴾ أَيُّ : اسْتَقَرَّ لَهُ السَّلَامَةُ مِنَ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ ؛ لِأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ، الْمَالِكُ لِلْأَشْيَاءِ ، الَّذِي بِيَدِهِ أَرْمَتُ الْأُمُورَ نَقْضًا وَإِبْرَامًا ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أَيُّ : لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيُّ : فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ﴿ الشَّفَعَةُ ﴾ أَيُّ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الشَّفَاعَةِ لَهُمْ ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، أَيُّ : لَكِنْ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ عَلَى بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ ، فَإِنَّهُ تَنَفَّعَ شَفَاعَتُهُ عِنْدَهُ بِإِذْنِهِ لَهُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أَيُّ : وَلَئِنْ سَأَلْتَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ ﴿ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أَيُّ : هُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ جَمِيعًا ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنْ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ فِي غَايَةِ الْجَهْلِ وَالسَّفَاهَةِ وَسَخَافَةِ الْعَقْلِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقِيلَ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيُّ : وَقَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ قِيلَ ، أَيُّ : شَكَا إِلَى رَبِّهِ شَكْوَاهُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠] ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أَيُّ : الْمُشْرِكِينَ ﴿ وَقُلْ سَلَمٌ ﴾ أَيُّ : لَا تُجَاوِبُهُمْ بِمِثْلِ مَا يُخَاطِبُونَكَ بِهِ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ ، وَلَكِنْ تَأَلَّفْهُمْ وَاصْفَحْ عَنْهُمْ فِعْلًا وَقَوْلًا ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ ، وَلِهَذَا أَحَلَّ بِهِمْ بِأَسْئَةِ الَّذِي لَا يَرُدُّ ، وَأَعْلَى دِينِهِ وَكَلِمَتِهِ ، وَشَرَعَ بَعْدَ ذَلِكَ الْجِهَادَ وَالْجِلَادَ ، حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَقْوَانًا ، وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الزُّخْرُفِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ❶ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ❷ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ❸ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ❹ فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ❺ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ❻ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ❼ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ❽ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ❾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ❿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ⓫ لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ : إِنَّهُ أَنْزَلَهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ ، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة : ١٨٥]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أَي : مُعَلِّمِينَ النَّاسَ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ شَرْعًا لِيَتَّقُوا حُجَّةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ، أَي : فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ يُفْصَلُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى الْكِتَابَةِ أَمْرُ السَّنَةِ ، وَمَا يَكُونُ فِيهَا مِنَ الْأَجَالِ وَالْأَرْزَاقِ وَمَا يَكُونُ فِيهَا إِلَى آخِرِهَا . وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أَي : مُحْكَمٍ ، لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ﴾ أَي : جَمِيعُ مَا يَكُونُ وَيُقَدَّرُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا يُوجِبُهُ فَبَأَمْرِهِ وَإِذْنِهِ وَعِلْمِهِ ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أَي : إِلَى النَّاسِ ، رَسُولًا لَا يَتَلَوُّ عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ كَانَتْ مَاسَّةً إِلَيْهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَي : الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَخَالَقَهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَمَا فِيهَا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ أَي : إِنْ كُنْتُمْ مُتَحَقِّقِينَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ لِّجُنُودٍ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ﴿١٥﴾ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٦﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : بَلْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ، أَي : قَدْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ الْيَقِينُ ، وَهُمْ يَشْكُونَ فِيهِ وَيَمْتَرُونَ ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴾ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ ﷺ قَالَ : أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ السَّاعَةَ ، فَقَالَ ﷺ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالْدُّخَانُ ، وَالذَّابَّةُ ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَالذَّجَالُ ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ : خُسُوفٍ بِالْمَشْرِقِ ، وَخُسُوفٍ بِالْمَغْرِبِ ، وَخُسُوفٍ بِحَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارًا تَخْرُجُ

مِنْ قَعْرِ عَدَنِ تَسُوقُ النَّاسَ - أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ - : تَبَيَّتْ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا ، وَتَقِيلَ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا . وَفِيهِ دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى أَنَّ الدُّخَانَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُنْتَظَرَةِ .

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ أَيُّ : بَيِّنٌ وَاضِحٌ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ أَيُّ : يَتَغَشَّاهُمْ وَيُغَمِّيهُمْ . ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : يُقَالُ هُمْ ذَلِكَ تَقْرِبًا وَتَوْبِيخًا ، أَوْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ذَلِكَ ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أَيُّ : يَقُولُ الْكَافِرُونَ إِذَا عَانُوا عَذَابَ اللَّهِ وَعِقَابَهُ سَائِلِينَ رَفَعَهُ وَكَشَفَهُ عَنْهُمْ ﴿ إِنِّي لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ ٢٧ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿ يَقُولُ : كَيْفَ لَهُمُ بِالذِّكْرِ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا بَيِّنَ الرِّسَالَةِ وَالنَّذَارَةِ ، وَمَعَ هَذَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَمَا وَافَقُوهُ ، بَلْ كَذَّبُوهُ وَقَالُوا : مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ . ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ يَقُولُ تَعَالَى : وَلَوْ كَشَفْنَا عَنْكُمْ الْعَذَابَ وَرَجَعْنَاكُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ، لَعُدْتُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ زِدْنَا لَعَادُوا لِمَا يَهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨] ، وَالثَّانِي : أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ إِنَّا مَوْخَرُونَ الْعَذَابَ عَنْكُمْ قَلِيلًا بَعْدَ انْعِقَادِ أَسْبَابِهِ وَوُضُوعِهِ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ مُسْتَمِرُّونَ فِيهَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالضَّلَالِ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْكَشْفِ عَنْهُمْ أَنْ يَكُونَ بَاشِرُهُمْ ، وَقَالَ فَتَادَةُ : ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَإِنْ كَانَ يَوْمٌ بَدْرٍ يَوْمٌ بَطْشَةٌ أَيْضًا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ؓ : الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى يَوْمٌ بَدْرٍ ، وَأَنَا أَقُولُ : هِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ ٢٨ أَنْ أَدُّوا إِلَى عِبَادِ اللَّهِ ٢٩ إِنِّي لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ ٣٠ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ٣١ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ٣٢ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ٣٣ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ ٣٤ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ٣٥ فَأَسْرَبَ بَعَادَى لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ٣٦ وَاتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا ٣٧ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ٣٨ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٣٩ وَزُرُوعٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ٤٠ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ٤١ كَذَلِكَ ٤٢ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ٤٣ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ٤٤ وَلَقَدْ خَجِمْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أَلَمِيهِنَ ٤٥ مِنْ فِرْعَوْنَ ٤٦ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ٤٧ وَلَقَدْ أَخْرَجْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلِيِّ الْعَالَمِينَ ٤٨ وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ٤٩

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ اخْتَبَرْنَا قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، وَهُمْ قَبِطُ مِصْرَ ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ يَعْنِي : مُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ ﴿ أَنْ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِقَايَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ أَهْدَى ﴾ طه : ٤٧]
وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أَي : مَأْمُونٌ عَلَى مَا أُبَلِّغُكُمْوهُ ﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أَي : لَا تَسْتَكْبِرُوا عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ ، وَالْإِنْفِيَادِ لِحُجْجِهِ وَالْإِيمَانِ بِبِرَاهِينِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر : ٦٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴾ أَي : بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ وَاضِحَةٍ ، وَهِيَ مَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَاتِ ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ قِيلَ : هُوَ الرَّجْمُ بِاللِّسَانِ وَهُوَ الشَّتْمُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : الرَّجْمُ بِالْحِجَارَةِ ، أَي : أَعُوذُ بِاللَّهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكُمْ مِنْ أَنْ تَصِلُوا إِلَيَّ بِسُوءٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُونِ ﴾ أَي : فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِي وَدَعُوا الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مُسَالَمَةً إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، فَلَمَّا طَالَ مَقَامُهُ ﷻ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ وَأَقَامَ حُجَجَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، كُلُّ ذَلِكَ وَمَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا كُفْرًا وَعِنَادًا ، دَعَا رَبَّهُ عَلَيْهِمْ دَعْوَةً نَفَذَتْ فِيهِمْ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُخْرِجَ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَمْرِ فِرْعَوْنَ وَمُشَاوَرَتِهِ وَاسْتِئْذَانِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ طه : ٧٧] ، وَقَوْلُهُ هَاهُنَا : ﴿ وَأَتْرَكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى ﷻ لَمَّا جَاوَزَ هُوَ وَبَنُو إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ ، أَرَادَ مُوسَى أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ ، لِيَصِيرَ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَتْرُكَهُ عَلَى حَالِهِ سَاكِئًا ، وَبَشَّرَهُ بِأَنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ فِيهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَخَافُ دَرَكًا وَلَا يَخْشَى . ﴿ رَهْوًا ﴾ طَرِيقًا يَبَسًا كَهَيْئَتِهِ ، يَقُولُ : لَا تَأْمُرُهُ بِرُجْعٍ ، أَتْرُكُهُ حَتَّى يَرْجِعَ آخِرُهُمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَهِيَ الْبُسَاتِينُ ﴾ وَعُيُونُ ﴿ وَزُرُوعٍ ﴾ وَالْمُرَادُ بِهَا : الْأَنْهَارُ وَالْأَبَارُ ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ وَهِيَ الْمَسَاكِينُ الْأَيُّفَةُ وَالْأَمَاكِينُ الْحُسَنَةُ ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنَكِهِنَّ ﴾ أَي : عَيْشَتُهُ ، كَانُوا يَتَفَكَّهُونَ فِيهَا فَيَأْكُلُونَ مَا شَاءُوا ، وَيَلْبَسُونَ مَا أَحَبُّوا ، مَعَ الْأَمْوَالِ أَوْ الْجَاهَاتِ وَالْحُكْمِ فِي الْبِلَادِ ، فَسَلِبُوا ذَلِكَ جَمِيعُهُ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَفَارَقُوا الدُّنْيَا وَصَارُوا إِلَى جَهَنَّمَ وَبَنَسَ الْمَصِيرُ ، وَاسْتَوَلَى عَلَى الْبِلَادِ الْمِضْرِيَّةِ ، وَتِلْكَ الْحَوَاصِلُ الْفِرْعَوْنِيَّةُ ، وَالْمَالِكُ الْقِبْطِيَّةُ بَنُو إِسْرَءِيلَ ، كَمَا قَالَ وَتَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩]
وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴾ وَهُمْ بَنُو إِسْرَءِيلَ كَمَا تَقَدَّمَ . ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ أَيُّ : لَمْ تَكُنْ لَهُمْ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تَصْعَدُ فِي أَبْوَابِ السَّمَاءِ فَتَبْكِي عَلَى فَقْدِهِمْ ، وَلَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِقَاعٌ عَبْدُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا فَقَدْتُهُمْ ، فَلِهَذَا اسْتَحَقُّوا أَنْ لَا يُنْظَرُوا وَلَا يُؤَخَّرُوا لِكُفْرِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ ، وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ . قَالَ قَتَادَةُ : كَانُوا أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ أَنْ تَبْكِي عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ يَمْنُنُ عَلَيْهِمْ تَعَالَى بِذَلِكَ ، حَيْثُ أَنْقَذَهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ إِهَانَةِ فِرْعَوْنَ وَإِذْلَالِهِ لَهُمْ ، وَتَسْخِيرِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْأَعْمَالِ الْمُهِينَةِ الشَّاقَّةِ . ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا ﴾ أَيُّ : مُسْتَكْبِرًا جَبَّارًا عَنِيدًا ﴿ مِنْ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أَيُّ : سَرِفًا فِي أَمْرِهِ ، سَخِيفَ الرَّأْيِ عَلَى نَفْسِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : عَلَى مَنْ هُمْ بَيْنَ ظَهْرِهِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : اخْتَرْتَهُمْ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِمْ ذَلِكَ ﴿ وَءَاتَيْنَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ ﴾ أَيُّ : الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ﴿ مَا فِيهِ بَلَتْؤًا مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : اخْتِيَارَ ظَاهِرٍ جَلِيٍّ لِنِ إِهْتِدَى بِهِ .

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿ إِن هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ فَاتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنْهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبُعْثَ وَالْمَعَادَ ، وَأَنَّهُ مَا تَمَّ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا حَيَاةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ ، وَلَا بُعْثَ وَلَا نُشُورَ ، وَيَحْتَجُّونَ بِآبَائِهِمُ الْمَاضِينَ الَّذِينَ ذَهَبُوا فَلَمْ يَرْجِعُوا ، فَإِنْ كَانَ الْبُعْثُ حَقًّا ﴿ فَاتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَاطِلَةٌ وَشُبْهَةٌ فَاسِدَةٌ ، فَإِنَّ الْمَعَادَ إِنَّمَا هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا بَلْ بَعْدَ انْقِضَائِهَا وَذَهَابِهَا وَفِرَاقِهَا ، يُعِيدُ اللَّهُ الْعَالَمِينَ خَلْقًا جَدِيدًا وَيَجْعَلُ الظَّالِمِينَ لِنَارِ جَهَنَّمَ وَقُودًا يَوْمَ تَكُونُونَ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لَهُمْ ، وَمُتَوَعِّدًا وَمُنْذِرًا لَهُمْ بِأَسَةِ الَّذِي لَا يُرَدُّ ، كَمَا حَلَّ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنَظَرَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْكَرِينَ لِلْبُعْثِ ، كَقَوْمِ تَبَّعٍ - وَهُمْ سَبَأٌ - حَيْثُ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ ﷻ وَخَرَّبَ بِلَادَهُمْ ، وَشَرَّدَهُمْ فِي الْبِلَادِ ، وَفَرَّقَهُمْ شَذَرًا مَذَرًا ، كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ سَبَأٍ .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينِينَ ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَذَابِهِ وَتَنْزِيهِهِ نَفْسَهُ عَنِ اللَّعِبِ وَالْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ١ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ٢ [المؤمنون: ١١٥-١١٦] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْعِبُ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الْحَقَّائِقِ ، فَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ وَيُثِيبُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَوْلُهُ ٣ : ﴿ مِيقَتُهُمْ أَجْعِبُ ﴾ أَي : يَجْمَعُهُمْ كُلُّهُمْ أَوَّلَهُمْ وَآخِرُهُمْ ، ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا ﴾ أَي : لَا يَنْفَعُ قَرِيبٌ قَرِيبًا ، كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وَكَقَوْلِهِ ٤ ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ ٥ [المعارج: ١٠-١١] أَي : لَا يَسْأَلُ أَخَاهُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ يَرَاهُ عَيْنًا . وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أَي : لَا يَنْصُرُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ ، وَلَا يَأْتِيهِ نَصْرُهُ مِنَ الْخَارِجِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾ أَي : لَا يَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَحْمَةُ اللَّهِ ٦ بِخَلْقِهِ ٧ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٨ أَي : هُوَ عَزِيزٌ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ .

إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ٩ طَعَامُ الْأَثِيمِ ١٠ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ١١ كَغَلِي الْحَمِيمِ ١٢ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ١٣ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ١٤ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ١٥ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ١٦ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُعَذِّبُ بِهِ الْكَافِرِينَ الْجَاهِلِينَ لِلْقَائِهِ : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ١٧ طَعَامُ الْأَثِيمِ ١٨ وَالْأَثِيمُ . أَي : فِي قَوْلِهِ وَفِعْلُهُ ، وَهُوَ الْكَافِرُ ١٩ كَالْمُهْلِ ٢٠ قَالُوا : كَعَكَرَ الزَّيْتِ ٢١ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ٢٢ كَغَلِي الْحَمِيمِ ٢٣ أَي : مِنْ حَرَارَتِهَا وَرَدَائِعَتِهَا ٢٤ خُذُوهُ ٢٥ أَي : الْكَافِرُ ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ تَعَالَى إِذَا قَالَ لِلزَّبَانِيَةِ ٢٦ خُذُوهُ ٢٧ ابْتَدَرَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْهُمْ ٢٨ فَاعْتِلُوهُ ٢٩ أَي : سَوْقُوهُ سَحْبًا وَدَفْعًا فِي ظَهْرِهِ ٣٠ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ٣١ أَي : وَسَطِهَا ٣٢ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ٣٣ ، كَقَوْلِهِ ٣٤ : ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ٣٥ يُضْهَرُ بِهِ ٣٦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَأَجْلُودُ ٣٧ [الحج: ١٩-٢٠] ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٣٨ أَي : قُولُوا لَهُ ذَٰلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّهَكُّمِ وَالتَّوْيِيخِ ٣٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ٤٠ كَقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ٤١ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢ أَفَسِحْرُ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ٤٣ [الطور: ١٣-١٥] ، وَلِهَٰذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ٤٤ .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ٤٥ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٤٦ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ

﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٨﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٢٩﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٣٠﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣١﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٣٣﴾

﴿إِنَّ الْمُنَاقِبِينَ﴾ أي: الله في الدنيا ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: في الآخرة وهو الجنة قد آمنوا فيها مِنَ الْمَوْتِ وَالْخُرُوجِ، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ وَحُزْنٍ وَجَزَعٍ وَنَعَبٍ وَنَصَبٍ، وَمِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ، وَسَائِرِ الْأَفَاتِ وَالْمَصَائِبِ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وَهَذَا فِي مُقَابَلَةِ مَا أُولَئِكَ فِيهِ مِنْ شَجَرَةِ الرَّقُومِ، وَشَرْبِ الْحَمِيمِ ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ﴾ وَهُوَ: رَفِيعُ الْحَرِيرِ، كَالْقَمِصَانِ وَنَحْوِهَا ﴿وَاسْتَبْرَقٍ﴾ وَهُوَ: مَا فِيهِ بَرِيقٌ وَلَمَعَانٌ وَذَلِكَ كَالرِّيَاشِ، وَمَا يَلْبَسُ عَلَىٰ أَعَالِي الْقَمَاشِ ﴿مُتَقَبِّلِينَ﴾ أي: عَلَى السَّرْرِ، لَا يَجْلِسُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَظَهَرَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: هَذَا الْعَطَاءُ مَعَ مَا قَدْ مَنَحْنَاهُمْ مِنَ الزَّوْجَاتِ الْحَسَنَاتِ الْحُورِ الْعِينِ اللَّاتِي ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي: مَهْمَا طَلَبُوا مِنْ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ أُحْضِرَ لَهُمْ، وَهُمْ آمِنُونَ مِنْ انْقِطَاعِهِ وَامْتِنَاعِهِ بَلْ يُخَضَّرُ إِلَيْهِمْ كُلَّمَا أَرَادُوا ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ يُؤَكِّدُ النَّفْيَ، فَإِنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ أَبَدًا ﴿وَوَقَّعْنَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: مَعَ هَذَا النَّعِيمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ قَدْ وَقَّعْنَاهُمْ، وَسَلَّمْنَاهُمْ وَنَجَّاهُمْ وَرَخَّضْنَاهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ، فَحَصَلَ لَهُمُ الْمَطْلُوبُ، وَنَجَّاهُمْ مِنَ الْمَرْهُوبِ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: إِنَّمَا كَانَ هَذَا بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: إِنَّمَا يَسَّرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ سَهْلًا وَاضِحًا بَيِّنًا جَلِيًّا بِلِسَانِكَ الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَجْلَاهَا وَأَحْلَاهَا وَأَعْلَاهَا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يَتَفَهَّمُونَ وَيَعْلَمُونَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَعَ هَذَا الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ مِنَ النَّاسِ مَنْ كَفَرَ وَخَالَفَ وَعَانَدَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ مُسْلِمًا لَهُ وَوَاعِدًا لَهُ بِالنَّصْرِ، وَمَتَوَعَّدًا لِمَنْ كَذَّبَهُ بِالْعَطَبِ وَالْهَلَاكِ: ﴿فَأَرْتَقِبْ﴾ أي: اِنْتَظِرْ ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: فَسَيَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ النَّصْرَةُ وَالظَّفَرُ وَعَلُوُ الْكَلِمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّمَا لَكَ يَا مُحَمَّدٌ وَلِإِخْوَانِكَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الدُّخَانِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝

يُرْشِدُ تَعَالَى خَلْقَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ وَنِعَمِهِ ، وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَلَقَ بِهَا السَّمَاوَاتِ الْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَجْنَاسِ وَالْأَنْوَاعِ ، مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، وَالذُّوَابِ وَالطُّيُورِ وَالْوُحُوشِ وَالسَّبَاعِ وَالْحَشَرَاتِ ، وَمَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الْأَصْنَافِ الْمُتَنَوِّعَةِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي تَعَاقُبِهِمَا دَائِبِينَ لَا يَفْتَرَانِ ، هَذَا بِظِلَامِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ السَّحَابِ مِنَ الْمَطَرِ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَسَاءَهُ رِزْقًا ؛ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ الرِّزْقُ ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، أَيْ : بَعْدَمَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا تَبَاتُ فِيهَا وَلَا شَيْءٌ ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ﴾ أَيْ : جَنُوبًا ، وَشِمَالًا ، وَدُبُورًا وَصَبًا ، بَرِّيَّةً وَبَحْرِيَّةً ، لَيْلِيَّةً وَنَهَارِيَّةً ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلْمَطَرِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلْقَاحِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ غِذَاءٌ لِلْأَرْوَاحِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَقِيمٌ لَا يُنْتِجُ ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوَّلًا : ﴿ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثُمَّ ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ ثُمَّ ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ وَهُوَ تَرَقُّ مِنْ حَالٍ شَرِيفٍ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى .

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوءًا أُولَئِكَ هُمْ عَذَابُ مُهِينٍ ۝ مَن وَرَاهِمُ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَهُمْ عَذَابُ عَظِيمٍ ۝ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ هُمْ عَذَابُ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ ۝ يَقُولُ تَعَالَى : هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ يُعْنِي الْقُرْآنَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ ﴿ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أَيْ : مُتَّصِمَةً الْحَقِّ مِنَ الْحَقِّ ، فَإِذَا كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَلَا يَنْقَادُونَ لَهَا ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ

وآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۚ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۚ أَيُّ : أَفَّاكٍ فِي قَوْلِهِ كَذَابٍ ، حَلَّافٍ مَّهِينٍ ، أَثِيمٍ فِي فِعْلِهِ وَقَلْبِهِ ، كَافِرٍ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَتْلَى عَلَيْهِ ۚ أَيُّ : تُفْرَأُ عَلَيْهِ ۚ ثُمَّ يُصِرُّ ۚ أَيُّ : عَلَى كُفْرِهِ وَجُحُودِهِ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا ۚ كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا ۚ أَيُّ : كَأَنَّهُ مَا سَمِعَهَا ۚ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۚ أَيُّ : فَأَخْبِرْهُ أَنَّ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابًا أَلِيمًا مُوجِعًا ۚ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أَيُّ : إِذَا حَفِظَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ كَفَرَ بِهِ وَاتَّخَذَهُ سُخْرِيًا وَهُزُوًا ۚ أُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۚ أَيُّ : فِي مُقَابَلَةِ مَا اسْتَهَانَ بِالْقُرْآنِ وَاسْتَهَزَأَ بِهِ .

ثُمَّ فُسِّرَ الْعَذَابُ الْحَاصِلُ لَهُ يَوْمَ مَعَادِهِ فَقَالَ : ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۚ أَيُّ : كُلُّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ سَيَصِيرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا ۚ أَيُّ : لَا تَنْفَعُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۚ أَيُّ : وَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ الْآلِهَةُ الَّتِي عَبْدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۚ . ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ هَذَا هُدًى ۚ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ هُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجَزٍ أَلِيمٍ ۚ وَهُوَ الْمُؤْلَمُ الْمُوجِعُ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ۚ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ ٢٧ ﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ ٢٨ ﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ ٢٩ ﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿ ٣٠ ﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عِبِيدِهِ فِيمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الْبَحْرِ ﴿ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ ۚ وَهِيَ السُّفُنُ فِيهِ بِأَمْرِهِ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَ الْبَحْرَ بِحَمْلِهَا ۚ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ أَيُّ : فِي الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۚ أَيُّ : عَلَى حُصُولِ الْمَنَافِعِ الْمَجْلُوبَةِ إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَقَالِيمِ النَّائِيَةِ وَالْأَفَاقِ الْقَاصِيَةِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَيُّ : مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْجِبَالِ ، وَالْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ ، وَجَمِيعِ مَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ ، أَيُّ : الْجَمِيعُ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ أَيُّ : مِنْ عِنْدِهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَٰلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ۚ أَيُّ : لِيَصْفَحُوا عَنْهُمْ وَيَتَحَمَّلُوا الْأَذَى مِنْهُمْ ، وَكَانَ هَذَا فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، أُمِرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى أَدَى الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، لِيَكُونَ ذَٰلِكَ كَالْتَأْلِيفِ لَهُمْ ، ثُمَّ لَمَّا أَصْرُوا عَلَى الْعِنَادِ شَرَعَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْجِلَادَ وَالْجِهَادَ ۚ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۚ أَيُّ : إِذَا صَفَحُوا عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا

فَإِنَّ اللَّهَ يُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ السَّيِّئَةِ فِي الْآخِرَةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيُّ : تَعُودُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُعْرَضُونَ بِأَعْمَالِكُمْ عَلَيْهِ ، فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ يَتَنَسَّيْنَ مِنَ الْأَمْرِ ﴿١٦﴾ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ أَنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِمْ وَإِرسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، وَجَعَلُهُ الْمُلْكَ فِيهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْمَأْكُلِ وَالْمَشَارِبِ ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : فِي زَمَانِهِمْ ، ﴿ وَءَاتَيْنَاهُمْ يَتَنَسَّيْنَ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ أَيُّ : حُجْبًا وَبَرَاهِينَ وَأَدْلَةً قَاطِعَاتٍ ، فَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجُجُ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ قِيَامِ الْحُجَّةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَغْيًا مِنْهُمْ عَلَىٰ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيُّ : سَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ ، وَهَذَا فِيهِ تَحْذِيرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَسْلُكَ مَسْلِكَهُمْ ، وَأَنْ تَقْصِدَ مِنْهُمْ جَهَنَّمَ ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أَيُّ : وَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا ، فَإِنَّهُمْ لَا يَزِيدُونَهُمْ إِلَّا خَسَارًا وَدَمَارًا وَهَلَاكًا ، ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ وَهُوَ تَعَالَىٰ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

وَلْتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ ﴿١٦﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ آجَرُوا السَّيِّئَاتِ ﴿١٧﴾ أَي : عَمِلُواهَا وَكَسَبُوهَا ﴿١٨﴾ أَنْ تَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ ﴿١٩﴾ أَي : نَسَاوِيهِمْ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿٢٠﴾ سَاءَ مَا تَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ أَي : سَاءَ مَا ظَنُّوا بِنَا وَبِعَدْلِنَا أَنْ نَسَاوِيَ بَيْنَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَفِي هَذِهِ الدَّارِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٢٢﴾ سَاءَ مَا تَحْكُمُونَ ﴿٢٣﴾ ، وَقَالَ ﷻ : ﴿٢٤﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴿٢٥﴾ أَي : بِالْعَدْلِ ﴿٢٦﴾ وَلْتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ . ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿٢٨﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴿٢٩﴾ أَي : إِنَّهَا يَأْتُرُ بِهِوَاهُ ، فَمَهْمَا رَأَاهُ حَسَنًا فَعَلَهُ ، وَمَهْمَا رَأَاهُ قَبِيحًا تَرَكَهُ ﴿٣٠﴾ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴿٣١﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : وَأَضَلَّهُ اللَّهُ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ ، وَالْآخَرُ : وَأَضَلَّهُ اللَّهُ بَعْدَ بُلُوغِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ ، وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَالثَّانِي : يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلَ ، وَلَا يَنْعَكِسُ ﴿٣٢﴾ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴿٣٣﴾ أَي : فَلَا يَسْمَعُ مَا يَنْفَعُهُ ، وَلَا يَعْيِي شَيْئًا يَنْتَدِي بِهِ ، وَلَا يَرَى حُجَّةً يَسْتَضِيءُ بِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٣٤﴾ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٥﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٣٦﴾ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٣٧﴾ [الأعراف : ١٨٦]

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّتُوا بِبَابَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الدَّهْرِيَّةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَمَنْ وافقَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي إنْكَارِ الْمَعَادِ : ﴿٤١﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴿٤٢﴾ أَي : مَا ثُمَّ إِلَّا هَذِهِ الدَّارُ ، يَمُوتُ قَوْمٌ وَيَعِيشُ آخَرُونَ ، وَمَا ثُمَّ مَعَادٌ وَلَا قِيَامَةٌ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿٤٣﴾ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴿٤٤﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿٤٥﴾ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٤٦﴾ أَي : يَتَوَهَّمُونَ وَيَتَخَيَّلُونَ . قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ ﷻ : « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ » كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا إِذَا أَصَابَهُمْ شِدَّةٌ أَوْ بَلَاءٌ أَوْ نَكْبَةٌ ، قَالُوا : يَا حَيَّةَ الدَّهْرِ . فَيُسْنِدُونَ تِلْكَ الْأَفْعَالَ إِلَى الدَّهْرِ

وَيَسْأَلُونَكَ ، وَإِنَّمَا فَاعِلُهَا هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَكَأَنَّهُمْ إِنَّمَا سَبُّوا اللَّهَ ﷻ ؛ لِأَنَّهُ فَاعِلُ ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ ، فَلِهَذَا نَهَى عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الدَّهْرُ الَّذِي يَغْنُوهُ وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِ تِلْكَ الْأَفْعَالَ ، هَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، وَقَدْ غَلِطَ ابْنُ حَزْمٍ وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُ مِنَ الظَّاهِرِيَّةِ فِي عَدِّهِمُ الدَّهْرَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى أَخْذًا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا تَنَتَلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أَيُّ : إِذَا اسْتَدَلَّ عَلَيْهِمْ وَبَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْأَبْدَانِ بَعْدَ فَنَائِهَا وَتَفَرُّقِهَا ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُتُوا بِبَابَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَيُّ : أَحْيَاهُمْ إِنْ كَانَ مَا تَقُولُونَهُ حَقًّا . ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أَيُّ : كَمَا تَشَاهِدُونَ ذَلِكَ ، يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٨] أَيُّ : الَّذِي قَدَرَ عَلَى الْبُدْءِ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا يُعِيدُكُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَقُولُوا : ﴿ أَتُتُوا بِبَابَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيُّ : لَا شَكَّ فِيهِ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : فَلِهَذَا يُنْكِرُونَ الْمَعَادَ ، وَيَسْتَبْعِدُونَ قِيَامَ الْأَجْسَادِ .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِيزُ تَخَسَّرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿ ٢٧ ﴾ وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ ٢٨ ﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ ٢٩ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالْحَاكِمُ فِيهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿ يُومِيزُ تَخَسَّرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ وَهُمْ الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ الْجَاهِلُونَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى رُسُلِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالِدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً ﴾ أَيُّ : عَلَى رُكْبِهَا مِنَ الشَّدَّةِ وَالْعَظَمَةِ ، وَيُقَالُ : إِنَّ هَذَا إِذَا جِيَءَ بِجَهَنَّمَ فَإِنَّهَا تَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا جَثًا لِرُكْبَتَيْهِ ، حَتَّى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ ﷺ وَيَقُولُ : نَفْسِي ، نَفْسِي ، لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي ، وَحَتَّى أَنَّ عِيسَى ﷺ لَيَقُولُ : لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي ، لَا أَسْأَلُكَ مَرِيَمَ النَّبِيِّ وَلَدَتْنِي . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ يَعْنِي : كِتَابَ أَعْمَالِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : تُجَازَوْنَ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرَهَا وَشَرِّهَا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ : يَسْتَحْضِرُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُ الْحَفْظَةَ أَنْ تَكْتُبَ أَعْمَالَكُمْ عَلَيْكُمْ .

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٠٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٠١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴿١٠٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ ﴿١٠٤﴾ ذَٰلِكُمْ بِأَنكُمۢ أَخَذْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ۖ فَالْيَوْمَ لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿١٠٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ حُكْمِهِ فِي خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أَيِ : آمَنْتَ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلْتَ جَوَارِحُهُمُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ ، وَهِيَ الْخَالِصَةُ الْمُوَافِقَةُ لِلشَّرْعِ ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ « أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ لِلْجَنَّةِ : أَنْتِ رَحْمَتِي ، أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ » ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ أَيِ : الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ . ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أَيِ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيبًا وَتَوْبِيخًا : أَمَا قُرِئْتَ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَاسْتَكْبَرْتُمْ عَنْ اتِّبَاعِهَا ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ سَمَاعِهَا ؟ ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أَيِ : فِي أَفْعَالِكُمْ ، مَعَ مَا إِشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ ؟ ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أَيِ : إِذَا قَالَ لَكُمْ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ ﴿ قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾ أَيِ : لَا نَعْرِفُهَا ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أَيِ : إِنْ نَتَوَهَّمُ وَقُوعَهَا إِلَّا تَوَهَّمًا ، أَيِ مَرَجُوحًا ؛ وَلِهَٰذَا قَالُوا ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴾ أَيِ : بِمُتَحَقِّقِينَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أَيِ : وَظَهَرَ لَهُمْ عُقُوبَةُ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أَيِ : أَحَاطَ بِهِمْ ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيِ : مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ ﴾ أَيِ : نُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ النَّاسِي لَكُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أَيِ : فَلَمْ تَعْمَلُوا لَهُ لَا تَكُنْ لَمْ تُصَدِّقُوا بِهِ ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ ﴾ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿ ذَٰلِكُمْ بِأَنكُمۢ أَخَذْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ هُزُوعًا ﴾ أَيِ : إِنَّمَا جَازَيْنَاكُمْ هَٰذَا الْجَزَاءَ لِأَنكُمۢ اخْتَذْتُمْ حُجَجَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ سَخَرِيًّا ، تَسْخَرُونَ وَتَسْتَهْزِئُونَ بِهَا ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ﴾ أَيِ : خَدَعَتْكُمْ فَاطْمَأْنَنْتُمْ إِلَيْهَا ، فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ؛ وَلِهَٰذَا قَالَ ﷻ : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا ﴾ أَيِ : مِنَ النَّارِ ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أَيِ : لَا يُطَلَّبُ مِنْهُمْ الْعُتْبَىٰ ، بَلْ يُعَذَّبُونَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَلَا عِتَابٌ ، كَمَا تَدْخُلُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَذَابٍ وَلَا حِسَابٍ . ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَهُ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ قَالَ : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ ﴾ أي : المَالِكُ لهُمَا وَمَا فِيهِمَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي : السُّلْطَانُ ، أَي : هُوَ الْعَظِيمُ الْمُجَبَّدُ ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لَدَيْهِ فَخِيرٌ إِلَيْهِ ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أَي : الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُنَاعَى ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ٣ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ٤ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُتَوْنِ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٥ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ٦ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ٧

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ ، وَالْحِكْمَةَ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أَي : لَا عَلَى وَجْهِ الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَي : وَإِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مُضْرُوبَةٍ لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴾ أَي : لَا هُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ كِتَابًا وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا ، وَهُمْ مُّعْرِضُونَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، أَي : وَسَيَعْلَمُونَ غَيْبَ ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ أَي : لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْعَابِدِينَ مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ ﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أَي : أَرِشِدُونِي إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي اسْتَقَلُّوا بِخَلْقِهِ مِنَ الْأَرْضِ ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أَي : وَلَا شِرْكٌ لَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ

وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ، إِنَّ الْمُلْكَ وَالتَّصَرُّفُ كُلُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ﷻ فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَتُشْرِكُونَ بِهِ ؟ مَنْ أَرْشَدَكُمْ إِلَى هَذَا ؟ مَنْ دَعَاكُمْ إِلَيْهِ ؟ أَهُوَ أَمَرَكُمْ بِهِ ؟ أَمْ هُوَ شَيْءٌ اقْتَرَحْتُمُوهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ؟ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَتُؤْنِسُ بِيَكْتِسِبِ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أَيُّ : هَاتُوا كِتَابًا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ ﴿ أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أَيُّ : دَلِيلٌ يَبَيِّنُ عَلَى هَذَا الْمَسْلُوكِ الَّذِي سَلَكَتُمُوهُ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَيُّ : لَا دَلِيلَ لَكُمْ لَا نَقْلِيًّا وَلَا عَقْلِيًّا عَلَى ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ أَيُّ : لَا أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَصْنَامًا ، وَيَطْلُبُ مِنْهَا مَا لَا تَسْتَطِيعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهِيَ غَافِلَةٌ عَمَّا يَقُولُ ، لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَبْطِشُ ؛ لِأَنَّهَا جَمَادٌ ، حِجَارَةٌ صُمٌ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١-٨٢] أَيُّ : سَيُخَوِّنُونَهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِمْ .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٧٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧١﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٧٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ : أَنْتُمْ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ بَيِّنَاتٌ ، أَيُّ : فِي حَالِ بَيَانِهَا وَوُضُوحِهَا وَجَلَالِهَا ، يَقُولُونَ : ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : سِحْرٌ وَاضِحٌ ، وَقَدْ كَذَبُوا ، وَافْتَرَوْا ، وَضَلُّوا ، وَكَفَرُوا ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ يَعْنُونَ : مُحَمَّدًا ﷺ . قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أَيُّ : لَوْ كَذَّبْتُ عَلَيْهِ وَزَعَمْتُ أَنَّهُ أَرْسَلَنِي - وَلَيْسَ كَذَلِكَ - لِعَاقِبَتِي أَشَدَّ الْعُقُوبَةِ ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، لَا أَنْتُمْ وَلَا غَيْرُكُمْ ، أَنْ يُجِيرَنِي مِنْهُ ، لِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، وَتَرْهيبٌ شَدِيدٌ ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ تَرْغِيبٌ لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، أَيُّ : وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ إِنْ رَجَعْتُمْ وَتُبْتُمْ تَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، وَعَفَرَ وَرَحِمَ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أَيُّ : لَسْتُ بِأَوَّلِ رَسُولٍ طَرَقَ الْعَالَمَ ،

بَلْ قَدْ جَاءَتْ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِي ، فَمَا أَنَا بِالْأَمْرِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ حَتَّى تَسْتَكْبِرُونِي وَتَسْتَبْعِدُونِ بَعْتِي إِلَيْكُمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا قَبْلِي جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى الْأُمَمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : ﴿ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ أَيُّ : مَا أَدْرِي بِمَاذَا أُوْمَرُ وَبِمَاذَا أُنْهَى بَعْدَ هَذَا ؟ . وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ قَالَ : أَمَا فِي الْآخِرَةِ فَمَعَاذَ اللَّهِ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَلَكِنْ قَالَ : لَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ فِي الدُّنْيَا ، أَخْرَجَ كَمَا أَخْرَجَتْ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِنْ قَبْلِي ؟ أَمْ أَقْتُلُ كَمَا قُتِلَتِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي ؟ وَلَا أَدْرِي أَيْخَسَفُ بِكُمْ أَوْ تُرْمُونَ بِالْحِجَارَةِ ؟ . ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أَيُّ : إِنَّهَا أَتَّبِعُ مَا يُنَزِّلُهُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الْوَحْيِ ﴿ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أَيُّ : بَيْنُ النَّذَارَةِ ، أَمْرِي ظَاهِرٌ لِكُلِّ ذِي لُبٍّ وَعَقْلٍ .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١٠١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُذْشِرَ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ؛ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ ﴾ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴿ أَيُّ : مَا ظَنُّكُمْ أَنَّ اللَّهَ صَانِعٌ بِكُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ قَدْ أَنْزَلَهُ عَلَيَّ لِأُبَلِّغُكُمْوهُ ، وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِهِ وَكَذَّبْتُمُوهُ ﴾ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴿ أَيُّ : وَقَدْ شَهِدَتْ بِصِدْقِهِ وَصَحَّتْ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، بَشَّرْتُ بِهِ وَأَخْبَرْتُ بِمِثْلِ مَا أَخْبَرَ هَذَا الْقُرْآنُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَمَنْ ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي شَهِدَ بِصِدْقِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ لِمَعْرِفَتِهِ بِحَقَّقِيَّتِهِ ﴿ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أَنْتُمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ ، وَقَالَ مَسْرُوقٌ : فَمَنْ هَذَا الشَّاهِدُ بِنَبِيِّهِ وَكِتَابِهِ ، وَكَفَرْتُمْ أَنْتُمْ بِنَبِيِّكُمْ وَكِتَابِكُمْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وَهَذَا الشَّاهِدُ اسْمُ جَنْسٍ يُعْمُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَغَيْرُهُ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ إِسْلَامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ﷺ . وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ ﷺ قَالَ : مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ : « إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ

الْحَنَّةُ»، إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ﷺ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أَي: قَالُوا عَنِ
 الْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ: لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ خَيْرًا مَّا سَبَقْنَا هَؤُلَاءِ إِلَيْهِ، يَغْنُون: بِأَلَا وَعَمَّارًا وَصُحْبًا
 وَخَبَابًا ﷺ، وَأَشْبَاهَهُمْ وَأَصْرَاهُمْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ - عِنْدَ
 أَنْفُسِهِمْ - يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَجَاهَةٌ، وَلَهُ بِهِمْ عِنَايَةٌ. وَقَدْ غَلَطُوا فِي ذَلِكَ غَلَطًا فَاحِشًا،
 وَأَخْطَأُوا خَطَأً بَيِّنًا، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ
 فَيَقُولُونَ فِي كُلِّ فِعْلٍ وَقَوْلٍ لَّمْ يَثْبُتْ عَنِ الصَّحَابَةِ ﷺ هُوَ بِدْعَةٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إِلَيْهِ،
 لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتْرَكُوا خَصْلَةَ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ إِلَّا وَقَدْ بَادَرُوا إِلَيْهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أَي: بِالْقُرْآنِ ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ﴾ أَي: كَذِبٌ
 ﴿قَدِيمٌ﴾ أَي: مَأْثُورٌ عَنِ النَّاسِ الْأَقْدَمِينَ، فَيَنْتَقِصُونَ الْقُرْآنَ وَأَهْلَهُ، وَهَذَا هُوَ الْكِبْرُ الَّذِي
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ». ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَتْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ﴾
 وَهُوَ التَّوْرَةُ ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنُ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أَي: لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ
 ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أَي: فَصِيحًا بَيِّنًا وَاضِحًا ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرِيَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أَي: يُشْتَمِلُ
 عَلَى النَّذَارَةِ لِلْكَافِرِينَ وَالْبَشَارَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ
 اسْتَقَمُوا﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ «حُمَ السَّجْدَةِ»، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ
 ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا خَلَفُوا، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
 أَي: الْأَعْمَالُ سَبَبٌ لِنَيْلِ الرَّحْمَةِ هُمْ وَسُبُوغُهَا عَلَيْهِمْ.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ
 ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ
 الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ
 إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ
 سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٠٢﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى التَّوْحِيدَ لَهُ وَإِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِقَامَةَ إِلَيْهِ، عَطَفَ
 بِالْوَصِيَّةِ بِالْوَالِدَيْنِ، كَمَا هُوَ مَقْرُونٌ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿* وَقَضَىٰ رُبُّكَ الْأَ
 تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وَقَالَ ﷺ هَاهُنَا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ
 إِحْسَنًا﴾ أَي: أَمَرْنَاهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ ﷺ قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ لِسَعْدٍ:

أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ ، فَلَا أَكُلُ طَعَامًا ، وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى تَكْفُرَ بِاللَّهِ تَعَالَى ، فَامْتَنَعْتَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، حَتَّى جَعَلُوا يَفْتَحُونَ فَاهَا بِالْعَصَا ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ الْآيَةُ .

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ﴾ أَيُّ : قَاسَتْ بِسَبَبِهِ فِي حَالِ حَمْلِهِ مَشَقَّةً وَتَعَبًا ، مِنْ وَحَامٍ وَغَيْثَانٍ وَثَقُلَ وَكَرَبَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَنَالُ الْحَوَامِلُ مِنَ التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ ﴿ وَوَضَعْنَهُ كُرْهًا ﴾ أَيُّ : بِمَشَقَّةٍ أَيْضًا مِنَ الطَّلُقِ وَشِدَّتِهِ ﴿ وَحَمَلُهُ وَفَصَلُّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ وَقَدْ اسْتَدَلَّ عَلَيَّ ﴿ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعَ الَّتِي فِي لُقْمَانَ : ﴾ وَفَصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴿ [لقمان : ١٤] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْعِمَ الرِّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] عَلَى أَنَّ أَقْلَ مُدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَهُوَ اسْتِبْطَاطُ قُوَى صَحِيحٍ ، وَوَافَقَهُ عَلَيْهِ عَثْمَانُ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أَيُّ : قُوَى وَشَبَّ وَارْتَجَلَ ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أَيُّ : تَنَاهَى عَقْلُهُ وَكَمَّلَ فَهْمُهُ وَحِلْمُهُ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَا يَتَغَيَّرُ غَالِبًا عَمَّا يَكُونُ عَلَيْهِ إِنْ أَرْبَعِينَ ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أَيُّ : أَلْهِمْنِي ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أَيُّ : فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿ وَأَصْلَحْ لِي فِي دُرَيْتِي ﴾ أَيُّ : نَسْلِي وَعَقِي ﴿ إِنِّي ثَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، وَهَذَا فِيهِ إِرْشَادٌ لِمَنْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ أَنْ يُجَدِّدَ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَيَعَزِّمَ عَلَيْهَا . قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أَيُّ : هَؤُلَاءِ الْمُتَصِفُونَ بِمَا ذَكَرْنَا ، التَّائِبُونَ إِلَى اللَّهِ الْمُنِيُونَ إِلَيْهِ ، الْمُسْتَدْرِكُونَ مَا فَاتَ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، هُمُ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ، وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَيَغْفِرُ لَهُمُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ ، وَنَتَقَبَّلُ مِنْهُمْ الْيُسِيرَ مِنَ الْعَمَلِ ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أَيُّ : هُمْ فِي جُمْلَةِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ، وَهَذَا حُكْمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، كَمَا وَعَدَ اللَّهُ ﷻ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَدَ الصِّدِّيقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ .

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ يَمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الدَّاعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ الْبَارِّينَ بِهَا وَمَا لَهُمْ عِنْدَهُ مِنَ الْفَوْزِ وَالنَّجَاةِ ، عَطَفَ بِحَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْعَاقِينَ لِلْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِيَوْلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمْ ۖ وَهَذَا عَامٌ فِي كُلِّ مَنْ قَالَ هَذَا ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَقَوْلُهُ ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسَنَ إِسْلَامُهُ ، وَكَانَ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ زَمَانِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أُنْعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ ۖ أَيُّ : أُبْعَثَ ۖ وَقَدْ خَلَّتِ الْفُرُونُ مِنْ قَبْلِي ۖ أَيُّ : قَدْ مَضَى النَّاسُ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ خَيْرٌ ۖ وَهُمَا يَسْتَعِثَّانِ اللَّهَ ۖ أَيُّ : يَسْأَلَانِ اللَّهَ فِيهِ أَنْ يَهْدِيَهُ ، وَيَقُولَانِ لَوْلَدَيْهِمَا ۖ وَبِئْسَ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۖ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِنْسِ إِيَّاهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ۖ أَيُّ : دَخَلُوا فِي زُمَرَةِ أَشْبَاهِهِمْ وَأَضْرَابِهِمْ مِنَ الْكَافِرِينَ الْخَاسِرِينَ أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أُولَئِكَ ۖ بَعْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِي قَالَ ۖ دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ جِنْسٌ يَعْمُ كُلُّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ . ۖ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا ۖ أَيُّ : لِكُلِّ عَذَابٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ ۖ وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۖ أَيُّ : لَا يَظْلِمُهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَمَا دُوَّهَا .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُمْ طِيبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ۖ أَيُّ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ، وَقَدْ تَوَرَّعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ طِيبَاتِ الْمَاكِلِ وَالْمَشَارِبِ ، وَتَنَزَّهَ عَنْهَا وَيَقُولُ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُونَ كَالَّذِينَ قَالَ اللَّهُ لَهُمْ وَوَبَّخَهُمْ وَقَرَعَهُمْ : ﴿ أَدَّبْتُمْ طِيبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ۖ . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ۖ فَجُوزُوا مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ ، فَكَمَا مَتَّعُوا أَنْفُسَهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ إِتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَتَعَاطَوْا الْفُسْقَ وَالْمَعَاصِيَ ، جَاوَزَهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعَذَابِ الْهُونِ ، وَهُوَ الْإِهَانَةُ وَالْخِزْيُ وَالْآلَامُ الْمُوجَعَةُ ، وَالْحَسَرَاتُ الْمُتَبَاعَةُ ، وَالْمَنَازِلُ فِي الدَّرَكَاتِ الْمُفْطَعَةِ أَجَارَنَا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ .

❖ وَأَذْكَرَ أَحَا عَادٍ إِذْ أُنْذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٠﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّكَ عَنْ آلِهَتِنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥١﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿١٥٢﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥٣﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسْلِيًّا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَبَهُ مِنْ قَوْمِهِ : ﴿ وَادْكُرْ أَحَا عَادٍ ﴾ وَهُوَ هُوَذَا عَلَيْهِ السَّلَامُ
بَعَثَهُ اللَّهُ ﷻ إِلَى عَادِ الْأُولَى ﴿ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ - جَمْعُ حَقْفٍ
وَهُوَ : الْجَبَلُ مِنَ الرَّمْلِ - ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ : الْأَحْقَافُ : الْجَبَلُ وَالْغَارُ ﴿ وَقَدْ خَلَّتِ الْأَنْدُرُ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ يَعْنِي : وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَنْ حَوْلَ بِلَادِهِمْ فِي الْقُرَى مُرْسِلِينَ
وَمُنْذِرِينَ ، ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أَيُّ : قَالَ لَهُمْ هُوَذَا ذَلِكَ ، فَأَجَابَهُ قَوْمُهُ قَائِلِينَ :
﴿ أَجِئْنَا لِنَأْفِكَنَّا عَنْ ءَاهِتِنَا ﴾ أَيُّ : لِنَصُدَّنَا عَنْ ءَاهِتِنَا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾
اسْتَعْجَلُوا عَذَابَ اللَّهِ وَعُقُوبَتَهُ ، اسْتَبْعَادًا مِنْهُمْ وَقُوْعَهُ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَلْعَلُّمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : اللَّهُ
أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَحِقِّينَ لَتَعْجِيلِ الْعَذَابِ فَسَيُفْعَلُ ذَلِكَ بِكُمْ ، وَأَمَّا أَنَا فَمِنْ شَأْنِي أَنِّي
أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴿ وَلِكَيْ أَرْكُزَ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ أَيُّ : لَا تَعْقِلُونَ وَلَا تَفْهَمُونَ . قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ ﴾ أَيُّ : لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ مُسْتَقْبِلَهُمْ ، اِعْتَقَدُوا أَنَّهُ
عَارِضٌ مُمِطٌّ ، فَفَرَحُوا وَاسْتَبَشَرُوا بِهِ ، وَقَدْ كَانُوا مُمَحِلِّينَ مُحْتَاجِينَ إِلَى الْمَطَرِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي قُلْتُمْ
﴿ فَأْتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَدْمِيرٌ ﴾ أَيُّ : تُخَرَّبُ
﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مِنْ بِلَادِهِمْ مِمَّا مِنْ شَأْنِهِ الْخَرَابُ ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أَيُّ : بِإِذْنِ اللَّهِ هَذَا فِي ذَلِكَ ﴿ فَأَصْبَحُوا
لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسَاكِيهُمْ ﴾ أَيُّ : قَدْ بَادُوا كُلَّهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ
الْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيُّ : هَذَا حُكْمُنَا فِي مَنْ كَذَّبَ رُسُلَنَا ، وَخَالَفَ أَمْرَنَا .

وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعِدَةً فَمَا أَغْنَى
عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا تَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ
بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿ ٦٥ ﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ ٦٦ ﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا
عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿ ٦٧ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ مَكَّنَّا الْأُمَمَ السَّالِفَةَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ مِنْهَا مَا
لَمْ نُعْطِكُمْ مِثْلَهُ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا
أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا تَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾
أَيُّ : وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ الَّذِي كَانُوا يُكْذِبُونَ بِهِ وَيَسْتَبْعِدُونَ وَقُوْعَهُ ، أَيُّ : فَاحْذَرُوا
أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ ، فَيُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ مَكَّةَ ، قَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْأُمَمَ الْمَكْدُونَةَ بِالرُّسُلِ بِمَا حَوْلَهَا كَعَادٍ ، وَكَانُوا بِالْأَخْقَافِ بِحَضْرَمَوْتَ عِنْدَ الْيَمَنِ ، وَتَمُودَ وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشَّامِ ، وَكَذَلِكَ سَبَأُ وَهُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ ، وَمَدْيَنُ وَكَانَتْ فِي طَرِيقِهِمْ وَمَمَرُّهُمْ إِلَى عَزَّةَ ، وَكَذَلِكَ بُحَيْرَةُ قَوْمِ لُوطٍ ، كَانُوا يَمُرُّونَ بِهَا أَيْضًا ﴿ وَصَرَّفْنَا الْآيَةَ ﴾ أَيُّ : بَيَّنَّاهَا وَأَوْضَحْنَاهَا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ١٧ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً ﴿ أَيُّ : فَهَلْ نَصَرُوهُمْ عِنْدَ احتِجَاجِهِمْ إِلَيْهِمْ ؟ ﴾ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴿ أَيُّ : بَلْ ذَهَبُوا عَنْهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ ﴾ وَذَلِكَ إِنْكَهَرُكُمْ ﴿ أَيُّ : كَذَبَهُمْ ﴾ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿ أَيُّ : وَافْتَرَاؤُهُمْ فِي اتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهُمْ إِلَهَةً ، وَقَدْ خَابُوا وَخَسِرُوا فِي عِبَادَتِهِمْ هَا ، وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَيْهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿ ١٨ ﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿ ١٩ ﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿ ٢٠ ﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿ ٢١ ﴾

عَنِ الزُّبَيْرِ ؓ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ قَالَ : بِنَحْلَةٍ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّيُ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] قَالَ سُفْيَانُ : أَلْبَدَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَاللَّبَدِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَلَا رَأَاهُمْ ، انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ ، فَقَالُوا : مَا لَكُمْ ؟ فَقَالُوا : حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ ، قَالُوا : مَا حَالُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ ، فَأَضْرَبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَانْظَرُّوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ ، فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَتَّبِعُونَ مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ ، فَانْصَرَفَ أُولَٰئِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تَهَامَةٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ بِنَحْلَةٍ عَامِدًا إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ ، وَهُوَ يُصَلِّيُ بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمِعُوا لَهُ ، فَقَالُوا : هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ ، فَهَئِلِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ ٢٢ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿ [الجن : ٢١-٢٢] ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ

مِنَ الْجِنِّ ﴿١﴾ ، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ أَي : طَائِفَةً مِّنَ الْجِنِّ ﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ أَي : اسْتَمِعُوا وَهَذَا أَدَبٌ مِنْهُمْ ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ أَي : فَرُغَ . ﴿ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ أَي : رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَنْذَرُوهُمْ مَا سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَدْ أُسْتَدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ فِي الْجِنِّ نُذُرٌ ، وَلَيْسَ فِيهِمْ رُسُلٌ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجِنِّ لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ رَسُولًا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف : ١٠٩]

وَقَوْلُهُمْ : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَي : مِّنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ أَي : فِي الْإِعْتِقَادِ وَالْإِخْبَارِ ﴿ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فِي الْأَعْمَالِ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُشْتَمِلٌ عَلَى شَيْئَيْنِ : خَبَرٌ وَطَلَبٌ ، فَخَبَرُهُ صِدْقٌ ، وَطَلَبُهُ عَدْلٌ ﴿ يَقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، حَيْثُ دَعَاهُم إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ السُّورَةَ الَّتِي فِيهَا خِطَابُ الْفَرِيقَيْنِ ، وَتَكْلِيفُهُمْ وَوَعْدُهُمْ وَوَعِيدُهُمْ وَهِيَ «سُورَةُ الرَّحْمَنِ» وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِمْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ أَي : وَيَقْيِكُمْ مِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ . ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : بَلْ قُدْرَةُ اللَّهِ شَامِلَةٌ لَهُ وَحَاطَةٌ بِهِ ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ أَي : لَا يُجِيرُهُمْ مِنْهُ أَحَدٌ ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وَهَذَا مَقَامٌ تَهْدِيدٍ وَتَرْهيبٍ ، فَدَعَا قَوْمَهُم بِالْتَرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ ، وَلِهَذَا نَجَعَ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ، وَجَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفُودًا وَفُودًا ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُخَيِّجَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغَ فَبَلَّغَ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أَي : هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْمُسْتَبْعِدُونَ لِقِيَامِ الْأَجْسَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ ﴾ أَي : وَلَمْ يُكْرِئْهُ خَلْقَهُنَّ ، بَلْ قَالَ لَهَا : «كُونِي» فَكَانَتْ ، بِلَا مُمَانَعَةٍ وَلَا مُحَالَفَةٍ ، بَلْ طَائِعَةٌ مُّجِيبَةٌ خَائِفَةٌ وَجِلَّةٌ ،

أَفَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّبَ الْمُوتَى ؟ ﴿ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا لِمَنْ كَفَرَ بِهِ : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ : يُقَالُ لَهُمْ : أَمَا هَذَا حَقٌّ ؟ أَفَسِحَرُ هَذَا ؟ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾
 أَيُّ : لَا يَسْعُهُمْ إِلَّا الْإِعْتِرَافُ ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .
 ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمِيرًا رَسُولُهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أَيُّ : عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِهِمْ هُمْ ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي تَعْدَادِ أُولِي الْعَزْمِ عَلَى أَقْوَالٍ ، وَأَشْهَرُهَا أَنَّهُمْ : نُوحٌ ، وَإِبْرَاهِيمُ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ، وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَسْمَائِهِمْ مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ فِي آيَتَيْنِ مِنْ سُورَتَيْ « الْأَحْزَابِ » وَ « الشُّورَى » ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِأُولِي الْعَزْمِ جَمِيعَ الرُّسُلِ ، فَتَكُونُ « مِنْ » فِي قَوْلِهِ : ﴿ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ لِبَيَانِ الْجِنْسِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ أَيُّ : لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ حُلُولَ الْعُقُوبَةِ بِهِمْ ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ [النازعات : ٤٦]
 وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلِّغْ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُهُ : وَذَلِكَ لَيْثٌ بَلَّاحٌ ، وَآخَرُ : أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُهُ : هَذَا الْقُرْآنُ بَلَّاحٌ ﴿ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ . وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ ﷻ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ .
 آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَحْقَافِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيُّ : بَايَاتِ اللَّهِ ﴿ وَصَدُّوا ﴾ غَيْرَهُمْ ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ أَيُّ : أَبْطَلَهَا وَأَذْهَبَهَا وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا ثَوَابًا وَلَا جَزَاءً ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا

مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣]

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَي: آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَسَرَائِرُهُمْ، وَانْقَادَتْ لِشَرَعِ اللَّهِ جَوَارِحُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ ﴿وَأَمِنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ عَطْفٌ خَاصٌّ عَلَى عَامٍّ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ شَرُطٌ فِي صِحَّةِ الْإِيمَانِ بَعْدَ بَعْثِهِ ﷺ ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جُمْلَةٌ مُعَرِّضَةٌ حَسَنَةٌ، وَهَذَا قَالَ: ﴿كَفَرَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أَي: أَمَرُهُمْ، وَقِيلَ: شَأْنُهُمْ، وَقِيلَ: حَالُهُمْ، وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ تَشْمِيتِ الْعَاطِسِ «يَهْدِيكُمْ اللَّهُ، وَيُصْلِحُ بِالْكُمِ». ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أَي: إِنَّمَا أَبْطَلْنَا أَعْمَالِ الْكَافِرِ، وَتَجَاوَزْنَا عَنْ سَيِّئَاتِ الْأَبْرَارِ، وَأَصْلَحْنَا شُؤْنَهُمْ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ، أَي: اخْتَارُوا الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ أَي: يُبَيِّنُ لَهُمْ مَالَ أَعْمَالِهِمْ، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي مَعَادِهِمْ.

فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَخْنَتُمْوَهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَثًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّكُمْ بِبَعْضِ ۖ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۖ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ۖ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۖ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۖ

يَقُولُ تَعَالَى مُرْشِدًا لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يَعْتَمِدُونَهُ فِي حُرُوبِهِمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أَي: إِذَا وَاجَهْتُمْوَهُمْ فَاحْصُدُوهُمْ حَصْدًا بِالسُّيُوفِ ﴿حَتَّى إِذَا أَخْنَتُمْوَهُمْ﴾ أَي: أَهْلَكْتُمْوَهُمْ قَتْلًا ﴿فَشُدُّوا الْوَتَاقَ﴾ الْأَسَارَى الَّذِينَ تَأْسِرُوهُمْ، ثُمَّ أَنْتُمْ بَعْدَ انْقِصَاءِ الْحَرْبِ وَانْفِصَالِ الْمَعْرَكَةِ مُحْيِرُونَ فِي أَمْرِهِمْ؛ إِنْ شِئْتُمْ مَنَنْتُمْ عَلَيْهِمْ فَأَطْلَقْتُمْ أَسَارَاهُمْ مَجَانًّا، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمْوَهُمْ بِمَالٍ تَأْخُذُونَهُ مِنْهُمْ وَتَسَاطِرُوهُمْ عَلَيْهِ ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ٱ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: حَتَّى لَا يَبْقَى شِرْكٌ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أَي: هَذَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْتَقَمَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِعُقُوبَةٍ وَنَكَالٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴿وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّكُمْ بِبَعْضِ﴾ أَي: وَلَكِنْ شَرَعَ لَكُمْ الْجِهَادَ وَقِتَالَ الْأَعْدَاءِ لِيُخْتَبِرَكُمْ، وَلِيَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْقِتَالِ أَنْ يُقْتَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،

قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أَي : لَنْ يُذْهِبَهَا بَلْ يُكْثِرُهَا وَيُنْمِيهَا وَيُضَاعِفُهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْرِي عَلَيْهِ عَمَلُهُ طُولَ بَرَزَخِهِ ، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ ، عَنِ الْمُقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبِ الْكِنْدِيِّ رحمه الله قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ : أَنْ يَغْفَرَ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْقَةِ مِنْ دَمِهِ ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيُحَلِّي حُلَّةَ الْإِيمَانِ ، وَيُزَوِّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ مُرْصَعٌ بِالْذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوِّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُسْفَعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ » وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الدِّينَ » . وَقَوْلُهُ : ﴿ سَعِيدِينَ ﴾ أَي : إِلَى الْجَنَّةِ ﴿ وَيُضْلَحُ بِهِمْ ﴾ أَي : أَمْرُهُمْ وَحَالُهُمْ ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴾ أَي : عَرَفَهُمْ بِهَا وَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : يَعْرِفُونَ بَيُوتَهُمْ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ ، كَمَا تَعْرِفُونَ بَيُوتَكُمْ إِذَا انْصَرَفْتُمْ مِنَ الْجُمُعَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج : ٤٠] فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ﴾ عَكْسُ ثَبَاتِ الْأَقْدَامِ لِلْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِينَ اللَّهُ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أَي : أَحْبَطَهَا وَأَبْطَلَهَا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ ﴾ أَي : لَا يُرِيدُونَهُ وَلَا يُحِبُّونَهُ ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۖ ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿ ١١٠ ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿ ١١١ ﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿ ١١٢ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِهِ ﴿ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : عَاقِبَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ وَكَفَرِهِمْ ، أَي : وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ ؛ وَهَذَا لَمَّا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ رَئِيسُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ حِينَ سَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَلَمْ يُجِبْ ، وَقَالَ : أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ هَلَكُوا ، وَأَجَابَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَالَ : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، بَلْ أَبْقَى اللَّهُ تَعَالَى لَكَ مَا يَسُوءُكَ ،

وَإِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سَجَالٌ، أَمَا إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ مِثْلَهُ لَمْ أَمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُوْنِي، ثُمَّ ذَهَبَ يَرْجُزُ وَيَقُولُ: أُعْلُ هُبْلٌ، أُعْلُ هُبْلٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تُحْيِيُوهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا نَقُولُ؟ قَالَ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ»، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَى وَلَا عُزَى لَكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تُحْيِيُوهُ؟» قَالُوا: وَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ». ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمَمْتَعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أَيُّ: فِي دُنْيَاهُمْ، يَمَمْتَعُونَ بِهَا وَيَأْكُلُونَ مِنْهَا كَأَكْلِ الْأَنْعَامِ، خَضَمًا وَقَضَمًا، وَلَيْسَ لَهُمْ هِمَّةٌ إِلَّا فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مَعَى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ» ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أَيُّ: يَوْمَ جَزَائِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَةٍ﴾ يَعْنِي: مَكَّةَ ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ، فِي تَكْذِيبِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ سَيِّدُ الرُّسُلِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ ﷻ قَدْ أَهْلَكَ الْأُمَّةَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ قَبْلَهُ بِسَبَبِهِمْ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ هَؤُلَاءِ، فَمَاذَا ظَنَّ هَؤُلَاءِ أَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ فَإِنْ رَفَعَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا لِبَرَكَةِ وُجُودِ الرُّسُولِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يُوفَّرُ عَلَى الْكَافِرِينَ بِهِ فِي مَعَادِهِمْ.

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرْبِينِ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّنْ رَبِّهِمْ﴾ كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ أَيُّ: عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَدِينِهِ، بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، وَبِمَا جَبَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَيُّ: لَيْسَ هَذَا كَهَذَا. ثُمَّ قَالَ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أَيُّ: نَعْنَاهَا ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ يَعْنِي: غَيْرُ مُتَغَيَّرٍ، وَقِيلَ: غَيْرُ مُتَبَيَّنٍ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: آسِنَ الْمَاءُ إِذَا تَغَيَّرَ رِيحُهُ، وَقِيلَ: يَعْنِي: الصَّافِي الَّذِي لَا كَدَرٍ فِيهِ، ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أَيُّ: بَلْ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ وَالْحَلَاوَةِ وَالْدُسُومَةِ ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرْبِينِ﴾ أَيُّ: لَيْسَتْ كَرِيهَةِ الطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ كَخَمْرِ الدُّنْيَا، بَلْ حَسَنَةُ الْمُنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ وَالْفِعْلِ ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ أَيُّ: وَهُوَ فِي غَايَةِ الصَّفَاءِ، وَحُسْنِ اللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَالرَّيْحِ

﴿ وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷺ : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ [الدخان : ٥٥] ،
وَقَوْلِهِ : ﴿ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رِزْقَانِ ﴾ [الرحمن : ٥٢]

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أَي : مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ ﴿ كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ ﴾ أَي :
أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا مَنَزَلَتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ؟ لَيْسَ هَؤُلَاءِ كَهَؤُلَاءِ ، وَلَيْسَ مَنْ
هُوَ فِي الدَّرَجَاتِ كَمَنْ هُوَ فِي الدَّرَكَاتِ ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾ أَي : حَارًّا شَدِيدَ الْحَرِّ لَا يُسْتَطَاعُ
﴿ فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ أَي : قَطَعَ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنَ الْأَمْعَاءِ وَالْأَحْشَاءِ عِيَادًا بِاللهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا
قَالَ ءَانِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿ ١٦ ﴾ وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا
زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿ ١٧ ﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ
أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿ ١٨ ﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِكَ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَلَكُمْ ﴿ ١٩ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ فِي بِلَادِهِمْ وَقِلَّةِ فَهْمِهِمْ ، حَيْثُ كَانُوا يَجْلِسُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ
ﷺ وَيَسْتَمِعُونَ كَلَامَهُ فَلَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ ﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ مِنْ
الصَّحَابَةِ ﷺ : ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ أَي : السَّاعَةَ ، لَا يَعْقِلُونَ مَا يُقَالُ ، وَلَا يَكْتَرِثُونَ لَهُ ، قَالَ اللهُ
تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أَي : فَلَا فَهْمَ صَحِيحٍ ، وَلَا قَصْدَ
صَحِيحٍ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ أَي : وَالَّذِينَ قَصَدُوا الْهُدَايَةَ وَفَقَّهَهُمُ اللهُ
- تَعَالَى - لَهَا فَهْدَاهُمْ إِلَيْهَا ، وَثَبَّتَهُمْ عَلَيْهَا ، وَزَادَهُمْ مِنْهَا ﴿ وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أَي : أَهْلَهُمْ
رُشْدَهُمْ ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أَي : وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْهَا ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾
أَي : أَمَارَاتُ اقْتِرَابِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ أَقْرَبَ
لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١] ، فَبَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؛
لَأَنَّهُ خَاتَمَ الرُّسُلِ الَّذِي أَكْمَلَ اللهُ تَعَالَى بِهِ الدِّينَ ، وَأَقَامَ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَقَدْ أَخْبَرَ ﷺ
بِأَمَارَاتِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا ، وَأَبَانَ عَنْ ذَلِكَ وَأَوْضَحَهُ بَمَا لَمْ يُؤْتَهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي
مَوْضِعِهِ ، فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ بِأَصْبَعِيهِ هَكَذَا - بِالْوُسْطَى
وَالْيَمْنِي تَلِيهَا - : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ أَي :
فَكَيْفَ لِلْكَافِرِينَ بِالتَّذَكُّرِ إِذَا جَاءَتْهُمْ الْقِيَامَةُ ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَلَا يَتَأْتَى كَوْنُهُ أَمْرًا يَعْلَمُ

ذَلِكَ ؛ وَلِهَذَا عَظَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، تَوْبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)) . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ أَي : يَعْلَمُ تَصَرُّفَكُمْ فِي مَهَارِكُمْ وَمُسْتَقَرَّكُمْ فِي لَيْلِكُمْ .

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿١٥﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ تَمَنَّوْا شَرَّيَةَ الْجِهَادِ ، فَلَمَّا فَرَضَهُ اللَّهُ ﷻ وَأَمَرَ بِهِ نَكَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ ﴾ أَي : مُشْتَمِلَةٌ عَلَى حُكْمِ الْقِتَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ ﴾ أَي : مِنْ فِرْعِهِمْ وَرُغْبِهِمْ وَجُبْنِهِمْ مِنْ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ . ثُمَّ قَالَ مُشْجَعًا لَهُمْ : ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿١٥﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ أَي : وَكَانَ الْأَوَّلِيُّ بِهِمْ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا ، أَي : فِي الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أَي : جَدَّ الْحَالُ ، وَخَصَرَ الْقِتَالُ ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ أَي : أَخْلَصُوا لَهُ النِّيَّةَ ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أَي : عَنِ الْجِهَادِ ، وَنَكَلْتُمْ عَنْهُ ﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أَي : تَعُودُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ ، تَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ ، وَتَقَطَّعُونَ الْأَرْحَامَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ وَهَذَا نَهْيٌ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ عُمُومًا ، وَعَنْ قَطْعِ الْأَرْحَامِ خُصُوصًا ، بَلْ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْأَقَارِبِ فِي الْمَقَالِ وَالْأَفْعَالِ وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ .

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿١٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ

بَأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا أَصْحَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا يَتَذَكَّرُ فِيهِ الْقُرْآنُ وَتَفْهَمُهُ ، وَنَاهِيًا عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ ، فَقَالَ : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانِ أَمْرًا عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴾ أَيُّ : بَلْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ، فَهِيَ مُطَبَّعَةٌ لَا يَخْلُصُ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ مَعَانِيهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ﴾ أَيُّ : فَارْقُوا الْإِيْيَانَ وَرَجِعُوا إِلَى الْكُفْرِ ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴿ أَيُّ : زَيَّنَ لَهُمْ ذَلِكَ وَحَسَنَهُ ﴾ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴿ أَيُّ : غَرَّهُمْ وَخَدَعَهُمْ ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴿ أَيُّ : مَا لُتُّوهُمْ وَنَاصَحُوهُمْ فِي الْبَاطِلِ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَهَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يُبْطِنُونَ ؛ وَهَذَا قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أَيُّ : مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُخْفُونَ ، اللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَعَالِمٌ بِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَضْرُوبَتٍ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أَيُّ : كَيْفَ حَالُهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ ، وَتَعَاصَّتِ الْأَرْوَاحُ فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَاسْتَحَرَّجَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِالْعُنْفِ وَالْقَهْرِ وَالضَّرْبِ .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿١٨﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفْتُهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿١٩﴾ وَلَتَبْلُوَنَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجْهَدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴾ أَيُّ : أَيْعَتِدُ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَكْشِفُ أَمْرَهُمْ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ ! بَلْ سَيُوضَّحُ أَمْرُهُمْ وَيُجْلِيهِ حَتَّى يُفْهَمَهُمْ دَوُو الْبَصَائِرِ ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ سُورَةَ « بَرَاءة » فَبَيَّنَ فِيهَا فَضَائِحَهُمْ وَمَا يَعْتَمِدُونَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى نِفَاقِهِمْ ؛ وَهَذَا كَانَتْ تُسَمَّى الْقَاضِحَةَ ، وَالْأَضْغَانَ : جَمْعُ ضِغْنٍ ، وَهُوَ مَا فِي النُّفُوسِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْحَقْدِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَالْقَائِمِينَ بِنَصْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفْتُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَلَوْ نَشَاءُ - يَا مُحَمَّدُ - لَأَرَيْنَاكَ أَشْخَاصَهُمْ ، فَاعْرِفْتُهُمْ عِيَانًا ، وَلَكِنْ لَمْ يَقْعَلْ تَعَالَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمُنَافِقِينَ سِتْرًا مِنْهُ عَلَى خَلْقِهِ ، وَخَمَلًا لِلْأُمُورِ عَلَى ظَاهِرِ السَّلَامَةِ ، وَرَدًّا لِلْسَّرَائِرِ إِلَى عَالِمِهَا ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ أَيُّ : فِيمَا يَبْدُو مِنْ كَلَامِهِمْ الدَّالِّ عَلَى مَقَاصِدِهِمْ ، يُفْهَمُ الْمُتَكَلِّمُ مِنْ أَيِّ الْحِزْبَيْنِ هُوَ ، بِمَعَانِي كَلَامِهِ وَفَحْوَاهُ ، وَهُوَ الْمُرَادُّ مِنْ لَحْنِ الْقَوْلِ ، كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَانُ بْنُ عَفَّانٍ ﷺ : مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللَّهُ عَلَى صَفَحَاتٍ وَجْهِهِ ، وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ تَعْيِينُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَتَبْلُوَنَكُمْ ﴾ أَيُّ : لَنُخَبِّرَنَّكُمْ بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ

الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴿١٠﴾ وَلَيْسَ فِي تَقَدُّمِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا هُوَ كَائِنْ أَنَّهُ سَيَكُونُ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ ، فَالْمُرَادُ : حَتَّى نَعْلَمَ وَفُوعُهُ ؛ وَهَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي مِثْلِ هَذَا : إِلَّا لِنَعْلَمَ ، أَيُّ : لِنَرَى .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْطِطُ أَعْمَلُهُمْ ﴿١١﴾ * يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿١٣﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿١٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَخَالَفَ الرَّسُولَ وَشَاقَّهُ وَارْتَدَّ عَنِ الْإِيمَانِ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ، أَنَّهُ لَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ وَيَحْسُرُهَا يَوْمَ مَعَادِهَا ، وَسَيُحْطِطُ اللَّهُ عَمَلَهُ فَلَا يُثَبِّتُهُ عَلَى سَالِفِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَقَبَهُ بِرِدَّتِهِ مِثْقَالَ بَعُوضَةٍ مِنْ خَيْرٍ ، بَلْ يُحْطِطُهُ وَيَمْحَقُهُ بِالْكُلِّيَّةِ ، كَمَا أَنَّ الْحَسَنَاتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ .

ثُمَّ أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ النَّبِيِّ هِيَ سَعَادَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِرْتِدَادِ الَّذِي هُوَ مُبْطِلٌ لِلْأَعْمَالِ ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ ﴾ أَيُّ : بِالرَّدَّةِ . وَهَذَا قَالَ بَعْدَهَا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ : ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ أَيُّ : لَا تَضَعُفُوا عَنِ الْأَعْدَاءِ ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ ﴾ أَيُّ : الْمَهَادَنَةِ وَالْمُسَالَمَةِ وَوَضَعَ الْقِتَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ فِي حَالِ قُوَّتِكُمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ وَعَدَّتِكُمْ ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أَيُّ : فِي حَالِ غُلُوكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْكُفَّارُ فِيهِمْ قُوَّةً وَكَثْرَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَرَأَى الْإِمَامُ فِي الْمَهَادَنَةِ وَالْمُعَاهَدَةِ مَصْلَحَةً ، فَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ صَدَّه كُفَّارُ قُرَيْشٍ عَنْ مَكَّةَ ، وَدَعَا إِلَى الصُّلْحِ وَوَضَعَ الْحَرْبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَشْرَ سِنِينَ ، فَأَجَابَهُمْ ﷺ إِلَى ذَلِكَ . ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ فِيهِ بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ﴿ وَلَنْ يَتَرَكَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴾ أَيُّ : وَلَنْ يُحْطِطَهَا وَيُبْطِلَهَا وَيَسْلُبَكُمْ إِيَّاهَا ، بَلْ يُوفِّقُكُمْ ثَوَابَهَا وَلَا يُنْقِصُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

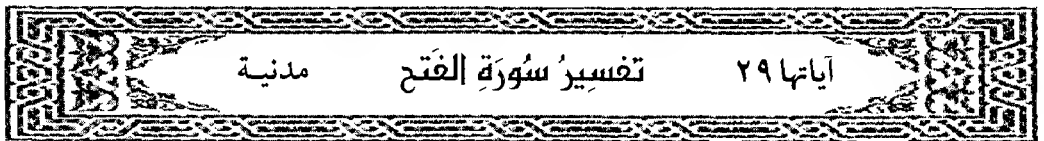
إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ

﴿٥٠﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُذْ أَمْغَنَكُمُ ﴿٥١﴾ هَآتُمْ هَآتُوا تَدْعُونَ لِتَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى تَحْقِيرًا لِأَمْرِ الدُّنْيَا وَتَهْوِينًا لِشَأْنِهَا : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ﴾ أَيُّ : حَاصِلُهَا ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا لِلَّهِ ﷻ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أَيُّ : هُوَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ لَا يَطْلُبُ مِنْكُمْ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا فَرَضَ عَلَيْكُمُ الصَّدَقَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ مُوَاسَاةً لِإِخْوَانِكُمُ الْفُقَرَاءِ ، لِيَعُودَ نَفْعُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ ، وَيَرْجِعُ ثَوَابُهُ إِلَيْكُمْ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا ﴾ أَيُّ : يُخْرِجُكُمْ تَبَخَّلُوا ﴿ وَخُذْ أَمْغَنَكُمُ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : قَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ فِي إِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ إِخْرَاجَ الْأَصْعَانِ ، وَصَدَقَ قَتَادَةُ ، فَإِنَّ الْمَالَ مَحْبُوبٌ ، وَلَا يُصْرَفُ إِلَّا فِيمَا هُوَ أَحَبُّ إِلَى الشَّخْصِ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هَآتُمْ هَآتُوا تَدْعُونَ لِتَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ﴾ أَيُّ : لَا يُجِيبُ إِلَى ذَلِكَ ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا نَقَصَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَجْرِ ، وَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أَيُّ : عَنِ كُلِّ مَا سِوَاهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ دَائِمًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ﴾ أَيُّ : بِالذَّاتِ إِلَيْهِ ، فَوَصَفَهُ بِالْغَنِيِّ وَصَفَ لَازِمَهُ لَهُ ، وَوَصَفَ الْخَلْقَ بِالْفَقْرِ وَصَفَ لَازِمَهُمْ ، لَا يَنْفَكُونَ عَنْهُ ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا ﴾ أَيُّ : عَنْ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ شَرْعِهِ ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ أَيُّ : وَلَكِنْ يَكُونُونَ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ لَهُ وَلَا أَمِيرِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَتْحِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَغْفَلٍ يَقُولُ : قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فِي مَسِيرِهِ ، سُورَةَ الْفَتْحِ عَلَى رَاحِلَتِهِ ، فَرَجَعَ فِيهَا ، قَالَ مُعَاوِيَةُ : لَوْلَا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيْنَا لَحَكَيْتُ لَكُمْ قِرَاءَتَهُ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ

نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَهَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾

نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهَجْرَةِ ، حِينَ صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِيَقْضِيَ عُمْرَتَهُ فِيهِ ، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، ثُمَّ مَالُوا إِلَى الْمَصْلَحَةِ وَالْمُهَادَاةِ ، وَأَنْ يَرْجِعَ عَامَهُ هَذَا ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ قَابِلٍ ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ عَلَى تَكْرَرِهِ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؓ كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ - ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - فَلَمَّا نَحَرَ هَدْيُهُ حَيْثُ أُحْصِرَ وَرَجَعَ ، أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ السُّورَةَ ، فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِهِمْ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ الصُّلْحَ فَتْحًا بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ ، وَمَا آَلَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ ، كَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : إِنْكُمُ تَعُدُّونَ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ ، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَّةِ . وَعَنْ جَابِرٍ ؓ قَالَ : مَا كُنَّا نَعُدُّ الْفَتْحَ إِلَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ . وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « نَزَلَتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ سُورَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۚ . فَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ ﴾ أَيُّ : بَيَّنَّا ظَاهِرًا ، وَالْمُرَادُ بِهِ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ ، فَإِنَّهُ حَصَلَ بِسَبَبِهِ خَيْرٌ جَزِيلٌ ، وَآمَنَ النَّاسُ وَاجْتَمَعَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَتَكَلَّمَ الْمُؤْمِنُ مَعَ الْكَافِرِ ، وَانْتَشَرَ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْإِيمَانُ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۚ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ ﷻ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ ، وَلَمَّا كَانَ أَطْوَعَ خَلْقِ اللَّهِ ، وَأَكْثَرُهُمْ تَعْظِيمًا لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، قَالَ حِينَ بَرَكْتَ بِهِ النَّاقَةُ « حَبَسَهَا حَائِضُ الْفِيلِ » ثُمَّ قَالَ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ شَيْئًا يُعْظَمُونَ بِهِ حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا » . فَلَمَّا أَطَاعَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ وَأَجَابَ إِلَى الصُّلْحِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ۖ ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَهَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ ﴾ أَيُّ : بِمَا يَشْرَعُهُ لَكَ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ وَالِدِّينِ الْقَوِيمِ ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۖ ﴾ أَيُّ : بِسَبَبِ خُضُوعِكَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ ، يَرْفَعُكَ اللَّهُ وَيَنْصُرَكَ عَلَى أَعْدَائِكَ .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ ۚ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ

مَصِيرًا ﴿١﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا ﴿٢﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ أَيُّ : جَعَلَ الطَّمَأْنِينَةَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : الْوَقَارَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمْ الصَّحَابَةُ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَانْقَادُوا لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِذَلِكَ وَاسْتَقَرَّتْ ، رَادَهُمْ إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَا الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ عَلَى تَفَاضُلِ الْإِيمَانِ فِي الْقُلُوبِ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَانْتَصَرَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : وَلَوْ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مَلَكَ وَاحِدًا لَأَبَادَ خَضِرَاءَهُمْ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْجِهَادَ وَالْقِتَالَ ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالُوا : هِنِيئًا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا لَكَ قَمًا لَنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيُّ : مَا كَثُرَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أَيُّ : خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبَهُمْ ، فَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا بَلْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ ، وَيَغْفِرُ وَيَسْتُرُ ، وَيَرْحَمُ وَيَشْكُرُ ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُلْمَ السَّوءِ ﴾ أَيُّ : يَتَّهِمُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِي حُكْمِهِ ، وَيَطْنُونَ بِالرُّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ﷺ أَنْ يُقْتُلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكُلِّيَّةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ عَلَيْهِمْ ذَا بَرَةُ السَّوءِ ﴾ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴿ أَيُّ : أَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿ ثُمَّ قَالَ ﷻ مُؤَكِّدًا لِقُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْكُفْرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ سَيِّئَاتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا ﴾ أَيُّ : عَلَى الْخَلْقِ ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ أَيُّ : لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أَيُّ : لِلْكَافِرِينَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي « سُورَةِ الْأَحْزَابِ » (١) . ﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَنَعَزُوهُ ﴿١٠﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : تُعْظَمُوهُ ﴿وَتُوقَرُوهُ﴾ : مِنْ التَّوقِيرِ ، وَهُوَ الْإِحْتِرَامُ وَالْإِجْلَالُ وَالْإِعْظَامُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أَيُ : تُسَبِّحُونَ اللَّهَ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَيُ : أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ . ثُمَّ قَالَ ﷺ تَشْرِيفًا لَهُ وَتَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيُ : هُوَ حَاضِرٌ مَعَهُمْ يَسْمَعُ أَقْوَاهُمْ وَيَرَى مَكَاثِمَهُمْ وَيَعْلَمُ ضَمَائِرَهُمْ وَظَوَاهِرَهُمْ ، فَهُوَ تَعَالَى هُوَ الْمَبَایِعُ بِوَاسِطَةِ رَسُولِهِ ﷺ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَجَرِ : «وَاللَّهِ لَيُعَذِّبَنَّ اللَّهُ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يَنْظُرُ بِهِمَا ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ . وَيَشْهَدُ عَلَى مَنْ اسْتَلَمَهُ بِالْحَقِّ ، فَمَنْ اسْتَلَمَهُ فَقَدْ بَايَعَ اللَّهَ تَعَالَى» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أَيُ : إِنَّمَا يَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى النَّكَثِ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُ ﴿وَمَنْ أَوفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسُّوْتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَيُ : ثَوَابًا جَزِيلًا ، وَهَذِهِ الْبَيْعَةُ هِيَ : بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ ، وَكَأَنْتَ تَحْتَ شَجَرَةِ سَمُرٍ بِالْحُدَيْبِيَّةِ ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ ، قِيلَ : أَلَفَا وَأَرْبَعِمَائِهِ . وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَلَفًا وَأَرْبَعِمَائَةً فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ الْيَوْمِ» قَالَ جَابِرٌ ﷺ : لَوْ كُنْتُ أَبْصُرُ لَأَرَيْتُكُمْ مَوْضِعَ الشَّجَرَةِ . وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسُّوْتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ كَمَا قَالَ ﷻ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ .

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ طَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا رَسُولَهُ ﷺ، بِمَا يَعْتَذِرُ بِهِ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْمَقَامَ فِي أَهْلِيهِمْ وَشَغْلِهِمْ، وَتَرَكُوا الْمَسِيرَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْتَذَرُوا بِشُغْلِهِمْ بِذَلِكَ، وَسَأَلُوا أَنْ يَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ، وَذَلِكَ قَوْلُ مَنْهُمْ لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِعْتِقَادِ بَلْ عَلَى وَجْهِ التَّقِيَّةِ وَالْمَصَانَعَةِ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ أَيُّ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ فِيكُمْ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَهُوَ الْعَلِيمُ بِسِرَائِرِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ، وَإِنْ صَانَعْتُمُونَا وَتَابَعْتُمُونَا؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ۚ أَيُّ: لَمْ يَكُنْ تَخَلُّفُكُمْ تَخَلُّفَ مَعْدُورٍ وَلَا عَاصِيٍ بَلْ تَخَلَّفَ نِفَاقٍ، وَاعْتَقَدْتُمْ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ وَتُسْتَأْصَلُ شَأْنُهُمْ، وَتُسْتَبَادُ خَضْرَاؤُهُمْ، وَلَا يَرْجِعُ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ ۚ وَظَنَنْتُمْ ظَرْبَ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۚ أَيُّ: هَلَكَى ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ أَيُّ: مَنْ لَمْ يَخْلُصِ الْعَمَلِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ لِلَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُعَذِّبُهُ فِي السَّعِيرِ، وَإِنْ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ مَا يَعْتَقِدُونَ خِلَافَ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ. ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ الْحَاكِمُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۚ أَيُّ: لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ وَخَضَعَ لَدَيْهِ.

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۚ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ۚ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، إِذْ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ يَفْتَحُونَهَا، أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُمْ إِلَى الْمَغْنَمِ، وَقَدْ تَخَلَّفُوا عَنْ وَقْتِ مُحَارَبَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَدَتِهِمْ وَمُصَابَرَتِهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَأْذَنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، مُعَاقِبَةً لَهُمْ مِنْ جِنْسِ ذُنُوبِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَدْ وَعَدَ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ بِمَغَانِمِ خَيْبَرَ وَحَدَهُمْ، لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ الْمُتَخَلِّفِينَ، فَلَا يَقَعُ غَيْرُ ذَلِكَ شَرْعًا وَلَا قَدْرًا، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ۚ وَهُوَ الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدَ بِهِ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ ۚ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ۚ أَيُّ: وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ قَبْلُ سُؤَالِكُمُ الْخُرُوجَ مَعَهُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ أَيُّ: أَنْ نُشْرِكَكُمْ فِي الْمَغَانِمِ ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ أَيُّ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، وَلَكِنْ لَا فَهْمَ لَهُمْ.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْدُ عَوْنٍ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ

فَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٧﴾

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَيْهِمُ الَّذِينَ هُمْ أُولُو بُأْسٍ شَدِيدٍ، عَلَى أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ هَوَازِنُ، الثَّانِي: ثَقِيفٌ، الثَّالِثُ: بَنُو حَنِيفَةَ، الرَّابِعُ: هُمْ أَهْلُ فَارِسٍ، وَقِيلَ: هُمْ الرُّومُ، وَقِيلَ: هُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، وَقِيلَ: هُمْ أَهْلُ الْأَوْتَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يَسْلُمُونَ﴾ يَعْنِي: شَرَعَ لَكُمْ جِهَادَهُمْ وَقِتَالَهُمْ، فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِمْ، وَلَكُمْ النُّصْرَةُ عَلَيْهِمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَيَدْخُلُونَ فِي دِينِكُمْ بِلَا قِتَالٍ، بَلْ بِاخْتِيَارٍ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ أَيُّ: تَسْتَجِيبُوا وَتَنْفَرُوا فِي الْجِهَادِ وَتُؤَدُّوا الَّذِي عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ﴾ يَعْنِي: زَمَنَ الْحُدُوبِيَّةِ حَيْثُ دُعِيتُمْ فَتَخَلَّفْتُمْ ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَعْدَارَ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ، فَمِنْهَا لَازِمٌ كَالْعَمَى وَالْعَرَجِ الْمُسْتَمِرِّ، وَعَارِضٌ كَالْمَرَضِ الَّذِي يَطْرَأُ أَيَّامًا ثُمَّ يَزُولُ، فَهُوَ فِي حَالٍ مَرَضِهِ مُلْحَقٌ بِذَوِي الْأَعْدَارِ اللَّازِمَةِ حَتَّى يَبْرَأَ، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، مُرْغِبًا فِي الْجِهَادِ وَطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أَيُّ: يَنْكُلُ عَنِ الْجِهَادِ وَيَقْبِلُ عَلَى الْمَعَاشِ ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فِي الدُّنْيَا بِالمَذَلَّةِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٨﴾

يُحِبُّ تَعَالَى عَنْ رِضَاهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ عُدَّتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعِيَّةً، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ كَانَتْ سَمُرَةً بِأَرْضِ الْحُدُوبِيَّةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أَيُّ: مِنَ الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وَهِيَ الطَّمَأْنِينَةُ ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وَهُوَ مَا أَجْرَى اللَّهُ ﷻ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الصُّلْحِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِمْ، وَمَا حَصَلَ بِذَلِكَ مِنَ الْخَيْرِ الْعَامِّ وَالْمُسْتَمِرِّ الْمُتَّصِلِ بِفَتْحِ خَيْرٍ وَفَتْحِ مَكَّةَ، ثُمَّ فَتَحَ سَائِرَ الْبِلَادِ وَالْأَقَالِيمِ عَلَيْهِمْ، وَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالرَّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٤﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ هِيَ جَمِيعُ الْمَغَانِمِ إِلَى الْيَوْمِ ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ يَعْنِي : فَتَحَ خَيْرَ ، قِيلَ : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ يَعْنِي : صَلَاحَ الْحُدُودِ ، وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ أَي : لَمْ يَنْلِكُمْ سُوءَ مَا كَانَ أَعْدَاؤُكُمْ أَضْمَرُوهُ لَكُمْ مِنَ الْمُحَارَبَةِ وَالْقِتَالِ ، وَكَذَلِكَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ الَّذِينَ خَلَفْتُمُوهُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ عَنْ عِيَالِكُمْ وَحَرِيمِكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : يَعْتَبِرُونَ بِذَلِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ عَلَى سَائِرِ الْأَعْدَاءِ مَعَ قَلَّةِ عَدَدِهِمْ ، وَلِيَعْلَمُوا بِصَنِيعِ اللَّهِ هَذَا بِهِمْ أَنَّهُ الْعَلِيمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، وَأَنَّ الْحَيَرَةَ فِيمَا يَخْتَارُهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ كَرِهُوا فِي الظَّاهِرِ ، ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أَي : بِسَبَبِ انْقِيَادِكُمْ لِأَمْرِهِ ، وَاتِّبَاعِكُمْ طَاعَتَهُ ، وَمُؤَافَقَتِكُمْ رَسُولَهُ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ أَي : وَغَنِيمَةٌ أُخْرَى وَفَتْحًا آخَرَ مُعَيَّنًا ، لَمْ تَكُونُوا تَقْدِرُونَ عَلَيْهَا قَدْ يَسَّرَهَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَحَاطَ بِهَا لَكُمْ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَزُوقُ عِبَادَهُ - الْمُتَّقِينَ لَهُ - مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ، وَهِيَ كُلُّ فَتْحٍ وَغَنِيمَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : هَذِهِ الْفَتْوحُ الَّتِي تُفْتَحُ إِلَى الْيَوْمِ . ﴿ وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يَقُولُ ﷺ مُبَشِّرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ لَوْ نَاجَزَهُمُ الْمُشْرِكُونَ لَنَصَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا نَهَزَمَ جَيْشُ الْكُفْرِ قَارًا مُدْبِرًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ؛ لَا تَهْمُ مُحَارِبُونَ اللَّهَ وَلِرَسُولِهِ وَلِحُزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أَي : هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ وَعَادَتُهُ فِي خَلْقِهِ ، مَا تَقَابَلَ الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ فِي مَوْطِنٍ فَيَصِلُ إِلَّا نَصَرَ اللَّهُ الْإِيمَانَ عَلَى الْكُفْرِ ، فَرَفَعَ الْحَقَّ وَوَضَعَ الْبَاطِلَ . ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ هَذَا امْتِنَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ

الْمُؤْمِنِينَ ، حِينَ كَفَّ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ سُوءٌ ، وَكَفَّ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، بَلْ صَانَ كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَأَوْجَدَ بَيْنَهُمْ صُلْحًا فِيهِ خَيْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَعَاقِبَةُ هُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْحُدَيْبِيَةِ هَبَطَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ثَمَانُونَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بِالسَّلَاحِ ، مِنْ قِبَلِ جَبَلِ التَّنْعِيمِ يُرِيدُونَ غِرَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَأَخَذُوا ، قَالَ : فَعَقَا عَنْهُمْ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٠﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَمَنْ مَالَاهُمْ عَلَى نُصْرَتِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيُّ : هُمُ الْكُفَّارُ دُونَ غَيْرِهِمْ ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أَيُّ : وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ﴾ أَيُّ : وَصَدُّوا الْهَدْيَ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَحَلِّهِ ، وَهَذَا مِنْ بَغْيِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَكَانَ الْهَدْيُ : سَبْعِينَ بَدَنَةً ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانُهُ .

وَقَوْلُهُ ﷻ ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ ﴾ أَيُّ : بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مِمَّنْ يَكْتُمُ إِيَّانَهُ وَيُخْفِيهِ مِنْهُمْ خِيفَةً عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ ، لَكُنَّا سَلْطَنًا كُمْ عَلَيْهِمْ فَفَقَتَلْتُمُوهُمْ وَأَبْدَلْتُمْ خَضِرَاءَهُمْ ، وَلَكِنْ بَيْنَ أَفْنَائِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَقْوَامٌ لَا تَعْرِفُوهُمْ حَالَةَ الْقَتْلِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ ﴾ أَيُّ : إِثْمٌ وَغَرَامَةٌ ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : يُؤَخِّرُ عِقَابَهُمْ لِيُخْلَصَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَرْجِعَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ . ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ أَيُّ : لَوْ تَمَيَّزَ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيُّ : لَسَلْطَنًا كُمْ عَلَيْهِمْ فَلَقَتَلْتُمُوهُمْ قَتْلًا دَرِيْعًا . ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ وَذَلِكَ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَكْتُبُوا « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » وَأَبَوْا أَنْ يَكْتُبُوا « هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ

سَكِينَتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى . وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، فَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا وَاسْتَكْبَرَ عَنْهَا الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَكَاتَبَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَضِيَّةِ الْمُدَّةِ ، وَقِيلَ : « كَلِمَةُ التَّقْوَى » : الْإِخْلَاصُ ، وَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : هِيَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ « وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا » كَانَ الْمُسْلِمُونَ أَحَقَّ بِهَا وَكَانُوا أَهْلَهَا « وَكَاتَبَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » أَي : هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْحَيَرِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الشَّرَّ .

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : إِنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ وَفِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ ﷺ : « أُكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » فَقَالَ سُهَيْلٌ : لَا نَذَرِي مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَلَكِنْ أُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، فَقَالَ ﷺ : « أُكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ » قَالَ : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَا تَبْعُنَاكَ ، وَلَكِنْ أُكْتُبْ إِسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أُكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ » وَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْنَاهُ عَلَيْكُمْ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْكُتُبُ هَذَا ؟ قَالَ ﷺ : « نَعَمْ ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ » .

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٦﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٧﴾

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ وَطَافَ بِالْبَيْتِ ، فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ ، فَلَمَّا سَارُوا عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ لَمْ يَشْكُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا تَنْفَسِرُ هَذَا الْعَامَ ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ قَضِيَّةِ الصُّلْحِ وَرَجَعُوا عَامَهُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَعُودُوا مِنْ قَابِلٍ ، وَقَعَ فِي نَفْسِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، حَتَّى سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ : أَفَلَمْ تَكُنْ تُخْبِرُنَا أَنَّا سَنَأِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ : « بَلَى ، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ عَامَكَ هَذَا ؟ » قَالَ : لَا ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ » وَبِهَذَا أَجَابَ الصَّدِيقُ ﷺ أَيْضًا حَذْوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » هَذَا لِتَحْقِيقِ الْحَيَرِ وَتَوْكِيدِهِ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ فِي شَيْءٍ « ءَامِنِينَ » أَي : فِي حَالِ دُخُولِكُمْ « مُخْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ » حَالٌ مُقَدَّرَةٌ ؛ لِأَنَّهُمْ فِي حَالِ حَرَمِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مُخْلِقِينَ وَمُقَصِّرِينَ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا فِي ثَانِي الْحَالِ ، كَانَ مِنْهُمْ مَنْ حَلَقَ رَأْسَهُ ، وَمِنْهُمْ

مَنْ قَصَّرَهُ . وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ فِي الْمَعْنَى ، فَأَثَبَتْ لَهُمُ الْأَمْنَ حَالُ الدُّخُولِ ، وَنَفَى عَنْهُمْ الْخَوْفَ حَالِ اسْتِقْرَارِهِمْ فِي الْبَلَدِ لَا يَخَافُونَ مِنْ أَحَدٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أَي : فَعَلِمَ اللَّهُ ﷻ مِنْ الْخَيْرَةِ وَالْمَصْلَحَةِ فِي صَرْفِكُمْ عَنْ مَكَّةَ وَدُخُولِكُمْ إِلَيْهَا عَامَكُمْ ذَلِكَ ، مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ﴿ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ ﴾ أَي : قَبْلَ دُخُولِكُمْ الَّذِي وَعَدْتُمْ بِهِ فِي رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ فَتَحًا قَرِيبًا ، وَهُوَ الصُّلْحُ الَّذِي كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِنُصْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى عَدُوِّهِ وَعَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ أَي : بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ عِلْمٍ وَعَمَلٍ ، فَالْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ صَحِيحٌ ، وَالْعَمَلُ الشَّرْعِيُّ مَقْبُولٌ ، فَإِخْبَارَاتُهَا حَقٌّ وَإِنْشَاءَاتُهَا عَدْلٌ ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أَي : عَلَى أَهْلِ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ وَمُسْلِمِينَ وَمُشْرِكِينَ ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أَي : أَنَّهُ رَسُولُهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ .

تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَجٍ أَخْرَجَ شَطْعُهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٠﴾

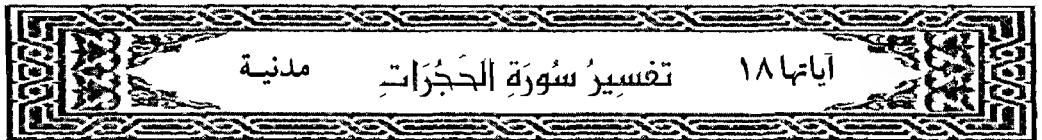
يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ رَسُولُهُ حَقًّا بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ ، فَقَالَ : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ ، وَهَذَا مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى كُلِّ وَصْفٍ جَمِيلٍ ، ثُمَّ ثَنَّى بِالنِّسَاءِ عَلَى أَصْحَابِهِ ﷺ فَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ شَدِيدًا عَنِيفًا عَلَى الْكُفَّارِ رَحِيمًا بَرًّا بِالْأَخْيَارِ ، غَضُوبًا عَبُوسًا فِي وَجْهِ الْكَافِرِ ، ضَحُوكًا بَشُوشًا فِي وَجْهِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ . ﴿ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ ، وَصَفَهُمْ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ وَكَثْرَةِ الصَّلَاةِ وَهِيَ خَيْرُ الْأَعْمَالِ ، وَوَصَفَهُمْ بِالْإِخْلَاصِ فِيهَا ﷻ وَالْإِحْتِسَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَزِيلِ الثَّوَابِ ، وَهُوَ : الْجَنَّةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ ﷻ وَهُوَ سَعَةُ الرِّزْقِ عَلَيْهِمْ وَرِضَاهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْأَوَّلِ ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ قِيلَ : يَعْني السَّمَتُ الْحَسَنَ ، وَقِيلَ : الْخُشُوعُ وَالتَّوَاضُّعُ . وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ ،

وَالْغَرَضُ أَنَّ الشَّيْءَ الْكَامِنَ فِي النَّفْسِ يَظْهَرُ عَلَى صَفَحَاتِ الْوَجْهِ ، فَاَلْمُؤْمِنُ إِذَا كَانَتْ سَرِيرَتُهُ صَاحِبَةً مَعَ اللَّهِ تَعَالَى أَصْلَحَ اللَّهُ ﷻ ظَاهِرَهُ لِلنَّاسِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مُعْظَمَتُهُ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَأَعْظَمُهَا وَأَفْضَلُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَدْ نَوَّهَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذِكْرِهِمْ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَدَاوِلَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَعٍ أُخْرِجَ شَطَطُهُ ﴾ أَيُّ : فِرَاحُهُ ﴿ فَازَرَهُ ﴾ أَيُّ : شَدَّهُ ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ أَيُّ : شَبَّ وَطَالَ ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ ﴾ أَيُّ : فَكَذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آزَرُوهُ وَأَيَّدُوهُ وَنَصَرُوهُ ، فَهُمْ مَعَهُ كَالشَّطَطِ مَعَ الزَّرْعِ ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ ﴾ « مِنْ » هَذِهِ لِبَيَانِ الْخِنْسِ ﴿ مَغْفِرَةً ﴾ أَيُّ : لِدُنُوبِهِمْ ﴿ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيُّ : ثَوَابًا جَزِيلًا وَرِزْقًا كَرِيمًا ، وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَصَدَقَ لَا يُخْلَفُ وَلَا يُبَدَّلُ ، وَكُلُّ مَنْ إِقْتَفَى أَثَرَ الصَّحَابَةِ ﷺ فَهُوَ فِي حُكْمِهِمْ ، وَلَهُمُ الْفَضْلُ وَالسَّبْقُ وَالْكَمَالُ الَّذِي لَا يُلْحَقُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ وَجَعَلَ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُمْ ، وَقَدْ فَعَلَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَتْحِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ هَذِهِ آدَابُ أَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا يُعَامِلُونَ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ مِنَ التَّوْقِيرِ وَالِاحْتِرَامِ وَالتَّبَجِيلِ وَالْإِعْظَامِ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أَيُّ : لَا تَقُولُوا خِلَافَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : لَا تَقْضُوا أَمْرًا دُونَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ شَرَائِعِ دِينِكُمْ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَيُّ : فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ أَيُّ : لَا أَقُولُ الْكُفْمَ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بَيْنَاتِكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ هَذَا أَدَبٌ ثَانٍ أَدَبَ
 اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ لَا يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ . وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي
 الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِيهِ الْبُخَارِيُّ : قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ
 ﷺ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أَمْرُ الْقَعْقَاعِ بْنِ مَعْبِدٍ ، وَقَالَ عُمَرُ ﷺ : بَلْ أَمْرُ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ ،
 فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : مَا أَرَدْتُ إِلَّا خِلَافِي ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ ، فَتَمَارَيَا حَتَّى
 إِرْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا ، فَتَزَلَّتْ فِي ذَلِكَ : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حَتَّى
 انْفَضَّتِ الْآيَةُ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمُ﴾ الْآيَةُ .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ
 فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا
 تَشْعُرُونَ﴾ وَكَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ بْنِ الشَّاسِ رَفِيعَ الصَّوْتِ ، فَقَالَ : أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِي
 عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَبِطَ عَمَلِي ، وَجَلَسَ فِي أَهْلِهِ حَزِينًا ، فَفَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 فَانْطَلَقَ بَعْضُ الْقَوْمِ إِلَيْهِ ، فَقَالُوا لَهُ : تَفَقَّدَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، مَا لَكَ ؟ قَالَ : أَنَا الَّذِي أَرْفَعُ
 صَوْتِي فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَجْهَرُ لَهُ بِالْقَوْلِ حَبِطَ عَمَلِي أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَأَتَا النَّبِيَّ ﷺ
 فَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَالَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «لَا بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» . قَالَ الْعُلَمَاءُ : يُكْرَهُ رَفْعُ
 الصَّوْتِ عِنْدَ قَبْرِهِ ﷺ كَمَا كَانَ يُكْرَهُ فِي حَيَاتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِأَنَّهُ مُحْتَرَّمٌ حَيًّا وَفِي
 قَبْرِهِ ﷺ دَائِمًا ، ثُمَّ نَهَى عَنِ الْجَهْرِ لَهُ بِالْقَوْلِ كَمَا يَجْهَرُ الرَّجُلُ لِمُخَاطَبِهِ مِنْ عَدَاةٍ ، بَلْ يُخَاطَبُ
 بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ وَتَعْظِيمٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ
 لِبَعْضٍ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا مَهِنَانُكُمْ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ
 عِنْدَهُ خَشْيَةً أَنْ يَغْضَبَ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَغْضَبُ اللَّهُ تَعَالَى لِعَظَمَتِهِ ، فَيَحْبَطُ عَمَلُ مَنْ أَعْظَبَهُ ، وَهُوَ
 لَا يَدْرِي . ثُمَّ نَدَبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى خَفْضِ الصَّوْتِ عِنْدَهُ ، وَحَثَّ عَلَى ذَلِكَ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ وَرَغَّبَ
 فِيهِ ، فَقَالَ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾
 أَيُّ : أَخْلَصَهَا لَهَا وَجَعَلَهَا أَهْلًا وَمَحَلًّا ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
 صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾

ثُمَّ إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَمَّ الَّذِينَ يُنَادُونَهُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ وَهِيَ بُيُوتُ نِسَائِهِ ، كَمَا يَصْنَعُ أَجْلَافُ

الْأَعْرَابِ ، فَقَالَ : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثُمَّ أَرْشَدَ تَعَالَى إِلَى الْأَدَبِ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أَيُّ : لَكَانَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْخَيْرُ وَالْمَصْلَحَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثُمَّ قَالَ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُكُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ تَنْدِيمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِالتَّيَبُّتِ فِي خَبَرِ الْفَاسِقِ لِيُخْتَاطَ لَهُ ، لِئَلَّا يُجْحَمَ بِقَوْلِهِ فَيَكُونُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَادِبًا أَوْ مُحْطًا ، فَيَكُونُ الْحَاكِمُ بِقَوْلِهِ قَدْ افْتَقَى وَرَاءَهُ ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ ﷻ عَنْ اتِّبَاعِ سَبِيلِ الْمُفْسِدِينَ ، وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : اِعْلَمُوا أَنَّ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، فَعَظَّمُوهُ ، وَوَقَّروهُ ، وَتَأَذَّبُوا مَعَهُ ، وَانْقَادُوا لِأَمْرِهِ ، فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِكُمْ وَأَشْفَقُ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ ، وَرَأْيُهُ فِيكُمْ أَتَمُّ مِنْ رَأْيِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ أَلَنْبَى أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الاحزاب : ٦] ، ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ رَأْيَهُمْ سَخِيفٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُرَاعَاةِ مَصَالِحِهِمْ فَقَالَ : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ ﴾ أَيُّ : لَوْ أَطَاعَكُمْ فِي جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَهُ لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى عَنَتِكُمْ وَحَرَجِكُمْ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرَضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧١]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيُّ : حَبَّبَهُ إِلَى نُفُوسِكُمْ وَحَسَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ أَيُّ : وَبَغَضَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَهِيَ : الذُّنُوبُ الْكِبَارُ ، وَالْعِصْيَانُ وَهِيَ : جَمِيعُ الْمَعَاصِي ، وَهَذَا تَدْرِيجٌ لِكَمَالِ النِّعْمَةِ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ أَيُّ : الْمُتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ هُمُ الرَّاشِدُونَ الَّذِينَ قَدْ آتَاهُمُ اللَّهُ رُشْدَهُمْ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أَيُّ : هَذَا الْعَطَاءُ الَّذِي مَنْحَكُمُوهُ هُوَ فَضْلٌ مِنْهُ عَلَيْكُمْ ، وَنِعْمَةٌ مِنْ لَدُنْهِ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ : عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِيَايَةَ ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى

فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ الْبَاغِيَّتَيْنِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿١٠١﴾ وَإِنْ طَافَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴿١٠٢﴾ فَسَبَّاهُمُ مُؤْمِنِينَ مَعَ الْإِفْتِتَالِ ، وَبِهَذَا اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْمَعْصِيَةِ وَإِنْ عَظُمَتْ . وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ : قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي ، فَأَنْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَرَكِبَ حِمَارًا ، وَأَنْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ وَهِيَ أَرْضُ سَبَخَةٍ ، فَلَمَّا انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ قَالَ : إِلَيْكَ عَنِّي فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَذَانِي رِيحُ حِمَارِكَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : وَاللَّهِ لِحِمَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ ، قَالَ : فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رِجَالٌ مِنْ قَوْمِهِ فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ ، قَالَ : فَكَانَ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالْأَيْدِي وَالنُّعَالِ ، فَبَلَّغْنَا أَنَّهُ أُنْزِلَتْ فِيهِمْ ﴿١٠٢﴾ وَإِنْ طَافَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴿١٠٣﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷺ : ﴿١٠١﴾ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠٢﴾ أَيُّ : اِعْدِلُوا بَيْنَهُمْ فِيمَا كَانَ أَصَابَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِالْقِسْطِ ، وَهُوَ الْعَدْلُ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠٤﴾ .
وَقَوْلُهُ : ﴿١٠٥﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿١٠٦﴾ أَيُّ : الْجَمِيعُ إِخْوَةٌ فِي الدِّينِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ » ، وَفِي الصَّحِيحِ « وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿١٠٧﴾ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۖ يَعْنِي : الْفِتْنَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿١٠٩﴾ أَيُّ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ﴿١١٠﴾ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١١﴾ ، وَهَذَا تَحْقِيقُ مِنْهُ تَعَالَى لِلرَّحْمَةِ لِمَنِ اتَّقَاهُ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْسَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١٢﴾

يَنْهَى تَعَالَى عَنِ السُّخْرِيَةِ بِالنَّاسِ وَهُوَ اخْتِقَارُهُمْ وَالِاسْتِهْزَاءُ بِهِمْ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَضُ النَّاسِ - وَيُرَوَّى - وَغَمَطُ النَّاسِ » ، وَالْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ اخْتِقَارُهُمْ وَاسْتِصْغَارُهُمْ وَهَذَا حَرَامٌ ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمُحْتَقَرُّ أَعْظَمَ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ السَّاخِرِ مِنْهُ الْمُحْتَقَرُّ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿١١٢﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴿١١٣﴾ فَنَصَّ عَلَى نَهْيِ الرِّجَالِ وَعَطَفَ بِنَهْيِ النِّسَاءِ ﴿١١٤﴾ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿١١٥﴾ أَيُّ : لَا تَلْمِزُوا النَّاسَ ، وَالْهَمَّازُ اللَّهْمُ

مِنَ الرَّجَالِ مَذْمُومٌ مَلْعُونٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ﴾ [الهمزة : ١] ، فَالْهُمَزُ بِالْفِعْلِ ، وَاللُّمَزُ بِالْقَوْلِ ، كَمَا قَالَ ﷺ : ﴿ هَمَزٌ مَشَاءٌ بِنِيعٍ ﴾ [القلم : ١١] أَيْ : يَحْتَمِرُ النَّاسُ وَيَهْمَزُهُمْ طَاعِنًا عَلَيْهِمْ ، وَيَمْنِي بَيْنَهُم بِالنِّمِيمَةِ ، وَهِيَ : اللَّمَزُ بِالْمَقَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] أَيْ : لَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، أَيْ : لَا يَطْعَنُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ . ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ أَيْ : لَا تَتَدَاعَوْا بِالْأَلْقَابِ وَهِيَ الَّتِي يَسُوءُ الشَّخْصَ سَمَاعُهَا ﴿ يَنْسُ الْإِسْمَ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيْمَنِ ﴾ أَيْ : يَنْسُ الصِّفَةَ وَالْإِسْمَ الْفُسُوقُ وَهُوَ : التَّنَابُرُ بِالْأَلْقَابِ ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَنَاعَتُونَ بَعْدَمَا دَخَلْتُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَعَقَلْتُمُوهُ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتَبَّ ﴾ أَيْ : مِنْ هَذَا ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ كَثِيرٍ مِّنَ الظَّنِّ وَهُوَ : التُّهْمَةُ وَالتَّخَوُّنُ لِلْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ وَالنَّاسِ فِي غَيْرِ مُحَلِّهِ ؛ لِأَنَّ بَعْضَ ذَلِكَ يَكُونُ إِثْمًا مُحْضًا ، فَلْيُجْتَنَبْ كَثِيرٌ مِنْهُ احتياطًا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا تَحَسَّسُوا ، وَلَا تَنَافَسُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ أَيْ : عَلَى بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، وَالتَّجَسُّسُ غَالِيًا يُطْلَقُ فِي الشَّرِّ ، وَمِنْهُ الْجَسَّاسُ ، وَأَمَّا التَّحَسُّسُ فَيَكُونُ غَالِيًا فِي الْخَيْرِ ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ كُلُّ مِنْهُمَا فِي الشَّرِّ ، وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : التَّجَسُّسُ : الْبَحْثُ عَنِ الشَّيْءِ ، وَالتَّحَسُّسُ : الْإِسْتِغَاةُ إِلَى حَدِيثِ الْقَوْمِ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ ، أَوْ يَتَسَمَّعُ عَلَى أَبْوَابِهِمْ وَالتَّدَابُرُ : الصَّرْمُ ﴿ وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ فِيهِ نَهْيٌ عَنِ الْغَيْبَةِ ، وَقَدْ فَسَّرَهَا الشَّارِعُ كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْغَيْبَةُ ؟ قَالَ : ﴿ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ ﴾ قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ ﷺ : « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ » . وَالْغَيْبَةُ مُحَرَّمَةٌ بِالْإِجْمَاعِ لَا يُسْتَنَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا رُجِّحَتْ مَصْلَحَتُهُ ، كَمَا فِي الْجُرْحِ وَالتَّعْدِيلِ وَالنَّصِيحَةِ ، كَقَوْلِهِ ﷺ لَمَّا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْفَاجِرُ « ائْذِنُوا لَهُ ، يَنْسُ أَخُو الْعَشِيرَةِ » ، وَكَقَوْلِهِ ﷺ لِمَا طَمَعَتْ بِنْتُ قَيْسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَقَدْ خَطَبَهَا مُعَاوِيَةُ وَأَبُو الْجَهْمُ « أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكُ وَأَمَّا أَبُو الْجَهْمِ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ » وَكَذَا مَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ ، ثُمَّ بَقِيَتْهَا عَلَى التَّحْرِيمِ الشَّدِيدِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهَا

الزَّجْرُ الْأَكِيدُ ؛ وَهَذَا شَبَّهَهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَكْلِ اللَّحْمِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْمَيِّتِ ، كَمَا قَالَ ﷺ : «أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» أَيُّ : كَمَا تَكْرَهُونَ هَذَا طَبْعًا فَاكْرَهُوا ذَلِكَ شَرْعًا ، فَإِنَّ عُقُوبَتَهُ أَشَدُّ مِنْ هَذَا ، وَهَذَا مِنَ التَّنْفِيرِ عَنْهَا وَالتَّحْذِيرِ مِنْهَا .
وَقَوْلُهُ ﷺ : «وَاتَّقُوا اللَّهَ» أَيُّ : فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ فَرَأَيْتُمْ فِي ذَلِكَ وَاحْشُوا مِنْهُ «إِنَّ اللَّهَ نَوَّابٌ رَحِيمٌ» أَيُّ : تَوَّابٌ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ ، رَحِيمٌ لِمَنْ رَجَعَ إِلَيْهِ وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ .

يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا لِلنَّاسِ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَهُمَا آدَمُ وَحَوَّاءُ وَجَعَلَهُمْ شُعُوبًا ، وَهِيَ أَعَمُّ مِنَ الْقَبَائِلِ ، وَبَعْدَ الْقَبَائِلِ مَرَاتِبُ أُخْرَى كَالْفَصَائِلِ وَالْعَشَائِرِ وَالْعِمَائِرِ وَالْأَفْحَاذِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . قَالَ تَعَالَى بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ الْغَيْبَةِ وَاحْتِقَارِ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا ، مُنَبِّهًا عَلَى تَسَاوِيهِمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ «يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا» أَيُّ : لِيَحْصُلَ التَّعَارُفُ بَيْنَهُمْ كُلُّ يَرْجِعُ إِلَى قَبِيلَتِهِ «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ» أَيُّ : إِنَّمَا تَتَفَاضَلُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّقْوَى لَا بِالْأَحْسَابِ . «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» أَيُّ : عَلِيمٌ بِكُمْ خَبِيرٌ بِأُمُورِكُمْ ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُفْضِلُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ .

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿١٣٧﴾
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيْمَنِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

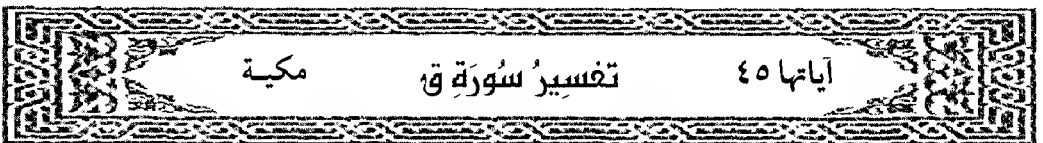
يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْأَعْرَابِ الَّذِينَ أَوَّلَ مَا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ادْعُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَقَامَ الْإِيْمَانِ وَلَمْ يَتِمَّ كُنْ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ بَعْدُ «قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ» وَقَدْ أُسْتُفِيدَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْإِيْمَانَ أَحْصَى مِنْ

الإسلام ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا بمُنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحِكم الإيمان في قلوبهم فادَّعَوْا لِنَفْسِهِمْ مَقَامًا أَعْلَى مِمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ ، فادَّبُوا فِي ذَلِكَ ، وَلَوْ كَانُوا مُنَافِقِينَ لَعَتَّقُوا وَفَضَحُوا ، كَمَا دُكِرَ الْمُنَافِقُونَ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ ، وَإِنَّمَا قِيلَ هَؤُلَاءِ تَأْذِيًّا : ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أَي : لَمْ تَصِلُوا إِلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ بَعْدُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴾ أَي : لَا يُنْقِصُكُمْ مِنْ أَجُورِكُمْ شَيْئًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَي : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَي : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الْكَمَلُ ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أَي : لَمْ يَشْكُوا وَلَا تَرَلَزُوا ، بَلْ ثَبَتُوا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ التَّصَدِيقُ الْمَحْضُ ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أَي : وَبَذَلُوا مَهْجَهُمْ وَنَفَائِسَ أَمْوَالِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أَي : فِي قَوْلِهِمْ إِذَا قَالُوا إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ لَا كِبَاضِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ الدِّينِ إِلَّا الْكَلِمَةُ الظَّاهِرَةُ ﴿ قُلْ أَعْلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أَي : أَخْبِرُونَهُ بِمَا فِي ضَمَائِرِكُمْ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْأَعْرَابُ الَّذِينَ يَمُنُونَ بِإِسْلَامِهِمْ وَمُتَابِعَتِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿ قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ ﴾ فَإِنَّ نَفْعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَيْكُمْ ، وَلِلَّهِ الْمُنَّةُ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَي : فِي دَعْوَاكُمْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْأَنْصَارِ يَوْمَ حُنَيْنٍ : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِِي ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ بِِي ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِِي ؟ » كَلِمًا قَالَتْ شَيْئًا قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ .

ثُمَّ كَرَّرَ الْإِخْبَارَ بِعِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، وَبَصَرِهِ بِأَعْمَالِ الْمَخْلُوقَاتِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا

شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿١﴾ أِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٢﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٣﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٤﴾ ﴿ق﴾ حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ الْهَجَاءِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ص﴾ - وَ ﴿ن﴾ - وَ ﴿الم﴾ - وَ ﴿حم﴾ - وَ ﴿طس﴾ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أَيُّ : الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] وَجَوَابُ الْقَسَمِ : هُوَ مَضْمُونُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقَسَمِ ، وَهُوَ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ ، وَإِثْبَاتُ الْمَعَادِ وَتَقْرِيرُهُ وَتَحْقِيقُهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْقَسَمُ مُتْلَقًا لَفْظًا ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ص﴾ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿٥﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٦﴾ [ص : ١ - ٢]

وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أَيُّ : تَعَجَّبُوا مِنْ إِرسَالِ رَسُولٍ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَشَرِ وَلَيْسَ هَذَا بِعَجِيبٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ . ثُمَّ قَالَ ﷻ مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي تَعَجُّبِهِمْ أَيْضًا مِنَ الْمَعَادِ وَاسْتِعَادِهِمْ لَوْقُوعِهِ ﴿أِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أَيُّ : يَقُولُونَ : أِذَا مِتْنَا وَبَلِينَا وَتَقَطَّعَتِ الْأَوْصَالُ مِنَّا وَصِرْنَا تُرَابًا ، كَيْفَ يُمْكِنُ الرُّجُوعُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى هَذِهِ الْبَنِيَّةِ وَالتَّرْكِيبِ ؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أَيُّ : بَعِيدُ الْوُقُوعِ . وَالْمَعْنَى : أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ اسْتِحَالَتَهُ وَعَدَمَ امْإِكَانِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أَيُّ : مَا تَأْكُلُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ فِي الْبَلَى ، نَعْلَمُ ذَلِكَ وَلَا يُخْفَى عَلَيْنَا أَيْنَ تَفَرَّقَتِ الْأَبْدَانُ ، وَأَيْنَ ذَهَبَتْ ؟ وَإِلَى أَيْنَ صَارَتْ ؟ ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ أَيُّ : حَافِظٌ لِذَلِكَ ، فَالْعِلْمُ شَامِلٌ ، وَالْكِتَابُ أَيْضًا فِيهِ كُلُّ الْأَشْيَاءِ مَضْبُوتَةٌ . ثُمَّ بَيَّنَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَبَبَ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَاسْتِعَادِهِمْ مَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ فَقَالَ : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أَيُّ : وَهَذَا حَالُ كُلِّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ مَهْمَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ بَاطِلٌ ، وَالْمَرِيجُ : الْمُخْتَلِفُ الْمُضْطَرِبُ الْمُتَلَتِّسُ الْمُنْكَرُ خِلَالَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إِنْكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٧﴾ يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ [الذاريات : ٨ - ٩]

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ ﴿٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٩﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿١٠﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١١﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٢﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١٣﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُنْبِّهًا لِلْعِبَادِ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَظْهَرَ بِهَا مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا تَعَجَّبُوا مُسْتَبْعِدِينَ لَوْقُوعِهِ ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ أَيُّ : بِالْمَصَابِيحِ وَمَا

لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿١٠٠﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي مِنْ شُقُوقٍ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : فَتُوقٍ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : مِنْ صُدُوعٍ ، وَالْمَعْنَى مُتَفَارِبٌ ﴿١٠١﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَهَا ﴿١٠٢﴾ أَي : وَسَعْنَاهَا وَفَرَسْنَاهَا ﴿١٠٣﴾ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوًى ﴿١٠٤﴾ وَهِيَ الْجِبَالُ لِتَلَا تَمِيدَ بِأَهْلِهَا وَتَضْطَرِبُ ، فَإِنَّهَا مُفَرَّةٌ عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ الْمُحِيطِ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا ﴿١٠٥﴾ وَأُنْبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهِيحٍ ﴿١٠٦﴾ أَي : مِنْ جَمِيعِ الزُّرُوعِ وَالنَّهَارِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَنْوَاعِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بَهِيحٍ ﴾ أَي : حَسَنٍ نَضِيرٍ ﴿١٠٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿١٠٨﴾ أَي : وَمُشَاهِدَةٌ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا جُعِلَ فِيهِمَا مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ تَبَصَّرَةٌ وَذَلَالَةٌ وَذِكْرَى ﴿١٠٩﴾ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿١١٠﴾ أَي : خَاضِعٍ خَائِفٍ وَجَلٍّ رَجَّاعٍ إِلَى اللَّهِ ﷻ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا ﴾ أَي : نَافِعًا ﴿١١١﴾ فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ ﴿١١٢﴾ أَي : حَدَائِقَ مِنْ بَسَاتِينٍ وَنَحْوِهَا ﴿١١٣﴾ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١١٤﴾ وَهُوَ الزَّرْعُ الَّذِي يُرَادُ لِحَبِّهِ وَادِّخَارِهِ ﴿١١٥﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَتٍ ﴿١١٦﴾ أَي : طَوَالٍ شَاهِقَاتٍ ﴿١١٧﴾ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١١٨﴾ أَي : مَنْصُودٌ ﴿١١٩﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴿١٢٠﴾ أَي : لِلْخَلْقِ ﴿١٢١﴾ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا ﴿١٢٢﴾ وَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي كَانَتْ هَامِدَةً فَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهَا الْمَاءُ اهْتَرَتْ وَرَبَّتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهِيحٍ مِنْ أَزَاهِيرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، مِمَّا يَحَارُ الطَّرْفُ فِي حُسْنِهَا ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا كَانَتْ لَا نَبَاتَ بِهَا فَأَصْبَحَتْ تَهْتَرُ خَضِرَاءُ ، فَهَذَا مِثَالٌ لِلْبُعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ ، كَذَلِكَ يُخَبِّرُنَا اللَّهُ الْمَوْتَى ، وَهَذَا الْمُشَاهَدُ مِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ بِالْحُسْنِ أَعْظَمُ مِمَّا أَنْكَرَهُ الْجَاهِلُونَ لِلْبُعْثِ كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : ٣٩]

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢٣﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٢٤﴾ وَأَصْحَابُ الْآيِكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٢٥﴾ أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴿١٢٦﴾ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لِّلْكَفَّارِ قُرَيْشٍ ، بِمَا أَحَلَّهُ بِأَسْبَابِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمَكْذِبِينَ قَبْلَهُمْ ، مِنَ النَّفَقَاتِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الدُّنْيَا ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَمَا عَذَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْعَرَقِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَأَصْحَابِ الرَّسِّ وَقَدْ تَقَدَّمَ قِصَّتُهُمْ فِي « سُورَةِ الْفُرْقَانِ » .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَثَمُودُ ﴾ ﴿١٢٣﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٢٤﴾ وَهُمْ أُمَّتُهُ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ سُدُومَ وَمَعَامَلَتَهَا مِنَ الْغُورِ ، وَكَيْفَ خَسَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمُ الْأَرْضَ ، وَأَحَالَ أَرْضَهُمْ بَحِيرَةً مُّتَنَتَّةً خَبِيثَةً يَكْفُرُ بِهِمْ وَطُعْيَانِهِمْ وَمُحَالَفَتِهِمُ الْحَقَّ ﴿١٢٥﴾ وَأَصْحَابُ الْآيِكَةِ ﴿١٢٦﴾ وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ ﷺ ﴿١٢٧﴾ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴿١٢٨﴾ وَهُوَ الْيَمَانِيُّ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْ شَأْنِهِ فِي « سُورَةِ الدُّخَانِ » [الْآيَةُ رَقْم : ٣٧] مَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ،

وَلِلَّهِ الْحَمْدُ ﴿كُلُّ كَذَبٍ أُرْسِلَ﴾ أَيُّ : كُلُّ مَنْ هَذِهِ الْأُمَمَ وَهَؤُلَاءِ الْقُرُونِ كَذَبَ رَسُولُهُ ، وَمَنْ كَذَبَ رَسُولًا فَكَأَنَّمَا كَذَبَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٥] وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ وَاحِدٌ ، فَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَوْ جَاءَهُمْ جَمِيعُ الرُّسُلِ كَذَّبُوهُمْ ﴿حَقٌّ وَعِيدٌ﴾ أَيُّ : فَحَقَّ عَلَيْهِمْ مَا أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى التَّكْذِيبِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ أَنْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ كَمَا كَذَّبَ أُولَئِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أَيُّ : أَفَأَعْجَزْنَا إِبْتِدَاءَ الْخَلْقِ ، حَتَّى هُمْ فِي شَكٍّ مِنَ الْإِعَادَةِ ؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَالْمَعْنَى : أَنْ إِبْتِدَاءَ الْخَلْقِ لَمْ يُعْجِزْنَا وَالْإِعَادَةُ أَسْهَلُ مِنْهُ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ﴾ [الروم : ٢٧]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَخُنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ خَالِقُهُ ، وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أُمُورِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُ بَنِي آدَمَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ» .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿وَخُنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يَعْنِي : مَلَأْنَاهُ تَعَالَى أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ فِي الْمُحْضَرِّ ﴿وَخُنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة : ٨٥] يَعْنِي : مَلَأْنَاهُ ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ بِإِقْدَارِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ فِي الْإِنْسَانِ كَمَا أَنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ ، وَكَذَلِكَ «الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنْ إِبْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ» كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ الْمُصْذِقُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةُ اللَّذِينَ يَكْتُبَانِ عَمَلَ الْإِنْسَانِ ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أَيُّ : مُتَرَصِّدٌ .

﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أَيُّ : إِبْنُ آدَمَ ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أَيُّ : مَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أَيُّ : إِلَّا وَلَهَا مَنْ يَرْقُبُهَا ، مُعْتَدٌ لِذَلِكَ بِكُتُبِهَا ، لَا يَتْرُكُ كَلِمَةً وَلَا حَرَكَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ يَقُولُ ﷻ وَجَاءَتْ - أَيُّهَا الْإِنْسَانُ - سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، أَيُّ : كَشَفَتْ لَكَ عَنِ الْيَقِينِ الَّذِي كُنْتَ تَمْتَرِي فِيهِ ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ

مِنْهُ نَجِدُ أَيُّ : هَذَا هُوَ الَّذِي كُنْتَ تَقْرَأُ مِنْهُ قَدْ جَاءَكَ فَلَا حَيْدَ وَلَا مَنَاصَ وَلَا فِكَاكَ وَلَا خَلَاصَ .
وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حَدِيثِ
النَّفْخِ فِي الصُّورِ وَالْفَزَعِ وَالصَّعْقِ وَالْبَعْثِ ، وَذَٰلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ
وَشَهِيدٌ ﴾ أَيُّ : مَلَكٌ يَسُوقُهُ إِلَى الْمَحْشَرِ ، وَمَلَكٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِ ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ
الْكَرِيمَةِ ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ يَعْنِي : مِنْ هَٰذَا الْيَوْمِ ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أَيُّ : قَوِيٌّ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ مُسْتَبْصِرًا حَتَّى الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيَا
يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ لَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَٰلِكَ .

وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ
لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾
﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ
وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْمَلِكِ الْمُوَكَّلِ بِعَمَلِ ابْنِ آدَمَ أَنَّهُ يَشْهَدُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا فَعَلَ وَيَقُولُ :
﴿ هَٰذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴾ أَيُّ : مُعْتَدٌ مُحْضَرٌ بِلاَ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هَٰذَا كَلَامُ الْمَلِكِ
السَّائِقِ ، يَقُولُ : هَٰذَا ابْنُ آدَمَ الَّذِي وَكَّلْتَنِي بِهِ قَدْ أَحْضَرْتُهُ . وَقَدْ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَنَّ يُعَمَّ
السَّائِقِ وَالشَّهِيدَ ، وَلَهُ إِتْجَاهٌ وَقُوَّةٌ ، فَعِنْدَ ذَٰلِكَ يَحْكُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي الْخَلِيقَةِ بِالْعَدْلِ ، فَيَقُولُ :
﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وَقَدْ اخْتَلَفَ النُّحَاةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَلْقِيَا ﴾ ، وَالظَّاهِرُ : أَنَّهَا
مُخَاطَبَةٌ مَعَ السَّائِقِ وَالشَّهِيدِ ، فَالسَّائِقُ أَحْضَرُهُ إِلَى عَرَصَةِ الْحِسَابِ ، فَلَمَّا أَدَّى الشَّهِيدُ عَلَيْهِ ،
أَمَرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَىٰ بِالْقَائِمَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَبَنَسَ الْمَصِيرُ ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ أَيُّ : كَثِيرُ
الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ ﴿ عَنِيدٍ ﴾ مُعَانِدٌ لِلْحَقِّ ، مُعَارِضٌ لَهُ بِالْبَاطِلِ مَعَ عِلْمِهِ بِذَٰلِكَ ﴿ مَنَّاعٍ
لِّلْخَيْرِ ﴾ أَيُّ : لَا يُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَرْفِيهِ وَلَا صَلَةً وَلَا صَدَقَةً ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أَيُّ : فِيمَا
يُنْفِقُهُ وَيَصْرِفُهُ يَتَجَاوَرُ فِيهِ الْحَدُّ ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أَيُّ : شَاكٌ فِي أَمْرِهِ ، مُرِيبٌ لِمَنْ نَظَرَ فِي أَمْرِهِ ﴿ الَّذِي
جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أَيُّ : أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي وَكَّلَ بِهِ ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ أَيُّ : يَقُولُ عَنِ
الْإِنْسَانِ الَّذِي قَدْ وَاثَى الْقِيَامَةَ كَافِرًا يَتَبَرَّأُ مِنْهُ شَيْطَانُهُ فَيَقُولُ : ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ أَيُّ : مَا
أَضَلَّتُهُ ﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أَيُّ : بَلْ كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ ضَالًّا قَابِلًا لِلْبَاطِلِ مُعَانِدًا لِلْحَقِّ .
﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ ﴾ يَقُولُ الرَّبُّ ﷻ لِلْإِنْسَانِيِّ وَقَرِينِهِ مِنَ الْجِنِّ ، وَذَٰلِكَ أَنَّهَا يَخْتَصِمَانِ بَيْنَ

يَدِي الْحَقِّ تَعَالَى ، فَيَقُولُ الْإِنْسِيُّ : يَا رَبِّ هَذَا أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَيَقُولُ الشَّيْطَانُ ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أَيُّ : عَنْ مَنْهَجِ الْحَقِّ ، فَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ لَهُمَا : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ أَيُّ : عِنْدِي ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ أَيُّ : قَدْ أَعَذَرْتُ إِلَيْكُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ وَأَنْزَلْتُ الْكُتُبَ وَقَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجُجُ وَالْبَيِّنَاتُ وَالْبَرَاهِينُ . ﴿ مَا يُدَلُّ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ يَعْنِي : قَدْ قَضَيْتُ مَا أَنَا قَاضٍ ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أَيُّ : لَسْتُ أَعَذِّبُ أَحَدًا بِذَنْبِ أَحَدٍ ، وَلَكِنْ لَا أَعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ .

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٦٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٦١﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيطٍ ﴿٦٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٦٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٦٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٦٥﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ هَلِ امْتَلَأَتْ ﴾ ؟ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَدَهَا أَنْ سَيَمْلَأُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، فَهُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَأْمُرُ بِمَنْ يَأْمُرُهُ إِلَيْهَا وَيُلْقِي ، وَهِيَ تَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ ، أَيُّ : هَلْ بَقِيَ شَيْءٌ تَزِيدُونِي ؟ هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ ، وَعَلَيْهِ تَدُلُّ الْأَحَادِيثُ ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « يُلْقَى فِي النَّارِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ فِيهَا ، فَتَقُولُ : قَطْ قَطْ » ، « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أَذْنِبْتُ وَقُرْبْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ ؛ لِأَنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أَيُّ : رَجَاعٍ تَائِبٍ مُقْلِعٍ ﴿ حَفِيطٍ ﴾ أَيُّ : يَحْفَظُ الْعَهْدَ فَلَا يَنْقُضُهُ وَلَا يَنْكُثُهُ ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أَيُّ : مَنْ خَافَ اللَّهَ فِي سِرِّهِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ ﷻ كَقَوْلِهِ ﷻ : « وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » . « وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ أَيُّ : وَلَقِيَ اللَّهَ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ سَلِيمٍ إِلَيْهِ خَاضِعٍ لَدَيْهِ . ﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ أَيُّ : الْجَنَّةَ ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ قَالَ فَتَادَةُ : سَلِمُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﷻ ، وَسَلَّمْ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ أَيُّ : يَخْلُدُونَ فِي الْجَنَّةِ ، فَلَا يَمُوتُونَ أَبَدًا ، وَلَا يَظْعَنُونَ أَبَدًا ، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ أَيُّ : مِمَّا اخْتَارُوا وَجَدُوا مِنْ أَيِّ أَصْنَافِ الْمَلَادِّ طَلَبُوا أُحْضِرَ لَهُمْ ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ كَقَوْلِهِ ﷻ : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » [يونس : ٢٦] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ الرُّومِيِّ : أَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ

خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٥٨﴾ فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٥٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أَي: قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ ﴿مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أَي: كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَتَقَبُّوا فِي الْبَلَدِ﴾ قِيلَ: أَثَرُوا فِيهَا، وَقِيلَ: ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ، وَقِيلَ: فَسَارُوا فِي الْبِلَادِ، أَي: سَارُوا فِيهَا يَتَّبِعُونَ الْأَرْزَاقَ وَالْمَتَاجِرَ وَالْمَكَاسِبَ أَكْثَرَ مِمَّا طُفَّتُمْ أَنْتُمْ فِيهَا ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أَي: هَلْ مِنْ مَفَرٍّ كَانَ لَهُمْ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ؟ وَهَلْ نَفَعَهُمْ مَا جَمَعُوهُ، وَرَدَّ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ إِذَا جَاءَهُمْ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ؟ فَانْتُمْ أَيْضًا لَا مَفَرَّ لَكُمْ وَلَا مَحِيدَ وَلَا مَنَاصَ وَلَا مَحِيصَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ أَي: لَعِبْرَةً ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أَي: لُبٌّ يَبْعِي بِهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَقْلٌ ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أَي: اسْتَمَعَ الْكَلَامَ فَوَعَاهُ وَتَعَقَّلَهُ بِقَلْبِهِ وَتَفَهَّمَهُ بِلُبِّهِ. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قَالَ: شَاهِدٌ بِالْقَلْبِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ فِيهِ تَقْرِيرٌ لِلْمَعَادِ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أَي: مِنْ إِعْيَاءٍ وَلَا تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ يَعْنِي: الْمُكَذِّبِينَ، إِصْبَرَ عَلَيْهِمْ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وَكَانَتِ الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ ثِنْتَانِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فِي وَقْتِ الْفَجْرِ، وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فِي وَقْتِ الْعَصْرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أَي: فَصَلِّ لَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٧٩]، ﴿وَأَدْبَرَ السُّجُودِ﴾ قِيلَ: هُوَ التَّسْبِيحُ بَعْدَ الصَّلَاةِ.

وَأَسْتَمَعَ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٦١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا نَحْنُ حُجِّيٌّ وَنُؤْمِنُ وَالْيَنَّا الْمَصِيرُ ﴿٦٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٦٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٦٥﴾

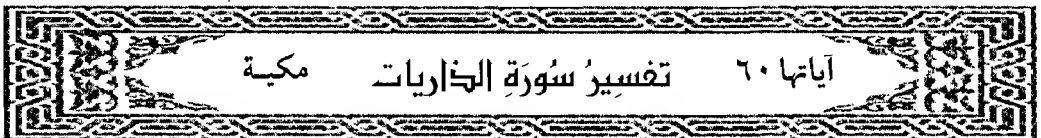
يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَمَعَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قَالَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ:

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكًا أَنْ يُنَادِيَ عَلَى صَخْرَةٍ بَيْنَ الْمَقْدِسِ : أَيُّهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ وَالْأَوْصَالُ الْمُتَقَطَّعَةُ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَجْتَمِعُونَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : النَّفْخَةَ فِي الصُّورِ ، الَّتِي تَأْتِي بِالْحَقِّ الَّذِي كَانَ أَكْثَرُهُمْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴾ أَي : مِنْ الْأَجْدَاثِ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ أَي : هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَإِلَيْهِ مَصِيرُ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ ، فَيَجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يُنْزِلُ مَطَرًا مِنَ السَّمَاءِ يُنْبِتُ أَجْسَادَ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا فِي قُبُورِهَا ، كَمَا يُنْبِتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى بِالْمَاءِ ، فَإِذَا تَكَامَلَتِ الْأَجْسَادُ ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ ، وَقَدْ أُوْدِعَتِ الْأَرْوَاحُ فِي ثُقُبٍ فِي الصُّورِ ، فَإِذَا نَفَخَ إِسْرَافِيلُ فِيهِ خَرَجَتِ الْأَرْوَاحُ تَتَوَهَّجُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَتَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى الْجَسَدِ الَّذِي كَانَتْ تَعْمُرُهُ ، فَتَرْجِعُ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا ، فَتَدْبُ فِيهِ كَمَا يَدْبُ السُّمُّ فِي اللَّدِيغِ ، وَتَتَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ ، فَيَقُومُونَ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ سِرَاعًا مُبَادِرِينَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﷻ : ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ [القمر : ٨]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أَي : تِلْكَ إِعَادَةُ سَهْلَةٍ عَلَيْنَا يَسِيرَةً لَدَيْنَا ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أَي : نَحْنُ عَلِمْنَا مُحِيطٌ بِمَا يَقُولُ لَكَ الْمَشْرِكُونَ مِنَ التَّكْذِيبِ ، فَلَا يَهْدِيكَ ذَلِكَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِحَبَّارٍ ﴾ أَي : وَلَسْتُ بِالَّذِي تُجْبِرُ هَؤُلَاءِ عَلَى الْهُدَى ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مَا كُلُّفْتُ بِهِ . بِمَعْنَى : وَمَا أَنْتَ بِمُجْبِرِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُبَلِّغٌ . ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أَي : بَلِّغْ أَنْتَ رِسَالَةَ رَبِّكَ ، فَإِنَّمَا يَتَذَكَّرُ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ وَوَعِيدَهُ وَيَرْجُو وَعْدَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِحَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ كَانَ قِتَادَةُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَخَافُ وَعِيدَكَ وَيَرْجُو مَوْعُودَكَ ، يَا بَارِ يَا رَحِيمٌ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « ق » وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِبَتِ ذَرَوًا ❶ فَالْحَمَلَتِ وَقْرًا ❷ فَالْجَرَيْتِ يُسْرًا ❸ فَالْمُقَسَّمَتِ أَمْرًا ❹
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ❺ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ❻ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ ❼ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ

مُخْتَلِفٍ ﴿١٠﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴿١١﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١٣﴾
يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٤﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٥﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي
كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٦﴾

ثَبَّتَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؑ أَنَّهُ صَعِدَ مِنْبَرِ الْكُوفَةِ فَقَالَ : لَا تَسْأَلُونِي عَنْ
آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا عَنْ سُنَّةٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِذَلِكَ ، فَقَامَ إِلَيْهِ ابْنُ الْكَوَّاءِ ،
فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴾ قَالَ : الرِّيحُ ﴿ فَالْحَمَلَتِ وَقْرًا ﴾
قَالَ : السَّحَابُ ﴿ فَالْجَرَيْتِ يُسْرًا ﴾ قَالَ : السُّفُنُ ﴿ فَالْمَقْسِمَتِ أَمْرًا ﴾ قَالَ : الْمَلَائِكَةُ .

وَهَذَا قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَلَى وَقُوعِ الْمَعَادِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أَيُّ :
لَحَبْرُ صَدَقٍ ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ ﴾ وَهُوَ الْحِسَابُ ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ أَيُّ : لَكَائِنُ لَا مُحَالَةَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالسَّيِّئَاتِ ذَاتِ
الْحَبْلِ ﴾ ذَاتِ الْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ وَالْحُسْنِ وَالِاسْتِوَاءِ ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ أَيُّ : إِنَّكُمْ أَهْيَا
الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ مُضْطَرِبٍ لَا يَلْتَمِمْ وَلَا يَجْتَمِعُ ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴾
أَيُّ : إِنَّمَا يَرْوِجُ عَلَى مَنْ هُوَ ضَالٌّ فِي نَفْسِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ بَاطِلٌ ، إِنَّمَا يَنْقَادُ لَهُ وَيَضِلُّ بِسَبَبِهِ وَيُؤْفَكُ
عَنْهُ مَنْ هُوَ مَأْفُوكٌ ضَالٌّ غَمْرٌ ، لَا فَهْمَ لَهُ ، وَقِيلَ : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴾ يَضِلُّ عَنْهُ مَنْ ضَلَّ ،
وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : يُضَرَفُ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ مَنْ كَذَّبَ بِهِ ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ :
الْكُذَّابُونَ ، قَالَ : وَهِيَ مِثْلُ الَّتِي فِي عَبَسَ ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس : ١٧] ، وَالْخَرَّاصُونَ
الَّذِينَ يَقُولُونَ : لَا نُبْعَثُ ، وَلَا يُوقِنُونَ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾
أَيُّ : لِعَيْنِ الْمُزْتَابُونَ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ قِيلَ : فِي الْكُفْرِ وَالشَّكِّ غَافِلُونَ لَا هُؤُونَ
﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ وَإِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا وَشَكًّا وَاسْتِعْجَادًا .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : يُعَذَّبُونَ ، كَمَا يُفْتَنُ الذَّهَبُ عَلَى
النَّارِ ، وَقِيلَ : ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ يُحْرَقُونَ ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ عَذَابَكُمْ ﴿ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾
أَيُّ : يُقَالُ هُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَحْقِيرًا وَتَضْغِيرًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٧﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ
مُحْسِنِينَ ﴿١٨﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٩﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَفِي
أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْخَرُومِ ﴿٢١﴾ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٤﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ

مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُتَّقِينَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ يَكُونُونَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ، بِخِلَافِ مَا أُولَئِكَ الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْحَرِيقِ وَالْأَغْلَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ءَاخِذِينَ ﴾ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴾ فَلَمُتَّقُونَ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ فِي الْجَنَّتِ وَالْعُيُونِ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، أَيُّ : مِنْ النَّعِيمِ وَالسَّرُورِ وَالْغِنَةِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ أَيُّ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى يَبَيِّنُ إِحْسَانَهُمْ فِي الْعَمَلِ ، فَقَالَ : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ هُجُوعُهُمْ وَنَوْمُهُمْ . ﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿ قِيلَ : يُصَلُّونَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : قَامُوا اللَّيْلِ وَآخَرُوا الِاسْتِغْفَارَ إِلَى الْأَسْحَارِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧] ، فَإِنْ كَانَ الِاسْتِغْفَارُ فِي صَلَاةٍ فَهُوَ أَحْسَنُ ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ لَمَّا وَصَفَهُمْ بِالصَّلَاةِ ثَنَّى بِوَصْفِهِمْ بِالزَّكَاةِ وَالْبِرِّ وَالصَّلَاةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ أَيُّ : جُزْءٌ مَقْسُومٌ قَدْ أَمْرُوهُ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ، أَمَّا السَّائِلُ فَمَعْرُوفٌ ، وَهُوَ الَّذِي يَبْتَدِئُ بِالسُّؤَالِ وَلَهُ حَقٌّ ، وَأَمَّا الْمَحْرُومُ فَقِيلَ : الَّذِي لَا مَالَ لَهُ بِأَيِّ سَبَبٍ كَانَ وَقَدْ ذَهَبَ مَالُهُ ، سَوَاءٌ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْكَسْبِ ، أَوْ قَدْ هَلَكَ مَالُهُ أَوْ نَحْوُهُ بِأَفَةٍ أَوْ نَحْوِهَا . ﴿ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أَيُّ : فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ ، بِمَا قَدْ ذَرَأَ فِيهَا مِنْ صُنُوفِ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْمِهَادِ وَالْجِبَالِ وَالْقِفَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ ، وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَةِ النَّاسِ وَالْوَلَوَانِهِمْ ، وَمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِرَادَاتِ وَالْقُوَى ، وَمَا بَيَّنَّهُمْ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْعُقُولِ وَالْفُهُومِ وَالْحَرَكَاتِ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ ، وَمَا فِي تَرْكِيبِهِمْ مِنَ الْحُكْمِ فِي وَضْعِ كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِمْ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِيهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : مَنْ تَفَكَّرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ عَرَفَ أَنَّهُ إِنَّمَا خُلِقَ ، وَلَيِّنَتْ مَفَاصِلُهُ لِلْعِبَادَةِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ ، يَعْنِي : الْمَطَرُ ﴿ وَمَا تَوْعَدُونَ ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةُ . ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، كَائِنْ لَا مُحَالَةَ وَهُوَ حَقٌّ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ فَلَا تَشْكُوا فِيهِ ، كَمَا لَا تَشْكُوا فِي نُطْقِكُمْ حِينَ تَنْطِقُونَ ، وَكَانَ مُعَاذُ اللَّهِ إِذَا حَدَّثَ بِالشَّيْءِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : إِنَّ هَذَا لَحَقٌّ كَمَا أَنَّكَ هَاهُنَا .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿١٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿١٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ

﴿٧٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوا بِلُغْلُمٍ عَلِيمٍ ﴿٧٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٧٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٠﴾

هَذِهِ الْقِصَّةُ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِي سُورَةِ «هُودٍ» وَ «الْحَجَرِ» أَيْضًا ، فَقَوْلُهُ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ أَرَادَهُمُ الْكَرَامَةُ ﴿ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ الرَّفْعُ أَقْوَى وَأَثْبَتُ مِنَ النَّصْبِ ، فَزَدَهُ أَفْضَلُ مِنَ التَّسْلِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء : ٨٦] فَالْحَلِيلُ اخْتَارَ الْأَفْضَلَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي صُورِ شَبَابٍ حَسَنٍ ، عَلَيْهِمْ مَهَابَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أَيُّ : انْسَلَّ خُفِيَّةً فِي سُرْعَةٍ ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أَيُّ : مِنْ خِيَارِ مَالِهِ ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩] أَيُّ : مَشُوبٍ عَلَى الرَّضْفِ ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : أَذْنَاهُ مِنْهُمْ ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ تَلَطَّفُ فِي الْعِبَارَةِ وَعَرَضَ حَسَنٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ هَذَا مُحَالٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْقِصَّةِ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٥﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ ﴾ [هود : ٧٠-٧١] أَيُّ : اسْتَبَشَرَتْ بِهَلَاكِهِمْ لِمَتَرَدِّهِمْ وَعُتُوهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَعِنْدَ ذَلِكَ بَشَّرَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِإِسْحَاقَ ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴿ قَالَتْ يَوْنَىٰ ءِالدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ﴿٧٦﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ [هود : ٧٢-٧٣] وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ وَبَشَرُوا بِلُغْلُمٍ عَلِيمٍ ﴾ فَالْبَشَارَةُ لَهُ هِيَ بَشَارَةُ لَهَا ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ مِنْهَا فَكُلُّ مِنْهَا بُشْرٌ بِهِ ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ أَيُّ : فِي صَرَخَةٍ عَظِيمَةٍ وَرَنَةٍ ، وَهِيَ قَوْلُهَا ﴿ يَوْنَىٰ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أَيُّ : ضَرَبَتْ يَدَهَا عَلَى جَبِينِهَا ، وَقِيلَ : لَطَمَتْ ، أَيُّ : تَعَجَّبًا ، كَمَا تَتَعَجَّبُ النِّسَاءُ مِنَ الْأَمْرِ الْغَرِيبِ ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أَيُّ : كَيْفَ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ، وَقَدْ كُنْتُ فِي حَالِ الصَّبَا عَقِيمًا لَا أَحْبَلُ ؟ ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أَيُّ : عَلِيمٌ بِمَا تَسْتَحِقُّونَ مِنَ الْكَرَامَةِ ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿٨١﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ مَجْرِمِينَ ﴿٨٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ ﴿٨٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مَن

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦١﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٦٢﴾

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى مُجْبِلًا فِي قَوْمٍ لُوطٍ ﴾ ﴿٦٠﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٦١﴾ يَلْبِزُهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿هود: ٧٤-٧٦﴾ ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ أَيُّ : مَا شَأْنُكُمْ ، وَفِيمَ جِئْتُمْ ؟ ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ يَعْنُونَ : قَوْمٌ لُوطٍ ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿٦٢﴾ مُسَوَّمَةٌ ﴿ أَيُّ : مُعَلَّمَةٌ ﴾ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿ أَيُّ : مُكْتَتَبَةٌ عِنْدَهُ بِأَسْمَائِهِمْ كُلِّ حَجَرٍ عَلَيْهِ اسْمُ صَاحِبِهِ ، فَقَالَ فِي سُورَةِ « الْعَنْكَبُوتِ » ﴿ قَالَ إِبْتُ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٢]

وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَهُمْ لُوطٌ وَأَهْلُ بَيْتِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ ، ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أَيُّ : جَعَلْنَاهَا عِبْرَةً لِمَا أُنْزِلْنَا بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَحِجَارَةِ السَّجِيلِ ، وَجَعَلْنَا مُحَلَّتَّهُمْ بِحِيرَةً مُنْتَبَهَةً حَيْثُهَا ، فِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ ﴿ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ .

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٦٣﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٦٤﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٦٦﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٦٧﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٦٨﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦٩﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٧٠﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٧١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أَيُّ : بِدَلِيلٍ بَاهِرٍ وَحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ ﴾ أَيُّ : فَأَعْرَضَ فِرْعَوْنُ عَمَّا جَاءَهُ بِهِ مُوسَى مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ أَيُّ : لَا يَحِلُّوْا أَمْرَكَ فِيمَا جِئْتَنِي بِهِ مِنْ أَنْ تَكُونَ سَاحِرًا أَوْ مُجْنُونًا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ أَيُّ : أَلْقَيْنَاهُمْ ﴿ فِي الْيَمِّ ﴾ وَهُوَ الْبَحْرُ ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أَيُّ : وَهُوَ مَلُومٌ كَافِرٌ جَاحِدٌ فَاجِرٌ مُعَانِدٌ . ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ أَيُّ : الْمُفْسِدَةِ الَّتِي لَا تَنْتِجُ شَيْئًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ أَيُّ : بِمَا تُفْسِدُهُ الرِّيحُ ﴿ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ أَيُّ : كَالشَّيْءِ الْمَالِكِ الْبَالِي . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ

تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧﴾ الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا آلَ عَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَيعِقَةُ الْعَذَابِ آهُونَ ﴾ [فصلت : ١٧] ، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ﴿١٧﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ انْتَظَرُوا الْعَذَابَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَجَاءَهُمْ فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ بُكْرَةً النَّهَارِ ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ يَمَامٍ ﴾ أَيِ : مِنْ هَرَبٍ وَلَا تَهْوِضٍ ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ أَيِ : وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ أَنْ يَنْتَصِرُوا مِمَّا هُمْ فِيهِ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أَيِ : وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وَكُلُّ هَذِهِ الْقِصَصِ قَدْ تَقَدَّصَتْ مُبْسُوطَةً فِي أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ سُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ .

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمِهْدُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢١﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُنَبِّهًا عَلَىٰ خَلْقِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا ﴾ أَيِ : جَعَلْنَاهَا سَقْفًا مَحْفُوظًا رَفِيعًا ﴿ بِأَيْدٍ ﴾ أَيِ : بِقُوَّةٍ ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أَيِ : قَدْ وَسَّعْنَا أَرْجَاءَهَا وَرَفَعْنَاهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ حَتَّىٰ اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيَ ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ أَيِ : جَعَلْنَاهَا فِرَاشًا لِلْمَخْلُوقَاتِ ﴿ فَنِعْمَ الْمِهْدُونَ ﴾ أَيِ : وَجَعَلْنَاهَا مَهْدًا لِأَهْلِهَا ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أَيِ : جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ أَزْوَاجٌ ، سَمَاءٌ وَأَرْضٌ ، وَلَيْلٌ وَنَهَارٌ ، وَشَمْسٌ وَقَمَرٌ ، وَبَرٌّ وَبَحْرٌ ، وَضِيَاءٌ وَظِلَامٌ ، وَإِيمَانٌ وَكُفْرٌ ، وَمَوْتٌ وَحَيَاةٌ ، وَشَقَاءٌ وَسَعَادَةٌ ، وَجَنَّةٌ وَنَارٌ ، حَتَّى الْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيِ : لِتَعْلَمُوا أَنَّ الْخَالِقَ وَاحِدًا لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أَيِ : اجْتُنُوا إِلَيْهِ وَاعْتَمِدُوا فِي أُمُورِكُمْ عَلَيْهِ ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ ﴾ أَيِ : لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٢٣﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ؕ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٢٤﴾ فَعَوَّلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٢٥﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٢٧﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿٢٨﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٢٩﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٣٠﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٣١﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ ، وَكَمَا قَالَ لَكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ قَالَ الْمُكَذَّبُونَ الْأَوَّلُونَ لِرُسُلِهِمْ

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَتَوَصَّوْا بِهِ ﴾ أَي : أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ ؟ ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴾ أَي : لَكِنْ هُمْ قَوْمٌ طُغَاةٌ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَقَالَ مُتَأَخِّرُهُمْ ، كَمَا قَالَ مُتَقَدِّمُهُمْ . ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أَي : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ يَعْنِي : فَمَا نَلُومُكَ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : إِنَّمَا تَنْتَفِعُ بِهَا الْقُلُوبُ الْمُؤْمِنَةُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أَي : إِنَّمَا خَلَقْتُهُمْ لِأَمْرِهِمْ بِعِبَادَتِي لَا لِإِحْتِيَاجِي إِلَيْهِمْ . ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ الْعِبَادَ لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَمَنْ أَطَاعَهُ جَازَاهُ أَتَمَّ الْجَزَاءِ ، وَمَنْ عَصَاهُ عَذَّبَهُ أَشَدَّ الْعَذَابِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ ، بَلْ هُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ ، فَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا ﴾ أَي : نَصِيبًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿ مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أَي : فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةٌ ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ ، يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الدَّارِيَّاتِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : شَكَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنِّي أَشْتَكِي ، فَقَالَ : « طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ » ، فَطُفْتُ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ ، يَقْرَأُ بِالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ① وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ② فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّقْفِ الْأَمْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ⑧ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ⑨ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ⑩ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑪ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ⑫ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ⑬ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ⑭ أَفَسِحَرُوا هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⑮ أَصَلَوْهَا فَأَصْبَرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ⑯ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑰

يُقَسِّمُ تَعَالَى بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ، أَنَّ عَذَابَهُ وَاقِعٌ بِأَعْدَائِهِ ، وَأَنَّهُ لَا دَافِعَ لَهُ عَنْهُمْ ، فَالطُّورُ هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ أَشْجَارٌ ، مِثْلَ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى ، وَأَرْسَلَ مِنْهُ عِيسَى ، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَجَرٌ لَا يُسَمَّى طُورًا ، إِنَّمَا يُقَالُ لَهُ : جَبَلٌ . ﴿ وَكُتِبَ مَسْطُورٌ ﴾ قِيلَ : هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ ، وَقِيلَ : الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ الْمَكْتُوبَةُ الَّتِي تُقْرَأُ عَلَى النَّاسِ جَهَارًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ بَعْدَ مُجَاوَزَتِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ : « ثُمَّ رُفِعَ بِي إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخَرًا عَلَيْهِمْ » يَعْنِي : يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ وَيَطُوفُونَ بِهِ كَمَا يَطُوفُ أَهْلُ الْأَرْضِ بِكَعْبَتِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ يَعْنِي : السَّمَاءُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢] ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ هُوَ هَذَا الْبَحْرُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ الْمَسْجُورِ ﴾ الْمُرَادُ أَنَّهُ يُوقَدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦] أَيُ : أُضْهِمَتْ ، فَصِيرُ نَارًا تَتَأَجَّجُ مُحِيطَةً بِأَهْلِ الْمَوْقِفِ ، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقَسَّمُ عَلَيْهِ ، أَيُ : وَاقِعٌ بِالْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ أَيُ : لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ قِيلَ : تَتَحَرَّكُ تَحْرِيكًا ، وَقِيلَ : هُوَ تَشَقُّقُهَا ، وَقِيلَ : تَدُورُ دَوْرًا ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أَيُ : تَذْهَبُ فَتَصِيرُ هَبَاءً مُنْبَثًا ، وَتُنْسَفُ نَسْفًا ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيُ : وَيْلٌ لَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَنَكَالِهِ بِهِمْ وَعِقَابِهِ لَهُمْ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أَيُ : هُمْ فِي الدُّنْيَا يُخَوِّضُونَ فِي الْبَاطِلِ ، وَيَتَخَذُونَ دِينَهُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ ﴾ أَيُ : يُدْفَعُونَ وَيُسَاقُونَ ﴿ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ﴾ يُدْفَعُونَ فِيهَا دَفْعًا . ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيُ : تَقُولُ لَهُ الزَّبَانِيَةُ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ﴿ أَفَسِحْرُ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ أَصَلَوْهَا ﴾ أَيُ : أَدْخَلُوهَا دُخُولَ مَنْ تَغْمُرُهُ مِنْ جِهَاتِهِ ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيُ : سَوَاءٌ صَبَرْتُمْ عَلَى عَذَابِهَا وَنَكَالِهَا أَمْ لَمْ تَصْبِرُوا لَا يَحِيدُ لَكُمْ عَنْهَا وَلَا خَلَاصَ لَكُمْ مِنْهَا ﴿ إِنَّمَا تَجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُ : وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ أَحَدًا بَلْ يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿ فَكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَلَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَكِينِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۝﴾

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ حَالِ السُّعَدَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ وَذَلِكَ بِضِدِّ مَا

أُولَئِكَ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ فَيَكْهِنُ بِمَا آتَتْهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أَي : يَتَفَكَّهُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنَ النِّعَمِ ، مِنْ أَصْنَافِ الْمَلَذِّ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَابِسٍ وَمَسَاكِينٍ وَمَرَائِبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَوَقَلَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أَي : وَقَدْ نَجَّاهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مُسْتَقَلَّةٌ بِذَاتِهَا عَلَى حَدِيثِهَا ، مَعَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهَا مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ ، الَّتِي فِيهَا مِنَ الشُّرُورِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ . ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] أَي : هَذَا بِذَاكَ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَإِحْسَانًا ﴿ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُورٍ مَصْفُوفَةٍ ﴾ الشُّرُورُ فِي الْحِجَالِ ، وَمَعْنَى ﴿ مَصْفُوفَةٍ ﴾ أَي : وَجُوهُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ عَلَى سُورٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الصفات: ٤٤] ﴿ وَرَوَّجْتُهُمْ بُحُورٍ عَيْنٍ ﴾ أَي : وَجَعَلْنَا هُمْ قَرِينَاتٍ صَالِحَاتٍ ، وَرَوَّجَاتٍ حِسَانٍ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأَسَا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ هُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿ فَمَنْ أَلَّاهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَامْتِنَانِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانِهِ ، أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ فِي الْإِيمَانِ يُلْحِقُهُمْ بِآبَائِهِمْ فِي الْمَنْزِلَةِ ، وَإِنْ لَمْ يَلْعُغُوا عَمَلَهُمْ لِتَقَرُّ أَعْيُنُ الْأَبَاءِ بِالْأَبْنَاءِ عِنْدَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ ، فَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ ، بَأَن يَرْفَعَ النَّاقِصَ الْعَمَلِ ، بِكَامِلِ الْعَمَلِ ، وَلَا يَنْقُصُ ذَاكَ مِنْ عَمَلِهِ وَمَنْزِلَتِهِ لِلتَّسَاوِي بَيْنَهُ وَيَبِينَ ذَاكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ فِي دَرَجَتِهِ وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ لِتَقَرُّ بِهِمْ عَيْنُهُ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴾ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْ مَقَامِ الْفَضْلِ - وَهُوَ رَفْعُ دَرَجَةِ الذُّرِّيَّةِ إِلَى مَنْزِلَةِ الْأَبَاءِ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ يَقْتَضِي ذَلِكَ - أَخْبَرَ عَنْ مَقَامِ الْعَدْلِ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ أَحَدًا بِذَنْبِ أَحَدٍ ، بَلْ ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴾ أَي : مُرْتَبِنٌ بِعَمَلِهِ ، لَا يَحْمِلُ عَلَيْهِ ذَنْبُ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أَي : وَأَلْحَقْنَاهُمْ بِفَوَاكِهَةِ

وَلَحُومٍ مِنْ أَنْوَاعٍ شَتَّى مِمَّا يُسْتَطَابُ وَيُشْتَهَى ﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أَيُّ : يَتَعَاطَوْنَ فِيهَا كَأْسًا ،
 أَيُّ : مِنَ الْحُمْرِ ، ﴿لَا لَعُوفٍ فِيهَا وَلَا تَأْنِيْمٌ﴾ أَيُّ : لَا يَتَكَلَّمُونَ فِيهَا بِكَلَامٍ لَاحٍ ، أَيُّ : هَذَيَانِ وَإِثْمٌ ،
 أَيُّ : فُحْشٍ ، كَمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ الشَّرْبَةُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : اللَّغْوُ : الْبَاطِلُ ، وَالتَّأْنِيْمُ :
 الْكَذِبُ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ هُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُا مُكْنُونٌ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ خَدَمِهِمْ وَحَشَمِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ،
 كَأَنَّهُمْ اللَّوْلُؤُا الرَّطْبُ الْمُكْنُونُ ، فِي حُسْنِهِمْ وَبَهَائِهِمْ وَنَظَافَتِهِمْ وَحُسْنِ مَلَابِسِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أَيُّ : أَقْبَلُوا يَتَحَادَثُونَ وَيَتَسَاءَلُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ
 وَأَحْوَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَهَذَا كَمَا يَتَحَدَّثُ أَهْلُ الشَّرَابِ عَلَى شَرَابِهِمْ - إِذَا أَخَذَ فِيهِمُ الشَّرَابُ -
 بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أَيُّ : كُنَّا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَنَحْنُ بَيْنَ
 أَهْلِنَا خَائِفِينَ مِنْ رَبَّنَا مُشْفِقِينَ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ ﴿فَمَرَّبَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ ،
 أَيُّ : فَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا وَأَجَارَنَا مِمَّا نَخَافُ ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أَيُّ : نَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ
 فَاسْتَجَابَ لَنَا وَأَعْطَانَا سُؤَالَنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ .

فَذَكَرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿١٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ-
 رَبِّبَ الْمُنُونِ ﴿١٩﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٢٠﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلِمُهُمْ
 بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ
 مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ بِأَنْ يُبْلَغَ رِسَالَتُهُ إِلَى عِبَادِهِ وَأَنْ يُذَكِّرُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ
 نَفَى عَنْهُ مَا يَزِمُهُ بِهِ أَهْلُ الْبُهْتَانِ وَالْفُجُورِ ، فَقَالَ : ﴿فَذَكَرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا
 مَجْنُونٍ﴾ أَيُّ : لَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ بِكَاهِنٍ ، كَمَا تَقُولُهُ الْجَهْلَةُ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، وَالْكَاهِنُ : الَّذِي يَأْتِيهِ
 الرُّبِيُّ مِنَ الْجَانِّ بِالْكَلِمَةِ يَتَلَقَّاهَا مِنْ خَيْرِ السَّمَاءِ ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ
 الْمَسِّ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ فِي الرَّسُولِ ﷺ : ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ- رَبِّبَ
 الْمُنُونِ﴾ أَيُّ : قَوَارِعَ الدَّهْرِ ، وَالْمُنُونُ : الْمَوْتُ ، يَقُولُونَ : نَنْتَظِرُهُ وَنَضْبِرُ عَلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ
 فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُ وَمِنْ شَأْنِهِ . ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أَيُّ : انْتَظِرُوا فَإِنِّي مُنْتَظَرٌ
 مَعَكُمْ وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلِمُهُمْ بِهَذَا﴾ أَيُّ :
 عَقُّوهُمْ تَأْمُرُهُمْ بِهَذَا الَّذِي يَقُولُونَهُ فِيكَ ، مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَعْلَمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهَا
 كَذِبٌ وَزُورٌ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أَيُّ : وَلَكِنْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ضَلَالًا مُعَانِدُونَ ، فَهَذَا هُوَ
 الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَا قَالُوهُ فِيكَ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ﴾ أَيُّ : اخْتَلَقَهُ وَافْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ،

يَعْنُونَ الْقُرْآنَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَي : كُفَرُهُمْ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ أَي : إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ : تَقَوْلُهُ وَافْتَرَاهُ ، فَلْيَأْتُوا بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُمْ لَوْ اجْتَمَعُوا هُمْ وَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَا جَاءُوا بِمِثْلِهِ ، وَلَا بِعَشْرِ سُورٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ .

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿١٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿١٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴿١٧﴾ أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ أَمْ لَهُ الْآبَتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٢٢﴾ أَمْ هُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾

هَذَا الْمَقَامُ فِي إِبْطَالِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أَي : أَوْجِدُوا مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ ؟ أَمْ هُمْ أَوْجِدُوا أَنْفُسَهُمْ ؟ ، أَي : لَا هَذَا وَلَا هَذَا ، بَلِ اللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأَنْشَأَهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا . عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿١٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴿١٧﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ . وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي فِدَاءِ الْأَسَارَى ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكًَا ، فَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةِ مَا حَمَلَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أَي : أَهْمُ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي شَرِكِهِمْ بِاللَّهِ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَكِنْ عَدَمَ إِيقَانِهِمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴾ أَي : أَهْمُ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْمُلْكِ ، وَيَبْدِيهِمْ مَفَاتِيحُ الْخَزَائِنِ ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴾ أَي : الْمُحَاسِبُونَ لِلْخَلَائِقِ ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، بَلِ اللَّهُ ﷻ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ الْفِعَالُ لِمَا يُرِيدُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أَي : مِرْقَاةٌ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ﴿ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴾ أَي : فَلَيَأْتِ الَّذِي يَسْتَمِعُ هُمْ بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ عَلَى صِحَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْفِعَالِ وَالْمَقَالِ ، أَي : وَلَيْسَ هُمْ سَبِيلٌ إِلَى ذَلِكَ ، فَلْيَسُوا عَلَى شَيْءٍ ، وَلَا هُمْ دَلِيلٌ . ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا نَسَبُوهُ إِلَيْهِ مِنَ الْبَنَاتِ وَجَعَلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا ، وَاخْتِيَارَهُمُ لَأَنْفُسِهِمُ الذُّكُورَ عَلَى الْإِنَاثِ ،

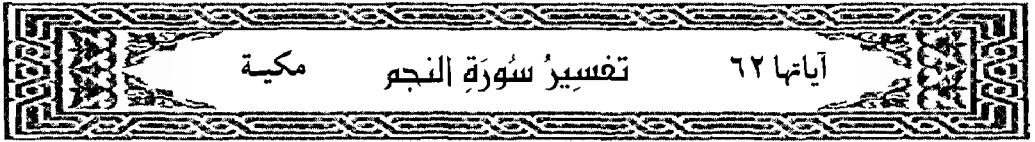
بِحَيْثُ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . هَذَا وَقَدْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ بَنَاتَ اللَّهِ ، وَعَبَدُوهُمْ مَعَ اللَّهِ ، فَقَالَ : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴾ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أَيُّ : أَجْرَةً عَلَىٰ إِبْلَاغِكَ إِيَّاهُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ ؟ أَيُّ لَسْتَ تَسْأَلُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ شَيْئًا ﴿ فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ أَيُّ : فَهُمْ مِنْ أَدْنَىٰ شَيْءٍ يَتَبَرَّمُونَ مِنْهُ وَيُثْقِلُهُمْ وَيَسْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿ يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْ يَرِيدُ هَؤُلَاءِ بَقُولُهُمْ هَذَا فِي الرُّسُولِ وَفِي الَّذِينَ غُرُورَ النَّاسِ وَكَيْدَ الرُّسُولِ وَأَصْحَابِهِ ، فَكَيْدُهُمْ إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالُهُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ وَهَذَا إِنْكَارٌ شَدِيدٌ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ مَعَ اللَّهِ ، ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ عَمَّا يَقُولُونَ وَيَقْتَرُونَ وَيُشْرِكُونَ ، فَقَالَ : ﴿ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿١٥﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿١٦﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٢٠﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مَخْبَرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِالْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ لِلْمَحْسُوسِ ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ أَيُّ : عَلَيْهِمْ يُعَذِّبُونَ بِهِ لَمَّا صَدَقُوا وَلَمَّا كَفَرُوا ، بَلْ يَقُولُونَ : هَذَا ﴿ سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ أَيُّ : مُتَرَاكِمٌ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿ [الحجر : ١٤-١٥] ﴾

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَذَرَهُمْ ﴾ أَيُّ : دَعَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿ حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أَيُّ : لَا يَنْفَعُهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَا مَكْرُهُمُ الَّذِي اسْتَعْمَلُوهُ فِي الدُّنْيَا لَا يَجْزِي عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَيْئًا ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أَيُّ : قَبْلَ ذَلِكَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : نُعَذِّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَنُبْتَلِيهِمْ فِيهَا بِالْمَصَائِبِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَيُتَبَيَّنُونَ فَلَا يَفْهَمُونَ مَا يَرَادُ بِهِمْ ، بَلْ إِذَا جُلِّيَ عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ عَادُوا إِلَىٰ أَسْوَأِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أَيُّ : اصْبِرْ عَلَىٰ أَذَاهُمْ وَلَا تُبَاهِهِمْ ، فَإِنَّكَ بِمَرَأَىٰ مِنَّا وَتَحْتَ كِلَاءَتِنَا ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ : أَيُّ : إِلَى الصَّلَاةِ : سُبْحَانَكَ

اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، وَتَبَارَكَ إِسْمُكَ ، وَتَعَالَى جَدُّكَ ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ . وَقَالَ أَبُو الْجَوْزَاءَ : ﴿ وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أَيُّ : مِنْ نَوْمِكَ مِنْ فِرَاشِكَ . وَقِيلَ : مِنْ كُلِّ مَجْلِسٍ . كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ بِأَخْرِ عُمْرِهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْمَجْلِسِ : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أَيُّ : أَذْكُرْهُ وَاعْبُدْهُ بِالتَّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ فِي اللَّيْلِ . ﴿ وَإِذْ بَرَ الْنُجُومِ ﴾ قِيلَ : إِنَّهُمَا الرِّكَعَتَانِ اللَّتَانِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، فَإِنَّهُمَا مَشْرُوعَتَانِ عِنْدَ إِذْبَارِ النُّجُومِ ، أَيُّ : عِنْدَ جُؤْحِهَا لِلْعَيْنِيَّةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطُّورِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ قَالَ : فَسَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۝ مَآ ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۝ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝

قَالَ الشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُ : الْخَالِقُ يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ، وَالْمَخْلُوقُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ . وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ ، فَقِيلَ : يَعْنِي بِالنَّجْمِ : الثَّرِيًّا إِذَا سَقَطَتْ مَعَ الْفَجْرِ ، وَقِيلَ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ إِذَا رَمَى بِهِ الشَّيَاطِينُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ لَهُ إِتْجَاهٌ . وَقِيلَ : يَعْنِي : الْقُرْآنُ إِذَا نَزَلَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَآ ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الشَّهَادَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ لَيْسَ بِضَالٍّ وَهُوَ : الْجَاهِلُ الَّذِي يَسْلُكُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ بَعِيرٍ عِلْمَ ، وَالْعَاوِي : هُوَ الْعَالِمُ بِالْحَقِّ الْعَادِلُ عَنْهُ قَصْدًا إِلَى غَيْرِهِ ، فَتَرَهُ اللَّهُ رَسُولَهُ وَشَرَعَهُ عَنْ مُشَابَهَةِ أَهْلِ الضَّلَالِ كَالنَّصَارَى وَطَرِائِقِ الْيَهُودِ ، وَهِيَ عِلْمُ الشَّيْءِ وَكِتْمَانُهُ وَالْعَمَلُ بِخِلَافِهِ بَلْ هُوَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ فِي غَايَةِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْإِعْتِدَالِ وَالسَّدَادِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ أَيُّ : مَا يَقُولُ قَوْلًا عَنْ هَوَى وَغَرَضٍ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ أَيُّ : إِنَّهَا يَقُولُ مَا أُمِرَ بِهِ ، يُبَلِّغُهُ إِلَى النَّاسِ كَامِلًا مَوْفُورًا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ .

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٦﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٧﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٨﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٩﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿١٠﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١١﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿١٢﴾ أَفَتُمَرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٤﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٥﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٦﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٧﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٨﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ : عَلَّمَهُ الَّذِي جَاءَ بِهِ إِلَى النَّاسِ ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ ﷺ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩-٢١] وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ فَإِنَّهُ ﷺ ذُو مَنْظَرٍ حَسَنٍ وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ . ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿ يَعْنِي : جِبْرِيلُ اسْتَوَى فِي الْأُفُقِ الْأَعْلَى . وَالْأُفُقُ الْأَعْلَى : الَّذِي يَأْتِي مِنْهُ الصُّبْحُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ مَطْلَعُ الشَّمْسِ . ﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿ أَي : فَاقْتَرَبَ جِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ - لَمَّا هَبَطَ عَلَيْهِ إِلَى الْأَرْضِ - حَتَّى كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَابَ قَوْسَيْنِ ، أَي : بِقَدَرِهِمَا إِذَا مُدَّا ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ بُعْدَ مَا بَيْنَ وَتَرِ الْقَوْسِ إِلَى كِبْدِهَا . ﴿ أَوْ أَدْنَى ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الصَّبِيغَةَ تُسْتَعْمَلُ فِي اللَّغَةِ لِإِثْبَاتِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ وَنَفْيِ مَا زَادَ عَلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : ٧٤] أَي : مَا هِيَ بِأَلْيَنَ مِنَ الْحِجَارَةِ ، بَلْ هِيَ مِثْلُهَا أَوْ تَزِيدُ عَلَيْهَا فِي الشَّدَةِ وَالْقَسْوَةِ ، وَعَنِ أَبِي إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ : سَأَلْتُ زُرَّارًا عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتْمَاتٌ جَنَاحَ . فَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ : فَأَوْحَى جِبْرِيلُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ مَا أَوْحَى ، أَوْ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ مَا أَوْحَى بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ ، وَكِلَا الْمَعْنِيَيْنِ صَحِيحٌ . ﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿ أَفَتُمَرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ قَالَ : رَأَاهُ بِقُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ . وَقَدْ خَالَفَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا ، وَكَانَتْ لَيْلَةً الْإِسْرَاءِ . عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَقُلْتُ : أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْأَمِينِ ﴾ [التكوير : ٢٣] ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ، فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْهَا فَقَالَ : «إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ» لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا إِلَّا

مَرَّتَيْنِ ، رَأَاهُ مِنْهُبِطًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ سَادًّا عَظُمَ خَلْقُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ : لَمَّا أُسْرِيَ
 بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَنَهَّى وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ
 الْأَرْضِ فَيَقْبَضُ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَهْبِطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيَقْبَضُ مِنْهَا ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا
 يَغْشَى ﴾ قَالَ : فِرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ : وَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا : أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ،
 وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغَيْرَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِهِ الْمُفْجَمَاتُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ قِيلَ : مَا ذَهَبَ يَمِينًا ، وَلَا شِمَالًا ﴿ وَمَا طَغَى ﴾ مَا جَاوَزَ مَا أُمِرَ
 بِهِ ، وَهَذِهِ صِفَةُ عَظِيمَةٍ فِي الثَّبَاتِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّهُ مَا فَعَلَ إِلَّا مَا أُمِرَ بِهِ ، وَلَا سَأَلَ فَوْقَ مَا أُعْطِيَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾
 [طه : ٢٣] أَيْ : الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِنَا وَعَظَمَتِنَا ، وَمِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اسْتَدَلَّ مَنْ ذَهَبَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ
 أَنَّ الرُّؤْيَا تِلْكَ اللَّيْلَةُ لَمْ تَقَعْ لَأَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ وَلَوْ كَانَ رَأَى رَبَّهُ
 لِأَخْبَرَ بِذَلِكَ ، وَلَقَالَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ « سُبْحَانَ » .

أَفْرَأَيْتُمْ اللَّتَّ وَالْعُزَّى ﴿١﴾ وَمَتَوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَى ﴿٢﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴿٣﴾
 تِلْكَ إِذَا قَسَمَهُ ضَيْرَى ﴿٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا
 مِنْ سُلْطَنٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٥﴾
 أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٦﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٧﴾ وَكَرَّمْنَا فِي السَّمَاءِ لَا
 تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرَّرًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ ، وَاتِّخَاذِهِمْ هَذَا
 الْبُيُوتَ مُضَاهَاةً لِلْكَعْبَةِ الَّتِي بَنَاهَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ ﷺ ﴿ أَفْرَأَيْتُمُ اللَّتَّ ﴾ وَكَانَتْ « اللَّاتُ »
 صَخْرَةٌ بَيْضَاءُ مَقْشُوشَةٌ ، وَعَلَيْهَا بَيْتٌ بِالطَّائِفِ لَهُ أَسْتَارٌ وَسَدَنَةٌ وَحَوْلُهُ فَنَاءٌ مُعْظَمٌ عِنْدَ أَهْلِ
 الطَّائِفِ ، وَهُمْ ثَقِيفٌ وَمَنْ تَابَعَهَا يَفْتَخِرُونَ بِهَا عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ بَعْدَ قُرَيْشٍ .
 قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَكَذَا الْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ ، وَكَانَتْ شَجَرَةً عَلَيْهَا بِنَاءٌ وَأَسْتَارٌ بِنَخْلَةٍ وَهِيَ بَيْنَ
 مَكَّةَ وَالطَّائِفِ ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ يُعْظَمُونَهَا ، كَمَا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ : لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى
 لَكُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قُولُوا : اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ » .

وَأَمَّا مَنَاةُ : فَكَانَتْ بِالْمُشَلَّلِ عِنْدَ قُدَيْدٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَكَانَتْ خُرَاعَةً وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ
 فِي جَاهِلِيَّتِهَا يُعْظَمُونَهَا ، وَيُهْلُونَ مِنْهَا لِلْحَجِّ إِلَى الْكَعْبَةِ .

وَقَدْ كَانَتْ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهَا . طَوَاعِيَتْ أُخْرُ ، تُعْظِمُهَا الْعَرَبُ كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ غَيْرِ
هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَ هَذِهِ بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّهَا أَشْهُرُ مِنْ غَيْرِهَا .
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴾ أَي : أَتَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا ، وَتَجْعَلُونَ وَلَدَهُ أَنْثَى ،
وَتَحْتَارُونَ لِأَنفُسِكُمُ الذُّكُورَ ، أَي : لَوْ افْتَسَمْتُمْ أَنْتُمْ وَمَخْلُوقٌ مِثْلُكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ لَكَانَتْ ﴿ قِسْمَةٌ
ضَيِّقًا ﴾ أَي : جَوْرًا بَاطِلَةً فَكَيْفَ تَقَاسِمُونَ رَبَّكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ الَّتِي لَوْ كَانَتْ بَيْنَ مَخْلُوقَيْنِ كَانَتْ
جَوْرًا وَسَفْهًا . ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَخْدَتُوهُ مِنَ الْكُذْبِ وَالْإِفْتِرَاءِ وَالْكَفْرِ ، مِنْ
عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَسْمِيَتِهَا آهَةً : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ﴾ أَي : مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِكُمْ
﴿ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أَي : مِنْ حُجَّةٍ ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ أَي : لَيْسَ
لَهُ مُسْتَدَدٌ إِلَّا حُسْنُ ظَنِّهِمْ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ سَلَكَوا هَذَا الْمَسْلَكَ الْبَاطِلَ قَبْلَهُمْ ، وَإِلَّا حَظَّ نَفْسِهِمْ
فِي رِيَاسَتِهِمْ وَتَعْظِيمِ آبَائِهِمُ الْأَقْدَمِينَ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ أَي : وَلَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ
الرُّسُلَ بِالْحَقِّ الْمُبِيرِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَمَعَ هَذَا مَا اتَّبَعُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ وَلَا انْقَادُوا لَهُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ أَي : لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَمَنَّى خَيْرًا حَصَلَ لَهُ ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا
أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ [النساء : ١٢٣] مَا كُلُّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُهْتَدٍ يَكُونُ كَمَا قَالَ ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَدَّ
شَيْئًا يَحْصُلُ لَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ أَي : إِنَّمَا الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، مَا لَكَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ،
وَالْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي
السَّمَوَاتِ لَا تَغْنَى شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ ذَا
الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾
[سبا : ٢٣] فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فَكَيْفَ تَرْجُونَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ شَفَاعَةَ هَذِهِ
الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَهُوَ تَعَالَى لَمْ يُشْرَعْ عِبَادَتَهَا وَلَا أَذِنَ فِيهَا ، بَلْ قَدْ نَهَى عَنْهَا عَلَى
الْسِتَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ ، وَأَنْزَلَ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ جَمِيعَ كُتُبِهِ !؟

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُومُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنْثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ
عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى
عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَسْمِيَتِهِمُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنْثَى ، وَجَعَلَهُمْ لَهَا أَنْثَى بَنَاتٌ
اللَّهُ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ - كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ۚ

أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَسُئِلُونَ ﴿ [الزخرف: ١٩] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أَي : لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ صَحِيحٌ بِصِدْقِ مَا قَالُوهُ ، بَلْ هُوَ كَذِبٌ وَزُورٌ وَافْتِرَاءٌ وَكُفْرٌ شَنِيعٌ ﴿ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ أَي : لَا يُجِدِي شَيْئًا وَلَا يَقُومُ أَبَدًا مَقَامَ الْحَقِّ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أَي : أَعْرِضْ عَنِ الَّذِي أَعْرِضَ عَنِ الْحَقِّ وَاهْجُرْهُ ﴿ وَلَمْ يَرْدِ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أَي : وَإِنَّمَا أَكْثَرُ هِمِّهِ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ الدُّنْيَا ، فَذَاكَ هُوَ غَايَةُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ وَلِلذَلِكَ قَالَ : ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أَي : طَلَبَ الدُّنْيَا وَالسَّعْيُ لَهَا هُوَ غَايَةُ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ أَي : هُوَ الْخَالِقُ لَجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَالْعَالَمُ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُوزُ أَبَدًا لَا فِي شَرِّهِ وَلَا فِي قُدْرِهِ .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ، الْحَاكِمُ فِي خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ ، وَخَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ أَي : يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، فَسَرَّ الْمُحْسِنِينَ بِأَمْنِهِمْ ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ أَي : لَا يَتَعَاطَوْنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْكَبَائِرَ ، وَإِنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بَعْضُ الصَّغَائِرِ فَإِنَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ وَيَسِّرُ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١] وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ؛ لِأَنَّ اللَّمَمَ مِنْ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ . وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ قَالَ : الَّذِي يُلَمُّ بِالذَّنْبِ ثُمَّ يَدَعُهُ ، وَعَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ قَالَ : كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُونَ : هُوَ الرَّجُلُ يُصِيبُ اللَّمَمَ مِنَ الزَّانَا ، وَاللَّمَمَةُ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ ، فَيَجْتَنِبُهَا وَيَتُوبُ مِنْهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أَي : رَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَمَغْفِرَتُهُ تَسَعُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أَي : هُوَ بَصِيرٌ بِكُمْ ، عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ

وَأَفْعَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمُ الَّتِي سَتَصْدُرُ عَنْكُمْ وَتَقَعُ مِنْكُمْ ، حِينَ أَنْشَأَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَاسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ صُلْبِهِ أَمْثَالَ الذَّرِّ ، ثُمَّ قَسَمَهُمْ فَرِيقَيْنِ فَرِيقًا لِلْجَنَّةِ وَفَرِيقًا لِلسَّعِيرِ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ : قَدْ كَتَبَ الْمَلَكُ الَّذِي يُوَكَّلُ بِهِ : رِزْقَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ ؟ . ﴿ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أَيُّ : تَمْدَحُوهَا وَتَشْكُرُوهَا وَتَمْتَنُوا بِأَعْمَالِكُمْ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ » . وَمَدَحَ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَئِلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ - مِرَارًا - إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ : أَحْسِبُ فَلَانًا وَاللَّهُ حَسِيْبُهُ ، وَلَا أَرْكَبِي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا ، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا ، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ » .

أَفَرَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿ ٣٢ ﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿ ٣١ ﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿ ٣٠ ﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿ ٢٩ ﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿ ٢٨ ﴾ أَلَا تَرَى وَارِثَهُ وَرَرَ أُخْرَى ﴿ ٢٧ ﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿ ٢٦ ﴾ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿ ٢٥ ﴾ ثُمَّ تَجَزَّاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿ ٢٤ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى دَائِمًا لِمَنْ تَوَلَّى عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴾ ﴿ ٢٥ ﴾ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿ ٢٤ ﴾ الْقِيَامَةِ : ٣١-٣٢ ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَطَاعَ قَلِيلًا ثُمَّ قَطَعَهُ ، كَمَثَلِ الْقَوْمِ إِذَا كَانُوا يَخْفِرُونَ بَثْرًا فَيَجِدُونَ فِي أَثْنَاءِ الْحُفْرِ صَخْرَةً تَمْنَعُهُمْ مِنْ تَمَامِ الْعَمَلِ ، فَيَقُولُونَ : أَكْدَيْنَا ، وَيَتْرَكُونَ الْعَمَلَ . ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ أَيُّ : أَعِنْدَ هَذَا الَّذِي قَدْ أَمْسَكَ يَدَهُ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَقَطَعَ مَعْرُوفَهُ ، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ أَنَّهُ سَيَنْفَدُ مَا فِي يَدِهِ ، حَتَّى قَدْ أَمْسَكَ عَنْ مَعْرُوفِهِ ، فَهُوَ يَرَى ذَلِكَ عَيْنًا ؟ أَيُّ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، وَإِنَّا أَمْسَكَ عَنِ الصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْبِرِّ وَالصَّلَاةِ بُخْلًا وَشَحًّا وَهَلَعًا . ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ ﴿ ٢٩ ﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿ ٢٨ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ وَفَّى ﴾ طَاعَةَ اللَّهِ ، وَأَدَّى رِسَالَتَهُ إِلَى خَلْفِهِ ، قَامَ بِجَمِيعِ الْأَوَامِرِ ، وَتَرَكَ جَمِيعَ النَّوَاهِي ، وَبَلَغَ الرِّسَالََةَ عَلَى التَّامِّ وَالْكَمَالِ ، فَاسْتَحَقَّ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ إِمَامًا يَقْتَدَى بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ . ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى يُبَيِّنُ مَا كَانَ أَوْحَاهُ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ، فَقَالَ : ﴿ أَلَا تَرَى وَارِثَهُ وَرَرَ أُخْرَى ﴾ أَيُّ : كُلُّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ نَفْسَهَا بِكُفْرٍ أَوْ شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا عَلَيْهَا وَرَرُهَا لَا يَحْمِلُهَا عَنْهَا أَحَدٌ ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ أَيُّ : كَمَا لَا يَحْمِلُ عَلَيْهِ وَرَرُ غَيْرِهِ ، كَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ مِنَ الْأَجْرِ إِلَّا مَا كَسَبَ هُوَ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ اسْتَبْطَأَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَمَنْ اتَّبَعَهُ : أَنَّ الْقِرَاءَةَ لَا يَصِلُ إِهْدَاءَ ثَوَابِهَا إِلَى الْمَوْتَى ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلِهِمْ وَلَا

كُسِبِهِمْ ، وَهَذَا لَمْ يَنْدُبْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَّتُهُ وَلَا حَتَّهْمُ عَلَيْهِ ، وَلَا أَرْسَدَهُمْ إِلَيْهِ بِنَصٍّ وَلَا إِيْمَاءٍ ، وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَلَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَبَابُ الْقُرْبَاتِ يُقْتَصَّرُ فِيهِ عَلَى النُّصُوصِ وَلَا يُتَصَرَّفُ فِيهِ بِأَنْوَاعِ الْأَقْيَسَةِ وَالْأَرَاءِ ، فَأَمَّا الدُّعَاءُ وَالصَّدَقَةُ فَذَاكَ جُمُوعٌ عَلَى وَصُولِهَا ، وَمَنْصُوصٌ مِنَ الشَّارِعِ عَلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلَى ﴾ أَي : الْأَوْفَرُ .

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿١٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿١٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿١٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿١٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿١٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَى ﴿١٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّعَرَى ﴿١٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٢٠﴾ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى ﴿٢١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴿٢٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٢٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ أَي : الْمَعَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ أَي : خَلَقَ فِي عِبَادِهِ الضَّحِكَ وَالْبُكَاءَ وَسَبَّبَهُمَا وَهُمَا مُخْتَلِفَانِ ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ [الملك : ٢] ، ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَحْسَبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾ ﴿ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ ﴿ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ﴿ فَعَلَّ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ نَحْيِيَ الْمَوْتَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَى ﴾ أَي : كَمَا خَلَقَ الْبُدْءَةَ ، هُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ ، وَهِيَ النَّشَأُ الْآخِرَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ أَي : مَلِكُ عِبَادَةِ الْمَالِ ، وَجَعَلَهُ هُمْ قُنْيَةً مُقِيمًا عِنْدَهُمْ ، لَا يَخْتَاجُونَ إِلَى بَيْعِهِ ، فَهَذَا تَمَامُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ ، وَعَلَى هَذَا يَدُورُ كَلَامٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، وَقِيلَ : ﴿ أَغْنَى ﴾ مَوْلٍ ﴿ وَأَقْنَى ﴾ أَحَدَمَ ، وَقِيلَ : ﴿ أَغْنَى ﴾ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ وَ ﴿ وَأَقْنَى ﴾ أَفْقَرُ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّعَرَى ﴾ هُوَ هَذَا النَّجْمُ الْوَقَادُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ : « مِرْزَمُ الْجُوزَاءِ » ، كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْبُدُونَهُ ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ هُمْ : قَوْمُ هُودٍ ، وَيُقَالُ لَهُمْ : عَادُ بْنُ إِرَمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى ﴾ أَي : دَمَرَهُمْ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَي : مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ أَي : أَشَدُّ تَمَرُّدًا مِنَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ يَعْنِي : مَدَائِنَ قَوْمِ لُوطٍ ، فَلَبَّاهَا عَلَيْهِمْ فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْصُودٍ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا عَلَيْهِمْ

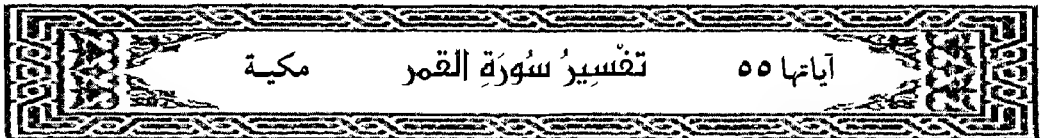
﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ أَي : فَبِأَيِّ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ تَمْتَرِي ؟ .

هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَرْفَتِ الْآرَافَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَتَّبِعُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا ۝ ﴿٦٢﴾

﴿ هَذَا نَذِيرٌ ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴾ أَي : مِّنْ جَنْسِهِمْ أُرْسِلَ كَمَا أُرْسِلُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٩] ، وَالنَّذِيرُ : الْحَذَرُ لِمَا يُعَايِنُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يُخْشَى وَقُوْعُهُ فِيمَنْ أُنْذِرُهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : ٤٦] ، وَفِي الْحَدِيثِ « أَنَا النَّذِيرُ الْعُزَيَّانُ » أَي : الَّذِي أَعَجَلَهُ شِدَّةُ مَا عَايَنَ مِنَ الشَّرِّ عَنْ أَنْ يَلْبَسَ عَلَيْهِ شَيْئًا ، بَلْ بَادَرَ إِلَى إِنْذَارِ قَوْمِهِ قَبْلَ ذَلِكَ فَجَاءَهُمْ عُزَيَّانًا مُّسْرِعًا ، وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ أَرْفَتِ الْآرَافَةَ ﴾ أَي : اقْتَرَبَتِ الْقَرِيبَةَ ، يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أَي : لَا يَدْفَعُهَا إِذَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَا يَطْلُعُ عَلَى عِلْمِهَا سِوَاهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَتَلَهِّيهِمْ ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ مِنْهُ اسْتِهْزَاءً وَسُخْرِيَّةً ﴿ وَلَا تَتَّبِعُونَ ﴾ أَي : كَمَا يَفْعَلُ الْمُؤَقِنُونَ بِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ ﴿ وَتَجْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَتَكَوَّرُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝ ﴾ [الإسراء : ١٠٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴾ قِيلَ الْمُرَادُ بِهِ : الْغِنَاءُ ، وَقِيلَ : ﴿ سَمِيدُونَ ﴾ مُعْرِضُونَ ، وَقِيلَ : غَافِلُونَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعِبَادِهِ بِالسُّجُودِ لَهُ ، وَالْعِبَادَةُ الْمَتَابَعَةُ لِرَسُولِهِ ﷺ وَالتَّوْحِيدُ وَالْإِخْلَاصُ ﴿ فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا ﴾ أَي : فَاخْضَعُوا لَهُ وَأَخْلِصُوا وَوَحَّدُوهُ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ .

أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّجْمِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِقَافٍ وَاقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ فِي الْأَضْحَى وَالْفَطْرِ ، وَكَانَ يَقْرَأُ بِهِمَا فِي الْمَحَافِلِ الْكِبَارِ ؛ لِاسْتِمَالِهِمَا عَلَى ذِكْرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَبَدَأَ الْخَلْقَ وَإِعَادَتِهِ ، وَالتَّوْحِيدَ وَإِثْبَاتِ النَّبَوَاتِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْعَظِيمَةِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَفَرَاغِ الدُّنْيَا وَانْقِصَائِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ قَدْ كَانَ هَذَا فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، أَنَّ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ قَدْ وَقَعَ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنَّهُ كَانَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شَقِيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءَ بَيْنَهُمَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً ﴾ أَيُّ : دَلِيلًا وَحُجَّةً وَبَرْهَانًا ﴿ يُعْرِضُوا ﴾ أَيُّ : لَا يَتَقَادُوا لَهُ بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْهُ وَيَتْرُكُونَهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ أَيُّ : وَيَقُولُونَ هَذَا الَّذِي شَاهَدْنَاهُ مِنَ الْحُجَجِ سِحْرٌ سَحَرَنَا بِهِ ، وَمَعْنَى ﴿ مُسْتَمِرٌّ ﴾ أَيُّ : ذَاهِبٌ ، أَيُّ : بَاطِلٌ مُضْمَحِلٌ لَا دَوَامَ لَهُ . ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أَيُّ : كَذَّبُوا بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُمْ ، وَاتَّبَعُوا مَا أَمَرَتْهُمْ بِهِ آرَأَوْهُمْ وَأَهْوَأَوْهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ وَسَخَافَةِ عَقْلِهِمْ ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : مَعْنَاهُ : أَنَّ الْخَيْرَ وَاقِعٌ بِأَهْلِ الْخَيْرِ ، وَالشَّرُّ وَاقِعٌ بِأَهْلِ الشَّرِّ . ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْأَخْبَارِ عَنْ قِصَصِ الْأُمَمِ الْمَكْذِبِينَ بِالرُّسُلِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعِقَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعَذَابِ ، مِمَّا يُتْلَى عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴿ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴾ أَيُّ : مَا فِيهِ وَاعِظٌ لَهُمْ عَنِ الشُّرْكِ وَالتَّمَادِي عَلَى التَّكْذِيبِ . ﴿ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ﴾ أَيُّ : فِي هِدَايَتِهِ تَعَالَى لِمَنْ هَدَاهُ ، وَإِضْلَالِهِ لِمَنْ أَضَلَّهُ ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ يَعْنِي : أَيُّ شَيْءٍ تُغْنِي النُّذُرَ عَمَّنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ وَخَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ ؟ فَمَنْ الَّذِي يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؟

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ تَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَتَوَلَّ يَا مُحَمَّدُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِذَا رَأَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا هَذَا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ، أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْهُمْ ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ ﴾ أَيُّ : إِلَى شَيْءٍ مُنْكَرٍ فَطِيعٌ ، وَهُوَ مَوْقِفُ الْحِسَابِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ بَلْ وَالزَّلَازِلِ وَالْأَهْوَالِ ﴿ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ ﴾ أَيُّ : ذَلِيلَةً أَبْصَارُهُمْ ﴿ تَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ وَهِيَ الْقُبُورُ ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ أَيُّ : كَأَنَّهُمْ فِي انْتِشَارِهِمْ وَسُرْعَةِ

سَرِهِمْ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِبَابَةً لِلدَّاعِي ، جَرَادٌ مُتَشَرِّفٌ فِي الْأَفَاقِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أَيُّ : مُسْرِعِينَ ﴿ إِلَى الدَّاعِ ﴾ لَا يُجَالِفُونَ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أَيُّ : يَوْمٌ شَدِيدُ الْهَوْلِ عَبُوسٌ قَمَطِرِيٌّ ﴿ فَذَلِكَ يَوْمٌ مِنْ يَوْمٍ عَسِيرٍ ﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ [المائدة : ٩ - ١٠]

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ ﴿ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴾ ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴾ ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴾ ﴿ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ قَبْلَ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ أَيُّ : صَرَّحُوا لَهُ بِالتَّكْذِيبِ وَاتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ أَيُّ : أُسْتُطِيرَ جُنُونًا ، وَقِيلَ : ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ أَيُّ : انْتَهَرُوهُ وَزَجَرُوهُ وَتَوَعَّدُوهُ ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٦] ﴿ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴾ أَيُّ : إِنِّي ضَعِيفٌ عَنْ هَؤُلَاءِ وَعَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ ﴿ فَأَنْتَصِرْ ﴾ أَنْتَ لِدِينِكَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : وَهُوَ الْكَثِيرُ ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أَيُّ : نَبَعَتْ جَمِيعُ أَرْجَاءِ الْأَرْضِ حَتَّى التَّنَائِيرُ الَّتِي هِيَ مَحَالُّ النِّيرَانِ نَبَعَتْ عُيُونًا ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ أَيُّ : مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أَيُّ : أَمْرٍ مُقَدَّرٍ . وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴾ كَثِيرٌ ، لَمْ تُمْطِرِ السَّمَاءُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَا بَعْدَهُ ، وَلَا مِنَ السَّحَابِ ، فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِالمَاءِ مِنْ غَيْرِ سَحَابٍ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴾ هِيَ الْمَسَامِيرُ . ﴿ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أَيُّ : بِأَمْرِنَا بِمَرَأَى مِنَّا وَتَحْتَ حِفْظِنَا وَكِلَاءَتِنَا ﴿ جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ أَيُّ : جَزَاءَ هُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَانْتِصَارًا لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : أَبْقَى اللَّهُ سَفِينَةَ نُوحٍ حَتَّى أَدْرَكَهَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَالظَّاهِرُ : أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ جِنْسَ السُّفُنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس : ٤١ - ٤٢] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ أَيُّ : فَهَلْ مَنْ يَتَذَكَّرُ وَيَتَعَطَّرُ ؟ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ أَيُّ : كَيْفَ كَانَ عَذَابِي لِمَنْ كَفَرَ بِي وَكَذَّبَ رُسُلِي ، وَلَمْ يَتَعَطَّرْ بِمَا جَاءَتْ بِهِ نُذُرِي ، وَكَيْفَ انْتَصَرْتُ هُمْ وَأَخَذْتُ هُمْ بِالثَّأْرِ ؟ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ أَيُّ : سَهَّلْنَا لِنُظْمِهِ ، وَيَسَّرْنَا مَعْنَاهُ لِمَنْ أَرَادَهُ ، لِيَتَذَكَّرَ النَّاسُ . ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ أَيُّ : فَهَلْ مِنْ مُتَذَكِّرٍ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، الَّذِي قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ حِفْظَهُ وَمَعْنَاهُ ؟ .

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿١٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَادِ قَوْمِ هُودٍ ، إِنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ أَيْضًا ، كَمَا صَنَعَ قَوْمُ نُوحٍ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ ﴿ عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ، وَهِيَ الْبَارِدَةُ الشَّدِيدَةُ الْبَرْدُ ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أَيِ : عَلَيْهِمْ ﴿ مُسْتَمِرٍّ ﴾ عَلَيْهِمْ نَحْسُهُ وَدَمَارُهُ ؛ لِأَنَّهُ يَوْمٌ اتَّصَلَ فِيهِ عَذَابُهُمُ الدُّنْيَوِيُّ بِالْآخِرَوِيِّ . ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَأْتِي أَحَدَهُمْ فَتَرْفَعُهُ حَتَّى تُغَيِّبَهُ عَنِ الْبَصَارِ ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ، فَيَسْقُطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتُثَلِّغُ رَأْسَهُ ، فَيَقَى جُثَّةً بِلاَ رَأْسٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿١٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّ إِذَا لَفَى ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴿١٤﴾ أَلُلِقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿١٥﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ ﴿١٦﴾ الْأَشِرُّ ﴿١٧﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿١٨﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿١٩﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَتِّظِرِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٣﴾

هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ ثَمُودَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ صَاحِبًا ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّ إِذَا لَفَى ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴾ يَقُولُونَ : لَقَدْ خَبَنَّا وَخَسِرْنَا إِنْ سَلَّمْنَا كُلَّنَا قِيَادَنَا لَوَاحِدٍ مِنَّا ، ثُمَّ تَعَجَّبُوا مِنْ إِلْقَاءِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ خَاصَّةً مِنْ دُونِهِمْ ، ثُمَّ رَمَوْهُ بِالْكَذِبِ فَقَالُوا : ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴾ أَيِ : مُتَجَاوِزٌ فِي حَدِّ الْكَذِبِ . ﴿ سَيَعْمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾ أَيِ : اخْتِبَارًا لَهُمْ ، أَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ نَاقَةً عَظِيمَةً عُسْرَاءَ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءَ طَبَقَ مَا سَأَلُوا ؛ لِتَكُونَ حُجَّةً اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي تَصَدِيقِ صَالِحِ الْكَافِرِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَالِحٍ : ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ أَيِ : اِنْتَظِرْ مَا يُؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ ، وَاصْبِرْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَالنَّصْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ أَيِ : يَوْمٌ هُمْ وَيَوْمٌ لِلنَّاقَةِ ؛ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ هَا شَرِبْتُ وَلَكُمُ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : ١٥٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ شَرِبٍ مُّخْتَضِرٌ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : إِذَا غَابَتْ حَضَرُوا الْمَاءَ ، وَإِذَا جَاءَتْ حَضَرُوا اللَّبَنَ . ﴿ فَتَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : هُوَ عَاقِرُ النَّاقَةِ ، وَكَانَ أَشَقَى قَوْمِهِ ؛ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقْنَهَا ﴾ [الشمس : ١٢] ﴿ فَتَعَاطَى ﴾ أَي : فَجَسَرَ ﴿ فَعَقَرَ ﴾ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ أَي : فَعَاقَبْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِي وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولِي ؟ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَبْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخْطَرِ ﴾ أَي : فَبَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ لَمْ تَبَقْ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ ، وَخَسِدُوا وَهَمِدُوا كَمَا يَهْمِدُ بَيْسُ الزَّرْعِ وَالنَّبَاتِ . قَالَ السُّدِّيُّ : وَالْمُخْتَطِرُ هُوَ الْمَرْعَى بِالصَّحْرَاءِ حِينَ يَبْسُ وَتَحْرَقُ وَنَسْفَتُهُ الرِّيحُ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : كَانَتْ الْعَرَبُ يَجْعَلُونَ حِظَارًا عَلَى الْإِبِلِ وَالْمَوَاشِي مِنْ بَيْسِ الشَّوْكِ ، فَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ كَهَشِيمِ الْحَخْطَرِ ﴾ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿١٣١﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿١٣٢﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿١٣٣﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٣٤﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿١٣٥﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٣٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ لُوطٍ كَيْفَ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ وَخَالَفُوهُ ، وَارْتَكَبُوا الْمَكْرُوهَ مِنْ إِيْتَانِ الذُّكُورِ ؛ وَهِيَ الْفَاحِشَةُ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَلِهَذَا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ هَلَاكًا لَمْ يَهْلِكْهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ . فَإِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحَمْلِ مَدَائِنِهِمْ حَتَّى وَصَلَ بِهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ وَأَرْسَلَهَا ، وَأَتْبَعَتْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ مَنْصُودٍ ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ وَهِيَ : الْحِجَارَةُ ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ أَي : خَرَجُوا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَنَجَّوْا بِمَا أَصَابَ قَوْمَهُمْ ، وَلَمْ يَأْمُرْ لُوطٌ مِنْ قَوْمِهِ أَحَدٌ وَلَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، حَتَّى وَلَا إِمْرَأَتَهُ ، أَصَابَهَا مَا أَصَابَ قَوْمَهَا ، وَخَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ لُوطٌ وَبَنَاتُ لَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ سَالِمًا لَمْ يَمَسْسْهُ سُوءٌ .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ ﴿١٣٢﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴿١٣٣﴾ أَي : وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ حُلُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ قَدْ أَنْذَرَهُمْ بِأَسْ اللَّهِ وَعَذَابِهِ ، فَمَا انْتَفَتَوْا إِلَى ذَلِكَ ، وَلَا أَصْغَوْا إِلَيْهِ ، بَلْ شَكُّوا فِيهِ وَتَمَارَوْا بِهِ . ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ ذَلِكَ لَيْلَةٌ وَرَدَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ جِبْرِيلُ ، وَمِيكَائِيلُ ، وَإِسْرَافِيلُ فِي صُورِ شَبَابٍ مُرْدٍ حَسَانٍ ، مَحْنَةً مِنَ اللَّهِ بِهِمْ ، فَأَصَابَهُمْ لُوطٌ وَبَعَثَتْ إِمْرَأَتُهُ الْعَجُوزَ السُّوءَ إِلَى قَوْمِهَا ، فَأَعْلَمَتْهُمْ بِأَضْيَافِ لُوطٍ ، فَأَقْبَلُوا يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَأَغْلَقَ لُوطٌ دُونَهُمُ الْبَابَ ، فَجَعَلُوا يُحَاوِلُونَ كَسْرَ الْبَابِ ، وَذَلِكَ عَشِيَّةً ، وَلُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْفَعُهُمْ

وَيُمَايِعُهُمْ دُونَ ضِيَافِهِ ، وَيَقُولُ هُمْ : ﴿ هَتُوْلَا بَنَاتِي ﴾ يَعْنِي : نِسَاءَهُمْ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴾ ،
 ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ ﴾ [هود : ٧٩] أَي : لَيْسَ لَنَا فِيهِنَّ أَرْبٌ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ
 مَا تُرِيدُ ﴾ [هود : ٧٩] فَلَمَّا اِسْتَدَّ الْحَالُ وَأَبَوْا إِلَّا الدُّخُولَ ، خَرَجَ عَلَيْهِمْ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضْرَبَ
 أَعْيُنَهُمْ بِطَرْفِ جَنَاحِهِ ، فَانْطَمَسَتْ أَعْيُنُهُمْ . يُقَالُ : إِذَا غَارَتْ مِنْ وَجْهِهِمْ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ لَمْ
 تَبْقَ لَهُمْ عْيُونٌ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَارْجِعُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ يَتَحَسَّسُونَ بِالْحَيْطَانِ ، وَيَتَوَعَّدُونَ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى
 الصَّبَاحِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أَي : لَا يَحِيدُ لَهُمْ عَنْهُ ، وَلَا
 انْفِكَالَ لَهُمْ مِنْهُ ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝

وَلَقَدْ جَاءَ عَالٍ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ۝ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ
 ۝ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ
 ۝ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ ۝

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِتْمَهُمْ جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ مُوسَى وَأَخُوهُ هَارُونُ
 بِالْبَشِيرَةِ إِنْ آمَنُوا ، وَالنَّذَارَةِ إِنْ كَفَرُوا ، وَآيَدُهُمَا بِمُعْجَزَاتٍ عَظِيمَةٍ وَآيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، فَكَذَّبُوا بِهَا
 كُلِّهَا ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، أَي : فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مُخْبِرًا وَلَا عَيْنًا وَلَا أَثَرًا .
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَكْفَارُكُمْ ﴾ أَي : أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ﴿ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ ﴾ يَعْنِي :
 مِنَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ ، يَمُنْ أَهْلِكُوا بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَكُفْرِهِمْ بِالْكِتَابِ ، أَأَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْ
 أُولَئِكَ ؟ ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أَي : أَمْ مَعَكُمْ مِنَ اللَّهِ بَرَاءَةٌ أَنْ لَا يَنَالَكُمْ عَذَابٌ وَلَا نِكَالٌ ؟
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴾ أَي : يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَتَنَاصَرُونَ
 بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَأَنْ يَجْمَعَهُمْ يُعْنِي عَنْهُمْ مَنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ
 وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ أَي : سَيَتَفَرَّقُ شَمْلُهُمْ وَيُعْلَبُونَ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ
 يَوْمَ بَدْرٍ « أَنْشُدْكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا » فَأَخَذَ
 أَبُو بَكْرٍ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ : حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَثْبُ فِي الدَّرْعِ
 وَهُوَ يَقُولُ : ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ ۝

إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ
 سَقَرٍ ۝ إِنْ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝ وَلَقَدْ
 أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝ وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ

مُسْتَطَرٌّ ﴿٢٧﴾ إِنَّ الْتَّقِيْنَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٢٨﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُنَا تَعَالَى عَنِ الْمَجْرِمِينَ أَنَّهُمْ فِي ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ ، وَسُعْرٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّكُوكِ وَالْاضْطِرَابِ فِي الْأَرَاءِ ، وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ مِنْ كَافِرٍ وَمُبْتَدِعٍ مِنْ سَائِرِ الْفِرَقِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ أي : كَمَا كَانُوا فِي سُعْرٍ وَشَكٍّ وَتَرَدُّدٍ ، أَوْزَنُهُمْ ذَلِكَ النَّارَ ، وَكَمَا كَانُوا ضَلَالًا يُسْحَبُونَ فِيهَا عَلَى وُجُوهِهِمْ لَا يَدْرُونَ أَيْنَ يَذْهَبُونَ ، وَيُقَالُ لَهُمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ [الأعلى : ١ - ٣] أَي : قَدَّرَ قَدْرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ ، وَهَذَا يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَمَّةَ السَّنَةِ عَلَى إِبْتِنَاتِ قَدْرِ اللَّهِ السَّابِقِ لِحَلْقِهِ ، وَهُوَ عِلْمُهُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا ، وَكِتَابَتُهُ لَهَا قَبْلَ بَرْنِهَا . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُخَاصِمُونَهُ فِي الْقَدْرِ ، فَزَلَّتْ ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ وَهُوَ إِخْبَارٌ عَنْ نُفُوذِ مَشِيئَتِهِ فِي خَلْقِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ بِنُفُوذِ قَدْرِهِ فِيهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ إِنَّمَا نَأْمُرُ بِالشَّيْءِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، لَا نَحْتَاجُ إِلَى تَأْكِيدٍ بِنَائِيَةٍ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الَّذِي نَأْمُرُ بِهِ حَاصِلًا مَوْجُودًا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ، لَا يَتَأَخَّرُ طَرْفَةَ عَيْنٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ يَعْنِي أَمْثَالَكُمْ ، وَسَلَفَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ أَي : فَهَلْ مِنْ مُعْظِ بِمَا أَخْزَى اللَّهُ أَوْلِيكَ وَقَدَّرَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أَي : مَكْتُوبٌ عَلَيْهِمْ فِي الْكُتُبِ الَّتِي بَأْيَدِي الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ أَي : مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿ مُسْتَطَرٌّ ﴾ أَي : مَجْمُوعٌ عَلَيْهِمْ ، وَمُسْتَطَرٌّ فِي صَحَائِفِهِمْ ، لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ الْتَّقِيْنَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴾ أَي : بِعَكْسِ مَا الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالسُّعْرِ ، وَالسَّحْبِ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ مَعَ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ وَالتَّهْدِيدِ . ﴿ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ ﴾ أَي : فِي دَارِ كَرَامَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَفَضْلِهِ ، وَامْتِنَانِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ ﴿ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أَي : عِنْدَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الْخَالِقِ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وَمُقَدِّرِهَا ، وَهُوَ مُّقْتَدِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ مِمَّا يَطْلُبُونَ وَيُرِيدُونَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ «إِقْرَبَتْ»

وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
يَحْسَبَانِ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا
تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ
وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ
﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَى عِبَادِهِ الْقُرْآنَ ، وَيَسَّرَ حِفْظَهُ وَفَهْمَهُ عَلَى
مَنْ رَحِمَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ قَالَ
الْحَسَنُ : يَعْنِي : النُّطْقُ . ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَحْسَبَانِ ﴾ أَيُّ : يَجْرِيَانِ مُتَعَاقِبَيْنِ بِحِسَابٍ مُقَنَّنٍ لَا
يَخْتَلِفُ وَلَا يَضْطَرُّ ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ
وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ١٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ ، يَعْنِي : الْعَدْلَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا
بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا
فِي الْمِيزَانِ ﴾ أَيُّ : خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، لِتَكُونَ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ .
وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أَيُّ : لَا تَبْخَسُوا الْوَزْنَ بَلْ زِنُوا
بِالْحَقِّ وَالْقِسْطِ . ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ أَيُّ : كَمَا رَفَعَ السَّمَاءَ وَضَعَ الْأَرْضَ وَمَهَّدَهَا ،
وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ الشَّائِخَاتِ ، لِتَسْتَقِرَّ لَهَا عَلَى وَجْهَهَا مِنَ الْأَنَامِ ، وَهُمْ الْخَلَائِقُ
الْمُخْتَلِفَةُ أَنْوَاعُهُمْ وَأَشْكَالُهُمْ وَالْوَاهِمُ وَالْمُسْتَهْمُ ، فِي سَائِرِ أَقْطَارِهَا وَأَرْجَائِهَا ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أَيُّ
: مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ أَفْرَدَهُ بِالذِّكْرِ ؛ لِشَرَفِهِ وَنَفْعِهِ ،
رُطْبًا وَيَابِسًا ، وَالْأَكْمَامُ : هِيَ أَوْعِيَةُ الطَّلَعِ وَهُوَ الَّذِي يَطْلُعُ فِيهِ الْقِنُوتُ ثُمَّ يَنْشَقُّ عَنِ الْعُقُودِ
فَيَكُونُ بُسْرًا ، ثُمَّ رُطْبًا ، ثُمَّ يَنْضَجُ وَيَتَنَاهَى نَفْعُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾: يَعْنِي: التَّبَنَ . وَقِيلَ: ﴿الْعَصْفِ﴾: وَرَقُ الزَّرْعِ الْأَخْضَرِ الَّذِي قُطِعَ رُءُوسُهُ، فَهُوَ يُسَمَّى الْعَصْفُ إِذَا يَبَسَ ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يَعْنِي: الْوَرَقَ، وَقِيلَ: خُضِرَ الزَّرْعُ، وَمَعْنَى هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْحَبَّ كَالْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَنَحْوَهُمَا، لَهُ فِي حَالِ نَبَاتِهِ عَصْفٌ، وَهُوَ: مَا عَلَى السُّنْبَلَةِ، وَرَيْحَانٌ، وَهُوَ: الْوَرَقُ الْمُلتَفُّ عَلَى سَاقِهَا ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أَيُّ: فَبِأَيِّ الْآلَاءِ يَا مَعْشَرَ الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ تُكَذِّبَانِ؟ أَيُّ: النِّعَمِ ظَاهِرَةٌ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ مَعْمُورُونَ بِهَا، لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْكَارَهَا وَلَا جُحُودَهَا، فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَتِ الْجِنُّ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ: اللَّهُمَّ؛ وَلَا بَشِيءٌ مِنْ آلائِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٥﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٧﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٩﴾ مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿٢٠﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٢﴾ تَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٤﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٢٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٦﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى خَلْقَهُ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ، وَخَلْقَهُ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَهُوَ: طَرَفُ لَهْبِهَا، وَقِيلَ: ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ مِنْ خَالِصِ النَّارِ. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يَعْنِي: مَشْرِقِي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ، وَمَغْرِبِي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ، وَلَمَّا كَانَ فِي اخْتِلَافِ هَذِهِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ مَصَالِحٌ لِلْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، قَالَ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أَيُّ: أَرْسَلَهُمَا، وَقَوْلُهُ: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَيُّ: مَنَعَهُمَا أَنْ يَلْتَقِيَا، بِمَا جَعَلَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْبَرْزَخِ الْحَاجِزِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ الْمِلْحُ وَالْحُلُوُّ، فَالْحُلُوُّ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بَيْنَ النَّاسِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ «الْفُرْقَانِ». قَالَ تَعَالَى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ أَيُّ: وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا، وَهُوَ: الْحَاجِزُ مِنَ الْأَرْضِ، لِئَلَّا يَبْغِيَ هَذَا عَلَى هَذَا، وَهَذَا عَلَى هَذَا، فَيُفْسِدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرَ وَيُزِيلُهُ عَنْ صِفَتِهِ الَّتِي هِيَ مَقْصُودَةٌ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿تَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أَيُّ: مِنْ مَجْمُوعِهِمَا فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ لِأَحَدِهِمَا كَفَى، وَاللُّوْلُؤُ مَعْرُوفٌ، وَأَمَّا الْمَرْجَانُ فَقِيلَ: هُوَ صِغَارُ اللُّوْلُؤِ، وَقِيلَ: كِبَارُهُ وَجَيِّدُهُ. وَقِيلَ: هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْجَوَاهِرِ أَحْمَرُ اللَّوْنِ. وَلَمَّا كَانَ اتِّخَاذُ هَذِهِ الْحِلْيَةِ نِعْمَةً عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ امْتَنَّ بِهَا عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ ﴾ ، يَعْنِي : السُّفُنُ الَّتِي تَجْرِي ﴿ فِي الْبَحْرِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : مَا رُفِعَ قَلْعُهُ مِنَ السُّفُنِ فَهِيَ مُنْشَأَةٌ ، وَمَا لَمْ يُرْفَعْ قَلْعُهُ فَلَيْسَ بِمُنْشَأَةٍ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ الْمُنْشَآتُ ﴾ يَعْنِي : الْمَخْلُوقَاتُ ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أَيِ : كَالْجِبَالِ فِي كِبَرِهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ الْمَنْقُولَةِ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ لِلنَّاسِ فِي جَلْبِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْبَضَائِعِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٥٠﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٥١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٢﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٥٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ سَيَذْهَبُونَ وَيَمُوتُونَ أَجْمَعُونَ ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَلَا يَبْقَى أَحَدٌ سِوَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ لَا يَمُوتُ ، بَلْ هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا . قَالَ قَتَادَةُ : أَنْبَأَ بِهَا خَلْقُكُمْ أَنْبَأَ أَنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ فَاِنْ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٢٨] ، وَقَدْ نَعَتَ تَعَالَى وَجْهَهُ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ ﴿ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أَيِ : هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى ، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُخَالَفُ ، رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ذُو الْعِظَمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ . وَلَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَسَاوِي أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي الْوَفَاةِ ، وَأَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ بِالْحُكْمِ الْعَدْلِ قَالَ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ غِنَاءِ عَمَّا سِوَاهُ ، وَافْتِقَارُ الْخَلَائِقِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَنَاتِ ، وَأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ بِلِسَانِ حَالِهِمْ وَقَالِهِمْ ، وَأَنَّهُ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ قِيلَ : مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُجِيبَ دَاعِيًا ، أَوْ يُعْطِيَ سَائِلًا ، أَوْ يَفُكَّ عَانِيًا ، أَوْ يَشْفِيَ سَقِيمًا . وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : كُلُّ يَوْمٍ هُوَ يُجِيبُ دَاعِيًا ، وَيَكْشِفُ كَرْبًا ، وَيُجِيبُ مُضْطَرًّا ، وَيَغْفِرُ ذَنْبًا .

سَنَفَرُّ لَكُمْ آيَةَ الثَّقَلَانِ ﴿٥٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٦﴾ يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ۚ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ﴿٥٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٨﴾ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَخَسَسَ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٥٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٠﴾

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ قَالَ : وَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعِبَادِ ، وَلَيْسَ بِاللَّهِ شُغْلٌ ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : سَيَحَاسِبُكُمْ ، لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، يُقَالُ : لَا تَمَرَّغَنَّ لَكَ وَمَا بِهِ شُغْلٌ ، يَقُولُ : لَا اخْذَنْكَ عَلَى غِرَّتِكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ الثَّقَلَانُ : الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَمَعُثَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ أَيُّ : لَا تَسْتَطِيعُونَ هَرَبًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُمْ ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ حُكْمِهِ ، وَلَا النُّفُوزِ عَنْ حُكْمِهِ فِيكُمْ ، أَيُّنَا ذَهَبْتُمْ أُحِيطَ بِكُمْ ، وَهَذَا فِي مَقَامِ الْمَحْشَرِ ، الْمَلَائِكَةُ مُحَدِّقَةٌ بِالْخَلَائِقِ ، سَبْعُ صُفُوفٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الدَّهَابِ ﴿ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ أَيُّ : إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ قِيلَ : الشَّوَاظُ : هُوَ لَهَبُ النَّارِ ، وَقِيلَ : الشَّوَاظُ : الدُّخَانُ ، وَقِيلَ : هُوَ اللَّهَبُ الْأَخْضَرُ الْمُنْقَطِعُ ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قِيلَ : الصُّفْرُ ، يُذَابُ فَيَصَّبُ عَلَى رُءُوسِهِمْ ، وَالْمَعْنَى : لَوْ ذَهَبْتُمْ هَارِبِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَدَّتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ وَالزَّبَانِيَةُ بِإِرْسَالِ اللَّهَبِ مِنَ النَّارِ وَالنُّحَاسِ الْمَذَابِ عَلَيْكُمْ لِتَرْجِعُوا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

فَإِذَا أُنْشِقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا أُنْشِقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ مَعَ مَا شَاكَلَهَا مِنْ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي مَعْنَاهَا ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأُنْشِقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الْحَاقَّةُ : ١٦] وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أُنْشِقَّتْ ﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَخَفَّتْ ﴿ [الانشقاق ١ - ٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ أَيُّ : تَذُوبٌ كَمَا يَذُوبُ الدُّرْدِيُّ وَالْفَضَّةُ فِي السَّبَكِ ، وَتَلَوْنُ كَمَا تَلَوْنُ الْأَصْبَاغُ الَّتِي يُذْهَنُ بِهَا ، فَتَارَةٌ حُمْرَاءُ وَصَفْرَاءُ وَزَرْقَاءُ وَخَضْرَاءُ ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ ، وَهَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْعَظِيمِ ﴿ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ قِيلَ : تَغَيَّرَ لَوْنُهَا ، وَقِيلَ : كَأَلْوَانِ الدِّهَانِ ، وَقِيلَ : تَصِيرُ السَّمَاءُ كَالدَّهْنِ الدَّائِبِ ، وَذَلِكَ حِينَ يُصِيبُهَا حَرُّ جَهَنَّمَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ

لَا يَنْطِقُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٩٢﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٦] ، فَهَذَا فِي حَالٍ ، وَثُمَّ فِي حَالٍ يَسْأَلُ الْخَلَائِقُ فِيهَا عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣] ، وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ قَالَ : قَدْ كَانَتْ مَسْأَلُهُ ، ثُمَّ خُتِمَ عَلَى أَفْوَاهِ الْقَوْمِ ، وَتَكَلَّمْتُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقِيلَ : لَا يَسْأَلُهُمْ هَلْ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ ، لِأَنَّهُ أَعْلَمَ بِذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ يَقُولُ : لِمَ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ . فَهَذَا قَوْلٌ ثَانٍ . وَقِيلَ : لَا يَسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْمُجْرِمِينَ بَلْ يُعْرِفُونَ بِسِيَاهُمْ ، وَهَذَا قَوْلٌ ثَالِثٌ ، وَكَأَنَّ هَذَا بَعْدَمَا يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ، فَذَلِكَ الْوَقْتُ لَا يُسْأَلُونَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ ، بَلْ يُقَادُّونَ إِلَيْهَا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَاهُمْ ﴾ أَيُّ : بِعَلَامَاتٍ تَظْهَرُ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : يُعْرِفُونَهُمْ بِأَسْوَدَادِ الْوُجُوهِ وَزُرْقَةِ الْعُيُونِ . قُلْتُ : وَهَذَا كَمَا يُعْرِفُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْعُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ مِنْ أَثَارِ الْوُضُوءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ أَيُّ : تَجْمَعُ الزَّبَانِيَةُ نَاصِيَتَهُ مَعَ قَدَمَيْهِ ، وَيُلْقَوْنَهُ فِي النَّارِ كَذَلِكَ ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِّمْتُمْ تَكْذِبُونَ بِوُجُودِهَا ، هَا هِيَ حَاضِرَةٌ تَشَاهِدُوهَا عَيْنًا ؛ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَضْغِيرًا وَتَحْقِيرًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أَيُّ : نَارَةٌ يُعَذِّبُونَ فِي الْجَحِيمِ ، وَنَارَةٌ يُسْقَوْنَ مِنَ الْحَمِيمِ ، وَهُوَ الشَّرَابُ الَّذِي هُوَ كَالنَّحَاسِ الْمَذَابِ يَقْطَعُ الْأَنْعَاءَ وَالْأَحْشَاءَ . ﴿ ءَانٍ ﴾ أَيُّ : حَارٌّ ، قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْحَرَارَةِ ، لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ . ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أَيُّ : قَدْ انْتَهَى عَلَيْهِ وَاسْتَدَّ حَرُّهُ . وَلَمَّا كَانَ مُعَاقَبَةُ الْعَصَاةِ الْمُجْرِمِينَ وَتَنْعِيمُ الْمُتَّقِينَ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَذْلِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ ، وَكَانَ إِنْذَارُهُ لَهُمْ عَذَابِهِ وَبَأْسُهُ بِمَا يَرْجُرُهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرِّ وَالْمَعَاصِي وَغَيْرِ ذَلِكَ ، قَالَ مُتَمَتِّنًا بِذَلِكَ عَلَى بَرِيَّتِهِ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٩٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٥﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٩٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٧﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٩٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٩﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٍ ﴿١٠٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٠١﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النازعات: ٤٠] ، وَلَمْ يَطْغَ وَلَا أَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَعَلِمَ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، فَأَدَّى فَرَائِضَ اللَّهِ ، وَاجْتَنَبَ مَحَارِمَهُ ، فَلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ . وَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، فَهِيَ مِنْ أَدْلٍ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْجِنَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِذَا آمَنُوا وَاتَّقَوْا ، وَلِهَذَا إِمْتَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى

الْمُتَكَلِّينَ بِهَذَا الْجَزَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ وَلِمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ١٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، ثُمَّ نَعَتْ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ فَقَالَ : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ ١١ أَيُّ : أَغْصَانٌ نَضْرَةٌ حَسَنَةٌ ، تَحْمِلُ مِنْ كُلِّ ثَمَرَةٍ نَضِيجَةً فَائِقَةً ، وَقِيلَ : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ ذَوَاتَا أَلْوَانٍ ، وَقَالَ عَطَاءٌ : كُلُّ غُصْنٍ يَجْمَعُ فُتُونًا مِنَ الْفَاكِهَةِ ، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ ١٢ أَيُّ : تَسْرَحَانِ لِسْقِي تِلْكَ الْأَشْجَارِ وَالْأَغْصَانِ فَتُثْمِرُ مِنْ جَمِيعِ الْأَلْوَانِ . قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : إِحْدَاهُمَا يُقَالُ لَهَا : تَسْنِيمٌ ، وَالْأُخْرَى : السَّلْسِيلُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا : ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ ١٣ أَيُّ : مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ مِمَّا يَعْلَمُونَ ، وَخَيْرٌ مِمَّا يَعْلَمُونَ ، وَمِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

مُتَكَبِّينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَاطِيهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ١٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٥ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ١٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٧ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ١٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٩ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مُتَكَبِّينَ ﴾ يَعْنِي : أَهْلُ الْجَنَّةِ ، وَالْمُرَادُ بِالْإِتْكَاءِ هَهُنَا : الْإِضْطِجَاعُ ، وَيُقَالُ : الْجُلُوسُ عَلَى صِفَةِ التَّرْبَعِ ﴿ عَلَى فُرْشٍ بَطَاطِيهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ وَهُوَ مَا غُلِظَ مِنَ الدِّيَبَاجِ ، وَقَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ : هُوَ الدِّيَبَاجُ الْمَعْرَى بِالذَّهَبِ ، فَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِ الظَّهَارَةِ بِشَرَفِ الْبِطَانَةِ ، فَهَذَا مِنَ التَّنْبِيهِ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ ١٤ أَيُّ : ثَمَرُهُمَا قَرِيبٌ إِلَيْهِمْ مَتَى شَاءُوا تَنَاوَلُوهُ ، عَلَى أَيِّ صِفَةٍ كَانُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فُطُوْفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الْحَاقَّةُ : ٢٣] وَقَالَ : ﴿ وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذَلَّلَتْ فُطُوْفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الْإِنْسَانُ : ١٤] أَيُّ : لَا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ تَنَاوَلَهَا بَلْ تَنْحَطُّ إِلَيْهِ مِنْ أَغْصَانِهَا ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وَلَمَّا ذَكَرَ الْفُرُشَ وَعَظَمَتَهَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أَيُّ : فِي الْفُرُشِ ﴿ قَصِيرَاتُ الطَّرَفِ ﴾ أَيُّ : غَضِيزَاتٌ عَنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ ، فَلَا يَرَيْنَ شَيْئًا فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنَ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ أَيُّ : بَلْ هُنَّ أَبْكَارٌ عُرُبٌ أَتْرَابٌ ، لَمْ يَطَأْهُنَّ أَحَدٌ قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى دُخُولِ مُؤْمِنِي الْجَنِّ الْجَنَّةِ . ثُمَّ قَالَ يَنْعَتُهُنَّ لِلْخَطَابِ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : فِي صَفَاءِ الْيَاقُوتِ ، وَبَيَاضِ الْمَرْجَانِ ، فَجَعَلُوا الْمَرْجَانِ هَهُنَا اللَّوْلُؤَ . ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ أَيُّ : مَا لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلِ فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْإِحْسَانُ إِلَيْهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا

الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴿٢٦﴾ [يونس : ٢٦] ، وَلَمَّا كَانَ فِي الَّذِي ذُكِرَ نِعَمٌ عَظِيمَةٌ لَا يُقَاوِمُهَا عَمَلٌ بَلْ مُجَرَّدُ تَفَضُّلٍ وَامْتِنَانٍ ، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ فِيهِمَا فَنَكُهُةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ تَبَرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٤٣﴾

هَاتَانِ الْجَنَّتَانِ دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا فِي الْمَرْتَبَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْمَنْزِلَةِ بَصَّ الْقُرْآنِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ « جَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ آيَتْهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ آيَتْهُمَا وَمَا فِيهِمَا » فَأُولَئِكَ لِلْمُقَرَّبِينَ ، وَالْأُخْرَيَانِ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَقَالَ أَبُو مُوسَى : جَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ لِلْمُقَرَّبِينَ ، وَجَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿ مُدْهَامَتَانِ ﴾ أَيُّ : سَوْدَاوَانِ مِنْ شِدَّةِ الرَّيِّ ، وَقِيلَ : ﴿ مُدْهَامَتَانِ ﴾ خَضِرَاوَانِ ، وَقِيلَ : ﴿ مُدْهَامَتَانِ ﴾ مُتَمَلِّتَانِ مِنَ الْخُضْرَةِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : خَضِرَاوَانِ مِنَ الرَّيِّ نَاعِمَتَانِ ﴿ نَضَّاحَتَانِ ﴾ قِيلَ : أَيُّ : فَيَاصَتَانِ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : ﴿ نَضَّاحَتَانِ ﴾ أَيُّ : مُتَمَلِّتَانِ وَلَا تَنْقَطِعَانِ ﴿ فِيهِمَا فَنَكُهُةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ ﴾ أَفْرَدَ النَّخْلَ وَالرُّمَانَ بِالذِّكْرِ لِشَرْفِهِمَا عَلَى غَيْرِهِمَا . ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ حَسَنَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَقِيلَ : خَيْرَاتٌ ، جَمْعُ خَيْرَةٍ ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الْحَسَنَةُ الْخَلْقِ الْحَسَنَةُ الْوَجْهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ ﴾ ، وَهُنَاكَ قَالَ : ﴿ فِيهِنَّ قُنُصْرَاتُ الطَّرَفِ ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّتِي قَدْ قَصُرَتْ طَرْفُهَا بِنَفْسِهَا أَفْضَلُ مِمَّنْ قُصِرَتْ ، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ مُحَدَّرَاتٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِي الْخِيَامِ ﴾ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، عَرْضُهَا سِتُونَ مِيلًا ، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخِرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ » وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي عِمْرَانَ بِهِ وَلَفْظُهُ : « (إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا سِتُونَ مِيلًا ، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُهُ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴾ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ سِوَاءً ، إِلَّا أَنَّهُ زَادَ فِي وَصْفِ الْأَوَائِلِ

يَقُولُ: ﴿كَأَنَّهُنَّ آيَاتُوتُ وَالْمَرْحَانُ﴾ ، ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُتَكِينٍ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ الرَّفْرَفُ عَلَى السَّرِيرِ ، كَهَيْئَةِ
 الْحَابِسِ الْمُنْدَلِيِّ ، وَقِيلَ: ﴿مُتَكِينٍ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ﴾ يَعْنِي: الْوَسَائِدَ ، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي
 قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُتَكِينٍ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ﴾ قَالَ: الرَّفْرَفُ: رِيَاضُ الْجَنَّةِ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قَالَ عَدَدُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الْعَبْقَرِيُّ: الزَّرَاطِيُّ: قِيلَ: هِيَ عِتَاقُ
 الزَّرَاطِيِّ ، يَعْنِي: جِيَادَهَا ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْعَبْقَرِيُّ: الدِّيْبَاجُ ، وَقِيلَ: الْعَبْقَرِيُّ: أَحْمَرٌ وَأَصْفَرُ
 وَأَخْضَرُ ، وَقَالَ الْفُتَيْبِيُّ: كُلُّ ثَوْبٍ مُوشَى عِنْدَ الْعَرَبِ عَبْقَرِيٌّ ، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ ، فَصْفَةُ مَرَافِقِ
 أَهْلِ الْجَنَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ أَرْفَعُ وَأَعْلَى مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ ، فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ هُنَاكَ: ﴿مُتَكِينٍ عَلَى فُرْشٍ
 بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ فَفَعَتْ بَطَائِنَ فُرُشِهِمْ وَسَكَتَ عَنْ ظَهَائِرِهَا ، اِكْتِفَاءً بِمَا مَدَحَ بِهِ الْبَطَائِنَ
 بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى ، وَتَمَامُ الْحَاجَةِ أَنَّهُ قَالَ بَعْدَ الصِّفَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا
 الْإِحْسَنُ﴾ فَوَصَفَ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ وَهُوَ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ وَالنِّهَايَاتِ . ثُمَّ قَالَ: ﴿تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ
 ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أَيُّ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى ، وَأَنْ يُكْرَمَ فَيُعْبَدَ ، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ ،
 وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى ، وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذُو الْعِظَمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّحْمَنِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ
 رَجًا ④ وَوُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ⑥ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ⑦
 فَأَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ ⑧ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⑨ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⑩
 وَالسَّيْقُوفُ الْأَسْفَلُونَ ⑪ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑫ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ⑬

الْوَاقِعَةُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لِتَحَقُّقِ كَوْنِهَا وَوُجُودِهَا .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أَيُّ: لَيْسَ لَوْعُوعُهَا - إِذَا أَرَادَ اللَّهُ كَوْنَهَا - صَارِفٌ
 يَصْرِفُهَا وَلَا دَافِعٌ يَدْفَعُهَا ، وَمَعْنَى ﴿كَاذِبَةٌ﴾ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: لَيْسَ فِيهَا مَشْنُونَةٌ وَلَا

ارْتَدَادٌ وَلَا رَجْعَةٌ. ﴿حَافِظَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أَيُّ : تَخْفُضُ أَقْوَامًا إِلَى أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَعَزَّاءَ ، وَتَرَفُّعَ آخَرِينَ إِلَى أَعْلَى عَلَّيْنَ إِلَى النَّعِيمِ الْمَقِيمِ ، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا وَضَعَاءَ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : تَخْفُضُ رِجَالًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُرْتَفِعِينَ وَتَرَفُّعُ رِجَالًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُخْفُوضِينَ . ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أَيُّ : حُرِّكَتْ تَحْرِيكًا فَاهْتَزَّتْ وَاضْطَرَبَتْ بِطَوْلِهَا وَعَرَضِهَا ، وَهَذَا قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أَيُّ : زُلْزِلَتْ زِلْزَالًا . وَقَوْلُهُ : ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ أَيُّ : فُتَّتْ فَتًّا ، وَقَوْلُهُ : ﴿هَبَاءٌ مُنَبِّئًا﴾ قِيلَ : كَرِهَجِ الْعُبَارِ يَسْطَعُ ثُمَّ يَذْهَبُ ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ ، وَقِيلَ : الْهَبَاءُ : الَّذِي يَطِيرُ مِنَ النَّارِ إِذَا اضْطَرَمَّتْ ، يَطِيرُ مِنْهُ الشَّرُّ ، فَإِذَا وَقَعَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَأَحْوَاتِهَا الدَّالَّةُ عَلَى زَوَالِ الْجِبَالِ عَنْ أَمَاكِنِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَذَهَابِهَا وَتَسْيِيرِهَا وَنَسْفِهَا وَصَيُورَتِهَا كَالْعِهْنِ الْمَفْشُوشِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أَيُّ : يَنْقَسِمُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ : قَوْمٌ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ : وَهُمْ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ شِقِّ آدَمَ الْيَمِينِ ، وَيُؤْتَوْنَ كُتُبُهُمْ بَأْيَمَانِهِمْ ، وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الْيَمِينِ . قَالَ السُّدِّيُّ : وَهُمْ جُمْهُورُ أَهْلِ الْجَنَّةِ . وَآخَرُونَ عَنْ يَسَارِ الْعَرْشِ : وَهُمْ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ شِقِّ آدَمَ الْأَيْسَرِ ، وَيُؤْتَوْنَ كُتُبُهُمْ بِشِمَالِهِمْ ، وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الشِّمَالِ وَهُمْ عَامَّةُ أَهْلِ النَّارِ ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ صَنِيعِهِمْ . وَطَائِفَةٌ سَابِقُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﷻ : وَهُمْ أَحْصَى وَأَخْطَى وَأَقْرَبُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، الَّذِينَ هُمْ سَادَتُهُمْ ، فِيهِمُ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ ، وَهُمْ أَقْلُ عَدَدًا مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٠﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١١﴾ وَالسَّيِّقُونَ وَالسَّيِّقُونَ ﴿١٢﴾ وَهَكَذَا قَسَمَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ فِي آخِرِ السُّورَةِ وَقَتِ احْتِضَارِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ﴾ قِيلَ : هُمْ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَقِيلَ : الَّذِينَ صَلُّوا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ ، وَقِيلَ : ﴿وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ﴾ أَيُّ : مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ، وَقِيلَ : أَوَّلُهُمْ رَوَاحًا إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَأَوَّلُهُمْ خُرُوجًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالسَّابِقِينَ هُمْ الْمُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ كَمَا أُمِرُوا ، فَمَنْ سَابَقَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَسَبَقَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ كَانَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْكَرَامَةِ ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، وَكَمَا تَدِينُ تَدَانُ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٣﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٥﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٦﴾ مُتَكِينِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٧﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخْلَدُونَ ﴿١٨﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٩﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿٢٠﴾ وَفِكَهَةٌ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ

﴿١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوبِ الْمَكْنُونِ ﴿٣﴾ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ أَنَّهُمْ ﴿١﴾ ثَلَاثَةٌ ﴿٢﴾ أَيُّ : جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٣﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٤﴾ أَيُّ : مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿٥﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٦﴾ أَيُّ : مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَوَّلَ كُلِّ أُمَّةٍ خَيْرٌ مِنْ آخِرِهَا فَيَحْتَمِلُ أَنْ تَعُمَّ الْآيَةُ جَمِيعَ الْأُمَمِ ، كُلُّ أُمَّةٍ بِحَسَبِهَا ، وَلِهَذَا ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » ، وَالْغَرَضُ : أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ ، وَالْمُقَرَّبُونَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا وَأَعْلَى مَنْزِلَةٍ ، لِشَرَفِ دِينِهَا وَعَظَمِ نَبِيِّهَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٧﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿٨﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَيُّ : مَرْمُوءَةٌ بِالذَّهَبِ ، يَعْنِي مَنْسُوجَةٌ بِهِ . ﴿٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ﴿١٠﴾ أَيُّ : وَجُوهُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ لَيْسَ أَحَدٌ وَرَاءَ أَحَدٍ ﴿١١﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنْ مُخْلَدُونَ ﴿١٢﴾ أَيُّ : مُخْلَدُونَ عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ ، لَا يَكْبُرُونَ عَنْهَا وَلَا يَشْيَبُونَ وَلَا يَتَغَيَّرُونَ ﴿١٣﴾ بِالْأَكْوَابِ وَالْأَبَارِيقِ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٤﴾ أَمَّا الْأَكْوَابُ فَهِيَ : الْكِيزَانُ الَّتِي لَا خَرَاطِيمَ لَهَا وَلَا آذَانٌ ، وَالْأَبَارِيقُ : الَّتِي جَمَعَتِ الْوَصْفَيْنِ ، وَالْكُؤُوسُ : الْهِنَابَاتُ ، وَالْجَمِيعُ مِنْ خَمْرٍ مِنْ عَيْنٍ جَارِيَةٍ مَعِينٍ ، لَيْسَ مِنْ أَوْعِيَةٍ تَنْقَطِعُ وَتَفْرُغُ ، بَلْ مِنْ عُيُونٍ سَارِحَةٍ ﴿١٥﴾ لَا يُصَدَّغُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٦﴾ أَيُّ : لَا تُصَدَّعُ رُءُوسُهُمْ وَلَا تُنْزَفُ عَقُولُهُمْ ، بَلْ هِيَ ثَابِتَةٌ مَعَ الشَّدَّةِ الْمُطْرِبَةِ وَاللَّذَّةِ الْحَاصِلَةِ . وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ : ﴿١٧﴾ وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٨﴾ أَيُّ : لَا تَذْهَبُ بِعُقُولِهِمْ ﴿١٩﴾ وَفِكَهَةٌ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ أَيُّ : وَيَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَتَخَيَّرُونَ مِنَ الثَّارِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ أَكْلِ الْفَاكِهَةِ عَلَى صِفَةِ التَّخَيَّرِ لَهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوبِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالرَّفْعِ ، وَتَقْدِيرُهُ : وَهُمْ فِيهَا حُورٌ عِينٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٢٤﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوبِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٥﴾ أَيُّ : كَأَنَّ هُنَّ اللَّوْلُوبُ الرُّطْبُ فِي بَيَاضِهِ وَصَفَائِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي « سُورَةِ الصَّافَاتِ » : ﴿٢٦﴾ كَأَنَّ هُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٧﴾ [الصافات: ٤٩] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي « سُورَةِ الرَّحْمَنِ » وَصَفُهُنَّ أَيْضًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿٢٨﴾ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي أَتَّخَفْنَاهُمْ بِهِ مُجَازَاةً لَهُمْ عَلَى مَا أَحْسَنُوا مِنَ الْعَمَلِ ﴿٣٠﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٣١﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٣٢﴾ أَيُّ : لَا يَسْمَعُونَ فِي الْجَنَّةِ كَلَامًا لَا عِيًا ، أَيُّ : غَمًّا خَالِيًا عَنِ الْمَعْنَى ، أَوْ مُشْتَمِلًا عَلَى مَعْنَى حَقِيرٍ أَوْ ضَعِيفٍ ، كَمَا قَالَ : ﴿٣٣﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿٣٤﴾ [الغاشية: ١١] أَيُّ : كَلِمَةً لَا غِيَةً ﴿٣٥﴾ وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٣٦﴾ أَيُّ : وَلَا كَلَامًا فِيهِ قُبْحٌ ﴿٣٧﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٣٨﴾ أَيُّ : إِلَّا التَّسْلِيمُ مِنْهُمْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٣٩﴾ نَحْنُ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٤٠﴾ [إبراهيم: ٢٣] وَكَلَامُهُمْ أَيْضًا سَلَامٌ مِنَ اللَّغْوِ وَالْإِثْمِ .

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿١٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿١٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿١٩﴾
وَوَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٢٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٢١﴾ وَفُكَيْهٍ كَثِيرَةٍ ﴿٢٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٢٣﴾
وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٢٤﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَهُمْ إِنْشَاءً ﴿٢٥﴾ فَجَعَلْنَهُمْ أَتْبَارًا ﴿٢٦﴾ عُرْبًا أَتْرَابًا ﴿٢٧﴾
لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٣٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَالَ السَّابِقِينَ - وَهُمْ الْمُقَرَّبُونَ - عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ - وَهُمْ الْأَبْرَارُ - كَمَا قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ : أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَنَزَلَةٌ دُونَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أَيُّ : أَيُّ شَيْءٍ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ؟ وَمَا حَالُهُمْ ؟ وَكَيْفَ مَا لَهُمْ ؟ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ الَّذِي لَا شَوْكَ فِيهِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ الْمُوقَرُّ بِالشَّمْرِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ هَذَا وَهَذَا ، فَإِنَّ سِدْرَ الدُّنْيَا كَثِيرُ الشَّوْكِ قَلِيلُ الشَّمْرِ ، وَفِي الْآخِرَةِ الْعَكْسُ مِنْ هَذَا ، لَا شَوْكَ فِيهِ ، وَفِيهِ الثَّمَرُ الْكَثِيرُ الَّذِي قَدْ أَثْقَلَ أَصْلَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ الطَّلْحُ : شَجَرٌ عِظَامٌ يَكُونُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ ، مِنْ شَجَرِ الْعِضَاءِ ، وَاحِدَتُهُ طَلْحَةٌ ، وَهُوَ شَجَرٌ كَثِيرُ الشَّوْكِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ مَّنْضُودٌ ﴾ أَيُّ : مُتَرَائِمٌ الشَّمْرِ .

وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ الْمَوْزُ ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ ﷺ : « إِنْ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ ، إِقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ : يَجْرِي فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ . ﴿ وَفُكَيْهٍ كَثِيرَةٍ ﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿ أَيُّ : وَعِنْدَهُمْ مِنَ الْفَوَاكِهِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ فِي الْأَلْوَانِ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أَدُنُّ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أَيُّ : لَا تَنْقَطِعُ شِتَاءً وَلَا صَيْفًا ، بَلْ أَكُلَهَا دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ، لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ شَيْءٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : لَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ تَنَاوُلِهَا عُودٌ وَلَا شَوْكَ وَلَا بُعْدٌ ﴿ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أَيُّ : عَالِيَةٍ وَطَيِّبَةٌ نَاعِمَةٌ ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَهُمْ إِنْشَاءً ﴾ فَجَعَلْنَهُمْ أَتْبَارًا ﴿ عُرْبًا أَتْرَابًا ﴾ لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿ جَرَى الضَّمِيرُ عَلَى غَيْرِ مَذْكَورٍ ، لَكِنْ لَمَّا ذَلَّ السِّيَاقُ - وَهُوَ ذِكْرُ الْفُرْشِ عَلَى النِّسَاءِ اللَّاتِي يُصَاجِعْنَ فِيهَا - اِكْتَفَى بِذَلِكَ عَنْ ذِكْرِهِنَّ ، وَعَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِنَّ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَهُمْ ﴾ أَيُّ : أَعَدْنَاهُنَّ فِي النِّسَاءِ الْآخَرَى بَعْدَمَا كُنَّ عَجَائِزَ رُمُصًا ، صَرْنَ أَتْبَارًا عُرْبًا ، أَيُّ : بَعْدَ الثُّيُوبَةِ عُدْنَ أَتْبَارًا ﴿ عُرْبًا ﴾ أَيُّ : مُتَحَبِّبَاتٌ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ بِالْحَلَاوَةِ وَالطَّرَافَةِ وَالْمَالِحَةِ ، وَقِيلَ : الْعُرْبُ : الْعَوَاشِقُ لِأَزْوَاجِهِنَّ ، وَأَزْوَاجُهُنَّ هُنَّ عَاشِقُونَ . وَقِيلَ : هِيَ حُسْنُ التَّبَعْلِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَتْرَابًا ﴾ قِيلَ : يَعْنِي فِي سَنٍّ وَاحِدَةٍ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَقِيلَ : الْأَتْرَابُ : الْمُسْتَوِيَّاتُ ، وَقِيلَ : ﴿ أَتْرَابًا ﴾ أَيُّ : فِي

الْأَخْلَاقِ الْمَتَوَاحِيَاتِ بَيْنَهُنَّ ، لَيْسَ بَيْنَهُنَّ تَبَاغُضٌ وَلَا تَحَاسُدٌ ، يَعْنِي : لَا كَمَا كُنَّ صَرَائِرَ مُتَعَادِيَاتٍ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لَا صَحَابَ الْيَمِينِ﴾ أَيُ : خُلِقْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ أَوْ أُدْخِرْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ،
 أَوْ رُؤِجْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ ١٢٠ فُجِعَلْنَهُنَّ
 أَبْكَارًا ١٢١ غُرَبَاءَ أَتْرَابًا ١٢٢ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ١٢٣ فَتَقْدِيرُهُ : أَنْشَأْنَاهُنَّ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ . ثَلَاثَةٌ
 مِنَ الْأَوَّلِينَ ١٢٤ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ١٢٥ أَيُ : جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ .

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ١٢٦ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ١٢٧ وَظِلٍّ مِّنْ تَحْمُومٍ ١٢٨
 لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ١٢٩ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ١٣٠ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ
 الْعَظِيمِ ١٣١ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيْدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ١٣٢
 أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ١٣٣ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ١٣٤ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَتِ يَوْمِ
 مَعْلُومٍ ١٣٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ١٣٦ لَأَكُلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن رَّقُومٍ ١٣٧
 فَمَالُوكَ مِنْهَا الْبَطُونُ ١٣٨ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ١٣٩ فَشَرِبُوا شَرْبَ أَهْلِهِمْ ١٤٠ هَذَا
 نَزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ١٤١

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الشِّمَالِ ، فَقَالَ : ﴿وَأَصْحَابُ
 الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ أَيُ : أَيُّ شَيْءٍ هُمْ فِيهِ أَصْحَابُ الشِّمَالِ ؟ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿فِي
 سُمُومٍ وَهُوَ : الْهَوَاءُ الْحَارُّ وَحَمِيمٍ وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ وَظِلٍّ مِّنْ تَحْمُومٍ وَهُوَ الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ
 لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أَيُ : لَيْسَ طَيِّبَ الْهَبُوبِ وَلَا حَسَنَ الْمَنْظَرِ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى إِسْتِحْقَاقَهُمْ
 لِذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أَيُ : كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُنْعَمِينَ مُقْبِلِينَ
 عَلَىٰ لَذَاتِ أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَلُوكُونَ عَلَىٰ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ١٣٠ وَكَانُوا يُصِرُّونَ ١٣١ أَيُ : يُصِمُّونَ وَلَا
 يَنْتَوُونَ تَوْبَةً ١٣٢ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ١٣٣ وَهُوَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ ، وَجَعَلَ الْأَوْتَانِ وَالْأَنْدَادِ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ
 ١٣٤ الْحِنثِ الْعَظِيمِ ١٣٥ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ الشَّرْكُ . وَقِيلَ : هُوَ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ ١٣٦ وَكَانُوا
 يَقُولُونَ أَيْدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ١٣٧ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ١٣٨ يَعْنِي : أَتَمُّهُمْ يَقُولُونَ
 ذَلِكَ مُكَذِّبِينَ بِهِ مُسْتَبْعِدِينَ لَوْفُوعِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ١٣٩
 لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أَيُ : أَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدٌ أَنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِّنْ بَنِي آدَمَ
 سَيُجْمَعُونَ إِلَىٰ عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، لَا تُغَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ
 النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ١٤٠ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ١٤١ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا
 بِإِذْنِهِ ١٤٢ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود : ١٠٣ - ١٠٥] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَتِ يَوْمٍ

مَعْلُومٌ ﴿١٠﴾ أَيُّ : هُوَ مُوقَّتٌ بِوَقْتٍ مُّحَدَّدٍ ، لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ ، وَلَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ ﴾ [١١] لَا كَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقُومٍ ﴿١٢﴾ فَمَا لَئُونٌ مِنْهَا
الْبُطُونُ ﴿١٣﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَفْبِضُونَ وَيَسْجُرُونَ حَتَّى يَأْكُلُوا مِنْ شَجَرِ الرُّقُومِ ، حَتَّى يَمْلَأُوا مِنْهَا
بُطُونَهُمْ ﴿ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ [١٤] فَشَرِبُوا شَرِبَ أَهْمِيرٌ وَهِيَ الْإِبِلُ الْعِطَاشُ الظَّمَاءُ ، وَقَالَ
السُّدِّيُّ : الْهَيْمُ : دَاءٌ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فَلَا تَرَوِي أَبَدًا حَتَّى تَمُوتَ ، فَكَذَلِكَ أَهْلُ جَهَنَّمَ لَا يَرَوْنَ مِنَ
الْحَمِيمِ أَبَدًا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي وَصَفْنَا هُوَ ضِيَافَتُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ يَوْمَ حِسَابِهِمْ .

نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿١٥﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿١٦﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الْخَالِقُونَ ﴿١٧﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿١٨﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ
وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرَّرًا لِلْمَعَادِ وَرَادًّا عَلَى الْمَكْذِبِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْإِلْحَادِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا :
﴿ أَيْدَا مِثْنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعَظْمًا ءَآءَنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصفات : ١٦] وَقَوْلُهُمْ ذَلِكَ صَدَرَ مِنْهُمْ عَلَى
وَجْهِ التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِنْعَادِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ ﴾ أَيُّ : نَحْنُ ابْتَدَأْنَا خَلْقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ
تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ، أَفَلَيْسَ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى الْبِدْءَةِ بِقَادِرٍ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأُولَى
وَالْآخَرَى ؟ فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أَيُّ : فَهَلَّا تُصَدِّقُونَ بِالْبَعْثِ ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى
مُسْتَدِلًّا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ [١٦] ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿١٧﴾ أَيُّ : أَنْتُمْ
تُقِرُّونَهُ فِي الْأَرْحَامِ وَتَخْلُقُونَهُ فِيهَا أَمْ اللَّهُ الْخَالِقُ لِذَلِكَ ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ
الْمَوْتَ ﴾ أَيُّ : صَرَفْنَاهُ بَيْنَكُمْ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : سَاوَى فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿ وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أَيُّ : وَمَا نَحْنُ بِعَاجِزِينَ ﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ ﴾ أَيُّ : نُغَيِّرْ خَلْقَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
﴿ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : مِنْ الصِّفَاتِ وَالْأَحْوَالِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ
الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيُّ : قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ أَنشَأَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ، فَخَلَقَكُمْ
وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، فَهَلَّا تَتَذَكَّرُونَ وَتَعْرِفُونَ أَنَّ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى هَذِهِ
النَّشْأَةِ وَهِيَ الْبِدْءَةُ ، قَادِرٌ عَلَى النَّشْأَةِ الْآخَرَى ، وَهِيَ الْإِعَادَةُ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٢١﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٢٢﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
حُطَمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿٢٥﴾ أَفَرَأَيْتُمْ أَلْمَاءَ الَّذِي

تَشْرَبُونَ ﴿٦٠﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦١﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٦٤﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٦٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ وَهُوَ شَقُّ الْأَرْضِ وَإِثَارَتُهَا وَالْبَذْرُ فِيهَا ﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أَيُّ: تَنْبُتُونَهُ فِي الْأَرْضِ ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أَيُّ: بَلَى نَحْنُ الَّذِي نُقَرِّهُ قَرَارَهُ وَنُنْبِتُهُ فِي الْأَرْضِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أَيُّ: نَحْنُ أَنْبَتْنَاهُ بِلُطْفِنَا وَرَحْمَتِنَا، وَأَبْقَيْنَاهُ لَكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ، وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا، أَيُّ: لَا يَبْقَى سِنَاهُ قَبْلَ اسْتِوَائِهِ وَاسْتِحْصَادِهِ ﴿فَطَلَّيْتُمْ تَفْكُهُونَ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ بَلَى نَحْنُ مُحْرَمُونَ ﴿أَيُّ: لَوْ جَعَلْنَاهُ حُطَامًا لَطَلَّيْتُمْ تَفْكُهُونَ فِي الْمَقَالَةِ، تَتَوَعَّونَ كَلَامَكُمْ فَتَقُولُونَ تَارَةً﴾ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أَيُّ: لَمُتَّقُونَ، وَقِيلَ: إِنَّا لَمَوْلَعٌ بِنَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: مُعَذَّبُونَ ﴿بَلَى نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ أَيُّ: مُحْدُوذُونَ، يَعْنِي: لَا حَظَّ لَنَا ﴿فَطَلَّيْتُمْ تَفْكُهُونَ﴾ تُعْجِبُونَ، وَقِيلَ: ﴿فَطَلَّيْتُمْ تَفْكُهُونَ﴾ تَفْجَعُونَ وَتَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنْ زَرْعِكُمْ.

وَقِيلَ: ﴿فَطَلَّيْتُمْ تَفْكُهُونَ﴾ تَلَاوَمُونَ، وَقِيلَ: تَنْدَمُونَ، وَمَعْنَاهُ: إِذَا عَلَى مَا أَنْفَقْتُمْ أَوْ عَلَى مَا أَسْلَفْتُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، قَالَ الْكَسَائِيُّ: تَفَكَّهُ مِنَ الْأَصْدَادِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: تَفَكَّهْتُ، بِمَعْنَى: تَنَعَّمْتُ، وَتَفَكَّهْتُ بِمَعْنَى: حَزَنْتُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ يَعْنِي: السَّحَابَ، ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ يَقُولُ: بَلَى نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾ أَيُّ: زُعَاقًا مَرًّا لَا يَصْلُحُ لَشْرَبٍ وَلَا زَرْعٍ ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أَيُّ: فَهَلَا تَشْكُرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي إِنْزَالِهِ الْمَاطَرِ عَلَيْكُمْ عَذْبًا زَلَالًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أَيُّ: تَقْدَحُونَ مِنَ الزَّنَادِ وَتَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ أَصْلِهَا ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ أَيُّ: بَلَى نَحْنُ الَّذِينَ جَعَلْنَاهَا مُودَعَةً فِي مَوْضِعِهَا، وَلِلْعَرَبِ شَجَرَتَانِ، إِحْدَاهُمَا: الْمَرْخُ، وَالْأُخْرَى: الْعَفَّارُ، إِذَا أُخِذَ مِنْهَا غُصْنَانِ أَخْضَرَانِ فَحُكَّ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ تَنَاطَرَ مِنْ بَيْنَهُمَا شَرَرُ النَّارِ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ قِيلَ: أَيُّ: تُذَكِّرُ النَّارَ الْكُبْرَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: مَعْنَى «الْمُقْوِينَ» الْمَسَافِرِينَ، وَقِيلَ: ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ يَعْنِي: الْمُسْتَمْتِعِينَ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ أَعَمُّ مِنْ غَيْرِهِ، فَإِنَّ الْحَاضِرَ وَالْبَادِيَ مِنْ غَنِيِّ وَفَقِيرٍ الْجَمِيعُ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهَا لِلطَّبْخِ وَالِإِصْطِلَاءِ وَالِإِضَاءَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ، ثُمَّ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ أَوْدَعَهَا فِي الْأَحْجَارِ وَخَالِصِ الْحَدِيدِ، بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ

المُسَافِرُ مِنْ حَمَلِ ذَلِكَ فِي مَتَاعِهِ وَبَيْنَ ثِيَابِهِ ، فَإِذَا احتَاجَ إِلَى مَنَزِلِهِ أَخْرَجَ زَنْدَهُ وَأَوْرَى وَأَوْقَدَ نَارَهُ ، فَأَطْبَخَ بِهَا وَاصْطَلَى ، وَاشْتَوَى وَاسْتَأْنَسَ بِهَا ، وَانْتَفَعَ بِهَا سَائِرَ الْإِنْتِفَاعَاتِ ، فَلِهَذَا أَفْرَدَ الْمُسَافِرُونَ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَامًّا فِي حَقِّ النَّاسِ كُلِّهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَجَّ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أَيُّ : الَّذِي بِقُدْرَتِهِ خَلَقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ الْمُتَضَادَّةَ : الْمَاءَ الزَّلَالِ الْعَذْبَ الْبَارِدَ ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ مِلْحًا أَجَاجًا كَالْبَحَارِ الْمُغْرِقَةِ ، وَخَلَقَ النَّارَ الْمُحْرِقَةَ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لِلْعِبَادِ ، وَجَعَلَ هَذِهِ مَنَفْعَةً لَهُمْ فِي مَعَاشِ دُنْيَاهُمْ ، وَزَجَّرَ لَهُمْ فِي الْمَعَادِ .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿ ٧٧ ﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿ ٧٨ ﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿ ٧٩ ﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿ ٨٠ ﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ٨١ ﴾ أَفِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿ ٨٢ ﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿ ٨٣ ﴾

الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمُهورُ أَنَّهُ قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَقْسِمُ بِهَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : « لَا » هَهُنَا زَائِدَةٌ ، وَتَقْدِيرُهُ : أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَيَكُونُ جَوَابُهُ ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَيْسَتْ « لَا » زَائِدَةٌ لَا مَعْنَى لَهَا ، بَلْ يُؤْتَى بِهَا فِي أَوَّلِ الْقَسَمِ إِذَا كَانَ مُقْسِمًا بِهِ عَلَى مَنْفِيٍّ ، كَقَوْلِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : « لَا وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ » ، وَهَكَذَا هَهُنَا تَقْدِيرُ الْكَلَامِ : لَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ سِحْرٌ أَوْ كِهَانَةٌ ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ كَرِيمٌ . وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ فَقِيلَ : يَعْنِي : نُجُومُ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ نَزَلَ جُمْلَةً لَيْلَةَ الْقَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ نَزَلَ مُفَرَّقًا فِي السَّنِينَ بَعْدَ ، وَقِيلَ : مَوَاقِعُ النُّجُومِ : فِي السَّمَاءِ ، وَيُقَالُ : مَطَالِعُهَا وَمَشَارِقُهَا ، وَعَنْ قَتَادَةَ : مَوَاقِعُهَا : مَنَازِلُهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أَيُّ : وَإِنَّ هَذَا الْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ ، لَوْ تَعْلَمُونَ عَظَمَتَهُ لَعَظَمْتُمْ الْمُقْسَمَ بِهِ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ أَيُّ : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ لِكِتَابٍ عَظِيمٍ ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ أَيُّ : مُعَظَّمٍ ، فِي كِتَابٍ مُعَظَّمٍ مَحْفُوظٍ مُوقَرٍ ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةُ ، وَقِيلَ : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أَيُّ : مِنْ الْجَنَابَةِ وَالْحَدَثِ . قَالُوا : وَلَفْظُ الْآيَةِ خَبَرٌ وَمَعْنَاهَا الطَّلَبُ ، قَالُوا : وَالْمُرَادُ بِالْقُرْآنِ : هَهُنَا الْمُصْحَفُ . ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : هَذَا الْقُرْآنُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلَيْسَ هُوَ كَمَا يَقُولُونَ : إِنَّهُ سِحْرٌ أَوْ كِهَانَةٌ أَوْ شِعْرٌ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَةَ فِيهِ ، وَلَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ نَافِعٌ . ﴿ أَفِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : أَيُّ : مُكَذِّبُونَ غَيْرُ مُصَدِّقِينَ ، وَقَالَ غَيْرُهُمْ :

﴿ مُدْهِنُونَ ﴾ أَي : تُرِيدُونَ أَنْ تُمْلِئُوهُمْ فِيهِ وَتَرْكَنُوا إِلَيْهِمْ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : يَعْنِي : وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ بِمَعْنَى شُكْرِكُمْ ﴿ أَنْكُمْ تُكْذِبُونَ ﴾ أَي : تُكْذِبُونَ بَدَلَ الشُّكْرِ .

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ ﴿٨٦﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٧﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٨﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٩﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أَي : الرُّوحُ ﴿ الْخُلُقُومَ ﴾ أَي : الْخَلْقَ ، وَذَلِكَ حِينَ الْإِحْتِضَارِ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ أَي : إِلَى الْمُحْتَضِرِّ وَمَا يُكَابِدُهُ مِنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أَي : بِمَلَائِكَتِنَا ﴿ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أَي : وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ ﴿٨٩﴾ تَرْجِعُونَهَا ﴿٩٠﴾ مَعْنَاهُ : فَهَلَّا تَرْجِعُونَ هَذِهِ النَّفْسَ الَّتِي قَدْ بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ إِلَى مَكَانِهَا الْأَوَّلِ ، وَمَقَرِّهَا مِنَ الْجَسَدِ إِنْ كُنْتُمْ ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنِي : مُحَاسِبِينَ ، وَقِيلَ : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ ، أَنْكُمْ تُدَانُونَ وَتُبْعَتُونَ وَتُجْزَوْنَ فَرُدُّوا هَذِهِ النَّفْسَ .

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٩١﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٩٢﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَسَلَمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٤﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٥﴾ فَتُزَلُّ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٦﴾ وَتَصْلِيَةٌ حَمِيمٍ ﴿٩٧﴾ إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْآلِقِينَ ﴿٩٨﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٩﴾

هَذِهِ الْأَحْوَالُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَحْوَالُ النَّاسِ عِنْدَ إِحْتِضَارِهِمْ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، أَوْ يَكُونَ مِمَّنْ دُونَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ ، الضَّالِّينَ عَنِ الْهُدَى ، الْجَاهِلِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ ﴾ أَي : الْمُحْتَضِرُّ ﴿ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ فَعَلُوا الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ ، وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضَ الْمُبَاحَاتِ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ أَي : فَ لَهُمْ رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ، وَتُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ أَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ تَقُولُ : « أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتَ تَعْمُرُ بِنَبِيِّهِ أَخْرَجِي إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانِ » . ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ رَاحَةٌ ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ مُسْتَرَاخَةٌ ، وَقِيلَ : الرُّوحُ : الْفَرْحُ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ جَنَّةٌ وَرَخَاءٌ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ صَحِيحَةٌ ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ مُقَرَّبًا حَصَلَ لَهُ جَمِيعُ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرَّاحَةِ وَالْإِسْتِرَاحَةِ وَالْفَرْجِ وَالسُّرُورِ وَالرِّزْقِ الْحَسَنِ ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أَي : وَأَمَّا إِنْ

كَانَ الْمُخْتَضِرُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿١٠﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿١١﴾ أَيُّ : تُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ ، تَقُولُ لِأَحَدِهِمْ : سَلَامٌ لَكَ ، أَيُّ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ أَنْتَ إِلَى سَلَامَةٍ ، أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ : سَلِمَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ عِكْرِمَةُ : تُسَلِّمُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَتُخْبِرُهُ أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَهَذَا مَعْنَى حَسَنٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿١٢﴾ فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ ﴿١٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ حَمِيمٍ ﴾ أَيُّ : وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمُخْتَضِرُ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ الضَّالِّينَ عَنِ الْهُدَى ﴿ فَنُزِّلْ ﴾ أَيُّ : فَضِيافَةٌ ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ وَهُوَ الْمَذَابُ الَّذِي يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودِ ﴿ وَتَصْلِيَةٌ حَمِيمٍ ﴾ أَيُّ : وَتَقْرِيرٌ لَهُ فِي النَّارِ الَّتِي تَغْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أَيُّ : إِنْ هَذَا الْخَبَرُ هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ ، وَلَا يَحِيدُ لِأَحَدٍ عَنْهُ ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قَالَ : « اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ » وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ » .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ۚ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أَيُّ : الَّذِي قَدْ خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَشَرْعِهِ . ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ فَيُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيُّ : مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾

وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْمَشَارُ إِلَيْهَا فِي حَدِيثِ عَرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ، أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ .
 عَنْ أَبِي زُمَيْلٍ قَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ ، فَقُلْتُ : مَا شَيْءٌ أَجَدُّهُ فِي صَدْرِي ؟ قَالَ : مَا هُوَ ؟
 قُلْتُ : وَاللَّهِ لَا أَتَكَلَّمُ بِهِ . قَالَ : فَقَالَ لِي : أَشَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالَ : وَضَحَكَ ، قَالَ : مَا نَجَا مِنْ
 ذَلِكَ أَحَدٌ ، قَالَ : حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ
 يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [يونس : ٩٤] . قَالَ : وَقَالَ لِي : إِذَا
 وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۖ ﴾ .
 قَالَ الْبُخَارِيُّ : قَالَ يَحْيَى : الظَّاهِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ، وَالْبَاطِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا . فَعَنْ
 أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو عِنْدَ النَّوْمِ : « اللَّهُمَّ ؛ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ
 الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، مُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى ،
 لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهِ ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ،
 وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ لَيْسَ دُونَكَ
 شَيْءٌ ، إِفْضِ عَنَّا الدِّينَ ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ » .

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا
 يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا
 كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
 ﴿١٠٢﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِاسْتَوَائِهِ عَلَى
 الْعَرْشِ بَعْدَ خَلْقِهِنَّ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ وَأَشْبَاهِهَا فِي « سُورَةِ الْأَعْرَافِ » بِمَا
 أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا . ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : يَعْلَمُ عَدَدَ مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنْ حَبٍّ وَقَطْرِ
 ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ مِنْ نَبَاتٍ وَزَرْعٍ وَتَمَارٍ . ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْأَمْطَارِ وَالثَّلُوجِ
 وَالْبَرَدِ ، وَالْأَقْدَارِ وَالْأَحْكَامِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أَيُّ : مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَعْمَالِ ،
 كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ : « يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَيُّ : رَقِيبٌ عَلَيْكُمْ ، شَهِيدٌ
 عَلَى أَعْمَالِكُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ ، وَأَيْنَمَا كُنْتُمْ ، مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، فِي الْبُيُوتِ أَوْ فِي الْقِفَارِ ،
 الْجَمِيعُ فِي عِلْمِهِ عَلَى السَّوَاءِ ، وَتَحْتَ بَصَرِهِ وَسَمْعِهِ ، فَيَسْمَعُ كَلَامَكُمْ وَيَرَى مَكَانَكُمْ ، وَيَعْلَمُ
 سِرَّكُمْ وَنَجْوَاكُمْ . فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْمَالِكُ

لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ [الليل : ١٣] وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أَيُّ : إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، بَلْ إِنْ يَكُنْ عَمِلَ أَحَدُهُمْ حَسَنَةً وَاحِدَةً يُضَاعِفْهَا إِلَى عَشْرِ أَمْثَالِهَا ﴿ وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْخَلْقِ ، يُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَيُقَدِّرُهُمَا بِحِكْمَتِهِ كَمَا يَشَاءُ ، فَتَارَةً يُطَوِّلُ اللَّيْلَ وَيُقْصِرُ النَّهَارَ ، وَتَارَةً بِالْعَكْسِ ، وَتَارَةً يَتْرُكُهُمَا مُعْتَدِلَيْنِ . وَتَارَةً يَكُونُ الْفَصْلُ شِتَاءً ثُمَّ رَبِيعًا ثُمَّ قَيْظًا ثُمَّ خَرِيفًا ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ لِمَا يُرِيدُهُ بِخَلْقِهِ ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أَيُّ : يَعْلَمُ السَّرَائِرَ ، وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَتْ .

ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٠﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيائِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ ۖ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٤﴾

أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ ، وَالذَّوَامِ وَالثَبَاتِ عَلَى ذَلِكَ ، وَالِاسْتِمْرَارِ وَحَثَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ ﴿ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ أَيُّ : مِمَّا هُوَ مَعَكُمْ عَلَى سَبِيلِ الْعَارِيَةِ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي أَيْدِي مَنْ قَبْلَكُمْ ثُمَّ صَارَ إِلَيْكُمْ ، فَأَرْشَدَ تَعَالَى إِلَى اسْتِعْمَالِ مَا اسْتَخْلَفَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَالِ فِي طَاعَتِهِ ، فَإِنْ يَفْعَلُوا وَإِلَّا حَاسِبُهُمْ عَلَيْهِ وَعَاقِبَتُهُمْ لَتَرْكِهِمُ الْوَاجِبَاتِ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ سَيَكُونُ مُخْلَفًا عَنْكَ ، فَلَعَلَّ وَارِثَكَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهُ فِيهِ ، فَيَكُونُ أَسْعَدَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْكَ ، أَوْ يَعْصِي اللَّهَ بِهِ فَتَكُونُ قَدْ سَعَيْتَ فِي مُعَاوَنَتِهِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ تَرْغِيبٌ فِي الْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَةِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ أَيُّ : وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالرَّسُولُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، يَدْعُوكُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَيُبَيِّنُ لَكُمْ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ ؟ ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧] ،
وَيَعْنِي بِذَلِكَ : بَيْعَةَ الرَّسُولِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أَي : حُجَجًا وَاضِحَاتٍ وَدَلَالٍ
بَاهِرَاتٍ - وَبَرَاهِينَ قَاطِعَاتٍ ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أَي : مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ
وَالْكُفْرِ وَالْأَرَاءِ الْمُتَضَادَّةِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَكُم لِرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أَي : فِي إِنْزَالِهِ
الْكِتَابِ وَإِزْسَالِهِ الرُّسُلِ لِهَدَايَةِ النَّاسِ ، وَإِزَاحَةِ الْعِلَالِ وَإِزَالَةِ الشُّبُهَةِ ، وَلَمَّا أَمَرَهُمْ أَوَّلًا بِالْإِيمَانِ
وَالْإِنْفَاقِ ، ثُمَّ حَثَّهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ قَدْ أَرَادَ عَنْهُمْ مَوَانِعَهُ حَثُّهُمْ أَيْضًا عَلَى الْإِنْفَاقِ ،
فَقَالَ : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي : أَنْفِقُوا وَلَا تَخْشَوْا
فَقَرًّا وَإِقْلَاقًا ، فَإِنَّ الَّذِي أَنْفَقْتُمْ فِي سَبِيلِهِ هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَبِيَدِهِ مَقَالِيدُهُمَا ،
وَعِنْدَهُ خَزَائِنُهُمَا وَهُوَ مَالِكُ الْعَرْشِ بِمَا حَوَى ، وَهُوَ الْقَائِلُ : ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ
وَهُوَ خَيْرُ الْكَافِرِينَ﴾ [سبا: ٣٩] ، وَقَالَ : ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]
فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ أَنْفَقَ ، وَلَمْ يَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَاقًا ، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سَيُخْلِفُهُ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾ أَي : لَا يَسْتَوِي هَذَا وَمَنْ لَمْ
يَفْعَلْ كِفَعْلِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ كَانَ الْحَالُ شَدِيدًا ، فَلَمْ يَكُنْ يُؤْمِنُ حَيْثُ إِلَّا الصَّادِقُونَ ،
وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ فَإِنَّهُ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ ظُهُورًا عَظِيمًا ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى : ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتِنَا﴾ وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى ،
وَالْجُمُهورُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَتْحِ هَهُنَا : فَتْحُ مَكَّةَ . وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هَهُنَا :
صُلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ يَعْنِي الْمُنْفِقِينَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَبَعْدَهُ ، كُلُّهُمْ
هُمْ ثَوَابٌ عَلَى مَا عَمِلُوا ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمْ تَفَاوُتٌ فِي تَفَاضُلِ الْجُزْءِ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾
أَي : فَلِخَبَرَتِهِ فَآوَتْ بَيْنَ ثَوَابٍ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَمَا
ذَاكَ إِلَّا لِإِعْلَامِهِ بِقَصْدِ الْأَوَّلِ وَإِخْلَاصِهِ النَّتَاجَ ، وَإِنْفَاقِهِ فِي حَالِ الْجُهْدِ وَالْقِلَّةِ وَالضَّيْقِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قِيلَ : هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
فَكُلُّ مَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ ، وَعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ ، دَخَلَ فِي عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ ؛ وَلِهَذَا
قَالَ تَعَالَى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى :
﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] ، ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أَي : جَزَاءٌ جَمِيلٌ ، وَرِزْقٌ بَاهِرٌ - وَهُوَ
الْجَنَّةُ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ
اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الْأَنْصَارِيُّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَكَرِيمٌ مَنَّا

الْقَرْصَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ » قَالَ : أَرْنِي يَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : فَتَنَاوَلَهُ يَدَهُ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي ، وَلَهُ حَائِطٌ فِيهِ سِتْمِائَةُ نَخْلَةٍ ، وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا . قَالَ : فَجَاءَ أَبُو الدَّحْدَاحِ ، فَتَنَادَاهَا : يَا أُمُّ الدَّحْدَاحِ . قَالَتْ : لَبَّيْكَ . قَالَ : أَخْرِجِي فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي ﷺ . وَفِي رِوَايَةٍ : أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ : رِيحٌ يَبْعُكَ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ ، وَنَقَلْتُ مِنْهُ مَتَاعَهَا وَصَبَّيَانَهَا ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « كَمْ مِنْ عَذِقٍ رَدَّاحٍ فِي الْجَنَّةِ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ » ، وَفِي لَفْظٍ « رَبِّ نَخْلَةٍ مُدْلَاةٍ عُرْوَتُهَا دُرٌّ وَيَأْقُوتُ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ » .

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿٦١﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ تَفْتِنُ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٦٢﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَصَدِّقِينَ إِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قَالَ : عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ يَمْرُونَ عَلَى الصِّرَاطِ ، مِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الْجَبَلِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ النَخْلَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الرَّجُلِ الْقَائِمِ ، وَأَذْنَاهُمْ نُورًا مَنْ نُورُهُ فِي إِيْمَانِهِ يَتَقَدُّ مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّةً . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ قِيلَ : أَيُّ : وَبِأَيْمَانِهِمْ كُتِبَتْهُمْ . ﴿ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيُّ : مَا كَثُرَتْ فِيهَا أَبَدًا ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْهُ تَعَالَى عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَرَصَاتِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْمُزْجِجَةِ ، وَالزَّلَازِلِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْأُمُورِ الْفُظِيغَةِ ، وَإِنَّهُ لَا يَنْجُو يَوْمَئِذٍ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَعَمِلَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ زَجْرٌ . ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ﴾ هُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ ، ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أَيُّ : الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أَيُّ : النَّارُ ﴿ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ أَيُّ : يُنَادِي الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ : أَمَا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، نَشْهَدُ مَعَكُمْ الْجُمُعَاتِ ، وَنُصَلِّي مَعَكُمْ

الْجَمَاعَاتِ ، وَتَقِفُ مَعَكُمْ بَعَرَقَاتٍ ، وَتَحْضُرُ مَعَكُمْ الْغَزَوَاتِ ، وَتُوَدِّي مَعَكُمْ سَائِرَ الْوَاجِبَاتِ ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أَيُّ : فَأَجَابَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُنَافِقِينَ قَائِلِينَ : ﴿ بَلَى ﴾ قَدْ كُنْتُمْ مَعَنَا ﴿ وَلَكِنْ كَمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانُ ﴾ أَيُّ : فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاللَّذَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ أَيُّ : أَخَرْتُمْ التَّوْبَةَ مِنْ وَقْتٍ إِلَى وَقْتٍ . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ تَرَبَّصْتُمْ ﴾ بِالْحَقِّ وَأَهْلِهِ ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أَيُّ : بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانُ ﴾ أَيُّ : قُلْتُمْ : سَيَغْفِرُ لَنَا ، وَقِيلَ : غَرَّتْكُمْ الدُّنْيَا ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : مَا زِلْتُمْ فِي هَذَا حَتَّى جَاءَكُمْ الْمَوْتُ ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ أَيُّ : الشَّيْطَانُ . قَالَ قَتَادَةُ : كَانُوا عَلَى خُدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَاللَّهُ مَا زَالُوا عَلَيْهَا حَتَّى قَذَفَهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ . وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُنَافِقِينَ : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مَعَنَا ، أَيُّ : بِأَبْدَانٍ لَا نَبِيَّ لَهَا وَلَا قُلُوبَ مَعَهَا ، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ فِي حَبِيرَةٍ وَشَكَّ فَكُنْتُمْ تُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا تَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيُّ : لَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ الْيَوْمَ بِجِلْدِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيُقَتَّدِي بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا قُبِلَ مِنْهُ ﴿ مَاؤُنْكُمْ النَّارُ ﴾ أَيُّ : هِيَ مَصِيرُكُمْ ، وَإِلَيْهَا مُنْقَلَبُكُمْ ﴿ هِيَ مَوْلَانَكُمْ ﴾ أَيُّ : هِيَ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ كُلِّ مَنْزِلٍ عَلَى كُفْرِكُمْ وَارْتِيَابِكُمْ وَبُشْسِ الْمَصِيرِ .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَخِيَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمَا أَنْ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : تَلِينَ عِنْدَ الذِّكْرِ وَالْمَوْعِظَةِ وَسَمَاعِ الْقُرْآنِ ، فَتَفْهَمَهُ وَتَتَقَادَّ لَهُ وَتَسْمَعَ لَهُ وَتُطِيعَهُ . عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالَّذِينَ حُمِلُوا الْكِتَابَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، لَمَّا تَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بَايَدِيهِمْ ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْأَرَءِ الْمُخْتَلَفَةِ وَالْأَقْوَالِ الْمُتَفَكِّةِ ، وَقَلَّدُوا الرِّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَلَا يَقْبَلُونَ مَوْعِظَةً ، وَلَا تَلِينَ قُلُوبُهُمْ بِوَعْدٍ وَلَا وَعِيدٍ ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أَيُّ : فِي الْأَعْمَالِ ، فَقُلُوبُهُمْ فَاسِدَةٌ ، وَأَعْمَالُهُمْ بَاطِلَةٌ ، وَلِهَذَا نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ الْأَصْلِيَّةِ وَالْفَرَاعِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَخِيَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ

إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُلِينُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسَوَتِهَا ، وَيَهْدِي الْخِيَارَى بَعْدَ ضَلَّتِهَا ، وَيُفَرِّجُ الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا ، فَكَمَا يُجِيبِي الْأَرْضُ الْمَيْتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الْهَتَّانِ ، كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَالِدَّلَائِلِ ، وَيُوَلِّجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ ، فَسُبْحَانَ الْهَادِي لِمَنْ يَشَاءُ بَعْدَ الْإِضْلالِ ، وَالْمُضِلُّ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَ الْكَمَالِ ، الَّذِي هُوَ لِمَا يَشَاءُ فَعَالٌ ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْفِعَالِ ، اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْمُتَعَالِ .

إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعْفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يُثَبِّبُ بِهِ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ بِأَمْوَالِهِمْ عَلَى أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ وَالْمُسْكِنَةِ ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أَيُّ : دَفَعُوهُ بِنِيَّةِ خَالِصَةِ إِنْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللَّهِ ، لَا يُرِيدُونَ جَزَاءً مِمَّنْ أَعْطَوْهُ وَلَا شُكُورًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يُضَعَفُ لَهُمْ ﴾ أَيُّ : يُقَابِلُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَلِهَا ، وَيَزَادُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أَيُّ : ثَوَابٌ جَزِيلٌ حَسَنٌ ، وَمَرْجِعٌ صَالِحٌ وَمَأْتٍ ﴿ كَرِيمٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ هَذَا تَمَامُ الْجُمْلَةِ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ بِأَتَمِّهِمْ صَادِقُونَ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ هَذِهِ مَقْصُولَةٌ ﴿ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيُّ : فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ : « إِنْ أَرْوَحَ الشَّهَدَاءُ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَسْرُحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ ، فَاطْلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ إِطْلَاعَةً فَقَالَ : مَاذَا تُرِيدُونَ ؟ فَقَالُوا : نُحِبُّ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَتُقَاتِلَ فِيكَ فَتُقْتَلَ كَمَا قُتِلْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَقَالَ : إِنِّي قَدْ قَضَيْتُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أَيُّ : هُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَجْرٌ جَزِيلٌ وَنُورٌ عَظِيمٌ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَتَفَاوَتُونَ بِحَسَبِ مَا كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ لَمَّا ذُكِرَ السُّعْدَاءُ وَمَا لَهُمْ عَطْفَ بِذِكْرِ الْأَشْقِيَاءِ وَبَيَّنَّ حَالَهُمْ .

أَعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطْبًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ٥٤ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُوهِنًا أَمْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمُحْفِرًا لَهَا ﴿ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أَي : إِنَّمَا حَاصِلُ أَمْرِهَا عِنْدَ أَهْلِهَا هَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۚ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمُنَاقَبِ ﴾ [آل عمران : ١٤] ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي أَثَرِ زَهْرَةٍ فَانِيَةٍ وَنَعْمَةٍ زَائِلَةٍ فَقَالَ : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ۖ وَهُوَ الْمُطَرُّ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ قَنُوطِ النَّاسِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنُطُوا ۖ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أَي : يُعْجِبُ الزَّرَّاعُ نَبَاتُ ذَٰلِكَ الزَّرْعِ الَّذِي نَبَتَ بِالْغَيْثِ ، وَكَمَا يُعْجِبُ الزَّرَّاعُ ذَٰلِكَ كَذَٰلِكَ تُعْجِبُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الْكُفَّارَ ، فَإِنَّهُمْ أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَيْهَا وَأَمِيلَ النَّاسِ إِلَيْهَا ﴿ ثُمَّ يَبْجِعُ فِتْرَتَهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴾ أَي : يَبْجِعُ ذَٰلِكَ الزَّرْعُ فِتْرَاهُ مُضْفَرًا بَعْدَ مَا كَانَ خَضِرًا نَضْرًا ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَٰلِكَ كُلِّهِ حُطَمًا ، أَي : يَصِيرُ يَسِسًا مُتَحَطِّمًا ، هَكَذَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا تَكُونُ أَوَّلًا سَابَةً ، ثُمَّ تُكْتَهِلُ ، ثُمَّ تَكُونُ عَجُورًا سُوءَاءَ ، وَالْإِنْسَانُ يَكُونُ كَذَٰلِكَ فِي أَوَّلِ عُمُرِهِ وَعُتُقُوانِ شَبَابِهِ ، غَضًّا طَرِيًّا لَيِّنَ الْأَعْطَافِ بِهَيِّ الْمُنْظَرِ ، ثُمَّ إِنَّهُ يَشْرَعُ فِي الْكُهُولَةِ ، فَتَتَغَيَّرُ طَبَاعُهُ وَيَقْدِرُ بَعْضُ قُوَّاهُ ، ثُمَّ يَكْبُرُ فَيَصِيرُ شَيْخًا كَبِيرًا ، ضَعِيفُ الْقُوَى ، قَلِيلُ الْحُرْكََةِ ، يُعْجِزُهُ الشَّيْءُ الْيَسِيرُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤]

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَثَلُ دَالًّا عَلَى زَوَالِ الدُّنْيَا وَانْقِصَائِهَا وَفَرَاغِهَا لَا مُحَالَهَ ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ كَائِنَةٌ لَا مُحَالَهَ ، حَذَرَ مِنْ أَمْرِهَا وَرَغَبَ فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ ، فَقَالَ : ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ أَي : وَلَيْسَ فِي الْآخِرَةِ الْآتِيَةِ الْقَرِيبَةِ إِلَّا إِمَّا هَذَا وَإِمَّا هَذَا : إِمَّا عَذَابٌ شَدِيدٌ وَإِمَّا مَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أَي : هِيَ مَتَاعٌ فَإِنْ غَارَ لِمَنْ رَكَنَ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ يَغْتَرُّ بِهَا وَتُعْجِبُهُ ، حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّ لَا دَارَ سِوَاهَا وَلَا مَعَادَ وَرَاءَهَا ، وَهِيَ حَقِيرَةٌ قَلِيلَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وَالْمُرَادُ جَنَسُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي أَهْلَهُمُ اللَّهُ لَهُ هُوَ مِنْ فَضْلِهِ وَمَنَّةٍ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ أَنَّ فَقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِالْأَجُورِ

وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ . قَالَ : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قَالُوا : يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا تَتَصَدَّقُ ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نَعْتِقُ . قَالَ : « أَفَلَا أَذَلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ ؟ : تُسَبِّحُونَ ، وَتُكَبِّرُونَ ، وَتُحَمِّدُونَ ، ذُبُرُ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثِينَ » قَالَ : فَارْجِعُوا فَقَالُوا : سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ مَا فَعَلْنَا ، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٦﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَدَرِهِ السَّابِقِ فِي خَلْقِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْرَأَ الْبَرِيَّةَ فَقَالَ : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أَيُّ : فِي الْأَفَاقِ وَفِي نَفُوسِكُمْ ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ أَيُّ : مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَ الْخَلِيقَةَ وَنَبْرَأَ النَّسَمَةَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ هِيَ السُّنُونُ ، يَعْنِي : الْجُدْبَ ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ يَقُولُ : الْأَوْجَاعُ وَالْأَمْرَاضُ ، قَالَ : وَبَلَّغْنَا أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُصِيبُهُ خَدَشٌ عُدُوٍّ ، وَلَا نَكْبَةٌ قَدَمٍ ، وَلَا خَلَجَانُ عَرَقٍ إِلَّا بِذَنْبٍ وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أَيُّ : أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا ، وَكِتَابَتُهُ لَهَا طَبَقٌ مَا يُوجَدُ فِي حِينِهَا ، سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ ﷻ ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أَيُّ : أَعْلَمْنَاكُمْ بِتَقَدُّمِ عِلْمِنَا وَسَبْقِ كِتَابَتِنَا لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا ، وَتَقْدِيرِنَا الْكَائِنَاتِ قَبْلَ وُجُودِهَا ؛ لِتَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَصَابَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكُمْ وَمَا أَخْطَأَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكُمْ ، فَلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قُدِّرَ شَيْءٌ لَكَانَ ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أَيُّ : جَاءَكُمْ ، وَيُقْرَأُ « آتَاكُمْ » أَيُّ : أَعْطَاكُمْ وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ ، أَيُّ : لَا تَفْخَرُوا عَلَى النَّاسِ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِسَعْيِكُمْ وَلَا كَدِّكُمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ وَرِزْقِهِ لَكُمْ ، فَلَا تَتَّخِذُوا نِعَمَ اللَّهِ أَشْرًا وَبَطَرًا تَفْخَرُونَ بِهَا عَلَى النَّاسِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أَيُّ : مُخْتَالٌ فِي نَفْسِهِ مُتَكَبِّرٌ ﴿ فَخُورٌ ﴾ أَيُّ : عَلَى غَيْرِهِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أَيُّ : يَفْعَلُونَ الْمُتَكَبَّرَ وَيَحْضُونِ النَّاسَ عَلَيْهِ ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أَيُّ : عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ

وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : بِالْمُعْجَزَاتِ وَالْحُجَجِ الْبَاهِرَاتِ وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وَهُوَ النَّقْلُ الصَّدْقُ ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ وَهُوَ الْعَدْلُ ، وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي تَشْهَدُ بِهِ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُخَالَفَةُ لِلْأَرَاءِ السَّقِيمَةِ ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أي : بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ ، وَطَاعَتُهُمْ فِيمَا أَمَرُوا بِهِ ، فَإِنَّ الَّذِي جَاءُوا بِهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ . ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أي : وَجَعَلْنَا الْحَدِيدَ رَادِعًا لِمَنْ أَبِي الْحَقِّ وَعَانَدَهُ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ ثَلَاثَ عَشْرَةِ سَنَةً تُوْحَى إِلَيْهِ السُّورُ الْمَكِّيَّةُ ، وَكُلُّهَا جِدَالٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَبَيَانٌ وَإِضَاحٌ لِلتَّوْحِيدِ ، وَبَيِّنَاتٌ وَذَلَالَاتٌ ، فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ خَالَفَ ، شَرَعَ اللَّهُ الْهِجْرَةَ وَأَمَرَهُمْ بِالْقِتَالِ بِالسُّيُوفِ وَضَرْبِ الرِّقَابِ وَهَتَامِ لِمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ وَكَذَّبَ بِهِ وَعَانَدَهُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يَعْنِي : السَّلَاحَ كَالسُّيُوفِ وَالْجِرَابِ وَالسِّنَانِ وَالنَّصَالِ وَالذُّرُوعِ وَنَحْوَهَا ﴿ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ أي : فِي مَعَايِشِهِمْ ، كَالْأَلَاتِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا فِي الْحِرَاثَةِ وَالْحَيَاكَةِ وَالطَّبْنِ وَالْحَبْرِ ، وَمَا لَا قِوَامَ لِلنَّاسِ بِدُونِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي : مِنْ نَيْتِهِ فِي حَمْلِ السَّلَاحِ نُصْرَةَ اللَّهِ وَرُسُولِهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي : هُوَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ، يَنْصُرُ مَنْ نَصَرَهُ مِنْ غَيْرِ اِحْتِيَاجٍ مِنْهُ إِلَى النَّاسِ ، وَإِنَّمَا شَرَعَ الْجِهَادَ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِثِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مُنْذُ بَعَثَ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُرْسَلْ بَعْدَهُ رَسُولٌ وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، وَكَذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ ، لَمْ يُنَزَلْ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا وَلَا أُرْسَلَ رَسُولًا وَلَا أُوحَى إِلَى بَشَرٍ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا وَهُوَ مِنْ سُلَالَتِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ حَتَّى كَانَ آخِرُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الَّذِي بَشَّرَ مِنْ بَعْدِهِ بِمُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ

وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ قَفَيْنَا عَلَىٰ عَائِثِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ، وَهُمْ الْحَوَارِيُّونَ ﴿ رَافَةً ﴾ أَيُّ : رِقَّةً ، وَهِيَ الْخَشْيَةُ ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بِالْخَلْقِ ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ أَيُّ : ابْتَدَعَتْهَا أُمَّةُ النَّصَارَى ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : مَا شَرَعْنَاهَا وَإِنَّمَا هُمْ اتَّزَمُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ قَصَدُوا بِذَلِكَ رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَالْآخَرُ : مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ إِنَّمَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أَيُّ : فَمَا قَامُوا بِهَا اتَّزَمُوهُ حَقَّ اتِّزَامِهِ ، وَهَذَا ذِمُّهُمْ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : الْإِبْتِدَاعُ فِي دِينِ اللَّهِ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ اللَّهُ ، وَالثَّانِي : فِي عَدَمِ قِيَامِهِمْ بِهَا اتَّزَمُوهُ بِمَا زَعَمُوا أَنَّهَا قُرْبَةٌ تَقَرُّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ - يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ - وَجَعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ - وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ لَعَلَّآ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣٠﴾

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَعَبْدٌ مَّمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلَاهِ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَرَجُلٌ أَدَّبَ أُمَّتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا ، فَلَهُ أَجْرَانِ » .
هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٢٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ ، عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ فَعَمِلُوا إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ ، فَقَالُوا : لَا حَاجَةَ لَنَا فِي أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا ، وَمَا عَمَلْنَا بِاطِلٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : لَا تَفْعَلُوا أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا ، فَأَبَوْا وَتَرَكُوا وَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ بَعْدَهُمْ ، فَقَالَ : أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمْ الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينَ صَلَوا الْعَصْرَ ، قَالُوا : مَا عَمَلْنَا بِاطِلٍ وَلَكِ الْأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ ، فَقَالَ : أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ ، فَإِنَّ مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ فَأَبَوْا ، فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ فَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا ، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ » وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّآ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ

أَلَا يَفْقِدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ ﷻ أَيُّ : لِيَتَحَقَّقُوا أَنَّهُمْ لَا يَفْقِدُونَ عَلَى رَدِّ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ وَلَا إِعْطَاءِ مَا مَنَعَ اللَّهُ ﷻ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۖ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﷻ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَدِيدِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٢٢ تفسيرُ سُورَةِ المجادلة مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١٠﴾

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَن نِّسَاءَهُمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَاءِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَا ذَلِكُمْ تَوْعُظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦١﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِمُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّنْ نَسَأْنَاهُمْ﴾ أَصْلُ الظَّهَارِ مُشْتَقٌّ مِنَ الظَّهْرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا إِذَا ظَاهَرَ أَحَدُهُمْ مِنْ إِمْرَأَتِهِ ، قَالَ لَهَا : أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي ، ثُمَّ فِي الشَّرْعِ كَانَ الظَّهَارُ فِي سَائِرِ الْأَعْضَاءِ قِيَاسًا عَلَى الظَّهْرِ ، وَكَانَ الظَّهَارُ عِنْدَ الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا ، فَأَرْخَصَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَجَعَلَ فِيهِ كَفَّارَةً وَلَمْ يَجْعَلْهُ طَلَاقًا ، كَمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ ، قَالَ سَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ : كَانَ الْإِيلَاءُ وَالظَّهَارُ مِنَ طَلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَوَّتَ اللَّهُ الْإِيلَاءَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، وَجَعَلَ فِي الظَّهَارِ الْكَفَّارَةَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أَيُّ : لَا تَصِيرُ الْمَرْأَةُ بِقَوْلِ الرَّجُلِ : أَنْتِ عَلَيَّ كَأُمِّي ، أَوْ مِثْلِ أُمِّي ، أَوْ كَظْهَرِ أُمِّي ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ لَا

تَصِيرُ أُمَّهُ بِذَلِكَ ، إِنَّمَا أُمُّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُبْكِرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أَيُّ : كَلَامًا فَاحِشًا بَاطِلًا ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ أَيُّ : عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَهَكَذَا أَيْضًا عَمَّا خَرَجَ مِنْ سَبْقِ اللِّسَانِ وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهِ الْمُتَكَلِّمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ اخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ قَالَ الشَّافِعِيُّ : هُوَ أَنْ يُمَسِّكَهَا بَعْدَ الْمُظَاهَرَةِ زَمَانًا يُمَكِّنُهُ أَنْ يُطَلَّقَ فِيهِ فَلَا يُطَلَّقُ ، وَقَالَ أَحْمَدُ : هُوَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْجَمَاعِ أَوْ يَعْزِمَ عَلَيْهِ ، فَلَا لَهُ حَتَّى يُكْفِرَ بِهَذِهِ الْكُفَّارَةِ ، وَقَدْ حُكِيَ عَنِ مَالِكٍ : أَنَّهُ الْعَزْمُ عَلَى الْجَمَاعِ وَالْإِمْسَاكِ ، وَعَنْهُ أَنَّ الْجَمَاعَ ، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : هُوَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الظَّهَارِ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ ، وَرَفَعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَمَتَى تَظَاهَرَ الرَّجُلُ مِنْ أَمْرٍ أَنَّهُ فَقَدْ حَرَّمَهَا تَحْرِيمًا لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا الْكُفَّارَةُ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَصْحَابُهُ وَاللَّيْثُ ابْنُ سَعْدٍ ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : لَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْبَلَهَا وَلَا يَمَسَّهَا حَتَّى يُكْفِرَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أَيُّ : فِإِعْتَاقِ رَقَبَةٍ كَامِلَةٍ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّاسًا ﴿ ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ ﴾ أَيُّ : تَرْجُونَ بِهِ ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيُّ : خَبِيرٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ ، عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ . ﴿ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّاسًا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فِلِطْعَامٍ سِتِينَ مِسْكِينًا ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْآحَادِيثُ الْأَمْرُ بِهَذَا عَلَى التَّرْتِيبِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي قِصَّةِ الَّذِي جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِي رَمَضَانَ ﴿ ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أَيُّ : شَرَعْنَا هَذَا لِهَذَا ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : مُحَارِمُهُ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَا اتَّزَمُوا بِأَحْكَامِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الْبَلَاءِ ، كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا ، بَلْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ مُهِينٍ ﴿١٠﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَنَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ جَنَوى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَعَانَدُوا شَرْعَهُ ﴿ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أَيُّ : أَهَيَّنُوا وَلَعِنُوا وَأُخْزُوا ، كَمَا فُعِلَ بِمَنْ أَشَبَّهُهُمْ بِمَنْ قَبْلَهُمْ ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ ﴾ أَيُّ : وَاضِحَاتٍ لَا يُعَانِدُهَا وَلَا يُخَالِفُهَا إِلَّا كَافِرٌ فَاجِرٌ مُكَابِرٌ ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أَيُّ : فِي مُقَابَلَةِ

مَا اسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِ شَرِّعِ اللَّهِ وَالْإِنْقِيَادِ لَهُ وَالْخُضُوعِ لَدَيْهِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾
وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ﴿ فَيُنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أَيُ :
فَيُخْبِرُهُمْ بِالَّذِي صَنَعُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ ﴾ أَيُ : ضَبَطَهُ اللَّهُ وَحَفِظَهُ عَلَيْهِمْ
وَهُمْ قَدْ نَسُوا مَا كَانُوا عَمِلُوا ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أَيُ : لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يُخْفَى ،
وَلَا يَنْسَى شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ ، وَاطَّلَاعِهِ عَلَيْهِمْ ، وَسَمَاعِهِ
كَلَامَهُمْ ، وَرُؤُوسِهِ مَكَانَهُمْ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ ﴾ أَيُ : مِنْ سِرِّ ثَلَاثَةٍ ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا
خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَذْنٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ أَيُ : يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ
يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَسِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، وَرُسُلُهُ أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ تَكْتُبُ مَا يَتَنَجَّوْنَ بِهِ ، مَعَ عِلْمِ اللَّهِ
وَسَمْعِهِ لَهُمْ ، وَلِهَذَا حَكَى وَاحِدُ الْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعِيَّةَ عِلْمِهِ تَعَالَى ، وَلَا
شَكَّ فِي إِرَادَةِ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ سَمِعُهُ أَيْضًا مَعَ عِلْمِهِ مُحِيطٌ بِهِمْ ، وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِيهِمْ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ يُنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : افْتَتَحَ الْآيَةَ بِالْعِلْمِ وَاخْتَتَمَهَا بِالْعِلْمِ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَهْبِئُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا هُمْ بِهِ عَنَّا وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي
أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠٠﴾ يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَتَنَجَّوْا
بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَهْبِئُوا عَنِ النَّجْوَى ﴾ : هُمُ الْيَهُودُ . ﴿ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ ﴾ أَيُ : يَتَحَدَّثُونَ
فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالْإِثْمِ وَهُوَ مَا يُخْتَصُّ بِهِمْ ﴿ وَالْعُدْوَانِ ﴾ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِمْ ، وَمِنْهُ مَعْصِيَةُ الرَّسُولِ
وَمُخَالَفَتُهُ يُصْرُونَ عَلَيْهَا وَيَتَوَاصُونَ بِهَا . ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ عَنْ عَائِشَةَ
قَالَتْ : دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَهُودٌ فَقَالُوا : السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ :
وَعَلَيْكُمْ السَّامُ ، قَالَتْ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ »
قُلْتُ : أَلَا تَسْمَعُهُمْ يَقُولُونَ : السَّامُ عَلَيْكَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَوْ مَا سَمِعْتَ أَقُولُ :
وَعَلَيْكُمْ » ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أَي: يَفْعَلُونَ هَذَا، وَيَقُولُونَ مَا يُحَرِّفُونَ مِنَ الْكَلَامِ وَإِيَّاهُمُ السَّلَامُ، وَإِنَّمَا هُوَ شَتَمٌ فِي الْبَاطِنِ، وَمَعَ هَذَا يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: لَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا لَعَذَّبَنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ لَهُ فِي الْبَاطِنِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا نُسِرُّهُ، فَلَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا حَقًّا لَأَوْشَكَ أَنْ يُعَاجِلَنَا اللَّهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ﴾ أَي: جَهَنَّمُ كِفَايَتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿يَصْلَوْهَا فَيَنْسَ الْمَصِيرُ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَي: إِنَّمَا النَّجْوَى: وَهِيَ الْمَسَارَةُ حَيْثُ يَتَوَهَّمُ مِنْهَا مُؤْمِنٌ سُوءًا ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يَعْنِي: إِنَّمَا يَصُدُّ هَذَا مِنَ الْمُتَنَاجِيْنَ عَنْ تَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينِهِ ﴿لِيَحْزُرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي: لِيَسُوءَهُمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّنَاجِيِ حَيْثُ يَكُونُ فِي ذَلِكَ تَأَذُّعٌ عَلَى مُؤْمِنٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجِيَنَّ اِثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ».

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُؤَدِّبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمْرًا لَهُمْ أَنْ يُحْسِنَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي الْمَجَالِسِ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ وَقُرِئَ «فِي الْمَجَالِسِ» ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْجُرَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾. وَقَدْ وَرَدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ فَيَجْلِسَ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا». وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَانْشُرُوا﴾ أَي: انْهَضُوا لِلْقِتَالِ، وَقِيلَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَانْشُرُوا﴾ أَي: إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى خَيْرٍ فَأَجِيبُوا. ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَي: لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّهُ إِذَا فَسَّحَ أَحَدٌ مِنْكُمْ لِأَخِيهِ إِذَا أَقْبَلَ، أَوْ إِذَا أَمَرَ بِالْخُرُوجِ فَخَرَجَ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي حَقِّهِ، بَلْ هُوَ رِفْعَةٌ وَمِزِيَّةٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُضَيِّعُ ذَلِكَ لَهُ، بَلْ يُجْزِيهِ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّ مَنْ تَوَاضَعَ لِأَمْرِ اللَّهِ رَفَعَ اللَّهُ قُدْرَهُ وَنَشَرَ ذِكْرَهُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَي: خَيْرٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ، وَبِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ.

يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَسَجْتُمْ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٧﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يُنَاجِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ : يُسَارَّهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، أَنْ يُقَدِّمَ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُ وَتُزَكِّيهِ ، وَتُؤَهِّلُهُ لِأَنْ يَصْلُحَ هَذَا الْمَقَامَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ أَيُّ : إِلَّا مَنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ لِفَقْدِهِ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فَمَا أَمَرَ بِهَا إِلَّا مَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقْتُمْ ﴾ أَيُّ : أَخَفَقْتُمْ مِنْ اسْتِمْرَارِ هَذَا الْحُكْمِ عَلَيْكُمْ مِنْ وَجُوبِ الصَّدَقَةِ قَبْلَ مُنَاجَاةِ الرَّسُولِ ﴿ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فَنَسَخَ وَجُوبَ ذَلِكَ عَنْهُمْ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَبْلَ نَسْخِهَا سِوَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؑ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَتَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَاهْتَمَّ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٤١﴾ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا تَحْلِفُونَ لَكُمْ وَتَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ءَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿٤٣﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَلَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ءَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِي مُوَالَاتِهِمُ الْكُفَّارَ فِي الْبَاطِنِ ، وَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا مَعَهُمْ وَلَا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٣] وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يَعْنِي : الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا الْمُنَافِقُونَ بَيِّنَاتٍ بَيْنَهُمْ وَبَيِّنَاتٍ فِي الْبَاطِنِ ﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أَيُّ : هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ لَيْسُوا فِي الْحَقِيقَةِ مِنْكُمْ أَهْلًا الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ وَهُمْ الْيَهُودُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَتَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي : الْمُنَافِقِينَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ عَالِمُونَ بِأَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِيمَا حَلَفُوا ، وَهِيَ الْيَمِينُ الْعَمُوسُ ، وَلَا سِيَّامِي فِي مِثْلِ حَالِهِمُ اللَّعِين - عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْهُ - فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا جَاءُوا الرَّسُولَ حَلَفُوا بِاللَّهِ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فِيمَا حَلَفُوا بِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ صِدْقَ مَا قَالُوهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مُطَافًا ، وَهَذَا شَهِدَ اللَّهُ بِكَذِبِهِمْ فِي آيَاتِهِمْ وَشَهِدَتْهُمْ لِدَلِيلِكَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أَي : أَرَصَدَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ عَلَى أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ، وَهِيَ مَوَالَاةُ الْكَافِرِينَ وَنُصْحُهُمْ ، وَمُعَادَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَغَشُّهُمْ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أَي : أَظْهَرُوا الْإِيْمَانَ وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ وَاتَّقُوا بِالْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةَ فَظَنَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ صِدْقَهُمْ فَاعْتَرَى بِهِمْ فَحَصَلَ بِهِذَا صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لِبَعْضِ النَّاسِ ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أَي : فِي مُقَابَلَةِ مَا امْتَنَهُنَا مِنَ الْحَلْفِ بِاسْمِ اللَّهِ الْعَظِيمِ فِي الْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ الْحَاثِثَةِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أَي : لَنْ يَدْفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ بَأْسًا إِذَا جَاءَهُمْ ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أَي : يَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ آخِرِهِمْ ، فَلَا يُغَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَتَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أَي : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﷻ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى وَالْإِسْتِقَامَةِ ، كَمَا كَانُوا يَحْلِفُونَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ وَبُعِثَ عَلَيْهِ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا كَانَ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ ، فَيُجْرُونَ عَلَيْهِمُ الْأَحْكَامَ الظَّاهِرَةَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَتَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أَي : حَلَفَهُمْ ذَلِكَ لِزَبَرِهِمْ ﷻ . ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ حُسْبَانَهُمْ ذَلِكَ : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فَأَكَّدَ الْحَبَرَ عَنْهُمْ بِالْكَذِبِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي ظِلِّ حُجْرَةٍ مِنْ حُجْرِهِ ، وَعِنْدَهُ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، قَدْ كَادَ يَقْلِصُ عَنْهُمْ الظِّلُّ ، قَالَ : « إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ يَنْظُرُ بَعَيْنِي شَيْطَانٌ ، فَإِذَا آتَاكُمْ فَلَا تُكَلِّمُوهُ » ، فَجَاءَ رَجُلٌ أَرْزَقَ ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ فَقَالَ : « عَلَامَ تَشْتَمِينِي أَنْتَ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ ؟ » نَفَرٌ دَعَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، قَالَ : فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ فَدَعَاهُمْ فَحَلَفُوا لَهُ وَاعْتَدَرُوا إِلَيْهِ ، قَالَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَتَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ اسْتَخُودَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أَي : اسْتَخُودَ عَلَى قُلُوبِهِمُ الشَّيْطَانُ ، حَتَّى أَنَسَاهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ ﷻ ، وَكَذَلِكَ يَصْنَعُ بِمَنْ اسْتَخُودَ عَلَيْهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ ، لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ ، إِلَّا قَدِ اسْتَخُودَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ،

فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الدُّنْبُ الْقَاصِيَةَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ يَعْنِي :
الَّذِينَ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .
إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٦٦﴾ كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلَى أَنَا
وَرُسُلِي إِنَّا اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٦٧﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ
أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُعَادِينَ الْمُحَادِّينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، يَعْنِي : الَّذِينَ هُمْ فِي حَدِّ
وَالشَّرِّ فِي حَدِّ ، أَي : مُجَابِتُونَ لِلْحَقِّ مُشَاقُّونَ لَهُ ، هُمْ فِي نَاحِيَةِ وَالْهُدَى فِي نَاحِيَةِ ﴿ أُولَئِكَ فِي
الْأَذَلِّينَ ﴾ أَي : فِي الْأَشْقِيَاءِ الْمُبْعِدِينَ الْمَطْرُودِينَ عَنِ الصَّوَابِ الْأَذَلِّينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
﴿ كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلَى أَنَا وَرُسُلِي ﴾ أَي : قَدْ حَكَمَ وَكَتَبَ فِي كِتَابِهِ الْأَوَّلِ ، وَقَدَرَهُ الَّذِي لَا
يُخَالَفُ وَلَا يَمَانَعُ وَلَا يُبَدِّلُ ، بِأَنَّ النُّصْرَةَ لَهُ وَلِكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
﴿ كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلَى أَنَا وَرُسُلِي إِنَّا اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أَي : كَتَبَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ أَنَّهُ الْغَالِبُ
لِأَعْدَائِهِ ، وَهَذَا قَدَرٌ مُحْكَمٌ وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ ، أَنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ
كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أَي : لَا يُوَادُّونَ الْمُحَادِّينَ وَلَوْ كَانُوا مِنْ
الْأَقْرَبِينَ . ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أَي : مَنْ اتَّصَفَ بِأَنَّهُ لَا يُوَادُّ
مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ ، فَهَذَا مِمَّنْ كَتَبَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الْإِيمَانَ ، أَي : كَتَبَ لَهُ
السَّعَادَةَ وَقَرَّرَهَا فِي قَلْبِهِ ، وَزَيَّنَ الْإِيمَانَ فِي بَصِيرَتِهِ ، قَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ ﴾ جَعَلَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أَي : قَوَاهُمْ .
﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ كُلُّ هَذَا
تَقْدِمٌ تَفْسِيرُهُ غَيْرُ مَرَّةٍ . وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ سِرٌّ بَدِيعٌ وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا
سَخَطُوا عَلَى الْفَرَايِبِ وَالْعَشَائِرِ فِي اللَّهِ تَعَالَى عَوَّضَهُمُ اللَّهُ بِالرِّضَا عَنْهُمْ ، وَأَرْضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا
أَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ ، وَالْفُؤُزِ الْعَظِيمِ ، وَالْفُضْلِ الْعَمِيمِ . ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ
اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أَي : هَؤُلَاءِ حِزْبُ اللَّهِ ، أَي : عِبَادُ اللَّهِ وَأَهْلُ كَرَامَتِهِ ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ

الْفَلِاحُونَ ﴿ تَنْوِيهِ بِفَلَاحِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فِي مُقَابَلَةِ مَا ذُكِرَ عَنْ أَوْلِيكَ بِأَنَّهُمْ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَاُؤِلَى الْأَبْصَرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا ۚ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

يُخْرِىَ تَعَالَى أَنْ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ يُسَبِّحُ لَهُ ، وَيُمَجِّدُهُ وَيُقَدِّسُهُ وَيُصَلِّيُ لَهُ وَيُؤَحِّدُهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أَيُّ : مَنِيعُ الْجَنَابِ ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي قَدَرِهِ وَشَرْعِهِ . ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يَعْنِي : يَهُودُ بَنِي النَّضِيرِ . كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ هَادِثَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ عَهْدًا وَدِمَّةً ، عَلَى أَنْ لَا يَقَاتِلَهُمْ وَلَا يَقَاتِلُوهُ ، فَنَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، فَأَحْلَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ قَضَاءَهُ الَّذِي لَا يُصَدُّ ، فَأَجْلَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ حُصُونِهِمُ الْحَصِينَةِ الَّتِي مَا طَمِعَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ ، وَظَنُّوا هُمْ أَنَّمَا مَانِعَتُهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ بِبَالِهِمْ ، وَسَيَّرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَجْلَاهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ ، فَكَانَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ذَهَبُوا إِلَى أَدْرِعَاتٍ مِنْ أَعَالِي الشَّامِ - وَهِيَ أَرْضُ الْمُحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ - وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ ذَهَبُوا إِلَى خَيْبَرَ ، وَكَانَ قَدْ أَنْزَلَهُمْ مِنْهَا عَلَى

أَنَّ لَهُمْ مَا خَلَّتْ إِلَيْهِمْ ، فَكَانُوا يُخْرِبُونَ مَا فِي بُيُوتِهِمْ مِنَ الْمَنَقُولَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُحْمَلَ مَعَهُمْ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَأُولَى الْأَبْصَرِ ﴾ أَي : تَفَكَّرُوا فِي عَاقِبَةِ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ ، وَخَالَفَ رَسُولَهُ وَكَذَّبَ كِتَابَهُ ، كَيْفَ يَحِلُّ بِهِ مِنْ بَأْسِهِ الْمُخْزِي لَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يَعْنِي : بَنِي النَّضِيرِ ﴿ مِنْ دِيَرِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ تُخْرَجُوا ﴾ أَي : فِي مُدَّةِ حِصَارِكُمْ هُمْ وَقِصْرِهَا - وَكَانَتْ سِتَّةَ أَيَّامٍ - مَعَ شِدَّةِ حُصُونِهِمْ وَمَنْعَتِهَا . ﴿ وَطَنُوا أَنْتَهُمْ مَا بَعَثَهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أَي : جَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ هُمْ فِي بَالٍ . ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أَي : الْخَوْفَ وَالْهَلَعَ وَالْجَزَعَ ، وَكَيْفَ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ ذَلِكَ وَقَدْ حَاصَرَهُمُ الَّذِي نُصِرَ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - . ﴿ تُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَبِهِ نَقُضُ مَا اسْتَحْسَنُوهُ مِنْ سُقُوفِهِمْ وَأَبْوَابِهِمْ وَتَحْمِيلِهَا عَلَى الْإِبِلِ ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَاتِلُهُمْ ، فَإِذَا ظَهَرَ عَلَى دَرْبٍ أَوْ دَارٍ هَدَمَ حِيطَانَهَا لِيَتَسَّعَ الْمَكَانُ لِلْقِتَالِ ، وَكَانَ الْيَهُودُ إِذَا عَلَوْا مَكَانًا أَوْ غَلَبُوا عَلَى دَرْبٍ أَوْ دَارٍ ، نَقَبُوا مِنْ أَدْبَارِهَا ثُمَّ حَصَّنُوهَا وَدَرَّبُوهَا ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَتَأُولَى الْأَبْصَرِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُكُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أَي : لَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ هَذَا الْجَلَاءَ - وَهُوَ النَّفْيُ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ - لَكَانَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ آخَرٌ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ سَيُعَذِّبُهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، مَعَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ . ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ أَي : حَتْمٌ لَا زِمَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ ، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أَي : إِنَّمَا فَعَلَ اللَّهُ بِهِمْ ذَلِكَ ، وَسَلَطَ عَلَيْهِمْ رَسُولُهُ وَعِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا أَنَّهُمْ خَالَفُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَكَذَّبُوا بِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي الْبَشَارَةِ ، بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ اللَّيْنُ : نَوْعٌ مِنَ التَّمْرِ وَهُوَ جَيِّدٌ ، هُوَ جَمِيعُ النَّخْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا حَاصَرَهُمْ أَمَرَ بِقَطْعِ نَخِيلِهِمْ إِهَانَةً لَهُمْ ، وَإِرْهَابًا وَإِرْعَابًا لِقُلُوبِهِمْ ، أَي : مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ ، وَمَا تَرَكْتُمْ مِنَ الْأَشْجَارِ ، فَالْجَمِيعُ بِإِذْنِهِ وَمَشِيتَتِهِ وَقَدْرِهِ وَرِضَاهُ ، وَفِيهِ نِكَايَةٌ بِالْعَدُوِّ ، وَخِزْيٌ لَهُمْ ، وَإِرْغَامٌ لِأَتُوفِهِمْ . وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَرَقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ - وَهِيَ الْبُؤِيرَةُ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِيهِ ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُبَيِّنًا لِمَالِ الْفَيْءِ وَمَا صِفَتُهُ ؟ وَمَا حُكْمُهُ ؟ ، فَالْفَيْءُ : كُلُّ مَالٍ أُخِذَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَلَا إِجْهَادٍ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، كَأَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ هَذِهِ ، فَإِنَّهَا بِمَا لَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، أَيُّ : لَمْ يُقَاتِلُوا الْأَعْدَاءَ فِيهَا بِالْمُبَارَزَةِ وَالْمُصَاوَلَةِ بَلْ نَزَلَ أُولَئِكَ مِنَ الرُّعْبِ الَّذِي أَلْقَى اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ هَيْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَفَاءَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَهَذَا تَصَرَّفَ فِيهِ كَمَا يَشَاءُ ، فَرَدَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ وَالْمَصَالِحِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ ﷻ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ أَيُّ : مِنْ بَنِي النَّضِيرِ ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ ، يَعْنِي : الْإِبِلَ ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ قَدِيرٌ لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ ، بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ أَيُّ : جَمِيعُ الْبُلْدَانِ الَّتِي تُفْتَحُ هَكَذَا ، فَحُكْمُهَا حُكْمُ أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ إِلَى آخِرِهَا وَالَّتِي بَعْدَهَا ، فَهَذِهِ مَصَارِفُ أَمْوَالِ الْفَيْءِ وَوُجُوهِهِ . عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ بِمَا أَفَاءَ اللَّهُ إِلَى رَسُولِهِ ﷺ لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَالِصَةً ، فَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةً سَنَتِهِ ، وَمَا بَقِيَ جَعَلَهُ فِي الْكُرَاعِ وَالسَّلَاحِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ . وَهَذِهِ الْمَصَارِفُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ الْمَصَارِفُ الْمَذْكُورَةُ فِي خُمُسِ الْغَنِيمَةِ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهَا فِي « سُورَةِ الْأَنْفَالِ » بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ أَيُّ : جَعَلْنَا هَذِهِ الْمَصَارِفَ لِمَالِ الْفَيْءِ لِئَلَّا يَبْقَى مَا كَلَّةٌ يَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيَتَصَرَّفُونَ فِيهَا بِمَحْضِ الشَّهَوَاتِ وَالْأَرَءَاءِ ، وَلَا يَضُرُّ فَوْنَ مِنْهُ شَيْئًا إِلَى الْفُقَرَاءِ ، ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ أَيُّ : مَهْمَا أَمَرَكُم بِهِ فافْعَلُوهُ ، وَمَهْمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يَنْهَى عَنْ شَرٍّ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أَي : اتَّقَوْهُ فِي امْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ، فَإِنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَأَبَاهُ ، وَارْتَكَبَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُ وَمَنَاهُ .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا حَالَ الْفُقَرَاءِ الْمُسْتَحَقِّينَ لِمَالِ الْفَيءِ أَنَّهُمْ ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أَي : خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَخَالَفُوا قَوْمَهُمْ إِنْتِعَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿ أَي : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَدَقُوا قَوْلَهُمْ بِفِعْلِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ سَادَاتُ الْمُهَاجِرِينَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَا دِحًا لِلْأَنْصَارِ ، وَمُيِّنًا فَضْلَهُمْ وَشَرَفَهُمْ وَكَرَمَهُمْ وَعَدَمَ حَسَدِهِمْ ، وَإِثَارِهِمْ مَعَ الْحَاجَةِ ﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أَي : سَكَنُوا دَارَ الْهِجْرَةِ مِنْ قَبْلِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَآمَنُوا قَبْلَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أَي : مِنْ كَرَمِهِمْ وَشَرَفِ أَنْفُسِهِمْ يُحِبُّونَ الْمُهَاجِرِينَ وَيُؤَا سُوْنُهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ . ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ أَي : وَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَسَداً لِلْمُهَاجِرِينَ ، فِيمَا فَضَّلَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمُنْزَلَةِ وَالشَّرَفِ وَالتَّقْدِيمِ فِي الذِّكْرِ وَالرُّتْبَةِ . ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يَعْنِي : حَاجَةً ، أَي : يُقَدِّمُونَ الْمَحَاطِبَ عَلَى حَاجَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَيَبْدَأُونَ بِالنَّاسِ قَبْلَهُمْ فِي حَالِ إِحْتِيَاجِهِمْ إِلَى ذَلِكَ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : أَتَى رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَنِي الْجُحْدُ ، فَأَرْسَلْ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئاً ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّقُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ » فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لِمَرَأَتِهِ : هَذَا ضَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا تَذْخِرِيهِ شَيْئاً ، فَقَالَتْ : وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوْتُ الصَّبِيَّةِ ، قَالَ : فَإِذَا أَرَادَ الصَّبِيَّةُ الْعِشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ ، وَتَعَالَى فَأَطْفِئِي السَّرَاجَ وَنَطْوِي بَطُونَنَا اللَّيْلَةَ ، فَفَعَلْتُ ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ ﷻ - أَوْ ضَحِكَ - مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ » ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أَي : مَنْ سَلِمَ مِنَ الشُّحِّ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا عَحَارَ مَهْمٌ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ هُوَ لَاءٌ فِي الْقِسْمِ الثَّالِثِ يَمُنُّ يَسْتَحِقُّ فُقْرَ أَوْهُمْ مِنْ مَالِ الْفِيءِ وَهُمْ الْمُهَاجِرُونَ ، ثُمَّ الْأَنْصَارُ ، ثُمَّ التَّابِعُونَ هُمْ بِإِحْسَانٍ ، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ بَرَاءَةِ ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ مِنْ الْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، فَالتَّابِعُونَ هُمْ بِإِحْسَانٍ هُمْ الْمُتَّبِعُونَ لِأَثَارِهِمُ الْحَسَنَةِ ، وَأَوْصَافِهِمُ الْجَمِيلَةِ ، الدَّاعُونَ هُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أَي : قَائِلِينَ : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ أَي : بُغْضًا وَحَسَدًا ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

❖ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا تَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولِيَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي فُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْرَابِهِ حِينَ بَعَثُوا إِلَى يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ يَعِدُّوهُمْ النَّصْرَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أَي : لَكَادِبُونَ فِيمَا وَعَدُوهُمْ بِهِ ، إِمَّا لِأَنَّهُمْ قَالُوا هُمْ قَوْلًا

مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ لَا يَفُتُّوا هُمْ بِهِ ، وَإِنَّمَا لَأَنَّهُمْ لَا يَقَعُ مِنْهُمْ الَّذِي قَالُوهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ ﴾ أَي : لَا يُقَاتِلُونَ مَعَهُمْ ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ أَي : قَاتَلُوا مَعَهُمْ ﴿ لِيُؤْتِيَ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ ، وَهَذِهِ بَشَارَةٌ مُسْتَقْلِلَةٌ بِنَفْسِهَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَأَتُمَتِّعَنَّ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ﴾ أَي : يَخَافُونَ مِنْكُمْ أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ خَشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء : ٧٧] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي فُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ مِنْ جُنُبِهِمْ وَهَلَعِهِمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُوَاجَهَةِ جَيْشِ الْإِسْلَامِ بِالْمُبَارَزَةِ وَالْمُقَاتَلَةِ ، بَلْ إِنَّمَا فِي حُصُونٍ ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ مُحَاصِرِينَ ، فَيُقَاتِلُونَ لِلدَّفْعِ عَنْهُمْ ضَرُورَةً . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أَي : عَدَاوَتُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ شَدِيدَةٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام : ٦٥] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ أَي : تَرَاهُمْ مُجْتَمِعِينَ فَتَحْسَبُهُمْ مُؤْتَلِفِينَ وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ غَايَةَ الْإِخْتِلَافِ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّحَعِيُّ : يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يَعْنِي : يَهُودُ بَنِي قَيْنِقَاعَ ، فَإِنَّ يَهُودَ بَنِي قَيْنِقَاعَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَجْلَاهُمْ قَبْلَ هَذَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ يَعْنِي : مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ فِي إِغْتِرَارِهِمْ بِالَّذِينَ وَعَدُوهُمْ النَّصْرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَقَوْلُ الْمُنَافِقِينَ لَهُمْ : ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ ﴾ ثُمَّ لَمَّا حَقَّتْ الْحَقَائِقُ وَجَدَّ بِهِمُ الْحِصَارُ وَالْقِتَالُ تَخَلَّلُوا عَنْهُمْ وَأَسْلَمُوهُمْ لِلْهَلَكَةِ ، مِثْلَهُمْ فِي هَذَا كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ سَوَّلَ لِلْإِنْسَانِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - الْكُفْرَ ، فَإِذَا دَخَلَ فِيهَا سَرَّالَهُ لَهُ تَبَرُّأٌ مِنْهُ وَتَنَصَّلَ وَقَالَ : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَي : فَكَانَ عَاقِبَةُ الْأَمْرِ بِالْكَفْرِ وَالْفَاعِلِ لَهُ ، وَمَصِيرُهُمَا إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَي : جَزَاءُ كُلِّ ظَالِمٍ .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٧﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٨﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَمْرٌ بِتَقْوَاهُ ، وَهُوَ يَشْمَلُ فِعْلَ مَا بِهِ أَمْرٌ ، وَتَرْكُ مَا عَنْهُ رَجَرٌ . ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أَي : حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا ، وَانظُرُوا مَاذَا إِدْخَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَوْمِ مَعَادِكُمْ وَعَرَضِكُمْ عَلَى رَبِّكُمْ

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ تَأْكِيدٌ ثَانٍ ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أَي : اِعْلَمُوا أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِكُمْ جَلِيلٌ وَلَا حَقِيرٌ . ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أَي : لَا تَنْسُوا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيَنْسِيَكُمْ الْعَمَلَ لِصَالِحِ أَنْفُسِكُمُ الَّتِي تَنْفَعُكُمْ فِي مَعَادِكُمْ ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَي : الْخَارِجُونَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، اِهْلَاكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْخَاسِرُونَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ أَي : لَا يَسْتَوِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أَي : النَّاجُونَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﷻ .

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُعْظَمًا لِأَمْرِ الْقُرْآنِ ، وَمُبَيِّنًا عُلُوَّ قَدْرِهِ ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَخْشَعَ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَتَصَدَّعَ عِنْدَ سَمَاعِهِ ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ الْحَقِّ وَالْوَعْدِ الْأَكِيدِ ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أَي : فَإِذَا كَانَ الْجَبَلُ فِي غِلْظَتِهِ وَقَسَاوَرَتِهِ لَوْ فَهِمَ هَذَا الْقُرْآنَ فَتَدَبَّرَ مَا فِيهِ لَخْشَعَ وَتَصَدَّعَ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ ﷻ ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ يَا أَيُّهَا الْبَشَرُ أَنْ لَا تَلِينَ قُلُوبُكُمْ وَتَخْشَعَ وَتَتَصَدَّعَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَقَدْ فَهِمْتُمْ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَتَدَبَّرْتُمْ كِتَابَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

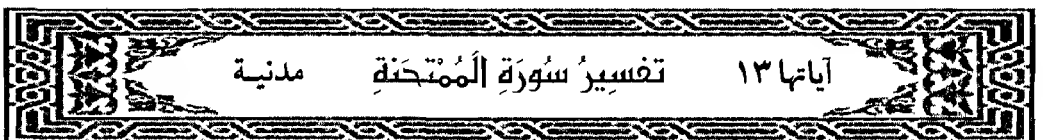
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا إِلَهَ لِلْوُجُودِ سِوَاهُ ، وَكُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ فَبَاطِلٌ ، وَأَنَّهُ ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أَي : يَعْلَمُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الْمُشَاهَدَاتِ لَنَا وَالْغَائِبَاتِ عَنَّا ، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، مِنْ جَلِيلٍ وَحَقِيرٍ ، وَصَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ، حَتَّى الدَّرُّ فِي الظُّلُمَاتِ ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ الْمُرَادُ : أَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ الشَّامِلَةِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَهُوَ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمُهُمَا ، ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ﴾ أَي : الْمَالِكُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا بِلَا مُمَانَعَةٍ وَلَا مُدَافَعَةٍ ، ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ قِيلَ : أَي : الطَّاهِرُ ، وَقِيلَ : أَي : الْمُبَارَكُ ﴿ السَّلَامُ ﴾ أَي :

مِنْ جَمِيعِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ ، لِكَمَالِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ قِيلَ : أَيُّ : أَمَّنْ خَلَقَهُ مِنْ أَنْ يَظْلِمَهُمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أَمَّنْ يَقُولُهُ إِنَّهُ حَقٌّ ، ﴿الْمُهَيِّمُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : أَيُّ : الشَّاهِدُ عَلَى خَلْقِهِ بِأَعْمَالِهِمْ ، بِمَعْنَى : هُوَ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ ، ﴿الْعَزِيزُ﴾ أَيُّ : الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَفَهَرَهُ وَغَلَبَ الْأَشْيَاءَ ، فَلَا يَنْالُ جَنَابَهُ لِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَبْرُوتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿الْجَبَّارُ الْمَتَكَبِّرُ﴾ أَيُّ : الَّذِي لَا تَلِيْقُ الْجَبَرِيَّةُ إِلَّا لَهُ ، وَلَا التَّكَبُّرُ إِلَّا لِعَظَمَتِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِ « الْعَظْمَةُ إِزَارِي ، وَالْكَبَرِيَاءُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ » ، وَقَالَ قَتَادَةُ : الْجَبَّارُ الَّذِي جَبَرَ خَلْقَهُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الْجَبَّارُ الْمُصْلِحُ أُمُورَ خَلْقِهِ ، الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ الْخَلْقُ : التَّقْدِيرُ ، وَالْبَرَاءُ : هُوَ الْفَرَى ، وَهُوَ التَّنْفِيزُ ، وَإِبْرَارُ مَا قَدَرَهُ وَقَرَّرَهُ إِلَى الْوُجُودِ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ قَدَرَ شَيْئًا وَرَتَبَهُ يَقْدِرُ عَلَى تَنْفِيزِهِ وَإِيجَادِهِ سِوَى اللَّهِ ﷻ . ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ أَيُّ : الَّذِي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُ وَالصُّورَةَ الَّتِي يَخْتَارُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار : ٨] ، وَهَذَا قَالَ : ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أَيُّ : الَّذِي يُنْقِذُ مَا يُرِيدُ إِيجَادَهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا ، ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي «سُورَةِ الْأَعْرَافِ» وَذَكَرَ حَدِيثُ «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَهُوَ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوِثَرَ» .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ الْأَسْفَلُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء : ٤٤] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أَيُّ : فَلَا يُرَامُ جَنَابُهُ ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَشْرِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآتِبْغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ

وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠﴾ إِنْ يَتَّقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسُّوءَ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿١١﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢﴾

كَانَ سَبَبُ نُزُولِ صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ ، قِصَّةَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ، وَذَلِكَ أَنَّ حَاطِبًا هَذَا كَانَ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ أَيْضًا ، وَكَانَ لَهُ بِمَكَّةَ أَوْلَادٌ وَمَالٌ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قُرَيْشٍ أَنْفُسِهِمْ بَلْ كَانَ حَلِيفًا لِعُثْمَانَ ، فَلَمَّا عَزَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَتْحِ مَكَّةَ لَمَّا نَقَضَ أَهْلُهَا الْعَهْدَ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّجْهِيزِ لِعِزْوِهِمْ وَقَالَ : «اللَّهُمَّ عَمَّ عَلَيْهِمْ خَبْرَنَا» فَعَمَدَ حَاطِبٌ هَذَا فَكَتَبَ كِتَابًا وَبَعَثَهُ مَعَ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، يُعَلِّمُهُمْ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عِزْوِهِمْ ، لِيَتَّخِذَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ بَدَا ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ رَسُولُهُ ﷺ اسْتِجَابَةً لِدُعَائِهِ ، فَبَعَثَ فِي أَثَرِ الْمَرْأَةِ فَأَخَذَ الْكِتَابَ مِنْهَا . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِي وَعَدُوَكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرَ الَّذِينَ هُمْ مُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، الَّذِينَ سَرَعَ اللَّهُ عِدَاوَتَهُمْ وَمُصَارَمَتَهُمْ ، وَنَهَى أَنْ يُتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَ وَأَصْدِقَاءَ وَأَخْلَاءَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، وَهَذَا قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِذْرَ حَاطِبٍ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مُصَانَعَةً لِقُرَيْشٍ ؛ لِأَجْلِ مَا كَانَ لَهُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿مُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هَذَا مَعَ مَا قَبْلَهُ مِنَ التَّهْيِيجِ عَلَى عِدَاوَتِهِمْ وَعَدَمِ مَوَالَتِهِمْ لِأَنَّهُمْ أَخْرَجُوا الرُّسُولَ وَأَصْحَابَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ كَرَاهَةً لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ : لَمْ يَكُنْ لَكُمْ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا إِيْمَانُكُمْ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البرج : ٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَاتَّبِعَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أَيُّ : إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ ، فَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِي بَاغِينَ لِمَرْضَاتِي عَنْكُمْ ، فَلَا تُؤَالُوا أَعْدَائِي وَأَعْدَاءَكُمْ وَقَدْ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ حَقًّا عَلَيْكُمْ وَشُخْطًا لِدِينِكُمْ ﴿تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أَيُّ : تَفْعَلُونَ ذَلِكَ ، وَأَنَا الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ وَالظُّوَاهِرِ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ إِنْ يَتَّقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا

إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ ﴿١٠٠﴾ أَيُّ : لَوْ قَدَرُوا عَلَيْكُمْ لَمَا اتَّقُوا فِيكُمْ مِنْ أَدَى يَنَالُونَكُمْ بِهِ بِالْمَقَالِ وَالْفِعَالِ ﴿١٠١﴾ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٢﴾ أَيُّ : وَيَجْرِصُونَ عَلَى أَنْ لَا تَنَالُوا خَيْرًا ، فَهُمْ عَدَاوَتُهُمْ لَكُمْ كَامِنَةٌ وَظَاهِرَةٌ ، فَكَيْفَ تُؤَالُونَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ ؟ وَهَذَا تَهْيِيجٌ عَلَى عَدَاوَتِهِمْ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أُولَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠٣﴾ أَيُّ : قَرَابَاتُكُمْ لَا تَنْفَعُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِكُمْ سُوءًا وَنَفَعُهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ إِذَا أَرْضَيْتُمُوهُمْ بِمَا يُسْخِطُ اللَّهَ ، وَمَنْ وَافَقَ أَهْلُهُ عَلَى الْكُفْرِ لِيَرْضِيَهُمْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ عَمَلُهُ ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ قَرَابَتُهُ مِنْ أَحَدٍ ، وَلَوْ كَانَ قَرِيبًا إِلَى نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ .

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۗ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٠٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٠٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ بِمُصَارَمَةِ الْكَافِرِينَ وَعَدَاوَتِهِمْ وَمُجَابَبَتِهِمْ وَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ ﴿١٠٧﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴿١٠٨﴾ أَيُّ : وَأَتْبَاعُهُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ ﴿١١٠﴾ أَيُّ : تَبَرَّأْنَا مِنْكُمْ ﴿١١١﴾ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴿١١٢﴾ أَيُّ : بِدِينِكُمْ وَطَرِيقِكُمْ ﴿١١٣﴾ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴿١١٤﴾ يَعْنِي : وَقَدْ شَرَعَتِ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ مِنَ الْآنَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مَا دُمْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ ، فَنَحْنُ أَبَدًا تَبَرَّأْنَا مِنْكُمْ وَبَغْضُكُمْ ﴿١١٥﴾ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴿١١٦﴾ أَيُّ : إِلَى أَنْ تُوحِدُوا اللَّهَ فَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَتَحْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مَعَهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأندَادِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ أَيُّ : لَكُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، تَتَأَسَّوْنَ بِهَا إِلَّا فِي اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَدْعُونَ لِأَبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الشَّرِّ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ ، فَانْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿١١٧﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ

لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّهٌ حَلِيمٌ [التوبة: ١١٣ - ١١٤] . وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أَي : لَيْسَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ أُسْوَةٌ ، أَي : فِي الْإِسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، حِينَ فَارَقُوا قَوْمَهُمْ وَتَبَرَّءُوا مِنْهُمْ فَلَجَّوْا إِلَى اللَّهِ وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالُوا : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أَي : تَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ، وَسَلَّمْنَا أُمُورَنَا إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْنَاهَا إِلَيْكَ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ : أَي : الْمَعَادُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : مَعْنَاهُ لَا تُعَذِّبْنَا بِأَيْدِيهِمْ وَلَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِكَ ، فَيَقُولُوا : لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ عَلَى حَقٍّ مَا أَصَابَهُمْ هَذَا ، وَقَالَ قَتَادَةُ : لَا تَظْهَرُهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتِنُونَا بِذَلِكَ ، يَرُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا ظَهَرُوا عَلَيْنَا لِحَقِّ هُمْ عَلَيْهِ . ﴿ وَأَعْفُ عَنْهَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ﴾ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيزُ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ أَي : وَاسْتُرْ ذُنُوبَنَا عَنْ غَيْرِكَ ، وَاعْفُ عَنْهَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيزُ ﴾ أَي : الَّذِي لَا يُضَامُ مَنْ لَادَ بِجَنَابِكَ ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ وَشَرِّعِكَ وَقَدَرِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ ، وَمُسْتَشْنَى مِنْهُ مَا تَقَدَّمَ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُسْوَةَ الْمُتَّبَتَّةَ هَهُنَا هِيَ الْأُولَى بَعَيْنَهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ تَهْيِيجٌ إِلَى ذَلِكَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ وَالْمَعَادِ ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أَي : عَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ الْغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي غِنَاهُ ، وَهُوَ اللَّهُ ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ ، لَيْسَ لَهُ كُفٌّ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَالْحَمِيدُ الْمُسْتَحَمَدُ إِلَى خَلْقِهِ ، أَي : هُوَ الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾ وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ لَا يَنْهَنُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿ إِنَّمَا يَنْهَنُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا عَنْكُمْ دِينَكُمْ وَظَهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُمْ بِعَدَاوَةِ الْكَافِرِينَ : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾ أَي : مَحَبَّةً بَعْدَ الْبُغْضَةِ ، وَمَوَدَّةً بَعْدَ النُّفْرَةِ ، وَالْفَقَّةَ بَعْدَ الْفُرْقَةِ ﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ أَي : عَلَى مَا يَشَاءُ مِنَ الْجُمُعِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَافِرَةِ وَالْمُتَبَايِنَةِ وَالْمُخْتَلِفَةِ ، فَيُؤَلِّفُ بَيْنَ

الْقُلُوبِ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ وَالْقَسَاوَةِ ، فَتُصْبِحُ مُجْتَمِعَةً مُتَّفَقَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُتَمَتِّعًا عَلَى الْأَنْصَارِ ﴿ وَادْكُرُوا يَوْمَ عَمَّتِ اللَّهُ عَلَىكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْمَةٍ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] الْآيَةُ ، وَكَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِى ، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِى ؟ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيْ : يَغْفِرُ لِلْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِذَا تَابُوا مِنْهُ وَأَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ بِكُلِّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْ أَى ذَنْبٍ كَانَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ أَيْ : لَا يَنْهَاكُمْ عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْكُفَرَةِ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ فِي الدِّينِ وَلَا يُعَاوِنُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ كَالنِّسَاءِ وَالضَّعْفَةِ مِنْهُمْ ﴿ أَنْ تَبْرُوهُمْ ﴾ أَيْ : تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : تَعْدِلُوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْحُجُرَاتِ » وَأُورَدْنَا الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ « الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ ، وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَلَهُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ عَنْ مُوَالَاةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَاصَبُوكُمْ بِالْعَدَاوَةِ ، فَقَاتَلُوكُمْ وَأَخْرَجُوكُمْ ، وَعَاوَنُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ ، يَنْهَاكُمْ اللَّهُ ﷻ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِمُعَادَاتِهِمْ ، ثُمَّ أَكَّدَ الْوَعِيدَ عَلَى مُوَالَاتِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَتُ مَهْجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۚ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۚ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۚ وَءَاتُوهُنَّ مِمَّا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ۚ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ تَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾

تَقَدَّمَ فِي « سُورَةِ الْفَتْحِ » فِي ذِكْرِ صَلَاحِ الْحُدُودِ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، فَكَانَ فِيهِ : عَلَى أَنْ لَا يَأْتِيكَ مِنْ رَجُلٍ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا ، وَفِي رِوَايَةٍ : عَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنْ أَحَدٍ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا ، فَعَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مُحْصَصَةً لِلنِّسَاءِ ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ أُمُثِلَةِ ذَلِكَ ، وَعَلَى طَرِيقَةٍ بَعْضِ السَّلَفِ نَاسِخَةً ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا جَاءَهُمُ النِّسَاءُ مَهْجِرَاتٍ أَنْ يَمْتَحِنُوهُنَّ فَإِنْ عَلِمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ

فَلَا يَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ . وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ كَانَ امْتِحَانُهُنَّ أَنْ يَشْهَدَنَّ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ فَاسْأَلُوهُنَّ عَمَّا جَاءَ بِهِنَّ ، فَإِنْ كَانَ جَاءَ بِهِنَّ غَضَبٌ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ أَوْ سُخْطَةٌ أَوْ غَيْرُهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ ، فَارْجِعُوهُنَّ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يُمَكِّنُ الْإِطْلَاقَ عَلَيْهِ يَقِينًا ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الَّتِي حَرَمَتْ الْمُسْلِمَاتِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ كَانَ جَائِزًا فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْمُشْرِكُ الْمُؤْمِنَةَ . ﴿ وَءَاتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴾ يَعْنِي : أَزْوَاجَ الْمُهَاجِرَاتِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، اذْفَعُوا إِلَيْهِنَّ الَّذِي غَرِمُوهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْأَصْدَقَةِ ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكِيحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ يَعْنِي : إِذَا أُعْطِيَتْهُنَّ أَصْدَقَتُهُنَّ فَانْكِيحُوهُنَّ ، أَيْ : تَزَوَّجُوهُنَّ بِشَرْطِهِ مِنْ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ وَالْوَلِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَارِ ﴾ تَحْرِيمٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ نِكَاحِ الْمُشْرِكَاتِ وَالِاسْتِمْرَارِ مَعَهُنَّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ أَيْ : وَطَالَبُوا بِمَا أَنْفَقْتُمْ عَلَى أَزْوَاجِكُمْ اللَّاتِي يَذْهَبْنَ إِلَى الْكُفَّارِ إِنْ ذَهَبْنَ ، وَلِيُطَالِبُوا بِمَا أَنْفَقُوا عَلَى أَزْوَاجِهِمُ اللَّاتِي هَاجَرْنَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ ﴿ ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُخَكِّمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الصُّلْحِ وَاسْتِثْنَاءِ النِّسَاءِ مِنْهُ ، وَالْأَمْرُ بِهَذَا كُلُّهُ هُوَ حُكْمُ اللَّهِ يُخَكِّمُ بِهِ بَيْنَ خَلْفِهِ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ حَكِيمٌ فِي ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ قِيلَ : هَذَا فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ عَهْدٌ إِذَا فَرَّتْ إِلَيْهِمْ امْرَأَةٌ وَلَمْ يَذْفَعُوا إِلَى زَوْجِهَا شَيْئًا ، فَإِذَا جَاءَتْ مِنْهُمْ امْرَأَةٌ لَا يُدْفَعُ إِلَى زَوْجِهَا شَيْءٌ ، حَتَّى يُدْفَعَ إِلَى زَوْجِ الذَّاهِبَةِ إِلَيْهِمْ مِثْلَ نَفَقَتِهِ عَلَيْهَا . قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ فَعَاقِبْتُمْ ﴾ أَصَبْتُمْ غَنِيمَةً مِنْ قُرَيْشٍ أَوْ غَيْرِهِمْ ﴿ فَتَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ يَعْنِي : مَهْرٌ مِثْلِهَا ، وَهَذَا لَا يُنَافِي الْأَوَّلَ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أُمِّكِنَ الْأَوَّلُ فَهُوَ أَوَّلَى ، وَإِلَّا فَمِنْ الْغَنَائِمِ اللَّاتِي تُؤْخَذُ مِنْ أَيْدِي الْكُفَّارِ ، وَهَذَا أَوْسَعُ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُنَّ اللَّهُ ﷻ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ

الآية ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ : فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « قَدْ بَايَعْتُكَ » كَلَامًا ، وَلَا وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ : « قَدْ بَايَعْتُكَ عَلَى ذَلِكَ » .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ﴾ أَيُّ : مَنْ جَاءَكَ مِنْهُنَّ يُبَايِعُ عَلَى هَذِهِ الشُّرُوطِ فَبَايَعَهَا ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ﴾ أَمْوَالُ النَّاسِ الْأَجَانِبِ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ الزَّوْجُ مُقْصَرًا فِي نَفَقَتِهَا فَلَهَا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ ، مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أُمَّثَلِهَا ، وَإِنْ كَانَ بَغِيرَ عِلْمِهِ ، عَمَلًا بِحَدِيثِ هِنْدِ بِنْتِ عُتْبَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ ، لَا يُعْطِينِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بَغِيرَ عِلْمِهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ ، مَا يَكْفِيكَ وَيَكْفِي بَيْتِكَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا يَزِينَنَّ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ ، وَهَذَا يَشْمَلُ قَتْلَهُ بَعْدَ وُجُودِهِ ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ ، وَيَعْمُ قَتْلُهُ وَهُوَ جَنِينٌ ، كَمَا قَدْ يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْجَهْلَةِ مِنَ النِّسَاءِ ، تَطْرُحُ نَفْسَهَا لِثَلَا تَحْبَلَ إِمَّا لِغَرَضٍ فَاسِدٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهَتَيْنِ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ﴾ يَعْنِي : لَا يُلْحِقَنَّ بِأَزْوَاجِهِنَّ غَيْرَ أَوْلَادِهِنَّ ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ يَعْنِي : فِيمَا أَمَرْتُهُنَّ بِهِ مِنْ مَعْرُوفٍ وَنَهَيْتُهُنَّ عَنْهُ مِنْ مُنْكَرٍ .

يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿٥﴾

يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ كَمَا نَهَى عَنْهَا فِي أَوَّلِهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يَعْنِي : الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَسَائِرَ الْكُفَّارِ ، بِمَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ، وَاسْتَحَقَّ مِنَ اللَّهِ الطَّرْدَ وَالْإِبْعَادَ ، فَكَيْفَ تُوَالُوهُمْ وَتَتَّخِذُوهُمْ أَصْدِقَاءَ وَأَخْلَاءَ ، وَقَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ ، أَيُّ : ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا فِي حُكْمِ اللَّهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا ، كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الْأَحْيَاءُ مِنْ قَرَابَاتِهِمُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ أَنْ يَجْتَمِعُوا بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ بَعْثًا وَلَا نُشُورًا ، فَقَدْ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ مِنْهُمْ فِيمَا يَعْتَقِدُونَهُ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : مَعْنَاهُ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ هُمْ فِي الْقُبُورِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ . وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ قَالَ : كَمَا يَئِسَ هَذَا الْكَافِرُ إِذَا مَاتَ وَعَايَنَ ثَوَابَهُ وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُتَحَنَّةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّ أَنَسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا : لَوْ أُرْسِلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَسْأَلُهُ عَنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ ﷻ؟ فَلَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَّا ، وَهَبْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ ، قَالَ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْلَيْكَ النَّفَرَ رَجُلًا رَجُلًا ، حَتَّى جَمَعَهُمْ ، وَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ السُّورَةُ سَبَّحَ «الْصَّفَّ» ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ : فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُلَّهَا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ غَيْرَ مَرَّةٍ ، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إِنكَارٌ عَلَى مَنْ يَعِدُّ عِدَّةً أَوْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَفِي بِهِ ، وَهَذَا اسْتَدْلَالٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ يَحِبُّ الْوَفَاءَ بِالْوَعْدِ مُطْلَقًا ، سَوَاءً تَرْتَبَ عَلَيْهِ عَزْمُ الْمَوْعِدِ أَمْ لَا . وَاحْتَجُّوا أَيْضًا مِنَ السُّنَّةِ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتِيَ خَانَ » . وَهَذَا أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَحَبَّتِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اضْطَفُّوا مُوَاجِهِينَ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ فِي حَوْمَةِ الْوَعْدِ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَدِينُهُ هُوَ الظَّاهِرُ الْعَالِي عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ . ﴿ كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصٌ ﴾ أَي : مُلْتَصِقٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، مِنَ الصَّفِّ فِي الْقِتَالِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصٌ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى صَاحِبِ الْبُنْيَانِ ، كَيْفَ لَا يُحِبُّ أَنْ يُخْتَلَفَ بُيُوتُهُ ؟ فَكَذَلِكَ اللَّهُ ﷻ لَا يُخْتَلَفُ أَمْرُهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ صَفَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِهِمْ وَصَفَّهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ ، فَعَلَيْكُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ عِصْمَةٌ لِمَنْ أَخَذَ بِهِ .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ

مَرِيَمَ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠١﴾
يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ ۖ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أَي : لِمَ تُؤْصِلُونَ الْأَذَى إِلَيَّ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ ؟ وَفِي هَذَا تَسْلِيَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا أَصَابَهُ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ ، وَأَمْرُهُ بِالصَّبْرِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَىٰ مُوسَى ، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ ﴾ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا رَاغَوْا أَرْأَغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أَي : فَلَمَّا عَدَلُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ مَعَ عَلَيْهِمُ بِهِ ، أَرْأَغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْهُدَى ، وَأَسْكَنَهَا الشُّكَّ وَالْحَيْرَةَ وَالْخِذْلَانَ ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ يَعْنِي : التَّوْرَةَ قَدْ بَشَّرْتُ بِهَا ، وَأَنَا مُصَدِّقٌ لِّمَا أَخْبَرْتُ عَنْهُ ، وَأَنَا مُبَشِّرٌ بِمَنْ بَعْدِي ، وَهُوَ الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْعَرَبِيُّ الْمَكِّيُّ أَحْمَدُ .
فَعِيسَى ٱﷺ وَهُوَ خَاتَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَءِيلَ ، وَقَدْ أَقَامَ فِي مَلَاِ بَنِي إِسْرَءِيلَ مُبَشِّرًا بِمُحَمَّدٍ ، وَهُوَ أَحْمَدُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِي لَا رِسَالَةَ بَعْدَهُ وَلَا نُبُوَّةَ . وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : سَمِعْتُ لَنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَفْسَهُ أَسْمَاءً مِنْهَا مَا حَفِظْنَا فَقَالَ : « أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَالْحَاشِرُ ، وَالْمُقَفِّي ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالْمَلْحَمَةِ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ أَحْمَدُ ، أَي : الْمُبَشِّرُ بِهِ فِي الْأَعْيَارِ الْمُتَقَادِمَةِ ، الْمُنَوَّهُ بِذِكْرِهِ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ لَمَّا ظَهَرَ أَمْرُهُ وَجَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ الْكُفْرَةُ وَالْمُخَالَفُونَ : ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٢﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٣﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١٠٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ أَي : لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ يَفْتَرِي الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ ، وَيَجْعَلُ لَهُ أَتْدَادًا وَشُرَكَاءَ ، وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أَي : يُحَاوِلُونَ أَنْ يَرُدُّوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شُعَاعَ الشَّمْسِ فِيهِ ، وَكَمَا أَنَّ هَذَا مُسْتَحِيلٌ كَذَلِكَ ذَاكَ مُسْتَحِيلٌ ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ وَيَأْتِ اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢ - ٣٣] وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي «سُورَةِ بَرَاءَةِ» بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُلُّكُمْ عَلَى تَحْرِقِ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٦﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾

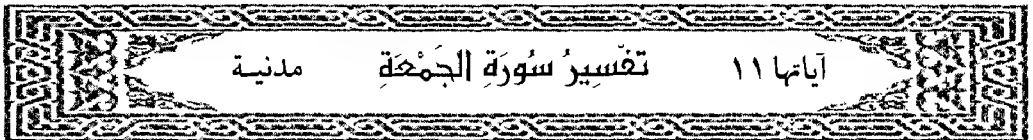
تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّ الصَّحَابَةَ ؓ أَرَادُوا أَنْ يَسْأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ ﷻ لِيَفْعَلُوهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُلُّكُمْ عَلَى تَحْرِقِ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ هَذِهِ التَّجَارَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي لَا تَبُورُ، الَّتِي هِيَ مُحْصَلَةُ لِلْمَقْصُودِ وَمُزِيلَةٌ لِلْمَحْذُورِ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : مِنْ تِجَارَةِ الدُّنْيَا، وَالْكَدِّ لَهَا وَالتَّصَدِّي لَهَا وَحَدِّهَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أَيُّ : إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَدَلَلْتُكُمْ عَلَيْهِ، غَفَرْتُ لَكُمْ الزَّلَّاتِ، وَأَدْخَلْتُكُمْ الْجَنَّاتِ، وَالْمَسَاكِينَ الطَّيِّبَاتِ، وَالْدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا ﴾ أَيُّ : وَأُرِيدُكُمْ عَلَى ذَلِكَ زِيَادَةَ تُحِبُّونَهَا وَهِيَ : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أَيُّ : إِذَا قَاتَلْتُمْ فِي سَبِيلِهِ وَنَصَرْتُمْ دِينَهُ، تَكْفَّلَ اللَّهُ بِنَصْرِكُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [عَمَد : ٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أَيُّ : عَاجِلٌ فَهَذِهِ الزِّيَادَةُ هِيَ خَيْرُ الدُّنْيَا مَوْصُولٌ بِنَعِيمِ الْآخِرَةِ، لَكِنْ أَطَاعَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَنَصَرَ اللَّهَ وَدِينَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﷻ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﷻ فَآمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿٣٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمَرَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَأَنْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ كَمَا اسْتَجَابَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى حِينَ قَالَ :

﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أَيُّ : مُعِينِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ ﴿ قَالَ الْخَوَارِثُونَ ﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى النَّصَارَى : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : نَحْنُ أَنْصَارُكَ عَلَى مَا أُرْسِلْتَ بِهِ وَمَوَازِرُوكَ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَهَذَا بَعَثَهُمْ دُعَاةً إِلَى النَّاسِ فِي بِلَادِ الشَّامِ فِي الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَالْيُونَانِيِّينَ ، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي أَيَّامِ الْحُجَّ : « مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبْلَغَ رِسَالَةَ رَبِّي ؟ فَإِنْ فُرِشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبْلَغَ رِسَالَةَ رَبِّي » حَتَّى قَبِضَ اللَّهُ ﷻ لَهُ الْأَوْسَ وَالخَزْرَجَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، فَبَايَعُوهُ وَوَارَزُوهُ ، وَشَارَطُوهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ إِنْ هُوَ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَيْهِمْ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَفَوَّاهُ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، وَهَذَا سَبَّاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الْأَنْصَارَ ، وَصَارَ ذَلِكَ عَلَمًا عَلَيْهِمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ - . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَنَامَنْتَ طَائِفَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةً ﴾ أَيُّ : لَمَّا بَلَغَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ رِسَالَةَ رَبِّهِ إِلَى قَوْمِهِ ، وَوَارَزَهُ مِنْ وَارَزِهِ مِنَ الْخَوَارِثِيِّينَ ، إِهْتَدَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، وَضَلَّتْ طَائِفَةٌ فَخَرَجَتْ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ ، وَجَحَدُوا بِنُبُوَّتِهِ ، وَرَمَوْهُ وَأَمَّهُ بِالْعِظَائِمِ ، وَهُمْ الْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴾ أَيُّ : نَصَرْنَاهُمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ مِنْ فِرْقِ النَّصَارَى ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أَيُّ : عَلَيْهِمْ ، وَذَلِكَ بِنِعْنَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ «الْصَّفِّ» وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ بِسُورَةِ «الْجُمُعَةِ» وَ «الْمُنَافِقُونَ» .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ وَءَاخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَيُّ : مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ نَاطِقِهَا وَجَامِدِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الْإِسْرَاءُ : ٤٤] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى :

﴿ أَلَيْكَ الْفَدُوسِ ﴾ أَي : هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا بِحُكْمِهِ وَهُوَ ﴿ الْفَدُوسِ ﴾ أَي : الْمُنْتَزَهُ عَنِ النَّقَائِصِ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ الْأُمِّيُّونَ هُمْ : الْعَرَبُ ، وَتَخْصِيصُ الْأُمِّيِّينَ بِالذِّكْرِ لَا يَنْفِي مَنْ عَدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ الْمُنَّةَ عَلَيْهِمْ أَبْلَغَ وَآكُذُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] وَهُوَ ذِكْرٌ لِغَيْرِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ مِصْدَاقُ إِجَابَةِ اللَّهِ لِحَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ دَعَا لِأَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَطُمُوسٍ مِنَ الشُّبُلِ وَقَدْ اسْتَدَّتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ ، وَقَدْ مَقَّتَ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَي : نَزَرًا يَسِيرًا مِمَّنْ تَمَسَّكَ بِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام الْخَلِيلِ فَدَلُّوهُ وَغَيَّرُوهُ وَقَلْبُوهُ وَخَالَفُوهُ ، وَاسْتَبَدَّلُوا بِالتَّوْحِيدِ شُرْكًَا ، وَبِالْيَقِينِ شَكًّا ، وَابْتَدَعُوا أَشْيَاءَ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا كُتُبَهُمْ وَحَرَّفُواهَا وَغَيَّرُواهَا وَأَوَّلُوهَا ، فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم بِشَرِيعَةٍ عَظِيمَةٍ كَامِلَةٍ شَامِلَةٍ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ ، فِيهِ هِدَايَتُهُمْ ، وَالْبَيَانُ لِجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، وَالدَّعْوَةُ لَهُمْ إِلَى مَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَرِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ ، وَالنَّهْيُ عَمَّا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى النَّارِ وَسَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى ، حَاكِمٌ وَفَاصِلٌ لِجَمِيعِ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ وَالرَّيْبِ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ . وَجَمَعَ لَهُ تَعَالَى - وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - جَمِيعَ الْمَحَاسِنِ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَعْطَاهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَلَا يُعْطِيهِ أَحَدًا مِنَ الْآخِرِينَ ، فَصَلَّوْا تُ اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ هُمْ الْأَعَاجِمُ ، وَكُلُّ مَنْ صَدَّقَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أَي : ذُو الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ فِي شَرْعِهِ وَقَدْرِهِ ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ يَعْنِي : مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم مِنَ النَّبُوءَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَمَا خَصَّ بِهِ أُمَّتَهُ مِنْ بَعَثَتِهِ صلى الله عليه وسلم إِلَيْهِمْ .

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١﴾ وَلَا

يَتَمَنُّونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٧٨﴾ قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧٩﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ ذَا مَا لِلْيَهُودِ الَّذِينَ أُعْطُوا التَّوْرَةَ وَحُمِّلُوا لِلْعَمَلِ بِهَا ، فَلَمْ يَعْمَلُوا بِهَا مِثْلَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿ كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ أَيُّ : كَمَثَلِ الْحِمَارِ إِذَا حَمَلَ كُتُبًا لَا يَذَرِي مَا فِيهَا فَهُوَ يَحْمِلُهَا حَمَلًا حَسِيًّا وَلَا يَذَرِي مَا عَلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ فِي حَمْلِهِمُ الْكِتَابَ الَّذِي أُوتُوهُ ، حَفِظُوهُ لَفْظًا وَلَمْ يَفْهَمُوهُ . وَلَا عَمِلُوا بِمُقْتَضَاهُ بَلْ أَوَّلُوهُ وَحَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ ، فَهُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْحَمِيرِ ؛ لِأَنَّ الْحِمَارَ لَا فَهْمَ لَهُ ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ فَهُومٌ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] وَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ بَشَرٌ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ رَبِّي يَوْمَ تَكُونُونَ فِيهَا أَزْوَاجًا مُّشْرِكِينَ ﴾ أَيُّ : كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَزْوَاجٌ مُّشْرِكُونَ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ عَلَىٰ صُلَاةٍ ، فَادْعُوا بِالْمَوْتِ عَلَى الصَّلَاةِ مِنَ الْفِتْنَةِ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَيُّ : فِيمَا تَزْعُمُونَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَتَمَنُّونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيُّ : بِمَا يَعْلَمُونَ هُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفُجُورِ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (النِّسَاءِ) : ﴿ أَتَيْتُمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨]

يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٠﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨١﴾

إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْجُمُعَةُ جُمُعَةً لِأَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْجَمْعِ ، فَإِنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ مَرَّةً بِالْمَعَايِدِ الْكِبَارِ ، وَفِيهِ كَمُلَ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ ، فَإِنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ مِنَ السَّنَةِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَسْأَلُ فِيهَا اللَّهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، كَمَا ثَبَتَ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحَاحُ . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ لَهُ فِي اللُّغَةِ الْقَدِيمَةِ : يَوْمُ الْعُرُوبَةِ ، وَثَبَتَ أَنَّ الْأُمَّمَ قَبْلَنَا أُمِرُوا بِهِ فَضَلُّوا عَنْهُ ، وَاخْتَارَ الْيَهُودُ يَوْمَ السَّبْتِ الَّذِي لَمْ يَقَعْ فِيهِ خَلْقٌ ، وَاخْتَارَ النَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ الَّذِي أُبْتَدِيَ فِيهِ الْخَلْقُ ، وَاخْتَارَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ فِيهِ الْخَلِيقَةَ ،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بَيِّدَ أَتْنَهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ ، فَالْنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ » وَفِي لَفْظٍ : « أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْمُقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ » .

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْاجْتِمَاعِ لِعِبَادَتِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : اقْصِدُوا وَاعْمِدُوا وَاهْتَمُّوا فِي سِرِّكُمْ إِلَيْهَا ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالسَّعْيِ هَاهُنَا الْمَشْيُ السَّرِيعُ ، وَإِنَّمَا هُوَ الْاهْتِمَامُ بِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء : ١٩] وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَقْرَأْنَهَا « فَاْمْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » فَأَمَّا الْمَشْيُ السَّرِيعُ إِلَى الصَّلَاةِ فَقَدْ نُهِِيَ عَنْهُ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ ، فَاْمْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ ، وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ ، وَلَا تُسْرِعُوا ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَمُّوا » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ﴾ الْمُرَادُ بِهَذَا النِّدَاءِ هُوَ النِّدَاءُ الثَّانِي الَّذِي كَانَ يُفْعَلُ بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ فَجَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَإِنَّهُ كَانَ حِينَئِذٍ يُؤَدِّنُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ فَأَمَّا النِّدَاءُ الْأَوَّلُ الَّذِي زَادَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه فَإِنَّمَا كَانَ هَذَا لِكَثْرَةِ النَّاسِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أَيُّ : اسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَاتْرَكُوا الْبَيْعَ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ، وَهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَحْرِيمِ الْبَيْعِ بَعْدَ النِّدَاءِ الثَّانِي . ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : تَرَكُّكُمْ الْبَيْعَ وَإِقْبَالُكُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَإِلَى الصَّلَاةِ خَيْرٌ لَكُمْ ، أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أَيُّ : فُرِغَ مِنْهَا ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ لَمَّا حَجَرَ عَلَيْهِمْ فِي التَّصَرُّفِ بَعْدَ النِّدَاءِ وَأَمَرَهُمْ بِالْاجْتِمَاعِ ، أَذِنَ لَهُمْ بَعْدَ الْفَرَاغِ فِي الْإِنْتِشَارِ فِي الْأَرْضِ وَالِابْتِغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَيُّ : فِي حَالِ بَيْعِكُمْ وَشِرَائِكُمْ وَأَخَذِكُمْ وَإِعْطَائِكُمْ ، اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَلَا تُشْغَلِكُمُ الدُّنْيَا عَنِ الَّذِي يَنْفَعُكُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٢٠﴾

يُعَاتِبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى مَا كَانَ وَقَعَ مِنَ الانْصِرَافِ عَنِ الْخُطْبَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى التَّجَارَةِ الَّتِي قَدِمَتِ الْمَدِينَةَ يَوْمَئِذٍ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ هَوًّا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ أَيُّ : عَلَى الْمُنْتَرِ يَخْطُبُ ، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَدِمَتِ عِيرُ الْمَدِينَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ ، فَخَرَجَ النَّاسُ وَبَقِيَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، فَنَزَلْتُ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ هَوًّا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا ﴾ . وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَائِمًا . ﴿ فَلَنْ مَّا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الثَّوَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أَيُّ : لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَطَلَبَ الرِّزْقَ فِي وَفْتِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوَاهُمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ تَخْسَبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ : إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَقَوَّهُونَ بِالْإِسْلَامِ إِذَا جَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَمَّا فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ فَلْيَسُوا كَذَلِكَ ، بَلْ عَلَى الضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : إِذَا حَضَرُوا عِنْدَكَ وَاجْهَوْكَ بِذَلِكَ ، وَأَظْهَرُوا لَكَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ كَمَا يَقُولُونَ ؛ وَلِهَذَا أُعْطِرَ بِجُمْلَةٍ مُخْبِرَةٍ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ أَيُّ : فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ ، وَإِنْ كَانَ مُطَابِقًا لِلخَارِجِ لَا يَكُونُ لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ صِحَّةَ مَا يَقُولُونَ وَلَا صِدْقَهُ ، وَلِهَذَا كَذَّبَهُمُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اعْتِقَادِهِمْ . ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : اتَّقُوا النَّاسَ بِالْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ

وَالْحِلْفَانِ الْآثِمَةِ ، لِيُصَدِّقُوا فِيمَا يَقُولُونَ ، فَاغْتَرَّ بِهِمْ مَنْ لَا يَعْرِفُ جَلِيلَةَ أَمْرِهِمْ ، فَأَعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ ، فَزُبَيْنَا اقْتَدَى بِهِمْ فِيمَا يَفْعَلُونَ وَصَدَّقَهُمْ فِيمَا يَقُولُونَ ، وَهُمْ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْبَاطِنِ لَا يَأْلُونَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ خَبَالًا ، فَحَصَلَ بِهَذَا الْقَدَرِ ضَرَرٌ كَبِيرٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أَي : إِنَّمَا قُدِّرَ عَلَيْهِمُ التَّفَاقُّ لِرُجُوعِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرَانِ ، وَاسْتِبْدَاهُمُ الضَّلَالَةَ بِأَهْدَى ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أَي : فَلَا يَصِلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ هُدًى ، وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهَا خَيْرٌ ، فَلَا تَعْيٍ وَلَا تَهْتِدِي . ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ۗ كَانَتْهُمْ حُشُبٌ مُسْنَدَةٌ ﴾ أَي : وَكَانُوا أَشْكَالًا حَسَنَةً وَذَوِي فَصَاحَةٍ وَاللِّسَنَةِ ، إِذَا سَمِعْتَهُمُ السَّمِيعُ يُضْغِي إِلَى قَوْلِهِمْ لِبَلَاغَتِهِمْ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ وَالْخَوَرِ وَالْهَلَعِ وَالْجَرَعِ وَالْجُبْنِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : كُلَّمَا وَقَعَ أَمْرٌ أَوْ كَانَتْهُ أَوْ خَوْفٌ يَعْتَقِدُونَ لِحُبْنِهِمْ أَنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَشْجَثَةٌ عَلَيْهِمْ ۖ إِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَنَةِ ۖ إِذَا أَشْجَثَةٌ عَلَى الْخَيْرِ ۖ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب : ١٩] فَهُمْ جَهَامَاتٌ وَصُورٌ بِلَا مَعَانٍ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ ۖ فَنَلْتَمِسُ اللَّهَ أَنِّي يُؤْفِكُونَ ﴾ أَي : كَيْفَ يُصْرِفُونَ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٠﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١١﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۗ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢﴾ يَقُولُونَ لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا أَلَاذِلٌ ۚ وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ - : ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ ﴾ أَي : صَدُّوا وَأَعْرَضُوا عَمَّا قِيلَ لَهُمْ ، اسْتِكْبَارًا عَنْ ذَلِكَ ، وَاحْتِقَارًا لِمَا قِيلَ لَهُمْ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ ثُمَّ جَاؤَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفَاسِقِينَ ﴿ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ « بَرَاءة » وَقد تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ ، وَقد ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ ؛ أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ كُلَّهُ نَزَلَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بْنِ سَلُولٍ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : يَا لِلْأَنْصَارِ ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لِلْمُهَاجِرِينَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ؟ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَبَهَةٌ » وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بْنِ سَلُولٍ : وَقد فَعَلُوها ، وَاللهُ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، قَالَ جَابِرٌ : وَكَانَ الْأَنْصَارُ بِالْمَدِينَةِ أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ عُمَرُ : دَعْنِي أَضْرِبْ عَنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « دَعْنِي ؛ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَانَهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ﴾ ، قَالَ : كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ ، وَنَاهِيًا لَهُمْ عَنْ أَنْ تَشْغَلَهُمُ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ عَنْ ذَلِكَ ، وَتُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ مِنَ النَّهْيِ بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا عَمَّا خُلِقَ لَهُ مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وَذِكْرِهِ فَإِنَّهُ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ يُخْسِرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ حَثَّهُمْ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي طَاعَتِهِ فَقَالَ : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فَكُلُّ مُفَرِّطٍ يَنْدُمُ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ ، وَيَسْأَلُ طُولَ الْمُدَّةِ وَلَوْ شَيْئًا يَسِيرًا ، لَيْسَتْغَتَبَ وَيَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَهُ ، وَهِيَئَاتِ ! كَانَ مَا كَانَ ، وَآتَى مَا هُوَ آتٍ ، وَكُلٌّ بِحَسَبِ تَفْرِيطِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يُنْظَرُ أَحَدًا بَعْدَ حُلُولِ أَجَلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ وَأَخْبَرُ بِمَنْ يَكُونُ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ وَسُؤَالِهِ يَمُنْ لَوْ رُدَّ لِعَادَ إِلَى شَرِّ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُنَافِقُونَ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾

هَذِهِ السُّورَةُ هِيَ آخِرُ الْمُسَبِّحَاتِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى تَسْبِيحِ الْمَخْلُوقَاتِ لِبَارِئِهَا وَمَالِكِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، الْمُحْمَدُ عَلَى جَمِيعِ مَا يَخْلُقُهُ وَيُقَدِّرُهُ ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيُّ : مَهْمَا أَرَادَ كَانَ بِلَا مُمَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْخَالِقُ لَكُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ، وَأَرَادَ مِنْكُمْ ذَلِكَ ، فَلَا بُدَّ مِنْ وَجُودِ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ ، وَهُوَ الْبَصِيرُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ يَمَنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَ ، وَهُوَ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِهَا أَتَمَّ الْجَزَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ : بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أَيُّ : أَحْسَنَ أَشْكَالَكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أَيُّ : الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَأُ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْهُدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أَيُّ : خَبَرُهُمْ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أَيُّ : وَخِيمَ تَكْذِيبِهِمْ وَرَدِيءِ أَفْعَالِهِمْ ، وَهُوَ مَا حَلَّ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالْخِزْيِ ﴿ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مُضَافٌ إِلَى هَذَا الدُّنْيَا .

ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَي : بِالْحُجَجِ وَالْدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿ فَقَالُوا أَبَشِّرْهُدُونَا ﴾ أَي : اسْتَبْعِدُوا أَنْ تَكُونَ الرِّسَالَةُ فِي الْبَشَرِ ، وَأَنْ يَكُونَ هُدَاهُمْ عَلَى يَدَيْ بَشَرٍ مِثْلَهُمْ ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾ أَي : كَذَّبُوا بِالْحَقِّ وَنَكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ ﴿ وَاسْتَعْنَى اللَّهُ ﴾ أَي : عَنْهُمْ ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٥٦﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٥٧﴾ يَوْمَ نَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبئسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُلْحِدِينَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أَي : لَتُخْبَرُنَّ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ ، جَلِيلِهَا وَخَفِيرِهَا ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا . ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أَي : بَعَثُكُمْ وَنَجَّازَاتُكُمْ ، وَهَذِهِ هِيَ الْآيَةُ الثَّالِثَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُقَسِّمَ بِرَبِّهِ ﷻ عَلَى وَقُوعِ الْمَعَادِ وَوُجُودِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَي : فَلَا تُخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ خَافِيَةٌ . ﴿ يَوْمَ نَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، سُمِّيَ بِذَٰلِكَ ؛ لِأَنَّهُ يُجْمَعُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، يُسْمِعُهُم الدَّاعِي وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ . ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَذَٰلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَغْبُنُونَ أَهْلَ النَّارِ ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ : لَا غَبْنَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُدْهَبَ بِأُولَٰئِكَ إِلَى النَّارِ . قُلْتُ : وَقَدْ فَسَّرَ ذَٰلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبئسَ الْمَصِيرُ ﴿ وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذِهِ غَيْرُ مَرَّةٍ .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٦١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بِأَمْرِ اللَّهِ ، يَعْنِي : عَنْ قَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : وَمَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَعَلِمَ أَنَّهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ، فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ ، وَاسْتَسْلَمَ لِقَضَاءِ اللَّهِ ، هَدَى اللَّهُ قَلْبَهُ ، وَعَوَّضَهُ عَمَّا فَاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا هُدًى فِي قَلْبِهِ ، وَيَقِينَا صَادِقًا ، وَقَدْ يُخْلِفُ عَلَيْهِ مَا كَانَ أَخَذَ مِنْهُ أَوْ خَيْرًا مِنْهُ . رَوِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ۚ ﴾ يَعْنِي : يَهْدِ قَلْبَهُ لِلْيَقِينِ ، فَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَغْطَاهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أَمْرٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِيمَا شَرَعَ ، وَفَعْلٌ مَا بِهِ أَمْرٌ ، وَتَرْكُ مَا عَنْهُ نَهْيٌ وَزَجَرٌ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أَيُّ : إِن تَكَلَّمْتُمْ عَنِ الْعَمَلِ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ مِنَ الْبَلَاغِ ، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ مِنَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ . قَالَ الزُّهْرِيُّ : مِنَ اللَّهِ الرَّسَالَةُ ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فَلأَوَّلُ خَبَرٍ عَنِ التَّوْحِيدِ ، وَمَعْنَاهُ مَعْنَى الطَّلَبِ ، أَيُّ : وَحَدُّوا الْإِلَهِيَّةَ لَهُ ، وَأَخْلَصُوهَا لَدَيْهِ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٩]

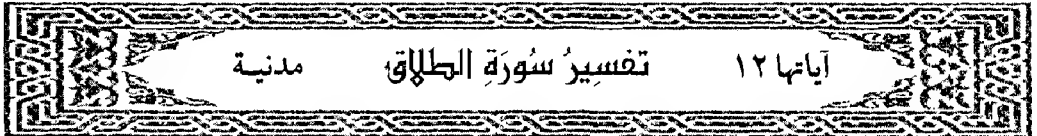
يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ۚ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الْفَالِحُونَ ﴿١٢﴾ إِن تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٣﴾ عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ : إِن مِنْهُمْ مَنْ هُوَ عَدُوٌّ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ ، بِمَعْنَى : أَنَّهُ يُنْتَهَى بِهِ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : يَعْنِي عَلَى دِينِكُمْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَّكُمْ ﴾ قَالَ : يَحْمِلُ الرَّجُلُ عَلَى قَطِيعَةِ الرَّحِمِ أَوْ مَعْصِيَةِ رَبِّهِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ مَعَ حُبِّهِ إِلَّا أَنْ يُطِيعَهُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّمَا الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ فِتْنَةٌ ، أَيُّ : اخْتِبَارٌ وَابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِحَلْفِهِ ؛ لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعِصِيهِ

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أَيُّ : جَهْدَكُمْ وَطَاقَتَكُمْ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ» . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أَيُّ : كُونُوا مُتَقَاتِلِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ بِهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَا تَحِيدُوا عَنْهُ يَمَنَةً وَلَا يَسْرَةً ، وَلَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَا تَتَخَلَّفُوا عَمَّا بِهِ أَمَرْتُمْ ، وَلَا تَرْكَبُوا مَا عَنْهُ زُجْرْتُمْ . ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ : وَابْذُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ عَلَى الْأَقَارِبِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ ، وَأَحْسِنُوا إِلَى خَلْقِ اللَّهِ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ، يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ لَا تَفْعَلُوا يَكُنْ شَرًّا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَالِحُونَ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ «الْحَشْرِ» .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ أَيُّ : مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَمَهْمَا تَصَدَّقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَعَلَيْهِ جَزَاؤُهُ ، وَنَزَلَ ذَلِكَ مَنَزَلَةَ الْقَرْضِ لَهُ ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ أَيُّ : وَيَكْفُرَ عَنْكُمْ السَّيِّئَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ أَيُّ : يَجْزِي عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ ﴿حَلِيمٌ﴾ أَيُّ : يَصْفَحُ وَيَغْفِرُ وَيَسْتُرُ ، وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالزَّلَّاتِ وَالْخَطَايَا وَالسَّيِّئَاتِ ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّغَابُنِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ رَبَّكُمُ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝

خُوطِبَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلًا تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا ، ثُمَّ خَاطَبَ الْأُمَّةَ تَبَعًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ طَلَّقَ ابْنُ عُمَرَ امْرَأَتَهُ حَائِضًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَ عُمَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لِيَرْاجِعَهَا» فَرَدَّهَا ، وَقَالَ : «إِذَا طَهَرَتْ فَلْيُطَلِّقْ أَوْ يُمَسِّكْ» قَالَ ابْنُ عُمَرَ : وَقَرَأَ النَّبِيُّ

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ إِعْدَبَتْ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فَطَلَّقُوهُنَّ إِعْدَبَتْ﴾ قَالَ : الطُّهُرُ مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ : ﴿فَطَلَّقُوهُنَّ إِعْدَبَتْ﴾ الْعِدَّةُ : الطُّهُرُ ، وَالْقُرْءُ : الْحَيْضَةُ ، أَنْ يُطَلَّقَهَا حُبْلَى مُسْتَبِينًا حَمْلَهَا ، وَلَا يُطَلَّقَهَا وَقَدْ طَافَ عَلَيْهَا ، وَلَا يَذْرِي حُبْلَى هِيَ أَمَ لَا . وَمِنْ هَاهُنَا أَخَذَ الْفُقَهَاءُ أَحْكَامَ الطَّلَاقِ وَقَسَمُوهُ إِلَى طَلَاقِ سُنَّةٍ وَطَلَاقِ بَدْعَةٍ ، فَطَلَاقُ السُّنَّةِ : أَنْ يُطَلَّقَهَا مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ ، أَوْ حَامِلًا قَدْ اسْتَبَانَ حَمْلَهَا ، وَالْبَدْعِيُّ : هُوَ أَنْ يُطَلَّقَهَا فِي حَالِ الْحَيْضِ ، أَوْ فِي طَهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ ، وَلَا يَذْرِي أَحَمَلَتْ أَمْ لَا ؟ وَطَلَاقُ ثَالِثٌ لَا سُنَّةَ فِيهِ وَلَا بَدْعَةَ ، وَهُوَ طَلَاقُ الصَّغِيرَةِ وَالْأَيَسَةِ وَغَيْرِ الْمَدْخُولِ بِهَا ، وَتَحْرِيرُ الْكَلَامِ فِي ذَلِكَ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مُسْتَقْصَى فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أَيُّ : إِحْفَظُوهَا وَاعْرِفُوا ابْتِدَاءَهَا وَانْتِهَاءَهَا لِئَلَّا تَطُولَ الْعِدَّةُ عَلَى الْمَرْأَةِ فَتَمْتِنَعَ مِنَ الْأَزْوَاجِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أَيُّ : فِي ذَلِكَ ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ﴾ أَيُّ : فِي مُدَّةِ الْعِدَّةِ لَهَا حَقُّ السُّكْنَى عَلَى الزَّوْجِ مَا دَامَتْ مُعْتَدَّةً مِنْهُ ، فَلَيْسَ لِلرَّجُلِ أَنْ يُخْرِجَهَا وَلَا يُجَوِّزُهَا أَيْضًا الْخُرُوجَ ؛ لِأَنَّهَا مُعْتَقَلَةٌ لِحَقِّ الزَّوْجِ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ أَيُّ : لَا تَخْرُجْنَ مِنْ بُيُوتِهِنَّ إِلَّا أَنْ تَرْتَكِبَ الْمَرْأَةُ فَاحِشَةً مُبَيَّنَةً فَتَخْرُجَ مِنَ الْمَنْزِلِ ، وَالْفَاحِشَةُ الْمُبَيَّنَةُ تَشْمَلُ الزَّنا ، وَتَشْمَلُ مَا إِذَا نَشَزَتِ الْمَرْأَةُ أَوْ بَدَتْ عَلَى أَهْلِ الرَّجُلِ وَأَذَتْهُمْ فِي الْكَلَامِ وَالْفِعَالِ ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أَيُّ : شَرَائِعُهُ وَحَاكِمُهُ ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أَيُّ : يُخْرِجُ عَنْهَا وَيَتَجَاوَزُهَا إِلَى غَيْرِهَا وَلَا يَأْتُرُّ بِهَا ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أَيُّ : يَفْعَلُ ذَلِكَ . ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أَيُّ : إِنَّمَا أَبْقَيْنَا الْمُطَلَّقةَ فِي مَنْزِلِ الزَّوْجِ فِي مُدَّةِ الْعِدَّةِ لَعَلَّ الزَّوْجَ يَنْدُمُ عَلَى طَلَاقِهَا ، وَيَخْلُقُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ رَجْعَتَهَا ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَيْسَرَ وَأَسْهَلَ .

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلِ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢٠﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٢١﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَإِذَا بَلَغَتِ الْمُعْتَدَاتُ ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ أَيُّ : شَارَفْنَ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ وَقَارَبْنَ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَمْ تَفْرُغِ الْعِدَّةُ الْكُلِّيَّةُ ، فَحِينَئِذٍ إِمَّا أَنْ يَعْرِمَ الزَّوْجُ عَلَى إِمْسَاكِهَا ، وَهُوَ رَجْعَتُهَا إِلَى عِصْمَةِ نِكَاحِهِ ، وَالْإِسْتِمْرَارِ بِهَا عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ عِنْدَهُ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أَيُّ : مُحْسِنًا إِلَيْهَا فِي

صُحْبَتَهَا ، وَإِنَّمَا أَنْ يَعْزِمَ عَلَى مُفَارَقَتِهَا ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أَي : مِنْ غَيْرِ مُقَابَحَةٍ وَلَا مُشَامَةٍ وَلَا تَغْنِيفٍ ، بَلْ يُطَلِّقُهَا عَلَى وَجْهِ جَمِيلٍ وَسَبِيلٍ حَسَنٍ . ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أَي : عَلَى الرَّجْعَةِ إِذَا عَزَمْتُمْ عَلَيْهَا . ﴿ذَلِكَ لِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْإِشْهَادِ وَإِقَامَةِ الشَّهَادَةِ إِنَّمَا يَأْتِمُرُ بِهِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنَّهُ شَرَعَ هَذَا ، وَمَنْ يَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أَي : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ أَي : مِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِأَلِيهِ . وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ يُنْجِيهِ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ : ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أَي : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ضَاقَ عَلَى النَّاسِ . وَقِيلَ : مَنْ طَلَّقَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَقِيلَ : ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أَي : مَنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أَي : مِنْ شُبُهَاتِ الْأُمُورِ وَالْكَرْبِ عِنْدَ الْمَوْتِ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ مِنْ حَيْثُ يَرْجُو وَلَا يَأْمُلُ . ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «يَا غُلَامُ ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَحْفَظْكَ ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلَّغَ أَمْرِهِ﴾ أَي : مُنْقِذُ قَضَائِيهِ وَأَحْكَامِهِ فِي خَلْقِهِ بِمَا يُرِيدُهُ وَيَشَاوُهُ ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد : ٨]

وَالَّتِي يَبْسُتَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ تَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا لِعِدَّةِ الْإِسَةِ - وَهِيَ الَّتِي قَدْ انْقَطَعَ عَنْهَا الْمَحِيضُ لِكِبَرِهَا - : أَنَّهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، عَوَضًا عَنِ الثَّلَاثَةِ قُرُوءٍ فِي حَقِّ مَنْ تَحِيضٌ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَةُ «الْبَقَرَةِ» ، وَكَذَا الصَّغَارُ اللَّائِي لَمْ يَبْلُغْنَ سِنَّ الْحَيْضِ : إِنَّ عِدَّتَهُنَّ كَعِدَّةِ الْإِسَةِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَالَّتِي لَمْ تَحْضَنْ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : إِنْ رَأَيْنَ دَمًا وَشَكَكْتُمْ فِي كَوْنِهِ حَيْضًا أَوْ اسْتِحَاضَةً ، وَارْتَبْتُمْ فِيهِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : إِنْ ارْتَبْتُمْ فِي حُكْمِ عِدَّتِهِنَّ ، وَلَمْ

تَعْرِفُوهُ فَهُوَ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، وَهُوَ أَظْهَرُ فِي الْمَعْنَى . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَمَنْ كَانَتْ حَامِلًا فَعِدَّتُهَا بِوَضْعِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْدَ الطَّلَاقِ أَوِ الْمَوْتِ بِفَوَاقِ نَاقَةٍ ، فِي قَوْلِ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، كَمَا هُوَ نَصُّ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَكَمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ . ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ أَيُّ : يُسَهِّلْ لَهُ أَمْرَهُ ، وَيُسِّرْهُ عَلَيْهِ وَيَجْعَلْ لَهُ فَرْجًا قَرِيبًا وَمَخْرَجًا عَاجِلًا ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ أَيُّ : حُكْمُهُ وَشَرَعُهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ بِوَاسِطَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ أَيُّ : يَذْهَبُ عَنْهُ الْمَحْذُورُ وَيُجْزِلُ لَهُ الثَّوَابَ عَلَى الْعَمَلِ الْيَسِيرِ .

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَعَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَاتَّمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَسْرُوعٌ لَهُ أُخْرَى ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ۖ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَنَهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۖ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُمُ الْمَرْأَةَ أَنْ يُسْكِنَهَا فِي مَنْزِلٍ حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا فَقَالَ : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ﴾ أَيُّ : عِنْدَكُمْ ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْني : سَعَتِكُمْ ، حَتَّى قَالَ قَتَادَةُ : إِنْ لَمْ يَجِدْ إِلَّا جَنْبَ بَيْتِكَ فَأَسْكِنَهَا فِيهِ . ﴿ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ : يَعْنِي : يُضَاجِرُهَا لِيَقْتَدِيَ مِنْهُ بِهَا أَوْ تَخْرُجَ مِنْ مَسْكِنِهِ ، وَعَنْ أَبِي الصُّحَى ﴿ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ قَالَ : يُطْلَقُهَا فَإِذَا بَقِيَ يَوْمَانِ رَاجَعَهَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هَذِهِ فِي الْبَائِنِ ، إِنْ كَانَتْ حَامِلًا أَنْفَقَ عَلَيْهَا حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا . قَالُوا : بِدَلِيلِ أَنَّ الرَّجْعِيَّةَ تَحِبُّ نَفَقَتَهَا سَوَاءً كَانَتْ حَامِلًا أَوْ حَائِلًا . وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ السِّيَاقُ كُلُّهُ فِي الرَّجْعِيَّاتِ ، وَإِنَّمَا نَصَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ عَلَى الْحَامِلِ وَإِنْ كَانَتْ رَجْعِيَّةً ؛ لِأَنَّ الْحَمْلَ تَطُولُ مُدَّتُهُ غَالِيًا ، فَاحْتِيجُ إِلَى النَّصِّ عَلَى وَجُوبِ الْإِنْفَاقِ إِلَى الْوَضْعِ ، لِئَلَّا يَتَوَهَّمَنَّ أَنَّهُ إِنَّمَا تَحِبُّ النِّفَقَةَ بِمِقْدَارِ مُدَّةِ الْعِدَّةِ . ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أَيُّ : إِذَا وَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَهُنَّ طَوَالِقٌ ، فَقَدْ بَنَّ بِانْقِضَاءِ عِدَّتِهِنَّ ، وَهَذَا حَيْثُذِ أَنْ تُرْضِعَ الْوَلَدَ ، وَهَذَا أَنْ تَمْتَنِعَ مِنْهُ ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُغَذِّيَهُ بِاللَبَاءِ - وَهُوَ بَاكُورَةُ اللَّبَنِ الَّذِي لَا قِيَامَ لِلْمَوْلُودِ غَالِيًا إِلَّا بِهِ - فَإِنْ أَرْضَعَتْ اسْتَحَقَّتْ أَجْرَهُ مِثْلَهَا ، وَهَذَا أَنْ تُعَاقِدَ أَبَاهُ أَوْ وَلِيَّهُ عَلَى مَا يُنْفِقَانِ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرَةٍ ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَعَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أَيُّ :

وَلْتَكُنْ أُمُورُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، مِنْ غَيْرِ إِضْرَارٍ وَلَا مُضَارَّةٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » : ﴿ لَا تَضَارَّ وِلَدَةً بِوِلَدِهَا وَلَا مَوْلُودًا لَهُ بِوِلَدِهِ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسْتَزْعِ لَهُ أُخْرَى ﴾ أَي : وَإِنْ اخْتَلَفَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ فَطَلَبَتْ الْمَرْأَةُ فِي أَجْرَةِ الرِّضَاعِ كَثِيرًا وَلَمْ يُجِبْهَا الرَّجُلُ إِلَى ذَلِكَ ، أَوْ بَدَّلَ الرَّجُلُ قَلِيلًا وَلَمْ تُوَافِقْهُ عَلَيْهِ فَلَيْسَ تَزْعِ لَهُ غَيْرَهَا ، فَلَوْ رَضِيَتْ الْأُمُّ بِمَا أُسْتُوِجِرَتْ بِهِ الْأَجْنِيَّةُ فَهِيَ أَحَقُّ بِوِلَدِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ أَي : لِيُنْفِقَ عَلَى الْمَوْلُودِ وَالِدُهُ ، أَوْ وَلِيُّهُ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ ﴿ وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ وَعَدُّ مِنْهُ تَعَالَى ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ ، وَهُوَ لَا يُخْلِفُهُ .
وَكَايِنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا ﴿١﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٢﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿٣﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿٤﴾

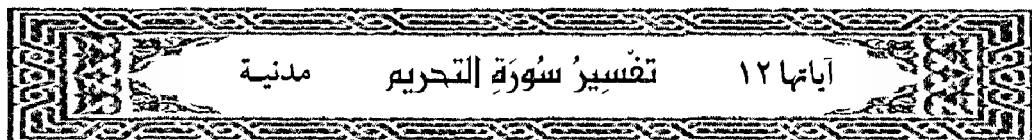
يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ ، وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ، وَسَلَكَ غَيْرَ مَا شَرَعَهُ ، وَخُفِّرًا عَمَّا حَلَّ بِالْأُتَمِّ السَّالِفَةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَايِنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ أَي : تَمَرَّدَتْ وَطَغَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ عَنْ إِتِّبَاعِ أَمْرِ اللَّهِ وَتُبَاعَةِ رُسُلِهِ ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا ﴾ أَي : مُنْكَرًا فَطِيعًا ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أَي : غَبَّ مُحَالَفَتِهَا ، وَنَدِمُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ ﴿ وَكَانَ عِقَبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿ أَي : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، مَعَ مَا عَجَّلَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ مَا قَصَّ مِنْ خَبَرِ هَؤُلَاءِ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ أَي : الْأَفْهَامُ الْمُسْتَقِيمَةُ ، لَا تَكُونُوا مِثْلَهُمْ فَيُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَي : صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ . ﴿ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ رَسُولًا ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ بَدَلُ اسْتِهْمَالٍ وَمُلَابَسَةٍ ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي بَلَغَ الذِّكْرَ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الصَّوَابُ أَنَّ الرَّسُولَ تَرْجَمَةٌ عَنِ الذِّكْرِ يَعْنِي تَفْسِيرًا لَهُ ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ أَي : فِي حَالِ كَوْنِهَا بَيِّنَةً وَاضِحَةً جَلِيلَةً

﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة : ٢٥٧] أَي : مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ ، وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْوَحْيَ الَّذِي أَنْزَلَهُ نُورًا ؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْهُدَى ، كَمَا سَمَّاهُ رُوحًا ؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ حَيَاةِ الْقُلُوبِ . ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذَا غَيْرَ مَرَّةٍ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْمَلُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ بَاعِثًا عَلَى تَعْظِيمِ مَا شَرَعَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح : ١٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أَي : سَبْعًا أَيْضًا ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : «مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوْقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ» وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : «خُسِفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ» .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطَّلَاقِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾
 قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلَحُ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ مُسَلِّمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قُنِبَتٍ تَلْبِسَتْ عِبْدَاتٍ سَتِخْتِ تَلْبَسَتْ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

أُخْتَلِفَ فِي سَبَبِ نُزُولِ صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، فَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي شَأْنِ مَارِيَةَ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ حَرَّمَهَا ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَّى مَرْصَاتُ أَزْوَاجِكَ ﴾ الْآيَةِ ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَتْ لَهُ أُمَةٌ يَطْوُهَا ، فَلَمْ تَزَلْ بِهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ حَتَّى حَرَّمَهَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا ، فَتَوَاطَأْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ عَلَى آيَتِنَا دَخَلَ عَلَيْهَا ، فَلْتَقَلَ لَهُ : أَكَلْتُ مَغَافِيرَ ؟ إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ ، قَالَ : « لَا ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَلَنْ أَعُودَ لَهُ ، وَقَدْ خَلَفْتُ ، لَا تُخْخِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا » . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ مُسَامَتٍ مُؤَمِّنَةٍ قَتَبَتْ تَجِبَتْ عِبْدَتٍ ﴾ ظَاهِرٌ ﴿ سَتِجَتْ ﴾ أَيِ : صَائِهَاتٍ ﴿ تَجِبَتْ وَأَبْكَارًا ﴾ أَيِ : مِنْهُنَّ ثِيَابٌ ، وَمِنْهُنَّ أَبْكَارًا ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشْهَى إِلَى النَّفْسِ ، فَإِنَّ التَّنَوُّعَ يُبْسِطُ النَّفْسَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ تَجِبَتْ وَأَبْكَارًا » .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿١٠٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيِّنَاتٍ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٢﴾

قَوْلُهُ : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ قِيلَ فِي مَعْنَاهَا : أَدَّبُوهُمْ وَعَلَّمُوهُمْ ، وَقِيلَ : اِعْمَلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَاتَّقُوا مَعَاصِيَ اللَّهِ ، وَمُرُوا أَهْلِيكُمْ بِالذِّكْرِ ، يُنْجِيكُمْ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ، وَقِيلَ : اتَّقُوا اللَّهَ وَأَوْصُوا أَهْلِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَقِيلَ : يَا مُرُّهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَينَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَأَنْ يَقُومَ عَلَيْهِمْ بِأَمْرِ اللَّهِ وَيَأْمُرُهُمْ بِهِ وَيُسَاعِدُهُمْ عَلَيْهِ ، فَإِذَا رَأَيْتَ اللَّهُ مَعْصِيَةً قَدَعْتَهُمْ عَنْهَا وَزَجَرْتَهُمْ عَنْهَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ وَقُودُهَا ، أَيِ : حَطْبُهَا الَّذِي يُلْقَى فِيهَا جُثَثُ بَنِي آدَمَ ﴿ وَالْحِجَارَةُ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْأَصْنَامُ الَّتِي تُعْبَدُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨] قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هِيَ حِجَارَةٌ مِنْ كِبْرِيَةٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ ﴾ أَيِ : طِبَاعُهُمْ غَلِيظَةٌ ، قَدْ نَزَعَتْ مِنْ قُلُوبِهِمُ الرَّحْمَةَ بِالْكَافِرِينَ بِاللَّهِ ﴿ شِدَادٌ ﴾ أَيِ : تَرَكِبُهُمْ فِي غَايَةِ الشَّدَّةِ وَالْكَثَافَةِ وَالْمَنْظَرِ الْمُرْعِجِ ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ

مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿١﴾ أَيُّ : مَهْمَا أَمَرَهُمْ بِهِ تَعَالَى يُبَادِرُوا إِلَيْهِ ، لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ طَرَفَةً عَيْنٍ ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى فِعْلِهِ لَيْسَ بِهِمْ عَجْزٌ عَنْهُ . وَهَؤُلَاءِ هُمُ الزَّبَانِيَّةُ ، عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْهُمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ۚ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : يُقَالُ لِلْكَفَرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : لَا تَعْتَذِرُوا فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْكُمْ ، وَإِنَّمَا تُجْزَوْنَ الْيَوْمَ بِأَعْمَالِكُمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ أَيُّ : تَوْبَةً صَادِقَةً جَارِمَةً ، تَحْوَ مَا قَبْلَهَا مِنَ السَّيِّئَاتِ وَتَلُمُ شَعَثِ التَّائِبِ وَتَجْمَعُهُ ، وَتَكْفُهُ عَمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ الدَّنَائَاتِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ وَ « عَسَىٰ » مِنَ اللَّهِ مُوجِبَةٌ ﴿ يَوْمَ لَا تُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ أَيُّ : وَلَا يُخْزِيهِمْ مَعَهُ ، يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هَذَا يَقُولُهُ الْمُؤْمِنُونَ حِينَ يَرَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورَ الْمُنَافِقِينَ قَدْ طُفِيَ .

يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٢﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۚ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ، هَؤُلَاءِ بِالسَّلَاحِ وَالْفِتَالِ وَهَؤُلَاءِ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ ﴿ وَآغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ : فِي الدُّنْيَا ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أَيُّ : فِي الْآخِرَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيُّ : فِي مُحَالَتِهِمُ الْمُسْلِمِينَ وَمُعَاشَرَتِهِمْ هُمْ ، أَنَّ ذَلِكَ لَا يُجْدِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، إِنْ لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ حَاصِلًا فِي قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَثَلَ فَقَالَ : ﴿ امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۚ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ ﴾ أَيُّ : بَيِّنَ رَسُولَيْنِ عِنْدَهُمَا فِي صُحْبَتِهِمَا لَيْلًا وَنَهَارًا ، يُؤَاكِلَانِيهَا وَيُصَاحِبَانِيهَا وَيُعَاشِرَانِيهَا أَشَدَّ الْعِشْرَةِ وَالِاخْتِلَاطِ ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أَيُّ : فِي الْإِيمَانِ ، لَمْ يُؤَافِقَاهُمَا عَلَى الْإِيمَانِ ، وَلَا صَدَقَاهُمَا فِي الرِّسَالَةِ ، فَلَمْ يُجِدْ ذَلِكَ كُلَّهُ شَيْئًا ، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمَا مَحْذُورًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أَيُّ : لِكُفْرِهِمَا ﴿ وَقِيلَ ﴾ أَيُّ : لِلْمَرَأَتَيْنِ ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فِي فَاحِشَةٍ ، بَلْ فِي الدِّينِ ، فَإِنَّ نِسَاءَ الْأَنْبِيَاءِ مَعْصُومَاتٌ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْفَاحِشَةِ ، لِحُرْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، كَمَا قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ النُّورِ .

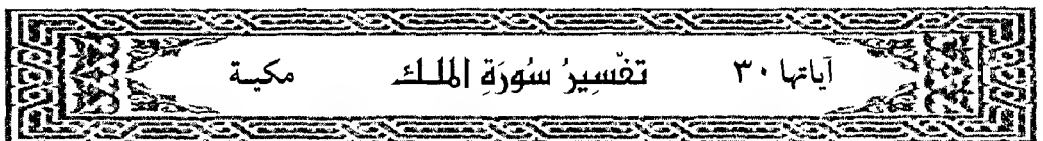
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ قَالَ : مَا رَنَّتَا ، أَمَا خِيَانَةُ امْرَأَةِ نُوحٍ فَكَانَتْ تُخْبِرُ أَنَّهُ مَجْنُونٌ ، وَأَمَا خِيَانَةُ امْرَأَةِ لُوطٍ فَكَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَى أَصْيَافِهِ .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٨﴾ وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢٩﴾

وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ لَا تَضُرُّهُمْ مُخَالَطَةُ الْكَافِرِينَ إِذَا كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً ﴾ [آل عمران : ٢٨] قَالَ قَتَادَةُ : كَانَ فِرْعَوْنُ أَعْتَى أَهْلَ الْأَرْضِ وَأَكْفَرُهُمْ ، فَوَاللَّهِ مَا ضَرَّ امْرَأَتَهُ كُفْرَ زَوْجِهَا حِينَ أَطَاعَتْ رَبَّهَا ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمٌ عَدْلٌ ، لَا يُؤَاخِذُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ .

فَقَوْلُهَا : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ قَالَ الْعُلَمَاءُ : اخْتَارَتْ الْجَارَ قَبْلَ الدَّارِ ، وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ مَرْفُوعٍ ﴿ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أَيُّ : خَلَّصْنِي مِنْهُ فَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ عَمَلِهِ ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ هِيَ آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أَيُّ : حَفِظَتْهُ وَصَاتَتْهُ ، وَالْإِحْصَانُ هُوَ الْعِفَافُ وَالْحَرِيَّةُ ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أَيُّ : بِرَأْسِطَةِ الْمَلِكِ ، وَهُوَ جَبْرِيلُ ، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَهُ إِلَيْهَا فَمَثَّلَ لَهَا فِي صُورَةِ بَشَرٍ سَوِيٍّ ، وَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَنْفُخَ فِيهِ فِي جَنْبِ ذِرْعِهَا ، فَنَزَلَتِ النَّفْخَةُ فَوَلَّجَتْ فِي فَرْجِهَا ، فَكَانَ مِنْهُ الْحَمْلُ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا بِقَدْرِهِ وَشَرِّعِهِ ﴾ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّحْرِيمِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ قَالَ : « إِنْ سُورَةٌ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثِينَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ : تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۚ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ۚ فَإِذْ جِئَ الْبَصَرُ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَرْجِعَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَاصِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾

يُمَجِّدُ تَعَالَى نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ ، وَيُخَيِّرُ أَنَّهُ بِيَدِهِ الْمُلْكُ ، أَي : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِمَا يَشَاءُ ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، لِقَهْرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ قَالَ : إِنَّ الْمَوْتَ أَمْرٌ وَجُودِيٌّ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّهُ أَوْجَدَ الْخَلَائِقَ مِنَ الْعَدَمِ لِيَبْلُوَهُمْ وَيَخْتَبِرَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أُمُوتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٨] فَسَمَّى الْحَالِ الْأَوَّلَ - وَهُوَ الْعَدَمُ - مَوْتًا ، وَسَمَّى هَذِهِ النَّشْأَةَ حَيَاةً . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أَي : خَيَّرَ عَمَلًا ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أَي : هُوَ الْعَزِيزُ الْعَظِيمُ الْمُنِيعُ الْجَنَابُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَفُورٌ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ ، بَعْدَمَا عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، وَإِنْ كَانَ تَعَالَى عَزِيزًا هُوَ مَعَ ذَلِكَ يَغْفِرُ وَيَرْحَمُ وَيَصْفَحُ وَيَتَجَاوَزُ . ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أَي : طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ . ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ﴾ أَي : بَلْ هُوَ مُصْطَحِبٌ مُسْتَوٍ ، لَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ وَلَا تَنَافُرٌ وَلَا مُحَافَافَةٌ ، وَلَا نَقْصٌ وَلَا عَيْبٌ وَلَا خَلَلٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذْ جِئَ الْبَصَرُ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴾ أَي : أَنْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَأَمَّلْهَا ، هَلْ تَرَى فِيهَا عَيْبًا أَوْ نَقْصًا أَوْ خَلَلًا أَوْ فُطُورًا ؟ . ﴿ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ مَرَّتَيْنِ ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ ذَلِيلًا صَاحِرًا ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : وَهُوَ كَلِيلٌ ، وَقِيلَ : الْحَسِيرُ : الْمُنْقَطِعُ مِنَ الْإِعْيَاءِ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : إِنَّكَ لَوْ كَرَرْتَ الْبَصَرَ - مَهْمَا كَرَرْتَ - لَا نَقَلِبْ إِلَيْكَ ، أَي : لَرَجِعَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ ﴿ خَاسِئًا ﴾ عَنْ أَنْ يَرَى عَيْبًا أَوْ خَلَلًا ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أَي : كَلِيلٌ ، وَقَدْ انْقَطَعَ مِنَ الْإِعْيَاءِ مِنْ كَثَرَةِ التَّكْرُّرِ وَلَا يَرَى نَقْصًا ، وَلَمَّا نَفَى عَنْهَا فِي خَلْقِهَا النِّقْصَ بَيْنَ كَمَالِهَا وَزِينَتِهَا فَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَاصِيحَ ﴾ ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الَّتِي وُضِعَتْ فِيهَا مِنَ السَّيَّارَاتِ وَالنُّوَابِثِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ ، عَادَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ عَلَى جِنْسِ

الْمَصَابِيحَ لَا عَلَى عَيْنِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرْمِي بِالْكَوَكِبِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ ، بَلْ بِشُهُبٍ مِنْ دُونِهَا ، وَقَدْ تَكُونُ مُسْتَمَدَّةً مِنْهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أَي : جَعَلْنَا لِلشَّيَاطِينِ هَذَا الْحَزِي فِي الدُّنْيَا ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ فِي الْآخِرَى .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿١١﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿١٢﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿١٣﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٤﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ أَي : بِئْسَ الْمَالُ وَالْمُنْقَلَبُ ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِي : الصَّيَاحُ ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ : تَغْلِي بِهِمْ كَمَا يَغْلِي الْحُبُّ الْقَلِيلُ فِي الْمَاءِ الْكَثِيرِ . ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أَي : يَكَادُ يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهَا عَلَيْهِمْ وَحَتْفِهَا بِهِمْ ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ . يَذْكُرُ تَعَالَى عَذَابَهُ فِي خَلْقِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَإِزْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] وَهَكَذَا عَادُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ ، وَنَدِمُوا حَيْثُ لَا تَنْفَعُهُمُ النَّدَامَةُ ، فَقَالُوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أَي : لَوْ كَانَتْ لَنَا عُقُولٌ نَنْتَفِعُ بِهَا أَوْ نَسْمَعُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْحَقِّ ، لَمَا كُنَّا عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْإِعْتِرَارِ بِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَنَا فَهْمٌ نَعِي بِهِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَلَا كَانَ لَنَا عَقْلٌ يُرْشِدُنَا إِلَى اتِّبَاعِهِمْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٦﴾ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحْضِرًا عَمَّنْ يَخَافُ مَقَامَ رَبِّهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إِذَا كَانَ غَائِبًا عَنِ النَّاسِ ، فَيَنْكَفُ عَنِ الْمَعَاصِي وَيَقُومُ بِالطَّاعَاتِ ، حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى : بِأَنَّهُ لَهُ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ، أَي :

تُكْفَرُ عَنْهُ ذُنُوبُهُ ، وَيُجَازَى بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى الصَّائِرِ
وَالسَّرَائِرِ : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أَيُّ : بِمَا خَطَرَ فِي الْقُلُوبِ
﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ، أَيُّ : أَلَا يَعْلَمُ الْخَالِقُ ؟ وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : أَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ مَخْلُوقَهُ ؟ وَالْأَوَّلُ
أَوَّلَى ، لِقَوْلِهِ ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ . ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لَهُمُ الْأَرْضَ وَتَذْلِيلِهِ
إِيَّاهَا لَهُمْ ، بِأَن جَعَلَهَا قَارَةً سَاكِنةً لَا تَمِيدُ وَلَا تَضْطَرِبُ ، بِمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ ، وَأَنْبَعٍ فِيهَا
مِنَ الْعُيُونِ ، وَسَلَكَ فِيهَا مِنَ السُّبُلِ ، وَهَيَّأَ فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَمَوَاضِعِ الزُّرُوعِ وَالثَّارِ ، قَالَ تَعَالَى :
﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ أَيُّ : فَسَافِرُوا حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ،
وَتَرَدَّدُوا فِي أَقَالِيمِهَا وَأَرْجَائِهَا فِي أَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ وَالتَّجَارَاتِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سَعْيَكُمْ لَا يُجْدِي
عَلَيْكُمْ شَيْئًا ، إِلَّا أَنْ يُسِرَّهُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ فَالسَّعْيُ فِي السَّبَبِ
لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ ، وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ
عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » . فَأَثْبَتَ لَهَا رَوَاحًا
وَعُدُوا لِطَلَبِ الرِّزْقِ ، مَعَ تَوَكُّلِهَا عَلَى اللَّهِ ﷻ وَهُوَ الْمُسَخِّرُ الْمُسِيرُ الْمُسَبِّبُ ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ أَيُّ :
الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ أَطْرَافُهَا وَفِجَاجُهَا وَنَوَاحِيهَا ، وَقِيلَ : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ الْجِبَالُ .

ءَأْمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ تَخْشِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي
السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٌ وَيُقْبَضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ
إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿٧١﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَعْذِيبِهِمْ ، بِسَبَبِ كُفْرِ بَعْضِهِمْ بِهِ ، وَعِبَادَتِهِمْ
مَعَهُ غَيْرُهُ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَحْلُمُ وَيَصْفَحُ وَيُؤْجِلُ وَلَا يُعَجِّلُ ﴿ ءَأْمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ تَخْشِفَ بِكُمْ
الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أَيُّ : تَذْهَبُ وَتُجِيءُ وَتَضْطَرِبُ ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا ﴾ أَيُّ : رِيحًا فِيهَا حَصَبَاءُ تَدْمَعُكُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ تَخْشِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ
يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٨] وَهَكَذَا تَوَعَّدُهُمْ هَهُنَا بِقَوْلِهِ :
﴿ فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴾ أَيُّ : كَيْفَ يَكُونُ إِنْذَارِي ، وَعَاقِبَةُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ وَكَذَّبَ بِهِ . ثُمَّ قَالَ
تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ، وَالْقُرُونِ الْحَالِيَةِ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرِ ﴾ أَيُّ : فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ وَمُعَاقِبَتِي لَهُمْ ؟ أَيُّ : عَظِيمًا شَدِيدًا أَلِيمًا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى :
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٌ وَيُقْبَضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ فِي الْهَوَاءِ ، وَتَارَةً

تَجْمَعُ جَنَاحًا وَتَنْشُرُ جَنَاحًا ﴿ مَا يُمَسِّكُهُنَّ ﴾ أَي : فِي الْجَوِّ ﴿ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ أَي : بِمَا سَخَّرَ لَهُنَّ مِنَ
الْهُوَاءِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ أَي : بِمَا يُصْلِحُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ .

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ
﴿١﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢﴾ أَفَمَنْ
يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣﴾ قُلْ هُوَ
الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٤﴾ قُلْ هُوَ
الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٥﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبْدُوا غَيْرَهُ ، يَتَّبِعُونَ عِنْدَهُمْ نَصْرًا وَرِزْقًا ، مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا
إِعْتَقَدُوهُ وَمُخْبِرًا لَهُمْ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ مَا أَمَلُوهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ
يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أَي : لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاكِ وَلَا نَاصِرٍ لَكُمْ غَيْرُهُ ،
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ
رِزْقَهُ ﴾ أَي : مَنْ هَذَا الَّذِي إِذَا قَطَعَ اللَّهُ عَنْكُمْ رِزْقَهُ يَرْزُقُكُمْ بَعْدَهُ ؟ أَي : لَا أَحَدٌ يُعْطِي وَيَمْنَعُ
وَيَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيَنْصُرُ إِلَّا اللَّهُ ﷻ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، أَي : وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَمَعَ هَذَا
يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ لَجُّوا ﴾ أَي : اسْتَمَرُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ وَإِفْكِهِمْ وَضَلَالِهِمْ
﴿ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ أَي : فِي مُعَانَدَةٍ وَاسْتِكْبَارٍ وَنُفُورٍ عَلَىٰ إِذْبَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ لَا يَسْمَعُونَ لَهُ وَلَا
يَتَّبِعُونَهُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، فَالْكَافِرُ مَثَلُهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ كَمَثَلِ مَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ
وَجْهِهِ ، أَي : يَمْشِي مُنْحَنِيًّا لَا مُسْتَوِيًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ ، أَي : لَا يَذْرِي أُبْنَ يَسْلُوكَ وَلَا كَيْفَ يَذْهَبُ ،
بَلْ تَأْتِي حَائِزٌ ضَالٌّ ، أَهَذَا أَهْدَىٰ ﴿ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا ﴾ أَي : مُتَّصِبُ الْقَامَةِ ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
أَي : عَلَىٰ طَرِيقٍ وَاضِحٍ بَيِّنٍ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُسْتَقِيمٌ وَطَرِيقُهُ مُسْتَقِيمَةٌ ، هَذَا مَثَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا ،
وَكَذَلِكَ يَكُونُونَ فِي الْآخِرَةِ ، فَالْمُؤْمِنُ يُحْشَرُ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، مُفْضًى بِهِ إِلَى
الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ يُحْشَرُ يَمْشِي عَلَىٰ وَجْهِهِ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ؟ فَقَالَ : « أَلَيْسَ

الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ فَأَدْرَا عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيهِمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ؟ . . . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ﴾ أَي : اِبْتَدَأَ خَلَقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أَي : الْعُقُولَ وَالْإِدْرَاكَ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أَي : مَا أَقَلَّ مَا تَسْتَعْمِلُونَ هَذِهِ الْقُوَى الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فِي طَاعَتِهِ وَامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : بَنَىكُمْ وَنَشَرَكُمْ فِي أَفْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا مَعَ اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ فِي لُغَاتِكُمْ وَاللُّوَانِكُمْ ، وَخُلَاكُمُ وَأَشْكَالِكُمْ وَصُورِكُمْ ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أَي : تُجْمَعُونَ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ وَالشَّتَاتِ يَجْمَعُكُمْ كَمَا فَرَّقَكُمْ وَيُعِيدُكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُنْكَرِينَ لِلْمَعَادِ الْمُسْتَبْعِدِينَ وَقَوْلُهُ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَي : مَتَى هَذَا الَّذِي تُخْبِرُنَا بِكَوْنِهِ ، مِنْ الْاجْتِنَاعِ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أَي : لَا يَعْلَمُ وَقَدْ ذَكَرْتُ عَلَى التَّعْيِينِ إِلَّا اللَّهَ ﷻ ، لَكِنَّهُ أَمَرَنِي أَنْ أُخْبِرَكُمْ أَنَّ هَذَا كَائِنٌ وَوَاقِعٌ لَا حَالَةَ فَاحْذَرُوهُ ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أَي : وَإِنَّمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ وَقَدْ أَدَيْتُهُ إِلَيْكُمْ . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَي : لَمَّا قَامَتِ الْقِيَامَةُ وَشَاهَدَهَا الْكُفَّارُ ، وَرَأَوْا أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ قَرِيبًا ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ وَإِنْ طَالَ زَمَنُهُ ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا كَذَّبُوا بِهِ سَاءَ لَهُمْ ذَلِكَ ، لِمَا يَعْلَمُونَ مَا لَهُمْ هُنَاكَ مِنَ الشَّرِّ ، أَي : فَأَحَاطَ بِهِمْ ذَلِكَ وَجَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي بَالٍ وَلَا حِسَابٍ ، وَلِهَذَا يُقَالُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴾ أَي : تَسْتَعْجِلُونَ .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْمَلُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْجَا حِدِينَ لِنِعْمِهِ ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَي : خَلَّصُوا أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّهُ لَا مُنْقِذَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا التَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ ، وَالرَّجُوعُ إِلَى دِينِهِ ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ وَقُوعُ مَا تَتَمَنَّوْنَ لَنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، فَسَوَاءٌ عَذَّبَنَا اللَّهُ أَوْ رَحِمَنَا ، فَلَا مَنَاصَ لَكُمْ مِنْ نَكَالِهِ وَعَذَابِهِ الْأَلِيمِ الْوَاقِعِ بِكُمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أَي : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسَتَعْمَلُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أَي : مِنَّا وَمِنْكُمْ ، وَلَكِنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أَي : ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ إِلَى

أَسْفَلَ ، فَلَا يُنَالُ بِالْفُؤُوسِ الْحِدَادِ ، وَلَا السَّوَاعِدِ الشَّدَادِ ، وَالْغَائِرُ : عَكْسُ النَّابِجِ ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ يَأْتِكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ أَيُّ : نَابِجٍ سَائِحٍ جَارٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، أَيُّ : لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ ﷻ فَمِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ أُتْبِعَ لَكُمْ الْمِيَاهَ ، وَأَجْرَاهَا فِي سَائِرِ أَفْطَارِ الْأَرْضِ بِحَسَبِ مَا يَخْتِاجُ الْعِبَادُ إِلَيْهِ مِنَ الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُلْكِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٥٢ تفسیر سورة القلم مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حُرُوفِ الْهِجَاءِ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » ، وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ ن ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ ص ﴾ ﴿ ق ﴾ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ ، وَتَحْرِيرُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ن ﴾ حُوتٌ عَظِيمٌ عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ الْعَظِيمِ الْمُحِيطِ ، وَهُوَ حَامِلٌ لِلْأَرْضِ السَّبْعِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ . قَالَ : أَكْتُبْ . قَالَ : وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : أَكْتُبُ الْقَدَرَ ، فَجَرَى بِمَا يَكُونُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَى يَوْمِ قِيَامِ السَّاعَةِ ، ثُمَّ خَلَقَ النَّوْنَ ، وَرَفَعَ بِخَارِ الْمَاءِ ، فَفُتِقَتْ مِنْهُ السَّمَاءُ ، وَبُسِطَتِ الْأَرْضُ عَلَى ظَهْرِ النَّوْنِ ، فَاضْطَرَبَ النَّوْنُ فَمَادَتْ الْأَرْضُ ، فَأُثْبِتَتْ بِالْجِبَالِ ، فَإِنَّمَا لَتَفْخَرُ عَلَى الْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّهُ جِنْسُ الْقَلَمِ الَّذِي يُكْتُبُ بِهِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق : ٣ - ٥] فَهُوَ قَسَمٌ مِنْهُ تَعَالَى ، وَتَنْبِيهٌُ لِحَقِّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْلِيمِ الْكِتَابَةِ الَّتِي بِهَا تُنَالُ الْعُلُومُ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ وَمَا يَكْتُبُونَ ، وَقِيلَ : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أَيُّ : وَمَا يَعْمَلُونَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ هَهُنَا بِالْقَلَمِ الَّذِي أَجْرَاهُ اللَّهُ بِالْقَدَرِ حِينَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ عَامٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أَيُّ : لَسْتُ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - بِمَجْنُونٍ كَمَا يَقُولُهُ الْجَهْلَةُ مِنْ قَوْمِكَ الْمُكَذِّبُونَ بِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْحَقِّ الْمُبِينِ ، فَنَسُبُوكَ فِيهِ إِلَى الْجُنُونِ ﴿ وَإِنَّ

لَكَ لِأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿١﴾ أَيُّ : بَلْ إِنَّ لَكَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ ، وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَبِيدُ ، عَلَى إِبْلَاغِكَ رَسُولَ رَبِّكَ إِلَى الْخَلْقِ ، وَصَبْرِكَ عَلَى أَذَاهُمْ ، وَمَعْنَى : ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أَيُّ : غَيْرُ مَقْطُوعٍ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : وَإِنَّكَ لَعَلَى دِينٍ عَظِيمٍ ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ . وَقِيلَ : لَعَلَى آدَبٍ عَظِيمٍ . عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ ، فَقُلْتُ : أَخْبِرِيَنِي يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ : أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَالَتْ : كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ . وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّهُ ﷺ صَارَ امْتِثَالَ الْقُرْآنِ أَمْرًا وَنَهْيًا سَجِيَّةً لَهُ ، وَخُلُقًا تَطْبَعَهُ وَتَرَكَ طَبْعَهُ الْجَبَلِيَّ ، فَهَمَّا أَمَرَهُ الْقُرْآنُ فَعَلَهُ وَمَهَّمَا نَهَاَهُ عَنْهُ تَرَكَهُ ، هَذَا مَعَ مَا جَبَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ مِنَ الْحَيَاءِ وَالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ وَكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَسْتَبْصِرْ وَتُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٢﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿ أَيُّ : فَسَتَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ وَسَيَعْلَمُ مُخَالِفُوكَ وَمُكَذِّبُوكَ مِنَ الْمَفْتُونِ الضَّالِّ مِنْكَ وَمِنْهُمْ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ عَذَابًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِيرِ ﴾ [النمر : ٢٦] وَمَعْنَى الْمَفْتُونِ ظَاهِرٌ ، أَيُّ : الَّذِي قَدْ إِفْتَنَّ عَنِ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُ ، وَإِنَّمَا دَخَلَتْ « الْبَاءُ » فِي قَوْلِهِ : « بِأَيِّكُمْ » لِتَدَلُّ عَلَى تَضْمِينِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَسْتَبْصِرْ وَتُبْصِرُونَ ﴾ ، وَتَقْدِيرُهُ : فَسَتَعْلَمُ وَبَعْلَمُونَ ، أَوْ فَسَتُخْبِرُ وَتُخْبِرُونَ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أَيُّ : هُوَ يَعْلَمُ تَعَالَى أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ هُوَ الْمُهْتَدِي ، وَيَعْلَمُ الْحِزْبَ الضَّالَّ عَنِ الْحَقِّ .

فَلَا تُطِيعِ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣﴾ وَدُّوْا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٤﴾ وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَافٍ مَّهِينٍ ﴿٥﴾ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿٦﴾ مَّنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ ﴿٨﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٩﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى ، كَمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْكَ وَأَعْطَيْنَاكَ الشَّرْعَ الْمُسْتَقِيمَ وَالْخُلُقَ الْعَظِيمَ ﴿ فَلَا تُطِيعِ الْمُكْذِبِينَ ﴾ ﴿٣﴾ وَدُّوْا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٤﴾ قِيلَ : لَوْ تَرُخَّصَ لَهُمْ فَيَرْخُصُونَ ، وَقِيلَ : ﴿ وَدُّوْا لَوْ تَدَّهِنُ ﴾ تَرَكْنُ إِلَى أَهْلِهِمْ وَتَتْرَكَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَافٍ مَّهِينٍ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْكَاذِبَ لِضَعْفِهِ وَمَهَانَتِهِ إِنَّمَا يَتَّقِي بِأَيِّامِهِ الْكَاذِبَةَ الَّتِي يَجْتَرِئُ بِهَا عَلَى أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَاسْتِعْمَالُهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا ، قِيلَ : الْمَهِينُ : الْكَاذِبُ ، وَقِيلَ : هُوَ الضَّعِيفُ الْقَلْبُ ، وَقِيلَ : كُلُّ حَلَافٍ مُّكَابِرٍ مَّهِينٍ ضَعِيفٍ ﴿ هَمَّازٍ ﴾ يَعْنِي : الْإِغْتِيَابُ ﴿ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ يَعْنِي :

الَّذِي يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ ، وَيُحَرِّشُ بَيْنَهُمْ ، وَيَنْفُلُ الْحَدِيثَ لِفَسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَهِيَ الْحَالِقَةُ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ : « إِنَّمَا لِبَعْدَبَانٍ وَمَا يُعَذِّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ » الْحَدِيثُ . وَقَوْلُهُ : « مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ » أَيُّ : يَمْنَعُ مَا عَلَيْهِ وَمَا لَدَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ « مُعْتَدٍ فِي تَنَاوُلِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ ، يَتَجَاوَرُ فِيهَا الْحَدَّ الْمَشْرُوعَ » أُنِيمٍ « أَيُّ : يَتَنَاوَلُ الْمُحَرَّمَاتِ . وَقَوْلُهُ : « عُثْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ » أَمَّا الْعُثْلُ فَهُوَ : الْفُظُّ الْغَلِيظُ الصَّحِيحُ الْجُمُوعُ الْمَنُوعُ . وَأَمَّا الزَنِيمُ : فَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « عُثْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ » قَالَ : رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَهُ زَنْمَةٌ مِثْلُ زَنْمَةِ الشَّاةِ . وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّهُ كَانَ مَشْهُورًا بِالسُّوءِ كَشَهْرَةِ الشَّاةِ ذَاتِ الزَنْمَةِ مِنْ بَيْنِ أَخَوَاتِهَا ، وَإِنَّمَا الزَنِيمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ : هُوَ الدَّعِيُّ فِي الْقَوْلِ . وَقِيلَ : الدَّعِيُّ الْفَاحِشُ اللَّيِّمُ . وَقِيلَ : هُوَ وَلَدُ الزَّنا ، وَالْأَقْوَالُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَتَرْجِعُ إِلَى مَا قُلْنَاهُ ، وَهُوَ أَنَّ الزَنِيمَ هُوَ : الْمَشْهُورُ بِالسُّرِّ الَّذِي يُعْرَفُ بِهِ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ ، وَغَالِيًا يَكُونُ دَعِيًّا وَلَدُ زَنَا ، فَإِنَّهُ فِي الْغَالِبِ يَتَسَلَّطُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ مَا لَا يَتَسَلَّطُ عَلَى غَيْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : « أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ ⑤ » إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَتْ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ⑥ يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا مُقَابَلَةٌ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالْبَيْنِ ، كَفَرَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﷻ وَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَزَعَمَ أَنَّهَا كَذِبٌ مَأْخُوذٌ مِنْ أَسْطِيرِ الْأَوَّلِينَ ⑦ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ⑧ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : سَنَبِيْنُ أَمْرُهُ بَيَانًا وَاضِحًا حَتَّى يَعْرِفُوهُ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ ، كَمَا لَا تَخْفَى السِّمَةُ عَلَى الْخُرَاطِيمِ ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : « سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ⑧ يُقَاتِلُ يَوْمَ بَدْرٍ فَيُخْطَمُ بِالسَّيْفِ فِي الْقِتَالِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : « سَنَسِمُهُ ⑧ سِمَةُ أَهْلِ النَّارِ ، يَعْنِي : نُسَرِّدُ وَجْهَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَعَبَّرَ عَنِ الْوَجْهِ بِالْخُرْطُومِ . وَلَا مَانِعَ مِنْ اجْتِمَاعِ الْجَمِيعِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ⑨ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ⑩ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ⑪ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ⑫ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ⑬ أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرْتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ ⑭ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ⑮ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ⑯ وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ ⑰ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ⑱ بَلْ لَحْنٌ مَحْرُومُونَ ⑲ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ⑳ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ㉑ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ㉒ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ㉓ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا حَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ㉔

كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

هَذَا مَثَلُ ضَرْبِ اللَّهِ تَعَالَى لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ فِيمَا أَهْدَى إِلَيْهِمْ مِنَ الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَأَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ الْجَسِيمَةِ ، وَهُوَ بَعَثَهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَيْهِمْ ، فَقَابَلُوهُ بِالتَّكْذِيبِ وَالرَّدِّ وَالْمَحَارَبَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ ﴾ أَيُّ : اخْتَبَرْنَاهُمْ ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وَهِيَ الْبُسْتَانُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى أَنْوَاعِ الثَّمَارِ وَالْفَوَاكِهِ ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أَيُّ : حَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ لَيَجِدَنَّ ثَمَرَهَا لَيْلًا ؛ لَيْلًا يَعْلَمُ بِهِمْ فَقِيرٌ وَلَا سَائِلٌ لِيَتَوَقَّرَ ثَمَرُهَا عَلَيْهِمْ وَلَا يَتَصَدَّقُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ ﴿ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴾ أَيُّ : فِيمَا حَلَفُوا بِهِ ، وَلِهَذَا حَنَّتْهُمْ اللَّهُ فِي آيَاتِنَاهُمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴾ أَيُّ : أَصَابَتْهَا آفَةٌ سَمَاقِيَّةٌ ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ أَيُّ : كَاللَّيْلِ الْأَسْوَدِ ، وَقِيلَ : مِثْلُ الزَّرْعِ إِذَا حُصِدَ أَيُّ : هَشِيمًا يَبَسًا ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ أَيُّ : لَمَّا كَانَ وَقْتُ الصُّبْحِ نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَذْهَبُوا إِلَى الْجَذَازِ ﴿ أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ ﴾ أَيُّ : تُرِيدُونَ الصَّرَامَ ﴿ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴾ أَيُّ : يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، بِحَيْثُ لَا يُسْمِعُونَ أَحَدًا كَلَامَهُمْ . ثُمَّ فَسَّرَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالَمُ السِّرِّ وَالنَّجْوَى - مَا كَانُوا يَتَخَفَتُونَ بِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ أَيُّ : يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَا تُمْكِنُوا الْيَوْمَ فَقِيرًا يَدْخُلُهَا عَلَيْكُمْ ﴿ وَاعْدُوا عَلَى حَرْثٍ ﴾ أَيُّ : قُوَّةً وَشِدَّةً ، وَقِيلَ : أَيُّ : جَدًّا ، وَقِيلَ : عَلَى غَيْظٍ ﴿ قَدِيرِينَ ﴾ أَيُّ : عَلَيْهَا فِيمَا يَزْعُمُونَ وَيَرُومُونَ .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ أَيُّ : فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهَا وَأَشْرَفُوا عَلَيْهَا ، وَهِيَ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ ﷻ قَدْ اسْتَحَالَتْ عَنْ تِلْكَ النَّضَارَةِ وَالزَّهْرَةِ وَكَثْرَةِ الثَّمَارِ إِلَى أَنْ صَارَتْ سَوْدَاءَ مُدْهَمَّةً لَا يَنْتَفِعُ بِشَيْءٍ مِنْهَا ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَخْطَأُوا الطَّرِيقَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ أَيُّ : قَدْ سَلَكْنَا إِلَيْهَا غَيْرَ الطَّرِيقِ فَتَهَنَّا عَنْهَا ، ثُمَّ رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ وَتَيَقَّنُوا أَنَّهَا هِيَ ، فَقَالُوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أَيُّ : بَلْ هِيَ هَذِهِ وَلَكِنْ نَحْنُ لَا حَظَّ لَنَا وَلَا نَصِيبَ ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أَيُّ : أَعَدَّهُمْ وَخَيْرُهُمْ ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أَيُّ : لَوْلَا تَسْتَنْتُونَ ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : هُوَ قَوْلُ الْقَائِلِ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ : هَلَّا تُسَبِّحُونَ اللَّهَ وَتَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكُمْ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أَتَوْا بِالطَّاعَةِ حَيْثُ لَا تَنْفَعُ ، وَنَدِمُوا وَاعْتَرَفُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوَّمُونَ ﴿ أَيُّ : يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى مَا كَانُوا أَصْرُوا عَلَيْهِ مِنْ مَنَعَ الْمَسَاكِينَ مِنْ حَقِّ الْجَذَازِ ، فَمَا كَانَ جَوَابَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ إِلَّا الْإِعْتِرَافُ بِالْخَطِيئَةِ وَالذَّنْبِ ﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أَيُّ : اِعْتَدَيْنَا وَبَغَيْنَا

وَطَعْنَا، وَجَاوَزْنَا الْحَدَّ حَتَّى أَصَابْنَا مَا أَصَابَنَا ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾
 قِيلَ: رَغِبُوا فِي بَدَلِهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَقِيلَ: احْتَسِبُوا ثَوَابَهَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ أَيُّ: هَكَذَا عَذَابُ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ وَبَخِلَ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ
 وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، وَمَنْعَ حَقِّ الْمُسْكِينِ وَالْفَقِيرِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ، وَبَدَلَ نِعْمَةِ اللَّهِ كُفْرًا ﴿وَلَعَذَابُ
 الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: هَذِهِ عُقُوبَةُ الدُّنْيَا كَمَا سَمِعْتُمْ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٦﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَرِيمِينَ ﴿١٧﴾ مَا لَكُمْ
 كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٨﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَحْمُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَكُمْ
 أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ
 ﴿٢٢﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَمَا أَصَابَهُمْ فِيهَا مِنَ النِّعْمَةِ حِينَ عَصَا اللَّهُ ﷻ
 وَخَالَفُوا أَمْرَهُ، بَيَّنَّ أَنَّ لِمَنِ اتَّقَاهُ وَأَطَاعَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ جَنَّاتُ النَّعِيمِ الَّتِي لَا تَبِيدُ. وَلَا تَقْرُغُ
 وَلَا يَنْقُضِي نَعِيمُهَا. ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَرِيمِينَ﴾ أَيُّ: أَفَنُفَسَاوِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ
 فِي الْجَزَاءِ، كَلَّا وَرَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَيُّ: كَيْفَ تَنْظُرُونَ
 ذَٰلِكَ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ ﴿١٩﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَحْمُرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى
 أَفَيَأْيِدِكُمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ تَدْرُسُونَهُ وَتَحْفَظُونَهُ وَتَتَدَاوُلُونَهُ بِقُلِّ الْحَلْفِ عَنِ السَّلَفِ
 مُتَضَمِّنٌ حُكْمًا مُؤَكَّدًا كَمَا تَدْعُونَهُ؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَحْمُرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةُ إِلَىٰ يَوْمِ
 الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أَيُّ: أَمَعَكُمْ عَهْدٌ مِنَّا وَمَوَاقِثُ مُؤَكَّدَةٌ؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أَيُّ:
 أَنَّهُ سَيَحْصُلُ لَكُمْ مَا تَرِيدُونَ وَتَشْتَهُونَ ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أَيُّ: قُلْ لَهُمْ: مَنْ هُوَ الْمُتَضَمِّنُ
 الْمُتَكَفِّلُ بِهَذَا؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أَيُّ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢٤﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ
 تَرَهِقُهُمْ ذُلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٢٥﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ
 بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٢٧﴾
 أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ، بَيَّنَّ مَتَى ذَٰلِكَ كَائِنٌ وَوَاقِعٌ فَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ

مِنَ الْأَهْوَالِ وَالزَّالِيلِ وَالْبَلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ وَالْأُمُورِ الْعِظَامِ . عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً ، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهْقُهُمْ ذَلَّةٌ » أَي : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ بِإِجْرَامِهِمْ وَتَكْثِيرِهِمْ فِي الدُّنْيَا فَعُوقِبُوا بِنَقِيضِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ، وَلَمَّا دُعُوا إِلَى السُّجُودِ فِي الدُّنْيَا فَاِمْتَنَعُوا مِنْهُ مَعَ صِحَّتِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ ، كَذَلِكَ عُوِقِبُوا بِعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ إِذَا تَجَلَّى الرَّبُّ تعالى فَيَسْجُدُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الْكَافِرِينَ وَلَا الْمُنَافِقِينَ أَنْ يَسْجُدَ ، بَلْ يَعُودُ ظَهْرُ أَحَدِهِمْ طَبَقًا وَاحِدًا ، كُلَّمَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ لِقَفَاهُ عَكْسُ السُّجُودِ ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا بِخِلَافٍ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : « فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ » يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ، أَي : دَعْنِي وَإِيَّاهُ مِنِّي وَمِنْهُ أَنَا أَعْلَمُ بِهِ كَيْفَ أَسْتَدْرِجُهُ ، وَأُمِدُّهُ فِي عِيِّهِ وَأَنْظُرُهُ ، ثُمَّ أَخَذَهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أَي : وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، بَلْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ كَرَامَةً وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إِهَانَةٌ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : « وَأُمْلِي لَهُمْ » أَي : وَأَوْخَرُهُمْ وَأَنْظَرُهُمْ وَأُمِدُّهُمْ ، وَذَلِكَ مِنْ كَيْدِي وَمَكْرِي بِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : « إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » أَي : عَظِيمٌ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَكَذَّبَ رُسُلِي وَاجْتَرَأَ عَلَى مَعْصِيَتِي .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ » ١٠٠ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ : أَنْكَ يَا مُحَمَّدُ تَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تعالى بِلاَ أَجْرٍ تَأْخُذُهُ مِنْهُمْ ، بَلْ تَرْجُو ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُمْ يُكَذِّبُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ بِمُجَرَّدِ الْجَهْلِ وَالْكَفْرِ وَالْعِنَادِ .

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ١٠١ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ١٠٢ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ١٠٣ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ١٠٤ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ١٠٥

يَقُولُ تَعَالَى : « فَاصْبِرْ » يَا مُحَمَّدُ عَلَى أَدَى قَوْمِكَ لَكَ وَتَكْذِيبِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَحْكُمُ لَكَ عَلَيْهِمْ ، وَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلَا تَبَاعَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوتِ » يَعْنِي : ذَا النُّونِ ، وَهُوَ يُوسُفُ بْنُ مَتَّى عليه السلام ، حِينَ ذَهَبَ مُغَاضِبًا عَلَى قَوْمِهِ ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ مِنْ رُكُوبِهِ فِي الْبَحْرِ ، وَالتَّيَقَامِ الْخُوتَ لَهُ ، وَشُرُودِ الْخُوتِ بِهِ فِي الْبَحَارِ ، وَطُلُمَاتِ عَمَرَاتِ الْيَمِّ ، وَسَمَاعِهِ تَسْبِيحِ الْبَحْرِ بِمَا فِيهِ لِلْعَلِيِّ الْقَدِيرِ الَّذِي لَا يَرُدُّ مَا أَنْفَذَهُ مِنَ التَّقْدِيرِ ، فَحِينَئِذٍ نَادَى فِي

الظُّلُمَاتِ ﴿١﴾ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ [الأنبياء : ٨٧] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَخَيَّرْنَاهُ مِنَ الْغَمْرِ وَكَذَلِكَ نُخَيِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٨] ، وَقَالَ هَاهُنَا ﴿ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ أَي : مَكْرُوبٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ ﴾ لِيُنْفِذُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ، أَي : لِيُعِينُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ، بِمَعْنَى : يَحْسُدُونَكَ لِبُغْضِهِمْ إِيَّاكَ ، لَوْلَا وَقَايَةُ اللَّهِ لَكَ وَحَايَتُهُ إِيَّاكَ مِنْهُمْ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَ إِصَابَتُهَا وَتَأْثِيرُهَا حَقٌّ بِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْ الْعَيْنُ ، وَإِذَا اسْتَغْسَلْتُمْ فَاغْسِلُوا » . وَعَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ قَالَ : قَالَتْ أَسْمَاءُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ بَنِي جَعْفَرٍ نُصِيبُهُمُ الْعَيْنُ أَفَاسْتَرْقِي لَهُمْ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أَي : يَزِدُّوْنَهُ بِأَعْيُنِهِمْ وَيُؤْذُونَهُ بِالسِّتِّهِمْ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ، أَي : لِمَجِيئِهِ بِالْقُرْآنِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « الْقَلَمِ » وَلِلَّهِ الْحَمْدُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ كَذَبَتْ ثُمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤ فَأَمَّا ثُمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا وَعَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ ٧ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ٨ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٩ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ١٠ بِالْخَاطِئَةِ ١١ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ١٢ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ١٣ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيماً أُولَئِكَ أَصْنَانُ ١٤

« الْحَاقَّةُ » مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لِأَنَّ فِيهَا يَتَحَقَّقُ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ ؛ وَلِهَذَا عَظَّمَ اللَّهُ أَمْرَهَا فَقَالَ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى إِهْلَاكَهُ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبِينَ بِهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا ثُمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ ، وَهِيَ الصَّيْحَةُ الَّتِي أَسْكَتَهُمُ وَالزَّلْزَلَةُ الَّتِي أَسْكَتَهُمْ . ﴿ وَأَمَّا وَعَادٌ

فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ ۖ أَيٌّ : بَادِرَةٌ ﴿عَائِيَّةٌ﴾ أَيٌّ : شَدِيدَةُ الْهُبُوبِ . قَالَ قَتَادَةُ : عَتَتْ عَلَيْهِمْ حَتَّى نَقَبَتْ عَنْ أَفْئِدَتِهِمْ ، وَقِيلَ : ﴿عَائِيَّةٌ﴾ عَتَتْ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ رَحْمَةٍ وَلَا بَرَكَةٍ ، ﴿سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيٌّ : سَلَطَهَا عَلَيْهِمْ ﴿سَنَعَ لَيَالٍ وَثَمِينَةً أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أَيٌّ : كَوَامِلٌ مُتَتَابِعَاتٍ مَسَائِمٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا بِخَلِّ حَاوِيَةٍ﴾ ، قِيلَ : لِأَنَّهَا تَكُونُ فِي عَجْزِ الشِّتَاءِ . ﴿حَاوِيَةٍ﴾ خَرِبَةٌ ، وَقِيلَ : بِالْيَةِ ، أَيٌّ : جَعَلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ بِأَحَدِهِمُ الْأَرْضَ فَيَخِرُّ مَيِّتًا عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ، فَيَنْشْرِخَ رَأْسُهُ وَتَبْقَى جُثَّتُهُ هَامِدَةً ، كَأَنَّهَا قَائِمَةُ النَّخْلَةِ إِذَا خَرَتْ بِلَا أَغْصَانٍ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأَهْلِكْتُ عَادًا بِالدُّبُورِ» . ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ أَيٌّ : هَلْ نُحِسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَقَايَاهُمْ أَوْ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِمْ ؟ بَلْ بَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُمْ خَلَفًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ۖ فُرِّيَ بِكَسْرِ الْقَافِ ، أَيٌّ : وَمَنْ عِنْدَهُ مِمَّنْ فِي زَمَانِهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ مِنْ كُفَّارِ الْقَبِيطِ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِفَتْحِهَا ، أَيٌّ : وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأُمَمِ الْمُشْبِهِينَ لَهُ ، وَالْمُؤْتَفِكُتْ﴾ ، وَهُمْ الْأُمَمُ الْمَكْذُوبُونَ بِالرُّسُلِ ﴿بِالْحَاطِئَةِ﴾ ، أَيٌّ : بِالْفَعْلَةِ الْحَاطِئَةِ وَهِيَ التَّكْذِيبُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ . قَالَ الرَّبِيعُ : ﴿بِالْحَاطِئَةِ﴾ أَيٌّ : بِالْمَعْصِيَةِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : بِالْحُطَايَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ ، وَهَذَا جِنْسٌ ، أَيٌّ : كُلُّ كَذَّبَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ [ص : ١٤] فَحَقَّ وَعِيدُ ، وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِالْجَمِيعِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء : ١٢٣] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء : ١٤١] ، وَإِنَّمَا جَاءَ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ وَاحِدٌ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ أَيٌّ : عَظِيمَةً شَدِيدَةً أَلِيمَةً .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْأَمَاءُ﴾ أَيٌّ : زَادَ عَلَى الْحَدِّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَارْتَفَعَ عَلَى الْوُجُودِ . وَذَلِكَ بِسَبَبِ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَى قَوْمِهِ حِينَ كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ فَعَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَعَمَّ أَهْلَ الْأَرْضِ بِالطُّوفَانِ ، إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ نُوحٍ وَذُرِّيَّتِهِ . ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ ، وَهِيَ السَّفِينَةُ الْجَارِيَةُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عَادَ الضَّمِيرُ عَلَى الْجِنْسِ لِذِلَالَةِ الْمَعْنَى عَلَيْهِ ، أَيٌّ : وَأَبْقَيْنَا لَكُمْ مِنْ جِنْسِهَا مَا تَرْكَبُونَ عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ فِي الْبِحَارِ ، ﴿وَتَعِيًّا أَدُنُّ وَاعِيَةً﴾ أَيٌّ : وَتَفْهَمُ هَذِهِ النُّعْمَةَ وَتَذْكُرُهَا أَدُنُّ وَاعِيَةً . قِيلَ : حَافِظَةٌ سَامِعَةٌ . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿أَدُنُّ وَاعِيَةً﴾ عَقَلْتُ عَنِ اللَّهِ فَانْتَفَعْتُ بِهَا سَمِعْتُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً ﴿١﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿٢﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٣﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿٤﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا

وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾
يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْفَزَعِ ، ثُمَّ يُعْصِفُهَا نَفْخَةُ الصَّعْقِ
حِينَ يَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ بَعْدَهَا نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ، وَهِيَ هَذِهِ النَّفْخَةُ ، وَقَدْ أَكَّدَهَا هَهُنَا بِأَنَّهَا وَاحِدَةٌ ؛ لِأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ لَا
يُخَالَفُ وَلَا يُبَايَعُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرُّارٍ وَتَأْكِيدٍ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا
دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ أَيُ : فَمَدَّتْ مَدَّ الْأَيْدِ الْعُكَاظِيِّ ، وَتَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ
وَقَعَتِ الْوَالِقَةُ ﴾ أَيُ : قَامَتِ الْقِيَامَةُ ﴿ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : هِيَ
كَقَوْلِهِ : ﴿ وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ [النبا: ١٩] ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ الْمَلَكُ : اسْمُ جَنَسٍ ،
أَيُ : الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَرْجَاءِ السَّمَاءِ . رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : عَلَى مَا لَمْ يَبِهِ
مِنْهَا . أَيُ : حَافَتَهَا ، وَقِيلَ : أَطْرَافَهَا ، وَقِيلَ : أَبْوَابُهَا . ﴿ وَتَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴾
أَيُ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ الْعَرْشَ ثَمَانِيَّةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْعَرْشِ الْعَرْشُ
الْعَظِيمُ ، أَوِ الْعَرْشُ الَّذِي يُوضَعُ فِي الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .
وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ ، بَعْدَ
مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعُنُقِهِ مَخْفِقُ الطَّيْرِ سَبْعُمِائَةِ عَامٍ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى
مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ أَيُ : تُعْرَضُونَ عَلَى عَالَمِ السِّرِّ وَالنَّجْوَى الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمْ ،
بَلْ هُوَ عَالِمٌ بِالظُّوَاهِرِ وَالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » .

فَأَمَّا مَنْ أَوَفَّ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةٌ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ
حِسَابِيَّةٌ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا
وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ سَعَادَةِ مَنْ يُؤْتَى كِتَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَمِينِهِ وَفَرَحِهِ بِذَلِكَ ، وَأَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ
يَقُولُ لِكُلِّ مَنْ لَقِيَهُ : ﴿ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةٌ ﴾ أَيُ : خُذُوا أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي فِيهِ خَيْرٌ
وَحَسَنَاتٌ مُحَضَّةٌ ؛ لِأَنَّهُ يَمُنُّ بِدَلِّ اللَّهِ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ . وَ ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّهَا بِمَعْنَى : هَاكُمُ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَّةٌ ﴾ أَيُ : قَدْ كُنْتُ مُوقِنًا فِي الدُّنْيَا أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ
كَائِنْ لَا مُحَالَاةَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ أَيُ : مَرْضِيَّةٍ ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أَيُ :
رَفِيعَةٍ قُصُورُهَا ، حَسَانُ حُورُهَا ، نَعِيمَةُ دُورُهَا ، دَائِمُ حُبُورُهَا . ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ أَيُ : قَرِيبَةٌ
يَتَنَاوَلُهَا أَحَدُهُمْ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَى سَرِيرِهِ .

وَأَمَّا مَنْ أَوْتَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ﴿١٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ ﴿١٦﴾ يَلَيِّنَهَا كَأَنَّ الْقَاصِيَةَ ﴿١٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ﴿١٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴿١٩﴾ خَذُوهُ فَعْلُوهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٢٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ﴿٢٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٢٧﴾

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أُعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله ، فحينئذ يندم غاية الندم ، فيقول : ﴿ يَلَيِّنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ﴿١٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ ﴿١٦﴾ يَلَيِّنَهَا كَأَنَّ الْقَاصِيَةَ ﴾ يعني : مَوْتَهُ لَا حَيَاةَ بَعْدَهَا ، وَقَالَ قَتَادَةُ : تَمَّتِ الْمَوْتُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا أَكْرَهُ إِلَيْهِ مِنْهُ . ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ﴿١٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴾ أي : لَمْ يَدْفَعْ عَنِّي مَالِي وَلَا جَاهِي عَذَابَ اللَّهِ وَبِأَسْأُهُ ، بَلْ خَلَصَ الْأَمْرُ إِلَيَّ وَحْدِي ، فَلَا مُعِينَ لِي وَلَا مُجِيرَ ، فَعِنْدَهَا يَقُولُ اللَّهُ ﷻ : ﴿ خَذُوهُ فَعْلُوهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي : يَأْمُرُ الزَّبَانِيَةَ أَنْ تَأْخُذَهُ عُنْفًا مِنَ الْمَحْشَرِ ، فَتَعْلُوهُ ، أَي : تَضَعُ الْأَغْلَالَ فِي عُنُقِهِ ، ثُمَّ تُورِدُهُ إِلَىٰ جَهَنَّمَ فَتُصْلِيهِ إِيَّاهَا ، أَي : تَعْمُرُهُ فِيهَا . ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي : اُعْمُرُوهُ فِيهَا . ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ قيل : بِذِرَاعِ الْمَلِكِ . ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ قيل : تَدْخُلُ فِي إِسْتِهِ ثُمَّ تُخْرِجُ مِنْ فِيهِ ، ثُمَّ يُنْظَمُونَ فِيهَا كَمَا يُنْظَمُ الْجُرَادُ فِي الْعُودِ حِينَ يُشَوَى . ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ أي : لَا يَقُومُ بِحَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَلَا يَنْفَعُ خَلْقَهُ وَيُؤَدِّي حَقَّهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُوَحِّدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَلِلْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ حَقُّ الْإِحْسَانِ وَالْمُعَاوَنَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى . ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ﴿٢٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ أي : لَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ مَنْ يُنْقِذُهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، لَا حَمِيمٌ ، وَهُوَ الْقَرِيبُ ، وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ، وَلَا طَعَامٌ لَهُ هَهُنَا إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ . قَالَ قَتَادَةُ : هُوَ شَرُّ طَعَامِ أَهْلِ النَّارِ ، وَقِيلَ : الْغِسْلِينَ : الدَّمُ وَالْمَاءُ يَسِيلُ مِنْ حُومِهِمْ .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَا تُبْصَرُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٣٢﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُّخْسِمًا لِخَلْقِهِ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ آيَاتِهِ فِي خُلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ كَمَالِهِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ،

وَمَا غَاب عَنْهُمْ مِمَّا لَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْغَيْبَاتِ عَنْهُمْ : إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي إِصْطَفَاهُ لِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٢٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ، أَضَافَهُ إِلَيْهِ عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُبْلَغَ عَنِ الْمُرْسَلِ ؛ وَهَذَا أَضَافَهُ فِي سُورَةِ التَّكْوِينِ إِلَى الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (٣٠) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿ مَطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ ﴾ وَهَذَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْأَيْمَنِ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى جَبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أَيِ : بِمُتَّهَمٍ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُوْمِنُونَ ﴾ (٣١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿ فَأَضَافَهُ اللَّهُ تَارَةً إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ ، وَتَارَةً إِلَى الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُبْلَغٌ عَنِ اللَّهِ مَا اسْتَأْمَنَهُ عَلَيْهِ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ (٣٢) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿ ١ ﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿ ٢ ﴾ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ ٣ ﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿ ٤ ﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ ٥ ﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿ ٦ ﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿ ٧ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أَيِ : مُحَمَّدٌ ﷺ ، لَوْ كَانَ كَمَا يَزْعُمُونَ مُفْتَرِيًا عَلَيْنَا فَرَادَ فِي الرِّسَالَةِ أَوْ نَقَصَ مِنْهَا ، أَوْ قَالَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ فَنسَبَهُ إِلَيْنَا ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ لِعَاجِلِنَاهُ بِالْعُقُوبَةِ ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ ، قِيلَ : مَعْنَاهُ لَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ فِي الْبَطْشِ ، وَقِيلَ : لَأَخَذْنَا بِيَمِينِهِ . ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ يَبْطِئُ الْقَلْبَ ، وَهُوَ الْعِرْقُ الَّذِي الْقَلْبُ مُعَلَّقٌ فِيهِ . ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ أَيِ : فَمَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَلَى أَنْ يَحْجِزَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ إِذَا أَرَدْنَا بِهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَالْمَعْنَى فِي هَذَا : بَلْ هُوَ صَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ مُقَرَّرٌ لَهُ مَا يُبْلَغُهُ عَنْهُ ، وَمُؤَيَّدٌ لَهُ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالِدَّلَالَاتِ الْفَاطِعَاتِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾ أَيِ : مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ سَيُوجَدُ مِنْكُمْ مَنْ يُكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ . ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَإِنَّ التَّكْذِيبَ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقِيلَ : لِنَدَامَةِ ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَى الْقُرْآنِ ، أَيِ : وَإِنَّ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ بِهِ لَحَسْرَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٣) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [الشعراء : ٢٠٠-٢٠١]

وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أَيُّ : الْحَبْرُ الصَّدْقُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أَيُّ : الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ .
آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَاقَّةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ فِيهِ تَضْمِينٌ دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ « الْبَاءِ » كَأَنَّهُ مُقَدَّرٌ اسْتَعْجَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاسْتَعْجِلُونَا بِالْعَذَابِ وَلَكِنْ تُخَلِّفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ [الحج : ٤٧] أَيُّ : وَعَذَابُهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قَالَ : النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كِلْدَةَ ، وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ : ذَلِكَ سُؤَالُ الْكُفَّارِ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ، وَقِيلَ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ دَعَا دَاعٍ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ يَقَعُ فِي الْآخِرَةِ ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ : ﴿ اَللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاقِعٍ ﴾ لِلْكَافِرِينَ ﴿ أَيُّ : مُرْصَدٌ مُعَدٌّ لِلْكَافِرِينَ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿ وَاقِعٍ ﴾ جَاءَ ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ أَيُّ : لَا دَافِعَ لَهُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ كَوْنَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ذُو الدَّرَجَاتِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ يَعْنِي : الْعُلُوَّ وَالْفَوَاضِلَ . ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ تَعْرُجُ : تَصْعَدُ ، وَأَمَّا الرُّوحُ ، فَقَالَ الْبَعْضُ : هُمْ خَلَقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يُشَبِّهُونَ النَّاسَ وَلَيْسُوا أَنَاسًا ، قُلْتُ : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ جِبْرِيلُ وَيَكُونُ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْمُ جِنْسٍ لِأَرْوَاحِ بَنِي آدَمَ ، فَإِنَّهَا إِذَا قُبِضَتْ يَصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْبَرَاءِ . ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ صَاحِبٍ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ إِلَّا جُعِلَ صَفَائِحُ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَتُكْوَى بِهَا جَبْهَتُهُ وَجَنْبُهُ وَظَهْرُهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ

بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ يَمَا تَعُدُّونَ ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ . » وَعَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قَالَ : فَأَتَمَّهُ ، فَقِيلَ لَهُ فِيهِ ، فَقَالَ : مَا يَوْمٌ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا سَأَلْتُكَ لِتُحَدِّثَنِي . قَالَ : هُمَا يَوْمَانِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِمَا ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِمَا لَا أَعْلَمُ . ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ أَيُّ : اصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِكَ لَكَ وَاسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ اسْتِغْثَاذًا لَوْفُوعِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى : ١٨] وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ أَيُّ : وَفُوعَ الْعَذَابِ وَفِيَّامِ السَّاعَةِ يَرَاهُ الْكَفَرَةُ بَعِيدَ الْوُفُوعِ ، بِمَعْنَى مُسْتَحِيلِ الْوُفُوعِ ﴿ وَنَزَلَهُ قَرِيبًا ﴾ أَيُّ : الْمُؤْمِنُونَ يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ قَرِيبًا ، وَإِنْ كَانَ لَهُ أَمَدٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ سبحانه لَكِنْ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ فَهُوَ قَرِيبٌ وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ .

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۖ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۖ يُبْصِرُونَهُمْ ۖ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بَيْنِيهِ ۖ وَصَحْبَتِهِ ۖ وَأَخِيهِ ۖ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوِّيه ۖ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۖ كَلَّا ۖ إِنَّمَا لَظَىٰ ۖ نَزَاعَةَ لِّلشَّوْىِ ۖ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۖ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ۖ

يَقُولُ تَعَالَى : الْعَذَابُ وَاقِعٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ ﴾ قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : أَيُّ : كَذُرْدِي الرِّزِّ ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ أَيُّ : كَالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ . ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ يُبْصِرُونَهُمْ ﴿ أَيُّ : لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ يَرَاهُ فِي أَسْوَأِ الْأَحْوَالِ ، فَتَشْغَلُهُ نَفْسُهُ عَنْ غَيْرِهِ ، قِيلَ : يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَفْرُبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بَعْدَ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بَيْنِيهِ ۖ وَصَحْبَتِهِ ۖ وَأَخِيهِ ۖ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوِّيه ۖ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۖ كَلَّا ۖ ﴾ أَيُّ : لَا يَقْبَلُ مِنْهُ فِدَاءٌ وَلَوْ جَاءَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ وَبَاعَزَ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْمَالِ ، وَلَوْ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ، أَوْ مِنْ وَلَدِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا حُشَاشَةً كَبِدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا رَأَى الْأَهْوَالَ أَنْ يَفْتَدِيَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِهِ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ . قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ قَبِيلَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ ، وَقِيلَ : ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ : أُمُّهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا لَظَىٰ ﴾ يَصِفُ النَّارَ ، وَشِدَّةَ حَرِّهَا ﴿ نَزَاعَةَ لِّلشَّوْىِ ﴾ قِيلَ : جِلْدَةُ الرَّأْسِ ، ﴿ نَزَاعَةَ ﴾ أَيُّ : تَقَطَّعَ عِظَامُهُ ثُمَّ يُجَدَّدُ خَلْقُهُمْ وَتُبَدِّلَ جُلُودُهُمْ . ﴿ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۖ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ أَيُّ : تَدْعُو النَّارُ إِلَيْهَا أَبْنَاءَهَا الَّذِينَ خَلَقَهُمُ اللَّهُ لَهَا ، وَقَدَّرَ لَهُمْ أَنَّهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا

يَعْمَلُونَ عَمَلَهَا ، فَتَدْعُوهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِسَانٍ طَلِقٍ ذَلِكَ ، ثُمَّ تَلْتَقِطُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الْمَحْشَرِ كَمَا يَلْتَقِطُ الطَّيْرُ الْحَبَّ ، وَذَلِكَ أَتَمُّهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ كَانُوا مِنْ ﴿ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾ أَي : كَذَبَ بِقَلْبِهِ ، وَتَرَكَ الْعَمَلَ بِجَوَارِحِهِ ﴿ وَجَمَعَ فَأُوَعِيَ ﴾ أَي : جَمَعَ الْمَالَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَأُوَعَاهُ ، أَي : أَوْكَاهُ وَمَنَعَ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ فِي النِّفَقَاتِ وَمِنْ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : « لَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ » .

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ (١) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (٢) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ (٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (٤) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ الْيَوْمِ الَّذِينَ (٥) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ (٦) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (٧) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (٩) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ وَمَا هُوَ مُجَبُّولٌ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الدِّينِيَّةِ : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أَي : إِذَا أَصَابَهُ الضَّرُّ فَزِعَ وَجَزِعَ وَانْخَلَعَ قَلْبُهُ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ ، وَأَيْسَ أَنْ يَحْصَلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ أَي : إِذَا حَصَلَتْ لَهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ بِخَلِّهَا عَلَى غَيْرِهِ وَمَنَعَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ أَي : الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الذِّمِّ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ وَوَفَّقَهُ ، وَهَدَاهُ إِلَى الْخَيْرِ وَيَسَّرَ لَهُ أَسْبَابَهُ وَهُمْ الْمُصَلُّونَ ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ يُحَافِظُونَ عَلَى أَوْقَاتِهَا وَوَاجِبَاتِهَا ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالذَّوَامِ هَهُنَا : السُّكُونُ وَالْحُشُوعُ ، وَمِنْهُ الْمَاءُ الدَّائِمُ أَي : السَّائِكُ الرَّائِدُ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الَّذِينَ إِذَا عَمِلُوا عَمَلًا دَاوَمُوا عَلَيْهِ وَأَثْبَتُوهُ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ (٣) لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿ أَي : فِي أَمْوَالِهِمْ نَصِيبٌ مُقَرَّرٌ لِدَوِي الْحَاجَاتِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ الْيَوْمِ الَّذِينَ ﴾ (٥) يُوقِنُونَ بِالْمَعَادِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ، فَهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلٍ مَنْ يَرْجُو الثَّوَابَ وَيَخَافُ الْعِقَابَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ أَي : خَائِفُونَ وَجُلُونَ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أَي : لَا يَأْمَنُهُ أَحَدٌ مِنْ عَقْلِ عَنِ

الله أَمْرُهُ إِلَّا بِأَمَانٍ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ أَي : وَالَّذِينَ قَدْ حَفِظُوا فُرُوجَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ فَلَا يَقَعُونَ فِيهَا مَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ زَنَا وَلِوَاطٍ ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَمَنْ وَافَقَهُ عَلَى تَحْرِيمِ الْاسْتِمْنَاءِ بِالْيَدِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ إِلَّا عَلَى أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴿ قَالَ فَهَذَا الصَّنِيعُ خَارِجٌ عَنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ آتَنَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا عَلَى أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أَي : لَا يَقْرَبُونَ سِوَى أَرْوَاجِهِمُ الَّتِي أَحَلَّهَا اللَّهُ لَهُمْ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنَ السَّرَارِيِّ ، وَمَنْ تَعَاطَى مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُ فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ وَلَا حَرَجَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ . ﴿ فَمَنْ آتَنَى وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ أَي : غَيْرَ الْأَرْوَاجِ وَالْإِمَاءِ ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أَي : الْمُعْتَدُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أَي : إِذَا أُوثِنُوا لَمْ يَخُونُوا ، وَإِذَا عَاهَدُوا لَمْ يَنْعِدُوا وَهَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَضِدُّهَا صِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُوثِنَ خَانَ » ، وَفِي رِوَايَةٍ « إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ أَي : مُحَافِظُونَ عَلَيْهَا لَا يَزِيدُونَ فِيهَا وَلَا يُنْقِصُونَ مِنْهَا ، وَلَا يَكْتُمُونَهَا ﴿ وَمَنْ يَكْتُمُهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٣]

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أَي : عَلَى مَوَاقِفَتِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَمُسْتَحَبَّاتِهَا ، فَافْتَتَحَ الْكَلَامَ بِذِكْرِ الصَّلَاةِ وَاخْتَصَمَهُ بِذِكْرِهَا ، فَدَلَّ عَلَى الْإِعْتِنَاءِ بِهَا وَالتَّنْوِيهِ بِشَرَفِهَا ﴿ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴾ أَي : مُكْرَمُونَ بِأَنْوَاعِ الْمَلَاذِ وَالْمَسَارِّ .

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿ كَلَّا إِنَّنا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الشَّرِيقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿ فَذَرَهُمْ سَخِرُوا وَلِغَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾ يَوْمَ تَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾

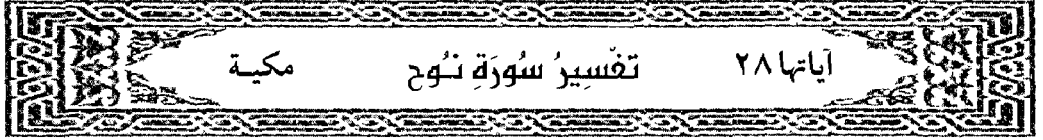
يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُمْ مُشَاهِدُونَ لَهُ ، وَلَمَّا أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَمَا آيَدَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا كُلِّهِ فَارُونَ مِنْهُ ، مُتَفَرِّقُونَ عَنْهُ ، شَارِدُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فِرْقًا فِرْقًا ، وَشِيعًا شِيعًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ

الَّذِكْرَةَ مُعْرِضِينَ ﴿٥٠﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥١﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥٢﴾ [المدر: ٤٩-٥١] الآية ، وَهَذِهِ مِثْلُهَا ، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ أَيُّ : فَمَا لَهُوْلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ عِنْدَكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أَيُّ : مُسْرِعِينَ نَافِرِينَ مِنْكَ ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ وَاحِدُهَا عِزَّةٌ ، أَيُّ : مُتَفَرِّقِينَ ، وَهُوَ حَالٌ مِنْ مُهْطِعِينَ ، أَيُّ : فِي حَالٍ تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ عَامِدِينَ ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أَيُّ : فِرْقًا حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ لَا يَرْعَبُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَلَا فِي نَبِيِّهِ ﷺ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ حُلَقٌ ، فَقَالَ : « مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ ﴿٥٣﴾ كَلَّا ﴿٥٤﴾ أَيُّ : أَيُطْمَعُ هَؤُلَاءِ وَالْحَالَةُ هَذِهِ مِنْ فِرَارِهِمْ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَنَفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ أَنْ يَدْخُلُوا جَنَّاتِ النَّعِيمِ . لَا بَلْ مَاؤَاهُمْ الْجَحِيمُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَرَّرًا لِيُوقِعَ الْمَعَادِ وَالْعَذَابِ بِهِمُ الَّذِي أَنْكَرُوا كَوْنَهُ ، وَاسْتَبَعَدُوا وُجُودَهُ مُسْتَدِلًّا عَلَيْهِمْ بِالْبِدْءَةِ الَّتِي الْإِعَادَةُ أَهْوَنُ مِنْهَا ، وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِهَا ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْمَنِيِّ الضَّعِيفِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات : ٢٠] ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أَيُّ : الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَجَعَلَ مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا ، وَسَخَّرَ الْكَوَاكِبَ تَبَدُّو مِنْ مَشَارِقِهَا وَتَغَيَّبُ فِي مَغَارِبِهَا ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ أَنْ لَا مَعَادَ وَلَا حِسَابَ وَلَا بَعْثَ وَلَا نُشُورَ ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ وَاقِعٌ وَكَائِنْ لَا مُحَالَةَ ، وَهَذَا أَتَى بِـ « لَا » فِي إِبْتِدَاءِ الْقَسَمِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ نَفْيٌ وَهُوَ مَضْمُونُ الْكَلَامِ ، وَهُوَ الرَّدُّ عَلَى زَعْمِهِمُ الْفَاسِدِ فِي نَفْيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَدْ شَاهَدُوا مِنْ عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ إِقَامَةِ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَتَسْخِيرُ مَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ وَسَائِرِ صُنُوفِ الْمَوْجُودَاتِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَنَقْدِرُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُعِيدُهُمْ بِأَبْدَانٍ خَيْرٍ مِنْ هَذِهِ ، فَإِنَّ قُدْرَتَهُ صَالِحَةٌ لِدَلِّكَ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أَيُّ : بِعَاجِزِينَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَرَهُمْ ﴾ أَيُّ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ تَخَوُّضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ أَيُّ : دَعَهُمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾ أَيُّ : فَسَيَعْلَمُونَ غَيْبَ ذَلِكَ وَيَذُوقُونَ وَبَالَهُ ﴿ يَوْمَ تَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ أَيُّ : يَقُومُونَ مِنَ الْقُبُورِ إِذَا دَعَاهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ ، يَنْهَضُونَ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ، قِيلَ مَعْنَاهَا : إِلَى عِلْمٍ يَسْعَوْنَ ، وَقِيلَ : إِلَى غَايَةِ يَسْعَوْنَ إِلَيْهَا ، وَقِيلَ : هُوَ الصَّنَمُ ، أَيُّ : كَأَنَّهُمْ فِي إِسْرَاعِهِمْ إِلَى الْمَوْقِفِ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَهْرَوُلُونَ إِلَى النُّصُبِ إِذَا عَابَتْهُ يُوْفِضُونَ ، يَتَدَرُونَ أَهْلَهُمْ يَسْتَلِمُهُ أَوَّلُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ ﴾ أَي : خَاضِعَةً ﴿ تَرَهَّقَهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أَي : فِي مُقَابَلَةِ مَا اسْتَكْبَرُوا فِي الدُّنْيَا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « سَأَلَ سَائِلٌ » وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَنْفِقُمْ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۚ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَرْسَلَهُ إِلَىٰ قَوْمِهِ امِرًا لَهُ أَنْ يُنذِرَهُمْ بِأَسْ اللَّهِ قَبْلَ حُلُولِهِ بِهِمْ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَنَابُوا رُفِعَ عَنْهُمْ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَنْفِقُمْ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أَي : بَيْنَ النَّذَارَةِ ظَاهِرُ الْأَمْرِ وَاضْطِحَ ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ ﴾ أَي : أَتْرَكُوا مُحَارَمَهُ وَاجْتَنَبُوا مَا أَيْمَهُ ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ فِيمَا أَمَرُكُمْ بِهِ وَأَنَهَاكُمْ عَنْهُ ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أَي : إِذَا فَعَلْتُمْ مَا أَمَرُكُمْ بِهِ وَصَدَقْتُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، « وَمَنْ » هَهُنَا قِيلَ : إِنَّمَا بِمَعْنَى « عَنْ » تَقْدِيرُهُ : يَصْفَحْ لَكُمْ عَنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَقِيلَ : إِنَّمَا لِلتَّبَعِضِ ، أَي : يَغْفِرْ لَكُمْ الذُّنُوبَ الْعِظَامَ الَّتِي وَعَدْتُكُمْ عَلَىٰ إِزْكَابِكُمْ إِيَّاهَا الْإِنْتِقَامَ . ﴿ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَي : يَمُدُّ فِي أَعْمَارِكُمْ وَيَذَرُّ عَنْكُمْ الْعَذَابَ الَّذِي إِنْ لَمْ تَنْزَجِرُوا عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ : أَوْفَعَهُ بِكُمْ . ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۚ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : بَادِرُوا بِالطَّاعَةِ قَبْلَ حُلُولِ النَّقْمَةِ ، فَإِنَّهُ إِذَا أَمَرَ تَعَالَىٰ بِكَوْنِ ذَلِكَ لَا يَرُدُّ وَلَا يَمَانَعُ ، فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ فَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، الْعَزِيزُ الَّذِي دَانَتْ لِعِزَّتِهِ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعُهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا

﴿١﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ
لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿٥﴾
وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٧﴾
ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِحْرَاجًا ﴿٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿٩﴾ لِتَسْلُكُوا
مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ اشْتَكَى إِلَى رَبِّهِ ﷻ مَا لِقِيَ مِنْ قَوْمِهِ وَمَا صَبَرَ
عَلَيْهِمْ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَلْفُ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، وَمَا بَيْنَ لِقَوْمِهِ وَوَضَحَ لَهُمْ
وَدَعَاهُمْ إِلَى الرُّشْدِ وَالسَّبِيلِ الْأَقْوَمِ ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أَيُّ : لَمْ أَتْرُكْ
دُعَاءَهُمْ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ ، إِمْتِنَانًا لِأَمْرِكَ وَابْتِغَاءً لِبَطَاعَتِكَ ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ أَيُّ :
كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَقْبَلَوا مِنْ الْحَقِّ فَرَّوْا مِنْهُ وَحَادَوْا عَنْهُ ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا
أَصْوِعَهُمْ فِيءَ إِذَانِهِمْ ﴾ أَيُّ : سَلَّوْا أَذَانَهُمْ لَيْلًا يَسْمَعُوا مَا أَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴿ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ قِيلَ :
تَنَكَّرُوا لَهُ لَيْلًا يَعْرِفَهُمْ . وَقِيلَ : غَطَّوْا رُءُوسَهُمْ لَيْلًا يَسْمَعُوا مَا يَقُولُ : ﴿ وَأَصْرُوا ﴾ أَيُّ : اسْتَمَرُّوا
عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ الْعَظِيمِ الْقَطِيعِ ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أَيُّ : وَاسْتَنَكُّوْا عَنْ
إِتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْإِنْقِيَادِ لَهُ ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴾ أَيُّ : جَهْرَةً بَيْنَ النَّاسِ ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ ﴾
أَيُّ : كَلَامًا ظَاهِرًا بِصَوْتٍ عَالٍ ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أَيُّ : فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، فَنَوَّعَ عَلَيْهِمْ
الدَّعْوَةَ ؛ لِتَكُونَ أَنْجَعَ فِيهِمْ ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أَيُّ : اِرْجِعُوا إِلَيْهِ ،
وَارْجِعُوا عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ وَتُوبُوا إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ ، فَإِنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ ، وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ مِثْلَ
كَانَتْ فِي الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ . ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ أَيُّ : مُتَوَاصِلَةً الْأَمْطَارِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ أَيُّ : إِذَا تُبْتُمْ إِلَى اللَّهِ
وَاسْتَغْفَرْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ ، كَثُرَ الرِّزْقُ عَلَيْكُمْ ، وَأَسْفَاكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ ، وَأَنْتَبَتْ لَكُمْ مِنْ
بَرَكَاتِ الْأَرْضِ ، وَأَنْتَبَتْ لَكُمْ الزَّرْعُ ، وَأَدَّرَ لَكُمْ الضَّرْعَ ، وَأَمَدَّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ ، أَيُّ :
أَعْطَاكُمْ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ ، وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ فِيهَا أَنْوَاعُ الثَّمَارِ ، وَخَلَّلَهَا بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ
بَيْنَهَا . هَذَا مَقَامُ الدَّعْوَةِ بِالْتَّرْغِيبِ ، ثُمَّ عَدَلَ بِهِمْ إِلَى دَعْوَتِهِم بِالْتَّرْهِيبِ ، فَقَالَ : ﴿ مَا لَكُمْ لَا
تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أَيُّ : عَظَمَةً . أَيُّ : لَا تُعْظَمُونَ اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ ، أَيُّ : لَا تَخَافُونَ مِنْ بَأْسِهِ
وَنِقْمَتِهِ ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ . ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ
سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أَيُّ : وَاحِدَةً فَوْقَ وَاحِدَةٍ ، ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾

أَيُّ : فَأَوْتَ بَيْنَهُمَا فِي الْإِسْتِثَارَةِ ، فَجَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا أُنْمُودَجًا عَلَى حِدَةٍ ، لِيُعْرَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ بِمَطْلَعِ الشَّمْسِ وَمَغِيبِهَا ، وَقَدَّرَ لِلْقَمَرِ مَنَازِلَ وَبُرُوجًا ، وَفَأَوْتَ ثَوْرَهُ ، فَتَارَةً يَزْدَادُ حَتَّى يَتَنَاهَى ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَسْتَسِرَّ لِيَدُلَّ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ ﴿ وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَأًا ﴾ هَذَا اسْمُ مَصْدَرٍ ، وَالْإِتْيَانُ بِهِ هَهُنَا أَحْسَنُ ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أَيُّ : إِذَا مِتُّمْ ﴿ وَنُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعِيدُكُمْ ، كَمَا بَدَأَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ أَيُّ : بَسَطَهَا وَمَهَّدَهَا وَقَرَّرَهَا وَثَبَّتَهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ الشَّمِ الشَّامِحَاتِ ﴿ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ أَيُّ : خَلَقَهَا لَكُمْ لَتَسْتَقَرُّوا عَلَيْهَا وَتَسْلُكُوا فِيهَا أَيْنَ شِئْتُمْ مِنْ نَوَاحِيهَا وَأَرْجَائِهَا وَأَقْطَارِهَا وَكُلُّ هَذَا بِمَا يُنَبِّهُهُمْ بِهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرِعْمِهِ عَلَيْهِمْ ، فَهُوَ الَّذِي يَحِبُّ أَنْ يُعْبَدَ وَيُؤَخَّدَ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ أَحَدٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا تَطْيِيرَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ ، وَلَا نِدَّ وَلَا كُفَّاءَ وَلَا صَاحِبَةً وَلَا وَلَدَ وَلَا وَزِيرَ وَلَا مُشِيرَ ، بَلْ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهِمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿١٠٠﴾ وَمَكْرًا كُبَارًا ﴿١٠١﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿١٠٢﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ أَنْهَى إِلَيْهِ وَهُوَ الْعَلِيمُ الَّذِي لَا يَغْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ أَنَّهُ مَعَ الْبَيَانِ الْمُقَدِّمِ ذِكْرَهُ وَالِدَعْوَةَ الْمُتَوَعَّةَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى التَّرْغِيبِ تَارَةً وَالتَّرْهِيْبِ أُخْرَى أَنَّهُمْ عَصَوْهُ وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ، وَاتَّبَعُوا أَبْنَاءَ الدُّنْيَا مِمَّنْ غَفَلَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَتَمَتَّعَ بِبَالٍ وَأَوْلَادٍ ، وَهِيَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ اسْتِدْرَاجٌ وَإِنْظَارٌ لَا إِكْرَامَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَكْرًا كُبَارًا ﴾ أَيُّ : عَظِيمًا ، وَقِيلَ : كَبِيرًا ، وَالْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَكْرًا كُبَارًا ﴾ أَيُّ : بِاتِّبَاعِهِمْ فِي تَسْوِيلِهِمْ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَاهْتَدَى ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَمَكْرًا كُبَارًا ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿ وَهَذِهِ أَسْمَاءُ أَصْنَامِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَهِيَ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، فَفَعَلُوا ، فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ يَعْنِي : الْأَصْنَامَ الَّتِي اتَّخَذُوهَا ، أَضَلُّوا بِهَا خَلْقًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ اسْتَمَرَّتْ عِبَادَتُهَا فِي الْقُرُونِ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا فِي الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَسَائِرِ صُنُوفِ بَنِي آدَمَ ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ دُعَاءٌ مِنْهُ عَلَى قَوْمِهِ لِيَتِمُّدَّ بِهِمْ وَكَفَرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ

كَمَا دَعَا مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لِكُلِّ مِنَ النَّبِيِّينَ فِي قَوْمِهِ ، وَأَغْرَقَ أُمَّتَهُ بِتَكْذِيبِهِمْ لَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ .

مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿١٦﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿١٧﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿١٨﴾ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ ﴾ وَفُرِئَ « خَطَايَاهُمْ » ﴿ أُغْرِقُوا ﴾ أَيُّ : مِنْ كَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ وَعُتُوهُمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ رَسُولَهُمْ ﴿ أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا ﴾ أَيُّ : يُقْلُوا مِنْ تَيَّارِ الْبَحَارِ إِلَى حَرَارَةِ النَّارِ ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ أَيُّ : لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُعِينٌ وَلَا مُغِيثٌ وَلَا مُجِيرٌ يُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أَيُّ : لَا تَتْرُكْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا دَيَّارًا ، وَهَذِهِ مِنْ صِيَغِ تَأْكِيدِ النِّفْيِ . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ دَيَّارًا ﴾ وَاحِدًا ، وَقَالَ آخَرُونَ : الدَّيَّارُ الَّذِي يَسْكُنُ الدَّارَ . فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فَأَهْلَكَ جَمِيعَ مَنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ، حَتَّى وَلَدَ نُوحٌ لِصُلَيْبِهِ الَّذِي اعْتَرَلَ عَنْ أَبِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أَيُّ : إِنَّكَ إِنْ أَبَقَيْتَ مِنْهُمْ أَحَدًا أَضَلُّوا عِبَادَكَ ، أَيُّ : الَّذِينَ تَخْلُقُهُمْ بَعْدَهُمْ ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أَيُّ : فَاجِرًا فِي الْأَعْمَالِ كَافِرَ الْقَلْبِ ، وَذَلِكَ لِخَبَرَتِهِ بِهِمْ ، وَمُكْنِهِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا . ثُمَّ قَالَ : ﴿ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ : يَعْنِي مَسْجِدِي ، وَلَا مَانِعَ مِنْ حُلِّ الْآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا ، وَهُوَ أَنَّهُ دَعَا لِكُلِّ مَنْ دَخَلَ مَنَزَلَهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ دُعَاءٌ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَذَلِكَ يَعْنِي الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ ؛ وَهَذَا يُسْتَحَبُّ مِثْلُ هَذَا الدُّعَاءِ اقْتِدَاءً بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِمَا جَاءَ فِي الْأَثَارِ وَالْأَدْعِيَةِ الْمَشْهُورَةِ الْمَشْرُوعَةِ . ﴿ وَلَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ قِيلَ : إِلَّا هَلَاكًا ، وَقِيلَ : إِلَّا خَسَارًا ، أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٢٨ تفسير سورة الجن مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوْحِيَ إِلَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَتَّبِعَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ آمِرًا رَسُولُهُ ﷺ أَن يُخْبِرَ قَوْمَهُ أَنَّ الْجِنَّ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ فَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ وَانْقَادُوا لَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴿٢﴾ أَي : إِلَى السَّادِرِ وَالنَّجَاحِ ﴿٣﴾ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٤﴾ وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ ﴾ [الأحقاف : ٢٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ قِيلَ : أَي : فِعْلُهُ وَأَمْرُهُ وَقُدْرَتُهُ ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ أَي : تَعَالَى عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْأَوْلَادِ ، أَي : قَالَتِ الْجِنُّ : تَنَزَّهَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ - حِينَ أَسْلَمُوا وَآمَنُوا بِالْقُرْآنِ - عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ . ثُمَّ قَالُوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ سَفِيهُنَا : يَعْنُونَ إِبْلِيسَ ﴿ شَطَطًا ﴾ أَي : جَوْرًا ، وَقِيلَ : ظَلَمًا كَبِيرًا ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ إِسْمُ جِنْسٍ لِّكُلِّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ صَاحِبَةٌ أَوْ وَلَدًا ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أَي : قَبْلَ إِسْلَامِهِ ﴿ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ أَي : بَاطِلًا وَزُورًا ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أَي : مَا حَسِبْنَا أَنَّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ يَتَّبِعُونَ عَلَى الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي نِسْبَةِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا سَمِعْنَا هَذَا الْقُرْآنَ وَآمَنَّا بِهِ ، عَلِمْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ فِي ذَلِكَ . ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أَي : كُنَّا نَرَى أَنَّ لَنَا فَضْلًا عَلَى الْإِنْسِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعُوذُونَ بِنَا ، أَي : إِذَا نَزَلُوا وَادِيًا أَوْ مَكَانًا مُّوحِشًا مِنَ الْبَرَارِيِّ وَغَيْرِهَا ، كَمَا كَانَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَعُوذُونَ بِعَظِيمِ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنَ الْجَانِّ أَن يُصِيبَهُمْ بَشْيٌ يَسُوؤُهُمْ ، كَمَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَدْخُلُ بِلَادَ أَعْدَائِهِ فِي جَوَارِ رَجُلٍ كَبِيرٍ وَذِمَامِهِ وَخِفَارَتِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْ الْجِنُّ أَنَّ الْإِنْسَ يَعُوذُونَ بِهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنْهُمْ

﴿ زَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أَي : خَوْفًا وَإِزْهَابًا وَدُعْرًا حَتَّى يَقُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ مَخَافَةً وَأَكْثَرَ تَعَوُّدًا بِهِمْ ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أَي : إِثْمًا ، وَازْدَادَتْ الْجِنُّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ جَرَاءَةً ﴿ وَأَنْتُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ أَي : لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ رَسُولًا .

وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿١٤﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِ ۖ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿١٥﴾ وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشْرًا أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْجِنِّ حِينَ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، وَكَانَ مِنْ حِفْظِهِ لَهُ أَنَّ السَّمَاءَ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَحُفِظَتْ مِنْ سَائِرِ أَرْجَائِهَا ، وَطُرِدَتِ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَقَاعِدِهَا الَّتِي كَانَتْ تَقْعُدُ فِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، لِئَلَّا يَسْتَرْقُوا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ فَيُلْقُوهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْكَهَنَةِ فَيَلْتَبِسُ الْأَمْرُ وَيَحْتَلِطُ وَلَا يُدْرَى مِنَ الصَّادِقِ ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَحِفْظِهِ لِكِتَابِهِ الْعَزِيزِ ؛ وَهَذَا قَالَ الْجِنُّ : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴾ ﴿١٤﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِ ۖ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿١٥﴾ أَي : مَنْ يَرُومُ أَنْ يَسْتَرْقِيَ السَّمْعَ الْيَوْمَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا مُرَصَدًا لَهُ ، لَا يَتَخَطَّاهُ وَلَا يَتَعَدَّاهُ ، بَلْ يَمْنَحُوهُ وَيُهْلِكُوهُ ﴿ وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشْرًا أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أَي : مَا نَذَرِي هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي قَدْ حَدَثَ فِي السَّمَاءِ ، لَا نَذَرِي أَشْرًا أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ؟ وَهَذَا مِنْ أَدْبِهِمْ فِي الْعِبَارَةِ حَيْثُ أَسْنَدُوا الشَّرَّ إِلَى غَيْرِ فَاعِلٍ ، وَالْخَيْرَ أَضَافُوهُ إِلَى اللَّهِ ﷻ ، فَأَخَذُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَوَجَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِأَصْحَابِهِ فِي الصَّلَاةِ ، فَعَرَفُوا أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي حُفِظَتْ مِنْ أَجْلِهِ السَّمَاءُ ، فَأَمَنَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَتَمَرَّدَ فِي طُغْيَانِهِ مَنْ بَقِيَ . وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَمَّا حَدَثَ هَذَا الْأَمْرُ وَهُوَ كَثْرَةُ الشُّهُبِ فِي السَّمَاءِ وَالرَّمْيِ بِهَا ، هَالَ ذَلِكَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَانْزَعَجُوا لَهُ وَارْتَاعُوا لِذَلِكَ ، وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ لِحَرَابِ الْعَالَمِ .

وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ قَدَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَا ظَنْنَا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٨﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا آهْدَىٰ ءَامِنًا بِهِ ۖ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۚ فَلَا تَخَافُ خَوْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٩﴾ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿٢٠﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿٢١﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُغْضَوْنَ عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ ۚ لَأَسْقَيْنَهُنَّ مَاءً غَدَقًا ﴿٢٢﴾ لَنَنْفِثَنَّهُمْ فِيهِ ۖ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ ۖ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجَنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا مُخْبِرِينَ عَنِ أَنْفُسِهِمْ : ﴿ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أَي : غَيْرَ ذَلِكَ ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴾ أَي : طَرَائِقَ مُتَعَدِّدَةً مُخْتَلِفَةً وَآرَاءَ مُتَفَرِّقَةً . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴾ أَي : مِنَّا الْمُؤْمِنُ وَمِنَّا الْكَافِرُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُنْعِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُنْعِزَهُ هَرَبًا ﴾ أَي : نَعْلَمُ أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ حَاكِمَةٌ عَلَيْنَا ، وَأَنَا لَا نُعِزُّهُ فِي الْأَرْضِ ، وَلَوْ أَمَعْنَا فِي الْهَرَبِ ، فَإِنَّهُ عَلَيْنَا قَادِرٌ ، لَا يُعِزُّهُ أَحَدٌ مِنَّا ﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدْيَ ءَامَنَّا بِهِ ﴿ يَفْتَخِرُونَ بِذَلِكَ ، وَهُوَ مَفْخَرُهُمْ ، وَشَرَفٌ رَفِيعٌ ، وَصِفَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ كَخَسَا وَلَا رَهَقًا ﴿ فَلَا يَخَافُ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، أَوْ يُجْمَلَ عَلَيْهِ غَيْرُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴿ أَي : مِنَّا الْمُسْلِمُ وَمِنَّا الْقَاسِطُ ، وَهُوَ الْجَائِرُ عَنِ الْحَقِّ النَّكَيبُ عَنْهُ ، بِخِلَافِ الْمُقْسِطِ فَإِنَّهُ الْعَادِلُ ﴾ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿ أَي : طَلَبُوا لِأَنْفُسِهِمُ النِّجَاةَ ﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿ أَي : وَقَدْ تُسَعَّرُ بِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْوَلَوِ اسْتَقْنُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ لِنَتَقِنَهُمْ فِيهِ ﴾ .

وَالْمَعْنَى : وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامَ الْقَاسِطُونَ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَعَدَلُوا إِلَيْهَا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا ﴿ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ أَي : كَثِيرًا ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ سَعَةُ الرَّزْقِ ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لِنَتَقِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أَي : لِنَخْتَرِبَهُمْ ، مَنْ يَسْتَمِرُّ عَلَى الْهِدَايَةِ مِمَّنْ يَرْتَدُّ إِلَى الْغَوَايَةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أَي : عَذَابًا مُشَقًّا شَدِيدًا مُوجِعًا مُؤَلِمًا ، وَقِيلَ : جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ ، وَقِيلَ : بِنْرٌ فِيهَا .

وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿ ١٨ ﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿ ١٩ ﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿ ٢٠ ﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿ ٢١ ﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ تُجِيبَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿ ٢٢ ﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿ ٢٣ ﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿ ٢٤ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ أَنْ يُوحِّدُوهُ فِي مَحَالِّ عِبَادَتِهِ ، وَلَا يُدْعَى مَعَهُ أَحَدٌ وَلَا يُشْرَكُ بِهِ ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قَالَ : كَانَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى إِذَا دَخَلُوا كَنَائِسَهُمْ وَبَيْعَهُمْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُوحِّدُوهُ وَحْدَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قِيلَ : تَلَبَّدَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لِيُطْفِئُوهُ ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَهُ وَيُمْضِيَهُ وَيُظْهِرَهُ عَلَى مَنْ نَاوَاهُ ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ

لِقَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ أي: قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَمَّا آذَوْهُ وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَتَظَاهَرُوا عَلَيْهِ، لِيُبْطِلُوا مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى عَدَوَاتِهِ: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: إِنَّمَا أَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَسْتَجِيرُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ، وَعَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فِي هِدَايَتِكُمْ وَلَا غَوَايَتِكُمْ، بَلِ الْمَرْجِعُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى اللَّهِ ﷻ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يُجِيرُهُ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ، أي: لَوْ عَصَيْتُهُ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى إِنْقَاذِي مِنْ عَذَابِهِ ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي: لَا نَصِيرَ وَلَا مَلْجَأَ، وَفِي رِوَايَةٍ: لَا وَلِيَّ وَلَا مَوْئِلَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مُسْتَشْنَى مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ إِلَّا بَلَاغًا وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِسْتِثْنَاءً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لَا يُجِيرَنِي مِنْهُ وَيُخَلِّصُنِي إِلَّا بِإِذَاغِي الرِّسَالَةِ الَّتِي أَوْجَبَ آدَاءَهَا عَلَيَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الرَّسُولَ بَلَاغٌ مِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: إِنَّمَا أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ فَمَنْ يَعْصِ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ جَزَاءٌ عَلَى ذَلِكَ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا، أي: لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقْلَعَ عَدَدًا﴾ أي: حَتَّىٰ إِذَا رَأَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَا يُوعَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَسَيَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقْلَعَ عَدَدًا، هُمْ أَمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُؤَحِّدُونَ لِلَّهِ تَعَالَى؟ أي: بَلِ الْمُشْرِكُونَ لَا نَاصِرَ لَهُمْ بِالْكَلْبِيَّةِ، وَهُمْ أَقْلَعُ عَدَدًا مِنْ جُنُودِ اللَّهِ ﷻ.

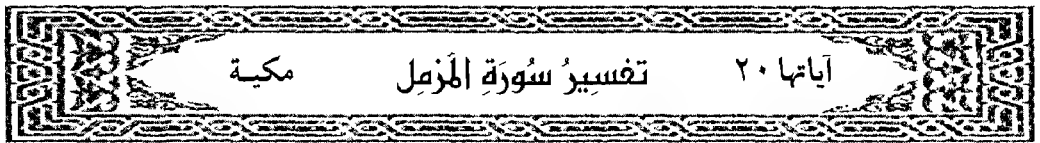
قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿١٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿١٦﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿١٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: إِنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِوَقْتِ السَّاعَةِ، وَلَا يَدْرِي أَقْرَبُ وَقْتُهَا أَمْ بَعِيدُ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أي: مُدَّةً طَوِيلَةً، وَقَدْ كَانَ ﷺ يُسْأَلُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ فَلَا يُجِيبُ عَنْهَا، وَلَمَّا تَبَدَّى لَهُ جَبْرِيلُ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ، كَانَ فِيهَا سَأَلُهُ أَنْ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ

مِنَ السَّائِلِ ؟ ». وَلَمَّا نَادَاهُ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ بِصَوْتٍ جَهْرِيٍّ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ مَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ : « وَيَحْكُ ، إِنَّهَا كَأَنَّهُ فَمَا أَعَدَدْتَ لَهَا ؟ » قَالَ : أَمَا إِنِّي لَمْ أَعِدْ لَهَا كَثِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ ، وَلَكِنِّي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، قَالَ : « فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » قَالَ أَنَسٌ : فَمَا فَرَحَ الْمُسْلِمُونَ بِشَيْءٍ فَرَحُهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وَهَكَذَا رَسُولٍ ﴿ هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا : إِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ ، وَإِنَّهُ لَا يَطْلُعُ أَحَدٌ مِّنْ خَلْقِهِ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا أَطْلَعَهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ [البقرة : ٢٥٥] إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿ وَهَذَا يَعْنِي الرُّسُولَ الْمَلَكِيَّ وَالْبَشَرِيَّ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ أَيُّ : يَخْتَصُّهُ بِمَزِيدٍ مُّعَقَّبَاتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، وَيَسْأَوُقُونَهُ عَلَى مَا مَعَهُ مِنَ وَحْيِ اللَّهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَيَعْلَمَنَّ أَن قَدْ أَتْلَعُوا رِسَالَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الضَّمِيرِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَيَعْلَمَنَّ ﴾ إِلَى مَنْ يَعُودُ ؟ فَقِيلَ : إِنَّهُ عَائِدٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَيُّ : لَيَعْلَمَنَّ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَغَتْ عَنِ اللَّهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قِيلَ : هِيَ مُعَقَّبَاتٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الشَّيْطَانِ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ بِهِ إِلَيْهِمْ ، وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ لَيَعْلَمَنَّ أَهْلُ الشَّرْكِ أَنَّ قَدْ أَتْلَعُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إِلَى اللَّهِ ﷻ ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ يَحْفَظُ رُسُلَهُ بِمَلَائِكَتِهِ ؛ لِيَتِمَّ كُنُوتُ مِنْ أَدَاءِ رِسَالَاتِهِ وَيَحْفَظُ مَا يُبَيِّنُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْوَحْيِ ، لَيَعْلَمَنَّ أَنَّ قَدْ أَتْلَعُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَنَّ مَنِ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ١١] إِلَى أَهْوَائِهِ ذَلِكَ ، مِنْ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا قَطْعًا لَا مُحَالَةً ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجِنِّ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيَ الْمَزْمَلُ ﴿ فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿ يَصْفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ ﴿ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ

وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿١﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٢﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٣﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٤﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٥﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٦﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَتْرُكَ التَّرْمِيزَ ، وَهُوَ : التَّغَطِّيُّ فِي اللَّيْلِ ، يَنْهَضُ إِلَى الْقِيَامِ لِرَبِّهِ ﷻ ، وَكَذَلِكَ كَانَ ﷺ مُتَمَتِّلًا مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَقَدْ كَانَ وَاجِبًا عَلَيْهِ وَحْدَهُ ، وَهَهُنَا بَيِّنٌ لَهُ مَقْدَارُ مَا يَقُومُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ ﴿١﴾ فَمُرَّ أَلَيْلٌ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ يعني : يَا أَيُّهَا النَّائِمُ . قَالَ قَتَادَةُ : الْمَزْمِلُ فِي ثِيَابِهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَضْفَهُ ﴾ بَدَلٌ مِنَ اللَّيْلِ ﴿٣﴾ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٤﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ ﴿٥﴾ أَيُّ : أَمَرْنَاكَ أَنْ تَقُومَ نِصْفَ اللَّيْلِ بِزِيَادَةٍ قَلِيلَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ قَلِيلٍ ، لَا حَرَجَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ . ﴿ وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ أَيُّ : اقْرَأْهُ عَلَى تَمَهُّلٍ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ عَوْنًا عَلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَقْرَأُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : أَيُّ : الْعَمَلُ بِهِ ، وَقِيلَ : نَقِيلُ وَقَتِ نُزُولِهِ مِنْ عَظَمَتِهِ ، كَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ : أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَخِذَهُ عَلَى فَخِذِي ، فَكَادَتْ تُرْصُ فَخِذِي ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ : وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ﷻ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ ، فَيَنْصِمُ عَنْهُ ، وَحَبِيبُهُ لَيَنْفَصِدُ عَرَقًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ هِيَ : سَاعَاتُهُ وَأَوْقَاتُهُ ، وَكُلُّ سَاعَةٍ مِنْهُ تُسَمَّى نَاشِئَةً ، وَهِيَ الْآتَاتُ . وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ هُوَ أَشَدُّ مُوَاطَاةً بَيْنَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ، وَأَجْمَعُ عَلَى التَّلَاوَةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أَيُّ : أَجْمَعَ لِلْخَاطِرِ فِي آدَاءِ الْقِرَاءَةِ وَتَفْهَمِهَا مِنْ قِيَامِ النَّهَارِ ؛ لِأَنَّهُ وَقْتُ انْتِشَارِ النَّاسِ ، وَلِغَطِّ الْأَصْوَاتِ ، وَأَوْقَاتِ الْمَعَاشِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْفَرَاغُ وَالنَّوْمُ ، وَقَالَ آخَرُ : فَرَاغًا طَوِيلًا ، وَقَالَ قَتَادَةُ : فَرَاغًا وَبُغْيَةً وَمُنْقَلَبًا ، وَقَالَ الشُّدِّيُّ : ﴿ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ تَطَوُّعًا كَثِيرًا ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قَالَ : لِحَوَائِجِكَ ، فَأَفْرَغَ لِدِينِكَ اللَّيْلَ . قَالَ : وَهَذَا حِينَ كَانَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَرِيضَةً ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ عَلَى عِبَادِهِ فَخَفَّفَهَا وَوَضَعَهَا ، وَقَرَأَ ﴿ فَمُرَّ أَلَيْلٌ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ﴾ اللَّيْلَ نِصْفَهُ أَوْ ثُلُثَهُ ، ثُمَّ جَاءَ أَمْرٌ أَوْسَعُ وَأَفْسَحُ ، وَضَعَ الْفَرِيضَةَ عَنْهُ وَعَنْ أُمِّهِ فَقَالَ : ﴿ وَمِنْ أَلَيْلٍ فَتَهَجِدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَذْكُرَ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَتَبَّلًا﴾ أَي: أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ وَانْقَطَعَ إِلَيْهِ وَتَفَرَّغَ لِعِبَادَتِهِ إِذَا فَرَّغْتَ مِنْ أَشْغَالِكَ وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورٍ دُنْيَاكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَّغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧] أَي: إِذَا فَرَّغْتَ مِنْ مَهَامِّكَ فَانصَبْ فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَتَكُونَ فَارِغَ الْبَالِ، ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَتَبَّلًا﴾ أَي: أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ. ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أَي: هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَكَمَا أَفَرَّدَتْهُ بِالْعِبَادَةِ فَأَفَرَّدَهُ بِالتَّوَكُّلِ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى﴾ ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]

وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٥﴾ وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ﴿١٦﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا ﴿١٧﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿٢٠﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿٢١﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿٢٢﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُهُ مَنْ كَذَبَهُ مِنْ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، وَأَنْ يَهْجُرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا، وَهُوَ الَّذِي لَا عِتَابَ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ مُتَهَدِّدًا لِكُفَّارِ قَوْمِهِ وَمُتَوَعِّدًا وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَقُومُ لِعُصْيِهِ شَيْءٌ: ﴿وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ﴾ أَي: دَعْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ الْمُتَرْفِينَ أَصْحَابَ الْأَمْوَالِ فَإِنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى الطَّاعَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمْ يُطَالِبُونَ مِنَ الْحُقُوقِ بِمَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ﴿وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا﴾ أَي: رُويًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابِ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا﴾ وَهِيَ السَّعِيرُ الْمُضْطَرِمَّةُ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَنْشَبُ فِي الْحَلْقِ فَلَا يَدْخُلُ وَلَا يَخْرُجُ ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أَي: تَزَلْزَلُ ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ أَي: تَصِيرُ كَكُثْبَانِ الرَّمْلِ بَعْدَ مَا كَانَتْ حِجَارَةً صَمَاءً، ثُمَّ إِنَّهَا تَنْسَفُ نَسْفًا فَلَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا ذَهَبَ حَتَّى تَصِيرَ الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا، أَي: وَادِيًا، وَلَا أَمْتًا. أَي: رَابِيَةً، وَمَعْنَاهُ: لَا شَيْءٌ يَنْخَفِضُ وَلَا شَيْءٌ يَرْتَفِعُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُحَاطًا لِكُفَّارِ فِرْعَوْنَ وَالْمُرَادُ سَائِرِ النَّاسِ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أَي: بِأَعْمَالِكُمْ ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾. ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أَي: شَدِيدًا. أَي: فَاحْذَرُوا أَنْتُمْ أَنْ تُكَذِّبُوا هَذَا الرَّسُولَ فَيُصِيبَكُمْ مَا

أَصَابَ فِرْعَوْنَ حَيْثُ أَخَذَهُ اللَّهُ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ ، وَأَنْتُمْ أُولَىٰ بِالْهَلَاكِ وَالْذَمَارِ إِنْ كَذَّبْتُمْ رَسُولَكُمْ ؛ لِأَنَّ رَسُولَكُمْ أَشْرَفُ وَأَعْظَمُ مِنْ مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ . ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا تَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿ يَوْمًا ﴾ مَعْمُولًا « لِتَتَّقُونَ » كَمَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ « فَكَيْفَ تَخَافُونَ أَيُّهَا النَّاسُ يَوْمًا تَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا إِنْ كَفَرْتُمْ بِاللَّهِ وَلَمْ تُصَدِّقُوا بِهِ ؟ » وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْمُولًا « لِكُفْرَتُمْ » فَعَلَى الْأَوَّلِ : كَيْفَ يَحْصُلُ لَكُمْ أَمَانٌ مِنْ يَوْمٍ هَذَا الْفَزَعِ الْعَظِيمِ إِنْ كَفَرْتُمْ ؟ وَعَلَى الثَّانِي : كَيْفَ يَحْصُلُ لَكُمْ تَقْوَىٰ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَحَدْتُمُوهُ ؟ وَكِلَاهُمَا مَعْنَى حَسَنٌ ، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ أَوْلَىٰ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ يَوْمًا تَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ أَيُّ : مِنْ شِدَّةِ أَهْوَالِهِ وَزَلَالِهِ وَبَلَابِلِهِ وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِأَدَمَ : ائْبِثْ بَعَثَ النَّارَ ، فَيَقُولُ : مِنْ كَمْ ؟ فَيَقُولُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ . ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ أَيُّ : بِسَبَبِهِ ، مِنْ شِدَّتِهِ وَهَوْلِهِ ، ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ أَيُّ : كَانَ وَعْدُ هَذَا الْيَوْمِ مَفْعُولًا ، أَيُّ : وَاقِعًا لَا مَحَالَةَ وَكَأَنَّا لَا نَحِيدُ عَنْهُ .

إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥﴾ * إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَعَآخِرُونَ يَضْطَرُّونَ فِي الْأَرْضِ يَجْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَآخِرُونَ يَقْتَاتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾

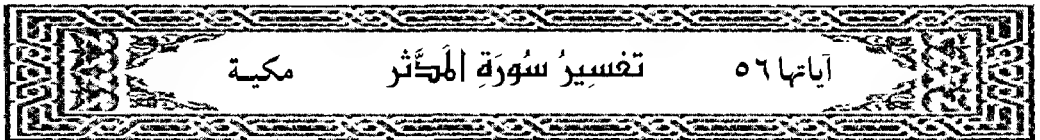
يَقُولُ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أَيُّ : السُّورَةُ ﴿ تَذَكُّرَةٌ ﴾ أَيُّ : يَتَذَكَّرُ بِهَا أُولُو الْأَلْبَابِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أَيُّ : مِمَّنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ هِدَايَتَهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أَيُّ : تَارَةً هَكَذَا وَتَارَةً هَكَذَا ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ الْمُواظَبَةِ عَلَىٰ مَا أَمَرَكُم بِهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ؛ لِأَنَّهُ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أَيُّ : تَارَةً يَعْتَدِلَانِ ، وَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا ، أَوْ هَذَا مِنْ هَذَا ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ ﴾ أَيُّ : الْفَرَضُ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَيْكُمْ ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ أَيُّ : مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ بِوَقْتٍ ، أَيُّ : وَلَكِنْ قُومُوا مِنْ

اللَّيْلِ مَا تَيَسَّرَ ، وَعَبَّرَ عَنِ الصَّلَاةِ بِالْقِرَاءَةِ ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أَيُّ :
بِقِرَاءَتِكَ ﴿ وَلَا تَخَافَتْ بِهَا ﴾ [الإسراء: ١١٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى ۖ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۖ وَآخَرُونَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ذُووُ أَعْذَارٍ فِي تَرْكِ قِيَامِ اللَّيْلِ ، مِنْ مَرْضًى لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ ، وَمُسَافِرِينَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فِي الْمَكَاسِبِ وَالْمَتَاجِرِ وَآخَرِينَ مَشْغُولِينَ بِمَا هُوَ الْأَهَمُّ فِي حَقِّهِمْ مِنَ الْغَزْوِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أَيُّ : قُومُوا بِمَا تَيَسَّرَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أَيُّ : أَقِيمُوا صَلَاتَكُمْ الْوَاجِبَةَ عَلَيْكُمْ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَهَذَا يَدُلُّ لِمَنْ قَالَ : إِنَّ فَرَضَ الزَّكَاةِ نَزَلَ بِمَكَّةَ ، لَكِنَّ مَقَادِيرَ النُّصَبِ وَالْمُخْرَجَ لَمْ تُبَيَّنْ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا ﴾ يَعْنِي : مِنَ الصَّدَقَاتِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُجَازِي عَلَى ذَلِكَ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ وَأَوْفَرَهُ . ﴿ وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ أَيُّ : جَمِيعُ مَا تَقَدَّمُوهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَهُوَ لَكُمْ حَاصِلٌ ، وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا أَبْقَيْتُمُوهُ لَأَنْفُسِكُمْ فِي الدُّنْيَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيُّ : أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ وَاسْتَغْفَرِهِ فِي أُمُورِكُمْ كُلِّهَا ، فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ اسْتَغْفَرَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمَزَّمِلِ وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ① قُمْ فَأَنْذِرْ ② وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦ فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقَاوِرِ ⑧ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑨ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ⑩

ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ جَابِرٍ ① أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : أَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ① . وَخَالَفَهُ الْجُمْهُورُ فَدَهَبُوا إِلَى أَنَّ أَوَّلَ الْقُرْآنِ نَزُّوْا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① [العلق: ١] ، كَمَا سَيَأْتِي ذَلِكَ هُنَالِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ : سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ؟

فَقَالَ : ﴿يَتَّيِبُا أَلْمَدِيرُ﴾ قُلْتُ : يَقُولُونَ : ﴿أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ : سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ ، وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ مَا قُلْتُ لِي ، فَقَالَ جَابِرٌ : لَا أَحَدُثُكَ إِلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « جَاوَرْتُ بِحِرَاءَ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي هَبَطْتُ فَنُودِيْتُ فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرِ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرِ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ أَمَامِي فَلَمْ أَرِ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أَرِ شَيْئًا ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ شَيْئًا ، فَاتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ : دَثِّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا » قَالَ : « فَدَثِّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا » قَالَ : فَتَزَلَّتْ ﴿يَتَّيِبُا أَلْمَدِيرُ﴾ فَمَافَئِذَ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿فَمَافَئِذَ﴾ أَيُّ : شَمَّرَ عَنْ سَاقِ الْعَزَمِ ، وَأَنْذِرِ النَّاسَ ، وَبِهَذَا حَصَلَ الْإِرْسَالُ ، كَمَا حَصَلَ بِالْأَوَّلِ النُّبُوَّةُ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ﴾ أَيُّ : عَظَّمُ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿وَتَيَابِكَ فَطَهَّرُ﴾ قَالَ : فِي كَلَامِ الْعَرَبِ تَغَيُّ الثِّيَابِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : فَطَهَّرَ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : ﴿وَتَيَابِكَ فَطَهَّرُ﴾ أَيُّ : عَمَلَكَ فَأَصْلَحَ . وَقِيلَ : ﴿وَتَيَابِكَ فَطَهَّرُ﴾ يَعْنِي : لَا تَكُنْ تَيَابُكَ الَّتِي تَلْبَسُ مِنْ مَكْسَبٍ غَيْرِ طَائِبٍ ، وَقِيلَ : ﴿وَتَيَابِكَ فَطَهَّرُ﴾ أَيُّ : اغْسِلْهَا بِالْمَاءِ ، وَقَدْ تَشْمَلُ الْآيَةُ جَمِيعَ ذَلِكَ مَعَ طَهَارَةِ الْقَلْبِ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تُطْلِقُ الثِّيَابَ عَلَيْهِ ﴿وَالرُّجْزُ﴾ هُوَ الْأَصْنَامُ ، وَقِيلَ : ﴿وَالرُّجْزُ فَاهْجُرُ﴾ أَيُّ : أَتْرُكِ الْمَعْصِيَةَ ، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَلَا يَلْزَمُ تَلْبَسُهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ﴾ لَا تُعْطِ الْعَطِيَّةَ تَلْتَمِسُ أَكْثَرَ مِنْهَا ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : لَا تَمْنُنْ بِعَمَلِكَ عَلَى رَبِّكَ تَسْتَكْبِرُهُ ﴿وَلَرَبَّكَ فَاصْبِرُ﴾ أَيُّ : اجْعَلْ صَبْرَكَ عَلَى أَذَاهُمْ لِيُوجِهُ رَبِّكَ ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ النَّاقُورُ : الصُّورُ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدِ اتَّقَمَ الْقُرْنُ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ ؟ » فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « قُولُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » . وَقَوْلُهُ : ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أَيُّ : شَدِيدٌ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أَيُّ : غَيْرُ سَهْلٍ عَلَيْهِمْ .

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأَرَهَقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُبِلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سَحَرٌ ﴿٢٤﴾ يُؤْتَرُ ﴿٢٥﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٦﴾ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٨﴾ لَا

تُنْفَى وَلَا تَذُرُ ﴿٥٠﴾ لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٥١﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا هَذَا الْحَبِيبَ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِنِعَمِ الدُّنْيَا فَكَفَرَ بِأَنْعَمِ اللَّهُ وَبَدَّلَهَا كُفْرًا وَقَابَلَهَا بِالْجُحُودِ بآيَاتِ اللَّهِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهَا ، وَجَعَلَهَا مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ ، وَقَدْ عَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعَمَهُ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ أَيُّ : خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ وَخَذَهُ لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ ، ثُمَّ رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ أَيُّ : وَاسِعًا كَثِيرًا ﴿ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : لَا يَغْيُبُونَ . أَيُّ : حُضُورًا عِنْدَهُ لَا يُسَافِرُونَ بِالتَّجَارَاتِ ، بَلْ مَوَالِيَهُمْ وَأُجْرَاؤُهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ذَلِكَ عَنْهُمْ ، وَهُمْ قُعُودٌ عِنْدَ أَبِيهِمْ يَتَمَتَّعُ بِهِمْ وَيَتَمَلَّكُ بِهِمْ ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي النِّعْمَةِ ، وَهُوَ إِقَامَتُهُمْ عِنْدَهُ ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ أَيُّ : مَكَّنْتُهُ مِنْ صُنُوفِ الْمَالِ وَالْأَثَاثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لَا يَتَيْنَا عَيْنِدَا ﴿ أَيُّ : مُعَانِدًا ، وَهُوَ الْكُفْرُ عَلَى نِعَمِهِ بَعْدَ الْعِلْمِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴾ . أَيُّ : مَشَقَّةً مِنَ الْعَذَابِ ، قِيلَ : عَذَابًا لَا رَاحَةَ فِيهِ ، ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا أَرْهَقْنَاهُ صُعُودًا ، أَيُّ : قَرَّبْنَاهُ مِنَ الْعَذَابِ الشَّقِيقِ لِبُعْدِهِ عَنِ الْإِيمَانِ : لِأَنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، أَيُّ : تَرَوَى مَاذَا يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْقُرْآنِ ، فَفَكَّرَ مَاذَا يَخْتَلِقُ مِنَ الْمَقَالِ ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أَيُّ : تَرَوَى ﴿ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿ دُعَاءٌ عَلَيْهِ ﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿ أَيُّ : أَعَادَ النَّظَرَ وَالتَّرَوَى ﴾ ثُمَّ عَبَسَ ﴿ أَيُّ : قَبَضَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَطَّبَ ﴾ وَسَرَ ﴿ أَيُّ : كَلَحَ وَكَرِهَ . ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أَيُّ : ضَرَفَ عَنِ الْحَقِّ ، وَرَجَعَ الْقَهْقَرَى مُسْتَكْبِرًا عَنِ الْإِنْقِيَادِ لِلْقُرْآنِ ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴾ أَيُّ : هَذَا سِحْرٌ يَنْقُلُهُ مُحَمَّدٌ عَنْ غَيْرِهِ بِمَنْ قَبْلَهُ وَيَحْكِيهِ عَنْهُمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ بِكَلَامِ اللَّهِ ، قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أَيُّ : سَأَغْمُرُهُ فِيهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ وَهَذَا تَهْوِيلٌ لِأَمْرِهَا وَتَفْخِيمٌ ، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَنْفَى وَلَا تَذُرُ ﴾ أَيُّ : تَأْكُلُ لَحُومَهُمْ وَعُرُوقَهُمْ وَعَصَبَهُمْ وَجُلُودَهُمْ ثُمَّ تُبَدِّلُ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ ﴿ لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ أَيُّ : حَرَّاقَةٌ لِلْجِلْدِ . ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أَيُّ : مِنْ مُقَدِّمِي الزَّبَانِيَةِ عَظِيمٍ خَلَقَهُمْ غَلِيظٌ خَلَقَهُمْ .

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٥٣﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٥٤﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٥٥﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٥٦﴾ إِنَّهَا لَا حُدَى الْكُفْرِ

﴿٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ أي : خَوَاتِمَهَا ﴿ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أي : زَبَانِيَّةً غِلَظًا شِدَادًا ، وَذَلِكَ رَدٌّ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ حِينَ ذَكَرُوا عِدَّةَ الْحَزَنَةِ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ أَمَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ عَشْرَةٍ مِنْكُمْ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ فَتَغْلِبُوهُمْ ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أي : شَدِيدِي الْخَلْقِ لَا يُقَاوِمُونَ وَلَا يُعَالَبُونَ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : إِنَّمَا ذَكَرْنَا عِدَّتَهُمْ أَتَمُّ تَسْعَةِ عَشَرَ اخْتِبَارًا مِمَّا لِلنَّاسِ ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أي : يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الرَّسُولَ حَقٌّ ؛ فَإِنَّهُ نَطَقَ بِمُطَابَقَةٍ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ﴿ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا ﴾ أي : إِلَى إِيْمَانِهِمْ بِمَا يَشْهَدُونَ مِنْ صَدَقِ إِخْبَارِ نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي : مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ أي : يَقُولُونَ : مَا الْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ هَذَا هَهُنَا ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ ﴾ أي : مِنْ مِثْلِ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ يَتَأَكَّدُ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِ أَقْوَامٍ ، وَيَتَزَلُّزَلُ عِنْدَ آخَرِينَ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : مَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ وَكَثْرَتَهُمْ إِلَّا هُوَ تَعَالَى ، لِئَلَّا يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمُ أَتَمُّ تَسْعَةِ عَشَرَ فَقَطْ ، كَمَا قَدْ قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ وَمِنْ الْفَلَاسِفَةِ الْيُونَانِيِّينَ ، وَمَنْ شَايَعَهُمْ مِنَ الْمِلَّتَيْنِ اللَّذَيْنِ سَمِعُوا هَذِهِ الْآيَةَ ، فَأَرَادُوا تَنْزِيلَهَا عَلَى الْعُقُولِ الْعَشْرَةِ وَالنَّفُوسِ التَّسْعَةِ الَّتِي اخْتَرَعُوا دَعْوَاهَا وَعَجَزُوا عَنْ إِقَامَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى مُقْتَضَاهَا ، فَأَفْهَمُوا صَدْرَ الْآيَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِآخِرِهَا وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي صِفَةِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ الَّذِي فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ : « فَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أي : النَّارُ الَّتِي وُصِفَتْ ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴾ أي : وَلَى ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ ﴾ ، أي : أَشْرَقَ ﴿ إِنَّمَا لِاحْدَى الْكُبَرِ ﴾ أي : الْعِظَائِمِ ، يَعْنِي : النَّارُ .

﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أي : لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَقْبَلَ النَّذَارَةَ ، وَيَتَّيَدِيَ لِلْحَقِّ ، أَوْ يَتَأَخَّرَ عَنْهَا وَيُؤَلِّي وَيُرَدِّهَا .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿١٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ

نَكَ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿١١﴾ وَكُنَّا خَوْضُ مَعَ الْحَاطِضِينَ ﴿١٢﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١٣﴾
 حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفْعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿١٥﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ
 ﴿١٦﴾ كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿١٧﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿١٨﴾ بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى
 صُحُفًا مُّنْشَرَةً ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٢١﴾ فَمَنْ شَاءَ
 ذَكَرَهُ ﴿٢٢﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْغُفْرَةِ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أَيُّ : مُعْتَقَلَةٌ بِعَمَلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فَإِنَّهُمْ ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿أَيُّ : يَسْأَلُونَ الْمُجْرِمِينَ وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ، وَأُولَئِكَ فِي الدَّرَكَاتِ قَائِلِينَ لَهُمْ : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ أَيُّ : مَا عَبْدْنَا رَبَّنَا وَلَا أَحْسَنَّا إِلَى خَلْقِهِ مِنْ جَنَسِنَا ﴿وَكُنَّا خَوْضُ مَعَ الْحَاطِضِينَ﴾ أَيُّ : نَتَكَلَّمُ فِيهَا لَا نَعْلَمُ ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿يَعْنِي : الْمَوْتَ . ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفْعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ أَيُّ : مَنْ كَانَ مُتَّصِفًا بِمِثْلِ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، فَإِنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةُ شَافِعٍ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ إِنَّمَا تَنْجَعُ إِذَا كَانَ الْمَحَلُّ قَابِلًا ، فَأَمَّا مَنْ وَافَى اللَّهَ كَافِرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنَّهُ لَهُ النَّارُ لَا حَالَةَ خَالِدًا فِيهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أَيُّ : فَمَا هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ الَّذِينَ قَبْلَكَ مِمَّا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ مُعْرِضِينَ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿أَيُّ : كَأَنَّهُمْ فِي نَفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ حُمْرٌ مِنْ حُمْرِ الْوَحْشِ ، إِذَا فَرَّتْ مِمَّنْ يُرِيدُ صَيْدَهَا مِنْ أَسَدٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُّنْشَرَةً﴾ أَيُّ : بَلْ يَرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُسْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ كَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ .

فَقَوْلُهُ : ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا أَفْسَدَهُمْ عَدَمُ إِيْمَانِهِمْ بِهَا ، وَتَكْذِيبُهُمْ بِوُقُوعِهَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ أَيُّ : حَقًّا إِنَّ الْقُرْآنَ تَذَكُّرٌ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿كَقَوْلِهِ : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان : ٣٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْغُفْرَةِ﴾ أَيُّ : هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُخَافَ مِنْهُ ، وَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يَغْفَرَ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمَدَّثِرِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۝ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝ أَتَحْسَبُ الْإِنْسَنُ أَلَّنْ
تَجْمَعَ عِظَامُهُ ۝ بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَنُ لِيَفْجَرُ
أَمَامَهُ ۝ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۝ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝ يَقُولُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ
الْمُسْتَقَرُّ ۝ يُنْبَأُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ الْإِنْسَنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ
۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۝

قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مُتَّفِعًا جَارَ الْإِثْنَانِ بـ « لا » قَبْلَ الْقَسَمِ لِتَأْكِيدِ
النَّفْيِ ، وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ هَهُنَا هُوَ : إثباتُ المعاد ، والرَّدُّ عَلَىٰ مَا يَزْعُمُهُ الْجَهْلَةُ مِنْ عَدَمِ بَعْثِ
الْأَجْسَادِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۝ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝ أُقْسِمُ بِهِمَا ،
فَأَمَّا يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَمَعْرُوفٌ ، وَأَمَّا النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ : عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّ الْمُؤْمِنَ
- وَالله - مَا نَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ : مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي ؟ مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي ؟ مَا أَرَدْتُ بِحَدِيثِ
نَفْسِي ؟ . وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَمْضِي قُدَّامًا مَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَتَحْسَبُ الْإِنْسَنُ أَلَّنْ تَجْمَعَ
عِظَامُهُ ۝ أَيُّ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَيُّظُنُّ أَنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَىٰ إِعَادَةِ عِظَامِهِ وَجَمْعُهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا الْمُتَفَرِّقَةِ ﴿ بَلَىٰ
قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝ أَنْ نَجْعَلَهُ خُفًّا أَوْ حَافِرًا ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى :
﴿ قَدِيرِينَ ۝ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تَجْمَعُ ۝ أَيُّ : أَيُّظُنُّ الْإِنْسَانُ أَنَّا لَا نَجْمَعُ عِظَامَهُ ؟ بَلَىٰ
سَنَجْمَعُهَا ، قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ، أَيُّ : قُدِّرْتَنَا صَالِحَةً لِّجَمْعِهَا وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَاهُ أَزِيدَ مِمَّا
كَانَ ، فَتَجْعَلُ بَنَانَهُ - وَهِيَ أَطْرَافُ أَصَابِعِهِ - مُسَوِّيَةً . ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَنُ لِيَفْجَرُ أَمَامَهُ ۝ يَعْنِي :
يَمْضِي قُدَّامًا ، يَقُولُ الْإِنْسَانُ أَعْمَلْتُ ثُمَّ أَتُوبُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيُقَالُ : هُوَ الْكُفْرُ بِالْحَقِّ بَيْنَ
يَدَيِ الْقِيَامَةِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْكَافِرُ يُكَذِّبُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ، وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ مِنَ الْمُرَادِ ، وَلِهَذَا قَالَ
بَعْدَهُ : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۝ أَيُّ : يَقُولُ : مَتَى يَكُونُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ؟ وَإِنَّمَا سُؤَالُهُ سُؤَالُ
إِسْتِبْعَادٍ لَوْ قُوعِهِ وَتَكْذِيبٍ لَوْجُودِهِ ﴿ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ۝ الْمَقْصُودُ : أَنَّ الْأَبْصَارَ تَنْبَهُرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَتَحْشَعُ وَتَحَارُ وَتَبْدُلُ مِنْ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ ، وَمِنْ عِظَمِ مَا تُشَاهِدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأُمُورِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أَي: ذَهَبَ ضَوْؤُهُ ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: كُورًا،
﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ﴾ أَي: إِذَا عَايَنَ ابْنُ آدَمَ هَذِهِ الْأَهْوَالَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَئِذٍ يُرِيدُ
أَنْ يَفِرَّ، وَيَقُولُ: أَيْنَ الْمَفْرُ؟ أَي: هَلْ مِنْ مُلْجَأٍ أَوْ مَوْئِلٍ؟

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أَي: لَا نَجَاةَ ﴿لَا وَزَرَ﴾ أَي: لَيْسَ لَكُمْ مَكَانٌ تَعْتَصِمُونَ فِيهِ
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ أَي: الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ
يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أَي: يُخْبِرُ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِ قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا، أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا، صَغِيرِهَا
وَكَبِيرِهَا ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ أَي: هُوَ شَهِيدٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ،
عَالِمٌ بِمَا فَعَلَهُ وَلَوْ اعْتَذَرَ وَانْتَكَرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾
[الإسراء: ١٤] أَي: يَشْهَدُ عَلَيْهِ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَيَدَاهُ وَرِجْلَاهُ وَجَوَارِحُهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَوْ
أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ وَلَوْ جَادَلَ عَنْهَا فَهُوَ بِصِيرٍ عَلَيْهَا.

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٥﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٦﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ
فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٨﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١٩﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢٠﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٢﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٣﴾ تَظُنُّ أَنْ
يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٤﴾

هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي كَيْفِيَّةِ تَلْقِيهِ الْوَحْيِ مِنَ الْمَلِكِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُبَادِرُ إِلَىٰ اخْتِذِهِ
وَيُسَابِقُ الْمَلِكَ فِي قِرَاءَتِهِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ ﷻ إِذَا جَاءَهُ الْمَلِكُ بِالْوَحْيِ أَنْ يَسْتَمِعَ لَهُ، وَتَكْفَلَ اللَّهُ لَهُ أَنْ
يَجْمَعَهُ فِي صَدْرِهِ، وَأَنْ يُبَيِّنَهُ لِأَدَاتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَلْقَاهُ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُبَيِّنَهُ لَهُ وَيُفَسِّرَهُ وَيُوضِّحَهُ
فَالْحَالَةُ الْأُولَى: جَمْعُهُ فِي صَدْرِهِ، وَالثَّانِيَةُ: تِلَاوَتُهُ، وَالثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُهُ وَإِبْصَاحُ مَعْنَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أَي: بِالْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ أَي: فِي صَدْرِكَ ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أَي: أَنْ تَقْرَأَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ أَي:
إِذَا تَلَاَهُ عَلَيْكَ الْمَلِكُ عَنِ اللَّهِ ﷻ ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أَي: فَاسْتَمِعْ لَهُ ثُمَّ إِقْرَأْهُ كَمَا أَقْرَأَكَ ﴿ثُمَّ إِنَّ
عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أَي: بَعْدَ حِفْظِهِ وَتِلَاوَتِهِ يُبَيِّنُهُ لَكَ وَتُوضِّحُهُ وَتُلْهِمُكَ مَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا أَرَدْنَا وَشَرَعْنَا.
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، فَكَانَ يُحَرِّكُ شَفْتَيْهِ، قَالَ: فَأَنَا
أُحَرِّكُ شَفَتَيْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ
بِهِ ﴿٢٥﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ قَالَ: جَمْعُهُ فِي صَدْرِكَ، ثُمَّ تَقْرَأَهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾

أَيُّ : فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا انْطَلَقَ جَبْرِيلُ قَرَأَهُ كَمَا أَقْرَأَهُ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ ١ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿ أَيُّ : إِنَّمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ، وَخِلَافَةَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ ﷻ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الْحَقِّ وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . أَنَّهُمْ إِنَّمَا
هَمَّتْهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ وَهُمْ لَا هُونَ مُتَشَاغِلُونَ عَنِ الْآخِرَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ مِنَ النَّصَارَةِ ، أَيُّ : حَسَنَةٌ بَهِيَّةٌ مُشْرِقَةٌ مُسْرُورَةٌ ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ أَيُّ : تَرَاهُ عِيَانًا ،
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عِيَانًا » .

وَقَدْ ثَبَّتَتْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ ﷻ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحِ مِنْ طُرُقٍ مُتَوَاتِرَةٍ عِنْدَ
أَكْثَرِ الْحَدِيثِ ، لَا يُمَكِّنُ دَفْعُهَا وَلَا مَنَعُهَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنْ
نَاسًا قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ : « هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ
وَالْقَمَرِ لَيْسَ دُونَهُمَا سَحَابٌ ؟ » قَالُوا : لَا ، قَالَ : « فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ ٢ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿ هَذِهِ وَجُوهُ الْفَجَّارِ تَكُونُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ بَاسِرَةً ، وَقِيلَ : كَالْحَةِ ، وَقِيلَ : تُعَيَّرُ أَلْوَانُهَا ﴾ تَظُنُّ ﴿ أَيُّ : تَسْتَيْقِنُ ﴾ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿ قَالَ
مُجَاهِدٌ : ذَاهِيَةٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : شُرٌّ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : تَسْتَيْقِنُ أَنَّهَا هَالِكَةٌ .

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ ٣ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ٤ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ٥ وَالْتَفَتِ السَّاقُ
بِالسَّاقِ ٦ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ٧ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ٨ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ٩
ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ١٠ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ١١ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ١٢ أَتَحْسَبُ
الْإِنْسَانَ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ١٣ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنَى يُمْنَى ١٤ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَحَلَقَ فَسَوَّى ١٥
فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ١٦ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ١٧

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالَةِ الْإِحْتِضَارِ وَمَا عِنْدَهَا مِنَ الْأَهْوَالِ - ثَبَّتَنَا اللَّهُ هُنَاكَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ -
فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ ١٨ إِنْ جَعَلْنَا « كَلَّا » رَادِعَةً ، فَمَعْنَاهَا : لَسْتَ يَا ابْنَ آدَمَ هُنَاكَ
تَكْذِبُ بِمَا أَخْبَرْتَ بِهِ ، بَلْ صَارَ ذَلِكَ عِنْدَكَ عِيَانًا ، وَإِنْ جَعَلْنَاهَا بِمَعْنَى « حَقًّا » فَظَاهِرٌ ، أَيُّ :
حَقًّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ، أَيُّ : انْتَزَعَتْ رُوحَكَ مِنْ جَسَدِكَ وَبَلَغَتْ تَرَاقِيكَ ، وَالتَّرَاقِي : جَمْعُ
تَرْقُوءٍ ، وَهِيَ الْعِظَامُ الَّتِي بَيْنَ تَعْرَةِ النَّحْرِ وَالْعَاتِقِ ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أَيُّ : مَنْ رَاقٍ يَرْقِي ؟
وَقِيلَ : أَيُّ : مَنْ طَيِّبٍ شَافٍ ، وَقِيلَ : مَنْ يَرْقَى بِرُوحِهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ؟
فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ ﴿ وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -
قَالَ : آخِرُ يَوْمٍ فِي الدُّنْيَا ، وَأَوَّلُ يَوْمٍ مِنَ أَيَّامِ الْآخِرَةِ ، فَتَلْتَقِي الشَّدَّةُ بِالشَّدَّةِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ،

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : هُمَا سَاقَاكَ إِذَا اِلْتَفَتَا ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : مَاتَتْ رِجْلَاهُ فَلَمْ تَحْمِلَاهُ ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهَا جَوًّا لَا ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : هُوَ لَفُتُهُمَا فِي الْكَفَنِ ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ أَي : الْمَرْجِعُ وَالْمَأْتَبُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ تُرْفَعُ إِلَى السَّمَاوَاتِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ : رُدُّوْا عِبْدِي إِلَى الْأَرْضِ ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ الطَّوِيلِ . ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴾ ٥ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْكَافِرِ الَّذِي كَانَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُكَذِّبًا لِلْحَقِّ بِقَلْبِهِ ، مُتَوَلِّيًا عَنِ الْعَمَلِ بِقَالِهِ ، فَلَا خَيْرَ فِيهِ بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ، ﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ أَي : جَذَلًا أَشْرًا بَطَرًا كَسَلَانًا ، لَا هِمَّةَ لَهُ وَلَا عَمَلٍ ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ أَي : يَخْتَالُ ، وَقِيلَ : يَتَبَخَّرُ . ﴿ أُولَى لَكَ فَأُولَى ﴾ ٦ ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى ﴿ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَافِرِ بِهِ الْمُبْتَخِرُ فِي مَشِيَّتِهِ ، أَي : يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَمُتَ هَكَذَا وَقَدْ كَفَرْتَ بِخَالِقِكَ وَبَارِئِكَ ، كَمَا يُقَالُ فِي مِثْلِ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالتَّهْدِيدِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ائْتَسَبِ الْإِنْسَنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدى ﴾ أَي : لَيْسَ يُتْرَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى ، وَلَا يُتْرَكَ فِي قَبْرِهِ سُدى لَا يُبْعَثُ ، بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا ، مُحْشُورٌ إِلَى اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا إِثْبَاتُ الْمَعَادِ ، وَالرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْجَهْلِ وَالْعِنَادِ ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى مُسْتَدِلًّا عَلَى الْإِعَادَةِ بِالْبُدَاءَةِ فَقَالَ : ﴿ أَلَمْ يَكْ نُطْفَءَ مِنْ مَنِيِّ يُمْنَى ﴾ أَي : أَمَا كَانَ الْإِنْسَانُ نُطْفَةً ضَعِيفَةً مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، يُمْنَى : يُرَاقُ مِنْ الْأَصْلَابِ فِي الْأَرْحَامِ ؟ . ﴿ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ أَي : فَصَارَ عِلْقَةً ، ثُمَّ مُضْغَةً ثُمَّ سُكَّلَ وَنُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ ، فَصَارَ خَلْقًا آخَرَ سَوِيًّا سَلِيمَ الْأَعْضَاءِ ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ لَجَعَلْ مِنْهُ الذَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ نُنْجِيَ آلَ نُوْتٍ ﴾ أَي : أَمَا هَذَا الَّذِي أَنْشَأَ هَذَا الْخَلْقَ السَّوِيَّ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَةِ الضَّعِيفَةِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ ؟ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : أَنَّهُ مَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ نُنْجِيَ آلَ نُوْتٍ ﴾ قَالَ : سُبْحَانَكَ ، فَبَكَى .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ﴿ اَلَمْ تَرَ ﴾ تَتَرَبَّلُ السَّجْدَةَ ، وَ ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَنِ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا
كَفُورًا ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ أَوْجَدَهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُن شَيْئًا يَذْكُرُ ، لِحَقَارَتِهِ ، وَضَعْفِهِ ،
فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ .
ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أَيُّ : أَخْلَاطٍ ، وَالْمَشِجُّ وَالْمَشِجُّ :
الشَّيْءُ الْخَلِيطُ ، بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ . رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مِنْ
نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ يَعْنِي : مَاءَ الرَّجُلِ وَمَاءَ الْمَرْأَةِ إِذَا اجْتَمَعَا وَاخْتَلَطَا ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ بَعْدُ مِنْ طَوْرِ إِلَى
طَوْرٍ ، وَحَالٍ إِلَى حَالٍ ، وَلَوْ نِ إِلَى لَوْنٍ . ﴿ نَبْتَلِيهِ ﴾ أَيُّ : نَخْبِرُهُ ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أَيُّ :
جَعَلْنَاهُ سَمْعًا وَبَصَرًا يَتِمَكَّنُ بِهِمَا مِنَ الطَّاعَةِ وَالْعَصِيَّةِ . ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أَيُّ : بَيَّأْنَاهُ لَهُ
وَوَضَّحْنَاهُ وَبَصَّرْنَاهُ بِهِ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾
[فصلت : ١٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ مِنْ « الْهَاءِ » فِي قَوْلِهِ :
﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ تَقْدِيرُهُ : فَهُوَ فِي ذَلِكَ إِمَّا شَقِيٌّ وَإِمَّا سَعِيدٌ .

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُوبُونَ مِنْ كَأْسٍ
كَاتٍ مَزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ
بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمًا عَلَىٰ حَيْثُ مَسَكِنَتِنَا
وَيَتِيمًا وَأُسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَاجِهِهِ اللَّهُ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ
مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقْنَاهُمْ اللَّهَ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا
﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَرَصَدَهُ لِلْكَافِرِينَ مِنْ خَلْقِهِ بِهِ مِنَ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ وَالسَّعِيرِ ، وَهُوَ
اللَّهَبُ وَالْحَرِيقُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَلَمَّا ذَكَرَ مَا أَعَدَّهُ هَؤُلَاءِ الْأَشْقِيَاءِ مِنَ السَّعِيرِ قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ إِنَّ
الْأَبْرَارَ يَشْرُوبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَاتٍ مَزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ ، وَقَدْ عَلِمَ مَا فِي الْكَافُورِ مِنَ التَّيْرِيدِ
وَالرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ مَعَ مَا يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ اللَّذَازَةِ فِي الْجَنَّةِ . قَالَ الْحَسَنُ : بَرْدُ الْكَافُورِ فِي طِيبِ
الزَّنْجَبِيلِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أَيُّ : هَذَا الَّذِي مُزِجَ هَؤُلَاءِ

الْأَبْرَارِ مِنَ الْكَافُورِ هُوَ عَيْنٌ يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ صَرَفًا بِلَا مَرْجٍ وَيُرَوْنَ بِهَا عَلَى التَّمْيِيزِ . هَذَا الشَّرَابُ فِي طَبِيبِهِ كَالْكَافُورِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ مِنْ عَيْنِ كَافُورٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أَيُّ : يَنْصَرِّفُونَ فِيهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ شَاءُوا مِنْ قُصُورِهِمْ وَدُورِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ وَمَحَلَّتِهِمْ . وَالتَّفْجِيرُ هُوَ الْإِنْبَاعُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُؤْفُونَ بِالْأَنْدَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ أَيُّ : يَتَعَبَّدُونَ لِلَّهِ فِيمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ الْوَاجِبَةِ بِأَصْلِ الشَّرْعِ ، وَمَا أَوْجَبُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِطَرِيقِ النَّذْرِ . عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِيعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ » . وَيَتْرَكُونَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي نَهَاهُمْ عَنْهَا خِيفَةً مِنْ سُوءِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْمَعَادِ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي شَرُّهُ مُسْتَطِيرٌ ، أَيُّ : مُتَشَتِّرٌ عَامٌّ عَلَى النَّاسِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الطَّعَامِ ، أَيُّ : وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ فِي حَالِ مَحَبَّتِهِمْ وَشَهْوَتِهِمْ لَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَآتَى أَلْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٧]

وَفِي الصَّحِيحِ « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ ، تَأْمُلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ » أَيُّ : فِي حَالِ مَحَبَّتِكَ لِلْمَالِ وَحِرْصِكَ عَلَيْهِ وَحَاجَتِكَ إِلَيْهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ أَمَّا الْمُسْكِينُ وَالْيَتِيمُ فَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُمَا وَصَفَتُهُمَا ، وَأَمَّا الْأَسِيرُ : فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : مِنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ الْأَسِيرُ عُمُومًا سَوَاءً كَانَ مُسْلِمًا أَوْ مُشْرِكًا . أَيُّ : يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ هَؤُلَاءِ وَهُمْ يَشْتَهُونَهُ وَيُحِبُّونَهُ ، قَائِلِينَ بِلِسَانِ الْحَالِ ﴿ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ وَرِضَاهُ ﴿ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ أَيُّ : لَا نَطْلُبُ مِنْكُمْ مَجَازَةً تَكْفِئُونَا بِهَا وَلَا أَنْ تَشْكُرُونَا عِنْدَ النَّاسِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا خَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا نَفْعَلُ هَذَا لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرَحَمَنَا وَيَتَلَقَّانَا بِلُطْفِهِ فِي الْيَوْمِ الْعَبُوسِ الْقَمْطَرِيرِ . قِيلَ : ﴿ عَبُوسًا ﴾ ضَيْقًا ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ طَوِيلًا ، وَقِيلَ : ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أَيُّ : يَعْبَسُ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ عَرَقٌ مِثْلُ الْقَطَرَانِ ، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ يَقْبِضُ الْوَجْهَ بِالْبُسُورِ ، وَقِيلَ : تَعْبَسُ فِيهِ الْوُجُوهُ مِنَ الْهَوْلِ . قِيلَ : ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ تَقْلِيصُ الْجَبِينِ وَمَا بَيْنَ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الْهَوْلِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّيْنَهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّجَانُّسِ الْبَلِيغِ ﴿ فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أَيُّ : آمَنَهُمْ بِمَا خَافُوا مِنْهُ ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَصْرَةً ﴾ أَيُّ : فِي وَجْهِهِمْ ﴿ وَسُرُورًا ﴾ أَيُّ : فِي قُلُوبِهِمْ ﴿ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أَيُّ : بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ أَعْطَاهُمْ وَنَوَّاهُمْ

وَبَوَّأَهُمْ ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أَيُّ : مَنْزِلًا رَحْبًا ، وَعَيْشًا رَغَدًا ، وَلِبَاسًا حَسَنًا .

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٢﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا
وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٣﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِدَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٤﴾
قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٥﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٦﴾ عَيْنًا
فِيهَا تَسْمَىٰ سَلْسِيلًا ﴿١٧﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا
مَّنثورًا ﴿١٨﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ
وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُوعًا أَسَاوِرٌ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمُ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمُ
جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ ، وَمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَضْلِ الْعَمِيمِ ،
فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ الْإِتِّكَاءُ ، قِيلَ : الْإِضْطِجَاعُ ، وَقِيلَ : التَّرَبُّعُ فِي الْجُلُوسِ ،
وَالْأَرَائِكُ : هِيَ الشُّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ . ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ أَيُّ : لَيْسَ عِنْدَهُمْ حَرٌّ
مُزِجٌ ، وَلَا بَرْدٌ مُّؤَلِّمٌ ، بَلْ هِيَ مِزَاجٌ وَاحِدٌ دَائِمٌ سَرْمَدِيٌّ ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا ﴾ أَيُّ : قَرِيبَةً إِلَيْهِمْ
أَغْصَانُهَا ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ أَيُّ : مَتَى تَعَاطَاهُ دَنَا الْقُطْفُ إِلَيْهِ وَتَدَلَّى مِنْ أَعْلَى غُصْنِهِ ، كَأَنَّهُ
سَامِعٌ طَائِعٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن : ٥٤] ، وَقَالَ جَلَّ
وَعَلَا : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ٢٣] . قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ إِنَّ قَامَ إِرْتَفَعَتْ
مَعَهُ بِقَدْرٍ ، وَإِنْ قَعَدَتْ تَدَلَّتْ لَهُ حَتَّى يَنَالَهَا ، وَإِنْ إِضْطَجَعَ تَدَلَّتْ لَهُ حَتَّى يَنَالَهَا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ
تَعَالَى : ﴿ تَذْلِيلًا ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِدَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أَيُّ : يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْحَدُّمُ
بِأَوَانِي الطَّعَامِ وَهِيَ مِنْ فِضَّةٍ ، وَأَكْوَابِ الشَّرَابِ وَهِيَ الْكِيزَانُ الَّتِي لَا عَرَى لَهَا وَلَا خَرَاطِيمَ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ ﴿ فَالْأَوَّلُ مَنْصُوبٌ بِخَيْرٍ كَانَ ، أَيُّ : كَانَتْ
قَوَارِيرَ ، وَالثَّانِي مَنْصُوبٌ إِمَّا عَلَى الْبَدَلِيَّةِ ، أَوْ تَمْيِيزٌ ؛ لِأَنَّهُ يَبَيِّنُهُ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ قَوَارِيرًا مِنْ
فِضَّةٍ ﴾ أَيُّ : بَيَاضُ الْفِضَّةِ فِي صَفَاءِ الزُّجَاجِ ، وَالْقَوَارِيرُ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ زُجَاجٍ ، فَهَذِهِ الْأَكْوَابُ
هِيَ مِنْ فِضَّةٍ ، وَهِيَ مَعَ هَذَا شَفَافَةٌ يَرَى مَا فِي بَاطِنِهَا مِنْ ظَاهِرِهَا ، وَهَذَا مِمَّا لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الدُّنْيَا .
﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أَيُّ : عَلَى قَدَرٍ رَّبِّهِمْ ، لَا تَرِيدُ عَنْهُ وَلَا تَنْقُصُ ، ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا
زَنْجَبِيلًا ﴾ أَيُّ : وَيُسْقَوْنَ يَعْنِي الْأَبْرَارَ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْأَكْوَابِ ﴿ كَأْسًا ﴾ أَيُّ : خَمْرًا ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا
زَنْجَبِيلًا ﴾ فَتَارَةٌ يُمَزَّجُ هُمُ الشَّرَابُ بِالْكَافُورِ وَهُوَ بَارِدٌ ، وَتَارَةٌ بِالزَنْجَبِيلِ وَهُوَ حَارٌّ ، لِيَعْتَدِلَ

الْأَمْرُ ، وَهَؤُلَاءِ يُمَزَّجُ لَهُمْ مِنْ هَذَا تَارَةً وَمِنْ هَذَا تَارَةً ، وَأَمَّا الْمُقَرَّبُونَ فَإِنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا صِرْفًا ، ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلاً﴾ أَي : الزَّنَجِيلُ عَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ تُسَمَّى سَلْسِيلاً .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا﴾ أَي : يَطُوفُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ لِلْخِدْمَةِ وَلِدَانٌ مِنْ وَلِدَانِ الْجَنَّةِ ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ أَي : عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مُخَلَّدُونَ عَلَيْهَا ، لَا يَتَغَيَّرُونَ عَنْهَا ، لَا تَزِيدُ أَعْمَارُهُمْ عَنْ تِلْكَ السَّنِّ . ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا﴾ أَي : إِذَا رَأَيْتَهُمْ فِي انْتِشَارِهِمْ فِي قِصَاءِ حَوَائِجِ السَّادَةِ وَكَثْرَتِهِمْ ، وَصَبَاحَةِ وَجُوهِهِمْ ، وَحُسْنِ أَلْوَانِهِمْ وَنِيَابِهِمْ وَحُلِيِّهِمْ ، حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ، وَلَا يَكُونُ فِي التَّشْبِيهِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا ، وَلَا فِي الْمَنْظَرِ أَحْسَنُ مِنَ اللَّؤْلُؤِ الْمَنثورِ عَلَى الْمَكَانِ الْحَسَنِ . ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ ، أَي : وَإِذَا رَأَيْتَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ثُمَّ﴾ أَي : هُنَاكَ ، يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا وَسَعَةِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخُبْرَةِ وَالشُّرُورِ ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أَي : مَمْلَكَةً لِلَّهِ هُنَاكَ عَظِيمَةً وَسُلْطَانًا بَاهِرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أَي : لِبَاسُ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيهَا الْخُرِيرُ ، وَمِنْهُ سُنْدُسٌ وَهُوَ رَفِيعُ الْخُرِيرِ كَالْقُمُصَانِ وَنَحْوَهَا مِمَّا يَلِي أَبْدَانَهُمْ ، وَالْإِسْتَبْرَقُ مِنْهُ مَا فِيهِ بَرِيقٌ وَلَمَعَانٌ وَهُوَ مِمَّا يَلِي الظَّاهِرَ ، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي اللَّبَاسِ . ﴿وَحُلُوتُ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ ، وَأَمَّا الْمُقَرَّبُونَ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿مُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج : ٢٣] ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى زِينَةَ الظَّاهِرِ بِالْخُرِيرِ وَالْحُلِيِّ قَالَ بَعْدَهُ ﴿وَسَقَلُهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أَي : طَهَّرَ بَوَاطِنَهُمْ مِنَ الْحَسَدِ وَالْحَقْدِ وَالْعِلِّ وَالْأَذَى وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّدِيَّةِ .

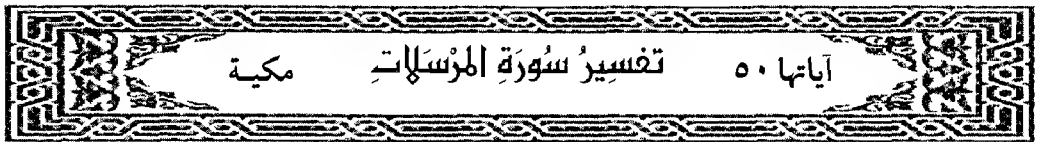
وَقَوْلُهُ : ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أَي : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَكْرِيمًا لَهُمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة : ٢٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مُشْكُورًا﴾ أَي : جَزَاكُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٣٦﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٣٧﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٣٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَخَبِيرُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٤٠﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴿٤١﴾ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٤٢﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴿٤٣﴾ فَمَنْ شَاءَ آخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٤٥﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤٦﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُّمْتَنًّا لِّمَنَّا اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ تَنْزِيلًا ﴿١﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴿٢﴾ أَيُّ : كَمَا أَكْرَمَكَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ ، فَاصْبِرْ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سَيُذَبِّرُكَ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ﴿٣﴾ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ عَاقِبَةً أَوْ كُفُورًا ﴿٤﴾ أَيُّ : لَا تَطْعَمْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ أَرَادُوا صَدَّكَ عَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، بَلْ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . فَالْآيَةُ : هُوَ الْفَاجِرُ فِي أَفْعَالِهِ ، وَالْكَفُورُ : هُوَ الْكَافِرُ قَلْبُهُ . ﴿٥﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٦﴾ أَيُّ : أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ ﴿٧﴾ وَمِنْ أَلِيلٍ فَاسْجُدْ لَهُ ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٨﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٩﴾ وَمِنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿١٠﴾ [الإسراء : ٧٩] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُكْرِمًا عَلَى الْكُفَّارِ وَمَنْ أَشَبَّهُهُمْ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا وَالْإِنْصِبَابِ إِلَيْهَا وَتَرْكِ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ : ﴿١١﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُخَيُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿١٢﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿١٣﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴿١٤﴾ يَعْنِي : خَلَقْنَاهُمْ ﴿١٥﴾ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿١٦﴾ أَيُّ : وَإِذَا شِئْنَا بَعَثْنَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ فَأَعَدْنَاهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا ، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِالْبَدْءَةِ عَلَى الرَّجْعَةِ ، ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴿١٨﴾ يَعْنِي هَذِهِ السُّورَةُ تَذْكِرَةٌ ﴿١٩﴾ فَمَنْ شَاءَ آخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾ أَيُّ : طَرِيقًا وَمَسْلَكًا ، أَيُّ : مَنْ شَاءَ اهْتَدَىٰ بِالْقُرْآنِ ، ﴿٢١﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٢٢﴾ أَيُّ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَهْدِيَ نَفْسَهُ ، وَلَا يَدْخُلَ فِي الْإِيمَانِ وَلَا يَخْرُجَ لِنَفْسِهِ نَفْعًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٥﴾ ، أَيُّ : عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ فَيُسِّرُهَا لَهُ ، وَيَقْبِضُ لَهُ أَسْبَابَهَا ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ فَيُضْرِفُهُ عَنِ الْهُدَى ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٢٦﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . ثُمَّ قَالَ : ﴿٢٧﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٨﴾ أَيُّ : يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، فَمَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِنْسَانِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارٍ بِمَنَى ، إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ : ﴿١﴾ وَ الْمُرْسَلَتِ ﴿٢﴾ ، فَإِنَّهُ لَيَتْلُوهَا وَإِنِّي لَأَتْلَقَاهَا مِنْ فِيهِ ، وَإِنْ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا ، إِذْ وَبَّتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اِقْتُلُوهَا » فَايْتَدَرْنَاهَا فَذَهَبَتْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَقَيْتُ شَرَّكُمْ كَمَا وَقَيْتُمْ شَرَّهَا » . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : أَنَّ أُمَّ الْفَضْلِ سَمِعَتْهُ يَقْرَأُ : ﴿٣﴾ وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ﴿٤﴾ فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ ، ذَكَرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هَذِهِ السُّورَةِ ، إِنَّهَا لَأَخِرُ مَا سَمِعْتُ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَغْرِبِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرَتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ﴿٤﴾
فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾
وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِيتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾
لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿١﴾ وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ﴿٢﴾ قَالَ : الْمَلَائِكَةُ ، وَقِيلَ : هِيَ الرُّسُلُ . وَعَنْ أَبِي الْعُبَيْدِينَ
قَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿٣﴾ وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ﴿٤﴾ قَالَ : الرِّيحُ ، وَكَذَا قَالَ فِي : ﴿٥﴾ فَالْعَصْفَتِ
عَصْفًا ﴿٦﴾ وَالنَّشْرَتِ نَشْرًا ﴿٧﴾ : إِنَّمَا الرِّيحُ ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ . ﴿٨﴾ فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ﴿٩﴾ فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ﴿١٠﴾
عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿١١﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةُ ، وَلَا خِلَافَ هَاهُنَا ؛ فَإِنَّمَا تَنْزِيلُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَلَى الرُّسُلِ ، تَفَرُّقٌ بَيْنَ
الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْهَدْيِ وَالْغَيِّ ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَتُلْقِي إِلَيْهِمْ وَحْيًا فِيهِ إِعْذَارٌ إِلَى الْخَلْقِ ،
وَإِنْدَارٌ لَهُمْ عِقَابِ اللَّهِ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَهُ ﴿١٢﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ ﴿١٣﴾ هَذَا هُوَ الْمُقَسَّمُ عَلَيْهِ بِهِذِهِ
الْأَقْسَامِ ، أَيِ : مَا وَعَدْتُمْ بِهِ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ ، وَالتَّفْنِخِ فِي الصُّورِ ، وَبَعَثِ الْأَجْسَادِ ، وَجَمْعِ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَمُجَازَاةِ كُلِّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ،
إِنَّ هَذَا كُلَّهُ ﴿١٤﴾ لَوَاقِعَ ﴿١٥﴾ أَيِ : لَكَائِنُ لَا مَحَالَةَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿١٦﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿١٧﴾ أَيِ : ذَهَبَ
ضَوْوُهَا ﴿١٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿١٩﴾ أَيِ : انْفَطَرَتْ وَانْشَقَّتْ ، وَتَذَلَّتْ أَرْجَاؤُهَا ، وَوَهَتْ أَطْرَافُهَا .
وَقَوْلُهُ : ﴿٢٠﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿٢١﴾ أَيِ : ذَهَبَ بِهَا فَلَا يَبْقَى لَهَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿٢٢﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِيتَتْ ﴿٢٣﴾ جُمِعَتْ ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ
الرُّسُلَ ﴿٢٥﴾ [المائدة : ١٠٩] ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿٢٦﴾ أُقِيتَتْ ﴿٢٧﴾ أُجِّلَتْ ، وَقِيلَ : ﴿٢٨﴾ أُقِيتَتْ ﴿٢٩﴾ أَوْعِدَتْ ﴿٣٠﴾ لِأَيِ
يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿٣١﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿٣٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ يَقُولُ
تَعَالَى : لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ الرُّسُلُ وَأُرْجِيَ أَمْرُهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، ثُمَّ قَالَ مُعَظَّمًا لِشَأْنِهِ ﴿٣٥﴾ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿٣٦﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ أَيِ : وَيَلَّ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ غَدًا .

أَلَمْ يَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ نُنَبِّعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿٣٩﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤١﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٤٢﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٤٣﴾
إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٤٤﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿٤٥﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٦﴾ أَلَمْ
نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٤٧﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٤٨﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُمُ

مَاءً فُرَاتًا ﴿١٧﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يُولَدْكَ الْأَوَّلِينَ﴾ يَعْنِي: مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ الْمُخَالِفِينَ لِمَا جَاءَهُمْ بِهِ ﴿ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ أَيُّ: مِمَّنْ أَشْبَهُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. ثُمَّ قَالَ مُتَمَتِّيًا عَلَى خَلْقِهِ وَمُحْتَجًّا عَلَى الْإِعَادَةِ بِالْبَدَاءَةِ: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أَيُّ: ضَعِيفٍ حَقِيرٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ الْبَارِي ﷻ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ «يس» فِي حَدِيثِ بُسْرِ بْنِ جَحَاشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «إِنَّ آدَمَ، أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتَك مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟». ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ يَعْنِي: جَعَلْنَاهُ فِي الرَّحِمِ، وَهُوَ قَرَارُ الْمَاءِ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرَأَةِ، وَالرَّحِمُ مُعَدُّ لِدَلِّكَ، حَافِظٌ لِمَا أُودِعَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ يَعْنِي: إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ أَوْ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ قِيلَ: كُنَّا، وَقِيلَ: يُكْفَتُ الْمِيتُ فَلَا يَرَى مِنْهُ شَيْءٌ وَقِيلَ: بَطْنُهَا لِأَمْوَاتِكُمْ، وَظَهَرُهَا لِأَحْيَائِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوْسِيَ شَمِخْصٍ﴾ يَعْنِي: الْجِبَالَ أَرَسَى بِهَا الْأَرْضَ لِيَلَّا تَمِيدَ وَتَضْطَرِبَ ﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أَيُّ: عَذْبًا زُلَالًا مِنَ السَّحَابِ، أَوْ مِمَّا أَتْبَعَهُ مِنْ عُيُونِ الْأَرْضِ ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أَيُّ: وَيَلُّ لِمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يَسْتَمِرُّ عَلَى تَكْذِيبِهِ وَكُفْرِهِ.

أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٢٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهَبِ ﴿٢١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٢٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٢٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٢٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُنْكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٢٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا لِلْكَفَّارِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، أَنَّهُمْ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿١٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ يَعْنِي: هَبَّ النَّارِ إِذَا ارْتَفَعَ وَصَعِدَ مَعَهُ دُخَانٌ، فَمِنْ شِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ أَنَّ لَهُ ثَلَاثَ شُعَبٍ ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهَبِ﴾ أَيُّ: ظِلُّ الدُّخَانِ الْمُقَابِلُ لِلَّهَبِ لَا ظَلِيلٌ هُوَ فِي نَفْسِهِ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهَبِ، يَعْنِي: وَلَا يَقِيهِمْ حَرَّ الْلَّهَبِ ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ أَيُّ: يَتَطَايَرُ الشَّرَرُ مِنْ هَبِّهَا كَالْقَصْرِ ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ﴾ أَيُّ: كَالْإِبِلِ السُّودِ، وَقِيلَ: ﴿جِمَلَتٌ صُفْرٌ﴾ يَعْنِي: حِبَالُ السُّفُنِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُمَا - ﴿جَمَلَتْ صُفْرٌ﴾ قَطَعَ نُحَاسٍ ، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْكَلَامِ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فِيهِ لِيَعْتَذِرُوا ، بَلْ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ، وَعَرَصَاتُ الْقِيَامَةِ حَالَاتٌ ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُخْبِرُ عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ تَارَةً ، وَعَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ تَارَةً ؛ لِيَدُلَّ عَلَى شِدَّةِ الْأَهْوَالِ وَالزَّلَازِلِ يَوْمَئِذٍ . وَهَذَا يَقُولُ بَعْدَ كُلِّ فَضْلِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ ، وَهَذِهِ مُحَاطَةٌ مِنَ الْخَالِقِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ يَقُولُ لَهُمْ : أَنَّهُ جَمَعَهُمْ بِقُدْرَتِهِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ وَيَنْقُذُهُمُ الْبَصَرَ . ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، أَيُّ : إِنْ قَدَرْتُمْ عَلَى أَنْ تَنْخَلِّصُوا مِنْ قَبْضَتِي ، وَتَنْجُوا مِنْ حُكْمِي فَافْعَلُوا ، فَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿١٢٠﴾ وَفَوَكَهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٢١﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٢٤﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿١٢٥﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٢٨﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ عَبْدُوهُ بِأَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ ، وَتَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ : إِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُونَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، أَيُّ : بِخِلَافِ مَا أُولَئِكَ الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنْ ظِلٍّ لِيَحْمُومَ ، وَهُوَ الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ الْمُتَيْنُ ﴿ وَفَوَكَهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أَيُّ : مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيُّ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا خَبَرًا مُسْتَأْنَفًا ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيُّ : هَذَا جَزَاؤُنَا لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلِ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴾ خِطَابٌ لِلْمُكَذِّبِينَ يَوْمَ الدِّينِ ، وَأَمَرَهُمْ أَمْرَ تَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾ أَيُّ : مُدَّةٌ قَلِيلَةٌ قَرِيبَةٌ قَصِيرَةٌ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تُمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أَيُّ : إِذَا أُمِرَ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ مِنَ الْكُفَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُصَلِّينَ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، اِمْتَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهُ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيُّ : إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ فَبِأَيِّ كَلَامٍ يُؤْمِنُونَ بِهِ ؟

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاهُ أَرْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَسْأُلُهُمْ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنكَارًا لَوْفُوعِهَا ﴿١﴾ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٣﴾ أَيُّ : عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يَتَسَاءَلُونَ مِنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ ، يَعْنِي : الْخَبْرُ الْهَائِلُ الْمُفْطَعُ الْبَاهِرُ . قَالَ قَتَادَةُ ، وَابْنُ زَيْدٍ : النَّبَأُ الْعَظِيمُ : الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ ، ﴿٤﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٥﴾ يَعْنِي : النَّاسُ فِيهِ عَلَى قَوْلَيْنِ مُؤْمِنٌ بِهِ وَكَافِرٌ . ثُمَّ قَالَ مُتَوَعِّدًا لِلْمُنْكَرِي الْقِيَامَةَ ﴿٦﴾ كَلَّا سَيَعْمُونَ ﴿٧﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْمُونَ ﴿٨﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ . ثُمَّ شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُبَيِّنُ قُدْرَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْغَرِيبَةِ وَالْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ ، الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَسْأَلُ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَغَيْرِهِ ، فَقَالَ : ﴿٩﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿١٠﴾ أَيُّ : مُبَهَّدَةً لِلْخَلَائِقِ ، ذُلُولًا لَهُمْ قَارَةً سَاكِنةً ثَابِتَةً ﴿١١﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿١٢﴾ أَيُّ جَعَلَهَا لَهَا أَوْتَادًا أَرْسَاهَا بِهَا وَثَبَّتَهَا وَقَرَّرَهَا حَتَّى سَكَنتْ ، وَلَمْ تَضْطَرِبْ بِمَنْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿١٣﴾ وَخَلَقْنَاهُ أَرْوَاجًا ﴿١٤﴾ يَعْنِي : ذَكَرْنَا وَأَنْشَأْنَا يَسْتَمْتِعُ كُلُّ مِنْهُمَا بِالْآخِرِ ، وَيَحْصُلُ التَّنَاسُلُ بِذَلِكَ . ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿١٦﴾ أَيُّ : قَطْعًا لِلْحَرَكَةِ لِتَحْصُلِ الرَّاحَةُ مِنْ كَثْرَةِ التَّرْدَادِ وَالسَّعْيِ فِي الْمَعَاشِ فِي عَرَضِ النَّهَارِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي « سُورَةِ الْفُرْقَانِ » . ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٨﴾ أَيُّ : يَغْشَى النَّاسَ ظِلَامُهُ وَسَوَادُهُ ، ﴿١٩﴾ لِبَاسًا ﴿٢٠﴾ أَيُّ : سَكَنًا . ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿٢٢﴾ أَيُّ : جَعَلْنَاهُ مُشْرِقًا نِيرًا مُضِيئًا ، لِيَتِمَّكَنَ النَّاسُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ وَالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ لِلْمَعَاشِ ، وَالتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَاتِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ . ﴿٢٣﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿٢٤﴾ يَعْنِي : السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ فِي اتِّسَاعِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَإِحْكَامِهَا وَإِتْقَانِهَا ، وَتَرْبِيئِهَا بِالْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿٢٥﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿٢٦﴾ يَعْنِي : الشَّمْسَ الْمُنِيرَةَ عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ الَّتِي يَتَوَهَّجُ ضَوْؤُهَا لِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ ﴿٢٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿٢٨﴾

الرَّادُّ بِالْمُعْصِرَاتِ : السَّحَابُ . ﴿ مَاءٌ نَجَاجًا ﴾ ، الثَّجُّ : الصَّبُّ الْمُتَابِعُ الْكَثِيرُ ، ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾ أَيُّ : لِنُخْرِجَ بِهَذَا الْمَاءِ الْكَثِيرِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ الْمُبَارَكِ ﴿ حَبًّا ﴾ يَذْخَرُ لِلْإِنْسَانِي وَالْأَنْعَامِ ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ أَيُّ : خَضِرًا يُؤْكَلُ رَطْبًا . ﴿ وَجَنَّتٍ ﴾ أَيُّ : بَسَاتِينَ وَحَدَائِقَ مِنْ ثَمَرَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ ، وَأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَطُغُومٍ وَرَوَائِحٍ مُتَفَاوِتَةٍ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ مُجْتَمِعًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿ أَلْفَافًا ﴾ مُجْتَمِعَةً .

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿٨﴾ وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿١٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١١﴾ لِلطَّغْيِينَ مَتَابًا ﴿١٢﴾ لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿١٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿١٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ﴿١٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿١٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿١٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿١٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْفَصْلِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، أَنَّهُ مُؤَقَّتٌ بِأَجَلٍ مَعْدُودٍ لَا يَزَادُ عَلَيْهِ وَلَا يُنْقُصُ مِنْهُ ، وَلَا يَعْلَمُ وَقْتَهُ عَلَى التَّعْيِينِ إِلَّا اللَّهُ ﷻ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُوَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود : ١٠٤] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : زُمْرًا زُمْرًا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِي : تَأْتِي كُلُّ أُمَّةٍ مَعَ رَسُولِهَا . ﴿ وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ أَيُّ : طُرُقًا وَمَسَالِكَ لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أَيُّ : يُحْيَلُ إِلَى النَّظَرِ أَنَّهَا شَيْءٌ ، وَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ ، بَعْدَ هَذَا تَذَهَبُ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَسْفَعُكَ مِنَ الْجِبَالِ فَفُتِلَ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ - ١٠٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أَيُّ : مِرْصَدَةً مُعَدَّةً ﴿ لِلطَّغْيِينَ ﴾ ، وَهُمْ : الْمَرْدَةُ الْعُصَاةُ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ ﴿ مَتَابًا ﴾ أَيُّ : مَرْجَعًا وَمُنْقَلَبًا وَمَصِيرًا وَنَزْلًا . ﴿ لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أَيُّ : مَا كَثُرَ فِيهَا أَحْقَابًا ، وَهِيَ جَمْعُ « حُقْبٍ » ، وَهُوَ : الْمُدَّةُ مِنَ الزَّمَانِ . وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِهِ ، قَالَ قَتَادَةُ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ ، وَهُوَ : مَا لَا انْقِطَاعَ لَهُ ، وَكُلَّمَا مَضَى حُقْبٌ جَاءَ حُقْبٌ بَعْدَهُ ، وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ الْحُقْبَ ثَمَانُونَ سَنَةً . ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ أَيُّ : لَا يَحْدُونَ فِي جَهَنَّمَ بَرْدًا ، لِقُلُوبِهِمْ وَلَا شَرَابًا طَيِّبًا يَتَعَذَّوْنَ بِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ﴾ . قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : اسْتَشْنَى مِنَ الْبُرْدِ الْحَمِيمِ ، وَمِنَ الشَّرَابِ الْغَسَاقُ . فَأَمَّا الْحَمِيمُ : فَهُوَ الْحَارُّ الَّذِي قَدْ انْتَهَى حَرُّهُ وَخُمُوهُ . وَالْغَسَاقُ : هُوَ مَا اجْتَمَعَ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ وَعَرَقِهِمْ وَدُمُوعِهِمْ وَجُرُوحِهِمْ فَهُوَ بَارِدٌ لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ بَرْدِهِ وَلَا يُوَاجَهُ مِنْ نَتْنِهِ ، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ أَي: هَذَا الَّذِي صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْعُقُوبَةِ وَفَى أَعْمَالِهِمُ الْفَاسِدَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أَي: لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ نَمَّ دَارًا يُجَازُونَ فِيهَا وَيَحَاسِبُونَ ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ أَي: وَكَانُوا يُكَذِّبُونَ بِحُجَجِ اللَّهِ وَدَلَالِيلِهِ عَلَى خَلْقِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ فَيَقَابِلُونَهَا بِالتَّكْذِيبِ وَالْمَعَانِدَةِ. ﴿وَكَذَّبُوا﴾ أَي: تَكْذِيبًا. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أَي: وَقَدْ عَلِمْنَا أَعْمَالَ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ، وَكَتَبْنَاَهَا عَلَيْهِمْ، وَسَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أَي: يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ: ذُوقُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا مِنْ جَنْسِهِ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿١٦﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿١٧﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿١٨﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿١٩﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٢٠﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ السُّعَدَاءِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ تَعَالَى مِنَ الْكِرَامَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ مُتَنَزِّهًا، ﴿حَدَائِقَ﴾ وَهِيَ: الْبَسَائِنُ مِنَ النَّخِيلِ وَغَيْرِهَا ﴿وَأَعْنَابًا﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا أَي: وَحُورًا كَوَاعِبَ ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أَي: نَوَاهِدَ، يَعْنُونَ أَنَّ ثُدْيَهُنَّ نَوَاهِدُ لَمْ يَتَدَلَّنَّ؛ لِأَنَّهُنَّ أَبْكَارٌ عُرُبٌ أَتْرَابٌ، أَي: فِي سِنٍّ وَاحِدَةٍ. ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ مَمْلُوءَةٌ مُتَتَابِعَةً، وَقِيلَ: صَافِيَةٌ. ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ أَي: لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ لَاحِظٌ عَنِ الْفَائِدَةِ، وَلَا إِنَّهُمْ كَذِبٌ، بَلْ هِيَ دَارُ السَّلَامِ، وَكُلُّ كَلَامٍ فِيهَا سَالِمٌ مِنَ النَّقْصِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ أَي: هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ جَازَاهُمْ اللَّهُ بِهِ وَأَعْطَاهُمُوهُ بِفَضْلِهِ وَمَنَّةٍ وَإِحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ أَي: كَافِيًا وَافِرًا شَامِلًا كَثِيرًا، تَقُولُ الْعَرَبُ: أَعْطَانِي فَأَحْسِنِي، أَي: كَفَانِي. وَمِنَهُ: حَسَنِي اللَّهُ، أَي: اللَّهُ كَافِي.

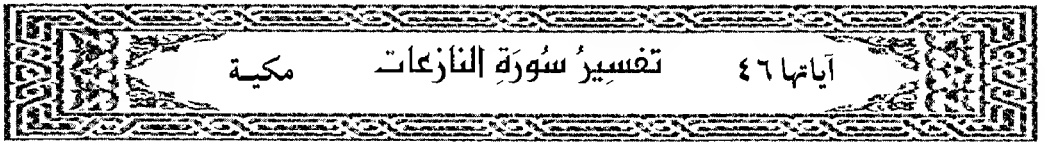
رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٢٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ يَوْمَ الْحَقِّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴿٢٤﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٢٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا، وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الَّذِي شَمِلَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أَي: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ إِبْتِدَاءِ مُحَاطَبَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، ﴿يَوْمَ

يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَكَةُ صَفًا لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴿١﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِالرُّوحِ هَاهُنَا ، مَا هُوَ ؟ عَلَى أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُمْ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ . الثَّانِي : هُمْ بَنُو آدَمَ . الثَّالِثُ : أَنَّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، عَلَى صُورِ بَنِي آدَمَ ، وَلَيْسُوا بِمَلَائِكَةٍ وَلَا بِبَشَرٍ ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ . الرَّابِعُ : هُوَ جَبْرِيلُ وَيُسْتَشْهَدُ هَذَا الْقَوْلُ بِقَوْلِهِ ﷺ : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ . الْخَامِسُ : أَنَّهُ الْقُرْآنُ . وَالسَّادِسُ : أَنَّهُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِقَدْرِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [هود : ١٠٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أَيُّ : حَقًّا ، وَمِنْ الْحَقِّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ أَيُّ : الْكَائِنُ لَا مُحَالَةَ ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ مَقَابًا ﴾ أَيُّ : مَرْجِعًا وَطَرِيقًا يَهْتَدِي إِلَيْهِ وَمَنْهَجًا يَمُرُّ بِهِ عَلَيْهِ . ﴿ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لِتَأْكُذِبَ وَفُوعِهِ صَارَ قَرِيبًا ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ . ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أَيُّ : يُعْرَضُ عَلَيْهِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا ، قَدِيمُهَا وَحَدِيثُهَا . ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أَيُّ : يَوَدُّ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُ كَانَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا تُرَابًا وَلَمْ يَكُنْ خُلِقَ ، وَلَا خَرَجَ إِلَى الْوُجُودِ ، وَذَلِكَ حِينَ عَايَنَ عَذَابَ اللَّهِ ، وَنَظَرَ إِلَى أَعْمَالِهِ الْفَاسِدَةِ ، قَدْ سَطَرَتْ عَلَيْهِ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ السَّفَرَةِ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّبَأِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّارِ عَتِ غَرَقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّبْحِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّبْحُ سَبْحًا ﴿٤﴾ فَالْمَدِيرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرَدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَوْدَا كُنَّا عِظْمًا نَحْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

﴿ وَالنَّارِ عَتِ غَرَقًا ﴾ الْمَلَائِكَةُ ، يَعْنُونَ حِينَ تَنْزِعُ أَرْوَاحَ بَنِي آدَمَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ بِعُسْرٍ فَتَغْرُقُ فِي نَزْعِهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ بِسُهُولَةٍ وَكَأَنَّمَا حَلَّتْهُ مِنْ نَشَاطٍ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَالنَّشِيطِ نَشْطًا ﴾ ، وَقِيلَ : ﴿ وَالنَّارِ عَتِ ﴾ هِيَ : أَنْفُسُ الْكَافِرِ تَنْزِعُ ثُمَّ تُنْشِطُ ، ثُمَّ تُغْرَقُ فِي النَّارِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَالسَّبْحِ سَبْحًا ﴾ هِيَ الْمَلَائِكَةُ ، وَقِيلَ : الْمَوْتُ ، وَقِيلَ : هِيَ النُّجُومُ ، وَقِيلَ :

هِيَ السُّفُنُ ، ﴿ فَالَسَّيْقَتِ سَبَقًا ﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةُ ؛ قَالَ الْحَسَنُ : سَبَقَتْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ بِهِ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ﴾ هِيَ الْمَلَائِكَةُ . تُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، يَعْنِي : بِأَمْرِ
رَبِّهَا ﷻ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ﴿ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - :
هُمَا النَّفْخَتَانِ الْأُولَى وَالثَّانِيَّةُ ، ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ يَعْنِي : خَائِفَةٌ . ﴿ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴾ أَيِ :
أَبْصَارُ أَصْحَابِهَا ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَيْهَا لِلْمَلَابَسَةِ ، أَيِ : ذَلِيلَةٌ حَقِيرَةٌ مِمَّا عَايَنْتْ مِنَ الْأَهْوَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَقُولُونَ أَيْنَا لِمَ رَدُّوْنَ فِي الْخَافِرَةِ ﴾ يَعْنِي : مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، وَمَنْ قَالَ يَقُولُهُمْ فِي
إِنْكَارِ الْمَعَادِ ، يَسْتَبْعِدُونَ وَقُوعَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَصِيرِ إِلَى الْخَافِرَةِ وَهِيَ الْقُبُورُ ، وَبَعْدَ تَمَرُّقِ
أَجْسَادِهِمْ وَتَفْتَتِ عِظَامِهِمْ وَنُخُورِهَا ؛ وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ أءِذَا كُنَّا عِظْمًا نَخِرَةً ﴾ وَقُرِئَ : (نَاخِرَةً)
أَيِ : بَالِيَةً . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : وَدَخَلَتِ الرِّيحُ فِيهِ ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾
قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْخَافِرَةُ : الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْخَافِرَةُ : النَّارُ ، وَمَا أَكْثَرُ
أَسْمَاءَهَا ! هِيَ النَّارُ ، وَالْجَحِيمُ ، وَسَقَرٌ ، وَجَهَنَّمُ ، وَالْهَآوِيَّةُ ، وَالْخَافِرَةُ ، وَلَطَى ، وَالْخُطْمَةُ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أَيِ : فَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ لَا
مُتَنَوِّيةَ فِيهِ وَلَا تَأْكِيدَ ، فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، وَهُوَ أَنْ يَأْمُرَ اللَّهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخَ فِي
الصُّورِ نَفْخَةً الْبَعْثِ ، فَإِذَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ ﷻ يَنْظُرُونَ . قَالَ مُجَاهِدٌ :
﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : زَجْرَةٌ مِنَ الْعُصْبِ . ﴿ فَإِذَا
هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ الْأَرْضُ كُلُّهَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾
وَجْهُ الْأَرْضِ ، وَالصَّحِيحُ : أَنَّهَا الْأَرْضُ وَجْهَهَا الْأَعْلَى .

هَلْ أَتَتْكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿ ٥٠ ﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿ ٥١ ﴾ أَذْهَبَ إِلَى
فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿ ٥٢ ﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَرْكَبَ ٱلْأَرْضَ ٱلْعَظِيمَ ﴿ ٥٣ ﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ٱلْعَظِيمَ ﴿ ٥٤ ﴾ فَآرَبَهُ
ٱلْآيَةُ ٱلْكُبْرَى ﴿ ٥٥ ﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿ ٥٦ ﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿ ٥٧ ﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿ ٥٨ ﴾ فَقَالَ أَنَا
رَبُّكُمْ ٱلْأَعْلَى ﴿ ٥٩ ﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَى ﴿ ٦٠ ﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿ ٦١ ﴾
يُخْبِرُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى ﷺ أَنَّهُ ابْتَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَآيَدَهُ اللَّهُ
بِالْمُعْجَزَاتِ ، وَمَعَ هَذَا اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ ، حَتَّى أَخَذَهُ اللَّهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ، وَكَذَلِكَ
عَاقِبَةُ مَنْ خَالَفَكَ وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتَ بِهِ ، وَهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْقِصَّةِ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ .
فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَتْكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ أَيِ : هَلْ سَمِعْتَ بِخَبَرِهِ ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أَيِ :
كَلِمَةُ نِدَاءٍ ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ أَيِ : الْمَطْهَرِ ﴿ طُوًى ﴾ ، وَهُوَ اسْمُ الْوَادِي عَلَى الصَّحِيحِ ، كَمَا

تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ «طه»، فَقَالَ: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أَي: تَجَرَّدَ وَتَمَرَّدَ وَعَتَا ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزْكَى﴾ أَي: قُلْ لَهُ: هَلْ لَكَ أَنْ تُجِيبَ إِلَى طَرِيقَةٍ وَمَسْلَكٍ تُزْكِي بِهِ. أَي: تَسْلُمُ وَتُطِيعُ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أَي: أَذْكَ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ ﴿فَتَخَشَى﴾ أَي: فَيَصِيرُ قَلْبُكَ خَاضِعًا لَهُ مُطِيعًا خَاشِعًا، بَعْدَمَا كَانَ قَاسِيًا خَبِيثًا بَعِيدًا مِنَ الْخَيْرِ. ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ يَعْنِي: فَأَظْهَرَ لَهُ مُوسَى مَعَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْحَقِّ حُجَّةً قَوِيَّةً، وَدَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ أَي: فَكَذَّبَ بِالْحَقِّ وَخَالَفَ مَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ، وَحَاصِلُهُ: أَنَّهُ كَفَرَ قَلْبُهُ فَلَمْ يَنْفَعِلْ لِمُوسَى بِبَاطِنِهِ وَلَا بِظَاهِرِهِ، وَعِلْمُهُ بِأَنْ مَا جَاءَهُ بِهِ حَقٌّ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِهِ؛ لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ عِلْمُ الْقَلْبِ، وَالْإِيمَانَ عَمَلُهُ، وَهُوَ الْإِنْقِيَادُ لِلْحَقِّ وَالْخُضُوعُ لَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ أَي: فِي مُقَابَلَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَهُوَ جَمْعُهُ السَّحَرَةَ لِيُقَابِلُوا مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمُعْجَزَةِ الْبَاهِرَةِ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ أَي: فِي قَوْمِهِ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾: أَي: اِنْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُ اِنْتِقَامًا جَعَلَهُ بِهِ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِأَمْثَالِهِ مِنَ الْمُتَمَرِّدِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ تَخَشَى﴾ أَي: لِمَنْ يَتَعَطَّى وَيَنْزَجِرُ.

ءَأْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٦٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا ﴿٦٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٦٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٧٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٧١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿٧٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحْتَجًّا عَلَى مُنْكَرِي الْبُعْثِ فِي إِعَادَةِ الْخَلْقِ بَعْدَ بَدْئِهِ ﴿ءَأْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ يَعْنِي: بَلِ السَّمَاءُ أَشَدُّ خَلْقًا مِنْكُمْ، ﴿بَنَاهَا﴾ فَسَرَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا﴾ أَي: جَعَلَهَا عَالِيَةَ الْبِنَاءِ، بَعِيدَةَ الْفَنَاءِ، مُسْتَوِيَةَ الْأَرْجَاءِ، مُكَلَّلَةً بِالْكَوَاكِبِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أَي: جَعَلَ لَيْلَهَا مُظْلِمًا أَسْوَدَ حَالِكًا، وَنَهَارَهَا مُضِيئًا مُشْرِقًا نَبِيْرًا وَاضِحًا ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أَي: أَنَارَ نَهَارَهَا. ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فَسَرَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ «حَم السَّجْدَةِ» أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا دُحِيَتْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ أَخْرَجَ مَا كَانَ فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿دَحَاهَا﴾ وَدَحِيهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى، وَشَقَّقَ الْأَنْهَارَ، وَجَعَلَ فِيهَا الْجِبَالَ وَالرَّمَالَ وَالسُّبُلَ وَالْأَكَامَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا﴾ أَي: قَرَّرَهَا وَأَثْبَتَهَا وَأَكْدَهَا فِي أَمَاكِنِهَا، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الرَّءُوفُ بِخَلْقِهِ الرَّحِيمُ. ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ﴾ أَي: دَحَا الْأَرْضَ فَانْبَعَتْ عُيُونُهَا، وَأَظْهَرَ

مَكْنُونَهَا ، وَأَجْرَى أَنْهَارَهَا ، وَأَنْبَتَ زُرُوعَهَا وَأَشْجَارَهَا وَتَبَارَهَا ، وَثَبَّتَ جِبَالَهَا لِتَسْتَقَرَّ بِأَهْلِهَا وَيَقَرَّ قَرَارَهَا ، كُلُّ ذَلِكَ مَتَاعًا لِحَلْفِهِ وَلِمَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا وَيَرْكَبُونَهَا مُدَّةَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمَدُ وَيَنْقُضِيَ الْأَجَلُ .

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٦٥﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٦٦﴾ وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٦٧﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٦٨﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦٩﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٧٠﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ أَهْوَى ﴿٧١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٧٢﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ﴿٧٣﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٧٤﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَىٰ ﴿٧٥﴾ إِنَّمَّا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ تَحْشَنَّا ﴿٧٦﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴿٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَطْمُ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ هَائِلٍ مُفْطِحٍ ، ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ أَيُّ : حِينِيذٍ يَتَذَكَّرُ ابْنُ آدَمَ جَمِيعَ عَمَلِهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، ﴿ وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴾ أَيُّ : أَظْهَرَتْ لِلنَّاطِرِينَ فَرَأَاهَا النَّاسُ عَيْنَانَا ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ أَيُّ : تَمَرَّدَ وَعَتَا ﴿ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أَيُّ : قَدَّمَهَا عَلَىٰ أَمْرِ دِينِهِ وَأُخْرَاهُ ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أَيُّ : فَإِنَّ مَصِيرَهُ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَإِنَّ مَطْعَمَهُ مِنَ الرِّقُومِ وَمَشْرَبُهُ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ أَهْوَى ﴾ أَيُّ : خَافَ الْقِيَامَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ ، وَحُكَّمَ اللَّهُ فِيهِ ، وَنَهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا ، وَرَدَّهَا إِلَى طَاعَةِ مَوْلَاهَا ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أَيُّ : مُنْقَلَبُهُ ، وَمَصِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ إِلَى الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَى ﴾ أَيُّ : لَيْسَ عِلْمُهَا إِلَيْكَ وَلَا إِلَىٰ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ ، بَلْ مَرَدُّهَا وَمَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ فَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ وَقْتَهَا عَلَى التَّعْيِينِ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَى ﴾ ، وَهَذَا لَمَّا سَأَلَ جَبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ قَالَ : « مَا الْمُسْتَوَلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَّا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ تَحْشَنَّا ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِتُنْذِرَ النَّاسَ وَتُحَذِّرَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ ، فَمَنْ خَشِيَ اللَّهَ وَخَافَ مَقَامَهُ وَوَعِيدَهُ ، اتَّبَعَكَ فَأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ، وَالْحَيَّةُ وَالْحَسَارُ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ أَيُّ : إِذَا قَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الْمَحْشَرِ يَسْتَقْصِرُونَ مُدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، حَتَّىٰ كَأَنَّمَا عِنْدَهُمْ كَانَتْ عَشِيَّةً مِنْ يَوْمٍ أَوْ ضُحًى مِنْ يَوْمٍ . أَمَّا عَشِيَّةٌ فَمَا بَيْنَ الظُّهْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ ﴿ أَوْ ضُحًى ﴾ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ .

أَخِرُ تَفْسِيرِ النَّازِعَاتِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ۚ أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ ۚ
الذِّكْرَى ۚ أَمَّا مَنْ أَسْتَغْنَى ۚ فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ۚ وَأَمَّا مَنْ
جَاءَكَ يَسْعَى ۚ وَهُوَ مُحْسِنٌ ۚ فَانْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۚ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۚ
ۚ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۚ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۚ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۚ

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفْسِّرِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا يُحَاطَبُ بَعْضُ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ ، وَقَدْ
طَمِعَ فِي إِسْلَامِهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُحَاطَبُهُ وَيُنَاجِيهِ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ - وَكَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ قَدِيمًا -
فَجَعَلَ يَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ وَيُلِحُّ عَلَيْهِ ، وَوَدَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَوْ كَفَّ سَاعَتَهُ تِلْكَ ، لِيَتِمَّكَنَ
مِنْ مُحَاطَبَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، طَمَعًا وَرَغْبَةً فِي هِدَايَتِهِ ، وَعَبَسَ فِي وَجْهِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ،
وَأَقْبَلَ عَلَى الْآخِرِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ۚ
أَيُّ : يَحْصُلُ لَهُ زَكَاةٌ وَطَهَارَةٌ فِي نَفْسِهِ ، ﴿ أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ ﴾ أَيُّ : يَحْصُلُ لَهُ إِتْعَاطٌ وَانْتِجَارٌ
عَنِ الْمَحَارِمِ ﴿ أَمَّا مَنْ أَسْتَغْنَى ۚ فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ ﴾ أَيُّ : أَمَّا الْغَنِيُّ فَانْتَ تَتَعَرَّضُ لَهُ لَعَلَّهُ يَهْتَدِي
﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ۚ ﴾ أَيُّ : مَا أَنْتَ بِمُطَالِبٍ بِهِ إِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ زَكَاةٌ ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ ﴾ أَيُّ :
يَقْصِدُكَ وَيُؤْمُكُ لِيَهْتَدِيَ بِمَا تَقُولُ لَهُ ﴿ فَانْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ ﴾ أَيُّ : تَتَشَاغَلُ ، وَمِنْ هَاهُنَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى
رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَخْصُصَ بِالْإِنْذَارِ أَحَدًا ، بَلْ يُسَاوِي فِيهِ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ ، وَالْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ ،
وَالسَّادَةِ وَالْعَبِيدِ ، وَالرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، وَالصَّغَارِ وَالْكِبَارِ ، ثُمَّ اللَّهُ تَعَالَى يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ . ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۚ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ السُّورَةُ ،
أَوِ الْوَصِيَّةُ بِالْمَسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي إِبْلَاحِ الْعِلْمِ بَيْنَ شَرِيفِهِمْ وَوَضِيعِهِمْ ، ﴿ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۚ ﴾ أَيُّ :
فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدَ الضَّمِيرِ إِلَى الْوَحْيِ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۚ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۚ ﴾ أَيُّ هَذِهِ السُّورَةُ أَوِ الْعِظَةُ ، وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ بَلْ
جَمِيعُ الْقُرْآنِ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . أَيُّ : مُعْظَمَةٌ مُوقَرَّةٌ ﴿ مَرْفُوعَةٍ ۚ ﴾ أَيُّ : عَالِيَةِ الْقَدْرِ ﴿ مُطَهَّرَةٍ ۚ ﴾ أَيُّ : مِنْ
الدَّنَسِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ . ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ ﴾ هِيَ الْمَلَائِكَةُ ، ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۚ ﴾ أَيُّ : خَلَقَهُمْ كَرِيمٌ
حَسَنٌ شَرِيفٌ ، وَأَخْلَقَهُمْ بَارَةً طَاهِرَةً كَامِلَةً ، وَمِنْ هَاهُنَا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ

يَكُونُ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ عَلَى السَّدَادِ وَالرَّشَادِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ ، وَالَّذِي يَقْرُؤُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ » .

فُقِلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿١١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿١٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿١٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَنُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿١٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿١٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿١٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿١٧﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿١٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿١٩﴾ وَحَدَاقٍ غُلْبًا ﴿٢٠﴾ وَفِكَهَةً وَأَبًّا ﴿٢١﴾ مَتَعْنَا لَكُمْ وَلِأَعْمِكُمْ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَا مَأْمَأَ لِمَنَ أَنْكَرَ الْبُعْثَ وَالنُّشُورَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴿ فُقِلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ لَعِنَ الْإِنْسَانُ ، وَهَذَا لِحَسَنِ الْإِنْسَانِ الْمُكْذِبِ ؛ لِكثْرَةِ تَكْذِيبِهِ بِلَا مُسْتَنَدٍ ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْاِسْتِغَادِ وَعَدَمِ الْعِلْمِ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ أَيُّ : مَا أَشَدُّ كُفْرَهُ ، قَالَ : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : أَيُّ شَيْءٍ جَعَلَهُ كَافِرًا ؟ أَيُّ : مَا حَمَلَهُ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالْمَعَادِ . ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى لَهُ كَيْفَ خَلَقَهُ مِنَ الشَّيْءِ الْحَقِيرِ وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ كَمَا بَدَأَهُ فَقَالَ : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ﴿٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿٩﴾ أَيُّ : قَدَّرَ أَجَلَهُ وَرِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ ثُمَّ يَسَّرَ عَلَيْهِ خُرُوجَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] أَيُّ : بَيَّنَّاهُ لَهُ وَأَوْضَحْنَاهُ وَسَهَّلْنَاهُ عَلَيْهِ عِلْمَهُ ، وَهَذَا هُوَ الْأَرْجَحُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أَيُّ : إِنَّهُ بَعْدَ خَلْقِهِ لَهُ ﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أَيُّ : جَعَلَهُ ذَا قَبْرِ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿١٢﴾ أَيُّ : بَعَثَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَمِنْهُ يُقَالُ : الْبُعْثُ وَالنُّشُورُ . ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : كَلَّا ، لَيْسَ الْأَمْرُ بِقَوْلِ هَذَا الْإِنْسَانِ الْكَافِرِ مِنْ أَنَّهُ قَدْ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يَقُولُ : لَمْ يُؤَدِّ مَا فَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ الْفَرَائِضِ لِزَبْنِهِ ﷻ . وَالَّذِي يَقَعُّ لِي فِي مَعْنَى ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمَعْنَى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ أَيُّ : بَعَثَهُ ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ لَا يَفْعَلُهُ الْآنَ حَتَّى تَنْقُضِيَ الْمُدَّةَ ، وَيَفْرُغَ الْقَدْرُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِمَّنْ كَتَبَ اللَّهُ أَنْ سَيُوجَدُ مِنْهُمْ ، وَيَخْرُجُ إِلَى الدُّنْيَا ، وَقَدْ أَمَرَ بِهِ تَعَالَى كَوْنًا وَقَدْرًا ، فَإِذَا تَنَاهَى ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْشَرَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ وَأَعَادَهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَنُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ فِيهِ إِمْتِنَانٌ ، وَفِيهِ اسْتِدْلَالٌ بِإِحْيَاءِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي مَدَدَ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَامِ بَعْدَمَا كَانَتْ عِظَامًا بِأَلِيَّةٍ وَتَرَابًا مَتَمِّزًا ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ أَيُّ : أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أَيُّ : أَسْكَنَاهُ فِيهَا فَدَخَلَ

فِي ثُجُومِهَا ، وَتَحَلَّلَ فِي أَجْزَاءِ الْحَبِّ الْمُدْعَ فِيهَا ، فَنبَتَ وَارْتَفَعَ ، وَظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ﴿١٧﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿١٨﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿١٩﴾ فَالْحَبُّ : كُلُّ مَا يُذَكَّرُ مِنَ الْحُبُوبِ ، وَالْعِنَبُ مَعْرُوفٌ ، وَالْقَضْبُ هُوَ : الْفُصْفَصَةُ الَّتِي تَأْكُلُهَا الدَّوَابُّ رَطْبَةً ، وَيُقَالُ لَهَا : الْفَتُّ أَيْضًا ، ﴿٢٠﴾ وَزَيْتُونًا ﴿٢١﴾ ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ ، وَهُوَ أَدَمٌ وَعَصِيرُهُ أَدَمٌ ، وَيُسْتَصْبَحُ بِهِ ، وَيُدْهَنُ بِهِ ﴿٢٢﴾ وَخَلًّا ﴿٢٣﴾ يُؤْكَلُ بَلَحًا بَسْرًا وَرُطْبًا ، وَتَمْرًا ، وَنَيْيَا ، وَمَطْبُوحًا ، وَيُعْتَصَرُ مِنْهُ رُبٌّ وَخَلٌ ﴿٢٤﴾ وَحَدَائِقُ ﴿٢٥﴾ أَيُّ : بَسَاتِينَ ﴿٢٦﴾ غُلَبًا ﴿٢٧﴾ نَخْلٌ غِلَاطٌ كِرَامٌ ، وَقِيلَ : الْحَدَائِقُ : كُلُّ مَا اتَّفَعَ وَاجْتَمَعَ ﴿٢٨﴾ غُلَبًا ﴿٢٩﴾ الشَّجَرُ الَّذِي يُسْتَظَلُّ بِهِ ، وَقِيلَ : ﴿٣٠﴾ غُلَبًا ﴿٣١﴾ أَيُّ : طَوَالٌ ، ﴿٣٢﴾ وَفَيْكِهَةً وَأَبًا ﴿٣٣﴾ أَمَّا الْفَاكِهَةُ فَهُوَ كُلُّ مَا يُتَفَكَّهُ بِهِ مِنَ الثَّمَرِ . الْفَاكِهَةُ : كُلُّ مَا أُكِلَ رَطْبًا ، وَالْأَبُّ : مَا أَنْبَتَ الْأَرْضُ ، مِمَّا يَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ وَلَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ ، وَقِيلَ : الْأَبُّ لِلْبَهَائِمِ كَالْفَاكِهَةِ لِبَنِي آدَمَ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : كُلُّ شَيْءٍ أَنْبَتَهُ الْأَرْضُ سِوَى الْفَاكِهَةِ فَهُوَ الْأَبُّ . وَقَوْلُهُ : ﴿٣٤﴾ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلَا نَعْمِيكُمْ ﴿٣٥﴾ أَيُّ : عِيشَةً لَكُمْ وَلَا نَعْمِيكُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ ﴿٣٦﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٧﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٨﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٩﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٤٠﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٤١﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٤٢﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٣﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤٤﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٥﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿٤٦﴾ الصَّاحَةُ : إِسْمٌ مِنْ أَسَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، عَظُمَ اللَّهُ وَحَدَّرَهُ عِبَادَهُ . وَقَالَ الْبَغَوِيُّ : ﴿٤٧﴾ الصَّاحَةُ : يَغْنَى : صَنِحَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا تَصُخُّ الْأَسْمَاعَ ، أَيُّ : تُبَالِغُ فِي إِسْمَاعِهَا حَتَّى تَكَادُ تُصَمِّمَهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿٤٨﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٤٩﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٥٠﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٥١﴾ أَيُّ : يَرَاهُ ، وَيَفِرُّ مِنْهُ ، وَيَبْتَغِدُ عَنْهُمْ ؛ لِأَنَّ الْهَوَلَ عَظِيمٌ ، وَالْخَطْبُ جَلِيلٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿٥٢﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٥٣﴾ أَيُّ : هُوَ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ غَيْرِهِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تُحْشَرُونَ حَفَاةَ عُرَاةٍ مُشَاةٍ غُرْلًا » قَالَ : فَقَالَتْ زَوْجَتُهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ نَنْظُرُ أَوْ يَرَى بَعْضُنَا عَوْرَةَ بَعْضٍ ؟ قَالَ : ﴿٥٤﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٥٥﴾ أَوْ قَالَ : « مَا أَشْغَلَهُ عَنِ النَّظَرِ » . وَقَوْلُهُ : ﴿٥٦﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٥٧﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٥٨﴾ أَيُّ : يَكُونُ النَّاسُ هُنَالِكَ فَرِيقَيْنِ « وَجُوهٌ مُسْفِرَةٌ » أَيُّ : مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٥٩﴾ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٦٠﴾ أَيُّ : مُسْرُورَةٌ فَرِحَةٌ مِنْ سُرُورِ قُلُوبِهِمْ ، قَدْ ظَهَرَ الْبُشْرُ عَلَى وَجُوهِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ ﴿٦١﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٦٢﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٦٣﴾ أَيُّ : يَعْלוها وَتَغْشَاهَا قَتَرَةٌ ، أَيُّ : سَوَادٌ . ﴿٦٤﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٦٥﴾ أَيُّ : الْكَافِرَةُ قُلُوبُهُمْ ، الْفَجَرَةُ فِي أَعْمَالِهِمْ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ عَبَسَ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٢٩ تفسير سورة التكويد مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُيِّلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُفِثَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ﴿١٤﴾

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : أَظْلَمَتْ ، وَقِيلَ : ذَهَبَتْ ، وَقِيلَ : ذَهَبَ ضَوْوُهَا ، وَقِيلَ : رُمِيَ بِهَا . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ أَنَّ التَّكْوِيرَ جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَمِنْهُ تَكْوِيرُ الْعِمَامَةِ ، وَهُوَ لَفُّهَا عَلَى الرَّأْسِ ، وَكَتْكُويرِ الْكَارِهِ وَهِيَ جَمْعُ الثِّيَابِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ جَمْعُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ لَفَّتْ فَرَمِي بِهَا ، وَإِذَا فُعِلَ بِهَا ذَلِكَ ذَهَبَ ضَوْوُهَا . عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُكْوَرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ أَيُّ : انْتَثَرَتْ ، وَأَصْلُ الْإِنْكَدَارِ الْإِنْصِبَابُ . ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أَيُّ : زَالَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا وَنُسِفَتْ ، فَتَرَكَّتِ الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا . ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ عِشَارُ الْإِبِلِ . ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ تَرَكَّتْ وَسِيَّتْ ، وَأَهْمَلَهَا أَهْلُهَا . ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أَيُّ : جُمِعَتْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يُحْشَرُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الدُّبَابُ ، ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قِيلَ : ﴿ سُجِّرَتْ ﴾ أُوقِدَتْ ، وَقِيلَ : بَيَسَتْ ، وَقِيلَ : فُجِّرَتْ ، وَقِيلَ : فَاضَتْ . ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أَيُّ : جُمِعَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى نَظِيرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُيِّلَتْ ﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ هَكَذَا قِرَاءَةُ الْجُمُهورِ ﴿ سُيِّلَتْ ﴾ . وَالْمَوْءُودَةُ : هِيَ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَدُسُّونَهَا فِي التُّرَابِ كَرَاهِيَةَ الْبَنَاتِ ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تُسْأَلُ الْمَوْءُودَةُ : عَلَى أَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَهْدِيدًا لِقَاتِلِهَا ، فَإِذَا سُئِلَ الْمَظْلُومُ فَمَا ظَنُّ الظَّالِمِ إِذَا ؟ وَقِيلَ : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُيِّلَتْ ﴾ أَيُّ : سَأَلَتْ ، أَيُّ : طَالَبَتْ بِدَمِهَا . ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُفِثَتْ ﴾ قِيلَ : أُعْطِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ صَحِيفَتَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ بِشِمَالِهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : يَا ابْنَ آدَمَ ، تُمْلِي فِيهَا ، ثُمَّ تُطَوَّى ، ثُمَّ تُنْشَرُ عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلْيَنْظُرْ رَجُلٌ مَاذَا يُمْلِي فِي صَحِيفَتِهِ . ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : أُجُنْدَبْتُ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : كُشِفَتْ . ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : أُحْمِيَتْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أُوقِدَتْ . قَالَ : وَإِنَّمَا يُسَعَّرُهَا غَضَبُ اللَّهِ وَخَطَايَا بَنِي آدَمَ . ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ ﴾ أَي : قُرِبَتْ إِلَى أَهْلِهَا . ﴿ عَمِلَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ هَذَا هُوَ الْجَوَابُ ، أَي : إِذَا وَقَعَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ حِينَئِذٍ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَأَحْضَرَ ذَلِكَ لَهَا .

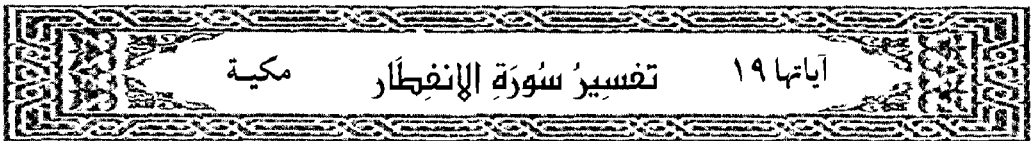
فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَنَسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفُقِ الْإِنِّ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

عَنْ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ ؓ قَالَ : صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ الصُّبْحَ فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَنَسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ . وَعَنْ خَالِدِ بْنِ عَزْرَةَ ، سَمِعْتُ عَلِيًّا ؓ وَسُئِلَ عَنْ ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَنَسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴾ فَقَالَ : هِيَ النُّجُومُ الْخَنَسُ بِالنَّهَارِ وَتَكُنُّسُ بِاللَّيْلِ . وَقَالَ بَعْضُ الْأَثَمَةِ : إِنَّمَا قِيلَ لِلنُّجُومِ الْخَنَسُ ، أَي : فِي حَالِ طُلُوعِهَا ، ثُمَّ هِيَ جَوَارٍ فِي فَلَكِهَا ، وَفِي حَالِ غَيْبُوتِهَا يُقَالُ لَهَا كُنَسٌ ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ : أَوَى الظُّبْيُ إِلَى كِنَاسِهِ إِذَا تَغَيَّبَ فِيهِ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴾ قَالَ : الْبَقَرُ تَكُنُّسُ إِلَى الظِّلِّ . ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴾ إِذَا أَقْبَلَ ، وَإِنْ كَانَ يَصْحُحُ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْإِدْبَارِ أَيْضًا ، لَكِنَّ الْإِفْقَالَ هَاهُنَا أَنْسَبُ ، كَأَنَّهُ أُقْسِمَ بِاللَّيْلِ وَظَلَامِهِ إِذَا أَقْبَلَ ، وَبِالْفَجْرِ وَضِيَائِهِ إِذَا أَشْرَقَ ، ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ إِذَا طَلَعَ . ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَتَبْلِيغِ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، أَي : مَلَكٌ شَرِيفٌ حَسَنُ الْخَلْقِ بَهِيُّ الْمَنْظَرِ ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَالِمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ [النجم : ٥ - ٦] أَي : شَدِيدُ الْخَلْقِ ، شَدِيدُ الْبُطْشِ وَالْفِعْلِ ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أَي : لَهُ مَكَانَةٌ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ وَمَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ . ﴿ مُطَاعٌ ثَمَّ ﴾ أَي : لَهُ وَجَاهَةٌ ، وَهُوَ مَسْمُوعُ الْقَوْلِ مُطَاعٌ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى . ﴿ أَمِينٌ ﴾ صِفَةُ جِبْرِيلَ بِالْأَمَانَةِ ، وَهَذَا عَظِيمٌ جِدًّا أَنَّ الرَّبَّ ﷻ يَزَكِّي عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الْمَلَكِيَّ جِبْرِيلَ ، كَمَا زَكَّى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الْبَشَرِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفُقِ الْإِنِّ ﴾ يَعْنِي : وَلَقَدْ رَأَى مُحَمَّدٌ جِبْرِيلَ الَّذِي يَأْتِيهِ بِالرَّسَالَةِ عَنِ اللَّهِ ﷻ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا لَهُ سِتَائَةٌ جَنَاحٍ ﴿ بِالْأَفُقِ الْإِنِّ ﴾ أَي :

الْبَيِّنُ ، وَهِيَ الرُّؤْيَةُ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ بِالْبَطْحَاءِ ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿ ١ ﴾ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴿ ٢ ﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿ ٣ ﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿ ٤ ﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿ ٥ ﴾ [النجم : ٥ - ١٠] ، كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ وَتَقْرِيرُهُ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أَيُّ : وَمَا مُحَمَّدٌ عَلَى مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ بِظَنِينٍ ، أَيُّ : بِمُتَّهِمٍ ، وَقِيلَ : أَيُّ : بِخَيْلٍ ، بَلْ يَبْذُلُهُ لِكُلِّ أَحَدٍ . قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : ظَنِينٌ وَضَنِينٌ سَوَاءٌ ، أَيُّ : مَا هُوَ بِكَاذِبٍ ، وَمَا هُوَ بِفَاجِرٍ . وَالظَّنِّينُ : الْمُتَّهِمُ ، وَالضَّنِّينُ : الْبَخِيلُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : كَانَ الْقُرْآنُ غَيْبًا ، فَأَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَمَا ضَنَّ بِهِ عَلَى النَّاسِ بَلْ نَشَرَهُ وَبَلَّغَهُ وَبَذَلَهُ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ أَيُّ : وَمَا هَذَا الْقُرْآنُ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ، أَيُّ : لَا يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِهِ ، وَلَا يُرِيدُهُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ ، ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أَيُّ : فَأَيْنَ تَذْهَبُ عَقُولُكُمْ فِي تَكْذِيبِكُمْ هَذَا الْقُرْآنَ ، مَعَ ظُهُورِهِ وَوُضُوحِهِ ، وَبَيَانِ كَوْنِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أَيُّ : عَنْ كِتَابِ اللَّهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : هَذَا الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ ، يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَتَعَطَّوْنَ ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ أَيُّ : مَنْ أَرَادَ الْهُدَايَةَ فَعَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ ، فَإِنَّهُ مَنْجَاةٌ لَهُ وَهُدَايَةٌ ، وَلَا هِدَايَةَ فِيهَا سِوَاهُ ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَتْ الْمَشِيئَةُ مُوَكَّلَةٌ إِلَيْكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ اهْتَدَى وَمَنْ شَاءَ ضَلَّ ، بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ تَابِعٌ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّكْوِيرِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿ ١ ﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَظَّتْ ﴿ ٢ ﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿ ٣ ﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿ ٤ ﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿ ٥ ﴾ يَتَأْتِيهَا إِلَّا نَسْنُ مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿ ٦ ﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّلَكَ فَعَدَلَكَ ﴿ ٧ ﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿ ٨ ﴾ كَلَّا بَلْ تَكْذِبُونَ بِاللَّيْنِ ﴿ ٩ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿ ١٠ ﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿ ١١ ﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿ ١٢ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ أَيُّ : انشَقَّتْ ، ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَظَّتْ ﴾ أَيُّ : تَسَاقَطَتْ . ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾ قَالَ عَدَدُ مِنَ الْعُلَمَاءِ : فَجَّرَ اللَّهُ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ . وَقَالَ قَتَادَةُ : اخْتَلَطَ

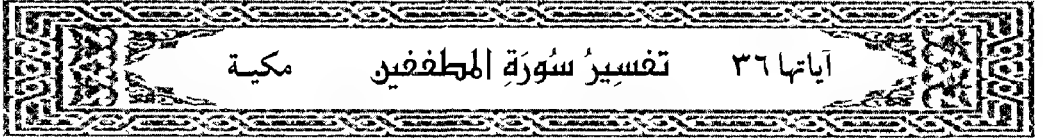
عَذِبَهَا بِمَا لَحَهَا. ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : بُحِثَتْ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : تُبْعَثُ : تُحْرَكُ فَيَخْرُجُ مَنْ فِيهَا. ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدِمَتْ وَأَخْرَتْ﴾ أَيُّ : إِذَا كَانَ هَذَا حَصَلَ هَذَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَتَأْتِيَ آلَ النَّسْنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ ، وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ : مَا غَرَّكَ يَا ابْنَ آدَمَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ، أَيُّ : الْعَظِيمِ ، حَتَّى أَقْدَمْتَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَقَابَلْتَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ ؟ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : غَرَّه - وَاللَّهُ - جَهْلُهُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ شَيْءٌ مَا غَرَّ ابْنَ آدَمَ ، وَهَذَا الْعَدُوُّ الشَّيْطَانُ . وَقَالَ أَبُو بَكْرِ الْوَرَّاقُ : لَوْ قَالَ لِي ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ لَقُلْتُ : غَرَّنِي كَرَمُ الْكَرِيمِ . ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّلَكَ فَعَدَلَكَ﴾ أَيُّ : مَا غَرَّكَ بِالرَّبِّ الْكَرِيمِ ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّلَكَ فَعَدَلَكَ﴾ أَيُّ : جَعَلَكَ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ مُتَّصِبَهَا فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ وَالْأَشْكَالِ . ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : فِي أَيِّ شَبِّهِ أَبٍ أَوْ أُمٍّ ، أَوْ خَالَ أَوْ عَمٍّ . وَقَدْ قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ إِنَّ شَاءَ فِي صُورَةٍ قَرْدٍ ، وَإِنْ شَاءَ فِي صُورَةٍ خَنْزِيرٍ . وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ النُّطْفَةِ عَلَى شَكْلِ قَيْحٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُنْكَرَةِ الْخَلْقِ ، وَلَكِنْ بِقُدْرَتِهِ وَطُفْهِهِ وَحِلْمِهِ يَخْلُقُهُ عَلَى شَكْلِ حَسَنِ مُسْتَقِيمٍ مُعْتَدِلٍ تَامٍ ، حَسَنِ الْمَنْظَرِ وَالْهَيْئَةِ . ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى مُوَاجَهَةِ الْكَرِيمِ وَمُقَابَلَتِهِ بِالْمَعَاصِي ، تَكْذِيبٌ فِي قُلُوبِكُمْ بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يَعْنِي : وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَمَلَائِكَةً حَفَظَةً كِرَامًا كَاتِبِينَ فَلَا تُقَابِلُوهُمْ بِالْقَبَائِحِ ، فَإِنَّهُمْ يَكْتُبُونَ عَلَيْكُمْ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ .

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿٣٣﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٣٤﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٣٧﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴿٣٨﴾ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿٣٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يَصِيرُ الْأَبْرَارُ إِلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ وَهُمْ الَّذِينَ أَطَاعُوا اللَّهَ تَعَالَى وَلَمْ يَقَابِلُوهُ بِالْمَعَاصِي ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْفُجَّارُ مِنَ الْجَحِيمِ وَالْعَذَابِ الْمُقِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْقِيَامَةِ ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أَيُّ : لَا يَغِيبُونَ عَنِ الْعَذَابِ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، وَلَا يُجَابُونَ إِلَى مَا يَسْأَلُونَ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الرَّاحَةِ ، وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا . ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ تَعْظِيمٌ لِّشَأْنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ أَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أَيُّ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى نَفْعِ أَحَدٍ وَلَا خَلَاصِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ ، إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ، وَنَذَكَّرُ هَاهُنَا

حَدِيثٌ : « يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا » ، قَالَ قَتَادَةُ : وَالْأَمْرُ وَاللَّهُ الْيَوْمَ اللَّهُ ، وَلَكِنَّهُ لَا يُنَازِعُهُ فِيهِ يَوْمٌ مِثْلُ أَحَدٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ كَيْلًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فَحَسَّنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذَلِكَ . وَالْمُرَادُ بِالتَّطْفِيفِ هَاهُنَا : الْبَخْسُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ، إِمَّا بِالْإِزْدِيَادِ إِنْ اقْتَضَى مِنَ النَّاسِ ، وَإِمَّا بِالنَّقْصَانِ إِنْ قَضَاهُمْ ، وَهَذَا فَسَّرَ - تَعَالَى - الْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمْ بِالْحَسَارِ وَالْهَلَاكِ ، وَهُوَ الْوَيْلُ يَقُولُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أَيُّ : مِنَ النَّاسِ ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أَيُّ : يَأْخُذُونَ حَقَّهُمْ بِالْوَافِي وَالزَّائِدِ ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أَيُّ : يُنْقِصُونَ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَفَاءِ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الْإِسْرَاءُ : ٣٥] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ أَيُّ : أَمَا يَخَافُ أُولَئِكَ مِنَ الْبَعْثِ وَالْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ فِي يَوْمٍ عَظِيمٍ الْهُولِ ، كَثِيرِ الْفَزَعِ ، جَلِيلِ الْخَطْبِ ، مَنْ خَسِرَ فِيهِ أُدْخِلَ نَارًا حَامِيَةً . ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : يَقُومُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا ، فِي مَوْقِفٍ صَعْبٍ ، حَرَجٍ ضَيِّقٍ ، ضَنْكٍ عَلَى الْمُجْرِمِ ، وَيَغْشَاهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى مَا تَعْجِزُ الْقُوى وَالْحَوَاسُّ عَنْهُ . عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ .»

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكْذِبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ

أُثِمِرَ ﴿٥﴾ إِذَا تُلِّيَ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿٩﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : حَقًّا ﴿٥﴾ إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينَ ﴿٦﴾ أَيُّ : إِنَّ مَصِيرَهُمْ وَمَأْوَاهُمْ لَفِي سِجِّينَ - فِعْلٌ مِنَ السَّجَن - وَهُوَ الضِّيقُ ، كَمَا يُقَالُ : فَسِيقٌ وَشَرِيبٌ وَخَيْرٌ وَسَكِيرٌ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ وَهَذَا عَظَمُ أَمْرِهِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، وَسِجْنٌ مُقِيمٌ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ؓ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ : « يَقُولُ اللَّهُ ﷻ فِي رُوحِ الْكُفَّارِ : اُكْتُبُوا كِتَابُهُ فِي سِجِّينَ » . وَسِجِّينٌ : هِيَ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِغَةِ ، وَقِيلَ : صَحْرَةٌ تَحْتَ السَّابِغَةِ خَضِرَاءُ ، وَقِيلَ : بَنَرٌ فِي جَهَنَّمَ . وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينَ ﴾ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ، وَهُوَ يَجْمَعُ الضِّيقَ وَالسُّقُولَ . ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ لَيْسَ تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَفْسِيرٌ لِمَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْمَصِيرِ إِلَى سِجِّينَ ، أَيُّ : مَرْقُومٌ مَكْتُوبٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ ، لَا يُزَادُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُنْقُصُ مِنْهُ أَحَدٌ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيُّ : إِذَا صَارُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَا أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ مِنَ السَّجْنِ وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿ وَيَلُوكَ ﴾ الْهَلَاكُ وَالْدَّمَارُ ، كَمَا يُقَالُ : وَيَلُوكَ لِفُلَانٍ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُفَسِّرًا لِلْمُكَذِّبِينَ الْفَجَارِ الْكَفَرَةَ : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّمَ الدِّينِ ﴾ أَيُّ : لَا يُصَدِّقُونَ بِوُقُوعِهِ ، وَلَا يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ وَيَسْتَبْعِدُونَ أَمْرَهُ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أَيُّ : مُعْتَدٍ فِي أَفْعَالِهِ ، مِنْ تَعَاطَى الْحَرَامَ ، وَالْمَجَاوِزَةِ فِي تَنَاوُلِ الْمُبَاحِ ، وَالْأَثِيمُ فِي أَقْوَالِهِ : إِنَّ حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِنْ خَاصَمَ فَجَرَ . ﴿ إِذَا تُلِّيَ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أَيُّ : إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الرَّسُولِ ، يُكَذِّبُ بِهِ ، وَيَظُنُّ بِهِ ظَنًّا سَوْءًا ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُفْتَعَلٌ مَجْمُوعٌ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا قَالُوا : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، بَلْ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَإِنَّمَا حَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الرِّينِ الَّذِي قَدْ لَبَسَ قُلُوبَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، وَالرِّينُ يَغْتَرِي قُلُوبَ الْكَافِرِينَ ، وَالْغَيْمُ لِلْأَبْرَارِ ، وَالْغَيْنُ لِلْمُقَرَّبِينَ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ مِنْهَا صَقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُوَ

الدَّنْبُ عَلَى الدَّنْبِ ، حَتَّى يَغْمَى الْقَلْبُ فَيَمُوتُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ ﴾ أَيُّ : لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَزَلٌ وَنَزَلٌ سَجِينٌ ، ثُمَّ هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ ذَلِكَ مُحْجُوبُونَ عَنْ رُؤْيَةِ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ . قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ : هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ ﷻ يَوْمَئِذٍ . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي غَايَةِ الْحُسْنِ ، وَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِمَفْهُومِ هَذِهِ الْآيَةِ : كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ مَنْطُوقُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ ﴿٢٣﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ - ٢٣] ، وَكَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحَاحُ الْمُتَوَاتِرَةُ فِي رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ ﷻ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، رُؤْيُهُ بِالْأَبْصَارِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، وَفِي رَوْضَاتِ الْجَنَانِ الْفَاخِرَةِ . قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ أَيُّ : ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا الْحِرْمَانِ عَنْ رُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ مِنْ أَهْلِ النَّيرَانِ ﴿ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيُّ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّصْغِيرِ وَالتَّخْقِيرِ .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا عَلِيُّونَ ﴿٢٥﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٦﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٨﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٩﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٣٠﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٣١﴾ خَتَمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَرَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٣٣﴾ عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : حَقًّا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ ﴾ ، وَهُمْ بِخِلَافِ الْفُجَّارِ ﴿ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ أَيُّ : مَصِيرُهُمْ إِلَى عِلِّيِّينَ ، وَهُوَ بِخِلَافِ سَجِينٍ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : سَجِينٌ : هِيَ الْأَرْضُ السَّابِغَةُ ، وَفِيهَا أَرْوَاحُ الْكُفَّارِ . و ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ هِيَ السَّمَاءُ السَّابِغَةُ وَفِيهَا أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ . وَقِيلَ : ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ . وَالظَّاهِرُ : أَنَّ ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ مَاخُذٌ مِنَ الْعُلُوِّ ، وَكُلَّمَا عَلَا الشَّيْءُ وَارْتَفَعَ عَظُمَ وَاتَّسَعَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُعْظَمًا أَمْرُهُ وَمُفْخَمًا شَأْنُهُ : ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا عَلِيُّونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ مُؤَكِّدًا لِمَا كُتِبَ لَهُمْ : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿ هُمُ الْمَلَائِكَةُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ فِي نَعِيمٍ مُقِيمٍ ، وَجَنَّاتٍ فِيهَا فَضْلٌ عَمِيمٌ ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وَهِيَ : الشَّرُرُّ تَحْتَ الْحِجَالِ ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ يَنْظُرُونَ فِي مُلْكِهِمْ ، وَمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ الَّذِي لَا يَنْقُضِي وَلَا يَبِيدُ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ إِلَى اللَّهِ ﷻ ، وَهَذَا مُقَابِلٌ لِمَا وَصَفَ بِهِ أَوْلَئِكَ الْفُجَّارُ ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ ﴾ فَذَكَرَ عَنْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يُبَاحُونَ النَّظَرَ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَهُمْ عَلَى سُرُرِهِمْ وَقُرُشِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أَيُّ : تَعْرِفُ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ، أَيُّ : صِفَةَ التَّرَافَةِ وَالْحُسْمَةِ وَالسُّرُورِ وَالِدَّعَةِ وَالرِّيَاسَةِ ، مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ . ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ أَيُّ :

يُسْقَوْنَ مِنْ خَمْرٍ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَالرَّحِيقُ : مِنْ أَسْمَاءِ الْخَمْرِ . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ خَتَمُهُمْ مِسْكَ ﴾ أَيُّ : خِلَاطُهُ مِسْكَ . وَقِيلَ : عَاقِبَتُهُ مِسْكَ . وَقِيلَ : طَبِيبُهُ مِسْكَ . ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أَيُّ : وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ فَلْيَتَفَاخَرَ الْمُتَفَاخِرُونَ ، وَلْيَتَبَاهَ وَيُكَاثِرْ وَيَسْتَبِقْ إِلَى مِثْلِهِ الْمُسْتَبِقُونَ ، ﴿ وَمَرَا جُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ أَيُّ : وَمَرَا جُ هَذَا الرَّحِيقِ الْمَوْصُوفِ مِنْ تَسْنِيمٍ ، أَيُّ : مِنْ شَرَابٍ يُقَالُ لَهُ : تَسْنِيمٌ ، وَهُوَ أَشْرَفُ شَرَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهُ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أَيُّ : يَشْرَبُهَا الْمُقَرَّبُونَ صَرَفًا ، وَتُمَزَّجُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَزْجًا .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٢٨﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٠﴾ هَلْ ثُوبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُجْرِمِينَ ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا يَضْحَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيُّ : يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ وَيَحْتَقِرُونَهُمْ ، وَإِذَا مَرُّوا بِالْمُؤْمِنِينَ يَتَغَامَزُونَ عَلَيْهِمْ ، أَيُّ : مُحْتَفِرِينَ لَهُمْ ، ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ أَيُّ : وَإِذَا انْقَلَبَ ، أَيُّ : رَجَعَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ ، انْقَلَبُوا إِلَيْهَا فَكِهِينَ ، أَيُّ : مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ، وَمَعَ هَذَا مَا شَكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، بَلِ اسْتَغْلَوْا بِالْقَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ يَحْتَقِرُونَهُمْ وَيَحْسُدُونَهُمْ ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ أَيُّ : لِكُونِهِمْ عَلَىٰ غَيْرِ دِينِهِمْ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أَيُّ : وَمَا بُعِثَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ حَافِظِينَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَصُدُّ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ، وَلَا كُلُّفُوا بِهِمْ ؟ فَلِمَ اسْتَغْلَوْا بِهِمْ ، وَجَعَلُوهُمْ نُصَبَ أَعْيُنِهِمْ ، ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أَيُّ : فِي مُقَابَلَةِ مَا ضَحِكَ بِهِمْ أَوْلَيْكَ ﴿ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ أَيُّ : إِلَى اللَّهِ ﷻ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ زَعَمَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ ضَالُّونَ وَلَيْسُوا بِضَالِّينَ ، بَلْ هُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُقَرَّبِينَ ، يَنْظُرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ هَلْ ثُوبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أَيُّ : هَلْ جُوزِي الْكُفَّارُ عَلَىٰ مَا كَانُوا يُقَابِلُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِسْتِهْزَاءِ وَالتَّفْظِيسِ أَمْ لَا ؟ يَعْنِي : قَدْ جُوزُوا أَوْفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ وَأَكْمَلَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ مُحَاسَبٌ حِسَابًا يُسِيرًا ﴿٨﴾ وَيُنْقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَخُورَ ﴿١٤﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أَيُّ : اسْتَمَعَتْ لِرَبِّهَا وَأَطَاعَتْ أَمْرَهُ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ مِنَ الْإِنْشِقَاقِ ، ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أَيُّ : وَحَقُّ لَهَا أَنْ تُطِيعَ أَمْرَهُ ؛ لِأَنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يُتَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ ، بَلْ قَدْ فَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أَيُّ : بُسِطَتْ ، وَفُرِشَتْ وَوُسِّعَتْ . ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أَيُّ : أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ ، وَتَخَلَّتْ مِنْهُمْ ، ﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أَيُّ : سَاعٍ إِلَى رَبِّكَ سَعِيًا ، وَعَامِلٌ عَمَلًا ﴿ فَمُلْقِيهِ ﴾ ثُمَّ إِنَّكَ سَتَلْقَى مَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿ فَسَوْفَ مُحَاسَبٌ حِسَابًا يُسِيرًا ﴾ أَيُّ : سَهْلًا بِلَا تَعْسِيرٍ ، أَيُّ : لَا يُحَقِّقُ عَلَيْهِ جَمِيعَ دَقَائِقِ أَعْمَالِهِ ، فَإِنَّ مَنْ حُوسِبَ كَذَلِكَ يَهْلِكُ لَا مَحَالَةَ . عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذْبٌ » قَالَتْ : فَقُلْتُ : أَلَيْسَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَوْفَ مُحَاسَبٌ حِسَابًا يُسِيرًا ﴾ قَالَ : « لَيْسَ ذَلِكَ بِالْحِسَابِ وَلَكِنْ ذَلِكَ الْعَرَضُ ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذْبٌ » . ﴿ وَيُنْقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أَيُّ : وَيَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ فِي الْجَنَّةِ ، ﴿ مَسْرُورًا ﴾ أَيُّ : فَرِحًا مُغْتَبِطًا بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ ﷻ . ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ أَيُّ : بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ ، تُنْثَى يَدُهُ إِلَى وَرَائِهِ وَيُعْطَى كِتَابُهُ بِهَا كَذَلِكَ ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴾ أَيُّ : خَسَارًا وَهَلَاكًا ﴿ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أَيُّ : فَرِحًا لَا يُفَكِّرُ فِي الْعَوَاقِبِ ، وَلَا يَخَافُ مِمَّا أَمَامَهُ ، فَأَعْقَبَهُ ذَلِكَ الْفَرَحُ الْيَسِيرُ الْحُزْنَ الطَّوِيلَ ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَخُورَ ﴾ أَيُّ : كَانَ يَتَعَدَّدُ أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ وَلَا يُعِيدُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَالْخُورُ : هُوَ الرُّجُوعُ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ يَعْنِي : بَلَى سَيُعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا بَدَأَهُ ، وَيُجَازِيهِ عَلَى

أَعْمَالِهِ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا ، فَإِنَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ، أَي : عَلِيمًا خَيْرًا .

فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٥﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٦﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٧﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٨﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢٠﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ﴿٢١﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٢﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٤﴾

قَالَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الشَّفَقُ : الْحُمْرَةُ . فَالشَّفَقُ : هُوَ حُمْرَةُ الْأُفُقِ إِذَا قَبَلَ طُلُوعُ الشَّمْسِ ، وَإِذَا بَعْدَ غُرُوبِهَا ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « وَفَتْ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ » . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَقْسَمَ اللَّهُ بِالنَّهَارِ مُدْبِرًا ، وَبِاللَّيْلِ مُقْبِلًا . « وَمَا وَسَقَ » وَمَا جَمَعَ ، أَي : مِنْ نَجْمٍ وَذَابَةٍ ، « وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ » إِذَا اجْتَمَعَ وَاسْتَوَى . قَالَ الْحَسَنُ : إِذَا اجْتَمَعَ ، إِذَا امْتَلَأَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : إِذَا اسْتَدَارَ ، وَمَعْنَى كَلَامِهِمْ أَنَّهُ إِذَا تَكَامَلَ نُورُهُ وَأَبْدَرَ ، جَعَلَهُ مُقَابِلًا لِلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ ﷺ ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ قَالَ : لَتَرْكَبُنَّ يَا مُحَمَّدُ سَمَاءً بَعْدَ سَمَاءٍ . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ : « طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » يَقُولُ : حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، رَحَاءً بَعْدَ شِدَّةٍ ، وَشِدَّةً بَعْدَ رَخَاءٍ ، وَغِنًى بَعْدَ فَقْرٍ ، وَفَقْرًا بَعْدَ غِنًى ، وَصِحَّةً بَعْدَ سَقَمٍ ، وَسَقَمًا بَعْدَ صِحَّةٍ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالصَّوَابُ مِنَ التَّأْوِيلِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : لَتَرْكَبُنَّ أَنْتَ - يَا مُحَمَّدُ - حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، وَأَمْرًا بَعْدَ أَمْرٍ مِنَ الشَّدَائِدِ ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ - وَإِنْ كَانَ الْخِطَابُ مُوجَّهًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - جَمِيعُ النَّاسِ ، وَأَنْتُمْ يَلْقَوْنَ مِنْ شَدَائِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهِ أَحْوَالًا . وَقَوْلُهُ : « فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢٠﴾ » أَي : فَمَاذَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؟ وَمَا لَهُمْ إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ وَكَلَامُهُ - وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ - لَا يَسْجُدُونَ إعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاحْتِرَامًا ؟ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ﴿٢١﴾ أَي : مِنْ سَجِيَّتِهِمُ التَّكْذِيبُ ، وَالْعِنَادُ وَالْخَالْفَةُ لِلْحَقِّ . وَقَوْلُهُ : « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٢﴾ يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٣﴾ » أَي : فَأَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . « إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، يَعْنِي : لَكِنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، أَي : بِقُلُوبِهِمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ « لَهُمْ أَجْرٌ » أَي : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ « غَيْرُ مَمْنُونٍ » قِيلَ : غَيْرُ مَنْقُوصٍ ، وَقِيلَ : غَيْرُ مُحْسُوبٍ ، وَحَاصِلُ قَوْلِهَا أَنَّهُ غَيْرُ مَقْطُوعٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : « عَطَاءٌ غَيْرُ مُجْدُودٍ » .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعُلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

يُقَسِّمُ تَعَالَىٰ بِالسَّمَاءِ وَبُرُوجِهَا ، وَهِيَ : النُّجُومُ الْعِظَامُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ وَشَاهِدٍ ﴾ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ﴿ وَمَشْهُودٍ ﴾ يَوْمُ عَرَفَةَ . وَقِيلَ : الشَّاهِدُ : مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] ، وَالْمَشْهُودُ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : ١٠٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أَيُّ : لِعَنَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، وَجَمْعُهُ أَخَادِيدُ ، وَهِيَ الْحَضِيرُ فِي الْأَرْضِ ، وَهَذَا خَبْرٌ عَنْ قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَمَدُوا إِلَىٰ مَنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ ﷻ ، فَقَهَرُوهُمْ وَأَرَادُوهُمْ أَن يَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ ، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ ، فَحَقَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَخْدُودًا ، وَأَجْبَجُوا فِيهِ نَارًا ، وَأَعَدُّوا لَهَا وَقُودًا يُسْعِرُونَهَا بِهِ ، ثُمَّ أَرَادُوهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ فَقَذَفُوهُمْ فِيهَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعُلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أَيُّ : مُشَاهِدُونَ لِمَا يُفْعَلُ بِأُولَٰئِكَ الْمُؤْمِنِينَ . ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أَيُّ : وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا إِيمَانُهُمْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُضَامُ مِنْ لَادٍ بِجَنَابِهِ ، الْمُنِيعُ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ قَدَّرَ عَلَىٰ عِبَادِهِ هَٰؤُلَاءِ هَذَا الَّذِي وَقَعَ بِهِمْ بِأَيْدِي الْكُفَّارِ بِهِ ، فَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ، وَإِنْ خَفِيَ سَبَبُ ذَلِكَ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مِنْ تَمَامِ الصِّفَةِ إِنَّهُ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أَيُّ : لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أَيُّ : حَرَقُوا ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ أَيُّ : لَمْ يَقْلِعُوا

عَمَّا فَعَلُوا وَيَنْدُمُوا عَلَى مَا أَسْلَفُوا ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْخَرِيقِ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١٥﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٦﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٨﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٩﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿٢٠﴾ هَلْ أَتَتْكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿٢١﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿٢٢﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿٢٣﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٤﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢٥﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ، بِخِلَافِ مَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْخَرِيقِ وَالْجَحِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ .
ثُمَّ قَالَ : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أَيُّ : إِنَّ بَطْشَهُ وَانْتِقَامَهُ - مِنْ أَعْدَائِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَخَالَفُوا أَمْرَهُ - لَشَدِيدٌ عَظِيمٌ قَوِيٌّ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ كَمَا يَشَاءُ فِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصَرِ ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ أَيُّ : مِنْ قُوَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ يُبْدِيُ الْخَلْقَ وَيُعِيدُهُ كَمَا بَدَأَهُ ، بِلَا مُمَانٍ وَلَا مُدَافِعٍ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ أَيُّ : يَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَدَيْهِ ، وَلَوْ كَانَ الذَّنْبُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ ، وَالْوَدُودُ . قِيلَ : هُوَ الْحَبِيبُ ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ أَيُّ : صَاحِبُ الْعَرْشِ الْمَعْظَمِ الْعَالِيِّ عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ . ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ أَيُّ : مَهْمَا أَرَادَ فَعَلَهُ ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعَظَمَتِهِ وَقَهْرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿هَلْ أَتَتْكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿أَيُّ : هَلْ بَلَغَكَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ الْبَاسِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّقْمَةِ الَّتِي لَمْ يَرُدُّهَا عَنْهُمْ أَحَدٌ؟ وَهَذَا تَقْرِيرٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أَيُّ : إِذَا أَخَذَ الظَّالِمُ أَخْذَهُ أَخَذًا أَلِيمًا شَدِيدًا ، أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ . ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أَيُّ : هُمْ فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ وَكُفْرٍ وَعِنَادٍ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ أَيُّ : هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ ، قَاهِرٌ لَا يَفُوتُونَهُ وَلَا يُعْجِزُونَهُ ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ﴾ أَيُّ : عَظِيمٌ كَرِيمٌ ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ أَيُّ : هُوَ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى مَحْفُوظٌ مِنَ الزَّبَادَةِ وَالنَّقْصِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبُرُوجِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

يُقْسِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالسَّمَاءِ وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النِّيَّرةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ . قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ : إِنَّمَا سُمِّيَ النَّجْمُ طَارِقًا ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُرَى بِاللَّيْلِ وَيَخْتَفِي بِالنَّهَارِ ، وَ ﴿ الثَّاقِبُ ﴾ قِيلَ : الْمُضِيءُ ، وَقِيلَ : يَثْقُبُ الشَّيَاطِينُ إِذَا أُرْسِلَ عَلَيْهَا ، وَقِيلَ : هُوَ مُضِيءٌ وَمَحْرَقٌ لِلشَّيْطَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أَيُّ : كُلُّ نَفْسٍ عَلَيْهَا مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ يَحْرُسُهَا مِنَ الْآفَاتِ ، ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ تَنْبِيهُ لِلْإِنْسَانِ عَلَى ضَعْفِ أَصْلِهِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ ، وَإِرْشَادٌ لَهُ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِالْمَعَادِ ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ يَعْنِي : الْمُنِيُّ يَخْرُجُ دَفْقًا مِنَ الرَّجُلِ وَمِنَ الْمَرْأَةِ ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْهُمَا الْوَلَدُ بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ يَعْنِي : صُلْبَ الرَّجُلِ وَتَرَائِبَ الْمَرْأَةِ وَهُوَ صَدْرُهَا . وَقِيلَ : التَّرَائِبُ : بَيْنَ ثَدْيَيْهَا ، وَقِيلَ : التَّرَائِبُ مَا بَيْنَ الْمَتَكَيْنِ إِلَى الصَّدْرِ ، وَعَنْ قَتَادَةَ ﴿ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ مِنْ بَيْنِ صُلْبِهِ وَنَحْرِهِ ، ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ عَلَى رَجْعِ هَذَا الْإِنْسَانِ الْمَخْلُوقِ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ - أَيُّ : إِعَادَتُهُ وَبَعْثُهُ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ - لَقَادِرٌ ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ قَدَرَ عَلَى الْإِعَادَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ ، أَيُّ : تَظْهَرُ وَتَبْدُو ، وَيَنْقُى السِّرُّ عِلَانِيَةً وَالْمَكْنُونُ مَشْهُورًا . ﴿ فَمَا لَهُ ﴾ أَيُّ : الْإِنْسَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أَيُّ : فِي نَفْسِهِ ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ أَيُّ : مَنْ خَارِجٍ مِنْهُ ، أَيُّ : لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُنْقِذَ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَلَا يَسْتَطِيعَ لَهُ أَحَدٌ ذَلِكَ .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلُ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤِيدًا ﴿١٧﴾

الرَّجْعُ : قِيلَ : هُوَ الْمَطَرُ ، وَقِيلَ : هُوَ السَّحَابُ فِيهِ الْمَطَرُ ، ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ تُمْطَرُ ثُمَّ تُمْطَرُ ، ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُوَ انْصِدَاعُهَا عَنِ النَّبَاتِ . ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ ﴾ قِيلَ : حَقٌّ ، وَقِيلَ : حُكْمٌ عَدْلٌ . ﴿ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ ﴾ أَيُّ : بَلْ هُوَ حَقٌّ جِدٌّ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْكَافِرِينَ بِأَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ بِهِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِهِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أَيُّ : يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى خِلَافِ الْقُرْآنِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ ﴾ أَيُّ : أَنْظِرْهُمْ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴿ أَمْهَلُهُمْ رَوَيْدًا ﴾ أَيُّ : قَلِيلًا ، أَيُّ : وَسَتَرَى مَاذَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعُقُوبَةِ وَالْهَلَاكِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطَّارِقِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ١٩ تفسیر سورة الأعلى مكية

ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ : « هَلَّا صَلَّيْتَ بِ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى » . وَعَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي الْعِيدَيْنِ بِ « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » وَ « هَلْ أَتَتْكَ حَدِيثُ الْعَنْشِيَّةِ » ، وَإِنْ وَافَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَرَأَهُمَا جَمِيعًا . وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْوُثْرِ بِ « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » وَ « قُلْ يَتَائِبُ الْكَافِرُونَ » وَ « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ③ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ④ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ⑤ سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنْسَى ⑥ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ⑦ وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى ⑧ فَذَكَرْ إِن نَّفَعْتَ الذِّكْرَى ⑨ سَيَذَكِّرُ مَنْ تَخَشَى ⑩ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ⑪ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ⑫ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ⑬

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » [الواقعة : ٧٤] قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ » ، فَلَمَّا نَزَلَتْ « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قَالَ : « اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ » . وَقَوْلُهُ : « الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى » أَيُّ : خَلَقَ الْخَلِيقَةَ وَسَوَّى كُلَّ مَخْلُوقٍ فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ : « وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى » هَدَى الْإِنْسَانَ لِلشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ ، وَهَدَى الْأَنْعَامَ لِمَرَاتِعِهَا .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أَي: مِنْ جَمِيعِ صُنُوفِ النَّبَاتَاتِ وَالزُّرُوعِ ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ هَشِيمًا مُتَغَيِّرًا، ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أَي: يَا مُحَمَّدُ ﴿فَلَا تَنسَى﴾، وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَوَعْدٌ مِنْهُ لَهُ بِأَنَّهُ سَيُقْرِئُهُ قِرَاءَةً لَا يَنْسَاهَا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أَي: يَعْلَمُ مَا يَجْهَرُ بِهِ الْعِبَادُ وَمَا يُخْفُونَهُ مِنْ أَقْوَاهُمْ وَأَفْعَالِهِمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، ﴿وَنُفِيسُكَ لِلْإِنْسَانِ﴾ أَي: نُسْهَلُ عَلَيْكَ أَفْعَالَ الْخَيْرِ وَأَقْوَالِهِ، وَنَشْرَعُ لَكَ شَرْعًا سَهْلًا سَمَحًا مُسْتَقِيمًا عَدْلًا، لَا إِعْوجَاجَ فِيهِ وَلَا حَرَجَ وَلَا عُسْرَ، ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أَي: ذَكَّرْ حَيْثُ تَنْفَعُ التَّذْكِرَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ أَي: سَيَتَعِظُ بِمَا تُبَلِّغُهُ يَا مُحَمَّدُ مَنْ قَلْبُهُ يَخْشَى اللَّهَ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُلَاقِيهِ ﴿وَيَنْجِئُهَا الْأَشْقَى﴾ الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْيَى﴾ أَي: لَا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيحُ، وَلَا يَخْيَى حَيَاةً تَنْفَعُهُ، بَلْ هِيَ مُضِرَّةٌ عَلَيْهِ، لِأَنَّ سَبَبَهَا يَشْعُرُ مَا يُعَاقِبُ بِهِ مِنَ أَلِيمِ الْعَذَابِ، وَأَنْوَاعِ النَّكَالِ.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿٢﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٤﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿٥﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿٦﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أَي: طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَتَابَعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى الرُّسُولِ ﷺ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أَي: أَقَامَ الصَّلَاةَ فِي أَوْقَاتِهَا إِنْتِغَاءً رِضْوَانِ اللَّهِ وَطَاعَةً لِأَمْرِ اللَّهِ، وَامْتِثَالًا لِشَرَعِ اللَّهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿رَكَّى مَالَهُ، وَأَرْضَى خَالِقَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَي: تُقَدِّمُونَهَا عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَتُبَدُّوْنَهَا عَلَى مَا فِيهِ نَفْعُكُمْ وَصَلَاحُكُمْ فِي مَعَاشِكُمْ وَمَعَادِكُمْ ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أَي: ثَوَابُ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَأَبْقَى، فَإِنَّ الدُّنْيَا دَانِيَةٌ فَانِيَةٌ، وَالْآخِرَةُ شَرِيفَةٌ بَاقِيَةٌ، فَكَيْفَ يُؤْثِرُ عَاقِلٌ مَا يَفْنَى عَلَى مَا يَبْقَى، وَيَهْتَمُّ بِمَا يَزُولُ عَنْهُ قَرِيبًا، وَيَتْرُكُ الْإِهْتِمَامَ بِدَارِ الْبَقَاءِ وَالْخُلْدِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قَالَ: كُلُّهَا فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إِيضًا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أَي: مَضْمُونُ هَذَا الْكَلَامِ ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ حَسَنٌ قَوِيٌّ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سَبِّحْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٢٦ تفسير سورة الغاشية مكة

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِـ «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» وَالْغَاشِيَةِ فِي صَلَاةِ الْعِيدِ وَيَوْمِ الْجُمُعَةِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَالِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾

الْغَاشِيَةُ : مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . لِأَنَّهَا تَغْشَى النَّاسَ وَتَعْمَهُمْ . « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِعَةٌ » أَيُّ : ذَلِيلَةٌ . « عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ » أَيُّ : قَدْ عَمِلَتْ عَمَلًا كَثِيرًا ، وَنَصَبَتْ فِيهِ ، وَصَلَّيْتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا حَامِيَةً . « تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً » أَيُّ : حَارَّةً شَدِيدَةً الْحَرِّ . « تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَالِيَةٍ » أَيُّ : قَدْ انْتَهَى حَرُّهَا وَغَلِيَانُهَا . « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ » أَيُّ : شَجَرٍ مِنَ النَّارِ ، وَقِيلَ : هُوَ الزَّقُّومُ . وَقَوْلُهُ : « لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ » يَعْنِي : لَا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودٌ ، وَلَا يَنْدَفِعُ بِهِ مُحْذُورٌ . وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

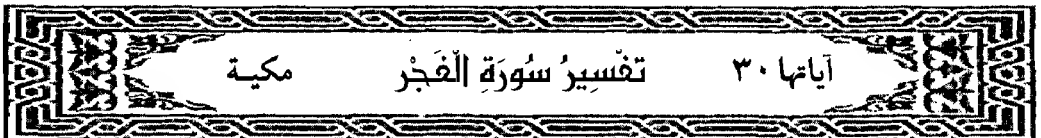
لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ السَّعْدَاءِ فَقَالَ : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ » أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ « نَاعِمَةٌ » أَيُّ : يُعْرِفُ النَّعِيمَ فِيهَا ، وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ بِسَعْيِهَا . « لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ » : قَدْ رَضِيَتْ عَمَلَهَا ، « فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » أَيُّ : رَفِيعَةٍ بَهِيَّةٍ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ « لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً » أَيُّ : لَا تَسْمَعُ فِي الْجَنَّةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا كَلِمَةً لَغَوٍ ، « فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ » أَيُّ : سَارِحَةٌ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا عَيْنًا وَاحِدَةً ، وَإِنَّمَا هَذَا جِنْسٌ ، يَعْنِي : فِيهَا عُمُونَ جَارِيَاتٌ . « فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ » أَيُّ : عَالِيَةٌ نَاعِمَةٌ كَثِيرَةٌ الْفُرُشِ مُرْتَفَعَةُ السُّمُكِ ، عَلَيْهَا الْخُورُ الْعَيْنُ . قَالُوا : فَإِذَا أَرَادَ وَلِيُّ اللَّهِ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى تِلْكَ السُّرُرِ الْعَالِيَةِ تَوَاضَعَتْ لَهُ . « وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ » يَعْنِي : أَوَانِي الشَّرْبِ مُعَدَّةٌ مُرَصَّدَةٌ لِمَنْ أَرَادَهَا مِنْ أَرْبَابِهَا . « وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ » التَّمَارِقُ : الْوَسَائِدُ ، « وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ » الزَّرَابِيُّ : الْبُسْطُ ، وَمَعْنَى : مَبْثُوثَةٌ ، أَيُّ : هَهُنَا وَهَهُنَا ، لِمَنْ أَرَادَ الْجُلُوسَ عَلَيْهَا .

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿١٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿١٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِالنَّظَرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ فَإِنَّمَا خُلِقَ عَجِيبٌ وَتَرْكِيبُهَا غَرِيبٌ ، فَإِنَّمَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ وَالشَّدَةِ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَلِينٌ لِلْحَمْلِ الثَّقِيلِ ، وَتَنْقَادٌ لِلْقَائِدِ الضَّعِيفِ ، وَتَوْكُلٌ ، وَتُسْتَفْعُ بِوَبَرِّهَا ، وَتُشْرَبُ لَبَنُهَا ، وَتُبْهَوُا بِذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ غَالِبٌ دَوَابَّهُمْ كَانَتْ الْإِبِلُ . ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أَيُّ : جُعِلَتْ مَنْصُوبَةً ، قَائِمَةٌ ثَابِتَةٌ رَاسِيَةً لِئَلَّا تَمِيدَ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَعَادِنِ . ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أَيُّ : كَيْفَ بُسِطَتْ وَمُدَّتْ وَمُهِدَّتْ ؟ فَنَبَّهَ الْبَدْوِيَّ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ بَعِيرِهِ الَّذِي هُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهِ ، وَالسَّمَاءِ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِهِ ، وَالْجِبَلِ الَّذِي تُجَاهَهُ ، وَالْأَرْضِ الَّتِي تَحْتَهُ عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ ذَلِكَ وَصَانِعِهِ ، وَأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ ، وَأَنَّهُ الْإِلَهَ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ أَيُّ : فَذَكِّرْ يَا مُحَمَّدُ النَّاسَ بِمَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا : لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : لَسْتَ بِالَّذِي تُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيَابِ . ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ أَيُّ : تَوَلَّى عَنِ الْعَمَلِ بِأَرْكَانِهِ ، وَكَفَرَ بِالْحَقِّ بِجَنَانِهِ وَلِسَانِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ . ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أَيُّ : مَرْجِعُهُمْ وَمُنْقَلَبُهُمْ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ أَيُّ : نَحْنُ نَحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَنُجَازِيهِمْ بِهَا ، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيْلٍ عَشْرِ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ

لِذِي حِجْرٍ ﴿٦٠﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٦٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٦٣﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٦٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿٦٥﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿٦٦﴾ فَاكْتَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿٦٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٦٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿٦٩﴾

أَمَّا الْفَجْرُ فَمَعْرُوفٌ وَهُوَ الصُّبْحُ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ فَجْرُ يَوْمِ النَّحْرِ خَاصَّةً ، وَهُوَ خَاتِمَةُ اللَّيَالِي الْعَشْرِ . ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْوَتْرَ يَوْمَ عَرَفَةَ ، لِكَوْنِهِ التَّاسِعُ ، وَإِنَّ الشَّفْعَ يَوْمَ النَّحْرِ لِكَوْنِهِ الْعَاشِرَ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ قَالَ : اللَّهُ وَتَرٌّ وَاحِدٌ ، وَأَنْتُمْ شَفْعٌ . وَقِيلَ : اللَّهُ الْوَتْرُ ، وَخَلَقَهُ الشَّفْعُ ، الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى . وَعَنِ الْحَسَنِ : ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ هُوَ الْعَدَدُ مِنْهُ شَفْعٌ وَمِنْهُ وَتْرٌ . ﴿ وَالْيَلَّ إِذَا يَسَّرَ ﴾ أَيُّ : إِذَا ذَهَبَ ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ أَيُّ : لِذِي عَقْلٍ وَلُبٍّ وَحِجَا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ حِجْرًا ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ تَعَاطِي مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ ، وَمِنْهُ حَجَرَ الْحَاكِمُ عَلَى فُلَانٍ إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّفَ ، وَهَذَا الْقَسَمُ هُوَ بِأَوْقَاتِ الْعِبَادَةِ ، وَبِنَفْسِ الْعِبَادَةِ مِنْ حَجٍّ وَصَلَاةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُرْبِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا الْمُتَّقُونَ الْمُطِيعُونَ لَهُ ، الْخَائِفُونَ مِنْهُ ، الْمُتَوَاضِعُونَ لَدَيْهِ ، الْخَاشِعُونَ لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ . وَلَمَّا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ وَعِبَادَتَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُتَمَرِّدِينَ عُنَاةَ جَبَّارِينَ ، خَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ مُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِ ، جَا حِدِينَ لِكُتْبِهِ ، فَذَكَرَ تَعَالَى كَيْفَ أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ وَعِبْرًا فَقَالَ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ، وَهَؤُلَاءِ عَادُ الْأُولَى ، وَهُمْ أَوْلَادُ عَادِ بْنِ إِرَمَ بْنِ عَوْصَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ ، وَهُمْ الَّذِينَ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولَهُ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ ، فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ، وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ ، وَأَهْلَكَهُمْ ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ تَخَلَّى حَاوِيَةَ ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الْحَاقَّةُ : ٦ - ٨] ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ قِصَّتَهُمْ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ ؛ لِيُعْتَبَرَ بِمَضَرَعِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ ، زِيَادَةٌ تَعْرِيفٍ بِهِمْ ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ بُيُوتَ الشَّعْرِ الَّتِي تُرْفَعُ بِالْأَعِمَدَةِ الشَّدَادِ ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ خِلْقَةً وَأَقْوَاهُمْ بَطْشًا ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَهُمْ هُودٌ بِتِلْكَ النُّعْمَةِ ، وَأَرَشَدَهُمْ إِلَى أَنْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ ، ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ أَيُّ : الْقَبِيلَةُ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي بِلَادِهِمْ ، لِقُوَّتِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ وَعِظَمَ تَرْكِيبِهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي

الْبَلَدِ ۝ أَيُّ : لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُ تِلْكَ الْقَبِيلَةِ فِي الْبِلَادِ ، يَعْنِي : فِي زَمَانِهِمْ . ۝ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ يَعْنِي : يَقْطَعُونَ الصَّخْرَ بِالْوَادِي ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : يَنْحِتُونَهَا وَيُخْرِقُونَهَا ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ۝ وَتَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ ۝ [الشعراء : ١٤٩] وَقَوْلُهُ : ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ قِيلَ : الْأَوْتَادُ : الْجُنُودُ الَّذِينَ يَشُدُّونَ لَهُ أَمْرَهُ ، وَيُقَالُ : كَانَ فِرْعَوْنُ يُؤْتِدُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ فِي أَوْتَادٍ مِنْ حَدِيدٍ يُعَلِّقُهُمْ بِهَا . ۝ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ أَيُّ : تَمَرَّدُوا وَعَتَوْا وَعَاثُوا فِي الْأَرْضِ بِالْإِفْسَادِ وَالْأَذْيَةِ لِلنَّاسِ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ أَيُّ : أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَأَحْلَلَ بِهِمْ عُقُوبَةً لَا يَرُدُّهَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمِرْصَادِ ۝ يَعْنِي : يَرْصُدُ خَلْقَهُ فِيْمَا يَعْمَلُونَ ، وَيَجَازِي كُلًّا بِسَعْيِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَسَيَعْرِضُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ عَلَيْهِ ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِعَدْلِهِ ، وَيُقَابِلُ كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَهُوَ الْمُنْزَهُ عَنِ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ .

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝ كَلَّا ۖ بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَخْضُوبَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْإِنْسَانِ فِي إِعْتِقَادِهِ إِذَا وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ لِيَخْتَبِرَهُ فِي ذَلِكَ ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ إِكْرَامٌ لَهُ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ هُوَ إِبْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ۝ اتَّخَسَّبُونَ أَنْمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۝ تَسَارَعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ [المؤمنون : ٥٥-٥٦] وَكَذَلِكَ فِي الْجَنَابِ الْآخَرِ ، إِذَا إِبْتَلَاهُ وَامْتَحَنَهُ وَصَبَّقَ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ إِهَانَةٌ لَهُ . ۝ كَلَّا ۝ أَيُّ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ ، لَا فِي هَذَا وَلَا فِي هَذَا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَإِنَّمَا الْمَدَارُ فِي ذَلِكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فِي كُلِّ مِنَ الْخَالَيْنِ ، إِذَا كَانَ غَنِيًّا بِأَنْ يَشْكُرَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا بِأَنْ يَصْبِرَ . ۝ بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۝ فِيهِ أَمْرٌ بِالْإِكْرَامِ لَهُ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ» ، وَقَرَنَ بَيْنَ أَضْبَعِيهِ الْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ . ۝ وَلَا تَخْضُوبَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝ يَعْنِي : لَا يَأْمُرُونَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَيُحِبُّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي ذَلِكَ ۝ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ۝ يَعْنِي : الْمِيرَاثَ ۝ أَكْلًا لَمًّا ۝ أَيُّ : مِنْ أَيِّ جِهَةٍ حَصَلَ لَهُمْ ، مِنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝ أَيُّ : كَثِيرًا ، زَادَ بَعْضُهُمْ فَاحِشًا .

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿١٠﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿١١﴾ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿١٢﴾ يَقُولُ يَلَيَّتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ﴿١٣﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿١٤﴾ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ أَحَدًا ﴿١٥﴾ يَتَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿١٦﴾ أَرْجَعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿١٧﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبْدِي ﴿١٨﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْعَظِيمَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا ﴾ أَيُّ : حَقًّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أَيُّ : وَطِئَتْ وَمُهْدَتْ وَسُوِّيَتِ الْجِبَالُ ، وَقَامَ الْخَلَائِقُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّهِمْ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ يَعْنِي : لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَيْهِ ، بِسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، بَعْدَمَا يَسْأَلُونَ أُولَى الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، فَكُلُّهُمْ يَقُولُ : لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَاكُم ، حَتَّى تَنْتَهِيَ النَّوْبَةُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَقُولُ : « أَنَا هَا ، أَنَا هَا » ، فَيَذْهَبُ فَيَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ فَيَشْفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ ، وَهِيَ أَوَّلُ الشَّفَاعَاتِ ، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمُحْمُودُ ، كَمَا تَقْدَمُ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ « سُبْحَانَ » فَيَجِيءُ الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لِفَضْلِ الْقَضَاءِ كَمَا يَشَاءُ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَجِئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا صُفُوفًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُحْرِقُونَهَا » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ﴾ أَيُّ : عَمَلُهُ وَمَا كَانَ أَسْلَفُهُ فِي قَدِيمِ دَهْرِهِ وَحَدِيثِهِ ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ أَيُّ : وَكَيْفَ تَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ؟ ﴿ يَقُولُ يَلَيَّتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ يَعْنِي : يَنْدَمُ عَلَى مَا كَانَ سَلَفَ مِنْهُ مِنَ الْمَعَاصِي إِنْ كَانَ عَاصِيًا وَيَوَدُّ لَوْ كَانَ إِزْدَادًا مِنَ الطَّاعَاتِ إِنْ كَانَ طَائِعًا .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴾ أَيُّ : لَيْسَ أَحَدٌ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْ تَعَذِّبِ اللَّهِ مِنْ عَصَاةٍ ﴿ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ أَحَدًا ﴾ أَيُّ : وَلَيْسَ أَحَدٌ أَشَدَّ قَبْضًا وَوِثْقًا مِنَ الزَّبَانَةِ لِمَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِمْ ﷻ ، وَهَذَا فِي حَقِّ الْمُجْرِمِينَ مِنَ الْخَلَائِقِ وَالظَّالِمِينَ ، فَأَمَّا النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، وَهِيَ السَّائِكَةُ الثَّابِتَةُ الدَّائِرَةُ مَعَ الْحَقِّ ، فَيَقَالُ لَهَا ﴿ يَتَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ ﴿ أَرْجَعِي إِلَى رَبِّكَ ﴾ أَيُّ : إِلَى جَوَارِهِ وَثَوَابِهِ وَمَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ فِي جَنَّتِهِ ﴿ رَاضِيَةً ﴾ أَيُّ : فِي نَفْسِهَا ﴿ مَرْضِيَّةً ﴾ أَيُّ : قَدْ رَضِيَ عَنْ اللَّهِ وَرَضِيَ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا ﴿ فَأَدْخُلِي فِي عِبْدِي ﴾ أَيُّ : فِي جَمْلَتِهِمْ ﴿ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ ، وَهَذَا يُقَالُ لَهَا عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ ، وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَيْضًا ، كَمَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يُبَشِّرُونَ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ إِحْتِضَارِهِ وَعِنْدَ قِيَامِهِ مِنْ قَبْرِهِ ، فَكَذَلِكَ هَهُنَا .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَجْرِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَلْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾
أَلْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ
النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

هَذَا قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَكَّةَ أُمِّ الْقُرَى فِي حَالِ كَوْنِ السَّائِكِينَ فِيهَا حَالًا ، لِيُنَبِّهَ عَلَى
عَظَمَةِ قَدْرِهَا فِي حَالِ إِحْرَامِ أَهْلِهَا ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - « لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ »
يَعْنِي : مَكَّةَ « وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ » قَالَ : أَنْتَ - يَا مُحَمَّدٌ - حِلٌّ لَكَ أَنْ تُقَاتِلَ بِهِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ :
مَا أَصَبَتْ فِيهِ فَهُوَ حَلَالٌ لَكَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : « وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ » قَالَ : أَنْتَ بِهِ مِنْ غَيْرِ
حَرَجٍ وَلَا إِثْمٍ ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ : أَحَلَّهَا اللَّهُ لَهُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَالُوهُ
قَدْ وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْصَدُ شَجَرُهُ وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ
لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ » ،
وَفِي لَفْظٍ « فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ فَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ » قِيلَ : الْوَالِدُ : الَّذِي يَلِدُ ، وَمَا وَلَدَ : الْعَاقِرُ الَّذِي لَا يُوَلِّدُ لَهُ ،
وَقِيلَ : وَوَالِدٍ هُوَ : آدَمُ ، وَمَا وَلَدَ : ذُرِّيَّتُهُ . « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ » ، وَالْكَبَدُ : الْاسْتِوَاءُ
وَالِاسْتِقَامَةُ ، وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا كَقَوْلِهِ : « يَتَأْتِي الْإِنْسَانُ مَا
غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّلَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٢﴾ [الْإِنْفَار : ٦ - ٧] ، وَكَقَوْلِهِ : « لَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١﴾ [التين : ٤] ، وَقِيلَ : « فِي كَبَدٍ » نُطْفَةً ، ثُمَّ عَلَقَةً ، ثُمَّ مُضْغَةً
يَتَكَبَّدُ فِي الْخَلْقِ . وَقِيلَ : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ » فِي شِدَّةٍ وَطَلَبٍ مَعِيشَةٍ ، وَقِيلَ : فِي
مَشَقَّةٍ . « أَلْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ » قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ : يَعْنِي : « أَلْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ
عَلَيْهِ أَحَدٌ » يَأْخُذُ مَالَهُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : إِنْ آدَمَ يَطْنُ أَنْ لَنْ يُسْأَلَ عَنْ هَذَا الْمَالِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟

وَأَيْنَ أَنْفَقَهُ؟ وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿أَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قَالَ: اللَّهُ ﷻ. ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ مَالًا لُبْدًا﴾ أَيُّ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: أَنْفَقْتُ مَالًا لُبْدًا، أَيُّ: كَثِيرًا. ﴿أَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ: أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ اللَّهُ ﷻ. ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ أَيُّ: يُبْصِرُ بِهِمَا، ﴿وَلِسَانًا﴾ أَيُّ: يَنْطِقُ بِهِ، فَيَعْبُرُ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يَسْتَعِينُ بِهِمَا عَلَى الْكَلَامِ وَأَكْلِ الطَّعَامِ، وَجَمَلًا لَوَجْهِهِ وَفَمِهِ. ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: الْحَيْرُ وَالشَّرُّ.

فَلَا أَفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ بَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

﴿فَلَا أَفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ قِيلَ: عَقَبَةٌ فِي جَهَنَّمَ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿فَلَا أَفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أَيُّ: أَفَلَا سَلَكَ الطَّرِيقَ الَّتِي فِيهَا النِّجَاةُ وَالْخَيْرُ، ثُمَّ بَيَّنَّهَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمْتُ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤَمِّنَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ إِرْبٍ مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُعْتِقُ بِالْيَدِ الْيَدَ، وَبِالرَّجْلِ الرَّجْلَ، وَبِالْفَرْجِ الْفَرْجَ». وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ ذِي مَجَاعَةٍ، وَالْمَسْغَبُ: هُوَ الْجُوعُ. ﴿بَتِيماً﴾ أَيُّ: أَطْعَمْتُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ بَتِيماً ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أَيُّ: ذَا قَرَابَةٍ مِنْهُ. عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ، صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ». ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أَيُّ: فَقِيرًا مُدْقِعًا لَاصِقًا بِالْثَرَابِ، وَهُوَ الدَّقْعَاءُ أَيْضًا. قِيلَ: هُوَ الَّذِي لَا أَحَدَ لَهُ. ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيُّ: ثُمَّ هُوَ مَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ الطَّاهِرَةِ، مُؤْمِنٌ بِقَلْبِهِ، مُحْتَسِبٌ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ أَيُّ: كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ صَالِحًا الْمُتَوَاصِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى النَّاسِ، وَعَلَى الرَّحْمَةِ بِهِمْ. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ﴾ أَيُّ: الْمُتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أَيُّ: أَصْحَابُ الشَّامِلِ ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾ أَيُّ: مُطَبَّقَةٌ عَلَيْهِمْ، فَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا، وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا. ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ أَيُّ: مُطَبَّقَةٌ. أَيُّ: مُغْلَقَةُ الْأَبْوَابِ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَلَدِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ : « هَلَا صَلَّيْتَ بِ-
سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » وَ « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا » وَ « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى » ؟ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَنَّا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَلْنَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ④
وَالسَّاءِ وَمَا بَنَدْنَا ⑤ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَنَّا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ⑩

« وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا » قَالَ مُجَاهِدٌ : أَيُّ : وَضُوءُهَا ، وَقِيلَ : « وَضُحَاهَا » النَّهَارُ كُلُّهُ . « وَالْقَمَرِ
إِذَا تَلَنَّا » تَبِعَهَا . « وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَلْنَا » أَضَاءَ ، وَقِيلَ : إِذَا غَشِيَهَا . وَقِيلَ : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى »
يَعْنِي : إِذَا يَغْشَى الشَّمْسَ حِينَ تَغِيْبُ ، فَتُظْلِمُ الْآفَاقُ . « وَالسَّاءِ وَمَا بَنَدْنَا » يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ
« مَا » هَهُنَا مُصْدَرِيَّةٌ ، بِمَعْنَى : وَالسَّاءِ وَبِنَائِهَا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى « مَنْ » يَعْنِي :
وَالسَّاءِ وَبِنَائِهَا ، وَكِلَاهُمَا مُتْلَاظِمٌ ، وَالْبِنَاءُ هُوَ الرَّفْعُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَنَّا »
قِيلَ : « طَحَنَّا » دَحَاها ، وَقِيلَ : « طَحَنَّا » أَيُّ : خَلَقَ فِيهَا . قَالَ الْأَكْثَرُونَ : طَحَاها : بَسَطَهَا ،
« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَا » أَيُّ : خَلَقَهَا سَوِيَّةً مُسْتَقِيمَةً عَلَى الْفِطْرَةِ الْقَوِيْمَةِ .

« وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » أَيُّ : فَأَرْشَدَهَا إِلَى فُجُورِهَا وَتَقْوَاهَا ، أَيُّ : بَيَّنَّ لَهَا
وَهَدَاهَا إِلَى مَا قَدَّرَ لَهَا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » بَيَّنَّ لَهَا
الْخَيْرَ وَالشَّرَّ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : أَلْهَمَهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ . وَإِنَّ رَجُلًا مِنْ مُزَيْنَةَ أَوْ جُهَيْنَةَ أَتَى
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَتَكَادِحُونَ ، أَشَيْءٌ قُضِيَ
عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ ، أَمْ شَيْءٌ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا آتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ ﷺ وَأَكَّدَتْ بِهِ
عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ؟ قَالَ : « بَلْ شَيْءٌ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ » قَالَ : فَفِيمَ نَعْمَلُ ؟ قَالَ : « مَنْ كَانَ اللَّهُ
خَلْقَهُ لِإِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئُهُ لَهَا ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَا »
فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » .

« وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » ⑩ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى قَدْ
أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ ، أَيُّ : بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَطَهَّرَهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ وَالرَّذَائِلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴾ أَي : دَسَّسَهَا ، أَي : أَخْلَهَا وَوَضَعَ مِنْهَا بِخِذْلَانِهِ إِيَّاهَا عَنْ الْهُدَى حَتَّى رَكِبَ الْمَعَاصِي وَتَرَكَ طَاعَةَ اللَّهِ ﷻ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّى اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّى اللَّهُ نَفْسَهُ .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا تَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ثَمُودَ : أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ بِسَبَبِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالْبَغْيِ ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ تَكْذِيبًا فِي قُلُوبِهِمْ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ أَي : أَشَقَى الْقَبِيلَةِ ، وَهُوَ « قَدَارُ بْنُ سَالِفٍ » عَاقِرُ النَّاقَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ : نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ أَي : إِحْذَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ أَنْ تَمْسُوَهَا بِسُوءٍ ﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾ أَي : لَا تَعْتَدُوا عَلَيْهَا فِي سُقْيَاهَا ، فَإِنَّهَا شَرِبَتْ يَوْمَ ، وَلَكُمْ شَرِبُ يَوْمٍ مَعْلُومٌ . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ أَي : كَذَّبُوهُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ أَنْ عَقَرُوا النَّاقَةَ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ مِنَ الصَّخْرَةِ آيَةً لَهُمْ وَحُجَّةً عَلَيْهِمْ ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أَي : غَضِبَ عَلَيْهِمْ ، فَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أَي : فَجَعَلَ الْعُقُوبَةَ نَازِلَةً عَلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ . ﴿ وَلَا تَخَافُ ﴾ وَفُرِيَ « فَلَا تَخَافُ » ﴿ عُقْبَاهَا ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ لَا يَخَافُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ تَبَعَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشُّعْشَى ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾

أَقْسَمَ تَعَالَى بِاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ، أَي : إِذَا غَشِيَ الْخَلِيقَةَ بِظُلَامِهِ ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ أَي : بِضِيَائِهِ

وَأَشْرَاقِهِ ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَخَلَقْنَاهُ أُنْثَى ﴾ [النبا : ٨] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ كَرِي شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : ٤٩] ، وَلَمَّا كَانَ الْقَسَمُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ كَانَ الْمَقْسَمُ عَلَيْهِ أَيْضًا مُتَضَادًّا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ أَي : أَعْمَالُ الْعِبَادِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا مُتَضَادَّةٌ أَيْضًا وَمُتَخَالِفَةٌ ، فَمِنْ فَاعِلٍ خَيْرًا وَمِنْ فَاعِلٍ شَرًّا . ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ أَي : أَعْطِيَ مَا أُمِرَ بِإِخْرَاجِهِ ، وَاتَّقَى اللَّهَ فِي أُمُورِهِ ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أَي : بِالْمَجَازَاةِ عَلَى ذَلِكَ ، وَقِيلَ : ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أَي : بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . ﴿ فَسَيُسِيرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : لِلْخَيْرِ ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ أَي : بِمَا عِنْدَهُ ﴿ وَاسْتَعْنَى ﴾ أَي : بِبَخْلٍ بِمَالِهِ ، وَاسْتَعْنَى عَنْ رَبِّهِ ﷻ ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ أَي : بِالْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ فَسَيُسِيرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ أَي : لَطَرِيقِ الشَّرِّ . عَنْ عَلِيٍّ ؓ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْعِ الْعَرْقَدِ فِي جِنَازَةٍ فَقَالَ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ » ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَفَلَا تَتَكَلَّمُ ؟ فَقَالَ : « اِعْمَلُوا ، فَكُلُّ مُسِيرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ » ثُمَّ قَرَأَ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ ① وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ② فَسَيُسِيرُهُ لِلْعُسْرَى ③ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لِلْعُسْرَى ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ قِيلَ : إِذَا مَاتَ ، وَقِيلَ : إِذَا تَرَدَّى فِي النَّارِ .

إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى ④ وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ⑤ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ⑥ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ⑦ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑧ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ⑨ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ⑩ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ⑪ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ⑫ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ⑬

قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى ﴾ أَي : نُبَيِّنُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى وَصَلَ إِلَى اللَّهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ أَي : الْجَمِيعُ مِلْكُنَا وَأَنَا الْمُتَصَرِّفُ ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ أَي : تَوَهَّجْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ أَي : لَا يَدْخُلُهَا دُخُولًا يُحِيطُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ إِلَّا الْأَشْقَى ، ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ : ﴿ الَّذِي كَذَّبَ ﴾ أَي : بِقَلْبِهِ ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أَي : عَنِ الْعَمَلِ بِجَوَارِحِهِ وَأَرْكَانِهِ . ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴾ أَي : وَسَيُرْخِزُ عَنْ النَّارِ النَّفْيُ النَّقِيُّ الْأَتْقَى ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ أَي : يَصْرِفُ مَالَهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ ، لِيُزَكِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَمَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ دِينٍ وَدُنْيَا ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ أَي : لَيْسَ بِذَلِكَ مَالُهُ فِي مُكَافَأَةٍ مِنْ أَسَدَى إِلَيْهِ مَعْرُوفًا ، فَهُوَ يُعْطِي فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ ، وَإِنَّا دَدَعُهُ ذَلِكَ ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ أَي : طَمَعًا فِي أَنْ يَحْصُلَ لَهُ رُؤْيُتُهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ . ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ أَي : وَلَسَوْفَ يَرْضَى مَنْ انْتَصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ اللَّيْلِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

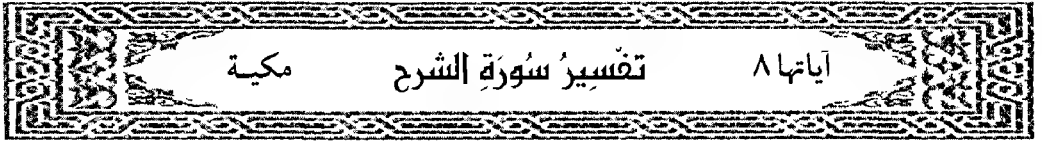
عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ : سَمِعْتُ جُنْدُبًا يَقُولُ : اِشْتَكَى النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ ، فَاتَتْ امْرَأَةً فَقَالَتْ : يَا مُحَمَّدُ ؛ مَا أَرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ قِيلَ : إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةُ هِيَ أُمُّ جَمِيلٍ ، امْرَأَةُ أَبِي هَبٍ . وَهَذَا قَسَمٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالضُّحَىٰ وَمَا جَعَلَ فِيهِ مِنَ الضِّيَاءِ ﴿٤﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٥﴾ أَيُّ : سَكَنَ فَأَظْلَمَ وَادَّهَمَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٦﴾ مَا تَرَكَكَ ﴿٧﴾ وَمَا قَلَىٰ ﴿٨﴾ أَيُّ : وَمَا أَبْغَضَكَ ﴿٩﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿١٠﴾ ، أَيُّ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ هَذِهِ الدَّارِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَعْظَمَهُمْ هَا إِطْرَاحًا ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالصَّرُورَةِ مِنْ سِيرَتِهِ ، وَلَمَّا خَيْرَ النَّاسِ فِي آخِرِ عُمُرِهِ بَيْنَ الْخُلْدِ فِي الدُّنْيَا إِلَى آخِرِهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ ، وَبَيْنَ الصَّرُورَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ اخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّيْنَةَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿١١﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿١٢﴾ أَيُّ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ يُعْطِيهِ حَتَّى يُرْضِيَهُ فِي أُمَّتِهِ ، وَفِيهَا أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ ، وَمِنْ جُمْلَتِهِ نَهْرُ الْكَوْثَرِ الَّذِي حَافَتَاهُ قِبَابُ اللَّوْلُؤِ الْمُجَوِّفِ ، وَطِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يُعَدِّدُ نِعَمَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿١٤﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُ تُوَفَّى وَهُوَ حَمْلٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، وَقِيلَ : بَعْدَ أَنْ وُلِدَ ﷺ ، ثُمَّ تُوفِّتْ أُمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهَبٍ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ سِتُّ سِنِينَ ، ثُمَّ كَانَ فِي كِفَالَةِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَى أَنْ تُوَفِّيَ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَمَانِ سِنِينَ ، فَكَفَلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ وَيُوقِّرُهُ ، وَيَكْفُفُ عَنْهُ أَذَى قَوْمِهِ بَعْدَ أَنْ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ ، هَذَا وَأَبُو طَالِبٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ، إِلَى أَنْ تُوَفِّيَ أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِقَلِيلٍ ، فَأَقْدَمَ عَلَيْهِ سَفَهَاءُ قُرَيْشٍ وَجَهَالُهُمْ ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لَهُ الْهِجْرَةَ مِنْ بَيْنِ

أَظْهَرَهُمْ إِلَى بَلَدِ الْأَنْصَارِ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزَرِ ، كَمَا أَجْرَى اللَّهُ سُتَّهُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَتَمِّ الْأَكْمَلِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ أَوْوَهُ وَنَصْرُوهُ وَحَاطُوهُ وَقَاتَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ﷻ أَجْمَعِينَ ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ حِفْظِ اللَّهِ لَهُ وَكِلَاءَتِهِ وَعِنَايَتِهِ بِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى ﴾ أَي : كُنْتَ فَقِيرًا ذَا عِيَالٍ فَأَغْنَاكَ اللَّهُ عَمَّنْ سِوَاهُ ، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ مَقَامِي الْفَقِيرِ الصَّابِرِ وَالْغَنِيِّ الشَّاكِرِ ﷻ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أَي : كَمَا كُنْتَ يَتِيمًا فَأَوَّاكَ اللَّهُ فَلَا تَقْهَرْ الْيَتِيمَ ، أَي : لَا تُذِلُّهُ وَتَنْهَرُهُ وَتُهِنُّهُ ، وَلَكِنْ أَحْسِنْ إِلَيْهِ ، وَتَلَطَّفْ بِهِ . ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أَي : وَكَمَا كُنْتَ ضَالًّا فَهَدَاكَ اللَّهُ ، فَلَا تَنْهَرْ السَّائِلَ فِي الْعِلْمِ الْمُسْتَرَشِدَ . ﴿ وَأَمَّا بِبِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أَي : وَكَمَا كُنْتَ عَائِلًا فَقِيرًا فَأَغْنَاكَ اللَّهُ ، فَحَدِّثْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الضُّحَى ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ
وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ فَإِذَا فَرَغْتَ
فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۖ

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يَعْنِي : أَمَا شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ ، أَي : نَوْرَانَهُ وَجَعَلْنَاهُ فَيْسِحًا رَحِيًّا وَاسِعًا ، ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ بِمَعْنَى : ﴿ لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] ، ﴿ أَلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الْإِنْقَاضُ : الصَّوْتُ ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أَي : الَّذِي أَثْقَلَكَ حَمْلُهُ ، ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : رَفَعَ اللَّهُ ذِكْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مُتَشَهِّدٌ وَلَا صَاحِبُ صَلَاةٍ إِلَّا يُنَادِي بِهَا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ . قُلْتُ : قَدْ كَانَ قَلِيلُ أَنْبِيَاءَ مِنْهُمْ مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الرِّيحُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْجِي الْمَوْتَى ، قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَأَوَيْتُكَ ؟ قُلْتُ :

بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ أَلَمْ أَجِدَكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَجِدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟ أَلَمْ أَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُوجَدُ الْيُسْرُ ، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الْحَبَرَ . ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ أَيُّ : إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَأَشْغَالِهَا وَقَطَعْتَ عِلَاقَتَهَا ، فَانصَبْ إِلَى الْعِبَادَةِ ، وَقُمْ إِلَيْهَا نَشِيطًا فَارْغِ الْبَالِ ، وَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ النِّيَّةَ وَالرَّغْبَةَ ، ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ : اجْعَلْ نِيَّتَكَ وَرَغْبَتَكَ إِلَى اللَّهِ ﷻ .
آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ أَلَمْ نَشْرَحْ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾
اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ هَهُنَا ، فَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالَّتَيْنِ : مَسْجِدُ دِمَشْقَ ، وَقِيلَ : هِيَ نَفْسُهَا ، وَقِيلَ : الْجَبَلُ الَّذِي عِنْدَهَا ، وَقِيلَ : هُوَ تَيْنُكُمْ هَذَا ، ﴿ وَالزَّيْتُونَ ﴾ قِيلَ : هُوَ مَسْجِدُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَقِيلَ : هُوَ هَذَا الزَّيْتُونُ الَّذِي تَعَصْرُونَ . ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ ، وَلَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ . ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَشَكْلٍ ، مُنْتَصِبِ الْقَامَةِ ، سَوِيِّ الْأَعْضَاءِ حَسَنَهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أَيُّ : إِلَى النَّارِ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْحُسْنِ وَالنُّصَارَةِ مَصِيرُهُ إِلَى النَّارِ إِنْ لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ وَيَتَّبِعِ الرُّسُلَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أَيُّ : غَيْرُ مَقْطُوعٍ . ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ أَيُّ : يَا ابْنَ آدَمَ ﴿ بَعْدَ بِالذِّينِ ﴾ أَيُّ : بِالْجَرَءِ فِي الْمَعَادِ وَقَدْ عَلِمْتَ الْبُدَاءَ ، وَعَرَفْتَ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءِ ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الرَّجْعَةِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى ، فَأَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالْمَعَادِ وَقَدْ عَرَفْتَ هَذَا ؟ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ أَيُّ : أَمَا هُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا ؟ ، وَمِنْ عَدْلِهِ أَنْ يُقِيمَ الْقِيَامَةَ فَيُنْصِفَ الْمَظْلُومَ فِي الدُّنْيَا مِمَّنْ ظَلَمَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ «الَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ» ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

وهي أول شيء نزل من القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءَ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ وَيَتَزَوَّدُ لَذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى فَجَاءَهُ الْوَحْيُ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأْ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ » . قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اقْرَأْ . فَقُلْتُ : « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » ، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ . فَقُلْتُ : « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » ، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » حَتَّى بَلَغَ « مَا لَمْ يَعْلَمْ » قَالَ : فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ ، فَقَالَ : « زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي » فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ . فَقَالَ : « يَا خَدِيجَةُ ؛ مَا لِي ؟ » فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ وَقَالَ : « قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » فَقَالَتْ لَهُ : كَلَّا ، أَبَشِّرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْرِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَتَّصِلَ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقَ الْحَدِيثَ ، وَتَحْمِلَ الْكَلَّ ، وَتَقْرِيَ الضَّيْفَ ، وَتُعِينَ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ - وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا - وَكَانَ إِمْرًا قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ ، وَكَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : أَيُّ ابْنِ عَمٍّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ ، فَقَالَ وَرَقَةُ : ابْنُ أَخِي مَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا رَأَى ، فَقَالَ وَرَقَةُ : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَوْخَرَجِي هُمْ ؟ » فَقَالَ وَرَقَةُ : نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي ، وَإِنْ يَدْرِكْنِي يَوْمًا أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا . ثُمَّ لَمْ يَنْسَبْ وَرَقَةَ أَنْ تُؤَيَّ ، وَفَرَّ الْوَحْيُ فِتْرَةً حَتَّى حَزَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فِيمَا بَلَعْنَا - حُزْنًا عَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَثِيرًا

يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ سَوَاهِقِ الْجِبَالِ ، فَكَلَّمَا أَوْفَى بِذُرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِي نَفْسَهُ مِنْهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا ، فَيَسْكُنُ بِذَلِكَ جَأْشُهُ وَتَقَرُّ نَفْسُهُ ، فَيَرْجِعُ فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فِتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَوْفَى بِذُرْوَةِ الْجَبَلِ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ .
فَأَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ الْمُبَارَكَاتُ وَهِيَ أَوَّلُ رَحْمَةٍ رَحِمَ اللَّهُ بِهَا الْعِبَادَ ، وَأَوَّلُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِمْ ، وَفِيهَا التَّنْبِيهُ عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ عَلَقَةٍ ، وَأَنَّ مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى أَنْ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ، فَشَرَّفَهُ وَكَرَّمَهُ بِالْعِلْمِ ، وَهُوَ الْقَدْرُ الَّذِي إِمْتَارَ بِهِ أَبُو الْبَرِّيَّةِ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَالْعِلْمُ تَارَةٌ يَكُونُ فِي الْأَذْهَانِ ، وَتَارَةٌ يَكُونُ فِي اللِّسَانِ ، وَتَارَةٌ يَكُونُ فِي الْكِتَابَةِ بِالْبَنَانِ ، ذِهْنِي وَلَفْظِي وَرَسْمِي . وَالرَّسْمِيُّ يَسْتَلْزِمُهَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ 》 .

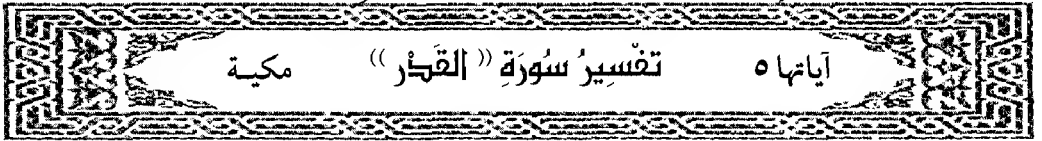
كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۝ ١ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَى ۝ ٢ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْحَبَىٰ ۝ ٣ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ ٤ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝ ٥ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ أَهْدَىٰ ۝ ٦ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝ ٧ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ٨ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝ ٩ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ ١٠ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝ ١١ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝ ١٢ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝ ١٣ كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝ ١٤

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ ذُو فَرْحٍ وَأَشْرٍ وَبَطَرٍ وَطُغْيَانٍ ، إِذَا رَأَى نَفْسَهُ قَدْ اسْتَعْجَى وَكَثُرَ مَالُهُ ثُمَّ تَهَدَّدَهُ وَتَوَعَّدَهُ وَوَعَّظَهُ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْحَبَىٰ ۝ أَيُّ : إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرِ وَالْمَرْجِعِ ، وَسَيَحَاسِبُكَ عَلَى مَا لَكَ مِنْ أَيْنَ جَمَعْتَهُ وَفِيمَ صَرَفْتَهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۝ نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ - لَعَنَهُ اللَّهُ - تَوَعَّدَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الصَّلَاةِ عِنْدَ الْبَيْتِ فَوَعَّظَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَوَّلًا ، فَقَالَ : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى أَهْدَى ۝ أَيُّ : فَمَا ظَنُّكَ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي تَنْهَاهُ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ فِي فِعْلِهِ ، ۝ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۝ بِقَوْلِهِ ، وَأَنْتَ تَرْجُرُهُ وَتَتَوَعَّدُهُ عَلَى صَلَاتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ۝ أَيُّ : أَمَا عَلِمَ هَذَا النَّاهِي لِهَذَا الْمُتَهَدِّدِ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ وَسَيَجَازِيهِ عَلَى فِعْلِهِ أَتَمَّ الْجَزَاءِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعَّدًا وَمُتَهَدِّدًا ۝ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ۝ أَيُّ : لَئِنْ لَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الشَّقَاقِ وَالْعِنَادِ ۝ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ أَيُّ : لَنَسِمَنَّهَا سَوَادًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ۝ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝ يَعْنِي : نَاصِيَةُ أَبِي جَهْلٍ كَاذِبَةٌ فِي مَقَالِهَا ، خَاطِئَةٌ فِي أَفْعَالِهَا ۝ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝ أَيُّ : قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ ، أَيُّ : لِيَدْعُهُمْ يَسْتَنْصِرُ بِهِمْ ، ۝ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝ ، وَهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ يَغْلِبُ :

أَحْزَبْنَا أَوْ حَزَبُهُ ؟. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّيَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَأَطَّأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : « لَئِنْ فَعَلَهُ لَأَخَذْتُهُ بِالْمَلَائِكَةِ » .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « كَلَّا لَا تُطْعُهُ » يَعْنِي : يَا مُحَمَّدُ لَا تُطْعُهُ فِيمَا يَنْهَاكَ عَنْهُ مِنَ الْمَدَاوِمَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَكَثَرَتِهَا ، وَصَلَّ حَيْثُ شِئْتَ وَلَا تَبَالِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ ، وَهُوَ يَعِصُمُكَ مِنَ النَّاسِ « وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ » .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « اقْرَأْ » ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾
يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ ﷻ « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » [الدخان : ٣] ، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، وَهِيَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » [البقرة : ١٨٥] قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ نَزَلَ مُفَصَّلًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعْظَمًا لِسَائِلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، الَّتِي اخْتَصَّهَا بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهَا ، فَقَالَ : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿١﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » . أَيُّ : أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ شَهْرٍ - لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ - .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » أَيُّ : يَكْثُرُ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِكَثْرَةِ بَرَكَتِهَا ، وَالْمَلَائِكَةُ يَنْزِلُونَ مَعَ تَنْزِيلِ الْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ ، كَمَا يَنْتَزِلُونَ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَيُحِيطُونَ بِحَلَقِ الذِّكْرِ ، وَيَصْعُقُونَ أَجْنَحَتَهُمْ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِصَدَقِ تَعْظِيمِ لَهُ ، وَأَمَّا الرُّوحُ فَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا : جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . « مِنْ كُلِّ أَمْرٍ » قِيلَ : سَلَامٌ هِيَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ، « سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » عَنْ الشَّعْبِيِّ فِي قَوْلِهِ : « مِنْ كُلِّ أَمْرٍ » سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ قَالَ : تُسَلِّمُ الْمَلَائِكَةُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ عَلَى أَهْلِ الْمَسَاجِدِ ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ . وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ : « سَلَامٌ هِيَ » يَعْنِي : هِيَ خَيْرٌ كُلِّهَا ، لَيْسَ فِيهَا شَرٌّ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَدْرِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَنْي كَعْبٍ : «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ» لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ «قَالَ : وَسَمَانِي لَكَ ؟ قَالَ : «نَعَمْ» فَبَكَى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾

أَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ فَهُمْ : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، وَالْمُشْرِكُونَ : عَبْدَةُ الْأَوْثَانِ وَالنِّيرَانِ مِنَ الْعَرَبِ
وَمِنَ الْعَجَمِ ، لَمْ يَكُونُوا «مُنْفَكِينَ» يَعْنِي : مُتَّهَيْنَ حَتَّى يَتَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ»
أَي : هَذَا الْقُرْآنُ ، ثُمَّ فَسَّرَ الْبَيِّنَةُ بِقَوْلِهِ : «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً» يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ،
وَمَا يَتْلُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ مُكْتَتَبٌ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى فِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ ، «فِيهَا كُتِبَ
قِيَمَةٌ» قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَي : فِي الصُّحُفِ الْمُطَهَّرَةِ كُتِبَ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ قِيَمَةٌ ، عَادِلَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ ،
لَيْسَ فِيهَا خَطَأٌ ؛ لِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : «وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ» ، كَقَوْلِهِ : «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ»
وَأُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران : ١٠٥] يَعْنِي : بِذَلِكَ أَهْلُ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَنَا ،
بَعْدَ مَا أَقَامَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فِي الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ كُتُبِهِمْ ،
وَاخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» ، كَقَوْلِهِ : «وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» [الأنبياء : ٢٥] ، وَلِهَذَا قَالَ :
«حُنَفَاءَ» أَي : مُتَحَنِّفِينَ عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ ، كَقَوْلِهِ : «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا
أَبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ» [النحل : ٣٦] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ الْحَنِيفِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ،
بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا «وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ» ، وَهِيَ أَشْرَفُ عِبَادَاتِ الْبَدَنِ «وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ» ،
وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِجِ «وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ» أَي : الْمِلَّةُ الْقَائِمَةُ الْعَادِلَةُ ، أَوْ
الْأُمَّةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُعْتَدِلَةُ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٢﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَالِ الْفُجَّارِ ، مِنَ كَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَالْمُشْرِكِينَ الْمُخَالِفِينَ لِكُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ وَأَنْبِيَاءِ اللَّهِ الْمُرْسَلَةِ ؛ أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيُّ : مَا كَثُرْنَ لَا يُحَوَّلُونَ عَنْهَا وَلَا يُزُولُونَ . ﴿ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أَيُّ : شَرُّ الْخَلِيقَةِ الَّتِي بَرَّأَهَا اللَّهُ وَذَرَّأَهَا . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِقُلُوبِهِمْ ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَبْدَانِهِمْ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ . ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيُّ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أَيُّ : بِلا انفصالٍ وَلَا انْقِصَاءٍ وَلَا فَرَاغٍ ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ وَمَقَامُ رِضَاهُ عَنْهُمْ أَعْلَى مِمَّا أُوتُوهُ مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فِيمَا مَنَحَهُمْ مِنَ الْفَضْلِ الْعَمِيمِ . ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أَيُّ : هَذَا الْجَزَاءُ حَاصِلٌ لِمَنْ خَشِيَ اللَّهَ وَاتَّقَاهُ حَقَّ تَقْوَاهُ ، وَعَبَدَهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ «لَمْ يَكُنْ» ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

آياتها ٨

تفسير سورة الزلزلة

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أَيُّ : تَحَرَّكَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يَعْنِي : أَلْقَتْ مَا فِيهَا مِنَ الْمَوْتَى . ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ﴾ أَيُّ : اسْتَنْكَرَ أَمْرَهَا بَعْدَ مَا كَانَتْ قَارَةً سَاكِنةً ثَابِتَةً ، وَهُوَ مُسْتَقَرٌّ عَلَى ظَهَرِهَا ، أَيُّ : تَقَلَّبَتِ الْحَالُ ، فَصَارَتْ مُتَحَرِّكَةً مُضْطَرِبَةً ، قَدْ جَاءَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى مَا قَدْ أَعَدَّهُ لَهَا مِنَ الزَّلْزَالِ الَّذِي لَا خَيْدَ لَهَا عَنْهُ ، ثُمَّ أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَحِينَئِذٍ اسْتَنْكَرَ النَّاسُ أَمْرَهَا ، وَتَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ

وَالسَّمَاوَاتِ ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . ﴿يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أَيُّ : تُخَدِّثُ بِمَا عَمِلَ الْعَامِلُونَ عَلَى ظَهْرِهَا . ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أَيُّ : أَوْحَىٰ إِلَيْهَا ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مُضَمَّنٌ أَذِنَ لَهَا . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قَالَ : قَالَ لَهَا رَبُّهَا : قُولِي ، فَقَالَتْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أَيُّ : أَمَرَهَا ، وَقَوْلُهُ : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّ النَّاسُ أُمَّتًا﴾ أَيُّ : يَرْجِعُونَ عَنْ مَوْفِقِ الْحِسَابِ ﴿أُمَّتًا﴾ أَيُّ : أَنْوَاعًا وَأَصْنَافًا ، مَا بَيْنَ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ ، مَأْمُورٌ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَأْمُورٌ بِهِ إِلَى النَّارِ ، ﴿لَيَرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ أَيُّ : لَيَعْمَلُوا وَيُجَازُوا بِمَا عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ١٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ «إِذَا زُلْزِلَتْ» وَاللهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



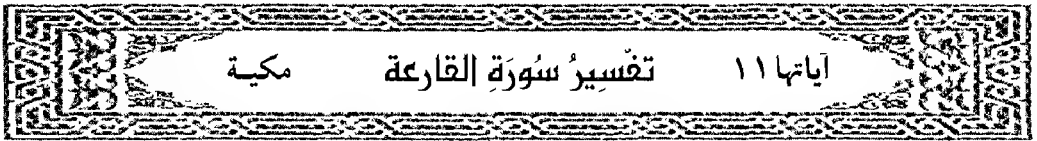
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ١ فَاَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا ٢ فَالْمَغِيرَاتِ صُبْحًا ٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ٤
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ٥ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧ وَإِنَّهُ
لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ١٠
إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ١١

يُقْسِمُ تَعَالَىٰ بِالْحَيْلِ إِذَا أُجْرِيَتْ فِي سَبِيلِهِ فَعَدَتْ وَصَبَحَتْ ، وَهُوَ : الصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ مِنَ الْفَرَسِ حِينَ تَعْدُو ﴿فَاَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾ يَعْنِي : إِصْطِكَاكُ نِعَالِهَا لِلصَّخْرِ فَتَقْدَحُ مِنْهُ النَّارُ ﴿فَالْمَغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ يَعْنِي : الْإِغَارَةُ وَقْتُ الصَّبَاحِ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُغِيرُ صَبَاحًا ، وَيَتَسَمَّعُ أَذَانًا فَإِنْ سَمِعَ وَإِلَّا أَغَارَ . ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ يَعْنِي : غُبَارًا فِي مَكَانٍ مُعْتَرِكٍ الْخَيُْولِ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أَيُّ : تَوَسَّطْنَ ذَٰلِكَ الْمَكَانَ كُلُّهُنَّ جَمْعٌ ، ﴿فَالْمَغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ يَعْنِي : إِغَارَةُ الْخَيْلِ صُبْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي إِذَا حَلَّتْ فِيهِ أَثَارَتِ بِهِ الْغُبَارُ ، إِمَّا فِي حَجٍّ أَوْ غَزْوٍ . ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ يَعْنِي : جَمْعُ الْكُفَّارِ مِنَ الْعُدُوِّ ، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ، بِمَعْنَى : أَنَّهُ بِنِعْمِ رَبِّهِ لَجُحُودٌ كَفُورٌ ، ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى الْإِنْسَانِ ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُهُ : وَإِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ كَوْنِهِ كَنُودًا لَشَهِيدٌ ، أَيُّ : بِلِسَانِ حَالِهِ ، أَيُّ : ظَاهِرُ ذَٰلِكَ عَلَيْهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿وَإِنَّهُ

لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿١﴾ أَيُّ : وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ - وَهُوَ الْمَالُ - لَشَدِيدٌ ، وَفِيهِ مَذْهَبَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمَعْنَى وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الْمَحَبَّةِ لِلْمَالِ ، وَالثَّانِي : وَإِنَّهُ لَحَرِيصٌ بِخَيْلٍ مِنْ مَحَبَّةِ الْمَالِ ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ . ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُزْهِدًا فِي الدُّنْيَا ، وَمُرْعَبًا فِي الْآخِرَةِ ، وَمُنْبَهًا عَلَى مَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَ هَذِهِ الْحَالِ ، وَمَا يَسْتَقْبِلُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَهْوَالِ ﴿٢﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٣﴾ أَيُّ : أُخْرِجَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ ﴿٤﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿٥﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَغَيْرُهُ : يَعْنِي : أُبْرِزَ وَأُظْهِرَ مَا كَانُوا يُسِرُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَيُّ : لَعَالَمٌ بِجَمِيعِ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَيَعْمَلُونَ ، وَجُجَارِيهِمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجُزْءِ ، وَلَا يَطْلُمُ مِنْقَالُ ذَرَّةٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَادِيَّاتِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

﴿الْقَارِعَةُ﴾ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَالْخَافَةِ ، وَالطَّامَةِ ، وَالصَّاحَةِ ، وَالْعَاشِيَةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعْظِّمًا وَمُهَوِّلًا لِمَا فِيهَا ﴿١﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ ، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أَيُّ : فِي انْتِشَارِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ ، وَذَهَابِهِمْ وَمَحِيَّتِهِمْ ، مِنْ حِرَّتِهِمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، كَأَنَّهُمْ فَرَاشٌ مَبْثُوثٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧] وَقَوْلُهُ : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ يَعْنِي : قَدْ صَارَتْ كَأَنَّهَا الصُّوفُ الْمَنْفُوشُ الَّذِي قَدْ شَرَعَ فِي الدَّهَابِ وَالتَّمَرِّقِ ، ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أَيُّ : رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ يَعْنِي : فِي الْجَنَّةِ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أَيُّ : رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ فَهُوَ سَاقِطٌ هَاوٍ بِأَمِّ رَأْسِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِأُمِّهِ ، يَعْنِي : دِمَاغُهُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : يَهْوِي فِي النَّارِ عَلَى رَأْسِهِ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ ﴿فَأُمُّهُ﴾ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَصِيرُ فِي الْمَعَادِ إِلَيْهَا ﴿هَاوِيَةٌ﴾ وَهِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَإِنَّمَا قِيلَ لِلَهَاوِيَةِ

أُمُّهُ لِأَنَّهُ لَا مَأْوَى لَهُ غَيْرُهَا. ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ أَي : حَارَّةٌ شَدِيدَةُ الْحَرِّ ، قُوَّةُ اللَّهَبِ وَالسَّعِيرِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَارِعَةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٨

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّكْوِيْنِ

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَشْغَلَكُمُ حُبُّ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا وَزَهْرَتُهَا عَنْ طَلَبِ الْآخِرَةِ وَابْتِغَائِهَا ، وَتَمَادَى بِكُمْ ذَلِكَ حَتَّى جَاءَكُمُ الْمَوْتُ وَزُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، وَصِرْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا .

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ . عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يَعْنِي : «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ» . ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أَي : صِرْتُمْ إِلَيْهَا وَدُفِنْتُمْ فِيهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : هَذَا وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي : الْكُفَّارُ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي : أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أَي : لَوْ عَلِمْتُمْ حَقَّ الْعِلْمِ لَمَا أَهْلَاكُمُ التَّكَاثُرُ عَنْ طَلَبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ حَتَّى صِرْتُمْ إِلَى الْمَقَابِرِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿هَذَا تَفْسِيرُ الْوَعِيدِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿تَوَعَّدَهُمْ بِهَذَا الْحَالِ ، وَهُوَ رُؤْيَا أَهْلِ النَّارِ الَّتِي إِذَا زَفَرَتْ زَفْرَةً وَاحِدَةً خَرَّ كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ، وَنَبِيٍّ مُرْسَلٍ عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، مِنَ الْمَهَابَةِ وَالْعَظَمَةِ وَمُعَايَنَةِ الْأَهْوَالِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الْأَنْثَرُ الْمَرْوِيُّ فِي ذَلِكَ . ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أَي : ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الصَّحَّةِ وَالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا إِذَا قَابَلْتُمْ بِهِ نِعْمَةً مِنْ شُكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : حَتَّى عَنْ شَرِبَةِ عَسَلٍ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : عَنْ كُلِّ لَذَّةٍ مِنَ لَذَاتِ الدُّنْيَا .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّكْوِيْنِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

آياتها ٣ تفسير سورة العصر مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝

العصر : الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر . فاقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر ، أي : في خسارة وهلاك ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران ، الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ ، وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ على المصائب والأقدار ، وأدى من يؤذى بمن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

آخر تفسير سورة العصر ، والله الحمد والمِنَّة

آياتها ٩ تفسير سورة الهمزة مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

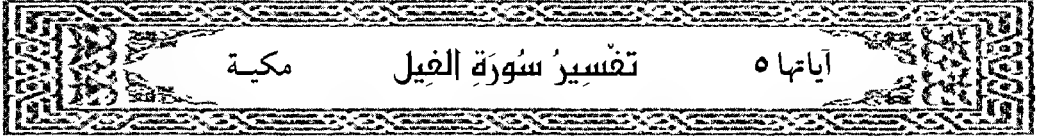
وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقِدَةُ ۝ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعِدَةِ ۝ إِنهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝

الهمز : بالقول ، واللمز : بالفعل ، يعني : يزدرى بالناس ويتقصص بهم ، وقيل : ﴿ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ طعان مغياب . وقال قتادة : همزه ولمزه بلسانه وعينه ، ويأكل لحوم الناس ويطنعن عليهم . ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ أي : جمعه بعضه على بعض ، وأحصى عدده .

وقوله : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أي : يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار ﴿ كَلَّا ﴾ أي : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ أي : ليلقين هذا الذي جمع مالا فعده في الحطمة ، وهي اسم من أسماء النار صفة ؛ لأنها تحطم من فيها ؛ ولهذا

قَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَطْمَةُ﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِدَةِ﴾ قَالَ ثَابِتُ الْبُنَانِيُّ: تُحْرِقُهُمْ إِلَى الْأَفْقِدَةِ وَهُمْ أَحْيَاءُ، ثُمَّ يَقُولُ: لَقَدْ بَلَغَ مِنْهُمْ الْعَذَابَ، ثُمَّ يَبْكِي. ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ﴾ أَيُّ: مُطْبَقَةٌ. ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ يَعْنِي: الْأَبْوَابُ هِيَ الْمَمْدُودَةُ، وَقِيلَ: إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ بِعَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ، وَقِيلَ: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ يَعْنِي: الْقُبُودُ الطَّوَالَ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ» وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ لِّجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

هَذِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي ائْتَمَنَ اللَّهُ بِهَا عَلَى قُرَيْشٍ، فِيمَا صَرَفَ عَنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى هَدْمِ الْكَعْبَةِ وَمَحْوِ أَثَرِهَا مِنَ الْوُجُودِ، فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ، وَأَرْغَمَ آثَافُهُمْ، وَخَيَّبَ سَعْيَهُمْ، وَأَضَلَّ عَمَلَهُمْ، وَرَدَّهُمْ بِشَرِّ حَبِيَّةٍ، وَكَانُوا قَوْمًا نَّصَارَى، وَكَانَ دِينُهُمْ إِذْ ذَاكَ أَقْرَبَ حَالًا يَمَّا كَانَ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَلَكِنْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِرْهَاصِ وَالتَّوْطِئَةِ لِيَبْعَثَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ وُلِدَ عَلَى أَشْهَرِ الْأَقْوَالِ، وَلِسَانِ حَالِ الْقُدْرَةِ يَقُولُ: لَمْ نَنْصُرْكُمْ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ عَلَى الْحَبَشَةِ لِحَزْبَتِكُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ صِيَانَةٌ لِلنَّبِيِّ الْعَتِيقِ، الَّذِي سَنَشْرَفُهُ وَنُعَظِّمُهُ وَنُوقِرُهُ بِبِعْثَةِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ.

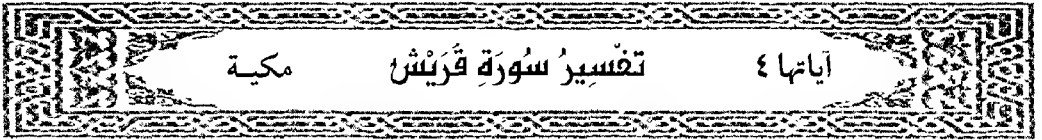
قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الْأَبَابِيلُ: الْجَمَاعَاتُ، وَأَمَّا السِّجِّيلُ: الشَّدِيدُ الصُّلْبُ، وَقِيلَ: أَبَابِيلُ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَقِيلَ: الْأَبَابِيلُ: الْكَثِيرَةُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَبَابِيلُ: شَتَّى مُتَتَابِعَةٌ مُجْتَمِعَةٌ، وَقِيلَ: الْأَبَابِيلُ: الْمُخْتَلِفَةُ، تَأْتِي مِنْ هَهُنَا وَمِنْ هَهُنَا، أَتَتْهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قَالَ: لَهَا خَرَاطِيمٌ كَخَرَاطِيمِ الطَّيْرِ، وَأَكْفُ كَأَكْفُ الْكِلَابِ.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ طِينٍ فِي حِجَارَةٍ، وَقَدْ قَدَّمْنَا بَيَانَ ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي: التَّبَنُّ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ: هَبُورٌ، وَالْمَأْكُولُ: الْقَصِيلُ يُجَرُّ لِلدَّوَابِّ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ وَرَدَّهُمْ بِكَيْدِهِمْ وَعَظِيمِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَأَهْلَكَ عَامَتَهُمْ وَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ نُحْبَرٌ إِلَّا

وَهُوَ جَرِيحٌ ، كَمَا جَرَى لِّلْكَهْمِ أَبْرَهَةٌ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ :
 « إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنِ مَكَّةَ الْفِيلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّهُ قَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ
 كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، أَلَا فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ » .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفِيلِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



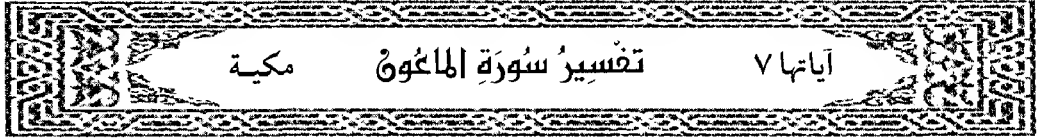
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ① إِِلَّا لِفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③
 الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ④

هَذِهِ السُّورَةُ مَفْصُولَةٌ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ ، كَتَبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرٌ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ
 الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وَإِنْ كَانَتْ مُتَعَلِّقَةً بِمَا قَبْلَهَا ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى عِنْدَهُمَا : حَبَسْنَا عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ
 وَأَهْلَكْنَا أَهْلَهُ ﴿ لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ﴾ أَيِ : لِإِتِّلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي بَلَدِهِمْ آمِنِينَ .
 وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَأْلِفُونَهُ مِنَ الرِّحْلَةِ فِي الشِّتَاءِ إِلَى الْيَمَنِ ، وَفِي الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ فِي
 الْمَتَاجِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى بَلَدِهِمْ آمِنِينَ فِي أَسْفَارِهِمْ ، لِعِظَمَتِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ ،
 لِكُونِهِمْ سُكَّانُ حَرَمِ اللَّهِ ، فَمَنْ عَرَفَهُمْ احْتَرَمَهُمْ ، بَلْ مَنْ صُوفِي إِلَيْهِمْ وَسَارَ مَعَهُمْ أَمِنَ بِهِمْ ،
 هَذَا حَالُهُمْ فِي أَسْفَارِهِمْ وَرِحْلَتِهِمْ فِي شِتَائِهِمْ وَصَيْفِهِمْ ، وَأَمَّا فِي حَالِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْبَلَدِ فَكَمَا
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] ،
 وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ① إِِلَّا لِفِهِمْ ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلِ وَمُفَسِّرٌ لَهُ ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى :
 ﴿ إِِلَّا لِفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② ﴾ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الصَّوَابُ أَنَّ اللَّامَ لَامُ التَّعَجُّبِ ، كَأَنَّهُ
 يَقُولُ : اعْجَبُوا لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ وَنِعْمَتِي عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ . قَالَ : وَذَلِكَ لِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّهَا
 سُورَتَانِ مُنْفَصِلَتَانِ مُسْتَقِلَّتَانِ . ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى شُكْرِ هَذِهِ النُّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ فَقَالَ : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا
 رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ أَيِ : فليُوحِّدُوهُ بِالْعِبَادَةِ ، كَمَا جَعَلَ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا وَبَيْتًا مُحَرَّمًا ④ الَّذِي
 أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴾ أَيِ : هُوَ رَبُّ الْبَيْتِ ، وَهُوَ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴿ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾
 أَيِ : تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِالْأَمْنِ وَالرُّخْصِ ، فَلْيُفَرِّدُوهُ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا يَعْبُدُوا مِنْ
 دُونِهِ صَنَمًا وَلَا نِدًّا وَلَا وَثَنًا ؛ وَهَذَا مِنْ اسْتِجَابِ لِهَذَا الْأَمْرِ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

الْآخِرَةَ ، وَمَنْ عَصَاهُ سَلَبَهَا مِنْهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ)) ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا تَحْضُ عَلَى
طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ
يَرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ - يَا مُحَمَّدُ - ﴿ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴾ وَهُوَ الْمَعَاذُ وَالْجَزَاءُ
وَالثَّوَابُ ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ أَيُّ : هُوَ الَّذِي يَقْهَرُ الْيَتِيمَ وَيَظْلِمُهُ حَقَّهُ ، وَلَا يُطْعِمُهُ
وَلَا يُحْسِنُ إِلَيْهِ ﴿ وَلَا تَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾
وَلَا تَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿ [الفجر : ١٧ - ١٨] يَعْنِي : الْفَقِيرُ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ يَقُومُ
بِأَوْدِهِ وَكِفَايَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿ قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : يَعْنِي : الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي الْعِلَاقَةِ وَلَا يُصَلُّونَ فِي السِّرِّ ؛
وَهَذَا قَالَ : ﴿ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ أَيُّ : الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ وَقَدْ اِتَّزَمُوا بِهَا ، ثُمَّ هُمْ عَنْهَا
سَاهُونَ ، إِمَّا عَنْ فِعْلِهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، وَإِمَّا عَنْ فِعْلِهَا فِي الْوَقْتِ الْمَقْدَرِ لَهَا شَرْعًا ، فَيُخْرِجُهَا عَنْ
وَقْتِهَا بِالْكُلِّيَّةِ . وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ : ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ
فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .

وَإِمَّا عَنْ وَقْتِهَا الْأَوَّلِ فَيُؤَخِّرُونَهَا إِلَى آخِرِهِ دَائِمًا أَوْ غَالِبًا ، وَإِمَّا عَنْ أَدَائِهَا بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا
عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ . وَإِمَّا عَنْ الْخُشُوعِ فِيهَا وَالتَّذَبُّرِ لِمَعَانِيهَا ، فَالْلَفْظُ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ ، لِكُلِّ
مَنْ اتَّصَفَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قِسْطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ . وَمَنْ اتَّصَفَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ فَقَدْ تَمَّ نَصِيْبُهُ مِنْهَا ،
وَكَمُلَ لَهُ النَّفَاقُ الْعَمَلِيُّ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ،
تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ
الشَّيْطَانِ ، قَامَ فَتَفَرَّ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا » .

فَهَذَا آخِرُ صَلَاةِ الْعَصْرِ الَّتِي هِيَ الْوُسْطَى ، كَمَا ثَبَتَ بِهِ النَّصُّ إِلَى آخِرِ وَقْتِهَا ، وَهُوَ وَقْتُ كَرَاهِيَةٍ ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا فَتَقَرَّهَا تَقَرُّ الْغُرَابِ ، لَمْ يَطْمِئِنَّ وَلَا خَشَعَ فِيهَا أَيُّضًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : « لَا يَذْكُرُ اللَّهُ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا » وَلَعَلَّهُ إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى الْقِيَامِ إِلَيْهَا مُرَاءَاةَ النَّاسِ ، لَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، فَهُوَ كَمَا إِذَا لَمْ يُصَلِّ بِالْكُلِّيَّةِ ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ ﴾ وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ ﴾ أَنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لِلَّهِ فَاطْلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَأَعَجَبَهُ ذَلِكَ أَنَّ هَذَا لَا يُعَدُّ رِيَاءً . ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ أَيُّ : لَا أَحْسَنُوا عِبَادَةَ رَبِّهِمْ ، وَلَا أَحْسَنُوا إِلَى خَلْقِهِ حَتَّى وَلَا بِإِعَارَةٍ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ وَيُسْتَعَانُ بِهِ ، مَعَ بَقَاءِ عَيْنِهِ وَرُجُوعِهِ إِلَيْهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ لِمَنْعِ الزَّكَاةِ وَأَنْوَاعِ الْقُرْبَاتِ أُولَى وَأُولَى . أَمَّا الْمَاعُونَ فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ : الزَّكَاةُ . وَقِيلَ : هُوَ مَا يَتَعَاوَرُهُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفَأْسِ وَالْقَدْرِ . وَقِيلَ : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ يَعْنِي : مَتَاعَ الْبَيْتِ . فَإِنَّهُ يَشْمَلُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا ، تَرْجِعُ كُلُّهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ هُوَ تَرْكُ الْمَاعُونَةِ بِإِلَالٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ » .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمَاعُونِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

قَدْ وَرَدَ فِي صِفَةِ الْخَوْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ ، وَأَنَّ عَلَيْهِ آيَةٌ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَطْهَرِنَا فِي الْمَسْجِدِ إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا ، قُلْنَا : مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةً سُورَةٌ » فَقَرَأَ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ » ، ثُمَّ قَالَ : « أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ » ؟ قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « فَإِنَّ نَهْرَ وَعَدِنِيهِ رَبِّي ﷻ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، وَهُوَ خَوْضٌ تَرْدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ ، فَيَخْتَلِجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ ، فَأَقُولُ : رَبِّ ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي ، فَيَقُولُ : إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَا أَحَدَثَ بَعْدَكَ » . فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ . وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أُعْطِيتُ الْكَوْثَرَ ، فَإِذَا هُوَ نَهْرٌ يَجْرِي ، وَلَمْ يُشَقَّ شَقًّا ، وَإِذَا حَافَتَاهُ قِيَابُ اللَّوْثِ ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي فِي تُرْبَتِهِ ،

فَإِذَا مِسْكَةٌ ذَفِرَةٌ وَإِذَا حَصْبَاؤُهُ اللَّوْلُؤُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَخَرُ ﴾ أَي : كَمَا أَعْطَيْنَاكَ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ النَّهْرُ الَّذِي تَقْدَمُ صِفَتُهُ ، فَأَخْلَصَ لِرَبِّكَ صَلَاتَكَ الْمَكْتُوبَةَ وَالنَّافِلَةَ وَنَحَرَكَ ، فَأَعْبَدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَحَرَ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ؛ وَهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي يَوْمَ الْعِيدِ ثُمَّ يَنْحَرُ نُسُكَهُ وَيَقُولُ : « مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَنُسُكَنَا نُسُكَنَا ، فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ ، وَمَنْ نُسِكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلَا نُسُكَ لَهُ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ أَي : إِنَّ مُبْغِضَكَ - يَا مُحَمَّدُ - وَمُبْغِضُ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ وَالنُّورِ الْمُبِينِ ، هُوَ الْأَبْتَرُ الْأَقْلُ الْأَذَلُّ الْمُنْقَطِعُ ذِكْرُهُ . فَلَا يَبْتَرُ الَّذِي إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ ، فَتَوَهَّمُوا لِجَهْلِهِمْ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ بَنُوهُ يَنْقَطِعُ ذِكْرُهُ ، وَحَاشَا وَكَلَّا ، بَلْ قَدْ أَبْقَى اللَّهُ ذِكْرَهُ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَأَوْجَبَ شَرْعَهُ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ ، مُسْتَمِرًّا عَلَى دَوَامِ الْأَبَدِ ، إِلَى يَوْمِ الْمَحْشَرِ وَالْمَعَادِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ .
آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْكَافِرُونَ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ بِهِذِهِ السُّورَةَ وَبِـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فِي رَكْعَتَيِ الطَّوَافِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ بِهَا فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ . وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ وَالرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً أَوْ بِضْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً ﴿ قُلْ يَتَّيْبُ الْكَافِرُونَ ﴾ وَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتَّيْبُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

هَذِهِ السُّورَةُ سُورَةُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ الْمُشْرِكُونَ ، وَهِيَ أَمْرَةٌ بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ . فَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ يَتَّيْبُ الْكَافِرُونَ ﴾ يَشْمَلُ كُلَّ كَافِرٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ الْمَوَاجِهُونَ بِهَذَا الْخِطَابِ هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ . وَقِيلَ : إِنَّهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ دَعَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى عِبَادَةِ أَوْثَانِهِمْ سَنَةً وَيَعْبُدُونَ مَعْبُودَهُ سَنَةً ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ وَأَمَرَ رَسُولُهُ ﷺ فِيهَا أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ دِينِهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَقَالَ : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾

وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . فَ « مَا » هَهُنَا بِمَعْنَى « مَنْ » .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا أَتَا عَابِدٌ مَا عَبْدَنِي ۝ وَلَا أَتَمَّ عَبْدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ أَيُّ : وَلَا أَعْبُدُ عِبَادَتَكُمْ ، أَيُّ : لَا أَسْلُكُهَا وَلَا أَقْتَدِي بِهَا ، وَإِنَّمَا أَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا أَتَمَّ عَبْدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ أَيُّ : لَا تَقْتَدُونَ بِأَوَامِرِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ فِي عِبَادَتِهِ ، بَلْ قَدْ اخْتَرَعْتُمْ شَيْئًا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّ الْعَابِدَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَعْبُودٍ يَعْبُدُهُ ، وَعِبَادَةٌ يَسْلُكُهَا إِلَيْهِ ، فَالرَّسُولُ ﷺ وَاتَّبَاعُهُ يَعْبُدُونَ اللَّهَ بِمَا شَرَعَهُ ، وَهَذَا كَانَ كَلِمَةُ الْإِسْلَام « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » أَيُّ : لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا طَرِيقَ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ، وَالْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ عِبَادَةً لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللَّهُ ؛ وَهَذَا قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾ ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : يُقَالُ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الْكُفْرُ ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ الْإِسْلَامُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .



عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ ؛ قَالَ : قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ : يَا ابْنَ عُتْبَةَ ، أَتَعْلَمُ آخِرَ سُورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قَالَ : صَدَقْتُ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ ، فَقَالَ : لَمْ يَدْخُلْ هَذَا مَعَنَا ، وَلَكِنَّا أَبْنَاءُ مِثْلِهِ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : إِنَّهُ مِمَّنْ عَلِمْتُمْ ، فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَنِي مَعَهُمْ ، فَمَا رَأَيْتُ أَنَّهُ دَعَانِي فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِزُرَيْمٍ ، فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَ إِذَا نَصَرَنَا وَفَتَحَ عَلَيْنَا ، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، فَقَالَ لِي : أَكْذَلِكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ؟ قُلْتُ : لَا . فَقَالَ : مَا تَقُولُ ؟ قُلْتُ : هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمُهُ لَهُ ، قَالَ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ قَالَ عُمَرُ بْنُ

الْخُطَّابِ : لَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ . وَعَنْ عَائِشَةَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ مِنْ قَوْلٍ : « سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » وَقَالَ : « إِنَّ رَبِّي كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي ، وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتَهَا أَنْ أَسْبِّحَ بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا ، فَقَدْ رَأَيْتَهَا إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا ﴿٣﴾ . وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هَهُنَا فَتَحُ مَكَّةَ قَوْلًا وَاحِدًا ، فَإِنَّ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ كَانَتْ تَتَلَوُّمْ بِإِسْلَامِهَا فَتَحُ مَكَّةَ يَقُولُونَ : إِنَّ ظَهَرَ عَلَى قَوْمِهِ فَهُوَ نَبِيٌّ ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَلَمْ تَمْضِ سِتَّتَانِ حَتَّى اسْتَوْسَقَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ إِيَّانَا ، وَلَمْ يَبْقَ فِي سَائِرِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ إِلَّا مُظْهَرٌ لِلْإِسْلَامِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّصْرِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

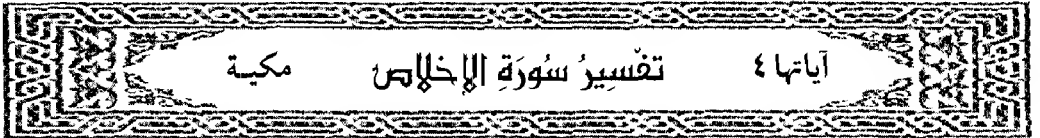
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْبُطْحَاءِ فَصَعِدَ الْجَبَلَ فَنَادَى : « يَا صَبَاحَاهُ » فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فَقَالَ : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّكُمْ ، أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي ؟ » قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ » فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا ؟ تَبَّ لَكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ... ﴾ إِلَى آخِرِهَا . وَفِي رِوَايَةٍ : فَقَامَ يَنْفُضُ يَدَيْهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : تَبَّ لَكَ سَائِرُ الْيَوْمِ أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ الْأَوَّلُ دُعَاءٌ عَلَيْهِ ، وَالثَّانِي خَبَرٌ عَنْهُ ، فَأَبُو لَهَبٍ هَذَا هُوَ أَحَدُ أَعْمَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو عُتَيْبَةَ وَإِنَّمَا سُمِّيَ « أَبَا لَهَبٍ » لِإِشْرَاقِ وَجْهِهِ ، وَكَانَ كَثِيرَ الْأَذَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْبَغْضَى لَهُ ، وَالْإِزْدِرَاءُ بِهِ ، وَالتَّنْقِصُ لَهُ وَلِدِينِهِ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ أَيُّ : خَسِرَتْ وَخَابَتْ ، وَضَلَّ عَمَلُهُ وَسَعْيُهُ ﴿ وَتَبَّ ﴾ أَيُّ : وَقَدْ تَبَّ تَحَقَّقَ خَسَارَتُهُ وَهَلَاكُهُ . ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ يَعْنِي : وَلَدَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أَيُّ : ذَاتَ شَرٍّ وَهَيْبٍ وَإِحْرَاقٍ شَدِيدٍ ، ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ

الْحَطَبِ ﴿ وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ سَادَاتِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ ، وَهِيَ : أُمُّ جَمِيلٍ ، وَاسْمُهَا : أَرْوَى بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ ، وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ ، وَكَانَتْ عَوْنًا لَزَوْجِهَا عَلَى كُفْرِهِ وَجُحُودِهِ وَعِنَادِهِ ، فَلِهَذَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَوْنًا عَلَيْهِ فِي عَذَابِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ ١ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ﴿ يَعْنِي : تَحْمِلُ الْحَطَبَ فَتُلْقِي عَلَى زَوْجِهَا ، لِيَزْدَادَ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ ، وَهِيَ مُهَيَّأَةٌ لِذَلِكَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ . ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ﴿ مِّنْ مَّسَدِ النَّارِ ، وَقِيلَ : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ كَانَتْ تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ، وَقِيلَ : كَانَتْ تَضَعُ الشُّوكَ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَقِيلَ : كَانَتْ لَهَا قِلَادَةٌ فَآخِرَةٌ ، فَقَالَتْ : لِأَنْفِقْنَهَا فِي عِدَاوَةِ مُحَمَّدٍ ، يَعْنِي فَأَعْقَبَهَا اللَّهُ مِنْهَا حَبْلًا فِي جِيدِهَا مِنْ مَّسَدِ النَّارِ ، وَقِيلَ : الْمَسَدُ : اللَّيْفُ ، وَقِيلَ : الْمَسَدُ : سِلْسِلَةُ ذَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ، وَعَنِ الثَّوْرِيِّ : هُوَ قِلَادَةٌ مِنْ نَارٍ ، طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا .

قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ مُعْجَزَةٌ ظَاهِرَةٌ وَكَدِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى النُّبُوَّةِ ، فَإِنَّهُ مُنْذُ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ ٢ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿ ١ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ﴿ فَأَخْبَرَ عَنْهَا بِالشَّقَاءِ وَعَدَمِ الْإِيَّانِ ، لَمْ يُقَيِّضْ لَهَا أَنْ يُؤْمِنَا وَلَا وَاحِدٌ مِنْهُمَا ، لَا بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ، لَا مُسِرًّا وَلَا مُعْلِنًا ، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ الْبَاهِرَةِ الْبَاطِنَةِ عَلَى النُّبُوَّةِ الظَّاهِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمَسَدِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : « سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ ؟ » فَسَأَلُوهُ ، فَقَالَ : لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ ، وَأَنَا أَحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُجِيبُهُ » . وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ؓ : أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يَرُدُّهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالَّهَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ » . وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : « أَيْعَجَزَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ ؟ » فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا : أَيْنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : « اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أُحْسِدُوا فَإِنِّي سَاقِرٌ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ » فَحُشِدَ مَنْ حُشِدَ ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثُمَّ دَخَلَ ، فَقَالَ بَعْضُنَا

لِيَعْضِي : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ » إِنِّي لَأَرَى هَذَا خَبْرًا جَاءَ مِنَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « إِنِّي قُلْتُ : سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ، أَلَا وَإِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ » . وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبِيبٍ عَنْ أَبِيهِ ؛ قَالَ : أَصَابَنَا عَطَشٌ وَظُلْمَةٌ ، فَأَنْتَظَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِنَا ، فَخَرَجَ فَأَخَذَ بِيَدَيَّ فَقَالَ : « قُلْ » فَسَكَتَ ، قَالَ : « قُلْ » قُلْتُ : مَا أَقُولُ ؟ قَالَ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » وَالْمُعَوَّذَتَيْنِ حِينَ تُنْشِئُ وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثًا ، تَكْفِيكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ » . وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفْيَهُ ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا وَقَرَأَ فِيهِمَا « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » وَ « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » وَ « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

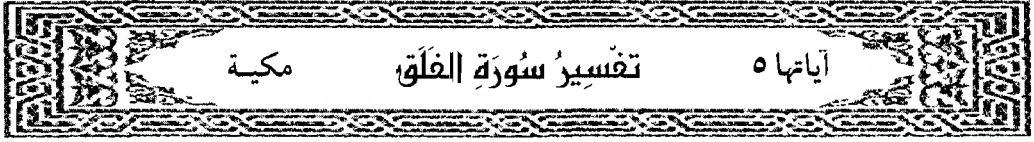
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾
يَعْنِي : هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ ، الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ ، وَلَا نَدِيدَ وَلَا شَبِيهَ وَلَا عَدِيلَ ، وَلَا يُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى أَحَدٍ فِي الْإِنْبَاتِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﷻ لَأَنَّهُ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ .
وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي مَعْنَاهَا : يَعْنِي الَّذِي يَصْمُدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمَسَائِلِهِمْ ، وَقَالَ عُلَمَاءُ آخَرُونَ : هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي سُودُدِهِ ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي شَرَفِهِ ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي عَظَمَتِهِ ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي حَلَمِهِ ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي عِلْمِهِ ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي حِكْمَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّودُدِ ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ ، لَيْسَ لَهُ كُفُوٌ ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . وَقِيلَ : هُوَ الْبَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : هُوَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، كَأَنَّهُ جَعَلَ مَا بَعْدَهُ تَفْسِيرًا لَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وَهُوَ تَفْسِيرٌ جَيِّدٌ ، وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ . وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ فِي كِتَابِ السُّنَنِ لَهُ بَعْدَ إِبْرَادِهِ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ فِي تَفْسِيرِ ﴿ الصَّمَدِ ﴾ وَكُلُّ هَذِهِ صَحِيحَةٌ ، وَهِيَ صِفَاتُ رَبَّنَا ﷻ هُوَ الَّذِي يَصْمُدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ انْتَهَى سُودُدُهُ ، وَهُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ ، وَهُوَ الْبَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ وَلَا صَاحِبَةٌ . قَالَ مُجَاهِدٌ :

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ يَعْنِي : لَا صَاحِبَةَ لَهُ ، أَي : هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ نَظِيرٌ يُسَامِيهِ ، أَوْ قَرِيبٌ يُدَانِيهِ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِحْلَاصِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرِ مِثْلُهَا قَطُّ » ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ وَ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه ؛ قَالَ : بَيْنَا أَنَا أَقُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نَقَبٍ مِنْ تِلْكَ النَّقَابِ ، إِذْ قَالَ لِي : « يَا عُقْبَةُ ، أَلَا تَرْكَبُ ؟ » قَالَ فَأَجَلَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ أُرَكِّبَ مَرْكَبَهُ . ثُمَّ قَالَ : « يَا عُقَيْبُ ، أَلَا تَرْكَبُ ؟ » قَالَ : فَأَشْفَقْتُ أَنْ تَكُونَ مَعْصِيَةً ، قَالَ : فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَكِبْتُ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ رَكِبَ ، ثُمَّ قَالَ : « يَا عُقَيْبُ أَلَا أَعْلَمُكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ ؟ » قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ فَأَقْرَأَنِي ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ وَ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ثُمَّ أَقِيمَتِ الصَّلَاةُ ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ بِهِمَا ، ثُمَّ مَرَّ بِي فَقَالَ : « كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عُقَيْبُ ؛ إِقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَكُلَّمَا قُمْتَ » .

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه ؛ قَالَ : أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ بِالْمُعَوِّذَاتِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ . وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ . وَيَنْفُثُ ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ ، وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَيْهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ الْفَلَقُ ﴾ الصُّبْحُ . وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أَي : مِنْ شَرِّ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ . ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قِيلَ : غَاسِقُ اللَّيْلِ إِذَا وَقَبَ غُرُوبُ الشَّمْسِ ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ . قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَأَرَانِي الْقَمَرَ حِينَ طَلَعَ ، وَقَالَ : « تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ » . وَفِي رِوَايَةٍ : « تَعَوَّذِي بِاللَّهِ

مِنْ شَرِّ هَذَا فَإِنَّ هَذَا الْغَاسِقَ إِذَا وَقَبَ « وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ يَعْنِي : السَّوَاحِرُ إِذَا رَقَيْنَ وَنَفَثْنَ فِي الْعُقَدِ . فِي الْحَدِيثِ أَنَّ جَبْرِيلَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : إَشْتَكَيْتُ يَا مُحَمَّدُ ؟ فَقَالَ : « نَعَمْ ، فَقَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ، أَزَيْقُكَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ ، اللَّهُ يَشْفِيكَ » ، وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ مِنْ شَكْوَاهُ ﷺ حِينَ سَجَرَ ، ثُمَّ عَافَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَشَفَاهُ ، وَرَدَّ كَيْدَ السَّحَرَةِ الْحَسَادِ مِنَ الْيَهُودِ فِي رُءُوسِهِمْ ، وَجَعَلَ تَدْمِيرَهُمْ فِي تَذْيِيرِهِمْ ، وَفَضَحَهُمْ وَلَكِنْ مَعَ هَذَا لَمْ يُعَاتِبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ ، بَلْ كَفَى اللَّهُ وَشَفَى وَعَافَى .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « الْفَلَقِ » ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾
الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

هَذِهِ الصِّفَاتُ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ ﷻ : الرُّبُوبِيَّةُ ، وَالْمُلْكُ ، وَالْإِلَهِيَّةُ ، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ ، فَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ مَخْلُوقَةٌ لَهُ مَمْلُوكَةٌ عَبِيدٌ لَهُ ، فَأَمَرَ الْمُسْتَعِيدَ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِالْمُتَّصِفِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ الْمُوَكَّلُ بِالْإِنْسَانِ ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَلَهُ قَرِينٌ يُزَيِّنُ لَهُ الْفَوَاحِشَ ، وَلَا يَأْلُوهُ جَهْدًا فِي الْخَيَالِ . وَالْمَعْصُومُ مِنْ عَصَمَهُ اللَّهُ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ » قَالُوا : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : « نَعَمْ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ ، فَأَسْلَمَ ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ » . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : « الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ » الشَّيْطَانُ جَائِثٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسُوسَ ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَسَسَ .

وَقَوْلُهُ : « الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ » هَلْ يَخْتَصُّ هَذَا بَنِي آدَمَ - كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ - أَوْ يَعُمُّ بَنِي آدَمَ وَالْجِنَّ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ ، وَيَكُونُونَ قَدْ دَخَلُوا فِي لَفْظِ النَّاسِ تَغْلِييًا ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَقَدْ أُسْتُعْمِلَ فِيهِمْ « بِرَجَالٍ مِنَ الْجِنِّ » فَلَا بَدْعَ فِي إِطْلَاقِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » هَلْ هُوَ تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ : « الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ

النَّاسِ ﴿ ثُمَّ بَيَّنَّهُمْ فَقَالَ : ﴿ مِنْ الْجِنَّ وَالنَّاسِ ﴾ ؟ وَهَذَا يُقَوِّي الْقَوْلَ الثَّانِي وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مِنْ الْجِنَّ وَالنَّاسِ ﴾ تَفْسِيرٌ لِلَّذِي يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنِّي لَأُحَدِّثُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ لِأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ . قَالَ : فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسةِ)) .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّاسِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الكهف	٣
تفسير سورة مريم	٢٦
تفسير سورة طه	٤٢
تفسير سورة الأنبياء	٦٤
تفسير سورة الحج	٨٤
تفسير سورة المؤمنون	١٠٥
تفسير سورة النور	١٢٣
تفسير سورة الفرقان	١٤٨
تفسير سورة الشعراء	١٦٧
تفسير سورة النمل	١٩١
تفسير سورة القصص	٢٠٩
تفسير سورة العنكبوت	٢٣٢
تفسير سورة الروم	٢٥٠
تفسير سورة لقمان	٢٦٣
تفسير سورة السجدة	٢٧١
تفسير سورة الأحزاب	٢٧٨
تفسير سورة سبا	٣٠٧
تفسير سورة فاطر	٣٢٢
تفسير سورة يس	٣٣٤
تفسير سورة الصافات	٣٤٨
تفسير سورة ص	٣٦٣
تفسير سورة الزمر	٣٧٥
تفسير سورة غافر	٣٩٣
تفسير سورة فصلت	٤١١
تفسير سورة الشورى	٤٢٣
تفسير سورة الزخرف	٤٣٦
تفسير سورة الدخان	٤٤٨
تفسير سورة الجاثية	٤٥٥
تفسير سورة الأحقاف	٤٦١
تفسير سورة محمد	٤٧٠
تفسير سورة الفتح	٤٧٨
تفسير سورة الحجرات	٤٨٨
تفسير سورة ق	٤٩٤
تفسير سورة الذاريات	٥٠١

الصفحة	الموضوع
٥٠٧	تفسير سورة الطور
٥١٣	تفسير سورة النجم
٥٢٠	تفسير سورة القمر
٥٢٧	تفسير سورة الرحمن
٥٣٤	تفسير سورة الواقعة
٥٤٣	تفسير سورة الحديد
٥٥٤	تفسير سورة المجادلة
٥٦١	تفسير سورة الحشر
٥٦٨	تفسير سورة الممتحنة
٥٧٥	تفسير سورة الصف
٥٧٨	تفسير سورة الجمعة
٥٨٢	تفسير سورة المنافقون
٥٨٥	تفسير سورة التغابن
٥٨٨	تفسير سورة الطلاق
٥٩٣	تفسير سورة التحريم
٥٩٦	تفسير سورة الملك
٦٠٢	تفسير سورة القلم
٦٠٨	تفسير سورة الحاقة
٦١٣	تفسير سورة المحارج
٦١٨	تفسير سورة نوح
٦٢٢	تفسير سورة الجن
٦٢٦	تفسير سورة المزمل
٦٣٠	تفسير سورة المدثر
٦٣٥	تفسير سورة القيامة
٦٣٨	تفسير سورة الإنسان
٦٤٣	تفسير سورة المرسلات
٦٤٧	تفسير سورة النبأ
٦٥٠	تفسير سورة النازعات
٦٥٤	تفسير سورة عبس
٦٥٧	تفسير سورة التكويد
٦٥٩	تفسير سورة الانفطار
٦٦١	تفسير سورة المطففين
٦٦٥	تفسير سورة الانشقاق
٦٦٧	تفسير سورة البروج
٦٦٩	تفسير سورة الطارق
٦٧٠	تفسير سورة الأعلى

الصفحة	الموضوع
٦٧٢	تفسير سورة الغاشية
٦٧٣	تفسير سورة الفجر
٦٧٧	تفسير سورة البلد
٦٧٩	تفسير سورة الشمس
٦٨٠	تفسير سورة الليل
٦٨٢	تفسير سورة الضحى
٦٨٣	تفسير سورة الشرح
٦٨٤	تفسير سورة التين
٦٨٥	تفسير سورة الحلق
٦٨٧	تفسير سورة القدر
٦٨٨	تفسير سورة البينة
٦٨٩	تفسير سورة الزلزلة
٦٩٠	تفسير سورة العاديات
٦٩١	تفسير سورة القارعة
٦٩٢	تفسير سورة التكاثر
٦٩٣	تفسير سورة العصر
٦٩٣	تفسير سورة الهمزة
٦٩٤	تفسير سورة الغيل
٦٩٥	تفسير سورة قريش
٦٩٦	تفسير سورة الماعون
٦٩٧	تفسير سورة الكوثر
٦٩٨	تفسير سورة الكافرون
٦٩٩	تفسير سورة النصر
٧٠٠	تفسير سورة المسد
٧٠١	تفسير سورة الإخلاص
٧٠٣	تفسير سورة الفلق
٧٠٤	تفسير سورة الناس
٧٠٦	الفهرس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com